الطيّب صالح

مختارات

١

منسي: إنسان نادر على طريقته!

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!

الطيب صالح

مختارات

١

منسي: إنسان نادر على طريقته!

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

SELECTIONS

1. Mansi

on His own Way-A Remarkable Being

By

El Tayeb Salih

First Published in November 2004
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21166-4

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤

الإهداء

إلى روح أحمد منسي
يوسف مايكل بشطاوروس

١

في مثل هذا الوقت من العام الماضي توفي رجل لم يكن مهماً بموازين الدنيا، ولكنه كان مهماً في عرف ناس قليلين، مثلي، قبلوه على عواهنه، وأحبوه على علاّته. رجل قطع رحلة الحياة القصيرة وثباً وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له، وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه، ضوضاء عظيمة. حمل عدة أسماء، أحمد منسي يوسف، ومنسي يوسف بسطاوروس، ومايكل جوزف. ومثّل على مسرح الحياة عدّة أدوار، حمالاً وممرضاً ومدرّساً وممثلاً ومترجماً وكاتباً وأستاذاً جامعياً ورجل أعمال ومهرجاً. ولد على ملّة ومات على ملّة. ترك أبناء مسيحيين وأرملة وأبناء مسلمين. حين عرفته أول مرة، كان فقيراً معدماً، ولما مات ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا، وقصراً ذا أجنحة، وحمام سباحة، واسطبلات خيل، وسيارة «رولزرويس» و«كاديلاك» و«مرسيدس»

و«جاغوار» وماركات أخرى. وخلف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية «فرجينيا» بالولايات المتحدة ومطعماً وشركة سياحة.

لمّا بلغني نبأ وفاته، اتصلت بداره في «ثاتشبري» في ضواحي ساوثهامبتون» بإنجلترا. أجابني صوت أميركي لشاب، هو ابنه الأكبر «سايمون» علمت منه أن الموت أخذ أباه على حين غرّة وهو في أوج الصحة والعافية، فأصيب بسرطان الكبد الذي قضى عليه خلال أسابيع، وكنت وقتها في السودان. ثم خطر لي أن أسأله كيف دفن أبوه فأخبرني أنهم لم يدفنوه بعد، وكان قد مضى على موته نحو عشرة أيام، وأنهم ينتظرون أن تتم الإجراءات لحرق جثمانه.

قلت له «ولكن أباك رجل مسلم، وحرق الجثمان محرم عند المسلمين».
فأجابني « نحن لا نعلم عن إسلامه شيئاً. الذي نعلمه أن والدنا كان مسيحياً، وكان يقول لنا «حين أموت أحرقوا جثماني»».

قلت له «اسمع. لا يوجد أدنى شك أن أباك كان مسلماً، وأنا شاهد على ذلك. إنه أمر خطير أن تحرقوا جثمان رجل مسلم. وتذكر أن أباك خلف أرملة مسلمة ولكم منها أخ مسلم. إذا قلتم إنه لم يكن مسلماً فمعنى هذا أن زواجه هذا كان باطلاً».

اتصلت بزوجته في الرياض فاستغاثت بوزارة الخارجية السعودية التي سارعت بالتدخل، فحسم الأمر، ودفن «منسي» ـ كما كنا نسميه ـ كمسلم، وأقيمت عليه شعائر المسلمين، وذلك بعد نحو شهر من موته. ومع ذلك نشرت صحيفة «الأهرام» أن أهله في مصر أقاموا القدّاس على روحه في الكنيسة القبطية. ورغم حزني عليه فقد

ضحكت. قلت هكذا «منسي» لغز في حياته ولغز في مماته. لقد أربك الناس حوله وهو حي، وها هو يربكهم وهو ميت. كانت الحياة بالنسبة له، نكتة كبيرة، وضحكة متصلة لا تنقطع. كانت الحياة، سلسلة من «شغل الحلبسة» كما كان يقول.

ولد ونشأ قبطياً في بلدة «ملاوي» في عمق صعيد مصر. وكان يقول لنا إنه كان يقضي معظم أوقاته مع أطفال المسلمين من سنه، فنشأ أقرب إلى المسلمين. توفيت والدته وهو بعد صبي، وكان أكبر إخوته، وتزوج أبوه وأنجب بعدها. وهذه حقيقة مهمة في حياته. كانوا فقراء مستورين ولم تكن الحياة سهلة. وصل الجامعة بعد جهد، فدرس اللّغة الإنجليزية في جامعة الإسكندرية فأتقنها، لفظاً ومعنى، بشكل لافت للنظر، وكان أضرابه قليلين في إتقانه للغة الإنجليزية بين من عرفت من العرب. كان صعباً أن يقتنع الناس أن «منسي» في عبثه وهذره يمكن أن يتقن أي شيء. وقد قضيت كل سنوات معرفتي له، أحاول أن أقنع الناس، أنه إنسان عنده مواهب، وأنه يتقن أشياء كثيرة. قاده حبه للغة الإنجليزية بطبيعة الحال، إلى إنجلترا، فوصلها العام ٥٢، بعد سلسلة من المغامرات والألاعيب وال«أونطة» وانخرط في الدراسة في جامعة ليفربول. كان فقيراً لا يملك قوت يومه، فكان يدرس ويعمل، فعمل حمّالاً وغاسلاً للصحون في المطاعم، وممرضاً. ثم انتقل إلى لندن. وكان في كل تحركاته كما أخبرنا فيما بعد، يستعين بالجمعيات الخيرية والهيئات الكنسية ويلعب على كل الحبال.

عرفته العام ٥٣، أول عهدي بهيئة الإذاعة البريطانية، فكنا نعطيه أشياء يكتبها أو يترجمها وأدواراً صغيرة في التمثيليات الإذاعية تعينه على العيش والدراسة. ظل طول حياته يحب التمثيل، وحتى بعد أن

أثرى، كان يأتي إلى الإذاعة، يؤدي أدواراً في التمثيليات، ويصر على تقاضي الأجر. وكنت أقول له «أنت ممثل جيد في الحياة، ولكنك ممثل فاشل في الفن».

قبل أن تتوثق صلتي به في تلك الأيام، زارني ذات يوم في داري، وكان يسكن مني غير بعيد في حي «فلهام» وأنا في حي «ساوث كنزنجتون». قدم لي زوج جوارب من نوع رخيص. قلت له:

«ما هذا؟»

«هدية»

«وما هي المناسبة؟»

قال ضاحكاً:

«بمناسبة عيد ميلادك»

أي عيد ميلاد؟ يا أخي اليوم ليس عيد ميلادي. وافرض أنه عيد ميلادي. هذه رشوة».

قال ضاحكاً:

«يعني...»

«الله يخيبك. يعني حين تريد أن ترشوني، تعطيني رشوة لا تزيد قيمتها عن شلنين؟»

لم يبد عليه أي شعور بالحرج، وقد كانت تلك من ميزاته الكبرى في الحياة، أنه لا يخجل ولا يهاب ولا يبالي ولا يحس بالحرج. قال لي وهو يضحك من أعماق قلبه، بطريقة طفولية كانت من مقومات جاذبيته:

«قلت اجرب. مين عارف؟»

لكننا أصبحنا صديقين حميمين بعد ذلك، بل إنني من بين سائر

أصدقائنا المشتركين، أصبحت بمثابة «أب روحي» له، رغم أننا كنا من سن واحدة، ربما لأن الآخرين، عبد المنعم الرفاعي، وأكرم صالح، وعبد الحي عبد الله، ونديم صوالحة وغيرهم، كانوا، على حبهم له، يعاملونه بفظاظة، ولا يأخذونه مأخذ الجد.

٢

لو أن قامة «منسي» كانت أقصر ببوصة واحدة أو بوصتين، لأصبح قزماً. ومع تقدم السن، ترهّل جسمه، وصار له كرش كبير، ومؤخرة بارزة، فكأنك تنظر إلى كرة شقّت نصفين، نصف أعلى ونصف أسفل. وكان شديد العناية بمظهره، يلبس قمصان الحرير، والـ«بدل» الفاخرة، يحصل عليها بأثمان بخسة. كان بادئ الأمر يفصّل ثيابه عند «ترزي» في نواحي «هولبورن»، وكان هذا يحصل على القماش بسعر الجملة من محلات «دورْمَيْ» المعروفة في «بيكاديللي». وذات يوم انشغل فتطوع «منسي» ليحضر له القماش، فأعطاه الرجل بطاقته، واستغل «منسي» الفرصة فسجل اسمه عند «دورميي» على أنه «ترزي» وحصل على بطاقة، وأصبح بعد ذلك يحصل على القماش بسعر الجملة بهذه الصفة. وأشهد أن «منسي» كان كريماً معنا، فكنا نذهب معه إلى «دورميي» ونشتري ما يلزمنا بسعر

الجملة. كذلك اكتشف «منسي» بقدرته الخارقة على الاكتشاف، ترزياً ماهراً في منطقة الـ«إيست أند» الفقيرة، يتقاضى ربع الأسعار التي يتقاضاها الترزية في وسط لندن، فأصبح يفصل ثيابه عنده. حتى بعد أن هاجر إلى أميركا وفتح الله عليه هناك، كان يحضر خصيصاً إلى لندن، فيشتري القماش من «دورميي» ويفصله عند صاحبه ذاك في الـ«إيست أند». كان يقتني البدل والقمصان بالعشرات دفعة واحدة. ولا بد أنه ترك كميات كبيرة منها بعد موته. لن يستفيد منها أحد لسوء الحظ، لأنني أشك أن يكون في كل هذا العالم الطويل العريض، شخص واحد مثل «منسي».

ومع ذلك لم يعدم طوال حياته نساء يحببْنه، بعضهن كن جميلات جمالاً بيّناً، فارعات، تراه يختال إلى جانب الواحدة منهن، فكأن نخلة إلى جانب شجرة الدُّومْ. كان وجهه صبيحاً يميل إلى الاستدارة تزحمه عينان واسعتان وقحتان يركزهما على محدثه طول الوقت، دون أن يطرف له جفن. وكانت تلك حيلة نعرفها عنه، فكنا نعابثه بوسائل شتى، وكان سريع الضحك، فلا يلبث وجهه أن يتكسَّر بضحك طفولي. هذا مع سرعة بديهة وتملّك تام لناصية اللغة الإنجليزية، وقدرة عجيبة في الذهاب بها كلَّ مذهب. وكان جريئاً، يقتحم الناس اقتحاماً، ويرفع الكلفة فوراً كأنه يعرف الشخص من زمن، وكأن هذا الشخص مهما علا شأنه دونه مرتبة. رافقني إلى حفل تخرجي من الجامعة، فقابل لأول مرة، سفيراً عربياً وزوجته، وكانا من أسرة حاكمة. انشغلت عنه فترة ولما عدت إليه، وجدته قد أوقف الرجل وزوجته، ووقف هو بينهما، يضرب الرجل على كتفه مرة، ويضرب السيدة على كتفها مرة، ويقول وهو يقهقه بالضحك:

«آه. اتكلموا كمان، والله لهجتكم ظريفة جداً».
جررته عنهما، وقلت له: ـ
«أنت مجنون؟ ألا تعرف هؤلاء؟».
«حيكونوا مين يعني؟».
ولما أفهمته، قال: ـ
«وإيه يعني؟».
كانت الوقاحة تنفعه أحياناً ـ وتضره أحياناً، ولكنها كانت تسعفه مع النساء في الغالب.

حكى لنا أوائل معرفتنا به، أنه أحب فتاة في ليفربول حباً ملك عليه نفسه، وقد خطبها وحدَّدا موعد الزواج. ولكنها ماتت موتاً مأساوياً في حادث سيارة. قال إنها كانت حبه الأول والأخير، وأنه لن يتزوج بعدها، وسوف يظل وفيّاً لذكراها إلى الأبد. كانت طريقته عجيبة في الحزن، يقول لك إنه حزين، ولكن لا تبدو عليه أية علامات للحزن. لم يمض وقت طويل حين جاء يخبرنا أنه قد تزوج. دهشنا دهشة عظيمة، ثم تأكدنا أنه قد تزوج بالفعل فتاة من أسرة إنجليزية عريقة تنحدر من سُلالة سير تُوماسْ مورْ. بعضنا كان يعرف من هو سير توماس مور. والذين لم يسمعوا به من قبل أعطوا «منسي» الفرصة ليتباهى أمامنا جميعاً، فشرح للذين يعرفون وللذين لا يعرفون من هو سير توماس مور بلغة إنجليزية متقعِّرة وكأننا في فصل دراسي: ـ

«سير توماس مور جد زوجتي العزيزة هو الوزير الفيلسوف مؤلف كتاب «يُوتوبْيا».. أنت يا عبد الحي جاهل، طبعاً لم تسمع بكتاب «يوتوبيا». كان الوزير الأول للملك هنري الثامن، نعم، الملك الشهير الذي تزوج ست زوجات. أمر الملك بإعدامه لأنه رفض أن يؤدي له

قسم الولاء حين فصل الملك هنري الكنيسة الإنجليزية عن سلطة الفاتيكان في روما. كذلك رفض سير توماس مور أن يطلق الملك زوجته كاترين أوفْ أراجون ليتزوج من آن بولين، فاهمين يا جهلة؟ آه سير توماس مور هو بطل المسرحية التي ألفها روبرت بولْت عنه، مسرحية «رجل لكل المواسم». هذا باختصار هو الرجل الذي تنحدر من سلالته زوجتنا العزيزة».

في مثل هذه المواقف يكون «منسي» في أحسن حالاته. يستعرض إجادته للغة الإنجليزية، ودقة معرفته بتاريخ الإنجليز. وها هو الآن يجد سبباً إضافياً أنه هو شخصياً قد أصبح جزءاً من تاريخ الإنجليز. وازداد عجبنا حين علمنا أن «العروس» بالإضافة لكل هذا، فهي أيضاً عازفة بيانو موهوبة تزداد شهرة يوماً بعد يوم، وتقيم حفلات «كونسيرت» في قاعة «وِجْموْر» الشهيرة.

ويقول له عبد الرحيم «وايه اللي رمى ست محترمة زي دي على واحد بغل زيك؟».

حكى لنا أنه تعرف بها في اجتماع لنادي «شباب حزب المحافظين» على أثر مناظرة حامية تصدى فيها «منسي» لرئيس وزراء بريطانيا آنذاك سير أنتوني ايدن. وسوف نرى فيما بعد كيف أن منسي قاد مناظرة عن قضية فلسطين، وهو لا يعرف كثيراً عن قضية فلسطين، في مواجهة أحد جهابذة السياسة في بريطانيا، وخرج منتصراً. يقول منسي إنه كان رائعاً في تلك الليلة وهو يوجه الضربات لسير أنتوني ايدن، ذلك الديبلوماسي المحنك والسياسي العتيق. دافع عن تأميم مصر لقناة السويس وهاجم سياسة حكومة سير أنتوني ايدن العدوانية نحو مصر. بعد الاجتماع جاءته تلك الفتاة الطيبة وأعربت

له عن إعجابها بشجاعته وقوة دفاعه عن بلده، ودعته إلى دارها وعرّفته بأهلها. يقول «منسي» إنه قرر في تلك الليلة أن يتزوجها.

وهكذا تحول «منسي» بين عشية وضحاها من حال إلى حال. انتقل من غرفته البسيطة في حي «فولهام» إلى دار من طابقين في شارع «سدني» الشهير، في حي «تشلسي» العريق. كانت «ماري» تعيش هي ووالدتها وحدهما فقد كان أخواها وأختها متزوجين. وسرعان ما أصبح «منسي» سيداً مطلق السلطان في تلك الدار الإنجليزية المحافظة. كانت حماته التي تربت على أيدي مربيات فرنسيات، وتتحدث اللغة الإنجليزية بلكنة فرنسية، تعيش في الطابق الأرضي، فاستولى هو على الطابق العلوي. كنت تراه متى زرته يجري طالعاً نازلاً آمراً ناهياً. قلب تلك الدار رأساً على عقب. وسرعان ما أخذت الدار تمتلئ بأصناف من البشر لم تخطر على بال أجداد «ماري» النبلاء الراقدين في مضاجعهم الدارسة في أطراف إنجلترا.. يفتح «منسي» لك الباب، فتهجم عليك روائح الملوخية والكمونية والكوارع والمسقَّعة، روائح تتلوى منها دون شك، أمعاء أولئك الأسلاف في مراقدهم النائية.

يقول له عبد الحي، وقد كان يحضِّر للدكتوراه في الاقتصاد في جامعة أوكسفورد، بلهجة فلاحي الدلتا التي يعتز بها: ـ
«يا صعيدي يا قبطي يا ابن الـ.. والله عال. بقى أنت تجي بلاد الإنجليز آخر الزمن وتتزوج مين؟ حفيدة سير توماس مور؟».

يترجرج جسم «منسي» الذي بدأت تظهر عليه آثار النعمة، ويتقلص وجهه المستدير، ويشيع في عينيه الوقحتين ضحك طفولي كان من مكونات جاذبيته: ـ

«أنت أصلك فلاح ما تفهمش حاجة، تفتكر دي حكاية كبيرة؟ ططظ. وإيه يعني سير توماس مور؟ ثم ما تنساش اني أنا من سلالة ملوك الفراعنة في صعيد مصر».

«أنت من سلالة ملوك الفراعنة؟ أنت من سلالة شحاتين في الصعيد».

«اسكت يا فلاح. قال إيه؟ جابي يعمل دكتوراه في الاقتصاد. جاتك نيلة. إيه اللي عرف الفلاحين في الاقتصاد؟».

٣

كان في «منسي» خصلتان حميدتان، حبه للبسطاء وحفاظه للود. وقد ظل طول حياته يحتفظ بكل الصداقات التي كونها منذ بداية حياته ويضيف صداقات جديدة. كانت قدرته مذهلة على التعرف بالناس واصطناع الأصدقاء والاحتفاظ بهم. وكان أصدقاؤه من مختلف الأجناس، وشتى المذاهب والمشارب والأقدار والمراتب. وكانوا كلهم عنده سواسية، الأمير مثل الفقير، يعاملهم ببساطة ودون تكلف. إلا أنه كان يعنى بالفقراء والأطفال عناية خاصة، ويكون معهم على سجيته تماماً، ومع الأطفال يكون كأنه طفل. لقد زار الدوحة أول عهدي بها، منذ خمسة عشر عاماً وتعرف بطريقته العجيبة إلى عدد كبير من الناس في وقت قصير. كلهم ما زالوا يذكرونه ويسألون عنه، خاصة بين سائقي سيارات الأجرة. كان يترك أثراً عند الناس لا ينسى، أثراً حسناً في الغالب، وفي أحيان

قليلة شيئاً من الضيق والنفور. ولكن مهما كان الأمر فإن كل من يتعرف به لا ينساه أبداً.

لذلك كان يجد أصدقاء حيثما ذهب. حين رافقني في رحلتي إلى الهند وإلى أستراليا، وهي قصة أرويها لكم فيما بعد، زاره شاب في الفندق الذي أقمنا به في سيدني. كان الشاب يخاطبه باحترام بالغ لفت نظري، فسألت «منسي»، فقال:

«هذا ابن فلان الجزار، تذكر الجزار في سلُونْ ستريت؟».

أول مرة رافقت فيها «منسي» إلى محل ذلك الجزار أعطاني كمية عظيمة من اللحم وطلب مني مبلغاً ضئيلاً. قلت للرجل:

«لا بد أنك اخطأت في الحساب. هذا اللحم يستحق أكثر من هذا بكثير». تلفت الرجل حوله، وكان المحل مزدحماً بالزبائن. قال لي: «نعم. أنا آسف».

ثم أعاد اللحم إلى مكانه ووزن لي الكمية التي طلبتها، وتقاضاني ثمناً كبيراً عليها، ولما خرجنا قال لي «منسي» غاضباً:

«انت مش حتبطل التغفيل بتاعك دا؟ الرجل عاملك معاملة خاصة لأني فهّمته انك صاحبي».

«طيب يا أخي مش كنت تفهّمني؟ أنا ظنيت أنه أخطأ فعلاً. ايه عرفني انك بتعمل شغل الأونطة حتى مع الجزارين».

لكن لم يكن «شغل أونطة» فقد كان الرجل صديقه، كما علمت فيما بعد، وقد أقام عنده أول قدومه إلى لندن، وأصبح كأنه فرد من أفراد عائلته. وظل «منسي» وفياً لتلك الصلة طول حياته. ولما فتح الله عليه، كان من بعض هداياه إلى صديقه الجزار، سيارة «روفر».

في سيدني، سألت «منسي» لماذا يعامله الشاب بذلك الاحترام المبالغ فيه، فأجابني:

«لأنني أنقذته من مصير قاتم، وأنا السبب في أنه درس في الجامعة وأصبح مهندساً».

ولما استوضحته أكثر، حكى لي أن صديقه الجزار كان ينتمي إلى جماعة دينية متزمتة تعيش بمعزل عن الناس ولا تتعامل معهم إلا في أضيق الحدود ويرفض أفرادها أن يدخلوا أبناءهم المدارس. وقد ظل «منسي» يحاور الرجل حتى غير فكره وأخرجه من الجماعة كلية، وأقنعه بإدخال ابنه المدرسة وكان ابنه الأكبر.

يقول «منسي»:
«لولاي لكان هذا الشاب الآن جزاراً في سوق «سمثفيلد» أو عتّالاً في ميناء لندن».

قلت له:
«كنت أدخلت الرجل الإسلام بالمرّة وكسبت أجراً».
يقول «منسي» ضاحكاً:
«أيامها كنت كافراً. ولو كنت مسلماً، كنت أدخلته الإسلام. بس ما تنساش اني أنا أدخلت عشرات في الإسلام في أمريكا».

وأقول له:
«سبحان الله. ربنا حكمته بالغة. يتحول واحد كافر زيك إلى داعية للإسلام».

يضحك بمتعة حقيقية فقد كانت تناقضات الحياة تستهويه وتنعش روحه كما ينتعش النبات بالماء. يقول:

«تصور واحد زيي يتجوز واحدة من الأشراف، وانتو المسلمين أولاد المسلمين اللي متجوز إنجليزية واللي متجوز سويسرية واللي متجوز مش عارف إيه».

زارته أيضاً سيدة مصرية مع زوجها الأسترالي. وقد حكى لي «منسي» أنه كان يعرفها ويعرف عائلتها أيام كان طالباً في جامعة الإسكندرية وأنه لم يرها منذ ثلاثين عاماً. تذكرا أيامهما في الإسكندرية، والسيدة تضحك بسعادة، وهو يسألها عن أفراد عائلتها، ماذا حدث لفلان وأين فلانة الآن، والزوج يبتسم، والزوجة تقول لزوجها:

«هذا هو مايكل الذي طالما حدثتك عنه. كان يحبني ويريد أن يتزوجني. أليس كذلك يا مايكل؟».

وأقول له باللغة العربية:

«أنت حترجع مايكل تاني والاّ إيه؟ مش خلاص أسلمت وبقي اسمك أحمد؟»
يظل يضحك، فقد كانت سيدني جميلة في تلك الأيام، وكان هو

في أحسن حالاته، وقد عاد الزمن ثلاثين عاماً إلى الوراء. وماذا يهم إن كان اسمه «مايكل» أو «أحمد».

ذلك لم يمنعه من أن يدعو كل أولئك الأصدقاء القدامى الذين اكتشفهم في سيدني، على حسابي. كان يدعوهم للغداء أو العشاء ويوقع الفاتورة على رقم غرفتي. وقد أسعده ذلك سعادة فائقة، وظل يحكي القصة بعد ذلك مراراً وتكراراً ويضحك كل مرة بالطريقة نفسها. فلم يكن أحب إليه من أن يبرهن على أنه «حدق» وأنني «مغفل».

بتلك الطريقة، أصبح «منسي» شخصية معروفة في كل منطقة جنوب غربي لندن بل وأبعد من ذلك. كان معروفاً في «وست كنزجتن» و«ايرلز كورت» و«ساوث كنزنجتن» و«تشلسي» و«سلون» و«بلجرافيا» و«ماي فير». يعرف بائعي الخضار والجزارين وأصحاب المطاعم والحانات والمقاهي، والأطباء والممرضات في المستشفيات، ورجال الشرطة والعمال والعاملات في المحلات التجارية وأصحاب محلات البقالة والممثلين والممثلات وأعضاء في البرلمان وأساتذة في الجامعة ورجال دين وأصنافاً لا تحصى من البشر. ولم تكن معرفة سطحية. كانوا جميعاً أصدقاءه يزورونه في داره ويزورهم في دورهم، طاقة هائلة نادرة المثال، طاقة «نابوليونية» كما كان يقول، وسيارة مثل فقاعة الصابون وتسمى «الفقاعة» (Bubble Car) ظهرت لفترة قصيرة تلك الأيام ثم اختفت. كانت له «عجلة» أول مجيئه إلى لندن، وبعد أن تزوج وانتقل إلى «سيدني ستريت» وتحسنت أحواله نسبياً، اشترى تلك السيارة العجيبة. كنت أكون معه أحياناً فننحشر في عز الزحام في بيكاديللي بين حافلتين من باصات لندن الحمر الضخمة ذوات الطابقين. يثير منظر تلك السيارة

القميئة المكورة بسقفها الزجاجي ونحن قابعان في جوفها، سخرية الركاب من وراء ومن أمام، ويتحول ميدان «بيكاديللي» إلى سيرك، الناس يهتفون والسيارات تزمر، ونحن حبيسان في تلك الفقاعة، و«منسي» يضحك ويضحك ويضحك.

٤

كان باب شقتنا في «ثيرلوبليس» قبالة متحف فكتوريا والبرت، يفتح على الممر الذي يؤدي إلى الدار الفاخرة التي تسكنها «مارقو فونتين» فنانة الباليه الشهيرة مع زوجها سفير بنما. كانت شقة واسعة تحت الأرض Basement تقاسمتها مع صلاح أحمد محمد صالح، ولما عاد إلى السودان تركها لي، فسكن معي محمد إبراهيم الشوش. كان صاحب الدار، مستر «بومبيرج» وهو أخو الرسام المعروف «ديفد بومبيرج» يزورنا أحياناً أواخر المساء مع زوجته، ونتحدث في الفن والشعر والأدب والمسرح والسياسة، وما شئت من أحاديث يسوقها شرخ الشباب وهدوء البال وانفتاح الشهية للحياة. لم أشتر الشقة لسوء الحظ كما نصحني مستر بومبيرج بذلك الثمن القليل الذي عرضه إكراماً لتلك الأمسيات، وكان ذلك واحداً من القرارات الكثيرة الخاطئة والفرص الضائعة. والآن وقد أخذ العمر

يتقاصر ويستطيل ظل الماضي، أنظر إلى الوراء فأرى تلك الأخطاء تشرئب بأعناقها كالجبال عند خط الأفق. يضحك «منسي» ويقول لي «أنت حتفضل مغفل. إزاي تضيع فرصة زي دي؟» ولعله كان على حق، فمَن غير «مغفل» مثلي يدفع فواتير الحساب لرجل مليونير مثل «منسي»، كما فعلت في «سيدني»؟

كنت أرى «مارقو فونتين» رائحة أو غادية في سيارتها الـ «رولز رويس» فتحييني وأحييها على البعد، ولم يخطر على بالي أن أذهب أكثر ولم أقابلها وجهاً لوجه وأتحدث إليها، إلا بعد عامين من سكني جوارها. وكان ذلك في دمشق. أما «منسي» فما إن أدرك أنها جارتي حتى سارع بالتعرف إليها وإلى زوجها وصار يزورهما ويزورانه. كذلك تعرف إلى الممثل الأسترالي المعروف «بيتر فنش» والممثل الإيرلندي الشهير «بيتر أوتول» وكانا يسكنان قريباً منه في «تشلسي». كان حي «تشلسي» تلك الأيام محط الرسامين والشعراء والكتّاب والممثلين، ثم ارتفعت أسعار السكن في السبعينيات فهاجروا بعيداً إلى شرق وشمال لندن، وبعضهم ذهب إلى الريف. لم يكن عسيراً على «منسي» أن يتوغل في ذلك المجتمع الجذاب، وهو مجتمع منفتح بطبيعته، أقل نفوراً من الإنسان الأجنبي، من المجتمعات الإنجليزية الأخرى. وهب أنه لم يكن كذلك، فهل كان الأمر يستعصي على «منسي»؟ أبداً. إنه الآن على أي حال مسلح تسليحاً غير عادي. فهو، بالإضافة إلى جرأته ولغته الإنجليزية المطواعة، يسكن في شارع معروف في حي عريق، ووراءه أصهاره الأماجد، ثم زوجته عازفة البيانو المعروفة في الأوساط الموسيقية. العجيب أن «ماري» زوجة «منسي» لم تكن تكترث بالوسط الفني ولم يكن يبدو على سمتها أنها «فنانة». كانت سيدة بيت عادية، تجدها دائماً تكنس أو تغسل أو تطبخ، بينما هو يتصدر المجلس

يتدفق في الحديث عن الرسم والشعر والمسرح والموسيقى وما شابه.

عن طريق هذه الصلات الواسعة، حصل على أدوار صغيرة في السينما. كان يهول لنا الأمر، كأنه هو البطل، ثم نذهب ونشاهد الفيلم فإذا «منسي» سائق تاكسي في القاهرة أو «جرسون» في مقهى في بيروت، وإذا دوره لا يتجاوز دقيقة أو دقيقتين. ولو كانت عنده أدنى موهبة في التمثيل لحملته تلك الصلات بعيداً، ولكنه كان ممثلاً موهوباً في الحياة فقط، أما في «الفن» فكان شيئاً آخر. ما إن يقف أمام الميكرفون أو الكاميرا، حتى يصبح فاتراً أو يبالغ في الآداء فيبدو سخيفاً. كان جمال الكناني رحمه الله، وقد كان رئيساً لقسم الدراما في الإذاعة تلك الأيام، يحبه ويعطيه دوراً في أي تمثيلية يخرجها، ليستمتع بمعابثته وشتمه. كانوا كلهم يشتمونه يبدأون حديثهم معه بيا كذا، ويا ابن كذا. يصرخ جمال كناني «يا واد يا ابن.. أنت طوال الوقت عمال تتنطط وتترقص وأول ما يولع النور الأحمر ويبدأ التسجيل تتهمد. الله يخرب بيتك. ما تحط شوية من الأونطة دي في الشغل».

لكن «منسي» لم يكن يستطيع، فالحياة شيء والفن شيء، والأونطة قد تصلح في الحياة، ولكنها لا تصلح في الفن أبداً. في الحياة، يمثل بالسليقة، وكأن قوى غير مرئية تسنده. يجازف. ويتخطى الحواجز، ويذهب أبعد مما يجب، تماماً كما يفعل الشعراء الموهوبون. ولو أنه رضي بذلك الدور الذي هيأته الحياة له، لعله كان ينجز أكثر مما أنجز بكثير. وأنا لا أشك، أنه كان في متناول يديه لو أراد، أن يصبح من أساطين التجارة والمال. لكن «منسي» كان يريد أن يحيا وأن يكتب وأن يمثل، وفوق كل شيء، أن يضحك. كانت تلك متعته الحقيقية، أن يحول أحداث حياته إلى مادة للضحك. ولم

تكن تراه أسعد حالاً منه وهو يتصدر مجلساً والناس منجذبون إليه وهو يحكي لهم بعض ما حدث له. ذلك كان مسرحه الحقيقي. ويستحسن أن يوجد شخص، مثلي، يكون شارك في تلك الأحداث، لكي يذكره ويذكي جذوة حماسه:

«احك لهم يا طيب لما سافرنا لبيروت، حصل إيه في المطار».

هذا معناه أنه يريد أن يحكي هو القصة، فأعطيه طرف الخيط، وأضيف شيئاً من حين لآخر، وأوجهه الوجهة التي يريدها بالفعل. لذلك فبالإضافة إلى أنني كنت «أباً روحياً» له، فقد كنت أقوم بدور الممثل المساند في العروض الكوميدية، كما عند «لوريل وهاردي» و«موركم ووايز». تجد شخصين في هذا النوع من الكوميديا، بينهما تباين واضح جسمياً وعقلياً، فالنحيل إزاء السمين والطويل إزاء القصير. واحد ذكي واسع الحيلة يخرج من المشاكل مثل الشعرة من العجين، الثاني «أهبل» يتعثر فيقع ولا يدري أين الباب فيخبط رأسه في الحائط، وهو الذي تقع على رأسه المشاكل، عموماً. هذا كان دوري، وأعترف أنه دور قمت به طائعاً مختاراً وعن إدراك تام، فإلى جانب مودتي العميقة له، فقد كان «منسي» ظاهرة فريدة، ظللت أسايره وأراقبه بحيرة ودهشة وضيق في بعض الأحيان ومتعة بصحبته في أحيان كثيرة. لقد كان مثلي في هذا كل أصدقائه الحميمين، ولكن لعلني كنت الوحيد بينهم الذي قبله على علاته وأخذه مأخذ الجد.

إنما «منسي» نفسه لم يأخذ الدور الذي هيأته الحياة له مأخذ الجد، وأراد أن يلعب أدواراً لم يكن مهيأً لها. وكان حين يخطئ في الحياة يخطئ لأنه يتصرف كـ «فنان» في ذلك الفن الحقيقي الموهوم،

فيصبح مثل ممثل على المسرح ينسى دوره ويتلعثم ويفقد حاسة التوقيت والقدرة على الاستجابة. لذلك اكتفى ببضعة ملايين بدلاً من مليارات، وبقصر واحد بدلاً من قصور ويخوت وطائرات خاصة وبنوك وشركات. والآن، وقد مات فجأة مثل حصان سباق كبا ولما يبلغ نهاية الشوط، أعود فأقول، إنه كان حكيماً بل زاهداً بدرجة ما، فماذا يضير الإنسان بعد الموت أنه لم يترك وراءه شيئاً؟ وماذا يجديه أنه ترك مليوناً أو ملياراً؟

كان يكتب تمثيليات لا قيمة لها نقبل بعضها ونرفض أغلبها. وأذكر أنه كتب مرة تمثيلية عن رجل صادف رجلاً يهمّ ان ينتحر بإلقاء نفسه في النهر من الجسر، فأخذ يحاوره إلى أن أقنعه بعدم الانتحار. ذهب الثاني إلى حال سبيله، وانتحر الأول بأن ألقى بنفسه في النهر. كان «منسي» سعيداً بها، ولكنني حين قرأتها وجدتها ميتة ليس فيها حياة، وكان متأثراً تأثراً واضحاً بالكاتب المسرحي الكبير «ساميول بكت» دون أي شيء قريب من فكر «بكت» وأعماقه الفلسفية. لذلك رفضتها. وعجبت حين علمت فيما بعد، أن منسي عرضها مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، على «ساميول بكت» شخصياً، وأن ذلك الكاتب العملاق الذي أحدث فتحاً حقيقياً في المسرح العالمي بمسرحيته «في انتظار غودو» قد قرأها بإمعان وناقش «منسي» عنها باهتمام، وأنه أثنى عليها وقال له:

«هذا عمل جميل لافت للنظر».

٥

لولا «منسي» رحمه الله وغفر له، لعل الرياح كانت تمضي بي رخاء في عملي في هيئة الاذاعة البريطانية. كنت سعيداً، مرضياً عني، يضرب بي المثل. وقد رفعوني إلى رتبة مساعد رئيس قسم ولما أبلغ الثلاثين، وكان ذلك أمراً عزيزاً تلك الأيام. أصبحت أحضر اجتماعات رؤساء الأقسام، ولي مكتب مستقل وسكرتيرة. شاهدت حفل تتويج الملكة من داخل بيعة «وستمنستر آبي» مع علية القوم الذين دعوا لتلك المناسبة من الشرق والغرب، وبعدها جالست رؤساء ووزراء في الحفل الذي أقيم في «وستمنستر هول». صحيح ان الزي الذي ارتديته لتلك المناسبة، كان «عاريّة» مستأجراً من محلات «موس برذرز» في «كوفنت غاردن». سترة سوداء ذات ذيل تجعلك تبدو مثل طائر البطريق، وقبعة طويلة وياقة منشاة. وصحيح أنني بعد أن انتهى الحفل وانفض السامر، جاءت السيارات الفاخرة

تحمل أولئك الرؤساء والوزراء. أما أنا فقد سرت على قدمي إلى محطة القطار الذي يسير تحت الأرض، وكان القطار مزدحماً، فظللت واقفاً والناس يعجبون مني وأنا في زي الوجهاء ووضع الدهماء. ذلك وضع كان أليق بمنسى. إذن لاستغله أحسن استغلال وحوله إلى قصة أخرى تروى. لكنني على أي حال تمتعت بذلك العالم السحري في ذلك اليوم القصير، وما كنت أعلم أن الحياة كانت تعابثني مثل امرأة لعوب، كما ظلت تفعل، لأنها كانت تراودني لأمر لم يكن يخطر لي على البال.

كذلك كنت أول عربي يرسلونه إلى نيويورك لـ«تغطية» اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، ذلك الحدث المشهود الذي أمه معظم زعماء العالم، وكنت شاهداً حين خلع نيكيتا خروشوف حذاءه، وضرب به المائدة احتقاراً، ورئيس وزراء بريطانيا واقفاً يخطب. رأيت أعضاء نيجيريا يدخلون القاعة في ثيابهم الفضفاضة، والدنيا لا تسعهم من الفرح، يتقدمهم ذلك الرجل الوقور سير أبو بكر تفاوا بليوه. كانت نيجيريا قد استقلت توها وقبلوها عضواً في منظمة الأمم المتحدة. ذبحوه ذبحاً بعد ذلك، كما ذبحوا أحمدوا بللو السردوانا الجليل في هوجة من هوجات الجند التي يسمونها ثورات. وكنت شاهداً حين أعلن داج همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة أنه لن يستقيل كما طالب الاتحاد السوفياتي. مرت الأعوام ولعبت الولايات المتحدة الدور نفسه إزاء صاحبنا أحمد مختار أمبو مدير عام منظمة اليونسكو. يومذاك في نيويورك شن خروشوف حرباً شرسة ضد همرشولد واتهمه بأنه ذيل الغرب وأنه مسؤول عن مقتل باتريس لومومبا وكل المآسي التي حدثت في الكونغو. وأذكر جملة قالها همرشولد في خطابه القصير الذي أعلن فيه أنه باق في منصبه. قال موجهاً حديثه لزعماء دول العالم الثالث «هذه المنظمة

لم تقم لخدمة الدول الكبرى. إنها أنشئت لخدمتكم أنتم، فأنتم الذين تحتاجون لها لا الدول الكبرى».

كان العرب في ذلك الاجتماع مجمعين على نصرة القضية الفلسطينية وتأييد كفاح الجزائر الذي كان قد أينع وحان قطافه، ومختلفين على كل ما عداهما. لكنني كنت غض الإهاب جداً، وكذلك العالم العربي، ومصر وسورية متحدتين، ودمشق «الفيحاء» فيحاء بحق وحقيق، والقاهرة الظافرة تصنع أحلاماً تبدو كلها قريبة المنال. صلاح جاهين يكتب وأم كلثوم تغني، وعبد الوهاب. وصباح تهتف، كأنها تصدق ما تقول «أنا عارفة السكة لوحدية، من الموسكي لسوق الحميدية». مسكين سوق الحميدية. كان تلك الأيام حول الجامع الأموي العتيد، كما كان على أيام هشام بن عبد الملك. لم يكونوا قد أزالوا بعد، ذلك الماضي السحيق العريق ولم يشقوا طرق الإسفلت. ولبنان كأنه في حلم جميل لن ينتهي. المال يتدفق من كل الجهات، كما قال الشاعر القطري «البيت فاض ومصب السيل لبنان»، والمصارف لا تدري أين تضع «البيزات»، والليرة مثل الذهب، والمطاعم والمراقص والملاهي غاصة بالخلق من مغيب الشمس حتى مطلع الفجر، ونساء بيروت على طول الساحل يستقبلن شمس البحر المتوسط وكأن ذلك الزمان الرغد سوف يدوم إلى الأبد، كان أخونا نزار قباني يكتب شعراً يبكي العذارى في خدورهن ويجعل العجائز يتحسرن على شبابهن، وقال بيتين سار بهما الركبان:

أيلول لضم
فمد لي زندك
هل أخبروا أمي
أني هنا عندك

آه يا صفاء. ما أقسى ما عبثت بي وبكم الحياة منذ ذلك العهد!

أجل كانوا أحفياء بي حقاً. أرسلوني لفترات طويلة إلى مكتبهم في بيروت، وكانت تلك ميزة لا ينالها إلا أصحاب الحظوة، وحاضرت في معهد التدريب عدة مرات، وكان مستر ووترفيلد رئيسنا الأعلى يقول لي ضاحكاً:

«إنهم دعوني مرة واحدة ثم لم يدعوني بعدها. لماذا أنت دعوك مرة وثانية وثالثة؟».

كان نصيبي من السفر في مهمات رسمية أكثر من غيري، وكان كلما يجدّ أمر يضفي بريقاً ويزيد من الحسنات التي تسجل في التقارير السنوية، يقولون «فلان» في أغلب الأحيان.

لا عجب إذاً إنني كنت مغتبطاً بوضعي، راضياً عن نفسي، أرى الدنيا مثل حسناء مرغوبة تدعوها فتستجيب.

وبينا أنا كذلك، إذا بمنسي، رحمه الله وغفر له، يعرض لي كما عرض إبليس لآدم عليه السلام في الفردوس.

٦

دخلت مكتب مستر ووترفيلْد فإذا هو ومساعده ومعهما مراقب الإدارة للإذاعات الخارجية. كان رجلاً مرهوب الجانب، لا يظهر عندنا إلا إذا طرأ أمر جلَلْ، ولم يكن بيني وبينه ود، فقد كان يعتقد أنني مدلّل أكثر مما يجب وأنني لا أعبأ كثيراً بالنظم الإدارية. لم يهشّ مستر ووترفيلد في وجهي كعادته، وأشار إليّ بالجلوس. نظر إليّ مراقب الإدارة نظرة صارمة من وراء نظارته السميكة، ولم يمهلني طويلاً، ولكنه ناولني في صمت رزمة من الأوراق. قلبتها وأنا لا أعلم حقيقة الأمر، فإذا هي جميعاً أوامر دفع باسم مستر «بسطاوروس» نظير اشتراكه في عدد من البرامج، وكلها ممهورة بتوقيعي. لم يلفت انتباهي فيها شيء فأعدتها إليه، أعطاني إيّاها مرة أخرى وقال لي:

«تفحص الأوراق جيداً».

درستها على مهل، وأنا أُعمل فكري محاولاً أن أجد تفسيراً لهذه المحاكمة. كان من الواضح أنها محكمة إدارية وأن أمراً خطيراً قد حدث، فإلى جانب وجود ذلك الموظف الكبير، كانت في ركن المكتب سكرتيرة تسجل ما يدور. أيضاً لم ألاحظ أي شيء غير عادي، ولما فرغت رفعت رأسي ونظرت إليه نظرة لا بد أنها نمّت عن إحساس تجاهه، فقد سارع مستر ووترفيلد، وقد كان كريماً معي دائماً، وابتسم لي ابتسامة خفيفة جداً كأنه يقول لي «طوّل بالك». كان مستر ووترفيلد كما حدثتكم في مكان آخر، كاتباً، وكان منصب رئيس الإذاعة العربية أقل منه بكثير، وكان في قرارة نفسه يحتقر البيروقراطيين ويضيق بالتزمت الإداري، وقد خاض معارك عدة ضد هذا الرجل بالذات.

قال لي مراقب الإدارة بصوت بارد، كما يكون صوت الإنجليزي بارداً حين يخلو من الود:

«هذه التوقيعات هي توقيعاتك، أليس كذلك؟».
«نعم».
«هل درست الأوراق جيداً».
«نعم».
«ألم تلاحظ أي شيء غير عادي؟».
«ماذا تقصد أي شيء غير عادي؟».
«الأجور المطلوب دفعها مثلاً».
«ما لها الأجور المطلوب دفعها؟».
«كم تدفعون لممثل من الدرجة (ألف) على تمثيلية طولها نصف ساعة؟».
«ندفع كذا».

«وإذا كان موظفاً في هيئة الإذاعة البريطانية؟».
«ندفع له ثلث الأجر».
«انظر إلى الأجور التي دفعت لمستر بسطاوروس على مدى...».
قال هذا، وناولني الأوراق. نظرت فيها فإذا هي أجور كاملة.

«هل كنت تعلم أن مستر بسطاوروس أو مستر مايكل أو مهما كان اسمه موظف في هيئة الإذاعة البريطانية ويعمل محرراً في قسم الاستماع للإذاعات الأجنبية في كافرشام؟».

صمتّ وقد بدأت أفهم جسامة الخطأ الذي وقعت فيه. ومع أنني لعنت «منسي» في سري، فإنني لم أفكر طويلاً، فقد كنت غِرّاً، وقد أخذتني العزّة بالإثم، ولعلني قلت لنفسي «إن كان هذا (الخواجا) متعجرفاً فبوسعي أن أجهل فوق جهل الجاهلينا، وأسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن أستقيل وأعود أدراجي من حيث أتيت وأرتاح من التناقضات ووجع القلب». قلت له، وقد استقر عزمي على الاستبسال، كما يفعل «أولاد العرب» عندنا حين يخرب الأمر: «نعم».

التفت إليّ مستر.. مساعد رئيس القسم فجأة، وأعاد عليّ السؤال بلؤم وبطء:

«هل كنت تعلم أن مستر بسطاوروس موظف في هيئة الإذاعة البريطانية ويعمل محرّراً في قسم الاستماع في كفرشام؟».

هذا «الخواجا» أيضاً لم يكن بيني وبينه ود، أو على أحسن الفروض كانت علاقة متأرجحة تحسُن أحياناً وتسوء في أغلب الأحيان. لم

يكن من «العروبيين» كما كانوا يسمّون، أمثال مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد، أولئك الرجال والنساء الذين عاشوا سنوات شبابهم في العالم العربي، وتعرّفوا على العرب عن قرب وأحبوهم. كان هذا متخصصاً في الشؤون الألمانية، رجلاً متوقد الذهن وراءه تاريخ أكاديمي مشرق. ولكن يبدو أن أشياء قد حدثت له عكّرت عليه صفو حياته. وقد عمل معظم وقته في أقسام الإذاعات الموجّهة إلى شرق أوروبا، وهي إذاعات كنا نعدها أقرب إلى وزارة الخارجية منها إلى هيئة الإذاعة البريطانية. وقد كان كفاحنا نحن العرب تلك الأيام، يؤيدنا في ذلك مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد، منصبّاً على إبعاد القسم العربي من نفوذ وزارة الخارجية، وجعله خدمة إذاعية حقيقية. كان إنساناً متناقضاً مستفزاً يستدرجك إلى النقاش، فإذا انسقت له وعبّرت عن رأيك بصراحة، فجأة يقلب لك ظهر المجَنّ. وكان يزعم أنه مفكر متحرر، ويقول لكل من يقابله من الزوار العرب:

«أنا رجل راديكالي الفكر، أنتمي إلى اليسار المتطرف من حزب العمال».
وكنت أعقّب على قوله:

«مستر.. هذا يدّعي أنه متحرر ولكنه في الواقع استعماري إمبريالي».

هذا كان يغيظه، كما قدّرت، وقد ناداني مرة إلى مكتبه وقال لي:
«أنت تحرجني بهذا الكلام».
وأقول له، مستنداً إلى «أصول اللّعب» الإنجليزي:
«ولكن يا مستر.. هذه دُعابة. ألا تقبل المزاح؟ ألستم تقولون إنكم تمتازون على سائر الأمم بروح الدعابة؟».

إنني أدرك الآن أنني كنت «لا مبالياً» أكثر مما يجب، ربما لأنني كنت أعي تناقض وضعي، خاصة في سنوات الغليان القومي تلك في العالم العربي، وكأنما كل نجاح أحرزه في عملي مع الإنجليز، يزيد وضعي تعقيداً، وكأنني كمن يهدم اليوم بيديه ما بناه بالأمس. وذلك سلوك لم يكن يقدره أو يحتمله إلاّ رجال «كبار» حقيقة، أمثال مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد.

قلت له:

«نعم».

نظر بعضهم إلى بعض بطريقة لم أفهم مغزاها إلا فيما بعد.

سألني مراقب الإدارة وهو يتصنع الرفق، وقد حق له أن يتصنع الرفق، فقد وضعني، كما خُيِّل له، في مأزق لا مخرج منه:

«هل كان مستر كناني يعلم؟».

كان جمال الكناني، رحمه الله، العربي الأول في القسم تلك الأيام، مسنوداً سنداً كاملاً من مستر هوايتهد ومستر ووترفيلد، يفعل ما يشاء ولا يبالي، وكانت كراهية مراقب الإدارة هذا له ربما تفوق كراهيته لي، لذلك، من الواضح أنه يريد أن يقتل عصفورين بحجر واحد. قلت له:

«لا أعلم».

«كيف لا تعلم؟ ألست مساعده وتقوم مقامه في غيابه؟ ألم تتحدثا أبداً في هذا الموضوع؟».

«لا».

نظر بعضهم إلى بعض كرّة أخرى، وقال لي مساعد رئيس القسم

بسماحته المعهودة:
«مستر بسطاوروس صديقك، أليس كذلك؟».
هنا سارع مستر ووترلفيلد إلى نجدتي. نظر إلى مساعده نظرة صارمة، وقال له:
«على رِسْلك يا فلان».

٧

ليتني، غفر الله لي، أكون ولو ممسكاً بخطام بعير سيدنا عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما. ذكروا أن رجلاً سبه في الطريق، فلم يرد عليه وظل سائراً والرجل يتبعه ويسبه. فلما وصل سيدنا عبد الله بن عمر إلى داره التفت إلى الرجل وقال له: «يا هذا. أنا وعاصم أخي لا نسبّ الناس». وأكثر ما يهزني في هذه القصة أنه قال «أنا وعاصم أخي». ولك أن تتخيّل أنه لم يرد أن ينفرد بالفضل، أو أنه ذكر أخاه في ذلك السياق لفرط محبته له، وكأنه معه، يستحضره في جميع أحواله. وعاصم هذا كما نعلم هو جد عمر بن عبد العزيز لأمه، من تلك الأعرابية التي أبت أن تغش اللبن وقالت لأمها «إن كان عمر لا يرانا فإن الله يرانا». فرأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفراسته ما رأى، فزوجها من ابنه وجاء من ذريتهما أشج بني مروان، الذي أوسق الدنيا عدلاً زمناً قصيراً ليته

طال، إلى أن مات أو قتل. تلك ذرية بعضها من بعض.

ذلك لأن من حسناتي القليلة، عفا الله عني، أنني لست شتاماً ولا صخاباً في الأسواق. بيد أن منسي يومئذٍ، أخرجني عن طوري. لقد قطع عليّ طريقي، وظهر فجأة مثل الشيطان ليفسد عليّ ذلك الحلم الجميل. هاأنذا الآن متهم بالتقصير الإداري وهو تقصير واضح لا مراء فيه. لكنه محتمل، الذي لا يحتمل هو أنني متهم في أمانتي وقد كنت أظنها فوق الشبهات.

«مستر بسطاوروس صديقك، أليس كذلك؟».

هكذا قال مساعد المدير. ومع أن مستر ووترفيلد الكريم هب لنجدتي، فإن الضرر قد وقع والكلام قد قيل إن حقاً وإن كذباً.

بل إن الأمر كان أكثر فداحة، فقد علمت فيما بعد أنهم استجوبوا قبلي، جمال الكناني رئيس القسم، وكان رغم نضجه وتجربته الطويلة قد وقع في الخطأ نفسه. قال إنه لم يكن يعلم أن «منسي» موظف في قسم آخر في هيئة الإذاعة البريطانية. كل المسؤولين في القسم انكروا أنهم يعلمون، وهذا يعني أنني خرجت على إجماع المسؤولين في القسم فأغضبهم ذلك، وقبلت تهمة التقصير، ووضعت نفسي في وضع مريب.

لذلك خرجت عن طوري، وشتمت «منسي» أقصى ما أعانني عليه طبعي. لكنه لم يأخذ الأمر مأخذ الجد، واعتبره نكتة وشطارة و«شغل حَلَبسة». لقد أربك كعادته، جهازاً إدارياً ضخماً منظماً تنظيماً دقيقاً. كانت أوامر الدفع تذهب من عندنا إلى الوحدة

الإدارية في القسم للتدقيق والمراجعة. وهي بدورها ترسلها إلى القسم الإداري للإذاعات الخارجية ومن ثم تذهب إلى الجهاز الإداري المركزي. كان «منسي» رحمه الله، يعمل في قسم الاستماع باسم «مايكل» ويعمل معنا باسم «بسطاوروس» وفي الوقت نفسه يعمل مدرّساً للغة الإنجليزية في مدرسة ثانوية باسم «جوزف». وظل هكذا قرابة ثلاث سنوات، وكل أولئك الإداريين يدققون ويحسبون ويراجعون، ولا أحد يدري، إلى أن اكتشف بالصدفة المحضة بعد ذلك. حين كان يسترجع هذه القصة كان أكثر ما يطربه فيها أنه كان يعلّم الإنجليز لغتهم.

كيف كان ينجز كل هذه الأعمال في وقت واحد؟ يتحرك بين أماكن متباعدة مستعملاً سيارته الـ «فقاعة» تلك، فبينما تراه في «كفرشام» على بعد ساعة من لندن، إذا هو في أقصى شمال المدينة، ثم إذا هو عندنا في «بُش هاوس» فكأنك تراه ولا تراه، وكأنك تدري أين هو وكأنك لا تدري. لا عجب أن كل المسؤولين في القسم أنكروا أنهم يعلمون. لقد كانوا فعلاً لا يعلمون، وكانوا يعلمون في الوقت نفسه. وأنا لا أستطيع أن أوقن هل خالفتهم حمايةً لمنسي، أم خيّل لي أنني أعلم بالفعل.

أمضيت وقتاً وبذلت جهداً بعد ذلك في إصلاح خطئي، ولكن تلك البحبوحة التي غمرتني لم تعد إلى سابق عهدها أبداً، فقد ظلت تلك الحادثة تلاحقني في التقارير السنوية زمناً ليس بالقصير. أما «منسي» فقد خرج كعادته من القضية كلها كما تخرج الشعرة من العجين. وصل بطريقته إلى مدير الإذاعات الخارجية، وكان يعتبر الرجل الثاني في إدارة الـ.B. B. C. بأسرها، يأتي بعد المدير العام مباشرة. اقتحم على مستر «تانجي لين» مكتبه دون موعد، ولما عرفه

بنفسه، قهقه الرجل بالضحك. قال له، كما روى لنا منسي، وهو يغرق في الضحك «أنت الرجل الذي أدخل القسم العربي في ورطة كبيرة».

كان «تانجي لين» هذا من الرجال «الكبار» من فصيلة مستر ووترفيلد، ولم يكن إدارياً بالمعنى الضيق، ولكنه كان متسامحاً حليماً واسع الأفق. كان رجلاً مستنيراً قضى فترة من حياته في مصر. وكان كاتباً مرموقاً له كتاب مهم اسمه «النابوليونيون» عن الإنجليز الذين سبحوا عكس التيار القومي في بريطانيا وأيدوا «نابليون بونابرت» في صراعه ضد الإنجليز. وقد كان على صلة وثيقة بأوساط الكتّاب والفنانين، فأخوه «ديفد لين» المخرج السينمائي المعروف الذي أخرج فيلم «لورانس العرب» ولا بد أن شخصية «منسي» قد استهوته، فقد استماله تماماً إلى جانبه ودعاه إلى داره وعرفه بزوجته وعياله. وسرعان ما أعيد «منسي» إلى عمله في «كفرشام» وصدر أمر للقسم العربي بأن يرفعوا الحظر الذي كانوا فرضوه عليه.

ظل «منسي» على صلة وثيقة به حتى مات. وقد رد له الجميل حين زار مستر «تانجي لين» مصر، وكان «منسي» يعمل وقتها أستاذاً في الجامعة الأمريكية في القاهرة. سخر كل نفوذه وصلاته الواسعة لخدمته، فاستقبل كأنه رئيس وزراء، ورتب له طائرة خاصة حملته وزوجته إلى الأقصر وأسوان، ورافقه في كل تحركاته في مصر.

إنني لم أكن أقابل مستر «تانجي لين» إلا مرة واحدة في العام، حين كان يقرأ علي التقرير السنوي وكان حين يصل إلى الجملة التي ظلت تتردد في التقارير على مدى سنوات: «ولكن عليه أن يعتني

أكثر بالمسائل الإدارية» يبتسم بلطف كأنه يقول لي: «لا عليك فأنا أعلم مصدر هذه التهمة».

٨

اقتحم «منسي» بصخبه وضوضائه عالم «ساميول بكت» الهادئ المنعزل وكانت وسيلته إلى ذلك «مسز باربرا براي». هذا الكاتب صاحب المسرحيات والروايات التي أصبحت معالم في مسيرة الأدب العالمي، يعيش في فرنسا منذ سنوات، لا يقابل إلا نفراً قليلاً من الحواريين والأصدقاء، ولا يتحدث للصحف ولا يظهر على شاشات التلفزيون، وحين فاز بجائزة نوبل قال مذعوراً «الآن حلّت اللعنة» واختفى زمناً إلى أن هدأت الضجة. وقد خطر لي منذ أعوام أن أعمل معه مقابلة لمجلة «حوار» التي كان يحررها المرحوم توفيق صايغ وطلبت من مسز باربرا براي أن ترتّب لي لقاء معه. قالت لي:

«سوف أرتب لك اللقاء. ولكن حين تقابل «سام» سوف تدرك أنه

عليك ألا تصر على إجراء حديث صحفي معه».

سألتها عن السبب فقالت:
«سام رجل قدّيس، منطوٍ على نفسه وأفكاره، لا يفهم أمور الدنيا ولا يحفل بها، ويريد أن يترك وشأنه».

قدرت رغبته ولم أحاول بعد ذلك مقابلة «ساميول بكت».

قد يبدو هذا العزوف عن الناس غريباً من كاتب تقوم أعماله على صعوبة التواصل بين البشر والعزلة الحتمية التي تلازم الكائن البشري مثل اللعنة في رحلته القصيرة في الحياة. هل لأنه نشأ كاثوليكياً في إيرلندة ثم ابتعد عن الحظيرة؟ أم لأنه صاحب عن قرب الكاتب الإيرلندي العملاق «جيمس جويس» مؤلف «يوليسيس»، الكاتب الذي ربما أحدث الثورة الوحيدة في دنيا الأدب في القرن العشرين؟ لقد أخذ «ساميول بكت» عن «جويس» عنايته باللغة والذهاب بها كل مذهب، وكذلك نظرته العبثية للحياة. لكنه خرج عن طوق أستاذه وشق لنفسه طريقاً طريفاً نسيج وحده، وقدَّم رؤيا أدبية مريعة يبدو فيها الإنسان كأنه في صحراء يباب في ليل كوني حالك السواد، بلا نصير ولا معين. هذا كاتب عنده فترات الصمت بين الجمل أهم من الجمل نفسها، لذلك فهو لا يعطي مسرحياته إلا لمخرجين يثق بهم، وكثيراً ما يصر على إخراجها بنفسه. وقد ظل في كتاباته يكثف ويحذف ويقلل من الكلمات ويزيد من الصمت حتى نشر مؤخراً عملاً أسماه «رواية» من صفحة واحدة فقط.

هذا هو العالم الذي اقتحمه «منسي» بلغطه وجلبته ومرحه، عالم على النقيض تماماً من عالمه. أم تراه كان كذلك حقاً؟ وكانت

وسيلته «مسز باربرا براي».

هذه السيدة من الناس الأخيار الذين صادفتهم في رحلة الحياة، تعرَّفت بها عام ١٩٥٤ أو نحوه بواسطة «منسي». كانت تعمل رئيسة لقسم النصوص في الإذاعات الداخلية في هيئة الإذاعة البريطانية، فاكتشف «منسي» وجودها فوراً، وكانت قد درَّسته اللغة الإنجليزية في جامعة الإسكندرية. وإذا كنت أنا قد قمت بدور «الأب الروحي» له فإن هذه السيدة كانت له بمثابة الأم. كانت علاقة مؤثرة حقاً. يكون «منسي» على سجيته تماماً معها، يضحك كالطفل، ويقص عليها كل ترّهات حياته، وهي تضحك، ولا تجد غرابة في كل ما يقوله أو يفعله. وكان «منسي» على صلة دائمة بها، يكلمها بالتلفون حيثما كان، ويمر عليها في باريس في كل سفراته ليقضي اليوم واليومين.

تخرَّجت باربرا من جامعة كامبردج أواخر الأربعينيات حيث درست الأدب الإنجليزي، وعملت فترة هي وزوجها، محاضرين في جامعة الإسكندرية. وقد مات زوجها، وكان شاعراً موهوباً، في حادث سيارة في اليونان، وترك لها طفلتين عكفت على تربيتهما، فنشأتا نابغتين، فدرست الكبرى اللغة الصينية وهي الآن من العلماء المعدودين في ميدان الدراسات الصينية، وتخصصت الصغرى في اللغة العربية ونبغت فيها. وربما يعود أغلب الفضل إلى «باربرا براي» في اكتشاف الأسماء التي أصبح لها فيما بعد شأن كبير في المسرح الإنجليزي، أمثال هارولد بنتر وجون آزدن وجون أوزبوزن، فقد استغلت نفوذها كرئيسة لقسم النصوص في الترويج لأعمالهم وأخرجت بعضها للإذاعة في البرنامج الثالث. وإليها أيضاً يعود الفضل في ذيوع شهرة «ساميول بكت» في إنجلترا. كان «بكت»

معروفاً في القارة الأوروبية وخاصة في فرنسا، فهو يكتب باللغة الفرنسية بالجودة نفسها التي يكتب بها بالإنجليزية. لقد أحبه الألمان لأنهم وجدوا في القتامة الموحشة التي تشيع في أعماله شيئاً صادف نزوعاً في طبعهم، وأحبه الفرنسيون لأنهم أعجبوا بجرأته اللغوية، وأغوتهم موهبته، وهي موهبة يمتاز بها الكتّاب الإيرلنديون عموماً، في خلط الجد بالهزل ودفع الأشياء إلى ما وراء حدود المعقول. أما الإنجليز الأنجلوسكسون فقد انتظروا إلى أوائل الخمسينيات إلى أن قُيّض لـ «بكت» أناس أمثال «باربرا براي» يفتحون عيونهم على أبعاد عبقرية هذا الكاتب الفذ.

٩

ذلك الكاتب الكبير، ويا للغرابة، قد وجد في «منسي» إنساناً يجذب اهتمامه ويستحق أن يقضي معه الساعة والساعتين، وأصبح «منسي» بعد ذلك يشير إليه باسم «سام» كأنه صديقه الحميم وكأنه يعرفه منذ سنوات.

ماذا وجد «ساميول بكت» في منسي؟ إنه يبدو كأنه على طرف نقيض منه. فهذا رجل مترهب قضى حياته يحدق في أغوار ذاته، ويعاني أوجاعاً روحية وعقلية مفرطة. كل ذلك يظهر في وجهه الغريب، الحاد التقاطيع المليء الأخاديد، كأن الزمن حفر عليه بمعول. العينان اللامعتان، نظراتهما مركزة، فيهما خليط من التحدي والذعر، كأنه يحدق في شيء مهول لا يراه أحد غيره. لقد حدق الكتّاب والشعراء والرسامون والفلاسفة قبله في تلك الهوة وأصيبوا

بالذعر. بعضهم انتحر، وبعضهم أصيب بالجنون، وآخرون لجأوا إلى وسائل شتى ليسرّوا عن أنفسهم. ولكن هذا رجل فعل ما فعله أبو العلاء الضرير، فأخذ نفسه بالشدة، وعاش في عزلة متفرغاً تماماً لهمومه العقلية والروحية. و«منسي» كما خيّل لي، عاش على سطح الحياة يركض من تجربة ليدخل في تجربة، ولا يلبث طويلاً حتى يرى ما تحت السطح، يثرثر ويضحك، وتحيط به أينما ذهب، جلبة وضوضاء. لكن من المؤكد أن «بكت» قضى أيضاً من وقته يستمع إلى «منسي» ولا بد أنه كان مستمعاً، فإن «منسي» لم يكن يترك لأحد حتى «بكت» فرصة للكلام، ومن المؤكد أيضاً أنه قرأ كتابات «منسي» على علاتها، ولعله وجد فيها شيئاً جذاباً، كما يجد كبار الرسامين أحياناً أشياء جذابة في رسوم الأطفال. ولعل ذلك الكاتب الذي يزن الكلمات بميزان، أعجب بجرأة إنسان يقول، ولا يبالي بما يقول.

من حسن حظ «بكت» أن «منسي» كان يلمّ بباريس كما يهب الإعصار، فيمكث اليوم واليومين ثم يختفي. و«بكت» يقضي معظم وقته في الريف فكان «منسي» يصادفه أو لا يصادفه. ولكنه كان دائماً يقابل «باربرا براي» بل إنه كان يجيء إلى باريس خصيصاً لمقابلتها. يكلمها بالتلفون أينما كان من واشنطن أو لندن أو القاهرة أو الرياض، ثم يحل فجأة ودائماً يجدها كأنها تنتظره، كما تنتظر الأم أوْبة طفلها. حين كنت أكون في باريس كنت أحضر تلك المقابلات. يكون «منسي» على سجيته تماماً. يضحك ويثرثر، وهي وأنا نستمع، وأنا أؤدي دوري المعتاد كممثل مساعد، أوقظ ذاكرته وأتم له جملة وأعطيه بداية القصة ليستهل هو في روايتها، تستمع باربرا وعلى وجهها حنو عظيم. تقول وهي تضحك ضحكتها الخجولة المهذبة:

«أنت ومنسي يجب أن تشتركا في تقديم كوميديا على المسرح».
وأقول لها:
«مثل لوريل وهاردي».
ويقول «منسي»:
«أو أبوت وكوستيللو».

كل مرة نكتشف معها مطعماً جديداً في ذلك الحي من باريس الذي تعرفه كراحة يدها. مطاعم صغيرة، كل منها يتخصص في نوع معين من الطعام رخيصة الأسعار لا يؤمها السياح. آخر مرة اجتمعنا معاً كان في مطعم يتخصص في الأسماك والأصداف، قريب من النهر، في الضفة اليسرى. كان «منسي» يصطحب زوجته العربية المسلمة، ويحمل طفله عبد العزيز على كتفه. أسماه عبد العزيز على اسم الشيخ عبد العزيز التويجري، فقد احتضنه ورعاه طوال مدة إقامته في الرياض. وقد حكى لنا «منسي» في تلك الليلة كيف أنه خرج رابحاً مالياً من ذلك الزواج، فقد تكفل الشيخ عبد العزيز بجميع النفقات، وحجز للعروسين جناحاً في الهوتيل على حسابه وأعطاه مبلغاً إضافياً نقداً. وحين جاء وقت الذهاب إلى الهوتيل لم يجدوا «منسي» وبحثوا عنه فوجدوه نائماً في غرفة من غرف الدار. وحكى لنا أيضاً أنه حين أراد أن يطلب العروس من أهلها ضربوا له موعداً، ووصفوا له كيف يصل إليهم، فذهب إلى دار أخرى، وظل ينتظر زمناً طويلاً إلى أن جاء أحد أهل البيت فوجده جالساً. سأله من هو وماذا يريد. قال «منسي»:

«أمال فين الجماعة؟».
«أي جماعة؟».
«الله دا مش بيت...؟».

كل هذا وأصهاره الجدد ينتظرونه في بيت آخر. وأخيراً وصلهم وقد كادوا ييأسون منه وينفضّون.
حين جاء وقت دفع الحساب تصدت له «باربرا». دائماً إما تدفع هي أو أدفع أنا و«منسي» ينظر إلينا وكل منا يلح، وكأن الأمر لا يعنيه ليس لأنه بخيل، فقد كان كريماً جداً بعض الأحيان، ولكن لأنه مع أناس معينين كان يضع نفسه في وضع الذي يأخذ ولا يعطي، وكأنه يؤكد محبته بهذه الطريقة. لكنني هذه المرة صممت أن يدفع «منسي» الحساب. قلت لباربرا مستعيراً وصف عبد الرحيم الرفاعي له:

«هذا البغل رجل ثري. جاء إلى باريس في سيارة أمريكية طويلة عريضة ونزل في هوتيل ذي خمس نجوم. وثمن هذا المعطف من الفراء الذي يلبسه وحده يكفيك شهراً كاملاً. لماذا تدفعين أو أدفع أنا؟ أنت وأنا فقيران».

قال لي «منسي»:
«بس بلاش غلبة. ادفع أو سيب باربرا تدفع».
أحرجت زوجته التي يبدو أنها لم تكن عرفت طباعه بعد. قالت له:
«يا احمد ادفع الحساب يا أخي».
قال لها ضاحكاً:
«طيب أدفع وأمري لله. لو كنت عارف اني «حاتوكح» بالفاتورة كنا طلبنا حاجات أرخص».

حين مات، لم أشأ أن أتصل بـ«باربرا» إلا بعد زمن، فقد خفت ألا تكون قد سمعت النبأ وكنت أعلم وقع ذلك عليها. وجدتها تعلم، وكانت مبتئسة أكثر حتى مما توقعت. قالت لي في نهاية المكالمة:

«طبعاً سوف تكتب عن (منسي)».

«كنا قد اتفقنا أن نكتب قصة حياته معاً، باللغة الإنجليزية ثم باللغة العربية».

«كان سيكون كتاباً مهماً... ورائجاً أيضاً... «منسي» كان إنساناً مهماً ونادراً... على طريقته».

«الآن، بعد موته، لا أدري... توجد أحداث لا أعرفها... وأشياء كان أحسن أن يرويها هو، بطريقته... سوف أفكر... لعلني أكتب عنه، ولكن بعد حين».

١٠

في طريقنا إلى مقر اتحاد طلبة جامعة لندن، سألني «منسي» عن قضية فلسطين.

كانت جرأة كبيرة من اتحاد الطلبة أن يختار ذلك الموضوع، في تلك الأيام العصيبة أوائل الستينيات:

«هذا المجلس يوافق على أن تقوم دولة مستقلة للفلسطينيين في فلسطين».

ولا أدري من الذي اختار «منسي» ليكون المدافع الرئيسي عن قضية فلسطين تلك الليلة، في مواجهة خصم قوي شديد المراس. ولكن لأنه كان يحب الجدل، ويحب الظهور والضوء فلا بد أنه بذل

جهداً ليحصل على الدور. كان المتحدث الرئيسي المعارض له، هو مستر ريتشارد كروسمان.

«ريتشارد كروسمان؟ طز. وإيه يعني؟».

لكن «ريتشارد كروسمان» لم يكن رجلاً سهلاً، في الواقع، ولو كان المعني بالأمر شخصاً آخر غير «منسي» لحسب لمواجهته ألف حساب. كان من مفكري اليسار المعدودين، ومن المنظرين الكبار في حزب العمال. عمل أستاذاً في جامعة أوكسفورد قبل أن يصبح نائباً في البرلمان. وقد صار فيما بعد وزيراً ومستشاراً أثيراً عند هارولد ولسن رئيس الوزراء. ولما ترك الوزارة أصبح رئيساً لتحرير مجلة الـ «نيو ستيتسمان» الواسعة النفوذ. وكان قد اشترك من قبل في لجنة كونتها الحكومة البريطانية لدراسة أوضاع العرب واليهود في فلسطين ورفع تقرير عن ذلك. وكان منحازاً تماماً لوجهة النظر الصهيونية.

قال لي «منسي» ونحن في سيارته تلك في طريقنا إلى مقر الاتحاد، وقد بقي أقل من ساعة على بدء المناظرة:
«اسمع. قول لي بسرعة إيه حكاية فلسطين دي».

«الله يخيبك. تقصد سوف تواجه ريتشارد كروسمان وأنت لم تستعد؟ ألا تعرف من هو ريتشارد كروسمان»؟

«بلاش غلبة. بس انت قول لي بسرعة إيه حكاية وعد بلفور ومش عارف إيه وشغل الحلبسة دا؟».

«يا ابني دا مش لعب. هذه مناظرة مهمة جداً... فرصة نادرة لن تتكرر. الله يخرب بيتك. انت مين اختارك لتكون ناطقاً باسم العرب؟».

«ما لكش دعوة. بس اديني شوية معلومات وما تخافش عليّ. قال ريتشارد كروسمان. طز! وإيه يعني؟».

انتابني قلق حقيقي. امتلأت القاعة بالخلق، والذين لم يجدوا أماكن وقفوا في الطرقات والردهات. سفراء عرب وأجانب، وأعضاء في البرلمان وصحافيون ومصورون. وراديو وتلفزيون. كان واضحاً أن كلاً من الجانبين، عرباً ويهوداً قد بذل جهداً كبيراً لحشد الناس. لا غرابة فإن المناظرات التي تعقدها اتحادات الطلبة في الجامعات، خاصة في أوسكفورد ولندن، لها تأثير ووزن معنوي كبير، ودائماً تحظى باهتمام وسائل الإعلام.

لحسن الحظ كان مع «منسي» فريق قوي، كان أحدهم، على ما أذكر، «أرسكن شلدرز» الكاتب الصحافي الذي دافع ببسالة عن العرب وقضية فلسطين بالذات، ثم لما ازداد عليه العنت والضغط، ألقى السلاح واختفى من الساحة تماماً.

حين خطا «منسي» إلى المنصة بقامته القصيرة، وجسمه الذي كانت نتوءاته قد بدأت تتضح من وراء ومن أمام هبت في وجهه عاصفة قوية من التشجيع والهتاف من الجانب العربي، زادته جرأة على جرأته. تكلم بجنان ثابت ولغة إنجليزية فصيحة. لكنه لم يقل شيئاً يجذب الاهتمام وقد حاول أن يغطي جهله بقوله، انه سوف يترك التفاصيل للفريق المساند له.

كل واحد من هؤلاء كان على بينة من أمره فتحدثوا كلهم حديثاً مفيداً مليئاً بالحقائق الدامغة.

ثم أعطى الرئيس الكلمة لريتشارد كروسمان، فخطا نحو المنصة بقامته المديدة، وسط زوبعة من التأييد ضمت كثيرين لم يكونوا مع العرب أو اليهود، ولكنهم كانوا يعرفون من هو ريتشارد كروسمان.

تحدث بصوت أجش تميز به، وأسلوب جمع فيه بين وقار أستاذ سابق في جامعة أوكسفورد ودهاء سياسي متمرس تعلم الصنعة في مؤتمرات حزب العمال، وغمار معارك مجلس العموم حيث واجه خصوماً ضخاماً من وزن ونستون تشيرشل وأنتوني أيدن. ماذا يصنع حامي حمى العروبة، فارسنا المسكين «منسي» في مواجهة هذا «العلج» الجبار؟ ولما فرغ ريتشارد كروسمان، تأكد لي أن قضية فلسطين قد خذلت تلك الليلة في تلك الساحة.

بعد ذلك حدث أمر عجيب لا أذكر بوضوح كيف حدث، ولكنني أذكر «علج» الصهيونية الجبار، وقد تقلص وصغر، يفتح فمه ويغلقه كأنه فقد القدرة على الكلام، وقد احمر وجهه وسال العرق على جبينه، وفارسنا «منسي» قد تحول إلى سبع كاسر، يجري غادياً رائحاً من آخر القاعة إلى المنصة يشير بيديه، ويشب في حلق الرجل ويكاد يضع إصبعه في عينه ويلح في سؤاله:

«قل لي. هل أنت بريطاني أم إسرائيلي؟».
يزداد وجه ريتشارد كروسمان احمراراً، وصاحبنا «منسي» يرمح كالغزال إلى آخر القاعة ثم يمرق كالسهم إلى المنصة، يمد كرشه إلى أمام ومؤخرته إلى وراء ويدير عينيه اللتين زادتا اتساعاً في القاعة،

وقد حلت عليه طاقة لا أدري من أين جاء بها.
«نحن نعلم أنك يهودي... لا اعتراض لنا على ذلك. من حق كل إنسان أن يكون كما يشاء... نحن لسنا ضد اليهود... لكن نريد أن نفهم... ولاؤك لمن؟ مع بريطانيا أم مع إسرائيل؟».

لم يكن ريتشارد كروسمان يهودياً حسب علمي ولكنه كان من الواضح أن «منسي» أراد أن يزعزع الثقة في مصداقيته ويمزق ثوب الوقار والاحترام الذي يكسوه. وقد نجح في ذلك تماماً. حوّل المناظرة إلى مهزلة وحوّل خصمه إلى شيء يثير الضحك.

ولما عدّت الأصوات، انتصر، ويا للعجب، الاقتراح الذي دافع عنه فارسنا «التعبان»: وهو لا يعرف عن قضية فلسطين أكثر مما يعرف راعي الابل في بادية كردفان. وكان ذلك النصر دليلاً آخر أضافه «منسي» إلى ذخيرته، أن الصدق والمنطق واتباع الأصول، لا تجدي، إنما الذي يجدي في الحياة وفي قضية فلسطين وفي كل شيء، هو «الأونطة» و«شغل الحلبسة».

لفتت تلك الليلة الأنظار إليه، ومنها نظر الرئيس عبد الناصر الذي أرسلت له السفارة المصرية ـ حسب رواية منسي ـ تقريراً مدعماً بالصور كيف أن شاباً مصرياً «مسح الأرض» بأحد جهابذة السياسة في بريطانيا. ولعل ذلك كان صحيحاً فقد تلقى «منسي» دعوة لحضور مؤتمر للمغتربين المصريين وبذلك بدأت مرحلة جديدة في حياته. ولكنه قبل ذلك قام بعمل ربما يكون أجرأ عمل أقدم عليه وكاد بسببه أن يطرد من بريطانيا.

١١

عند باب «بوش هاوس» وأنا في طريقي إلى محطة «بادنجتن»، لآخذ القطار إلى أكسفورد، عرض لي «منسي».

«طيب. رايح فين؟».

«أكسفورد».

«عندك إيه في أكسفورد؟».

«بروفيسور توينبي»، يلقي محاضرة، عن قضية فلسطين».

«برضه فلسطين، يا أخي خليك في لندن. الويك أند قربت».

«هذه محاضرة مهمة».

«خلاص أجي معاك».

كانت تلك عادة «منسي». ضحكت لأنه كان يجدني ذاهباً إلى أي مكان فيقول لي «أجي معاك» وقد رافقني بالطريقة نفسها إلى

الهند وإلى أستراليا.

«يا أخي أنت صايع ما عندك أهل؟ ما تروح لزوجتك وعيالك».
«بلا زوجة بلا عيال بلا غم. يا لك يلا بينا».

كان محظوظاً في «ماري» تلك السيدة الطيبة. تزوج وأنجب، وعاش كما يحلو له، كأنه أعزب. يسافر ويعود ويظهر ويختفي، وهي في حالها، كأنه ضيف.

أحياناً كنت أنتبه فجأة أنني لم أره منذ أسبوعين أو ثلاثة فأتصل بداره، فترد عليّ «ماري».
«منسي ليس موجوداً».
«أين هو؟».
«لا أعلم».
«منذ متى».
«منذ أسبوعين».
«ولا تسألينه أين يذهب»؟
«أنت تعرف «منسي». هكذا هو. لكنه يعود دائماً».

ظل يذكرها كثيراً بعد أن توفيت في حادث حريق في دارهم في واشنطن. وكان يقول إنها قديسة. وأشهد أنها كانت شيئاً من ذلك.

«قطار بتاع إيه يا شيخ. نروح بسيارتي».
«لا يا عم. لا يمكن أروح لحد أكسفورد «بالقملة» بتاعتك دي. تسمي دي سيارة؟»

«أنت لسه في زمن الـ «ببل»؟ يا ابني احنا دلوقت في مرحلة جديدة. اشتريت سيارة محترمة... حاجة أبهة».

اتضح أنها سيارة «نصف عمر»، لا أذكر نوعها اشتراها بطريقته الملتوية. صاحبه الجزار، يعرف واحداً، يعرف صاحب كاراج، يعرف واحداً يتاجر في السيارات المستعملة.
«لكنني أحب السفر بالقطار».

لو كان لي من الأمر شيء، لربطت العالم العربي كله، من طنجة إلى مسقط، ومن اللاذقية إلى نيالا، بشبكة من السكك الحديدية مثل قطارات الـ .T. G. V السريعة في فرنسا، وقطارات الـBullit في اليابان. الإنسان الذي كان يسير الشهر والشهرين بالبعير، من صنعاء إلى مكة، لماذا قفز فجأة لهذه الوسيلة الجنونية؟ المطارات مهما بلغت، تبدو شيئاً موقتاً. محطات السكك الحديدية لها طعم آخر وسحر خاص. المحطات الخلوية والمناظر المتنوعة. تعرف أنك قد قمت من مكان ووصلت إلى مكان. تنام وتقرأ وتصادف أصنافاً من خلق الله. ليس مثل الطائرة. تغمض وتفتح فإذا أنت قد انتقلت من حال إلى حال.

«يا للا بلاش كلام فارغ. يا للا يا أخي سيب البطء بتاعك دا. أحسن تضيع مننا المحاضرة».

عكس الآية كعادته، وتصدر المجلس، وأصبح كأنه هو الذاهب إلى أكسفورد، وأنني مجرد تابع له.

في منتصف الطريق، قال لي:

«في واحد صاحبي هنا، نمر عليه خمس دقائق».
«مين»؟

«واحد من المسؤولين الكبار في شركة آرثر رانك».
«يا أخي خلينا نواصل. المحاضرة في السابعة مساء».

«أصلهم ناويين ينتجوا فيلم عن «لورنس». تعرف مين حيمثل دور لورانس؟ ألك جنس. في دور لعربي شاب، أهم دور بعد «لورنس» بيفكروا في عمر الشريف. أنا ناوي ألطش الدور. المخرج حيكون «ديفيد لين» أخو «تانجي».. تانجي وعدني يكلم أخوه».

ضحكت ولم أقل شيئاً.

«بتضحك ليه؟ هو يعني عمر الشريف أحسن مني»؟
«أبداً. مين قال عمر الشريف أحسن منك»؟
«إذا كانت الحكاية انه بيتكلم إنجليزي كويس، أنا أجدع منه ألف مرة في الإنجليزي».
«مؤكد».
«وإذا كانت حكاية تمثيل، دا حتى سير لورنس أليفييه أعجب بتمثيلي».
«عجيب».
«أنت مش مصدق؟ أنت عارف مين علم لورنس أليفييه ازاي يمثّل شخصية المهدي في فيلم «الخرطوم»؟
«أنت»؟

«أيوه يا سيدي أنا. الراجل كان حيجنن لما قرأت له من الذاكرة كل

المونولوجات بتاع هاملت... بنفس الطريقة اللي هو أداها بيها في الفيلم».
«يا ابني سيب الهزار. الحكاية مش لعب. الأونطة تنفع في كل شيء إلا في الفن.. انت تعرف إنجليزي كويس وتحفظ مونولوجات هاملت وريتشارد الثالث. لكنك ممثل فاشل. عمر الشريف ممثل عالمي. وأنت مين؟ مين سمع بـ«منسي» بسطاوروس. حتى اسمك لا يصلح للسينما. وبعدين... عمر الشريف رجل وسيم وأنت ما شاء الله».

«أنا مش وسيم؟ البنات بتقول لي إني أشبه علي خان. في الاحتفال في قصر بكنجهام الأميرة مارغريت أخذت بي».

«أنت قابلت الأميرة مارغريت»؟

«إلاّ قابلت الأميرة مارغريت! يا أخي ما انت عارف القصة من طقطق للسلام عليكم».

مجرد تذكر تلك الحادثة أسعده جداً فضحك بطريقته وأنا أيضاً ضحكت، فقد كنت أعلم أنهم كادوا يطردونه من إنجلترا.

وجدنا داراً كبيرة تطل على واد جميل، ورجلاً إنجليزياً كأنه جاء من عصر آخر. ومع أننا حللنا عليه على غير موعد فقد فرح حقيقة للقاء «منسي».

«مايكل! يا لها من مفاجأة سارة. عجيب أنك جئت فقد كنت أفكر فيك».

«قلت أمر عليك، أنا في طريقي إلى أكسفورد للاستماع إلى محاضرة هامة يلقيها بروفيسور توينبي.. آه.. نسيت أن أقدم لك مستر صالح.. صديقي. يعمل معي في الـ«بي. بي. سي» (B. B. C.). التفت الرجل إليّ:

«آه. أنت إذاً تعمل مع مايكل»؟

«نعم. مستر.. مايكل من كبار المسؤولين في الـB. B. C. كما تعلم. وهو رئيسي المباشر».

لم يخف «منسي» سروره أنني أؤدي الدور كما يجب، وكأنه أراد أن يرد لي التحية، فقال للرجل:

«مستر صالح من المعاونين الأكفاء الذين يعملون معي».

انصرف الرجل كلياً إلى «منسي» واتضح لي من الحديث لماذا كان يفكر في «منسي» ولماذا فرح لمقدمه.

١٢

كان «منسي» يضحك كعادته في أغلب الأحيان، وقد وقف الرجل من شركة «آرثر رانك» عند باب داره، يلوح لنا بيده.
أخلدت السيارة إلى الطريق، واعتدلت في سيرها.

سيارة «نصف عمر»، ايْ نعم، وحصل عليها «منسي» الله أعلم كيف، ايْ نعم. ولكنها سيارة لها نوافذ وأبواب، تصل سرعتها إلى مائتي كيلومتر في الساعة.

حياة «منسي» يمكن أن تقاس، بوجه من الوجوه بأنواع السيّارات التي اشتراها، أو هبطت عليه من السماء. في آخر حياته، حين أصبح «سيّد ثاتشبري» أو «لوردْ ثاتشبري»، كما كان يقول، ويسكن في القصر الذي زعم أنه كان استراحة صيد للملك جون،

كان يخرج كل صباح في زي الفُرسان، ممتطياً صهوة حصانه «سام». يمر على قطعان البقر والضأن، ويتفقد أشجار البلوط والصنوبر والتفاح والتوت والفراولة. جاره من ناحي الشرق لورد «منتباتن» عم الدوق زوج الملكة، أو خاله، وجارته من ناحية الغرب ليدي هذه أو تلك. ثم يصل إلى الاصطبل. يربت على رقاب الخيل ويحادثها ويستنشق تلك الرائحة الفريدة التي تنبعث من الخيل في مراحها. يختم جولته بالكراجات. يفتح الأبواب فإذا السيارات مصطفة كما الخيل في الاصطبل. يتفحصها واحدة واحدة. يرفع الغطاء ويفتح الباب ويدخل. يجلس ويمسك بعجلة القيادة، وينطلق بها وهي ساكنة، في آفاق رحبة ولا بد. سيارة الفورد وسيارة الروفر وسيارة البيوك وسيارة الجاكوار وسيارة المرسيدس ثم أخيراً يصل إلى نهاية المطاف، إلى سيارة... الرولز. يرفع عنها الغطاء كما يرفع النقاب عن وجه العروس الجميلة المشتهاة. يدخل ويملأ رئتيه بذلك العطر العجيب. يمسك بعجلة القيادة، ويدير المحرك ثم يوقفه. يخرج ويقف على حافة حوض السباحة وينظر إلى خياله يتفرّق ويتجمع ويطول ويقصر على صفحة الماء. قليلون جداً هم الناس الذين يمشي الواحد منهم حافياً أو يركب حماراً أو بعيراً وتراه عند الأفق، شامخاً كأنه أمير من أمراء الحياة. كان «منسي» قد وصل بالفعل إلى نهاية المطاف، وكأنه فيما يبدو، لم يجد بعد ذلك سبباً للبقاء.

لكنني أستبق الأحداث. نحن الآن في بداية الرحلة، في طريقنا إلى أكسفورد، في سيارة لها نوافذ وأبواب، تمد رجليك، وتفتح النافذة إذا شئت، وتستنشق هواء الريف الإنجليزي المنعش إذا شئت. تتفلّت الحقول على الجانبين، حقول ناعمة بتلالها المنخفضة مثل طيّات الثوب، والقرى الأنجلوسكسونية بأبنيتها الحجريّة وسقوفها الازْدُوازية في قِيعان الأودية وعلى سفوح التلال. تركنا الرجل الإنجليزي من

شركة «آرثر رانك» واقفاً أمام باب داره، يلوح لنا بيده، وفي عينيه حلم لن يتحقق، كما أن حلم «منسي» في الحصول على دور عمر الشريف في فيلم «لورنس العرب» لن يتحقق.

كنت قد ألممت بطرف من القصة من الحديث بين «منسي» وصاحبه الإنجليزي، وقد آثرت ألاّ أسأله الآن ونحن في طريقنا إلى أكسفورد، وأن اتركها تتقحم وتتغيّر وتتبدّل في خياله. كنت أشهد الواقعة معه، ثم يرويها فإذا هي مختلفة تماماً عمّا رأيت وسمعت.

وجدنا كرّار أحمد كرّار وحسن بشير في استقبالنا.
قال لي كرّار وهو ينظر إلى «منسي»:
«مين الحلبي دا ألْ جبته معاك؟».
نسمي أشقاءنا المصريين «حلَب» و«أولاد ريفْ» بدافع المحبة، وهم يسموننا أشياء بدافع المحبة.
قال «منسي» وكأنه يعرف الرجل من زمن:
«إيه يا خوي حَلَبي دي؟ أنت فاكرني من المصريين بتُوع وجه بحري؟ دا أنا صعيدي من قراييكم».

كان كرّار، رحمه الله، سودانياً قُحاً، فيه كل فضائل السودانيين الأقحاح، وبعض مساوئهم. كان رجلاً «شيخ عرب» كما نقول، حتى في بذلته الإفرنجية، وفي أكسفورد، كأنه يتلفع ثوباً ويمسك عصا، ويجلس في ظل شجرة كبيرة وسط قبيلة. عمل في الإدارة منذ عهد الإنجليز. فكان مأموراً ومفتّش مركز، ووصل في العهد الوطني إلى رتبة محافظ. وقد عمل مساعداً للأمين العام لمجلس الوزراء في حكومة الصادق المهدي الأولى، وصار وزيراً لشؤون مجلس الوزراء في عهد النميري. وكان خبيراً بشؤون جنوب

السودان. ذلك لأن «منسي» دخل معه بعد ذلك في جدل حاد عن الجنوب وهو لا يعرف عنه إلاّ كما يعرف في قضية فلسطين.

أما حسن بشير، فهو زميلي وصديقي منذ عهد الدراسة، عمل في وزارة المالية، وأصبح مساعداً لمحافظ البنك المركزي. وكان بوسعه أن يذهب أبعد، ولكنه إنسان واضح، لا يحب اللّف والدوران، فلم يرق ذلك لأصحاب الشأن.

١٣

جلسنا في الصف الأول، وكانت القاعة ممتلئة. لا عجب، فقد كان المحاضر بروفود أرنولد تُوينْبي أعظم مؤرخي عصره. ثم إن الحدث كان الأول من نوعه. كانت مناسبة تاريخية إذا صح القول. ذلك لأن كلاً من اتحاد الطلبة العرب في جامعة أكسفورد واتحاد الطلبة اليهود وجه الدعوة لبروفيسور توينبي لإلقاء محاضرة عن قضية فلسطين، فأجابهم بأنه رجل تقدمت به السن ولا يقوى على إلقاء محاضرتين، ولكن يسرُّه أن يلقي محاضرة واحدة على العرب واليهود مجتمعين. قبل الطلبة اليهود بلا تردد، فقد كانوا كعادة اليهود عموماً، لا يجدون فرصة للتحدث إلى العرب إلا انتهزوها. أما العرب فمنهم من رفض ومنهم من تردَّد.

تغيّر الحال الآن.

في تلك الأيام كان الاتصال باليهود وحتى مجرد التحدث إليهم أمراً يكاد يكون محرّماً على العربي. كان أمراً عجيباً تلك الأيام، أن ترى عربياً ويهودياً دعيا مع آخرين في تلفزيون من تلفزيونات أوروبا. يرفض العربي أن يجلس في غرفة واحدة مع اليهودي، فيجلسونه في غرفة منفصلة. ويقضون الوقت كله يضيقون الخناق على العربي، لماذا لا يريد أن يجلس في صعيد واحد مع اليهودي. ويخرج اليهودي منتصراً دون أن يفعل شيئاً. قليلون جداً من كانت عندهم الشجاعة للتمرُّد على هذا الحظر. أما نحن فقد كنا أغواراً ولم نكن نبالي.

نقول:
أليس لنا عقول مثل عقولهم، وحجج أقوى من حججهم؟

ـ كانت تزاملنا في الدراسة في جامعة لندن فتاة إنجليزية من أصل يهودي، أذكر اسمها جيداً رغم طول العهد. كان اسمها «شيرلي»، وكانت وسيمة الوجه، ضاحكة العينين، لها غمازتان على خديها، تفعلان الأعاجيب إذا ضحكت. وكنا خمسة. من مصر والعراق وفلسطين والمغرب والسودان. دائماً تجد شيرلي معنا. تؤثرنا على غيرنا وتأوي إلينا دون سوانا تقول لنا لماذا لا يعيش العرب واليهود في سلام؟ ونقول لها نعم والله، لماذا لا يعيشون في سلام! تقول لنا نحن أبناء عمومة وأقرب الناس بعضنا إلى بعض. ونقول لها صدقت. العرب أبناء إسماعيل بن إبراهيم، وأنتم أبناء إسحق بن إبراهيم.

اللغة العربية واللغة العبرية متقاربتان إلى حد بعيد.
صدقت يا شيرلي. هما متقاربتان إلى حد بعيد...

إذاً لماذا الحروب وإراقة الدماء؟ لماذا إهدار الطاقات وتبديد المال؟ لماذا لا يرفرف السلام بأجنحته على تلك الربوع؟ ونقول لها يا ليت السلام يرفرف على تلك اربوع! وأصدقكم القول، إن كل واحد منا، كان مستعداً، لو ترك له الأمر، أن يعقد صلحاً منفرداً مع «شيرلي».

وذات صباح جاءتنا تسعى، كما سعت اليابانية إلى صاحبها المصري في قصيدة شاعر النيل الشهيرة. قالت لنا، إنه الوداع.
«فيم الوداع وإلى أين تذهبين يا شيرلي؟».

نظرت إلينا متعجبة برهة، ثم أجابتنا كما أجابت اليابانية صاحبها المصري:

«فأجابتني بصوت راعني
وأرتني الظبى ليثاً أغلبا
نبأوني برحيلٍ عاجلٍ
لا أرى لي بعده منقلبا»

قلنا لها:
«ولكن لماذا؟».
نظرت إلينا كرة أخرى، بعينين غير ضاحكتين، وخدين بلا غمازتين. قالت:

«ألا تعرفون أن الحرب قد قامت بين مصر وإسرائيل؟».
قلنا لها، كما قال المصري لصاحبته اليابانية في القصيدة:
«قلت والآلام تغري مهجتي
ويك ما تفعل في الحرب الظباء؟»

قلنا لها:
«وأنت ما شأنك بالحرب؟».
قالت:
«أنا جندية في جيش الاحتياط الإسرائيلي، وقد دعيت للخدمة العسكرية».

نظر بعضنا إلى بعض، ودار بين كل واحد منا وبين نفسه، وبين كل واحد منا والآخرين حديث طويل في صمت. هل يعقل أن هذه الفتاة الجميلة اللطيفة تذهب إلى الحرب، وتحمل السلاح، وتحارب مع الأعداء، وتقتل العرب؟

ثم تحولت الحيرة إلى غضب عظيم. على أنفسنا، وعلى شيرلي، وعلى إسرائيل.

كنا في مقتبل العمر، عندنا، كما عند الشباب، قدرة عظيمة على التسامح. وأيضاً، كما عند الشباب، استعداد كبير للتضحية والفداء. إلا أن أحداً لم يطلب منا فعل أي شيء.

نحن وغيرنا. كثيرون من الشباب العرب ذهبوا إلى السفارة المصرية يعرضون التطوع. قالوا بارك الله فيكم. حين تدعو الحاجة إليكم سوف نتصل بكم. ولكن الجيش المصري مسيطر تماماً على الموقف.

ثم نظرنا إلى شاشات التلفزيون، فإذا الجنود الإسرائيليون يستحمون في قناة السويس.

صحيح أن الإنجليز والفرنسيين أعانوا إسرائيل في تلك الحرب، عام

٥٦. ولكن الأمر نفسه حدث بعد ذلك في حرب ٦٧.

أما «شيرلي» فإنها لم تعد. ولعلها قتلت أو قُتلت. ولعلها آثرت البقاء نهائياً في إسرائيل.

ما أعجب ما كانت تلك الأيام. ويا هلْ ترى، يا رعاك الله انتهت بعد الأعاجيب!

١٤

لا عجب أن القاعة امتلأت، فقد كان المحاضر هو بروفيسور أرنولد توينبي أعظم مؤرخي عصره، وأبعدهم نظراً، وأعمقهم إدراكاً. ذلك مؤرخ نظر إلى تاريخ الإنسانية كبحر متلاطم الأمواج، موجة تصعد وتبلغ الذروة، ثم تهبط وتنحسر، لتعلو موجة أخرى. حضارات تولد وتنمو وتزدهر وتذبل فتولد بدلاً منها حضارات جديدة.

جلسنا في الصف الأمامي، وكان «منسي» لا يكاد يستقر في مقعده، يتلفت يمنة ويسرة ويبتسم لكل من تقع عليه عينه، لقد أنعشه هواء أكسفورد. واستجابت روحه لمغناطيس ذلك المكان السحري. هذه المدينة الصغيرة التي تكتسب سمتها وروحها من وجود الجامعة فيها، هي عبارة عن رمز لأفضل، وربما أيضاً لأسوأ، ما في «الحضارة» البريطانية. يخرج البريطاني من هنا وهو يحمل

صك الانتماء إلى صفوة مميزة. رؤساء اتحاد الطلبة في أكسفورد، غالباً ما يدخلون البرلمان، وغالباً ما يصيرون وزراء. وقد ذهب من هذا المكان الصغير، أيام سطوة الأمبراطورية البريطانية شبان في العشرينيات من أعمارهم، لا يميزهم شيء إلا أنهم ينتمون لتلك النخبة الحاكمة، سيطروا على مصائر شعوب في الهند والسودان ونيجيريا وكينيا وفلسطين. وكان الواحد منهم يحكم رقعة أكبر من الجزر البريطانية.

كانت جامعة أكسفورد حلماً دفيناً عند «منسي»، حصناً من حصون الإنجليز لم يستطع اقتحامه. لذلك أشرق وجهه وتواترت لفتاته أول ما ظهرت لنا أبراج الكليات، ثم لما اجتزنا المباني التي تجمع في معمارها بين هيئة الكنائس وقلاع القرون الوسطى.. الحيطان السميكة والأبواب الضخمة والنوافذ المستطيلة والباحات الداخلية التي اقتبسوها ولا بد من المعمار العربي الأندلسي.. وكان «منسي» يردد أسماء الكليات كأنه ينشد نشيداً أسطورياً قديماً... باليول.. ميرتن... مودلن... ووادهام... وكيبل... يبتسم ذات اليمين وذات الشمال وخاصة للطالبات، وهن يهرولن من قاعات المحاضرات أو يمتطين الدراجات... ومن حين لآخر نمر بأستاذ يسرع الخطى وقد نفخ الهواء عباءته السوداء.

نظر بروفيسور توينبي إلى القاعة الممتلئة، وأدار عينيه المشعتين في وجوه الحضور، عرباً ويهوداً، وابتسم ابتسامة تحمل معاني كثيرة.

اجتمع العرب واليهود لأول مرة في جامعة أكسفورد، ولعل المرحوم كرار كان أحد الذين أقنعوا الطلبة العرب بالقبول، فقد كان أحد زعمائهم. كان هو وحسن بشير يحضران لدراسات عليا في كلية

«سانت أنتوني».

تحدث «توينبي» حديثاً مليئاً بالعلم والحكمة وأذكر من بعض ما قاله في تلك الليلة أن قصة العرب واليهود في فلسطين، تشبه المآسي الملحمية الإغريقية، شر يقود إلى شر يقود إلى شر في سلسلة لا نهاية لها. تحدث طويلاً عن الشر الذي حاق باليهود في أوروبا، في روسيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا. ذكّر مستمعيه أن اليهود كانوا يصلبون في الميادين العامة في إنجلترا حتى القرن الثامن عشر. تحدث عن معاناة اليهود على أيدي النازيين في ألمانيا، وقال إن تلك البشاعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية، لا يمكن أن تفسر بأنها عمل شخص واحد مختل العقل، هو أدولف هتلر، ولكنها إثم تحمل وزره حضارة أوروبا الغربية بأسرها.

في مقابل ذلك أفاض «توينبي» في الحديث عن التسامح الذي وجده اليهود من العرب والمسلمين وخاصة في الأندلس، حيث أطلقت الحضارة العربية الإسلامية العنان لطاقات اليهود، فكان منهم وزراء وسفراء وعلماء وفلاسفة. وتعجب كيف أن شعباً عانى ما عاناه اليهود من عنت واضطهاد، على أيدي الأوروبيين، يلحق الاضطهاد نفسه بقوم لا ذنب لهم فيما حدث. واختتم محاضرته بقوله إن على الفريقين أن يعملا على كسر هذه الحلقة الشريرة والخروج من ذلك المأزق التاريخي، وإلا فإن الأمر سوف ينتهي حتماً بكارثة تحيق بالبشرية بأسرها، كما يحدث في المآسي الإغريقية. وناشد اليهود خاصة أن يعملوا الفكر بشجاعة وجرأة لإيجاد وسيلة أخرى غير العنف للخروج من ذلك المأزق التاريخي.

صفق أكثر الناس مجاملة، لا تأييداً، فقد كان حديث «توينبي» أكثر

حكمة ورصانة مما كان يطلبه العرب واليهود تلك الأيام. أما العرب فقد كانوا في تلك الأيام العصيبة المريرة يريدون انحيازاً واضحاً إلى جانبهم. وأما اليهود، فقد كانوا وما زالوا مزهوين بباطلهم. ولكن هذا رجل فكر طويلاً في مصائر الشعوب والأمم، ورأى أكثر من أي مؤرخ آخر في عصره، مسيرة الإنسان منذ فجر التاريخ. كشيء واحد متكامل مترابط الأجزاء، وكان قد بلغ الثمانين أو قاربها، فلم يكن يهمه أن يرضى العرب أو اليهود.

ثم حل على القاعة صمت عميق، كما يحدث للناس حين يلقى عليهم قول طريف، يعرفون بعضه ويجهلون البعض الآخر.

من قلب ذلك الصمت، انبثق «منسي» فجأة، تماماً كما ترمي حجراً في بحيرة ساكنة.

أدار «منسي» ظهره لـ«بروفيسور توينبي» وجال بعينيه الواسعتين في الحضور الذين أخرجهم وقوفه عن صمتهم فشخصت إليه أبصارهم. وضع يده اليسرى في جيبه، ونفخ صدره، ورفع رأسه إلى أعلى، ثم دار نحو «بروفيسور توينبي» ببطء، ونصف وجهه الأيسر ما يزال يميل نحو الجمهور. اتخذ وقفة دراماتيكية، ولعل صورة لورانس أوليفييه، وهو يحث جنوده على القتال في دور الملك هنري الخامس في معركة «أجنكورت» ضد الفرنسيين، كانت ماثلة في مخيلته. كان يحفظ عن ظهر قلب أغلب خطب الملك هنري في مسرحية شيكسبير تلك، ويؤديها بصوت قريب من صوت لورانس أوليفييه. أو لعله تمثل نابليون في معركة «أوسترلتز»! كانت أحلام العظمة تخطر أحياناً على بال «منسي»، ولكن كما تمر سحابة الصيف في السماء، سرعان ما تتبدد دون أن تترك أثراً. إن قامته على الأقل، تقرب من قامة نابليون، وهو في وقفته هذه يذكر المرء من بعيد، من

بعيد جداً، بوقفة نابليون في تلك اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان «دافيد». هذا المكان العريق، أكسفورد، مفعم بالتاريخ والأوهام، والأحلام التي تبددت كسحائب الصيف، والأحلام التي بلغت غاياتها. ولا بد أن شيئاً ما قد حدث لـ «منسي» فأخرجه عن طوره.

قال بلهجة أكثر تقعراً من المعتاد، وهو يضغط على «بروفيسور» و«توينبي» التي كان ينطقها «تا أنبي»، بطريقة الإنجليز الأرستقراط:

«بروففففسور تاأنبي... إنني استمعت إلى محاضرتك القيّمة باهتمام بالغ، ووجدت فيها... وجدت فيها أشياء كثيرة تدعو للتفكير. وأود باديءَ ذي بدء... أن أشكرك أجزل الشكر... بالأصالة عن نفسي، وبالإنابة عن الحاضرين... وأظن أنني أعبر عنهم جميعاً حين أقول.... إنها كانت محاضرة قيمة و.... ومفيدة جداً... ولكن اسمح لي أن أقول.... إنني دهشت حقاً.... أن أسمع مؤرخاً مثلك... مؤرخاً عظيماً مثلك، ليس معروفاً عنه أنه معاد للعرب... بل لعلنا نحن العرب نعتبرك واحداً من أصدقائنا... نعم، أدهشني حقاً قولك.... إن العرب، طوال تاريخهم، أساءوا معاملة اليهود... واضطهدوهم... وعذبوهم...».

كنت أجلس إلى يمينه، وحسن بشير وكرار إلى يساره. نظرنا ثلاثتنا إليه مذعورين في وقت واحد. وسرت همهمة بين الحاضرين وسمعت بعض الضحكات المكتومة. وأخذت أجذبه من ذيل «جاكتته» لأجلسه. ولكنه كان قد تقمص دوراً وأبحر بعيداً وأصبح من الصعب إيقاظه من حلمه...

«وتقول... إن على العرب الآن.... أن يساعدوا اليهود على الخروج

من المأزق التاريخي الذي وضعوهم فيه... يا سيدي البروفيسور.... من الذي وضع اليهود في مأزق تاريخي؟ ألستم أنتم؟ الأوروبيين؟ أنتم الذين اضطهدتم اليهود... وعلقتموهم في المشانق في الميادين العامة... قلت إن العرب ما زالوا يشنقون من بقي عندهم من اليهود في الميادين العامة... مجرد افتراء ودعايات صهيونية كاذبة...

أنتم الذين فعلتم ذلك... وضعتموهم في معسكرات الاعتقال... وفي أفران الغاز... والآن تريدون منا نحن العرب... نحن الأبرياء الذين لا ذنب لنا فيما حدث لليهود... أن نكفر عن خطيئتكم... أن نكسر كما قلت يا سيدي البروفيسور... الحلقة الجهنمية... التي صنعتموها أنتم الأوروبيون... لا يا سيدي. إن فلسطين أرض عربية. وقد ظلت عربية منذ... منذ... ثلاثة آلاف عام... وسوف تظل عربية إلى الأبد... سوف نستردها بالقوة إن عاجلاً وإن....».

تحولت الهمهمة إلى ضوضاء، وارتفعت أصوات من أطراف القاعة تطلب منه باللغتين العربية والإنجليزية أن يجلس. ولما نجحت أخيراً في جره جرّاً إلى الجلوس، قال لي:

«إيه الحكاية؟ هو أنا قلت حاجة غلط؟».
«الله يخيبك. أسكت. أفهمك بعدين».

علت وجه العالم الجليل «بروفيسور توينبي» حيرة عظيمة. وظل بقية المساء، وهو يرد على الأسئلة، ينظر إلى «منسي» من وقت إلى آخر، كأنه يحاول أن يحل معضلة. لا بد أنه، ببساطة العلماء من طرازه، ظن أنه لا بد أن يكون قد أساء التعبير عن أفكاره، وإلا فكيف

يساء فهمه إلى ذلك الحد. أما «منسي» فقد جلس هادئاً مطمئناً وكأنه لم يفعل شيئاً.

ولما خرجنا، قال له كرار، وكان، كما يحدث لـ«منسي» عادة، قد ألفه كأنه يعرفه من زمن:

«يا صعيدي يا مغفل. يظهر أن المصريين بتاع القاهرة على حق. يظهر أن الصعايدة فعلاً اشتروا الترمواي... أنت بليد ما بتفهم الكلام ولا كنت سرحان؟».

ضحك «منسي» ضحكته الطفولية الجذابة، وقال بلهجة صعيدية مزيفة كما في الأفلام:

«بصراحة كدى يا رجاله... أصلو الأستاذ بتاعكم دا طول حبتين... وانا كنت تعبان... لأني مع عدم المؤاخذة... كنت أمبارح سهران سهرة حلوة في لندره... وبعدين سايق العربية لحد أكسفورد... رحت في سابع نومه...».

ثم أضاف:
«وبعدين يا أخي الواحد تعب من حكاية فلسطين دي». قال له حسن بشير:

«ولما أنت تعبان ونايم ومش فاهم الكلام... ما كنت تتلهى وتسكت. رحت عامل خطبة طنانة ولا كأنك جمال عبد الناصر. أنا افتكرتك حتقول (إن ما أخذ بالقوة لن يسترد إلا بالقوة)».
قال «منسي» ضاحكاً:

«دا أنت بتقول فيها؟ طب والنبي الجملة كانت على لساني لولا أن الأخ دا عمال يشدني، وأنا مش فاهم هو بيعمل كده ليه... دا أنا حتى استغربت الناس ما سقفتش ليه...».

قلت له معابثاً، وكنت أعلم أنه اختار الرقم اعتباطاً:
«مين قال لك إن فلسطين عربية من تلات آلاف سنة بس؟».
« أمال هي عربية من أمتى؟».

«من سبعة آلاف سنة على الأقل».

«لا يا شيخ! أنا افتكرتهم تلات آلاف. أصلو اليهود بيقولو إنها كانت بتاعتهم من تلات آلاف سنة، قلت يا واد خليهم تلات آلاف... أهو برضه كويسين... هي تلات آلاف سنة شويه يا رجاله؟».

١٦

كان «منسي» في أكسفورد مثل السمكة في الماء، كما يقال. وأصح من ذلك، أنه كان مثل حمار الوحش في الخلاء. تعرفنا على أناس كثيرين. قابلنا في كلية «سانت أنتوني»، كلية كرار وحسن بشير، الأخوين «ليونهارت» عالمي الاجتماع، وتعرفنا على الرجل الذي ترجم من اللغة الروسية رواية «دكتور جيفاكو» للكاتب الروسي الشهير «باسترناك» التي حولت إلى فيلم سينمائي مثل فيه دور «دكتور جيفاكو» عمر الشريف، غريم «منسي» في فيلم «لورانس». وقابلنا الكاتب الإنجليزي المعروف «جون وين» الذي كان في تلك الحقبة أستاذاً للشعر، هذا المنصب الذي ابتدعته جامعة أكسفورد خصيصاً للكتاب والشعراء. كان «منسي» على سجيته تماماً في ذلك العالم المفتوح المستنير، الذي يتحدث فيه الناس لمجرد متعة الحديث، ويلعبن بالأفكار كما تلعب بكرة الـ«بنج بونغ». كان يدلي بدلوه مهما كان الموضوع، لا يهمه إن كان ملماً

به أو لا، وسواء كان علم اجتماع أو اقتصاد أو فلسفة أو سياسة أو أدباً. أحياناً يصيب وأحياناً يخطئ، ولكنه كان يعوض جهله بحسن استخدامه للغة، وطبيعته المرحة وبديهته الحاضرة. لذلك ترك أثراً حسناً عند كل من قابلناهم. وقد طاب له المقام فأراد أن يبقى فترة أطول، وكان كرار قد أحب مرحه وهذره فشجعه على البقاء. لكنني عاندت وقلت لهم:

ـ هذا إنسان صائع ما عنده شغل. أما أنا فلا بد أن أعود إلى عملي.

قال «منسي»:
ـ شغل إيه يا خوي؟ هو اللي انتو بتعملوه دا شغل؟

كان «منسي» يعتبر الإذاعة «شغل أونطة» وأنها مهنة لا تحتاج إلى معرفة أو جهد. لكنه كان يحبها، ولما هاجر إلى أمريكا كان من ضمن ما فعله أنه أنشأ محطة إذاعة للدعوة للإسلام. وكان يومئذٍ قد أسلم وحسن إسلامه.

تلك السعادة التي غمرته طوال وجودنا في أكسفورد، لازمته ونحن عائدون في طريقنا إلى لندن. كان يضحك ويثرثر وينط من موضوع إلى آخر ومن فكرة إلى أخرى، دون توقف ودون تسلسل أو منطق. واقعته مع «بروفيسور توينبي» بدأت تتحول في خياله تدريجياً إلى أسطورة أخرى في «مثلوجيا» حياته. قال وهو يضحك في أعماق قلبه:

ـ تصور أنا رحت كابس على الراجل وأنا مش فاهم الحكاية إيه ولا هو قال إيه.

قلت له:

ـ إنك بحماقتك في أكسفورد ضيعت انتصارك في لندن على «ريتشارد كروسمان». مثل نابليون... أضاع في موسكو ما كسبه في أوسترلتز.

أعجبه أنني شبهته بنابليون، فقال:
ـ أنا برضه زي نابليون، مش كده؟
أضحكني هذا جداً، فقال:
ـ بتضحك ليه؟ هو إيه يعني نابليون؟ حتة تلياني من كورسيكا.
فقلت:
ـ بس انت تشبه مين ولاّ مين؟ مرة علي خان، مرة نابليون، ومين كمان؟.
قال وكأنه لم يقفز إلى فكرة أخرى:
ـ انت عارف ان جمال عبد الناصر واد جدع بصحيح، صعيدي حمش. بس يا خسارة معاه شلّة من الجهلة، انت عارف هو محتاج لناس زي مين؟.
ـ زيك انت!
ـ أهو كده، واحد صعيدي حمش، ومتعلم، وبتاع خَلبسَّه، يلعب بالبيضة والحجر زي حضرتي...
اضحكني ذلك، كما أضحكني من قبل قوله إنه يشبه نابليون:
ـ انت برضك بتضحك؟ هو يعني الأوباش اللي معاه دول أحسن مني؟
ـ انت تعرفهم؟
ـ إلا أعرفهم، انت عارف الجدع دا اسمه إيه، دلوقتي بقى وزير قد الدنيا ومش عارف إيه، دا مراته كانت بتفصل هدومها عند الست

اليونانية اللي أنا كنت ساكن عندها في الإسكندرية كان بيجي وياها، اتعرفت عليه وبقينا أصحاب، كنا بنسهر كل ليلة ويا بعض.

بعد ذلك، حين عاد إلى مصر وأقام فيها فترة، زعم أنه تعرف على جمال عبد الناصر وصار أحد مستشاريه وكان يلخص له الكتب التي تصدر حديثاً باللغة الإنجليزية. وهو زعم لم نأخذه مأخذ الجد. أعدته متعمداً إلى أكسفورد. قلت له:

ـ أكسفورد حلوه مش كده؟
ـ يا سلام على أكسفورد. انت عارف اني سجلت للدكتوراه في أكسفورد؟
ـ لا يا شيخ؟
ـ الله، انت ما تعرفش الحكاية دي؟ دا أنا حتى كدت اتجوز واحدة من أكسفورد، بنت زي القمر. كانت تدرس تاريخ في كلية «سانت هيلدا».
ـ وبعدين؟
ـ بعدين إيه؟ ما انت عارف الحكاية، اتلميت على حضراتكم، ولقيت الـB.B.C، نقول لنا كلمتين فارغين ناخذ عليهم فلوس.
ـ وتزوجت ماري.
ـ آه يا سيدي.
ـ ماري سيدة فاضلة، وأنت لا تستحقها. أي واحدة غيرها كانت طلقتك من زمان.
ـ ما قلناش حاجة. ماري بنت حلال وربة بيت والكلام الفارغ دا. بس البنت بتاعة أكسفورد كانت حلوة قوي. زي القشطة.

تذكرت صاحبه من شركة «أرثر رانك» فسألته عنه. استجاب فوراً

لهذا الموضوع الجديد وكأنه كان ينتظر السؤال منذ زمن. قال وهو يضحك:
ـ الراجل الأهبل اللي انت شفته دا يشغل «منصب كبير» في الشركة ومن عائلة محترمة ومتجوز ست زي القمر.

ـ أنا افتكرته أعزب، مش باين انه في ست في البيت.
«ما هي دي الحكاية. أصله يا سيدي الأستاذ دا راح مصر. وقابل واحدة هلفوته. عيّله بتاعة اتنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين سنة. راجل مغفل. شاف بنت مصرية عيونها عسلية وشعرها أسود وملظلظة، راح متدهول في حبها. انت عارف الراجل دا سنه فوق الخمسين.
ـ وبعدين؟
ـ بعدين إيه؟ البنت مش جاده.. ضحكت عليه وأوهمته انها بتحبه ومستعدة تتجوزه
ـ انت شفتها؟
ـ إلا شفتها. ما أنا يا أستاذ حاضر القصة من بدايتها.
ثم قال وهو يضحك:

ـ أصله انت مش واخد بالك... أنا يا سيدي باشتغل معاهم مستشار في الشؤون العربية، يعني لما ييجو ينتجو فيلم زي الخرطوم أو لورانس والكلام الفارغ دا، يستشيرو مين؟
ـ أنت؟
ـ أيوه يا سيدي. أنا، انت فاكر أنا معتمد على الكلام الفارغ بتاع الـB.B.C؟
ـ وبعدين؟
ـ وبعدين زي ما بيعملوا الإنجليز الهبل. الخواجة لما رجع لإنجلترا

حكى لمراته، وطلب منها الطلاق. قال إيه؟ بيحب. دا مراته زي القمر.

ـ أوعى البنت تكون مسلمة.

ـ لا يا سيدي. اطمئن. قبطية من جماعتنا. انتو بس تعملو لي مسلمين في حكاية الجواز. وافرض انها مسلمة. ما هو الأستاذ دا مستعد يعمل أي حاجة عشان يتجوز حبيبة قلبه.

ـ والبنت؟

ـ يا شيخ! دي بتضحك عليه، لا حتتجوزه ولا حاجة.

ـ وانت دورك إيه في الحكاية دي؟

ـ تصور الراجل الأهبل دا، مرات يتصل بي الساعة اتنين صباحاً عشان يحكي لي حكاية حبه وغرامه. دا متصور اني سأقنع البنت تتجوزه.

ـ وفي نظير ذلك؟

ـ أهو كده. في نظير ذلك نلطش الدور من مين؟ من بسلامته عمر الشريف.

ـ الله يلعنك. انت حتخرب بيت الراجل.

ـ أبداً. لا حاخرب بيته ولا حاجة. بكره يرجع لمراته وتنتهي الحكاية.

انتهت الحكاية بأن الرجل من شركة «آرثر رانك» لم يطلق زوجته ولم يتزوج «البنت» وأن «منسي» لم يحصل على دور عمر الشريف ولا أي دور آخر في فيلم «لورانس». ولكن الحياة كانت تخبئ له أدواراً أخرى في الواقع.

١٧

حين وقف «منسي» ذلك الموقف «التاريخي» في ذلك المكان الذي لا يدخله الناس ضربة لازب، لعله أحس بأنه جاء بمقتضى منطق عادل، وأنه هو أيضاً يرمز لشيء ما. كان ما يزال في المرحلة الثانية من مراحل حياته، مرحلة الـ«بَيل» التي أعقبت مرحلة الـ«عجلة».

حدث ذلك أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات، لا أذكر على وجه التحديد. لكنه كان حدثاً كبيراً. استضاف مجلس العموم البريطاني في لندن المؤتمر الدوري لبرلمانات العالم. جاءت الوفود من كل الأنحاء وصادف أن «منسي» رحمه الله كان على صلة حميمة برئيس الوفد المصري، منذ هو طالب في جامعة الإسكندرية. لذلك كان سهلاً عليه أن يلتئم بالوفد المصري. كان يرافقهم في مجيئهم وذهابهم، يساعدهم على شراء لوازمهم من الأسواق، ويرتب لهم مقابلاتهم، ويصطحب من يرغب منهم إلى عيادات الأطباء،

ويسهل لهم أمورهم. وقد وظف لذلك، كما يمكن أن يتخيل الإنسان، طاقته الهائلة ومعرفته الواسعة بمدينة لندن. أصبح شخصاً ضرورياً لا غنى عنه بالنسبة لهم. وقليلاً قليلاً أصبح كأنه واحد منهم.. كأنه عضو في الوفد. وقد روى «منسي» أنه تحايل على سكرتارية المؤتمر، فوضعوا اسمه في قائمة أعضاء الوفود، وصاروا يرسلون له كل أوراق المؤتمر بما في ذلك بطاقات الدعوات التي كانت تقام تكريماً لهم. أصبح «منسي» يحضر اجتماعات المؤتمر في النهار، ويحضر حفلات الاستقبال في المساء. ولم يجد أعضاء الوفد المصري غرابة في ذلك، فقد كانوا يظنونه أيضاً مندوباً عن هيئة الإذاعة البريطانية.

وجد «منسي» دوراً محترماً يليق به، فانهمك فيه بكل طاقته. وكعادته حين يتقمص دوراً، فإنه لم يكن يقف عند حد. لذلك كادت هذه الحادثة أن تنتهي بطرده من بريطانيا.

مر كل شيء بسلام، إلى أن حل ذلك المساء، حين أقامت الملكة حفل الختام للوفود في قصر بكنجهام. لبس «منسي» بدلة السهرة التي لا بد أنه استأجرها أو استعارها. ثم مضى إلى موعده المضروب في القصر. مكان أكثر سحراً وألقاً وهيبة من كل الأمكنة التي دخلها من قبل. إنني أستطيع أن أتخيل كيف دخل «منسي» قصر بكنجهام ذلك المعقل الإمبريالي، المحاط بالبروتوكولات والرموز والطقوس. لقد صحبني مرة إلى حفل استقبال أقامته سفارة من السفارات. لم يكن مدعواً بالطبع، ولكنه جاء هكذا، وكأنه يظن أنه مدعو أصلاً وبالفعل لكل الاحتفالات التي تقام لأي سبب وفي أي مكان على وجه الأرض. كأنه ضيف مستديم على مائدة الحياة! كان على الباب رجل في بذلة حمراء كأنه جنرال في الجيش، يعلن

بصوت جهير أسماء المدعوين وهم يدخلون قاعة الاستقبال، واحداً بعد الآخر. لم يعجبني ذلك،وقلت لنفسي لم الجلبة والضوضاء، فدخلت دون أن أعطيه اسمي. وما هو إلا قليل، حتى سمعت الحاجب ينادي بصوته الجهير:

«الدكتور مايكل بسطاوروس، رئيس القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية».

كان رئيس القسم العربي الحقيقي موجوداً في الحفل، فالتفت متعجباً.

نعم، إنني أستطيع أن أتخيل، كيف اقتحم «منسي» ذلك الحصن الحصين الذي لا يدخله كل من هب ودب، لا يدخله كل من شاء، هكذا، ضربة لازب. تجاوز السور الحديدي الخارجي الذي يتشبث به السياح، ينظرون من بعيد إلى مراسم تغيير الحرس، يراودهم الأمل أن يروا وجهاً يطل عليهم من نافذة أو ردهة. دخل إلى الفناء الداخلي، ولعله صعد درجاً، ثم فتحت له الأبواب، وسار به الحرس الملكي في دهاليز واسعة طويلة. كل خطوة محسوبة منذ عهد سحيق غابر. أخيراً وصل إلى... نهاية المطاف. إلى شيء مبهم كأنه سيارة الـ«رولز» بين السيارات.

وصل دون استئذان، ودون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة.

فتح الباب الأخير، ونادى حاجب الملكة الذي لا بد أنه لم يكن كسائر الحجاب:

«الدكتور منسي يوسف بسطاوروس، رئيس الوفد المصري».
هل تذكره وهو يقارع سير آنتوني أيدن في اجتماع شباب المحافظين؟

هل تذكره وهو يصرع تنيناً ضخماً من «تنينات» الإنجليز؟
هل تذكره في أكسفورد وهو يحارب في غير محترب، ويعارك في غير معترك؟

إنه الآن في هذا المكان، يقوم بدور أعظم من أي دور قام به من قبل، أو سيقوم به من بعد.

مثل «منسي» بثوبه المستعار وصفته المنتحلة، أمام الرمز الأكبر للأمبراطورية البريطانية.. ملكة إنجلترا واسكتلندا وإيرلنده وويلز وجزر الهبرديز وجزيرة مان وما وراء البحار، وريثة تاج الملوك جيمس وجورج وإدوارد، سليلة آل وندسور وهانوفر، راعية الكنيسة، رئيسة الكومنولث!

وماذا فعل «منسي» هل حيّا وانصرف؟ هل اكتفى بذلك القدر؟ أبداً. كانت تلك لحظة لا بد أنه ظل يستعد لها على غير علم منه منذ ولد، وكأنما الأقدار قد هيأته لذلك اللقاء «التاريخي». ولعله أيقن أنه هو أيضاً يرمز لشيء ما، وأنه لم يأت متسولاً، ولكنه يقف ذلك الموقف بمقتضى منطق، وإن بدا عجيباً، فإنه عادل على وجه من الوجوه.

١٨

كان يعلم أن رئيس الوفد الحقيقي كان مريضاً تلك الليلة، وأنه ما من أحد سوف ينوب عنه. ولعل ذلك كان حتماً، فقد كان المنطق العجيب الذ أعطى «منسي» «شرعيته» ومبررات سلوكه عن علم أو عن غير علم، يقتضي أن يلعب هو ذلك الدور، أن يكون هو الرئيس. ولم لا؟

ألم ينتزع نابليون وهو «حتة تلياني من كورسيكا» التاج ويضعه بيده على رأسه ويفرض نفسه «أمبراطوراً على فرنسا؟

ألا تغدق الحياة على أناس لا يبدو أنهم يمتازون على بقية خلق الله؟

ألا يشغل بعض الناس مساحات من الأفق أكبر مما يستحقون؟

بمقتضى هذا المنطق العجيب، وقف «منسي» في الصف الذي يؤدي إلى الملكة، بين رؤساء الوفود... الرمز الإمبريالي، الذي يعزف من أجله السلام الملكي، وتتحرك باسمه الجيوش، وتخفق الأعلام على سفن الحرب في عرض البحار.

وكان وراءه في الصف، محمد أحمد محجوب، رئيس وفد السودان. ذلك أيضاً كان عدلاً على وجه من الوجوه، أن يقف محمد أحمد محجوب بقامته المديدة، وسمته المهيب، وبيانه الناصع، وعقله الراجح، وخبرته في معترك السياسة وراء «منسي» في ثوبه المستعار وصفته المنتحلةّ!

بعد ذلك بزمن، حكينا القصة لمحمد أحمد محجوب رحمه الله. غضب أول الأمر، بوصفه زعيماً، ثم نظر إليها بوصفه شاعراً، فضحك. ولعله كان يومئذٍ أقدر على فهم «المغزى» واستبطان «الرمز» فقد كان منفياً في لندن، بعد أن انتزعت منه «ثورة مايو المظفرة» رئاسة الوزارة. لقد جاء واحداً، لا يختلف كثيراً عن «منسي» في نهاية الأمر، (دون إذن ودون وجه حق في ثوب مستعار وصفة منتحلة) فأزاحه عن مقعده وجلس هو مكانه.

كان الرؤساء يسلمون على الملكة فتقول لكل منهم بضع كلمات على سبيل المجاملة، ثم ينصرفون، ولا يأخذ اللقاء أكثر من دقيقة أو دقيقتين.

لكن «منسي» كان مختلفاً. لم يفوضه أحد. جاء بمحض إرادته، لا كمتسول، ولكن بمقتضى منطق عادل في نظره. وباسم من؟

باسم كل الذين وقفوا وراء الأسوار ينظرون من بعيد لعل وجهاً يطل عليهم من النافذة.

باسم أولئك الذين لم يجدوا مكاناً على المائدة لأن آخرين احتلوا مساحات أكبر مما يحق لهم.

يروي «منسي» رحمه الله، أن الملكة بعد أن حيته حسب ما تقتضي المراسم والأصول، فجأة قال لها، دون تفكير، ودون أن يناديها بلقب «صاحبة الجلالة» كما تقتضي الأصول:

«اسمعي. لا بد أنك تجدين هذه المناسبات مملة جداً. كيف تحتملين القيام بهذا الدور الممل يوماً بعد يوم؟».

يقول «منسي» إن الملكة ضحكت، ولكن أغلب الظن أنها ابتسمت ابتسامة خفيفة، لتخفي دهشتها من تلك الجرأة، فهي مدربة لمثل هذه المواقف.

بعد ذلك دخل معها في حديث طويل عن مهامها كملكة، وعن حياتها العائلية. وبلغت به الجرأة أنه سألها عن تربية الأمير تشارلز ولي العهد وعن تعليمه. ليس ذلك فحسب ولكنه أخذ يعطيها نصائح عن أفضل السبل لتربيته وتعليمه.

استغرقت المقابلة وقتاً طويلاً بحساب ذلك المكان. وقف الصف، وبدأ رؤساء الوفود يتعجبون من هذا الذي أعطته الملكة كل هذا الوقت. وكان محمد أحمد محجوب وراء «منسي» ينتظر دوره، بقامته المديدة، وخبرته الطويلة، وبذلته الأنيقة التي لم يستعرها،

ولكن اشتراها من حر ماله.

تحرك دوق أدنبرة، زوج الملكة الذي كان يقف إلى جانبها، وأمسك «منسي» برفق من ذراعه وخرج به من الصف. قال له: «أنت صغير السن جداً. كيف أصبحت رئيس وفد دولة كبيرة كمصر؟».

قضى «منسي» ذلك المساء كما يمكن أن يتخيل المرء. أكل وشرب وحاور وجادل وضحك، وتعرف بلورد هذا وليدي تلك، وتحدث اللغة الإنجليزية على أصولها في مكمن أسرارها وأمنع حصونها. وفي غمرة تلك السعادة أغفل أمراً مهماً، وهو أن ذلك القصر ليس مكاناً «هملاً» وأن الإنسان لا يدخل ذلك الحصن دون دعوة ودون وجه حق، مهما بدا له أنه رمز لشيء ما، أو أنه صاحب حق ما. كانت ثمة عيون تراقب وتحرس، وترى وتسمع.

ثاني يوم، مع أول الصباح، وهو لم يكد يستيقظ من نومه، حل عليه رجال أشداء من طراز لم يعرفه من قبل. رجال الأمن كانوا يعرفون عنه كل شيء منذ أن وطئت قدماه أرض جزيرتهم. كل صغيرة وكبيرة أحصوها في سجلاتهم. وعلى مدى شهر أو نحوه ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بأنه عميل للمخابرات المصرية ـ قالوا له إنهم لا يجدون تفسيراً آخر لسلوكه المريب. العجيب أن المصريين أيضاً اتهموه بأنه عميل للمخابرات البريطانية فهم أيضاً لم يجدوا سبباً منطقياً لسلوكه.

دخل «منسي» في مأزق حقيقي، فجند كل طاقته واتصالاته ومعارفه. وأخيراً انتهى الإنجليز إلى الرأي بأنه شخص إما أحمق أو مجنون لا يدري ماذا يفعل.

إنما «منسي» رحمه الله لم يكن أحمق ولا مجنوناً. كان كما وصفته أستاذته باربرا براي «إنساناً نادراً على طريقته».

١٩

تشعب الحديث في دار سعد الدين وهبة الكاتب المرسحي الشهير، الذي كان يومئذٍ وكيلاً لوزارة الثقافة، وزوجته الممثلة الكبيرة سميحة أيوب، إلى أن جاء ذكر «منسي». بدأ سعد الدين وهبة يحكي قصة رحلة رافقه فيها «منسي» إلى الكويت، فلم أكن أنا الوحيد الذي حظي برفقته في الأسفار، إلا أنني ربما كنت أكثرهم حظاً. كان «منسي» رحمه الله يحب السفر، لذلك اقتنى شركة للسياحة تتيح له ركوب الطائرات والنزول في الفنادق بأسعار مخفضة. وكان يحب الصحبة ويحب الضحك. فإذا وجد رفيقاً تطيب له صحبته مسافراً إلى أي مكان، سافر معه. كان يحب صلاح جاهين بطريقة مؤثرة، فإذا خطر على باله في واشنطن، يسافر فوراً إلى القاهرة لرؤياه. وإذا تذكر عبد الرحيم الرفاعي، سافر إلى «بيرن» وإذا غنَّت له باربرا براي في باريس، سافر إلى باريس. كان يبدو إنساناً حراً تماماً، طليقاً مثل طائر في الفضاء.

لم يذهب سعد الدين وهبة بعيداً في رواية القصة حتى دق جرس الباب. ثم إذا صاحبنا حقيقة ماثلاً للعيان. كأن أحداً ناداه فاستجاب. صدفة، نعم، ولكنها صدفة تكررت كثيراً. يأتي ذكره، ولا أحد يظنه في المدينة، فإذا الباب يدق أو التلفون يرن.

دخل ضاحكاً وكأنه كان معنا منذ أول المساء.
«منسي! الله يخرب بيتك. انت جايي منين؟».

هجموا عليه بالعناق والقبل والشتائم، وخاصة الشتائم، فقد كان فيه شيء يغري بالشتم، ولكن عن محبة.

تهلل وجهه طرباً لحرارة الاستقبال وكثرة السباب، والأثر المسرحي الهائل الذي أحدثه بدخوله إلى دار أعلم بأصول المسرح الحقيقي منه... تناوشه الناس ذات اليمين وذات اليسار، وكانوا كلهم يعرفونه ويحبونه بدرجات متفاوتة، يوسف إدريس ومحمود سالم ورجاء النقاش وعبد المنعم سليم وآخرون.

اندرج حالاً في الحديث وكأنه شارك فيه منذ البداية، وطابت له الأمسية كما تطيب الأماسي في القاهرة، ووجد جمهوراً ليس كسائر الجماهير، أناساً أصحاب مواهب وأخوة سمر وفكاهة وطرائف. ولبس زي المهرج فأصبح محور الانتباه ومركز الدائرة.

مضى سعد الدين وهبة يحكي القصة، وكان «البطل» يتدخل باستمرار ويجاذبه حبل الرواية ليسير بها على هواه. وكنت أستمع لاهياً وأنا لا أعلم أنني سوف أكون وشيكاً ممثلاً في فصل تعيس من فصولها في بيروت.

كان يحب الغموض، يظهر فجأة ويختفي فجأة. «يا واد انت جايي من أي داهية؟».

يقول «منسي»:
«وعاوزين تعرفوا ليه؟».
يقول يوسف إدريس الذي كان مأخوذاً بشخصيته من زمن:
«الواد دا لازم بيشتغل في السي. آي. أيه. طب ازاي عرفت اننا سهرانين هنا؟».

يضحك «منسي» فقد كان يحب أن يضفي على نفسه مزيداً من السحر والغموض.
ويقول أحدهم:
«هي السي أي أيه مغفلة تشغل واحد عبيط زي دا؟ دا كل حياته هزار وضحك وما يعرفش يخبي أي أسرار».
ويقول الثاني:
«ما هو دا كله تمثيل للتمويه».

لكن الحقيقة كانت أبسط من ذلك. لقد وصل «منسي» من أمريكا منذ أسبوعين، كما أخبرني فيما بعد، بعيداً عن التمثيل والتهريج، وزار أهله في القاهرة والصعيد، فقد كان طول حياته باراً بأهله، وتفقد أحوال أخواته وأخوته. ثم انقطع أياماً بصحبة صديقه الحميم صلاح جاهين قبل أن يظهر في تلك الليلة.

كان قد مضى على هجرته إلى أمريكا أكثر من خمسة عشر عاماً.
أيام كنا معاً في لندن، كنت أقول له:
«سافر إلى أمريكا. إنها بلاد ينفع فيها النصب. إما دخلت السجن

أو أصبحت مليونيراً».

لكنه لم يأخذ قولي مأخذ الجد، فقد كان سعيداً بحياته في إنجلترا. ثم ذات يوم، سافر على طريقته، دون خطة أو تفكير مسبق، في رحلة من الرحلات التي كانت تنظمها هيئة الإذاعة البريطانية إلى نيويورك. يدفع الإنسان مبلغاً زهيداً يغطي ثمن تذكرة الطائرة ونفقة الإقامة في مدينة نيويورك مدة أسبوع.

سافر وليس في نيته الإقامة، فلم يكن يحمل مالاً أو متاعاً، ولم تكن تأشيرة الدخول تسمح له بالإقامة. ولكن الناس عادوا ولم يعد. وسألنا رفقاءه في السفر فقالوا إنه اختفى منذ وصلوا نيويورك ولا يعلمون أين ذهب.

٢٠

كان يجب عليّ أن أنتبه، ونحن في مطار القاهرة نستعد للسفر، وأنا ألمح «منسي» يجري من مكان إلى مكان، يهمس في أذن موظف شركة الطيران، ويوشوش لموظف الجمارك، ويلاطف موظف الجوازات. قلت هذه طبيعة «منسي»، يحول أي أمر، مهما كان عادياً وبسيطاً إلى شيء يشبه المؤامرة. حتى وأنا أصعد سلّم الطائرة، رأيته يهمس لموظف شركة الطيران، فلم أكترث. دخل مسروراً وكأنه أحرز نصراً من نوع ما.

وصلنا مطار بيروت أوائل المساء في ذلك اليوم من عام ١٩٧٥ الذي أصبح يؤرخ به فيما بعد على أنه البداية الحقيقية للحرب اللبنانية، الحرب التي لم تضع أوزارها إلى اليوم. وكان وصولنا قريباً من المهزلة، في جو متوتر، على غير علم منا، في مساء كان بداية لليل طويل حالك، يخفي في جوفه كوارث يشيب لهولها الولدان.

في دار سعد الدين وهبة، وكان المساء مساء من نوع آخر كما وصفت لكم قبلاً، سألني «منسي» عن وجهتي، قلت له إنني عائد إلى عملي في الدوحة، ولكنني سوف أعرج على بيروت لأقضي فيها أياماً. كنت قد حضرت اجتماع اللجنة الدائمة للإعلام، في مقر الجامعة العربية. ناقشنا مواضيع أصبحت بنوداً ثابتة في كل اجتماعات لجان الإعلام ومؤتمرات وزراء الإعلام إلى يومنا هذا... التحرك الإعلامي العربي في الخارج، صورة العرب المشوهة في أجهزة الإعلام الغربية، إنشاء وكالة أنباء عربية موحدة، إقرار ميثاق شرف إعلامي، إيقاف الحملات الإعلامية التي تشنها الدول العربية بعضها ضد بعض، إلى غير ذلك. كانت لجنة محترمة من رجال أفاضل. سعدون الجاسم وعلي شمو وغالب أبو الفرج وإبراهيم الصلحي وعبد العزيز الرواس، ومرسي سعد الدين، وعبد الله الحوراني وجمعة الفزاني والشيخ عيسى بن سلمان، وطه يس، وأديب نمنم وآخرون لا يقلون عن هؤلاء الذين ذكرت فضلاً وحكمة. كانوا جميعاً رجالاً عقلاء، أخوة أشقاء. كانت تلك الأيام تتطلب قدراً كبيراً من العقل والحكمة. الآن، الله أعلم.

كنا نقول «لنضع نصب أعيننا الأهداف الثابتة للأمة العربية ولا ننشغل بالمتغيرات التي تأتي وتزول» وكنا نحاول أن نجد أرضاً صلبة نقف عليها وسط عالم من رمال متحركة. وكانت تلك اللجنة، حسب علمي، أول من استعمل عبارة «الحد الأدنى من الإجماع العربي» وهي عبارة اكتسبت أعماقاً وأبعاداً فيما بعد، حين رددت في مجالس أثقل وزناً وأكثر احتراماً. ومن محاسن الصدف أن أغلب أعضاء اللجنة ظلوا ثابتين على مدى أربعة أو خمسة أعوام، فنشأت بينهم ألفة شخصية وتقارب في الرأي. حتى أخونا جمعة الفزاني أصبح بمرور الوقت ينظر إلى الأمور نظرة «واقعية مهنية» كما

كنا نقول.

هذا ورئيسنا الحليم، الدكتور عبد الأحد جمال الدين، يدفع بالتي هي أحسن، يخمد الثورات ويطفئ النيران، وإذا تعقدت الأمور يسعفه طبعه المصري فيقول شيئاً يضحك الناس، فيضحكون ويستريحون، وكان يجلس إلى يمينه على المنصة، الأستاذ سليم اليافي مساعد الأمين العام، يستمع في صمت، ويعاني في صبر، ويدخن بلا توقف.

كان الأمين العام مريضاً في المستشفى، فذهبنا نعوده. أحسن استقبالنا وتلطف معنا في الحديث. ثم جاء ذكر الإعلام وقضاياه قال:

«إعلام إيه؟ أنا عاوز أعمل تنمية».
فقال له أحدنا:
«لكن سيادتك... ما هو برضه الإعلام داخل في التنمية».
كان آخر اجتماع تعقده اللجنة الدائمة للإعلام في القاهرة. بعد ذلك حدثت أحداث، وتفرق الناس شذر مدر، وذهبوا أيدي سبأ.
قال لي «منسي»:

«والله فكرة عظيمة نروح بيروت. أنا أصلاً مسافر إلى الرياض. نقضي أياماً في بيروت. بعدها أنت تسافر إلى الدوحة، وأنا أواصل السير إلى الرياض».

ساعة واحدة توصلك من القاهرة إلى بيروت. مثل المسافة من القاهرة إلى أسوان. ودمشق أقرب إلى القاهرة من أسوان. تخيل.

حلقت الطائرة فوق سماء بيروت أول المساء. الجبال والسماء والبحر حقاً كما وصفها الشعراء وتغنى بها وديع الصافي وفيروز. السلام والمحبة والعطاء كل ذلك حقاً لبنان. كل شيء معدّ إعداداً جميلاً للخراب، لقد بذل مئات الآلاف من الرجال والنساء جهداً مضنياً على مدى عشرات السنين ليصنعوا بلداً مثل عروس خضلة تزف للموت.

لكننا في ذلك المساء من عام ٧٥، لم نكن نعلم.

٢١

السماء فوق بيروت رحيمة قريبة المنال، نجومها عقود من اللؤلؤ تختلط بقناديل الكهرباء التي تتوهج على سفوح الجبال. وعلى اليسار، والطائرة تقترب من أرض المطار، بحر ناعم شفاف أول الليل، أمواجه، كما قال الشاعر، مثل عرائس في غلائل بيض، تتراكض نحو الشاطئ، وتذوب. بعد قليل سوف تمطر هذه السماء الرحيمة شواظاً من لهب، وهذه الجبال المضيئة سوف تهتز بهدير المدافع، وهذا البحر الآمن المطمئن، سوف يدفع إلى الشاطئ بشياطين الدمار والهلاك.

لكننا لم نكن نعلم أن كل ذلك سوف يحدث وشيكاً، ونحن ندخل صالة المسافرين القادمين، ونمضي لنتسلم أمتعتنا.

فجأة انتبهت وكأنني أستيقظ من حلم. قلت لـ«منسي» مذعوراً:

«الله يخرب بيتك. إيه دا؟».
قال متضاحكاً:
«شوية هدايا».
«أي هدايا؟ دي لازم بضائع مهربة».

كان أخوة من السفارة القطرية قد جاءوا لاستقبالي، ودخلوا حظيرة الجمارك، فوقفوا ينظرون متعجبين.

حمل الشيّالون صندوقين ضخمين، كل منهما يزن أطناناً، ولما أصر موظف الجمارك أن يرى ما بداخلهما، قال «منسي»:

«حتتعب نفسك على إيه؟ دي حاجات بسيطة. شوية هدايا».
ثم أضاف، غير مبالٍ بوجود القطريين:

«وكمان أنا موظف في دولة قطر وعضو في وفد رسمي».

نظر إليّ الأخوة من السفارة القطرية وفي عيونهم دهشة وتساؤل، وكنت أنا أكثر دهشة منهم. لقد عرفت ضروباً من جرأة «منسي» من قبل، ولكنني لم أتخيل أن تبلغ به الجرأة أن يزعم أنه يعمل في دولة أعضاء سفارتها حاضرون، ينظرون ويسمعون. وكما كان يحدث لي طوال صحبتي له، فقد اختلط الغضب والحرج لدي، باهتمام عقلي بحت، كأنني أرى عملاً فنياً طريفاً يتكشف أمامي، وأريد أن أتابعه إلى نهايته، وأرى إلى أين يصل. وفجأة تحول ذلك المكان في المطار إلى مسرح، وتحولنا نحن جميعاً، أعضاء السفارة القطرية وضابط الجمارك وعدداً من الناس وقفوا يتابعون ما يجري وأنا، إلى ممثلين ثانويين في مهزلة بطلها «منسي».

أصر الموظف على فتح الصندوقين، فقد كان منظرهما يبعث على الشك، خاصة في تلك الأجواء المتوترة، كما اتضح لنا فيما بعد. لعل فيهما سلاحاً. لعل فيهما مخدرات. لعل فيهما مصائب أخرى. من يدري؟ ولما رفع عن كل صندوق غطاؤه، نظرنا فإذا هما مملوءان بثياب نسائية داخلية، من جميع الأشكال والألوان. أخذ الضابط يخرجها، ومع كل رزمة تخرج، أحس بنفسي أزداد غضباً وحرجاً ودهشة. وكان «منسي» أثناء ذلك كله يردد متضاحكاً:

«حاجات بسيطة. شوية هدايا».

الآن أتذكر القصة التي حكاها لنا سعد الدين وهبة في بيته في القاهرة وأفهم سر سلوك «منسي» المريب في المطار وهو يجري من مكان إلى مكان، يهمس في أذن هذا ويوشوش لذاك:

أعيدت الأشياء ورد على كل صندوق غطاؤه. أطرق الضابط زمناً وكأنه فقد القدرة على التفكير وفقد القدرة على الكلام. ورغم أنه لا بد أن يكون قد رأى أعاجيب كثيرة من موقعه ذاك، وكأنه لم ير شيئاً مثل ذلك من قبل. وأخيراً رفع رأسه ونظر إلى الأخوة القطريين وقال بصوت هادئ لا تدري إن كان وراءه غضب أم عجب:

«الأستاذ هيدا من جماعتكم»؟
تمنيت وأنا في حالتي تلك لو قالوا «لا» ولكن أحدهم سارع وقال «نعم».
ولما خرجنا من المطار، قلت لـ«منسي»:
«اسمع. من هنا كل واحد يروح في طريق. والله لا تصاحبني. لا تنزل معي في هوتيل، ولا تعرفني ولا أعرفك».

أنزلني الأخوة القطريون في فندق الـ «هوليدي إن» الذي أحرقته الحرب فيما بعد، كما أحرقت كل الفنادق الكبيرة في تلك المنطقة ـ «الفينيسيا» و«الكازار» و«السان جورج». كان قد أنشئ حديثاً يومذاك. كانت حركة التعمير في بيروت لا تنقطع، تغيب عنها شهراً ثم تعود فإذا هوتيلات وعمارات... كأن أطفالاً شيّدوا قصوراً من الرمال على شاطئ البحر، ثم سئموا، فقوضوها في لحظات.

إنني أعرف جيداً تلك المنطقة بين «الزيتونة» و«عين المريسة». حين كنت أعمل مع هيئة الإذاعة البريطانية، كنت أنتدب للعمل في مكتبهم في بيروت، في «نزلة الداعوق» في شارع فينيسيا الذي ينحدر إلى البحر عند فندق الـ«سان جورج». كان حسن المليجي، ملك عين المريسة، ومحمود نصير رحمة الله، ملك الزيتونة. مصريان نزحا إلى بيروت واستقرا فيها، وكانا ينتجان البرامج لهيئة

الإذاعة البريطانية، وكانت لهما «شنة ورنة» تلك الأيام، وحسن المليجي خاصة حياته أسطورة أكثر عجباً من أسطورة «منسي». تعرفت على بيروت من خلالهما ومن خلال صلاح أحمد الذي كان ملحقاً صحافياً في سفارة السودان.

أقمت معه أول مرة قدمت إلى بيروت، عام ٥٨، في الطابق الثاني عشر في عمارة منقارة، على أطراف الحمراء. أذكر ذلك الصباح جيداً. نظرت إلى المدينة تتأرجح بين الجبل والبحر، تحت ضوء الصباح الحاد الوقع على العين، بعد ضوء لندن الشاحب وسمائها الغائمة. زرقة البحر تمتزج بزرقة السماء تمتزج بأشعة الشمس المنعكسة من سطوح البيوت والعمارات، تمتزج بالخضرة على سفوح الجبال، فكأنك تنظر إلى مدينة وهمية ليست ثابتة تماماً في الزمان والمكان. خليج جونية كأنه على مرمى حجر، وتلك ولا بد، قمة «بسكنتا» حيث اعتكف ميخائيل نعيمة. لقد شددت إليه الرحال فيما بعد. ولعلك إذا دققت النظر ترى قبرص. أنت هنا في مفترق طرق وملتقى حضارات. هذه بلاد «ليديا» و«قديجيا» وبلاد الشام. إلى الغرب «يوروبا» وإلى الجنوب «أفريكا بروفنسيا» وأفريقيا وادي النيل. وإلى الشرق «أرابيا بتريا» و«أرابيا دسيرتا» ديار قحطان وعدنان. ووراء ذلك «مسوبتاميا» أرض بابل وأشور ما بين النهرين. ثم جاءت النصرانية وجاء الإسلام الحنيف بلسان عربي مبين، وقامت أشياء فوق أشياء.

جاءني «منسي» وقت الضحى، سعيداً مبتسماً وكأن شيئاً لم يحدث، وكنت والحق يقال، قد هدأت ثائرتي، وبدت لي حكاية «منسي» في المطار، هينة بالقياس إلى نذر الشر المحتمل. أول ما دخلت الهوتيل في الليلة الماضية، أحسست بنذر الشر، ولاحظت

وجود شبان كثيرين يحملون السلاح وينظرون نظرات شرسة للداخلين والخارجين. ثم جاءني أحمد سعيد محمدية صاحب «دار العودة» فأكد لي أن البلد مقبل على انفجار خطير. أما «منسي» فلم يبد عليه أنه أحس بشيء من ذاك. قال:

«تعرف أنا نزلت في هوتيل لوكس في شارع الحمراء. أصحابه شبان أرمن. أدوني جناح كامل بسعر أرخص من السعر اللي أنت بتدفعه في غرفة هنا... أنت إيه اللي نزلك في الكلام الفارغ دا؟».

قلت له:
«إنت ليك أصحاب في بيروت؟».
«أوه كتير. دول أصحابي من زمان. دايماً أنزل عندهم. شبان زي السكر».

ثم أضاف:
«يا خوي إيه العباطة بتاعتك دي؟ عملت انك زعلان والكلام الفارغ دا. تعرف انك ضيعت على نفسك سهرة حلوة جداً».

كان «منسي» يعطش (الجيم) ولا ينطقها على الطريقة المصرية، ولا يقول (أوي) ولكن يقول (قوي) بلهجة أهل الصعيد.

قال:
«يالا بينا وبلاش الكلام الفارغ دا. أنا حجزت لك جناح زي اللي عندي... حيعجبك الهوتيل... دول شبان زي الحلاوة... نقضي أيام جميلة جداً».

قلت له إنني قررت السفر في ذلك اليوم لأن الحالة متوترة وسوف تحصل مصائب كثيرة.

«يا شيخ بلاش كلام فارغ. البلد عال ومش حتحصل أي حاجة... خليك كمان تلات أيام».

ثم سألته عن الصناديق:
«البلاوي الجبتها من القاهرة عملت فيها إيه؟».
قال ضاحكاً:
«بعتها».
«بعتها؟ مش قلت إنها هدايا؟».
«انت صدقت انها هدايا؟ وحاهدي هدوم نسوان لمين بس؟».

«لعنك الله. الأخوان من السفارة القطرية حيفتكروا إني باشتغل معاك في التهريب».

أسعده جداً أنه أدخلني في ورطة. قلت له:
«دي الصناديق اللي حكى لنا عنها سعد الدين. مش كده؟».
«آه. حاولت أدخلها ما عرفتش».
«ورجعت بيها للقاهرة؟».

«وسبتها في المطار سنة كاملة. ولما لقيتك مسافر لبيروت... وحضرتك قال إيه؟ موظف محترم في دولة قطر، وجايي في مهمة رسمية، قلت والله دي فرصة».

«وعملت انك موظف في حكومة قطر وانك عضو في وفد رسمي».

قال «منسي» وهو يضحك بطريقته العجيبة، كما يفعل حين يظن

أنه نجح في عملية نصب بارعة:

«يا محترم، انت مش واخد بالك. وانا شحنت «البضاعة» من القاهرة إلى بيروت على اسم حضرتك».
«يعني إيه على اسم حضرتي؟».

«يعني يا محترم اني فهمت كل المسؤولين في مطار القاهرة انها بتاعتك... أمال أنت شايفني أجري من هنا لهنا فاكرني بعمل إيه؟».

رغم كل شيء، فإنني لم أملك إلا أن أضحك. قلت له:
«واشمعنى كلها هدوم نسوان؟ وكمان ملابس داخلية...
الله يلعنك. لا بد أنك نصبت على واحد».

«أصل الحكاية أن تاجر يهودي في واشنطن أفلس. كان بيصفي بضاعته. اشتريتها منه تقريباً ببلاش. ما عرفتش أدخلها لا في مصر ولا في الكويت ولا في بيروت. كانوا بيطلبوا جمارك أكتر من تمنها. ولما عترت عليك قلت والله فرجت».

«كسبت فيها كثير؟».
«دول فرحوا بيها قوي... شبان زي الحلاوة... أدوني فيها سعر محترم.. انت عارف انها أصناف غالية... حرير وحاجات حلوة جداً».

قلت له:
«مش انت بتقول إنك رجل ثري وعندك مدرسة لتعليم اللغات

ومطعم وشركة سياحية وبيت في أرقى حي في واشنطن؟».
«انت بتقول حي محترم؟ انت عارف مين جارنا؟ روبرت كندي. دا عيالي بيلعبو مع عياله كل يوم».

«طيب. ما دمت من الأكابر وعيالك أصحاب عيال روبرت كندي، مش عيب عليك تتصرف كأنك شحات؟».

ضحك طويلاً، وضحك بسعادة حقيقية، فقد كان ذلك هو القصد. لقد قام بعمل «وجودي» طريف وجريء، عمل ليس له أي مبرر أو معنى، إلا أنه سوف يصبح أسطورة أخرى في «مثلوجيا» حياته.

تركته في بيروت وأنا مطمئن أنه سوف يدبر أموره بشكل من الأشكال. ولما ارتفعت طائرة خطوط طيران الشرق الأوسط الباسلة في الجو، كانت السماء صافية لا يشوبها غيم، وكان البحر مثل حلم بديع لن ينتهي، وكانت تلك المدينة الرائعة، بكل ما احتوته من أشياء ثمينة وجميلة ونبيلة، تلمع أسقف بيوتها تحت شمس البحر الأبيض المتوسط، تنتظر الزلزال.

٢٣

تركت «منسي» في بيروت يدبر أمره بوجه من الوجوه، في ذلك اليوم من عام خمسة وسبعين، حين بدأت الحرب في ديار لبنان. ولعل وجوده هناك، في ذلك اليوم بالذات، لم يكن بعيداً عن واقع الحال. ألم تكن حياته سلسلة من أعمال «عبثية» تحدث ارتجالاً، بلا معنى ولا مبرر؟ إلا أنها كانت تنتهي نهايات سعيدة، ولا تدوم طويلاً. وهذه الحرب ما معناها؟ لقد طال أمدها وتنوعت مصائبها، وصدق فيها قول زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم

فـتنتـج لـكـم غـلـمـان أشـأم كـلـهـم
كـأحـمـد عـاد ثـم تـرضـع فـتـفـطـم

تبصر يا رعاك الله. أليست هذه الأبيات وبقية أبيات القصيدة، وقد قيلت منذ نحو ثلاثة عشر قرناً، أصدق ما قيل بالعربية في وصف الحرب إلى يومنا هذا؟ ورغم أن الإنسان يعجب بعبقرية الشاعر الذي اختصر كل هذه الأزمنة، إلا أنه أيضاً يحس بالحزن، أن الأمور لم تعتدل منذ أيام عبس وذبيان، رغم كل ما حدث من أحداث، وما جدّ من أفكار، وما أريق من دماء، وما سكب من دموع.

لِمَ لا يتبادر إلى الذهن أن اللبنانيين وحدهم مشعلو حروب، فنحن في السودان، على سبيل المثال لا الحصر، عندنا حرب تدور رحاها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لا تقف حتى تبدأ من جديد، أتت على الأخضر واليابس، وأهلكت الزرع والضرع، وأفنت الشيخ والطفل الرضيع. ولا أحد يدري لماذا بدأت وكيف تنتهي، وفيها من البشاعات والحماقات والأكاذيب، ما في حرب لبنان. وإذا كان في لبنان «غلمان شؤم» كما قال زهير، فغلمان الشؤم عندنا كثيرون. إلا أنني الآن، أتحدث عن بيروت، والشيء بالشيء يذكر، وبيروت عزيزة عليّ مثل الخرطوم، وحزني على مآسي السودان، ليس أكثر من حزني على مآسي لبنان.

وما لي لا أفعل؟ لقد عرفتهم أيام صفوهم فوجدتهم أصفياء كرماء أوفياء. وظلوا صامدين يتحملون في صبر طوال هذه السنوات التعيسة، مستشفياتهم تستقبل الضحايا تحت وابل القنابل، وطائراتهم تجوب الآفاق، ما إن يكف الضرب حتى يفتح المطار وتصعد

الطائرات وتهبط، وصحفهم تطلع في أوانها، ومكتباتهم ملأى بالكتب، ومطابعهم تعمل بكفاءة ومصانعهم تنتج. ما إن تصمت المدافع حتى تفتح المحلات التجارية، ويخرج الناس إلى الشوارع، بين ركام العمارات المهدمة، يتحدّون بنوازع الخير والحياة الكامنة في طبعهم، قوى الشر والموت. هؤلاء هم أهل لبنان «العاديون» وهم الأكثرية، وقد حركت الحرب فيهم، عواطف التراحم والتضحية والنبل، بقدر ما ساقت من بشاعات، ولولاهم لما بقي شيء يتقاتل عليه الزعماء. كذلك في السودان، لولا طيبة الناس «العاديين» وإنسانيتهم وحكمتهم، لتمزق السودان مزقاً مثل ثوب قديم مهلهل، ولقضت حماقات الزعماء على البقية الباقية منه إلى غير رجعة.

لذلك لم أنقطع عن بيروت، أزورها كل عام أو عامين أو ثلاثة، طوال سنوات الحرب، مثل الشعراء الأوائل، كل واحد منهم مشدود إلى طلل. وفي كل مرة أجد شيئاً قد تحطم... مطعماً ألفته، أو مقهى جلست فيه إلى ناس أعزاء، أو فندقاً نزلت فيه... كل ذلك الحي، بكل تلك الذكريات، قد احترق. مكتب الـB.B.C، الذي كان ملتقى الأدباء والشعراء والصحافيين والأكاديميين ورجال الدين ورجال السياسة... ودار حسن المليجي التي كانت منتدى عامراً، وشرفة دار محمود نصير «ملك الزيتونة»، حيث جلسنا ليالي نشرف من على المدينة، وننظر إلى البحر، ونراقب الطائرات تمر أمامنا رائحة غادية... دار «شعر» على الجانب الآخر لشارع فينيسيا قبالة مكتب الـB.B.C. كنت حين أمل العمل، أذهب إلى يوسف الخال أقضي معه الساعة والساعتين. كان إنساناً رائعاً وسواء اتفقت معه أو اختلفت، فإنك لم تكن تملك إلا أن تحبه. ولم تكن أفكاره التي أثارت بعض الناس ضده، من قبيل الشعوبية والتعصب، ولكنها كانت من نتاج قريحته المتوقدة، وطبيعته المغرمة بالابتكار والإثارة...

كل ذلك، وأكثر منه قد احترق.

أول ما نشر لي نشر في بيروت، وأول ما عرفت عرفت في بيروت. وقد رأيت جبالاً وثلوجاً وبحاراً ومدناً أكبر وعوالم أرحب، لكن هذه المدينة كأن بيني وبينها وشائج من عهد غابر. ومثلي كثيرون. هذه مدينة تعيش في قلوب ناس كثيرين. لقد بكت عليها غادة السمان، خنساء هذا العصر، فأحسنت البكاء. ورثاها بلند الحيدري فأحسن الرثاء. ورثاها نزار قباني وسمير عطا الله ومحمد الفيتوري وأدونيس ومحمود درويش وآخرون. وكتبت عنها خالدة سعيد مقالات مدهشة في مجلة «المجلة». ولا بد أن ما هدمه الحقد، سوف تبنيه «المحبة» من جديد. كل هذا الحب لا يمكن أن يذهب سدى.

وبعد... لعل ذلك البصيص من الضوء يبشر بمطلع الفجر. ها قد هيأ الله سبحانه وتعالى، رجالاً أولي عزم ومروءة وأريحية، مثل الحارث بن عوف وهرم بن سنان، يحملون ديات القتلى، ويضمدون الجراح، ويجففون الدموع من عيون الثواكل والأيتام. ولعل بركات تلك البقعة المباركة قد حلت على الرجال المجتمعين في «الطائف» فحنت القلوب وثابت العقول. وعسى أن يجيء شاعر عبقري مثل زهير، يوفي هذه الحرب حقها من الهجاء والرثاء، ويوفي أولئك النفر الكرام حقهم من الثناء. من قال إن المديح مبتذل في الشعر؟ ثمة أعمال أريحية، تقتضي شعراً أريحياً. وقبلاً قال المتنبي العظيم:

شاعر المجد صنوه شاعر اللفظ

كلانا رب المعاني الدقاق

٢٤

وصلت «سيدني» ليلاً، وكانت من الجو مثل أغلب المدن، مساحات من الضوء تتسع أو تضيق. هذه على هضبة، وهذه في واد، وهذه على ضفة نهر، وهذه على شاطئ بحر. مدن تبدو لي حين تجيئها ليلاً، كأنها معلقة بين السماء والأرض، بين الظلام والظلام، شيء يبعث على الأسى. الإنسان، هذا المخلوق القوي الضعيف، الغني الفقير، يبذل جهداً يائساً ليؤكد ذاته وسط وحشة الكون. وذلكم إحساس ظل يلح على شيخنا الجليل، أبي العلاء.

عوى في ظلام الليل عاف لعله
يجاب وأنى والديار عوافي
صوافن خيل عند باب مملك
جمعن وما أيامه بصوافي

ها هنا مساحة شاسعة من الضوء على شاطئ بحر. كنت قد تركت

«الدوحة» في عز الصيف، ونسيت أن الصيف في الدوحة شتاء في سيدني، وفي عز الصيف، من يذكر الشتاء؟ لذلك لم آخذ للبرد عدته. فوصلت في شتاء زمهرير. وأيضاً شعرت بالوحشة، رغم أنني أخو سفر، عاشق ترحال. كأنني شعرت أنني ابتعدت جداً هذه المرة عن العالم الذي ألفته. والشرق غرب والجنوب شمال، ولا بد من إحداث قفزة كبيرة في بيداء الخيال. أوه، وأين وادي هور ووادي الخزامى ووادي العقيق من هذه الأصقاع؟ ولم أكن أعرف أحداً. ولم يستقبلني أحد في المطار، ومع ذلك سمح لي مسؤول الجوازات بالدخول في أقل من دقيقة. لا أذكر أنه قلب صفحات الجواز، أو تأكد من وجود الـ«فيزا». فقط نظر إلى الجواز ونظر إليّ ثم تمنى لي إقامة سعيدة. وقد عجبت لذلك، نظراً لما حدث من سفارتهم في دلهي، ولولا سعة حيلة «منسي» لعلني لم أكن لأجيء هنا أصلاً.

قلت أذهب إلى الـ«هلتون» فلم أكن قد حجزت مسبقاً، فهذه الفنادق التي أقامها مستر هلتون كصرح «حضاري» يخلد ذكراه، هي هي أينما حللت. السعر يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، والغرفة تكبر قليلاً أو تصغر قليلاً، وبوسعك أن تدخلها وأنت مغمض العينين، فتعرف أين الحمام، وأين خزانة الثياب، وأين السرير. وقد جمع مستر هلتون، كما يفعل الأمريكان، بين الدنيا والدين، فوضع في كل غرفة من غرف فنادقه المنتشرة في كل أنحاء العالم، إنجيلاً، فضمن بذلك، كما ظن، ملايين الدنيا وثواب الآخرة. الحمد لله، بدأت تجد الآن في بعض فنادق المسلمين، مصحفاً شريفاً، وسهماً يدلك أين القبلة.

سألني موظف الاستقبال هل عندي حجز، فقلت له دون تفكير «نعم». نظر فوجد اسمي، يا للعجب، وقال:

«نعم. يوجد حجز باسمك. أنت موظف في الشركة العالمية للسياحة، أليس كذلك؟».

لا حول ولا قوة إلا بالله. إذاً «منسي» في المدينة.

كنت قد ضقت به ذرعاً في «دلهي» كما كان يحدث أحياناً، ونحن نضيق ذرعاً حتى بمن نحب، وكان يريد أن نسافر إلى «سيدني» عن طريق «بومباي»، وكنت أنا قد عزمت أن أذهب عن طريق «بانجكوك» وهو الطريق الأقصر، فافترقنا، سافر هو في طريق وأنا في طريق، وقلت لعل الطرق تذهب به وجهة أخرى، وأتفرغ أنا للمهمة التي كلفتني بها دولة قطر، دون أن أشغل نفسي بعبث «منسي» وابتكاراته. لكنني الآن سعيد أنه موجود في «سيدني»، إن لك صديقاً في تلك المدينة الغريبة في ذلك العالم البعيد. واتضح لي فيما بعد، أن وجوده كان خيراً وبركة، فقد كان لي نعم الرفيق وأيضاً نعم المعين. ومع ذلك فقد استكثرت أن أكون عاملاً في شركة «منسي» العالمية للسياحة. قلت لموظف الاستقبال:

«أنا في الواقع أعمل في حكومة قطر وليس في الشركة العالمية للسياحة».

قال الموظف «آه»، ولم أفهم إلا فيما بعد، لماذا قال «آه» بتلك الطريقة. جاءني «منسي» بعد منتصف النهار، بعد أن نمت وصحوت على مهل، وكان رغم كل شيء، إنساناً مهذباً، لا يثقل عليك، إلا أحياناً، وإذا شعر أنك تريد أن تخلو إلى نفسك يتركك وشأنك. قال، أول ما فتحت له الباب، دون تحية، كأننا لم نفترق

في «دلهي»:

«إيه يا خوي العباطة بتاعتك دي؟»
«إيه؟».

«إيه حكاية انك موظف في حكومة قطر دي؟ وانا قايل لهم انك موظف في الشركة بتاعتنا».
«طيب ما هي دي الحقيقة».

«أنت عارف بالهباله بتاعتك ضيعت على نفسك قد إيه؟ خمسين في المايه. إحنا كشركة سياحية بناخذ خصم خمسين في المائة في الهوتيلات».

«يا أخي أنا موفد من دولة في مهمة رسمية. يعني عاوزني اجي آخر الدنيا وعشان أوفر شوية دولارات أكذب على الناس؟ وكمان أكون موظف مع مين؟ مع شركة سياحة فالصو ما حد سمع بيها».

«طيب يا سيدي. خليك زي ما انت. حتفضل طول عمرك مغفل. عامل انك ما تكذبش والكلام الفارغ دا. آه. ولا قول لي.. انت لازم معاك فلوس كتير.. أنا نسيت انك بتشتغل مع الجماعة بتوع البترول».

لسوء حظي، كما اكتشفت بعد ذلك، أن «منسي» ظن بالفعل أنني أحمل مالاً كثيراً، لأنني أعمل في دولة بترولية، فكان يستضيف الناس في الهوتيل، ويوقع الفواتير على رقم غرفتي، هذه الألاعيب الصغيرة كانت تسعده جداً. أيام كنا معاً في لندن، كان يدخل

كافيتريا الـ بي بي سي (B. B. C) ويأخذ ما يشاء من أطعمة، ثم يذهب ويجلس دون أن يدفع. يفعل ذلك ليس خلسة ولكن عياناً بياناً، كأنه حق من حقوقه. ولما عاد من أمريكا واستقر في «عزبته» في جنوب إنجلترا، قضينا معه «ويك إند» أنا وعائلتي، فاحتفى بنا، كعادته، ولم يأل جهداً في إكرامنا. ولما أوصلنا إلى محطة السكة الحديد لنعود إلى لندن، لاحظت أنه أخذ يمازح الحارس على الباب، ثم غافله وتسلل دون أن يدفع ثمن تذكرة الرصيف، وهو ليس أكثر من بضعة «شلنات». قلت له:

الله يلعنك. أنت مهما تغتني تفضل برضك شحات».
أضحكه ذلك جداً، فقد كان يفعل تلك الأشياء بحكم دافع طفولي للضحك، ليس أكثر.

سألته الآن، ونحن في فندق «هلتون» في «سيدني»:
«كيف عرفت موعد وصولي؟»
قال ضاحكاً، لسبب سوف تعرفونه فيما بعد:
«ما هو أصله صديقي «درقا» اداني تفاصيل رحلاتك».
«طيب وكيف تأكدت اني حأنزل في الهوتيل بالذات»؟

«تليباثي ـ حاسة سادسة»، أنا كنت متأكد انك حتنزل في الهوتيل دا، أنت ما تعرفش الحكاية دي؟ أني باعرف الحاجات قبل ما تحصل؟ وعلى أي حال لو كنت نزلت في هوتيل ثاني، كنت أدور عليك وألاقيك. يعني حتروح فين»؟

٢٥

وأنا أتأهب للسفر إلى «دلهي» كلمني «منسي» من لندن. كان عصر يوم جمعة، ولم أكن سمعت منه منذ أشهر:

ـ اسمع يا طيب. أنا حامرّ عليك بكرة آخذ معاك كم يوم ومن هناك أسافر للرياض.
ـ بكرة أنا مش حاكون موجود في الدوحة لأني مسافر.
ـ على فين؟
ـ على دلهي.
ـ وعندك إيه في دلهي؟
ـ مسافر في مهمة.
ـ لا يا شيخ؟ طب اسمع. والله دي فكرة كويسة، إيه رأيك أجي معاك؟ أصلي أنا ما زرتش الهند قبل كده.
ـ يا ابني أنا مش مسافر من لندن إلى أكسفورد أو أدنبرة.. بقول

لك أنا مسافر إلى دلهي ومنها إلى سيدني، ومنها إلى طوكيو. ورايح في مهمة رسمية، يعني شغل، مش رايح اتفسح.

ـ طب وماله؟ دي حتكون رحلة ظريفة جداً، انت تعمل شغلك وبرضه نتفسح ونضحك ونتفرج ع الدنيا، يا للا بلاش غلبة، أنا خلاص قررت أجي معاك، بس انت اديني تفاصيل الرحلة.

ـ يا ابني أنا مسافر بكرة صباحاً الساعة سبعة ودلوقت الساعة أربعة، ايمتى حتحصل تعمل الحجز؟

ـ قلت الساعة سبعة؟ آه، دي طيارة الـB.A.. أنا كنت حاجز على طيران الخليج، لا دي بسيطة. أنت نسيت اني عندي شرطة سياحة؟ خلاص. بكرة حتلاقيني في المطار، دي حتكون رحلة عظيمة جداً.

كان يمر على الدوحة بين الحين والآخر في سفراته من الرياض وإليها، فقد كانت له فيها أعمال تجارية ثم تزوج هناك وأصبح له في الرياض زوجة ودار. استقبلته ذات مرة في مطار الدوحة، فإذا هو قد تزين بزي عربي، ولم أكن قد رأيته على تلك الهيئة من قبل.. عباءة و«دشداشة» و«غطرة» وعقال، وله لحية صغيرة على شكل مثلث و«عنفقة»، وليس له شارب، بدا لي كأنه «خواجا» يمثل دور عربي في فيلم أمريكي. حجزه موظف الجوازات، فذهبت أسأله قال:

ـ هادا الرجال يحمل جواز سفر أمريكي واسمه مايكل ما أدري إيش، وهيئته عربي ويتكلم عربي ويقول إنه مسلم، إيش هادا؟ هذا

لازم جاسوس.

كان «منسي» سعيداً جداً بذلك الوضع المحير، مستغرقاً في الضحك. قلت للشاب القطري.

ـ يا ابني هذا ليس جاسوساً، هذا بلوى أكبر، أرجوك دعه يدخل على مسؤوليتي.

لحسن الحظ أعدت ضحكة «منسي» العجيبة التي تقول إن صاحبها لا يمكن أن يخبئ سراً أو يضمر شراً، أعدت الشاب القطري، فأخذ يضحك هو الآخر. أذن له بالدخول ولكنه احتفظ بالجواز من باب الاحتياط.

انتهت المكالمة التلفونية وأنا بين مصدق ومكذب وفي صباح اليوم التالي في الساعة السابعة دخلت الطائرة فإذا ثمة صاحبي بعينه. لا بد أنه نام طول الطريق من لندن واستيقظ نشطاً كعادته. يقال إن نابليون كانت عنده هذه الموهبة. ينام في أي وقت وفي أي مكان، وأحياناً ينام لبضع دقائق ويصحو فكأنه نام ساعات. وإذا كانت العبقرية تقاس بسهولة النوم، فإنني أشهد أن «منسي» كان عبقرياً. نام في صحن الحرم المكي الشريف بين صلاة المغرب والعشاء، والناس في زحام وتهليل وتكبير. كان ذلك في عمرتي الأولى، وقد زاملني فيها. وكان معنا شاب من الحرس الوطني السعودي، فنكون في الشوط الخامس في السعي، و«منسي» ما يزال يتلكأ في الشوط الثاني. نمر عليه فنجده قد ضل الطريق فنوجهه وجهة الصفا أو المروة، ثم نعود إليه فإذا هو قد تاه مرة أخرى. ولما قضى سعيه بعد لأي، نام نوماً عميقاً وكأنه في داره وفي غرفة نومه، إلى أن نبهناه

لنعود إلى جدة، قلت له:

ـ الله يخيبك، هل هذا مكان ينام فيه الإنسان؟

قال:

ـ ما هو أصلي أنا ماليش ذنوب. عشان كده نمت لأني مرتاح الضمير.

أسعدته الدهشة على وجهي، وكان قد حجز لي المقعد المجاور له، لم يقف ليحييني ولكنه أخذ يملس كرشه بيديه وينظر حوله كأنه يريد أن يشهد جمهوراً غير مرئي على المعجزة الجديدة التي أنجزها.

ـ شايف يا ابني ازاي؟ أنت ما تخيلتش اني حاقدر اعمل الحكاية دي، مش كده؟ دا أنا قلبت الدنيا، عملت اللي ما يعمل عشان اغير الحجز.

بعد ذلك «دوشني» بالثرثرة إلى أن وصلنا دلهي، فأضاع عليّ تلك المتعة الخاصة التي أجدها في لقاء مدينة جديدة عليّ من الجو، أن أقدم على مدينة لا أعرفها، في وضح النهار، أراها من الطائرة على كامل هيئتها مثل نموذج مصغر. بجبالها إذا كان لها جبال، وصحرائها إذا كانت وسط صحراء، ونهرها إذا كانت على نهر. ولعل تلك هي الصورة التي تعلق في الذهن، بعد أن ينسى الإنسان أسماء الشوارع وأشكال المباني وزحمة الناس والسيارات.

أنِسَ له الدكتور حسن نعمة سفير قطر، وابراهيم طه أيوب سفير السودان، وألفاه كأنهما يعرفانه من زمن، فأسعده المكان وطابت له الحياة. وكان «منسي» رحمه الله، على ذكائه وسعة تجربته، فيه براءة الطفل. حين يحسن أنه محبوب ومقبول، يكون في أحسن

حالاته، فتصفو روحه ويشرق ذهنه وتتأجج طاقة المرح الساكنة أصلاً غير بعيد في طبعه.

كذلك كلف به «درقا» الموظف الهندي الذي كلفه السفير القطري بتنظيم مقابلاتي وتنقلاتي. ولكنه أخذ بـ«منسي» وانصرف له كلية.

الدكتور حسن نعمة الذي ما يزال سفيراً لدولة قطر في «دلهي» إنسان لا تجد مثله كثيرين. نال درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة «كيمبردج» واختارته دولة قطر سفيراً لها في الهند منذ ما يربو عن عشر سنوات، فأحب الهند وعشق فنونها وآدابها وحضاراتها فطاب له المقام فيها. وكانوا كلما أرادوا أن ينقلوه إلى دولة أخرى، يهرع إلى الدوحة راجياً أن يتركوه حيث هو، فيتركونه. وهذه من حسنات دولة قطر، وأنا أشهد عن تجربة أنها دولة كثيرة الحسنات، إذا وجدت أن سفيراً ارتاح في بلد، لا تنغص عيشه بالنقل. وقد تركتْ صديقنا عبد الله الجيدة في الرباط عقداً من الزمان.

هذا، وقد عاشر حسن نعمة السودانيين في «كيمبردج» وفي «الدوحة» فحفظ شعر الحردَلّو الكبير والتجاني يوسف بشير. يقول لك حين تلقاه «يا زول. أنا راقد قفى وأمدخ المصطفى». والسوداني

حين يقول ذلك، فمعناه أن الحياة قد طابت له خصوصاً، فيجيش خاطره بمدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

لم تكن هذه الصورة بعيدة عن حال الدكتور حسن نعمة حين لقيناه، «منسي» وأنا، في دلهي، وجدنا له داراً جميلة رحبة مبنية على طراز إسلامي مغولي مع مسحة من الطراز الإنجليزي في عهد الـ«راج» (Raj). وللدار باحة واسعة مُعشبة ترعى فيها أبقار تدرّ له اللّبن غريضاً. وكان يعيش حياة بسيطة متقشفة، طعامه اللّبن الرائب في الغالب. وكان كثير السفر، طاف الهند شرقاً وغرباً، ودرس موسيقاها وفنونها وعمارتها وآدابها. وهو إلى ذلك شاعر مجيد وراوية للشعر العربي قديمه وحديثه. ومغرم بصفة خاصة بالشعراء المسلمين «الميتافيزيقيين» أمثال جلال الدين الرومي وابن الفارض والشيرازي وسعدي. لذلك لم يكن عسيراً عليه أن يجد لـ«منسي» مكاناً في تلك الآفاق الرحبة التي يعيش فيها، فتألّفا دون مشقة.

كذلك أنِسَ لـ«منسي» سفير السودان، إبراهيم طه أيوب. فهو من «الحلفاويين» كما نقول، نسبة إلى «وادي حلفا»، وهؤلاء قوم يعتبرهم المؤرخون أعرق شعوب وادي النيل، وكانت ديارهم تمتد من جنوب مصر إلى شمال السودان، مكوّنة ميثاقاً من لُحمة جسدية بين البلدين. إلى أن أغرقت مياه السد العالي ديارهم، فنُقِلَ سكان الجانب المصري إلى أطراف الصعيد، وأجليَ الذين في الجانب السوداني إلى أرض البُطانة في الشرق. الله أعلم أيهما أفضل، أن لو بقيت تلك الرّحم موصولة، أو أن تكسب مصر مزيداً من الماء ومزيداً من الكهرباء!

وهم قوم اشتهر عنهم في شطري وادي النيل، أنهم أهل نزاهة

واستقامة وجرأة في الحق، ونوع من القول الساحر الذي يلقونه بشكل عفوي. وفوق ذلك فهم أهل دراسة وصُنّاع دول. فقد كان منهم سدنة المعابد الفرعونية من قديم، وفي دمهم الإخلاص للرمز والتفاني في خدمة «المؤسسة». وحين جاءهم العرب بالإسلام الحنيف، قبلوه سلماً لا حرباً، لأنهم رأوا لأول وهلة أنه الحق ومنهم على الأرجح «بلال» مؤذن الرسول... ومنهم في تاريخ السودان الحديث جمال محمد أحمد، أحد المفكرين المعدودين بين عُدوتي الوادي والذي لم ينل حظه كما يجب، رغم أنه صار سفيراً ووزيراً. ومنهم إبراهيم أحمد، أحد رواد الحركة الوطنية وأحد المؤسسين لجامعة الخرطوم. ومنهم داءود عبد اللطيف الذي كان محافظاً ثم وزيراً، وكان من الأكفاء ومن مشاهير الأذكياء الظرفاء في السودان. ومنهم محمد نور الدين، من الرواد الأولين، ومن مؤسسي الحزب الوطني الاتحادي، وكان يدعو صراحة إلى وحدة اندماجية بين مصر والسودان.

يحكى أن محمد نور الدين كانت تربطه صداقة قوية بعبد الله خليل، الذي كان على النقيض تماماً في فكره السياسي، فقد كان من قادة حزب الأمة وصار رئيساً للوزارة في أول حكومة لحزب الأمة. وكانا فقيرين شأن كل الزعماء تلك الأيام. علم السيد عبد الرحمن المهدي أنهما في ضائقة، فكلف أحد معاونيه أن يحمل مبلغاً من المال لكل واحد منهما. ذهب الرجل أولاً إلى عبد الله خليل، ولما أعطاه المال، قال له:

«محمد نور الدين أكثر حاجة مني فاذهب بالمال إليه».

قال له الرجل «خذ المال فإن السيد أرسل مثله لمحمد نور الدين». ثم

ذهب الرجل إلى محمد نور الدين، ولما أعطاه الهدية، قال له:

«عبد الله خليل أحوج مني فخذه إليه». فأفهمه ان السيد قد أرسل مبلغاً مثله لعبد الله خليل. ولما جاء إلى السيد عبد الرحمن المهدي، عليهم جميعاً رحمة الله، وقصّ عليه القصة، بكى...

جمعتني الظروف صدفة في عمّان بالأردن منذ عامين، بأحمد المهدي، وهو ابن السيد عبد الرحمن المهدي وعم الصادق المهدي، وكنت قد عرفته في إنجلترا حين كان يدرس في جامعة «أكسفورد»، ثم عملت معه فترة قصيرة لما كان وزيراً للإعلام في حكومة الصادق المهدي الأولى عام ستة وستين، وهو من جيلي وبيني وبينه مودة. سألته عن صحة هذه القصة فأكدها لي، وقال:

«سوف أقص عليك ما هو أعجب منها. حل وفد من الحزب الشيوعي السوفياتي ضيفاً على الحزب الشيوعي السوداني. ولما سمع السيد عبد الرحمن المهدي، نادى عبد الخالق محجوب أمين عام الحزب الشيوعي السوداني، وكان يحدب عليه ويعامله كابنه لأنه كان صديقاً لوالده، وقال له:

«يا عبد الخالق، أنا سمعت أن الشيوعيين الروس نزلوا ضيوفاً عليكم، وانا أعرف أن حزبكم ما عنده قدرة ضيافتهم وإكرامهم. نحن يهمنا أن يأخذوا فكرة طيبة عن السودان وأن الشيوعيين في السودان ناس كرماء يقومون بواجب الضيف. كيف أنتو ماشيين تكرموهم؟».

أجابه عبد الخالق محجوب:

«والله يا سيد نحن ما فكرنا في الموضوع دا... نكرمهم على قدر قدرتنا. يمكن نعمل لهم حفلة شاي».

فقال له السيد عبد الرحمن:
«أبداً. حفلة الشاي مش كفاية. تعزموهم كلهم للعشاء هنا. نعمل لهم عشاء كبير عندي هنا».

وهكذا اجتمع الشيوعيون، سودانيون وبلشفيك، على مائدة السيد عبد الرحمن المهدي رجل الدين وإمام طائفة الأنصار، وراعي حزب الأمة... أولئك رجال من أمة قد خلت. رحمهم الله رحمة واسعة.

ذلك، ومن قوم إبراهيم طه أيوب أيضاً، محمد توفيق أحد أركان الحزب الاتحادي الديموقراطي، وكان وزيراً للخارجية في حكومة الصادق المهدي بعد انتفاضة رجب المباركة، وهو الآن في السجن. وذلك من عجائب السودان، أنه لا يمر عليه وقت إلا وتجد فيه زعماء يحكمون، ولهم نظراء داخل السجون، كأن هذا العراء الشاسع لا يتسع لهم جميعاً في وقت واحد. ومن الأماني العزيزة قبل أن يغادر الإنسان هذه الحياة الدنيا، والعمر مثل ظل الضحى أخذ يتقاصر، وذلك الأفق الذي كان يبدو بعيداً أخذ يدنو، أن يرى زماناً يكون الناس فيه كلهم طلقاء، ولا يكون داخل السجون إلا القتلة الحقيقيون واللصوص الحقيقيون.

كان إبراهيم طه أيوب، الذي تقلبت به الأحوال بعد ذلك، ذكياً، فأحب في «منسي» ذكاءه، وكان ضحوكاً فأحب في «منسي» ميله للضحك، وكان طريفاً، فوجد إنساناً لم ير أحداً على شاكلته من قبل.

هذا، ونحن في دار الدكتور حسن نعمة في «دلهي» صيف عام ثمانين وتسعمائة وألف. والليلُ ساكن إلا من عازف ينقر على الـ«سيتار» تلك الألحان الهندية الحزينة التي تمزّق نياط القلب. وقد كان القلب خالياً لم يتنور بعد نارهم من واء أزرعات، ولا انبرى له الطيف الذي أقضّ مضجع البحتري:

ألم تـرَ لـلـبـرق كـيـف انـبـرى
وطـيـفِ الـبـخـيـلـةِ كـيـف احـتـضـرْ
خـيـالٌ ألمَّ لـهـا مـن «سُـوى»
ونـحـن هـجـودٌ عـلـى «بَـطْـن مَـرّ»

انتبهت في «دلهي» إلى صفة أخرى في «منسي» لم ألحظها من قبل. كان مثل بعض الحيوانات التي وهبتها الطبيعة قدرة التكيف الجسدي، حسب البيئة التي تسكنها. فإذا عاشت في خضرة وزرع، يصبح لونها أخضر. وإذا عاشت في الرمل، يتلون جسمها بلون الرمل. طبعه لم يكن متقلباً. أبداً. كان دائماً على سجيته في كل الأحوال. لكنني نظرت إليه في الهند. فإذا هو «هندي» بالمعنى الجسماني. اكتسى جسمه لوناً أعمق سُمرة، أو هكذا خُيّل لي، وبدا لي شعر رأسه، أو ما بقي منه، مثل شعر الهنود. تناغمت خلجات وجهه وحركات يديه مع تواتر حركات الهنود. وكان يعرف بضع جمل من اللغة الهندية مثل لغات كثيرة لم يكن يعرف إلا جملاً منها، يستعملها بطريقة توحي أنه ضليع فيها. أضف إلى ذلك موهبته في رفع الكلفة وتخطي الحواجز، وتعاطفه المتأصل مع الضعفاء وصغار الناس. لا عجب إذاً، أن «دُرقا» أقبل عليه كأنه

يعرفه من زمن، وانصرف له كليّة. يكون عندي موعد مع مسؤول في الدولة، فأنا لم أجئ سائحاً، وإنما جئت في عمل، فلا أجد السيّارة، ولا أجد «درقا» وأذهب إلى موعدي في سيارة أجرة. وأسأل «درقا» فيما بعد:

«أين كنت يا «درقا؟»».

فيقول:
«كنت مع الدكتور أحمد».

وصرت أحياناً أضطر إلى اصطحاب «منسي» إلى مقابلاتي، حتى أضمن السيارة.

لو أن دولة قطر كانت تعلم أن «منسي» سوف يصبح طرفاً في هذه القضية، فلعلها كانت تعدل عن عزمها، أو تكلّف شخصاً غيري بتلك المهمّة. لقد أخذت قطر قرارات مؤتمرات وزراء الإعلام مأخذ الجد، وكل الكلام عن صورة العرب المشوهة في العالم، وانبرت، نيابة عن الدول العربية، لدراسة إمكان إنشاء مؤسسة إعلامية كبرى، على نمط المؤسسات العالمية الكبيرة، مثل مؤسسة فورد وروكفلر والمجلس البريطاني ومؤسسة جوته الألمانية، والمؤسسات الثقافية والإعلامية في فرنسا والسويد واليابان. وكان الهدف، أن تقوم هذه المؤسسة العربية بتمويل ضخم، من الدول العربية البترولية خاصة، وتنطلق في العمل في آفاق الإعلام الرحبة والثقافة والفكر والفن، ناقلة حضارة العرب بكل ثرائها وتنوعها، في ماضيها وحاضرها، إلى شتى أرجاء المعمورة. بمعنى آخر، أن يصبح العرب مشاركين فاعلين في سوق الأفكار المطروحة في العالم، ومساهمين بما عندهم

في «مائدة» الحضارة الإنسانية، بدل أن يكونوا عالة على الآخرين، يأخذون ولا يعطون. تصوّر أيّ حلم رائع لو أنه تحقق. وكان القصد أيضاً أن تكون هذه المؤسسة مستقلة تماماً، تتحرك بلا قيود ولا حدود في إطار الهدف السامي المتفق عليه أصلاً. ولا بد لي من القول، إحقاقاً للحق، إن سمو أمير دولة قطر تحمس لهذه الفكرة حماسة بالغة، وأيدها تأييداً مطلقاً.

وهكذا اختارت دولة قطر رجل الإعلام الكبير، الأستاذ محمود الشريف، وقد كان مديراً لوزارة الإعلام القطرية قَبْلي، ليسافر إلى أمريكا، وانتدبتني لأسافر للهند وأستراليا واليابان وبعض دول أوروبا الغربية. وقد كلفنا بأن نتعرّف على «الصورة العربية» في تلك البلاد، ونلم بأنماط المؤسسات التي على غرار المؤسسة العربية المرجوة. وقد رأينا عجباً. وئد الحلم الجميل في مهده لسوء الحظ، ولم ترتفع الهمم إلى مستوى الطموح النبيل. إلا أنني شخصياً استفدت فائدة لا تقدر بثمن، وقد كانت تلك عارفة أسدتها إليّ دولة قطر، فلولاها لما أتيح لي أن أزور تلك البلاد البعيدة، وأتعرف على تلك العوالم الغريبة.

وصلنا «دلهي» في اليوم الذي مات فيه «سانجي غاندي» الابن الأكبر لرئيسة الوزراء. إذ سقطت به طائرته، وكانت تعده ليخلفها في الحكم. وكان شاباً مغامراً جريئاً، يثير حباً عميقاً لدى بعض الناس، وكراهية مريرة لدى البعض الآخر، فوجدنا أغلب الهنود حزانى لمصرعه، وقلة من الشامتين. وقد حزن الدكتور حسن نعمة، سفير دولة قطر، حزناً عميقاً، فقد كان صديقاً لـ «سانجي» ومعجباً به، ويؤمل فيه خيراً كثيراً في مساندة قضايا العرب.

لم تكن الهند غريبة عليّ، فقد قرأت شعر رابندرانات طاغور وسيرة حياة غاندي وسيرة نهرو وشاهدت أفلام المخرج الهندي الموهوب «سَتَاجِتْ رُويْ» وشغفت حباً بموسيقى «رافي شانكار» واستمعت إلى نهرو الفذ عن قرب، يتحدث في نيويورك عام ستين. وكنا في السودان ونحن طلبة في المدارس الثانوية أواخر الأربعينيات، نعجب بأفكار المهاتما غاندي، ونتابع باهتمام مسيرة كفاح الهند ضد الاستعمار البريطاني. بل إن ظهور مؤتمر الخريجين في السودان كمنطلق للعمل الوطني، كان متأثراً إلى حد كبير بحركة المؤتمر الهندي. كنا نعرف أسماء زعماء الهند، ونعرف جغرافيتها وتاريخها وتستهوينا أسماء مدنها، ونحفظ قصيدة شوقي التي حيّا فيها غاندي وهو في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن:

سلام النيل يا غاندي
وهاك الزهر من عندي
سلام حالب الشاةِ
سلام ناسج البرد

وكنا نطرب بصفة خاصة لقول أمير الشعراء:

وقل هاتوا أفاعيكم
أتى الحاوي من الهند

كنا نحس، أن هذا الرجل النحيل، العاري الجسم إلا من أزار من القطن، نسجه بيديه، ينطوي على معنى جسيم يؤجج خيالنا، كنا قد قرأنا عنه في الكتب في سير المسلمين الأوائل، ولم نره مجسماً

أمام عيوننا من قبل، اللهم إلا عند قلة من النسّاك والزهّاد.

هذا، وكانت بين السودان والهند علاقة بحكم الاستعمار البريطاني للبلدين، في أساليب الحكم والإدارة والتعليم وتخطيط المدن. وكان يفد علينا أحياناً بريطانيون عملوا في الهند، أذكر منهم ضابطاً في الجيش، يدعى كولونيل أكستر، جاء يعلمنا اللغة الإنجليزية. فرض علينا كتاباً كان بعيداً عن مداركنا في تلك السن المبكرة، وقد عرفت بعد ذلك بسنوات أنه من روائع الأدب الإنجليزي، وهو كتاب «مذكرات صائد ثعالب» للكاتب الكبير «سيقفريد ساسون». استسخفنا الكتاب، وقلنا ما لنا ولصيد الثعالب وطلبنا من أستاذنا الكولونيل ان يستبدل به كتاباً آخر. لكنه استشاط غضباً، وقرّعنا بلهجة قاسية متعالية لم نتعود عليها. ولما عاد إلينا في اليوم التالي، وجد أننا قد صففنا له نسخ الكتاب علي منضدته، وجلسنا صامتين، علت الدهشة وجهه ثم صرخ غاضباً:

«ما معنى هذا؟».
لم يردّ عليه أحد منا، وظللنا ننظر إليه في صمت.

لم يقصر في شتمنا، وقال إننا «همج» لا تجدي فينا تربية ولا تعليم، ثم خرج. ولما علم ناظر المدرسة بما حدث، وكان اسكتلندياً فاضلاً يدعى «مستر لانج» وكان محباً للسودان، عليماً بطبائع أهله، كفانا مشقة الكولونيل، فأعادوه إلى بلاده في غضون أسبوع.

كان ذلك أول عمل من أعمال «المقاومة السلمية» نقوم به، ونحن بعد أيفاع لم نبلغ العشرين. ولم يكن ذلك بوحي من فلسفة المهاتما غاندي، فذلك في طبعنا ومزاج شعبنا، أن نقاوم الغطرسة والتسلط

بالاحتقار والصمت. ثم إذا فاض الكيل وعيل الصبر، نهبّ فجأة، كما يفيض نهر النيل وتهب الأعاصير في صحراء العَتْمورْ. فعلنا ذلك مع الأتراك ومع الإنجليز ومع الحكام الوطنيين «أولاد البلد».

خليليّ هذا ربعُ عزةَ فأعقلا... هذه «دلهي» إذاً. عاصمة «عموم الهند». «إنسان عين» الأمبراطورية البريطانية أيام عزها. مثل الخرطوم كما بناهما المستعمرون، ولكن شتان بين هذه وتلك.

هذا، وصاحبي «منسي»، مثل صاحب الشهْرزَوري «جاء يقتفي الآثار»، هو على أثري وصاحبه «درقا» على أثره، وكلنا يغذّ السير نحو ذلك الأفق البعيد القريب.

٢٨

لم يكن في «الدوحة» تلك الأيام، وليس فيها حتى الآن حسب علمي، سفارة أسترالية. لذلك رتّبت أمري على أن أحصل على الفيزا في «دلهي». وقد اتصلنا بالقنصل الأسترالي في البحرين، فوعد أن يكتب إلى سفارتهم في «دلهي» ليمنحوني الفيزا.

ذهبنا أنا و«منسي» وهو يحمل جوازه الأمريكي، وأنا أحمل جوازي السوداني، وهو جواز ظللت اتشبث به كل هذه السنوات لا أرضى عنه بديلاً، رغم كل ما يسببه لي من متاعب، حتى داخل السودان نفسه، حيث تدخل بصعوبة وتخرج بصعوبة، يعطونك إياه لعامين فقط، والدنيا كلها تعطي مواطنيها الجوازات لخمسة أعوام، ومنهم من يعطيه لعشرة أعوام. ويطالبونك بشيء اسمه تأشيرة الخروج، كأنك في ألمانيا الشرقية. وحتى في ألمانيا الشرقية، انهارت الحيطان، ورفعت القيود وأصبح الناس يدخلون ويخرجون، أحراراً كما

ولدتهم أمهاتهم.

دخلت لمقابلة القنصل قبل «منسي» وكنت قد ملأت «الفورمات» واستوفيت الإجراءات. قلب صفحات الجواز طويلاً، وتمعّن فيه ملياً، وكأنه شيء لم ير مثله من قبل. قال لي بعد لأي:

«أنا آسف يا مستر صالح. الموافقة لم تصل من «كانبرا». عليك أن تنتظر... ربما تصل الموافقة في غضون أسبوع».

«ليس عندي وقت... سوف أسافر غداً أو بعد غد».
«أنا آسف لذلك».

«ولكن لماذا «كانبرا»؟ أنا أعلم أن من حقكم أن تمنحوا الفيزات دون الرجوع إلى «كانبرا».

«توجد حالات يجب أن نطلب فيها موافقة الوزارة في «كانبرا». وهذا إجراء طبيعي... كل الدول تفعل ذلك... على أي حال الأمر بسيط. سوف نتصل بـ«كانبرا»... يمكنك أن تحصل على الـ«فيزا» من سفارتنا في سنغافورة».

«لكنني لست مسافراً إلى سنغافورة».

«إنها في طريقك... لماذا لا تنزل فيها ليوم أو يومين؟».

«اسمع، إذا كان دخول بلدكم بهذه الصعوبة فسوف ألغي الرحلة كلية... أنت تعلم أنني مسافر إلى أستراليا، ليس للسياحة، ولكن

في مهمة رسمية. أشكرك على أي حال...».

رآني «منسي» أخرج غاضباً، وحاول أن يكلمني، ولكنني سارعت بالعودة إلى الـ«هوتيل».
لم تمض ساعة، وإذا بالتلفون يدق.
«مستر صالح؟».
«نعم».
«هنا السفار الأسترالية. أنا سكرتيرة السفير. إنه يود أن يتحدث معك».

ثم إذا صوت مرح يقول:
«مستر صالح. أنا آسف جداً لسوء التفاهم الذي حدث لك مع القنصل. إنه لم يكن يعلم من أنت. دكتور مايكل موجود معي الآن وقد شرح لي كل شيء. يسعدني أن تزورني في مكتبي. الآن إذا كان ذلك يناسبك... سوف تجد الفيزا حاضرة... هل عندك وسيلة نقل...؟ يمكننا أن نرسل لك سيارة».

لم تكن عندي وسيلة نقل في الواقع، فقد كانت السيارة ومعها «دُرقا» وقفاً على «منسي» كالمعتاد. فضّلت ألاّ استغل كرم السفير. فأخذت سيارة أجرة، وفي الطريق تخيّلت ما حدث. في دقائق ألمّ «منسي» بجليّة الموقف من القنصل، فسارع واقتحم مكتب السفير، دون استئذان، كعادته. وفي وقت قصير جعل السفير يألفه، كأنه يعرفه من زمن. رسم له صورة مبالغاً فيها عن «أهميته» هو أولاً، وعن «أهميتي» ثانياً، وعن «أهمية» المهمة التي نقوم بها معاً في أستراليا ثالثاً.

استقبلوني عند الباب، وساقوني باحترام زائد إلى مكتب السفير.

وجدت صاحبي «منسي» أو «دكتور مايكل» مسترخياً يشرب الشاي. هبّ السفير من مقعده وهرع يرحب بي. كان شاباً في أوائل الأربعينيات من عمره، ممشوق القامة، مملوءاً حيوية، كما يتخيّل الإنسان الأستراليين. سمْتُه مزيج من جامعة «هارفرد» وجامعة «كامبردج».

لاحظت أن «منسي» في تلك الفترة القصيرة، قد رفع الكلفة تماماً مع السفير، والأستراليون أصلاً، مثل الأمريكان، في طبعهم بساطة وبعد عن التكلُّف. وكأنما أراد «منسي» أن يفهمني مدى الإنجاز الذي حققه، فقال:

«هل تعلم أن «ريتشارد» حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة «ييل»؟».

قلت متغابياً:

«ريتشارد؟!».

«سعادة السفير».

قال السفير:

«أنا آسف جداً لما حدث يا مستر صالح. أنت تعرف القناصل. يطبقون القانون بطريقة روتينيّة. طبعاً هم معذورون. علمت من دكتور مايكل أنك كاتب كبير وشخصية مرموقة في دولة قطر».

كان «منسي» يعلم أنني سوف أنفي عن نفسي هذه الصفات، فلم يترك لي فرصة للرد، ولكنه سارع فقال ضاحكاً:

«مستر صالح رجل متواضع. لا عجب أن القنصل لم يهتم به كما يجب».

ساقنا الحديث إلى الكاتب الأسترالي «باترك هوايت» والرسام الأسترالي «سدني نُولانْ» ومغنيّة الأوبرا الأسترالية «جون سذرلاند». والأستراليون لأنهم بعيدون عن مراكز الحضارة ويعلمون أن الأوروبيين خاصة، يعتبرونهم أجلافاً لا فكر لهم ولا ثقافة ولا فن، يهمهم جداً أن يقدِّموا أنفسهم إلى العالم على أنهم قوم متحضرون يحتفون بالفن والثقافة. لذلك فهم فخورون بالأستراليين الذين أحرزوا شهرة واسعة في العالم. ولذلك أيضاً فإن السفير قد سعد بأننا لم نكن جاهلين تماماً بأستراليا.

كان إنساناً لطيفاً بحق، أنسنا له وأنس لنا، وكان واضحاً أنه يريد أن يستقبلنا أطول وقت.

أعطاني الجواز وفيه تأشيرة الدخول «مجاملة» ولا بد أنه مهد لي الطريق أيضاً، لأنني، كما ذكرت لكم حين وصلت إلى سدني سمح لي موظف الجوازات بالدخول، دون أن يعبأ بتقليب صفحات الجواز.

قال السفير:
«يسعدني أن تتعشّيا معي هذا المساء إذا لم تكونا مرتبطين».

كنت أعلم أن «منسي» سوف يقبل دون تردد، فهذا طريق جديد انفتح له، يسير فيه كعادته دون أن يلوي على شيء؟ تجربة إنسانية يلاحقها كما يفعل الشعراء والفنانون، وأنا أيضاً لا أبالي أفعل ذلك في بعض الأحيان.

سارعت بالاعتذار للسفير، ولا بد أنني فعلت ذلك بلهجة حاسمة

لأن «منسي» اكتفى بأن نظر إليّ باستغراب ولم يقل شيئاً.

لعلني لم أقبل دعوة السفير، لأنني أحسست أنه يبالغ في الحفاوة بنا على افتراض، «أهمية» ليست لنا في الواقع.

اتّضحت لي في «منسي» خلال تلك الرحلة مواهب ديبلوماسية لم أعهدها فيه من قبل، ولكنها كانت مثل كل مواهبه، شيئاً فوضوياً ليس له ضابط ولا رابط، تحتاج إلى شخص، ربّما مثلي، يكبح جماحها ويوجهها الوجهة الصحيحة. حينئذٍ تتحوّل إلى طاقة مبدعة بحق. وربما أنه قرر منذ البداية، هكذا ضربة لازب، أنه طرف في المهمة التي كلّفتني بها دولة قطر، فقد آثرت أن أستفيد منه على أية حال، فصرت أصطحبه معي إلى المقابلات التي ليس لها طابع رسمي. ولعله لم يكن لي في الأمر حيلة، فقد كان «دُرقا» وسيارته، وقفاً على «منسي».

قابلتُ المسؤولين في الدولة بمفردي ورافقني «منسي» في مقابلاتي لرجال الصحافة والإذاعة والتلفزيون ومؤسسة الهند التي أنشأها «نهرو» عقب الاستقلال مباشرة وهي مؤسسة على نمط المؤسسة

التي كانت دولة قطر تفكر في إنشائها. وجدنا صحافة معادية لرئيسة الوزراء، مسز غاندي، على وجه العموم، وخاصة الصحافة الناطقة باللغة الإنجليزية. وهي صحافة كما تدل أسماؤها، «ستيتسمان» (Statesman) و«تايمز أوف إنديا» (Times of India) وغير ذلك، قامت على طراز الصحافة البريطانية ومتأثرة بها. وقد قابلنا رئيس تحرير هاتين الصحيفتين، ولمسنا منهما عداء شديداً لمسز غاندي يصل حد الكراهية الشخصية. ويمكن القول إن ذلك العداء كان يمتد إلى كل سياستها الخارجية، بما في ذلك تأييدها للقضايا العربية. وقد أبلى «منسي» بلاء حسناً في هذه اللقاءات وكانت نزعته «الهجومية» تُجدي في تلك الحالات.

كنت وإيّاه مثل لاعبي كرة، يفهم أحدهما الآخر فهماً تاماً. كنت أرمي الفكرة، فيتلقفها ويجري بها فإذا وجدت أنه ابتعد بها عن القصد أعدتها إلى مجراها. وكنا أحياناً نتعمد إبداء وجهات نظر تبدو مختلفة، حتى لا يظن السامع، أننا مثل بعض الإذاعات، نردد كلاماً رسمياً ممجوجاً. وكنا نعلم أن صورة العالم العربي في مخيلات الناس الذين نقابلهم صورة غائمة على أحسن الفروض، فكنا نحاول أن نترك لديهم ذكرى عنا كأناس مستنيرين متحضرين. ولأن الأشخاص الذين قابلناهم، كانوا أشخاصاً مثقفين في الغالب، فكنّا نجهد أن نجعلهم يحسّون أننا أنداد لهم... على الأقل. أقول على الأقل لأن «منسي» كان يوهمهم أنهم أدنى منه بكثير. وفي الواقع، فإن الأمر لم يكن صعباً، فللهند اهتمام قديم لديّ وكان «منسي» كعادته يُحرز بالقليل الذي عنده، أكثر مما أحرز أنا بالكثير الذي ربما يكون عندي.

كذلك أدهشني، أنني رأيت في «منسي» خلال تلك الرحلة حماسة

للإسلام لم أعرفها فيه من قبل.

تسألني لماذا أسلم أصلاً؟ لا أدري على وجه التحديد، ولكنه اعتنق الدين الحنيف ببساطة وكأنه ينتقل من دار إلى دار مجاورة. ولم يكن ذلك بغرض «تجارة يصيبها أو امرأة ينكحها». كان يقول إنه قرأ القرآن الكريم وهو صبي في «ملاوي» في الصعيد، مع أطفال المسلمين. وكان بالفعل يحفظ آيات منه، وذلك أمر ليس مستغرباً، فأقباط وادي النيل، وهم «ذوو قربى ورحم» اقتربوا جدّاً من المسلمين. وأذكر أن أبناء القبط كانوا يقرأون القرآن معنا في مدارس السودان، ويحضرون دروس الدين. وكان معنا قبطي يتلو القرآن بصوت جميل. وفي مدينة أم درمان حي يُسمى «المسالمة»، وهؤلاء أقباط هاجروا من مصر، وبعضهم دخل الإسلام، فتجد في العائلة الواحدة مسلمين ونصارى. كذلك الحال في بلاد الشام وربما في العراق أيضاً. وفي لبنان، تكاد لا تجد فرقة من هذه الفرق المتقاتلة، إلّا وفيها المسلمون والنصارى. وأنا أستعمل كلمة «نصارى» عمداً، فهذه هي الكلمة التي استعملها المسلمون والعرب طوال تاريخهم، وهي كلمة ليست فيها أية إيحاءات عدوانية، بل على العكس هي كلمة حافلة بالمودة والرحمة. أما كلمة «مسيحيون» فقد جاءتنا في العهود المتأخرة.

ونحن نعلم أن العرب النصارى انحازوا للعرب المسلمين في موقعة «اليرموك» وفي موقعة «القادسية» وقد قال القائد المسلم حين أصيب في موقعة القادسية، للعربي النصراني:

«أنت أخونا وإن لم تكن من ملّتنا فاحمل اللواء عني».

هذه هي الحال منذ قديم الزمان: التسامح الدّيني من سمات أرضنا

ومزاج شعوبنا، ففيم إذاً هذه الحروب التي تُذكى نيرانها باسم الدين، وفي سبيل ماذا هذه العداوة والبغضاء والحزازات؟

ألامَ الـخُـلـفُ بـينكـمـوا إلامَ
وهـذي الـضجـةُ الـكـبـرى عـلامَ
وفـيـمَ يـكـيـدُ بـعـضـكـمُ لـبـعـضٍ
وتُـبـدون الـعـداوة والخصـامـا؟

وكأنما كُتب على الشعراء أن يسألوا هذه الأسئلة طوال التاريخ دون جدوى.

أسلم «منسي» في واشنطن على يدي إمام مسجدها، وسرعان ما أصبح داعية للإسلام، كأنه مسلم منذ ولد. وقد أنشأ إذاعة تدعو للإسلام، وكان يحاضر هنا وهناك في أمريكا عن الإسلام. وقد زعم أن أمة من الناس اعتنقت الإسلام على يديه. وكان يسألني متحدياً:

«أنا دخّلت ناس كثيرة الإسلام. انت دخّلت كم واحد؟».

لعلّني «ليّنت» قلوب بعض الناس، أو أنني أزلت بعض سوء الفهم عن الإسلام، هنا وهناك. أمّا أنني أدخلت أحداً في الإسلام، فاللّهم لا.

عاد «دُرْقا» صاحب «منسي» بالتذاكر والحجز. تذكر «دُرْقا» الهندي؟ لقد كلّفته السفارة القطرية بتسهيل مهمّتي وتنظيم لقاءاتي، ولكنّ «منسي» استحوذ عليه فانصرف له تماماً، ولم يعُدْ يفيدني في شيء. انشغل «منسي» بالأسواق ومحلات تفصيل الثياب، حيث يصنعون لك بذْلة كاملة في يوم واحد. وقد وجد في «دلهي» أنواعاً فاخرة من الأقمشة زهيدة الثمن. كذلك لقي أصدقاء. عجيب كيف أنه كان يجد معارف وأصدقاء أينما ذهب. أما أنا فقد كان أمامي عمل لا بد من إنجازه. وقد أذعنت لذلك الوضع الذي لم يخل من طرافة، فكنت أرى «دُرْقا» طالعاً نازلاً، يجري من مكان إلى مكان وراء «دكتور أحمد». كنت أعبث به أحياناً فأستوقفه وأسأله:

«يا درقا. أين أنت؟ ألم يكن مفروضاً أن توصلني إلى مبنى

التلفزيون؟».

فيردّ بذلك الهدوء الهندي الذي يغيظ:
«أنا آسف يا مستر صالح. لكن دكتور أحمد كان عنده موعد هام».

وكان واضحاً لديّ، أن «منسي» قد أوهم «درقا» بأنه هو الموفد في مهمة من حكومة قطر، وأنني مجرد مرافق له.

يقول «منسي» ضاحكاً:
«اسمع. النهاردة تقدر تأخُذْ «درقا» والعربيّة. أنا مش محتاج لهم. بس على شرط أجي معاك».

لم أكن أجد بدّاً من أن أدعه يرافقني إلى بعض مقابلاتي الرسمية، وكان هذا يؤكد لـ«درقا» أن «دكتور أحمد» هو الموفد الحقيقي، وهو الجدير بالرعاية، وأنني مرافق له.

لكن «درقا» قد تجاوز الحد الآن. كنت قد طلبت منه أن يحجز لي على الطائرة إلى «بانجكوك» ثم «سدني». وكان «منسي» يريد أن نسافر إلى «بومبي» ثم إلى سدني. قلت له:

«يا أخي. يكفي أننا تعرفنا على مدينة في الهند. فلنتعرّف على مدينة في بلد آخر. ثم إن «بانجكوك» في خط سيرنا و«بومبي» تبعد بنا نحو الغرب».

أظهر لي أنه اقتنع بهذا الرأي، لذلك دهشت حين وجدت أن

«درقا» قد عمل الحجز عن طريق «بومبي».
«أما قلت لك أن تحجز لي إلى «بانجكوك»؟».

«نعم. ولكن دكتور أحمد أمرني أن أعمل الحجز إلى بومبي».

عاد «دكتور أحمد» إلىالهوتيل سعيداً لسبب أو لآخر. وعجيب أيضاً كيف أن «منسي» كان يجد سبباً للسعادة في كل خطوة يخطوها. هل الحياة مليئة بالمسرّات إلى هذا الحد؟ أم أنه كان يملك «مصنعاً ذاتياً» لإنتاج السعادة.

«اسمع. أنا سوف أسافر إلى «بانجكوك» كما قررت منذ البداية. إذا كنت تحب تسافر معي إلى «بانجكوك» فأهلاً وسهلاً. وإلاّ فمع السلامة».

«يا أخي بلاش حماقة. بانجكوك إيه بس؟ دي بلد كلام فارغ. أنا لازم أروح «بومبي» لأنه عندي موعد هام بتاع «بزنس»».

سبحان اللّه. كنت أظن أنه قام بهذه الرحلة ارتجالاً، عفو الخاطر، فمتى رتّب «موعداً هاماً» في «بومبي»؟

«يا ابني أحنا ما بنلعبش... «البزنس» عاوزة كده.. هُبْ هُبْ. أنت فاكر الفلوس بتجي ببلاش؟ ولّا أنت فاكر أن الحكاية كلها أونطة؟».

أضحكني ذلك، فقال:
«صحيح الأونطة تنفع، بس لازم كمان شوية جهد».

قلت فليذهب إلى «بومبي» ولعل السُبُل تؤدي به إلى وجهة أخرى، وأخلو أنا إلى نفسي. وبعد أسبوع من ضوضاء «منسي» والفوضى التي تلازمه، كنت قد حَنَنْتُ إلى مصاحبة نفسي. الآن أمضي وحدي في طريقي، أنزل حيث أشاء، أتسكع في شوارع المدن الغريبة، وأتعرّف الأشياء على مهل، وأتمعّن في المشاهد، أنتقي منها كيف أشاء، أضعه في خزانة الذاكرة إلى حين. معي كتبي وأوراقي، ومعي زادي المطمور، الذي ربما قد نسيته، فأذكره فجأة حيث لا أتوقع... تذكّرني به هبّة ريح أو لمعة ضوء أو صوت إنسان أو الشمس تشرق أو تغيب في أفق غريب. ومعي المتنبي العظيم رائد الآفاق، رهين مُفترق الطرق:

نحن أدرى وقد سألنا بنجدٍ
أطويل طريقُنا أم يطولُ
وكثير من السؤال اشتياقٌ
وكثيرٌ من ردِّه تعليلُ
زوِّدينا من حسنِ وجهكِ ما دامَ
فحسنُ الوجوهِ حالٌ تحولُ
وصِلِينا نصِلْكِ في هذه الدنيا
فإن المقامَ فيها قليلُ

هكذا أفضِّل أن تكون هذه الأبيات الجليلة. ليس «أقصير طريقنا أم طويل» وليس «نوِّلينا من حسن وجهك» فإنما أراد «الزّاد» طيَّب الله ثراه. والطريق قد يبدو طويلاً وما هو في حقيقة الأمر بالطويل. ثم قال، رحمه الله رحمة واسعة، هذا البيت الذي يقوم مقام قصائد عند غيره من الشعراء:

لا أقـمـنـا عـلـى مـكـانٍ وإنْ طـابَ
ولا يُمـكـنُ المكـانَ الـرحـيـلُ

والمكان «بانجكوك»، وما كانت، كما بدت لي يومذاك، «بالبلد الطيِّب».

قال المسؤول الكبير في وزارة الخارجية الأسترالية:
«اسمع. كوننا نبيع القمح والزُّبد واللحوم للعرب.. هذا لا يحتّم علينا أن نؤيّد مواقفهم السياسية. ألا تعلم بأن أستراليا تسمّى «البلد المحظوظ»؟ عندنا كل شيء. البترول والزراعة والصناعة. بلادنا شاسعة، قارّة كاملة. هذه بلاد مملوءة بالخيرات. نحن لا نحتاج للعرب في أي شيء».

أغاظني الرجل ولكنّ صراحته أعجبتني. كنت قد قضيت معه نحواً من ساعة أحاوره وأداوره. ولاحظت أنه لم يقدّم لي قهوة أو شاياً، علماً بأنني جئت إلى موعده في التاسعة صباحاً. قلت له:

«ألا تقدِّمون شيئاً لضيوفكم؟ هذا وقت شرب القهوة أليس كذلك؟ نحن في بلادنا نقدم القهوة والشاي لضيوفنا».

قال وهو يضغط على الجرس:

«آه. أنا آسف. أنا شخصياً لا آخذ هذه المكيّفات. تضر القلب. وهذه الحكومة قد فرضت علينا سياسة التقشف. يقولون إن أحوالنا الاقتصادية ليست كما يجب».

أسعدني التناقض الذي أوقعته فيه. البلد المليء بالخيرات، يعاني من ضائقة اقتصادية، ويفرض سياسة تقشف! وابتسمت له كما قال «الأستاذ»:

ولمَّا صار ودُّ الناس خِبّاً
جزيتُ على ابتسام بابتسام.

كنت وحدي في «كانبرا»، تلك المدينة الجميلة ذات الباحات الواسعة والميادين المُعشبة التي خططوها لتكون عاصمة إدارية. افترقنا «منسي» وأنا في مطار «سدني»، هو صوب لندن، وأنا صوب «كانبرا».

لم يستطع أن يجد وسيلة ليسافر معي إلى «طوكيو». كانت تلك أول مرة أراه عاجزاً أمام هدف يريد تحقيقه. قالوا له إن الوسيلة الوحيدة هي أن يسافر إما عن طريق «موسكو» أو يعود إلى لندن ويسافر من هناك إلى «طوكيو». وحاول أن يقنعني أن نسافر معاً عن طريق «موسكو». كدت أقبل، فذاك عالم لا أعرف عنه إلا ما قرأته في الكتب والصحف. يا ليت، ولي عند الروس حقوق من ترجمة كتبي، يمكن أن نعيش بها زمناً رغداً وننفقها عندهم بالرُّوبل. حتى الروس يأكلون مال اليتامى؟

نعم، يا ليت، فنحن نعرف الكثير عن «الغرب»، إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا. هذا هو العالم في نظرنا. نتعلم لغاته، ونعرف تاريخه، وأبداً نحن غادون رائحون إليه. نهيم به حبّاً ولا نأخذ منه بميزان هذا الحب. كيف قلت يا طيّبَ اللّه ثراك؟

إن كـان يـجـمـعـنـا حـبّ لـغُـرّتـه
فـلـيـت أنّـا بـقـدر الحب نـقـتـسـمُ

أجل، نعشقه وننفر منه. أما الاتحاد السوفياتي والصين والهند واليابان وأمريكا اللاّتينية، فهي بلاد لا وزن لها في حسابنا. حتى أخواننا الذين شاركونا في صنع حضارتنا.. حتى الأفارقة، جيراننا وذوو رحمنا... يا ليتني. ولكن ليس عندي وقت، وأمامي عمل لا بدّ من إنجازه.

لو أنني بذلت أقلَّ جهد، لغيّر «منسي» مساره ليلحق بي في «طوكيو»، لكنني بعد نحو عشرة أيام، كنت قد ضقت بصحبته، وتقتُ إلى مصاحبة نفسي. لذلك ثبَّطت عزيمته بشتّى الطرق. شجعته أن يذهب إلى «باريس»:

«واللّه فكرة. أنا لي زمن ما شفتش «باربرا براي».. باريس حتكون حلوة جداً الأيام دي... بس يا خسارة أنت مش حتكون ويّانا».
«معليش... أنضم إليكم بعد عودتي من «طوكيو».

«دي أول مرة تحصل لي الحكاية دي. قال إيه، إني تجاوزت الأميال المسموحة لي كشركة سياحة والكلام الفارغ دا... قلت لهم يا أولاد الإيه... ما هي طوكيو أقرب من هنا مما أرجع للندن... إنما

تعمل إيه؟ قوانين معقدة وناس ما تعرفش تتصرف».

«خلاص يا أخي. مش أنت زرت «طوكيو» قبل كده؟».
«وأنا زرتها يجي أكثر من عشر مرات.. أنا أعرف اليابان شبر شبر. أنت تعرف أني أتقن اللغة اليابانية؟».

«يا راجل حرام عليك! أنت تعرف لغة يابانية؟».
«أنت مش مصدق؟ أنت ناسي أن عندي مدرسة لتعليم اللّغات في واشنطن؟ بأحدث الطرق الـ«أوديُو فِزْيُولْ»؟ وأنا حتى ترجمت قصة لـ«مِشِيما» إلى اللغة الإنجليزية؟ أنت طبعاً ما سمعتش ب «مشيما».

«لا يا سيدي، سمعت. بس أنك تترجم قصة من اليابانية إلى الإنجليزية، دا افتراء صحيح. ونشرتها فين؟».

ضحك ضحكة تعني أن هذا الكلام قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، وعليّ أن أقبله على علاته ثم قال:

«حتحتاج لي بصحيح في اليابان. كنت حتستفيد منّي قوي في مهمتك».

«لا شك في ذلك. ولكن معليش أمري للّه. أحاول أقوم بالمهمة وحدي. أعمل ألْ أقدر عليه. طبعاً سوف أفتقد قدراتك المتعددة.. وعبقريتك».

«انت بتضحك؟ ما هو أنا فعلاً عبقري... ليه أُنتو مش عاوزين تعترفوا بالحقيقة دي؟».

«شوف يا ابني. أنت فعلاً نموذج فريد من البشر... إنسان نسيج وحدِه، لن يتكرر.. أما أنك عبقري فالله أعلم».

«أولاً يا أستاذ اتعلّم إزاي تتكلم عربي. عامل إنك كاتب وشغل «الحَلبَّة» دا، وانت ما تعرفش قواعد اللّغة العربية، هي مش «وحدِه» بالكسر ولكن «وحدَه» بالفتح».
«ليه؟».

«لأنها ممنوعة من الصرف».
«يا ابني دي مضاف ومضاف إليه».

«أنت مش فاهم حاجة. أنت نسيت أن عندي «بكالوريوس» في اللّغة العربية من جامعة لندن؟».

ضحكت فقد كنت أعلم كيف حصل على تلك الشهادة. كنت أساعده في اللّغة العربية والتاريخ العربي. لم يكن يعرف الفرق بين عبد الملك بن مروان، الذي كان يسميه «عبد الملك بن أبي مروان» ـ وبين أبي جعفر المنصور، الذي كان يسميه «أبو جعفر بن المنصور». وفي ذات اليوم الذي نال فيه الدرجة جلسنا في مقهى في شارع «كنجزرود» في «تشلسي» ودخل معي في جدل حول مسألة لغوية. قلت له:

«اسمع. تذكّر أني أستاذك، وبدوني ما كنت تاخذ الدرجة دي».

ضحك الآن، بطريقة لخَّصت قصة حصوله على درجة «البكالوريوس» بكاملها، ثم قال:

«سيبك من الحكاية دي. بذمّتك مش أنا ساعدتك مساعدة رائعة في مهمتك؟ مش نحن ويّا بعض قمنا بعمل ديبلوماسي على أعلى مستوى؟».

«أشهد أنك أظهرت مواهب ديبلوماسيّة لا يُستهان بها».
«إيه رأيك في حوارنا مع مستر «كاميرون»؟ مش كان حوار أذهل الراجل؟ أنت من ناحية وأنا من ناحية؟».
«كان كويِّس».

«والشاب الفلسطيني في الـA.B.S (هيئة الإذاعة الأسترالية). أنت ماشي ولا انت واخذ بالك. أنا فوراً عرفت أنه عربي، مش هو اللّي قدّمك للمخرج الأسترالي، وأجروا معاك مقابلة ساعة كاملة.. في أهم برنامج إذاعي عندهم؟».

«كله دا صحيح... فضلك لا يُنكر».

«بس أنت زغت مني ورحت عملت المقابلة لوحدك. أصلك خفت أني أخطف الأضواء منك».

«أكيد. هوّ أنا أعرف اتكلّم إنجليزي زيّك يا دكتور؟ بذمتك أنت صحيح عندك شهادة دكتوراه؟».

«إلاّ عندي شهادة دكتوراه! أنت لسّه ما تعرفش الحكاية دي؟ ما تعرفش اني أنا عندي مش شهادة دكتوراه واحدة.. أنا عندي تلات شهادات دكتوراه».

«يعني انت زي زكي مبارك.. يا راجل خاف اللّه».

«سيبك من الحكاية دي. بذمتك مش أنا وانت ننفع سفراء متجولين؟ تصوَّر لو عملونا سفراء نخدم القضية العربية. مش كان أحسن من الكلام الفارغ اللي بيعملوه دا».

بعد أكثر من عشرة أيام من مثل هذا اللغط، بدأت أبرَم بـ«منسي» وأتوق إلى أن أخلو بنفسي. لذلك لم أشجعه على السفر معي إلى «طوكيو». ومع ذلك حين جلسنا في مطار «سدني» هو يتجه إلى لندن وأنا إلى «كانبرا» أحسست ببعض الحزن. ولما أقلعت طائرته قبلي تمنيت لو استبقيته. والآن، وأنا أواجه هذا الإنسان الصَّلف، فكرت في «منسي»، قلت يا ليته كان معي، فإنّ وقاحته تنفع في مثل هذا الموقف.

٣٢

قال «منسي» فجأة، ونحن نمشي في ردهات «هيئة الإذاعة الأسترالية»: «بُصّ يا طيّب. أوكّد لكْ الشابْ دا عربي». قبل أن أمعن فيه النظر، كان «منسي» قد جرى نحوه:

«اسمع يا أخ. انت عربي، مش كده؟».

كنّا خارجين لتوّنا من اجتماع على الغداء، مع المدير العام لهيئة الإذاعة الأسترالية، وعدد من المسؤولين ـ دخل «منسي» مبتسماً، وخرج ضاحكاً يقهقه. ولعله تذكر أيامه في هيئة الإذاعة البريطانية في لندن، حين كان يلهث في سيارته الـ«بَبِلْ»، من «كفرشام» إلى «بوش هاوس» يترجم ويمثل، لقاء جنيهات معدودات. ورغم سعة حيلته فإنه لم يصل إلى المدير العام، الذي كان يجلس في أفق بعيد المنال. ما أطول الطريق الذي قطعه. هذه أيضاً «هيئة» وهذا أيضاً

«مدير عام». يدخل مبتسماً، عليه معطف من الفراء، و«بذْلة» من الصوف الفاخر، وحذاء إيطالي من الجلد الغالي، لعلها «فوتشي»، هذا «منسي» آخر لمن لا يعرفه، ولكنني أعلم أنه في أعماقه لم يتغيّر، وأن هذا المظهر البرّاق، مثل الزي المستعار الذي يرتديه الممثل ليؤدي دوراً على المسرح.

رحمه اللّه. إنه الآن يمثل دور السفير، المدافع عن كرامة العرب وسمعتهم. وهو دور لم يكلفه به أحد، ولم يتقاض عليه أجراً. وقد أدّاه أحسن أداء، ونهض به على خير وجه. ولعله كان محقاً، فلو أن أحداً كلفه بدور مهم، ربما كان يؤديه على خير وجه. ولكن أحداً لم يطلب منه أي شيء. كل الأدوار التي أداها، انتزعها انتزاعاً.

تحدث أثناء الغداء كأنه مسؤول عربي كبير، قد يكون مستشاراً لحاكم أو رئيس دولة. تعمّد أن يترك الأمر غامضاً. وكان كعادته، يخلط الجد بالهزل، والصدق بالمكر، تسعفه فصاحته في اللغة، وبديهته الحاضرة، ومواهبه الكامنة.. وكان حين يحس أنه في ورطة، ينظر إليّ بتلك الطريقة التي توحي بأنني معاون له. وذلك، كما قلت، دور راق لي، فقبلته عن طيب خاطر، لأنه أتاح لي فرصة نادرة: أشارك في الحديث، وأراقب «منسي»، فكأنني ممثل ومتفرج في الوقت نفسه.

شرَّق بنا الحديث وغرَّب، وكنّا بين أناس مهذّبين مستنيرين، يقرعون الحجة بالحجة، ويدافعون بلطف، ويجادلون بذكاء. لذلك حين قال «منسي» هذا، لم يكن وقحاً ولكنه تحدَّق وكأنه يمزح: «من الواضح لنا أن وسائل إعلامكم ليست أكثر من صدى للإعلام الغربي. نفس

التحامل علينا، والازدراء بنا وتشويه سمعتنا. إنها أشياء أصبحت مملّة... تعوّدنا عليها».

ضحك وهو يقول «تشويه سمعتنا»، وقد استعمل التعبير عمداً، بدهاء شديد، كما خيّل لي، بدلاً من التعبير المألوف «تشويه صورتنا». لم يكن قد مضى في أستراليا أكثر من أربعة أيام، ولم يكن قد زار البلد من قبل، وليست له معرفة عميقة بما يجري فيه. إنما تلك كانت صفة في طبعه، يقول دون مبالاة، ويرمي الرّمية قد تصيب وقد تُخطئ.

كان واضحاً لي أنهم بوغتوا بقوله، ولكنهم كانوا رجالاً أذكياء ذوي دربة، فسارعوا إلى تغطية أحاسيسهم بوسائل شتى. بعضهم ابتسم وبعضهم ضحك، وقال المدير العام:

«انتظر يا دكتور مايكل! هذا ليس عدلاً! أنت تعلم أن هيئة الإذاعة الأسترالية مؤسسة مستقلة، لا تخضع لأي نفوذ. حتى الحكومة ليس لها سلطة عليها. إنها مؤسسة محايدة تماماً.. نحن نغطي الشؤون الدولية بموضوعية كاملة.. لا يوجد أي سبب يجعلنا نتحامل على العرب، أو.. نشوّه سمعتهم كما تقول».

وكأنّ الرجل أراد أن يلوذ بي فيرتاح من «منسي» برهة، فوجه كلامه إليّ:

«هل هذا هو رأيك أنت أيضاً يا مستر صالح؟».

لقد أحدثت عبارة «منسي» أثراً، هذا لاريب فيه، خاصة «تشويه

السمعة». الأستراليون أيضاً يحسّون أحياناً أن العالم لا يأبه بهم، ولا يقدرهم حق قدرهم، ويتحامل عليهم في كثير من الأحيان. لا تكاد توجد أمّة، ليس في تاريخها شيء يسبب لها الحرج أو الخزي. اليابانيون، ومعاملتهم للأسرى في الحرب العالمية الثانية. الألمان وما فعلوه باليهود وغير اليهود. الأمريكان وضرب هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذريّة. الفرنسيون وما فعلوه في الجزائر. الإنجليز الذين ابتكروا معسكرات الاعتقال، وما فعلوه في فلسطين وأفريقيا، والرّوس والصين والإسبان والبرتغال وهلمّ جرّاً. قليلة هي الأمم التي ليس في تاريخها عمل تتمنّى لو لم يكن. لماذا إذاً تُلْقى الأوزارُ على العرب، وكيف أصبحوا وكأنّهم «الجناة» في التاريخ؟ لعلّ العرب يسألون أنفسهم أولاً، قبل أن يلوموا الآخرين.

قلت له:

«لا أعرف على وجه اليقين ماذا تقدمون في برامجكم في الإذاعة والتلفزيون، فإنني لم أقض وقتاً كافياً هنا. ولكن بعض ما شاهدته، خاصة في نشرات الأخبار، يجعلني أعتقد أن دكتور مايكل ليس مخطئاً. أما صحفكم، فمن الواضح أنها تتحدث عن العالم العربي، إما عن جهل، أو عن سوء قصد...».

وكأنّ «منسي» كان يقرأ فكري، فقد أخذ الفكرة التي كنت أنوي أن أطرحها، وانطلق بها:

«نعم. صحفكم على وجه الخصوص. لا يفتح الإنسان أي صحيفة إلاّ ويجد ذكراً لذلك الفلم التافه الذي كلّه أكاذيب، ولا هدف منه سوى الإساءة للعرب».

كانت تلك هي القضية تلك الأيام. الشغل الشاغل لوسائل الإعلام، في أوروبا وفي أمريكا وحتى في أستراليا. مثل قضية «سلمان رشدي» هذه الأيام. كل حين يخرجون بشيء جديد، يشغل الناس ويثير الجدل والبلبلة.

قال أحد المسؤولين:
«على أي حال، الخطأ خطأكم أنتم. والتقصير منكم أنتم. لا توجد «مؤامرة» للإساءة للعرب كما تتوهّمون. الأمر ليس أكثر من عدم توفر المعلومات المطلوبة في الوقت المناسب. أنتم لا تساعدوننا، ولا تساعدون أي أحد، في الحصول على المعلومات.. بل كثيراً ما تخلقون العراقيل.. وسائل اتصالكم لم تفهم بعد، أن العالم مترابط، والعصر عصر معلومات».

وأضاف المدير العام ضاحكاً، وكان أميلهم إلى الضحك:
«ثم إن العرب يفعلون أشياء غير لطيفة أحياناً.. فماذا تريدوننا أن نفعل؟ نتستر عليها؟ نفرض عليها رقابة كما تفعلون أنتم؟».

لم يدَع «منسي» هذا القول يمر دون رد، فلم يكن ذلك في طبعه، ولكنه سارع إلى القول، وهو يضحك بخبث، كما تخيّلت:
«وهل ما تفعلونه أنتم، لطيف دائماً؟».

رفع الرجل يديه كمن يستسلم في معركة، وقمنا من المائدة، وكلٌّ منا يبتسم أو يضحك. وكان «منسي» أكثرنا سعادة، فقد حمل لواء العروبة خفّاقاً في ذلك الركن القصي من أركان المعمورة. أحسنَ أداء دور لم يَكلِّفه به أحد، ولم ينلْ عليه أجراً ولم يجْنِ من ورائه شكراً. فقط، استمتاع مجرّد بأداء الدّور. لا أكثر.

كانوا رجالاً لطيفين بحق. قلنا لعلَّنا تركنا عندهم أفكاراً قد تثمر ولو بعد حين. كان «منسي» يحب هذا القول ويردِّده كثيراً:

«ارْمِ الخبز على وجه المياه، يُثمرْ ولو بعد حين». ثم ونحن نسير في الممر الطويل، إذا بذلك الشاب.

استوقفه «منسي» وسأله:
«اسمع يا أخ. أنت عربي، مش كده؟».

نعم، كان عربياً، وكان فلسطينياً مهاجراً، يعمل في هيئة الإذاعة الأسترالية. اسمه «إبراهيم الخوري» إذا لم تُخنّي الذاكرة.

٣٣

زارنا الشاب الفلسطيني في النُّزل، مساء ذلك اليوم. كانت حقاً رمية موفقة من «منسي»، فقد أصبح ذلك الشاب دليلنا فيما بعد، فتح لنا كثيراً من الأبواب، وذلل لنا كثيراً من الصعاب، وأخذ بأيدينا في طرقات البلد الغريب، وعرَّفنا على الجالية العربية في «سدني». وقد أضاف «منسي» تلك الحسنة، إلى القائمة الطويلة من أفضاله عليَّ، وظل بعد ذلك كلّما طاب له المجلس وراق له الجو، يذكرني بأنه بذكائه وقوة ملاحظته أدرك فوراً، ونحن نسير في طرقات هيئة الإذاعة الأسترالية، بعد أن خرجنا من الغداء مع المدير العام، أن الشاب عربي.

«قول لهم يا طيّب. مش دا اللي حصل؟ انت ماشي مش واخد بالك. أنا عرفت في الحال... طيّب بذمتك مش أنا اللّي نجّحت لك المهمة؟ من غيري ما كنتش حتعرف تعمل حاجة... احكي

لهم ازاي أنا بدّعت في الغداء بتاع المدير العام. الراجل ذهل...».

كان ذلك في الرياض. كلّما أزور الرياض الآن، أول ما أصل المطار، اتذكر «منسي». أكاد أراه رأي العين. أول مرّة زرت الرياض، بدعوة من الشيخ عبد العزيز وجدته في سيّارة كبيرة ينتظر عند سلّم الطائرة. ضحك، وكنت أعلم أنه يريد أن يفهمني أن تلك الحفاوة ليست إكراماً لخاطري بقدر ما هي برهان على نفوذه الواسع ويده الطولى. كلّفه الشيخ بترتيب أمر إقامتي وتنقلاتي، وهو ينشط لمثل تلك المهام، فقام بذلك على أحسن وجه. كان رفيقي في أول عمرة اعتمرتها، والعمرة الأولى لها رهبة خاصة وذوق لا يجده الإنسان بعد ذلك. أجده كلّما عدت إلى تلك الأماكن الكريمة. أراه يسعى بين الصفا والمروه، بجسمه المثقل، وهو يكاد ينوء من الأعياء. أراه مكبّاً على أستار الكعبة. ثم وهو نائم في صحن الحرم، بين صلاة المغرب والعشاء، والناس يموجون حوله.

خرج رابحاً من زيارتي تلك، من نواحٍ كثيرة، فقد حجز جناحاً في الهوتيل بجواري، له ولزوجته، وأضافَ التكلفة إلى حساب زيارتي. كان يفعل ذلك كل مرة. وفي المرات التي لم يقم فيها في الهوتيل، كان ينتهز فرصة وجودي فيحضر ثيابه للغسيل وبدله للتنظيف.

في الرياض أيضاً، صلّينا معاً. لم أكن قد اقتنعت بعد أنه أسلم حقاً. وقفت أصلي صلاة المغرب. جاء ببساطة ووقف معي. يا سبحان اللّه. كان قبل ذلك أخي، ثم ها هوذا الآن يصبح أيضاً أخي في اللّه.

لكن هذه هي المرة الأخيرة التي ألقاه فيها في الرياض. كان قد

وجد عملاً في شركة. لم يكن في حاجة إلى العمل، ولكنه يحب أن يشغل نفسه بشيء. يحب أن يكون له مكتب وحاجب وسكرتير وتلفون. ويا حبذا لو كان ذلك على نفقة شخص آخر. كان يستطيع لو أراد أن يحصل على هذه الأشياء من ماله الخاص.

أقول له:
«يا ابني ما تروح تقعد في «عزبتك» في إنجلترا. هل أنت محتاج تشتغل بمرتب؟ روح اتمتع بفلوسك قبل ما تموت وياخدوها الورثة؟».

«أموت؟ أموت دا إيه يا خوي؟ يا ابني احنا لسه ما عملناش حاجة. لسه فاضلة حاجات كتير تتعمل...».

لم يكن الموت يخطر بباله. كان مشغولاً بالحياة. يقول ضاحكاً:

«انت فاكرني باشتغل؟ دي عملية بسيطة ماتاخدش مني ساعة بالكتير. الوقت الباقي أعمل فيه أشغالي الخاصة... فين حلاقي كل التسهيلات دي؟ تلكس وفاكس وتلفونات وطباعين. وكله ببلاش».

«وإيه هو شغلك بالضبط؟».
«أحضر تقارير لمدير الشركة».
«تقارير مالية؟».

«دا شغل بيعملوه ناس تانيين. أنا مستشار خاص للمدير العام. في حاجات كتيرة. صحافة علاقات عامة اتصالات دولية... حاجات

زي دي. أنا الرجل الثاني في الشركة، بعد المدير العام مباشرة. امال أنت فاكر إيه... باعمل للمدير العام كل يوم ملخصات من الصحف الأجنبية وتحليلات سياسية والكلام الفارغ دا. اؤكد لك إن حتى في وزارة الخارجية ما يعرفوش يعملوا تحليلات زي اللي أنا باعملها».

«وإيه فايدة الحكاية دي لمدير عام شركة تجارية؟».

«إزاي يا أستاذ؟ انت فاكر التجارة بيع وشراء وصادرات وواردات؟ أنت فاكرها إيه؟ دكان بقالة في أم درمان؟ يا ابني دا شغل على مستويات كبيرة، وعلاقات وشغل حلبسّه والذي منه... ثم إن المدير العام شاب متعلم وبيفهم. دا واخد ماجستير في إدارة الأعمال من أمريكا... خسارة دا مسافر. كنت عرفتك بيه. شاب زي السكر. كان حيعجبك أوي. انت عارف ان أبوه يبقى ابن عم.. ووالدته.. وهو متجوز بنت..».

«سيبك من الحكاية دي. بذمتك الشركة دي فعلاً بتستفيد منك؟».

«إلاّ تستفيد مني! دا المدير العام متمسك بي مش عاوز يسيبني. بيني وبينك أنا ناوي أروح. على رأيك، حاعمل إيه بالفلوس؟».

تقلب في أعمال عدة في الرياض. سرعان ما يمل العمل فيتركه إلى عمل آخر. وكان الشيخ عبد العزيز التويجري، وابنه عبد المحسن، يرعيانه ويخرجانه من المآزق، ويدبران له وظيفة كلما ترك وظيفة.

كان لا بد أن أزور مكتبه. أصر على ذلك حتى أرى بعيني كم هو

مهم وكم هو ذو حول وطول، وما كنت في حاجة إلى برهان. استقبله السعاة والحجاب والعمال بحفاوة عظيمة فيما يشبه المظاهرة. يمازحهم ويناديهم بأسمائهم، وكان واضحاً أنهم يحبونه حباً حقيقياً. هكذا هو دائماً مع صغار الناس. ظلوا يتوافدون عليه في مكتبه. هذا عنده مشكلة إقامة، وهذا يريد منه أن يتوسط له ليزيدوا راتبه، وهذا زوجته مريضة، وهو ينتفش ويكبر بخليط من الزهو بأهميته وبفعل رغبة مخلصة لمساعدة ضعفاء الناس.

أخذ يلفت نظري إلى أثاث المكتب، كأنهم بشر أحياء يريد أن يعرفني بهم. السجاد والستائر والطاولة والكراسي والتلفونات والخزانات ونباتات الظل والأزهار.

«بص يا طيب.. انت خدت بالك من السجاد؟ أوعى تفتكر انه سجاد عادي دا سجاد عجمي... تحفة نادرة».

«لا يا شيخ! ويكون بكم؟».
«أوه. مبلغ كبير. اؤكد لك أن ثمنه أكثر من مرتبك في سنة كاملة».
«عجيب. وأنت اشتريته بفلوسك؟».

«ليه؟ انت فاكرني عبيط زي ما الجماعة بتوع مصر بيقولوا على الصعايدة. يا أستاذ دا من فلوس الشركة. انت عارف اني أنا الوحيد اللي عنده مكتب زي دا. أصل المدير العام يقدرني جداً... مش عاوز يسيبني...».

لاحظت التلفونات، كل تلفون بلون. ماذا يصنع الإنسان بمجموعة

من التلفونات وهو لا يسمع إلا بأذن واحدة؟ وماذا يصنع بمجموعة من السيارات؟ لكن «منسي» لم يكن شخصاً واحداً. كان مجموعة أشخاص في جلد واحد.

رأيت السيارات مصطفّة مثل خيل في اصطبلاتها أول ما دخلت داره في المسا. أصرّ على أن يأخذني في جولة، أتعرف على معالم البيت، كما يتجول الإنسان في متحف. حمام السباحة... مهم جداً عنده أن يكون في الدار حمام سباحة. كان يحب السباحة، ويسبح مثل عجل البحر، «القِرنتي» كما نقول في السودان و«سيد قشطة» كما يقولون في مصر. ثم القراجات وموديلات السيارات. نقل عدداً منها بعد ذلك إلى «عزبته» في «ساوث هامتون». الحديقة... الأشجار... النباتات النادرة... المطابخ... جناح السواقين والعمال والشغيلة... الوصائف الفلبينيات...

«إيه دا كله يا دكتور؟ دي حكاية كبيرة بلْحيل...».
«عجبك؟ إيه رأيك أن دا كله ببلاش... علاوة على المرتب».

حتماً كانت الحياة تمزح معه، فالحياة فيما يبدو تعامل كل واحد على طريقته.

كان ذلك آخر عهدي به في المملكة. لم أره سعيداً كما رأيته تلك الليلة. يضحك ويضحك ويضحك. يحمل ابنه عبد العزيز، الذي يشبهه كأنه نسخة منه، خاصة حين يضحك.

احتفى بنا حفاوة عظيمة، وتهيأ له جمهور كبير في تلك الليلة، فانطلق لا يلوي على شيء، وأنا أساعده وأنبش ذكرياته، وأعطيه أطراف المواضيع.

«احكي لهم يا طيب احنا عملنا إيه في أستراليا. دا احنا عملنا عمايل... قول الحق. مش أنا اللي قلت لك على الشاب انه عربي... قلت لي خلّينا نروح في حالنا...؟».

جاءنا الشاب الفلسطيني في المساء، وأصبح دليلنا بعد ذلك طوال إقامتنا في «سدني». ومن أياديه علينا أنه عرفنا برجل لبناني، من هؤلاء الناس الذين حين تصادفهم، تحسن أن الحياة قد أسدت إليك جميلاً لا ينسى.

تسامع الناس بوجودنا في «سدني»، ولم يألُ «منسي» وسعاً، فأسبغ على رحلتنا أهمية أكبر بكثير مما تستحق. وكانت الجالية العربية من الخلاف والشقاق والتمزق بدرجة يُرثى لها، ولعلهم ظنوا أننا جئناهم مصلحين ووسطاء خير. وما كنّا في الحقيقة كذلك، فما من أحد طلب منا القيام بتلك المهمة، ولكن «منسي» كدأبه أبداً، وجد وضعاً يتيح له القيام بدور ما، دور رسول الوفاق وإصلاح ذات البين، فهبّ من توّه للنهوض به. والعرب في طبعهم الحنين إلى أهلهم وذويهم على البعد، ولكنهم فيما يبدو، لا يطيقونهم عن قرب. كنا غرباء، وقد كانوا لو يعلمون أكثر غربة منا، فرحّبوا بمقدمنا، كما يرحب المقيم بالوافد.

أصبح الناس يتوافدون علينا، وكان «منسي» يزداد سعادة مع كل زيارة، فكان في أحسن حالاته. إنه هنا، مرّة أخرى، الممثل الرئيسي

على مسرح واسع. والدور الذي يقوم به ليس هيّناً بل هو دور خطير، دور سفير الإصلاح، ورسول الوفاق. وكان صديقنا الفلسطيني يقف إلى جانبنا في أغلب الأحيان، يشد أزرنا ويعرّفنا على البلد والناس. والفلسطينيون بحكم وضعهم، وما فعلته الأقدار بهم أكثر من غيرهم حماسة لأن يكون العرب يداً واحدة، وإن كانوا هم أنفسهم ليسوا بمنأى عن الخلاف والشقاق.

جاءنا جورج سمعان وأخوه ميشيل، وهما لبنانيان، وقد كانا ولعلّهما ما زالا يصدران صحيفة باللّغة العربية، علمنا منهما أنها توزع ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف نسخة. كانت كما أذكر، صحيفة رصينة إلى حد كبير، تتوجه إلى الجالية العربية ككل، وتبتعد بقدر الإمكان عن مزالق الخلاف والفرقة. وقد شكيا لنا من ضعف الموارد وقلة الدعم، علماً بأنهما يقومان بجهد لا ينكر، في ربط الجالية العربية في أستراليا بعضها ببعض، وربطها بالوطن العربي. وقد بذلت ما في وسعي بعد عودتي في مساعدتهما، ولعلهما حصلا على بعض العون من دول الخليج.

زارنا أناس يعملون في مؤسسات الدولة، وآخرون يعملون أعمالاً حرة، وبعضهم يعمل في وسائل الإعلام والاتصال. ونحن سعينا للتعرف على إمام المسجد، ومطران الجالية المارونية في أستراليا.

إنني أذكر جيداً ذلك الإنسان الكريم. رجل بسيط وقور مطمئن النفس، قلبه عامر بالخير، عليه سمت أحبار النصارى الأقدمين، كما يصفهم القرآن الكريم. كان عالماً بالفقه والحديث وتاريخ الإسلام وكلام العرب، فقد نال درجة الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة السوربون. وقد ظل بعيداً عن الصراعات العربية وقاوم كل

وسائل الضغط والإغراء، كي ينحاز إلى فريق من الفرق المتحاربة في لبنان.

كان تعداد الجالية العربية تلك الأيام، زهاء ثلاثمئة ألف، أغلبهم في المدينتين الكبريين «سدني» و«ملبورن». وكان اللبنانيون أكثرهم عدداً، فقد بدأت هجرتهم إلى أستراليا منذ القرن الماضي، تحت وطأة الحروب والمجاعات، كما يحدث اليوم. بعضهم امتزج بالجاليات الأخرى الوافدة، وآخرون ظلوا يتشبثون بهويتهم اللبنانية، وكلهم يحمل حنيناً دفيناً لذلك الوطن الجريح. يأكلون الكبة والتبولة والشاورما، ويطربون لأغاني وديع الصافي وصباح وفيروز.

يليهم من ناحية العدد المصريون، وهؤلاء هاجروا حديثاً نسبياً، لم يقطعوا بعد روابطهم بمصر، يعودون إليها كلما استطاعوا، وتحس أنهم يفضلون العودة إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وبعضهم يعود بالفعل.

ثم الفلسطينيون. وهؤلاء كما هو معروف، تفرقوا في البلاد أيدي سبأ. خرجوا موجات موجات، كلّما ألّمت بهم قارعة في الوطن الأم، هاجروا طلباً للمأوى والأمن ولقمة العيش. تجدهم حيثما ذهبت، في كندا وأمريكا وفي كل بلاد أوروبا. على وجوههم شيء يميزهم عن بقية المهاجرين العرب. أكثر عزماً وأكثر حزناً وأكثر مرارة. يطوون أجنحتهم على حلم، يبدو لهم قريب المنال أحياناً، وعسيراً أحياناً.

وجدنا أيضاً أعداداً أقل من اليمنيين والسوريين والصوماليين والمغاربة

وبعض الأقباط السودانيين. ولا بد أن عدد السودانيين قد زاد الآن. وكلهم أصحاب خبرات ومهارات، وكثيرون منهم يحملون شهادات عالية في الطب والهندسة والزراعة وغيرها. وبعضهم أساتذة في الجامعات. ذلك لأن هذه البلاد لا تُدخل إليها إلا من تستطيع أن تستفيد منه.

وكأنما العالم العربي لم يكتف بما فعله بنفسه في عقر الديار، فلاحق هؤلاء المهاجرين بانقساماته وحزازاته وأباطيله. ولعلهم لو تركوا وشأنهم على الأقل، لعلّ الأحوال كانت تستقر بهم في هذا البلد البعيد. إنهم جميعاً غرباء هنا، مشغولون بهموم الحياة، وهم في نظر المجتمع الاسترالي شيء واحد. وربما كان ينتج منهم خير ينفع العالم العربي كله.

لكننا وجدنا صورة طبق الأصل للعالم العربي. الخلافات نفسها، والصراعات نفسها، والتفاهات نفسها. عالم يموج بعضه في بعض، يتلقى أصداء الحزازات والإحن والحماقات في الوطن الأم، إن صح القول، فكأنهم حيوانات فقدت حكمة البقاء الغريزي على الأقل. أو كمسافرين في سفينة تصارع الموج، وبعضهم آخذ بخناق بعض.

إلاّ أن إمام المسلمين ومطران المارونيين كانا على وفاق. كانا صديقين، يتزاوران ويتعاونان على البر والتقوى. لذلك كنا نجتمع بالناس في دار الإمام مرّة، وفي دار المطران مرّة.

يُقال إن الحال قد تغيّر الآن، في العالم العربي، وفي أستراليا بطبيعة الحال. يا ليت. لكننا سوف نصدّق حقاً، حين تضع الحرب أوزارها

في لبنان وفي السودان، وفي سائر بلاد العرب والمسلمين. حينئذٍ سوف تطيب الليالي لسمّارها، وتعود الطيور لأوكارها، وحتى ذلك الحلم العسير، حلم العودة إلى فلسطين لن يكون بعيد المنال.

نبذة عن المؤلف

- ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

- تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

- عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

- التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

ـ من مؤلفاته: **نخلة على الجدول، دومة ود حامد، عرس الزين، موسم الهجرة إلى الشمال، مريود وضو البيت.**

ـ متزوج وله ثلاث بنات.

الطيّب صالح

مختارات

٢

المضيئون كالنجوم: من أعلام العرب والفرنجة

RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٢

المضيئون كالنجوم: من أعلام العرب والفرنجة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ILLUMINATING LIKE THE STARS

By

El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب

محمود صالح عثمان صالح

First Published in March 2005

Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**

BEIRUT- LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21193-0

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: آذار/مارس ٢٠٠٥

الإهداء

إلى روح الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز. كان يتابع هذه المقالات ويشجعني على الكتابة ولِما لقيت منه من تقدير ولطف.

المحتويات

القسم الأول:

من أعلام العرب

الفصل الأول: من عبير الحديقة المباركة ١٣

الفصل الثاني: عمر بن الخطاب ٢١

الفصل الثالث: عبد الله بن عمر ٤٥

الفصل الرابع: من فيوض العارفين ١٢١

الفصل الخامس: المضيئون كالنجوم ١٥٣

القسم الثاني:

من أعلام الفرنجة

الفصل الأول: اللورد بتلر ١٩١

الفصل الثاني: ساميول بيبز ٢٠١
الفصل الثالث: أي. ج. تيلور ٢١٧
الفصل الرابع: مايكل آدمز ٢٢٣
الفصل الخامس: ريتشارد كمب ٢٣٣
الفصل السادس: فيرناند برودل ٢٣٩
الفصل السابع: مارسيل بروست ٢٧٧
الفصل الثامن: رولان بارت ٢٩٧
الفصل التاسع: ميشيل فوكو ٣٠٧

القسم الأول

من أعلام العرب

الفصل الأول

من عبير الحديقة المباركة

إنه كلام قديم، ولكن الأيام لا تنقص من جدته ورونقه شيئاً. كيف لا، وهو من أثر الإنسان الكامل، سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:
«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله حين يلقاه جبريل، أجود بالخير من الريح المرسلة».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله إذا دخل العشر (أي العشر الأواخر) أحيى الليل وأيقظ أهله وشد المئزر».

وعن مُعاذة القدرية أنها سألت عائشة أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، قالت (نعم) وسألتها من

أي الشهر كان يصوم، فقالت عائشة رضي الله عنها «لم يكن يبالي من أي الشهر كان يصوم».

وعن أنس رضي الله عنه قال:
«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئاً. وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلّا رأيته، ولا نائماً إلّا رأيته».

وعن مجيبة الباهلية أن أباها أو عمها أتى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تغيرت هيئته وساء حاله فقال:
«يا رسول الله أما تعرفني؟» قال له: «ومن أنت؟» قال «أنا الباهلي الذي جاءك عام أول»، قال له الرسول «فما غيّرك، وقد كنت حسن الهيئة»؟ قال: «ما أكلت طعاماً منذ فارقتك إلّا بليل». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عذبت نفسك. صم شهر الصبر، ويوماً من كل شهر». قال الرجل: «زدني فإن بي قوة»، قال: «صم يومين»، قال الرجل: «زدني» قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «صم ثلاثة أيام» قال: «زدني» قال الرسول: «صم من الحرم واترك، صم من الحرم واترك».
هذا وشهر الصبر هو رمضان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي (يعني الرسول صلى الله عليه وسلم) بثلاث. صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام».

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات

فتُميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء».

وعنه أيضاً أن الرسول جاء إلى سعد بن عُبادة فجاءه بخبز وزيت فأكل، ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة».

يفطر بتمرات وحسوة ماء، أو بخبز وزيت، فلم يكن نعيم الدنيا من همه، وكذلك فعل أصحابه رضوان الله عليهم تأسياً به.

وفي «الحلية» للحافظ أبي نعيم الأصفهاني، عن زيد بن أرقم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه استسقى فجيء له بإناء فيه ماء مُزج بالعسل، فلما أدناه من فمه وعلم ما فيه بكى بكاء شديداً، ثم مسح وجهه وأفاق فسألوه عن سبب بكائه فقال: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عنه شيئاً ويقول: «إليكِ عني، إليكِ عني». ولم أر معه أحداً فقلت: «يا رسول الله، أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً»، قال: «هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها إليكِ عني، فتنحت وقالت: (لئن انفلتَّ مني لا يفلت مني من بعدك)، فذاك الذي أبكاني».

■ ■ ■

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يتلوى ما يجد من الدقَل ما يملأ به بطنه». والدقل، بفتح الدال والقاف، نوع رديء من التمر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تُوفّي رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلّا شطرُ شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ..».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير».

وعن عروة بن الزُبير عن عائشة أنها كانت تقول: «واللهِ يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلّة، وما أُوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار» قلت: «يا خالة فما كان يُعيشكم؟» قالت: «الأسودان، التمر والماء، إلاّ أنه كان لرسول الله جيران من الأنصار، وكانت لهم منايح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها، فيسقينا».

وعنها أيضاً أنها قالت: «ما شبع آل محمد من طعام البِر ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبِضَ».

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات».

وعن جابر رضي الله عنه قال:
«إنّا كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت صخرة شديدة فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فخبّروه فقام ونزل وبطنه معصوب بحجر، وكنا لبثنا ثلاثة أيام لم نذُق شيئاً، فأخذ النبي المعول فضرب الصخرة فتفتت.

فقلت: «يا رسول الله إئذن لي إلى البيت». فقلت لامرأتي: «رأيت

في النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ما في ذلك صبر فهل عندك شيء؟» قالت عندي شعير وعناق (أي شاة صغيرة). فذبحت العِناق، وطحنت الشعير وجعلنا اللحم في البرمة.

ثم جئت النبي والعجين قد انكسر والبُرمة بين الأثافي قد كادت تنضج. فقلت، طعيم لي (أي طعام قليل) فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: «كم هو؟»، فوصفته له. فقال: «كثير، قل لها لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي». ثم قال: «قوموا»، فقام المهاجرون والأنصار فدخلت على زوجتي، فقلت لها: «ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون والأنصار».

قالت: «هل أعلمته»؟ قلت: نعم. وجاء النبي وأصحابه وقال لهم «ادخلوا ولا تضاغطوا»، فجعل يكسر الخبز ويضع عليه اللحم، ويجمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا وبقي منه. ثم قال لامرأة جابر «كلي (من هذا) وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لقد رأيت سبعين من أهل الضعة ما منهم رجل عليه رداء، إما أزار وإما كساء وقد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعهم بيده كراهية أن تُرى عورته».

ومن خطبة للصحابي عتبة غزوّان وكان والياً على البصرة أنه قال: «لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لنا طعام إلّا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا. فالتقطتُ بُردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك. فازرت بنصفها واتّزر سعد بنصفها. فما

أصبح اليوم منا أحد إلّا وهو أمير على مصر من الأمصار. وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً».

ورُوي أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام لإفطاره وكان صائماً فنظر إليه وقال: «قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فلم يوجد له ما يُكفن فيه إلّا بردة إن غُطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غُطيت رجلاه بدا رأسه. ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، حتى خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا».

قالوا، وجعل يبكي ولم يقرب الطعام.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «نام الرسول صلى الله عليه وسلم على حصيرٍ فقام وقد أثر على جنبه. قلنا: «يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً». فقال: ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلّا كواكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

■ ■ ■

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال الصالحة، فستكون فتن كقطع الليل المظلم يُصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً وُيصبح كافراً، يبيع دينه بغرض من الدنيا».

وعن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذَر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

فيما روى عن الله سبحانه وتعالى أنه قال:
«يا عبادي إني حرّمتُ الظلم على نفسي وجعلتُه بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلّا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلّا من كسوته فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلّا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر.

يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلّا نفسه».

قال سعيد «كان أبو إدريس إذا حدّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه. ورووا أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال: «ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث».

وعن أبي ذر قال:
«قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد

في سبيله»، قلت: «أي الرقاب أفضل»؟ قال «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً» قلت: «فإن لم أفعل؟»، قال: «تُعين صانعاً أو تصنع لأخرق».

قلت:
«يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟». قال: «تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك».

وعنه أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:
«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق».

وعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه:
«أتدرون من المفلس»؟ قالوا: «المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع»، فقال: «إن المفلس من أُمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار».

وعن جرير بن عبد الله أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

هذا، وقد روى أنس رضي الله عنه، يصف تواضع الرسول الكريم ورِفْقه قال:
«إن كانت الأمَة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت».

الفصل الثاني

عمر بن الخطاب

جاء في الأثر، أن راعييْن في شعاب الجبال فوق مكة، قال أحدهما لصاحبه:

«أما علمت أن ذلك الأعْسر الأيْسر، قد صار خليفة للمسلمين؟».
«الذي كان يصارع الناس في سوق عكاظ؟».
«نعم، هو ذاك».

فقال الراعي:
«أما والله ليوسعنَّهم خيراً أو ليوسعنّهم شراً».

وقد أوسعهم خيراً، حتى أصبح يُضرب به المثل في تاريخ الإنسانية، لأنه منذ أيامه تلك في سوق عكاظ، حدثت له ثورة روحية زلزلت كيانه، وثاب إلى المعلم الربّاني، الذي أدّبه فأحسن تأديبه. صار،

كما وصف أبو عثمان النهدي «والذي لو شاء أن تنْطق قنانيَّ هذه نطقتْ، لو كان عمر بن الخطاب ميزاناً، ما كان فيه ميْط شعرة».

كان، كما حدّثوا، طويلاً، حتى إذا مشى حافياً، يُشرف على الناس كأنه راكب على دابة. أبيضَ مشرباً بحُمرة. وقد اسودّ وجهه في عام الرّمادة، لأنه حرّم على نفسه الّلحم واللبن، فوصفه بعض الرواة أنه كان (آدم).

كان أعسر أيسر، يعمل بكلتا يديه، أصلع شديد الصلع، أشيب، جسيماً، إذا استلقى، يخلف إحدى ساقيه على الأخرى، وإذا غضب يمسك بلحيته إلى فمه وينفخ فيها. كان ناسكاً يصوم الدهر، لكنه، كما وصفوا، إذا مشى أسرع وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع.

وما أحسن ما رُوي عن سالم بن عبد الله بن عمر. قال: «كان عمر ابن الخطاب وعبد الله بن عمر، لا يُعرف فيهما البرّ، حتى يقولا أو يفعلا». عنى أنهما لم يكونا يتظاهران بالبر، ولكن أقوالهما وأفعالهما كانت تخبر عنهما.

رووا عن عبد الله بن عمر أنه قال «إنما جاءتنا الأُدمة من قبل أخوالي، وجاءني البُضْعُ من أخوالي، فهاتان الخصلتان لم تكونا في أبي رحمه الله. كان أبي أبيض لا يتزوج النساء لشهوة إلّا لطلب الولد».

أمُّ عبد الله، وعبد الرحمن وحفْصة أم المؤمنين، هي زينب بنت مظعون من بني جُمَح. أما عمر، فأخواله بنو مخزوم، أمه حَنْتَمة

بنت هاشم ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ولم يرث شيئاً من زهوهم، فقد عُرفوا بالعنجهية.

وإن كان ورث منه شيئاً فقد محاه أنه أخذ نفسه بالشدة وأذلّها إذلالاً. وقد ذكر ابن سيرين أن عمر بن الخطاب قال:

«ما بقي فيّ شيء من أمر الجاهلية إلّا أني لست أبالي إلى أي الناس تزوجت وأيّهم زوّجت».

هذا، ولعله عزل خالد بن الوليد لما ظنه فيه من زهو بني مخزوم. وحدثوا أنه قال:

«لأعزلنّ خالد بن الوليد والمثنّى، مُثنّى بني شيبان، ليعلما أن الله إنما كان ينصر عباده وليس إياهما كان ينصر».

لكنه رأى من سلوك خالد بعد عزله، وأنه لم يترفع أن يقاتل بين صفوف المسلمين، جندياً من عامة الناس، راجع نفسه وقال:

«رحم الله أبا بكر، كان أعلم بالرجال مني».
وحين مات خالد، وولولت عليه نساء مخزوم، قال «دعوا نساء مخزوم تبكي على أبي سليمان».

هذا، ومن بعض ما وصفوا عن إذلال عمر لنفسه، أنه صعد المنبر فجأة ذات يوم وقال: «أيها الناس. لقد رأيتُني وما لي شيء آكله. إلّا أن خالات لي من بني مخزوم كنت أستعذب لهن الماء ـ وفي رواية أرعى لهن الغنم ـ فكن يقبضن لي القبضات من الزبيب، وفي

رواية يجدن عليَّ ببعض اللبن. ثم نزل عن المنبر. فقيل له «ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟»، فقال «وجدتُ في نفسي زهواً فأردت أن أطأطىء منها».

وذكروا أنهم سمعوه يقول على المنبر «وددت أن عندنا حصفة أو حصفتين من جراد، فأصبنا منه».

وروى إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن يونس عن حميد بن هلال، أن حفص بن أبي العاص كان يحضر طعام عمر، فكان لا يأكل، فقال له عمر: «ما يمنعك من طعامنا؟» قال «إن طعامك جَشبُ غليظ، وإني راجع إلى طعام لين قد صُنع لي فأصيب منه». فقال عمر «أتراني أعجز أن آمر بشاة فيلقى عنها شعرها، وآمر بدقيق فيُنْخل في خرقة، ثم آمر به فيُخبز خبزاً رقاقاً، وآمر بصاع من زبيب فيُقذف في سُعن، ثم يصب عليه من الماء فيصبح كأنه دم الغزال؟»، فقال حفص «إني لأراك عالماً بطيب العيش». فقال عمر «أجل. والذي نفسي بيده لولا أن تنْتَقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم».

أجل، كان أمره عجباً في هذا، يتأسى بصاحبه أبي بكر، ومعلمه الرسول الكريم. وهو حديث لا يُملّ على أنه مُعاد. ما زال طازجاً عبر القرون. تقرؤه أو تسمعه، فكأنك تسمعه لأول مرة.

رووا أن ابنته حفصة أم المؤمنين قالت له: «يا أمير المؤمنين. إنه قد أوسع الله في الرزق وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير. فلو طعمت طعاماً ألين من طعامك، ولبست لباساً ألين من لباسك». فقال لها «سأخاصمك إلى نفسك. أما تذكرين ما كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يلقى من شدة العيش؟» فما زال يذكرها حتى أبكاها، ثم قال: «إني والله لئن استطعت لأشاركنّهما عيشهما الشديد، لعلي ألقى معهما العيش الرّخيّ». عنى الرسول وأبا بكر.

هذا الموقف تكرر على وجه آخر، بين عمر وأبي عبيدة بن الجرّاح. كان عمر يُؤثره ويقول: «إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي، استخلفته. فإن سألني الله عزَّ وجل لمَ استخلفتُه قلت: «إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، أبو عبيدة أمين هذه الأمة».

وقد دعا عمر بعض أصحابه أن يتمنوا على الله، فكل منهم تمنى ما شاء. أما هو فقال: «أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة».

روى أشياخنا أن عمر حين قدم الشام، تلقاه قادة الجند والرؤساء، وقد بدا عليهم ما أصابهم من خير الشام. ونظر فلم يرَ أبا عبيدة، فقال: «أين أخي؟» قالوا «من؟» قال «أبو عبيدة». فلما جاءه نزل فاعتنقه، ثم دخل بيته، فلم يجد فيه غير سيفه وترسه ورحْله. فقال له عمر «ما منعك أن تتخذ ما اتخذ أصحابك؟» فقال أبو عبيدة «يا أمير المؤمنين. هذا يبلغني المقيل».

بذلك ذكّره بما أوصاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم. وزاد أشياخنا أن عمر وأبا عبيدة رضوان الله عليهما، ظلا يتذكران ويتباكيان إلى أن طلع الفجر.

■ ■ ■

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما تواترت الروايات عنه، على وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء، أجل، بكى من خشية الله، وبكى من فداحة العبء الذي نهض به. وعندي، أنه بكى أيضاً من الوحشة.

رحل حبيبه وصديقه ومعلمه الذي قال له وهو خارج إلى العمرة «لا تنْسنا من دعائك يا أخي». فقال عمر «ما وددت أن لي بها حمْر النعم أن قال لي يا أخي». ورووا أنه في تلك الرحلة وضع ساقاً على ساق فوق راحلته، وأطلق عقيرته بالغناء، وكان حسن الصوت:

وما حَملتْ من ناقة فوقَ رحْلها
أبرَّ وأوفى ذمّةً من محمد

هيهات الآن يا أبا حفص، تلك الساعات الوضيئة، في حضرة ذلك الإنسان النوراني.

ورحل صاحبه أبو بكر. كانا في الحب فَرَسَيْ رهان، وعمر يقرُّ لأبي بكر بالسبق في الصحبة والفضل. ولما اختار الله رسوله إليه، كان كل واحد منهما يجد بعض العزاء في صاحبه عن ذلك الفقد الفادح. ثم رحل أبو بكر. وسوف يمتد الأجل بأبي حفص، حتى يرى الدنيا تفتح خزائنها ويكون ذلك بلاءً فوق بلاء.

رووا عن عبد الله بن عباس أنه قال «دعاني عمر بن الخطاب فأتيتُه فإذا بين يديه نِطْع عليه الذّهب منثوراً. فقال لي «هلمّ فاقسم هذا بين قومِك، فالله أعلمُ حيثُ زوى هذا عن نبيّه عليه السلام وعن أبي بكر، فأُعطيتُه لخير أو أُعطيتُه لشر» قال، فأكببتُ عليه أقسمُ وأزيّل، فسمعت البكاء، فإذا صوت عمر يبكي ويقول «كلاّ والذي

نفسي بيده، ما حبّسه عن نبيه عليه السلام وعن أبي بكر، إرادة الشرّ لهما وأعطاه عمر إرادة الخير له».

كان على قوته وشدّته، رقيق القلب، غزير ماء العين، متواصل الأحزان. في عزِّ الزمان الجميل، بكى حرقة على الزمان الأجمل.

رأى الإمارة بلاء، وكان أول ما قال، كما روى حُميد بن هلال، قال:

«أخبرنا من شهد وفاة أبي بكر الصديق، أن عمر لما فرغ من دفنه، نفض يده عن تراب قبره، ثم قام خطيباً مكانه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبي. فوالله لا يحضرني شيء من أمرِكم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن الجزء والأمانة. ولئن أحسنوا لأحسننّ إليهم، ولئن أساءوا لأنكلنّ بهم». قال الرجل: فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الحياة.

كان ذلك عام ثلاثة عشر من الهجرة. وفي عام تسعة وتسعين، قدّر الله أن يجيء من ذرية الفاروق، إمام آخر صالح، على فترة من الأئمة الصالحين. قام المقام نفسه، وقال المقالة نفسها.

حدّثوا أن عمر بن عبد العزيز، حين فرغ من دفن سليمان بن عبد الملك، وخرج من قبره، سمع للأرض رجّة. فقال، ما هذا؟ قالوا مراكب الخلافة. فقال «ما لي ولها. نحّوها عني، وقرّبوا إليَّ بغلتي».

فصرفوا الخيل وجاءوا له ببغلته فركبها، فإذا صاحب الشرطة يسير

بين يديه بالحرْبة. فقال «تنحّ عني ما لي ولك؟ إنما أنا رجل من عامة المسلمين». فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد. فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وترحّم على سليمان، ثم قال:

«أيها الناس. إني قد ابتُليتُ بهذا الأمر، من غير رأي كان مني فيه، ولا طلْبة له ولا مشورة من المسلمين. وإني قد خَلعتُ ما في أعناقكم من بيْعتي، فاختاروا لأنفسكم».

قالوا، فصاح الناس صيحة واحدة «قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فتولّ أمرنا باليُمن والبركة».

فلما رأى أنهم غيرُ تاركيه، وأنهم أجمعوا عليه، لبث حتى هدأت الأصوات، ثم قام فخطب فيهم خطبة جاء فيها:

«... إن هذه الأمّة لم تختلف في ربّها عزّ وجل ولا في نبيّها صلى الله عليه وسلم ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم. وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقاً».

قالوا إن عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة، ضيق على بني أُمية، ونزع منهم الأرض والأموال التي منحهم إياها الخلفاء قبله، فلجأوا إلى عمته أم عمر بنت مروان، فدخلت عليه فقالت: «إن قرابتك يشكونك، ويزعمون أنك أخذت منهم خيْر غيرك». قال «ما منعتُهم حقاً». فقالت «إني رأيتهم يتكلّمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً. فقال لها: «كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا وقّاني الله شره». فخرجت إليهم وقالت «تتزوّجون في آل عمر بن الخطاب فإذا نزعوا إلى الشّبه جزعتم».

كان يحذو حذْو جدّه لأمه، وكان مثله متّصل الدمع كثير الأحزان. عن محمد بن زيد قال: اجتمع علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. فقالوا لعبد الرحمن بن عوف، وكان أجرأهم على عمر بن الخطاب «لو كلّمت أمير المؤمنين للناس، فإنه يأتي الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيبتُه أن يكلمه، فيرجع ولم يقض حاجته». فدخل عليه عبد الرحمن فقال له ذلك، فقال له عمر «أنشدُك الله، أعلي وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا؟»، قال «اللهم نعم». فقال عمر «والله يا عبد الرحمن، لقد لنْتُ للناس حتى خشيت الله في اللين، واشتديت عليهم حتى خشيت الله في الشدة فأين المفرّ؟»، ثم أخذ يبكي. فقام عبد الرحمن يبكي يجر رداءه ويقول «أفّ لهم بعدك! أفّ لهم بعدك!».

كان إسلامه كما وصفوا فتحاً. وكانت هجرتُه نصراً. وكانت إمارته رحمة. وكان على وجهه خطان أسودان من كثرة ما بكى في جوف الليالي من خشية الله. وكذلك بكى من الوحشة على فراق صاحبيه في الزمان الجميل.

■ ■ ■

لبث الفاروق رضي الله عنه بعد صاحبيْه، حتى رأى الدنيا تفتح خزائنها، فخاف على نفسه وعلى المسلمين، وكأن الثراء الوافد، طوفان يخشى أن يغرقه ويفرق الناس. كان يقيس ذلك بما عهده من معلّمه الرباني في بواكير الزمان الجميل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان يمر بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم، هلالٌ ثم هلالٌ ثم هلالٌ لا يوقد في بيت من بيوته

نار، لا لخبز ولا لطبيخ». قالوا «بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة؟» قال «بالأسودين، التمر والماء».

ورووا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت «إني لجالسة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهدى لنا أبو بكر رِجْلَ شاة. فإني لأقطعها مع رسول الله في ظُلمة البيت». فقيل لها «أما كان لكم سراج؟» قالت «لو كان لنا زيت يُسرج به لأكلناه».

وحدَّث إياس الهُذليّ قال «كان عبد الرحمن بن عوف لنا جليساً، وكان نعم الجليس. فسرنا معه ذات يوم إلى داره، فأتانا بجفنة فيها خبز ولحم. فلما وُضعت بكى عبد الرحمن. فسألناه عن سبب بكائه فقال: «فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خُبز الشعير. ولا أرانا أُخِّرنا لهذا لما هو خير لنا».

كذلك كان يرى أبو حفص، وكل أولئك الرّهط الذين شربوا من النبع الصّافي أول العهد. وكان شأن عمر في ذلك عجباً. كان كلما رأى المال يتدفق على المدينة، يزداد حزنه وجزعه، ويظنه بلاء يبتليه الله به.

أبقاه الله بعد صاحبيه، ليرى ظل الإسلام يمتد إلى بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر. وذكروا أن خراج العراق وحده، بلغ على عهد عمر، أكثر من مائة ألف ألف درهم، وعشرين ألف ألف (أي مائة وعشرين مليوناً).

نرى عمر بن الخطاب في سنوات الرخاء تلك، قلقاً، متوجّساً خيفة،

مشمّراً عن ساعديه، مستجمعاً طاقته كلها، وكأن الخير الذي انهمر على المسلمين في عهده، بلاء كالبلاء الذي أصابهم بعد ذلك في عام الرّمادة.

جلس للمال يقسمه بالعدل والقسطاس، حتى إنه أعطى الرقيق وأعطى الذّمي وأعطى اللّقيط.

فرض لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، خمسة آلاف درهم لكل واحد منهم، وساوى بهم حلفاءهم ومواليهم. وفرض لمهاجرة الحبشة ومن شهد أُحداً، أربعة آلاف لكل واحد منهم. وفرض لأبناء البدريّين ألفين ألفين. وفرض لقرابة الرسول خمسة آلاف لكل واحد منهم، وفي رواية سبعة آلاف. وأعطى أمهات المؤمنين، كل واحدة، اثني عشر ألفاً.

كان يحمل بنفسه أعطيات أهل البادية إليهم في أماكنهم. قال حزام بن هشام الكعبي عن أبيه «رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خُزاعة، حتى ينزل قُديداً، فنأتيه بقديد، فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيّب فيعطيهن في أيديهن. ثم يروح فينزل عُسفان، فيفعل مثل ذلك، حتى توفّاه الله».

كان يقول «لأزيدنّهم ما زاد المال. لأعدّنّه لهم عداً، فإن أعياني لأكيلنّه لهم كيلاً، فإن أعياني، حثوْتُه لهم حثواً».

روي عن أبي هريرة رضي الله أنه قال «قدمت على عمر من البحرين، فلقيتُه في صلاة العشاء الآخرة، فسلّمتُ عليه، فسألني عن الناس، ثم قال لي «بم جئت؟». قلت «جئتك بخمسمائة ألف

درهم». قال: «هل تدري ما تقول؟» قلت «مائة ألف، مائة ألف، حتى عددتُ خمساً». قال «إنك ناعس، فارجع إلى أهلك فنَم، فإذا أصبحت فأْتني». قال أبو هريرة «فغدوتُ عليه فقال «ماذا جئت به؟» قلت «جئتُ بخمسمائة ألف درهم». قال عمر «أطيّب هو؟» قلت: «نعم، لا أعلم إلّا ذلك». فقال عمر للناس «إنه قدم علينا مال كثير، فإن شئتم أن نعدّ لكم عدّاً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً».

وذكروا أن رجلاً قال له «يا أمير المؤمنين، إني رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً يعطون الناس عليه». فجعل ديواناً.

وتُروى هذه القصة من وجه آخر، أن أبا هريرة حين قال له ما قال، بكى عمر وأجهش بالبكاء، وقال «أما كان هذا عند الله حين كان محمد وأبو بكر يأكلان القدْ؟» والقدّ جلدٌ يابس، كانوا يشوونه ويأكلونه، إذا لم يجدوا ما يؤكل.

إنْ كان عمر قد قال ذلك، فما ذاك إلّا أنه خشي على نفسه، أن يكون الله قد منع المال عن صاحبيْه، رحمة بهما، وأعطاه إياه ابتلاءً له.

وفي رواية أن الذي أشار عليه بتدوين الديوان، هو هشام بن المغيرة، فأخذ برأيه، ودعا عقيل بن أبي طالب، ومَخْرمه بن نوفل، وجُبير ابن مطعم، وكانوا من نُسّاب قريش، وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم، فبدأوا ببني هاشم، وأتبعوهم قوم أبي بكر، ثم عمر وقومه. فلما عرضوه على عمر قال:

«وددْتُ والله أنه هكذا. ولكن أبدأوا بقرابة النبي صلى الله عليه

وسلم، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله».

هذا، وكان الفاروق رحمه الله، يثوب عن كل هذا المال إلى داره، فيأكل كما وصف أبو موسى الأشعري، قال:

«قدمنا على عمر في وفد أهل البصرة، فكنّا ندخل عليه كل يوم، فإذا له خُبزٌ ثلاث، فربما وافقناها مأدومة بزيت، وربما وافقناها بسمن، وربما وافقناها باللبن، وربما وافقناها بالقدائد اليابسة قد دُقّت ثم أُغليَ بها، وربما وافقنا اللحم الفريض وهو قليل».

كان جلّ همّه أن يلحق بصاحبيْه، ويخرج من الدنيا، كما قال، كفافاً، لا له ولا عليه وقد اختطّ لنفسه خُطّة، لم يستطعها إلّا القليلون، حتى في ذلك الزمان، والناس قريبو عهد بمنبع الضوء، فكيف بنا في هذا الزمان؟

إنها قصة على قدمها، غضة طريفة، كأننا نسمعها لأول مرة، تثير الشجى، لأنها تتعلّق بالهدف الأسمى، وهيهات لنا أن نقترب من تلك الأعالي!

■ ■ ■

تعجب لذلك الإنسان، وكلُّ أحواله عجب، ألا يستقرُّ أبداً؟ ألا يُريح جسده؟ ألا تُغمض عينه؟ يقفز من بين السطور في كتب السِّير، يركض على الصفحات ركضاً. بينما تراه واقفاً يَعِظُ في مسجد رسول الله، إذا هو في بيت المال، باركاً على ركبتيه، حاسراً عن رأسه، مشمراً عن ساعديه، يعدُّ ويقسّم. ثم إذا هو يجيّش

الجيوش الجرارة، ويتابع سير المعارك على بعد آلاف الأميال، لا تخفى عنه صغيرة ولا كبيرة، والرّسل يغْدون ويروحون، بينه وبين ساحات القتال، وكأنه وحده «غرفة عمليات حربية».

يتجول في الأسواق يحمل درّته، ويطوف في البوادي، يعطي بنفسه كل ذي حق حقّه في يده.

ثم تجده يسعى في طرقات المدينة في جوف الليل، مثل طيف رحيم، يتنصت على بكاء الأطفال، وآهات الأيامى، وشكوى النساء اللائي غاب أزواجهن عنهن في ميادين القتال. أحياناً بمفرده، وأحياناً برفقة بعض أصحابه.

حدّثوا عن عبد الله بن نافع عن أبيه عن عبد الله بن عمر، قال:

«قدِمتْ رفقةٌ من التجار، فنزلوا المُصلى، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف «هل لك أن نحرسهم الليلة من السَّرَق؟» فباتا يحرسانهم ويصليان ما شاء الله لهما. فسمع عمر بكاء صبي، فتوجه نحوه، وقال لأمه «يا أمةَ الله، اتّقي الله والتفتي إلى صبيك». ثم عاد إلى مكانه فلم يلبث أن سمع بكاء الصبي، فعاد إلى أمه، فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه.

فلما كان من آخر الليل، سمع بكاءه، فأتى أُمه فقال «ويحك، إني لأراك أم سوء. ما لي أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة؟»، فقالت له المرأة «يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة إني أُريغه عن الفطام فيأبى». قال «ولِمَ؟» قالت «لأن عمر لا يفرض إلاّ للفُطّم». قال «وكم له؟» قالت «كذا وكذا شهراً». قال لها عمر «ويحك لا تعجليه».

قال، فصلّى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلّم قال: «يا بُؤْساً لعمر! كم قتل من أبناء المسلمين!»، ثم أمر منادياً فنادى «لا تعجلوا أبناءكم على الفطام، فإنّا نفرض لكل مولود في الإسلام». وكتب بذلك إلى الآفاق.

كان حاله من الخشية، حال رجل يحسب أنْ لو هلك جملٌ على شط الفرات، فهو مسؤول عنه.

ثم تراه يتقصى أخبار الناس في أطراف الجزيرة، فيتضح لك أكثر جانبُ الرحمة والحُنوّ في طبيعة عمر، فكأنه أمّ رؤوم. حدّثوا أن خالد ابن عُرفطة العذري قدم على عمر، فسأله عما وراءه، فقال:

«يا أمير المؤمنين، تركتُ مَنْ ورائي، يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم. ما وطىء أحد «القادسية إلّا وعطاؤه ألفان، أو خمسة عشر مائة (ألف وخمسمائة). وما من مولود يولَد إلّا أُلحق على خمسمائة أو ستمائة. فإذا خرج هذا لأهل بيت، فما ظنّك بهم؟ فإنهم ليُنفقونه فيما ينبغي وفيما لا ينبغي».

فقال عمر «الله المُستعان. إنما هو حقهم، وأنا أسْعد بأدائه إليهم، منهم بأخذه. فلا تحمدنّي، فإنه لو كان من مال الخطّاب ما أُعطيتموه. ولكني قد علمتُ أن فيه فضلاً، ولا ينبغي لي أن أحبسه عنهم. فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العُرَيْب ابتاع منه غنماً فجعلها بسوادهم، ثم إذا أخرج العطاءُ، الثانية، ابتاع الرأس فجعله فيها، فإني ويحك يا خالد بن عُرفطة، أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاةٌ لا يُعدّ العطاء في زمانهم مالاً، فإن بقي أحدٌ منهم، أو أحدٌ من ولده، كان لهم شيء قد اعتقدوه فيتّكئون عليه».

لعلّه لو امتدّ به الأجل، كان يعطيهم قدْر حاجتهم، ويحبس الفضول في بيت المال، لينفق منها وقت الضرورة فقد كان ينحو إلى ذلك. وما أجمل هذه القصة، من قطعة فنية اكتملت فيها عناصر التأثير كلها، وما أبلغ قوله (هؤلاء الغُريْب). لم يقلّل من شأنهم، إنما قال ذلك بدافع الحب والرحمة، فكأنهم فلذات كبده. تراهم بعين خيالك، في خيامهم وبين إبلهم وأغنامهم، يعيشون مطمئنين تحت ستر الله، ترعاهم عينٌ لا يغمض لها جفن.

ثم تراه وحده أواخر الليل، منبثقاً من طيات الظلام مثل طيف كريم. تعلم أنه قد بذل قصارى جهده وأكثر، في ذلك اليوم. ولن يهجع حين يهجع الناس، فما زال أمامه بعد، قيام وتهجُّد ودموع.

قال الراوي، إن عمر دخل المسجد بعد صلاة العشاء بزمن، فوجد نفراً من أصحاب رسول الله يتذاكرون، فيهم الصحابي الجليل أُبيّ ابن كعب. قال عمر «ما خلّفكم بعد الصلاة؟»، فقال أبيّ «جلسنا نذكر الله» فجلس عمر معهم، ثم قال لأدناهم (خُذْ) ـ أي قلْ. ثم استقرأهم رجلاً رجلاً، حتى وصل إلى الجالس بجواره.

قال الرجل «فحُصرت وانعقد لساني وأخذني من الرّعدة، حتى جعل يجد مسّ ذلك مني». فقال: «ولو أن تقول اللهم اغفر لنا، اللهم ارحمنا». ثم أخذ هو، فلم يكن في المجلس أكثر دمعة ولا أشد بكاء منه. ثم قال «أيها. الآن فتفرّقوا».

ثم تجده بين الحزم واللين، في تلك الرسالة البليغة التي وجهها إلى أبي موسى الأشعري، وكان قد ولّاه على البصرة.

كان أبو موسى، صحابياً جليلاً ورعاً. وكان عذب الصوت في تلاوة القرآن. وقد رووا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «إن عبد الله بن قيس (الأشعري) أُعطي مزماراً من مزامير آل داوود». وكان عمر يُقدّره ويحترمه وما كان متّهماً عنده. وذكروا أن أبا موسى حين ترك ولاية البصرة، لم يكن يملك غير ستمائة درهم هي عطاء عياله. إلّا أن عمر رحمه الله كان يحرص على أولئك الرهط من الصحابة، حرصه على نفسه.

وهي رسالة طويلة جاء فيها:

«وقد بلغ أمير المؤمنين، أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك، ليس للمسلمين مثلها. فإيّاك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب، فلم يكن لها همّ إلّا السِّمَن، وإنما حتفُها لو تعلم، في السِّمن».

■ ■ ■

امتحن الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أول مرة بالرخاء الذي غمر الناس في عهده. ثم امتحنه بالمجاعة. فجأة حبست السماء الغيث. طيلة تسعة أشهر لم تنزل قطرة من المطر. اسودّت الأرض ويبست، وأصبحت الريح تذرو غباراً كالرماد. لذلك سموه عام الرمادة. مات الزرع وهلكت الماشية، ولم يجد الناس ما يأكلون، فأكلوا اليرابيع والجرذان، وطحنوا العظام فسفوها.

نستطيع أن نتخيل ما أصاب أبا حفص من هلع على المسلمين، ونحن نعلم شدة إحساسه بالمسؤولية. حتى تلك الكارثة الطبيعية،

خشي أن يكون مسؤولاً عن حدوثها، بوجه من الوجوه.

رُوي عن عبد الله بن عمر أنه قال «كان عمر بن الخطاب أحدث في عام الرمادة أمراً ما كان يفعله. كان يصلي بالناس العشاء، ثم يأتي بيته فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل. ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليها. وإني لأسمعه يدعو في السحر ويقول (اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي)».

نراه الآن في أقوى حالاته، وإن كان في أضعف حالاته. وقف شامخاً كالجبل، بدأ بنفسه، وألزمها ضروباً من التقشف والزهد فوق ما كان قد فرضه عليها أصلاً. وكان الإنسان يظن أن ليس فوق ذلك من مزيد. حتى مزق اللحم التي كان يتقوى بها من حين إلى حين حرمها على نفسه.

قال محمد بن يحيى بن حبّاب «جيء لعمر بن الخطاب بخبز مفتوت بسمن عام الرمادة، فدعا رجلاً بدوياً يأكل معه. فجعل البدوي يتبع باللقمة الودك في جانب الصحفة. فقال له عمر (كأنك مقْفر من الودك). قال: (أجل. ما أكلت سمناً ولا لحماً ولا رأيت آكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم). فأقسم عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس».

لم يقرب زوجة، ولم يذق النوم إلّا غراراً. ظل واقفاً يحمل العبء ـ ويا له من عبء ـ غادياً رائحاً، ضارعاً باكياً، ووجهه يسودّ من الجوع والهم، والأخدودان عليه يزدادان عُمقاً لكثرة ما أراق من الدمع.

رحم الله الفاروق. حدّث أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: «لو لم يرفع الله المحْل عام الرمادة، لظننا أن عمر يموت همّاً بأمر المسلمين».

هجر الناس مواطنهم، وجاءوا فأحاطوا بالمدينة عاصمة الدولة، كما يفعل الناس في المجاعات طوال التاريخ. كان عمر يرى ما أصابهم من الهزال، ويرى جنائزهم تخرج بالعشرات، فيزداد هلعه ويزداد تضرعه.

قال أبو هريرة فيما حدثوا: «يرحم الله ابن حنْتمة (يعني عمر). لقد رأيته عام الرمادة وأنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده، وأنه ليعتقب هو وأسلم. فلما رآني قال «من أين يا أبا هريرة؟» قلت «من قريب يا أمير المؤمنين» قال، فأخذت أحمل معه، حتى انتهينا إلى صرار ـ وهي بئر قديمة على مسافة ثلاثة أميال من المدينة ـ فإذا جماعة من محارب نحو من عشرين بيتاً. فقال عمر «ما أقدمكم؟» قالوا «الجهد». قال أبو هريرة، فأخرجوا لنا جلد الميتة مشوياً كانوا يأكلونه، ورمّة العظام مسحوقة كانوا يسفونها. فرأيت عمر طرح رداءه، ثم أتزر، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا. وأرسل أسلم إلى المدينة، فجاءه بأبعرة، فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبابة ثم كساهم. وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك».

وتراه في لمحة خاطفة معبرة، واقفاً يعلم امرأة كيف تصنع العصيد. عن حزام بن هشام عن أبيه قال «رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مرَّ على امرأة وهي تعصد عصيدة لها، فقال (ما هكذا العصْد) ثم أخذ المسوط فقال (هكذا) فأراها».

لم يغفل عمر جانب الإدارة ـ إدارة الكوارث كما يقال بلغة هذه الأيام ـ فكوّن (جهازاً) لتوزيع المعونة، حين وصلت في ما بعد من أطراف الدولة، ولتدبير (شؤون اللاجئين) واستقبالهم وإنزالهم في أماكنهم.

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال:

«لما كان عام الرمادة، تجلبت العرب من كل ناحية، فقدموا المدينة. فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وآدامهم، منهم يزيد ابن أخت النمر، والمسور بن مخْرمة، وعبد الرحمن بن عبد القارىء، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، فكانوا إذا أمسوا، اجتمعوا عند عمر، فيخبرونه بكل ما كانوا فيه. وكان كل رجل منهم على ناحية المدينة. وكان الأعراب حلولاً ما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة».

قبل أن يصله المدد، اتبع عمر سياسة (المطابخ المفتوحة) وكان هو يصنع مائدة عامة يحضرها من شاء من الناس. وقد أحصوا من تعشى معه ذات ليلة، فإذا هم عشرة آلاف. هذا، وقد ترك لنا الرواة وصفاً مؤثراً لمائدة من هذه الموائد، قالوا:

«وكانت قدور عمر يقوم إليها العمال في السحر يعملون الكركور حتى يصبحوا ثم يطعمون المرضى منهم ويعملون العصائد. وكان عمر يأمر بالزيت فيغلى في القدور الكبار حتى يذهب حُمّته وحره ـ إذ كان العرب يصابون بالحمى إذا أكلوا الزيت النيىء ـ ثم يثرد بالخبز ويؤدم بذلك الزيت. وما أكل عمر في بيت أحد من نسائه

ولا بيت أحد من ولده، يأكل مع الناس، حتى رفع الله البلاء».

■ ■ ■

كان أبو عُبيدة أول من هبَّ للنجدة. لم يكتفِ بإرسال المدد من حيث هو في بلاد الشام، ولكنه أحضره بنفسه، ففرح عمر بوصول المدد، وفرح كعهده بلقاء صديقه، فأوكل إليه أمر توزيعه ففعل، ثم قفل راجعاً. لم يجتمعا بعد ذلك، فقد مات ابن الجراح الأمين، في طاعون عمواس الذي جاء حثيثاً في أعقاب عام الرمادة، فكان كرباً آخر على المسلمين.

هبَّ عمر كعادته فحشد نفسه والذين معه، وأعلن حالة الطوارىء كما نقول، كتب رسالته الشهيرة إلى عمرو بن العاص والي مصر، وهي توضح حالته تلك الأيام:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى العاصي ابن العاصي. سلام عليك. أما بعد، أفتراني هالكاً ومن قبلي وتعيش أنت ومن قبلك؟ فيا غوثاه! يا غوثاه! يا غوثاه!».

ما كان لعمرو أن يبطىء بعد تلك الرسالة. بعث المدد من مصر براً وبحراً. وكان أعوان الخليفة يستقبلون كل ذلك خارج المدينة ويوزّعونه كما أمرهم عمر. وقد قال لأحد عماله:

«أما ما لقيت من الطعام، فملْ به إلى أهل البادية. وأما الظروف فاجعلها لحُفاً يلبسونها. وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحملون من ودَكها، ولا تنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا. وأما

الدقيق فيصطنعون ويُحرزون حتى يأتي أمر الله لهم بالفرج».

وروي عن موسى بن طلحة قوله «كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن ابعث الطعام على الإبل وابعث في البحر. فبعث عمرو على الإبل، فاستقبلها رسل الخليفة بأفواه الشام، وعدّلوا بها يميناً وشمالاً ينحرون الجزر ويطعمون الدقيق، ويكسون القباء. وبعث رجلاً إلى الطعام الذي بعث به عمرو بالبحر، فحُمل إلى أهل تهامة».

استجاب لاستغاثات الفاروق، معاوية من الجزء الذي وليه من بلاد الشام. واستجاب سعد ابن أبي وقاص من العراق.

حدّثوا أن عمرو بن العاص، أرسل عشرين سفينة بالبحر، موسقة بالدقيق والودَك (الدُّهن). وبعث بألف بعير بالبر تحمل الدقيق، وأرسل خمسة آلاف عباءة. وبعث معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وثلاثة آلاف عباءة. وأرسل سعد من العراق ألفيْ بعير تحمل الدقيق.

تحرّكت أطراف الدولة الإسلامية الناشئة، تحركاً مدهشاً لنجدة الجزيرة العربية، مهد الرسالة. وكانت سابقة رائعة، ومثلاً بعيد المدى في تاريخ الإسلام. كانت أعضاء الدولة تتكافل في الشدة والرخاء. ومن حسن حظ المسلمين أنهم سيطروا على (سلال الخبز) في العالم يومئذ، فلم يحتاجوا إلى عون من خارج الدولة.

وكان عمر كأعظم ما يكون القائد. كان زعيم الأمة، وضميرها، ومرآة وجدانها. فعل أكثر مما تفعله الدول الحديثة اليوم في التصدي للمجاعات. ضمن أولاً تدفق العون إلى مناطق الشدة في الجزيرة

العربية. وكوّن جهازاً إدارياً كفوءاً لتوزيع المعونات، أشرف عليه هو بنفسه.

اتّبع أساليب متنوعة لإطعام الناس الذين لم يبرحوا، أوصل إليهم العون في أماكنهم. والذين أصبحوا لاجئين حول العاصمة، أقام لهم الموائد المفتوحة وأعطى بعضهم معونات عينية.

لم يكتفِ بذلك، بل عاش هو نفسه، القائد الأعلى للأمة، كأنه لاجىء من غمار اللاجئين، فأكل مما يأكلون، ولبس كما يلبسون. وقد كاد يطبق خطة جريئة، لو طال القحط بالناس. عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال «لو لم أجد للناس من المال ما يسعُهم إلّا أن أُدخل على كل أهل بيت مثلهم فيقاسمونهم طعامهم وشرابهم، فإنهم لم يهلكوا عن أنصاف بطونهم».

هكذا صنع الفاروق. عمل كل ما في مقدور بشر أن يعمله. شيء واحد لم يكن باستطاعته. أن تتفتح أبواب السماء بالغيث. ذلك بيد الله، فاتجه إليه بالتضرّع والدعاء.

حدّث السائب بن يزيد قال «رأيت على عمر بن الخطاب في زمن الرمادة، إزاراً فيه ست عشرة رقعة، وهو يدعو ويقول (اللهم لا تجعل هلكة أمة محمد على رجلي)».

وكان يهتف بالناس بعد صلاة المغرب «أيها الناس، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وسلوه من فضله واستسقوا سُقيا رحمة لا سقيا عذاب».

قالوا إن عمر حين عزم أن يصلّي صلاة الاستسقاء، كتب إلى عماله أن يخرجوا للصلاة في وقت حدّده لهم، في كل أرجاء الدولة. وخرج هو بالناس في المدينة، وعليه بُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إلى المصلّى، فصلى وتضرع وتضرع الناس معه، وبكى حتى ابتلّت لحيته. ثم أخذ بيد العبّاس ورفعها وقال: «اللهم إنّا نتشفع إليك بعم نبيّك أن تُذهب عنا المِحل وأن تسقينا الغيث».

ووصفوا أنهم لم يبرحوا مكانهم حتى انهمر الغيث وظلت السماء تسحّ أياماً. فلما حدث ذلك، أمر عمر الناس أن يجلوا عن المدينة ويلحقوا ببلادهم.

ذلك أيضاً من حسن تدبير هذا الإنسان العجيب. اضطر الناس اضطراراً إلى الخروج. لم يتركهم يكتظون في العاصمة بلا مبرر، وكفل لهم ما يضمن لهم استمرار العيش في مواطنهم. وبذلك ضمن الاستقرار في الدولة، والتوازن بين الأطراف والمركز والبادية والحضر.

رحم الله أبا حفص، وما أجمل ما قال السعدي في وصف تلك الأيام:

«كانت العرب قد علمت اليوم الذي استسقى فيه عمر، وقد بقيت غُبرات منهم، فخرجوا كأنهم النسور العجاف تخرج من وكورها يعجُّون إلى الله».

وصلى الله على سيدنا محمد، ما ناءت نخلة بأحمالها، وما حنَتْ أم على أطفالها.

■ ■ ■

عبد الله بن عمر

نراه في لمحة خاطفة مُعبِّرة يوم فتح مكة، وهو ابن عشرين سنة، على فرس جرور، وفي يده رمح ثقيل، وعليه بردة. أبصره النبي صلى الله عليه وسلم، فقال «إن عبد الله! إن عبد الله!».

أسعده ذلك الثناء من القائد الأعلى والمعلم الأكبر، لا ريب. كان قد جاءه يوم بدر وهو ابن ثلاث عشرة، فرده لصغر سنه. وجاءه يوم أُحد وهو ابن أربع عشرة فردّه لصغر سنّه. لكنه اليوم شاب في عنفوان الشباب، مقاتل تحت لواء القائد العظيم.

ظل كذلك طول حياته، عيناه أبداً مشدودتان إلى قائده ومثله الأعلى، كل خطوة يخطوها كأنه يسمع صوت الرسول الكريم يقول «نِعْمَ الرجل عبد الله».

حين اختاره أبوه رئيساً للمجلس الذي كلّفه بانتخاب الخليفة بعده، كان بذلك القرار، قد اعترف له بقدره صراحة. ما كان عمر، وهو مَنْ هو في تشدّده وبُعده عن المحاباة، أن يحمّل ابنه تلك المسؤولية الجسمة، لولا أنه كان يعلم ـ وكان الناس يعلمون ـ أن عبد الله بن عمر أهلٌ لحمل العبء الجسيم.

لكنه أيضاً حدّد له دوره الذي سوف يلازمه فيما بعد. المجلس يتكوّن من رجال يكبرونه سنّاً، ويرجحونه قدراً. كلهم شهد بدراً، وكلهم مبشّرون بالجنة. سوف يكون الخليفة واحداً منه، أما هو، فليس له من الأمر شيء، كما أوصى الخليفة العتيد، وهو على فراش الموت.

نِعْمَ الرجل، عبد الله بنِ عمر. سوف يعيش طويلاً، ويحزن كثيراً. سوف يحضر زمان الحَجاج، ويرى من جبروته وبطشه بالناس. سوف يقول، وهو يوشك أن يفارق الحياة: «ما آسى من الدنيا إلاّ على ثلاث: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وألاّ أكون قاتلت هذه الفئة الباغية».

قاوم الإغراء ـ والتهديد أحياناً ـ ونأى بنفسه وأهل بيته عن الخوض في الفتنة. وكان يقول: «من قال حي على الصلاة أجبته. ومن قال حي على الفلاح أجبته. ومن قال حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله، قلتُ لا».

ظلَّ وفياً لذكرى حبيبه ومعلّمه في العهد الأول. يمشي في طرقات المدينة، متقفياً أثر الرسول الأمين. واحة من الضوء والطمأنينة في خضَمّ الفتن. يتذكر وتدمع عيناه ويقول: «عسى أن يقع الحافر على الحافر».

كان كما حدّث موسى بن طلحة:
«يرحم الله عبد الله بن عمر. والله إني لأحسبه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي عهده إليه، لم يُفتن بعده ولم يتغيّر».

يكلّفه أبوه بثلاث مهام قبل أن يفارق الدنيا. ذلك الإنسان العجيب، وهو طعين، قاب قوسين من الموت، ما يزال كعهده دائماً، يعد العدة، ويفكر في أمر نفسه وأمر المسلمين.

رووا أن الفاروق رضي الله عنه، لما رأى اللّبن الذي شربه يخرج من جرحه، وأيقن أنه راحل، قال لابنه:

«يا عبد الله بن عمر، انظر كمْ عليَّ من الدين».
فحسب عبد الله، فوجده ستة وثمانين ألف درهم.
قال عبد الرحمن بن عوف «ألا تستقْرضُها من بيت المال حتى تؤدّيها؟».

فقال عمر «معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدي، أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر، فتتبعني تبعتُه وأقع في أمر لا ينجيني إلّا المَخرجُ منه».

وطلب عمر من ابنه أن يضمن الدين، فضمنه وأشهد على نفسه، فقال عمر:

«يا عبد الله. إن وفَى لها مالُ آل عمر، فأدِّها عني من أموالهم. وإن لم تفِ أموالهم فاسْأَلِ فيها بني عدي بن كعب. فإن لم تفِ فأسأل

فيها قريشاً ولا تعْدُهم إلى غيرهم».

هذا، وقد رووا أنه لم يمضِ أسبوع على دفن عمر، حتى حمل عبد الله بن عمر المال إلى الخليفة الجديد، عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

ثم انصرف همّ عمر إلى أمر مثواه، وكان حريصاً أن يُدفن مع صاحبيه، فطلب من عبد الله أن يذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقال له:

«أقرئها السلام، ولا تقل لها أمير المؤمنين، فإنني لست لهم اليوم بأمير، وقل لها عمر يستأذنك أن يُدفن مع صاحبيه».

جاءها فوجدها قاعدة تبكي، ولمّا أخبرها قالت:
«قد والله كنت أريده لنفسي، ولأوثرنّه به على نفسي».

رووا، أن عمر رضي الله عنه، حين حضرته الوفاة كان رأسه في حِجر ابنه عبد الله، فقال له:
«ضع خدّي في الأرض».

فقال عبد الله «وما عليك في الأرض كان أو في حِجري؟».
قال «ضع خدّي في الأرض». ففعل.
وحدّثوا أن عمر أخذ يردّد «ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي» حتى فاضت روحه.

حملوه، ووقفوا به على الباب، واستأذنوا عائشة مرة أخرى، كما

أوصى عمر، فأذنت لهم.

حفروا له بجوار صاحبيه. ودخل قبره نفر من كبار الصحابة، اختلف فيهم الرُواة، ولكنهم اتّفقوا جميعاً، أن أحدهم كان عبد الله ابن عمر.

■ ■ ■

وفّى لأبيه بالتزاماته كلها. غسّله وكفّنه وحمله ووقف به على الباب حتى أُذن له. دفنه مع صاحبيْه وانصرف ليتمّ ما بدأه. وكان عمر رضي الله عنه قد أوصاه وصيّة مفصلة كيف يصنع في أمر جنازته.

عن يحيى بن راشد النّصري، أن عمر بن الخطاب لما حضرته الوفاة قال لابنه:

«.. فإذا قُبضتُ فأغمضني، وأقصدوا في كفني، إن يكن لي عند الله خير، أبدلني خيراً منه. وإن كنت على غير ذلك، سلبني فأسرع سلبي. وأقصدوا في حفرتي، فإنه إن يكن لي عند الله خير، وسّع لي فيها مدَّ بصري، وإن كنت على غير ذلك، ضيّقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي. ولا تخرُجنَّ معي امرأة، ولا تزكّوني بما ليس فيَّ، فإن الله هو أعلم بي. وإذا خرجتم بي، فأسرعوا في المشي، فإنه إن يكن لي عند الله خير، قدمتموني إلى ما هو خير لي. وإن كنت على غير ذلك ألقيتُم عن رقابكم شراً تحملونه».

هذه الرواية، من بين الروايات المتضاربة، عن آخر لحظات ذلك الإنسان الفذّ، هي عندي أشبه بعمر. خائف وجلٌ من لقاء ربه إلى

آخر لحظة، وهو كما وصفه الإمام علي رضي الله عنه.

عن جعفر بن محمد عن أبيه، أن علياً لمّا غُسل عمر بن الخطاب وكُفّن وحُمل على سريره، وقف عليه وقال: «والله ما على الأرض رجل أحبُّ أن ألقى الله بصحيفته، من هذا المسجّى بالثوب».

صلى عليه صُهيْب الرومي رضي الله عنه، وكان عمر يؤثره، وقد انتدبه للصلاة بالناس حتى انتُخب الخليفة الجديد. وذكره الرواة بين نفر قالوا إن عمر تمنّى لو يستخلفهم. نراه في ذلك اليوم العصيب، صارخاً، معبراً عن الهلع الذي أصاب المسلمين. روى ابن سيرين، أن صُهيباً حين طُعن عمر، أخذ يبكي ويولول «وا عمراه! وأخاه! مَنْ لنا بعدك؟».

كيف فعل عبد الله بن عمر في ذلك اليوم؟

لا شك أنه أحسّ هوْل المصاب كسائر المسلمين. وأكثر، لأنه فقد صديقاً. كانا كأنهما أخَوان. منذ أن فقد عمر أخاه زيد بن الخطاب، في حروب الردّة صار ابنه عبد الله، أقربَ الناس إليه من أهل بيته. لكن عمر وابنه، كليهما، ما كانا يعدلان من الناس أحداً برسول الله.

إلّا أن الرواة، لا يفيدوننا شيئاً عن إحساس عبد الله في ذلك اليوم. نحسّ به صامتاً منصرفاً إلى الوفاء بالتزاماته.

كانت المفاوضات لانتخاب الخليفة الجديد، قد بدأت والخليفة الطّعين ما يزال على قيد الحياة. رووا أنهم قالوا لعمر حين حضرته الوفاة

(استخلف)، فقال «لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر، من هؤلاء النفر الذين تُوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راضٍ. فأيّهم أستُخلف فهو الخليفة من بعدي». وسمّى علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعداً. وقال: «إن أصابت سعداً فذاك، وإلّا فأيهم استخلف فلْيستعن به، فإني لم أعزلْه عن عجز ولا خيانة». وجعل ابنه عبد الله معهم يشاورونه وليس له من الأمر شيء. وقد تواترت الروايات أنه جعل صوته مرجحاً إذا انقسموا إلى فريقين متساويين.

وفي رواية أن عمر حين قيل له استخلف، قال «من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة ابن الجراح!» فقال له رجل «فأين أنت من عبد الله ابن عمر؟» فقال له عمر «قاتلك الله. والله ما أردت الله بهذا. أستخلفُ رجلاً ليس يُحسن أن يطلّق امرأته؟»

إن صحّت هذه الرواية، فلعل الفاروق كان يشير إلى قصته مع عبد الله، حين أمره أن يطلق امرأة له، فأبى عليه، فشكاه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ولما أمره الرسول بطلاقها، طلّقها في الحال.

إنها قصة تنمّ عن طبيعة العلاقة بين عمر وابنه، وعلاقتهما بالرسول الكريم، أسلما معاً وهاجرا معاً، وجاهدا في الإسلام، كل على طريقته. لكن عبد الله، مثل أبيه، ما كان يعدل حبّه لأحد، بحبّه لله ورسوله. حين أمره الرسول، أذعن فوراً دون جدال، لأن الرسول هو المرجع الأمثل، وقوله هو القول الفصل.

وهذا، وقد رووا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال:
«أرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري قبل أن يموت بساعة. ولما جاءه قال له: يا أبا طلحة. كن في خمسين من قومك من الأنصار

مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم، فقُم على الباب بأصحابك، ولا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركْه يمضي اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم. اللهم أنت خليفتي عليهم».

هكذا نرى الفاروق رحمه اللّه، حتّى آخر رمق من حياته، لا يحيد عن المبدأ الذي سار عليه طيلة عهده. أقام حكمه على (النّخبة). المهاجرين الأولين، والذين بايعوا النبي تحت الشجرة، وأهل بدر من المهاجرين والأنصار. كذلك طبّق مبدأه الذي بيّنه للأنصار يوم السقيفة، حين قال لهم «منّا الأمراء، ومنكم الوزراء».

أخرجهم من الخلافة، لكنه جعلهم حُرّاسها والأوصياء عليها. وقد رضوا بقسمتهم، لو أن الأمور سارت كما أراد عمر.

ما كان عمر ـ وهو كما نعلم ـ ليستخلف ابنه. وكان عبد الله يدرك، وقد زاده ورعه يقيناً، أنه لا يستطيع أن ينافس أولئك النفر الأجلاّء من الصحابة.

بقي طول حياته «ليس له من الأمر شيء». وفي ذلك تكمن عظمته.

■ ■ ■

فرسا الرهان

لا يفيدنا الرُّواة إلّا قليلاً عن حقيقة موقف عبد الله بن عمر. كان محايداً بحكم وضعه، ولكنه كان يعلم كسائر الناس، أن الأمر سوف ينحصر في أحد رجلين، علي بن أبي طالب وعثمان بن

عفّان رضي الله عنهما، فهل كان يفضّل أحدهما على الآخر؟

ذكروا أن الفاروق دعا إليه علياً وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعداً. وكان طلحة خارج المدينة ـ لم يكلّم إلّا علياً وعثمان. قال لعلي:

«يا علي، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من الرسول صلى الله عليه وسلم، وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم. فإن ولّيت هذا الأمر، فاتّق الله فيه، ولا تحمل بني هاشم على رقاب الناس».

وقال لعثمان:
«يا عثمان ـ لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وسنّك وشرفك. فإن وَليت هذا الأمر فاتق الله فيه ولا تحملنّ بني عبد شمس على رقاب الناس».

قالوا، ولما خرجوا من عنده قال «لو ولّوها هذا الأجْلح[١] ـ يقصد علياً ـ سلك بهم الطريق».

فقال له عبد الله بن عمر «فما يمنعك يا أمير المؤمنين؟».
فقال عمر: «أكره أن أتحملها حيّاً وميّتاً».

هل نستشف من هذا ميلاً لعلي، أم أن عبد الله لم يزد على أن قال لأبيه «إذا كنت تراه أهلاً للخلافة فلمَ لا تستخلفه؟».

الله أعلم. إلّا أن الروايات تواترت من وجه آخر، أن عمر أحب أن يستخلف أبا عبيدة بن الجرّاح، وصرّح بذلك غير مرة. ومعلوم أنه لما

وقع طاعون عمواس بالشام، أراد أن يستنقذ أبا عبيدة، فكتب يستقدمه إليه.

وعرف أبو عبيدة قصده فكتب إليه:
«إني قد عرفتُ حاجتك إليَّ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم. فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه. فحلّلْني من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعْني في جندي».

كان عمر يدرك ولا شك، أن صاحبه النّبيل، لن يفعل غير ما فعل، وأن الله بالغٌ أمره. لكنها حاجة في نفسه قضاها. لم يلبث أبو عبيدة أن توفي في الطاعون، وظل عمر يتحسر عليه. وقبلاً قال حين سألوه أن يتمنى «أتمنى ملْء هذه الحجرة رجالاً مثل أبي عبيدة ابن الجراح».

هذا، وقد ذكروا أيضاً أن عمر قال وهو على فراش موته «لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به، سالم مولى أبي حُذَيْفة، وأبي عبيدة بن الجرّاح».

عجيبٌ هذا. ذاك أبو عبيدة، أمين الأمة، وقائد الجيوش، وفتى بني فِهْر بن مالك من قريش، وسيدٌ من سادات المسلمين. إنما كيف بسالم مولى أبي حُذيْفة أميراً للمؤمنين؟

كان سالم مولى لثُبيتة بنت يَعار الأنصارية، وكانت زوجة لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ـ وهو أخو هند زوج أبي سفيان ـ وكان من المسلمين الأوائل ومن مهاجرة الحبشة. وقد أعتقت ثُبيتةُ سالماً

فتبنّاه أبو حُذيْفة، وزوّجة ابنة أخيه، فاطمة بنت الوليد بن عُتبة بن ربيعة.

كان سالم سابقاً في الإسلام والهجرة. وذكروا أنه كان يؤم المهاجرين الأولين بقُباء، لأنه كان أحفظهم للقرآن، وكان فيهم عمر ابن الخطاب. وقد آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح.

كان مشهوداً له بالتقوى حتى إنهم كانوا يقولون «سالم من الصالحين». ويُذكر عنه، أنه لما تزعزع الناس يوم اليمامة في حروب الردة، قال سالم «ما هكذا كُنا نفعل مع رسول الله». ثم إنه حفر حفرة وقام فيها حاملاً راية المهاجرين، فقاتل مكانه حتى استُشهد.

هكذا نرى، أن سالماً أيضاً كان سيّداً من سادات المسلمين، لا جرم أنه مولى. أحبّه عمر لما وجد فيه من تلك الصفات، وأحبه أكثر لأنه مولى. كيف لا، وهو صاحب القولة العظيمة عن بلال «أبو بكر سيّدُنا وأعتق سيّدنا».

رحم الله الفاروق. لعله حلم أن ينْحُوَ بالحكم منحىً إسلامياً صرفاً يخرجه من البيوتات الكبيرة في قريش. إنما في قريش كذلك، رجال كانوا دعائم في صرح الإسلام، زيادةً على أنهم من بني هاشم أو بني عبد شمس.

كان علي في أول الأربعين من عمره، وكان عثمان قد تقدم في السبعين، فهل يركنون إلى علي، مع زهده وتشدده وشبابه؟ أم

يركنون إلى عثمان، مع رقّته ولينه وشيخوخته؟ وهما بعد ذلك فرسا رهان في الإسلام.

ذلك، وما كان عبد الله بن عمر بأقّل حباً من أبيه لسالم مولى أبي حُذيْفة، فسمى أحد أبنائه به. قالوا إن سالم بن عبد الله، كان أشبه ولد عبد الله به، كما كان عبد الله أشبه ولد عمر بعُمر.

■ ■ ■

ولاية عثمان

فضَّلوا الشيخوخة على الشباب، واللِّين على الحزم. ولعلهم خافوا أن يكون عهد علي امتداداً لعهد عمر في تقشُّفه وتشدّده. كيف لا، وقد كان علي بمثابة المستشار الأول للدولة في خلافة عمر، وكانت فتاواه أكثر صرامة حتى من عمر.

لزم عبد الله جانب الحياد. رووا أنه قال:
«... فقاموا يتشاورون، فدعاني عثمان مرة أو مرتين ليدخلني في الأمر. ولا والله ما أحبُّ أني كنت فيه (...) فلما أكثر عثمان عليّ قلت له (ألا تعقلون؟ أتؤمِّرون وأمير المؤمنين حي؟)».

إن صحت أقوال الرّواة، فإن السباق بدأ والخليفة الشهيد لم يدفن بعد. حدّثوا عن عكرمة بن خالد أنه قال «لما وُضع عمر ليُصلَّى به أقبل عليّ وعثمان، واحدهما آخذٌ بيد الآخر. فقال عبد الرحمن بن عوف (قد أوشكتما يا بني عبد مناف) فسمعاها فقال كل واحد منهما (قُم يا أبا يحيى فصلّ عليه) فصلّى صهيب.

وفي رواية أن عبد الرحمن بن عوف قال: «إن هذا لهو الحرص على الإمارة. لقد علمتما ما هذا إليكما، وقد أُمر به غيركما. تقدم يا صهيب فصلِّ عليه».

مهما كان من الأمر، فإن عبد الرحمن بن عوف لم يلبث أن برز هو العنصر الحاسم في اختيار الخليفة الجديد. كان من المسلمين السابقين، قالوا إنه أسلم قبل أن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم. وهاجر الهجرتين، وأبلى أعظم البلاء في الإسلام. وكان رجلاً؟ موسراً. ذكروا أن الرسول قال له «يا ابن عوف: إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلّا زحفاً فأقرض الله يُطلق لك قدميك». فكان يُكثر من الصدقة.

قالوا إن عيراً لعبد الرحمن بن عوف قدمت على المدينة، فكان لها رجّة. وسألت السيدة عائشة رضي الله عنها عن ذلك فقيل لها أنها عير عبد الرحمن بن عوف، فقالت «أما أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول (كأني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى حتى أفلت ولم يكد). ولما بلغ ذلك عبد الرحمن قال (هي وما عليها صدقة). وكانت خمسمائة راحلة بأحمالها.

وذكروا أنه حين تُوفي ترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس، وذهباً في سبائك قطعوها بالفؤوس.

كان مع ذلك محبوباً من الرسول، مقرّباً من أبي بكر وعمر. وكان له جُرأة على عمر.

لم يكن يطلب الخلافة، فأخرج نفسه منها على أن يفوضوه فيختار لهم، فقبلوا. ثم قام باستفتاء واسع بين الصحابة من المهاجرين والأنصار وعامة الناس فوجد أغلبهم يميلون إلى عثمان.

حدّثوا أنه أخذ بيد عثمان وقال له «عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنّة رسوله وسنّة صاحبيه، وشرط عمر ألاّ تجعل أحداً من بني عبد شمس على رقاب الناس». فقال عثمان «نعم». ثم أخذ بيد علي وقال له مثل ذلك وألّا يجعل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس فقال علي «ما لك ولهذا إذا قطعتها في عنقي» فإن عليَّ الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها، كان في بني هاشم أو غيرهم».

قالوا، ولما أبى أن يعطيه الشرط كما أراد قام عبد الرحمن إلى المسجد وجمع الناس وأعلن بيعة عثمان. وفي روايات أن الإمام علياً كان أول من بايع أو أنه كان من أول من بايعوا.

الله أعلم كيف صار الأمر، فالقصة تُروى من وجوه عدة. وما كان الإمام علي كرّم الله وجهه أن يحمل بني هاشم على رقاب الناس وما في قوله ما ينمّ على أنه سوف يفعل ذلك.

صار ذو النّورين رضي الله عنه خليفة. ووشيكاً سوف تتحقق نبوءة أبي عبيدة بن الجراح. حدّثوا أنه قال:
«ما أُحب أن لي ما تطلع عليه الشمس وأن أبقى بعد عمر». فسألوه لِمَ فقال «سترون ما أقول إن بقيتم. أما هو فإن وليَ والٍ بعد عمر فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يُطع له الناس بذلك ولم يحملوه. وإن ضعف عنهم قتلوه».

إنما هذا في طيّات الغيب. إنهم يومئذٍ راضون بعثمان كل الرضى. حدّث الزهري قال «لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة أميراً. عمل ست سنين لا ينقمُ الناس عليه شيئاً وإنه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأن عمر كان شديداً عليهم، فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم».

ورووا عن الحسن البصري أنه قال:
«رأيت عثمان يخطب وأنا يومئذٍ غلام، فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجهاً ولا أحسن نضرة منه. وسمعته يقول (أيها الناس أغدوا على أعطياتكم)، فيقومون ويُجاء بالحُلل فتقسّم بينهم حتى والله سمعتْ أذناي (يا معشر المسلمين أغدوا على السمن والعسل)... ثم يقول (يا معشر المسلمين أغدوا على الطيب). فيغدون فيقسّم بينهم المسك والعنبر وغيره والعُدوان والله منفيّ والأعطيات دارّة والخير كثير. وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً من لقي من كل البلدان فهو أخوه وأليفه وناصره. فلم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف».

■ ■ ■

ناشر السلام

كان يمشي في طرقات المدينة، تجلّله السكينة، كأنه ضوءٌ من نجم بعيد.
مع الناس وليس معهم.

حدّث الإمام البخاري قال: «قال رجل: اللهم أبْقِ عبد الله بن عمر ما أبقيتني أقتدي به، فإني لا أعلم أحداً على الأمر الأول غيره».

كان على الأمر الأول، في حركاته وسكناته كلها، روحه موصولة بمعلّمه الأكبر.

رووا أن السيدة عائشة قالت «ما كان أحد يتّبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم في منازله كما كان يتّبعه عبد الله بن عمر».
وعن الأوزاعي أن عبد الله بن عمر قال:

«لقد بايعت رسول الله صلى الله وسلم، فما نكثتُ ولا بدّلتُ إلى يومي هذا، ولا بايعتُ صاحب فتنة ولا أيقظت مؤمناً من مرْقده».

وقال عبد الله بن أُوَيْس المدني «حدّثني أبي عن عاصم بن محمد عن أبيه قال: ما سمعت ابن عمر ذاكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا ابتدرت عيناه تبكيان».

وحدّثوا أن عبد الله بن عمر قال:
«ما وضعت لبِنَةً ـ أي أنه لم يبن بيتاً ـ ولا غرست نخلة منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم».

كانت بيْعته للرسول هي البيْعة، وصُحبته هي الصحبة، وزمانه مع الرسول هو الزمان. بعد ذلك ظلَّ مرابطاً ينتظر.

عن جابر بن عبد الله أنه قال:
«ما رأينا أحداً إلّا قد مالت به الدنيا أو مال بها إلّا عبد الله بن عمر».

عاش على سفر، كما أوصاه معلّمه وقدوته. رووا أنه قال:

«أخذ رسول الله ببعض جسدي فقال:
كُنْ في الدنيا غريباً أو عابر سبيل وعُدَّ نفسك من أهل القبور».

كذلك كان. مستعداً للرحيل في أي وقت. يمشي هوْناً في الطرقات والأسواق ينشر السلام ذات اليمين وذات الشمال، حتى لكأنه يسلّم على الحجر والشجر.

حدّثوا أنه قال:
إني لأخرج إلى السوق ما لي حاجةٌ إلّا أن أُسلّم ويُسلّم علي».

وروى عبد الله بن عطاء أن عبد الله بن عمر كان لا يمر على أحد إلّا سلّم عليه. فمر بزنجي فسلّم عليه فلم يرد، فقالوا له: «يا أبا عبد الرحمن. إنه طُمطُماني». قال: «وما طمطماني؟» قالوا: «أُخرِج من السفن الآن». قال «إنّي ما أخرج من بيتي إلّا لأُسلّم ويُسلِّم عليَّ».

وقالوا إنه سلّم على جماعة، فقيل له إنهم يهود، فقال «رُدّوا عليَّ سلامي».

وذكروا أنه مرَّ بجماعة فنسي أن يسلّم عليهم، فرجع وقال لهم: «إني سهوْت. السلام عليكم».

وحدّثوا أن ابن عمر كان يخرج ماشياً إلى قُباء كل سبت، ونعلاه في يديه، فيمرُّ بعمرو بن ثابت العُتواري، فيقول له «يا عمرو. أُغْدُ بنا». فيخرجان يمشيان معاً.

ذلك دأبه. نعلاه في يديه، وربما تحت إبْطِه، كأن تراب المدينة كله، حرم.

أراد عثمان رضي الله عنه أن يولّيه القضاء فأبى. أخبروا عن يزيد بن مؤهب أن عثمان حين عرض القضاء على عبد الله بن عمر قال له:

«لا أقضي بين اثنين ولا أؤمّ اثنين.. بلغني أن القضاة ثلاثة. رجل قضى بجهل فهو من النار. ورجل حاف ومال به الهوى، فهو من النار. ورجل اجتهد فأصاب فهو كفافٌ لا أجر له ولا وزر عليه».

فقال له عثمان:
«لكن أباك كان يقضي».

فقال:
«إن أبي كان يقضي، فإذا أشكل عليه شيء، سأل النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا أشكل على النبي سأل جبريل. وإني لا أجد من أسأل. أما سمعت النبي يقول (مَنْ عاذ بالله فقد عاذ بمَعاذ؟)».

قال عثمان «بلى».
فقال عبد الله «فإني أعوذ بالله أن تولّيتني».
فأعفاه، وقال له «لا تُخبر بهذا أحداً».
تقول، إن ذلك إفراط في الحرص.
نعم. ولكنه حرصٌ من خشية الله.
رحمه الله. كان يقول:
«خُذوا بِحظِّكم من العُزلة».

■ ■ ■

دروب متقاطعة

كان عبد الله بن عمر مع عثمان طوال أيام الحصار. كان بين نفر من الشباب الذين وقفوا مدافعين عن الخليفة، منهم الحسن والحسين، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن الزبير، وقيل أيضاً عبد الله بن عمرو ابن العاص. وكان معهم بإجماع الرواة سعيد بن العاص.

أمر عثمان عبد الله بن عباس أن يحج بالناس، فقال له «والله يا أمير المؤمنين إن قتال هؤلاء البغاة أحب إليَّ من الحج».

لكن عثمان أصرَّ عليه فمضى ولم يحضر مقتل الخليفة (يوم الدار).

كانوا قبلاً رفقاء سلاح، حاربوا كلُّهم تحت إمرة سعيد بن العاص حين غزا طبرستان، أيام كان والياً على الكوفة، في خلافة عثمان رضي الله عنه. تفرّقت السبل بعد ذلك، وكل واحد منهم كان له شأن. وبعضهم، مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، لقيا مصارع مأساوية على أيدي بني أمية. كان مقتل عثمان، هو منطلق الصراع الدامي الذي لم ينته حتى اليوم.

هذا، وسعيد بن العاص، هو الذي عناه الرّاجز الغوغائي بقوله:

يطْلبْن حقَّ الله في الوليد
وعند عثمان وفي سعيد

وما كان الذي طلبوه يومذاك، وإلى اليوم، من الله في شيء. والوليد هو الوليد بن عقبة.

هو ابن العاص بن أميّة بن عبد شمس، ابن عبد مناف، الذي يلتقي

عنده بنو هاشم وبنو عبد شمس. نشأ يتيماً في كنف عثمان. ذكروا أن عمر تفقّد قريشاً ذات يوم، فسأل عنه، فقالوا له إنه عند معاوية في دمشق، عليل مشرف على الموت. فكتب عمر إلى معاوية أن يحمله إليه.

وفي المدينة طاب سعيد من مرضه، فقال له عمر:
«يا ابن أخي، قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازددْ يزدْك الله خيراً».

ثم سأله إن كان يريد الزواج، فقال سعيد لا. لكن عمر، في إحدى جولاته يتفقد أحوال الأعراب في البادية، نزل ماء، فوجد عليه ثلاث فتيات وأمهن، فسألهن، فقالت له الأم «هنَّ بنات سفيان بن عُوَيْف، وقد هلك رجالنا وضعْنا، فزوّجهن في أكفائهن». فزوّج عمر سعيدَ بن العاص إحداهن، وزوج عبد الرحمن بن عوف الثانية، والوليد بن عقبة الثالثة.

رحم الله عمر. ما كان يدع شاردة ولا واردة. وسوف نرى أن دروب سعيد بن العاص والوليد بن عقبة، تقاطعت أكثر من مرة.

ويقول الطبري عن سعيد «كان عمومته ذوي بلاء في الإسلام وسابقة حسنة وقُدْمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس».

كذلك نرى أن عثمان لم يكن محابياً لقرابته حين ولّاه على الكوفة عام ٣٠هـ خلفاً للوليد بن عُقبة. يومذاك غنّت إماءُ تلك المدينة القلقة دوماً:

يا ويلَنا قد عُزل الوليدُ
وجاءنا مجوعاً سعيد

ينقصُ في الصَّاع ولا يزيدُ
فجوّ الإماءُ والعبيدُ

سوف يرون ويلاً كثيراً ـ أحراراً وعبيداً ـ على أيدي الحجاج وزياد!

كان الوليد بن عقبة، والياً لعمر بن الخطاب على عرب الجزيرة، فولاه عثمان على الكوفة. أقام بها نحواً من خمس سنوات، كان خلالها حسن السيرة رفيقاً بالناس، جواداً حتى إنه قسم للإماء والعبيد، فلذلك بكاؤهم عليه. وكان موطّأ الأكناف، ليس لداره باب، وليس دونه حجاب.

عزله عثمان لأن أهل الكوفة اتّهموه زوراً بشرب الخمر، وجاء منهم رجلان يشهدان عليه. طلب عثمان إلى سعيد بن العاص أن يقيم عليه الحد، فقال سعيد:
«يا أمير المؤمنين أنشدك الله. والله إنهما لخصمان موتوران».

فقال عثمان «نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار».

سار سعيد إلى الكوفة، وانطلق منها في غزوات مظفّرة أوْغل بها شرقاً، فأخضع جرجان وسجستان وطبرستان، وأدخل في حظيرة الإسلام أمماً من الأرمن والتركمان والأفغان. وكان معه أولئك الشباب الأفذاذ من الصحابة وعترة الرسول، أحدهم بطل قصّتنا، عبد الله بن عمر. وقد مدح أحد الشعراء سعيداً بقوله:

تسوس الذي ما ساس قبلك واحد
ثمانين ألفاً دارعين وحُسّرا

رغم ذلك انقلب عليه أهل الكوفة كما انقلبوا من قبل على الوليد ابن عقبة.

■ ■ ■

امتد به العمر فأصبح قدوة للناس، ومنارة من المنارات التي يهتدون بها. كان في سمته وسلوكه وأحوال عيشه وعبادته يذكرهم بالزمان الوضيء الذي أخذ يبدو لهم بعيداً وهم بعد على مقربة منه.

ذكروا أن عبد الله بن عمر إذا رآه أحد فكأن به شيئاً من اتباعه آثار النبي صلى الله عليه وسلم.

نعم، بوسع المرء أن يتخيّل ذلك، فقد كان يعيش معهم في زمانهم بجسمه، ولكنه كان بروحه ووجدانه في زمان آخر.

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«ما كان أحد يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم في منازله كما كان يتبعه ابن عمر».

حدث إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس عن آخرين قال:

«ما سمعت ابن عمر ذاكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا ابتدرت عيناه تبكيان».

كان يتذكر صحبة السنوات العشر التي قضاها في رعاية معلمه الجليل، يتذكر ويبكي.

رووا عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه أنه قرأ «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» فلما وصل إلى ختام الآية إذا بعبد الله بن عمر يبكي حتى ابتلّت لحيته وقميصه من دموعه، قال عبد الله «فحدثني الذي كان إلى جنب ابن عمر، قال «لقد أردت أن أقوم إلى عُبيْد ابن عمير فأقول له أقصر عليك فإنك قد آذيت هذا الشيخ».

وكأني به وقد طافت به ذكرى ذلك الموقف، فقد حدثوا أن عبد الله بن مسعود قرأ على الرسول الكريم حتى وصل إلى تلك الآية، فإذا عينا الرسول تذرفان، فقال لابن مسعود «حسبك».

لم يكن، كما وصفه بعضهم، متشدداً، ولكنه كان حريصاً على الأثر، كما روي عن أبي جعفر محمد بن علي قال:

«لم يكن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحذر إذا سمع من رسول الله شيئاً إلّا يزيد فيه ولا ينقص من عبد الله بن عمر».

وروي عن الإمام مالك أنه قال:
«قال لي أبو جعفر أمير المؤمنين كيف أخذتم قول ابن عمر بين الأقاويل؟».

فقلت له «بقي يا أمير المؤمنين وكان له فضل عند الناس ووجدنا من تقدمنا أخذ به فأخذنا به». فقال أبو جعفر «فخذ بقوله وإن خالف علياً وابن عباس».

وناهيك بالإمام علي باب مدينة العلم وابن عباس الحبر، من فقيهين.

وحدث حماد بن زيد عن يحيى ابن أبي إسحق قال: «سألت سعيد ابن المسيّب عن صوم يوم عرفة فقال: «كان ابن عمر لا يصومه» قلت: «هل غيره؟»، قال «حسبك به شيخاً».

المقصود هنا صيام يوم عرفة للحاج كي يتقوى بإفطاره على الوقوف والدعاء.

أما غير الحاج فيسن له الصيام، ورووا أن ابن عمر حين سئل عن صيام يوم الجمعة ويوم عرفة حبّذ صيامهما وقال «كنا ورسول الله نعدل صوم يوم عرفة بصوم سنة».

هذا وفي (سنن البيهقي) أن ابن عمار لم يكن يرى كراهة في تتابع الصيام ولا في صيام الدهر ما لم يخَف الصائم من ذلك ضرراً أو تفويت مصلحة. وفي (طبقات ابن سعد) أن ابن عمر لم يكن يصوم في سفر ولا يفطر في الحضر إلّا أن يمرض أو أيام يقدم «فإنه كان رجلاً كريماً يحب أن يؤكل عنده».

■ ■ ■

«رجل أبيض تعلوه حُمرة، طُوال أشيب... إنما جاءتنا الأدمة من قبل أخوالي، والخال أنزع شيء. وجاءني البُضعُ من أخوالي، فهاتان الخصلتان لم تكونا في أبي رحمه الله. كان أبي أبيض ولم يكن يتزوج النساء لشهوة إلّا لطلب الولد».

كان عبد الله طويلاً، أخذ ذلك عن أبيه، وكان آدم ـ أي شديد السُمرة ـ أخذ ذلك عن أخواله من بني جُمح.

أمّه زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح. وخاله الصحابي الجليل عثمان بن مظعون. وجاء في صفة عثمان ابن مظعون «أنه كان شديد الأدمة، ليس بالقصير ولا بالطويل، كبير اللحية عريضها».

كان من المسلمين الأوائل، وذكروا أنه جاء الرسول صلى الله عليه وسلم، هو وعُبيْدة بن الحارث بن المطّلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجرّاح، فأسلموا جميعاً في وقت واحد، ولم يكن الرسول قد دخل دار الأرقم بعد.

ووصفوا أن آل مظعون بكّروا في الهجرة رجالهم ونساؤهم ولم يبق منهم بمكة أحد حتى أُغلقت ديارهم.

هذا إذاً بيت قديم في الإسلام، فمتى أسلمت زينب زوج عمر وأم عبد الله وأخت عثمان بن مظعون؟ هل دخلت في الإسلام مع إخوتها أم انتظرت إسلام زوجها؟

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، محاطاً بالمسلمين في آل بيته. وأخوه زيد، وكان أحب قرابته إليه، أسلم قبله. ومن قبل كان ابن عمه زيد بن عمرو بن نفيل، من الحنفاء.

كان رجلاً فذّاً جاء قبل زمانه. أدرك النبي لكنه توفي قبل الرسالة ببضع سنوات. عرف بفطرته ضلال قريش فاعتزل أصنامها وشعائرها. ورووا أنه كان يقول:

«لا أعبد حجراً ولا أصلّي إلّا إلى هذا البيت حتى أموت».
وقالوا إنه كان يسند ظهره إلى الكعبة وينادي:
«يا معشر قريش. ما منكم اليوم أحد على دين إبراهيم غيري».
وكان يخلّص الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يئد ابنته:
«مهلاً لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها».
فيأخذها منه، حتى إذا كبرت يقول لأبيها:
«إن شئت دفعتها إليك. وإن شئت كفيتك مؤونتها».

رووا أن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم قال عنه:
«زيد بن عمرو يُبعث يوم القيامة أمّة وحده».

كذلك نرى أن إسلام عمر بن الخطاب، لعله لم يكن أمراً فجأة كما نفهم من تلك القصة الشهيرة حين وجد أخته وزوجها يقرآن القرآن.

لا بد أنه أحسّ ذلك النزوع إلى الحق الذي أحسّه ابن عمه زيد بن عمرو، ولا بد أنه رأى أن الحق قد تنزّل في مكة على الرجل القرشيّ محمد بن عبد الله، كما رأى أهل بيته.

كان عمر من أشدّ القرشيين حبّاً لقريش، مثل العباس بن عبد المطلب عم النبي. وهو مثل العباس تردد في إسلامه حرصاً على اجتماع كلمة قريش. ثم كانت تلك الحادثة مع أخته وزوجها، فاستقر عزمه على أمر كان يخامره من قبل. فذهب إلى الرسول الكريم وأسلم من توّه كأنه كان مسلماً منذ البدء.

أما عبد الله بن عمر، فإنه لم يعرف غير الإسلام. في رواية أنه

هاجر مع أبويه إلى المدينة وهو ابن ست سنوات. وفي رواية أنه كان ابن إحدى عشرة.

■ ■ ■

نرى فيما تواتر إلينا من أخبار عبد الله بن عمر، رجلاً لم يكن عازفاً عن طيبات العيش، ولكنه كان يقتصد ويمنع نفسه. كان زاهداً لكنه معتدل في زهده. وفي كل ذلك كان يتأسى بالرسول الكريم.

روى يحيى بن عمر قال:
«قلت لنافع ـ مولى ابن عمر ـ أكان ابن عمر يُصيب دقّ هذا الطعام؟ (كان ابن عمر يأكل الدجاج والفراخ والخبيص في البُرمة)».

وأخبروا عن أبي جعفر القارىء أنه قال: «خرجت مع ابن عمر من مكة إلى المدينة، وكان له جَفْنة من ثريد يجتمع عليها بنوه وأصحابه وكل من جاء حتى يأكل بعضهم واقفاً. ومعه بعير عليه مزادتان فيهما نبيذ وماء مملوءتان، فكان لكل رجل قدح من سُوَيْق بذلك النبيذ حتى يتضلّع منه شبعاً».

النبيذ هو نقع الزبيب قبل أن يتخمّر. كان يعتني بثوبه ويدهن شعره ويُحفي شاربه ويتطيب ويصبغ لحيته بالزعفران والورْس فيه المسك.

حدّث مالك بن أنس عن نافع أن عبد الله بن عمر كان لا يروح إلى الجمعة إلّا ادّهن وتطيّب. وقال ابن شهاب أن ابن عمر كان

يتطيّب للعيد. وحدّث حبيب بن أبي ثابت أنه رأى ابن عمر حلق رأسه ثم لطّخه بخَلوق. والخلوق دُهن ممزوج بالعطر.

وأخبروا عن سالم بن عبد الله بن عمر أن أباه كان يأمر بثيابه فتُجمّر (أي تُبخّر) كل جمعة وإذا أراد الخروج إلى مكة في حج أو عُمرة أمرهم ألّا يجمّروا ثيابه.

وتواترت الروايات أنه كان يحبّ النساء وعنده قُوة على الباه. فذلك قوله «جاءني البُضْع من أخوالي». والبضعُ شهوةُ النساء. وقد عدّ له ابن سعد ست نساء، بين حُرَّة وأم ولد (أي أمة). وليس كثيراً بحساب ذلك الزمان.

وذكروا أنه في شبابه أراد أن يعتزل النساء، فنصحتْه أخته حفصة أم المؤمنين أن يتزوج، وهو يشبه ما أراده خالُه عثمان بن مظعون.

حدّث ابن شهاب أن عثمان بن مظعون أراد أن يختصي ويسيح في الأرض، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:

«أليس لك فيَّ أسوةٍ حسنة؟ فأنا آتي النساء وآكل اللحم وأصوم وأفطر. إن خصاء أمتي الصيام، وليس من أمتي من خَصي أو اختصى».

وحكوا عن قُدامة بن مظعون أن أخاه عثمان قال للرسول صلى الله عليه وسلم:
«يا رسول الله. إني رجل تشق عليَّ العُزْبة في المغازي، فتأذن لي فأختصي».

فقال الرسول:

«لا. ولكن عليك يا ابن مظعون بالصّيام فإنه مُجْفر». وفي رواية أنه قال له «عليك بالصوم فإنه مجْفرة».

وفسّروا أن الفحل إذا جفَر فقد انقطع عن الضراب. والرجل إذا جفَر أو أجْفر، فقد انقطع عن الجماع. وقوله «تشقّ عليَّ العُزبةُ (بالعين والزاي) في المغازي، أي أنه يكون غازياً مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يستطيع الصبر عن امرأته.

رووا عن أبي بردة أنه قال:

«دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فرأيْنها سيئة الهيئة. فقلن لها «ما لَك، فما في قريش أغنى من بعلك؟» قالت «ما لنا منه شيء. أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم». فذكرْن ذلك للرسول، ولما لقيه قال له: «يا عثمان بن مظعون. أما لك بي أُسوة».

فقال «بأبي أنت وأمي وما ذاك؟». قال الرسول «تصوم النهار وتقوم الليل». قال عثمان «إني لأفعل» فقال الرسول «لا تفعل. إن لعينيك عليك حقاً وأن لجسدك عليك حقاً. فصلِّ ونَمْ وصُم وأفطر». قال فأتت زوجته نساء النبي بعد ذلك عطرة كأنها عروس، فقلن لها «تهْ» قالت «أصابنا ما أصاب الناس».

ذاك عثمان بن مظعون خال عبد الله بن عمر. كان يحب الرسول وكان الرسول يحبه، وكان أول من دفن في بقيع الفرقد من الصحابة.

أخذ عنه عبد الله بن عمر وعن بقية أخواله في بني جُمح، البُضْع، كما قال. إلاّ أن عبد الله أخذ بحظه من الدنيا دون إسراف. وزهد فيها دون رهبانية، كذلك كان يفعل معلّمه الجليل.

روى مولاه نافع أن عبد الله بن عمر كانت له جارية، فلما وجد أنه تعلّق بها تعلقاً شديداً، أعتقها وزوّجها أحد مواليه.
فولدت غلاماً. فكان ابن عمر يحمل الصبي ويقبّله ويشمّه ويقول «واهاً لريح فلانة».

■ ■ ■

كان عبد الله بن عمر رجلاً غاية في الجود، وكان جوده مما تشرّبه من روح الإسلام، ليس فيه ذلك النزوع الجاهلي إلى المدح وحسن الذكر. كان يبتغي مرضاة الله.

حدّثوا عن مولاه نافع أنه قال:
«كان عبد الله بن عمر إذا اشتدّ عجبه بشيء من ماله، قرّبه لربه. فقد رأيتُنا ذات عشية وكنا حجاجاً وراح على نجيب له قد أخذه بمال. فلما أعجبته روْحته وسرّه إناختُه نزل عنه فقال: يا نافع. أنزعوا زمامه ورحله وجللوه وأشعروه وأدخلوه في البُدْن».

وفسّروا أن إشعار البدن، هو أن يُشقّ أحد جنبي السّنام حتى يسيل الدم فتكون علامة على أنها هَدْي مهيّأة للنحر.

وعن سعيد بن أبي هلال أن عبد الله بن عمر نزل الجحفة وهو معتلّ فقال لزوجته (إني أشتهي حوتاً). فالتمسوا له فلم يجدوا غير

حوت واحد، فطبخته زوجته صفيّة، ولما وضعته له، جاء مسكين فوقف عليه. فقال له ابن عمر (خُذه). فقالت زوجته (سبحان الله. قد عنيْنا في طبخه وعندنا ما نعطي السائل غيره). فقال (إن عبد الله يُحبه).

وصفية هذه، هي بنت أبي عُبيد بن مسعود بن عمرو بن عُمير بن عوف من ثقيف. وهي أم أبنائه أبي بكر وأبي عبيدة وواقد وعبد الله وعمر وسودة، وسودة تزوجها الرجل العابد عروة بن الزبير بن العوّام.

عدّوا لابن عمر من الولد اثني عشر ذكراً وأربع إناث. وكان أحبهم إليه وأشبههم به سالم. وأمه أمّ ولد.

قال له الإمام مالك «لم يكن أحد في زمن سالم بن عبد الله، أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والقصْد في العيش منه».

ومن أخباره أن الخليفة هشام بن عبد الملك دخل الكعبة فوجد سالم ابن عبد الله بن عمر، فقال له:
«يا سالم. هل لك حاجة أقضيها لك؟».

فقال سالم «إني لأستحي من الله أن أسأل في بيت الله غير الله».
فلما خرج، تبعه هشام وقال له:
«الآن قد خرجنا فسَلْني حاجتك».

فقال سالم:
«من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة».

فقال هشام:
«بل من حوائج الدنيا».

فقال سالم:
«ما سألتُ من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها».

بعد هذا بنحو ستين عاماً، وقف رجل آخر من ذريّة عمر بن الخطاب موقفاً مماثلاً مع خليفة آخر. كان عبد الله بن عبد العزيز العمري لا يلقى هارون الرشيد في الكعبة إلّا ويعظه ويغلظ عليه حتى يبكي هارون الرشيد فيجيئون له بالمنديل بعد المنديل يجفف بها دموعه. وكان يقول: «والله إني لأحب أن أحج كل سنة ما يمنعني إلّا رجل من ولد عمر بن الخطاب يُسْمعني ما أكره».

ذكروا من أخباره أنه سافر ذات مرة إلى الرشيد ليعظه، قال الراوي:

«فلما نزل عبد الله بن عبد العزيز العمري الكوفة، زحف العسكر لمنعه من الرحيل إلى بغداد حتى لو كان نزل بهم مائة ألف من العدو ما زادوا على هيبته. فرجع ولم يصل إلى الرشيد».

سوف نرى إن شاء الله من مواقف عبد الله بن عمر مع معاوية ويزيد وعبد الملك والحجّاج.

كان رجلاً جواداً يحب أن يجتمع الناس على مائدته. رووا أنهم عاتبوا امرأته في أمره. لما رأوا عليه من هُزال. فقالت «وما أصنع به؟ لا يُصنع له طعام إلّا دعا إليه من يأكله». وقالوا إنها أرسلت إلى مساكين كانوا يجلسون بطريقه إذا خرج من المسجد، فأطعمتهم

وقالت لهم «لا تجلسوا بطريقه». وأرسلت بطعام إلى رجال كان يدعوهم إلى مائدته، وقالت لهم «إن دعاكم فلا تأتوه».

ولما جاء عبد الله إلى بيته قال: «أرسلوا إلى فلان وإلى فلان»، ولما لم يحضر أحد وعلم ما صنعت زوجته غضب وقال: «أردتم ألا أتعشى الليلة» فلم يطعم شيئاً تلك الليلة.

حدّث ميمون بن مهران عن نافع أنه جيء لابن عمر ببضعة وعشرين ألفاً، فما قام من مجلسه حتى فرّقها كلها وزاد عليها. ولم يزل يعطي حتى أنفد كل ما عنده فجاءه بعض من كان يبرُّهم فاستقرض من بعض من كان أعطاهم وأعطى أولئك.

وكان يعتق رقيقه إذا رأى من أحدهم أمراً يسره. قال نافع:

«فلقد رأيتُ بعض غلمانه ربما شمّر في العبادة ولزم المسجد، فإذا رآه على تلك الحالة أعتقه. فكان الناس يقولون له (إنهم إنما يخدعونك). فيقول (من خدعنا في الله انخدعنا له). كذلك كان يقول عمر بن الخطاب.

قال نافع:
«ما مات ابن عمر حتى كان قد أعتق ألف إنسان أو يزيد».

■ ■ ■

بقدر ما كان عبد الله بن عمر كريماً في عطائه، فقد كان كريماً في أخذه، وفي الأخذ أحياناً بعض معاني الكرم. كان يعطي كأنه يأخذ، ويأخذ كأنه يعطي. وكان شعاره في ذلك بسيطاً.

أخبروا عن نافع مولى ابن عمر قال:
«كان يُرسَلُ بالمال إلى عبد الله بن عمر، فيقبله ويقول (لا أسأل أحداً شيئاً ولا أردُّ ما رزقني الله)».

وحدّث القعقاع بن حكيم قال:
«كتب عبد العزيز بن هارون إلى ابن عمر أن ارفع إليَّ حاجتك. قال فكتب إليه عبد الله: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إبْدَأ بمن تعول واليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى). وإني لا أحسب اليد العليا إلّا المُعطية والسفلى إلّا السائلة. وإني غير سائلك، ولا راد رزقاً ساقه الله إليَّ منك».

كلماتٌ آيةٌ في البلاغة وحُسن الخُلق وعزّة النفس. إنسان (أرستقراطي) بمفهوم الإسلام في النُّبل.

عبد العزيز بن هارون هذا، إذا كان يريد أن يُعطي فما الذي يمنعه؟ تأمّل قوله (ارفعْ إليَّ حاجتك). كأنه أراد أن يُهين ابن عمر أنه يضعه في موضع طالب الحاجة.

ذكر بعضهم أن عبد الله بن عمر، كان إذا أعطى أحداً، لا يناول المُعطى إليه، حتى لا تكون يدُه هي العليا، ولكنه يبسط يده فيأخذ صاحب العطاء عطاءَه، فتكون يد عبد الله بن عمر هي السفلى. بلى، كان يُعطي كأنه يأخذ.

من نعم الله عليه أن المال كان يجيئه من حيث لا يَحتسب، فقد كان رجلاً كريماً، ولم يكن موسراً. وليس أكثر مضاضة على الكريم من ضيق ذات اليد. وكما أن المال أجمل ما يكون عند الكُرماء،

فهو أقبح ما يكون في أيدي البخلاء. هؤلاء كما قال الشاعر السوداني القديم:

ديلْ حُرّاسْ رزقْ زَيْ التَّكنُّه أَمانَه
زَي إبل الرّحيل شايْلَه السُّقَى وعطشانَة.

وما أجمل قوله (حُرَّاس رزق)، كأنهم ديدبانات يقفون أمام خزائن مُغْلقة لا يفتحها إلّا الموت. و(الرزق) هنا هو المال و(التّكنُّ) أي كأن.

وقد قال أصدق القائلين في سورة القصص في وصف قارون: ﴿وآتيناه من الكنوز ما أن مفاتحَه لتنوءُ بالعُصْبة أولي القُوّة﴾.

إنني أتخيّل أن قارون كان يحمل مفاتيح خزائنه على ظهره، كالعيس التي تحمل الماء في البيداء، فيكون الله سبحانه وتعالى قد جعل ماله عبئاً ثقيلاً عليه، وزاده رهَقاً على رهق.

عبد الله بن عمر كان بخلاف ذلك، كأنه ملتقى طرق تنزل فيها قوافل الرحمة. يجيئُه المال من كل صوب، فيُعطيه المحتاج والمُعتر وابن السبيل. يأخذ بيد ويُعطي بيد. ويده هي العليا في الأخذ، لأن أخذه ليس فيه مذلة السؤال. وهي السُّفلى في العطاء، لأن عطاءه ليس فيه معنى الاستعلاء.

حدّث ميمون بن مهران أن ابناً لعبد الله بن عمر قال لأبيه إن إزاره قد بلي وتخرّق وطلب منه إزاراً جديداً. فقال له «ارقع إزارك»، ثم كساه بعد، فلم يعجب ابنه الإزار. فقال له عبدالله:

«ويْحكَ اتّق الله. ولا تكوننّ من القوم الذين يجعلون ما رزقهم الله عزَّ وجل، في بطونهم وعلى ظهورهم».

وعن نافع أن معاوية بعث إلى ابن عمر بمائة ألف، فما حال الحول وعنده منها شيء.

وعنه أن ابن عمر كان لا يُعجبه شيء من ماله إلّا تصدّق به. وقال:

«ربما تصدّق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً. وأعطاه ابن عامر مرتين ثلاثين ألفاً. فقال (يا نافع. إني أخاف أن تفتِنَني دراهم ابن عامر. اذهب فأنت حُر)».

وتُروى قصة عتق نافع من وجه آخر. روى عاصم بن محمد عن أبيه قال:
«أُعْطيَ ابن عمر بنافع ألفَ دينار، فقلتُ له (يا أبا عبد الرحمن. فما تنتظر أن تبيع؟) قال: (فهلاّ ما هو خير من ذلك؟ إنه حرٌّ لوجه الله عزَّ وجل)».

■ ■ ■

من ذُرِّية عبد الله بن عمر رحمه الله، عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفّان رضي الله عنه. أمه حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب. كان من أماجد فتيان قريش، وكانوا يلقّبونه بـ (المطرَف) لشدة وسامته. تزوج فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، فولدت له محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، الذي أسموه (الديباج) لشدة وسامته أيضاً.

ذكروا أن عبد الله بن عمرو بن عثمان كتب إلى الخليفة عبد الملك ابن مروان يقول:

«أما بعد، فإنك تعلم بلاء أمير المؤمنين عثمان عندكم في رفع أقداركم وإحسانه إليكم. وإن مروان أوصى بقضاء دين عمرو بن عثمان، فإن تفعلْ فأهلُ ذلك نحن، وإن لم تفعل فسيُغني الله عنك والسلام».

فرد عليه عبد الملك بن مروان:

«أما بعد، فإن عمرو بن سعيد كان أقرب رحماً بي منك. وإنه لمّا أخطأ قدمه، فرَّقتُ بين رأسه وجسده. ولقد هممتُ أن ألحقك به».

فرد عليه عبد الله بن عمرو:
«إن تفعل فإني لـمُعرقٌ في الشهادة، فأنا ابن أميريْ المؤمنين عمر وعثمان».

تلك الجذوة العُمرية لا تخبو أبداً.

هذا، وعمرو بن سعيد الذي أشار إليه عبد الملك، هو عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن أميّة. وأبوه سعيد بن العاص، هو الذي ذكرنا من أمر توليه الكوفة على عهد عثمان، وفتحه طبرستان وغيرها من بلاد ما وراء النهر. وهو الذي ذكره الراجز الغوغائي من الذين تسوروا الدار على الخليفة الشيخ رحمه الله بقوله:

يطُلْبن حقٌ الله في الوليد
وعند عثمان وفي سعيد

وكان مروان بن الحكم، بعد أن وثب على الملك إثر انتصاره في موقعة (مرج راهط) قد أوصى أن يكون عمرو بن سعيد خليفة بعد عبد الملك، لكن عبد الملك لم يلبث أن قتله، وقالوا إن ذلك أوّل غدر في الإسلام. وفي ذلك قال بعضهم:

يا قومُ لا تُغلَبوا عن رأيكم فلقد
جرّبتم الغدر من أبناء مروانا
أمسوْا وقد قتلوا عمرواً وما رشدوا
لكي يولّوا أمورَ النّاس ولدانا

رووا أن عبد الملك بن مروان، بعد أن قتل عبد الله بن الزبير بن العوّام عام خمسة وسبعين، خطب الناس بالمدينة فقال:

«أما بعد، فإني لستُ بالخليفة المُستضْعف (يعني عثمان)، ولا الخليفة المُداهن (يعني معاوية)، ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد). إلّا وإن مَنْ كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويُطعمون من هذه الأموال. ألا وإني لا أداوي أدواءَ هذه الأمة إلّا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم. تكلّفونا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم! فلن تزدادوا إلّا عقوبة حتى يحكم بالسيف بيننا وبينكم. هذا عمرو بن سعيد، قرابتُه قرابتُه، وموضعه موضعُه، قال برأسه هكذا، فقلنا بأسيافنا هكذا.

ألا وإنّا نحمل (نحتمل) لكم كل شيء، إلّا وثوباً على أمير أو نَصْب راية. ألا وإن الجامعة (الأغلال) التي جعلتها في عنق عمرو ابن سعيد، عندي. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلّا ضربتُ عنُقه».

هذه الخطبة النَكباء، لا تكاد تُصدق، لولا أنها تواترت لدى عدد من المؤرخين الثقات، مما يرجِّح صحة روايتها. وما أقدم عليه عبد الملك قبل وبعد، يؤكد على الأقل صحة النوايا التي انطوت عليها. حديثه عن (تقوى الله) يؤكّده ما رُوي عن الحجاج أنه كان يقول (انظروا إلى هذا! إنه يأمرنا بتقوى الله)، وما كان الحجاج لعبد الملك بن مروان إلّا كما كان (آيْخمان) لهتلر!

إنه مذهبٌ بائسٌ في الحكم، هو على النقيض تماماً من مذهب الرجل العملاق حقاً، أبي عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب.

حدّثوا عن خالد بن سُميْر قال:
«قيل لابن عمر (لو أقمتَ للناس أمرهم فإن الناسَ كلهم قد رضوا بك). فقال (أرأيتم، إن خالف رجل بالمشرق؟) قالوا (إنْ خالف رجل قتل، وما قَتْلُ رجلٍ في صلاح الأمة؟).

فقال:
«والله ما أُحبُّ لو أن أُمّة محمد صلى الله عليه وسلم، أخذت بقائمة رُمح، وأخذتُ بزُجّه[٢]، فقُتل رجل واحد من المسلمين ولي الدنيا وما فيها».

■ ■ ■

كان عبد الله بن عمر، لا يرى الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل شيئاً إلّا ويفعله، ولا يراه يسلك طريقاً إلّا ويسلكه. قال موسى بن طلحة:

«يرحم الله عبد الله بن عمر. والله إني لأحسبه على عهد رسول

الله صلى الله عليه وسلم الذي عهده إليه لم يُفتَن بعده ولم يتغير».

موسى بن طلحة، هو ابن الصحابي السابق طلحة بن عبيد الله. وصفوه بأنه كان من الصالحين في زمانه، وكان من أهل العلم والورع ورواية الحديث. سكن الكوفة ثم رحل عنها حين غلب عليها المختار بن أبي عبيد الثقفي.

وقصة المختار ملحمة طويلة، لا يتّسع لها المجال الآن. إنما لا بد من الإشارة إلى أنه كان من الفرسان المعدودين. ثار على الأمويين بعد مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه، وغلب على الكوفة والموصل، وتتبع قتلة الإمام الحسين، فقتل شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين، وخوليَّ بن يزيد الذي حمل الرأس الشريف إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقّاس أمير الجيش، وعبيد الله بن زياد عامل الخليفة الأموي.

يجمع المختار بعبد الله بن عمر، أن عبد الله بن عمر كان متزوجاً من أخته، وهي صفية بنت أبي عُبيد. وذكر بعضهم أن المختار كان يرسل المال إلى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، ومحمد بن علي بن أبي طالب الملقب بابن الحنفية، فيقبلونها، وقال آخرون أن ابن عمر كان يقبل المال من حيث جاء إلّا من المختار.

هذا، وقد أورد البخاري رحمه الله في صحيحه، في معرض حديثه عن تقفّي ابن عمر لأثر الرسول الكريم، عن عُبيد بن جريج أنه قال لعبد الله بن عمر:

«يا أبا عبد الرحمن، رأيتك تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها».

قال «وما هي يا ابن جُريْج؟».

قال «رأيتك لا تمس من الأركان إلّا اليمانييْن. ورأيتك تلبس النعال السِّبْتية. ورأيتك تصبغ بالصفرة. ورأيتك إذا كنت بمكة أهلّ الناس إذا رأوا الهلال ولم تهلّ أنت حتى كان يوم التَّرْوية».

قال عبد الله بن عمر:
«أمّا الأركان فإني لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسُّ إلّاليمانيَّين. وأما النعال السِّبْتية فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يَلبس النّعل التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها فأنا أحب أن ألبسها، وأما الصفرة فإني رأيت رسول الله وسلم يصبغ بها فأنا أحب أن أصبغ بها. وأما الإهْلال فإني لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يُهلّ حتى تنبعث راحلته».

هذا، وفسّروا أن النعال السِّبْتيّة (بالتشديد على السين مع الكسر) هي أخفاف لينة كانت تصنع في عُمان من جلد البقر المدبوغ بالقَرَظ.

و(القرظ) ثمر شجر السّيال والسُّنْط والسّدر وما شاكلها. وفي السودان ينطقونها (قرض) وهو عندهم من شجر السنط خاصة.

ومن أمثال العرب (لا يصير هذا الأمر حتى يعود القارظان)، أي أنه لن يصير. وقالوا إن القارظين رجلان من عَنزة خرجا يجمعان القرظ فلم يعودا. وفي ذلك قال الشاعر:

وحتَّى يؤوبَ القارظان كلاهما
ويُنشر في القتلى كليْبٌ لوائلِ

قال الزّهري «كأنها سُميت سبْتية لأن شعرها قد سُبتَ عنها أي

حُلق بعلاج من الدبّاغ». وقال ابن الأعرابي «سميت النعال المدبوغة سبْتية لأنها انسْبتت بالدباغ، أي لانت».

هذا، وقد جاء ذكر الأخفاف السبتية في بيت أبي الطيب الذي أوقد الجدل، يصف شرب الإبل:

إذا ما استحيْن الماءَ يعرضُ نفسَه
شربْن بسبْتٍ في إناءٍ من الورد

شبّه أشفار الإبل لدقّتها ونعومتها بالإخفاف السّبتية. وللبيت وجه آخر، ارتآه العروضي الفقيه، هو الأرجح عندي.

هذا، ويورد البخاري رحمه الله، قصة توضح حرص عبد الله بن عمر على اقتفاء أثر الرسول الكريم، قال حدثنا أبو نعيم قال حدّثنا سيف سمعت مجاهداً يقول:

«أُتي ابن عمر رضي الله عنهما في منزله، فقيل له، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل الكعبة. قال (ابن عمر) فأقبلتُ فأجد رسول الله قد خرج، وأجد بلالاً، عند الباب قائماً. فقلت، يا بلال، هل صلّى رسول الله في الكعبة؟ قال نعم. قلت فأين؟ قال بين هاتين الأسطوانتين، ثم خرج فصلى ركعتين في وجه الكعبة».

ذاك أبو عبد الرحمن في لهفته على تتبّع مواطىء معلّمه الأسمى. كان متصوفاً في حُبه، كما وصف الشهرزوري في مقام آخر:

ومعني صاحبٌ جاء يقتفي الـ
آثارَ والحبُّ شأنُه التّطْفيلُ

■ ■ ■

من أجمل ما عثرت عليه من أخبار تتبع عبد الله بن عمر لآثار الرسول صلى الله عليه وسلم، ما أورده الإمام البخاري في صحيحه قال:

«حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال حدثنا أنس بن عياض. قال حدثنا موسى بن عقبة عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله صلى الله وسلم كان ينزل بذي الحُلَيْفة حين يعتمر، وفي حجته حين حج تحت سمُرة في موضع المسجد الذي بذي الحُليفة. وكان إذا رجع من غزو كان في تلك الطريق أو حج أو عُمرة هبط من بطن واد، فإذا ظهر من بطن واد أناخ بالبطحاء التي على شفير الوادي الشرقية، فعرّس ثم حتى يُصبح، ليس عند المسجد الذي بحجارة ولا على الأكمة التي عليها المسجد.

كان ثمَّ خليجُ يصلي عبد الله عنده، في بطنه كُثُبٌ. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يصلي. فدحا السيلُ فيه بالبطحاء حتى دَفن ذلك المكان الذي كان عبد الله يصلّي فيه، وإن عبد الله حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلّم صلى حيث المسجد الصغير الذي دون المسجد الصغير الذي دون المسجد الذي بشرف الرَّوْحاء. وكان عبد الله يَعلُم (يضع علامة) المكان الذي صلّى فيه النبي صلى الله عليه وسلم، يقول ثم عن يمينك حين تقوم في المسجد تصلي. وذلك المسجد على حافة الطريق اليُمنى وأنت ذاهب إلى مكة، بينه وبين المسجد الأكبر رمية حجر أو نحو ذلك.

وكان ابن عمر يصلي إلى العِرْق[٣] الذي عند مُنصرف الرّوحاء، وذلك العَرقِ انتهاء طرَفه على حافّة الطريق دون المسجد الذي بينه وبين المُنصرف وأنت ذاهب إلى مكة. وقد ابتُني ثم مسجدٌ، فلم

يكن عبد الله بن عمر يصلّي في ذلك المسجد. كان يتركه عن يساره ووراءَه، ويصلي أمامه إلى العرق نفسه.

وكان عبد الله يروح من الرَّوْحاء، فلا يصلي الظهر، حتى يأتي ذلك المكان فيصلي فيه الظهر. وإذا أقبل من مكة إن مرّ به قبل الصبح بساعة أو من آخر السحر، عرّس[٤] حتى يصلّي به الصبح.

(وقال نافع) إن عبد الله حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل تحت سَرْحة[٥] ضخمة دون الرُّوَيْثة عن يمين الطريق ووُجاة الطريق في مكان بطح سهل حتى يُفضي من أكمة دُوَيْن بريد الرُّوَيْثة بميلين، وقد انكسر أعلاها فأنثنى في جوفها وهي قائمة على ساق، وفي ساقها كثُبٌ كثيرة. وأن عبد الله بن عمر حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى في طَرَف تَلعة من وراء العَرْج[٦] وأنت ذاهب إلى هضبة.

عند ذلك المسجد قبْران أو ثلاثة. على القبور رَضْمٌ[٧] من حجارة عن يمين الطريق، عند سلمات الطريق، بين أولئك السّلمات، كان عبد الله يروح من العَرْج بعد أن تميلَ الشمس بالهاجرة، فيصلي الظهر في ذلك المسجد.

(وقال نافع) إن عبد الله حدّثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نزل عند سرحات عن يسار الطريق في مسيل دون هَرْشي. ذلك المسيل لاصقٌ بكُراع[٨] هَرْشي، بينه وبين الطريق قريب من غلْوة. وكان عبد الله يصلّي إلى سَرْحة هي أقرب السّرحات إلى الطريق، وهي أطْولهُنّ.

حمله على التطرف والجنون، ويمكن للعقل أن يفهمه، وللخيال أن يحيط به.

العملان اللذان لم يستطع الخيال أن يحيط بهما إلى يومنا هذا، هما مصرع الخليفة عثمان ذي النورين، ومصرع الحسين بن علي، سبط الرسول الكريم. شهد عبد الله الهول الأول، وعاصر الهول الثاني. ولا بد أنهما رجّا شعوره رجّاً، وكان لهما أثر في موقفه من (الفتنة). وهو موقف أثار حيرة بعض الناس. بل هو نفسه تساءل وهو على فراش موته هل كان يجب عليه أن يفعل أكثر مما فعل.

روى ابن سعد وآخرون، أن ابن عمر لبس درعه مرتين يوم الدار. كان مع النفر الذين رابطوا مع الخليفة المحاصر، فيهم الحسن والحسين وعبد الله بن الزّبير ومحمد بن طلحة وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم والصحابي الجليل أبو هريرة.

وحدّث الطبري في تاريخه عن جماعة عن أبي حفص قال:
«لما كان يوم الخميس (١٧ من ذي الحجة عام ٣٦) دلّيت حجراً فوق الدار فقتلت رجلاً من أَسْلم يُقال له نيار. فأرسلوا إلى عثمان أن أَمْكنّا من قاتله. قال (والله ما أعرف له قاتلاً). فباتوا يتحرّقون علينا ليلة الجمعة بمثل النيران. فلما أصبحوا غدوْا فأول من طلع علينا كنانة بن عتّاب في يده شعلة من نار على ظهر سطوحنا، قد فُتح له من دار آل حزم. ثم دخلت الشُّعَل على إثره تنْضح بالنّفط. فقاتلناهم ساعة على الخشب، فأسمعُ عثمان يقول لأصحابه (ما بعد الحريق شيء. قد احترق الخشب واحترقت الأبواب. ومن كانت لي عليه طاعة فليمسك داره، فإنما يريدني القوم، وسيندمون على قتلي. والله لو تركوني لظننت أني لا أُحب الحياة. لقد تغيّرتْ حالي

حمله على التطرف والجنون، ويمكن للعقل أن يفهمه، وللخيال أن يحيط به.

العملان اللذان لم يستطع الخيال أن يحيط بهما إلى يومنا هذا، هما مصرع الخليفة عثمان ذي النورين، ومصرع الحسين بن علي، سبط الرسول الكريم. شهد عبد الله الهول الأول، وعاصر الهول الثاني. ولا بد أنهما رجّا شعوره رجّاً، وكان لهما أثر في موقفه من (الفتنة). وهو موقف أثار حيرة بعض الناس. بل هو نفسه تساءل وهو على فراش موته هل كان يجب عليه أن يفعل أكثر مما فعل.

روى ابن سعد وآخرون، أن ابن عمر لبس درعه مرتين يوم الدار. كان مع النفر الذين رابطوا مع الخليفة المحاصر، فيهم الحسن والحسين وعبد الله بن الزّبير ومحمد بن طلحة وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم والصحابي الجليل أبو هريرة.

وحدّث الطبري في تاريخه عن جماعة عن أبي حفص قال:
«لما كان يوم الخميس (١٧ من ذي الحجة عام ٣٦) دلّيت حجراً فوق الدار فقتلت رجلاً من أَسْلم يُقال له نيار. فأرسلوا إلى عثمان أن أَمْكنّا من قاتله. قال (والله ما أعرف له قاتلاً). فباتوا يتحرّفون علينا ليلة الجمعة بمثل النيران. فلما أصبحوا غدوْا فأول من طلع علينا كنانة بن عتّاب في يده شعلة من نار على ظهر سطوحنا، قد فُتح له من دار آل حزم. ثم دخلت الشُّعَل على إثره تنْضح بالنّفط. فقاتلناهم ساعة على الخشب، فأسمعُ عثمان يقول لأصحابه (ما بعد الحريق شيء. قد احترق الخشب واحترقت الأبواب. ومن كانت لي عليه طاعة فليمسك داره، فإنما يريدني القوم، وسيندمون على قتلي. والله لو تركوني لظننت أني لا أحب الحياة. لقد تغيّرتْ حالي

وسقطت أسناني ورقّ عظمي..)».

في نهار الخميس أو نهار الجمعة أشرف عثمان رضي الله عنه على الرعاع، الذين قدموا من مصر والعراق والشام وحاصروا الدار، وقال لهم من حديث طويل:

«... فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفعه الله عزَّ وجل عنكم إلى يوم القيامة. وإنكم إن قتلتموني لم تُصلّوا بعدي جميعاً أبداً، ولم تقتسموا بعدي فيئاً جميعاً أبداً، ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً..».

وذكروا أن عبد الله بن سلام، الصحابي، قام على باب دار الخليفة عثمان، يريد أن يفرّق الناس عنها وقال:

«يا قوم! لا تسُلّوا سيف الله عليكم، فوالله أن سللتموه لا تغمدوه أبداً. ويلكم! إن سلطانكم اليوم يقوم على الدرّة، فإن قتلتم الخليفة، لا يقوم إلّا بالسيف. ويلكم! إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله. والله لئن قتلتموه لتتركنّها».

ظلوا يموجون حول الدار، لا يجرؤون على اتخاذ الخطوة الأخيرة الرهيبة، يحول بينهم ذلك الحاجز الغامض من الرهبة والمهابة. إن اجتازوه فلن يصُدَّهم بعد ذلك شيء.

قال الطبري:

«.. ودخلوا عليه فمنهم من يُجؤُه بنعل سيفه، وآخر يلكزه. وجاء رجلٌ بمشاقص معه فوجأه في ترقُوته فسال الدم على المصحف.. وهم في ذلك يهابون قتله.. وكان كبيراً وغُشي عليه. ودخل آخرون، فلما رأوه مغشياً عليه جروه برجله فصاحت نائلة (ابنة

الفُرافصة زوجته) وصاحت بناته. وجاء النُجيبي مخترطاً سيفه ليضعه في بطنه، فوقته نائلة فقطع يدها، واتّكأ بالسيف عليه في صدره. وقُتل عثمان رضي الله عنه قبل غروب الشمس (من يوم الجمعة). ونادى مناد ما يحلّ دمه ويُحرم ماله، فانتهبوا كل شيء..».

وفي روايات، أن الذين دخلوا على عثمان رحمه الله، كانوا محمد ابن أبي بكر وكنانة بن بشر بن عتّاب وسوْدان ابن حُمران وعمرو ابن الحمق، وأن الذي طعنه ابن بشر وأن عمرو بن الحمق وثب على عثمان وجلس على صدره، وكان به رمق، فطعنه تسع طعنات. واختلفوا هل حضر محمد بن أبي بكر القتل أم أنه خرج.

وحكي ابن سعد عن مولى ابن عبّاس المخزومي قال:
«.. وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين خذلوه (أي عثمان) قد كرهوا الفتنة وظنّوا أن الأمر لا يبلغ قتله. فندموا على ما صنعوا في أمره. ولعمري لو قاموا أو قام بعضهم فحثا في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين».

بعد نحو من خمسة وعشرين عاماً من مصرع عثمان رضي الله عنه، سوف يكون عبد الله بن عمر حيّاً شاهداً ـ عن بُعد ـ على الهول الأكبر، مصرع الحسين عليه السلام. وكان قتلهم عثمان هو الذي جرّأهم على قتل سبط النبي.

وكأن الرّعاع الذين منعوا الماء عن عثمان بالمدينة هم أنفسهم الذين أظمأوا الحسين بكربلاء.

■ ■ ■

ما الذي جعل ابن أبي بكر الصديق، خليفة رسول الله وصفيه، ينخرط مع أولئك الغوغاء، فيكون شريكاً في إثم مقتل عثمان، إن لم يكن بالفعل فبشبهة القصد والمشاركة؟

في رواية للطبري أنه ساهم في القتل. قال:
«... عن عبد الرحمن بن محمد، أن محمد بن أبي بكر تسوّر على عثمان من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة بن بشر بن عتّاب وسوْدان بن حمران وعمرو بن الحَمق، فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف في سورة البقرة. فتقدمهم محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحية عثمان وقال له:

«أخزاك الله يا نَعْثَلْ»[٩].
فقال عثمان:
«لستُ بنعثل ولكني عبد الله وأمير المؤمنين».

قال محمد:
«ما أغنى عنك ومعاوية وفلان وفلان».

فقال عثمان:
«يا ابن أخي، دع عنك لحيتي، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه».

فقال محمد:
«لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك. وما أُريد بك، أشدُّ من قبضتي على لحيتك».

قال عثمان:
«أستنصر الله عليك وأستعين به».

ثم إن محمداً بن أبي بكر طعن جبينَه بمشْقَص[١٠] في يده، ورفع كنانة بن بشر مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه ثم علاه بالسيف حتى قتله...».

وعند ابن قُتيبة في كتابه «الإمامة والسياسة» بخلاف ذلك، قال:
«... ثم جاء علي إلى امرأة عثمان فسألها مَن قتل عثمان، قالت: لا أدري. دخل عليه رجال لا أعرفهم إلّا أن أرى وجوههم، وكان معهم محمد بن أبي بكر. فدعا علي محمداً فسأله عما ذكرت امرأة عثمان، فقال محمد (صدقت. قد والله دخلتُ عليه، فذكر لي أبي، فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى. والله ما قتلته ولا أمسكتُه).

قالت (صدق. ولكنه هو أدخلهم)».
رووا أن عبد الله بن عمر قال بعد مصرع عثمان: «إنا والله ما نعلم عثمان قتل نفساً بغير حق، ولا جاء من الكبائر شيئاً. ولكنه هذا المال، إن أعطاكموه رضيتم، وإن أعطاه قرابته سخطتم. إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون لهم أميراً إلّا قتلوه».

في الهوْل الآخر ـ مصرع الإمام الحسين رضوان الله عليه ـ كان قائد الجيش الذي أرسله عبيد الله بن زياد هو عمر بن سعد، ابن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، بطل القادسية وأحد العشرة المبشرين بالجنة. وهيهات أن يشفع له أنه ذهب على مضض كما روى الطبري:

«... وكان سبب خروج ابن سعد إلى الحسين عليه السلام، أن عبيد الله بن زياد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة يسير بهم إلى دَسْتبَى. وكانت الدّيلم قد خروا إليها وغلبوا عليها. فكتب إليه ابن زياد عهدَه على الرّي وأمره بالخروج، فخرج معسكراً بالناس بحمام أعين.

فلما كان من أمر الحسين ما كان وأقبل إلى الكوفة، دعا ابن زياد عمرَ بن سعد وقال: سرْ إلى الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرْتَ إلى عمَلك.

فقال له ابن سعد: إن رأيتَ رحمك الله أن تُعفيَني فافعلْ.
فقال له ابن زياد: نعم، على أن ترُدّ لنا عهدنا.
فقال عمر بن سعد: أمهلني اليوم حتى أنظر.

فانصرف عمر يستشير نصحاءه، فلم يكن يستشير أحداً إلّا نهاه عن الخروج إلى الحسين. وجاء حمزة بن المغيرة بن شُعبة وهو ابن أخته فقال له:

«أنشدك الله يا خال أن لا تسير إلى الحسين، فتأثم بربك وتقطع رحمك. فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها، لكان خيراً لك من أن تلقى الله بدم الحسين».

قال عمر: فإني أفعل إن شاء الله.

لكنه لم يفعل. مضى متردداً في خطة عبيد الله بن زياد، حتى باء بالإثم الفادح، وكأنه شريك في القتل.

فيما بعد، حين أُحيط بسيّد الشهداء، نرى عمر بن سعد في موقف ما أبأسه من موقف. روى الطبري عن رجل يُدعى عبد الله بن عمار البارقي، يصف قتال الإمام الحسين عليه السلام في لحظاته الأخيرة، قال:

«... فشد عليه رجّالةٌ عن يمينه وشماله، فحمل على مَنْ عن يمينه حتى ابْذَعرّوا، وعلى من عن شماله حتى ابذعرّوا، وعليه قميص من خزّ، وهو مُعْتَمّ، فوالله ما رأيت مكسوراً قط قد قتل ولدُه وأهل بيته وأصحابه، أربطَ جأشاً ولا أمضى جناناً منه. ولا أجرأ مَقْدَما. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثلَه. إن كانت الرجّالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المَعزَى إذا شدّ عليها الذئب.

والله إنه لكذلك إذ خرجت زينب ابنة فاطمة أختُه، وكأني أنظر إلى قُرطها يجول بين أذنيها وعاتقها، وهي تقول (ليت السماء تنطبق على الأرض)، وقد دنا عمر بن سعد من الحسين. فقالت له (يا عمر بن سعد. أيُقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟»، فكأني أنظر إلى دموع عمر وهي تسيل على خدّيْه ولحيته وصرَف بوجهه عنها».

ما كان أحراه أن يصنع كما صنع الحرُّ بن يزيد!
قال ابن سيرين، كما روى السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء):

«لم تُفقَد الخيلُ البُلْقُ في المغازي والجيوش حتى قُتل عثمان. ولم يُختَلَفْ في الأهلّة حتى قتل عثمان. ولم تُرَ هذه الحمرةُ التي في آفاق السماء حتى قُتل الحسين».

■ ■ ■

روى أكثر من واحد، أن عبد الله بن عمر لم يكن في المدينة، حين خرج الحسين عنها يريد الكوفة استجابة للرسائل المتلاحقة التي وصلته من أهلها، يحثّونَه على المسير إليهم، ويعدونه بالنصر والتأييد. فخرج عبد الله في أثره، حتى لقيه على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة. فكان من بعض ما قال له:

«أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فخيّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يُرِد الدنيا. وأنك بضعةٌ من رسول الله، والله ما يليها أحد منكم أبداً. وما صرفها الله عنك إلّا للذي هو خير لكم».

قالوا، ولما أبى الحسين أن يرجع، اعتنقه ابن عمر وبكى وقال له «أستودعك الله من قتيل».

هذا، وقد ذكر السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» عن ابن عبد البر، أن الحسن بن علي وهو على فراش موته، قال لأخيه الحسين، رضوان الله عليهم:

«يا أخي. إن أباك استَشْرف لهذا الأمر، فصرفه الله عنه ووليَها أبو بكر. ثم استشرف لها وصُرفت عنه إلى عمر. ثم لم يَشُمَّ وقت الشورى أنها لا تعدوه، فصُرفت عنه إلى عثمان. فلما قُتل عثمان بويع علي، ثم نُوزع حتى جرّد السيف، فما صَفَتْ له. وإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة...».

ويروي السيوطي أن جماعة من الصحابة حاولوا أن يثنوا الحسين عن عزمه، منهم جابر بن عبد الله وأبو سعيد وأبو واقد الليثي فلم

يُطع أحداً منهم وصمم على المسير إلى العراق، وأن عبد الله بن عباس قال له:

«والله إني لأظنُّك ستُقتل بين نسائك وبناتك كما قُتل عثمان».

فلم يسمع منه، فبكى ابن عباس، وقال له:
«أقررْت عين ابن الزبير».

كان عبد الله بن الزبير من القلائل الذين شجعوا الحسين على المسير إلى العراق، وقد رأى بعضهم في ذلك، أنه أراد أن يخلو له الجو في الحجاز.

كانوا يجدون أكثر من وجه شبه بين مصرع عثمان ومصرع الحسين. روى ابن جرير الطبري في «تاريخه»:

«... ثم أقبل الحسين سيراً إلى الكوفة، فانتهى إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مُطيع العدوي، فلما رأى الحسين قام إليه وقال له:
«بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما أقْدمك؟».

فأخبره ما كان من كتُب أهل العراق إليه وحثّهم إياه على المسير إليهم. فقال ابن مطيع:

أُذكرك الله يا ابن رسول الله وحُرمة الإسلام ـ أن تُنْتَهَك. أنشدك الله في حرمة العرب. فوالله لئن طلبتَ ما في أيدي بني أُمية ليقتُلُنّك. ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً. والله إنها لحرمة

الإسلام تُنْتَهك، وحرمة قريش، وحرمة العرب. فلا تفعلْ ولا تأت الكوفة، ولا تعرَّض لبني أمية».

كان لا بد أن تمضي المأساة إلى نهايتها المفجعة، لقدر قدره الله. وهذه الكلمات البليغة تكشف جوهر القضية. ذلك الستار الغامض من القداسة والحُرمة، (حرمة الإسلام)، إن مزّقوه، فلن يصدّهم بعده شيء. ونذكر هنا كلمات عثمان منذ خمسة وعشرين عاماً في الدهماء الذين حاصروه في المدينة:

«... فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفعه الله عزَّ وجل عنكم إلى يوم القيامة. وإنكم إن قتلتموني لم تُصلّوا بعدي جميعاً أبداً، ولم تقتسموا بعدي فيئاً جميعاً أبداً، ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً».

هذا ما كان يخشاه عبد الله بن عمر، الحافظ للعهد الأول، السائر على الأثر. إنما هيهات. كان إذا ذكر الحسين تدمع عيناه، ويقول:

«غَلَبنا الحسين بالخروج. ولعمري لقد كان له في أبيه وأخيه عبرة».

وها هو ذا أبو عبد الله الحسين، ابن الإمام علي بن أبي طالب، ابن فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد حصرته جيوش يزيد بن معاوية في كربلاء، يحرّكها من الكوفة عبيد الله بن زياد بن أبيه. كان يقاتل وحيداً، بعد أن استشهد أنصاره وأبناؤه وآل بيته.

روى الطبري عن أبي مخنف عن الصّقعب بن زهير عن حميد بن

مسلم قال:

«... كانت عليه جُبّة من خزّ وكان مُعْتَمّاً، وكان مخضوباً بالوسمة، وسمعته يقول قبل أن يُقتل وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتّقي الرمية، ويفترضُ العورة، ويشدُّ على الخيل وهو يقول:

«أعلى قتلي تَحاثّون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسْخطُ عليكم لقتله مني. وأيم الله، إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله إن لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم».

قال الراوي:

«ولقد مكث طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتّقي بعضهم ببعض، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء. فنادى شمير في الناس (ويحكم ماذا تنظرون بالرجل؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، فحُمل عليه من كل جانب، فضُربت كفه اليسرى ضربة ضربها زرعه بن شريك التميمي. وضُرب على عاتقه.

ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو. وحَمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النَخْعي، فطعنه بالرمح فوقع. ثم قال لخوْليّ بن يزيد الأصبحي (احتز رأسه) فأراد أن يفعل فضعُف وأصابته رعدة. فقال له سنان بن أنس (فَتّ الله عضُديك وأبان يَديك) فنزل إليه فذبحه واحتزَّ رأسه ثم دفع بها إلى خوْلي بن يزيد...».

هذا، وحين وصل جلال الدين السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) إلى مقتل الحسين عليه السلام، قال:

«وكان قتله بكربلاء، وفي قتله قصةٌ فيها طول لا يحتمل القلب ذكرها، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون».

■ ■ ■

جوهر المأساة واحد في الحالتين، مع الفارق في طبيعة كل منهما وملابساتها. حين قتلوا عثمان أحدثوا خرْقاً واسعاً في ثوب الإسلام. وحين قتلوا الحسين مزّقوا الثوب تمزيقاً.

ولا يغرّنّك بعض مؤرخي زماننا هذا، ممن يصورون مقتل ذي النورين على أنه كان نتيجة ثورة مشروعة ضد الظلم، والذين يبررون مقتل سبط النبي، أنه دعت إليه مقتضيات الحكم وتثبيت الدولة. أي ثورة؟ وأي دولة؟ ويا له من باطل يتزيى بزي الحق!

الطّغام الذين قتلوا عثمان في المدينة، وأوباش العرب الذين قتلوا الحسين في كربلاء، كانوا من طينة واحدة، بل كأنهم كانوا هم أنفسهم في الحالتين. كأن الشياطين ظهرت في صور البشر يوم الدار، ثم ظهرت بعد خمسة وعشرين عاماً في كربلاء.

عبروا الحاجز الغامض، الذي يفصل بين العقل والجنون، بين السكينة والفوضى، بين مكارم الأخلاق والخسة. وقد كدتُ أقول، بين الإيمان والكفر.

تجد ذلك أوضح ما يكون في سلوك الرجل المعتوه سنان بن أنس، الذي حمل رأس الحسين ووقف به على فسطاط عمر بن سعد، وأخذ يصيح كأنما تلبسته الشياطين:

أَوْقِدْ ركابي فِضّة وذهبا
أنا قتلتُ السيد المحجَّبا
قتلت خير الناس أُمّاً وأبا
وخيرهم إذْ يُنسبون نسبا.

ما أعجب ذلك! وما أعجب قوله (فضة وذهبا) كأنه يهوذا الذي خان السيد المسيح لقاء حفنة من الفضة!

قالوا إنه حين أُدخل على عمر بن سعد وهو على تلك الحال، ضربه بقضيب كان في يده.

لا ريب أن عمر بن سعد، كان من وطأة الذنب وتأنيب الضمير، على ما لا يعلمه إلّا الله. لقد خيّره الحسين بين ثلاث. إما أن يدعه يعود إلى المدينة، أو يذهب إلى يزيد بالشام فيرى رأيه معه، أو يذهب إلى ثغر من الثغور مجاهداً في سبيل الله. فأرسل عمر بن سعد ذلك إلى عبيد الله بن زياد بالكوفة، فلم يقبل ابن زياد إلاّ أن يأتيه الحسين صاغراً. فمضى ابن سعد في (تنفيذ أوامر رئيسه)، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

وهو من بعد، قريب القرابة بالحسين. فأبوه سعد بن مالك (أبي وقّاص) بن وهيْب ابن عبد مناف بن زُهرة. وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم، آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زُهرة. ووهب ووهيب أخوان. وكان الرسول يقول عن سعد «هذا خالي». وسعد

هو الذي قال تلك القولة الشهيرة أول أيام الفتنة:

«لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عيْنان ولسان وشفتان فيقول هذا مؤمن وهذا كافر».

لم يُقدّر لعمر بن سعد حُسْن الذكر في ذلك اليوم المشؤوم. لو مال مِيْلة واحدة لنجا.

ولكنه آثر العافية في طاعة ابن زياد. وحتى هذه لم يحصل عليها، إذ لم يلبث أن قتله المختار بن أبي عُبيد.

الرجل الذي نال الفخار أبد الدهر، من جُند ابن زياد في ذلك اليوم، هو الحُرّ بن يزيد الرِّياحي. كان على رأس كتيبة من الجيش من تميم وهمدان، فظلوا يسايرون الحسين عليه السلام أياماً، يراقبونه في حلّه وترحاله حتى نزل بكربلاء.

خلال ذلك، كان الحر يراجع نفسه ويحاسب ضميره، ويرى من فظاظات شمر بن ذي الجوْشن (ابن شرحبيل بن الأعور بن عقر الضباب بن كلاب، فيا له من اسم بائس لرجل بائس!).

وكان هو بمثابة القائد الفعلي على الجيش، وعمر بن سعد قائد بالاسم.

قال الطبري:
«... ثم إن الحُرّ بن يزيد لما زحف عمر بن سعد قال له (أصلحك الله. أمُقاتل أنت هذا الرجل؟). قال (أي والله قتالاً أيْسرُه أن تسقط

الرؤوس وتطيح الأيدي). قال الحر (أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضى؟) فقال عمر (أما والله لو كان الأمر إليّ لفعلت. ولكن أميرك قد أبى...)».

حينئذٍ ضرب فرسه ولحق بالحسين، فسأله عن اسمه، قال (الحرّ بن يزيد!). فقال له الحسين «أنت الحر كما أسمتْك أمك. أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة».

وذكروا أن الحرّ وقف ونادى الجند بأعلى صوته:
«يا أهل الكوفة. لأُمكم الهبَل والعبر. دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه. وزعمتم أنك قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوْتم عليه لتقتلوه. أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظْمه وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضرّاً. وحَلّاْتموه وأُصَيْبِيَتَه (تصغير صبيه) وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرّغ فيه خنازير السواد وكلابه. وها هم قد صرعهم العطش. بئسما خلّفتم محمداً في ذُريته. لا أسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه...».

إنما هيهات، فقد كانوا من الذين نصَّت عليهم الآية الكريمة في سورة الأحزاب:
﴿وقالوا ربنا إنّا أطعْنا سادتنا وكُبَراءَنا فأضلونَا السَبيلا﴾.

رووا أنّ يزيد بن معاوية حين جاءوا برأس الحسين عليه السلام، دمعت عيناه وقال:

«لقد كنت أرضى من طاعتهم بأقل من قتل أبي عبد الله».

لكنه لم يحاسب ابن زياد ولم يعزلْه. ووشيكاً سوف تستبيح جيوشه مدينة الرسول.

■ ■ ■

مصرع ذي النورين أنهى دور المدينة كونها حاضرة الدولة الإسلامية، وجرّ عليها ألواناً من البؤس، لم يكن آخرها أن جُنْدَ يزيد استباحوها ثلاثة أيام، فروّعوا أهلها أي ترويع.

ومصرع الحسين سبط النبي وأشْرف أهل زمانه، قوّض مُلكَ آل أبي سفيان في المدى القريب، وملكَ آل مروان في المدى البعيد، وزعزع دعائم دولة العباسيين فيما وراء ذلك.

في «العقد الفريد» وغيره من المصادر، أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج يقول:
«جنِّبْني دماء بني عبد المطلب، فليس فيها شفاءٌ من الحرب. وإني رأيت بني حرب سُلبوا ملكَهم لما قتلوا الحسين بن علي».

وقد استيقظ يزيد ـ متأخراً ـ على فداحة جُرمِه، وخطورة ذلك على دولته، روى عدد من المؤرخين عن أبي عبيدة معْمر بن المثنى قوله:

«لما قتل عُبيد الله بن زياد الحسين بن علي عليه السلام وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية، فسُرّ بقتلهم أولاً، وحسُنت بذلك منزلة عبيد الله عنده. ثم لم يلبث إلّا قليلاً حتى ندم على

قتل الحسين، فكان يقول: وما كان عليّ لو احتملتُ الأذى وأنزلته معي في داري، وحكّمته فيما يريد، وإن كان في ذلك وكَفٌ ووهَنٌ في سلطاني، حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ورعاية لحقّه وقرابته؟

لعن الله ابن مرجانة (...) قتله فبغَّضَني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فبغّضني البرّ والفاجر، بما استعظم الناس من قتلي حسيناً. ما لي ولابن مرجانة؟ لعنه الله وغضب عليه».

إنما لات حين مندم! وقد ظل ذلك البُغض يسري في أوصال تاريخ المسلمين إلى يومنا هذا.

كان كل من الشهيدين، يدرك أن قتله لن يكون أمراً هيّناً. ولكنه سوف يحدث أثراً عظيماً في مستقبل الإسلام. كل واحد منهما وطّن نفسه على الموت. عثمان، فيما رووا، رأى في منامه الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له «سوف تُفطر عندنا» ـ وكان صائماً في يومه، والحسين رأى أن الرسول يقول له «إنك تقدم إلينا».

كان كل واحد منهما مُشْفقاً ـ ليس على نفسه ـ ولكن على الطّغّام الذين أحاطوا به ليقتلوه. مشفقاً عليهم من شرّ ما يصنعون بأنفسهم وبالأجيال التي سوف تأتي من بعدهم.

الخليفة الشيخ، يطلب من حفنة المدافعين عنه أن يضعوا سلاحهم. روى ابن سعد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، أن عثمان قال لمن كان معه يوم الدار «إن أعظمكم عنّي غناءً، رجل كف يده وسلاحه».

وذكر الطبري أن الحسين قال لمن كان معه:
«.. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله. فإن القوم إنما يطلبونني، ولو قد أصابوني انصرفوا عن طلب غيري..».

كأن أولئك الطغام لم يعودوا مسلمين ولم يعودوا عرباً ولم يعودوا بشراً، وقد قال لهم الحسين:
«ويلكم! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب..».

لم يقفوا عند حد، لم يردعهم الإسلام، ولم تردعهم أعراف العرب حتى في أيام جاهليتهم. بعد البذاءة في القتل، كانت الخِسّة في النّهب والسّلب، حدث ابن سعد عن الزهري أنه قال:

«.. ودخلت الغوغاء دار عثمان، فصاح واحد منهم (أيحلّ دم عثمان ولا يحلّ ماله؟). فانتهبوا متاعه. فقامت نائلة فقالت (لصوص وربّ الكعبة. يا أعداء الله، ما ركبْتُم من دم عثمان أعظم. أما والله لقد قتلتموه صَوّاماً قوّاماً يقرأ القرآن في ركعه..)».

وروى الطبري في مقتل الحسين عليه السلام، عن جعفر بن محمد ابن علي قوله:

«.. وسلب الحسينُ ما كان عليه، فأخذ سراويله بَحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وكانت من خزّ، فكان يُسمى بعد (قيس قطيفة)، وأخذ نعليْه رجل من بني أود يقال له الأسود، وأخذ

سيفه رجل من بني نهشل بن دارم فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بُديل، ومال الناس على الورْس والحلل والإبل فانتهبوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه فإن كانت المرأة لتُنازَع على ثوبها عن ظهرها حتى تُغلب عليه فيأخذونه منها».

هذا، ويقول الأستاذ عبد الحليم الجندي في كتابه «البديع» عن الإمام جعفر الصادق، وهو يلتمس العزاء والعبرة في مصرع الحسين عليه السلام:

«إن في إنسانية البشر قابلية للفساد، كهيئة قابلية المواد للهبوط إلى الأرض بقانون الجاذبية (...) ومن الفساد ما يستلفظ فيحوج إصلاحه إلى آية من السماء مثل كسوف الشمس وخسوف القمر. وفي استشهاد أبي الشهداء آية من الآيات.

كانت كربلاء قارعة رجّتُ الأرض رجّاً يُعيد الإسلام غضّاً في الأنفس بما كان فيها من التصميم والإجماع على الاستشهاد في سبيله...».

■ ■ ■

أشد ما كان يخشى عبد الله بن عمر على نفسه من الفتنة. وقد فهموا الفتنة على وجهيْن: أن يُفتن المسلم عن دينه فيرتد إلى الكفر. أو أن يتنازع المسلمون السلطان، فتكون فتنة يضرب فيها بعضُهم رقاب بعض. وأحياناً يجيء المحظوران على هيئة واحدة، كما حدث في مقتل عثمان ومقتل الحسين رضي الله عنهما.

وعَى ابن عمر أحاديث الرسول في الفتنة كلها. وروى هو نفسه طرفاً منها. وهي أحاديث كان لها أثر عظيم في نفسه ولا شك، بسبب علاقته الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبسبب هيأته النفسية واستعداده الفطري.

حين أخذ الرسول ببضعة من جسده ـ كما روى ـ وقال له «خُذْ بحظك من العزلة»، فقد كان يعطيه ما يناسب طبعه، كما كان يفعل مع سائر أصحابه، ولا بد أنه فسّر (العزلة)، فيما بعد، أن من معانيها (الاعتزال)، فاعتزل الناس بعد مقتل عثمان، كما فعل سعد ابن أبي وقّاص، الذي قال حين أرسلوا إليه ليبايع «أنا وابن عمر خرجنا منها». وكان معهما من كبار الصحابة، كما قال الرُّواة، صهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد.

في صحيح البخاري عن جماعة عن عبد الله بن عمر أنه قال:
«قال النبي صلى الله عليه وسلم: أنا فرَطُكم على الحوْض. ليُرفعنّ إليَّ رجالٌ منكم حتى إذا أهْويْتُ لأناولَهم اخْتلجوا دوني. فأقول (أي ربِّ أصحابي.) فيقول (لا تدري ما أحدثوا بعدك)».

وروى زيد بن وهب قال:
«سمعت عبد الله (ابن عمر) قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنكم سترون بعدي أَثَرةً وأموراً تُنكرونها). قالوا (فما تأمرنا يا رسول الله؟) قال (أدُّوا إليهم حقهم وسلوا الله حقّكم)».

وعن عُبادة بن الصامت أنه قال:
«دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أَخذ علينا أن بايعنا على السّمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعُسرنا ويسرنا وأَثَرةً

علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلّا أن تروا كُفراً بوّاحاً عندكم من الله فيه برهان».

وعن أسامة بن زيد أنه قال:
«أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أُطمُ من آطام المدينة فقال (هل ترون ما أرى؟) قالوا، لا، فقال (فإنّي لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقْع القَطْر)».

وعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:
«يتقارب الزمان، وينقصُ العمل، ويُلقى الشُّح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج» قالوا يا رسول الله أيما هو؟ قال «القتل! القتل!».

وروى عبد الله بن عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:
«لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضُكم رقاب بعض».

وعن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:
«ستكون فتن، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السّاعي. مَنْ تشرَّف لها تسْتشرفْه. فمن وجد فيها ملجأً أو معاذاً فلْيَعُذْ به».

وعن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حُذيفة بن اليمان في حديث طويل، أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن دعاة الشر:
«... قلت يا رسول الله صفْهم لنا. قال (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا). قلت، فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم): قلت، فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال

(فاعتزلْ تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)».

وعن حذيْفة أنه قال:
«حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثيْن، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر. حدثنا أن الأمانة نزلت في جذْر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السُنّة. وحدثنا عن رفعها قال: (ينام الرجل النوْمة فتُقْبضُ الأمانة من قلبه، فيظل أطرُها مثل أثر الوكْت[١١]. ثم ينام النومة فتُقبض فيبقى فيه أثرُها مثل أثر المجْل[١٢] كجمر دحرجته على رجلك فقط فتراه مُنْتبراً وليس فيه شيء. ويُصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيُقال إن في بني فلان رجلاً أميناً. ويُقال للرجل، ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان)».

وعن أبي سعيد الخدْري أنه قال:
«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يكون خير مال المسلم، غَنمٌ يتْبع بها شَعف الجبال ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتَن».

كل ذلك وقر في فؤاد عبد الله بن عمر وفي صميم وجدانه، مما جعله يسلك في الأحداث الجسام التي جدت بعد مقتل عثمان، مسلكاً حمله بعض المتأخرين من المؤرخين، على الخوف وإيثار العافية.

ما كان أبو عبد الرحمن ليؤثر العافية إلّا في أمر آخرته. كان أكثر خوفه ألّا تزلّ قدمه، ليس في الدنيا، ولكن في الآخرة.

روى ابن سعد أن عبد الله بن عمر قال:
«كففت يدي فلم أندم، والمقاتل على الحق أفضل».

المقاتل على الحق كان واضحاً كالشمس في ذلك الصراع، فهل أسف عبد الله بن عمر رحمه الله أنه لم يؤيده صراحة، بعد ما رأى من أهوال يزيد والحجاج؟

■ ■ ■

أغلب الظن أن عبد الله بن عمر بايع الإمام علياً مع جملة الناس، لكنه لم يزدْ على ذلك. لم يندفع في نصرته وتأييده، كما كان الإمام علي يؤمل منه. ولم يلبث أن سار إلى مكة.

يروي ابن قتيبة في كتابه «الإمامة والسياسة»:
«ذكروا أن عمار بن ياسر قام إلى علي فقال (يا أمير المؤمنين، إئذن لي أن آتي عبد الله بن عمر فأكلمه، لعله يخفّ معنا في هذا الأمر) فأذن له، فأتاه فقال له (يا أبا عبد الرحمن. إنه قد بايع علياً المهاجرون والأنصار، ومَنْ إنْ فضّلناه عليك لم يُسْخطْك، وإن فضّلناك عليه لم يُرْضك. وقد أنكرت السيف في أهل الصلاة، وقد علمت أن على القاتل القتل، وعلى المُحصّن الرجم. وهذا يقتل بالسيف وهذا يقتل بالحجارة، وأن علياً لم يقتل أحداً من أهل الصلاة فيلزمه حكم القاتل).

فقال ابن عمر (يا أبا اليقظان. إن أبي جمع أهل الشورى الذين قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فكان عليّ أحقّهم بها. غير أنه جاء أمر فيه السيف ولا أعرفه. ولكن والله ما

أحب أن لي الدنيا وما عليها وإني أظهرت أو أضمرت عداوةً لعلي). فانصرف عنه».

هذا، وحبّ عبد الله بن عمر لعلي لا ريب فيه، فهو يعلم حق العلم موقعه من الرسول صلى الله عليه وسلم. روى الترمذي عن ابن عمر أنه قال:

«آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه فقال (يا رسول الله. آخيت بين أصحابك ولم تُؤاخ بيني وبين أحد). فقال الرسول (أنت أخي في الدنيا والآخرة)».

وعند الطبري وغيره، أن المدينة بقيت خمسة أيام وليس فيها أمير، وأن الناس عرضوا البيعة على علي فأبى، وعرضوها على الزبير وطلحة وسعد، فأبوا كلهم. ثم إنهم أتوا عبد الله بن عمر، فقالوا له قُم بهذا الأمر فقال لهم:
«إن لهذا الأمر انتقاماً. والله لا أتعرّض له فالتمسوا غيري».

ويروي الطبري كيف أنهم اضطروا الإمام علياً على البيعة فقال:
«... فقالوا لهم، دونكم يا أهل المدينة، قد أجّلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتُلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً فغشي الناس علياً فقالوا (نبايعك، فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى).

فقال علي (دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبُتُ عليه العقول) فقالوا (ننشدك الله. ألا ترى ما ترى؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟).

فقال لهم علي (قد أجبتكم لما أرى. واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم. وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلّا أني أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم...».

وروى أكثر من واحد، أن الحسن بن علي نصح أباه ألّا يقبل البيعة في تلك الظروف، وكذلك صنع عبد الله بن عباس، الذي قال له:

«أطعني وادخل دارك، أو الحق بمالك بيَنبُع وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك. فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليُحمّلنّك الناس دم عثمان غداً».

هذا، ويقول الطبري في رواية عن محمد بن طلحة وآخرين، أن علياً حين خرج عليه الزبير وطلحة ومعهم عائشة أم المؤمنين، وأخذ يستعد إلى المسير إليهم، أرسل إلى عبد الله بن عمر، فلما جاءه قال له (انهض معي) فقال له (أنا مع أهل المدينة. إنما أنا رجل منهم. وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لا أفارقهم، فإن يخرجوا أخرج، وإن يقعدوا أقعد...).

ثم إن عبد الله بن عمر عزم على السير إلى مكة من ليله، وأخبر أم كلثوم ابنة علي (أرملة أبيه) أنه يخرج معتمراً... مقيماً على طاعة علي ما خلا النهوض...).

ويمضي الطبري فيقول:
«وأصبح علي فقيل له (حدث البارحة حدث هو أشد عليك من

طلحة والزبير وأم المؤمنين ومعاوية). قال (وما ذلك؟) قالوا (خرج ابن عمر إلى الشام).

فأتى علي السوق ودعا بالظّهر. فحمل الرجال وأعد لكل طريق طُلّاباً وماج أهل المدينة. وسمعت أم كلثوم فدعت ببغلتها فركبتها ثم أتت علياً... فقالت له (إن الأمر بخلاف ما بلغته وأنا ضامنة له). فطابت نفسه وقال (انصرفوا. لا ووالله ما كذَبتْ ولا كذب وإنه عندي ثقة)».

هذا هو إذاً، موقف عبد الله بن عمر من الإمام علي. يُقيم على طاعته ولا ينهض معه في صراعه ضد مناوئيه. وهو موقف، إن بدا غريباً لبعض مؤرخي هذا الزمان، فقد رضي به الإمام علي، كما رضيه أهل المدينة، وهم، كما قال عبد الله بن عمر:
«أنا مع أهل المدينة... إن يخرجوا أخرجْ، وإن يقعدوا أقعدْ...».

■ ■ ■

أقام عبد الله بن عمر بالمدينة، بعد ما كان من خروج الإمام علي للقاء طلحة والزبير وانتصاره عليهما في موقعة الجمل. كان انتصاراً لم يجد فيه الإمام علي لذّة، فقد بلغ عدد القتلى فيما رووا ستة آلاف، بينهم جمهرة من كبار الصحابة وحَمَلة القرآن. كانت أول حرب يقتل فيها المسلمون بعضهم البعض.

كان رضي الله عنه بطلاً مأساوياً جاء في غير زمانه. جاء بكل ما له من شرف وسابقة وعلم وورع وبطولات، ليعيد للخلافة هيبتها وللإسلام نضارته كما كان في عهده الأول. إنما هيهات، فقد

تغيرت الدنيا حتى في ذلك الوقت، والناس ما زالوا قريبي العهد بالرسول الكريم. سوف يظل يقاتل حتى يموت شهيداً. وقد رووا أنه قال يوم الجمل «والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة».

ذلك، وما تلاه من أهوال، كانت تصل أنباؤه إلى المدينة، وإلى ابن عمر، فتزيد من أحزانه. أراد أن يعتزل في بيته، وينأى بنفسه. لكن الأحداث ظلت تلاحقه.

ذكروا أن معاوية بن أبي سفيان، كتب إلى أهل المدينة عامة يطلب تأييدهم، وكتب رسائل خاصة إلى نفر منهم، لما كان يعلم من تأثيرهم ونفوذهم. روى ابن قتيبة أن معاوية كتب إلى سعد بن أبي وقاص يقول له:

«أما بعد، فإنّ أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى، والذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره. وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر والشورى ونظيراك في الإسلام. وخفّت لذلك أم المؤمنين. فلا تكرهنَّ ما رضوا، ولا تردَّن ما قبلوا. فإنما نردّها شورى بين المسلمين».

قالوا، ورد عليه سعد:

«أمّا بعد، فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه. غير أن علياً كان من السابقة، ولم يكن فينا ما فيه، شاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محسنه. وكان أحقنا كلنا بالخلافة ولكن مقادير الله تعالى التي صرفتْها عنه حيث شاء لعلمه وقدَره... فدع ذا. وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمرٌ كرهنا أوله وآخره. وأما طلحة والزبير، فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما. والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين».

وكتب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري يتّهمه ويتهم الأنصار بخذلان عثمان، فرد عليه قائلاً:
«أما بعد، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي في يدي. وقد أُخبرت بالذي هو كائن قبل أن يكون. فلما كان، كسرتُ سيفي، ولزمتُ بيتي، واتّهمت الرأي على الدين، إذ لم يصح لي معروف آمر به، ولا منكر أَنْهى عنه.

لعمري يا معاوية، ما طلبتَ إلّا الدنيا، ولا اتّبعت إلّا الهوى. ولئن كنتَ نصرتَ عثمان ميتاً، لقد خذلته حياً. ونحن ومن قِبَلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب».

أما في رسالته إلى عبد الله بن عمر، فإن معاوية، يمزج بين الترغيب والاتهام والإغراء الصريح. يقول:

«أما بعد، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبّ إليه أن يجتمع الناس عليه بعد عثمان، منك. فذكرت خذلك إيّاه وطعنك على أنصاره، فتغيرتُ لك. وقد هوّن ذلك عليَّ خلافُك على علي وطعنك عليه. وردني إليك بعض ما كان منك. فأعنّا يرحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم. فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك. فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين».

ويقول ابن قتيبة إن عبد الله بن عمر ردّ على معاوية يقول:
«أما بعد. فإن الرأي الذي أطمعك في هذا، هو الذي صيّرك إلى ما صيّرك. تركتُ علياً في المهاجرين والأنصار، وتركتُ طلحة والزبير وعائشة، واتّبعك فيمن تبعك؟!

وأما قولك إني طعنت على علي، فلعمري ما أنا كعلي في الإسلام والهجرة ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن أحدث أمراً لم يكن إلينا فيه من رسول الله عهد، ففزعت إلى الوقوف وقلت، إن كان هذا فضلاً تركتُهُ وإن كان ضلالة فشرٌّ منه نجوت. فاغْن عني نفْسك».

مهما يكن من أمر تلك الرسائل، ومدى صحّتها ـ ومن المؤرخين من لا يأنس لابن قتيبة ـ فإنها صادقة في تعبيرها عن نوايا معاوية، وموقف أولئك النفر من الصحابة منه، وموقف أهل المدينة عموماً.

كان معاوية ـ رحمه الله ـ يطلب (الشرعية) في صراعه ضد رجل يعلم حق العلم أنه ليس من أكفائه.

ذكروا أن عُبيد الله بن عمر بن الخطاب فارق الإمام علياً ولحق بمعاوية، ففرح به فرحاً شديداً، وقال لعمرو بن العاص:
«ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله؟».

فضحك عمرو وقال له:
«شبّهت غير شبيه، إنما أتاك عبيد الله مخافة أن يقتلَه علي بقتله الهرمزان. ورأى عبد الله ألّا يكون عليك ولا لك. ولو كان معك لنفعك. أو عليك لضرّك».

■ ■ ■

الهوامش

(١) الجَلَحُ انحسارُ شعر الرأس.

وفي صفات الإمام علي رضي الله عنه أنه كان أصلع.

(٢) فسّروا أن زُجّ الرُمح هو الحديدة التي تُركَّب في أسفل الرمح، تركز به في الأرض، والسنان أعلا الرمح يطعن به.

(٣) عِرْق، خيط ممتد من الرمل.

(٤) عَرَّس، نزل من آخر الليل.

(٥) سَرْحة، شجرة عظيمة يُستظلّ بها.

(٦) العرْج، منحنى الوادي ولعله مكان بعينه.

(٧) رَضْم، حجارة بعضها فوق بعض.

(٨) كُراع الأرض ناحيتها، أو هو ركن ناتىءٌ من الجبل.

(٩) فسّروا أن النَّعثل الشيخ الأحمق. وقال صاحب (اللّسان) أنه كان بمصر رجل طويل اللحية يشبّه بعثمان رضي الله عنه.

(١٠) المشقص، النّصل يكون طويلاً أو عريضاً.

(١١) الوكْت ـ الوكْتة، الأثر في الشيء مثل النُّقطة.

(١٢) المجل ـ بفتح الجيم وسكونها، من معانيها البثور التي تظهر في اليد مثلاً، من شدة العمل.

الفصل الرابع

من فيوض العارفين

الإمام جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام كان يُعرف بجعفر الصّادق، وكانت أمّه فروة ابنة القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، فهو جمع الصّلاح والشرف من أقطاره جميعاً.

وجدّه لأمه، القاسم بن محمد بن أبي بكر، كان من صُلاح قريش وفقهائها. ورُوي أن عمر بن عبد العزيز قال:
«لو كان لي من الأمر شيء لولّيتُ القاسم بن محمد الخلافة».

وقال أبو الزّناد «ما رأيت أحداً أعلم بالسُّنة من القاسم بن محمّد».

وحدّثوا أنّ رجلاً سأله «أنت أعلم أم سالم؟». يعني سالم بن عبد الله بن عمر وكان ذروة في العلم ـ فقال له القاسم «ذاك بيت سالم» لم يزد عليها. وفسّروا أنه كره أن يقول له سالم أعلم

فيكذب أو يقول هو أعلم فيزكي نفسه.

عاش القاسم حتى جاوز حفيده جعفر الصادق العشرين من عمره، فكان أحد الذين أخذ عنهم جعفر العلم.

كان جعفر الصّادق شيخ الشيوخ وإمام الأئمة. أخذ عنه العلم سفيان الثوري وأبو حنيفة ومالك ـ ومالك هو شيخ الشافعي، والشافعي شيخ أحمد ابن حنبل.

روى سفيان الثوري أنه سمع جعفر الصادق يقول:
«عزّت السّلامةُ حتى خفي مطلبُها، فإن تكنٍ في شيء فيوشك أن تكون في الخمول (أي خمول الذّكر). فإن طُلبت في الخمول ولم توجد فيوشك أن تكون في التخلّي. فإن طُلبت في التخلّي ولم توجد فيوشك أن تكون في الصّمت. فإن طلبت في الصّمت ولم توجد فيوشك أن تكون في كلام السّلف الصالح. والسّعيد من وجد في نفسه خلوة يشتغل بها».

وروي عن الإمام الشافعي قوله:
«استعينوا على الكلام بالصّمت، وعلى الاستنباط بالفكر».

وذكروا أنه قال ينصح معلّم أولاد هارون الرّشيد:

«وليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين، إصلاحك نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تكرهه. علّمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملُّوه ولا تتركهم منه فيهجروه. ثم روّهم من الشعر أعفّه ومن

الحديث أشرفه. ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكموه. فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّةٌ للفهم».

ورُوي عنه أيضاً أنه قال:
«لو علمتُ أن الماء البارد يُنْقص من مروءتي ما شربته».

وحدّث يونس بن يزيد عن محمد بن شهاب الزُّهري أنه قال:
«إن هذا العلم إن أخذتَه بالمكابرة غلبك ولم تظفر منه بشيء، ولكن خُذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به».

كان الزهري من شيوخ الإمام مالك، قال عنه:
«والله لقد أدركت ها هنا (يعني مسجد الرّسول صلى الله عليه وسلّم) سبعين رجلاً كلّهم يقول، قال فلان قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فلم آخذ عن أحد منهم حرفاً لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن. ولقد قدم علينا محمد بن شهاب الزُّهري وهو شاب فازدحمنا على بابه لأنّه كان من أهل هذا الشأن».

ووصفوا أن التابعي الجليل محمد بن سيرين يكون في سعادة وضحك بالنهار فإذا جن عليه اللّيل يتهجد ويبكي فكأنه (قتل أهل القرية) من شدّة البكاء.

في رواية أنّه كان مولى لأنس بن مالك وكانت أمه من موالي أبي بكر الصّديق.

وصفوا أنّ الناس كانوا إذا رأوه يذكرون اللّه لكثرة ما أُعطي من هيبة وسمت وخشوع. حدّث موسى بن المغيرة قال:

«رأيت ابن سيرين يدخل السّوق رابعة النهار يكبّر ويسبّح. فقال له رجل «يا أبا بكر أفي هذه الساعة؟» فقال ابن سيرين «ساعةُ غفلة».

هذا، وكان يونس بن عبيد رجلاً عابداً، وكان خزازاً، فجاءه رجلٌ من أهل الشام، يريد أن يشتري ثوباً فقال «المُطرَف في السوق بأربعمائة». فقال يونس «عندنا بمائتين» ثم نادى المؤذّن للصلاة فانطلق يونس ولمّا عاد وجد أن ابن أخيه باع الثوب للرّجل بأربعمائة. فقال له يونس:

«يا عبد اللّه. المُطرف الذي عرضتُ عليك بمائتين، فإن شئت فخذه وخذ مائتين وإن شئت فدعه. فنظر إليه الرجل مليّاً ثم قال له «من أنت؟». قال «رجلٌ من المسلمين». قال: «بل أسألك باللّه من أنت وما اسمك؟».

قال «يونس بن عبيد». فقال الرجل:
«أنت يونس بن عبيد؟ والله إنا لنكون في الحرب في نحر العدو فإذا اشتدَّ علينا الأمر قلنا «يا ربّ يونس بن عبيد فرّج عنا، فيفرج عنا»، فقال يونس «سبحان اللّه».

قال أحدهم: ما كان يونس أكثرهم صلاة ولا صوماً، ولكن لا والله، ما حضر حق من حقوق الله عزّ وجل إلّا وهو متهيّئ له».

وكان يونس يقول عن نفسه، فيما روى بشر بن الحارث:
«عددتُ مائة خصلة من البر، لم أجد عندي واحدة منها».

■ ■ ■

كان أُويْس القَرَني المراديّ رجلاً عابداً زاهداً مغمور الذكر. وحدثوا أنّ من أعظم فضائله كان بره بأُمه، وقد منعه ذلك أن يلحق بالرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم بالمدينة.

وروى أبو هريرة في حديث صحيح أخرجه مسلم قال:
«قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: إن اللّه عزّ وجلّ يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الشعثةَ رؤوسهم، المُغبرّة وجوههم، الخمَصة بطونهم، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المُتنقمات لم يزوَّجوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، وإن طلعوا لم يُفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يُعادوا، وإن ماتوا لم يُشهدوا».

قالوا «يا رسول اللّه كيف لنا برجل منهم؟».

قال «ذاك أُوَيْس القَرَني».
قالوا «وما أوَيْس القَرني»؟
قال:

«أشهل ذو صهوبة بعيد ما بين المنكبين، معتدلُ القامة، آدم شديدُ الأُدمة، ضاربٌ بذقنه إلى صدره، رام ببصره إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله يتلو القرآن، يبكي على نفسه، ذو طمرين لا يُؤبَه له، متّزر بإزار صوف ورداء صوف، مجهولٌ في أهل الأرض معروف في السماء، لو أقسم على اللّه لأبر قسمه. ألا وإن تحت مَنْكبه الأيسر لمعةً بيضاء. ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد أدخلوا الجنّة، ويُقال لأويس قفْ فاشفعْ، فيشفعه اللّه عز وجل في مثل ربيعة ومُضر».

فكان عمر بن الخطّاب يسأل عنه عشر سنوات حتى لقيه أواخر أيّام خلافته، وهو يرعى إبل قومه الذين وفدوا على عمر. وكان مع عمر عليّ بن أبي طالب. فعرفاه من أوصاف الرسول له. وطلبا من أويس أن يدعو لهما ففعل.

وذكروا أنّ عمراً أراد أن يحبسه عنده فأبى وخرج إلى الكوفة، ولمّا اشتهر أمره بها اختفى عن الأنظار فلم يُعرف له أثر.

ذلك، وحدّثوا أن معاوية بن أبي سفيان طلب من ضرار بن ضمره وكان من أصحاب الإمام عليّ أن يصف له علياً عليه السلام فأبى ولما ألح معاوية قال له:

«أمّا إذاً، فإنه واللّه كان بعيد المدى، شديدَ القُوى، يقول فضلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه. يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس باللّيل وظُلمته. كان واللّه غزير الدّمعة، طويل الفكرة، يُقلّب كفه ويخاطب نفسه. يعجبه من اللّباس ما خشُن ومن الطعام ما جشُب (غلظ). كان واللّه كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعوناه. ونحن واللّه مع تقريبه لنا وقُربه منّا، لا نكلّمه هيبةً ولا نبتدئه تعظيماً له. فإن تبسّم فمن مثل اللؤلؤ المنظوم. يعظّم أهل الدّين ويحب المساكين.

لا يطمح القوي في باطله، ولا ييأس الضّعيفُ من عدله. وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى اللّيل سجوفه وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم (الملدوغ) ويبكي بكاء الحزين، وكأنّي أسمعه وهو يقول:

يا دنيا أبي تعرّضت؟ أم لي تشوّقت؟ هيهات! هيهات! غرّي غيري.

قد بتتُّك (طلقتك) ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق».

قالوا فبكى معاوية حتى ابتلت لحيتُه وهو يمسح الدموع بكمه ولا يكف عن البكاء. واختنق القومُ في مجلسه بالبكاء. ثم قال معاوية:

«رحم اللّه أبا الحسن. كان واللّه كما وصفت. فكيف حزنك عليه يا ضرار؟».

فقال ضرار:
«حُزن من ذُبح ولدها في حجرها فلا تجفُّ عبرتُها ولا يسكن حُزنها».

هذا، وعن عمرو بن قيس أن الإمام عليّاً عليه السلام، وهو يومئذ أمير المؤمنين، رُئي عليه إزار مرقوع فعوتب في ذلك فقال:
«يقتدي بي المؤمن ويخشع له القلب».

وحدّث مجاهد أن الإمام عليّاً قال:
«جُعتُ مرةً بالمدينة جوعاً شديداً، فخرجتُ أطلب العمل في عوالي المدينة. فإذا أنا بامرأة جمعت مدَراً (طيناً) فظننتُها تريد بلَّه فأتيتُها، فقاطعتُها كلَّ ذَنوب (دلو من الماء) بتمرة. فعددت ستّة عشر ذنوباً حتى مجلت يدي. ثم أتيتُها وبسطتُ كفّي فعدّت لي ستّ عشرة تمرة، فأتيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأخبرته فأكل معي منها».

■ ■ ■

قال الشّريف الرّضي رحمه اللّه في مقدّمة شرحه لكلام الإمام علي ابن أبي طالب رضي اللّه عنه، وقد تولى جمعه وأسماه (نهج البلاغة):

«... إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مُشرَعَ الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها. ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كلُّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلٌّ واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وتأخّروا، لأنّ كلامه عليه السلام عليه مسحةٌ من العلم الإلهي وعبقةٌ من «الكلام النبوي...».

ومعروف أن أشهر من شرح (نهج البلاغة) بعد الشريف الرضي، من المتقدمين، كان الشيخ ابن أبي الحديد رحمه اللّه. ولا جدال أن أشهر الشرّاح للنهج في قرننا هذا، هو حجة الإسلام محمد عبده رحمه اللّه. وجاء في مقدمة شرحه:

«... فكان يُخيّل إليّ في كل مقام، أن حروباً شبّت وغارات شنّت، وأن للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأن للأوهام عرامة وللريَب دعارة، وأن جحافل الخطابة وكتائب الذّرابة في عقود النظام وصفوف الانتظام، تنافح بالصّفيح الأبلج والقويم الأملج، وتمتلج المُهج برواضع الحجج، فتفلُّ من دعارة الوساوس، وتصيب مقاتل الخوانس. والباطل منكسر، ومرج الشك في خمود، وهرج الرّيب في ركود. وأن مدبّر تلك الدولة، وباسل تلك الصّولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب...».

هذا، ومن أمثلة فصاحته ونصاعة بيانه خطبته الشهيرة التي يقرع فيها أتباعه على تقاعسهم عن نصرته، ومنها قوله:

«ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزي قومٌ في عقر دارهم إلا ذَلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت الغارات عليكم ومُلكت عليكم الأوطان (...) وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقَلْبَها وقلائدها ورعاثها ما تمتنع عليه إلّا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلمٌ ولا أريق له دم.

فلو أن أمرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان عندي جديراً. فيا عجباً واللّه يُميت القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقّكم. فقبحاً لكم وترحاً حين صرتُم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويُعصى اللّه وترضون.

إذا أمرتكم بالسّير إليهم في أيام الحر، قلتم هذه حمّارة القيظ أمهلنا يُسبخ عنّا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم هذه صبّارة القر أمهلنا ينسلخ عنا البرد.

(...) فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم واللّه من السيف أفر(...).

قاتلكم اللّه. لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش إن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب (...).

ومن قوله في الخليفة عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه:
«للّه درّه، فقد قوم الأود وداوى العمَد. خلف الفتنة وأقام السنّة. ذهب نقي الثوب قليل العيب. أصاب خيرها وسبق شرها. رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي».

وقال في محبّيه وأعدائه:
«هلك في رجلان. محب غال، ومبغضٌ قال».
عنى محبّاً متطرّفاً في حُبّه أو عدواً متطرفاً في عداوته وكلاهما على ضلال.
ومن حكَمه قوله:
«إذا هبتَ أمراً فقع فيه فإن شدَّة توّقيه أعظم مما تخاف منه».

وقال في المعنى نفسه:
«قُرنت الهيبة بالخيبة، والحياءُ بالحرمان. والفُرصة تمر مرّ السحاب، فانتهزوا فرص الخير».

وقال رضي الله عنه:
«أهل الدنيا كرَكْب يُسار بهم وهم نيام».

وقال:
«بكثرة الصّمت تكون الهيبة. وبالنصَفة يكثر المواصلون. وبالأفضال تعظم الأقدار. وبالتواضع تتم النعمة. وباحتمال المؤن يجب السؤدد. وبالسيرة العادلة يُقهر المناوئ. وبالحلم عن السفيه تكثُر الأنصار عليه».

هذا والإمام عليّ كان أوّل من قال العبارة الذائعة «كلمة حق أريد بها باطل»، وذلك حين رفع الخوارجُ شعارهم «لا حكم إلا للّه».

ومن وصيّته عليه السلام لكمُيل بن زناد النخعي:

«يا كُميل. مُرْ أهلَك أن يروحوا في كسب المكارم، ويُدلجوا في حاجة من هو نائم. فوالذي وسع سمعُه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سروراً، إلا وخلق الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبةٌ جرى إليها (أي اللّطف) كالماء في انحداره حتى يطردها عنه (أي النائبة) كما تُطرد غريبةُ الإبل».

وقال رضي الله عنه:
«إن للّه عباداً يختصهم بالنّعم لمنافع العباد فيُقرّها في أيديهم ما بذلوها. فإن منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم».

■ ■ ■

الرسول الكريم عليه صلوات الله، أُوتي مجامع الكَلم، ولم يكن ينطق عن الهوى. وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، اقتبس من ذلك الفيض النبوي. لا جرم، فقد نشأ في بيت النبوة ولازم الرسول ملازمةً منذ هو صبي. وبنو هاشم أهل فصاحة سجيّةً، كما وصف الإمام علي حين سُئل عن قريش:

«أما بنو مخزوم فريحانةُ قريش... وأما بنو عبد شمس فأبعدها رأياً وأمنعها لما وراء ظهورها. وأمّا نحن فأبذل لما في أيدينا، وأسمحُ عند الموت بنفوسنا. وهم أكثر وأمكر، ونحن أفصح وأنصح وأصبح».

ومن حكمه عليه السلام قوله:
«خذ الحكمة أنى كانت، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلجُ في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن».

ومن عجيب كلامه قوله:
«المؤمن بشرُه في وجهه وحُزنُه في قلبه. أوسع شيء صدراً، وأذلُّ شيء نفساً. يكره الرّفعة ويشنأ السمعة (أي يكره الشهرة). طويلٌ غمّه، بعيدٌ همّه، كثير صمتُه، مشغول وقتُه. شكور صبور، مغمورٌ بفكرته، ضنين بخلّته (أي لا يظهر فقره للنّاس). سهلُ الخليقة، ليّن العريكة، نفسُه أصلب من الصلد، وهو أذل من العبد».

وقال في المعنى نفسه، وكأنه ـ رضي الله عنه ـ كان يصف نفسه:
«كان لي فيما مضى أخٌ في الله وكان يعظمه في عيني صغرُ الدّنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد. وكان أكثر دهره صامتاً فإنْ قال بذّ القائلين ونقع غليلِ السائلين. ويبدو ضعيفاً مستضعفاً فإن جد الجد فهو ليثُ غاب وصلُ واد...

لا يلوم أحداً على ما يجدُ العذر في مثله حتى يسمع اعتذاره. يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل. وكان لأن يسمع أحرص منه على أن يتكلّم. وكان إذا بدهَهُ أمران نظر، أيّهما أقرب إلى الهوى فخالفه.

فعليكم بهذه الخلائق فالزموها وتنافسوا فيها. فإن لم تستطيعوا فأعلموا أن أخذ القليل خيرٌ من ترك الكثير».

ومن عجيب بلاغته في قول ما قل ودل:

«بقية السيف أبقى عدداً وأكثر ولداً».

وقال الشيخ محمد عبده رحمه الله في شرح ذلك:
«بقيّة السيف هم الذين يبقون بعد الذين قاتلوا في حفظ شرفهم ودفع الضيم عنهم، وفضّلوا الموت على الذّل، فيكون الباقون بعدهم شرفاء نجداء، فعددهم أبقى وولدهم يكون أكثر، بخلاف الأذلّاء، فإن مصيرهم إلى المحو والفناء».

وليس بعيداً عن ذلك قوله:
«لنا حق فإن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السُرى».

وفسّر ذلك الشريف الرضي رحمه الله بقوله:
«ومعناه إنا إن لم نُعْطَ حقّنا كنا أذلاء، وذلك أن الرديف يركب عجز البعير كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما».

وزاد عليه الشيخ محمد عبده بقوله:
«وقد يكون المعنى، إن لم نُعطَ حقّنا، تحملنا المشقة في طلبه وإن طالت الشُّقَّة. وركوب مؤخرات الإبل مما يشقُّ احتمالهُ والصبر عليه».

وذلك هو المقصود في ظنّي. ولا أحسب أن المعنى غاب عن الشريف الرضي وهو من هو. ولكن لعلّه في شرحه قدّر ظروف زمنه واحتاط حتى لا يظهر كأنّه يحثُّ على الثورة، وقد كان كما نعلم نقيب الأشراف في عصره.

وقبلاً قال تأبط شراً يصف ممدوحه:
قليلُ التشكّي للمُهم يُصيبُه

كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظلّ بموماة ويُمسي بغيرها
جحيشاً ويعْروري ظهور المهالك.

ومعنى (يعروري) أن تركب البعير أو الفرس دون سرج. أو كما نقول بدارجتنا (عريّ) وهي فصيحة. ولا يخفي أن السرج لا يوضع أبداً على عجز الدابة. وقد يروون صدر البيت الثاني:
«يبيت بموماة ويضحى بغيرها».

هذا، ومن حكم الإمام علي أيضاً قوله:
«قدْر الرجل على قدر همته. وصدقه على قدر مروءته. وشجاعته على قدر أنفته؟ وعفته على قدر غيرته».

وقال أيضاً:
«الحلم والأناةُ توأمان ينتهجهما عُلوّ الهمة».

وقال:
«صدر العاقل صندوق سره. والبشاشة حبالة المودة. والاحتمال قبر العيوب. ومن رضي عن نفسه كثُر الساخطُ عليه».

وقال عليه السلام:
«إذا وصلت إليكم أطرافُ النّعم فلا تُنفِّروا أقصاها بقلّة الشكر».

وقال:
«إن هذه القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحِكم».

■ ■ ■

روى الأصمعي أن محمد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام قال يوصي ابنه:

«يا بُني إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر. إنك إن كسلت لم تؤد حقّاً، وإن ضجرت لم تصبر على حق».

ومن حكم أبي الحسن علي بن محمّد المزيّن، وكان من العارفين قولُه:
«الذنب بعد الذنب عقوبةُ الذنب، والحسنةُ بعد الحسنة ثواب الحسنة».

هذا، وكان بشر بن الحارث الشهير ببشر الحاني من أعلام العُبّاد الزاهدين. وقد حكى محمد بن قُدامة أن رجلاً سكران لقيه في الطريق، فاعتنقه وانكب عليه يقبله ويبكي ويقول «يا سيدي يا أبا نصر. يا سيدي يا أبا نصر». وبشر لا يدفعه عنه. فاغرورقت عينا بشر، ولمّا انصرف الرجل قال بشر:

«رجلٌ أحبّ رجلاً على خير توهّمه فيه. لعلّ المحب نجا والمحبوب لا يدري ما حالُه».

وكان بشر يقول:
«حادثوا الآمال بقرب الآجال».

وحدّث الفتح بن شخرف قال:
«كنت عند بشر إذ جاءه رجلٌ فسأله عن مسألة، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه، ثم أطرق، ثم رفع رأسه فقال (اللّهم إنك تعلم أني

أخاف أن أتكلم. اللّهم إنك تعلم أني أخاف أن أسكت. اللهم إنك تعلم أني أخاف أن تأخذني بين السكوت والكلام).

وذكروا أن الإمام أحمد بن حنبل سُئل عن الورَع، فقال: «أنا؟ استغفر اللّه. لا يحل لي أن أتكلّم في مسألة عن الورع فأنا آكل من غلة بغداد. لو كان بشر بن الحارث لصلح أن يجيبك، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد».

وقال ابن مهدي عن أحمد بن حنبل:
«ما نظرت إليه إلّا ذكرت سفيان الثوري. ولقد كاد هذا الفتى أن يكون إمامنا في بطن أمه».

وروى النيسابوري «قال لي الأمير، إذا جاء إفطار أحمد بن حنبل فأرنيه. فجاءوا برغيفي خبز وخيارة. فقال «هذا لا يحضر إلينا إذا طلبناه إذا كان هذا يقنعه».

ولما عاده الطبيب في مرضه قال «هذا رجل قد فتّت الغمّ والحزن كبده».

وقال أبو داود النيسابوري «لم يكن أحمد بن حنبل يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذُكر العلم تكلّم».

هذا وقد كان سَريُّ السقطي ذا قدم راسخة، وكان خال أبي القاسم الجُنيد وأستاذه، وناهيك بالجنيد. قال الجنيد:

«سمعت السريّ يقول (ما أرى لي فضلاً على أحد). قيل له (ولا

على المخنثين؟) قال (ولا على المخنثين)».

وسألوه عن أهل الحقائق من العباد فقال:
«أكْلُهم أكلُ المرضى، ونومُهم نومُ الغرقى».

وكان يقول:
«من الناس قومٌ لو مات نصفُ أحدهم لما اتعظ النصف الآخر، ولا أحسبني إلا منهم».

وعن أحمد بن محمد الصّوفي قال:
سمعت السريّ يقول:
«انقطع من انقطع عن اللّه بخصلتين، واتصل من اتّصل باللّه بأربع خصال. فأمّا من انقطع عن اللّه فإنه يتخطّى إلى نافلة بتضييع فرض، ثم عملٌ بظاهر الجوارح لم يواطئ عليه صدقُ القلوب. وأما الذي اتصل به المتصلون، فبلزوم الباب، والتشمير في الخدمة، والصبر على المكاره، وصيانة الكرامات».

وذكروا أن الجنيد قال عن أبي سعيد الخرّاز:
«لو طالبَنا اللّه بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخرّاز لهلكنا». فسئل عن ذلك فقال «أقام كذا وكذا سنة يخرز ما فاته الحقُّ بين الخَرَزتين».

ومن أقوال أبي سعيد الخرّاز:
«إذا بكت أعين الخائفين فقد كاتبوا اللّه بدموعهم».

وكان محمد بن علي بن جعفر الكنانيّ من أصحاب الخرّاز، كما صحب الجنيد. كانوا يسمّونه (سراج الحرم)، ووصفوا أنه ختم

القرآن في الطّواف اثنتي عشرة ألف ختمة. من أقواله:
«إن اللّه تعالى نظر إلى بعض عباده فلم يرهم أهلاً لمعرفته، فشغلهم بخدمته».

وكان أبو بكر الشّبلي من أئمة الزّهاد، وكان قبلاً ذا جاه وترف، فحضر مجلساً لخير النساج فتاب على يديه. ومن أقواله:

«إذا وجدتَ قلبك مع اللّه فاحذرْ من نفسك. وإذا وجدت قلبك مع نفسك فأحذر من اللّه».

وقال بنّان الحمال:
«البريء جريء، والمذنب خائف، ومن أساء استوحش».

■ ■ ■

كان أبو حازم سلَمة بن دينار الأعرج مولى في بني ليث بن بكر. وكان ورعاً عظيم التقوى. وصفه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فقال: «ما رأيت أحداً الحكمةُ أقرب إلى فمه من أبي حازم». ذُكر عنه أنه قال:

«إذا رأيت اللّه عزّ وجلّ يتابع نعمه عليك وأنت تعصاه فاحذره».

ووصفوا أن الخليفة سليمان بن عبد الملك بعث إليه، فلمّا جاءه، قال له:
«يا أبا حازم. ما لنا نكره الموت؟».

فقال «لأنكم خربتُم آخرتكم وعمّرتُم دنياكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب».

فقال سليمان «صدقت. فكيف القدوم على اللّه عزّ وجلّ؟».

فقال أبو حازم «أما المحسن فكالغائب يقدُم على أهله. وأما المسيء فكالآبق يقدم على سيّده».

فبكى سليمان وقال «ليت شعري مالنا عند اللّه؟».

فقال أبو حازم «اعرض نفسك على كتاب اللّه عزّ وجل، فإنك تعلم مالك عند اللّه».

وأراد سليمان أن يمسكه معه ليستفيد من نصحه فأبى وقال «أخاف أن أركن إليكم فيذيقني اللّه ضعف الحياة وضعف الممات».

هذا، وقد كان في سليمان بن عبد الملك نزوعٌ إلى الصلاح، وكان أهل الورع يقولون «لعل الله يغفر لسليمان بن عبد الملك لأنه استخلف الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز».

وكان عطاء بن أبي رباح مملوكاً أسود لآل أبي ميسرة الفهري. وكان إماماً في الفقه. ذكروا أن عبد الله بن عمر قدم مكة فاجتمع إليه الناس ليسألوه، فقال «اتجتمعون لي يا أهل مكة وفيكم ابن أبي رباح؟».

وروى إسماعيل بن إبراهيم الحربي قال:

«جاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ومعه ولدان له إلى عطاء فجلسوا إليه وهو يصلّي. فلما فرغ من صلاته التفت إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وهو يجيبهم وقد أدار ظهره لهم. ثم قاموا فقال سليمان لولديه «يا بنيّ لا تقصّرا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود».

وذكروا أن ولداً لسليمان بن عبد الملك جاء فجلس بجنب طاوس ابن كيسان الفقيه فلم يلتفت إليه، فقيل له «.. يجلس إليك ابن أمير المؤمنين ولا تأبه به؟» فقال «أردت أن يعلم أن للّه عباداً لا يبالون بما لديهم».

وحكى طاوس فقال: «بينا أنا بمكة بعث إليّ الحجاج، فلما جئته أجلسني إلى جنبه. فسمعنا أحداً يلبيّ حول الكعبة رافعاً صوته، فقال الحجّاج «عليّ بالرجل». ولما جيء به قال له الحجاج «ممن الرجل؟» قال «من المسلمين» قال «ليس عن الإسلام سألت؟». قال الرجل «فعمّ سألت؟» قال «سألتك عن بلدك». قال «من أهل اليمن».

فقال الحجّاج «كيف تركت محمّد بن يوسف؟» يعني أخاه، وكان والياً على اليمن. فقال الرجل «تركته عظيماً جسيماً لبّاساً خرّاجاً ولّاجاً». قال الحجاج «إنّما أسألك عن سيرته». فقال الرجل «تركتهُ غشوماً ظلوماً عاصياً للخالق».

قال طاوس «فظهر الغضب على وجه الحجّاج وقال للرجل (ما حملك أن تتكلم بهذا الكلام وأنت تعرف مكانه مني؟) فقال الرجل (يا سبحان اللّه أتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من اللّه عزّ

وجلّ، وأنا وافدُ بيته، ومصدّق نبيّه، وقاضي دَينه؟» قال، فسكت الحجّاج ولم يحر جواباً وقام الرجل من غير أن يؤذن له فانصرف.

هذا، وكان في المدينة رجلٌ عابدٌ ذاهلٌ عن نفسه يُدعى أبا نصر المُصاب. وكان يلزم مسجد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ويجلس مع أهل الصُفَّة. فقدم هارون الرشيد وهو خليفة إلى المدينة وقال «قفوا بي على أهل الصُفَّة». فلم وقف عليهم، نبّهوا أبا نصر وقالوا له «هذا أمير المؤمنين». فرفع رأسه وقال للرشيد:

«أيها الرجل. إنّه ليس بين عباد اللّه من أمّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وسائر رعيّتك وبين اللّه من يُسأل غيرك. وإن اللّه سائلك عنهم فأعدّ للمسألة جواباً. وقد قال عمر بن الخطاب (لو ضاعت سَخْلةٌ على شاطئ الفرات لخاف عمر أن يسأله اللّه عنها)».

قالوا، فبكى هارون الرشيد وقال:
«يا أبا نصر، إن رعيتي ودهري بخلاف رعيّة عمر ودهره».

فقال له «هذا واللّه غير مُغْن عنك، فانظر لنفسك فإن اللّه سائلك عمّا حوَّلك».

ثم إن الرشيد دعا بصُرّة فيها ثلاثمائة دينار وقال «ادفعوها إلى أبي نصر». فقال «ما أنا إلّا رجل من أهل الصُّفّة. ادفعوها إلى فلان يفرّقها عليهم ويجعلني واحداً منهم».

هذا وقد ذكروا أن هارون الرشيد كان يخشى لقاء عبد اللّه بن عبد العزيز العمري من ذُريّة عمر بن الخطّاب، فقد كان يوسعه وعظاً

حتى يُبكيه. ورووا أنه لقيه ذات مرّة في المسعى فأخذ بلجام دابته فأهوى عليه الجند فمنعهم الرشيد عنه، فكلّمه فإذا دموع الرشيد تسيل على عرف دابته، وهو يقول «نعم يا عمّاه. مقبول منك يا عمّاه. على الرأس والعين يا عمّاه».»

■ ■ ■

وصفوا أن أبا محمّد سفيان بن عُيَيْنة كان مولى لبني عبد الله بن رويبة. وُلد بالكوفة عام سبعة بعد المائة، وسكن مكّة وتُوفّي بها عام ثمانية وتسعين ومائة. وذكروا أن سبب تحوُّله إلى مكّة أن أباه كان عاملاً لخالد بن عبد الله القسريّ. فلمّا عُزل عن العراق ووُلّي يوسف بن عمر الثقفي لاحق عمّال خالد فهرب عيينة، أبو سفيان، إلى مكّة.

كان سفيان من الفقهاء الثّقات الأجلاء، وكان محدّث الحرم المكّي في زمانه، وهو من شيوخ الإمام الشافعي، قال عنه «لولا مالك وسفيان لذهب علم أهل الحجاز». ومن جميل كلامه قولُه:

«إذا وافقت السريرةُ العَلانية فذلك العدْل. وإذا كانت السريرة خيراً من العلانية فذلك الفضل. وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجوْر».

وقال أيضاً «مَن كانت معصيتُه في الشهوة فارْجُ له التّوبة، فإن آدم عصى بالشهوة فغُفر له. فإذا كانت في الكبْر فاخْش على صاحبه، فإن إبليس عصى مستكبراً». وأُثر عنه أيضاً قولُه:

«كان يُقال، الأيام ثلاثة، فأمس حكيم مؤدِّب ترك حكمته لك وذهب. واليوم صديق مودِّع كان عنك طوي الغيْبة حتى أتاك وهو عنك سريعُ الظّعن. وغداً لا تدري أتكون من أهله أو لا تكون».

وذكروا في قصة وفاته كما روى ابن أخيه الحسن بن عمران بن عُيَينة قال:

«حججت مع عمي سفيان آخر حجّة له سنة سبع وتسعين ومائة. فلمّا كنّا بجمع وصلّى، استلقى على فراشه ثم قال (قد وافيت هذا الموضع سبعين عاماً، أقول كلّ عام، اللّهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان. وإني قد استحييتُ من اللّه من كثرة ما أسأله ذلك».

فرجع فتوفّي في السنة الدّاخلة، يوم السبت أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ودُفن بالحجون وهو ابن إحدى وتسعين سنة».

هذا، وذكروا أن سفيان جلس إلى الفُضيل بن عياض، فقال له الفضيل:

«كنتم معشر العلماء مصابيحَ البلاد يُستضاء بكم، فصرتُم ظلاماً. وكنتم نجوماً يُهتدى بكم، فصرتُم حَيْرة. ثم لا يستحي أحدكم أن يأخذ مال هؤلاء الظَلَمة ثم يُسند ظهره إلى الجدار ويقول (حدّثنا فلان عن فلان) فقال سفيان (لئن كنّا لسنا بصالحين فإنا نحّب الصالحين).

والفضيل بن عياض من تميم، ولد بخراسان بكورة أبيَورْد، وقدم الكوفة وهو كبير فتفقه بها وسمع الحديث ثم تعبّد وزهد وهاجر إلى مكة ومات بها.

وذكروا أن الفضيل أخذ بيد سفيان بن عيينة، وناهيك بهما ـ وقال له «إن كنت تظنّ أنه بقي على وجه الأرض شر منّي ومنك فبئس ما تظن».

هذا ومن عجيب ما حكوه عن الفضيل ما رووه عن الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد أنه قال: «حج أمير المؤمنين هارون الرشيد فأتاني ذات ليلة، فخرجت مسرعاً فقلت (يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليّ فأتيتك). قال (ويحك. قد حاك في نفسي شيء، فانظر لي فقيهاً أسأله) فقلت (ها هنا سفيان بن عيينة) قال (امض بنا إليه).

فأتيناه، فقرعت الباب، فقال من هذا؟ قلت: أجبْ أمير المؤمنين. فخرج إلينا مسرعاً وقال (يا أمير المؤمنين. لو أرسلت إليّ لجئتك). فقال الرشيد (خذ لما جئناك له رحمك اللّه). فحدّثه ساعة ثم قال له (عليك دين؟) قال، نعم، فقال الرشيد، (أبا عبّاس. اقض دينه).

ولما انصرفنا عنه قال الرشيد (ما أغنى عني صاحبك). فقلت (ها هنا عبد الرزّاق بن همام). ولما طرقنا بابه وعلم من جاءه، خرج مسرعاً وقال (يا أمير المؤمنين. هلا أرسلت إليّ فأتيتك)؟ فحادثه ساعة ثم قال له (عليك دين؟) قال، نعم، فأمرني أن أقضي حاجته.

ولما تركناه قال لي الرشيد (ما أغنى عنّي صاحبك) فقلت له (ها هنا الفضيل بن عياض) فانطلقنا إليه. ولمّا قرعنا بابه إذا هو قائم يصلّي. فلمّا فرغ من صلاته قال (من هذا؟) قلت (أجب أمير المؤمنين). قال (ما شأني بأمير المؤمنين؟) قلت (سبحان الله، أما عليك طاعة؟) فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ

المصباح، ثم انزوى في ركن منها.

فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا في الظلام، فسبقت يد هارون الرشيد إليه فقال (ما ألينَ هذه الكف إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل). فقال له الرشيد (خذ لما جئناك له رحمك الله).

فحدّثه حديثاً أبكاه حتّى غُشي عليه. فقلت له (ارفق بأمير المؤمنين). فقال (يا ابن أُم الربيع. تقتله أنت وأصحابك وتريدني أن أرفق به؟) ثم أفاق الرشيد، فقال له (زدني رحمك الله) فقال له:

«يا حسن الوجه. أنت الّذي يسألك اللّه عزّ وجلّ عن هذا الخلق يوم القيامة. فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل».

فبكى الرشيد، ثم قال له (عليك دين؟) فقال الفضيل (نعم. دينٌ لربي يحاسبني عليه. فالويل لي إن سألني. والويل لي إن حاسبني، والويل لي إن لم ألتهم حجتي). فقال الرشيد (إنما عنيت دين العباد). قال (إن ربّي لم يأمرني بهذا). فقال له الرشيد (هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك). فقال الفضيل (سبحان اللّه. أدلّك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟).

ثم صمت فلم يكلّمنا، فانصرفنا عنه. ولمّا خرجنا قال الرشيد (أبا عبّاس. إن دللتني على أحد، فدُلّني على مثل هذا. هذا سيد من سادات المسلمين)».

■ ■ ■

أبو القاسم الجُنيد بن محمّد من المبرِّزين في حَوْمة الزهد. وهو ابن أخت السري السقطي، وحسبك به، أخذ عنه وعن جماعة منهم أبو ثور والحارث المحاسبي.

أصله من نهاوند ووُلد ونشأ ببغداد. كان عمله خزّازاً، وقد روى الخالديّ قال:

«بلغني عن الجُنيد أنه كان في سوقه (أي في تجارته) وكان ورْده في كل يوم ثلاثمائة ركعة».

وعن الخالدي أيضاً:
«لم نر في شيوخنا من اجتمع له علمٌ وحالٌ غير أبي القاسم الجنيد. أكثرهم يكون له علمٌ كثير ولا يكون له حال. وآخر يكون له حال كثير وعلم يسير. والجنيد كانت له حال خطيرة وعلوم غزيرة. فإذا رأيت حالَه رجحته على علمه. وإذا رأيت علمه رجحته على حاله».

كان في زمانه إمام مدرسة العراق في التصوّف إذ كان أبو يزيد البسطامي إمام مدرسة فارس. وقد قال له ـ فيما رووا ـ تلك القولة العظيمة حين جاءه باحثاً عن الحقيقة:
«الذي تبحث عنه قد تركتَه وراءك ببسطام».

رُوي عن الجنيد أنه قال:
«لقد مشى رجال على الماء باليقين. ومات بالعطش رجالٌ أكثر منهم يقيناً».

وقال أيضاً «فَتْحُ كل باب وكل علم نفيس بذل المجهود».

وقال: «احذرْ أن تكون ثناءً منشوراً وعيباً مستوراً».

وسأل رجلٌ الجنيدَ علامَ يتأسّف المحب فقال:
«على زمان بَسْط أوْرث قبْضاً، أو زمان أُنس أورث وحشة».

وقال أبو العبّاس بن مسروق:
«مررت مع الجنيد في بعض دروب بغداد، وإذا رجل يغني:
منازل كنتَ تهواها وتألفُها
أيام أنت على الأيام منصورُ.

فبكى الجنيد بكاء شديداً، ثم قال:

يا أبا العباس، ما أطيب منازل الألفة والأنس، وأوحش مقامات المخالفات».

ووصفوا وفاته حين أحس دنوَّ الأجل، ظلّ راكعاً ساجداً حتى فاضت روحه. وقال الخالدي إنه رآه في المنام فقال له (ما فعل اللّه بك؟). فقال الجنيد:
«طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيَت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم ما نفعنا إلا ركيعات كنّا نركعها في السحَر».

وذكروا أنهم أحصوا النّاس الّذين صلّوا على جنازته فكانوا نحو ستين ألفاً.

هذا، وحدّثوا أن الإمام أحمد بن حنبل حين توفي، رأى رجل في

منامه أن على كلِّ قبر قنديلاً. فسأل عن ذلك فقيل له «أما علمت أنه نُوِّر لأهل القبور قبورهم لنزول هذا الرجل بينهم».

وقال موسى بن هارون «لمّا مات أحمد بن حنبل، مُسحت الأمكنة المبسوطة التي وقف عليها الناس للصلاة، فحَرز مقادير الناس بالمساحة على التقدير، ستمائة ألف وأكثر، سوى ما كان في الأطراف والسطوح والمواضع المتفرّقة أكثر من ألف ألف».

هذا، ومن عجيب ما رُوي عن وفاة أبي بكر الشبلي ـ ما رواه صاحبه بكير قال:

«وجد الشبليّ في يوم جمعة خفّةً من وجع كان به، فقال لي (تنشط نمضي إلى الجامع؟) قلت نعم. فاتكأ على يدي حتى انتهينا إلى الورّاقين في الجانب الشرقي. فتلقّانا رجل قادم من الرّصافة. فقال الشبلي (بكير. غداً يكون لنا شأن مع هذا الشيخ).

ثم مضينا فصلّينا ثم عدنا فتناول شيئاً يسيراً من الغذاء. فلما كان الليل وافته منيّته. فقيل لي، في درب السقائين رجل شيخ صالح يغسل الموتى، فدلوني عليه في سحر تلك اللّيلة. فنقرتُ الباب، فسمعت صوتاً من جوف الدار يقول (مات الشبلي؟).

ولما فتح الباب، إذا ذلك الشيخ، فقلت لا إله إلّا اللّه من شدّة تعجُّبي. فقال الشيخ (لا إله إلّا اللّه).

قلت له (قال لي الشبليّ أمس لمّا التقينا في الورّاقين، غداً يكون لي شأنٌ مع هذا الشيخ. بحق معبودك، من أين لك أن الشبليّ قد مات؟).

فقال الشيخ (يا أبله. فمن أين للشبليّ أن يعرف أن سيكون له معي شأنٌ في هذا اليوم؟)».

سمع أحدهم الشبليّ يتأوّه ويقول:

«أفلا شجيً بحنين؟ أفلا رنّةٌ من قلب قريح حزين؟ أفلا شاربٌ بكأس العارفين؟ أفلا مستيقظ من رقدة الغافلين؟».

■ ■ ■

كان محمد بن المنكدر من ولد حارثة بن سعد بن تيم. وكان من قرابة أبي بكر الصدّيق رضي اللّه عنه، إذ كان أبو بكر من ولد كعب بن سعد بن تيم. كان آل المنكدر كلّهم من الأتقياء الصالحين.

قيل له «أيُّ العمل أحبُّ إليك؟» فقال «إدخالُ السرور على المؤمن». وسألوه «فما بقي لك من لذتك؟» فقال «الإفضال على الإخوان».

كان تابعياً جليلاً، أسند عن ابن عمر وجابر وأبي هريرة وابن عبّاس وأنَس وغيرهم. وكان شديد البر بأمّه. قال:

«بات عمر ـ يعني أخاه ـ يصلّي ليلَه ـ وبتُّ أُمسّد رجل أُمي ـ أي يكبّسها بيديه ـ وما أحب أن ليلتي بليلته».

وذكروا أنه صلّى على جنازة رجل لم يكن حسن السيرة، فلاموه

في ذلك، فقال «إني أستحي من الله عزّ وجلّ أن يعلم منّي أن رحمته تعجز عن أحد من خلقه».

وكان ربيعة بن أبي عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي، من موالي آل المنكدر. قال عنه يونس بن زيد «رأيت أبا حنيفة عند ربيعة وغايةُ جهده أن يفهم ما يقول ربيعة».

روى عنه كبار الأئمة أمثال مالك والثوري واللّيث بن سعد وقال أحمد بن حنبل «ربيعة بن أبي عبد الرحمن ثقة».

وقد حدثوا عنه أنه قال:

«رأيت شيوخ المدينة وأن لهم لغدائر وعليهم الثياب الممصرة والموردة وفي أيديهم المخاصر، وفي أيديهم آثار الحنّاء، في هيئة الفتيان، ودينُ أحدهم أبعد من الثريّا إذا أريد على دينه».

قصد أنهم كانوا أهل نعمة وترف في الظاهر، ولكنهم كانوا أهل تقوى وورع في الباطن.

ومن الّذين كانوا يهتمّون بمظهرهم ـ كما وصفوا ـ الإمام مالك ـ قال مطرف بن عبد الله.

«كان مالك بن أنس طويلاً عظيم الهامة أصلع، أبيض شعر الرأس واللّحية، شديد البياض إلى الشُّقرة. لباسُه الثياب العدنية الجياد».

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل «مالك سيد من سادات أهل العلم. ومن مثلُ مالك؟ مُتبِّعٌ لآثار من تقدّم مع عقل وأدب».

ورُوي عن مالك أنه قال «ليس العلم بكثرة الرواية وإنّما هو نور يضعه الله في القلب».

هذا، وكان عبد العزيز بن أبي رواد، مولى في بني المهلّب بن أبي صفرة. ذكروا أنه مكث أربعين سنة لم يرفع رأسه إلى السماء. وقالوا، إنه كان يطوف حول الكعبة، فطعنه أبو جعفر المنصور في خاصرته بإصبعه. فالتفت إليه، ولما عرفه قال «قد علمتُ أنها طعنة جبّار».

ورووا عن الإمام الشافعي أنه قال: «ما ناظرت أحداً قط إلّا أحببت أن يوفّق ويسدّد ويُعان. وما ناظرت أحداً إلّا ولم أبال بيّن الله الحقَّ على لسانه أو لساني».

ومن أقواله أيضاً «أشدُّ الأعمال ثلاثة. الجود من قلّة، والورع في خَلوة، وكلمةُ الحق عند من يُرجى ويُخشى».

وذكروا أن أعرابياً وقف على حلقة الشافعي بعد وفاته فقال «أين قمرُ هذه الحلقة وشمسها؟» فقالوا له إنه قد مات. فبكى بكاء شديداً ثم قال:
«رحمه الله وغفر له. كان يفتح ببيانه مُنغلق الحُجّة، ويسدُّ على خصمه واضح المحجةَ. ويغسل من العارِ وجوهاً مُسودّة، ويوسع بالرأي أبواباً منسدّة». ثم انصرف.

هذا وكان إبراهيم بن إسحاق الحربيّ عالماً زاهداً. وذكروا أن رجلاً من حاشية الخليفة المعتضد حمل إليه عشرة آلاف درهم وقال له، إنها من الخليفة، فأبى أن يأخذها. ثم عاد إليه وقال له «إن أمير

المؤمنين يسألك أن تفرّقها في جيرانك». فقال له «هذا مالٌ لم نشغل أنفسنا بجمعه، فلا نشغلها بتفريقه. قل لأمير المؤمنين، أنْ تركتنا وإلّا تحوّلنا من جوارك».

ذلك، وكان أبو محمد عبد اللّه النيسابوري من أصحاب الجُنيد. وكان يُلقّب بالمرتعش. وكانوا يقولون «عجائب بغداد ثلاث. إشارات الشبلي وطرائف المرتعش وحكايات جعفر الخوّاص». قال رجل في مجلسه «قد طال اللّيل وطاب الهواء». فأطرق المرتعش زمناً ثم أنشد:

لست أدري أطال ليليَ أم لا
كيف يدري بذاك من يتقلّى
لو تفرغتُ لاستطالة ليلي
ولراعي النجوم كنتُ مُخلاًّ

قالوا «فبكى جميع من بالمجلس واستدلوا بذلك على عمارة أوقاته».

الفصل الخامس

المضيئون كالنجوم

يُطلّ علينا ذلك الرجل الماجد، من خلال غيب الماضي، مكسواً بالوقار، مكللاً بالحكمة والحزم. كان من أولئك الرجال الأفذاذ الذين أضاءوا كالنجوم في ظلمات الفوضى التي عمّت حياة العرب في الجاهلية. منهم ممدوحا زهير، الحارث بن عوف وخارجة ابن سنان. ومنهم حاتم الطائي الذي ظل ذكره على كل لسان حتى اليوم، ومنهم قيس بن عاصم المِنْقريّ، الذي أكرمه الله، فأدرك الإسلام وأسلم، ورَثاه عبْدةُ بن الطّبيب، ببيته الشهير:

وما كان قيسٌ هُلكُه هلك واحدٍ
ولكنّه بُنيانُ قوم تهدّما

لا جرم أن موقف الحارث بن عُباد في حرب البسوس، تردّدت له أصداء عند الشعراء على مرّ العصور. من ذلك قول الفرزدق:

أَراهـا نجـومَ الـلّـيـل والـشـمـسُ حَيَّـةٌ
زحـــامُ بـــنـــات الحارث بـــن عُـــبـــادِ
نـسـاءٌ أبـوهـن الأغـرُّ ولم تـكُـن
مـن الحُتِّ فـي أجْـبـالـهـا وهَـدادِ
أبـوهـا الـذي أدنـى الـنّـعـامـةَ بـعـدمـا
أبـتْ وائـلٌ فـي الحرب غـيـرَ تمـادِ

هذا والفرزدق لم يكن من بكر ولا تغلب، بل من تميم. وهو يصف زواجه من امرأة من ذريّة الحارث بن عُباد، إغاظةً لزوجته الأولى وابنة عمه، النُّوَار. والحُتُّ (بضم الحاء) وهَداد (بفتح الهاء) قبيلتان لا وزن لهما في نظر الشاعر.

وحتى الحسن بن هانيء ـ على بُعد ما بينه وبين الحارث بن عُباد ـ لم يجد بُداً من أن يرفع كأسه تحية له، فقال:

فـــمُـــهِّـــدتْ فـــي دنـــانٍ
سَـــقْـــيـــاً لـــهـــا مـــن مِـــهـــاد
حـــتّـــى إذا مـــرّ دهـــرٌ
لـــهـــا أتـــاهـــا عِـــبـــادي
وقـــد تـــنـــاهـــتْ وصـــارتْ
كـــمـــثـــل قَـــبْـــس الـــزّنـــادِ
فـــجـــاءهـــا مـــســـتـــعـــداً
كـــالحارث بـــن عُـــبـــادِ
قـــد لـــفّـــف الـــكُـــمّ مـــنـــه
كـــنـــازعٍ لـــلـــقَـــتـــادِ

ولعله أراد (كخارط للقتاد)، فيكون مرادُه، المثل الشهير، وحرب

وائل. وتكون الإشارة ليست عبثاً، بل هي فن متعمد. وما ذلك ببعيد على هذا الشاعو (المثقف). ولا يخفى أن المجون عند أبي نواس، كان ضرْباً من الحرب، كما قال صراحة:

فـــــهـــــذي الحربُ لا حـــــربٌ
تـــغـــم الــــنـــاسَ عُـــدوانــــا
بـــهـــا نـــقـــتـــلُـــهـــم ثـــم بـــهـــا
نـــنـــشـــرُ قـــتـــلانـــا

عفا الله عنه وعنّا وعن أبي عبد الرحمن!

هذا وقد فسّروا، أن العِباديين (بكسر العين) رهطٌ من قبائل عربية شتى، هجروا الأوثان واعتنقوا النصرانية، وقالوا (نحن عباد الله). فيكون صاحب الحان في قصيدة الشاعر الحكميّ نصرانياً.

كان أبطال حرب البسوس (إن صح أنهم أبطال) كلهم فوارس وشعراء. فالحارث بن عُباد، وهو بطلٌ لا مراء، كان ابن عم سعد بن مالك، الشاعر المقاتل. وسعد كان أبا المرقّش الأكبر، وجدّ طرفة بن العبد. وكان المهلهل بن ربيعة جد عمرو بن كلثوم لأُمه، فأم عمرو هي ليلى ابنة المهلهل التي أثارت الفتنة لدى عمرو بن هند، وإلى ذلك يشير ابنها في معلّقته:

بـأيّ مـشـيـئـة عـمـرو بـن هـنـد
تـطـيـع بـنـا الـوشـاةَ وتـزدريـنـا؟
تـهـدّدنـا وتـوعـدنـا، رُويـداً!
مـتـى كـنّـا لأُمـك مَـقْـتـويـنـا؟

يا لها من جُرأة على صاحب التاج! إنما تغلب كانت كما وصفوا،

«لولا الإسلام لأكلت تغلب الناس».

وفوق ذلك، كان المهلهلُ ـ وكليب ـ خالَ امرىء القيس، الذي عدّه معظم القدماء أنه أشعر شعراء الجاهلية. ولعله كذلك في مجموع شعره. فهذا بيت، كما ترى، أنجب شعراء ومحاربين ومغامرين ودعاة شقاق.

أبى الحارث بن عُباد أن يدخل في الحرب، وقال لقومه حين أتوه «قتلتم سيدكم وهدمتم عزّكم ونزعتم مُلككم، فوالله لا نساعدكم». ونزع سنان رمحه، ووترَ قوسه، وربط فرسه الشهيرة (النّعامة). واعتزل معه جمع من بطون وائل.

إلّا أن ابن عمه سعد بن مالك، خالفه الرأي، ولم يرض إلّا بالحرب. وكان مُرّة، والدُ جسّاس، أراد أن يجنّبهم ويلات القتال، بأن يدفع بابنه إلى تغلب لتقتله قوداً عن كليب، فأبى سعد بن مالك، وحملهم على الحرب. وفي ذلك يقول معرِّضاً بموقف الحارث بن عُباد:

من صدّ عن نيرانها
فأنا ابنُ قيْسٍ لا بَراحُ
صبراً بني قيْسٍ لها
حتى تُريحوا أو تُراحوا
إن الموائلَ خوفَها
يعتاقُه الأجلُ المتاحُ

وهي قصيدة بليغة عدا أن آخرها لا يستقيم مع أولها. فبعد أن احتفى بالحرب وأطنب في وصفها، تذكّر تكاليفها وأهوالها، وأنه

إنما يحارب أهله وعشيرته، فقال كالمستدرك:

كـــيـــف الحيـــاةُ إذا خـــلـــتْ
مــنّـــا الـــظـــواهـــرُ والـــبِـــطـــاحُ؟
أيــــن الأعـــــزّةُ والأســـنّـــــةُ
عـــنـــد ذلـــك والـــسَّـــمـــاحُ؟

■ ■ ■

اتفق أكثر الرواة أن السبب في تسمية عدي بن ربيعة، أخي كليب بـ (المهلْهِل) أنه كان أول من هلهل الشعر، أي رقّقه وجعله سلساً. إلّا أن الشيخ الجليل أبا العلاء المعري، يرى غير ذلك، فيقول في بعض محاوراته مع الشعراء في رسالة الغفران:

«يا عدي بن ربيعة. أعْزِزْ عليَّ بولوجك هذا المولج. لو لم آسف عليك إلاّ لأجل قصيدتك التي أولها:

ألـــيـــلـــتَنا بـــذي حُـــسَـــمٍ أنـــيـــري
إذا أنـــتِ انـــقـــضـــيْـــتِ فـــلا تحـــوري

لكانت جديرة بأن تطيلَ الأسف عليك. وقد كنت إذا أنشدتُ أبياتك في ابنتك المزوجة في (جنْب)، تغروْرق من الحزن عيناي. فاخبرْني لم سُميت (مهلهلاً)، فقد قيل إنك سُمّيت بذلك، لأنك أول مَنْ هلهل الشعر، أي رقّقه؟

فيقول: إن الكذب لكثير. وإنما كان لي أخ يقال له (امرؤ القيس)، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبي، فتبعه أخي في زرافة من قومنا، فقال في ذلك:

لـمّـا تـوقّـل فـي الـكـراع هـجـينُهـم
هـلـهـلـتُ أثـأرُ مـالـكـاً أو صِـنْـبـلا

(هلهلت) أي (قاربتُ)، ويُقال (توقّفتُ). يَعني بـ (الهجين)، زهير بن جناب، فسمي (مهلهلاً). فلما هلك شُبّهتُ به فقيل لي (مهلهل).

فيقول: الآن شفيتَ صدري بحقيقة اليقين».
انتهى كلام أبي العلاء.

وأبيات المهلهل التي أبكت ابا العلاء، هي قوله:
أنـكـحَـهـا فـقـدهـا الأراقـمَ فـي
(جـنـبٍ) وكـان الحبـاءُ مـن أَدَمِ
لـو بـ (أبـانـين) جـاء يـخـطـبُـهـا
ضـرج مـا أنـفُ خـاطـبٍ بـدمِ
أصـبـحـتُ لا مُـنْـفـساً أصـبـتُ ولا
أُبْـتُ كـريمـاً حُـراً مـن الـنّـدم
هـان عـلـى تـغـلـب بمـا لـقـيـتْ
أختُ بـنـي المالـكـي مـن جُـشَـم
لـيـسـوا بـأكـفـائـنـا الـكـرام ولا
يُـغـنـون مـن عَـيْـلـة ولا عـدم

هذا، وفسروا أن (أبانان) جبلان، هنا أبان الأبيض وأبان الأسود. والأراقم، هم بطون تغلب ابن وائل، وقيل حي من تغلب. و(جنب) حي من مذحج باليمن. والمُنْفس المال الكثير. ولعله أراد بقوله (وكان الحباء من آدم) أن المهر كان ضئيلاً مُحتقراً.

أبو العلاء رحمه الله، أدرك في هذه الأبيات بحسه العالي ـ ومن أقدر منه على فهم الشعر؟ ـ أدرك مأساة (المهلهل)، البطل التراجيدي لحرب البسوس، الذي لم يقدر له أن يموت ميتة الأبطال التراجيديين. مات ميتة الصعاليك. حين تطاولت الحرب، أرسل الحارث بن عُباد البكري ابنه بُجيْرا ـ وفي رواية ضعيفة أنه ابن أخيه ـ إلى تغلب ساعياً باسمه للصّلح. فقتله المهلهل، وقال له قولته الشهيرة (بُؤْ بشسْع نعل كليْب). والشسْع من سيور النّعل. وكان بُجير غلاماً حدثاً. قاتل وهو يجود بأنفاسه «رضيتُ بها أن رضيتْ بكر».

لمّا علم الحارث بمقتل ابنه، أغضبه أكثر شيء أن المهلهل قتله فداء لسيْر من نعل كليب. حينئذٍ لم يجد بداً من الحرب. وإلى ذلك يشير في قصيدته المدوية التي يبدو فيها الغضب المكبوت مثل سماء توشك أن تنهد:

يا بُجيرَ الخيرات لا صلح حتّى
نملأ البيد من رؤوس الرّجال
وتقرّ العيونُ بعد بكاها
حين تسقي الدّما صدورَ العوالي
لم أكُن من جُناتها علم اللّهُ
وإني لحرّها اليومَ صالي
قد تجنَّبتُ وائلاً ليُفيقوا
فأبتْ تغلبُ عليَّ اعتزالي

وفيها يقول بيته الشهير:

قتلوه بشِسع نعل كليب
إن قتل الكريم بالشسع غالي

هذا ويذكر المهلهل قتله لبُجير، في قصيدته التي أعجبت أبا العلاء، حيث يقول:

علـى أنـي تـركـت بـوارداتٍ
بُـجـيْـراً فـي دمٍ مـثـل الـعـبـيـر
هـتـكـتُ بـه بـيـوتَ بـنـي عُـبـاد
وبـعـض الـظّـلـم أشـفـى لـلـصّـدورِ

وقد اختلف الرواة، هل قتله في الحرب، أم قتله غيْلة. ورجّحوا أنه قتله (لتوه) أي بمفرده. و(واردات) من مواقع حرب البسوس، التي كان أولها يوم (عُنيزة) وآخرها يوم (قضة) ـ بكسر القاف وفتح الضّاد ـ يوم حمل لواء بَكر، الحارثُ بن عُباد. وكان من فرسانها الشاعر سعد بن مالك، والشاعر الفنْد الزمانيّ. لذلك كثر الشعر في تلك الحرب الفادحة. حتى الشاعر زهير بن جناب ـ صاحب موقعة (السُلان) ـ أطلّ عليها من علياء شيخوخته المتهدمة!

ذلك، وقصيدة المهلهل التي استحسنها أبو العلاء، إن لم تكن من الشعر العظيم، ففيها نفحات منه، فهي عذبةُ المطلع، لا تخلو من ذلك الطابع المأساوي، الذي أحسه زهير إحساساً عميقاً في معلقته العظيمة. من ذلك قول المهلهل:

غـداةَ كـأنـنـا وبـنـي أبـينا
بـجـنـب عُـنـيْـزة رحْـيـا مُـديـر
فـلـولا الـرّيـحُ أسْـمـع مـنْ بـحَـجْـرٍ
صَـلـيـلَ الـبـيـض تُـقـرع بـالـذُّكـور
وكـانـوا قـومَـنـا فـبـغـوْا عـلـينا
فـقـد لاقـاهـمُ لـفـحُ الـسـعـيـر

عجب القدماء أن صليل السيوف بجنْب عنيزة، يصل إلى (حَجْر)، وقالوا إن ذلك أول العهد. ولا يخفى أن صليل سيوف المهلهل، تجاوبت أصداؤها بعد ذلك بزمن، في شعر حفيده عمرو بن كلثوم.

■ ■ ■

حامي مواقع السحاب

كان كليب بن ربيعة شاعراً، وإن لم يرْقَ إلى منزلة أخيه عديّ، الملقّب بـ (المهلهل)، لأنه (هلهل الشعر)، أي رقّقَه وقاله سجيّة دون تكلف. ولكليب بيت وجد بعض الاستحسان فترة، لكنه لم يصمد لتقلبات الزمان، كما يصمد الشعر العظيم، فأُهمل. قال:

إنْ تــلــمْــنــي عــجــائــزٌ مــن نــزارٍ
فــأرانــي فــيــمــا فــعــلــتُ مُــصــيــبــا

يشير إلى قتلة لبيد بن عنّبسه. وكان لبيد عاملاً لملوك حِمير عليهم، فاستبدَّ فقتله كليب. وكان ذلك سبباً في نشوب الحرب بين الحميريين وبين القبائل من ربيعة ومضر، التي انتهت بهزيمة الحميريين في معركة (خزازى) أو (خزاز)، وهو جبل في تهامة. ولكليب في ذلك أبيات لا قيمة لها من حيث هي شعر، ولكن يغفر لها أن كليباً صدق فيما وصف، فقد كان هو المسعر لنار تلك الحرب. قال:

لقد عرفتْ قحطانُ صبري ونجدتي
غــــداةَ خـــــزازٍ والحقــــوقُ دوانِ
غداةَ شفيتُ النفس من ذُلِ حميرٍ
وأورثــتُــهــا ذُلاً بــصــدْقِ طِــعــانــي

بعد ذلك النصر، اجتمعت عليه القبائل من مَعدْ ودانوا له بالطاعة. فكان ينزلهم منازلهم، وينهى ويأمر فيهم. وبلغ من جبروته أنه كان يحمي مواقع السحاب، فلا يرعى أحد ما تحته إلّا بإذنه. ولم تكن توقد نار مع ناره، أو ترعى إبلٌ مع إبله. وضربوا به المثل في العزة والمنعة، فقالوا «أعزّ من كليب وائل».

رووا أنه طاف بحماه يوماً فوجد (قُبّرة) أو (حُمّرة)، قد اتّخذت لها عشاً جعلت ترفّ عليه. فقال لها:
«أنت وفراخك في ذمتي وجواري».
وأنشد:

يا لك من حُمّرة بمعمرِ؟
خلا لك الجو فبيضي وأصفِري
ونقِّري ما شئتِ أن تنقّري

فذلك مصدر المثل. وكانت تلك (الحُمّرة) سبباً في اشتعال نار حرب دامت أربعين عاماً بين بكر وتغلب، أبناء وائل.

قالوا إن كليباً طاف بحماه بعد فترة، ومعه جسّاس بن مرة، أخو زوجته جليلة، وكان قد أذن لإبل جسّاس أن ترعى مع إبله، فوجد أثر جمل قد وطيء العش وكسر البيض. فغضب وقال لجسّاس:

«ما وطيء هذا العش جمل من جمال وائل، وما فعل ذلك إلّا ناقة هذا الجرمي التي ترعى مع إبلك، فلا أراها في الحمى بعد اليوم».

فقال جسّاس:
«أقسمت لا رعت إبلي في موضع إلّا رعت هذه الناقة معها».

فقال كليب:
«لئن وجدتها في الحمى لأضعن سهمي في ضرعها».

فتوعّده جسّاس أيضاً، وكانت الناقة، واسمها (سراب)، لرجل نزل ضيفاً على (البسوس)، خالة جسّاس، ثم إن كليباً سأل، فقيل له إن الناقة ترعى في حماه، فخرج من توه ورماها بسهم في ضرعها. وقال:

سيعلم آل مُرّة حيث كانوا
بأنّ حماي ليس بمستباح

وأقبلت الناقة ترغو وضرعها يسيل لبناً ودماً، فلما رأتها البسوس خالة جسّاس، كشفت عن رأسها وأخذت تلطم وجهها وتولول «وا ذلّاه! وا ذلّ جاراه!» فخرج جسّاس لصراخها، وقال لها:
«اسكتي أيتها المرأة فوالله ليقتلنّ غداً فحلٌ هو أعزّ على وائل من ناقة ضيفك».

وكان لكليب فحل في إبله يفخر به اسمه (عُليّان)، فظن أن جسّاساً يعني الجمل، فقال:
«دون عُليّان خرطُ القتاد» ـ فذهبت مثلاً.

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري:

إذا أنا عاليتُ القَتود لرحلة
دون عُليّانَ القتادةُ والخرطُ

وهو كعادته يلعب بالكلمات، ويجنس بين (القتود) و(القتاد). وقد فسّروا أن (القتود) من أدوات الرّحل، أو هو الرّحل كله. والرحل للجمل بمثابة السرج للدابة.

وقالوا إن (القتاد) شجرٌ كثير الشوك، لذلك فإن خرطه باليد أمر عسير.

■ ■ ■

المستجير من الرمضاء بالنار

من الأمثلة السائرة حتى اليوم، قولهم:

المستغيث بعمرو عند كُربته
كالمستجير من الرمضاء بالنار

ويُروى أيضاً (المستجير بعمرو). وهو مثلٌ انحدر إلينا من أيام حرب البسوس. وهي حرب لم يقيض الله لها، كما قيّض لحرب عبس وذبيان، شاعراً فحلاً من طراز زهير بن أبي سُلمى، فينتزع من أحشائها الحس المأساوي، في قصيدة هي عندي أعظم المعلّقات لهذا السبب. هذا على كثرة ما قيل في حرب وائل من شعر.

السبب يبدو لنا تافهاً. كليب بن ربيعة أجار (قُبّرة) وفراخها وجعلها في حماه. وجساس بن مرّة، أجار ضيف خالته وناقته. فأي الجارين أحق أن يُرعى؟ إنما جسّاس لم يكن مثل كليب، فقد كان كليب كما وصفوا، يحرّم مواقع القطْر وأماكن المرعى.

عمرو المشار إليه، هو عمرو بن المزدلف. قالوا إن جسّاس بن مرّة، بعد أن أصاب كليبٌ الناقة، تحيّن غفلة من كليب، فرآه وحده وليس معه سلاح، فطعنه برمح بين كتفيه، ولكنه لم يُجهز عليه. فقال له كليب:

«لا تثريب عليك، قد بررت بقسمك، فاسقني شربة ماء». فلم

يستجب له، ولكنه لم يقوَ على قتله، لما كان لكليب من مهابة، فتركه ومضى. فلقي عمرو بن المزدلف، فأخبره. فقال له عمرو «أي شرّ جلبت لنا». وسار من توّه إلى كليب فقال له «يا عمرو اسقني ماء». فقال له عمرو «تجاوزت الأحَصّ وماءه»، وأجهز عليه. فأصبح ذلك أيضاً مثلاً.

و(الأحصُّ) موضع بتهامة كان به ماء معروف عندهم. وهو مثل يذكّر بالمثل الأوروبي «قد عبر نهر روبكْن» إشارة إلى عبور يوليوس قيصر ذلك النهر إلى روما بجيشه واحتلالها، وكانوا يحرّمون على قوادهم حين يعودون من الحروب، أن يدخلوا روما بجيوشهم.

هكذا جاء المثل. «كالمستجير من الرمضاء بالنار». لم يكن كليب شرّاً خالصاً. كان فارساً بطلاً أخا نجدة وأريحية. إلّا أن (الشرخ المأساوي) فيه ـ كما يقولون ـ كانت خيلاءه وإدلاله بنفسه.

وكما في تراجيديا شكسبير، فقد كان حتماً أن يودي به ذلك في نهاية الأمر، كما أودى التردُّد بهاملت والطموح الزائد بماكبث والحماقة بلير. في حرب البسوس عناصر المأساة الشكسبيرية كلُّها لو قُدّر لها شكسبير عربي.

وهذا كليب يفتخر بانتصاره على الحميريين بزعامة زهير بن جناب، في موقعة (الشلاّن)، التي سبقت موقعة (خزاز). وكان زهير بن جناب عاملاً لملوك اليمن على القبائل النزارية، وكان شاعراً ردحاً حتى ملّ الحياة، كما ملّها لبيد صاحب المعلّقة. قال كليب:

دعاني داعيا مضرٍ جميعاً
وأنفسُهم تدانت لاختناقِ

فـكـانـت دعـوةٌ جـمـعـت نـزاراً
ولمّت شـعـثـهـا بـعـد افـتـراقِ
أجـبنا داعـيَـيْ مـضـر وسـرْنـا
إلـى الأمـلاك بـالـقُـبِّ الـعِـتـاق
عـلـيـهـا كـلُّ أروعَ مـن نـزار
يُـسـاقـي الموت كُـرهـاً مـن يُـسـاقـي
أمـامـهـمُ عـقـابُ الموت يـهـوي
هـويَّ الـدَّلـو أسـلـمـه الـعـراقـي

عنى بـ (الأملاك)، ملوك حمير. وفسّروا أن (القُبّ)، بضم القاف، هي الخيل العتاق. وقصد بـ (عقاب الموت) الراية التي كانوا يحملونها في الحرب. ولا أدري إن كانت عليها صورة العقاب كما في رايات هذا الزمان. وذلك ليس ببعيد فقد كانوا أبناء حروب، كما قال صديقنا الدكتور منصور خالد متمثلاً ببيت الشعر القديم:

وأنّـي ابـنُ حـرب مـا تـزال تـهـرُّنـي
كـلابُ عـدوّي أو تـهـرُّ كـلابـي

لكنْ متى يشرق ثبير «فقد غدا هذا الشروق الغولَ والعنقاء»!

هذا، وفسروا أن (العراقي) بفتح العين، هي العوارض من الخشب التي توضع على فم البئر، يستند إليها حبلُ الدلو.

لم يقدر الله لحرب البسوس رجلاً نبيلاً شريفاً على شاكلة الحارث ابن عوف وخارجة بن سنان اللذين حملا ديات القتلى في حرب عبس وذُبيان، فخلدهما زهير في قصيدته العظيمة التي يقول فيها:

تـداركـتـمـا عـبـسـاً وذُبـيـانَ بـعـدمـا
تـفـانـوْا ودقّـوا بـينهـم عـطـرَ مـنـشـمِ

وكاد يحدث في شخص الحارث بن عُباد، لولا أن التغلبيين أحبطوا مسعاه للسلم، فألقى بجماع ثقله في الحرب وحسمها آخر الأمر، كما سنذكر إن شاء الله.

ذلك، وجسّاس بن مرّة، صهر كليب، الذي كان سبباً في إشعال نار الحرب، هو من ذُهْل بن شيبان الذي أشار إليهم الشاعر بقوله:

لو كنتُ من مازن لم تَسْتَبِحْ إبلي
بنو اللقيطة من ذهلِ بن شيبانا

■ ■ ■

القتل العبثي

أسمْوا ذلك اليوم أيضاً (يوم التحالق) لأن بني بكر حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضاً في غمرة الحرب. إلّا رجلاً منهم هو قيس بن جَحْدر ابن ضُبيعة، الذي قال لهم:

«لا تحلقوا رأسي فإني رجلٌ قصير، ولكني أشتريه منكم بأول فارس يطلع عليكم من القوم». وكذلك كان.

وفي ذلك اليوم اكتسب عوف بن مالك أخو سعد بن مالك لقب (البُرَك)، لأنه قاتل باركاً، وكان من فرسانهم المَصاعبْ (جمع مُصعَبْ) وقال مرتجزاً «أنا البُرَك. أبرُكَ حيث أدرِك». وإلى يوم (التحالُق) يشير طرفة بن العبد حفيد سعد بن مالك في قوله:

سائلوا عنّا الذي يعرفنا
بقوانا يوم تَحْلاق اللِّمَمْ

هذا وكان المهلهل بن ربيعة التغلبي قد أصابه ما يُشبه الهوَس حين قُتل أخوه كليب، وكأنما وراء ذلك إحساس بالذنب، فقد كان قبل (ضلّيلاً)، كما صار ابن أخته امرؤ القيس بعد ذلك. انهمك انهماكاً في اللهو، حتى لقّبه أخوه كليبٌ بـ (الزّير)، لكثرة تردده على النساء.

ثم أيقظته الصدمة، فتطرّف في الخصومة، كما تطرّف من قبل في اللهو. وإلى ذلك يشير في قوله:

ولو نُبِش المقابرُ عن كُليْبٍ
فيعلم بالذّنائب أيُّ زيرِ!

في شعره الذي يرثي فيه أخاه شيءٌ كالذي تجده في بكاء الخنساء على أخيها صخر. وفي قصيدته التي نوّه بها أبو العلاء، نحو من عشرين بيتاً يندب فيها كما تندب المرأة على فقيدها. وكلها تبدأ بشطر واحد (على أنْ ليس عدلاً من كليب):

على أَنْ ليس عَدْلاً من كُليبٍ
إذا طُرد اليتيمُ عن الجَزور
على أن ليس عدلاً من كُليْب
إذا هبَّت رياحُ الزمهرير
على أن ليس عدلاً من كليب
إذا برزتْ مُخبَّأةُ الخُدور

وهي صيغة تُغري بالانتحال، فبوسعك أن تُضيف إليها إلى ما شاء الله. إلّا أنه لا يُنكَر أن هذا التكرار، يُحدث تأثيراً كما في الشعر الملحميّ عند اليونان.

ذلك، وقال المفسّرون أنه قصد أن الذين قتلهم في الحرب، كلهم لا

يغْدلون مُصابه في كليب. حتى صاحب (اللسان) ذَهب ذلك المذهب. ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أن ثمة حذفَ إيجاز في السياق، كأنه يقول لكليب «ليس عدلاً منك أن تذهب وتدع اليتيم يُطرد عن الوليمة، وليس عدلاً منك ألا تكون موجوداً لتجيرَ الضعيف إلخ».

هذا ما تقوله النساء النادبات إلى اليوم. وقد حام حول المعنى نفسه في قوله:

أتغدو يا كليبُ معي إذا ما
جبانُ القوم أنجاه الفرارُ؟
أتغدو يا كليبُ معي إذا ما
حُلوقُ القوم يشْحذُها الشِّفارُ؟

رووا أن المهلهل حين أراد قتل بُجيْر بن الحارث بن عُباد، قال له: «مَنْ خالُك يا غُلام؟».

فقال امرؤ القيس بنُ أَبَان، وكان من فرسان تغلب المعدودين:

«مهلاً يا مهلهل ـ إنّ أبا هذا وأهلَ بيته قد اعتزلوا حربَنا ولم يدخلوا في شيء مما نكْرِه. والله لئن قتلتَه ليُقتَلَنَّ به رجلٌ لا يُسأَلُ عن نسَبه».

فيما بعد ظفر الحارث بن عباد بالمهلهل بعد هزيمة التغلبيين في معركة (قِضَة). ولم يكن يعرفه. فقال له «دُلَّني على المهلهل» قال: «ولي دَمي؟» قال: «ولك دمُك». قال: «ولي ذمّتُك وذمّةُ أبيك؟» فقال الحارث «نعم». فقال: «أنا المهلهل».

لم يجد الحارث بدّاً من إطلاق سراحه، فجزَّ ناصيته، وكانت تلك

عادتُهم حين يطلقون شريفاً من أعدائهم ظفروا به.

وقال له:
«دُلّني على كُفْء لبُجيْر».

فأشار المهلهل إلى امرىء القيس بن أَبان، فحمل عليه الحارث فقتله. وهكذا يكون المهلهل قد فدى نفسه بمقتل الرجل الذي كان قد نهاه عن قتل الصبي!

وإلى ذلك يُشير الحارث في قوله:

لهف نفسي على عديّ ولم أعْـ
ـرفْ عديّاً إذا أمكنتْني اليدانِ
طُلّ من طُلّ في الحروب ولم أو
ترْ بُجيراً أَباتُه ابن أبان
فارسٌ يضرب الكتيبة بالسّيف
وتسمو أمامَه العينان

وهذا البيت الأخير، يلزم أن يكون مدحاً لامرىء القيس بن أبان وحسرةً على قتله. ولو كان الحارث أعرض عنه لأضاف إلى أمجاده. لكنهم كانوا أسرى عُرْف صارم، أن دم القتيل لا يُطَلُّ، أي يذهب دون ثأر.

هذا، وحربُ البسوس كلها قتلٌ عبثيٌّ لا معنى له. ناقةٌ تُقتل بسبب قُبّرة. ورجل سيّدٌ يقتل فداء للنّاقة. وغلام يُقتل بلا سبب. ورجلٌ شريف يُقتل عِوضاً عن القاتل الحقيقي!

■ ■ ■

نهايةُ المُهلهِل

تضاربت الروايات في مصير المهلهل بن ربيعة بعد هزيمة (تغلب) في معركة (قِضَة). بعضها يشير أن الحارث بن عُباد البكري، اكتفى بجزِّ ناصيته إهانة له ثم أطلق سراحه. وعند بعضهم أنهم حبسوه ردحاً. والمهلهل نفسه يذكر في شعره أنه حُبس وضُيّق عليه حبسه، كقوله:

لستُ أرجز لذّةَ العيش ما
أزَمتْ أجْلادُ قِدّ بساقي
جلّلوني جِلدَ حوْبٍ فقد
جعلوا نفْسيَ عند التّراقي

لكنه لا يخبرنا متى كان ذلك. وقوله (أزَمت أجلادُ قدّ بساقي)، أي أن الجلد ضغط وانضم على ساقه، و(الحوْب) الجمل الضخم، فيكون أنهم أدخلوه في جلد غضّ من جلود الإبل وتركوه ييبس ويعض على جسده وكان ذلك من ضروب التعذيب عندهم، خاصة تعذيب الرقيق الآبق ـ فأي إذلالٍ لسيد من سادات تغلب ابن وائل!

مهما يكن فإن المهلهل قد عاد إلى قومه على أقبح حال. وبوسعنا أن نتخيّل ما حاق به من الخزي والكمَدْ. وخبّروا أن النسوة والولدان تجمعوا حوله يسألونه عن مصائر ذويهم، فزاده ذلك كمداً. وإلى هذا يشير في قوله:

ليس مثلي يُخبّر الناسَ عن
آبائهم قُتّلوا وينسى القتالا
لم أَرِمْ عَرصةَ الكتيبة حتّى
أنْتعل الوَرْدُ من دماءٍ نعالا

عـــرفـــتـــه رمـــاحُ بـــكْـــر فـــمـــا
يـــأخُـــذْنَ إلاّ لـــبـــانَـــهُ الـــقَـــذالا
غـــلـــبـــونـــا ولا مـــحـــالـــةَ يـــومـــاً
يـــقـــلِـــبُ الـــدّهـــرُ وذاك حـــالاً فـــحـــالا

عنى بقوله (لم أرمْ عَرْصة الكتيبة) أنه لم يهرب من المعركة، و(الورد) إشارة إلى حصانه. و(اللبان) الصّدر، كما حدث لحصان عنترة العبسي في قوله:

مـــا زلـــتُ أرمـــيـــهـــم بـــثـــغـــرة نـــحـــره
ولـــبـــانـــه حـــتّـــى تـــســـرْبـــل بـــالـــدّمِ
فـــأزْوَرَّ مـــن وقـــعْ الـــقـــنـــا بـــلـــبـــانـــه
وشـــكـــا إلـــيَّ بـــعـــبـــرةٍ وتحَـــمْـــحُـــمِ

هذا وكانت القبائل العربية تتشاءم من الرجال الذين يجرونهم جراً إلى الحرب بلا مبرر، رغم أنهم كانوا يضطرون إلى مناصرتهم بدافع العصبية والأعراف والأحلاف بينهم، وكذلك كان المهلهل فعاش مُطَرَّداً بين القبائل.

وحدّث الرّواة أنه خرج حتى لحق بأرض اليمن، فأقام في (جنْب) من بطون (مذحج)، وهذا في حدّ ذاته يدل على أن السبُل أغلقت في وجهه، وأنه لم يجد قبيلة من القبائل النزاريّة تحميه وترضى بجواره، ومعلوم أن (مذحج) من قبائل اليمن التي حاربها كليب أخو المهلهل، في موقعة (السُلاّن) وموقعة (خزازى).

لعلّ الفِنْد الزّماني البكري يشير إلى متاهة المهلهل في تلك

الآونة، في قوله:

وتـرى (الـزّيـر) يمْـعـجُ الـقـولَ فـينا
بـعـد مـا صـار مُـفْـرداً مُـشـتَـبـاحـا

والفنْد هذا، كان فارساً قرماً وشاعراً مجيداً، على قلّة ما وصل إلينا من شعره. و(الفند) تعني القطعة الكبيرة من الجبل، سُمّي بذلك لضخامته. وذكروا أنه حارب يوم (قِضة) وقد جاوز المائة من العمر، فأبلى بلاءً عظيماً ذكره في شعره. وله بيتان ذاعا وجريا مجرى المثل، قال:

وبـعـض الحلـم عـنـد الجهـل
لـلـذّلـة إذْعـانُ
وفـي الـشـرّ نجـاةٌ حـين
لا يُـنْـجـيـك إحـسـانُ

ذلك، وفي (جنْب)، لاقى المهلهل أمرَّ إهانة لحقت به، فقد خطبوا إليه إحدى بناته، ولم يكن يراهم أكفاء، فرفض أن يزوّجهم، لكنهم أكرهوه على ذلك، ولم تكن له حيلة، فخضع لهم. فذلك مبعث أبياته التي أبلت الشيخ الوقور أبا العلاء، ومنها ذلك البيت:

هـان عـلـى تـغـلـب بمـا لـقـيـتْ
أخـتُ بـنـي المالـكـين مـن جُـشـمِ

جُشِم، أهلُ بيته، فهو ابن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم من تغلب من وائل. وكانت أمه من يشكر من بكر، فانحدر إليهم ومات عندهم على الأرجح. وهنالك قال قصيدته التي لا تقل أسى عن أبياته في تزويج ابنته، وفيها يقول:

مـا أُرجِّـي فـي الـعـيـش بـعـد نَـدا
مـا لـيَ أراهـم سُـقـوا بـكـأْسِ حَـلاقِ

■ ■ ■

نهاية جسّاس

حياة كل من المهلهل بن ربيعة وجسّاس بن مُرّة، شِقّيْ الرّحى في حرب البسوس، انتهت نهاية لا بطولية. لكنها نهاية تليق بتلك الحرب العبثية، التي لعب دور البطولة فيها رجالٌ جُرُّوا إليها جراً ولم يكن لهم فيها (ناقة ولا جمل)، كما قال الحارث بن عباد.

ربما يشفع للمهلهل أنه كان شاعراً، صنع من تجربته على علاّتها شعراً لقي استحساناً، حتى من أبي العلاء المعري أحد حُذّاق نقْد الشعر العربي.

أما جسّاس، فنحن لا نكاد نجد له ذكراً بعد فعلته التي أشعلت نار الحرب.

روَوا، أن مرة بن ذُهل بن شيبان بن ثعلبة كان له عشرة أبناء، أصغرهم جسّاس وأكبرهم همام. وكانت أختهم جليلة زوجة لكليب بن ربيعة. وكان همام صديقاً للمهلهل، تآخيا على السراءِ والضرّاء. فبينما هما جالسان ذات يوم، إذْ مرَّ جسّاس مسرعاً على فرس له، وقد كشف عن فخذَيْه. فقال همّام:

«لا بد أن وراءه أمراً جللًا، فإني لم أره قط من قبل كاشفاً فخذيه في ركض».

ولم يلبث أن جاء من يخبرهما بنبأ مقتل كليب، فافترق الصديقان كلٌّ إلى معسكر. وسوف نرى وشيكاً أن الصديق سوف يقتل صديقه.

قالوا إن جسّاساً حين جاء إلى أبيه مُرّة، أدرك حالاً أن وراءه شرّاً، فسأله، فقال جسّاس:
«طعنتُ طعنةً سوف تشغل شيوخ وائل زمناً».

قال له: «أقتلت كليباً؟» قال «نعم».
فقال مُرّة «ويلاه! وددت أنك وأخوتك كنتم مِتُّم قبل هذا. ما بي إلّا أن يتشاءم بي أبناء وائل».

وزعموا أن جسّاساً قال حينئذٍ:

وإنــي قــد جــنـيْـت عــلـيـك حــربـاً
تُــغِــصُّ الــشــيــخَ بــالماء الــقَــراح
تُــنــكِّــل عــن ذُبــابِ الــفَــيّ قــومــاً
وتــدعــو آخــريــن إلــى الــصّــلاح

يشير المهلهل عَرضاً إلى فعلة جسّاس، كأنه لا يعبأ به في قوله:

قــتــيــلٌ مــا قــتــيــل المرء عــمــرو
وجــسّــاسُ بــنُ مُــرّةَ ذو ضــريــرِ

يقصد أن الذي قتل كليباً لم يكن عمرو المزدلف، إنما جسّاس بن مرّة. وقوله (ذو ضرير) أي مقبلٌ على الشر.

لكن المهلهل يصف قتلهم ـ أو قتله ـ لصديقه همّام أخي جسّاس، وصفاً كالحاً، ليس فيه ما نجده في شعر عنترة مثلاً، من رثاء وعطف

على الخصم ـ ناهيك بالصديق وابن العم:

وهـــمّـــامَ بـــنَ مُـــرّة قـــد تـــركـــنـــا
عـــلـــيـــه الـــقُـــشْـــعُـــمـــان مـــن الـــنُّـــســـورِ
يـــنـــوءُ بـــصـــدره والـــرُّمـــحُ فـــيـــه
ويَـــخْـــلـــجُـــه خِـــدَبٌ كـــالـــبـــعـــيـــرِ

يعني، أن همّام بن مرة يحاول أن ينهض وينزع الرمح من صدره، فيهوي مثل البعير الضخم، جثة تتناوشها النُّسور.

إلّا أن جسّاساً قاتلَ كُليْب، لم تُقدّر له مثل تلك الميتة الشريفة، رغم بشاعتها. مات ميتة عبثية، كما مات المهلهل قاتل بُجير.

أجمع الرواة أنه لم يُقتل في الحرب. تقول رواية طريفة مهما بدا فيها من الافتعال، فإنها تصلح نهاية لحياة شخصية (لا بطولية) مثل جسّاس ـ تقول إن جليلة ابنة مرّة، كانت حاملاً حين قُتل زوجها كُليب. وحين لحقت بأهلها ضمّها أخوها جسّاس إليه إلى أن وضعت غلاماً سماه (الهجرس)، وكفله ورعاه كأنه ابنه. ولم يُعلموه بشيء عن مقتل أبيه. ولما كبر زوّجه ابنته.

وتمضي الرواية فتقول، إن الهجرس تعارك ذات يوم مع رجل من بكر، فقال له:
«إما أن تنتهي وإما أن نلحقك بأبيك كُليْب».

عاد غاضباً إلى أمه جليلة وأخبرها، فأخبرت أخاها. ولما أصبحوا دعاه جسّاس وقال له:
«يا بُني. إنك تعلم أنك عندي بمنزلة الابن، وقد زوجتك ابنتي.

وقد تحارب قومنا زمناً طويلًا بسبب مقتل أبيك، حتى كان يُفني بعضُنا بعضاً. ثم ثُبنا إلى الصلح. وكل ذلك مضى وانقضى. أما وقد علمت، من أمرك ما علمت. فإني أرى أن تدخل في ما دخل فيه الناس، وأن تنطلق حتى نأخذ عليك ما أُخذ على قومنا».

فقال الهجرس «نعم، ولكن مثلي لا يأتي قومَه إلّا بلأمته وفرسه».

فلبس عدة حربه وركب فرسه، وسار مع جسّاس، حتى أتوا وجوه قومهما، فقال جسّاس:
«هذا ابن أختي جاء ليدخل في ما دخل فيه الناس من صلح».

ولما أحضروا قدح الدم، كما كانت عادتهم حين يحلفون، أن يغمسوا أيديهم في دم أو طيب أو رماد، أخذ الهجرس برمحه وقال:
«وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليْه، وسيفي وغراريْه، لا يترك الرجلُ قاتل أبيه وهو ينظر إليه». ثم طعن خاله جسّاساً فقتله، وانطلق لاحقاً برهط أبيه.

أليس هكذا يجب أن تكتمل حلقات تلك السلسلة الملعونة؟

بقي صوتُ المرأة في هذه المأساة. صوت جليلة ابنة مُرّة، زوج كليب وأخت جسّاس وأم الهجرس وختن المهلهل.

■ ■ ■

صوت المرأة

حدّثنا الرواة، أن نساء تغلب حين اجتمعن في مأتم كُليب، قلن لأخته أن وجود زوجته جليلة معهن لا يليق، وفيه شماتة وعار، فقالت لها:

«أنتِ أُختُ واترنا وشقيقةُ قاتلنا فاخرجي عنا». فلحقت جليلة ابنة مُرّة بأهلها. وذكروا أن أخت كليب قالت:

«رحلةُ المعتدي وفراقُ الشامت. ويلٌ غداً لآل مرّة، من الكرة بعد الكرة».

وقالوا إن جليلة حين بلغها ذلك قالت:
«كيف تشمت الحرّة بهتك سترها وترقُّب وَتْرها؟».

هذا، وقد نسبت كتب الأدب إلى جليلة ابنة مرّة، قصيدة ـ على بساطتها ـ هي في ظني أبلغ من كل الشعر الذي انتهى إلينا من حرب البسوس، في التعبير عن مأساة تلك الحرب وفداحتها. ولا يضير القصيدة أن بعض الرّواة شكّكوا في نسبتها إلى جليلة زوجة كليب. وذهب أحدهم إلى أن قائلتها هي فاطمة ابنة ربيعة أخت كليب. ويُسقط تلك الرواية جملةً أن صاحبها قال إن فاطمة كانت زوجة جسّاس بن مرّة، إذْ المتواتر أن فاطمة أم امرىء القيس بن حُجر الكندي.

كذلك لا يضير القصيدة أن عميد الأدب العربيّ رحمه الله، ازدراها في كتابه عن الشعر الجاهلي، بسبب بساطتها وسلاستها، واعتبرها من انتحال الرواة في الإسلام. وقد اعتبر شعر (المهلهل)

أيضاً شعراً منحولاً. قال:

«لكننا لا نريد أن نترك مهلهلاً هذا دون أن نضيف إليه امرأة أخيه جليلة التي رثت كليباً ـ فيما يقول الرواة ـ بشعر لا ندري أيستطيع شاعر أو شاعرة في هذا العصر الحديث أن يأتي بأشد منه سهولة وليناً وابتذالاً».

رحم الله العميد وغفر له. فهو رغم سعة علمه ودقّة فهمه، أراد أن يثبت في كتابه ذاك، نظرة مسبقة، فتزمت أي تزمُّت، ككل أصحاب النظريات المتعسّفة.

كان يعلم بطبيعة الحال، أن البساطة والسلاسة والابتذال أحياناً، تجري في أوصال شعر الإنسانية قاطبة منذ أن قيل الشعر. وإلاّ فما هو الطريف في مثل هذا القول للشاعر اليوناني القديم (بِنْدار) ـ من القرن الخامس بعد الميلاد ـ الذي أسموه (أمير الشعراء وشاعر الأمراء):

«ما حياةُ الإنسان إلّا بعض يوم،
ماذا يكون الإنسان؟ وماذا لا يكون؟
إنه لا أكثر من سمادير حلُم،
حينئذٍ تعمّ البهجة وتصير الحياة حلوة مثل العسل».

أليس أجمل من هذا قول لبيد؟:

فإن تسألينا: فيمَ نحن؟ فإننا
عصافيرُ من هذا الأنام المسُحَّرِ
نحلُّ بلاداً كلُّها حُلَّ قبلنا
ونرجو الفلاحَ بعد عادٍ وحميرِ

كان العميد رحمه الله، حفِياً بالأدب اليوناني القديم، ولم نقرأ له أنه شك في وجود (بندار) أو (هوميروس) أو (سوفوكليس) أو (يوربديس).

لم تكن جليلة ابنة مرّة شاعرة احترفت صناعة الشعر، بل كانت امرأة عادية، إلّا أنها ورثت كسائر العرب، وعلى الأخص في ذلك الزمان سليقةً شاعرية. والعواطف الإنسانية لم تتغيّر ـ عواطف الأمومة والأبوة والرجاء والخوف والفرح والحزن. فلما رماها الدهر بأفظع ما يرمي به امرأة، عبّرت عن نفسها ببساطة وعفوية، فلماذا لا نقبل الشعر على أنه شعرها؟

يا قتيلاً قوّض الدهرُ به
سقفَ بيْتي جميعاً من علِ
هدم البيتَ الذي استحدثتهُ
وانثنى في هدم بيتي الأولِ
ورماني قتلُه من كثب
رميةَ المصُمى به المستأصلِ

هذه الأبيات على بساطتها، تُعرب في اعتقادي عن موقف إنساني لا يقلّ تأثيراً وعمقاً، عما نجده في مواقف مماثلة في تراجيديا اليونان، وحتى عند شكسبير. وها هوذا شكسبير، يقول على لسان (كليوبترا) وهي تندب عشيقها (أنتوني):

«يا أنبلَ الرجال! هل تموت؟
ألا يهمّك أمري؟
هل ترحل وتتركني وحيدةً في هذا العالم، الذي

سوف يكون بعدك مثل القذى في العين.
يا نسائي! انظرن إلى تاج الدنيا يذوب،
وإلى إكليل الغار يذوي
وإلى رمح البطولة يهوي.
الأطفال سوف يتطاولون على الرّجال،
ولن يبقى شيءٌ عجيب ومدهش
تحت ضوء القمر».

هذا والنص في أصله الإنجليزي، مكتوب بسلاسة وبساطة تقرب من الابتذال. وليس فيه كلمة واحدة ليست متداولة هذه الأيام.

قارنْ بين أبيات شكسبير، وأبيات جليلة ابنة مرّة، وهي تندب حالها وحال قبيلة وائل بشقّيْها، وتختصر مأساة الحرب كلها:

يا نسائي دونكنّ اليومَ قد
خصّني الدهرُ بُرزءٍ مُعْضلِ
خصّني قتلُ كليب بلظى
من ورائي ولظى مُسْتَقْبِلي
ليته كان دمي فاحتلبوا
بدلاً منه دماً من أكْحلي
إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ
ولعلّ اللّهَ أن يرتاح لي

هذا صوت المرأة الثّكْلى في كل الحروب، وفي كل العصور. وإذا كان الشعر مُنْتَحلاً، فللّه درُّ الذي انتحله!

■ ■ ■

دبت الفتن

كان من أمر سعيد بن العاص حين دخل الكوفة، بعد أن ولّاه عثمان رضي الله عنه خلفاً للوليد بن عقبة، أنه صعد المنبر وخطب خطبة قصيرة، تُذكِّر بخطبة زياد بن أبيه في البصرة فيما بعد، وخطبة الحجاج في الكوفة، كأنما في تيْنك المدينتيْن شيء يحرك الفظاظة في الوُلاة، ويستصرخ العنف. لن يطول الزمن بالكوفة حتى تشهد أحداثاً دامية، سوف تعكّر صفوها، وتملؤها بالأسى والغضب والإحساس بالذنب أمداً طويلاً.

قال سعيد بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«والله لقد بُعثتُ إليكم وإني لكاره، ولكني لم أجد بداً إذا أُمرت أن أُطيع. ألا إن الفتنة قد أطْلعتُ خُطَمَها وعينيْها، ووالله لأضربنّ وجهها حتى أقمعها أو تُعييني، وإني لرائد نفسي اليوم».

لم يلبث أن أعياه الأمر، لأن طبعه لم يساعده على الخوض في الدماء، كما فعل زياد والحجاج بعد ذلك. كتب إلى الخليفة يقول:

«إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهل الشرف والبيوتات والسابقة والقُدمة. غلب على البلاد روادف ردَفتْ، وأعراب لحقت، حتى ما يُنظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازِلتِها ولا نابتتها».

كذلك حال المدن على مر الزمان. لم تعد الكوفة هي الكوفة التي اختطّها عمر رضي الله عنه. اتّسعت ووفدت عليها أخلاطٌ من الناس، وكثر المال، وتفاوت الناس في الغنى والفقر. وتجد أصداء

لهذه الفوضى في أبيات عَبْدة بن الطبيب، في قصيدته العصماء، التي قالها في ذاك الوقت، أو نحوه بقليل:

إن التي ضربت داراً مُهاجرةً
بكوفة الجند غالبت وُدَّها غولُ
حلَّت خُوليةُ في دارِ مُجاورةٍ
أَمهل المدائن فيها الدِّيكُ والفيلُ

ردّ عليه الخليفة الرضي رداً هيّناً ليّناً، كأنه صرخة في واد:

«أما بعد، ففضّل أهل السابقة والقدمة، ممّن فتح الله عليه تلك البلاد. وليكن من نزلها بسببهم تَبعاً لهم، إلّا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكل منزلتَه، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق، فإن المعرفة بالناس بها يُصاب العدل».

خطاب مُهذَّب، لزمان مهذّب، إنما الزمان كان قد تغيّر، خاصة في الكوفة.

عمل سعيد بنصيحة عثمان، فقرّب إليه وجوه الناس والذين حاربوا في القادسية وحملة القرآن وأهل الرأي. كل ذلك لم يُجدْه نفعاً. صارت المدينة كما وصفوا «كانت الكوفة كأنها كانت يبساً اشتعلت فيه النار، وفشت القالةُ والإذاعة».

سرعان ما انطلق النّفر أنفسهم الذين كادوا للوليد من قبل، إلى الخليفة في المدينة يطالبون بعزل سعيد. وكان فيهم الأشتر مالك بن الحارث. ولحق بهم سعيد. إلّا أن الخليفة لم يستجب لهم هذه المرة، وأبى أن يعزل سعيداً وأمره أن يعود إلى عمله. لكن الأشتر جمع

حوله جيشاً وسبق سعيداً إلى الكوفة واستولى عليها. وخطب على المنبر فقال:

«هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن هذا السواد بستان لصبْية من قريش. السواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم، وفيؤكم وفيء آبائكم. فمن كان يرى لله عليه حقاً فلْينْهض إلى الجرعة».

لخّص الأشتر في تلك الكلمات القليلة، التيارات الجديدة التي ظهرت في المجتمع الإسلامي، وهي تيارات سوف تتسع، وتدمر دولاً وراء دول. والخليفة الرّضي في المدينة يحاول أن يصدّ الطوفان بيديه اللّتين أوهنهما الكبر. ولكن هيهات.

خرجوا مع الأشتر إلى الجَرعة، بين الكوفة والحيرة، ومنعوا سعيداً من دخول الكوفة، فعاد أدراجه إلى المدينة.

ثم إن الأشتر طلب من أبي موسى الأشعري أن يتقلّد الولاية، فقال:

«ما كنتُ لأفعل، ولكن هلمّوا فبايعوا أمير المؤمنين عثمان وجدّدوا له البيعة في أعناقكم». فأجابوه، وكتب بذلك إلى عثمان فأقره على ولاية الكوفة.

وجدير بالذكر أن أهل العراق كانوا قد تسبّبوا من قبل في عزل أبي موسى الأشعري عن ولاية البصرة، بعد أن لبث فيها ست سنوات في خلافة عثمان. ذكروا أن رجلاً يُدعى غيلان بن خَرَشة الضبّي، سافر إلى المدينة وقال لعثمان على ملأ من قريش:

«يا معشر قريش! أما منكم خسيسٌ فترفعوه؟ أما منكم فقير

فتجبروه؟ حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد؟».

ولعمري ما أراد أخو بني ضبّة بكلماته وجْهَ الحق، فما لضبّة وصلاح قريش. وما كان الصحابي الجليل عبد الله بن قيس متّهماً. لكن عثمان عزله فاستقر بالكوفة، حتى وليها يومئذٍ، تحت ظلال سيوف الغوغاء بزعامة الأشتر.

كانت تلك من بدايات الاستهتار بهيبة الدولة، وما هي إلّا خطوة، حتى يحاصروا المدينة، ويقتلوا الخليفة.

خطب عثمان في تلك الأيام فقال:
«يا أهل المدينة، استعدّوا واستمسكوا، فقد دبّت إليكم الفِتن».

■ ■ ■

جبرا إبراهيم جبرا

أحزنني نبأ وفاة جبرا إبراهيم جبرا حزناً مضاعفاً، فقد تذكرت يوسف الخال وتوفيق صايغ. ظلوا مرتبطين في خيالي منذ تعرفت بهم في بيروت أوائل الستينيات، مرتبطين بالضوء والبهجة والأحلام التي بدت يومئذٍ قريبة المنال.

يوسف الخال كان واسطة العقد، أريحياً (شيخ عرب). كان سعيداً بمشروعه الثقافي، يريد أن يحدث ثورة في الثقافة العربية بواسطة دار مجلة «شعر». كان أكثرهم خبرة بالحياة وأقدرهم على التحمل، فالتفوا حوله. شجع أصحاب المواهب وهيّأ لهم أسباب النشر والذيوع، وكثيرون يدينون له بالفضل، وكان يسعده أن يُشبَّه

بالشاعر الأميركي (أزرا باوند) والدور الذي قام به في رعاية الشعراء.

توفيق صايغ كان شاعراً صرفاً، وكان أقلهم قدرة على مصابرة الحياة، لذلك لم يلبث أن مات مغترباً كسير القلب في أميركا. مات قبل أن يبلغ الخمسين وكان يحلم أن يموت ميتة الشعراء الرومانسيين، أمثال شلي وكيتس وبايرون.

كانوا يُتّهمون بأنهم موالون للغرب ـ وبعض الناس اتهمهم بالعمالة صراحة. يوسف الخال كان يحمل الجنسية الأميركية مع جنسيته اللبنانية، وكان شديد الثقة بالنفس وفيه ميل للسخرية فلم يأخذ ذلك مأخذ الجد، ولم يتأثر كثيراً ـ في الظاهر على الأقل. كان مخلصاً في قناعته بالتعاون الثقافي، ولم يجد غضاضة في الاستعانة بالمؤسسات الثقافية الأميركية في إقامة مشروعه الثقافي.

توفيق صايغ بحكم تعليمه، كان متعاطفاً مع الفكر الليبرالي الغربي، فقد تعلم في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي هارفارد وأوكسفورد وكيمبردج. وحتى بعد ضياع فلسطين، لم يفقد الأمل في إقامة الجسور مع الغرب، ولم يكن اعتباطاً أنه سمى مجلته «حوار».

لذلك فإن فشل تلك التجربة، والظروف التي أحاطت بصدور مجلة «حوار» وتوقفها وما صاحب ذلك من هجوم شخصي على توفيق صايغ، بلغ أحياناً مبلغاً عظيماً من الشراسة والتجني، كل ذلك أصابه بصدمة عنيفة وخيبة أمل لا حدود لها، مات في أميركا ميتة طبيعية أشبه بالانتحار. كانت مأساته مثلاً صارخاً على خيبة الأمل،

التي أصابت عدداً من المفكرين العرب، وخاصة من بلاد الشام، الذين حاولوا مخلصين إقامة جسور مع الغرب.

كان توفيق صايغ إنساناً متفرداً بحق في نزاهته العقلية، وإنسانيته الغامرة، وقدراته الفكرية التي لم يمهله الزمن ليعبر عنها تعبيراً أوسع. هذا بالإضافة إلى أنه كان من أهم الشعراء المجددين. وقد جعل من مجلة «حوار»، صوتاً ثقافياً بعيد المدى. لأجل ذلك، ظل هذان الشاعران الكبيران والإنسانان الممتازان، يوسف الخال وتوفيق صايغ، ظلّا مغموطي الحق زمناً، إلى أن جاء صديقهما الوفي، رياض نجيب الريّس فاحتفى بهما كما يليق بهما ويليق به. احتفى بيوسف الخال في حياته وبعد وفاته واحتفى بتوفيق صايغ وأعاد طباعة أعماله الكاملة.

أما جبرا، فقد كان أحسن الثلاثة حظاً. هو أيضاً لم يسلم من بعض التجني، فلم يلق الاعتراف الواسع بمواهبه، خاصة في مجال النقد، إلّا في السنوات الأخيرة. لكنه استطاع بجلد ودأب، أن يكمل مشروعه الثقافي، أو كاد. وقد ترك تراثاً ضخماً متنوعاً، يحمل كله سمات موهبته الكبيرة.

كان هو أيضاً نتاج تعليم غربي راقٍ متحرر، في مدارس فلسطين أيام الانتداب، ثم في جامعة كيمبردج في إنجلترا. كان مثله في ذلك جمال محمد أحمد، فقد كان بين مدارس السودان على عهد الإنجليز، وبين مدارس فلسطين وجوه شبه. ثم درس جمال محمد أحمد في جامعة أوكسفورد. كانا أيضاً متشابهين في بوهيميتهما الرصينة، لذلك توثّقت الصلات بينهما خاصة حين كان جمال محمد أحمد سفيراً للسودان في بغداد.

كان جبرا علماً من معالم بغداد. أيام أسواق المربد العامرة، كان دائماً واضحاً يشار إليه في الزحام. كان مؤثراً أبلغ التأثير إذا حاجج وإذا حاور وإذا حاضر. كان ناصع البيان باللغتين العربية والإنجليزية. وقد أسدى خدمة عظيمة للأمة العربية بواسطة المحاضرات التي ظل يعطيها في أوروبا وأميركا بلغته الإنجليزية العالية. كان صوتاً من هذه الأصوات العربية المبينة التي لم تزل تحاول أن تضيء الظلام الذي ران على عقول الأوروبيين والأميركان، عن العرب وحضارتهم.

لم يكد يترك باباً من أبواب الفن إلّا طرقه، وقد نجح في كل شيء حاوله.

لكنه في رأيي كان أعظم ما يكون ناقداً. كان واحداً من أهم النقاد العرب. امتاز نقده بخلوه من التقعر الأكاديمي، والالتزام الإيديولوجي المبيت الذي يعمي البصيرة. كان ناقداً حراً عميق الثقافة ذا بصيرة نافذة وذوق جمالي سليم. ولم يكن يهاب أن يتحمس لعمل وينوه به إذا أحبه، ولا يخفي حماسته وراء ستار الموضوعية المصطنعة.

سوف أذكره كما رأيته آخر مرة في عمان، كان رغم إحساسه العميق بمأساوية كل ما حدث، متوهجاً كثير الضحك يحيط به المعجبون، وأغلبهم من النساء. كان يطربه أن تحيط به النساء الجميلات. لم يكن يبدو عليه أنه جاوز السبعين، ولم يكن يبدو عليه أنه يضحك، قاب قوسين من الرحيل.

القسم الثاني

من أعلام الفرنجة

الفصل الأول

اللورد بتلر

حين تعيد قراءة كتاب تمتَّعت به في حينه، فكأنك لقيت صديقاً غاب عنك زمناً. هذا ما حدث لي منذ أيام، مع كتاب عنوانه «فن التذكر» لذلك السياسي البريطاني العتيد (لورد بتلر)، وكنت قد قرأته أول صدوره عام ١٩٨٢.

ألّف (لورد بتلر) هذا الكتاب وهو منزوٍ في جامعة أكسفورد، بعد أن خاب أمله في السياسة، وحرمته الأقدار أن يحقق طموحه في رئاسة الوزارة، وكان على قاب قوسين من المنصب، فتركها وفي نفسه بعض الحسرة. وكما يفعل الإنجليز، وتلك من الأشياء المحبَّبة عندهم، فقد حيّاه خصمه السياسي اللدود (هارولد ولسن) وكان يومئذٍ رئيساً للوزارة في حكومة العمال، فجعله رئيساً لإحدى كليات جامعة أكسفورد.

لذلك تجد في الكتاب طيفاً بعيداً من المرارة، أقول بعيداً، لأن الكاتب كان من تلك الطبقة من الإنجليز الذين عُودوا أن يملكوا زمام عواطفهم، فلا تكاد تبين، ولكن روح السخرية أوضح، فقد كان (لورد بتلر) معروفاً بذلك، يحكي في كتابه الأول (فن السياسة) أن المهاتما غاندي حين جاء إلى مؤتمر المائدة المستديرة، ورفعوا الجلسة للغداء، أحضروا للمهاتما غاندي، لأنه كان نباتياً، طعاماً خاصاً من محلات (فورْتْنَم آند ميشنْ)، وهي محلات غالية تتسوق منها الطبقات العليا. أحضروا له عنباً وجبناً ولبناً رائباً وغير ذلك. يقول بتلر «قلت للمهاتما إن طعامه الفقير ذاك، قد كلّف أكثر بكثير مما لو تغدّى معنا».

ويجد القارىء بين سطور الكتاب، غير قليل من الحزن، لأن بريطانيا في أوائل الثمانينيات، بدأت تسير في طريق مختلف تماماً عن الطريق الذي أراده لها (لورد بتلر) وأمثاله من الزعماء.

ولا بد أنه عجب، وهو في منفاه في أكسفورد، كيف أن حزب المحافظين الذي ضنَّ عليه هو بالزعامة، أسلم قياده لزعيمة، هي على النقيض تماماً مما يجب أن يكون عليه الزعيم المحافظ في نظره.

كان (بتلر) من هؤلاء الإنجليز المستنيرين المتحضرين، الذين لا يملك الإنسان ـ مهما كان رأيه ـ إلّا أن يعجب بهم. كان سياسياً على درجة عالية من الخبرة والذكاء والكفاءة.

ورغم ذلك، فكنت حين تراه يتحدث على التلفزيون، تحسّ أنه لا يأخذ نفسه مأخذ الجد، وكأنه ليس مقتنعاً بالدور الذي يؤديه، تمام الاقتناع.

تقلّد كل الوزارات الكبرى في الدولة، فكان وزيراً للتعليم، ووزيراً للداخلية ووزيراً للخارجية، ووزيراً للمالية. وقد انخرط في العمل السياسي قبل الحرب العالمية الثانية، وعمل في حكومة (تشيمبرلين). ثم صار وزيراً للتعليم في الوزارة الإئتلافية خلال سنوات الحرب برئاسة (تشيرشل)، ويرجع له الفضل، أنه في عام ١٩٤٤ حصل على موافقة البرلمان على مشروعه الذي كان بمثابة ثورة، وأرسى القواعد التي يقوم عليها التعليم في بريطانيا إلى اليوم.

يقول الزعيم العمالي (دنيس هيلي) إن (بتلر) هو الذي «أدخل حزب المحافظين إلى القرن العشرين». وواقع الأمر، أن (بتلر) استطاع أن يقنع ذلك الحزب، خاصة في تلك الأيام، منذ قرابة خمسين عاماً، حين كان الحزب يعتمد على طبقة النبلاء، وكبار الملّاك، أن يقبل الإصلاحات التي أدخلتها حكومة العمال بزعامة (كلمنت أتلي) لمصلحة الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة، وعدم المساس بما أسموه (دولة الرفاه العام) واعتبارها مؤسسة ثابتة، بصرف النظر عن الحزب الذي يحكم.

كان يؤمن بـ (الوفاق) و(الإجماع)، وقد استطاع مع عدد من المعتدلين في حزب العمال أمثال (هيو قيتسكل)، أن يضعوا الأسس التي قام عليها الحكم في بريطانيا، منذ الحرب العالمية الثانية، إلى أن ظهرت (مسز ثاتشر) أوائل الثمانينيات. وقد ساد في تلك الأيام، تعبير (بتْسْكِلسْم) للتدليل على مناخ الوفاق بين الحزبين.

كانت (مسز ثاتشر) طرازاً جديداً من الزعماء لم يألفه الإنجليز منذ قرون إلّا في حالات الحرب. وقد وصفها أحد الزعماء المحافظين «أنها تقود ثورة مستمرة مثل الثورة الثقافية للزعيم الصيني الشيوعي

ماو تسي تونغ». أعلنت صراحة أنها لا تؤمن بـ (الإجماع) وتعتبره سبباً لتخلف بريطانيا، وأن لديها برنامجاً سياسياً محدداً تهدف إلى تنفيذه بأي ثمن. وبالفعل أخذت في تقليص دور الدولة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وترك الفرد يواجه الحياة حسب قدراته. وأطلقت العنان لقوانين العرض والطلب، على هدي النظريات الاقتصادية المتطرفة عن (حرية السوق) للأكاديمي الأميركي (ملْتن فريدْمان).

إلاّ أن النزوع إلى الوفاق والإجماع، عميق الجذور لدى البريطانيين، ولعله من أكثر الأمور جاذبية في فكرهم وفلسفتهم. ولعل الطريقة التي خرجت بها (مسز ثاتشر) من الحكم، دليل على أن (بتلر) وأمثاله كانوا أكثر حكمة.

لم تكن لديه فرصة لخلافة (ونستون تشيرشل) على زعامة حزب المحافظين ورئاسة الحكومة، فقد كان (أنتوني إيدن) يستعد لذلك منذ زمن، وكان محبوباً عند أهل الحل والربط. كان حزب المحافظين يحترم (بتلر)، ويقبل أفكاره على مضض، ولكنه لم يكن يطمئن إليه كل الاطمئنان. وفي تقاليدهم عدم اللجوء إلى متفوقي الذكاء، إلّا في الحالات الطارئة.

كان يظن أن الأوضاع التي جدّت. بعد حرب السويس، واستقالة إيدن ولم يكمل عامه الثالث في الحكم، أن تلك الأوضاع تحتم اللجوء إلى رجل مثل (بتلر). لكنهم أغفلوه واختاروا بدلاً منه، سياسياً ثعلباً هو (هارولد ماكملان). وكان (ماكملان) متزوجاً من ابنة دوق، وأمتن صلة بالقوى الفاعلة في الحزب.

تعرضت حكومة (ماكملان) إلى هزات عنيفة أواخر أيامها. وحين استقال، كان يوجد ما يشبه الإجماع، على أن حزب المحافظين سوف يلجأ أخيراً، إلى الرجل الذي يتفوق على كل منافسيه، خبرة وذكاء وحصافة. لكنهم اختاروا بدلاً من (بتلر) أحد اللوردات الإسكتلنديين (لورد هيوم) الذي اضطر إلى التنازل عن لقبه، وترشيح نفسه في دائرة برلمانية وجدوها له للدخول في مجلس العموم، ليكون رئيساً للوزارة.

حينئذٍ أحس (بتلر) أنه قد وصل إلى نهاية الطريق، فنفض يده من الأمر برمته. وقد أطلق قولة ظلت تُذكر له في نهاية مؤتمر حزب المحافظين، إثر استقالة (ماكملان):

«كان المؤتمر شيئاً مؤسفاً، خرجنا منه، أنا وزوجتي، دون أضرار تُذكر».

■ ■ ■

اختار (لورد بتلر)، أو (راب بتْلر)، كما كان يُعرف قبل أن يُمنح لقب لورد تتويجاً لحياته السياسية ـ كما جرت العادة ـ اختار تسعة أصدقاء للحديث في كتابه (فن التذكّر). والاختيار في حد ذاته، يدل على أن (بتلر) كان سياسياً من طراز غير عادي. كان، كما يظهر من تنوّع هؤلاء الأصدقاء، متعدد الاهتمامات، ينظر إلى القضايا من منطلق قومي عريض، متجاوزاً الولاءات الحزبية الضيقة.

أول ما يلفت النظر، أن (بتلر) اختار زعيمين من حزب العمال، لا يبدو لأول وهلة أنه يوجد بينه وبينهما شيء مشترك. لو أنه اختار

(سير ستافورد كربْس) أو (هيو قيتْسكل) أو حتى (مايكل فوت)، لكان الأمر طبيعياً. فهؤلاء جميعاً ينتمون إلى الطبقة العليا التي ينتمي إليها (بتلر)، وتعلموا في المدارس والجامعات التي تعلم هو فيها. أما أن يعدّ (أنوارين بيفان) من الرجال الأثيرين عنده، فذلك هو الغريب.

جاء (بيفان) من بيئة عُمال المناجم في ويلز ـ وكان متوقّد الذكاء، فصيح الّلسان، من الخطباء المعدودين في تاريخ البرلمان البريطاني. وكان شديد الخصومة لحزب الحافظين، فحمل عليهم حَملات ما تزال تتردّد أصداؤها إلى اليوم.

من بين أصدقاء (بتلر) الذين يضمهم هذا الكتاب، الزعيم الهندي (جواهر لال نهرو)، الذي يرجع إليه الفضل ـ بعد غاندي ـ أنه انتزع الهند من السيطرة البريطانية. ولكن لعل هذا الاختيار ليس غريباً كما يتبادر إلى الذهن، فقد كان (نهرو) رغم عدائه السياسي لبريطانيا شديد التأثر بالحضارة الإنجليزية، وعظيم الإعجاب بثقافتهم. وكان يتحدث ويكتب بلغة إنجليزية فاخرة.

ومنهم رجل دين، كان كبيراً لأساقفة (كانتربري) هو (وليم تمبِلْ). وهذا أيضاً اختيار لا يخلو من الغرابة، إذ إن (تمبل) لم يكن كبقية زعماء الكنيسة. كان يسارياً يؤمن بمبادىء حزب العمال. ويذكر (بتلر) أنه لولا دعْم (تمبل)، لما استطاع أن يضم التعليم الكنسي إلى سلطة الدولة.

اختار الكاتب شاعراً هو (شارلز سورْلي) الذي قتل عام ١٩١٥ في الحرب العالمية الأولى، وهو في سن العشرين. وكان ابن خالته. وقد

كان شاعراً موهوباً من الشعراء الإنجليز الذين عرفوا بـ (شعراء الحرب).

يركّز (بتلر) أن الشاعر، الذي درس وعاش فترة في ألمانيا، كان يعبّر في قصائده ورسائله، عن حب عميق للشعب الألماني. ويقتطف من رسالة بعث بها (سورلي) من الجبهة، يقول فيها إنه حين سمع مجموعة من الجنود الألمان ينشدون نشيداً حماسياً... «طربت طرباً شديداً، وأحسستُ أنني مستعد لأن أموت فداء لألمانيا... هذا خطأ بالطبع، ولكن لو أنك سمعت ذلك النشيد كما سمعته أنا، لعلك كنت تحس بما أحسستُ به».

ويقول (بتلر) إن حياة (سورلي) في ألمانيا «جعلته يرى خصالاً طيبة كثيرة في العدو».

روح الإنصاف، والقدرة على النظر من جانبين، التي يتميّز بها هذا السياسي الفذ، تتضح أكثر مما تتضح في الفصل الذي كتبه (بتلر) عن الزعيم العمالي الضخم (إيرنست بفن). وهو فصل من أروع ما يقرأ الإنسان من شهادات الإنصاف في التاريخ المعاصر.

كان (أرنست بفن) أسطورة بحق. وُلد لقيطاً لا يُعرف له أب. ولم يكد يبلغ الثامنة من عمره حتى توفيت أمه. واضطر أن يترك الدراسة وهو في سن الحادية عشرة. عمل أجيراً في مزرعة لقاء ستة بنسات في الأسبوع، ثم عمل حمّالاً في الميناء. لكنه سرعان ما أصبح أحد الأعضاء البارزين في نقابة عمال الشحن.

يصف (لورد بتلر)، كيف أن (بفن) لفت إليه الأنظار وهو في الخامسة

والثلاثين من العمر، حين تولى بمفرده الدفاع عن قضية عمال الشحن. كانوا قد طالبوا برفع أجورهم، فكوّنت الحكومة لجنة تحكيم من كبار القانونيين والمختصين برئاسة (لورد شو). ترافع (بفن) أمام اللجنة قرابة ثلاثة أيام متواصلة. وفي نهاية مرافعته قال له رئيس اللجنة:

«إنني أشكرك نيابة عن أعضاء اللجنة كلهم، لدقتك ووضوحك في الدفاع عن قضية عمال الشحن. وأود أن أؤكد لك أن اللجنة تقدر تقديراً بالغاً، أسلوبك الرصين في الدفاع».

ويضيف (بتلر):
«في اليوم الأول، كان أعضاء اللجنة وحدهم يصغون لـ (بفن). بعد ذلك صار الشعب البريطاني كله يصغي إليه، فقد نقلت لهم الصحافة دفاعه البليغ. أصبح بين عشية وضحاها بطلاً قومياً».

يقول (بتلر) إن (بفن) حين أخذ بعد ذلك في إعادة تنظيم الحركة النقابية وربطها بحزب العمال، حتى يكون لها تأثير في صنع القرار «كان أكثر عزماً وتصميماً من ونستون تشيرشل».

هذا ثناء لا نظير له، خاصة أنه يجيء من زعيم محافظ، وحين نتذكر أن (ونستون تشيرشل) الذي قاد بريطانيا في حربها ضد ألمانيا النازية، ما يزال يُعتبر مثلاً أعلى في العزم والتصميم.

وأعجب من هذا أن (بتلر) يعتبر أن (بفن) كان نداً في قدراته العقلية للاقتصادي البريطاني الشهير (جون مينارد كينز) الذي أحدث انقلاباً في المفاهيم الاقتصادية، وما تزال نظرياته هي الغالبة إلى اليوم. يقول (بتلر):

«كانت قدرات (بفن) التنظيمية معروفة، ونفوذه النقابي وأنه زعيم قوي كفء، كل هذا لم يكن موضع شك. ولكنه حين صار عضواً في لجنة ماكملان عن تمويل الصناعة، أظهر قدرات عقلية تضارع قدرات جون مينارد كينز».

في عام ١٩٤٠ صار (بفن) وزيراً للعمل في الوزارة الإئتلافية برئاسة تشيرشل، التي قادت بريطانيا في سنوات الحرب. يصف (بتلر) إنجاز (بفن) في تلك الفترة بأنه كان «أمراً خارقاً لا مثيل له»...

عبأ (بفن) للجهد الحربي، اثنين وعشرين مليوناً، من مجموع السكان البالغ عددهم خمسة وثلاثين مليوناً، بين الرابعة عشرة، والرابعة والستين. تمَّ ذلك دون قهر أو ضغط، ولكن كما قال (بفن):
«إنها إرادة أمة حرة تذعن للضبط والنظام بمحض إرادتها».

يصف (بتلر) أسلوب (بفن) في وزارة العمل فيقول:
«كان (بفن) حريصاً أن يكون منصفاً للفريقين. كان يشتد على أصحاب العمل للاستجابة لمطالب العمال، وفي الوقت نفسه كان يطلب من العمال ألا يشتطّوا في مطالبهم وأن يضعوا نصب أعينهم المصلحة العامة التي قد تقتضي منهم التنازل عن بعض حقوقهم (...) ولكن (بفن) كان يؤمن إيماناً عميقاً أن نقابات العمال يجب أن يكون لها دور مؤثر على المستوى الوطني».

أراد (تشيرشل) أن يكرّم (بفن) تقديراً للدور الذي قام به في وزارة العمل خلال سنوات الحرب، وكان يعرف موقفه من الأوسمة والألقاب، فقال له:

«إنني فكّرت أن أرشحك لوسام خفيف جداً يمكنك أن تلبسه بسهولة. أريد أن أرشحك لوسام (رفيق الشرف)».

فقال (بفن):
«أنت تعلم أنني لا أقبل الألقاب».

حين جاءت وزارة العمال برئاسة (أتلي) بعد الحرب، كان (بفن) بمثابة الرجل الثاني فيها، ولعله كان أقوى عضو في الوزارة. وقد تقلد عدة مناصب إلى أن صار وزيراً للخارجية، كانت وزارة الخارجية حكراً على أبناء الطبقات العليا، خريجي جامعتي أكسفورد وكيمبردج. لذلك كان تعيين عامل ترك المدرسة في سن الحادية عشرة وزيراً لها، مدعاة لدهشة عظيمة.

يصف (بتلر) العمل الذي قام به (بفن) في وزارة الخارجية، أنه أثّر تأثيراً بالغاً على مجرى الأحداث في العالم إلى اليوم، ويقول:

«كان (بفن) أعظم وزير للخارجية البريطانية في هذا القرن، ومن أعظم وزراء الخارجية البريطانية إطلاقاً».

هذا الإنصاف في الحكم على خصم سياسي، دليل على عظمة (بتلر) نفسه. والإنسان، إذ يقرأ هذا، يحس بالأسف أن حزب المحافظين لم يجعل (بتلر) رئيساً له. لو أنه خلف (تشيرشل) بدلاً من (إيدن) لما حدثت حرب السويس. ولو أنه خلف (إيدن بدلاً من (ماكملان) لاتخذت السياسات الاقتصادية والاجتماعية، منْحى مختلفاً تماماً.

وأغلب الظن أن (مارغريت ثاتشر) ما كانت لتصبح رئيسة للوزراء.

الفصل الثاني

ساميول بيبز

مدينة لندن أكثر حفاوة بـ (ساموئل بيبز - Samuel Pepys)، منها بوليم شكسبير. ذلك لأنه مثل شارلز دكنز، من أبنائها المخلصين، ولد فيها عام ١٦٣٣، ومات فيها عام ١٧٠٣. شهد الأحداث الجسام التي عصفت بالمدينة في القرن السابع عشر، مثل الطاعون الشهير عام ١٦٦٥، والحريق الواسع الذي أعقبه عام ١٦٦٦.

رأى انهيار ثورة (كرومول)، وعودة النظام الملكي، وتقلد عدة مناصب، فكان عضواً في البرلمان، ووزيراً للبحرية وعضواً في الجمعية الملكية.

إلّا أن شهرة (بيبز)، وأهميته في سياق الأدب الإنجليزي، تجيئان من اليوميات الوافية التي تركها، وقد عكف على كتابتها بين عام ١٦٦٠ وعام ١٦٦٩. سجل فيها تسجيلاً دقيقاً، بأسلوب مفعم

بالطرافة والسخرية وغير قليل من الحكمة ـ أحداث حياته وحياة المدينة، وتقلبات أحوال السياسة في لندن وما وراءها.

تعود إلى قراءتها مراراً، وتزداد متعتك بها كلما قرأتها. يدهشك أن الدنيا لم تتغير كثيراً، وأن بعض ما حدث في لندن في القرن السابع عشر، ليس بعيداً عما يحدث في عالمنا هذه الأيام.

وفيما يلي مقتطفات من يومياته في شهر كانون الثاني/ يناير عام ١٦٦١:

٧ كانون الثاني/ يناير
أيقظوني هذا الصباح بأخبار الأعمال الفظيعة التي قام بها (المتطرفون الدينيون) أثناء الليل. قالوا إنهم قتلوا ستة أو سبعة أشخاص ولاذوا بالفرار. عمدة لندن وسلطات المدينة استنفروا الناس، وحملوا السلاح وجمعوا جيشاً من أربعة آلاف مقاتل.

قضيت بعض الوقت في مكتبي وعدت للعشاء في بيتي. أخي (توم) جاء للعشاء معنا. ذهبنا إلى المسرح توم وزوجتي وأنا. شاهدنا مسرحية (المرأة الصامتة). الصبي (كناستن) قام بأداء ثلاثة أدوار. مثّل أولاً دور امرأة فقيرة تلبس ثياباً رثة، وكان مقنعاً جداً. ثم ظهر في دور امرأة شابة جميلة. كان بلا شك أجمل امرأة بين النساء الموجودات تلك الليلة. وأخيراً، ظهر في زي شاب وسيم، وكان أيضاً أكثر الشبان الموجودين وسامة.

٩ كانون الثاني/ يناير
استيقظت نحو الساعة السادسة صباحاً على صراخ الناس أن

(المتطرفين الدينيين) قد أغاروا على المدينة. لبست ثيابي على عجل وأسرعت إلى الشارع، فوجدت الناس في حالة هرج عظيم. كل واحد يحمل سلاحاً وكل واحد يحرس باب بيته.

عدت إلى الدار وحملت سيفي ومسدسي. كنت خائفاً في الواقع، ولكنني لم أرد أن أظهر للناس أنني جبان. على أي حال كان المسدس عديم الفائدة، فإنني لم أعثر على البارود.

وجدت عند الباب (سير آر. فورد) مشينا معاً حتى مبنى بورصة المال. قابلنا في الطريق عصابات من هؤلاء الأوغاد، وسمعنا قصصاً كثيرة عن الخراب الذي سببوه. قالوا إن أكثر من اثني عشر شخصاً من الفريقين قد قتلوا.

كانت المحلات التجارية مغلقة والشوارع مهجورة إلّا من هؤلاء الرعاع، والمدينة في حالة عظيمة من الفوضى.

عدت إلى داري. تعشينا في الدار، وانضم والدي إلينا. رغم اضطراب الأمن، أصرَّ أن نذهب لزيارة عمي، الذي كان عاتباً عليَّ لأنني لم أزرهم منذ وقت طويل. اصطلحنا وخرج أبي وعمي، وبقيت مع زوجة عمي التي كانت خائفة، ولا تطيق أن تبقى وحدها.

في الطريق إلى بيتي رأيت الحرس منتشرين في الشوارع. علمت منهم أن أغلب (المتطرفين) قد قتلوا أو وقعوا في الأسر.

١٠ كانون الثاني/ يناير

علمنا من (مستر ديفس)، مدى الخراب الذي أوقعه هؤلاء

(المتطرفون الدينيون). شتتوا جموع الأهالي الذين خرجوا للتصدي لهم، وهزموا الحرس الملكي، وجعلوهم يلوذون بالفرار. قتلوا نحو عشرين رجلاً.

استطاعوا أن يكسروا أبواب المدينة مرتين وينفذوا إلى داخل المدينة. كل هذا حدث في وضح النهار، ورغم أن سكان المدينة قاطبة كانوا مسلحين على أتمّ الاستعداد.

اتضح أن عدد (المتطرفين) لم يكن يزيد على الثلاثين، وكنا نحسبهم أكثر بكثير. كنا نظنهم أقرب إلى الخمسمائة، لأنهم كانوا يظهرون للناس ـ في أماكن متعددة. في ضاحية (هاي قيت)، وداخل أسوار المدينة، وهنا وهناك.

هذا أمر عجيب لم يحدث من قبل. كيف تستطيع حفنة من هؤلاء المعتوهين، أن تثير كل هذا الذعر، وتسبب كل هذه الفوضى؟

شعارهم الذي يرددونه (يسوع الملك في الأعالي، ورؤوس الكفرة معلقة على الأسوار). لا يستسلمون. يقاتلون حتى الموت. يقولون إنهم يموتون شهداء. القليلون منهم الذين أخذوا أحياء، كانوا يرددون أن المسيح سوف يأتي لينقذهم ويخلص العالم ويقيم العدل. ليس لديهم أدنى شك أن رسالتهم سوف تتحقق، وأنهم إن ماتوا فسوف يموتون شهداء.

■ ■ ■

كان (سامويل بيْبز) مولعاً بارتياد المقاهي والمسارح، وشديد الولع بالنساء. ولم يتورع عن وصف زياراته لدور البغاء. وكان يذهب

إلى الكنيسة، ليس بوازع التدين، ولكن من قبيل التمسك بالمظاهر الاجتماعية.

كتب يومياته، ليس بنيّة نشرها، ولكن لمتعته الخاصة. وقد ظلّت غير معروفة وقتاً طويلاً، حتى اكتُشفت في مكتبة كليّة (ماجدلين) في جامعة (كيمبردج) عام ١٨١٨. ونشرت لأول مرة بطريقة مختصرة عام ١٨٢٥. وفي عام ١٨٩٣، نشرت كلية (ماجدلين) أغلب اليوميات وحذفت منها أجزاء اعتبرت أنها لا تصلح للنشر. ثم نشرت كاملة ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٨٣.

في هذه المرحلة الأولى من اليوميات، كان النظام الملكي الذي عاد لتوّه، لم يستتب له الأمر بعد، فقد عاد الملك شارلز الثاني إلى لندن في ٢٩ أيار/ مايو عام ١٦٦٠. وكانت ثمة جيوب من المقاومة من قبل أنصار النظام الجمهوري الذي أقامه (أولفر كرمولْ). أما (بيبز) نفسه، فقد كان في بداية الطريق الذي انتهى به إلى البرلمان والوزارة، يعمل سكرتيراً للرجل الذي كان أعظم سند له (لورد إدوارد منتاقيو).

١٣ كانون الثاني/ يناير

ذهبنا كلنا في الصباح للصلاة، وجلسنا في المقاعد المخصصة لنا. موعظة فاترة خالية من الحياة من قسيس حدَث ليست له دراية بالوعظ. واضح أنه لم يخطب في كنيسة من قبل. بين الحضور المتصَرّف (بِثْ) وزوجته وبناته. البنت الكبرى ابنة زوجته من زوج سابق. سوداء، عظيمة الجمال.

تغدينا في مقهى الـ (قلوب)، ثم أخذنا عربة إلى كنيسة (قرنتش).

كنيسة جميلة وموعظة مؤثرة. بين المصلين عدد من النساء الحسناوات.

١٩ كانون الثاني/ يناير

بعد العشاء ذهبت وحدي إلى المسرح. شاهدت مسرحية (المرأة الضالة). لم تعجبني. شعرت بالحرج لأن اثنين من الكتبة عندنا، كانا يجلسان في مقاعد ثمنها نصف كراون، بينما كنت أنا أجلس في مقاعد أرخص. مقاعد الشلن وست بنسات.

٢١ كانون الثاني/ يناير

غريب أننا لم نتعرض لأي برد هذا الشتاء. على العكس، الحرارة مرتفعة والشوارع مُتربة والذباب يتطاير ويطن في كل مكان. مثل هذا لم يحدث من قبل. اليوم شُنق عدد آخر من رجال العهد البائد.

٢٧ كانون الثاني/ يناير

بعد العشاء ذهبت إلى المسرح، وشاهدت مرة أخرى مسرحية (المرأة الضالة). أعجبتني هذه المرة. كنت أجلس في مكان مظلم من المسرح. سيدة كانت تجلس أمامي التفتت خلفها وبصقت عليَّ دون قصد. حين رأيت أنها امرأة مفرطة الجمال، ذهب غضبي تماماً.

٣٠ كانون الثاني/ يناير

مستر (ملْز) أعطانا موعظة غاية في البلاغة والتأثير. وكان موضوعها العبارة الإنجيلية «يا إلهي. اغفر لنا ما سلف من خطايانا». كان كلامه بليغاً عن العدل الإلهي، وأن الله يعاقب الإنسان، حتى على ذنوب أسلافه.

وصلتني رسالة من أخي، يقترح فيها أن يجيء إلى لندن لحضور الاحتفال بتتويج الملك.

زرت (ليدي باتن)، التي عادت لتوها من رحلة إلى الخارج، وكانت زوجتي برفقتها. قالتا إنهما رأتا جثث (كرمول) و(ايرتون) و(برادشو) تُحرق وتُدفن في (تبورن).

٨ شباط/ فبراير

لبثنا نتحدث في مقهى (فليس) حتى الرابعة بعد الظهر، تحدثنا عن حياة الرِّق في الجزائر. حديث (كابتن موثام) و(مستر دوز) كان أخّاذاً غاية في الطرافة، لأنهما شخصياً، جرّبا حياة الرق في الجزائر. قالا إن سيدهما الجزائري لم يكن يطعمهما غير الخبز والماء. وحين أعتقهما طالبهما بثمن الماء الذي كانا يشربانه طول سنوات عبوديتهما. كان لا يكف عن جلدهما بالسياط على باطن أقدامهما، ولا يريحهما من الخدمة ليلاً أو نهاراً. وقالا إن الفقراء أكثر رأفة بالرقيق من الأغنياء، وإن بعض الرقيق الشطّار يعيشون عيشة مريحة ناعمة، لأنهم يجلبون لسادتهم دخلاً عن طريق الخداع والسرقة. وقالا إن السرقة لا تعتبر جريمة عند أهل الجزائر.

من ثم، رحتُ إلى دار مستر (رولنسن)، حيث وجدت صديقي القديم (دك سوبل). تسامرنا طويلاً، وعدت إلى داري آخر الليل ورأسي يكاد ينفلق من الوجع.

١٧ شباط/ فبراير

موعظة سمجة ومملة ولا تناسب المقام من واعظ إيرلندي، لم يجد موضوعاً لموعظته غير العبارة «يا إلهي. بدّد شمل هؤلاء الذين

يجدون المتعة في تأجيج نيران الحرب». لم يكن (سير وليم باتن) أقل غضباً مني على القسيس.

٢٣ شباط/ فبراير

اليوم عيد ميلادي الثامن والعشرون. بعد العشاء أخذنا مركباً على النهر إلى مسرح (بلاي هاوس). شاهدنا مسرحية (البدل) التي تعرض لأول مرة منذ عشرين عاماً. دخلها كبير من إقبال الجمهور عليها. لا عجب أن ممثلي المسرح بدأوا يحسون بالغرور والعجرفة. بعضهم صار مُترفاً جداً ويعيش حياة فخفخة وأبهة.

التقيت بمستر (تاونسند) الذي وعد أن يوظف والدي في قسم الثياب الملكية. أيضا قابلت المفتش العام، الذي قال إنه يجب علينا أن ندخل في البرلمان القادم، وأصرّ على أن أحصل على كتاب توصية من الدوق. لكنني لن أحاول، لأن ذلك سوف يكلفني نفقات باهظة.

لي الآن ثمانية وعشرون عاماً على قيد الحياة. الشكر لله، حياتي ميسّرة من جميع الوجوه، وآمالي كبيرة في مزيد من النجاح لي ولأصدقائي.

■ ■ ■

عاد الملك (تشارلز الثاني) إلى لندن من منفاه في هولندا في ٢٩ كانون الثاني/ يناير عام ١٦٦٠، بعد أن أصدر البرلمان قراراً بعودة الملكية، وأرسل بعثة برئاسة (لورد منتقيو)، وليّ نعمة (ساموئيل بيبز) لإحضاره. وكان لورد منتقيو قد قال لصديقه ساموئيل بيبز «إننا سوف نصعد السلّم معاً». وكذلك كان، إذ إن الملك إثر عودته

أسبغ لقب (دوق) على لورد منتقيو، فأصبح (دوق ساندوتش)، فوجد لصديقه منصباً رفيعاً في وزارة البحرية، وهو لم يبلغ الثلاثين.

يصف (بيبز) فيما يلي حفل تتويج الملك تشارلز الثاني في بيْعة (وستمنستر أبي):

٢٣ نيسان/ أبريل عام ١٦٦١

خرجت من فراشي في الرابعة صباحاً، وذهبت إلى (كنيسة وستمنستر)، فوجدت أن سير (دنهام) وبعض أصحابنا قد وصلوا قبلي. كان الحصول على مقعد على المنصّات الخشبية المنصوبة أمراً شاقاً جداً.

وبعد جهد كبير وجدت مكاناً في الجانب الشمالي من الكنيسة بمساعدة (مستر كوبر). جلسنا صابرين ننتظر وصول الملك. مرت الساعات بطيئة منذ بعد الرابعة بقليل حتى الساعة الحادية عشرة. وأخيراً ظهر موكب الملك.

كان مشهداً رائعاً حقاً. المنصة المرتفعة في الوسط مكسوة بقماش فاخر أحمر اللون، وعليها كرسي العرش. رجال الحرس والحاشية والنبلاء، كلهم في أزياء حُمر، حتى الفرق الموسيقية في أزياء حُمر.

أولاً، دخل أسقف وستمنستر يحيط به رجال الكنيسة، ثم دخل كبير الأساقفة في عباءاتهم الموشاة بالذهب. جاء بعدهم النبلاء في زيهم البرلماني. يا له من منظر بالغ الروعة! ثم دخل سيدي (دوق ساندوتْش) يتقدم الملك، حاملاً الصولجان، ومعه عدد من النبلاء يحملون التاج والسيف وغيرهما من شارات المُلك.

كان رأس الملك، وهو رأس نبيل، عارياً. ثم اتخذ كل واحد مكانه. بدأت مراسم التتويج بموعظة من كبير الأساقفة ختمها بالصلاة. بعد ذلك تمت مراسم في (المذبح) الكبير، لم أستطع أنا، ولا كثيرون غيري رؤيتها.

حين وضع كبير الأساقفة التاج على رأس الملك، هبّت صيحة مدوية من أنحاء الكنيسة جميعها.

ردد الملك القَسَم وراء كبير الأساقفة. وكان النبلاء قد وضعوا قبعاتهم على رؤوسهم أول ما وُضع التاج على رأس الملك. ثم جاءت أفواج الأساقفة بين يدي الملك.

مشى (حامي الذات الملكيّة) ثلاث مرات، في كل مرة يتوجه إلى ناحية من نواحي الكنيسة، وفي كل مرة ينادي بأعلى صوته «هل بينكم أحد لديه أي اعتراض أن يكون تشارلز الثاني ملكاً على إنجلترا؟ إن كان يوجد أحد فليتقدم وينطق».

تلا حاجب الملك الأكبر، عفواً ملكياً عاماً، ونثر (لورد كورنوالس) المداليات الفضية على الحاضرين، لكنني لسوء الحظ لم أستطع أن ألتقط شيئاً منها. قامت ضوضاء عظيمة طغت على الموسيقى.

شعرت بحاجة عظيمة إلى تفريغ مثانتي من البول، مما اضطرني إلى الخروج قبل أن تكتمل مراسم التتويج. دُرْتُ حول الكنيسة، فرأيت الساحات حولها مغطّاة بمفارش ذات لون أزرق، ونحو ألف شخص جالسين على المنصات. ثم دخلت قاعة الاحتفالات الكبرى، فوجدت أرضها وحيطانها قد زُيّنت بمفارش وستائر زاهية الألوان.

وكانت ملأى بسيدات غاية في الحسن، ميّزت بينهن زوجتي، جالسة في الناحية اليمنى.

لبثت أتمشى، رائحاً غادياً، أمتّع عينيّ بمنظر النساء الجميلات، وأنتظر قدوم الملك. أخيراً دخل القاعة، يحمل صولجانه بيد، وتاجه باليد الأخرى، محاطاً بالنبلاء، وفوق رأسه مظلة تقف على ستة أعمدة فضية، يحملها (لوردات الموانىء الخمسة) وعلى أطراف المظلة أجراس صغيرة من الفضة. مضى الملك في موكبه إلى أقصى القاعدة وجلس إلى مائدته، فجلس الناس إلى موائدهم. كان مشهداً غاية في الفخامة.

ثم بدأ إحضار الطعام، كل طبق يحمله فارس من فرسان (باث)، وكان (لورد أَلْبمارْل) يدخل المطبخ ويذوق كل طبق قبل أن يُقدم إلى الملك.

وكان هؤلاء النبلاء الثلاثة (نورث أمبرلاند) و(سفولك) و(أورمند)، ممتطين خيولهم يتقدمون حاملي طعام الملك، ويظلّون واقفين، حتى يفرغ الملك من الأكل. في أثناء ذلك كان الحجّاب يسوقون الناس فرادى إلى مائدة الملك فينحنون له ويعودون إلى أماكنهم.

أخيراً جاء (حامي الذات الملكية) على صهوة فرسه، لابساً عُدّة الحرب، وأمامه فارسان، أحدهما يحمل رمحه، والآخر يحمل ترسه. وصاح المنادي بأعلى صوته «هل يوجد هنا أحد ينكر أن الملك تشارلز هو ملك إنجلترا الشرعي؟ إن كان يوجد فليخرج لمبارزة (حامي الذات الملكية)». وكان حامي الذات الملكية يرمي

قفازه كل مرة بعد هذا النداء. فعل ذلك ثلاث مرات، وهو يحني رأسه للملك.

كنت أنتقل من مائدة إلى مائدة، فوجدت القُس والنبلاء مستغرقين في الأكل. وعلى مائدة اللوردات، وجدت (لورد هاو) الذي رحب بي وأطنب في مدحي. فقد وجدت متعة عظيمة في المرور على موائد السيدات وكان بينهن من هي مفرطة في الجمال. كذلك تمتعت بالاستماع إلى الموسيقى، وخاصة عازفي الكمان.

العجيب، أن الطقس ظلَّ صحواً طوال يومي الاحتفال. وما أن انتهينا حتى أمطرت السماء مطراً لا أذكر مثله. وأبرقت وأرعدت.

وقال الناس إن ذلك فأل حسن وأن العهد سوف يكون عهد خير وبركة. لكنني أظن أن من الجهالة الالتفات إلى مثل هذه الأشياء.

■ ■ ■

يخلط (سامويل بيْبز) بين التفاصيل الدقيقة لشؤون حياته الخاصة وبين الشؤون العامة، مثل وصفه لإعدام (سير هنري فين). وهو وصف ينمُّ عن تعاطف ـ وإن كان بعيداً خافتاً ـ مع الجمهوريين، أنصار (أِلفَر كرُمْوِل) وتجدر الإشارة أن وليّ نعمته (دوق ساندوتش) كان مؤيداً لـ (كرمول) قبل أن تنهار دعوته، فحوّل ولاءه للملكية.

٢٦ أيار/ مايو ١٦٦٢

استيقظت في الساعة الرابعة صباحاً، وعكفت في الحال على مراجعة حسابات سيدي (الدوق)، وكنت قد واعدت (مستر مور) فلحق بي بعد مُدة. وجدنا أن (الدوق) مديون بمبلغ سبعة آلاف

جنيه، ولكنه يتوقّع دخلاً من عدة مصادر، سوف يغطّي الدين. لكن الحقيقة هي أن محفظته خالية إلاّ من شيء يسير، ووضعه المالي، على وجه العموم، ليس كما ينبغي.

ذهبت إلى (ترنتي هاوس)، حيث كانت جماعة (الإخوان)، تنتخب رئيساً لها. فاز (مستر منْز) على منافسه (مستر باتن). كانت منافسة عنيفة.

على العشاء، جلست بجوار (مستر بن) الذي قال لنا، إنه يملك وثائق دامغة على فجور الراهبات وحياتهن الماجنة، في طول إنجلترا. وأخرج من جيبه وثيقة تُثبت أن ثلاثين راهبة، طُردن من ديرهن، وأن البابا أصدر أمراً بتفريقهن على عدد من الأديرة.

لم أستطع البقاء حتى النهاية، فخرجت خلسة، وأخذت مركباً على النهر إلى دار أخي (تومْ) من حيث مضينا واصطحبنا زوجتي إلى المسرح.

شاهدنا مسرحية (دكتور فاوست). كان عرضاً سيئاً جداً أصابنا بالملل. عدنا إلى الدار، فأخذت قيثارتي، وظللت أعزف عليها، إلى أن نعست، فذهبت إلى فراشي.

١٤ حزيران/ يونيو

قمت من فراشي في الرابعة، وذهبت إلى مكتبي وانهمكت في العمل. في نحو الساعة الحادية عشرة، ذهبت مع مجموعة منّا إلى غرفة أُعدت لنا في (البرج) أشرفنا منها على المنصة التي أقاموها لإعدام (المتمرد الجمهوري) - (سير هنري فين). رأيناه يساق إلى

الساحة. جمع عظيم من الناس وقف على المنصة وبدأ يلقي خطبة طويلة. كان بعض موظفي الحكومة وأعوانها يقاطعونه عمداً، ليمنعوا الناس من الاستماع إليه.

أرادوا أن ينزعوا أوراقه من يده، فلم يمكّنهم منها، فلجأوا إلى إحضار عدد من الأبواق، وأخذوا ينفخون فيها، حتى يطغى زعيقها على صوته.

كان بعض الصحافيين والكتّاب، على مقربة من المنصة، يسجلون كلامه، فصادروا أوراقهم، وأزاحوهم عن أماكنهم.

بعد ذلك استغرق في الصلاة والدعاء، وهيّأ نفسه للموت، وتلقى ضربة الفأس التي طيّرت رأسه. كانت الساحة مزدحمة بالخلق، فلم نستطع أن نرى المشهد الأخير. لكن (بورمان) الذي كان قريباً من المنصة، ورأى كل شيء، أخبرنا في ما بعد، أن (سير هنري)، تحدث أولاً عن بطلان الإجراءات التي حوكم بمقتضاها. وقال إنه حُرم من حقه بمقتضى ميثاق الحقوق العامة الـ (ماقناكارتا) أن يطعن في صحة التهمة الموجهة إليه.

حاول رئيس الشرطة منعه من الاسترسال، فأخرج أوراقاً من جيبه، راح يقرأ منها. قال إنه رجل محترم (جنتلمان) بحكم مولده ونشأته، وأنه يتحلّى بصفات الـ (جنتلمان) وأن عامة الناس يشهدون له بذلك. ثم أراد الله له أن يزهد في الدنيا وينصرف إلى الدعوة لإعلاء كلمة الله. فنفض يديه من كل شيء، وسافر للدعوة في الخارج.

ثم شاء الله، أن يُطلب منه أن يعود إلى إنجلترا، وينتخب عضواً في

البرلمان. وقال إنه في البرلمان. وكان هدفه إعلاء كلمة الله، فلم يقُل أو يفعل شيئاً يتعارض مع ضميره. وكان يريد أن يشرح للجمهور مجريات الأمور في البرلمان، ولكن أعوان الحكومة منعوه من ذلك بالضجيج والمقاطعة.

حينئذٍ أخذ يهيىء نفسه للموت فراح يبتهل ويدعو. دعا بالصلاح لأهل إنجلترا قاطبة، ودعا لكنائس إنجلترا ولسكان مدينة لندن. ثم ركع ووضع رأسه وتلقّى الضربة.

كان على رقبته خُرّاج فطلب منهم ألا يمسّوه. لم يتغيّر لونه، ولم يفقد رباطة جأشه حتى آخر لحظة. مات وهو واثق من براءته، وواثق من عدالة القضية التي آمن بها.

لم أشهد إنساناً يواجه الموت بمثل تلك الشجاعة. كان شجاعاً صلباً متواضعاً.

قاطعه رجل أثناء دعائه، وقال له «لماذا لا تدعو للملك؟» فأجابه «بلى. سوف ترى أنني أستطيع أن أدعو للملك. أدعو الله أن يوفقه ويباركه»(*).

الهوامش

(*) هذا الكلام لا يخلو من المبالغة ـ أو لعله افتراء ـ بغية التشهير بالمذهب الكاثوليكي، فقد كان الصراع على أشده في هذا الوقت بين المذهب الكاثوليكي والمذهب البروتستانتي الذي أصبح (دين الدولة). لذلك كان أنصاره أقوى نفوذاً وأكثر جرأة على التشهير بخصومهم.

الفصل الثالث

أي. ج. تيلور

يعجبني من المؤرخين الإنجليز المعاصرين، أي. جي. تيلور، أو ألن تيلور، كما يسميه أنصاره، فهو رجل له معجبون كثيرون وخصوم كثيرون. ذلك لأنه ينظر إلى التاريخ بجرأة وطرافة وغير قليل من السخرية التي تقترب من روح شكسبير التي ترثي لتفاهة مسعى الإنسان وهو يشن الحروب ويديل الدول ويرتكب الحماقات. في سمت هذا المؤرخ العتيد، تبرّم كأنما بنفسه وبالناس، وضيق صدر، ربما لكثرة ما يعلم من قصور طموحات البشر عبر التاريخ. هذه المعرفة تعطي بعض المؤرخين سماحة ورحابة صدر، لكن ليس ألن تيلور. تقرأ كتابه، فإذا فرغت منه فكأنما قرأت رواية عظيمة لروائي عظيم. حياته قلقة، فقد تزوج وطلق، وتزوج وطلق، وتغير موقفه في السياسة من أقصى اليسار إلى لا قرار. كان متحمساً لحزب العمال، ثم فترت حماسته. إنه الآن في نحو الثمانين، عليل، يقف على

حافة القبر. أسأل الله أن يشفيه، فهو من هؤلاء الإنجليز الذين يجعلونك تغفر لقومهم كثيراً من سيئاتهم.

قرأت كتابه «جذور نشوب الحرب العالمية الثانية»، وأنا أصارع الموت في مستشفى الدكتور بدر في بيروت، عام ستين، أو تراه واحداً وستين؟ في ذلك العام قتل داج همرشلد في الكنجو، ووقعت اتفاقية إيفيان التي أدت إلى استقلال الجزائر. قضيت ليالي وأنا أقاوم مع الجزائريين، ولو مت حينئذٍ، لعلني كنت أموت شهيداً بمعنى من المعاني. ثم بدا كما لو أن حبل العمر لم ينقطع بعد، فأخذت أطفو قليلاً قليلاً، يساعدني على التشبث بالحياة هذا الكتاب الجميل.

قامت زوبعة أول ما صدر الكتاب، أخريات الخمسينيات، لأن ألن تيلور قال، إن أدولف هتلر لم يكن «عبقرياً شيطاناً» كما يزعم، ولكنه كان رجلاً عادياً، لا يملك أية مؤهلات خارقة، وأنه لم يكن يعمل وفق «خطة جهنمية» ولكنه كان «يتخبط» كبقية الزعماء والسياسيين وأنه نجح لأن الإنجليز والفرنسيين كانوا أكثر تخبطاً منه. هذا الرأي أغضب اليهود وكثيراً من الأوروبيين. أما الأوروبيون فلأنهم لم يجدوا سبباً منطقياً لما حدث، فخلقوا أسطورة «أدولف هتلر العبقري الشيطان». كانت ألمانيا أكثر الدول الأوروبية تحضراً، وكان اليهود في ألمانيا، من أكثر الجاليات اليهودية في أوروبا رخاء واستقراراً. لماذا إذاً حدث ما حدث؟ لماذا أقام هذا الشعب المتحضر معسكرات الاعتقال التي زجّ فيها بالآدميين كما تزجّ البهائم؟ لماذا أقيمت أفران الغاز التي مات فيها فيما يقدر بستة ملايين إنسان؟ وإذا كانت ألمانيا قد فعلت هذا، فهل كان محتملاً أن تفعله فرنسا أو بريطانيا؟ هل السبب الحقيقي نزعة همجية قابعة في أعماق

اللاوعي الأوروبي عموماً؟ أبداً، السبب هو رجل مجنون يدعى أدولف هتلر!

وأما اليهود، فإنهم بطريقتهم «المثلوجية» في النظر إلى تاريخهم، أعطوا مأساتهم، وهي مأساة لا شك فيها، أبعاداً ملحمية كما في الأساطير القديمة، فجاء ألن تيلور، ونظر إليها كما ينظر إلى مصائر البشر كافة عبر التاريخ. هذا، ولأن اليهود لم يكونوا بمعزل تماماً عما حدث لهم، في تلك الآونة أيضاً، صدر كتاب للفيلسوفة اليهودية الشهيرة همن أرندت اسمه «إيخمان في القدس» قالت فيه إن اليهود في ألمانيا كانوا يحفرون قبورهم بأيديهم، ثم يدخلون فيها فيقتلون رمياً بالرصاص. وكانت الكاتبة تتساءل «ما داموا قد أيقنوا بالموت، فلماذا لم يفعلوا شيئاً؟ لماذا لم يثوروا؟ لماذا لم يقاوموا؟». والكتاب كله دراسة رائعة في ظاهرة الشر، وأنه ليس أمراً خارقاً، ولكنه أمر عادي، يقوم به أناس عاديون. لقد اختطف الإسرائيليون إيخمان، وكان من كبار النازيين الذين تسببوا في مصرع آلاف الناس، وجاءوا به في ضوضاء إعلامية لمحاكمته، على أنه وحش مصاص دماء مثل دراكولا. ولما أظهروه للناس في قفصه الزجاجي في المحكمة، أسقط في أيديهم. ظهر للناس رجلاً عادياً، كأنه موظف في بنك أو مسؤول صغير في دائرة حكومية. وكان دفاعه أنه كان ينفذ أوامر رؤسائه، تماماً كما يقول الموظفون في دوائر الحكومة. واتضح في المحاكمة أنه كان منظماً جداً، دقيقاً في حساباته، مثل موظفي البنوك. كذا ألف إنسان أحرقوا في داكاو، وكذا ألف إنسان أحرقوا في أوشفتز. كشوفات مفصلة بوسائل النقل، وأرقامها وأوقات مغادرتها ووصولها. ووسائل القتل وأنواعها وأسماء القائمين عليها. رجل عادي، يؤدي وظيفة عادية يأخذ عليها مرتباً. له بيت وزوجة وأطفال. يحنو على القطة، ويزرع الورود في

الحديقة. هذا أيضاً كتاب عظيم يعلق بالذاكرة، يقترب فيه التاريخ من الأدب، في ملاحقته لنوازع الخير والشر الكامنة في تلافيف روح الإنسان. وما أصدق قول أبي العتاهية:

لدواعي الخير والشر دنو ونزوح

أذكر ندوة تلفزيونية تلك الأيام، كان ألن تيلور يرد فيها عن أسئلة حول كتابه. قال له أحد المشاركين، وكان واضحاً أنه يهودي «إنك بافتراضك هذا تغض من عظمة الكفاح البطولي للشعب اليهودي في إقامة دولة إسرائيل». فرد عليه تيلور بتبرم واضح «اسمع. لا تحدثني عن إسرائيل والكفاح البطولي وهذا الكلام الفارغ. إسرائيل لا شيء. بريطانيا لا شيء. فرنسا لا شيء. أميركا لا شيء. روسيا لا شيء».

■ ■ ■

إنني لا أعرف أن مؤرخاً غيره جرُؤ على مثل هذا القول، وقد كان ذلك أمراً جللاً بحق في تلك الأيام. لقد أوصلته دراساته فيما يبدو إلى أن الكائن البشري عموماً «لا شيء» وهو رأي يشبه رأي المرحوم مصطفى صادق الرافعي حين قال: «ما الإنسان، وما خيرُه وشرُّهُ؟ إنه مثل حفرة برِجلْ نملة لتدفنَ فيها نملة».

حين علمت بنبأ موت المؤرخ الإنجليزي الحبْر «أي. جي. بي. تيلور» الذي توفي منذ أسبوعين، شعرت كأنني أفقد صديقاً عزيزاً، رغم أنني لم أقابل الرجل ولم أعرفه إلّا من خلال كتبه ومقالاته

ومحاضراته. ذلك لأنني كنت أعتبره واحداً من هذه الزمرة الكريمة من الرجال والنساء، الذين تجمعك بهم أواصر الروح والعقل والضمير، على بعد التيار واختلاف الأعراق والانتماءات، فكأنهم أهلك بحق.

كان بحر علوم في ميدانه، يملك إلى ذلك عقلاً نافذاً جذّاباً وبياناً ناصعاً ساخراً، وجرأة على السباحة عكس التيار، والتصريح بأفكار يعلم أنها سوف تغضب الكثيرين وتجر عليه العداوات والأحقاد، لكنه كان باحثاً عن الحقيقة أنّى وجدها، وعنده تلك النزاهة والشجاعة اللتان يمتاز بهما بعض علماء الإنجليز الخلّص. وكان يؤمن أن التاريخ يجب ألا يكون حكراً على المتخصصين، ولكن على المؤرخ أن يجعله جذاباً ومفهوماً على أوسع نطاق. فكان من أوائل المؤرخين الذين استغلوا وسائل الاتصال الجماهيرية، فكتب في الصحف، وحاضر في التلفزيون. وأكثر ما أثار عليه سخط زملائه الأكاديميين، أنه لم يحجم، رغم أنه كان أميل إلى اليسار، أن يكتب في صحف «بيفربروك» اليمينية المتطرفة، بل إنه كان صديقاً لصاحبها «لورد بيفربروك» وألّف كتاباً عن حياته.

ربما لأجل ذلك لم يعطوه كرسي أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة أوكسفورد الذي كان يحلم به، وفضلوا عليه منافسه «ترفر روبر»، وهو مؤرخ أقل منه قدراً في نظر الكثيرين، ولكن حسبه أنه كان طوال حياته مثار اهتمام واسع، من الأكاديميين وغيرهم، وأن محاضراته في التلفزيون كانت تعتبر مناسبات مهمة تظل أصداؤها تتردد زمناً طويلاً بعد عرضها، وأن فصوله في جامعة أوكسفورد التي كانت تبدأ في التاسعة صباحاً، كانت تمتلىء بمستمعين من

تلاميذه، ومن تلاميذ يتقاطرون عليه من الكليات الأخرى، وجمهور يفِدُ من أقاصي القطر خصيصاً للاستماع إليه.

نعم، هذا مؤرخ من طراز نادر، لا يجود الزمان بمثله إلّا على فترات متباعدة.

الفصل الرابع

مايكل آدمز

مايكل آدمز كان شأنه مختلفاً عن أولئك الصحافيين الأوروبيين الذين حلّوا على هذه الديار الآمنة، كما تحل عصابة من قطاع الطرق.

خلال السنوات التي قضيتها في وزارة الإعلام القطرية، رأيت أنماطاً عجيبة من البشر، مروا أمام ناظري كما تمر الأشباح. منهم أفاقون وباحثون عن الشهرة وباحثون عن أدوار يلعبونها على مسرح الحياة وهاربون من سأم الحياة التي ألفوها في بلادهم، وقليل منهم المخلص الباحث عن الحقيقة.

ذلك الصحافي الذي اتفقوا معه على نشر ملحق عن دولة قطر، اشترينا منه كذا صفحة بثمن كبير، لعراقة الصحيفة وسعة انتشارها، وساعدناه على جمع الإعلانات. ثم صدر الملحق فإذا به يتضمن

مقالات لا علم لنا بها، مليئة بالأخطاء وسوء الفهم. اعترضت على ذلك، فقال لي:

«هذه مادة تحريرية لا سيطرة لقسم الإعلانات عليها».

«أنتم تنشرون مثل هذه المقالات في صحيفتكم على أي حال. ولكن لماذا تصرون عليها الآن في هذا الملحق بالذات. علماً بأنه لم يكن ليصدر لولا الصفحات التي اشتريناها منكم والإعلانات التي ساعدناكم على جمعها؟».

«أنت تعلم بأن صحافتنا حرة، ومثل هذه المادة تعطي الصحيفة مصداقيتها. هذه هي الحقائق كما نراها فهل تريدوننا أن نغير الحقائق لمجرد أنكم اشتريتم منا بضع صفحات؟».

«اسمع. لا تحدثني عن حرية الصحافة، فأنا أفهم جيداً ماذا تعني حرية صحافتكم. أليس عندكم مثل يقول «الذي يدفع أجر المغني من حقه أن يختار الأغنية؟» هل تريد أن تقنعني أن دولة قطر تدفع لكم مبلغاً ليس قليلاً لتصدروا ملحقاً تشتمونها فيه؟ أي منطق هذا؟».

أحياناً كانوا يقتنعون بوجهة نظرنا، وأحياناً كنا نضطر إلى إيقاف التعامل معهم.

ومرة جاءني صحافي يعرض عليَّ أن ننشر ملحقاً عندهم. وخطر لي أن أعبث به قليلاً. قلت له:

«وما هي الفائدة من ذلك؟».

«أليس هذا واضحاً؟ توجد هنا حركة تنمية عظيمة. وللدولة احتياجات كثيرة. لا بد أن تعلن دولة قطر عن احتياجاتها فتعلم بها شركاتنا فتأتي إلى هنا وتساعد الدولة في إنجاز التنمية».

«شيء عجيب. تقصد أن دولة قطر تدفع كل هذا المال لصحيفتكم لتقولوا لشركاتكم «دولة قطر تريد أن تعطيكم مالاً اذهبوا وخذوه منها؟» أليس المعقول هو أن يحدث العكس؟».

«ماذا تعني؟».

«أعني أن تعلن شركاتكم عن نفسها في الصحف القطرية، فيعلم القطريون بوجودها فإذا كانت لهم حاجة بها تعاملوا معها. تذكر يا مستر.. إن شركاتكم ليست الوحيدة في السوق، ودولتكم ليست الوحيدة في العالم».

بعضهم كان كأنَّه يستيقظ من نوم، وكأنه نسي أن عهداً قد انقضى، وعهداً قد أطل. وأحياناً كان الواحد منهم حين يبلغ به الضيق مبلغه وتعوزه الحجة، يتفرس في وجهي طويلاً، ثم يقول لي بصوت بارد:

«أنت لست قطرياً. أليس كذلك؟».

كنت حين أُوصِل الواحد منهم إلى هذا الحد، أحس أن يومي لم يذهب سدى، فقد كنت أعلم تمام العلم ماذا يقصد بقوله. وأنَّى له

أن يدرك أن كوني لست قطرياً ما كان ليغير من الأمر شيئاً. وأنى له أن يدرك أنه إن كان قد جاء يطلب صيداً، فقد لاقى صياداً له شباك من نوع آخر. إنه يرى أمامه رجلاً يجلس وراء مكتبه على شكل حدوة حصان منفرجة، في مكتب مصفَر الحيطان في الطابق العلوي من مبنى التلفزيون. إنه يشغل منصباً ليس ذا خطر، في حقيقة الأمر. ولكنه قد يبدو لوهلة للطامعين والمغامرين والحالمين، أنه قد يكون وسيلة لتحقيق كل ذلك. إنه وضع صعب. وأصعب منه الرجل الذي يجلس وراء ذلك الرجل، رجل لا يرونه ولكنه يراقب عبث الناس وألاعيب الحياة، كأنه بمعزل عنها. ويمتص التجاريب كما تمتص الصحراء قطرات المطر. يتركها تتجمع وتفور بعيداً في قيعان الذاكرة، ثم ينساها. يتركها تنصهر في بوتقة «الفن» ريثما تنضج، وهو يعلم أنها سوف تطفو فجأة بعد أمد، على هيئات مختلفة، وأشكال لم تكن في الحسبان.

هكذا كنت أسرّي عن نفسي، وأُدافع الوحشة التي تخامرني، وحشة الكتاب والشعراء والمفكرين. حين أجد الوقت وخلو البال أسرّي عن نفسي بمثل تلك المواجهات والمعابثات. ولا أنكر أنني كنت أقسو على الإنجليز بصفة خاصة، فأنا أخبر بمسالكهم. وأنا في حقيقة الأمر أكثر ميلاً إليهم من بقية الأوروبيين، فقد عاشرتهم زمناً، ومارست عندهم أكثر تُرّهات حياتي، أيام كان الشباب «مطيّة الجهل، ومحسِّن الصبوات والعزْل». وقد أكلت من عيشهم وملحهم، وعلمت علم اليقين، أنهم رغم كل شيء وعلى علاتهم، قوم خيرهم أغلب من شرهم.

بلى. كان الخير وفيراً في تلك الأيام، فجذب أفواجاً إلى تلك الأرض الهادئة القصية من بلاد العرب، كما يتجمع الذباب على

صحن العسل، وكنت أقول «ليتني أجد الوقت لأسجل كل هذا. هذا يصلح شخصية في رواية وهذا لو رسمته كما هو على الورق لما صدقني أحد».

لكن مايكل آدمز كان من طراز آخر.

■ ■ ■

لا أعلم كيف بدأت صلة مايكل آدمز بالعالم العربي، ولكنني أذكره في الخمسينيات والستينيات، يكتب بانتظام في صحيفة الـ «غارديان» منذ أن كان اسمها، الـ «مانشستر غارديان». كان واحداً من الكتّاب المرموقين، من حفنة أعطوا هذه الصحيفة العتيدة، السمعة التي تتمتع بها إلى اليوم. منهم «ديفِدْ هولْدِن» الذي قُتل منذ سنوات في القاهرة في ظروف غامضة. ومنهم «جيمس مورسْ» الذي تحول إلى امرأة وهو على عتبة الأربعين بعد أن تزوج وأنجب، وما يزال يكتب باسم جان مورس.

كيف حاقت بمايكل آدمز بلوى الدفاع عن قضايا العرب، فذلك بالنسبة للكاتب الأوروبي والأميركي امتحان عسير وبلاء مستطير وعبء لا يقوى على حمله إلّا أولو العزم؟

لقد حطَّم تبنّي قضايا العرب بريطانيين سُراة منذ لورد كيرْزُنْ الذي كان يبدو وكأنه سفينة لن تغرق. كان من صفوة الأرستقراطية البريطانية، إلى ثراء واقتدار وسعة نفوذ وجاذبية، جعلت من المؤكد أنه سوف يصبح رئيساً للوزارة. كان وزيراً في وزارة «لويدْ جورج» التي أصدرت وعد بلفور المشؤوم. وما كان محباً للعرب بقدر ما

كان محباً للحق. ظل يقاوم ببسالة ولا يني عن الإلحاح في مجلس الوزراء «أنتم تتحدثون عن إعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين. إنكم تقصدون قيام «دولة» يهودية في فلسطين. والأرض ليست خالية من السكان». لم يُصغِ أحد لكلامه وتبددت أحلامه في رئاسة الوزارة. ثم مستر «أرْنِست بڤِنْ» وزير الخارجية في حكومة العمال برئاسة «كلِمَنْت آتْلي». كان في شكله الجسمي، وفي قوته وسعة نفوذه في الحزب، يبدو هو الآخر مثل بارجة حربية لا يمكن إغراقها. صرخ في مجلس العموم في وجه النواب اليهود «إنني أرى هنا يهوداً ولكنني لا أرى عرباً». فقد منصبه ومات كسير القلب. ثم مستر «أنتوني نَتِنْج». كان وزيراً للدولة في وزارة الخارجية وكان مقرَّباً من رئيس الوزراء «أنتوني إيدن». وكانوا يتحدثون عنه كرئيس وزراء مقبل. كانت أنجمه في صعود، ومقاديره في صعود. استقال من منصبه أثناء حرب ٥٦، حين تآمرت بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل على غزو مصر، وقال في خطاب استقالته الموجّه إلى أستاذه وصديقه ووليّه «يؤسفني أنني لا أستطيع أن أدافع عن سياسة حكومة صاحبة الجلالة». ماذا حدث له وأين هو الآن؟

حتى «جورج براون» المسكين. كان محتملاً أن يكون رئيساً لحزب العمال ورئيساً للوزارة بدلاً من «هارولد ولسن». لم يكن العرب في حد ذاتهم يعنونه كثيراً ولعله كان أميَل لليهود فقد كانت زوجته يهودية. ولكنه كان أرْيَحِي النفس شجاع القلب، ولعله فهم أبعاد القضية الفلسطينية بفضل مجهودات بذلها رجال أمثال إميل البستاني. في تلك الأيام الحالكة بعد هزيمة ١٩٦٧، حين عزَّ النصير، كان صوته من الأصوات القليلة التي ارتفعت في بريطانيا منادياً «الفلسطينيون لهم قضية. الفلسطينيون لهم قضية». فقد كل شيء، ومات من كثرة الشراب ووجع القلب.

من هؤلاء الناس الشرفاء، يهود أيضاً، منذ «لورد مُنْتاجْيو» الوزير اليهودي الوحيد في حكومة لويد جورج. ومنهم يهود أميركيون أمثال «حَنّا أرَنْدْت» و«ناعوم جُمْسْكي» و«ألفرد ليلْينْتَال»، بل وإسرائيليون مثل الجنرال «ماتَايُو بِلِدْ»، الذي كان قائداً للطيران الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧، ثم تغيرت حياته، وتخصص في اللغة العربية، وكان أحد أساتذته في جامعة «بيركلي» الشاعر الفلسطيني المرحوم توفيق صايغ. وهو الآن أستاذ اللغة العربية في الجامعة العبرية.

ما الذي رمى بمستر مايكل آدمز هذا المرمى، وأصابه بهذه العدوى؟

لا أدري، ولكنني أعلم أن بريطانيا بقدر ما ألحقت أضراراً جسيمة بالعرب، ظهر فيها دائماً أناس شرفاء رجالاً ونساء، سبحوا عكس التيار وتصدوا لآراء قوية معاكسة. ولم يجبُنوا عن المناداة بما رأوا أنه الحق والعدل. وتلك والحق يقال، سجية في طبعهم، الدفاع عن «القضايا الخاسرة» والتحيّز للضعيف، ولعل ذلك لا يرضي غرور العرب الذين ينهزمون وكأنهم ينتصرون، ويُخيَّل لهم مع خسرانهم أنهم رابحون.

كذلك أنا أعلم أن ديار العرب، باتساعها وتنوعها وذكائها وغبائها وسحرها وأوهامها وهداها وأباطيلها، قد جذبت إليها منذ دهر، أوروبيين كثيرين، وإنجليز بصفة خاصة، جاءوا إليها لأسباب شتى ثم وقعوا في أسرها فلم يستطيعوا منه فكاكاً. لورد ولْفرِد بلَنْت، وسير رتشارد بيرْتُن وقيرترود بِلْ، وليدي هِسْتَرْ ستانْهوب، وداوْاتي وثِيسِجَرْ، وتي أي لورنس. وليدي دَفْ قوْردُنْ وفِلْبي وغيرهم. هذا العالم الذي بدا لهم كسراب الصحراء، أغواهم وحيرهم وأربك

عليهم حياتهم، وكانوا منه كما قال المتنبي العظيم الذي يصيب كبد الحقيقة كلّ مرة:

وتــولَّــوْا بــغُــصَّــةٍ كــلُّــهــم مــنــه
وإنْ ســرَّ بــعــضَــهــم أحــيــانــاً

لكن مايكل آدمز حين تقابله لا يبدو لك كأنه يمكن أن يكون أسيراً لأية أوهام.

ترى رجلاً هادئاً واضحاً جم التواضع. ولعلك لا تدرك إلّا إذا أمعنت النظر، أن تحت ذلك الإهاب، فؤاداً جريئاً، وعقلاً مصمِّماً إذا وقَرتْ فيه فكرة آمن بها، لا يتزحزح عنها، ويدافع عنها حتى آخر رمق.

كان، كما قلت لكم، صحافياً مرموقاً، ولو سارت به الأمور سيراً طبيعياً، لأصبح دون شك رئيساً لتحرير صحيفة كبرى. ثم قليلاً قليلاً بدأ يغطس في ذلك البحر العربي المتلاطم الأمواج. أخذت مقالاته تزداد قوة وإحساسه بالغبن الذي حاق بالفلسطينيين يزداد حدة. وكانت مقالاته شيئاً آخر، قليلون من يستطيعون أن يكتبوا مثلها حتى من العرب أنفسهم. كان صوته قوياً واضحاً مخلصاً ينفذ إلى العقل والقلب معاً. وقليلاً قليلاً بدأ نجمه يأفل وبدأت حظوظه تنعكس. ثم انقطع عن الكتابة اللهم إلّا من مقالة أو رسالة تنشرها له الـ «غارديان» أو الـ«تايمز» من حين إلى آخر على استحياء.

قابلته في باريس منذ بضع سنوات في مؤتمر من هذه المؤتمرات، دعوته إلى داري مع آخرين، منهم الديبلوماسية الذكية النشطة ليلى

فانوس، ومنهم مستر روبرت ستيفن الذي كان يعمل وقتها محرراً للشؤون السياسية في صحيفة «الأوبزرفر» ويتولى شرح قضايا العرب بأسلوبه الهادىء، مثله في ذلك مثل زوجته الدكتورة هِلْقا قِريهَمْ.
سألته ماذا يعمل فأجابني ببساطة:
«أعمل دليلاً سياحياً».

عجبت أشد العجب وقلت له:
«ماذا تقصد دليلاً سياحياً؟».

«أرافق السياح إلى البلاد العربية، وقد عدت لتوي من زيارة لعُمانْ».

ولما رأى دهشتي تزداد، قال لي، دون أي انفعال:
«عندي ولدان يدرسان في الجامعة ولا بد أن أكسب عيشي بطريقة ما». سكت، ولكنني ردَّدتُ بيني وبين نفسي قول الشاعر الإنجليزي:

«ماء ماء حيثما نظرت، ولا قطرة واحدة تُشْرب».

بعد ذلك في جولاتي في العالم العربي، كنت أقول لكل من أقابلهم من أصحاب الشأن ومن بيدهم الحل والربط:

«هل تعلمون أن مايكل آدمز.. مايكل آدمز.. يعمل دليلاً سياحياً؟».
وكانوا يتعجَّبون أشد العجب، ويَعِدون خيراً.
ثم هبَّت لنجدته دولةُ قطر.

إنه الآن، حسب علمي، يحيا حياة أكاديمية هادئة. أرجو له العافية

وراحة البال، حيثما كان، فقد حق له أن يستريح.

ثم، يا رعاك الله، أليس أهلُ مكة أدرى بشعابها؟ بلْ أليس أهلُ مكةَ أوْلى برمْضاءِ أرضِها ومَطْلِ سحابها؟

الفصل الخامس

ريتشارد كمب

العداء القديم بين الإنجليز والفرنسيين، تحول على مرّ السنين إلى مرارة خافتة يشوبها إعجاب متبادل، يظهره كأنما قسراً الجانبان من وقت إلى آخر، أحدهما نحو الآخر. لم يغفر الإنجليز الأنغلوسكسون للفرنسيين أنهم غزوا بلادهم مع وليم الفاتح عام ١٠٦٦، واحتلوها ردحاً من الزمن، وغيّروها إلى الأبد. والفرنسيون لم يغفروا للإنجليز، بصفة خاصة، أنهم هزموا أمبراطورهم المحبوب، نابليون، عام ١٨١٥ في موقعة واترلو، وغيّروا بذلك مجرى التاريخ. وظل الشعبان ينظر بعضهما إلى البعض الآخر، عبر المضيق، الذي يسميه الفرنسيون «المانش» ويسميه الإنجليز «مضيق دوفر» بمزيج من الحذر والإعجاب والغيظ. ولكن ربما يكون الإنجليز أكثر غيظاً، فإنهم يجدون في الفرنسيين صفة غامضة لا يفهمون سرّها، تجعل كل عمل يأتونه يبدو أكثر جاذبية: من طعامهم إلى أزيائهم، وعطورهم، ومدنهم وثقافتهم. حتى «السترbتيز» تؤديه الإنجليزية فيبدو مبتذلاً، وتؤديه

الفرنسية، فيبدو جذاباً، وقد تكون الفرنسية أقل جمالاً من الإنجليزية، ولكنها لسبب ما، تبدو أكثر منها حيوية وجاذبية ووقعاً على السمع والبصر. نشيد «المارسييز» الذي نبع ارتجالاً، وتغنى به ثوار مارسيليا وهم يسيرون للانضمام إلى الثورة في باريس، تحول بعد ذلك إلى نشيد وطني لفرنسا، لسبب ما، يبدو أصدق وأكثر إثارة للحماسة، من النشيد الوطني «يا بريطانيا تحكمي في أمواج البحر» الذي يؤديه الإنجليز على استحياء وكأنهم لا يؤمنون تماماً بما يقولون. وحين كان شارل ديجول لاجئاً في لندن يطلب النجدة من الإنجليز، يوم احتل النازيون فرنسا، كان يعامل الزعيم البريطاني ونستن تشرشل بتعال واضح، كما يقول المثل العربي «حسنة وأنا سيدك». وتقرأ الفيلسوف الإنجليزي «برتراند راسل» فإذا فكر ثاقب وأسلوب ناصع وقول ليس عسيراً على الفهم. وتقرأ الفيسلوف الفرنسي «جان بول سارتر» وهو أقل عظمة من راسل في رأي الكثيرين، فإذا آراء متضاربة، وأسلوب مفتعل وأحابيل عقلية لا تنطلي على ذي فطنة. ومع ذلك فإن شهرة «راسل» تقتصر على الخاصة، بينما شهرة «سارتر» قد طبّقت الآفاق، ومذهبه الوجودي ما يزال له أتباع وأنصار. ورغم ذلك فقد وجد في فرنسا دائماً، فرنسيون يحبون الإنجليز أو على الأقل يحترمونهم، ربما يكون منهم «الأمبراطور» نفسه الذي آثر، حين مالت به أقداره، أن يلجأ إلى رحمة الإنجليز، مؤثراً إياهم على الألمان والروس. ومنهم «شاتوبريان» العتيد، صاحب «مذكرات من القبر»، ومنهم في الآونة الأخيرة «أندريه موروا». والإنجليز كذلك، كان منهم دائماً محبون للفرنسيين أو معجبون بهم. منهم الشاعر الإنجليزي العظيم «ويردزورث» الذي تغنى في شعره بالثورة الفرنسية، ومنهم الناقد الكبير «وليم هازلت» الذي سبح ضد الشعور الوطني الطاغي في إنجلترا، بتأييده لنابليون.

سقت لكم هذا، لأنني قرأت مؤخراً مقالة للمؤرخ البريطاني المعروف «ريتشارد كمب» ينقد فيها كتاباً لشيخ المؤرخين الفرنسيين «فيرناند برودل»، وقد توفي قبل أن يخرج كتابه باللغة الإنجليزية. كان «ريتشارد كمب» أستاذاً للتاريخ الحديث في جامعة أوكسفورد حتى عام ١٩٨٤. وقد عاش في فرنسا تسع سنوات. واشتهر بدراسته عن تاريخ فرنسا، وتاريخ الثورة الفرنسية خاصة. من ذلك كتابه «الجيش الثوري في ليون» وكتابه «الموت في باريس» عن الفترة من عام ١٧٩٥ إلى عام ١٨٠١. لا عجب إذاً أنه اغتاظ أن المؤرخ الفرنسي قال في مطلع كتابه المسمى «هوية فرنسا»: «لا يستطيع المؤرخ أن يكتب بفهم تام إلّا عن تاريخ وطنه.. مثل هذا الفهم لا يتأتى له أبداً، مهما بلغ علمه، إذا نصب خيامه في أرض قوم آخرين». ويعلق المؤرخ الإنجليزي بغيظ واضح «هذا الرأي الاحتكاري يناقض عمل «برودل» نفسه الذي اكتسب احتراماً كبيراً لمؤلفاته عن تاريخ إسبانيا والأمبراطورية الإسبانية وعالم البحر الأبيض المتوسط في عصر فيليب الثاني. وأنا أعجب: ماذا كنت أفعل إذاً طيلة الخمسين عاماً الماضية؟».

وفي فقرة قاسية تنم عن رأي الإنجليز في الثقافة الفرنسية، عموماً، يقول المؤرخ الإنجليزي: «يشتمل أغلب هذا الكتاب على بديهيات ترتدي أثواباً براقة، لا تثبت لضوء اللغة الإنجليزية النافذ. وفي أغلب الأحيان يقدم المؤلف أشياء واضحة كأنه اكتشف أموراً عظيمة. والهدف هو ـ كما يقول برودل ـ (أن نخرج تاريخنا من وراء الحيطان التي أقامها حوله الآخرون) أي المؤرخون الذين لا ينتمون إلى النادي». يعني المؤرخين الإنجليز.

ويتضح غيظ المؤرخ الإنجليزي «ريتشارد كمب» من احتقار المؤرخ

الفرنسي «برودل» لجهد المؤرخين الإنجليز، وضوحاً لا مراء فيه. في هذه الفقرة يخصص برودل صفحات عدة لميناء «روان» الصغير متجاهلاً ذلك التحليل المفصل لسكان البلدة الذي عمله «كلن روكاس» (الإنجليزي) في كتابه الرائع (مقومات الرعب). ويتحدث عن موجات الهجرة دون إشارة واحدة لأعمال «ألون هفتن» (الإنجليزي). ويسرد بإسهاب أصناف الطرق عبر القرون. غير مدرك فيما يبدو، أن مؤرخاً إنجليزياً (يعني نفسه) قد كتب عن الناس الذين قطعوا الطرقات مشياً أو على ظهور الدواب متجهين صوب باريس. وفي كتابه فصول طوال عن حروب وراثة العرش الإسبانية دون أن يشير ولو مرة واحدة إلى تاريخ كيمبردج الحديث الذي أشرف عليه المؤرخ النابغة «جون برملي».

ويكاد هذا المؤرخ الوقور يفقد اتزانه حين يصل إلى هذه الفقرة «حقاً إنه ليس اكتشافاً عظيماً أن تقول إن روان وليهافر ميناءان وأن مرسيليا تطل على البحر. ثم إن مؤرخين آخرين قد أشاروا إلى السخط الذي أحسه سكان البلدان الصغيرة على الضفة الشرقية لنهر الرون، تجاه مدينة ليون. حتى المؤرخون الإنجليز يستطيعون أن يفهموا شيئاً من خرائط ترودين عن أحوال الطرق والأنهار في الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر».

ويختتم الأستاذ الإنجليزي «ريتشارد كمب» عرضه لكتاب الأستاذ الفرنسي «فيرناند برودل» قائلاً «هل أوصي بقراءة هذا الكتاب؟ ربما».

كأني بهذا العالم الوقور، وهو يركب دراجته في الشارع الرئيسي في مدينة أكسفورد، وقد نفخ الهواء عباءته الجامعية السوداء، يصرخ

بأعلى صوته «بريطانيا تحكمي في أمواج البحر».

أما الحبر الفرنسي برودل، فإنه ينظر إليه بتلك الدهشة الفرنسية الجذابة على طريقة الممثل «موريس شفالييه». يهز كتفيه ويمط شفتيه ويقول «بوف. هؤلاء الإنجليز». ثم يضحك بصوت مرتفع ويقول عبارة بذيئة لا تليق بالأساتذة المحترمين.

■ ■ ■

الفصل السادس

فيرناند برودل

«حين خطف الموت بالتهاب الرئة، ذلك الإنسان الذي كان رغم رقته وهشاشته صلباً عنيداً، ذلك الإنسان المنقطع النظير في تاريخ الفن الأوروبي... حينئذٍ أطبق علينا جميعاً إحساس شامل بالكآبة والوحشة، ولم نكن قد أفقنا بعد من صدمة وفاة (شاتوبريان) ثم (بلزاك)، وتجددت أحزاننا بعدهما بموت (فينيي). مثل هذه المصائب، تحدث هبوطاً في الحيوية العامة في الوطن، وتمدّ ظلها على العقل والوجدان. إنه شعور يقاسيه أولئك الذين يتعزّون في عزلتهم الرفيعة، بأن يجمعوا حولهم أسرة وعشيرة من أخوة الفكر.

أما المواطنون العاديون، فإنهم لا يدركون إلّا بعد زمن الخسارة الفادحة التي تصيب الوطن بفقد رجل عظيم والفراغ الذي يسببه رحيله.

وحتى حينئذٍ، لا بد من تذكيرهم».

شارل بودلير، في رثاء الرسام الفرنسي (يوجين دي لاكروا) عام ١٨٦٣.

يُعدّ المؤرخ الفرنسي (فيرناند برودل - Fernand Braudel) بين عظماء المؤرخين في هذا العصر. ولد عام ١٩٠٢ في قرية من قرى منطقة الـ (لورين)، المنطقة التي أنجبت (جان دارك)، وتوفي عام ١٩٨٥. كان (خلدوني) النزعة، مثل (آرنولد توينبي) في بريطانيا، يمزج بين التاريخ وعلم الاجتماع في دراسته لماضي الإنسانية.

اشتهر أول الأمر بكتابه (عالم البحر الأبيض المتوسط في عهد الملك فيليب الثاني)، ثم شغل كرسي الأستاذية في معهد الـ (الكوليج دي فرانس) المرموق. وقد كان أيضاً أستاذاً في معهد الدراسات العليا، الذي أنشئ في باريس لتشجيع الدراسات التي تُزاوج بين التاريخ وعلم الاجتماع.

كتابه (هوية فرنسا)، هو آخر كتاب له، وقد نشر بعد وفاته، يحاول فيه أن يتعرّف إلى العناصر التي تكوّنت منها شخصية فرنسا. يقول فيه:

«ليسمح لي القارئ أن أقول بوضوح منذ البداية، أنني أحب فرنسا حباً قوياً عميقاً لا يقل بأي حال عن حب (جول ميشليه - Jules Michelet)[1]. لا أميّز في هذا الحب بين ما هو حسن وما هو قبيح، بين ما يعجبني في فرنسا، وما أجد من العسير عليّ تقبله. إنما هذا الحب لن يمنعني أن أقول الحقيقة كما أراها. سوف أحرص أن أضع حبي لفرنسا جانباً. سوف أراقب نفسي مراقبة صارمة. ولعل الحب يغلب عليّ أحياناً، متخذاً شتى الحيل، حين يحدث هذا فسوف أنبه القارىء.

إنني عقدت العزم أن أكتب عن فرنسا وكأنها بلد آخر، وطن آخر،

أمة أخرى. ومهما يكن فإن صناعة كتابة التاريخ اليوم، أصبحت تقتضي منا مزيداً من ضبط النفس والسيطرة على العواطف.

على المؤرخ بصفته (مراقباً محايداً) أن يأخذ على نفسه (عهداً بالصمت)، إذا صح القول. ولعل العمل الذي أنجزته من قبل، يسهل مهمتي هذه، إذ إنني في كتابي عن البحر الأبيض المتوسط والرأسمالية، نظرت إلى فرنسا من بعيد، وأحياناً من بعيد جداً. وهكذا أعود الآن إلى أرض الوطن، ربما في وقت متأخر. إلّا أنني لا أنكر أنني أجد سعادة عظيمة في هذه العودة، إذ لا مراء في أن المؤرخ لا يقف على أرض صلبة إلّا حين يكتب عن وطنه. إنه يعرف دون جهد، تموّجات ذلك التاريخ، وصعوده وانحداره، وعناصر القوة والضعف فيه. أبداً، لن يكون بمثل هذه الثقة، مهما بلغ من العلم، إذا هو نصب خيمته في بلاد غير بلاده. لذلك يصح القول إنني أدخرت (خُبْزي الأبيض) إلى النهاية. أبقيت تلك الفضلة زاداً لشيخوختي.

هدفنا إذاً أن نتحرّر من العاطفة مهما كانت دوافعها، سواء كانت في طبيعتنا، أو وضعنا الاجتماعي، أو بسبب (معادلاتنا) الشخصية، أو أي من هذه الدوافع التي ترى بها الحياة في وجوهنا. هذا بالتأكيد لم يفعله (هبولايت تين)[٢] في كتابه (مقومات تكوين فرنسا الحديثة)، مهما خيل له عكس ذلك. لقد زعم أنه أراد أن ينظر إلى فرنسا (كأنها حشرة في مراحل نموها). كان (ألكسي دي توكْفيل)[٣] أكثر توفيقاً منه في كتابه الجميل (المعهد الملكي والثورة الفرنسية) (...).

واضح أن الأمة في أطوار نشوئها، لا تكون مخلوقاً بسيطاً. لا

تكون (شخصاً محدداً، كما قال (ميشليه) متفزّلكاً. بل هي أنقاض تراكمات، وأشباح تصورات، ومجموعات كائنات حية، لا يستطيع أن يفيها حقها المؤرخ (السَّرْدي) الذي ينظر إلى الأحداث في تسلسلها، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وعاماً بعد عام.

يوجد في نظرنا نوع آخر من التاريخ. تاريخ يُعنى بالآماد المتطاولة، ويميّز بين العناصر المكونة للتراكمات العجيبة، ويتبين دورات الحياة البشرية في إقبالها وأدبارها. هكذا نصل إلى أسلوب في كتابة التاريخ، فاحص غوّاص في الأعماق، بالطريقة نفسها التي كشف بها التحليل النفسي في مطلع القرن العشرين، مجاهل العقل الباطن. ولعل (آرنولد توينبي قد بالغ قليلاً حين قال (إن الأربعة أو الخمسة قرون التي تصرّمت منذ كولمبس) وفاسكو داغاما، ليست أطول من إغماضة العين بالقياس إلى عمر الأرض كما حدّثنا علماء الجيولوجيا). ومع ذلك فإن في عبارته تحذيراً لأولئك الذين يقيسون التاريخ بمقاييس قصيرة (...).

إنما الذي يغيظني أكثر من أي شيء، هو ضيق الأفق الذي تفرضه هذه النظرة. النظام الملكي والثورة الفرنسية، قريبان لنا في الزمان، إذا مددنا أيدينا نكاد نلمسهما، وكأنهما معاصران لنا. ما يجب علينا عمله هو أن ننظر إلى تاريخ فرنسا في تدفقه المتصل منذ احتلال الرومان لبلاد الـ(غال). حين وصل الملك لويس الرابع عشر، كان تاريخ فرنسا قد أصبح رجلاً طعن في السن جداً، لأجل ذلك فإنه يحزنني أن الجهد الضخم الذي بذله (ثيودور زلدن)[٤] في كتابه (تاريخ الأحاسيس الفرنسية) يفاد منه أن التاريخ لديه يبدأ عام ١٨٤٨.

كأنما التاريخ لا يعود إلى تلك العهود السحيقة التي يحجبها الضباب! كأنما التاريخ القديم والحديث ليسا نهراً واحداً! كأن قرى بلادنا لم تكن قد قامت وضربت جذورها في الأرض في الألف الثالث قبل الميلاد! كأن أرض الغال لم تكن قد اتضحت معالمها، التي سوف تتشكل في إطارها شخصية فرنسا! كأن تدفق القبائل الجرمانية عبر نهر الرّين، لم يصبح سمة مهمة من سمات العالم الحديث! كأن الدماء التي تجري في عروقنا لا تحمل خصائص واضحة موروثة من تلك القبائل (البربرية) الغازية في ذلك الزمان البعيد! كأن معتقداتنا ولغاتنا لم تنحدر إلينا من عصور الظلام تلك!

هذا ما يعنيني تحديداً في كتابة التاريخ. التاريخ الغامض. الذي يجري تحت السطح مثل نهر جوفي. التاريخ الذي يرفض أن يموت».

■ ■ ■

يقول المؤرخ الفرنسي الكبير (فيرناند برودل) في كتابه (هُوية فرنسا):

«لا حاجة بالإنسان إلى القول، أن فرنسا متنوِّعة ـ وهو تنوع يصل إلى درجة الغرابة ـ وأن تنوعها الجغرافي، لا مثيل له في أي أرض في العالم. كل قرية لها طابعها المميّز، وكل إقليم، وكل مقاطعة. لا ترى ذلك فقط في طبيعة الأرض، والآثار التي تركها الإنسان، ولكن أيضاً في أسلوب العيش، وفي نمط الحياة والموت. تميّز هذا التنوع في مجموعة النّظم التي تحكم العلاقات بين البشر. بين الآباء والأبناء، بين الرجال والنساء، مع الأصدقاء والجيران.

ولعلّ هذه الظواهر كانت أكثر وضوحاً منها الآن. منذ وقت ليس

بالبعيد، كنت تجد آثاراً ظلت على حالها، لم تتغيّر منذ قرون. أعْرافاً محلّية، ولهجات، وأغاني ورقصات، وبيوتاً بُنيت على النّمط القديم من الطين والجص والتبن المخلوط بالطين، والحطب، ناهيك عن تنوّع الأزياء، والمقاييس والموازين التي تختلف اختلافات لا حصر لها من منطقة إلى أخرى.

ولك أن تتخيّل كمْ من الصعوبات كان يلاقي عمّال الدولة في حصر كميّات الحبوب وأسعارها في أي إقليم. كانوا يضطرون إلى تسجيل الأوزان والأسعار التي تُباع بها الحنطة والشعير والذرة على اختلافها في كل قرية ومدينة، ثم يحوّلونها إلى الـ Poids de marc. وقد كانت وحدة القياس الوحيدة المتاحة.

أيضاً تنوع الأزياء. كان أهل (بريتون) مثلاً يلبسون الأحمر، وأهل (كورْنويل) يلبسون الأزرق، وأهل (تريفور) يلبسون الأرجواني، وذلك في أماكن متقاربة في رقعة من الأرض ليست واسعة. وفي عام ١٨٧٨، كان زي أهل (مورفان) كما يلي: كل النساء على اختلاف أعمارهن يلبسن ثياباً من الصوف، مخططة خطوطاً عريضة، ويلبسن جوارب بيضاً من الصوف، ويضعن في أرجلهن قباقب من الخشب مغطاة بجلد الضأن، ويضعن على رؤوسهن قبّعات من قماش كثيف مصبوغ بصبغة زرقاء، وكلهن يعْقصْن شعورهن من الخلف على هيئة كعكة. كذلك طراز البيوت. في إقليم الـ(جورا Jura) كل جبل كان له الـ Immeuble(٥) الخاص به، أي الشكل المميّز للدار، كما يقولون إلى اليوم.

ولا مراء في أن بعض هذه الأشياء قد تغيّرت أو هي آخذة في التغيّر. وربما تكون الفوارق قد بهتت، ولكنها لم تختف تماماً. كان

(لوسيان فيفر Lucien Febvre)[٦] يقول عن حق (إن اسم فرنسا هو التنوع). وأنا أزيد عليه فأقول (إن فرنسا هي التنوع). ذلك لأن تنوع فرنسا، ليس مظهراً عابراً، بل هو أمر متغلغل في نسيجها الداخلي. إنه الانتصار المدهش للكثرة والتعدّد. انتصار (الذي ليس متشابهاً، الذي لا تجده في أي مكان آخر).

قد يكون أن إنجلترا أيضاً متنوعة ـ كما يقول الإنجليز ـ وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا. نعم. ولكن تنوّع هذه البلاد لا يمكن أن يبلغ تنوع فرنسا في جيَشانه وإصرار الفرنسيين عليه واعتزازهم به. إن المؤرخ الأميركي (يوجين وبّر) حين أخذ ينظر إلى فرنسا عام ١٩٠٠، وجد أنها تسيل بين أصابعه إلى (فرنسات) شتى، كل منها قائمة بذاتها كأنما بمعزل عن الأخرى.

الفوارق الموجودة إلى اليوم يتصور المرء أنها تكون قد انمحت، تحت وطأة شعار اليعقوبيون[٧] (فرنسا واحدة لا تتجزأ)، وهو شعار ساد قرنين من الزمان ـ ويا لهما من قرنين! ـ ومن قبلهم النظام الأبوي الذي لم يقلّ عنهم تأكيداً على المركزية. أضف إلى ذلك تطور سبل المواصلات، وغلبة اللغة الفرنسية (لغة الأيل دي فرانس) التي ظلت تزحف منذ عام ١٠٠٠ (ألف). هذا إلى التوسع الصناعي في القرن التاسع عشر، والازدهار الذي لم يسبق له مثيل من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٧٥. من حق المرء أن يتوقع أن هذه العوامل الجبّارة، إنْ لم تقضِ تماماً على الفوارق، تكون قد طلَتْ مئات الآلاف من قطع الموزاييك هذه، بطلاء كثيف من (المنوكروم). ولكن هذا لم يحدث.

الأدلة الماثلة كلها تبرهن على أن (التعدّد) يغلب على (التوحد).

فرنسا، كما قال الكاتب (إيف فولرن) مازحاً (واحدة وقابلة للقسمة). ومن السهل أن يصدق الإنسان الكاتب الروائي (جيونو Giono)[٨] حين يقول، إنه لا يستطيع أن يتخيّل شخصيات رواياته، إلّا في أماكن محددة، في بيئات واضحة المعالم، عرفوها ونشأوا فيها وتوحّدوا معها. وهذا واضح في قصصه. الأشخاص، سواء في جبال الألب في (بُرفنْسال) أم في سهول (كاماراج) حياتهم تلفُّ وتدور حول الأشجار وتلال الرمل ومنتجعات النحل، والحقول والثيران والخراف والخيول. لذلك يمكننا القول، أن الذين يتنبأون أن المجتمع الفرنسي سوف يصير شيئاً واحداً، لن يقلّوا بُعداً عن الصواب عن (ستندال - Stendhal)[٩] حين تنبّأ عام ١٨٣٨ أن (الفوارق في فرنسا تنمحي سريعاً. في غضون نحو خمسين عاماً لن يبقى بروفنساليون ولا لغة بروفنسالية).

إلّا أن الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الاقتصاد والاجتماع وكتّاب المقالات وعلماء الأنثروبولوجيا والسياسة، إذْ يجمعون كلهم على تنوع فرنسا، سرعان ما ينسون هذا التنوع، ويمضون في الحديث عن فرنسا كأنها شيء واحد، وكأنما المهم عندهم غض النظر عن التفاصيل، والتركيز على الأسس، إغفال مظاهر (التعدد) والانصراف إلى (التوحّد). لا يهمهم الشيء الماثل للعيان بقدر ما يهمهم الشيء المرغوب فيه، ليس العوامل المناهضة لباريس، ولكن المجرى الرئيسي لتاريخ فرنسا.

هكذا قال كاتب في معرض الفخر بفرنسا (إنها أرض الآباء والأجداد، واحدة لا تتجزأ. متنوعة ودائمة التحوّل. لقد جذبت إليها على مدى قرون، عناصر متباينة، وإن معجزتها أنها نسجت كل هذه العناصر في نسيج واحد، دون أن يفقد أي منها خصائصه الفردية المميّزة).

إنني لا أنكر وجود هذا الوطن الموحّد. ولكنني أقول إن العوامل التي تقاوم هذا التوحد، لا توجد في مجموعات المهاجرين الذين يُلْقى بهم في البوتقة، كما يحدث في أي قطر. إن عوامل المقاومة، هذه، تجيء بالأحرى من (فرنسات) عدة، كل منها قديمة قدم التاريخ، وكان من الضروري ربطها برباط واحد. القول بأنها أصبحت (نسيجاً واحداً) هو بالتأكيد قول فيه كثير من المبالغة.

ومهما يكن، فلا شك أن الحوار بين التنوّع والتوحّد لا يمكن أن يمضي كما يجب، إلّا إذا أعطينا (التنوّع) ما يستحقه من أهمية. وما لم نضعه في الصدارة من اهتماماتنا، فإننا أبداً لن نستطيع أن نفهم مُعضلة المعضلات في مزاج أمتنا ألا وهي التشرذم الذي يوجد تحت السطح في تكوينها. الخلاف والتنافر والتشويات الهشة. الصراعات والعداوات المريرة وسوء الفهم المتبادل. إن البيت مهدد على الدوام باشتعال الحريق فيه. إن المؤرخ Marc Ferro كان مصيباً حين قال (موهبة فرنسا الحقيقية هي أنها دائماً على شفا حرب أهلية)».

■ ■ ■

يمضي المؤرخ الفرنسي العلاّمة (فيرناند برودل) في الحديث عن (تنوع) فرنسا، في كتابه (هوية فرنسا) فيقول:

«لا تكاد تذكر (الطقس) حتى تثب إلى ذهن السامع صورة واضحة للاختلاف الذي يعرفه كل فرنسي، بين الطبيعة في شمال البلاد وجنوبها. ينتهي الجنوب حيث ينتهي نبات الجنوب في انتشاره شمالاً ـ الكروم والزيتون والذرة والكستناء والتوت. لن أذكر

الحنطة، لأنها توطّنت في فرنسا منذ ما قبل التاريخ وأخذت وقتاً لتتكيّف مع الطقس، وتستطيع البقاء في أنحاء فرنسا كلها.

ظهر العِنب أول ما ظهر في إقليم (ناربون Narbonne) الذي غزاه الرومان وسيطروا عليه بين عامي ١٢٠ و١٠٠ (مائة) قبل الميلاد، وظل ينتشر في خطوات واسعة فوصل إلى النصف الشمالي من البلاد، شجّع على ذلك ظمأ الفقراء وبطر الأغنياء، وتشجيع الكنيسة التي تحتاج إلى (ابنة الكرْم) في طقوسها فاتّسع مداه حتى وصل إلى ضفاف نهر الـ (سوم Somme) في الشمال.

أَلم يُعوّد التجارُ الرومان سكان بلاد الغال على شرب النبيذ؟ كانوا يعطون الواحد منهم زقّاً ويأخذون مقابله رجلاً يتخذونه رقيقاً. وقد قال أحد المؤرخين وهو جادّ كالمازح، إن النبيذ فتح الطريق لجيوش الرومان لاستعمار بلاد الغال، تماماً كما استغل الإنجليز والفرنسيون المشروبات الكحولية فيما بعد للسيطرة على الهنود المساكين في القارة الأميركية.

ربما من حسن الحظ، أن نباتات الجنوب لم تنجح في الانتشار في أرض فرنسا كلها، باستثناء الذرة الهجينة المولّدة في أيامنا هذه، فكل رحّالة من الشمال، يذكر جيداً ذلك الشعور بالدهشة واللذة أول ما ظهرت له تباشير الجنوب. الإحساس بالدفء والترحاب، ربما لمرأى أول شجرة زيتون على ضفة نهر الـ (رون Rhone) جنوب (فالنْس). أو ربما منظر البيوت التي يراها وهو ينحدر في واد من أودية الـ (ألْب)، بيوت ذات سطوح مستوية، مبنية من حجر عسلي اللون، وسط حقول مدرَّجة، بين روائح النباتات الجنوبية الفوّاحة، تحت سماء صافية مضيئة. مثل هذا اللقاء، أبداً يملأ قلبي بالبهجة.

إنما يصح القول، أن من النادر أن تجد إنساناً شمالياً يستسلم من أول وهلة لإغراء الجنوب، فهو عالم مختلف جداً عن العالم الذي ينتمي إليه.

في عام ١٧٨٧، كتب الرحّالة الإنجليزي (آرثر ينج ـ Arthur Young)[١٠] يصف شعوره حين وصل إلى (مونْتلْمار):

«لا تجد شجرة الزيتون وحسب، وإنما تجد أيضاً ولأول مرة شجرة الرمان و(شجرة يهوذا)[١١] والتين وشجر السنديان المخضرّ دائماً. بالإضافة إلى هذه النباتات الغريبة، لا بد أن أذكر ذلك (المخلوق) الكريه، أعني البعوض. أول ما عبرت جبال الـ (أوفيرني) وخلُصت من (فيلبية) ثم هبطت من جبال (فيفاري) ماذا لقيت في آن واحد مع شجر التوت؟ لقيت هذه الآفات الطيارة. وحين أقول (الآفات) فإنني أعني سحُباً فوق سحب من هذه البلوى التي تنفّر المرء من بلاد الجنوب. إنها تلاحقك في إسبانيا وفي إيطاليا وفي منطقة الزيتون من فرنسا، لا تكتفي بأن تعضّ وتلسع وتجرح، ولكنها فوق ذلك كله تطن وتزن، وتدخل في فمك وعينيْك وأذنيك وأنفك. تغير مثل جحافل جيوش غازية على أي طعام تضعه أمامك ـ الفاكهة والسكر والحليب. وإذا لم تجد أحداً ليس له عمل إلاّ أن يقف على رأسك ويطردها عنك، فلن تستطيع أن تأكل طعامك».

قبل قرن من هذا التاريخ في عام ١٦٦٢ وجد (جان راسين)[١٢] نفسه في وضع ليس أسعد من هذا، حين وصل إلى (أوزي) قادماً من (فالْوا). كان يؤمّل أن يجد راحة البال والطمأنينة ثمة، في رحاب الكنيسة. قال إن عذارى (لا نْقوادُك) على شيء من الجمال، ولكنه تساءل:

ألا يفسد المرء لسانه إذا أطال التحدث بتلك اللغة (الأجنبية) التي لا تقلّ بُعداً عن اللّسان الفرنسي من لغات إقليم (بريتون)؟ أمّا الحرَّ! كتب إلى صديق له يقول:

«لو كنت هنا لرأيت جماعات من عمال الحصاد أنضجت الشمس جلودهم، يعملون في الحقول مثل عفاريت الجن. حين يتعبون وتتقطع أنفاسهم، يتهاوون على الأرض، تحت وهج الشمس، وينامون ملء جفونهم في ذلك البؤس. وفجأة يصحون من إغفائهم ويعودون إلى أعمالهم. أكاد لا أحتمل وأنا فقط أراقب ما يجري من وراء نافذة غرفتي. لو عرضت نفسي لحظة واحدة لهذا الجحيم، فسوف يُغمى عليَّ لا محالة. الهواء هنا يتلهّب من الحرارة كأنك في فُرن.

وجد (راسين) أنه في ورطة من جراء ذلك كله. لم يقْو على احتمال الحر، ولا طنين حشرات الـ(سيكادا)، وحتى لم يحتمل، كما وصف:

«الحفاوة الزائدة عن الحد، من هؤلاء الفلاحين الأجلاف الذين أحرقت الشمس أجسادهم، وهم يدْرسون الحنطة بأرجلهم في الجرن، يحيونك بحركات من أجسامهم تبدو مثل الرَّقص».

■ ■ ■

نواصل الاستماع إلى المؤرخ الجليل (فيرناند برودل) وهو يتحدث عن التنوّع في فرنسا في كتابه الجميل (هويّة فرنسا). يقول:

«إذا لم تكن فرنسا موحدة جغرافياً واقتصادياً وبشرياً، ففي أي شيء إذاً تكون وحدتُها؟ أتراها موحدة وحدة ثقافية؟ ربما. لكننا نعرف بالطبع، أنك إذْ تجد في القمة (حضارة) فرنسية موحدة ـ حضارة نخبوية وهّاجة ترى نفسها مثلاً مُدْهشاً لا نظير له وتشمل بنظمها القطر كله، أو بالأحرى تفرض نظمها من فوق على القطر كله ـ بينما تجد هذه (الحضارة)، تجد في الوقت نفسه حضارتيْن على الأقل، ظلّتا موجودتين منذ قرون، تعيشان في تنافر، الواحدة إزاء الأخرى، وكل منهما لها حيّز لُغوي تسيطر عليه.

هاتان الحضارتان هما حضارة الشمال الغالبة، حضارة Oil[١٣] (أويل) وحضارة الجنوب، حضارة Oc (أك) التي سوف يقدر لها أن تكون أشبه بمستعمرة في نطاق نفوذ الشمال وتفوّقه المادي.

إنني بالطبع أحب الحضارتين بالقدر نفسه، وأحاول جهدي أن أفهم كلاًّ منهما ولا أتحيز لإحداهما دون الأخرى. وذلك قد يجر عليَّ تهمة (الوسطية) الأمر الذي أحرص على تجنبه في نظرتي إلى تاريخ الفريقيْن.

نحن إذاً إزاء شرخ واسع، هوة عميقة بين الشمال والجنوب في فرنسا. وهذه الهوة هي عبارة عن الحد الفاصل بين اللغتين، وتمتد من (لا ريول ـ La Reole) على نهر (قارون ـ Garonne إلى حوض الـ (فار ـ Var) آخذة قطعة كبيرة من سلسلة الجبال الوسطى وجبال الـ (ألْب). ويُحتمل أن الحدود اللغوية تمتد أبعد من هذا شمالاً حسب التقسيم الثقافي. هذا إذا قبلنا الأدلة والمعايير والافتراضات التي يقدمها لنا (المؤرخون ـ الجغرافيون) الذين انتبهوا مؤخراً إلى أهمية أسماء الأماكن واللهجات المحلية كسند للتاريخ.

لا يستطيع أحد أن ينكر على أي حال، أن تاريخ فرنسا جنوب هذا الخط وشماله، قد سار في مساريْن مختلفيْن. وبوسعك أن تعتبر تلك قاعدة ثابتة، إن الذي حدث في الشمال، لم يحدث بالطريقة نفسها في الجنوب. والعكس صحيح. كانت توجد دائماً في الجنوب، (فرنسا) أخرى. قطر آخر، ظل الشماليون يكتشفونه بدهشة تصل أحياناً إلى درجة السخط.

لنأخذ (راسين Racine) مثلاً. لقد استمعنا إليه من قبل يلعن ويضيق بإقامته في (أُوزي) لأنه لم يفهم كلمة واحدة من لغة الناس جنوب (فالنْس). هذا مع العلم أن الـ (Patois)[١٤] كانت لغة شائعة في زمانه. قال في رسالة إلى (لافونتين - La Fontaine)[١٥]:

«أقسم لك أن حاجتي إلى مترجم في هذه البلاد لا تقل عن حاجة رجل من موسكو إلى مترجم في باريس... شيء يبعث على الجنون».

وكتب إليّ صديق آخر يقول:
«إنني لا أفهم لغة هؤلاء القوم ولا هم يفهمون لغتي».

بلى، كانا قطرين مختلفين بكل معنى الكلمة. وقد قال رجل إنجليزي مُعجب بالـ (كاميسار Camisards)[١٦] في كتاب نُشر في لندن عام ١٧٠٧:

«رأيت مجاذيب من بسطاء الفلاحين، ينطقون، وهُم في حالة غيبوبة، نبوءات باللغة الفرنسية... معجزة لا شك، إذ إنه ليس أقل

صعوبة على إنسان من هذه البلاد أن يتحدث الفرنسية، من الحديث بالإنجليزية على فرنسي وصل لتوه إلى إنجلترا».

إلّا أنها معجزة يسهل تعليلها، لأن الـ (كاميسار) كانوا يقرأون الإنجيل ويرتلون الترانيم الدينية باللغة الفرنسية كما ترجمها (مارو ـ Marot)[١٧].

كان (مرِمي ـ Merimée) وهو باريسي من أصول نورمندية، مراقباً ذكياً فصيح العبارة يمكن أن يوثق به. كيف وجد حين حلَّ في (أفينْيون Avignon) عام ١٨٣٦، التي وصل إليها في باخرة على نهر الـ (رون Rhone)؟ قال إنه شعر أنه في بلد (أجنبي). ذلك لم يمنعه بالطبع أن يعود إلى الجنوب ويموت في (كان ـ Cannes). وقد يغفر له، أنه ضمَّ جزيرة كورسكا ابنة البحر الأبيض المتوسط إلى محيط الأدب الفرنسي، فقد نُشرت روايته (كولومبا ـ Colomba) عام ١٨٤٠.

أما (لوسيان فيفر) الذي ولد في (نانْسي) عام ١٨٧٨، ولكنه في الأصل من (فرانْش كوْمتي ـ Franche Comte) وظل هواه مع ذلك الإقليم، فقد أصيب بصدمة حضارية عنيفة، حين قام برحلة في الجنوب الغربي. حدّثني في رسالة وردتني منه بتاريخ ٢٠ تموز/ يوليو عام ١٩٣٨:

«وصلت إلى هنا متّخذاً الطريق الأطول.. في منطقة هي نموذج حسن لفرنسا، إنما هل يجوز للإنسان أن يسميها فرنسا؟ ما أغرب هذه الأصقاع، وما أبعدها عنا نحن أهل الشمال والشرق! الكاتدرائية التي تنتصب أمامك في (برقو ـ

Perigueur) كأنها كاتدرائية (أيا صوفيا).

غباء (مويْساك) التي باعت روحها لقاء سلّة من العنب! كنيسة (سان بيير) بتماثيلها وأبراج أجراسها، مقفرة تماماً ومكفهرة الوجه. أي أرواح غامضة تجول في طرقات بلدة (Auch) بقلعتها الحجرية العتيقة؟ لا شك أن تحت السطح الذي يبدو هادئاً في هذا المكان، تمور عواطف متأججة وحزازات قديمة. كل هذا يملؤني بالكآبة ويقوي لدي الإحساس أنني بعدت جداً عن موطني».

أما (المارشال ليوتي Lyautey)[١٨] أمير الـ (لورين)، فقد قال باقتضاب:
«إنني أحس بالغربة في Beziers».

هذا الإحساس بالغرابة وعدم الألفة يتكرر جيلاً بعد جيل. في عام ١٨٧٢، جاء دور (أرنست رينان) أن يقطب وجهه. قال وهو يتصنّع الإنصاف:

«ولكن توجد نظرة أخرى مستمدة من طبيعة الأرض والسكان، وتبدو لي مقنعة تماماً. إن الشبه بين إنجلترا وشمال فرنسا يتضح لي يوماً بعد يوم. كل الرذائل جاءتنا من الجنوب. يا ليت فرنسا لم تضم إليها إقليم (لا نقوادك) وإقليم (برفانس). لكننا اليوم أمة تحب الجد وتُقبل على العمل. أمة بروتستانتية ديموقراطية برلمانية».

يا لها من قائمة من الفضائل الضائعة وأيضاً من الافتراضات الخاطئة التي لا تقوم على أي أساس، خاصة حين يذكر الإنسان، أن (باريس) وهي ليست في الجنوب، وإقليم (برتاني)، هما اللذان هبّا

لنجدة العقيدة الكاثوليكية في القرن السادس عشر. ورغم كل ذكاء (رينان)، بل لأجل ذكائه، فإنني أقول إن رأيه هذا غاية في السماجة».

■ ■ ■

يواصل (فيرناند برودل) حديثه عن التنوع والاختلاف في كتابه الشيق (هويّة فرنسا) فيقول:

«الشماليون يزعمون دون حياء، أنهم أكثر رُقياً من الجنوبيين، وينتحلون لأنفسهم فضائل بالحق أو بالباطل. وهي على أي حال فضائل ليست متأصلة في طبعهم، ولكن اكتسبوها بحكم تفوقهم السياسي والاقتصادي الذي خصّهم به التاريخ، ولا شيء غير التاريخ.

كي تستقيم الصورة، هل ننادي شاهد دفاع أكثر إنصافاً؟ يخطر على البال (ستندال) الذي أعلن بسرور بالغ:

«إنني تحوّلت إلى إنسان جنوبي، ولم يكن ذلك عسيراً كما تخيّلت».

ولكن قد يقول معترض أن (ستندال) المولود عام ١٧٨٣ في (قرينوبْل) لم يكن نموذجاً خالصاً للإنسان الشمالي، بل ولد في منتصف الطريق إذ إن (قرينوبل) ليست في الشمال تماماً. ثم إن (ستندال) هو (ستندال). كان قد أحب إيطاليا، ذلك الأفق الجنوبي الآخر، حباً جنونيّاً. أليست إيطاليا تشابه جنوب فرنسا في نواحي كثيرة؟

هل نطلب شهادة (فان غوخ)؟ نعم ولا. في عام ١٨٨٨، بعد عامين تعيسين قضاهما في باريس، وصل هذا الشمالي القُح إلى (آرل ـ Arles). سحرته طبيعة الجنوب وألوانه من أول وهلة. كتب إلى أخيه يقول:

«... صخورٌ عظيمة، وغابات مخضرّة ذوات دروب في لون القرنفل... لم أحس بالوحشة حتى الآن.. كم يدهشني ضوء الشمس القوي وتأثيره على الطبيعة والأشياء... الذين لا تبهرهم شمس الجنوب لا يبهرهم أي شيء».

حتى رياح الـ (مسترال) الجنوبية المزعجة، لم تبرّد من حماسته، فقد وجد منظرها جميلاً. أما الناس، فقد كتب عنهم إلى أخيه قائلاً:

«إنها خسارة حقيقية ألّا يعرف المرء لغة الـ (باتْوا) الجنوبية. إلى الآن لم أتقدم شبراً واحداً في كسب صداقة الأهالي، وتمر عليّ أيام لا أتحدث فيها إلى أي إنسان، اللهم إلّا أن أطلب الطعام».

علينا ألّا نفهم هذا على أنه نذير بالجنون الذي سوف يدهمه في المستقبل، ولكن كدليل على الإحساس بالارتباك العاطفي والغربة. كتب إلى أخيه في آذار/ مارس ١٨٨٨ يقول:

«هل أصدقك القول؟ إن العسكر (الزواوية)[١٩] والمواخير الصغيرة، والفتيات الآرليات الحسناوات وهن يحتفلن بالقداس في الكنيسة ربما لأول مرة، والكاهن في عباءته كأنه وحيد قرن شرس، ومعاقري شراب الـ (آبسنث) في الحانات... كل هذا يجعلني أحس كأنني في عالم آخر».

كان الإنصاف يقتضيني أن أضع إزاء أوهام الشماليين عن الجنوب، وحكاياتهم ونوادرهم القاسية، أقوالاً تعادلها من الجنوب. لكن حصادي كان قليلاً لسوء الحظ، رغم أنني استعنت بعدد من المتخصصين في ثقافات الجنوب. لم أجد شيئاً يعادل طرائف الشمال عن الجنوب في قسوته وضراوته.

لا شيء يقارب تلك الرسائل التي كان يبعث بها سفراء إسبانيا في القرن السادس عشر، حين وجدوا أنفسهم منفيين في إنجلترا أو هولندا. كانوا يكتبون باحتقار واضح، يلعنون طعام الشمال المقلي بالزبد والبيرة التي تنفخ بطونهم ومثاناتهم. وذات مرة، سجن السفير الإسباني في لندن نفسه في داره، لا يقابل أحداً ولا يقابله أحد. إنما إسبانيا (جنوب) قائم بذاته، وإنجلترا (شمال) لا مثيل له في غرابته!

ولكن هل أذعن الجنوبيون لفظاظة الشمال دون مقاومة؟ أم أنهم ما عادوا يكترثون بما يقوله عنهم أهل الشمال، قانعين بما حققوه من نجاح في ميادين السياسة والتجارة والحياة الأكاديمية؟

أغلب الظن أن نفوذ الشمال، الذي يرتكز أساساً على مدينة باريس، امتد إلى الجنوب، وغير طبيعة الحوار بين الفريقين.

في عام ١٨٤٢، أصدر (ماري ـ لافون) الذي يعدّ من أوائل المدافعين عن حضارة الجنوب، كتابه (التاريخ السياسي والديني والأدبي لجنوب فرنسا). لم يتعمد أن يسخر من (الفرنسيين)، أي الناس شمال الـ (لُوار). بل اكتفى بالمقارنة بين طبيعة الشعبين في القرون الوسطى. وصف الجنوبيين، بأنهم (أهل حضارة وعُشّاق حرية). ووصف ما أسماهم (البرابرة شمال اللوار) بأنهم (همج

أوباش شديدو التعصب ميّالون إلى السلب والنهب. إلّا أنهم انتصروا على الجنوب، تماماً كما انتصر إرهاب الـ (مُنتانيار)[٢٠] في عهد الثورة، على الـ (جيروندين)[٢١] الثوار الحقيقيين، لأنهم كانوا في الغالب من الجنوب).

يحق لـ (ماري ـ لافون) أن يثور ويغضب إذْ إنه ليس سهلاً على المغلوب أن يضحك على الغالب. أليس هذا هو إحساس أهل الجنوب تجاه (الفرنساويين) أو (الفرنْسِيُو) كما يسمونهم في (طولون)؟ إحساس الغيظ نفسه الذي تشعر به الأمة المغلوبة تجاه مستعمريها؟

علينا أن نذهب إلى كاتب مثل (ستندال) يستطيع أن يسخر من فرنسا الشمال، التي يصفها بأنها (مملوءة زهواً وغروراً وحباً للمظاهر) ويقول:

«يبدو أن السعادة تختفي حين تختفي لغة الجنوب».

حين وصل إلى الجنوب في رحلته على نهر الـ (رون)، كتب معبّراً عن إحساسه بالنشوة:

«أول ما تصل (فالنْس) تجد أنك محاط بالطبيعة والبساطة... نحن الآن في الجنوب حقاً... أشعر بسعادة طاغية لا أستطيع مقاومتها... الناس هنا عكس باريس تماماً حيث لا همّ لهم إلّا أن يعطوك صوراً خادعة عن أنفسهم، ويتوقعون منك أن تصدقهم... هنا كل واحد يقول ما يحس به بصدق، دون أي محاولة للتزييف، ولا يكترث للمركز الاجتماعي لمن يتحدث معه».

واصل (ستندال) رحلته حتى وصل إلى (بوركير) حيث وجد احتفالاً شعبياً، وصفه قائلاً:

«لا أرى هنا تلك الوجوه الكالحة والسّمات المرتابة التي تراها في شوارع (ليون) و(جنيف). يلفت نظرك في (بوكير) انعدام الغطرسة والتكلف، وهما من لوازم السلوك في باريس».

■ ■ ■

يقول (فيرناند برودل) في كتابه (هويّة فرنسا):
التنوُّع هو الابن البِكر لاتّساع المكان. تلك الأبعاد الشاسعة هي التي أبْقت على كل غرابات سلوكنا منذ بداية التاريخ. إنما هذا التنوع القديم، كان هو نفسه في المقابل، عنصراً فاعلاً في مجرى التاريخ، ويقيني أن الانقسام العميق في فرنسا، الذي جعل منها وحدات منعزلة كل منها قائمة بذاتها، هو الذي هيّأ المناخ لكل المحاولات التي حدثت في المستقبل للسيطرة عليها. وإذا كان النظام الفوْقي الغالِب، قد استطاع أن ينتشر سريعاً ويمكّن لنفسه، فما ذلك إلّا لأنه لم يواجه مقاومة حقيقية شاملة.

كان النظام الملكي، في إخضاعه الأقاليم وضمها إلى الدولة المركزية، يواجه خصوماً متفرّقين، فكان يهزم كلاًّ منهم على حدة، واحداً بعد الآخر. ذلك حدث أيضاً في عهد الثورة. صحيح أن انتفاضة الـ (جيرونْديين) عام ١٧٩٣، شملت عدداً من الأقاليم، لكنها كانت انتفاضة سطحية، لم تصل إلى الجماهير في العمق. لا الشمال تحرّك ولا الشرق، حيث كانت تُرابطُ جيوش الحكم.

إن الصراعات السياسية والاجتماعية والدينية في فرنسا، لم تحدث

بسبب حماسة الجماهير ورُعونتها، بل على العكس، بسبب لا مبالاتها وقلّة اهتمامها.

لا تخلو أمة من الأمم، من نوازع الفُرقة والشتات، وبعض الأمم قد تنمو وتزدهر رغم ذلك. إنما الحال في فرنسا قد بلغ مبلغاً عجيباً محيّراً. البروتستانت والكاثوليك. الجانْسيُّون واليسوعيون. الزرق والحمر. الجمهوريون والملكيون. اليمين واليسار. أنصار (دريْفوس) وأعداء (دريفوس). المتعاونون والمقاومة. البيت كله منقسم على نفسه. الوحدة ليست أكثر من مظهر خارجي، هيكل مصبوب من فوق، صرخة في واد.

وحتى في زماننا هذا تجد كاتباً يقول:

«فرنسا ليست أمة متآلفة منسجمة، إنها مثل حصان تتحرك سيقانه في أوقات مختلفة».

تُعجبني هذه المبالغة في الصورة، فلا هي صحيحة تماماً ولا هي مخطئة تماماً. ومن سوء الحظ أن الخلافات تراكمت طبقة على طبقة، فزاد هذا بدوره، من العداوات والحزازات والشكوك والحروب الأهلية. وهي حروب لا تكاد تخبو، حتى تتأجّج نيرانها من جديد. وقد وصف ذلك أحد المؤرخين قائلاً:

«ليس لدى فرنسا همّة على الحرب، إنما همّتها في الحرب الأهلية. ما عدا حرب ١٩١٤ فإن فرنسا لم تخُضْ حرباً طويلة ذات صبغة قومية حقيقة. كل المعارك التي خاضتها هذه الأمة التي تفخر بأمجادها العسكرية، كان لها طابع الحروب الأهلية...».

إنني شخصياً أجد من الصعب عليَّ، فهم الحرب الأهلية، فأنا رجل من شرق فرنسا، لذلك فأنا شديد الحساسية لما تعنيه وحدة فرنسا، التي لا ضمان لحريّتي الشخصية إلّا بها. كما أنني أدرك أنه لا بد من اليقظة واتخاذ الأهبة على الدوام، من أجل الحِفاظ على هذه الوحدة.

ربما ذلك هو الذي يفسّر ما تثيره لديَّ هذه الفقرة التي سوف أقتطفها لكم فيما يلي، من عاطفة عميقة. إنها كلمات تحزنني حزناً لا حدود له، كلما قرأتها. وقد كُتبت منذ وقت طويل، كتبها رجل بروتستانتي يُدعى (فرانسوا دي لانوي)، رجل تنطبق عليه صفة النبل، إن كانت تنطبق على أحد.

الوقت شهر حزيران/ يونيو عام ١٥٦٢، الملكة (كاترين دي مديشي) وملك (نافار) والأمير (دي كوندي)، هيأوا لاجتماع بين الكاثوليك والبروتستانت بالقرب من (توري). جاء مع كل فريق جيش من صفوة المحاربين أغلبهم من النبلاء. جيش يقوده المارشال (دانْفيل)، وجيش يقوده الكونْت (دي لارُشْفوكو). وقف الجيشان، أحدهما إزاء الآخر، لا تفصل بينهما أكثر من ثمانمائة خطوة. يقول (فرانسوا دي لا نوي):

«وقفوا هكذا مدة نصف ساعة، يتفحص بعضهم وجوه بعض. هذا يرى أخاه في الجانب المعادي، وهذا يرى عمه، وهذا يرى ابن عمه، وهذا يرى صديقه، وهذا يرى جاره. ثم طلبوا من قادتهم أن يأذنوا لهم بالاتصال، وكانوا قد حرّموا عليهم ذلك، مخافة أن يؤدي إلى معارك وشجار. لكن ما حدث كان عكس ذلك. تصافحوا وتعانقوا وتباوسوا. جاشت بينهم عواطف القُربى والصداقة ونسوا أنهم جاءوا

تحت بنود متحاربة. كان جيش ملك (نافار) يرفع رايات حمراً ويلبس قبّعات من المخمل أرجوانية. وكان جيش أمير (كُنْدي) يرفع رايات بيضاً ويلبس قبعات بيضاً كذلك.

توسّل بعضهم إلى بعض، وراح كل واحد منهم يدعو أخاه إلى السلام. وكان عدد منهم قد وقفوا يتأملون ما يجري عن بعد. حين رأوا ذلك حزنوا حزناً شديداً ونقموا بينهم وبين أنفسهم على الشقاق والخلاف والحروب. وفكروا فيما قد يحدث، لو أن القادة أعطوا الإشارة ببدء المعركة. سوف توضع الخوذات على الرؤوس، وتُسَلّ السيوف، وتُشرع الرّماح. سوف تُعمي الكراهية العيون، سوف يقتل الأخ أخاه دون رحمة.

حين خطر لهم كل ذلك، سالت الدموع من أعينهم. أنني كنت حاضراً معهم، في جيش البروتستانت، وأشهد أنني عرفت في جيش الأعداء، جمعاً من أحبائي وأصدقائي يزيدون على العشرة، أحبهم كما أحب إخوتي الأشقاء، وهم مثل ذلك».

بعد ستة أشهر، في ١٩ كانون الأول كانت معركة (درو). يقول (فرانسوا دي لانوي):

«ثبت كل واحد في مكانه، وكان كل واحد منهم يفكّر أن الرجال الذين يواجهونه في الجيش المعادي، ليسوا إسباناً أو إنجليزاً أو إيطاليين، ولكنهم فرنسيون مثله، لا يقلّون عنه شجاعة وإقداماً. بينهم أصحابه وأقرباؤه وأصدقاؤه، وقفوا هكذا زمناً، ثم انتفض الجيشان وماجا، وأخذا يتقدمان للقتال»[٢٢].

ما أصدق ما ينطبق هذا الوصف على أحداث كثيرة مؤلمة في تاريخنا. إننا كما قال أحد النبلاء حين رأى نُذر الثورة الفرنسية وعلم ما سوف تحدثه من مصائب وفوضى:

«سيدي، إننا أمة محكومٌ عليها بالكوارث».

■ ■ ■

نواصل الاستماع إلى المؤرخ الجليل (فيرناند برودل) في كتابه المليء بالحكمة (هوية فرنسا). يقول:

«كان قدر فرنسا، وما يزال، أن تعيش بين قطبين متضادين، الكثرة أو التعدد، تلك النزعة المتأصلة مثل نبات طفيلي لا خلاص منه. والتوحّد، ذلك الميل نحو الالتقاء والاجتماع، وهو ميل عفوي، وفي الوقت نفسه أمر مرغوب فيه بإرادة واعية. وهكذا ظلّت فرنسا، تتأرجح بين هذين القطبين، إلى حد أن حِبالها كادت تتقطع من شدة الجذب.

أقول من أجل ذلك، إن على المؤرخين أن يحترسوا من النظر من زاوية واحدة، ويولوا كل عامل من هذين العاملين ما يستحقه من اهتمام. وكما حدثنا (هيرفي لوبْرا) و(أمائنول تود) فإن فرنسا لم تكن تستحق أن توجد وكان لا بد من ابتداعها واختراعها.

إنما فرنسا ليست خرافة أو وهماً. إنها موجودة، اخترعت نفسها من قديم الزمان. وقد قال (جان بول سارتر) مرة، وهو جاد كالمازح «إن فرنسا غير قابلة للتوحّد». وهو قول لا يخلو من الصواب، وأيضاً لا

يخلو من الخَطَل.

لعل فرنسا كانت دائماً تجد صعوبة في أن تكون أمة (واحدة). ولكن يصح القول أيضاً، أنها أبداً لم تقبل أن تكون (مُجزأة). التوحد الفرنسي، في الثقافة وفي السياسة، كان نموذجاً رائداً للوحدة في أوروبا، وقد يكون أولها. ذلك حدث بسبب آلاف القوى الفاعلة، بعضها غامض وبعضها واضح بيّن، وهي عوامل لم يُولِها المؤرخون ما تستحقه من اهتمام.

إنني بدأت الحديث في هذا الكتاب، عن فرنسا «التي اسمها التنوّع». وأعترف أنني فعلت ذلك بمتعة عظيمة، لأنني أرى التنوع أجمل شيء في فرنسا. إنه وجهها الذي أعشقه دون سائر الوجوه. وجه شديد الجاذبية، ألهاني سحره عن اللجوء إلى اصطياد الذرائع العقلانية الكئيبة. إنما يجدر بي الآن أن أرحل من «التنوع» إلى «التوحد» وأن أعبر الجسر بحثاً عن «فرنسا الواحدة التي لا تقبل القسمة».

سوف أرتاد أسباب (الوحدة) في الواقع الماثل للعيان، وسوف أنقّب عنها في العوامل والمحركات الدفينة تحت السطح. إن فرنسا الموحدة، لم يصنعها (الملوك الأربعون الذين حكموها على مدى ألف عام). يوجد عُمّال غيرهم في حقل الكرم، وإن كان نصيب الملوك لا ينكر، على أن التاريخ أكثر بهم حفاوة.

فرنسا (الواحدة) إذاً، صنعت نفسها بنفسها. وإذا كان اتّساع المساحة يصنع الفُرقة، فإنه يصنع التوحد أيضاً، لأن الفُرقة في طبيعتها أن تخلق الحاجات والرغبات المتبادلة. مثلاً، بين الأماكن

التي تتخصص في زراعة الحبوب، والأماكن التي تتخصص في تربية الماشية. أو بين هذين وبين أماكن زراعة العنب. إن متطلبات العيش تحتّم على هذه البقاع أن يتصل بعضها ببعض. ذلك أمر ضروري لا غنى عنه. كذلك حين تحكم الظروف على مجموعات بشرية متنافرة أن تحيا جنباً إلى جنب، مجموعات تختلف لغاتُها وثقافاتُها، وتتفاوت درجات تقدمها التقني، فإن مثل هذا الاختلاط قد يُحدث تفجرات عنيفة تنسف كل العوائق والسدود.

أقول باختصار، إن المجموعات البشرية، حتى لو كانت متخاصمة متباغضة، لا يستطيع أي منها أن يحبس نفسه في قوقعة ويعتصم بأسرار تحميه من الاختلاط والتمازج. كي تضمن المجتمعات البشرية استمرار بقائها، لا بد لها أن تتواصل بالمجتمعات الأخرى، مهما كان نوع هذا التواصل وحجمه.

في تقرير رسمي عام ١٧٢١، جاء ما يلي:
«.. لم تبق في كل إقليم (بروفانس) الذي اجتاحه الطاعون القادم من مرسيليا، غير ثلاث قرى لم يصلها الوباء. لكن سكان هذه القرى أصيبوا بوباء آخر، هو المجاعة. أغلقت السلطات الطرق، ووقف الجند يمنعون الداخلين والخارجين، وإلّا نفذوا فيهم عقوبة الإعدام حالاً. لذلك لم يستطع الناس أن يحصلوا على مطالبهم من الطعام من القرى المجاورة».

ورغم ذلك فإن زحف الطاعون لم يقف. في صيف ذلك العام ـ وكانت تلك آخر مرة يصيب فيها الطاعون فرنسا ـ انتقل الوباء من (بروفانس) إلى (دوفني)، ثم إلى (لانْقوادُك). كان الجيش الفرنسي بكامل عدده في حالة استنفار. أُغلقت الطرق ووضعت الحواجز.

كانت النتيجة أن الحياة أُصيبت بالشلل.

في صيف ذلك العام أيضاً، نجد سلطات إقليم (دوفني) تشكو مرّ الشكوى أن (الحجر الصحي) قطع صلات الإقليم بالعالم الخارجي، وألحق بهم الدمار. ثم نجد بعد بضعة أشهر في إقليم (لانقوادك) أن المواطنين أصيبوا بالذعر، حيث صدر أمر ملكي بفرض حجر صحي، يعزل أعلى الإقليم عن أسفله. ثار رجال الدين وزعماء الإقليم، محتجين بخطر المجاعة الأكيد، مما اضطر الملك إلى إلغاء أمر الحجر.

ألا يحق لي أن أقول إذاً، إن أحداثاً من هذا النوع هي التي توضّح لنا حقيقة المشكلة؟ إن الحياة اليومية لعامّة الناس في فرنسا، اعتمدت دائماً على الاتصال والحركة، والتاريخ الفرنسي يحمل في جوفه شواهد لا حصر لها، لتيارات صامتة لا تتوقف، تجيش من تلقاء ذاتها عبر المسافات والأبعاد، تشد الناس بعضهم إلى بعض بعُرى متينة.

هكذا استقر على أرض الواقع، النمط الحي لاستيطان التجمعات البشرية، وهو نمط سوف يظل يتكرر في طول البلاد وعرضها إلى ما لا نهاية. القرى تتناثر في دائرة حول بلدة أُم، تكون فيها السوق، مثل الكواكب حول الشمس. وكان حجم هذه المجموعة الشمسية بأكملها، في حجم الـ (كنتون Canton) في هذا العصر. تلتئم هذه الوحدات السكانية بدورها حول مدينة، تختص بصفات معينة.

إننا نتحدث عن وحدات صغيرة نسبياً ـ «مستوطنات Pays» ـ كما أسماها (لوسيان فالْوا)[٢٣]. هذه «المستوطنات» سرعان ما تدخل هي الأخرى، في فلك إقليم أو مقاطعة. ثم يكتمل المعمار،

إن عاجلاً وإن آجلاً، بقيام سوق (وطنية) وقيام (وطن).

هذا ولا بد أن تكون السوق الوطنية، في مدينة كبرى، جادت عليها الظروف ومميزات وخصائص ليست في مكان آخر. وقد صارت باريس منذ القدم مركزاً حضريّاً مُفزعاً في ضخامته. ولكنها لم تنجح ضربة لازب، أن تجرّ وراءها فرنسا كلها.

■ ■ ■

يصل المؤرخ الكبير (فيرناند برودل) في حديثه عن التنوّع والوحدة في كتابه (هوية فرنسا) إلى مدينة باريس، فيقول:

ليقل علماء الاقتصاد والجغرافيا ما شاءوا، وليتكهّنوا كيف يروق لهم، ولكنني لا أعتقد أن المدينة الكبرى (المدينة ـ المدينة ـ - Ville Ville) تستطيع أن تُفلتَ من المصير الذي يفرضه عليها موقعها الجغرافي، وتفرضه عليها القوانين التي تحكم نشأة المدن ونموّها على مَدّ العصور. إن المدن الكبرى، تبدو لنا كما لو أنها تقف بمفردها، وتخضع لقوانين خاصة بها وحدها. كل مدينة كبيرة، تخاطب العالم الخارجي مباشرة، تُصغي له وتتأثر به. ورغم ذلك فإن لكل مدينة جذورها، التي لا تستطيع أن تقتلعها، وتنطلق في الحياة كما يحلو لها.

هذا أمر يصبح شديد الوضوح، حين نرى أن مدينة باريس، التي كانت دائماً بشعة في ضخامتها، كما حدّثنا المراقبون المعاصرون، خضعت رغم ذلك للقوانين العامة التي حكمت قيام المدن طوال التاريخ. كوْن باريس نشأت على ملتقى طرق، وكوْن الطبيعة حبتْها

بنُظم نهرية حسنة، أقول، إن هذه حقيقة واضحة، يمكن التأكد منها بإلقاء نظرة عابرة على أي أطْلس جغرافي.

هذا نهر الـ (يون Yonne) تطفو على سطحه الأخشاب، والمراكب المعبأة ببراميل النبيذ، وهذا نهر الـ (مارْن ـ Marne) المتقلب المزاج، يُسرع في سيره أحياناً ويُبطىء أحياناً، وهذا نهر (أواز Oise) يسير بوقار وسكينة، وهذا نهر الـ (سين Seine) نهر غير واضح النوايا، كسول مثل أفعى، ولكنه يصل إلى البحر في النهاية.

قامت باريس ونمت كسائر المدن، بفضل وجودها على تقاطع طُرق. المحور الأول ينحدر من الشمال إلى الجنوب، وكان يتكىء في البداية على شارع (سان جاك) وشارع (سان مارْتان). والمحور الثاني يصبّ من الشرق إلى الغرب، مرتكزاً على شارع (سانت هونوري) منحازاً إلى الضفة الشرقية للنهر.

فيما بعد قام محوران موازيان يتمثلان في شارع (بولفار سان ميشيل) وشارع (بولفار سباستبول). وفي عام ١٨٠٠ شق طريق (رودي رفولي) الطويل، فنزل على هذين في زاوية مستقيمة. على امتداد هذه الطرق، وفي المساحات بينها، في تلك الرقعة من الأرض، ارتفعت المباني التي أصبحت علامات على نهضة باريس وعُلو شأنها.

هذا والدولة الفرنسية تراقب التوسع والعمران، بعيون مفتوحة، وتساهم فيه بسخاء أحياناً. أغدق الحظ على باريس. تدفّق عليها المال من كل الجهات، واستُثمر بشتى الوسائل، وأيضاً أنفق برعونة وبذخ. صب عليها مال الدولة بأسرها، مال سياسي بالدرجة

الأولى، فأجّج تألقها وفورانها وحياتها الطفيلية العابثة. كانت باريس في القرن الثامن عشر فردوساً للمرابين وتجار العملة، الذين وجدوا أن الحصول على النقد في سوق باريس، أسهل منه حتى في سوق البندقية. كان المال بلا حدود، وكانت وجوه الإنفاق الطفيلية أيضاً بلا حدود.

إنما باريس لم يتدفّق عليها المال وحده، ولكن أغرقها أيضاً طوفان من موجات متلاحقة من المهاجرين والنازحين. طلاب عمل، ومتسولون وصعاليك وفقراء معدمون. لم تستطع قوات الشرطة، رغم فظاظتها ووحشيتها أن توقف هذا الطوفان. كانت جيوش المتسولين والمعدمين تلجأ إلى العنف والإجرام لأقل سبب، ولم تكن الأعداد القليلة لرجال الشرطة تكفي لغرض الأمن. هذا هو الوجه المظلم لتاريخ باريس، بل للتاريخ الفرنسي كله في الواقع.

كانت باريس، مثل سائر المدن الكبرى، مدينة متخاصمة مع ذاتها، وخير دليل على ذلك، اختلاف أنماط الحياة من حي إلى آخر. مثلاً، كان يوجد تجمع لأصحاب الحرف الصغيرة والفقراء والمعدمين في حي (سان أنطوان) وحي (سان مارسيل). وكان حي (سان أنطوان) خاصة، إلى نهاية عهد نابليون الأول، موطناً لصناعات يدوية عشوائية يحركها من وراء ستار، تجار مستقلون على الطريقة القديمة.

بنهاية القرن الثامن عشر، كانت باريس قد تضخمت تضخماً جنونياً، إسوة بتضخم الدولة كلها. أضف إلى هذا أن الحركة الماسونية كانت قد انتشرت، فكان لا بد من حدوث انفجارات اجتماعية هائلة. وقد انتقل مركز الثّقل بالتدريج ناحية الغرب، مع قيام أحياء جديدة للأثرياء على ضفتي النهر.

في مواجهة تجمُّع الأغنياء والأرستقراط في الجانب الغربي، توسع الجانب الشرقي أيضاً لاستيعاب الفقراء والنازحين. وكان الناس ينزلون في أحياء حسب مواطنهم الأصلية، ويُنشئون بيئات تشبه الأماكن التي نزحوا منها. أصبحت هذه الأحياء مثل قرى، لكل منها طابعه الخاص. حيٌّ لأهل الـ (لورين) وثانٍ لأهل (برتاني) وآخر آلـ (سافوي) وهكذا. وإلى الآن يمكن أن يجد المرء ملامح لهذا التنوع.

تغوّلت المدينة بالطبع وابتلعت مساحات من الريف المحيط بها. وقد وصف رجلان هولنديان قدما إلى باريس عام ١٦٥٦، فقالا:

«... لاحظنا أننا اقتربنا من باريس، حين رأينا كثرة البيوت الجميلة الأنيقة المتناثرة في الحقول. كانت القرى تزداد عمراناً وحيوية كلما اقتربنا من باريس. هذه القرى هي بحق شريان الحياة للمدينة، فهي تمدّها بأغلب مقوّمات حياتها».

في عام ١٧٩٠، سجلت سيدة جاءت إلى باريس من الريف، سجلت إحساسها حين وصلت إلى قرية (لافيليت) في ضواحي المدينة:

«مثل هذه يسمّونها قرية هنا، رغم أنها أكبر من أي مدينة من مدننا في الأقاليم، وأحسن عمارة وأكثر سكّاناً».

■ ■ ■

في الفقرات التالية من كتاب (هويّة فرنسا) يطرح العالم الحبر، وواحد من ذوي العقول المضيئة في هذا الزمان (فيرناند برودل)،

الأسئلة الجوهرية الكبرى عن نشأة فرنسا، بل نشأة الأوطان إطلاقاً. ولا بد أن القارىء قد أدرك، مما اقتطفته له أن الكتاب كله ينهض حجة بليغة ضد أولئك الذين تدفعهم حسن النيّة أو الحماقة أو الجهل، إلى أن يتصوروا الأوطان صفحات بيضاء يكتبون فيها كيفما بدا لهم.

يقول (برودل):

هل الجغرافيا هي التي اخترعت فرنسا؟

حين يسأل المرء هذا السؤال الذي يبدو لا ضرورة له، فكأنه يعيد صياغة السؤال القديم الذي طرحه (فيدال دي لا بلانش)[٢٤] حين قال مُستفسراً «هل فرنسا وحدة جغرافية؟» وكل ذلك يجرنا مرة أخرى إلى إثارة القضية المحيّرة، قضية (الحتْمية الجغرافية).

إنني أرى، رغم ما يظنه البعض، أن هذه القضية الكبيرة لم تُقلّب بعد، على كافة جوانبها.

واضح أن الجغرافيين قد توقّفوا عن القتال في هذه المعركة منذ زمن. العنصر الحاسم في زعمهم، ليس هو الجغرافيا المادية ـ الأرض والطبيعة، أو بمعنى آخر، البيئة. الأمر الجوهري في نظرهم، هو تاريخ الإنسان، بل الإنسان نفسه وفي حد ذاته.

بلى. الإنسان أسير نفسه في الأرض، إنه الوارث. وهو المحرك وهو عنصر الوصل، وهو القيّم على كل الذكريات والمعارف والأعراف التي خلفها وراءهم البشر الذين عاشوا قبله على تلك الرقعة من الأرض. هؤلاء الأسلاف قد صاغوا (حُلماً) للأرض، وكبّلوا الذين يجيئون بعدهم بأغلال من (الحتميات) المُسْبقة. وهي حتميات

نادراً ما يكون الوارثون لها مدركين لطبيعتها وأبعادها، إدراكاً عميقاً واعياً.

يا لها من مسؤولية فادحة! إنه بحق، عبء عظيم، كلما أفكر فيه بعمق، أُصاب بالذعر.

إنما هل هذا يعني أن كل العلل والتعقيد في كيان فرنسا، هو بسبب ملابسات الماضي، ويُعزى للتاريخ وحده؟

إن قبلنا بذلك، فكأننا نقتلع فرنسا من جغرافيتها ومن موضعها في الأفق، وهو أمر لا يقبله أي عاقل.

لا جدال أن فرنسا هي خلاصة تراكمات عميقة، وتفاعلات تاريخية هائلة. لكن كل ذلك لم يحدث في (لا مكان) وإنما حدث في موقع جغرافي بعينه وليس في موضع سواه. تلك حقائق غاية في الأهمية كون فرنسا وُجدت في موقع غير عادي في محيط القارة الأوروبية وصخب أمواجها. ثم إن أوروبا تطوق فرنسا من جميع جهاتها.

كان (فيدال دي لا بلانش) محقاً حين قال وهو يفكر في فرنسا:

«لا يمكن عزل تاريخ شعب من الشعوب، عن الأرض التي يقطنها. إن أردْنا أن نجتليَ الأمر بوضوح علينا أن نتصوّر الوطن مستودعاً لطاقات نائمة، مثل البذور في التُربة. لكي تستيقظ هذه الطاقات من سباتها، ثمة يكون جهد الإنسان».

هذه العبارة، تبرّر وصف (لوسيان فيفر) لفلسفة (دي بلانش) بأنها (احتمالية). توجد في نظره (فرنسا محتملة)، ويجد على الدوام، احتمال عدد من (الفرنسات).

هل أجد المغزى إذا سرت وراء هذه التصورات الجذّابة؟ أم تُراني سوف ألوذ بالتاريخ مضطراً علّني أجد فيه التفسير المقنع لصيرورة فرنسا؟ فرنسا الموحّدة كما نعرفها اليوم؟

■ ■ ■

الهوامش

(١) جول ميشليه، (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤) أكبر مؤرخ فرنسي في القرن التاسع عشر. كتابه (تاريخ فرنسا) في أربعين مجلداً.

(٢) (هبولايت ـ تين)، ورد ذكره ضمن أصدقاء الأميرة (متلدا بونابرت).

(٣) (ألكسي دي توكفيل)، (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩)، سياسي ومؤرخ.

(٤) (ثيودور زِلْدن Zeldin)، مؤرخ معروف، نُشر الكتاب المشار إليه باللغة الإنجليزية أولاً، عام ١٩٧٣، ونشر بالفرنسية عام ١٩٧٨.

(٥) Immeuble، تعني في الأصل، الثابت، الذي لا يمكن نقله.

(٦) Lucien Febvre (١٨٧٨ ـ ١٩٥٦) مؤرخ فرنسي معروف، اهتم بالعلاقة بين التأريخ والجغرافيا. من كتبه (الأرض ونمو الإنسان) الذي ينظر فيه إلى التأريخ على أنه مزيج من عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية.

(٧) اليعقوبيون Jacobins، من التكتّلات السياسية المهمة (الأندية) التي ظهرت إبان الثورة الفرنسية. كانوا يميلون إلى التطرف في عدائهم للملكية والكنيسة، أبرز زعمائهم (روبْسبيير) الذي أصبح حاكماً بلا منازع بعد أن تخلّص من منافسه (دانتون Danton) بإعدامه بالمقصلة. لم يلبث هو أيضاً أن أُعدم مما هيّأ لحكم نابليون بونابرت.

(٨) جان جيونو Giono (١٨٩٥ ـ ١٩٧٠) روائي انصبت قصصه على الحياة الريفية. من أعماله (ثلاثية بان ـ Trilogie de Pan) ١٩٣٠.

(٩) ستندال ـ Stendhal (١٧٧٣ ـ ١٨٤٢) من كبار كُتّاب الرواية. وصفه ناقد بأنه (غنّى لأنبل العواطف ـ الحب والمجد). من أعماله (الأحمر والأسود).

(١٠) آرثر ينْج ـ Arthur Young، (١٧٤١ ـ ١٨٢٠) رحالة إنجليزي تجوّل في فرنسا من أقصاها إلى أقصاها واشتهر بكتابه (رحلات في فرنسا ـ ١٧٩٢). وقد وصف بلاد فرنسا قبل الثورة الفرنسية وبعدها وتحدث عن الظلم الاجتماعي الذي شهده. في عام ١٧٩٤، تُرجم الكتاب بأمر من

(الثورة) إلى اللغة الفرنسية وطبعت منه عشرون ألف نسخة وُزعت مجاناً على المواطنين.

(١١) Arbor Judae أو Judas Tree ترجمها منير البعلبكي في معجمه المفيد (المؤرد) إلى (الزَمْزَريقْ ـ شجر من الفصيلة القرنية جميل الزهر). ولعلها من أشجار بلاد الشام. وإذ إنني لا أعرف الشجرة فقد آثرتُ أن أترجمها ترجمة حرفية (شجرة يهوذا)، خاصة أن هذا يتمشى مع إحساس الدهشة والغرابة عند الرحالة الإنجليزي.

(١٢) (جان راسين Racine، ١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) من أعمدة المسرح الكلاسيكي الفرنسي. أرادت له عائلته أن يدخل خدمة الكنيسة فأرسلته إلى عمّ له قسيس في (أُوزي) في إقليم (لا نقوادك) وذلك ما يشير إليه (برودل). لكنه لم يلبث أن عاد إلى باريس حيث أصبح كاتباً شهيراً، وعيّن أواخر حياته مستشاراً للملك لوي الرابع عشر. من أعماله المعروفة (أندروماك) و(افِجني) و(فِدْرا).

(١٣) Oil تعني (نعم) في عامية شمال فرنسا، و OC تعني (نعم) في لهجة الجنوب. يعني (بلاد الأويلْ وبلاد الأكْ).

(١٤) Patois لهجة دارجة يتحدّثها العامة وبعض أهل الرّيف.

(١٥) لافونتين، (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) شاعر وقصاص اشتهر بقصصه التي تعرف بـ (خُرافات لافونتين).

(١٦) كاميسار Camisards، فرقة دينية من الهيُوقَنُو البروتستانْت المتطرفين ثاروا في بداية القرن الثامن عشر بزعامة رجل يُدعى (جان كافالْيير). والكلمة مشتقة من كلمة (كاميسا) أي (قميص) بلغة (برفنسال) لأنهم كانوا يلبسون قمصاناً بيضاً من الخَيْش.

(١٧) مارو ـ Marot (١٤٩٦ ـ ١٥٤٤) شاعر. عمل في بلاط مارغريت ملكة نافار وترجم بتشجيع منها الإنجيل والترانيم الدينية إلى الفرنسية. كانت ميوله بروتستانتية، وسافر إلى جنيف واتصل بـ (كالْفن ـ Calvin) مؤسس المذهب الكالفيني. كان شاعراً محترماً في القرن السادس عشر وامتد تأثيره إلى بعض الشعراء الإنجليز.

(١٨) المارشال ليوْتي ـ Lyautey (١٨٥٤ ـ ١٩٢٤) عسكري قضى معظم

حياته في المستعمرات ولعب دوراً كبيراً في استعمار فرنسا لبلاد المغرب العربي، عمل وزيراً للحرب (١٩١٦ ـ ١٩١٧) كانت آراؤه تعتبر متحررة في زمانها. من مؤلفاته (الدور الاستعماري للجيش، ١٩٠٠).

(١٩) الزواوه Zouaves في الأصل فرقة من الجزائريين في الجيش الفرنسي كوّنت عام ١٨٣٠. أصبح الاسم يُطلق على نوع من جنود المدفعية.

(٢٠) الـ (منتانيار)، أكثر الفرق تطرّفاً في الثورة الفرنسية، سُمُّوا (الجبليين) ـ نسبة للجبل ـ لأنهم كانوا يجلسون في المقاعد العليا في المجلس ـ Convention. قادوا حملة الإرهاب الكبرى بزعامة (روبْسْبير) نفسه، إلى أن قُضي عليهم في النهاية.

(٢١) الـ (جيرونديين)، نسبة إلى منطقة الـ (جيروند Gironde) من الثوريين المعتدلين، من أشهر زعمائهم (مدام رولان). قُضي عليهم في عهد الإرهاب، وأعدم أكثر من عشرين من زعمائهم بالمقصلة.

(٢٢) لا يتّسع المجال اليوم لتفسير الأحداث التاريخية والأسماء التي أشار إليها (برودل) في مقالته. وقد يجيء ذكرها في المستقبل إن شاء الله. ولعل القارىء يجد عبْرة في مقارنة هذا الوصف المؤثّر، بقصيدة أبي الأخْيل العجْلي، التي يصف فيها موقفاً مشابهاً، ويقول فيها:

ظــلــلْــت أُســاقــي الموتَ إخْــوَتــيَ الأُلَــى
أبــوهــم أبــي عــنــد الــمُــزاحــةِ والجدّ
كــلانــا يُــنــادي يــا نــزارُ وبــيــنَنــا
قــنــاً مــن قــنــا الخَطّــي أو مــن قــنــا الــهــنــدِ

(٢٣) لوشيان قالْوا ـ Lucien Gallois، (١٨٥٧ ـ ١٩٤١)، جغرافي، اشتهر بكتابه (وصف طبيعة الأقاليم وأسماء القرى).

(٢٤) فيدال دي لا بلانش Vidal de la Blanche(١٨٤٣ ـ ١٩١٨) من رواد المدرسة الحديثة في علم الجغرافيا. من مؤلفاته (**الأرض**، عام ١٨٨٣) و(**الدول والأمم الأوروبية المجاورة لفرنسا**، عام ١٨٨٩). مكانته في علم الجغرافيا، تقارب مكانة (مشليه) في التاريخ.

الفصل السابع

مارسيل بروست

يُعدّ مارسيل بروشت بحق (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) واحداً من عظماء كُتّاب الرواية في القرن العشرين، وروايته الضخمة (البحث عن الزمن الضائع) من العلامات المهمة في تاريخ الأدب. كان يعشق مدينة باريس، لا يفارقها إلّا مضطراً ولفترات قصيرة، يتحرّك بين دور أصدقائه من الطبقة الأرستقراطية التي كان مأخوذاً بها. وقد كتب مجموعة من المقالات، نشرها باسم مستعار في صحيفة الـ «Figaro». وهو هنا، في إحدى هذه المقالات يصف (صالون) الأميرة (مَتِلْدا) ابنة أخي نابليون بونابرت: ـ

«كان الأمير لوي نابليون يقول ذات يوم لبعض أصدقائه في صالون الأميرة (متلدا) إنه يحب أن يكون ضابطاً في الجيش ـ صاحت عمته الأميرة، وقد أزعجها أن ابن أخيها المفضل قد يبعد عنها: ـ

«يا لك من ولد أحمق. كون عائلتك أنجبت بمحض الصدفة رجلاً عسكرياً، هل هذا مبرر لك أن تدخل الجيش؟».

لا يمكن أن يتصور الإنسان استخفافاً بالمظاهر والرتب، أكثر من قولها (رجلاً عسكرياً) وهي تشير إلى نابليون بونابرت.

والحق، أن البساطة، كانت أبرز صفة في الأميرة (متلدا). كانت تتحدث عن أي شيء يتعلق بالنسب والحسب والمنصب باستخفاف واضح. سمعتُها تقول مرة لسيدة من برجوازيّي الـ «فوبور سان جرمان): ـ

«الثورة الفرنسية! لولا الثورة الفرنسية لكنت أنا اليوم لا أكثر من بائعة برتقال في شوارع أجاكْسيو».

هذا التواضع مع الكبرياء، هذه الصراحة التي تصل أحياناً إلى درجة السوقية، تعطي حديث الأميرة طعماً حارقاً مميّزاً. إنني لن أنسى أبداً تلك الحدّة التي أجابت بها ذات يوم على سيدة سألتْها باحترام مبالغ فيه «هل تتفضلين يا صاحبة السمو أن توضّحي لي إن كانت الأميرات أمثال سموّك، عندهن الأحاسيس نفسها التي نَحس بها نحن المسكينات بنات الطبقة البرجَوازية؟»، أجابتها الأميرة باحتقار «هذا السؤال لا يوجّه لي أنا. إنني لست من سلالة (الحق الإلهي)»[1].

هذه الخشونة الرجالية لدى الأميرة، يخفّف من حدتها، رقة عظيمة في العينين وعذوبة في الابتسامة، وحفاوة لا مثيل لدِفْئها.

لكن لماذا أحاول أن أصف لك سحر تلك الحفاوة. دعني أجعلك تذوقها بأن أصف لك كيف تستقبل الأميرة ضيوفها. تعالَ معي إلى (رو دي بِري)، وأسرعْ، فهنالك تبدأ السهرة في وقت مبكّر.

انتهى العشاء باكراً ربما ليس بمثل بكور تلك الأيام، حين جاء (ألفرد دي موسيه)[٢] للعشاء للمرة الأولى والأخيرة. وصل متأخراً جداً، فوجد أن العشاء قد انتهى. وكان لا يستطيع الكلام من شدة السكر. جلس صامتاً لم يفتح فمه بكلمة. وحين قاموا من المائدة، خرج...

بعد العشاء، تدخل الأميرة غرفة الجلوس الصغيرة، وتجلس على كرسي كبير، يكون على يمينك حين تدخل من الباب الرئيسي، ويكون على يسارك إذا دخلت من القاعة الكبيرة.

لم يصل كل الضيوف بعد، فقط النّخبة الذين دعتهم الأميرة للعشاء.. بجانبها بعض الذين تجدهم غالباً إلى مائدتها. الكونتيسة (بِنْدِتي). جميلة جداً ولطيفة جداً. مدام (رَشْبوني)، مدام (اشْبِناسْ) وصيفة الأميرة. ثم السيدة التي يحبها الجميع، مدام (ڤانْدِراكس)، زوجة محرّر الـ «رفْيو دي باري».

تجد أيضاً إلى مائدة الأميرة أغلب الأيام رجلاً صغير الحجم، ورغم أنه طاعن في السن فهو في مثل حيوية الشباب. خدّاه متورّدان وناعمان كخدَّي طفل.. شعره قصير، حسن الهندام، شديد التهذيب والذكاء، هذا هو الكونت (بِنْدتي) والد الكونت الحالي، وقد كان سفيراً لفرنسا في برلين..

يُفتح باب الصالون. تدخل الأميرة (جان بونابرت) يتبعها زوجها الماركيز (دي فيلْنوفا). يقف الجميع. حين تصل إلى نصف المسافة بينها وبين الأميرة (متلدا) تقف الأميرة وترحب بها وبدوقة (دي تريفيس) التي دخلت لتوّها مع دوقة (دالبوفيرا).

يفتح الباب، إنه دوق (قرامون) وزوجته. ثم تدخل الأسرة البونابرتية رقم واحد، العائلة المثقلة بالألقاب الضخمة، عائلة شارع (ريفولي).

الأميرة (متلدا) لم تعد جالسة. إنها تتحرك بين الضيوف، ترحب بكل قادم جديد، تتبسّط معهم في الحديث، تسْحَرُ كلّ واحد منهم بكلام يجعله يظن أنه أهم شخص بين الحاضرين.

إنني أستعمل كلمة (صالون) بالمعنى المجرد، إذ إن الصالون الفعلي كان في شارع (رو دي كورْسيل) قبل أن ينتقل إلى (رو دي بري). حين يفكر الإنسان أن ذلك (الصالون) كان ملتقى للحياة الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أن (مِرِمي ـ Merimee)[٣] و(فلوبير Flaubert)[٤] و(قُنكور Goncourt)[٥] و(سانت ـ بوف Sainte - Boeuve) ـ أن هؤلاء كانوا يجيئون كل يوم بحرية مطلقة دون أية قيود، وأنهم كانوا يجدون الأميرة دائماً مستعدة لاستقبالهم، ومائدتها دائماً عامرة بالطعام.

كانت تعاملهم بصراحة وعفوية، وهم أيضاً، لا يخفون عنها شيئاً من أسرارهم. وكانت تسعى دون توقف إلى مساعدتهم وإسداء خدمات إليهم ـ ليس فقط المساعدات اليومية الصغيرة، ولكن أيضاً الخدمات الجليلة المدهشة. كانت تحميهم من القهر والاضطهاد وتزيل الكراهية ضدهم. تسهّل أعمالهم. تعمل على نجاحهم وذيوع

شهرتهم. تساعدهم مادياً وتصلح أحوال معيشتهم. تغيّر مصائرهم.

كان (سانت ـ بوف) يقول إن دار الأميرة (متلدا) هي بمثابة (وزارة للعطف).

حين يفكر المرء في هذا، لا يسعه إلّا أن يؤمن أن بعض أصحاب النفوذ الدنيوي، قادرون فعلاً، ورغم كل شيء، على التأثير في مجرى تاريخ الأدب. وقليل هم الذين استعملوا نفوذهم وسلطانهم في خدمة الأدب، كما فعلت الأميرة (متلدا بونابرت).

قال (سانت ـ بوف) إن ذوق الأميرة (كلاسيكي) مثل كل الأمراء، إنما المرء يتساءل، هل كان (سانت ـ بوف) محقاً؟ هل كان عملاً (كلاسيكياً) أن تصطفي الأميرة (فلوبير) وأن تتحمس لـ (قنكور) في ذلك الوقت، حين كانت متقدمة على ذوق عصرها، بل على ذوق (سانت ـ بوف) نفسه؟ لكن لعل الأفضل أن ننظر إلى حماستها لهما، على أنها وفاء صديق يحسن اختيار الأصدقاء، أكثر من كونه بعد نظر ناقد، عرف عبقرية الأول وموهبة الثاني.

■ ■ ■

يواصل الكاتب الفرنسي الكبير (مارسيل بروست) حديثه عن الأميرة متلدا بونابرت) فيقول:

«مهما يكن، فلا شك أن اسم الأميرة (متلدا) سوف يبقى محفوراً على الألواح الذهبية للأدب الفرنسي. لقد خلّد ذكرها (مرِمي Merimee) في مجلد كامل من رسائله ـ (رسائل إلى الأميرة).

كذلك فعل (فلوبير ـ Flaubert) في عدد من رسائله، وأشاد بها (سانت ـ بوف Sainte - Boeuve) في (إثنينيّاته)[٦]. وجاء ذكرها في صفحات بعد صفحات من (يوميات) الأخوين (قونكور ـ Goncourt). كل هؤلاء الأدباء الأفذاذ، أشادوا بالأميرة، ورسموا لها صورة جذابة تبعث على الإعجاب.

كان من أصدقائها المعجبين بها أيضاً (تين ـ Taine)[٧] و(رينان ـ Renan)[٨] وقد ساءت علاقتها بـ (تين) في سنواته الأخيرة، بسبب نشر كتابه (نابليون بونابرت). أرسل لها الكتاب وطلب رأيها فيه. قرأت تلك الصفحات الفظيعة التي يظهر فيها نابليون كأنه قاطع طريق. في اليوم التالي أرسلت بطاقتها إلى (تين) أو بالأحرى تركت بطاقتها عند زوجته وعليها الأحرف (P.P.C ـ سوف أكون في إجازة). وهذا معناه حسب العرف (مع السلامة. لا أريد أن أراك بعد اليوم).

قطعت الأميرة صلتها بـ (تين) و(سانت ـ بوف) ولكنها اصطلحت مع أكاديمي آخر هو الدوق (د أومال ـ D'Aumale)[٩] حين عادت إلى فرنسا عام ١٨٤١، وجدت ترحيباً ومعاملة كريمة من العائلة المالكة، تركت في نفسها شعوراً بالجميل لم تنسه لهم أبداً، حتى إنها لم تكن تسمح لأحد أن يذكر في مجلسها أسرة (أورليان ـ Orleans) بأي سوء. وقد بذلت جهداً كبيراً في حمايتهم، ولكن حكومة (الأمبراطورية) لم تكن كريمة معهم، فصادرت ممتلكاتهم رغم جهود الأميرة. وبعد الخطاب الذي ألقاه الأمير نابليون، وأساء فيه للأسرة الملكية، بعث إليها دوق (أومال)، تلك الرسالة الشهيرة، الرسالة العجيبة الرائعة.

بدا كما لو أنهما لن يلتقيا أبداً بعد ذلك، وبالفعل عاشا بعيداً أحدهما عن الآخر سنوات طويلة. ولكن الزمن محا المرارة، ولم يبق إلاّ عرفان الجميل والإعجاب المتبادل. كانا في الواقع متشابهين في خلقهما، هذان الأميران (غير الرسميين). لم يكن الدوق متعصباً لعائلته الملكية، ولم تكن الأميرة متعصبة لأسرتها البونابرتية. كان أهم من ذلك عندهما، أن لهما أصدقاء مشتركين، هم قادة الفكر في عصرهم.

ظل هؤلاء الأصدقاء لسنوات يسعون لإصلاح ذات بينهما، ينقلون للأميرة الأشياء الجميلة التي يقولها الدوق عنها، وكذلك يفعلون مع الدوق. وأخيراً، تمّ اللقاء ذات يوم في مرسم الفنان (بونا ـ Bonnant)[١٠]. تمّ ذلك بتدبير من (ألكساندر دوما الابن). لم يكونا قد التقيا منذ أربعين عاماً. كانا يومئذٍ شابين، وجميلين. ما يزالان جميلين الآن، ولكن الشباب قد مضى. وقفا بعيداً عن الضوء في البداية، في الظل، كل منهما يخشى أن يرى الآخر ماذا فعلت به الأيام. ثم زال الخجل، وعاد بينهما الود القديم الذي لم ينقطع إلى أن مات الدوق.

كان باستطاعة الأميرة (متلدا) لو أرادت، أن تتزوج ابن عمها الأمبراطور نابليون، أو قريبها ابن قيصر روسيا، ولكن قدر لها أن تتزوج وهي في العشرين من عمرها الأمير الروسي (دفدوف). وحين ذهبت إلى روسيا، قال لها القيصر الذي كان يتمنى لو تزوجت ابنه (لن أغفر لك أبداً زواجك من دفدوف). كان يمقت دفدوف. وحين أحسّ أنها سعيدة في زواجها قال لها (إذا احتجت إليَّ فأنا رهن إشارتك في أي وقت). وكان كما وعد. لم تنس له ذلك أبداً.

حين عادت إلى فرنسا بصفتها ابنة عم الأمبراطور، كان أول شيء

فعلته أنها سارعت بالكتابة إلى القيصر نكولاس[١١]. أرسل لها رداً بتاريخ ١٠ كانون الثاني/ يناير ١٨٥٣ قال فيه (سعدت سعادة بالغة يا عزيزتي برسالتك التي تضمنت مشاعر نبيلة أدخلت الغبطة على قلبي. إن فرنسا قد استردتك إليها كما تقولين. إذاً تمتعي بكل ما تقدمه إليك من مسرات، وليس أحد أحق منك بالسرور. لقد أسعدني أنني استطعت أن أقدم لك بعض العون خلال إقامتك معنا).

ثم شبت حرب القرم، ووجدت الأميرة نفسها ممزقة بين ولائها لفرنسا وحبها وإحساسها بالجميل لقيصر روسيا، فكتبت له رسالة مؤثرة، ولكنها رسالة ليس فيها شيء يمكن أن يعترض عليه أشد الفرنسيين تطرفاً. وقد ردّ عليها القيصر بتاريخ ٩ شباط/ فبراير عام ١٨٥٤:

«أشكرك من أعماق قلبي يا عزيزتي، على ما ورد في رسالتك من عواطف جميلة لشخصي. إن قلباً مثل قلبك، لن يتحول أبداً مع تقلبات السياسة. كنت متأكداً من ذلك. لقد أحسست بسعادة خاصة أن تصلني هذه الكلمات، من قطر أصبح فيه اسم روسيا وقيصرها يثيران أشد الكراهية. وأنا حزين مثلك لقطع العلاقات بين روسيا وفرنسا، رغم كل جهودي لإيجاد طريق يؤدي إلى اتفاق ودي. حين عادت الأمبراطورية إلى فرنسا، راودني الأمل ألا تؤدي عودة ذلك النظام إلى قيام تنافس ينتهي بصراع مسلح بين الدولتين.

أسأل الله ألّا تهب العاصفة التي تبدو نذرها في الأفق. هل كتب على أوروبا، بعد فترة أربعين عاماً من الهدوء، أن تصبح مرة أخرى مسرحاً لمآس دموية؟ ماذا تكون النهاية إذا حدث هذا؟ لا يستطيع

أحد أن يتنبأ. ولكن مهما حدث يا عزيزتي، فإنني أؤكد لك، أن الصداقة التي عاهدتك عليها، لن تتزعزع أبداً».

هاتان الرسالتان قد نشرتا من قبل. إنما الشيء الجديد، الشيء الذي ليس معروفاً، هو ما سوف أذكره الآن. إن الصداقة التي تعاهد عليها القيصر نكولاس مع الأميرة (متلدا) بقيت تقليداً راسخاً لم ينقطع حتى بعد أن أصبح نكولاس الثاني قيصراً لروسيا[١٢].

وكما هو معروف، فإن من المراسم التي تضمنها برنامج الاحتفالات بزيارة القيصر الشاب إلى باريس ـ وكانت تلك أول مرة يزور فيها باريس ـ زيارة لضريح الأمبراطور نابليون في الـ (انفاليد). أرسلت الحكومة الفرنسية دعوة إلى الأميرة (متلدا) وخصصت لها مكاناً بارزاً بين كبار المدعوين على المنصة. وبقدر ما كانت الأميرة تستخف بالمظاهر والمناصب كما رأينا، إلّا أن الأمر كان يختلف، حين تحس بأي استخفاف بشرف العائلة البونابرتية نفسه. ردت قائلة أنها لا تحتاج إلى بطاقة دعوة لتزور ضريح عمها في الـ (انفاليد) وإذ إنها تملك مفاتيح خاصة، فبوسعها أن تذهب في أي وقت تشاء. وقالت إن الحكومة إذا وافقت على ذهابها بتلك الطريقة، فسوف تذهب، وإلّا فإنها ترفض الدعوة.

كان وضعاً محرجاً للحكومة، لأن معنى ذلك أن تدخل الأميرة إلى مرقد الأمبراطور، في الحجرة الداخلية من الضريح، قبل أن يدخلها القيصر. وفي صباح يوم الزيارة أسرع مندوب عن الحكومة إلى دارها وأخبرها أنها تستطيع أن تدخل ضريح عمها الأمبراطور مستعملة مفاتيحها الخاصة.

استقبلت بكل مراسم الحفاوة التي تليق بمقامها، ثم دخلت هي ووصيفتها وحدهما إلى مرقد الأمبراطور، حيث لا يسمح لأحد بالدخول. بعد قليل وصل القيصر، فحيّاها وتحدث معها بكل لطف واحترام. وكان يرافقه مسيو (فيلكس فور)[١٣] رئيس الجمهورية، فقدم نفسه إليها بأسلوبه المهذب الذي عرف عنه طول حياته، وقبّل يدها بتلك الطريقة الفريدة التي تجمع بين أعمق المشاعر الجمهورية، والولاء لأمجاد التاريخ الفرنسي».

■ ■ ■

يوميات الأخوين (قنكور)، من أشهر المذكرات في تاريخ الأدب، ليس في فرنسا فقط، ولكن في العالم. كانا يكتبانها معاً، كما كتبا كل أعمالهما الأدبية. تبدأ يوم ٢ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٨٥١، وهو اليوم الذي قام فيه (لوي نابليون بونابرت)، الذي عرف فيما بعد بنابليون الثالث، وكان إلى ذلك الوقت، رئيساً منتخباً، بانقلاب، حلَّ بموجبه البرلمان، وحظر الأحزاب، واعتقل زعماءها، وأعلن نفسه أمبراطوراً لفرنسا. وكما تقدم، فقد كان الأخوان (قنكور) وخاصة أكبرهما (أدموند)، من أصدقاء الأميرة (متلدا) ابنة أخي نابليون الأول، وابنة عم نابليون الثالث.

وفيما يلي مقتطفات من اليوميات التي يصف فيها الأخوان (قنكور) بعض الأمسيات التي قضياها في دار الأميرة (متلدا):

«الأربعاء ١٩ آب/ أغسطس ١٨٦٣.
انتقل الحديث في دار الأميرة إلى (مدام صاند)[١٤]. تحدثنا عن علاقاتها الغرامية، وأجمع رأينا على أنها مسترجلة، ليس فيها رقة

أنثوية. وفي طبعها قسوة وبرود، يجعلانها تكتب عن عشاقها، أثناء علاقتها بهم. وروى أحدهم أن (مرمي ـ Mérimée) كان معها ذات يوم، فرأى ورقة على المنضدة وحين أخذ يقرؤها، اختطفتها من يده بعنف. كانت تتحدث عنه في الورقة.

كانت أحياناً ترتدي زي الرجال، خاصة خلال علاقتها بـ (صاندو ـ Sandeau). كانا يترددان على مطعم صغير يملكه رجل اسمه (بنسون). كان يقول:

«العجب أنني حين أراها في ثياب رجل أقول لها (مدام)، وحين تكون في ثياب امرأة، أقول لها (مسيو)».

حكى لنا (سانت ـ بوف)، أنه رآها في زي رجل، مرة واحدة. ذهب يزور (بولوز) أيام عزوبيته. أول ما دخل، قفز شاب من (الكنبة) وحيّاه قائلاً (هلو. هل تأخذني إلى (لامني)[١٥]. لم يكن ذلك الشاب غير مدام صاند، وكانت علاقتها قد ساءت بـ(موسّيه)، إثر عودتها من (فنيسيا). قال (سانت ـ بوف): تصوّروا. كان (لامني) ما يزال قسيساً، وكان الفصل شتاء، وكان (لامني) يعيش في آخر الدنيا، في (برتاني).

انتهى الأمر بـ (سانت ـ بوف) أنه بدل أن يأخذها إلى (لامني) أخذها إلى (موسّيه). عند الباب قال لها (هل أدخل معك؟) فسلّت سيفها في وجهه ـ كانت تحمل سيفاً ـ وقالت له (لا. مع السلامة).

يرى المرء، في كل هذه القصص التي يحكيها (سانت ـ بوف) نوع الدور الذي كان يقوم به تلك الأيام. دور المتسقّط لأخبار الفضائح،

المصلح بين العشاق، الذي تفضي إليه النساء بأسرارهن. ولا شك عندي، أن حب الاستطلاع، كان يبلغ به أن يختبىء في غرف النوم، يسجل ما يجري، ليضمن مذكراته.

٦ كانون الثاني/ يناير ١٨٦٤.
حملنا إلى الأميرة الألبوم الياباني الذي طلبته. حدثتنا عن لقاء (سانت ـ بوف) للأمبراطور في (كُمبينيي) حيث لم يحسن التصرف.

«تصوروا. تركنا وخرج لأمور غرامية. كل الحاشية الأمبراطورية لاحظت ذلك».
«هل ترك أثراً حسناً لدى الأمبراطور؟».

«أبداً. لم يستطع أحد أن يفهم ما يقول. الأمبراطور يفهم فقط الأشياء العملية. لو أن (سانت ـ بوف) طلب منه شيئاً محدداً، منصباً مثلاً، ولكن يبدو أنه لا يحب أن يتحمل أية مسؤولية. يريد أن يكون طليقاً لينتقد من يشاء وما يشاء بحرية».

ثم أخذت تستدرجنا لنحدّثها عن ذوقه في النساء، وكانت تتظاهر أنها لا تصدّق ما نقصّه لها، لنعطيها المزيد. تقول ضاحكة:

«لو كان شاباً! مثل هذه الأعمال، تكون مسلية في الشباب. ولكن هو، وكرشه تلك؟».

الأربعاء ١ شباط/ فبراير ١٨٦٥.
في دار الأميرة، ضمت المائدة هذا المساء عدداً من رجال الأدب، منهم (دوما)[١٦] الأب. ضخم الجسم، عملاق، شعره أكرت مثل

شعر الزنوج، وعيناه صغيرتان كعيني فرس البحر، يقظ ماكر، يرى كل شيء حتى وهو مغمض العينين. هيئته تذكر بعامل في سيرك، أو حمّال في قصص ألف ليلة وليلة. إنه الصنايعي المصحصح، عدّاء المسافات الطويلة، رياضي القصة المسلسلة. لا يشرب، لا النبيذ، ولا حتى القهوة. ولا يدخن.

يتحدث بطلاقة، ولكن دون أي بريق أو جاذبية. كل ما يفعله أنه ينتشل المعلومات من أعماق ذاكرته الواسعة ويلقيها بصوت أجش. يتحدث عن نفسه أغلب الوقت، بغرور صبياني لا يخلو من ظرف.

أيضاً (لسبْس)[١٧] شاقّ القنوات، وسيم، عينان داكنتان تحت شعر مُبْيض. كان على مائدة الأميرة هذا المساء، على أثر عودته من مصر. هذا الرجل الحديدي، اعترف لنا أنه أحجم عن القيام بعدة أعمال مهمة في حياته بسبب تنبؤات عرّافة في شارع (تورنون).

الأربعاء ٢٦ نيسان/ أبريل ١٨٦٥.
استقبلتنا الأميرة هذا المساء ببرود شديد لا يُتقنه أحد مثلها. تجاهلتنا تماماً ولم تتفضّل علينا بأي نظرة. وكانت تخالفنا في كل ما نقول. ركّزت اهتمامها فقط على (فلوبير) الذي أجلسته بجوارها. أخبرني (فلوبير) فيما بعد ونحن خارجان، أنها جعلته يتمشى معها في الحديقة مرتين.

من حسن الحظ أن الأمراء، والأميرات خاصة، تنتابهم هذه الحالات الغريبة من النفور وتقلبات المزاج، وإلّا لأصبح الإنسان أسيراً لحبّهم بشكل مطلق».

■ ■ ■

فيما يلي مزيد من (يوميّات) الأخوين (قنكور)، وهي مذكرات تغطي مساحة واسعة، وتزدحم بالشخصيات والأحداث. ولكن هذه المقتطفات تتعلق فقط بالأمسيات التي كانا يقضيانها في دار الأميرة (متلْدا بونابرت). ويلاحظ القارئ علاقتهما الغريبة بـ (سانت ـ بوف) الذي كان من أصدقائهما المقربين، ومع ذلك لا تخلو كتابتهما عنه من السخرية وأحياناً السُخط. كذلك يلاحظ القارىء غيرتهما الشديدة من (ألكساندر دوما الأب) الذي ما يفتآن يغمزانه بأن جدته زنجيّة. ولا شك أن غيرتهما كان سببها نجاح (دوما) وشهرته الواسعة وثراؤه ـ وربما صحته أيضاً، فقد كانا عليليْن، دائماً يشكوان من المرض.

«١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٦٥.
بعد العشاء مع الأميرة، حدّثنا (سانت ـ بوف) عن نوبات الغضب الجنونية التي تسيطر عليه أحياناً، قال إن ذلك يحدث له في الغالب بعد الفراغ من كتابة مقالته الأسبوعية، حين يكون سريع الانفعال مُشتَفزَّ الأعصاب. وروى لنا كيف أنه شتم (فيلْمان ـ Velleman)[١٨] وكان يضربه بمظلّته. دائماً توجد مظلّة في قصص (سانت ـ بوف).

جاء (مرمي ـ Merimée) خلال السهرة. كانت أول مرة نراه يفتح فمه. يتحدث ببطء كمن يصغي إلى نفسه، مع فترات صمت قاتلة. قليلاً قليلاً يخلق حوله جواً من البرودة الفظيعة. ليس فيه تأجج ذهني ولا عمق روحي. لا شيء غير التصنع والتكلف. كأنه ممثل عجوز متعب، ليس في عجلة من أمره. بالإضافة إلى هذا غرور واحتقار لكل آداب السلوك التي تعارف عليها الناس. يوجد شيء يثير الاشمئزاز في ذلك السمت الساخر المتغطرس، الذي رسم

بعناية، للتأثير على النساء والرجال ضعيفي الإرادة.

١٧ شباط/ فبراير ١٨٦٦.
عند الأميرة (دوما) الأب، منتفخ مزهو في ربطة بيضاء وصديري أبيض، ضخم، يتنفس بصوت مسموع. سعيد مثل زنجي. قال إنه عاد لتوه من رحلة في النمسا والمجر وبوهيميا. حدثنا كيف أنهم عرضوا مسرحية له باللغة المجرية في مدينة Peth، وكيف أن أمبراطور النمسا أعطاه قاعة في قصره في (فيينا) ليلقي محاضرة. ثم أفاض في الحديث عن مسرحياته التي رفض الـ (تياتْر ـ فرانسي) عرضها، وعن روايته (فارس البيت الأحمر) التي منعتها الرقابة..

ذات متورمة وأنانية منتفخة، ولكن حديثه مسلٍّ، وغروره الصبياني يدعو للشفقة. قال إن النجاح في المسرح هذه الأيام، يحتاج فقط للخلاعة والبذاءة.. سراويل الراقصات التي تتمزق على المسرح من الخلف «إذا سمعت الجمهور يقول وهو خارج من المسرح (المناظر جميلة والأزياء رائعة، ولكن يا له من كاتب غبي) فأعلم أن المسرحية قد نجحت نجاحاً لا نظير له».

١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٦٦:
أحياناً تجيء الأميرة بملاحظات ذكية جداً. قالت إنها لاحظت أن بعض النساء يصطنعن أصواتاً تناسب أزياءهن، فإذا كان ثوب المرأة من الحرير، يكون صوتها حريرياً، وإذا كان ثوبها من المخمل، يكون صوتها مخملياً، وهكذا.

٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٦٨:
في غرفة الجلوس في دار الأميرة. أعطاني (قوتْيه Gautier)[١٩]

ظهره العريض، وكان جالساً القرفصاء أمامي على السجاد، على الطريقة التركية، مستنداً إلى ذراعيه. كان يبدو لي في ذلك الوضع مثل قزم. كان (ساسي)[٢٠] الذي جلس وراءه، يتحدث إليه كأن احتقاره لمرشحه (الرومانسي) يتنزل من علوّ شاهق.

أحزنني أن أرى (قوتييه) في هذا الموقف المزري. إنني أحزن حين أجد الموهبة عند إنسان ضعيف الخلق. مسكين (ثيو).

كم يحلم أن يكون عضواً في (الأكاديمية). لذلك، كل ذلك الخضوع والتذلل، والتطرف المقزز، والفكاهة المصطنعة. كان بين الحاضرين أن (قوتييه) يسعل كي ينتخبوه عضواً في (الأكاديمية)[٢١]!

ثم قام وجلس على كرسي صغير عند قدمي الأميرة، مثل مهرج بلاط طعن في السن. سقط رأسه على صدره، ونزلت أجفانه الغليظة على عينيه المتعبتين، وتدلت ذراعاه المتأرجحتان بلا حياة. خفنا أن يموت منكفئاً على وجهه، ذلك الرجل المثقل بالأمجاد، الذي يقف على شاطىء الخلود الأكاديمي، وكأنما الحياة أرادت أن تسخر منه بأن تدق مسامير نعشه في تلك اللحظة.

قال له (سان ـ فكتور)[٢٢] وعلى وجهه تلك الابتسامة المريضة التي يلبسها كلما رأى مجموعتنا عند الأميرة:

«مقالتك عن (بُنْسانْ)[٢٣] ممتازة. يبدو أنه أصبح عبقرياً!».
فقال (قوتييه) وهو يضحك ضحكاً مفتعلاً:
«آه... ذلك لا أهمية له. لا بد أنك قد عرفت الآن، أنك كي

تعرف رأيي الحقيقي، لا بد أن تقرأ بين السطور».

«مهما يكن، فإنك قد قلت إن أعماله (اتخذت طابع الخلود)..».
فقال (قوتييه):
«كلام فارغ».
حين قمنا لنذهب، انتحت بنا الأميرة جانباً. كانت قلقة على صحة (قوتييه) فأرسلت له طبيبها الخاص. قالت لنا هامسة أنه يبدو أن مرضه ليس في الصدر ولكن في القلب.

أوصلنا بعربته، وفي الطريق تحدّث معنا بطريقة مؤثّرة جعلت عيوننا تدمع».

الهوامش

(١) تشير إلى أسرة (آل بوربون) الذين كانوا يزعمون، ككل ملوك أوروبا، أنهم يحكمون بمقتضى (حق إلهي).

(٢) ألفرد دي موسّيه (١٨١٠ ـ ١٨٥٧) شاعر وكاتب مسرحي، أحد عشاق الكاتبة (جورج صاند).

(٣) (مرِمي) (١٨٠٣ـ ١٨٧٠) ـ كاتب رومنْسي. أشهر قصصه (كارْمن) التي أصبحت أوبرا مشهورة.

(٤) فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) روائي وكاتب مسرحي. صاحب رواية (مدام بوفاري) إحدى العلامات في تاريخ الرواية.

(٥) قُنكور، أدموند (١٨٢٢ ـ ١٨٩٦) الأخ الأكبر من الأخوين قنكور ـ اشتهرا بالمذكرات وبالجائزة الأدبية المعروفة التي تحمل اسمهما.

(٦) سانت ـ بوف (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩)، كان أهم ناقد في عصره، كان ينشر مقالات، تصدر أيام الإثنين، فسميت (الإثنينيات).

(٧) تين ـ (١٨٢٨ ـ ١٨٩٢) ناقد وفيلسوف ومؤرخ أدبي. كان له تأثير كبير على الاتجاهات الفكرية في القرن التاسع عشر.

(٨) رينان ـ (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢)، مؤرخ وناقد، تخصص في اللغة العبرية والدراسات اللاهوتية. عمل أستاذاً للغة العبرية في الـ (كوليج دا فرانس). كتابه (حياة المسيح) الذي أنكر فيه ألوهية المسيح أحدث زوبعة في زمانه.

(٩) هنري يوجين فيليب د أورليان، دوق أومال، الابن الرابع للوي فيليب. عسكري ومؤرخ ومهتم بالفنون والثقافة. كان حاكماً للجزائر عام ١٨٤٧ وعلى يديه استسلم الثائر الجزائري الأمير عبد القادر. ويذكر أن عائلة الأمير عبد القادر لقيت منه معاملة كريمة.

(١٠) بونا ـ (Bonnant) (١٨٣٣ ـ ١٩٢٢) الرسام المفضل للطبقات العليا في الجمهورية الثالثة، واشتهر خاصة بلوحات لنساء تلك الطبقة.

(١١) نكولاس الأول ـ حكم روسيا من ١٨٢٥ إلى ١٨٥٥.

(١٢) نكولاس الثاني، آخر قياصرة روسيا. حكم من ١٨٩٤ إلى ١٩١٧ حين قامت الثورة.

(١٣) فيلكس فور، انتخب رئيساً في عهد الجمهورية الثالثة في كانون الثاني/ يناير ١٨٩٥ بتأييد من أنصار الملكية والجمهوريين المعتدلين. في عهده حدثت المواجهة بين بريطانيا وفرنسا في «فشودة» في جنوب السودان.

(١٤) جورج صاند، الاسم الأدبي المستعار للكاتبة (أورود دوبان، البارونة دو دفان، ١٨٠٤ ـ ١٨٧٦) من عائلة أرستقراطية، تربّت في دير، ثمّ تأثرت بأفكار روسو وبايرون وشاتو بriاند، وتركت زوجها البارون دو دفان، بعد أن ولدت له طفلين وعاشت حياة بوهيمية في باريس متفرّغة للأدب. اتصلت أولاً بالكاتب (جول صاندو) وبدأت تكتب باسم (جول صاند) ثم أخذت اسم (جورج صاند) الذي عرفت به. كانت كاتبة ناجحة في زمانها، عشقها كثيرون، منهم (ألفرد دي موسّيه) والموسيقي (شوبان). نشرت رسائلها الكاملة عام ١٩٦٤، وهي ذات أهمية أدبية عظيمة.

(١٥) الأب روبير دي لامني De Lamennais، ١٧٨٢ ـ ١٨٥٤، كاتب ديني خرج على أفكار الكنيسة، ووجدت أفكاره ترحيباً كبيراً من أدباء أمثال (هوغو) و(لامارتين) و(سانت ـ بوف)، وأحدث أثراً عميقاً لدى (جورج صاند).

(١٦) ألكساندر دوما الأب ـ (الإسكندر دوماس)، ١٨٠٢ ـ ١٨٧٠. من عائلة نبيلة وكانت جدته زنجية، كان كاتباً ناجحاً غزير الإنتاج، بلغت أعماله ١٠٣ مجلدات. من رواياته المعروفة (الكونت دي مونت كرستو) و(الفرسان الثلاثة).

(١٧) فيردناند دي لسبس (١٨٠٥ ـ ١٨٩٤) دبلوماسي وإداري ومغامر ارتبط اسمه بقناة السويس وقناة بنما.

(١٨) أبل فرانْس فيلْمان، ١٧٩٠ ـ ١٨٧٠، مؤرخ وناقد وسياسي. عمل مرّتين وزيراً للتربية. كان من النوابغ، أصبح أُستاذاً في السوربون وهو في السادسة والعشرين.

(١٩) ثيوفيل قوتْييه ـ Gautier، ١٨١١ ـ ١٨٧٢. شاعر وروائي وناقد غزير

الإنتاج واسع النفوذ. كان من أوائل دعاة مذهب (الفن لأجل الفن)، وقد تأثر به (فلوبير) و(بودلير). كان شديد التعصب لـ (فكتور هوغو).

(٢٠) صموئيل أُستزاد دي ساسي de sacy، ١٨٠١ ـ ١٨٧٩، ناقد وكاتب سياسي. أبوه أنطوان، كان من كبار المستشرقين في زمانه.

(٢١) إشارة فيها تهكّم أن الأكاديمية الفرنسية لا تنتخب لعضويتها إلّا الذين يقفون على حافة القبر.

(٢٢) الكونت بول دي سان ـ فكتور ـ Saint Victor، ١٨٢٥ ـ ١٨٨١، أديب وناقد مسرحي. ألّف عن نشأة المسرح وتاريخه.

(٢٣) فرانسوا بُنْسار Ponsard، ١٨١٤ ـ ١٨٦٧. كاتب مسرحي أغلب مسرحياته شعرية ذات طابع كلاسيكي. كان من زعماء الحركة المناهضة للرومانسية في المسرح. وواضح أن المقالة التي يشير إليها (قنكور) كتبها (قوتْييه) بعد موت (بُنْسار).

الفصل الثامن

رولان بارت

«يا لها من بِدَع عجيبة تسرّبتْ إلى نقدنا الأدبيّ! سحابة مظلمة ساقتها إلينا ريح شؤْم، من جنيف أو بوسطن، أو من الجحيم، حجبت عنا شمس (الجمال) المُضيئة. يا لها من فلسفة عبثية! أي عدوى غريبة، تُصيب المروجين لهذه التُرّهات، فيُبربرون بكلامٍ مثل هذيان المجانين؟».

شارل بودلير ـ آذار/ مارس ١٨٥٩

* * *

حيّر العالم الفرنسي (رولان بارت) مريديه أنه لم يثبُت على موقف واحد، بل ظلَّ يغيّر مواقفه باستمرار. وسوف يجد القارىء أدلّة كثيرة على عبثه الفكري، في مقالته الشهيرة التي أعلن فيها (موت المؤلف). وهي من كتابه (الصورة ـ الموسيقى ـ النص) الصادر عام ١٩٧٧. وفيما يلي مقتطفات منها:

«يقول (بلزاك) في قصّته «القرصانة» التي يصف فيها خصيّاً متنكراً في هيئة امرأة (كان امرأة فعلاً، بمخاوفها المفاجئة، وتقلّبات مزاجها، وقلقها الغريزي، وتهورها واهتمامها بالأمور التافهة، ورقة شعورها المحبّبة).

من الذي يتحدث؟ هل هو بطل القصة الذي يجهل أن المرأة ما هي إلّا خصيّ في زي امرأة؟ هل المتحدث هو (بلزاك) الشخص، معتمداً على تجربته وفلسفته عن (المرأة)؟ هل هو (بلزاك) المؤلف، معبّراً عن أفكار أدبية عما يظن أنه طبيعة (الأنثى)؟

هل هو صوت الحكمة عموماً؟ صوت السايكولوجية الرومانسية؟

إننا لن نعرف الإجابة أبداً، لسبب بسيط هو أن الكتابة إلغاء وتحطيم لكل صوت. لكل مصدر. الكتابة هي ذلك الركام المحايد، الفضاء المائل، حيث ينزلق الموضوع. السلبي الذي يقضي على الخصائص الذاتية كلها، بدءاً بخصائص الجسد الذي يقوم بفعل الكتابة.

لا شك أن الأمر كان دائماً هكذا بمجرد أن تُروى حقيقةٌ ما ـ ليس بنية التأثير المتعمّد على الواقع إنما في نهاية الأمر رهين بطبيعة الرمز ذاته، وخارج أي وظيفة ما عدا ذلك ـ حينئذٍ يحدث الانفصام. الصوت يفقد مصدره. المؤلف يدخل في موته. الكتابة تبدأ (...).

المؤلف شخصية مفتعلة، بمعنى أنه نتاج مجتمعنا، بإرثه من العصور الوسطى، والفكر التجريبي الإنجليزي، والعقلانية الفرنسية، ودعوة حركة الإصلاح البروتستانتية إلى تأكيد ذاتية الفرد، أو كما يقال تجاوزاً (الفرد الإنساني). هذه النظرة الساذجة، وصلت قمتها بشكل

منطقي، إلى التهويل في الفكر الرأسمالي، من أهمية الفرد، أي المؤلف.

هكذا تجد أن المؤلف يتربع على عرشه في كتب تاريخ الأدب، وتراجم الكتّاب، والمقابلات، وفي المجلات، بل وفي رغبات المؤلفين أنفسهم، الذين يستهويهم أن يخلطوا بين ذواتهم وأعمالهم، بواسطة نشر مذكراتهم ويومياتهم.

كل شيء في الثقافة العامة، ينطلق من شخص المؤلف وحياته وذوقه وأهوائه (...) النقد أبداً يبحث عن تفسير العمل، في شخص الرجل أو المرأة، الذي صنعه، كأنما العمل في نهاية الأمر شيء مُتاح، ينبع من مصدر واحد هو صوت المؤلف الذي يهمس في آذاننا بأسراره (...).

إزاحة المؤلف عن عرشه، ليس فقط حقيقة تاريخية، أو حيلة كتابية، إنه أمر يُحدث انقلاباً كاملاً في النص الحديث. أو بكلمات أخرى، النص بعد اليوم يُكتب ويقرأ، بطريقة تجعل المؤلف غائباً عنه في جميع مستويات النص... حين تعتقد في وجود المؤلف، فإنك دائماً تتخيّله كأنه (ماض) كتابته. الكتاب والكاتب، يقفان بالضرورة على خط واحد. ينقسم إلى (قبل) و(بعد). المؤلف يظن أنه يُطعم الكتاب أي أنه يوجد قبل الكتاب. يفكر ويعاني ويحيا من أجل الكتاب. إنها علاقة تشبه علاقة الوالد بمولوده.

خلافاً لهذا التصوُّر، فإن الكاتب الحديث، يولد في اللحظة نفسها التي يولد فيها النص. ليس له إطلاقاً وجود يسبق كتابته أو يزيد عليها. لا يوجد زمن عدا زمن الكتابة. وكل نص يكتب إلى الأبد،

ويُكتب هنا، ويُكتب الآن (...).

نحن نعلم اليوم، أن النص ليس خيطاً من كلمات تصرِّح بمعنى واحد. ليست رسالة لاهوتية مقدسة من (المؤلف ـ النبي).

إنها فضاء متعدّد الزوايا، يحوي أنواعاً شتى من الكتابة، ليس أي منها مبتكراً. تتجانس كلها وتتنافر. النص ليس أكثر من اقتطافات شتى من منابع الثقافة على سعتها (...) الكاتب الذي يجلس مكان المؤلف، لم يعد يحمل في جوفه أية مشاعر ولا أفكار ولا أحاسيس ولا تصوّرات. إنه بالأحرى يحمل في جوفه مُعجماً ضخماً يغرف منه كتابة لا نهاية لها. الحياة ليست أكثر من محاكاة للكتاب. والكتاب ليس أكثر من مجموعة إشارات. محاكاة لفقد مؤجل باستمرار.

وهكذا حين يزول المؤلف، تصبح محاولة فك ألغاز النص، محاولة لا جدوى منها. أن تُعطي النص مؤلّفاً، هو أن تفرض عليه مساحة وحدّاً. يعني أن تجد معنى قاطعاً نهائياً. معناه أن تضع نهاية للكتابة.

ذلك التصور يناسب الناقد جداً، لأن الناقد حينئذٍ يُعطي نفسه سلطة اكتشاف المؤلف وراء النص، أو اكتشاف العوامل المؤثّرة عليه ـ المجتمع، التاريخ، الذات، الحرية. وحين يعثر على المؤلف يكون قد وجد حل اللغز. انتصار للناقد. لا عجب إذاً، أن عهد سلطة المؤلف، كان أيضاً عهد سلطة الناقد.

في الكتابة المتعددة، أنت لا تفسر أي شيء. أنت تفكك كل شيء: لا توجد ألغازٌ تبحث لها عن حل. تتابع هيكل البناء. تسحب عناصره كما تسحب خيوط الثوب. في كل موضع، وعلى كل

مستوى. إنما لا شيء يوجد تحت السطح، تتسكّع في فضاء الكتابة. لا تنفذ فيه. الكتابة تَرْشَح المعنى باستمرار، ليتبخّر باستمرار. كل ذلك في عملية إقصاء للمعنى.

هكذا يصبح الأدب (ومن الأفضل أن نقول بعد الآن الكتابة) ـ برفضها إضفاء طابع اللغز على النص أو إعطاءه أي معنى نهائي ـ تصبح حرة. يصبح النص والعالم طليقين من قيود ما يمكن أن يوصف بالطابع (اللاهوتي).

إن تلك ثورة حقيقية في نهاية الأمر، إذ إن رفض إعطاء النص معنى نهائياً، هو في الواقع رفضٌ للخالق (الله)، وآياته، ورفض للعقل والعلم والقانون».

انتهى كلام الأستاذ (رولان بارت). ولا يحتاج الإنسان إلى إعمال الفكر طويلاً، كي يدرك أنه لغو مملوء بالمغالطات والعجرفة. وهو لم يترك للقارىء أي مجال للحكم. لم يترك لك شيئاً تقيس به، أو مرجعاً تستند إليه، لأنه رفض كل شيء ضربة لازب.

ورغم ذلك، فإنه لم يفلح في أن يُخفي المغالطة الكبرى في خطابه. إذا كان قد أمات الكاتب والناقد والعقل والعلم والقانون، فأين وضع هو نفسه؟ ومن أين استمد الحق أن يصدر هذه الأحكام (اللاهوتية) كأنها حقائق تنزلت عليه من السماء؟

الأمر كما قال (بودلير) ـ «كلامٌ مثل هذيان المجانين». إنه لا يعدو أن يكون محض لعب بالأفكار والألفاظ، من رجل يتيه بعلمه، وهو فيما يتعلق بنا على أي حال، علمٌ لا فائدة منه ولا خير فيه.

■ ■ ■

أصدر العالم السميولوجي الفرنسي (رولان بارت) حكمه بموت المؤلف، في مقالة ظهرت عام ١٩٧٧.

وفي عام ١٩٨٠، أعلن (ميشيل فوكو) حكمه بموت الكاتب على طريقته، مقالة شهيرة هي الأخرى، عنوانها (ما هو المؤلف). وسوف يلمس القارىء المماحكة نفسها بأسلوب آخر. وفي ما يلي فقرات من مقالة (فوكو):

«ظهور فكرة ما يسمى بـ (المؤلف)، تمثل مرحلة واضحة في تاريخ الفكر والمعرفة والأدب والفلسفة والعلوم (...) لن أحاول هنا أن أقدم تحليلاً تاريخياً ـ سوسيولوجياً لتطور ظهور فكرة (المؤلف). وربما يكون ذلك مفيداً. كيف أصبح (المؤلف) كائناً واضح المعالم في ثقافتنا؟

وأي مركز وُضع فيه. ومتى أخذ الناس ينسبون عملاً ما إلى مؤلف ما، ويهتمون بصحة تلك النسبة وأن العمل ليس مُنتحلاً.

متى بدأنا نهتم بسير الكُتّاب عوضاً عن سِير الأبطال، وأصبح (المؤلف) بديلاً عن البطل. كيف ظهر هذا النوع من النقد الذي يقرن بين المؤلف وأعماله. كل ذلك يكون مفيداً، ولكنني سوف أكتفي الآن بالنظر في العلاقة بين المؤلف والنص، وكيف أن النص، كما يزعم، مرتبط بهذا (الشخص) الذي هو خارج نصّه وسابق لوجوده (...).

نستطيع أن نقول، بادىء ذي بدء، أن الكتابة الحديثة، قد حرّرت نفسها من قيد المعنى. لم تعد تطلب إلّا ذاتها وحسب، دون أن تحدّها حدود بواطينها، وغير معنية إلّا بمظهرها الخارجي. هذا يعني

أن الكتابة تلاعُب بين إشارات لغوية صرفة. وهي ليست منظومة حسب أي معنى أو مغزى لها، ولكن فقط حسب طبيعتها الصوتية.

تتكشف الكتابة على أنها **لعبٌ يتجاوز حدوده.** لا تكون مهمتها الحفاوة بفعل الكتابة، ولا التعبير باللغة عن موضوع ما. مهمتها هي أن تخلق فراغاً تختفي فيه الكتابة ـ يبتلع الكتابة.

الأمر الثاني في الكتابة هو صلتها بالموت. هذه الصلة، هي عبارة عن إحياء لفكرة قديمة، عبّرت عنها الملاحم اليونانية، التي كان هدفها استمرار حياة البطل، وإعطاءه صفة الخلود. يموت البطل في شرخ الشباب، فيكون خالداً بطريقة أخرى. حينئذٍ تكون الملحمة، أو القصة انعتاقاً من الموت. هذا واضح أيضاً في الأساطير العربية مثل (ألف ليلة وليلة). الهدف هو الهروب من الموت. الراوية تحكي حتى مطلع الفجر لتفلت من الموت.. لتأجيل اليوم الذي يسكت فيه الصوت. رَويّ شهرزاد جُهد يتكرّر كل ليلة، ليظل الموت خارج دائرة الحياة (....).

هكذا نفخت ثقافتنا الروح في هذه الفكرة القديمة، فكرة الرواية أو الكتابة، إنها فعلٌ يطرد شبح الموت. أصبحت الكتابة تضحية وقرباناً، حتى التضحية بالنفس.

العمل، الذي كان هدفه الخلود، أصبح الآن يملك حق القتل... حق أن يقتل مؤلِّفه. ذلك حدث لـ (فلوبير) و(بروست) و(كافكا). ليس هذا فقط، ولكن الكتابة أصبحت تطمس آثار موضوع الكتابة نفسه.

المؤلف يستغل العناصر كلها التي تقوم حاجزاً بينه وبين كتابته، ليمحو مميزات تفرده.

تكون النتيجة أن أثر الكاتب يضيع كليّة. يصير لا شيء. لا يبقى منه غير الصدى المميز لغيابه. حينئذٍ لا مفر له من أن يقبل دور القتيل في لعبة الكتابة (...).

هذا كله ليس جديداً، فقد أدرك النقد والفلسفة منذ زمن، قضية اختفاء المؤلف وموته. لكن نتائج هذا الإدراك، لم تُدرس كما يجب، ولم يُحسب حساب خطورته كما يجب (...).

يرددون باستمرار، أن مهمة النقد ليست إيضاح علاقة المؤلف بعمله، ولا التعرف إلى تجربته وفكره من ثنايا العمل، وإنما بالأحرى اختيار هيكل العمل ومعماره وسمته المرتبط بطبيعته، والملاعبات الباطنية بين مكوّناته.

حين نقول ذلك، تعترضنا مشكلة. ما هو العمل الكتابي؟ ما هو هذا الكائن العجيب المميز الذي نسميه العمل!؟ من أي عناصر يتكون؟ أليس هو الشيء الذي صنعه المؤلف؟ (...).

حتى حين يكون المؤلف كاتباً معترفاً به، من حقنا أن نسأل: هل كل شيء قاله أو سجله أو تركه وراءه هو عمله؟ هذه قضية نظرية وتقنية في الوقت نفسه.

حين نقدم على نشر أعمال (نيتشه) مثلاً، ما هو الحد الذي نقف عنده؟ تقول ننشر كل شيء سجله نيتشه. أكيد. لكن ما هو (كل

شيء؟). ماذا تقول في مسودات كتاباته؟ وماذا عن المفكّرات التي سجلها على عجل لمشاريع ينوي التوسع فيها مستقبلاً؟ وماذا لو عثرنا بين أوراقه على إشارة لمرجع ما، أو عنوان، أو قائمة بالثياب التي ينوي إرسالها إلى الغسّال؟ هل هذه كتابة أم لا؟ وإذا قلت لا، فلم لا؟

وهكذا إلى ما لا نهاية. كيف يستطيع المرء أن يجزم ما هو (العمل) في ركام ملايين الأشياء التي يخلّفها الكاتب وراءه بعد موته؟ لا توجد نظرية تهدينا إلى ما هو (العمل). لذلك فإن مهمة هؤلاء الذين يعكفون على جمع أعمال الكتّاب والفلاسفة وتبويبها وشرحها، مهمة عسيرة.

الفصل التاسع

ميشيل فوكو

ميشيل فوكو (Michele Foucault)، قطبٌ آخر من أقطاب ما يُسمى بـ (الحداثة). ولد عام ١٩٢٦، ومات عام ١٩٨٤. وكان حتى وفاته أستاذاً في الـ (كوليج دي فرانس) في باريس. يُوصف بأنه فيلسوف وعالم اجتماع ومؤرخ لتطور الفكر. ورغم أنه كان يتبرأ من أنه (بُنْيوي)، فإنه يُصنَّف بين (فلاسفة ما بعد البنيوية).

ويقول شُرّاح فلسفته، إنه بينما لجأ (لفي شتراوسْ) - وهو زعيم البُنيويين - كما لجأ (رولان بارت) في مرحلته الأولى - إلى علوم اللسانيات لابتداع نظرية نمطية، فإن (فوكو) لجأ إلى تاريخ المؤسسات السياسية والاجتماعية.

كان يتشكك في وجود أية حقائق مطلقة أو إيديولوجية قابلة

للتطبيق في كل الأحوال، ولا يؤمن أن بالإمكان إقامة مجتمع يسود فيه العدل. ويقول:

«يبدو لي أن من الصعب الاستفادة من فكرة الإيديولوجية أولاً، لأن الإيديولوجية سواء أرضينا أم أبينا، دائماً تستند إلى نقيض، إلى فكرة أخرى تزعم أنها هي الحقيقة. بالنسبة لي، القضية ليست في التمييز بين حقيقة وغير حقيقة. القضية هي أن ترى في مسار التاريخ آثار تلك الحقيقة في سياق طرْح ليس حقاً ولا باطلاً.

ثانياً، مفهوم الإيديولوجية، يشير بالضرورة إلى شيء له صفة موضوعية. وثالثاً، الإيديولوجية تقف في وضع نسبي إلى شيء له طبيعة الأساس للبناء ـ مادتُها وحتميّتها الاقتصادية إلى غير ذلك (...).

قضية القهْر، قضيّة أكثر صعوبة... إنها تبدو بالفعل، كأنها تطابق عدداً من الظواهر، التي تدخل في نطاق آثار العنف. حين وضعت كتابي «الجنون والحضارة»، استعملت هذا المفهوم الظاهري للقهر (...) ولكن يبدو لي الآن، أن ذلك لا يكفي لفهم الجانب الخلاّق لـ (السلطة).

حين نحدّد معنى (السلطة) على أنها (قهر)، فنحن نطبّق مفهوماً قانونياً بحتاً لمعنى السلطة. نربط السلطة بالقانون الذي يقول (لا). السلطة تعني هنا في المقام الأول، سلطة المنْع.

أنا أرى الآن، أن هذا فهم سلبي جداً. فهم ضيّق وسطحي لمفهوم السلطة. وهو فهم شائع، للغرابة. لو كانت السلطة قهريّة فقط، لو

لم تفعل شيئاً سوى أن تقول (لا)، هل تظن أن أحداً كان سوف يطيعها؟ الذي يجعل السلطة محتملة ومقبولة، هو أنها لا تقتصر على الحظْر، بل تفعل أشياء أخرى. أشياء تجلب المتعة وتُنتج المعرفة وتشجع تبادل الأفكار والحوار والجدل. يجب أن يُنظر إلى مفهوم السلطة على أنها شبكة إنتاجية تشمل جسد المجتمع بأكمله (...).

النُّظم الملكية في الحقبة الكلاسيكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، طورت نظاماً متكاملاً للدولة ـ الجيش والشرطة والإدارة المالية. وأهم من ذلك أنها ابتكرت ما يمكن أن يُسمى (الاقتصاد الجديد للسلطة). أي أنها ابتدعت إجراءات جعلت آثار السلطة تصل إلى أعضاء الجسم الاجتماعي كلها، بطريقة متصلة غير متقطعة، بالإضافة إلى أنها استطاعت أن تتكيّف حسب مقتضيات الظروف...».

هذا، وقد أثار هذا الموقف على (فوكو) سُخط أتباعه من اليسار. وهو موقف لم يثبُت عليه، فقد تأرجح بين ما ينمّ عن إعجابه بالسلطة، وخوفه من بعض مظاهر استعمالها، مثل العنف ضد الخصوم السياسيين.

وموقفه برمّته متناقض، لأنه لم يكن يؤمن بـ (الطبيعة الإنسانية). وقاده ذلك أن يقلل ضمنياً، من أهمية (المجتمع). وواضح أن السلطة السياسية تفترض وجود مجتمع. وقد رفض صراحة إمكان قيام مجتمع يسوده العدل.

في مواجهة له مع عالم اللّسانيات الأُميركي (ناعوم شومسكي)، قال شومسكي:

«علينا أن نسعى إلى إيجاد تصوّر لمجتمع عادل في المستقبل، يقوم قدر المستطاع على عاطفة إنسانية ثابتة، تنبع من إدراكنا لروح الإنسان وطبيعته».

وكان ردّ (فوكو):
«من مظاهر فلسفتنا السياسية في الغرب، إننا مغرمون بهذه النظريات المطلقة... القوانين العامة والطوباويات... يجب أن تكون مهمّتنا، أن نضرب صفحاً عن هذه المشاريع الطوباوية، هذا البحث عن القواعد الثابتة والقوانين العامة... مهمّتنا يجب أن تكون في أن ننقُد عمل المؤسسات التي تبدو محايدة ومستقلة. ننقدها لكي نكشف ونعرّي العنف السياسي الذي ينتج عنها (...).

يبدو لي أن فكرة (العدل) هي في جوهرها، سلاح صنعته سلطة سياسية أو اقتصادية معينة لتحمي به نفسها، أو سلاح اخترعته جهة أخرى لتستعمله ضد تلك السلطة... لا يمكنني مهما كان ذلك مؤسفاً، أن أدعو لفكرة كهذه ـ العدل ـ من شأنها أن تقوّض مجتمعنا من أساسه...».

■ ■ ■

يقول العالم الفرنسي (ميشيل فوكو) في ختام مقالته التي أسماها (ما هو المؤلف؟): «ربما يجوز لنا الآن، أن نتمعن مسألة الكتابة، لا من حيث فحواها أو تنوعها فحسب، ولكن أيضاً، من حيث تحولات صيرورتها. ولا يخفى أن سبل تداول النص وتقييمه ونسبته وملكيته، تختلف باختلاف الثقافات، وتختلف حتى ضمن تلك الثقافات.

نستطيع أن نفهم دون صعوبة، علاقة القوانين الاجتماعية بأنماط

التعبير، وفي ما يتعلق بي، أستطيع أن أقبل النشاط الوظيفي للكتابة، والتحولات التي يتعرض لها هذا النشاط. لكنني لا أستطيع أن أعطي أي أهمية لأية معانٍ أو مفاهيم، تُعزى لهذا النشاط.

بوسعنا، حين نتّبع هذه الطريقة في التحليل، أن نعيد النظر في مقوّمات (المؤلف)، ليس بهدف استحضار الشخص الذي صدر عنه العمل، ولكن لكي نفهم، متى وبأية طريقة، تدخّل (المؤلف)، وما هي طبيعة وظيفته.

حين نفعل هذا، فإننا نقلب المُشكل القديم رأساً على عقب، ولا يعود السؤال: كيف يستطيع أن يدخل عنصر من الخارج على النص ويعطيه معنى؟ أو: كيف يستطيع هذا العنصر أن يحرّك اللغة من داخلها ويمنحها مرامي وأهدافاً هي من طبيعتها أصلاً؟

بدلاً من ذلك، تصبح الأسئلة هكذا: كيف، وفي أية ظروف، وبأية أشكال، يظهر (المؤلف) في نسيج الكتابة؟ ما هي المكانة التي يحتلها في كل نوع من (الخطاب)؟[1] ما هي الوظائف التي يؤدّيها؟ ما هي القوانين التي يخضع لها؟

باختصار، يصبح الأمر متعلّقاً بحرمان (المؤلف)، أو من يحل محله، من دوره كمصدر للعمل.

كذلك توجد دوافع ترتبط بالوضع (الإيديولوجي) للمؤلف. حينئذٍ يكون السؤال: كيف يمكن مقاومة الخطر العظيم، خطر الكتابة القصصيّة الذي يتهدّد عالمنا؟ الجواب هو: نقاوم الخطر بمصادرة دور المؤلّف.

هذا سوف يمكّننا من الحد من الانتشار السرطاني المخيف لـ (الإشارات)[٢] في وقت يتحتم علينا فيه أن نقتصد، ليس فقط في المال، ولكن أيضاً في الأقوال والإشارات. يجب أن يكون المؤلف هو الهدف الأول لأي جهد يسعى إلى الحد من انتشار المعنى. يجب علينا أن نغير كليّة الصورة القديمة عن دور المؤلف.

تعوّدنا أن نعتبر المؤلف مصدر العمل الكتابي، وأنه هو الذي يتفضل علينا به بكرم وسخاء. ثروة لا تنفد من المعاني. وتعودنا أيضاً أن ننظر إلى المؤلف على أنه من طينة غير طينة البشر. ما أن يفتح فمه حتى تتدفق المعاني بلا توقف.

الأمر عكس ذلك تماماً في الحقيقة. المؤلف ليس نبعاً لا ينضب من المعاني. المؤلف لا يسبق عمله. إنه ليس أكثر من (وظيفة)، نستغلها في ثقافتنا للفرز والاختيار والرفض. باختصار، إنه العامل الذي نوقف به التدفق السائب، والتلاعب الصريح، والتوليف والتفكيك وإعادة التجميع، للإنتاج الكتابي.

نحن متعوّدون على أن ننظر إلى المؤلف على أنه عبقري، لا حدود لقدرته على الابتكار. وذلك لأننا نطلب منه أن يكون عكس ما هو...

حين أقول ذلك، فكأني أطلب وجود نوع من الثقافة، يتحرّك فيها العمل وينتشر، بمعزل عن شخص المؤلف. لكن ذلك مطلب عسير، محض وهم، أن نتصوّر ثقافة تتحرك فيها الأعمال الروائية في حالة من الاستقلالية الكاملة، وتنمو وتتطور وحدها، دون وجود شخص أو أشخاص يتحكّمون في مسارها.

لا شك أن المؤلف، قام منذ القرن الثامن عشر، بدور العامل المنظّم لتدفق العمل الكتابي، وهو أمر اقتضته ظروف المرحلة الصناعية، وطبيعة المجتمع البرجوازي. وكان ذلك مطابقاً أيضاً لما أخذ به المجتمع من احترام للفردية والملكية الخاصة. لكن ذلك تغيّر بفعل التحولات الاجتماعية. لم تعد وظيفة المؤلف كما كانت، بل لم تعد الحاجة تدعو لها أصلاً.

إنني أعتقد أن (المؤلف) سوف يختفي، وسوف تحدث الكتابة المتعددة الإشارات بوسيلة لا سيطرة للمؤلف عليها.

حينئذٍ تصير الكتابة همهمة مجهولة المصدر. حينئذٍ لن نسأل تلك الأسئلة القديمة المعادة: من الذي يتكلم؟ هل هو حقيقة أو شخص آخر؟ ما مدى ابتكاره؟ ما مدى صدقه؟

سوف نطرح أسئلة أخرى بدلاً عن تلك الأسئلة. ما هي تقلبات أحوال هذه الكتابة؟ كيف تؤثر؟ كيف تنتشر؟ هل توجد فيها ثغرات تسمح بنفاذ مؤلفين مُحتملين؟

هل يوجد أحد تنطبق عليه صفات (الشخص ـ المؤلف) كلها؟

ووراء كل هذه الأسئلة، سوف نسمع صوتاً لا مبالياً يقول (ماذا يهم من الذي يتكلم؟)».

الهوامش

(١) يُترجم الحداثيون العرب كلمة Discourse الإنجليزية، أو كلمة Discours الفرنسية، إلى (خطاب). وقد تجنّبتُ استعمالها في هذه الترجمة قدر المستطاع. وهي قد تعني (قول) أو (كلام) أو (كتابة) أو (إبانة). وهي عند (ميشيل فوكو): مجموعات كبيرة من التعابير ذات احتمالات استراتيجية!

(٢) إشارة، Sign وقد يترجمونها (علامة) أو غير ذلك. وهي من ركائز علم (السيميولوجي). وعند بعضهم إن الإشارة أو العلامة، هي الاسم الذي يُعرَّف به شيء ما. وعند (سوسور) وهو شيخ السيميائيين أنها (كيان سايكولوجي ذو جانبين، أحدهما (مفهوم) والثاني (صورة صوتية)!).

نبذة عن المؤلف

ـ ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

ـ تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

ـ عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

ـ التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

ـ متزوج وله ثلاث بنات.

ـ من مؤلفاته:

نخلة على الجدول.

دومة ود حامد.

عرس الزين.

موسم الهجرة إلى الشمال.

مريود وضو البيت.

مختارات

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!

الطيّب صالح

٣

الشرق: حديث وتفرد للمدن

RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٣

للمدن تفرد وحديث: الشرق

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

CITIES ARE UNIQUE, EACH TELLS
A DIFFERENT TALE
(EAST)
By
El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in March 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21194-7

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: آذار/مارس ٢٠٠٥

الإهداء

إلى أخواني وأصدقائي: بشير محمد صالح، صلاح أحمد محمد صالح، عبد الرحيم الرفاعي، محمود سالم، رجاء النقاش ـ لودهم الذي لم ينقطع ولطفهم الذي لم ينضب

المحتويات

١ - بغداد	١١
٢ - صنعاء	١٥
٣ - الرياض	٢٣
٤ - مكة المكرمة	٤٥
٥ - جدّة	٥٣
٦ - المدينة المنورة	٦١
٧ - تونس	٧٣
٨ - القاهرة	١١٣
٩ - حلوان	١٢٣
١٠ - دلهي	١٢٧
١١ - بانكوك	١٤١
١٢ - سيدني	١٧٣

١

بغداد

حين قدمت على بغداد كانوا قد عينوا عبد الحسين زويلف لتوهم مديراً لجهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أن مكتب اليونسكو الإقليمي في عمان، الذي يرأسه الدكتور محمد إبراهيم كاظم، قد جنّدني في هذه المعركة. أن أكون أمياً بين الأميين، يا له من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة، كم أنا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق إلى المغرب، وفي كل بلد كنت أكتشف أشياء جديدة. لقد طوفت هذا العالم المتنوع الجميل عدة مرّات من قبل، وظننت أني أعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، أنني لم أعرفه حقاً لأنني لم أنظر إليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الأميين. أكثر من مائة مليون أمي في العالم العربي! معنى ذلك أنك لن تستطيع أن تصنع تنمية، ولا أن تقيم حاضراً ولا مستقبلاً. لن تستطيع أن تحقق شيئاً من هذه الأحلام الجميلة التي تعنّ لهؤلاء الناس الأكابر. وإذا صدّقنا شعار

منظمة اليونسكو، وهو حق «بما أن الحرب تنشأ في عقول البشر، فلا بد من إقامة حصون السلام في عقول البشر» فمعنى ذلك أنك لن تستطيع إقامة أي من هذه الحصون، إلا إذا فتحت كل هذه العيون المغمضة.

كانت بغداد جميلة كعهدها، بل كانت أجمل. كان سوق «المربد» عامراً وتبارى الخطباء والشعراء وألقى محمد الفيتوري قصيدته العصماء «لم يتركوا لك ما تقول».

تنفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وجففوا دموعهم. الحزن دائماً قريب من السطح في طبع العراقيين الأريحي، ولكنهم تناسوه وأخذوا ينظرون إلى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفاً. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الأميّة.

توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدأت الأميّة تزحف من جديد، حتى وصلت الآن إلى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديراتنا. إلا أن عبد الحسين زويلف كان واثقاً أنهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراءهم تجربة عظيمة، والحملة التي قاموا بها، أصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي.

استقبلني بابتسامته الودود ووجهه الطيب، ورافقني طوال إقامتي، وكان سعيداً متفائلاً. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطه يس إسماعيل، الذي كان رئيساً للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. لاحقوا الأميين في كل مكان، في الأهواز حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب البدو.

في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الأمية قضاء تاماً. وكما تتحول أحداث الحروب إلى أساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الأميّة، إلى أسطورة مثيرة في خيال عبد الحسين زويلف.

قصدت الكويت بعد بغداد، وهنالك لقيت عبد العزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية في وزارة التربية. رجل آخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل أخيه في بغداد تماماً. كأنه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة أن كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الأمية في العالم العربي، هم من طينة واحدة. الطيبة ودماثة الخلق وحب الخير والإيمان العميق بقيمة الإنسان.

بعض المهن والحرف تفعل هذا الأثر في أصحابها. الأطباء، على وجوههم شيء ما، كأنهم يعرفون سراً لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما رأوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث أمام أعينهم يوماً بعد يوم، هذه الكتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل أن تصنع منها التماثيل، فجأة تنطق وترى. الرجل في السبعين، والمرأة في الستين، بعد أمد من الظلام، تنحلّ لهم الرموز، وتنفكّ ألغاز الحروف. ك.. ت.. ب.. /كتب/ ع.. ر.. ف.. /عرف/.

نظرت مع عبد العزيز النجدي في فصول محو الأمية إلى وجوه الأميين، رجالاً ونساء، فجأة تشعّ بالحياة حين يقرأون ويكتبون، ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام إلى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المرأة ماذا يجديها أن تتعلم الآن؟ إنها تلك الرغبة المتأصلة في الإنسان أن يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة أفضل مع الآخرين، إلا أن معظم الذين يقبلون على فصول محو الأمية تحدوهم أيضاً

رغبات مُلحّة لتحسين أوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الأمية، وهو أحسن جهاز رأيته في البلاد التي زرتها. كان معدّاً إعداداً عالياً، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الأمية، من الكويتيين وغيرهم.

تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت أن أعرّج على دار كريمة وأسلّم على ساكنها الكريم، الأستاذ عبد العزيز حسين. كان رئيسنا طوال أربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الأيام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الأعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحبة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الإنسان الفذ. ومهما يكن فإن تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم إلى الإنجليزية والفرنسية، سوف يظل أثراً جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومأثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غذّت بي الطائرة نحو صنعاء. هنالك سوف ألقى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف أجد صديقي عبد العزيز المقالح. وسوف أزور «حجة» وأرى العيون اليمانية تضيء بالذكاء من ثنايا البراقع.

في العالم العربي، عالم الأميين على الأقل، عالم واحد.

١٥

٢

صنعاء

في صنعاء، وجدت محمد المضواحي رئيس جهاز تعليم الكبار ومحو الأمية، كما توقعت. التواضع الجم، ودماثة الخلق، والروح الخيّرة التي تضيء الوجه وتطل من العينين، مثل كل العاملين في هذا الميدان، أصغر سناً من عبد العزيز النجدي في الكويت، وعبد الحسين زويلف في العراق، لذلك فهو أكثر منهما اندفاعاً.

المشكلة في نظره واضحة، والحل واضح. الأمية هي الوباء الذي يجب أن تحشد لمحاربته كل الطاقات وتسخّر كل الإمكانات. لقد بذل اليمن جهداً لا يستهان به، ولكن الحكومات تنظر إلى الأمور من زاوية مختلفة. لا بد من توفير الغذاء للجياع، والعلاج للمرضى، والعتاد للجيوش. وثمة التعليم النظامي، المدارس والمعاهد والجامعات. وإذا كانت الموارد محدودة، فكيف تصنع؟

قابلت في رحلتي بعد ذلك مسؤولين يرون الأمر بخلاف ما يراه محمد المضواحي. يقولون لك إن المشكلة سوف تختفي من تلقاء نفسها حين يعم التعليم النظامي، التعليم عندهم هو الذي يكون بين جدران المدارس، أما فصول محو الأمية، وناس يتعلمون في العراء تحت الشجر، والقوافل المتنقلة، والدروس المسجلة على الفيديو والكاسيت، وتجيء عبر الراديو والتلفزيون إلى غير ذلك من الأفكار الجديدة، فهذا في رأيهم ليس تعليماً. وتسألهم:

«وماذا يحدث حتى يعم التعليم النظامي؟ ماذا تصنعون بأعداد الأميين التي تتزايد يوماً بعد يوم؟ ما هو مصير أولئك الذين يقطعون تعليمهم في سن مبكرة لسبب أو لآخر، ثم يرتدّون إلى الأميّة؟».

ويجيبونك بأنه لا مناص للدولة من أن تضحي بهؤلاء في سبيل إعداد أجيال متعلمة تعليماً صحيحاً في المدارس النظامية.

منظمة اليونسكو كانت المنظمة الدولية الوحيدة التي رفضت هذه الفلسفة الممعنة في القسوة. المنظمات التي بيدها المال مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، كانت تؤكد على التنمية الاقتصادية، وتؤمن بأنك إذا وجدت الحل لمشكلة الفقر، فسوف تحل المشاكل الأخرى من تلقاء نفسها.

بدأ الحال يتغيّر. أخذت هذه المنظمات تميل إلى وجهة نظر اليونسكو، وتقبل بأن الإنسان الأمي الذي يعيش الآن، لا يعزيه أن الأجيال القادمة سوف تكون متعلمة، وأن له الحق هو أيضاً في أن ينمي الطاقات العقلية والروحية التي منحه الله إياها إلى أقصى مدى، وأن التنمية الاقتصادية التي تبنى على الأمية والجهل، إنما تقوم

على رمال. لذلك فقد أعلن المجتمع الدولي عام ١٩٩٠، بداية عقد مكافحة الأميّة في العالم، بأمل القضاء عليها كلية بنهاية القرن وهو مطلب عسير، ولكنه ليس مستحيلاً، إذا صدقت النيّة وصح العزم. لو تحقق الحلم، فسوف تكون البشرية ككل، قد أنجزت أول ثورة حقيقية في تاريخها. يوجد مليار، ألف مليون أمي في العالم الآن. يوجد مائة مليون طفل لا أمل لهم في الحصول على التعليم النظامي، تصور أي ظلام يلف هذا الكوكب: أي طاقات بشرية معطلة!

وربما لأول مرة يعترف المجتمع الدولي ككل، أن التنمية الاقتصادية ليست هي كل شيء، وأن تنمية قدرات الإنسان العقلية والروحية، وإعطاءه المهارات الضرورية لمواجهة الحياة، لا تقل أهمية عن التنمية الاقتصادية، إن لم تزد عنها في الأهمية. وقد جاء في ورقة العمل الرئيسية التي قدمت في المؤتمر العالمي حول «التربية للجميع»، الذي عقد في تايلاند في آذار (مارس) ١٩٩٠ ما يلي:

«إن التنمية البشرية هي في صميم أي تحرك إنمائي، وإن التربية لكونها عبارة عن تسليح الأفراد من خلال توفير المستويات الأساسية من التعليم، هي حق من حقوق الإنسان، ومسؤولية اجتماعية».

وتقول الوثيقة في مكان آخر:

«إن حلقة الوصل بين التربية الأساسية وتنمية الأفراد والمجتمعات تعتمد على تحصيل مستويات التعلم المطلوبة، لا على مجرد الالتحاق أو الاشتراك في البرامج التعليمية أو الحصول على الشهادات.. يجب أن تتاح لكل الأطفال واليافعين والشباب فرصة

بلوغ مستوى مقبول من التعلم من خلال الفرص المتاحة في التربية الأساسية... عدم توافر فرص الالتحاق في المدارس النظامية يجب ألّا يمنع أي طفل من الحصول على أساس تربوي مشترك يؤهله للحياة أو للتعلم في المستقبل...».

هذا يعني الاعتراف بأمرين. أولاً أن التنمية البشرية هي الأساس في التنمية الاقتصادية ولا تنمية بشرية مع الأمية. وثانياً أن التعليم النظامي، بشكله التقليدي، لا يستطيع وحده حل المشكلة. لا بد من استعمال وسائل جديدة متنوعة، وخاصة وسائل الاتصال الجماهيرية مثل التلفزيون في التصدي لهذه المشكلة الكبيرة.

هذا أيضاً يعني أن محمد المضواحي ورفقاءه العاملين في ميدان محو الأمية في العالم العربي، ومن على شاكلتهم في أنحاء العالم الأخرى، كانوا أبعد نظراً من البنك الدولي وغيره من المنظمات الدولية. لقد مارسوا المشاكل عن قرب، ورأوا الحلول تتكشف لهم على هيئة معجزات تحدث بين أيديهم كل يوم. المشاكل والحلول ليست إحصائيات ونظريات وتصورات يصنعها أناس أذكياء في أماكن بعيدة، إنهم يرونها ماثلة أمامهم في هيئة رجال ونساء يعرفونهم بأسمائهم. كل واحد منهم مثل حبة القمح في كوم القمح، قائمة بذاتها وتنطوي على سر عظيم. غداً سوف تبدأ هذه العوالم المغلقة تبوح ببعض أسرارها. تتحسس طريقها في الظلام. تأخذ في فك طلاسم الحروف. حينئذ ينشأ ضوء يغمر وجوه الأميين، وينعكس على وجوه الذين ساعدوا على حدوث المعجزة مثل محمد المضواحي ومن على شاكلته من عباد الله الأبرار.

■ ■ ■

تسافر من صنعاء إلى الرياض، فكأنك تعبر الجسر من أم درمان إلى الخرطوم بحري، أو من الأعظمية إلى الكاظمية أو من الرباط إلى سلا. تركت صنعاء البلقاء قاصداً الرياض العصماء، وحين تسافر بالطائرة هكذا، تبدو لك هذه العواصم العربية كأنها أحياء في مدينة واحدة. تلمّ بها ليلاً أو نهاراً. الأضواء أوضح هنا، والمطار أكبر هنا، البيوت أسوأ حالاً في مكان، والمآذن أكثر ارتفاعاً في مكان. هنا يبنون بالحجر الأبيض، وهنا يبنون بالطوب الأحمر، وهنا يبنون بالطين الأخضر، وهنا يبنون بالاسمنت والزجاج والحديد. هنا رواب مخضرّة، وهنا صحارى مصفرّة، وهنا نهر جار، وهنا بحر أجاج. وحين تسمع نداءات المؤذنين في الفجر، لا تكاد تميّز أين أنت. الله أكبر في القاهرة كما الله أكبر في بغداد.

جموع تتزاحم في الشوارع والأسواق، أمواج من محيط واحد وحقيقة واحدة. ثوب من نسيج واحد ولكنه متعدد الألوان. ويا لها من ألوان مدهشة إذا نظرت إليها بعين الرضى. إنما لا تتعجل شروق الشمس، ولا تمزق الثوب لأنك تضيق بتعدد الألوان.

في صنعاء ذات القوام الرشيق والسَّمت المميز، لقيت فيمن لقيت، صديقي سيد أحمد الحردلو، الشاعر الموهوب، الذي كان سفيراً ناجحاً للسودان في اليمن. وجدت أنهم خلعوه من عمله. كل عهد تجود به علينا الأيام، لا تقر عينه، حتى يعزل أفواجاً من السفراء والضباط والوكلاء والمدراء ومن هم أدنى من ذلك. كأنهم يقلعون أشجاراً بدأت تثمر ليزرعوا مكانها أشجاراً أخر. وينتظرون الحصاد، ويقولون إن ذلك لأجل مصلحة الوطن. إنه يعلم أنك لا تذبح الناقة الحلوب، ولا تعقر الجمل الطروب.

«رُفاعة الرُّبُة قافاها البليب طربان»(ه).
ذاك جمل الشاعر الشكري، الذي لو عقره لما قضى وطراً.

وقد قال أبو العلاء رحمه الله:

أأرجــو لــهــا شــراً ولم أر مــثــلــهــا
ســفــائــر لــيــل أو ســفــائــن آل
وهــنَ مُــنــيــفــاتٌ إذا جُــزْنَ واديــاً
تــخــيــلــتُنا مــنــهــنَّ فــوق جــبــال

ذاك وقد قضيتُ أياماً عامرة مع الأميين بصحبة محمد المضواحي. في اليمن أيضاً قاموا بحملة وطنية لمحو الأمية بدأت عام ١٩٨٢، شاركت فيها الهيئات الحكومية والشعبية والشرطة والجيش، وكادوا يبلغون الهدف. وقد طبقوا النظرية التي بلورها الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وأحسنوا الاستفادة من الجهاز العربي لمكافحة الأمية وتعليم الكبار. إلا أنهم لسوء الحظ ضعفت حماستهم بعد ذلك كما فعلت دول عربية أخرى، فأخذت الأمية تزحف من جديد.

أثناء ذلك جددت العهد بصديقي الدكتور عبد العزيز المقالح،

(ه) رفاعة مدينة على النيل الأزرق جنوب شرقي الخرطوم على أطراف البطانة. ديار قبيلة الشكرية العتيدة.
الربة، أي أن سكانها خليط.
قافاها، أي تركها وراءه.
البليب، اسم جمل الشاعر، ود عوض الكريم، ربما لجمال لونه الأبيض، مثل الفضة.

الشاعر العالم الأديب، مدير جامعة صنعاء، وهو أحد الرجال الذين يعتد بهم في العالم العربي. وقد زاد من سعادتي أنه هيأ لي لقاءات مع الطلبة والأساتذة في الجامعة، استفدت منها أكثر مما استفادوا مني. كذلك سعدت بلقاء الأخ حسن اللوزي، الوزير الشاعر. وقد وجدت عندهم أخي سليمان العيسي، الشاعر الكبير ذا الخيال الجموح والقلب الخفّاق، وقد أهدى إليّ أبياتاً من شعره، جادت بها قريحته عفو الخاطر، ما وددت أن لي بها حمر النعم، يقول فيها:

دعنا إذاً في قاعِ قاعِ النيل
نخرج من «مغطسنا» الطويل
نخرج يوماً يا أخا «القيل»
ليس على الله بمستحيل

ثم سافرنا إلى «حجة» على بعد قرابة أربع ساعات بالسيارة، في طريق متعرجة تصعد في جبال جرد تحتها أودية خضر. ولما بلغنا «حجة» إذا بلدة عامرة تشرف علىمناظر تخلب اللّب. أصبنا الغداء في نزل على ربوة جميلة ثمّة، كانت تتوافد عليه قوافل من السياح الألمان والطليان والأمريكان وغيرهم. يا سبحان الله. جمال بلاد العرب يتمتع به الناس من الشرق والغرب، وأهله عنه في شغل.

طفنا بعد ذلك بصفوف مكافحة الأمية، رجالاً ونساء أذكر منها على وجه الخصوص، صفاً للنساء، تراوحت أعمار النساء فيه بين العشرين وأقل، وما فوق الخمسين، ووجدنا صبية في الحادية عشرة، فضّلت صف محو الأمية على المدرسة النظامية، لأنها أنست أكثر إلى مدرسة محو الأمية، ولأن أختها التي تكبرها سناً كانت في فصل محو الأمية. وقد وجدت في ذلك دليلاً على أن التعليم يمكن

أن يتم حيثما اختار الطالب، وليس حتماً أن يقدم بين جدران المدارس النظامية.

وإنْ أنس لا أنس تلك العيون النجل المشعة بالذكاء، تطلُّ من ثنايا البراقع كأنما إلى أفق قريب المنال.

سوف نصل إن شاء الله. إنما لا تتعجل مولد الفجر. لا تتعجل مولد الفجر يا عمرك الله، فالأمر ليس بيدك، وكل شيء له أوان، النخلة لا تثمر قبل الموسم، والله غالب على أمره.

هذا وقد ابتعدت الطائرة من صنعاء واقتربت من الرياض. إنما هما في خيالي أجزاء من مدينة واحدة، سلام على تلك المدينة. وأنت أيها «الشاعر» لذْت بعالم الأطفال فراراً من عالم الكبار، كما ألوذ بعالم الأميين. أنت في معقلك في «تعز» آليت ألا تكتب إلا للأطفال. تكتب وتنتظر. أرجو ألّا يطول انتظارك، والسلام عليك إذ تقول:

إنــي ممــن يــبــحــثــون عــن رئــة
جــديــدة «الــلــدورة» المهــتــرئــة
أعــنــي بــهــا دمــاءنــا الــكــريمــة
فــي الأمــة المنــكــوبــة الــعــظــيــمــة

■ ■ ■

٢٣

٣

الرياض

أنت هنا في نجد، بأريج هوائها الذي دوّخ الشعراء منذ قال قائلهم:

وتحسب سلمى ما تزال كعهدنا
بوادي الخُزامى أم على رس أوعال

نجد التي ناجاها غيلان، وأطنب فيها الشيخ عبد العزيز. هواء رقيق الحواشي حتى في شهور الصيف. نعم تروق لي هذه المدينة الحسناء. تجد مطارها أول ما تصل، مفتوحاً على الأفق، كأنه امتداد له، لذلك فأنت لا تحس فيه بالاختناق الذي تحسه في بعض المطارات، وقد وفّق مصممو معماره في الجمع بين القديم والجديد، فأصبح دون شك تحفة من تحف المعمار المعاصر. ليس مثله مطار جدة، ذو الأجزاء المبعثرة، والأسقف كأنها خيام مقوّضة؟ وعلى

الجدران لوحات جميلة، بينها جدارية للفنان المغربي الشهير فريد بلكاهية، إذا مررت بها في صالة المغادرين للرحلات الدولية، فتريث عندها قليلاً، ففيها فن كثير. تصل، فتهبط في طريقك إلى حيث ختم الجوازات وتسلّم المتاع، إلى باحة فيها شلّالات ماء تنهمر على صخور ملساء، وأضواء رهيفة تصب على أشجار وزرع. يزداد عندك الإحساس بالرفاه والسعة.

كذلك الشوارع، وسيعة، وقد بذلوا جهداً كبيراً في زراعة النخل والشجر على جانبيها، توجد بقايا نخل قديم هنا وهنا، لم تفتك بها بعد الأبنية الحديثة. لعلهم أكثروا من الاسمنت والزجاج. ورغم أنني من أتباع الدكتور حسن فتحي رحمه الله، ولا يعجبني المعمار الحديث عموماً، إلا أنني لا أنكر أن بعض هذه الأبنية الحديثة ذات معمار طريف آخاذ. وإذا كانت دور الحكومة تميل إلى الضخامة، فلا بأس، لأن مساحة القطر شاسعة، والمقياس، الـScale الذي تقيس به، كبير أيضاً.

لكنك تدهش حين تدخل مبنى وزارة المعارف، فهو بناء قديم متواضع بمقاييس مدينة الرياض. وتدهش أكثر حين تدخل مكتب الوزير، الدكتور عبد العزيز الخويطر، فهو مكتب بسيط بكل المقاييس، كان واضحاً لي أنه فعل ذلك عن قصد وليس بسبب ضيق ذات اليد وقد سألته آخر مرة زرته، فأجابني ضاحكاً، أنه يؤثر أن يضع كل موارد الوزارة في المدارس. رجل كريم الخلق، جم التواضع، موطّأ الأكتاف، على دراية وعلم غزير. أعرفه منذ أيام دراسته في لندن في الخمسينيات، تعرفت به عن طريق الدكتور محمد إبراهيم الشوش، الذي كان يزامله في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن.

قضية مكافحة الأمية من اختصاص وزارته، فهو أيضاً رئيس اللجنة العليا لتعليم الكبار، التي تضم عدة جهات تعنى بذلك مثل وزارة الداخلية ووزارة الدفاع ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية والحرس الوطني والرئاسة العامة لتعليم البنات ووزارة الإعلام وغيرها. وهذه اللجنة تضع الخطة الشاملة لمحو الأمية، وتنسق الجهود التي تبذلها الوزارات والمؤسسات الخاصة.

ويعود التفات الدولة إلى قضية مكافحة الأمية في المملكة إلى عام ١٩٤٩، حين وجدت أن الضرورة تقتضي فتح صفوف مسائية للأميين في المدارس. وفي عام ١٩٥٤ انشئت إدارة خاصة لمحو الأمية وتعليم الكبار سميت «إدارة الثقافة الشعبية» كانت تتبع التعليم الابتدائي، ثم استقلت بذاتها، وأصبحت في عام ١٩٧٧ تعرف بـ«ادارة تعليم الكبار ومحو الأمية». وفي عام ١٩٨٥ ارتفعت إلى مستوى الأمانة العامة، وسميت «الأمانة العامة لتعليم الكبار».

هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على مدى الأهمية التي توليها المملكة العربية السعودية لقضية الأمية، فقد وجدتُ في بعض الدول التي زرتها، أن الجهاز المشرف على مكافحة الأمية، لا تتاح له الإمكانات البشرية والمالية اللازمة، وهذا يعني أن الدولة لا تضع قضية الأمية في درجة عالية في سلم أولوياتها. ولعل لهذه الدول بعض العذر إذ إن مواردها المحدودة لا تفي بكل الحاجات، ولا تتسع لكل المطالب المحلة. ورغم ذلك، فإن جميع المؤتمرات الدولية التي انعقدت لدراسة قضية الأمية، قد أوصت بأن تضع الدول قضية مكافحة الأمية في موضع بارز بين أولوياتها، وأن يكون الجهاز الإداري المشرف على جهود

مكافحة الأمية، على درجة عالية. هذا بالطبع يقتضي التزاماً من الدولة، كما يقتضي إصدار تشريعات وسياسات على أعلى مستوى.

المملكة العربية السعودية واحدة من الدول العربية التي فعلت ذلك فأصدرت التشريعات المطلوبة، وخصصت الموارد اللازمة. ويظهر عمق هذا الالتزام بوضوح، في كلمة قدم بها وزير المعارف، الدكتور عبد العزيز الخويطر، لكتاب أصدرته الوزارة عام ١٩٨٦، عن جهودها في مكافحة الأميّة، جاء فيها:

«والأمم تقاس من جملة ما تقاس به، باهتمامها بالالتفات لهذا الجانب، مجتمعاً وأفراداً، لأن التكاتف يأتي بالنتيجة السحرية المتوخاة، والتراخي إهدار لجهد أي من الطرفين، جهد المجتمع، أو جهود الأفراد المتناثرة... لهذا مجهود الدولة، وما ترصده من أموال، وما توفره من طاقات لا يستغرب. فهي الدولة المسلمة التي أشاد قرآنها، وهو منبع تعاليمها، ومصدر إرشادها ورشادها، بالعلم، وأكد أجر حامله وثوابه في الدنيا والآخرة، وحث على طلبه وتكريم حامليه...».

كل هذا حق، وثمة جهات أخرى غير وزارة المعارف، تقوم بجهد عظيم في مكافحة الأمية، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، وزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والحرس الوطني السعودي على وجه الخصوص، يقوم بجهد ضخم لافت للنظر، ربما يكون فريداً من نوعه، في مكافحة الأمية وإتاحة فرص التعليم إلى أرفع المستويات بين أفراده. ورغم ذلك فإن مشكلة الأمية لم تحلّ تماماً، ومعدلاتها ما تزال مرتفعة بالنسبة لمجموع السكان،

ذلك بلا شك، ليس بسبب أي تقصير من جانب الدولة، ولكنه يعزى إلى ظروف بيئية واجتماعية.

■ ■ ■

لم تتوقف جهود المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٤٩ للقضاء على الأمية. وهي جهود متنوعة شملت القطر كله وفق خطة عشرينية هي الآن في نهاية مرحلتها الرابعة.

تعرّفت على تنوع هذه الجهود وكثافتها، من مقابلاتي مع المسؤولين في وزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات والحرس الوطني، وغير ذلك من الوزارات والمؤسسات. وقد استفدت فائدة كبيرة من صحبتي للأستاذ محمد بن إبراهيم الفوزان الأمين العام لتعليم الكبار، والأستاذ محمد الحسين مدير محو الأمية في منطقة الرياض. كما زرت مؤسسات عدة، ليست معنية بقضية مكافحة الأمية بطريقة مباشرة، ولكنها تدخل في نطاق اهتماماتها التربوية والاجتماعية. من هذه المؤسسات برنامج الخليج العربي لمساعدة منظمات الأمم المتحدة، الذي يرأسه الأمير طلال بن عبد العزيز. هذا البرنامج الذي تدعمه دول الخليج، والمملكة العربية السعودية بصفة خاصة، أدّى وما يزال، خدمات جليلة للمجتمع الدولي في ميادين الطفولة والتنمية والاتصال وغيرها. ويرجع أغلب الفضل في نجاحه واتساع نشاطاته إلى الجهود الشخصية لهذا الإنسان الكريم، الأمير طلال، الذي ينفق من وقته وماله لتخفيف آلام البشرية في كل مكان. وقد نذر نفسه لهذا العمل النبيل بحيث أصبح الآن واحداً من هؤلاء الناس الأخيار الذين يُشار إليهم بالبنان في الأسرة الدولية. كذلك زرت الدكتور صالح بن ناصر في المجلس الأعلى لرعاية

الشباب الذي يرأسه الأمير فيصل بن فهد، والدكتور علي التويجري المدير العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج، كما قابلت في الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، الدكتور عبد الله الجاسر، والدكتور عبد العزيز جلال. ولم أغفل وسائل الإعلام والاتصال، وخاصة التلفزيون إذ إن كل الدراسات والمؤتمرات تجمع، على أن بوسع هذه الوسائل أن تقوم بدور فعّال في مساندة الجهود المبذولة لمكافحة الأمية، أعظم كثيراً مما تفعل الآن.

اتضح لي من هذه اللقاءات ثم من زياراتي لفصول محو الأمية برفقة الأستاذ الفوزان والأستاذ محمد الحسين، أن الجهد متصل في مكافحة الأمية، التي أجمع الناس على أنها داء وبيل لا بد من القضاء عليه. وقد سرّني أنني وجدت أنهم دائبون على مراجعة مخططاتهم في ضوء التجربة، وتقويمها واستخلاص العبر منها. وهكذا، فإنهم قد طوروا مناهج الدراسة وعدّلوا، حيثما اقتضت الظروف، الأساليب المتبعة فهم مثلاً يغلقون فصولاً أو مدارس في أماكن يجدون أن الحاجة لا تدعو إليها، ويفتحون عوضاً عنها فصولاً في أماكن أخرى. كذلك فهم ينظمون حملات موسمية في أماكن مختارة لمكافحة الأمية بين البدو الرُّحل، ويدعمون المؤسسات الحكومية والأهلية التي تفتح فصولاً لمحو الأمية للعاملين فيها، فيمدونها بالكتب والوسائل التعليمية، ويتابعون سيرها بالرعاية والنصح.

وقد أسعدني أيضاً، أنني وجدت أن وزارة المعارف تنظم حملات شاملة تساهم فيها وزارات أخرى مثل وزارة الصحة والزراعة، في أماكن التجمع السكاني في الريف والبادية، تقدّم فيها إلى جانب دروس القراءة والكتابة، دروس ومواد فلمية بغرض التوعية الصحية والدينية والاجتماعية. هذا ما يسميه الدكتور محيي الدين صابر

المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بـ«محو الأمية الحضارية». فهو يرى أن الأمية لا تقتصر على الجهل بالقراءة والكتابة، ولكنها تتعداها إلى جوانب أخرى لا تقل خطورة، تنضوي جميعاً تحت شعار «الأمية الحضارية». لذلك فهو يدعو إلى أن يصحب الجهد لتعليم الأميين القراءة والكتابة، جهود متزامنة لتعليمهم مهارات تمكنهم من رفع مستواهم المعيشي، وتفجير قدراتهم الكامنة بحيث يستطيعون أن يعيشوا حياة أكثر ثراء، ويكونوا مواطنين فاعلين يساهمون في تنمية البيئات التي يعيشون فيها، وبالتالي في نهضة الوطن عموماً. وهكذا تكون الحملة «شاملة» لأنها تتجه إلى كل أعراض الأمية والتخلف في وقت واحد. هذا «المفهوم» أصبح سائداً في الوطن العربي عامة، ومعمولاً به بدرجات متفاوتة من الجدية.

ومن السنن الحسنة التي استنتها وزارة المعارف السعودية أنها ابتكرت ما أسمته «الأسرة الوطنية لتعليم الكبار»، فقد أصدر وزير المعارف قراراً عام ١٤٠٤ هـ بتكوين لجان استشارية باسم «الأسر الوطنية» تكون ضمن جهاز التطوير التربوي، الهدف منها إسداء النصح للوزارة فيما يتعلق بتطوير المناهج وأساليب التعليم وغير ذلك، وهي تضم إلى جانب المختصين من وزارة المعارف، أعضاء يراوح عددهم في كل لجنة، ما بين ثمانية إلى خمسة عشر عضواً، يراعى في اختيارهم أن يكونوا من مناطق وخبرات مختلفة، ويحبذ أن يكونوا من أساتذة الجامعات والعاملين في مجال التربية والتعليم. وتعمل هذه اللجان مدة ثلاث سنوات. وتجدد عضوية بعض الأفراد إذا دعت الحاجة إليهم مدة أطول.

واضح من هذا، أن وزارة المعارف تعمل على توسيع الدائرة التي

تتلقى منها المشورة في أمور التعليم. والفكرة معمول بها لدى أغلب الدول العربية بأشكال عدة، ولكنها هنا أخذت شكلاً له مقومات الثبات والاستمرار. وقد أصبح من الأمور المقبولة الآن في العالم، أن تطرح قضايا التربية على جمهور أوسع من دائرة المختصين. وبعض الدول، مثل دول إسكندنافيا، تذهب حداً بعيداً في ذلك. ويصدق هذا بصفة خاصة على قضايا تعليم الأميين. والدراسات التي أجرتها منظمة اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمؤتمرات التي انعقدت لهذا الغرض كلها تؤكد على جدوى المشاركة الواسعة في صياغة الأهداف والخطط والوسائل للجهد القومي في التعليم. ويحمد لوزارة المعارف في المملكة العربية السعودية أنها بدأت تسير في هذا الطريق، ربما بشيء من الحذر وقد يأتي يوم تجد بين أعضاء هذه «الأسر القومية» أشخاصاً من غير الأكاديميين والمتخصصين. ربما يكون بعضهم من الذين تعلموا في فصول محو الأمية، ولم لا؟ لقد تخرج الآن بالفعل من هذه الفصول، أناس واصلوا سيرهم حتى نالوا شهادات الدكتوراه وأصبحوا أساتذة في الجامعات.

■ ■ ■

يقول الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، الأستاذ في كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض، في دراسة حسنة عن تعليم الكبار ومحو الأميّة في المملكة العربية السعودية:

«إن التغلّب على مشكلة الأميّة يعني بناء أمة قادرة على الإنتاج، تتكيف بالتغيّرات الحضارية، ذات قدرة ومهارة فنية، وذات آفاق

واسعة قابلة للتفاعل مع برامج التنمية. ميّالة للعمل الجماعي، مؤمنة بأهمية العلم والتعليم والتكنولوجيا، وناظرة للمستقبل أكثر من الماضي والحاضر».

ها هنا بالطبع تأكيد على الجانب التنموي في قضية مكافحة الأمية، وهو عين الصواب، وإنه الجانب الذي أخذ يلفت انتباه المنظمات الدولية التي تهتم بالتنمية أولاً وآخراً، مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية. وقد كانت هذه المنظمات كما قلنا، لا تكترث للأمية، وتعتبرها عرضاً سوف يزول بزوال الفقر. ثم اذّكرت بعد أمد أن الفقر لن يزول ما دامت ثمة أميّة.

أما أن الأمة تكون «ناظرة للمستقبل أكثر من الماضي والحاضر»، فهذا قول تختلف بصدده الآراء. ومن جميل ما قيل عنه، ما كتبه الدكتور محمد إبراهيم كاظم أستاذ التربية بجامعة الأزهر، ومدير مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية، في ورقة له عن «بناء القيادات لمواجهة تحديات العصر» قال:

«ومحاولاتنا لرؤية المستقبل إذن، إنما هي في صميمها تحليل منظومي أو نسقي للماضي والحاضر في محاولة لصياغة وتشكيل المستقبل. هذه الصياغة لا يمكن أن تنفصل عن تفضيلاتنا ورؤانا في الحاضر واستهدافنا لصياغة مقصودة ومفضلة لمكوّنات الأحداث والأشياء والأشخاص والأفكار حتى تقع وفق هذه الرؤية. والفرق بين الرجم بالغيب المنهي عنه، والدراسات المستقبلية التي نهتم بها من قبيل الاهتمام بأمور الجماعة والمجتمع، هو أن الدراسات المستقبلية تبدأ في ضوء الحاضر أياً كان، وأياً كان رأينا فيه، بتصور الصيغة التي تمثل تفضيلاتنا لمسارنا نحو المستقبل، وتبين أن هذا المستقبل، لكي يُرجَّح

وقوعه، يحتاج لتوفير مقوّمات ومكوّنات، كما يحتاج - إذا كان موقفنا إيجابياً - إلى الإيمان والعلم والحساب والخيال والأمل والطموح».

وأهم من محض التنمية عندي، أن الإنسان الأمي حين ينفض عنه أغلال أميته، فإنه يصبح هو نفسه، في حد ذاته، إنساناً أفضل، إنساناً أكثر انفتاحاً على آفاق الكون الرحبة وأسراره التي تُغري بالاكتشاف. ولا تعود حياته تقاس بعدد الأعوام التي قضاها على وجه الأرض، ولكن بدرجة عمق تجربته الفكرية والروحية، ومدى قدرته على التواصل مع نفسه ومع الآخرين ومع أصوات الحياة في الكون. وقد عبّر عن هذا المعنى أجمل تعبير المفكر البرازيلي الذائع الصيت، باولو فريري، في عبارة أوردها الدكتور محمد نبيل نوفل، في الفصل الجميل عن هذا المفكر في كتابه القيّم «دراسات في الفكر التربوي المعاصر»، يقول باولو فريري، وهو واحد من الأقطاب الذين جاءوا بمفاهيم عميقة طريفة، عن قضية الأمية في العالم:

«لا يمكن أن يكون الوجود الإنساني صامتاً. ولا يمكن أن يعيش على الألفاظ الجوفاء، بل يعيش على الكلمات الصادقة وحدها. الكلمات التي يغيّر الإنسان بها العالم. أن تعيش، إنسانياً، معناه أن «تسمّي العالم». أو بعبارة أخرى أن تدرك العالم، وأن تتخذ منه موقفاً إيجابياً، وأن تعمل على تغييره. وعندما «نسمي العالم» فإنه يبدو لنا كمشكلة تتطلب تسمية جديدة، أي أننا عندما ندرك العالم المحيط بنا، ونتعرف عليه وعلى التناقضات الموجودة فيه، حينئذ تبرز أمامنا مشكلات تفرض علينا أن نجد لها حلولاً. وحين يتغير العالم فإنه يناشدنا أن نتعرف عليه وندركه من جديد، وأن نتعامل مع الواقع الجديد ونحاول تطويره وحل مشكلاته باستمرار...».

«... الحوار لقاء بين الناس من أجل «تسمية» العالم، لذلك لا يمكن أن يقوم حوار بين من يريدون تسمية العالم ومن لا يريدون ذلك، بين من ينكرون على غيرهم الحق في معرفة العالم وتغييره، وبين من يريدون لأنفسهم ولغيرهم ذلك الحق. ومن ثم يجب على من حرموا هذا الحق في تسمية العالم، أن يستعيدوا أولاً هذا الحق الطبيعي، وأن يمنعوا استمرار هذا العدوان اللاإنساني».

وأول خطوة في سبيل استعادة هذا الحق، هي اكتساب القدرة على التعامل مع الرموز التي تتشكل منها «الأسماء». وقد بسطت لك قبلاً، كيف أن أول ما فعله الـ«أبوروجنيز» سكان أستراليا الأولون، منذ أكثر من خمسين ألف عام، أنهم «سموا الأسماء». ثم جاء الأوروبيون، ومحوا تلك الأسماء القديمة وفرضوا بدلاً عنها أسماء جديدة، وحالوا بين الـ«أبوروجنيز» وبين أن يستعيدوا في ذاكرتهم، الأسماء التي ضاعت منهم. وبهذا المعنى يمكن القول أيضاً، إن كل ما يشكو منه العرب اليوم، من تشويه لتصوراتهم عن أنفسهم، وازدراء بحضاراتهم، وتزييف لمساهماتهم الإنسانية في الماضي والحاضر، إنما يدخل في باب الحرمان من الحق المشروع لكل الناس في المساهمة في «صناعة الأسماء».

وعندي أيضاً، أنه ليس محض صدفة، أن العرب في جاهليتهم، كانوا يحتقرون القراءة والكتابة ويعدّونها ضرباً من السحر والكهانة. وقد تواترت أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما روي عن الشاعر النجدي النابغة، ذي الرمة(*)، أنه كان يُملي قصيدة على كاتب

(*) كان ذو الرّمة، واسمه غيلان، شاعراً إسلامياً. إلّا أن بعض عادات الجاهلية، ظلت في الإسلام، حتى انقرضت.

يكتبها له. ووجد أن الكاتب قد أخطأ في كلمة، فقال له: «اكتبها هكذا». فقال الكاتب متعجباً «أو تكتب؟» فقال ذو الرمة «نعم. ولكن اكتم عنّي».

هكذا كانوا يرون الجهل حسنة، ويرون العلم مسبة، فلا غرو أنهم عبدوا أصناماً لا تنفعهم ولا تضرهم.

إلى أن بعث الله سبحانه وتعالى إليهم، رسولاً منهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وتقول «ولكنه هو نفسه كان أمياً ولا يقرأ ولا يكتب».

بلى، ولكنك تعلم، أنه صلّى الله عليه وسلّم، كان له شأن آخر. كان قلبه العظيم مفتوحاً على أسرار الكون، يتلقاها من لدُنْ حكيم عليم. كان فوق الكلمات والحروف، لأنه مفتاح خزائن الأسرار، ومنبع تجليات الأنوار. ومع ذلك فقد كان يحض المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، وكان يعتق الأسرى لقاء تعليم عدد من المسلمين. وقد كانت تلك أول حملة لمكافحة الأمية في جزيرة العرب، بل وفي العالم.

■ ■ ■

تكثُر الأميّة في بعض أقطار الوطن العربي، إما لعدم اكتراث الدولة، وإما لعدم توفر الإمكانات، وإما للسببين معاً. ولكن في المملكة العربية السعودية، تجد الدولة ملتزمة التزاماً كاملاً بمكافحة الأميّة ومحاولة القضاء عليها، وقد عملت كل ما يتوقع منها عمله،

فأصدرت التشريعات، وأنشأت الأجهزة، ووضعت الخطط، ووفرت المال اللازم. ومع ذلك فإن إحصائيات منظمة اليونسكو تشير إلى أن معدّلات الأميّة في المملكة مرتفعة بحيث يصبح من غير المحتمل أن يُقضى على الأمية قضاء تاماً بنهاية هذا القرن. اللّهم إلا إذا بُذلت جهود أعظم من الجهود التي تبذل الآن، رغم عظمها، وإلا إذا أقحمت أسلحة إضافية في المعركة، مثل وسائل الاتصال الجماهيري وخاصة التلفزيون.

يذكر الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، في دراسته الحسنة عن مكافحة الأميّة في المملكة، سببين أساسيين أعاقا الجهد السعودي، أولهما هو:

«تأثير المناخ الاقتصادي المزدهر بالمملكة كعامل سلبي في جهود محو الأمية، إذ إنه يقلل من أهمية الحوافز المادية المقررة، كما يقلل في نظر الأميين، من أهمية التعليم كضرورة لتحقيق الرخاء الاقتصادي لعدم إحساسهم بالحاجة إليه ولانصرافهم إلى اغتنام الإثراء المُتاح بوفرة ويُسر».

حقاً، هذا عائق أساسي لأن من أهم الحوافز التي تدفع الأمّي إلى التعلُّم، الرغبة في تحسين حالته المعيشية. وإذا كانت حالته حسنة بطبيعة الحال، فما الذي يجعله يغامر بالدخول في عالم جديد عليه كل الجدّة، يتطلب منه بذل الجهد، وإعمال الفكر، خاصة إذا كان قد تقدّمت به السن، واستقرت حياته على وتيرة معيّنة؟

ويمضي الدكتور الحميدي في سبر هذه العلّة فيقول:

«ولا نستغرب هذه النتيجة في مجتمع كان وما يزال يطمح لتحقيق برامج طموحة، أتاحت فرصاً للعمل أمام جميع أبنائه، بما فيهم الأميون، دون أن تضع قيوداً أو شروطاً تمنع الأمّيين من الحصول السهل على العمل، بل والعمل المجزي مادياً، الأمر الذي جعل من العمل المجزي دافعاً لهم للعزوف عن الالتحاق بمدارس محو الأمّية».

هذا قول فيه نظر، وينطوي على تطرّف إلى النقيض ربما دفعت إليه حسن النيّة. أما أن الأميّة داء يجب القضاء عليه فذلك حق. وأما أن الأمي مُصاب يُعزل كما يُعزل الجمل الأجرب ويُحرم حق العمل، فذلك مذهب بعيد لم يذهب إليه أحد. وإذا كان صاحب العمل لا يأنف من تشغيل الأمّي رغم أميته، فلماذا تتدخل الدولة لتحول دون ذلك، مع العلم بأن حق العمل حق أساسي أقرته وثيقة حقوق الإنسان في المجتمع الدولي؟ لا. أفضل من ذلك ما هو متبع الآن ومعمول به في المملكة العربية السعودية وفي دول عربية أخرى. ذلك أن يُكافأ الأمّي على محو أميّته، فتحسن وظيفته ويرفع راتبه.

ثم يضيف الدكتور الحميدي سبباً آخر لا يقل أهمية عن السبب الأول فيقول:

«إن المكانة الاجتماعية للتعلم، وإن كانت قد بدأت تحتل موقعها الطبيعي في تيار التطور الحضاري المتوثب الذي يسود المملكة، إلا أنها لا تزال الأضعف تأثيراً في نظر العامة والأمّيين خاصة، بالقياس إلى نظرتهم الأخرى كالانتماء القبلي...».

نعم، هذا عائق كبير، يحول دون إزالة الأمية في كثير من البلاد العربية، ذلك لأن العُنجهية القبلية العربية، وهي خصلة قلّ نظيرها في العالم، تعطي الفرد، خاصة إذا كان ينتمي إلى قبيلة يُظن أنها ذات محتد وشرف، إحساساً بالتمييز لا يجد أنه يحتاج معه إلى أي شرف آخر. وعندنا في السودان، يرى «الجعليُّون» أنهم أشرف القبائل، وقد يكون «الجعلي» أمياً يخدم عند وزير من قبيلة أدنى في موازين الشرف القبلي في نظر «الجعليين» فيختال عليه تيهاً وفخراً. وهذا جرير يفخر على الفرزدق في بيته الشهير:

مُضرٌ أبي وأبو الملوك فهل لكم
يا خُزر تغلب من أبٍ كأبينا

كان جرير غفر الله له، ابن راعي غنم، وكان أبو الفرزدق رئيساً يشار إليه بالبنان، ومع ذلك انظر أي جرأة وعُنجهية!

ثمة عائق آخر يشير إليه الدكتور الحميدي عرضاً فيقول:

«أما ما يتبقى من الأميين، وخاصة من «النساء» وسكان الهجر والبدو الرحّل، فهؤلاء تجد الدولة مشقة كبير في جذبهم إلى برامج محو الأمية».

قضية الأمية بين النساء في العالم العربي قضية كبيرة، وإحصائيات منظمة اليونسكو تؤكد أن نسبة الأميّة بين النساء في العالم العربي، أعلى منها بين الرجال. والمملكة العربية السعودية من الدول العربية التي ترتفع فيها نسبة الأمية بين النساء بشكل لافت للنظر، رغم الجهود التي تُبذل لمحاربتها.

سوف نواصل الحديث في ذلك إن شاء الله. إنما هي جميعاً عوامل

متشابكة تؤدي في نهاية الأمر إلى ما اتفق على تسميته بـ«التخلّف»، والتخلف يساعد على استمرارها وفتكها بجسم المجتمع. إنها قيد متين ذو حلقات مترابطة، ولا بد من كسر القيد بوسيلة أو بأخرى، كي يستطيع المجتمع أن يسارع الخطى وينتج ويبدع، وقد يحلّق في آفاق لا تخطر على البال. وإذا كانت توجد وسيلة واحدة أنجح من غيرها، فتلكم التعليم.

■ ■ ■

ترتفع نسبة الأمية بين البدو وبين النساء، كما تقول الإحصائيات، والمشكلة ذات طابع خاص بين البدو، فالبداوة كما نعلم نهج حياة، ولها أصول قديمة، بعضها يعوق جهود محو الأمية مثل القيم القبلية التي أشار إليها الدكتور الحميدي في دراسته. وبعض الناس يتحمس لحالة البداوة الى حد المناداة بالمحافظة عليها، إذ إن فيها، على علاتها فضائل كثيرة.

لا يُنكر أن ثمة سحراً خاصاً في هؤلاء القوم، الذين ظلوا مرتبطين بتلك الفيافي الواسعة، وتلك الآفاق الممتدة كأنهم بقية من عهد غابر، وهو سحر جُذب إليه رجالاً ونساء من وراء البحر، أمثال «داوتي» صاحب «أرابيا دسيرتا» و«ثسجر» الذي طاف بالربع الخالي، و«ليدي هشتَرْ ستانْهوب» التي فضلت البادية على حياتها المرفهة في لندن. ويا ليت، تقول يا ليت، لو توقف الفلك عن الدوران، لو بقيت الأشياء على حالها كما كانت على عهد ذي الرّمة وأضرابه، لكنها سنّة الحياة، وهي خيارات صعبة ولا بد من ضياع شيء مقابل شيء.

ومهما يكن، فإن من أكبر الجهود التي تُبذل لمحو الأميّة بين البدو،

تقوم بها هذه المؤسسة الفريدة، الحرس الوطني السعودي. وبما أن معظم ضباط وجنود الحرس الوطني من أصول بدوية، فقد اكتسبت هذه المؤسسة بطبيعة ظروفها، مسؤوليات تربوية وثقافية واجتماعية بالإضافة إلى وظيفتها العسكرية.

وهكذا، فإلى جانب المعاهد العسكرية، أنشأ الحرس الوطني مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومدارس لتعليم المهارات مثل أعمال الصيانة وسواقة السيارات وغيرها. كذلك توجد مدارس عادية في المستوى الابتدائي والثانوي بعضها نهاري وبعضها مسائي. بالإضافة إلى ذلك توجد مدارس خاصة بمحو الأمية، تستوعب الأميين أول ما يدخلون الحرس الوطني وتعلمهم القراءة والكتابة ثم يواصلون دراستهم في أقسام المتابعة حيث ينالون الشهادة الابتدائية للكبار. بعد ذلك يجد الجندي الطريق مفتوحاً أمامه، لا يكاد يعوقه عائق عن الوصول إلى أقصى ما تسمح به قدراته.

يتم هذا النشاط بالتعاون الوثيق مع وزارة المعارف. وهو نشاط واسع، فعلى سبيل المثال بلغ عدد فصول محو الأمية في عام ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ هـ ١٦٧ فصلاً ضمت أكثر من أربعة آلاف دارس. وليس نادراً أن يقابل الإنسان ضباطاً كانوا أميين حين التحقوا بالحرس الوطني، ثم درجوا في مدارج التعليم انطلاقاً من فصول محو الأميّة إلى أن أرسلوا في بعثات تدريبية خارج المملكة، وقد تجدهم يتحدثون الإنجليزية والفرنسية.

يصاحب هذا بطبيعة الحال، تحوّل في أسلوب العيش بالنسبة لهؤلاء الشباب. بعد البادية والخيام والإبل، يجدون أنفسهم وذويهم يعيشون في مجمعات سكنية تتوافر فيها كل أسباب الحياة الحديثة.

ولا بد أنه تحول لا يخلو من بعض المعاناة، ولكن يخفف من أي ألم قد يحسّونه من هذه النقلة الكبيرة في أسلوب العيش، أنهم يظلون على صلة بجذورهم في البادية، ينتقلون بينها وبين نمط حياتهم الجديدة. وذلك، على أي حال ثمن لا بد للمجتمع أن يدفعه لقاء «التقدم». والمجتمع المحظوظ هو الذي تكون أرباحه أكثر من خسائره في غمار هذه التحولات.

وليس أحد أكثر إدراكاً لكل هذا، من الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، نائب مساعد رئيس الحرس الوطني، الذي يهتم بهذه الأمور بحكم طبيعة عمله. لا غرو، فهو من بادية نجد، وقد جرب هذه التحولات بنفسه، وذاق حلوها ومرّها. والذي يقرأ كتبه المليئة بالشاعرية والحكمة، ويتابع حرقته وهو يقف كالشعراء الأوّلين على الأطلال بين اليمامة والدهناء، يحسّ مدى عناء الإنسان الذي يفقد عالماً أليفاً، على علاّته، ويكسب عالماً أكثر رفاهة ولكنه أقل ألفة. ومن هذا، يدرك المرء بوضوح عمق التجربة الإنسانية التي خاضتها المملكة في تاريخها الحديث.

أما فيما يتعلق بمكافحة الأميّة بين النساء، فإن إحدى العقبات الكبيرة هي انعدام الحافز القوي للتعلّم. ففي حالة الرجال، يوجد حافز واضح، وهو تحسين الوضع الوظيفي، وزيادة الراتب، وتحسين الوضع الاجتماعي عموماً. أما النساء الأميّات فليس لديهن حافز كهذا. هذا بالإضافة إلى أن المرأة تجد صعوبة أكثر من الرجل في الخروج من بيتها والذهاب إلى فصول محو الأميّة، رغم أن المسؤولين يحاولون تذليل هذه الصعاب، بتوفير وسائل النقل، وجعل دروس محو الأميّة للنساء تنتهي قبل مغيب الشمس.

■ ■ ■

بدأ المجتمع الدولي يرى بوضوح أكثر أن التعليم هو أحد المنطلقات الرئيسية، أو هو المنطلق الرئيسي لصياغة المستقبل، وبناء عالم منتج مستقر يتيح لقطانه الفرص لتحقيق ذواتهم إلى أقصى ما تسمح به مواهبهم. كذلك أدرك أن عليه أن يكسر أغلال الأمية التي تُثقله، كي يواجه القرن الواحد والعشرين بحرية وثقة. وهكذا وحدت أربع منظمات دولية جهودها، فعقدت مؤتمراً في تايلاند تحت شعار «التربية للجميع». هذه المنظمات هي اليونسكو واليونسيف وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية والبنك لدولي. وتقول الوثيقة المشتركة التي قدمتها هذه المنظمات للمؤتمر:

«تحديد أولويات الإنفاق العام ضروري، إذ يواجه كل بلد في المدى القصير درجة من طلب فرص التعلم أكبر مما يمكن توفيره. وعلى هذه الأولويات أن تشجع البرامج التي تصل بعض الفئات الخاصة، مثل تلك التي تمثل نقصاً في تكافؤ الفرص، دون عزل متعمد لأي مشترك محتمل. وتنوّه الاعتبارات المعنية بالمساواة والفعالية، إلى أن الأفضلية الأولى في الموارد العامة، يجب أن تكون للتربية الابتدائية. ولكن يجب أن توضع الأولويات داخل مفهوم شامل طويل المدى، ينفذ على مراحل حتى يحصل الجميع على فرصة الاستفادة من التربية الأساسية، وذلك من أجل المساواة ولتأمين حاجات التعلم الأساسية للجميع».

هذا يعني أن على كل جيل أن يبذل قصارى جهده لحل المشاكل في وقتها، وألّا يترك حلها للأجيال القادمة، حتى لا تتراكم المشاكل إلى درجة تستعصي على الحل كلية. في الوطن العربي اليوم أكثر من مائة مليون أمي. هذا يعني أن الأجيال الماضية قد قصرت بشكل ما. صحيح أنه توجد بعض المبررات لهذا التقصير، ولكن

واقع الأمر هو أن ها هنا ديناً ثقيلاً ألقي على كاهل الجيل الحاضر. على هذا الجيل أن يطرح عن كاهله هذا العبء، بالإضافة إلى الوفاء بمسؤولياته التي تفرضها الحياة الحاضرة.

وتمضي الوثيقة فتقول:
«إن الوضع الراهن للتربية الأساسية غير كافٍ لتأمين حاجات التعلم الأساسية لجميع الأطفال واليافعين والراشدين. وإذا استمرت الاتجاهات الحالية والطرق التقليدية المستعملة في التربية والتدريب، فمن المؤكد أن وضع التعلّم في العالم سيتردى، وسيزيد هذا من حدة المشاكل العالمية عوض أن يساعد على معالجتها...».

«العالم» الذي تتحدث عنه هذه الفقرة هو «العالم الثالث». والوطن العربي عموماً ينضوي تحت هذا «العالم». ولعل المرء يعجب، أنه رغم الجهود التي بذلت في مجال التعليم في قرابة نصف القرن الماضي، وبعضها جهود باسلة، فإن معدلات الأميّة في الوطن العربي ما تزال أعلى منها في أغلب أقطار العالم الثالث.

ارتفاع نسب الأمية أو انخفاضها، يمكن أن يعتبر «رمزاً» لمدى نجاح أي دولة أو إخفاقها في الوفاء بالتزاماتها لشعبها في الحاضر والمستقبل. كل إنسان أمي أو إنسانة أميّة، هو بمثابة «نصب تذكاري» متحرك، ذكرى مجسمة عن واجب أهمل إنجازه ودين أغفل سداده. وإذا تراكمت هذه الديون على أمة، يصبح وضعها عسيراً إن لم يكن مستحيلاً.

وقد أجمعت الدراسات عن الأميّة في العالم العربي، على أن الأميّة أكثر ما تكون بين النساء خاصة إذا كن من البادية أو

الريف. وهي كذلك في البلاد العربية قاطبة، دون استثناء، بدرجات متفاوتة. وأحياناً تفعل الدولة كل ما يجب عليها فعله، فتفتح المدارس، وتعد الفصول، وتهيئ المدرسين، ومع ذلك لا تُقبل النساء على التعلم. توجد أسباب كثيرة، منها المفاهيم الخاطئة والنظرة البيئية المعوجة. وقد سرني أنني وجدت في سورية مثلاً، أن المراكز التي يشرف عليها الاتحاد النسائي، تنظم ندوات لتوعية الرجال أيضاً، ففي أحيان كثيرة يكون الرجل هو العائق للمرأة من التعلم، فيمنع زوجته أو ابنته من الالتحاق بفصول محو الأمية.

لقد وجدت في رحلاتي في العالم العربي، في المهمة التي كلفتني بها منظمة اليونسكو، أن وسائل الاتصال الجماهيري، وخاصة التلفزيون، تستطيع أن تساهم مساهمة أكبر بكثير مما تفعله الآن، في حل مشكلة الأميّة. هذه الوسائل بما لها من قدرة على التأثير، تستطيع على الأقل، أن تخلق مناخاً عاماً، تكون فيه الرغبة في الحصول على المعرفة، أمراً مستحباً ومألوفاً. الجهد الذي يبذل الآن، هو في أحسن الحالات، جهد مبعثر ينقصه الالتزام الثابت، والإدراك العميق لخطورة المشكلة التي يتحتم على العالم العربي أن يحلها.

مشكلة الأميّة في الوطن العربي مشكلة ليست عادية، وتحتاج إلى جهود غير عادية لحلها، أو كما تقول الوثيقة الدولية:

«هناك حاجة ملحة لرؤية جديدة في التربية الأساسية تجعلها تركز على التعلم، وتوسّع هذه الرؤية مجال التربية الأساسية لتشمل نطاقاً واسعاً من الفئات والمجموعات ومن طرق تقديم التعلّم لها، وتحشد

موارد حكومية خاصة واجتماعية إضافية وتنشئ تحالفات جديدة بين المؤسسات والوكالات المختلفة المعنية بالتربية الأساسية، وتقوّي مناخ التعلّم».

٤

مكة المكرمة

إنك لا تدخل المدن، ولكنك تغوص في أعماق ذاتك، بحثاً عن صور المدن في خيالك. مكة المكرمة ما هي في الواقع المرئي؟ مجرد مكان. بطحاء ضيّقة تكاد تخنقها الصخور الجُرد التي تحيط بها. عمارات وطرق وأسواق. وجموع من البشر. بعض قُطان هذا المكان، يبيعون ويشترون، ويأكلون ويشربون، ويروحون ويجيئون، وكأنهم في قرية أخرى، وكأنهم في واد آخر.

سبحان الله. في هذا المكان بالذات، هرولت المرأة، وصرخ الطفل، وانبثق النبع. ثم توافدت أفئدة الناس وارتفعت أركان البيت.

ثم تفجّر نبع آخر، تفجر بعد قرون، وتفجر في اللحظة نفسها، وتفجّر منذ الأزل، قبل أن تكون السماوات والأرض. امرأة أخرى وطفل آخر. كان إسماعيل مثل اليتيم، وهذا محمد بن عبد الله،

يتيم بالفعل. أشرقت السماوات والأرض. كفّت الذئاب في الوديان عن مطاردة الغنم، ولبدت السباع في شعاب الجبال، وسكنت الطيور في أوكارها. أرهف الزمان سمعه للصوت العجيب، الذي يأتي من كل مكان ومن لا مكان. ولم يدر أهل مكة، إلا السعداء الذين كانوا يعلمون وينتظرون، أن ميلاد الطفل العربي اليتيم، كان بشيراً بمولد عالم جديد، انطلاقة فرح كبير، له وقع المأساة.

لذلك، فأنت حين تدخل مكة، فإنك لا تدخل مدينة بعينها، في مكان بعينه، في زمان بعينه، تجيء وكأنك تعود إلى نقطة منطلق الأحداث وكأنك تدخل في مركز الدائرة. وأنى لك يا مسكين أن تقوى على كل ذلك؟

تعالَ عند الفجر أو في الضحى أو قبيل الغروب. تعال في الصيف أو في الشتاء، تعال من أم درمان أو من أصفهان أو تطوان. تعال من جدة. سِرْ في الطريق الذي سارت فيه قوافل المحبين الأوائل رحمهم الله أمثال حاج الماحي، واغطس في لُجّة الليل، وانهلْ من ضوء الفجر، وافتح نوافذ روحك قدر المستطاع لانعكاسات ألوان السماء والأرض والجبال.

حين تدخل أم القرى، وترى مآذن البيت العتيق المعمور، فإنك لن تكون مُهيّأً للدخول، ولن تكون أهلاً للدخول. لا تتعجل. تريث قليلاً وانظر إلى حشود الراكعين والساجدين. انظر إلى الطائفين حول الكعبة، كما يجري الماء في عروق الشجرة. تخيّلْ نقطة البدء كما وصف التجاني يوسف بشير رحمه الله:

ربٌّ في الإشراقة الأولى على طينة آدمْ

أمم تزحم في الغيب وأرواحٌ تحاوَمْ

ادخل الآن في الزحام. إنك عار كما ولدتك أمك لو تدري، رغم الإزار حول وسطك وعلى كتفيك. كانوا يطوفون عُراةً في الزمان الأول، زمان بكورة الحياة، ولم يكن ذلك مِن أفعال البذاءة. البذاءة جاءت حين سقطوا وسقط عنهم لباس الطهر الفردوسي، وبدت لهم، كما بدت لآدم وحوّاء، سوءاتهم.

اندسّ في غيابات الزحام، فأنت في الحقيقة لا شيء، لا أكثر من نثار الهباء في ملكوت الله، مهما بلغ شأوك في موازين أهل الدنيا. فُك الأغلال التي كبلتك بها الدنيا. تخفّف من أثقالك قدر المستطاع. إن كنت صاحب جاه فارم عنك أعباء جاهك، وإن كنت صاحب مال، فألق بخزائنك في هذا البحر، وإن كنت صاحب اسم أو صيت، فلن يغني عنك اسمك ولا صيتك في ذلك الزحام. انْس إن استطعت، ولكنك لن تستطيع، فأنت في الدنيا وبها، وهي محيطة بك مثل الموت، أقرب إليك من حبل الوريد. إنما حاول جهدك، فوشيكاً سوف تعود إلى ما كنت فيه، وقد تفيق وقد لا تفيق.

قبّل الحجر الأسود فهو ليس حجراً، وتعلّق بأذيال الكعبة، واستنشق العطر، فهو ليس من عطور هذا الزمان. وتكون سعيداً إذا جرت الدموع من عينيك، وخفق قلبك واهتزّت أركان ذاتك.

هرولْ بين الصّفا والمروة، كما هرولت أم الوليد أول الأمر، والطفل يبكي، ولا ماء ولا قوت ولا أهل، وشيء جليل يوشك أن يحدث له طعم المأساة.

ثم اجلس في صحن المسجد، وتأمّل وتمهّل، وتزوّد وسعك. عما

قليل سوف تعود إلى ما كنت فيه. سوف تطمرك الحياة بهمومها وأهوائها وأكاذيبها. سوف تعود إلى جاهك وسلطانك، إلى مالك وخدمك وحشمك، إلى اسمك وصيتك. كنت متسربلاً وأنت عار في هذا المكان. وحين تتلبّس ثيابك وأوهامك وشهواتك، سوف ترتدّ إلى عُريك القديم. فتمهّل ولا تعجلْ، وقد تُفيق وقد لا تفيق.

■ ■ ■

رحم الله ذلك المُحب المتيّم (حاج الماحي)، أراه وأسمع صوته كلّما زرت هذه الأماكن الطاهرة.

اسمه الماحي بن محمد بن الشيخ بن أحمد بن عبد الله. وُلد في قرية (الكاسنْجَدْ) في ديار المناصير، قريباً من ديارنا في شمال السودان. كان مولده عام ١١٩٤ للهجرة، وتوفي عام ١٢٨٧.

كان من كبار المحبين، من طراز البُرعي والبوصيري، وخصص شعره كليّة لذكر الأماكن المقدّسة، ومدْح الرسول صلّى الله عليه وسلّم. كان مغنّياً حسن الصوت في أول شبابه.. وهو يصف تحوّله من الغناء إلى (المديح) في قوله:

عيب شبابي ألْ سرَحْ
واللّه، لأبْ شوقاً جرحْ
قام العَبيدْ من نومُه صَحْ
لقي جنْبُه لبناً في قدَحْ
سمّى وشرب، زينْ أتْنتَحْ(١)
حمَدْ الإله، حالُه انْصلَحْ
جَدْ في السؤال لى ربُّه لَحْ
قال يا كريم، بابه انْفتحْ

أعطوه تُفّاحات بلَحْ
حين ذاقْها قال دمّاغُه (تَّخْ)
رادْ الجليل، قلبُه انْشرحْ
طابْ عقله مسرور بالفرح
جابْ لي شفيع النّاس مِدَحْ
شَتَمُ الهبيش دقّ ونبح
السَّمْعُه في جوفه انْجرح
من شوق حبيبُه يسوِّي (أَحْ)

المقصود بـ (الحبيب) في البيت الأخير هو بالطبع الرسول صلى الله عليه وسلّم. و(الشتم الهبيش) هو الدُّفِ الذي يُنقر عليه خلال الإنشاد، يسمّى (الطّار). وما أجمل قوله (أعطوه تفّاحات بلح) إذ إن ديار شمال السودان، بلاد تمر ونخيل، ولكنها لا تعرف التفاح، فنعت الشاعرُ المألوفَ بغير المألوف، وجعله رمزاً للهبة الإلهية التي حوّلته من حال إلى حال.

يقول (حاج الماحي) متشوقاً إلى الحج وزيارة المسجد والسلام على الرسول صلّى الله عليه وسلم:

متين يا عاشقين نحدى العْتول(٢)
سعيد الْ بي (سواكن) حلَّ نُول(٣)
مَرقْ في (جدّه) يا ربّي القبولْ
نوافي الحج نطوف مكّة أُم طبولْ
أخذنا القبلة، في زمزم عُلول(٤)
سعينا (المرْوة)، فوق (عرَفة) النُّزول

نبيت (مزدلفة) بي ديك السهول
جمعنا أسباعنا قاصدين الحلول
نكبّر ونرجم ابليس الذلول
نعيّد في (منى) ونلوي الشُّيول[٥]
نعود للكعبة صافين من زغول[٦]
حججنا وسرنا لي زيارة الرّسول
نَصابِحْ طيبة بلّجنا الحمُول[٧]
نزور الغالي وأصحابه العدُول
نشوف النّعمة في حرمه الظلول
نجاورْ جَنْبُه حولاً بعد حول

كلّ ذلك كان سيراً على الأقدام وعلى ظهور الجمال، لذلك كان لبلوغ هذه الغايات، وقْع في نفوسهم لا نستطيع أن نتخيّله هذه الأيام، مع الطائرات والسيّارات. وقد عبّر (حاج الماحي) عن هذه الأشواق في شعره الذي لا يمكن أن يتصوّر الإنسان جماله، ما لم يسمعه يغنّى كما سمعناه. شعر مملوء بالحب والشجن، يشدو به رجلان، كل صوت يعطي الآخر ويأخذ منه، يدوران في ساحة تجمّع حولها أهل البلد قاطبة، كل من الرجلين يضرب على دفّ تُمزق ضرباته نياط القلوب.

عَبينا القومه طالبين أُم رمالْ
نَعتّف[٨] القود على مكة أم جبالْ
نحِتْ[٩] فوق (عرفة) لي ذنوباً تُقال
نعود لي أهَلْنا بي قُدْرة الجلال

لا أظن أحداً من السودان يزور هذه الأماكن ولا يخطر بباله

(حاج الماحي) أن شعره خاصّة وشعر أضرابه، صاغ وجداننا ونحن أطفال نتشبّث بأذيال آبائنا وأمهاتنا في حلقات (المديح) بالعشيات. قبل أن نعرف القراءة والكتابة، أو نعي شيئاً من أمور الحياة، عرفنا مولد الرسول الأمين ونشأته وبعثته، وما كابد من العناء في مكة ثم هجرته إلى المدينة حيث سطع نور الرسالة قوياً وهّاجاً. عرفنا جهاده وجهاد أصحابه وعرفناهم بأسمائهم واحداً واحداً. المعرفة انتقلت إلى قلوبنا الغضة مباشرة، في صيغة غناء مُتْرع بالحب والشجن.

قال (حاج الماحي) رحمه الله رحمة واسعة، وما أغزر الدموع التي سالت من عيون المحبين لقوله هذا:

طالبين أم رمال قام الحجيج عَجْلانْ
في (نَمرة) الظّهر جمعوا الفروض بأحسانْ(١٠)
فوق (عرَفة) الطّلوع يتحتّن اللّيمان
(مزدلفة) المبيت جمعوا الحصى الحبّان
العيد في (منى) ورجمنا للشيطان
حلقنا الشعور دبحوا الهدايا سُمان
فرحان الحجيج يتلابس القُمصان
والعجب العجايب ليّة الشيلان
وادعنا أُم حطيم كارينا للبُدوان
سِرْنا مهاجرين بي ديلك الوديان
قِدّام الجمال تترافق الجدعان
بي سهل (الفريشْ) يترزّم العَشْقان
نوصل في مدينتُه النايرة أم بنيان
وأدّونا الأذن ندخل على السلطان

نلقي الخير موجّدْ والنّعيم كيمان
سيد الدّار ضمن قال يا عبيد (أمان)

(السّلطان) الذي أعطوهم الأذن الدخول عليه، هو الرسول، صلّى الله عليه وسلّم. وهنيئاً للشاعر، أنه جعل نفسه عبداً في تلك الحضرة، ولا تثريب عليه، فكلُّنا ذلك الرجل.

الهوامش

(١) أتْنتَخ ـ أرتوي
(٢) العُتول ـ الجمال الضخمة القويّة.
(٣) نُول ـ يقصد دفع كراء السفينة للعبور إلى جدّة.
(٤) علول ـ من علّ في الشراب، أي ارتواء من ماء زمزم.
(٥) الشيول، جمع شال، أي أنهم تحلّلوا من الإحرام.
(٦) نظيفين من الذنوب.
(٧) بلّجنا الحُمول ـ أنزلناها، وهو يقصد حمول المتاح وحمول الأشواق.
(٨) نعتّف القود ـ أي ندير مقاود الجمال صوب مكة.
(٩) نجتْ ـ نُسقط الذنوب كما تتحاتت أوراق الشجر.
(١٠) أقصروا وجمعوا بين صلاتي الظهر والعصر.

٥

جدّة

في المساء، في نادي جدّة الأدبي، كنت أعلم أنني لا أقول جديداً ولا أضيف شيئاً. الأقوال المضيئة قد قيلت، والأعمال الجليلة قد حدثت. ماذا بقي لأمثالي سوى أن نغرف من البحر، ونحوم حول الحمى عسى أن نقع فيه؟ لكن أهل جدّة قوم كرماء، يمنحون على مقدار أنفسهم، فجعلوني أظنّ لوهلة إذ أنا نزيل بينهم، أنني أهل لكل تلك الحفاوة وما كنت لها بأهل.

جزاهم الله عني خيراً. أذكر منهم في تلك الليلة على سبيل المثال لا الحصر، محمد علي قدس، وأياد مدني، والمعطاني والسريحي ومشعل السديري وفؤاد عنقاوي والشريف منصور بن سلطان ويوسف نور عوض وصديق شايقي وعبد الله نور. وحتى منذر العيّاشي كان برّاً بي لو يدري، فقد أعادني إلى واقع حالي، ونبهني إذ كدت أستسلم للحلم الذي خيّله لي أهل جدّة الأماجد في ذلك المساء الجميل.

كان البَر والبحر والسماء، كأنّ صبا نجد قد هاجر واستقرّ في جدّة. لا شك أن هذا أطيب طقس في العالم، في هذا الوقت من السنة. المدينة بكورنيشها الجميل الممتد، وأحيائها وطرقها وأسواقها، تتوهّج مثل قطعة نادرة من ألماس في دفء الصباح.

ثاني يوم وصولي بكّرت إلى مكة. ما فائدة أن تصل جدة، ولا تزور مكة، ولا تزور المدينة؟ تكون كمن أشرف على النبع، وهو ظمآن، ولم يشرب. من حسن حظ جدة أنها منطلق إلى هذه الأقداس.

الطريق يطول ويقصر ويضيق ويتّسع، وهو واسع معبّد في الحقيقة، تقطعه السيّارة في أقل من ساعة، وقد كان (حاج الماحي) وأصحابه يقطعونه بالجمال في يوم أو يومين. جزى الله هذا الملك الصالح خير الجزاء. سلك سبيل الأولين، ووقف نفسه على خدمة هذين الحرمين. لم يألُ جهداً في عمارتهما وتوسعتهما وتسهيل الوصول إليهما. بدا الحرم المكي في كامل بهائه، بعد أن وسّعوا الباحات حوله، وأزاحوا عنه العمارات والأسواق. والأمر أعجب في الحرم النبوي.

الطريق من جدّة إلى مكة، ليس مثل الطريق من مكة إلى جدة، وهو الطريق نفسه. تذهب مثقلاً وتعود خفيفاً، كأنك ولدت من جديد. أن تولد من جديد، يا لها من غاية! البيت المعمور، فاتحاً ذراعيه ينادي ترفّ عليه ملائكة الرحمة. وما أحوجك إلى الرّحمة يا مسكين؟ وغداً أحطُّ رحلي في (طيبة) إن شاء الله.

«ألم يجدْك يتيماً فآوى؟» بلى. بلي. سوف أظل أروح وأجيء كمن

يحل ديناً، وأظل أطرق الباب، عسى أن يحدث لي ما حدث لـ (حاج الماحي):

جَـدْ فـي الـسـؤال لـي ربُّـه لَـحْ
قـال يـا كـريم، بـابُـه انـفـتـحْ
أعـطـوه تُـفّـاحـات بـلـحْ
حـين ذاقْـهـا قـال دمـاغُـه (خَّ)
قـام هـمّـل الـعـقـبـات[1] روّحْ
فـي شـرقـه بـالـوديـان سـرح
شـاف كـوكـبُـه الـضّـاوي انـفـتـح
فـي الـروضـة فـي غـوفُـه[2] انـبـطـحْ
شـاهـد رجـالاً غـيـر جُـنَّـحْ
مـاسـكـة الـدلايـل والـسّـبـحْ

نعم، غداً أو بعد غد، سوف أنزل حمول أشواقي إن شاء الله، في ذلك الصعيد الطيب في (يثرب)، سوف أتقفّى أثر (حاج الماحي) وأفعل بعض فعله، عسى أن يحدث لي بعض ما حدث له. لكن هيهات، فأين أنا من (حاج الماحي).

قبل ذلك سوف أجد مزيداً من الحفاوة في (اثنينيّة) الرجل الكريم عبد المقصود خوجه، (ثلاثائيّة) الرجل الكريم محمد سعيد طيّب. وهي حفاوة، يعلم الله، أنني لا أستحقها.

■ ■ ■

من السُّنن الحميدة التي حافظ عليها أهل (جدة) وقد كادت تندثر في بقية العالم العربي، سنّة الندوات الأدبية في دور أهل الفضل والميسورين من محبّي الثقافة والأدب.

كانت هذه المنتديات منتشرة حتى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، بمثابة منارات حافظت على جذوة الثقافة والفكر حيّة متوهجة، رغم بعد المسافة وضعف وسائل الاتصال، وعوامل الفرقة والشتات التي جاءت مع الوجود الأجنبي.

كانت قلوبهم تخفق بنبض موحّد متناغم من المحيط إلى الخليج، ومن جبال لبنان إلى بوادي السودان، كما قال شاعر النيل رحمه الله:

إذا ألمّت بوادي النيل نازلةٌ
باتت لها راسياتُ الشام تضطربُ
وإن دعا في ذُرى الأهرام ذو شجن
أجابه في ربى لبنان منتحِبُ[٣]

أو كما قال. كانت عقولهم تتّقد بالأفكار نفسها، وتشغلهم القضايا نفسها، تشدّهم بعضهم إلى بعض خيوطٌ غير مرئيّة. كانوا، كما يبدو لنا اليوم، أضيق ذات يد، وأقلّ سيطرة على مجريات أحوالهم، ومع ذلك كانوا أكثر ثراء روحيّاً وأشد ثقة في أنفسهم وفي مستقبلهم.

هاجت بعد ذلك رياح السياسة، هوجاء منكرة، فعفّت على كل ذلك إلّا القليل. لم يبق في القاهرة على سبيل المثال، بعد ندوات الإمام في (عين شمس) وصالون مي زيادة، وصالون العقّاد و(كرمة بن هانئ)، غير دار أستاذنا الجليل محمود محمد شاكر، أطال الله عمره.

تبدّل الحال. يرى بعض الناس أنه تبدّل إلى أحسن، ويرى آخرون أنه تبدّل إلى أسوأ. إنما الذي لا شك فيه أن العرى القديمة قد ضعفت ولم تعد القلوب تخفق على وتيرة واحدة، وتلك الأصوات

التي كانت أصداؤها تتردّد من شرق ديار العروبة إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، لم يعد لها الرونق الذي كان لها، وإن هي وصلت، فإنها تصل أبطأ، رغم تطوّر وسائل الاتصال وتنوعها.

لأجل ذلك، سرني أن جدّة حافظت على هذه العادة القديمة الحميدة، وحق لها أن تفعل، فهي منذ القدم مدينة منفتحة العقل والقلب. وجدتُ أنهم يلتقون كلّ مساء اثنين في دار رجل الأعمال الأديب عبد المقصود خوجة، يسمونها (الاثنينيّات). ويجتمعون كل مساء ثلاثاء، في دار رجل الأعمال الصحافي الكاتب محمد سعيد طيّب، يسمونها (الثلاثائيات). تجد بينهم الصحافي وأستاذ الجامعة والأديب والشاعر والطبيب والمهندس ورجل المال ورجل الحكم والإدارة. يطرقون موضوعاً فكرياً أو يكرمون كاتباً أو أديباً، وينشرون نتاج بحثهم ودرسهم في كُتُب. وحين يجيئهم ضيف من الخارج، يحتفون به بهذه الطريقة المتحضّرة.

كانت داراً تنمُّ عن صاحبها، في انبساطها ورحابتها وحسن هندامها، كل شيء فيها عمل بذوق سليم، مع مجافاة للتظاهر والبذخ. ما أجمل المال حين يكون في أيدي الأرحبيين، وما أقبحه حين يكون في أيدي اللئام. وما من شيء يستحق أن يبذل فيه الميسورون أموالهم مثل الثقافة والفكر والأدب، إذ إن هذه، لا تنهض بها الحكومات وحدها، وما قيمة المال حين يكون محض أصفار على أوراق في البنوك؟

حاتم الطائي، رحمه الله، كان أدرى، حين قال لزوجته:

أمــــاوي إن المال غــــادٍ ورائــــحٌ
ويـبـقـى مـن المال الأحـاديـثُ والـذّكـرُ

لذلك أطلق الرسول الأمين، أكرم من مشى على الغبراء، سراح ابنة حاتم من الأسر، وقال:

«خلّوا سبيلها فإن أباها كان يحبُّ مكارم الأخلاق».

ثم جاء شوقي العبقري، فوصف ذلك في الرسول الكريم بقوله:

يا مَنْ له الأخلاق ما يهوى العلا
منها وما يتعشّقُ الكبراءُ
لو لم تقِم ديناً لقامت وحدها
ديناً تضيء بنوره الآلاءُ

أقول، إنني أُخذْتُ غير قليل، فلم أكن مهيّأً لما وجدت من صاحب الدار، الأستاذ عبد المقصود خوجة، وأولئك الأخوة الكرام. وجدت موائد مبثوثة، ومنصة تتصدر المجلس في الحديقة، عليها خطباء وشعراء. إن لساني يعجز عن شكرهم، وهذا الحيّز الصغير، لا يتسع لذكرهم جميعاً بأسمائهم.

إلّا أنني أذكر من بين المكرمات التي غمرت شخصي الضعيف في تلك الليلة، قصيدة بديعة من الأستاذ أحمد باعُطب، تغنّى فيها بحب السودان، ونوّه بأواصر القربى والجوار، وقد سرني أنني كنت ذريعة لتحريك قريحة الشاعر، وهل أنا إلا ذرّة من تراب السودان القطير، وورقة في شجرة العروبة الوارفة؟

مثل ذلك لم يحدث لي إلّا مرّة واحدة من قبل، حين لقيت الشاعر الكبير سليمان العيسى، في دار الرجل أخي الأخوان، الدكتور عبد العزيز المقالح في صنعاء، فأهدى إليّ الشاعر أبياتاً ما وددت أن لي بها حُمر النعم. وها أنذا الآن في جدّة، في هذا المساء الرائق، في ضيافة هذا الإنسان الذي يزينه حبّه لثقافة العرب، والخادمين في

محرابها العريق، تبتسم لي عذارى القوافي وتغازلني بعيونها النجل، فماذا وجدت عندي، وماذا أرادت منّي؟ وقد كنت إمرأً كما وصف محمد سعيد العبّاسي رحمه الله:

وقد نفضتُ الهوى عنّي فما أنا في
أسار شعدي ولا أجفانها السُود

ولا أخفي أن كل ذلك «ذكّر بعض ما نلقى بهند» كما حصل لأبي الخطّاب. طربتُ ربما بتأثير صبا نجد في الحجاز، والثريات المتناثرة في حديقة الدار، ووشوشات مياه النوافير، وعطر الياسمين، وكل تلك الوجوه المشرقة، مثل الذين نادمهم حسّان بجلّق في الزمان الأول. بلى طربت، والكريم يطرب للثناء، خاصة إذا جاء على غير انتظار، وجاء دون تكلّف.

لم أحصل على نصّ قصيدة الأستاذ أحمد باعطب لسوء الحظ، لكنني حصلت على قصيدة الدكتور زاهد محمد زهدي التي تفضل بها عليّ. ولعلّه لا يجوز لي أن أذيعها، ففي ذلك من مزالق تزكية النّفس ما لا يخفى. لكنني سوف أفعل، ربّما تحت وطأة كل ما وصفت، ثم هو شعر عذب، وما كل يوم يجد الكاتب من يطريه بمثل هذا الكرم، وهي بعد تصف إنساناً لا أعرفه، لكنني أحب أن أكونه:

تفرّست في وجهك المُتْعَبِ
وفي فكرك النيّر المُخْصبِ
وعينيك هازئةً بالظلام
كأنّهما توأما كوكب

تـــدور المطـــامـــح مـــن حـــولـــه
مـــشـــيـــراً إلـــى عـــالم أرحـــب
وأصـغـيـتُ لـلـنّـبـضـة مـن خـافـق
هـــمـــومُ الحيـــارى بـــه تـــخـــتـبـــي
فـأحـســسـتُ أنّـي أرى مـشـهـداً
مـن الـعـمـر طـائـفُـه مـرّ بـي
وأيـقـنـتُ أنـي عـلـى مـوعـد
جـمـيـل مـع (الـصـالـح الـطـيّـب)
فـمـا أجـمـل الـلـيـلـة الـمُـنـتـقـاة
وأهـــلاً وســـهـــلاً (أبـــا زيـــنـــب)

وكأنّ كلّ هذه الحفاوة لا تكفي شخصي المسكين، فجاءت (ثلاثائية) الأستاذ محمد سعيد طيب، وجاء الكاتب البارع عبد الله الجفري، فأضاف موجة عاتية من أفضاله، فما أكرم أهل جدّة، وما أعمق بحرهم، ويا لي من غريق!

الهوامش

(١) عقبات، جمع عقب، وهي فصيحة تعني الأهل والذرية.
(٢) غوف، فصيحة، تعني ما كثُف من شَعْر وشجر. وهو يقصد هنا، الحديقة المجازية في روضة مسجد الرسول، صلّى الله عليه وسلّم.
(٣) في هذه القصيدة، يقول حافظ بيته الرّائع:
هـذي يـدي عـن بـنـي مـصـر تـصـافـحـكـم
فـصـافـحـوهـا تـصـافـحْ نـفـسـهـا الـعـربُ

٦

المدينة المنورة

ما أجمل الفجر في هذه المدينة. السماء صافية، وأنت تحس الدّفء رغم لذعة البرد، وأيادي الحرم النبوي العشر ترتفع في السماء مضيئة ضوءاً وديعاً لا يُعشي العين كأنّما يجذب إليه خيوط الفجر الطّالع، كما تجذب أصابع ناعمة ثوباً من الحرير. الفجر هنا لا يطلع من الشرق، بل يجيء من الجهات كلها في دائرة تحيط بالمدينة. حقاً إنها المدينة المنوّرة.

تسير في شارع «أبي ذر الغفاري» يحدوك الصوت الذي لا يأتيك من مآذن المسجد ولكن تحس به مثل صلصلة حُليّ ذهبية في صدرك. صوت هو مجموعة أصوات، تأتي من أماكن شتّى ومن عصور غابرة. تدخل في ذلك الزحام المطمئن، تدخل في هدوء كما يدخل الخيط في نسيج الثوب. هذا زحام له مذاق غير الذي رأيته بمكّة.

اجلسْ بعيداً عن (الرّوضة) وتأدّب واحتشم. لا تتعجّل المثول في تلك الحضرة. انتظر كما انتظر (حاج الماحي):

اعطونا الإذن ندخل على السُّلطان
سيّد الدّار ضمن قال يا عبيدي (أمان).

فيما بعد سوف تقف خاشعاً تحمل نعليك تحت إبْطك، علامة التذلُّل عند قومك الكرام الذين لا يطيب لهم الذّل إلا في مثل هذا الموقف.

كان الصّاحب بهاء الدّين وزير الملك الظّاهر، لا يسمع قصيدة الإمام شرف الدين أبي عبد الله البوصيري المسمّاة بـ(البردة) إلّا واقفاً حافياً عاري الرأس. وكان يحب سماعها كثيراً ويتبرك بها هو وأهله.

يطوف بخاطرك الإمام البوصيري رحمه الله. ما أشدّ ما أحب الرّسول الأمين، وما أجمل ما غرّد بذلك الحب:

أمِن تذكّر جيرانٍ بذي سَلَم
مزجْتَ دمعاً جرى من مُقْلةٍ بدمِ
أم هبَّت الريح من تلقاء كاظمة
وأوْمض البرقُ في الظّلماء من أضَم
فما لعينيك إن قلت اكفُفا همتا
وما لقلبك إن قلت استفقْ يهِم
أيحسبُ الصَّب إن الحبّ منكتمٌ
ما بين منسجم منه ومضطرمِ

كان إماماً في ذلك المضمار، وقد سار في أثره عدد من محبي الرسول صلّى اله عليه وسلّم، منهم أمير الشعراء الذي لم يعرف شعره جلالاً وسموّاً كما حدث في (النبويات). وجاءت أم كلثوم بصوتها العبقري فإذا للكلمات أجنحة. ما أعظم الفن حين تلتئم عناصره في خدمة مثل هذه الأعتاب.

ريمٌ على القاع بين البان والعلم
أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرُم
لمّا رنا حدثتني النفسُ قائلةً
يا ويح قلبك بالسهم المُصيب رُمي

هذا، والحقّ يقال، مطلعٌ لا يقلّ جمالاً عن مطلع قصيدة البوصيري، وإن كان ذاك أقوى مراساً على السباحة في بحر العشق.

ثم ها هو ذا (حاج الماحي)، العاشق السنّاري السوداني. سيّدٌ قوم في وفود العاشقين. أراه واقفاً وسط الحلقة ينقر بدفّه، يشدو بصوته المُفعم الذي ورثه عنه أبناؤه وأحفاده. شعره صُنع أصلاً من أسواق عامة النّاس وأشجانهم. طرب محض، يسمعه النّاس في جماعة، فيزيدون به ويزيد بهم:

يا ربي سائلك تقبلْ لي مطلبْ
تعطيني جملاً كبير وأصهبْ
مو الدّون قصير وما هو المشقّلبْ
أصهب بشاري[1] طائع مؤدَّب
صدرا مفجَّج[2] في شوفته ترغبْ
سرجاً سنّاري[3] محكوم مذهب

والـفـروه مِـرْعـز[٤] أتـنـيـهـا وأركـب
فـوقـه إن رَفـعَـتَ مـن حـينه جـلَّـبْ
قُـتْ يـا سـلامـة، أقـبـلْ وقـبـقـبْ
تـسـمـع مـشـيـه رجـلـيـه طـبْ طـبْ
الماحـي فـوقـه بـي مـدحـه يـطـربْ
بـي زمـزمـيـتُـه[٥] والـزّادِ مـحـقّـبْ
أن رذْت تـاكـل وإن ردتَ تـشـربْ
قـصـدي ومـنـايَ فـي أمْ سـور وكـوْكـبْ
الـقـبّـة خـضـرا ونـسـائـمـهـا هـبـهـب
نـوصـل نـزوده وفـي شـفـاعـتـه نُـكْـتـبْ

■ ■ ■

كل معاني الإسلام من هذين البلدين وهما جد مختلفين. في مكة الضيق واليباس وجبال تكاد تطبق على الوادي، والوادي غير ذي زرع. وفي المدينة الوسع والنخل والزرع والهواء يهبّ مرة من تلقاء نجد ومرة من تلقاء بلاد الشام. وجبل أُحُد صديق أليف يحرس المدينة عن بعد، لا يقحم نفسه عليها ولا يسد عليها منافذ الأفق. (أُحُد جبل يحبنا ونحبه) كما قال الرسول الأمين.

وكأن كل مسلم يعيد تمثل مراحل الدعوة في نفسه يجيء الناس إلى مكة يحملون أوزارهم وآمالهم ومخاوفهم. يخرجون من مضيق ليدخلوا في مضيق. الطواف مشقة والسعي مشقة ورمي الجمرات مشقة. زحام الحج في مكة كأنه مقدمة ليوم الحشر.

ثلاثة عشر عاماً أو نحوها. جفاه أهله وازدرته عشيرته. كان أميناً

مصدّقاً عندهم، فلما جاءهم بالخبر اليقين كذبوه وسخروا منه. لم يؤمن به إلا نفر قليل. زوجته التي أحبته واختارته لأن الله قد اختارها له. فتح الحب بصيرتها فلم تشكّ ولم تتردد. وصديقه. كان يعلم من أمر صاحبه وينتظر. ولما دعاه إلى الحق قال من حينه (لبيك). وابن عمه الصبي هو أيضاً آمن به بدافع الحب. أقل من أربعمائة نفر بين ذكر وأنثى بعد قرابة ثلاثة عشر عاماً. منهم العبدان والمستضعفون. صدقوه لأنهم أحبوه والحب حادي الإيمان، أو كما قال (حاج الماحي):

ريحك هبَّ من فارس جلب سلمان
جاب لصهيب مهاجر وآيس الفرقان
أسعد لي بلال الذاكر الآذان
عامر بي مريته[٦] وبنته جوك ضيفان

ضاقت مكة على الرسول الكريم والقلة من أصحابه ولم يعد في الصبر منزع، والرسول يعلم أن الله سوف يتم أمره. ثم جاء الفرج. وكأنما الخالق سبحانه وتعالى، أراد للمسلم أن يذوق بعض الضيق الذي ذاقه الرسول وأصحابه في مكة. يشقى ويتعب ويطرح عنه أثقاله ويهاجر إلى حيث السعة واليسر في المدينة. وما أجمل ما قال (حاج الماحي):

وادّعنا أم حطيم كارينا للبدوان
قمنا مهاجرين بي ديلك الوديان
قدام الجمال تترافق الجدعان
بي سهل (الفريش) يترزّم العشقان

(الفريش) على مسافة نصف ساعة بالسيارة للقادم من جدة، وقد

جعل منه (حاج الماحي) محطة كبيرة في طريق رحلته الوجدانية، لذلك فهو يذكره كثيراً في شعره. كانت القوافل حين تحط رحالها في (الفريش) بعد رحلة دامت شهوراً وبما سنوات من بلاد (سنار) وما وراءها، فكأنهم وصلوا المدينة. يلفحهم العطر، ويتبينون الضوء الذي قديماً تنوره امرؤ القيس من (أزرعات) من ناحية بلاد الشام. رحم الله (حاج الماحي) حين قال:

حبك في قلوب الأمة حراق[٧]
جاب (تكرور) مدرمس يمشي ساساقة
حازمين البطون ولباسها[٨] دلاق
كل زولاً قريعة وفي ايده مزراقه
اليوم الرجال حزموا الجمال ساقوا
بي سهل (الفريش) يتبكوا عشاقه
يا حليلن مكان اتأدبوا وتاقوا
شافوا الدرى يشلع فوقه براقه

ما أوضح الصورة التي رسمها الشاعر لوفود (التكرور) من غرب أفريقيا، يمشون (مدرمسين) وهي كلمة فصيحة من معانيها (يصمت)، يمشون (ساساقه) يعني (راجلين) وهو تعبير فصيح مشتق من كلمة (ساق)، يمشون رابطين بطونهم على الجدع، يلبسون الخرق (دلاق) كل واحد منهم يحمل (قريعة) تصغير (قرعة) وهو إناء للشراب والطعام، يعمل من القرع بعد أن يجف ويجوّف. وفي يد كل واحد منهم عصا (مزراق). والمزراق في اللغة الرمح القصير. وكلمة (حليل) يقولها السودانيون في تذكر من يحبون.

تصور حالهم حين يبلغون (المدينة)، وحين يدخلون الحرم النبوي، وحين يقفون بالفعل أمام الضريح الطاهر. رحلتهم من ديارهم إلى

مكة ثم إلى المدينة مسيرة حياة بأكملها تطول أحياناً إلى سنوات. يحلون يرحلون، ويموتون وينجبون. حين يقفون ذلك الموقف، تكون دورة حياتهم قد اكتملت، ولا يبقى لهم مطالب. بعد ذلك كثيرون منهم يتمنون أن يتوفاهم الله ثمة ويدفنوا في البقيع.

لأجل كل ذلك تفيض عيونهم بالدمع. يبكون لأنهم وصلوا سالمين لم تعسف بهم المقادير قبل بلوغ المرام. يبكون الدموع التي ظلت تجيش في أعماقهم منذ أن بدأوا رحلتهم. ما أعظم ذلك من حب.

رأيت مرة سيدة من غرب أفريقيا تكتسي ثوباً أخضر وتتمنطق بحزام أبيض، تبكي أمام قبر الرسول حتى كأن روحها قد تزهق. أبكت الناس لبكائها.

دعهم يبكوا يا رعاك الله. إنهم أدرى لماذا يبكون ولعل دموعهم أحب إلى الله من كثير من الركوع والسجود، وما ضر المحب لو أرخى العنان ساعة في حب من يحب؟ ورحم الله الإمام الشهرزوري حين قال:

ومعي صاحب جاء يقتفي الآثار
والحب شأنه التطفيل

كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يجوس طرقات المدينة يتقفى أثر رسول صلّى الله عليه وسلم ويبكي، ويقول:
«عسى أن يقع الحافر على الحافر».

الأماكن ليست كلها سواسية يا لك الخير، وهذا المكان ليس تراباً

وحجارة، وإنما هو مسك معجون بعبق الحب القديم. وهذا الدين قام أصلاً على الحب.

■ ■ ■

ما أكثر الضوء في هذا المكان. تشعر أحياناً لكثرة الضوء، أن الشمس هنا لا تغيب ولا تشرق. كأن الضوء ثابت يصدر عن منبع مستقل. ضوء مثل بُرعم الزهر أول الربيع، رهيف مشوب بخضرة. الخضرة التي في بساط الروضة، بين الضريح والمنبر، وفي قبة الحرم لله كيف تحس بالربيع وأنت في الشتاء، وبالصباح وأنت في المساء. كذلك أحس المحبّون قبلك، وقد كانوا أرسخ قدماً وأقوى مراساً، وأفصح لساناً. كذلك أحس البوصيري والبرعي وشوقي والبارودي. وهذا (حاج الماحي)، العاشق السنّاري، رأى ضوء القبة بعين بصيرته، قبل أن يراه في الحقيقة:

القُبّة أُم كسا الصاجْباني
شوقي لي الرّسول يا أخواني
بسم الله شرع الغاني[٩]
لقي البير عسل مليانه[١٠]
أشرب فيها بي كيزاني
أتّروي زين وأدّي أخواني
ثنّيتْ بالنبي العدناني
المختار عظيم الشّانِ
قنديل يشرب السلطاني
سيد الحُر وتُم المعاني
محبوب ربنا الربّاني
جامع الفضلِ والإحسانِ

تسير في شارع أبي ذر الغفاري، وما أحسن ما أسموا ذلك الشارع، أبو ذر الذي عاش وحده ومات وحده، ويبعث وحده. أنت في الضحى وأنت عند المغيب وأنت بعد العشاء، ولكن كأنك دائماً في الفجر. الضوء عطرٌ يعلق بك ويسعى بين يديك ويلازمك ما دمت في هذه المدينة، في رحاب سيّد المدينة. ولو كان لك بيان البوصيري لقلت مثل قوله:

حاشاه أن يحرِمَ الرّاجي مكارمَه
أو يُرجعَ الجار منه غير محترم
ومنذ ألزمتُ أفكاري مدائحه
وجدتُه لخلاصي خير مُلتزِمِ
ولن يفوت الغنى منه يداً تربتْ
أنّ الحيا ينبتُ الأزهار في الأكُم
ولم أُرد زهرة الدنيا التي اقتطفت
يدا زهير بما أثنى على هَرم

رحمك الله فما أجمل ما قلت، وما أبلغ ما قلت، لأن كعب بن زهير بن أبي سلمى، بعد ذلك مدح الرسول الكريم، فخلعَ عليه بردته، فاشتراها منه معاوية فأصبحت شارة الملك إلى عهد العثمانيين، وهي (البردة) التي أسبغها الرسول الأمين على البوصيري في منامه، فقام من حينه صحيحاً معافى.

الضوء والمطر يلازمانك مثل صديقين ودودين وأنت تتجوّل في طرقات المدينة، هل تبصر وراء عمارات الأسمنت وطرقات الأسفلت وزحام السيارات ذلك العالم القديم الطريف، البعيد القريب؟ ترى نخل المدينة وبيوت الطين وعرائش الجريد؟ تسمع الأذان كأنه شُرع

لساعته، وترى رجالاً ونساء ربطوا بطونهم على الجوع. أين كانت دار سعد بن عباده؟ وأين كانت دار علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب؟ أين كان يسكن أبو عبيدة وخالد وعكرمة؟ أين كانت دار عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر؟ بأبي وأمي عبد الله بن عمر. كان يبكي ويقول «عسى أن يقع الحافر على الحافر». حتى وهو قريب العهد من ذلك الزمان الجميل، كان يتحسر عليه، فكيف بنا نحن وقد قدم بنا العهد، وأصبحنا غثاءً كغثاء السيل؟

رحم الله البارودي إذ يقول في بردته:

وأمّ طيبة مسروراً بعودته
يطوي المنازل بالوخّادة الرُّسُم
ثم استهلّت وفود الناس قاطبة
إلى حماه فلاقت وافر الكرم
فكان عام وفود كلّما انصرفت
عصابة أقبلت أخرى على قدم
وأرسل الرّسل تترى للملوك بما
فيه بلاغ لأهل الذّكر والفهم

هيهات. ذلك زمان ولّى ولن يعود، وعبثاً يحاولون. أقصى ما يمكن عمله، إشاعة شيء ولو قليلاً، من روح ذلك الزّمان.

حاولْ جهدك الآن أن تسترجع شيئاً، أن تستحضر شيئاً، وما في استطاعتك إلّا أقل القليل. تشتري مسبحة أو مصلاة أو قارورة عطر. تقف تتأمل الوجوه. ما أجمل الوجوه في هذا المكان. الناس هنا في أحسن أحوالهم، بيض وسود وحمر، إناث وذكور. يسيرون مطمئنين متجهين بكل جوارحهم إلى منبع الضوء، وكل منهم يجد

لوهلة طعم حلاوة ذلك العهد، وأنت أيضاً. ولن تذوق أبداً تلك الحلاوة إلا في هذا المكان، فما لك إذاً لا تقيم أطول بتلك الرحاب، وتتمرّغ أكثر بذلك الجناب؟

وأنت فقير جداً. لا تملك صفاء حب حاج الماحي والبوصيري، ولا فصاحة البارودي ولا بلاغة شوقي، فبماذا جئت تتوسّل وكيف تقول؟

لا عليك، فأنت في مقام كريم. حسبك أن تقول، كما قال شوقي:

يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً
حديثك الشّهدُ عند الذائق الفَهِم
حلّيْتَ من عَطَل جيد البيان به
في كلِّ مُنتثرٍ مَن حسن مُنْتَظِم
بكلّ قولٍ كريم أنت قائلُه
تُحيي القلوب وتُحيي ميّت الهِمم

الهوامش

(١) بشاري، نسبه إلى قبيلة البشاريين، جمال كريمة مشهورة.
(٢) مفجّج بتشديد الجيم الأولى، أي عريض.
(٣) ستّاري، بكسر السين وتشديد النون، نسبة إلى عاصمة دولة سنار في السودان، وكانت مشهورة بصنع السروج.
(٤) مرعز، بكسر الميم والعين كلمة فصيحة، تعني الوبَر الناعم.
(٥) الزّمزميّة، وعاء من جلد أو خيش، يوضع فيه الماء للمسافر ولعلها منسوبة إلى (زمزم).
(٦) مرية تصغير (مرة) وهي فصيحة مثل (امرأة).

(٧) بالضم مع مد، كأنك تقول (حراقو ـ ساساقو إلخ)

(٨) تنطق (لباسا).

(٩) الغاني بالغين، يقصد المُغنّي أو الشاعر، يعني نفسه.

(١٠) مليانهِ بالإماله، تنطق (ملياني).

٧

تونس

انتهت رحلتي في تونس من أول يوم من رمضان، وكنت قد بدأتها في القاهرة من حيث سرت إلى الرياض، ومن ثم إلى صلالة على المحيط الهندي.

كان العالم كله زمهريراً. تركت لندن ودرجة حرارتها فوق الصفر بقليل، ووجدت القاهرة أشد برداً. وفي الرياض نزل الثلج. مسقط كانت أدفأ قليلاً. لم أجد الدفء إلا في صلالة.

قلت أعرّج على تونس في طريق عودتي، فلي بها عهد وصُحبة. وجدتها باردة ممطرة، إلّا أن الشمس تشرق أحياناً، ساعة أو بعض ساعة، فتصحو في نفسك ذكريات تونس الجميلة المخضرة في الربيع كما رآها أبو القاسم الشابي رحمه الله. لا تطول سعادتك، إذ تختفي الشمس فجأة، وتربدُّ السماء، فإذا أنت قد عدت من الربيع إلى الشتاء.

أقمت في نُزُل الـ«بلْفدير». في تونس يسمّون الهوتيل نُزلاً، وذلك أفصح، ويسمّون الميدان (بطحاء) وذلك أفصح بمراحل، وعندهم (بطحاء باستير) وذلك خلطٌ بين الفصاحة والعُجمة. ولم لا؟ ولا يقولون الطريق، بل يقولون (الجادّة)، وتلك لعمري فصاحة أي فصاحة. لا عجب أن تونس أنجبت أبا القاسم الشابي، وأنجبت محمود المسعدي، أحد أفصح من كتبوا العربية في هذا الزمان.

الـ (بلفدير) نزلٌ مريح بسيط، فيه طابع الـ (بنسيون) العائلي. ليس فاخراً مثل الـ(هلتون) ولا واسعاً مثل (المشتل)، لكنك تجد غرفة نظيفة وسريراً يسعك ومقعداً ومكتباً تكتب عليه إذا عنّ لك، وجهاز تلفزيون، أو تلفاز كما يقولون في تونس، يجلب لك البرامج حتى من فرنسا وإيطاليا. كل ذلك والتدفئة تجعل لك الشتاء صيفاً. يا لها من نعمة. أحسن كثيراً من الـ (كروشي دلْ سود) في مقديشو. ويعدّون لك وجبة السّحور.

أضف إلى ذلك أنه مكان ألفتُه، وقد (خُلقت ألوفاً)، كما قال (الأستاذ). الناس هم الناس، لم يتغيّروا منذ عرفتهم. المنجي الذي يُشرف على صالة الطعام، وخديجة وحياة في الاستقبال، وخديجة المسؤولة عن تنظيف الغرف. عرفتهم وعرفوك، وحين تجيئهم يرحّبون بك كأنهم فرحوا حقيقة لقدومك ـ والمسجد غير بعيد.

صاحبه صديقنا الفاضل محمّد الفُراتي. كان وكيلاً لوزارة الإعلام، أيام كان مصطفى المصمودي وزيراً للإعلام، والهادي نويرة وزيراً أول. حين سمّاه الرئيس بورقيبة وزيراً أول، قال مازحاً في خطبة له «مين عارف. يمكن هو يموت قبل منّي». ظنّ الناس يومئذ أنه سوف يستخلفه.

كان رجلاً كفوءاً يحظى باحترام واسع. رأيته وهو وزير أول. افتتح مؤتمرنا، وسلّمنا عليه تماماً كما تُسلم على الرؤساء.ثم زرناه في مكتبه فحدثنا حديثاً جاداً عن الإعلام. خيّل إليّ يومئذٍ أنه أخذ نفسه بالحزم والشدّة أكثر مما يجب. لم تكن له بديهة محمد مزالي ولا فصاحته.

دار الزّمان كما يفعل، وقابلته في دار صديق. كان قد أصيب بالشلل، قعيداً في كرسي متحرك، بدا لي وهو على حالته تلك، أنه أكثر هيبة مما رأيته وهو وزير أول. قال له صديقي إنني كاتب، فقال لي «أنا أقرأ أكثر باللّغة الفرنسية. هل لك كتب مترجمة إلى الفرنسية؟».

قلت له نعم، ولا أظنه وجد الوقت ليقرأ.

رحمه الله. ذهب أول، كما تنبّأ الرئيس بورقيبة.

أهل تونس ناس متحضرون. لم يزيلوا كل آثار بورقيبة. تركوا صوره على العملة، وتركوا اسمه على الشارع الرئيسي في العاصمة، وهو بمثابة (شانزاليزي) تونس. ولعلّهم لم يجدوا بدّاً من إزالة تمثاله في نهاية الشارع. كان نُصباً ضخماً متحفزاً متحدّياً يُغري بالإزالة. لذلك عليك يا أصلحك الله أن تسير على الأرض هَوْناً.

كلّما قللت من الأنصاب، هوّنت الأمر على من يجيء بعدك. كان ابن خلدون عند مدخل الزيتونة يرنو إلى الرئيس بورقيبة وهو يمتطي صهوة جواده، فأصبح ابن خلدون الآن يحدق في الفراغ. لم يطمسوا ذكرى بورقيبة، فقد نقلوا تمثاله إلى (حلق الواد). ولعلّهم لم يظلموه بذلك، فهو هنالك يرنو إلى آفاق أرحب.

في ذلك الاجتماع صغنا ميثاق شرف إعلامي. متى كان ذلك؟ ربما منذ قرابة خمسة عشر عاماً. كنّا نهدف أن تقف الحملات في البلاد العربية، بعضها ضد بعض، في الإذاعات والصحف. لبثنا عاكفين أياماً، ننتقي الكلمات ونتخير الجُمل. وأذكر جملة تقول إن على البلاد العربية «أن تضع نُصب أعينها الأهداف الكبرى للأمّة العربية، وهي أهداف لا يوجد خلاف عليها». ثم رفعنا الميثاق إلى الوزراء فأقرّوه. وأذكر خطبة بليغة لوزير الإعلام السوري آنذاك، المرحوم أحمد إسكندر، تحسر فيها على حالة الأمة العربية، وما أصابها من شتات وفُرقة، وتمنى أن تتوحّد الكلمة ويجتمع الشمل.

كنّا عصبة صدق، في اللجنة الدائمة للإعلام تلك الأيام. هل ما تزال توجد لجنة دائمة للإعلام؟ كان رئيسنا الدكتور عبد الأحد جمال الدين، الذي صار بعد ذلك رئيساً للمجلس الأعلى لرعاية الشباب في مصر، وأظنه الآن في مجلس الأمة. رجل حكيم حقاً كثير المرح، واسع الصدر. وكانت اجتماعاتنا أحياناً تحتاج إلى كثير من سعة الصدر. وكان مساعد الأمين العام للإعلام، سليم اليافي.

كان وضعه صعباً. كان يعرف ما يجب عمله، ولا يجد المال لذلك. وكان الأمين العام تلك الأيام، المرحوم محمود رياض لا يؤمن بجدوى الإعلام.

ذهبنا إليه في وفد نعوده في المستشفى، وتحدثنا معه في قضايا الإعلام، فقال لنا «الإعلام مش مهم عندي. أنا عاوز أعمل تنمية».

رحمه الله. لم يكن الذنب ذنبه. ذهب ولم يعمل إعلاماً ولا تنمية وجاء من بعده الشاذلي القليبي، الذي كان مؤمناً بقيمة الإعلام،

وركّز عليه منذ بداية عهده. ولعلّه نجح بعض النجاح، إلا أنه هو الآخر ترك منصبه وفي قلبه حسرة.

كان سليم اليافي يضحك كثيراً ويدخّن، ويتفاءل دائماً، ويعلم أن الذي يرجوه لن يحدث.

■ ■ ■

في أول اجتماع حضرته للّجنة الدائمة للإعلام في جامعة الدول العربية، وكان ذلك في القاهرة، عام ١٩٧٥ أو نحوه، عجبت من بعض التوصيات المعروضة أمام اللجنة. لم أفهم من هو المقصود بها، وما هي الفائدة المرجوة منها. توصيات بتأييد كفاح الشعب الأنجولي أو الشعب الكوبي والتنديد بالنظام العنصري في جنوب أفريقيا وما شاكل.

قلت لهم إننا لجنة متخصصة مهمتنا أن ندرس قضايا الإعلام العربي من وجهة نظر احترافية بحتة، وأن من الأفضل لو نترك مثل تلك التوصيات لرجال السياسة.

إنني أدرك الآن أنني كنت مصيباً ولكنني كنت مخطئاً أيضاً من المنطلق النظري الواسع. وقد رأيت فيما بعد كيف أن الولايات المتحدة قد استندت إلى الحجة نفسها تقريباً ضد منظمة اليونسكو ومديرها العام حينئذ، ألا وهي أن المنظمة قد خرجت عن الدور المرسوم لها وأخذت طابعاً سياسياً خصوصاً بدعوتها إلى إقامة نظام إعلامي جديد.

صمت الناس، ونظر إليّ ثلاثة نفر، نظرات فيها عتاب وعطف. كانوا بمثابة (الحكماء) في تلك اللجنة، تمرّسوا في أعمالها وخبروا مزالقها وعرفوا حدود ما يقال وما لا يقال.

سعدون الجاسم، الذي كان تلك الأيّام وكيلاً لوزارة الإعلام الكويتية، رجل غاية في التهذيب وحُسْن الخلق. وعلي شمّو الذي كان وكيلاً لوزارة الإعلام في دولة الإمارات، عميق الخبرة، حاد الذكاء. وغالب أبو الفرج ممثل المملكة العربية السعودية، حكيم، قليل الكلام، يتحدث بحساب.

كلّهم تقلبت به صروف الحياة، كما لا بد أن تفعل. سعدون الجاسم ترك الإعلام، وصار رجل أعمال، وأصابه بعض ما أصاب الناس من انهيار «سوق المناخ». وعلي شمّو دخل الوزارة ثلاث مرات في السودان، وخرج منها بغصة كل مرة. أما غالب أبو الفرج فقد لقيته في جدة، وبدا لي طيّب الخاطر راضي النّفس، لم يتغير كثيراً عما كان منذ عرفته. هكذا خُيّل إليّ.

انبرى إلى تأييدي عبد العزيز الروّاس وزير الإعلام الحالي في عمان، وكان يومئذ وكيلاً للوزارة. كان دائماً يقظ العقل، يحب أن يصل إلى حقائق الأشياء.

وأكثر ما أغاظ كلامي، عبد الله الحوراني مندوب فلسطين، وله العذر، فقد كان بحكم وضعه، يعايش عالماً أقل استقراراً ومنطقاً، مما رميت أنا إليه. أقابله أحياناً في تونس، وأحياناً في الطائرات هنا أو هناك. ما يزال ودوداً كعادته، إلّا أن الشيب قد انتشر في رأسه، وعلاه الهمّ تحت عبء القضية المقدسة التي هو أحد الناطقين

بلسانها. لعله صار الآن (براغماتياً) كسائر الناس.

وكان مندوب السودان، إبراهيم الصلحي. كان في لندن حين عرضوا عليه منصب وكيل وزارة الإعلام. وسألني فنصحته ألّا يقبل، وكانوا قد طلبوا منّي العمل معهم من قبل فأبيت. كان ذلك في عهد النميري عفا الله عنه.

كان مندفعاً إلى المشاركة في العمل الوطني وخدمة الوطن، فذهب وعمل بإخلاص ودأب، وهما أمران عُرفا عنه. وأخيراً جزوْه جزاء سنمّار. هو اليوم في رحاب دولة قطر الكريمة، يعمل مع الوزير الأرحبي الهمام، الدكتور عيسى غانم الكواري.

استقر واطمأنت نفسه وعاد إلى ممارسة فنه الذي هو فيه نابغة يشار إليه بالبنان. وأيضاً اتجه بكل جوارحه إلى سلوك دروب العارفين، فوصل أو كاد.

حين اجتمعنا في تونس، كان مندوب ليبيا جمعة الفزّاني. كان في ذلك الاجتماع مثل جرير مع الشعراء في مربد البصرة. كان يقارع مصر وفلسطين والمغرب وتونس وغيرها، فقد كانت ليبيا تلك الأيام، على خلاف مع كل تلك الدول. وأشهد أنه أبلى أعظم البلاء. كان كما وصف تأبط شرّاً ابن أخته.

حمل ذات مرة حملة نكباء على مصر، وكان مندوب مصر الدكتور مرسي سعد الدين يجلس إلى جواري. وهو لمن يعرفه، يجمع إلى العلم، رقة شديدة في الطبع. يؤثر الدفع بالتي هي أحسن، وينفر من الخلاف والشقاق. سألني:

ـ «إيه رأيك يا طيب؟ تفتكر أردّ عليه؟».

كنّا أحياناً نحب أن ندفع سأم الجلسات الطويلة بالتفرج على مثل تلك المواقف، وكان جمعة الفزاني في الواقع، نعمة كبيرة لنا في ذلك الاجتماع. قلت لمرسي سعد الدين:
«أكيد لازم تردّ عليه. دا كلام فظيع لا يمكن السكوت عليه».

لم يكد يفتح فمه، حتّى هبّ الفزّاني في وجهه، فتراجع مذعوراً، قال لي:
ـ «دا سوفاج أوي (متوحش)».

إلا أننا كنا حين نخرج من الاجتماعات، نعود أخوة، نجلس معاً ونضحك معاً. كأننا كنّا نمثل أدواراً في مسرحية.

عملنا اجتماعاً لمنظمة اليونسكو منذ سنوات في الدوحة. وأول ما بدأنا الاجتماع، اعترض مندوب ليبيا اعتراضاً عنيفاً على وجود مصر. كان ذلك في سنوات المقاطعة. وكنت قد رأيت الشخص نفسه يفعل الشيء نفسه في اجتماع آخر. رفعنا الجلسة وانتحيت به جانباً وقلت له:
ـ «أنت أيه حكايتك؟ تجي في كل اجتماع وتمثل نفس المسرحية؟».

ضحك من أعماق قلبه وقال:
ـ «أعمل إيه؟ أنا مضطر ألعب هذا الدور».

قلت له:
ـ «يا سيدي مفهوم أنك مكلّف بتمثيل الدّور. بس أنت اتحمست

في الأداء أكثر مما يجب».

وأحمد للرجل أنه اقتنع بوجهة نظري أن قرارات الجامعة العربية لا تنطبق على اجتماعات اليونسكو لأنها منظمة دولية. عدنا إلى الاجتماع، وسحب الرجل اعتراضه، وسارت المناقشات في جو من الود والتفاهم. وحسب علمي، فقد كانت تلك أول مرة تحضر فيها مصر اجتماعاً منذ قرار المقاطعة.

الحمد لله، الآن المياه عادت إلى مجاريها. يا ليت المياه تعود إلى كل مجاريها. وقد لقيت جمعة الفزّاني في القاهرة. بدا لي أكثر امتلاء وأطول قامة مما أذكره في تونس. زادت مسؤولياته، وهدأت حدّته، وخبَت جذوة ناره، كما يجب أن يكون عليه الوزراء، إلّا من بقايا بريق في العينين. ولا بدّ أنه أصبح (براغماتياً) كسائر النّاس.

ميثاق الشرف الإعلامي ما يزال حبراً على ورق. وأثناء معرض الكتاب في القاهرة دعا إخواننا إلى وضع ميثاق شرف ثقافي. هبّ كثيرون إلى تلبية النداء، لكنني لم أستجب للنداء، وقلت إن لي في ميثاق الشرف الإعلامي لموعظة.

لكن والحق يقال، لقد صار أمر العرب إلى أحسن. اختفى جرير واختفى الفرزدق، واختفى الأخطل، واختفى الراعي النميري. لم تعد الدول العربية يهجو بعضها بعضاً في عواصم العروبة. صار النّاس براغماتيين. اللهم إلا في بعض عواصم، منها ملتقى النيلين، حيث أخواننا هنالك دائماً تصلهم الأنباء متأخرة بكذا عام. الدّنيا تغيرت والحال عندهم كما قال الشاعر:

وبُدّل الفَيْجُ بالزّرافة والأيّامُ جَزْنٌ جمٌّ عجائبها
بعد بني تُبَّع قساورةٍ قد اطمأنتْ بها مرازبُها

أمّا ما كان من أمر صديقي محمّد الفُراتي صاحب نزل الـ (بلفدير) حيث أقيم الآن، فقد طلّق الإعلام إلى غير رجعة، وانصرف إلى أعمال السياحة والفندقة، وخيراً فعل، يملك أيضاً نزلاً في الحمامات، ويساهم في مجموعة من الفنادق في بعض البلاد العربية. وقد وجدت أنه وسع نزل الـ (بلفدير) وأضاف إليه أجنحة جديدة. كان دائماً رجلاً حكيماً. وقد أضفَتْ عليه همومه الجديدة حكمة على حكمته. وهي هموم يعرف نهاياتها، ويعرف أرباحها من خساراتها.

■ ■ ■

حديقة صغيرة جميلة عند مدخل الدار، تعبق برائحة الياسمين والبرتقال. فيها البنفسج والتين والنخل والزيتون. دار عبد العزيز قاسم في (المنزَه). يرحب بك أهل الدار، وتبتسم لك الكتب واللوحات على الجدران والتحف المنتقاة، والصور والذكريات. دار رجل متوقد الذهن عميق الإحساس واسع الثقافة، من النّاس النّادرين الذين أسعدتني الأيام بمعرفتهم في درب الحياة.

عرّفني به أخي عبد الرحيم الرفاعي في لندن منذ نحو ثلاثين عاماً، جاء هو وزوجته الفاضلة «بهيجة» في شهر العسل، وكانا قد تزوجا لتوهما. توثقت العلائق بيننا على مر السنين، فأصبحت لا أزور تونس إلّا وأعرّج على تلك الدار الجميلة في (المنزه).

أحزنني أن ربّة الدار لم تكن موجودة. كانت ترقد في المستشفى،

وقد حاولت أن أثني عبد العزيز عن دعوتي، ولكنه أصر أن أشاركه إفطار رمضان. نجحت العملية الجراحية التي أجروها لها في باريس، ولمّا عادت إلى تونس أصيبت بنكسة. وقد أراني عبد العزيز قصيدة باللغة الفرنسية أرسلها للجراح الفرنسي الذي أجرى لها العملية يشكره فيها. وهو جرّاح ذو شهرة واسعة. كل بيت في القصيدة يبدأ بحرف من اسمه.

لم يتردد الجرّاح رغم مشاغله أن يحضر إلى تونس للاطمئنان عليها. وقال لعبد العزيز «إنني جئت بسبب القصيدة. النّاس أمثالك من غير الفرنسيين هم الذين سوف يضمنون بقاء اللغة الفرنسية حيّة». يكتب عبد العزيز قاسم ويتكلم بالفرنسية، كأحسن ما يكتبها ويتكلمها أهلها. وقد أصدر ديواناً باللغة الفرنسية، وجد تقديراً عظيماً من النقاد ومحبّي الشعر. كما أن له بحوثاً ومقالات في النقد بالفرنسية.

إلّا أنه مفكر عربي وشاعر عربي في المقام الأول، وحبه للثقافة الفرنسية لم يجعله ينحاز إلى كل ما هو فرنسي انحيازاً أعمى، ولكنه ينظر إلى فرنسا وتاريخها وخاصة ماضيها الاستعماري ببصيرة ناقدة من وجهة نظر عربية لا ريب فيها.

نال درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، وتقلب في مناصب عدة. عمل مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون، وكيلاً لوزارة الثقافة وأميناً عاماً للمكتبة الوطنية. وعمل فترة مديراً لمكتب وزير التربية.

أهدى ديوانه الأخير «نوبة حبّ في عصر الكراهية». يقول في مقدمته:

توسّطتُ ظناً بأنّ الحقيقة في بيْن بيْن
وها آنذا قد خسرتُ المعارك في الجبهتينْ
نسيجُ العناكب فوق الوجوه لثامْ
كوابيسُ أصحو على رعبها وأنام
تعبْتُ ولم يبْقَ في كبيراً سوى الأصفرينْ
وفي عُنُقي لم يزلْ ألف ديْنْ
وإشراقة الفكر تحت أعلى المراتب في قائمات الحرام
تُراني تنكّرتُ حقاً لمدرسة المحبسين؟
أنا المتعهّد باسم يتامى المعري وطه حسين
بأن أجعل العقل دون سواه الإمام
بماذا أصدُّ التصحر أدرأ عقم الكلام؟
وما في اليدين؟

هذه الرنّة الحزينة، تشتمل الديوان كلّه. وقد قاده الحزن والحنين إلى الوقوف على أطلال غرناطة وقرطبة وإشبيلية، كما فعل أغلب الشعراء العرب المحدثين. إن جرح الأندلس لم يندمل أبداً في الضمير العربي. ثم حدث جرح فلسطين، فأصبح الجرحان كل منهما يهيج الآخر ويزيده إيلاماً. وقد قرأ الشاعر الكبير محمود درويش في أمسيته المشهودة في لندن من ديوانه (أحد عشر كوكباً) حيث تتجلّى شاعريته الضخمة في أحسن حالاتها. يقف على طريقته على أطلال غرناطة:

خمسمائة عام مضى وانقضى، والقطيعة لم تكتملْ
بيننا، ههنا، والرسائل لم تنقطع بيننا والحروبْ
لم تغيّرْ خرائط غرناطتي، ذات يوم أمرّ بأقمارها
وأحكّ بليمونة رغبتي.. عانقيني لأولد ثانية

من روائع شمس ونهر على كتفيك، ومن قدمين
تخمشان المساء فيبكي حليباً لليل القصيدة...
لم أكن عابراً في كلام المغنّين... كنت كلام
المغنيين صلح أثينا وفارس، شرقاً يعانق غرباً
في الرحيل إلى جوهر واحد، عانقيني لأولد ثانية
من سيوف دمشقية في الدكاكين، لم يبق مني
غيرُ درعي القديمة، سرج حصاني المذهّب، لم يبق مني
غير مخطوطة لابن رشد، وطوق الحمامة،
والترجماتْ...

هذا، كما ترى، حزن بعيد الغور، كما تتوقع من شاعر من فلسطين، في مثل عنفوان محمود درويش. أما عبد العزيز قاسم، فحزنه له مذاق تونسي. حزنُ المُقيم الذي يرى الديار حوله تُقضم من أطرافها، فإذا هو مقيم كالذي رحل. وعبرةُ الأندلس منه على مرمى حجر. وأهل أفريقية مرابطون منذ أول الفتح، وفي ذاكرتهم (حنّا بعْل) ودمار (قرطاج) وأفواج اللاجئين الذين أجلوا عن أرض الأندلس. لذلك لم يكن عجباً، أن الفلسطينيين حين أخرجوا من لبنان، وجدوا ملاذاً في تونس. والشاعر التونسي يراقب بحاسته النفّاذة، ويتذكر، ولا ينسى شيئاً. لذلك فإن عبد العزيز قاسم يقف على أطلال الأندلس وقفة مثل وقفة محمود درويش، ولكن بطريقة مغايرة، يقول في قصيدة يخاطب فيها ابن زيدون:

كلُّ حب، كلّ شعر، لاجئ أندلسي
حلّ ركبي لاهثاً عند حدود الفلسِ
كنتُ أخشى أن تراني عينُ بعض الحرسِ
وطني الثاني هنا استرجعتُ فيه نفسي

كلّ حب كلّ حب، لاجئ أندلسي
واقعٌ أنت تُرى، أم نسج حُلم تونسي؟

ويقول في موضع من القصيدة، مشيراً إلى أن ابن زيدون سافر إلى إشبيلية، ساعياً لإخماد فتنة ثارت فيها، فقضى نحبه ثمّة:

أيّها المتعب من مدّ وجزر وانحرافْ
نهضت (إشبيليا) ذات صباح في ارتجافْ
جئتها ساعي وفاق وهي في نار الخلافْ
هالك الأمر فلم تقو فأنهيت المطافْ

استهلم عبد العزيز قاسم، مثل كثيرين من الشعراء، حياة الشاعر الأندلسي الإسباني (فيدريكو لوركا). كأنّ لوركا عربيّ بقي في الأندلس حين خرج النّاس. ظل شاهداً صامتاً طوال قرون. ثم نطق لما نطق بلسان عربي خالطته العجمة، ولكنه لسان عربي. فكأن الماضي لم يمت، وكأن الأرض لم تذهب سدى. وجد الشعراء العرب في لوركا عزاء ومدعاة لمزيد من الحسرة.

يقول محمود درويش:

سوف يهبط بعض الكلام عن الحبّ في شعر لوركا الذي سوف يسكن غرفة نومي
ويرى ما رأيتُ من القمر البدوي (...)
(...) سأخرج بعد قليل
من تجاعيد وقتي غريباً عن الشام والأندلسْ
هذه الأرض ليست سمائي، ولكن هذا المساء مسائي

والمفاتيحَ لي، والمآذن لي، والمصابيحَ لي، وأنا
لي أيضاً، أنا آدم الجنتين، فقدتهما مرتين

فاطرودني على مهَلٍ
واقتلوني على مهلٍ،
تحت زيتونتي،
مع لوركا..

وكذلك يفعلون، ولن يكون القتل تحت زيتونة إنما تحت أنقاض البيوت التي تُهدّم فوق رؤوس ساكنيها وفي العراء تحت الثلج والمطر. هذا شاعر عرف القتل والطرد والمنفى، أما الشاعر التونسي فهو أقل مرارة وأكثر حزناً. يقول عبد العزيز قاسم مخاطباً (لوركا):

فيدريكو عادت الأطيافُ في سرب القوافلْ
وتحرّكتَ إلى استقبال فرسان بواسلْ
وحِسانٍ مثقلات بكآبات الثّواكل
هزهُنّ الشّوق فيّاضاً إلى ماضي البلابلْ
فيدريكو عادت الأطياف في سرب القوافلْ
وصهيل الشوق خيلٌ كبّلتْهن السلاسلْ

«ماضي البلابل» ـ ذلك وصف (لوركا) للزمان العربي الجميل في الأندلس. وقد يعزّيه أنْ يعلم، أن البلابل العربية ما زالت تصدح. لا يوجد بلد عربي إلا وفيه بلبل صدّاح. أو أكثر ـ وقد طاب الغناء، وقويت الأصوات وأخذت تتجمع، وكأنها جوقة تهيب بالفجر أن يطلع.

وهذا البلبل التونسي، صاحب صوت صاف مفعم بالأحزان الجليلة يرى بواعث اليأس ولكنه يأبى أن ييأس. وهو من الشعراء الّذين تسند شاعريتَهم ثقافة متينة وبصيرة نافذة. ومن حقه أن يحتفى به على أوسع نطاق في أرض العروبة. يعمل الآن أستاذاً في الجامعة التونسية، ويحاضر في الجامعات الفرنسية من وقت إلى آخر، حيث ينشر الضياء، بإنسانيته الغامرة، ولغته الفرنسية الفخمة. أسأل الله له دوام الصحة وطول العمر، ولزوجته الفاضلة الشفاء العاجل، فهي ملهمته منذ البداية.

■ ■ ■

بعد نصف ساعة من قيام طائرة الخطوط الجوية السعودية، المتجهة بنا صوب تونس، كان السفير الأديب الشاذلي زوكار، قد تعرّف على كل جيرتنا من المسافرين. متدفق الحيوية كثير الدعابة والمرح. كذلك كان أيام مهرجان الجنادرية. لا تذكر له عاصمة عربية إلا وقد زارها أو عمل فيها. لا تذكر له شخصاً إلّا وهو يعرفه.

حمدت الله أننا نسافر معاً. كان قد هيّأ لي الحصول على الفيزا في الرياض كما قلت، لكن الله أعلم ماذا يحدث حين نصل إلى تونس. تخيّل آخر الزمن، السوداني الكريم العفيف الذي يربأ بنفسه عن التدخل في شؤون الناس، أصبح يثير المخاوف أينما حلّ. هذا كل ما جنيناه من هذا العهد الميمون.

قال الشاذلي زوكار، مشيراً إلى سيدة تجلس إلى اليسار مني، على مسافة مقعدين:

«هذه السيدة كابتن».

«كابتن ماذا؟».
«قائدة طائرة، من الإمارات العربية المتحدة».

أشرع الصحافي الليبي الجالس بجواري آلة التصوير في الحال، وهبّ واقفاً ليأخذ منها لقاء صحافياً.

قالت السيدة ضاحكة:
«تعبت من المقابلات الصحافية».
لكنها قبلت التصوير، كلّنا تصورنا معها.

حين دخلت الطائرة في الرياض متلفعة بعباءتها السوداء، سارت في خفر إلى مقعدها، لم يخطر ببالي أنها قد تكون قائدة طائرة.

عرفنا منها أن اسمها كابتن علياء، درست العلوم في كلية (جولد سمث) بجامعة لندن ثم تعلمت الطيران في أوكسفورد.

قلت لها «أظنك ثاني طيّارة عربية، أليست الأولى من عُمان؟».
«لا. أنا أول قائدة طائرة عربية».

تقود طائرات البوينغ والجمبو وتسافر إلى لندن ونيويورك وطوكيو وما شئت.

«هل تستطيعين قيادة طائرة الميراج أو الفانتوم؟».
«ليس صعباً عليّ أن أتحوّل من قائدة طائرة مدنية الى طائرة عسكرية».

سبحان الله، الذي لا يعرف العالم العربي يحسبه ميتاً وهو في الحقيقة يتأجج بالحياة. ألا ترى أنه لا توجد أزمات تدعو إلى اليأس،

كما يحلو ابعض أصحابنا أن يصفوا؟ توجد مصاعب، وكلها تتفرع من قضية واحدة، سوف تُحلّ إن عاجلاً وإن آجلاً، إما بهذا وإما بذا.

في رحلتي من لندن إلى الرياض، لاحظ الشاب أنني أحاول تغيير مقعدي لأجلس مع المدخنين.

«أنت فلان؟».

«نعم. أهلاً وسهلاً».

«اتفضل اجلسْ معي. هذا الأخ لا يمانع أن يجلس مكانك».

وجدت أنه لا يدخن.

«سوف أحاول ألّا أدخن إلا عند الضرورة القصوى».

بعض مشائخنا يرتفعون بالتدخين من الكراهة إلى التحريم. وقد سألت الدكتور يوسف القرضاوي فقال لي:

«لا أجد وجهاً لتحليله».

حين ذهبنا لنسلّم على الرئيس علي عبد الله صالح، مع رئيس لجنتنا الرّجل الكريم عبد العزيز حسين ـ اللجنة التي كوّنها الدكتور محيي الدين صابر لوضع خطة شاملة للثقافة العربية ـ قال الدكتور محمد أحمد الرشيد للرئيس اليمني: «يا سيادة الرئيس، ليتكم تمنعون هذه العادة الرذيلة، عادة مضغ القات».

ضحك الرئيس وقال:

الناس (يخزّنون) ويتحدثون في السياسة وينشدون الشعر ويسبون الحكومة ثم ينصرفون إلى بيوتهم».

تحادثت زمناً مع جاري في الطائرة دون أن أعرف اسمه. عرفت أنه يعمل مستشاراً في السفارة السعودية في واشنطن ووجدته مستنير الفكر واسع الاطلاع، عميق المعرفة بشؤون الولايات المتحدة. وحين أعطاني بطاقته وجدت أن اسمه محمد بن فيصل بن تركي.

قلت له مازحاً «أنت إذاً من آل العائلة».

«أنا من آل سعود. نعم».

«يعني أمير».

ضحك قليلاً ضحكاً خالياً من أي توتر. بعض الناس الذين تمنحهم الحياة ميزات لم يبذلوا جهداً في الحصول عيها، قد يتحوّل ذلك عندهم إلى شيء من التعالي أو التكلّف أو التوتر بسبب الإحساس بالذنب. هذا الشاب لم يكن به أيّ من هذا. كان طبيعياً جداً. وحمدت الله أنني لم أعرف من هو منذ البداية. إذاً لعلّي كنت، ولو بأقل القليل، أقسو في حكمي عليه، وهو في واقع الأمر شاب يستحق أن يكون له شأن، حتى ولو لم يكن من آل سعود.

تغدينا معه في داره، وكان قد ألحّ عليّ في الطائرة، ثم كرر الدعوة بعد أن وصل إلى الرياض. كنا جماعة، أحمد عبّاس صالح، وعثمان العمير وعلي شلش وحسن خليل. ووجدنا بين من وجدنا عنده رجلاً نجدياً قال لنا أنه عدّى الثمانين. تحسبه لم يبلغ الستين، روى لنا بعض أخبار الحروب التي شهدها مع الملك عبد العزيز.

حين ذهبنا قال لي أحمد عبّاس صالح «الشاب دا عجيب، أنا ما قابلتش أبداً سعودي زي الشاب دا. البلد دي أتاريها مش سهلة».

قلت له «العقل العربي في كل مكان حين يتحرك يصنع الأعاجيب، أليست هذه الجزيرة منبع العرب؟».

وقد ذهبت أنا بفائدة أخرى عظيمة، فقد ألحّ الأمير أن يعطيني نسخته من ديوان الأمير خالد الفيصل، جاء ذكره في الحديث وقلت إنني معجب بشعره من زمن، وأنه أعياني الحصول على ديوانه، وقد فاتتني أمسيته الشعرية في لندن التي نظمها السفير الشاعر غازي القصيبي.

شعره بالغ العذوبة، يصدق فيه قول الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في قصيدته إليه:

مصافيف عقد صفّ من لؤلؤ الصّفا
جواهر منقّاية كما صفوة الصّافي

وقد ردّ الأمير خالد عليه بقصيدة جاء فيها:

رمته العيون السّود من قبل ما رمى
وعوَّد خبير الصيد مصيود يا كافي
وذي عادة القنّاص يصبر على القضا
يشيل الحمول اللي ثقيلات وخفاف
ولا بدّ للطلاب ياصل على المدا
ولو عارضه عذّال وإن جاهُ خَسّافِ
ومن يطلب المثمون يشريه لو غلا
ومن يطلب العليا يجنّب عن الهافي

■ ■ ■

حوّمت الطائرة فوق مدينة تونس، بعد منتصف النهار بقليل، قبل أن

تهبط في مطار قرطاج. كلُّ هذه الزرقة وكل هذه الخضرة وكل هذا البياض. لا عجب أن كل ذلك قد خلب لب محمد المهدي المجذوب، الذي جاء يحدوه صوت أبي القاسم الشابي، وحل عليها كما حلّت قبائل الهلاليين في أول العهد. الوصول إلى سواحل المتوسط، ذلك حلم عربي قديم. وكان حاله كما وصف:

مَنْ عذيري من غُربة أخذَتْ روحي
وألْقتْ عليّ وجهاً معاراً

ذلك بُرج نزُل (أفريقيا) في شارع الحبيب بورقيبة. وغير بعيد منه على شاطئ البحيرة فندق الـ «أوتيل دو لاك» المبني على هيئة هرم مقلوب. حللتُ فيه أول مرة زرت تونس، عام ٧٣، في مؤتمر الأدباء، وكانوا قد افتتحوه لتوه، ثم نزلت فيه لبعض ليال عام ثمانين، فوجدته قد شاخ قبل الأوان وساءت أحواله. لا بد، فليس سهلاً على هرم أن يظل واقفاً على رأسه زمناً طويلاً، ذلك من شطحات بعض المهندسين المعماريين. حتى في الخرطوم، تجد معماراً غاية في الغرابة.

كان ذلك المؤتمر أول مؤتمر للأدباء أحضره وآخر مؤتمر، وقد جذبني الإغراء بأن أرى تونس. أسعدني أنني وجدت الشاعر الضخم محمد المهدي المجذوب، ومعه حسن أبّشر الطيّب، الكريم كعهده دائماً، يحفل بالمجذوب ويرعاه، وقد ظل يرعاه إلى آخر لحظة في حياته، بل حتى بعد ممات الشاعر. وكان معهما الشاب المستنير عبد الهادي الصديق. كان في تلك الأيام سكرتيراً ثانياً أو ثالثاً في وزارة الخارجية. لو سارت به الريح رخاء لوجب أن يكون اليوم سفيراً. الله أعلم ماذا لقي على أيدي أصحابنا هؤلاء.

وقع المجذوب فوراً في حب تونس. سحره البحر وبياض المساكن وشجر الزيتون ورقّة البشر. وفي القيروان استخفه الطرب حين سمع الموشحات الأندلسية بأصوات كأنها تنبع من أغوار الماضي. كنا في قاعة واسعة مبنية على النمط الإسلامي، فتماوجت الأصداء من السقف والجدران.

اهتز الشاعر مثل شجرة يأتيها الماء بعد طول يباس. كان أشعر شعراء ذلك الموسم لا مراء. لكنه حين وقف لينشد في القيروان، خرج صوته حيِيّاً خافتاً. لم يكن شاعرٍ خطابة ومهرجانات. يكون في أحسن حالاته في عدد صغير من أناس يحبّونه ويقدّرون شعره. وما أعظم ما أحب السودان:

ما سقتْني على الظّمأ شفة خضراء أحلى من الزّلال وأنقى
كشفت وجهها وزينتها الحُسنى وكم أشتهي وكم تتوقّى
غسلت مهجتي بطهر سجاياها فلم ترْض أن نهون ونشقى
أنا أهواك يا بلادي ما واليت غرباً ولا تبدّلت شرقاً.

أعجبته شاعرة (شامية) كان يسميها «الوعل». وكان يقول:

«لو وجدت بيتاً صغيراً على شاطئ البحر في هذا البلد الجميل، ومعي هذا الوعل. يا زول!».

كان سيصنع شعراً أعجب مما صنع ولا شك.

كان ذلك في شهر مارس (آذار) عام ٧٣. وشبّت الحرب في شهر أكتوبر (تشرين الأول) عام ٧٣. حينئذ كان بعض ما ساهمت به دول الخليج أنها أوقفت ضخّ البترول.

هذا، وقد أحبّ المجذوب في سنواته الأخيرة من لبنان، سيدة تعرّف بها في بيروت، أيام كانت بيروت تحرّك صبوات الشعراء. كان حباً عذرياً على البعد، أغلبه بالمراسلة. لكنه ألهمه شعراً بديعاً لم ينشر بعد. وكان المجذوب يكتب رسائل لا تقلّ جمالاً عن شعره. رعى الله تلك السيدة، فقد ملأت قلب الشاعر بالسعادة أخريات حياته. وليتها تنشر ما لديها من الرسائل، فهي ذخيرة أدبية لا ريب، وقد فتحت غادة السمان الطريق بنشر رسائل غسان كنفاني إليها.

رحم الله المجذوب. غنّى لسودان أبعد ما يكون عن السودان الذي يصنعه أصحابنا هؤلاء. كأنهم يريدون وطناً لا يتسع إلا لنوع واحد من الناس، ولم يقرروا بعد، أي نوع من الناس يريدون، لذلك فهم لا يزالون يغيّرون ويبدّلون، ويقومون ويقعدون، ويربطون ويحلّون. وهم ويا للأسف، لا يحبون الشعر، وليس بينهم شعراء. إذاً لوجدوا ان محمد سعيد العباسي، ذلك الشاعر الآخر الفحل، قد وصف منذ خمسين عاماً ما نحن فيه الآن:

تحية الله يا أيام ذي سلم
أيام لم نخْش بأس القاهر العادي
أيام كنا وكان الشمل مجتمعاً
وحيُّنا حي طلاب وقصّادِ
فإن جرى ذكر أرباب السماحة أو
نادى الكرام فإنا بهجةُ النّادي
واليوم أبدت لنا الدنيا عجائبها
بما نقاسيه من حرب وأحقادِ
وما رمى الدهر وادينا بداهية
مثل الأليمين: تفريق وإبعادِ

رحمه الله. كأنه معنا اليوم يسمع ويرى. إن الأمم التي تنجب أمثال هؤلاء الشعراء، لن تقهر أبداً. سوف يجيء زمان (اجتماع الشمل)، قريباً إن شاء الله، فهذا العهد قد مزّق أكثر، وخرّب أكثر، وبَعْثر أكثر مما يجوز حتى لمثله.

■ ■ ■

مطار (قرطاج) بُعيْد منتصف النّهار. الأرض مبتلّة في أعقاب المطر. الشمس واضحة تؤكد لك العبارة المكتوبة على واجهة المطار «مرحباً بكم في تونس». النسيم يحمل رائحة البحر والفل والياسمين، والبشرى التي تنتظرك خارج هذا المكان. أجد في صدري ذلك الحبور الذي أُحسُّه كلما هبطتُ أرضاً عربية، وسمعت اللّفظ العربيّ ورأيت الوجوه العربية.

إنني أعلم ما سوف يحدث. تحسّست الجواز السوداني في جيبي. كان أزرق اللّون فعملوه أخضر وصغّروا حجمه. كلّ عهد يجيء لا بد أن يغيّر شيئاً، خاصة إذا كان عهداً ثورياً، ونحن هذه الأيام، نتقلّب في بحبوحة (ثورة الإنقاذ). للّه درهم. حلّوا معضلة الجنوب، ونصبوا ميزان العدل، وأهابوا بالسماء أن تمطر وبالأرض أن تخضرّ، فأصبحنا نأكل مما نزرع، ونلبس مما نصنع، وأرخوا سدول الطمأنينة والأمن، فأمسى الرجل يسري من (محمد قول) إلى (تُوريتْ) لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه.

كنت أعلم ما سوف يحدث. في شهر رمضان جئت من مسقط وكنت قد أخذت الفيزا من السفارة التونسية في لندن. هنالك أيضاً وجدت سفيراً كريماً هو الأستاذ محمد اليسير. أحسن لُقياي، كما فعل قاسم بوسنينة في الرياض، ورحب بي كأفضل ما يصنع

التونسيون، وأعطاني الفيزا في الحال. في مطار قرطاج، نظر الضابط إلى الجواز، وقال لي دون أن يفتحه، قال ذلك بلطف:

«اتفضّل ارتاح شويّة».

طال انتظاري، وأنا أتأمل السياح الألمان والطليان والإسبان والأمريكان والفرنساوية، يسيلون على أرض تونس الجميلة، كما سالت أعناق مطيّ الشاعر على بطاح مكة. لا بأس. لا بد أن للأمر صلة بلون الجواز، وثورة الإنقاذ.

انتظرت حتى فرغت الصالة من الناس، وبعد لأْي جاءني الرجل بالجواز، وقال لي بلطف:
«اتفضّل. آسفين على التأخير».
«إيه المشكلة؟»
«أبداً. عملية إداريّة بسيطة».

الآن، في شهر نيسان، لعلّ الأمر يختلف قليلاً، فأنا أدخل تونس ومعي سند قويّ. شفيع أكيد، هو هذا السفير المقدام الشاذلي زوكار. وأنّى لي في كل مرة بسفير يشفع لي؟

وأنا بعدُ عابر سبيل، العلاقات مقطوعة مع حكومة (ثورة الإنقاذ) في الخرطوم. وهم قوم كما وصف الشاعر (إذا الشر أبدى ناجذيه لهم). فرغوا من إصلاح اعوجاج السوذان ويريدون أن يصلحوا العوج في كل مكان، في تونس والجزائر ولبنان. وفي مصر وبلاد الخليج وبلاد الأفغان. إنما أنا ما لي ولهؤلاء؟ إنهم زعماء أقيال، وأنا محض عابر سبيل، أرحل في بلاد الله، لا أحمل غير ثيابي وكتبي

وأوراقي. وإن كنت أحمل همّاً، فهو همٌّ كوْنيّ، لا علاقة له بالحكومات والدول. وفي حقيبتي الآن، بين الكتب التي أحملها، تلك الرواية الرائعة للكاتب التونسي النابغة البشير خريف (الدّقلة في عراجينها). أريد أن أعيد قراءتها. وقد كتبتُ مقدّمة الطبعة التي أصدرتها (دار الجنوب) في سلسلة (عيون المعاصرة)، وقلت فيها:

«عالم الجريد هذا في آخر نقطة في الجنوب الغربي من البلاد التونسيّة، كما تصوّره هذه الرواية، عالم أعرفه حق المعرفة. أعرف أرضه وسماءه ونخله وأهله. كانت قد شطت بنا الدار وبعدُ المزار، فجاء فنّان بديع التصوير، طليّ العبارة، مرهف الحس، فألغى الحدود وقرّب المسافة. وهذه العائلة التي هي محور الرواية أعرفها كما أعرف أهلي ولا ريب...».

إنما هذا لن يشفع لي عند ضابط الجوازات، فما له ولهذا؟ إنه ترْس في جهاز كبير معقد. ينفّذ الأوامر. يبحث عن ورقة، إن وجدها سمح لي بالدخول.

ولا بد أن هذا السفير الهمام، الشاذلي زوكار، كان يحس بشيء من هذا، إذ إنه لم يسر بي في الطريق العادي، الذي يدخل منه الألمان والطليان والإسبان والأمريكان والفرنساوية، ولكنه سار بي إلى مكتب جانبي، بدا لي أن مسؤوليه، يحملون مسؤوليات أكبر، وأنهم أقدر على قول لا أو نعم. عرّفهم بنفسه وأظنهم عرفوه، ثم قدمني إليهم وقرّظني لديهم بأكثر مما أستحق، وقال لهم إنني محبّ لتونس، وذلك حق. إنّما الحب يلزم له الصبر، وأنا وحياتك، لم أنْجُ من اختبارات الحب.

رعى الله ذلك الإنسان الفاضل الشاذلي زوكار. لقد بقي يرفُّ علي رفيفَ الأقحوانة في نداها. وكان أهله ينتظرونه خارج المطار، ولكنه أبى أن يذهب دوني، وظل يضاحكني ويمازحني، يريد أن يهوّن عليّ الأمر، وما كنت بحاجة إلى كل ذلك، فأنا هنا في وطني الثاني، وفي وطني الأول لعلهم يؤخرونني أكثر.

دخل الضابط وغاب ثم خرج. قال لنا بلطف:
«معليش اتفضّلوا شويّة. عملية إدارية بسيطة تَوْ نحلّوها».

طال الانتظار، وأنا أتأمل جحافل (الفايْكنج) من أصقاع (العالم الأول)، تكتسح ديار تونس الجميلة. جاءوا يطلبون المتعة وسوف يحصلون عليها. سوف يتمتعون بالبحر والشمس والرمال، في الحمامات وسوسة وجربة وقابس. سوف يأخذون صوراً كثيرة، يتأملونها في ليفربول وليون ودسلدورف ونابولي وبوسطن. يدخلون ضاحكين، ويخرجون ضاحكين.

وهل أنا إلا سائح؟ جئت لبعض هذا وأكثر. جئت أتذكر وأتأمّل وأتعرّف. جئت أقيم الصّلات وأفتح النوافذ وأبني الجسور. جئت أرى بعض نفسي وأسمع بعض صوتي وأحب بعض أهلي وأحبّهم أكثر. جئت كما قال محمد المهدي المجذوب حين حلّ بأرض لبنان «جئت من السودان للصّلاة لا للحساب». فما لضابط الجوازات وما لي؟ وما لي ولـ (ثورة الإنقاذ)؟

■ ■ ■

حدث كما كان لزاماً أن يحدث، طال الانتظار أم قصر. جاءنا

الضابط بالجواز، والإذن بالدخول في بلاد تونس الجميلة. كان متهلل الوجه والحق يقال، فهو بطبعه العربي ولا بد، أميَل إلى أن يفتح الباب لا أن يغلقه، وأسرع إلى قول «يا هلا ويا حبا» منه إلى قول «ترْحاً وبُعداً». وكان صديقي الشاذلي زوكار أكثر فرحاً، فقد كان يغيب عني ويعود، ولا بدّ أنه استنجد بمسؤول أو أكثر.

ذهبت وإيّاه ضاحكين، وقد كنت أضحك أيضاً لسبب آخر عنّ لي في تلك اللّحظة. وعلى أيّ حال، فقد انصرف ذهني إلى البشرى التي تنتظرني وراء سياج المطار. ويا لها من بشرى. أن أقيم ما طابت لي الإقامة على ساحل المتوسط بين نابل والحمامات. أن أغطس، كمن يغطس في حلم، في زرقة ذلك البحر الأسطوري، الذي لشدة ما يصفو فكأنه يجذب لك المدن من الشاطئ المقابل في الشمال، وكأنك تراها رأي العين. أن أقرأ الكتب التي لم أجد الوقت لقراءتها، وأكتب إن فتح الله عليّ بشيء.

بلى، سوف تتحلحل عقد الخيال، وتسكن ثائرات الروح، فيا للانتظار من ضريبة صغيرة، لقاء هذه الخيرات السابغة. وفعلاً، ما هو إلا بمقدار ما تصل السيارة من المطار، حتى احتواني ذلك الدفء الذي وصفته في نزل (البلفدير) من صديقي محمد الفراتي والعاملين معه. خديجة وحياة وسيدة وزهير والآخرين. فرحوا بقدومي وأحسنوا استقبالي كعادتهم.

ثم قضيت أمسية في معرض الكتاب عند صديقي محمد المصمودي صاحب «دار الجنوب» أوقّع الكتب، فقد نشروا لي روايتين في سلسلة «عيون المعاصرة». يجيء الرجل ومعه أبناؤه وبناته. ويجيء شبان وشابات من الجامعة. ويجيء المعلّم ويجيء

الطبيب. ما أجمل حفاوة التونسيين بالأدب والفكر. وجاءت سيدة من أقصى الغرب، على الحدود مع الجزائر، وقالت إنها سمعت من الإذاعة فجاءت لتراني. ويا لها من وجوه ذكيّة تضيء بالتطلع. ألّا ينسيك كل هذا ملالة الانتظار؟

ثم جاء العالم النابغة الدكتور توفيق بكّار، فالتفّ حوله الناس وأكثرهم من الشباب، فوقّع لهم على كتاب المسعدي «السدّ» و«حدث أبو هريرة قال» فقد كتب لهما المقدّمة. وبالليل وجدت في دار الرجل الكريم محمد المصمودي، أناساً أعرفهم، وأناساً كنت اتطلع إلى معرفتهم. وبعد ليلة في نزل «البلفدير» عدت أدراجي إلى ذلك المكان الجميل بين نابل والحمامات.

إنما المحب يلزمه الصبر، كما قلت. كنت أزور مصر العزيزة، وهل العربي، خاصة من السودان، يحتاج إلى برهان على حب مصر؟ كنت أجيء من عمّان، أيام فتنة حرب الخليج، وأكثرُ المجيء، في رمضان وفي عيد الأضاحي، فقد كنت أعمل مع مكتب منظمة اليونسكو في عمّان، والمسافة غير بعيدة كأنك تسافر من الخرطوم إلى بورسودان. ووراء سياج مطار القاهرة، لي مواثيق قديمة، وذكريات تليدة، وأصدقاء أفديهم ويفدونني، وأكثر ممّا يصعب شرحه لضابط الجوازات.

تجد أمامك سبيلين، واحد يدخل منه المواطنون، والآخر يدخل منه الأجانب. في بعض ديار العروبة تجد طرقاً شتّى. للمواطنين، ولمجلس التعاون إن وجد مجلس تعاون، أو مجلس اتحاد إن وجد مجلس اتحاد. وأحياناً دربٌ يسلكه العرب. هنا في تونس يوجد طريق واحد، يدخل منه المواطنون والأجانب.

أقف في صف الأجانب في مطار القاهرة، وهو طويل بطبيعة الحال، وشديد الزحام. تكون محظوظاً إذا وجدت أمامك أجانب واضح أنهم «أجانب»، حينئذ يتحرك الناس مثل الماء في جدول متّسع. وغالباً ما يكون الجدول ضيّقاً.

تصل إلى الضابط فيفتح الجواز ويقلب صفحاته. يجد أنني دخلت بلاداً لا يسهل دخولها، ومنها من أذن لي بالدخول والخروج مراراً بتأشيرة واحدة. وأقول، إذا كانت كل هذه الدول قد وثقت بي، فبالأحرى أن تثق بي الشقيقة الأثيرة مصر. بيننا وبينها من الحب ما لا يقْدر واشٍ يفسده. وقبلاً قال شاعرنا العبقري التجاني يوسف بشير، منذ ستين عاماً:

طبعُ مصرٍ تقصّياً ونشاطاً
لو دهى الصخر داهمٌ منه أوْرى
كيف يا قومنا نباعد من فكْ
رِيْن شدّا وساندا البعضَ أزْرا؟
كيف قولوا يجانبُ النيلُ شطّيْه
ويجري على شواطئ أُخرى؟
كلّما أنكروا ثقافة مصر
كنتُ من صُنْعها يراعاً وفكرا
جئتُ في حدّها غراراً فحيى اللّه
مستودع الثقافة مصرا

ناهيك بالعبّاسي وأحمد محمّد صالح ومحيي الدين صابر والمحجوب والمجذوب والفيتوري ومحيي الدين فارس وتاج السر الحسن والحردلّو وآخرين لا يحصيهم العد. طبقات فوق طبقات من تراكمات التاريخ منذ قبل عهد الفراعنة، لا يقوى على خلْخلتها

حكم قام في مصر أو السودان. والنيل يسعى بيننا مثل النّبأ السار منذ الأزل وعبر القرون.

لوهلة بدا على وجه ضابط الجوازات أنه استحضر كل ذلك، وأنه سوف يغض الطرف، إنّني أحمل جواز (ثورة الإنقاذ)، وإنني قادم من عمّان، وإنه لن يعوقني ويفسد عليّ لهفتي للقاء المدينة العتيدة المُفعمة بكل تلك المعالي، والشمس تغطس في النّيل، وراء سياج المطار.

■ ■ ■

ابتسم الضابط في وجهي، بتلك الطريقة المصريّة الجذّابة، التي تجعلك تسامحه سلفاً على أيّ تقصير يمكن أن يحدث. كانت تجلس إلى يساره سيّدة تعكفُ على جهاز كمبيوتر. أذكر القناع الّذي غطّت به رأسها. كان لافتاً للنظر أكثر مما لو تركت رأسها عارياً. أعطاها الضابط الجواز، فاقتحمته بعينها ووضعته إلى جانبها، وانصرفت إلى الجهاز أمامها.

الّلون الأخضر، لونٌ وديعٌ مسالمٌ عادة. بدا لي الآن كأنه يشع إشعاعات غامضة، توحي بالخطر.

«اتفضل ارتاح شوية».

«ليه؟ إيه المشكلة؟».

«أبداً، إجراءات إدارية بسيطة».

جاءت أفواج بعد أفواج من شمالي المتوسط وغربي الأطلسي وشرقي المحيط الهادي. النساء الأوروبيات، لأنهن جئن من البرد إلى

حيث الشمس والدفء، لم ينتظرن حتى يصلن، لكنّهن تهيّأن للحرارة مقدماً، فجئن يلبسن لباس الصيف في عز الشتاء. والنساء الأمريكيات، فوق الستين والسبعين، مات عنهن أزواجهن كما يحدث في الغالب، فجئن فرحات في لغط وضوضاء، حالَ من يخرج من السجن. قبضن حاصل بوليصة التأمين، وغدت الحياة عامرة بالاحتمالات، والسيّاح اليابانيون، قاماتهم سواسية، وشُكولهم ضربة لازبٍ، وثيابهم واحدة، ويحملون حقائب كأنّ حقيبة نسلَت من لونها وحجمها حقائب. في رقابهم تتدلّى آلات التصوير، أكثر من الأمريكان. هم وإيّاهم، لن ينظروا بعيونهم ولكن بعيون الكمرات، ولن يذكروا شيئاً إلا ما سجلته العدسات.

كان في الصالة شيء يشبه المهرجان. مندوبو شركات السياحة رافعين لافتاتهم، يجدون جماعاتهم فيخرجونهم زُمُراً زُمُراً، كالمدرسين مع التلاميذ في الرحلات المدرسية.

وهل أنا إلا سائح؟ لاحظت فتى كأنه ساعٍ، يغدو إلى مكتب جانبي، فيعطونه رزمة من الجوازات. يغيب زمناً ثم يعود بها. يسلمها إلى ضابط أو مسؤول، فيقوم ينادي على الناس، كل واحد يأخذ جوازه وينصرف. واسمي لا يجيء.

سألت ذلك الفتى ماذا يصنع.
«أصل الحالات اللّي تحتاج لمراجعة من الأمن بناخدها لمكتب الأمن».

«وفين مكتب الأمن؟»
«في المطار القديم. حضرتك جوازك إيه؟».

«سوداني».
«واسم حضرتك؟».
«الطيّب محمد صالح».
«ولا يهمّك أنا حاخلّص لك الجواز حالاً».
«إيه المشكلة؟».
«ما فيش أي مشكلة. هو في بينّا وبين بعض مشاكل؟ أحنا أخوات بحق وحقيق. آه والله».
«طيّب ما دمنا أخوات معطّليني ليه؟».
ضحك، وتلفّت حوله، مثل الجرسون الذي لا يُسمح له بمحادثة الزبائن:
«أصله بصراحة الجواز بتاعكم اليومين دول شكله مش ظريف».
«ليه؟».

«ليه؟ ما أنت عارف. أحنا حنخبّي على بعض؟ أصله بصراحة جماعة الإنقاذ دول بيعملولنا متاعب. وأحنا مش فاضيين لوجع الدماغ».
«وأنا إيه علاقتي بالحكاية دي؟».

«إيه! أنت بتستعبط يا أستاذ؟ ما أنت فاهم وأنا فاهم. على أي حال ولا يهمك. أنت نوّرت مصر والله. ثواني وأجيب لك جوازك إن شاء الله».

أسعدني حديثه. إنني أتطلع لمثل هذه الظروف. دائماً أخرج منها بفائدة. مطارات العروبة عامرة بالفوائد. تمعّن الموظف مليّاً في الجواز وأنا أخرج من عاصمة عربية. كنت في عمل، وأحمل جواز الأمم المتحدة. المفروض أن يكون الخروج أسهل من الدّخول. نظر فيه ملياً

وقلّب صفحاته وأمعن النظر في أختامه، حتى خفْت أن يكون وجد فيه شيئاً لا يسرّه. وبعد أن أطال التفكير سألني:

«بالله قول لي، الواحد كيف يحصل على جواز متل هادا؟».

يا له من سؤال فلسفي عويص، مثل سؤال (هاملت)؟ رأيت في وجهه أنه يتكلم بجد، كمن يريد أن يعرف بالفعل. قلت له:

«تَقْضى وظيفة في منظمة من منظمات الأمم المتحدة. يعلنون عنها في الجرايد. تقدم طلب. إذا نجحت يعطوك جواز متل هادا».

«هيك إذاً؟».

«نعم».

ختم لي على الجواز وقال لي «الله معك» وقلت له «الله معك». تركتُه مهموماً. علق بذاكرتي لبضع دقائق. الله أعلم ما هي قصته، وماذا وراءه وأي همّ عناه. لعله تخيّل في الجواز الغريب عوالم بدت له أسعد مما هو فيه. ولعله غبطني على الذي بكيتُ منه كما بكى سيدي أبو الطيب.. الله معك.

قال الضابط لصاحبه العاكف على آلة الكمبيوتر، في مطار آخر من مطارات العروبة:

«هادا سويدي».

قلت له:

«يا أخي حرام عليك. هل أنا شكلي سويدي؟».

«أنا أيش درّاني؟ هادا الرجّال الدخل قدّامك عربي، يتكلّم عربي ومعاه جواز كندي... يمكن أنت تكون سويدي».

صدق. العالم لم يعد واضحاً كما كان. استعجم العُربُ في البراري واختلط الحابل بالنابل. ولم يعد أحد يعرف أين هو، ومن هو.

تعزّيت بالشعر في مطار القاهرة. تذكرت أبيات جميل في صبره على بُثينة، والمحب يلزمه الصبر:

وإنّـــي لأرضـــى مـــن بـــثـــينة بـــالـــذي
لـو أبـصـره الـواشـي لـقـرّت بلابـلُـه
بِـــلا، وبـــألّا أســـتـــطـــيـــع، وبـــالمنـــى
وبـــالأمـــل المرجُـــوّ قـــد خـــاب نـــائـــلُـــه

إنما بثينةُ هذي سوف تجود، مهما طال الانتظار. وكان أحرى بها أن تصنع صنيع حاتم طي، فذلك لعمري هو الجود:

أمـــاوي إمّـــا مـــانـــعٌ فـــمـــبـــيَّـــنٌ
وإمـــا عـــطـــاءٌ لا يُـــنَـــهْـــنِـــهُـــه الـــزّجْـــرُ

ولعمري، إن انتظار مثلي في مطارات العروبة، إنما هو ضرب من الزّجر.

فجأة انتبهت، كمن يطفو إلى سطح الماء بعد غطاس، أنّ المكان قد أقفر كلية من الناس، وأنني أجلس وحدي. كأن الزّمن قد توقف. كأنّ الطائرات المتجهة إلى القاهرة، من أقطار الدّنيا كلها لم تُقلع. كأنّني الإنسان الوحيد في الدنيا بأسرها الذي نُودي ليهبط أرض مصر، ولما جاء وجد الأبواب مغلقة والحجّاب قد ناموا. كأنني (المهرج) في بيت صلاح جاهين:

أنا المهرج قُمتوا ليه؟ خُفْتوا ليه؟

لا في إيدي سيف ولا تحت منّي فرسْ

«يا خبر! هوّ أنت لسّه بتنتظر؟ همّ لسّه ما خلّصولكش جوازك؟ دا ما يصحّش والله. معليش أنا آسف والله».

ثم نظر إليّ برهة.
«تكونش حضرتك الكاتب السوداني صالح الطيب؟».
«نعم».
«اللّي كتب رواية رحلة الطيور المهاجرة؟».
«نعم».
«يا نهار أبيض. دا أنت نوّرت مصر. دا شرف عظيم والله».

كلّم بالتلفون شخصاً ما، في مكان ما، وأطراني لديه بأكثر مما أستحق، وقال له أنني محبٌّ لمصر، وذلك حق، فمنذا الذي لا يحب مصر؟ إنما الحب، كما قلت، يلزمه الصبر. وأنا هنا في وطني الأوّل ـ الثاني، وفي وطني الأوّل ـ الأول، لعلّهم يعطلونني أكثر.

■ ■ ■

ضحكت أيضاً ونحن نغادر مطار (قرطاج) لأنني تذكرت كيف حصلت على ذلك الجواز الأخضر العسير المنال، جواز (ثورة الإنقاذ)، ولو كان السفير غير ذلك الرجل المقدام، لعلّني لم أكن أحصل عليه. وهم حين يسمحون لك به، فكأنّما يستودعونك همّاً مقيماً كما رأيت.

هذه الكلمات التي كانت أيّام السودان (سودان) والريحُ رخاء، والسفينة لم يصبها العطب، وسواعد الملاّحين لم يفتَّ منها الوهن ـ بعد أن كانت تؤخذ مأخذ الجد، لم تعد لها قيمة. أصبحت تثير الريبة والحذر:

«يطلب السيّد وزير الداخلية بجمهورية السودان، باسم جمهورية السودان، من جميع أصحاب الاختصاص، أن يسمحوا لحامل هذا الجواز، والذي هو سوداني، حرية المرور، بدون تأخير، وأن يقدموا له كل مساعدة وحماية قد يحتاج إليها».

وهبْ أن ذلك لم يحدث، فماذا تفعل؟ وما هو ثقلك في موازين الحكومات والدول؟ وإذا كنت أنت لا تساعد رعاياك وتحميهم فوق أرضهم وفي أكناف موطنهم، فلماذا تطلب من الآخرين أن «يقدّموا لهم كل مساعدة وحماية؟».

عفا الله عنهم، ما أشدّ ما عبثوا بالوطن. كأنّ طفلاً يبني قلاعاً من الرمال على شاطئ البحر، ما يلبث أن يهدّمها ثم يعيد بناءها من جديد. أصبح الناس قلوبهم شتّى، وكان الهمّ واحداً، فأصبح همّاً وثانياً وثالثاً.

وما كان أهون أن أطرح عنّي هذا العبء، وأقطع الحبل السرّي الذي يربطني إلى هذا الوطن المستحيل. ما كان أسهل أن أبدّل تابعية بتابعيّة، وجوازاً بجواز، لكن حاشا واللّه لا أفعل. سوف أظلّ أتشبّث بهذا الجواز كالذي يقبض على الجمر، أمشي به في مناكب الأرض بإصرار فيه معنى التحدّي والغيظ والحسرة.

أيّ سودان يمثله هذا الجواز؟ هذا السودان المؤقت؟ أم السودان في صيرورته اللامتناهية؟ سودان أصحابنا هؤلاء الذين رفعوا المصاحف الشريفة على أسنّة الرماح؟ أم سودان الرجال والنساء الذين مشوا على الأرض هوناً، ودفعوا بالتي هي أحسن، وربطوا البطون على الطوى، تحسبهم أغنياء من التعفّف؟ بسّامون في الضحوات، بكّاءون من خشية الله بالعشيات، متحرّمون ملتزمون في الملمّات. علموا أن العدل والرحمة صنوان. و«إذا سمعوا اللّغو اعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين».

* * *

كنت في الدوحة حين انتهى أمدُ الجواز. رحت إلى السفارة، وأنا بين الشك واليقين، فقد كنت أعلم أن الجواز لم يعد حقاً مشروعاً في هذا العهد، ولكنه صار منّة وتفضلاً، يمنحونه ويمنعونه كما يحلو لهم. وكانت تردِ إلى السفارة من الخرطوم قوائم بأسماء مواطنين حرامٌ عليهم التمتّع بالحق الذي فرضته لهم القوانين والأعراف. وما يدريني أنني واحد منهم.

لكنني وجدت سفيراً غير هيّاب ولا وجِل، سودانياً كأحسن ما يكون السوداني، من سماحة وشجاعة الأكفاء وترفّع. كان من القلّة القليلة التي بقيت من الدبلوماسيين، بعد حملات التطهير والتشريد والإحالة على المعاش. وكان الناس يعجبون كيف أنهم لم ينتبهوا إليه، فظل في منصبه. يعامل المواطنين على اختلاف انتماءاتهم السياسية دون تفرقة. دائماً تجده بينهم في مسرّاتهم وأحزانهم، لا يبالي إن كان الشخص مرضيّاً عنه أو مغضوباً عليه من النظام. ولم يكن يهاب أن يجدّد الجوازات لمستحقيها دون أن يطلب الإذن من سلطات الخرطوم، لأنه يعلم أنه لو سألهم، فسوف يجيبون بلا.

من خِيار النّاس وخيار السفراء، بشهادة أهل البلد التي عمل فيها، وكل من عرفه أو تعامل معه. أعادوه إلى الخرطوم ضربة لازب، ولم يلبث غير أشهر حتى أحالوه إلى التقاعد. ذلك وهو في عز الشباب وعلوّ النشاط، وقصارى الجهد في خدمة الوطن.

إنما هو قد خدم السودان في صيرورته التي تظل ثابتة، بعد أن تجيء العهود وتذهب. اسمه أحمد يوسف التّني. ومن سخريات الأمور، أن والده يوسف مصطفى التّني، كان من كبار شعراء السودان، ومن المناضلين الأوائل، ومن الجيل الأول من السفراء الذين جعلوا للسودان رصيداً بدّده أصحابنا هؤلاء فعل من لا يخشى الفاقة. وفوق ذلك هو صاحب النشيد الذي ألهب خيال أجيال من السودانيين. يقول فيه:

نُـــــدنـــــي بـــــالائـــــتـــــلاف
آمـــالـــنـــا الـــبـــعـــيـــدة
لا نـــعـــرف الـــخـــلاف
فـــي الجنـــس والـــعـــقـــيـــدة
فـــالـــديـــن لـــلإلـــه
والـــمـــجـــد لـــلـــوطـــن

٨

القاهرة

قال الأستاذ فاروق حسني وزير الثقافة المصري في افتتاح مهرجان الإبداع الشعري في القاهرة:

«... إن مثل هذا الملتقى يكتسب أهميّة بالغة في الوقوف على حال فنّ العربية الأول... الفن هو نتاج للتمكن من ارتياد الجديد. والشعر بالذات هو أخصب الفنون التي يُتاح للمبدع الجاد التجريب من خلالها للوصول إلى وسائط حديثة في التعبير الإبداعي...».

وقال الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة الذي نهض بعبء تنظيم المهرجان:

«الشعر هو الحضور القديم والجديد للإبداع في الحضارة العربية، تلك الحضارة التي وضعت الشعر في مقدّمة فنون القول، وربطت بينه

وبين المعرفة الواعدة التي تتجدّد بها الحياة. ومنذ أن تحدث الشعراء العرب القدماء عن الشعر الذي لولاه ما عرف طالبو المكارم معنى المكارم، والساعون وراء المجد معنى المجد، فإن الشعر يواصل حضوره الخلاّق في الحياة العربيّة، ويواصل الشاعر المعاصر الحفاظ على النّار المقدّسة التي ورثها عن أسلافه والتي نفخ فيها من روحه الخاص ما منحها طابعها الجديد الفريد...».

كذلك ترى أن في ما تقدّم، مغزيين مهمّين. أولهما الاعتراف مجدداً بأن الشعر هو (فن العربيّة الأول) كما قال الوزير، وتردد المعنى نفسه في كلمة الدكتور جابر عصفور. الأشياء حين تصدر عن مصر، يكون لها تأثير آخر، بسبب تأثير مصر نفسها ومركزها الرّيادي.

وجدير بالذكر أن جابر عصفور هو الذي قال إن الرواية قد حلّت محلّ الشعر فأصبحت هي (فن العربيّة الأول) في هذا العصر وأن هذا (زمان الرواية). وحذا آخرون حذوه فقالوا إن الرواية أصبحت الآن هي (ديوان العرب).

إنني، رغم كوني كاتباً روائياً، لم يراودني الشك في يوم من الأيّام، أن الشعر هو الوسيلة الأولى في التعبير عن خوالج الوجدان العربي والضمير العربي. بل هو الوعاء للغة العربيّة نفسها ـ ما عدا القرآن الكريم بالطبع. وبهذا المعنى يرتبط الشعر العربيّ أشد الارتباط بالهوية العربية. كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مدركاً لهذا حين قال «روّوا أبناءكم الشعر».

الرواية، كما لا يُنكَر، حققت إنجازات بالغة الأهميّة، وارتادت

تخوماً لم يصل إليها الشعر، لكنها لا تستطيع أن تقوم مقام الشعر في الضمير العربي.

المغزى الآخر، هو أن القاهرة، بإقامتها هذا المهرجان، وحشدها هذا العدد من كبار الشعراء والدّارسين والأكاديميين، كأنها عقدت العزم على أن تمسك بعنان الزعامة الثقافية والريادة الفكرية في العالم العربي، بعزيمة أشد، وجدّية أكثر.

ما من أحد في العالم العربي، أنكر في يوم من الأيام على مصر زعامتها، خاصة في ميادين الثقافة والفكر. ولكنّ مصر بدت في سنوات القطيعة والبلبلة السياسية، كأنّها ضاقت ذرعاً بذلك الدّور. وخيّل لبعض الناس أن مصر بدأت تتجه وجهة أخرى. وصار بعض المثقفين في مصر، وكانوا قلّة لحسن الحظ، يرددون ما يروّجه الآخرون عن العرب، أنهم أمة بلاغة وخطابة وشعر، إذْ إن العصر عصر علم وتكنولوجيا ومال واقتصاد وأخذٍ بأسباب القوّة. وكأن الأمرين لا يتّفقان.

هذا، وجاء في كلمة الدكتور جابر عصفور:

«لنطرح سؤال المستقبل على الشعر في هذا المهرجان بالقدر الذي نطرح به مستقبل الشعر على بساط البحث. ولنبحث عن آفاق جديدة واعدة يضيف بها الشعر إلى حضوره الممتد في جذور الحضارة العربيّة ما يفتح به المغلق من الأبواب، ويتيح له أن يصل إلى المناطق التي لم يصل إليها من فضاءات الروح وإبداعات العالم الواعدة بالعطاء...».

■ ■ ■

قدّم حفل الافتتاح لمهرجان الشعر في دار الأوبرا، الشاعر المصري الكبير فاروق شوشة. وقد كان ذلك اختياراً موفقاً بحق، فهذا إنسان مهذب الصوت، مهذب الشعر، مهذب السلوك، فكأنه بذلك أعطى المهرجان وشمه وطابعه.

ثم تأكّد هذا الانطباع في الكلمة الرّصينة التي أدلى بها الدكتور جابر عصفور، الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة. كانت كأنها دعوة للتصالح مع الذّات.

إذا قبلنا أن الشعر هو أصدق تعبير عن الذّات العربية، فلم يكن أدّل على مدى البلبلة والتمزّق في الذات العربيّة من التيارات المتضاربة والمدارس المتناقضة والفوضى التي طغت على النشاط الشعريّ. الآن يجيء ناقد أكاديمي بارز فيقول:

«.. هذا الحضور القديم.الجديد، المتصل المنفصل، هو مفارقة الشعر العربي التي تجمع علاقاته ما بين المؤتلف والمختلف، المتقارب والمتباعد، فتعلّمنا إمكان الجمع بين الأجيال المتباعدة والتيّارات المتعارضة، في أفق الحوار المتفاعل بين الأطراف المتكافئة، وفي دائرة وحدة الحلُم الذي ينطوي على تنوع الوسائل المتعددة في الوصول إلى وعد المستقبل.

«ويعلّمنا هذا الحضور نفسه معنى آخرَ من معاني الوحدة القومية للثقافة العربية، التي ينبغي أن تقوم على تعدد الأصوات لا الصوت الواحد، وعلى التنوُّع لا التنافر، وعلى التسامح لا التعصب، وعلى تعدّد المراكز لا المركز الواحد الأحد، فالتعدُّد والتنوُّع والتسامح، كالحوار والتفاعل والتبادل، هي بعض طرائق الثقافة في تحقيق وعد

المستقبل الذي يحلم به كل الشعراء...».

هذا الكلام الجميل، لعلّه قيل بعبارات أخرى من قبل، لكنني أبداً لم أجده يقال بهذا الوضوح وهذه البلاغة. وهو يكتسب قيمة إضافية لأنه يصدر عن أحد كبار العاملين في ميدان الثقافة في مصر، التي هي قطب الرحى في مجال النشاط الثقافي العربيّ. وكأنَّ مصر تُعلن بلسان الدكتور جابر عصفور، أنها لا ترضى أن تكون ضوءاً وحيداً في سماء مظلمة، بل قمراً منيراً في سماء مرصّعة بالنجوم.

بلى، ذلك هو، «وحدة الحلُم الّذي ينطوي على تنوع الوسائل المتعددة في الوصول إلى وعد المستقبل».

إنها في الواقع دعوة للتصالح مع الذّات، ليس في الشعر وحسب، ولا في الثقافة وحدها، وإنما في الحياة العربية برّمتها. ولو كنا وعينا هذه الحكمة البالغة على بساطتها من قبل، إذاً لكنّا وفّرنا على أنفسنا كثيراً من الجهد بلا طائل.

عاشت أجيال عربيّة متعاقبة زماناً بائساً، كانت فيه كلّ حركة ثورة، وكلّ قصيدة فتحاً وكل مقالة انقلاباً فكرياً، وكلّ وجهة نظر كأنها ديانة جديدة. فلا عجب أنه لم يكن يوجد حوار، بل عراكٌ بين مؤمنين وكفّار. ولا عجب أننا لم نحصد من ذلك كله إلّا القليل... بل لعلّنا لم نحصد شيئاً.

الحمد لله ان صوتاً مرموقاً من مصر، يطلع علينا الآن من حنايا تلك الغياهب، ليقول لنا بعبارات رصينة بليغة:

«... وها نحن نزداد إدراكاً في فعل الممارسة وعلاقات الاستقبال، أن القصائد التي أخذت تجذبنا إليها أكثر من غيرها هي تلك التي تبين عن نموذج جديد لشاعر يسير مختالاً بطيئاً ضاحك العينين، لا ينتبه إليه أحد لأنه لم يعد يزعم لنفسه أداء دور الشاعر الخالق شبيه الإله الوثنيّ، أو حتى شاعر القبيلة، أو الصورة الأخرى للزعيم الواحد الأحد، وإنما دور الإنسان البسيط الذي لا يملك سوى أن يرقب ما حوله، معيداً إنشاء كل شيء بواسطة المجاز الساخر والمفارقة الإيقاعية والسؤال الذي يتجلّى من خلال (الكولّاجات) التي تصل بين ما لا يتّصل في العالم المملوء أخطاء...».

ذلك، ومن المفارقات السّعيدة، أنّ مصر، كلّما قامت على زعامتها برفق ـ كما تصنع الآن ـ زاد إجماع النّاس على تلك الزعامة، وأن الشعراء كلما قلّلوا من تأكيد تفوُّقهم وتفرُّدهم، زاد تقدير الناس لقيمة الشعر.

■ ■ ■

أدركني رمضان الكريم في القاهرة، وهي نعم البلدة لصائم رمضان.

المسلمون كلُّهم يحتفلون برمضان، ولكن حفاوة المصريين به شيء آخر. كأنّه حقاً ضيف عزيز طال انتظاره. يستقبلونه بالتهليل والترحاب والطبول والأضواء.

الحركة في الشوارع والأضواء على المآذن، وجلبة البيع والشراء في الأسواق، وحتى ضحكات الأطفال، وأصوات السابلة. حتى ضوء الشمس في الضحى، وحين تميل إلى الغروب. ثم في الّليل، في

سهرات القاهرة المشهورة. كل ذلك يأخذ طابعاً جديداً من البهجة والسِّحر.

أقول (السِّحر) لأنني لا أجد كلمة أفضل أصف بها ذلك الإحساس العجيب المزيج بين الحبور والأسى. وهو إحساس عرفته مصر خاصة، لطول ما أرهفت السمع لوقع خطوات الزّمن.

قبل ذلك قضيت أسبوعاً في الدوحة للمساهمة بمحاضرة في النشاط الثقافي الذي يُعقد بمناسبة معرض الكتاب. وكان ذلك بدعوة من الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني وكيل وزارة الإعلام، والأستاذ يوسف درويش المسؤول عن المطبوعات والنشر في الوزارة، بالإضافة إلى أنه رئيس نادي الجسرة الأدبي. كانت فرصة طيّبة أتاحت لي أن أجدّد صلتي بهذه المدينة التي أنفقت فيها ردحاً من عمري، وصادقت فيها أناساً أخياراً من أهل قطر ومن النازحين إليها. ولأن تلك المرحلة كانت حدّاً فاصلاً بين الشباب والكهولة، فإن الذكريات التي أحملها عنها، تستدعي في نفسي أحاسيس يختلط فيها الحبور بالحزن.

هذا، ونادي الجسرة، منذ أيّامي في وزارة الإعلام القطرية، يقوم بنشاط ثقافي واسع. وقد كانت دولة قطر في تلك الأيّام، مركزاً لحركة ثقافيّة متأججة، تتعدّى حدود الدولة بمراحل. ولعلّهم اليوم، يريدون أن يوقدوا جذوة تلك الحركة، فأرجو أن يكون ذلك صحيحاً.

من النشاطات المتميزة هذا العام، ندوة عن الديموقراطية، شارك فيها الدكتور برهان غليون من جامعة السوربون، والدكتور سعد الدين إبراهيم من الجامعة الأمريكية في القاهرة، وأدارها الدكتور محمد صالح المسفر من جامعة قطر. تميّزت تلك الندوة بحيوية فكرية

عالية. وطرح أفراد من الجمهور الكثيف الذي أمَّها من الرجال والنساء، أفكاراً ذكية متنوعة.

كذلك كانت الأمسية الشعرية التي أقامها الشاعر العراقي الكبير سعدي يوسف، وقدّم لها الأستاذ حسن رشيد، كانت حدثاً فريداً، أصغى فيها الجمهور الذي ضاقت به القاعة، باستغراق عظيم، إلى الشاعر وهو يتنقّل بهم في أجواء متنوعة مشحونة كلها بالأشجان التي تفرّد بها شعراء العراق.

لفت نظري أيضاً النشاط الثقافي الكبير، إذ نوقش عدد من القضايا التي تهم المرأة القطرية والمرأة العربية بوجه عام. وكان حضور السيدات ملحوظاً في معرض الكتاب وفي الندوات والأمسيات. وقد ساهم عدد منهن في ذلك كلّه.

ولعل أهم حدث في ذلك الأسبوع الثقافي في قطر، كان محاضرة العالم الفقيه الدكتور يوسف القرضاوي عن قضية الاجتهاد في الإسلام.

لم يزل هذا الفقيه الحبر، منذ سعدت بمعرفته أيّام إقامتي في قطر، يقدح ذهنه ويوسّع آفاقه، وينوّع مصادر اطلاعه، فيغوص في أعماق الفكر الإنساني المعاصر كما تبحّر قبلاً في أعماق الشريعة والفقه. أضف إلى ذلك سماحة في الطبع واستنارة في الإدراك، وتفهماً عظيماً لحيرة الإنسان المسلم وبلبلته، في هذا الزمان المليء بالبلبلة والحيرة.

كانت محاضرته ـ كما بدا لي ـ فتحاً فكرياً جليلاً بحق. وذلك

كان إحساس كل الذين استمعوا إليه في تلك اللّيلة.

أسعدني أيضاً أنني جالست طويلاً ذينك الإنسانين الكريمين، برهان غليون وسعدي يوسف، فقد كنا جيرة في النّزِل نفسه. وكان رابعنا دائماً الشاعر المصري العذب حسن توفيق. وهو إلى جانب أنه شاعر راسخ القدم، فهو إنسان كريم لم يألنا طلفاً وحفاوة. ويذكر له أنه من موقعه مشرفاً على الصفحة الثقافية في صحيفة (الراية)، لا يملّ من الكفاح لتوصيل أكبر قدر من النشاط الثقافي العربي إلى قرائه الكثيرين.

هذا وقد أغراني مناخ الدوحة البديع، أن أقضي رمضان ثمة في كنف أخوتي وأصدقائي بشير محمد صالح وعبد المنعم المكي وعثمان سيد أحمد وإبراهيم الصلحي ثم الرجل الزاهد أحمد محجوب والشيخين العالمين عبد الكريم وعمر يوسف، وشيخ العرب شبل العريش درويش الفار، وأصدقائي منذ عهدي بوزارة الإعلام أمثال عبد العزيز نعمة وعبد الله صادق وأحمد السليطي وجاسم زيتي وموسى زينل وناصر العثمان، وكثيرين غيرهم وددت لو يسمح هذا الحيّز المحدود لعدهم جميعاً. وبعض هؤلاء كانوا غرساً ناشئاً على أيامي، فأسعدني أنني وجدتهم قد استووْا على سوقهم، يُعجب الزراع نباتُهم.

أقول أغراني الهواء الجميل، والصحبة الطيبة أن أبقى في الدوحة. لكنني كنت قد اتفقت مع أخي وصديقي منذ أيام الشباب الباكر، عبد الرحيم الرفاعي، أن يقْدم هو من محبسه في (بيرن) وأنا أخرج من منفاي في لندن، فنلتقي في القاهرة. وهي، كما قلت، نعم البلدة لصائم رمضان.

٩

حلوان

كانت «حلوان» فيما مضى، بلدة قائمة بذاتها، يقصدها الناس من مصر ومن خارج مصر، للاستشفاء في مياهها المعدنية. كذلك اشتهرت بصناعة النسيج. ثم ضاقت مدينة القاهرة بسكانها، فبنى الناس على طول الطريق الممتدة حتى حلوان، فأصبحت كأنها جزء من المدينة الكبيرة. لذلك حين تصلها، لا تكاد تميز أنك قد انتقلت من مكان إلى مكان، ولكنك حين تدقق النظر، تجد المباني والأسواق والمزارع والبساتين، كأنك في حاضرة من حواضر الريف. ذكرتني قليلاً بمدينة «ودْ مدني» السودانية في الجزيرة. لم تبق مزارع ولا بساتين في القاهرة. التهمت مباني الأسمنت والزجاج الخضرة والزرع وخاصة في منطقة الهرم، كما حدث لغوطة الشام الفيحاء.

يقول العلماء أن تلك الأرض هي أكثر أرض الله خصوبة، ويا

للعجب كيف يردم الناس طمى النيل بالأسمنت، ثم ينفقون المال الطائل لاستصلاح أرض الصحراء. ويا ليته كان بناء يسرّ العين. هياكل دميمة مكدّسة بعضها إلى بعض، وبعضها فوق بعض. وقد ظل الأستاذ الجليل الدكتور حسن فتحي يصرخ ولا مجيب، يحاول أن يوقف ذلك الطوفان. رحمه الله. مات وفي قلبه حسرة، فقد رأى مدينة القاهرة الجميلة تكاد تغرق تماماً، كما حدث لأغلب المدن العربية.

تركنا الطريق الكبير، ودخلنا معسكراً كشفياً، ثم عرّجنا يساراً في طريق ليست معبّدة، حتى وصلنا إلى مجموعة من المباني التي بدت لي كأنها بُنيت على عجل لغرض مؤقت. هذا هو «مركز تعليم الكبار متعدّد الأغراض». وسرعان ما تأكد لي صدق إحساسي بأنه بناء «مؤقت». فقد علمت من المدير، الأستاذ حسن قاسم، أن الأرض التي أقيم عليها المركز هي جزء من المعسكر الكشفي الذي «أعارهم» إياها، ويطلب الآن إعادتها. ورغم ذلك فهو مركز فريد من نوعه، افتتحته وزارة التربية عام ١٩٧٨ بمساعدة من منظمة اليونسكو.

وسط هذا التقشف، يمضي السيد حسن قاسم، والسيدة عنايات الفقي المشرفة على التدبير المنزلي في عملهم النبيل، بحماسة وإيمان وإخلاص يدعو إلى الإعجاب. إنهما من هذه الفصيلة النادرة، مثل كل الناس الذين يعملون في هذا الميدان. وقد تأكد لدي في تلك الزيارة إحساس ظل يخامرني منذ أن بدأت رحلتي، انطلاقاً من عمّان إلى بغداد إلى الكويت إلى صنعاء، والآن في حلوان. مشكلة الأمية في الوطن العربي مشكلة غير عادية، ولن تُحلّ بالطرق العادية، ولكن بواسطة رجال ونساء منقطعين لخدمة المجتمع ولديهم رغبة جامحة لفعل الخير.

وها هم أولاء، أجدهم ماثلين أمامي حيثما حللت. عبد الحسين زويلف في بغداد، وعبد العزيز النجدي في الكويت ومحمد المضْواحي في صنعاء وإبراهيم الفوزان في الرياض، وآخرون سوف أقابلهم في الرباط وفي تونس وفي دمشق وفي حلب، وآخرون لم أسعد بمقابلتهم ولكنهم موجودون ولا شك في كل أنحاء العالم العربي. جنود مجهولون أو كالمجهولين، يضيئون مثل النجوم في ظلمات الليل، يبددون اليأس والخذلان، ويوقظون من سباتها، تلك المعاني النبيلة التي تكمن في وجدان هذه الأمة العظيمة. يساهمون بحق في صياغة المستقبل، بلا جلبة ولا ضوضاء، ولا غطرسة ولا كبرياء.

وهنا في حلوان، في هذه الأبنية «المؤقتة» في هذه الأرض «المعارة»، هذا الرجل الكريم حسن قاسم، وهذه السيدة الوسيمة الصبوحة الوجه عنايات الفقي.

ينظم المركز للدارسين والدارسات فصولاً لتعلّم القراءة والكتابة، كما يهيئ لهم الفرصة لتعلّم حرَفٍ مثل النسيج والتدبير المنزلي والتفصيل والخياطة والنجارة والحدادة والسباكة وغيرها. بالإضافة إلى ذلك يقوم المركز بدور المرشد والموجّه، فيتعرف على الظروف الخاصة للدارسين والدارسات ويسعى جهده لتذليلها، كما يوفر لهم دخلاً من تسويق مصنوعاتهم التي تصل أحياناً إلى درجة عالية من الجودة.

وجدت بين الدارسات فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر، توفي والدها، وترك لها أخوة وأخوات فاضطرت أن تساعد أمها على إعالتهم. ووجدت واحدة صغيرة السن دهشت حين عرفت أنها زُوجت وطُلقت من رجل أساء معاملتها ثم هجرها. ونساء بين

العشرين والخمسين، مطلّقات أو أرامل، يقمن بإعالة أطفالهن بلا سند ولا عون. كل هؤلاء فتح لهن هذا المركز الفريد باباً لأمل وجدد ثقتهن في الناس والحياة. ذلك تراه واضحاً في الوجوه التي أخذت الحيوية تدب في قسماتها، والعيون التي بدأت تُشع بالذكاء. وهذه السيدة العجيبة، عنايات الفقي، تسبغ عليهن من عطفها، فهي لهن بمثابة الأم والأخت والصديقة، تأخذ بأيديهن إلى أن يكملن تدريبهن، ثم تجد لهن عملاً في مصنع أو محل تجاري. وأحياناً تستقل الواحدة منهن في عمل حر.

كانت آلتان من آلات النسيج متعطلتين. وقالت لي السيدة عنايات الفقي، أن ثمن الواحدة منهما ألف دولار، لا أكثر، وأنها لا تجد المال لشراء مكنات جديدة.

تأمّل عشرة آلاف دولار يجود بها إنسان سبّاق إلى الخير، في هذه الأمة الطويلة العريضة، الغنية الفقيرة، تحدث أثراً كبيراً في هذا المركز. ومائة ألف أو مئتا ألف دولار لعلها تبني مركزاً جديداً «دائماً» يستقبل أضعاف العدد الحالي من الدارسين والدارسات. وما مائة ألف ومائتا ألف وأكثر؟ إنها محض أرقام ميتة سجينة على الورق، في مصرف ما، في مكان ما. مثل الحروف والكلمات، إذا نفخت فيها الحياة، تحولت إلى ابتسامات على الشفاه وأضواء في العيون.

١٠

دلهي

طوال إقامتي في «دلهي» أو «دلهي الجديدة» بالأحرى، لازمني إحساسٌ كأنني في دار من هذه الدور، التي بناها في ضاحية من ضواحي الخرطوم، ثري من أثرياء العهود الأخيرة. يكون أثرى من تجارة العملة أو تهريب البضائع المحظورة، أو بطريقة من الطرق الملتوية التي تشجع عليها قوانين مرتجلة لا تملك الدولة القدرة الكافية على تطبيقها.

غير بعيد بيوت الطين وزحام الفقراء، وصاحبنا هذا أقام داره على مساحة أفدنة، وجعل فيها حوضاً للسباحة وملعباً لل«تينس» وملعباً لل «سكواش» وما شئت من غرائب. حوّطها بسور من الحجر، فوقه أسلاك شائكة تحمي الدار من غائلة اللصوص والمتطفلين. طوابق فوق طوابق، وغرف وراء غرف مثل الهوتيل، ولا هي بالقصر ولا بالهوتيل. تغلب فيها نوافذ الزجاج في عز الحر والشمس الساطعة.

والأثاث هذا من أمريكا وهذا من إيطاليا وهذا من هونغ كونغ. شيء مفتعل لا يمتّ بصلة إلى البيئة التي وجد فيها، مثل المستعمرات القديمة التي أقامها اليونان والرومان في الصحراء، ما لبثت أن طمرتها الرمال وعفّى عليها الزمن.

كذلك هذه المدينة، أنشأها الإنجليز حاضرة لملكهم في الهند، وسط عالم غريب كأنه بحر متلاطم الأمواج. أرادوها واحة من «الحضارة» والنظام والعقل، وسط عالم «همجي» في زعمهم، وتيارات من الفوضى. وكما أن «سير كرسْتفر رن» خطط مدينة لندن وأعطاها سمْتها وطابعها، فقد استقدموا إلى الهند مهندساً معمارياً شهيراً هو «سير ادْونْ ليوتنزْ» فرسم «دلهي» وفي ذهنه قصر بكنجهام وشارع الـ«مال» الذي يؤدي إلى ميدان الطرف الأغر وحدائق سان جيمس ومقر رئاسة الوزارة في «داونج ستريت» ومؤسسات الدولة في وايتهول. وإذا كان قصر بكنجهام هو «صُرَّة» لندن ومركز الجذب فيها، فمركز الجذب في «دلهي» هو مقر الـ «ڤايس روي» نائب الملك أو الملكة، وظل العرش البريطاني على أرض الهند. الميدان هنا أوسع من الميدان أمام قصر بكنجهام، ودور الحكم المبنية من حجر أحمر أكثر فخامة وأبّهة من مثيلاتها في لندن. هنا بنوا ببذخ، لأنهم ظنوا أنهم سوف يبقون إلى الأبد، أما عندنا فلم تكن عندهم نيّة البقاء، فبنوا بلا اكتراث وعلى عجل.

أقاموا نمطاً هزيلاً مصغراً في الخرطوم المسكينة. اتخذوا القصر الذي قتل فيه غوردون، مقرّاً للحاكم العام، وجعلوا أمامه باحة على نمط الباحة أمام قصر بكنجهام، ومدوا شارعاً على غرار شارع الـ«مال» في لندن، يؤدي إلى محطة السكك الحديدية. ويا ليتهم تركوا لنا محطة معتبرة، مثل محطة واترلو أو فكتوريا، أو على الأقل مثل

محطات الأقاليم في «نيوكاسل» أو «برايتن». إذاً لحمدنا لهم ذلك أبد الدهر، لأن الحكام الوطنيين «أولاد البلد» لم يجدوا الوقت حتى الآن ليبنوا محطة تليق بدولة مساحتها مليون ميل مربع. حتى الحكام العسكريون، وهؤلاء كما قرأنا في كتب التاريخ، يحبون الأبهة والفخفخة لم يفعلوا ذلك عندنا. لم يجُد علينا الزمان إلى الآن، بحاكم مثل «نابليون» أو حتى «فرانكو» يترك وراءه صرحاً فخماً تسمو إليه أنظار الأجيال القادمة بخليط من الاعتزاز والمهابة وتقول «صحيح أنه أغلق البرلمان وحظر الأحزاب وعطّل الصحف. ولكن انظروا ماذا بنى. يا له من حاكم عظيم حقاً»!

لم يكن عسيراً على عوادي الزمن أن تطمس معالم الحُلُم المتواضع الذي حققه الحكم البريطاني في بلاد السودان، الأشجار الضخمة المتشابكة الوارفة الظل على امتداد شارع النيل، شارع كتشنر سابقاً، وكانوا قد جاءوا بها من الهند، شاخت وبعضها سقط وبعضها قُطع. قصر الحاكم العام، مقر رئاسة الجمهورية الآن قالوا إن سقفه تداعى وحيطانه تشققت. الميدان الذي ورّثنا إياه الإنجليز، وكنا نراه جميلاً أول عهدنا بالخرطوم، ذبلت أزهاره وصوَّحت أشجاره، وهاجرت أطياره، ويبس عشبه.

الحلم الإنجليزي المتواضع لم تبق منه إلا أصداء بعيدة، أبعد مما وجد امرؤ القيس من أطلال سلمى بذي خال.

ومع ذلك أجد في «دلهي» طعم الخرطوم. الحلم الإمبريالي هنا أعظم وأوسع مدى. لكنها هي الأخرى سوف تستسلم مثل الخرطوم، فهذه أحلام مهما كانت جميلة فهي أحلام الغرباء والسودان مثل الهند، يحلم بمنطق آخر!

غير بعيد من وسط المدينة، وراء الشوارع الواسعة والباحات الفسيحة، وراء الأشجار الظليلة والحدائق المهذبة، ووراء القلل الراقية والهوتيلات الـ«لوكس»، تزخر أمواج من البشر هم أهل الهند كما كانوا منذ قرون، تتدافع نحو مركز المدينة لتغرق الحلم الإمبريالي إلى الأبد. وها هي ذي الطلائع. أبقار مهملة ترعى في الأحياء الراقية. من نافذة غرفتك ترى الحواة ينفخون مزاميرهم للأفاعي، وترى مشعوذين يوهمونك بأنهم يجعلون الناس يسبحون في الهواء. تسمع صراخ الباعة وزحمة البشر، وخليطاً من الأنغام الهندية وموسيقى القرب الاسكتلندية ومارشات عسكرية من أبواق نحاسية. والخلق حول المسجد الكبير، كأنهم في يوم الحشر.

ماذا يفعل «النظام» الإنجليزي في هذه الفوضى الأزلية؟ لا بد أنهم كرهوا هذا التزاحم وهذه الضوضاء. هؤلاء الناس المنطوون على أنفسهم المؤثرون العزلة والابتعاد عن الآخرين، كل واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها، ما الذي أتى بهم إلى هذا العالم المسحور وجذَبهم إلى هذا الأفق البعيد المحيِّر؟

■ ■ ■

أن ترى (جواهر لآل نهرو) وتستمع إلى حديثه عن قرب..

كان ذلك عام ستين، في ذلك الاجتماع المشهود للجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك.

كان يشرح للأمريكان في مؤتمر صحافي، أن عدم الانحياز ليس (معسكراً) ولكنه تجمّع لدول يوحد بينها التقارب في وجهات النظر

والمصائر المتماثلة والخوف من أن تكون ذيلاً لهذه القوة العظمى أو تلك.

كانت الولايات المتحدة قد استقرت إلى أن عدم الانحياز (معسكر) من دول تضمر العداء لها، وتدور في فلك الاتحاد السوفياتي، فقال لهم (نهرو) أن تجمع عدم الانحياز ليس موجهاً ضدهم أو ضد أي أحد.

وقد شهد الأمريكان في تلك الدورة أكثر من دليل على صدق قول (نهرو) فقد تصدى عدد من زعماء عدم الانحياز لـ«نيكيتا خروتشوف» زعيم الاتحاد السوفياتي تلك الأيام، وكان أحمد سيكيتوري رئيس غينيا الذي كانت وسائل الإعلام الأمريكية تصوره بأنه شيوعي، يخرج من الاجتماعات ويؤدي فريضة الصلاة ثم يعود. كذلك شرح لهم (نهرو) لماذا يتحتم عليهم أن يعترفوا بالصين الشيوعية ولا يحولوا دون قبولها عضواً في الأمم المتحدة.

وقد أبحر بهم في آفاق التاريخ والحضارة والـ«جيوبوليتيكا» ليوضح وجهة نظره.

كان صوته هادئاً سهل الوقع على الأذن ووجهه طلق مبتسم، وسمتُهُ جميعاً، بزيه الهندي وغطاء رأسه الأبيض، والوردة الحمراء في عروة سترته، التي تميز بها، كل ذلك كان يشع جاذبية لا مراء فيها.

أصغوا كالمسحورين، إلى حديث رصين متنوع، زاخر بالحكمة، ومفعم بمرح داخلي، كما تجد عند كبار الفلاسفة والمفكرين. حديث بسيط بلغة إنجليزية عالية. ولكنها بعيدة عن التقعر، وكان

في الوقت نفسه شامخاً جمّ الكبرياء.

ولم تكن تلك هي المرة الأولى في تاريخ الإنسانية، يقف فيها مثل ذلك الموقف، رجل هو في حقيقته أكبر بمراحل من أناس يرجحونه في موازين القوة.

وأي زعيم أمريكي في تلك الحقبة وما أعقبها من حقب يمكن أن ترجح به كفة الميزان على (نهرو)؟

عجب البريطانيون حين انضوت الهند المستقلة تحت لواء رابطة شعوب الكومنولث، وعجبوا أكثر حين قال (نهرو) الذي قضى زهرة شبابه في سجونهم، في خطبة له في لندن أنه لا يحسُّ بأي مرارة تجاه بريطانيا. وهتف تشيرتشل الاستعماري اللدود وعيناه تكادان تدمعان من التأثر:

(هل هذا ممكن؟ نهرو لا يكرهني!).

لقد حاول تشيرتشل جهده ليحول دون استقلال الهند، واتهم رئيس الوزراء العمالي (كليمنت أتلي) الذي استقلت الهند في عهده، بأنه يتخلى عن أثمن ما تملكه بريطانيا.

يا له من فارق بين الرجلين! الرجل العظيم، والرجل الذي تمنحه الظروف مخائل العظمة.

وإذا كان غاندي هو روح الهند، فإن (نهرو) هو مؤسسها وواضع دعاماتها الأولى.

كان محظوظاً أن الأقدار قد جمعت بينه وبين ذلك الإنسان في ذلك الوقت بالذات، كأنهما كانا على موعد، وذلك لا يحدث إلا نادراً، أن يوافق رجل الروح، رجل الفكر والعمل.

نشأ في بحبوحة شأن نبلاء الهند الـ (براهمين) ودرج مع السادة المستعمرين في (أيتون) وفي (أكسفورد) وقد استهوته حياتهم واستجاب لإغراءات حضارتهم.

وكان في سجيته أمْيَل للوردات الإنجليز منه إلى فقراء الهند. ولو ترك نفسه على سجيّتها لعله كان يمضي مثل مئات الهنود من طبقته، ويصبح آخر الأمر، إن لم يكن إنساناً تافهاً، فإنساناً لا يؤبه له.

ثم تلاقيا هو وغاندي، كأنما على ميعاد. تعهده وحرك فيه طاقات التفرد الكامنة، وبث فيه من روحه. فبدأ رحلة طويلة مضنية في استبطان مجاهل نفسه. عاش على الكفاف، ولبث في السجن سنين، ومشى حافياً، وانخرط في زحام الدهماء وغمار الناس. فتح قلبه وعقله لتلك الأصوات البعيدة الخافتة، التي كادت تطمسها حياته في (أيتون) و(أكسفورد).

كل ذلك تجده في كتابه (اكتشاف الهند) ولما أيقن المستعمرون أن زمانهم في الهند قد انقضى، كان (نهرو) مستعداً. كذلك طوال التاريخ، تجيء لحظة يُحسُّ فيها الدخلاء، مهما كانت نواياهم حسنة، ومهما كانت أحلامهم كبيرة، أن زمانهم قد انقضى ولا بد من الرحيل. ولم يكن في الهند كلها، رجل واحد يمكن أن ينافس (نهرو) على الزعامة.

كنا نتابع كل ذلك، ونتأثر به ونحن أحداث في مدرسة (وادي سيدنا) الثانوية على بعد أكثر من ستة آلاف ميل، وشأننا في ذلك كما قال البحتري:

ذاك مـــنّـــي ولـــيـــســـت الـــدّار داري
بـاقـتـراب مـنـهـا ولا الجنـسُ جـنـسـي

ومن أجل ذلك أيضاً، لم تكن الهند غريبة عليّ، ولذلك وجدت في (دلهي) ما يذكّرني بالخرطوم.

هؤلاء القوم الفرنجة الجرمان الأنكلو سكسون، كل واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها، أي حلم غريب طاف بهم فساقهم إلى هذا الأفق المسحور؟

■ ■ ■

تمثال «لورد كلايف» صاحب الهند، لم يزل قائماً في مكانه في «دلهي» تهبّ عليه الرياح من الجنوب والشمال، وتسفعه أمطار الـ«منسون» وتجلس الطير على رأسه، وهو يتحمل هذه المهانة بصبر، زامّاً شفتيه كما يفعل الإنجليز مثله، ناظراً إلى الأفق نظرة تجمع بين الاحتقار والرضى عن النفس. إنه مصير مهين حقاً لرجل كانت تنحني له جباه «راجات» الهند، وتوجف القلوب من خشيته، وتتعلق مصائر الملايين بكلمة منه. ولعل هذا ما أراده «نهرو»، أن يجعل الهند تثأر لنفسها من الغزاة الفاتحين على طريقتها. كذلك ظلت تماثيل كل الرجال الذين مكنوا لسلطان بريطانيا في هذه البلاد، لم يزيحوها عن أماكنها.

جاءوا إلى هذا الأفق البعيد، متشبثين بأذيال «شركة الهند الشرقية»

يحدوهم الطمع وأحلام المجد والفضول وحب المغامرة. وكان البرتغاليون والإسبان قد سبقوهم إلى تلك الأصقاع من آسيا، ثم تجاوزهم الفرنسيون فانصبّوا على القارة في هجمة شبيهة بهجمات القبائل البربرية التي انقضّت مثل الوباء على العالم القديم، فزلزلت أركانه وقوضت بنيانه، وقلبت أعلاه أسفله.

دخلوا بخليط من التدبير والحذر، والإقدام والإحجام، وقليلاً قليلاً، وجدوا أنفسهم سادة على شبه قارة، جزيرتهم بالنسبة لها، مثل الشامة البيضاء في جلد الثور الأسود. وجدوا عالماً يموج بألوان من البشر، ويرطن بلغاتٍ عجب، منهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد البقر، ومنهم من يعبد الإله الواحد الأحد. ماذا يصنع النظام البريطاني في هذه الفوضى الكونية؟ هالهم الأمر، ولكن كعهدهم حين يقعون في ورطة، فقد ربطوا جأشهم، واستجمعوا قواهم، وأذعنوا للنداء، نداء المجد والخلود. إنه وهم فتّاك أودى بأقيال قبلهم وبعدهم عبر التاريخ. لقد جرّ وراءه «حنابعل» عبر جبال الألب، وساق الإسكندر المقدوني إلى بلاد ما بين النهرين، وأغوى قيصر الرومان فأذهبه إلى مصر، وأخرج نابليون من مأمنه وقصم ظهره في فيافي روسيا، وحدا هتلر إلى فرنسا، وقاد اللنبي إلى القدس، وساق كتشنر إلى أم درمان. الحلم نفسه والخيلاء نفسها، مهما بدا لهم ذلك مختلفاً. حلم تافه لميزان العدل الكوني، ليس أجلَّ خطراً من إغفاءة العصفور على غصن الشجرة.

جاءوا باللغة الغريبة ونظامهم الطبقي المعقد، والقانون والوسكي والإنجيل. اقتطعوا البلاد إقطاعيات، وحكموها بمزيج من القسوة والرحمة والشجاعة والجبن، والاهتمام والنفور. وكانت البلاد تفعل فيهم فعلها وتؤثر فيهم من حيث لا يعلمون. يقضون الشتاء في

«دلهي» والصيف في «سملا» ويتبعون «كبيرهم» الـ«فايْسْ روي» ظل العرش البريطاني على أرض الهند، يرحلون حيث يرحل، وينزلون حيث ينزل، مثل قبيلة من البدو، يقيسون أهميتهم بمدى قربهم أو بعدهم عنه. وكان «كلايف» هو حامي بيضتهم وفارس عذرتهم، شأن «لوجارد» من نيجيريا، و«رودس» في روديسيا، و«كرومر» في مصر، و«كتشنر» في السودان.

أعطوا الهند وأخذوا منها، كما فعلوا حيثما حلّوا، وقد أخذوا أكثر مما أعطوا. ولم يكونوا يتصورون أنها سوف تغيّرهم وتفسد عليهم حياتهم. ذلك أدركوه بعد أن رحلوا عنها.

فرضوا شرائعهم وقوانينهم، وأقاموا «دلهي الجديدة» على هواهم رمزاً لهذا النظام الإمبريالي الجديد، الـ «باكس بريتانيكا». وقد خيِّل لهم، كما خيِّل للذين من قبلهم، أنهم يستطيعون أن يخلِّدوا تلك اللّحظة العابرة إلى الأبد. فملأوا أرض الهند بتماثيل رجالهم والبرونز، هذا يمتطي حصاناً، وهذا يمتشق حساماً، وهذا ينظر بصلف، وهذا ينظر بحكمة.

ثم حان وقت الرحيل، كما يحدث حتماً للغزاة الفاتحين عبر التاريخ، ودقت ساعة منتصف اللّيل، وأعلن «نهرو» بصوت متهدج أن الهند قد عادت إلى نفسها.

كان يتوقع منهم، بل كان من حقهم أن يزيلوا تلك الأنصاب الاستعمارية من أماكنها. ولكن «نهرو» الخبير بتعرجات دروب التاريخ، المدرك لسخرية الأقدار التي لا تني تضحك من تفاهة مسعى الإنسان، قرر أن يدع ذكريات ذلك العهد الغريب على

حالها، وظلت واقفة تعتورها الرياح، وتموج حولها وتكاد تغرقها جماهير الهنود في تدافعها الأزلي. كان يعي أن الحقبة الاستعمارية أيضاً، بخيرها وشرّها، أصبحت ملكاً للهند، تتصرف فيها كيف تشاء.

وهكذا بقي «كلايف» ماثلاً في «دلهي» مثل الأسير، بعد أن كانت تعنو له الجباه. لقد أصبح «رهينة» الحلم المجنون الذي طاف ببني قومه فأخرجهم من ديارهم، وجاء بهم إلى ديار لا يفهمونها ولا يعرفون عنها إلا القليل. سوف تمر به الحقب، وهو في أسره «الأبدي» لا يستطيع منه فكاكاً، تتماوج حوله جموع دهماء الهند، الذين أراد أن يفرض عليهم نظاماً غريباً بلا جدوى ولو استطاع لرآهم أحراراً طلقاء في عوزهم وفاقتهم وفوضاهم.

إنها «نكتة» من أعجب النكات في تاريخ الإنسانية، ابتدعها خيال زعيم عميق التجربة، مرهف الحسّ لسخرية الأقدار التي لا تني تضحك من تفاهة مسعى الإنسان!

■ ■ ■

ظلَّ «كلايف» صاحب الهند، ماثلاً حيث وضعته الأقدار، سجين الغرور الإنساني، تمر عليه الحقب وتقف على رأسه الطير.

أما صاحبانا «كتشنر» و«غوردون» فقد أفلتا من ذلك المصير، لأن الزعماء الذين آل إليهم أمر السودان بعد رحيل الإنجليز، لم يكن عندهم ذلك الحسّ التاريخي الساخر الذي كان عند «نهرو».

تمثالان فقط أقامهما الإنجليز في بلاد السودان المتّسعة الأكناف، فقد فهموا أن أولئك القوم البدو الرعاة في أرض البطانة والبحر الأحمر وكُرْدُفان، الزرّاع العبّاد حاملي كتاب الله الكريم، ليس لهم حفاوة بالأصنام. إنهم يعبدون الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ليس كمثله شيء. أدركوا أن السودان بخلاف الهند. هناك أرباب متعددة، وأصنام من ذهب وفضة، تغُمُّ الخيال، كما يحجب الضباب أفق السماء.

ومع ذلك كان لا بد من خلق «رمز إمبريالي» من نوع ما. كانوا رغم كل شيء قوماً حكماء، يحاولون أن يسبروا غور الشعوب التي فرضوا سلطانهم عليها، وقد فهموا أنه لا بد للسلطة الجديدة أن تظهر بمظهر جديد. لذلك خططوا العاصمة على هيئة العلم البريطاني، وزرعوا على جنبات الشوارع أشجاراً لم يعرفها أهل السودان من قبل، جاءوا بها من الهند، أشجار النِّيم واللَّبلاب والكافور. شيّدوا دور الحكم بالحجر والطوب، وكان أهل البلد يبنون بالطين في الغالب، وجعلوا أسقف دور سكناهم بالقرميد الأحمر مما آثار عجب الناس. وكان «الحاكم العام» يخرج من حين إلى آخر في موكب فخم، إن لم يكن في عظمة موكب الـ«فايس رُوي» في «دلهي»، فقد كان كافياً لإدخال الهيبة في القلوب، وإفهام أولئك الزرّاع الرّعاة، أنهم يتفيأون ظل حكم قادر، يعني ما يقول ويأمر فيطاع.

كذلك عملوا تمثالين من البرونز، أحدهما لـ«غوردون» المسكين على ظهر جمل، والثاني لـ«كتشنر» على صهوة حصان.

ظل «غوردون» في طربوشه وهيئته المنتحلة، يجلس على ظهر جمله،

طيلة خمسين عاماً ونيّف، يحدّق بعينين ساهمتين، كأنما إلى أعماق ذاته. وظل «كتشنر» على حصانه، ينظر بعينين غاضبتين، مشيراً بأصبعه إلى أم درمان وراء النهر. وكان حتماً أن يصبحا هدفاً لسخرية الناس. فكانوا يقولون عن «غوردون» إنه خيبة الأمل راكبةْ جملْ». وسأل سائل لا يدري ما يقول «أما آن لهذا الفارس أن يترجّل؟» وهو يعني «كتشنر». هذه العبارة كما نعلم، قالتها أسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، حين رأت ابنها الذي صلبه الحجاج معلّقاً أياماً بمكة. شتان بين ذلك «العِلْج» وبين عبد الله بن الزبير، رضوان الله عليهم جميعاً.

ثم، كما يحدث لدخلاء الفاتحين طوال التاريخ، جاءت ساعة الرحيل، فجلا الإنجليز عن بلاد السودان، وأنزل إسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محجوب رحمهما الله، العلم البريطاني ورفعا مكانه العلم الجديد على سارية قصر الحاكم العام الذي أصبح القصر الجمهوري وثم قصر الشعب فيما بعد. وهو علم صنعوه على عجل، فكأنهم أخذوا على حين غرّة، فلم يأخذوا أهبتهم للاستقلال. جعلوه من ثلاثة ألوان، وقالوا اللون الأزرق رمز الماء، والأخضر رمز الخصب والزرع، والأصفر لون الصحراء، وهي كما ترى رموز سطحية مفتعلة لا تصلح رموزاً حتى لرواية قصصيّة. وجعلوا شعار الدولة «وحيد القرن» وقالوا إنه رمز الصلابة، وقد كان حيواناً آخذاً في الانقراض ولعلّه انقرض بالفعل. وأسموا الدولة «جمهورية السودان» وهو تحصيل حاصل.

وكان حتماً أن يجلو «كتشنر» و«غوردون» ويلحقا بقومهما، فسارع الحكام الجدد إلى إنزالهما من منصتيهما، ولم يكونوا يعلمون أنهم بذلك إنما يطلقانهما من سجنهما التاريخي، مضيّعين فرصة نادرة

للسخرية كما فعل «نهرو».

ثم توالت العهود الوطنية، عهد يتلو عهداً، وثورة على إثر ثورة، وزعيم مخلص يعقب زعيماً مخلصاً، انطوى عهد الديموقراطية الأول بخيره وشرّه، وكان خيره أكثر من شرّه، وانطوى العهد العسكري الأول بسلام في الأغلب الأعم، وانطوى عهد الديموقراطية الثانية بأحزابه وضوضائه بلا خير ولا شر، ثم ظهر على المسرح «فتى الفتيان وأخو الأخوان»، الزعيم القائد جعفر محمد النميري، فكان عهده مراحل. المرحلة الأولى غلب فيها الخير على الشر، والمرحلة الثانية استوى فيها الخير والشر، والمرحلة الأخيرة غلب فيها الشر على الخير.

ثم هبّت رياح ثورة «نيسان» المباركة في رجب شهر الخير. وهنا يدخل مسرح التاريخ لوهلة قصيرة، أقصر مما يطرف جفن العين، صاحبنا إبراهيم طه أيوب، هل تذكره، الذي لقيناه في «دلهي» أنا و«منسي» صيف عام ثمانين وتسعمائة وألف.

١١

بانكوك

كنت قد قرأت أن الكاتب الإنجليزي «سمرْسِتْ موم» كان حين يزور «بانكوك» يقيم بنُزل الـ«أورينتال». وإذ إنني لم أكن أعرف أحداً في تلك المدينة، ولم تكن تربطني بها أيّة صلة فقد كانت تلك صلة من نوع ما. صلة واهية، أيْ نعم، فقد كان «سمرْسِت موم» كاتباً بالمعنى الحقيقي للكلمة، لا يضيره أن الإنجليز لا يعدّونه بين عظماء كتابهم، وبعض نقادهم يحتقرونه احتقاراً واضحاً، ولكنه كان من أنجح الكتّاب في التاريخ. قصصه القصيرة ورواياته ومسرحياته، إن لم تحدث «ثورة» في عالم الأدب، ولم تقدم «رؤى» طريفة للحياة، كما فعل الكتّاب العمالقة أمثال «تشارلز دكنز» و«توماس هاردي» و«جوزف كنراد» و«جيمس جويس» و«جريهام جرين» إلا أنها أعمال مصقولة مكتوبة بفن ومهارة.

كان «سمرست موم» يرد على هجوم النقّاد بقوله إنه لا يكتب

ليبشر بأية أفكار، وأنه ليس من هؤلاء الكتّاب الذين يريدون «تغيير العالم»، ولكنه يكتب لمتعته الشخصية ولإدخال المتعة على نفس القارئ. وربما يكون في هذا ظلم له، فقد سلّط قلمه الساخر بقسوة أحياناً على حياة «صنّاع الأمبراطورية» في آسيا خاصة، وقدّم نماذج عجيبة للغرور والطمع وحب التسلّط، وتقلبات نوازع القلب البشري. كانت كتبه توزع بمئات الآلاف، وترجمت إلى أكثر اللّغات، وكان الإنجليز من الطبقات التي اتخذها مادة لسخريته، تمتلئ بهم مسارح لندن، ينظرون إلى أنفسهم في مرآة الفن، ويستعذبون هجاء الكاتب لهم ـ ربما لأنه كان من تلك الطبقات العليا وكان يعرف أصول مخاطبتها.

كذلك جاءه مال وفير من السينما في بريطانيا وفي أمريكا، التي حوّلت عدداً من قصصه القصيرة ورواياته، إلى أفلام ناجحة. منها فيلم «الأمطار» المقتبس من قصته «العاصفة» ومثلت فيه الدور الرئيسي تلك الممثلة التعيسة الحظ، «ريتا هيوارث» التي أخنى الزمان على جمالها، فحسْن الوجوه «حال تحول» كما قال «الأستاذ». كانت صاعقة الحسن في شبابها، وتزوجها الممثل الأمريكي الموهوب «أورسن ولز» ومن بعده علي خان، ثم أفل نجمها وأصيبت بمرض عضال، وماتت في حالة مأساوية في مصحة في نيويورك. كان دورها في فيلم «الأمطار» من أدوارها التي لا تنسى، دور المرأة «الساقطة» التي نبّهت في القسيس، وهو يسعى إلى إصلاحها، عواطف مدمرة لم يكن يعلم أنها ساكنة في أعماقه.

نعم، هذا كاتب مليونير يستحق أن يسمى «كاتباً»، والمال في نهاية الأمر، واحد من المقاييس التي يقاس بها الناس. وهو مقياس سهل. شيء واضح، يُرى ويحسّ وله دوي. أما الذكاء، وأما حسْن الخلق،

وأما الفضل، وأما العلم، فكيف تقيس هذه الأمور؟ ولا عليك من قول الحسن بن هانئ:

وقد زادني تيهاً على الناس أنني
أراني أغناهم وإن كنت ذا فقرِ

باللّه هل هذا كلام؟ هل الفقير يجوز له أن يتيه على الناس بفقره؟ أجل! كان «سمرسِتْ موم» كاتباً حقيقياً، كتبه غلّت له الملايين، قضى حياته الطويلة في داره الشهيرة «فيلا مورسك» في خليج «آنتيب» على الـ«كوت دازور»، كيف قالوا؟ شاطئ اللازورد. ما هو «اللازورد» يا أم عمرو؟

ثمة لا حرٌّ ولا برد، وزرقة البحر الأسطوري مثل حلم قريب المنال. الصباح يوقظ الأفكار النائمة، وسكون اللّيل، «يجيب» الأصوات من بعيد. كان يجلس في «بلكونة» داره، ينسج أحلامه الغالية الثمن، يحمل له النسيم عطر الياسمين، وتغني له الطيور النازحة في هجرتها الأزلية من الشمال أو الجنوب، وتهدّئ ثائرة نفسه أمواج البحر المتوسط. حين يكون الطقس دافئاً يلبس الـ«روب دي شامبر» الحريري الشهير، وحين يبرد قليلاً يتلفع ببطانية من الكاشمير. يفرغ من العمل، فيرسله إلى الناشر الذي ينتظره بفارغ صبر، ثم يتوافد عليه أصدقاؤه من كل حدب وصوب، ليُسرّوا عنه، بعد الآلام التي عاناها في الكتابة. وأي أصحاب؟ نجوم الفن ونجماته، وأثرياء الكتّاب وأثرياء الشعراء، وأثرياء الرسّامين، وأثرياء الأثرياء. أليس هذا جميلاً؟ ما هو الخطأ في هذا؟

«شي حِلُو» تقولي يا أم عمرو؟ صدقت. وهل أنا غيران؟ نعم، سوى

أن الرجل قد ترك كل هذا وراءه، وذهب إلى حيث لا ينفع مال ولا شهرة. اللّه أعلم من ورثه فلم تكن له زوجة ولا عيال، ولم تكن له رغبة بالنساء أصلاً.

نعم، هذا كاتب، فهل تسمي نفسك كاتباً مثله يا أبا زينب؟ إنها لعمري صلة واهية، بل هي أوهى من خيط العنكبوت.

لي ناشر شهم شهلول، حفظه اللّه ورعاه، وأغدق عليه من جميل عطاياه، دخل ميدان النشر أصلاً لأنه يعشق الكتب، يبرها ويحنو عليها، ويلمّ شملها كما يُجمع اللقطاء من قارعات الطرق. يؤويها ويطعمها ويسقيها، وينفق عليها من حُرِّ ماله. وهو إنسان أبلج يهش لك ويحسن استقبالك، يفعل ذلك مع كل الكتّاب والشعراء الذين ينشر لهم. والإنصاف يقتضيني أن أقول إنه كلما لقيني، وإن كنت لا أراه إلا كما كان كثّير يرى عزّة، يدفع إليّ بالألف والألفين، أحياناً ليرات وأحياناً ريالات وأحياناً دولارات حسب المكان الذي يجود الزمان فيه باللقاء. وألف وألفان، بأي عملة كانت، ليس مبلغاً هيّناً، اللّهم إلا بعملة لبنان والسودان. وكنت أعلم أنه يقتطع ذلك من قوت عياله، فنشر الكتب عندنا، مثل كتابتها، لا يدر مالاً. وأين نحن من هذه الدور الكبيرة في باريس ولندن ونيويورك، حيث الناشرون أباطرة والكتّاب قياصرة. هذا، وهو يعاني من تزوير المزورين وشح الموزعين. يقوم المسكين بهذا العمل الجليل في خدمة الثقافة العربية، لا تدعمه دولة ولا تشد أزره حكومة، فالدول والحكومات، أيدها اللّه، مشغولة في ديارنا بما هو أجدى وأنفع.

أذهب عن هذا الناشر البطل الذي يخدم الثقافة في أصعب الظروف تحت وابل القنابل، وأنا أرثي لحاله وأعاتب نفسي قائلاً:

«يا أخي حرام عيك. تأخذ فلوس من هذا المسكين؟ من أين يجيب المال لك ولأمثالك؟ ألا يكفيك أنه أذاع اسمك في الآفاق؟ أما يرضيك أن كتبك تقرأ من عمان إلى القيروان؟ أما أصبحت بفضل هذا الناشر تدعى للملتقيات الفكرية والمنتديات الأدبية؟ ألم يجعلك شيئاً مذكوراً، بعد أن كنت لا شيء تكتب عنك الأطروحات الجامعية وتمنح لك الدكتوراهات الفخرية؟ تُرابٌ لك من كاتب! آليت، لو كانت عندك ذرة من أريحية، لدفعت أنت من جيبك لهذا الناشر بدل أن تسأله الدفع».

هكذا، ومع ذلك، فلا تحزن يا أبا زينب. إن عاجلاً وإن آجلاً سوف يجيئك المال. سوف يجدك صرت «كأشلاء اللجام» لا تستطيع أن تتمتع به، فهذا ديدن الحياة كما تعلم:

«تعطي حين يكون الوعي مشتتاً،
وحين تعطي، تعطي بطرق محيرة،
تجعل العطاء يغتال الشهوة».

هكذا قال الشاعر الإنجليزي. وأحسن منه قول «الأستاذ»:

«من رآها بعينها شاقه القطان فيها كما تشوق الحمولُ».

لا تحزن. واحمد اللّه على ما أعطاك وهو كثير. تفكر أنك أسعد حالاً من «فان قوغ» الذي مات مخبولاً، ولوحاته تُباع الآن بالملايين. و«بودلير» البائس، الذي يطلع اليوم عنه كل عام كتاب، ولم يكن يجد ثمن الطعام والشراب. و«قوقول» الذي خرج من تحت عباءته كل الكتّاب. ومن أيضاً؟ «أوسكار وايلد» التعيس، الذي خادعته الحياة برهة، فظن الأمر لهواً ولعباً، ولما هوى من

عليائه، نزح إلى باريس، فلم يكن يجد كراء غرفته الفقيرة، وكان يستجدي ثمن عشائه. وما لك تذهب بعيداً؟ انظر إلى الجاحظ العبقري الذي لن يجود الزمان بمثله. أكل طعامهم وكأنه يأكل سمّاً زعافاً.. والتجاني يوسف بشير، شاعر السودان العظيم، الذي لم يسمّوا إلى الآن شارعاً باسمه ولا يعرف إلّا القليلون أين قبره. وهلمّ جرّاً.

لا تبتئس يا أبا زينب، وتمتع بهذه اللحظة العابرة، واذهب إلى نزل الـ «أورينتال» حيث كان يحلّ «الكاتب سمرست موم». هذه المرارة التي خامرتك سحابة صيف، وهي ليست من طبعك. لعلك تعبت من الترحال، وتريد أن تأوي إلى جبل. تريد أن تخلد إلى مكان تحبه، لا تبرحه، تسمع فيه نداء الأذان في الفجر.. والنيل بعيد.. النيل بعيد. ولعلك أيضاً تذكرت، بل أنت يقيناً تذكرت أم عمرو.. وأين منك أم عمرو؟

■ ■ ■

قال الدّليل، بصوت ليس حسناً، ولغة إنجليزية ركيكة، ولكنة أمريكية تجرح الأذن:

«أنتم هنا في عالم الأحلام. في الشرق الساحر. في أرض «تايلاند» الخلاّبة. هذه البلاد يُطلق عليها «أرض الابتسام». هل تعرفون لماذا؟».

وأجابته سائحة أمريكية مسنّة، فأكثر السائحات الأمريكيات في هذه المجموعة مُسنَّات:
«لأن الناس هنا سعداء، يبتسمون دائماً».

أسرف الدّليل في الضحك، واستجاب السيّاح الأمريكان لضحكه، وقد ظل يضحك طوال الرحلة، وفي أغلب الأحيان، دون سبب. قال:

«فري قود»... هذا هو.. أنت لست جميلة فقط، ولكنك ذكية أيضاً. الناس هنا كلهم سعداء... «هابي».. «هابي».. دائماً يبتسمون. هل أنتم سعداء؟».

وأجابته أصوات أمريكية، نساء ورجالاً:
«شُوْر».. بالتأكيد، نحن سعداء».

«طبعاً أنتم سعداء. واضح هذا على وجوهكم.. «آي لڤ أمريكا».. أحب أمريكا لأنها أرض السعادة.. مثل تايلاند.. تايلاند وأمريكا بلاد السعادة.. سوف تتمتّعون بهذه الرحلة النهريّة الرائعة. هل تعلمون ما اسم هذا النهر الرائع؟ هذا نهر «شاو فرايا»... يعني نهر الملوك».

أنا عادة أنساق وراء هذه الأوهام، وأستسلم لها تماماً في حينها، ثم أصحو منها. صحبت دليلاً أول مرة زرت فيها الأهرامات، كان يخلط التاريخ الفرعوني بالتاريخ اليوناني بالتاريخ الإسلامي، فكأنّ الخليفة المأمون من الملوك الفراعنة، وكأنّ رمسيس من خلفاء بني العبّاس. كان مرِحاً مرَحاً غير مصطنع، ويتحدث بطريقة ساخرة توحي لك أنه يعلم في قرارة نفسه أن الكلام الذي يقوله لك ليس صحيحاً. ولعلّه قدّر أن السيّاح، وخاصة الأمريكان، لا تهمهم هذه المعلومات على أي حال. كان دليلاً مملوءاً حيوية وجاذبية، يقدّم لك تاريخاً من صنعه هو، ليس موجوداً في كتب التاريخ. ولم لا؟

فالتاريخ في الغالب، رجم بالغيب. اختفى هذا النوع الآن، لسوء الحظ. أصبح الأولاد في مصر، خريجي جامعات، ويحسنون اللّغات الأجنبية، ويعطونك كمّاً هائلاً من المعلومات، التي سرعان ما تنساها.

لماذا أضيق إذاً بهذا الدّليل التايلاندي؟

أعجبني نزل الـ«أورينتال» الذي يقوم على حافّة النهر تماماً. وجدته فندقاً «كلاسيكيّاً» مريحاً، كل شيء فيه معمولٌ بذوق، دون ترف ودون بذخ. لا أدري ماذا حدث له الآن، ولكنه كان تلك الأيام، واحداً من أجمل الفنادق التي عرفتها. لاحظت أول دخولي، أنهم أسموا قسماً منه باسم «سمرست موم»، أعطوني غرفة واسعة، حسنة الأثاث دون مغالاة، تطل على النهر. ولم يكن ثمن الإقامة كبيراً، كان أرخص كثيراً من نظرائه في أي بلد آخر. وكما أفعل عادة، فقد انضممت في اليوم الأول إلى رحلة من الرحلات التي ينظمها الـ «هوتيل» أتعرف فيها على المعالم الرئيسية للمدينة. بهذه الطريقة تكوّن صورةٍ عامّة تضيف إليها بعد ذلك إذا شئت، بالمشي والتسكّع على مهل. وفي اليوم الثاني قمت بهذه الرحلة النهرية التي تستغرق اليوم كله.

كان الدليل التايلاندي يوجّه حديثه بصفة خاصة إلى السيّاح الأمريكان الذين غلبوا على هذه المجموعة. لا عجب، فهم سادة الدنيا الآن، الرومان الجدد، جيوبهم عامرة بالدولارات وكمراتهم مشرّعة كأنها مدافع رشاش. يصوّرون كلّ شيء. إذا رأوا معبداً أو بقرة ترعى، أو طفلاً نصف عار، أو امرأة تعمل في الحقل، أو قارباً «سامبان» ينزلق على وجه الماء. ويصوّر بعضهم بعضاً. ماذا يطلبون؟

هل يريدون أن يوقفوا الفلك عن الدوران؟ ويضحكون... إنهم سعداء... «هابي».. «هابي». يبتسمون ويضجون بالضحك.

هل يرون ما حولهم حقّاً؟ لقد جاءوا يحملون في مخيّلاتهم صوراً لن تتزحزح، عن عوالم ساحرة، صنعتها لهم الدعايات السياحية والروايات الرومنسية وأفلام «هوليوود». ينظرون إلى حياة الناس كما هي، فلا يرون إلا هذه الصور الزاهية التي استقرت في أذهانهم. الناس والحياة بالنسبة لهم، مثل تلك الألوان الغائمة في لوحات الرّسام الفرنسي «مونيه». و«تايلاند» خاصّة، تستجيب لكل مطالبهم، وترضي كلّ تصوراتهم الموهومة، فقد فعلت «هوليوود» فيها الأعاجيب.

أناس لطيفون، والحق يقال، ليس في طبعهم تكلف، يتعرفون إلى الناس بسهولة ويتحدثون بعفوية. ولكن ليس عندهم رغبة حقيقية في المعرفة، وسيّان عندهم إن كنت من مصر أو الصومال أو السنغال. وربّما يكونون معذورين، فبلادهم واسعة وغنية، وقد عملوا فيها بجد، وأخرجوا ما فيها من كنوز، وأصبحت التكنولوجيا في أيديهم مثل السحر عند قبائل بدائية، كل شيء ممكن، وكل حلم قريب المنال. وأنت تستلطفهم وتضيق بهم في الوقت نفسه، كما يحدث لك مع الأطفال.

مرّت سفينتنا على القصر الملكي بقبابة المذهّبة وقد رست أسفله، «الحراقات الملكية» المستطيلة. وقال الدّليل:

«في عام ١٩٨٧ سوف يبلغ ملكنا المحبوب، صاحب الجلالة «بوميبول» الستين من العمر. سوف تقام في بلادنا احتفالات خرافية

ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة. هذه القوارب الأسطورية التي ترونها سوف تنطلق فوق النهر مثل أجنحة الملائكة. لا بد أن تعودوا إلى «تايلاند» حينئذ لتشهدوا هذا الحدث التاريخي».

زرت القصر بعد هذه الرحلة، فوجدت معماراً «فكتورياً» كما في قصر «بكنجهام» في لندن، إلا أن السقف علته قباب مذهبة، ذات قمم حادّة تصعد في السماء كما في المعابد البوذية. ذلك أن «تايلاند» حكمها في القرن التاسع عشر ملك على شاكلة بطرس الأكبر في روسيا، ومحمد علي باشا في مصر، استهوته الحضارة الأوروبية وأراد أن يجعل «تايلاند» قطعة من أوروبا فعمل هذا الخليط العجيب، وبنى هذا القصر الذي لا هو بالشرقي ولا بالغربي.

■ ■ ■

السفينة النهرية ذات الطابقين، تسير على مهل فوق نهر «شاوْفرايا» متّجهة بنا إلى «أيوتّاهايا» العاصمة القديمة، على بعد سبعين كيلومتراً من «بانكوك». يا له من اسم جميل، «أيوتّاهايا». لماذا هجروها وأنشأوا عاصمة أخرى بدلاً منها؟

ظلت حاضرة المُلْك أكثر من أربعة قرون، كما أخبرنا الدليل، من عام ١٣٥٠ حتى عام ١٧٦٧. ثم حدث لها ما حدث لإرم ذات العماد وسَوَالِن البلقاء. سوف نرى أطلال القصور وشظايا المعابد، والحصون، وتماثيل بوذا، مقطعة الرؤوس، مكسَّرة الأذرع والأرجل، متناثرة الأشلاء على ساحات المدينة البائدة. سوف يلتقط السيّاح الأمريكان صوراً كثيرة لهذا الخراب وهم يضحكون. تركع المرأة عند قدمي الـ«بوذا» ويأخذ لها زوجها صورة. يقف الرجل على بقايا

درج قصر تقوّض، وتأخذ له زوجته صورة. ويبتسمون ويضحكون.

يضحكون لأوهى الأسباب، هؤلاء القوم، لأنهم واثقون من أنفسهم، ينتمون إلى أمة قاهرة و«حضارة» غالبة. وفي أعينهم، هذا النهر المربدُّ ذو المياه العكرة هو «نهر الملوك»، وهذه البلاد الفقيرة، هي «سيام الأسطورية»، التي لم ينشئها أهلها ولكن انشأتها السينما في «هوليوود». وقد وفدوا إليها في طائرات الـ«بان آم» الجمبو التي صنعتها مصانعهم يحملون الدولار «الخرافي» الذي تُقاس به العملات شرقاً وغرباً. فما لهم لا يضحكون؟

أما أنا فما الذي يسعدني؟ ليس معي آلة تصوير، وقومي رعاهم اللّه، وأصطحب شاعراً لا يدعك تهنأ باللحظة التي أنت فيها، يا يَني يوسوس لك بما يعكر صفوك:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعَناهُم من شأنه ما عنانا
وتولّوا بغصّةٍ كلُّهم منه
وإنْ سرّ بعضهم أحياناً.

صدقت يا سيّد الشعراء، وليتك لم تصدُق، فهذا الحُطام والرُّكام خير شاهد على صدق قولك. وهو أمر لا يبعث على الضحك، ولكنه يبعث على الأسى. فها أنا قد أسيْت واستعبرت كما تريد. وهبْك أشعرَ العالمين من عرب ورُطّان، فما فائدة هذا الآن؟

هذا، ونحن لم نزل بعدُ في أول الطريق، لم نبلغ العاصمة الدّارسة «أيوتّاهايا»، يا له من اسم جميل له نغم سلس، بخلاف «بانجوك» الذي كأنه هولندي. و«سيام» أجمل من «تايلاند». ما الذي حدث

فغيروا اسم البلد ونقلوا العاصمة؟ وعزمت أن أقرأ في تاريخ هذه البلاد، حين أعود. ومرّت السنوات منذ عام ثمانين وأنا ما أزال أجهل لماذا انتقلوا من «سيام» إلى «تايلاند» ومن «أيوتّاهايا» إلى «بانجوك».

إلاّ أنني في تلك الرحلة، فهمت شيئاً، إن لم أكن فهمت غيره لكان ذلك حسبي.

أخبرنا الدليل، وهو يضحك كعادته أن «تايلاند» تقع في منتصف المسافة بين الهند والصين، وأن مساحتها تقرب من مساحة فرنسا، وأنها عرفت أقدم حضارة على وجه الأرض. عجبت لذلك، فقد كنت أظن السومريين وقدماء المصريين، هم روّاد الحضارة، وأن السومريين سبقوا قدماء المصريين بقليل. لا بأس. فليكن التايلنديون أول من أقام حضارة على الأرض. ولعل ضيقي بالدليل خفّ حينئذ، فقد أخذ يصنع التاريخ على هواه، كما فعل الدليل المصري. وربما بدأ يسخر من عقول السيّاح الأمريكان الذين أوسعهم ملَقاً أول الأمر.

أما أنها بين الصين والهند، فقد تأكد لي خلال إقامتي أن «تايلاند» لا تشبه الصين ولا الهند، بمعنى لم يقصده الدليل. ذلك أنني لم أجد فيهم حيوية الصينيين ولا سكينة الهنود. فيهم شيء آخر ذكّرني بناسٍ أعرفهم ظللت أجهد ذهني لأتذكر من هم طوال إقامتي في «بانجوك».

زرت معابد كثيرة في هذه الرحلة النهرية وخلال تجوالي - في مدينة «بانجوك». في كل معبد، بوذا. البوذا الضخم الراقد على جنبه، وبوذا الزّبرجد، وبوذا الذهبي. اختلطت المعابد في ذاكرتي فكأنها

معبد واحد لكنني أذكر بوضوح بوذا عملاقاً يجلس القرفصاء في معبدٍ ما. بوذا عظيم الثديين، عظيم الكفلين، عظيم الكرش، بين الأنثى والذكر، وجهه مليح يحمل تعبيراً بين الرضى والغضب، بين الحزن والابتسام. كان الوثن مثل ناقة عَبْلة يَزْحَمُ جنبات المعبد، ويسدُّ نوافذ الخيال، في غيْم كثيف من دخان البخور والنَّد، وحوله عُبّاد يقرعون أجراساً صغيرة لها رنين ناعم، يختلط بعضه ببعض مثل ضحكات الأطفال، وهم يزمجرون بالدعاء، ويلقون للصنم بقصاصات أوراق، فيها ولا شك، رجاءاتهم وتوسّلاتهم.

هنالك، يا سبحان اللّه، طاف بي خاطر حنيفيّ كريم. اتّضح لي فجأة أمر كان يجب عليّ أن أفهمه من زمن. تخيلتُ الصنم العملاق وقد أُقْصي عن المعبد، وسكتت الزَّمزَمات وصمتت الأجراس. أصبح المكان فضاءً مفتوحاً على الأفق اللاّمتناهي، فهو جزء منه وهو امتداد له. أصبح مسجداً. زالت الحُجب بين خيال العابد في مكان عبادته والآفاق الممتدة داخل نفسه وخارجها. لا يوجد وثن يحصر أقطار العقل. لا ثمَّةَ إلّا المطلق، الإله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء ولا يحدُّه زمان ولا مكان.. اللّه جلّ جلاله إله المسلمين والعالمين.

■ ■ ■

قفا بي يا صاحبيَّ قليلاً على مغاني «تايلاند» الساحرة، أرض «سيام» «الأسطورية» بلاد السعادة والابتسام.

فلْنحتفِ بهذا اليوم المشرق القصير على ظهر هذه السفينة، فإنه «رهين بأيّام الشهور الأطاول».

لا بد أن هذه البلاد كانت في يوم من الأيام فردوساً من هذه الفراديس الضائعة. ولا بأس أن مثل هذه الأوصاف لا يبتدعها أهل البلد أنفسهم، ولكن يسبغها عليهم عادة الغرباء، وليس أكثر غرابةً من الأوروبيين.

خرجوا من ديارهم الجليدية كمن يخرج من كهف، وتدفقوا مثل سحائب من الجراد على أقوام بسطاء في آفاقٍ بعيدة. أخذوا يسمون الأسماء بلا هوادة، ويعلّقون الألقاب جزافاً. حدّثوا أن الإسبان حين وصلوا إلى حيث تقوم مدينة «مانيلا» الآن، مانيلا عاصمة الفيليبين، وكانت أرضاً عراء مستنقعاً، وجدوا رجالاً يذودون عنهم حشرة قارصة ويحكّون أجسادهم ويصرخون «مانيًا مانيًا» إشارة إلى الحشرة. فسألوهم بالإسبانية، التي لم يكونوا قد تعلموها بعد، ما اسم ذلك المكان، فقالوا «مانيًا مانيًا». فظن الإسبان أن المكان يسمّى «مانيلا». والعجيب أن أهل البلد قبلوا التسمية، فأصبحت عاصمتهم تحمل اسماً لا يعني شيئاً.

مثل هذا حدث في السودان. وجد الإنجليز عندنا بلدة عامرة على مفترق طرق، تسمّى «اتْبِرا» الذي يسميه الناس «الأتْبراوي». وهو نهر كبير يرفد النيل بعد أن يفارق الخرطوم، مشهورٌ ومذكور في آثارنا وأشعارنا. وقد قال الحَرْدَلُّو في معرض الفخر:

«شيخ الأتبراوي وماشي فيه كلامي».

وقد ذكر أولو العلم أن الاسم مشتق من «أتاوراسْ» أي النهر الذي يجيء من أرض الظلام.

جلب الإنجليز معهم مترجمين، ظنوا أننا قوم أعاجم غُلْف الألسنة، نجعل العين ألفاً والطّاء تاء كما في «عُطيْل»، فقالوا لا بدّ أنها «عَطْبرة».

فأخذنا نقول «عطبرة عطبرة» إلى يومنا هذا، كما قال الفيلبينيون من قبلنا مانيلا.. مانيلا.

ماذا تسمّي هذا يا رعاك اللّه، أظنه يدخل في باب الغزو الحضاري وطمس الهويّة ومحو الذاتية.

لكن لا بأس، لعلّ هذه البلاد كانت حقيقة في زمن غابر فردوساً من هذه الفراديس الضائعة. حتماً على كل أمة في ما يبدو، أن تضيّع فردوساً لتبكي عليه، فكأنها جِبِلَّةٌ جَبَل اللّه الإنسان عليها.

أبـــوكـــم آدمٌ ســـنَّ المعـــاصـــي
وعـــلّـــمـــكـــم مـــفـــارقـــةَ الجنـــان

أذاك أنت يا صاحبي؟ أما تزال توسوس لي تريد أن تُفْسِدَ عليّ هذا اليوم القصير الأجل؟ صدقت، كما تصدق كلّ مرّة، ولكن ماذا يجدي هذا الآن؟

هذه بلاد واسعة، مساحتها أكثر من نصف مليون كيلومتر مربع، فيها الجبال والشلاّلات والغابات والسهول الخصبة والشواطئ الرمليّة الممتدة. وسواء أقامت فيها أول حضارة على وجه الأرض، كما زعم الدليل أم لم تقم، فثمة أدلة كثيرة تؤكد أنها أنتجت حضارة لا يُستهان بها. ترى ذلك في المعابد المُجمَّحة، بمعمارها العجيب،

وأبراجها العالية، بعضها يعلو في شكل مُكدَّس يضيق تدريجيّاً مثل بعض الأشجار الاستوائية. هذا بالتأكيد معمار أكثر طرافة وجاذبية من المعمار الأوروبي القوطي كما في كاتدرائية «نُوتردام» في باريس. معبد «واتْ أرونْ» ـ معبد الفجر ـ في بانجوك بناء مدهش حقّاً. ومعبد «وانْ فرا» ذو القبة المذهّبة حيث يسكن «بوذا الزمرّد». والحصون والقصور التي شيّدها الملوك المتعاقبون من آل «شاكري» ومن سبقهم. كذلك تجد آثار هذه الحضارة في الفنون والصناعات القديمة وأزياء النساء.

هذا كله يحتويه ثوب بوذي واسع فضفاض، فالبوذية أصلاً كذلك، وهي ديانة تسعين بالمائة من أهل «تايلاند» وقد وصلتهم في القرن الثالث قبل الميلاد، بواسطة مبشرين أرسلهم الأمبراطور «أسوك» الهندي. وليس صدفةً أن «تايلاند» التي تتجاذبها المؤثرات الصينية والمؤثرات الهندية، اختارت البوذية، مؤثرةً إيّاها على كنفوشية الصين وهندوكية الهند. والمسلمون يأتون في المرتبة الثانية بعد البوذيين، ويغلُبون في الجزء الجنوبي من القطر. كذلك توجد أقليات من المسيحيين والسيخ والهندوس.

عنصر الـ «تايْ» الغالب، جاءوا على الأرجح من الصين، وجلبوا معهم الأنماط الصينية في الإدارة والحكم. وقد مزجوا هذا بشرائع «مانو» الهندوكية، وغلّفوه بغلاف رقيق من الأساليب الأوروبية، فحصل لهم النظام الذي هم عليه الآن. وكما يحدث دائماً، اختلطت السلالات والأعراق.

امتزج الـ«تاي» بمئات الآلاف من الأسرى الذين جازوهم في حروبهم الطويلة مع جارتهم «بورما». ووفد عليهم الناس من الهند

وفارس والصين. وجاءتهم أعداد قليلة من العرب. وكما يحدث في كل الدنيا، تفرَّع الناس قبائل. فإذا كان عندنا كنانة وطيء وتميم وبنو أسد وبنو كلب وبنو مُرّة ومن لفَّ لفَّهم، فعندهم الـ «مُنْ» والـ «لاوأ» والـ «كارِنْ» والـ «تشاونام».

■ ■ ■

بلى، المدن مثل البشر، لها ظاهر وباطن، تُخفي عنك وجهاً وتلقاك بوجه. إلّا أن هذه المدينة، كأنها بلا أسرار، وكأنّ ظاهرها هو باطنها.

السائق الذي استقبلني في المطار، إذ إن الهوتيلات في «بانكوك» ترسل لك سيارة تستقبلك في المطار، لم يمهلني طويلاً. لم تكد السيارة تتحرك، حتى التفت إليّ وعلى وجهه ابتسامة بريئة، نعم بريئة براءة حقيقية، وسألني:

«ما هي رغبات سعادتك؟ ما هو الصنف الذي تفضله؟ قل لي بصراحة. كل شيء متوفر».

كانت إجراءات المطار قد تمت بسهولة، فالسياحة عندهم مصدر رئيسي من مصادر الدخل، والكتب السياحية تقول لك إن في مدينة «بانكوك» ما يرضي كل «الأذواق». حتى الفيزا، تحصل عليها دون مشقة في المطار.

لم أضيّع وقتاً في سؤاله عن قصده، فقد فهمت قصده. قلت له:

«أنا متعب الآن» بعد أن أستجم سوف أخبرك بـ«رغباتي». كان الفصل صيفاً، وهذا مناخ استوائي. والمكان كأنه.. كأنه.. بماذا يذكرني هذا المكان والطائرة، هذه الرَّكوبة المجنونة، تنقلك في لمح البصر من مناخ إلى مناخ، ولا تترك فرصة لخيالك كي يلحق بك.

نثرت أشيائي في الغرفة فصارت أقل وحشة، غرفة غريبة في بلد غريب، في أفق بعيد.

نظرت من النافذة إلى النهر، الذي أصبح منذ الغد «نهر الملوك». إنه الآن قبيل الغروب نهر عادي، وهذا يكفيني. تستطيع أن تتخيل لوهلة أنك في القاهرة أو الخرطوم. الناس على الجسور، والسيارات تروح وتجيء، وهذا النهر كسائر الأنهار، يعطي المدينة وزنها وطابعها، ويحدد أبعادها، فكأنه مغناطيس يجذب إليه الحياة على الضفتين.

لأنني نشأت على ضفة نهر، فإنني أعتاد أسرع، على المدن التي تقوم على ضفاف أنهار. أول ما قدِمت مدينة الدوحة، قضيت زمناً وأنا أحس أن المدينة كأنها بلا مركز ثقل وكأنها معلقة في الهواء. ثم أدركت أن سبب هذا الإحساس أن المدينة لا تقوم على ضفة نهر وليس فيها سكك حديدية فلا تسمع ذلك الصوت المثير، صوت قعقعة القطارات أواخر الليل، طبعاً ألفتها بعد ذلك وأحببتها كما هي.

كنت قد تمهلت وأنا أتعرف على سكني الجديد الذي سوف يُؤويني بضع ليالٍ ثم أرحل عنه، وقد لا أعود إليه أبداً. ونسيت أمر السائق الذي أوصلني من المطار. ولم يخطر لي أنه سوف يأخذ مزاجي

مأخذ الجد، لذلك دهشت حين وجدته ينتظر عند باب النزل. أسرع نحوي:

«ها؟ هل ارتحت الآن؟».

قلت له:

«لسّع. ما أزال متعباً».

«غداً إذاً؟».

«نعم، غداً».

تسكّعت قليلاً غير بعيد من الـ«هوتيل»، إعلانات «مقاصر التدليك» وصور النساء، شبه عاريات، تحاصرك من كل جانب. وسط المدينة، مثل كثير من مدن العالم، ليس فيه شيء يميّزه، وهذه البضاعة المعروضة في السوق، تزيد المكان قبحاً على قبح. وقد اتضح لي فيما بعد، أن مصيبة هذه المدينة أنها قطعت الوشائج بين ماضيها وحاضرها. وهي مدينة ليست وليدة اليوم، فقد أنشئت منذ أكثر من مائتي عام. الماضي تجده في المتاحف والمعابد والأبنية القديمة، وهنا هذه الحياة «الحديثة» بكل آفاتها منفصلة لا تمت إلى ذلك الماضي بصلة. الأمر ليس سهلاً، ونحن أيضاً. انظر إلى القاهرة المحروسة. في الوسط، تلك العمارات التي تُعد تحفاً في فن المعمار، انظر إلى منظرها الكئيب وهيئتها الرثة، وإلى الخراب الذي حاق بالمدينة على أيدي المقاولين والتجار، رحم الله حسن فتحي الذي كان يصرخ في البريّة. والخرطوم أتعس حالاً. تلك المدينة التي تقوم في موقع من أجمل مواقع المدن في العالم، أي بشاعة حاقت بها، من سوء التخطيط وقلة الذوق! هل نحن حقاً فقراء إلى هذا الحد؟

وقفت سيارة أمريكية فارهة، فيها امرأتان. التي تجلس وراء عجلة

القيادة كأنها خليط من دم صيني ودم أمريكي. أنثى لا مراء في ذلك، ولكن شعرها قصير جداً «ألا جارسون» كأنها غلام. قالت: «هل تحب أن تمضي وقتاً طيّباً؟».

يا له من سؤال! ومن الذي لا يحب أن يقضي وقتاً طيّباً في هذه الحياة الدنيا؟ ولكن ما أبعد هذا الذي يدعونني إليه من الوقت الطيب! أليس كذلك يا أخا كِنْده؟ ما لك أخلدت إلى الصمت؟ ألم تقل شعراً يصلح لهذا المقام؟

لا عليك، فأنا أعلم أنك تسمو عن هذا، وتربأُ بنفسك عن مثل هذه القاذورات. ولا تثريب عليك أنك جريتَ وراء خيالك أبعد قليلاً مما يجوز، حين قلت:

عُـــدْ وأعـــدْهـــا فـــحـــبـــذا تـــلـــفٌ
ألـــصـــقَ صـــدري بـــ (...) الـــنَّـــاهـــد.

قلتُ للمرأة مازحاً:
«هل أنت بنت أم ولد؟».

لم أتوقع ما حدث، وانتابني ما هو أكثر من الدهشة، إذ إن المرأة كشفت فجأة بحركة غاضبة عن صدر عار، صدر أنثى لا مراء في ذلك، وأغلقت باب السيارة بعنف، وانطلقت لا تلوي على شيء.

أضحكني ذلك، ولا أدري ماذا كان يجب عليّ أن أفعل، فأنا بعدُ كاتب، وهذه التجارب على غرابتها حصادٌ يُجمع ويُخزن إلى حين.

وجدت السائق عند باب الهوتيل، ضحك كأنه كان شاهداً على ما حدث، ضحك ضحكة بريئة بحق. البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها، ولا بدّ لها من عزيمة تحميها. قال:
«غداً إذاً؟».
قلت له:
«نعم. غداً».

■ ■ ■

في اليوم الثالث قال لي السائق، ليس بغضب، ولكن كمن يعتب عليّ أنني أضيّع على نفسي فرصة ثمينة:

«ما هي حكايتك؟ أنت دائماً تعبان.. تعبان؟ لك ثلاثة أيام. ألن تستجم بعد؟» قلت له ضاحكاً:

«تريد الصراحة؟ ليس لي رغبة في ما تعرضه عليّ. ولكن تعال أستضيفك على شراب».

جلسنا في مقهى النُّزل، وكنت قد أشفقت عليه، وأحسست ببعض الذنب أنني ضلّلته. مسكين. لا بد أن له زوجة وأطفالاً، ويعول والديه المسنين. واضح من وجهه الوديع أنه بار بأبويه، رؤوف بأبنائه. ليس من «بانجوك» على الأرجح، فأغلب سكّان المدن في عالم الفقراء، العالم الْماذا؟ الثالث؟ نزحوا إليها من الرّيف. كأنه من «كوستي» أو «المُجلد» أو.. «جوبا».. نعم، هذا هو. هذه المدينة الاستوائية تذكرني بـ «جوبا» وهؤلاء الناس يذكرونني بأهل جنوب السودان، دعْك من اختلاف الألوان. هل كان عندهم في سالف

العصر والأوان فردوس ثم أضاعوه؟ إذاً لماذا لا يبكون عليه كما نبكي نحن على فراديسنا الضائعة؟

رأوا الشوارع والزحام والعمارات الزجاجية والمحلات التجارية الموسقة بأصناف السلع المستوردة. خالوا السراب ماء. صدّقوا الوعود وظنوا ذلك الجحيم هو الفردوس الموعود.. تركوا زراعاتهم وصناعاتهم وجاءوا يسعون وراء الحلم المستحيل.

مسكين لا بد أنه أيضاً أميّ، أو شبه أمي، يخوض غمار الحياة بلا سلاح. قال وهو يمتصُّ شراب الكوكاكولا المستورد من مصّاصة البلاستيك، وقد أشرق وجهه فجأة:

«على أي حال أنا سعيد جداً اليوم. حالفني الحظ فظفرت بزبونين ثريين. دبّرت لهما شيئاً ممتازاً.. هايْ كلاس.. ليس من النوع المبتذل الذي تجده في شوارع «بانجوك» ومحلاّت التدليك.. حاجة هاي كلاس بحق. لذلك أجزلاني العطاء».
«كم أعطياك؟».
«خمسين دولاراً».
«هذا مبلغ كبير؟»
«مبلغ كبير؟ هذا أكثر مما أكسبه من الشركة في أسبوع كامل».
«السيارة ليست ملكك؟»
«طبعاً السيارة ليست ملكي! كل التاكسيات في «بانجوك» تملكها شركات».

لا عجب أنه محبور لا يزعجه أي إحساس بالإثم. وجهه منبسط وضميره مرتاح.

كان معدّل الدخل في «تايلاند» تلك الأيام أقل من مائتي دولار في العام، لكل رجل وامرأة طفل وشيخ. يوفر هذا المسكين منها نفقة السكن والطعام والشراب والعلاج والتعليم، ويدّخر شيئاً يصد به غوائل الزمان ونوائب الحدثان.

لا عجب. مجرد وسيط. كأنه يساعدك على تأجير بيت أو شراء تذكرة سفر بالطائرة. ويأخذ «عمولة». البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها ولا بد لها من قوة تحميها.

آه! والسودان؟ معدَّل الدخل في السودان إلى الآن، لا يزيد عن أربعمائة دولار على أحسن الفروض. من هذه الحصيلة الضئيلة يبدّد المبددون وينهب الناهبون، وتجيّش الجيوش وتُشن الحروب. الفقر فضيحة.

نساء «سو دَرى» و«حمرة الشيخ» و«حمرة الوز» وأم بادر، بعد قرون من حياة مصونة وحمى آمن، إذ كن مثل البيض المكنون في أوكار النّسور، جار عليهن الزمان، وأجلاهن القحط وغباء الحكام عن ديارهن، فجئن يتسولّن في شوارع الخرطوم. الله يستر عليهن مما هو أسوأ. في أثناء ذلك تشتعل الثورات وتخمد، وتقوم العهود وتسقط.

الّـــلـــيـــلـــة والّـــلـــيـــلـــه
أم بـــادر يـــا خـــلـــيـــلـــه
زولا سَـــــزب ســــرّبَـــــه
خـــلّـــى الجبـــال غـــزبـــه
أدّونـــــي لـــــي شـــــربَـــــة
خـــلُّـــونـــي الأقـــصْ دَرْبَـــة

الفقر مصيبة. والثراء أيضاً مصيبة. وإذا اجتمعت المصيبتان فتلكم الطامّة الكبرى.

هذه المدينة أفسدها الأمريكان، كما أفسدوا «مانيلا» عاصمة الفيليبين. كانت مرتعاً لجنودهم يستريحون فيه من عذابات المعارك، في المحيط الهادي وفي شرق آسيا، خلال الحرب العالمية الثانية ثم في حرب فيتنام. أناخوا عليها بكلكلهم، كما يفعل الجنود، وأراقوا عليها دولاراتهم. وجدوا قوماً بسطاء ضعفاء لا يعصمهم عاصم، فعاثوا في المدينة كما شاءوا، وتركوها كما ترى.

البراءة وحدها لا تكفي. مثل نبات الوسمي أو نار العشب اليابس، أو كما قال الشاعر السوداني:

الحِن نار عويش إن علّقوها تعيشْ
بَسْ ما أنت جاهل وإن جفيتْ معليشْ(*)

قلت للسائق التايلندي، وهو يجلس قبالتي في مقهى نزل الـ «أورينتال» الذي كان يُلمُّ به الكاتب المليونير «سمرسِت موم»:

«وهذه الدولارات العشرة مني أنا أيضاً، لأنني ضلّلتك».

فرح بها أيّما فرح. ولعلّه يسدُّ بها ثُغرة في حياته.. ثوب يشتريه

(*) الحِنْ، تعني العطف، وهنا تعني الحب.
عويشْ، أي العشب الجاف وسيقان القصب وما شابه. وناره سرعان ما تنطفئ.

لابنته أو لابنه. كان سعيداً مرتاح الضمير، لا يعذبه أدنى شعور بالإثم.

وأنا أيضاً شعرت ببعض الرّاحة. غفر الله لي، فإنني لا أعلم إن كانت تلك حسنة أثاب عليها. ولكن الأعمال بالنيّات، كما جاء في الأثر، أليس كذلك يا رعاك الله؟

■ ■ ■

لفت نظري في تلك المجموعة من السيّاح الأمريكيين، رجل متوسط القامة، حسن الوجه، رأسه مكسوّ بشعر أبيض كثيف. كان مختلفاً عن بقية الأمريكيين لا يحمل آلة تصوير ولا يضجُّ بالضحك لأوهى سبب كالآخرين ولكن يبتسم من حين لآخر ابتسامة رصينة. وكان واضحاً أنه يسافر وحده، لا ينتمي إلى أي مجموعة منهم.

«هاي».

«هلو».

كنا نتجول في أطلال مدينة «أيوتّاهايا» الدّارسة، ثم وقفنا ننظر إلى تماثيل زعم الباعة التايلنديون انها تماثيل أثرية.

قال وهو يقلب تمثالاً نحاسياً صغيراً لفرس مجنّح:

«كل هذا لا قيمة له. يدفنونها في الأرض حتى تصدأ، ويبيعونها لهؤلاء السيّاح الأمريكيين الأغبياء على أنها تحف أثرية. إنهم مهووسون بكل ما هو قديم.. وعندهم المال.. يشترون أي شيء».

«ولكن.. ألست أمريكياً؟».
«بلى. من بوسطن، وأنت؟».
«من السودان».

لم أتوقع أن يكون سمع بالسودان، مثل أغلب الأمريكيين الذين لا يميّزون بين السودان وزائير وتنزانيا.

«آه. ذاك بلد يستحق أن يزار. يبدو بلداً ذا تاريخ حافل. إنه بلد واسع، أليس كذلك؟».
«مليون ميل مربع».
«مليون ميل... تصوّر».
«أكبر بلد في أفريقيا».
«عاصمته الخرطوم، أليس كذلك؟ عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق. لا بد أنه منظر ساحر».
«من أجمل ما يرى الإنسان».
«لا بد أنها مدينة جميلة. ما اسم المدينة الأخرى؟ التي حدثت فيها المعركة الشهيرة... التي هزم فيها الإنجليز جيش المهدي؟».
«أم درمان».
«نعم. معركة أم درمان... كانت معركة غير متكافئة».
«كان مع الإنجليز أسلحة حديثة، ومع ذلك لم يكن النصر سهلاً».
«أعرف. لقد أظهر جيش المهدي بسالة نادرة».

عجبت من هذا الأمريكي الذي ليس كالأمريكيين كما تخيلت. قلت له:

«الأمريكان عادة ليس عندهم اهتمام ببقية العالم. ما هو سر اهتمامك بالسودان؟».

قال ضاحكاً:
«صدقت، نحن في الغالب مشغولون بأنفسنا.. كأنه لا يوجد أحد غيرنا على وجه الأرض.. الأقوياء دائماً هكذا.. ومع ذلك لا تعدم أمريكيين لا ينقصهم حب المعرفة».

«الواقع أنني قرأت بمحض الصدفة كتابين أثارا اهتمامي بالسودان، فأخذت أقرأ كل ما يصادفني عنه... كتابين مدهشين بحق لكاتب أسترالي».

«ألن موزهد... النيل الأبيض والنيل الأزرق».
«نعم. ذلك هو... هل قرأتهما؟».
«نعم».
«يا له من كاتب! يشد انتباهك كأنك تقرأ رواية بوليسية».
«له كتاب آخر لا يقلّ روعة... عنوانه «اللقاء المدمر» هل قرأته؟».
«أبداً. عمَّ يتحدث؟».

«كيف أن الأوروبيين والأمريكيين بصفة خاصة ذهبوا إلى مجتمعات بدائية كانت تعيش مطمئنة على الفطرة في المحيط الهادي.. جلبوا إليها آفات «الحضارة الغربية» ومنها الأمراض الجنسية مثل مرض الزهري.. مزقوا نسيجها الاجتماعي ودمَّروها تدميراً».

قال بحزن:
«نعم. هكذا نحن. بلاء.. نحن برابرة هذا العصر.. حيثما

نحلُّ نترك وراءنا آثار الدمار والخراب.. بحسن نيَّة طبعاً.. وهذا ألعن».

زاد عجبي من هذا الأمريكي، الذي حيَّر كل تصوراتي عن الأمريكيين. نحن على ظهر السفينة الآن، عائدون إلى «بانجوك». السيّاح الأمريكان حولنا يضحكون ويلغطون ويأخذون الصور، والدليل التايلندي الذي رفع الكلفة مع بعضهم فيما يبدو، يمازحهم ويناديهم بأسمائهم.

قلت له ونحن متكئان على حاجز السفينة ننظر إلى مياه النهر:
«أتمنّى أن تتمكن من زيارة السودان».
«لا أظن، يا للأسف».
«ولم؟».
«ليس عندي وقت».
«لماذا؟».
«أنا في السادسة والسبعين على أي حال... لم يبق إلّا القليل من العمر».

قلت له:
«أنت تبدو في صحة ممتازة... من يدري؟ لعلك تعيش إلى التسعين أو المائة».

قال ضاحكاً:
«يا ليت. ولكنّ الأطباء لا يظنون ذلك. أعطوني عاماً واحداً فقط».

قبل أن أجد الكلمات المناسبة، قال:
«اكتشفوا أنني مصاب بنوع غريب من أنواع السرطان، لا يعرفون له دواء. قالوا إنني لن أعيش أكثر من عام واحد، على أقصى حد، قلت فليكن. إذا كان الأمر كذلك، فلأذهب لملاقاة الموت في منتصف الطريق، بدلاً من ان أجلس وأنتظر. قررت أن أقوم برحلة تستغرق عاماً كاملاً أزور فيها كل البلاد التي حلمت بزيارتها وأقرأ الكتب التي لم أجد الوقت لقراءتها.. أن أبدأ حياة جديدة... إذا صح القول».

ضحك دون مرارة، ثم صمت. وأنا أيضاً، فماذا أقول؟

«لحسن الحظ عندي من المال ما يكفي. في واقع الأمر عندي من المال أكثر بكثير مما يلزم أي إنسان في الحياة. طول حياتي وأنا مشغول بجمع المال.. نشأت نشأة فقيرة.. فقيرة جداً.. أصبح هدفي في الحياة أن أصير غنياً. المال لعنة. تقول أصل نصف مليون وأقف.. ثم تقول لا بأس خلّيه مليوناً وكفى.. ثم مليون ومليون وهكذا... إلى أن يتدخل القدر ويضع حداً للسباق رغماً عنك».

نظرت إليه الآن نظرة جديدة، فبدا لي وهو يتكئ على الحاجز الخشبي يحدق في ماء النهر، إنساناً مختلفاً. إنساناً غير عادي، يسير بخطى ثابتة نحو النهاية الحتمية. ولكنها نهاية مأساوية على أي حال، فيه شيء.. كيف أقول؟ بطولي. قال:

«لسوء الحظ نحن نضيّع جزءاً كبيراً من الحياة في أشياء تافهة. مثل جمع المال. تعرف أنني الآن أرى الدنيا بعيون جديدة.. كأنني أرى الأشياء لأول مرة.. كل شيء له وقع آخر.. مذاق آخر. لعل هذا

العام الذي بقي لي هو أهم عام في حياتي. بل لعلّه العام الوحيد في حياتي. أنا الآن، ولأول مرة في حياتي، حرّ من كل القيود.. رتبت أموري وصفيت شركاتي، أحمل وصيّتي معي. أقول فيها أن يدفنوني حيث أموت. إذا مت في عرض البحر أن يلقوا بجثماني في البحر...».

تودعنا في «بانجوك» وكنت أظنه آخر لقاء. ولكن كأنما الحياة أرادت أن تؤكد لي شيئاً، أو تعزّيني عن شيء أضعته.

ذهبت إلى «سيدني» حيث وجدت «منسي» في انتظاري. ثم سافرت وحدي إلى «طوكيو» أقمت في فندق الـ«نيو أوتاني» الضخم. كأنك في سوق عامر. من كثرة الناس والزحام، الإنسان الذي تراه، لا تراه بعد ذلك أبداً. ورغم ذلك بينما أنا أسير في الممر الطويل الذي يؤدي إلى الاستقبال، إذا أنا فجأة بصاحبي الأمريكي. سمعت صوته ينادي وسط الزّحام:

«هي.. هي..».

«هلو.. أهلاً أهلاً. يا لها من صدفة عجيبة أن نلتقي مرة أخرى».

«صدفة عجيبة حقاً. لا أكاد أصدق».

«كيف حالك؟».

«عظيم».

«والصحة؟».

«ممتازة... إنني أبداً لم أشعر بالصحة كما أشعر الآن، يبدو أن الموت قد نسيني».

«أما قلت لك أنك قد تعيش إلى التسعين أو المائة؟».

«لا أظن. سوف أقابل الموت حتماً في هذه الرحلة. ولكنني مستعد له. يا للخسارة! أنا الآن في طريقي إلى المطار. أديو.. وداعاً.

«أديو.. مع السلامة».

١٢

سيدني

السادس والعشرون من شهر يناير عام ١٧٨٨، تاريخ له طعم مرير في حلوق الأستراليين، ومع ذلك فهم يحتفلون به، ربما لأن للشعوب رغبة لا تُحد في الاحتفال، وربما كما يحتفل السجين بإطلاق سراحه.

تسير في شوارع «سيدني» فكأنك في «نيويورك» تارة وفي لندن تارة أخرى، هنا في وسط المدينة حيث يقوم نزل الـ «هلتن» في شارع «بت» Pitt تحس كأنك في «نيويورك» لا بد أنهم أسموه باسم «وليم بتْ» رئيس وزراء بريطانيا الذي استُعمرت أستراليا في عهده. هذا المعمار البشع الذي ابتدعه الأمريكان، كما في «مانهاتان» في «نيويورك» لا لحاجة الناس إليه، ولكن لمجرد التباهي بما في أيديهم من تكنولوجيا، وإحساس الكائن البشري، وهو إحساس جهول كما نعلم، بأنه قادر على كل شيء. وتسير باتجاه البحر، وهو غير بعيد،

فإذا أسماء الشوارع وهيأة المباني، كأنك في لندن.

وفي واقع الأمر، فإن أوجه الشبه بين أستراليا عموماً وبين أمريكا أكثر مما بينها وبين إنجلترا، فأستراليا مثل أمريكا، نشأت على أطراف الحضارة الأوروبية، وهي مثلها قامت على أكتاف المهاجرين من العالم الأوروبي، وقد كانت مثل أمريكا مستعمرة بريطانية ثم كسرت القيد وشبّت عن الطوق.

ولكن شتّان بين الهجرتين، فالأوروبيون الذين نزحوا إلى أمريكا، كانوا في الغالب، رجالاً ونساء ذوي عقيدة ومبادئ، فرّوا بدينهم من الاضطهاد أو سعياً وراء العيش الكريم. أما هؤلاء فكان لهم شأن آخر.

كان البحّار المغامر «وليم دامبْيير» أول بريطاني تطأ قدماه أرض أستراليا. وكان ذلك عام ١٦٨٨. إلا أن ذلك لم يحدث أثراً يذكر، فقد أهمل الأوروبيون قاطبة أمر أستراليا التي كانت تبدو لهم عالماً أقرب إلى الخرافة منه إلى الواقع، مما جعل «جوناثان سوفْت» مؤلف «رحلات قلڤر» يطلق عليها اسم «بلاد الياهو». ثم في التاسع والعشرين من نيسان/أبريل عام ١٧٧٠ رست سفينة «كابتن كوك» في خليج واسع في الطرف الجنوبي الشرقي لأستراليا، أطلق عليه اسم «بوتاني بيْ ـ خليج النّبات». لكنه لم يمكث طويلاً بل واصل سيره شمالاً بحذاء الساحل. هبط في لسان ممتد في البحر وهنالك غرز العلم البريطاني وأسمى كل ذلك الجزء الجنوبي الشرقي «نيو ساوث ويلز ـ ويلز الجنوبية الجديدة».

أيضاً لم يأبه الإنجليز بأستراليا، ولم يلتفتوا إليها إلا بعد أن ضاعت

منهم مستعمراتهم الأمريكية بعد حرب التحرير. أدركوا أنهم بضياع تلك المستعمرات، ما عادوا يجدون أرضاً ينفون إليها الفائض من المجرمين الذين ضاقت سجونهم عنهم. وبدا لهم أن تلك الأرض البعيدة التي أضافها «كابتن كوك» إلى ممتلكات التاج البريطاني، تصلح لذلك الغرض. وأعلن رئيس الوزراء «وليم بتْ» في البرلمان أن النفي إلى أستراليا هو أنجع وسيلة وأرخصها، للتخلص من المجرمين الذين لم تعد سجون بريطانيا تتسع لهم.

وهكذا، في ١٣ أيار/مايو عام ١٧٨٨، أبحر أسطول من إحدى عشرة سفينة تحمل ألفاً وثلاثين سجيناً، تحت إمرة «كابتن آرثر فيليب»، الذي أصبح أول حاكم للمستعمرة الجديدة. وفي ١٨ كانون الثاني/يناير ١٧٨٨، بعد رحلة دامت ثمانية أشهر، ألقت السفن مراسيها في «بوتاني بيْ» حيث حل «كابتن كوك» قبل ثمانية عشر عاماً.

لم يرُق الموقع لـ«كابتن فيليب»، فاختار مكاناً أبعد شمالاً بقليل. هنالك ألقى عصاه، وأفرغ حمولة سفنه من المجرمين، ورفع في تلك السماء البكر، العلم الأمبراطوري البريطاني، وأسمى المكان «سيدني» على اسم «لورد سيدني» وزير المستعمرات. كان ذلك على وجه التحديد في السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير عام ١٧٨٨، أي قبل ما يربو بقليل عن قرن، من دخول الجيش البريطاني لبلاد السودان. وإذا كانت حرب التحرير قد صبغت علاقة الأمريكيين بالإنجليز، فإن هبوط أولئك النفر من «المجرمين» في ذلك المكان قد صبغ علاقة الأستراليين بالإنجليز إلى يومنا هذا.

على السطح لا ترى شيئاً، وأنت تتجول الآن في شوارع هذه المدينة

المزدهرة ذات الثلاثة ملايين أو أكثر، بدورها التجارية العامرة، وأبنيتها التي تشرئب بأعناقها في السماء، وأسماء شوارعها التي تذكّر بالعهد الاستعماري، ووجوه أهلها التي يغلب عليها السَّمت الأنجلوسكسوني. ولكنك حين تمعن النظر، تدرك أن تاريخ هذا الشعب عبارة عن ملحمة من فظاظة الإنسان الأوروبي، ضد نفسه وضد الآخرين. نحن نعلم من الكتب التي ظهرت مؤخراً، أن معظم أولئك «المجرمين» لم يكونوا مجرمين حقيقة، ولكنهم كانوا «ضحايا» نظام اجتماعي ظالم. وكما يحدث دائماً، فإن الظلم يولّد الظلم، والعنف ينبت العنف. بعد ذلك حين آل الأمر إلى هؤلاء «المجرمين المضطهدين» أوقعوا هم بدورهم الظلم والاضطهاد على سكان البلد الأوائل، الـ «ابُورُوجِنيزْ» المساكين الذين عاشوا في تلك الأصقاع قروناً، على الفطرة في غفلة عما تخبئه لهم الأقدار.

ليس عجيباً إذاً، أن يخرج من هذه البيئة، كاتب عظيم الموهبة هو «باترك هوايتْ» الذي نال جائزة نوبل عام ١٩٧١، صوّر في رواياته صراع الإنسان الشرس من أجل البقاء. من هذه البيئة أيضاً، خرج الرسّام الكبير «سيدني نولان» الذي رسم الإنسان والطبيعة بشكل ليس له مثيل، كأنما في كوكب خرج عن المدار وأهملته الأقدار. ولا عجب كذلك، أن تنبت بيئة كهذه، كاتباً مثل «ألنْ مورْهد»، مؤلف «النيل الأبيض» و«النيل الأزرق» و«اللقاء المدمّر»، كاتباً مرهف الشعور، عميق الإحساس بوطأة الظلم الذي يلحقه الإنسان بأخيه الإنسان.

■ ■ ■

ربما يخيّل لك من هذا الموقع في البحر، وأنت تنظر إلى المدينة تعلو

وتهبط، وتتفرّق وتتجمّع في أنصاف دوائر، أنك قد حللت في فردوس من فراديس الأرض. الزرقة تحيط بك من كل النواحي، زرقة صافية شفّافة. وشمس الضحى، رغم لدغة البرد، تغمر الماء والسماء، وتنعكس من زجاج إلى زجاج، ومن قمة إلى قمة، فوق العمارات الشاهقة على الشاطئ.

القصور الجميلة والـ«فلل» الأنيقة، والحدائق المزهرة والعشب الأخضر الغضّ، والبشر يسبحون أو يستلقون على الرمال تحت شمس الشتاء. بعض النساء صدورهن عارية تترجرج وهن يتراكضن لاحتضان موجات المحيط الهادئ، ويضحكن ويحمل الموج ضحكاتهن من شاطئ إلى شاطئ. وتعلو فوق ذلك كله قمم الجبال «الزرق» عند الأفق.

لم يكن «منسي» يحب المشي. اعتاد على السيارة، فكانت مسيرة بضع خطوات تجعله يلهث من التعب. ولم تكن له رغبة في التعرّف على معالم المدن التي يزورها. كان ينظر إليها نظرة مُجْملة، وكأنه يجد في ما يرى صوراً قد رآها من قبل. وكنت أعجب من أين يحصل على معلوماته، فلم أكن أراه يقرأ شيئاً، ولم يكن يتمعّن في شيء، ورغم ذلك يدهشك حين تسأله، بدقة ملاحظته، وغزارة معلوماته.

أقنعته بعد جهد أن نقوم بهذه الرحلة، وأن نمشي سيراً على الأقدام إلى المرفأ، بادئين سيرنا من مبنى البلدية، غير بعيد من نزل الـ«هلتن» حيث نقيم. اتجهنا شرقاً صوب البحر في شارع «جورج ستريت» تاركين حديقة «هايدبارك» إلى يميننا، ومرفأ «دارلينج» إلى يسارنا. نحن الآن في الجزء القديم من المدينة، كما خطّطها «لاخلان

ماكْوري»، الحاكم الذي يُعزى إليه الفضل أيضاً في إسباغ اسم «أستراليا» على القارة بأكملها، بعد أن كانت تُعرف من قبل باسم Terra Australis . الأرض الجنوبية!

هذا رجل من طراز الرجال الذين برزوا خلال المد الاستعماري البريطاني، رجال التقت أوهامهم وطموحاتهم الشخصية، مع المرامي الكبرى لبلادهم، مثل كلايف وكيرزن في الهند، وكرومر في مصر، ولوجارْد في نيجيريا، وكتشنر في السودان، وروڈس في روديسيا. «بناة الأمبراطورية» كما تسميهم كتب التاريخ. كانوا جميعاً ينتمون إلى الطبقة العليا، لا يخامرهم أدنى شك في تفوق طبقتهم خاصة، وتفوق العنصر البريطاني على وجه العموم، وأنهم أصحاب «رسالة حضارية» واجبهم أن يفرضوها على العالم حتى ينتشر السلم البريطاني (Pax Britanica) كما عمَّ من قبل السلم الروماني (Pax Romana).

كذلك ذهب «لاخلان ماكوري» إلى أستراليا عام ١٨٠٩، قائداً أعلى وحاكماً عاماً على مستعمرة «نيوساوث ويلز» وملحقاتها. كان حينئذ ضابطاً عالي الرتبة في الجيش في الثامنة والأربعين من العمر، يحمل خبرة واسعة من خدمته في الشرق الأقصى والشرق الأوسط، ويؤمن إيماناً راسخاً بتميز النظم البريطانية والديانة المسيحية البروتستانتية. ولا بد أنه حين استلم مهام منصبه في كانون الثاني/ يناير عام ١٨٠٩ نظر باشمئزاز لا حد له، إلى المجتمع الغريب الذي كُلِّف بتصريف شؤونه. وجد مجتمعاً انقسم فيه البيض إلى «سادة» و«عبيد» فقد انضم إلى المستعمرة في العقود التي تلت عهد «كابتن فيليب» بعض المغامرين والطامعين من الطبقة الوسطى والطبقة العليا. ووجد مظاهر انحلال خلقي لا بد أنها صدمت أحاسيسه

البروتستانتية. كان الرجال يعاشرون النساء دون زواج، والعربدة شائعة والجرائم متفشية. وكانت الأوبئة والأمراض قد فتكت بالأهالي، سكان البلد الأوائل الذين أخذ عددهم يتناقص بشكل ملحوظ، كانوا محط سخرية البيض وامتهانهم حتى أنه كانت من وسائل التسلية عندهم أن يغروهم بالسكر، ثم يتفرجون عليهم يتصارعون حتى الموت. تماماً كما كان يفعل الرومان.

أصدر الحاكم الجديد نداءات تهيب بالطبقات العليا أن يتحلوا بضبط النفس والنزاهة، وتهيب بالطبقات الدنيا «أن يعزفوا عن شرب الخمر». وطالبهم بعدم إيذاء «الأهالي»، وحثهم جميعاً، بيضاً وأهالي أن يقيموا شعائر الدين ويواظبوا على حضور الصلوات بانتظام في الكنيسة أيام الآحاد.

ولم يكتف الحاكم بالبيانات والنداءات، ولكنه فرض قوانين صارمة، وأغلق الحانات، ولاحق شاربي الخمر، ومنع مظاهر الانحلال الجنسي، وفتح المدارس لتعليم المذهب البروتستانتي. وصاحب هذه الحملة «الخلقية» جهد كبير لتخطيط المدينة وتعميرها. وقد أوكل الحاكم بهذه المهمة، مهندساً معمارياً نابغة كان سجيناً بتهمة التزوير، فأعتقه وأناط به أمر تخطيط المدينة. ويمكن القول، إن هذا «المجرم» الموهوب، «فرانسيس ڤرينويي» هو بالنسبة لمدينة «سيدني» بمثابة «سير كرستفر رن» بالنسبة لمدينة لندن، و«هوسمان» بالنسبة لمدينة باريس.

كذلك أقام «لاخلان ماكوري» المؤسسات الملازمة أبداً للنظام الاستعماري: الكنيسة، والمدرسة والمستشفى، والسجن، وسمّى الأسماء. ذلك أيضاً أمر ملازم للاستعمار. أسماء الملوك والأمراء

والنبلاء وقادة الجيش والزعماء السياسيين في الوطن الأم، فكأنه فرض أحلاماً جديدة بدل الأحلام القديمة، لأن «الأهالي» سكان أستراليا الأوائل كانوا يقيمون الطقوس لما يسمونه «زمن الحلم» حيث تختلط ذكريات ماضيهم البعيد بحاضرهم في عناق سرمدي. في قلب ذلك الحلم غرس «لاخلان ماكوري» رمزاً أجنبياً جديداً بشكل خُيّل إليه أنه سوف يدوم إلى الأبد. أقام باحة سماها «باحة ماكوري» وبنى في وسطها مسلّة عالية. كأنما أراد ذلك الموضع أن يكون مركز العالم، منه تؤخذ الأبعاد، وبه تقاس المسافات. إنه ما يزال موجوداً غير بعيد من حيث نقف الآن.

ولما أنهى مهمته عام ١٨٢١، كان قد نجح بمقاييس النظام الاستعماري، نجاحاً جعل «تشارلز داروِن» صاحب نظرية «النشأة والتطور» يقول حين زار «سيدني» عام ١٨٣٦:

«.. كوسيلة لجعل الناس فضلاء لإعادة خلقهم من شرذمة من السفلة الذين لا يرجى منهم خير في جزء من العالم، إلى مواطنين صالحين فاعلين في جزء آخر. وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً، مركزاً مضيئاً للحضارة، فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

لكن شاعراً من شعراء أستراليا الأوائل، رأى كما يفعل الشعراء دائماً، الظلام الذي يكمن وراء ذلك السطح المضيء، فقد قال «البارون فيلد» الذي كان ثاني رئيس للمحكمة العليا، قال يصف أستراليا:

«ولدتْ في ساعة الخطيئة الأولى،
حين حاقت اللّعنة بالأرض،
لذلك هذه الغابة من الأشجار اليابسة».

سرنا في شارع الملك «جورج» المحاذي لشوارع الأمراء «يُورك» و«كلارنْس» و«كنت»، مارِّين بـ «ماركت ستريت» و«كنج ستريت» و«مارجريت ستريت». المعمار إنجليزي أحياناً وأمريكي أحياناً، إلى أن وصلنا المرفأ. أخذنا هذه السفينة السياحية من سفن «شركة توماس كوك» ضربت بنا في عرض البحر. إلى يسارنا عجيبتان من عجائب الإنجاز الأسترالي، الجسر ومبنى الأوبرا. تجاوزنا خليج «ولُومُولو» ودخلنا خليج «إليزابث». الشمس ساطعة وزرقة البحر موازية تماماً لزرقة السماء. «منسي» يضحك، لأنه تذكر بفعل ترابط الأفكار البنات الأستراليات اللائي كن يجاورنه في شارع «سيدني» في لندن. وأنا أنظر إلى ناطحات السحاب ووراءها الجبال «الزرق» وأفكر في قول «تشارلز داروِن».. «نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

ثم أفكر في قول القاضي الشاعر، الذي كأنما رأى كل هذا من وراء الغيب: «لذلك هذه الغابة من الأشجار اليابسة».

■ ■ ■

من أعجب ما سجّله التاريخ من أقوال المستوطنين البيض في أستراليا، عبارة لرجل يدعى «سي. لوكهارت»، قالها عام ١٨٤٩:

«لا شيء سوف يحول دون انقراض عنصر الـ«أبوروجنيز» الذين شاءت الإرادة الإلهية أن تسمح لهم بالاحتفاظ بالأرض ريثما يجيء عنصر أفضل يحل محلّهم».

هذا الرجل المغمور الذي لم ينسب له التاريخ عملاً يُؤْثر، استحق

«الخلود» وإن كان خلوداً خيرٌ منه النسيان، بأنه أفصح بهذه العبارة التي ظلت تزحف مع حركة التاريخ، كما يتحرك الحجر في قاع النهر. إنه عبّر دون مواربة، ودون حياء، عن مبرر أساسي من مبررات الاستعمار الأوروبي، وهو أن الأجناس غير الأوروبية، الـ«همج» في زعمهم، ليسوا بشراً بمفهومهم للكلمة، ويمكن اعتبارهم غير موجودين، وأن الحيّز الذي يشغلونه على سطح الأرض، هو في الحقيقة خالٍ من السكان. ولم يكتفوا بهذا الصلف العرقي، ولكنهم جعلوه قانوناً إلهياً. وأضفوا عليه مبرراً أخلاقياً. قد يكون الإله الذي تذرعوا به «برستنتيّاً» كما في أستراليا، أو «كالڤنيّاً» كما في جنوب أفريقيا، أو «كاثوليكيّاً» كما في أمريكا اللاتينية، وقد يكون «يهوه» إله اليهود كما في فلسطين. ويمكن أن يسمع الإنسان صدى عبارة مستر لوكهارت في عبارة جولدا مائير بعد أكثر من قرن من الزمان، «الفلسطينيون؟ أين هم هؤلاء الفلسطينيون؟».

في ذلك الصباح من شهر كانون الثاني/يناير عام ١٧٨٨، حين رست سفن «كابتن فيليب» على شاطئ أستراليا، نظر البيض فلم تر عيونهم بشراً. رأوا شخوصاً مثل الأشباح هي في اعتقادهم «لا شيء» كانوا عراة تلمع أجسامهم في الشمس، من الدهن الذي يتمسّحون به اتقاء الحشرات. على وجوههم ورقابهم علامات من طلاء. بأيديهم الرماح، وفي أنوفهم أشياء مثل الزّمام. منهم من يحمل درعاً، ومنهم من يحمل آلة محدودبة.

وقف السود على صخور الشاطئ، وكانوا من قبيلة الـ«أيورا» كما نعلم الآن، ينظرون كالمسحورين، إلى المنظر الذي لا بد أنه بدا لهم مثل كابوس من قوى شرّيرة اقتحمت حلمهم الطويل.

تلك المخلوقات الغريبة التي كأنما تسلَّخت جلودها عنها لشدَّة احمرارها، أخذت تفرغ حمولة القوارب التي كانت أضخم بكثير من القوارب التي اعتادوا عليها. خرج رجال ونساء وأطفال. بعضهم كانوا يرسفون في أغلال الحديد، وبعضهم يلبسون خرقاً ممزَّقة، وبعضهم يحملون السلاح، ويعطون الأوامر بأصوات شرسة. ثم نظروا بدهشة أكبر إلى عدد منهم يتجمّعون تحت شجرة. وقف رجل بينهم وتحدّث فيهم بصوت عريض، كما يتحدث الرجل الكبير إلى الأطفال. ثم أخذ كأنما يتلو ترانيم سحرية، كان الجمع يرددها وراءه. ذلك الرجل، كما تحدثنا كتب التاريخ، كان قسّيساً بروتستانتياً يدعى «ريتشارد جونسون»، تخرّج من جامعة كيمبردج، وتشرَّب مبادئ المذهب التبشيري المتطرف الذي كان سائداً تلك الأيام. وقد انضم إلى هذه الرحلة ليخدم «الرب» في تلك الأصقاع البعيدة. سارع أول ما ألقت السفن مراسيها فأقام الصلاة شكراً للإله أنه بلّغهم مقصدهم سالمين، وأنه خوّلهم تلك الأرض، يتبوّأون منها كيف شاءوا. كانت مهمته عسيرة، كما اتضح فيما بعد، خاصة بين قومه البيض، الذين كانوا أبعد ما يكون، عن «الآباء المهاجرين» الذين ذهبوا من قبل إلى أمريكا. وأصبح «جونسون» هذا مشكلة بالنسبة للحكام العسكريين الذين لم يكونوا يشاطرونه حماسته الدينية.

نظر الفريقان بعضهم إلى بعض في لحظة نادرة من لحظات التاريخ. ولم يَعِ أحدهم عن الآخر أي شيء. كان «السود» غارقين في حلمهم الذي خُيّل لهم أنه سوف يدوم إلى الأبد. سوف تمضي حقب قبل أن يفهموا مغزى الكارثة التي حاقت بهم.

أما البيض فإنهم لم يدركوا ـ وما كان يهمهم أن يدركوا ـ أن تلك

الأشباح كانت جزءاً من «شعب» توطّن تلك الأرض منذ أكثر من ثلاثين ألف عام. جاءوا في هجرات متعددة من آسيا، عبر «تاسمانيا» و«غينيا الجديدة». انتشروا في جزيرة أستراليا بأكملها، وغطوا وجه الأرض مثل ثوب رقيق شفاف. وتقسّموا قبائل كان عددها نحو خمسمائة في تلك اللحظة. وكان عددهم نحو ثلاثمائة ألف. كانوا مثل مستنقع انقطع عن نهر التاريخ، فعاشوا كل تلك القرون في عزلة تامّة عن الأحداث التي ألمّت ببقية سكان الأرض. ولما وصل الأوروبيون، وجدوهم ما يزالون في مرحلة البداءة الأولى. كانوا يعيشون على الصيد من البر والبحر، ويعتمدون على آلات بدائية. ورغم ذلك فقد ابتكروا نظاماً مكتملاً للعيش يلائمهم تماماً، وابتدعوا «ثقافة» ليست تافهة إذا نظرت فيها بإمعان، يمتزج فيها البحر بالسماء بالطبيعة بالماضي بالحاضر بالمستقبل في عناق سرمدي أسموه «زمن الحلم». وكانت الأرض هي مركز الحلم، إذا حرمتهم منها فقد حرمتهم كل شيء. كأنما انتزعت «هويتهم» كما يُقال هذه الأيام.

تقول الأرض، بلسان شاعر أسترالي معاصر ـ من البيض ـ فالشعراء لا جنس لهم، وهم دائماً أكثر إنصافاً وأعمق إحساساً:

«... أين راح أبنائي الأبكار،
الذين أخرجتُهم من رحمي،
من زمان، من زمان؟
لماذا، لماذا يكون؟
ماذا حدث للأساطير،
الأساطير التي نسجتُ والقوانين؟
قل لي ماذا حدث؟
أنت الذي ولدتُ بعدهم

بزمان، بزمان.
لماذا، لماذا لا أسمع،
إلّا صرخات أرواحهم تدوّي في الكهوف؟

■ ■ ■

في أستراليا أكثر من أي أرض أخرى استوطنها الأوروبيون، وقفت فلسفتان متناقضتان كلية إحداهما إزاء الأخرى.

الفلسفة الأوروبية المادية في ناحية، كما تبلورت في القرن التاسع عشر، فلسفة تعتبر «الأرض» مجرد «شيء» من حق الإنسان أن يملكه ويستأثر به، ويقسّمه كيف شاء، ويستغله كيفما بدا له. والإنسان، بمقتضى هذه الفلسفة، ليس الكائن البشري عموماً، ولكنه الإنسان القوي القادر، الذي اختارته العناية الإلهية وقوانين التمييز الطبيعية، أي الأوروبي، ليكون خليفة على الأرض. وكان المؤمنون بهذه الفلسفة، يستندون إلى التفوق التكنولوجي وإلى المدافع والبارود. في الجانب المقابل، وقفت فلسفة «أسطورية ـ شاعريّة»، ترى «الأرض» على امتدادها، كائناً حيّاً، يحس ويتألم، مخلوقاً له قداسة مثل «كاتدرائية مفتوحة» كما وصفها أحد الكتّاب.

احتار المستوطنون الأوائل في أمر الـ «أبوروجنيز». رأوا أناساً لا يشبهون أي أناس عرفوهم من قبل، أو سمعوا بهم. لم يجدوا لهم زعماء ولا معابد ولا أوثاناً يعبدونها ولا «ديانة» يؤمنون بها. ولم يكونوا يملكون شيئاً، لا بيوتاً ولا مزارع ولا مقتنيات ولا أرضاً. وكانوا في ترحال مستمر، دون سبب واضح، كأنهم يبحثون عن شيء مبهم ضاع منهم.

اتضح بعد زمن طويل أن الـ«أبوروجنيز» يعتبرون الأرض بأجمعها، معبداً لهم، وأن فيها علامات وألغازاً وأسراراً، لا بد من مواصلتها باستمرار، وإلا توقفت الحياة، وأن «الأرض» تناديهم وتتحدث إليهم، وأن لهم طرقاً على وجه الأرض لا يخطئونها، كما يعرف الطائر المهاجر طريقه في السماء.

يصف الكاتب الإنجليزي «بروس شاتْونْ» قصة ظهور المخلوقات على الأرض، كما يتصورها الـ«أبوروجنيز» في كتابه البديع «دُروب الفناء»:

«في البدء كانت الأرض طيناً لازباً منبسطاً، منفصلة عن السماء والبحر المالح الرُّصاصي. وكان يغمرها ظلٌّ رهيف مثل الشفق. لم تكن بعدُ شمسٌ ولا قمرٌ ولا نجوم. وكان يسكن في المدى القصي «سكان السماء». كانت لهم هيئة البشر وسيقانهم مثل سيقان النعام، وعلى رؤوسهم شعر عسجدي كأنه نسيج العنكبوت. كانوا في نضارة دائمة، يعيشون في فردوس مخضرّ وراء الغيوم في الأفق الغربي.

لم يكن على وجه الأرض، سوى حفر، سوف تمتلئ بالماء يوماً ما. لم تكن ثمة حيوانات ولا نباتات، لا شيء سوى مادة لينة مثل العجين، متجمّعة عند تلك الحفر. مادة ليست حيّة ولا ميتة، لكنها «عصارة الحياة».

تحت الغشاء الخارجي للأرض، كانت الأشياء غافية تنتظر ساعة الميلاد.. الشمس والقمر والأشجار والحشرات والطير والحيوان. نائمة مثل بذور في صحراء تنتظر المطر.

في صباح اليوم الأول تململت الشمس في رحم الأرض، فقد أحست برغبة ملحّة لأن تولد. شقّت غشاء الأرض وخرجت، فغمرت الأرض بالضياء والدفء، وغمر الدفء الحفر التي تحتها كان ينام «القدماء».

كانوا مُنهكين متعبين، بخلاف سكان السماء، مبيضّة لحاهم، ضامرة أجسادهم ظلوا نائمين طوال العصور.

وهكذا، أحس كل واحد منهم في هذا اليوم الأول، دفء الشمس، فإذا بجسده يتشقّق عن أطفال. خرج ثعبان من صُرَّة الرجل ـ الثعبان. الرجل ـ الببغاء، أحس بشيء له ريش يخرج من جسده، فإذا هو ببغاء. الرجل ـ الكانغرو تمخض عن كانغرو، والرجل ـ النملة ولد نملة، والرجل الزهرة، خرجت من جسده زهرة. وكل مخلوق من هذه المخلوقات الوليدة، أول ما مسَّ الأرض، رفع وجهه نحو الشمس.

في قيعان الحفر، التي امتلأت بالماء، حرك «القدماء» أقدامهم، القدم اليسرى، ثم القدم اليمنى. ثم هزوا أكتافهم وحركوا أذرعتهم. انشقت أجفانهم ففتحوا أعينهم، نظروا فرأوا أطفالهم يموجون في ضوء الشمس.

تساقط الطين عن أفخاذهم كما تسقط المشيمة غشاء الجنين، عن جسد الجنين. وكما يصرخ الطفل أول ما يولد، فتح كل واحد من «القدماء» فمه وصرخ «أنا.. أنا ثعبان، أنا.. أنا ببغاء، أنا.. أنا زهرة».

هذا النداء الأول، نداء تسمية الأسماء، ظل بعد ذلك وإلى الأبد، أقدس طلسم في «غناء القدماء».

ثم، كل واحد منهم، خطا خطوة بقدمه اليسرى، ودفء الشمس يغمره، ونادى باسم ثان وخطا بقدمه اليمنى وهتف باسم ثالث.. نادى بركة الماء، ونبات البوص، وشجر الصَّمغ، ينادي ذات اليمين وذات الشمال ينادي المخلوقات أن تولد، يغنّي لها ويزجل أسماءها. ثم طاف «القدماء» العالم طولاً وعرضاً وهم يغنّون. غنوا للأنهار وجبال الملح وكثبان الرمل. وكانوا أثناء تجوالهم يتركون دروباً مثل خيوط غير مرئية، ويتركون علامات مثل بصمات الأصابع.

غطوا العالم بأسره بلحاف من الغناء، ولما فرغوا، أحسوا بالتعب. أحسُّوا بأعضائهم تبرد ببرد الحقب الطويلة، وتيبس. بعضهم اندس حيث هو في باطن الأرض. وبعضهم حبا إلى أعماق المغارات والكهوف، وبعضهم غاب في الحفر الأبدية، من حيث خرج. عادوا كلهم إلى رحم الأرض».

■ ■ ■

ذلك كان منذ عهد بعيد. الذي حدث، وكيف حدث، ظلّ ثابتاً في الزمان. هذا هو «زمان الحلم» كما يسمُّونه. كل شيء قد تمّ وانتهى، لكنه سوف يتكرر ويتجدد في صيرورة مستمرّة. والإنسان هو الذي يعيد تلك اللحظة، يعيد نشأتها، بالهجرة في «دروب الغناء» في مواسم معيّنة، مهتدياً بعلامات تركها «القدماء» على الأرض، كما يهتدي الملاّحون بالنجوم، حتى يصل إلى الأماكن «الحارّة»، حيث تكمن الـ«كُرُمْبا» ـ روح الأرض.

تمتدّ «دروب الغناء» على وجه الأرض من أقصاها إلى أقصاها، تلتقي وتتفرّق، مثل نسْج العنكبوت. وطوال الرحلة، يُغنّي الإنسان. يُغنّي حين يحلّ، ويغني حين يرحل، ينادي بالأسماء القديمة، ويسترجع اللحظة الأولى. تستيقظ الأرض وتتحول إلى جسم مضيء، إلى أفق ميتافيزيقي يحفظ كل تاريخ «الشعب» وسيرته في الحياة، وكيف غمرته الهبات والنّعم، مثل القدرة على الرقص والغناء، وصنع آلات الصيد، وكلّ المهارات التي أتاحت له العيش.

في رحلة الحلم، يعيد الإنسان صلته بالطبيعة، ليس بالمعنى البيئي المعاصر، ولكن بالمعنى الشاعري ـ الأسطوري القديم.

تقول الأرض للبشر، كما غنّى شاعرهم:

«لقد ذبلتم وغاضت نضارتكم. سوف أصوّركم. سوف أضع طلاء جديداً عليكم، فتعود إليكم نضارتكم من جديد».

ويقول أحد حكمائهم عن علاقتهم بالأرض:

«نحن نؤمن أن الأرض هي التي تملكنا ولا نقول إننا نملك الأرض. الأرض ليست لنا، ولكننا نحن للأرض».

لذلك حين جاء المستوطنون الأوروبيون، وقسّموا الأرض ملكيات تظل في حَوْزتهم إلى ما لا نهاية، بحكم القوانين المعقدة التي فرضوها، كانوا في نظر الـ«أبوروجنيز» كأنهم قطّعوا جسم كائن حَي. قطعوا أيضاً خيوط الغناء القديمة، وعفّوا على الأماكن «الحارّة» وطمسوا معالم الحلم. انتهكوا قداسة الأرض، في نظر الـ«أبوروجنيز»

انتهاكاً أفظع مما لو أنهم ألقوا عليها قنبلة ذريّة.

حينئذ، ضاع الإنسان في غمار المجتمع الأوروبي الجديد بمفهومه المادّي. تزعزعت صلته بالأرض، وتزعزع إحساسه بالأمن، وأصابته البلبلة والحيرة، وانصرف إلى السُّكر والجريمة.

لم تكن عندهم مؤسّسات للحكم، ولا زعماء، فقط أعراف تنظم شؤون حياتهم، بطريقة عفوية. كان لهم نخبة من رجالهم، كانوا بمثابة الأمناء على تراثهم. أولئك هم الـ«كاراجي» أيْ «الحكماء». كانوا يُنْتَخبون منذ صغرهم حسب مواصفات معيّنة، ويُعدّون إعداداً طويلاً شاقّاً، يصيرون بعده مرشدين روحيين للشّعب، يقودونه في رحلة الحكم، يعرفون الدروب والأغاني القديمة والأماكن «الحارّة»، والكهوف حيث التصاوير التي خلّفها القدماء، التي لا بد من إعادة طلائها في أوقات معيّنة، وإلا اختلطت الأمور وضاعت المسالك.

كانت هذه النخبة من الحكماء تقف سدّاً في وجه الغزو الثقافي الأوروبي، فركّز الأوروبيون هجومهم عليها. ولمّا انهارت، انهار شعب الأبوروجنيز برُمّته.

يقول الكاتب الأسترالي (جيمس كاوان) في كتابه «أسرار زمن الحلم»:

«كي نفهم المِحْنة العظيمة التي يتعرَّض لها أي مجتمع قديم في صراعه للحفاظ على تماسكه للاستمرار في الحياة، لا بدّ لنا أن نفهم خطورة المواجهة المدمِّرة، بين المادية الأوروبية والـ «كاراجي»، بصفته قدوة ومرشداً ثقافياً وروحياً للمجتمع. فإن الكارثة التي حلّت

بالأبوروجنيز من تدمير لتراثهم الروحي والمثلوجي، ما تزال تحدث لمجتمعات أخرى إلى يومنا هذا».

لذلك نستطيع أن نتخيَّل إحساس شاعرهم، وهو يغنِّي بهذه الكلمات:

«أتلفَّت خلفي نحو الجبال العالية،
صوب «بنْقارِنْجي»
صوب «ووريىْ» و«لقْلاقْ»
نمشي نحو السهول ومَصبِّ الوادي،
أشعر بالحزن،
إذ نفارق المحلْ،
تلك الجبال الصخريَّة عند «دارنْقوا»
وجبهة الجبل التي اسمها «بلاويرو»
نقتفي أثر الكانغرو
عبر السهل الواسع،
أبكي لأنني أضعت «مكاني»
يتقطر قلبي وأنا أقف في السهل المنبسط،
أنتظر هطول المطر».

هذه الكلمات على بساطتها ألا تثير في نفسك شجناً ليس غريباً عليك، تعرفه في الشعر العربي القديم؟ ألا تذكرك هذه الكلمات بقول زهير بن أبي سلمى؟:

لمن طللٌ كالوحْي عافٍ منازلُه
عفا الرَّس منه، فالرُّسيسُ، فعاقِلُهْ

فَـرَقْـدُ، فـصـاراتٌ، فـأكـنـافُ مـنْـعـجٍ،
فـشـرقـيُّ سـلـمـى، حـوضُـه فـأجـاوِلُـهْ
فـوادي الـبـديِّ فـالـطَّـويُّ فـثـادِقٌ،
فـوادي الـقـنـانِ، جِـزْعُـه فـأفـاكِـلُـهْ،
وغـيـثٍ مـن الـوَسْـمـيّ، حُـوٌّ تـلاعُـه
أجـابـت روابـيـه الـنَّـجـاء، هـواطِـلُـهْ

انظر إلى ذكر الأماكن هنا وهناك، وأن الشاعر يغمغم بها كأنها طلاسم. تخيّل شاعر الـ (أبوروجنيز) وهو ينتظر المطر، والشاعر العربي وقد تذكر المطر يهطل في زمان مضى. ثم تأمَّل أن الطلل العربي ليس مكاناً واحداً، ولكنه واسع شمل عدَّة أمكنة، وأنه مثل سطور كتاب امَّحت واختلط بعضها ببعض.

تقول كأنها.. لعلَّها.. دروب الغناء.

■ ■ ■

«انتظرنا قليلاً، فإذا بيد سوداء تمتدُّ من فُرجة في المشمّع المشدود على باب سيارة الـ«فولكس واقون» التي استقرّت على الأرض بلا عجلات. ثم بعد برهة، خرج رجل مشدود عضلات الجسم، على رأسه قبّعة حالَ لونها، ويلبس بنطلوناً متّسخاً، وقميصاً عليه رسوم قيثار ونوَت موسيقية. وكان حافياً. وقف في ضوء الشمس، ونظر نظرة فاحصة إلى «ارْكادي»، ثم خفض رأسه بوقار. ضرب الكلب فكفَّ عن النباح.

خاطبه «أركادي» بلغة «والبهري». أصغى الرجل صامتاً، ثم اختفى وراء المشمّع.

* قلت لـ «أركادي»: إنه يذكّرني بهيلا سلاسي.
ـ «أكثر هيبة».

* أكثر هيبة. صدقت. بكثير. هل يعود؟
ـ قال «أركادي»: «أظن».

* «هل يعرف الإنجليزية؟».
ـ نعم. ولكنه يأبى أن يتحدّث بها. الإنجليزية ليست لغته المفضّلة.

علمت من «أركادي» أن سوء الحظ شاء لقبيلة الـ«كايتيجي» أن تقطن عند ممرّ خط التلغراف، لذلك اضطروا للاتصال بالبيض مبكّراً. تعلّموا صنع السكاكين ورؤوس الرّماح من زجاج الموصلات السلكية. أراد البيض أن يرعبوهم ليكفوا عن ذلك، فقتلوا عدداً منهم. أخذ الـ «كايتيجي» ثأرهم فقتلوا عدداً من البيض. كنا قد مررنا من قبل، بقبر عامل التلغراف، الذي استطاع وهو في الرمق الأخير، أن يدقّ على التلغراف رسالة إلى زوجته في «أدليد». كان ذلك عام ١٨٧٤، وقد أصيب بطعنة رمح. ظل البوليس يقتّل الـ«كايتيجي» انتقاماً حتى عام ١٩٢٠.

رأى «الآن» وهو صبي، أباه وأخوته يقتلون رمياً بالرصاص.

* تقول إنه آخر من بقي منهم؟
ـ آخر من بقي من عشيرته، نعم. في هذه الناحية.

استندنا إلى جذع شجرة صمغ، وأخذنا نتابع الحياة تسري في المخيّم. «ميفس» و«روبي» ذهبتا لزيارة صديقاتهما. «بغ توم» استسلم

للنوم. «تمي» يجلس القرفصاء، ويبتسم.

الأرض عطشى، يابسة، مشققة. صف طويل من النمل، يدبُّ نشطاً على مقربة مني.

» قال «أركادي» فجأة: «أين «ماڎيون»؟ كان يجب أن تصل منذ ساعات. على أي حال، لنصنع الشاي».

جمعتُ الحطب، وأوقدت النار، وأخرج «أركادي» عدّة الشاي من المتاع. أعطى «تمي» شطيرة لحم فالتهمها في الحال، وطلب شطيرة أخرى بطريقة رجل تعوّد أن يأمر فيُطاع.

كاد الماء يفور، حين طرقت آذاننا فجأة ضوضاء كبيرة في المخيم. ولْولت النساء، وركضت الكلاب، وأسرع الأطفال والكلاب يبحثون عن مكان يحتمون به. رأينا صرحاً عالياً من غبار أحمر يداهمنا.. إعصار الـ«ولي - ولي».

تقدم الإعصار وهو يدوّي ويزمجر. امتصَّ في جوفه أوراق الشجر والحطب وصفائح الحديد، ودفعها إلى أعلى والتف حولها مثل حلزون، وكنس أرض المخيم وعبَر الطريق.

لحظات، ثم سكنت الضجة، وعاد كل شيء كما كان.

بعد قليل، قدم علينا رجل في أواسط العمر، يلبس قميصاً أزرق، سماويّ الزرقة، رأسه عار، بلا قبعة. على رأسه شعيرات قليلة، بيضاء، جعدة، وكذلك على ذقنه. ذكّرني وجهه الواضح المبتسم

بوجه أبي هبط على مؤخرته، وأخذ كوباً كبيراً، صب فيه كمية كبيرة، من السُّكَّر.

كلَّمه «أركادي» فاستمع له الرجل دون أن يتدخَّل، ولما سكت «أركادي» ردَّ عليه الرجل بصوت خفيض وهو يخط بأصبعه رسوماً في الرمل. ثم اتَّجه حو سيارة «الفولكس واقون» التي اتخذها الرجل العجوز «الان» داراً.

* سألت «أركادي»: «من هذا؟».
ـ ابن أخت الرجل العجوز، وهو أيضاً مدير أعماله الروحي.

* وجاء يطلب ماذا.
ـ يمتحننا.

* هل نجحنا في الامتحان؟
ـ توقّع أن يشرّفنا الشيخ.. الـ (Boss).

* متى؟
ـ قريباً.

* يا ليتني أستطيع أن أفهم حكاية مدير الأعمال الروحي هذه.
ـ صعب.

هبَّ الدّخان من نار الشاي في وجوهنا. طرد الذباب على الأقل. أخرجت دفتري ووضعته على ركبتي.

قال «أركادي» إن الخطوة الأولى هي أن أفهم مغزى عبارتين من كلام الـ«أبوروجنيز».. عبارة «كِرْدا» وعبارة «كتنقورلو». الرجل الكبير «ألن» هو «كِرْدا».. أي «الرئيس».. أو «صاحب» الأرض التي سوف نزورها. هو المسؤول عنها.. يعتني بها.. يتأكد أن تظل الأرض في عافية.. أغانيها تُغَنّى وشعائرها تؤدى في أوقاتها. الرجل في القميص الأزرق هو الـ«كتنقورْلو» بالنسبة لـ«ألان». إنه مساعده ومدير أعماله، وهو ينتمي إلى «فخذ» طوطمي مغاير رغم أنه ابن أخت «ألان» سواء حقيقة أو تخيّلاً. كلمة «كتنقورلو» تعني «ذا رَحِم».

* قلت هذا يعني أن مدير الأعمال، له دائماً «حلم» مختلف عن الرئيس.
- نعم. هو كذلك.

قال «أركادي» إن كلاً من الرجلين، يتمتّع بحقوق طقوسية متبادلة في أرض الآخر، وهما يعملان معاً كفريق واحد لرعاية أرض الطرفين. وكون «الرئيس» دائماً أسنَّ من «مدير الأعمال» معناه أن الحكمة الطقوسية حكمة قبلية، تنتقل من جيل إلى جيل.

* قال «أركادي» إن الأوروبيين ظنوا أول عهدهم بالـ «أبوروجنيز» أن «الرئيس» هو شخص مثل مدير مصنع أو شركة، وأن «مدير الأعمال» شخصٌ لا وزن له.. كانوا جاهلين.. قال إن الـ «أبوروجنيز» أحياناً يفسرون وظيفة الـ «كتنقورلو» بأنه بمثابة الشرطي. الرئيس لا يخطو أي خطوة دون موافقة الشرطي. خُذْ حالة «ألان».. يقول ابن أخته إنهما تعيسان لأن خط سكة الحديد سوف يُخرّب مكاناً مهماً من أماكن «الحلم».. حيث يرقد «الضَّب»

أبو العشيرة.. ولكن هو الذي سوف يتخذ القرار، وليس الرئيس، (Boss) هل يخرجان معنا أم لا.

ـ الأمر المدهش في هذا النظام هو أن «مسؤولية» الأرض، ليست في يد «المالك» ولكن في يد فرد من أفراد العشيرة المجاورة.

* والعكس بالعكس.
ـ تماماً.

* أي أن الحرب بين الجارين تصبح صعبة.
بل مستحيلة.

كأن أمريكا وروسيا... كأنَّ كل واحدة منهما تملك حق رسم السياسة الداخليّة في البلد الآخر».
«هُسَ، ها هما قادمان».

(*) من كتاب «دروب الغناء» للكاتب الإنجليزي «بروسْ شَاتوِنْ».

■ ■ ■

يقول الكاتب الأسترالي «جيمس كَوان» في كتابه «أسرار زمن الحلم»:

«علينا أن نفهم كيف يتحول الحيِّز الطبيعي إلى تعبير ميتافيزيقي عامر بالمعاني، معبّراً بذلك أصدق تعبير عن الروح المميّزة لشعب

الـ «أبوروجنيز». وحتى يتسنّى لنا ذلك، فلا بد لنا من أن نفك الألغاز والأسرار التي تحيط بتاريخ الأرض والشعب. وعلينا بادئ ذي بدء أن نطلق عنان خيالنا، ونتعوّد على التفكير بالرمز والمجاز.

لا يجدينا أن نستمع إلى صوت الطبيعة، من وراء حجاب الحكمة الأوروبية، تلك المادة التي استسلمنا لها منذ انهيار الروحانية الدينية النّخبوية في القرن الرابع عشر وحتى القرن الخامس عشر. كل ما نلناه هو أننا قطعنا الصلة مع منابعنا الروحية العميقة، وفقدنا القدرة على أن نرهف السمع لتلك الأصوات الخفيّة الغامضة التي تحيط بنا على الدوام.

تلك القدرة على النظر إلى المحسوسات المادية في الطبيعة، كأنما من موقع خارج الزمن، هي قدرة يتميز بها الـ «أبوروجنيز» بدرجة خارقة. إنها بحق رهبة أتاحت لهؤلاء القوم العيش والاستمرار منذ أقدم العصور. ويمكن القول إن ثقافة الـ «أبوروجنيز» هي أقدم ثقافة ابتدعها الإنسان، وأنها أكثر الثقافات صلابة، وأنها عاشت دون أن ينال منها التشويه الذي يرتبط بما يطلق عليه «انحلال الثقافة». تلك فكرة أوروبية طارئة، فحتى وصول الأوروبيين في القرن الثامن عشر، ظلت ثقافة الـ «أبوروجنيز» التي عاشت على الأرجح منذ أربعين ألف عام، تعطي الدعم الروحي اللازم لمجتمع في أوج ازدهاره الاجتماعي والوجداني.

علينا أن نعي كيف نظر الـ «أبوروجنيز» إلى الأرض وماذا وجدوا فيها. علينا أن نغيّر نظرتنا إلى المثلوجيا على أنها نوع من التعبير البدائي المتخلّف، ونقبل بأنها لغة ميتافيزيقية بالغة التعقيد للتعبير عمّا يمكن أن يُسمّى بالحقيقة. سوف يتّضح لنا حينئذ أن قصّة يحكيها

شخص ما عن جبل أو نهر أو شجرة، ليست لغواً تافهاً، وإنما هي تعبير عن أحداث حقيقية، في نظرهم، بطريقة رمزيّة مجازية.

وهكذا حين تواجهنا تلك الصخور الضّخام في وسط أستراليا، المسمّاة بصخور «ألورو» سوف يواجهنا في آن واحد، جسم مادي في هيئة صخور، وأيضاً وجود ميتافيزيقي هو عبارة عن الأساطير والرموز التي تحيط بتلك الصخور. ولا يبعد عن فهم الـ «أبوروجنيز» أن الصخور تكونت بفعل عوامل الطبيعة من شمس ومطر ورياح، ولكنهم يعتقدون أن ذلك لم يحدث ضربة لازب، وأن قوى الطبيعة تخضع لقوى خفيّة تنفخ روحها في الأشياء وتحدد مسارها..

هكذا صار الفراغ الممتد في الطبيعة ينطق بلسان المجاز الأسطوري. لم يعد عراء لا حياة له، ولكنه أصبح «ببلوغرافيا»، سجلاً غنيّاً بالمعاني، لشعب يملك ذاكرة قوية لا يفلت منها شيء، وحاسة مرهفة قادرة على توصيل المعلومات طازجة غضة كما جاءته أول مرة.

لا يجوز أبداً الاستخفاف بملاحم الشعب وطقوسه. إن القاصّ الذي يروي تاريخ الحلم لموقع من المواقع التي تحيط بتلك الصخور، يقوم بدور خطير قدِّر له منذ ولد. وكل موقع له قاص. فإذا كان القاصُّ من قبيلة «الأرنب» مثلاً، فإن مهمته أن يتذكر الأساطير الخاصة بموقع قبيلته، ويوصلها إلى بقية أفراد القبيلة أثناء الاحتفالات الطقوسية التي تقام في ذلك الموقع. وكذلك القاصّ من قبيلة «الثعبان» وقبيلة «الكانغرو» وغيرها.

على كلّ واحد منهم أن يوصّل أدق تفاصيل الحلم إلى أفراد قبيلته،

كي يشاركوا جميعاً في استرجاع اللحظة البكر في الزمن الأول، وحتى تستطيع القبيلة أن تضيف حلمها إلى أحلام القبائل الأخرى.

تلتقي قبائل القطر جميعاً في مواسم معينة تجيء من كل الأنحاء. تعسكر في موقع خاص له دلالة عندهم. تقام احتفالات من الطقوس والرقص والغناء. كل قبيلة تحكي تفاصيل حلمها وتستمع إلى أحلام الآخرين. كل قبيلة تضيف جزءاً إلى ذلك النشيج الواسع الذي يسمونه «زمن الحلم».. نسيج متنوع الأجزاء يسع القبائل جميعاً».

■ ■ ■

ربما يغفر المرء بعض الغفران لأوروبا، ما ألحقه استعمارها بالبشرية من أضرار جسيمة، أنها أنجبت على مر العصور رجالاً شرفاء ونساء، دافعوا بشجاعة عن حقوق الشعوب المغلوبة على أمرها، وكانوا في أحيان كثيرة يقفون في وجه تيار قوي مناهض لهم.

من هذه الزمرة الكريمة، بروفسور «في. جي كيرنان» أستاذ التاريخ الحديث في جامعة «أدنبره» سابقاً. لقد صدر كتابه المهم «سادة الجنس البشري» أول مرة عام ١٩٦٩. كان الاستعمار الأوروبي قد أخذ ينحسر حينئذ، ولكنه لم ينته تماماً. وكانت المبررات الخلقية والفكرية ـ للنظام الاستعماري ـ ما تزال سائدة. لذلك كان بروفسور «كيرنان» من العلماء الأوائل في أوروبا، الذي دمغوا، بأسلوب عميق مؤثر، الوحشية التي أظهرها الأوروبيون، في فرض نفوذهم على شعوب آسيا وأفريقيا والأمريكتين. وكان أيضاً من الأوائل الذين نوهوا بأن ثقافات الشعوب التي اعتبرها الأوروبيون بدائية، تنطوي على حكمة إنسانية عميقة، لا تقل أهمية عن

الحكمة الأوروبية، بل تفْضلها في كثير من الأحيان.

يقول بروفسور «كيرنان» في الفصل من كتابه عن شعب الـ «أبوروجنيز» في أستراليا:

«الاعتقاد بأن ما يسمّى بالشعوب المتخلّفة، لن تستطيع أن تستجيب لمتطلبات الحضارة، ولا سبيل أمامها إلا الانقراض، كان اعتقاداً شائعاً لدى كثيرين من طلائع الاستعمار الأوروبي. ولم يكن بين قبول هذا الافتراض، والتعجيل بذهاب تلك الشعوب إلى العالم الآخر، إلا خطوة قصيرة. هذا ما حدث في جزيرة «تسمانيا» بشكل لم يسبق له مثيل، منذ أن فتكت جحافل الإسبان بجزر البحر الكاريبي...

وفي الأرض الأم «أستراليا» أخذت بشاعات مماثلة تتكشف يوماً بعد يوم. لعلها لم تصل إلى حد القضاء قضاءً مبرماً على الأهلين، في شكل «حل نهائي» كما حدث في «تسمانيا». لم يستطيعوا ذلك، لأن الأرض كبيرة، انتشرت فيها قبائل الـ «أبوروجنيز» على مساحات واسعة، ولأن البيض أرادوا أن يبقوا على أعداد من الأهلين، كطبقة من الأرقاء. ولا ريب أن نظام «المهجرين المجرمين» كان له أثر عميق على نظرة الأوروبيين إلى الـ«أبوروجنيز».

في عام ١٨٣٤ وحده، نفي إلى أستراليا من هؤلاء السجناء، أكثر من خمسة آلاف، ولما احتجت سلطات «نيوساوث ويلز» أنها لن تستطيع استقبال المزيد منهم بعد عام ١٨٤٠، صاروا ينفونهم إلى غرب أستراليا حتى عام ١٨٦٧. ولمّا توقف المد كان مجموع السجناء الذين أبعدوا إلى أستراليا، قد بلغ ما يقارب نصف تعداد

السكان السود. ولا شك أن كثيرين من أولئك السجناء كانوا أفضل أخلاقاً من القضاة الذين أدانوهم ولكنهم فسدوا بعد ذلك بالعيش في مناخ إجرامي. وفي ظل النظام الاستعماري، كان فقراء البيض يجدون عزاء في احتقار الملوّنين، وكان السجناء المعتقون يحاولون أن يقوّوا الثقة بأنفسهم ويكسبوا الاحترام، بالإمعان في تعذيب السود واضطهادهم. وكانت جماعات من السجناء، تعمل تحت الحراسة المسلحة عند كبار الملاك من المزارعين، فلا غرو أنهم وقد استعبدوا أبناء جلدتهم من البيض، لم يكونوا يجدون في قلوبهم قطرة من الشفقة على شراذم من السود.

أحس «شارلز دارون» بالرضى أول مرة زار فيها أستراليا، من مظاهر التقدم الذي تمّ بفضل نظام السُخرة، مثل إنشاء الطرق بكلفة زهيدة. ولكن إحساسه تغيّر في زياراته اللاحقة. لقد أحسَّ حين أقام في مزرعة يعمل فيها أربعون من السجناء، أن نظام السُخرة، سوف يفسد المناخ الاجتماعي، وأن السلوك الإجرامي الشائع سوف يُعدي الوافدين الجدد، وأن الفساد الاجتماعي سوف يتسع ويستمر.

كان سهلاً على البيض أن يمتهنوا أولئك القوم الوديعين المسالمين، أسهل كثيراً مما تأتّى لهم مع قبائل الماوري الشجعان الأشاوسْ، وهو أمر إنْ دلَّ على شيء فإنما يدل على ضعف الأثر المسيحي على سلوك المستعمرين. كانت أستراليا مثل نيوزيلنده، أرضاً لا تكفل رغد العيش إلا لأولئك الذين يملكون نواصي التكنولوجيا المتقدمة. وإنه لأمر يدعو إلى الإعجاب حقاً، أن الـ «أبوروجنيز» نجحوا رغم مهاراتهم المحدودة، في أن يستمروا في العيش أصلاً. ولا جدال، أنهم استخدموا ما تيسر لهم من مهارات، أحسن استخدام.

كانوا صيّادين على درجة عالية من المهارة، وقد ابتدعوا سلاح الـ«بومَرانْج» المدهش، الذي لم يستطع البيض رغم تفوقهم التقني، أن يبتدعوا مثله. صحيح أن الحرب كانت تشبّ أحياناً بين القبائل ولكنها كانت حروباً صغيرة قليلة الضرر. ولم تكن تحدث إلا قليلاً، بسبب اتساع الأرض، وبعد القبائل بعضها عن بعض.

لم يحسّ الـ «أبوروجنيز» بالخوف من الرجل الأبيض أول ما التقوا به، فقد كانوا قوماً ودودين، لا يعرفون الخوف، بعضهم يثق ببعض، وقد وثقوا بالرجل الأبيض وظنوه «أخاً في الإنسانية»، بل إن قبيلة منهم ظنت الرجل الأبيض روحاً من أرواح أسلافهم بعثت إلى الحياة على تلك الصورة. أما الرجل الأبيض فقد كان أبعد ما يكون عن اعتبار إنسان الـ «أبوروجنيز» أخاً في الإنسانية.

لم يحسَّ الرجل الأبيض بحاجة إلى إخفاء احتقاره أو السيطرة على غطرسته، إزاء «الأهالي» العزّل من السلاح الذين لا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم. وقد أصدر قائد حملة استكشافية عام ١٨٦٠، وهو رجل يُدعى «بيرك» الأوامر إلى رجاله قائلاً:

«إذا أحسستم منهم بأي استفزاز، لا ترددوا في إطلاق النار عليهم في الحال».

أنه لأمر يدعو للعجب أن الرجل الأبيض كان يشتط غضباً، إذا أبدى «الأهالي» أي استعداد للمقاومة، وإذا تفرقوا خوفاً من طلقات الرصاص، يحتقرهم متهماً إياهم بالجبن، ورغم ذلك فقد كان هؤلاء القوم البؤساء، يغدقون على الأوروبيين ألواناً من الرأفة والشفقة حين

يجدون أحداً منهم في شدة. كانوا يرأفون بهم كما يرأفون بأطفالهم. وقد اعتنت مجموعة منهم برجل يدعى «كنج» ضلّ الطريق فأقام في ضيافتهم وعنايتهم زهاء شهرين. وقد قال كاتب معاصر (ألان مورْهد) إن المذكرات التي تركها «كنج» عن تجربته تعد «أروع سجل للعرفان بالجميل، وهي كلمات تهز المشاعر وتقدم خير دليل على إنسانية الأبوروجنيز. ولعلها أيضاً بمثابة مرثاة للسود في «خليج كوبر» بعد أن أنقرضوا الآن كلية».

اقتطع المستوطنون البيض، الذين وصلوا حثيثاً على إثر الرواد المكتشفين، مساحات واسعة من الأرض جعلوها مراعي لتربية الأغنام والخيول. كانوا صنفاً شرساً من الرجال الذين جابوا الآفاق بحثاً عن الثروة وكانوا بمنأى عن أي سلطة تحدُّ من غطرستهم. وقد وجدوا في أستراليا قوماً يختلفون عن الماوري الأشداء، فساغ لهم استضعافهم، ولم يجدوا ما يحملهم على الاعتراف بحقهم في ملكية الأرض. كانوا يسخّرون أعداداً قليلة من الأهالي في أعمال بغيضة. هؤلاء كانوا ينفصلون عن قبائلهم بمرور الزمن ويصبحون «مدجّنين» في نظر البيض، أما بقية الـ«ايبو» ـ كما كانوا يسمّونهم احتقاراً ـ فكانوا يتركونهم هملاً مثل الوحوش الضالّة.

أما النساء فقد كان أمرهن مختلفاً. هؤلاء عندهم دائماً شيء يُطلب، ومهما أمعن البيض، هنا وفي جنوب أفريقيا، في احتقار «الأجناس المنحطة» فإن هذا الاحتقار لم يمنعهم من معاشرة نسائهم. لذلك فإن غالبية الملونين في تلك البلاد اليوم، هي من دماء مختلطة.

ماذا يفعل الناس حين تغتصب منهم أراضيهم غير اللجوء إلى

النهب، حينئذ يجد البيض المغتصبون مبرراً أخلاقياً في إبادتهم، إما رمياً بالرصاص، أو بالسّم أو بأي وسيلة فعّالة في عرفهم. وكانوا يقولون إن السود ليست لهم أرواح، لذلك فإن التخلص منهم لا يعتبر قتلاً.

ثارت احتجاجات في إنجلترا من قبل الناس الذين يحتجون عادة على مثل هذه الأمور. ولم يعدموا من يستمع إليهم. ففي عام ١٨٣٧، أعلنت لجنة برلمانية كان مستر «جلادستون» أحد أعضائها عن استنكارها للأعمال البشعة التي كان البيض يمارسونها ضد السود في أستراليا، ووصفتها بأنها «من البشاعة بدرجة لا يقبلها العقل». وقد وجهت الحكومة البريطانية من لندن نداءات استنكار إلى أستراليا، لم يكترث لها المستوطنون. وحين مُنحت أستراليا الحكم الذاتي عام ١٨٥٥ ـ ١٨٥٦ انتهت أي سيطرة لبريطانيا على مجريات الأمور هناك. لم تحتفظ الحكومة البريطانية بأي حق في حماية الأهالي وضمان حقوقهم، في حين أنه ضمنت لنفسها جني الأرباح من الاستثمارات واستيراد لحوم الضأن، دون أن تكلف عناء السؤال عن الوسائل التي تجيء بها تلك الهبات.

سادت في أوروبا كلها في ذلك الوقت فلسفة روَّج لها ممثلو الاستعمار في تلك البلاد المقهورة، أن الشعوب «المنحطة» لا مفر لها من أن تُستبدل، بل أن تنقرض في النهاية، وأن ذلك أمر طبيعي مثل ضحايا المناجم ومصانع الغزل في أوروبا. لا بد أن يصير التقدم ولا بد من دفع الثمن لهذا التقدم والأفضل أن يدفع آخرون هذا الثمن. وهكذا نجد «لورد روزبيري»، الذي استدرج حزب الأحرار إلى تبنّي الإمبريالية يستلهم هذه الفلسفة في خطابه الذي ألقاه في «أدليد» بأستراليا عام ١٨٨٣.

«إن الأقدار قد اختارت العنصر البريطاني ليحمل الرسالة ويكون معبِّراً عن آمال البشرية في الرقي والتقدم».

هكذا طغت في أستراليا، ليس فكرة «أخوة الإنسان» ولكن فكرة «أخوة الإنسان الأبيض».

■ ■ ■

قال لي المسؤول الكبير في وزارة الخارجية:

«اسمع. كوننا نبيع القمح والزُّبد واللحوم للعرب، هذا لا يحتم علينا أن نؤيد مواقفهم السياسية».

سافر «منسي» إلى لندن، وكان قد عجز عن أن يجد وسيلة يصحبني بها إلى «طوكيو» فجئت إلى «كانبرا» وحدي وقلت يا ليته كان معي فإن وقاحته تنفع في مثل هذا الموقف.

العرب، لأسباب بعضها واضح وبعضها غامض، يثيرون أحاسيس متناقضة عند الناس. الإعجاب والكراهية والخوف والطمع والحسد والاحتقار. على العربي أن يتوقع هذا ويصبر. صحيح أن الناس مخطئون في الغالب في حق العرب، ولكن العرب مخطئون أكثر في حق أنفسهم. وكما بين الأفراد، كذلك بين الأمم. الناس حيثما كانوا مشغولون، بمشاكلهم، ولا وقت لديهم لالتماس العذر للآخرين. وإذا كان الأمر كما قال «الأستاذ»:

ولم أر في عيوبِ النّاس عيْباً
كنقص القادرين على التَّمامِ

فإن الاحتقار يكون بمقدار «التمام» المُحتمَلْ، و«النُّقصان» الماثل للعيان. فليكن ذلك شأني مع هذا الرجل.

أعجبتني المدينة بقدر ما أغاظني المسؤول في وزارة الخارجية، وحاولت أن أجد له عذراً فيما بعد وأنا أتمشى في «شارع الكومنولث» الواسع في اتجاه بحيرة «بيرْلي قرفنْ». إنها بحيرة اصطناعية ضخمة أعطوها اسم المهندس المعماري الأمريكي الذي خطط مدينة كانبرا. وتقول الكتب إن طول شطآنها يبلغ ٣٦ كيلومتراً، وقد زرعوا على حافّاتها الأشجار. زرعوا اثني عشر مليون شجرة في مدينة «كانبرا».

مدينة أنيقة مجلوّة مثل عروس، تمشي في شوارعها كما كان يمشي فلاسفة اليونان في شوارع «أثينا» على عهد «بركْليس».

حدثت نفسي، أن الرجل كان ولا بد، يطوي صدره على إحساس بالإهمال والإهانة، لأن أحداً من كبار المسؤولين العرب لم يأت لزيارته منذ زمن. وأستراليا، مهما كان الأمر، قارة بأكملها، قطر محظوظ، فيها كل شيء. كل أمة تظن أنها مركز العالم «إنسانُ عين» الكون. وما فائدة أن تنشئ المدن وتشُقّ الطرق وتعمل بحيرات اصطناعية إذا لم يزرك أحد يعبّر لك عن إعجابه بما صنعت. الأمم مثل الأفراد، فيما يبدو، لا تحيا إلّا في عيون الآخرين. والعرب خاصة، يفهمون هذا الإحساس جيّداً، فهم دائماً مشغولون بما يقول الناس عنهم.

قلت لنفسي، لعلّ الرجل حسبني مسؤولاً كبيراً، وما كنت كذلك فعبّر لي عن إحساسه بالإهمال، بتلك الطريقة الملتوية.

والحق أن العرب لم يكونوا يكترثون بأستراليا تلك الأيام. لعل الحال قد تغيّر الآن. أغلب الدول العربية لم تكن لها سفارات في «كانبرا»، والسفراء القليلون الموجودون كأنهم في منفى، حين تزورهم يستقبلونك بترحاب عظيم، كما يفرح القريب النائي الذي لا يزوره أحد من أقربائه إلا لماماً. سفارات كأنها مهجورة، لا أحد يقف على أبوابها، والداخلون إليها والخارجون منها قليلون.

كان السفير اللبناني في وضع مريح نسبياً، فلم يكن لبنان في تلك الأيام، قد أصابه الخراب الذي حاق به فيما بعد. كان ما يزال يتشبث بالرمق الباقي من دوره «الحضاري» الذي اختاره لنفسه. يحكّم العقل، ويعمل على جمع الشمل، ويدعو بالتي هي أحسن. هذا، والجالية اللبنانية أكبر جالية عربية في أستراليا، بعض أفرادها نزح منذ أكثر من قرن. منهم «مليونيرات» ورجال أعمال بارزون.

أما السفير المصري فقد كان في وضع صعب. كانت مصر قد أبرمت صلح «كامب ديفد» الذي عارضه أغلب العرب، وذهبوا في معارضته حداً بعيداً، ونقلوا خلافهم حتى إلى أستراليا، فكانوا يتحدثون بألسنة شتّى، بعضهم يناقض البعض الآخر. ولا شك أن المسؤول في وزارة الخارجية الأسترالية، كان على علم بكل ذلك، فكان سبباً إضافياً في عدم اكتراثه بالعرب.

بعد ذلك في «طوكيو» عبّر لي مسؤول في وزارة الخارجية اليابانية عن فكرة مماثلة. كان رجلاً مهذباً، يتحدّث اللّغة الإنجليزية بطلاقة لافتة للنظر. قال لي وهو يضحك:

«هؤلاء العرب ماذا يريدون منّا؟ كل كَمْ شهر يجيئنا وفد يطلب

منا أن نؤيد القضايا العربية. موقفنا واضح وقد أصدرنا به بياناً. نحن لم نُعطِ وعد بلفور ولسنا مسؤولين عن قيام دولة إسرائيل، ولا نبيعها السلاح، ولا نعطيها الدعم الديبلوماسي، علاقتنا بالعرب علاقة بسيطة تقوم على التبادل التجاري. نشتري منهم البترول ونبيعهم السيارات والمعدات الإلكترونية وغيرها. هذا كل ما في الأمر».

أعجبتني مدينة «كانبرا» وهي كلمة من لغة الأبوروجنيز تعني «مكان التجمع». وجدتها كما أحب أن تكون المدن، ليست ضخمة بحيث يحس فيها الإنسان بالضآلة والغربة، وليست قميئة بحيث تقتحمها العين. فيها كل المقوّمات التي تجعل المدن مدناً.

بدأوا في بنائها عام ١٩٠٨، في موقع بين المدينتين الكُبْرَيَين المتنافستين، «سيدني» و«ملبورن» على مساحة ٢٣٥٩ كيلومتراً مربعاً اقتطعوها من ولاية «نيو ساوث ويلز». وهي تمتد على نهرين، نهر «مورومبدجي» ونهر «مولوقولو». كما لها مدلولات في لغة الـ «أبوروجنيز»، وحيث تقوم المدينة اليوم كان ولا شك مكاناً تتجمع فيه القبائل، تستعيد ذكرى تلك اللحظة البكر في «زمن الحلم». ولكن هذا حلم جديد، شيّده قوم آخرون، جاءوا من وراء البحر.

ظلوا يبْنونها، ويحسّنونها ويجملونها حتى عام ١٩٨٨ حين افتتحوا مبنى البرلمان الفدرالي الجديد، بمناسبة مرور مائتي عام على قيام أستراليا.

قلت للمسؤول في وزارة الخارجية، وكان قد أثار فضولي، كأنه

شخصية في رواية قصصية:
«ولكن... ألا تهمكم الجالية العربية في أستراليا على الأقل؟».

قال:
«إنها جالية صغيرة لا وزن لها».

قلت له: .
«تعدادهم حسب علمي أكثر من ثلاثمائة ألف».

قال، وهو يتصنع الدهشة:
«حقاً؟ هل هم بهذه الكثرة؟ لم أكن أعلم».

ثم زادني إيضاحاً، بعد أن فكّر قليلاً، وكأنه يصف لي العرب إطلاقاً:
«إذا كان عددهم كما تقول، فإنهم من ناحية التأثير كأنهم... كأنهم لا شيء».

■ ■ ■

قبل أن يبنوا دار الأوبرا في «سيدني»، كان الأستراليون يتباهون بالجسر الذي يصل الشاطئ الشمالي للمرفأ بالشاطئ الجنوبي. إنه هيكل ضخم، كان يعتبر في زمانه، آية من آيات الإنجاز الهندسي. وما تزال له مهابة إلى اليوم، خاصة إذا نظرت إليه عند الفجر وقبيل الغروب.

أتمّوه عام ١٩٣٢، بعد تسع سنوات من عمل متصل. وكانت

فكرة إقامته قد خطرت لذلك «المجرم» النابغة الذي خطط مدينة «سيدني». ولكن حلم «فرانسس قرينويي» لم يتحقق إلا بعد أكثر من مائة عام. طوله ٥٠٣ أمتار، وترتفع قوسه عن سطح الماء في أعلى نقطة منه بمقدار ١٣٤ متراً. وقد أنجز في مناخ من التوتر السياسي والركود الاقتصادي. وكما حدث في أنحاء أخرى من العالم، فقد قامت في أستراليا حركة يمينية متطرفة، متأثرة بالحركة النازية في ألمانيا. وكانت في مقاطعة «نيو ساوث ويلز» حينئذ حكومة ليبرالية. ويحكي الأستراليون بشيء من الفخر، أنه في يوم الافتتاح، وقبل أن يقص رئيس الوزراء الشريط، ركض أحد زعماء حزب «الحرس الجديد» على حصانه وقطع الشريط بسيفه «باسم شعب نيو ساوث ويلز». لم تمكث الحكومة طويلاً، بعد هذه الحادثة، فقد سقطت، وحلّت محلها حكومة يمينية متطرفة.

كنا قد سمعنا القصة من قبل، ولكن «مستر كامرون» رئيس المجلس الأسترالي لرعاية الفنون، أعادها علينا، ونحن نجلس في مكتبه في مبنى الأوبرا، أمامنا البحر وإلى الشمال الجسر وقد ازدحم بحركة السيارات وقت الضحى. لم يكن فخوراً وهو يروي لنا القصة، فقد كان رجلاً مستنيراً متحضراً واسع الثقافة، من الناس الذين تركوا الدينا ذكرى طيبة. وقد وصفه «منسي» في ما بعد بأنه يشبه لوردات الإنجليز.

كان منسي يحس بجاذبية تلقائية نحو أفراد الطبقة الأرستقراطية من الإنجليز، فتزوج منهم، وجاورهم في حي «تشلسي»، وكان يصول ويجول في الأحياء الراقية، «بلقرافيا» و«سلون سكوير» و«نايتسبردج». وتعمّد أن يشتري مزرعة وداراً بجوار «لورد مونتباتن» قريب الملكة. وانتهت حياته هناك، بين خيله وسياراته وخدمه

وحشمه، كما تخيّل كيف تنتهي حياة اللوردات.

ليس كل لوردات الإنجليز أخياراً، فقد خرج من بينهم قتلة ولصوص ومزورون ونصابون. ولكن الأخيار منهم، يتمتعون بجاذبية لا تنكر. وخِيارهم أكثر. يكونون أثرياء في الغالب، أو ميسوري الحال على أقل تقدير، فينشأون بمنأى عن الخلال التي تتأتى للناس بسبب الصراع من أجل لقمة العيش. ويعيشون في دور رحبة، تحيط بها أكثر الأحيان مزارع واسعة، فيعلق بأشخاصهم إحساس السّعة والرّحابة. وفي تقاليد أسرهم طلب العلم، أما عن رغبة أو وجاهة، فيلحقون بالمدارس العريقة، مثل «هارو» و«أيتن» و«رقبي» ومن ثم يمضون إلى إحدى جامعتين، لا غير، إما «اكسفورد» وإما «كيمبردج». وعادة يلحق الابن بالمدرسة نفسها، مثل أبيه وجدّه، والكلية نفسها، والجامعة نفسها.

وعندهم الوقت والمال للسفر والاطلاع والتمتع بالموسيقى والأوبرا والباليه وما شابه، ولا بد أن كل هذا يكسبهم ثراء روحياً واتساعاً عقلياً كما لا يتاح لغمار الناس. وفي طبع الأخيار منهم بساطة وبعد عن التكلف، لأن التصنع والكبر وما شابههما، أمور مبعثها فقدان الثقة بالنفس، وهؤلاء لديهم ثقة بأنفسهم لا حدود لها.

حيّرني دائماً ما ورد في الإنجيل «الذي ليس عنده يُؤخذ منه، والذي عنده يعطى ويزاد». كان «منسي» يتمثل كثيراً بهذا القول أيضاً، حسب ما تقضي الظروف. إلّا أنه قول ينطبق على هذه الطبقة. يكونون أكثر وسامة من بقية خلق الله، فيتزوجون نساء جميلات. ويكونون أثرياء، فيتزوجون بنات الأثرياء. وقد تزوج عدد منهم أمريكيات من عائلات ثرية، طلباً للمال في الغالب، فالأمريكان

تغريهم الألقاب ويشترون العراقة بالمال. منهن أم ونستون تشيرتشل وأم هارولد ماكملان وأم لورد «هيلشام».

أنجبت هذه الطبقة، إلى جانب رجال الحكم والسياسة، أشخاصاً مشهورين في عالم الأدب والفن والفكر. منهم الفيلسوف الكبير «برتراند رَسِلْ» والروائية المعروفة «ڤرجينيا وولف» والناقد الأدبي البارز «لورد سيسيل» والشاعر الرومانسي الذائع الصيت «لورد بايرون».

وفي هذه الطبقة تقليد قديم بعدم المبالاة يلخّصه شعار «آل سيسيل» المنحدرين من صلب أحد وزراء الملكة إليزابيث الأولى «آل سيسيل لا يعبأون بأحد». يظهر هذا في عدم تقيدهم بالأصول المتبعة في المأكل والملبس والسلوك، فتراهم أحياناً في ثياب رثة، ويلبسون الجاكتات المرقعة، فأصبحت موضة، وصار الناس يضعون رقع الجلد تقليداً لهم. وعندهم أن التأنق في الملبس والإسراف في التظاهر من علامات «الوضاعة».

ربما يفسر عدم المبالاة هذا، أن كثيرين من أفراد هذه الطبقة، دافعوا بشجاعة عن قضايا الشعوب المستضعفة، وثاروا في وجه طبقتهم نفسها. من هؤلاء «لورد بايرون» الذي انحاز إلى جانب اليونانيين في حربهم ضد الأتراك العثمانيين، و«لورد ولْفرد بلنْت» الذي أيد الثورة العرابية في مصر ضد الاستعمار الإنجليزي، وظل يدعو للقضية المصرية طول حياته. و«لورد كيرْزُن» العتيد، الذي قال قولته الشهيرة في مجلس الوزراء، قبل صدور وعد بلفور «أنتم تتحدثون عن إقامة «دولة» يهودية في فلسطين، والأرض ليست خالية من السكان».

هذه الطبقة، ما تزال تمسك بمقاليد الأمور في بريطانيا في واقع الأمر، رغم ما يبدو على السطح من تحولات اجتماعية وسياسية. وقد احتفظوا بنفوذهم بسبب قدرتهم على التأقلم ومجاراة التغيرات الاجتماعية. لذلك فهم، حين تقتضي الظروف، يتبنون زعماء من الطبقات الوسطى والسُّفلى. وقد جعلوا دزرائيلي الفقير اليهودي الأصل، رئيساً للوزارة، وكذلك «لويد جورج» الذي نشأ نشأة فقيرة في ويلز، ومارغريت ثاتشر التي تنتمي إلى طبقة العمال وصغار التجار.

كان «منسي» منجذباً إلى هذه الطبقة، وكانت له صلات مع بعض أفرادها. ولعل تلك الصلات هي التي حالت بينه وبين الطرد من إنجلترا، حين اقتحم قصر بكنجهام دون وجه حق. لا عجب أنه سعيد الآن بهذا اللقاء مع «مستر كامرون» فقد رأى فيه سمات لورد من لوردات الإنجليز.

■ ■ ■

وجدنا في مستر «كامرون» إنساناً متحضراً مستنيراً متواضعاً. ولو كان بخلاف ذلك لالتمسنا له العذر. النجاح يغري بعض الناس بالغطرسة والخيلاء، وهذا رجل مهم، في موقع مهم، في قطر ناجح. بل إن البناء الذي يجلس فيه، هو رمز من رموز الإنجاز البشري في هذا الركن من الأرض. ما أطول الطريق الذي سارته أستراليا منذ أن أفرغت سفن كابتن «فيليب» حمولتهم من «المجرمين» في ذلك الصباح من عام ١٧٨٨. وكأنما تاريخ أستراليا حتى هذه اللحظة هو بمثابة محاولة مستمرة للهروب من تلك البداية. لقد وصموا بأنهم ينحدرون من أصلاب مجرمين، فظلوا يحاولون أن يقنعوا العالم

بأنهم لا يقّلون تحضراً عن مراكز الحضارة العريقة في أوروبا.

مبنى دار الأوبرا الوطنية حيث نجلس الآن في مكتب مستر «كامرون» تحفة معمارية وعجيبة من عجائب الدنيا، يسمونها «عجيبة الدنيا الثامنة». وإنها كذلك. مثل سفينة ذات أشرعة عدّة توشك أن تنطلق في البحر. وأحياناً يبدو المبنى مثل طائر خرافي كثير الأجنحة على أهبة أن يثب في الهواء.

كان مستر «كامرون» فخوراً بذلك الإنجاز، ولكنه لم يكن مزهوّاً به، ربما لأنه كان يدرك الثمن الفادح الذي دفعه شعب الـ«أبوروجنيز» المسكين. كان فيما يبدو مهتماً اهتماماً عميقاً بذلك الجانب من تاريخ أستراليا. ولعله تعمّد أن يفهمنا أن الموقع الذي أقيمت عليه دار الأوبرا «بنلونْق بوينت»، قد سمّي باسم رجل من الأبوروجنيز، كان من أوائل من اتصلوا منهم بالأوروبيين الوافدين، وسرعان ما ألمّ باللغة الإنجليزية إلماماً كافياً مكّنه من أن يقوم بمهمة المترجم بين البيض والأبوروجنيز. سعدوا به فأرسلوه إلى إنجلترا، كما ترسل الحيوانات النادرة، ليتسلى به الناس. هناك قضى وقتاً جميلاً، ألبسوه الثياب الأوروبية، وكانوا يُحضرونه في الحفلات يتفرجون عليه يرقص ويغني. لكنه لم يلبث أن مل كل ذلك، وثاب إلى نفسه، وأحس برغبة عظيمة في اللحاق بقومه، فعاد إلى أستراليا. وجد أنه قد تغيّر ولم يعد يألف العيش مع قومه، فعاش في كوخ منعزل بنوه له في ذلك الموضع، ولجأ إلى السكر والعربدة. ولم يلبث أن مات وحيداً تعيساً. كان «بنلونْق» المسكين من أوائل الضحايا لما يُعرف الآن بـ «الصدمة الحضارية» وشهيداً من شهداء الغزو الثقافي الأوروبي.

أكبرتُ في مستر «كامرون» أنه حكى لنا تلك القصة، حكاها ببساطة، وكأنه أراد أن يكسر حدّة دهشتنا بذلك الإنجاز الكبير. كأنه أراد أن يقول: إن التقدّم له ثمن، وأحياناً يكون الثمن أعلى بكثير من التقدم الذي ينتج عنه.

أهل الحكمة والعلم والفكر في أستراليا، بدأوا يقولون الآن، إن التقدم المادي الذي تحقق، لا يبرّر الثمن الباهظ الذي دُفع، بالقضاء على شعب الأبوروجنيز وثقافته الفريدة. إلا أن كل ذلك قد يبدو لك شيئاً بعيداً لا تكاد تحس وخزه، في صباح مثل هذا في مكان مثل هذا وأنت تنظر من نافذة مستر «كامرون» إلى البحر يزرقّ ويخضرّ في ضوء الشمس. ولعلك لا ترفض الرأي الذي عبّر عنه «تشارلز دارون» عام ١٨٣٦:

«... وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً... مركزاً مضيئاً من مراكز الحضارة.. فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

أخبرنا مستر «كامرون» أنهم شرعوا في البناء عام ١٩٥٩. وكانوا قد اختاروا تصميماً لمهندس معماري شاب من الدنمارك يدعى «يُورْن اتْزن» لم يكن معروفاً حينئذ، ولكن المحكمين في المسابقة العالمية التي أعلنوا عنها، استهواهم التصميم لطرافته وجرأته. وقد قدّروا أن البناء لن يكلف أكثر من سبعة ملايين دولار، ولن يستغرق إنجازه أكثر من أربع سنوات. ولكنه لم يتم حتى عام ١٩٧٣، وكلّف ١٠٢ مليون دولار.

افتتحته ملكة بريطانيا في احتفال ضخم دعي له أناس من مختلف أنحاء العالم، اشتهروا في مجالات السياسة والثقافة والفنون. وقد

تألّقت الأضواء في سماء مدينة «سيدني» التي أمضت أسابيع في الأعياد والاحتفالات. ولا بد أن الأستراليين قد أحسوا يومئذ أنهم قد محوا إلى الأبد وصمة العار التي لاحقتهم قرابة مائتي عام، وأنهم قد «أعتقوا الزمان من إساره» كما يقول شيكسبير.

قال مستر «كامرون» بشيء من الفخر:
«لم تدفع الدولة دولاراً واحداً من نفقات هذا المشروع».

سألناه كيف حدث ذلك فأجاب:
«لأننا جمعنا المال من الشعب بواسطة «اللّوتري» ـ اليانصيب. هذا إنجاز شعبي بحق».

ذلك إحساس تجده عند الأستراليين أينما اتجهت، أن «الشعب» هو السيّد، وأنهم أقاموا مجتمعاً حرّاً حرية حقيقية، لا تكبله أي من القيود التي تكبل المجتمعات القديمة في أوروبا. ليست فيه فوارق ولا طبقات. مثل مبنى دار الأوبرا في «سيدني». شيء جديد طريف، مثل طائر يطير بعدة أجنحة. الله أعلم. صحيح أن الإنسان هنا يحس أن كل شيء ممكن، وأنه يستطيع، مهما كانت ظروفه، أن يصل إلى أقصى ما تمكنه قدراته. ربّما. ولكنك تعلم من قراءة تاريخهم أن ذلك يحدث ضمن حدود معيّنة، وأنهم ليسوا معصومين كليّة من النقائص التي هي في طبع الإنسان في كل مكان.

هذا البناء ليس كما يوحي اسمه، وقفاً على الأوبرا، فهو يضم مسارح وقاعات لعرض الأفلام، وصالات لعرض الرسوم، وقاعات للموسيقى والباليه. تجولنا في أنحائه. وزاد عجبنا مما رأينا داخله.

وقد حدّثونا، أن الفرق المسرحية والموسيقية وفرق الأوبرا والبالية، تجيء للعرض هنا من لندن وباريس وموسكو ونيويورك وستكهولم وغيرها، وأن الدار تقدم نحو اثني عشر عرضاً متنوعاً كل يوم، وأن أكثر من مليون ونصف متفرج يدخلون الدار في العام الواحد.

إنه أمر مدهش حقاً. ولكنني حدثت نفسي بعد ذلك، أنني لو كنت أحد أفراد قبيلة الـ«أيورا» التي كانت تقطن «سيدني» قبل مجيء الأوروبيين، وأبادوها أو كادوا، فإنني لن أجد عزاء في كل هذا العالم الجميل. لن أجد عزاء عن «دروب الفناء» التي تقطعت، والديار التي عفت، وعن «زمن الحلم» الذي مضى إلى غير رجعة.

■ ■ ■

يروي ال «أبوروجنيز» في أساطيرهم، أن نهر «مورمبدجي»، وهو أحد نهرين تقوم عليهما مدينة «كانبرا» اليوم، كان في زمن مضى، حدّاً فاصلاً بين قبيلتين طال بينهما الخصام والنزاع، ثم اجتمع الحكماء من الجانبين، حكماء القبيلة التي تسكن الضفة الجنوبية من النهر، وحكماء القبيلة التي تسكن الضفة الشمالية من النهر. تفاكروا في أمورهم وما صارت إليه أحوالهم، وقدروا أن السلم خير من الخصام، وأن في الأرض على عدْوتي النهر، متسعاً لهم جميعاً.

بدا لهم أن الخصام والنزاع، إنما يشجران بسبب الاختلاط والمعاملات، يشتم سفيه من سفهاء القبيلة الشمالية سفيهاً من سفهاء القبيلة الجنوبية، وهذا يضربه، فتشتعل النار، وربما يلاحق صيّاد جشع، سمكة أعجبته إلى الضفة الأخرى، فيرميه واحد من هناك

بسهم. وقد يعبر فتية نزقون النهر ليلاً إلى الضفة الشمالية، لأنهم رأوا كوارة عسل معلقة في شجرة «يوكالبتس» فأغراهم المنظر، فيعترض سبيلهم فتيان من الضفة الشمالية. وكل قبيلة ملتزمة بحماية أبنائها، ولو كانوا سفهاء، فإذا هي الحرب، وإذا هو القتل والجرح والضرب. وقد تدوم الحرب أشهراً وقد تدوم أعواماً.

رأى حكماء القبيلتين، أن ذلك حمق لا يجوز، وضلال ما بعده ضلال. وقرَّ رأيهم على أن يضعوا حداً لأسباب الخصام، بأن تلزم كل قبيلة حدّها وراء النهر. كل قبيلة تعيش في أرضها مستقلة عن القبيلة الأخرى، لا تلتقيان إلا في المواسم الكبرى مع بقية القبائل.

أخذوا العهود والمواثيق، والتزمت كل قبيلة بما عاهدت عليه. فانقطع دابر الشقاق، وحل السلم، وطاب العيش، كل في أرضه. وسعد الحكماء على عدوتي النهر.

مضى ردح من الزمن. ثم ذات صباح جميل، من هذه الأصباح التي تُغري بالمغامرة وتجرُّ وراءها الشقاء، رأى فتى محارب مزهو بنفسه، من القبيلة الجنوبية، فتاة من القبيلة الشمالية تسبح وحدها في النهر. كانت هي الأخرى مزهوة بشبابها سعيدة بالشمس والمياه الصافية، وخضرة الغابات، ونداءات الطيور من غصن إلى غصن، فكانت تضحك وحدها كأنما للاشيء. تغطس ثم تطفو. وتسبح مسافة ثم تستلقي على ظهرها تنظر إلى السماء، وصدرها العاري يلمع في الضوء ويختفي ويبين كأنما من فُرجات غيم خفيف.

وقف الفتى ينظر إليها كالمأخوذ. ثم ضحك هو أيضاً. أخذ يضحك ويلوّح برمحه، فلوّحت له بيدها.

في اليوم الثاني ناداها:
«ما اسمك؟».

نادته وهي تقترب من منتصف النهر، وأسنانها مثل حبّات اللؤلؤ تلمع في ضوء الشمس، في وجه مثل العسل الجنيّ من شجر الكافور:
«بومن قالانا.. بومن قالانا.. وأنت ما اسمك؟».
«قبا قُمبالن».

حمل الصدى نداء الفتاة والفتى من شاطئ إلى شاطئ، وأخذ الشاطئان يناديان:
«بومن قالانا.. قُبا قُمبالن».

في اليوم الثالث دخل الفتى الماء وكأن قوة غامضة تشده، وسبح صوب الضفة الشمالية، الفتاة تجذبه إليها بوجهها العسلي وأسنانها البيضاء وضحكاتها العذبة. وصل منتصف النهر، فسبحا مع التيار جنباً إلى جنب حتى وصلا جزيرة صغيرة وسط النهر، بعيداً عن أعين الرقباء.

أخذا يلتقيان كل يوم، وأعطاهما الحب جرأة، فكان الفتى يسبح أحياناً إلى الضفة الشمالية، والفتاة تسبح إلى الضفة الجنوبية.

وازدادا جرأة، فلم يعودا يكترثان أن الفتاة ممهورة لفتى من قبيلتها، والفتى ملتزم لفتاة من قبيلته، وقرّ عزمهما على الفرار سرّاً إلى التلال البعيدة.

ثم، كما كان مقدّراً أن يحدث، كشف الرقباء سرهما، فأسرعوا يخبرون حكماء القبيلتين.

أدرك هؤلاء لأول وهلة، أنهم إذا لم يتداركوا الأمر، فإن كارثة سوف تحدث. سينهار السلم الذي أظلّهم زمناً طويلاً، وسوف تنشب الحرب، ويعودون إلى ما كانوا عليه من خصام وشقاق.

اجتمع حكماء الشمال وحكماء الجنوب وتفاكروا في الأمر. قال أحدهم عفو الخاطر، دون أن يمعن النظر:

«أرى أن ندعهما ينجوا بنفسيهما. ماذا يضيرنا في ذلك؟ ونعود إلى ما كنا عليه».

لكن رأيه لم يجد قبولاً.

وأشار حكيم منهم، لعله كان أبعد نظراً مما ينبغي، أن يقبلوا بالأمر الحاصل، ويزوجوهما، فربما يكون ذلك بداية عهد جديد من التعايش السلمي بين القبيلتين.

أيضاً هذا الرأي لم يجد استحساناً، ونظر الحكماء إلى قائله كأنه مجنون.

وأخيراً وصلوا إلى حل رأوا أنه الحل الحسام. أجمعوا رأيهم على قتل الفتى والفتاة العاشقين، وبذلك يقضون على الفتنة في مهدها، وتكون دماء العاشقين ثمناً زهيداً لدوام السلم بين القبيلتين.

في ليلة كثيفة الظلام، تسلل «قُبْا قمبالن» من الضفة الجنوبية، ودخلت «بومن قالانا» من الضفة الشمالية. سبح كل منهما تجاه الآخر، والتقيا في منتصف النهر. كانا ينويان السباحة أسفل النهر، ثم ينطلقان نحو التلال البعيدة. لم يكادا يلتقيان حتى انهالت عليهما الرماح من الضفتين. أخذا يسبحان والدماء تنزف من جسديهما حتى وصلا الجزيرة. هناك أسلم كل منهما روحه.

تقول الأسطورة إن غابة البومن الكثيفة التي نمت في تلك البقعة من النهر، هي الرماح التي أرْدَتْ الحبيبين، وأن دماءهما صبغت مياه النهر حتى وصلت إلى الصخور في ذلك الموضع، فهي حمراء إلى اليوم، وأن الضفادع على الضفتين ظلت تبكي عليهما إلى يومنا هذا، تنادي ضفادع الضفة الجنوبية باكية «قُبْا قمبالن» فتجيبها ضفادع الضفة الشمالية «بومن قالانا».

■ ■ ■

في أساطير الـ«أبوروجنيز» من جنوب أستراليا، أن جد القبيلة الأول، كان يخاطبهم كل صباح من جذع شجرة صمغ. يجيء أفراد القبيلة عن بكرة أبيهم كل صباح، ويجلسون في حلقة حول جذع الشجرة. ينتظر الصوت حتى يكتمل العدد، وإذا غاب أحد منهم، يحتجب، فلم يكن يتخلف أحد منهم. حتى الرجال المسنون، حتى النساء اللائي أثقلهن الكبر، حتى الأطفال الرُّضع يجيئون على صدور أمهاتهم.

يجلسون صامتين ينتظرون أن يخرج إليهم الصوت من جذع الشجرة. أحياناً يطول انتظارهم وأحياناً يقصر. يعمق صمتهم

وترهف أحاسيسهم، فإذا بالهواجس والمخاوف والأحلام والآمال لكل واحد منهم، كأنها هاجس واحد وخوف واحد وحلم واحد لهم جميعاً. حينئذ يخرج الصوت من جذع الشجرة. يحدثهم عن أشياء يعرفونها وأشياء لا يعرفونها، أشياء تتصل بسير حياتهم اليومي، وأخرى ترتبط بأمور مبهمة من ماضيهم ومستقبلهم.

ويحسّون وقعه بطرائق شتى. يجد الرجل البهجة، كأنه غطس في ماء النهر أول الصباح. ويحس بالخوف، كأن فهداً باغته في الغاب. ويجد اللّذة، مثلما يجد حين يتنفس رائحة الشواء من لحم أرنب بري. ويجد الطمأنينة، كأنه في كوخه آخر المساء، وقد سكنت الحياة، وعنده زوجته وأطفاله. وتستمع المرأة إلى الصوت وطفلها يرضع من ثديها، فتشملها متعة غامضة لا تدري من أين تأتي، هل من فم الطفل أم من جذع الشجرة. وقد يحس الواحد منهم، أنه بئر عميقة الغور وأن الصوت يخرج من تلك البئر.

وحين ينفضّون، يجدون أن الأشياء قد اعتدلت واتخذت أوضاعها الصحيحة. الكدر الذي علق بالحياة، كما يعلق الغبار بأوراق الشجر، فجأة يختفي كما تغتسل الأشجار بماء المطر، فإذا العالم كأنه ولد لتوّه. الخلافات التي قد تكون شجرت بينهم تبدو خفيفة مثل أجنحة الفراش، والحقد يذوب وينبت محله شعور حلو المذاق بالود والانتماء الكلي. يضحكون لأوهى سبب ودون سبب، ويجدون رغبة في الغناء والرقص، ويتذكرون أشياء تجلب السعادة، كانوا قد نسوها. وكذلك يمضي بهم اليوم.

مضت حياتهم هكذا ردحاً، لا تتعكر حتى تصفو ولا تضيق حتى تتسع. وذات صباح جاءوا كعادتهم إلى جذع الشجرة، ولبثوا

ينتظرون أن يخرج إليهم الصوت. لا شيء. أدركوا بعد مدة أن عددهم لم يكتمل، وتفقدوا أنفسهم فوجدوا أن شاباً منهم لم يحضر. بحثوا عنه فلم يعثروا عليه. طال انتظارهم ولا صوت، ولما يئسوا تفرقوا وهم يحسون بحزن عظيم. وكان أكثرهم حزناً الحكماء، فقد أدركوا أن كارثة سوف تحل بالقبيلة.

في اليوم الثاني تخلف آخرون، وفي اليوم الثالث زاد عدد المتخلفين، وكان الحكماء يجيئون كل صباح ومن بقي معهم من الناس، ويجلسون اليوم بطوله على أمل أن يخرج لهم صوت أبيهم من جذع الشجرة، ولا صوت، فينصرفون أكثر خوفاً وكآبة.

وأخيراً حتى الحكماء يئسوا من سماع الصوت.

فكّروا طويلاً في مغزى ما حدث، ثم اهتدوا إلى أن قوى شريرة لم يحسبوا حسابها، تسللت إلى أفئدة الناس، وباتت توسوس لهم. استجاب لها الشباب أول الأمر، ثم تبعتهم غالبية القبيلة. كان شعور قد نما لدى الناس، بالضيق من نفوذ الصوت القديم. ونمت لديهم، والحكماء لا يعلمون، الرغبة في الانطلاق، والحياة بعيداً عن أوامر الصوت ونواهيه.

وبالفعل، بدت لهم حياتهم الجديدة أول الأمر، أفضل مما كانت. أصبح كل إنسان على هواه يفعل ما يحلو له، لا يزعجه ذلك الصوت بحدوده وقيوده. وكان الحكماء يراقبون ما يجري، وينتظرون وقوع الكارثة.

مضى زمن على تلك الحال والناس سادرون في لهوهم. لاحظ

الحكماء أن أصوات الناس أصبحت تحتد في الكلام، وأن الصغار لم يعودوا يكترثون لنصح الكبار، وأن الطقوس القبلية فقدت بهجتها، وأن القوي لم يعد يساعد الضعيف، وأن القبيلة بدأت تتفكك وأصبح كل شخص قائماً بذاته. وأخيراً حدث ما خشيه الحكماء، تشاجر شابان، فقتل أحدهما الآخر.

لم يحدث طوال تاريخهم أن اعتدى فرد من أفراد القبيلة على آخر. أحسّوا بكآبة لم يعرفوها من قبل. وساورهم الخوف، كأن مياه النهر قد فاضت، وأن الجبال قد ارتجت وتفتتت، وكأن حريقاً هائلاً قد اشتعل في الغابات. وانتبهوا فجأة أن صمتاً رهيباً قد نزل على العالم. سكنت الريح، واستقر الماء على حالة واحدة، وصمتت الطيور والضفادع والحشرات، ولم يعودوا يسمعون حساً لوحوش الغاب، وبدت لهم الأشجار مغبرة كدرة، كأن قد ران عليها غبار قرون. أحسّوا بالحيرة والضياع.

قام الحكماء، ومشوا حزانى مثقلي الخطى، وجلسوا عند جذع الشجرة. لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه. ورويداً رويداً أخذ الناس يلحقون بهم. واحداً واحداً. واثنين اثنين. وجماعات جماعات. إلى أن جاءت القبيلة عن بكرة أبيها، وتحلقوا حول جذع الشجرة.

تكثف صمتهم ورقّت مشاعرهم وتجمعت هواجسهم فكأنهم سمك في شبكة محكمة النسج. ولما مالت الشمس للغروب وكادت تختفي وراء الأفق، وبلغت أشجانهم أقصى مداها، فجأة سمعوا الصوت.

تحدث إليهم كما كان يفعل من قديم. حدثهم عن أشياء يعرفونها

وأشياء يجهلونها، أشياء عن حياتهم الآن، وأشياء مبهمة عن أمس الأمس وغد الغد.

وجدوا لكلماته حلاوة أكثر مما عرفوه من قبل، فاستمعوا إليه وهم يبكون.

ولما فرغ الصوت، تريث حتى هدأ العويل وكفت الدموع. ثم قال لهم إنهم لن يسمعوه بعد يومهم ذاك، ولكنهم سوف يجدونه إن احتاجوا إليه، وسوف يعطيهم إشارة فليفهموا جيداً مغزاها، وإذا التبس عليهم الأمر فليسألوا الحكماء.

انشقّ جذع الشجرة في دويّ مثل قصف الرعد، وخرج من الجذع عمود من الضوء الساطع، صعد وتطاير أشعة كثيرة. بعضها سقط في مياه النهر، وبعضها غاب في التلال، وبعضها تناثر في الغابات، وبعضها توارى في الكهوف وبعض الأشعة اندسّت في أجساد الحكماء.

■ ■ ■

يروي الـ«أبوروجنيز» في أساطيرهم قصة مأساوية عن نشأة سمك القرش، وعقرب البحر التي لا نجاة من لدغتها، وكان سبب المأساة امرأة.

تقول الأسطورة إن أخوين كانا يحب أحدهما الآخر حباً جماً، تجدهما دائماً متلازمين، لا يفترقان أبداً. كانا وسيمين قويين، تراهما القبيلة زينة شبابها. كان «بوبادي» أكبر الأخوين، أسرع شبان القبيلة في العدو، وأرماهم بالرمح. وكان الأصغر «غردانق» أكثرهم مهارة

في السباحة وأحسنهم في رمي الـ«بومراخ». كانا يقضيان سحابة يومهما معاً، يصطادان السمك أو ينصبان الشراك للطير والوحش، ويتنافسان في العدو ورمي الرمح والـ«بومراخ».

وفجأة وقع الأخ الأكبر «بوبادي» في غرام فتاة من فتيات القبيلة. كان أخوه على غير علم منه، يحبها أيضاً. إلا أن الفتاة استجابت لحب «بوبادي» وبادلته حباً بحب. شعر «غردانق» بخيبة الأمل، وزاد من إحساسه بالمرارة أن أخاه لم يعد يقضي معه كل وقته، كما كان، بل أصبح يؤثر صحبة حبيبته.

كان «بوبادي» دمث الخلق، ضحوكاً بطبعه، إلا أن حبه لتلك الفتاة أعطاه سعادة غامرة، جعلته يبدو في نظر أخيه شخصاً مختلفاً. وبقدر ما كان «بوبادي» يزداد سعادة كان «غردانق» يزداد تعاسة. ولما تزوج «بوبادي» حبيبته، تحولت مرارة «غردانق» إلى حقد امتلأ به قلبه، وملك كل أحاسيسه. أصبح أخوه الذي كان يحبه حباً جماً حتى الأمس القريب، عدواً بغيضاً لن يتردد في قتله إذا عنّت له فرصة.

أصبح يتودد، وراء ظهر أخيه، إلى الزوجة، وهي تصده، فقد كانت تحب «بوبادي» بحق. وكان «غردانق» يزداد حباً لها رغم ذلك، حتى صارت عاطفته هوساً لا يفارقه.

وذات يوم انتهز الأخ الأصغر فرصة غياب أخيه في سفر، فانتظر حتى جاء الليل، فأخذ الزوجة قسراً وهرب بها إلى مكان بعيد على شاطئ البحر.

ظن «غردانق» أنه قد حقق حلمه، وأنه سوف يعيش سعيداً مع

حبيبته، يصيدان السمك، ويسبحان في البحر، وينصبان الشراك للطير، ويبنيان عشاً هانئاً بعيداً عن القبيلة. ولكن سرعان ما خاب ظنه، فقد كانت المرأة تحب زوجها بحق، فكانت تقضي كل وقتها في البكاء والعويل. وكانت كلما اقترب منها تركله أو تنشب أظافرها في وجهه.

عاد «بوبادي» من سفره، وعلم بما حدث. تألم ألماً عظيماً لفعلة أخيه، ومن فوره، انطلق يبحث عنه.

وقف الأخوان وجهاً لوجه، على صخرة عالية، وتحتها الشاطئ وهدير أمواج البحر.

نظر «بوبادي» طويلاً في وجه أخيه وأحس بالحزن حتى امتلأت عيناه بالدموع. لم يكن الشخص الذي يقف أمامه هو أخاه الذي عرفه وأحبه. عبرت برأس «بوبادي» ذكريات حياتهما معاً في أيام الطفولة والشباب، حين كانا مثل شخص واحد، لا يفترقان، يسبحان في البحر، ويتنافسان في رمي الرمح وال«بومرانج» ويصيدان ال«كانغرو» والأرانب البرية. رأى «بوبادي» شخصاً مختلفاً مكفهر الوجه، جاحظ العينين كأنه مجنون، أو كأنه روح من تلك الأرواح الشريرة التي تحكي عنها أساطير القبيلة. وفجأة سمع «بوبادي» صوت زوجته يأتيه كأنما من كهف، تستغيث وتنادي باسمه، فتوتر جسمه وفار الغيظ في صدره.

اندفع الأخوان أحدهما نحو الآخر، وكل واحد منهما مصمم على قتل الآخر. تعاركا بشراسة على الربوة العالية، وكانا في شغل عن البحر فلم يسمعا هدير الموج تحت أقدامهما. وسمعت المرأة عراك الأخوين بسببها، فسكنت وأرهفت السمع.

كان «غردانق» قوياً، فقاوم مقاومة عنيفة، وكاد أحياناً أن ينتصر على أخيه. ولكن «بوبادي» كان أقوى منه، وضاعف من قوته أنه كان مظلوماً، وأن أعراف القبيلة وأرواح الأسلاف كانت تقف إلى جانبه وتقاتل معه. تمكن من أخيه وطرحه أرضاً وأراد أن يهشم رأسه بصخرة كبيرة. ولكن جسمه لم يطاوعه. قوة ما شلت ذراعه وأسقطت الحجر من يده.

أدار ظهره لأخيه، وقد عزم على أن يأخذ زوجته ويذهب. أحس بغتة بسلاح الـ«بومرانج» ينغرز بين كتفيه. ترنح وسقط أسفل الربوة على شاطئ البحر والرمح في يده. قفز «غردانق» إثره فإذا بالرمح المشرع ينغرس في بطنه وينفذ من ظهره. حينئذ جاء البحر وحمل جثتي الأخوين إلى جوفه.

تحول الـ«بومرانج» المغروس في كتف «بوبادي» زعنفة في ظهر سمك القرش، وصار «بوبادي» سمك قرش، كلما رأى إنساناً، يظنه «غردانق» فينقضّ عليه. وتحول نصل الرمح في ظهر «غردانق» إلى ذنب عقرب البحر، وأصبح «غردانق» عقرب بحر يظن كل إنسان هو «بوبادي» فيلدغه.

■ ■ ■

في الزمان البعيد، حين كانت أساطير الـ«أبوروجينز» ما تزال في طور التكوين، عاش أخوان، أحدهما يُدعى «كاركان» والثاني يدعى «ونجو».

كان «كاركان» عظيم الجسم، تعطيه قوته الجسدية جسارة وهيبة، كانوا يشبّهونه بالسبع في قوته وبالنمر في رشاقة حركته، وبالثعلب

في دهائه، وبالنعام في سرعة عدوه، لم يكن له ندٌّ من بين فتيان القبيلة في الشراسة في القتال، والمهارة في استعمال الـ«بومرانغ» ورمي الرمح. كان بلا منازع، فارسهم المعلم، وحامي حماهم.

إلّا أن القبيلة رغم إعجابها به، فإنها لم تكن تحبه. فقد كان متغطرساً متهوراً سريع الغضب خشن الطبع. ولم يكن يكترث لنصح حكماء القبيلة، وقد جرّهم بنزقه وحمقه إلى صراعات مع جيرانهم لم يكن لهم يد فيها. لذلك لم يكونوا يحبونه، وكانوا يؤثرون عليه أخاه الأصغر «ونجو».

كان هذا على النقيض من «كاركان» دمث الطبع، سمح النفس، دائم المرح. وكان صغير الحجم بالقياس إلى أخيه، لا يميل إلى النزاع والشجار، ولكنه يفضل السباحة في النهر، والسياحة في الغاب ينظر إلى أجنحة الفراش بألوانها العجيبة. ويقلد أصوات الطيور والوحوش، ويجني العسل والتفاح البري. كان له صوت عذب، حين يغني به في العشيات، تجتمع حوله القبيلة رجالاً ونساء يصغون إليه.

هذا الحب كان يغيظ «كاركان» ويوغر صدره على أخيه.

ليس هذا فحسب، ولكن «ميرومورا» زينة فتيات القبيلة، فضلت هي الأخرى «ونجو» على «كاركان». كان «كاركان» يظن أنه أمر طبيعي أن تختاره هو، ولكن «ميرومورا» الجميلة أحبت «ونجو» لرقة طبعه وجمال صوته، ولطف معشرٍ. كان «كاركان» الشرس يبث في نفسها الانقباض، والخوف، إلّا أنها كانت تجد الراحة والطمأنينة في صحبة «ونجو».

باركت القبيلة هذا الاختيار، وفرحت به، وأخذت تستعد للعرس.

شعر «كاركان» بالإهانة والغيظ حتى امتلأ قلبه بالحقد على أخيه وعزم على أن يتحايل على قتله.

في مكان بعيد عن الحي، وسط غابة كثيفة من نبات البوص والعشب، حفر «كاركان» حفرة كبيرة، وغرس فيها أوتاراً كان قد برى أطرافها فصارت حادة مثل أسنّة الرماح، وغطاها بالعشب. ثم تحايل على أخيه وأوهمه أن الصيد يكثر في تلك البقعة، فخرج معه.

سارا جنباً إلى جنب، وكان «كاركان» عابساً ينهش قلبه الحقد، وأحياناً يحس بالخوف، فقد كان الأمر الذي عزم عليه مخالفاً لكل أعراف القبيلة.

لحظ «ونجو» تعاسة أخيه، فلم يفهم سببها، ولكنه حاول أن يسري عنه، فأخذ يمازحه ويضحك له. ثم راح يغني بصوته الجميل، فأرهفت له الطيور على أغصان الشجر، وهبطت الفراشات على الصخور وتلال النمل تستمع إليه.

فجأة كف «كاركان» عن المشي، وقال لأخيه بصوت غريب لشدة غلاظته:

«لنعد إلى الحي. لا يبدو أننا سنجد صيداً حسناً اليوم».

إلّا أن «ونجو» بدأ يستطيب الرحلة، وأسعده وقع غنائه على الطيور

والأشجار والصخور، وتفتحت روحه لفوح عطر الزهور، ونداء الحيوانات في الغاب، فأخذ ينط ويجري ويصرخ ويغني. لذلك لم يسمع صوت أخيه وهو يناديه من بعد:

«لنعد إلى الحي. سوف نجيء في يوم آخر».

وصلا إلى المكان حيث أعد «كاركان» الشرك. أحس فجأة أن الوساوس التي خامرته في الطريق لتمنعه من قتل أخيه قد ذهبت. امتلأ قلبه بالحقد من جديد، واستقر عزمه على القتل.

قال لـ«ونجو»:
«إذا رأيت العشب يرتعش، فإنه صيد. عليك أن تجري بكل قوتك وتقفز عليه وتمسك به، إلى أن ألحق بك».

ثم حرك حبلاً طويلاً كان قد ربطه، فاهتز العشب.

صرخ «ونجو» صرخة القبيلة حين تهجم على صيد، ونط في الهواء بكل قوته، ووقع في الحفرة، فانغرست الأوتار الحادة في جسمه.

تحولت صرخة النشوة إلى صرخة مدوية بالألم، اقشعر لها جسد «كاركان» فجرى دون وعي نحو الحفرة.

تعثرت قدمه بصخور فتطاير منها الشرر، ووقع فارتطم رأسه بصخرة حادة فتهشم ومات في الحال.

أما «ونجو» فإنه لم يمت من فوره، ولكنه ظل أياماً ينبش الأرض

ويحبو والدم ينزف من جسده، فكان من ذلك واد عميق، امتلأ بالدم.

سرت النار من الشرر المتطاير من الحجارة، في مساحة واسعة، أتت على ما فيها، وحولته إلى رماد. من ذلك الرماد خرج طائر أشهب مثل الصقر، ظل يحوّم فوق تلك البقعة.

تقول الأسطورة إن الوادي الذي حفره «ونجو» بجسده هو «وادي الدم» المرعب، وأن الطين الأحمر المقدس الذي يصبغون به أجسادهم لتأدية الطقوس، اصطبغ بالدماء التي نزفت من جسد «ونجو». وتضيف الأسطورة أن الصقر الأشهب الذي يلازم ذلك الموضع، ويظل يحوم فوقه، وبين كل حين وآخر يصرخ صرخة ترتجف لها القلوب، إنما هو روح «كاركان» الذي يبكي على أخيه «ونجو» أبد الدهر.

نبذة عن المؤلف

ـ ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

ـ تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

ـ عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

ـ التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

- متزوج وله ثلاث بنات.

- من مؤلفاته:

نخلة على الجدول.

دومة ود حامد.

عرس الزين.

موسم الهجرة إلى الشمال.

مريود وضو البيت.

مختارات

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!

٢ ـ المضيئون كالنجوم ـ من أعلام العرب والفرنجة

الطيّب صالح

مختارات

٤

للمدن تفرد وحديث: الغرب

RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٤

للمدن تفرد وحديث: الغرب

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

CITIES ARE UNIQUE, EACH TELLS
A DIFFERENT TALE
(WEST)
By
El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in April 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21195-4

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ٢٠٠٥

الإهداء

إلى زوجتي جوليا وبناتي زينب وسارة
وسميرة لأنهن الدعامة والركيزة

المحتويات

١ ـ باريس	١١
٢ ـ أوسلو	١٩
٣ ـ هامبورغ	٤٣
٤ ـ كولون	٥٧
٥ ـ كوبلنز ـ منهايم	٦٧
٦ ـ شتتقارت	٧١
٧ ـ ميونخ	٧٩
٨ ـ نيويورك	٩٩
٩ ـ واشنطن	١٤٧

١

باريس

ليس هذا قلب باريس. باريس لها أكثر من قلب. ولكنه أوضح علامة في المدينة. تراه حيثما كنت، مضيئاً بالليل، وبالنهار يلمع في شمس الصيف، وإذا كان الفصل شتاء، يأخذ لوناً رمادياً داكناً.

تخرج من مبنى منظمة اليونسكو في (بلاس فنتنوا). تتجه يساراً حتى تصل إلى شارع (سوفْرِن) الواسع، تتجه فيه يميناً وتسير ناحية النهر، لن تسير طويلاً. عند ضفة النهر على يمينك تجد البرج، (برج إيفل).

يخبرك الدليل السياحي، أنه أقيم في عامين من عام ١٨٨٧، حتى عام ١٨٨٩، وأن ارتفاعه ٩٨٤ قدماً، ويزن سبعة آلاف طن، وكلّف سبعة ملايين ونصف مليون فرنك، رغم حجمه الهائل، فإنك لا تحس به جسماً صلباً، لأنه مفتوح على الأفق من النواحي

جميعها. يرتفع في شكل هرمي، وينتهي بمسلة طويلة من الحديد. أحد أعاجيب الدنيا، وواحد من أهمّ رموز باريس. يصفه المفكر الفرنسي الكبير (رولان بارْتْ) قائلاً:

«... في أي فصل من فصول السنة، في الضباب والغيم، في الأيام التي لا تشرق فيها الشمس، وفي أيام الصحو، في المطر، أينما كنت... ثمّة البرج ـ يتغلغل في نسيج الحياة اليومية حتى لا تستطيع أن تتصوّر له صفات محددة. مثل ظاهرة من ظواهر الطبيعة، يتساءل الإنسان عن معناها إلى ما لا نهاية، ولكن وجودها ثابت بما لا يدع مجالاً للشك...».

«... بالإضافة إلى ما يعنيه البرج لأهل باريس، فإنه ينفذ، عند الناس قاطبة، إلى مستودع التداعيات الدفينة في مخيلاتهم. هيئته البدائية البسيطة، تُسبغ عليه صفة لغز لا قرار له. إنه ـ حسب ما يشُط بنا الخيال ـ رمز باريس، رمز الحداثة، الاتصالات، العلم، القرن التاسع عشر، صاروخ، جذع، ونْش، Phallus (رمز الذكورة)... برق، قضيبُ حديد، حشرة. يشتمل على أنواع أحلامنا كلها. إنه (العلامة التي لا مهرب منها... وظيفته المثلوجية الوحيدة، كما يبدو في شكله البسيط، أن يجمع القاعدة إلى القمة، أو الأرض إلى السماء، كما عبّر الشاعر...».

«... يجذب البرج المعنى إليه، كما تجذب الأسلاك الصواعق. إنه يلعب بالنسبة لعشاق اصطياد المعاني، دوراً مدهشاً... إنه المعنى الذي يأخذونه من تجاربهم وأحلامهم وتاريخهم، دون أن يكتسب هذا المعنى بعداً نهائياً ومحدداً».

كتب (رولان بارْت) هذا، في مقالة نُشرت باللغة الفرنسية، عام ١٩٧٠ أو نحوها، ونشرت باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٩ مع مجموعة مقالات. وهو كما لا يخفى، من كبار علماء (السيميولوجية) ومن أحْبار المذاهب الحديثة في النقد. ولد عام ١٩١٥ وتوفي عام ١٩٨٠. وكان إلى حين وفاته أستاذاً في الـ(كوليج دي فرانس). يصفه البعض بأنه (البنيوي الذي وضع علماً للأدب). وقد ناصر (الرواية الجديدة) ونادى بما سماه (موت المؤلف)، يقصد أن النّص هو المُعوَّل، وأن المؤلف لا أهمية له. ذلك لم يمنعه هو نفسه أن يكتب عن (راسين) و(بلزاك). وقد كان مثار اهتمام عظيم، بشخصه وبفكره، لا يقل عن الاهتمام الذي أثاره (جان بول سارتر) في الخمسينيات والستينيات. مساهماته الفكرية لا تنكر، وأثره واضح في كثير ممّا يكتب من نقد أدبي هذه الأيام، حتى في العالم العربي.

قارن بين وصفه لـ(برج إيفل) وبين هذا الوصف في قصّة تسمى (دومة ودْ حامد) لشجرة دوم، في قرية في شمال السودان. والدوم كما تعلم مثل النخل، إلا أنه أكبر وأطول. وقد نشرت القصة باللغة العربية عام ١٩٦٠، ونُشرت مترجمة باللغة الإنجليزية عام ١٩٦١، أو نحوها:

«ها هي ذي.. دومة ودْ حامد. انظر إليها شامخة برأسها إلى السماء، انظر إليها ضاربة بعروقها في الأرض، انظر إلى جذعها المكتنز الممتلئ كقامة المرأة البدينة، وإلى الجريد في أعلاها كأنه عُرف المهر الجامحة، حين تميل الشمس وقت العصر، ترسل الدومة ظلها من هذه الرّبوة العالية عبر النهر، فيستظل به الجالس على الضفة الأخرى. وحين تصعد الشمس وقت الضحى، يمتد ظل

الدومة فوق الأرض المزروعة والبيوت حتى يصل إلى المقبرة.

أتراها عقاباً أسطورياً باسطاً جناحيه على البلد بكلّ ما فيها...».

«... أغلب الظن أنها نمت وحدها.. ولكن ما من أحد يذكر أنه رآها على غير حالتها التي رأيتها عليها الآن. أبناؤنا فتحوا أعينهم فوجودها تشرف على البلد. ونحن حين ترتدّ بنا ذكريات الطفولة إلى الوراء، إلى ذلك الحد الفاصل الذي لا نذكر بعده شيئاً، نجد دومة عملاقة تقف على شط في عقولنا، كل ما بعده طلاسم، فكأنها الحد بين الليل والنهار. كأنها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر، ولكنه يسبق طلوع الفجر (...) كل جيل يجيء، يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه (...) وهكذا يا بني. ما من رجل أو امرأة، طفل أو شيخ، يحلم في ليلة، إلّا ويرى دومة وَدْ حامد، في موضع ما من حلمه...».

الفرق شاسع بالطبع، كالفارق بين قرية في شمال السودان وبين باريس، كالفارق بين شجرة دوم تطل على نهر النيل، وبرج من الحديد زنته سبعة آلاف طن، يطل على نهر السين.

إنما أحسن من هذا وذاك، ما صنعه أبو عبادة البحتري منذ أكثر من ألف عام. لا يغرنّك تذاكي (الحبر) الفرنسي، وتلاعبه بالكلمات والأفكار كمثل قوله «البرج جماد يَرى (بفتح الياء) ونظرة تُرى (بضم التاء). إنه فعل تام، لازمٌ ومتعدّ». تحت هذا اللعب الذكي فكرة بسيطة، هي أن برج إيفل (رمز).

كذلك فعل البحتري في قصيدته السينية العصيمة عن (الإيوان).

الرمز عند العلاّمة الفرنسي (فارغ) يملؤه الرائي بالصور والأحاسيس والمعاني، كيف يشاء ـ وهذه فكرة أساس في مذهب الأستاذ (بارت). أما البحتري فقد صنع رمزاً داخله مجموعة رموز، مثل كهف مسحور مليء بالفجاءات. لغز وراءه لغز. المتلقي لا يملأ بتخيلاته فراغاً كاملاً، ولكنه يملأ فراغات بين دروب المعاني التي اختطها الشاعر سلفاً وعن عمد.

إنها قصة طويلة ليس هذا محلها، ولكن من يوازن لك في زحمة هذه السّوق، بين أبي عبادة البحتري و(رولان بارت)؟ وهل كانت بغداد زمان البحتري إلّا كمثل باريس على عهد بارت؟ وهل (دومة وذْ حامد) إلّا (برج وذْ حامد)؟ وهل (برج إيفل) إلّا (دومة باريس؟).

■ ■ ■

لن تجد مدينة تمشي في شوارعها ليلاً أو نهاراً خيراً من باريس. مدينة كأنها متحف مفتوح. طبقات من التاريخ تمتد أكثر من ألفي عام، متراكمة بعضها فوق بعض. الوثنية والمسيحية. الملكية والثورة، عالم البحر الأبيض الجنوبي والعالم الجرماني الشمالي. العالم الكلاسيكي القديم وعالم التكنولوجيا المفرط في الحداثة. المحافظة الصارمة والتحرر المنفلت من كل القيود. تخطر لك أفكار متناقضة وأنت تسير. ترى شيئاً فتقول، باريس هي هذا، ثم تسير بضع خطوات، فإذا المدينة، وكأنها تعبث بك، تقدم لك دليلاً آخر، مناقضاً تماماً لما رأيته من قبل.

هذه مدينة لم تُخلق لتنطوي على نفسها، ولكن لتنظر إلى المفتونين

بها وهم يمعنون النظر في مفاتنها. وكأنما البارون (هوشمان) وضع ذلك في اعتباره. الشوارع واسعة، على جوانبها دائماً طرقات للمشاة. وحتى الشوارع الضيقة، بها طرقات للمشاة. نادراً ما تمتد في خطوط مستقيمة من بدايتها إلى نهايتها، ولكن فجأة تجد ميداناً إذ لن تتوقع أن تجد ميداناً، وإذا شوارع أخرى تخرج في زوايا حادة ذات اليمين وذات اليسار.

روح (الأمبراطور)، القائد العبقري، نابليون بونابارت، قد ترفرف على باريس. لكنك لا تحس بوجوده إلا إذا زرت ضريحه في الـ«أنفاليد». نابليون الذي ترك أثراً أوضح، وأعطى المدينة هيئتها التي هي عليها الآن، هو ابن أخيه، نابليون الثالث. وهذا أيضاً من بعض سخريات التاريخ الفرنسي، مثل شوارع باريس. ملوك آل بوربون ذهبوا ثم عادوا ثم ذهبوا. والثورة الفرنسية بقيت حين بدا أنها لن تستطيع البقاء، وحين استتب لها الأمر، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، فجأة رحلت. وكان في موتها حياتها، فإن روحها تغلغلت في باريس وفي فرنسا وما وراءهما. وآل بونابارت أقاموا ثم رحلوا، ثم عادوا ثم ذهبوا.

أخيراً استقرت باريس، وفرنسا بطبيعة الحال، على وضع لا يُحسنه إلا الفرنسيون. جمهورية ثورية كأنها ملكية. انظر إلى ميتران ومن قبله الجنرال ديغول. ودولة كاثوليكية وعلمانية في الوقت نفسه. ومجتمع لعله أكثر مجتمع في أوروبا اشتراكية، وفي الوقت نفسه أكثر مجتمعات أوروبا رأسمالية.

لا يسعك إلا أن تعجب بهذه المهارة في عمل توازن بين نقائض يصعب التوازن بينها. إنه دليل على مرونة فكرية وصلابة، وثقة

بالنفس نادرة المثال. ولعل في تاريخهم ما يعين على قَدْر من فهم ذلك. يقول المؤرخ الإنجليزي الكبير (اتش... أيه. إل. فشر H.A.L. Fisher):

«عَهْدُ (كلوفيس) مؤسس الأسرة الميروفنجية، وأول من أنشأ دولة فرنسا (٤٨١ ـ ٥١١)، تميز بثلاثة انتصارات. الأول انتصاره على (سياقريَسْ) ملك الرومان في (سواسون) عام ٤٨٦، والثاني على الألمان في الإلزاس بعد عشر سنوات، والثالث على (الايكْ) ملك الـ (فزيقوث) بالقرب من (بواتيه) عام ٥٠٧، بعد انتصاره الأول، انتقل (كلوفيس) من (سواسون) إلى باريس فجعلها عاصمته. وبعد انتصاره الثاني تحوّل من الوثنية إلى الكاثوليكية. وبعد انتصاره الثالث، طرد أعداءه الـ (فزيقوث) إلى إسبانيا، ودفع بحدود مملكته إلى جبال البرنيس. وسواء كان تحوّل (كلوفيس) إلى المسيحية بسبب تأثير زوجته (كلوتِلْدا) الأميرة البيرْقندية أو لأنه آمن أن المسيح هو الذي نصره على أعدائه الألمان، أو بسبب حسابات سياسية ذكية، فإن الأمر البالغ الأهمية هو أن قائد الفرنجة السالانيين، أكبر القبائل الجرمانية، أصبح في عام ٤٩٦م حامي العقيدة الكاثوليكية...».

«التحالف الطويل بين الملكية الفرنسية وكنيسة روما، الذي انتهى عام ١٨٣٠، بفرار آخر ملوك البوربون من باريس أمام غضب الجماهير والدهماء، تعمّد بالدم في ساحة القتال في الإلزاس، قبل ألف وثلاثمائة عام. كانت نقطة تحوّل في تاريخ الـ (غال) بل وتاريخ أوروبا، حين أصبحت الكنيسة الكاثوليكية، سيّدة بلا منازع، من سواحل الأطلسي حتى نهر الراين، بعد أن أذعن ملك (همجي) لسلطان الكنيسة ورضي أن يحكم بواسطة الأساقفة حسب النظم

الإدارية التي أعطتها روما في عهودها الأخيرة إلى فرنسا في القرون الوسطى. قائد محارب، وضع نفسه على رأس كنيسة مقاتلة».

جاءت الثورة الفرنسية، متأثرة بأفكار (روسو) و(فولتير) والأفكار العقلانية من الـ (رنيسانْس) وأرادت أن تقضي على العلاقة بين الكنيسة والدولة قضاء مُبرَماً، وذهبت في ذلك مذاهب بعيدة في التطرّف. لكنها لم تفل، وبقيت فرنسا إلى اليوم، دولة كاثوليكية وثورية في الوقت نفسه.

وها هو ذا الدليل، ماثل أمامك، قف على جسر (بونت نفْ - Pont Neuf) عند رأس أصغر الجزيرتين. إنه أقدم جسر في باريس. افتتح عام ١٦٠٤ في عهد الملك هنري الرابع. انظر ناحية الشرق. بل انظر في أي اتجاه تشاء، فسوف يرتد بصرك مكرهاً إلى هذا الهيكل الضخم الذي يجثم كالجبل على وجه الأرض، كاتدرائية (نوتردام دي باري). بنوها على الطراز القوطي الصرف، متعمدين أن يملأ البناء أكبر حيّز من الفراغ، مهيمناً على الأفق، سادّاً منافذ الخيال.

بعد ذلك تعلّموا من المعمار الإسلامي في الأندلس أن يوسعوا القوس القوطي، ويُبسطوا الأعمدة، ويحاكوا رشاقة المآذن في الأبراج، ويقتصدوا في الزخرفة، ويخففوا من كتل الصخر التي تجعل العمارة عبئاً ثقيلاً على جسم الأرض.

كان المستشرق الفرنسي (ماسينْيون) رجلاً منصفاً. قال إن المسلمين صنعوا في الأندلس، عمارة متينة راسخة في الأرض، وفي الوقت نفسه تكاد تطير في الهواء لخفتها ورشاقتها.

٢

أوسلو

بلاد (اساكندنافيا) تستهويني منذ أن زرت الدنمارك قبل أكثر من أربعين عاماً ـ تصور! ـ والسويد منذ عشرين. إنما ذلك كان في الربيع وفي الصيف، عنيتُ الحياة.

الآن الشتاء يزحف، فما لي وللنرويج؟ هذه بلادٌ الشمس فيها إما أنها لا تشرق، وإما أنها لا تغيب. لقد فعلنا وفعلنا، كما وصف ذلك الخليفة العليم ببواطن الأمور، ولم يبق إلا أن نجد طقساً معتدلاً وصديقاً «يحمل عنا مؤونة التكلّف».

استوضحت على التلفون تلك السيدة الفاضلة، واسمها (سوويلي اينتيلا) من المجلس النرويجي للبحوث، وكانت قد كتبتا لي، هي والدكتورة (غنفر ميدل) من قسم اللغة العربية في جامعة أوسلو، وما كنت أدرك من قبل، أن جامعة أوسلو فيها قسم للغة العربية. (هل

يا ترى في أي من جامعاتنا أقسام لتدريس اللغة النرويجية أو اللغات الاسكندنافية؟).

قالت تلك السيدة الفاضلة تفسّر سرّ دعوتهم إياي للسفر إلى أوسلو:

«البرنامج الدولي للهجرة والعلاقات الإثنية في المجلس النرويجي للبحوث يعقد مؤتمراً لمناقشة قضايا الهجرة. ولعلّك تعلم أن عندنا عدداً من المهاجرين المسلمين. ونحن نريدك أن تلقي كلمة في المؤتمر. وكما ذكرت لك (غُنْفر ميدل) في رسالتها، فهي تريدك أيضاً أن تتحدث إلى طلبتها في قسم اللغة العربية».

هذا أمر سهل، ولكنّ الهجرة وقضاياها؟ إيش درّاني بالهجرة؟ إنهم ترجموا رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) إلى النرويجية منذ عام ١٩٧٨، فلعلّهم لذلك يظنون أنني أصبحت خبيراً في الهجرة.

أليس أفيَد لهم أن يدعوا أحد هؤلاء الأساتذة المختصين؟

«سوف يكون في المؤتمر مختصون ولكننا نريد منك أن تتحدث بوصفك كاتباً وإنساناً جرب الهجرة».

في ما بعد، أخبروني أنهم جعلوا عنوان الكلمة (الهجرة إلى الشمال).

هل أنا حقاً مهاجر؟ أم أنني مجرد إنسان يعيش خارج وطنه؟ أم أنني كما قال (الأستاذ) رحمه الله:

غنيٌّ عن الأوطان لا يستخفُّني
إلى بلد سافرتُ عنه إيابُ

إنما أنت يا مولاي فلتةُ الزمان وفريد العصور، فأيّ أرض تقلُّك أو سماء تظلُّك؟ وهل أنا وأمثالي إلا من غمار الناس، فكيف لنا بالسلوان عن مفارقة الأوطان وبُعاد الخلاّن؟ وهل:

«... إلى شمّ الخُزامى ونظرة
إلى قَرْقرَى قبل الممات سبيلُ؟».

وكذلك، رغم أنني تهيّبتُ الدخول في بحر لا أحسن السباحة فيه، وأنني خفت صقيع (إسكندناوه) على مشارف فصل الشتاء، فقد عاودني داء الرحيل، وتذكرت أنني لم أزر (أوسلو) من قبل، فعقدت العزم وقلت على بركة الله.

زرت الدنمارك عام أربعة وخمسين، وكنتُ أحضرت معي من لندن شهراً كاملاً قلت يكفيني للتجوّل في بلاد اسكندنافيا، أخرج من الدنمارك إلى السويد ثم إلى النرويج.

لكنّني استطيبت (القرى) في (كوبنهاجن)، فـ (دمرتُ) ثمة الشهر بطوله. وكلمة (دمر) بفتح الدال والميم فصيحة، من معانيها (الإناخة والمقام). ولذلك عندنا مدينة (الدّامر)، دامر المجذوب، دار الشاعر الفحل محمد المهدي رحمه الله.

ومولانا أبو الطيّب زعم بخلاف ذلك حين قال:

ذراني والفلاةَ بلا دليل
ووجهي والهجير بلا لثام

إنـــي أســـتـــريـــح بـــذي وهـــذا
وأتـــعـــب بـــالإنـــاخـــة والمقـــام

يا زول! إنك لم تُنزل رحالك في (كوبنهاجن) في عزّ الصيف وربيع العمر وإقبال الزمان!

هذا وحين حطت الطائرة أول المساء، إذا ظلام كالذي وصفه امرؤ القيس، فبدا لي أنني أخطأت التقدير. ثم إذا بتلك السيدة الفاضلة في انتظاري.

قلت لها ونحن في طريقنا إلى الهوتيل:
«كيف تنطقين اسمك؟».
فأجابتني بلسان عربي مبين:
«أنا مديل.. مجدل.. المجدلية».
«وأين تعلّمت أن تتحدثي العربية بهذه الطلاقة؟».
«في مصر».

■ ■ ■

في هذه المدن في أقصى الشمال الأوروبي، جاذبية من نوع آخر، غير التي تجدها في الجنوب على البحر المتوسط. ذلك عالم أقرب إلى مزاجنا لما فيه من ضوء ودفء وحيوية وضوضاء. هنا، تكون الجاذبية ربما، في الهدوء والنظام والبساطة.

البساطة خاصة، إنهم ارتفعوا بها إلى أن جعلوها قيمة جمالية عليا، في الحياة ونظم الإدارة والحكم، أصبحت (الوظيفة

Functionalism) سـمـة غـالـبـة عـلـى كـل مـا يُـنـتـج فـي بـلاد اسكندنافيا. الخطوط المستقيمة والطوب الأحمر في المعمار كما في قاعة البلدية في استكهولم التي يضرب بها المثل. والخشب الأبيض والبعد عن التزويق في الأثاث، والثياب، والطعام، والشراب.

لا يوجد معمار قوطي ـ لا يوجد أثاث (لوي كانز). هذه نتاج الخيال الأوروبي المتوسطي. الخيال المُغرم بالتهويل والتبذير والتزويق بلا ضرورة. هؤلاء عندهم، الشيء يؤدي (الوظيفة) المطلوبة منه، لا أكثر ولا أقل.

لكنك حين تأخذ تقرأ في تاريخهم، تجد أن هذه البلاد الساكنة الوادعة، مرت بمراحل من الفوضى والعنف، ليس أهون مما تمرّ به بعض بلدان أفريقيا هذه الأيام. بل إن النرويج ـ حيث تقدم جائزة نوبل للسلام ـ قد أنتجت نوعاً من المغامرين، ربما لم يشهد العالم مثيلهم من قبل ولا من بعد في دمويتهم وتوحشهم، أعني (الفايكنج) الذين استمر نفوذهم ما بين عام ٨٠٠ إلى عام ١٠٣٠ ميلادية.

كانوا قراصنة، لصوص بحر، وعبدة أوثان. وكان أكبر آلهتهم يدعى (تور ـ Thor)، إله الرّعب، حسب معتقدهم. وقد اخترعوا نوعاً من السفن المستطيلة سريعة الحركة، فأثاروا بها الرعب في بحر الشمال والبلطيق، وأبعد منهما.

كانوا جوعى للأرض، وفوق ذلك كان بهم جنون للفتك والدمار. وكان من عادتهم إذا غزوا أرضاً أن يبيدوا سكانها قاطبة إذا أرادوا الإقامة، وإلا فإنهم يأخذون النساء والرجال أرقاء، ويذبحون

الأطفال، أو يتركونهم في العراء حتى يموتوا.

كانوا أول أمرهم يغيرون على الكنائس والأديرة على السواحل بغية ما تحويه من تحف ثمينة. وجاء في بعض كتب التاريخ:

«ظهر الفايكنج فجأة ظهوراً مدوياً عام ٧٩٣م حين أغاروا على دير Lindis farne الذي كان من أماكن العبادة الشهيرة في العالم المسيحي، ونهبوه ودمروه، وفي العام الذي يليه أغاروا على كنيسة Jarrow في إقليم Northumbria، وفي العام الذي يليه وصلوا إلى جنوب ويلز بأسطول مكوّن من مائة سفينة».

اضطروا أمام المقاومة الإنجليزية أن يتّجهوا إلى إيرلندة حيث أسسوا مدينة (دبلن) وكان منهم ملك على إيرلندة عام ٨٤٤. ويروى أن الخليفة عبد الرحمن الثاني ملك الأندلس أرسل سفيراً إلى بلاط ذلك الملك (الوثني) فلم يلبث السفير العربي أن وقع في غرام الملكة. وتمضي الرواية فتقول:

«ولمّا لاحظت الملكة خوف السفير العربيّ أن يعلم الملك بالعلاقة بينه وبين زوجته، طمأنته بقولها... ليس في طبعنا الغيرة. ومن عاداتنا أن تمكث المرأة مع زوجها ما طاب لهما ذلك، فإذا ملّ أحدهما الآخر، يفترقان عن طيب خاطر».

كانوا ـ كما تقول الكتب ـ يكثرون من النساء، يتزوج الرجل كيف شاء، وقد يهدي من زوجاته إلى أصدقائه. إنما تلك العادات الوثنية زالت حين استتبّ الأمر للديانة المسيحية التي دخلت أول مرة في القرن العاشر، بل إن النرويج مرّت في ما بعد بمرحلة من الأصولية المسيحية.

كان أول ملك مسيحي على النرويج، الملك (هاكون دن قود ـ هاكون الطيّب) في القرن العاشر. وقد نشأ في بلاط الملك (أثلستان) ملك إنجلترا، وأحضر معه من إنجلترا عدداً من رجال الدين لنشر الديانة المسيحية في النرويج. لكنهم وجدوا صعوبة عظيمة في اقتلاع العادات الوثنية، مثل الفوضى في معاشرة النساء، وقتل الأطفال، وشرب الأنخاب لآلهتهم طوال اليوم، والفظاظة في معاملة الرقيق. وكانوا يقيّمون العبد بأنه يساوي نصف الفلاح، وربع قيمة مالك الأرض. ومالك الأرض يساوي ربع قيمة رئيس القبيلة وثُمن قيمة الملك.

ورغم أن المبشرين المسيحيين غضوا الطرف عن بعض الطقوس الوثنية، وحاولوا إدخال بعضها في الطقوس المسيحية، فإن الدين الجديد لم يجد هوى في نفوس الفايكنج. وحين مات (هاكون)، ماتت المسيحية بموته. وكان على النرويج أن تنتظر مجيء ملك آخر هو (أولاف) الّذي يُسمى (القديس أولاف)، حتى تضرب المسيحية بجذورها.

قبل ذلك توسعت غارات الفايكنج وأحدثوا خراباً عظيماً في أوروبا. ففي عام ٨٥٧، دخلوا مدينة باريس ونهبوها واستباحوها. واضطر الملك (شارل الأصلع) ملك الفرنجة أن يدفع لهم فدية مقدارها ١٣٦٠ كيلوغراماً من الفضة حتى يخرجوا منها، لكنهم عادوا عام ٨٨٥، فدفعوا لهم ٣١٨ كيلوغراماً أخرى، وأباحوا لهم أن يعيثوا فساداً في إقليم (بيرغندي). وقد مكثوا زمناً في إقليم (نورمندي) الذي أخذ اسمه منهم.

وقد أتسع غزوهم حتى حاصروا (لشبونة) وتغلغلوا في البحر الأبيض

المتوسط حتى وصلوا القسطنطينية. وجاء في بعض المصادر:

«هذا المزيج العجيب من الاستعمار والنهب والتجارة والمغامرة، استمر طيلة قرنين بين سقوط الأمبراطورية الرومانية والحملة الصليبية الأولى، وكاد يقتلع جذور المسيحية من أوروبا، كما كاد المسلمون يفعلون من قبل».

■ ■ ■

هل هو خيرٌ أم شرٌ كلُّ هذا الشتات؟
في القاعة الملأى بالوجوه الاسكندنافيّة، كانت وجوههم واضحة لي، يتطلعون كأنهم يريدونني أن أعرف أنهم جاءوا ليشدّوا من أزري. ما أحسنهم في الغربة! لو كنّا في بلادنا ننظر إلى أهلنا، كأنهم على وشك الرحيل، إذاً لأحببناهم أكثر. كذلك قال (الأستاذ):

من رآها بعينها شاقه القُطّانُ فيها كما تشوق الحمول.

بعد ذلك في قسم اللغة العربيّة بالجامعة، اتضحت الوجوه أكثر. يغلب عليهم العراقيّون، ثم السودانيون، وبعض المصريين والفلسطينيين والسوريين واليمنيين والصوماليين. لم أجد لبنانياً، ويا للغرابة. كل واحد منهم طاقة، ووراء كل واحد منهم قصّة.

في المحاضرة في الصباح، كان كلّ همي أن أبيّن لهم حضارتنا العربيّة الإسلامية، حضارة قامت على الحفاوة بالتنوع والتعدّد والتسامح، وفتح الأبواب للمهاجرين، والترحيب بالغرباء. ولم آلُ جهداً في ضرب الأمثلة. ولعلمي أن بين الحاضرين من قد يظن أننا نكره اليهود لأنهم يهود، فقد قصصت عليهم قصة امرئ القيس مع السموأل.

إنما الأمر ـ كما نعلم ـ ليس سهلاً. أنا وغيري نقول هذا الكلام، ونضرب الأمثال، ونستنطق التاريخ. ثم فجأة يفجر أحدهم قنبلة أو يقتل سائحاً، وإذا كل ما نقوله يذهب هباء.

هؤلاء الاسكندنافيون ـ مثل غيرهم ـ أخذوا نصيبهم من الحروب والعنف، ويريدون الآن أن يخلدوا إلى الحياة مستقرة هادئة، فإما أن تعيش بينهم بالتي هي أحسن، أو تتركهم وشأنهم. وهم والحق يُقال، من أرقى الدول في معاملة الغرباء، بمقتضى القوانين. يضمنون لهم السكن والعمل، أو المعونة المالية إذا لم يتوفر العمل، ويساعدونهم على التأقلم والتغلّب على آلام الغربة.

ولديهم عدّة مؤسسات تُعنى بقضيّة الهجرة، بوصفها واحدة من القضايا الاجتماعيّة الملحة، من أهمها المجلس النرويجي للبحوث الذي ينظم هذا المؤتمر. هذا المجلس هو الذي يضع الاستراتيجيات للدولة، وينسّق بين المؤسسات والجامعات في مجال البحث، وهو ينفق ثلث الاعتمادات الضخمة التي تنفقها الدولة على البحوث في مختلف الميادين.

هذا، وقد كان العراقيون في قسم اللغة العربية بالجامعة، أكثر الحاضرين أسئلة، وكانت أسئلتهم تنمّ عن مضاضة الألم الذي يحسّونه لفراق الوطن. وهل أحدٌ مثلهم في مكابدة الأحزان والأشجان؟

سألتني سيدة عراقيّة اسمها (نماء)، إن كنتُ اكتسبت من غربتي حكمة قد تنفعهم في تحمل الغربة، فما وجدت أنني تعلّمت شيئاً. وبعد (اللقاء) جاءني عراقيّ اسمه عبد الستار الجابري، أنشدني شعراً جاء فيه:

هذه الغربة تبقى وأنا سكران في حانتها أملأ الكاسات من دمعي وهي تبغي جسدي.

بعد ذلك، لمّا لقيت الدكتور عبد المجيد العركي، أنشدني من شعره أبياتاً، فيها مثل تلك الحُرقة. لا عجب، فإن قبيلة (العركيّين) عندنا ـ وهي قبيلة كبيرة تقطن أرض الجزيرة ـ هاجرت قديماً من العراق، لذلك أسموهم (العراقيين ـ العركيّين).

أخبرني أن والدته من (ناوا) في الشمال. قلت له:

«سيد أحمد الحر دلّو أيضاً أمّه من ناوا».
اللّه يطراه بالخير، لقد قال في (ناوا): ـ

أعــــود إلـــيـــك يـــا نـــاوا
بـــلا جـــاه ولا ســـلـــطـــان
أعــــود إلـــيـــك يـــا نـــاوا
ولـــيـــس مـــعـــي ســـوى أحـــزان
وحـــفـــنـــة نـــار
ســـوى أشـــعـــار

قلت للدكتور عبد المجيد العركي:
«ما الذي جاء بك من ناوا والجزيرة إلى هذه الأصقاع؟».

ضحك، ولو شاء لقال كما قال الآخر:
«... قشمة والعيش جرّاني جاي».

من القشمة المرأة، فهو متزوج من نرويجيّة، وقد كان أهلنا القدماء

يقولون إن الزوجة لا بد أن تجرّ الزوج إلى بلادها.

أخذ شهادة الدكتوراه في الاقتصاد والإدارة من جامعة (بوردو) في فرنسا، وانتهى به المطاف إلى (أوسلو). وهو الآن شخصية مرموقة في النرويج إلى حد أنه أصبح يعلّم النرويجيّين فنون الإدارة. وهذا تحديداً كما ورد في الإنجيل:

«الذي ليس عنده يؤخذ منه، والذي عنده يُعطى ويُزاد».

يحب ابن خلدون، ويقول إن فنون الإدارة الحديثة والحكم، كلها موجودة في كتبه، خاصة المقدمة.

هو أيضاً حرّكت الغربة لسانه بالشعر، وأنشدني من شعره قصيدة يقول فيها:

مضى زمن على لُقياك يا أبتي
عواقبه نوائبُه
مرافئه مفارقُه
مضى زمنٌ عيون الشمس مُغْمضةٌ
ولفح البرد جذلانُ

للّه، ما أصدق قولَه (عيون الشمس مغمضةٌ ولفحُ البرد جذلان).

هل هو والجابريّ، أخذا الدموع من أمرئ القيس، أوّل النازحين؟

لقد زعم أن صاحبه هو الذي بكى، لكنك تستطيع أن تجزم أن أمرأ

القيس أيضاً بكى، بل بكى بحُرقة أشد، فقد كانت المأساة مأساته هو.
«بكى صاحبي لمّا...»

كأن العالم كلّه (روم). وكأننا كلّنا ما نزال (لاحقان بقيصرا)!

■ ■ ■

كان عليّ أن أزور أوسلو، لأفهم مغزى قول الكاتب النرويجي العظيم (هنرك أبسن)، على لسان البطل، في ختام مسرحيّته (الأشباح): «الشمس! الشمس!».

ها هي ذي تشرق ساطعة كأنّك في الربيع، بعد الظلام والمطر يوم أمس. ما أعظمها ثروة! نحن في بلادنا لا نقدّرها، لأنها تطلع علينا بلا انقطاع، يوماً بعد يوم. إنما في الشتاء، في هذه المجاهل الشمالية، كم هو عزيز ذلك الحبور الذي يملأ القلب لمجرد أنك تراها ساطعة.

المدينة تبدو الآن كأنها مدينة أخرى. أستطيع أن أرى بوضوح من نافذة غرفتي في الطابق السابع، الخليج الذي تنحني عليه البلدة بكاملها، كأنها توشك أن تسقط في البحر، والجزر الصغيرة المتناثرة، والسفن الضخمة الراسية في الميناء. ذلك القصر الملكي. وذاك شارع (كارل يوهان). وذاك مبنى البرلمان الذي يسمونه (ستورتُن) - يعني البيت الكبير. وذاك متحف (مُنْك)، الرسام صاحب اللوحة الشهيرة (الصرخة). وتلك الدّار الصغيرة في أول شارع (كارل يوهان) هي أشهر دار في بلاد اسكندنافيا بأسرها، وسوف تكون أوّل ما نقصد في هذا الصباح الجميل.

جاءني طارق صالح الملك، وهو شاب تعرفت به في لقاء الجامعة، من أهلنا شايقيّة (حلفاية الملوك). و(مَكْ) بلهجتنا تعني (ملك)، فأولئك أهله. و(حلفاية الملوك) هو الاسم القديم لما يُعرف اليوم بـ (الخرطوم بحري) إحدى المدن الثلاث التي تتكوّن منها العاصمة المثلثة، حيث يربض أخواننا سادة الخرطوم الجُدد. إنما كما سأل الشاعر الكتيّابي (عاد لمتين في دبّابة؟).

لكن ما لي ولهذا؟ هذا شاب في نحو الثلاثين، من سودانيّي الـ (دياسبورا)، يقيم في أوسلو ويعمل ويدرس، ويتحدث النرويجية ـ كما بدا لي ـ بطلاقة تدعو للدهشة، فهي لغة مثل كلام الطير وأعجب.

سِرنا في الحديقة العامة، أمام القصر الملكي على يميننا. لو لم أكن أعلم أنه قصر الملك، لحسبته داراً من دور أحد الميسورين في البلد. عطلٌ تماماً من شارات الأبهة، وليس على بواباته حرس.

هذه دولة، رغم أنها (خليجية بتروليّة) ـ إذا صحّ القول ـ ولكنّها تسير فيما يبدو على ذلك المبدأ الاسكندنافي الراسخ، التقشّف والبساطة. لا ترى أي مظاهر للطّفرة. دولة على قدْر حالها. سكّانها نحو أربعة ملايين، وعاصمتها يسكنها نحو مئتي ألف، تقطعها سيراً على القدم من أولها إلى آخرها، في أقل من ساعة. وملكها ـ كما يصف لك النرويجيون ـ كثيراً ما يُرى في تلك الحديقة بعينها يتمشى مع كلبه، وأحياناً يُرى جالساً على كنبة يحادث أحد أفراد الشعب، وكأنّه صديق قديم.

أما الدار التي هي أشهر دار في هذه البلدة، بل في بلاد اسكندنافيا بأسرها، فهي الدار التي ندخلها الآن، وقد جعلوها متحفاً ومزاراً.

هنا قضى ملك النرويج غير المتوّج، الكاتب المسرحي (هنرك إبسن) السنوات الأخيرة من حياته.

تقوم في أول شارع (كارل يوهان) وهو الشارع الرئيسي في أوسلو. و(كارل يوهان) هذا، ليس نرويجياً، ولكنه أحد ملوك السويد. وقد سمّوا الشارع باسمه حين كانت النرويج مستعمرة للسويد. ولما استقلت عام ١٩٠٥، لم يغيّروا الاسم، بل تركوه على حاله، بذلك الأسلوب الاسكندنافي العجيب، الخليط من اللّامبالاة، وترك الأشياء للزمن، يفعل فيها فعله. وما في الاسم على أيّ حال؟ وما فائدة تغيير الاسم على أي حال؟

وأعجب من ذلك أن (كارل يوهان)، لم يكن سويدياً أصلاً، بل فرنسياً من مارشالات الأمبراطور (نابليون بونابارت) واسمه (جان بابتيست بيرنادوت). وكما كان يحدث في أوروبا تلك الأيام، اختاره ملك السويد الملك كارل الثالث عشر وليّاً لعهده عام ١٨١٠. وكان نابليون يخشاه منافساً له، فلم يمانع. وفي عام ١٨١٨، حين اعتلى (بيرنادوت) عرش السويد، اتخذ اسم (كارل يوهان)، وكارل، هو الاسم الغالب على ملوك السويد.

ومن سخريات الأقدار، أن نابليون العبقري، مضى وانقطع عقبُه، لكن ذرية تابعه (بيرنادوت) هم ملوك السويد إلى اليوم، واسمه المستعار على أكبر شارع في عاصمة دولة أخرى هي النرويج!

■ ■ ■

يُعتبَر (هنْرك إبْسن) واحداً من حفنة يُعَدون على أصابع اليد، يُعترف

بأنهم أعظم كتّاب المسرح في تاريخ العالم منذ عهد اليونان إلى اليوم. وبعض النُقّاد يشبهونه بشكسبير. وهو أول نرويجي يُتوّج زعيماً لحركة فنيّة وفكريّة شملت العالم.

يدعو إلى الدهشة أكثر، أن (إبسن) لم يُنجز ذلك كلّه بلغة من اللّغات الأوروبية الكبرى، مثل الفرنسيّة والإنجليزية والألمانية، بل بلغة أوروبية مغمورة لدولة أوروبيّة لا يُؤبَه لها كانت ما تزال مستعمرة.

كانت اللّغة السائدة هي اللّغة الدنماركية، إذ إن الدنمارك استعمرت النرويج زهاء ثلاثمائة عام قبل أن تستعمرها السويد. ولم تكن اللغة النرويجية قد استقرّت بعد على حال. ويرجع الفضل إلى (إبسن) أكثر من غيره أنه طوّعها للتعبير عن الأحاسيس العميقة والأفكار المعقّدة. ولذلك ساهم مساهمة عظيمة في إعطاء النرويج (هوّيتها القوميّة)، كما فعل بدرجة أقل الرسام (إدوارد مُنْك) والموسيقى (قريق).

لا عجب أن (إبسن) حين توفّي عام ١٩٠٦، (بعد عام واحد من استقلال النرويج)، اهتزّت الدولة، وشيّعوه في احتفال مهيب، لم تشهد مدينة (أوسلو) مثله من قبل، ولن تشهد من بعد.

حين دخلنا الدار في أوّل شارع (كارل يوهان) وجدناها داراً صارمة في تقشفها، وقد أخبرنا الدليل، أنهم تركوها على حالها، لم يغيّروا فيها شيئاً. هنا قضى الكاتب السنوات الأخيرة من حياته بعد أن عاد من إيطاليا، وكانت شهرته في قمّة ارتفاعها.

أوّل ما يتجه نظرك في غرفة الجلوس المتواضعة، إلى مكتب وضع

تحت النافذة الواسعة، من حيث ينهمر الضوء في ذلك الصّباح الجميل. يجذب نظرك بقماءته، أو كأنّما بفعل قوة مغناطيسية تكمن في تلك المساحة من الغرفة. ثمة كان يجلس الكاتب العملاق للكتابة كلّ يوم، لابساً كامل ثيابه. وقد أخبرنا الدليل أنه كان يعمل كأنّه موظف. يجلس منذ الثامنة صباحاً إلى الواحدة، ويعود إلى العمل ساعتين أو ثلاثاً أول المساء. بعد العشاء يمشي إلى مقهى في شارع (كارل يوهان)، حيث يجلس على طاولة محجوزة له دائماً، لا يقترب منه أحد أو يكلّمه أحد، إلّا إذا طلب هو ذلك. تلك الطاولة ما تزال محجوزة له إلى اليوم، وقد علّقوا قبعته على مشجب فوقها، كأنه خرج لأمر وسوف يعود.

تؤدي غرفة الجلوس إلى غرفة صغيرة للطّعام، فيها مائدة تتسع لأربعة أشخاص فقط. وقال لنا الدليل إنّ (إبسن) كان يدور حول تلك المائدة حين تستعصي عليه الأفكار أثناء كتابته. ثم ثلاث غرف للنوم، ومطبخ وحمّام. هذا كلّ ما في الأمر.

ولد (هنرك إبسن) عام ١٨٢٨، في قرية صغيرة جنوب (أوسلو) تُسمّى (سكين) في عائلة فقيرة كما كان معظم الناس في النرويج تلك الأيّام. وعن هذا تقول الموسوعة الفرنسية (Petit Robert)، بتلك الطريقة الفرنسية الجذّابة في وصف الأشياء:

«قضى طفولةً ومراهقةً صعبة بسبب فقر والديه، الأمر الذي أكسبه ميْله للتمرّد وحبّه للحرية».

عمل صبيّاً في صيدلية، ثم عمل في المسرح في مدينة (بيرقن) - المدينة الثانية في النرويج - ثم في (أوسلو). كان يقوم بأعمال يدوية،

ويمثل أحياناً أدواراً صغيرة، ويكتب الشعر والمسرحيات. فيما بعد وجد الدارسون في كتاباته المغمورة في تلك الفترة إرهاصات لعبقريّته التي تفجرت بعد حين.

لم يصادف نجاحاً يذكر، فهاجر من النرويج نحو عام ١٨٦٤، وقضى سبعة وعشرين عاماً مغترباً أغلبها في إيطاليا. ولمّا عاد كانت شهرته قد تأكدت بمسرحياته الصّواعق أمثال (أعمدة المجتمع) و(بيت الدّمية) و(الأشباح) و(بيرقنْت) و(هدا قابلر) و(جون تابريل بوركمان). وهي وغيرها، مسرحيات لا يمر عام على الأكثر، إلّا وتكون معروضة في مسرح أو أكثر من مسارح العالم، بلغة أو بأخرى.

كان وقْع مسرحيات (إبسن) عنيفاً، أولَ ما ظهرت في النرويج، ثم لمّا انتقلت إلى الخارج بلغات أخرى. وعلى سبيل المثال، كتبت صحيفة الـ (ديلي تلغراف) تعليقاً على أوّل عرض لمسرحيّة (الأشباح) في لندن: ـ «.. يا للبشاعة! يا له من عرض يبعث على التقيؤ.. يا للفُحش!.. يا للقرف!.. يا لها من جثّة أدبية متعفّنة!...».

لكن الكاتب العظيم (جورج بيرنارد شو)، أعلن، على طريقته المعهودة في حب الإنصاف والسباحة عكس التيّار:

«الرجّة التي أحدثها (إبسن) في إنجلترا، تعادل الأثر الّذي تحدثه ثلاث انتفاضات شعبية، وستّ حملات صليبية، وزلزال، وغزوتان من جيوش أجنبية. الغزو النورمندي لإنجلترا، لم يكن شيئاً بالقياس إلى الغزو النرويجي».

■ ■ ■

مع كل زيارة لي لبلد من بلاد اسكندنافيا، يزداد إحساسي بأن ثمة وجوه شبهٍ بينها وبين العالم العربيّ. مع فارق عظيم بالطبع وهو أن العرب بحافز الإسلام أقاموا حضارة أثرت على العالم كله، وما تزال تؤثر إلى اليوم. بلاد اسكندنافيا لم تبرز كشخصية مميزة في المجتمع الأوروبي إلّا بعد الحرب العالمية الثانية.

من وجوه الشبه تلك، سمة البداوة، وذلك قد يبدو غريباً لأول وهلة. هم أيضاً لديهم بدو رُحّل كما عند العرب، ينزلون ويرحلون، ويعيشون في رقعة واسعة في أصقاع جليدية قريباً من القطب الشمالي، وتسمّى (لابلاند)، أي أرض اللّاب، وهم يسمون أنفسهم الـ(سامي).

يعيشون في ذلك الإقليم منذ أكثر من ثمانية آلاف عام، وأرضهم تشمل معظم بلاد اسكندنافيا وفنلندة والأقاليم الشمالية من روسيا. ولغتهم تلتقي في جذورها مع اللّغة الفنلندية.

تلك الأرض الجليديّة الواسعة، هي عندهم بمثابة الصحراء عند العرب، وهم مثل العرب مرتبطون بتلك (الصحراء) من ناحية، وبالبحر من ناحية أخرى. ويصح القول أنهم أهل صيد بري وبحري ورعاة إبل.

إبلهم هي قطعان الوعل (الرّينْدير) التي تُعدّ بعشرات الآلاف، وهي عزيزة عندهم مثل الإبل عند العرب. ويقسّمون السنة إلى ثمانية فصول، كلّها مرتبطة بحيوان (الرينْدير).

يسوقون قطعانهم إلى أماكن الرعي في الوديان شتاء، ويصعدون بها

إلى الجبال صيفاً. وهو حيوان يأكل الطّحلب والعشب.

ومثلما يؤدّي الجمل وظائف عدَّة عند العرب، فكذلك الرّيندير عند الـ (سامي)، فهم يشربون لبنه ويأكلون لحمه ويتدثرون بفروه ويوظفونه أداة للنقل، وتُقاس عزّة الواحد منهم ومكانته من قومه، بحجم القطعان التي يملكها.

ويعقدون في الربيع من كل عام أسواقاً ومواسم واحتفالات كبيرة، أهم شيء فيها هو سباق الريندير مثل سباق الإبل عند العرب. ويلفت النظر، أن غناءهم الّذي يسمونه (يويك) تطوّر من حُدائهم للوعول مثل حداء العرب لجمالهم.

وقد حدث لهم الشيء نفسه الذي حدث للبدو الرُّحّل في البلاد العربية، فقد حاولت الحكومات الاسكندنافيّة توطينهم وعملت على استقرارهم في تجمعات سكنية في أماكن محددة. وقد أنشأت حكومة النرويج في (كوتوكيتو) وهي حاضرة الإقليم، المدارس والمستشفيات وغيرها، على أمل أن يهجروا حياة البداوة ويستقروا فيها، لكن التجربة لم تنجح تماماً.

كذلك حاولت الدولة أن تفرض عليهم اللغة النرويجية، لكنها لم تُفلح، كما فشلت من قبل محاولةُ إدخالهم في المسيحيّة.

ديانتهم، مثل سائر الشعوب القديمة، تقوم على عبادة الطبيعة، وأهم آلهتهم الشمس والقمر. وعندهم إلهٌ للرعد، وإلهٌ للعواصف، وإلهٌ للخصب وغير ذلك. وظل المبشرون المسيحيّون الأوائل يحاولون إدخالهم في الدين المسيحيّ، ففشلوا معهم كما فشلوا من قبل مع الـ (فايكنج).

وفي القرن السابع عشر، حاول ملك النرويج الملك كرستيان الرابع، أن يدخلهم في المسيحيّة قسراً، ففرض عقوبة الإعدام على كل فرد منهم لا يعتنق المسيحيّة، وأقام لهم كنيسة، فلم يُجْدِ ذلك نفعاً إلّا في حدود ضيقة.

غيّرت الحكومة من سياستها في ما بعد، فاعترفت بلغة الـ (سامي) وثقافتهم، بل إنها صارت تشجّعهم على التمسّك بتراثهم وإحياء ما اندثر منه. وقد منحتهم نوعاً من الاستقلال الذّاتي فكوّنت لهم (برلماناً) هو بمثابة مجلس استشاري. وهم الآن يطالبون بسُلطات أكبر.

أصبحت الحكومة النرويجيّة تأخذ مطالب شعب الـ (سامي) وأعرافهم ومعتقداتهم بعين الاعتبار، إلى حد أنها أوقفت تنفيذ مشاريع كبرى لتوليد الكهرباء من الأنهار، لأنها كانت سوف تتسبب في إغراق مساحات واسعة من الأراضي التي يرعى فيها حيوان الريندير.

■ ■ ■

تقول كتب التاريخ، أن العالم المتحضّر ـ يقصدون العالم الأوروبي ـ تجاهل النرويج تجاهلاً كاملاً حتى القرن الثامن الميلادي. لا تكاد تجد لها ذكراً في المصادر القديمة المعروفة.

ولعل العرب والمسلمين الذين لا يكفّون عن الشكوى ـ وهم على حق ـ من تشويه صورتهم في أوروبا وأمريكا، يجدون بعض العزاء أن كاتباً لاتينياً في القرن الأول الميلادي يسمّى (بُمبونْيس ميلا) قال في وصف النرويجيين:

«قوم متوحشون، طعامهم هو بيض الطير، وأقدامهم مشققة لها أظلاف مثل أظلاف الحيوانات ذوات الحافر، وليس لهم غطاء يستر عُريَهم سوى آذانهم الطويلة التي تتدلّى على أجسادهم فيكتفون بها عن الثياب»!

ووصفهم مؤرّخ آخر بأنهم «يعيشون في الغابات عراة بلا قيود، يقضون نهارهم وليلهم في السّكر والعربدة والغناء والرقص ومخالطة النساء دون تمييز ويعيشون أعماراً متطاولة».

ويبدو أن خرافة الأعمار المتطاولة ظلت حتى عهد قريب، ففي القرن التاسع عشر زعم سائح فرنسي أنه وجد في النرويج رجلاً تزوّج من فتاة صغيرة وهو قد بلغ مائة وثلاثة عشر عاماً من عمره، وأنه عاش حتى بلغ مائة وستة وأربعين عاماً!

وفي بعض الروايات الإنجليزية من العصر الوسيط أن النرويجيين «قوم همج متوحشون ليس في قلوبهم أية عواطف إنسانية. لا يخشون اللّه ولا يخشون أحداً من الناس».

هذه التهاويل، وجدت سنداً من الواقع في ما بعد، حين تدفق الـ (فايكنج) النرويجيون على أوروبا مثل الطوفان، فروّعوا لندن وباريس وبرشلونة وسواحل البحر المتوسط حتى بيزنطة. وبينما كان المسيحيون يحتمون وراء الصليب، كان الـ (فايكنج) يحتمون وراء (المطرقة)، رمز إلههم (تور)، إله الرّعد ـ في زعمهم ـ حامي السموات من شر العمالقة، وحامي البشر من شر الشياطين، الّذين من جملتهم (حَمَلة الصليب الأبيض)، كما كانوا يسمون المسيحيين.

وكان من أهم وسائلهم في الحرب، إثارة الرُّعب في قلوب أعدائهم، فكانوا يلجأون إلى أساليب ممعنة في الهمجيّة كأن يطعنوا الأطفال بأسنّة الرماح، ويتركوهم معلقين على جذوع الأشجار، وكانوا حين ينتصرون، يقيمون احتفالات عنيفة صاخبة لا تُراعى فيها قيود ولا حدود، ويشربون الأنخاب من جماجم قتلاهم.

ومن العجيب، أنهم لم يعدموا من يشيد بهم بين الأوروبيين، فقد قال عنهم الفيلسوف الفرنسي، الكبير (مُنتَسكيو) إن جيوشهم قوامها «رجال أحرار في وقت كانت جيوش خصومهم خليطاً من المرتزقة والأجراء والعبيد».

وليس بعيداً أن يجد المرء وجهاً للشبه، من وجهة النظر الأوروبية، بين غزو الـ (فايكنج) والفتح العربي الإسلامي في أوروبا ـ مع الفارق العظيم بطبيعة الحال ـ بين همجية الـ (فايكنج)، والسلوك المتحضر للعرب المسلمين.

الموجتان أعقبت إحداهما الأخرى. الرُّعب الّذي أحدثه ظهور العرب المسلمين على التراب الأوروبي، كأنما تجدد في مخيلتهم وارتبط بالرعب الذي أحدثه ظهور الـ (فايكنج). والعالم الأوروبي (المتحضّر!) الذي انضمت إليه أمريكا مؤخراً، ما يفتأ يخوّف نفسه باحتمال غزوات من أقوام همج، مثل العرب المسلمين، في زعمهم، والـ (فايكنج)، كما كانوا بالفعل. ويبدو أنهم دمغوا العرب والمسلمين، بكثير من الصفات الهمجيّة التي لم يعرفوها عنهم، ولكن عرفوها عن الـ (فايكنج).

اعتمد الـ (فايكنج)، مثل المسلمين على سرعة الحركة ومباغتة العدو

في الحرب. طور المسلمون الأوائل نظاماً عسكرياً متقدماً على أيدي قادة عباقرة أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجرّاح والمثنى بن حارثة الشيباني، يعتمد سرعة الحركة، وتوجيه ضربات كثيفة في بعض الأحيان، واللجوء إلى الكرّ والفر وحرب (العصابات) إذا اقتضى الأمر.

كذلك اعتمد الـ (فايكنج) النرويجيّون على عامل المباغتة وسرعة الحركة والمناورة في البحر بواسطة السفن النحيلة المستطيلة التي ابتدعوها. كانوا فرسان بحر إذ كان العرب فرسان بر. مع فارق عظيم، كما لا يخفى، أن المسلمين كانوا حملة رسالة سماوية، وأولئك لم يكن لهم هدف غير النّهب وإثارة الرّعب.

تغيّر الحال اليوم، كما نعلم، في ما يتعلّق بالنرويج وبقية الدول الاسكندنافية. انخرطت كلها في نظام (العالم المتحضّر) وبقي العرب والمسلمون شعوباً هامشيّة، ما تزال تُحرك المخاوف القديمة والأحقاد القديمة.

٣

هامبورغ

ذلك الدّاء القديم.. داء الرّحيل. ويا حبّذا أيّ فرصة للسفر. هذه المرة سوف أقطع ألمانيا من شمالها الأقصى إلى جنوبها، ثم أتوغّل في بلاد السويسريين الألمان، حيث تنتهي رحلتي عندهم في (بازل).

إنما أنا الآن في بداية الطريق، وصلت لتوّي من لندن في رابعة النهار. الشمس في (هامبورغ) ساطعة وإن كان البرد كما في لندن وأشد. لكنّك على الأقل تنظر إلى الشمس وتحسّ بالدفء.

رحم اللّه غيلان. أبكاه مرآى الثلج في أصفهان، فكيف ببلاد الجرمان؟:

أرِقتُ له والثلجُ بيني وبينه
وحومانُ حزوى فاللّوى والحرائرُ

نـظـرتُ ورائـي نـظـرةَ الـشـوقِ بـعـدمـا
بـدا الجوُّ مـن (جـي) لـنـا والـدسـاكـرُ
لأنــظُــرَ هــل تــبــدو لــعــيني نــظــرةً
بـ(حـومـانـة الزُّرق) الحُمـولُ الـبـواكـرُ

قلت للسيدة التي تنتظرني، رافعة لافتة عليها اسمي:

«لا بدّ أنك الدكتورة إركا فيرنر».

أجابتني باللّغة الإنجليزية. سيّدة نَصَف، طيّبة الوجه، وأنا هنا في ضيافتها، فهي رئيسة المكتبة المركزية في المدينة، والمشرفة على المكتبات العامة في مقاطعة (همبورغ)، أو بالأحرى (دولة) هامبورغ، فهي Stadt في النظام الفدرالي في ألمانيا.

كان معها سيّدة شابة، رحبت بي بلغة عربيّة سورية لا مراء فيها.
«هل أنت سوريّة؟».

قالت ضاحكة:
«أنا ألمانيّة. تعلّمت اللّغة العربية في دمشق. اسمي باربرا. وسوف أكون مترجمتك».

لقيت بعد ذلك زوجها، وهو شابّ سوري غاية في اللُّطف اسمه دُريد رحّال، وقد كانا لي نعم العون. بل إني لقيت في رحلتي هذه عدداً من الألمانيات اللّائي تعلّمن اللّغة العربيّة في سوريّة، وكلّهن تزوّجن سوريين، قلت لأحدهم:

«يظهر أن السوريين عاملين غزو ثقافي على ألمانيا».

لكنهم ليسوا وحدهم: أيضاً مصريّون وعراقيون وفلسطينيون وسودانيون ولبنانيون، وما شئت، كلهم عاملين غزو ثقافي على ألمانيا.

الرحلة منظمة تنظيماً دقيقاً، كما يتوقّع المرء من الألمان، والسويسريين الألمان وقد رتّبتها (مسز هايدي سومرر) صاحبة دار النشر (لينوس فيرلاغ) في (بازل) بسويسرا. وذلك بمناسبة إعادة نشر رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) باللّغة الألمانية.

هذه الدار تبذل جهداً عظيماً في الترويج للأدب العربي باللّغة الألمانية، وقد نشرت أعمالاً لإميل حبيبي وجمال الغيطاني وغسّان كنفاني وعبد الرحمن منيف وغيرهم. وهي لا تكتفي بالنشر كما تفعل أغلب دور النشر الأوروبية مع الكتاب العربي، ولكنّها تروّج للكتاب في الصحافة والإذاعة والتلفزيون. ذلك كلّه دون مساعدة من أيّ جهة عربية.

مدن تأخذني وتعطيني إلى مدن. وفي كل مدينة أجد من يستقبلني ويودّعني. وكل مدينة تتكفل بنفقة إقامتي فيها، والتذكرة التي توصلني إلى المدينة التالية.

غرف الفنادق تتسع وتضيق، وكرم الضيافة يعلو ويهبط ـ حسب الحالة المالية للمدينة التي تستضيفني. ووراء ذلك (مسز هايدي سومرر)، تتابع مسيرتي من مكتبها في (بازل). تتصل كل يوم بهم وبي لتتأكد أن كل شيء على ما يُرام.

كانت مدينة (هامبورغ) أكرم تلك المدن، لأنها أكثرها ثراء، فهي

العاصمة التجارية لألمانيا وتعدّ أكبر مدن ألمانيا. وأيضاً بسبب تلك السيدة الفاضلة الدكتورة (إركا فيرنر) استقبلت قبلي عدداً من الكاتبات والكتّاب العرب، وقبل وصولي بأسابيع استضافوا جمال الغيطاني.

أحبّت العالم العربي بسبب اهتمامها بأدبه وثقافته وتعرفها على أولئك الكاتبات والكتّاب، وذلك رغم أنها لم تزُر أيّ بلد عربيّ، ولم تتنسّم هواءه ولم تتعرّف ناسه. فكيف ـ لك الخير ـ لو أن أحداً من هذه الوزارات والهيئات والمؤسسات والمنظمات والجامعات والجمعيات والاتحادات ـ لو أن أحداً دعاها ودعا أمثالها لزيارة بلد عربي أو آخر ـ ألا يكون ذلك شيئاً حسناً؟

واتحاد الكتّاب العرب الذي يرأسه الآن سوري، ألا يحسُن به أن يفعل مثل هذا، بدلاً من إصدار بيانات الشجب والتأييد؟

■ ■ ■

(هامبورغ)، أكبر ميناء في ألمانيا، وهي مدينة قديمة، أنشأها الامبراطور (شارلمان) في عام ٨١٠م. نمت واتّسعت وبلغت أوج ازدهارها في القرن الثالث عشر. كانت ملتقى طرق تجارية بحريّة تصل بينها وبين موانئ أوروبا وأمريكا اللاّتينية والعالم الإسلامي والهند والصين.

وكما حدث لمدن أخرى في القرون الوسطى، مثل (جنوا) والبندقية، فقد تطورت (هامبورغ) إلى مدينة أشبه بدولة مستقلة، لكنها، بخلاف هاتين (المدينتين ـ الدولتين) على البحر الأبيض المتوسط،

والبحر الأدرياتكي لم تكن تسعى إلى السيطرة السياسية، بل إلى التجارة والربح.

وفي عام ١٢٤١، اضطرتها الظروف إلى الدخول في حلف مع مدينة (لوبيك Lubeck)، وهي ميناء على بحر الشمال. كان ذلك نواة لحلف واسع انضوت فيه كل المدن البحرية الكبيرة، وعُرف بـ (اتّحاد الهانْزا) ـ كلمة (هانزا) ذات أصل جرماني قديم، ربما غوطي، وتعني (جماعة ـ شركة ـ عصبة)، ومنها (لُفْت ـ هانزا)، الخطوط الجويّة الألمانيّة.

كان الحافز على قيام الحلف أنّ الدنمارك على الساحل المقابل، كانت لها طموحات للسيطرة والتوسع، وكانت تتدخّل في سير الملاحة في بحر الشمال وبحر البلطيق. وظل الحلف تجارياً بحتاً، إلّا في حالات خاصة، حين اضطرت المدن المنضوية فيه إلى التصدّي بقوة السلاح لضغوط الدول الإسكندنافيّة خاصة الدنمارك.

في عام ١٣٧٠، فرضت (الجمهوريات التجارية) كما يسميها بعض المؤرخين، معاهدة (ستراشُلند) تلك المعاهدة أعطت مدُن (اتحاد الهانزا) التي من بينها (هامبورغ)، السيطرة الكاملة على المضيق الذي يصل بحر الشمال ببحر البلطيق، وأتاحت لها حرية الملاحة وصيد الأسماك، وإذ إن الدنمارك كانت الدولة الإسكندنافية الأكثر عدواناً، فقد حصل الحلف في معاهدة (ستراشُلند) على حق التدخل في اختيار ملك الدنمارك.

ظلّت المعاهدة سارية المفعول حتى أوائل القرن السابع عشر، حين لمع نجم السويد بزعامة ملكها الموهوب (قُستافس أدُلْفُس). صارت

السويد إلى حين هي القوة العظمى في بحر البلطيق وبحر الشمال وما وراء ذلك شرقاً وجنوباً.

هذا وقد تعرضت مدينة (هامبورغ) إلى محنتين في تاريخها، الأولى عام ١٨٤٢ حين احترق معظم المدينة القديمة. والمحنة الثانية خلال الحرب العالمية الأخيرة، حين كثّف الحلفاء غاراتهم الجوية على المدينة فدمّروا الجزء الأكبر منها.

إلّا أن الألمان بإصرارهم المعهود ودأبهم أعادوا بناءها حجراً حجراً فأصبحت على هيئتها الماضية.

أعادوا رصف الشوارع في الجزء القديم من المدينة بالحجارة كما كانت في القرون الوسطى، وبنوا الكنائس على معمارها الغوطي، والقصور والمباني العامة بالمعمار الـ (نيوكلاسيكي)، والبيوت بالطوب الأحمر على هيئتها الجرمانية التي تجمع بين البساطة والرونق. إلى جانب ذلك قامت عمارات شاهقة على النّمط الحديث الذي راعوا فيه ألّا يتنافر مع المعمار القديم. وقد تمّ كلّ ذلك بمهارة عظيمة، حتى أن الزائر لا يرى في المدينة إلّا أنها ظلّت على هيئتها تلك منذ أن قامت.

ومن الأشياء العجيبة في (هامبورغ) أنها ليست على البحر، رغم أنها ميناء، بل الميناء الكبرى في ألمانيا، فهي تبعد عن البحر بنحو مائة كيلومتر.

حقق الألمان تلك المعجزة الهندسية، بأنهم وسعوا مجرى نهر (ألبي ـ Elbe) الذي تقوم عليه المدينة وعمقوه، فصار يتّسع لمرور السفن العملاقة، عابرة المحيطات. ويُقدّر اليوم عدد السفن التي تدخل ميناء

(هامبورغ) بأكثر من خمسة عشر ألف سفينة في السنة، تحمل قرابة خمسين مليون طن من البضائع.

يحلو للألمان أن يسموا مدينتهم تلك (فينيسيا الشمال) وذلك بسبب البحيرة الاصطناعية الضخمة التي عملوها، والقنوات العديدة التي تشق المدينة كما في (فينيسيا)، والجسور التي مدّوها عليها ويُقدر عددها بألف جسر.

■ ■ ■

كانت النّدوة في مساء اليوم نفسه الذي وصلت فيه، في قاعة واسعة في المكتبة المركزية للمدينة. أراحني ذلك جدّاً وأسعدني، أن أتحدّث في ذلك المناخ، تُطلّ عليّ ذات اليمين وذات الشمال، صفوف الكتب، كأنني في عشيرة أعرفها وأحبّها ـ لا ضير أنها باللّغة الألمانية ـ جذبتني أول الأمر بطبيعة الحال، الوجوه العربية يغلب عليهم السودانيّون والسوريّون، أيضاً بعض المصريين وبعض الفلسطينيين وبعض العراقيين. هؤلاء عرب الشتات، وارحمتاه للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعاً؟

تجدهم حيثما تذهب، بعضهم مع زوجاتهم ـ وهنّ ألمانيات في الغالب هنا، بطبيعة الحال ـ والبنيّات والوليدات ـ والأسماء عربيّة صرف. هذا قيس وهذا لؤي، وهذه هند وهذه سلمى.

ألمانيا تحسن ضيافتهم، وتتساهل مع اللاجئين السياسيين. أعداد منهم لاجئون سياسيون، خاصة من السودان الذي لم يطرق ذلك الباب من قبل، إنّما هذه سنوات شدة وقحط.

ربما تنقلب الحال عليهم وشيكاً، لأن ألمانيا وبقية الدول الأوروبية أخذت توحد سياساتها إزاء المهاجرين إليها، وتصعب قوانينها. يريدون أن يغلقوا أبوابهم دون فقراء العالم الثالث، ويتقلّبوا في رفاههم دون منغِّص.

ذلك تحت ضغط الحركات اليمينية المتطرّفة. ومن غرائب الأمور في ألمانيا، أن أكثر التطرف وكراهية الأجانب يأتي من الشرق، حيث كانوا حتى الأمس القريب، يرفعون شعارات الأخاء وتضامن الطبقات الكادحة!

صنعتُ كما طلبت منّي تلك السيدة الطيّبة (إركا فاينر)، بعد أن قدمتني تحدثت قليلاً باللغة العربية وترجمت (باربرا) كلامي. فيما بعد أثناء النقاش، كنت إذا سألني أحد باللغة الإنجليزية، أجيبه باللغة الإنجليزية، وإذا سألني باللغة الألمانية، تترجم (باربرا) وأجيب أنا باللغة العربيّة. وكان حالي مع العرب أيسر من ذلك. عملية تواصل معقدة بعض الشيء، لكنها هانت بل راقت لي مع تقدم المساء، وأحسست أن بعض الأفكار ـ جلّت أم صغُرت ـ قد قفزت فوق حواجز اللّغة ووصلت إلى عقول أولئك الألمان الطيبين عند بحر الشمال وبحر البلطيق.

تأكد لي ذلك حين قرأ ممثل ألماني محترف اسمه (ولفغانغ)، فصلاً كاملاً من الرواية في الترجمة الألمانية. كان صوته وأداؤه، كأنه اخترق ستار الكلمات الألمانية، إلى روح اللّغة العربية الكامنة وراءها، كأن اللّغتين اتحدتا وصارتا لغة واحدة.

في صباح اليوم التالي، حين تسكعت في المدينة وحدي كما أحب

أن أفعل، كانت أشعة الشمس تلمع فوق مياه بحيرة (آستر) الواسعة التي صنعوها صُنعاً، وتنعكس من أبراج الكنائس وزجاج العمارات الضخمة، ونوافذ القطارات وهي تجيء وتذهب على الجسر، والسيارات والعجلات ومياه القنوات.

كل شيء يتحرك. المواصلات والاتصالات، ذلك هو تفتح الطرق، وتدع البشر والأفكار والبضائع تتحرك بحرية تغدو وتروح. ربما هذا هو (التوجه الحضاري) الذي تبحث عنه ـ يا أصلحك اللّه ـ ولم تهتد إليه بعد، فمتى يفتح اللّه عليك؟

وقفت أمام النّصب التذكاري لشاعر ألمانيا العبقري (يوهان ولفغانغ فون غوته). إنه ليس من (هامبورغ) بل عاش معظم حياته في (ڤايمار). لكنه صار رمزاً لألمانيا كلّها، وصار لكل مدينة في ألمانيا نصيب فيها. ولعلّه الحافز الأكبر لاهتمام الألمان القديم بالحضارة العربية الإسلامية.

قرأ القرآن الكريم مترجماً، وأعجب بالخط العربي في المخطوطات التي جاءت من إسبانيا، وأحب شعر حافظ الشيرازي. وفي كتابه (الديوان الشرقي) أسمى العاشقين (حاتم) يعني الطائي و(زليخة) صاحبة يوسف وهما كما يقول مؤرخو سيرته، هو نفسه وحبيبته الأخيرة (ماريان). يقال إنه أسلم في آخر حياته. الله أعلم ولكن أحد كُتّاب سيرته قال:

«عقيدته التي يصعب سبر غورها، مزجت بين الإسلام الذي فهمه على أنه الرسوخ المطلق لإرادة عليا، وبين الحيوية المادية في المعتقدات الجرمانية القديمة».

غير بعيد، تمثال لشاعر كبير آخر هو (هاينرخ هايني) هو أيضاً ليس من (هامبورغ) ولكنه ولد في (ديسلدورف) عام ١٧٩٩، ومات في باريس عام ١٨٥٦ كل صلته بالمدينة أن عمه الذي أنفق على تعليمه كان من كبار رجال البنوك فيها.

في شبابه، سافر إلى (ڤايمار) خصيصاً لمقابلة (غوتة)، وكان قد تقدّم به العمر. سأله هل جاء إلى (ڤايمار) لأمر هام، فأجابه (هايني): «الأمر الهام الذي جئت من أجله، قد تحقق بمجرد أن تخطت قدماي عتبة دارك». ثم خرج دون أن يزيد على ذلك.

في المساء، دعاني الدكتور سعدي زعرب وزوجته الفاضلة للعشاء في مطعم إيراني على البحيرة، وهو فلسطيني ومشهور في جراحة المخ والأعصاب. كان معنا رجل أعمال سوداني اسمه بشير الطيّب، وسيّدة فلسطينية من الناصرة اسمها ريم يعقوب ومهندس مصري هو الدكتور هاني محمود النقراشي (باشا).

عرب الشتات! فكرت فيهم في القطار وأنا في طريقي إلى (كولون) بشيء من الحزن. ولا أعلم لماذا خطر في بالي قول (غوته):

«مبارك إنسان يقف بعيداً يتأمل العالم بلا كراهية، يضمّ إلى صدره روحاً صديقاً يشاركه الغبطة».

■ ■ ■

كان الصباح غير واضح المعالم حين غادرت (هامبورغ). قد تشرق الشمس، وقد يهطل المطر. ولعلّني تمنيت لو يوافق الطقس تخيّلاتي

عن هذه الأصقاع الجرمانية في الشمال. قلاعٌ من العصور الوسطى يتلبّسها الضباب، وسماوات رمادية داكنة. شيء من الدراما وشيء من الرومانس. إنّما الواقع، كما يبدو بخلاف ذلك.

أوصلتني (إركا فيرنر) إلى المحطة، وأصرّت أن تبقى معي حتى يصل القطار. كأنّها خافت عليّ من الضياع. لكنني ألححت عليها أن تعود إلى عملها. ألم تعطني يا دكتورة اسم الشخص الذي سوف يستقبلني في (كولون) وعنوان الأوتيل؟ وتلفون السيدة (أوتا بيدرمان)؟ إذا تهت بعد كل ذلك، وفي هذه السن، وبعد كل تلك التجارب، أكون إنساناً غافلاً حقاً.

كان لديّ سبب آخر للإلحاح، فقد عزمت على أمر لم أشأها أن تعرفه، حتى لا أسبب لها حرجاً.

إنهم يقيناً قوم كرماء. لكنّ كرمهم كما في كل الحالات المماثلة، محكومٌ بنظم مالية وبيروقراطية ولا شك. وأنا جدّ عليم بكل ذلك.

أعطوني تذكرة على الدرجة الثانية، وهي كافية، لولا أنّ في طبعي ميلاً إلى الترف في حالة واحدة ـ أرجو أن تكون حالة واحدة ـ وهي أنني أحب السفر في القطارات على الدرجة الأولى، إذا كان ذلك في وسعي. ولا ريب أن ذلك من تأثير الأيام الخوالي، حين كنّا نتنقّل على ظهور الحمير، ونسافر على ظهور اللّواري ـ عربات النقل ـ ونركب قطارات حكومة السودان في الدرجة الثالثة والرابعة. فسبحان الذي...، كما قال الأعرابي لمعن بن زائدة!

ما أن انصرفت (إركا) الطيّبة، حتى ذهبت إلى موظف السكك الحديدية الذي يترقب وصول القطار على الرصيف. هل يمكنني أن أدفع الفرق وأسافر على الدرجة الأولى؟

«نعم. تفعل ذلك داخل القطار».
«كم فرق التذكرة إلى كولون؟».
«ثلاثة وثمانون ماركاً».

ليس كثيراً، لعمري. وبالفعل تمّ الأمر في لحظات. قاطعة التذاكر (الكمسارية) فتاة فوق العشرين بقليل قصرت شعر رأسها جداً حتى بدت كأنها صبي، وشمّرت عن ساعديها، ومحت آثار الأنوثة فيها. لا (روج) على الفم، لا كحل في العينين، لا أقراط في الأذنين.

وهي أيضاً الجرسونة. تحضر لك القهوة والشاي والـ (أبفلسافت). عصير التفاح، أو حتى الذي كان (في دير حنّة من ذات الأُكيراح)، إن كنت من أهل ذلك لا سمح اللّه، والساندويش إذا أردت الساندويش.

لكنها مع ذلك، ويا للعجب، ليست مسترجلة. حين تبتسم بعينيها الرماديتين، لا يبقى في ذهنك مجال للشك أنها (فتاة) وليست فتى!

ضرب القطار في تلك البيداء، وهي ليست بيداء إلّا في خيالي، وقد راقني ما صنعتُه بنفسي، أنني قاومت الإغراء بتصنّع الزُّهد - كما أفعل - واخترت ولو لفترة محدودة، رغد العيش.

ثلاث ساعات ونصف في هذه البُلَهْنية. الدرجة الأولى! في قطار

ألماني! يا لها من نعمة! وقد صدق أبو عبادة، الذي كان يحب كلمة (بُلَهْنيَة):

وبعيد ما بين وارد رَفْه
علل شُرْبُه ووارد خِمْس

أخرجت من حقيبتي رواية مُكتنزة، ظللتُ أُجهد نفسي لأكمالها وهي لا تنتهي. إنما الكاتبة مشهورة، والرواية نالت جائزة (بوكر) في عام من الأعوام. لا بدّ أن فيها شيئاً. ولا أعلم لماذا الكاتبات الروائيات الإنجليزيات ـ في الغالب ـ يرهقنني. عندهن ميل للّت والعجن، وشغف بالتفاصيل الصغيرة.

إلّا أنني سرعان ما سئمت، وانصرفت إلى متابعة المناظر الطبيعية من النافذة. الطبيعة رتيبة في هذا الجزء من ألمانيا. سهول واسعة على مدى البصر. لا جبال. لا بحيرات لا غابات. نادراً ما ترى مصنعاً أو دخان مصنع في الأفق.

لكنّ أسماء المدن التي يمرّ بها القطار لها رنين. برمنْ ـ أسنابروك ـ مُنْشتر ـ دسُلدورف. وأخيراً وصل القطار (كولون)، أو (كُولْن)، كما يسمّيها الألمان.

٤

كولون

عنَّت لي وأنا مقبلٌ على (كولون)، أبياتٌ من الشعر لم أستحضرها منذ أعوام. علقت بذاكرتي وأنا بعد صبي في مدرسة (وادي سيّدنا) العتيدة، التي لو تركوها وشأنها لكانت اليوم مدرسة عريقة بحق مثل (إيتُن) و(رَقبي). صاحبنا النميري، عفا اللّه عنه، جعلها قاعدة حربيّة.

ربّما بسبب الأصوات الموحية التي يصنعها القطار في سيره، والسماء الداكنة التي أراها من النافذة، والعشب والشجر والغدران، وأسماء المدن التي يمر بها القطار، برمن، أسنابروك، منْستر، دسلدورف..

ثم فجأة ـ تريَرْ Trier، جاءت من عمق الذاكرة كمَا يطفو على السطح تمساح النيل. اعتراني الإحساس نفسُه ـ مثل مرآى التمساح ـ لأن الاسم جرّ معه من القاع أحاسيس شتى متضاربة، ربما غلب

عليها الفرح لمجرد التذكر. ترير وكولن، ثم جاءت الأبيات:

«لقد عشت حياتي
وشربت نصيبي من النّبيذ من ترير إلى كولن،
لم يعش فارس حياة حافلة
مثل حياتي».

From Trier to Koln there was never a Knight who had a merrier life than mine.

الأبيات تحكي قصة فارس من نبلاء القرون الوسطى، أحيط به في قلعته، ربّما في ثورة من الثورات، فامتطى صهوة جواده، وقفز من القلعة إلى حتفه:

«الآن، سوف يرى كبير الأساقفة
والتّاجر والقسيس،
كيف يموت صقر (أُلْتْنار)
إذا أرادوا أن يُخرجوا البازيَّ
عن عشه بالدّخان
فسوف ينشر جناحيه ويطير».

لم أكن أفهم يومئذ، ولكنني أفهم الآن أن الأبيات تلخص حقبة من تاريخ أوروبا في القرون الوسطى، حين نشب الصراع بين الكنيسة وأمراء الإقطاع والطبقات الجديدة الصاعدة.

قرأت فيما بعد عن المدينتين، فوجدت أنهما كانتا من معاقل الكنيسة منذ بداية العهد المسيحي.

تريِر Trier، تعتبر أقدم مدينة في ألمانيا، واسمها القديم Treves نسبة إلى أمير يدعى (تربَرِسْ - Treberis)، أنشأها عام ألفين قَبلَ الميلاد، أي قبل ألف وثلاثمائة عام من قيام روما.

على عهد الأمبراطورية المقدّسة، صارت Trier مركزاً دينياً كبيراً ومقراً لكبراء الأساقفة. بالإضافة إلى ذلك، جعلها موقعها على نهر (موزل) ملتقى طرق تجارية واسعة وكذلك مركزاً صناعة النبيذ.

أضاف التاريخ دعابة أخرى، إذ إنها كانت مهبط رأس (كارل ماركس) الذي كادت فلسفته تقضي على سلطان (كبير الأساقفة والتاجر والقسيس)، كما تمنّى ولا شك (صقر أولتنار).

أما (كولون)، فهي أكبر مدينة على نهر (الراين)، ورابع مدينة في ألمانيا من حيث حجمها وأهميتها.

إلّا أنها أحدث من (تريَر)، فقد أنشأها الرومان عام ٣٨ ق. م. وظلّت معسكراً مغموراً من تلك المعسكرات التي أقامها الرومان في حروبهم ضد القبائل الجرمانية. ذلك، إلى أن أمرت الأمبراطورة (جوليا أقربِّينا)، زوجة الأمبراطور (كلوديوس) - وكانت قد وُلدت بها - بجعلها (مدينة رومانية) فسماها الرومان (كلوديا كولونيا آرا أقربِّنيتسم)، فذلك مصدر الاسم (كولن).

في القرن التاسع الميلادي، اختارها الملك شارلمان، أول أمبراطور لما كان يُسمّى بالأمبراطورية المقدّسة، كي تصير مركزاً إدارياً رئيسياً على نهر (البراين)، وأيضاً جعلها حاضرة من حواضر المسيحية في أوروبا، ونصب فيها كبيراً للأساقفة.

تشهد على ماضيها اللّاهوتيّ كاتدرائية الـDom، أكبر كاتدرائية في ألمانيا، ومن آيات فن المعمار القوطي.

■ ■ ■

استقبلني في محطة السكك الحديدية في (كولون) شاب عرفت فوراً من لهجته أنه سوري. رحّب بي بذلك اللّطف الذي عهدته في أهل الشام - أقصد الشام بمعناه الواسع - وأخبرني أن اسمه أحمد حسّو وعرّفني بزوجته الألمانية (لاريسا)، التي سوف تترجم في الندوة في مساء اليوم نفسه.

تتحدّث العربية بكلنة سورية بفصاحة عجيبة كأنها سوريّة أباً عن جد. هي أيضاً تعلّمت اللّغة العربيّة في دمشق، فيا حيّى اللّه دمشق ونضالها في سبيل العروبة، إذ إن هذا أيضاً نوع من النضال، كما قال الشاعر القديم «ولكن عهدي بالنّضال قديم»!

كان لي نعم العون في (كولون)، كما كان دُريْد رحّال وزوجته (باربرا) في (هامبورغ). ولأنني عاشق للسكك الحديديّة بمحطاتها وقطاراتها وصرير قضبانها - كان لي خالان كل منهما (ناظر محطة) أيام عز حضارة السكك الحديدية في السودان العزيز المنال، رحمهما اللّه - لأجل ذلك إن أوّل شيء فعلته أنني أجلتُ البصر في مبنى محطة (كولون).

سقف هائل بديع، من الحديد والزّجاج. علمت فيما بعد أنهم أعادوا بناءه بتكلفة مائة مليون مارك، وأن ألف قطار ومائة، نعم، ألف قطار ومائة تخرج كلّ يوم، تنقل نحو مائة وعشرين ألف مسافر.

تسمع مكبرات الصوت تنادي، قطار وارسو، قطار أمستردام، قطار استكهولم... باريس.. اسطنبول... روما.. مائة وعشرون ألف مسافر يومياً، تصوّر!

لو كان لي من الأمر شيء لنشرت ـ كما يُلقي الصيّاد شبكته في البحر ـ على وجه الأرض العربيّة من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، شبكة من الطرق الحديديّة، ألا يكون ذلك أمراً حسناً؟

ألا يكون ذلك أفضل من شبكات اللّت والعجن، والّتي واللُّتيّا؟

أخواننا الميامين عند ملتقى النيلين، للّه درُّهم، هدّموا محطة الخرطوم الّتى بناها الإنجليز، وعطّلوا القطارات، وأغلقوا أفواه الطُرق، ثم جلسوا يسبّحون بحمد أنفسهم صباحَ مساء، فسبحان الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير.

ساقاني ـ أحمد حسّو وزوجته ـ إلى نُزل على بُعد خطوات من محطة السكك الحديدية وفي ظلّ الكاتدرائيّة. إنها ماثلة ثمّة مثل الجبل، تستحوذ على المدينة بأكملها، وتملأ أقطارها جميعاً.

الأوتيل كأنّه (خان) من خانات القرون الوسطى ـ كما أتخيّل ـ ربّما كان بيتاً قديماً حوّلوه إلى نُزل. لكنّ الألمان على طريقتهم، وضعوا فيه كلّ تقنياتهم الحديثة.

قديم من الخارج، حديث من الدّاخل ـ (الأصالة والمعاصرة)، كما يصف بعض أصحابنا. لكنك لن تجد ألمانيّاً يقول لك ذلك. يعملون في صمت كدأبهم ولا يكترثون للعبارات التي لا تحمل وراءها

شيئاً، كدأب أخواننا أصحاب (التوجُّه الحضاري)!

وقفنا في الساحة ننظر إلى الكاتدرائية من الخارج. المعمار القوطي نادراً ما يكون جميلاً. شديد الوطء، ثقيلٌ على جسد الأرض. يُغلق منافذ الخيال ويُصيب الروح بالتّخمة. بعد ذلك تعلّموا من المعمار العربيّ الإسلامي في الأندلس، حيث أقام المسلمون مساجد راسخة الأركان، ولكنها تكاد تطير في الهواء لرهافتها ورشاقتها.

كاتدرائية (نُتْردام) في باريس، التي يُضرب بها المثل في الفن القوطي، يفُضُّ من جمالها أنها مثل حيوان ضخم، منتشر الأعضاء لا تعرف رأسه من رجليه.

البناء هنا أصفر، ملمومٌ على محوره، وأكاد أجزم أن فيه أثراً من المعمار الإسلامي في الأندلس.

وضعوا حجر الأساس لها في ١٥ آب/أغسطس عام ١٢٤٨، على أنقاض كنيسة كانت قائمة منذ عهد الرومان. وظلوا يضيفون إليها على مدى أكثر من ستة قرون، حتى وضع الأمبراطور ولْهلْم الثاني آخر حجر في البرج الجنوبي للكاتدرائية في تشرين الأول/أكتّوبر عام ١٨٨٠.

■ ■ ■

مدينة (كولون)، هي الّتي ابتدعت عطر الكولونيا، صنعته أول مرّة عام ١٧٠٥، تصورا! الألمان يصنعون العطر! كنت أحسبه فرنسياً لأن العطور تقترن بفرنسا، كما يُنسب كلّ شعر قيل في الخمر إلى أبي نواس.

نحن ننشأ مع هذه القوالب الفكريّة الجاهزة. العطور والأزياء وفنّ الغواية وفنّ الطبخ ـ فرنسي. والضبط والرّبط والصّرامة والكفاءة ـ ألماني. والفوضى والانسياق وراء لذّات الحياة ـ إيطالي. والدّهاء السياسي والمكر والبرود ـ إنجليزي.

إنما الواقع دائماً أكثر تعقيداً. الفرنسيّون رغم مظهر حضارتهم النّاعم، هم تحت السطح مثل الحجر الصّلد. دولتهم راسخة الأساس تحكمها نخبة عريقة مدربة منذ عهد (ريشليو). وقد أنجبوا في نابليون أكبر عبقريّة عسكرية أوروبية منذ الإسكندر المقدوني، وداهية سياسية منقطع النظير هو (تاليران).

والطليان رغم الفوضى الظاهرية، اقتصادهم مزدهر، وتجارتهم رائجة. وهم ينافسون فرنسا في فنون الأناقة والتأنث والطبخ.

والإنجليز رغم ما يُظن من دهائهم السياسيّ، ورغم أنهم تخلّصوا من أمبراطوريتهم بغير قليل من الحنكة، فقد ارتكبوا أخطاء سياسية فادحة ما يزالونَ يعانون من جرّائها، ويعاني الناس.

الألمان ـ في ظنّي ـ هم ضحايا لغتهم وتاريخهم القريب. لغتهم تبدو خشنة فظة تطرق أذن السامع طرقاً، وتؤكد الصورة الشائعة عنهم، أنهم صلفون مستبدّون. لكن الّذين عرفوا لغتهم وعايشوهم وعرفوهم، يقولون إنهم بخلاف ذلك تماماً، فيهم رِقّة وطيبة بل وعاطفية أيضاً.

وأشهد أنني في زياراتي المتعدّدة إلى ألمانيا مؤخراً، خاصة هذه الزيارة، لم أزل أجد أشياء تناقض الصورة الذّائعة عنهم ـ وهي صورة عمّقتها دون شك دعايات (الحلفاء) ضدّهم أيام الحرب.

عند مغادرتي لـ (كولون) سألت في المحطة رجلاً ألمانيا عن الرصيف الذي يقف عنده القطار الذاهب إلى (ميونيخ). خاطبته باللغة الإنجليزية، ولا أدري كيف فهم عنّي، ولكنه أجانبي بوجه خال من الود، ولغة ألمانية وقعت على أذني كطلقات الرصاص.

ظننته من هؤلاء الألمان ـ من بقايا النازية ـ الّذين ينفرون من الأجانب أمثالي الذين ليسوا من الجنس الآري. لذلك عجبت حين أشار إليّ أن أتبعه. أوصلني إلى الرّصيف الصحيح، ووقف معي حتى وصل القطار الذي أنتظره. كل ذلك ووجهه متجهم عابس، كما بدا لي.

لا بدّ أن يكون في طبعهم جانب إنساني متأصل، وإلّا كيف تفسّر أنهم أنجبوا موسيقيين عظماء، وشعراء وفلاسفة. لا ينكر أحد أن أعظم الموسيقيين والفلاسفة الأوروبيين، خرجوا من رحم ألمانيا.

لكن ما قولك في هتلر والنازيّة وأفران الغاز؟

بلى، إنّما هل ألمانيا هي وحدها التي ابتُليت بحكام معتوهين، لا يمتون إلى طبيعتها ووجدانها بصلة؟

هذا، وقد أسعدني أنني وجدت في (كولون) صديقي القديم الماحي إسماعيل. ميّزته في قاعة الندوة بقامته الفارعة جداً، ولحيته التي طغى عليها الشيب. لم أره منذ متى؟ خمسة عشر عاماً ربّما. جاء من منفاه في (بون). إنه أول سوداني تخرج من الكلية الملكية للموسيقى في لندن أوائل الخمسينيات. عاد إلى السودان مع زوجته الألمانية، وعمل بإخلاص وجَلَد لتطوير الموسيقى السودانية، وإليه يعود أكبر الفضل في إنشاء معهد الموسيقى والفنون المسرحية في

الخرطوم. (أغلقه أخواننا هؤلاء وشتّتوا أساتذته وطلابه).

لمّا أعياه الصراع اليوميّ مع بيروقراطيّة الدولة رحل إلى ألمانيا، وعمل مع هيئة الإذاعة الألمانية ـ في البرامج الداخلية ـ وعدد من المؤسسات الثقافيّة التي قدرت علمه وخبرته.

الماحي إسماعيل مشهور بأنه إنسان مهذّبٌ متحضّر. من آل المرحوم إسماعيل الأزهري أول رئيس للدولة بعد الاستقلال. سألته إن كان ما يزال يزور السودان، فوصف لي آخر زيارة له منذ بضعة أشهر:

«تصوّر يا طيّب أنّي بكيت في مطار الخرطوم».
«ليش؟».

«وأنا داخل فتّشوني زي كأنّي إرهابي أو مهرّب سلاح... تصوّر. موظف... ولد صغير. قلت له، يا ابني أنت ليه بتعمل كده؟ بتفتش على شنو؟».
«وبعدين عمل شنو؟».

«ما التفت لكلامي، كأنه أطرش... استمر يفتح الشنط ويبعثر الهدوم على الأرض... بالله هل دا السودان البنعرفه ولّا دا سودان تاني؟ أنا ذاتي فتّشني... قرّب يقلعني عريان. بكيت والله يا طيب... لولا الأرحام واللّه ما كنت أرجع للسودان أبداً...».

نعم، هل هذا هو السودان الذي عرفناه؟ وهل ألمانيا في ظل النازية، كانت ألمانيا التي عرفها الألمان؟

الشعوب ماذا تصنع حين تُبتلى بحكام، كأنما يخرجون من كهوف

مظلمة سحيقة في غيابات التاريخ؟ مثل الخفافيش. مثل الكوابيس. لا يمثلون الشعوب ولا يمتّون إليها بصلة. يرحلون، بطبيعة الحال، إنْ عاجلاً أم آجلاً، ولكنهم يتركون وراءهم خراباً يصعب إصلاحه.

النازيون في ألمانيا أيضاً، زعموا أنهم يملكون مشروعاً قومياً وتوجهاً حضارياً!.

٥

كوبلنز ـ منهايم

غادرتُ (كولون) في عتمة خفيفة من صباح غائم. المطر يريد أن ينزل ولا ينزل. والشمس تريد أن تطلع ولا تطلع.

جوّ يحرّك الحزن مثل ذكرى حُبّ قديم. ربما لأنّ العمر يمضي، و«لا مي إلّا أن تزور بمُشرف...» ـ غيلان العبقري المسكين يا له من شاعر ـ والوطن أكثر فأكثر مثل حلم صعب المنال. تنظر وتتأمل وتقارن. كل شيء يذكّرك بالوطن.

هذه البلاد كادوا يمحونها محواً في الحرب العالمية الثانية، ولكن انظر إليها الآن.

سوف تطول الرحلة.. نحو ست ساعات. من أقصى الشمال الغربي على حدود بلجيكا، إلى أقصى الجنوب الغربي على حدود النمسا.

الطبيعة تتغيّر بالتدريج. ما تزال السهول واسعة منبسطة، ولكن أخذت تظهر بعض التلال وبعض أشجار التفّاح. القطار يسير على حافة نهر (الراين) الأسطوري... ليس أطول أنهار أوروبا، لكنه من هذه الأنهار مثل النيل والفولجا والغانج والسين والتيمز، التي أثارت خيال الناس على مرّ العصور.

طوله نحو ثمانمائة ميل. يخرج من بحيرة (كُنْستانْس) في الجنوب الغربي، ويمرّ بمدينة (بازل) في سويسرا، ثم يخترق ألمانيا متجهاً شمالاً، ثم غرباً داخل هولندا، إلى أن يصب عند مدينة (رُتردام) على بحر الشمال.

ها هوذا بعد مدينة (كوبْلنز)، ينحصر بين سلسلتين من جبال منخفضة، تكاد تكتم أنفاسه وتحبس مجراه، كما يحدث للنيل عندنا حين يدخل ديار المناصير، ثم أبعد شمالاً على حدود مصر. ينحني انحناءة واسعة، وكذلك القطار. في لحظة أرى وسائل المواصلات كلها دفعة واحدة، كأنها تجمدت في لوحة فنية أو صورة فوتوغرافيّة.

طائرة في السماء، وسفن على النهر، والقطار الذي يحملنا أرى رأسه وذيله، وعلى الضفة الأخرى قطار مسرع في الاتجاه المعاكس، سيارات شحن وباصات وعربات متجهة يساراً ويميناً وشرقاً وغرباً.

هذه الوسائل كلها تحمل بشراً... كل واحد له هدف. يعرف إلى أين يقصد وماذا يطلب. رجالٌ ونساءٌ أحرار، في بلد حرّ. كل واحد يعمل ويدفع الضرائب ويخضع للقانون. والقانون واحد. لا يوجد قانون للأقوياء وقانون للضعفاء.

لكن ما لي ولهذا؟ إنها أفكار مبعثها الأصوات التي يصنعها القطار في سيره، وهذه الحقول المترامية، وهذا الطقس التيوتونيّ الجرماني، حيث الشمس لا تشرق ولا تغيب. فلْأحصر همي في النهر، والمناظر التي أراها من النافذة. ولأكفّ عن التأمل والمقارنة، إذ لا وجه للمقارنة. إنهم وصلوا إلى ما وصلوا إليه بشق الأنفس.

عند مدينة (كوبْلنْز)، يصبّ نهر (موزل) في نهر (الراين)، فهي على ملتقى نهرين مثل الخرطوم. أنشأها الرومان عام ٩م، وكانوا يسمّونها (المعسكر عند الملتقى).

كانت ذات سطوة، تسيطر على طرق التجارة على النهرين. وفي عهد نابليون بونابارت، احتلها الفرنسيون مدى ثمانية عشر عاماً. وفي الحرب العالمية الثانية دمّر الحلفاء ٨٥٪ منها. لكن الألمان أعادوا بناءها. وها هي ذي الآن بجسورها ومياهها وأبراج كنائسها وعماراتها الحديثة مطرقة تحت السماء، كأنها تنتظر خراباً آخر وعماراً آخر!

أواخر الضحى وقفنا في (مانْهايم). هي أيضاً عند ملتقى، حيث يصبُّ نهر (نكَرْ) في نهر الراين. وبذلك تكون (مانْهايم) رأسَ المثلث الذي عُرف قديماً بمثلث الـ(Palatinate).

كان إقليماً ذا نفوذ سياسي كبير قبل توحيد ألمانيا، يخضع لحاكم مقرّه في مدينة (هايدلْبيرق) على مسيرة ربع ساعة بالقطار من (مانهايم). وقد لعب الإقليم دوراً مؤثراً في القرن السابع عشر في الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، عرفت بـ (حرب الثلاثين عاماً) ١٦١٨ ـ ١٦٤٨.

ثم، بعد منتصف النهار بقليل، وصلنا (هايدلبيرق)، المدينة ذات الشهرة الرومانسية الواسعة، بسبب الشعراء والكتّاب والفنانين الذين عبروا بها وأشادوا بذكرها. منهم (قوته) و(مارك توين)، والموسيقي (روبرت شومان). وفيها أقدم جامعة في ألمانيا.

هي الأخرى تعرّضت للخراب، فقد دمّرها الملك لويس الرابع عشر (الملك الشمس)، الذي كان يحمل لواء الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية، دمّرها مرتين أواخر القرن السابع عشر. ولم تسلم من بعض الدمار في الحرب الأخيرة.

نهضت، هي أيضاً من رمادها كما ينهض طائر الفينيق. وكذلك كان الحال في أوروبا، حتى حربهم الأخيرة التي يبدو أنها قتلت شهيتهم للاحتراب، لكثرة ما أراقوا فيها من دماء، وأحدثوا فيها من خراب. ويا ليت الآخرين يأخذون منهم العبرة.

٦

شتتقارت

الآلة الحديدية المندفعة، كأنّما تقمّصت - في خيالي - روح ناقة أبي الطيّب المتنبي:

وهبّت بجسمي مَهب الدّبورِ
مستقبلات مهبّ الصّبا.

ما كان أبعد مرمى هذا الشاعر حين قال: -

ولكنّهن حِبالُ الحياة وكيْدُ العداة وميْطُ الأذى.

هذه الخطوط الحديدية، هل هي إلّا (حبال)، تربط جسد أوروبا، كما تربط الشرايين جسد الإنسان؟ العالم العربي بهوسه بالطائرات والمطارات، ليست فيه شرايين. واحاتٌ منعزلة لا يربط بينها شيء. تقفز من مطار إلى مطار، وبين هذا وذاك في الخيال، ظلام واسع.

القطار كأنّ له إرادة مستقلة، والهمُّ «عينُ أُثال» كما قال ذو الرُّمة.

الهمَ هنا (ميونخ) أو (مُنْشنْ)، كما يسمّيها الألمان.

ظهرت بعدَ (هايدلبيرق)، تلال مخفضة، وأودية متموجة بلطف، مثل بحر ساكن هبّت عليه ريحٌ خفيفة. القُرى في قاع الوديان، والمزارع في القمم وعلى السّفوح. ثم بعد الساعة الواحدة بعد الظهر بقليل، وقف القطار في (شتُتقارت). تريّث فيها أطول مما فعل في (كوبلنز) و(هايدلبيرق).

نزل ركاب كثيرون. اليوم يوم جمعة، فلعلهم جاءوا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. أو لعلّهم كانوا مسافرين وعادوا. ليسوا سيّاحاً، كما قدرت. في السيّاح، خاصة الأمريكان، حيثما تجدهم، شيء مميز. جلبةٌ وبهجةٌ مبالغ فيها، مثل طيور ضلت الطريق إلى عُشها.

إنني أعرف (شتتقارت)، زرتها من قبل. متى زرتها من قبل؟... خمس سنوات لعمري! يا إلهي! أين ذهبت الخمس سنوات؟

تذكّرت الرجل الكريم الذي دعاني، الدكتور (هيرمن فوركل) من الجامعة، وزوجته الفاضلة الدكتورة (مونكا). قضيت أياماً جميلة في صحبتهما. متخصّص في تاريخ غرب السودان وغرب أفريقيا، ويحسن اللغة العربية. ما أكثر المهتمين بالسودان الغني الفقير، وأهله ما عندهم خبر.

أذكر أن المدينة كانت دافئة، رغم أن الفصل كان خريفاً، وقد علمت أنها كذلك أغلب العام، نادراً ما ينزل فيها الثلج.

اسمها مشتق من (Stutengarten)، أي (مزرعة فحول الخيل).

وظلّت ـ كما وصفوا ـ على مدى قرون، قرية صغيرة حالمة بموقعها على نهر (نكَرْ) ثم هبّت عليها الثورة الصناعية فاهتزت وربت. وكادت غارات الحلفاء تمحوها محواً في الحرب العالمية الثانية.

هي اليوم من المراكز الصناعية الكبرى في ألمانيا، فيها مصانع سيارات (المرسيدس) و(البورش)، وشركة (بُش Bosch) التي تنتج المعدّات الكهربائية. لذلك تجد في أول شارعها الرئيسي (شارع الملك ـ Konigstrasse) لافتة ضخمة مضاءة بالنيون مكتوب عليها (بُش)، وفي آخر الشارع لافتة مماثلة عليها علامة المرسيدس، النّجمة.

لكنني أذكرها أكثر لسبب آخر. ذلك أن الشاعر العبقري (يوهان كرستفر فردريك شللَرْ)، قد وُلد عام ١٧٥٩ في (مارباخ) وهي ضاحية من ضواحي (شتتقارت). وعجيب كيف أن مولد إنسان عبقري واحد في بقعة ماء، يعطيها أبعاداً في الزمان لا تُحدّ.

وما المعرّة لولا أبو العلاء؟ وما (بشرّي) لولا جبران؟ وما أم درمان لولا التجاني يوسف بشير؟ إنّما التجاني لم يؤرق زمانُه بعد.

زرت (مارباخ) في تلك الرحلة، بصحبة الدكتور (فوركل) وزوجته ذات نهار مشرق في سفينة نهرية، وتجوّلنا في المتحف الجميل الذي أقيم له ثمة على شاطئ النهر. فصبراً يا سيدي التجاني، رحمك اللّه. سوف يأتي يوم ـ إن شاء الله ـ يُقام لك نصُبٌ ومتحف على شاطئ النيل عند (أبو روف) في أم درمان!

توفي (شللَر) عام ١٨٠٥ في (ڤايمار)، جذبه إليها ضوء (قوته)

والحركة الأدبية الرومانسية التي قامت حوله. وهي حركة عُرفت باسم (Sturm und Drang)، ويمكن ترجمتها بـ (الزوابع والصخب).

علاقة هذين العبقريّين، كانت علاقة عجيبة، فيها توتر وود واحترام، وتأثر متبادل. ولعلّني أقف عندها قليلاً إن شاء الله.

■ ■ ■

حين غادر القطار محطة (شتتقارت) بدا كأنه عاد إلى الوراء، ثم ظهر لي أن ذلك لأنه انحرف انحرافاً حادّاً نحو الشرق.

سار في طبيعةٍ تذكّر بطبيعة سويسرا فنحن الآن في إقليم (بافاريا) وجبال الألب غير بعيدة، في الجو شيء من ملامح عالم الجنوب، سوف يتّضح أكثر حين نصل إلى (ميونخ).

مررنا ببلدة صغيرة تبعد قليلاً عن خطّ السكة الحديدية، محاطة في دائرة كاملة، بجبال ليست مسرفة الارتفاع. البيوت كأنها في قاع بئر، كلّما ارتفعت، اتسعت جنباتها.

الجبال والمزارع على السفوح والبيوت في القاع والأشجار كلها مغطاة بالثلج. عجبت لأننا لسنا في موسم ثلج، ولم أصادف ثلجاً في هذه الرحلة من قبل حتى في (هامبرغ).

واحة بيضاء منعزلة، لا تمتّ إلى ما حولها، هجمت على البصر فجأة مثل سرب حمائم بيض عابرة، كأنها ذكرى عذبة لا تستطيع أن تمسك بها وتستبقيها. أو كصورة مجازية بكر لشاعر عبقري مثل

ذي الرُّمّة:
إذا خلفت أعناقهن بسيطة
من الأرض أو خشناء أو جبلاً وعْرا
نظرت إلى أعناق رمل كأنما
يقود بهن الآلُ أحصنةً شُقرا.

هربت البلدة البيضاء مع سرعة القطار عن مرمى البصر واستقرت في الخيال. وظلت نُتفٌ من الثلج تختفي وتبين حتى وصلنا (أُلم - ULM) قبيل الساعة الثانية بعد الظهر.

أول ما ترى وأنت تدخل المدينة برج الكنيسة. هذا أعلى برج كنسي في العالم. وإذا قويت على صعوده، فسوف ترى جبال الألب. والكنيسة نفسها قديمة، وهي من الكنائس الألمانية القلائل التي خرجت سالمة من دمار الحرب العالمية الأخيرة.

كذلك تمتاز (أُلم) بموقعها على نهر (الدانوب)، هذا النهر الأسطوري الآخر. ينبع في ألمانيا في منطقة (الغابة السوداء) قريباً من سويسرا، ويمر بثمانية أقطار أوروبية قبل أن يصب في البحر الأسود.

ثمّة يكوّن دلتا واسعة مساحتها ٣٧٥٠ كيلومتراً مربعاً.

هو هنا (ألم) مغمور الشأن حتى أن قليلين يعرفون أنه يمر بها. لا يصير الدانوب دانوباً بحق وحقيق حتى يصل (فيينا) في النمسا، وذلك لأن (يوهان شتراوس) عمل لحنه الشهير (الدانوب الأزرق). النهر صار، ليس الماء الذي يجري على الأرض، بل اللّحن الموسيقيّ السارح في الخيال.

النّيل لم يصبح نيلاً حتى قال التجاني العبقري «أنت يا نيل يا سليل الفراديس..» وحتى قال شوقي العظيم «النيل نجاشي حليوة أسمر...».

ما أكثر الأشياء التي تظل ساكنة صامتة حتى يحركها خيال الشعراء والرسّامين والموسيقيين، وماذا كان سيف الدولة حتى جاءه فلتة العصور والدهور؟

غضبتُ له لما رأيت صفاية
بلا واصف الشعر تهذي طمامه

وأيضاً، شاءت الأقدار لـ (أُلْم) أن تكون مهبط رأس فلتة أُخرى - ألبرت أنشتاين - الذي غيّر نظرة الناس إلى الطبيعة، كما يفعل الشعراء والفنانون.

عند الثانية والنصف وصلنا (أُقسبورق). نحن الآن في عمق إقليم (بافاريا) الذي كان له أي شأن في تاريخ ألمانيا، وهذه البلدة تأتي مباشرة بعد (نورنبيرق) و(ميونخ) في الأهمية بين مدن الأقليم.

أنشأها الرومان - مثل كثير من المدن الألمانية - عام ١٥ ق. م. في عهد الأمبراطور (أغسطس) وكانت تُعرف في البداية باسم (أوغسطا).

من الأشياء التي أعطتها شهرة أنها المدينة التي ولد فيها (بيرتولد بريخت) عام ١٨٩٨ - توفي في برلين عام ١٩٥٦. وهو كما لا يخفى أحد أكبر الكتّاب المسرحيين في العالم.

أيضاً وُلد بها (ليوبولد موتزار) عام ١٧١٩. وهو والد الموسيقي العظيم (ولفقانق أماديوس موتزار) ذلك وُلد في (سانوبورق) عام ١٧٥٦، وتوفي في فيينا عام ١٧٩١.

اشتهرت (أوقسبورق) أيضاً، أن فيها بُنيت أول مجموعة سكنية للفقراء، في العالم وتسمّى ـ ويا للعجب! ـ (فُقريي)، كأنّما أخذوها من الكلمة العربية (فقر).

أنشأتها في القرن الثامن عشر، عائلة الـ(فُقَر) التي كانت أثرى عائلة في المدينة. وجعلوا أجارها السنوي ما يعادل أقل من ماركين بحساب هذه الأيام، على أن يكون الساكن من مواطني المدينة كاثوليكياً.

و«فقيرا ليس لأي ذنب ارتكبه!». واشترطوا في المقابل أن يصلي كل ساكن يومياً من أجل أفراد عائلة (فقر).

ما تزال هذه الصدقة جارية إلى اليوم.

٧

ميونخ

(ميونخ) هي منفى صديقنا التونسي حسونة المصباحي، هاجر إليها من القيروان. وهو شابٌّ كبير الموهبة واسع الثقافة، كما يدرك الّذين قرأوا أعماله الروائية ويتابعون مساهماته في الصحف خاصة في صحيفة «الشرق الأوسط» وفي الملتقيات الأدبية.

وقد أحسن الاختيار، ففي مدينة (ميونخ) شيء من طعم الجنوب، فهي قريبة من سفوح جبال الألْب، تهبّ عليها من وقت لآخر، رياحٌ دافئة تجيء من إيطاليا. كذلك هي على رقّة جناح من النمسا وسويسرا وفرنسا. ولو أنهم أرادوا أن يختاروا عاصمة للدولة الأوروبية الموحّدة، لما وجدوا خيراً من (ميونخ) فهي تكاد تكون في قلب أوروبا.

وهكذا نجد أن حسونة المصباحي في معقله ثمّة كأنه سلطان زمانه،

فهو ليس في منفى واحد، بل مجموعة منافٍ. والمنفى في أكثر من مكان، كأنه حرٌّ طليق!

وهو كسائر أهل القيروان والجنوب التونسي من بني هلال وبني سليم وبقايا القبائل من الفتح العربي، الذين ظلوا مرابطين في الصحراء، محتفظين بتلك النخوة القديمة. سارع للاتصال بي في (كولون) للتأكد من وصولي، ووجدته في المساء، ثم كان في وداعي حين سافرت إلى (بيرن).

كان مُضيفي الدكتور غالب جرّار، وهو فلسطيني درس عندهم وتزوّج وأقام... بقدر ما يقيم الفلسطيني حيث يكون. ولله درُّ (الأستاذ) حين قال:

لا أقمنا على مكان وإنْ طاب
ولا يمكنَ المكان الرّحيلُ.

لعلّ الذي عكّر عليه صفو المكان، أنه حمل بين جنبيه ذكرى شيء عزيز أضاعه، ولم يزل يبحث عنه.

وكذلك الفلسطيني. وكذلك الغرباء العرب في المنافي، الفلسطينيون بالمماثلة والولاء وسوء الحال.

إنّما سوء الحال درجات، فالدكتور غالب جرّار فتح مكتبة عربيّة في (ميونخ)، وهو عملٌ مفعمٌ بالرموز. وهل أكثر رمزيةً من فلسطيني فقد داره، ربما في (يافا)، فأنشأ داراً للكتب العربيّة في عاصمة بافاريا؟

ولأنّ التاريخ أخو دُعابة وهزْل ـ وهو هزل مرير ـ فقد يكون أن دار الكتب العربيّة، سوف تمتدّ من (ميونخ) حتى تغطي دولة (بافاريا) بأكملها. حينئذ لا تكون فلسطين قد ضاعت عبثاً.

ورغم مرارة الغربة، فالدكتور غالب جرّار، مرحٌ كثير الدّعابة. وكذلك حسُونة المصباحي. وكذلك محمد إبراهيم الشوش في منفاه الأقصى، في (البرتا) في كندا. وهو والمصباحي صديقان حميمان، يلتقيان في موسم أصيلة من العام إلى العام. لا يفترقان، ودائماً يضحكان، كأنهما يوفّران الضحك ـ كما يوفر البخيلُ المال ـ حولاً بأكمله. وحين يلتقيان في أصيلة، يُنفقانه بلا حساب!

هذا، وتصف الكتب، أن (ميونخ) هي أكثر المدن جاذبيةً في ألمانيا. تجمع بين الرقيّ والابتذال. بين القصور الفاخرة والمباني الفقيرة الرّثة. بين الأثرياء المليونيرات والفلّاحين الأجلاف. مدينة المتعة والمرح والحياة المسترخية. تنتمي إلى عالم الجنوب اللّاتيني أكثر ممّا تنتمي إلى العالم الجرماني الشمالي المُقطب الوجه.

وجامعة (ميونخ) هي الجامعة الوحيدة في العالم التي فيها قسم يمنح الدرجات العلميّة في علوم شراب (البيرة).

ولعل (غوته) و(شللر) كانا يفكران في (ميونخ) حين قالا في قصيدتهما المشتركة «روزنامة عرائس الشعر لعام ١٧٩٧»:

«أيُّهما الألمان. لا فائدة لكم البتّة في أن تحلموا بإنشاء دولة موحّدة. لن تستطيعوا ذلك أبداً. خيرٌ لكم أن ينمّي كلّ واحد منكم ذاته بحُريّة، كإنسان».

الشاعران الكبيران حين قالا ذلك، اعتمدا على معرفتهما بأحوال ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر. كانت خليطاً من القبائل المتنافرة. ولكن أحداث التاريخ برهنت على خطئها، فقد توحّدت تلك القبائل في دول قويّة ذات تأثير ونفوذ. وكان لـ (ميونخ) وإقليم (بافاريا) ضلع كبير في مجرى تلك الأحداث.

■ ■ ■

سرعان ما يكتشف الزائر ـ دون جهد كبير ـ أن ألمانيا ليست شيئاً واحداً، بل عدة أشياء. وهذا في الواقع هو الحال في بلاد الدّنيا كلها ـ إنما ألمانيا منذ توحيدها على يدي (بسمارك) في أعقاب هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠، اكتسبت شهرة بأنها دولة عسكرية حديدية صلبة، وأن شعبها على نمط واحد مثل تروس عجلة.

ثم تعزز ذلك التوهم بمجيء النظام النازي، وما ابتدعه ذلك العهد العجيب من شعائر وطقوس واحتفالات هستيرية كأنها أصداء من عهود الهمجية الأوروبيّة.

أيّة قراءة عابرة لتاريخ ألمانيا، توضح أن الألمان هم كبقيّة خلق اللّه، وأنهم شعوب وقبائل، بل فيهم نزعة قبلية متأصلة لا تقلّ عن النزعة القبليّة لدى العرب. وكونهم أقاموا من تلك القبائل دولة موحدة، فذلك هو إنجازهم الضخم.

فعلوا ذلك لا بواسطة نظام مركزي صارم، ولكن بواسطة نظام فدرالي فضفاض، يعترف باختلاف الأقاليم وتنوّع طبائع السكان وثقافاتهم وتاريخهم.

مدينة (هامبرغ) ـ على سبيل المثال ـ مدينة شمالية تتجه نحو بحر الشمال وبلاد اسكندنافيا. وقد اكتسبت مقوّمات شخصيتها من صراعاتها وعداواتها وأحلافها وصداقاتها مع تلك البلاد. وهي مثلهم بروتستانتيّة العقيدة.

على النقيض منها مدينة (ميونخ) عاصمة إقليم (بافاريا). إنها تتجه إلى الجنوب والجنوب الشرقيّ. إلى النمسا وإلى إيطاليا خاصة. وفي سمتها وطبائع سكانها، ملامح من الشعوب اللاّتينية، وراء جبال الألب. وهي مثلهم كاثوليكية العقيدة. ونحن نعلم أن الصّراع بين الكاثوليك والبروتستانت، لم يكن أقل شراسة من الصراع بين المسيحية والإسلام.

وإذ إن إقليم بافاريا ما يزال يحتفظ بصفته القديمة «دولة بافاريا الحرة»، فإن مدينة (ميونخ) تعتبر نفسها عاصمة دولة مستقلة. ومن علامات تلك النزعة الاستقلالية، أن (عمدة) المدينة لا يستقبل كبار الزوّار حتى لو كانوا رؤساء دول، إلا في مكتبه. لا يخرج للقائهم في محطة السكك الحديديّة، أو على درج مبنى البلدية.

حين جمع (بسمارك) بين أشلاء ألمانيا، لم يدخل إقليم (بافاريا) في الاتحاد، ولكنه بقي مملكة مستقلة تحكمها أسرة (وتلْباخ). وهي أسرة يرجع تاريخها إلى عام ١١٨٠م، حين قبل الأمبراطور (فردريك باربروسا) ـ ذو اللّحية الحمراء ـ استقلال الإقليم عن أمبراطوريته، وأقرّ على حكمه الدوق (أُوتو فون وتلباخ).

لقاء ذلك اقتطع الأمبراطور جزءاً من (بافاريا)، وأعطاه أحد منافسيه ليكون دوقية مستقلة. تلك الدوقية سوف تصبح فيما بعد، ما يُعرف اليوم بدولة النّمسا.

هذا، وهنري باربروسا، هو أحد الأبطال العظام في تاريخ ألمانيا، وأحد القادة الذين تملّكهم حلم توحيد الشعوب الجرمانية، وقد كاد يحقق حلمه بالفعل. وهو حُلم سوف يشغل أيضاً حفيده الأمبراطور العتيد (فردريك الثاني)، أمبراطور بروسيا.

وقد بلغ من حُبّ الألمان لـ (فردريك باربروسا) أنهم نسجوا حوله الأساطير، وزعموا أنه لم يمُت، بل اختفى في كهف في جبل لا يُعرف مكانه، وأنه سوف يظلّ نائماً في كهفه ينتظر أوان توحيد ألمانيا. وزعموا أنه يصحو من نومه كلّ مائة عام لينظر هل الوقت قد حان أم لا. وعلامة ذلك أن يأتي سربٌ من الغربان ـ يحمل إليه البشرى.

ظلّت مملكة (بافاريا) متعصّبة للعقيدة الكاثوليكية وخاضت حرب الثلاثين عاماً تحت راية (بابا روما)، إلى جانب القوى الكاثوليكيّة الأخرى، ومنها إسبانيا وفرنسا وإنجلترا. وحين هزم ملك السويد (قستافُس أدلفُس) جيوش الكاثوليك، احتلّ مدينة (ميونخ) عام ١٦٣١.

■ ■ ■

في خريف عام ١١٥٧ جمع الأمبراطور (فردريك باربروسا) ـ ذو اللحية الحمراء ـ بلاطه في مدينة (ويرزبورق Wurzburg) على نهر (مين) ولعله فعل ذلك عمداً، لأن المدينة كانت معقلاً للكنيسة، أنشأتها في القرن العاشر، وظل يتعاقب على حكمها (كبار الأساقفة الأمراء).

كان حريصاً على أن يقبل رجال الكنيسة، والبابا في روما خاصة،

أنه صاحب المشيئة العليا في العالم المسيحي، بوصفه أمبراطوراً للأمبراطورية الرومانية المقدسة، وأنه جمع في يده السلطتين الدينية والدنيوية. لكن الكنيسة لم تعترف بذلك وظلت العلاقة تتأرجح بين المهادنة أحياناً، والعداء السافر أحياناً.

كان (باربروسا) في قمة مجده يومئذ. أخضع لنفوذه إخضاعاً مباشراً أو غير مباشر، معظم ألمانيا وإيطاليا وهما جناحا ملكه. اهتم بإخضاع إيطاليا خاصة، لأنه صاغ جبروته على مثال القياصرة الرومان الأوائل.

كان اتساع نفوذه واضحاً من كثرة الوفود التي جاءت لتحيته في (وبرزوبورق)، تحمل الرسائل والهدايا. ومن أنحاء أوروبا كلها بممالكها وإماراتها ودوقياتها. من بيزنطة والكرسي البابوي في روما ومن فرنسا وإسبانيا، كلهم جاءوا إليه يحملون اعتراف دولهم بأنه صاحب الكلمة النافذة والمشيئة المطاعة.

أحدهم كان سفير ملك إنجلترا (هنري الثاني)، جاء في وفد يحمل الهدايا ورسالة إلى الأمبراطور. وقد عثر المؤرخون عليها، وهي رسالة طريفة تستحق أن تورد بنصها، لأنها تؤكد غلبة (فردريك باربروسا) وامتداد سلطانه، كما توضح أسلوب التعامل بين الملوك في ذلك الزمان. تقول الرسالة: «إلى صديقه الودود (فردريك) الذي هو بمشيئة الله أمبراطور الرومان الذي لا يقهر، يرفع (هنري) ملك إنجلترا ودوق نورمندي وأكوتين، وكونت أنجو، خالص عبارات الوفاء والمودة والولاء.

إننا نحيّيكم ونشكركم بكل ما جبلنا عليه من مودة ووفاء، كما

يليق بكم بوصفكم أعظم الملوك. كما نود أن نعبّر لكم عن بالغ سرورنا وعظيم تقديرنا لما غمرتمونا به من عطف أنكم أرسلتم سفراءكم إلينا يحملون رسائلكم وهداياكم. ونحن نقدر لكم خاصة أنكم لم تتوانوا عن توثيق أواصر السلام والمحبة معنا.

النصائح والوعود التي وردت في رسائلكم لنا بخصوص تصريف أمور مملكتنا ملأت قلوبنا سروراً وغبطة. ونحن إذ نؤكد أن الغبطة قد ملأت قلوبنا، نحاول الآن أن نرتفع إلى مستوى علياء سموكم، فنجيبكم بكل إخلاص.

سوف نسارع بأقصى ما لدينا من قوة إلى فعل كل ما من شأنه أن يحفظ جلالة مكانتكم ويعزز نفوذكم. ونحن نضع مملكتنا وكل ما يخضع لسلطاننا حيثما كان، تحت تصرفكم وفي متناول مشيئتكم ورهن إشارتكم. ونؤكد لكم أن أوامركم الأمبراطورية سوف تجد منا السمع والطاعة.

فلتقم بيننا إذاً وبين شعبينا علاقات لا تنفكّ عراها أبداً، من السلام والمحبة والتجارة الآمنة، مع الاعتراف من جانبنا أن لكم في كل الأحوال، الإرادة العليا، والمكانة الأسمى. لن تجدونا مترددين في الخضوع والإذعان.

وإذ إن هداياكم إلينا جعلت ذكراكم عندنا غضة عطرة على الدوام، فنحن أيضاً من جانبنا نود أن تبقى ذكرانا لديكم غضة عطرة. لذلك نرسل إليكم هدايا هي على بساطتها أحسن ما عندنا، آملين أن تجد منكم القبول.

لا تنظروا إلى قيمة هدايانا في حد ذاتها. لكن انظروا إلى قيمة عواطف المودة التي هي رمز لها. أما بخصوص كف القديس جيمس التي كتبتم لنا بشأنها فإننا طلبنا من القس (هربرت) ومن وزيرنا (وليم) أن ينقلا إليكم ردنا شفاهة...».

هذا، والكف المشار إليها، كانوا يعتقدون أنها من جسد القديس جيمز، أحد الحواريين. وكانت في حوزة الألمان، فحصل عليها الإنجليز وأنشأوا لها بيعة خاصة في (ردنج) صارت تجذب جماهير غفيرة من الشعب. كان ملوك أوروبا في ذلك الزمان يتنافسون في الحصول على الآثار (المباركة)، لأنها كانت من أسباب تمكين سلطانهم. لذلك كان الأمبراطور (فردريك باربروسا) حريصاً على استرداد كف القديس جيمس منهم، لكنه مات دون أن يحصل عليها.

وقد أغضبت هذه الرسالة عدداً من المؤرخين الإنجليز المعاصرين، الذين لم تعجبهم نغمتها الخاضعة المتذللة. ولاحظ الدكتور (ليسر Leyser) من جامعة أكسفورد في كتابه (ألمانيا وجيرانها في العهد الوسيط)، أن أولئك المؤرخين لم يقدروا ظروف الملك (هنري الثاني)، وقال إن الرسالة ربما تكون ذكرتهم بسياسة المهادنة التي اتبعها (نفل تشمبرلين) تجاه ألمانيا النازية قبل الحرب العالمية الثانية.

وذكر الدكتور (ليسر) أن بين الهدايا التي أرسلها الملك (هنري) إلى الأمبراطور، كان أربعة صقور صيد وخيمة عظيمة متقنة الصنع فرح بها (باربروسا) فرحاً عظيماً وظل يستخدمها في رحلاته وغزواته.

■ ■ ■

استعاد صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس من الصليبيين عام ١١٨٧. أصبح لزاماً على (فريدرك باربروسا) بوصفه أمبراطوراً على الأمبراطورية الرومانية المقدّسة (هو الذي سماها مقدسة) أن يفعل شيئاً.

لم يكن في أحسن حالاته حينئذ. فمن ناحية بلغ صراعه ضد الكنيسة أن بابا روما طرده من حظيرة الله، وهو من جانبه رفض الاعتراف بالبابا الإسكندر الثالث ونصّب بابا خاضعاً له هو فكتور الرابع.

من ناحية أخرى انتفضت على حكمه في إيطاليا (جمهوريات المدن) في سهل لُمبارد الخصيب بزعامة مدينة (ميلان).

ذلك جمّع ضده حلفاً قوياً من الجيوش البابوية والمدن الثائرة في (لمبارد). تلك القوى ألحقت به هزيمة عظيمة في معركة (لقنانو Legnano) في شهر أيار/مايو عام ١١٧٦. اضطر أن يهادن البابا، فاعترف به وطرح نفسه على الأرض أمامه وقبّل قدميه، ثم مشى ممسكاً بركابه!

ذلك الانكسار كله، لم يمنعه أن يكتب إلى صلاح الدين، بأسلوب القياصرة الذين أراد أن يصنع نفسه على صورتهم:

«هل أنت حقاً غافلٌ لا تدرك أن الإثيوبيّتين وموريتانيا وفارس وسورية وبارثيا ويهوذا والسامرة ومارتما وبلاد العربة وشالديا وحتى مصر نفسها (حيث ـ ويا للخسارة ـ وقع القائد الروماني العظيم مارك أنتوني في حبائل كليوباترا تلك المرأة الداعرة، مما قضى على

هيبته) ـ هل أنت حقاً لا تدرك أن هذه البلاد كلها وحتى أرمينيا ذاتها وبلاداً أخرى كثيرة، هي أجزاء من أمبراطوريتنا وخاضعة لسيطرتنا؟».

لا شك أن صلاح الدين استقبل ذلك الصلف بسخرية وعدم اكتراث، فقد كان في وضع قوي جداً بعد أن وحّد العالم الإسلامي وراءه. وكان بحكم خبرته في التعامل مع الصليبيين، يشعر بتفوّق أخلاقي إزاءهم. وقد اعترف أحدهم صراحة بذلك في قوله:

«هل يُنكر أحد أن الأخلاق الرفيعة التي يتحلي بها هؤلاء القوم، من سماحة وكرم ونُبل، هي من عند الله؟ رجالٌ قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وأخوانهم وأخواتهم. اغتصبنا أراضيهم وأخرجناهم عُراة من بيوتهم. هؤلاء الرجال أنفسهم أعطونا الطعام حين كدنا نموت من الجوع، وغمرونا بعطفهم ورعايتهم حتى ونحن أسرى في قبضتهم».

إنها كما نعلم، قصة طويلة ليس هذا مكانها.

لكنني أقول باختصار، معتمداً على عدد من المصادر التاريخية، أن الحروب الصليبية، بقدر ما كانت صراعاً بين أوروبا والعالم الإسلامي، كانت ـ ربّما بقدر أكبر ـ صراعاً بين العالم المسيحي في الشرق، والعالم المسيحي في الغرب. بين دولة بيزنطة وغرب أوروبا.

كان البيزنطيون أقرب إلى جيرانهم المسلمين منهم إلى مسيحيي غرب أوروبا وشمالها الذين كانوا يعتبرونهم همجاً ورعاعاً. وبالفعل، كان من نتائج الحروب الصليبية أن الأوروبيين الغربيين

دمروا دولة بيزنطة، وخرّبوا مدينة القسطنطينية، ونهبوا تحفها وكنوزها.

كان الوازع الديني لدى الأوروبيين، هو أضعف شيء في تلك الحروب. كان الغالب هو طموحات الملوك وصراعاتهم الداخلية، بالإضافة إلى جشع النبلاء والطبقات الوسطى وإقبالهم على النهب واغتصاب الأرض. أصبحت البلاد المقدسة بمثابة (إلدورادو) لأحلام الثراء والرفاه.

هذا ومن الفظاعات الكثيرة التي ارتكبت في تلك الحروب، ما حدث لحملتين من الأطفال من منطقة الراين في ألمانيا، ووادي اللوار في فرنسا. تجمع ما يُقدر بنحو مائة ألف طفل وطفلة، بدافع الحماسة للجهاد تحت راية الصليب، وبدأوا زحفهم (المقدس). ولما وصلوا إلى إيطاليا انقضّت عليهم عصابات من المجرمين والمحتالين، فباعوا البنات لدور البغاء - ومن لا يكدن يتجاوزن العاشرة - وأرسلوا الصبيان إلى موانئ البحر الأبيض للاسترقاق!

مثل هذه الفظائع، صدمت مشاعر الأوروبيين، وأشاعت روحاً من الاشمئزاز من تلك الحروب. وقد عبر الشاعر الفرنسي (روتبوف) الذي يُسمى شاعر الشعب عن ذلك بقوله:

«هل أهجر زوجتي وأطفالي وممتلكاتي وإرثي وأسافر لأغزو بلداً أجنبياً بعيداً لن يعطيني أي شيء في المقابل؟ أستطيع أن أعبد الله هنا في باريس كما أعبده في القدس... هؤلاء اللوردات والملاك الأغنياء وأمراء الكنيسة الذين لا يتعبون من نهب كنوز الأرض، هؤلاء لعلهم يحتاجون إلى الخروج في حملة صليبية. أما أنا فما حاجتي إلى ذلك؟

إنني أعيش في سلام ووئام مع جيراني.. إذا كنت يا صاحبي تتشوّق إلى الذّهاب إلى آخر الدنيا تبحث عن حرب تضفي عليك الفخار والمجد، فأنا لا أطلب شيئاً من ذلك.

بلّغْ السلطان عني أنه إذا خطر له أن يهاجمني في عُقر داري، فإنني أعرف كيف أدافع عن نفسي. أما إذا تركني وشأني، فإنني لن أشغل نفسي به.

أنتم أيها الناس الذين تسافرون للدفاع عن الأرض المقدسة، ألا يفترض فيكم أن تكونوا رجالاً صالحين؟

إذاً لماذا أن الذين يعودون منكم كلهم لصوص وقطاع طرق؟».

أما ما كان من أمر الأمبراطور (فردريك باربروسا)، فإنه خرج في ١١ أيار/مايو عام ١١٨٩ على رأس جيش عظيم، ليؤدي واجبه (المقدس) ويستخلص بيت المقدس من صلاح الدين.

لم يسلك طريق البحر، وهو الطريق الأسهل، ولكنه سلك الطريق البري الذي اتبعته الحملة الصليبية الأولى.

لقي الجيش مشقّة عظيمة، وتكبد خسائر كبيرة. وقبل أن يصل الأمبراطور إلى هدفه، مات غرقاً. وكان الجيش قد بلغ منه اليأس والإحباط، فلما فقد قائده، تفرق بدداً.

■ ■ ■

وصفه البابا (قرقوري التاسع) في عام ١٢٣٩ ـ أو نحوه ـ بعد أن طرده من حظيرة الكنسية: «خرج من أعماق البحر حيوانٌ مسخ له سيقانُ دُب وفمُ أسد هائج وجسد نمر، يتدفق من بين شدقيه سيلٌ من القذارات والفحش والبشاعات ضد اللّه والكنيسة والقديسين».

هذا (المسخ الدجّال) ـ كما سماه البابا في مقام آخر ـ هو الأمبراطور (فردريك الثاني)، حفيد الأمبراطور (فردريك باربروسا). سار على نهج جده في خصام الكنيسة وزاد عليه، حتى وصل به الأمر أن البابا أخرجه من الملّة وشنّ عليه حرباً لا هوادة فيها بنيّة عزله من منصبه الأمبراطوري. إلّا أن البابا (قرقوري)، مات في عام ١٢٤١، وكان قد بلغ المائة من العمر.

تلك كانت وجهة نظر الكنيسة، وهو أمرٌ متوقعٌ منها، لأن (فردريك الثاني) أراد أن يحسم الصراع القديم الذي استمر في القرون الوسطى بين الدولة من ناحية والكنيسة من ناحية أخرى. وهو صراع لم يستطع جدّه حسمه.

أراد أن يفرض نفسه على أنه صاحب المشيئة الأعلى في العالم المسيحي، وأن البابا خاضعٌ له. لكن الكنيسة بطبيعة الحال لم تقبل وقاومت أشدّ المقاومة. وكان البابا (ملكاً محارباً) يملك المال والجيوش وسُبُل الدعاية ووسائل فرض الإرادة.

إنما شخصية الأمبراطور (فردريك الثاني) متعددة الوجوه، لم تزل تحرك الخلاف والجدل، بل الإعجاب، بين المؤرخين. وقد وصفه أحد معاصريه، وهو إنجليزي اسمه (ماثيو باريس) بأنه (أعظم الملوك).

ووصفه المؤرخ الألماني (كانتو روفتْش) من جامعة (هايدلبيرق)، في كتابه المرجع (القيصر فردريك الثاني) الذي صدر عام ١٩٢٧، وتُرجم إلى اللّغة الإنجليزية عام ١٩٦٣ بأنه «أول حاكم مُطلق استطاع أن يوحد شعبه وراء سياساته ويجعله أداة طيّعة في يديه». وقد شبّهه في كتابه بنابليون بونابرت.

هذا، ويقول الدكتور (كي. جي. ليسر) في كتابه (ألمانيا وجيرانها في العصر الوسيط): «... شخصية فردريك الثاني لم تسحر المؤرخين وحدهم، ولكنها لم تزل منذ القرن التاسع عشر، تخلب ألباب الفلاسفة والمفكرين والمبشّرين بالأفكار الجديدة. فعلى سبيل المثال، تجد أن الصفحات الأولى كلها من كتاب (جيكوب بوركهات) عن حركة الأحياء في إيطاليا، لا تتحدث عن شيء بقدر ما تتحدث عن فردريك الثاني.

إنه يعتبره أول حاكم بالمعنى الحديث للحكم، ويصفه بأنه داهية عميق الفكر، يحسب بدقة وأنه أقام جهازاً للدولة شديد التنظيم والكفاءة، مثل آلة موسيقية أو لوحة فنيّة بارعة.

ووصفه الفيلسوف (نيتشه) بأنه أحد هؤلاء الرجال الأفذاذ المحيّرين. وقد شاءت له أقداره إما أن يكون فاتحاً غازياً، أو تائهاً ضالاً. ويقول نيتشه إنه رغم ذلك أول حاكم أوروبي يروقه تماماً ويناسب ذوقه».

هذا، وفي كتاب آخر يُعدُّ من المراجع الكبرى عن حياة فردريك، هو كتاب (الإمبراطور فردريك الثاني) صدر عام ١٩٧٢، يقول مؤلفه (بروفسور تي. سي. ڤان كليف) من جامعة أكسفورد:

«كان الأمبراطور فردريك الثاني، ثقافياً وعقلياً، متفوقاً على عصره بمراحل. الّذين حاولوا الغض من شأنه لم يكونوا أكثر من مأجورين هدفهم تجريح سمعته وتشويه سيرته».

كان الأمبراطور (فردريك الثاني)، خليطاً من خليفة عبّاسي وقيصر رومانيّ. ينظم الشعر، ويؤلّف كتباً موثوقة عن الصقور والصيد. يجادل العلماء بفهم، ويؤوي إليه عدداً منهم، من بينهم الإدريسي، الجغرافيّ العربيّ.

حيثما يذهب يحمل معه سركاً عظيماً من الأسود والنمور والأفيال والزّراف والدّببة. وذلك مصدر وصف البابا (قريقوري) له.

بينما هو يغزو ويحارب، إذا هو يعيش في قصوره حياة ترف وتهتّك بين القيان والخصيان. كان نصرانياً... ومسلماً... وكافراً. وكان يقتل دون رحمة ودون أن يطرف له جفن.

مات في ١٣ كانون الأول/ديسمبر عام ١٢٥٠ في قلعة (فيورنتينو)، مهزوماً كسيراً. حُمل جثمانه إلى (باليرمو) ـ عاصمة مملكته الثانية في جزيرة صقلية ـ حيث دفن إلى جانب أبيه وجده، وكتبوا على قبره:

«لو كان الصدّق والذكاء والتفوّق والثروة ونُبل المحتد، يستطيع دفع الموت عن أحد، فإن فردريك الذي يرقد في هذا القبر، ما كان ليموت».

ما هو؟ وما شأنه؟ وما قصتُه؟

■ ■ ■

يرى المؤرخون أن من أهم العوامل التي أثرت على مجرى حياة الأمبراطور (فردريك الثاني) ـ أنه نشأ يتيماً.

توفي أبوه (هنري السادس) في عام ١١٧٩ وهو في الثالثة من العمر. وتوفيت والدته الأميرة (كُنْستانْس) بعد ذلك بعام واحد.

كان من ناحية أبيه، وريثاً لـ (فردريك باربروسا) أمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة، ومن ناحية أمه وريثاً للملك (روجر الثاني) على عرش صقلية.

لم يرث عرش أبيه أوّل الأمر، لأن الأمراء الألمان تجاهلوه بسبب صغر سنه، ولكنه أخذ مُلك صقلية بعد وفاة أمّه. وكان البابا (إنّوسنْت الثالث ـ Innocent) وصيّاً عليه. وهي مفارقة مريرة، لأنه سوف يتنكر للبابا حين يشتد عوده، ويدخل في صراع شرس ضد الكنيسة سوف يمتد إلى عهد خلَفه البابا (قرقوري التاسع).

لم يبذل البابا جهداً في تربيته، وتركه لأفراد الحاشية في صقلية. قضى (فردريك طفولته وصباه دون موجّه يردعه ويضبط سلوكه. كان يفعل ما يشاء ويتعلّم على هواه. كان يختلط بالنبلاء والعلماء والرّعاع والصعاليك واللّصوص والمغامرين.

كان شديد الذكاء، في طبعه ميلٌ عظيم للتهور والمغامرة. وقد وصفه أحد المؤرخين أنه «تعلّم صناعة الحكم في مدرسة قذرة سيئة السّمعة».

يقول عنه المؤرخ الإنجليزي الكبير (اتش. أي. ال. فشر):

«من ضباب القدح والإشانة من المؤرخين المحدثين، تبرز شخصية (فردريك الثاني) آخر أباطرة العصور الوسطى، شخصيّة جذّابة جاذبية تدعو إلى الدهشة.

كان رجلاً مملوءاً بالمواهب والتناقض. متقلبّ المزاج، يجمع بين الرقّة والقسوة. يتكلّم ست لغات ـ منها العربية ـ بطلاقة عظيمة. يؤلّف الشعر الغنائي بأسلوب صقلّي دافئ. يهيم بفن العمارة وينفق بلا حساب على تشييد المباني التي تعد تُحفاً فنية ـ يرعى العلوم والفنون. محارب أتقن فنون الحرب، ورجل دولة من طراز فريد، عظيم الدهاء واسع الحيلة. ورغم ذلك، كان يتهوّر أحياناً دون أن يحسب حساباً للعواقب، أو يبالي بالنتائج.

كان إقباله على التعلّم لا حدود له، وقد قاده ذلك إلى أن يلقي بنفسه في خضمّ الفلسفة والفلك والرياضيّات والطب والتاريخ والعلوم الطبيعيّة.

اختلط بالناس من مختلف الأعراق والديانات والطبائع والأمزجة، فنشأ متحرراً في سلوكه، لا يخضع للأعراف السائدة في عصره. كان يصطفي المسلمين واليهود، ويقرّب إليه المسلمين خاصة، ويضعهم في مناصب رفيعة في الدولة، ويستغلهم لتنفيذ سياساته.

كان إنساناً محيّراً في تناقض سلوكه وتقلّب مزاجه، متسامحاً إلى أقصى حدود التسامح. يتقن اللغة العربيّة وله حريم ضخم كأنه أمير شرقي. يحمي المسلمين واليهود، ثم إذا هو يؤلّف كتاباً يشتم فيه المسيحيّة واليهودية والإسلام.

ثم لا يتردد في حرق أيّ (مرتد) من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين.

كانت له طاقة هائلة. واقعي في السياسة. فنان مرهف بالغ الحساسية نصف شرقيّ ونصف غربي. متصوّف وملحد في الوقت نفسه، جريء، مقدام، ثوريّ في فكره وسلوكه. وصفه معاصروه بأنه «أعجوبة العالم»، وقد ظلت صورته كذلك إلى اليوم، رغم تعاقب القرون وتقادم الحِقب».

٨

نيويورك

أول مرّة زرت مدينة «نيويورك» كانت في عام ١٩٦٠، أرسلني القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية لأصف وقائع جلسات الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في تلك الدورة التاريخية التي حضرها أغلب زعماء العالم. أذكر وصولي من لندن قُبيل الغروب، وأذكر إحساسي بالغربة وأنا أنظر إلى لون الشفق. لون بين البنفسجي والأرجواني والأحمر، كأنك تنظر إلى رسم سوريالي. كأنه لا يأتي من جهة بعينها، فلم أستطع أن أميّز أين الشرق وأين الغرب، وهل ثمة شروق أم غروب.

هل كان اسم المطار «أيدلْوايْد» في تلك الأيام؟ لم يكونوا قد أسموه مطار «جون أف كندي». لم يكن «كندي» قد صار رئيساً بعد. كل تلك الأحداث المأساوية لما تزل في طيّات الغيب. أحس بغير قليل من التوجس بعد رحلة طويلة عبر المحيط الأطلسي، وفارق

الوقت، والزمن كأنه لا يتحرك، وصورة «أمريكا» في ذهني فوضى، خليط من انطباعات غير مترابطة.

من الكتب كنت قد قرأت كثيراً بالطبع في الأدب الأمريكي. روايات «شتاينْبك» و«همنجوي» و«سكُت فتزجرالد» و«سالنجر» و«فولكْنرْ». والشعراء «والتر اوتْمان» و«روبرت لوول» و«روبرت فرُست». كنت وما أزال شديد الإعجاب بـ «روبرت فرست». والمسرح. قرأت وشاهدت على مسارح لندن أعمال «يوجين أونيل» و«آرثر ملَر» و«تنسي ولْيَمْز». والنقاد: «إدمونْد ولْسُن» و«ليُنل ترلنج» و«ماري مكارثي». والكتّاب السياسيين خاصة «والتر لبْمان» و«برفّسر كينان».

وراء ذلك كله، تلك الصورة الزّاهية التي انطبعت في ذهني وأنا بعدُ صبي، من قراءة الطبعة العربية من الـ «ريدرز دايجست» التي كانت تصدر في الأربعينيات باسم «المختار». كنت أنتظر صدورها لا أكاد أقوى على الصبر، أدخر من مصروفي القليل، لأشتريها كل شهر. كان يترجم المقالات عن الإنجليزية كبار الكتّاب في مصر، أمثال ابراهيم عبد القادر المازني وأحمد زكي وفؤاد صروف، وربما العقّاد أيضاً.

إنني أذكر شكلها الجذّاب، بين الكتاب والمجلة، والرائحة الفضة النافذة، حين تأخذ في تقليب أوراقها، والمواضيع الطريفة المتنوعة. واللغة. إنني ما أزال أذكر بعض العبارات التي انحفرت في ذاكرتي حفراً، مثل قول «الكْس كارل»:

«ليس الشباب زمناً من أزمنة الحياة، بل هو شعور في النفس

وإرهاف في العزيمة وتوقُّد في الخيال، وغلبة شهوة المغامرة على حب الراحة...».

كنت أنتفض طرباً وأنا اقرأ مثل هذا الكلام ـ وأنا بعد صبي، وكانت عبارات مثل عبارة «شهوة المغامرة» تحدث بلبلة في وجداني، أنا الطفل المرهون بآفاق وادي النيل.

كانوا يقدمون عالماً مزيجاً من الصدق والكذب ـ كما أدركت فيما بعد ـ عالماً مغرياً يسوده العدل والحب والسعادة. يتحول فيه الفقراء بجهدهم ومثابرتهم إلى أغنياء. يتغلب الناس على الصّعاب، لا يحد شيء من طموحهم. عالم مرح متفائل. وكانوا يقدمون في كل عدد ملخّصاً لكتاب يسمونه كتاب الشهر. أذكر كتاباً عن حياة «هلن كلَر»، تلك السيدة البكماء الصمّاء التي لم تمنعها عاهاتها أن تتعلم ويصبح لها شأن. وكتاب اسمه «لوبو ملك الذئاب»، وكتاب اسمه «الملكات يمُتن كريمات» عن الأعمال (البطولية) لقاذفات القنابل الأمريكية في المحيط الهادي في الحرب العالمية الثانية. وكتاب «آكسل منتي» الشهير «قصة سان مشيل». قرأت الكتاب باللغة الإنجليزية فيما بعد، وزرت «قلعة سان مشيل» في نورماندي، التي يُقال إنها أوحت لآكسل مُنتي بالكتاب، وعبثاً حاولت أن أسترجع المتعة التي وجدتها من قراءة الملخص في مجلة «المختار».

ثمّة سمعت لأول مرة عن «مارك توين» صاحب القصص الرائعة عن مغامرات «تون سوَين» و«هكلْبري فنْ». وعن «أمرْسن» و«هو ثورن» و«جاك لندن». كانت «المختار» زوبعة ثقافية بحق. لقد عادت الآن إلى الصدور، بعد أن كانت قد توقفت زمناً، ولا أعلم كيف هي الآن، وهل الأجيال الجديدة يقبلون عليها بشغف كما كنا

نفعل. ولعل الأمريكيين لا يدركون أي رصيد من الإعجاب تجاه بلدهم صنعته تلك المجلة لمدى مئات الآلاف من العرب، وهو رصيد ظلّت أمريكا تبدده بقسوة منذ عام ١٩٤٧ وإلى اليوم.

ضَعْ إلى جانب هذه الصورة المشرقة، صورة أخرى بدأت تتكوّن لديّ بعد مجيئي إلى لندن. الأفلام عن العنف والمافيا والإجرام. والأنباء في الصحف الإنجليزية عن حوادث الخطف والنهب المسلح، وخاصة في مدينة «نيويورك» حيث لا يأمن الإنسان أن يسير في وضح النهار، حسب تلك الروايات.

بكل تلك الأحاسيس المتضاربة اتجهت إلى جاري في الـ(بَصْ). رأيت رجلاً ضخماً لا يكاد المقعد يتسع لجسمه، صارم الوجه، تماماً مثل مجرم في فيلم عن «آل كابون». صدمني المنظر وكدت أحجم عن السؤال، ولكنني تماسكت، كما أفعل، ومضيت قدماً:
«معذرةً. هل تعلم كيف أصل إلى هوتيل (بلتمور)؟».

أدخلني في ورطة حين قال على الفور:
«إنني أنزل في هوتيل قريب منه. سوف أوصلك إليه».

عجبت لصوته. كأنه لا ينتمي إلى ذلك الجسم. صوت رقيق مهذّب فيه لكنة خفيفة، ربما تكون إسبانية.

كانت الشمس تؤذن بالغروب حين هبطنا من الـ (بص) في (مانهاتن). الغروب أو الشروق أو لعلها غربت بالفعل أو شرقت. لا تدري. إنما ذلك الضوء العجيب ينعكس من الزجاج، مساحات شاسعة من الزجاج، من المباني العملاقة التي حُشدت في ذلك الحيز

الضيّق. أيّ خيال مجنون فعل هذا؟ ولماذا؟ والضوضاء والزحام. كأنك في كوكب آخر.

قلت للرجل:
«هل نأخذ تاكسي؟».
«لا داعي لذلك. هوتيل «بلتمور» على بعد خطوات من هنا».

شكرته على لطفه ولكنه لم ينصرف، بل انتظر حتى أتممت إجراءات تسجيل وصولي، وأعطوني مفتاح غرفتي. قلت له:

«أنا حقاً مدين لك. أشكرك على مساعدتي. أظن أنني سوف أنام مبكراً لأن أمامي غداً مهمة شاقة».

«عندك وقت كافٍ للراحة. سوف أتركك الآن وسوف أمر عليك في الساعة التاسعة. يسعدني أن تقبل دعوتي للعشاء».

أي ورطة هذه؟ العشاء مع واحد من جماعة «آل كابون»؟ ولكن «شهوة المغامرة» لدي، تغلّبت على إيثار السلامة، وقلت فلْيكن.

وصلنا مطعماً في شارع شديد الاتساع، أوسع حتى من «الشانزليزي» في باريس، عرفت من الرّجل أنه شارع الأمريكيتين. وعلى العشاء أخبرني أنه محام من قواتيمالا وله مكتب في نيويورك. كان مهذباً جداً، واسع الاطلاع، كثير الأسفار فيما يبدو. زار مصر وسورية، وعنده فكرة عن السودان. يعرف على الأقل أن عاصمته تُسمى الخرطوم. لكنني رغم ذلك لم أستطع أن أتغلب على إحساس الشك الذي ساورني إزاءه من أول وهلة. لعلّه تاجر سلاح.

لعله مهرّب مخدرات. كل شيء جائز في هذا العالم الغريب.

أعطاني الكرت باسمه وعنوانه وأرقام تلفوناته.
«أرجو ألا تتردد في الاتصال بي إذا احتجت إلى أي مساعدة».

إلا أنني لم أره بعد ذلك. لم أتصل به، وحمدت الله أنه لم يتصل بي. جذبتني فصول المسرحية المثيرة التي كانت تُمثل على مسرح الأمم المتحدة.

■ ■ ■

قاعة الجمعية العمومية في مقر هيئة الأمم المتحدة. حين دخلت وجدت شاباً آسيوياً غض الوجه واقفاً على المنصّة، يخطب باللّغة الفرنسية، صوته يرتعش بالغضب والعاطفة. يقول:

«صحيح أنا أمثل دولة صغيرة لا وزن لهما بمقاييس القوة في العالم. لكن ذلك لن يمنعني من التعبير عن رأيي بصراحة...».

ثم مضى الشاب يهاجم بشراسة ما وصفه بالتدخل الاستعماري في شؤون كمبوديا.

كان في صوته عمق ورنّة صدق تهزّ مشاعر السامع، مهما كان. الأمير سيهانوك المسكين. تستمع إليه اليوم بعد مضي ثلاثين عاماً، فلا تشعر بشيء. هل هو تغيّر أم أنت تغيّرت؟ ظلّ على خشبة المسرح، لا يريد أن يختفي، يقول الكلام نفسه، ويلعب الدور نفسه، والسنوات تمر، وجسمه يشيخ، وشعره يبيّض، ووجه يتجعد،

ومشاكل كمبوديا لا تُحل بل تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

القاعة رحبة مصمّمة بعناية. دائماً يفلحون في بناء القاعات. أجلس في غرفة زجاجية تطل على القاعة، في المكان المخصص للصحافيين والمراسلين على يمين المنصة. الرئيس وإلى يمينه «داج همرشولد» الأمين العام. سوف أشهد فيما بعد، دراما احتمال استقالة «همرشولد». أمامي مباشرة لوحة جدارية تجذب انتباهي. وصفتها في أول رسالة إذاعية بعثت بها بأنها تشبه «قلباً آدمياً مفتوحاً أو دجاجة مشوية».

يا له من وصف غريب! لماذا قلت ذلك؟ ولكنني حين أفكر الآن أجد أن الصورة على غرابتها لم تخلُ من صدق. التناقض العبثي بين أحلام الإنسانية المتعلقة بذلك المكان وواقع ما يحدث فيه بالفعل. الإيماءات بالألم والمعاناة في صورة القلب الآدمي الذي شق أحد عنه الصدر وأخرجه منه. ثم كأنه شوى القلب وقدّمه على طبق لأحد ما ليأكله.

لكن لعلّني لم أكن أعي تماماً ما أقول. لعلّني فقط كنت ثملاً براح الشباب، كالدائخ من جدة المكان، مزهواً بما حسبته قدرتي على التعبير، أهذي بكلام لا أفهم معناه.

قلت أيضاً في تلك الرسالة، أن صوت الأمير «سيهانوك» الغاضب هو صوت دول «العالم الثالث» ـ دول عدم الانحياز.

إن كان ذلك حقاً، فإن صوت الأمير «سيهانوك» اليوم، بعد ثلاثين عاماً، صوت ضعيف، متعب، يائس، مغلوب على أمره.

كان التعبير جديداً تلك الأيام ـ العالم الثالث. وكان مفهوم «عدم الانحياز»، بغيضاً إلى الدول الكبرى في الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، وقد استمعت إلى «جواهر لآل نهرو» العظيم، استمعت إليه عدّة مرات بعد ذلك، يشرح للأمريكان بصوته الهادئ المتحضر، أن «عدم الانحياز» لا يعني «الشيوعية» كما يظنون، وأنه لا يمثل أي خطر عليهم.

ها هم جميعاً في القاعة؟ أبطال «حركة عدم الانحياز». نهرو ونكروما وسكتوري وسوكارنو وجمال عبد الناصر. كلهم ما عدا تيتو. راحوا عن بكرة أبيهم، بالحق أو بالباطل. يوغوسلافيا التي كوّنها تيتو بعد جهد جهيد تتناثر أشلاء.

كانت روح عدم الانحياز، هي الروح الطاغية على ذلك الاجتماع. وكنت أعمل في إذاعة دولة من الدول الكبرى التي يهاجمها هؤلاء الزعماء في خطبهم. ووجدتني في التقارير التي أرسلها أتبنى موقف «عدم الانحياز»، ليس عن وعي أو تدبير، ولكن بعفوية كاملة، كأن ذلك هو الموقف الطبيعي. أليست هيئة الإذاعة البريطانية هيئة «مستقلة» «محايدة»؟

لم يعترض رؤسائي الإنجليز في لندن على ما كنت أبعث به إليهم، فكانوا يذيعونه بلا حذف أو تغيير. لم يفرضوا عليّ رقابة من أي نوع، فقد كانوا يفهمون، أنني تعلمت منهم «الأمانة المهنية». لم أكن أزيّف شيئاً، أو أغيّر أو أبدّل شيئاً. كنت أنقل بأمانة شيئاً، ما أراه يحدث أمامي. وكان معظم ما يحدث في ذلك الاجتماع مخالفاً لسياسات دولتهم. ومع ذلك تركوا لي الحبل على الغارب، وكانوا يقدرون بلا شك، أن ذلك لن يضيرهم في نهاية الأمر.

في جلسة بعد الظهر، سادت في المكان روح جديدة. اجتمعت كلمتهم، ونسوا خلافاتهم. احتفلوا بقبول نيجيريا التي استقلت لتوها، عضواً في الأمم المتحدة. كان احتفالاً بهيجاً ـ شيئاً مثل العرس. دخل وفد نيجيريا القاعة في ثيابهم الجميلة الفضفاضة، يتقدّمهم رئيس وزرائهم، أبو بكر تفاوا بليوا. هل تذكرونه؟ وكان أبو العروس، إن صحّ الوصف، ذلك السياسي الداهية، هارولد ماكملان. وقف بقامته المديدة، وشاربه وعينيه اللتين تعطيان وجهه طابعاً مغولياً ـ وقف مرحباً ومهنئاً.

رجل تُعجب به، كما تُعجب بممثل بارع، حتى وهو يؤدي دوراً بغيضاً إليك. أرستقراطي، ولكن ليس بالوراثة، فهو ينحدر من أسرة إسكتلندية، دفعها الفقر إلى الهجرة إلى إنجلترا، فعملوا بجد، وكوّنوا ثروة، وأنشأوا دار ماكملان، وهي من دور النشر الكبرى في لندن. تعلّم تعليماً أرستقراطياً، وتزوّج ابنة (دوق). دخل البرلمان بسهولة، كما يحدث لأبناء الأسرة العريقة، وكان حزب المحافظين يعتبره «ثائراً»، ثم تحول تدريجياً إلى اليمين، وأصبح مقبولاً لأقطاب الحزب، الذين وجدوه صالحاً لرئاسة الوزارة، بعد فشل فتاهم المدلل «أنتوني أيدن».

كان حزب المحافظين يسمي إيدن «الفتى الذهبي» فقد كانوا يجدون فيه كل الصفات التي يطلبونها في الزعيم. كان أرستقراطياً أباً عن جد، وسيماً بمقاييس الإنجليز، درس في جامعة أكسفورد، وخدم في الجيش، وأبلى بلاء حسناً. ولم يكن وقّاد الذهن إلى الحد الذي يخيفهم منه، فهم لا يطمئنون إلى النوابغ، ولا يولونهم إلّا مضطرين. وكان يعرف الفرنسية والعربية والفارسية، واكتسب شهرة واسعة لمهارته الدبلوماسية. أصبح وزيراً للخارجية ولمّا يبلغ الأربعين

من العمر، ثم استقال من ذلك المنصب في وزارة «تشمبرلين» احتجاجاً على سياسة الحكومة في مهادنتها لهتلر ونظامه النازي. ذلك قوّى من رصيده السياسي. ولما تولّى «تشيرشل» رئاسة الحكومة، عاد «إيدن» إلى وزارة الخارجية وأصبح نائباً لتشيرشل في زعامة الحزب وفي رئاسة الحكومة. وظل سنوات ينتظر أن يحل محله، وبعد لأي قبل تشيرشل أن يذهب.

لم يكد يمضي عامان على تولّي «إيدن» رئاسة الوزارة، حين دخل في صراع مع شاب من صعيد مصر يسمّى جمال عبد الناصر. وكأنّ كل خبرته في الدبلوماسية، ومعرفته بشؤون الشرق الأوسط قد فارقته، فتورط في مغامرة طائشة حين تآمر مع فرنسا وإسرائيل على غزو مصر. حوّل القضية إلى صراع شخصي بينه وبين عبد الناصر، وحاول أن يقنع الشعب البريطاني أن عبد الناصر «هتلر» جديد يجب القضاء عليه. لكنه لم يفلح، بل أحدث انشقاقاً خطيراً في الرأي العام البريطاني، وفي البرلمان، وفي صفوف حزب المحافظين، واستقال «آنتوني نتنج» وزير الدولة للشؤون الخارجية، وواحد من المقربين إلى «إيدن». وتوترت علاقة بريطانيا مع أمريكا. وانتهت المغامرة بالفشل.

حين اضطر «إيدن» إلى إيقاف الحرب، أعلن في البرلمان أن «الحملة» قد حققت أهدافها، فتصدى له «أنايرن بيفان» نائب رئيس حزب العمال، من سلالة عمّال المناجم في «ويلز». حادّ الذكاء، سليط اللّسان، قوي الحجة، من الخطباء المعدودين في تاريخ البرلمان البريطاني. قال بصوت مملوء بالاحتقار الذي عُرف عنه لحزب المحافظين:

«إن رئيس الحكومة ينفخ أبواق النصر وهو يتجرع غصص الهزيمة».

البريطانيون، وحزب المحافظين خاصة، لا يغفرون لزعمائهم إذا قادوهم إلى هزيمة. لذلك ضحّوا بفتاهم «الذهبي». تخلّصوا منه بهدوء، كعادتهم، وجاءوا بدلاً منه، بهذا الثعلب الماكر ـ هارولد ماكملان ـ ليخرجهم من الورطة.

■ ■ ■

كان رجلاً عجيباً ذلك الرجل ـ هارولد ماكملان.

ها هو ذا يقف على المنصة الخضراء من الرخام. ووراءه على مستوى أعلى حيث يجلس الرئيس ـ وزير خارجية إيرلندا، إذا لم تخنّي الذاكرة ـ والأمين العام، داج همرشولد، الرجل السويدي الذي يتأرجح مصيره في الميزان.

حياهما بانحناءة خفيفة، ثم تمهل وهو ينظر في القاعة المحتشدة. رجل طويل القامة، غزير شعر الرأس، أشيبه ـ ضيق العينين. في وجهة شيء من وجه السنجاب. هيئته، خليط من الاستعلاء والسخرية والملل. كأنه يمثل على المسرح دوراً لا يكرهه ولكنه ليس راضياً عنه تماماً. كان كذلك طوال الفترة التي حكم فيها.

جاء به حزب المحافظين بعد ورطة «حرب السويس» ليصلح ما أفسده «آنتوني إيدن» فاتجه أولاً إلى إصلاح الأمور مع الأمريكان، ثم ساق الحزب ناحية اليسار، وهو يحدثهم حديث أهل اليمين، وعمل على تفكيك الأمبراطورية البريطانية، وهو يؤكد لهم أن

بريطانيا ما تزال دولة عظمى. قال للشعب البريطاني على التلفزيون، والسخرية في عينيه، توحي بأنه لا يعني ما يقول:

«يجب أن تعترفوا بأنكم أبداً لم تتمتعوا بالحياة كما تتمتعون بها الآن».

حين ذهب حزب المحافظين وجاء حزب العمال، وجدوا الاقتصاد منهاراً والخزينة خاوية.

في خطبة له في «جوهانسبرج» معقل النظام العنصري في جنوب أفريقيا، قال قولته الشهيرة:
«إن رياح التغيير تهب على القارة الأفريقية».

واليوم ونحن ننظر إلى ذلك النظام الكريه يتقوض ونكاد نرى نهايته رؤية العين، لا نملك إلا أن نتذكر بغير قليل من الإعجاب، هارولد ماكملان، الاستعماري القديم، الذي عرف أن زمان الاستعمار قد ولّى.

كان يحب قراءة روايات «ترلوب» التي يسخر فيها من الطبقة الأرستقراطية وكانت فضيحة «برفيومو» التي حدثت في عهده، كأنها رواية من تلك الروايات. حين كشفت الصحافة عن علاقة وزير في الحكومة ببائعة هوى تسمّى «كريستين كيلر» أنكر الوزير العلاقة أول الأمر، ثم اضطر إلى الاستقالة تحت ضغط الرأي العام والبرلمان.

هاج الشعب واضطرب حزب المحافظين، واهتزت الحكومة وهذا

الرجل العجيب هادئ الأعصاب، يراقب ما يجري مثل رجل كبير يراقب عبث أطفال.

اختفى «برفيومو» عن مسرح السياسة، وقد كان أحد الذين يتنبأون لهم برئاسة الوزارة في يوم من الأيام، وانقطع لأعمال الخير في أحياء لندن الفقيرة.

أما «ماكملان» فقد جمع شتات الحزب كما فعل بعد «حرب السويس» وحكم بمزيج من الدهاء والسخرية إلى أن مل اللعبة فتنازل طواعية لـ«لورد هيوم». لكنه حتى وهو يفعل هذا، لم يستطع أن يقاوم رغبته في العبث، فرشح خلفاً له، أرستقراطياً من اسكتلندا، يشهد الناس له بالاستقامة وحسن الخلق، ولكن ليس بالكفاءة، وتجاوز «راب بتلر» الذي شهدوا له بالقدرة والكفاءة. كان بتلر هو الذي أقنع حزب المحافظين بقبول الخطوات التي اتخذتها حكومة العمال من قبلهم، لخلق مجتمع أكثر عدالة، ووضع أساس «الإجماع» الذي قبله الحزبان وحكما بمقتضاه، إلى أن جاءت «مسز ثاتشر».

كان يؤمل أن يخلف «إيدن» وظل ينتظر أن يخلف «ماكملان» فلم يسعفه هذا الثعلب المراوغ.

يقف الآن على منصة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، يواجه الشاب المصري من الصعيد الذي تطاول على هيبة الأمبراطورية. وثمة زعماء عدم الانحياز الذين عاونوه على جرأته. بعضهم، مثل نهرو ونكروما، يمثلون دولاً كانت إلى الأمس القريب، تخضع للتاج البريطاني.

بعد أن فرغ «ماكملان» من إلقاء كلمته، وقف رئيس وزراء نيجيريا، سير أبو بكر تفاوا بليوا، فألقى كلمة بلغة إنجليزية رصينة، شكر فيها بريطانيا على حسن تصريفها لشؤون نيجيريا وإعدادها للاستقلال. وكان «ماكملان» يستمع راضياً، مثل أب يشهد حفل تخريج ابنه من الجامعة. ولعله أحس أن ذلك يكفي لإزالة المرارة التي أحدثتها غزو بريطانيا لمصر.

■ ■ ■

بينما كان «هارولد ماكملان» يقف خطيباً على المنصة، بتلك النّبرة المتعالية قليلاً، الساخرة قليلاً، التي يغلب عليها ذلك السّأم الأرستقراطي، كان ينظر من حين لآخر إلى رجل يجلس في أقصى يسار القاعة، وكأنّه يتوجه بحديثه إليه شخصياً. رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، ليس حسن الهندام، هيئته مثل هيئة رئيس عمّال بناء، أو عمّال شحن في ميناء. رجل لو خُيّر «هارولد ماكملان» لما اختار أن يدعوه إلى العشاء في داره في لندن، مع صهره «دوق دفنشاير». إلا أن ذلك الرجل، الذي يجلس متحفزاً مثل ذئب رابض، هو نجم هذا المهرجان دون منازع. نكيتا سيرقيفتش خريتشوف، أمين عام الحزب الشيوعي ثمة، وأقوى رجل في الاتحاد السوفياتي.

أراه بوضوح من حيث أجلس في غرفة من الغرف الزجاجية المخصصة للمراسلين، التي تشرف من علٍ على بئر القاعة. خُيّل إليّ أنني رأيت شفتيه تتحركان بعصبية وكأنه يهمهم بعبارات بذيئة - فيما بعد قال شيئاً بذيئاً بالفعل - حين أطنب «هارلود ماكملان» في وصف خيرات الاستعمار على نيجيريا، وكأنّ الاستعمار نعمة كبرى منّ الله بها على تلك البلاد.

كان يصل دائماً قبل بدء الجلسة بنحو ربع ساعة، يقود وفده الكثير العدد، تماماً كما يأتي رئيس عمّال مع عمّالة لاستقبال سفينة بضائع حلّت بالميناء. ويجلس متحفزاً طوال الجلسة، السمّاعات على أذنيه، يكتب أحياناً، ويرفع رأسه إلى المتكلم أحياناً، لا يكلّ ولا يملّ، ولا يترك مقعده حتى نهاية الجلسة.

مرةً لاحظ قلّة الحضور في جلسة صباحية، فهبّ واقفاً، وصرخ غاضباً قبل أن يعطيه الرئيس الإذن:

«أين يذهب هؤلاء المندوبون؟ ماذا يفعلون؟ إن دولهم الفقيرة تدفع أموالاً طائلة لترسلهم إلى نيويورك، ليس للفسحة والتسكع ولكن للعمل».

لم يلبث المندوبون الذين كانوا بالفعل يتسكعون في الردهات ويشربون القهوة في الصالة الفاخرة المخصصة لأعضاء الوفود، أن جاءوا يتسابقون إلى قاعة الجمعية العمومية.

حوّل جلسات تلك الدورة بمهارة عظيمة إلى فصول في مسرحية «تراجيكوميدية». البطل الذي يمثل قوى الخير والعدل والحرية، هو الاتحاد السوفياتي. الشرير الذي يمثل قوى الظلام والباطل والقهر، هو «الأمريكاني» ومعه حلفاؤه دول الغرب، وما أسماهم بالخدم والأذيال في بقية أنحاء العالم.

لم يكن يسمّي الدول المُتخاصم معها بأسمائها، وكأنه لا يعترف بوجودها، فيقول «الأمريكاني» و«الإنجليزي» و«الفرنساوي» و«الطلياني» وهكذا. ولم يكن راضياً تماماً عن دول عدم الانحياز،

شأنه في ذلك شأن الأمريكان، فقد كان يريدهم أن يعلنوا صراحة انحيازهم إلى معسكر الاتحاد السوفياتي، لكنه كان يكفّ عن شتمهم، ويكتفي بالسخرية منهم من وقت لآخر.

ثم اختار عمداً بعض المندوبين ليمثلوا أدواراً كوميدية، ويكونوا هدفاً لمزاحه وعبثه وسخريته. فعل ذلك خاصة مع مندوب الفيليبين.

كان مندوب الفيليبين رجلاً قصيراً نحيلاً يلبس نظارة ويتحدث اللغة الإنجليزية بلكنة أمريكية واضحة وأسلوب متقعر. ومع أن الرفيق نكيتا سيرقيفتش نفسه، كان أبعد ما يكون عن وسامة «كلارك جيبل»، فقد وجد في ذلك الرجل الطيّب ولا بد، هدفاً مستديماً لسلاطة لسانه. وكأنّ «الفيليبيني» استساغ ذلك الدور، كما بين القط والفأر، فكان يتصدى لخريتشوف، مدافعاً عن وجهات نظر يعلم أنها سوف تثير ثائرته. وخيّل إليّ أنه نشأ بينهما شيء يشبه الألفة.

قال خريتشوف مرّة، إن «الفيليبين» يتبع «الأمريكاني» كما يتبع الكلب سيّدة. فإذا.. الأمريكاني... الفيليبيني - والكلمة بذيئة ترجمها المترجم الإنجليزي بهدوء ورصانة. هب مندوب الفيليبين واقفاً، وقال بغضب، والناس يضحكون:

«إنني أحتج يا سيّدي الرئيس على اللهجة البذيئة التي يستخدمها رئيس وفد الاتحاد السوفياتي. إنه يتهجم على ممثل دولة مستقلة ذات سيادة».

فقال خريتشوف:

«الفيليبيني يتحدث عن استقلال بلاده، أين هو هذا الاستقلال؟

الإنسان يحتاج إلى منظار مكبّر كي يراه».

تحت ستار المزاح والعبث والبذاءة، كان واضحاً أنه يلعب دوراً ليس لعباً. كان يوجه ضربات موجعة إلى «هيمنة» الولايات المتحدة، ويريد أن يزعزع العلاقات بينها وبين حلفائها خاصة في آسيا وأفريقيا.

وربما أراد أن يهيّج الشعوب على حكامها في بعض البلاد. كان يخاطب الشعوب مباشرة فوق رؤوس حكّامها من ذلك المنبر العالمي. وكان يعرف أوضاع الفيليبين حق المعرفة، وأن أجزاء ليست صغيرة من الرأي العام متبرّمة من النفوذ الأمريكي في الفيليبين ومن وجود قواعد عسكرية هناك.

في آخر جلسة حضرها قبل سفره اعتذر لكل الذين قد يكون أساء إليهم، وطيّب خاطر «الفيليبين» بصفة خاصة. قال:

«الفيليبيني رجل لطيف في الحقيقة. أرجو ألا يكون غاضباً منّي وآسف إذا كنت قد آلمته أحياناً».

ضحك الناس وضحك مندوب الفيليبين، الذي لا بد أنه تنفس الصعداء، وحمد الله أن ذلك العبء قد انزاح عن كاهله. إلا أن الصحافيين، وخاصة الأمريكان، أحسّوا بغير قليل من الحزن لسفر خريتشوف قبل نهاية الدورة، فقد نشأت بينهم وبينه علاقة لا تخلو من الود.

■ ■ ■

الساعة قُبيل منتصف نهار الجمعة الثاني والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف.

هذه أول مرة أدخل قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة منذ أن دخلتها قبل ثلاثين عاماً.

تغيّرت أشياء كثيرة، ولكن هذه القاعة كما أذكرها. أجلس الآن في المكان المخصص للجمهور. أمامي مباشرة منصة الرئيس، وأسفلها منصة أصغر حيث يقف الخطباء. السجاد أكثر اخضراراً مما أذكر، ومنصة الخطباء ليست من الرخام الأخضر كما ظننت، ولكنها رمادية اللون مشربة بالزُّرقة، منصة الرئاسة أعلاها هي التي من الرخام الأخضر. اختلطت الألوان في ذاكرتي كما اختلطت أشياء كثيرة، فثلاثون عاماً ليست بالأمر السهل. هنالك في أقصى الركن الأيسر من موضعي الآن، الغرفة الزجاجية حيث جلست طيلة شهر كامل، أراقب فصول مسرحية محزنة أحياناً، مضحكة أحياناً.

القاعة ما تزال كأنها بنيت لتوها، يعلق بها طابع الجدّة، مستديرة، أو كالمستديرة، ينزل فوقها السقف في شكل مخروط، يميل إلى الأمام، المناضد، حيث يجلس المندوبون خضراء أيضاً. الجدران رمادية يتخللها اللون البني، لون الخشب. أعلى منصة الرئاسة على الحائط المواجه لي، دائرة واسعة، تضم غصن الزيتون الشهير، الذي يحمل خريطة العالم كما تحمل راحة اليد الكأس.

اللوحة الجدارية التي وصفتها قبل ثلاثين عاماً بأنها تشبه «قلباً آدمياً مفتوحاً» ما تزال في مكانها. أراها الآن على يميني. أمعن فيها النظر. الله أعلم، ماذا تعني؟ أتخيّل الآن أنني ألمس الخطوط الملساء المنحنية.

أرى على يساري لوحة لم أنتبه لها يومئذ. تشبه اللوحة على اليمين، كأنها انعكاس لها في مرآة.

كنت برفقة زوجتي وشاب سوداني يعمل في سكرتارية الأمم المتحدة اسمه خضر الطيّب عبد الرزاق. سوداني كما يحب الإنسان أن يكون السوداني. درس الهندسة في موسكو وحاول أن يستقر في السودان. يعمل هنا مترجماً، يترجم من الروسية والإنجليزية إلى العربية. هو والدكتور علي عبد الله عبّاس والدكتورة كنستانْس بيركلي، كانوا لنا خير عون في هذه الرحلة.

الدكتور علي عبد الله عباس، أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة الخرطوم. إنسان نابغة، له شهرة واسعة في ميدانه. كريم الخلق، جمّ التواضع، أصيل، أهله نزحوا من «أبو حراز» إلى أم درمان. يحاضر الآن في جامعات أمريكا وقلبه يخفق بحب السودان ويهفو إلى جامعة الخرطوم. أخواننا هؤلاء أدخلوه السجن. مكث ستة أشهر دون أن توجّه إليه أية تهمة. حمد الله أنهم أدخلوه سجن «كوبر» فهو سجن قديم من أيام الإنجليز، تراعى فيه اللوائح والأصول. ثم خرج دون أن يكلمه أحد. جاء إلى الولايات المتحدة بمنحة من مؤسسة «فلْبرايت».

كانوا قد صنعوا ذلك بشيخنا إبراهيم الصلحي أواخر عهد النميري. كان وكيلاً لوزارة الإعلام والثقافة. فنان موهوب، لوحاته تعرض في متاحف الشرق والغرب. رجل ثقافة وفن وسلام، لا صلة له بالثورات والانقلابات. وجدوه يعمل في مكتبه ذات صباح باكر، وكانت تلك عادته، وصادف حدوث محاولة انقلاب في ذلك الصباح، وأن قائد الانقلاب كان من أقربائه. أدخلوه السجن حيث

مكث ستة أشهر دون أن توجه إليه أية تهمة، ثم خرج وهو لا يعلم لماذا أدخلوه السجن ولماذا أخرجوه منه.

خرج فوجد منزله الحكومي لم ينزع منه، ومرتبه الشهري يدخل حسابه في البنك بانتظام، وأكثر من ذلك، إنهم كانوا يحسبون له «بدل طبيعة عمل» وهو في السجن. ثم طلبوا منه أن يعود إلى عمله، وكأن شيئاً لم يكن. يقول إبراهيم الصلحي: «قررت حينئذ أن أترك السودان. قلت هذا بلد مجانين».

السودان من أعقل بلاد الله، والسودانيون من أحسن خلق الله، ولكن بعض حكّام السودان هم المجانين، وعجيب أن أمة كهذه، تنتج حكّاماً كهؤلاء.

نعم، لا بد أن هذا الرسم على الجدار هو «قلب آدمي مفتوح»، فهذا كل ما يستطيع الفن أن يفعله في نهاية الأمر، وسط هذا العالم الهمجي. أن يحوّل آلام الإنسانية إلى لوحات على الجدران، وكلمات على الورق، وذلك لعمري، ليس بالأمر السهل.

ما أن استقر بنا المقام، حتى نادى الرئيس على المتحدث. يا لها من صدفة حسنة. الموضوع قضية فلسطين، والرئيس سعودي، والمتحدث ممثل دولة قطر في الأمم المتحدة. صديقنا من قديم الدكتور حسن نعمة. تذكرونه؟ يوم زرناه، منسي وأنا في دلهي، حين كان سفيراً بها.

رجل عالم شاعر أديب، ناصع البيان قوي الحجة، هذه لغة لا تسمع مثلها كثيراً في مثل هذا المكان، لغة العرب حين يرخى لها العنان،

فيستخفها الطرب وتحلّق بجناحين. تحدّث عن مساعي السلام وتعنت الإسرائيليين وأحزان الفلسطينيين في الشتات. كلمات تلمع مثل قطرات الدموع في عيون الأطفال في المخيمات. لا تقلْ إن الكلام الجميل لا يجدي. إنْ عاجلاً وإن آجلاً تتحول الكلمات الصادقة إلى أفعال.

تحدث الدكتور حسن نعمة عن الحرب الباردة و«اللدادة التي استعرت بين المعسكرين». قال إن ذلك كله قد انتهى.

نعم. اليوم لا توجد حرب باردة، ولا معسكران متقاتلان.

إنما هذه القاعة هي هي، والعرب «هموا هموا» بعض العرب ما يزالون كما قال الشاعر القديم:

وقد ينبُت المرعى على دمَن الثّرى
وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

■ ■ ■

أراد خريتشوف أن يشرب جرعة من الماء، وهو يخطب. رفع الكأس ونظر إليها برهة ثم قال:

«لو كنت في جورجيا لكانت هذه الكأس ملأى بالفودكا. فلنشرب نخب جورجيا».

هكذا كان، متقلّب الأحوال، يذهب فجأة من النقيض إلى النقيض. وهذا مسرح ليس له نظير في العالم، تذكرت الآن، أنه يشبه «والَسْ

بيري» ذلك الممثل الموهوب. كان يمثل أدوار الثوار في أفلام عن أمريكا اللاتينية، وأحياناً يمثل دور تاجر سلاح، يبيع السلاح للطرفين المتقاتلين.

يكون رقيقاً جداً أحياناً، معتدلاً في رأيه ينادي بالتعاون مع الولايات المتحدة ودول الغرب عموماً، يسعى إلى «التعايش السلمي» - وأظن خريتشوف هو الذي ابتكر ذلك التعبير. ثم ما يلبث أن يتحول فجأة إلى حيوان شرس حاد الأنياب. ولم يكن يفعل ذلك اعتباطاً، بل بحساب وتدبير. كان مسرح الأمم المتحدة في تلك الدورة حافلاً بممثلين لا يستهان بهم، أما هذا فقد كان شيئاً مختلفاً، نمطاً لم يعرف الناس مثيله من قبل، ولعلهم لن يروا نظيره من بعد.

ظن كثيرون أنه عزم على تحطيم الأمم المتحدة، فقد اتهمها بأنها تخضع لسيطرة الولايات المتحدة ودول الغرب، وحمل حملة ضارية على الأمين العام «داج همرشولد» واتهمه بأنه يسخّر المنظمة لخدمة سياسات دول الغرب، وقال إن الاتحاد السوفياتي لم يعد يثق فيه.

بعد أكثر من عشرين عاماً، شهدت في باريس مسرحية مماثلة حين اتهمت الولايات المتحدة مدير عام منظمة اليونسكو، أحمد مختار أمبو، بأنه يوجّه المنظمة لخدمة سياسات تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة. وذهبت أبعد، فانسحبت من المنظمة وجرّت وراءها بريطانيا.

لم تكن الولايات المتحدة عادلة في اتهامها، ولا كان الاتحاد السوفياتي. ولكنه منطق القوة، إذا بدا أن كفة الميزان أخذت تميل. وكان خريتشوف في تلك الدورة، يطالب أحياناً بنقل مقر الأمم

المتحدة من نيويورك، وأحياناً يهدد بأن الاتحاد السوفياتي سوف ينسحب ويقيم منظمة جديدة لا تخضع لسيطرة الغرب، وأحياناً يطالب أن يكون منصب الأمين العام، «ترويكا» من ثلاثة أشخاص مثل العربات الرومانية التي تجرّها ثلاثة خيول.

كان صراعاً بيّناً، كما حدث طوال التاريخ، بين قوتين عظميين، كل منهما، تريد أن يستتب لها الأمر. وزعماء معسكر (عدم الانحياز) هؤلاء، صحيح أن كل زعيم منهم له مواهب لا تخفى، ويمثل جزءاً من العالم لا يستهان به. ولكنهم في نهاية الأمر، يحاولون أمراً مستحيلاً. أن يقيموا لأول مرة في تاريخ البشرية، نظاماً عالمياً لا يخضع لمنطق القوة. استتبّ الأمر طوال التاريخ، إمّا بتوازن القوى، وإما بغلبة قوة واحدة. هكذا كان السلم الروماني، الـ (باكسْ رومانا) والسلم العربي، (باكس أرابكا) ـ من يصدّق اليوم أن العرب فرضوا نظاماً عالمياً في يوم من الأيام؟ ـ والسلم السوفياتي (باكس سوفيتكا) والسلم الأمريكي (باكس أمريكانا).

لا غرابة، أن الأمريكان والسوفيات، كانوا ينظرون إلى زعماء (عدم الانحياز) باحتقار واضح أحياناً، ومستور أحياناً. وكان احتقار الرفيق نكيتا سيرقيفتش لأولئك الزعماء لا يكاد يخفى.

كتم غيظه بصعوبة ذات مرة، وهو يستمع إلى توبيخ الزعيم الغيني (سكتوري) له، كانت الصحافة الأمريكية تصف (سكتوري) بأنه شيوعي، وأنه يخضع لإرادة الاتحاد السوفياتي، غير مكترثة بأنه كان يخرج من جلسات الجمعية العمومية بانتظام لأداء فريضة الصلاة. كان رجلاً حسن السمت في زيّه الأبيض، يجلس في اعتداد واضح بنفسه بين وفده من رجال ونساء، ألوانهم بين خضرة الزنج وسمرة

العرب. أجّل سفره، لأن خريتشوف أخرجه الغضب عن طوره في جلسة مسائية، بسبب قضية الكونغو. كان سكتوري أول متحدث في جلسة الصباح، فألقى خطبة أدهشت الناس لجرأتها، قرّع فيها خريتشوف بعبارات حادة، وقال:

«إن الدول الأفريقية ودول العالم الثالث ليست لعباً تلعب بها أي من الدول الكبرى كيف تشاء».

كتم خريتشوف غيظه لأنه كان يعلم أن (سكتوري) مهما كان، فهو ليس أكثر من رئيس لدولة أفريقيّة فقيرة لا تقاس بجبروت الاتحاد السوفياتي في ميزان القوة. لم يردّ على (سكتوري) وترك الأمريكان ودول الغرب يهللون له على غير عادتهم، ويستمرئون مذاق الانتصار على الاتحاد السوفياتي.

قبل ذلك في جلسة المساء، حدثت تلك الحادثة الشهيرة، حين تجرأ خريتشوف جرأة لا مثيل لها في تاريخ التعامل بين الدول، فخلع حذاءه وضرب به المنضدة أمامه وصرخ بعبارات روسية كان واضحاً أنها شتائم. كان ذلك بسبب شيء قاله رئيس وزراء بريطانيا عن قضية الكونغو. توقف (هارولد ماكملان) عن الكلام، ووضع السماعات على أذنيه، وقال ببراءة مصطنعة، وعلى وجهه تلك الابتسامة الغامضة:

«إنّني أنتظر ترجمة ما تفضّل به رئيس وفد الاتحاد السوفياتي».

الذي قاله الرفيق نكيتا سيرقيفتش، بلغ حدّاً من السوقية والبذاءة جعل المترجمين بجميع اللغات يتحرجون عن ترجمته. وسألت

زميلي «مستر غولد بيرج» مراسل الإذاعة العالمية بهيئة الإذاعة البريطانية، وكان مهاجراً من أصل روسي، وكان شديد الكراهية للاتحاد السوفياتي، فشرح لي العبارة وقال:

«هذا رجل صعلوك لا يستحق أن يدخل هذا المكان».

كان خريتشوف بالفعل، شاذاً في ذلك المكان حيث تعوّد الناس على العبارات المرتبة والشتائم المهذبة. هذا كان شيئاً مختلفاً، كأنه طاقة فجّة من طاقات الطبيعة، لا تدري متى تعصف ومتى تهبّ.

ربما لأجل ذلك انجذب إليه الصحافيون، خاصة الأمريكان، فكانوا يهرعون إلى القاعة كلما تحدث، ويتبعونه حيثما ذهب.

قال لهم مرة:
«بما أننا نعرف كل شيء عن جواسيسكم وأجهزة مخابراتكم، وأنتم كذلك تعرفون كل شيء عن جواسيسنا عندكم، فلماذا لا نوحد جهودنا بدلاً من تبديد الموارد وإضاعة الجهد؟».

اتضح فيما بعد، أنه كان يعني ما يقول بأسلوبه العجيب، وأنه لم يكن يمانع في الوصول إلى تفاهم بين القوتين العظميين، يقتسمان بموجبه مناطق النفوذ في العالم، فلا تتعدى أي منهما على نفوذ الدولة الأخرى. ولكن الأحداث قد برهنت أن الأمريكان كانوا يطلبون ما هو أعظم، ولعلّهم حصلوا عليه، فالعالم يشهد الآن، ولو إلى حين زمان الـ (باكس أمريكانا).

سأل صحافي أمريكي خريتشوف عن تقييمه لما أنجزته تلك الدورة

للجمعية العمومية فأجاب ضاحكاً:
«كنت في شبابي أعمل حطّاباً في جورجيا. كنت أعرف آخر اليوم ماذا أنجزت، من كمية الحطب الذي قطعته. أمّا هنا، فكيف تقيس الإنجاز؟».

■ ■ ■

صعبٌ أن تجد رجليْن أكثر اختلافاً من هذين الرجليْن، اللّذين رمتهما الأقدار، واحدهما إزاء الآخر، في ساحة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٠ - نكيتا خريتشوف، وداج همرشولد. الأول كأنه شخصية في رواية من روايات «دسْتويفسكي». الطبع الروسي المتأجّج، والأحاسيس الحادة المتقلبة. الذكاء والصراحة والمكر، والطيبة والقسوة. والثاني كأنه خرج من مسرحية من مسرحيات «أبسن». القتامة الإسكندنافية، وضبط النفس، وتقديس الجهد في حد ذاته، والصراع بين نوازع النفس البشرية ومتطلبات المثل العليا، والشعور بالذنب من جرّاء محاسبة الذات بلا هوادة.

كان همرشولد من خلاصة الصفوة الإسكندنافية، من عائلة سويدية عريقة، تعلّم في جامعة «أبسالا»، حيث درس الأدب والفلسفة والقانون والاقتصاد. اشتهر بثقافته الواسعة وطاقته الذهنيّة الهائلة وكفاءته في الإدارة. تقلّب في المناصب إلى أن أصبح الرجل الثاني في وزارة الخارجية السويدية.

لكنه لم يكن معروفاً خارج السويد، وحتى اسمه الذي يعني «درع الحديد» كان ثقيلاً على اللسان أول مرة. ولما اقترحه الإنجليز

والفرنسيون عام ١٩٥٣ خلفاً لـ«ترجفي لي» النرويجي، تعجّب كثير من الناس، ولم يكن حتى الأمريكان قد سمعوا به. لكنهم لم يمانعوا في ترشيحه أميناً عاماً للأمم المتحدة، ورضي به السوفيات في غمرة فترة الانفراج القصيرة التي أعقبت موت ستالين.

اتخذ مجلس الأمن قراراً بترشيحه دون علمه، ولمّا عُرض المنصب على همرشولد تردّد في قبوله ثم قبل على مضض.

قال له «ترجْفي لي» يخوّفه من صعوبة المهمّة:
«إن مهمة الأمين العام للأمم المتحدة، هي أشق مهمّة في العالم، ويكاد النجاح فيها يكون مستحيلاً. سرعان ما يكتشف أي أمين عام ذلك، إذا هو أراد أن يؤدي مهمته كما تصورها ميثاق سان فرانسيسكو. وإذا كان فهمه للمنصب كما أفهمه أنا، فإنه سوف يجد أن من المستحيل عليه أن يتجنّب إغضاب دولة من الدول الكبرى أو الدول الصغرى. سوف يكون هدفاً للنقد من اليمين واليسار والوسط. وإذْ إن الأمين العام يخدم الأمم المتحدة ككل فلا سبيل أمامه إلا أن يُضحي بنفسه في سبيل إيجاد حلول عادلة».

وجد همرشولد كلّ ما تكهن به «ترجفي لي». وجد نفسه في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٠ يقف في الجمعية العمومية يواجه قاعة مكتظة ليعلن قراره، هل يبقى في منصبه أو يستقيل. ويتوقع كثير من الحاضرين ومنهم الرفيق نكيتا سيرقيفتش أن يقدّم همرشولد استقالته.

قبل همرشولد المنصب عام ١٩٥٣ دون حماسة، وقال في أول خطاب له أمام الجمعية العمومية بعد أن أدى القسم:

«المهمة التي أمامنا هي التصالح والواقعية والبناء».

وختم خطابه ببيت من الشعر لشاعر سويدي:
«أعظم صلاة يتوجّه بها الإنسان، ليست التي تطلب النصر، ولكن التي تطلب السلام».

ولكن أحداث الكنقو، والصراع الشرس للدول الكبرى على السيطرة، سرعان ما كشف له، أن السلام مطلب عسير.

يستمد الأمين العام للأمم المتحدة سلطاته من المادة السابعة في الميثاق التي تجعل الأمانة العامة مساوية للجمعية العمومية ومجلس الأمن ومجلس الوصاية والمجلس الاقتصادي والاجتماعي. وينص البند ٩٧ على أن الأمين العام «هو المسؤول الإداري الأول في المنظمة». وينص البند ٨٦ على أن الأمين العام، إلى جانب صلاحياته المنصوص عليها «يقوم بأي مهمة تكلفه بها أي من تلك الهيئات».

فوق ذلك، فإن البند ٩٩ يعطي الأمين العام الحق في أن يلفت نظر مجلس الأمن إلى أي وضع في العالم قد يهدد السلام والأمن، وأن مجلس الأمن لا يحق له أن يرفض النظر في أي موضوع يرفعه إليه الأمين العام حسب نص تلك المادة.

استغل همرشولد هذا النص استغلالاً واسعاً خلال سنوات عمله، مما أغضب عليه بعض الدول أحياناً، وخاصة الاتحاد السوفياتي. وقد وجد أنه يستطيع أن يحرك كل جهاز الأمم المتحدة بناء على تفسيره الخاص لما يمكن أن «يهدد السلام والأمن»، وأن يتخذ كل الخطوات التي يراها هو مناسبة للتأكد أن وضعاً ما «يحتمل أن يهدد الأمن».

وقد أرسل مراقبين دوليين إلى «لاوس» مثلاً دون تخويل من مجلس الأمن، مما أغضب عليه الاتحاد السوفياتي.

كان همرشولد في رأي المعجبين به «رمزاً أخلاقياً ونفوذاً ذا هيبة طاغية». وقد حوّل منصب الأمين العام بالفعل إلى دائرة نفوذ أوسع بكثير مما أرادته الدول الأعضاء، وخاصة الدول الكبرى. حدث ذلك بسبب تفوقه العقلي الواضح وطاقته الهائلة على العمل. وأيضاً بسبب توازن القوى السياسية في العالم، الذي أحدث شللاً في المنظمة وأصبح الأمين العام في حالات كثيرة، الجهة الوحيدة القادرة على الحركة.

كانت مغامرة جريئة انتهت بالفشل في الكنغو.

كان همرشولد يصف دوره قائلاً:
«السياسة والدبلوماسية ليست قضية مهارة في اللعب لا صلة لها بمواقف اللاعبين. النتائج لا تحددها المقدرة السطحية، ولكن يحددها عمق الالتزام بالمبادئ. إن النجاح السهل يحققه المهرجون، أما النتائج التي تبقى وتصمد، فلا بد لها من شخص يبني بعزيمة وصبر».

وكان يقول إن ولاءه للمجتمع الدولي ككل يحتّم عليه أن ينزع كل ولاءاته الأخرى حتى ولاءه لوطنه ويضيف:

«كيف يستطيع شخصٌ ما أن يفعل هذا دون أن يفقد المقومات الروحية التي يكتسبها الإنسان من انتمائه لبلد بعينه؟ الإجابة هي، أنه إذا فعل هذا، واعتمد على إمكاناته الذاتية، فسوف يجد

بديلاً... وطناً في كل مكان. سوف يجد الأبواب مفتوحة أينما ذهب».

■ ■ ■

ليس جديداً هذا الموقف الذي يقفه (داج همرشولدْ) اليوم في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٠، فقد كاد يستقيل من قبل، في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٦. المشكلة اليوم هي قضية الكنقو التي يتعرّض بسببها إلى هجوم مركّز من الاتحاد السوفياتي الذي يجلس حاكمه الفعلي إزاءه في هذه اللحظة في قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة ينظر إليه شزراً. ومنذ أربع سنوات، قامت دولتان كبيرتان، وعضوان دائمان في مجلس الأمن، بعدوان صريح على دولة من الدول الأعضاء، اعتبره الأمين العام بمثابة ضربة مخربة لكل المساعي التي بذلها لتحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط.

كان همرشولد بحكم تكوينه الفكري والثقافي أقرب ما يكون إلى بريطانيا وفرنسا. كان يتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية، متعمقاً في آدابهما، محباً للشاعر الفرنسي «سانْ جون بيرس» وصديقاً حميماً للشاعر الإنجليزي «دبليو أتش أودن». في لندن أو باريس، يحيط نفسه بالشعراء والفنانين والكتّاب والمفكرين، ويحس كأنه في ستوكهولم.

أيضاً كان يحمل بعض الإعجاب لرئيس وزراء إسرائيل «ديفيد بن غوريون» ويرى فيه مثلاً للزعيم الفيلسوف الذي يجمع بين الفكر والعمل، وكان يحب أن يتحدث معه في التاريخ والفلسفة،

ويحاوره في أفكار الفيلسوف اليهودي «مارتن بوبر» الذي كان همرشولد معجباً به.

أما في الجانب العربي، فقد كان بينه وبين الرئيس جمال عبد الناصر، احترام متبادل، ولكن علاقتهما كانت متحفظة من الجانبين، ينقصها الدفء، فقد كانت مشاربهما واتجاهاتهما الفكرية مختلفة، كان أميل إلى الدكتور محمود فوزي، وزير خارجية مصر يومئذ. كان يحب فيه صفاء ذهنه، وهدوء طبعه، ومهاراته في فن الدبلوماسية. وكان أيضاً يؤثر المنجي سليم، وزير خارجية تونس، وعمر عديل، مندوب السودان. وكان معروفاً أنه لم يكن يمانع أن يخلفه في منصب الأمين العام واحد من هؤلاء الثلاثة، وخاصة محمود فوزي.

كانت صدمة كبيرة لهمرشولد حين هاجمت إسرائيل مصر في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٦، وفي الوقت نفسه بدأت بريطانيا وفرنسا هجوماً جوياً على المطارات المصرية والقواعد العسكرية المصرية، وبدأت قواتهما تتحرك نحو مصر. كانت حُجة إسرائيل هي القضاء على معسكرات الفدائيين على الحدود بينها وبين مصر، وكانت ذريعة بريطانيا وفرنسا هي «الفصل بين القوّتين المتحاربتين على ضفتي القناة».

كان واضحاً منذ البداية، وتأكد ذلك فيما بعد، أنه كان ثمّة تواطؤ بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا، فقد كان الهدف واحداً، عبّر عنه رئيس وزراء بريطانيا، أنتوني إيدن، صراحة في رسالة وجهها إلى الرئيس الأمريكي، أيزنهور، بتاريخ ٦ أيلول/سبتمبر عام ١٩٥٦ جاء فيها: «إننا مقتنعون بأن الاستيلاء على القناة، ما هو إلا الرمية الأولى، في حملة مدبرة، خطط لها عبد الناصر للتخلص من النفوذ

الغربي جُملة، وطرد المصالح الغربية من البلاد العربية، وهو يؤمن بأنه إذا نجح هذه المرة، متحدياً ثماني عشرة دولة، فإن نفوذه في البلاد العربية، سوف يبلغ حداً يمكّنه من تأجيج ثورات يقودها ضبّاط شبّان... ونحن نعلم من مصادرنا المشتركة أنه يدبر بالفعل لثورة في العراق، الذي هو أكثر الدول العربية استقراراً وتقدمية. سوف تكون الحكومات الجديدة في واقع الأمر، خاضعة لمصر، إن لم يكن لروسيا. سوف يكون لزاماً عليهم أن يضعوا مواردهم البترولية تحت سيطرة دولة عربية موحدة بزعامة مصر وخاضعة للنفوذ الروسي. وحين يجيء ذلك الوقت، فسوف يمنع عبد الناصر البترول عن أوروبا الغربية وسوف نكون جميعاً تحت رحمته...».

كان العراق أقرب الدول العربية إلى بريطانيا، وأكثرها صداقة لها. ورغم ذلك، اضطر الأمير عبد الإله، حين قامت الحرب، أن يكتب إلى إيدن محذراً، وقال:

«إن (غزو بريطانيا لمصر) وضع أصدقاء بريطانيا ـ وأنا أعد نفسي واحداً منهم. في وضع حرج إزاء الرأي العام في العالم العربي وفي العراق».

وقد أبلغ الوصي، السفير البريطاني في بغداد، أن الحكومة العراقية لن تستطيع أن (تسكت) أكثر من أسبوع واحد، ولا بد أن موقف العراق قد أدهش أيدن، الذي كان يتوقع منه تأييداً مطلقاً، غير مدرك، رغم دراسته للغة العربية، أن ثمة حدوداً لا يملك أي حاكم عربي أن يتجاوزها، مهما بلغ منه العداء لحاكم عربي آخر، فكتب إلى عبد الإله، مستنداً إلى حُجج أخرى غير التي قدّمها للرئيس الأمريكي:

«أؤكد لك تأكيداً قاطعاً أن الهدف الوحيد لتدخل القوات البريطانية، هو إيقاف الحرب بين إسرائيل ومصر وضمان القناة (حرية الملاحة). ونحن مقتنعون بأن وجود قواتنا في مواقع هامة، هو وحده الكفيل بتحقيق هذا الهدف. وتدلّ كل المعلومات التي وصلت إلينا، أن إسرائيل قد ألحقت بمصر هزيمة ماحقة، وأن العمل الذي قمنا به هو وحده الذي أنقذ مصر من حدوث مزيد من الكوارث، وقد علمنا أن القوات الإسرائيلية، سوف تستجيب لطلبنا بألا تقترب من القناة إلى مسافة أكثر من عشرة أميال، مع العلم بأن أبواب مصر، حتى القاهرة نفسها، مفتوحة على مصاريعها أمامها. هذا على الأقل، يُعتبر مكسباً، وأرجو أن يتضح قريباً للعالم، أن عملنا هو وحده الذي حقق هذه النتيجة، وبمجرد أن نحتل المواقع الهامة على القناة فسوف نطلب من الإسرائيليين الانسحاب من الأراضي المصرية..».

لكن الذي أقلق أيدن أكثر من تحذيرات العراق، كان عاصفة الاستنكار التي هبّت في وجهه من أقرب الدول إلى بريطانيا في الكمنولث، رابطة الشعوب البريطانية، فقد أرسل إليه رئيس وزراء سيلان معرباً عن إحساسه بـ «الصدمة والانزعاج» لتدخل بريطانيا ومطالباً بـ «الانسحاب الفوري». وكتب جواهر لآل نهرو رسالة مهذبة ولكنها تتضمن سخطاً واضحاً، ختمها قائلاً:

«إنني عبّرت عن شعوري بوضوح وصراحة لأنني أعتقد أن هذا هو الأسلوب الذي يجب أن يتخذه الصديق نحو صديقه. وإذا لم يوضع حد لهذه الأعمال الخاطئة، فإن المستقبل سوف يكون فيما يبدو لي، مظلماً جداً».

كذلك عبرت كندا ونيوزيلنده عن سخطهما، وحتى روبرت منزيس رئيس وزراء أستراليا، الذي كان قريباً جداً من السياسة البريطانية، لم يجد بدّاً من أن يكتب إلى أيدن معرباً عن حزنه لما وصفه بـ «الصراع الواضح في مجلس الأمن بين بريطانيا وفرنسا من جانب والولايات المتحدة من جانب آخر» وأضاف قائلاً:

«يجب ألا تشك لحظة في ولاء هذا البلد لبريطانيا. ورغم ذلك أجد لزاماً عليّ أن أطلب منك أن تبذل كل جهدك، بشتى السبل، للوصول إلى تفاهم مع الولايات المتحدة آخذاً بعين الاعتبار أن أعداءنا سوف يعتبرون الانشقاق في صفوف المعسكر الديموقراطي، أعظم انتصار أحرزوه في الحرب الباردة».

بيد أن الدول الثلاث، بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، كانت رغم ذلك، مصممة على بلوغ هدفها المشترك ـ تحطيم القوة العسكرية والمعنوية المتزايدة لمصر، ومنع قيام أي نوع من الوحدة العربية، لا سيما وحدة تتزعمها دولة «ثورية». لكن من سوء حظ إيدن بالذات، أن الولايات المتحدة لم تكن طرفاً في اللعبة، ولم تكن موافقة عليها. وغريب أن إيدن لم يدرك ذلك باكراً فقد أوفد إليه الرئيس أيزنهاور عدداً من المبعوثين، منهم وزير الخارجية (جون فوستر دالس) وكتب له عدّة مرّات، يحذره مغبّة العمل الذي ينوي القيام به. وقد كتب له في ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٥٦ يقول:

«استعمال القوة العسكرية ضد مصر في هذه الظروف، سوف تكون له نتائج أخطر من دفع العرب إلى تأييد عبد الناصر. سوف يُحدث ذلك خلافاً عميقاً بين بلدينا، ولا بدّ أن أخبرك بصراحة، أنه إلى الآن، لا يوجد أي اتجاه في الرأي العام الأمريكي لتأييد عمل كهذا،

بل إن الأمر المحسوس في الرأي العام، هو الاعتقاد أن الأمم المتحدة قد أنشئت أصلاً للحيلولة دون حدوث مثل هذا العمل.

لذلك، فإننا تابعنا بقلق تحركاتكم للقيام بعمل عسكري ضد مصر. ونحن نعتقد أن عبد الناصر قد يلجأ إلى الأمم المتحدة مطالباً إياها شجب هذه الأعمال واعتبارها عدواناً، وأنها تنطوي على رفض للوسائل المتاحة لحل النزاع حلّاً سلمياً...

إنه يبدو لنا ـ فوسْتر وأنا ـ أن الهدف الذي نسعى إليه، نحن وأنتم، يمكن الوصول إليه بوسائل أبطأ وأقل إثارة من استعمال القوة العسكرية. توجد مجالات واسعة للعمل، لم ندرسها دراسة كاملة، لأن ذلك سوف يأخذ وقتاً.

إن عبد الناصر يتألق ويزداد حيوية بالإثارة. إذا صبرنا عليه حتّى تخف عناصر الدراما، وركزنا على تفريغه من الهواء بوسائل قد تكون بطيئة ولكنها مضمونة، كالتي ذكرتها، فإنني واثق بأننا سوف نصل إلى النتائج المطلوبة».

أما الأمين العام للأمم المتحدة، داج همرشولد، فقد وجد في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٦، أن الهجوم الثلاثي على مصر، قد سدد ضربة كادت تقضي على كل آماله في إيجاد حل عادل لقضية الشرق الأوسط ـ أي قضية فلسطين.

■ ■ ■

كان (داج همرشولد) يشعر بغير قليل من الرضى في ربيع عام ١٩٥٦. كان قد نجح إلى حد كبير في تهدئة الأمور على امتداد خطوط الهدنة بين إسرائيل والدول العربية، وخاصة مع مصر. كان

يحس أنه نجح في خلق «حالة نفسية» إيجابية يستطيع أن يستثمرها لتوجيه المنظمة لإيجاد حل عادل لقضية الشرق الأوسط.

ظنّ همرشولد، وكثير من الناس حينئذ، أن منظمة الأمم المتحدة، أخذت تتشكل كقوة جديدة، لا تخضع لطموحات الدول الأعضاء، وخاصة الدول القوية، قوّة معنوية هائلة، يسندها الرأي العام في العالم، يمكن أن تنجح إذ فشلت عصبة الأمم في إقامة نظام عالمي مستقر، لا يخضع لمنطق القوة، ولكن لمنطق العدل والمساواة. لذلك كان يقول بكثير من التفاؤل:

«تستطيع الدول، بقليل من التبصّر، أن تستخدم المنظمة لمحاولة إيجاد حلول للقضايا الكبيرة في العالم، بدلاً من محاولة حلّها بطريقة فردية. هذا سوف يقوّي المنظمة، ويجعلها بالتالي أقدر على معالجة قضايا السلام».

ثم، كأنما فجأة، بدا كما لو أن كل جهود الأمين العام قد ذهبت سدى، ففي يوم الإثنين ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر، شنّت إسرائيل هجوماً عسكرياً واسع النطاق على مصر، وأعلنت أن قواتها اكتسحت سيناء «للقضاء على قواعد الفدائيين».

لم يكن الحدث مستغرباً تماماً، فمنذ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة في ٢٦ تموز/يوليو عام ١٩٥٦، كردّ فعل مباشر لسحب أمريكا عرضها لتمويل السد العالي، أخذت بريطانيا وفرنسا تخططان لتدخل عسكري في مصر.

اتضح فيما بعد، أن بريطانيا وفرنسا، بينما كانتا تحاولان في الظاهر

التوصل إلى حل من خلال منظمة الأمم المتحدة، كانتا تعملان سراً بالتواطؤ مع إسرائيل، على فرض إرادتهما بالقوة على مصر.

لم يكن همرشولد يعلم حينئذ، أن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وقعت في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر اتفاقاً سرياً في Sevres في فرنسا ينصّ على ما يلي:

«في عصر يوم ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر تشن القوات الإسرائيلية هجوماً واسعاً على القوات المصرية.

في يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر توجه الحكومتان البريطانية والفرنسية، نداء إلى مصر لوقف إطلاق النار وقفاً تاماً، وسحب قواتها إلى مسافة عشرة أميال غربي القناة، وأن تسمح للقوات البريطانية ـ الفرنسية المشتركة، أن تحتل بصفة موقتة، مواقع رئيسية على القناة.

في الوقت نفسه، يوجه نداء للحكومة الإسرائيلية لوقف إطلاق النار، وسحب قواتها إلى مسافة عشرة أميال شرقي القناة.

إذا رفضت أي من الحكومتين، أو لم تُعط موافقتها خلال أربع وعشرين ساعة، في تلك الحالة، تتدخل القوات البريطانية ـ الفرنسية. وإذا لم تستجب مصر للنداء، فإن القوات البريطانية ـ الفرنسية، تبدأ الهجوم في وقت مبكر من يوم ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر.

وعدت إسرائيل ألا تهاجم الأردن، وإذا هاجم الأردن إسرائيل فإن

بريطانيا لن تكون ملزمة بنص المعاهدة بينها وبين الأردن لمساعدته، لأن المعاهدة تلزم بريطانيا فقط في حالة اعتداء إسرائيل على الأردن.

تحتل القوات الإسرائيلية الساحل الغربي لخليج العقبة وتُحكم سيطرتها على خليج تيران».

في اليوم نفسه ـ أي يوم ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ـ عرض (أنتوني إيدن) الخطوط العامة للخطة على مجلس الوزراء البريطاني، دون أن يكشف لهم ما اتفق عليه في Sevres مع فرنسا وإسرائيل، وأضاف:

«يمكن الافتراض أنه في حالة حدوث هذه العملية، فإن إسرائيل سوف تقوم بهجوم شامل على مصر. هذا سوف يساعد على اختصار فترة الهجوم الجوي (من القوات البريطانية ـ الفرنسية). الهدف الثاني من العملية هو ضمان سقوط نظام الكولونيل عبد الناصر في مصر».

لم يكن همرشولد على علم بكل هذا، لذلك حين بدأ الهجوم الإسرائيلي على مصر، أصيب بصدمة عنيفة، وكان غاضباً أشد الغضب حين اجتمع عشية ذلك اليوم مع (كابوت لُدْج) مساعد وزير الخارجية الأمريكي الذي أبلغه غضب الرئيس آيزنهاور لما حدث، وطلب منه أن يدعو مجلس الأمن للانعقاد، فقال همرشولد إنه كان ينوي أن يفعل ذلك على أي حال.

اجتمع مجلس الأمن يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، واستمر الاجتماع إلى وقت متأخر من الليل، قوي اعتقاد الأمين العام بتواطؤ

بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل، حين استعملت الدولتان حق الفيتو ضد قرار مجلس الأمن الذي يطلب من إسرائيل وقف القتال فوراً.

قضى همرشولد الليل ساهراً يحاول أن يحدد موقفه. وفي بداية اجتماع المجلس في اليوم التالي ٣١ تشرين الأول/أكتوبر قرأ بياناً كتبه بيده، ينطوي على تهديد واضح بالاستقالة، قال فيه:

«الأمين العام يخضع لنصوص الميثاق ومبادئه. وهو لا يستطيع أن يؤدي واجباته، إلا إذا أوفت الدول الأعضاء بكل العهود التي قطعتها لاحترام الميثاق بكل نصوصه».

ثم أضاف:
«إذا كانت الدول الأعضاء تعتقد أن مصلحة المنظمة تقتضي أن تكون واجبات الأمين العام بخلاف ما ذكرت، فعليها في هذه الحالة، أن تفعل ما تراه مناسباً على ضوء اعتقادها هذا».

أدرك كل من يعنيهم الأمر، خاصة بريطانيا وفرنسا، أن استقالة الأمين العام في تلك الظروف، سوف تواجههم بوضع لا قبل لهم به، ويكون بمثابة احتجاج سوف يجد تأييداً واسعاً من الرأي العام في العالم. لذلك سارعوا جميعاً إلى تأكيد ثقتهم به، والتمسك باستمراره في منصبه.

سوف تختلف المواقف ويختلف الممثلون في عام ١٩٦٠، ولكن جوهر القضية لن يتغيّر ـ الصراع الأزلي بين ما تظن الدول، خاصة القوية منها ـ أنه يخدم مصلحتها، وبين متطلبات نظام عالمي يقوم على العدل والأخلاق والمثل العليا.

■ ■ ■

خرجت منظمة الأمم المتحدة من «أزمة السويس» كما خرج أمينها العام «داج همرشولد» أكثر قوّة ونفوذاً. حدث ذلك لأن القوتين العظميين في العالم الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، كانتا متفقتين. القضية واضحة بالقياس إلى أزمة الكنغو فيما بعد. في جانب وقفت دولتان كبيرتان، أخذ نجمهما في الأفول، تتشبثان بتلابيب مجد غابر، تحاولان محاولة يائسة إثبات قوتهما باستعمال «ديبلوماسية البوارج». وفي الجانب الآخر وقفت القوتان الوليدتان ومعهما كافة القوى الحديثة في العالم، والرأي العام العالمي.

كانت محاولة يائسة بحق. والإنسان اليوم يعجب حين يعيد قراءة تاريخ تلك الحقبة، كيف أن دولتين عريقتين في فن السياسة والحكم لجأتا إلى تلك الحيلة التي ما كان لها أن تنطلي على أحد، فرنسا التي أنجبت ريشليو وتاليران وكلمنصو. وبريطانيا «العظمى» التي أنجبت لورد قريي ولورد هلفاكس ولويد جورج. ولا بد أن إيدن وريث هؤلاء الدهاقنة، شعر بمرارة شديدة، وهو يتلقى الدروس في فن الدهاء السياسي، من آيزنهاور، رئيس الدولة التي كانت مستعمرة بريطانية إلى عهد ليس بالبعيد.

الأمر في جوهره، كان وما يزال، كما قال ذلك الحبر البريطاني «لورد برايرلي»:

«القانون الدولي ليس إلا عباءة تستر أوضاعاً نشأت بالقوة».

كذلك قال الأثينيون لأهل «ميلوس» في القرن الخامس قبل الميلاد:

«... أما فيما يتعلق بالحق والباطل، فليس ثمة فارق بينهما في نظر

الناس. الذين احتفظوا باستقلالهم إلى الآن، استطاعوا ذلك لأنهم أقوياء.. والذين لم نهاجمهم، لم نهاجمهم لأننا نهاب قوّتهم. إن فرض سلطاننا عليكم، لن يضيف فقط إلى مساحة أمبراطوريتنا ولكنه أيضاً سوف يزيد من إحساسنا بالأمن، نحن نسيطر على البحر، وأنتم أهل جزيرة ولكنكم ضعفاء، ليس لكم من القوة ما للجزر الأخرى، لأجل ذلك يعنينا عناية قصوى ألّا تفلتوا من قبضتنا».

لا توجد صراحةٌ ولا صدق أكثر من هذا، أما ورثة أثينا ـ وروما ـ في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد حاولوا ستر سياساتهم بـ«عباءة» كما قال لورد برايرلي، ولكنها كانت عباءة ممزقة مهلهلة لا تكاد تستر عورة.

لماذا فعلت بريطانيا وفرنسا ذلك؟ لماذا لم تمضيا قدُماً كما فعل الأقوياء طوال التاريخ؟ لماذا البحث عن ذريعة؟

ربما لأن الدولتين لم تعودا قويتين بالفعل، أو لم تعد لهما القوة الكافية. تأكد ذلك حين شبت الحرب. السبب الثاني هو ظهور عنصر جديد في السياسة الدولية، ربما لا يكون واضحاً تماماً، ولكنه محسوس الأثر ـ ذلكم هو «الرأي العام». فيما بعد في حرب فيتنام أصبح الرأي العام قوة هائلة.

يبدأ ميثاق الأمم المتحدة بعبارة فيها أصداء واضحة من مقدمة دستور الولايات المتحدة «نحن شعوب الأمم المتحدة».

من كتب ذلك؟ وهل كانت الدول الكبيرة التي خرجت ظافرة من

الحرب العالمية الثانية، وأخذت المقاعد الدائمة في مجلس الأمن، وأعطت نفسها حق «الفيتو» ـ هل كانت هذه الدول تعني ما تقول حقاً؟

الأمين العام للأمم المتحدة، أخذ العبارة مأخذ الجد. إنه ابن السويد، الدولة التي لم تغرق في أوحال الاستعمار الأوروبي في أفريقيا وآسيا وأستراليا والقارة الأمريكية. وهي في النصف الثاني من القرن العشرين تقدم نموذجاً طريفاً، يعتبره كثير من الناس مخرجاً من غلواء الرأسمالية أو الشيوعية.

وهمرشولد إلى ذلك من صفوة نتاج التراث الأوروبي «الإنساني» ـ ذلك الوجه الآخر، الوجه المضيء للحضارة الأوروبية فيه شيء من روح الشعراء والفلاسفة، وكان بالفعل يكتب الشعر. مثلاً هذه الفقرة من خطاب له، يجد الإنسان فيها أثراً واضحاً من فكر الفيلسوف الفرنسي «تيلهارد دي شاردان»:

«السعي على هامش تطور المجتمع الإنساني، يعني السعي على حافة المجهول. سوف يظهر في المستقبل، أن كثيراً مما نبذله اليوم، عديم الجدوى. لكن ذلك لا يشفع لنا إذا نحن أحجمنا عن الفعل، حسب ما يمليه علينا إدراكنا، غير متغاضين عن قصور هذا الإدراك دون أن نفقد الإيمان بالنتيجة الحتمية للتطور الخلاّق الذي أسعدنا الحظ بالمساهمة في تحقيقه».

«التطور الخلاّق» وإذا شئت قلت «تراكم الإبداع» ـ ذلك ما كان يدعو إليه «دي شاردان»، ذلك الفيلسوف الزاهد، وقد كان همرشولد، أحد حواريّيه. إنما تاريخ الإنسانية إلى الآن، لا يدل على

أن «تراكم الإبداع» له أي تأثير على سياسات الدول، بعضها إزاء بعض. بل إن منطق القوة يسير في خط موازٍ لمنطق «الإبداع» ونادراً ما يلتقي معه. كان عبد الملك بن مروان رحمه الله، مع علمه وأدبه، يدرك ذلك تمام الإدراك، فقد كان من أوائل أساطين الـ«ريال بولتيك».

في عام ١٩٥٦، يبدو لهمرشولد على أي حال، أن الأمم المتحدة هي القوة المعنوية الجديدة، التي سوف تحدّ من غطرسة الدول، وتحمل طموحات الشعوب نحو السلام. وقد أسعده أن الأمريكان والسوفيات، بالتعاون الوثيق معه، استخدموا الجمعية العمومية، التي يصفها بعض الناس بأنها «مستودع ضمير الإنسانية». أغلقت بريطانيا وفرنسا الطريق في مجلس الأمن، فلجأوا إلى وسيلة كانت الولايات المتحدة قد ابتدعتها للتدخّل في كوريا باسم الأمم المتحدة، وأسمت ذلك «الاتحاد من أجل السلام». أصبح ممكناً بتلك الوسيلة تخطي مجلس الأمن والعمل بتفويض من الجمعية العمومية، على اتخاذ الخطوات اللازمة لصيانة الأمن والسلام في العالم.

هكذا خرج «همرشولد» منتصراً من أزمة السويس، إذ خرجت بريطانيا وفرنسا مضعضعتين. كانت مرحلة فاصلة بالنسبة لهما. أصبح واضحاً أنهما لم تعودا قوتين من الدرجة الأولى. لم تلبث فرنسا أن فقدت الجزائر، وكاد ينفرط عقدها لولا أن جاءها ديغول. وتنازلت بريطانيا عن دورها «شرقي السويس» للولايات المتحدة.

أما إسرائيل، «سبارطا» الشرق الأوسط، فإنها لم تخسر كثيراً. أذعنت للقوتين العظميين، وخاصة أمريكا، وانسحبت من سيناء، ظلّت تتربّص عشر سنوات، ثم أنقضت، بمفردها هذه المرة، بعد أن

حصنت نفسها وضمنت الولايات المتحدة إلى جانبها، والرأي العام في أوروبا وأمريكا. وكانت مصر قد أعطتها المبرر الـ Casus Belli كما يقولون على طبق من ذهب.

إن سلوك إسرائيل، ينبئ بوضوح أنها تعمل بوحي المبدأ القديم الذي حوّله الفلاسفة الألمان إلى مذهب محترم في السياسة ـ «الريال بولتيك». من هؤلاء «شبنجلر» الذي يبغضه اليهود بغضاً شديداً، فهو يقول:
«الدولة، كي تصير قويّة، لا بد لها من الدخول في صراعات مستمرة مع جيرانها».

إنهم يقولون، بمثل الصراحة التي خاطب بها الأثينيون أهل «ميلوس»:

«حدود إسرائيل تكون حيث تنتهي قوّة إسرائيل».

وحين يقيمون المستوطنات فوق أرض فلسطين فإنهم يعلمون أنهم لا يفعلون شيئاً جديداً. لقد كانت المستوطنات طوال التاريخ طلائع وضع اليد على الأرض بأكملها. ولا يحسون أنهم يحتاجون إلى أي مبرر «خلقي». كذلك فعل الغالبون من قبل. كذلك فعل الأثينيون منذ أكثر من ألفي عام.

■ ■ ■

لم يتحمّس زعماء دول الغرب لدعوة خريتشوف لهم لحضور دورة الجمعية العمومية للأمم المتحدة الخامسة عشرة المزمع عقدها في ٢٠

أيلول/سبتمبر عام ١٩٦٠. لم يكونوا قد نسوا بعد، كيف أن الزعيم السوفياتي «نسف» قمة باريس بينه وبين الرئيس آيزنهاور، منذ ثلاثة أشهر فقط. ولكن حين أبحر الرفيق نكيتا سيرقيفتش على السفينة السوفياتية «بولْتكا» قاصداً نيويورك، حاملاً معه زعماء بلغاريا والمجر ورومانيا، لم يجدوا بداً من إعلان نيتهم الحضور. واضطر الأمين العام للأمم المتحدة أن يصدر بياناً يرحب فيه بمقدم أولئك الرؤساء، لأنه «يهيئ الفرصة لتبادل الآراء على أرفع مستوى، بشأن القضايا الكبرى التي تواجه العالم».

اليوم، بعد مضي زمن على تلك الأحداث، يرى عدد من المؤرخين، أن خريتشوف لم يذهب لتحطيم الأمم المتحدة، ولا النظام العالمي القائم، ولكنه كان يريد الاعتراف بالوضع الجديد للاتحاد السوفياتي، كقوة كبرى موازية للولايات المتحدة وبقية دول الغرب. وربما جاز له يومئذ أن يحس بكل تلك الثقة. حقق الاتحاد السوفياتي انتصارات علمية واضحة، وأحرز مكاسب دبلوماسية في آسيا وأفريقيا، وفي أمريكا أعطته الثورة الكوبية الإحساس بأنه يزاحم الولايات المتحدة في عقر دارها. وقد اختار ساحة الجمعية العمومية، ميداناً لـ«حرب العصابات» الكلامية، التي شنّها دون هوادة.

لم يكن سعيداً وهو يستمع إلى خطاب الرئيس آيزنهاور، وأربدّ وجهه بوضوح حين قال آيزنهاور:

«إن الهجوم على الأمين العام، هو في الواقع هجوم على منظمة الأمم المتحدة نفسها».

ثم لمّا قال:
«ما سوف يحدث في الكنقو سيقرر مدى قدرة الأمم المتحدة على حماية الدول الحديثة العهد بالاستقلال في أفريقيا. ليس ذلك فحسب، ولكن قدرتها على حماية الدول الصغيرة إطلاقاً من العدوان».

كان ذلك ما يدعو إليه الأمين العام. كانت تلك هي الفلسفة التي يستند إليها في عمله. ولكن لعله تمنّى لو أن آيزنهاور لم يذهب إلى ذلك الحد، في تأييده، خاصة أنه ربطه بقضية الكنقو، التي يعلم همرشولد أنها تثير ثائرة الرفيق خريتشوف.

هذا، منذ وصل إلى نيويورك، وهو لا يكلّ عن مهاجمة الأمين العام. وفي خطابه في الجمعية العمومية في اليوم التالي لم يترك مجالاً للشك. قال إن الأمين العام منحاز «إلى معسكر الاستعماريين» وإن الأمم المتحدة لم تعد تعكس حقيقة الوضع في العالم؟ لا يوجد معسكران ولكن ثلاثة معسكرات. المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، ومعسكر الدول غير المنحازة. لذلك يجب إلغاء منصب الأمين العام، واستبداله بثلاثة أمناء «ترويكا» يمثل كل منهم قوة من القوى الثلاث.

قال همرشولد في رده «القضية لا تتعلق بشخص الأمين العام بل بالمؤسسة. صفْ منصب الأمين العام بأي كلمات تشاء ـ الاستقلال، الحياد، النزاهة. كلها صفات يجب أن يتصف بها الأمين العام.. وهذه الصفات، ربما تقوم عقبات في وقت من الأوقات، في سبيل أولئك الذين يهمهم تحقيق أهداف سياسية يصعب عليهم تحقيقها ما لم يتخلّ الأمين العام عن مبادئه».

وأضاف همرشولد أن كلام خريتشوف «يطرح موضوع الثقة في الأمين العام».

لم يتردد خريتشوف في إزالة أي غموض بهذا الصدد، فطلب حق الرد مباشرة، وقال:

«كي نتجنب أي لبْس أو سوء فهم، أريد أن أؤكد أننا لا نثق في مستر همرشولد ولا نستطيع أن نثق به. وإذا لم يجد هو الشجاعة الكافية للاستقالة بأسلوب الفرسان ـ إذا صح القول ـ فإننا سوف نستخلص النتائج التي يحتّمها مثل هذا الموقف».

بوسع الإنسان أن يتخيّل وقع هذه الكلمات. هذا الرجل الذي قد تقتحمه العين، ليس رجلاً عادياً. إنه زعيم ثاني أقوى دولتين في العالم، وتطالب أن يُعترف بها ندّاً للولايات المتحدة، الدولة الأولى. هل كان خريتشوف يعني ما يقول، أم أنه كان يمثل عمداً دوراً بغيضاً بمهارة عظيمة؟

في جلسة بعد الظهر، امتلأت القاعة بأعضاء الوفود والمراقبين والصحافيين. وازدحمت الأماكن المخصصة للجمهور. لم يبق موطئ لقدم، وكان كثيرون يتوقعون أن يعلن همرشولد عن استقالته.

تحدث بصوت خفيض هادئ، يخفي توتراً عظيماً. قال:

«إنني لو استقلت سوف ألقي بالمنظمة في مهب الرياح، في هذه الظروف الصعبة المملوءة بالمخاطر. إنه لا يحق لي أن أفعل ذلك (...) إنني أتحمل مسؤولية إزاء الدول الأعضاء كلها، الدول التي

تمثل المنظمة بالنسبة لها أهمية قصوى (...) الاتحاد السوفياتي ليس في حاجة إلى حماية المنظمة، ولا أي من الدول الكبيرة. الدول التي تحتاج إلى المنظمة هي الدول الأخرى. وبهذا المعنى فهي منظمة هذه الدول (الصغيرة) قبل كل شيء (...) سوف أبقى في منصبي إلى نهاية فترتي، خادماً للمنظمة، وحامياً لمصالح تلك الدول، طالما أرادت لي البقاء (...) لقد تحدث مستر خريتشوف عن الشجاعة. سهل جداً على المرء أن يستقيل. سهل جداً أن ينحني المرء لرغبة دولة كبيرة. إنما أن تقاوم، فذلك شيء آخر، وهو أمر يعلم أعضاء هذه الجمعية، أنني لم أتردد عن فعله مراراً...».

إنني أذكر جيداً الأثر البالغ الذي أحدثه هذا الخطاب، والتصفيق الذي قوطع به عدة مرات. ثم في النهاية حين وقف الناس وظلوا يصفقون ويهتفون زمناً. إلا الرفيق نكيتا سيرقيفتش. ظل جالساً مع جماعته، يضرب على المائدة بكلتا قبضتيه. مثّل دوره إلى آخر مداه.

في مساء اليوم التالي دعا خريتشوف همرشولد إلى حفل الاستقبال الذي أقامه في مقر الوفد السوفياتي في (بارك أفنيو). استقبله بحفاوة عظيمة، وقبّله وعانقه، وقال له ضاحكاً:

«لا تراهن على حصان الرأسمالية. إنه حصان خاسر. راهن على الحصان الرابح، حصان الاشتراكية».

٩

واشنطن

دخول الولايات المتحدة الأمريكية لحامل جواز سفر سوداني، أصعب من دخول الجمل في سم الخياط. لا عجب، فهي في نظرهم فردوس أرضي لا يسمحون بدخوله لكل من هبّ ودبّ. ونحن السودانيين في عهدنا السعيد هذا أصبحنا نثير الرعب. كأنّهم حسبوني من رسل (التوجه الحضاري)، جئتهم غازياً في عقر ديارهم، لأنسف المباني - على زعمهم - وأزرع المتفجرات في محطات المترو. أنا السوداني المسالم؟ بعد هذه السن؟ بعد كل تلك الأعوام من تحكيم العقل والدفع بالحسنى؟!

كانت سفارتهم في لندن قد أعطتني (الفيزا) دون صعوبة. وجدوا اسمي مسجلاً عندهم في الكومبيوتر، وأنهم كانوا قد أعطوني فيزا لسنة كاملة. كنت يومئذ مدعواً من جامعة (بوسطن) التي استغلت نفوذها لتسهيل أمر دخولي. وجدوا كل ذلك مسجلاً عندهم،

فناولتني الفتاة جوازي، وابتسمت في وجهي ابتسامة لا تصنّع فيها ـ على طريقة الأمريكان ـ وقالت لي بصوت قدّرت أنه من الجنوب:

«أتمنى لك إقامة طيّبة في الولايات المتحدة». لذلك لم أحفل أنهم يُنذرونك كتابةً، أن الحصول على الفيزا، لا يضمن لك دخول بلادهم، وأن القرار النهائي رهن بسلطات الجوازات في المطار الذي تقصد إليه.

رضيت ذلك منهم، كما رضيت من قبل الإجابة عن بعض أسئلتهم العجيبة في (الفورم) الذي تملؤه عند طلب الفيزا. هل أنت أو أي أحد من عائلتك عمل أو يعمل في الدعارة أو تجارة المخدرات؟

لا أعلم دولة في العالم غير الولايات المتحدة تسأل مثل هذا السؤال، ولا أدري إن كانت مواثيق حقوق الإنسان تبيح لهم ذلك.

قبل ذلك، بدأت كلمتي في جامعة (بوسطن) مازحاً ـ وكنت جاداً كالمازح ـ بالسخرية من تلك الأسئلة، بعدها جاءني عدد من الأمريكان الكرماء يعتذرون لي، وأفهموني أن وراء ذلك سبباً قانونياً، لأنك إذا أجبت بـ(لا) واتضح أنك ارتكبت شيئاً من ذلك، فإنه يحق لهم أن يخرجوك عن أرضهم دون اللجوء إلى القانون.

سرّوْا عنّي، ولكنني لم أفهم تبريرهم، وقلت هذا في طبيعة الـ(سوبر

باور)، تنهض على ساقين، إحداهما من ذكاء، والأخرى من غباء، وإذا طالت ساق الغباء عن ساق الذكاء، سقط العملاق. وقد يتمزّق إن كان من ورق. وقد يتهشم إن كان من فخّار. وقد يصطفق بعضه على بعض إن كان من صفيح. والأمر لله من قبل ومن بعد.

في مطار (دالاس) مشيت سادراً، أحمل جوازي الأخضر ـ جواز ثورة الإنقاذ ـ فإذا قبالتي يافطة تقول «مواطنو الأقطار التالية يذهبون إلى...» وكان بينها من الدول العربية: ـ ليبيا وسورية والعراق ولبنان... والسودان.

وأنا أتّجه إلى حيث أُمرت إذا برجل غريب الوجه واليد واللّسان، يخرج من عندهم غاضباً مكفهراً، علمت فيما بعد أنه أخ عراقي مدعو للمؤتمر نفسه الذي أنا مدعو إليه، وأنهم صنعوا معه ما سوف يحدث لي وشيكاً. وفي السودانيين شيء من طبع أهل العراق. من ذلك أنهم إذا لطفوا فكأنهم صبا نجد كما وصفه الشعراء، وإذا هاجوا... العياذ باللّه. وقد خبر ذلك منا الأتراك والإنجليز والحكومات الوطنية منذ عبّود والنميري. وقد يهتاجون بعد!

استقبلني موظف شاب وساقني إلى طاولة وأمسك بيديّ كلتيهما، يريد أن يغمسهما في حبر أمامه.

قلت له: ماذا تريد أن تفعل؟
قال بطلف وهو يبتسم/ نأخذ بصماتك.
«لماذا؟».

«أوامر من مصادر عليا. نفعل ذلك مع مواطني دول معينة. وأنا بصراحة لا أعرف الغرض؟».

«لكنني... العام الماضي في بوسطن لم يُطلب مني ذلك.. ثم..».

«عجيب».

«ثم إن سفارتكم في لندن لم تنذرني بأنني سوف أتعرّض لهذه المهانة وإلاّ لما جئت أصلاً».

كان الموظف أسود، أو (آفرو أمركان)، كما أخذوا ينادونهم، ولعلّه تخطى حدود الوقار الذي تفرضه وظيفته، فقال لي بلطف عظيم:

«يا أخي. هذه مجرد إجراءات لا تعني شيئاً. لا تزعج نفسك».

إنّما نفسي كانت قد انزعجت بالفعل، حلّ الغضب محل الدهشة، وسمعت صوتاً فيه أصداء من رعونة السودانيين الذين أحرقوا جيش إسماعيل باشا في (شَنْدي) وأبادوا جيش الإنجليز في (شيكان) يؤزّني أزّاً:

«يا زول!... أمريكا وأبو أمريكا!».

بلى. سوف آخذ أول طائرة إلى لندن. وأيش لهم عندي؟ لا أطلب منهم عملاً ولا إقامة. وكونهم (سوبر باور) أو (مقَا باور)... في ستين داهية».

بدأت أنكص على عقبيّ. ثم فجأة توقفت. استعذت باللّه من الشيطان الرجيم. وقلت أحكم العقل وأقبل بالأمر الواقع. هذه بلادهم وهذه قوانينهم. وأيضاً تذكرت الناس الذين ينتظرونني. تلك السيدة الفاضلة نادية حجاب التي كتبت لي من نيويورك وكلمتني مرات بالتلفون تلح عليّ. وقد جعلوني متحدثاً (رئيسياً) في حفل العشاء الذي يختمون به مؤتمرهم يجب ألا أخيب ظنهم.

أيضاً فكرت في مدينة واشنطن الجميلة والمسارح والمتاحف والمكتبات، والأمريكان الطيبين وراء تلك الأسوار، وهم كبقية الشعوب أكرم من سلطات جوازاتهم.

قلت فليكن. وما هي إلا ذلّة لحظات ثم تمضي، بعدها أنخرط في مباهج عاصمة الدّنيا الجديدة والنظام العالمي الجديد.

■ ■

وراء حواجز المطار وجدتُ مدينة أخرى، تضيئها شمس أكتوبر (تشرين الأول) في هذا المناخ الخريفي.

تركت لندن عند الظهيرة، وبعد سفر نحو سبع ساعات، وجدت الشمس في واشنطن لم تتهيأ بعد للنّوم. كان الضوء متبرجاً سافراً، والطقس أدفأ كثيراً مما توقعت. مثل شتاء الخرطوم.

رأيت وأنا أخرج من تلك الورطة، فتاة لا شك أنها عربية، صبيحة الوجه، تمسك كتاباً من كتبي مترجماً إلى اللغة الإنجليزية، وتبتسم، يا لها من لفتة لطيفة!

تقول، وكيف عرفت أنها عربيّة؟ وهل مثلي يخفى عليه الوجه العربي؟

حملتني بسيارتها إلى النزل في وسط البلد، وعلمت منها أن اسمها مهى وهي فلسطينية، ابنة الدكتور زياد العسلي رئيس اتحاد خريجي الجامعات العربية الأمريكية، وهو الاتحاد الذي دعاني للمشاركة في مؤتمره السنوي.

قالت لي:
«بدل أن أرفع يافطة عليها اسمك، فضلت أن أرفع كتاباً من كتبك».

سرّت عنّي - حفظها اللّه - وأنستني ما لقيت من فظاظة الحكومة الأمريكية متمثلة في سلطات جوازاتها. وجدتها شديدة الذكاء واسعة الاطلاع. درست الأدب الإنجليزي في جامعة (جورج تاون) ثم تريد الآن أن تدرس الطب. كأنها قرأت كل شيء، وهي لم تصل بعد الخامسة والعشرين.

في تلك الرحلة القصيرة من المطار إلى الفندق، استفدت منها أشياء كثيرة، عن الحياة في أمريكا والجاليات العربية فيها، وكيف يحافظ الشباب أمثالها على انتمائهم العربي مع مواطنيتهم الأمريكية.

حدّثتني عن قراءاتها في الأدب العربي والأدب الإنجليزي والأدب الأمريكي، وذكرت لي أعمالاً لكتّاب وكاتبات أمريكيين لم أسمع بهم من قبل، نصحتني بقراءتها.

سألتها عن الكاتبة الأمريكية (توني مورسُن) التي فازت بجائزة نوبل، وكنت قد عكفت على قراءتها مؤخراً فقالت:

«في كتابتها شيء يحرّك الاهتمام، لكنها في رأيي ليست كاتبة عظيمة».

كان ذلك هو انطباعي مما قرأت من كتبها حتى الآن.

فيما بعد خلال تدارس أحوال العالم العربي في المؤتمر، وبعض المتحدثين كانوا متشائمين في طروحاتهم، فكرت في تلك الفتاة اللطيفة الذكية المثقفة، ومئات الشباب أمثالها، ممن لقيت في رحلاتي داخل العالم العربي وخارجه، قلت، إن عالَماً ينجب أجيالاً كهذه، لا يمكن أن يندثر، بل هو على العكس، مقبل على نهضة عظيمة.

كل ورقة عشب، وكل فرع شجرة، وكل حصاة، وكل غدير، وكل جسر، كلها واضحة محددة المعالم، كأنها وفود في مهرجان. الضوء ناصع ساطع ينعكس على زجاج السيارات وعلى مياه البرك والجدران ذات اليمين وذات الشمال.

بالألوان التي صنعتها الطبيعة أواخر فصل الخريف، شيء يتجاوز الخيال ويستعصي على الوصف. تقول هذا مثل الذهب، ولكنه ذهب لم تتداوله أيدي التجار ولا دخل في خزانات البنوك.

ألوان الفراشات، والظباء كما وصفهن الحردلّو وذو الرُمة، ألوان الشفق وقوس قزح والسجاجيد الفارسية النادرة والنقوش العربية والخزف الصيني.

بين الفضة والذهب. بين الخضرة والبنفسج. بين الكمثرى والعنب. بين الليمون والبرتقال.

هذه أمريكا أخرى. أمريكا الشعراء، وهي حقيقة، كما أن سلطات الجوازات حقيقة، وعليك أن تضع هذا إلى جانب هذا ولا تتعجل في الحكم، كل مرة أزور هذه البلاد، أترك انطباعاً كان عندي، وأعود بانطباع آخر.

وهذا (روبرت فرُست)، أمير شعراء أمريكا وأعظم من غنّى فيها للطبيعة:

«أيهذا الصباح الدافئ الخافت الصوت
من أصباح أكتوبر،
أبدأ ساعات هذا اليوم ببطْء
اجعله يبدو لنا أطول مما هو
قلوبنا تحن إلى الإغواء،
فاعمل فيها فنون إغوائك
افتحْ خزانتك وأخرج منها عند الفجر ورقة واحدة،
وورقةً واحدة عند الظهيرة،
واحدةٌ من أشجارنا القريبة،
وواحدة من أشجار الغابات البعيدة
ضَعْ على وجه الشمس برقعاً
من الضبّاب الشفّاف،
واخلُب لُبّ الأرض بسحر الأرجوان».

■ ■ ■

اتحاد خريجي الجامعات العربية ـ الأمريكية، هو في الواقع، كما اكتشفت خلال الاجتماعات، أوسع مما يبدو من اسمه. إنه بمثابة مؤتمر كبير يشمل عدداً من المنظمات العربية في أمريكا، أذكر منها اللجنة العربيّة الأمريكية لمناهضة التفرقة العنصرية ـ يعْنون التفرقة العنصرية ضد العرب وهو أمر بدا لي طريفاً، إذ إن هؤلاء جلهم من الذين وصفهم حسّان (شُمّ الأنوف من الطراز الأول)!

والاتحاد الأمريكي لمدينة رام اللّه، وجمعية بير زيت، والاتحاد الفلسطيني الإسلامي، والاتحاد الوطني للعرب الأمريكيين، وجمعية دعم فلسطين واتحاد المحامين الأمريكيين من أصل عربي وغيرها. وهي اتحادات وجمعيات تشمل أغلب الولايات المتحدة.

ربما الاسم الذي ينطبق أكثر، هو أنه اتحاد لكل الأمريكيين من أصل عربي. تأسس عام ١٩٦٧، وأهدافه كما وردت في منشوراته، هي «تقوية العلاقات وتنمية التفاهم بين العرب والشعوب الأمريكية وتشجيع دراسة القضايا المشتركة بين العالم العربي وأمريكا دراسة عميقة، ونشر الوعي عن العالم العربي وتصحيح الانطباعات المشوهة العالقة بأذهان الأمريكان عن العالم العربي، وتنوير الأمريكان بالمصالح التي تربطهم بالعالم العربي، والتعبير عن وجهات النظر العربية خاصة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي».

يتصدى الاتحاد لكل هذه القضايا الضخمة، بنشاطات متنوعة. منها المحاضرات، واستغلال وسائل الاتصال المتاحة، وعقد الندوات والمحاضرات إلى جانب نشاطات اجتماعية وترفيهية. وهم يدعون إلى مؤتمراتهم كُتّاباً وشعراء وأكاديميين وباحثين من أمريكا والعالم العربي وغيرهما.

واضح من تاريخ إنشاء الاتحاد ووصف أهدافه، أنه قام في أعقاب الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ حين بدا للعرب في الداخل والخارج، أن ثمة خطأ ما في أساليبهم وتوجهاتهم، وأن عليهم أن يعيدوا النظر في جملة أحوالهم. ويمكن أن يتصور المرء مضاضة الألم والمرارة التي أحسها العرب في أمريكا. كانوا يعيشيون في قلب الدوّامة. وقد خيّل للناس في تلك الأيام الحالكة، أن العالم الأوروبي الغربي جملةً، إمّا جاهلٌ بأحوال العرب وقضاياهم، وإما أنه لا يريد بهم خيراً عن عمد.

يُحمد لهؤلاء الأخوة والأخوات في اتحاد خريجي الجامعات الأمريكية، أنهم قبلوا الافتراض بأن ذلك جهلٌ عارض يمكن إزالته، وأن التقصير هو من العرب أنفسهم، لذلك على العرب أنفسهم أن يعملوا على بث الوعي، وتغيير الأفكار.

وذلك عين العقل، كما يظهر لي من زيارتي المتكررة لأمريكا. وقد لفت نظري أنهم سموها (الشعوب الأمريكية). وهي كذلك كما نعلم. إنهم ليسوا شيئاً واحداً، ولكنهم شتّى أقوام، وخليط أفكار وأمزجة واتجاهات. إنما يلمّهم علم واحد ودستور واحد ونظام مشترك للحكم. وكل جهد عندهم يثمر ولو بعد حين. ويظهر لي أن هؤلاء العرب الأمريكان أدرى بشعاب أمريكا وأقدر على بث الوعي في عقول الأمريكان. وذلك ليس لمصلحة العرب فقط، ولكن لمصلحة أمريكا أيضاً.

تلك الحُرقة التي أحسّها العرب الأمريكيون في أعقاب هزيمة عام ٦٧ ما تزال موجودة منها بقايا يحسّها لأول وهلة الضيف القادم عليهم. يلاحظ، أنهم ما يزالون يتحمسون لقضايا

لم يعد يتحمس لها الناس في البلاد العربية ـ في الظاهر على الأقل.

ربما بفعل الاغتراب والحنين إلى الوطن الأم، أخذوا ينظرون إلى العالم العربي على أنه عالم واحد وشيء واحد بحق. وربما أيضاً حياتهم في أمريكا، جعلتهم يحسون أن ذلك ليس أمراً مستحيلاً. إذا كانت أخلاط الشعوب الأمريكية تعيش في دولة واحدة، فلماذا لا يصدق ذلك على الشعوب العربية؟

كانوا في ندواهم خلال المؤتمر، يتحدثون دون حرج عن فكرة لم يعد الناس في الأوطان العربية يطرقونها إلا على استحياء. وبعضهم صمت عنها كلية. وبعض مفكريهم بدأ يدعو إلى نبذها على أنها شيء لا يمكن تحقيقه في دنيا الواقع، وأن الجري وراءها هو السبب في أكثر ما نزل بالعرب من مصائب.

■ ■ ■

كان الموضوع العام لمؤتمر خريجي الجامعات العربية الأمريكية الذي انعقد في واشنطن هو (البحث عن نهضة عربية ودور العرب في البلاد العربية وخارجها في تحقيقها).

أسموها باللغة الإنجليزية Renaissance. وهي كلمة يترجمونها أحياناً بـ (بعث) وأحياناً بـ (إحياء). لكننا نعلم أن (البعث) و(الإحياء) هو في اللّغة العربية، إعادة الحياة إلى شيء أو شخص ميت. والأمّة العربية ـ وهي أمة لا مراء ـ لم تمت في يوم من الأيام. إنما هي تسقط وتنهض، وتكبو وتعتدل. لذلك أجد كلمة (نهضة) أصدق بواقع الحال من (بعث) و(إحياء).

وكان من ألمع خطباء المؤتمر، الدكتور كلوفيس مقصود، الذي كان إلى عهد قريب ممثلاً لجامعة الدول العربية في الولايات المتحدة، ثم تفرّغ للعمل الأكاديمي والبحث.

هو من هذا الجيل من العرب، خاصة من بلاد الشام الذين تشربوا حُلُم الوحدة العربية، ونشأوا عليه، فأصبح يجري في عروقهم مجرى الدم. وقد بدا لذلك الجيل في الخمسينيات والستينيات أن الوحدة العربية أصبحت في متناول اليد، وأن الجيَشان العاطفي الذي حرّكه الرئيس جمال عبد الناصر رحمه اللّه، سوف يحمل الأمة العربية إلى ذلك الشاطئ السحري.

ثم كان ما نعلم من هزيمة عام ٦٧ وما تركت من آثار بعيدة المدى في وجدان الناس وعقولهم. وربما قاسى عرب أمريكا أكثر مما قاسى غيرهم. يصف أحد نوابغ العرب الأمريكيين، بروفسور إدوارد سعيد إحساسه إزاء تلك الهزيمة في كتابه (سياسة الاغتصاب)، فيقول:

«أحسست لأول مرّة منذ أن جئت إلى أمريكا، أنني قد رجعتُ عاطفياً. رجعت إلى العالم العربي عموماً وإلى فلسطين خصوصاً. كانت تلك نتيجة مباشرة للحرب (٦٧) التي ذقت مرارتها وأنا في نيويورك... إن جيلي تربّى على الإيمان المطلق بوطن عربي، كما انحدر إلينا من عصر (النهضة) في أواخر القرن التاسع عشر، وما صحب ذلك من نضال لإحياء التراث العربي. وهي حركة بلغت ذروتها في الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثماني، عام ١٩١٧.

ورث جيلي الإحساس التاريخي بالمرارة، ذلك أننا حين ظننا أننا سوف نحصل على استقلالنا الذي وعدنا به البريطانيون

والفرنسيون، وحرضونا على الثورة ضد الحكم العثماني في سبيله، إذا هم يخونوننا وينكثون بوعودهم لنا...».

وفي موضع آخر من كتابه، يقول بروفسور إدوارد سعيد:
«في ستة أيام فقط انهار كل شيء بناه عبد الناصر ومؤيدوه... أصبح أن تكون عربياً يعني الإحساس بالهزيمة والصدمة العميقة، والحيرة وفقدان الثقة بالنفس...».

من تلك الصدمة والحيرة، انطلقت ـ ما نعلم ـ اتجاهات فكرية وسياسية متعددة. وربما كان أوضحها الاتجاه (البراغمتي) الواقعي. وهو اتجاه نرى آثاره فيما يجري هذه الأيام.

ليس بروفسور إدوارد سعيد ـ كما يتضح من كتبه ـ بعيداً عن (الواقعية)، ولا الدكتور كلوفيس مقصود. الخلاف بينهما وبين آخرين، هو في مدى هذه الواقعية وفي توقيتها. وعند كلوفيس مقصود خاصة: ـ هل الواقعية توصل في نهاية الأمر الى تحقيق الحلم الأسمى، حلم الوحدة العربية، أم هي تقضي عليه؟

ولعل من الطبيعي أن يظل مفكر مثل كلوفيس مقصود متشبثاً بالحلم العربي.

إنه رجل وقف جهده كله ونذر حياته كلّها في مطاردة ذلك (الحلم). ظل يصول ويجول ويكرّ ويفر في غمرات تلك المعركة، التي تبدو خاسرة أحياناً، وفي أحيان أخرى كأنها قاب قوسين من النّصر.

■ ■ ■

أغلب العرب الأمريكيين ـ كما لمست من مؤتمر خريجي الجامعات الأمريكية ـ يحسون بولاء مزدوج. فهم من ناحية مواطنون أمريكان، يسري عليهم كل ما يسري على المواطن، ويتمتعون بحقوق المواطنة كلها. هم من ناحية ثانية أصول عربية، يحبّون أن يحتفظوا بأواصرهم مع أوطانهم الأصلية.

إنه وضع ليس مريحاً دائماً، إذ إن علاقات أمريكا بالعالم العربي، أو بعضه، تتأرجح بين الصعود والهبوط، والهدوء والتوتر. وقد تساءل أحدهم: ـ هل تمسّكُ العرب المهاجرين بولائهم للعالم العربي، يصعّب عليهم الحياة في أمريكا؟ هل هذا الولاء يضيّع عليهم فرصاً وامتيازات، سوف يحصلون عليها إن هم انخرطوا كلية في الحياة الأمريكية وقطعوا صلاتهم بالعالم العربي؟

إنه سؤال صعب. ولا شك أن بعضهم فعل ذلك. إنما العرب المجتمعون في هذا المؤتمر يريدون أن يفعلوا العكس. يريدون أن يكونوا أمريكيين، وفي الوقت نفسه، يحافظون، بل ينمّون إحساسهم بـ (الهوية) العربية.

أجل، إنه وضع صعب. وتجد لمحات من هذا التوتر ـ إن لم يكن التمزّق ـ في كتابات بعض مفكريهم، أمثال بروفسور هشام شرابي وبروفسور إدوارد سعيد.

وأيضاً لدى الدكتور قرقوري نُجيم، الذي قدّم في المؤتمر محاضرة عنوانها (حماية جالياتنا في أمريكا).

هذا رجل أمريكي من أصل لبناني. وهو من هؤلاء الرجال والنساء ـ

وهم كثيرون في هذا المؤتمر ـ الذين لا يجدون تناقضاً بين حبهم لأمريكا، موطن هجرتهم، وحبهم لمواطنهم الأولى. وقد أخذوا على عاتقهم، الدفاع عن الحريات والحقوق، ونصرة الضعفاء ليس من منطلق أنهم عرب، بل من منطلق أنهم أمريكان. ويزيد من إعجاب المرء بهم، أنهم جميعاً في مراكز مرموقة، بمنأى عن غائلة القوانين، مثل (قانون الإرهاب) المقترح، التي يتأثر بها المهاجرون العاديون من العرب.

هذا، والدكتور نُجيم واحد من المستشارين القانونيين في الاتحاد الأمريكي للحقوق المدنية بواشنطن وهو اتحاد يضم قراب ثلاثمائة ألف عضو، ويعمل على صيانة حقوق الأفراد كما نص عليها الدستور الأمريكي وميثاق الحقوق.

أدلى الدكتور نجيم بشهادات أمام عدد من لجان الكونجرس بخصوص مضاعفات قانون الإرهاب المقترح، ومحامياً عن حريات الأفراد، التي سوف يحدّ منها القانون، مثل حرية العمل. كذلك يعمل الدكتور نُجيم عضواً في اللجنة الوطنية للهجرة، وهي عبارة عن تكتّل واسع يشمع مائة وخمسين لجنة تهتمّ بحقوق المهاجرين.

وكان الدكتور نجيم قبل ذلك، مديراً للخدمات القانونية في اللجنة الأمريكية العربية لمناهضة الاضطهاد العنصري. ومن موقعه ذلك، أشرف على صياغة ردود الفعل العربية ضد حملات الكراهية، وهي حملات تأخذ أحياناً طابع الاعتداء الصريح. وأيضاً ضد مضايقات أجهزة الأمن في حالات التوتر السياسيّ كما حدث إبّان حرب الخليج.

قال الدكتور نُجيم في محاضرته، إن الحكومة الأمريكية، بناء على قانون مكافحة الإرهاب المقترح، تقرر ضربة لازب، أيّ الجماعات المهاجرة تستحق الدعم، وأيها تكون موضع الشك والحذر. وأشار إلى أن المهاجرين العرب، سوف يتعرضون لمزيد من العنت إذا أجيز ذلك القانون، فهو يعطي الحكومة السلطة أن تمنع دخول أي أجنبي، لا لسبب، إلا أنه ينتمي إلى دولة متهمة بالإرهاب، كما يخوّلها الحق في ترحيل أي أجنبي اعتماداً على مصادر سرية لا يحق للشخص المعني تفنيدها أو إثبات بطلانها. وذكر أن القانون المقترح، يُلزم كل فرد بحمل بطاقة إثبات الشخصية.

تطرق بعد ذلك إلى قضية أطفال المهاجرين، وقال إن قانون مكافحة الإرهاب المقترح، لن يسمح لهم بتنمية صلات ثقافية أو روحية مع أوطانهم الأصلية، فهو ينص على فرض اللغة الإنجليزية على أنها لغة التداول والتعامل الوحيدة.

كلّ هذه قضايا كبيرة، تلك التي أثارها حديث الدكتور نُجيم، هي تعطي صورة أخرى عن الفردوس الأرضي في العالم الجديد.

هكذا نرى أن دولة المهاجرين أخذت بفعل التحوّلات السياسية والاجتماعية، تضيق بالهجرة. مجتمع التنوع والتعدد، أخذ ينحو نحو اللغة الواحدة والثقافة الواحدة. دولة المؤسسات والحريات، أخذت تتبع الأساليب البوليسية التي لم تزل تعيبها في الآخرين.

أمّا فيما يتعلق بالمهاجرين العرب، فبعد أن ظلوا يحاولون أن يعزلوا أنفسهم عن خضم المعارك الكبرى التي خاضها الأمريكان السود في

الدفاع عن حقوقهم، إذا هم تحت وطأة الظروف يحسون الأحاسيس نفسها ويتحدثون اللّغة نفسها.

ومن دعابات الظرف القاسية، أن العالم العربي الذي هاجروا منه، إما طواعية أو اضطراراً، إذا أشباحه تلاحقهم. إذا فجّرت قنبلة في مكان ما في العالم العربي، أو قُتل سائح أو اختطفت طائرة، تصل آثار ذلك إلى أمريكا كأنها موجات في بحر، فتقضّ مضجع المهاجر العربي وتكدر عليه صفو حياته. فلا فكاك له من ذلك العالم.

■ ■ ■

وجدت تلك السيدة الفاضلة نادية حجاب، كما عهدتها دائماً ـ الذكاء وروح الدّعابة والطاقة العظيمة على العمل. أعرفها منذ أيامي في قطر في السبعينيات ـ حيّاها الحيا وسقى ـ جاءت إلى الدوحة، وكانت قد حصلت لتوها على درجة الماجستير في اللّغة الإنجليزية، من الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان أبوها، بروفيسور وصفي حجاب، من خبراء منظمة اليونسكو لتطوير جامعة قطر.

عملت معنا في وزارة الإعلام، فكانت هي والفلسطينية الموهوبة الأخرى، السيدة ليلى فانوس ـ ابنة صديقنا المرحوم داود فانوس ـ من أكثر العاملين في الوزارة نشاطاً وإنجازاً. وأذكر أن الوزير عيسى غانم الكواري وأنا حين قررنا أن نعيّنها رئيسة للقسم الإنجليزي، وهي في أوائل العشرينيات من العمر، جاءني أحد قدماء العاملين في الوزارة، وكان رجلاً نزيهاً مخلصاً، وقال لي: «هذا القرار خاطئ».

سألته لماذا، فأجاب:
«لثلاثة أسباب. أولاً هي صغيرة السن. وثانياً هي امرأة، وثالثاً هي مسيحية».

قلت له: إنني أعتبر هذه الصفات كلّها ميزات وليست نقائص.

كان أكثر مني تحسباً لبعض الجهات المحافظة في الدولة، ولعلني كنت أكثر منه إدراكاً لنضج السيدة ليلى فانوس العقلي وأنها من هؤلاء النصارى العرب المخلصين، الذين هم أكثر الناس مودّة للذين آمنوا. وقد تزوجت مسلماً فيما بعد.

اتضح أن الوزير وإياي كنا على حق، فقد أحدثت ثورة حقيقية في البرامج الإنجليزية، وارتفعت بالقسم إلى مستوى لم يصله أحد بعدها. وهي اليوم ملحقة صحافية في السفارة القطرية في لندن، حيث تقوم بجهد عظيم، ليس لقطر وحسب، ولكن للأمة العربية عموماً.

لم تلبث نادية حجاب أن سافرت إلى لندن، فتوّلت تحرير المجلة المعروفة Middle East Magazine، وكان لها نشاط إعلامي واسع تلك الأيام، فكانت تكتب في الصحف وتتحدث في الإذاعة والتلفزيون، وتحاضر وتشارك في الندوات والمؤتمرات. وقد أصدرت كتابين باللغة الإنجليزية في تلك الفترة، أحدهما عن النساء العربيات العاملات، والثاني عن العرب الفلسطينيين في إسرائيل.

ثم التحقت بمنظمة الأمم المتحدة في نيويورك، فدفعتها مواهبها

الواضحة إلى الترقي سريعاً، وهي الآن من الموظفين الذين يصنعون سياسة برنامج الأمم المتحدة للتنمية.

لم تمنعها أعباؤها الوظيفية عن مواصلة الجهد دفاعاً عن القضية الفلسطينية والقضايا العربية عامة. وهي عضو في هيئة الأمناء للمعهد الفلسطيني للدراسات الاقتصادية، كما انتخبت في هذا المؤتمر، أميناً عاماً مساعداً لاتحاد خريجي الجامعات العربية الأمريكية.

تعرفت عن طريقها بقريبتها الدكتورة سلوى مقدادي النشاشيبي من جامعة (بيركلي) في كلفورنيا. وقد انصرف همّ هذه السيدة المخلصة إلى التعريف بالعالم العربي عن طريق الفن. وقد أشرفت منذ عام ١٩٦٨ على تنظيم عدة معارض في أماكن شتى في أمريكا. وفي عام ١٩٩٤ نظمت معرضاً فنياً في مدينة شيكاغو بعنوان (دوافع التغيير: فنانون من العالم العربي)، حكم عليه النقّاد أنه أحسن معرض فنّي يقام في شيكاغو في ذلك العام. وقد انتقل المعرض بعد ذلك إلى أربع مدن أمريكية كبرى.

يلفت النظر في جهد الدكتورة سلوى، أنها تستغل وسائل الاتصال الجماهيرية في أمريكا خاصة «الفيديو»، وأنها تهتم بنشر الوعي عن العالم العربي، بين أطفال المدارس الأولية وطلاب المدارس الثانوية. ولعلها من الرواد في هذا الميدان.

وجدت في ذلك المؤتمر أيضاً، الدكتورة غادة الكرمي، ابنة أستاذنا الجليل حسن الكرمي.

تلك عائلة مشهود لها بالعلم والذكاء. وكان الأستاذ حسن

الكرمي تلك الأيام أواخر الخمسينيات، يقدّم من الإذاعة العربية في الـ«بي. بي. سي» برنامجه الشهير «قولٌ على قول» الذي استمر سنوات، ويصدر معاجمه المعروفة ومنها «المغني». وكانت ابنتاه غادة وسهام تدرسان في جامعة لندن، غادة تدرس الطب وسهام تدرس الكيمياء.

انصرفت الدكتورة غادة بعد ذلك إلى التخصص في تاريخ الطب عند العرب، فأصبحت من المعدودين في ذلك المجال. وهي اليوم (زميل) في معهد الدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأوسط في جامعة «درم» في بريطانيا.

إلى جانب ذلك فإن الدكتورة غادة الكرمي، تناضل منذ سنوات، في معترك القضية الفلسطينية، ولها في ذلك مواقف مشهودة في مواجهة دعاة الصهيونية من الإنجليز.

في عام ١٩٩٤، أطلقت حملة دولية للدفاع عن عروبة القدس. ظلت القدس دائماً شغلها الشاغل، وحين تتحدث عنها، تبلغ بها الحماسة درجة الشراسة. وقد رأى الناس في مؤتمر واشنطن طرفاً من تلك الشراسة فقد كانت محاضرتها عن القدس.

■ ■ ■

الدكتور مأمون فَنْدي، من (نقاده) في أقصى صعيد مصر. وهي بلدة معروفة لدينا في السودان، لأن أهلها مشهورون بنسيج نوع من الأزُر، الواحدة تسمى (فِرْكه). وفي اللسان: ثوب مفروك بالزعفران وغيره، أي صبغ به صبغاً شديداً.

والأمر كذلك عندنا، إذ إن الأزر تُصبغ وتضمّخ بالعطر، مما تصنعه النساء إرضاء للحليل.

ومن تلك الأزر نوع فاخر يسمى (القرمصيص). وتقول الأغنية القديمة:

القـرمـصـيـص غـالـي
مـا بـيـدُّوه جَـمّـالـي

وهو بخلاف صاحب الجمل الذي تصفه الأغنية الأخرى:

جـمـلاً جـايـي مـن جـدّه
الـقـيـد والـرشـن فـضّـه

ولم أجد للكلمة أصلاً، إلا أن تكون مشتقة من (قَرْمَص). ومن معانيها «تَقَرمص في الثوب أي دخل فيه وتقبّض»، فيكون في ذلك معنى الاستدفاء.

تلك الأزر التي تصنعها (نقاده) في صعيد مصر، تلبسها النساء السودانيات، ولا تلبسها المصريات. وقد ظل الحال كذلك منذ عشرات السنين، وهو من بدائع فنون التكامل الاقتصادي الذي تصنعه الشعوب بمنأى عن تدخّل الحكومات. ومن ذلك أيضاً تجارة الجمال، التي ظلت رائجة منذ عهد دولة (سنّار)، عبر دروب مثل (درب الأربعين)، لم تستطع الحكومات على عدوتي وادي النيل، أن تشدّها بكل عدّها وعتادها. ولو استطاعت لفعلت.

هذا، وقد أعجبني في هذا العالم الصعيدي، أنه رغم دراسته وزواجه وحياته في أمريكا، لم يفقد لهجته الصعيدية ولا دفئه الصعيدي. هو

الآن (برفسر) في جامعة (جورج تاون) العتيدة بواشنطن، وهو لم يبلغ الأربعين بعد، فأعجب لنجاح الصعايدة في أمريكا، وخيبتهم في (بر مصر)!

سهرت معه وزوجته الدكتورة (جودت) في دار صديقنا المشترك الفاتح إبراهيم أحمد في (فرجينيا)، حيث أقمت بعد نهاية المؤتمر. جاءنا يلبس (جلابية) صعيدية سوداء، قال إنه يظهر بها أحياناً في المناسبات العامة في الجامعة. ذلك لا شك نوع من الغزو الثقافي المضاد الذي يشنه الصعيد على أمريكا.

أو هو نوع من (التوجه الحضاري). لا غرو، فالصعايدة يحق لهم أن يكون عندهم (توجه حضاري). عندهم الكرنك ووادي الملوك وأبو سمبل، وأغلب مخلفات الحضار الفرعونية. تركوا للمصريين في (وجه بحري)، الأهرامات، وهي عبارة عن صخور صمّ، لا يعلم أحد ماذا تعني. من قال إن الصعايدة سُذّج؟

أرانا صوره عند أهله في (نقاده)، مع زوجته الأمريكية. ألبسوها (الملاية) و(الطرحة)، وأدخلوها فيما تدخل فيه نساء الصعيد من أعمال البيت والغيط، مما قد لا تطيقه بنات القاهرة والإسكندرية. وكانت سعيدة بكل ذلك كما أكدت لنا.

هذا الصعيدي العالم، أيضاً كاتب مبدع، وله قصص جميلة بالإنجليزية والعربية، بالإضافة إلى ذلك يخوض في الشؤون العامة في كبريات الصحف الأمريكية، مثل الـ (نيويورك تايمز) والـ(كريستيان ساينس مونيتر). فأعجب مرة أخرى لذكاء الصعايدة.

في علمه شيء من الإبداع، وفي إبداعه شيء من العلم. وقد ظهر ذلك واضحاً في محاضرته عن (أزمة الحكم في المشرق). كانت محاضرة تتسم بالحيوية الفكرية، والأسئلة التي يسألها عادة الشعراء والروائيون.

مثله في ذلك، الجنوبي الآخر، الدكتور علي عبد اللطيف أحميده، فهو من فزّان، التي هي بمثابة الصعيد في ليبيا، هو أيضاً فخور بجذوره الليبية الفزانية، مفعم بذلك الذكاء الجنوبي الذي يحسب الذي لا يميزه أنه غفلة. ولعله كان يشتري تراماً من من أهل بنغازي لو كان في بنغازي ترام! إنما الصعيدي المصري الذي اشترى الترام، لم يكن ساذجاً، لقد أدرك منافع (الخصخصة) قبل سنوات من ظهور (ملتُن فريدمان) و(مسز ثاتشر).

تخرّج علي الفزاني من جامعة القاهرة، وأخذ الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة (واشنطن)، ويعمل الآن أستاذاً مساعداً للعلوم السياسية في جامعة (نيو إنجلاند)، وله كتاب صدر باللغة الإنجليزية عنوانه (تكوين ليبيا الحديثة ـ الدولة والاستعمار والمقاومة ١٨٢٠ ـ ١٩٣٢) وكانت محاضرته في المؤتمر عن (أزمة الحكم في بلاد المغرب).

هكذا ترى، أن أمريكا ـ مهما قلْت عنها ـ قد كشفت في هذين العربيين الجنوبيين، عن مواهب! لعلّها غابت عن القاهرة وطرابلس.

■ ■ ■

كأنما كتب على السودانيين في هذا الزمن لحكمة لا يعلمها إلّا الله، أن يلّفوا ويدوروا بلا سبب. الدولة والحكومة والأفراد، في داخل البلد وخارجها، والهدف قريب، والطريق سهل.

هذا ما حدث لنا ـ الفاتح ابراهيم أحمد وأنا ـ ونحن نسافر من (فرجينيا) إلى (فرجينيا). كنا نقصد (مركز الحوار العربي) في ضاحية (فيينا) حيث جمع صديقنا صبحي غندور الناس لمحاورتي منذ الساعة السادسة.

قمنا في الساعة الخامسة والنصف، لأن الفاتح هو أيضاً يسكن في (فرجينيا)، وقدّرنا أن نصف ساعة تكفي.

هبت الريح بنا رخاء، وامتزجت ألوان الخريف على جانبي الطريق، بذلك الصوت الساحر، صوت الفنانة الموهوبة هادية طلسم، وهي تغني على الشريط:

نسيتني أنا وخلاص يعني
ما في طريق يرجعني

هكذا إلى أن وصلنا (فيينا)، وكانت الساعة تقارب السادسة. ذلك من حسن التوفيق، فالمركز لا شك على بعد خطوات.

لكننا لم نلبث أن دخلنا في (تجربة) ـ كما يقول أخواننا النصارى ـ وكان الفاتح قد نسي أن يحضر معه العنوان. كان واثقاً أنه يعرف المكان بـ (الفطرة). ظللنا نتخبط ونلف وندور، أسوأ مما تفعل حكومة (الإنقاذ)، ونحن كما اتضح لنا فيما بعد، فعلاً على بعد خطوات من حيث نريد.

الفاتح من أهلنا الركابيين، الذين نزحوا قديماً من (العفاض) إلى (طيبة) في الجزيرة، فجمع بين روحانية الركابية، وسماحة أهل الجزيرة، وتمدن خريجي جامعة الخرطوم في عهودها المضيئة، إلى جانب صفات اختص بها مثل حبه للشعر والفن. منظم عادة، فلا أدري ماذا حدث له الآن. ضحك فجأة، ونحن في دوامة تلك الورطة، وقال:

«أصابتنا عدوى الشوش».

يقصد الدكتور محمد إبراهيم الشوش، وكنا نتهمه بالتوهان، ونعبث به لأجل ذلك، وها نحن الآن في تيه ليس مثله تيه الشوش. افتقدناه كثيراً هذه المرة. كان معنا في ربيع ٩٤، وهو نعم الأنيس. لديه ذخيرة لا تنفد من النوادر، وقدرة عجيبة على رسم صور كاريكاتورية لفظية لأشخاص ومواقف. وهي موهبة تبدو واضحة في كتابيه الجميلين (نوادر هذا الزمان) و(وجوه وأقنعة). وذلك جزء يسير من عبقريته.

بدأ الإحساس بالحرج يضغط عليّ، فقد جاوزت الساعة السابعة، والناس ينتظرون، وبينما نحن على تلك الحالة، نلف وندور، ونمضي ونعود، إذ لاحت لنا محطة بنزين، بدت لي في ذلك الخلاء الأمريكي، كأنها محطة سكة حديد خلوية، بين (شدياب) و(هيا) ـ قلنا نميل إليها، نسأل، أو نضرب تلفوناً لمركز الشرطة، أو أي شيء.

وإذا نحن ثمة بشاب سوداني، من سودانيي الـ (دياسبورا). وارحمتا للسودانيين في المنافي! وما أكرمهم في مثل تلك المواقف! تلبب الشاب قضيتنا كأنها قضيته. ومن هنا إلى هنا، وجدنا ضالتنا. وما

إن خرجنا من عنده، حتى وجدنا طلائع بثهم صبحي غندور، يتسقطون أخبارنا، ويبحثون عنا.

وجدنا خلقاً كثيراً، ظلوا ينتظرون، وبعضهم لا شك جاء من أماكن بعيدة، فزاد ذلك من حرجي. إلا أن صبحي غندور لم يلبث أن هوّن عليّ الأمر، بتلك الروح الطيبة وتلك الجاذبية التي يتميز بها أفراد هذه الأسرة كلهم. إنها أسرة أحمل لها وداً قديماً مقيماً. فيهم أحسن ما في الطبع اللبناني.

سرني أن الكلام باللغة العربية، بعد تكاليف اللغة الإنجليزية في اجتماعات خريجي الجامعات الأمريكية. وكانت سحن الناس ولهجاتهم تنمّ عن أنهم من مشارق الأرض العربية ومغاربها. وارحمتاه للعرب في المنافي! وكانت أسئلتهم وأفكارهم فيها كل حيوية العالم العربي وتناقضاته. وأيضاً ذلك الإحساس بأن ثمة شيئاً مشتركاً يجمع بينهم.

ذلك هو ما رمى إليه هذا الشاب المتأجج بالذكاء والحيوية، حين أنشأ مركز الحوار العربي أواخر عام ١٩٩٤، ليكون امتداداً وتكملة للمجلة التي يصدرها منذ وصوله إلى أمريكا ـ مجلة (الحوار). وقد ذكر في كلمته التي بيّن فيها أهداف المركز يوم افتتاحه أنه:

«... دعوة للجمع بين الفكر والثقافة العربيتين على أرض غير عربية. فهي أرض أمريكية نحاول أن نصون عليها لأنفسنا ولأجيالنا القادمة، ما عندنا من أصول ثقافية وحضارية...».

وقال في موضع آخر من كلمته:
«... التفاعل والحوار المنشود سيترك أثراً كبيراً خارج محيطهم المباشر، وسيؤدي عبر الجدل الفكري الحر إلى صياغة طروحات عربية جديدة تفيد هنا على الساحة الأمريكية لكل العرب وقضاياهم المشتركة، كما تفيد بوصولها إلى الساحة العربية نفسها...».

نعم، هذا هو الهدف النبيل من (مركز الحوار العربي) و(اتحاد خريجي الجامعات العربية الأمريكية) وكل الجمعيات والاتحادات التي تلمّ شتات العرب في أمريكا. وهي كلها تستحق التأييد والدعم.

الهدف قريب والطريق واضح. ونحن نلف وندور، كما قال الشيخ التنوخي:
«... مزارها قريب ولكن...».

■ ■ ■

تفرقت البلابل، وهاجر بشير عباس الملحن الموهوب الذي قدّمهن للجمهور السوداني أوائل السبعينيات.

كنّ صغيرات وجميلات، وأصواتهن مثل شقشقة العصافير عند الفجر. أغانيهن خفيفة مرحة، جديدة ولكن فيها روح القديم. غزلة ولكنه غزلٌ صاف عفيف خال من أية إيحاءات جنسية.

أخذن العذوبة والشجن من منطقة النوبة العريقة أقصى شمال

السودان، بتراكماتها الحضارية، التي أخذ منها محمد وردي أيضاً فنّه العبقري.

ربما أكثر من أي ظاهرة أخرى، كان غناء (البلابل) تلك الأيام، يعبّر عن روح السودان. عن ثقته في نفسه وتفاؤله في المستقبل، وإقباله على الحياة. ولمّا انفرط عقدهن، كأنما السودان نفسه فقد حيويته وأخلد إلى الكآبة والركود.

والذُهن الأستاذ محمد عبد المجيد طلسم رحمه الله، كان من الرّجال الروّاد أصحاب النظر البعيد من طراز المرحوم بابكر بدري الذي آمن بتعليم البنات في السودان، أول القرن في وجه مقاومة اجتماعية عظيمة. وقد أسعدني الحظ أنني تتلمذت على يدي المرحوم طلسم فترة في جامعة الخرطوم، حين كان محاضراً في كلية العلوم. أذكر مرحه وطيبته وأبوّته الغامرة.

كان رجلاً شجاعاً شجاعة بالغة، ففي وقت كان فيه المجتمع السوداني ينظر إلى الفن، وخاصة التمثيل والغناء، بريبة وحذر وغير قليل من الاحتقار سمح لبناته السبع أن يدخلن المعهد العالي للموسيقى والمسرح، ويعملن بعد تخرجهن في ميدان التمثيل والغناء. وكنّ من المؤسسات في الفرقة القومية للفنون الشعبية. وهي فرقة سرعان ما حصلت على شهرة عالمية واسعة.

في أواخر عام ١٩٧١، انطلقت فرقة (البلابل) المكوّنة من ثلاث أخوات هن هادية وآمال وحياة. ويُعزى أكبر الفضل في انطلاقتهن ونجاحهن إلى الموسيقي الموهوب بشير عباس. وهو أيضاً

من أسرة عريقة من (حلفاية الملوك) في الخرطوم بحري.

لقيت هادية طلسم أول مرة في زيارتي لواشنطن في ربيع عام ٩٤، مع زوجها الدكتور عبد العزيز بطران، أستاذ التاريخ في جامعة (هوارْد). عرّفني بهما الفاتح إبراهيم أحمد. وكان معنا الدكتور محمد إبراهيم الشوش، وأسامة الذي يسكن قريباً من الفاتح. وهو مهندس معماري، اضطرته الظروف أن يعمل في النقل. صوته جميل في الغناء وكذلك الفاتح، فكانا لها بمثابة الكورس، وأحياناً يغنيان معها.

قضينا في دارهم وفي دار الفاتح، أمسيات لا تنسى، نستمع إلى ذلك الصوت الساحر.

تعيد إلى الحياة بصوتها العربي النوبي، ووجهها الفرعوني، واستغراقها حين تغني كأنها تصلي ـ عالماً كاملاً ضاع أو كاد يضيع. غنّت تلك الأغنية القديمة التي لا أملّ سماعها:

يــجْــلــي الــنّــظــر يــا صــاح
منظر الإنسان، الطرفة نايم وصاحي

وغنت تلك الأغنية البديعة للمطرب الكبير أحمد المصطفى:

زاهـــي فـــي خـــدره مـــا تـــألّمْ
إلّا يــوم كــلــمــوه تــكــلّــمْ
حــنّ قــلــبُــه ودمــعــه ســالْ
هــفّ بــي الــشــوقْ قــالْ وقــالْ

وغنت للمرحوم إبراهيم الكاشف:

أنـــا يـــا طـــيـــر بـــشـــوفـــك
مـــحـــل مـــا تـــطـــيـــر بـــشـــوفـــك

غنت من القديم والجديد، من أغانيها وأغاني غيرها، بالعربية وبالنوبية، فجعلت الناس يغرقون في سُبحات سودان آخر، في زمان آخر.

في زيارتي هذه المرة، صادفتُ بشير عباس أيضاً، وهو بالإضافة إلى موهبته الكبيرة في التلحين، عازف لا يجارى في العود، وله صوت جميل في الغناء. فسمعنا منهما عجباً.

لاحظتُ كيف أنها توزّع همّها بين فنها وطفليها. تكون مستغرقة في الغناء، وفي الوقت نفسه، منتبهة إلى تحركات طفليها في أرجاء الدار. ولاحظت كيف أن زوجها الدكتور بطران، هذا الإنسان المهذب المتحضر، يرعى موهبتها الكبيرة بحنو وعطف عظيم.

صوتها غدا أكثر نضجاً. تلبسته أشجانٌ بعيدة الغور، كأنّما الصوت مرآة للتحوّلات العميقة التي تجتاح السودان نفسه.

ذلك الزمان زمان الظبي المكنون في خدره لن يعود بطبيعة الحال. ولكن الزمان الجديد، الذي يتشكل بوحي من أصوات المغنين والشعراء والكُتّاب والحداة، لعلّه يأتي في صورة مدهشة لم تخطر في خيال أحد.

■ ■ ■

منذ أن صمتت المآذن في الأندلس قبل ما يزيد على خمسة قرون، لم يحدث أن ارتفع الأذان خارج ديار الإسلام في حشد كالذي جمعه (لويس فرخان) الزعيم (الأفرو ـ أمريكي)، أمام البيت الأبيض، وعلى مرمى حجر من مقر الكونجرس الأمريكي في (كابتول هِل).

كان ذلك قبل وصولي إلى واشنطن ببضعة أيام، ولكنّي شاهدت المظاهرة مسجلة على شريط (فيديو). منظر مهيب حقاً. آلاف فوق آلاف من البشر تجيش وتمور وتتزاحم بالمناكب. وجوه صارمة، ووجوه مبتسمة، وعيون كأنها مسحورة، مشدودة إلى أفق يبدو لها قريب المنال.

لم يكونوا كلّهم من المسلمين، ولكن طاف فوقهم جميعاً نداء الإسلام بسماحته التليدة، بصوت عذب تخالطه عُجمة، يخيّل لك أن مثله صوت بلال. طافا فوقهم كما ترف أجنحة الحمام أو كما ينتشر ضباب خفيف فوق الوديان.

تعلّقت الأبصار برجل رشيق على منصة، زنجي ولكنه ليس أسود، لونه أفتح من ألوان بعض العرب. زعيم ذو جاذبية غير عادية، تبدو في صوته الأغنّ كأصوات المغنين، وحركاته الرشيقة كحركات راقص باليه. يعلو ويهدر فكأنه موج يتكسر على صخر. ويرقّ ويعذّب فكأنه أم تهدهد طفلاً. وحين تلا سورة الفاتحة في نهاية الاجتماع بتلك العُجمة الموحية، رقّ جداً، وانحسر الغضبُ عن وجهه وصوته.

لعلّه متطرف، ولكنه تطرّف ينبع من حُبّ عميق لشعبه، كان في

الواقع أكثر اعتدالاً ممّا تخيّلت. هذا زعيم - مهما كان من أمره - يستمد قوته وعنفوانه من ماضي شعبه الحافل بالدموع.

العرب الأمريكيون، يلتقون مع الأمريكيين من أصول أفريقية في قضية الهوية والانتماء. إنما العرب هاجروا طواعية واختياراً، وجاءوا في عهد قريب نسبياً. ما يزالون متمسكين بجذورهم القديمة، يحاولون أن يوفّقوا بين ذلك وبين ولائهم الجديد لموطن هجرتهم.

أولئك شأنهم مختلف كما نعلم. لم يجيئوا، إنّما جيء بهم قسراً في ملحمة هي الأبشع في تاريخ الإنسانية. وذلك يعطيهم نوعاً من الإحساس بالتفوق أو الخصوصية، كونهم (الضحيّة) الكبرى. لذلك يضيقون بالعرب أحياناً، وهو أيضاً وراء اصطدامهم باليهود، لأن اليهود يريدون أن يحتكروا مكانة الضحية الأولى والأكبر في ضمير البشرية.

(فرخان) قال بصراحة أكثر من أي زعيم (أفرو - أمريكي) آخر، أن الاضطهاد الذي تعرّض له اليهود، لا يعتبر شيئاً بالقياس إلى ما أصاب السود الأمريكيين. كأنهم ينافسون اليهود على صفة (شعب الله المختار) - أي المختار للمعاناة والعذاب.

إنني أحسست أن العرب الأمريكيين، بدأوا يجدون بعض أسباب التقارب مع الأمريكيين من أصول أفريقية، وإن كانوا ما يزالون ينظرون إليهم بشيء من الحذر. ربما ينتج من ذلك التقارب، إن حدث، بعض الاعتدال في توجهات الأمريكيين السود، وأيضاً مزيد من التضامن عند العرب الأمريكان.

تقول لميس الأشطل، وهي طالبة جامعية في نيويورك، في مقالة فازت بالجائزة الأولى في مسابقة اتحاد خريجي الجامعات العربية الأمريكية:

«الآن، وقد بلغت التاسعة عشرة من عمري، فقد بدأت أدرك أن (هويتي) ليست مكتملة تماماً. وأهم من ذلك أنني أدركت أن الهوية المكتملة ليست شيئاً ضرورياً. ليس ضرورياً أن أكون شيئاً واحداً كي أحس بالفخر (...) إنني الآن أحس بالرضى أنني عربيّة وأيضاً أمريكية...».

وتقول طالبة أخرى اسمها غيداء سالم، من قصيدة باللغة الإنجليزية:

«تستطيع أن تنتزع وطني مني لكنك لا تستطيع أن تنتزعني من وطني. العلم الذي أرفعه لونه أحمر وأبيض وأزرق لكن تراثي يحيا في ذاتي.
أنا عربية أمريكية».

■ ■ ■

لبثت دهراً، لا يخطر لي أن أزور أمريكا، أيام كان دخولها سهلاً، والعقل أكثر استعداداً لتقبّل المناخات الجديدة والتجارب الجديدة. وما كان ذلك لقلّة الفرص.

حين سافر منسي رحمه اللّه إلى أمريكا، لم يكن يملّ من حثّي على المجيء إلى أمريكا والاستقرار فيها كما فعل هو، أدرك فوراً بقدرته المرهفة على انتهاز الفرص، أن تلك البلاد الشاسعة المتخمة بالثراء، التي بدت له كأنها (سائبة) ليست ملكاً لأحد، تنطوي على

احتمالات لا حدود لها.

كنت أقول له «يا أخي. إذا كان لا بد من منفى، فليكن عند الإنجليز. هؤلاء قوم على علاّتهم، عرفناهم وعرفونا. أمّا أن يقوم الإنسان من منفى يعرفه إلى منفى لا يعرفه ويبدأ من جديد؟ لا يا عمّي، خلّني حيث أنا، وأنت أمريكا مبروكة عليك».

ثم ذهب صلاح أحمد محمد صالح إلى واشنطن، مرّة ملحقاً ومرّة سفيراً، فكان هو أيضاً يزيّن لي أمر المجيء إلى واشنطن. كذلك لم يخلُ الأمر من دعوات من جامعات ومؤسسات ثقافية.

الأمريكان، رغم ما نعلم من لؤمهم السياسي أحياناً ـ وقد رأينا مؤخراً ضرباً من ذلك اللؤم في تأييدهم الغبي للاعتداء الإسرائيلي على لبنان العزيز ـ إلا أن جامعاتهم والحق يقال، تتّبع نحو الكتّاب والشعراء والمبدعين عموماً سلوكاً لا مثيل لتحضّره واستنارته. لا توجد في العالم، جامعات تحتفي بهذا الصنف من الناس، كما تحتفي الجامعات الأمريكية.

من أمثلة هذا السلوك الجميل، أنهم يدعون الكاتب أو الشاعر، ويجعلونه أستاذاً زائراً لمدة عام أو عامين، فيتفرغ إلى عمله الإبداعي، ومن وقت إلى آخر يعمل محاضرة أو يعقد سيمناراً.

لا توجد جامعة عربية واحدة ـ حسب علمي ـ تفعل هذا. وفي العام الماضي، منحت جامعة شيكاغو العالم الحبر الدكتور إحسان عبّاس، الدكتوراه الفخرية. إن الواحد منا قد يغفر لأمريكا بعض آثامها في العالم العربي، لعمل مثل هذا.

كانت جامعة الخرطوم قبل مجيء هذا العهد، تسلك ذلك السلوك المتحضر. كانت من الجامعات القليلة في العالم العربي ـ وربما كانت الجامعة الوحيدة ـ التي تمنح دكتوراهات فخريّة. الآن، اللّه أعلم، لكنني أرجح أن الظلام الذي نزل على البلد، قد طمس ذلك البصيص من الضوء.

عشرات المبدعين العرب، استفادوا من سخاء الجامعات الأمريكية، منهم صديقنا يوسف إدريس رحمه اللّه. كانت عبقرية يوسف إدريس ومزاجه لا تتفقان مع المناخ الأمريكي، فيما أحسب، فظل رغم زياراته لأمريكا، يراها لا كما يشتهي الأمريكان ـ الأمريكان الرسميّون بالطبع. أما الشعب، فتلك قصة أخرى.

لم أعدم دعوة من هذه الجامعة أو تلك، فلم أستجب لها، لأن أمريكا لم تكن من البلاد التي تغريني زيارتها. وما كان ذلك عن جهل أو كراهية، فقد أحببت بعض كتابها وشعرائها ونقادها وفلاسفتها، إنما البلد في مجموعها لم تكن تعني لي شيئاً.

كنت أحب لو تيسّر لي أن أزور أمريكا اللاتينية مثلاً، خاصة البرازيل، علماً بأن معلوماتي عن ذلك الجزء من العالم كانت ـ وما تزال ـ أقل كثيراً من معلوماتي عن أمريكا.

وفي أول عهدي بإنجلترا بادرت إلى زيارة فرنسا والدنمارك. مفهوم أمر فرنسا، لكن لماذا الدنمارك؟

بلي، لبثت زمناً أتقلّب في البلاد، ولا أحس بأية رغبة في التحرك نحو الولايات المتحدة الأمريكية. ماذا يمكن أن يكون في أمريكا؟ تخيلتها يومئذ كأنها نسخة باهتة من العالم الأنجلوسكسوني الحقيقي

كما عرفناه في إنجلترا.

من الذي يترك لندن إلى نيويورك أو ديترويت أو حتى واشنطن؟ يقايض نهر (التمس) بأنهار ليس لأسمائها رنين. الهدسن والبتوماك واللّه أعلم ماذا. ربما استثنى نهر المسسبي، بسبب سحر الجنوب وروايات (وليم فولكنر) و(مارك توين).

ومنطقة البحيرات في إنجلترا بكل ما علق بها من ضباب رومانسي بسبب الشعراء الكبار الذين عاشوا حولها وتغنوا بها، أين منها بحيرات أمريكا بصناعاتها الثقيلة ودخانها وبؤسها؟

ماذا يمكن أن يكون في أمريكا؟ ها هنا منبع اللّغة الإنجليزية والثقافة والحضارة الأنجلوسكسونية الأصلية، وما أمريكا إلا صدى، مجرد صدى، من ذلك الصوت.

ثم في عام ١٩٦٠، أرسلتني هيئة الإذاعة البريطانية إلى نيويورك فوجدت مدينة مثل الكابوس ـ كما خيّل لي ـ أقامها خيال رجل أو رجال مجانين، وتأكد لي أسوأ ما تخيلته عن أمريكا.

بعد ذلك أتيحت لي فرصتان للعمل مع الأمم المتحدة في نيويورك فأبيتهما، وظللت قانعاً بنصيبي من الحضارة الغربية بإنجلترا وشيء من فرنسا. أما أمريكا، فماذا في أمريكا؟

طبعاً ـ ولأن الدّهر لا تنتهي دعاباته ـ فقد عشنا ورأينا إنجلترا، أصل العالم الأنجلو سكسوني، بسبيلها إلى أن تصبح بمثابة صدى لأمريكا، ونسخة باهتة منها.

كان منسي رحمه اللّه، حين أذكر له محاسن العيش مع الإنجليز يقول:

«يا شيخ بلا إنجليز بلا كلام فارغ. أصلك أنت ما تعرفش أمريكا. أنت بس تعال وحتشوف العجب».

■ ■ ■

جاء محمد إبراهيم الشوش من منفاه في (أدمنتُن) بكندا، فوجدته هو والفاتح إبراهيم أحمد في انتظاري في مطار (دالاس) بواشنطن. اتفقنا من قبل، على اللقاء، وحضور اجتماعات (مؤتمر الدراسات السودانية) معاً، والتجوّل في واشنطن، والضحك من نوادر الشوش. إنه يضحك منذ أن يستيقظ حتى ينام. ليس من السعادة، ولكن من حدّة الذكاء، وشدة الحزن.

سوف نسمع غناء كثيراً من سودانيي الشتات، في الحنين إلى الوطن والحسرة على فراقه. سوف تغني هادية طلسم:

نلْقَى وين طيبةْ أَهَلْنا
أو وطن يشبه وطنّا
نحن واللّه ظلمنا روحنا
لمّا هاجرنا ورحلْنا.

وسوف يغنّي يوسف الموصلي من كلمات الشاعر الكتيّابي، أغنية مريرة يخاطب فيها الوطن:

وأشوف قرشك يسير في السوق

وأشوف قطنك ملاية على البحر والبر
كفن لي من كتف خيلك
سرق خيرَك
ولا خلّى الصغير يكبر
ولا خلّى القليل يكتر
ولا يابس ولا أخضر.

والكتيّاب، هم عشيرة الشاعر العبقري التجاني يوسف بشير، رحمه اللّه، فلا عجب!

كان خروجي من لندن سهلاً، اللّهـم إلّا من الفحص المتعسّف من قبل خطوط الـ(يونايتد) الأمريكية. يفرغون حقيبتك من محتوياتها كلها، ويفتحون قارورات الدواء، وأدوات الحلاقة وأنبوب معجون الأسنان. ثم يأخذون الحقيبة ليكشفوا عليها بأشعة (إكس).

قلت للموظف:
«ألا ترى أنها من المشمع، ليس فيها طيّات يمكن أن يُدَسّ فيها أي شيء مما تبحثون عنه؟».

قال بذلك الصوت الذي يلجأ إليه الموظفون حين يعُوزهم المنطق: «هذه أوامر فدرالية».

قلت له:
«ولكن ألا تظن أن الأوامر يمكن أن تنفذ بشيء من التصرف؟».

قصة تنفيذ الأوامر دون تفكير، قصة لعلّي أتعرض لها في المستقبل،

فقد أسعدني أنني وجدت في إحدى مكتبات واشنطن، كتاباً ظللت أبحث عنه زمناً في لندن ولا أجده. كتاب الفيلسوفة الأمريكية (حنّا أرنْدت) ـ (آيخمان في القدس).

كنت قد قرأته أول صدوره عام ثلاثة وستين، إنما هو من الكتب التي تحب أن تقرأها أكثر من مرّة.

كانت (حنا أرندت)، وهي من أصل يهوديّ ألمانيّ، معروفة بعدائها للصهيونية. وحين اختطفت الحكومة الإسرائيلية (أدولف آيخمان) من مخبئه في الأرجنتين، وأخذوه وقدّموه للمحاكمة، على أنه نموذج رجيم لإنسان شرير أشرف على إبادة ملايين اليهود، ذهبت (حنا أرندت) إلى القدس، ثم أصدرت انطباعاتها عن المحاكمة في هذا الكتاب الذي وصفته بأنه «تقرير عن الطبيعة العادية للشر».

ظهر في المحاكمة أن (آيخمان)، رغم كلّ الفظائع التي ارتكبها، وهو أمر لم ينكره، تصرّف كأي (موظف عادي)، ينفذ أوامر رؤسائه. وقالت:

«تلك كانت طبيعة الأشياء. كل ما اجترحه من إثم، إنما فعله تنفيذاً لأوامر الفوهرر. كل ما فعله، فعله بوصفه موظفاً مطيعاً لأوامر رؤسائه».

سبقها إلى ذلك المؤرخ الإنجليزي الفذ (جي. بي. تيلور) الذي قال في كتابه (أسباب نشوب الحرب العالمية الثانية) أن هتلر لم يكن (شيطاناً عبقرياً)، ولكنه كان زعيماً عادياً استفاد من أخطاء الآخرين.

ذلك الكتاب أسخط اليهود سخطاً شديداً. أما كتاب (حنّا أرندت)، فقد جُن له جنونهم. ذلك لأنها يهودية، ولأنها وصفت أعظم مأساة حاقت بهم في تاريخهم المأساوي، أنها كانت «في طبيعة الأشياء».

هذا، وقد كان دخولي الفردوس الأمريكي هذه المرة، أسهل مما توقعت. ختمت الضابطة جوازي فوراً ومدته إلي. امرأة (بيضاء) نصف، طيبة الوجه، كأنها جلست في ذلك المكان عن طريق الخطأ.

قلت لها:
«أهذا كل ما في الأمر؟».
«نعم».
«ألا تريدون بصماتي؟».
قالت مبتسمة:
«إنهم أخذوها في زيارتك السابقة. أليس كذلك؟».

يسميه الدكتور الشوش (الفردوس الموبوء). المكتبات عامرة بالكتب، والمحلات التجارية ملأى بالسلع، والشوارع والزحام والعمارات والعلم والتكنولوجيا. وقنوات التلفزيون ـ وهي فوق المائة ـ تعرض برامج لنساء يعاشرن نساء، ورجال يطلبون أن يصدر قانون يبيح لهم زواج رجال. أبناء يضربون أمهاتهم، وآباء يقتلون أبناءهم. وهم على وجه العموم قوم طيبون، حسنو المعشر، دائمو الابتسام.

هذا، وقد غنّى يوسف الموصلي بصوته العذب، عن سودان الإنقاذ والبؤس والشتات:
في دبابة... في دبابه

عاد لمتين في دبابه؟
أسارك كل ما طوّلْ
كؤوسك جفّت أكوابَهْ

■ ■ ■

لم تكن (كارولاين لوبان) موجودة في مؤتمر جمعية الدراسات السودانية هذا العام. أخبرنا زوجها (رتشارد)، أنها تشارك في رحلة دراسية تأخذ عاماً كاملاً، على ظهر سفينة تطوف بهم حول العالم.

سوف يجدون بلا شك، متعة السياحة، وفائدة الدراسة، ولذة عمل الخير، لأن السفينة تحمل نخبة، بينهم الأستاذ والباحث والمتخصص الذي يريد أن يطلع على تخصصات أخرى. تقف بهم على محطات في الطريق، فيتعرّفون على أهلها، ويعقدون فصولاً وندوات في جامعاتها. يفيدون ويستفيدون.

أليس ذلك ابتكاراً جميلاً جادت به قريحة الأمريكان؟ إنهم رغم لؤمهم السياسي أحياناً، ذوو قرائح وقادة. يا ليت شخصاً أو مؤسسة أو حكومة في ديارنا العامرة تأخذ به. ألا يكون شيئاً رائعاً، لو أن جامعة الدول العربية (جامعة السجم والرماد، كما نقول بلهجتنا)، استأجرت سفينة، ووضعت عليها ثلاثين أو خمسين... أو مائة، من أكاديمي وباحث ومفكر وشاعر وكاتب وصحافي وغيرهم. تقوم السفينة من طنجة، وتعرّج على الجزائر وتونس وبنغازي والإسكندرية وجدّه وبور سودان وعدن، ثم تدخل في غيابات الخليج ومتاهات العقل العربي.

تكون بمثابة (ثنْك تانك ـ خزّان أفكار) عائم. يدخل المسافرون في حوارات عميقة مفتوحة عن بعض القضايا التي.. (ماذا تفعل القضايا بالأمة العربية؟ تقضّ مضجعها؟ تؤرّق عينها؟ تعكّر صفوها؟ تكدّر عيشها؟ تحرّك نخوتها؟) وأيضاً يخرج الأساتذة المسافرون، فيتعرفون على المدن العربية التي ترسو سفينتهم عندها، ويعقدون الندوات ويعطون المحاضرات في جامعاتها فيستفيدون ويفيدون.

رعا الله صديقنا العالم الجيولوجي الشاعر الأديب الدكتور درويش مصطفى الفار في معقله في الدوحة. ظل زمناً يعرض أفكاراً كهذه في عمود يكتبه في صحيفة «الراية» القطرية. لم يترك شيئاً إلا أحصاه. أفكار عظيمة، كل فكرة منها تحيي بلداً ميتاً. ولا حياة لمن تنادي.

كنت أقول له:
«يا شيخ العرب! ـ كذلك كنت أناديه لأنه من العريش ـ الى متى تظل تنفخ في هذه القربة المقطوعة؟».

يضحك كما يضحك أهل العريش، إن كنت خبرتهم، ويقول:
«إلى أن يأتي الله بالفرج. ولن أملّ حتى يملّوا».

أجل. غابت (كارولاين لوبان) عن مؤتمر الدراسات السودانية هذا العام، وكان غيابها ملحوظاً، فهي وزوجها، وهما أستاذان في جامعة (رود آيلند)، من الطاقات المحركة في (جمعية الدراسات السودانية).

أعطياها من جهدهما ووقتهما، ويرجع إليهما أكبر الفضل في نشأة الجمعية وازدهارها. كل ذلك بدافع الحب للسودان وأهله.

أيام عز جامعة الخرطوم، كان يفد إليها دارسون من شتّى أنحاء العالم. من طوكيو إلى سان فرانسيسكو، ومن ستكهولم إلى ديربان، يجيئون بغرض التحضير لنيل شهادات الدكتوراه في جامعاتهم، عن جوانب من تاريخ السودان وشعوبه وبيئاته. كلّهم عادوا، وهم يحملون وداً عظيماً للسودان. وفضلهم لا ينكر في إيضاح جوانب ظلت غامضة من تاريخ السودان وشعوبه ومناخاته.

أذكر منهم على سبيل المثال، العالم الأمريكي (جيْ سبولدنج) ـ وهو مشارك في هذا المؤتمر ـ الذي تعمّق في دراسة تاريخ (مملكة سنّار)، وأصدر عنها كتاباً ثبتاً، لا يوجد له مثيل في سعته وشموله، ويزيد من إكبارنا لهذا العالم، أن المؤرخين السودانيين، لم يولوا الحقبة السنارية حقها من العناية فقد انصرف أغلبهم إلى دراسة الحقبة المهدية، لقرب عهدها، وتوفر مصادرها. وكذلك الحقبة الاستعمارية. إنما غاية الفضل فيما ناله السودان من عناية هؤلاء الدارسين الأجانب، لا بد أن يعود إلى الرجل الذي لا تلد النساء كثيرين أمثاله، المرحوم بروفسور محمد عمر بشير، مات مقاتلاً في سبيل العلم حتى آخر رمق، ولم يطاوعني قلمي على رثائه، فقد كان فقده، من ذلك القبيل، الذي يُلجم الألسن، ويخرس الأقلام. كان عالماً رحباً تولّى، فكيف ترثي عالماً بأكمله؟

أيام كان مسؤولاً عن الدراسات العليا في جامعة الخرطوم، كان هو الذي يوجه مسار هؤلاء الدارسين الأجانب. هذا إلى دارفور، وهذا الى كردفان، وهذه الى البحر الأحمر، وهذا إلى الجنوب، وهذا إلى الجزيرة. وقد وجه (كارولاين لوبان) إلى منطقة الشايقية في الشمال، فأقامت هنالك زمناً، بين كريمه ونوري ومروى.

تغلغلت إلى أعمق أعماق حياة الناس. أكلت الكسرة بالويكه والمرارة بالشطّة. شربت ماء النيل العكر في الجروف. لبست (ثوب الزّراق) و(فركة القرمصيص). غنّت ورقصت مع النساء في الأعراس. ركبت الحمير وسفن الشراع. سارت (شايقية) محضاً.

أحبها الناس إلى حد أنهم أسموها (مهيرة)، على اسم فارستهم (مهيرة بت عبّود)، التي تصدّت لجيوش الأتراك، وأظهرت بسالة في الحرب أزرت ببسالة الرجال.

ويا أكرم الله تلك الرحم التي لا تكفّ عن العطاء. انطوت صفحة (مهيرة بتْ عبود) في ديار الشايقية، فولدت رحم الأمة الولود، مهيرة أخرى في أم درمان. تلكم هي فاطمة أحمد إبراهيم وكفى. صاحبة الصولات في البرلمان، حاملة لواء الحرية في تشرين الأول/أكتوبر ونيسان/أبريل.

يكفي أن تقول فاطمة أحمد إبراهيم. إلا أن الله سبحانه وتعالى، بقدر ما أنزل بها من الفواجع، فقد أهال عليها فخاراً فوق فخار، فهي زوجة الشفيع أحمد الشيخ، فارس حرمات الوغى وفتى فتيان الجعليين. أضاعه النميري قبل أن تغرق سفينته بقليل. وأخوها المرحوم صلاح أحمد إبراهيم، صاحب (غابة الأبنوس)، حيث يقول:

أنا في أفريقيا صحرائها الكبرى وخط الاستواء.
اليوم جاء من يقول لنا لسنا أفارقة. إذاً من نكون؟

تزوج ابنها أحمد الشفيع في لندن ففرح السودانيون لذلك أي فرح، كأن انتفاضة رجب المباركة، قد هلّت من جديد، وقلنا لعله يكون

فألاً حسناً ينهي أحزان هذه السيدة النبيلة.

كان عشاء العرس، سندوتشات الفول المدمّس. وقالت فاطمة في كلمتها، أن أهل العروس تنازلوا عن الصداق، مؤخّره ومقدّمه، وأن العرس كلّه لم يكلفها شيئاً، فقد قام به الأهل والحبّان، وأنها تعمدت أن تقدم طعاماً بسيطاً في العشاء، مراعاة لظروف الوطن، وعسى أن (يختشي) الآباء الذين يزوّجون أبناءهم وبناتهم ببذخ واستهتار، فيغلّون المهور ويجلبون الطعام الفاخر بالطائرات.

بلى، أحبت (كارولاين لوبان) السودان وأهله حبّاً يجعلنا نحن مواطنيه نحس بالتقصير. في (بوسطن)، هالتها دعوة بعض الجنوبيين إلى الانفصال. كانت الدموع تسيل على خديها وهي تلقي محاضرتها. لم تكد تقوى على الحديث. قالت إنها عرفت سوداناً واحداً. وأحبت سوداناً واحداً.

■ ■ ■

اعتدنا في هذه المؤتمرات، أن يطلع لنا (شقيق) جنوبي أو أكثر، يتلو علينا تهماً ممجوجة، كيف أن العرب الشماليين استعبدوا الجنوبيين وهضموا حقوقهم واسترقّوهم. وهم (أشقاء)، كما قال الحسن بن هانئ عفا الله عنه:

كمُن الشنآنُ فيه لنا
ككُمون النّار في حجره

أعجب ما في الأمر، أنهم يرون الفيل ويطعنون ظلّه، كما نقول في أمثالنا. لم نسمع أو نقرأ لأحد منهم، يحقد على الاستعمار الأوروبي أو الاستعمار الإنجليزي.

حكم الإنجليز السودان قرابة ستين عاماً، واتّبعوا أول عهدهم أساليب من البطش والاستبداد، في الجنوب كما في الشمال، حتّى دان لهم القطر بشقّيه. وكان في الجنوب حاكم إنجليزي يدعى (ميجور كوك)، كانوا يضربون به المثل في الفظاظة، فكانوا يقولون:
«زمن ميجور كوك. زمن يخيّشوا ناس».

أي يضعون الإنسان في كيس الخيش ويربطون عليه.

لم يفصلوا الجنوب، كما كانوا ينوون أول عهدهم، ولم يوحّدوه توحيداً بيّناً. وتركوا أمر التعليم للإرساليات التبشريّة، تفعل ما تشاء وتزرع بذور العداوة والبغضاء.

كنتُ أحد طلبة مدرسة (وادي سيدنا) الثانويّة الذين زاروا الجنوب عام ١٩٤٨. كانت تلك أول مرّة يسمحون فيها لطلبة شماليّين بزيارة الجنوب. وكان ذلك بقرار من الحاكم العام.

وجدنا حيث حللنا في الجنوب، صبية في سننا، قد أُوغرت صدورهم، ومُلئت حقداً على العرب والمسلمين.

أما دور الاستعمار الأوروبيّ في تجارة الرقيق، فأمره معروف. لقد أثبتت المصادر الأوروبية نفسها، أن الأوروبيين ـ من إنجليز وفرنسيين وبرتغاليين وإسبان وهولنديين وحتى أمريكان ـ رحلو إلى الأمريكتين

ما يقدّر في بعض المصادر بخمسين مليون أفريقي. وكان الوسطاء في تلك التجارة المعلومة، من الأفارقة السود أنفسهم.

لا يذكرون هذا، ولكنهم لا يملّون من تذكيرنا بالزبير باشا. إنما الزبير باشا لم يكن ـ ولم يكن تبوتب العماني ـ تاجر رقيق. كان طالب مُلك. وقد أسّس دولة امتدت من تشاد حتى بحر الغزال. وكادت تبقى لولا التدخل الأوروبي. وكذلك كان الحال مع تبوتب في الكنغو.

كان كبار قوّاد الزبير من (الزّنج). وكان نائبه والرجل الثاني في دولته رابح، الذي ظن كثيرون أنه ابنه لشدّة ما قرّبه إليه، فسموه (رابح الزبير). وهو لم يكن شمالياً، بل جنوبياً من أعالي النيل.

كان الجنوبيون أخفّ وطأة في مؤتمر (جمعية الدراسات السودانية) هذا. جاءتنا الاتهامات هذه المرة من جهة لم تكن في الحسبان، وقد كان في البرنامج محاضرة لجنوبي اسمه (آمبروز بني) عنوانها: «التنكّر لأفريقيا في أعمال الطيب صالح ـ موسم الهجرة إلى الشمال وأزمة الهوية في السودان».

كنت متشوّقاً أن أسمع رأيه، لكنه لسبب ما أحجم عن تقديم محاضرته في آخر لحظة. لقيته لقاء عابراً، فوجدت رجلاً مكفهر الوجه محمر العينين كأنه يصارع كابوساً. قلت له:

«من أين جئت بهذا الزعم أنني تنكّرت لأفريقيا؟ وكيف أفعل وأنا أفريقي؟ هل يستطيع كاتب غير أفريقي أن يكتب رواية موسم الهجرة إلى الشمال؟»

لكنني وجدت من العبث محاورته، فقد طوى ضلوعه على ضغن لا يريد أن يتخلّى عنه. والضغن لدى بعض الناس مثل الحب، يملأ عليهم حياتهم ويعطيهم معنى لوجودهم.

من حسن الحظ أن الجنوبيين ليسوا كلهم مثل (آمبروز بني). بل إن منهم أناساً الواحد منهم (تضعه على الجرح فيبرأ)، كما يقول المثل السودانيّ.

من هؤلاء الرجل الفاضل بحق (أبل ألير) الذي لو انتُخب رئيساً للجمهورية لما وجد أي شمالي غضاضة في ذلك. فيه شيء من روح (نلسن مانديلاّ) العظيم.

هؤلاء يدركون أن الجنوبيين لم يكونوا وحدهم ضحايا الحكومات العسكرية التي تعاقبت على السودان ـ ولا ينكر أحد أن تلك الحكومات بما فيها هذا العهد الماثل ارتكبت أخطاء فادحة في الجنوب. إنهم يفهمون أن الشماليين أيضاً كانوا ضحايا العسف والقهر والاستبداد. لم تترفق تلك الحكومات بالشمال، لأنها شمالية. بل لعلّها أمعنت في هوانهم، كما القريب قد يظلم القريب.

وحقيقة الأمر أن الشماليين حملوا أكبر العبء في التصدي لجبروت الحكم التركي، ثم فظاظات الخليفة عبد اللّه أواخر العهد المهدي، ثم صلف الإنجليز أول عهدهم، وأخيراً ظلم ذوي القربى من الحكومات العسكرية المتعاقبة.

إنما بعض الجنوبيين يريدون أن يستأثروا بدور الضحية، لأن في

أمريكا وأوروبا دائماً أناساً يطلبون (ضحية) يسعدهم أن يعطفوا عليها، حتى لو كانوا هم السبب في كون (الضحية) ضحية أصلاً.

■ ■ ■

كأنّ الزمان فجأة أصابه الخَبَل.

نشأنا في الثلاثينيات والأربعينيات، وحتى الستينيات، ونحن لا نفرّق بين العربيّ والنوبي والبجاوي والزنجي، نميّز هذا من ذاك، ولكن التمييز لا يحمل وراءه كرهاً أو احتقاراً.

كان السوداني يسافر من وادي حلفا في أقصى الشمال، إلى تخوم الجنوب وراء كوستي، ومن بور سودان في الشرق إلى نيالا في الغرب، فيجد حيثما حلّ أقواماً لا يختلفون سطحية في السلوك ونمط العيش. يفهم لغتهم، ويأكل طعامهم ويصلّي معهم في مساجدهم.

وحتى غير المسلمين، كانوا ينخرطون ببساطة في نسيج الحياة، فلا تكاد تميّز بين المسلم وغير المسلم. وكان عندنا في بلدتنا في منطقة الشمال الأوسط ـ وما يزالون ـ طائفة من القبط الذين هاجروا قديماً من مصر. كانوا في أزيائهم وحديثهم وأسلوب حياتهم، لا يختلفون عن سائر الناس، يحضرون الأعراس، ويشيّعون الجنائز، ويجلسون في المآتم مع المسلمين. لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من أعراف أهل البلد. فقط يفرّق بينهم الموت. حينئذ يدفن الواحد منهم في مقبرة منفصلة عن مقابر المسلمين.

إخواننا في شرعة الحياة، ولكن نحن لنا ديننا، وهم لهم دينهم.

وفي مؤتمر (جمعية الدراسات السودانية) هذا، أعطانا الباحث الأمريكي الدكتور (روبرت كريمر) محاضرة كانت بمثابة تكريس رائع، لذلك الأسلوب الفريد الذي اتخذه المجتمع السودانيّ المسلم إزاء الأقليات غير المسلمة.

كانت المحاضرة عن عائلة سودانية، يهودية عُرفت باسم (بسيوني). كان عميد الأسرة، واسمه (موسى بن صهيون) من طائفة اليهود السفرديم في فلسطين. هُجر إلى السودان في القرن الماضي إبان الحكم التركي، واستقر في الخرطوم، وعمل في التجارة، وكوّن لنفسه مركزاً ونفوذاً، وكان سبباً في أنه جذب إلى السودان عدداً من العوائل اليهوديّة، من مصر وتركيا وفلسطين.

أصبح (بن صهيون) عميداً للجالية اليهودية، وتأسس على يديه أول معبد لليهود في السودان، كما صارت لهم مقبرة منفصلة.

ولما انتصرت الثورة المهدية، وأجْلت الحكم التركي عن السودان، اعتنق بن صهيون الإسلام، كما فعل سائر اليهود والقبط. غيّروا اسمه إلى (بسيوني)، وأعطوه لقب (أمير) فظل مشرفاً على الجالية اليهودية، الذين تجمعوا في حيّ (المسالمة) بأم درمان، وهو حيّ خصّص للجاليات التي دخلت في الإسلام من يهود وقبط، وما يزال موجوداً إلى اليوم.

ذلك الحيّ، كان له دور لا يستهان به في تاريخ مدينة أم درمان، وفي تاريخ الحركة الفنية والثقافية في السودان. منه خرج الشاعر الغنائي الفذ (أبو صلاح) والأديب المرحوم مبارك إبراهيم، الذي صحب الشاعر العبقري التجاني يوسف بشير، وكان مرجعاً في أخباره وشعره.

تزوج موسى بسيوني أول عهده يهوديّة من أزمير. ثم في عام ١٨٦٠، تزوج من سودانية من أصول قبطية مصرية وجعلية سودانيّة، عرفها أهل أم درمان باسم (ست المنّا) وكانت مشهورة ومحبوبة لديهم. وقد ولدت لبسيوني سائر أبنائه وبناته ويرجحون أنها كانت على الإسلام.

على أثر انهيار الحكم المهدي، واستتباب الأمر للحكم الاستعماري البريطاني، ارتدّ بعض اليهود وبعض القبط، وظلّ آخرون متمسكين بعقيدتهم الإسلامية، والراجح أن بسيوني ظلّ متمسكاً بالإسلام.

وقد عرف السودانيون المعاصرون ابنه، داءود بسيوني، الذي كان من كبار موظفي الدولة أيام الإنجليز، واستمر كذلك في العهود الوطنيّة إلى أن بلغ سن التقاعد.

أذكر أنني زرته مع صديق لي أوائل الثمانينيات ولم أكن أعرفه من قبل. كان الوقت وقت عيد أضحى فوجدناهم قد ضحوا كسائر المسلمين. ووجدنا داءود بسيوني يقرأ في مصحف قال لنا إنه نقله بخط يده.

كان رجلاً حظي باحترام كبير في أوساط (العاصمة المثلثة)، وحين توفي عام ٨٧، شيّعه جمع غفير من الناس، ووقف على قبره عدد كبير من أقربائه، كانوا خليطاً عجيباً، منهم المسلم والنصرانيّ واليهوديّ.

هكذا كان السودان في ذلك الزمن المعتدل المُسامح.

كان المسلمون يدعون إلى دينهم بالكلمة الطيّبة والموعظة الحسنة

والصدق في المعاملة، ويقبلون الآخرين على علاّتهم. وكان الجنوبيون يدخلون في الإسلام طواعية بالمئات، وأحياناً بالآلاف، وذلك بواسطة التجار الشماليين، الذين كانوا يتسلّلون إلى الجنوب، رغم الحواجز التي أقامها الإنجليز. وكذلك أدخلوا اللغة العربية، التي انتشرت حتى أصبحت هي لغة التخاطب في الجنوب.

لم يحتج الأمر إلى جيوش وقهر وبطش.

اليوم يبدو الزمان كأنه قد أصيب بالجنون، أو كاد. وجنون الزمان ليس غير جنون البشر. أخذ أناس لم يساورهم أيّ شك من قبل، يسألون من هم، ومن أين جاءوا، وما هي (هويّتهم).

في هذا المؤتمر ظهر لنا شاب من منطقة النُّوبة في أقصى الشمال، من حيث دخل العرب المسلمون بلاد السودان منذ قرابة أربعة عشر قرناً. ظل يردد بمناسبة وبلا مناسبة، كيف أنّ العرب قهروا شعب النوّبة، وقضوا على حضارته، وطمسوا (هويته)!

■ ■ ■

في زيارتي هذه إلى واشنطن، قرأت كتاباً من هذه الكتب، التي حين تفرغ منها، تبدو لك الأشياء غير الأشياء.

كنت قد قرأته منذ سنوات، في حَمْأة الجهالة، حين يكون الإقبال على المعرفة مثل الإقبال على الجهل. كالذي يأكل دون أن يهضمهم، أو يسمع دون أن يفهم. ولا أذكر أنه ترك أثراً في نفسي، اللّهم إلا إحساساً خافتاً بالرغبة في العودة إلى مكان زُرتَه، وتعلم أنه جميل، لكنك لم تتبين جماله. ثم وأنا أعدّ حقيبتي للسفر، إذا بهذا الكتاب

يبرز لي من بين الأرفف، يكاد يقفز من مكانه. قراءة الكتب، وصداقة البشر، والوقوع في الحب، كلّ ذلك بقَدَر.

فرغت من قراءته في دار الفاتح إبراهيم أحمد. وربّما بسبب صحبته الذكيّة الخيّرة هو والشوش، والمنظر الجميل من الطابق الثاني عشر، حيث شُرفة الفاتح تطل عى الغابات والعشب والغدران في فرجينيا، والأضواء البعيدة بالليل، وأحوال الغيْم والنور في سماء واشنطن وما حولها أول الصيف. بسبب كل ذلك، حين فرغت من الكتاب، فكأنني زرت تخوماً عجيبة لم أزُرها من قبل.

الكتاب هو (العهد الملكيّ والثورة) لـ (ألكسي دي توكفيل) الذي يشرح فيه العوامل التي أدت إلى القيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.

كان (دي توكفيل) من طبقة النبلاء، وكان عضواً في البرلمان عام ١٨٣٩، وصار وزيراً للخارجية عام ١٨٤٩. ولمّا استولى (لوي نابليون) ـ نابليون الثالث ـ على الحكم، عزله من منصبه، ثم أدخله السجن فترة، لأنه رفض أن يُعلن ولاءه للعهد الجديد. وفي عام ١٨٥٦، أصدر هذا الكتاب، الّذي جلب له شهرة لم تخفُت حتى اليوم.

كان كاتباً بارعاً، ومفكراً بعيد الغور، ومؤرّخاً منصفاً، وإنساناً عاشقاً للحرية والإنسانية.

وأحب أن أعطي القارئ شيئاً من مذاق هذا الكتاب العظيم، في هذه الفقرة التي يصف فيها (دي توكفيل) الشعب الفرنسي:

«... حين أتمعّن تلك الأمة في حدّ ذاتها، لا أملك إلّا أن أعترف، بأنها أدعى للعجب من أي حدث مُفرد من أحداث تاريخها. هل ظهرت أمة أخرى على وجه الأرض، في مثل خصوبة مفارقاتها وتطرّف أفعالها؟

أُمة تتحكّم فيها العواطف أكثر من المبادئ. دائماً أحسن وأسوأ مما يُتوقع منها. بينما تراها تبلغ حداً من الحقارة تحت مستوى الإنسانية، إذا هي فجأة تبلغ من السمو حداً فوق مستوى الإنسانية بمراحل. سماتها راسخة بحيث تستطيع أن تتعرّف عليها من صور رُسمت لها قبل ثلاثة آلاف عام، ولكنها في الوقت نفسه متقلّبة في نزواتها وأهوائها إلى حدّ أنها تصبح لغزاً أمام نفسها.

تنظر الأمة إلى أفعالها وتحسّ بالدهشة كما يحسّ بها الغرباء.

شعب ينزع إلى الحياة الأسريّة المستقرة، والعادات المألوفة المكرّرة، ولكنه حين يُقبل على التغيير، فهو مستعد أن يذهب إلى أقصى الحدود، ويغامر بلا حساب.

شعب صعب المراس بطبيعته، ولكنه يؤثر الخضوع للاستبداد والعنف، على أن يحكم حكماً حرّاً بواسطة ممثلين ينتخبهم بمحض إرادته. أحياناً ينفر من التسلّط، وأحياناً يخضع بحيث لا يشبهه شعب آخر في خضوعه.

شعب تقوده بخيط واه إذا كانت الأمور هادئة، ولكن إذا ارتفعت رايات الثورة، فما من حاكم يستطيع أن يسيطر عليه. دائماً يخدع سادته، الذين يهابونه أكثر مما يجب، وأقل مما يجب...

شعب مؤهّل لأعظم الغايات، ولكنه لا يُحسن أي عمل غير الحرب. يهيم بالمغامرة والقوّة والنجاح والبهرج والضوضاء، ويؤثرها على السعي الدؤوب لإحراز المجد الحقيقي.

شعب موهوب، ولكنه وُهب حب البطولة أكثر مما وهب حب الفضيلة، وأعطي العبقرية أكثر مما أعطي الحكمة. ينساق وراء الأحلام الكبيرة الخادعة، ولا يصبر على الجهد المضنّي لتحقيق الإنجازات العظيمة.

أروع أُمة وأخطر أمة في أوروبا، وأكثر الأمم إثارة للإعجاب والكراهية والخوف والشفقة. لكنها أبداً لا تُقابل بعدم الاكتراث.

لا توجد أُمة إلا هذه، تستطيع أن تلد ثورة كالثورة الفرنسية، في مباغتتها وتهوّرها وجيشانها. ثورة مليئة بالعثَرات والتناقضات والأعمال المتضاربة.

لم يكن الفرنسيون يستطيعون القيام بتلك الثورة إلّا للأسباب التي شرحتُها، ولكن لا بد من القول أيضاً، أن تلك الأسباب لا تكفي لتبرير تلك الثورة إلّا في فرنسا».

■ ■ ■

نجاح هذه الدورة من مؤتمر الدراسات السودانية ـ وقد كان مؤتمراً ناجحاً رغم أي شيء ـ يعود في معظمه إلى رئيسه الحالي، الدكتور أحمد الأمين البشير. عمل بمهارة فائقة على إشاعة المرح وتهدئة الخواطر وإزالة التوتر. وقد أتاح مجالاً واسعاً للحوار وتبادل الآراء،

وأضاف بُعداً فنياً لم يوجد في المؤتمرات السابقة، فخصص جلسة كاملة لتقديم رقصات شعبية وعروض موسيقية.

أدار الدكتور محمد إبراهيم الشوش تلك الجلسة الختامية، فأظهر من البراعة والذكاء وخفة الروح، ما جعل الناس ينفضّون عن ذلك المؤتمر، وهم أقلّ حزناً وهمّاً مما تحتّمه الظروف.

الدكتور أحمد الأمين البشير أستاذ لتاريخ الحضارات بجامعة واشنطن، لذلك فهو معتاد على النظر إلى تقلّب أحوال السياسة نظرة تأخذ في الاعتبار عوامل المدّ والجزر في حركة التاريخ على مساحات شاسعة. وهو يرى من هذا المنطلق، أن ما يحدث في السودان اليوم، رغم كلّ العناء والشقاء، فهو أمر لا مفر منه في حركة النموّ والتحوّل.

بعبارات أخرى، لعلّ وراء ما نرى من ضوائق وعنت في العيش وإجحاف من السلطات وخلخلة في بنية المجتمع ربما لم يسبق لها مثيل منذ ما يربو عن قرن ـ لعل تحت كل هذا شيئاً مدهشاً يتكوّن، وأن المجتمع في حقيقته لا يسير إلى الخلف ولكنه يسير إلى الأمام.

هذه نظرة فيها عزاء عظيم، وأنا شخصيّاً أحبّ أن أصدّقها. وهي تناسب مزاجي بوصفي كاتباً روائياً، أبداً يحاول أن يستشرف ما وراء الجبل، وفي حلكة الظلام، يجهد أن يتميز بَصْبَاص الضوء.

الكاتب الروائي ـ في ظنّي ـ أقرب ما يكون إلى المؤرّخ. وقد

أعجبني - على سبيل المثال ـ حديث البروفسور حسن أحمد إبراهيم عن فترة الحكم التركي في السودان (١٨٢١ - ١٨٨٥).

الدكتور حسن من الجيل الثالث من المؤرخين السودانيين المعاصرين، وكان إلى عهد قريب أستاذاً للتاريخ في جامعة الخرطوم، حيث كانت له مساهمات علمية ذات أثر، وهو الآن أستاذ في جامعة ماليزيا الإسلامية، وخروجه من جامعة الخرطوم خسارة كبيرة.

خلُص في بحثه، إلى أن فترة الحكم التركي، رغم أنها اتسمت بالفساد وسوء الإدارة والاستبداد، فإنها لم تكن شرّاً خالصاً.

وحّدت السودان ضمن حدوده الحالية إلى حد كبير، وبدأت عملية التحديث، وفتحت البلاد للمؤثرات الأوروبية، وساعدت على انتشار الإسلام في أطراف القطر خاصة في الجنوب.

ومن الطريف أن نعرف رأي رجل مثل الزبير باشا (وْد رحمه) عن الحكم التركي، فقد تعامل معهم، وتصادم بهم، وأتعبهم وأتعبوه وخذلوه في نهاية الأمر. ولا يوجد سبب يجعله يحسن الظن بالأتراك.

من حسن الصدف أنني وجدت بين الكتب المعروضة في المؤتمر، كتاباً عنوانه (الزبير باشا يروي قصة حياته في منفاه بجبل طارق). وهو عبارة عن مقابلة طويلة عملتها معه صحافية بريطانية اسمها (فلورا شو) عام ١٨٨٧، بعد أن نفته السلطات الإنجليزية إلى جبل طارق.

هذه المقابلة تعدّ من الوثائق الهامة عن حياة هذا الرجل المقدام المغامر المثير للجدل. وقد ترجمها الأستاذ خليفة عبّاس العبيد، الذي كان من الرعيل الأول من السفراء في الخارجية السودانية. وهو من عشيرة الزبير ومتزوج من حفيدته، وقد صدر الكتاب عن مركز الدراسات السودانية بالقاهرة، الذي يشرف عليه العالم السوداني الدكتور حيدر إبراهيم. وفي الكتاب بالإضافة إلى المقابلة، معلومات عن حياة الزبير، ووثائق ورسائل.

وفيما يلي، يتحدث الزبير عن رجل يُدعى إسماعيل أيوب، عينته الحكومة التركية والياً على إقليم دارفور بعد أن فتحه الزبير، وكان يؤمل أن يقرّوه والياً عليه:

«... لكن إسماعيل أيوب لم يستمع لصوت العقل.. لم يكن يصلح أن يكون حاكماً لأنه لم تكن لديه أي فكرة عن الناس الذين يحكمهم أو أي شفقة أو عطف.. لم يشأ أن يغرس البذرة في التربة ويزرع بأناة وصبر، بل أراد أن يكتنز كل المحاصيل ليكنسها كنساً ويذهب بها.

كان ما فعله أشبه بجني الحنطة وهي ما تزال خضراء غير ناضجة، فدمّر البلاد من أجل أن يحقق لنفسه قليلاً من الثراء. وهكذا كان الحال مع حكّام السودان أبداً. ولو أنه أحسن حكم ذلك المركز لكان من المحتمل أن يصير خزانة لمصر... ولهذا السبب فإنه لن يكون من الممكن للحكومة التركية الاحتفاظ بالسودان.

لكن لا أريدك أن تظني أن الحكم التركي كان حكماً سيئاً كله... كان فيه بعض الخير... عندما فتح الأتراك البلاد كانت متخلّفة

جداً. لم تكن بها أية طرق وكان من المستحيل على التجّار التنقّل.

العمل الجميل الذي قامت به الحكومة التركية هو فتحها للطرق. العمل السيئ هو جشع الموظفين وغشهم للأهالي وظلمهم. لكن الطرق تبقى... وتبقى أيضاً عادة التجارة وتستمر...».

■ ■ ■

في حفل العشاء الذي أقامه مؤتمر جمعية الدراسات السودانية، كان الخطيب هو (مستر هيوم هوران ـ Hume-Horan)، أحد السفراء السابقين للولايات المتحدة في السودان. مثّل بلاده أواخر عهد الرئيس النميري وأيّام الحكومة الانتقالية برئاسة عبد الرحمن سوار الذهب، ثم في العهد الديموقراطي الذي أعقبها حين كان السيد الصادق المهدي رئيساً للوزارة.

مستر هيوم هوران معروف بحبّه للسودان وشعبه، وقد عبّر عن ذلك بقوله:

«من واجب الدبلوماسي أن يكون محايداً مثل الطبيب. إذا ترك عواطفه تتغلب عليه، فلن يكون مفيداً... ولكنني أعترف أنه كان من الصعب عليّ أيام عملي سفيراً للولايات المتحدة في الخرطوم، ألاّ أكون متحيّزاً للسودان.. وذلك لأن السودانيين يمتازون بجاذبية غير عادية».

هذا الحب للسودان، هو الذي جعل مستر هوران يبدأ حديثه معبّراً عن حزنه العظيم لما صارت إليه الأحوال في السودان، كما يراها،

من عزلة سياسية وأحوال اقتصادية بالغة البؤس، وسمعة سيئة في المحيط الدولي، وقال:

«لم يكن هذا هو المستقبل الّذي حلم به السودانيون وتمنّاه لهم أصدقاؤهم الكثيرون في الخارج. كان السودان أول عهده بالاستقلال، يبدو كأنه يملك كل شيء... كانت عنده بُنية أساسية حسنة... شبكة خطوط حديدية ممتازة، وخدمة مدنيّة ذات كفاءة عالية، وقطاع زراعي مزدهر، وكانت طلائع البترول تلوح في الأفق... وفوق كل شيء، كان جيران السودان يغبطونه على أراضيه الخصبة الواسعة ومياهه الوفيرة».

تساءل مستر هوران، لماذا خيّب السودان الآمال، وانتهى إلى ما انتهى إليه. وذكر أن من الأسباب التي يبرّر بها المسؤولون في السودان سوء أوضاعهم، ما يصفونه بالتدخّل الأجنبي، وقال:

«مع الإقرار بأن ظروف الحرب الباردة ربّما تكون قد أثرت على علاقات السودان مع جيرانه ومع العالم الخارجي، فإنّ من الخطأ القول إن حرص بعض الدول الصديقة للسودان على تأمين مصالحها، كان هو السبب في ما نزل بالسودان من محن وكوارث. هذه الحُجة كأنّما تستحضر الاستعمار في قالب آخر. وهي حجّة تفترض قدرة غير حقيقيّة لدى القوى الخارجية كما تفترض شللاً في إرادة السودان وشعبه».

وركز مستر هوران في حديثه على أن السودان يضيّع وقتاً ثميناً في معترك السباق الاقتصادي الدائر، وأنه بينما يزداد اقتصاد السودان سوءاً يوماً بعد يوم، فإن بعض الدول، خاصة في آسيا تتقدّم تقدّماً

ملحوظاً. لذلك فسوف يكون حتماً على السودان، ليس فقط أن يعود إلى ما كان عليه قبل عقد من الزمان، ولكن أيضاً أن يلحق بتلك الدول.

ثم تساءل مستر هوران، ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل لمساعدة السودان، وماذا يستطيع السودان أن يفعل لمساعدة نفسه، وقاده ذلك إلى موضوع الإسلام فقال:

«إن علاقة الولايات المتحدة بالإسلام، ليس فقط في السودان، ولكن في المنطقة كلها، علاقة متوتّرة غير واضحة. وأنا أعترف أن أسلوبنا في معالجة قضايا الإسلام، لا يمكن لأن يوصف بالمهارة. ولا شك أن بعض الناس في الغرب ـ ربما في أوروبا أكثر من الولايات المتحدة ـ ينظرون إلى الإسلام في سياق الصراع الحضاري القديم ـ الصراع بين قابيل وهابيل. إنما لكي نكون منصفين للغرب، كم من الأخبار السارة تصلنا من منطقة الشرق الأوسط؟».

وبعد أن أسهب مستر هيوم هوران في شرح العوالم التي رسمت صورة بشعة للإسلام في أذهان الأمريكيين، ختم كلمته بقوله:

«إنني أرجو، بل أدعو الله، أن يَغلُب جانب الحكمة والعقل على أعمال المسؤولين في السودان. ما هو البديل؟ خمسون عاماً أخرى من الحرب الأهلية؟ اقتصاد بلغ من الدّمار حداً عاد به إلى العصور البدائية؟ عزلة انتحارية ـ لا سفارات، لا أصدقاء باستثناء أصدقاء يشك المرء في صحة عقولهم؟

إنني لا أصدق أن هذا هو المصير الذي يستحقه قطر عامر

بالإمكانات، مليء بالاحتمالات العظيمة مثل السودان. وعلى السودانيين أنفسهم أن يعملوا كي لا تصل الأمور إلى تلك النهاية المحزنة».

■ ■ ■

ألحّ علينا السيّد مهدي إبراهيم، السفير السوداني في واشنطن أن نتغدّى عنده، لم تدهشنا دعوته ولا إلحاحه، رغم أن محمد إبراهيم الشوش خرج عن صمته منذ أشهر، وكتب مهاجماً نظام الإنقاذ وسياساته، وأنا أقول قولي منذ أمد. ولم يشفع لي عندهم، أنني لا أفتأ أستغفر الله لي ولهم.

كانوا متحفزين معبّئين أول عهدهم، ترميهم بسهم واحد، فيجرّدون عليك كتيبة برمتها. الآن كأنّهم هدأوا، وأولى لهم، إذ إن أي حكومة لا تهدأ بعد سبع سنوات متصلة من هموم الحكم وأعبائه، فمتى تهدأ؟ وكم من سبعات السنوات يحتاج إليها بعض الحكّام، كي يفهموا أن الناس شركاء معهم في حب الأوطان وحمل همومها، وأن الهم إذا قسّمته، أصبح أخف ثقلاً؟

كأنهم صاروا أقل تبرّماً بالنقد، كما تنم بعض صحفهم. وقد اطلعت مؤخراً على أعداد من صحيفة (الرأي الآخر) ـ التي تصدر في الخرطوم فثمة «رأي آخر» تصدر في أمريكا ـ فوجدت فيها مقالات للأستاذ محمد طه محمد أحمد، عجبت لصراحتها وجرأتها.

وأنتهز هذه الفرصة فأقول، إن محمد طه محمد أحمد، من الناس

الذين قد تختلف معهم، ولكنك لا تملك إلا أن تحترمهم. لقي عنتاً وأذى في ظل هذا العهد الذي هو من أنصاره، فلم يتنكر له، بل زاد به إيماناً. يستمد شجاعته وجرأته من نزاهته وزهده.

أنه يقوم بدور (جان بول مارا) في الثورة الفرنسية وأرجو ألا يكون مصيره كما حدث لـ (مارا)!

قلت إننا لم ندهش لدعوة السفير السوداني لنا، رغم ما بيننا وبين النظام الذي يمثله من اختلاف في الرأي، وتلك من الخصال التي يحمدها السودانيّون في أنفسهم، أنهم لا يخلطون بين الخاص والعام، ولا بين الخلافات السياسية والعلاقات الإنسانية. وكنا في أول أمرنا مضرب المثل في ذلك.

ثم اهتزّت بعض الأشياء وتقطعت بعض الأواصر. إنما بقيت من ذلك بقايا، هي التي تجعل تعايش الناس في المستقبل، تحت تلك السماء الرحيمة وفوق تلك الأرض الشاسعة، أمراً ليس مستحيلاً.

رحّب السيد السفير بالدكتور الشوش، كما يرحب الطالب بأستاذه، فقد كان الشوش أستاذه في جامعة الخرطوم. ورحّب بالفاتح إبراهيم أحمد وبي، كما يرحّب السوداني بالسوداني أنى وجده. ورغم أنني ألقاه لأول مرة، فقد كنت أحمل عنه صورة حسنة في ذهني، أخذتها من حديث الأخ عمر بريدو عنه. والسيد عمر هو سفير السودان في لندن، وهو رجل فاضل حقاً، من السفراء المحترفين الذين أبقوا عليهم في وزارة الخارجية.

وجدنا عنده رجل الأعمال المعروف، كابتن النور زرّوق. وهو من

مؤيدي النظام المعتدلين. فيه جاذبية (ناس بربر) وطلاوة حديثهم. أعرفه من لندن. قلت له ممازحاً:

«ما الذي جاء بك إلى أمريكا؟ تشتمون أمريكا وتجرون وراءها!؟.

بيني وبينه أواصر، كونه ابن عمة زميليْ الدراسة وصديقيْ الصّبا، الأستاذ محمد يوسف محمد، والدكتور يوسف حسن سعيد. ثم هو صهر أخي فتح الرحمن البشير، ناهيك به من إنسان. قلت له على الغداء إننا نعمل على إقامة مهرجان ضخم لإحياء ذكرى الشاعر العظيم التجاني يوسف بشير، فدقّ صدره ـ كما نقول ـ ووعد خيراً.

كان السفير، كما وصف عمر بديرو، جم التهذيب، واسع الاطلاع، ناصع البيان. ولأنني أعلم أنه من دعائم هذا النظام، وقريب الصلة برئيس الدولة، فقد عجبت بيني وبين نفسي، كيف أن هذا الحكم، فيه كل هؤلاء العقلاء، وكيف أن سياساته بكل تلك الرعونة. كأن الحكم شيء قائم بذاته، يتحرك من تلقاء نفسه. وإلا فمن الذي يحركه؟

بعد الغداء، أصر السيّد مهدي إبراهيم هو وكابتن النور زرّوق، أن يلحقا بنا في ندوة كنا مرتبطين بها في نادي الحوار العربي عند صديقنا صبحي غندور. وذلك من قبيل الدعم والمؤازرة، على عادة السودانيين.

وصلنا في الموعد المضروب تماماً، لم نتُه كما تهنا من قبل، فوجدنا أن صبحي غندور قد حقق شيئاً يشبه المعجزة. استطاع رغم موارد

النادي المحدودة أن ينقله إلى مقر جديد أكثر اتساعاً وتجهيزاً. وبعد أن كان يصدر مجلة (الحوار) بالعربية والإنجليزية، في مطبوعة واحدة، صار لكل لغة مجلة قائمة بذاتها.

يكفي أن يلقي الإنسان نظرة سريعة على عناوين الندوات والمحاضرات وأسماء المشاركين، كي يدرك أي جهد ضخم يضطلع به هذا الشاب اللبناني، الشهم المقدام، في عملية تواصل العرب في المهجر، بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين الشعب الأمريكي. وهو مثال رائع، على ما يمكن أن ينجزه إنسان واحد بمفرده، إذا كان يملك الإيمان والعزم. ويا ليته يجد التأييد على أوسع نطاق، لأن الذي يفعله، إنما يقوم به نيابة عن الأمة العربية بأسرها.

في ذلك المناخ الإيجابي حيث الناس أميلُ إلى تقبل وجهات النظر المغايرة، وحيث الغربة تعطي القضايا أحجاماً غير التي يراها الناس في ديار العروبة، واجهنا ـ الدكتور الشوش وأنا ـ قاعة ملآى بالعرب النازحين. كل واحد منهم يحمل تجربة ويحمل همّاً. لذلك فقد استفدنا منهم أكثر مما أفدناهم. ووجّه بعض الجمهور أسئلة للسفير مهدي إبراهيم، فدخل معنا في الحوار.

وكانت الإذاعية البارعة السيدة ناهدة الدجاني موجودة فقرأت لنا من كتاب الدكتور الشوش (من نوادر هذا الزمان) بصوتها الجميل.

صارت ندوة سودانية على غير قصد منا، وكأن الذي بدأناه في دار السفير، اتصل في نادي الحوار العربي.

ما هو البديل عن الحوار؟ ما هو البديل عن أن يعرض كل واحد

فكرة تحت ضوء الشمس وفي الهواء الطّلق، بغية الوصول إلى كلمة سواء؟

■ ■ ■

إنني لم أتعوّد على نشر الرسائل التي تصلني من القرّاء الكرام، وكثير منها رسائل تستحق النشر، وأشكرهم عليها.

ولكن رسالة وصلتني مؤخراً من أخت سودانية جنوبية من فيينا، اسمها (آقنس سابينو سافيريو) قد لفتت نظري بصفة خاصّة.

الرسالة، كما سيرى القارئ، تنطوي على مرارة عظيمة، كما نلمس عند كثيرين من إخواننا وأخواتنا الجنوبيين، وسواء كانت تلك المرارة حقاً أو باطلاً، فلا مناص للسودانيين الشماليين، أن يأخذوها مأخذ الجد، حين يفكرون في مستقبل علاقتهم بالجنوب.

ولا أريد أن أجادل السيدة الفاضلة فيما ذهبت إليه، ولكنني أكتفي بالقول، إن من الواضح أنها لم تتابع كتاباتي بتمعّن وإنصاف، ولو فعلت فما كانت تخلط بين شخصي الضعيف وسياسات الحكومة، وما كانت لتتهمني بأنني لا أكترث لدموع اليتامى والثكالى. أما ذرفت الدموع في كتاباتي قبل أن تُذرف بعشرين عاماً على الأقل؟

إنني أبداً لم أنصّب نفسي مدافعاً عن سياسات الحكومات السودانية، ناهيك بالحكومة القائمة الآن. وقد قلت أكثر من مرة ـ وهو رأي يؤمن به غالب السودانيين ـ إن الحكومات المتعاقبة،

وخاصة الحكومات العسكرية، ارتكبت فظاعات في الجنوب لا يمكن الدفاع عنها.

كذلك أعربت مراراً، صراحة وتضميناً ـ وهو أيضاً رأي تؤمن به الغالبية الغالبة من السودانيين ـ أن الحرب التي يشنها النظام الحالي باسم (الجهاد) هي خطة حمقاء لن تحلّ المشكلة بل سوف تزيدها تعقيداً. لكنني تحدثت عن الرق في أفريقيا في سياقه التاريخي، وفنّدت الزعم الذي يتشبث به بعض الجنوبيين، أن العرب جملة، بما فيهم عرب السودان، هم المسؤولون عنه.

هذا زعم باطل، كما تؤكد المصادر الأوروبية المنصفة. وحسبي أن أذكر على سبيل المثال، كتب برفسور بازل ديفدسون، وكتاب (فرانك ماكْ لن) عن ستانلي وقصّة شراء الكنغو، وكتاب الدكتور (جيمس والفن) المسمى (العاج الأسود).

أيضاً هذه السيّدة الفاضلة، تخلط بين أعمال الحكومات، وبين عامّة الناس في شمال السودان، وتفترض أن الشعب السوداني في الشمال، شريك في الآثام والفظائع التي ارتكبتها الحكومات في الجنوب، خاصة الحكومات العسكرية.

واقع الحال هو، أن الشماليين كانوا ـ وما يزالون ـ (ضحية) القهر والاستبداد، ليس أقل من الجنوبيين، وكما قلت في ما قلته سابقاً، فإنه لا يجدي أن يحاول بعض الجنوبيين أن يستأثروا بدور (الضحية) ويفرضوا على الشماليين دور (الظالم) أو (المعتدي). الأمر أكثر تعقيداً، كما أخذ يدرك العقلاء في الجنوب والشمال.

وفيما يلي رسالة السيدة (آقنس سابينو سافيريو)، وهي مكتوبة بلغة عربية سليمة وخط عربي واضح. تقول:

«تحية طيبة، وبعد

قرأت باهتمام مقالاتك التي نُشرت في المدة الأخيرة بمجلة «المجلة» العربية تحت عنوان (خواطر من واشنطن). ولم أتفاجأ بآرائك ونظرتك للجنوبيين ومشكلتهم. وطبعاً أنت مثل أغلبية الشماليين وكشمالي تقليدي، تمتاز بمهارة إلقاء اللّوم دائماً على الآخرين، وكالعادة هذه المرة أيضاً على الإنجليز.

وكيف لا نلوم الإنجليز؟ فالإنجليز هم الذين يدمرون الآن، وفي هذه الساعة، القرى في جنوب السودان وجبال النوبة، وهم الذين يقومون بعمليات التطهير العرقي في هذه المناطق. وهم الذين يبيحون لعساكرهم ومليشياتهم العربية (قبائل البقارة المعروفين بعدائهم للقبائل النيلية بسبب النزاع على الماء والكلأ، والتي تقوم الحكومة السودانية ـ لا، عفواً الحكومة الإنجليزية، بمدهم بالعتاد الحربي والمؤن) باغتصاب النساء وإراقة دماء رجالهن وأبنائهن. والغاية واضحة جداً للعيان. حتى الأعمى يستطيع أن يرى، والغبي أن يفهم ما يتمّ القيام به هنا.

أما عن مسألة الرق، فطبعاً المنظمات الإنسانية التي نشرت بكثافة مؤخراً، وما تزال تنشر بين الحين والآخر عن تجدد ممارسة الرق، وانتهاكات حقوق الإنسان في السودان، وذلك استناداً إلى شهود عيان محايدين وليست لديهم مصلحة في تلفيق قصص خيالية. وكذلك استناداً إلى أقوال بعض الضحايا الذين نجحوا في الفرار، أو

شراء حريتهم مقابل بعض الماشية.

في رأيك، اختلط الأمر عليهم، وبدل أن يكتبوا بأن الإنجليز هم الذين يقومون بذلك الآن، كتبوا بأن من يمارس هذا الفعل المُشين اللاإنساني، هي الحكومة السودانية البريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وإذا كان هذا رأيك، فقد صدقت يا أستاذنا الجليل عندما قلت (إنهم يرون الفيل ويطعنون ظله).

ولكن السؤال المهم يبقى في هذه الحالة: من هو هذا الذي يرى الفيل ويطعن ظله؟
أتدري أين تقع المصيبة الكبرى؟ إنها من السودانيين أمثالك الذين يعرفون كل هذه الحقائق ورغم ذلك يحاولون بكل الطرق تزوير هذه الوقائع والبحث دائماً عن كبش أو كباش فداء.

سودانيون أمثالك، لا تهون عليهم دموع أناس أمثال (كارولاين لوبان) التي إذا بكت ذرفت لآلئ وألماساً. ولكن تهون عليهم بكل بساطة دموع آلاف اليتامى والثكالى الذين يذرفون الدموع كل ثانية وكل دقيقة في كل أنحاء السودان، وبالذات في كل من جنوب السودان وجبال النّوبة.

ولماذا لا تهون لديك دموعهم؟ فهؤلاء مهما بكوا فسيذرفون بعض الدمع الرخيص، والأجدر بهم الرّضى والرضوخ لرغبات السيدة (كارولاين لوبان) بوحدة تراب السودان، وإن عنى ذلك استمرار استعبادهم واحتقارهم ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة العاشرة، فدرجة ثانية كثيرة عليهم.

استعرابهم، أسلمتهم، ولمَ لا، فالكل يولدون أحراراً ما عدا هؤلاء. فهؤلاء حتى وهم في بطون أمهاتهم غير أحرار. فكل عابر سبيل في أرضهم يريد أن يتحكم فيهم بحسب مزاجه، ويريد أن يعجنهم ويشكّلهم على هواه ومعتقداته. وتقوم القيامة ولا تقعد لو رفض هؤلاء الجنوبيون المكفهرة وجوهم والمحمرة عيونهم الانصياع لكم يا سادة يا أصحاب البلد، وتمسكوا بهويتهم ومعتقداتهم. ويُتهمون فوراً برؤية الفيل والطعن في ظله.

ولماذا تتعجب إذا شك البعض في أفريقيتك؟ ألست أنت من سخر من تسمية الأمريكان السود لأنفسهم بآفرو أمركان؟ وما تركت لذلك الموظف الأسود المسكين جنباً ينام عليه، فقط لأنه قام بأداء واجبه ونفّذ التعليمات التي وجهت إليه على أكمل وجه؟

طبعاً لو فعل ذلك أمريكي أبيض البشرة أشقر الشعر أزرق العيون ويدعى (كارل لوبان) لكان الأمر مختلفاً. ولربما كنت شكرته لو أرجعك على نفس الطائرة التي أتيت بها إلى بريطانيا. من يدري؟ لربّما كنت فاجأتنا بالكتابة عنه ومدحه ومدح عائلته!

أخيراً أرجو من حضرتك قبل الصّراخ بأعلى صوتك أنهم يرون الفيل ويطعنون ظله، أن تتأكد بأن بعينك لا توجد لوحة قبل أن تلفت انتباه جارك لقشّة التي بعينه.

آقنس سابينو سافيريو».

فرحت أنني وجدت في واشنطن أخي الكريم الدكتور محمد خير عثمان. عمل سفيراً ووزيراً للتربية، وهو الآن أستاذ في جامعة السلطان قابوس بدولة عمان.

تطيب لي صحبته أنى وجدته، فهو خير مثال على ما يوصف هذه الأيام بـ (الأصالة) و(المعاصرة). إذا حدّثك عن آداب الإنجليز وفلسفات التربية وعلوم الغرب، أغناك. وإذا حدّثك عن قبائل السودان وتأريخه وتراثه الشعبي سرّك وأعجبك وكأنّه لشدّة تواضعه وعذوبة حديثه، واحد من أهلنا المزارعين البسطاء في ديار الشايقيّة، من نواحي مروى أو نُورى، أبداً لم يبرح الأرض.

لا عجب، فقد قضى الفترة الأولى من تعلمه في معهد (بخت الرّضا) العتيد، أيّام عنفوانه، على عهد (مستر قرفث) وعبد الرحمن علي طه ومكي عباس وأحمد الطيّب، وبقيّة أولئك الرعيل من الأساتذة العمالقة، رحمهم الله.

كان معهد (بخت الرضا) للتربية بمثابة تجربة رائدة في التعليم، يجمع بين التحصيل النظري والخبرة العملية، يخرج الطلبة من صفوف الدّرس إلى العمل في الحقول، الأمر الذي أكسبهم نضجاً ودراية ميّزتهم عن أقرانهم من أجيال الخريجين من مدارس السودان. بوسعك أن تميّز (ابن بخت الرضا) بين عشرات الناس.

اكتسب معهد (بخت الرضا) شهرة واسعة، وأصبح مثلاً يحتذى في أفريقيا وفي العالم الثالث. وقد صار مؤسسُه (مستر قرِفث) فيما بعد، أستاذاً للتربية في جامعة أكسفورد.

خلال حديثنا في واشنطن، عاتبني الدكتور محمد خير عثمان، أنني كتبت في معرض نقدي للسياسة التي انتهجها أخواننا هؤلاء، أنهم بحجة أحداث ثورة تعليمية، فتحوا عدداً من الجامعات اعتباطاً، فقلت «حتى القضارف عملوا فيها جامعة». وأفهمني أن (القضارف) تستحق أن يكون فيها جامعة.

هي مدينة في شرق السودان، اشتهرت أحوازها بزراعة السمسم، فذلك قول الأغنية الشعبية:
يا سمسم القضارف: الزّول صغير موعارف.

وهي موطن صديقنا الدكتور محمد خير، وأنا لا أعرفها إلّا سماعاً، فرجوته أن يصفها لي. فكتب لي هذا الوصف الجميل، الذي أنشره فيما يلي، مختصراً لضيق المجال، مع الاعتذار لأهل القضارف:

«قيل في اسمها إن أصله يعود إلى أعالي سلسلة التلال الحادة المتعرّجة في حدودها الشرقية التي تشبه القضاريف (جمع قُضروف). وتُعرف كذلك بأنها (قضروف سعد)، وهو رجل قبطي، قيل إنه أول من زرع الفواكه هناك... الجوافة والقشطة واللارنج وفواكه لم يعرفها السودان إلّا مستوردة من الشام لوجهاء العواصم، أو كالتي في جبل مرّة، والتي تستهلك محلياً هناك.

يعرفها الكثيرون أيضاً (أعني القضارف)، بسوق (أب سن)، وهم أهلنا الشُكرية فرع الشرق والبطانة، وهم امتداد لشكرية رُفاعة (...).

توافد إليها الشايقية، أكثر وأكثف من بقيّة ناس الشمال (السافل)

جعليين وربا طاب ودناقلة وبديرية وهلمّ جرّاً. ومن الشايقية، من أهم بطونها آل الخليفة طه وَد عوض. وهو جدّنا، وأجداده جعليون. وكان أحمق، ثار على أهله في الفاضلاب أُم الطيور لأنهم نصروا عليه أحد أخوته في ميراث أرض. فقال لهم (أعيش بين الشايقية ولا أعيش بينكم) (...).

التركيبة السكانية للقضارف من أعجب العجائب. هنالك ذريّة فلول ضباط وجنود الحامية القديمة التي أقامها محمد علي الكبير وأبناؤه لحماية الحدود الشرقية للسودان. ومنهم الأتراك والأكراد والشركس والقوقاز والألبان. وهنالك جاليات وادعة ومسالمة من الإغريق والقبارصة ومن المغرب الكبير، ومن الشرق الصومال والجبرتة (مسلمو الحبش)، والحبش الأمهرا الارثوذكس. هنالك أنواع لا حصر لها من أفارقة غرب أفريقيا (...).

من هذا الخليط تتعانق مآذن وصوامع وصلبان وأهلّة ورايات، لا تتنافس إلا في السباق نحو السماء. كل هذا الموزاييك العجيب يكوّن في مجموعه هذا المعنى الذي هو (القضارف).

والقضارف من أكثر بلدان السودان مواسم سنوية. والمواسم فيها لا يستحي بعضها من بعض.

لا تتداخل أو تتمانع... الرَشاش رشاش، والخريف خريف، والدرت (وقت الحصاد)، درت، والصيف صيف.

(...) ما سمعتُ الرعد إلا وذكرت ارتفاع صوت أبي في جوف الليل الخريفي العميق في القضارف، وهو يتلو الآية الكريمة (ويسبح

الرعد بحمده والملائكة من خيفته...) وقد أسمع همس أمي داعية بأسلوبها البسيط الصادق، (كيل ما ميكائيل بالمد الكبير).

(...) كانت القضارف في مرحلتها الذهبية (فيما بعد سنوات الحرب وإلى وقت ليس بالبعيد)، هي عروس الاقتصاد السوداني. بدأت فيها الزراعة الآلية وانتشرت وازدهرت، وتضاعف فيها السكان وازداد الوعي وأصبحت قبلة المستثمرين من جميع أطراف القطر. وكانوا سرعان ما تطيب لهم الإقامة في رحابها الكريمة.

في تلك الفترة ازدهرت أيضاً الخدمات التعليمية الشعبية (زيادة سكانية + ازدهار اقتصادي + وعي عام يساوي ثورة تعليمية حقيقية). لجنتها التعليمية تذكرني بمجالس الجامعات العريقة، بل ومجالس إدارة الشركات الكبرى.

كانت اللجان تضمّ كل طوائف المواطنين. الخواجات وأولاد البلد من تجار ومتعلّمين ومزارعين. وكان التعليم يقوم على لامركزية لا أعرفها إلّا في النظام البريطاني والأمريكي والسويسري. وكان التعليم الحكومي ـ وهذه حقيقة هامة ـ يعيش كما تنمو الحشائش الصغيرة في ظل الدوحة الباسقة.

كانت أول مدرسة وسطى في القضارف مدرسة أهلية، وأول مدرسة ثانوية للبنين والبنات أهلية، والآن الجامعة فيها هي بكل الاعتبارات جامعة أهلية.

كانت القضارف أيضاً (عكاظ الشرق). فيها نشأ ونبغ شعراء وصحافيون من أمثال عمنا الرّيفي وعبد الله رجب والسلمابي

والشاعر الكبير (المغمور) إبراهيم عوض بشير. وفي القضارف نشأ وصدح الفنان العظيم عبد الكريم الكابلي...

ولو استزدتمونا لزدناكم. ولك الود.

«محمد خير عثمان»

■ ■ ■

كان دخولي مُيسّراً هذه المرة، وهو أمر أدهشني لأن الذي بينهم وبين (ربعنا) عند ملتقى النيلين، لم يكن يبشر بالخير. صراع بين قوتين إمبرياليتين، بالمعنى الكلاسيكي، كما كانت روما إمبريالية، وفرنسا النابليونية وبريطانيا العظمى.

في هذه الصراعات الكونية القلوبال، لا يُحسب حساب الناس العاديين أمثالي. يموت من يموت ويعيش من يعيش.

ولعل أحداً يعجب أنني أقمت السودان أمبراطورية إزاء الأمبراطورية الأمريكية. ولم لا؟ لماذا لا يكون السودان دولة إمبريالية مثل أمريكا، وتكون له رسالة حضارية كما يقول الأمريكان إنهم ينشرون في الدنيا (الأسلوب الأمريكي في العيش)؟

فكر قليلاً في حقيقة الأمر. إن كانت المسألة مسألة اتساع رقعة الأرض، فانظر إلى براح السودان وتمدد أطرافه وكثرة تضاريسه. وإن كانت الحكاية حكاية تنوع وتعدد، فتعال يا (أنكل سام) وشوف جنس تنوعنا وتعددنا. وإن كانت العبرة بالثروات والإمكانات المادية. يا زول!

أنت عندك كم مليون فدان صالحة للزراعة؟ بس يا هو دا العندك؟ جملة الإيمان نحن عندنا مئات الملايين من أرض طين زي المسك المعجون. ترمى فيها الحبة تقوم في حزتها. تزرع فيها الثمرة تشيل في سنتها.

أها. وعندك شنو من المعادن؟ حالف لي يمين نحن عندنا الذهب والفضة والنحاس والمنقنيز واليورانيوم وغيرها وغيرها. وأنت عارف داه كله لأنه أقمارك الصناعية تحوم فوق رؤوسنا كما يحوم الذباب فوق صحن العسل.

قلت عندك البترول؟ يا زول! عليك أمان اللّه نحن بلدنا تعوم فوق بحر من البترول. بحر عديل. بنمرقه ونصفيه ونصدره وأنت بتشتريه وكراعك فوق رقبتك.

تسمح ـ تاني شن عندك؟ شنو؟ التكنولوجيا؟ إن شاء الله تكنولوجيا مكسّرة فوق راسك. كدى أصبر علينا شويه وشوف جنس التكنولوجيا البتمرق من عندنا.

قلت عندك العلما والجامعات؟ يا خوي نحن العلم عندنا كتر لا من مسخ. كتر لا من قفلنا جامعاتنا مرة واحدة. مانا محتاجين لزيادة علما وعلوم. ودا شيء لا يغباك لأنه عندك آلاف من علمانا اتفضلنا بيهم عليك، ولولاهم ما كنت عملت صناعة ولا تكنولوجيا.

أنت ما سمعت قصيدة شاعرنا سيد أحمد الحردلو التي يغنيها ود اليمني «تقول لي منو؟ وتقول لي شنو؟».

وفوق ذلك كله، فإن السودان يتفوق على أمريكا بميزة كبرى. ميزة أخلاقية. أمريكا، لكي تقيم فردوسها الأرضي هذا، كادت تُبيد السكان الأصليين الذين يسمونهم احتقاراً (الهنود الحمر) وهم لا هنود ولا حمر. فهي حديقة تقوم على مقبرة.

السودان لم يُبد أحداً. جاء العرب المسلمون من الجزيرة العربية، وعن طريق مصر وبلاد المغرب. وجدوا أقواماً متوطنين في البلد. قبائل النوبة في الشمال، والبجه في الشرق، والقبائل (النايلوتك) والبانتو والفرتيت وغيرهم في الجنوب والغرب.

«يا جماعة سلام عليكم. تقبلو نقعد معاكم ونعيش وياكم بالتي هي أحسن، عليكم أمان الله، لكم ما لنا وعليكم ما علينا»؟ قالوا «أهلاً بكم وسهلاً اتفضلوا على الرحب والسعة».

وهكذا كان. لا ذبح ولا تقتيل ولا اغتصاب أرض ولا تضييع حقوق. فبالله عليك يا صاحب الاعتصام، ومسيِّر البوارج في البحر كالأعلام، من هو المتحضر حقيقة؟ أنا أم أنت؟ ومن هو الأحق بحمل راية الحضارة الإنسانية؟ أنتم أم نحن؟

أعود إلى مسألتي الصغيرة في خضم تلك المسائل الكبيرة. حين قدمت جوازي إلى السفارة الأمريكية في لندن بغرض الحصول على إذن للإطلالة ـ فقط إطلالة ـ على فردوسهم الأرضي لم أكن متفائلاً. وكنت، كما لعلني وصفت لكم في سياق آخر، قد ملأت الفورمات وأجبت بالنفي على أسئلتهم جميعاً، التي لا يجرؤ على سؤالها إلا قوة قصوى ـ معاذ الله ـ لا تبالي بشيء ولا تبالي بأحد.

لم يأبهوا أنني من رعايا دولة إن لم تكن بعدُ عظمى، فهي عظيمة بالقول وبالفعل. ذات هيل وهيلمان وعز وسلطان، وإن كان الأمريكان لم يفهموا ذلك، فسوف يفهمون وشيكاً. شفع لي عندهم أمر واحد. ذلك أنني أعيش في كنف أصهاري البريطان، ولي عندهم «إقامة دائمة». وبريطانيا كما لا يخفى، أمبراطورية غربت عليها الشمس، إنما لم يزل لها ظل يلتحف به العفاة والغرباء وأبناء السبيل.

لذلك أعطوني إذناً بالدخول لمرة واحدة. وكانوا في ذلك كما وصف الحردلو شاعر البطانة أن محبوبته صنعت معه:

وكتين النعام اتشقلبن به الخيل
لا بخلت ولا جادت على بلحيل.

■ ■ ■

خرجنا نحمل أثقالاً من الورق، الـ (واشنطن بوست) وحدها وقر بعير. كم ملايين الأشجار تقطع كل عام لتمد الأمريكان بالورق لطباعة صحف لا يقرأونها؟ (من الذي يشرب كل هذه الخمر؟ من الذي يقرأ كل هذه الصحف؟).

لو كان في الدنيا عدل حقيقة، لصدر قانون من جهة ما، يفرض نظاماً لـ (الكوتا) في استعمال الورق. كل دولة تكون لها حصة لا تتعداها. إنما، أي سلطة تستطيع أن تفرض قانوناً على (سوبربور)؟ وقد خطر لي أن عنوان قصيدة الشاعر الأمريكي (تي. أس. أليوت) الذي يُترجم إلى اللغة العربية بـ (الأرض اليباب) وأحياناً (الأرض

الخراب) يمكن ان يُترجم إلى (أرض التبذير) لأن كلمة Waste الإنجليزية من معانيها (التبذير)، كما قال الشاعر الإنجليزي البارع (أمبسون Empson):

It is the waste that remains and Kills.

(إنه سُمٌّ التبذير الذي يبقى في الجسم ويقتل).

ومن الإنصاف القول، أن عقلاء الأمريكان، وهم كُثُر ـ يدركون هذه العلة، وقد بحّت أصواتهم في التنبيه إليها. إنما بعض المجتمعات، مثل بعض الأفراد، بهم اندفاع نحو تدمير الذات كأنه قدر محتوم. وعلى أي حال، نحن لسنا في وضع يُجيز لنا أن نهدي العظات للأمريكان. فنحن كما لا يخفى، كنا الشوش والفاتح واياي ـ في واحد من هذه الأسواق، الـ Malls، المتناثرة حول مدينة واشنطن، وهي ليست غير نمط الأسواق العربية القديمة ـ أخذوها في ظني عن السويد، التي أخذتها ربما عن فرنسا أو ألمانيا، اللتين أخذتاها عن المسلمين في الأندلس.

هذه ـ كما لا نمل في القول ـ بضاعتنا رُدّت إلينا. وكعهدنا أبداً، لم نأل أشياءنا القديمة تبديداً وتبذيراً، ثم انتبهنا إلى أن ما كنا نحسبه غثاً هو سمين عند الجرمان والطليان وخاصة الأمريكان.

يبدو الآن أنهم أخذوا يعودون في ديارنا إلى طريقة الأسواق العربية القديمة، حيث تجد مجموعات متشابكة من الدكاكين، تربط بينها دروب ضيقة وتظللها ظلالات، يجد فيها المشتري كل ما يطلب. وكم أنجبت تلك الأسواق من علماء وفقهاء وعباد ـ الذي يبيع الخز والذي يبيع الغلال والذي يبيع العطر ـ.

حين تفتح كتبهم اليوم، يفوح منها أرَج ذلك الزمان الجميل، حيث كانت الحياة هي العمل، وكان العمل مرتبطاً بالعلم.

مدينة واشنطن، مدينة جميلة، في اتساع شوارعها وميادينها وحدائقها وعمارتها. لم تَنمُ تدريجياً مع مرور الزمن، شأن بقية المدن، ولكنها قامت دفعة واحدة بتخطيط وتعمد وقصد. أرادوها أن تكون عاصمة (إمبريالية)، فجاءت خليطاً من أصداء، ليس أكثر من أصداء، لأثينا القديمة وروما، بالإضافة إلى باريس لأن المهندس المعماري كان فرنسياً، ويجمع ذلك كله روح قرية أنجلو سكسونية من (سسكس)، ينقصها تلك الغلالة التي تنسجها القرون المتعاقبة فوق المدن العريقة، وذلك الهمس الذي يبقى من أصوات ملايين البشر الذين عبروا بالمكان. بعض الناس لا يحبون ذلك. يؤثرون (الأسلوب الأمريكي في العيش). ألوان فاقعة وصخب محموم وزينة وتفاخر.

كان دليلنا في واشنطن وما حولها، كما كان في الزيارات الماضية، الفاتح إبراهيم أحمد، وهو من أهلنا ركابية (العفاض) الذين هاجروا إلى أرض الجزيرة وسط السودان وسكنوا (طيبه) بلدة الشيخ عبد الباقي. وهو من كبار رجال الدين المتصوفة من العركيين. والفاتح من خريجي جامعة الخرطوم في عهدها الزاهر، ثم قرأ في أمريكا، ويعيش فيها منذ سنوات.

يجمع بين طيبة أهل الريف السوداني، ودماثة المنحدرين من أصول دينية عريقة، وتمدن خريجي الجامعات، خاصة جامعة الخرطوم في عهدها الزاهر. قدماه راسختان في تراب السودان، وعقله متفتح للأفكار الجديدة من جميع الجهات. وهذه هي المعضلة أصلاً، التي يصفها بعض أخواننا بـ (الأصالة والمعاصرة).

مثله كثيرون. وقد كاد السودان بتراثه الحضاري الضخم وتجربته المتقدمة في التعليم العصري، كاد يصبح أصيلاً حقاً ومعاصراً حقاً، لولا أن الله ابتلاه ـ لحكمة يعلمها ـ بالحمقى والمجانين.

يحفظ كثيراً من الشعر العربي القديم والحديث باللغة الفصحى والشعر السوداني الدارج خاصة شعر الغناء. وقد وجدت في داره مكتبة لم أجد مثلها من قبل، لتسجيلات الغناء السوداني الكلاسيكي والمديح والدوبيت والرثاء.

بعض ذلك على أشرطة (كاسيت) وبعضه على أشرطة (فيديو). وعنده دواوين الشعراء الفطاحل الذين يسميهم الفاتح الـ (Martians)، أمثال العبادي وود الرضي وود القرشي وود الرّيح وأبو صلاح. كأنهم هبطوا من كوكب آخر ثم اختفوا.

الإقامة مع الفاتح، خاصة بصحبة العالم النابغة الدكتور محمد إبراهيم الشوش الذي أضاف إلى أمجاده مؤخراً أن نجمه أخذ يتوقد في عالم الصحافة رافعاً راية الحرية والديموقراطية ـ أقول إن الإقامة مع الفاتح فيها نعم الغذاء للعقل والروح.

شاهدنا عثمان ود اليمني يغني بصوته العجيب بلهجة الشايقية ملحمة الشاعر الموهوب صديقنا العزيز السفير سيد أحمد الحردلو «تقول لي منو؟ وتقول لي شنو؟» التي يعدد فيها مآثر السودان والسودانيين ويقول فيها «نحن كتر. وشيتنا كتر». كلمة (كُتر) بالتاء، تحريف للكلمة الفصيحة (كُثر) بالثاء ومعناها (غير) أي أننا حاجة تانية!

وسمعنا الفرجوني يغني بصوته النديّ العذب «يا حبيب أنا عيان، زورني»، والكابلي يغني «يسلم لي خال فاطنة». وشاهدنا وسمعنا على ود الأحو، يغني مرثية جده «أب عاجات الأحو» عمدة دار (كلي) ـ آب عاجات أي النمر. التي قالت عنه النادبة القديمة أنه حين مات «انحل النظام واتهدم المعمور»، وذلك ـ ويا للعجب ـ كما قالت جليلة في رثاء كليب وكليوباترا في رثاء مارك آنتوني عند شكسبير ـ نافياً لتوافق الخواطر عند العبقريين!

■ ■ ■

سرني أنني وجدت محمد محمد خير سبقني إلى واشنطن. أقرأ له في صحيفتي (الخرطوم) و(الفجر). أسلوبه مشوّق مليء بالحيوية وروح الفكاهة، وهي فكاهة موجعة أحياناً. وجدته يتحدث كما يكتب بلهجة (شايقية) قُح. وهو نفسه شايقي محض، في هيئته وحديثه ومشيه وقيامه وقعوده، فكأنه من أهلنا (الترابلة) من نواحي (قُشابي) التي قال عنها الشاعر:

طول اللّيل عليه بشابي
الزول الشكونه (قشابي)

وقال آخر:

اللّيلة البرق جدّد عليّ أتعابي
طرّاني الولوف بين (الدويم) و(قُشابي)

(تربال) تعني بلهجتنا (فلاح) وهم خيار الناس كما لا يخفى، وغالبية أهلي منهم.

و(طرّاني) أي (ذكرني) ولا أخالها إلّا فصيحة فقد وجدتها عند عرب الخليج. ونحن نقول في تذكّر من نحب (اللّه يطراه بالخير) وإذا كرهنا نقول «اللّه يقطع طاريه».

أما (الولوف)، فهي تحريف قليل لـ (الألف) أو (الألوف). أما (الدويم) المشار إليها، فهي تصغير (دَيْم). وكان ذلك يعني معسكر الجند، ثم صار يطلق على (الحي) أو (الفريق). وهي هنا تعني (دويم ودجاج) في مروى، إذ إن عندنا (دويم) أخرى، وهي مدينة كبيرة على النيل الأبيض جنوب الخرطوم، وقريب منها معهد (بخت الرضا) الشهير.

لا غرو أن محمد محمد خير كما وصفت، فهو من (تنقاسي)، وهي بلدة على الضفة الغربية للنيل مجاورة لـ (نوري). وهذه بلد الصحافي البارع ذي القلم الأمين والخلق المتين محمد الحسن أحمد. وكذلك عثمان محمد الحسن (المرابط) إلى الآن في السودان، والأستاذ في جامعة الخرطوم.

وأيضاً المرحوم بروفسور محمد عمر بشير الذي هيهات أن تلد النساء كثيرين أمثاله.

أذكر (تنقاسي) أواخر الأربعينيات ذات نخل طوال. كنت تلك الأيام تلميذاً في المدرسة الثانوية. وكنا حين نعود من العطلة المدرسية نأخذ السفينة النهرية إلى (كريمة) حيث نجد القطار الذي يحملنا إلى الخرطوم. تكون بطيئة حين تسير عكس التيار، فكنا ننزل منها ونمشي على أقدامنا بين المحطات المتقاربة. كانت (تنقاسي) من تلك القرى التي عرفتها مشياً.

ذلك النخيل الباسق، تساقط لا بدّ. وقد سمعت أن فيضان النيل الأخير أتى على البقية الباقية من تلك القُرى، فلم تبق من ديار سلمى حتى الأطلال. وذلك كما وصف أبو الطيب العتيد:

وكأنّا لم يرض فينا بريب الدهر

حتى أعانه من أعانا

لأن هذا العهد السعيد، الذي يظل السودان بظله الآن وإلى حين، قتل أوائل أيامه نحو عشرين ضابطاً في الجيش، منهم سبعة أو ثمانية من (تنقاسي). ذلك لأنهم دبروا انقلاباً عليه، فأعجب لسارق يزعل إذا هب أهل الدار ليستخلصوا منه حقهم المسروق!

وهي أيضاً مهبط رأس الشاعر السفير سيد أحمد الحردلو ـ الله يطراه بالخير ـ هذا فتى الحردلو سابق كما وصف طرفة «إذا قيل من فتى خلت أنني عُنيتُ...». له المجموعة القصصية الشهيرة «ملعون أبوكي بلد» التي يشتم فيها السودان من شدة حبه له. وله الملاحم التي سار بها الركبان يفخر فيها بمآثر السودان، ومنها (بلدي يا حبوب أب جلابية وتوب). يغنيها محمد وردي بصوته المضمّخ بعبير تلك النواحي.

لسيد أحمد أيضاً ديوانه «أغنية إلى يافا» وفيه قصيدته الدرة التي يقول فيها:

أعود إليك يا (ناوا) وليس معي سوى أحزان

وحفنة نار،

سوى أشعار.

(ناوا) في ديار الدناقلة هي بلدة والدته، فهو دنقلاوي الأم شايقي الأب، حوى المجد من طرفيه جميعاً.

هذا، ولم يمكث محمد خير معنا طويلاً في واشنطن، فقد عاد أدراجه إلى منفاه في كندا، وكان قد كشف لنا ظهره فرأينا آثار جروح كأنها من أثر سياط أو حرق بالنار. قال إن ذلك بعض ما ألحقوه به من أذى في (بيوت الأشباح).

ملايين السودانيين في المنافي. في كندا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وبلاد اسكندنافيا وحتى أستراليا. وعند أشقائنا في الجزيرة العربية وسورية ومصر. كأن لم تغن بالأمس.

سوف يذكر السودانيون لهذه الدول، وهم قومٌ جُبلوا على الوفاء ـ أنها آوتهم وأحسنت استقبالهم. خاصة السعودية وبلاد الخليج. وخاصة مصر. وخاصة بريطانيا.

الأيام دول، والحال لا بد أن يتحول. ولله در أبي العلاء إذ قال:

بالقضاء البليغ كنّا فعشنا
ثم زلنا وكل خلق يزولُ
نحن في هذه البسيطة أضياف
لنا في ذرا المليك نُزولُ
والمليكان ذاهبان، مولّى
مستجدٌّ وراحلٌ معزولُ
بَليَ الحبلُ والغزالة فوق الأرض
لم يبل خيطُها المغزولُ

■ ■ ■

يجد الإنسان لذة مضاعفة إذا هو قرأ للروائي الأمريكي (قورفيدال ـ Gore Vidal) في واشنطن، فهي مدينته التي نشأ فيها وأحبها

وكرهها ـ يهجرها ويعود إليها ـ يعيش فيها وبعيداً عنها، وعلاقته بها علاقة متأرجحة كما كانت علاقة الكاتب الإرلندي (جيمس جويس) بمدينته (دبلن).

نشأ في أسرة عريقة ـ بالمقاييس الأمريكية ـ وكان جده لأمه عضواً في مجلس الشيوخ ـ تغلغل في الحياة الاجتماعية والسياسية للمدينة في شبابه، ورشّح نفسه ذات مرّة ـ دون جدوى ـ ليكون عضواً في مجلس النواب ـ وكان صديقاً للرئيس (جون كندي).

اشتهر بلسانه الحاد، وسخريته الموجعة، بسياسة أمريكا وما وصفه بأنها تدّعي العظمة الفارغة وتحاول أن تلعب دوراً هي ليست مؤهلة له. ولعلّه أول من وصف الولايات المتحدة ـ هازئاً ـ بأنها (أمبراطورية). كاتب متحرر مُنصف من القلائل في أمريكا الذين يسبحون عكس التيار، ويجدون الشجاعة لمناصرة القضايا العادلة للشعوب المستضعفة، مخالفاً في ذلك سياسة دولته.

أترجم فيما يلي، مقتطفات من مقالة له عن مدينة (واشنطن):

«كان جدي، مثل كثيرين من مكفوفي البصر، مغرماً بالتجوال في المدينة و(رؤية) معالمها، كما كان يقول ـ ومن ذكريات طفولتي الباكرة أنني ذهبت معه إلى الجزء الجنوبي الشرقي من واشنطن ـ قال وهو يشير بيده إلى عمارات متداعية من الطوب الأحمر (كانت عائلتنا تملك هذه الأرض كلها في يوم من الأيام) ـ لم أر أي أرض بل خرائب، لذلك فإنني لم أحس بالزهو لقوله إن عائلتنا تملك ذلك كله.

بعد سنوات وجدت خارطة تبين كيف كان ذلك الجزء من البلدة يبدو قبل اختراع العاصمة، (منطقة كلمبيا D.C). كانت (جورج تاون) مستوطنة بائسة على نهر (بتوماك). وكانت بقية الأراضي على امتداد البصر، أراضٍ زراعية تملكها تسع عشرة أسرة.

أكثر تلك الأسر، ينحدرون من أصول توصف خطأ بأنها (اسكتلندية إرلندية).

حقيقة الأمر أن (آل قور) هم من أصول (إنجليزية إرلندية) هاجروا إلى أمريكا الشمالية في نهاية القرن السابع عشر وتزاوجوا مع العوائل الاسكتلندية الإنجليزية في (فرجينيا) و(مارلاند).

جورج واشنطن، ليس فقط أنه تزعم الحركة الانفصالية عن بريطانيا العظمى (وصف ثورة أفخم من أن ينطبق على تلك الحركة الحائرة المحيّرة). لكنه أيضاً اخترع ما سمي بـ (الجمهورية الفدرالية). وكان أعظم همه أن يكرس دستور تلك الدولة، رغبته التي تقرب من السعار في (تقديس الملكية الخاصة).

كان واشنطن سعيداً ـ إن لم نقل متآمراً ـ في نقل عاصمة الجمهورية الوليدة من (فلادلفيا) إلى تلك البراري التي كانت قريبة من مزارعه وممتلكاته في (فرجينا).

وحين قررت الأمة، اعترافاً له منها بالجميل، أن تسمّي العاصمة باسمه (واشنطن)، لم يتردد الزعيم البطل طويلاً. ألم يبرهن من قبل على زهده وصدق عواطفه الجمهورية أنه رفض أن ينصّب ملكاً؟

قال يومئذ إنه ليس من اللائق أن يحل (جورج الأول) محل (جورج الثالث) ـ ملك بريطانيا آنذاك ـ ولعل مما قوى إصراره على الرفض، أنه كان بلا ذرية. لم يكن يوجد (أمير فرجينيا) يخلفه على العرش حين يناديه المنادي إلى آفاق أرفع!

لم يتنازل (واشنطن) عن إقطاعياته أو يبع أياً منها، ولكنه اشترى قطعتين إضافيتين من الأرض، بواسطة المضاربة في السوق. ثم مات قبل دخول الوريث، الرئيس الجديد (جون آدمز) للعاصمة بعام واحد.

الأسر التي انتزعت أراضيها بغرض إيجاد حيّز لمباني العاصمة الجديدة، لم تتضرر كثيراً. أفراد عائلة (قور) الذين أقاموا، باعوا أراضيهم وبنوا قصوراً وهوتيلات وصاروا أثرياء. والذين نزحوا، ومنهم فرع جدي، ذهبوا إلى (ميسيسبي) ـ لم يكن حتى عام ١٩٠٧ حين انتخب جدي لمجلس الشيوخ، أنه عاد إلى (واشنطن)، ظل فيها حتى موته عام ١٩٤٩.

منذ عشرين عاماً قال ذلك الرجل الخفيف الظل (جون كندي) إن واشنطن تجمع بين كفاءة أهل الجنوب الأمريكي وجاذبية أهل الشمال ـ يقصد أنها خالية من الكفاءة والجاذبية ـ ربما كان ذلك صحيحاً حين كان (كندي) وفرسان مائدته المستديرة، يبنون مملكتهم السحرية في (كاملوت)، بين قبائل من الهمج والرعاع!».

■ ■ ■

يواصل الكاتب الروائي الأمريكي (قور فيدال) بأسلوبه الساحر الذي

اشتهر به وصفه لمدينة (واشنطن) فيقول:

«حين كانت تلك الصروح الرومانية تشيَّد ومنها مبنى وزارة التجارة، كنا نتساءل ببراءة، من أين سوف يجيئون ببشر يملأون تلك العمارات الضخمة كلها؟

المدينة ـ أي مدينة ـ هي عبارة عن كائن حي، تنمو حسب منطق النمو للكائن الحي. لذلك وقبل أن تصير (الأمبراطورية الأمريكية) واقعاً ملموساً كانت مدينة (واشنطن) قد أخذت بالتدريج تأخذ طابع عاصمة لدولة قيصرية ـ أخذت تتحول إلى (روما الجديدة).

كنت أشعر، وأنا أرى المباني الرسمية ترتفع بأعمدتها وقبابها وأبراجها، أنني لا أشاهد مدينة حية تنمو، ولكنني أشاهد أطلال مدينة درست وأصابها الخراب. وعجيب أننا حتى في تلك الأيام، قبل وجود الخطر الذري، لم يكن صعباً علينا أن نتخيل المدينة وقد أصابها الدمار بالفعل ـ ربما كان ذلك صدى لحادثة قديمة من عام ١٨١٢، حين أحرق الإنجليز الـ (كابتول) والبيت الأبيض ـ أو حين استباحت قوات الجنوب المدينة في الحرب الأهلية، وتدفقت كالسيل في شارع (سفينث ستريت).

قال جدي وهو يحملق بعينيه غير المبصرتين في مبنى دار الوثائق (على الأقل الخرائب التي سوف تنتج عن هذه المباني، سوف تكون خرائب رائعة!).

لو كان الأمر بيد جدي، لما أنفق سنتاً واحداً من المال العام لتشييد أية عمارة، ولكن تلك الصروح الرومانية، لم تلبث أن اكتملت

وامتلأت بالبيروقراطيين. وبعد الحرب العالمية الثانية، صار لمدينة (واشنطن) أمبراطورية تتناسب مع العظمة المزيفة لتلك المباني.

إقامة أمبراطوريات أمر بالغ الخطورة، كما لاحظ (بركليس)، أعظم سادة أثينا القديمة. ولأنني أذكر بوضوح كيف كانت (واشنطن) قبل أن تصبح عاصمة (إمبريالية)، فأنا أعترف أنني من هؤلاء الجمهوريين على مذهب (ششرون)، أحنّ إلى (واشنطن) الجميلة التي عرفتها في صباي وأول شبابي، وأتحسر على الفساد والتشويه الذي حاق بها.

في العشرينيات والثلاثينيات، كانت (واشنطن) بلدة صغيرة كل واحد من سكانها يعرف كل ساكن آخر. حين تغلق المدارس في شهر حزيران/يونيو، نخلع أحذيتنا ونمشي ونلعب حفاة، ولا نلبسها إلّا في شهر أيلول/سبتمبر. كان الصيف حاراً وما يزال.

كنت أثناء انعقاد جلسات الـ (كونغرس) أذهب إلى جدي بسيارة وسائق لإحضاره إلى الدار من مبنى الـ (كابيتول) ـ كان الحراس قليلين في تلك الأيام، ولم تكن توجد كلف ولا رسميات ـ أدخل المبنى من دون أن يستوقفني أحد، وأتسكع في ردهات مجلس الشيوخ، ثم أدخل قاعة المجلس، وإذا لم يكن جدي موجوداً أجلس في مقعده إلى أن يرجع، فأعود به إلى الدار.

وذات مرة دخلت وسرت بين مقاعد الأعضاء وأنا شبه عار لا ألبس غير (شورت) السباحة. ضحك الشيوخ الموقرون، الأمر الذي حيّر جدي المكفوف البصر. ولم يلبث أن نزل (مستر جارنر) نائب الرئيس، وجاء إلى جدي وقال له وأنفاسه تفوح منها رائحة

الويسكي (سناتور! هذا الصبي عريان) بعد ذلك صرت أدخل بثياب أكثر حشمة.

إنني أؤرخ لنهاية الجمهورية وميلاد الأمبراطورية، باختراع مكيفات الهواء أواخر الثلاثينيات. قبل ذلك كانت (واشنطن) تخلو من الناس بين منتصف حزيران/يونيو إلى أيلول/سبتمبر. كان رئيس الجمهورية، فرنكلين روزفلت ـ يختفي في مكان ما أعلى نهر الـ (هدسن) ـ وكان أعضاء الـ (كونغرس) كلهم يسارعون في العودة إلى مواطنهم، أما بعد اختراع مكيفات الهواء، الذي تزامن مع نشوب الحرب العالمية الثانية، فقد صار الـ (كونغرس) يجلس بلا انقطاع، وصار رؤساء الدولة وحاشيتهم وأتباعهم لا يبرحون البيت الأبيض، موجودين دائماً ينسجون المكائد والمؤامرات لإلحاق الأذى بخلق الله!

الـ (بنتاغون Pentagon) ـ مبنى وزارة الدفاع ـ الذي أحسسنا تجاهه بكراهية شديدة وهو يعلو تدريجياً، لم نجد سبباً لنحبه حين اكتمل، سواء في مظهره القبيح أو وظيفته الأكثر قبحاً ـ بدا لنا، وما يزال، مثل عش الدبابير!

الآن أخذت تلك الصروح الرومانية تتسخ بفعل مرور الزمن وبراز الحمام. ولكن من حسن الحظ ما يزال المرء يجد هنا وهناك بعض البيوت القديمة المنزوية في شوارع هادئة تظللها الأشجار. إنها بقايا ذكريات من زمان ضاع، حين كانت السيدات يضعن على رؤوسهن قبعات واسعة من القش.

كان الإنسان يستطيع أن يأكل في (هارفي) حيث مراوح السقف

تدور ببطء، وتجعل نهار الصيف مهما كان حاراً يبدو لطيفاً محتملاً. ومن وقت لآخر يهب الهواء من الخارج، يحمل رائحة القار والياسمين.

كانت حديقة (لافييت) القريبة، عبارة عن غابة استوائية ملتفة الأشجار، يتمشى فيها أحياناً ذلك الرجل الأسطوري، القاضي (أيفر وندل هولمز)، وشاربه الأبيض الكثيف منفوش في الهواء مثل بيرق.

■ ■ ■

مهما كان رأينا في أمريكا، ومهما كانت مآخذنا عليها ـ وهي ليست قليلة ـ فلا بد لنا أن نعترف بأن فيها مجتمعاً مدنياً منفتحاً، ومؤسسات ديموقراطية راسخة، وصحافة حرة فاعلة، وإعلاماً عظيم المدى والتأثير. صحيح أن وسائل الاتصال الأمريكية تستجيب لضغوط مصالح معيّنة. وصحيح أن نوازع الربح المادي والغلبة والهيمنة تطغى أحياناً على نوازع الخير الواضحة في الشعب الأمريكي.

رغم ذلك كلّه، فإن المرء لا يملك إلّا أن يحس بالإعجاب والتقدير حين يجد برامج تلفزيونية تتوخى الصدق والإنصاف، ومقالات صحافية رصينة لكتّاب أمناء يحاولون أن ينفذوا إلى صميم القضايا المطروحة سواء كانت محلية أو عالمية، من دون محاباة أو خوف. مثل هذه المقالات، وأيضاً مئات الكُتب الجريئة التي تصدر كل عام، تجعل الإنسان يقبل أن المجتمع الأمريكي على علّاته مجتمع عظيم بالفعل.

وقد لفتت نظري مقالة في مجلة (هاربرز Harper's) الرصينة لكاتب اسمه (لويس لافام)، وهو أستاذ جامعي وكاتب معروف.

خلاصة المقالة أن المجتمع الأمريكي مجتمع عابث تنقصه الجدية، ينقاد انقياداً أعمى لوسائل الإعلام بحثاً عن الترفيه والمتعة. ويقول الكاتب إن الفضيحة الأخيرة التي تتعلق بالرئيس كلنتون، هي من صنع وسائل الإعلام بغرض إثارة عواطف الجمهور ودفع المال عنه ويقول:

«العبث وعدم الجدية يقتضي بالضرورة إيجاد وسائل للهروب من الملل. ويعني أيضاً الانغلاق على الذات والغباء، والنظر إلى الأمور التافهة على أنها مسلية، وفي رأيي أن هذه العيوب في الطبع الأمريكي، هي التي تفسّر كل ما شاهدناه مؤخراً من لغو فارغ وغضب مصطنع على فساد الأخلاق.

وفي رأيي أن التدمير الذي لحق بالمجتمع ومؤسساته، يرجع في المقام الأول إلى هذا العبث وعدم الجدية...».

ويمضي الكاتب فيقول:

«لعلّنا لو كنا حقاً نعيش في وطن يحترم حكومته ويحرص على حرياته، وطن فخور بمؤسساته العامة، إذاً لكان حتماً على الرئيس كلنتون أن يستقيل في كانون الثاني/يناير قبل أن يظهر اسم مونيكا لوينسكي على المسرح. أو حتى في ١٧ آب/أغسطس، اليوم الذي أدلى فيه بشهادته المهينة أمام المحلفين..

كونه لم يشأ أن يستقيل حينئذ ليحول دون صدور تقرير كنيث ستار الفاحش، فإنه ـ الرئيس ـ هو والمدّعي الخاص، قد أظهرا مدى احتقارهما لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكي بكل ما يحمله من رموز ومعانٍ، وعدم اكتراثهما حتى بالقليل الذي بقي للشعب من ثقة في حكومته.

إنه العبث وعدم الجدية، وإلّا كيف نفسر أن أغلبية الناخبين، صوتوا لصالح كلنتون لمنصب الرئيس مرتين... إنه قطعاً شعب ينظر إلى الحياة السياسية، على أنها مجموعة من الألاعيب المسلية، التي يدفع بها الملل عن نفسه.

ويقول الكاتب إن كلنتون حين رشح نفسه عام ١٩٩٦ للانتخاب للرئاسة لفترة ثانية، كان الناخبون يعرفون حقيقته جيداً... أنه سياسي لا مبادئ له، وأنه زير نساء، وأنه لا يبالي ألا يقول الحقيقة، ثم يضيف:

«كانت الحملة الانتخابية عام ١٩٩٦، لا تقدر إطلاق بالونات مملوءة بالهواء.. الأقلية الصغيرة التي اهتمت بمتابعة مجريات الأمور، كوّنت رأيها بتأثير وسائل الاتصال التي تعمل في خدمة جهات ذات مصالح.

المال والاقتصاد هما كل شيء في نظر هذه الشركات الكبيرة. ليس مهمّاً من يجلس في البيت الأبيض. مع شيء من الحظ يمكن أن تكون الفترة الثانية للفتى الوسيم بيل كلنتون ناجحة ومليئة بالمتعة والإثارة.

ثم يمضي الكاتب فيقول:
«كلنتون بلغ سن الرشد في مجتمع يطغى عليه مضيفو برامج اللّغط واللّغو، ويسيطر عليه المحامون، ويؤثر عليه الممثلون والعاملون في مكاتب العلاقات العامة... وكل هؤلاء يكسبون مبالغ طائلة من وراء إعادة صياغة الحقيقة لتبدو زاهية جذابة.

الشاب الذكي من ولاية آركنسو استوعب سريعاً الدرس الأمريكي الأول والأهم. الدرس الذي يقول إن الخطأ ليس في الأمريكان ولكن في الآخرين. الأمريكي بالضرورة وبحكم أنه أمريكي، فهو دائماً وأبداً بريء.

الأجانب يشعلون الحروب، ويصنعون المخدرات ويصدّرون الإرهاب والأمراض المعدية والأوبئة.

الأمريكان يطهرون العالم من الدنس الذي يصنعه الآخرون. الأجانب يرتكبون الجرائم ضد الإنسانية. ولكن الأمريكان إذا أخطأوا فإنهم يفعلون ذلك بنية حسنة وسريرة طاهرة...».

■ ■ ■

يواصل الدكتور (لويس لافام) في مقالته، المنشورة في مجلة (هاربرز) الأمريكية، نقده للشعب الأمريكي الذي يصفه بأنه ينظر إلى الحياة السياسية على أنها مجموعة من الألاعيب المسلية، فيقول:

«حين رفعت (بولا جونز) باستهتار قضيتها المزرية ضد رئيس الولايات الأمريكية المتحدة، قررت المحكمة العليا بالإجماع، أن أي

تمييز بين رئيس الدولة وأيّ مواطن عادي وليكن سائق تاكسي في (واشنطن) انما هو أمر يتعارض مع روح الديموقراطية. وقد أثلج ذلك صدر المدعي الخاص (كنيث ستار) الذي استغله أبشع استغلال ليحصل على الاعتمادات المالية والصلاحيات القانونية، ليواصل حملته التفتيشية المسعورة في أعماق نفسيّة (كلنتون).

راح (ستار) يلاحق الشهود بهوس مشعوذ ديني، وقام بعملية ملاحقة بوليسية طويلة في أكثر أماكن (آركنسو) ظلاماً وريبة. ظل يشمشم ويستجوب. كان يبحث عن رجال البنوك اللصوص، والنساء المشبوهات اللائي تعْلق بهن سحب الفضيحة. ضرب معسكره في العراء ـ إذا صح القول ـ مدة أربع سنوات، لكنه لم يعثر على دليل واحد يؤيد اتهامه لـ (كلينتون) بالسرقة والتلاعب بالمال العام. إنما انعدام الدليل لم يكن له أية أهمية، لا عند المحاكم ولا (الكونغرس) ولا الجمهور المتابع للأخبار، وبالتأكيد ليس لدى وسائل الإعلام.

المهم أن إهانة (بيل) الوسيم، ملأت في تلك الوسائل الفراغ الذي كانت تملؤه محاكمة (أو. جي، سمبسون) ومن بعدها موت الأميرة (ديانا). كل ذلك باسم حق المواطن في أن يحصل على عنوان بارز لمادة مثيرة... (ستار) بوجهه الكئيب يحمل راية الدفاع عن الأخلاق. و(بيل) الوسيم رمز الفتى العصري. العهد القديم في مواجهة العهد الحديث.. (تكساس) في مواجهة (آركنسو).

رواية ضخمة، أضخم حتى من قصة فيلم (تايتنك). ضخمة إلى حد أن وزارة العدل لم تجد الشجاعة في أن تحرم (ستار) من الأربعين مليون دولار، التي هي عبارة عن المقدم الذي تدفعه دار النشر للكاتب للحصول على حقوق النشر. سوف تصدر الرواية

فيما بعد، في طبعات غالية وطبعات شعبية رخيصة.

دفعوا له المقدم وهم لا يعلمون كيف ستكون الرواية. (ستار) نفسه لم يكن يعلم. كان (الناشرون) في اللجنة القضائية التابعة للمجلس يتوقعون أن يقرأوا رواية عن قتلة ولصوص يخالطون مجموعة بغايا حول حمام السباحة في (Hot Springs). وكان المحررون في صحيفة (وول ستريت جورنال) وصحيفة الـ (نيويورك تايمز) يضرعون إلى الله أن يظهر شيء عن قضية (وايت ووتر) التي ظلوا ينفخون فيها النار صباح مساء طيلة ما يقرب من أربعة أعوام.

لكن كما حدث كثيراً في الماضي، فإن (ستار) فشل أن يقدم للناشرين نص الكتاب الذي تمنوه. لا لصوص. لا سرقة أموال. لا مؤامرة لقتل (فنسنت فوستر). لا تعامل مع مهربي مخدرات من (كولومبيا). لا تجارة سلاح مع الصين... ورغم ذلك فإن المدعي الخاص لم يخلف وعده في أن يقدم كتاباً يهز الدنيا ويكسر الأرقام القياسية في البيع.

في الوقت الذي بدا كما لو أنه لن يجد شيئاً، فجأة أسعفه الحظ. حدثت معجزة (لندا ترب) مثابرته وصبره كُلّلا بالنجاح. امتلأت كأسه بالقذارة والأوساخ حتى فاضت. سارع (ستار) فوضع على رأسه خوذة الفارس المحامي عن المثل العليا، وانطلق في سهول الـ (بتوماك) يلاحق نساءه السّبايا، حاملاً رمح الشرف والعفة ومشهراً سيف العقاب المخيف.

بحلول آخر شهر آب/أغسطس، كان المختصون في غسيل ضمير الشعب وتنقيته من الأدران، قد بدأوا يتحركون. يلمعون تعابير

السخط. يستثيرون رجال الدين. يتدربون على صرامة تعابير الوجه. وفجأة برز في مقدمة الصفوف السناتور (ليبرمان) من (كنتكت).

أخبر زملاءه في الكونغرس أن سلوك (كلينتون) البذيء بدأ يخيف تلميذات المدارس وعاملات الفنادق. وقال إنه لم يعد يستطيع أن يشاهد نشرات الأخبار مع ابنته الصغيرة البالغة من العمر عشر سنوات.

بنات المدارس! يا إلهي! كيف تحميهن من دعارة (بيل)! ودوّت الصيحة في ستوديوهات برامج اللغو أيام الأحد. السياسيون صارمو الوجوه مثل رجال الدين، ورجال الدين معسولو الحديث مثل السياسيين.

لم يذكر أحد منهم بالطبع حصص دروس الجنس في المدارس التي تُفرض على الأطفال في سن السادسة، ولا الطوفان من البرامج الإباحية الفاحشة، التي يستطيع أي طفل في الصفّ الابتدائي أن يحصل عليها من التلفزيون بمجرد أن يضغط على زر.

كانوا كلهم يتصنعون الوقار والرصانة. يحرصون على أن يهدّئوا من روع الصبايا الصغيرات في (أيوا) و(ألاباما) و(كنتكت). لا داعي للخوف. كل شيء سوف يعود كما كان. أول ما تصل توجيهات من مؤسسات استطلاع الرأي، فسوف يعرف الكونغرس كيف يتصرف. سوف يزحف إلى الأمام بتصميم وشجاعة كي يعيد إلى أمريكا طهارتها المُهددة وبراءتها التي كادت تضيع منها».

■ ■ ■

كان لا بدّ أن نُعرِّج ـ الفاتح والشوش وأنا ـ على محمد بن عيسى، فهو مذ رُسِّم سفيراً للمملكة المغربية في (واشنطن) أصبح منبع إشعاع جاذب، كما كان من قبل في الرباط.

وجدنا في داره الجميلة على أطراف المدينة، صُحبة كريمة. هشام ملحم وإدمون غريب، وهما صحافيان معروفان لهما نشاط واسع وخبرة عميقة بتقلبات السياسة الأمريكية. ومأمون فندي وحليم بركات وهما أستاذان في جامعة (جورج تاون).

«وكان واسطة العقد بروفسور إبراهيم العويس وهو من قدماء علماء الاقتصاد والعلاقات الدولية في جامعة (جورج تاون). رجل كثير الحكمة عميق الفكر، وقد حدثتكم من قبل عن صولاته في ندوة الحوار العربي الأمريكي في أصيلة...».

كنت حدثتكم عن مأمون فندي في زيارة سابقة، واتخذته مثلاً على نجاح الصعايدة في بر أمريكا. وجدته الآن، ما يزال يتشبث بـ(هويته) الصعيدية، في حديثه وسمته ـ إذا تحدث الإنجليزية، فكأنه ليس له لغة غيرها. وإذا تحدث الصعيدية فكأنه لم يبرح (نقادة) أبداً. وذلك ولا شك من مكر الصعايدة.

أما حليم بركات، فهو أستاذ عريق في جامعة (جورج تاون) وأنا أعرفه منذ مطلع الستينيات في بيروت. تزداد له حباً واحتراماً كلما عرفته أكثر. إنسان على خُلق عظيم. كاتب روائي مبرز، ومفكر ثاقب الفكر.

كان الحديث، كما يتوقع المرء في دار محمد بن عيسى سواء في

أصيله أو في الرباط أو في واشنطن، مليئاً بالمتعة والفائدة. وإذ إن قضية (كلينتون) و(مونيكا لوينسكي) كانت لم تزل متأججة في الصحافة والتلفزيون، فقد كان حتماً أن يتطرق إليها الحديث.

أدهشني بعض الدهشة لأنني كنت أقلّهم معرفة بأحوال أمريكا، إنهم، كلهم، أجمعوا على أن (كلينتون) من أكفأ الرؤساء الذين مرّوا على أمريكا. ومنهم من وصفه أنه (عبقري). وذكروا في تلك الأمسية أن (كلينتون) سوف يخرج من القضية كلّها دون خسائر تذكر. كان ذلك قبل انتخابات الـ (كونغرس). ويبدو الآن من النتائج، أن حدسهم لم يخطئ.

إنني دائماً ألجأ إلى محمد بن عيسى ليشرح لي تعقيدات حياة أمريكا وسياساتها. وفي زيارتي السابقة، أهدى إليّ مجموعة من الكتب، قرأت عدداً منها، ولكنني ازددت حيرة!

قضينا أيضاً أمسية كثيرة الفائدة في مركز الحوار العربي الذي أنشأه ويديره صديقنا الباسل صبحي غندور. هذا شاب يضطلع بعمل جريء نبيل حقاً، دون مساندة تُذكر، إلّا ما كان من طاقته وحماسته وإيمانه.

فتح في واشنطن ـ في آخر الدنيا ـ نافذة واسعة للحوار العربي ـ العربي، والعربي ـ الأمريكي. ولا أظنني أبالغ إذا قلت، إنه لا يوجد ـ حسب علمي ـ مركز مثل هذا، وظيفته الحوار، يركز عليه بمواصلة ومثابرة. لا يوجد مثله، لا في العالم العربي ولا في أي مكان آخر.

الهدف واضح، وهو أن يطرح العرب من مختلف الأقطار

والاتجاهات، آراءهم وقناعاتهم بحرية وصراحة، فيتعرف كل طرف على وجهة نظر الطرف الآخر، فيحل الوئام محل الخصام والصراع، وربما يصلون في نهاية الأمر إلى أرضية مشتركة.

ومن ناحية أخرى، ليتعرف الأمريكان على وجهات نظر العرب، كما يتعرف العرب على وجهات نظر الأمريكان.

مركز الحوار العربي في واشنطن يضطلع بمهمة جليلة تستدعي العون والدعم من كل من يهمه الأمر. وعندي أن العرب جميعاً، يجب أن يهمهم الأمر.

هذا، وقد كانت الأمسية التي حضرناها، مثلاً ناصعاً على هذا الحوار المفتوح. وجدنا محاضرين، أحدهما الدكتور هشام رضا، وهو رجل أكاديمي، وحفيد المصلح الاجتماعي الشهير محمد رشيد رضا. وقد تحدث عن المشروع الصهيوني كونه مشروعاً نجح واضعوه ـ منذ عهد (هيرتزل) في جعله حقيقة واقعة. وعدّد الظروف والأسباب لذلك النجاح.

في المقابل، تحدث المفكر اليمني المعروف الأستاذ قاسم علي الوزير، عن المشروع القومي العربي، منذ عهد جمال الدين الأفغاني، بوصفه مشروعاً لم ينجح الداعون له في تحقيقه، وذكر الأسباب التي أدت إلى ذلك.

وجدير بالذكر، أن الأستاذ قاسم الوزير، عدا كونه من كبار شعراء اليمن والعالم العربي، فهو أيضاً مفكر مرموق ومناضل سياسي على نهج والده الشيخ علي الوزير الذي يُعد من رواد حركة الإصلاح

في اليمن. وقد قضى حياة حافلة، منها أنه كان عاملاً فعّالاً في حركة المصالحة اليمنية التي قادها أخوه الأكبر إبراهيم الوزير عام ١٩٧٥. وشغل مناصب سياسية هامة منها منصب مستشار رئيس الجمهورية.

ذلك، وقد قضينا أيضاً، أمسية جميلة في دار الأستاذ نعيم نواس وزوجته الفاضلة مي نواس، وهما فلسطينيان من القدس، يمثلان في نظري منذ أن عرفتهما قبل نحو أربع سنوات في مؤتمر خريجي الجامعات الأمريكية، ذلك الصمود الفلسطيني الرائع، والقدرة على البقاء والاستمرار، مع سعة أفق ولطف وإنسانية في المعاملة. ولا عجب أنهما يديران مؤسسة السياحة التي يملكانها بنجاح عظيم.

وقد سرني أنني وجدت عندهما ذلك المقاتل الصنديد الدكتور كلوفيس مقصود وزوجته الفاضلة الدكتورة هالة سلام مقصود. هذا كما لا يخفى، فارس لا يشق له غبار، ظل وفياً لإيمانه بالوحدة العربية إذ كفر بها الناس، رافعاً رايتها التي سقطت من أيادي الآخرين. بدأت تظهر عليه علامات التعب والإرهاق من طول النضال، لكنه ما يزال صامداً يرفض أن يستسلم.

نبذة عن المؤلف

- ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

- تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

- عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

- التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

- متزوج وله ثلاث بنات.

- من مؤلفاته:

نخلة على الجدول.

دومة ود حامد.

عرس الزين.

موسم الهجرة إلى الشمال.

مريود وضو البيت.

مختارات

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!
٢ ـ المضيئون كالنجوم ـ من أعلام العرب والفرنجة
٣ ـ للمدن تفرد وحديث: الشرق

الطيّب صالح

مختارات

٥

في صحبة المتنبي ورفاقه

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح
مختارات

الطيب صالح

مختارات

٥

في صحبة المتنبي ورفاقه

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

IN THE COMPANY OF ALMUTANBY AND HIS PEERS

By

El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب

محمود صالح عثمان صالح

First Published in April 2005

Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**

BEIRUT- LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21196-1

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ٢٠٠٥

الإهداء

إلى معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري عرفاناً بكل ما أولاني إياه من حفاوة وصداقة وتشجيع

١

كنت أظن هذا البيت لأبي تمام:

وحـــب أوطـــان الـــرجـــال إلـــيـــهـــمـــو
مـآرب قـضـاهـا الـشـبـاب هـنـالـكـا

ولكنني أراه أحياناً يُنسب لشعراء آخرين منهم ابن الرومي. هل يقوى ابن الرومي على مثل هذا؟ ثم ألا يمضي أبو تمام فيقول:

إذا ذكــروا أوطـــانـــهـــم ذكَّـــرتْـــهـــمـــو
عـهـودَ الـصـبَى فـيـهـا فـحـنُّـوا لـذلـكـا؟

لا أدري، فليس بين يديَّ الآن ديوان أبي تمام لأنظر فيه. ولكن هذا شعر نبيل، وابن الرومي كان شاعراً كبيراً، ولم يكن شاعراً نبيلاً.

وإذا كنتُ قد أوردتُ البيت الثاني على وجهه، فما قولُك أن الشاعر كرر «ذكروا» و«ذكرتهمو»؟ أليس هذا عيْبا في البيت؟

لذلك أنت تفضّل أن يكون بيتُ المتنبي:

ولم أرَ فـي عـيـوب الـنـاس عـيْـبـاً
كـنـقـص الـقـادريـن عـلـى الـتـمـام،

على هذا النحو:
«ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً».

هكذا يرِد البيت في أغلب طبعات الديوان.
لا يا رعاك الله، المتنبي عظيم لا يقول «شيئاً».

هذا شاعر عرف دقائق أسرار لغة العرب، وما تحويه الكلمات من طاقات. كان يستعمل الكلمات كأنها عملة غالية، ليست مثل جنيه السودان وليرة لبنان، فلم يخشَ أن يقول «عيباً» بعد أن قال «عيوب»، لأن في الكلمة الواحدة سعة لمزيد من الأنفاق، وقبلاً قال زهير:

بـكـرن بُـكُـوراً واسـتـحَـرْن بـسُـحْـرةٍ
فـهـنَّ ووادي الـرَّسِّ كـالـيـد لِـلْـفـمِ

أنظر كم انقضى وقتٌ، كم انطوت مسافة، بين البكور والسحور. لذلك فإن هؤلاء النسوة، حين أشرفْن على وادي «الرَّس»، كن مثل الصائم الذي دنا موعدُ إفطاره، ليس فقط، لأن اليد لا تخطىء الفم.

ولِمَ قال الشاعر «بكرن بكوراً»؟ أما كفاه أن النسوة قد «بكرن»؟

صدقت، ولكن ألم يكن هؤلاء النسوة على سفر؟

ألم ينهضن مبكرات فيصنعن الزاد ويجمعن المتاع. وتُقوّض الخيام وتُشدُّ الحُمول؟ تذكّر أن الخدم لم تضع لهن حوائجهن في حقائب «السمسونايت»، وتحملهن سيارات «المرسيدس» إلى المطار، وتُقلّهن طائرة الـ «بوينج» إلى وادي الرّس. إنهن سرن سيراً مضنياً قبل أن تحر شمس النهار، ثم ربما «قيّلْن» في الظهيرة، لا كما فعل صديقنا عبد الرحمن الأبنودي:

فــي المغــنــى لــيّــلْــنــا وقــيّــلْــنــا
خـمَـاسـيـن شـديـدة ونـحـن مـيّـلـنـا

.. إنما واصلن السير بِلَيْل، وفي الليل يطيب الغناء للمغنين، ويطيب السير للسائرين. وعند الصباح يحمد القوم السُرى، كما قال خالد ابن الوليد. إذاً لماذا يا فداك نفس، يُستكثر على الشاعر أنه أنفق كلمتين لقاء كل هذا الزاد الشعري؟

ومن أين بدأت الرحلة؟

ألم تسمع؟ أما قال لك الشاعر؟

أَمِــن أمّ أوْفــى دِمْــنــةٌ لم تَــكَــلَّــمِ
بـحـومـانـةِ الـدُرّاجِ فـالـمُـتَـثَـلَّـمِ
ديـار لـهـا بـالـرَّقْـمـتـين كـأنـهـا
مـراجيـع وشْـم في مـنـاشر مِـعْـصَـمِ
بـهـا الـعِـيـنُ والآرامُ يمـشـين خِـلْـفـة
وأطلاؤهـا يـنـهـضْـن من كـل مَـجْـثَـمِ

وقفت بها من بعد عشرين حِجَّة
فلأياً عرفتُ الدار بعد تَوهّمِ

من تلك الديار بدأن رحلتهن، وظللن يسرن، ولعلهن ما زلن سائرات في مسارب الخيال إلى يومنا هذا.

هذا ما يفعله الشاعر العظيم. إنه يفتح لخيالك آفاقاً لا تحد.

فتخيّل كما يحلو لك. ولا عليك من هؤلاء الألسنيين والسيمائيين والبنائيين والتعبيريين والسورياليين والماديين والجدليين وما شابه. إنهم جاءوا من أودية شتى إلى وادي الرس ووادي العقيق ووادي الخزامى. فلن يطول مكثهم إن شاء الله. «تبصر خليلي» كما حثّك الشاعر، ولا تكن أقل بصيرة من مطايا أبي العلاء المعري:

تخيَّلتِ الصباحَ معينَ ماءٍ
فما صدقتْ وما كذب العيانُ
وكاد الفجرُ تشربه المطايا
وتُملأُ منه أوعيةٌ شِنانْ

آخ، ما أجمل هذا الكلام، وما أكثره، وما أقلّه.

٢

تركت بلاد «سِيَامْ» الأسطورية ورائي، ليس كما ترك «الأستاذ» حَلبَ في ديار الشام، فلم يكن ثمة أميرٌ أحببته وخيّب ظني، وكان القلب خالياً لم يتنوّر بعد، نارهم من وراء أزْرعات. لا، ولا كان أمامي ملكٌ أقصده لا أدري كيف يكون حالي معه، ولكن لعلّني لم أعدم جذوةً من تلك النار المقدّسة التي أحرقت ذلك القلب العظيم.

إن كان أحد ينتظرنا في «سدني» فهو «منسي». في «سيدني» سوف نرى.

كيف قلت، غفر الله لك؟
على قلقٍ كأن الريح تَحْتي..

ثم ماذا؟ لقد اشتعل الرأس شيباً، وبدأت الذاكرة تخون. إلّا أنني أذكر جيداً بيتيك العجيبين:

صَـحِـبَـتْني عـلـى الـفـلاة فـتـاةٌ
عـادةُ الـلَّـونِ عِـنْـدَهـا الـتـبـديـلُ
سـتـرتْـكِ الـحِـجـالُ عـنـهـا ولـكـنْ
بـكِ مـنْـهـا مـن الـلَّـمَـى تـقْـبـيـلُ

كيف تأتّى لك هذا المعنى الغريب، وأيُّ فتاة كانت تصحبك في تلك الفلاة، ومَنْ قبّل مَنْ؟ أفتاةٌ تقبل فتاةً سامحك الله!

حاشاك أن يرقى مثلي إلى همومك وأشواقك، وأيُّ ابن أنثى يسمو إلى مثل أشواقك وهمومك؟ ولكنني مثلك على الأقل في هذه البيداء، أرى ولو قليلاً، وأسمع.. وأتذكر. أتذكر الشمس تارة عن يميني وتارة عن يساري. متى كان ذلك؟ وأذكر ثلوجاً في قمم جبال في عزّ الصيف. أين رأيت ذلك؟ وأذكر أودية وغابات وبحاراً تلمع مياهها تحت ضوء النجوم. وأذكر مُدناً تضْوي مصابيحها، كأن السماء قد انطبقت على الأرض. اللهم إلّا الخرطوم. هنالك الأرض تنتظر مزيداً من الضوء، والسماء مضيئة كأنك لم ترَ السماء من قبل.

الآن في هذه الفلاة في الفضاء، بين «بانكوك» و«سيدني» أتذكر قولك:

ولِـلَّـه سـيْـري مـا أقـلَّ تَـئِـيَّـةً(*)
عـشِـيَّـةَ شـرقِـيَّ الحدالـى وغُـرَّبُ

عشيَّة أحْفى الناسِ بي مَنْ قَلَوْتُه
وأهْدَى الطريقَيْن التي أتجنَّبُ

ما أشدّ ما صعَّبت الأمر على نفسك، وقد كنت تستطيع لو أردت، أن تأوي إلى مكان لا تبرحه، مع إلْفٍ تسكن إليه، تصحوان معاً على نداء الأذان في الفجر!

ويومٍ كليْلِ العاشقين كمنتُه
أراقبُ فيه الشمسَ أيّانَ تْغربُ
وعيْني على أُذْنيْ أغرَّ كأنّه
من الَّليل باقٍ بين عيْنيْه كوكبُ
شقَقْتُ به الظُّلماء أدْنى عِنانَه
فيَطْغى وأرخيه مِراراً فيطْربُ

ذلك عنان الشعر. هذا الظلام الذي تتحدث عنه ليس ظلاماً، والضوء الذي انبجس في جوفه مثل «بطارية» كاشفة، ليس ضوءاً. هذا ضوء الشعر في ظلام الكون، أليس كذلك؟ كأنك أخذت الظلام الذي أناخ بكلكله على امرىء القيس، وعاناه نابغةُ بني ذبيان، فأشعلت في جوفه نيران عبقريتك. ولم يُجْدِك ذلك نفعاً، لأنك لم تلتفت كما يجب، إلى النور الذي وُلد مع الصبيّ العربي اليتيم في أم القرى، كانت القصيدة عندك هي الهدف، وقد قال شكسبير بعدك:

«المسرحيةُ هي القصْد. ثمَّة يكمُن ضميرُ الملك».

وقد أعياك الملوك والأمراء، الأمير الذي لو لم تمدحْه إلّا بذْينكَ

البيتين لكان حسبه، يستبطئك المدح، ويبني داراً فيطلبُ منك أنْ تصفها، ويعشق جارية فيأمرك أن تقول فيها شعراً، وينظم شعراً ركيكاً فيطلب منك أن تُجيزَه، أنت الذي قلت فيه:

وقفْتَ وما في الموْتِ شَكٌ لواقفٍ
كأنَّك في جَفْنِ الرَّدى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً
ووجهُك وضَّاحٌ وثَغرُك باسمُ

ثم ينقضُّ عليك اللُّغويُّون والمنافقون والحسَّاد وأنصاف الشعراء، ويقولون لك:

هلاّ مدحت الأمير بأفضل من هذا؟

هلاّ قلت:

وقفت وما في الموت شك لواقف
ووجهك وضاح وثغرك باسمُ

هذا وأنت من أنت، فتردّ عليهم بقول امرئ القيس:

كأنّي لم أركبْ جواداً بلذَّة
ولمْ أتبطَّنْ كاعِباً ذاتَ خلْخالِ
ولم أسْبأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أقلْ
لخيْليَ كُرّي كرَّةً بعد إجْفالِ

رحمك الله وغفر لك. ما أشدَّ ما قاسيْت من نفسك ومن الناس.

لنذهبْ معاً إلى هذا الصقْع الذي لم تركضْ فيه خيلك، سوف نجد «منسي» في انتظارنا. ولا عليك أنه لا يفهمك ولا يقدِّرك. تعال إلى «سيدني» حيث الفتى العربيُّ كما وصفت:

غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسانِ.
هناك، سوف نرى!

(٥) التَّئِيَّة البُطْءُ في السَّيْر، فكأنه قال «ما أسْرعَ ما كان سيْري».

٣

كثيراً ما جال في خاطري بيتك العجيب، لا أدري لماذا، كيف قلت، غفر الله لك؟

لـقـيـتُ بـدرب الـقُـلَّـة الـفـجـرَ لـقـيـةً
شـفـتْ كـبـدي والـلّـيـلُ فـيـه قـتـيـلُ

إنني لقيتُ الفجر بعد ذلك، بين «سيدْني» و«طوكيو»، فماذا أردت من تذكيري بقولك هذا الآن؟

يقول الشيخ ناصيف اليازجي في شرحه:

«درب القُلّة موضع وراء الفرات. والدرب كل مدخل إلى بلاد الروم. والقلّة أعلى الجبل. وقوله «والليل فيه قتيل» حال. ويُروى

«شفتْ كبدي». أي أنه بدا له الفجر عند هذا المكان فاشتفت كبده بانصرام الليل كما يشتفي العدو بنكبة عدوه. وجعل الليل قتيلاً لظهور حمرة الشفق عند انقضائه فشبَّهها بالدم». انتهى

وربما يكون «درب القلّة» هذا، هو الموضع الذي عبر منه امرؤ القيس إلى بلاد الروم، وقال في ذلك بيته المشهور:

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونَه
وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

وقد حدثني العالِم الموريتاني الجليل، الشيخ سالم ودْ عدّود، أن «الدرب» في قول امرئ القيس، تعني الحدود الفاصلة بين بلاد العرب وبلاد الروم. ويرى أستاذنا العلاّمة الدكتور ناصر الدين الأسد، أن «الدرب» مكان بعينه. ومهما يكن فإن «قتيل الليل» الذي رآه المتنبي في ذلك الموضع، أمره عجيب.

أما الشيخ عبد الرحمن البرقوقي، فإنه يشرح البيت كما قال اليازجي، حذوك النعل بالنعل، ولكنه يزيد:

«يقول ابن جنِّي: سألته، يعني المتنبي، عن معنى هذا البيت فقال: وافيْنا القُلَّة في وقت السّحر، فكأني لقيتُ بها الفجر. ثم سرنا صبيحة ذلك اليوم إلى العصر أربعين ميلاً وشننَّا الغارات وغنمنا وشفيت كبدي لانحسار الليل عني، والليل قتيل في ذلك الموضع. فكأن النهار لما اشرأب بضوئه على الليل قتله وظفر به».

إن كان المتنبي حقاً قال هذا الكلام، وأن ابن جني فهم عنه قوله تمام الفهم، فلا بد أن الشاعر أعطى مُريدَه ابن جني، بمقدار، فكل

من أطال صحبة هذا الشاعر العبقري، يدرك أن الأمر أجلّ من محض ليل ينحسر، ونهار يطلع، وضوء يفتك بالظلام. ولا يغيب عن البال، أن القصيدة تتحدث عن صراع دموي بين قوى الخير والشر والحب والبغضاء والثأر والأخذ بالثأر. هذا قتل عظيم؛ حتى الحب دونه الموت:

يحرِّمه لمع الأسنة فوقه
فليس لمشتاق إليه وصولُ

ما أغزر الدماء في هذه القصيدة، دماء تفيض حتى تصبح طوفاناً تخوض فيه الخيل:

فخاضت فجيع الجمع خوْضاً كأنه
بكل نجيعٍ لم تخضْه كفيلُ
تُسايرُها النِّيرانُ في كل مسلكٍ
به القومُ صَرْعى والدِّيار طُلولُ
وكرَّت فمرَّت في دماء مَلْطْية
مَلْطْيةُ أمٌ للبنين ثكولُ

كل هذا رآه الشاعر قبل أن يحدث حين رأى الليل قتيلاً بـ «درب القلّة» أو بالأحرى رأى قتيلاً في الليل. في تلك اللحظة كان الشاعر منتصراً ومهزوماً، قاتلاً ومقتولاً مشاركاً في الأحداث، ومبتعداً عنها مراقباً لها.

يقول المؤرخون أن سيف الدولة عبر الفرات إلى دلوك إلى قنطرة صنجة إلى درب القلّة، فشن الغارة، فعطف عليه العدو، فقتل كثيراً من الأرمن ورجع إلى مَلطْية، وعبر قباقب حتى ورد المخاض على

الفرات، ورحل إلى سميساط، فورد الخبر بأن العدو في بلد المسلمين، فأسرع إلى دلوك وعبرها، فأدرك جيش العدو راجعاً إلى جيحان فهزمه وأسر قُسنطين بن الدُّمشتق وخرج الدمستق على وجهه.

كلُّ هذا رآه الشاعر رأي العيان في الواقع، وكان قد رآه بعين الشاعر قبل أن يحدث. فكأن القتيل الذي لقيه بدرب القُلّة لم يكن قتيلاً واحداً، بل جموعاً من القتلى لما يزالون في ضمير الغيب.

كان النصر غالياً سالت فيه دماء كثيرة، من الروم ومن العرب أيضاً. والشاعر يزهو بنصر العرب، وفي الوقت نفسه لا يعدم الرثاء على العدو المهزوم، كيف لا وهو يسمع ولولات النساء وأنّات الجرحى. وأنا لا أجد شماتة في هذين البيتين، اللذين يخاطب بهما الدَّمستق، وقد نجا بنفسه وترك ابنه للأسر، بل أجد عاطفة لا تبعد عن الحزن:

نجوتَ بإحدى مهجتيك جريحة
وخلفت إحدى مهجتيك تسيلُ،
أتسلم للخطِّيَّة ابنَك هارباً
ويسكن في الدنيا إليك خليل؟

الحزن، حتى في مثل هذا الموقف لا يستغرب من هذا الشاعر العظيم، فهو خبير بأحوال الناس، عليمٌ بتقلبات النصر والهزيمة، وقد عانى ما عانى، مهزوم حتى في أوقات انتصاره عليه، كما قال الرافعي، سيماءُ الملك المخلوع.

لذلك تجده ينصرف فجأة عن مدح سيف الدولة، ويلوذ بنفسه، في

أبيات مُتْعبة كأنها لا تمت إلى القصيدة بصلة، وكأنها قصيدة منفصلة، يبدؤها متحدِّياً:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولةٍ
فغي الناس بوقاتٌ لها وطبولُ

يقول الشارح في معنى هذا البيت: يقول إذا كنت سيف الدولة، فإن غيرك من الملوك بمنزلة البوق والطبل، أي لا يغنّون غناءك ولا يقومون مقامك.

هذا كلام لا نفع منه. إلّا أن الشارح يضيف دون اكتراث:

«وقال العروضي: أراد بالبوق والطبل الشعراء الذين يشيعون ذكره ويذكرون في أشعارهم غزواته..».

صدق العروضي، فهذا ما قصد إليه الشاعر، وقد عنى نفسه على وجه الخصوص. انظر كيف قلل من شأن نفسه، فصوّر أنه طبول تدوِّي وبوقات تصك الأسماع. وكان حزيناً وكان مهزوماً، لأنه كان يدرك في قرارة نفسه، أن الأمير في واد وهو في واد.

* * *

رحمك الله. لقد وقفت وقفة «وجودية» كما يقال هذه الأيام، في لحظة كأنها خارج حدود الزمان والمكان، في ليل ليس كالليل، وراءه فجرٌ ليس كالفجر. تحمل ثأراً غامضاً، وطموحاً لا يُحد، وحباً مثل البغضاء، وغروراً بنفسك لا يقرك عليه أحد. الفجرُ لم يشف

كمدك كما زعمت، بل زادك كمداً. سمعت أنين الجرحى ورأيت دماء القتلى. وإذ إنك متَّ قتيلاً بعد ذلك، فلعلك رأيت دمك ينتشر في الأفق. ويتشكل على هيأة فجرٍ يخرج من جوف الظلام.

٤

بعض الشعر مثل النار المدفونة تحت الرماد، تُذكيه الحوادث وطوارق الأيام. وهذا الشعر الذي أسوقه إليك، لا بد أنك تعرفه، وإن لم تكن رأيته من قبل، فلعلك لا تألفه لأول وهلة. إلّا أنك ستستعذبه إذا صبرت عليه، ولعلك تجد فيه، مثلي، فائدة وعزاء.

لله در محمد بن عبد الله الأزدي حين قال:

ولا أدفع ابن العم يمشي على شفا
وإن بلغتني من أذاه الجنادِعُ
ولكن أواسيه وأنسى ذُنوبه
لتُرجعه يوماً إليّ الرواجعُ

هذا شعر شريف كما كان يقول أشياخنا، فابن العم لا فكاك لك

منه، فاصبر على أذاه وجناديه، أي دواهيه، فلا بد أنه راجع إليك في يوم من الأيام.

وهذان بيتان حكيمان لا يُعرف قائلهما، الذي أطلقهما منذ أكثر من ألف عام على الأرجح ومضى في سبيله:

الشر يبدؤه في الأصل أصغره
وليس يصلى بنار الحرب جانيها
الحرب يُلحق فيها الكارهون كما
تدنو الصحاح إلى الجَرْبى فتعْديها

وفي هذه الأبيات يرثي قيس بن زهير العبْسي، وقد كان من فرسان حرب داحس والغبراء وشعرائها، حمل بن بدر الفزاري، والأبيات تشير إلى واقعة محزنة من وقائع تلك الحرب المشؤومة.

تعلمْ أن خير الناس ميتٌ
على جَفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه ما زلتُ أبكي
عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكنْ الفتى حمل بن بدرٍ
بغى والبغي مرتعه وخيم

وقال العباس بن مرداس السلْمي، وكان من الفرسان المعدودين، وأمه الخنساء الشاعرة، وقد لقي الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وأبلى بلاء حسناً، وهذه الأبيات الشهيرة من المنصفات التي لا تبخس الخصم قدره، قال:

فلم أر مثل الحيّ حياً مقبحاً
ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرّ وأحمى للحقيقة منهمو
وأضرب منا بالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا إذا
صدور المذاكي والرماح المداعسا
الخيل حالت عن صريع نكرُّها
عليهم فما يرجعْن إلّا عوابسا

والمعنى واضح، رغم الكلمات الغريبة، وهو أنهم ثبتوا لأعدائهم، وكانوا من بني أسد. وأعداؤهم ثبتوا لهم، ولك أن تتخيّل كم قتل بعضهم من بعض في هذه المعركة الطاحنة.

ولعبد الشارق بن عبد العزى أبيات جميلة مشهورة في هذا المعنى نفسه، يصف معركة لهم مع بني بهِنة، تحاربوا فيها حتى نفدت أقواسهم وسهامهم:

فلما لم ندعْ قوساً وسيماً
مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلألؤ مُزنة برقتْ لأخرى
إذا حجلوا بأسياف رنينا

إلى أن يقول:

فآبوا بالسيوف مكسراتٍ
وأبنا بالسيوف قد انحنيْنا
فباتوا بالصعيد لهم أحاح
ولو خفتْ لنا الكلْمى سرينا

وهي، كما ترى أبيات محزنة، تلخص نهايات الحروب في كل زمان ومكان.

أما لبيصة الجرمي الطائي، فله أبيات بليغة تحدث عندي حزناً عميقاً بسبب ما قطعته الحرب من أواصر وأرحام، يقول:

ولم أرَ خيلاً مثلها يومَ أدركت
بني شمجي خلف اللُّهيم على ظهرِ
أبرّ بإيمان وأجراً مقدماً
وأنقض منا للذي كان من وِتْر
عشية قطعنا قرائن بيننا
بأسيافنا والشاهدون بنو بدر

ما أعجب ذلك! وما أعجب موقف بني بدر وهم يتفرجون على العراك بين بني شمجي وبني ثمل!

ويترك معبد بن علْقمة باب الصلح مفتوحاً في هذه الأبيات الرصينة، التي تنم عن رغبة في السلم من موقف القوة، ويترك الأمر للخصم:

فقلْ لزهيرٍ إن شتمت سُراتنا
فلسنا بشتّامين للمتشتّم
ولكننا نأبى الظلام ونعتصي
بكل رقيق الشفرتين مصمّم
وتجهل أيدينا ويلحم رأينا
ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

وإن التمادي في الذي كان بيننا
يكفيك، فاستأخرْ له أو تقدم

ثم هذه الأبيات العجيبة التي قالها شُبيْل الفزاري في رثاء أبناء أخيه بعد أن حاربهم وقتلهم:

أيا لهفي على من كنتُ أدعو
فيكفيني وساعده شديدُ
وما من ذِلة غلبوا ولكنْ
كذاك الأسد تفرِسْها الأسودُ
فلولا أنهم سبقت إليهم
سوابق نبْلنا وهمو بعيدُ
لحاسونا حياض الموت حتى
تطاير من جوانبنا شديدُ

٥

سوف أريحك اليوم يا أصلحك الله، من حديث الأمية والأميين، فقد اشتقت إلى صحبة «الأستاذ». كان آخر عهدي به في «سيدني» في أستراليا مع «منسي». ذاك أيضاً حديث لم أفرغ منه بعد. لقد كنت في بُلَهْنية ـ كما يقول البحتري ـ مع شعب الـ «أبوروجنيز» الرَّضي وثقافته الفريدة، و«منسي» و«الأستاذ». ثم فجأة قلب الزمان ظهر المجن، كما يفعل دائماً.

بدا لي أنه لا يليق أن تضيع بلاد، وتتهدد بلاد بالضياع، وتغلق حدود وتفتح حدود، وتشرع رماح وتُستلّ سيوف، وتقطّع أواصر وأرحام، وتخرب بيوت وترمل نساء، وتسير الفتنة شعثاء غبراء في الطرقات ـ قلت لا يليق أن يحدث كل هذا، وأنا سادلٌ مع قبائل الـ «أبوروجنيز» في أستراليا.

ولأن الأمر كما قال البحتري:

وهـل أَرتجـي أن يَـطـلُـبَ الـدمَ واتـرٌ
يـد الـدهـر والموتـورُ بـالـدم واتـرُه؟

فقد اخترت عمداً أن أتحدث عن الأمية والأميين. قلت لعلني أذكر بني قومنا بالثوابت، فربما يثوبون إلى أنهم في نهاية الأمر أمة واحدة، مهما خُيل لهم عكس ذلك، وأنهم إن تفرقت بهم السبل في القمة، فطريقهم مشترك في القاع.

أجل، اشتقت إلى صحبة «الأستاذ» أبتغي عنده العزاء، إن كان ثمة عزاء وفتحت ديوانه بشرح أبي البقاء العُكبري كيفما اتفق، فوجدت قصيدته في مدح أبي الفضل بن العميد. وأوقفني تكالُب الشرّاح على بيت من أبيات القصيدة ليس فيه معنى طريف ولا تصوير مدهش، إلّا أنه أثار هؤلاء الشيوخ الأجلاء فكأنهم كلاب تتناوش عظماً.

أهدى ابن العميد إلى أبي الطيب هدايا كثيرة، بينها سيف محلّى بالذهب والفضة، فأطنب المتنبي في وصف السيف بأبيات ليس فيها شيء لا يقْدرُ عليه شعراء أقل منه مكانة، منها:

قَـلَّـدتْـنـي يمـينُه بـحـسـامِ
أعْـقـبـتْ مـنـه واحـداً أجـدادهُ
كـلَّـمـا استُـلَّ ضـاحـكـتْـه أيـاةٌ؟
تـزعـم الـشـمـس أنـهـا أرآدُه

قبل الشيوخ الأجلاء عن طيب خاطر، بعضُهم شروح بعض، حتى

جاءوا إلى هذا البيت:

وتقلَّدت شامة في نداه جلدُها مُنْفَساته وعتاده

قال الواحدي، حكى أبو علي بن فورجه عن أبي العلاء المعري قال: «يعني أن الغمد بما عليه من الحلي والذهب، أنفس من السيف، لأنه كان محلّى بكثير من الذهب، فجعل الغمد جلداً إذ جعل السيف شامة».

قال أبو علي، والذي عندي أنه أراد بجلده ظاهره، الذي عليه الفرند، لأن أنفس ما في السيف فرنده وبه يُسْتَدل عليه في الجودة. وقال أبو الفتح: يعني أنه يلوح فيما أعطاه كما تلوح الشامة في الجلد لحسنه ونفاسته...

ولم يعجب أبا الفضل العروضي هذا الرأي من أبي الفتح فقال: ألم يجد المتنبي مما يحسن في الجسد فوق الشامة كالعين الحسناء؟ لكنه أراد أن هذا السيف على حسنه وكثرة قيمته، كالنقطة فيما أعطاه. ألا تراه يقول «جلدُها مُنْفساته» أي أن قدر هذا السيف، وهو عظيم القيمة، كقدر الشامة في الجلد.

قال الواحدي «وهؤلاء الذين حكينا كلامهم كانوا أئمة عصرهم، ولم يكشفوا معنى هذا البيت ولا بَيَّنوه؟ بما يقف المتأمل عليه ويقضي بالصواب. ومعنى البيت أنه جعل ذلك السيف شامة، والشامة تكون في الجلد. ولما سماه شامة، سمى ما كان معه من الهدايا التي كان السيف في جملتها جلداً... قال: وقول ابن فورجه هوس لا شيء»!!

صدقت يا مولانا، ولكن أليس هذا ما قال به شيخنا أبو الفتح؟
وأما ابن القطّاع فقد أبحر بعيداً حين قال:

«يريد أن السيف على جلالة قدره، وما عليه من الذهب، كالشامة في جنب ما أخذْتُ منه. وقوله «جلدها» يريد ما عليه من الفرند الذي من أجله يستعد ويغالي في ثمنه..
يا زول! اتق الله.

المعنى، يا جماعة، أقرب منالاً من كل هذه المماحكة، وقد أصابه شيخنا أبو الفتح أول مرة، ألا تقع العين أول ما تقع على الشامة في الجلد؟ كذلك هذا السيف، يجذب النظر إليه دون سائر الهدايا رغم نفاستها. لذلك ركز عليه المتنبي وتفنن في وصفه، وجعل الشمس تضاحك بريقه، وأنه يقسم الفارس المدجج نصفين، وأنه واحد زمانه أنجبته آباء صدق من السيوف! ولو شاء المتنبي أن يطنب في وصف بقية الهدايا، لفعل.

ومهما يكن، فهذه القصيدة برمتها قصيدة فاترة، غُفلٌ من روح عبقرية المتنبي. لقد تكلّفها تكلّفاً، ربما ليدهش ببلاغتها ومحسّناتها ابن العميد، وهو من هو. وقد نظمها وهو ثمّة، في هناءة عيش وراحة بال وطيب خاطر. والمتنبي كما نعلم لا يقول الشعر العظيم هكذا. لا بد له من أشياء تحرك سواكن عبقريته. حينئذٍ يحلّق في سموات لا يصلها شاعر غيره.

اللهم إلّا بيتاً واحداً في هذه القصيدة، يذكّرك إذا كنت قد نسيت، بأنك في حضرة «الأستاذ». وهو بيت لم يكترث له هؤلاء الشيوخ الأجلاء ومروا عليه مرور الكرام. إنه يخرج من جسد

القصيدة كما يخرج البازي من العش، ويبسط جناحيه، ويحلّق في آفاق بعيدة، ويغدو قصيدة قائمة بذاتها:

إنّ فـي الموج لـلـغـريـب لـعـذراً
واضـحـاً أن يـفـوتَـهُ تـعْـداُده

٦

دخلتُ مجلسهم، وأنا مشغول البال، مشتّت الأفكار، بي ما بسائر الناس وزيادة، فقد عاودني أيضاً ذلك الطيف من وراء أَزْرعاتْ، فجدد لي حزنا إلى أحزاني. لكنني ما لبثتُ إن وجدتُني ـ وأنا أنظر إليهم يتباروْن في مضمار «الأستاذ» ـ وجدتُني أروق بعد كدر، وأتهلل بعد ضجر، وأتحرك بعد ركود. لله درّهم. هل قلتُ إنهم مثل كلاب تتناوش عظماً؟ حاشا لله. هؤلاء قناصون لشوارد المعاني، غواصون على اللؤلؤ في الأعماق. جافوا المضاجع، وفارقوا الدنيا بزخرفها، وانقطعوا للعلم. تركوا لنا هذا الإرث العظيم من فقه وحديث ولغة وسيَرْ، ونحن مهما فعلنا، فلا أكثر من طائر يحسو بمنقاره في البحر، أو كحصاة تكون في سفح الجبل.

أقول، ما إن أزمع المتنبي مفارقة ابن العميد، حتى تحرّكت سواكن عبقريته، فهذا شاعر داؤه الرحيل، وشفاؤه في الرحيل، أو كما قال:

ذَرانـــي والـــفـــلاةَ بـــلا دلـــيـــلِ
ووجـــهـــي والـــهـــجـــيـــرَ بـــلا لـــثـــامِ
فـــأنّـــي أســـتـــريـــح بـــذي وهـــذا
وأتـــعـــبُ بـــالأنـــاخـــة والمقـــام

تاقت نفسه إلى ما يكرهه ويهواه، وتحلّل من قيود المكان، وسجن الدعة ورغد العيش، فجاشت قريحته الجبارة، وجاءته أبيات القصيدة تترى كأنها تُملى عليه إملاء، بلا تكلف ولا تصنع:

فـــإمّـــا تـــريْـــنـــي لا أقـــيـــمُ بـــبـــلـــدةٍ
فـآفـةُ غِـمـدي فـي دُلـوقـي مـن حـدِّي
يـحـلُّ الـقـنـا يـومَ الـطِّـعـان بـعـقـوتـي
فـأحـرمـه عِـرْضـي وأطْـعـمـه جـلـدي
تُـبـدِّلُ أيـامـي وعـيْـشـي ومـنـزلـي
نجائبُ لا يفكُرْنَ في النَّحْسِ والسَّعد
وأوجـهُ فـتـيـان حـيـاءً تـلـثـمـوا
عـلـيـهـن لا خـوفـاً مـن الحرِّ والـبـرد

نعم، هذا هو صاحبنا الذي نعرفه من قديم! هذا أبو الطيب المتنبي الذي عهدناه، لا أحد قبله، ولا أحد بعده، وكأن تلك القصيدة الأولى في مدح ابن العميد، كانت عبثاً يعبث به ريثما يجيئه الشعر الحق في هذه القصيدة الثانية. وأين من هذا السيف الذي يأكل ويندلق من حده، ذاك السيف المرفّهْ، المحلّى بالذهب، الذي جلدُه «مُنْفِساتُه وعتادُه»؟

وأعجب لشاعر يصف مقدمَه على الممدوح وهو مفارقه، فهو

كعهده أبداً، قادمٌ ذاهب، حاضر غائب، مقيم مفارق. وما أروع هذه الأبيات التي يصف فيها حال الإبل التي حملته إلى ابن العميد:

كفانا الرّبيعُ العيسَ من بركاته
فجاءته لم تسْمَعْ حُداءً سوى الرّعدِ
إذا ما استحيْن الماءَ يعرضُ نفْسه
كرَعْنَ بسبْتٍ في إناءٍ من الوردِ
كأنّا أرادتْ شكرَنا الأرضُ عندَه
فلم يُخْلنا جوٌّ هبطناه من رفدِ
لنا مذهبُ العُبّاد في ترْكِ غيره
وإتْيانِه نبغي الرّغائبَ بالزّهدِ

نعم. نعم. نعم.
يقول ابن جنّي العتيد:

«يقول، إذا مرت هذه الإبل بالمياه التي غادرتها السيول لكثرتها، صارت كأنها تعرض نفسها عليها، وإن كان لا عرض ولا استحياء ولكنه ضربه مثلاً، فكأنها تشرب مستحْيية من كثرة العرض عليها. وكرعن، شربن، وأصله من إدخال الكارع الشارب في الماء ليشرب. وجعل الموضع المضمّن الماء، لكثرة الزهر فيه، كأنه إناء من الورد. والسّبت مشافرها..».

قال العروضي «ما أصنع برجل ادعى أنه قرأ على المتنبي ثم يروي هذه الرواية ويفسر هذا التفسير؟ وقد صحّت روايتنا عن جماعة منهم محمد بن العباس الخوارزمي، وأبو محمد بن القاسم الجزمي وأبو الحسن الرّخجي، وأبو بكر الشعراني، وعدّة من الرواة يطول ذكرهم:

إذا مـا اسـتـجـبن الماء يـعـرف نـفـسـه
كـرعـن بـشـيـب فـي إنـاء مـن الـورد

إذا استجبن بالجيم من الإجابة، والاستجابة أشبه بالعرض وأوفق. والمعنى أنه (أي الماء) يعرض نفسه وهي تجيب. والكرع بالشيب أن ترشف الإبل الماء، وحكاية صوت مشافرها عند شرب الماء، شيبْ..».

قال الواحدي «قول ابن جني ليس ببعيد عن الصواب، وقد شبّه المشفر بالسبت، وهو حسن، ومنه قول طرَفة:

وخـدّ كـقِـرطـاس الـشـامـي ومـشـفـرٌ
كـسِـبْـت الـيـمـانـي قـدُّه لم يـجـرّد»

وأقول، غفر الله لي، إن شيخنا العروضي قد أصاب، وشيخنا ابن جني والواحدي ذهبا مذهباً عجيباً، إذ كيف «تستحي» هذه الإبل من الماء يعرض نفسه عليها؟ وأين موضع «الحياء» في هذه القصيدة المتينة، وقد فسّر ابن جني البيت الذي قبل هذا بأن الإبل جاءت الممدوح مسرعة لم يلزم لها حادي يحدوها فقد كان الرّعد لها بمثابة الحادي؟ وكيف يستقيم «الحياء» مع كون الإبل قد «كرعت» الماء، والكرع شربٌ فيه نهم وعجلةُ حال الظمآن. وعندي أن المتنبي لو أراد هذا المعنى الذي ذهب إليه ابن جني والواحدي على طرافته، لنحا نحواً آخر.

أظن البيت كما قال العروضي:

إذا مـا اسـتـجـبْن الماء يـعـرض نـفـسـه
كـرعـنَ بـشـيـبٍ في إنـاء مـن الـورد

هكذا تسمع وترى. تسمع أصوات الإبل الظَّمأى تعبّ الماء عباً «شيب. شيب. شيب» وترى النبات والزهر من مختلف الألوان حول الماء وعلى وجهه. ولعلك ترى ظلال الإبل منعكسة على صفحة الماء. هكذا تصبح الصور بديعة لا حدود لجمالها في الخيال، مثل مزهرية صينية نادرة، أو كرسم من هذه الرسوم المرهفة التي صنعها الفنانون اليابانيون القدامى على الحرير.

٧

قال أبو البَقاء العُكبري رحمه الله، في مقدمة شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي، أنزل الله شآبيب الغيث على مثواه أينما كان: «أما بعد، فإني لما أتقنت الديوان، الذي انتشر ذكره في سائر البلدان، وقرأتُه قراءة فهم وضبط على الشيخ الإمام أبي الحرم مكّي بن رَيّان الماكْسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وقرأته بالديار المصرية على الشيخ أبي محمد عبد المنعم بن صالح التّيمي النحوي، ورأيت الناس قد أكثروا من شرح الديوان واهتموا بمعانيه، فأعربوا فيه بكل فن وأغربوا، فمنهم من قصد المعاني دون الغريب، ومنهم من قصد الإعراب باللّفظ القريب، ومنهم من أطال فيه وأسهب غاية التّسهيب، ومنهم من قصد التعصّب عليه، ونسبه إلى غير ما كان قصد إليه. وما فيهم من أتى فيه بشيء شاف، ولا بِعَوض هو للطالب كاف.

فاستخرت الله تعالى، وجمعته في كتابي هذا من أقاويل شُرّاحه الأعلام، معتمداً على قول إمام القول المقدم فيه، الموضّح لمعانيه، المقدم في علم البيان أبي الفتح بن عثمان، وقول إمام الأدباء، وقدوة الشعراء، أحمد بن سليمان، أبي العلاء. وقول الفاضل اللّبيب، إمام كل أديب، أبي زكريا يحيى بن الخطيب، وقول الإمام الراشد ذي الرأي المسدّد أبي الحسن علي بن أحمد. وقول جماعة كأبي علي ابن فورَجة، وأبي الفضل العروضي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي محمد الحسن ابن وكيع، وابن الأفليلي وجماعة..».

وأقول، غفر الله لي، جزاك المولى أحسن الجزاء يا أبا البقاء. لقد قمت بعمل نبيل، ونهضت بعبء عظيم ثقيل. ولولاك وأمثالك، لتمزقت اللغة أشلاء، وتاهت توهان الناقة الخبْطاء. إذاً لبركَتْ بأجْرانها الغُمّه، واكتنف الظلام الأمة، ورثّتْ حبالها، وعمّ ضلالها، وأمعنت فيها عوامل الخراب والتمزيق، فوق ما هي عليه. لو حدث ذلك لكنّا جميعاً نتحدث اليوم لغة كلغة شركات الطيران العربية، ينصبون الفاعل، ويرفعون المفعول، ويجمعون المثنّى، ويثنون المُفْردْ، يذكّرون المؤنث ويخنّثون المذكر. يُعربون ما لا يُعرب ويضربون ما لا يُضرب. يفعلون باللغة العربية الشريفة فعل البذاءة، حسب تعبير إخواننا في تونس. وهؤلاء الأعاجم من أنجليْس وفرنسيس، وألمان وتليان، في مطاراتهم وطائراتهم، لغتهم فصيحة وأصواتهم صريحة. وهلّم جراً. لا عجب أن الأمر برُمّته كما نشاهد ونرى، فركاكة اللغة دليل أكيد على سماجة الفكر، وقصور الهمة ودناءة المَطْلب. لا عجب أيضاً أن القوم يضْطخِبون في غير مُصطَخب، ويحتربون في غير مُحْترب.

ونحن في هذا الزمان الأعوج كما قال الشاعر الشُّكْري، على كثرة

ما عندنا من دكتوراهات وجامعات، أكثر علينا من الهموم على القلوب، والفَلَسْ على الجيوب، والهزائم في الحروب، والخَطَل في المطلوب، لا نرى شيئاً يسرّ الصديق ويغيظ العدو، اللهم إلّا أضواء تلمع هنا وهناك بين الفينة والفينة. ولو جاءهم أبو البقاء ببحره الزّاخر وعلمه النادر، لما رضوا أن يجعلوه محاضراً في جامعة من جامعاتهم، ناهيك بأستاذ. يقولون له «ولكن أين شهادة الدكتوراه يا أبا البقاء؟».

وهم، من أين يجيئون بشهادات الدكْطوراه في اللغة العربية وعلومها وفنونها؟ من لنْضَنْ ومضريد، وباريص ولوص أنْجليصْ، من أدُنْبرغ وهابدلبرغ وبطرسبُرغ وما شئت من أباطيل.

هذا، ونسخة ديوان أبي الطيب التي بين يديّ الآن، طبعها مصطفى البابي الحلبي بمصر المعمورة عام ١٩٣٦ ميلادية، وقد ضبطها وصححها ووضع فهارسها الأساتذة الأجلاء مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. أجزل الله عطاءهم وأحسن ثوابهم. ولم تُعد طباعتها بعد ذلك حسب علمي، لا أدري لماذا. وهي طبعة نادرة أعانني في الحصول عليها أخي حازم هاشم الصحافي الأديب، بثمن ليس زهيداً، ولكنه لا شيء بالقياس إلى ما في جوفها من كنوز، لا تقدّر بثمن. وحازم أخو صدق، محب للغة العرب، يتحدث بها في حياته اليومية مؤثراً إياها على اللغة الدارجة، وهو عليم بشعاب القاهرة المحروسة، يعرف أسواقها وكتُبْخاناتها، يُخرج لك الكحل من العين والإبرة من كوم التّبن. إنه واحد من عُصْبة كريمة نادمتُهم كما نادم حسان بن ثابت أصحابه بجلّق في الزمان الأول، يحلّون في عيني مدينة القاهرة وحيدة الدهر، فوق ما هي عليه من حلاوة. يجمعني وإياهم صفاء المودة وحب لغة

العرب، وتنشّم روائح النيل والشرف في القول والعمل، في أي تلاعٍ حلاًّ، وفي أي واد نزلا. نتصيد ألمعيات المعاني ونقتفي آثار البهاليل من القدماء والمعاصرين. نفرح لأفراح هذه الأمة الشمّاء والرّعناء، ونأسى لمآسيها، نقول: بخٍ بخٍ ووا حسْرتاه ووا حرباه!

٨

يُطربني الأديب العبقري يتحزَّب للأديب العبقري، وعلى هذا البعد في الزمان، ما أجمل ما يبدو لنا تحزّب أبي العلاء المعري لأبي الطيب المتنبي، وما أسخف ما تبدو لنا غيرة الشريف الرّضي.

ذهب أبو العلاء رحمه الله مذهباً بعيداً في تحزّبه، وأسمى شرحه لديوان أبي الطيب «معجز أحمد». قيل لنا إن الهيئة المصرية العامة للكتاب قد أعادت طبعه، فأخذنا نبحث عنه، وأكثرنا همّة في البحث، صديقنا حازم هاشم. ولا فائدة، فقد كان البرق خلبّاً، أولئك أخوان صدْقٍ كما قلت، يجمّلون في عيني مدينة القاهرة الجميلة. منهم أبو سميح، رجاء النقّاش، الناقد الصادق والصحافي السابق. ومنهم أبو شرف، محمود سالم، أخو الأريحيات وحاوي علوم الموسوعات. ومنهم أبو عائشة، عبد المنعم سليم، الذي خدم اللغة العربية بتراجمه من اللغات الأجنبية، ومنهم أبو أحمد، صلاح

أحمد محمد صالح، السفير اللبيب والأديب، رفيق صبوات الشباب في لندن ذات الثلج والضباب. وأحياناً يصادفنا من محبيه في سويسرا، عبد الرحيم الرفاعي، صديق السّراء والضراء. وجماعة آخرون، وكلهم محب للأدب، عاشق للغة العرب، يصدق فيهم قول الحسن بن هانيء:

وخـديـن لـذّات مُـعـلّـل صـاحـب
تـقْـتـاتُ مـنـه فـكـاهـةً ومُـزاحـا

رحم الله أبا العلاء. لقد وقفتُ على قبره بمعرّة النعمان منذ نحو شهر، في طريقي إلى حلب الشهباء مدينة المتنبي، تذكرت قول أبي الطيب في رثاء محمد بن إسحق التّنوخي:

ما كنتُ أحسب قبل دفْنِك في الثَّرى
أن الـكـواكـب فـي الـتـراب تـغـور

وأي كوكب غار في ذلك الثرى. كأنه عنى أبا العلاء الذي كان أيضاً من تنوخ، وتلك من عجائب الصدف، أن يرثي السابق من لا يزال في طيّات الغيب. حين سمع أبو العلاء قول المتنبي:

أنـا الـذي نـظـر الأعـمـى إلـى أدبـي
وأسـمـعـت كـلـمـاتـي مـن بـه صـمـمُ

قال: «ما أظن إلّا أنه تمنّاني بقوله هذا».

لكن الشريف الرضي رحمه الله، على فضله وسُمُو عقله، سمع وكأنه لم يسمع، وفهم وكأنه لم يفهم.

كان الأثر جميلاً، بقدر ما تكون الآثار جميلة، حوله زرع وأزهار في باحة مبلّطة بالرخام المنقوش. كان الضريح مسجداً فيما علمت، ثم جعلوه ملتقى للشباب ومكتبة. ما لأبي العلاء والشباب؟ وأي عزاء له في ذلك؟ لقد فرّ من الناس وأخلد إلى داره وأفكاره، يهجو الحياة، ويغازل الموت:

فلّما مضى العمرُ إلّا الأقلُّ
وقاربتِ الروحُ تركَ الجسدْ

لو عاش أبو العلاء اليوم، لأعجبه حاكم المعرّة الحالي. رجل حسن الخلق عالي الهمة، عميق الثقافة، محب للأدب والأدباء والعلم والعلماء، مسرور بأنه يصرّف شؤون ذلك الإقليم العريق، وفي عُهدته رفات ذلك الإنسان الجليل، سألته إن كانوا قد اختاروه عن قصد لذلك المنصب فابتسم ولم يقل شيئاً.

وقد طمأنني أنهم سوف يحوّلون ضريح أبي العلاء إلى مزار لعارفي فضله، يضم مكتبة تحوي آثار الشاعر وكل ما كتب عنه.

على بعد بضعة كيلومترات من المعرّة، وجدنا مثوى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز. كانت تلك صدفة أخرى، فقد كنت أظن عمر ابن عبد العزيز يرقد في دمشق.

ما الذي أتى به إلى دير سمْعان؟ في رواية أنه كان عائداً من غزوة في بلاد الروم، فعرّج على صديقه القُسّ في دير سمعان، وكانت بينه وبين القسيس مودة، فمات ثمة مقتولاً بالسم على الأرجح. وفي رواية أنه ملَّ العيش بدمشق، فجاء وأقام في هذه الناحية إلى

أن مات. ثم جاء أبو العلاء، كأنما عن قصد، فأقام بجواره وفي كنفه.

عند قدميه ترقد زوجته الوفيّة، التي عانت معه شظف العيش بين نعمة ولين، ابنة الخليفة وأخت الخلفاء، فاطمة ابنة عبد الملك بن مروان. لقد أوصت أن تدفن معه عند قدميه، فكان لها ما أرادت. ولا أدري أي الأمرين أدْعى للاستعبار والأسى، مرقد ذلك الإنسان العظيم في ذلك المكان النائي، أم مرأى زوجته الصالحة وهي تتشبث به في مماته كما تشبثت به في حياته، لقد خيّرها حين وُليَ الخلافة، وخلع عنه حياة الترف، بين حياة الزهد والتقشف أو الفراق، فاختارت العيش معه.

كانوا يرمّمون الأثر ويعيدون بناءه حين زرناه أواخر المساء. ووراء كل هذا الجهد، وزيرة الثقافة الفاضلة الدكتورة نجاح العطار، التي تعمل هي ووزارتها بهمّة وعزم في ترميم مثاوي الخالدين، وصيانة آثار الماضين.

ويا للعجب! على قبر عمر بن عبد العزيز أبيات للشريف الرضي في رثائه. هاشمي فاطمي يرثي عبشمياً أموياً من آل مروان. ما أجمل ذلك!

هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الطاهر الملقب بذي المناقب.

يرتقي بنسَبه إلى موسى الكاظم، فإلى الحسين بن علي، ولهذا لقّب بالشريف الرضي الموسوي. ويقول عنه الثعالبي:

«يُعدّ اليوم أبدع أهل الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلّى مع محْتده الشريف، ومفْخَرِه المُنيف، بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، وهو أشعر الطالِبيِّين من بقي منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المُفلقين...».

هو كذلك. والأبيات التي خاطب بها الخليفة العباسي المقتدر بالله، ما تزال أصداؤها تتردد عبر العصور، دليلاً على الشموخ وعزة النفس:

مهلاً أميرَ المؤمنين فإننا
في دوحة العلياء، لا نتفرّق
ما بيننا يومَ الفخار تفاوتٌ
أبداً كلانا في المعالي مُعْرِقُ
إلّا الخلافة ميزَتك فإنني
أنا عاطلٌ منها وأنت مطوَّقُ

ما أشبه هذه الكبرياء بكبرياء المتنبي!

نعم، ولكن لا بد لكلّ عظيم من كبوة، وكبوة الشريف الرضي التي لا تكاد تغتفر، هي أنه لم يعترف بعبقرية بِكر الزمان وفلْتة الدهور، أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي، وقيل أحمد ابن الحسين بن مُرّة بن عبد الجبار الجُعفي، وقيل أحمد بن محمد ابن الحسين بن عبد الصمد الجُعفي، الملقب بأبي الطيب المتنبي، من العلويين الأشراف كما زعم أستاذنا محمود محمد شاكر وآخرون، وذلك عندنا هو الأرجح.

٩

خرجنا من معرّة النعمان ليلاً قاصدين حلب الشهباء مدينة المتنبي. رأيت سهل حلب الواسع في طريق العودة، إذ فارقنا حلب أول الصباح. والمعرة منها على بعد أقل من ساعتين، في طريق رحبة معبّدة.

كأن سيف الدولة ما يزال بحلب في لألائه وكبريائه. وكأن أبا العلاء حمّلني إليه رسالة تقول:

عوَى في ظلام الليل عافٍ لعلّه
يُجاب وأني والديارُ عوافي
صَوَافِنُ خيل عند باب مملَّكٍ
جمعن وما أيامه بصوافي

كان أبو العلاء أحسنَ حظاً إذا صح القول، فقد لبث في مكان

واحد لا يفارقه، يغازل الموت ويناجي الأبد، فمات حتف أنفه، على فراشه. ودفن حيث هو، لذلك فنحن نعرف محلّه.

ليس كذلك أبو الطيب، الذي لا يعرف يقيناً أين مرقده.

يقول الرواة إن المتنبي سار من واسط قاصداً بغداد في طريقه إلى الكوفة في اليوم السابع عشر من رمضان، وكان قد أملى علياً ابن حمزة البصري ـ كما روى البصري ـ آخر قصيدتين من شعره.

وبلغ جُبل بعد أن سار زهاء سبعة عشر فرسخاً، فنزل عند أبي نصر الجبلي، ثم واصل سيره حتى قارب النعمانية، ثم سار فمرّ بجرجرايا على بُعد أربعة فراسخ من الجنوب الشرقي من دير العاقول، وتقدم حتى قارب الصافية وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخاً، وهناك اعترضه فاتك بن أبي جهل الأسدي، خال ضبة بن يزيد الذي هجاه المتنبي، وكان فاتك في نحو ثلاثين فارساً مسلحين. وكان يتربص لأبي الطيب، لينتقم لابن أخته، وليستولي على ما يحمله من ثروة فقد كان قاطع طريق.

كان مع أبي الطيب ابنه محسّد وغلمانه وكانوا أقل عدداً من عددهم. ولكنهم استبسلوا حتى قتلوا جميعاً. ويُروى أن أبا نصر قال «ولما صحّ خبر مقتله وجّهتُ من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً...».

إنني أتخيل أنه مات عند طلوع الفجر، فقد لاقى مصرعه من قبل بـ «درب القُلّة»:

لقيتُ بدرب القلّة الفجرَ لقيةً
شفت كبدي والليل فيه قتيلُ

كان مقتلُه على الأرجح يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

قبل هذا بعامين أرسل إلى سيف الدولة من الكوفة قصيدته الفريدة التي يمدحه فيها:

ما لنا كلنا جوى يا رسول
أنا أهوى وقلبك المتبول
كلما عاد من بعثتُ إليها
غار مني وخان فيما يقول

حملتْني القصيدة على جناحيها إلى المدينة لأتنفس الهواء الذي تنفسه الشاعر العبقري. يا له من لحن فرح حزين يتأرجح بين الوجود والعدم!

انظر إلى القصيدة على ضوء ما حدث له بعد عامين من نظمها، ألا تجد إحساساً قوياً بقرب «الفناء» بدنوّ «الرحيل»؟ وهذان البيتان، ألا ترى أنهما أعجب بيتي غزل في ديوان الشعر العربي؟

زوّدينا من حسن وجهك ما دام
فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا
فإن المقام فيها قليلُ

الطريق قصير وطويل. والشمس والجمال والحياة إلى زوال. والزمان صحيح وعليل، والنعمة تحيي وتميت. لا يوجد شيء ثابت، كل شيء متأرجح. الجاه والسعادة والحب.

ثم هذا البيت العجيب:

لا أقمنا على مكان وإنْ طاب

ولا يمكن المكان الرّحيلُ

قال ابن القطاع: «المعنى لا نقيم على مكان وإن طاب ولا يمكنه الرحيل معنا، أي لا نقيم البتة، لأن المكان لا يرحل معنا..».

وقال أبو الفتح: «المكان لا يمكنه الرحيل معنا إلى سيف الدولة شوقاً إليه..».

وقال الواحدي: «ويجوز أن يكون على الدعاء كما تقول لا فضّ الله فاك. يقول لم نقم في الطريق إليه بمكان وإن طاب ذلك المكان، ولا يمكن المكان أن يرتحل، أي لو أمكنه لارتحل معنا.. كلما طاب لنا مكان كأنه يرحب بنا بطيب المقام به، قلنا لذلك المكان، لا نقيم عندك لأن قصدنا حلب وأنت الممر».

وأقول، عفا الله عني، إن هذا البيت من الأبيات التي تقوم وحدها كأنها قصائد كاملة. ماذا أراد بـ «الرحيل»؟ تمعن في البيت الذي تقدم:

من رآها بعينها شاقه

القطان فيها كما تشوق الحمولُ

أليس هؤلاء راحلين كالمقيمين؟

وانظر إلى قوله:

وصلينا نصلك في هذه الدنيا
فإن المقام فيها قليلُ

أليس «الراحل» عكس «المقيم»؟
وقد قال الشاعر صراحةً:

«وفي الموت من بعد الرحيل رحيلُ»

إنني لا أرى إلّا أن هذا الشاعر الفذ يستعمل كلمة «الرحيل» بمعنى أوسع مما ذهب إليه هؤلاء العلماء الأجلاء. معنى ميتافيزيقياً إذا شئت. كأنه يقول «إن داء الرحيل لا يمكّننا أن نتمتع بالإقامة في المكان وإن طاب ذلك المكان». و«الرحيل» في نهاية المطاف هو الموت.

١٠

زعم أناس أن سيف الدولة الحمداني صاحب «حلب» هو الذي خلَّد أبا الطيب المتنبي، وأن المتنبي لولاه لم يكن شيئاً مذكوراً. إنني أرى أن المتنبي كان متواضعاً حين جعل سيف الدولة عدْلاً له:

شـاعـر المجـد خـدنُـه شـاعـرُ الـلـفـ
ـظ كـلانـا ربُّ المعـانـي الـدِّقـاق.

وفي رواية «صِنوُه» وهو عندي أفضل، والبيت من قصيدة مدح بها أبا العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان، ولكنه كأنما أراد بها سيف الدولة، كما اتضح بعد ذلك.

ماذا بقي اليوم من سيف الدولة؟ وماذا بقي من مدينة حلب على أيام سيف الدولة؟

يقول العالِم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه الهامّ «المتنبي» الذي صدر أول مرة عام ١٩٣٦ ولم يصدر بعد أفضل منه في موضوعه:

«... إن أبا الطيب... كان يرمي ببصره إلى «الرجل»، الرجل الذي تجتمع في رجولته صفات الخير كلها، وصفات الكمال بأسرها، كما كان يراها قلبه ويحلم بها فؤاده وأوهامه. و«الرجل» في أحلام أبي الطيب هو صورة مثّلها له ضميره، من أحقاده وآلامه وثورته...».

«وكذلك لاقى العربي الثائر الشاعرُ الفذُّ، العربي الفاتح الغازي المجاهد الفذ، على شوق وحنين، وحنّ الدم إلى الدم، وعلقت النفس بالنفس. وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر، أخرجت كلا الرجلين عن طوره، وكان هذا اللقاء... فاتحة مجد أبي الطيب، وخلود ذكر سيف الدولة».

يا ليت ذلك كان قد حدث حقاً. لقاء رجل الفكر مع رجل الفعل، ربّ القلم مع ربّ السيف، مثل لقاء «غوته» الألماني مع نابليون بونابارت، حين قال «غوته» قولته الشهيرة Das ist der Mann «ذلك هو الرجل»، وقال نابليون مثل ذلك عن «غوته».

لم يلبث «غوته» أن خاب ظنه في نابليون، كما خاب ظن بيتهوفن، كما خاب ظن المتنبي وشيكاً في سيف الدولة.

هذا، وثمة وجوه شبهٍ عدة بين علاقة المتنبي بسيف الدولة، وعلاقة «غوته» ليس بنابليون ولكن بـ «كارْل أوغشت» أمير دُويلة «وايْمار» الألمانية في القرن الثامن عشر. ولعل الأمور لو سارت بالمتنبي في

حلب كما اشتهى، إذاً لانتهى إلى حال قريب من حال «غوته» في «وايمار». ولكن هذه قصة أخرى.

يا لها من مدينة! تقطع إليها سهلاً واسعاً خصيباً، مروراً بمدينة حماه مدينة ياقوت، مروراً بحمص التي يرقد فيها سيف الله خالد بن الوليد، عبر نهر العاصي الذي وصفوا بأنه سُمّي العاصي لأنه عصى قوانين الطبيعة ولم يتجه نحو البحر كبقية الأنهار، مروراً بمعرة النعمان، مدينة أبي العلاء.

وكان أول همّي أن أرى نهر «قُوَيْق»، الذي يشق مدينة حلب، لأن أبا العلاء ذكره في قصيدته العظيمة التي يصف فيها حنينه إلى الشام وهو بالعراق، وهي قصيدة أرى أنها لا تقلّ روعة عن أي شيء قاله المتنبي نفسه. وفيها يلجأ الشاعر إلى طريقة فنّية لم يسبقه إليها شاعر عربي آخر، فيصف في جلّ القصيدة حنين الإبل وهو يقصد نفسه، ولا يذكر حنينه صراحة إلّا في الجزء الأخير من القصيدة:

إذا لاح إيماضٌ سَتَرْتُ وجوهها
كأني عمرُو والمطيُّ سعالي
وقد هَمَّ نِضْوٌ أن يطير مع الصّبا
إلى الشام لولا حبْسُهُ بعِقالِ

ذاك عمرو بن يربوع الذي جاء بالمرأة من أرض السّعلاة فقالت له، إذا شِمْتُ البرق فإنني ظاعنةٌ إلى أهلي، فكان يغطّي وجهَها إذا لمع البرق. وللعرب وإبلهم علاقة عجيبة بالبرق. هل تذكر قول البحتري؟

ألم ترَ للبرق كيف انْبرى؟
وطيف البخيلة كيف احتضر؟

آه! هذي إبل أبي العلاء تقف على ملتقى دجلة والفرات، وتنظر إلى ماء عُباب كأنه البحر، وترى جنات مخضرّة مدّ البصر، فلا يرضيها ذلك، وتشتاق إلى ماء قليل ومرعى جدْب، فتلك حالٌ أَلِفتْها على علاّتها:

تمنّتْ قُويقاً والصّراةُ حيالَها
تُرابٌ لها من أيْنُقٍ وجمالِ
وأعجبها خرْق العضاة أنوفَها
بمثْلِ أبارٍ حُدِّدت ونِصالِ
فآبك، هذا أخضر الجال مُعْرِضاً
وأزرق فاشربْ وازْع ناعَم بالِ

هيهات يا عمرك الله، فالإبل أدرى بما يصلحها، وكذلك الناس، ورحم الله أبا العلاء. ليس مثله أحد في وصف حنين الإبل، ولا حتى غيْلان. ورحم الله أبا الطيب. إنني أسمع صوته يدوي في أقطار هذا المكان:

وما الدهرُ إلّا من رُواة قصائدي
إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنْشدا
فسار به من لا يسير مشمّراً
وغنّى به من لا يُغنّي مغرِّداً
ودعْ كل صوتٍ غير صوتي فإنني
أنا الصائحُ المحكيُّ والآخر الصّدى

رحمك الله يا سيدي، فأنت كما قلت، مُلْقى من أولئك الموت، يعطونك عرضاً زائلاً وتُعطيهم ما يبقى أبد الدهر.

١١

وجدت أن نهر «قُويْق» الذي أشار إليه أبو العلاء في قصيدته، قد انقطع ماؤه ولم يعد يجري، فقد أقاموا عليه سداً في تركيا، ومدينة «حلب» لم يبق فيها شيء من آثار الحمدانيين، لا قصورهم، ولا نسلُهم، ولا أسماؤهم. عفى عليها الزمن وكأنها كل «لزوميات» أبي العلاء خرجت من قول المتنبي:

وما الدَهرُ أهلٌ أن تؤمَّل عنده
حياةً وأن يُشتاق فيه إلى النَّسل

ثم قوله:

يدفّن بعضُنا بعضاً ويمْشي
أواخرنا على هام الأوالي

وقد اقتبس أبو العلاء هذا المعنى في قوله:

خفِّف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلّا من هذه الأجساد.

بقيت القلعة عند الحمدانيين، وقد أفْنت أقواماً قبلهم وأقواماً بعدهم، ترنو متحدية نحو الشمال والغرب، وتطل على السهل الفسيح ناحية الجنوب. مدينة كاملة في شكل حصن. فيها مسجد ودور وأسواق وحمامات، وأبراج تطل على الجهات الأربع. محاطة بخندق يمتلىء بالماء، فإذا هوجمت تُرفع عنه الجسور، فيصعب النفاذ إليها. وفي كل خطوة يخطوها الغازي شركٌ منصوب. قطران يغلي يُصب من فتحات أعلى القلعة، وسهام ومنجنيق. اقتحامها يكاد يكون مستحيلاً بمقاييس ذلك الزمان. وتعْجبُ كيف أن الفاتحين المسلمين استطاعوا اقتحامها. ولكن أولئك كانوا قوماً من طينة أخرى.

أبو سليمان، خالد بن الوليد رضي الله عنه يرقد في حمص. قال للروم حين تحصّنوا بقلعة قنسرين «لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا»، ثم مات على فراشه وليس في جسمه موضع إلّا وفيه أثر من ضربة سيف أو طعنة رُمح.

عزله عمر العظيم وهو في أوج انتصاره، لا لأية أسباب شخصية ـ كما يقال بلغة هذه الأيام ـ ولكنه خشي أن يفتتن به الجند، ولأنه أراد أن يؤكد أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاءه، وليس بيد خالد مهما كانت عبقريته العسكرية. ولما عزله أرسل الكتاب مع بلال الحبشي. كان بلال عظيماً في الإسلام وعظيماً عند عمر، فكتم أبو عبيدة الخبر، حتى انتهت المعركة معركة اليرموك، وقال إنه لم يردْ أن يحرم خالداً من فرحة النصر. ولما مات قال عمر «دعوا نساء مخزوم تبكي على خالد».

ولو أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لم يُقتل في عامه ذاك،

لأتخذ التاريخ مساراً آخر. ولو أن حفيده عمر بن عبد العزيز، حكم فترة أطول مما حكم. ولكنها حكمة الله الذي بيده الملك. حكم أقل من ثلاث سنوات، وقتله بالسم على الأرجح أهله بنو مروان، لأنه ضيَّق عليهم الخناق. ودُفن في دير سمعان عند صديقه القُس. وقد منع سبّ آل البيت على المنابر، واستبدل به الآية الكريمة التي ما فتىء الأئمة يرددونها في صلاة الجمعة إلى يومنا هذا:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾.

وكان كما حدّث الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه، يرسل المال سراً إلى بني هاشم في جفان العسل، حذراً من بني مروان. لا عجب أن الشريف الرضي رحمه الله قد قال في رثائه:

دير سمعان لا أغبّك غاد
خير ميت من آل مروان ميتُكْ
أنت بالذّكر بين عيني وقلبي
إن قد تدانيت منك أو قد نأيتكْ
وعجيبٌ أني قليْتُ بني مروان طراً وأنني ما قليْتُكْ
قرب العدل منك لما نأى الجُور بهم واجْتَبيْتُكْ
فلو أني ملكتُ دفعاً لما نابك من طارق الرّدى لفديتُكْ

ذاك، وقد ثوى أبو العلاء في المعرة ـ معرّة النعمان بن بشير الأنصاري ـ غير بعيد من ديْر سمعان، فثبت في الزمان والمكان. ولكن أين ثوى ذلك الإنسان العجيب، الذي كأنه في لا زمان ولا مكان؟

حدّث أبو الحسن الشّوسي قال:

«كنت أتولّى الأهواز من قبل المهلّبي، وورد علينا المتنبي ونزل عن فرسه يقودُه بيده، وفتح عيابه وصناديقه لبلل مسّها في الطريق، وصارت الأرض كأنها مطارف منشورة، فحضرته أنا وقلت «قد أقمتُ للشيخ نُزلاً»، فقال المتنبي «إن كان تمّ فآتيه». ثم جاءه فاتك الأسدي يجمع وقال «قدم الشيخ في هذه الديار وشرّفها بشعره، والطريق بينه وبين دير قُنّه خشن قد احتوشتْه الصعالكة، وبنو أسد يسيرون في خدمته إلى أن يقطع هذه المسافة، ويبر كل واحد منهم بثوب بياض». فقال المتنبي: «ما أبقى الله بيدي هذه الأدهم وذباب الجراز الذي أنا متقلده، فإني لا أفكر في مخلوق». فقام فاتك ونفض ثوبه وجمع رُتوت الأعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حَشواً، سبعين رجلاً، ورصد له. فلما توسط المتنبي الطريق، خرجوا عليه. وحمل فاتك على المتنبي وطعنه في يساره ونكسه عن فرسه. وكان ابنه أفلت، إلاّ أنه رجع يطلب دفاتر أبيه فقنع خلفه الفرس أحدهم وحزّ رأسه، وصبّوا أمواله يتقاسمونها بطرْطورة».

يا لها من نهاية، إن صحّت هذه الرواية.

هذا، وقد رثاه صاحبه أبو الفتح عثمان بن جني، الذي كان وفياً له في حياته وفي مماته، بقصيدة جاء فيها:

عمرت خدُن المساعي غير مُضْطهد
كالنّصل لم يُدنَّس يوماً ولم يصب
فاذهب عليك سلام المجد ما قلقت
خوص الركائب بالأكوار والشُّعب

«المجد»، تلك الكلمة المدمرة كلمة كان يحبها المتنبي، لقد أخذوا مطارقه ونفائسه والسيوف المحلاة بالذهب التي أهديت له، وبعثروا أوراقه وتقاسموا أمواله. وقتلوا ابنه أو أبناءه، وقطعوا دابر نسله. لم يبق منه إلّا الشعر. إن كان هذا هو «المجد» الذي كان يطلبه، فإنه لعمري قد حاز المجد.

١٢

ما دمتَ في «حلب» فعليك بأبي الطيب سوف تجد لشعره مذاقاً خاصاً هنا. إنها مدينته أكثر من أي مدينة أخرى عاش فيها. هنا قال أروع قصائده وعاش أخصب سنوات عمره إن لم يكن أجملها. كأنه ودّ الإقامة في «حلب» إلى آخر أيامه، لولا ذلك الداء القديم الملازمُه، داء الرحيل:

لا أقمْنا على مكانٍ وإن طاب
ولا يمكن المكانَ الرّحيلُ

كانت إقامته بالفسطاط كمن هو أبداً على وشك الرحيل. أما في الكوفة وبغداد، فقد سبقته أصوات عبقرية أعطت المدينتين سمتهما وطابعهما قبله. ولكن «حلب» هي مدينته، فهو الذي أعطاها صوتها الذي ما يزال يتردد في الآذان. كانت قبله صمّاء بكماء، فأنطقها

وأسمعها. وهي إلى الآن، لولاه ليست بشيء. وما المدن؟ وما مساعي الناس في نهاية الأمر؟ ما ذلك كله لولا الفنّ؟ وقد حق له أن يقول في سيف الدولة:

غضبت له لما رأيتُ صفاته
بلا مادح والشعر تهذي طماطمُه

أيْ أن «صفاته» كانت «خرساء» فأنطقها كما يُنطق المثّال كتلة الحجر الصمّاء.

مدينة فيها شيء منه. مدينة على مفترق طرق، مليئة بالاحتمالات. احتمالات المغامرة والخطر.. والمجد.. والموت. القلعة التي تحكمها تثبّتُها في الأرض، وفي الوقت نفسه كأنها توشك أن تحلّق بجناحين. الأسواق القديمة ملأى بالذهب والفضة والتوابل والعطور. والخانات والحمّامات. أو كما قال أبو العلاء للإبل:

فآبك[1] هذا أخضرُ الجالِ مُعرّضاً
وأزرقُ فأشرب وأرْعَ ناعمَ بالِ

لما لم يعمل المتنبي بالنصيحة؟ لا في حلب ولا في الفسطاط ولا عند ابن العميد؟

هذه مدينة «بيْن ـ بيْن» كانت من قديم، نصفها الأعلى في حوافر البحر المتوسط، فنسيا وجنْوَا وفلورنسا وأبعد، ونصفها الأسفل في سهول الشام ودير الزور وضفاف الفرات. وقد اختار المتنبي «المجد» ففارقها وفي قلبه غصّة:

ولــلّــه سـيْـري مــا أقــلَّ تــئـيــة[٢]
عــشــيّــة شــرقــي الحدالــى وغُــرّبُ
عشيّة أحفى الناس بي منْ قلوْتُه[٣]
وأهــدى الــطــريــقــيْن الــتــي أتجــنّــبُ

وغير بعيد يرقد أبو العلاء المعري، خِدْن المتنبي ونقيضُه والـ (anti-thesis) له، يجيء صوته إزاءَ المتنبي كمن يصب الماء على النار. خُذْ عندك المتنبي، كعهده دائماً:

ولا بــدّ مــن يــومٍ أغــرّ مــحــجّــلٍ
يـطـول اسـتـمـاعـي بـعـده لـلـنَّـوادبِ
يـهـون عـلـى مـثـلـي إذا رام حـاجـةً
وقـوعُ الـعـوالـي دونـهـا والـقـواضِـبِ
كـثـيـرُ حـيـاة المرء مـثـلُ قـلـيـلـهـا
يـزولُ وبـاقـي عـمـرِه مـثـل ذاهـبِ
إلـيْـكَ فـإنّـي لـسـتُ ممـن إذا اتـقـى
عـضـاض الأفـاعـي نـام فـوق الـعـقـارب

لكَ اللهُ يا سيدي، فأنت ما تزال في أول الطريق. سوف تنتهي حياتك عند دير العاقول. سوف ينهبون أموالك ويبعثرون أوراقك ويقطعون دابر نسلك. لن يبقى منك إلّا الشعر.

علّلاني الآن يا صاحبيّ بصوت أبي العلاء الرصين الحزين:

إذا جـمـحـتْ خـيـلُ الـكـلام فـإنمـا
لـديـكَ يـعـانـي مـن أعـنّـتـهـا الـضـبـطُ[٤]

ولا أذهـــلـــتني عـــن وِدادِك روعـــةٌ
وكـيـف وفـي أمـثـالـهـا يـجـبُ الـغـبْـطُ
ولا فـــتْنةٌ طـــائِـــيّـــةٌ عـــامـــريـــةٌ
يُـحـرّقُ فـي نـيـرانـهـا الجعْـد والسّـبْـطُ[٥]
وقـد طـرحـتْ حـول الـفـرات جـرانـهـا[٦]
إلـى نـيـل مـصـر فـالـوَسـائـغ بـهـا تـقْـطـو
فـوارسُ طـعّـانـون مـا زال لـلـقـنـا
مع الشيب يوماً في عوارضهم وخْطُ
وكـلُّ جـواد شـقّـه الـركـضُ فـيـهـم
وجٍ يـتـمـنّـى أن فـارسـه[٧] سـقْـطُ

ذاك المتنبي، مشغول بنفسه وطموحاته وثاراته وأحقاده. وهذا أبو العلاء، مشغول بتقلبات الأيام ومصائر البشر. وقد صدق، فصوته صافٍ رائق مثل «هديل الحمام» بينما صوت المتنبي في الغالب، كأنه غابة من السّباع.

هذا، وقد قال تلك الأبيات بالرملة عام ٣٣٦هـ في قصيدة مدح بها أبا القاسم طاهر بن الحسن العلوي. كان في طريقه إلى أبي العشائر في أنطاكية ومن ثم إلى سيف الدولة في حلب.

كل طرق المتنبي كانت تؤدي إلى «حلب» المدينة الفاضلة التي صنعها في خياله مثل مدينة «سانت أوغسطين». وثمة «الأمير» المثَل الذي يحلم كل رجل فكر أن يُنيخَ رحاله عنده. ولكن هيهات.

الهوامش

(١) آبك أي تباً لك. والبيت يشير إلى العشب الأخضر والماء الوفير.

(٢) التئية البطء في السير. والحدالي وغرب جبلان بالشام.

(٣) قلوته ـ أي هجرته.

(٤) يقصد أنك حصيف تمسك بأعنّة الكلام فلا يذهب كل مذهب.

(٥) الجعد والسبط، جعد الشعر وسبطه يقصد كافة الناس.

(٦) جران البعير باطن عنقه، ويقال ألقى الشيء جرانه أي ثقله.

(٧) يقصد أن كل فرس تعب من الركض يتمنى لو أن الفارس الذي فوقه كان قد سقط من بطن أمه قبل أن يتم نموه، وذلك هو «السّقط».

١٣

كانت تلك القصيدة في مدح أبي القاسم طاهر بن الحسين العلوي، قالها بالرملة عام ٣٣٦هـ وهو في طريقه إلى أبي العشائر الحمداني في أنطاكية، ومطلعها:

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب
ورُدّوا رُقادي فهو لحظُ الحبائب

وهي قصيدة محشوّة بالغيظ والمرارة والكبرياء، وفيها يقول:

إليّ لعمري قصْدُ كلّ عجيبة
كأنّي عجيبٌ في عيون العجائب

ما كان سيف الدولة ليتخيّل أي «بلاء» هو في طريقه إليه، ولا عجب أن العميد طه حسين رحمه الله، ظن أن المتنبي قال القصيدة «بعد» فراقه لسيف الدولة. ولكن كما ذكرنا، هذا شاعر عجيب،

أبداً قادم ذاهب، حاضر غائب، مقيم مفارق.

قال العكبري قال الواحدي:
إن الأمير أبا محمد بن طغج لم يزل يسأل المتنبي أن يخص أبا القاسم طاهراً العلوي بقصيدة من شعره وأنه قد اشتهى ذلك، وأبو الطيب يقول «ما قصدت إلّا الأمير ولا أمدح سواه» فقال أبو محمد «عزمتُ أن أسألك قصيدة تنظمها فيَّ فاجعلها فيه»، فأجاب. قال محمد بن القاسم الصوفي «فسرتُ والمطّلبي برسالة طاهر إلى أبي الطيّب، فركب معنا حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من الأشراف، فلما أقبل أبو الطيب نزل طاهر عن سريره والتقاه مُسلِّماً عليه. ثم أخذه بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه وتحدّث معه طويلاً. ثم أنشده أبو الطيب فخلع عليه خُلَعاً نفيسة». قال علي بن القاسم الكاتب «كنت حاضراً ذلك المجلس، فما رأيت ولا سمعت أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب، فإني رأيت هذا الشريف قد أجلسه في مجلسه وجلس بين يديه فأنشده القصيدة».

هذا رجل شريف حقاً عرف قدر الشاعر العبقري وأنزله المنزلة التي يستحقها، وجلس منه مجلس التلميذ من «الأستاذ». وما كان ضَرَّ المتنبي لو انقطع إليه وإلى أمثاله. لكنه كان يفكر في أشياء أبعد. سوف يقبل منه سيف الدولة تلك الكبرياء على مضض، فالأمير في مذهبه أمير، والشاعر شاعر، وسوف يضيق به في نهاية الأمر، ولن يُغني عن المتنبي قوله:

«وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يُرى من الشعراء».
لم يكن المتنبي ينشد إلّا جالساً.

الدكتور عبد الله الطيّب عالم ثبْت، ومحبٌّ مُدنفٌ بأبي الطيب. وقد بلغ من إعجابه به أنه قال «زعم ابن الأثير أن في متْن شعر أبي الطيب وهيْاً، وقد كذب ورب الكعبة». يقول في كتابه الجميل «مع أبي الطيب»، إن الجلوس كان للمغنين، وإن الوقوف كان للشعراء. ولا أحسب أنه قصد أن المتنبي وضع نفسه موضع المغنين، فالمغني لم يكن يقعد للغناء في مجلس الأمير، بل في مكان خاص يعد له ولجوقته، وأحياناً يكون بين المغني وجوقته وبين مجلس الأمير ستار يُزاح حين يبدأ الغناء والعزف. ثم هذا شاعر لا يجلس حيثما اتفق، بل يجلس بجوار الممدوح وعلى مرتبته.

يقدِّر الأستاذ محمود محمد شاكر أن هذه القصيدة قيلت عام ٣٣٦هـ «قبل» أن يتصل المتنبي بسيف الدولة. وذلك أمرٌ مهمٌّ عنده في محاولته إثبات أن المتنبي «شريف علوي». ويزيد:

«لا بد لنا هنا من التنويه إلى خطأ بليغ وقع فيه أحد كبار أدبائنا في كتابه عن المتنبي، إذ زعم أن المتنبي قال هاتين القصيدتين (في ابن طغج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور. والصحيح أنهما قيلتا سنة ٣٣٦هـ وهو بالرّملة، ومن ثم في تلك السنة رحل إلى أنطاكية قاصداً أبا العشائر الحمداني الذي وصل أسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧هـ.. هذا على أن أسلوب الرجل في هاتين القصيدتين، ونَفَسه في الشعر، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة، وذلك بيّنٌ لمن تدبّر أدنى تدبُّر.

ولعمري إن «نَفَس» المتنبي في الشعر الذي قاله «قبل» أن يتصل بسيف الدولة و«بعد» أن فارقه، لا ينقسم إلى قسمين واضحين، وهذه القصيدة في بعض مراراتها وغلوائها تشبه بعض القصائد التي

قالها الشاعر بعد أن ترك سيف الدولة. يوجد شيء «ثابت» في شاعرية المتنبي، سواء كان عند سيف الدولة أو عند كافور أو عند ابن العميد. سواء كان في الرملة أو الفسطاط أو هنا في حلب. ذلك «هو نفسه»، في لا مكان وليس عند أي أحد.

أستاذنا العلامة محمود محمد شاكر، أطال الله عمره، يشير إلى العميد، الدكتور طه حسين، رحمه الله، وقد كانت بينهما ملاحاة لم تضرّ الأدب، بل أفادته. والحق أن العميد، رغم علمه وريادته ونظراته الثاقبة، لم يُغن كثير غنى في كتابه «مع المتنبي». ذلك لأنه صحب الشاعر على نفور وقلة وُد، كما اعترف هو نفسه. فلا عجب أنه لم يظفر منه بطائل، فالمتنبي شاعر إما أن تحبه وتتحمس له، وإما أن تتركه وشأنه. أحسن النقد ما يكتب عن محبة لأن المحبة تفتح البصيرة وتزيل الحجب التي تقوم بين ما يرمي إليه الشاعر وبين فؤاد المتلقّي. هذا صنعه العميد مع أبي العلاء، وعجيب أنه أحب أبا العلاء ولم يأنسْ لأبي الطيب، وقد كان أبو العلاء متيّماً بأبي الطيب.

هكذا صنع عبد الله الطيب ومحمود محمد شاكر والشيخ عبد العزيز مع المتنبي. أحبّوا الشاعر وأصغوا إليه بمحبة، فباح لهم ببعض أسراره، وفتح لهم عن بعض مكنونات قلبه وهو بعد في طريقه إلى «حلب» وكان قد فارقها قبل أن يصل إليها.

العجبُ لأبي الطيّب المتنبي، أنه تمنّع وتعزّز عن مدح الشريف العلوي طاهر بن الحسين، ولم يقبل إلّا بعد لأي، ثم لما مدحه انْدلقَ في مدحه، وبالغ في إطرائه حتى كاد يخرج عن حدود الأدب. وفي القصيدة بيتٌ وصل من المبالغة حدّاً أزعج حتى ابن جنّي العتيد، رغم تعصبه الشديد لأبي الطيب، فقال «قد أكثر الناس في هذا البيت، وهو في الجملة شنيع الظاهر، فأضربتُ عن ذكره. وقد كان (يقصد المتنبي) يتعسف في الاحتجاج له والاعتذار بما لست أراه مُقْنعاً..».

ثم يضيف كالمعتذر «ومع هذا فليست الاعتقادات والآراء في الدين مما يقدح في جودة الشعر ورداءته».

والبيت المشار إليه هو:

وأبْهرُ آياتِ التِّهاميّ أنه
أبوك وأجدى ما لكُم من مَناقب

وظاهر المعنى أنه أبْهر معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه أبو هذا الممدوح، والعياذ بالله.

قال الواحدي «قال أبو الفضل العروضي فيما أملاه عليَّ: هذا بيت حسنُ المعنى، مستقيم اللفظ، حتى لو قلتُ إنه أمْدحُ بيت في الشعر لم أبعد عن الصواب، ولا ذنب له إذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم. وأما معناه، فإن قريشاً أعداء النبي صلى الله عليه وسلم يقولون أن محمداً صنبور أبْتر لا عقب له (الصنبور: المنفرد) فإذا مات استرحنا منه. فأنزل الله تعالى ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ أي العدد الكثير، ولستَ بالأبتر الذي قالوه.. فقال المتنبي: أنتم من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وآية لتصديقه، وتحقيق لقول الله تعالى، وذلك أجدى (بالجيم) ما لكم من مناقب.. وأما قوله (التهامي) فإن الله أنزل في التوراة على موسى: إني باعثٌ نبياً من تهامة من ولد إسماعيل في آخر الزمان. وأمر موسى عليه السلام أمّته أن يؤمنوا به إذا بُعث، ودلَّ عليه بعلامات آخر. فأنكر اليهود نبوّته، فقال صلى الله عليه وسلم «أنا النبي التهامي الأمي الأبطحي» فلا أدري كيف نقموا على المتنبي لفظة افتخر النبي صلى الله عليه وسلم بها. ولما رووا «إحدى ما لكم» بالحاء اضطرب عليهم المعنى. وأقرأنا أبو الحسن الرّخْجي أولاً والشعراني ثانياً والخوارزمي ثالثاً «وأجدى» بالجيم، فاستقام المعنى واللفظ وتشنيع أبي الفتح عليه وغيره باطل».

قال الواحدي «وليس هذا المعنى فاسداً وإن رُوي بالحاء، لأنه يقول،

كون النبي التهامي أباً لكم، إحدى مناقبكم، أي لكم مناقب كثيرة، وإحداها أنكم تُنسبون إليه».

كل هذا البلاء الحسن من هؤلاء الشيوخ الأجلاء، لا يغفر للمتنبي في ظني، أنه شطح شطحة خرجت به عن مقتضيات الذوق، إن لم نقل الأدب. وعنده مثل هذا كثير. وكثير أيضاً عنده أن يمدح الكُلَّ بالانتماء إلى الجزء، كقوله في رثاء جدته:

ولـو لم تـكـونـي بـنـت أكْـرم والـد
لـكـان أبـاك الـضـخـمَ كـونـك لـي أمـا

إنها صورة بديعة بحق، قلب فيها الأشياء رأساً على عقب، فجعل الأم ابنة الولد، وجعل الولد أبا الأم. وذلك كما قال الشاعر الإنكليزي «ويردزويرث» بعد المتنبي بقرون «الطفل أبو الرجل».

هكذا المتنبي، إذا مدح لم يلْو على شيء، لا يكاد يهمه إلى منْ يتوجه بالمدح. وقد زعم الأستاذ محمود محمد شاكر، وسار كثيرون على دربه، أن المتنبي لم يمدح كافوراً الأخشيدي، وإنما أضمر له الهجاء والسخرية فيما يُظنُّ أنه مدح. وضرب مثلاً على ذلك قول المتنبي لكافور:

تـفـضـحُ الـشـمـسَ كـلـمـا ذرَّت
الـشـمـسُ بـشـمـسٍ مـنـيـرةٍ سـوداء
إن فـي ثـوبـك الـذي المجـدُ فـيـه
لـضـيـاءً يُـزري بـكـل ضـيـاء

ويقول «تدبّرْ التهكم العجيب في هذه الأبيات وذكر المستحيلات

التي لا تقع ولا تكون ولا تُتوهّم، إذ جعله (شمساً منيرة) ولكنها سوداء».

هذا يا عمرك الله، من قبيل الحكم على الأمور بأثر رجعي، وحسب معايير غير معايير العصر الذي حدثت فيه. كون المتنبي مدح كافوراً الأخشيدي، أمر لا مراء فيه. وعلى أي حال، فنحن اليوم بعد كل ما أفدناه من علوم الفيزياء، وخصائص اللون، وما فعله الرسامون التعبيريون، أقدرُ على تخيّل الشمس كيف تكون «منيرة سوداء». وقد وضع أهل دولة غانا نجمة سوداء على علمهم الوطني، لأنهم رأوْها أكثر ضوءاً من نجمة بيضاء. ومن أراد أن يعرف أكثر كيف يكون السواد مضيئاً، فليقرأ شعر «سيدار سنقور» و«إيمي سيزير».

وهبْ أن ذلك لم يكن مدحاً، فما قولك في هذه الأبيات:

قواصدُ كافورٍ توارِكُ غيرِه
ومن قصد البحرَ استقلَّ السواقيا
فجاءتْ بنا إنسانَ عين زمانه
وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا
فتىً ما سرينا في ظهور جدودنا
إلى عصره ألّا نُرجّي التلاقيا
أبا المسك ذا الوجه الذي كنتُ تائقاً
إليه وذا الفعل الذي كنتُ راجيا

إذا لم يكن هذا مديحاً فلست أدري كيف يكون المديح!
قال شيخنا أبو البقاء رحمه الله:

«يقال إن سيف الدولة لما سمع البيت «قواصد كافور» قال: «له الويل. جعلني ساقية وجعل الأسود بحراً».

ثم يمضي أبو البقاء فيقول:
«إن كان المتنبي قد قصد هذا، فقد أبان عن نقض عهْد، وقلة مروءة، لأنه مدح خلْقاً، فلم يعطه أحد ما أعطاه علي بن حمدان، ولا كان فيهم من له شرفه وفضله، لأنه عربي من سادات تغلب، عالم بالشعر، ولم يمدح مثله في الشرف والحسب إلّا محمد بن عبد الله الكوفي الحسيني..».

وعندي، أن أعجب من أن المتنبي جعل كافوراً بحراً مثل «بحر النيل» وجعل سيف الدولة «ساقية» مثل نواعير حمص، كونه جعله «إنسان عين زمانه» فهذه آية أخرى من آيات الشمس «المنيرة السوداء»!

بلى، مدح المتنبي كافوراً الأخشيدي، لا مراء في ذلك، ثم هجاه فيما بعد، فما كان صادقاً في مدحه ولا كان صادقاً في هجائه. ولكنه كان صادقاً في شعره في الحالتيْن، فهذا «شاعر فنان»، وجد مادة فصنع منها «فنّاً»، أحياناً يزيد وأحياناً يُنقص، وقد ذهب المتنبي، وذهب سيف الدولة، وذهب كافور. لم يبْق إلّا الشعر.

١٥

لم يكـن المتنبي، ولا كـان أيٌّ من الشـعراء، صـادقاً في مـدحه أو هـجائه، اللهـم إلّا في حـالات نـادرة انطبـق فيـهـا الوصـف على الموصوف، سلْباً أو إيجاباً. إنما كانوا يصنعون «فناً». وكما يفعل الفن عموماً، يأخذون من الواقع، يحسّنونه أحياناً، ويُقبِّحونه أحياناً. وقد أحسن الشاعر الذي قال حين عيّروه أنه لا يُحسن الهجاء «إننا لا يُعيينا أن نقول (قبّحك الله) بدل (أصلحك الله)». وفي هذا المعنى يقول الدكتور عبد الله الطيب، في إشارة بارعة في كتابه «مع أبي الطيب»:

«وكان تنافس الأمراء إذ ذاك على الشعراء، كتنافس ملوك أوروبا وأمرائها على استقدام المصوّرين البارعين واستخدامهم. وينبغي أن ننظر إلى قصيدة المدح لا على أنها تسوُّل، ولكن على أنها واجب أو عمل يُطلب من الشاعر فينجزه، كما كان المصوّرون في أوروبا

يُؤدي أحدُهم واجباً أو ينجز عملاً حين يُطلب منه أن يرسم هذا الأمير أو تلك الأميرة. وكان من أعظم ما ينبغي في الرسم إبراز الأبهة والجمال، وما كان كل أمير بذي أبّهة ولا كل أميرة بحسناء فتأمَّل».

صدق، لم يكن كل أمير بذي أبهة، أو على أي حال لم يكن بمثل الأبهة التي أسبغها عليه «الفنان» في فنه. ويمكن القول دون حرج، أن سيف الدولة الحقيقي، ليس هو تماماً سيف الدولة الذي خلّده المتنبي في شعره، وأضفى عليه بهاءً لم يكن له في الواقع، مثل قوله:

وما الفرقُ ما بينَ الأنام وبينَه
إذا حذر المحذورَ وٱستصْعبَ الصَّعبا
لأمرٍ أعدَّتْه الخلاَفةُ للعِدى
وسمَّته دونَ العَالَم الصّارمَ القضْبا
ولم تفترقْ عنه الأسنّةُ رحْمةً
ولم يتركْ الشّامَ الأَعادي له حُبّا
ولكن نفاها عنهُ غيرَ كريمةً
كريمُ النَّثا[1] ما سُبَّ قطُّ ولا سَبَّا
وجيشٌ يُثَنّي كل طوْد كأنه
خريقُ[2] رياحٍ واجهت غُصناً رطْبا
كأن نجومَ اللّيل خافت مُغارَه
فمدَّت عليها مِن عجاجته[3] حُجْبا
فمن كان يُرضي اللؤمَ والكفر ملكُه
فهذا الذي يُرضي المكارمَ والربّا

ما أجمل هذا ـ تقول ـ بصرف النظر عن «المادة الخام» التي صنع منها

«الفنان» فنّه. وتستطيع أن تتخيّل أن سيف الدولة كان حين يستمع إلى مثل هذا الشعر، يستخفُّه الطرب، كأنه يستمع إلى وصف إنسان آخر، يعرفه ولكنه ليس «هو» ـ إنسان يحلم أن يكونَه.

ويمضي الدكتور عبد الله الطيب في إشارته النافذة فيقول:
«ولأنّا نعيش الآن في زمان نهضة أوروبا، والتاريخ الكبير لازال من صنع دولتها، فإننا بحكم ذلك نقبل قضية روايات موليير وراسين وبنْ جونْسون وشكسبير، وصور فان دايك وجويا ورِمْبرانْت وروفائيل على أنها من صميم الفن، وننسى وجه الشبه بينها وبين المدح والهجاء (عند العرب). وقد فطن إلى نحو من ذلك ابن رشد في الدهر القديم حين شبّه المأساة بقصيدة المدح والملهاة بقصيدة الهجاء فما باعد كثيراً..».

نعم. لم يكن أبطال «هومير» في الواقع أكثر من رعاة وفلاحين وبحّارة وقطاع طرق في بلاد «هيلاس». ولم يكن الملك لير الذي ابتدعه خيال شكسبير إلّا مثل زعيم من زعماء العشائر عندنا. ونابليون بونابارت الذي خلّده في لوحاته الفنان «جاكْ لوي دافيدْ» أضخم مرات من نابليون الحقيقي.

كذلك «الفن» يرفع ويخفض، وقد رفع المتنبي كافوراً إلى عنان السماء حين شاء ـ نعم، وما العجب؟ في مثل قوله:

هذه دولة المكارم والرأفة
والمجد والندى والأيادي
يزحم الدهرُ ركنَها عن أذاها
بفتى ماردٍ من المُرَّاد

مُـتـلـفٍ مُـلـف وفـيٌّ أبـيٌّ
عـالم حـازم شـجـاعٍ جـوادِ
أجـفـلَ الـنـاسُ عـن طَـريـق أبـي
المسـك وذلّـت لـه رقـابُ الـعـبـاد
كـيـف لا يُـتـرك الـطـريـقُ لـسـيّـلٍ
ضـيّـقٌ عـن(٤) أتـيّـه كـلّ واد.

ذاك مدح وهذا مدح، لا فرق، اللهم إلّا أن «المادة الخام» التي صنع منها الفنان فنه فيما يتعلق بكافور، لم تكن بشيء، فقد كان سيف الدولة «من سادات تغلب» كما قال شيخنا أبو البقاء، إذ كان كافور «عبداً لحفيد مغامر» كما قال أستاذنا عبد الله الطيب، ولكن لأجل هذا يمكن القول، أن «الثوب» الذي غزله المتنبي لكافور، كان وما يزال أدعى للعجب.

أما الشعرُ الذي يُقصِّر فيه «الفن» عن «الحقيقة» ولا يرقى فيه الوصف إلى قريب من شمائل الموصوف، فمثل ما قال أبو دَهْبل الجُمَحي في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم:

إن الـبـيـوتَ(٥) مـعـادنٌ فَـنِـجـاره
ذَهَـبٌ وكـلّ بُـيـوتِـه ضَـخْـمُ
عَـقِـمَ الـنّـسـاء فـمـا يـلـدْن شـبـيـهـه
إن الـنـسـاءَ بـمـثـلـه عُـقْـمُ

صدق الشاعر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ما هلّتْ الدِّيَمْ، وما جرَتْ على المذنبين أذْيالُ الكَرَمْ.

الهوامش

(١) كريم النثا أي طيب الذكر، وقالوا «النّثا» مثل «الثناء» ولكنها تُقال للخير والشر بينما «الثناء» تُقال للخير فحسب.

(٢) خريقُ رياح أي شديدة الهبوب.

(٣) العجاجة والعجاج، الغبار.

(٤) الأَتيّ هو السبيل وهو هنا يقصد قوة اندفاعه.

(٥) البيوت، يعني القبائل التي ينتمي إليها الرسول صلى الله عليه وسلم، والنِّجار، الأصل والأرومة.

١٦

تحامل القدماء وكثيرٌ من المعاصرين على كافور المسكين، واستكثروا عليه أن يمدحه بِكْر الزمان وفلْتة الدّهور، أبو الطيّب المتنبي. وكافور لم يذنب في حق الشاعر بشيء. لقد أحسن استقباله وقطع له داراً على ضفة النيل ـ فيلّا كما تقول ـ وخصص له خدماً وحاشية، وأجرى عليه مالاً، إن لم يكن مثل ما كان يصله من سيف الدولة، فقد كفاه مؤونة العيش وزيادة. وأين هو الأمير في زماننا هذا الذي يصنع مع «شاعر» مثل ذلك الصنيع؟ أقصى ما يفعل أن يعيّنه ملحقاً في سفارة أو موظفاً في وزارة. وقد قضى نحبه محمد المهدي المجذوب، شاعر السودان الفحل، وأحد فطاحل شعراء العربية في هذا العصر، وهو مراقب للحسابات!

أنكر المتنبي الجميل فيما بعد فقال في هجاء كافور:

جوعان يأكل من زادي ويُمْسِكُني
لكيْ يقالَ عظيمَ القدر مقصودُ

ولعلّه أراد «جوعانُ يأكل من زادي ويُطعمني» فليس ألأَم من مُضيف يَقري ضيفَه من طعامه، أي من طعام الضيف. أو كما قال خَنْزَر بنُ أَرْقَمْ يهجو قوم الرّاعي الشاعر:

بني قَطَنٍ ما بالُ ناقةِ ضيفكم
تَعشّوْن منها وهي مُلْقىً قَتودُها
عدا ضيفُكم يمشي وناقةُ رحله
على طُنُبَ الفَقْماء مُلْقىً قَديدُها
وبات الكِلابيُّ الذي يبتغي القِرى
بليلةِ نَحْسٍ غابَ عنها سُعُودها

لا عجب، فقد ذبحوا ناقته وأطعموه وأكلوا منها، وقدّدوا بقية اللحم، ونشروه ليجفّ على طُنب «الفقماء» امرأة الراعي.

لم يفعل كافور مثل ذلك مع المتنبي في الحقيقة، فقد كان الشاعر يأْكُل من طعام أبي المسك ويرفل في ثيابه. الذي لم يفعله كافور هو أن يُقطع الشاعر «ضيعة أو ولاية» كما طلب صراحة:

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أناله
فإني أغنّي منذ حينٍ وتشرب
وهبْت على مقدار كفَّيْ زماننا
ونفسي على مقدار كفّيك تطلب
إذا لم تنُطْ بي ضيعةً أو ولايةً
فجودك يكسوني وشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وكم أعطاه في تلك اللحظة بالذات؟ ستمائة دينار، وهو مبلغ لعله لا يُقاس بما وصله من سيف الدولة وعضد الدولة وابن العميد، ولكنه مبلغ لا يُستهان به بحساب هذه الأيام. ولو جمعت كل ما نال الشاعر من كافور طول إقامته بمصر لحسبت مالاً كثيراً. ضاع كله ويا للأسف، الذي جمعه من كافور ومن الآخرين. ذهب هدراً عند دير العاقول، انتهبه فاتك الأسدي وعصبته «يتقاسمونه بطَرْطوره».

لا يا رعاك الله. ما كان كافور يقدر أن يفعل غير ما فعل، فهو بعد «أمير» حتى ولو كان عبداً مخْصيّاً. وكان ملكه أوسع من ملك سيف الدولة، فقد حاز مصر وأكثر الشام. وكان أحد «محاور» السلطة في ذلك الزمان. والمتنبي، مهما كان، ليس غير «شاعر». ومنطق السلطة غير منطق الشعر. إلّا أن أبا الطيّب تجرّأ وأراد أن يعبر الحاجز الذي يفصل بينه وبين صاحب السلطان، ويجلس معه على سرير واحد، وهذا لا يجوز، اللهم إلّا أن يكون الشاعر نفسه هو صاحب السلطان، الأمر الذي لم يحدث إلّا نادراً. وحسناً فعل كافور، فماذا كان يجدي المتنبي أن يصبح «محافظاً» على الفيوم، كما رووا أنه أراد؟

هل قالوا إنه لم يمدحه؟ بلى وأيْم الحق، لقد مدحه وأطنب في مدحه. قال أبو البقاء:

«سألت شيخي أبا الحرب مكّي بن ريّان الماكْسيِ عند قراءتي عليه الديوان سنة تسع وتسعين وخمسمائة «ما بال شعر المتنبي في (مدْح) كافور أجود من شعره في عضد الدولة وأبي الفضل بن العميد؟»، فقال «كان المتنبي يعمل الشعر للناس لا للممدوح، وكان

أبو الفضل بن العميد وعضد الدولة في بلاد خالية من الفضلاء، وكان بمصر جماعة من الفضلاء والشعراء، فكان يعمل الشعر لأجلهم، وكذلك كان عند سيف الدولة بن حمدان جماعة من الفضلاء والأدباء، فكان يعمل الشعر لأجلهم ولا يبالي بالممدوح»..

رحم الله شيخنا أبا الحرم. لقد لمس حقيقة هامّة في فهم الشعر، بل وفي فهم الأدب والفن على وجه العموم.

بعد ذلك، حين قلب المتنبي لكافور ظهر المجنّ، وفارقه على أقبح وجه كما كان حتماً أن يحدث، قال متنصلاً من مدحه إياه:

وشعرٍ مدحْتُ به الكرْكَدَنَّ
بين القريضِ وبين الرُّقى
فما كان ذلك مدْحاً له
ولكنّه كان هجْوَ الورى

نعم، ولكن ليس على المعنى الذي ذهب إليه أولئك الشيوخ الأجلاء.

١٧

اختلف الرواة في صاحب هذه القصيدة العظيمة. قالوا إنها للعديل ابن الفُرْخ العجلي. وقال آخرون إنها لأبي الأخْيل العجلي. وذكروا أن أبا الأخْيل وفد على عمر بن هُبَيرة الفزاري في أواخر أيام بني أمية، فقيل له «إن أبا الأخْيل بالباب يستأذن»، فقال: «إذاً والله لا يأذن له غيري». وقام من مجلسه حتى أتاه بالباب، فأخذ بيده وأقعده معه على بساطه، ثم قال له: «أنشدْني مُنْصِفتَك»، فأنشده إياها فكساه وأعطاه ثلاثين ألفاً.

كانوا يسمّون مثل هذه القصائد «المُنصِفات»، أي أنها تُنْصفُ الخصم فلا تحقرُه ولا تبخسه حقه. من ذلك شعر شُبيْل الفزاري وعبد الشارق بن عبد العُزى الجهني والعباس بن مرداس السُلَمي. وكل ذلك شعر شريف ظل يضيء في دياجير العصور حتى تناهى إلينا في هذا العصر الحالك الظلام. ومن شريف ما قيل في وصف

الخصم أبيات عنترة:

ومُـدَجـجٌ كـره الـكُـمـاةُ نـزالَـه
لا ممـعـنٍ هـربـاً ولا مُـسْـتَـسْـلِـمِ
لـمّـا رآنـي قـد نـزلـتُ أُريـدُه
أبـدى نـواجـذَه لـغـيـر تـبـسُّـم

إلّا أن هذه القصيدة ـ ولنقل إنها لأبي الأَخْيل العجلي ـ أكثر من ذلك بكثير ـ إنها قصيدة ملحمية، لا تقل في مأساويّتها وإثارتها للحزن والأسى، عن «تراجيديا» اليونان. وقد كانت قصيدة طويلة، فيما رووا، ضاع معظمها لسوء الحظ وبقيت منها أبيات. إلّا أن القليل الذي وصل إلينا يعطينا فكرة واضحة عن شاعر بلغ حداً من «التجرّد الفني» نادر المثال في الشعر العربي. وأنت إذا استثنيت معلّقة زهير في حرب عبس وذبيان، وسينية البحتري في الإيوان، وبعض شعر المتنبي وأبي العلاء، لعلك لا تجد إلّا أبياتاً قليلة متفرقة من هذا الضرب من الشعر.

الشعر العربي في الأغلب، شعر «مُنحاز». «التزام» الشاعر واضح. إن بالحق أو بالباطل، ولا أقول «انتماؤه»، فذاك أمر أوسع وأعمق، يجعل الشاعر «الكبير» شاعراً عظيماً.

هذا ما فعله زهيرُ في معلّقته، وهذا هو الذي جعلها في رأيي، شعراً عظيماً، وليس شعراً جميلاً فقط. إنها عندي أعظم المعلقات لهذا السبب. لقد كان زهير الوحيد بين شعراء الجاهلية، بل وظل من القلائل إلى يومنا هذا، الذي سما بفنّه فوق إغراءات الظروف التي اكتنفتْه، فلم ينْحَز إلى أي جانب في الصراع الدائر في قومه ولكنه

نظر إلى المأساة بكليتها، وبذلك صنع فناً «إنسانياً» ينطبق على كل زمان ومكان. كذلك فعل أبو الأخْيل العجلي، وزاد على زهير أنه كان «مشاركاً» في الحرب و«شاهداً» عليها في الوقت نفسه. قال رحمه الله وغفر له:

ألا يا أسْلمى ذاتَ الدماليج والعقْد
وذات الثّنايا الغُرِّ والفاحم الجعْد

وذاتَ اللّثاتِ الحُمِّ والعارض الذي
به أبرقت عمداً بأبيضَ كالشُّهد

كأنّ ثناياها اغتبقْنَ مُدامةً
ثوتْ حججاً في رأْس ذي قُنَّةٍ[1] فرْد

جرى بفراق العامريّة غُدوَةً
شواحجُ[2] سودٌ ما تُعيدُ وما تُبدي

لعمري لقد مرَّتْ بيَ الطيرُ آنِفاً
بما لَم يكنْ إذْ مرَّتِ الطيرُ من بُدِّ

ظللْتُ أساقي الموتَ إخوتي الأُلي
أبوهمْ أبي عند المُزاحةِ والجِدِّ

كلانا ينادي يا نزارُ وبيننا
قناً من قنا الخَطّيِّ أو من قنا الهندِ

قرومٌ تسامَى من نزار عليهم
مضاعفةٌ من نسْج داودَ والسُغْدِ[3]

إذا ما حملنا حملةً مثلوا لنا
بمُرهفةٍ تُذْري السواعدَ من صُعْدِ

وإن نحن نازلناهمُ بصوارم
ردوْا في سرابيلِ الحديد كما نَرْدي[٤]

كفى حَزناً أن لا أزالَ أرى القنا
تمجُّ نجيعاً[٥] من ذراعي ومن عضْدي

لعمري لئن رمتُ الخروجَ عليهم
بقيْسٍ على قيْسٍ وسعْدٍ على سعْدِ

وضيّعْتُ عمرواً والرِّبابَ ودارماً
وعمروَ بن أُدّ كيف أصبرُ عن أُدِّ

لكنتُ كمُهريقِ الّذي في سقائه
لرقْراقِ آلٍ فوقَ رابيةٍ صلْدِ

كمُرضِعةٍ أولادَ أُخرى وضيَّعَتْ
بني بطنها هذا الضَّلالُ عن القصْدِ

فأُوصيكما يا ابْنَيْ نزارٍ متابعاً
وصيَّةَ مُفضي النُّصْحِ والصِّدقِ والوُدِّ

فلا تعلَمَنَّ الحربُ في الهام هامتي
ولا ترْميا بالنَبْل ويْحَكُما بعدي

أما ترْهبانِ اللّهَ في ابْنيْ أبيكما
ولا ترجوان اللّهَ في جَنَّة الخُلْدِ؟!

فما تُرْبُ[٦] لو جمعتَ ترابها
بأكثرَ من ابنيْ نزارٍ على العدِّ

هما كنَفا الأرض اللّذا لو تزعْزعا
تزعزع ما بين الجنوب إلى السُّدِّ

وإنّـي وإنْ عـاديْـتُـهـم وجـفـوْتُـهـم
لـتـألمُ ممَّـا عـضَّ أكـبـادَهـم كَـبْـدي

فـإنَّ أبـي عـنـد الحِفـاظ أبـوهـمُ
وخـالُـهُـم خـالـي وجـدُّهُـم جـدِّي

رمـاحـهـمُ فـي الـطُّـول مـثـلُ رمـاحِـنـا
وهـم مـثـلـنـا قـدَّ الـسـيـور مـن الجلْـدِ(٧)

الهوامش

(١) ثوت حججاً إلخ، خمر عُتقت زمناً طويلاً في مكان على قمة جبل ـ يشبّه به ريق الفتاة.

(٢) شواحِجُ سودُ، أغربة سود.

(٣) قروم، سادة أشراف، وأصل القوم الفحل من الإبل.

(٤) سرابيل الحديد، الدروع، ونردي من الردَيان أي سرعة المشي، وهو هنا يقصد أنهم لا يقلّون (عنّا) إقداماً وجرأة على الحرب.

(٥) النجيع: الدم الأسود.

(٦) أثرى والثرى اسمان للأرض، يقصد أن ربيعة ومضر لا يحصيهما العدّ من الكثرة.

(٧) قدّ السيور من الجلد، يقصد أنهم متساوون في كل شيء، كما تتساوى السيور المقطوعة من جلد واحد.

رحم الله شيخنا أبا الحرب مكّي ريّان بن شيبة بن صالح الماكْسيني المولد الموصلي الدار، المقرىء النحوي الضرير الملقب بـ «صائن الدين». ولد في ماكسين، وهي بلدة من أعمال الجزيرة على نهر الخابور. ونشأ يتيماً فقيراً، ثم قصد الموصل فحفظ القرآن وتبحّر في فروع اللغة والأدب. ثم سافر إلى بغداد فصحب علماءها وأئمتها ومن ثم عاد إلى الموصل وبرز للناس فعُرف وانتشر ذكره وبعُد صيته. وكان يتعصب لأبي العلاء فتأثر به ونسج على منواله. وكانت وفاته عام ثلاثة وستمائة بالموصل ودفن بصحراء باب الميدان.

رحمه الله. لقد أدرك حقيقة هامة في فهم الشعر، بل وفي فهم الأدب والفن على وجه العموم. قال إن المتنبي كان يتوجه بشعره إلى العلماء والأدباء والشعراء ولا يبالي بالممدوح. وها نحن نرى في

زماننا هذا مذاهب في النقد تزعم أن «النص الفني» كيان قائم بذاته، مستقل عن صاحبه، لا صلة له بحياة «المؤلف» ولا ببيئته وزمان. وذلك أبعدُ مراحل مما ذهب إليه شيخنا أبو الحرم، وإن كان لا يخلو من بعض ما قصد إليه. إنما يمكن القول على أي حال، إن الشعر ليس وثيقة تاريخية لحياة الشاعر، وإنه في جانب كبير منه حوار متّصل بين الشاعر وفنه، وبينه وبين الشعراء في زمانه، وبينه وبين تراث قومه إطلاقاً. ويزيد بعض إخواننا في زماننا هذا، أنه أيضاً تواصل مع التراث «الإنساني» عامة. ويقولون إن «الفن» لا يصور الواقع، ولكنه «يُعيد صياغة الواقع».

أيّاً أرادوا، فلا مراء أن الشعراء العرب، وخاصة الأفذاذ منهم، كانوا يعلمون أنهم يصنعون «فنّاً» ليس مقيداً بزمان أو مكان. وكان المتنبي من أكثرهم إحساساً بذلك. فها هو ذا يقول مخاطباً سيف الدولة:

وعـنـدي لـك الـشُّـرَّدُ الـسـائـرا
تُ لا يـخـتـصِـصْـنَ مـن الأرض دارا
قـوافٍ إذا سِـرْنَ عـن مِـقْـوَلـي
وثَـبْنَ الجبـالَ وخُـضْـنَ الـبـحـارا

تدبَّر يا أصلحك الله قوله «لا يختصِصْنَ من الأرض دارا». أليس هذا ما يرمي إليه بعض أصحابنا حين يصفون بعض ضروب الأدب بأنها «عالمية»؟ وأي «عالم» يقصدون يا أم عمرو؟.

كان القدماء يدركون هذا المعنى تمام الإدراك، لذلك كان الشاعر عندهم لكي يستحق صفة شاعر لا بدّ له أن يُتقن أدوات صناعة

الشعر، ويتدرب على فنون القول من مديح وهجاء وغزل ونسيب وفخر ورثاء.

هكذا يفعل كل صاحب حرفة وصناعة. وفي زماننا هذا يتعلم الرسامون مزج الألوان ورسم الأجساد والطبيعة والزوايا والأبعاد وخصائص الضوء وانعكاساته إلى غير ذلك. وكان يلزم للشاعر أن يحيط بتراث قومه ويلمّ بما فعل الشعراء قبله. وفي الإسلام، أصبح الشعراء يدرسون علوم القرآن والحديث والفقه والتاريخ وكل ما أتيح لعصرهم من معارف. وبوسعك أن تقول إن وراء شعر أبي نواس الماجن علماً كثيراً!

فالأمر إذاً ليس محض كلام يجيش في صدر الشاعر عفوَ الخاطر، ولكنه أيضاً صناعة ودربة ومهارة. وهذا في ظني هو المعنى الذي أشار إليه شيخنا أبو الحرم. ولو رُحتَ تطلب شاعراً عربياً واحداً، منذ امرىء القيس إلى زماننا هذا توفّرتْ له كل أدوات صناعة الشعر، بالإضافة إلى موهبة خارقة لم يحْظ بمثلها أحد قبلَه أو بعده، لما عدوْت أبا الطيب المتنبي. ونحن حين نقول إنه «الأستاذ» فإنما نقصد بذلك المعنى الأصلي للكلمة.

قال صاحب «اليتيمة» في معنى البيت:

أزورهم وسوادُ الليل يشفع لي
وأنثني وبياض الصبح يُغري بي

«هذا البيت أمير شعره، وفيه تطبيق بديع ولفظ حسن، ومعنى بديع جيد. وهذا البيت قد جمع بين الزيارة والانثناء والانصراف، وبين

السواد والبياض، والليل والصبح، والشفاعة والإغراء وبين «لي» و«بي». ومعنى المطابقة أن تجمع متضادين كهذا. وقد أجمع الحُذّاق بمعرفة الشعر والنقاد، أن لأبي الطيب نوادر لم تأتِ في شعر غيره وهي مما تخرق العقول..».

تخرق العقول، أيْ نعم، ولا عليك من هؤلاء البِنْيويين والتفكيكيين والسّيمائيين وما شابه. لقد جاءوا من أودية شتى إلى وادي العقيق ووادي الرَّسّ ووادي الخُزامى، فلن يطول مكثهم بها إن شاء الله. وفي البيت أفضال بعد، فحكاية أبي الطيب مع الضوء والظلام حكاية طويلة. وقد قال في موضع آخر:

وكمْ لظلام الليل عندكَ من يدٍ
تُخبّرُ أنّ المانويَّةَ تكذبُ
وقاك ردى الأعداء تسري عليهمُ
وزارك فيه ذو الدّلال المحجّبُ

كان المتنبي شاعراً من رأسه حتى قدميه. شاعراً في حِلّه وفي ترحاله. شاعراً في النعيم وفي البؤس. شاعراً في السلم وفي الحرب. شاعراً في حلب وفي الفسطاط، في الكوفة وفي شيراز. كانت حياته كلها منذورة للشعر. كانت لديه «القصيدة هي الهدف».

١٩

بلى، كانت «القصيدة» هي الهدف، بل كانت هي «القدر». وهو قدرٌ لم يتقبّله الشاعر طائعاً، وقد حق له ذلك، فمنذا الذي يرضى أن يحمل عن طيب خاطر ذلك العبء الفادح، عبء عبقريةٍ مثل عبقرية المتنبي؟

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعْجبُه
أني بما أنا باكٍ منه محسودُ

وهل أَبْكاكَ يا سيدي إلّا الشعر؟
كان المتنبي «شاعراً» أولاً وأخيراً، وهي حقيقة أدركها ذلك العبقري الآخر، أبو العلاء المعري. هو أيضاً عبر ذلك الجسر، وقاسى ذلك الليل، وأوْغل في رحلة «وجودية» جريئة تختلف عن رحلة المتنبي، ولكنها تلتقي معها في نهاية الأمر، لذلك كان إذا ذكر الشعراء

يقول، قال فلان، وقال فلان، حتى إذا ذكر المتنبي قال: «قال الشاعر».

بيد أن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، على علْمه وسبْقه وجلال قدره، لم يفطن إلى هذا، ولعله فطن ولكنه غَض الطرف، بسبب شعور محيّر تجاه أبي الطيب. أسمعه يقول:

«قد يُقال هذا كله ولكنه لا يُغني عن المتنبي شيئاً، ولا يزيد على أن يكون ما نذهب إليه من أن المتنبي إنما كان شاعراً كغيره من الشعراء، ورجلاً كغيره من الناس، قد رفع نفسه فوق قدرها، وزعم لها ما ليس من أخلاقها، وطمع فيما لا ينبغي لمثله أن يطمع فيه. ظنَّ نفسه حُرّاً ولم يكن إلّا عبداً للمال، وظنّ نفسه أبيّاً، ولم يكن إلّا ذليلاً للسلطان، وظنّ نفسه صاحب رأي ومذهب، ولم يكن إلّا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيْسرُ الناس أمراً وأهونهم شأناً».

رحم الله العميد وغفر له. لقد أخرجته البغضاء للمتنبي عن طوره تماماً، وجعلت بينه وبين الشاعر حجاباً مشتوراً. ولكنها بغضاء مثل الحب، فالعميد رحمه الله، شأنه في ذلك شأن الشريف الرضي والصاحب بن عبّاد وكثيرين إلى يومنا هذا، حالُهم «حال المُجمعين على الحمْد».

لا غرابة إذاً، أن هذا العالم الحبْر، عملاق الأدب في زمانه وإلى اليوم، لم ينتبه إلى المضمون الخطير في بيت من شعر المتنبي. لا عن قلّة فطْنة، فقد كان العميد آية في الذكاء. ولا عن جهل حاشا للّه فقد كان العميد بحر علوم. لا، إنما هي البغضاء التي تجعل الإنسان

ينظر إلى الشيء الواضح أمامه، فلا يراه. قال المتنبي:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولةٍ
ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولُ

ظن العميد رحمه الله، أن هذا البيت متّصل بالأبيات التي سبقته في مدح سيف الدولة، فقال:

«ومعزّ الدولة وحده هو المعني بهذين البيتين، ما أشك في ذلك. فهو لقبٌ يُضاف إلى الدولة، ولكنه ليس ماضياً ولا عَضْباً، وإنما هو لفظ ضخم لا يغني شيئاً. والبيت الثاني صريح في ذلك، فقد جعل أمير حلب سيفاً للدولة يحميها ويذود عنها، على حين أن منافسه في بغداد لا يزيد على أن يعلن عن الدولة أو عن نفسه بالبوقات والطبول.. والغريب أن النقاد الأدباء مضوا مع أصحاب السياسة في إنكار هذا البيت فعابوه، مع أني لا أعرف هجاء أقذع ولا أوجع، ولا سهماً أنْفذ من هذا البيت..».

غفر الله لك. لو أنك تمهلت قليلاً، ونظرت بعين المحب، ولم تحمل «بوقات» و«طبول» على معناها المعاصر وألحقت البيت لا بالأبيات التي سبقته بل بالأبيات التي جاءت بعده، إذاً لوجدت معنى طريفاً حقاً.

إذاً لرأيت أن الشاعر أفْلت فجأة من مدح الأمير، ولاذ بنفسه في ثمانية أبيات، كأنها قصيدة قائمة بذاتها فيما يُسمى هذه الأيام بـ «المنلوج الداخلي»، يقول:

إذا كان بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ
فني الناس بوقاتٌ لها وطبولُ
أنا السابق الهادي إلى ما أقولُه
إذ القولُ قبلَ القائلين مقولُ
وما لكلام النّاس فيما يُريبُني
أصولٌ ولا لِلْقائليهِ أصولُ
أُعادَى على ما يوجبُ الحبَّ للفتى
وأهدأُ والأفكارُ فيَّ تجولُ
سوى وجَع الحُسّاد داوٍ فإنه
إذا حلَّ في قلبٍ فليس يحول

وأقول عفا الله عني، إن المتنبي لو أراد المعنى الذي ذهب إليه العميد، لعبّر عنه صراحة بأسلوب مباشر، كما فعل في قصيدته التي بعث بها إلى سيف الدولة من الكوفة بعد أن فارقه:

ليس إلّاكَ يا عليُّ همام
سيفُه دون عرضه مسلولُ

إنما الشاعر هنا يؤكد دوره كشاعر. كأنه يقلّل من شأن سيف الدولة. فهو «بعض الناس» وهو مجرد «سيف» لمجرد «دولة». أما الشاعر، فهو طبول تصطخب وأبواق تضج. وكأنه أراد أن يقول للأمير «لا تظن أن المُلك يُبنى بالسيف وحده، إنما أيضاً بالفكر والأدب والفن، وإذا تخيّلتَ أن ما أنجزتَه بسيفك عظيم، فإن دوري أنا الشاعر، لا يقلّ أهمية عن دورك، ولعله يفوقه».

هذا المعنى أدركه شيخنا أبو الفضل العروضي رحمه الله، فقال:

«أراد بالبوق والطّبل الشعراء الذين يُشيعون ذكرَه ويذكرون في أشعارهم غزواته، فينتشر بهم ذكره في الناس كالبوق والطبل اللذين هما لإعلام الناس بما يحدث».

* * *

رحم الله الدكتور طه حسين، فلنا مع كتابه عن المتنبي حديث آخر لعله يطول. وأنت يا سيدي سقى الله قبرك أينما كان. لقد صنعت من عذابات حياتك فناً خالداً، وولّدت ضوءاً، تنوّره مُحبّوك، وأغْشى عيون مُبغضيك فلم يروا إلّا الظلام.

٢٠

اعتمد الدكتور طه حسين اعتماداً كبيراً في كتابه «مع المتنبي» على كتاب المستشرق الفرنسي «بلاشير»، وتبنى أحكامه على أبي الطيب وشعره إلى حد بعيد. وكان «بلاشير» قد قدم دراسته التى أسماها «أبو الطيّب المتنبي ـ دراسة في التاريخ الأدبي» كأطروحة نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون عام ١٩٣٥. وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور إبراهيم الكيلاني الأستاذ بجامعة دمشق، ونشرته وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٥. وتلك حسنة تُحمد لوزارة الثقافة السورية، فهذا كتاب مهم بذل فيه المؤلف جهداً كبيراً في البحث لولا أنه لسوء الحظ انتهى إلى نتائج خاطئة في الغالب. والكتاب مهم، ليس لأنه يفيدنا بأي جديد عن حياة المتنبي أو شعره، ولكن لأنه يكشف لنا بصراحة كيف نظر بعض هؤلاء المستشرقين إلى الثقافة العربية بل والحضارة العربية برمتها. ولولا استثناءات ليست قليلة، لرجال ونساء منصفين لا تنقصهم

الشجاعة. بذلوا جهداً عظيماً، ونظروا بعطف إلى الحضارة العربية «من الداخل» ـ لولا ذلك لقلت إن تلك النظرة، لم تكد تتغير إلى يومنا هذا.

سوف أتطرّق إلى كتاب «بلاشير» خلال حديثي عن كتاب الدكتور طه حسين إن شاء الله. ولكنني أكتفي الآن باقتطاف فقرات من الكتاب، يتحدث فيها المستشرق الفرنسي عن سيف الدولة، تحتوي في ظني، على كثير من الخطل والتناقض اللذين وسما النظرة الغربية إلى الإنسان العربي والحضارة العربية. يقول «بلاشير»:

وكان سيف الدولة مؤسوماً، خَلْقاً وخُلقاً، بطابع عرقه العربي، يفرض نفسه من خلال صفات هي عماد السؤدد في نظير البدوي، كالشجاعة والكرم وشيء من سمو النفس. وكان بحكم التأسّل[١] (الرِّدّة الوراثية)، مسعر حرب، ولكن تبعاً للمفهوم العربي، إذ لم يكن فيه ما يُشعر برجل الحرب الحقيقي، وكان نصيبه كلما اصطدم بخصم عنيد، الهزيمة. وكانت طريقته في الحرب (تكتيك)، كما سنرى، ترتكز على مهاجمة العدو بعنف واستغلال عنصر المفاجأة وإغارة جنوده الفرسان. ولم يكن قبل غزواته يستعد للمعارك، أو لا يستعد إلّا قليلاً، كما أنه لم يُعْنَ بعد الانتصار بالاحتفاظ بثمرات فتحه أو تأمين انسحابه. وكان بالإضافة إلى ذلك كغيره من القوّاد الأردياء[٢]، شديد العناد، يُصمّ أذنيه عن سماع أبسط نصائح الحيطة، وكان يحب أن يستبد برأيه ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره. بيد أنه كان يعوّض عن هذه العيوب الخطيرة التي سببت له في أواخر حياته كوارث متتابعة، باحتمال هائل للمشاق، وجرأة واستبسالٍ بلغا أقصى الحدود، فإن ما كان عند الغالبية من العرب نفْجاً[٣]، أصبح عنده وقائع حقيقية ويومية.

وأخيراً فإن ما كان يميزه عن إخوانه بني جنسه، هو عناد نادر مقرون بتجاهل تام لفتور العزيمة. وكان ينفّذ كل ما عقد العزم عليه مهما كلّفه الأمر، ولم تنل في أواخر حياته، الأحزان ولا الهزائم ولا الخيانات من شجاعته الجموح.

وكان لسيف الدولة أيضاً من صفات العربي، ذلك التقلُّب الذي ضلّل (حيّر) توقعاتنا كافة، فهل كان جائراً أم حليماً؟ لسنا ندري، فإن السيد الذي أعاد لنصارى حلب جثة أحد أبناء بَرْدِسْ فُقّاس(٤) Bardas Phocas، الذي توفي في الأسر، هو ذاته الذي أمر بقتل أسرى الروم، الذين وقعوا عقب إحدى المعارك، في قبضته.

ولسيف الدولة أيضاً من صفات العربي، تلك العصبية التي تحولت عنده إلى تقوى(٥) حقيقية. فقد كان يكنُّ لأمه إجلالاً عميقاً، ويضمر لأخيه ناصر الدولة ولاء، وتلك لَعمري صفة استثنائية (نادرة) في الشرق.. وكان لحياته الجنسية مفارقات عجيبة لم تكن على كل حال وقفاً على العرب بل هي مشاع بين الشرقيين في القرون الوسطى ـ ولا يلبث هذا المحارب الذي قاسى دون تذمر، متاعب الحرب في الجبل والصحراء، أن ينقلب بعد عودته إلى بذّاخ مُخنّث، قادر مع ذلك عند الحاجة، على استرداد عزيمته دفعة واحدة. ويبدو أن قصره في ضاحية المدينة، وهو في آن واحد، دار إمارة وحصن، على غاية الترف، تقام فيه المآدب طويلاً، ويُطلق العنان، دون ريب، لجميع أنواع الإفراط الذي اقتضته حياة حرة جداً. والظاهر أنه كان للنساء، بالإضافة إلى ما تقدم، سلطان كبير عليه. وكانت إحداهن، وهي مسيحية من أسرة رومانية شريفة، أسرت في إحدى الغزوات، أججت في قلبه هوى جامحاً.. ونشعر أحياناً أن ثمة شيئاً كان من الممكن أن يفوت هذا الأمير لو لم

يظهر كرماً صاخباً بلغت شهرته بغداد وخراسان. وقد كان هذا الكرم، والحق يقال، أسلوباً سياسياً، الغرض منه إيقاع الدهش في قلوب أعدائه وجيرانه. ويقال أنه في سنة ٣٥٤هـ ٩٦٥م، صرف على سبيل المثال، وفي بحران الهزائم، سبعمائة ألف دينار ذهباً، على زواج اثنين من ولده. وكان سخاؤه ناشئاً، في أغلب الأحيان، عن أريحية تعتريه فيعطي دون أن يحسب لمقتضى الحال والضرورة حساباً.

أما وأن الاهتمام الذي كان يعيره سيف الدولة للأمور العقلية، صادر عن عاطفة التّفج فهذا مؤكداً جداً، فقد كان من مقتضيات الترف في زمنه، أن يحيط الأمير نفسه بجمهور من المتملقين، وكذلك بخدور النساء العديدة، والاصطبلات الواسعة.

أما وأن هذا الأمير استجاب، بجعله حلب حاضرة منافسة لبغداد، لدواعي الدعاوة الشخصية ومصلحة الملك، فهذا ما لا يُستطاع دحْضه. ولم يكن هذا الاستمرار للتقاليد العربية، تقاليد اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام قبل الإسلام، والأمويين في دمشق بعد الإسلام.. فهل كان سيف الدولة ذاته شاعراً؟ هذا ممكن جداً ذلك لأن نظم الشعر كان شائعاً في أسرته بيْد أن الأبيات المنسوبة إليه مشكوك بصحتها، وفي الواقع فليس الأمر ذا بال، فإن الواقعة التي ينبغي الاحتفاظ بها هي أن سيف الدولة كان على شاكلة الفئة الممتازة في زمنه، واسع المعرفة بالشعر العربي. وليس عجيباً أن نجد عند أمير مثله ورث الكثير من الخصال الأصيلة، ما يميز العربي كحب الفصاحة، والخضوع الأعمى لسحر الكلمة..».

الهوامش

(١) لعلّه يقصد شيئاً متأصلاً في الطبع العربي بحكم الوراثة، يجعل العربي يسلك دائماً سلوكاً معيناً، وهي كما ترى نظرة عنصرية ومتناقضة أيضاً، فهو ينكر في كتابه وجود عنصر عربي قُحّ، وفي الوقت نفسه يعزو إلى العنصر العربي أنماطاً معينة من السلوك.

(٢) الأرْدياء جمع رديء، يقصد القواد الذين لا علم عندهم بفنون الحرب.

(٣) يستعمل المترجم كلمة «نفْج» بمعنى جيَشان الحماسة بشكل مؤقت، والتظاهر.

(٤) Bardas Phocas هذا، هو الذي سمّاه العرب «الدمُسْتُق» وأشار إليه المتنبي في شعره.

(٥) تقوى حقيقية، لعله يقصد أن العصبية تحولت لديه إلى «برّ ورحمة» تُجاه أفراد عائلته.

٢١

تخيّل مسافراً يختار لرحلته، عمداً وبمحض إرادته، رفيقاً لا يحبه ولا يأنس إليه. ألا يكون هذا عجيباً؟ هكذا فعل أستاذنا العميد الدكتور طه حسين مع أبي الطيب المتنبي. أنبأنا بذلك صراحة في مطلع كتابه «مع المتنبي» بأسلوبه الفريد الذي أُثر عنه، وهو أسلوب يغيظك ويجذبك في الوقت نفسه، فقال:

«وليس المتنبي مع هذا من أحب الشعراء إليّ وآثرهم عندي. ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسي منزلة الحب أو الإيثار. ولقد أتى عليّ حين من الدهر لم يكن يخطر أني سأُعنى بالمتنبي أو أطيل صحبته، أو أديم التفكير فيه. ولو أني أطعت نفسي وجاريت هواي لاستصحبت شاعراً إسلامياً قديماً عسيراً كالفرزدق أو ذي الرُّمة أو الطرِماح، أو شاعراً عباسياً من هؤلاء الذين أحبهم وأوثرهم، لأني أجد عندهم لذة العقل والقلب، أو لذة الأذن، أو اللذتين جميعاً،

كمسلم وأبي نواس وأبي تمام وأبي العلاء. ولكني لم أطع نفسي، وإنما عصيتها، ولم أجارِ هواي، وإنما خالفته أشد الخلاف، وطلبت إلى صاحبي على كره مني أن يستصحب المتنبي».

كان ذلك في صيف عام ١٩٣٦. وكان العميد رحمه الله، في طريقه إلى جبال الألب، فراراً بنفسه كما قال «من أحداث الحياة الخاصة والعامة في القاهرة» وطلباً للهدوء والراحة وقراءة مجموعة من الكتب الفرنسية. وهكذا يخبرنا العميد منذ البداية، أنه لم يكن يجد في صحبة المتنبي، لا متعة العقل ولا متعة القلب ولا متعة الأذن. لماذا إذاً يا دكتور ألزمت نفسك أمراً ليس يلزمها وأرهقتها كل ذلك الإرهاق؟

يجيبنا العميد بطريقته الجذابة التي نحبها فيه مع أنها تغيظنا:
«وأكبر الظن أني إنما فعلت ذلك لأن المتنبي كان وما زال حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين، ولأني حاولت وما زلت أحاول أن أستكشف السر في حب المحدّثين له وإقبالهم عليه، وإسرافهم في هذا الحب والإقبال، كما أسرف القدماء في العناية به حباً وبغضاً وإقبالاً وإعراضاً».

لا جَرَمَ، فقد كان الحديث مستعراً في تلك الآونة عن أبي الطيب المتنبي في العالم العربي، بل وفي العالم الإسلامي أيضاً لمناسبة الاحتفال بذكراه الألفية. كان الأستاذ محمود محمد شاكر، أطال الله عمره، قد أصدر بحثه القيّم عن المتنبي، الذي نشرته مجلة «المقتطف» في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣٦ في عدد خاص. وكان المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام قد نشر كتابه «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام». كذلك صدرت مقالات لكبار الكتّاب أمثال

العقاد والمازني. وكان المستشرق الفرنسي «بلاشير» قد أصدر بحثه عن المتنبي باللغة الفرنسية عام ١٩٣٥. ولا شك أن الدكتور طه حسين ـ لم يكن لواء عمادة الأدب العربي قد عُقد له بعد ـ لا شك أنه أحس رغبة عظيمة أن يدلي بدلوه، ويخوض في لُجج أبي الطيب مع الخائضين. ثم يقول:

«وأكبر الظن أيضاً أني إنما فعلت ذلك لأني أحب أن أعاند نفسي وآخذها من حين إلى حين ببعض ما تكره من الأمر. وقد قلت في غير هذا الموضع أني لست من المحبين للمتنبي ولا المشغوفين بشخصه وفنه فلم أجد بأساً في أن أشقّ على نفسي أثناء الراحة، وأثقل عليها حين تبغض الأثقال عليها».

بخ بخ. كونك يا سيدي لا تحب شخص أبي الطيب، فهذا من حقك، أما أنك لا تحب فنه فهذا أمر محيّر من شخص في مثل علمك وفضلك. ثم ماذا غفر الله لك؟

«نعم. لم أجد بأساً في أن أقطع عليها لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربى الجميلة وفي هذا الجو الحلو، وبين هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد، والتي أغرق فيها إلى أُذنَي كلما عبرت البحر. لم أجد بأساً بأن أثقل على نفسي أثناء هذا كله بالتحدث إلى المتنبي والتحدث عنه والاستماع له والنظر فيه. والناس يعرفون أني شديد العناد للناس، فليعرفوا أيضاً أني شديد العناد لنفسي كذلك».

اللهم قد عرفنا، ولقد كان أبو الطيّب أكثر منك عناداً، جوّاب الآفاق، الواقف أبداً على مفترق الطرق. ولولا أننا نحبك ونجلّك، لما

قبلنا منك كل هذا «الدّال». وواضح أن الدكتور يستثقل ظل الشاعر ويجده شديد الوطء على نفسه، فهو يقول في موضع آخر من كتابه، معلّقاً على أبيات للمتنبي في رجل من طرابلس يُدعى عبيد الله بن خلّكان، أهدى له هديةً فيها سمك من سكر ولوز وعسل، والأبيات ليست أكثر من لهو تلهى به الشاعر، وهو بعدُ في باكورة شبابه:

«فالشاعر كما ترى مُطابق مُبالغ حتى في وصف السُكّر واللوز والعسل، وفي الشكر على علبة حلوى. ومن حق المتنبي أن يستريح وأن يلهو بالصغائر، ويرفّه بها على نفسه من هذه الهموم الثقال التي يطوّف بها في الآفاق، ويفكر فيها آناء الليل وأطراف النهار. ولكن راحة المتنبي وفراغه، ودعابة المتنبي ومجونه، كل ذلك لا يخلو من السخف وثقل الروح كما سترى في غير هذا الموضع من الحديث. فلم يكن المتنبي حلو الروح، ولا خفيف الظل، ولا جذاباً. وإنما كان مراً غليظ الذوق في أوقات الدّعة والفراغ».

رحمك الله. أما قال لك الشاعر؟ أما أتاك صوتُه الجريح المُتْرع بكل تلك الأشجان النبيلة؟

سبحان خالق نفسي كيف لذَّتُها
فيما النفوسُ تراه غاية الألم

الدهرُ يعجب من حملي نوائبَه
وصبر جسمي على أحداثه الحُطَم

وقتٌ يضيع وعمرٌ ليت مُدَّتَه
في غير أُمَّتِه من سالف الأمم

أتـى الـزمـانَ بـنـوه فـي شـبـيـبـتـه
فـسـرّهـم وأَتـيْناه عـلـى الـهـرَمِ

نحن اليوم، من هذه المدة في الزمان، وقد بعدت الشقة، ومضى الدكتور العميد لحال سبيله، رحمه الله وأحسن إليه، لعلّنا لا نجد غضاضة في عبث العميد بنا وتعمُّده إغاظتنا. ولعل ذلك لا يزيد على أن يجعلنا نضحك أو نبتسم. لقد عاد العميد من فرنسا وفي نيّته أن يفعل في الأدب العربي ما وجد الفرنسيين يفعلونه في أدبهم وفي فكرهم، وقد أشار إلى ذلك بقوله: « ..هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد، وأغرقُ فيها إلى أُذُنيَّ كلما عبرت البحر». طرْحُ الأفكار الغريبة وتأجيج نيران الجدل، وإلقاء الشك على الأمور التي يعتبرها الناس مقدسات أو مسلّمات، كل ذلك شائع في أوروبا، وخاصة في فرنسا، يسمونه Iconoelasme، أي «تحطيم الأيقونات». ولا بد أن العميد، أول عهده بفرنسا، بعد وقار الأزهر ومحاذير شيوخه، وجد نشوة روحية ومتعة ذهنية، لم يألفهما من قبل، في ذلك المناخ

المنفتح، الذي لا يبالي أن يقول الإنسان ما يشاء ويكتب ما يشاء، ولما عاد إلى مصر أراد أن يقوم بذلك الدور في الأدب العربي، فأخرج للناس كتابه الشهير الذي زعم فيه أن الشعر الجاهلي كله منتحل، وضعه الرّواة بعد الإسلام، وأن الشعراء الجاهليين، لا وجود لهم في الحقيقة، وأنهم من صنع خيال الرواة.

بهذه الروح أيضاً أقدم العميد على دراسة المتنبي. اقتحم حضرة الشاعر العبقري، بنفور يقترب من البغضاء، ونيّة مبيَّتة على الغض من شأنه والنيل منه، إذكاءً للجدل، وإغاظة للناس. وأيّ نَيْل أبلغ من التشكيك في عروبة شاعر ترى الغالبية أنه شاعر العربية الأول؟ يقول العميد، وهو جادٌّ كالهازل، ومُعرِضْ كالقابِلْ ومُقرّرٌ كالسائل:

«فما الذي يمنعنا أن نصدّق المتنبي، ونرى معه أنه كان عربياً قحطانياً؟ لا شيء إلّا أنه لم يحفظ نسبه، ولم يحفظه له المؤرخون، فأمره في ذلك أمر الكثرة التي لا تُحصى بين العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم. أفنجْحد عربيتهم لأنهم أضاعوا هذه الأنساب؟ وما يمنعنا إذاً أن نجحد إنسانية الناس لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول؟ أو إلى الناس الأولين؟.. وإذاً فلْنقبل من المتنبي ومن أصدقائه انتسابه إلى العرب..».

إلّا أن هذا العبث من الدكتور العميد، لم ينزل برداً وسلاماً على قلب أستاذنا محمود محمد شاكر، أطال الله عمره، فهو مُحب لأبي الطيب لا يحتمل فيه المزاح، فقال وهو يعني العميد:

«... زهو بغيض، وخُيلاء نابية، وعُجْب لا يرحم بائساً رماه حب القراءة في تنوُّر، وقودُه من زمهرير ثرثرة قاسية.. فهو دائماً يحب أن

«يغيظ» القراء، وأن يثير «سُخطهم»، وأن يعاند نفسه ويعاند الناس. سلسلة طويلة مكرَّرة من الاستعلاء والاستخفاف..».

ربما يكون للأستاذ محمود بعض العذر، وما أحب إلّا أنه هو المعْني بقول العميد «وإذاً فلنقبل من المتنبي ومن (أصدقائه) انتسابه إلى العرب». لقد أصدر الأستاذ محمود كتابه عن المتنبي في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣٦، أي قبل أكثر من عام من صدور كتاب الدكتور طه حسين، وبذل فيه جهداً عظيماً، وطرح فيه نظرية طريفة دعمها بكثير من الحجج القوية، أن المتنبي «شريف علوي». والكتاب من أقيم ما كُتب عن المتنبي إلى اليوم. ثم إذا بالعميد، لا يكتفي بإنكار «علوية» المتنبي إلّا لأنه هو زعم ذلك لنفسه وإكراماً لخاطر أصدقائه!

كذلك تجاهل العميد كتاب الأستاذ محمود، فلم يُشر إليه إلّا تلميحاً في كتابه، بينما أشار إلى كتاب الدكتور عزام عدة مرات، وأشار كثيراً إلى كتاب المستشرق الفرنسي «بلاشير» يتفق معه في أغلب الأحيان. وكأنه استصغره واستقلّ شأنه، فقد كان الأستاذ محمود يومئذٍ، حدثاً في العشرينيات من عمره.

يصف الأستاذ محمود لقاءه للعميد، بعد محاضرة له بمناسبة الذكرى الألفية للمتنبي، وكان ذلك عام ١٩٣٦، فيقول:

«.. وخرجنا من القاعة.. وإذا نحن فجأة خلف الدكتور طه، حين انصرافه. فعزم عليَّ أستاذي العبّادي أن أسلّم على الدكتور. فاشْتَعْلَن غضبي وأبيْت. ولكن لم أكد حتى سمعته يقول للعبادي «هذا محمود شاكر يا دكتور». فوقف والتفت التفاتة يسيرة، ومددتُ

يدي فسلّمت وغلبني الحياء والخجل مما لقيَني من فرط البشاشة والحفاوة، ثم أخبرني أنه قرأ كتابي كله، وجاء بثناء لم أكن أتوقّعه، وأطال وأفاض وغمرني ثناؤه حتى ساخت بي الأرض».

أغلب الظن إذاً، أن الدكتور العميد، كان يتوجه بحديثه إلى الأستاذ محمود محمد شاكر خاصة، وكأنه يتعمد إغاظته، وهو يعلم أنه سوف يغتاظ، حين يقول:

«ليكنْ المتنبي عربياً من قحطان أو عدنان، أو ليكن فارسياً، أو ليكن نبطياً، أو ليكن ما شئت، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن هذا الصبي الذي نراه متى ما أخذنا في قراءة ديوانه، نبات شعبي خالص، نشأ في هذا الشعب الكوفي، الذي كان في أوائل القرن الرابع مضطرباً أشد الاضطراب. فدرْسُ هذه البيئة الشعبية الكوفية التي أنبتت هذا النبات الشاذ، أقوَم وأجدى من البحث عن أبيه أكان من جُعفى، وعن أمه أكانت من همدان».

مرْحى مرْحى! ولاحظْ أن العميد يصف الشاعر بأنه «نبات شعبي خالص» بلهجة من يقول بالبلدي المصري «فلان صعلوك من أزقة حي السيدة زينب وحواريها». ويقول إنه «نبات شاذ». ولو أنصف، رحمه الله لسمَّى هذا الشذوذ عبقرية.

لأن الدكتور العميد رحمه الله، أحبّ أبا العلاء المعري، فإنه أقبل على دراسته بمحبة، فانحاز إلى صفّه تماماً، والتمس له الأعذار في مواطن الشك، وأقبل على شعره حال من يفترض النبوغ والعبقرية. لأجل ذلك، والحق يقال، جاء كتابه عن أبي العلاء، كتاباً بديعاً، مُتْرعاً حكمة وفِطنة. يقول في مقدمة الكتاب مبيناً مذهبه في البحث.

«ومن هنا لا نستبيح لأنفسنا أن نحمد الأشخاص أو نذمّهم بحُسن ما يُنسب إليهم من الآثار أو قُبْحه، فإن الذم والحمد مع قلة غنائهما في التاريخ، ليسا من عمل المؤرخ، بل من عمل الرجل الذي قصر حياته في صناعة المدح والهجاء، بل إن مذهبنا في التاريخ يمنعنا من ذلك، ويُحرّمه علينا، فإنّا لا نؤمن بانفراد الأشخاص ولا استقلالهم بالأعمال. وإذا لم ينفردوا بها ولم

يستبدوا بالتأثير فيها، كان من الواضح أنهم ليسوا أحرياء بما يسدى إليهم من حمد أو هجاء..».

كتب الدكتور هذا الكلام عام ١٩١٤، إلاّ أنه حين جلس يكتب عن المتنبي عام ١٩٣٦، كأنه نسي ما قال بالأمس، أو كأنه أغفله متعمداً، فقال في كتابه عن المتنبي، مقارناً بينه وبين أبي العلاء، في فقرة عجيبة، لعلها تكشف لنا عن طوية العميد نفسه في تلك الأيام، أكثر مما تخبرنا عن المتنبي:

«وقد جاء بعد المتنبي رجل آخر، رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة، واحتقر الناس وازدراهم، وأنكر الملوك والأمراء، وزهد في التقرب منهم، وأراد لنفسه أن تكون نفس الرجل الحرّ الكريم، ولعقله أن يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف، فوفّى لنفسه وعقله بكل ما أراد. ولم يكن أقل شاعرية من المتنبي، ولم تُسعدْه الأيام كما أسعدت المتنبي، فقد حرمته بصره، ولم تُتح له من الغنى والثروة ما يكفل له لين الحياة وخفض العيش. ومع ذلك فقد عاش كريماً ومات كريماً، ولم يتملّق أحد عليه بذلّة، ولم يغْتمزْ فيه أحد هفوة. سخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان، واستطال على السلطان وعجز السلطان أن يستطيع عليه، وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته أن يُخلوا بينه وبين حريته، وألا يشركوه فيما يعرض لهم من خير أو شر، وألا.. يخرجوه معهم إن خرجوا من المدينة فارين أمام الروم، وأن يقيموا في المدينة إن أمنوا ويظعنوا عنها إن خافوا، ويتركوه فيها على كل حال، لأنه رفع نفسه فوق الأمن والخوف جميعاً. وما أرى إلّا أنك قد عرفت هذا الرجل الذي أتحدث عنه، وهو أبو العلاء المعري».

بلى يا سيدي، لقد عرفناه. وقد أبدعتَ وأنصفْت، فهذه تحفة فنية من التحف التي تعودناها منك، وأكبرناك لأجلها. ونحن نشاركك الرأي في كل ما أثنيت به على أبي العلاء. ولكن العميد، غفر الله له، لا يشاركنا إعجابنا بأبي الطيب، فهو سرعان ما يخلص إلى القول:

«والذي أريد أن أصل إليه من هذا الحديث الطويل، هو أن المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه. وما أكثر ما يُخدع الناس عن أنفسهم، ولكن الغريب أن المتنبي لم يخدع نفسه وحدها، وإنما خدع معها كثيراً جداً من الناس، فظنّوا به الفلسفة وليس هو من الفلسفة في شيء، وظنّوا به الحرية والكرامة وإباء الضيم، وليس هو من هذا كله في شيء وإنما هو رجل من أهل زمانه لم يمتز منهم بأخلاقه، وإنما امتاز منهم بلسانه، كما كان يمتاز غيره من الكتّاب والشعراء».

اللهم إن مراكب البغضاء قد أبحرت بك بعيداً عن سواحل الإنصاف. هل أبو الطيب المتنبي «بِكر الزمان وفلتة الدهور» لا يمتاز عن أهل زمانه من الكتّاب والشعراء؟ وهل أبو العلاء المعرّي ـ وهو على الرأس والعين ـ لا يقل شاعرية عن أبي الطيب؟ إن أول من ينكر عليك هذا القول، هو أبو العلاء نفسه. كذلك بوسع الإنسان أن يسأل: أي الأمرين أجْدرُ بالمفكر والأديب والشاعر؟ أن يُلقي بنفسه في غمار الحياة بخيرها وشرِّها، وعسلها وصابها، وهذْيها وأباطيلها، ونُبْلها وخسّتها، كما فعل أبو الطيب، وكما فعل الدكتور العميد نفسه، ثم يخرج من كل هذا بمعانٍ سامية تضيء في دياجير العصور؟ هل هذا أم أن يجنح إلى السلامة ويلوذ بصخرة تعصمه من الغرق كما فعل أبو العلاء؟ والمتنبي مات

آخر الأمر، كما يحب الناس أن يموت الشاعر. قتيلاً، على مذبح القوافي، إذ مات أبو العلاء على فراشه في المعرة، لذلك نحن نعرف أين ثوى أبو العلاء، لكننا لا نعرف مثوى لأبي الطيب غير هذا الشعر الفريد. ويا له من شاعر تناثر أشلاء في حنايا القصائد، وحملته القوافي في حواصِلِها، كحواصل الطير، من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان.

ولو شاء العميد غفر الله له، لسأل نفسه، كم من المفكرين والفنانين والشعراء، في تراث العرب وفي تراث غيرهم من الأمم، ارتفعت حياة الواحد منهم إلى مستوى المُثُل العليا، التي عبّر عنها في فكره أو في فنّه؟ وهذا أبو تمام، الذي قال العميد إنه يحبه ويؤثره، تقلبت به الأحوال ليس أقل مما تقلبت بأبي الطيب. وهذا أبو نواس، حين نسمع حديث الرُّواة عن حياته نقول «تعساً وترحاً» وحين ننظر إلى فنّه نقول «لله درّه». وفي الأدب الفرنسي، والعميد به عليم، أمةٌ من هؤلاء، نذكر منهم الشاعر «بودلير» الذي نبت شعره الرائع من أوحال الحياة وأوْضارها. والرسام النابغة «جاك لوي دافيد» الذي يصلح أن يُضرب به المثل على محنة الفنّان بين نوازع الفن وبين تباريح الحياة.

لا يا رحمك الله، إنك لعمري لم تُنْصف، وقد كان يجدر بك الإنصاف، فما الذي دفعك إلى ذلك، وماذا أردت من وراء ذلك، وأنت ولا شك تعرف منزلة أبي الطيب عند صفيّك أبي العلاء. قال أبو العلاء مدافعاً عن المتنبي، في «رسالة الغفران»:

«وما زال[١] (الناس) يقولون، ويقصرون عن المكْرُمة فلا يطولون، وإنهم عما أثل[٢] متثاقلون، وطلاب الأدب في جباله واقلون[٣].

من انفرد بفضيلة أثيرة، فإنه يتقدم بمناقب كثيرة. وإن حسّاد البارع، لكما قال الفرزدق:

فــإن تَــهْــجُ آل الــزْبــرَقــانِ فــإنما
هجوتَ الطوّال[4] الشّمَّ من آلِ يَذْبُلِ»

الهوامش

(١) الكلمة في الأصل كلمة قاسية، أبدلْتها إجلالاً لذكرى العميد، الذي نعدُّه رغم أي شيء، من عظماء الرجال في هذا العصر.

(٢) أثّل، أي بنى وشيّد.

(٣) واقلون، أي صاعدون.

(٤) الطوال الشم، أي الجبال العالية، ويذْبُل اسم جبل.

لماذا أبغض الدكتور طه حسين أبا الطيّب المتنبي؟

كتب العميد عن أبي العلاء بنحو ثلاثة عشر عاماً قبل أن يكتب عن أبي الطيب، وكانت بينه وبين أبي العلاء وجوه شبه ووشائج لا تخفى، فأحبه لأجل ذلك كله، وأمْعن في محبته. يقول، وهو يعني أبا العلاء:

«أليس هذا الرجل خليقاً بالإشفاق عليه والإعجاب به؟ بلى . وهو خليق بأن نحبّه ونؤثره بالود، وبأن نزوره في هذا السجن الذي اتخذه لنفسه، ونقيم معه يوماً أو أياماً لنرى كيف كان يعيش فيه، لا عيشته المادية، بل عيشته العقلية الشاعرة المفكرة...».

(الإشفاق) كان عنصراً مهماً في محبة الدكتور العميد لأبي العلاء،

فقد كانا كلاهما كما قال أبو العلاء في آخر «رسالة الغفران» وكما قال العميد في نهاية كتابه عن أبي الطيّب مردداً قول أبي العلاء «مُسْتطيعاً بغيره». لكنه لم يجد عند أبي الطيب شيئاً يدعو إلى الإشفاق. ولو تمعّن أكثر، لرأى أن أبا الطيّب أيضاً كان جديراً بالشفقة والعطف والرثاء، ولكن بمعنى مختلف تماماً عن أبي العلاء.

كان أبو الطيب يحيكُ في صدر الدكتور العميد منذ ذلك العهد، وهو يكتب عن أبي العلاء، ولا جرم، فأنت لا تستطيع أن تكتب عن المعري دون أن تتذكر المتنبي، قال العميد في كتابه عن أبي العلاء:

«مع أن أبا العلاء كان مقلداً لأبي الطيب مفتوناً به حتى لنستطيع أن نعدّه تلميذاً من تلاميذه، مع هذا كله فما أعظم الفرق بين الرجلين لا في حياتهما العملية وحدها، بل في حياتهما العقلية أيضاً. كان أبو الطيب عبداً لشهواته بشرط ألا نفهم من هذه الشهوات شهوات اللذة والفسوق ونعيم الحياة، وإنما نفهم منها شهوات أخرى ممتازة بعض الشيء(!!) شهوات الثروة والغنى والاستعلاء على الناس. أنفق حياته كلها في إرضاء هذه الشهوات، واحتمل في سبيل ذلك ما يُطاق وما لا يُطاق. ذاق مرارة البؤس واحتمل ذلّ السؤال، وباع شعره في سوق الكساد، ومدح من كان يحتقرهم أشد الاحتقار، وتملّق من كان يزدريهم أقبح الازدراء، ودُفع إلى المخاطرة والمغامرة، وانتهى إلى السجن وتعرض للموت، وباع نفسه وحريته وكرامته للملوك والأمراء. وتبدل رأياً برأي، ومذهباً بمذهب. وذلّ للفرْس بعد أن كان لهم عدوّاً وبهم مغرياً وعليهم محرّضاً. وما زال يتقلب في هذا الفساد السياسي والخلقي حتى تلقاه الموت في بعض الصحراء فأراحه وأراح منه(!!).

إلى هذا الحد بلغت كراهية الدكتور العميد لأبي الطيب. كرهه لأنه رأى فيه جوانب من نفسه. وكرهه لأنه افتقد فيه جوانب ظن أنها عنده. وكرهه لكل الأسباب التي أحب من أجلها أبا العلاء المعري.

كان أبو العلاء ضريراً، إذ كان أبو الطيب حديد البصر. وكان أبو العلاء قعيد داره إذ كان أبو الطيب جوّاب آفاق مقتحماً لجُج الحياة بخيرها وشرّها. وكان أبو العلاء يعيش على العدس والتين، إذ كان أبو الطيّب في بحبوحة يملك ما يملك. وكان أبو العلاء هيّناً متواضعاً إذ كان أبو الطيب شرساً أخا غضبات ونفَرات. وكان صوت أبي العلاء في شعره هادئاً رقيقاً مثل «سجع الحمام» إذ كان صوت أبي الطيب صاخباً مجلجلاً مثل كتيبة مُغيرة.

غفر الله للعميد. لئن كان المتنبي، كما زعم «قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه» فإن الأيام سوف تكشف له، أنه هو أيضاً تاه عن حقيقة نفسه، كما طوّحت به أمواجها بعد ذلك التاريخ، عام ١٩١٤، حين كتب ما كتب. سوف يغرق وشيكاً في بحر الدنيا بخيرها وشرّها. سوف يتراجع عن آرائه التي أهاجت عليه الناس. سوف يُمالىء الجمهور بكتابه «على هامش السيرة» وكتابه «الوعد الحق». سوف يدخل معترك السياسة فيمدح ويذم، ويجادل ويخاصم. سوف يصبح عميداً ورئيساً في الجامعة، وسوف يصير وزيراً في الحكومة. سوف يقبل رتبة الباشوية من الملك، ثم حين تقوم الثورة على الملك، سوف ينحاز إليها، ويكون هو الذي يسميها «ثورة».

وأبو العلاء يا رحمك الله. هل عُوفي أبو العلاء حقّاً من أشواق الحياة وإغراءات المجد؟ ألم تلحظ حتى في «اللزوميات» وراء غشاء

هجاء الحياة وذمها جراثيم المرض لم تزل تُتَفتَّق من حين إلى حين؟ أما رأيت حنين المعري إلى عالم اللذّة والحس حين قال:

أيـن امـرؤ الـقـيـس والـعـذارى
إذ مـال مـن تحـتـه الـغَـبـيـطُ
لـه كُـمَـيـتـان، ذاتُ كـأْسٍ
تُـزْبِـدُ والـسـابـحُ الـرَّبـيـطُ

إن المعري يومىء هنا، كما لم يَغِبْ عن فطنتك، إلى أبيات لامرىء القيس، هي من أكثر الشعر العربي إقبالاً على المتعة واحتفاء باللذة.

تـقـول وقـد مـال الـغـبـيـط بـنـا معـاً
عـقـرْتَ بـعـيري يـا امرأَ الـقـيْس فـانْـزِلِ

ثمْ قوله:

كـأنـي لم أركـبْ جـواداً بـلـذّة
ولم أتـبـطّـنْ كـاعـبـاً ذاتَ خـلْـخـالِ
ولم أَسْـبـأ الـزّقّ الـرويَّ ولم أقـلْ
لخيـلـي كُـرِّي كـرّةً بـعـد إجْـفـالِ

ولك أن تتخيّل أبا العلاء الضرير، رحمه الله، ملازماً داره في المعرة، يُنكر الدنيا ويهجوها، والدنيا له بمرْصَدْ.

وكيف هو والمجد؟ هل حقاً أنه عافه وداوى نفسه من إغراءاته؟ لماذا لم يصْمت إذاً؟ لماذا ألّف الكتب ونظم الشعر؟ أليس ذلك من أجل أن يذيع صيتُه ويشتهر؟ وقُصارى الزهد، كما قال العابدون، أن يدفن المرءُ نفسه في أرض الخمولِ والنسيان، حتى إذا غاب لم يُفتَقدْ، وإذا حضر لم يُحس بوجوده، وإذا تكلم لم يُلتفت إلى قوله.

ما هكذا فعل أبو العلاء. لقد مكث يُغالب الدنيا وتُغالبه. وكذلك حال أبي الطيّب، إلّا أنه كان يكتفي بالبيت والبيتين، إذْ كان يلزم أبا العلاء، العشرة والمائة. وكذلك كان العميد. ونحن نحمد الله أن الأمر صار كما أراد الله له أن يصير. إذاً لافتقدنا هذا الإرث الجليل. وهو الأهم، وهو الذي يعنينا آخر الليالي.

فليتحامل الدكتور طه حسين على (شخص) أبي الطيّب المتنبي ما شاء، وليبغضه كيف أراد. الناس أحرار آخر الأمر في أن يحبوا ويكرهوا. سوف نقبل منه كل ذلك، وإن كنا نعجب، كيف يكره الإنسان بهذه الحدة، رجلاً توفّاه الله منذ أكثر من ألف عام، ولم يتفق الرواة على أحداث حياته، وكثير منها غامض يحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق؟ كيف تكره، وتغلو في كراهية رجل كهذا، وكأنه يعيش اليوم بين ظهرانينا، ويُؤذينا بسلوكه وأفعاله؟

إنما الذي يدعو إلى العجب حقاً، هو تحامل الدكتور العميد على (شعر) أبي الطيب. هل نبوغ أبي الطيب وتفرده، وإذا شئت قلت عبقريته، هل هذا في حاجة إلى برهان؟ هذا شاعر كما قال القدماء «قد ملأ الدنيا وشغل الناس» لقد فعل الأعاجيب في لغة العرب، ودفع المعاني إلى أقصى حدود تحمُّلها، وجاء منذ أكثر من ألف عام

بأقوالٍ لم تزلْ جديدة طريفة إلى يومنا هذا، حتى لكأنه شاعر من زماننا وعصرنا شاعر له، كما قال الثعالبي «نوادر لم تأت في شعر غيره، وهي مما تخْرقُ العقول».

وقال فيه ابن الأثير، الذي لم يكن مشغوفاً بحبّه:
«وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء، ومهما وُصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء..».

وما أجمل ما قال الشيخ عبد الرحمن البرقوقي رحمه الله، في مقدمة شرحه لديوان المتنبي:

«وشأن المتنبي كالشأن في نوابغ الدنيا. فالشاعر النابغة لا يُمْهرُ بإرادته، ولا ينبغ بأن يخلق في نفسه مادة ليست فيها، وإنما هو يولد مُهيأ بقوى لا تكون إلّا فيه وفي أمثاله، وهو زائد بها على غيره ممن لم يُرزق النبوغ، كما يزيد الجوهر على الحجر أو الفولاذ على الحديد أو الذهب على النحاس..

«... فكثيراً ما يقرأ النابغة كلاماً لغيره أو يتأمل خاطراً أو يشهد أمراً. فإذا كل ذلك قد أوْحى إليه وانعكس على مرآة ذهنه بمعان مبتكرة طريفة لا تشبه ما كان بسبيله وجهاً من الشبه ـ لا قريباً ولا بعيداً، وليس فيها إلّا أنها جاءت من ذلك الطريق، وهو بعد لم يتعمّل لها ولم يتكلّف ولم يصنع شيئاً، وإنما هي تلْقى من ذهنه وتلْقى ذهنه من قوة لا يدري ما هي ولا أين هي...

«... ومن هنا ترى المتنبي يأتي أحياناً بالتعقيد المستكْره واللفظ المُتكلّف وتراه يتعسّف ويتخبّط ويُسّف، ومع ذلك لا ينفي مثل

هذا من شعره ولا يحذفه، وهو قادر على أن يَغنى عنه وليس في حاجة إليه، ولكنه بعض طريقته التي انطبع عليها، فلا يستطيع حين يجيئه الرديء أن يجعله جيداً، وليس إلّا أن يأخذه كما هو، لأنه هو الذي انبثق له عن الجيد، كما تضرمُ النار من مادة، فإذا هي شُعَل ودخان، ثم تُضرمها من مادة أخرى فإذا هي لهب صاف يتألق. ولو أنك أدرتها من المادة الأولى كما تجيء من الثانية لأطفأتها وذهب نارُها ودخانُها معاً...

«... وهذا سرٌّ لم ينتبه إليه أحد ممن كتبوا عن المتنبي، فاشدد عليه، وادْرس المتنبي على هذه الطريقة، فستجده نابغة في جيّده ورديئه، وستجده لا يستطيع غير المسْتطاع، وستجد طريقته كأنما فُرِضتْ عليه فرضاً، لأنه كذلك أُلْهم، وعلى ذلك رُكّب طبعه، وكان ظلامه ظلاماً لتسطع فيه النجوم».

حقاً ما أجل وأعمق هذا المعنى الذي وصل إليه شيخنا عبد الرحمن البرقوقي، وهو معنى ما كان ليتأتى له، لولا أنه نظر إلى حياة الشاعر وفنه بعين المحب، ففتحت له المحبة أبواب البصيرة، كما تفعل دائماً، أما أستاذنا الدكتور طه حسين، غفر الله له، فقد نظر نظرة أخرى. وذلك كما قلتُ أمرٌ يدعو إلى الدهشة. فالعميد لم يكن كأحد من الناس، يُرسل الكلام على عواهنه، ويجعل عاطفته مطيّة لعقله، بل كان عالماً جليلاً يُعتد برأيه ويُحسَبُ حسابه. فلماذا كتب هكذا، بقلة اكتراث تقرُب من الاستهتار عن شاعر يحتل في تراث العرب مكانة مثل ما لشكسبير عند الإنجليز، وفيكتور هوغو من هفواته، إن لم نقلْ سقْطة من سقَطاته. ولا يشفع له، أنه جاء في نهاية الكتاب، فقال معتذراً، وكأنه يتنصل من كل ما كتب، وكأنه يُعفي نفسه من مسؤولية ما كتب، إمعاناً في البلْبلة والسخرية:

«وإذاً فما أقل ما نظفر به حين نخصص لحظات من حياتنا للحظات من حياة شاعر أو أديب. وإذاً فما أعرضه عليك في هذا الكتاب ليس حياة المتنبي كما كانت، ولا هو حياة المتنبي كما أعتقد إنها كانت، وإنما هو حياة المتنبي ـ أستغفر الله ـ بل لحظات من حياة المتنبي كما تصورتها في أثناء شهر ونصف شهر من الصيف الماضي. ومن المحقق أني كنت أرى في المتنبي قبل إملاء هذا الكتاب، آراء عدلتُ عنها أثناء الإملاء. ومن يدري لعلّي أرى في المتنبي غداً أو بعد غد أو اليوم آراء غير ما أثبتّه في هذا الكتاب. إنما نحن عبيد للحظات لا نملكها ولا نستطيع تصريفها ولا دعاءها ولا رَدها حين تُقبل علينا. وهي تُقبل علينا بشيء كثير لا نحصيه، ولما تقبل علينا به آثار لا تُحصى في تهيئة مزاجنا للفهم والحكم وللتأثُّر والتأثير».

هكذا أراد العميد، رحمه الله، أن يُغلق المشارعَ كلها من حيث قد يجيئه الهجوم. ولك أن تبتسم أو تضحك أو تغتاظ منه. لكننا سوف نفترض أن الكتاب يُعبِّر عن رأيه في حياة أبي الطيب وفي شعره. وسوف نحاوره ونُناظره بناء على هذا الافتراض، فإنه لم يكن ليقضي شهراً ونصف شهر من حياته، مشغولاً بدراسة أبي الطيب كما قال «عن لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربى الجميلة وفي هذا الجو الحلو» ـ لم يكن ليفعل ذلك عبثاً ولهواً ـ ونحن نجلّ العميد عن العبث، ونجلّ أبا الطيب أن يكون هدفاً لعبث العميد.

٢٦

يظنُّ أهل السودان أن عربيتهم الدّارجة، هي من أفصح اللهجات العربية. ويمضي أبعد من ذلك العالم الحجة الدكتور عبد الله الطيّب، صاحب كتاب «المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها» فيقول إن العربية الدّارجة في السودان، هي أفصح اللهجات العربية إطلاقاً. الله أعلم. والحق أن من قلة بَخْت عرب السودان، أولاً اسم دولتهم، وثانياً أن عروبتهم كما تجري على ألسنتهم، أفصح أحياناً مما يُنبيء به سمْتُهم وسِحَنُهم.

وقد وجدت في الشعر الجاهلي، ثم في عامة الشعر العربي، خاصة عند المتنبي وأبي العلاء، كلمات كثيرة تُستعمل في لغتنا الدارجة، وبعضها لا يوجد إلّا في السودان، وكنتُ أظنها محرّفة أو دخيلة على اللغة العربية، فإذا بها كلمات فصيحة. المتنبي مثلاً يستعمل كلمة (غَلَتْ) بمعنى (غلط)، وأكثر أهل السودان يقولون (غَلَتْ)

بالتاء. وفي لسان العرب إن (غلت) و(غلط) بمعنى واحد. ويستعمل (توراب)، وأهل السودان يقولون (تيراب) للبذور التي تُدفن في الأرض، كالقمح والذرة وغيرها. وفي المعجم أن (توراب) أو (تيراب) هي الأرض أو ما يدفن فيها.

هذا، وقد ذكر الدكتور إحسان عباس في كتابه «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» في الفصل عن آراء النقد القدماء في شعر المتنبي، وهو كتاب جم الفائدة، أن الصاحب بن عبّاد عاب على المتنبي استخدامه الكلمات الحوْشية الغريبة مثل (تُوراب) غفر الله له. إنه لم يزلْ يتتبع المآخذ على المتنبي، ولو أنه عاش في السودان، لوجد أن الكلمة شائعة تجري على ألسنة عامة الناس. كذلك عاب عليه استعمال (جبرينْ) بالنون، بدل (جبريل) باللاّم، وقال «وقَلْبُ هذه اللام إلى النون أبغض من وجه المنون». وعامة أهل السودان، يقولون (جبرين) و(إسماعين).

ذاك، وقد قال المتنبي يصف الخيل:

العارفين بها كما عرفْتهُم
والرّاكبين جدودُهم أُماتها

ونحن نقول (أُمّات) ولا نقول (أمّهات). وقد قال الشاعر السوداني:

يا طير إن مشيتْ سَلِّم على الأُمات
وقولْ ليهِنْ وليدْكنْ في الحياه وما ماتْ

حتى التصغير الذي كان المتنبي مولعاً به، وعابوه عليه، مأثور عندنا، نقول (وليد) و(زُويل) و(بِنيّه) و(مِريّه). ولقد كاد ابن القارح يُصيبه الخَبل من قول المتنبي:

أذمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ،

حتى صبّ أبو العلاء، رحمه الله، الماء على نيران غضبه، فقال له: «كان الرجل مولعاً بالتصغير لا يقنع من ذلك بخُلْسة المُغير، ولا مَلامة عليه، إنما هي عادة صارتْ كالطبع، فما حسن بها، مألوف الربعْ..».

وكان شاعر السودان الفحل، محمد أحمد عوض الكريم أبو سنِ الملقب بالحردلّو (١٨٣٠ ـ ١٩١٦) أيضاً مغرماً بالتصغير، في مثل قوله يصف أن وغْل الظباء تركها في مكان وذهب يستكشف، ثم عاد إليها:

جاهِنْ مِنْقلِباً وقتاً عصِيْر وشفافْ
وكاسبْ ليلُه بيهِنْ من صَدَفْ ما بْخافْ
ديلْ الطَّيْعهن دايَم الأبدْ عُيَّافْ
وفي (نايط السروج) لِقْيَنْ بِقيلنْ جافْ

كل هذا، كلام عربي فصيح إذا تأملته، وأنت ترى أنه مصغَّر (عصر) إلى عصيْر، و(بقْل) إلى بقيل. و(نايْط السروج) اسم موضع، والصدف، بفتح الصاد والدال، هو ما يصادفك مما تكره، وخاصة بالليل. وانظر كيف صوّر الشاعر ذَكَر الظباء (التّيْس) كأنه قائد عسكري مقدام لا يهاب المخاطر، سرى بالقطيع ليلاً، حتى أوصله إلى حيث يريد، فذلك قولُه «كاسب ليلُه بيهنْ». ونحن نستخدم «الكسب» بمعنى النصر الحربي أيضاً، كما قال الآخر يصف فتية محاربين:

ديلْ جابو الكسبْ بين (كاجا) و(أم سُرَيحه)

ويا ساتر من اليوم العقوبْتُه فضيحة.

أيْ أنهم عادوا منتصرين من تلك البلاد في الجنوب والغرب حيث شبّت حروب بين أهلها وبين القبائل العربية في الزمان القديم.

والحردلّو يصف الظباء بأنهن (عُيّاف) والكلمة تحمل في جوفها معنى الحذر والكبرياء والعفّة، فما أجمل من ذلك. كأنه ذو الرّمة، وهو حقاً أشبه الشعراء به.

وعندنا «الزّول» بمثابة «الزّلمه» عند أهل الشام و«الريّال» عند أهل جزيرة العرب، يجعلون الجيم ياء، وهو فصيح، ونحن جيمنا قريبة من ذلك. وكلمة «زول» في المعجم، من معانيها الشخص اللطيف المهذّب. وقد وجدتها بهذا المعنى عند أبي العلاء. وذكر لي الدكتور عبد الله عبد الدايم، وهو عالِم ثبْت، أن «زول» هي أحسن مرادف للكلمة الإنجليزية Gentleman. فهل كل أهل السودان «أزْوال»؟

والكلمة تُستخدم للمرأة أيضاً، وقد قال الحردلُّو يذكر إنسانة جميلة ألْهتْه عن حضور العيد مع أخيه عبد الله، وكان شاعراً أيضاً:

الزُّول السَّمِحْ فاتْ الكُبارْ والقدْرُهْ
كان شافوه ناسْ عبد الله كانو يَعَذْرو
السبّبْ الحَماني العيدْ هناك ما أَحضرهُ
دُزْديف الشبيكة النزّلوه فوق صدْره.

و«الشبيكة» حُلى متشابكة تُعلق على صدر الفتاة، وقد وجدتها بصفتها وباسمها هذا في متحف قطر الوطني الذي يديره العالم

الشاعر الدكتور درويش الفار في الدوحة الميمونة الطالع.

و«حمى» بمعنى «منع» أكثر جرْياً على الألسنة عندنا من «منع»، وقد قال أبو العلاء:

تـرى الـعـوْدَ مـنـهـا بـاكـيـاً فـكـأنّـه
فَـصـيـلٌ حَـمـاهُ الـشُّـربَ ربُّ عـيـالِ

هذا في وصف مبلغ حنين الإبل إلى أوطانها، ويا سبحان الله، كيف أن أشقاءنا المصريين، وهم منا على بُعد ما تطير اليمامة، لا يصفون الفتاة بأنها «سَمْحه» كما نفعل، بل يقولون «جميله» كأن الله قسم لهم الجمال وقسم لنا السماحة!

وفي ديار غرب السودان، يقولون (يَنْطي) بمعنى (يعطي) وهي كذلك في المعجم، ولم أجدها عند غيرهم. وقد قال أبو العلاء رحمه الله:

لِمَنْ جِيرةٌ سِيموا النَّوال فلم يُنطوا
يُـظـلِّـلُـهـم مـا ظـلّ يُـنْـبِـتُـه الخَطُّ
رجوْتُ لـهـم أن يـقـربـوا فـتـبـادعـوا
وألّا يـشـطُّـوا بـالمزار فـقـد شـطُّـوا

أي والله، لقد شطُّوا يا أم عمرو، وهل بعدهم يطيب العيْش؟

٢٧

أغلب الظن أن نار الطَلْح التي رأيتُها بين خيالي من وراء أربعين عاماً وأكثر، وأنا حيث أنا في لندن، هي النار عينُها التي أوقدتْها صاحبة الحارث بن حلِّزه اليَشكري: «هيهات من الصِّلاء». الفصل صيف، والمساء بارد ممطر، كأنه من أماسيِّ الشتاء. حينئذٍ ينزل الهمُّ على القلب، وتمْطو قوافل الذكرى بلا حادٍ ولا دليل. ما الذي ذكّرني بهذا البيت؟

الدُّنيا بتْهينَكْ والزمانْ يُوريكْ[1]
وقلَّ المالْ يُفرقكْ من بناتْ واديكْ

وبدا لي، وأنا على تلك الحال، أن البيت يصف أحسن وصف، ما وصل إليه السودان المسكين. لقد ذاق الهوان، وكشَّر له وجه الزمان، وتشتت أهله في البلاد. والعهود تقوم وتسقط، والثورات تشتعلُ وتخمد. آه. ما أجمل ما قال أخو بني حنيفة:

ألاَ هــلْ إلــى شَــمِّ الخزامــى ونــظْــرةٍ
إلــى قــرْقــرى قــبــلَ الممــات ســبــيــلُ؟

ثـم ساقتْني كلـمة «وادي» في بيت الشاعر السوداني إلى تلك الأرض عند منحنى النيل، وذلك لأن بلدنا من بعض أسمائه «الوادي»، إذ إن وادي «الملْك» وفي رواية «الملْح» يصبُّ عندنا. وهو واد عظيم يقصد النيل عبر مئات الأميال من سهول غرب السودان. وقد قال شاعرنا:

«كَرْمَكُولْ»(٢) صيدِكْ ما لُه فارْ؟
يجري في «الوادي» بلا خَبارْ
الصُّغار غالْباتْ الكبار

يقصد بـ «الصّيد» الفَتَيات الحسان والنساء. وتلك عادة قديمة عند العرب، أن تُشبّه المرأة بالظبي والبقر الوحشي. وهذه الأبيات تُغنّى على إيقاع آلة وترية عندنا تُسمى «الطّنْبور» وتُرقَصُ لها رقْصة «الدّليبْ» التي فيها بعض سمات «الدبكة» اللبنانية، وتكون في وسط حلقة الرّقص فتاة تغطس مع اللحن وتطفو، وتروح وتجيء، وبين كل حين وحين، تلطم بشعرها المعطّر، وجوه المصفقين.

وبعينيْكَ أوقدتْ هندٌ النارَ أصيلاً تلْوِي بها العَلْياءُ
فَتَنوّرتْ نارَها من بعيدٍ بخَزازي هيهات منك الصّلاءُ

هكذا جاءتني كلمات أغنية قديمة عن «نار الطّلح» تذكّرت بعضها ونسيت. وقلت أسأل عثمان عبد الله وقيع الله، الذي يقيم مني غير بعيد، فهو بذلك عليم.

وعثمان هذا بعض الثروات المهملة في السودان الغني الفقير. إنني لا أعرف كثيرين في مثل تعدُّد مواهبه. فهو شاعر مجيد بالعامية والفصحى، وقد نقل رباعيات الخيّام إلى اللغة السودانية الدارجة، في ترجمة من أجمل ما رأيت. وكان من أوائل المبعوثين لدراسة الفنون الجميلة في لندن، جاءها عام ١٩٤٥، وعاد وعمل في كلية الفنون الجميلة في الخرطوم. ومن بين من درسوا على يديه الفنان الكبير العالمي الشهرة إبراهيم الصَّلحي. إلى جانب ذلك فهو بحق «أستاذ» في فن الخط العربي، وقد كتب بخط يده القرآن الكريم عدة مرات، في مخطوطات تعتبر تحفاً فنية. وكان من أوائل الفنانين العرب، إن لم يكن أولهم، الذي حول الحرف العربي إلى مادة للرسم، ففجّر ما فيه من طاقات جمالية كامنة، وصنع من ذلك فنّاً مدهشاً. ومن بعض فنه، اللوحات التي رسمها لديوان الشاعر السوداني الموهوب صلاح أحمد إبراهيم، ديوانه «غابة الآبنوس» في طبعته الجديدة. تجد الرسوم والقصائد كأنها أنغام في سمفونية مكتملة، كلٌّ منهما يُعطي الآخر ويأخذ منه.

ثم له صوت جميل في قراءة الشعر. وكان المرحوم محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان الأسبق، وهو أيضاً من الشعراء الأفذاذ، كان أيام إقامته في لندن، بعد أن أسقطت حكومته «ثورة» أيار/مايو، يؤثره ولا يطيب له سماع شعره إلّا بصوت عثمان وقيع الله. كذلك له صوت عجيب في الغناء والدوبيت، يحفظ كمّاً هائلاً منه. وكان قبل أن يوغل في طريق العبادة والزهد، ويقطع كل صلة له بحياته الماضية، يسخو علينا أحياناً بغناء بعض الأغاني القديمة التي لا يعرفها كثيرون غيره.

إنه معتكف في لندن منذ سنوات، يعيش حياة التقشف والكفاف،

يصوم ويصلي ويتعبد ويرسم ويكتب. وأنا أعجب أنه اختار لكفاحه الروحي، هذا البلد دون سائر بلاد الله، حيث القابض على دينه كالقابض على الجمر. إنما هو كذلك، ورغم أن له شهرة أكيدة بين متذوّقي الفن ونقاده في لندن وفي أوروبا، فإن عمله لم يجد بعد ما يستحقه من ذيوع وانتشار في العالم العربي.

سألتُه عن نار الطَّلح، وكيف قال المغنّي عن المرأة التي قامت منها وعرقها يتصبّب، فكأنني أثرت كوامن أشجانه، وذكّرتُه بأشياء يريد أن ينساها، فأجابني بعد لأي:

الْطبّقْ البُوخه
قام نداهْ يهتّفْ
نام من الدُّوخه

الهوامش

(١) في المعجم ورَيْتُه وأوْرأتُه إذا أعلمتُه.

(٢) «كرْمكول» اسمُ حيّ من أحياء بلدنا، وفار من يفور أي يغلي، وهي فصيحة.

أوقدتْ هندُ نار الطَّلح بالصَّندل واللُّبان، عند منحنى النيل بين «كرْمكول» و«قُشابى» فتنوِّرها الغريبُ النّازح وراء تخومِ بحر الروم. أوْقدتْها أيام «عدلَ الوقت» كما يقول الحرْدلّو. كانَت السواقي تدور، والضروع ملأى، والحقول مخضرة، والديار عامرة، والزمان يبتسم بوجه طفل.

الزمان عند الحردلُّو «أعوج» أو «عَدِلْ»:

كم شُويَمْ لهِنْ وقْتاً عُدالْ أيّامي
شيخ «الأتْبراوي» وماشي فيهو كلامي

ذلك لأنه كان يسافر على جمله مسافات في طلب المحبوبة، وكان «شيخ عرب» على القبائل على طول نهر أتْبرا ـ الأتْبراوي، نافذ الكلمة. وكان في مقتبل العمر. وفي ظني أن كلمة «شُويَمْ» التي

تعني التَّرحال في أثر المحبوبة مشتقة من «الشام». كان الواحد منهم إذا سافر إلى الشام، كما كانوا يفعلون، يقولون إنه «شُويَمْ»، فكأن السفرَ إلى ديار الحبيبة عندهم، كالسفر إلى بلاد الشام، غايتُه المنّ والسلْوى. وقد قال أبو العلاء:

يمانون أحياناً شآمون تارةً
يُعالون عن غَوْر العراق لينْحطُوا

هذا، والزمان عند شكسبير إما «عليل» أو «معافى» وقد قال The time is out of joint، يعني أن الزمان عليل، أو مُخْتل. ولعل أدق ترجمة لعبارة out of joint هي كلمة «مَمْلوخْ» التي ستجيء في تلك الأغنية السودانية القديمة عن المرأة التي قامت من عند نار الطلح وعرقها يتصبب. وهي كلمة فصيحة كما سترى إن شاء الله.

ويقولون في أيامنا هذه أن الزمان «رديءْ»، وهي عبارة أظن أول من نطق بها الشاعر محمود درويش، ثم سار بها أبو عمّار، وتلقّفها الكتّاب والشعراء والصحافيون، فأصبحوا يقولون كلهم أن الزمان «رديء». وهؤلاء ما يزالون يهيبون بالزمان أن يكون رديئاً حتى يصير رديئاً بالفعل. والكلمة من بعض معانيها «الرَّدي» وذلك ألأمُ مراحل مما أراد الحردلُو أو شكسبير، إذ إنك تقْدِر أن تعْدِل المُعْوَج وتطلق الأسير وتشفي العليل ولكن ماذا بوسعك أن تصنع مع «الردي»؟ أو :ما قال أبو الطيب رحمه الله:

هبيني أخذتُ الثأرَ فيكِ من العدى
فكيفَ بأخْذ الثأْر فيكِ من الحُمَّى

وقد رووا أن زياد بن أبي سفيان جلَد رجلاً ـ وبعضهم ذهب إلى أنه ضرب عنقه لأنه سبَّ الزمان ـ وقال «لا تسُبُّوا الزمان. الزمان

هو السُّلطان». وهذا وجهٌ لم ينتبه له حُماةُ الدول في أيامنا هذه، فلم يعملوا قوانين لمحاسبة الناس على سبّ الزمان.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه معجباً بذكاء زياد، وكان يقول «لو كان هذا الفتى من قريش لساق العرب بعصاه».

جاء زياد ـ وكان شاباً في العشرين أو دون ذلك ـ إلى عمر الأمين بأنباء النصر في معركة القادسية، فقص عليه أخبار المعركة بحذافيرها بفصاحة وقوة عارضة أذْهلت عمر، وكان قلّما يذهل، فقال له:

«يا فتى. هل تَصعد المنبر وتحدّث الناس كما حدّثتني، فإن للمنابر رهْبة؟».

فقال زياد «والله يا أمير المؤمنين ما على وجه الأرض من هو أكثرُ رهبة عليَّ منك».

وصعد زياد المنبر في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصف المعركة وصفاً بليغاً هزَّ مشاعر الناس. وكان أبو سفيان يجلس بجوار الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، فقال:

«هل أعجبك هذا الفتى؟».
قال علي: «نعم».
فقال أبو سفيان: «إنه ابنُ عمّك».
فقال علي: «وكيف ذلك؟».
فقال أبو سفيان: «أنا أبوه. قذفتُ به في رحم سُميّة».
فقال علي «ولِمَ لا تلحقه بنسبك؟».

فقال أبو سفيان «أخاف دِرَّة هذا الأعسر». يعني الخليفة عمر.

فيما بعد هو والحجاج حملا أوزاراً كثيرة في تأييد دولة بني أمية. ولا أعلم أن التاريخ سجّل كلمات زياد عن موته، إلّا أنه رووا أن الحجاج كان يردّد وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

«اللهم اغفر لي وقد زعم أُناس أنك لن تفعل».

إنما رحمة الله واسعة، ولعلها تشمل حتى زياداً والحجاج. وما أجمل هذا الدعاء الذي جاء في الأثر:

«اللهم مغفرتُك أَوْسع من ذنوبي، ورحمتُك أَرْجى عندي من عملي».

ذلك وقد قال الشاعر الحَكَمي، أجاره الله من الموقف الصَّعب في ذلك المقام، إن صحَّت أقوال الرُّواة عنه:

لا تحْظُرِ الْعفْوَ إن كنتَ امرءاً حَرِجاً
فَإنَّ حَظْرَكَهُ في الدّين إزراءُ

غفر الله له، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه، ما هطل السحاب، وما عَنَّتْ للنازحين منازلُ الأحباب.

٢٩

ما أجمل ما تغني فيروز، فهي من بقايا خيْرات الزّمان المُبارك، وصوتها كمْ بدَّد الظلمات لساري ليل:

«يوْم جيت أَنا لْعنْدكُمْ
قَبْل العشا بنتْفَه
ولقيْتكم نائمين
وسراجكم مَطْفي
مدَّيْتْ إيدي عَ الهَدَى
لأقْطُفْ أنا قَطْفه
صاحيْت بنت اللكمْ
«يُمَّه يُمَّه حرامية!».

هذه الطّلاوة تجدها أيضاً في كلمات الأغنية من ديارنا في شمال السودان، وما أبعد السودان، وما أقربه من لبنان:

ودْ الأرْيَلْ الضّاربْ مَقَنُّهْ
جني الغُزْلان بكي وأُمّاتُه جَنُّهْ
النَّاسَ الكُبار أصلْ آبّيحنُّو
شوف الْعينْ علينا محجّرَنُّه
تقولْ لا كانْ صُغارْ، لا ألْغَيْ عارْفِنُّهْ

«ود الأَرْيلْ» كما يتّضح في البيت الثاني في الأغنية السودانية، هو طفل الظْبية، الطّلَى، يُكْنَى به عن المحبوبة. والقنْ والمقنْ فصيحة، تعني الخِدْر الذي يستر الظبية كما يستر الفتاة فلا يُوصل إليها.

ذلك، وقد وجد زُهير حين وقف على أطلال أُم أوْفى، أنها قد درستْ تماماً، وأن الظّباء قد استحوذت عليها:

بِهـا الـعِـيـنُ والآرامُ يمـشـين خـلْـفـةً
وأَطـلاؤهـا ينْـهـضـن من كـلّ مـجْـثَـمِ

ومثل ذلك وجد «الحرْدلّو» في «قُوزْ ود ديابْ»، مع الفارق:

«قوزْ ودْ ديابْ» لسَّع تراهْ بِشياهُهْ
بهما يطِّردْ فرْحانْ وعاجْبُه خَلاهُ

وجد زُهير الظباء بين «حومانة الدُّرّاج» و«المتثلَّم» هاجعةً مطمئنة يطول ما تقادم بها العهد بالمكان، فأصبح مِلكاً لها، فحرَّكها مجيئُه، فقمن من مراقدهن، متثاقلات، كأنهنّ لا يعبأن به ولا بأحزانه. أما «قوزْ وَدْ دياب» فقد كان دائماً مرْتعاً للظباء، فذلك قول الشاعر إنه ما يزال كما عهده عامراً بظبائه «بشياهه». ورماله قد تذكّرك برمال الدَهناء عند ذي الرّمة:

ولا مَــيْ! إلّا أنْ تـــزورَ بمُـــشْــرف
أو الـرُّزقِ مـن أطْـلالِـهـا دِمـنـاً قـفْـرا
تـعـفَّـتْ لـتَـهْـتـالِ الـشِّـتـاء وهـوَّشـتْ
بـهـا نـائـحـاتُ الـصَّـيـف شـرقـيَّةً كُـدْرا

مسكين. وما أروعَ قوله «لا مَيْ. وأخْبروا أن «يهطلُ» و«يَهتلُ» بمعنى واحد، وذلك كما ترى مصدر قولنا «غلَتْ» عوضَ «غلَط».

وجد «الحردَلّو» الظباء في نشاط ومرحْ، تنُطُّ وتتسابق ويطرد بعضها بعضاً. فرحةً دون سبب، أو بسبب الفضاء الواسع حولها، وإحساسها بالحرية الكاملة. وقوله «فرْحانْ وعاجْبُه خَلاهُ»، من شريف القول، فالظباء أيضاً تعشق الحرية.

إنما الظبي الحبيس في خدره في تلك الأغنية، بكى، فأسرعت أمّهاتُهُ إليه يسألْنه، أو يسألْنها، عن سبب بكائها. والسبب لا يخفى، وهو نفسه السبب الذي جعل الفتى في الأغنية اللبنانية، يذهب متلصصاً آخر الليل. لذلك تقول الأغنية السودانية، إن «الناس الكبار» ـ الآباء والأمهات ـ لا توجد رحمة في قلوبهم، كأنهم لم يكونوا في يوم من الأيام، ولو يذوقوا عذاب الحب. والحب عندنا هو «الغَيْ» من الغواية، ولعلّه كذلك، ولكنها غوايةٌ قل أن يسلَم منها أحد.

وعند أبي الطيب الخبر اليقين:
ومـــا شـــرقـــي بـــالماءِ إلّا تـــذكُّـــراً
لـــمـــاءٍ بـــهِ أهـــلُ الـــحـــبـــيـــبِ نُـــزولُ
يـــحـــرِّمُـــه لـــمـــعُ الأَسِـــنّـــة فـــوقَـــهُ،
فـــلـــيْـــس لـــظَـــمْـــآنٍ إلـــيـــه وصـــولُ

وأين كلُّ هذا من نار الطّلح التي أوقدتْها هِند عند مُنحنى النيل؟

٣٠

حديثي عن نار الطّلح التي أوقدتها هندٌ عند منحنى النيل، اهتزّت له مشاعر أخي العزيز الدكتور حسن أبشر الطيب وهو في مهجره في ديار عُمان، فكتب إليَّ من مسقط، حيث يعمل مستشاراً لوزير الخدمة المدنية، معالي الأخ أحمد مكي، وعُمان بلاد أحفظ لأهلها مودة أكيدة، فقد كنت أزورها أيام عملي في الدوحة. والدّوحة كانت لي وطناً كالوطن، وأهلوها أهلًا كالأهل، والحديث عنها لم يحنْ ميعاده بعد. كنت كلما جئت عمان أجدها قد تغيّرت إلى الأحسن، وأخذت زينتها أكثر، وخطت إلى الأمام خطوات، وآخر عهدي بها كان منذ نحو ثلاث سنوات، حين زرتها بصحبة مدير عام منظمة اليونسكو. وأذكر تلك الأمسية التي قضيناها في ضيافة معالي الوزير أحمد مكي، في داره الجميلة المطلة على خليج رائق في البحر.

أما حسن أبشر الطيّب فكيف أصفه؟ إنسان نسيج وحده بحق وحقيق، يجمع إلى الخلق الرفيع والتواضع الجم والطبع السمح، والعقل الراجح، علماً غزيراً وأدباً كثيراً. ورغم أنه ما يزال في مقتبل العمر ـ مدَّ الله في الأيام ـ فقد درج في عدد من المناصب الرّفيعة في السودان، منها على سبيل المثال، أنه كان وكيلاً لوزارة الخدمة المدنية والإصلاح الإداري، ومستشاراً ثقافياً في واشنطن، ومديراً لأكاديمية العلوم الإدارية في الخرطوم، ثم وزيراً. إلى ذلك فهو أديب عميق الحس واسع الثقافة، صاحب أسلوب عذب ورشيق. وقد نهض من تلقاء ذاته بأعباء يُفترض أن تقوم بها الدولة في رعاية الأدباء والمبدعين، لا يدفعه إلى ذلك شيء غير نُبْل طبعه وعميق إحساسه بقيمة الثقافة في نهضة الأمم.

آسى حسن أبشر الطيِّب بصفة خاصة شاعر السودان الفَذّ، محمد المهدي المجذوب رحمه الله، وهوَّن عليه صعوبات الحياة وأغدق عليه من رعايته ومودّته، وإليه يرجع الفضل أن الشاعر أَوى إلى بيت يملكه بعد أن قضى زهرة عمره في خدمة الدولة، يعيش عيشة الكفاف، يعالج الأرقام محاسباً ومراجعاً ومفتشاً ومراقباً للحسابات، وهو من هو. ولولا حسن أبشر الطيب لضاع أكثر شعر المجذوب، أو ظل مجهولاً لا يرى النور. هذا والثورات تهبّ وتهدأ، ثورة وراء ثورة، والعهود تعلو وتهبط، عهد في أثر عهد.

جاء في رسالة الدكتور حسن:

«حديثك عن نار الطّلح أثار كوامن أشجاني، وشدّني إلى أيام مُتْرَعات بالحسن، سابحات في بحار المحبة، مُعَطّرات بغمائم الطّلح، وذكرتُ رائعة شيخنا الشاعر محمد المهدي مجذوب «غمائم الطّلح»، التي تتجسد فيها مقدرته الفذة في توظيف الكلمات،

وتفجير الدلالات الحسية والمعنوية فيها. فأنت تراه يرسل نفسه على سجيتها، فيعكس ما في نفسه وما في نفسك، في نفَس طويل، فيكسر بذلك كل الحواجز التي تجعلك تقف موقف المتلقي أو القارىء. تجد نفسك في مركز الدائرة، تستنشق عطر غمائم الطلح التي لفّت الحسناء.. حتى بدت كبدر الدجى.. المجذوب شاعر مصوّر بأرْوع ما تحمل الكلمة من معانٍ. فهو يصوّر لك ما رآه وأحسه وما أجاله في خاطره حتى أصبح جزءاً من نفسه. يغمرنا بهذه المشاعر والرؤى، فيزيد حظنا من الإحساس بالجمال ويُضفي علينا بهجة ومرحاً. وأنت من قبل ومن بعد، تقرأ هذه القصيدة فتزداد خبرة بفوائد دُخان الطلح.. فتأمل!».

نعم. ذلكم هو المجذوب. والدكتور حسن أعلم الناس به، فقد خبِره طويلاً واستمتع إليه ملياً، وعنده رسائله. وكان المجذوب محدثاً بارع الحديث، ورسائله لا تقلُّ جمالاً عن شعره. ويا ليت الدكتور حسن يجد الوقت ليؤلف عنه كتاباً، فيكون بذلك قد أسدى إلينا من الجميل مثل ما أسدى إلى الشاعر في حياته.

هذا، وقصيدة «غمائم الطّلح» من ديوان «نار المجاذيب» وقد نظمها الشاعر بتاريخ ١٩٤٤/٩/١، وهو حينئذٍ في أوائل العشرينيات من عمره، لم تكن شاعريته قد اكتمل نضجها بعد، ورغم ذلك يجد القارىء في القصيدة، كل السمات التي تميز بها شعر المجذوب فيما بعد، كما يلمس ملامح مغامراته الجريئة مع اللغة والمعاني. وهي قصيدة طويلة سوف أجتزىء منها هذه الأبيات، التي يصف فيها الشاعر «الشَّمْلة» التي تتغطى بها المرأة وهي تعْبِق جسدها بدخان الطّلح:

وشَـمْـلـةٍ غـمـرت سـاقـيْن وابْـتـدَرتْ
كـالمَوْج تـلـمـس جـيـداً رَفَّ مـشْـهـورا

يَـرِقُّ تحـت دُخـان الـطّـلـح سـاوره
كـالـدَّمـع فـي الخدّ تَـلْـمـاحـاً وتـغْـويـرا
مـا شـمْـلـةٌ لـسـواد الـلّـيـل تُحـلـكـتُـهـا
ولـلـهـواجـس تـغـشـى الـفِـكْـرَ مـخْـمـورا
كـالـوحـش جـاثـمـةٌ ثِـقْـلاً فـهـل حـضـنـتْ
إلّا الجـمـال رقـيـقَ الـعـطـف مـنْـضـورا
تُـكـتِّـم الـعـطـرَ حـتَّـى يـرتـوي عـرقـاً
مـنـهـا الجـمـالُ كـروْضٍ بـات مُمْـطـورا
تـرى الـدُّخـانَ عـلـى أثْـنـائـهـا زبـداً
كـالـرِّيـش فـي نـسـمـات الـصـبـح مـبْـهـورا

إلى أن يقول:

تُــزيِّــنُ الــكــونَ شَــهْــوانــاً وتُــوســعُــه
فــي الــروض والــغــيْــم إغــراءً وتَــغــريــرا
يــهــتــزُّ والأرضُ فــي أشــجــان دوْرتــهــا
لــذائــذُ خــلَــدت فــي الــكــون مــقْــدورا
ورُبَّ ذرّةِ رمــلٍ حــيــن جــمَّــشَــهــا
ريــحٌ أَهــاج لــديْــهــا الــشــوقَ مــذْرورا
وقـد ذهـلـتُ ذهـولَ الـشَّـرب تَـرمُـقُـهـمْ
في الكأس جَمْرةُ كرْمٍ بات مسْجورا
وبــتُّ أجــمــعُــهــا جَــمْــعــاً وألْــزمــهــا
فــمــا تجــمَّــع مــثْــل المـاء مــفــجــورا

رحم الله المجذوب، كأن أبا العلاء قد لبس عباءة الحسن بن هانىء، أو كأن أبا الطيب قد غنّى بصوت بشّار!

٣١

في هذه المدينة الشهباء الجميلة (عمّان) التي تسر العين ليلاً ونهاراً، إذ بعض المدن يُعجبك بالليل، وبالنهار كأنها القذى في العين، فيها حيّ يسمّى (عبْدون). تراه عبدون الذي ذكره ابن المعتز في شعره؟ هل تعجب لبعد الشُّقة بين ضفاف دجلة وضفاف الأردن؟ لا عجب، فقد كانوا يذهبون بعيداً وراء قضاء الأوطار، وهذه الأماكن بين البحر والصحراء، وريح الشمال وريح الجنوب، كانت منتجعات محببة لخلفاء بني أمية، ثم ورثها الملوك من بني العباس. وابن المعتز كان ابن خليفة، بل صار خليفة ولو لفترة لا تكاد تعدّ في حساب الخلافة، فلعله ارتاد هذه المغاني، يلهو ويلعب:

سقى المطيرة ذاتَ الظلِّ والشجرِ
وديرَ عَبْدونَ هطّالٌ من المطرِ
يا طالما نبَّهتْنا للصبوح به
في هَدأة اللّيل والعصفورُ لم يَطرِ

أَصـواتُ رهـبـانِ ديْـرٍ فـي صَـلاتـهـمُ
سـودُ الـمَـدارع نـعّـارون بـالـسَّـحـر

غفر الله له. ما كان أحْراه أن يقوم ويتوضأ ويستعد لصلاة الفجر! وقبله قال الشاعر الحكمي، وقد كان أطول باعاً في حلبة الشعر، وأبعد مَهْوى دلْوٍ في بئر الملذات:

ذكَـرَ الـصَّـبـوحَ بـسُـحـرةٍ فـارْتـاحـا
وأمـلَّـهُ ديـكُ الـصَّـبَـاح صِـيـاحـا
أَوْفـى عـلـى شَـرَف الجدار بـسُـدْفـةٍ
غـرِداً يـصـفّـقُ بـالجَـنـاح جَـنـاحـا
بَـادِرْ صبـاحَـك بـالـصَّـبـوحِ ولا تـكـنْ
كـمُـسـوِّفـين غَـدوا عـلـيـك شِـحـاحـا

ما أحسن الشعر، وما أقبح المعنى. ذاك هجع حتى نبّهتْه أصواتُ الرّهبان، أما هذا فقد ظل يترقّب طلوع الفجر ليواصل الشرب.

أفضلُ منهما الشاعر اليَشْكُريُّ البكري، فقد اسْتعان على همّه بالسفر:

غير أني قد أسْتعينُ على الهمّ إذا خفَّ بالثويِّ النَّجاءُ
بزفوف كأنها هِقْلةٌ أمُّ رئالٍ دويَّةٌ سقْفاءُ

إلى أن يقول:
أُتلهى بها الهواجرَ إذْ كلُّ ابن همٍّ بليّةٌ عمياءُ

هذا في قصيدته المعلقة ذات المطلع البارع، إذ يبكي على أسماء التي يصف أنها آذنت بالفراق، وكانت قد فارقته بالفعل:

بعد عهدٍ لها ببُرقةَ شمَّاءَ فأدْنى ديارها الخَلْصاءُ
فالمُحيَّا فالصِّفاحُ فأعْناقُ فتاقٍ فعاذبٌ فالوفاءُ
فرياضُ القَطا فأوْديةُ الشُّرْبُبِ فالشعبتان فالأبلاءُ
لا أرى من عهدتُ فيها فأبكي اليومَ دَلهاً وما يردُّ البكاءُ؟

صدق. وهل تعرف نظيراً لهذه الـ «نُشتالْجيا» التي تجدها في الشعر العربي؟ وما أجمل ترداد أسماء الأماكن هكذا كأنها ترانيم في طقوس قديمة. كذلك فعل الحردلُّو، الشاعر اليشُّكْري، وهو يصف مسيرة الظّباء في رحلتها الموسمية من هضاب الحبشة وإليها، وقد كان كلفاً بالظباء يشبّههن بالنساء، وكلفاً بالنساء يمثّلهن بالظباء:

مرَقْن من مطيْبقات الخَوي أب دُنَّانْ
وهكعَنْ فوقْ معالق الوادي أبو ريحانْ
شافنْ في السمير زَوْلهْ وحيامْت إنسانْ
ونطحنْ ها القليغْ المسمّى بالنّسوانْ

إنه كعادته ـ مثل المتنبي ـ مولعٌ بالتصْغير، صغَّر (مَطابِقْ) إلى (مطيبْقات). والمطابق واحدُها (مطبق) وهو الشِّعب في الجبل. وصغر (السَّمُر) إلى (السّمير). وهو نوع من الشجر مثل السّيال والطلح. وصغّر (قلْع) إلى (قليع) وهي هنا جبال تُسمى جبال المرأة، فذلك قوله (المسمي بالنسوان). وكون الظباء (نطحْنها) يعني أنهن اتّجهن صوبها عدلْ، كما اتجهت نساء زهير إلى وادي الرسّ. وقد وصف الموضع الذي سرْنَ عنه بأنه (الخَوي أبْ دُنّان). وهذا يعني

أنه غزير المياه كثير الشجر والنبات، أي أنه مليء بالذباب والحشرات التي تزنّ وتطنّ، وذلك لا يتّفق إلاّ في موضع خصيب. ومثلُه الوادي ذو الرّيحان، إلى حيث سِرْن منحدرات.

وكلمة (هَكَع) تعني هبط أو انْحدر، وقد يستخدمونها أيضاً في وصف مشْية المرأة الجميلة التي تَتعاجَب في مشْيها. وهكذا تجد أن المرأة ليست بعيدة عن فكره وهو يتحدث عن الظباء.

هذا، وقد ذكرتُ لأستاذي الدكتور ناصر الدين الأسد، أنني أظن أن وقوف الشعراء الأولين على الأطلال وبكاءهم عندها والتلذذ بترديد أسماء الأماكن في شعرهم، كأنه بقايا طقوس قديمة، وقد نبَّهني إلى هذا المعنى ما قرأته عن الـ (أبوروجنيز) سكان أستراليا الأوائل ـ فما أنكر مني ذلك. والدكتور ناصر الدين من علماء العربية المعدودين، محبٌّ للشعر العربي، حافظ له، عميق الإدراك لأبعاده ومراميه، هذا إلى جانب جاذبية تميّز بها. وكتابه «مصادر الشعر الجاهلي» كتاب فريد بحق. وهو إنسان حين تجلس إليه، فكأنك في بستان وارف الظلال، كثير الثمار، عاطر الأزهار.

ذاك، وطبعة المعلّقات التي تيسّرتْ لي ها هنا، لها جمهرة شرّاح، الزّوْزني والشنقيطي وابن النحاس والتبريزي، وهم جميعاً على الرأس والعين. وقد أخبروا في شرح تلك الأبيات العجيبة للحارث بن حلزة:

«يقول وإنما أوقدت هند هذه النارَ بمرْآك ومنظرٍ منك فكأن البقعة العالية التي أوْقدتها عليها كانت تشير إليك بها. أوقدت هند تلك النار بين هذين الموضعين بعودٍ فلاحت كما يلوح الضياء».

ربما، إنما الأمر يبدو لي بخلاف ما ذهبوا إليه، وحُجَّتي على ذلك نار الطّلح، التي شبَّت غربي النيل في ديار البديرية والشايقية والرّكابيين:

أوقدتْها بين العقيق فشخْصيْن بعود كما يلوح الضياءُ فتنوَّرتَ من بعيد بخزازى هيهات منك الصِّلاءُ.

٣٢

لا أرى إلّا أن النار التي أوقدتْها صاحبةُ الحارث بن حِلّزَه بين العقيق فشخْصيْن، هي نار الطّلح التي تنوَّرْتُها من وراء تخوم بحر الروم. الفصل صيف، والمساء بارد ممطر، كأنه من أماسي الشتاء. وهي عينُها النار التي وصفها المرحوم محمد المهدي المجذوب في قصيدته. وقد قال عثمان عبد الله وقيع الله:

التّدْيانه دي، التّرْيانَةْ
صُفْرةْ وين دي؟ لا من ريفَهْ لا لُبنانا
تقولْ بَسْ بِتْ فلانْ القائمه من دُخانا
زي دهبَةْ بني شنْقولْ جفَتْ نيرانا

هذا هو غاية المرام، أن يطرى جسد المرأة ويلمع مثل الذهب. وجبال «شَنْقول» عندنا على حدود الحبشة كانوا يُخرجون منها

الذهب أيام دولة سنّار ـ والريف عندنا هو مصر، نُسمي المصريين «أولاد الرِّيف»، وهو من أعجب العجب أن تكون مصر المحروسة ريفاً للسودان! وعند أحمد شوقي أن «مصر الرّياض وسودانُها عيونُ الرّياض وخُلجانها».

وهل ترتفع العين على الحاجب؟ والفتات المغْنية ليست من مصر ولا لبنان، ولكنها أقرب مزاراً، ربما من «رُفاعه الرُّبه» وطن عثمان، حيث خفق القلب أوائل الشباب، عنيتُ قلبي.

كان ذلك أيام «عِدَلْ الوقت» قبل أن يختلّ الزمان وتميل كفة الميزان، يومَ كنا حقاً «نأكل مما نزرع ونلبس مما نصنع». الحال اليوم كما وصفه أبو العلاء رحمه الله، وكأنه رأى من وراء الغيب، ورأى السودان على وجه الخصوص، السودان الغني الفقير، القوي الضعيف، الخصيب المجدب، ذا الشعب العظيم والحظ السقيم:

يرتجي الناسُ أن يقوم إمام
ناطقٌ في الكتيبة الخرساءِ
كذب الظنُّ لا إمام سوى العقلِ
مشيراً في صُبْحِهِ والمساء
فإذا ما تَبِعْتَه جلب الرّحمة
عند المسير والإرْساءِ

إنما هذه المذاهبُ أسبابٌ لجذْب الدُّنيا إلى الرُّوساء
كالذي قام يجمع الزّنْجَ بالبصرة والقرمطي بالأحساء
شيمةُ القوم متعةٌ لا يرِقّون لدمع الشمّاء والخنساءِ

ما أعجبَ ما نظر أبو العلاء، فها نحن أظلّتنا في الجنوب ثورة للزّنج

وفي الشمال ثورة للقرامطة. الله يستر مما هو آت. في أثناء ذلك صمت المجذوب، الشاعر العندليب، وحبست السواقي غناءها للنيل، وصوّح الزرع ويبس الضرع، وهاجرت تلك المرأة الشيخة الجميلة الوجه بين السبعين والثمانين، ربما من نواحي «رُفاعه» أو «الكاملين»، وكان قد حقّ لها أن تستريح. لهم الويل.

«ولا مَيْ!».

دِمَنٌ تجرم بعد عهدِ أَنيسها
حججٌ خلوْنَ حَلالُها وحرامُها
فوقفتُ أسألُها وكيفَ سؤالُنا
صُمّاً خوالدَ ما يبينُ كلامُها
عَرِيَتْ وكان بها الجميعُ فأبْكروا
منها وغُودِرَ نُؤْيُها وثَمامُها
شاقتْك ظُعْنُ الحيِّ يومَ تحمَّلوا
فتكنَّسوا قُطُناً تَصِرُّ خيامُها
بل ما تذكَّرُ من نُوارَ وقد نأتْ
وتقطّعتْ أسبابُها ورِمامُها
مُرِّيَّةٌ حلَّتْ بغَيْدَ وجاورت
أهل الحجازِ فأيْنَ منكَ مرامُها

آه، كُنَّ يوقدْن في حفرة في الأرض تُسمى «حفرة دُخان الطّلح» ويوضع عندها حصير تجلس عليه المرأة. وحطب الطّلح زكي الرائحة حين يحترق. ويضفن إليه الصّندل والبخور. وحين تبوخ النار وتهدأ حدَّتها، تجلس المرأة عليها بقدْر ما تحتمل، وتتغطى بشَمْلة فتعرق، ويتشرب جسدها شذى الطّلح والبخور. كل ما يطلبْنه هذه الأيام من العطور المستوردة والدُّهون والأصباغ، كنّ يجدنه في «نار

الطّلح» التي لمعت في خيال الشاعر اليشكري، ووصفها محمد المهدي المجذوب رحمه الله:

حتّى إذا ما اكْتفَتْ وزايَلها
نَجْدٌ تساقطَ مثلَ الدرِّ منشورا
ونفَّضتْ حلُماً غنّى بوحْدتِها
لحنَ الصَّبابةِ غضَّ الصوتِ مسحورا
أضْحى لها الأمرُ لم تُحْوِجْ هوايَ إلى
جَهْدٍ وألهمها الإحسانُ تدْبيرا

٣٣

بلى، ذلكم هو الذي أبكى الشاعر اليَشكُري، فقد كان له من العمر كما أخبر الرُّواة، خمسة وثلاثون ومائة، حين أنشد القصيدة بين يدي الملك عمرو بن هند، وكان بخزازي(*) وهند بين العقيق فشخصيْن، فأنى له أن يرى النار رؤية العيان؟ إنما رآها بعين خياله من وراء أكثر من مائة عام. ولا هند أغلب الظن أنها كانت قد رحلت الرحيل الأبدي. ولو كانت النار كما توقد في حطب الغَضَى، لجاز له أن يبكي. أما أنها كانت كما وصفها المجذوب، فقد حق له أن يبكي «دَلهاً».

لا عجب. لقد دخل العرب بلاد السودان، إلى غاية أرض شنقيط، قبل الإسلام بمدة، وأخذوا معهم من جزيرة العرب عادات بقيت عندهم وبعضها درس عند عرب الجزيرة. من ذلك أن النساء كنّ يتطبَّبْن بنار «دخان الطّلح». ومن ذلك أيضاً أن الفتيات قبل الزواج

كن يلبسْن سراويل من سيور الجلد تسمى «الرَّهْط». وقد ظلت هذه العادة موجودة في السودان إلى عهد قريب. وعرب السودان إلى يومنا هذا يسمّون «الدُّخلة» في العرس «قطْع الرَّهْط»، وكان العريس إلى عهد غير بعيد يقطع «رهطاً» حقيقياً، ثم تحول ذلك إلى عمل رمزي، ثم «اسْتَعْجم العُرْبُ في البراري» واختلط الثُّغاء بالرّغاء.

كنّ يتطيَّبْن لبعولتهن بنار «دخان الطّلح»، يُضفن إليها الصندل والبخور. يفعلن ذلك في جماعة. يتناوبن الجلوس على النار. تجلس الواحدة وتغطي جسدها العاري بشملة، فتعرق ويتشرب جسدها شذى الطّلح والبخور، وهي رائحة تظل عالقة بها ما شاء الله. وكل جلسة تُسمى «بوخة». وقد تجلس الواحدة منهن مرتين «تَطْبُق البوخة»، فذلك قول الأغنية:

الْطبق البوخَه
قام نداهْ يهتِّفْ
نام من الدُّخه
أيدُه عاقْباه
جَدْلَهْ مَمْلوخَهْ
لي معالق الجوفْ
موسُه مجْلوخَهْ.

في «لسان العرب» في معنى «باختِ» النار، إذا فترت وهدأت حدَّتُها، وهي تبوخ بوْخاً وبوَخاناً. ويقال «أبِخْ عنك من الظّهيرة» أي أقمْ حتى يسكن حرُّ النهار ويبرد. وهذا هو ما عنته الأغنية السودانية بالتحديد، فالمرأة لا تقوى على الجلوس إلى نار الطّلح وهي في شدة اشتعالها، بل تصبر عليها حتى «تبوخ» ويصبح حرُّها محتملاً.

وفي معنى «جَدْلَه» يقول المعجم:
الجدْل شدّة الفتلْ، وجاريةُ مجدولة الخلْق أي حسَنَة الخلْق. وساق مجدولة وجدْلاء، أي حسنة الطي. وساعد أجْدل كذلك. هكذا قالت الأغنية. وحين وصف الشاعر «يد» المرأة، فإنما عنى ساعدها، وهو أمر جائز في اللغة أن يُشار إلى «الكل» بالجزء.

ويقول «لسان العرب» في معنى «مُمْلوخة»: المَلخ قبْضُك على عضلة عضَّاً وجذْباً. وملخ الشيء يملخُه ملْخاً وامتلخه، أي اجتذبه في استلال، وفي حديث أبي رافع «ناولني الذراع فامتلخْت الذراع، أي استخرجْتُها». وهذا في ظني هو معنى قول شكسبير Time is out of joint، يقصد أن الزمان «مملوخ»، خرجت ذراعه عن مِفْصلها، فمن يُداوي ذراع الزمان؟

ويزيد المعجم، أن من معاني «الملْخ» ـ التثنيّ والتكسُّر. وهذا ما هدفت إليه الأغنية السودانية، فقد قامت المرأة من على نار الطّلح، ورأسها يدور، وعرقها يتصبّب، وعضلات جسدها مُسْترْخية، فتثنّت في مِشْيتها، ورمت ذراعها بلا جهد، فصار ذراعها وراء باقي جسدها. «أيدُه عاقباه جَدْله مملوخة».

وما «معالق الجوف»؟ يقول المعجم «المعْلاق ما يُعلّق به الأناء، وكل شيء عُلّق به شيء فهو مِعْلاقة. ومعاليق العقود والشُّنوف ما يُجعل فيها».

وما «الموسى المجْلوخة»؟ يقول المعجم «جلَخ وأجْلخ إذا فتح المرء عضُديه في السجود. ومن معاني الجلْخ الإخراج من مثل القِراب وما أشبه».

هذا هو. كأن المرأة كما رآها الشاعر استلّت سكّيناً من قرابها

وقطعت بها «معالق الجوف» فتهاوى الجسد كله. لذلك قال محمد المهدي المجذوب رحمه الله:

ومـا ارتـويـتُ ومـا كـفّـتْ إخـالُ بـهـا
مـسـاً يُـعـذّب مـنـهـا الـرُّوح مـأْسـورا

لأجل ذلك أيضاً بكى الحارث اليشكري. لم تكن النار التي تنورها على بعد مائة عام وأكثر، محض حطب يُوقد، بل كان فيها الطّلح والصَّندل والبخور، فذلك «العود» الذي أشار إليه. وكانت هند عند النار كما وصف المجذوب بعد نحو ألف عام، فكأنه قال صراحة ما أشار إليه الحارث تلميحاً. بكى، وظلّت دموعه تنهمر من مآقي القصيدة إلى يومنا هذا.

لا أرى مـن عـهـدتُ فـيـهـا فـأبـكـي
الـيـومَ دَلْـهـاً ومـا يـردُّ الـبـكـاء؟

أجل لعمري، ما يردُّ البكاء؟
لا مَيّ ولا هنْد ولا أسماء.

ما يردّ البكاء، أن نيران «دخان الطّلح» في جزيرة العرب وعلى عدوتيْ النيل قد خمدت؟ وأن الزمان كما وصفوا مُعْوَجّ ومُخْتلٌّ ومملوخْ؟

الهوامش

(*) خزازى ترد في طبعات القصيدة على عدّة وجوه: حرازى، بالحاء ثم الراء والزاي بعد الألف. وخزارى، بالخاء والزاي، ثم الرّاء. وخزازى بالخاء والزّاي، ثم الزاي، وذلك عندي أحسن جرْساً. فلعل أستاذنا العلامة حمد الجاسر يدلّنا على الوجه الصحيح.

أنْ تعجبْ فاعجبْ لرجال يقتحمون مسْرح التاريخ ـ من أين لهم كل هذه الثقة بالنفس؟ ـ الأوطان صفحات بيضاء تخطّ فيها كيف تشاء. كأن أحداً لم يجىء قبلهم ولا أحد سوف يجيء بعدهم. وقد زعموا أنهم أهل تقوى وقرآن. أفلا يتدبّرون معاني كتاب الله الكريم؟ ومن أين لهم أن يحيطوا بكل احتمالات المستقبل؟

بدأت الأمور في الكنقو البائس مثل اللّعب، وانتهت بمأساة. والتاريخ كذلك في الأغلب الأعم، إلّا من رحم ربي.

لكنني لن أتحدث اليوم عن الكنقو، ولا عن أصحابنا هؤلاء، النجباء الأذكياء الأغبياء، أصلحهم الله. فقد شاقني حديث الشعر، وكان من فوائد إحدى زياراتي للرياض أنني لقيت شاباً يدعى عبد الله نور، من تلاميذ أستاذنا حمد الجاسر، طويلاً نحيلاً أسمر متوهّج

العينين، حسن الصوت حين ينشد الشعر، مجدياً كأنه من عندنا من نواحي (بابَنوسه). جلسنا في (قصر الرياض) مع جماعة نتناشد الأشعار إلى أن طلع الفجر.

أنشدنا من شعر الصّمَّة بن عبد الله القُشيْري وأنشدتُهم من شعر ذي الرُّمة وأبي العلاء. وما شعر مثل شعر العرب يطرد بنات الكرى ويحرك بلابل الفؤاد.

والصّمة هذا، هو صاحب الأبيات الشهيرة التي أبكت عيون الزّمان منذ ألف عام:

تحنُّ إلى ريَّا ونفسُك باعدتْ
مزارَك من ريَّا وشعْباكُما معا
وما حسنٌ أن تأتي الأمر طائعاً
وتجزع أنْ داعي الصَّبابة أسْمعا

إلى أن يقول ذلك البيت الفريد، الذي تفديه دواوين من بعض شعر هذا الزمان:

وليست عشيّاتُ الحمى برواجع
إليكَ ولكنْ خلّ عينيْك تدمعا

أوّاه يا أمّ عمرو! مَنْ لي بعشيّات الحمى لو تعود.

كذلك مثل هذا الشعر، يحرّك أَرْيَحيات الإنسان الكريم، أو كما قال البحتري:

إذا هِـجْـنَ وسْـواسَ الـحُـلـيِّ تـولَّـعـتْ
بـنـا أريـحـيـاتُ الجَوى والـوسـاوِسِ
ومـنـهـنَّ مشـغـولٌ بـه الـطّـرفُ هـاربٌ
بـعـينيْـه مـن لحظِ المحـبّ الـمُـخـالـسِ

وقد ذاق (الحردلُّو) مثل هذا العناء في نواحي (الرّضيم):

بـتَّ ألْـيـازَمـان قَـبَـل (الـرَّضـيـم) تـتَّـاقَـى
فيها خمسْ حُزوز شُورْتين عُقُبْ خُنّاقه
تـلَّـتْ وبـكّـتْ الـعـاجْ الـنـقـرتُـه دُقـاقَـهْ
فوتـ (ها) على البناتْ تمرةْ لسانْ وحداقه

العاج، وفي رواية (الخوخ) النّقرتُه دُقاقه، هو «وسواس الحلي» عند نساء البحتري فقد حركت الفتاة عند الحردلّو يدها فاصطكّت الأساور بالعاج، وبعضها ببعض، فأهاجت الوسواس الذي بلْبل فؤاد الشاعر. وهي بعد طويلة الرقبة، قاسها الشاعر كأنما بالمسطرة، فيها خمس طيّات (حزوز) تحتها عِقْدان (شورتين) ثم عقد (خُنّاقه).

عثرتُ في الرياض أيضاً، على أبيات من شعر الحردلُّو ضاعت مني ولبثت أبحث عنها زمناً. لسبب ما أسقطها حفيد الشاعر، الدكتور إبراهيم الحردلّو من الديوان الذي جمعه من شعر جده. وذلك جهد عظيم يُحمد له. لقيت الأبيات عند شاب اسمه عوض الله يعمل في إذاعة الرياض، من سودانيِّي الـ«دياسبورا». لكثرة ما تجد من السودانيين في بلاد الله، تحسب أن لم يبقَ عندهم أحدٌ يتآمر عليه إخواننا هؤلاء.

قال الحردلّو رحمه الله:

البارِحْ بَشوف يشْلَعْ بريق النّوْ
وحسْ رعداً يكرْكرْني في الضَّمير كَوْكَوْ
داكْ طير القَطَى دوّرْ مشارعْ الهَوْ
وفُرقانْ البُطانَه أتماسكنْ بالضَّوْ

(بريق) تصغير (برق). و(يشْلِع) يلمع. والنو، يعني النّوء، يقصد الرياض التي تسوق المطر، ولعلّه عنى المطر بعينها. و(الهو) ترخيم لـ (الهُوجْ) وهي ناحية الجنوب من أرض البطانة.

هذا وقد فعل البرق الأعاجيب في شعر الأقدمين، ولكنّ أثره انقطع في شعر هذا الزمان، اللهم إلّا في الشعر النبطي وشعر الدوبيت والزجل، فشعراء هذه الأيام في الغالب مشغولون بصخرة سيزيف ودموع عشتار وهموم يوليسيس وما شابه. ولن تجد شعراً عربياً غُفْلاً من لمع البروق وسجع اليمام وهبوب الصبا وريح الخزامى، وقعقعة سنابك الخيل وحنين الإبل واصطخاب الدُّلاء في الآبار، إلّا وجدته شعراً كأنما تمزج اللبن الحليب بالماء.

كان الشعراء يقْعدون إذا لمع البرق، من شدّة التباريح، ويقول الواحد منهم (أعتّي على برق أُريك وميضه). وأنت تعلم ما فعل البرق بإبل أبي العلاء، بل بأبي العلاء نفسه حين:

إذا لاح أيماض سترتُ وجوهها
كأني عمرو والمطيُّ سَعالي

ثم حين وصف لمعان البرق في ليلة ظلماء كأنه «زنجية فصدت عرْقاً».

هل المسكينة «فصدت عرَقاً» أم أن أحداً ما أدْمى ظهرها بسوْطه كما فعل (ستانلي) وأضرابه في الكنقو البائس؟ وكأن الشيخ الضرير المُبصر يشير من وراء الحجب إلى (المأساة الكونية) والدماء التي لم تزل تسيل من ظهور المستعبدين على أيدي المستأسِدين.

كيف قال الحردلّو غفر الله له؟
وحِسْ رعداً في الضمير كوكوْ

يا له من شعر! وفي رواية:
وحس رعاده يجرح في الضمير كوْكوْ.

وهذا عندي أبلغ، فكون الرعد يمزّق نياط الضمير، أشد إيلاماً من أن (يكركر) فيها كما تطرق على باب مغلق.

هذا وقد اختلف الشُرّاح في معنى قوله:
وفُرقان البُطالة أتماسكنْ بالضّوْ

وقد ذهب بعضهم إلى أضواء مضارب قبائل البُطانة الذين تجمعوا في موسم المطر، قد تماسكت واقترنت وربطت بين كل حي وآخر، لكثافة القُطّان. وهو معنى جميل يذكّر بقول شوقي يصف التماثيل الغرقى في النيل «ممسك بعضُها من الذُّعر بعضاً».

لكنني لا أرى أن الشاعر ذهب إليه، ففي ديارنا في شمال السودان، نقول (نتْماسك بالضّوْ) أي ندخل بيوتنا قبل أن يخيّم الظلام، يكون ذلك أيام العواصف والأمطار. وعندي أن الحردلُّو أراد أن الناس أووْا إلى بيوتهم أو خيامهم قبل مغيب الشمس وحلول الظلام. والمعنى هكذا أقربُ منالاً وأصدق بواقع الحال.

وبعد، فهذا بعض ما استفدته من رحلتي للرياض. وقديماً قال الإمام الشافعي رحمه الله:

سافر ففي الأسفار عشر فوائد.

أم تراه قال (سبع فوائد)؟ أمّا بقية الفوائد فلها حديث آخر إن شاء الله.

٣٥

واضح أن تلك الأبيات، التي صدرت عن قلب مكلوم بحق. عاش الشاعر التجربة، كما يُقال بلغة هذه الأيام، واحتمل من الألم ما احتمل. ثم حوّل التجربة إلى فن. ذهب، وعفّى الزمان على ملابسات حياته، وظلت الأبيات مثل نجم في السماء يضيء من زمان إلى زمان.. ولعل الشاعر كان يفضل لو أنه سعد في حياته ولم يقل الأبيات، فأي عزاء له أن الناس بعده يطربون للشعر؟

حدّث صاحب (الأغاني) أن الصّمة بن عبد الله القُشيْري، أحب ابنة عم له تُسمى العامرية، فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوّجه إياها وفضّل عليه رجلاً من بني مالك بن مُلاعب الأسنّة، لكثرة ماله ولا بد، فقد كان دميماً فيما روَوْا، فلم يطق الشاعر صبراً وانطلق إلى الشام.

وفي رواية أن عمّه اشتطّ عليه في المهر، فطلب من أبيه أن يُعينه، وكان ذا مال، فأبى عليه. فسأل عشيرته فأعطوه، فجاء بالإبل إلى عمه فلم تُعجبه وقال له لا أقبل هذه في مهر ابنتي، فاسأل أباك أن يُبدلها لك. فامتنع أبوه أن يُبدلها. فلما رأى الصّمة ذلك من أبيه ومن عمه سرّح الإبل وهام على وجهه. ورأت ابنة عمه ما صار فقالت «تالله ما رأيت كاليوم رجلاً باعته عشيرته بأبعرة».

ولحق الصّمة بأحد ثغور الشام. ولما طال مقامه، تشوّق إلى ابنة عمه ففاضت قريحته بتلك الأبيات، التي لم تزل تهيج لواعج المحبين منذ ذلك العهد:

حننتَ إلى ريّا ونفسُك باعدتْ
مزارك من ريّا وشعباكما معا

وفي رواية «تحنّ إلى ريّا» وفي رواية «أتبكي على ريّا» وكله مُحزن.

والقصيدة تُروى على أوجه عدة، فهي من الشعر الذي يصل غوراً بعيداً، فأصبح أهل كل زمان يضيفون إليها شيئاً ويحذفون منها شيئاً حتى لكأنها ليست لشاعر بعينه.

قالوا وذكر ابن دُريْد أن أبا حاتم أكّد نسبتها للقشيري وكان يستجيدها، وكذلك إبراهيم بن محمد بن سليمان الأزدي الذي قال:

«لو حلف حالف أن أحسن أبيات قيلت في الغزل في الجاهلية والإسلام هي أبيات الصّمة القُشيري، ما حنث».

هذا يا عمرك الله، من قبيل المبالغة المُستحبة التي يدفع إليها التحيز

للشاعر. ولم لا؟ أما أنها حقيقة أجمل ما قيل في شعر الغزل في الجاهلية والإسلام، فاللهم لا. إذاً أين يروح غزل امرىء القيس كمثل قوله:

ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذي خالِ
ألحّ عليها كل أسْحَم هطّالِ

وأين يذهب أكثر شعر أبي الخطاب الذي شغل ابن عباس عن وفده في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ضربوا إليه أكباد الإبل؟

أمِن آل نُعمٍ أنت غادٍ فمُبكرُ
غداة غدٍ أم رائحٌ فمهجّر

وماذا تقول في غزل جرير، عفا الله عن جرير:

يا أم عثمانَ ما تلقى رواحلُنا
لو قِسْت مُصْبَحنا من حيث مُمْسانا
ترى بأعيُنها نَجْداً وقد قطعتْ
بين السّلوْطح والروْحان صوّانا
يا حبذا جبلُ الريّان من جبلٍ
وحبّذا ساكنُ الريّان إنسانا

وهي القصيدة التي قال فيها بيته الشهير:

يا أمّ عمرو جزاك الله صالحةً
ردّي عَليّ فؤادي مثل ما كانا

إنما هيهات يا أم عمرو!
وأين تذهب بشعر غَيْلان في صاحبته (خرْقاء) الذي أطْرب الرجل

الكريم عبد الله أولد أربيه رحمه الله، والكريم يطرب لمثل شعر غيلان:

وقــفْـنــا فــسـلّــمــنـــا فــردّت تحـيـــةً
عـلـينا ولـم تـرجِـع جـوابَ الـمُـخـاطِـبِ
عـصتْني بـهـا نـفسٌ تـريـعُ إلـى الـهـوى
إذا مـــا دعـــاهـــا دعـــوةً لـم تُـغـــالــبِ
وعـيــنٌ أرشَّـتْـهـا بـأكـنـاف (مُـشْـرِف)
من (الزورقِ) في سفْكِ ديّار الحبائب

ثم غزليات أبي عُبادة البحتري الذي انبرى البرق له ولأصحابه وهم «هجود على بطنْ مَرْ» وقوله العجيب:

ظبـاءٌ ثـنـاهـا الـشـيْـبُ وحشاً وقـد تُـرى
لـريْـع الـشـبـاب وهـي جـدٌّ أوانـسِ
صَـدَدْنَ بـصـحـراء (الأريـك) وربمـا
وصلْن بأحْناءِ (الدَّخولِ) فـ (راكِسِ)

دَعْ ذا، وخُذْ أبيات (الرمّاح بن ميّادة) وهو شاعرٌ لا يُعدّ بين الفحول:

وحــرائــر قــد قُــلْــنَ يــومَ تــواعــد
قـــول المجـــد وهـــنَّ كـــالـــمُـــزاحِ
يـــا لـــيـــتنا فـــي غـــيـــر أمـــر فـــادحٍ
طـلـعـتْ عـلـينا الخيـلُ بـالـرمـاحِ
بـــينا كـــذلـــك رأيْـــنني مُـــتـــشـــربـــلاً
بـــالخزّ فـــوق جُـــلالـــة سُـــرداح
فـــيـــهـــنّ صـــفـــراءُ المعـــاصـــم طـفـلـةٌ
بـيـضـاء مـثـلُ غـريـضـةِ التُّـفّـاح

فسّروا (الجُلالة السُرداح) بأنها الناقة العبْلةُ العظيمة، والشاعر عليها (متسربلاً بالخز) في تلك القفار، فأي نعمة هو فيها! والفتاة التي يطلبها (صفراء المعاصم) لأنها تلبس أساور الذهب، وهي بعدُ غضة كتفاح لبنان، فما أجمل الحال وما أحسن المقال.

ذكر أستاذنا الدكتور عبدالله الطيِّب، أن أستاذه الشاعر الكبير المرحوم عبد الله عمر البنّا كان يحب هذه الأبيات. وأنا أيضاً.

هذا، والرواية الثالثة لقصة الصمّة القُشيْري، أمرُّ وأشدُّ إيلاماً. قالوا إن الصمّة أخبر أباه بطلب عمه، فساق الأب الإبل إلى العم، فعدّها فوجدها تنقص بعيراً، فحلف لا يقبلها إلّا كاملة، وأقسم الأب ألّا يزيده عليها. غضب الشاعر لذلك، وحق له أن يغضب، وقال «والله ما رأيت قطّ ألأم منكما».

ثم ركب ناقته وضرب على وجهه حتى أتى ثغراً من الثغور. قال بعضهم الشام وقال آخرون طبرسْتان.

هكذا ولدت هذه الأبيات الجميلة، التي إن لم تكن أجمل ما قاله العرب في الغزل، فهي من أكثر الشعر رقّة وإثارة للشجى:

ألاَ يا خليليَّ اللذيْن تواصيا
بلومي إلّا أنْ أُطيعَ وأسمعا
قِفا إنه لا بد من رجع نظْرة
يمانية شتّى بها القومُ أو معا
لمغتصب قد عزّه القومُ أمرَهُ
حياء يكفُّ الدمعَ أن يتطلّعا

فليست عشيّاتُ الحمى براجع
إليك ولكن خَلِّ عينيك تدمعا

٣٦

(هذه المقالات عن ذي الرُمة، تحية لذكرى الصديق عبد الله أولد أوربيه رحمه الله).

غفلتُ زماناً عن هذا الشعر الجميل، شعر ذي الرُمّة، حتى نبّهني إليه عبد الله أُولد أربيه. كانوا في موريتانيا يعدُّونه من الحُفَّاظ، وإذا علمت أن أهل موريتانيا من أحفظ خلق الله لشعر العرب، أدركت كم كان يحفظ عبد الله أولد أربيه. تزاملنا في غفلة من صروف الدهر في الدوحة الميمونة الطالع. رحمه الله. كان إنساناً كريم الشمائل بشكل عجيب. من بادية بتُلْميتْ من أرض شنْقيط، وهي بلاد تذكّر ببادية كردفان في غرب السودان، وفي كليهما أوجه شبه بأرض نجد، حيث غنّى غيْلان ما شاء له الغناء، شعراً يجري تحت مظهره الخشن، كأنه نهر سلْسبيل. وبين غيلان والحردلّو شاعر البُطانة، وشائج من قربى لا تخفى.

كانت عيناه تذرفان حين ينشد شعر ذي الرُّمّة. وكنت أعجب لذلك أول الأمر. ثم لما أطلت صحبة عبد الله وصحبة الشاعر، وصبرت على شوارد عباراته، وغريب استعاراته، تكشّفت لي أعاجيب مذاهب هذا الشاعر العجيب. أليس جميلاً هذا؟

ونشوانَ من طول النُّعاس كأنّه
بحَبْلين من مَشْطونةٍ يترجَّحُ
أَطرْتُ الكرى عنه وقد مال رأسُه
كما مال رشافُ الفِضال المرنَّحُ
إذا مات فوق الرَّحْل أحييْتُ روحَه
بذكراكِ والعيسُ المراسيلُ جُنَّحُ
إذا ارفضَّ أطرافُ السّياط وهلَّلت
جرومُ المطايا عذَّبتْهنَّ صيْدحُ

جعل صاحبه دلْواً معلقاً بحبل النُّعاس في بئر الكرى، وهي بئر لا بد أن الشريف الرضي رحمه الله متح منها حين قال:

ثم انثنينا إذا ما هزّنا طرب
على الرّحال تعلّلْنا بذكراكِ

وذكروا أن «رشّاف الفضال المرنّح» هو الذي يشرب ثُمالة الكأس، فانظر أي سكر حلال هو فيه، لأن المشروب نُعاس وليس خمراً. و«هللت جُروم المطايا» يعني أن أجساد الإبل صارت مثل الأهلة من شدة الهزال بفعل ما جشَّموها من أسفار. و«صيْدح» هي ناقته التي تكبّدت منه مثل ما تكبد «العاتي» جمل الحردلّو في طلاب المحبوبة. قال الحردلّو:

يا (عْتيِّتْ) كبرْنا وحالنا قطّ ما زَل
في كُلْ يَوم تراني مقبّضك منْزَلْ
كُلْ ما طريتْ الزُّول ألْ دمْعُه جا منْهَل
حَلَقْ الرِّيف بقجْ ناري وغمْضَكْ قَلْ

صغّر اسم جمله (العاتي) إلى (عتيّت) فكأنه عاد وإياه إلى عهد الصبى، وفجأة قال لك (كبرنا)، فأدخلك في حيرة. وحال الغواية مع الشيب، كما كان في عهد شباب الجمل وشباب الجمَّال. وهو كل يوم يقول له «خُذْ هذا المكان وخذ هذا المكان!»، فمن الذي يأخذ ومن الذي يعطي؟ كان أبو الطيّب أدْرى حين خيَّرتْه خيله عند تقاطع الدروب:

وباتتْ تخيّرنا بالنِّقاب
وادي المياه ووادي القُرى
فقلنا لها «أين أَرض العراق؟»
فقالت ونحن بتربان «ها!»

يعني «هاك!» أو «ها هي ذي!» وفي لهجتنا «يطْرى» تعني «يتذكر» و«حلق الرّيف»، حُلْقان من الفضة أو الذهب تجيء من مصر «الريف».

هذا ولا بد أن الذكرى أبكت الشاعر أيضاً، رغم أنه لم يصرِّح وجعل أن المحبوبة «الزُّول» هي التي بكت. وعليك أنت أن تتخيل أيهما بكى وأيهما بكى أكثر. لم يكونوا يتحرجون من البكاء في مثل هذا الموقف، ودموعهم لم تزل تذرف منذ أن قال طرفة:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم
يقولون لا تهلكْ أسىً وتجلَّدِ
فما ضرَّ الحردلّو لو بكى وما ضرَّ غيْلان؟

كأن ديار الحيّ بـ (الزُّرقْ) خَلْقةٌ
من الأرض أم مكتوبةٌ بمِداد
إذا قلتُ تعفو، لاح منها مُهيِّجٌ
عليَّ الهوى من طارفٍ وتِلاد
وما أنا في دارٍ لميٍّ عرفتُها
بجلْدٍ ولا عيني بها بجماد

لك الله! هذا وقال أُناس أن (خرقاء) و(مي) امرأة واحدة، وأن (خرقاء) لقب لـ (مي). وقال آخرون أنهما مختلفتان. وأنا أميل إلى رأي ابن سلام أنهما امرأة واحدة، إذ إن هؤلاء الشعراء في نهاية الأمر، كل واحد له معشوقة واحدة، وإن اختلفت الصور والأسماء.

رووا أن ذا الرمّة واسمه غيلان بن عقبة بن مسعود من بني عدي ابن عبد مناة، مرَّ بخباء ميّ وهي بجوار أمها، وكان معه أخوه وابن عمه، ولما رآها صعق لجمالها وخرق أداته، وقال لها «أخرزي لي هذه». قالت «والله لا أُحسن ذلك وإني لخرقاء». فقال لأمها «مُريها أن تسقيني ماء». فقالت لها «قومي يا خرقاء فاسقه ماء». فجاءت له بالماء، وكان على كتفه رُمّة، أي قطعة من حبل، فقالت له «اشرب يا ذا الرُمّة».

هكذا صار. تقول إن القصة من تلفيق الرواة؟ ربما. ولكنني أرى أن الأمر قد صار على هذا النحو. أسماها (خرقاء) وأسمته (ذا الرُمّة).

أي أنها جعلت منه رجلاً آخر، وجعل منها امرأة أخرى. هذا ما يصنعه الفن ويصنعه الجمال ويصنعه الحب.

بعد قرون وقف شاعر السودان الفحل، محمد سعيد العبّاسي الموقف نفسه ببادية كردفان، واستسقى وجيء له بالماء، فقال:

جـــاءت بمـــاءٍ قـــلـــتُ هـــلْ
حـــاجـــةُ مـــثـــلـــي مـــنـــكِ مـــاء؟

أم ماذا تريد يا عمرك الله؟ هذا وقد ذكروا أن ذا الرُّمّة قال في ذلك الموقف أول شعر له:

قـــد سـحَـرتْ أخـتُ بـنـي لـبـيـدِ
مـنّـي ومـن سَـلْـم ومـن مـسـعـودِ
رأت غُـــلامـــيْ ســـفـــرٍ بـــعـــيـــدِ
يـــدرَّعـــان الـــلّـــيْـــلَ ذا الـــســـدودِ
مـــثـــل ادِّراع الـــيَـــلْـــمَـــقِ الجديـــدِ

■ ■ ■

مرّت سنوات قبل أن يحوّل الشاعر ملابسات لقائه الأول مع محبوبته إلى شعر فيه «فن» وصنعة، فكانت قصيدته الشهيرة (هل تعرف المنزل بالوحيد)، التي يقول فيها:

يـــا مـــيّ ذاتَ المبْـــســـم الـــبَـــرود
بـــعـــد الـــرُّقـــاد والحشـــا المخـــضـــود
والمقَـــلـــتـــيْن وبـــيـــاضِ الجيـــد
والـــكـــشْـــح مـــن أُدْمـــانـــة عَـــنـــود

عـن الـظـبـاء مُـتـبـع فَـرود
أهـلـكـتني بـالـلّـوم والـتـفْـنـيـد

تزوج من أخرى، وأصبح أباً كما توضح الأرجوزة، فزادت القصة تعقيداً. وحين تتذكر أن الشاعر يسترجع شيئاً عزيزاً ضيّعه، تتحول لديك أوصاف الفتاة التي تبدو عادية، إلى أمر غير عادي. وقد غيّر تلك الأبيات التي عنّت له عفو الخاطر أول ما صعقه حبُّ (ميْ) فقال:

قـد عـجـبـتْ أخـت بـنـي لـبـيـد
وهـزئـت مـنّـي ومـن مـسـعـود

وكانت (أخت بني لبيد) ـ قد (سخرت) منه ومن سلْم ومن مسعود. لكن سخرية الفتاة بقيت تمشي في أكناف القصيدة وتعطيها جاذبية لا تخفى.

قالوا إن الكشْح في الجسم ما بين الخاصرة إلى الضلع، ولا تنْس أنه يصف امرأة، والأدمانة في الظباء البيضاء أو هي البيضاء المشربة، والعَنود التي ترعى وحدها بعيدة عن القطيع. والـمُتبعة الظبية التي يتبعها صغارها.

وكما ترى فإن الشاعر ينظر إلى المرأة فيرى ظبية وينظر إلى الظبية فيرى محبوبته. يراها حقيقة وليس مجازاً. كذلك كان الحوْدلُو، كمثل قوله:

بِتْ الْيـازَمـانْ جَـفَـلَـنْ عـلى (بـانْـقـوقـة)
دَفقوا الشّاي صَرُفْ فوقْ عُقْلتَ(ها) المشْقوقة

في بيت واحد تتحوّل الظبية أمام عينيك إلى امرأة. ليست المرأة (كأنها ظبية) بل هي الظبية بعينها. وإذا تخيّلتَ، كما يحدث في بعض الحيل السينمائية، سوف تجد الغزال الذي شرد نحو (بانْقوقة) في أول البيت، قد عاد إليك امرأة تغسل شعرها بالشاي الصّرف في نهايته. ولا بد أن غسل الشعر بالشاي في ذلك الزمان كان من مظاهر الترف. وقوله (ألْ يا زمان) فيه طلاوة، إذ أدخل أداة التعريف على المنادى، كمنْ يتشبّث بأعنّة الرّياح!

يضرب الشاعر في تلك الفلوات، فتعنّ له سوانح الظباء مثل أطياف الذكرى التي تزحم خياله:

أقــول لــدَهْــنــاويّــة عَــوْهَــجٍ جــرَتْ
لــنــا بــين أعْــلــى بُــرْقــةِ بــالــصَّــرائــم
أيــا ظــبْــيــةَ الــوعْــســاء بــين جُــلاجــل
وبـــين الـــنَّـــقـــا آ أنـــت أمْ أمُّ ســـالم؟

لا فكاك له منها، يراها حيثما اتجه، وقد عاب عليه أخوه مسعود ـ وكان شاعراً أيضاً ـ تشبيهه محبوبته بالظبية، فقال:

فلو تُحسن التشبيه والنّعتَ لم تقل
لــشـــاة الـــنَـــقـــا آ أنـــت أمْ أمُّ ســـالم
جعلتَ لها قرنيْن فوق قصاصها
وظِلْفين مُشودّين تحت القوائم

مسعود كان يمزح ولا شك، وإلّا فهو مثل النُّقاد الذين ابتُلي بهم أبو الطيب المتنبي. واضح أن الشاعر لم يقصد بالتشبيه (كل)

الظّبية، حتى أظلافها وقرونها، ولكنه أراد روحها، وتلك (الأنثوية) التي تحيط بالظّبية، وتجعلها أقرب مخلوقات الله إلى (الأنثى الآدمية). بل إن كثبان الرمل ونعومتها وانحناءاتها واسْتداراتها، كانت تذكر الشعراء الأوائل بجسد المرأة ـ وقد قال ذو الرمة:

أَنـاةٌ تـلـوث الـمِـرط مـنـهـا بـدِعْـصـة
رُكـامٍ وتجـتـابُ الـوِشـاح فـيـقْـلـقُ

يعني أنها تلفّ إزارها على مثل كثيب الرمل (دعْصة) وتضع وشاحها فلا يستقر إليها لضُمور بطنها. ثم تجرّأ أكثر فقال:

ورمـلٍ كـأَوْراك الـعـذارى قـطـعـتُـه
إذا جـلّـلـتْـه الـمُـظـلِـمـاتُ الحنـادِسُ

إذاً كيف المفر؟ فهي إما ظباءٌ تسنح على كثبان الرمل، أو هي الكُثبان بعينها؟

وأنا أجد حلاوة لقوله (آ أنت أمْ أمُّ سالم؟) فكأنه يسأل الظبية «هل أنت ظبية حقاً أم أنت أمُّ سالم؟» لشدة ما اختلط عليه الأمر، وكأنه يقول لها «بربّك أليست أم سالم أجمل منك؟» وفي ذلك أيّ خلْط!

كان جرير والفرزدق، إماما الشعر في ذلك الزمان، يحسدان ذا الرُمة لفصاحته وعذوبة شعره وأنه ذاع حتى كاد يطمس شعرهما أحياناً. وقالا إنه لم يكن يُحسن المديح والهجاء. وقال آخرون مثل ذلك. حتى الشيخ الجليل عمرو بن العلاء عاب عليه ذلك فقال:

«إنما شعر ذي الرمّة بعْر ظباء، لها شمٌّ في أول شمَّة ثم تعود إلى أرْواح البعر».

ولعمري ما أنصف الشيخ، وكأنه من بعض (دكاترة) هذا الزمان.

حدّثوا أن الفرزدق وقف على غيْلان وهو يُنشد قصيدته التي مطلعها:

أمَنْزِلَتَيْ (ميّ) سلامٌ عليكما
على النَّأْي والنّائي يودُّ وينْصحُ

فقال ذو الرمّة «كيف تسمع يا أبا فراس؟».
قال الفرزدق «أسمع حسناً».
قال ذو الرُّمة «إذاً ما ليَ لا أعَدُّ في الفحول من الشعراءِ؟».
فقال الفرزدق «يمنعك من ذلك إكثارك من ذكر الأَبْعار وبكاؤك على الدّيار».

سبحان الله! حتى في تلك الأيام كانت عندهم هذه الـ «سنوبزم» أم كيف تقولون يا أُمَّ عمرو؟

سرق الفرزدق في وقفته تلك، عياناً بياناً قول ذي الرمّة:

إذا أرفضّ أطراف السّياط وهلَّلت
جُروم المطايا عذّبتهنّ صيدح

سطا على البيت، وقلَبه إلى هجاء للشاعر، فقال:

ودوِّيّـــة لـــو (ذو الـــرُّمِّـــيـــة) أمّــهـــا
لـقـصّـر عـنـهـا (ذو الـرِّمـام) وصـيْـدح
قـطـعـت إلـى مـعـروفـهـا مُـنـكـراتـهـا
إذا اشــتــدّ آلُ الأمْــعــز المتــوضِّــحُ

جعل (ذا الرمّة)، (ذا الرميّة) و(ذا الرّمام) ولعله قال (ذو الرُّميْمة) تصغير (رمة).

هذا، وقول الفرزدق (قطعت إلى معروفها مُنكراتها) قولٌ عميق بليغ لشاعر طويل الباع في حلَبة الشعر. ولكن أبا فراس لم ينصف، إذ إنك قلّ أن تجد في ديوانه كله شيئاً يقارب قول غيْلان عذوبةً ودقّة وصف:

ذكــرتــك إذْ مــرّتْ بــنــا أمُّ شــادنٍ
أمـامَ المطـايـا تـشْـرئـبُّ وتـسْـنَـحُ
مــن المؤْلِــفــات الـرَّمــلَ أدْمــاءُ حــرّةٌ
شـعَـاع الـضـحـى فـي مـتْنِهـا يـتـوضَّـحُ
تُـغـادر بـالـوعْـسـاء، وعـسـاء (مُـشْـرف)
طـلاً طَـرفُ عـينيْـهـا حـوالـيْـه يـلـمـحُ
رأتْـنـا كـأنّـا قـاصـدون لـعـهْـدهـا
بـه، فـهـي تـدنـو تـارة وتَـزحْـزحُ
هـي الـشّـبـه أعْـطـافـاً وجـيـداً ومُـقـلـةً
ومـيَّـةُ أبْـهـى بـعـدُ مـنـهـا وأمْـلـحُ

■ ■ ■

سرّني إذ علمت أن ابن المعتز، كان يُعجب بذي الرّمّة ويقدمه، وكان يجد براعة في التصوير عند الشاعر كقول ذي الرّمة:

فلما رأين الليل والشمس حيّةٌ
حياةَ الذي يقضي حُشاشةَ نازع

فنّان بارع، لم يتحفظ عن إبداء إعجابه ببراعة فنّان آخر. مثل هذه «التحيات» عند الشعراء الكبار، بعضهم لبعض، تلفت النظر، تجدها عند أبي نواس وأبي العلاء، والحردلّو. والصورة بديعة حقاً، إذ إن الحُمُر الوحشية رأت أنها بالليل، ولمّا يحلّ الليل، فلم تكن الشمس قد غربت بعد. كانت بين الحياة والموت. وهو بيت يكاد يعدل قول أبي العلاء:

لعلّ كراها قد أراها جذابَها
ذوائبَ طلْح بالعقيق وضالِ
ومرْتَعَها في ظلّ أحْوى كأنها
إذا أظْهرت فيه ذواتُ حجال

يعني أن الإبل لما نعست في سيرها، تخيّلت الحبال التي تُقاد بها، كأنها أغصان طلح غضّة تأكلها، وأنها ترعى بين شجر وارف في مرابعها. وقوله (إذا أظهرت فيه ذوات حجال) يعني أن الإبل وقفت تستعرض جمالها وزينتها كما تفعل النساء. وقد وقع الحردلّو على المعنى نفسه، فقال يصف الظباء:

تعرفْ لي مشاهيدْ الرُّقادْ والفَرّه
فلاّخْ المصَبْ بيهنْ تبينْ تتْورَّى

قصد أنها تقف على شعاب الجبال ومساقط المياه، مختالة بجمالها. ذلك قوله (تبين تتورّى). ولا يخفى أن كلمة (يُوري) فصيحة، تعني (يظهر).

كان ابن المعتز شاعراً مترفاً ليس في حياته وحسب، بل في شعره أيضاً، وقد احتفى القدماء بقوله يصف الهلال:

انظرْ إليه كزورق من فضّة
قد أثقلتْه حمولةٌ من عنْبر

قالوا لابن الرومي، وهو من الشعراء (المصورين): ما لك لا تقول مثل هذا؟ فأجابهم «هذا أمير يصف ما يراه في القصور. أما أنا فمن أين لي بمثله؟».

إلّا أن المحدَثين قد لا يكترثون لهذا التشبيه، ويجدون فيه (سطحية) و(افتعالاً). ولو تمهلوا قليلاً لوجدوا أن الصورة لا تخلو من (ثراء) و(ترف) كما في ألوان (ماتيسْ). وفيها (فن صرف) كما تجد في رسوم (الحياة الساكنة Still life) هذه الأيام. الفنان يستعرض أدوات فنه، لا أكثر ولا أقل. أليس هذا ما تقرّ له عيون بعض أصحابنا من الـ (لنْغوسْتيّين) والـ (السيميائيين) في زماننا هذا؟

ربما هذا (الفن الصرف) في شعر ذي الرّمة، هو الذي أعجب ابن المعتز، فأنت إذا استثنيت (طرديّات) أبي نواس، لعلك لا تجد في العربية، شعراً انصبّ على الوصف وتفنن فيه، وذهب فيه كل مذهب، حتى أصبح الوصف هدفاً في حد ذاته ـ لا تجد ذلك كما في شعر ذي الرّمّة.

والقصيدة التي ورد فيها البيت الذي أعجب ابن المعتز، هي التي مطلعها:

خـلـيـلـيّ عُـوْجـاً عَـوْجـة نـاقـتـيْـكـمـا
عـلـى طـلـل بـين (الـقـلات) و(شـارع)

وهي تبدأ بالنسيب، كعادة الشعراء، وهو عند غيلان أكثر رقة منه عند كثيرين. يقول:

ولما تـلاقـينا جـرتْ مـن عـيـونـنـا
دمـوعٌ كـفـفـنـا مـاءَهـا بـالأصـابـع
ونِـلْـنـا سـقـاطـاً مـن حـديـثٍ كـأنـه
جَـنـى الـنّـحـل ممـزوجـاً بمـاء الـوقـائـع

تقول، وهل ماء العيون إلّا الدموع؟ ولكن صبراً. حين يقول لك الشاعر «ممزوجاً بماء الوقائع» ألا تحس أن «ماء» الأولى هي «ماء» الثانية وكأن الشاعر قد شرب العسل ممزوجاً بـ «ماء» دموعه؟ والوقائع جمع وقيعة، وهي نقرة في الصّخر يجتمع فيها ماء المطر. كانوا يطلبون طلاوة الحديث لا أكثر.

ينفلت الشاعر من النّسيب، كما يفعلون، ويوغل في (الرحلة) كخروج من (المأزق). والمأزق هو الحب. أو كما قال عَبْدة بن الطيّب:

فـعدّ عـنـهـا ولا تـشـغـلْـك عـن عـمـل
إن الـصـبـابـة بـعـد الـشّـيـب تـضـلـيـل

و(العمل) هنا هو السفر، لذلك أسموا المطايا «اليَعْملات». وقد قال (الأستاذ):

وأصْـــدى فــلا أبْــدي إلــى الماء حــاجــة
ولـلـشـمـس فـوق الـيَـعْـمـلات لُـعـابُ

يدخل ذو الرّمّة في الرحلة، فيعكف على وصفها بدقة مذهلة قلّ نظيرها في الشعر العربي، بل في كل ما نعرف من شعر الإنسانية، تطاوعه لغة شاسعة وقريحة دفّاقة:

فـدَع ذا، ولـكـن رُبّ وجْـنـاءَ عِـرْمِـسٍ
دواءٌ لـــغَـــوْل الـــنـــازح المتـــواضـــع

ناقتُه (الوجْناء العِرْمسْ) هي وسيلته إلى الهروب، ومحاولة الخلاص من الذكرى التي تشغل باله، ولا خلاص ولا مهرب في الغالب. كذلك فعل محمد سعيد العبّاسي إذ قال:

لم يـبـقَ غـيـرُ الـسُّـرى ممـا تُـسـرُّ لـه
نَفْـسـي وغـيرُ بـنـات الـعـيـد مـن عـيـدِ

ثم أدَّكر بعد لأي وعاوده داؤه القديم:

أسـتـغـفـر الـلـه لـي شـوقٌ يـجـدّده
ذكـر الـصِّـبـا والمغـانـي أيَّ تجـديـد

وهذا غَيلان، شوقٌ وراءه وشوقٌ أمامه، يخبط في الفلوات على ناقته التي تشبه الحُمُر الوحشية في سرعة عَدْوها:

كـأنـي ورَحْـلـي فـوق أحْـقـب لاحَـهُ
من الـصَّـيْف شَلُّ الـمُـخلفات الرّواجع

ذلك حمار الوحش الذي أضمر جسمه كثرة ملاحقته للإناث من الحمير الوحشية.

وحين ترد الحمر الوحشية الماء، يتأملها الشاعر بعيْني «رسّام» عبقري، لا تُفلت منهما صغيرة ولا كبيرة:

صياماً تذُبّ البقّ عن نُخُراتها
بنهْزٍ كإيماء الرؤوس الموانع
يُذَبّبْنَ عن أقرابهن بأرجلٍ
وأذْناب زُعْر الهُلب، زُرقِ المقامع

الحمرُ واقفة (صياماً) تذب الحشرات عن أنوفها، بتحريك رؤوسها كمن يومىء بـ(لا). والنخرات هي الأنوف، واحدتها نخرة. وعندنا في السودان، الأنف هو (النخرة) وليس (الخشم) الذي يعني (الفم) بلهجتنا. وهن يطردن الذباب الأزرق ـ أو الأسود ـ بأذنابهن القليلة الشعر (زعر الهلب) فالأزعر هو القليل الشعر. وكم من أزعر كثيف الشعر في هذا الزمان:

ثم لمّا شربت الحُمُر الماء، وصف الشاعر شربها وصفاً لا أعرف أن أحداً سبقه إليه:

يداوين من أجوافهن حرارةً
بجرْع كأثْباج القَطا المتَتابع

وهي صورة في غاية العجب، إذ جعل سُرعة شرب الحُمر الوحشية وتتابعه كأنه أفواج متتابعة من طير القطا. وإذا تخيّلت الريح تحرك صفحة الماء، وتجعل منه (أثباجاً) متدافعة نحو حُمر الوحش، سوف

ترى أمواجاً في السماء وأمواجاً في الأرض.

لم يكتف الشاعر بأنه أعطاك (سرعة) الشرب و(صوله) و(لونه) ولكن كأنه نفذ إلى (عقول) الحمر الوحشية، وجعلك ترى، كيف ربطت هذه الحمر، بين أثباج (الماء) وأثباج (الطير) وكيف أحست بالشرب نفسه، بطريقة (بحْتة - Abstract).

ثم أخذ كل هذه الألوان، وطَلَى بها سُرعة عدْو الإبل:

أولئك أشباهُ القلاص التي طوتْ
بنا البُعدَ من نَعْفى (قسا) فـ (المضاجع)
لأخفاقها بالليل وقعٌ كأنه
على البيد تَرْشافُ الظّماء السَّوابعِ

الله أكبر! شرْبُ الحمر الوحشية يشبه تتابع أفواج القطا، وسير الإبل يُشبه شرب الظماء اللائي لم يشربن لسبع، فانظر كم صورة ولّد الشاعر، وهي صور تتكاثر عجباً كلما تمعّنْت.

ولا تنتهي القصيدة قبل أن يفْجأكَ الشاعر بصورة ترج خيالك رجاً. يقول لك إن الإبل:

إذا اغْتبقَتْ فغار تسحّرت
عُلالةَ نجمِ آخر الليل طالع

تخيّل النجوم التي ابتلعتْها هذه الإبل، وكلما أفل نجم، تسحرت ببقايا نجم طلع لها قبيل الفجر! ولم أجد في شعر المحدثين على

غرابة طرائقهم، شاعراً (اغتبق) بنجم و(تسحّر) بنجم.

كان الشعراء، الواحد منهم يخبط رأسه بالحائط لجمال مثل هذا البيت.

■ ■ ■

روى صاحب الأغاني عن الضحّاك بن بهْلول الفُقيْمي قال:

«بينما أنا بكاظمة وذو الرُّمّة ينشد قصيدته (ألا حيِّ أطلالاً كحاشية البُرْد) إذا راكبان ملثّمان قد تدليا من نعْف كاظمة فوقفا يسمعان. فلما وصل إلى الأبيات التي يقول فيها (أحين أعاذت بي تميمٌ نساءها) حسر الفرزدق عن وجهه وقال لراويته «يا عبيد، اضممها إليك». فقال ذو الرمّة «نشدتك الله يا أبا فراس». قال «دع عنك ذا. أنا أحق بها منك». والأبيات هي:

أحين أعادتْ بي تميمٌ نساءها
وجُرِّدت تجريدَ الحُسامِ من الغِمْد
ومدَّت بضبعيّ(١) الرَّبابُ ومالكٌ
وعَمرو وسالت من ورائي بنو سعد
ومن آل يربوع زهاءٌ(٢) كأنه
دُجى الليل محمود النّكاية والرِّفْد
تمنّى ابنُ راعي الإبل شتْمي ودونه
معاقلُ صعْباتٌ طِوالٌ على العبْد

عنى براعي الإبل، الراعي النميري الذي محقه جرير ببيته الذائع:

فغض الطرف إنك من نُميْر
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

في تلك القصيد، أحرق جرير بصواعقه جمهرة شعراء في آن واحد، منهم خصمه الألدّ الفرزدق الذي قال فيه:

لقد خزي الفرزدق في معَدّ
فأمسى جهد نصرته اغتيابا

كان فحلاً كاسراً في الهجاء، لا يقاربه ذو الرمّة ولا حتى الفرزدق الذي وصفه بقوله: «قاتله الله، فما أخشن ناحيته وأشرد قافيته. والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها والشابة على أحبابها. ولكنهم هزوه فوجدوه عند الهِراش نابحاً، وعند الجِراء قارحاً».

كذلك هو. وفي تلك القصيدة أبيات عذبةٌ في المطلع، كأنها قصيدة قائمة بذاتها، يقول فيها:

وهاجَ البرقُ ليلةَ أذرعاتٍ
هوىً ما تستطيع له طِلاباً
فقلت بحاجةٍ وطويتُ أخرى
فهاج علي بينهما اكتئابا
سألناها الشفاء فما شفتْنا
ومنّتْنا المواعِد والخلابا

هذا، وقد هيّجت (أذرعات) أشجاناً كثيرة، من ذلك قول امرىء القيس العجيب:

تنوّرتُها من أذرعاتَ وأهلُها
بيثربَ أدْنى دارِها نظرٌ عالي
نظرتُ إليها والنّجوم كأنها
مصابيحُ رُهبانٍ تُشَبُّ لقُفّال

عجيب، لأنه استشرف من وراء الحُجب النّور الذي تفجّر من يثرب وشيكاً وغمر الدنيا. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه ما وضعت مثقلةٌ أحمالها، وما استقبلت يثرب زوّارها.

هذا، ولا يضير ذا الرُمّة، أنه لم يكن مثل جرير في الهجاء ولا الفرزدق في الفخر، فقد شيد بناء شامخاً لم يعترفوا له به. وأحسب أنه لو خُيّر لما قال مديحاً ولا فخراً ولا هجاء، ولانصرف إلى الغزل والوصف. لكن الشاعر في تلك الأيام كان يضطر إلى الخوض فيما يخوض فيه الشعراء.

حدَّثوا أن جريراً غضب على ذي الرّمّة لأنه ظن أنه يتحيّز للفرزدق، فكان يمد خصومه بالشعر لهجائه. فجاءه ذو الرّمة واعتذر له وأرضاه. وكانت بجرير قرابة برهط ذي الرّمة من ناحية أمه. فأعانه بأبيات في هجاء هشام المرّي. قالوا، ولما سمع هشام الأبيات جعل يلطم ويولول ويقول «قتلني جرير قتله الله. هذا والله شعره الذي لو نُقطت منه نقطة في البحر لكدَّرته».

الشعر في ذلك الزمان، كان (بضاعة) عزيزة، تُباع وتُهدى وتُدان وتُنْتَهب. وكان الفرزدق من أكثرهم انتهاباً لشعر الشعراء الأقصر منه قامة. وكما فعل مع ذي الرمّة فعل مع جميل فاغتصبه بيته الشهير:

ترى النّاس ما سرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أومأنا إلى النّاس وقّفوا

كذلك فعل مع الرمّاح بن ميّادة. حدّثوا أنه وقف على الرمّاح وهو ينشد حتى أتى إلى قوله:

لو أن جميع الناس كانوا بِتلْعة
وجئت بجدّي ظالمٍ وابنِ ظالم
لظلّتْ رقابُ الناس ساجدة لنا
سجوداً على أقدامنا بالجماجم

فخلع لثامه وأقبل عليه وقال «أنت يا ابن أبْردْ صاحبه هذه الصفة؟ كذبت والله وكذب من سمع ذلك منك فلم يكذّبْك. أنا أولى بهما منك».

فذلك قوله:

لو أن جميع الناس كانوا بتلعة
وجئت بجدّي دارم وابن دارم

ولا يُنكر أن آباء الفرزدق كانوا أنْبه ذكراً من آباء الرمّاح الذي أسموه ابن ميّادة، لأنهم كانوا يعيّرونه بأمه التي قالوا أنها من صقلية أو إسبانيا. والأبيات ليست بشيء، وما كان الفرزدق يعجز أن يأتي بمثلها، ولكنه طغيان هؤلاء الشعراء العمالقة. وكان أبو نواس يقول «والله لا يقول شاعر في الخمر وأنا حيّ».

حتى (الأستاذ) لم يترفع عن الغارة على شعر غيره. وقد ضجّ النقاد

في ذلك فألفوا الكتب عن «سرقات المتنبي». والأمر أهون من ذلك. كان متّبعاً عندهم لا يرون فيه أي عيب.

ذلك، وقد رووا أن جريراً قبل أن يصطلح مع ذي الرمّة، جاءه هشام المرّي فأنشده في هجاء ذي الرمّة فقال له جرير «لم تصنع شيئاً». قال «فماذا أفعل يا أبا حزْرة، وأنا راجز وهو يقصد، والرجز لا يقوم للقصيد في الهجاء؟ فلو رفَدْتني». فأعانه جرير بالأبيات التي يقول فيها:

فقُلْ لِعديّ تستَعنْ بنسائها
علىّ فقَد أعيا عَديّاً رجالُها
أذا الرمِّ! قد قلَّدتَ قومَك رمّةً
بطيئاً بأمر المطلقين انحلالُها

فلمّا بلغت الأبيات ذا الرمّة قال «والله ما هذا بكلام هشام، ولكنه كلام ابن الأَتان».

كان جرير، كما وصفه الفرزدق، خشن الناحية شرود القافية. وكان في الهجاء صاعقة لا رادّ لها. وما أبعد الشاعر ـ وأظنه الرّاعي ـ حين قال:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنّما
حلوُ القريض ومُرّه لجرير

وفي مذهبي، أن «حُلو القريض» لذي الرُّمّة.

■ ■ ■

اختلف الرُّواة في صفة ذي الرمّة. بعضهم قال جميل وبعضهم قال دميم. نُسب إلى زرعة بن أذبول، وهو من عديّ قوم ذي الرمّة أنه قال:

«كان ذو الرمّة مدوّر الوجه، حسن الشعر أجعده، أقنى أنزع خفيف العارضين أكحل حسن الضحك مفوهاً، إذا كلّمك كان أبلغ الناس. يضع لسانه حيث يشاء».

ومن الروايات التي تناقض هذه الصورة ما حدّث به ربيح النُّميري قال «اجتمع الناس مرة وتحلقوا على ذي الرمّة، وكان دميماً شخْتاً أجنأ. فقالت أمه: اسمعوا إلى شعره ولا تنظروا إلى وجهه».

يشكك في هذه الرواية أن المنسوب إليه من نُمير قوم الراعي، الذين جرّحهم ذو الرمّة بهجائه. وقد يلصقونها بجرير، فقد كان أكثر له إساءة. والافتعال فيها واضح.

وروى نفرٌ عن رجل يسمى أبا حفصة عن عمته عافية وغيرها من أهله أنهم رأوا ذا الرمّة باليمامة عند المهاجر بن عبد الله «شيخاً أجنأ سقّاطاً متساقطاً».

وهذه الرواية يسقطها أن ذا الرّمّة بما يشبه الإجماع، مات وهو بعد في أوج الشباب، لم يدرك الشيخوخة. وقد ذكروا أن الصيْقل لما سمع شعر ذي الرُّمّة استحسنه وقال «ما له قاتله الله: ما كان إلّا ربيقة، هلّا عاش قليلاً!».

ولا خلاف بين القدماء، أن ذا الرمّة كان أحسن شعراء الإسلام

تشبيهاً، ولكنهم نزلوا به عن طبقة الفحول وكان رأي الشعراء فيه، بوجه العموم، خيراً من رأي النّقاد. روي عن الكميت الشاعر أنه حين سمع قول ذي الرمّة:

أعاذل قد أكثرت من لوم قائل
وعيبٌ على ذي الودّ لوم العواذل

قال: «هذا والله مُلْهَم، وما علْمُ بدوي بدقائق الفطنة وذخائر العقل المعد لذوي الألباب؟ أحسن ثم أحسن». ثم لما سمع البيت:

دعاني وما داعي الهوى من بلادها
إذا ما نأت خرقاء، عني بغافل

قال «لله بلادُ هذا الغلام! ما أحسن قوله وما أجود وصفه. لقد شفع البيت الأول بمثله في جودة الفهم والفطنة».

نبغ إذاً وهو غلام. ومات في عزّ الشباب. وكان جميل الصورة فيما يبدو لي، فشعره شعر (وسيم) فيه روح «أرستقراطي» كما عند ابن المعتز. وكان يترفع عن بذاء الهجاء واستخذاء المديح. وفي لاميّته التي مدح بها بلال بن أبي بردة بن موسى الأشعري يقول:

فلم أقْذِف لمؤمنة حُصانٍ
بحمد الله مرجيّةً عُضالا
ولستُ بمادح أبداً لئيماً
بشعري أن يكون أفاد مالا

وهي قصيدة من مائة بيت أكثرها في الوصف، وأقلّها في المديح، تذكرني في رصانتها بقصيدة الحسن بن هانيء في مدح الخصيب، حيث يقول بيته الشامخ النبيل:

وما أنا بالمشْفوف ضَرْبةَ لازبٍ
ولا كل سلطانٍ عليَّ أميرُ

هذا، وقد ذكروا أن ذا الرمّة كان حين يفرغ من الإنشاد يقول «سبحان الله والحمد الله والله أكبر».

نُسب إلى حماد الراوية أنه قال: «ما أخر القوم ذكره إلّا لحداثة سنّه وأنهم حسدوه».

وقال الأصمعي: «ما أعلم أحداً من العشاق الحضريين وغيرهم شكا حباً أحسن من شكوى ذي الرمّة مع عفة وعقل رصين».

وقال أبو عبيدة «ذو الرمّة يخبر فيحسن الخبر، ثم يرد على نفسه الحجة من صاحبه فيحسن الرد، ثم يعتذر فيحسن التخلص، مع حسن إنصاف وعفاف في الحكم».

ورووا عن محمد بن سلام أنه قال: «كان لذي الرمّة حظ في حسن التشبيه لم يكن لأحد من الإسلاميين. كان علماؤنا يقولون:

أحسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس، وأحسن أهل الإسلام تشبيهاً ذو الرمّة».

ولعل الأصمعي قد أجمل إحساس القدماء تجاه شعر ذي الرمّة بقوله «كان ذو الرمّة أشعر الناس إذا شبّه ولم يكن بالمفلق».

إلّا أننا في هذا العصر أقدر على فهم مرامي قول أبي عبيدة «مع حسن إنصاف وعفاف في الحكم». هذا ما قصد إليه الشاعر الإنجليزي الكبير «وليم ويرْدْزويرث» بقوله «التأمل بسكينة» وما أوصى به الكاتب «غريهام قرين» حين قال: «لا بد أن تقطع الحبل السري الذي يربطك بالتجربة» بمعنى تنظر إليها بحياد وتجرُّد كأنها حدثت لشخص آخر.

ذاك، وقد وصف ذو الرمّة صلته بفنّه أحسن وصف حين قال «من شعْري ما طاوعني فيه القول وساعدني، ومنه ما أجهدت نفسي فيه. ومنه ما جننت به جنوناً. فأما ما طاوعني القول فيه فقولي (خليليّ عوجا من صدور الرواحل). وأما ما أجهدت نفسي فيه فقولي (أإن توسّمت من خرقاء منزلة). وأما ما جننت به جنوناً فقولي (ما بال عينك منها الماء ينسكب)».

لا عجب أن جريراً وهو من هو، غبطه على تلك القصيدة، وقال «ما أحببت أن ينسب إليَّ من شعر ذي الرمّة إلّا قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) فقد كان شيطانه له فيها ناصحاً».

وروي عن حمّاد أنه قال «ما تمّم ذو الرمّة قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) حتى مات. كان يزيد فيها منذ قالها حتى تُوفي».

كانت القصيدة لوحة فنية لا تنتهي، وكأنه أراد أن يصل إلى نهاية

(القول) وفصل (الخطاب) بطريقة نهائية ومطلقة، ولكن هيهات. كان (فناناً) بالمعنى الدقيق لكلمة (فن) كما نفهم ذلك اليوم.

■ ■ ■

القصيدة مفتوحة، لا أول لها ولا آخر، مثل بحر محيط، تبدأ بداية مُعتادة، كما يُخيّل إليك. تظن أنك تقف على الساحل تنظر إلى عرض البحر، والأمواج تذهب بعيداً عنك في اتجاه الأفق. وفجأة حين تصل إلى البيت الثلاثين، إذا أنت في قلب اللّجة، وإذا الأبيات السابقة مثل أمواج تجيء من ناحية الأفق في اتجاه الشاطىء، تصبح البداية لا نهاية، واللاّ نهاية مثل المبتدأ. لا عجب أن الشاعر (جنَّ جنوناً). وقد كان بوسعه أن ينطلق من هذا الموضع:

زار الخيال لميّ هاجماً لعبَتْ
به التّنائفُ والمهْريَّةُ اللُّجبُ
ممرَّساً في بياض الصبح وَقْعتُه
وسائر السير إلّا ذاك مُنجذبُ
أَخا تنائف أغْفى عند ساهمة
بأخْلقِ الدُّفِّ من تصْديرها جُلَب

الوقت بين الليل والصبح، اللّون بين السواد والبياض. المكان متحرك، ليس ثابتاً، كأنه (لا مكان). الشاعر، وإذا شئت (بطل القصة) هو وراحلته شيء واحد، ولكنهما ليسا جسماً صلباً ذا حدود وأبعاد. محض (صوت) أو (طيف) أو (هاجس) مما تهجس به تلك الفلوات، ولا يقلّل من هذا أن الشاعر لا يني يعطيك أوصافاً بالغة الدقة توهمك أن كل ذلك واقع ملموس.

تخيل! الشاعر قد أغفى في ذلك الوضع المتأرجح، كأنه على ذروة موجة في البحر، وأسند رأسه إلى جنب راحلته. جنبها أمْلس، عليه آثار جروح بفعل حزام الرَّحْل. وقد كان سيره مثل حبل متصل، لم ينقطع إلّا الآن، في هذه الإغفاءة القصيرة، من هذه النقطة، كما يبدو لي، تتناثر أطياف القصيدة، وتذهب كل مذهب.

الآن انْظرْ في اتجاه المطلع. سوف تبدو لك الأبيات مختلفة كلية. منْ قبلُ تخيّلتها (أعضاء) في جسم متماسك، له رأس وله ذيل، أو ربما أجزاء في بناء هندسي له جدران وغرف ونوافذ وأبواب. الآن لعلك تراها كثبان رمال متحركة كما وصف الشاعر:

من دمْنة نسفتْ عنها الصَّبا سُفَعاً
كما تنشَّر بعد الطيّة الكتُبُ
سيْلاً من الدِّعْص أغشتْه معارفها
نكباءُ تسحب أعلاه فينسحبُ

بلى. لعلك ترى القصيدة الآن، رمالاً تتفرّق وتتجمّع أو موجات في بحر متلاطم، كلُّ بيت موجة، وكلّ موجة هي البحر. مَنْ قال إن القصيدة العربية تكون لها (وحدة عضوية)؟ ولماذا تكون لها وحدة (عضوية)؟

ما بالُ عينك منها الماء ينسكب؟
كأنها من كُلى مفريّة سَرِبُ

قُلْ إن دمعه كالماء يتبزّل من قرنة مخرّقة! تبكي لماذا يا مسكين؟ حب «مي»؟ تذكّر الديار التي عفت؟ ثم ماذا؟

حدّثوا أنهم رأوا ذا الرمّة واقفاً في مربد البصرة، ينشد قصيدة (ما بال عينك منها الماء ينسكب) ودموعه تسيل على لحيته.

لعلك بكيت لجمال (الفن) الذي صنعته، كما بكى (أوسكار وايلد). أو لعلك بكيت من الغيظ، لأنك أحسست أن الذي بقي في صدرك، أكثر بكثير مما أسعفت به الكلمات. تعرف ما تريد أن تقول، ولا تطاوعك الكلمات. تريد أن تصل إلى نهاية (القول) بشكل (مطلق). لذلك جُننت جنوناً، وتركت القصيدة مفتوحة بلا نهاية. وبعدك أحس الحسن بن هانىء الإحساس نفسه، فالتمس الخلاص حيث لا خلاص:

أديرا عليَّ الكأس تنكشف (البلْوى).
ما هي (البلوى) يا غفر الله لك؟
It is the cause my soul
(إنها البلوى يا روحي).
هكذا قال شكسبير على لسان عطيل.

هذا، وحين زاره طيف (ميّ)، أم هلْ زاره طيف (مي) فهي معه أنّى توجّه وحيثما ذهب ـ جاءته متجردة من ثيابها كما عند (روبنز)، فارعة الطول، عظيمة العجز، ضامرة البطن، كحلاء شديدة بياض العينين، في غمام من العطر حملها في خياله كل تلك الأعوام، لا بيضاء ولا صفراء، لونها بين الفضة والذهب:

إذا أخو لذّة الدّنيا تبطّنها
والبيت فوقهما باللّيل مُحتجبُ
سافتْ بطيّبة العرنين، مارنُها
بالمسك والعنبر الهندي مُختضبُ

تزداد للعين إبهاجاً إذا سفرت
وتحرَجُ العينُ فيها حين تنتقبُ
لمياءُ في شفتيْها حُوّة لعسٌ
وفي اللثات وفي أنيابها شنبُ
كحلاء في برج صفراء في نعَج
كأنّها فضة قد مسّها ذهبُ

لا يغرنّك دقة الوصف، فما هي إلّا طيف، محض طيف يجيء ويذهب. أو كما قال ابن المعتز يصف ليلة ممطرة:

جاءت بجفنٍ أكحلٍ وانصرفت
مرهاء من أشبال دمع منسكبْ
إذا تعرّى البرق فيها خِلْتَهُ
بطنَ شجاع في كثيب يضطربْ
وتارة تُبصره كأنه
أبلقُ مال جلّه إذا وثبْ
وتارةً تخاله إذا بدا
سلاسلاً مصقولة من الذّهبْ

تقول هل أخذ ابن المعتز ذهبه من خزائن ذي الرمّة؟ لا بد.

هذا وقد فسّروا أن اللمياء هي التي في شفتيها سمرة تضرب إلى السواد، وكانوا يرون ذلك من آيات الجمال، وهو كذلك في ديارنا إلى اليوم، يصنعنه صناعة إذا لم يكن خلْقةً. والشنب عذوبة في الفم مع حُسن في الأسنان. والبُرج اتساع في بياض العين. والنّعَجُ البياض في لون الجسم.

كل ذلك يتشكّل ويذوب في خيال الشاعر، وهو مسندٌ رأسه إلى جنب راحلته، بين الظلام والضياء، بين السواد والبياض.
عنده (ميّ) و(لا ميّ)!

■ ■ ■

أسند الشاعر رِأسه إلى جنب راحلته، كأنه وإياها على ذرْوة موجة في بحر. بين الليل والصباح. بين الظلام والضياء. رفيقة الدّرب والوسيلة، وشريكة (الإنسان) في المغامرة. يعرفها ولا يعرفها، كما يعرف نفسه ولا يعرفها.

كـأنـهـا جـمـل وهْـمٌ ومـا بـقـيـتْ
إلّا الـنَّـخـيـرة والألـواح والـقـصـبُ

مثّل الجمل لعظمها، أُنثى كالذّكر، لكنها نخلَتْ وذابَت. أذابها طول السير، فأصبحت كلا شيء. محض طيف يختفي ويتشكل في صور عدة. تارة حمار وحش وتارة ثوراً برياً، وتارة ظليماً (الإنسان) وهْم، يمتطي وهماً، يروح ويجيء وهْماً بعد وهم.

تُـصـغـي إذا شـدّهـا بـالـكُـور راكـبُـهـا
حتى إذا مـا اسـتـوى فـي غَـرْزهـا تـثـبُ
وثْـبَ الـمُـسـحَّـج من عـانـات (مَـعْـقـلـة)
كـأنّـه مـسـتـبـانُ الـشـكِّ أو جَـنـبُ

عجيب. كانت في البيت الأول (ناقة) ذكية تعرف صاحبها. أصغت إليه، وأمهلته حتى استوى على (غرْزها)، وهو السّيْر، الذي

توضع فيه القدم. لم تنتظره حتى يجلس على الرّحْل. ثم وثبت. وفجأة أصبحت في البيت التالي شيئاً آخر. أصبحت حماراً وحشياً معضَّضاً لكثرة ما هاوش الحمُر، من قطيع من مكان بعينه هو (معقلة) يظلع كأنه يشكو شيئاً في جنبه. الطّيف تشكّل صورة محسوسة واضحة كل الوضوح.

يحدو نحائص أشباهاً مُحَمْلجة
وُرْقَ السرابيل في ألوانها خطَبُ
له عليهنّ بـ (الخلْصاء) مرتعه
فـ (الفوْدجات) فجنْبَي (واحف) صخب

مع وثوب الناقة، انهض الشاعر هواجع الخيال، كما تهيج العاصفة في البحر. فجأة ترى (رجلاً) كالمجنون، دائم الحركة والصراخ والصّخب، يسوق (نسوة) بين (الخلصاء) و(الفوْدجات) و(واحف). يسوقهن سوْقاً عنيفاً، لأنه يعرف الهدف، وقد قرّ عزمه على أن يوصلهن إليه طوعاً أو كرهاً. وهن متشابهات نحائص لم يحملْن بعد، متسربلات بسرابيل وُرْق، ناعمة الوبر، وألوانهن تضرب إلى السّواد.

فراح منصلتاً يحدو حلائلَه
أدْنى تقاذُفه التقْريب والخبَب
كأنه مُعْوِلٌ يشكو بلابلَه
إذا تنكّب عن أجوازها نكُبُ

هنّ زوجاته حلالاً، حسب أعراف الوجود الأزلية، مشغول بهن، يحمل همهن، يعدو بهن، أدنى سيره الركض، لأنه يعلم أنه إذا لم

يصل بهن إلى الهدف، فسوف يهلكْن ويهلك. وكلّما تنكّبت منهن واحدة عن القصد، أعادها بصراخ وعويل. إنه (البغْل) المسؤول، وتذكَّرْ أن من معاني (مُغْول)، كثير العيال. وسوف ترى وشيكاً أنه يسوقهن إلى حيث يكمن الهلاك، إذْ ظن أنه يجد النّجاة.

كأنّه، كلما أرفضت حزيقتُها
بالصُّلب من نهشه أكفالَها، كلِبُ
كأنها إبلٌ ينجو بها نفرٌ
من آخرين أغاروا غارة، جَلَبُ

هذا الجن الذي عنّ للشاعر في غفوته، وهو مسند رأسه إلى جنب راحلته، هذا السائق الشرس المجنون (العضْلَبي)، يصرخ وينوح وينهش أكفالهن كأنه مصاب بداء الكلَب، إلى أين يقصد؟

والهمّ (عين أُثال) ما ينازعه
من نفسه لسواها مؤرداً أَرَبُ

لا عجب. جرَّب موارد كثيرة، لكنه لم يجد مثيلاً لعذوبة (عين أثال). ثمّة الري والأمان. ذكرى الورود في التّبع، ذكرى لا تُنسى. وهي ذكرى أفسدت على إبل أبي العلاء شربها عند ملتقى الأنهار بالبصرة، فقال يعزّيها:

فآبك هذا أخضرُ الجال مُعرضاً
وأزرقُ فاشرب وارْعَ ناعمَ بالِ
ستنسى مياهاً بالفلاة نميرةً
كنشيانها وِرْداً بـ(عين أُثال)

وحين تعرف ما سوف يحدث، تعجب هل كان أبو العلاء يشير إلى ورود حُمُر ذي الرمّة، وهل الضمير في (كنسيانها) يعود إلى تلك الحمر، فما أظنّها عادت إلى تلك العين بعد الذي حدث لها ثمّة.

وصل (البغْل) بحلائله عند الغلس، وقد انصدع عمود الفجر، وصل بين الظلام والضياء، بين السواد والبياض، كما تتخلّق أمْشاج القصيدة.

فغلَّستْ وعمود الصبح منصدعٌ
عنها وسائره باللّيل مُحتجبُ
عيناً مُطحْلبةَ الأرجاء طاميةً
فيها الضفادعُ والحيتان تصطخبُ

لنترك صاحبنا ونساءه عند (عين أُثال) فلن يهنأوا بالورود، ولْنعرِّج على محمد أحمد عوض الكريم الملقب بالحردلّو، ولننظر كيف فعل (البطل) عنده، التّيس، فحل الظّباء. ذاك أيضاً مشغول بهمّ حلائله، يسوقهن إلى هدف بعينه. حذرٌ كثير الشكوك لا يسير على غير هدى، لذلك تركهن وذهب يرتاد ويحقق من مخاطر الطريق. عاد إليهن مع الفجر، وصرخ بهن مؤذناً بالرحيل:

من (أُمّات رِميله) مترْكشاتْ لإشْمالْ
سَمِعْنَ هَدَرى لأقدام كَريزْ وأضْلالْ
اشرحط بريقنْ راح يشيل وَلْوالْ
وتيسنْ زاغلنْ باكر مع الشّهلالْ

ملْنَ يساراً من (أمّات رميله) فلم يلبثْن أن سمعْن هدير الرعْد

وأظلّتهن ظُللُ غيم كثيف، وتلامعت البروق في السماء كأنها تولول، وهنَّ بلا (بعل). لبثن ينتظرن عودته، على قلق وخوف، حتى جاءهن مع الفجر وأغضبْنَه وأغضبهُنّ على المسير.

عند الفجر أيضاً تبدأ قصة ابن المعتز، لكن ما أبعد الفجر عنده، عن فجر الحردلّو وفجر ذي الرمّة:

لـمّـا تـقـرّى الأُفـق بـالـضّـيـاء
مـثـل ابـتـسـامِ الـشّـفـة الـلّـمْـيـاء
وشـمّـطـت ذوائـبُ الـظّـلـمـاء
وهـمّ نجـم الـلـيـل بـالإغـفـاء
قُـدْنـا لـعـين الـوحْـش والـظّـبـاء
داهـيـةً مـحـذورةَ الـلّـقـاء

لماذا يا رحمك الله؟ ما كان غيلان ولا أبو العلاء ولا الحردلّو، يرضى بهذا. وقد قال الحردلّو:

خلَقنْ كيف برمُولْهِنْ دَمير حَبَّالْ؟

يعني أن الظباء، هذه المخلوقات الجميلة، كيف ينصبون لهن الشّراك؟

أيّ شرّ مستطير يحمل في جوفه هذا الفجر الجميل الذي افتر كافترار الشفة اللّمياء، بينما همَّ النجم المنعَّم بالإغفاء، بعد أن قضى الليل في السّمر والقصف. وشتان بين ماء ذي الرمّة الذي تطفو عليه الطحالب وتصْطخب فيه الحيتان والضفادع، وماء ابن المعتز:

وتــرى الــرّيــاح إذا مــســحْــن غــديــره
صــقّــلــنــه ونــفــيْن كــل قــذاةِ
مــا أن يــزال عــلــيــه ظــبــيٌ كــارعٌ
كــتــطــلّــعِ الحســنــاء فــي المرآة.

سوف تتحطم المرآة وتتناثر الدماء ويعكّر (الإنسان) السادر في غيّه سكينة الأشياء. وهو شعر جميل، لا شك، ولكن الفارق بين هذا وذاك، كالفارق بين الموهبة والعبقرية.

■ ■ ■

بلغ بهنّ القصد، ولم يكد ينصدع عمود الفجر، وسمعن نقيق الضفادع وبلْبطة الحيتان في البحيرة. ثم رأين في الضوء الشاحب ماء (أُثال)، الحلم الذي احتملن في سبيله وعثاء الطريق، يحدوهن قائد همام شجاع رابط الجأش، كما وصف ابن المعتز:

شاحجٌ، يرفع النّهيق كما غرّد
حادٍ بأيْنُقٍ نجدي

بطل ملحميّ في الحقيقة، يصفه كل واحد من هؤلاء الشعراء الثلاثة الفحول، كلّ على طريقته، وكأنه يصف جانباً في شخصية واحدة متعددة الجوانب.

أهاج خيالُ ذي الرمّة رياحَ الصّيف، فأذهبت الماء وجفّفت العشب، وهضمت الحمر آخر ما تبقّى من الطعام المخزون في بطونها. تجمّعن

حوله وأخذن ينظرن إليه بتلك الطريقة التي تثير بها الأنثى هموم البعْل. «لم يبق ماء ولا طعام يا أبا العيال، فماذا أنت فاعل؟».

إلّا أن صاحبهن ليس بالمتواني ولا التُّكلَة. فهم لفوْره ما يجب عمله، واستقرَّ عزمه أن يسري بهنّ بليل، ويبلغهنّ الماء بالغداة.

والهمُّ (عين أُثال) ما ينازعه
من نفسه لسواها مورداً أرَب

كذلك عند ابن المعتز، إلى جانب أن فيه حميّة وغيرة على حريمه:

شغلته لواقحٌ ملأتْه
غيرةً فهو خلفهن كَميُّ
قابضٌ جمعها إليه كما
جمّع أيتامَه إليه الوصيُّ
فدعاها لتشرب الماء
عطشان فكرّت لوقعهن لَغِيُّ

هذا، والطريق عند الحردلّو أطول، والهدف أبعد، ولا بد من الإقامة والرحيل. وعلى (البعل) أعباء أثقل، فنساؤه يطلبن مكاناً آمناً يضعن فيه أحمالهن. لذلك هو شديد الحذر يخطو كل خطوة بحساب:

خلاَّهنْ رُتوع في بقيلٍ وخَرجَتْ نالْ
لا منْ دوّرْ الوادي السرى سَيّالْ
فوق (قَمزونْ) طلع شافْ في مليْتُه زوالْ
وقلَعةْ (كَوْ) حفيرْها لقى فيها نعالْ

ترك حلائله رُتَّعاً في مرعى من البقل والنّال، وراح يرتاد سراة الوادي، أي أعلاه، والوادي سائل بمائه. رأى من هضبة (قمزوز) أطيافاً فأحس الخطر، ثم وجد قليلاً من الماء، بمقدار ما يغطي النعل (نعال) في الحفرة أسفل قلعة (كَو). عاد إليهن عند العصر، وقد استقر عزمه أن يسري بهن بليل:

جاهن منْقلب وقتاً عصيرْ وشَفافْ
وكاسبَ ليلُه بيهنْ مَن صدفْ ما نْخافْ
ديلْ الطَّبْعهنْ دايْمَ الأَبدْ عُيّافْ
وفي (نايط السّروج) لقين بقيلَنْ جافْ

فلتقرّ أعينُهن، هؤلاء الظباء المضيفات. إنهن في حمى بغْل باسل لا يهاب فُجاءات السرى، ولا مخاطر الطريق. سوف يوصلهن سالمات إلى الهدف إن شاء الله. لندعهن يرتحن قليلاً في (نايط السُّروج)، ولنذهب إلى ابن المعتز لنرى كيف فعل صاحبه ونساؤه:

فتبدّى لهنّ بالنّجف المُقفر
ماءٌ صافي الجمام غَديٌّ
يتمشّى على حصى سلب
الرّيح قَذاه فَمتْنُه مجليٌّ
فإذا ضاحكته ذرةُ شمس
خِلته كُسّرتْ عليه الحُليٌّ
وسْط غَاب وأَيْكة يتغنّى
فوق أغصان أيْكِها القُمريٌّ

هذا الفردوس العجيب، فردوس ملعون! وصلته الحمر، يسوقها الفحل الكريم، وقد أذاب أجسادها الجوع والظمأ. لكنّها لن تنعم

بالورود. ثمّة يكمن شيطان على هيئة إنسان، يذكره لك الشاعر، وكأنّه لا يبالي:

عندها مُلْحمٌ بسهْم خَضيبِ
كلّ يوم له شِواءٌ طريُّ

يا له من جزّار، أقام عند ذلك النّبع الصّافي، ليكدّر على مخلوقات الله الجميلة عيشها، ويعكّر صفو أحلامها. وهذا الشاعر المُجيد المُرهف كأنه لا يبالي. علينا أن نلجأ إلى الشاعر الكبير حقاً، كبير القلب والخيال، لنعرف حقيقة هذا الشيطان الجالس عند باب الفردوس:

وبالشمائل من (جِلاّن) مقتنصٌ
رَذْلُ الثياب خفيُّ الشّخصِ مُنْزَربُ
مُعِدٌّ زُرقٍ هدت قُضْباً مصَدَّرة
مُلْس البطون حداها الرّيش والعقَبُ
كانت إذا ودَقَتْ أمثالُهن له
فبعضُهن عن الأُلاّف منشعبُ

جالبُ أوصاب، ومفرِّق أحباب، هذا (البلاء) الآدمي. رثّ الثياب، بشعٌ قميء الهيئة، كأنه شبح، منزرب في جلبابه، أعد سهاماً ملس البطون مثل الأفاعي. (الرجل) الكريم، بعلهن قد بلغ بهن القصد، أو ظنّ أنه، وقد ظهر لهن ماء النبع كأنه حلم قريب المنال. وهن فاتنات سرابيلهن ناعمة الوبر تضرب إلى السواد، وفي أحقابهن بياض. دخلن الماء، فأحسسن شيئاً وتوجّسن خيفة. أخذت أكبادهن ترتجف في أحشائهن من الهلع.

تجاذبتهن الرغبة في النجاة، وشهوة العبّ من ذلك الشراب السحري الذي قطعن إليه كل تلك الأبعاد. ثم طغى خرير الماء على الخوف:

فأقبل الحُقْبُ والأكباد ناشزة
فوق الشراسيف من أحشائها تجبُ
حتّى إذا زلجت عن كل حنجرة
إلى الغليل، ولم يقصعْنه، نُغَبُ

تخيّل! بعد كل ذلك العناء، لم تكد تبلّ ريقها من الماء. هنا يخبرنا ابن المعتز دون اكتراث:

فتمطّى له بأهزعَ ماض
موقَذ النّصل متْنه مبريُّ

هكذا تنتهي قصّته. لم يقل لنا هل الرامي أصاب أم أخطأ. ولكن قوله (ماض) يرجّح أنه قد أصاب، فلا بارك الله له.

أما ذو الرمّة الشاعر الفنّان حقاً، الإنسان حقاً، فإنه لم يترك مجالاً للشك. عاطفتُه مع الوحش:

رمى فأخطأ والأقدار غاليةٌ
فانصعْنَ، والويلُ هاجيراهُ والحربُ
يقعْن بالسّفح مما قد رأين به
وقعاً يكاد حصى المعزاء يلتهبُ

تتنفّسُ الصُّعداء، وتقول «الحمد لله». تترك الإنسان المعتدي، يولول

ويندب، ويعزّيك أنك تعلم أن ذلك البغل الكريم، سوف يجد لنسائه مورداً آخر، لعلّه أقلّ عذوبة من (عين أثال)، ولعلّه لا يعود أبداً إلى ذلك النبع المحبوب الملعون.

■ ■ ■

كما يطرف جفن العين، أو كما تُقلب الصفحة في (ألبوم) صور، أو كما يَتْبع مشهدٌ مشهداً على شاشة السينما ـ أو قُل، كما يتلاعب رسّام عبقري مجنون مثل (فان غوخ) بالألوان ـ يصرف هذا الشاعر العجيب المشهد الأول، وينادي مشهداً آخر.. يفعل ذلك بشجاعة وجرأة تتركانك تلهث:

أذاك؟ أم نَمِشٌ بالوشْي أكْرُعُه
مسفَّعُ الخد غادٍ ناشطٌ شَبِبُ؟

بين قوله (أذاك؟ وقوله أمْ)، يختفي عالَم كامل، ويولد عالمٌ جديد. أساحرٌ هو؟

رُوي عن جرير، أنه خرج حاجاً مع المهاجر بن عبد الله، فلقيا ذا الرمّة، فاستنشداه، فقال:

ومِنْ حاجتي لولا التّنائي وربّما
منحتُ الهوى من ليس بالمتقارِبِ
عطابيل[٣] بيضٌ من ربيعةِ عامرٍ
عذابُ الثّنايا مشرفاتُ الحقائبِ[٤]
يقطن[٥] (الحَمى) و(الرّملُ) منهنّ مَرْبعٌ
يشربْن ألبانَ الهجانِ النّجائبِ

فقال المهاجر لجرير «أمجنونٌ هو؟».

لا بل هو شاعر موهوب حتى الجنون. ساحرٌ، مثل (برسْبرو) عند شكسبير، يشير بعصاه، فيختفي عالم في الخيال، ثم يُشير، فيظهر عالَم.

انظرْ! يقتحم الشاشة مخلوقٌ يضجُّ بالحياة من مخلوقات الله متفردٌ وحده في الأفق. لِمَ ذلك؟ حولَه الثّرى والنّبات والجماد والأشياء. وفوقه قُبّة السماء. تلتئم عليه الآفاق، كأنه (أمير) من أمراء الحياة. انظر إليه يتشكّل في الخيال، ويتوضّح. موشّى مثل نسيج نادر، أبيض، على سيقانه نقط سود، خدُّه مسفع داكن يغلي بالنشاط ويتفجر بحيوية الشباب، كما وصف ابن المعتز:

قاعداً في الثّرى يطيّر ساقاً
يتمشى فيها شبابٌ وريّ

لبث يقتات مما تتفطّر عنه الأرض آخر الصيف بلا ماء، إلّا من النّدى في برودة الليل. يُظلُّه ظل شجر الأرض. ثم حملت إليه الرياح عبق نبات الربّه، فتبعها إلى (ذي الفوارس):

أمسى بـ(وهبين) مجتازاً طريق
من (ذي الفوارس) تدعو أنفه الرِّبَبُ[٦]
حتّى إذا جعلته بين أظهرها
من عُجمة[٧] الرّمل أثباجٌ لها حِبَبُ[٨]
ضمّ الظلامُ على الوحشيّ شمْلتَه
ورائحٌ من نشاص الدّلْو مُنسكب

كم لُجّة غاب في غمراتها هذا الثور الوحشيّ! أثباج الرمل، وأمواج الليل، ثم هطل عليه طوفان من السماء، فهو في ظلمات بعضها في بعض. وقوله (ورائح من نشاص الدّلو منسكب) يقصد السحاب الكثيف الممطر الذي يأتي في نوء الدّلو، ولكن الشاعر كأنما جعل في السماء دلاء تصب الماء على ظهر الثور:

فـبـات ضـيْـفـاً إلـى أرطـأة مـرتـكـم
مـن الـكـثـيـب بـهـا دفْءٌ ومُـحـتـجـبُ
مـيـلاءَ مـن مـعـدن الـصّـيـران[٩] قـاصـيـةٍ
أبـعـارُهـن عـلـى أَهـدافِـهـا كـثُـبُ

لا أظنُّك لم تلتفت لقوله (فبات ضيفاً إلى أرطأة مرتكم)، فهذا الشاعر السابق لزمانه، لا يرمي الكلام جُزافاً. الطبيعة، أو (البيئة) كما نقول اليوم، هي لديه في إخاء تام، ما خلا الإنسان. هذه السيدة الكريمة، شجرة الأرطي ـ والأرطي مثل الطرفاء ـ النامية في كثيب متراكم، أغصانها متهدّلة على الرمل حواليها، فيها وقاية ودفء. وقد استضافت من قبل قطعاناً من بقر الخلاء، تركن عندها ذكريات إقامتهن، أبعاراً حال لونها ويبست فكأنها التوت والعنب.

مرّ بساحتها عابر سبيل، طارق ليل من مخلوقات الله، والرّيح تنفخ بالبرد، والمطر يهطل، فهشّت له وقالت «يا هلا ويا حَبا»:

إذا اسـتـهـلّـت عـلـيـه غـبْـيـةٌ أَرَجَـتْ
مـرابـضُ الـعـيـن حـتّـى يـأْرَجَ الخشـبُ
كـأنّـه بـيـت عـطّـار يُـضـمّـنُـه
لَـطـائـمَ المسـكِ يـحـويـهـا وتُـنـتَـهـبُ

يا لها من ضيافة! أعدّت له مخدعاً آمناً دافئاً يفوح بروائح الصندل والمسك.

هطل المطر غزيراً زخّة بعد زخّة، فابتل الحطب في مرابض البقر الوحشي، ففاحت المرابض بروائح شذيّة، خليط من رائحة الأرض والحطب المبتل، والروائح التي تركتها الوحوش وراءها، روائح أجسادها وأبعادها وأحلامها وذكرياتها. كتابات غامضة في سجل الطبيعة، أذاع أسرارها هطول المطر.

اندلق المطر وأصبح الكون بأسره (بيت عطّار)، فسبحان الله الخالق المصور القهّار.

هل يوجد نزلاء غير صديقنا الثور الوحشي في تلك (المضائف)؟ إنني أوثر أن أتخيّل أنه وحده في تلك الفلاة، في ضيافة شجرة الأرطي:

تجلو البوارقُ عن مُجْرَمِزٍّ لهقٍ
كأنه متقبيّ يَلْمقٍ[١٠] عزَبُ
والودْق يستنُّ عن أعلى طريقته
جوْلَ الجُمان جرى في سِلْكه الثُّقبُ

قول الشاعر (عزَب) يقوّي ظنّي أن صاحبنا وحده، ليس معه أحد. هل تزوج وطلّق؟ هل هجرته حلائله؟ هل أحبّ ولم ينل من يحب؟

إنه هنا وحدَه، يحلّ وحْدَه، ويرحل وحْده، ويحارب وحده، كما

سوف نرى. يلمع البرق كما تفتح العين وتغمض، فنرى (رجلاً) أعزب مشتملاً بعباءته، متجمّعاً على ذاته في جوف الكهف وجوف الظلام، ثم يومض البرق، فنرى قطرات المطر تتدحرج على ظهره كما تنثر حبات جُمانٍ انفرط عقدها. تفاصيل دقيقة بريشة فنان قارح، هي عناصر في (دراما) بالغة البساطه وبالغة التعقيد، وجسم هو من بطل (ملحمي) وإذا شئت، من بطل (وجودي)!

يغشى الكناسَ بروقيه ويهدمُه
من هائل الرّمل مُنْقاضٌ[١١] ومُنْكثبُ
إذا أراد انكراساً فيه عنَّ له
دون الأرومة من أطْنابها طنب

لا يكاد المكان يتسّع له، كلّما تحرّك اصطدم قرناه العظيمان (روْقاه) بجوانب الكناس، فيهدمها ويهيل عليه الرَّمل، وإذا انضم أو تمطّى في مرقده، ضرب قرناه بعروق الشجرة وعاقاه عن الحركة.

وقد توجّس ركْزاً مقفرٌ نَدُسٌ[١٢]
بنبأة الصوت، ما في سمعه كذبُ
فبات يُشئزُه ثأْدٌ ويُسْهره
تذوُّبُ الرّيح والوسواسُ والهضبُ

لله أنت من عابر سبيل. ساهراً تتقلّب، تُصغي إلى عواء الرّيح والوساوس، وأنت في ضيافة شجرة الأرطي تنتظر الصباح. يجلو عنك البرق في ظلمات كهفك، مرّة بعد مرة، كما يضيء الفنّ العظيم ظلام الحياة. أتركك في رعاية الله، فأمامك منذ الغداة موقفٌ عسير.

تدرك الآن، لماذا ركّز الشاعر انتباهك على قرنيْ الثور. لشدة ما فعل ذلك، فكأن الثور كلّه قرون، تذكره يتلمّظ في الكهف، يتقلب على جانبيْه، يضرب قرناه الجدران، فينهدم عليه الرمل، ويصطدمان بالأرض وبعروق شجرة الأرطي. القرنان سلاحه، فهو مدجّج بالسلاح، يحارب في ظلمات الكهف، معركة لم تحدث بعد.

ثم كما يفعل مخرج سينمائي مُلهَم، يسلّط الشاعر الضوء، درجة درجة، على وجه (البطل):

حتّى إذا ما جلا عن وجهه فلقٌ
هاديه في أُخريات اللّيل مُنْتصِبُ
أغباشَ ليلِ تمامٍ كان طارَقَه
تطخْطخُ الغيْم حتّى مالَه جُوَبُ

تطخْطَخَ الغيم، أي تراكمت ظلماته على ظلمات الليل، فكان كطراق النّمل، طبقة على طبقة. وكل ذلك تلطّخ به وجه الثور الوحشي. ثم جلا عنه ضوء الصباح، قليلاً قليلاً، كما تغسل الخضاب الأسود الكثيف. وفجأة ينطلق الجنّ من الحبس:

غدا كأنّ به جِنّاً تذاءبَهُ
من كلّ أقطاره يخشى ويرْتقِبُ

عجيب! أمجنون هو؟ ألمثل هذا قال المهاجر لجرير حين أنشدهما، «أمجنون هو؟».

الآن سوف تقع الحرب. في جانب، هذا (القرن). وحده إزاء جيش. عابر سبيل، لا تعلم من أين جاء، وإلى أين يقصد، وما هي

قصته. لا يضمر شراً ولا عدواناً. مسافر وحده في سبحات ملكوت الله. فوقه السماء، وتحت حوافره الثّرى، وحوله الآفاق. حر طليق، نبيل أرستقراطي في مملكة الحياة، ليس أقل.

وفي الجانب الآخر، في المعسكر الآخر؟ منْ يا ترى؟

هاجت له جُوَّعٌ زُرق مُخصَّرةٌ
شوازبٌ لاحها التفريث والجنبُ
غُضْفٌ مُهرَّتَةُ الأشداق ضاريةٌ
مثلُ السراحين في أعناقها العذَبُ

هذا هو الجيش، ويا له من جيش! كلاب سود ضامرة البطون من الجوع، آذانها مائلة إلى الوراء كأنها الرّيش في السهام، وفي أعناقها سيور الجلد، رمز عبوديّتها، وهي في شراستها مثل الذئاب.

إنما أين سيّدُ هذا الجيش الكئيب، الذي يحرّك الحرب من وراء ستار؟

ومطعمُ الصيد هَبّالٌ لبُغْيته
ألفى أبَاه بذاك الكسب يكتسبُ
مقزَّعٌ أَطلسُ الأَطمار ليس له
إلّا الضرَّاء وإلّا صيدَها نشبُ

دونَك هو. آدميٌ كريخ الهيئة، عليه أطمار ثياب بالية متّسخة، وشعره في رأسه نُقُرٌ مثل كُتلٍ متفرّقة من الغيم. العدوان تجارته، أخذها أباً عن جد. ذلك ديْدنُه وميراثُه.

هنا، يفعل الشاعر شيئاً عجيباً حقاً. لا يزج بـ (البطل) في المعركة فوراً كما يفعل الحمقى، وقد أخبرك من قبل أنّه (مُقْفِرٌ نُدْسٌ) أيْ أنه ذكي فطنٌ مراوغ عليمٌ بتلك القفار. ولا بدّ أنه خاض حروباً من قبل. ولا بدّ أنه قدّر أنه قد ينجو بنفسه دون قتال، والفرُّ، ولا أقول الفرار، ليس عاراً، حين تكون القُوى غير متكافئة:

فانصاع جانبَه الوحْشيَّ وانكدرَتْ
يلْحبْن لا يأْتلي المطلوبُ والطلبُ

الجانب (الوحشيّ) هو الجانب الأيمن، أما الأيسر فهو الجانب (الأنسي). وتلك في نظر الشاعر قسمة عادلة، فالإنسان في رأيه (أعسر) على مذاهب الحياة.

المطلوب هو الثور الوحشيّ، فمن الطالب؟ ليس الكلاب بالتأكيد، فهي ليست إلّا أدوات يحرّكها مكر الإنسان.

الآن، يفعل الشاعر ما هو أعجب. كان بوسع الثور أن ينجو بنفسه، ولكن فجأة يكفّ عن الجري:

حتّى إذا دوّمت في الأرض راجعه
كبْرٌ، ولو شاء نجّى نفسَه الهربُ
خَزايةٌ أدْركَتْهُ بعد جولته
من جانب الحبْل مخلوطاً بها الغضبُ

توقّف، وتركها تلحق به، مدفوعاً بأحاسيس الكبرياء، ومخافة العار والغضب. وقد غضب، ربما، لأنه أحس أن الحرب قد فُرضت عليه

فرضاً دون ذنب، وهو سائرٌ في طريقه، لا يُضمر شراً لأحد. أما الآن، وقد وطّن نفسه على القتال، دفاعاً عن النفس، فسوف نرى منه العجب، وسوف نفهم لماذا ركّز الشاعر انتباهنا منذ البداية، على قرني الثور، فهما سلاحه الوحيد في مواجهة هذا الجيش الكئيب:

فكَرَّ يمشُق طعناً في جَراشِنِها
كأنَّه الأجْرَ في الإقبال يَحْتسِبُ
فتارة يخِضُ الأعناق عن عُرُضٍ
وَخْضاً وتُنتظَمُ الأسحارُ والحجُبُ
يُنْحي لها حدَّ مَدْريّ يجوف به
حالاً ويصرُد حالاً لهْذمٌ سلِبُ

ها أنت ترى (الرّجل) المسالم قد تحوّل إلى مقاتل شرس، يطعن صدور الكلاب، طعناً سريعاً متتابعاً، ويضرب بقرنيه ذات اليمين وذات الشمال، فيبْقُر البطون ويمزّق الجلود. كأنه رمز للحق إزاء الباطل، يطلب الثواب بقضائه على الشر والعدوان:

حتّى إذا كُنّ محجوزاً بنافذة
وزاهقاً وكلا روْقيه مُخْتَضِبُ
ولّى يهُذُّ انهزاماً وسْطَها زَعِلاً
جذلانَ قد أَفْرَخَتْ عنَ روْعه الكُرَبُ

ترك جثث الكلاب منثورة على أرض المعركة، ومرّ بينها فرحاً نشطاً غاضباً، قرناه يقطران دماً يلمع ولا بد في ضوء الصّباح.

كـأنّـه كـوْكـبٌ فـي أثـر عـفْـرِيَـة
مـسـوّم فـي سـواد اللّـيـل مُـنْـقَـضِـب

كأنه شهابٌ ثاقب انقضَّ على شيطان من مردة الجن في ظلام الليل. انظر إليه مهوّماً في الفضاء الرَّحب، مزهواً بانتصاره، فرحاً بحريّته، وقد الْتأمت حوله الآفاق. وهل كثير على هذا الشاعر العبقري أن نقول، أنه أقام هذا الثور الوحشي رمزاً لنوازع الخير في الوجود، في مجابهة قوى الشرّ والعدوان؟

■ ■ ■

إن كنّا قد رأينا في مشهد الحمار الوحشيّ مثلاً حياً على غيرة (البعْل) على حريمه، ورأينا في مشهد الثور صورة ناصعة للكبرياء والاعتداد بالنّفس، وإباء الضّيم، فسوف يقدم لنا الشاعر في قصة الظليم، فحل النّعام، صورة عجباً من معاني الأبوة والأمومة.

لشدة ما تستهوينا هذه المشاهد، لعلّنا ننسى أن الشاعر إنما يصف ناقته. ليس أنها تشبه حمار الوحش والثور البري والظّليم، بل هي (تصير) حمار وحش، ثم (تصير) ثوراً برياً، ثم (تصير) ظليماً. وكل واحد من هذه الوحوش، له صيرورات عدة، فكأن الشاعر يمتطي ظهر حيوان أسطوري، يتناثر شظايا في الخيال لا حصر لها.

يصرف المشهد، كما يفعل الساحر، ويدعو مشهداً آخر. يقول (أذاك؟) فيختفي عالم، ويقول (أمْ؟) فيظهر عالم جديد.

أذاكِ؟ أم خاضبٌ بـ (السَّيِّ) مرتعُه؟
أبو ثلاثين أمسى وهو مُنْقلبُ؟

تعرف حالاً، حقيقة مهمّة عن هذا (البطل)، أنه أبٌ وأن له عيالاً ثلاثين. وسوف تدرك فيما بعد، أن الأبوة هي جوهر هذه القصة. وتعرف أيضاً أن هذا الشخص الغريب مخضرٌّ الساقين والرُّكبتين لكثرة ما أكل من العشب (خاضب) وسوف ترى وشيكاً أن الشاعر لم يلفت انتباهك إليها اعتباطاً. و(السّي) أو (الصّي) تعني الفلاة، وقد قال فتانا في معرض الفخر:

من قُومَةَ الجَهلْ ماني المسَمَّى النّيْ
ما بَجْبُدْ مُقْنهي وما برْقُص (الحُمْبيْ)
وكمْ حمَّلْ جُمالْ برَّكْتَهِنْ في (الصَّيْ)

يقول إنه منذ صغره، لم يُعرف عنه أنه رخو فاتر الهمة يبدد وقته في اللّهو، يخلع قناعه ويرقص (الحُمبي)، وهي رقصة فيها ضرب بالأيدي والأرجل مع حمْحمة. ولكنه يُوسق الجمال، ويسافر بها بعيداً. كأنه من أبطال ذي الرمة!

شخْتُ الجُزارة مثلُ البيت سائرُه
من المسّوح خدبٌّ شوْقبٌ خَشِبُ
كأنّ رجليْه مسما كانَ من عُشرٍ
صَقْبانِ لم يتقشّر عنهما النَّجبُ

أسود، ضخم كأنه خباءُ شَعْر، غليظٌ خشن، ساقاه كأنهما أعواد لم يتقشّر عنها اللّحاء من حطب العُشر:

يظلُّ مُختضِماً يبدو فتنكره
حالاً ويسطع أحياناً فينْتسِب

يتمارى للعين، يختفي ويبين. إذا هبط برأسه للرعي، لا تميزه، وإذا رفع رأسه (سطع) فعرفته. وقوله (ينْتسب) كأنما أراد أن يقول (من أي قبيلة هو):

كأنه حبشيٌّ يبتغي أثراً
أو من معاشرَ في آذانها الخرَبُ

مثل حبشي أسود مطأطىء برأسه كمن يقتفي أثراً، أو زنجي مثقوب الأذن:

هَجَنَّعٌ راح في سوداءَ مُخْملَةٍ
من القطائف أعلى ثوبه الهُدُب

يُهيلُ عليه سواداً فوق سواد، فهو على سواده، يشتمل عباءة من الخَمَل الأسود، ذات أهداب:

أو مُقْحَمٌ أضعف الأبطانَ حادجُه
بالأمس فاستأخر العِدْلان والقتَبُ
أضلّه راعيا كلبيّة صدرا
عن مُطلب وطُلى الأعناق تضطربُ
فأصبح البكر فرداً من حلائله
يرتاد أحْليةً أعجازها شذَبُ
عليه زادٌ وأهدامٌ وأخفية
قد كاد يستلُّها عن ظهره الحَقَبُ

صورٌ تُعيد إلى صور، وصور تدفع إلى صور، كأنك إزاء مرايا متحركة، تعكس أضواء من زوايا عدة. الناقة مثل الظليم، والظليم مثل جمل أسود من إبل كلبيّة خرج عن جماعة الإبل وراح يرتاد نبات الحلى اليابس، الذي شذبه الرّغْي. ولعل الشاعر جمع (حلائل) إلى (أحلية) فيكون البكر قد ذهب لشأن آخر.

والجمل إما مُقْحَم، وهو البعير الذي يُقحم سنّينْ في سن، عليه هودج انزلق إلى مؤخرته لاسترخاء رباط البطن، وإما عليه حمول ثياب خلقة كادت تسقط عن ظهره. يشبّه بذلك جناحي الظليم.

كـلٌّ مـن المنـظـر الأعـلـى لـه شـبـهٌ
هـذا وهـذان قـدُّ الجسـم والـنُّـقـبُ

ها هو الشاعر قد استخدم الكلمة التي راودت خيالك منذ البداية - (النقب) أي (الألوان)، فأنت معه في فيْض من الألوان والأضواء والظلال. ولكن ماذا أراد بقوله (كلٌّ من المنظر الأعلى له شبه)؟ وما هو المنظر الأعلى؟

يقول الشارح «أي، كل واحد من هؤلاء، أعني الثور الوحشي والظليم والجمل المُقْحم، سواء في قَدّ الجسم».

إنما الشاعر لا يتحدث هنا عن الثور الوحشي. لقد انتهت قصة الثور الوحشي، كما انتهت قصة الحمار الوحشي. إنه يتحدث عن ظليم أسود وحبشي أسود، ومعاشر سود من الزّنج، وبعير أسود. فلِمَ كل هذا السواد؟ ومَنْ هذا؟ ومَنْ هذان؟

لعله لم يُرِدْ شيئاً محدداً. لعله أراد أن يقول «كل هذا العالم الذي أصفه لك بما فيه من حيوية وتنوع، ونبات وحيوان وجمال، وسواد وبياض، وأرض وسماء، إنما هو انعكاس لحقيقة كبرى، لمثل أعلى».

هل تستكثر على ذي الرمّة أن يكون قصد إلى هذا؟ تكون مخطئاً، فهذا شاعر كبير حقاً، يمكن أن يقارن أيضاً، بكبار الشعراء (الميتافيزيقيين) في تراث الإنسانية.

■ ■ ■

ترى رجلاً راجعاً إلى داره أول المساء، والظلام لم يستتب له الأمر بعد. مُنقلباً من مكان ما، إلى مكان ما. معه زوجته وعياله. وهو (هَجَنَّع)، طويل، في كتفيه انحناء، رأسه يميل إلى أمام. وهو أسود. كأنك لم ترَ سواداً من قبل. جُنّ جُنون الشاعر وهو يصف سواده، مثل عاشق متيّم، أو آكل نَهِمْ. أسود مثل بعير من إبل كلبيّة، وهي إبل كريمة مشهورة بسوادها. والبعير أضلّه راعيان، أسودان ولا بد. أسود مثل حبشي يقتفي أثراً، فهو مطرق برأسه إلى الأرض. أسود مثل زنجي من معاشر مثقّبي الآذان. هل الحبشي والزنجي هما الراعيان اللّذان أضلا البعير الكلبي؟

لم يكدْ يقوى على مفارقة السواد، فكسا كل ذلك بعباءة سوداء من المخمل لها هُدُب. وتخيّلْ ما طاب لك عن الهدُب. مثل أهداب العيون؟ مثل الطحالب الطافية على وجه البحيرة؟ مثل وَذيب شجر الطلح؟ مثل أبيات القصيدة تتخلّق في خيال الشاعر؟

صور لا حصر لها. صور تردُّك إلى صور، وصور تدفعك إلى صور. كان بوسع الشاعر أن يعكف عليها إلى الأبد. كان يقدر أن يقضي حياته كلّها يصف هذا الظليم.

ولِمَ كلُّ ذلك السواد؟ كان ذو الرُّمة، وهو عربيّ من عدي، أسود وضّاح السواد، فهل نثر نفسه شظايا فرّقها على شخوص قصته؟

حتّى إذا الهَيْقُ أمسى، شام أَفْرُخَهُ
وهُنَّ لا مُوئِسٌ نأْياً ولا كَثَبُ

كأنه أحس بتغيُّر الضوء واقتراب الليل، أو هو شعور الأب. انتبه فجأة، وكان قد انشغل بالرّعي. تلفّت حوله فإذا صغاره لا هي بعيدة عنه بعداً يدعو إلى اليأس، ولا هي قريبة قرباً يجلب الاطمئنان. انطلق من لحظته لا يلوي، وانطلقت معه الآفاق والأرض والسماء، وأحوالٌ تُرى وأحوالٌ لا تُرى:

يَرْقَدُّ(١٣) في ظلّ عرَّاصٍ ويطردُه
حفيفُ نافجة عُثْنونُها حَصِبُ

عدا (الرجل)، فعدت فيه ومعه كل تلك الشخوص التي ركّبه الشاعر منها. معه وحوله وفوقه وتحته وأمامه ووراءه. جرى البعير الكَلْبي والرّاعيان. جرى الرجل الحبشي والرجل الزنجي. هاجت أحوال الطبيعة دَفْقَة واحدة، فعصفت الريح وحملت في وجهها الرّمل والحصى وورق الشجر، ودفعت (الرجل) تلزّه لزّاً ولمع البرق، وقام الرّعد خطيباً مرتجزاً في الآفاق، واسودّت الدنيا بالسّحاب

الكثيف والظلام، وانتشرت عباءة المخمل السوداء على كل ذلك، فأهالت ظلاماً على الظلام.
هذا حال الأب، فكيف حال الأم؟

تبرى له صعلةٌ خرجاءُ خاضعة
فالخرْق دون بنات البيْض مُنْتَهَبُ
كأنّها دلوُ بئرٍ جدّ ماتحُها
حتّى إذا ما رآها خانه الكَرَبُ

دونك هي، تقتحم المشهد اقتحاماً مفاجئاً عنيفاً من حيث لا تدري. وتخيّلْ شاعراً يوقف دلواً مملوءاً ماء هاوياً في بئر، يوقفه في منتصف سقوطه. يوقف النّعامة على سرعة عدوها لحظة، فيحدّق فيها بتلك العين الفاحصة التي لا يفلت منها شيء. هي (صَعْلة) أي صغيرة الرأس، وهي (خرْجاء) أي أنها ذات ألوان يغلب عليها اللون الأسود. وهي (خاضعة) فسّر ذلك بعضهم بأنها ذليلة مُنكسرة، وقال آخرون منكسة الرأس في عَدْوها. وقوله (تَبْرى) أي أنها تُباري الأب في عدوه، وقد تلحق به وتفوته.

ويُلْمّها روْحةً(١٤) والرّيح مُعْصفةٌ
والغيثُ مُرْتَجز واللّيلُ مُقتربُ
لا يَذْخَران من الإيغال باقيةً
حتّى تكاد تَفَرّى(١٥) عنهما الأُهُبُ

هل تسمع صوت هذه الأم المذعورة على صغارها تصرخ وتولول (يا ويلي! يا ويلي!)؟ تقول فيختلط عويلها بصراخ الريح، والرعد يرزم في الآفاق، والظلام غير بعيد قد حلَّ أو كاد.

قال الشاعر (وثِلُمّها) وهو تعبيرٌ يأْتي على عُهُناته فلا تلتفت إليه. إنّما هنا، فإن كلمة (ويل) ترنُّ في أذنك، وكلمة (أم)، فكأنك تسمع هذه العبارة القديمة لأول مرة. كذلك صنع (الأستاذ) في قوله:

ألا يـا لـيـت شـعْـرَ يـدي أتُمـسـي
تَـقـلَّـبُ فـي قـنـاة أو حُـسـامِ

وبعيدٌ ما بين قولي (يا ليت شعري) وقول أبي الطيّب، (يا ليت شعر يدي)، هذا كما وصفوا، هو ما يفعله الفن العظيم ـ إنه يجعلك تنظر إلى الشيء الذي ألِفْتَه، فكأنك تراه لأول مرة.

بتلك الحساسية النادرة المثال، حدّق الشاعر وهْلةً في (الأم) وأسبغ عليها من مؤثرات الشفقة والرحمة. رآها (صعلة) يبدو رأسها الصغير محزناً وهي تعدو عدوها المرتاع، (خرجاء) فكأن ثوبها قد انحسر عن رأسها، وقد يسقط عن جسدها لشدة ما أخذها من الرّوع على صغارها. وهي (خاضعة)، وفي الكلمة ما فيها من إيحاءات الذِّلَّة والانكسار ـ مهما كان مدلولها في سياق البيت. ووصف الفراخ بـ (بنات البيض) وهي أناث وذكور، فجلعها كلها إناثاً، إمعاناً منه في تأكيد الجانب (الأنثوي)، وهو الجانب الذي لم يزل يقع عليه العنف والعدوان.

أنت إذاً، إزاء (أُم) ـ مُطْلقُ أُم ـ ككلّ الأمهات اللائي تراهن صباح مساء على شاشات التلفزيون، يحملن في أذرُعهن جثث أطفالهن الذين ماتوا أو قُتلوا في المجاعات والحروب. مثل نعامة ذي الرّمة، يبكين ويندبن (يا ويلي! يا ويلي!). والناس عنهن في شغل، كما قال أبو العلاء:

شِيمةُ القوم مُتْعةٌ
لا يَرِقُّونَ لدمع الشَّيْماء والخنساء

■ ■ ■

رجلٌ وامرأة. أمٌّ وأب. وحدهما في كوْنٍ بكْر كأنه خُلق لساعته يعدوان حتّى تتقطع أنفاسُهما وتتمزّق جلودُهما. ينضمّ إليهما بعيرٌ أسود. ينضمّ إليهما راعيان أسودان. ينضمُّ إليهما حبشي أسود. ينضم إليهما زنجي أسود. يطاردهما غيم كثيف مُتشعِّبُ البروق. تطاردهما ريحٌ تحمل في وجهها الحصى. يطاردهما ليلٌ يُضمرُ شرّاً، فيا للطالب والمطلوب. مثل الملك (لير) ورفيقه في العاصمة والثلج. كان (لير) المسكين يطلب ابنته، وهذان يطلبان أطفالهما، فما أعجب اتفاق الأفكار الجليلة عبد العبقريين.

لا يأمنان سباع اللّيل أو بَرداً
إن أظلما دون أطفالٍ لها لَجُبُ

قصد بـ (سباع الليل) مطلق الوحوش والآفات التي تفتك ليلاً، ولم يُرد السباع تحديداً. والأطفال لها (لُجب) أي ضجيج وصوْصوَة وشغب. ذلك ما تخيله الأبوان وهما يجريان. وكأن الأم تسمع بخيالها صراخ أطفالها، فتجيبهم مولولة (يا ويلي! يا ويلي!). وهكذا تجد أن الشاعر أقام لك محطتين من القلق الدرامي. أب يجدُّ وأم تولول في مكان، وأطفال يصرخون في مكان. وبينهما أحوال الطبيعة تعلو وتهبط وتزيد وتنقص.

هذا البيت الجميل، يرى العالِم الحبر الدكتور عبد الله الطيب، أنه منحول على ذي الرّمة، يورد ذلك في كتابه القيّم (شرح أربع

قصائد لذي الرّمة) الذي صدر عن جامعة الخرطوم عام ١٩٥٨. وقد أسعدني أنني حصلت عليه أخيراً. يقول:

«ويبدو لي أن صانع هذا البيت نظر إلى القصائد التي وُصفت فيها القطاة، لأن الشعراء هناك يصفون أفرخ القطا بأن لها (لجباً)، ولم أجد شاعراً وصف أفرخ النّعام بذلك».

إذا قالت حَرام فصدّقوها، إذ لا يخفى أن الدكتور عبد الله من علماء العربية المعدودين في هذا الزمان. وهو إلى سجله الأكاديمي الحافل، ناقد بعيد النظر، وشاعر عميق غور العاطفة مالك لأعنّة لغة العرب عليم بدقائق أسرارها. ومثله قليلون في حفظه للشعر العربي، وذوقه وفهمه. وكتابه (المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها) من الكتب المصابيح. وهو بعد أستاذي، وأكنّ له محبة وتقديراً.

وجد الدكتور عبد الله، أن البيت لا يناسب تفسيره لجملة تلك الأبيات، فهو يرى منذ البداية أن الظليم كان قد ترك صغاره (بيْضاً) لم يفقس بعد. ويقول في شرح البيت:

حتّى إذا الهيْقُ أمسى شام أفرخه
وهنّ لا مؤيسٌ نأْياً ولا كثبُ

«شام أفرخه، من باب الإيجاز الشديد، لأن ما سبق من الكلام، يدلّنا أن هذه الأفرخ ـ بحسب علم الظليم ـ لم تكن إلّا بيضاً. وكان وجه القول للشاعر أن يقول (شام بيضه). ولكن أراد ليدلّنا أن البيض صار أفْرُخاً أثناء غيبة الظليم...».

ويقول في تفسير البيت:

جاءت من البيض زُعراً لا لباس لها
إلّا الدهّاس وأمّ برّةٌ وأب

«جاءت، أراد (جاءتا) أو (جاءا)، فعامل المثنى هنا معاملة الجمع. ومعنى (جاء) هنا (وَجَد)... (الدَّهاس) بالرفع والنصب، الرّمل الناعم. وأمّ برّة إلخ عطف على (لا لباس لها)، كأنه قال (لا لباس لها ولا أمٌّ برَّة ولا أبٌ إلّا الدهَّاس). هذا وقوله (من البيض) أي بدل البيْض، واستعمال (من) بمعنى (بدل) كثير، ومنه قوله تعالى (أَرضيتُم بالحياة الدّنيا من الآخرة) أي بدل الآخرة.. وقصد ذو الرمّة هنا أن يبيّن أنها وجدتْها أفرخاً وقد كانت تركتْها بيضاً».

ويختم تفسيره للبيت بقوله:
«يقول، وجد هذا الظليم ونعامته مكان البيت الذي تركاه، أفْرخاً ضعافاً قليلة الرّيش، ليس عليها لباس من أجنحتها يقيها المطر وليس لها من مُعين ولا أب ولا أم ـ اللهم إلّا هذا الرّمل الناعم المنتشر».

هذا كما ترى تفسير غاية في الطّرافة، جدير بالتقدير، وإذ الدكتور عبد الله بحْر، فلأُغامر بالسباحة في بحره. وإذ هو أستاذي، فلا بأس أن أصنع معه ما يصنع التلميذ مع الأستاذ، فأقول، عفا الله عني، إن الأستاذ الجليل، قد أرهق نفسه أي إرْهاق كي يستقيم له أن الفراخ ليست فراخاً وإنما هي بيض، جعل البيت الذي يصف الفراخ بأنها (أطفال لها لجب) منحولاً على ذي الرمّة، فلِمَ هذا البيتُ وحده المنْتحل؟ وجعل الجمعَ مثنّى في قول الشاعر (جاءت). وفسّر (جاء) بأنها تعني (وجد). وبدَل أن (تجيء) الفراخ من البيض، صار المعنى أن الظليم والنعامة وجدا البيض قد صار فراخاً. فمتى

وجداه؟ وفسّر حرف الجر (مِنْ) بأن معناها (بدل)، وهكذا بعدت الشّقة.

وعندي، أن المعنى الظاهر والأقرب منالاً، والأوفق بالسياق (الدرامي) للقصة، هو أننا حيال (عائلة)، أب وأم وأطفال. وقد كانت العائلة أول ما تعرّفنا إليها ملتئمة الشمل. الأب بكل ما حمّله الشاعر من أثقال. سبحان الله، بينها (زادٌ وأهدامٌ وأخفيةٌ). والأم المسكينة صغيرة الرأس، خاضعة كالمنكسرة. والعيال يتشبثون بأبويْهم. يسيرون في بلاد الله، كما ينزح السودانيون من الجنوب إلى الشمال، يحملون زاداً قليلاً، وأهداماً بالية ممزّقة، وأخفية أشياء تافهة لا تُغني.

هذا وقد أسماها الشاعر (أفرخ) وأسماها (أطفال) وعدّها منذ البداية، فهل عدَّ بيضاً أم عدّ فراخاً؟ ونعَت الظليم بـ (أبي ثلاثين) كما تقول (أبو سعْد) أو (أبو زينب). وأغلب الظن أن عُود الفراخ قد اشتد إلى حد أنها تستطيع أن تخرج مع أبويها، ولكن ليس إلى حد أنها تستطيع أن تسرح وحدها.

انشغل الأب برهة بالرّعي، وانشغلت الأم. انتهز الأطفال الفرصة، كعادة الأطفال، فراحوا يلعبون ويمرحون، فابتعدوا عن أبويهم بعداً مُقلقاً. انتبه الأب وانتبهت الأم، فكان ما علمت من هلع وولوال وأحوال.

في آخر القصيدة، إن كان لها آخر، صوّر الشاعر الفراخ، ليس كما هي الآن، بل كما كانت أول ما تكسّر عنها البيض. وذلك شيء معروف عند ذي الرمّة، أن الأمر يقوده إلى أمور، والصورة إلى

صور. عاد بالذاكرة إلى الوراء، وتصوّر الفراخ في هشاشتها وغضاضتها أول ما خرجت من البيض، وكأنه أراد أن يستدرّ عطفك، ويعطي مبرراً مضاعفاً لهلع الأبوين. هكذا يتخيّلان صغارهما، كما يتخيّل كل أبوين أطفالهما صغاراً حتى حين يكبرون.

هذا، وإذا أخذنا برأي الدكتور عبد الله أن الظليم والنعامة وجدا بدل البيْض فراخاً، فهذا يعني أن القصة قد انتهت نهاية سعيدة. وفي ظني أن الشاعر لم يفرغ من القصيدة، بل تركها مفتوحة مثل سمفونية ناقصة. ترك لك احتمالات لا حصر لها، وترك لك صورة رمزية لا تُنسى، لا تقلّ روعة، لو أنصفنا، عن الصورة التي صنعها شكسبير في الملك (لير).

وبعد، فإنه يجمعني بالدكتور عبد الله أيضاً حب العربيّة والعروب، والسودانيين والسودان، وحب ذي الرمّة وأبي الطيب. فليت أنّا بقدْر الحبِّ نقتَسِمُ.

■ ■ ■

قضَى ذو الرُّمة هذا الشاعر (الجسيم)، كما ينعتُه الدكتور عبد الله الطيب، ولما يبلغ الأربعين. ويقول الدكتور عبد الله في المقدمة البديعة لشرحه لقصائد أربع من شعر ذي الرمّة:

«وإن القلب ليتفطّر إذ يجد قلباً كبيراً كغيلان، عاجله الموت في عنفوان الأمل، وفي السن التي يكتمل فيها النضج. ولعلّه لو عاش لكان عفى على آثار من تقدموه من فحولة الشعراء».

وصفوا موته، كما كان يصف شخوص عالمه المتخيّل، أذاكَ؟ أم؟ الحقيقة ليس لها وجهٌ واحد، ولكن عدة وجوه.

قال هارون بن محمد بن عبد الملك، حدَّثني القاسم بن محمد الأسدي قال، حدَّثني جبر بن رباط قال «أنشد ذو الرمّة الناس بالثعلبية شعراً وصف فيه الفلاة، فقال له حابس الأسدي «إنك لتنعت الفلاة نعتاً لا تكون منيتك إلّا بها».

قال وصدر ذو الرمّة على أحد جفري بني تميم وهما على طريق الحاج من البصرة. فلما أشرف على البصرة قال:

«إني لعاليها وإنّي لخائفٌ
لما قال يوم الثعلبيّة حابسُ

فلما توسّط الفلاة نزل عن راحلته، فنفرت منه، ولم تكن تنفر منه، وعليها زاده، فظل يطلبها وهي تنفُر منه حتى مات».

إن قبلنا هذه الرواية فلْنقلْ أن صوتاً غامضاً هتف بـ (صيْدح) فتبعتْه، حتى تأخذ المقادير مجراها. كانت وصاحبها من قبل كأنهما شيء واحد. مات ظمآناً، وهل ارتوى أبداً؟ وهل زارته (مي) في موقفه ذلك، وهل أعانته على الرحيل؟

ألا خيّلَتْ خرقاءُ وسْنا لفتْيةٍ
هُجودٍ وأيْسارُ المطيّ وسائدُ
أناخوا لتُطوى تحت أغْجاز[١٦] سُدفةٍ
أيادي المهارى والجفونُ سواهدُ

روى أحمد بن عبد العزيز، عن الرياش عن الأصمعي عن أبي الوجيه قال: «دخلت على ذي الرمة وهو يجود بنفْسه، فقلت له: (كيف تجدُك؟) قال (أجدُني والله، أجدُ ما لا أجدُ أيام أزعم أني أجدُ ما لم أجدْ، حيث أقول:

كـأنّـي غـداةَ (الـزُّرق) يـا مـيُّ مُـدْنَـفٌ
يـجـودُ بـنـفـسٍ قـد أَحـمَّ حِـمـامُـهـا)

قال أبو الوجيه (وكانت منيّته هذه في الجُدري).

غفر الله لأبي الوجيه، فما أظنّ إلّا أن الشاعر قد وجد ما وصف أنه وجد غداة (الزُّرق). والمنايا شكول.

ألا خـيّـلـت مـيٌّ وقـد نـام صـحـبـتـي
فـمـا نـفَّـر الـتـهـويمَ إلّا سـلامُـهـا
طَروقاً وجِلْـبُ[١٧] الرَّحل مشدودةٌ به
سَـفـينةُ بـرّ تحـت خـدّي زمـامُـهـا
أُنـيـخـتْ فـألقـت إلى الأرض بَلْدةً[١٨]
قـلـيـلٌ بـهـا الأصـواتُ إلّا بُـغـامُـهـا

أذاكَ؟ أم؟

عن هارون بن الزيّات عن موسى بن عيسى الجعفري عن أبيه قال: «أخبرني رجل من بني تميم أن ذا الرمّة وكان قد اعتل، قال لأخيه مسعود (يا مسعود. قد أجدني تماثلت وخفَّت الأشياء عندنا واحتجنا إلى زيارة بني مروان، فهل لك في ذلك؟) قال نعم. فأرسله إلى إبله يأتيه بلبن يتزوّده وواعده أن يلتقيا في مكان. وركب

ذو الرمة ناقته فقمصتْ به وكانت قد أعفيت من الركوب زمناً، وانفجرت العلة التي به. وبلغ الموعد وجهد، وقال (أردنا شيئاً وأراد الله شيئاً). ودُفن برأس (حُزوي) وهي الرّملة التي كان يذكرها في شعره».

ألم تُسألِ اليومَ الرُّسومُ الدّوارسُ
بحُزوي وهل تدري القفار البسابسُ
متى العهدُ ممن حلّها أم كم انقضى
من الدّهر إذ جرّت عليها الرَّوامسُ
ديارٌ لميّ ظلَّ من دون صُحبتي
لنفسي بما هاجت عليها وساوسُ
فكيف بميّ لا تؤاتيك دارُها
ولا أنت طاوي الكشح [١٩] عنها فيائسُ

قالوا إنه مات وهو قاصدٌ هشام بن عبد الملك، وكان ذلك عام ١١٧هـ عند ابن خلكان. وللدكتور عبد الله الطيّب قول جميل في هذا يقول:

«وهذا خبرٌ تشتمُّ منه رائحة المأساة. وكأن شيْطانيْ الحب والشعر قد غارا من غيلان ونقما عليه خروجه عن مذهبه (....) ألا ترى أن وفاته قد حدثت أثناء مهاجاته للمرئي وقد كاد يعلو عليه وقبيل رحيله إلى الخليفة، وبعيْد مصارمته لميّة؟».

لعل الشاعر، عزم أخيراً، تحت وطأة الحاجة، أن يمدح الخليفة كما ينبغي، وكان قد مدحه في سالف الأيام، ببيت واحد في قصيدة

من كذا وستين بيتاً، ثم بحفنة أبيات في قصيدة من ثمانية وأربعين بيتاً، يقول فيها:

جشَمْتُ إليك البُعدَ لا في خصومةٍ
ولا مُشتجيراً من جريرة مُجْرِمِ
ولو شئتُ قصّرت النهار بطفْلة
هضيم الحشا برّاقة المُتبسّم

وأي جرأة، أن يقول الشاعر لصاحب التاج، «كان بوسعي أن أقضي وقتي فيما هو أكثر متعة من المجيء إليك».

لا غرو أن هشاماً قال له «إنك لم تمدح إلّا ناقتك فخذ منها الثواب».

ليس أنه لم يكن يُحسن المديح، بل كان معرضاً عنه إعراضاً متعمداً. ولو كان الخليفة يحتفي بالموهبة من حيث هي ويقدِّر الفن في حدّ ذاته، لوجد جمالاً كثيراً في تلك القصيدة، كمثل قول الشاعر في «ميٍّ»:

أحبُّ المكانَ القفرَ من أجْل أنني
به أتغنَّى باسمها غير مُعْجَمِ
ولم يبْقَ إلّا أنَّ مرجوعَ ذكرها
نهوضٌ بأحشاءِ الفؤادِ المتيَّمِ

■ ■ ■

كانت نهايته، إن صحّت أقوال الرواة ـ ولمَ لا؟ مثل نهايات

قصائده، نهاية مفتوحة، غيَّبوه في رمال الدّهناء، عند رأس (حُزوى)، كأنه معنى شرود مُغيّب في تلافيف القصيدة، عاش كالحلُم، وكل شيء مسه أسبغ عليه رُواء الحلم.

عن محمد بن الحجاج الأسدي التميمي قال:
«حججتُ فلما صرت بمران مُنصرفاً، إذا أنا بغلام أشعث الذّؤابة قد أورد غُنَيْمات له، فجئته فاستنشدته، فقال لي (إليك عنّي فإني مشغول عنك). ولما ألححت عليه قال (أرشدك إلى بعض ما تحب، انظر إلى ذلك البيت الذي يلقاك فإن فيه حاجتك. هذا بيت «خرقاء» صاحبة ذي الرمّة) فمضيتُ نحوه فطرحت السلام من بعيد، فقالت (أُدْنُ). فدنوت، فقالت (إنك لحضري فمن أنت؟) قلت، من بني تميم، وأنا أحسب أنها لا معرفة لها بالناس. قالت (من أيّ تميم؟) فأعلمتها، فلم تزل تنزلني حتى انتسبتُ إلى أبي.. قالت (حيّاك الله يا بُني وقرّبك. من أين أقبلت؟) قلت من الحج، قالت (فما لك لم تمر بي) قلت، وكيف ذلك؟ قالت «أما سمعت قول عمك غيلان:

تمـــامُ الحجّ أن تــــقـــف المطـــايـــا
عــلــى خــرْقــاءَ واضــعــةِ الــلّــثــام»

قال «وكانت هي قاعدةٌ بفناء البيت، كأنها قائمة من طولها، بيضاء، شهلاء فَخْمة الوجه».

يا له من بيْت! كأنه أسكنها كوكباً سيّاراً، أعطاها أبعاداً مترامية في الخيال، فوددت لو يراها الناس، لا كما هي في الحقيقة، ولكن كما مثّلها لهم في مرآة الفن:

وعـيـنـاءَ مـبْـهـاج كـأنّ إزارهـا
علَى واضح الأعْطاف من رمْل عاجِفِ
تـبـسَّـمُ عـن أَحـوى الـلـثَّـات كـأنّـه
ذُرا أُقـحـوانٍ مـن أقـاحـي الـسـوائـفِ
دعـتْني بـأسـبـاب الـهـوى ودعـوتُـهـا
بـه من مكـان الألـف غير الـمُساعِفِ.

عن ابن دُريدْ، عن أبي حاتم عن الأصمعي عن محمد بن بكر المخزومي قال:

«قال رُؤبه (كلّما قلت شعراً سرقه ذو الرمّة) فقيل له (وما ذاك؟) قال: (قلتُ حيّ الشهيق ميّت الأنفاس، فقال هو: ـ تطرحني بالمهمة الأغفال)(٢٠).

كل حصين لصق التربال
حيّ الشهيقَ ميّت الأوصالِ

فقيل له: (فقولُه أجود من قولك، وإن كان أخذه منك).
قال: (ذلك أغمُّ لي).

مـا هـاج عـينيْـك مـن الأطـلال؟
الـمُـزْمـنـات بـعـدَكَ الـبـوالـي
كـالـوحْـي فـي سـواعـد الحوالـي(٢١)
بـين الـنّـقـا والأجْـرَع الـمِـحْـلالِ

حدّث ابن عبد العزيز قال: «قيل لذي الرمّة، إنما أنت راوية الرّاعي. فقال (أما والله لئن قيل ذلك ما مثلي ومثلُه إلّا شاب صحب شيْخاً

فسلك به طرُقاً، ثم فارقه فسلك الشاب بعده شعاباً وأودية لم يسلكْها الشيخ قط».

وشِـعْـرٍ قـد أرِقْـتُ لـه غـريـب
أجـنّـبُـه الـمُـسـانَـدَ[٢٢] والـمُـحـالا
فـبـتُّ أقـيـمـه وأقـدُّ مِـنـه
قـوافـي لا أعـدُّ لـهـا مـثـالا
غـرائـبَ قـد عُـرِفْـنَ بـكـلّ أفْـق
مـن الآفـاق تُـفـتَـعـلُ افـتـعـالا

روَوْا أن ذا الرمّة حين حضرته الوفاة، قال:
«إني لستُ ممّن يُدفن في الغموض والوهاد».
قالوا: «فكيف نصنع بك ونحن في رمال الدّهناء؟».
قال: «فأين أنتم من كُثبان حُزوى؟».
قالوا: «فكيف نحفر لك في الرّمل وهو هائل؟».
قال: «فأين الشجرُ والمدرُ والأعواد؟».

قالوا: «وصلّوا عليه في بطْن الوادي، وحملوه وحملوا له الشجر والمدر على الكباش وهي أقوى على الصعود في الرمل من الإبل، فجعلوا قبره هناك ودثروه بالشجر والمدر. وقالوا إن قبره بأطراف (عناق) من وسط الدهناء قبالة (الأواعس) وهي جبال شوارع يقابلن (الصّريمة) النّعام.

بلى. كانت نهايته كما وصفوا، لا بد. سارت في جنازته الكباش الوديعة المسالمة، كأنها حرسُ شرف. صنعت له الطبيعة لحافاً من أوراق شجر الأرطي، وفروع شجر السّيال والطرفاء، وعطّرته بأزهار

الطّلح، خبّأته رمال (حُزوى) في طيّاتها، كما خبأ المعاني في تلافيف القصائد.

رحمه الله، حيّاه شاعران عظيمان، أبو العلاء بقوله:

وإنّي تيممتُ العراقَ لغير ما
تيمّمه غيْلانُ عند بلالِ

وحيّاه أبو تمام:

ما رَبْعُ ميَّةَ معموراً يُطيف به
غيلانُ أبْهى رُبىً من ربْعها الخرب

رحمه الله ـ ما أجمل ما غنّى الحب والحياة والأشياء، لن يلبث أن ينطلق على كُور ناقته الأسطورية، كأنه وإياها سفينة فضاء، تحل وترحل من زمان إلى زمان. أو كما قال:

فقلتُ اجْعلي ضوءَ الفراقدِ كلِّها
يميناً ومهوى النَّسر مِنْ عن شمالك

■ ■ ■

أيام عملي في باريس مع منظمة اليونسكو، أنفقت جهداً كبيراً على الصومال، وهذه القصة هي في الأصل، قصة بعض ما جرى لي مع الصّومال، وإن كان الحديث، كما قال الأولون، أوديةٌ، واد يؤدِّي إلى واد، وشعابٌ شعْب يُوصل إلى شعْب.

يقولون لك أن منظمة اليونسكو ـ أكرم وأنعم بها من منظمة ـ

ليست منظمة عون ودعم مالي، مثل صندوق النقد والبرنامج الإنمائي والفاو واليونيدو واليونِبْ وهلُمّ جراً، لأي شيء هي إذاً؟ إنها تعطي ما هو أغلى من المال. تعطي النصح والخبرة والأفكار وأيضاً قليلاً من المال.

كان المال قليلاً، وهو اليوم أقلّ بمراحل، كان المبلغ المخصص لمساعدة الدول العربية لتطوير وسائل اتصالها، من إذاعة وتلفزيون ووكالات أنباء وغيرها، يوزّع على ست دول تعتبر أكثر حاجة من غيرها. بهذه الوسيلة، كان ما تحصل عليه أي من هذه الدول لا يُجدي إلّا كما تُنقّط قطرات الماء للظمآن.

بذلت جهداً عظيماً حقاً لإقناع مساعد المدير العام أن ذلك الأسلوب لا يُجدي، وأنه من الأفضل أن تركز المنظمة كل كذا عام على دولة واحدة، بحيث يكون للمساعدة أثر واضح.

وحين تعلم من هو مساعد المدير العام هذا، تقدّر كم من الجهد بذلت في إقناعه. كان رجلاً أوروبياً كيف أقول؟ لئيماً ـ أو هكذا خُيّل إليّ ـ ولؤمه لم يكن ينبع من كونه أوروبياً فقد عرفت أوروبيين أرق من بني عُذرة وأسلس قياداً مما كان الحسن بن هانيء رحمه الله لجهالات الشباب. كان هذا لئيماً في نفسه وفي حدّ ذاته، تماماً بخلاف ممدوح أبي تمام حين قال:

هُذّب في نفسه وشذَّ عن جنسه فهو وحده جِنْسُ.

بدأ صاحبي هذا، ولنسمّه مستر (سين)، بدأ حياته موظفاً إدارياً صغيراً في المنظمة أوائل إنشائها، وظل يصعد السلّم درجة درجة،

بمزيج من الجهد والكفاءة وغير ذلك، إلى أن أصبح قاب قوسين من منصب المدير العام. ولعله ظن أن ترقيته جاءت متأخرة، وأمرّ من ذلك أن (السيد) الآمر الناهي، الجالس في الطابق السادس في عمارة (فونْتنْوا) المجنّحة، رجل من العالم الثالث. واضح جداً أنه من العالم الثالث، وهو نفسه يزهو بكونه من العالم الثالث. وكان صاحبي هذا، (مستر سين) لا يكاد يُخفي احتقاره للعالم الثالث.

أمرٌ محيّر، لِمَ الاحتقار؟ فكّرت مليّاً في سبب هذا الإحساس الذي تلمسه عند بعض الأوروبيين، والأميركيين بطبيعة الحال. ومن يدري، لعل اليابانيين أيضاً بدأوا يحسّون مثلهم.

هل هو احتقار القوي للضعيف؟ لقد تعلّمنا من تراثنا أن «الضعيف أميرُ الرّكب». وهؤلاء لعلهم يُحمّلون الضعيف مسؤولية ضعفه، وإذا سقط في الطريق من الإعياء، لا يبالون أن يواصلوا السير، فلا تتوقّف القافلة لأجله. وجاء حكيمهم فقال لهم (البقاء للأصلح)، وهو في واقع الأمر لم يقل ذلك، بل قال بالإنجليزية Survival of the Fittest والـ Fittest في مذهبي ليس (الأصلح) بل (الأقوى).

هل يُعقل أن يُخرج من أظهُرنا حكيم مثل (تشارلز دارْوِن) هذا؟

كنتُ أبادله احتقاراً باحتقار، كما قال (الأستاذ) (جزيتُ على ابتسام بابتسام) وكان صديقي حمدي قنديل الذي كان يومئذٍ مديراً لقسم تدفق المعلومات، وقد أعانني وشدّ أزري، كان يعجب من أمري وأمر (مستر سين) ويقول لي:

«هو صحيح ابن ... بس طوّل بالك عليه».

كان محقاً، فقد كان مساعدو المدير العام، وما يزالون، أباطرة، يخفضون ويرفعون ويشيلون ويحطون. لكنني رغم ما أظنه لديّ من لين العريكة، أخو جهالة حين أرى أنه تحسن الجهالة بالرجل. ورثت ذلك عن قومي، ولنا في عمرو بن كلثوم إسوة حسنة. ثم أنا لم أجيء إلى هذا المكان لأصبح أي شيء، وقد كنت مع أهلي القطريين حيّاهم الله وزادهم من فضله كما قال الشاعر:

حللتُ على آل المهلَّب شاتياً
غريباً عن الأوطان في زمنٍ مَحْلِ
فما زال بي إكرامُهم واحتفاؤهم
وألطافُهم حتّى كأنهمو أهلي

بل كانوا لي أهلاً بالفعل. كنتُ عندهم حيث أسمع نداء الأذان في الفجر، حيث تتنزّل الملائكة عياناً بياناً على حلقات القرآن في المساجد في شهر رمضان. حيث الناس على علاّتهم أهلي، والزمان على غَبَراته زَماني. وأمُّ القرى على مرمى حجر، ويثربُ بمقدار ما ينطلق السهم. والنيل قريب... النيل قريب.

لك الخير، إنني لم أجيء لشيءٍ من هذا، وإنما جئتُ لأكون قريباً من (بُنيّاتي) في مدارسهن في لندن. وإذا كان القرب يقتضيني ثمناً باهظاً كأنْ أماليءَ هذا (العلْج) إذاً لعمري إنّ في الأرض متّسعاً للرجل الكريم.

الهوامش

(١) مدّتْ بضبْعَيّ، يعني نصرتْني وشدّت أزري.
(٢) زُهاء، أي جيش ضخم.
(٣) العطابيل النساء الحسان الفارعات الطول.
(٤) الحقائب، الأكفال.
(٥) يقظْن، أي يقمن أيام الحر.
(٦) الربب جمع ربة، نبات طيب له شذى.
(٧) عُجمة الرّمل معظمه.
(٨) حبب الرمل طرائقه.
(٩) الصيران جمع صُوار، وهو القطيع من بقر الوحش.
(١٠) اليلمق القباء أو هو ما يشتمل به كالعباء.
(١١) المنقاض من الرمل من الانتقاض، الذي ينهار، والمنكثب الثابت المستقر.
(١٢) النُدُس الذكي الفطن و(يُشئزه) الذي يُقلقه. والـ(ثأْد) البلل والرطوبة مع برودة.
(١٣) يَرْقَدُّ يعدو عدواً سريعاً. عرّاص، سحابٌ كثير البروق. النّافجة، أولُ الريح، عُثنونها، أي مقدمتها، وأصل العُثنون، اللِّحية.
(١٤) الروحة الحَدْبة أو العودة في المساء. الغَيْث مرتجزٌ يقصد الرَّعد، وكانوا يُشبِّهون الرّعد بالراجز أو بخطيب.
(١٥) تفرّى الأهُب، أي تتمزق.
(١٦) إعجاز سدفة، يقصد آخر الليل.
(١٧) جلب، بكسر الجيم المعجمة وسكون اللام، عيدان الرّحل.
(١٨) بلده الأولى، صدر البعير.
(١٩) طوى كشْحه عن الأمر، تركه وانصرف عنه.
(٢٠) الأبيات في الديوان، طبعة مكارتْني، تصحيح مطيع ببيلي الصادر عن

المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت.

يطرحن بالمهارق الأغفال: كل جهيض لثق السربال.

حي الشهيق ميت الأوصال.

(٢١) الحوالي، أي اللابسات الحلى.

(٢٢) السناد في الشعر، اختلاف الحركة في القافية، كأن يأتي الحرف الذي قبل القافية مكسوراً، والحرف قبل القافية في البيت الذي يليه مفتوحاً.

٣٧

غفر الله للدكتور زكي مبارك. بتلك الروح العابثة، اقتحم العالِم النوراني الذي صنعه البوصيري في بُردته، كما يقتحم الضّبع مرتع الظباء. فعل ذلك في معرض الموازنة بين (بردة) البوصيري و(بردة) شوقي، في كتابه (الموازنة بين الشعراء) الذي صدر عام ستة وثلاثين وتسعمائة وألف.

يقف الدكتور عند مطلع قصيدة البوصيري:

أمِن تذكّر جيران بذي سَلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدمِ
أَمْ هبّت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من أضَمِ

هذا المطلع الجميل لا يوافق ذوق الدكتور، فيقول:

«وذكرُ البوصيري لهذه الأماكن وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافي مصريّته، وكان له أن يتشوّق إلى أحبابه في بلبيس أو فاقوس كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه في سنتريس أو فاقوس أو أسيوط. ولكن يظهر أن المغاني العربية كانت احتلت رؤوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد وسلع وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق. ولذلك نجد التكلّف ظاهراً في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم، ونحسبه اختارها للقافية كما اختار (أضم) لهذا الغرض».

اللهم أني لا أجد تكلفاً في مطلع البوصيري، إنما أجد التكلّف كل التكلّف في نقد الدكتور زكي له. كأنما أراد للبوصيري أن ينفخ لحن الناي على صُفّارة النحاس وأن يحوّل نغم (اللاّمي) الشجي إلى لحن الجاز.

هل (بلبيس) و(سنتريس) تصلح لهذا المقام؟ وهل هي تتّفق إلّا لمثل ما فعل حفني ناصف رحمه الله بـ (قنا) و(أسنا) حين قال:

قالوا نُقلت إلى (قَنا)
يا مرحباً بـ (قنا) و(أسنا)
قالوا (قنا) حرٌّ فقلت
وهل يردّ الحرّ قِنّا؟

واضح أن الشيخ الجليل أراد أن يهيىء للدخول على حضرة الرسول الأمين، فخلق جواً من الحنين والشجن، وذكّر بأماكن لها وقع في الوجدان العربي، وأهاج في الخيال رياحاً ندية بعطر الزمان القديم الجميل، وأوقد في ظلمات الكون بروقاً أوضح إيماضاً من برق أبي

العلاء إذْ حنَّ إلى الشام. فهل هذا تصلح له (سنتريس) و(فاقوس) أم (كاظمة) و(ذو سلم)؟

هذا والأبيات فيها شيء من روح الشريف الرضيّ إذ يقول:

هبّت لنا من رياح الغور رائحة
بعد الرّقاد عرفناها بريّاك

ما بال هؤلاء الأساتذة العمالقة، تعمى أبصارهم أحياناً فلا يرون الشيء وهو واضح ماثل أمامهم؟ ولا بد أن الدكتور زكي مبارك كان يدرك أن الشعراء الأوائل كانوا يتلذّذون بذكر الأماكن في شعرهم، ليس من قبيل المحاكاة، ولكن لأن تلك (الأسماء) تحمل في حد ذاتها شحنات وجدانية هائلة، ولأنهم كانوا يدخلون عن وعي، الأخيلة التي توصل إليها أولئك الشعراء في حنايا قصائدهم، فتصبح كل قصيدة وكأنها امتداد للقصائد التي سبقتها، ويصبح كل صوت وكأنه مكمّل لما مضى من أصوات. بتلك الطريقة، جعلوا من الشعر العربي العظيم سمفونية هائلة ذات فروع ومسالك عجباً.

البحتري مثلاً أطال الوقوف على (العقيق) فهل كان (العقيق) مكاناً بعينه، أم أنه كان (رمزاً) حمّله الشاعر ما شاء من أشواق وأشجان؟

وذو الرمّة تغنّى بـ (مي) فهل كانت (مي) هي المرأة التي رآها في الواقع، أم أن الشاعر انطلق من ذلك إلى آفاق أرحب في الخيال؟

لا أظن البوصيري كان يستطيع أن يخلق ذلك الجو الموحي بامتداد

الزمان والحنين إلى عالم بعيد محبوب، كمقدمة للوقوف في حضرة سيد المرسلين وقائد الغرّ المحجلين.

ويتغابى الدكتور غفر الله له أكثر، فيقول عن وصف البوصيري لجريان الدمع (مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم):

«هذا حشو لا قيمة له، فإنه لم يشك أحد أن الدمع يجري من العين».

الذي يتقصد مواطن الجمال في الشعر الجميل سوف يجدها، وقد كان الدكتور يعلم بلا شك، موطن الجمال في قول زهير، رغم ما فيه من تكرار:

بكَرْن بُكوراً واستحرْنَ بسُحْرة
فهنَّ ووادي الرَّسِّ كاليد للفم

لِمَ قال الشاعر (بكرن بكوراً)؟ أما كان يكفي أن يقول (بكرن)؟ ولِمَ قال (استحرن بسحرة)، إذ لا يخفى أنك إن استحرت فأنت في وقت السحر.

هذا ليس (حشواً) ولا هو تفضُّل في القول اقتضته ضرورة الوزن، بل فيه تحريك لخيال السامع تحريكاً عجيباً، ولا يخفى أن الشاعر بدأ الأبيات التي منها هذا البيت بقوله (تبصّرْ خليلي) والمنظر الذي وصفه لك وأرادك أن تستحضره حدث منذ عشرين عاماً.

اتّكأ الشاعر على الكلمات، كأنك تعزف على (البيانو) لحناً موسيقياً واحداً على درجات مختلفة من السلّم الموسيقي، مرة على

(س ماينور) ومرة على (جي ماجور).

ألم يقل الشاعر الآخر:

فلما عرفناها جرت من عيوننا
دموع كففنا ماءها بالأصابع

لم يكتفِ الشاعر أنه أخبرك أن الدموع جرت من العيون، وهذا في مذهب الدكتور زكي، تحصيل حاصل، ولكنه عاد فوصفها بأنها ماء، وهو عند الدكتور أمرٌ فظيع. أليس الدمع ماء؟

لا تنظر إلى الكلمات كأنها قطع من الحديد دُقّت بمسامير، دعها لتطير وتحطّ في خيالك، كما تحطّ طيور الماء على صفحة البحيرة. دعها تتفرّق وتتجمع في أنماط شتى.. فلما عرفناها جرت من عيوننا... فلما كففناها جرت من دموعنا عيون عرفنا ماءها في الأصابع!

هل (العيون) هي العيون التي في الرأس أم هي عيون مثل (عين أثال)؟

وهل بكى البوصيري لذكرى (هند) أو (سلمى) أو (أسماء)، أم أنه بكى لما هو أسمى وأجلّ؟

غفر الله للدكتور زكي مبارك، كان ثاقب النظر في الشعر على وجه العموم، ولكنه لم يكن في تلك اللحظة مهيأً للوقوف في تلك الرّحاب الوضيئة. ورحم الله البوصيري، فما أعظم ما أحب الرسول الأمين، وما أجمل ما غنى بذلك الحب.

يا لائمي في الهوى العذريّ معذرة
منّي إليك ولو أنصفت لم تلُمِ
محّضتني النّصح لكن لستُ أسمعه
إن المحبّ عن العذّال في صممِ

■ ■ ■

لم يقْسُ الدكتور زكي مبارك على شوقي كما قسا على البوصيري، وإن كنتَ تحسُّ رغم ذلك نفوراً لا يكاد يخفى من (الروح) الذي بثّه الشاعران في قصيدتيهما. يقول عن مطلع قصيدة شوقي:

ريمٌ على القاع بين البان والعلم
أحلّ سفك دمي في الأشهر الحُرُم

يقول:
«لم يتقيّد شوقي بهذا القيْد وإنما أطلق نفسه من ربقة التقليد، فلم يتحدث عن نجد ولا عن تهامة وإن غلبت عليه بعض الأخيلة العربية، فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقيّة من خيال الأعراب، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف، ويظلّون لا عاصم لهم من فتك العيون».

لعل الدكتور ترفّق بشوقي لأن خصمه العتيد الدكتور طه حسين فضّل عليه شاعر النيل، حافظ إبراهيم. ولئن عاب الدكتور زكي على البوصيري أنه كان مقلداً، لأنه اقتفى أثر الأولين في استلهام الأمكنة، فما باله لم ينكر ذلك على شوقي، وقد فعل الشيء نفسه؟ إن (القاع) و(البان) و(العلم) هي أيضاً في ظني أسماء مواضع، بخلاف ما يرى الدكتور. وحسبك قول الشريف الرضي:

يا ظبية (البان) ترعى في خمائله
ليهْنِكِ اليوم أن القلب مرعاك

لا أظن أن الظبية كانت تأكل ورق شجر البان، وإنما كانت ترعى العشب الذي نما في ذلك الموضع.

ولا يخفى أن الشعراء كانوا يحبون أن يعيّنوا لك المكان الذي لهم فيه صبابة وهوى، وقد قال زهير:

أمِن أُمِّ أوْفى دمْنةٌ لم تكلَّم
بحومانة الدُّرّاج فالمتثلَّم

وقال الحردلّو:

ودْ الأرْيل ألْ بين (ودْ فهيد) و(مساهي)
فيهْ شورْتين عُقُب تلاّتْ وريدُه الباهي

وما (ودْ الأرْيل) إلّا ظبية البان أو ظبية الأراك!
ويعجب المرء أن قول الشاعر (الأشهر الحرم) صرف ذهن الدكتور إلى خيال الأعراب، ولم يصرفه إلى (الحرم) بمعناه الإسلامي.

كنت أحسب أن المسلم إذا طرقت سمعه عبارة (الأشهر الحرم) في قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه المعنى القرآني، وقد يفكر في (المسجد الحرام) و(الحرم النبوي)، ولا يتّجه ضربة لازب، إلى زمان الجاهلية. وما أجمل ما قال الشاعر الإسلامي:

بيضٌ حرائر ما خرجن لريبة
كظباء مكّة صيدهن حرام

وأنا أجد في قول شوقي (أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم) في موضع متقدم من قصيدته لمسة من لمسات العبقرية، ففي ذلك إيحاء منذ البداية بروح الجلال والقداسة الذي بثّه الشاعر في قصيدته.

هذا الجو الذي صنعه البوصيري وشوقي، كل على طريقته، أزعج الدكتور من أول وهلة. أنكر على البوصيري أن يذكر (كاظمة) و(ذا سلم)، وأراده ليؤكد (مصريته). لعلّ الدكتور لم يرَ شجر السّلَم في قريته. وهو شجر من فصيلة السّنط والطّلح له جذع يميل إلى الحمرة، وزهر له رائحة شذية، وصمغ حلو المذاق. وهي شجرة شاعرة موحية يُحدث ذكرها في الشعر أثراً لا يحدثه ذكر (بلبيس) أو (فاقوس). ثم هل المسلم المتوجه بجوارحه إلى تلك الرحاب المضيئة، يفكر هل هو مصري أم هندي أم حبشي؟ لأجل ذلك لا يجد الدكتور أي جمال في قول البوصيري:

فما لعينيك إن قلت أكفُفا همَتا
وما لقلبك أن قلت استفقْ يهِم؟

ويقول:
«... فيه ضعف وابتذال، وهو غير موصول بسابقيه، وقد انتقل قبل أن يُتم المعنى فقال:

أيحسب الصَّبُّ أن الحبّ منكتمٌ
ما بين منسجم منه ومُضطرمِ
لولا الهوى لم تُرِق دمعاً على طلل
ولا أرِقْت لذكر البان والعلم»

ثم يزيد الدكتور غفر الله له:
«وقد حار الشرّاح في ربط هذه الأبيات...»

أقول، غفر الله لي، إنه أعياني أن أجد أين يكمن الضعف والابتذال في هذه الأبيات، التي لم يزدني إمعان النظر فيها، إلّا حباً لها وإعجاباً بها.

هذا محبٌّ مُذْنَف ظل يؤكد كم عانى من الحب بوجوه شتى، كما يفعل المحبّون، كل ذلك بعبارة طلية ولفظ فصيح. ولك أن تصدّق أو تكذّب. الدكتور رحمه الله، اختار ألّا يصدّق منذ البداية، بينما أجد الصدق ساطعاً في كل قصيدة البوصيري.

ثم يحار الدكتور في (الرابطة) التي تربط هذه الأبيات ـ تربطها يا رحمك الله الدّموع التي لم تزل تنهمر من عيني الشاعر المحب. في البيت الأول عيناه (همَتا). وفي البيت الثاني عيناه (أراقتا). فيا سبحان الله أيّ نهر من الدموع أفاضه الشاعر، وهذا الناقد العالم الحبر، لا يخفق فؤاده ولا ترتعش كبده ولا تغرورق عيناه، فهل هو ذنب الشاعر، أم هو كما وصف الإمام أبو حامد الغزالي (من ضيق الوعاء) إذْ كلّ ذي سعة يُنفق من سعته.

ولا أظنك لم تلتفت إلى أن (البان والعلم) هو (البان) نفسه و(العلم) نفسه الذي زرعه وبناه أمير الشعراء في قصيدته. وبذلك يكون أخذ قبساً من ضوء البوصيري أوقد به نار قصيدته فاشتعلت كأنها كوكب دُرّي.

مضى الدكتور زكي مبارك، رحمه الله، يوازن بين (بردة) شوقي و(بردة) البوصيري، مرة يروقه شوقي، وأحياناً لا يجد بداً من استحسان البوصيري، وهو أكثر استحساناً لشوقي في الغالب. يقول، مثلاً عن هذا البيت للبوصيري:

نعم سرى طيف من أهوى فأرّقني
والحبُّ يعترض اللّذات بالألم

يقول:
«وهو بيت مفرد لم يتمَّ به المعنى. أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين قال:

يا ناعس الطّرف لا ذقت الهوى أبداً
أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنَم
أفْديك أَلفاً ولا آلو الخيال فدىً
أغراك بالبخل من أغراه بالكرم»

وأقول، عفا الله عني، إن بيت البوصيري في اقتصاده ورصانته، أوفق لهذا المقام من بيتي شوقي على ما فيهما من حُسن، إذ إن المقام أصلاً ليس مقام غزل. وضع البوصيري الهدف نصب عينيه، فجاء غزله وقوراً متماسكاً مقتضباً، بخلاف شوقي الذي كادت تنسيه حلاوة الغزل، جلال المقام الذي يتوجه إليه.

ثم، كأنما الدكتور قد تذكّر فجأة، فقال:
«وأين شوقي من البوصيري؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط».

إلّا أنه يقول ذلك في معرض الانتصار لشوقي، حين يفاضل بين قول شوقي في لوم النفس:

لا تحفلي بجناها أو جنايتها
الموتُ بالزّهر مثل الموت بالفحَمِ

وبين قول البوصيري:
واخْشَ الدسائس من جوع ومن شبع
فربّ مُخمصة شرٌّ من التُّخمِ

فيقول:
«إن قول شوقي لأَشْرف معنى وأسمى خيالاً من قول البوصيري»:

يا سبحان الله. كيف يكون (الموت بالزّهر مثل الموت بالفحم) أشرف معنى وأسمى خيالاً من (فربّ مخمصة شرّ من التّخم)؟
ويزيد الدكتور زكي على ذلك قائلاً:

«ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين، فلما وصل إلى نفسه ذكر أنه لم يصلِّ ولم يُصمْ سوى الفرض، وأنه يأسى على أنه لم يتزوّد نافلة قبل الموت، وأنه لذلك ظلم نفسه سنّة من أحيا الظلام حتّى تورّمت قدماه، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليذرف ما ذرف شوقي من الدمع. وهنا سنحت الفرصة (لشوقي) ليزفر تلك الزفرة الحارّة، ويرمي بذلك الندم الموجع الذي يذيب لفائف القلوب».

اللهم إن البوصيري لم يلُم إلّا نفسه ولم يقرّع غيرها. وكأن الدكتور قد نسي أن الشاعر قد ذرف دموعه منذ أول القصيدة،

بكى حتى صار دمعه دماً، ولم يعد بحاجة إلى الإلحاح، فقد ظلت دموعه تجري طوال القصيدة، وتتسرب في حناياها، كما تتسرّب قنوات الماء في الحقل. ولعلك تذكر أن الدكتور عاب على البوصيري، أنه أسرف في البكاء حينئذٍ. فما باله الآن يلومه أنه لم يبكِ كما ينبغي؟

ينتقل الدكتور بعد ذلك، إلى المقارنة بين تخلّص الشاعرين من النّسيب إلى المديح، ويُدخل محمود سامي البارودي طرفاً في المقارنة، فقد عمل هو أيضاً (بردة) من لحمة (بردة) البوصيري وسداها، يقول في مطلعها:

يا رائد البرق يمّم دارة العلَم
واحدُ الغمائم إلى حيٍّ بذي سلَم

كل واحد من هؤلاء الشعراء العتاق، يحسن صنعاً أنه لا ينقل فُجَاءة من النسيب إلى المديح، كما يفعل الشعراء، ولكنه يتمهل في الدخول على حضرة الرسول الأمين، ويهيىء لذلك بأبيات في الحكمة ومحاسبة النفس، ومدافعتها عن أهوائها، وتذكيرها بما فرّطت في حق خالقها.

البوصيري يفعل ذلك بأبيات هي أجمل أقوال الشعراء الثلاثة في تقديري. قد يظن البعض أنه أقلّهم شاعرية، ولكنه كان حتماً أصفاهم حُبّاً، وأكثرهم تشبثاً بذلك الجانب النّوراني. وقد فتح الحبّ بصيرته، وشحذ قريحته، وأفاض عليه من بركاته، فجاءت قصيدته شيئاً أسمى من الشعر. جاءت دفْقاً من الحب المحض.

لن يتأتّى لك أن تذوق حلاوتها حقاً، وتغطس في بحر بهائها، إلّا

بمقدار ما تتهيأ لها كما تهيّأ الشاعر للمثول في رحاب من قيلت تمسّحاً في أعتابه. وذلك فيما أرى، هو الأمر الذي لم يوفق إليه الدكتور الفاضل، رغم كل ما حمله من علم وعرفان.

■ ■ ■

قد رأيتَ أن بيت البوصيري، بسبب ما فيه من اقتصاد ورصانة، أوفق من بيتيْ شوقي اللذين استبدّت بهما نشوة الغزل، حتى كاد الشاعر يتعدى مُقتضى ذلك المقام. والبيت من بعد، جوابٌ قاطع عن السؤال الذي سأل الشاعر نفسه، أو أن أحداً سأله إياه في مطلع القصيدة:

أَمِن تذكُّر جيرانٍ بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم؟

ما أجمل السؤال، وما أجمل الإجابة:

نعم، سرى طيفُ من أهوى فأرّقني
والحبّ يعترض اللّذات بالألم

هل بقي شيء يقال بعد هذا؟ إنما الدكتور زكي مبارك لا يكتفي، ويطلب المزيد، فيقول:

«وهو بيت مفرد لم يتمّ به المعنى».

اختار رحمه الله، أن يُصمّ أذنيه دون الصّخب العظيم، وراء هذه الكلمات القليلة، علماً أنه كان في مواطن أخرى مُرهف السمع حديد البصر. لم ينتبه للبلاغة في قول البوصيري، ويا لها من بلاغة «نعم، سرى طيف من أهوى فأرّقني».

إنّما الشاعر المحب يمضي في الطريق إلى غايته، لا يكترث لعذل عاذل، ولا لوم لائم، يحدوه قلبه الذي امتلأ بالنور الذي أضاء من يثرب. عَجِلٌ هو للوصول، لذلك لا يلبث أن ينفلت من الغزل إلى الحكمة ومحاسبة النفس، في أبيات بديعة، حدا بها الرّكبان، كقوله:

فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتّعظت
من جهلها بنذير الشّيب والهرَم
ولا أعدّتْ من الفعل الجميل قِرى
ضيف ألمّ برأسي غير محتشم
مَنْ لي بردّ جماح من غوايتها
كما يُرَدُّ جِماحُ الخيل باللُّجُم
والنفس كالطّفل أَنْ تُهملْه شبّ على
حبّ الرضّاع وإن تفطمْه ينفطِم

ليس في العربية قصيدة، أحدثت من الأثر، ولاقت من الذّيوع، ما لاقت (بردة) البوصيري، ولا حتى شعر أبي الطيّب، ينطبق عليها قوله:

فسار به من لا يسير مُشمّراً
وغنّى به من لا يغنّي مغرّداً

وقد تجد أميّين ينشدونها بقلوبهم ولا تعيها عقولهم.

هذا، ويخلص البوصيري رحمه الله، إلى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم تخلّصاً حسناً، فيقول:

ولا تزوّدت قبل الموت نافلة
ولم أُصَلّ سوى فرض ولم أَصُم

ظـلـمـت سُـنّـة مـن أحـيـا الـظـلام إلـى
أن اشـتـكـت قـدمـاه الـضـرّ مـن ورم

لو يشاء الدكتور لرضي عن هذا، وأقرّه بلا تحفُّظ، ولكنه لعلّة عجيبة، لا يكف عن مماحكة الشاعر فيقول:

«وهذا النوع من التخلّص غير مقبول، إذا لاحظنا أنه تخلّص من النسيب إلى المدح. أما إذا لاحظنا أنه تخلّص من النسيب إلى حساب النفس ثم إلى مدح الرسول، فإنّا نغفر له هذه الإطالة».

يا سبحان الله. الشاعر قد خرج من النسيب منذ نحو عشرين بيتاً. وقد أطال بعض الإطالة في محاسبة نفسه وتبكيتها وزجرها، لأنه كان يستعدّ للمثول بين يدي ممدوحه الأمثل. كأنه كان ينتظر الإذن كما قال حاج الماحي:

أعطونا الإذن ندخل على السّلطان. يقتفي شوقي أثر البوصيري، حافياً حاسراً، موقع قدم على مؤقع قدم. بل إن أبياته في الحكمة ولوم النفس، في عدد أبيات البوصيري، فهي نحو عشرين بيتاً. بل إنه لا يبالي أن يأخذ صور البوصيري، ويقدمها لك في ثياب جديدة، كمثل قوله:

والـنُّـفـس مـن خـيـرهـا فـي خـيـر عـافـيـة
والـنّـفـس مـن شـرّهـا فـي مـرْتَـع وَخِـم
تـطـغـى إذا مُـكّـنـت مـن لـذّةٍ وهـوى
طَغْيَ الجيـاد إذا عَـضّـت على الشُّـكُـم

ومن يلومه على ذلك، فقد كان البوصيري إماماً في وفود المحبّين،

وقد عبر بحاراً لا يستطيعها أمير الشعراء، رغم شاعريّته الضخمة.

يدخل شوقي بعد هذا، إلى رحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم، مدخلاً جميلاً، وإن كنتُ أجده أقلّ رشاقة من مدخل البوصيري، فيقول:

إذا خفضتُ جناح الذلّ أسأله
عزّ الشفاعة لم أسأل سوى أَقَم
وإن تقدّم ذو تقوى بصالحة
قدّمتُ بين يديه عَبْرة النّدم
لزمتُ باب أمير الأنبياء ومن
يمسك بمفتاح حبل اللّه يعتصم

رضي الدكتور عن هذا كل الرضى، فمزاجه عجيب، وحتى قول شوقي «يمسك بمفتاح حبل الله» لم يستوقفه كعادته، وكان بوسعه أن يسأل «هل الحبل يكون له مفتاح؟ وهل أنت تمسك الحبل أم تمسك مفتاح الحبل؟». لكنه غضّ الطرف، وقال مُعجباً:

«وهذه قطعة مختارة الجيّد فيها أكثر وأجود ممّا يقابله في كلام البوصيري».

على أننا نسامحه، بل نفرح له، حين نجد أن شعر شوقي قد ألان قلبه أخيراً، إذ لم يُفلح شعر البوصيري. يقول:

«وكان شوقي أوفر النّاس إحساساً بخطر ذنبه وكرم ربه، حين قال:

وإنْ تـقـدّم ذو تـقـوى بـصـالحة
قـدّمـت بـين يـديْـه عَـبْـرة الـنّـدم».

أما البارودي، فإنه اقترب من البوصيري أكثر من شوقي، في أنه لزم جانب الرّصانة في الغزل وفي الوصف، وتخلّص إلى المديح تخلُّصاً لا غبار عليه، فقال:

ليت القطا حين سارت غُدوةً حملت
عـنّـي رسـائـل أشـواقـي إلـى أضـم
كـأنـهـا أحـرفٌ بـرقـيّـة نـبـضـت
بالسّلك فانتشرت في السهل والعلَم
لا شـيء يـسـبـقـهـا إلّا إذا اعـتـقـلـت
بـنـانـتي فـي مـديـح المصطفى قـلـمـي

ثمّة شيء من التصنّع، لا تؤاخذ الشاعر عليه، فهو في عجلة من أمره، وحق له أن يعجل. والدكتور زكي راضٍ كل الرضى، لا يلوم البارودي على هذا، ولا يلومه أنه يرسل أشواقه إلى (أضم)، وكان كما تذكُر، قد لام البوصيري أنه بكى لما (أومض البرق في الظلماء من أضم). طرب الدكتور رحمه الله أيّما طرب، وقال «وهذا تخلّص مُسْتَمْلحٌ مقبول».

الحمد لله، هذا وقد اعتذر البارودي في نهاية قصيدته عذراً جميلاً، أنه لجأ إلى الغزل أصلاً في ذلك الجناب السامي، فقال:

صـدَّرتُـهـا بـنـسـيـب شـفّ بـاطـنـهُ
عـن عـفّـة لم يـشِـنْـهـا قـولُ مُـتّـهِـم

لم أتّخذْه جُزافاً بل سلكت به
في القول مسلك أقوام ذوي قِدَم
تابعت كعباً وحسّاناً ولي بهما
في القول أُسوة برٍ غير مُتّهَم
فلا يُلمني على التشبيب ذو عَنَت
فبُلبلُ الروض مطبوع على النّغم

لا تثريب عليك يرحمك الله، ويرحمهم وإيّانا جميعاً.

يا ربّ صلّ وسلّم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلّهم.

لن تستطيع الفكاك من إساره حتى لو أردت، يصدق فيه قول النابغة:

وإنّك كالليل الذي هو مُدْركي
وإن خلتُ أن المُنتأى عنك واسع

وكأنما هو شاعر لما بعد سنّ الأربعين. احفظْ شعرِه إن صحّ لك ذلك، وقت الفتوة، وعرام الشباب. إنّما الفهم فهذا يجيء مع مرور الأيام، كل عام يمر، يفتح لك آفاقاً جديدة، ويكشف لك عن معانٍ خفيت عليك، اللهم إلّا لدى قلّة من النوابغ، أمثال أستاذينا محمود محمد شاكر وعبد الله الطيب المجذوب. هذان وأضرابهما شيء آخر.

ومن عجائب هذا الشاعرْ، أنه ما يزال بك، حتى يريك في حياتك

أنت، عُمقَ ما يقول. كم مرة في هذه الآونة الأخيرة وقفت أتمثل قول أبي الطيب:

لولا مفارقةُ الأحباب ما وجدت
لها المنايا إلى أرواحنا سبُلاً

ثم أعود فأستحضر قوله:

لا تجزَعنّ لأمر شقّ منظرُه
فإنما خطراتُ العيش كالحلم

بلى هو «سيد الشعراء» كما وصفه أحد أمراء الشعر في هذا العصر نزار قباني وهو عندي «الأستاذ» لأنه وصل بالشعر إلى حيث لا مُبتغى بعده. حلب در البيان ودفع بالمعاني إلى أقصى غايات احتمالها، وما أكثر ما حمّلها فوق طاقتها. نذر نفسه بالكلية لهيكل الفن، فمات شهيداً على أعتابه وقد ورّثنا هماً كونيّاً قل نظيره في شعر الإنسانية وأكاد أقول لا نظير له.

قد يطربك امرؤ القيس أو عنترة أو زُهير، قد يعجبك جرير أو عمر ابن أبي ربيعة أو ذو الرّمّة. قد يغويك بشار والحسن بن هانىء وأبو تمام. ثم تدخل عالم أبي الطيّب، فإذا هو يُنسيك هؤلاء كلهم، وإذا صوته يطغى على أصواتهم جميعاً، فكأنه الشاعر الوحيد في لغة العرب، وكأن الشعراء قبله وبعده، محض أغصان من فروع دوحته.

هذا إذا أحببته. أما إذا كرهته فأنت في مأمن، وأكثر الكارهين له، إما محبٌّ في حقيقته، أصابه الرّعب من طغيان ذلك الحب، فهو

يتصنّع الكراهية، وإما جاهل به وبشعره، فليس عليه حرج. وهكذا أجدني اليوم في القاهرة العامرة، وحولي من بواعث السرور والسلو، فأوثر عليها الهم عند أبي الطيب، ويؤرقني شعره حتى مطلع الفجر.

نعم، هو هكذا، إن غامرت بالنزول في ساحه، فأبشر بالحبس وطول الإقامة. أخرج من داري وأمشي في طريق يأخذ مني نحو ساعتين. حين أجهد، أجلس أينما اتفق، متكئاً على عصاي التي صحبتني طويلاً في هضاب الـ (بيرْنيز أو برْلاند) أعلى (انترلاكن) وأسمع وقع خبطها في دروب رواية (ضوّ البيت). يصعد الدرب ويضيق جداً حتى لكأنك في عمق الريف. أعبر جسوراً على غدران تجيء من منابع غامضة في أحشاء الغاب ناحية اليمين وتختفي في مسارب بين أشجار البلوط والصنوبر ناحية اليسار.

أصادف سنجاباً غير بعيد منّي يتشبث بفرع. يتأمّلني بلا خوف، يتأملني بدهشة كدهشة الطفل. أنظر إليه وينظر إليَّ. أكاد أسمع حديثه. مثلي في شرع الحياة، وأسعد حالاً لأنه كما قال الحردلّو (فرحان وعاجبه خلاه). والخلاء ليس بالضرورة الأرض العراء، ولكنه اتساع فضاء الانطلاق للكائن الحي.

الطيور أشكال وألوان، تختلف أنواعها باختلاف الفصول. طيور الجنوب في الصيف، وطيور الشمال في الشتاء في رحلتها جنوباً. يصحبني أحياناً فوْج من فراشات بيضاء، تسايرني مسافة كأنها تحتفل بي. يفرحني ذلك، وأقول لنفسي إن الطبيعة تحتفي بالكائن الحي، الذي يجيئها خالص الطوية، لا يضمر لها شرّاً. تحسّ الطبيعة بالنوايا الشريرة، فتختفي الفراشات، وتزعق الطيور بعضها ينذر بعضاً. رحم الله غيلان. كم أحبّ الطبيعة وأحبّته.

مرة وجدت هُدْهداً جالساً على فرع ينادي. وقفت زمناً أتأمله وأصغي إلى إنشاده. أعادني إلى الوراء أعواماً، إذا أنا في عزّ الظهيرة، بتلك الأرض، ما أطيب الثرى وما أطيب المصطاف والمتربّعا. اليمام يهدل هديله العجيب الذي يشبهه صوت (ماريّا كالاس) في أوبرا (كارمن) وصوت فيروز في المواويل، لا تراها بين الجريد على رؤوس النخل، فكأنها ألسنة ينطق بها النخل، وكأن النخل هو الذي يغني. والهدهد في طيلسانه الملوكي، حين يفرد جناحيه، تجد كأن آفاقاً تمتد وراء آفاق.

أنت لست من طيور هذه الديار يا صديقي، فما الذي رمى بك هذا المرمى من وادي النّيل؟

٣٩

يؤنسني وقع عصاي على الدّرب الذي يضيق مصعّداً في أحشاء الغاب في هضبة (ومْبلدُن). ما أبعد هذه الأرض وهذه الطبيعة عن روح أبي الطيّب! لكنه يقتحمها اقتحاماً ويحتلها احتلالاً، كأنّ شعره جيشٌ مُغير:

وكم من جبالٍ جُبتُ تشهد أنني
الجبالُ وبحرٍ شاهد أنني البحرُ
وخَرْقٍ مكانُ العيسِ منْه مكانُنا
من العيس فيه، واسطُ الكُور، والظَّهرُ
يخِذْن بنا في جوْزه وكأنّنا
على كُرة أو أرضُه معنا سَفرُ

تصوّر. في بيت واحد، عرف كرويّة الأرض قبل (جاليليو) واكتشف أنها مسافرة في الفضاء، قبل علماء الفلك في هذا

العصر، ووضع نفسه خارج الزمان والمكان.

أصل عند مفترق طرق. (روبرت فُرسْتْ) وقف كما أقف الآن، واحتار أي الطريقين يسلك، ثم اختار أن يمضي في الدرب غير المطروق إلّا قليلاً.

«قلتُ أدَّخر الطريق الآخر، ليوم آخر.
ولكنني أعلم كيف أن درباً يؤدي إلى درب،
فما أظنّني أعود إليه أبداً».

ثم يجيء بل يهبّ صوت (الأستاذ) عاصفاً قوياً فيطغى بسهولة على صوت الشاعر الأميركي:

ولـلـه سـيـرى، مـا أقـلّ تـئـيـةً
عـشـيـةَ شـرْقـيَّ الحِدالـي وغُـرَّبُ
عـشـيّةَ أَحْـفـى الـنـاسِ بـي مـن قـلـوْتُـه
وأهـدى الـطـريـقـين الـتـي أتجـنّـبُ

هذا اختيار للأصعب، عن عمد وإصرار، وليس محض درب يؤدي إلي درب. قال صاحبه ابن جنّي «كان يترك القصد ويتعسّف خوفاً على نفسه». هل هذا؟ أم أنه كان يرمي بنفسه عمداً في وجه المخاطر؟ أما قال وأنت سيّد العارفين:

وقـاكَ ردَى الأعـداء تـسـري إلـيـهـم
وزارك فـيـه ذو الـدّلال المحـجّـبُ

وما أعجب هذا البيت. هو يسير إلى الأعداء، وذو الدلال المحجّب يسير إليه، في بيت واحد، ليل واحد، فكأن المحبوب في جيش

الأعداء، وكأن الأعداء لشدة تحرّقه إلى لقائهم كالمحبّين!

أزيز السيارات من بعيد، كالموج على شاطىء رملي. ألوان الأقحوان والليلك والبنفسج. الشمس تضيء وتظلم آخر الصيّف. رائحة العشب والحطب المبتلّ. جلبة الطيور في أوكارها وخفق أجنحة الفراش بلا صوت.

نباح كلب، وخبط عصا على كرة (غولف). وصوت الشاعر، غريباً في المكان، سيّداً في الزمان:

ويومٍ كليل العاشقين كمنْتُه
أراقب فيه الشمس أيّان تغربُ
وعيْني على أُذْنيْ أغرَّ كأنّه
من اللّيل باقٍ بين عينيه كوكبُ

الله! لا بدّ لهذا من الجلوس. أجد جذع شجرة يسمح بالجلوس. أهتف (الله أكبر) فتؤمن الطيور والفراشات والغدران والعشب والسناجيب.

يجعلك في الضوء بالنّهار، ولكنه لا يمهلك حتى تستقر، فيهيل عليك الظلام في قوله (كليل العاشقين). ليس أن اليوم طويلٌ كليل العاشقين. فلتغرب الشمس. يسطع الضوء من وجه الفرس، وإنما هو يسطع من الشاعر نفسه، فليس الكوكب المضيء في النهار المظلم غير الشاعر نفسه. وهل أنت في النهار أم في الليل؟

شققْتُ به الظلماء أدني عنانه
فيطغى وأُرخيه مراراً فيلعبُ

هو الفرس، وهو الشعر، وهو الشاعر. مثل ذي الرُّمّة وناقته:

فقلتُ دعي ضوءَ الفراقد كلّها
يميناً ومهوى النَّسْر منْ عنْ شمالكِ

الشاعر كوكب يضيء في ظلام نفسه وفي ظلام الكون، وقد قال صراحة:

وإني لنجمٌ تهتدي صحبتي به
إذا حال من دون النجوم سحابُ
غنيٌّ عن الأوطان لا يستفزُّني
إلى بلد سافرتُ عنه إيابُ

صدقت، وما حاجتك إلى الأوطان يا سيدي؟ أنت مسافرٌ في الزمان، والأرض تسافر معك كما قلت «على كرة أو أرضُه معنا سَفرُ».

حيَّتْني في قاعة الإفطار بالنّزل، تلك السيدة التي رأيتُها صباح أمس، فلم أكلّمها ولم تكلّمني. امرأة نَصَفْ، أخذت الأيام منها دون أن تُعطيها شيئاً في المقابل. لكْنتُها أميركية واضحة وليس أشنع من اللّكنة الأميركية في اللغة الفرنسية. كانت تأكل وتكتب، أمامها رُزمة من البطاقات. الأميركان كأنهم يجوبون أقطار الأرض، لا لشيء إلّا ليرسلوا البطاقات ويأخذوا الصور، ويسجلوا الأفلام. كأنهم يصنعون المكان قبل أن يصلوا إليه.

كنت مشغولاً بأبيات لأبي الطيّب - في باريس يا عمرك الله؟ - أقلّبها كيفما اتّفق. أنثرها وأجمعها، وأقيمها وأقْعدها، وتشرد منّي كالإبل الظمأى، فألُمُّ شتاتها، وهي تزداد وتتّسع، تزيدها غُرْبةُ المكان، غرابةً وأُلفة.

ذَلَّ مـن يـغـبـط الـذلـيـل بـعـيـش
ربّ عـيـش ألـذُّ مـنـه الحِمـامُ
كـلُّ عـفـوٍ أتـى بـغـيـر اقْـتـدارٍ
حُـجَّـةٌ لاجـىءٌ إلـيـهـا الـلّـئـامُ
مـن يـهُـنْ يـسـهـلُ الـهـوانُ عـلـيـه
مـا لجرح بمـيِّـت إيـلامُ

مضيْنا نتحدّث بالفرنسية، كما وصف أبو العلاء (في حنْدسٍ نتصادم) أردتُ أن أُدخل السرور على قلبها، لوجه الله، وبعض الحديث صدَقة، فسألتُها عن قصد:

«أنتِ فرنسيّة، أليس كذلك؟».

سعدتْ كما توقّعت، يعني أنها تتحدث الفرنسية كالفرنسيين، وأجابتني والبِشْر يفعل بوجهها الأفاعيل:

«أشكرك على إطرائك، لكنّني في الواقع أميركية. عرفت باريس منذ ثلاثين عاماً، وقلت أزورها ثانية قبل أن يتقدم بي العمر، أصبحتْ غالية غلاء لا يطاق».

سُقتُها سوقاً إلى الإنجليزية، وقلت يكفيني عناءً أنها أميركية:
«أنت من أي مدينة في أميركا؟».

«من نيويورك. لكنّ زوجي وجد عملاً في أوكلاهوما فرحلنا إليها. زوجي مهندس. صعبٌ جداً أن يجد الإنسان عملاً هذه الأيام في أميركا، خاصة إذا كان فوق الستّين. زوجي عدّى الستين. لنا خمسة أبناء. ابننا الأكبر طبيب، إحدى بناتنا درست اللغة الألمانية..».

قلتُ أميركية بيضاء من نيويورك، إذاً الاحتمال كبير أن تكون من عشيرتنا الأبعدين. وما في ذلك؟ بشرٌ مثلنا، وفيهم الكريم واللئيم، وهم يزدادون منّا قرباً كل يوم، إما بهذا وإما بذا كما قال (الأستاذ).

لم أعد أقول شيئاً. حوّلتْني السيدة إلى محض مستمع، وهي تأكل وتشرب وتكتب وتثرثر. ألا يوجد مستمعون في بلادهم؟ الواحد منهم يسافر أميالاً كي يعثر على آدمي مثلي يقصّ عليه قصة حياته. ولم تكن السيدة تدري أنها وقعت على صيّاد في إهاب فريسة. وهي على أي حال خُصلة لا تخلو من جاذبية. فيهم سذاجة وعفوية، كالأطفال، وجوعٌ إلى التواصل، إنما من طرف واحد بلا أخذ ولا عطاء.

مضى زمن قبل أن تسألني، وأحياناً تتحدّث مع أميركي ساعات وتفترقان دون أن يسألك عن اسمكِ أو بلدك، وتكون قد عرفت عنه كل شيء:

«من أين أنت»؟.
«من السودان».
«السودان؟ دعني أخمّن. أين السودان؟ في أفريقيا؟».
«أحسنت! في أفريقيا. جنوب مصر، يشقّه نهر النيل».

قلت لا بد أنها على الأقل، قد سمعت بمصر ونهر النيل، إن لم تكن قد سمعت بجماعتنا الأقْيال الذين حوّلوا مجرى نهر التاريخ، وتركوا في الدنيا دويّاً كما قال أستاذنا وصنعوا للسودان (ليبنْشتروم) تحت شمس أفريقيا الحارقة.

«أنتم فرانكوفونيّون، لغتكم الفرنسية، أليس كذلك؟».

وبعدين معاكي يا هناه؟! صحيح عندنا كم واحد قرأوا المتون في (مُنبيلْييه) و(بوردو) والـ (سوربون). إنما انظري إلى هذا الجالس حِذَاك كيف يُعاظلُ الفرنسية، كأنّه بعير مُثْقَلٌ في بيداء الرمال. هل هذا صنيع فرانكوفونيين؟

«لغتنا الأم هي العربية. ونتحدث الإنجليزية وقليلاً من الفرنسية».
«أنتم..؟».
«نعم. نحن عرب».

طبعاً هذا كلام ألقيتُه على عُهناته، فمعلوم أننا لسنا كلّنا عرباً في بلاد السودان المتباعدة الأكناف. ولو كانت السيدة تريد حقاً أن تفهم، لرويت لها القصّة بحذافيرها. إنما هي وقومها مثل الأطرش في زفّة العرس. والعُرس عرسُهم، والزمان زمانهم. وأيضاً سوف ترى وشيكاً إن شاء الله، أنني قلت ذلك من باب التحدّي، كما فعل فتانا أيام عدَل الوقت:

الولَدْ ألْ بِدورْ يتْشَكّرْ
يبعد رِدُّه في بلد العدو ويتْوَكّرْ

كلمة (عرب) بلْبلتْها أَيَّ بلبلة. وارحمتاه للعرب! هل يجيء زمان يسمع فيه الأميركي أو الأوروبيّ كلمة (عرب) فلا يحدث له ما حدث لهذه السيّدة؟

وسمعت صوت أبي الطيّب كما يلمع السيف اليمانيّ في رأْد الضّحى:

ذَلَّ من يغبطُ الذّليلَ بعيشٍ
ربّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ

٤١

من مكرُمات هذا الإنسان ذي المكارم العدّة، أنه محبّ أكيد لأبي الطيّب. وحبُّ المتنبي عندي، من المعايير التي يُميِّزُ بها الناس. إنه شاعر مهما قلت فيه، فلن تستطيع أن تنكر عليه أنه أخو إقدام ونخوة وما شئت من أريحيّة. ولن تجد محبّاً لأبي الطيّب إلّا ولديه شيء من هذا، قلّ أم كثُر. وأخونا غازي القصيبي، أخذ منها بأوفر حظ.

نبّهني ـ رعاه الله ـ وقد فعل ذلك بأيّما لطف، أنني أوردت بيتاً للمتنبي على غير وجهه الصحيح. وأنا أقرّ على نفسي بالعدوان، فالبيت الجسيم، من هذه الأبيات التي تلمع في سماوات هذا الشاعر العجيب:

هوّن على بصر ما شقّ منظره
فإنّما يقظات العين كالحُلم

ولا يغفر لي أن أعتذر، بأنني كنت في القاهرة حينئذٍ، أكتب على عجل، فأخذته من الذاكرة. فعلت ذلك اغتراراً وجهالة، فقد كانت الذاكرة قد عوّدتني، أنني إذا دعوتها تُجيب، وإذا احتجت إليها تُلبّي. نسيت أن ذلك كان في الشباب، والشباب قد ولّى بشَراهُ وشرّه الذي هو أشبه بالخير، وجاءت الكهولة، قُل الشيخوخة، بخيرها الذي هو أشبه بالشرّ. غدت الذاكرة ومشتقاتها إذا دُعيت لا تجيب، وحين تجيب فبعد لأي، كما وصف البحتري النسوة اللائي صددن بصحراء الأريك وربما..

وأيضاً هذا البيت منذ حفظته دائماً يرد إليَّ هكذا، كأنني لم آخذ منه إلّا وجهاً واحداً من الوجوه الكثيرة التي أجملها الشاعر في قوله البليغ:

لا تجزعَنّ لأمر شقّ منظره
فإنما خطرات العيش كالحُلُم

هكذا، وشتّان بين قول (الأستاذ) - (هوّن على بصر) - وقولي (لا تجزعنّ لأمر). هو اكتفى بالفعل، فقال (هوّن) وأنا تذرعت بالأداة (لا) وذكرت الجزع إذ جعله الشاعر ضمناً احتمالاً من الاحتمالات، ثم أكدتُ حيث لا يحسن التأكيد، فكأنني أضفت الماء إلى اللّبن المحض.

وبعيدٌ بين قوله (يقَظات العين) وقولي (خطرات العيش)، فالشاعر قد ركّز على البصر، وسار به إلى منتهاه، والحُلم رؤيا، والعيش قد تراه ولا تراه. وأين أنا من ذلك الجناب العالي؟ وهل يغفر لي أنني قد خلطت بين المتنبي وشكسبير؟

هذا، والبيت في القصيدة التي رثى بها فاتكاً أبا شجاع الملقب

بالمجنون، قالها سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة بعد خروجه من مصر. وكان فاتك، كما حدّثوا، رومياً أسر في فلسطين، فأخذه كافور من سيده بالرّملة وقرّبه إليه وجعله في بطانته.. ثم خافه لما رأى من شجاعته وكرمه وإقبال الناس عليه.

وذكروا أنه كان بالفيّوم حين كان أبو الطيّب بمصر، ونشأت بينهما مودة على البعد، فكان فاتك يراسل أبا الطيّب ويهدي إليه. ولم يستطع المتنبي أن يسير إليه مخافة كافور. ولا بد أنه انغمس على حذر في دسائس الحكم ومؤامراته، ولعله تمنّى أن يجلس فاتك مكان كافور، ويكون المتنبي له بمكان ابن الفرات من كافور.

فسّر ابن جني البيت أن الشاعر أراد بقوله، الموت. وقال الواحدي:

«ولم يعرف ابن جني شيئاً من هذا، وقال، يُقال شقّ بصر الميْت شقوقاً.. وقال، ومعنى البيت، هوّن على بصرك شقوقه ومقاساة النّزع. وهذا كلام كما تراه في غاية الفساد والبعد عن الصواب.. وقال ابن القطاع: قول ابن جني هوّن على بصرك شقوقه ومقاساته النزع والحشرجة صحيح، فإن الحياة كالحلم، وهو من قول الحكيم: كُرورُ الأيام أحلام، وغذاؤها سقام وآلام».

غفر الله لأبي الطيب. ما أشدّ ما أرهق الناس بعده. وأقول، عفا الله عنّي، هل يستطيع الذي يكابد حشرجة النزع أن يهوّن شقوق بصره، ويتأمّل الحياة أنها أحلام وغذاؤها أسقام وآلام؟ أليس ذلك يا مولانا، مقام «فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد»؟

مهما يكن الأمر، فهي قصيدة تجد فيها كل ما تؤمّله من (الأستاذ).

مدح فيها الرجل بعد موته، فأحسن مديحه. مدحه وهو يبكيه. وذلك، إن كنت في حاجة، دليل آخر أن أبا الطيب لم يكن دائماً يمدح بدافع الطمع. كان وفيّاً كما وصف، يألف ويؤلف.

مـعْـكـومـةٌ بـسـيـاط الـقـوم نـضـربُـهـا
عن مَنْبِت العُشب نبغي منبِتَ الكرمِ
وأيـن مـنـبِـتُـه مـن بَـعـد مـنـبِـتـه
أبـي شـجـاع قـريـع الـعُـرب والـعـجـمِ
لا فـاتـكٌ آخـر فـي مـصـرَ نـقـصـده
ولا لـه خَـلَـفٌ فـي الـنـاس كـلِّـهِـم

هذا، وفي هذه القصيدة، ذلك البيت الذي يقرّر فيه المتنبي مذهباً لا أظنّه كان يؤمن به في قرارة نفسه:

حـتّـى رجـعـتُ وأقـلامـي قـوائـلُ لـي
المجـد لـلـسّـيـف لـيـس المجـدُ لـلـقـلـم

ما هكذا قال (الأستاذ) في عدّة أماكن أخرى، وما سمعنا بمجدٍ قام على السيف وحده، وإلّا فأين المجد الذي بناه جنكيز خان وأضرابه؟

قلت إنني حين أذكر بيت المتنبي، يعترضني قول شكسبير، فيختلط عليّ الأمر. وقد رجعت إلى شكسبير في مسرحية (العاصفة) وهي آخر ما كتب، وقالوا إنه ودّع فيها فنّه، فوجدته كأنه يفسر بيت المتنبي. يقول على لسان (برسْبِرو):

«.. الأبراج التي تلبّس الغيم كالعمائم، والقصور المُتْرفة، والمعابد

الوقورة، الكوكب الضخم نفسه، بلى، الأرض وكل ما عليها، سوف يتلاشى كل ذلك (...) ولا يترك أثراً وراءه.

نحن من نسيج كنسيج الأحلام.
وحياتُنا التافهة سوف يغمرها النّوم».

هذا شكسبير العبقري، بعد قرون من صاحبنا، فلتة الدّهور، أحمد ابن الحسين. وكأن الشاعر الإنجليزي، رجعُ صدى الشاعر العربي. كل شعره الجميل هذا لخّصه أبو الطيب المتنبي في كلمات قليلة، في بيت واحد، فادحٍ مَهول:

هوِّنْ على بصر ما شقّ منظره
فإنما يقَظات العيْن كالحُلُم.

٤٢

إذا كنت مثلي محبّاً لأبي الطيب المتنبي ولأبي العلاء المعري، فبوسعك أن تتصوّر أي فرح ألمَّ بي، حين جاءني أخي محمود سالم بشرح ديوان أبي الطيّب لأبي العلاء المعري، الذي أسماه (معجز أحمد)، والكتاب بتحقيق الدكتور عبد المجيد دياب، عضو مركز تحقيق التراث في الهيئة المصرية العامة للكتاب. وقد أصدرته دار المعارف عام ١٩٨٨، ثم أعيد طبعه عام ١٩٩٢.

منّيتُ نفسي برحلة عامرة بالفائدة والمتعة والطرافة بصحبة هذين العملاقين. تخيّلتُ أن شيخ المعرة العتيد، ونحن نعلم كم هو محب لأبي الطيّب، سوف يصُب قدرته الهائلة على هذا العمل الفريد في تراث الإنسانية، سوف يسخّر ذكاءه الخارق، ومعرفته التي لا نظير لها بالعربية شعراً ونثراً، وجرأته الفلسفية، وروحه الساخرة، على روائع المتنبي، ويخرج منها باكتشافات لم يستطعها أحد قبله. سوف

يجلو، كما يوحي العنوان، مواطن الإعجاز في شعر أبي الطيّب، وكأنه يريد أن يُفحم حسّاد أبي الطيّب ومُنكري عبقريته.

ألا أكون حينئذٍ، كمن جالَسَ سقراط وأفلاطون على مائدة واحدة، أو كمن ضمّته قافلة مع أبي حامد الغزالي وابن رشد؟

ولا أنكر أن الدكتور عبد المجيد دياب قد بذل جهداً مضنياً يحمد له، كما يصف في مقدمة الطبعة الأولى، وحسبه أنه تصدى بجرأة وعزم لهذا البحث الشاق. رمى به مطلبه العسير من القاهرة إلى دمشق وحلب واسطنبول ولايدن ولندن وغيرها. وكاد يعتريه اليأس كما يحدّثنا في المقدمة:

«ووجدت ما حسبته ميسّراً سهلاً هو في حقيقة أمره مُضْنٍ، وأن الطريق ليس معبَّداً بعد ذلك، كما كنت أظن. وكم من مرة حدثتني نفسي بالتوقف عن هذا الأمر، والعدول إلى غير هذا الموضوع الوعر كما فعل غيري من الباحثين».

الحمد للّه أن الدكتور دياب لم يطاوع نفسه، وصابر حتى وصل إلى غايته. ومهما يكن فإنه قد نهض بعمل جليل، وفتح الطريق للباحثين بعده لمواصلة السعي للوصول إلى الحقيقة. وما أصعب اقتفاء أثر المتنبي، فإن دروبه تظل وعرة أبداً كما كانت في حياته.

هل شرح أبو العلاء ديوان المتنبي مرة واحدة أم مرتين؟ إنه سؤال ألحّ على الدكتور دياب كما ألحّ على غيره من الباحثين، يقول في مقدمة الطبعة الثانية:

«يجيبنا عن هذا كثير من المؤرخين للمعري والمتنبي، فيذكر ابن

عساكر أن المعري شرح ديوان المتنبي شرحين. الأول سماه (اللامع العزيزي) والثاني سماه (معجز أحمد). ومثله ذكر البديعي في (الصبح المُنبي) وغيرهما من المؤرخين للمعري والمتنبي».

استقر رأي الدكتور الباحث، ولا أقول اطمأن، إلى أن أبا العلاء ألّف شرحين أحدهما (اللامع العزيزي) عمله للأمير عزيز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس، وثانيهما (معجز أحمد). ومن الأدلة التي يسوقها ليثبت أن ثمة شرحين، أنه في عام ١٩٩٠ التقى المستشرق الهولندي (بيتر سمور Peter Smoor) فأهدى إليه نسخة من كتابه (الملوك والبدو في إمارة حلب، كما جاءت في آثار أبي العلاء المعري)، فوجد الدكتور دياب فيه مقدمة أبي العلاء لشرحه المسمّى (اللامع العزيزي)، فأوردها بنصّها كما يلي:

«الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وعِتْرته المُنتخبين. قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي من أهل معرّة النعمان: سألني بعض الناس أن أنشىء مختصراً في تفسير شعر أبي الطيّب، فكرهتُ ذلك، وسألته الإعفاء فأجاب. ثم تكرر السؤال فأصبحت، فكأني في القياد، وأنا كما قيل (مكره أخوك لا بطل)، وكم حلّى فضله العطَل. وأمليت شيئاً منه، ثم علمت أنني في ذلك من الأخسرين أعمالاً، لا أكتسب به في العاجلة ولا الآجلة إجمالاً، لأن القريض له زمان، ومن بلغ سنّي فما له من الحتف، مآل. وذكر لي المجتهدُ في خدمة الأمير عزيز الدولة وغرسها أبي الدوام ثابت، ابن تاج الأمراء، فخر الملك عُمدة الإمامة، وعُدة الدولة ومعزّها ومجدها، ذي الفخرين، أطال الله بقاءه، وإمام أيامه، أبو القاسم علي بن أحمد المقري، أن الأمير أبا الدوام أمره أن يلتمس لديّ شيئاً من هذا الفن، فنهضت نهضة

كسير، لا يقدر على المسير، وانشأت معه شيئاً عني مقداري من مقدار الآمر، ولست في المناصحة بالمخامر. وتقاضاني بالمراد مخلصٌ فيما كلّف مبر، على أني بالمعجزة مقرّ...».

الله أعلم. هل هذا حقاً كلام الشيخ الضرير المبصر رهين المحبسين؟ كل هذه المداهنة للأمير، والتثاقل إلى صحبة أبي الطيّب، وهو له محبّ، إلى أن حرّكه طلب (عزيز الدولة وغرسها). وإن كان للشِعر زمان، فما علمنا أن أبا العلاء كفّ عن مغازلة الشعر ومداعبة الفكر، إلى أن توفاه الله.

وحتى إن قبلنا أن هذا حقاً كلام أبي العلاء، وأن ذلك دليل على وجود شرح يسمى (اللامع العزيزي)، فهل هو دليل على وجود شرح آخر يسمى (معجز أحمد)؟

وقد أكد الدكتور دياب أن أبا العلاء ألّف (اللامع العزيزي) قبل (معجز أحمد). وإذ إنه نهض بالعمل الأول (نهضة كسير لا يقوى على المسير) فكيف تأتّى له أن ينجز الكتاب الثاني؟

لا جرم، أن ظلاً من الشك بقي يساور الدكتور الباحث، خاصة أن أبا العلاء لم يذكر (معجز أحمد) ضمن مؤلفاته. ولكنه يُشيح عنه بلطف، فيقول:

«ولـمّا كان (معجز أحمد) لم يذكره المعري في ثبْت كتبه، وقد ذكر (اللاّمع العزيزي)، فإننا نفهم أنه يمكن أن يكون قد ألّف (معجز أحمد) بعد أن ذكر ثبْت كتبه».

نعم، وقد نفهم أيضاً أنه لا يوجد شرحان بل شرح واحد. قد يكون عنوانه (اللاّمع العزيزي في معجز أحمد) أو (اللامع العزيزي) وحسب.

بعد هذا يواجه الدكتور الباحث عقبة أخرى يصفها بقوله:

«هذا، ويُلاحَظ أن النُّسخ التي اعتمدنا عليها، في تحقيقنا لهذا الكتاب، تخلو من المقدمة على خلاف عادة أبي العلاء في كتُبه. ويُلاحظ الباحث أيضاً أن القطعة الأولى، ثلاثة أبيات مع شرحها، وبعض القطعة الثانية ثلاثة أبيات أيضاً.. قد نُقل عن شرح الواحدي.. زادت نسخة (ميونخ) على ذلك مقدّمة الواحدي بخط مخالف تماماً للأصل».

هذه العقبة أيضاً يجتازها الدكتور الباحث برشاقة تدعو إلى الإعجاب، فيورد قول القفْطي في كتابه (أنباء الرواة) أن أغلب كتب أبي العلاء قد أعدمت حين اجتاح (الكفّار) المعرَّة عام ٤٩٢هـ، ولم يبق إلّا الكتب التي خرجت قبل هذا الغزو وأجزاء من الكتب الكبرى التي لم تخرج، ويضيف قوله:

«... فلعلّ صفحة العنوان والمقدمة والأبيات التي ذكرناها، نُزعت لهذا الغرض، حتى يموّه صاحب (النسخة الأم) أنها لغير أبي العلاء، وينقذها من الإعدام. ثم جاء ناسخ فكمّلها من الواحدي وهو أقرب الشروح إلى شرح المعرّي تاريخاً ومنهجاً».

الله أعلم. ولكن هذا الكلام يصعب قبوله على علاّته. إنّ (الكفّار) قد اجتاحوا المعرّة، كما ذكر الرواة، بعد نحو أربعين عاماً من وفاة

أبي العلاء، فماذا حدث لداره ومكتبته في هذه المدة وهي ليست قصيرة؟ وهل الكتب أعدمها (الكفّار) أم أعدمها خصوم أبي العلاء وحسّاده ومنكرو فضله، وهؤلاء لا يخلو منهم عصر ولا زمان؟ وهل الكفار أعدموا كتب أبي العلاء وحده أم أعدموا كل الكتب التي كانت بالمعرّة، وإذاً هل يجدي نزع غلاف كتاب لأبي العلاء؟ وهل الكفار اجتاحوا المعرّة بغرض النهب والسلب والغنيمة أم لطمس آثار أبي العلاء؟ إذاً فيا لهم من (كفّار)! ويا لغزوهم من غزو ثقافي!

■ ■ ■

رأيت أن الدكتور عبد المجيد دياب، أثابه الله على جهده، قد استقر رأيه، على أن أبا العلاء المعري ألّف شرحين لشعر المتنبي، أولهما (اللامع العزيزي)، وثانيهما (معجز أحمد) الذي قام هو بتحقيقه. لكنه والحق يقال، لم يطمئن كل الاطمئنان، وأنّى له ذلك، فقد تصرمت القرون، واختلطت الروايات، وضاعت أمهات الكتب. الذي أحرقه الغزاة، والذي بدّده الإهمال. هذا الإحساس بعدم الطمأنينة، لا يفارق الدكتور الباحث، فيقول في مقدمة الطبعة الأولى:

«وأخذت أرجع إلى كتب الأقدمين ومخطوطاتهم، وأستقصي مَنْ كتب عن المعري أو المتنبي، فإذا المصادر تنادي بأعلى صوتها، أن أبا العلاء المعرّي شرح ديوان المتنبي مرتين... ولكن عاودني الشك للمرة الثالثة، إذ وجدت أن الورقة الأولى وهي التي تحمل المقدمة ثم خمسة أبيات أو ستّة مع شرحها، منقولة عن شرح الواحدي».

ويزيد من حيرة الدكتور دياب، أنه إذ يجد سنداً لوجود شرحين عند ابن عساكر والبديعي، فإنه يجد خلاف ذلك عند ألْمني وبروكلمان وجورجي زيدان.

هذا وقد أحببت أن أتثبّت في بعض المصادر التي أتيحت لي عن قرب، فوجدت أن محمود محمد شاكر وعبد الله الطيّب، لا يبديان رأياً في القضية نفياً أو إيجاباً، وأن العميد طه حسين يذكر شرحاً واحداً هو (معجز أحمد) وأن الدكتور إحسان عباس يرى في كتابه القيّم «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» أن أبا العلاء شرح ديوان المتنبي شرحاً واحداً أسماه (اللامع العزيزي) ثم ألّف شرحاً مختصراً ويقول:

«ولكننا نعلم أن إعجابه بالمتنبي لم يدفعه وحسب إلى حفظ ديوانه في الصغر ومحاكاته، بل جعله يتوفّر على شرح ديوانه مرة، واختصاره مرة، فكتب اللامع العزيزي ومعجز أحمد (.....) غير أن الشرح (اللاّمع العزيزي) ليس كله انتصاراً لأبي الطيّب إذ كثيراً ما نراه يتعقب المتنبي بالنقد ولا يحاول الاعتذار عنه. وهذا جهد في محاولة الإنصاف جميل».

ويخبرنا الدكتور إحسان بأمانته العلمية التي عُرفت عنه، في تذييل له، أنه اطّلع على (اللامع العزيزي) بعد أن كتب ما كتب، مستنداً فيه إلى (مآخذ الأذى)، ثم يقول:

«وأوضح ما في (اللامع العزيزي) أن الشارح يحمّل أبيات أبي الطيب، طرفاً من آرائه ونظراته في الكون والناس (...) ولكن المعرّي أشد شيء إعجاباً بما يتصل بالفكر الفلسفي العميق، ولذا نجده يهتز طرباً لقول المتنبي:

إلفُ هذا الهواءِ أوقعُ في الأنفس إن الحمام مرُّ المذاق

فيقول: هذا البيت والذي بعده يفضلان كتاباً من كتب الفلاسفة لأنهما عيارٌ في الصدق وحسن النظام. ولو لم يقل شاعر سواهما لكان له فيهما جمال وشرف».أ.هـ.

هذا وقد خطر لي أن أنظر كيف فسّر أبو العلاء هذا البيت في الكتاب الذي حققه الدكتور دياب ويظن أنه (معجز أحمد)، فوجدته يقول:

«هؤلاء الذين يداجونك بالعداوة أَلِفوا هذه الدنيا وتنسُّم هذا الهواء. ومن أَلِف هذه الدنيا واستطاب حياتها فهو يختار ما يؤدي إلى القيام بأمرها. فأَلِفهم لها أوقع في أنفسه. إن الموت مرّ المذاق».

ويقول في شرح البيت التالي:

والأسى قبل فرقة الروح عجزٌ
والأسى لا يكون بعد الفراق

«يؤكد المعنى الذي ذكره. يقول: الجزع من الموت قبل حلوله عجزٌ وجبن، فلا معنى له، والروح بعد لم تفارق، فإذا فارقت الروح بطُل الجسم وزالت حياته وبطُل حسّه، فإذاً ليس للجزع من الموت وجه».

وكأن الدكتور المحقق شعر في قرارة نفسه، أن هذا التفسير ليس فيه شيء من روح أبي العلاء، فلجأ إلى (أمالي الشجري) وأورد في ذيْل

الصفحة، رأي أبي العلاء كما أورده الدكتور إحسان عباس وغيره. إنما الدكتور دياب، لسوء الحظ لا يخبرنا أين عبّر أبو العلاء عن رأيه هذا، في (اللامع العزيزي) أم (معجز أحمد) أم في غيرهما.

هذا، ويعرب الدكتور إحسان عباس عن رأي ينمُّ عن بصيرة نافذة، ليست مستغربة فيه حين يقول:

«وهذا كله يدل على أن المعري والشرّاح الآخرين كانوا يتناولون الشعر كل حسب ميله ونزعته. فإذا قلنا إن المعري ميّال إلى التفلسف، مؤمن بالجبر، سيىء الظن بالناس، فلا بد أن تنعكس هذه الخصائص في شرحه، مثلما تتجلى فيه مقدرته اللغوية والنحوية والعروضية. ولا نعدم أن نجد في أثناء هذا كله موقفاً نقدياً ضمنياً أو صريحاً. إلّا أنه يتعلق ببيت دون بيت، وفكرة دون فكرة، فأما إيمان المعري بأن أحداً لا يستطيع أن يغيّر لفظة في شعر أبي الطيب بلفظة أخرى خير منها، فذلك يدل على موقف نقدي كلي يبلغ بكلام المتنبي حداً من حدود الإعجاز».

نعم، هذا قول ناصع يصلح معياراً نضعه نصب أعيننا، حين ننظر في شرح يقدم لنا على أنه لأبي العلاء المعري خاصة إذا كان اسمه «معجز أحمد». وهو شرح لم يتفق الباحثون على وجوده أصلاً. وحتى إن وجد فقد ظل مفقوداً زمناً، طويلاً، ماذا يميّزه عن غيره من الشروح وكم فيه من روح أبي العلاء المعرّي وفكره؟

أما الباحث العراقي الراسخ القدم الدكتور صفاء خلوصي الذي حقّق شرح ابن جني لديوان المتنبي، فإنه في مقدمة الجزء الأول من كتابه، الذي نشرته المؤسسة العامة للصحافة والطباعة ببغداد عام

١٩٧٠، يكتفي بالإشارة إلى أن أبا العلاء شرح شعر المتنبي، ولا يذكر أسماء الشروح، وهل هما شرح واحد أم شرحان. إلاّ أنه يشير في تذييل في كتابه أنه اطلع على جزء من شرح المعري في الآستانة، ووجده «موجزاً ودون شرح ابن جني».

ويرجّح المستشرق الفرنسي (بلاشير) وجود شرح مطوّل وآخر مختصر. وذلك في كتابه «أبو الطيب المتنبي ـ دراسة في التاريخ الأدبي». وقد ترجمه الدكتور إبراهيم الكيلاني، ونشرته وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٥، يقول:

«... وحاول أبو العلاء حتى تقليد هذا المدّاح في الشطر الأول من حياته، متمنياً إحياء سيرته الشعرية. فقد أراد مَنْ أسموه (حكيم المعرة) الذي خضع فلسفياً على الأخص للتشاؤم الديني السائد، وارتيابيّة أبي الطيّب ومذهبه الأخلاقي، أقول، أراد أن يجعل بدوره في متناول الأدباء، أثراً شعرياً ذا أهمية كبرى، في تكوينه الفني والأخلاقي. وقد حقق فكرته في كتابين: الأول مفقود اليوم عنوانه «كتاب معجز أحمد». وهو مختارات من أجود أبيات أبي الطيب مرفقة بأفكار نقدية. أما الثاني وهو «اللامع العزيزي» نسبة إلى المهدى إليه الأمير عزيز الدولة، فقد وصلنا قسم منه. وهو كتاب جميل سواء باتساعه أو مضمونه، فسح فيه المؤلف مكاناً هاماً لدراسة النصّ لغوياً. إلّا أنه تبسط بوصفه فناناً، في كل مرة كان ذلك ضرورياً، في تبيان القيمة الشعرية للنصوص المدروسة...»

هل اطلع (بلاشير) على «اللامع العزيزي»، وأين وجده، وأي جزء منه؟ إنني أشك في ذلك، لأنه لو فعل لاستفاد منه في كتابه، فهو

يعتمد اعتماداً يكاد يكون كاملاً على شرح الواحدي. مع إشارات قليلة إلى العكبري وفي الحالات النادرة التي أشار فيها إلى المعري، لم يتجاوز رسالة الغفران.

ورغم ذلك فإن رأيه يدعو إلى التأمل وهو يوافق رأي العالم الثقة، الدكتور إحسان عباس، وهو أن أبا العلاء ألّف شرحاً واحداً لديوان المتنبي، هو «اللامع العزيزي» ثم عمل شرحاً مختصراً لأبيات مختارة، أسماه «معجز أحمد».

■ ■ ■

نعلم من مقدمة الطبعة الثانية لشرح «ديوان المتنبي» الذي يظن الدكتور عبد المجيد دياب أنه «معجز أحمد» لأبي العلاء المعري، مدى الجهد الذي بذله الأستاذ المحقق، وهو جهد كبير نحمده له. يخبرنا أنه اعتمد في تحقيقه على عدد من المخطوطات، منها مخطوطة وجدها في دار الكتب المصرية مصوّرة عن نسخة في المتحف البريطاني، يقول عنها:

«وفي أولها تعليقات وتهميشات للأستاذ محمد السمّان».

ويفيدنا الدكتور الباحث في تذييل له أن محمد السمّان هذا، هو محمد بن الحسن السمّان الحموي، ولد في حماه عام ١٢٩٤هـ، وأنه سافر إلى تركيا فتعلّم اللغة التركية، كذلك رحل إلى القسطنطينية لطلب العلم، وتعلّم في الأزهر بمصر، ثم استقر بحماه فكان مديراً لمدرسة الهداية وأميناً لمكتبة محمد نوري الكيلاني.

وتوفّي بحماه عام ١٣٥٤هـ. ويضيف الدكتور دياب.

«وقد قارن الشيخ محمد السمّان بينها وبين ما جاء في شرح الواحدي.. وفي (بعض) ورقاتها ترجمات تركية لبعض الكلمات العربية.. وعناوينها وأبيات المتنبي في الأصل مكتوبة بالحمرة، ولم يُذكر فيها تاريخ نسخها، ولعلّه يعود إلى القرن التاسع..».

المخطوطة الثانية في دار الكتب المصرية أيضاً ومصوّرة أيضاً عن نسخة في المتحف البريطاني. يقول الدكتور دياب:

وفي صددها (الجزء الأول من شرح ديوان أبي الطيّب أحمد بن الحسين المتنبي لأبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّي وقد سمّى شرحه هذا ـ «معجز أحمد»).. وفي صفحة العنوان كَشْط بموسى لعلّه من أحد المتأخّرين وهي عبارة عن مجلّد واحد، مقسّم إلى كرّاسات عددها ٣٣ كراسة، بكل كرّاسة عشر ورقات، وأبيات المتنبي والعناوين في الأصل مكتوبة بالحمرة..».

ويخبرنا الدكتور المحقّق أن المخطوطة تنتهي بهذه العبارة:
«وكان الفراغ من تعلّق هذا الجزء نهار الأربعاء، ثالث عشر شعبان المبارك، من شهور سنة ست وأربعين وألف، على يد العبد الفقير يوسف بن سليمان الحنفيّ مذهباً، الشاميّ مسكناً».

بعد ذلك يشير الدكتور عبد المجيد دياب إلى مخطوطة في إحدى المكتبات الخاصة الملحقة بدار الكتب المصرية، مكتوب على غلافها «معجز أحمد» من كتب الفقيه محمد أسعد الحسيني ابن الوزير حفْظي إبراهيم باشا. وبعد أن يخبرنا بأنها مكتوبة بخط نسخي

جميل، يوحي بأنه لخطّاط محترف، وأنها مجلّدة تجليداً فاخراً، وأنها تعدُّ تحفة فنية، يقول:

«وهذه النسخة بجزأيها.. عليها تصويبات ومقابلات قليلة بخط يخالف الأصل. لكن يشيع فيها الخطأ النحوي والإملائي، والتحريف والتصحيف. ويبدو أن كاتبها غير عربي أصيلة، فكثيراً ما يكتب الضاد (ظاء) والحاء (هاء)..».

أما النسخة الرابعة، فقد وجدها الدكتور دياب في مكتبة جامعة القاهرة، وقال إنه تبين من الخاتم على الصفحة الأولى، أنها مصورة عن نسخة في خزائن إسطمبول من أوقاف السلطان عثمان ابن مصطفى. ويخبرنا الدكتور أن الناسخ هو محمد بن الناشف التذكرجي بدمشق، وأنه كتبها للقاضي حضرة شعبان أفندي، وفرغ منها يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأول عام سبعة وخمسين وألف هجرية، ثم يقول:
«والنسخة مليئة بالتحريف وإن كانت خيراً من غيرها».

ثم يشير المحقّق إلى نسخة في ميونيخ بألمانيا، يقول أنها مكتوبة بخط نسخي واضح، والعناوين والأبيات مكتوبة بالحمرة، يرجع تاريخ نسخها إلى القرن العاشر تقريباً وليس عليها ما يفيد تاريخ نسخها. ثم يقول:

«وقد أُلحق بها بخط مخالف تماماً للأصل، مقدمة شرح الواحدي بتمامها، وعليها مقابلات من نسخة أخرى، خاصة في الصفحات الأولى منها..».

بعد ذلك يشير الدكتور عبد المجيد دياب إلى نسختين بالميكروفيلم

في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، يقول عن أولاهما:

«.. وهي مصوّرة عن نسخة تركية في مكتبة (خراجي أوغلي ٢٧ أدب) ولكن يصعب قراءتها ففيها أثر مياه أزالت بعض الحبر وطمست معالم الكتابة فلم نتبين منها إلّا القليل..».

وثانيتهما عن نسخة للشيخ الطاهر بن عاشور، يصفها المحقق بقوله:

«وهي نسخة كُتبت بخط جميل سنة ١٠٥٩هـ، وقد ترك الناسخ بياضاً لما لم يتبيّنه أيضاً، والشعر والعناوين مكتوبة بالحمرة في الأصل، لكن يشيع فيها الأخطاء والتحريفات».

وأخيراً يذكر الدكتور دياب أنه وجد في الفهرس المجتمع لمخطوطات دار الكتب المصرية إشارة إلى (شرح ديوان المتنبي ـ لا يُعلم شارحه) ويقول:

«فاستحضرتها وأخذت أتصفحها، فإذا هي ٤٩٤ صفحة متوسطة القطع.. من أول الجزء الثاني من «معجز أحمد» لأبي العلاء المعرّي كُتبت بخط النّسخ، والأبيات والعناوين بالحمرة، يرجع تاريخ نسخها إلى القرن العاشر تقريباً، وقد سقطت منه، أو قل أُسقطت منه، الورقة الأولى التي فيها صفحة العنوان، وتحمل اسم المعرّي ـ لسبب ما، أشار إليه القفطي ونبّهنا عليه قبل ذلك. ويجوز أن تكون عوامل الزمن هي سبب ذلك».

نعم، يجوز، وأيضاً يجوز خلاف ذلك من احتمالات كثيرة. وكما رأيت فإن أوصاف الدكتور الباحث للوثائق التي اعتمد عليها، حتى دون كبير تمحيص منّا، تفتح مجالات واسعة للتساؤل. ولا بد من

القول، أن نزاهة الدكتور دياب أبت عليه إلاّ أن ينبهنا إلى المآخذ في هذه المخطوطات، وهي مآخذ يستطيع أن يحتج بها كل من أراد أن يشكك في نسبة هذا الشرح إلى أبي العلاء، وأنه «معجز أحمد» تحديداً.

ويزيدنا الدكتور دياب حيرة حين يقول:

«والمعروف أن الورّاقين كانت مهمتهم نسخ الكتب والاتجار فيها، وربما جنحوا إلى الإضافات يزيدونها على الكتب سعياً وراء تضخيمها. وقد أوتي بعضهم علماً من وراء عملهم هذا، أو كانوا من المتعلّمين، فكانت هذه الزيادات تتّسق أحياناً مع المادّة بحيث يصعب تخليصها. لذلك رأيت الاستعانة بـ (ديوان أبي الطيّب المتنبي) تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزّام، الذي اعتمد على أقدم النّسخ وأصحها. وقد امتازت هذه الطبعة بزيادات في الشعر، ومقدّمات طويلة للقصائد، توافق المقدمات سابقة الوصف لهذا الكتاب وغير ذلك. فالديوان يتفق في كثير من الأمور مع شرح المعرّي. هذا فضلاً عن الاستعانة بالشروح التي سنذكرها فيما بعد».

من هذه الشروح، شرح الواحدي الذي اتكأ عليه الدكتور الباحث جداً، كما فعل كثيرون غيره. وأيضاً أقول، غفر الله لي، إذا لم نكن واثقين أصلاً أين هو شرح أبي العلاء، فكيف نعرف أن شرح الدكتور عزّام يتفق معه في كثير من الأمور؟ وهل نحاول إثبات صحة الأصل باللجوء إلى الفرع، أم أن ذلك كما كان أبداً من عجائب المتنبي؟

■ ■ ■

هل العثور على شرح (معجز أحمد) لأبي العلاء المعري، يقلّ أهمية للعرب، عن العثور على لوحة مفقودة لأحد كبار الرسامين الأوروبيين أمثال (روبنز) أو (رنْوار) أو (رمبراندت)؟ تصوّر الضوضاء التي تقوم إذا جاء أحد وزعم أنه وجد لوحة مفقودة لـ (رمبراندت). هل يصدق الناس زعمه دون اختبار؟ ألا يهبّ مؤرخو الفن والمختصون في حياة (رمبراندت) وأسلوبه وطريقته في مزج الألوان، وأي نوع من الفُرَش كان يستعملها، وأي نوع من القماش إلى غير ذلك من اختبارات عسيرة تميّز الصحيح من المزيّف؟

كذلك يجب أن يكون الحال مع هذا الكتاب، فشرح (معجز أحمد) ظل مفقوداً قروناً عديدة، وظل الناس يتساءلون عن وجوده أصلاً، وهل هو شرح لديوان المتنبي بأكمله أم لأبيات مختارة منه كما يوحي اسمه. ونحن نعلم أن أبا العلاء سلك هذا الطريق مع أبي تمام في كتابه «ذكرى حبيب» ومع البحتري في كتابه «عبث الوليد».

وحتى يجيء العلماء الثقاة فيُفتونا في الأمر، فإنني أغامر فأقول، عفا الله عني، أن سرور الدكتور عبد المجيد دياب، بما ظن أنه كشف عظيم، طغى على جانب الحذر والنّقد لديه. غضّ الطرف عن مشكلات كبيرة كان من شأنها أن تُبرد حماسة باحث أقل منه تفاؤلاً. وجد لكلّ منها حلاً يوافق رغبته في التصديق، أن الذي وجده هو الكنز الثمين الذي طلبه الباحثون منذ قرون.

كل مخطوطة من المخطوطات.. أو النّسخ.. التي اعتمد عليها، فيها من دواعي الشك غير قليل. وعلى سبيل المثال فإن الدكتور الباحث يقول إن تاريخ إحدى المخطوطتين اللتين وجدهما في دار الكتب

المصرية مصوّرتين عن المتحف البريطاني، يعود إلى القرن التاسع الهجري. وهي لذلك أقدم مخطوطة وجدها. كيف اطمأن إلى أنها تعود إلى هذا التاريخ؟ يقول الدكتور دياب أن أهل الخبرة في الخطوط رجحوا ذلك.

لا أدري إن كان هذا يكفي لإثبات أمر بهذه الأهمية. ولعل الدكتور لو استطاع أن يذهب إلى لندن ويسأل المتحف البريطاني عن تأريخ المخطوط وأين حصلوا عليه، فلعله كان يستفيد منهم بشيء فالمتحف البريطاني أكثر خبرة بمثل هذه الأمور.

هذا، ويحدّثنا الدكتور دياب عن بحثه عن عدد من المخطوطات يُظن أنها (معجز أحمد)، ولكن دون جدوى. منها مخطوطة ذكر (بروكلمان) أنها في بطرسبرج يقول:

«فكتبت إلى متحف الشعوب الآسيوية بلننغراد وهو الذي به مكتبة بطرسبرج الآن، بمساعدة مدير مكتبة الشرق بالقاهرة وكان أحد أفراد أسرة أباظة الكرام. ولما لم يُجَب رجائي، فقد وصفها لي الدكتور عبد الفتاح حلو، فذكر أنها نسخة كُتبت بخط معتاد، وكُتب الشعر بالحمرة، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٦٢هـ».

أفراد أسرة أباظة الكرام على العين والرأس، ولكن هل مكتبة الشرق هي غاية الأرب في مثل هذا الأمر؟ أين الجامعات والملحقات الثقافية والقنوات الرسمية؟

ولماذا لم يسافر الدكتور الباحث إلى لننغراد ويتأكد بنفسه؟ الذّنب بالطبع ليس ذنبه، لأن إمكاناته الخاصة لا تسمح له بالتأكيد أن

يلاحق «معجز أحمد» في لننغراد ولندن وميونخ وغيرها. وقد اجتهد قدر استطاعته. الذنب ذنب (دار المعارف) التي أصدرت كتاباً تزعم أنه «شرح ديوان المتنبي» لأبي العلاء المعري، اسمه «معجز أحمد» معتمدة على أدلة من هذا النوع.

ثم يذكر الدكتور دياب نسخة أشار إليها أحمد تيمور في كتابه «أبو العلاء المعري» على أنها «اللامع العزيزي» وأنها في مكتبة (لا له لي) باسطنبول، ويقول:

«فاستوصفتُها بواسطة زميل الدراسة وصديقي الدكتور مقداد يلجن، فأفاد بأن الكتاب المذكور هو «معجز أحمد».. ومثله في مكتبة (قولة) الملحقة بدار الكتب المصرية، ومثله في (الحميدية).. وعلمت أخيراً بعد أن طُبع هذا الكتاب الطبعة الأولى، أن نسخة الحميدية هذه هي «اللاّمع العزيزي». وعلمت أنه يُحقق بمعرفة الدكتور هادي حسن حمودي، عراقي، في لندن.. ثم علمت بآخره أن «اللاّمع العزيزي» حُقق ونشر في المغرب العربي».

ما أكثر الدروب التي فتحها أبو الطيّب المتنبي لهذا الباحث الفاضل، فلم يسلكها! ولعلّ له بعض العذر، فمن يقوى على ملاحقة هذا الشاعر العنيد، في حياته وفي مماته. إنما الذي يلفت النظر بحق، هو أن الدكتور دياب، لم يجد ضرورة في أن يتأكد من وجود «اللامع العزيزي». وإن وجده يطيل فيه النظر، ويقارن بينه وبين المخطوطات التي استقر رأيه على أنها «معجز أحمد». أما كان ذلك يفيده ويفيدنا؟ هذا، ويصف الدكتور دياب، كيف أنه سافر إلى الإسكندرية سعياً وراء نسخة ذكر (بروكلمان) أنها بمكتبة إبراهيم باشا، ويقول:

«فاهتديت إلى مكتبة إبراهيم باشا هذا بعد جهد - وليس بإبراهيم باشا القائد ابن محمد علي كما أفاد الكثير - في مسجده بميدان المنشيّة. ووجدت هذه المكتبة القيّمة تضم ما يزيد على الثلاثة آلاف كتاب مخطوط ومطبوع في مختلف الفنون. ولكن للأسف لا يستفيد بها باحث، وقد أُرتج بابها تماماً، وأودع مفتاحها مع إمام المسجد، وتُركت لترعاها الفئران والصراصير والأرضة والأتربة والعثّة التي رأيتها بعينيّ رأسي، ولم أهتد فيها إلى بُغيتي».

لك الله، كيف تهتدي إلى بغيتك في غمرة هذا الإهمال؟ والذي يفرّط في الكتب، أحرى به أن يفرّط في غيرها. وذلك في المدينة التي أخذوا يعيدون فيها إنشاء (مكتبة الإسكندرية)! إنما لا مناص من القول يا سيدي أن الوقائع التي قدمتها لنا بصراحة مؤثرة، وأمانة تدعو للإعجاب، لا تقوي ثقتنا أن الكتاب الذي أجهدت نفسك فيه كل هذا الجهد المشكور، هو (معجز أحمد).

ذلك، ونحن لم ندخل بعد على الشرح ذاته، وننظر كم فيه من روح أبي العلاء وفكره وطريقته، واضعين نُصب أعيننا نصيحة أستاذنا الجليل الدكتور إحسان عباس.

٤٣

صوم أبي العلاء

في معرض حديثي عن أبي الطيّب المتنبي منذ مُدة، ودفاعي عنه لما وجدته من تحيُّز الأستاذ العميد رحمه الله ضدّه وتحامله عليه، قلت أن أبا العلاء المعرّي لم يشْفَ كل الشفاء ـ رغم زهده ـ من حبّ الدنيا وملذّاتها. وكان الدكتور طه حسين، كما نعلم، عقد مقارنة بين زهد أبي العلاء، وما ظنّه من تكالب أبي الطيّب على الحياة وطمعه في الثراء والجاه.

نحن نعلم أن أبا العلاء عقب رجوعه من بغداد، وكان في نحو الثامنة والثلاثين من عمره، قرّر أن يلزم داره، ويصوم دهره، ويكتفي من الطعام بقليل من العدس والتين والبقول، ولا يقابل أحداً من الناس إلّا ما اقتضته الضرورة القصوى.

وتساءلت يومئذٍ: إذا كان أبو العلاء قد طلّق الحياة طلاقاً بيّناً، فلماذا

لم يصْمُت؟ لماذا قال الشعر؟ وجذوة الشعر كما نعلم، دليل أكيد على التعلّق بالحياة وحب التواصل، وربّما الرغبة في الخلود.

وقد لفت نظري في بعض شعره حنينٌ دفين إلى ملذات الحياة، مثل أبياته في اللّزوميات التي يتشوّقُ فيها إلى عالم اللّذة والحس كما وصفه امرؤ القيس. يقول أبو العلاء رحمه الله:

أيـــن امـــرؤُ الـــقـــيـــس والـــعـــذارى
إذْ مـــال مـــن تحـــتـــه الـــغـــبـــيـــطُ؟
لـــــه كُـــــمـــــيْـــــتـــــان ذاتُ لـــــون
تُـــزْبـــدُ والـــسّـــابـــح الـــرّبـــيـــطُ

عجبتُ أن الشيخ الضرير، رهين محبسه بالمعرّة، العازف عن الدنيا، المنكر لها، يرنو إلى عالم امرىء القيس الذي يمور بالشّهوة والحركة. ولا يخفى أنه يشير هنا، إلى أبيات امرىء القيس الشهيرة، حين مال الغبيط بهما معاً، وفي قوله:

كـــأنّـــي لم أركـــب جـــواداً لـــلـــذّة
ولم أتـــبـــطّـــن كـــاعـــبـــاً ذات خـــلـــخـــالِ
ولم أسْـــبـــأ الـــزِّقّ الـــرويَّ ولم أقـــلْ
لخـــيـــلـــيَ كُـــرّي كـــرّةً بـــعـــد إجْـــفـــالِ

وهل في الشعر العربيّ، مثل هذين البيتين في تصوير متعة الطراد والزهو بقرام الشباب، والمتعة الأخرى التي أكثر أبو العلاء من ذمّها وتبخيسها؟

أليس ذلك عجيباً من الشيخ الزّاهد الورع الذي يقول في ذم الدُّنيا:

علـى أم دفْـر غـضبـةُ الـلّـه أنـهـا
لأجـدرُ أنـثـى أن تـخـونَ وأن تـخـنـي
كـعـابٌ دُجـاهـا فـرعُـهـا، ونـهـارهـا
مُحيّى لها قامت له الشمسُ بالحسن
رآهـا سـليـلُ الـطين، والشـيْـب شـامـلٌ
لـهـا بـالـثـريّـا والـسـمـاكـين والـوزن
زمـانَ تـولّـت وأدَ حـواء بـنـتَـهـا
وكـم وأدت فـي إثْـرِ حـوّاءَ مـن قـرن
كـأنّ بـنـيـهـا يـولـدون ومَـآلَـهـا
حليلٌ فتخشى العارَ أنْ سمحت بابْن

لأجل ذلك، سرّني أن وجدتُ أن العالمة الجليلة الدكتورة بنت الشاطىء قد التفتت ـ قبلي ـ لهذا الأمر، وذلك في كتابها «مع أبي العلاء». وقد صدر عام ١٩٧٢، وما كنت قد اطّلعت عليه من قبل. وكان عثوري عليه من الفوائد الكثيرة لزيارتي الأخيرة للقاهرة في شهر رمضان المبارك.

هو شاعرها الأثير، وتقول عنه (شاعري أبو العلاء). نعم، إنه لكذلك، فقد أنفقت هذه العالمة الفُضلى، ردحاً من عمرها ـ المديد إن شاء الله ـ في دراسة حياة أبي العلاء وفكره وشعره، والدفاع عنه والانتصاف له، وجلاء مرآة عبقريته الفذّة، من الغبار الذي نثره عليها الغوغاء والمغرضون ومروجو الأباطيل و(حسّاد البارع)، كما قال هو عن مبغضي أبي الطيّب. وهؤلاء تعلّقوا بجسد شهرته، في حياته وبعد مماته، كما يتعلق القُراد بجسد الجمل القارح.

كتبتْ عنه كما يجمل بمثلها أن تكتب عن مثل أبي العلاء. ذلك لأنها كتبت بدافع الحب. والنقد الذي يصدر عن حب ـ كما أقول ـ يفتح البصيرة، ويُعين على الاقتراب من مكنونات ضمائر هؤلاء الكبراء.

وهي بعدُ، ليست متّهمةً في صفاء عقيدتها ولا في رجاحة عقلها. ومن بعض تصانيفها عن هذا الشاعر العملاق، تحقيقها الرابع لرسالة الغفران، ودراستها (قراءة جديدة في رسالة الغفران)، وكتابها في سلسلة أعلام العرب، وكتابها (مدينة السلام في حياة أبي العلاء).

رحمه اللّه إذ يقول:

وقال الفارسون، حليف زُهد
وأخطأت الظنونُ بما فرَسْنَهْ
ورَضْتُ صعابَ آمالي فكانت
خيولاً في مراتعها شَمسْنَهْ
ولم أُعرضْ عن اللّذّات إلّا
لأن خيارَها عنّي خنسْنَهْ

■ ■ ■

لا يَضيرُ أبا العلاء رحمه الله، بل يزيدنا له احتراماً وتقديراً، أن عزوفه عن الدنيا، لم يكن سهلاً على نفسه. لم يكن زهده كزهد أبي العتاهية، أو الحسن بن هانىء، إذا صدقنا أنه زهد أخريات حياته. هذان أكلا من مائدة الحياة، حتى أصيبا بالتخمة، فكان زهدهما بهذا المعنى.

هو لم يأخذ من الدنيا شيئاً. هجرها عامداً متعمداً وهو في ذروة شبابه، قبل أن يبلغ الأربعين.

هل فعل ذلك عن عجز؟ ربما يقول قائل نعم، فأي حظ لضرير دميم الوجه في لذة الدنيا؟ وهل شيء من ملذات الحياة يعدل ـ خاصة للشاعر ـ ذلك الدفء الأنثوي الذي تكون الحياة عداه صحراء مجدبة؟

إنما لنتذكر أن بشاراً الأعمى الدميم، حتى بشار المولى، لم يعدم في حياته ذلك العزاء. وأبو العلاء كان في ذروة آل سليمان من بيت علم وشرف، فيهم ميراث بني الساطع وعز تنوخ. وفيهم يقول:

وما سلبتْنا العزّ قط قبيلة
ولا بات منّا فيهم أسراءُ

ولئن كان نصيبه قليلاً من جمال الجسم، فقد كان آيةً في جمال العقل والروح والوجدان. ولا أحسب إلّا أن بين كريمات نساء المعرة أو حلب، من كان يسرها أن ترتبط بذلك الإنسان الفذ.

ما أشد ما أسرف على نفسه؟ ترك الدنيا، وظل طول حياته يذمها ويشتاق إليها:

تناهبت العيشَ النفوسُ بغرة
فإن كنتَ تستطيع النِّهابَ فناهِبِ
بقائيَ في الدنيا عليَّ رزيةٌ
وهل أنا إلّا عابر مثلُ ذاهبِ؟
إذا خلق الإنسان ظل حمامه
وإن نال يسراً من أجل المواهب

حوله وأخذن ينظرن إليه بتلك الطريقة التي تثير بها الأنثى هموم البعْل. «لم يبق ماء ولا طعام يا أبا العيال، فماذا أنت فاعل؟».

إلّا أن صاحبهن ليس بالمتواني ولا التُّكلَة. فهم لفوْره ما يجب عمله، واستقرَّ عزمه أن يسري بهنّ بليل، ويبلغهنّ الماء بالغداة.

والهمُّ (عين أُثال) ما ينازعه
من نفسه لسواها مورداً أرَب

كذلك عند ابن المعتز، إلى جانب أن فيه حميّة وغيرة على حريمه:
شغلته لواقحٌ ملأتْه
غيرةً فهو خلفهن كَميُّ
قابضٌ جمعها إليه كما
جمّع أيتامَه إليه الوصيُّ
فدعاها لتشرب الماء
عطشان فكرّت لوقعهن لَغِيُّ

هذا، والطريق عند الحردلّو أطول، والهدف أبعد، ولا بد من الإقامة والرحيل. وعلى (البعل) أعباء أثقل، فنساؤه يطلبن مكاناً آمناً يضعن فيه أحمالهن. لذلك هو شديد الحذر يخطو كل خطوة بحساب:

خلاَّهنْ رُتوع في بقيلٍ وخَرْجَتْ نالْ
لا منْ دوّرْ الوادي السرى سَيّالْ
فوق (قَمزونْ) طلع شافْ في مليْنتُه زوالْ
وقلَعةْ (كَوْ) حفيرْها لقى فيها نعالْ

هذا، وقد أعلن أبو العلاء صراحة حبه للدنيا، حين قال في «الفصول والغايات»: «أحب الدنيا كأنها تحبُّني، والغريزة عن الرشد تَذُبّني».

وقال في «اللزوميات»:

أبى القلبُ إلّا أمَّ دفْر كما أبى
سوى أم عمرو، موجعُ القلب هائمُ
هي المنتهى والمشتهى ومع السها
أماني منها دونهنَّ عظائمُ

أية «عظائم» يا رحمك الله! هذا، و«أم دَفْر» كما لا يخفى - هي الدنيا بحذافيرها.

وما «أم عمرو»؟ كأني بها صاحبة جرير التي هيجت أحزانه «ليلة أزرعات»، ومن بعده لامت على طلبه إياها أبا عبادةَ البحتري. ثم - على كره منه - أقحمت أبا العلاء الكفيف المبصر، في زمرة العاشقين.

■ ■ ■

لا يصعب علينا أن نتصوّر، أن والدة أبي العلاء، وقد كانت سيدة فاضلة ورعة، أغدقت عليه من حنانها ورعايتها، فوق ما أعطت بقية أبنائها. ذلك شأن كل أم مع الطفل الضعيف من أطفالها. ويصف أبو العلاء تلك الرّعاية، وكان قد تقدمت به السن، أحسن وصف حين يقول:

سقتْني دَرَّها ودعت وباتت
تُعوّذني وتقرأ أو تُسمّي

كان حالة خاصة، يحتاج إلى رعاية خاصة، فعدا أنه حُرِم نعمة البصر، وأن الجدري شوّه وجهه كل تشويه، فقد كان طفلاً مفرط الحساسيّة، متوقّد الذّهن، مضطرب النفس.

ظلّت علاقته بأمه حتى آخر حياته علاقة طفل. نلمس ذلك في أبياته المؤثرة التي قالها في رثائها، وكان قد قارب الأربعين. وهي مؤثرة لصدقها ومدى كشفها لنفسية الطفل في ذلك الشيخ الجليل، الذي انحدرت صورته إلينا عبر القرون، صارماً عابس الوجه.

علم بمرضها وهو في بغداد، فأسرع إليها بالمعرّة. ولكن الموت سبقه إليها. وكان شأنه في ذلك شأن أستاذه أبي الطيّب المتنبي مع جدّته. قال أبو العلاء:

وأمَّتْني إلى الأجداث أُمٌّ
يعزُّ عليَّ أنْ سارت أمامي
مضتْ وقد اكتهلتُ فخِلتُ أنّي
رضيعٌ ما بلغت مدى الفطامِ
فيا ركبَ المنون أما رسولٌ
يبلِّغ روحَها أرَجَ السلام

وتجد اللّوعة نفسها في قوله في كتابه (الفصول والغايات):
«أَعنني ربٌّ، وأعنّي وأغْنَ بي، حتّى تُغنيني عن أمّيَ وأبي، فقَد ذهبا وأنا إلى رحمتك فقير...».

«أعنني رب، وأعني وأغنَ بي، حتى تغنيني عن أمّي وأبي، فقد ذهبا وأنا إلى رحمتك فقير...».

قوله (أَعنني) أي (أخضعْني لطاعتك). وجاء أيضاً من قوله في (الفصول والغايات):

«ما آمُل وقد فقدتُ أبويّ، وأُخذَتْ الشبيبةُ من يديّ، ومشيتُ إلى الأجل على قدَميّ، حتّى كدت أطؤه بأخمصي، ووقَعَ كل الأنامِ عليَّ، ونظرتْ عينُ المنيّة إليّ...».

ويقول أيضاً:
«... ألا تجزع لتقوُّض الأقربين؟ يا شمالُ ألم يُحزنْك شللُ اليمين؟ أقمتُ وتحمَّل الناسُ، وإن لحاقي بالظّاعنين لوشيك (...) عند الله أحتسب ما رُزِئتُ من أهل، ولقيت من همٍّ كاد الغرْبيب (الغراب) له يشيب، وتعبٍ رسَخ ألمُه في الأعضاء».

هذا، وقد كان لا ريْب يفكّر في والديه حين قال في دعائه:

«... إسْق اللهمَّ قبوراً طال عهدُها بالعهاد، يُصيِّر الترابَ المحفورَ مثلَ الكافور، ويَسكن الأجسادَ الزكيّة الأرضَ المسْكيّة، ويكسو كل جدَث طاهرٍ من باطنه لا الظاهر، بعد أن يشوفَه كلَّ الشوْف، ما شاء من الخُزامى والعوْف، يحسُنانِ في المنظر ويطيبان في السوْف. وتهزُّ قضُب الريحان المشموم، ريح رحمة ليست بسموم (...) والطف مولاي بضيفك إذا اقترى، ونزل إلى بطن الأرض عن القَرى، ضيْفك ولكلّ ضيف قِرى...».

وقولُه (العهاد)، جمعُ عَهد، وهو المطرُ. و(يشوفُه) عَنى (يُنقّيه ويطهّره). و(العوف) نبات طيّب الرائحة و(السَّوف) الشمّ، يُقال سافهِ واستافه. وفسّروا (القَرى) بفتح القاف أنها مجرى الماء، ولعل

أبا العلاء كتب (القَرا) بالألف، أي الظهر، عنى أنه بعد أن كان على ظهر فرسه أو بعيره، نزل إلى جوف الأرض.

هذا، وقد توفي والده وهو في نحو الرابعة عشر عاماً، حسب رواية ياقوت الحموي، أو في نحو الثلاثين من عمره حسب رواية ابن العديم. وترجّح الدكتورة رواية ابن العديم. وإذا صحّ ذلك، تكون المقادير قد ترفّقت به، فتركت له أباه، يحدب عليه ويرعاه إلى أن بلغ مبلغ الرجولة.

ولا خلاف على أن الله سبحانه وتعالى أبقى له والدته إلى أن اقترب من الأربعين. ورغم ذلك حين توفّيت، أحسّ بفقدها، كأنه طفل رضيع كما وصف. وظل إحساسه باليُتْم يلازمه إلى آخر حياته. ويصْدق أن يُقال عنه أنه كان (يتيم الدهر).

ما كان أحوجه ـ والأمر كذلك ـ إلى زوجة صالحة تشدُّ أزره وتعوّضه عن فقدان أمه كالتي وصفها بقوله:

قد حاطت الزّوجَ حُرّةٌ سألتْ
مليكَها العوْنَ في حِياطتِها
غدَتْ بُبرْس إلى مرادنها
أوَ خيط غزَل إلى خياطتِها
أماطت السّوْءَ عن ضَمائرِها
فلاقت الخير في إماطتها

لم يكن عسيراً أن يجد مثلها لو أراد. لكنه صعَّب الأمر على نفسه، وألزمها ـ في الحياة كما في الشعر ـ ما لم يكن يلزمها. ولم يكن صلباً كما قد يُظن، بل كان في حقيقته مثل سائر الناس، لا

يستغني عن ذلك الدفء الأنثوي الذي تكون الحياة بدونه صحراء جرداء:

بِنْتُ عن الدّنيا ولا بِنْتَ لي
فيها ولا عِرسٌ ولا أُختُ
وقد تحمّلتُ من الوزر مَا
تعجزُ أن تحمله البُخْتُ

رحمه الله. إنه لم يُحمِّل إبله (البُخت) من الأوزار بقدر ما حمّلها من الأحزان. والبنت والعِرس والأخت، كلُّهن بمثابة الأم.

■ ■ ■

هل لذّةُ الدنيا للرّجل إلّا في المرأة، يسكن إليها، وتأنس له ويأنس بها، وتحبّه ويحبّها؟ وقد نفض أبو العلاء يده من هذه الدنيا، وأدار لها ظهره، فهل هي نفضت يدها منه؟ يقول في اللّزوميات:

إن صحّ عقلُك فالتفرّدُ نعمةٌ
ونوى الأوانس غايةُ الإيناسِ
أَبلشتُ من وسواس حَلْيِ خلتُه
إبليس وسوس في صدور النّاسِ
ما شِمتَ من شيماءَ قبلُ؟ وهل نأتْ
خنساءُ عن شيطانها الخنّاس؟

تمنى أن خنساء، ليس أن لها شيطاناً، بل هي الشيطان بعينه. ووسوسة حُليّها هي وسوسة الشيطان. البيت يذكّر ببيت البحتري الجميل، ولا يبعد أن يكون أبو العلاء نظر فيه ملياً ثم قلبه رأساً على عقب:

إذا هِـجْـنَ وسـواسَ الحُلـيِّ تـولّـعـت
بـنـا أريـحـيـاتُ الجوى والـوسـاوس

هذا بيتٌ كل ما به يوحي بتدفق الإقبال على إغواء الحياة. وهو في نهاية الأمر، إغواء الجمال الأنثوي الذي يهشُّ له الشاعر ويحتفي به - الوساوس عنده تحرك أريحيات النفس، ولا تحرك الرّعب، كما فعلت بأبي العلاء. ذاك شاعر لا يرى المرأة إلّا مدعاة للإثم، فهو أبداً مذعورٌ منها، يطلب السلامة في البعد عنها.

كأنّي بأبي العلاء رحمه الله، وهو في وحشة داره ووحشة نفسه، تتناهى إلى سمعه أحياناً رنّاتُ ضحك بعض نساء الحي، ورنّاتُ الحجول ووسوسات الحليّ، فيزيده ذلك هلعاً ورعباً. وإلّا، فلماذا هو مشغول بالمرأة كل هذا الشغل:

نـصـحـتُـكِ يـا أمّ الـبنات فـحـاذري
وَسـاوسَ ولاَّجِ الأسـاود خَـنَّـاسِ
ولا تُـلبِـسي الحجـلين بـنـتـك والبُـرى
لـتـشـهـد عـرسـاً واشـغـلـنْـهـا بـعـرْنـاس

هذا، و«البُرى» جمع (بُرَة) وهي الخلخال. و«العرناس» المغزل. ويقول أيضاً:

أيـا ظـبـيـات الأنـس لـسـتُ مـنـاديـاً
وحـوشـاً ولـكـنْ غـانـيـاتٍ مـن الأُنـسِ
يُـشَـبَّـهْـنَ فـي بـعـض المحـاسـن رَبْـرَبـاً
ومـا هُـنّ بـالـشُّـفـع الخدود ولا الـخُـنْسِ

تمسَّكن طيباً أو تمسَّكن حليةً
فإني رأيتُ النوعَ يلحق بالجنس

(تمسّكن طيباً) أي تطيّبن بالمسْك، و(تمسّكن حلْيَة) أي لبسن المَسَك بفتح الميم والسّين، وهي الأسورة والخلاخيل من عاج وغيره. وهنّ على أي الحالتين وحوشٌ تبثُّ الرعب في فؤاد الشاعر.

وقد بلغ نفوره من المرأة ـ أو بالأحرى خوفه منها ـ حدّاً بعيداً في قوله:

خِصاؤكَ خيرٌ من زواجك حُرَّةً
فكيف إذا أصبحتَ زوجاً لمومس
وإنَّ كتابَ المهر فيما التمستَه
نظيرُ كتاب الشاعر المتلمِّسِ
فلا تُشهِدَنْ فيه الشهودَ وألقه
إليهم وعُدْ كالعائرَ المتشمِّس

أظنّه عنى بـ (العائل المتشمّس)، الحيوان الوحشي الطليق في الفلاة بلا قيد، وقد فسّرها بعضهم بخلاف ذلك. وكتاب المتلمّس خال طرفة، قاد، كما نعلم، إلى مقتل الشاعر، وكذلك عقد الزواج عند أبي العلاء، يؤدي إلى الهلاك. ومن أين له أن يعلم ذلك، وهو لم يجرّب؟

أستاذه أبو الطيّب، على الأقل، تزوّج وأنجب.

وحين قال:

وما الدهرُ أهلٌ أن تُؤمَّل عنده
حياةٌ وأن يُشتاق فيه إلى النّسْل

يومذاك كان يقف على حافة القبر، يعزي سيف الدولة في ابنه، فلعلّ له بعض العذر. وفي تلك القصيدة بيتان لا بد أنهما أثلجا صدر أبي العلاء:

إذا ما تأمّلْتَ الزمانَ وصرفه
تيقّنتَ أن الموتَ ضَرْبٌ من القتلِ
هل الولدُ المحبوبُ إلّا تعلّةٌ
وهل خَلوةُ الخنساء إلّا أذى البعْل؟

ذاك أبو الطيب، شأنه مختلف، وشأوه بعيدَ. أما أبو العلاء، فكراهيته الظاهرة للمرأة المبثوثة في لزوميّاته، تبدو لي مثل الحبّ الدّفين. وكأنه ابتكر من هذا التناقض، بين توقه إلى المرأة ونفوره منها، نوعاً جديداً من الغزل، شأنه في ذلك شأن أبي نواس، الذي زعم كراهيّة الوقوف على الأطلال، فابتدع التغزّل في الخمر. وكما أن أبا نواس يعطينا في شعره إشارات إلى أنه لم يشْفَ من ربْقة الأطلال كما زعم، فإن أبا العلاء أيضاً يُعطينا الدليل تلو الدليل، لكثرة ما يذكر المرأة في شعره، وإن كان في معرض القدْح، أنه لم يخلَصْ منها كل الخلاص. وهو في ذلك كما قال جرير:

فقُلتُ بحاجة وكتمتُ أخرى
فهاج عليَّ بينهما اكتئابا

في مرحلته الأولى، قبل أن ينزوي في سجنه، كان يقول غزلاً كسائر الشعراء. وفي «سقط الزند» غزل، رغم رصانته، من أجمل ما في الشعر العربي. ثم لـمّا اتّجه إلى العالم الماوراء، ابتدع نوعاً طريفاً حقاً من الغزل، هو بمثابة مناجاة للموت وللأبد.

■ ■ ■

كان أبو العلاء في ظنّي شاعراً أولاً وأخيراً. الذين وصفوه بأنه «فيلسوف» وقلّلوا من قيمة شعره، اتخذوا شعره ليس أكثر من دليل «مادي» على ما تخيّلوه من رأيه وعقيدته.

من هؤلاء من ظنَّ أنه وجد في «اللزوميات» البرهان القاطع على أن أبا العلاء كان زنديقاً ملحداً، مثل الفقيه ابن الجوزي ـ على جلالة قدره.

ومنهم من ذهب ـ استناداً إلى اللزوميّات ـ إلى أن أبا العلاء كان من أئمة المذهب الفاطمي، مثل الناقد الحبر مارون عبود. وهذا عادةً ثاقب النظر في الشعر، عميق الإدراك لشوارد المعاني وعجائب أنماط البيان. ورغم ذلك يقول في كتابه عن أبي العلاء الذي سماه «زوبعة الدهور»:

«ليس أبو العلاء شاعر الفلاسفة ولا فيلسوف الشعراء، فقد أبعدته فلسفته عن الشعر. ولا يصح أن نعُدّه في لزومياته شاعراً إلّا إذا جاز لنا أن نحصي ابن مالك من الشعراء.

ليست لزوميات شيخنا ديوان شعر، ولكنها كتابٌ جمع مؤلفه أصول (مذهبه) وبسطها بسطاً مُعمّى، تقيّةً وإيثاراً للعافية (...).

«ألقى مشكلات عصره في قفص الاتهام، وقعد يستنطق الأجيال ويقلب ما تركت من الآثار ظهراً لبطن، ثم حبس أحكامه عليها في سجون الأوزان والقوافي (...). أشعرنا أبو العلاء في مقدمة لزومياته أنه يكتب كتاباً، لا ينظم ديواناً، ولولا خوف الاجترار والتكرار لقلت أنه أعدّ لكل فكرة زنداناً أيْ فصلاً...».

هذا كلام حين تتأمله، تجد أنه لا يستقيم. كيف يستنطق أبو العلاء الأجيال ويقلّب الآثار ولا يكون شاعراً؟ وهو كأن تقول إن ذا الرمّة لم يكن شاعراً، لأنه ملأ ديوانه بوصف الوحش والطبيعة وغريب اللغة. وبين أبي العلاء وذي الرمّة أكثر من وجه شبه، إذا دققتَ النظر.

العجيب أن الأستاذ مارون عبّود كان شديد الإعجاب بأبي العلاء، لذلك يسميه «زوبعة الدهور» ولكن تشبيهه للشعر العظيم في اللزوميات بألفية ابن مالك في النحو، رأي غاية في السخرية والخَطل، من كاتب يُعدّ من أعلام النقد في هذا العصر.

اللهم إلّا أن يكون الأستاذ مارون عبّود أراد أن يرد على فظاظة الأستاذ العميد مع أبي الطيب المتنبي، بفظاظة مثلها مع أبي العلاء، الذي احتفى به الدكتور طه حسين أشد الحفاوة. وقد كان كتابه ماثلاً له وهو يؤلف «زوبعة الدهور».

كأنّما الأستاذ مارون كان يردّ على العميد لقوله عن اللزوميات في كتابه «تجديد ذكرى أبي العلاء»:

«وليس في شعراء العرب كافة من يشارك أبا العلاء في خصال امتاز بها، منها أنه أحدث فناً في الشعر لم يعرفه الناس من قبل، وهو الشعر الفلسفي الذي وضع فيه كتاب اللزوميات. وربما خيّل إلى الناس أن الشعر الفلسفي قديم عند العرب، نظم فيه زهير وعدي بن يزيد وأبو العتاهية وأبو الطيّب، لأنهم طرقوا فنون الحكمة والزهد وأنواع العبرة والعظة. ولكن هذا النوع من الشعر غير الذي أنشأه أبو العلاء فنّاً من الشعر استنزل الفلسفة من منزلتها العلمية المقصورة

على الكتب والمدارس، إلى حيث تسلك طريق الشعر إلى قلوب الناس».

كأن العميد يتأرجح بين أن يعُدّ أبا العلاء شاعراً، وبين أن يعدّه فيلسوفاً. ولكنه سوف يمضي في كتابه فيجد له مؤثرات من الفلسفة اليونانية ـ بخلاف ما ترى الدكتورة بنت الشاطىء ـ ويميل به إلى الفلسفة.

هذا كله لا يرضي الأستاذ مارون عبود، الذي ـ ربما أغاظه الدكتور ـ لا يرى أبا العلاء شاعراً ولا فيلسوفاً، بل (داعية) للمذهب الفاطمي. وبعد أن كان يلمّح بضيقه بالعميد تلميحاً، يقول صراحة:

«عجيب وألف عجيب أمر صاحبنا هذا. ترجَح دائماً كفةُ الغرض حين ينصب ميزانه، فهو إن وزَن المعرّي تُقصّر جميع أثقال الدنيا عن أن تزنه وتُعادله، وإن وضع فيه المتنبي شال ولم تُوازِ شخصيتُه حبة خردل».

هكذا إذاً، كل واحد من هذين الشيخين الجليلين، معجب بعملاق من العمالقة. الشيخ طه بأبي العلاء، والشيخ مارون بأبي الطيّب. وكان أحرى بكل واحد منهما أن يستأثر بصاحبه.

إلّا أن الأستاذ مارون، سرعان ما تزلُّ قدمه، وتبلغ به القسوة مبلغاً لا أحسب أنه كان يقصده فيقول:

«وبالاختصار أقول إن في أدب العُميان جميعاً رائحة عفن لا تعجبني ولا أستطيبها، ولم يخلُ منها حتى شعر بشّار ذلك القطب

الجنوبي المتّقد إن صحت تسمية المعري قطباً شمالياً لصقيعه وجليده».

ألستَ تقصد خطّ الاستواء يا رحمك الله؟ ثمة الحرارة والاتّقاد، ليس في القطب الجنوبي. وحاشا لله، لم يكن في أدب العميد شيء من العفن، وإن كنا نخالفه الرأي في مولانا أبي الطيّب. أما أبو العلاء، فإنه وأدبَه كما لا يغيب عن فطنتك، أيّة حديقة فيحاء! وأيُّ ينبوع عفاف وصفاء!

■ ■ ■

أبدع الدكتور طه حسين رحمه الله في كتاباته عن أبي العلاء المعري، لأنه وجد في حياة أبي العلاء وموقفه من الحياة والمحن التي تعرض لها أشياء ذكّرته بنفسه.

وأكثر ما تجد من المتعة عنده، تلك الفقرات التي ينفلت فيها من قيود البحث والتدقيق إلى رحاب الأدب الخالص.

قد لا نتّفق معه في ما ذهب إليه عن عقيدة أبي العلاء، أو تأثره بالفلسفة اليونانية. وقد لا تقرُّه على تفسيره لبعض شعر أبي العلاء ليؤيد وجهة نظره. لكنه حين يترك نفسه على سجيتها ويبوح بمكنونات ضميره متمثلاً حياة أبي العلاء، حينئذٍ تجد عنده عجباً من الأدب الرفيع.

وها هو في ما يلي من فقرات من كتابه «تجديد ذكرى أبي العلاء» يصف إحساس الشاعر بفقدان البصر، وصفاً ما كان ليتأتّى

لأحد غيره، لأن الأستاذ العميد، كأنّما يصف حاله ويتحدث عن نفسه:

«والمكفوف إذا جالس المبصرين أعزل، وإن بزّهم بأدبه وعلمه وفاقهم في ذكائه وفطنته فقد يتندرون عليه بإشارات الأيدي، وغمْز الألحاظ، وهزّ الرؤوس، وهو عن كل ذلك غافل محجوب. فإن نمت عليهم بذلك حركة ظاهرة أو صوت مسموع فحجته عليهم منقطعة وحُجَجُهم عليه ناهضة. وليس له من ذلك إلّا ألمٌ يكتمه وحزن يخفيه.

ثم إن اشتدّ ذكاؤه، وانفسح رجاؤه، كثرت حاجته إليهم، وكثرت نعمهم عليه، فهو عاجز عن تحصيل قوته إلّا بمعونتهم، وهو عاجز عن شفاء نفسه من حب العلم والمطالعة إلّا بتفضُّلهم. وهو عاجز عن الكتابة والتحرير إلّا إذا أعانوه وتطوّلوا عليه.

وللمنن المتظاهرة والآلاء المتواترة في نفس العاجز الفطن أثر هو الشكر يشوبه الحزن، والثناء يمازجه الأسى. والحرمان أخف عليه من منّة يعقبها منّ، ونافلة تشوبها استطالة.

ولشعور الإنسان بعجزه وقع ليس احتماله ميسوراً، ولا الصبر عليه إلّا مُتَكَلَّفاً. وليس يلقى المكفوف من رأفة الناس به ورحمتهم له وعطفهم عليه إلّا ما يذكي الألم في صدره، ويضاعف الحزن في قلبه. ثم هو لا يلقى من قسوتهم وشدّتهم ولا استهانتهم وازدرائهم إلّا ما يشعره بالذل والضّعة، وينبّهه إلى العجز والضعف.

ومكان المكفوف في نفس زوجه وبنيه دون مكان المبصر. فإجلالُهم إياه محدود، وطاعتهم إياه مقصورة على ما يتنبه إليه.

ثم هو بعد ذلك كله قد حرم التمتع بلذة يكبرها الناس. وجهله إياها يضاعف خطرها في نفسه. فإن تعاطى صناعة الشعر أو الوصف، فإن هذا الحرمان قد استتبع ضعف خياله، وحال بينه وبين مجاراة الشعراء والواصفين في ما يتنافسون فيه، إلّا أن يكون مقلّداً مُحتذياً.

ثم هو يسمع الناس يتحدّثون عن بهجة الربيع وجمال الرُّبى، وعن اتّساق الأزهار، والتفاف الأشجار، وعن اكتساء الأنهار الجارية، والبحار الطّامية، ثياباً فضيّة أو عسجديَّة في الصباح والأصيل، وعن أولئك الحسان الفاتنات توردت خدودهن، ولمعت ثغورهن اللؤلؤية بين شفاههن اللّعَسُ، والتأمت من وجوههن وشعورهن نضرة النهار وفُحمة الليل، وعن السماء وأفلاكها، والنجوم وحركاتها، وعن السحاب المركوم يخفق فيه البرق، وعن حبات البرد تتساقط، وقطرات المطر تنتثر، وعن ضوء القمر هلالاً وبدراً، وعن الشفق أول الليل وآخره.

يسمع أحاديثهم عن هذا كله وما أبدعوا فيه من تشبيه لا يعقله ولا يفقه كنهه، فضلاً عن أن يجاريهم فيه أو يسبقهم إليه.

ثم هو بعد هذا كله قاعد إن نفر الناس لقتال أو حرب، قد يئس وطنه من نصره، وقنط من حفاظه، فلم يُنط به أملاً، ولم يعقد به رجاءً. كُلٌّ على الناس في كل شيء، تُكْلَة في حياته المادية والمعنوية، فاليأس أخلقُ به من الرجاء، والموت خيرٌ له من الحياة، إلّا أن تكون له نافلة من فضيلة الصبر وشدة الأيْد.

فإذا أُضيف إلى هذه الآلام فسادُ الأخلاق، وانحطاطُ النفوس،

وازدراء المنكوبين وأصحاب الآفات حتّى من الخاصة وأهل العلم، ثم اشتداد الفقر ونضوبُ موارد العيش، أنتجت هذه المصيبة من الآثار ما سوف تراه في حياة أبي العلاء».

رحم الله العميد، ماذا كان يعاني من صروف الحياة حين كتب هذه القطعة؟ ورحم الله أبا العلاء. لقد ترك لنا في «اللزوميات» سجلاً رائعاً لمكابدته الوجودية وهواجسه الكونية. ليس «فلسفة» ولا «أصول مذهب» وإنما شعر صراخ كما يكون الشعر.

■ ■ ■

الدكتور طه حسين رحمه الله وغفر له، ذهب في كتابه «تجديد ذكرى أبي العلاء» مذهباً بعيداً في شرح تأثُّر أبي العلاء بالفلسفة اليونانية. وانطلق من ذلك ليقول إن أبا العلاء رغم أنه كان موحّداً يؤمن بالله، لكنه لم يكن مسلماً بالمعنى المعروف لدى أهل السنّة. ومعلوم أن الشيخ كان وسائر أهله الذين كان منهم قُضاةٌ أعلام، مسلماً سُنيّاً شافعي المذهب.

تردُّ الدكتورة بنت الشاطىء على هذا الزّعم في كتابها «مع أبي العلاء» مستندة إلى ما رواه ابن العديم في كتابه «الإنصاف والتحري»، حيث يقول:

«وقد ذكر بعض المصنّفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها. واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد. ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء».

وتقول الدكتورة بنت الشاطىء:

«ثم جاء من بعد أولئك الذين تعلّقوا بخبر الرحلة في قضية اتهام عقيدة أبي العلاء، نفر من المتحدثين أعجبتهم حكاية الرّاهب والصومعة، فلم يقفوا بها عند اتّهام العقيدة فحسب، بل أضافوا إليها ـ من جديد ما اكتشفوه ـ بدْعة (يونانية أبي العلاء)، لمجرد أن راهباً مجهولاً قيل إنه آواه اللّيلَ في صومعته. وما دام قد شكّكه في الإسلام، فلا بدّ أن يكون كذلك قد وصله بالفكر اليوناني وفتح له كنوزه التي صاغت عبقريّته!!».

قصَدتْ الأستاذ العميد لا ريب، لكنها لم تصرّح باسمه تأدُّباً، إنما غيظُها يكاد ينُطُّ من بين الكلمات. ثم تقول في فقرة غاية في عمق الإدراك وبُعد النظر:

«ولا هانت قضيّة الفكر كذلك، بحيث يكفي أن يمرّ أحدنا في رحلة له براهب يُؤويه، فيصله بالفكر اليوناني أو غير اليوناني. وقد تعلم أن من يقول بيونانية أبي العلاء، يرفض بإصرار عجيب أن يعترف لأي مفكر إسلامي معاصر لم يدرس في مدرسة أجنبية، بالاتصال بالفكر الغربي، وإن أقام في أوروبا سنين عدداً، وأتقن من لغاتها ما يصله بآثار الصفوة من مفكريها.

وفي هذا أيضاً، أخشى أن يكون القائلون بيونانيّة أبي العلاء، مأخوذين من حيث يدرون أو لا يدرون، بفتنة اليونانية والغربية بوجه عام، فليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية مفكر إسلامي أو أديب عربي، دون أن تَـمُـتّ بسبب أو بآخر إلى أصول أجنبية أو روميّة».

هذه الآفة ما تزال تفْتكُ بنا إلى اليوم. وهم يذهبون في ذلك

مذاهبَ عجباً. وأحياناً يزعمون مؤثّرات أوروبية يعارض بعضها بعضاً وكأن الكاتب العربي لا يستطيع أن يبتدع فكراً أو أدباً من وحي تراثه الواسع الخصب.

كان أبو العلاء رحمه الله، نتاجاً خالصاً للتراث العربي الإسلامي العظيم. أوْغل في دراسته، وأبحر في تأمُّله، وتغلغل في دقائق أسراره، كما لم يفعل أحدٌ قبله أو بعده. وشعرُه كلُّه ونثره عبارة عن حوار متصل مع ذلك التراث، تُعينه حافظة نادرة، وذكاء وقّاد، وجرأة عجيبة على طرح الأسئلة الكبرى، والتحديث بعين بصيرته النافذة في ظلمات المجهول وغياهب الأبد.

ظل عاكفاً على ذلك الإرث العزيز، ينظر إليه على اختلاف أحواله، يُقيمه ويُقعده، وينفيه ويؤكده، ويشكّ فيه ثم يُثْبته، ينفر ويرضى، ويعبس ويبتسم. كل ذلك بإحساس المبدع، وليس بعقل الفيلسوف.

كان في ظني ـ نظراً لاتّساع نشاطه الأدبي والفكري ـ أول من فعل مثل ذلك من العرب والمسلمين.

تقول الدكتورة بنت الشاطىء، للّه درُّها:
«وأعجب من هذا، أن عقيدة أبي العلاء، لم تشغل دارسي الملل والنّحل ومؤرخي الفكر الديني ورجاله، وإنما شُغل بها مؤرخو الأدب ومصنّفو طبقات أعلامه، منصرفين إليها عن الأديب الشاعر اللّغوي المفكّر.

عزف الشُراح والدارسون والنّقاد، إلّا القلة النادرة، عن الاشتغال بديوانيْه الكبيريْن، والدرس النقدي لفصوله وغاياته، ورسائله الطّوال التي تجري مجرى الكتب المصنّفة (...) لا يذكرون منها، إلّا أن

يلتقطوا اسم كتاب أو فقرة منه، تصلح على وجه من الظن أو التأويل، لأن يأخذوا منها دليلاً على عقيدته التي شغلت جمهرتهم غضباً لدينهم!».

■ ■ ■

يُعجبُ المتقصّي لدراسات النقّاد العرب للزوميّات أبي العلاء المعري ـ خاصة الأكاديميين منهم ـ كيف أنهم في الغالب، لم يهتموا بشاعرية أبي العلاء، بقدر ما اهتموا بمعتقداته وآرائه وفلسفته.

أغراهم أن يعرفوا، هل كان أبو العلاء عنّيناً، وهل كره المرأة لأجل ذلك؟ هل كان اشتراكياً؟ هل كان ملحداً؟ هل كان يدين بالمذهب الفاطمي؟ هل تأثر بالفلسفة اليونانية؟ هل تأثر بالبوذيّة والمسيحيّة؟

ظلّوا يخيطون في حبائلَ نصبها لهم الشاعر عن عَمد ـ كما أزعم ـ كلُّ واحد منهم يتشبَّث بالبيت والبيتين تأييداً لوجهة نظره.

وكان شأنهم في ذلك شأن المستشرقين. وهؤلاء معذورون، لأنهم مهما بلغوا في فهم اللغة العربية وتذوّقها، فهم لا يستطيعون أن يفهموها كما يفهمها العربي. وذلك واضح في أحكامهم على عباقرة الشعراء العرب، فهذا (نيكلْسُنْ)، يعتبر المتنبي العظيم شاعراً من الطبقة المتوسطة. وهذا (بلاشير) يراه ليس أكثر من (مدّاح).

لذلك فهم يعكفون على الأشياء التي يفهمونها. المعتقدات والفلسفات وأصداء أحداث التاريخ والتحوّلات الاجتماعية وغيرها. هذه أمور أتقنوها وبرعوا فيها. وهي تناسب طبيعة عقلانيتهم التي تهتم بالجزء ولا تهتم بالكل، وترى الشجرة ولا ترى الغابة. ولا غرو

أنهم ينتهون ـ في الغالب ـ من بحثهم المضني إلى نتائج خاطئة. ولعلّ الشعر العربي ـ مثل المزاج العربي ـ لا يستجيب لذلك النمط من البحث.

أقول هذا، ليس بغرض الغضّ من جهد المستشرقين، ومنهم من خدم التراث العربي والإسلامي خدمات لا تُنكر، وإنما من قبيل الإنصاف لأنفسنا، فنحن، الواحد منّا مهما بلغ من تبحره في اللغة الإنجليزية مثلاً، لا يستطيع أن يكتب عن (شكسبير)، كما كتب عنه (برادلي) أو (راوس) أو (ليفس).

هم في لغتنا، ونحن في لغاتهم، كما وصف أبو العلاء:

ذكرتَ لفظاً وأُنسيتَ المرادَ به
من قائله فأنتَ الذّاكرُ النّاسي

كلُّ لغة لها أسرارٌ لا تبوح بها إلّا لأهلها. وقد كان أبو العلاء واحداً من قلّة خصَّتهم اللغة العربية بمفاتيح أسرارها.

ثم إنهم حين ينظرون في (اللزوميّات)، لا يكادون يتذكرون (سقط الزند). لا ينكرون شاعرية أبي العلاء في سقط الزند. وقد يعترفون أن قصيدة كالتي مطلعها:

طربْنَ لضوء البارق المتعالى
ببغداد وهْناً ما لهنَّ ومالي

فيها من الفن الشعري ليس أقل مما في سينيّة البُحتري. وأن القصيدة التي ركب فيها أبو العلاء تلك القافية العسيرة، والتي مَطلعها:

لِمَنْ جيرةٌ سِيموا النّوالَ فلم يُنْطوا
يظلّلهم ما كان يُنبتُه الخطُّ

فيها من الطلاوة والحيوية الشعرية مثل ما تجده لدى المتنبي في أحسن حالاته، اللهم إلَا أن المتنبي يكون غالباً في أحسن حالاته، وأبو العلاء قد يصعد وقد يهبط.

إذاً ماذا حدث له حين عمل اللّزوميات؟ هل خمدت نار شاعريته وأصبح محض واعظ ومعلّم وفيلسوف، يستعمل القوافي والأوزان كما يصنع الفقهاء وسيلة للتعبير عن تلك الأفكار والفلسفات؟

وقد يجدون ذريعة في قول أبي العلاء في مقدّمته لـ (اللّزوميات):

«وقد كنتُ قلت في كلام لي قديم أني رفضتُ الشعر رفضَ السَّقب غرْسَه والرّآل تريكته والغرضَ ما استُجيز فيه الكذب واستُعين على نظامه بالشُّبهات. فأما الكائن عظةً للسامع، وإيقاظاً للمتوسِّن، وأمراً بالتحرُّز من الدنيا الخادعة، وأهلها الذين جُبلوا على الغش والمكر، فهو إن شاء الله مما يُلتمس به الثواب.

وأضيف إلى ما سلف من الاعتذار، أن من سلك في هذا الأسلوب، ضعُف ما ينطق به من النّظام، لأنه يتوخى الصَادقة، ويطلب من الكلام البرّة (...).

ويُروى عن الأصمعي كلام معناه أن الشعر باب من أبواب الباطل، فإذا أُريد به غير وجهه ضعُف. وقد وجدنا الشعراء توصّلوا إلى تحسين المنطق بالكذب وهو من القبائح، وزيّنوا ما نظموه بالغزل

وصفة النساء ونُعوت الخيل والإبل وأوصاف الخمر، وتسبّبوا إلى الجزالة بذكر الحرب، واحتلبوا أخْلاف الفكر، وهم أهل مقام وخَفْض، في معنى ما يدّعون من حث الركائب وقطع المفاوز ومراس الشقاء..».

بلى، كان ذلك بعض ما عزم أبو العلاء أن يُلزم به نفسه. وكان مخلصاً. ولكني أزعم، أن موهبته الشعرية كانت من الضخامة بحيث استعصى على الشيخ حبسُها، ففاضت وتدفَّقت. فرضت عليه فرضاً أن يكون (شاعراً) أولاً وأخيراً. صارت هواجسه وأفكاره وخلاصة تجربته، غذاء ووقوداً لتلك الشاعرية، ليس أن الشعر كان محض أداة باردة للتعبير عن مُعتقداته وأفكاره.

٤٤

مع المتنبي في القاهرة

منذ أسبوعين في القاهرة، جمعتني مائدة غداء أقامها الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، بالدكتور محمود مكّي، أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة القاهرة، وعضو مجمع اللغة العربية.

كان الوحيد الذي لم تسعدني الظروف بالتعرّف إليه من قبل، بين العلماء الكبار من السادة والسيدات الذين اجتمعوا حول المائدة، وكنت أجلس بجواره، فوجّهت أغلب حديثي إليه.

شجّعني أيضاً، أن الدكتور محمود مكي، إلى جانب علمه الواسع، أخو نادرة وطُرفة ودُعابة. وقد تطاولتُ عليه أول الأمر في ميدانه ـ عمداً ـ وذلك شأني مع هؤلاء العلماء الكبار، كي أحصل منهم على فائدة. وهم قد يمنعهم التواضع أن يُلفوا بعلمهم جزافاً. وقد

علّمتني التجربة أنك لا تستفيد منهم إلّا بقدر من الاستفزاز ـ في حدود الوقار والاحترام بطبيعة الحال.

طرحت عليه رأيي الذي خلُصت إليه من زمن، وهو أن العرب قد أخطأوا بدخولهم إسبانيا والتراب الأوروبي، لأنها أرض ليست (صديقة) لهم بطبيعتها، وكان حتماً أن تجلوهم عنها طال الزمان أو قصر. والبلاد مثل البشر، منها ما يهش لك، ومنها ما يكشّر في وجهك. طُردوا عنها طرداً بعد نحو ثمانية قرون، ولم يتركوا وراءهم إلّا بعض أطلال، وكلمات عربية في اللغة الإسبانية ـ أما التراث العلمي والفكري والفلسفي، فهو تراث عظيم أيْ نعم، لولا أن الذين استفادوا منه، هم الأوروبيون الذين بنوا عليه نهضتهم الحديثة ـ العرب والمسلمون لم يستفيدوا من ذلك كله إلّا قليلاً.

لو أنهم اتجهوا جنوباً في أفريقيا، لكان خيراً لهم، فهي أرض صديقة، عرفت العرب قبل الإسلام بقرون في شمالها وشرقها وغربها... تكاد تكون امتداداً للجزيرة العربية.

لم يقبل الدكتور محمود مكي ذلك الرأي، كما توقعت، ومضى يفنّد رأيي بعلمه الغزير ومعرفته العميقة بتاريخ إسبانيا وتاريخ العرب في الأندلس إضافة إلى أنه يجيد اللغة الإسبانية وقد عاش ردحاً من الزمن في إسبانيا.

كل ذلك أسعدني جداً، فقد استفدت من الدكتور محمود فائدة ما كانت لأحصل عليها لولا تطاولي وجُرأتي.

ثم قادنا الحديث إلى ساحل أبي الطيب المتنبي، وذاك لعمري بحر لا أبالي إن أنا ألقيت بنفسي في خضمّه، يكون ما يكون.

ذكرنا قصيدته في مدح سيف الدولة التي مطلعها:

فـديـنـاك مـن رَبـع وأن زدْتَـنـا كَـرْبـا
فإنك كنتَ الشرقَ للشمس والغربا

وفيها ذلك البيت، الذي تجده في طبعات الديوان كلها مكتوباً هكذا:

تُـهـاب سـيـوفُ الـهـنـد وهـي حـدائـدٌ
فـكـيـف إذا كـانـت نـزاريّـة عُـربـا

ذكرتُ لهم ما علّمنيه صانع السيوف العُمانيّ في بلدة (صور) منذ نحو خمسة عشر عاماً، أن المتنبي لم يقل حدائد (بالدّال) ولكنه قال حدائب (بالباء). وشرح لي أن السيف الهندي أحدب أو محدوْدب، يقطع من جهة واحدة، في حين أن السيف العربي مستقيم ذو حدّيْن يقطع من جهتين. فذلك موضع المدح. وقد أعجبني الشرح ورضيت به.

إلّا أن الدكتور محمود مكي رفض ذلك جُملة. وحُجته أنه من حيث المعنى، فإن ذلك لا يستقيم مع سياق الأبيات التي يقارن فيها الشاعر بين حالات متعارضة:

تُـهـاب سـيـوف الـهـنـد وهـي حـدائـد
فـكـيـف إذا كـانـت نـزاريّـة عُـربـا
ويُـرهـب نـاب الـلـيـث والـلـيـثُ وحـدَه
فكيف إذا كانت اللّيوثُ له صحبا

ويُخشى عُبابُ البحر وهو مكانَه
فكيف بمن يغشي البلاد إذا عبَّا

وأما من حيث اللفظ، فإن كلمة (حدائب) لا وجود لها، كما يقول الدكتور محمود، لأنه لو صحّ ذلك فينبغي أن تكون جمعاً لـ (حديبة) أو (حدوبة)، لأن وزن (فعائل) إنما هو جمع (فعيلة) أو (فعولة). ولا وجود للفظ (حديبة) أو (حدوبة) في اللغة.

ورغم إدراكي أنني أقارع عالماً قرماً، فقد تهوّرت وراهنته على خمسين جنيهاً. قبل الدكتور الرهان عن طيب خاطر. كيف لا، وهو عضو مجمع اللغة العربية، وأنا منْ أكون؟ وهو في صفة جمهرة شراح المتنبي، ومنهم الواحدي النيسابوري العلامة، الذي يقول باختصار:

«يقول ـ الشاعر ـ وإن السيوف تُهاب مع أنها حديد لا عقل عندها، فكيف يكون حالُها في الخوف منها إذا كانت عربية نزارية. يعني أن سيف الدولة ليس بحديد هندي بل هو عربي نزاري فيكون أحقّ بالخوف».

وأضاف العكبري أن سيف الدولة يعمل بنفسه إذْ السيف الهنديّ يعمل بغيره.

في ظنّي أن هذا الشرح لا يُفهم إلّا إذا قبلت أن المقارنة ليست بين سيف وسيف، بل بين السيوف إطلاقاً وبين سيف الدولة، الذي هو السيف والضارب بالسيف في آن، فكأنه يضرب نفسه بنفسه. وكأنه Excalibur، ذلك السيف السحري، الذي تقول الأسطورة

الإنجليزية أنه كان سيف (سير لانْسلوت)، من فرسان المائدة المستديرة، أيام الملك (آرثر) في (كاملوت).

ولم لا؟ فهذا أبو الطيب نسّاجُ الأحلال المستحيلة. جعل من حلب مملكة أسطورية مثل (كاملوت) ومن سيف الدولة بطلاً أسطورياً مثل الملك (آرثر).

ومهما يكن، فما أظن إلّا أنني سوف أخسر هذا الرهان، فالدكتور محمود مكي مع علمه، ووراءه مجمع اللغة العربية وجمهرة شرّاح المتنبي. وأنا أقف أعزل ليس معي سوى صانع السيوف العُماني.

■ ■ ■

لا بد أن العالم الجليل الدكتور محمود مكّي ظن أنه صادف مقامراً أرعن في ذلك الغداء، لأنني لم أكتفِ أنني عرَّضْتُ خمسين جنيهاً من حُرّ ماليَ للضياع، ولكنني تهوّرتُ أكثر وراهنتُه ثانية على خمسين جنيهاً أخرى.

كان موضوع الرهان في المرة الثانية، ذلك البيت:

إذا كان بعضُ الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقات لها وطبول

وهو في قصيدته في مدح سيف الدولة التي مطلعها:

ليالّيّ بعد الظاعنين شُكول
طوالٌ وليلُ العاشقين طويل

سائر الشُرّاح لم يشذَّ عنهم إلّا واحد، فهموا البيت على الوجه الذي يقول به الدكتور محمود مكّي. وأنا أخذت برأي الواحد المخالف الذي هو أبو الفضل العروضي، الذي كان لي في هذا الرهان بمثابة صانع السيوف العُماني في الرهان الأول.

يقول الواحدي في شرح البيت:

«... والمعنى أنك إذا كنت سيف الدولة، فغيرك من الملوك بالإضافة إليك، بمنزلة البوق والطبل. أي لا يُغنون غَناءَك. ولا يقومون مقامك. وعنى ببعض الناس سيف الدولة».

ويضيف الواحدي، وكأنه ليس واثقاً من رأيه «هذا هو ظاهر المعنى». ويمضي فيورد تفسير أبي الفضل العروضيّ الذي قال:

«أراد بالبوق والطبل الشعراء الذي يُشيعون ذكره ويذكرون في أشعارهم غزواته فينتشر بهم ذكره في الناس كالبوق والطبل اللذين هما لإعلام الناس بما يحدث».

وقد ردّد العُكبري كلام الواحدي حذوك النعل بالنّعل.

وأنا ـ غفر اللّه لي ـ أذهب أبعَدَ مما ذهب أبو الفضل العروضي، وأقول إن المتنبي انفلت ابتداءً من هذا البيت، من مدح سيف الدولة، إلى مدح نفسه، في ثمانية أبيات، كأنها قصيدة قائمة بذاتها. يقول:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولٌ

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله
إذا القول قبل القائلينَ مقولُ
وما لكلام الناس فيما يريبني
أصول ولا للقائليه أُصول

إلى آخر الأبيات.

المتنبي في رأيي، يقول لسيف الدولة:

«إذا كنت أنت صاحب السلطة والأمر والنهي، فأنا صاحب الفكر والقلم والصوت. إن المُلْك لا يقوم بك وحدك فأنا شريكك في إقامة المُلك».

هذا المعنى، ردّده المتنبي في قصائده لسيف الدولة صراحة وتلميحاً، ولعل إدلاله بنفسه وإحساسه أنه صنْو سيف الدولة وندّه هو الذي أدى إلى الخلاف بينهما فيما بعد.

البيت في ظنّي، يجب أن يُلحق بالأبيات التي تليه، لأنه إذا أُلحق بالأبيات التي سبقته، يصبح المعنى ضعيفاً. إن المتنبي لم يألُ جهداً في مدح سيف الدولة في الأبيات السابقة، إلى أن قال:

فدتْك ملوكٌ لم تُسَمّ مواضياً
فإنك ماضي الشفرتين صقيلُ

فما فائدة أن يقول له بعد كل ذلك «إذا كان.. بعض الناس.. سيفاً.. لدولة»؟

هل سيف الدولة في نظر نفسه (بعض الناس)؟ وهل هو مجرد (سيف) لمجرد (دولة)؟

اللهم إن هذا لا يستقيم ولا يشبه أسلوب المتنبي.

أما إذا ألحقت البيت بالأبيات التي تليه، وحَمَلت (بوقات) و(طبول) ليس على المعنى الشائع، ولكن على المعنى الذي التفت إليه أبو الفضل العروضي، حينئذٍ تجد أن المعنى قد اتّضح واستقام. ولا يخفى أن (البوق) و(الطبل) كانا من عدة الحرب، يُستخدمان لاستنفار الجيوش وإثارة الرّعب في قلوب الأعداء.

رفض الدكتور محمود مكي هذا كله جملة وتفصيلاً. وعنده أن رأي العروضي رأي ضعيف لأن سياق الأبيات يشير إلى أن المتنبي أراد أن يرفع من شأن ممدوحه ويهوّن من شأن الآخرين.

وإذا كان المتنبي يقصد كافة الشعراء بقوله (بوقات لها وطبول)، فذلك مُستبعد أن يُشيد المتنبي بغيره من الشعراء. وإذا كان يقصد نفسه، فذلك مستبعد أيضاً، أن المتنبي الذي يعتبر نفسه ندّاً لسيف الدولة، يشبّه نفسه بـ (البوق) و(الطبل) التي توحي بالفراغ والخواء.

هذه كما ترى حُجج وجيهة من هذا العالم الجليل، يؤيده فيها الغالبية الغالبة من شُرّاح المتنبي. وأنا ليس معي إلا واحد هو أبو الفضل العروضي. إنما أنا ـ لسبب ما ـ أكثر ثقة بنفسي هذه المرّة ولعلّني لا أخسر هذا الرهان. وإذا لم أربح، فلا أقلّ من أن أخرج منه (لا عليّ ولا ليا). وسلامٌ على الدكتور محمود مكي الذي نفعني بعلمه، وأسعدني بطيب حديثه.

نبذة عن المؤلف

ـ ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

ـ تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

ـ عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

ـ التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

- متزوج وله ثلاث بنات.

- من مؤلفاته:

نخلة على الجدول.

دومة ود حامد.

عرس الزين.

موسم الهجرة إلى الشمال.

مريود وضو البيت.

مختارات

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!
٢ ـ المضيئون كالنجوم ـ من أعلام العرب والفرنجة.
٣ ـ للمدن تفرد وحديث: الشرق.
٤ ـ للمدن تفرد وحديث: الغرب.

الطيّب صَالح

مختارات

٦

في رحاب الجنادرية وأصيلة

RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٦

في رحاب الجنادرية وأصيلة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ATTENDING AL-JANADRIYYA & ASSILA

By

El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب

محمود صالح عثمان صالح

First Published in May 2005

Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**

BEIRUT- LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21204-3

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: أيار/مايو ٢٠٠٥

الإهداء

إلى صديقي معالي الأستاذ محمد بن عيسى وزوجته الفاضلة ليلى لما ألقاه منهما دائماً من حفاوة ومودة.

الجنادرية

١

لا أظن أن أحداً في هذا العصر، شاعراً أو ناثراً، وقف على أطلال العالم القديم في نجد، ذلك العالم الذي تقوضت أركانه تحت وطأة التقدم والعمران، كما وقف الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري. ما من أحد بكى بكاءه، ولا أحد رثى رثاءه. ليس لأنه لا يؤمن بالتقدم والعمران، فهو في أحاديثه وكتبه، مقتنع بفوائد العلم، متحمس للتغيير مسحور بإنجازات الحضارة التكنولوجية. ولكن لأنه وعى بحسه المرهف أن كل ربح وراءه خسارة، وكل إنجاز يصحبه ضياع. وأن ذلك العالم المفقود الذي يرتفع على أنقاضه هذا العالم الجديد الأكثر رفاهية، كان على علّاته، عالماً أليفاً ودوداً.

ساقتني إلى معرفته وأنا في الدوحة منذ نحو عشر سنوات، رسالة جاءتني منه على غير معرفة سابقة. كنت قد دُعيت لزيارة المملكة

العربية السعودية عدة مرات، فلم أستطع تلبية الدعوة لسبب أو لآخر. ثم جاءتني تلك الرسالة الجميلة، والتي تضمنت، كما أدركت فيما بعد، كل خصائص أسلوب الشيخ عبد العزيز: صفاء اللغة، وحرارة التعبير، وسبَحات الخيال، وإضاءات من فكر طريف، تلمع فجأة بين السطور. قال لي الشيخ في رسالته:

إن صوتي قد وصله، وإنه يحب أن يتعرف بي. لم أكن أعرف من هو الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، ولكنني أحسست أن ها هنا رجلاً غير عادي، يستحق أن يسعى الإنسان إليه، فأنا كما قال البحتري «أكْلف بالأشراف طرّاً من كل سِنْخ وأسٍّ». الكاتب يخاطب الناس جميعاً، ولكنه يكتب بصفة خاصة لأناس «مختارين» قد يعرفهم وقد لا يعرفهم ولكنه يعلم أنهم إذا سمعوا أرهفوا السمع، وإذا نظروا دققوا النظر وإذا ناداهم صوت محب، استجابوا له بمحبة، دون قيد ولا شرط. هؤلاء هم الناس الذين إذا قرأت لهم، أو علمت أنهم يقرأون لك، أحسست بالـ «وَنَسْ» كما يقول يوسف إدريس. فهذا عالم موحش، وعالم الكتابة أكثر وحشية، وهذه الأرواح المجنَّدة، والأصوات المتآلفة المتواصلة، تخفف من وحشة العالم، وتهوِّن ولو قليلاً، من أحزان حامل القلم.

وهكذا كان. رأيت قبساً من ضوء الشيخ في تلك الرسالة فقلت أسير وراءه وأتقفّى أثره، والحكمة ضالة المؤمن، وكذلك المحبة. ولم أكن أعلم حينئذٍ أن الشيخ نفسه، كان منجذباً إلى ضوء عجيب، وصوت عبقري فريد. كان الضوء لطيفاً، وكان الصوت، صوت الشيخ، أليفاً صافياً لا يشوبه كدر. ثم إذا أنا في مجلس آهلٍ في الرياض، وإذا أنا برجل كالسيف، أقرب إلى الطول، وأقرب إلى النحول، أسمر مشرب بحمرة عليه وَسَامٌ كرذاذ المطر خلف زجاج

النافذة، لعله في الأربعين أو لعله في السبعين. يبتسم، ولكن لم يغب عني أنه مثقل بالأحزان، ولكنها أحزان نبيلة، كالتي عاناها الشعراء في هذه الديار منذ عهد نابغة بني ذبيان. ولأن فؤادي ليس خُلْواً من هذا كله، فقد سلمت عليه وكأنني أعرفه من زمن، سلمت عليه بمودة مشوبة بالعطف. ولـمَ العطف؟ لقد مضيت بعد ذلك في علاقتي بهذا الإنسان الفريد، أعجب به وأُحبه، وأشفق عليه، فذلكم العطف، وهو يرثي لحالي، وتلك لعمري قسمة عادلة وعلاقة متكافئة.

مثل أخي فتح الرحمن البشير، أقول لنفسي، يا للعجب، كأنهما توأمان. تلك الحيوية، وتلك الأريحية. كأن قلبه يخرج من بين أضلاعه ويسابق بدنه ليلقاك مرحِّباً، يهش لك. ويسحبك من يدك سحباً، ويدنيك من مجلسه، ويقحم الطعام عليك إقحاماً، ويبذل لك من نفسه كأنك الوحيد لديه. وكل واحد عنده سيان في بذْله.

أعجبتني داره، وهي مجموعة دور حول حوض سباحة، قلت له ذلك، فقال ضاحكاً «هذا من علامات الساعة».

سألته لـمَ ذلك؟ فقال:
«ألا تعرف الحديث الشريف أن من علامات الساعة أن يتطاول الحفاة العراة رعاة الإبل في البنيان؟».

كذلك هو يبالغ في التهوين من شأن نفسه، ويسخر من حوله وطَوْله ويؤكد لكل من يلقاه أنه جاهل لم يدخل مدرسة ولم يتعلم في جامعة. ولقد رأيته منذ عامين أثناء مهرجان الجنادرية، يهدي كتبه لأكثر من عشرين كاتباً ومفكراً. كان يملي إهداء يملأ صفحة

كاملة لكل واحد منهم، وكل إهداء مغاير لما سبقه، وفي كل إهداء فكرة طريفة أو عبارة أنيقة لم ترد من قبل. ثم رأيته أوائل هذا العام، يتحدث في داره إلى جمع غفير من أساتذة الجامعة الأمريكيين. بدأ حديثه كعادته بالتأكيد على جهله، ثم حلَّق في آفاق ساشعة، متنقلاً من السياسة إلى الأدب إلى التاريخ، خالطاً الجد بالهزل، يمسّ برفق مكامن سوء الفهم لديهم، ويصحح ما علق بأذهانهم من تصورات خاطئة عن العرب والمسلمين، بمهارة تثير الإعجاب. وبعد أن فرغ من حديثه وأجاب عن تساؤلاتهم، شكره أكبر الأساتذة سناً وقال له في ختام كلمته:

«قلت لنا إنك جاهل وإننا علماء. ولكن صدقني أنك أنت الأستاذ ونحن الجهلاء. لقد شعرنا أثناء حديثك أننا تلاميذ نجلس بين يدي أستاذ».

إنما الشيخ عبد العزيز، قد جلس من المتنبي كما يجلس التلميذ بين يدي أستاذه. وأنزل نفسه منه بمنزلة التابع، يقتفي أثره بين اليمامة والدهناء يحل إذا حلَّ ويرحل إذا رحل. يلازمه كظله، يحاوره ويداوره يوافقه ويخالفه، يحبه ويحاول أن يجد فكاكاً من حبه. ولكن هيهات فكل من وقع في أسر المتنبي، أصبح أسيراً ليس له فكاك. وهذه العلاقة التي ابتدعها الشيخ عبد العزيز، هي في حد ذاتها نمط جديد، ليس له نظير في الأدب العربي. قلت للشيخ:

«هذه العلاقة التي رسمتها لنفسك إزاء المتنبي علاقة عجيبة. لقد كان المتنبي يأمل طوال حياته أن يحصل على مثل ما حصلت أنت عليه. ألم يكن يسعى، لا يمل من السعي، وراء الرفعة والسلطان؟ ثم ها أنتذا وكأنك تتمنى لو كان لك ما كان للمتنبي. وكأنك تريد

أن تكون المتنبي وسيف الدولة في آن واحد».

لكنني أيقنت بعد ذلك، حين عرفت الشيخ أكثر، أنه لا يطمح مثل هذا الطموح، وأن تقفّيه أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء، كان بمثابة جري وراء أطياف العالم الذي ألفه وأحبه في طفولته وصباه ثم ضاع منه إلى غير رجعة. لذلك فهو يقيناً امتداد لكل أولئك الشعراء الذين مروا بهذه الديار، ووقفوا على أطلالها، وناجوا أطياف محبوباتهم على كثبانها وأوديتها وجبالها. أليس صوت الشيخ عبد العزيز يذكر بصوت غيلان، ذي الرّمة، وهو يقف على رمال الدهناء ذاتها التي وقف عليها الشيخ؟

تحن إلى ميٍّ كما حن نازع
دعاه الهوى فارتاد من قيده قصْرا
فقلت أربعاً يا صاحبيَّ بدِمنةٍ
بذي الرِّمث قد أقْوتْ منازلُها عصرا

بلى. ولكن حيث جرى امرؤ القيس وراء طيف صاحبته «هِرْ»، ولاحق عنترة أطياف عبلة بين لمعان الأسنّة، وبكى إمامُ الباكين غيلان، طويلاً على أطلال مَيٍّ، فإن الشيخ عبد العزيز قد ابتدع رمزاً جديداً طريفاً، هو في الوقت نفسه امتداد لتلك الرموز، فلاحق خيال الشاعر العبقري الذي ابتلع في جوفه كل أولئك الشعراء. وتلك، وأيم الحق، جرأة من الشيخ ليس مثلها جرأة.

هل ثمة سلمى أو ليلى أو هند أو مَيْ؟ لا بد. إذاً لماذا لم يبح الشيخ بكل أسراره، ولماذا اختار هذا الرمز العسير، والرموز الغريبة المنال بين يديه؟

في تلك الزيارة، سمعت لأول مرة قراءات لرسائل الشيخ للمتنبي. أعجبني الصوت، واتضح لي الضوء أكثر، فكنت واحداً من كثيرين أهابوا به أن ينشر كتاباته على الملأ. تردد كثيراً يُقْدِم ويُحْجِم، وبعد لأي أصدر كتابه الأول «في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء» بعد أن أطال فيه النظر، وحذف منه أجزاء كثيرة جميلة، ليته أبقاها. استُقبل الكتاب، كما توقعت، باستحسان كبير. ثم أخرج الشيخ كتابه «رسائل إلى ولدي» في جزءين، أعقبه كتابه «حاطب ليل ضجر». وما يزال عنده الكثير، لم يشأ أن ينشره بعد.

ولكن الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، أكثر من هذا كله، على أن هذا ليس قليلاً. إنه إنسان متميز، من أميز الناس الذين عرفتهم. وهو حيث هو في الرياض، يشعّ ضوءاً يضيء مساحات واسعة حوله، لقد أثنى عليه وعلى كتاباته أناس كثيرون، بينهم علماء أجلّاء، أمثال الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور حسن ظاظا والدكتور مصطفى هدارة. ومنهم نقاد كبار مثل رجاء النقاش. وكانوا صادقين في ما ذهبوا إليه. وكنت قد آليت على نفسي أن أرجيء الحديث عنه إلى حين. يقول لي الشيخ:

«أنت يا الطيب صالح ألقيتني على قارعة الطريق ثم تركتني».

وأقول له:

«أخشى أن تظن أنني أجاملك. فقلت أترك غيري يكتبون عنك. وها أنت ترى أساتذة كباراً هم خير مني، يعبّرون عن إعجابهم بكتاباتك».

وبعد، فليس هذا ما أردت أن أقوله عن هذا الشيخ الجليل والإنسان الفريد، فإن الحديث عنه يطول، وسوف يأتي وقته إن شاء الله. إنما هذا الآن، فقط احتفاء بإبلال الشيخ من علَّته، وعودته سالماً إلى حماه ليواصل بإذن الله، الدور الذي ارتضاه لنفسه، دليلاً للحائرين، ومنارة للسارين والمقوين.

٢

ذات ليلة، خلال مهرجان الجنادرية الأخير، حلمت أنني بأرض خلاء بالمدينة المنورة. لم تكن المدينة كما أعرفها. وإذا شجرة ضخمة كأنها شجرة زيتون، عظيمة الجذع، ممتدة الفروع متدلية الأغصان. وإذا عِرقٌ من عروقها، ظاهر على الأرض، منتفخ في شكل بيضاوي، عليه بياض كأنه الجير ـ وإذا صوت يهتف بي:
«هذا قبر الرسول صلى الله عليه وسلم».

عجبت أن الرسول مدفون في أصل شجرة. ثم إذا أنا في الحرم النبوي، في الروضة الشريفة كما أعرفها، إلّا أن الضريح كان في موضع المنبر.

ثم إذا أنا في لندن، في حفل من تلك الحفلات التي كنت أرتادها زمان الجهالة، منذ نحو ثلاثين عاماً. أخلاط من الناس رجالاً ونساء.

ووجدتني أجلس بجوار فتاة لبنانية، لم تخبرني أنها لبنانية، ولم أسألها، ولكنني كنت موقناً في حلمي أنها لبنانية.

أذكر وجهها المستطيل، والنظارات على عينيها العشوائين، وشعرها المسدل على كتفيها. كانت غير راضية عن أي شيء. كل شيء يسئمها. قالت إن كل الروايات التي تنشر لا تعجبها. فجأة خطر لي أن أعبث بها، كما كنت أفعل في تلك الأحوال منذ ثلاثين عاماً. قلت لها إنني فرغت لتوي من قراءة رواية رائعة لكاتب أمريكي جديد، سوف تعجبها لا شك.

قالت باهتمام بلغة عربية لبنانية:
«صحيح؟ شو اسمها؟».
«أذكر أنني فكّرت في عنوان للرواية الموهومة:
«عنوانها .. نيويورك أطول من حياتي».

قالت بلغة عربية فصيحة:
«الله. ما أجمل هذا العنوان. ما اسم الكاتب؟».

أخذت أفكر في اسم كاتب أمريكي موهوم، وقبل أن أجد الاسم، إذا بالشاعر أدونيس يدخل، وإذا أنا وإياه واقفين وحولنا أشخاص، وغير بعيد منا رجلان يتابعان حديثنا ويبتسمان، أحدهما كأنه يوسف الخال. قلت لأدونيس باللغة الفرنسية، وكنت أفكّر في الكلمات شأن لا يُتقن اللغة:

«شعْرك جيد جداً. ولكن يلزمك مزيد من الشجن والحنين إلى الماضي». وأذكر أنني دُشتُ مؤكداً على الكلمة الفرنسية (نُشتالجي - Nostalgie).

ثم إذا أنا في ميدان صغير في حي الدقّي، مثل ميدان مطعم (المغربل) حيث نطلب الفول المدمّس أواخر الليل مع محمود سالم وأخوان الصفاء في القاهرة المحروسة. وإذا رجلٌ زبّال، كالثور يجر الساقية، يجر عربة مملوءة بالزبالة، اختلط بعضها ببعض، فأصبحت عجينة ينزّ منها الماء على ثيابه.

وبينما أنا أغالب الحزن لحالة الرجل، إذا به ينادي فجأة بصوت واضح، ولغة عربية فصيحة:
«الحمد لله. هذه نعمة كبيرة».

أذكر أنني أحسست بالخجل، وقارنت بين حالي وحال الرجل، وهتفت بصوت كأنه يأتي من غور بئر، صوت غريق بكل تلك الأحوال. «الله». ووجدت في يدي ورقة بخمسة جنيهات مصرية أعطيتها إياها.

صحوت من منامي في غرفتي في هوتيل (قصر الرّياض) فإذا أنا بعد الفجر بقليل.

في المساء، في دار الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، لاحظت أن الأخضر الإبراهيمي يستخدم كلمات لبنانية في ثنايا حديثه، لا شك لطول ما سعى للصلح بين اللبنانيين كي تضع الحرب أوزارها. متى تضع حروب العرب أوزارها؟ كان في المجلس أيضاً السفير الجزائري، والسفير التونسي القاسم بوسنينة.

هذا إنسان كريم حقاً. كنت قد تعرّفت به في الصباح، حين زرت السفارة التونسية للحصول على فيزا. كنت أعلم أن الجواز السوداني

الذي أحمله مثل طائر البطريق حول عنق الملاّح في قصيدة (كولردج) لن يجديني نفعاً، توسلت بالسفير الأديب الهمام، الشاذلي دوكار الذي كان معنا في المهرجان، أن يوصي بي خيراً.

لكنني وجدت التونسيين الكرام فوق ما ظننت. ما إن وطئت قدماي أرض سفارتهم، حتى وسّعوا في استقبالي وأمعنوا في الترحاب بي، بدءاً من الحارس على الباب. وجاء بعض الموظفين وسلّموا عليَّ وقالوا إنهم يقرأون ما أكتب.

أعطاني القنصل الفيزا دون إبطاء وأخبرني أن السفير يُحبُّ أن يستقبلني في مكتبه. وجدت ثمة هذا الرجل السّمح الذي أسعدني حديثه، وسرّى عني دفء ترحابه. ثم ها هو ذا الآن في دار الشيخ عبد العزيز، يقول لي إمعاناً منه في اللطف «إنها فرصة طيبة أن نلتقي للمرة الثانية في اليوم نفسه».

أسعد اللبنانيين الحضور، وكانوا نفراً منهم حسن صبرا صاحب مجلة «الشراع»، أن الشيخ طلب مني أن أقرأ لهم رسالة المؤرخ اللبناني أمين الريحاني الذي بعث بها إلى الملك عبد العزيز آل سعود عام كذا وعشرين. هكذا أنت دائماً في مجلس هذا الإنسان الفذ، الثاقب النظر، العميق الإدراك، لمدّ التاريخ وجزْره. ما يفتأ يقول للناس إنه لا يعرف شيئاً ولم يتعلّم في مدرسة، والناس لا يخفى عليهم أنه يطوي أهابه على علم غزير وحكمة بعيدة الغور.

قال أمين الريحاني في رسالته إلى الملك عبد العزيز، أنه أول قائد عربي منذ عمر بن الخطاب يوحّد جزيرة العرب. قلت للشيخ ضاحكاً «هذه دعوى عريضه. إذاً أين يذهب عبد الملك بن مروان؟

وأين يذهب هارون الرشيد؟» فأجابني الشيخ بجاذبيته المعهودة «ما عليك يا طيب صالح. اسكت واقرأ».

لكن لا جدال في أن الملك عبد العزيز كان من هؤلاء الزعماء الأبطال، ذوي الهمم العالية الذين أمسكوا بأعنّة التاريخ، كما يمسك الملّاح الماهر بأعنّة الرياح في عرض البحر.

أنشد الدكتور أحمد التويجري من شعره الجميل. هذا شاب نابه يعمل أستاذاً في الجامعة. يتغنى في شعره ببطولات العرب وأمجاد المسلمين، ويتحسر على ما آل إليه أمرهم. ذكّرني بالشاعر الفلسطيني الذي أنشد في الأمسية الشعرية في المهرجان قصيدة مريرة غاضبة. قال لي بعض الحضور «ما هذا الشاعر؟ يجيء ليسب الناس ويلعنهم؟» قلت له «ماذا تطلب من شاعر فلسطيني؟ يقول للناس بارك الله فيكم وأحسنتم أنكم فرّطتم في فلسطين؟»».

في تلك الليلة أيضاً أنشد الشاعر الكبير فاروق شوشة من ديوانه الأخير «هِئْتُ لك» حيث بلغت شاعريته قمة نضجها. صوته الجميل له مذاق فاكهة الرمان، يمسك بتلابيب السامعين، مثل ساحر، يعلو بهم ويهبط، ويحركهم ذات اليمين وذات الشمال. ديوانه هذا كنز من الأشجان الفادحة، يقول في إحدى قصائده:

قيل: انصرفوا،
قلنا: لن نبرح هذي الساحةَ،
حتّى يندحر الإفكُ،
وحتّى ينبلج الفجرُ،
وحتّى ينتصب الشعرُ،
ويعتدل الميزان.

أن يعتدل الميزان! يا له من حلُم عسير. ولكن لا بُد. في تلك الأمسية الجميلة في دار الشيخ، أنشد أحمد التويجري أيضاً، أبياتاً يداعبني فيها، يذكر مجلساً لنا، الله أعلم، منذ سبع سنوات. هو وأنا وآخرون. كنا في مؤتمر في أبو ظبي. جلسنا ذات مساء في صالة الهوتيل نتناشد الأشعار. وكانت في المجلس سيدة لبنانية، زادها جمالاً أنها تحبُّ الشعر وتطرب له. وقد زعم الشاعر في القصيدة، أن جمال تلك السيدة، فعل بي كما جرى لأبي الخطّاب، فطربتُ «وكنت قد أقصرت حيناً».

بلى، ومثلي يصبو إذا تنسّم الريح، من أعالي بعلبك! هذا، وقد سألت الدكتور محمد أبو ليلة، الأستاذ في جامعة الأزهر إن كان يعرف تأويل الأحلام. قال «نعم، فأنا متخصص في تأويل الأحلام». قصصت عليه من رؤياي الجزء المتعلق بضريح المصطفى صلى الله عليه وسلم. فقال:

«الشجرة هي الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. لعلك تنهض بأمر عظيم. لعلّة يُفتح لك فتكتب كلاماً مبيناً لم يُكتب من قبل».

سبحان الله! أنا؟ أنا الضعيف المسكين المُثقل بالأغلال؟

حسبي على أي حال، أنني نفرٌ هضيم في وفود المحبين، الواقفين بباب سيّد المرسلين، ينتظرون الإذن للمثول.

٣

احتفت مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، في مؤتمرها هذا العام، بالشاعر الخالد أبي القاسم الشابي. نظمت ندوات لدراسة شعره، حشدت لها عدداً كبيراً من الأكاديميين والأدباء والشعراء. كذلك أعادت طباعة دواوينه في صورة جذابة.

هذا الإنسان الخير، عبد العزيز البابطين، رجل أعمال كويتي معروف. وهو أيضاً شاعر. وحين يجتمع المال، مع الحساسية الشعرية، وحب الثقافة والاحتفاء بها، فإن ذلك يكون من حسن التوفيق.

اختار هذا الرجل الكريم، أن ينفق جزءاً من ثروته في خدمة الشعر، فأخذ منذ سنوات يمنح جوائز للشعراء الأحياء، ويحتفي بتراث الراحلين منهم. ومنذ عامين، أعادت مؤسسته طباعة دواوين الشاعر

الرائد المرحوم محمود سامي البارودي. كذلك تضطلع مؤسسة البابطين بعمل جليل حقاً، وهو إعداد ونشر معجم للشعر العربي بأكمله.

افتُتح المؤتمر باحتفال كبير في قاعة (نزل جنّات فاس) في مدينة فاس العريقة. ذلك أيضاً كان اختياراً موفقاً، لأن مدينة فاس ظلت طوال القرون معقلاً من معاقل العروبة والإسلام، وجامعتها العتيدة، جامعة القرويين، لم يخبُ ضوءها في أحلك الظروف.

جرى الاحتفال تحت رعاية الملك الحسن الثاني ملك المغرب، وبحضور ولي العهد وكذلك الأستاذ عبد الهادي بوطالب مستشار الملك. وبعد الكلمات الافتتاحية، قدم وليّ العهد جائزة الشعر لهذا العام للشاعر المصري أحمد غراب، وقدّم جائزة تقديرية للشاعرة الفلسطينية المرموقة فدوى طوقان. في مساء اليوم التالي ألقت قصيدة من شعرها بصوتها الدافىء العذب، الذي لم يؤثر عليه مرور الأيام، ولا طول معاناة الشاعرة في نابلس الصامدة.

بعد ذلك عكف المؤتمر على امتداد يومين متتاليين على تقديم بحوث عن شاعرية أبي القاسم الشابي.

كانت ندوات رحبة خصبة، ولم يكن الجدل الذي يثور عقب كل بحث، أقل أهمية من البحث نفسه. لا عجب، إذ إن القاعة غصّت بعلماء وشعراء وكتّاب ونقّاد، كل منهم يشار إليه بالبنان.

اتضحت لي منذ اليوم الأول، عدة تيارات متباينة في اتجاهات النقد العربي المعاصر، وخاصة النقد الأكاديمي. تيار متأثر بالمذاهب

الفرنسية الحديثة، مثل البنيوية والتفكيكية والسيميائية وغيرها. وكان ذلك غالباً على الأكاديميين من بلاد المغرب أمثال الدكتور محمد مفتاح أستاذ اللغة العربية في جامعة محمد الخامس بالرباط، والدكتور عبد السلام المسدي من الجامعة التونسية. ولكن كان منهم أيضاً بعض المشارقة أمثال الدكتور سعيد السريحي من جامعة أم القرى، والدكتور صلاح فضل من جامعة عين شمس.

التيار الثاني متأثر بالفكر الأنجلوسكسوني، وقد عددت من أتباعه، الدكتور عبد القادر القط من جامعة القاهرة، والدكتور نديم نعيمة من الجامعة الأمريكية ببيروت، والدكتور محسن الموسوي الذي يدرّس الآن في جامعة صنعاء.

والتيار الثالث، يمكن أن يوصف بأنه يرمي إلى أن يكون (Indigenous)، متأصلاً في الموروث العربي الضخم ونابعاً منه، ومشرئباً إلى آفاق أرحب، ولا بد من القول، أن أنصار هذا التيار ليسوا غافلين عن التيارات الأخرى، ومنهم من درس في جامعات أوروبية، مثل الدكتور منصور الحازمي الذي أخذ الدكتوراه من جامعة لندن. ومن أنصار هذا التيار أيضاً، العالم المرموق الدكتور ماهر حسن فهمي الذي ظلَّ يذكّر الناس طوال فترة المؤتمر، أن ما يحسبونه جديداً، موجود في التراث العربي، في شعر المتنبي وأبي العلاء المعري وأبي نواس وغيرهم.

كذلك أنوّه، أن هذه المذاهب والتيارات لم تكن تحدها حدود قاطعة، كما في بعض المذاهب السياسية، بل كانت تلتقي وتفترق، وتتقاطع وتلتئم. وأذكر بهذا الصدد، أن بحث الدكتور نديم نعيمة، وهو متخرج من جامعة أوكسفورد، كان في رأيي، من أكثر البحوث

وضوحاً، وقد فرّق بين القصيدة العربية، والقصيدة المكتوبة باللغة العربية، وما هي بعربية في روحها، ودعا إلى أن يكون التجديد سياق المزاج العربي بنظرته المميزة للكون. وكان العالِم الكبير الدكتور عز الدين إسماعيل، أمْيَلَ إلى هذه النظرة، فيما بدا لي.

حمدت الله أنني لم أقدم بحثاً، وما كان ينبغي لي في ذلك الحشد الحاشد من الأكاديميين. كنت جندياً في كتيبة غير ملتزمة، فيها الدكتور محيي الدين صبحي والدكتور محيي الدين اللاذقاني، والدكتور خلدون الشمعة ـ وهؤلاء ثلاثتهم من سورية ـ والمفكر المصري المرموق الأستاذ أحمد عباس صالح. وكنا في أغلب الأحيان نجد الدعم من منصور الحازمي وماهر حسن فهمي.

كنا نحاول أن ننفذ خلال الضباب اللفظي الكثيف أحياناً، إلى مقاصد بعض إخواننا من (الحداثويين). نحاول أن نعيدهم من التخوم الغربية، التي أغراهم سرابها، إلى أودية الخيال العربي، وهي مترامية تتجاوب أصداؤها.

والحق أن بعض إخواننا ساروا بنا في دروب غاية في الغرابة. وقد أحصيت من عباراتهم مثل قول أحدهم (الظاهراتية)، وما أظن أنه ترجم Phenomonology من Phenomena، أي ظاهرة، وقول أحدهم (الثوابت الأنثروبولوجية الهرمسية الابستمولوجية)، وهذا كما يقال في السودان (كلام الطير في الباقير). وقول أحدهم (نصاً موضوعاً أي أنه نص من حيث الموضوع). وقال أحدهم (نتخذ من النص شاهداً على النص الموضوع شاهداً). وقال آخر (مرآوية التناص) ـ كذلك (النص المشروع والنص الإنجاز) ـ وأيضاً (التناظر الداخلي كآلية للمكاشفة. أي مكاشفة النصّ بالنص).

هذا وقد تحدث بعض هؤلاء العلماء الأجلّاء ـ وهم أجلاء لا شك ـ عن القصيدة الحديثة. لم يقصدوا بالحداثة شعر بلند الحيدري والسيّاب والبيّاتي وحجازي وعبد الصبور والفيتوري والقصيبي ونزار قباني ومحمود درويش وأمثالهم. يا ليت، فتلك حداثة نفهمها ونستسيغها. ولم يقصدوا شعر أدونيس. يا ليت، فهو على الرأس والعين، يحب الشعر العربي ويحفظه ويرويه، وينطلق منه إلى عالمه الجديد.

يعنون حداثة بعد الحداثة، وفسَّر أحدهم أن القصيدة بهذا المعنى، كسّرت قواعد النحو والصرف، ونبذت الأخيلة القديمة واللغة القديمة. هدّمت كل شيء وأخذت تبني شيئاً جديداً كلية. وقال «القصيدة الحديثة هي بذاتها وفي حدّ ذاتها».

وقال آخر «لا بد من إعادة تأهيل المتلقّي».

هذه العبارة حرّكت روح الفكاهة لدى منصور الحازمي، فقال بأسلوبه الحلو المرير: «إقامة معسكرات لإعادة تأهيل المتلقي كي يستطيع أن يتذوق القصيدة الحديثة، سوف تكلّف الحكومات العربية أموالاً طائلة يمكن الاستفادة منها في مشاريع التنمية».

وبعد، ما علاقة أبي القاسم الشابي بكل هذا البحث والتمحيص رغم أنه خصب وطريف؟

كان طفلاً سماوياً. نظر إلى الحياة بدهشة فرأى كوناً بكراً كأنه ولد لساعته، فصاغ تلك الدهشة وتلك البكارة في أغانٍ ألهبت خيال أجيال من الناس من المحيط إلى الخليج. كان صوتاً من تلك

الأصوات العبقرية، التي يجود بها الزمان على الأمة العربية ، بين حين وآخر. تسمعه فتعلم أنها أمة واحدة، وأنها أمة حيّة.

■ ■ ■

أخذ بعض الأكاديميين والنقاد يقولون في الآونة الأخيرة أن الرواية أصبحت هي ديوان العرب في هذا العصر، أي أنها حلّت محل الشعر.

لا ينكر أن الرواية العربية، أصبحت في زمن قصير نسبياً، فرعاً كبيراً من فروع الأدب. قدمت تجارب إنسانية بالغة الاتساع والتنوع بأساليب وتقنيات ليست في متناول الشعر، وطرقت مواضيع تنفر منها طبيعة الشعر.

كل ذلك حق. أما أنها حلّت محل الشعر، وصارت (ديوان العرب)، فذلك في ظني أبعد ما يكون عن الحقيقة.

سوف يظل الشعر هو الوسيلة الأولى عند العرب، للتعبير عن روحهم وتصورهم للكون. وذلك التعبير الذي يتمثل في إبداع شعري قل نظيره في تراث الإنسانية، هو الذي يعلن بصدق عن عبقريتهم، ويعطيهم سمتهم المميز بين الأمم.

يقول الشاعر الإنجليزي الأمريكي المرموق (تي. اس. أليوت T.S.Eliot)، وهو ناقد كبير أيضاً:

«إنني أعتقد أن من الضروري لكل أمة أن يكون لها شعرها الخاص

بها، ليس فقط لمتعة محبي الشعر، ولكن لأن الشعر يؤثر على المجتمع ككل، حتى على الذين لا يتذوقون الشعر، بل والذين لا يعرفون حتى أسماء شعرائهم».

ويمضي فيقول:
«أول ما أحست الشعوب بالحاجة لتعبر عن نفسها تعبيراً أدبياً، فعلت ذلك بواسطة الشعر. لا نجد غرابة في ذلك، حين نذكر أن الشعر يهتم في المقام الأول بالتعبير عن الإحساس والعاطفة، وهما أمران يختلفان من شعب إلى آخر. الفكر شيء عام ومشترك.

سهل على المرء أن يفكر بلغة غير لغته، ولكن صعب عليه أن يحس إلّا بلغته. لذلك لا يوجد فرع من فروع الفن أكثر خصوصية من الشعر. تستطيع أن تسلب أمة ما لغتها، وتفرض عليها لغة أجنبية. لكنك ما لم تنجح في أن تجعل تلك الأمة (تحس) باللغة الأجنبية المفروضة عليها، فإنك لا تكون قد نجحت في اقتلاع اللغة الأصلية. سوف تظهر اللغة الأصلية في الشعر (...) مستحيل القضاء على لغة متقدمة حية، إلّا بإبادة الشعب الذي يتحدث بها».

عبّر (تي. أس. أليوت) عن هذا الرأي أول مرة، عام ١٩٤٣. وقد أثبتت الأيام صدق قوله. وحين يقول (اللغة) فهو إنما يعني (الشعر) في المقام الأول، ذلك لأن الشعر حسب وصفه، هو الذي يعطي الأمة سمتها الذي يميزها عن بقية الأمم.

بهذا المعنى نرى أن الطموح لابتداع شعر عربي جديد تماماً، منقطع عن التراث العربي، يكون (قائماً بذاته وفي حد ذاته)، كما يروّج بعض دعاته ـ أقول، إن ذلك طموح عسير، بل طموح مستحيل.

أغلب الناس يرون ـ وهم ليسوا رجعيين بالضرورة ـ أن ينطلق الجديد من تراث الأمة، وخلاصة وجدانها، ونظرتها المميزة للحياة والكون.

عبّر عن ذلك أحسن تعبير، الدكتور نديم نعيمة الأستاذ في الجامعة الأمريكية ببيروت، في بحثه العميق الذي قدمه في ندوة جائزة البابطين في فاس، حين قال:

«الشاعر هو ابن تراثه من غير شك، وفي هذا تكمن هويته، إلّا أنه بحكم هويته تلك، لم يعد فرداً، لم يعد طائراً مغرداً كما يحلو له التغريد، بل أضحى في حقيقة أمره تراث لغة وشعب بأكمله على مرّ العصور، وقد تجمّع وانصهر في ذات راهنة وحية وراثياً، فكأنه بكلام آخر، النقطة المعاصرة في الهرم الذي بلغه التراث عضوياً خلال التاريخ والزمن، من القاعدة البدئية حتى القمة (...). ذلك أن كل معاصرة شعرية لا تنبثق عضوياً من التراث، فهي معاصرة بلا هوية، وبالتالي أقل ما للنقد أن يقوله فيها، هو أنها زائفة...».

هذا الكلام، لا ريب، لن يطرب ناقداً سيميولوجياً مثل (رولان بارت)، وهو أحد كهنة الحداثة. سوف يدمغه بأنه محض (توتولوجي) ـ أياً كان معنى ذلك. والطريف أنه في دفاعه عن استعمال كلمة (سيميولوجي) التي كانت في الأصل تعبيراً طبياً، واستعارها (سوسور) ـ وهو كاهن آخر، إلى اللسانيات يقول:

«اقتراح بعضهم استعمال كلمة (Semiotics) للسانيات، للتفرقة بينها وبين (سيميولوجي) التي تستعمل في الطب، أعتقد أن ذلك الحرص لا مبرر له، لأن كلمة (سيميولوجي) دخلت معجم

المصطلحات (ما بعد اللسانية!)، وأصبح لها جذور في مفرداتنا العقلية. وإنه لأمر خطر، بل أمر لا جدوى منه، أن تغير استعمال الكلمات، بعد أن تكون قد دخلت اللغة وضربت بجذورها فيها».

إذاً حتى الكلمات، تكون لها جذور، فما بالك بتراث الأمم؟

بلى، إنني أجد في حديث الدكتور نديم نعيمة ـ رغم اختلافي معه في بعض الجزئيات ـ كثيراً من الصواب. وفي هذا المعنى، أو قريباً منه، يقول (تي. أس. أليوت):

«يجوز لنا أن نقول، أن التزام الشاعر في المقام الأول، أكبر من التزامه لأمته. إنه التزامه تجاه لغة أمته. للحفاظ عليها أولاً، وتوسيعها وإثرائها، ثانياً. إنه حين يعبّر عما يحسّ به غيره من الناس، فهو في الوقت ذاته يخلق إحساساً جديداً لا يستعصي على الإدراك (...). لكنه ليس محض إنسان أكثر حساسية من الآخرين. إنه كذلك إنسان آخر، متفرد، مختلف عن بقية الناس، ومختلف عن بقية الشعراء.

هذا هو الفارق بين الشاعر الشاذ أو المجنون، وبين الشاعر الحق. الأول يعبر عن أحاسيس تخصه وحده، ولا يمكن لأي أحد أن يشاركه فيها. لذلك فهي أحاسيس لا قيمة لها في سياق الشعر. أما الثاني فهو يكتشف ألواناً وأنماطاً جديدة من الأحاسيس، ورغم ذلك يستطيع آخرون أن يشاركوه فيها. وهو في الوقت نفسه يطور لغة قومه ويضيف إليها».

في البحث القيم الذي قدمه الدكتور نديم نعيمة في ندوة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، يقول في تفسير بيت عنترة:

وحسامٍ إذا ضربتُ به الدهر
تخلّتْ عنه القرونُ الخوالي

يقول: «لا يكتفي الناقد بالعيني في هذا البيت، فهو عيني بفارسه وحسامه الضارب، وبقرون دهره الخالية والمتخلية،، وجاهلي معنى ومبنى، كما هو في مفرداته وتركيبه وصوره وأشيائه. وجوّه العام أليف بالنسبة إلى الأذن الجاهلية وذوق عربها وطبيعة حياتهم وتصنيفهم لشعرهم بين فخر وهجاء ومديح ووصف وغزل وغير ذلك من الأغراض. أما الذي ليس عينياً ولا جاهلياً فيه، والذي هو محك الناقد وبصيرته ونفاذها، فتلك الرؤيا الخالقة التي ترتفع بالبيت بمعناه وبمبناه من محليته وتاريخيته وجاهليته، لتجعل منه رمزاً لحقيقة بدئية مطلقة. فالدهر الجاهلي، بموجب تلك الرؤية، لم يعد دهراً جاهلياً. لم يعد زمناً أو تاريخاً يُضرب ويُقتطع بسيف. ولا عاد السيف سيفاً، بل تحول الدهر إلى ذلك الحيوان أو الوحش أو الدجال البدئي القائم أبداً في جبلة الوجود منذ كان الوجود. إنه التنين الذي أبداً يبتلع (المدينة)، تنين الموت يبتلع الحياة، والباطل يقضي على الحق، والعدم يستبيح البقاء، وذلة الهرم تنيخ فروسية الشباب، وقبر الماضي الفاغر أبداً لابتلاع جثة الحاضر (...) وهكذا يستحيل الفارس البطل المتقمص ذلك التوق البدئي جرجيساً أو خضراً يضرب بسيفه التنين أو يهوي عليه برمحه فيلقي الماضي وقرونه الخوالي ويصنع الحاضر ويقهر الموت ويخلص (المدينة)».

بلى، إنني أقبل كل هذا، فبيت عنترة يحتمل كل هذا. بل هكذا

يجب أن ننظر إلى تراثنا العظيم ـ نحمّله من هموم حاضرنا وأحلامنا وآمالنا وخيباتنا، أقصى ما يمكن أن يحتمل، بل فوق ما يحتمل.

حين ننظر بهذه السعة في التخيّل والإدراك، إلى بيتي النابغة الذبياني مثلاً:

كـلـيني لـهـم يـا أمـيـمـة نـاصـب
ولـيـل أقـاسـيـه بـطـيء الـكـواكـب
تـطـاول حـتـى قـلـت لـيـس بمـنـجـلٍ
ولـيـس الـذي يـرعـى الـنـجـوم بـآيـب

نحس أن الهمّ والليل والمقاساة أسرار عظيمة، أكبر بكثير مما أحس به الشاعر في تلك اللحظة، استودعها الشاعر ضمير الكون، فدارت مع الأفلاك حتى تناهت إلينا في هذا العصر.

أي (بلوى) أحسها أبو نواس حين قال:

أديـرا عـلـيَّ الـكـأس تـنـكـشـف الـبـلْـوى
وتـلـتـذّ روحـي طـيـب رائـحـة الـدنـيـا

وحين نقرأ أبيات قيس:

كـأن فـؤادي فـي مـخـالـب طـائـر
إذا ذكـرت لـيـلـى تـشـد بـه قـبـضـا
كـأنَّ فـجـاج الأرض حـلـقـة خـاتم
عـلـيَّ فـمـا تـزداد طـولاً ولا عـرضـا

ألا نستحضر بيتيْ النابغة والحسن ابن هانىء وأبعد؟ كأن الأبيات جميعاً ألحان في سمفونية واحدة تتلو نشيداً مأساوياً للحياة والوجود؟

الشعر العربي شعر عظيم حقاً يجب على الناقد أن يطلق لخياله العنان، حين يقرؤه إلى أقصى حد ممكن، وليفعل كما فعل أبو الطيب:

شـقـقـت بـه الـظـلـمـاء أُدنـي عـنـانـه
فـيـطـغـى وأرخـيـه مـراراً فـيـلـعـب

وما العنان إلّا عنان الشعر

هذا ما رمى إليه الدكتور نديم نعيمة حين قال:

«جلاء الرؤيا في الشعر يبقى أبداً من عمل الناقد الذي لا ينظر إلى الشاعر فقط كمجرد فرد ينظم شعراً في عصر من العصور، وبموجب أنماط النظم وقواعده ومراميه المألوفة في ذلك العصر، بل كراءٍ كوني، تتخذ الرؤيا الكونية البدئية على يديه وعلى قدر صفاء الرؤية عنده، أجساداً شعرية ترتدي حلة العصر، وتنطق بلغته ولسانه. من هنا كان الشاعر الحقيقي بفضل رؤياه الكونية أبداً معاصراً، أياً كان التاريخ الذي كانت فيه ولادته».

كي يستيقظ التراث من سباته، ويصبح طاقة متجددة تؤثر في الحاضر، لا بد من وجود شعراء لا يكفّون عن قول الشعر. وفي هذا المعنى يقول (تي. أس. إليوت):

«إذا توقفت أمة ما عن إنتاج الأدب وخاصة الشعر، فإن ثقافتها سوف تتدهور بلا ريب، ولغتها سوف تتحجر، وربما تطغى عليها لغة أخرى أقوى منها (...) الأمة التي ليس لديها أدب معاصر حي متجدد، سوف تكون غريبة على أدبها الموروث. ما لم تصل حاضرها بماضيها، فسوف تبتعد عن أدبها القديم حتى يصير كأنه أدب أمة أخرى (...).

ما لم تنجب الأمة هؤلاء الأشخاص المتميزين الذين يملكون تلك الموهبة الخارقة على ابتداع الكلمات، فإن قدرتها ليس فقط على التعبير، ولكن قدرتها على الإحساس ـ إلّا الأحاسيس المبتذلة ـ سوف تضعف. الأدباء الأموات يحيون من جديد، لأنه يوجد أدباء جدد».

نعم، كذلك يحيا بيننا اليوم أبو الطيب المتنبي كأنه شاعر من عصرنا. وهو نفسه خبرنا بذلك في مثل قوله:

ولكنه طال الطريق ولم أزل
أفتّش عن هذا الكلام ويُنهبُ
فشرَّق حتى ليس للشرق مشرق
وغرَّب حتّى ليس للغرب مغرب
إذا قلته لم يمتنع من وصوله
جدار معلًّى أو خباء مُطنّبُ

٤

من الأشياء الجذّابة في الثقافة الفرنسية، أنها مولعةٌ باللعب الفكري ـ بشرط أن ندرك أنه لعب ولا نأخذه مأخذ الجدّ.

إنها ثقافة تكونت من أصول متعددة، ككل الثقافات الكبيرة، ولكن التباين في هذه الأصول، والتناقض، أكثر وضوحاً في الثقافة الفرنسية.

وربما يصح القول، إن فرنسا من بين سائر أقطار أوروبا، هي وريثة الحضارة الهّلينية، بأساطيرها وتجلياتها الفلسفية. وهي وريثة الحضارة الرومانية، بإبداعاتها الإدارية، وعبقريتها القانونية.

والكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، بحسب تاريخها، وكثرة أتباعها، لعلّها تضاهي روما في أنها معقل من أكبر معاقل التراث المسيحي.

ثم هي دولة ملكية، أكثر تاريخها كان في ظل الملوك، ولكنها صنعت أهم ثورة سياسية في العصور الحديثة. إلّا أنها لم تتخلّ عن تراثها الملكي، فصارت جمهورية كأنها ملكيّة.

وفرنسا دولة قدماها في الجنوب في عالم البحر المتوسط المضيء، ورأسها في الشمال في العالم الجرماني الداكن.

وقد هضمت فرنسا نظريات (هيجل) و(ماركس)، ولكنها لم تطبقها عملياً، فلم تحدُث ثورة ماركسية في فرنسا، رغم أن فيها حزباً شيوعياً قوياً، وتياراً يسارياً واسعاً.

وكل ذلك يقوم على أسس مادية صلبة، ودولة راسخة الجذور.

لذلك ابتدع الفكر الفرنسي مرونة هائلة للتوفيق بين هذه المتناقضات، وقدرة ليس لها نظير، على اللعب بالأفكار، دون التأثير على الأسس المتينة، التي يقوم عليها المجتمع.

وأوضح ما تجد هذا اللّعب، عند العالم السيميولوجي (رولان بارت)، أحد أحبار الحداثة. اتّسع نفوذه حتى وصل إلى عدد من الأكاديميين العرب، والنّقاد والمبدعين، الذين وجدوا في فكره وأسلوبه، إغراء لم يستطيعوا مقاومته.

لأجل ذلك، أحببت أن أعطي القارئ ـ الذي لعله لم يتعرّف إلى (رولان بارت) ـ نماذج من كتابته. ولا أشك أنه سوف يجد فيها ما يدعو إلى الدهشة والغيظ، ومن يدري، ربما المتعة أيضاً.

فيما يلي، فقرات من كتابه «لذة النّص»، الذي صدر عام ١٩٧٣:

«يُعرض عليَّ نصٌّ ما. إنه يملؤني بالملل. تستطيع أن تقول إنه يثرثر. ثرثرة النص هي رغوة اللغة التي تتكوّن من محض الحاجة إلى الكتابة. نحن هنا لا نتحدث عن الشذوذ ولكن عن الرغبة.

«كاتب هذا النص يستعمل لغة لم تُفْطَم عن الرّضاع. لغة ملحاحة، جافة خالية من العطف. كارثة صغيرة من الجمود.. فيها شهوة الرّضاع الذي لا يرتوي.. شفاهة لا حدود لها... إنك تخاطبني كي أقرأك. لكنني لا أعني لك شيئاً أكثر من هذا الخطاب.. أنا في نظرك البديل عن لا شيء. أنا، عندك، لستُ جسداً، ولا حتى جماداً.. يمكن القول أنك كتبت هذا النص بلا شهوة.. هذا نص فاقد الشهوة، لأن كل رغبة هي رغبة ميّتة حتى تشتعل فيها الشهوة».

* * *

«النص الذي تكتبه يجب أن يقنعني أنه يشتهيني. الدليل على ذلك موجود. إنه الكتابة. الكتابة هي فنُّ مزج شهوات اللغة. (كاماسُتْرا) اللغة».

* * *

«ها هنا وسيلة نقيّم بها أعمال حداثتنا. قيمتها تكمن في مراوغتها. يجب أن يُفهم من هذا أن لها دائماً حدّين. الحد المخرّب قد يبدو محظوظاً لأنه الحد الذي يأتي منه العنف إنما ليس العنف هو الذي يؤثر على اللذة. ولا التدمير هو الذي يقطع اللذة. الذي تشتهيه اللذة هو موطن الفقد. الموضع الممزّق، المقطوع، المنكمش، المرخيّ

الذي يقبض على الفحوى في منتصف النشوة. هكذا تتكرّر الثقافة بوصفها حداً. ليس في أي شكل من أشكال المادة».

* * *

«النص لا يصبح مكوَّناً من جُمَل. إنه في الغالب انفجار عنيف للكلمات. من لغة فوق اللغة.. تقويض أسس اللغة، يتقاطع مع تأكيدات سياسية. له حدٌّ سكين من الثقافة القديمة، ثقافة المغزى».

* * *

«أليس أكثر مواضع الجسد إغراءً هو موضع انحسار الثوب؟ في غير المألوف، الذي هو مجال لذة النص، لا توجد مواضع مثيرة للشهوة.. الذي يغري هو اللمحات الخاطفة للجلد بين ثنايا الثوب.. بين حدّين. هذا الإيماض هو الذي يغري. أو بالأحرى تقديم مشهد، هو في الوقت نفسه لا مشهد».

* *

«الذي يجلب لي المتعة في النص، ليس محتواه، ولا حتى بناؤه، ولكن الجروح التي أوقعها بسطحه الأملس».

* * *

«حين أقول إنني مستعد أن أحكم على النص بقدر ما يعطيني من لذة، فهذا لا يعني أنني سوف أقول (هذا نص جيد) أو (هذا نص رديء). لا أعطي جوائز. لا أنقد. النص ينتزع مني حكماً بلا وصف. أقول (هذا هو). أو أقول (هذا هو عندي). حين أقول (عندي) لا أقول ذلك بصفة شخصية أو وجودية، بل بصفة نيتْشاويّة».

* * *

«الموضوع الذي يُمسك النصّين في مجاله، ويقبض على أعنّة اللذة والنشوة هو موضوع شاذ. إنه متناقض، يعشق اللذة الموجودة في الثقافة بأسرها، وفي الوقت ذاته يعمل على هدْم الثقافة. إنه راضٍ عن انسجام ذاته، التي هي لذّتُه، وفي الوقت نفسه يطلب تدمير ذلك الانسجام. تلك هي نشوته. إنه منشق على ذاته مرتين، وشاذ مرتين».

* * *

«لذّة النص تكون حين يلاحق جسدي أفكاره الخاصة، لأن أفكار جسدي ليست هي أفكاري».

* *

«النصُ سِحْر، وهو يريد إغوائي. النص ينْصب حباله لي بوسائل عدة. وسائل من الحجُب الغامضة والمفاجآت المحيّرة.. وفي قلب النص ـ ليس وراءه ـ دائماً يوجد الآخر. الكاتب ـ الكاتب مات كمؤسسة. مركزه الاجتماعي اختفى. ترجمة حياته زالت. أصبح عاجزاً عن ادعاء الأبوة لعمله.. لكنني في النص، بطريقة ما، أشتهي المؤلف. أحتاج إلى صورته، وهي ليست تجسيداً له، أو امتداداً منه».

* * *

«النصُّ، وهو مكوّن من لغة، كيف يكون خارج اللغة؟ كيف تستغني عن لغات العالم، دون أن تلجأ إلى لغة قصوى تختزل اللغات خبراً وحساً؟ أول ما أُسمِّي، أصبح أنا أيضاً مُسَمَّىً. أتورّط بين تضارب الأسماء..

«أولاً، يمحو النص اللغة كلها التي فوق اللغة. لا يوجد وراء ما

يقوله النص صوت. ثانياً، النص يقضي كلية إلى حد التناقض، على المقومات التي تجعله نصاً. يقضي على مرجعيته اللغوية السوسيولوجية. يقضي على تصنيفه. إنه الضحك الذي لا يضحكنا، والسخرية التي لا تجرحنا. إنه الفرح الذي لا روح فيه، ولا حيرة.. هذه الحالة العجيبة، تصير حينئذٍ هي اللغة، وليس أية لغة».

* * *

هذا، وأود أن أنوّه، أنني ترجمت هذه الفقرات عن ترجمة إنجليزية دقيقة، بطريقة تكاد تكون حرفية، حتى لا يتّهمني حواريّو هذا العلاّمة الحبر، أنني أتحامل على أستاذهم. ولا بد أنه كان حبراً، فقد كان حتى وفاته، أستاذاً في المعهد العتيد (الكوليج دي فرانس).

ماذا يريد أن يقول؟ وماذا تصنع مع كاتب لا يطلب منك أن تفهمه، فهو يخبرك أنه ضد (ثقافة المغزى)؟

لعل الأمر لا يعدو أن يكون لعباً في لعب، أو كما وصف (ضحكاً لا يُضحك، وسخرية لا تجرح، وفرحاً لا روح فيه ولا حيرة).

٥

هذا العام، ثبتت الجنادرية في المكان، كما ثبتت من قبل في الزمان، في السنوات العشر الماضية، كان الافتتاح يجري في فضاء رحب. توجد منصة يشهد منها المدعوون سباق الهجن وعروض الفرق الشعبية التي تمثل تنوع الحياة في هذا القطر الشاسع.

لعل ذلك الأفق المفتوح كان أشبه بأسواق الشعر والأدب في جزيرة العرب في سالف الأيام، كما كان في عكاظ والمربد. لكن الطبيعة في هذا الفصل، لم تكن تتفق دائماً مع رغبات منظمي المهرجان، فتعصف الريح، ويهطل المطر، فلا يكاد المرء يسمع خُطب الخطباء، وشعر الشعراء، وغناء المغنّين.

لذلك، كان من حسن التوفيق، أننا وجدنا هذا العام، أنهم شادوا بناء حديثاً واسعاً، فيه شيء من طابع المسرح، ويوحي أيضاً بجو

الـ Forum ـ السوق الروماني القديم. وقد كانت أسواق الرومان وكذلك العرب، أشبه بالمسارح.

يوجد مدرج في الوسط لرجال الدولة والمدعوين، وعلى يمينه ويساره، مدرّجان للجمهور. وفي الوسط تحت أنظار الجمهور، باحة مستديرة، Arena ـ كما كان الرومان يسمونها. ووراء هذه الباحة شيّد بناء على هيئة قلعة، نُصبت أعلاها شاشة عريضة. الشاشة والقلعة، سوف تؤديان دوراً مهماً في العرض المسرحي، الذي قُدّم فيما بعد.

تمّت مراسم الاحتفال في حضور الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد، بالإنابة عن الملك فهد خادم الحرمين الشريفين. حين دخلنا، كان المطر يهطل بغزارة، وظل كذلك طيلة يومين متتاليين، وفاحت أرض نجد بذلك المطر العجيب، الذي تتنفسه الأرض مع هطول المطر.

خطب الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري النائب المساعد للحرس الوطني ببلاغته التي عُرفت عنه، فأشاد بدور الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله في توحيد جزيرة العرب، ولمّ شمل قبائلها، وتأسيس دولة قوية. وقد أهاب بالعرب أجمعين نبذ الخلاف والفرقة، وجمع كلمتهم لمواجهة الأخطار والتحديات في الحاضر والمستقبل. ومما جاء في كلمته قوله:

«خير ما نفتتح به هذه الكلمة الشكر للّه ثم لخادم الحرمين الشريفين ولسموّكم ولي العهد الأمين، على الرعاية الكريمة لهذه المؤسسة التي تهتم بالتراث في عصر منصرف تماماً عن كل ما هو ماض وتراث.

نفعل ذلك ونحن مخلصون للّه ولدينه ثم لأمن هذا البلد واستقراره في ظل قائدنا الأعلى. نعيش في قلب الأحداث يقظين غير غافلين، ألزمنا أنفسنا بذلك إيماناً منا بتراثنا الإنساني، الأصيل، رافضين كل فكر معادٍ لديننا وتراثنا. فمكاننا الوسط من هذا العالم، أرضاً وسماءً وبحاراً، أكرمه الله سبحانه بآخر الرسالات، فأمنت كل الديانات في ظل سماحة هذه الرسالة.. كان ذلك لمّا كنا أمة واحدة، لم تبددها الخلافات ولم تظهر عليها أعراض الإعياء، ويحاول الدخلاء والأشرار الإجهاز عليها في التاريخ..».

في مساء اليوم الثاني، افتتح الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز، الرئيس العام لرعاية الشباب، ونائب الرئيس الأعلى للمهرجان، الأمير بدر بن عبد العزيز ـ افتتح النشاط الثقافي في قاعة الملك فيصل. كانت كلمته التي ألقاها في تلك المناسبة عميقة الدلالات، بليغة العبارات أكدت وعي الدولة السعودية لدورها الحضاري في محيط الأسرة العربية والعالمية، وأنها عقدت العزم على أن تمضي قدماً في النهوض بهذا الدور. وقد ألقى الأستاذ بلال الحسن كلمته باسم الكتّاب والمفكّرين والشعراء والمدعويين. وكان واسطة عقدهم بلا شك هذا العام، الشاعر الضخم، محمد مهدي الجواهري.

هذا، وقد شدّ انتباهي منذ البداية قول الأمير فيصل في مطلع خطابه، أن التطوير يكون مع الشهامة، والحضارة تمتزج بالنّخوة. وكلمة (شهامة)، وكلمة (نخوة)، كلمتان نبعتا في عمق وجدان اللغة العربية، ولا يكاد يوجد لهما مرادف في اللغات الأخرى. قال الأمير:

«.. ومنذ ذلك العهد المضيء المشرق، وأبناء عبد العزيز يرحمه الله،

ينطلقون صوب المجد.. عظيماً إثر عظيم.. دون أن تسقط عن كاهل الأمة عباءة الدين، ودون أن ينزلق عن الهامات رداء الخلق العربي الأصيل.. لتمتزج الشهامة بالتطوير.. فتمازجت الحضارة بالنخوة، ودانت أدق تفاصيل التقنية الحديثة للأصالة دون نفور أو قصور».

٦

في الكلمة التي افتتح بها النشاط الثقافي لمهرجان الجنادرية العاشر، قال الأمير فيصل بن فهد، أن التطور في المملكة العربية السعودية يقوم على الشهامة، والحضارة تعتمد على النخوة، وأن الدولة السعودية في مسيرتها لم تخلع عنها رداء الخُلُق العربي الأصيل، وأضاف:

«فهذه الرياض اليوم عاصمة عصرية، ولكنها عربية.. ومدينة عالمية، ولكنها إسلامية. لم تستطع كل موجات التطور أن تحيد بها عن طريق الأصالة، ولم تتمكن كل إبهارات العصر أن تخطف أبصار ساكنيها عن أنوار الحق والهدى، فظلّت وستبقى بحول الله مثل كل شقيقاتها السعوديات، معقلاً لأصالة العرب، وقلعة صامدة تحمي بعون الله مُثُل ومبادىء الإسلام العظيم».

هذه الأفكار، كانت محور خطاب الأمير فيصل اللافت للنظر، أمام

جموع المفكرين والعلماء والكتّاب والشعراء، من السعوديين والمدعوين من خارج المملكة. ولم تَفد الندوات التي جاءت فيما بعد، أنها توسعت في هذه الأفكار التي تضمنها خطاب الأمير، وقلّبتها على وجوه عدة.

كيف تدخُل الشهامة في نسيج التقدُّم؟ وكيف تُبنى الحضارة على النخوة؟ وكيف يأخذ الإنسان العربي والإنسان المسلم بأسباب العلوم والتقنيات المستحدثة في هذا العصر، دون أن يُضيِّع أصالته ومقوّمات ذاتيته؟

واضح أنها مُعضلات كبرى، وخيارات صعبة، وخصوصاً أن تيارات قوية مضادة، تموج حول هذه القيم، لا يهمُّها إن هي قضت عليها.

وليس من المبالغة القول، أن الأمير فيصل أعرب في خطابه، عن فلسفة في الحكم وفي السياسة على ضوء التجربة السعودية، إنْ لم تكن جديدة كل الجدة، فقد اكتسبت معنى الطّرافة والجدّة، من ملابسات الأحوال والظروف، التي تعْتور الإنسان العربي والإنسان المسلم في هذا الزمان.

النخوة والشهامة والأصالة، هذه كلمات لن تجدها في أسفار القانون الدولي والعلوم السياسية، التي تُدرس في جامعات أوروبا وأمريكا، بل في أغلب الظن في الجامعات العربية أيضاً.

منذ أن كتب المؤرخ اليوناني (ثيوسايديدس) في القرن الخامس قبل الميلاد، قصة الحروب الـ (بلوبونيسية)، وظهور أثينا كدولة مسيطرة

على العالم الهليني، ومنذ أن كتب المؤرخ الروماني (تاستس) في القرن الأول بعد الميلاد، تاريخ روما الأمبراطوري، ظل فن السياسة والحكم في أوروبا، يستند إلى مبدأين: القوة الصُراح، والمصلحة الذاتية المحض.

في صراع البقاء ـ وهو صراع لا يقلُّ شراسة عن صراع النّاب والمخلب ـ يتبع الحاكم في الداخل، الطرق كلها التي تمكنه من الاستمرار مهما كانت ملتوية. وفي علاقات الدولة مع الدول الأخرى، يجوز للدولة أن تستغل الأسلحة كلها، التي تتيح لها الغلبة. لا توجد أخلاق، ولا شهامة، ولا نخوة. وقد عبّر المؤرخ اليوناني (ثيوسايديدس) أوضح تعبير عن ذلك، على لسان الزعيم الأثيني (كليون):

«ليكن واضحاً لأهل (ماتيلينْيا) أنه لا أمل لهم على الإطلاق في أن نغض الطرف عنهم، بحجة أن ارتكاب الخطأ شيء طبيعي في البشر... إذا أحسسنا بالشفقة تجاههم... إذا سحرتنا توسلاتهم... إذا أطلقنا العنان لنوازع الرحمة والعطف... هذه أمور تتعارض تعارضاً كلياً مع المصالح الذاتية لدولة إمبريالية».

الحضارة العربية الإسلامية قامت على قيم مغايرة تماماً ـ حتى وإنْ لم يتمسك بها المسلمون دائماً. ومعلوم أن العرب حتى في الجاهلية كانوا يقدّسون صفات الكرم والشرف ومكارم الأخلاق. تجد ذلك واضحاً في شعر الفحول من شعرائهم، وسلوك سراتهم وأشرافهم، وحسبك قول الشاعر الأزدي:

لا أدفع إبن العمّ يمشي على شفا
وإنْ بلغتني من أذاه الجنادع

ولكن أواسيه وأَنسى ذنوبَه
لتُرجعَه يوماً إليَّ الرواجعُ

وقد صرّح الفنْد الزمانيُّ الحنفيّ، عن عواطف مغايرة تماماً لعواطف الزعيم الأثيني، في قوله:

صفحنا عن بني ذُهْل
وقلنا القومُ إخوانُ
عسى الأيام أن يُرجعن
قوماً كالذي كانوا
فلما صرّح الشر
فأمسى وهو عُريانُ
ولم يبْقَ سوى العُدوان
دنّاهم كما دانوا

ثم جاء الإسلام الحنيف بحجته البيضاء، وشريعته السمحاء، فكرّس تلك القيم، وارتفع بمكارم الأخلاق إلى أقصى غايات السمو.

بتلك الأخلاق الرفيعة، تحلّى المسلمون حتى في سلوكهم مع أعدائهم، فلم يحدث في التاريخ إلى اليوم، أنّ أمّة غالبةً، ضربت المغلوبين عهداً. كالذي ضربه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لأهل بيت المقدس.

بلى، يمكن أن تُبنى الحضارة كما قال الأمير فيصل بن فهد، على قيم الشهامة والنخوة ومكارم الأخلاق. حينئذٍ فقط تكون حضارة بحق. ويمكن أن تقوم العلاقات مع الدول، ليس على محض المصلحة الذاتية، ولكن على أساس صلة الرحم مع الأقربين،

والسّماحة والفضل، حتى مع الأبعدين، وليس ذلك من الضعف في شيء.

بهذا يكون العرب والمسلمون قد أضافوا بوحي من عقيدتهم السمحاء معنى جديداً حقيقة إلى مفاهيم السياسة الدولية، وهي مفاهيم كئيبة بائسة.

هذا وقد قال الأمير فيصل في خطابه أيضاً:

«إن السياج الحقيقي الذي يمنع اختراق وغزو الشخصية العربية المسلمة، هو البناء الروحي والخلقي القوي لأنسجة الفكر وأوعية الضمير، وتسليح جدران القلب في توازن مثالي بين العقيدة ومتطلبات حياتنا اليوم، لتشكل جميعها بناء صلباً تتحطم أمام متانته كل محاولات الغزو وحملات التأثير السلبي...».

■ ■ ■

كلمة المفكر الفلسطيني البارز الأستاذ بلال الحسن، كانت امتداداً لكلمة الأمير فيصل بن فهد، وبعض فقراتها كانت كأنها أصداء مباشرة للأفكار التي عبّر عنها الأمير فيصل. ذلك أن الهم الذي انطلقت منه الكلمتان، همٌّ واحد. وهو همٌّ أخذت الأمة العربية تحسّ به إحساساً يزداد إلحاحاً، كما يبدو على ألسنة بعض قادتها وبعض مفكّريها.

ما هي الأمة العربية؟ وما هو وزنها؟ وما هو دورها؟ وكأنما العرب ـ والمسلمون بطبيعة الحال ـ بدأوا يدركون، أنهم لم يدخلوا بثقلهم

الهائل، في خضم الصراع الحضاري الذي يمور بهم وحولهم. وأنهم لم يعرضوا أفكارهم كما ينبغي في سوق الأفكار الواسعة المفتوحة في العالم.

ظلوا ـ إلى حد كبير ـ في موقف المتلقّي، الذي يأخذ ولا يعطي، ويشتري ولا يبيع. هذا، مع العلم أنهم ليسوا فقراء، إن هم حملوا بضاعتهم إلى السوق.

بعد خطبة قصيرة من الدكتور عبد الرحمن السبيت الوكيل المساعد في الحرس الوطني، والمشرف على تنظيم المهرجان، رحب فيها بالمشاركين، تحدث الأستاذ بلال الحسن نيابة عن المدعوين، فنوّه بأهمية مهرجان الجنادرية كونه إنجازاً ثقافياً سعودياً يتميّز بصفة الاستمرار، ثم قال:

«إن للسعودية دوراً قيادياً في العالم العربي، يظهر بارزاً في كثير من المجالات. وهي تمارسه في كثير من الأحيان بتكتم وتواضع، أصبح سمة من سمات أدائها (...) وهذا خلق جميل لا نستطيع إلّا أن نعجب به. ولكننا سنطالبكم بالخروج ولو قليلاً عن هذه القاعدة، آملين أن نتوجه بكم ومعكم نحو مرحلة أخرى من المواجهة الثقافية، وهي مواجهة تتطلبها التغيرات الكبيرة التي تحصل من حولنا (...) بحيث نحتاج أكثر ما نحتاج إلى ذهن متحفّز، يستقبل ويرحّب، ويكون في الوقت نفسه جاهزاً للعراك».

لم يذكر الأمير فيصل بن فهد في خطابه كلمة (المواجهة) أو (العراك)، فهما كلمتان لا تنسجمان مع الرصانة المعهودة في العمل السعودي، ومع ذلك، فإن روح (التحصُّن) و(المرابطة) و(الاستعداد)

لم تكن غائبة عن ذهن الأمير، كما يتضح في هذه الفقرة من خطابه:

«... إن عقيدتنا التي تفرض علينا التسامح والتفاعل مع العالم بقلوب مفتوحة ونفوس مطمئنة، لا تحب لنا ولا ترضى أن نكون لقمة سائغة أو كتلة هادئة أو حزباً خاملاً تسبى أمام عينيه مواريثه وتسلب معتقداته وتنهب».

نسمع صدى هذه الكلمات القوية في هذه الفقرة من كلمة الأستاذ بلال الحسن:

«... ولهذا فإن تقبل ما هو إيجابي في النظام العالمي الجديد، يجب أن يترافق مع هذا الاستعداد لعراك ثقافي يدافع عن تراثنا الثقافي ويحميه، ويحاول أن يهزم هذا النوع من النزعات التي تريد تحويل التفاعل الثقافي بين الحضارات إلى معارك تتردد في جنباتها كلمات الانتصار والهزيمة والتدمير، بدلاً من كلمات الإبداع والتفاعل والتطوير».

هذا وبينما نوّه الأمير فيصل بن فهد في كلمته بالتنوع الثقافي العربي وحبّذ وجود استراتيجية عربية موحدة في قوله:

«وعقْد المهرجان الوطني للتراث والثقافة ينتظم من جديد في لقائنا هذا ليزيده بحول الله توهجاً لينعكس تفاعلاً فاعلاً ومؤثراً بين المدارس الفكرية المتنوعة على صعيد العرب أجمعين، ولينسج للأجيال العربية ثقافة عربية واستراتيجية عربية واحدة بألوان طيف متعددة، تزيد ملامح الصورة روعة وبهاء»

نجد الأستاذ بلال الحسن يقول، وكأنه يؤمّن على قول الأمير فيصل ويؤكده:

«لقد مضى العهد الذي كان فيه العمل الثقافي جهد فرد واحد... ثمة حاجة إلى مؤسسة وإلى مؤسسات تخطط للعمل الثقافي وترعاه. المؤسسة هي المؤهلة أكثر من غيرها إلى ضمان الاستمرارية وإلى تحويل هذه الاستمرارية إلى تراكم، وإلى استقطاب كفاءات الثقافة وتنوعاتها من أجل حفر المجرى الثقافي الكبير وتطوير ثقافات العالم العربي والعالم الإسلامي، لمواجهة المخاطر من جهة وللإسهام في منجزات الحضارة من جهة أخرى».

هذا هو مربط الفرس في كلمة الأستاذ بلال الحسن. وقد عبّر عن ذلك صراحة حين دعا إلى «إنشاء مؤسسة الجنادرية للأبحاث الفكرية».

ذلكم دعاء حريٌّ أن يستجيب له كل الحادبين على تراث الأمة العربية الإسلامية وثقلها الحضاري. ولعل الآراء تتنوع في شكل هذه المؤسسة ـ أو المؤسسات ـ وبرامجها وطرق تمويلها وإدارتها. وقد يقول قائل إن المؤسسة العربية الموحدة موجودة بالفعل، ألا وهي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأن تلك المنظمة قد وضعت منذ نحو عشر سنوات استراتيجية شاملة للعمل الثقافي في الداخل والخارج، فماذا حدث للاستراتيجية، وماذا حدث للمنظمة؟

مهما يكن الأمر، فلا جدال أن الجهد الثقافي الواجب على العرب أن ينهضوا به، يتطلب عملاً طويلاً ضخماً بوسائل متنوعة لعلهم يجدون حينئذٍ، أن كثيراً مما يستعصي عليهم إنجازه، بواسطة

السياسة وغيرها، سوف يسهل تحقيقه، بواسطة الفن والفكر والإبداع والثقافة. ولعلهم أثناء ذلك يجدون أيضاً ما تبدد من شتات أنفسهم!

٧

لقيته أول مرة منذ ثلاث سنوات، أو لعلها أربع، هذا الإنسان الحلو الشمائل، العالِم البحر، المحقق الثبت. وتلك من فوائد مهرجان الجنادرية أيضاً، أنك تتعرف أناساً لم تكن تعرفهم، وتجدد صلتك بأناس عرفتهم من قبل.

دعاني للغداء يومئذٍ بصحبة الدكتور محمد إبراهيم الشوش، وهو محبّ، لا يزال يلهج بذكره. والشوش إنسان صادق الأخوة، غزير العلم، وقّاد الذهن وقد قضى ردحاً عند الإنجليز في جامعة لندن. لكنه لم يتعلم منهم دقة المواعيد وحسن التنظيم، فظل فيه ميل إلى الفوضى. مثل حصان امرئ القيس «مقبل مدبر معاً».

ليس ذلك من قبيل المبالغة، فأنا لا أعرف أحداً غيره، يتحرك في اتجاهين عكسيين في آن واحد ـ إلى الأمام وإلى الوراء، وذات

اليمين وذات اليسار ـ يدور حول نفسه، ويذكر الشيء وينساه في عين اللحظة. لعل ذلك من أعراض عبقريته وهو دون شك، من مقومات جاذبيته التي يحسها كل من يتصل به.

أخبرني بدعوة أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري وما كنت قد رأيته من قبل، ولكنني سمعت عنه وقرأت له فكنت أتطلع إلى معرفته. وأكد عليَّ أن أنتظره في النزل، الساعة الواحدة ضبطاً، وظللت أنتظر حتى جاء الشوش بعد الرابعة.

يا أخي، ما هذا وقت غداء، ولا بد أن الرجل يئس من مجيئنا. لكنه كعادته هوّن الأمر، فانطلقنا لا نلوي، فضللنا الطريق، كما يحدث عادة مع الشوش.

بدا لي المكان بعيداً. تركنا المدينة بمبانيها العالية وشوارعها الواسعة المزدحمة، وأوغلنا في أحياء منقطعة وسط زراعات ونخيل كأنها بقية من مدينة أخرى. وبعض بيوت الطين ـ النخل وبيوت الطين ذكّرتني بقرى شمال السودان، حيث طاردنا أفراس الصّبى، وشربنا لبن البقر غريضاً وأكلنا التمر (البركاوي) رطباً، فظل المذاق عالقاً بأرواحنا، يفسد علينا طعم الحياة بعد ذلك في بلاد الله على اتساعها. لأجل ذلك قالت الفتاة:

«... لا شبع لك من بعدي ولا ري ولا شفيع ولا نجي. فاضرب حيث شئت، وتزود إن استطعت واطلب النجاء. إلى أن تلقاني فأعطيك المنّ والسلوى».

هكذا حرّكتني بيوت الطين وزرائب النخيل، فألهتني وهلة عن

الحرج الذي خامرني وأنا ذاهب مع ابن عمي ذلك الفوضوي، إلى غداء مثل العشاء عند أبي عبد الرحمن.

كذلك نحن، أبناء عمومة، من الركابيين آل غلام الله بن عائذ، الشريف الذي هاجر إلى السودان عن طريق اليمن، في نحو القرن الخامس عشر للميلاد، كما روى ابن ضيف الله في طبقاته.

قلت للشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري مازحاً ذات مرة وهو يعابثني عن عروبة السودانيين ـ والشيخ في حقيقة أمره محب للسودانيين:
«هل تدري أنني شريف حسيني؟».

ضحك الشيخ، ولعله لم يصدق وحقّ له ذلك. ولا أعلم إن كان الأمر كما قال ابن ضيف الله، وزعم أجدادنا. إنما التاريخ يحدثنا أن بني هاشم كانت فيهم أدمة، أي سواد، لذلك قال ابن الرومي يدافع عنهم:

وعيّرتموهم بالسوّاد ولم يزل
مِن العرب الأقحاح أسود أدْعجُ

ولما ساروا إلى تلك الفجاج، اختلطوا وبقية القبائل من جهينة وكنانة وسليم والأوس والخزرج وما شئت، بالدماء المستوطنة من النوبة والزنج، فأضافوا أدْمة على أدمة.

وكل ذلك ما نفعه؟ وما أهميته؟
الأمر كما قال (الأستاذ):

وإنمـــا يـــذكـــرُ الجدود لـــهـــم
مـــن نـــفـــروه وانـــفـــدوا حِـــيَـــلـــهْ

لا شيء، اللهم إلّا لأننا كنا ذاهبين للقاء فتى ظاهري شريف من بني عقيل، فقلنا نتلفّع بعباءة آل البيت. ويا أكرمها الله من عباءة وسعت من قبل سلمان الفارسي!

وعقيل، كما لا يخفى، هم قوم صاحبة شيخنا أبي العلاء:

تجــلُّ عــن الــرهْــط الأمــائــيّ غــادةٌ
لــهــا من عــقــيــلٍ فــي ممــالــكــهــا رهْــطُ

هذا، وقد وجدنا دارةً أليفه ـ لا أقول أنيقة ـ حببني فيها من أول وهلة، أنها كانت تنبيءُ عن زُهد صاحبها، تتأرجح بين اليسار وشظف العيش. وربما كان في الفناء نخلة أو نخلتان. دارٌ كأنها مفتوحة دائماً، لم تُعدّ خصيصاً لاستقبال ضيوف في يومها ذاك. عامرة مأهولة، فيها ناس وأطفال وصبية يدخلون ويخرجون.

تدخلها، فكأنك أحد سكانها، خرجت ثم عدت. وصاحب الدار، أبو عبد الرحمن سمح الوجه، حييُّ السّمت، صوتُه الودود فيه من بداوة نجد ورقّة الحجاز.

■ ■ ■

عزّاني بعض العزاء، أن الأستاذ حمد القاضي، صَفيّ أبي عبد الرحمن بن عقيل، ترك لي كتابه الأخير «شيء من التباريح» في

النُّزل. كان يودّ أن نذهب معاً لزيارته، فكنت أتصل به فلا أجده، ويتصل بي فلا يجدني، إلى أن انقضت أيام مهرجان الجنادرية، فسافرت ولم أسعد بلقاء ذلك الإنسان الكريم.

بعد ذلك اللقاء الأول، كنت أُلِمُّ به في الرياض من وقت إلى آخر، ثم لما جاء إلى لندن بدعوة من السفير غازي القصيبي، فتحدث حديثاً طلياً جذاباً كعادته، عن أحوال العشق عند شيخه ابن حزم، وكنت أيام عملي في (الدوحة) أتابع برنامجه (تفسير التفاسير) من إذاعة القرآن الكريم من مكة المكرمة، أخرجُ في مهمّات وأرجع، وأسافر في إجازات وأعود، إلى أن تركت (الدوحة)، وهو ما يزال في تفسير (بسم الله الرحمن االرحيم).

ذكّرني في تبحّره واستطراده وعمقه، بأستاذنا الدكتور عبد الله الطيّب، ظل يفسّر القرآن الكريم من إذاعة أم درمان قرابة عشر سنوات، وبالعالِم المغربي الجليل المرحوم الشيخ المكّي الناصري، في بلاغة تفسيره وعذوبَة حديثه.

وهذا الكتاب الجميل «شيء من التباريح» بعض فيوض أبي عبد الرحمن. يبدؤه، وهو جاد كالمازح، بالشكوى من كثرة الرعيّة ـ يقصد العيال ـ وألم القولون، وأن «نقيع الشيب علا ثغرة الميلاد». ولعل كل ذلك يهون، حاشا وجع القولون الذي يصفه بقوله:

«وتحمّلت أعباء القولون لكثرة همومي، فكثرةُ لهموم قدَرُ من كثُرت رعيّته. ولكثرة مشاغلي وكثرةُ المشاغل قدرُ طُويْلب علم يريد أن يعرف كل شيء ويريد أن يكتب عن كل ما عرف. فعندما أعجز عن تحمّل مسؤوليتي العلمية، يحدث لي تأزُّم نفسي وأعباء قولون

جسمية. وكثيراً ما يتبع ذلك روائع أدبية تُكتب بماء الدموع».

الروائع الأدبية ـ لسوء الحظ ـ لا تتأتّى إلّا مصحوبة بأزمات نفسية وأعباء جسدية. وبعض هؤلاء الموهوبين، يصابون بما هو أفدح من وجع القولون. ولو شاء أبو عبد الرحمن، لسأل صديقه فهد الحارثي، فهو بذلك عليم، عن أوجاع (رامبو) و(بودلير) و(بروست). إذاً لهان عليه ما يلقى، ولحمد الله أن الأمر لم يتجاوز وجع القولون، رغم أنه ممضّ، لا شك.

يحدّثنا أبو عبد الرحمن، أن الحارثي كان جاره في «في شويْرع متفرّع عن أم سليم قرب بيتْ شلهوب وابن خميس في حدود ١٣٨٥هـ».

ثم فرّق بينهما أن العرابي الحارثي سافر إلى فرنسا، وقرأ في (السوربون)، وعاد يحمل شهادة الدكتوراه. يقول أبو عبد الرحمن: «فانكسر خاطري، وقلت في نفسي:
«حسبي الله على باريس وسنتريس والسوربون وأركون.. فكلّ أولئك صرفوا العرابي عن محاورتي..»».

لماذا سنتريس؟ ربما لأن (الدكاترة) زكي مبارك رحمه الله، وهو من سنتريس في الدلتا ـ إذا لم تخنّي الذاكرة ـ هو الآخر قرأ في السوربون.

لقد سهرت مع فهد الحارثي في دار صديقنا العزيز منصور الحازمي أثناء مهرجان الجنادرية، فما سمعته ينطق بكلمة فرنسية أو يذكر كاتباً أو شاعراً فرنسياً ـ مخافة التظاهر والادعاء. وكان كما عرفناه دائماً، بسيطاً متواضعاً.

تلك إذاً من معابثات أبي عبد الرحمن، فقد عاد في كتابه وأطنب في الثناء على العرابي الحارثي، وأسف أنه تخلّى عن رئاسة تحرير مجلة (اليمامة)، وقال إنه قفز بها قفزات كبيرة.

هذا، وقد عجبت غير قليل، أن أبا عبد الرحمن، رغم ما تعلم من حسّه المرهف، وذوقه الرفيع للشعر، وطبعه السمح، وإدراكه أن الروائع الأدبية تُكتب بماء الدموع ـ رغم ذلك لم يحْفَل بأحد عباقرة الشعر العربي، بل الشعر الإنساني، فقال:

«وإنما أضع هذه المهاتفة عن شيخ الفُسّاق الحسن بن هاني الحكمي بمقالة تشبه حلّ المنظوم ليعلم الناس أن مثل ذلك الشعر محرّم بإجماع، وقد يكون منه لَمَم، لننطلقَ بعد ذلك في تبيان الأحكام على بصيرة..».

كان الرجل ـ غفر الله له ـ عبقرياً لا شك في عبقريته. وحسابه على الله. لم يسمع أبو عبد الرحمن ـ وهو عادة مرهف السمع ذكي الفؤاد ـ لصوت الشاعر الجريح وهو يعرب عن محنته. قال الحسن بن هانيء، رحمه الله:

إذا شـــاقـــك نـــاقـــوسٌ
وشـــجـــوُ الـــنـــاي، والـــعـــودُ
وغـــوديـــت بـــريـــقِ الـــكـــرْم
مـــجّـــتْـــه الـــعـــنـــاقـــيـــدُ
تـــطـــرّبـــتَ إلـــى الألـــف
فـــقـــالـــوا: أنـــت عـــربـــيـــدُ
وهـــل عـــربـــد مـــكـــروبٌ
قـــريـــحُ الـــقـــلـــب مـــعـــمـــودُ؟

إنه «قريحُ القلب معمود»، لأنه قاسى «همّاً كوْنيّاً»، هو الذي عناه بقوله:

أديرا عليَّ الكأس تنكشف البلْوى..

وما «البلوى» إلّا الهمّ الوجودي، الذي عاناه الشعراء منذ امرئ القيس والنابغة، وأحسّ وطأته أكثر، فلتة الزمان أبو الطيب. هو أيضاً كان متهماً فهلّا فعل صديقنا العقيليّ الظاهري، كما فعل الحبر ابن عباس، حين أصغى لـ (ماجن) آخر ـ على زعمهم ـ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟

حدّثنا الرواة، أن عمر بن أبي ربيعة قال قُبيْل وفاته، أنه لم يجترح شيئاً من المجون الذي ذكره في شعره. وكذلك قال الحسن بن هانىء. فهل نعتبر الشعر وثيقة اتهام ضد الشاعر؟ أم نعجب بعبقرية الفن، ونتوسّل برحمة الله الواسعة، لأنفسنا وللشاعر؟

■ ■ ■

في كتاب أبي عبد الرحمن بن عقيل «شيء من التباريح» قصتان ركيزتان، تتفرع منهما قصص عدة. قصته مع أصدقائه، وقصته مع كتبه.

الله سبحانه وتعالى، وقد قسَم له ـ كما يصف لنا ـ أوجاع الجسد، وكدّ الكسْب للقيلة؟ ومكابدة طلب العلم وتبليغه، أنعم عليه تعويضاً له، بأخوان صدق، على شاكلة (شمس بن مالك)، كلهم أبلجُ أغرّ، يحمل الكلَّ ويعين على نوائب الدهر.

منهم حمد القاضي، رئيس تحرير المجلة العربية. وهذا على حُبه لأبي عبد الرحمن، انقلب عوناً للدهر عليه، كما ظن الظاهري، بعد أن كان عوناً له على الدهر، وذلك أن القاضي أفسح له المجال أن يكتب تباريحه في المجلة، فمضى قدماً حتى صارت الزاوية كما يصف «ملكي، فقد أحييتها إحياء شرعياً، وعرف القاصي والداني حدودها وأبعادها».

لكن أبا عبد الرحمن لم يستطع أن يفي بالتزاماته، وتعب أبو عبد الله حمد القاضي من ملاحقته، ولم يجد بداً من أن يكتب له بنبأ إيقافه، في رسالة اعترف أبو عبد الرحمن نفسه أنها كانت «باكية... لتبريد بعض الأسى».

هذا، وقد برّر حمد القاضي قراره، بأن له أسوة في وزارة الزراعة التي «عندما تمنح إنساناً أرضاً زراعية ثم لا يحييها صاحبها، أو يحييها ثم يهجرها، فإنها ـ كما نسمع ـ تأخذها منه وتمنحها لغيره».

لا أحسب ذلك إلّا أنه عدلٌ في المذاهب كلها، ولا أعلم ما هو الحكم عند الظاهريين، لأن ابن عقيل اعتبره قراراً تعسفياً، وتجميداً لتباريحه، كقولك أن حمد القاضي جمّد الدموع في مآقي أبي عبد الرحمن!

يشرح حمد القاضي، كم عانى في ملاحقته ابن عقيل، في (مقامة) جميله، يُحمد للظاهري أنه أثبتها في كتابه. يقول أبو عبد الله حمد القاضي:

«إن أبا عبد الله الورّاق ما بعث بتلك الوريقة التي أدخلها أبو عبد

الرحمن التاريخ، إلّا بعد أن تعب هو، ونصب زملاؤه في المجلة العربية من كثرة الملاحقة التي كادت تصل إلى المطاردة، فمن هاتف بالليل إلى هاتف بالنهار، ومن دار إلى دار. فعندما نتصل في دارتك دارة داءود الظاهر كما سميتها في حي سلطانة المحروس، يجيئنا الرد أنك قد ذهبت إلى دارتك دارة ابن حزم الظاهري بحي الملز المعمور.

وكنا عندما نتصل بك بالشتاء تقول: هذا أوان القرّ والصر. وإن اتصلنا بك بالصيف قلت: هذه حمّارة القيظ. وعندما نلحف بالسؤال يجيئنا الجواب أن الشيخ وفّقه الله بالمسجد يصلي ويسجد. وآونة في دار الإذاعة يسجل التفسير بأسلوبه المميز البصير».

لا ينكر أبو عبد الرحمن أياً من ذلك، ويراه حُجة له لا عليه. ويخبرنا أنه يومذاك، كان يعمل مديراً للإدارة القانونية بوزارة الشؤون البلدية والقروية، ومحاضراً بجامعة الملك سعود، ومعهد الإدارة العامة، ويقدم برنامجه (تفسير التفاسير) من الإذاعة، ويعقد حلقات للدرس في المسجد، وأخرى في الدار، ويكتب في أكثر من صحيفة.

هكذا نرى أننا إزاء رجل أريحيّ، قسّم جسمه في جسوم كثيرة. ولو أن الزمان أرخى له العنان ـ وكان أحرى به أن يفعل ـ لعلّه كان يصنع صنيع أبي عُبادة، يوماً بالشام، ويوماً بالعراق، ويوماً بنجد، ويوماً بالحجاز، لا همّ له إلّا أن يحدو قوافل القوافي ويستنطق الديار. إذاً لرأينا عجباً من أبي عبد الرحمن.

أما رحاله كما وصف، فلا غرو أنه لقي رَهقاً أيّ رهق، وهاجت عليه أوجاع القولون وقصّر في عهده لأبي عبد الله القاضي.

تلك الواقعة، أثارت ثائرة عدد من أصدقاء الظاهري، وهم كثر، رغم أنه يزعم أنه «كثير الرعية إلّا من المعاون». وأول من دخل الحومة محامياً عن حياض أبي عبد الرحمن الفارس المعلم أبو سهيل، غازي القصيبي، فأرسل إلى صاحب المجلة العربية قصيدة كل بيت فيها، كأنه نابلٌ من بُحْتُر، من الذين وصفهم الشيخ التنوخي، استهلها بقوله:

يا ابن القضاة الميامين الجحاجيح
من كلّ شهم كريم الأصل ممدوح
أما رفقت بشيخ شاعر فطن
جمّ المواهب ذي دين وتسبيح

إلى أن يقول:

أما علمت حماك الله أن له
عذراً ويكفيك تعريضٌ كتصريح
زُغب الحواصل والدنيا وسلسلةٌ
من الهموم انفراطاً كالمسابيح
تبغي الكتابة في ميعادها عجلاً
إن الكتابة أنثى ذات تبريح
لها مزاجٌ غريبٌ في تقلّبه
فهل رأيت مزاج الماء والرّيح

ثم يدخل الساحة، فارسٌ «كره الكُماةُ نزاله» من الذين يُبدون نواجذهم لغير تبسم، اسمه سعد العوفي يبدأ غاضباً:

أيلغي فؤادٌ تباريحه
وكيف وفي كلّ عضوٍ ندوبُ

وينتهي متوعِّداً:

أعـــدْه فـــإن لم يُـــعـــد عـــاجـــلاً
تـــركـــتُ المجـــلـــة حـــتّـــى يـــؤوبْ

ووراء هذين، تتربص كتيبة بلْقاء، من فوارس سراه، فيهم عبد العزيز الخويطر، وعبد الله الوهيبي وأحمد الضبيب، وعبد الرحمن الأنصاري، من الدكاترة الرواد، الذين يعتد بهم أبو عبد الرحمن، ويغبطهم على دكْترتهم. ولو دامت الحرب، ربما لحقت حيال أبي الفوارس حمد الجاسر، كما لحقت من قبل حرب وائل حيال الحارث بن عُباد.

في مواجهة ذلك الزّحف، لم يجد حمد القاضي مندوحة من أن يرفع الراية البيضاء، ويجنح إلى السّلم، فقال:

«وأشهد الله قبل أن أشهد العدول، أنها أصابت مني مقتلاً، وأعقبتني ألماً وندماً. ولو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما كنت خططت تلك الوريقة، ولا بعثتُ تلك الكُليمة، ولكن الحذر لا يغني من القدر».

■ ■ ■

يُكثر أبو عبد الرحمن بن عقيل في كتابه «شيء من التباريح» من ذكر اسم غازي القصيبي. وعند شيخه ابن حزم في كتاب «طوق الحمامة» أن ترداد اسم إنسان ما، دليل أكيد على المحبة. وقال أبو عبد الرحمن أنه منح القصيبي شيئاً من تباريحه «لأنه كتلة مواهب ودين وخلق مهضوم».

اللهمّ نعم. وزاد على ذلك بقوله:

«وعندما تألق الدكتور غازي القصيبي أدبياً وفكرياً في رياضنا ـ وهو متألق في غفلة منا وراء البحار ـ قلت: عوضي في التنافس على معارف الخواجات أنني أبزّه بتراثيتي... وأما الجانب الآخر فأشاركه من خلال الكتب المترجمة في الإشراف على أدب وفكر الخواجات وإن كانت له ميزة الإشراف على ما لم يُترجم من الأصول».

يقصد بـ«الإشراف»، الأطلاّع، وذلك دأب أبي عبد الرحمن.

لم يلبث أن استدرك. فأقرّ للقصيبي أنه ملأ يديه من خزانة التراث أيضاً فماذا أبقى لنفسه؟ في صوته رنة غيرة خافتة، لا يخفيها، بل يعترف بها بعفوية هي من بعض جاذبيته فيقول:

«وكاد الحسد يدب إلى قلبي تجاه دكاترة غادروني وعادوا بلغات إنجليزية أو فرنسية من أمثال محمد الهدلق وعبد العزيز المانع وفهد العرابي الحارثي... وكان قلبي لا يعرف الحسد فلعلَّ ذلك من التنافس في العلم. ونعيتُ نفسي أمام آخرين يطلّون على معارف البشرية وعلوم الدنيا من لغات شتى كالدكتور الأستاذ حسن ظاظا والأستاذ عابد خزندار».

حسن ظاظا، مُثقلٌ بعلوم العبرانيّة، وعابد خزندار غريق في بحار الفرانكفونية. الله أعلم لعلهما يقايضان ما عندهما بما عند أبي عبد الرحمن. أما أنا فما وددتُ أنّ لي حمر النّعم، وأن يكون لي (تفسير التفاسير)، فذلك مما يوضع في ميزان العدل لا في موازين أهل الدنيا. فطِبْ نفساً يا سيدي، ولا تأسَ على شيء.

يقول أبو عبد الرحمن عن تمكُّن غازي القصيبي من علوم التراث:

«يظلم غازياً من لا يعتبره ذا علم مكين في الشريعة وثقافات التراث... ويظلم غازياً من لا يتحرى الجانب الروحي الصادق في أدبه وفكره (...) وأما الجانب المهضوم فكل من عرف غازياً سيعلم أن شعره شاهدُ سِيَره، وأنه لم يتحلّ بحُلى مستعار ولم يلبس ثوب زور (...).

وأما الجانب الروحي فأشهد أن قصيدته «فارس القدس» شاهد على صلابة موقف في ذات الله، لأنها في رثاء الملك فيصل رحمه الله، ولا يتحسّر على بطل التضامن الإسلامي إلّا من أحب التضامن..».

ذلك أبو عبد الرحمن، لله درّه! بعد أن كان هضيماً أسيراً عند حمد القاضي، يقاتل غازي القصيبي لاستخلاصه، إذا هو ـ بين غمضة عين وانتباهتها ـ يصبح فارساً مغواراً شاهراً سيفه ينافح دون القصيبي. اختفت الآلام النفسية والجسدية، وتضاءلت الهموم الدنيوية، وانتفض أبو عبد الرحمن كما انتفض أبو الطيب «فزال القبر والكفنُ». فلله هو، مغلوباً غالباً، وأسيراً محارباً.

وقد صدق لعمري، فالقصيبي كما وصف وأكثر، مما يعلمه الظاهري ولم يصرّح به. ولعله عمل بنصيحة ابن الجوزي رحمه الله. لا أعلم إن كان من أشياخه، فقد نصح المحبُّ ألّا يبوح لمحبوبه بكل ما يحسّ به نحوه، مخافة أن يُدلّ المحبوب وأن يطغى. ولا أحسب القصيبي يفعل ذلك.

نحن أيضاً من رواد ذلك المنهل، نودُّ الظاهري ونودّ القصيبي. إنما

هو ودّ طارف، ليس كودّ هذين، أحدهما للآخر، فهو ودٌّ تالد متقادم، جرّتْ عليه صبا نجد ذيولها. وأنّى لنا بذيول صبا نجد، ونحن من بلاد صعيدها (جاب الهبوب مقلوبة)!

هذا ـ يا عمرك الله ـ ودّ على شاكلة ودّ الشيخ التنوخي لخازن دار العلم ببغداد، وودّ حبيب بن أوْس للماجد التغلبي، في قصيدته التي نصب فيها للظّبْي، «في آخر الليل أشْراكاً من الحُلم».

ذلك، وحين يقول أبو عبد الرحمن، أن القصيبي (مهضوم)، فهو ـ طبعاً ـ ينحو بالكلمة نحو معناها اللبناني الدارج، ولعلّ ذلك من جراء حبه لفيروز. لكنه لم يذكرها في كتابه، وذكر أم كلثوم التي عشق صوتها منذ صباه، وقال إنه مع ذلك يشفق عليها من هوْل المآب، وأضاف:

«قلت خلال هذه الأشجان: لو أن هذه الخضراء الريفية الصبيّة في (وداد) تزوجت ريفياً ذا مروءة ودين يتعاونان على الكدح والبِرّ والتقوى ويلحسان القصعة، لم يُكشف لها وجه، ولا عُمِر بها مجلس طرب.

أو كانت بغلالتها وسجّادتها تحفظ أدباً، وترتّل قرآناً بصوتها الحلو، وتروي وتُملي علماً وأدباً ودعابة وترنّماً ساذجاً وهي محجبة كمحدّثات المسلمين، لكان خيراً من كل تلك الأمجاد، ومن كل ذلك الألق».

الله أعلم. إنما تخيّلْ كم نكون فقراء، لولا ذلك الصوت العبقري يشدو بروائعات شوقي في مدح الرسول الكريم. أما ترى ذلك يشفع لها يا أبا عبد الرحمن؟

هوّن عليك يا أُخيّ، وقل مع الرجل الصالح صاحب (المثنوي):
«دعْ شرح حال الوردة بحقّ الله، واشرحْ حالَ البلبل الذي افترق عن الوردة.

ليس اضطرابنا من الحزن ولا السرور، وليست حكمتنا من الخيال ولا من الوهم.

إنّ لنا حالة أُخرى، فلا تُنكرْ ذلك فإن الله واسع المقدرة.
بستانُ الحب أخضرُ ريّان دون ربيع أو خريف.
فيا صاحب الوجه الجميل! أدِّ زكاةَ الوجه الجميل، وأعِدْ لنا حكاية القلب الممزّقْ».

■ ■ ■

قصة أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري مع كتبه، قصة عشق طويلة تنتهي بالفراق. هذا رجل، كما يعرفه الناس، وكما يبدو خلال سطور كتابه هذا، «شيء من التباريح» قد جنّ جنوناً بحب المعرفة. لم يكتف بما تهيأ له من معرفة واسعة بعلوم اللغة العربية والفقه وعلوم القرآن والتراث، ولكنه أراد أن يأخذ بطرف من العلوم الحديثة، فقرأ الكتب المترجمة، وتاقت نفسه إلى تعلم اللغات الأوروبية. يقول:

«وهممت أن أطير إلى باريس سنتين، وإلى لندن عند الدكتور القصيبي سنتين، وإلى ألمانيا أو إسبانيا سنتين، لأتعلم رطانة العلوج فأكسر حاجز اللغة فلا يترفع عليَّ ذوو الرطانة..».

بوسعك أن تفعل ذلك، وخاصة أن خادم الحرمين الشريفين ـ جزاه الله خيراً ـ قد تبرع لإنشاء قسم للدراسات الإسلامية بجامعة لندن، فلعلهم يرسلونك مدرساً ودارساً. إنما، هذه مدن «تصبي أخا الحلم ولم يصطبَى»، وعلى الأخص بغريس، التي كأنما شيدوها على أوزغن قصائد الشاعر الحكمي! فهل أنت حقاً ترغب في ذلك العناء؟

يقول أبو عبد الرحمن في وصف حاله مع الكتب، أول ما علق حبُها قلبه، وكان مثل قيس، إذ راح يقيس ناراً:

«وأذكر أنه كان عندي بـ (شقراء) ـ ولم يطرّ شاربي بعد ـ دويليبان عرض الواحد منهما متر، وطوله دون طولي، وكان فيه أول وأفخر طبعة من «فتح القدير» للشوكاني، ذات ورق أصفر يسرّ الناظرين، وأول طبعة من «تاريخ ابن جرير»، وأول طبعة من شرح الأعلم الشنتمري للمعلّقات، فكانت تفرّ مني الساعات الطوال بلا قراءة، وإنما كنت أقلّب كل مجلّد وأقبّله، وأمسح الكتب وأعيد ترتيبها ثم أصعد إلى مرقدي على السطح بين رباط ثاغيتين فأكثر، وأستمتع بلآليء النجوم، وأطرب لنباح الكلاب ينساب من بعيد».

يا له من حب! ليس مثله حب بعض الناس للخيل، أو اللوحات الفنية، أو السجاجيد الثمينة، أو الخزف النادر. ويزيد أبو عبد الرحمن:

«ثم يبدو لي فأنزل إلى الديوانية حيث المكتبة.. وأوقد سراج أبو دنان، لا لأقرأ، بل من أجل الالتذاذ بتقليب الكتب وتقبيلها.. ثم أعود لنوم هانيء».

ويختم هذا الوصف بقوله:
«لله ما أطيب العيش وألذّه في تلك المعاهد والمرابع.. لا نعرف هموماً ولا عقَداً ولا طموحاً في المركب والمسكن يفرضه التباهي في الكماليات التي فرضها علينا الخواجات وليست من بيئتنا ولا فطرتنا..».

صدقت، إذاً لماذا تريد أن تجيئهم في عُقر ديارهم؟ وهي ديار فيها وفيها، ولكن ليس فيها نجوم ولا سطوح ولا ثغاء. إذا لم يكن من بد، فليكن في ميعة الصبى، تغالبك وتغالبها، وتأخذ منك بقدر ما تعطيك، ولا تخرج منها إلّا وقد أَبْهمتْ عليك السُبل. هذا إن خرجت. فما لك وكل ذلك؟

لم يلبث أبو عبد الرحمن أن تعب من الكتب، وأضناه حبها، كما يُضني الحب الذي يتقادم به الأمد. يقول:

«وذهبتْ تلك اللذة ـ أو معظمها ـ التي أجدها من جراء امتلاك الكتاب وتقليبه وتقبيله وإعادة ترتيبه مع رصفائه. ذلك أن الكتب كثرت جداً.. وأصبح البحث عن كتاب بين الأنقاض أصعب من البحث عن مسألة في كتاب..».

لم يشفَ كل الشفاء بطبيعة الحال، فحبٌّ مثل هذا لا يبرح أبداً، كما يقول العارفون. لكن أبا عبد الرحمن ثار عليه وانقلب ضده. كما فعل إبراهيم ناجي رحمه الله:

يا هباء الهباء يا زبدَ البحر
ويا ذرُّ مُشتطار الرّمال

إن بعض الهدوء نوعٌ من الرُّعب
وبعض الثواء كالترحال

حدثنا أبو عبد الرحمن أنه لما تقاعد عن العمل، قبل سن التقاعد، قرر أن يقضي بقية عمره بين مكة المكرمة والمدينة المنورة التي يسميها (أم المساكين). وقرر أن يترك مكتبتيه في الرياض:

«ليقوم بفهرستها وترتيبها أجير مختص حتى إذا ما جئت إلى الرياض زائراً ومستجمّاً تنقلت بين المكتبتين ملتقطاً ومقمشاً لإشباع مباحثي التي أقمت هياكلها من الأمهات ونشرت بعضها في الصحف».

ثم بدا له أن يبيعهما. وقال إنه خلص إلى «الخلوة مع الأمهات والأصول في فنون محصورة أعونُ على طلب العلم». وذكر أنه وجد أُسوة في حجة الإسلام ابن تيمية الذي كان يعتمد على مصادر قليلة تعدُّ على أصابع اليد.

هذا، وقد تمثل أبو عبد الرحمن ببيتين لابن طفيل إذ يقول:
بَرَّح بي إنّ علوم الورى
ثنتان ما إن فيهما من مزيد
حقيقةٌ يعجز تحصيلُها
وباطلٌ تحصيله ما يفيد

وبعد، فهذا كتابٌ مفعم بالخصائص كلها التي يتميز بها أسلوب أبي عبد الرحمن، من سلاسة وعذوبة وطرافة. وهو كتاب (حداثوي) في بعض مذاهبه، ففيه هذه الـ (فضاءات) التي يؤثرها

الحداثيون. لذلك جاء قصيراً، وهو عيبه الوحيد في نظري، فقد كنت أُوثر لو تطول صحبتي بأبي عبد الرحمن.

أرجو لك يا سيدي السعادة والعافية، في تنقّلك بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وذلك أكرم عند الله ولا ريب، من التنقّل بين لندن وباريس.

٨

فاتني افتتاح مهرجان الجنادرية هذا العام، إذ وصلت متأخراً. فاتتْني خطب الافتتاح، والأوبريت وغناء محمد عبده، والعرضة بالسيوف.

وفاتني سباق الهجن، خاصة أن بعضها من الإبل البشاريّة الكريمة ـ نسبة إلى قبيلة البشاريّين في شرق السودان ـ ومنها الجمل الذي ذكره الشاعر الشُّكري عبد الله أحمد عَوض الكريم:

من (سيتيت) نويت عابي لي خَتّه
فوق ضَهر البشاري الدُّوْمتُه تثرى
يسَلْفق في الخبيب ما جابْ له عثْره
جَلوس أُم خدْ هناك كُلْ ساعه بطرا

(سيتيت) نهر يجيء من هضاب إثيوبيا ويصب في نهر (أتبرا) ـ لا

أقول (عطبرة). وقوله (عابى لي خَتْره ـ خطره)، أي أنه عبَّأ للسفر، كما فعل ود حاج الماضي لغاية أسمى وأجلّ:

نعْمَ العبا وروّح
بي سهَل الفرش شاف العلم لوَّح
زار جدّ الحسَين.

ولعل الشاعر الشكريّ قال (عَبيت ناوي لي ختْره).

وقوله (دومْته تتْرى)، يعني أن رقبة الجمل ترشح عرقاً من شدة السير. وقد أفصح شاعر آخر أكثر حين قال:

أبْ دوماتْ غرَفْن عرقُه أتْنادنْ به
ضرب الفجّة وأصبح ناره تاكل الجنبْه.

يصفون الجمل بـ (التَّيس)، كما يصفون بذلك فحل الظباء. قال الشاعر:

ترى أم دالات قطَعْها التَّيس وغرَّبْ
تقول ديك هضلماً بالخيل مسرَّب
طريت الصّاغ سليم ما هو المكرَّب
مثل هسَّع، بخاف كبَريتُه عرَّب

الجمل في سرعة عدوه مثل الظليم، ذكر النعام، الذي تطارده الخيل. والفتاة (أم خد)، هي القصد والهدف. وكل فتاة لها خد، إنما هذه لعل خدّها في الحسن بما لا يوصف. والـ (كبَريت) ـ بفتح الكاف والباء ـ الذي أوقدته، بمثابة النار التي أشعلتها الفتاة الأخرى في خيال الشاعر الشكري، بعد أن جاز التسعين، كما رووا:

وبعينيْك أوقدتْ هندٌ النار أصيلا تلوي بها العلياء

إنما دقات قلب الشاعر أسرع من عدو الجمل ـ على سرعته ـ لذلك استبطأه وقال يحثّه:

خـبّـك مـو وشـيـك الـلـيـلـه مـالـك
تـتـقّـل فـي الـيـمـين وتجـرّ شـمـالـك
بِـنَـيْـتـاً لـي شَـيُـومـا بـشـنّـي حـالـك
رقـاداً دونـا قـط لا تـسـيـهـو بـالـك

الشكريّة عندنا يقولون (سيتُه) أي (سوّيته)، و(تسيهو) أي (تسَوّيه). وما أحسن قوله (بشَنّي حالك)، يعني يرهقه في السير. و(الشّيُوم) هو الرحيل إلى الحبيبة، ولعلّها مشتقة من (شام)، كأن الحبّ كله في بلاد الشام، كما أن كل مدينة (مصر).

هذا، وقد كان شعر الحب غالباً على الأمسية الجميلة التي أُقيمت للشاعر السابق الأمير بدر بن عبد المحسن بحضور الأمير بدر بن عبد العزيز، وقد افتتحها الأمير متعب بن عبد الله بن عبد العزيز. هذا شاعر يطربني شعره منذ أن قرأته أول مرة.

وهو والأمير خالد الفيصل، كلٌّ منهما سابق في مضماره، ذاك رصين جزْل، وهذا عذبٌ رقراق.

من القصائد الحسان في تلك الليلة المشهودة، قول الأمير بدر بن عبد المحسن:

لـعـيـونـك أمـلا صـوتـي غـلال حـنـطـه
وأظـهـر لـكـل الـنـاس مـكـسـور الأغـلال

أطــعــم طــيــور الحزن نــورٍ وغــبــطــه
وأقـول كـلّ الـصـبـح لأهـدابـك ظـلال
يـالـلّـي بـقـلـبـي صـعـب حـلّـه وربـطـه
ويـا الـلّـي بـعـيني نـهـر جـمـرٍ وشـلاّل
يـا هـيـه أحـبـك كـل الأشـعـار سـمـطـه
والـلّـه مـدري كـيـف هـالحسـن يـنـقـال
خــذيــت مــن رمــل المجـرّات غـمـطـه
لأقْـدامـك أمـشـي فـوق نجـمـات هـلال
قـالـوا الـهـوى يـا فـرحـة الـعـمـر شـرطـه
بـنـت تـصـيـر عـيـونـهـا قـلـب رجـال
وأقـول شـفـتـك يـوم الأحـلام غـلـطـه
وبـالحيـل أحـبـك كـثـر حـبـك لـلأطـفـال

من جميل ما حدث في مهرجان الجنادرية، أن الشعر (النبطي) الدارج، بعد أن كان أخاً مُحقراً للشعر الفصيح، راجعت سوقه واتّسع نفوذه، وحظي بالاعتراف والتقدير في أعلى مستويات الدولة.

كان الرأي السائد في المملكة العربية السعودية، كما في بقية أقطار العالم العربي أن شعر العامية، من نبطيّ وزجل ودوبيت، إما إنه عديم القيمة، أو أنه حين يحسن، يكون خطراً على اللغة الفصيحة. وهو رأي ما يزال سائداً في بعض البلاد.

وهذا كما لا يخفى، موقف ممعنٌ في التزمت. اللغة الفصيحة كما برهنت في تقلّبات أحوالها عبر القرون، لا خوف عليها. صمدت لعوادي الزمن، وعوامل الانحطاط الفكري واللغوي، والإهمال

والعُجمة، وخرجت بعد ذلك، فتيّة نضرة. لا غرو، فهي لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، والتراث العظيم الممتد من شعر ونثر وفكر.

وما شعر العامية، إلّا فرع من النهر الكبير، ورافد من روافده. وإذا كان الناس يتحدثون بالفصحى كما يتحدثون بالعامية، فلماذا لا يقولون الشعر بأيهما أرادوا؟ ولا يُنكر أن بعض شعر العامية في العالم العربي، يفوق أحياناً في فصاحته ونصاعة بيانه وارتباطه بتيار الشعر العربي الأصيل، ما تجده في بعض ما يكتب هذه الأيام من الشعر باللغة الفصحى. ثمة لا تجد من دلائل الفصحى إلّا أن القصيدة فيها جُمل مُعرَبة، وأن لها أوزاناً وقوافي. وحتى هذا قد لا تجده أحياناً.

يوجد لا شك، شعراء كبار هذه الأيام، ينظمون باللغة الفصحى. وهؤلاء لا خطر عليهم، من شعر العامية، إنما لكل منهم ميدانه ومجاله.

أقول، إن الشعر النبطيّ في مهرجان الجنادرية، بدأ منذ سنوات بخيمة صغيرة نُصبت بجانب «الهوتيل»، يفد إليها الشعراء والجمهور أواخر الليل بعد أن تنتهي النشاطات الأخرى الأكثر أهمية.

بدأوا يقبلون على استحياء. ثم رويداً رويداً أخذ الإقبال يتزايد حتى ضاقت الخيمة بالجمهور. وكان إقبال الشباب واضحاً.

أذكر في المواسم الماضية، ليالي عامرة امتدت حتى قريب من مطلع الفجر. منها ليلة جاء الأمير بدر بن عبد المحسن واستمع إلى شعر

الشعراء وأنشد هو من شعره. وليلة حضر فيها الدكتور عبد الله العثيمين. وأذكر أنه تردّد أول الأمر، ثم سرت إليه عدوى الحماسة من الشعراء والجمهور، فانطلق في الإنشاد.

أذكر ليالي، أنشد فيها الشاعران الموهوبان الصّيخان والحربي، وطرب عبد الله نور لصوته وأطرب الحاضرين بإنشاده الذي لا يجارى.

في تلك الأمسيات، كان الدكتور عبد الله المعطاني، أستاذ اللغة العربية بجامعة الملك عبد العزيز بجدّة هو المحرّك والقطب. يدير الحوار ويوزع الأدوار، ويتعمد أن تلي قصيدة العامية قصيدة بالفصحى، ويفسح المجال لشعراء من غير السعوديين، مصريين وعراقيين وسودانيين.

كان الشاعر العراقي، يحيى السّماوي، من نجوم تلك الليالي، وقد لقيته فيما بعد، وأسفت حين أخبرني أنه قرّر الهجرة إلى أستراليا. أعانه الله، لا أظنه يجد خيمة للشعر في أستراليا.

أخيراً، وجدتُ أنهم نصبوا خيمة كبيرة على طرف بحيرة السباحة في الفندق، بدل الخيمة الصغيرة في المواسم الماضية. وانطلق بالإضافة إلى ذلك نشاط واسع في قاعة كلية الملك خالد العسكرية، تضمن أمسيات شعرية وندوات خُصصت لتدارس قضايا شعر العامية. وكان ذلك النشاط برعاية الأمير بدر بن عبد العزيز وإشراف الأمير متعب بن عبد الله بن عبد العزيز، فكان بمثابة اعتراف من الدولة بقيمة الشعر الشعبي وأهمية شعرائه.

ثم وصل الاعتراف إلى أوْجه حين وصل شعراء العامية إلى ساح وليّ العهد، الأمير عبد الله بن عبد العزيز، رحّب بهم وأثنى على جهودهم، وأمر أن يُقام لهم (بيت) للشعر.

في هذا الموسم، كما في المواسم الماضية، الشعراء السعوديون من شعراء العامية الدارجة، حيّوا مليكهم وأسرتهم الحاكمة، فأحسنوا التحية، وغنوا لبلادهم فأحسنوا الغناء.

في قصائدهم أصداء من جزالة قصائد المديح في الشعر القديم، ومعان يندر أن تجدها هذه الأيام في ما يكتب من شعر المديح باللغة الفصحى. ولا يخفى أن المديح أصلاً فن صعب. وربما تُعزى قلة الجيد منه بالفصحى هذه الأيام، إلى أن أكثر الشعراء الكبار أعرضوا عنه ترفعاً أو تحرجاً، علماً بأنه باب محترم من أبواب البيان، تكاد اللغة العربية تنفرد به دون سائر اللُّغات.

من شعراء هذا الموسم، خلف بن هذّال، وهو وجه معروف في المواسم كلها، ومن أصحاب المطولات. وقصائده، مثل إنشاده،

تتميّز بالبداوة والفصاحة. يقول بعد أن يذكر الله سبحانه وتعالى والرسول صلى الله عليه وسلّم:

سلام الله على اللّي رايته بالعزّ خفّاقه
عزيز ومن عزيز ولكنا بالعزّ ندعي له
فهد عون الصديق اليا نصاه وعرق من عاقه
اليا كال الخصيم ايكيل ويرجّح الكيله
ملكنا عادته فك الدخيل إن يئست أرياقه
وليلة من غدا حقّه اليا نجمو دواويله
بسط يمنى على المعروف والنجدات سبّاقه
يا كُثر المسلمين اللّي تشكر له وتثني له
ملكنا أبو الجميع وراحته للخير دفّاقه
ينز بها الثرى فوق الثرى سيله على سيله
ترى ريح المطر ينطحك لو ما شفت براقه
اليا شفت الهوى متنطحه هلّت هماليله

ريح المطر الذي (ينطح) معنىً كساه الشاعر ثوباً جديداً. وهي ريح تثير البلابل في خيال من يعرفها، وقد وصفها الشاعر السوداني في قوله:

البارح نسيمْ ريحا طَلَقْ من جَبْره
ذكّر عقلي بيهْ وأدَّى (العنانيف) هَبْره

قال (طلق) إذ قال الآخر (نطح)، وهو شديد الوقع على القلب. وقوله (العنانيف) وصف تكثير بحمله (العنّاف)، كأنه عدة جمال.

هذا، ويمضي خلف بن هدّال في المدح فيقول:

ألا يا كُبر فرحتها بعبد الله على الفاقه
ما ألذ من اجتماع الشمل والليل وتعاليله
هلا يا مرحبا باللي يغار ويحتمي الساقه
على دينه وأهل دينه غيور ومسرجٍ خيله

ويختم الشاعر قصيدته بنحو عشرين بيتاً في الحكمة والعظة كما فعل زهير في معلّقته، منها قوله:

واليا بان الك صلح مع حريب فجود أوثاقه
تجود بالشروط ويكتب الكاتب وتملي له
ولا تبرك لحمل ما معك في حملته طاقه
واليا منك بليت أرتك لشيل الحمل وتشيله
ولا تفرح بيوم فيه يعقر للعرب ناقه
من الممكن تجر علوم تقصي القوم ومهيله

وما أحسن قوله: «ولا تفرح بيوم فيه يقعر للعرب ناقه».

أما الشاعر مساعد بن ربيع الرشيدي، فيأخذ في المديح على عجل فيقول:

من هنا من منبر المجد بسم الله
مبتدا مرسى القصايد ومجراها
في ذرا دارٍ كساها الفهد ظلّه
الفهد رمز الزعامة ومغناها
خادم البيتين عزّ الوطن كله
سيد أولها ليا قام وأتلاها

فـي حـضـور مـعـزب الخيـر عـبـد الـلـه
جـابـهـا ربـك عـلـى مـا تمـنـّاهـا.

ثم يقول في التغني بالأرض والوطن:

مـن هـنـا مـن مـنـبـع الـديـن والملـه
دارنـا مـهـد الـرّسـالـة ومـبـداهـا
دارنـا مـا مـثـلـهـا لـلـوطـا لـلّـه
أتحـدّى كـل دارٍ تحـدّاهـا
ذي عـمـايمـنـا مـن الـغـيـر مـبـتـلّـه
كـل مـا نـاطـا ثـراهـا ونـتـبـاهـا
قـبـل عـصـر الـنـفـط والـقـصـر والـفـلّـه
يـومـهـا قـفـرَه نـحـيـلـة عـشـقـنـاهـا

إنها كما تقول ـ وفيما التحدّي؟ ـ فهي بالفعل «منبع الدين والملّة». وقوله «عمايمنا من الغيم مبتلة»، من هذه الصور الشعرية التي تبقى طويلاً في الذاكرة.

أما الشاعر الكبير نايف صقر، فهو بارع الاستهلال، بارع في تخلّصه إلى المديح:

ثم يقول مفتخراً فخراً لا يستطيع أحد أن ينكره عليه:

حـنّـا الـعـرب حـنّـا الـقـصـايـد والأمـثـال
مـن قـبـل قـيـس وفـتـنة الـعـامـريّـه
فـي حـجـازنـا جـبـريـل حـوّل بـالأنـفـال
عـلـى مـحـمـد خـيـر كـل الـبـريّـه

وفي آخر قصيدة بيت يذكّر بالمتنبي:

شـمـتـى لـراعـي الـعـزّ والجاه والمال
وأنـتـى تحـت حـدب الـسـيـوف مـحـميّـه

وهـذا لـيـس بـعـيـداً عـن قـول أبـي الـطـيّـب «يـحـرّمـه لمع الأسـنـة فوقه...».

هذا كله كما ترى، شعر لا يضرّ الفصحى في شيء، ولكنه يعطيها ويأخذ منها.

ولعل شعر الأمير بدر بن عبد المحسن، هو أكثر الشعر النبطي سهولة على القارئ السعودي، فهو سلس، ليس ممعناً في البداوة. والأبيات التالية تدل على براعة فائقة، لأن المديح فيها يجيء في سياق التغني بالوطن، والتغني بالوطن كأنه غزل:

عـيـدك حـديـث وذكـر وآيـات قـرآن
وتـكـبـيـر نـفـس زال عـنـهـا رهـقـهـا
عـيـدك بـروق وطـل وزهـور حـأذان
وغـصـون دوح لـبـسـت أجـمـل ورقـهـا
عـيـدك بـشـور الـعـزّ فـي وجـه الإنـسـان
وشـمـس مـنـي غـيـرك تـوالـى شـفـقـهـا
عـيـدك فـهـد، عـبـد الـلـه، ووجـه سلطـان
وصـفـوة هـل الـعـوجـا وزاهـي وفـقـهـا
ذا حـاجـب يـسـجـد عـلـى رمـل كـثـبـان
ولّا جـبـال تـعـبـد الـلّـي خـلـقـهـا

ذي ومضة سوف أو سيوف الأجفان
على العيونِ اللّي ترابك حِدقْها
ذي حمرة المشرق أو أشجار رمّان
بين الهضاب الغافية في عبقْها

١١

كان الأستاذ محمد بن علي الشّرهان، واحداً من نجمين أضاءا أكثر من ليالي (الخيمة).

ثانيهما الشاعر سليمان العويس. هذا شاعر طويل الباع حقاً، شعره لصيق بالحياة اليومية ومفارقاتها، مليء بالصور الساخرة المضحكة الموجعة. وصوتُه وسَمْتُه يضيفان إلى وقع قصائده. ليس له ديوان مطبوع لسوء الحظ، وتلك خسارة كبيرة، لأنه يستحق الذيوع والانتشار.

أما الشرهان، فهو ليس شاعراً، ولكنه راوية فذّ، يعيد إلى ذهنك فطاحلة الرواة في العصور السوالف. وهو بالإضافة إلى محفوظه الهائل، يملك براعة في الإنشاد، وموهبة في تجسيم الصور والمعاني، وروحاً عذبة من الدعابة والمرح. صوته بدوي أخرش يبالغ في بداوته

عمداً، كما يصنع عبد الرحمن الأبنودي بصوته الصعيدي.

من القصائد التي أنشدها الشرهان وسحر بها جمهور رواد (الخيمة)، قصيدة للمرحوم سُويْلم العلي السهيلي، ذات مطلع جميل، يقول فيه الشاعر:

ألا يا ملّ قلب ما يطيع الهرْج في خلّه
على ما قال الأول ما يطاوع شور عذّالي

هكذا كتبها لي الشرهان حين طلبت ذلك منه لفرط إعجابي بالقصيدة. ولعل الشاعر قال ـ أو أراد أن يقول:

«ألاَ يا مَنْ لقلب ما يطيح الهرج في خلّه».

يشبّه الشاعر مكابدته في الحب، بحالة غوّاص اللؤلؤ، الذي يخرج له فجأة في القاع سمك القرش (الجرجور)، وينقلب على ظهره ـ وتلك عادة سمك القرش قبل أن يفتك بضحيته كما أوضح لنا الشرهان ـ ويفتح فكّيه ليلتهم الرجل. والغوّاص (الغيص) مربوط الأنف لا يستطيع التنفس، فيأخذ في شد الحبل (السّيب) كي يسحبه رفاقه إلى السطح، فيسحبونه و(الجرجور) في أثره، فينجو ولم يكد:

تهيّا له بوسْط القوع جرجور ظفى ظلّه
يبي عنه المراغ ولا حصل له حَيلْ يحتالي
تشقّلبْ له وانقلب ولهبه لا شك فطن له
ولي ينظر المخلوق في سابع سما عالي
شهق عند الطلوع وطاح من جرجور منذلّه
أخذْ مقداره، لا يشعر ولا يبصر ولا يسالي

هذا حاله في الحب، وهو في تعاسته قريب من وصف العامري المسكين:

كــأن فــؤادي فــي مــخــالــب طــائــر
إذا ذكــرت لــيــلــى يــشــد بــه قــبــضــا
كــأنّ فــجــاح الأرض حــلْــقــةُ خــاتَم
عــلــيَّ، فــلا تــزداد طــولاً ولا عــرضــا

هذا، والمطاردة العجيبة، التي أقامها (السهيلي) في قاع اليمّ، كأنها انعكاس للطراد الذي صنعه (الحرْدلّو) في كبد السماء:

الــبــارحْ أنــا وقــصــبــةْ مــدالــقْ الــسَّــيــلْ
في ونــسه وضــحــك لا منْ قــســمــنــا الــلــيــلْ
وقــتــيــنْ (الــنّــعــام) اتــشــقْــلَــبنْ بــه (الخــيــل)
لا بــخــلــتْ، ولا جــادتْ عــلــيْ بــالحــيــلْ

إنما شتان بين الحالتين و(النعام) و(الخيل) مجرتان في السماء، ولا شك أن شُراح الشعر على مذهب (فرويد)، يجدون في (شقلبة) السهيلي، و(شقلبة) الحردلّو، مرامي أبعد مما يبدو لأول وهلة.

انتبه إلى موهبة محمد بن علي الشرهان، نفر من الأساتذة، منهم أبو عبد الرحمن بن عقيل، الذي قال عنه بلطفه المعهود:

«وأما محمد بن علي الشرهان، فقد بهر الحضور بكثرة محفوظه (...) وهو عليم بدلالة الشعر، والعلم بدلالته ثقافة عريضة ما فيها من شك، لأنها ديوان القوم غير المكتوب أيام عاميّتهم وأميّتهم (...) وأيام الأمية وقبل التدوين، كان أمثاله ندماء الكبراء يعمرون بهم المجالس».

وقال عنه عبد العزيز محمد الذكير:
«يجعلك الشرهان لا تفتقد شيئاً من أبعاد القصيدة ومعانيها ومناسبة الحدث. ومهما طالت القصيدة فنفس هذا الرجل أطول منها».

وقال عنه عبد الرحمن بن محمّد السّدحان:
«وحين يروي محمد الشرهان حكاية أو يصف موقفاً، تودّ ألّا ينتهي رواية أو وصفاً. وإذا شاء هو أضاف للموقف بدايات وهوامش ووصفاً (كاريكاتورياً) ساخراً يزيد المواقف متعة، ويضاعف رغبة المتلقي في الاستماع إليه حتى النهاية».

وقرظه الشيخ الفقيه عثمان الصالح قائلاً:
«إن ما ينقله الشرهان من الشعر العفّ، والقصائد المطوّله، وحسن الأداء، مما يُجمِّل المجلس ويُعطيه شذى وعَبَقاً».

وأشهد أن ذلك كله حق، كما لمست بنفسي في ليالي (الخيمة) التي عمرت بالشرهان وأضرابه.

١٢

أنشدنا في إحدى ليالي (الخيمة)، شاعر شاب اسمه منصور البيطي، قصيدة لفتت انتباهي بحيوية الشباب الواضحة عليها، يقول في مطلعها:

أنا اخترتك يا بنت الناس ماذْري ليشْ
وَعشقت اللّيش وأعشقُ لشعة الواشي

يقول فيها:

ما دام أنك نظر عيني، رمشت شويشْ
عشان الجفن ما يجرحك برماشي
ويحلى العمر في قربك ويحلى الطّيشْ
بغيت الرّوح من مشى بها طاشي
وكنّك فرد وما له فرد وكنّك جيش
تثور بيوم وتفتنْ غير من عاشي

قافية (الشين) رغم رقتها، ليست كثيرة في الشعر. ديوان المتنبي مثلاً، ليست فيه إلّا قصيدة واحدة بتلك القافية، وهي القصيدة التي مطلعها:

مبيتي من دمشقَ على فراشٍ
حشاهُ لي بحرّ حشايَ حاشي

وعند الحسن، ست قصائد قصار بقافية (الشين) كلُّهن من سقيم شعره. يقول في إحداها:

أقول له يوماً وقد شفّني الهوى،
أطلتَ عذابي فيك يا خير منْ نشا
فقال: أَلمَّا يأُن أن تترك الصّبا؟
وما لكَ يا هذا؟ وما لي؟ وما تشا؟

وغيْلان القرْم، ليس في ديوانه ويا للغرابة، قصيدة واحدة بقافية (الشين)، مع أنها قافية كأنها ابتُدعت له. ولكنه فعل الأعاجيب بجارتها (قافية السين):

تبسّمنَ عن غُرّ كأنَّ رضابَها
بذي الرّمل مجَّته العهادُ القوالسُ
وخالَسنَ أبوابَ الخدور بعَينه
على شدّة الخوف المحبُّ المُخالسُ

وهذا البيت الأخير سطا عليه البحتري على أنه أحسن السطو، في قوله:

ومنهن مشغولٌ به الطرفُ هاربٌ
بعينيه من لحظ المحب المُخالس

وفي ديوان محمد أحمد عوض الكريم أبو سن الملقب بـ (الحردلُّو)، أربعة أبيات فقط بقافية (الشين)، وهي ليست بذات بال، وأحسن منها أبياته التي يصف فيها هطول المطر في أرض (البطانة)، وكان بعيداً عنها. وقافيتها ليست (الشين) ولكن (الشين) تشيع في جنباتها من أولها إلى آخرها:

الخبر الأكيد قالوا (البطانة) أتْرشَّتْ
سارية تبقْبقْ لي الصباح ما اتْفشَّتْ
هاج فَحل (أمْ صريصرْ) والمنايحُ بشَّتْ
و(بِتّ أمْ سَاق) على حدب الفريق اتعشت

وفسّر بعضهم أن (فحل أمْ صريصرْ) هو ذكر الصرصار، أي أنه هاج فرحاً بكثرة الخصب.

وعندي أن (أم صريصر) أو (أمْ ساق)، مثل (المنايح)، كلها نُوق، إذ ظاهر الوصف هو الخير الذي يحلّ بالإبل من هطول المطر ونموّ العشب.

وعند إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الملقب بـ (ود الفراش)، المولود عام ١٨٤٧، وكان معاصر للحردلّو وصديقه، ويوصف بأنه شاعر (بَرْبَرْ) في الشمال، عنده أربعة أبيات في قصيدته الطويلة التي يصف فيها رحلته من (بربر) إلى (سواكن)، وهي بقافية (الشين)، يتحدث فيها عن جمله:

من (اللايمبْ) قامْ بيَّ هايشْ
مثلْ ديك الهضاليم المرايشْ
قطع (دبَّايْ) ترى وفات (العرايشْ)
تقول سكران يَلجْ في خَبّه دايشْ

وهذا الشاعر، هو صاحب تلك الأبيات البديعة:

بَدور آلبل بدور فَرْعَ السَّعيَّه
بَدور السّيف مع الدَّرقة القويَّه
بدور أنّهم (بخيت) لي ضيف عشيّه
بَدور قدحاً يكفّي التُلتُميَّه

(بَدورْ) يعني (يتمنّى) أو (يريد).
و(فرع السعيّة) هو القطيع من الماشية.

هذا، وقد شارك في تلك الليلة الشاعر السوداني البارع عبد الله محمد خير. ومن بعض ما أنشد قصيدته (الشينية) الجميلة التي يقول في مطلعها:

آلحِنْ نار عَويشْ إنْ علّقوها تعيشْ
بَسْ ما إنْتَ جاهلْ وإنْ جفيتْ معليش
قام يتْمارى يتْمايَلْ بشيش وبشيش
قصْدُه يكاوي حشٌ قلوبْنا حشّ العيش

(الحنْ) من (حنان) يعني هنا (الحب)، و(العويش) هو العشب اليابس، وناره سريعة الاشتعال وسريعة الخمود، فلا بد من مواصلة إطعامها. و(علّق النار)، أي أشعلها، و(جاهل) هنا، تعني أن الفتاة صغيرة السن.

وكلمة (يكاوي) من الكي، تعني (يغيظ). و(العيشْ) تعني هنا سيقان الذّرة، فهذه الفتاة تحشّ القلوب كما تُحَشُّ سيقان الزرع بالمناجل وقت الحصاد، فوارحمتا للعاشقين.

وسلام على رُواد (الخيمة) في تلك الليالي الذين ذكرت والذين لم أذكر.

من بعض فوائد هذه المهرجانات، أنك تجدد العهد بأصدقاء، ترمي بهم وبك دروب الحياة، فلا تكاد تجدهم إلّا في مثل هذه الملتقيات. وقد سرّني أنني وجدت لطفي الخولي في مهرجان الجنادرية. كان آخر عهدي به في أصيلة عام أول، في شهر آب/ أغسطس.

الذين يعرفونه، يعرفون فيه جاذبية واضحة، وميلاً إلى الدعابة. ووراء ذلك كاتب بارع في القصة القصيرة، وصحافي رصين ثاقب النظر. يبدو لي كأنه رئيس وزراء في الانتظار.

يذكّرني بصديقنا المشترك أحمد البدّيني، الذي كان، وهو دون العشرين، مديراً لمكتب فؤاد سراج الدين، حين كان وزيراً للداخلية في آخر حكومة للوفد. وهو من فرسان الكلام، مثل أستاذهم المرحوم زكريا الحجاوي، وكامل زهيري ومحمود السعدني.

اشتهر أحمد البدّيني ـ وهو محام ـ أنه في الأيام الأولى للثورة، دافع عن الشيوعيين، ثم عن الإخوان المسلمين، فأدخلوه السجن معهم.

كنا في لندن أوائل السبعينيات، ثم فجأة قرّر البدّيني أن يعود إلى مصر، فقد كان الرئيس أنور السادات رحمه الله، قد سمح بالتعددية الحزبية، وظن البديني أنه سيجد الطريق معبّداً إلى دخول البرلمان وربما الوزارة.

وجدتُه في القاهرة بعد قرابة عام، ما يزال ينتظر. سألته لماذا لم يجعلوه وزيراً بعد؟ قال لي ضاحكاً بطريقته التي تنمّ على أنه من سلالة (عُمَدْ) في الصعيد، وجليس باشوات، ونديم بكوات ـ علماً بأنه كان متحمساً للثورة، ومعجباً بجمال عبد الناصر:

«تصوّر يا مولانا البلد دي. واحد زيّي، عنده كل المؤهلات. رئيس وزارة جاهز. ليَ سنة عمّال أنتظر. أنه حد يخبّط عليَّ الباب؟ يقول لي اتفضّل تعال استلم الحكومة؟ أما ناس ما عندهمش نظر!».

كانت لنا صحبة طيّبة في لندن، ثم في باريس. وحين تقاعد من منظمة اليونسكو، استقر في القاهرة. حين يدعوك في داره الفاخرة في حي المهندسين، يحتفي بك مثل (شيوخ العرب). يقول مزهواً إنه من قبيل طيىء، ولا بد أنه صادق، فهو يصنع كما كان يصنع حاتم طيىء.

لقيت أستاذنا الدكتور محمد يوسف نجم. إنه من هؤلاء العلماء الكبار، الذين تقوم من مجالسهم وقد استفدت شيئاً دائماً. كيف

حال أستاذنا الطليّ الحديث الدكتور ناصر الدين الأسد؟ قليلون يتذوّقون الشعر تذوّقه له. ويتلذذ بإنشاده. أنشدنا مرة في عمّان تلك الأبيات المحزنة للقشيري فكأننا نسمعها لأول مرة، وذلك البيت المرير، رواه وهو يضحك:

وما حسنٌ أن تأتي الأمر طائعاً
وتجزع أنْ داعي الصّبابة أسمعا

وكيف حال ذلك العالِم الجليل والإنسان النبيل الدكتور إحسان عباس؟ هل ما يزال في عمّان؟ أم عاد إلى بيروت؟ أبداً يحن إلى بيروت. ومن منّا لا يحن إلى بيروت؟

وجدت أيضاً رجاء النقاش وأحمد عبّاس صالح، افتقدنا يوسف إدريس. كان لصيقاً بهما، وبأحمد عبّاس خاصة. وقد رثياه فأحسنا الرثاء. إنما عسير أن تفكر في يوسف إدريس إلّا أنه حي، لا يكاد يستقر، لشدة ما يتأجج بالحياة. أذكره في هذا البهو في الـ (ماريوت) في هذه الأرائك الخضر، في مهرجانات سابقة، يحيط به الناس كأنهم حاشية، يصول ويجول إلى ما بعد طلوع الفجر. كان يتجلّى في تلك الجلسات، يتوقّد ذهنه بالأفكار العبقرية، والآراء المتطرفة والأحلام المستحيلة. ويسرف في الضحك.

لو أن أحداً لزمه، كما كان الرواة يفعلون في غابر الزمان، وسجّل عنه، إذاً لحفظ للناس تراثاً عجيباً.

كان طيّباً طيبة مؤثّرة، إلى درجة لم يدركها بعض الذين لم يعرفوه كما يجب. وكانت موهبته النادرة تغفر له كل شيء. وقد وصفه رجاء النقاش وصفاً دقيقاً حين قال «يوسف إدريس يخطىء في

الأشياء الصغيرة ولكنه أبداً لا يخطىء في الأشياء الكبيرة».

في تلك الليلة في دار محمود سالم في القاهرة، كان حزيناً لسبب ما. قال إنه يحس بدنو الأجل، وبكى على كتف صلاح عبد الصبور.

قال لي:
«اسمع يا طيّب. أنت تحمل الراية بعدي».

أية راية؟ ولماذا اختارني أنا بالذات؟

وما كنت أحسبني أستطيع أن أملأ الفراغ الذي يتركه يوسف إدريس.

صلاح عبد الصبور كان أسبق إلى الرحيل، وقد عاش يوسف إدريس سنوات بعد تلك الليلة. ثم درج هو أيضاً.

رحمه الله. ذهب وفي نفسه غصّة من جائزة نوبل. كان يستحقها لو أنهم يعطونها لأكثر من عربي. ولو لم يكتب إلّا مجموعته «بيت من لحم» لكان حسبه.

هذا، وقد سرّني أنني لقيت أخيراً الناقد النّابه الدكتور محمد مفتاح، أستاذ اللغة العربية في جامعة محمد الخامس بالرباط.

إنسان جمّ اللّطف، شديد التهذيب. عرّفني به ـ أو إيّاه كما يؤثر أستاذنا الدكتور عبد الله الطيب فعنده، تقول تعرّفت فلاناً ولا تقول

تعرّفت به ـ أقول عرفني إيّاه معجب الزهراني النجدي الذي قرأ في السوربون (أم تراه من تهامة؟). ثم صرنا نلتقي على الإفطار في النزل. وجدت بيني وبينه أكثر من وشيجة في الفكر. ولا يضحك إلّا بمقدار، ويؤثر الابتسام على الضحك. قال لي:

«الناس يقرأون ما أكتبه من نقد، فيتخيّلون رجلاً صارماً شرساً. وحين يلقونني تصيبهم الدهشة. يجدون إنساناً وديعاً طيّباً».

هذا، وأيضاً قضيت لحظات جميلة بصحبة الفنان اللبناني الكبير محمد سلمان. ذكّرني بيروت في الستينيات، ومحمود نصير وحسن المليجي، وتلك الطلول الدارسة بين (نزْلة الداعوق) والـ (سان جورج). حدّثني أن حسن المليجي قد عاد أدراجه إلى بيروت.

الذين يعرفون محمد سلمان مطرباً جميل الصوت، ومخرجاً سينمائياً رائداً، قد لا يعرفون أنه حافظٌ راوية للشعر. من بعض ما أسمعني أبيات أبي الخطّاب التي منها ذلك البيت العجيب:

وكُنّ إذا أبصرْنَني أو سمعنَني
هرعْن فرصّعن الكوى بالمحاجر

ولا مَيْ كما قال غيلان. يرحم الله غيلان.

أصبح مهرجان (الجنادرية)، وقد بلغ عامه التاسع، مؤسسة ثقافية راسخة، وملتقى إنسانياً وفكرياً مضيئاً، يتوافد عليه الناس كل عام، من أرجاء العالم العربي كلها، ومن أفريقيا وآسيا وأمريكا. تجددت ذكريات المواسم العبقرية في عكاظ والمربد، وانتصبت في قلب الجزيرة العربية سوقٌ بضاعتها الفن والفكر والإبداع، فما أربحها من سوق، وما أكرمها من بضاعة. سوف تظل الأمة العربية بخير، مهما حدث لها، ما دامت هذه المواسم الثقافية حافلة بروادها.

صار مهرجان الجنادرية نِدّاً ومنافساً لمعرض الكتاب الدولي في القاهرة، ومهرجان أصيلة في المغرب، والمهرجان الدولي للسينما في دمشق، ومهرجان جرش في الأردن، ومهرجان قرطاج في تونس. ولئن كان مربد العراق، قد خبت ناره، وانفضّ سامره، فلعل ذلك يكون إلى حين.

هذه الملتقيات في الأرض العربية، يشد بعضها أزر بعض، ويكمل بعضها بعضاً، فكأنها أصداء لصوت واحد، يتردد في جنبات هذه الأرض الواسعة، الرائعة بتنوعها وطاقاتها، الساكن منها والمتحرك. وها هنا، في قلب الجزيرة العربية، منبع الصوت، وبداية كل الذي حدث على امتداد قرابة خمسة عشر قرناً.

كل ذلك، لا يقدر بمال. بل إن المال الذي ينفق على هذه الملتقيات، مهما عظم، لا يعد شيئاً، إذا قيس بالمنافع التي تتأتى عنها.

من هذه الفوائد، أن الناس يجيئون إلى هذا البلد الناهض المتوثب. وقد يحملون أفكاراً عنه ليست كلها صحيحة. يرون شواهد مدهشة لنهضة عظيمة، يغمر خيرها الأهل والأقارب والجيران، وأبعد من ذلك. ثم هم يجالسون العلماء والمفكرين والمبدعين، ويشاركون في الندوات والأمسيات الشعرية، ويزورون الجامعات والمعاهد ودور الصحف والمطابع والمتاحف، فتتغير الأفكار الخاطئة، إن كان ثمة أفكار خاطئة، ويحل محلها إحساس بالإخاء والمودة، والإعجاب بما يُبذل من جهد عظيم.

كون مهرجان الجنادرية استمر طيلة تسع سنوات، لم يتوقف إلّا مرة واحدة في عام حرب الخليج المحزنة، لدليل على التزام الدولة السعودية برعاية الثقافة والفكر، وهو التزام يزداد ويتعمق عاماً بعد عام. وقد عبّر الأمير فيصل بن فهد الرئيس العام لرعاية الشباب، ونائب رئيس اللجنة العليا للمهرجان ـ عبّر عن هذا الالتزام، **في الكلمة التي ألقاها في افتتاح النشاط الثقافي، وجاء فيها:**

«إن بين هذه البلاد، وبين الثقافة العربية والإسلامية، وشائج لن تنقطع بإذن الله. وليس ذلك بمستغرب على موطن الوحي ومهد العروبة ومنطلق الرسالة. فلم تتوقف المملكة العربية السعودية في حاضرها على ذكرى المآثر الخالدة منذ بزوغ شمس الإسلام، وتشرّف عرب الجزيرة بحمل لوائه وجهاد النفس في سبيل نشره. ولكنها دعوة لمزيد من العطاء المحقق والمستمر مع كل أقنية الفكر والثقافة في عالمنا العربي والإسلامي، وفي مجتمعنا الدولي بأسره...».

كذلك عبّر عن هذا المعنى، الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، نائب رئيس الحرس الوطني المساعد، في كلمته التي ألقاها في افتتاح المهرجان بحضور ولي العهد، الأمير عبد الله بن عبد العزيز. وكان الشيخ عبد العزيز التويجري يتوجه بكلمته إلى خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبد العزيز وقد جاء فيها:

«ما قام هذا المهرجان على عصبية ذميمة وضيق أفق بكل ما هو إنساني وحضاري، فقد أردتم أن يكون منه مدخل واسع إلى تراث عربي وإسلامي، تلتقي من حوله رعايتكم له، واهتمام أبناء أمتكم به، إلى أن يصل بنا هذا إلى دولة الملك عبد العزيز رحمه الله، التي أقامها على أبواب عصر الاكتشافات العلمية وهي ما تتعاملون معها اليوم في هذه الظروف بحكمة وبُعد نظر إن شاء الله.

فلنحمد الله على ذلك يا خادم الحرمين الشريفين (...) فما دخلت التاريخَ دمشق الأموية، أو بغداد الرشيد أو قاهرة المعزّ، أو سواهم، إلّا برسالة الإسلام وقيمه ومثله العليا.

ولولا عزّة الإسلام وروحه وإنسانيته لما كنا ولا كانوا أعلاماً على مشارف التاريخ يوحّد بيننا المعتقد الواحد والرسالة الواحدة في الوجود الواحد».

١٥

كنت أحادث عبد الوهاب البياتي في بهو نُزل (قصر الرياض). ولا أدري كيف ورد اسم عبد الأمير المعلاّ. قال البياتي «مات مسكين». قلت له مذعوراً «لا يا أخي، متى؟». «منذ بضعة أشهر. أصيب بانفجار في المخ». «لا حول ولا قوة إلّا بالله».

كان من الناس الذين أودّهم وآنس إليهم. ألقاه كل مرة، خلال زياراتي المتعددة لبغداد، أيام عملي في وزارة الإعلام القطرية ثم في منظمة اليونسكو.

تذكّرت ليلة سهرناها في مطعم (خان مرجان) الجميل. كان يومئذٍ وكيلاً لوزارة الإعلام، يلبس زياً عسكرياً ـ مثل سائر كبار موظفي الدولة ـ لا يناسبه ولا يَخيل عليه العسكري المحترف، الزي كأنه جزء من جسمه، مثل جلده.

كان كاتباً روائياً مجيداً وإنساناً لطيفاً مهذّباً. وكان واضحاً لي أنه يكبت في نفسه ألماً عظيماً بسبب تلك الحرب. تلك الأيام كانت ذروة الحرب العراقية ـ الإيرانية، ولم يكن مؤكداً أن العراق سوف ينتصر.

اقترح شخص منا أن يغني كل واحد أغنية من بلده. غنّت الشاعرة المغربية مليكة العاصمي أغنية مراكشية. مراكش هي مدينتها ومعقلها، لكنني لا أذكر الآن إلّا أصداء بعيدة من الصوت العذب الهامس الذي يعرفه كل من استمع إليها تنشد شعرها. وغنت الكاتبة الروائية إقبال بركة أغنية مصرية خفيفة. وأنا غنيت لهم أغنية ليست محزنة، ولكنها تحرك الكَمد في القلب المقروح أصلاً:

يَجْلي النّظْر يا صاحِ
منظر الإنسانْ،
الطَّرفُه نيام وصاحي.

ثم غنى عبد الأمير المعلاّ أعنية لم أكن سمعتها من قبل، علق بذهني منها هذان البيتان:

يا زارع (البدر نجوش) ازرع لنا حنّه
وجمالنا راحنْ للشام وما جنّه

أرجو ألّا تكون الذاكرة قد خذلتني. ولماذا لا تخذل بعد كل هذه الأعوام؟ هل (البادرنجوش) بالدال أم الذال؟ والجيم أم القاف؟ وهل هو نوع من الزهر أو الريحان؟

كان صوته حزيناً جداً مشحوناً بالشجن كما هو شأن العراقيين في

مثل تلك الأحوال. وانتشر الحزن على وجهه كله ودمعت عيناه. وقصة الأغنية محزنة كما قصّها علينا. فتى أحب فتاة، وتركها وسافر إلى الشام، على أن يعود إليها وشيكاً ومعه المال فيتزوجها. لكن غيبته طالت، وعاد بعد سنوات وقد تقدّم به العمر جداً وشاخ.

سأل عن حبيبته فعلم أنها تُوفيت. جلس ساهماً في مقهى، ورأى بائع (البادرنجوش) وتذكّر الحنّاء والأفراح والعمر الذي ضاع.

وأنا طليحُ أحزان، وأكثر ما أحزنني، الجِمال التي سافرت إلى الشام ولم ترجع، ولأننا كنا في بغداد، والزمان زمان حرب، فقد تخيّلت قوافلِ الأحلام العربية، دائماً تسافر، ودائماً لا تعود.

ثم جئت إلى بغداد في مهرجان (المربد) الذي احتفلوا فيه بالنصر. كنا نعلم أنه نصر مثل الهزيمة. كنتُ قبلاً قد سافرت من بغداد إلى النجف وكربلاء، بالسيارة. تمر بنا على طول الطريق ناقلات تحمل جثث القتلى موشّحة بالسواد.

في كربلاء، كانت المشاهد داخل الضريح وحوله، أمراً لا يحتمله القلب. يجيئون بجثث قتلى الحرب جثماناً بعد جثمان، يدخلون بها الضريح ويخرجون، النعوش مُجللة بالسواد، ونساء كربلاء في عباءاتهن السود، كأنهن لم ينزعنها منذ قرون. والبكاء والعويل. وكنت أعلم أن عبد الأمير المعلّا ينتمي إلى ذلك العالم، وهو عالمٌ واحد على عُدْوتي الصراع: القتلى القاتلين، والقاتلين المقتولين.

كانوا فرحين بالنصر في بغداد، وكان عبد الأمير المعلّا ما يزال وكيلاً لوزارة الإعلام، ما يزال يلبس بزّته العسكرية. توالى الشعراء

على المنبر، شاعراً بعد شاعر، ينشدون نصر العراق. ولا أخفي أن العدوى انتقلت إليَّ، فأنا بعدُ من غزيّة، أن غوتْ غويتُ.

جلست وصنعت قصيدة بـ «الدوبيت» وقلت لعبد الأمير يعطيني المكروفون لبضع دقائق، ولا يسألني ماذا سوف أقول. لكنه لم يقبل، وقال لا بد أن يُعرض النص على اللجنة المختصة.

ثم ذات مساء، قرأتها عليهم في مجلس خاص، وقلت لهم هذه هي القصيدة التي لم تسمحوا لي بإلقائها. كان شعراً لا يُؤْبَه له، لأنني لست شاعراً ولم أكتب شعراً من قبل. لكنهم طربوا للقصيدة أيّما طرب، فقد كان فيهم استعداد للطرب، في تلك الظروف.

مات عبد الأمير المعلّا رحمه الله، بانفجار في المخ. وبغداد التليدة، لا تزور ولا تُزار أغلقت الدروب وهدمت الجسور. الأصدقاء يموتون ولا نسمع بموتهم.

وقوافل الأحلام العربية، تسافر، تسافر، ولا تعود.

وصلتُ الرياض بعد منتصف الليل، ووجدتها باردة مبللة بالماء. كان المطر قد كفَّ لتوه. لندن أيضاً، كانت حين غادرتها ممطرة ترتعش من البرد.

إلّا أن مطر الرياض شيء آخر، الأرض الصحراوية الظمأى أحياناً لسنوات تتضوّع بعطر لا يمكن وصفه. ذكّرني بالنيل حين يمتلىء صدره بالغيظ ويفيض على الضفتين، والبرم، زهر الطلح، والقرظ، ثمر السُّنْط، والسّيال والحَراز، والحطب المبتل، وطَلْع النّحل حين يتهيأ للّقاح.

هذه روائح الحياة تستيقظ من النّوم ـ ليس الموت ـ وقد دوّخت الشعراء العرب من قديم، وأسرت قلوب الأوروبيين أمثال (لورنس العرب). كره البَلل المفرط في بلاده، وأحب الجدب واليباس، لولا

أن حبه للعرب لم ينفعهم بشيء.

هطل المطر على الرياض وبلاد نجد، كما خبّروني في ما بعد، هطولاً لم يحدث مثله منذ سنوات. وقد رأيت آثاره بعد أيام من وصولي، في الطريق إلى (الدرعيّة)، حيث دار عبد الله الناصر الذي ألحّ رغم مرضه أن نتغدى معه. هذا فتى أخو إخوان، (ود قبايل)، كما نقول بلهجتنا.

نزعت الأرض ثوبها الخلق، ولبست الثوب الذي نسجه لها غيلان العبقري. هل رأيتَ منظراً أجمل من منظر الوديان وهي تسيل في البلد القفر؟ أو فيها بقايا ماء متقطع؟

أشجار الأرطى استضافت ثور ذي الرمّة، بعضها يابس يشهد على سنوات القحط، وبعضها مخضرّ مستجيباً لهبة الله التي جاءت فجأة على غير موعد.

الطرفاء أكبر مما عندنا في وادي النيل، والطلح أصغر. والسيال والرّمث والعُشر. العشب يغطي وجه الأرض على مدّ البصر، والأزهار فوضى الألوان. وأحياناً قطعان من الضأن. وأحياناً من الإبل. وأناسٌ ليسوا بدواً، نصبوا الخيام هنا وهناك، وغابات النخل في وادي حنيفة، ليست كثيفة كما في وادي النيل وسواد العراق. لكن النخل ـ لعارفيه ـ هو النخل. واحدة تكفي لتحريك الخيال والشجن.

النخل والنساء. وكأنّما بعضُ النساء، في عذوبتهن وكرمهن وصبرهن ووقارهن، واعتدال قدودهن، وغزارة فروعهن، قد انحدرن

من بعض سلالات النخل.

غير بعيد من دار عبد الله الناصر، مواقع معارك الردّة الشرسة التي قادها سيف الله خالد بن الوليد ضد مسيلمة وقومه. دخلنا الحديقة حيث دارت أشرس المعارك. استشهد من حَمَلة القرآن، كما حدّث الرواة، ما بين سبعين إلى ثمانين قارئاً.

كان بين الشهداء زيد بن الخطّاب، أخو عمر، وقبره ثمّة موجود إلى اليوم. لمّا رأى زيد أن المسلمين قد انكشفوا، حفر لنفسه حفرة ووقف فيها، وظل يقاتل حتى قُتل. ومثله فعل جُلّ الصحابة رضوان الله عليهم.

تكاد تسمع أصوات الشعراء النجديين الفحول إذا أرهفت السمع. والدهناء، غير بعيد كما أخبرني عبد الله، حيث غنّى غيلان كما لم يُغنّ أحد:

تحنُّ إلى ميٍّ كما حنّ نازعٌ
دعاه الهوى فارتاد من قيده قصْرا
فقلت اربعا يا صاحبي بدمْنة
بذي الرِّمث قد أقْوت مرابعُها عصرا

قلتُ إنني وصلت بعد منتصف الليل، ولما دخلت (قصر الرياض) كانت الساعة نحو الثانية. وجدتُ جماعة من ضيوف المهرجان يسمرون، فيهم عبد الوهاب البياتي ونجم عبد الكريم. بعد أن وضعت حقيبتي في الغرفة عدتُ إليهم، ولم نتفرّق إلّا حين أذّن مؤذّن الفجر.

البياتي يبدو متعباً، ولكنه يسهر ويدخّن. ونجم عبد الكريم يحوطه برعايته كما يرعى الابن أباه. نجم قد يبدو إنساناً خشناً في نظر بعض الناس، لكنه في الحقيقة إنسان عطوف رقيق القلب.

الفيتوري في البلد لكنه ليس معهم. بينه وبين البياتي كما كان بين جرير والفرزدق. يتصنّعان الخصومة على غير عداء. حين يُسأل البياتي عن الفيتوري يقول «هل يوجد شاعر اسمه الفيتوري»؟ والفيتوري يقول حين يُسأل عن البياتي «هل هو ما يزال حيّاً»؟

لكنني كنت متأكداً أن أحدهما لو رحل ـ بعد عمر طويل إن شاء الله ـ فسوف يبكي الآخر كما بكى جرير حين بلغه نبأ وفاة الفرزدق. بكى وقال:

ذهب الفرزدقُ بعدما جدّعتهُ

ليت الفرزدق كان عاش قليلا

الاهتمام والعناية اللذان بذلهما شباب الحرس الوطني لضيوف مهرجان الجنادرية ـ كما يفعلون كل عام ـ أمرٌ مؤثر حقاً.

هؤلاء الشباب المضيئو الوجوه، أخذهم الحرس الوطني من شتّى بقاع المملكة، وصهرهم في بوتقة واحدة. أعطاهم الانضباط والحزم والعلوم، ولكنه لم ينزع منهم سجاياهم العربية المتأصلة، من نخوة، وسماحة طبع وبشاشة وجه.

تجدهم في المطار يستقبلون القادم ويودّعون المسافر، في ساعات متأخرة من الليل وفي بواكير الصباح. وفي نزل (قصر الرياض)، حيث يظلون مع القادم حتّى يدخلوه غرفته ولا يتركونه حتى يتأكدوا أنه قد اطمأنّ في محلّه.

لا توجد مشكلة إلّا ويجدون لها حلاً، وهم يبذلون ذلك الجهد كلّه عن طيب خاطر، ودون أي ملل أو تبرّم. ولو لم يكن في الجنادرية شيء غير المعاملة الكريمة من أولئك الشباب لكفاه فخراً، ولكنّ مهرجان الجنادرية ينطوي على معان كثيرة إلى جانب ذلك.

إنهم يستحقون أن ينوّه بهم ويثنى عليهم. ولولا ضيق المجال لذكرتهم جميعاً بأسمائهم.

الرجل الذي كان مرابطاً بالهوتيل طوال فترة المهرجان، معسكراً في مكتبه المؤقت بالليل والنهار هو حسن خليل: هذا الإنسان المتميّز بحق هو رئيس تحرير مجلة «الحرس الوطني»، ويعمل أيام المهرجان مشرفاً مقيماً، ينسّق جهود أولئك الشباب، بالإضافة إلى تحرير صحيفة «مهرجان الجنادرية» التي تصدر يومياً.

عرفت حسن خليل منذ أخذت أحضر مهرجان الجنادرية في سنواته الأولى. كان تلك الأيام يعمل تحت إشراف صديقنا العزيز، الرجل الفاضل عبد الرحمن الشثري. ثم كبر مهرجان الجنادرية، وتنوعت نشاطاته، وكثر زواره.

لم يتغيّر حسن خليل. ظل كما عهدته دائماً، العمل المخلص الدؤوب، وسماحة النفس وبشاشة الوجه، إنه نموذج لرعيل من الشباب، يعطون المملكة العربية السعودية صورة مشرقة لدى كل من يتعرّف إليهم.

منهم أيضاً فيصل المعمّر، وكيل الحرس الوطني للشؤون الثقافية والتعليمية، ونائب رئيس اللجنة التنفيذية للمهرجان. وهو وجه

جديد نتعرّف به هذا العام، وقد كان دائم التردّد على ضيوف المهرجان بالهوتيل، وترك أثراً حسناً في نفوسهم جميعاً. كذلك الدكتور عبد الرحمن السبيت، وكيل الحرس الوطني للشؤون الفنية، ورئيس اللجنة التنفيذية للمهرجان، وهو إنسان عرفناه منذ زمن وعرفنا مدى إخلاصه في عمله.

هذا وقد نمت على امتداد المواسم الماضية روح يمكن أن توصف بـ (روح الجنادرية) وهي روح من التواصل والتفاعل الخلاّق بين ضيوف المهرجان والمسؤولين والمثقفين في المملكة. وقد عبّر الدكتور علي حرب الذي تحدث باسم المدعوين في حفل افتتاح الفعاليات الثقافية ـ عبّر عن أهمية مهرجان الجنادرية بقوله:

«على المستوى العربي يشكل المهرجان مجالاً للتداول الفكري والمعرفي، سواء عبر الندوات أو عبر اللقاءات الحيّة في ردهات الفندق بعد انفضاض الجلسات (...) وعلى المستوى الدولي يشكل المهرجان أفقاً للتواصل بين الثقافات لأنه يتناول قضايا تستأثر باهتمام الإنسان المعاصر بصرف النظر انتماءاته المختلفة...».

١٨

الدكتور منصور الحازمي صديقي منذ زمن، لا أذكر منذ متى. يعجبني فيه صفاء الذهن، والوضوح والصراحة في الرأي، وأنه لا يتأثر بالموضات الأدبية العابرة. كان عميداً لكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بالرياض، وعمل فترة عضواً في مجلس الشورى. وذلك عندي من الأدلة البيّنة أن مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية ليس شيئاً صوريّاً، لأن منصور الحازمي وأمثاله ـ وهم كثر ـ لا يفتقرون إلى الرأي، ولا إلى الجرأة على إبدائه.

نلتقي من وقت إلى آخر في المؤتمرات الأدبية. أفرح حين أجده، لأنه دائماً يعبّر عن آرائه بروح تنزع إلى الدعابة والمرح. وهو رغم رصانته، من هؤلاء العلماء الذين لا يأخذون أنفسهم مأخذ الجد. دائماً يجد وجهاً للطرافة في أي قضية. وكثيراً ما تكون دعاباته من الأشياء التي تعلق بالذهن، بعد أن

تنفضّ المؤتمرات، وينسى الإنسان كثيراً مما استمع إليه.

تزاملنا مدى أربع سنوات في لجنة (التخطيط الشامل للثقافة العربية) برئاسة الرجل النادر المرحوم الأستاذ عبد العزيز حسين. كان ضوءاً لامعاً في الجزيرة العربية، الملأى بالأضواء، مثل سائر بقاع الأرض العربية، ولكنّ ضوءاً يَفْرق عن ضوء.

أنشأها الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأنفقت عليها دولة الكويت بسخاء.

كانت تضم رجالاً فضلاء ذوي علم وسَبْق. نجتمع في الكويت وفي تونس، ومرة استضافنا الدكتور عبد العزيز المقالح في صنعاء.

كانت أياماً جميلة، وكان أجمل ما فيها أننا نحن أعضاء اللجنة ـ وكان عددنا قليلاً ـ تعارفنا معرفة حقيقية، فكرياً وإنسانياً. أما ماذا بقي من ذلك الجهد؟ الله أعلم. طُبعت التوصيات في سفر ضخم، وتُرجمت إلى الإنجليزية والفرنسية، ووزّعت على وزارات الثقافة في العالم العربي وكل من يهمّه الأمر. وقد أشرف على ذلك، مقرر اللجنة المرحوم الدكتور شاكر مصطفى، ذلك الرجل الهام الذي فقدته الحياة الفكرية العربية.

هل أحد استفاد من التقرير؟ هل أي وزارة من وزارات الثقافة العربية عملت بأيٍّ من التوصيات؟ الله أعلم. ويحزنني أن أقول من خبرتي في ميدان العمل العربي المشترك في الإعلام والثقافة، أن في تلك المجالات على أي حال، شيئاً من أمر ساقية جحا، تغرف من البحر وتصب في البحر.

لا جَرم، فقد كانت مُنىً كما قال الشاعر القديم، إن لم تصدُق فقد عشنا بها زمناً رغداً. تعرّفنا إلى أخوة صالحين، وزُرنا بلاداً عربية ـ وهو في حد ذاته فائدة ـ واستمعنا وتحادثنا وسمرنا وضحكنا. ولعل ذلك كله لا يذهب هباء في نهاية الأمر.

هذا، وقد تعرّفت بواسطة منصور الحازمي إلى الدكتور عزت خطاب أستاذ الأدب الإنجليزي ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الملك عبد العزيز. وهو أيضاً من هؤلاء الناس الذين يألفون ويؤلفون. وتعرّفت بواسطتهما في زيارتي لمهرجان الجنادرية، بالأستاذ منصور الخريجي مساعد مدير المراسم في الديوان الملكي. وهو من نسقهما وعلى شاكلتهما.

لا عجب، فهم كما علمت، أخدان صبى، ورفقاء دراسة، منذ عهدهم بالمدرسة الثانوية في مكة المكرمة ثم في جامعة القاهرة. ولا أدري هل أدرك غازي القصيبي عهدهم ثمة، فهو أصغر منهم سنّاً كما لا يخفى.

أهدي إليّ منصور الخريجي كتاب سيرة حياته الذي سماه «ما لم تقُلْه الوظيفة». قرأته حين عدتُ إلى لندن في قعدة واحدة. إنه ـ لعمري ـ من أجمل السير الذاتية التي قرأتها لأي من العرب المعاصرين، وأرجو أن أكتب عنه في المستقبل إن شاء الله.

كذلك استفدت فائدة أخرى. أعطاني منصور الحازمي ديواناً لإحدى طالباته في قسم اللغة العربية بالجامعة، اسمها أشجان الهندي. وهو ديوان صغير الحجم مضيْتُ عليه في نحو ساعة واحدة. ولكن يا له من شعر، إنما تلك قصة أخرى.

١٩

أسفت أنني لم أجد عبد الله الجفري في الرياض، فقد عاد إلى جدة يوم وصولي. حين لقيته في دار عبد الله الناصر في لندن، كان ودوداً بشوشاً كعهدي به، واتفقنا أن نلتقي بعدها، ولكنه سافر فجأة. وعلمت من عبد الله الناصر أنه أحسّ بالإعياء. وكأنه خاف أن يحدث له شيء في بلاد الغربة ـ لا سمح الله.

معروف أن الجفري يعاني من ذات القلب، مثل صديقه العزيز وصديقنا نزار قباني. وقد أجريت له عملية كبيرة منذ بضعة أيام.

وما له يُصاب بذات القلب؟ هذا إنسان متيّم بحب العرب والعروبة، يحمل قلبه على راحتيه، ينشر الودّ، ويستنهض العزائم، يمجّد الخيرين ويدعو للمرضانين ويرثي الراحلين، وينشد أغاني العشق للعاشقين. كل ذلك بأسلوب خاص به لا يحسنه غيره.

كنت متواصل الترحال في الأشهر الأخيرة، فلم أنتبه إلى أن الجفري توقف عن الكتابة. ثم لما عدت إلى لندن، نظرت إلى الصفحة الأخيرة في جريدة «الحياة». فإذا جانبها الأيمن قد أظلم تماماً، كأن حديقة غنّاء مزهرة قد حفروا أرضها وصبّوا عليها الإسمنت.

اختلّ التوازن في صفحة «الحياة» الأخيرة. بين عبد الله الجفري على اليمين، وجهاد الخازن على اليسار، علاقة (جدلية) ـ كما يقول أصحابنا. هذا يهجو (نتنياهو) وإسرائيل وأمريكا بأسلوبه الحلو المرير، وذاك يبدأ بالشعر ويختم بالقبل، وإذا شتم (سيدة القوة) ـ كما يسميها، فإنما يفعل ذلك بطريقته التي هي أقرب إلى الحزن منها إلى الغضب. كأن قلبه لا يحمل حقداً ـ حتى على أمريكا.

خفت أن يكون حدث له شيء، إلى أن طمأنني عبد الله الناصر في الرياض، أن الجفري بخير وسوف يعود إلى الكتابة. وقد عاد، فأهلاً به ومرحباً.

وما أروع حب عبد الله الجفري لنزار قباني أمير عشاق الأمة العربية الشموس، هو أيضاً أصابه حبه للعروبة بذات القلب، وكاد يودي به مؤخراً، لولا عناية الله.

نحن كلنا، وملايين العرب في مشارق الأرض ومغاربها، نحب نزار قباني. ولكن أحداً منا لم يعبّر عن حبه كما فعل الجفري. ظل يدعو ويبتهل ويهش الموت عن صديقه، حتى استجاب الله الدعاء ونهض الشاعر الكبير من رقدته.

هذا، ولا بد أن قراء «المجلة»، قد افتقدوا عوني بشير في صفحة

(مربط الجمل). وعوني لمن عرفه، إنسان نادر المثال في دماثته ورقته ومرحه. ولكنه حين يكتب، فهو يفعل ذلك بأسلوب حارق له مذاق (الشطة) حين تعصّر عليها الليمون.

وهي كلها أنواع من الحب. ووراء العنوان سخرية ليست خافية، فهو يقصد (مناخ الجمل) وليس مربطه. كأنه يريد أن يقول إن هذا الجمل العربي قد آن له أن ينهض من (إناخته)، كما وصف مولانا أبو الطيب:

ذراني والفلاة بلا دليل
ووجهي والهجير بلا لثام
فإني أستريح بذي وهذا
وأتعب بالإناخة والمقام

ظل يهيب بالجمل أن ينهض بشتى الوسائل. بالتوسل والرجاء والسخرية والهجاء الصّراح أحياناً. والجمل ـ لحد الآن ـ كأن في أذنيه وقراً.

هذا أيضاً إنسان أضناه حب العرب والعروبة، حتى أصابه بذات الرئة. في فترة بين أسفاري زرته في المستشفى، فوجدته نحيلاً متعباً تحت وطأة المرض. ورغم ذلك تحدث معي حديثه العذب كعهده دائماً، وأضاءت وجه المتعب ابتسامته الصافية التي يتميّز بها.

أسأل الله له الشفاء وأن يعود قريباً إلى الكتابة، فلا أظن أن الجمل العربي ينهص إلّا بجهده وجهد أمثاله.

ولله در أبي الطيب العظيم، كأنه وصف عوني بشير ومن هم على شاكلته حين قال:

يـقـول لـي الـطـبـيـب أكـلـت شـيـئـاً
وداؤك فـــي شـــرابـــك والـــطـــعـــام
ومـــا فـــي طـــبـــه إنـــي جـــوادٌ
أَضـــر بـــجـــســـمـــه طـــول الـــجَـــمـــام
تـــعـــود أن يُـــغـــبِّـــر فـــي الـــسّـــرايـــا
ويـــدخـــل مـــن قَـــتـــام فـــي قَـــتـــام
فـــأُمْـــسِـــك لا يُـــطـــال لـــه فـــيـــرعـــى
ولا هـــو فـــي الـــعـــلـــيـــق ولا الـــلـــجـــام

٢٠

كلمة (حوار) ترد كثيراً على لسان هذا الشيخ العتيد. في كتاباته وخطه وأحاديثه. وخلال أكثر من عشرين عاماً أسعدني الحظ بمعرفته فيها لا أذكره إلّا محاوراً بالمعنى الشامل للحوار، حيث الأفكار تغدو وتروح، يسيرة خالية من التوتر، كأنها حبّات من أطايب تمر المدينة.

كتُبه الرصينة التي ظلت تترى منذ كتابه «في أثر المتنبي بين اليمامة والدَّهناء»، هي في بعض وجوهها محاورات مع المتنبي وأبي العلاء والبترول والصحراء والتاريخ والحاضر والمستقبل. تجد في تلك الكتب سمات عقل أصيل (قح) ظل محتفظاً بصفائه الأول ودهشته وجموحه البكر. لم تختلط عليه الأمور، ولم تعكر صفاءه الأفكار والنظريات المصنّعة.

دائماً يقول لأصدقائه وزوّاره من الأساتذة والمفكرين - وهو بين الجاد والهازل - أنه لم يتعلم في مدرسة ولم يتخرج من جامعة لكنه في الحقيقة يكون دائماً أقدر ممن حوله على النفاذ إلى صميم الأشياء. كأنه شيد لنفسه جامعة خاصة به، يأخذ منها ما يناسب طبعه ويتمشى مع سجيّته المبدعة. يخلط كل ذلك مع مشاهداته وتأملاته وخبراته مع الناس والحياة، في بوتقة عقله غير العادي.

وهو عقل كأن له آفاقاً لا محدودة، لا يزعجه ولا يصدمه رأي مهما كان غريباً أو متطرفاً. يستمع أكثر مما يتكلم، وحين يتكلم يعيد صياغة الرأي النافذ وينزع منه الغرابة والتطرّف.

في إحدى زياراتي للرياض، اصطحبت معي إلى دار الشيخ الشاعر اللبناني الموهوب طلال حيدر، ولم يكن تعرّف إلى الشيخ من قبل. وجدنا المجلس عامراً، كما يكون دائماً.

فيه الأخضر الإبراهيمي والدكتور مصطفى الشكعة وبلال الحسن والفيتوري والدكتور ميلاد حنا والهاشمي الحامدي ونجم عبد الكريم. ونجم من الناس الذين يأنس إليهم الشيخ. وكلمة «أنيس» من الكلمات التي يؤثرها وهي عنده غاية الثناء، يقول «فلان أنيس».

لم يلبث أن جاء شاب سعودي ومعه رجل تونسي اتضح فيما بعد أنه أستاذه في الجامعة. ما إن استقر به المجلس حتى قال للشيخ إنه يُعدّ أطروحة ماجستير عن كتبه، ولكن بعض أصدقائه نصحوه ألّا يمضي فيها، وأن أحدهم قال له: «هل أنت متأكد أن الشيخ هو الذي كتب هذه الكتب»؟

نظرت إلى طلال حيدر ونظر إليَّ متعجّبين من جلافة ذلك الشاب وجهله، كما تعجّب كل من في المجلس، وأطرق أستاذه حياء. ولكن الشيخ ابتسم، ونظر إلى الشاب نظرة فيها رثاء ولم يقل شيئاً.

ذهب الحديث مذاهب شتى في دار الشيخ ذلك المساء. وكنت أحس بطلال حيدر إلى جانبي يزداد إعجاباً بما يسمع من الشيخ ويتورط أكثر فأكثر في أسر جاذبيته. وفي أخريات المساء طلب من الشيخ أن يهدي له كتابه عن الملك عبد العزيز، وقد سماه «لسراة الليل هتف الصباح». دائماً يختار عناوين كتبه بعناية عظيمة. العنوان إغراء لما سوف يأتي.

حينئذٍ أملى عليَّ الشيخ عفو الخاطر إهداء ملأ صفحة كاملة دون توقف، وكأن الكلمات والجمل تفد عليه وفوداً. كان الإهداء في حد ذاته قطعة أدبية مكتملة.

هبَّ طلال حيدر من مقعده وقبّل جبهة الشيخ. ولما خرجنا قال لي «أنا حبّيت الشيخ هيدا من كل قلبي. شو هادا الإنسان؟ أنا بحياتي ما شفت حدا متله».

كنت أعرف أن الإهداء هو ردّ الشيخ على جلافة ذلك الشاب وبقية الجهلاء أمثاله الذين لا يصدّقون أن رجلاً نجدياً متوقّد الذهن، متّسع الآفاق، عالي الهمّة، نافذ البصيرة، لم يدخل مدرسة نظامية ولا نال شهادة جامعية، يستطيع أن يكتب مثل أساتذة الجامعات، بل أفضل أحياناً.

كان الشيخ صادقاً مع نفسه ووفيّاً لطبعه حين قال في خطبته في

افتتاح مهرجان الجنادرية الثالث عشر:

«... ما كان لهذا الحضور أن يغفل استحضار ذلك الرَّكب الصغير الذي قاده مؤسس مملكتنا الحديثة الملك عبد العزيز ـ غفر الله له ـ فعبد العزيز الشاب قائد الرحلة التاريخية سيظل حواراً لا يهدأ في قلب الزمن (..) لنستحضره ونستحضر معه ما عاناه ورجاله ـ غفر الله لهم جميعاً ـ في سبيل توحيد مملكتنا الحديثة بعد أن تبددت ولاذت بكهوف العزلة وألفتْها. وما هذه اللقاءات على صعيد الجنادرية إلّا من ذلك الحوار التاريخي الذي منه مدخلنا إلى عالم العصر.

نعم. مهرجان الجنادرية ساحة للحوار، وعمل ثقافي عظيم نهضت به المملكة العربية السعودية، يؤثر على البيئة التي صنعته ويتأثر بها. والفضل بالطبع يرجع في المقام الأول إلى رأس الدولة، خادم الحرمين الشريفين، الذي من بعض مآثره أنه وسّع المسجدين الجليلين أعظم مما فعل أي حاكم في التاريخ قبله. ولم يعْدُ الشاعر الكبير محمد حسن فقي الحقيقة حين قال:

وآثر من دون الجلالة خدْمةً
لقُدسيْن إيثاراً يعزُّ على الغير
فلا زال فينا رايةً مستعزة
بإيمانها من دون غدر ولا كبْر..

ثم الفضل يرجع بعد ذلك إلى الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد ورئيس الحرس الوطني، وهو الجهة المشرفة على تنظيم المهرجان. ومن حسن حظّ الدولة السعودية أن فيها نصحاء ومستشارين أفذاذاً من طراز هذا الشيخ العتيد الأبلج الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري.

أصيلة

١

كانت مبادرة حميدة من الأخ محمد بن عيسى وزير الثقافة في المغرب، وهو صاحب أرْيحيّات كثيرة، أنه خصّص أمسية في موسم أصيلة هذا العام، لتذكّر ـ ولا أقول تأبين ـ الكاتب العملاق يوسف إدريس. وكان يوسف قد شارك في موسم من مواسم أصيلة منذ بضعة أعوام، وترك أثراً لا يُنسى، كما كان يفعل دائماً!

ارتجل محمد بن عيسى كلمة بليغة، تحدّث فيها عن صداقته بيوسف إدريس، وعن المكانة السامية لأدبه، الذي وصفه بأنه أعظم بكثير حتى مما اعترف به الناس. وقال إن موسم أصيلة الثقافي سوف يُصدر عنه كتاباً. ولعل هذه هي أول مرة في العالم العربي، تكرّم فيها ذكرى كاتب بهذه الطريقة، خارج وطنه الأم. وتحدّث لطفي الخولي، الكاتب المرموق، زميل يوسف إدريس في «دار الأهرام» العتيدة، وصديقه الحميم طيلة سنوات، فأعاد إلى

الأذهان صورة يوسف، إنساناً حياً نابضاً بالحياة.

كذلك تحدث الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه، الكاتب الروائي الليبي الموهوب، فنوّه بمكانة يوسف إدريس في الأدب العربي المعاصر، واعترف بعمق تأثيره عليه. ويمكن القول أن أحمد الفقيه، كان أحد حواريي يوسف إدريس، وكان أحد أصدقائه المقربين. وفي كلمة حزينة عبّر الدكتور مبارك ربيع من المغرب، عن عمق إحساسه وإحساس جيله كله بالفجيعة لفقد يوسف إدريس. وقال الكاتب الروائي المبدع، جمال الغيطاني، إن الفراغ الذي أحدثه يوسف إدريس، فراغ لن يمتلىء بعده، وأن الخسارة بفقده خسارة لن تعوض. وكنت أنا أيضاً من المتحدثين.

كان يوسف إدريس، صاحب موهبة ضخمة، لا يبالغ الإنسان إذا وصفها بالعبقرية. والموهبة عبء ثقيل فيه بعض معاني اللّعنة. وإذْ حمل نجيب محفوظ هذا العبء بجلد ومصابرة، كما يفعل الزهاد العاكفون، كان يوسف إدريس يبدو أحياناً وكأنه ينوء بهذا العبء، وكأنه يود لو استطاع أن يلقيه عن كاهله. كان يتأرجح بين أحوال من الاكتئاب والبهجة. وربما حاول أمراً عسيراً، أن يحيا الحياة إلى أقصى مداها كما يشاء وأن يصنع فناً عظيماً. ولعله نجح بعض النجاح. ولكنه دفع الثمن الذي لا مناص منه آخر الأمر.

قلت له في بغداد أثناء الضجة التي افتعلها حين نال نجيب محفوظ جائزة نوبل «يا أخي أنت عاوز تتمتع بالحياة، وتتفسَّح وتعمل ما تعمل، وكمان تأخذ جائزة نوبل؟».

ضحك من أعماق قلبه، كما كان يفعل، فلم يكن يضمر حقداً لأحد، وقال لي «وليه لا؟».

كان يوسف في الحقيقة إنساناً كريماً طيباً طيبة بالغة، إذا وجد منك وداً ومحبة، أعطاك ودّاً بلاد حدود. وعلى مدى ربع قرن من الزمان، لم أجد منه، ولم يجد مني، غير الإخاء والودّ. ولن أنسى ما حييت عبارة قالها لي ذات يوم «تعرف يا طيب. أنا لمّا أقرأ لك بَحسّ بالونَس» كانت عبارة عميقة مؤثرة، ظللت أذكرها وأنوّه بها، فالكاتب على وجه الخصوص، يدرك مدى الوحشة التي تجلبها ممارسة هذا الفن الملعون. أنْ تعلم أن لك «أخوة» في البلاء، يعزّيهم أنك موجود، وأنك تكتب، وأنك تفرح بوجودهم وإبداعهم، ذلكم الذي يبدّد الوحشة، ويصبّر على البلوى، ويجلب «الونَس». أصوات تنشد في حُلكة الوجود، يأخذ بعضها من بعض ويعطي، تتجاوب أصداؤها من بلد إلى بلد، ومن قُطر إلى قطر، ومن قارة إلى قارة، بل ومن زمان إلى زمان، تصنع من تفاهات الواقع، وعذابات العمر القصير العابر، شيئاً لعله يستمر. لعلّه يبقى. ذلك هو. ولا يمكن تحقيقه إلّا بالمحبة. وكان صوت يوسف إدريس صوتاً نادراً من هذه الأصوات. سوف يقوى وقعه وتأثيره على مدى الأيام.

كان عامراً بالمحبّة، رغم ما كان يبدو أحياناً عكس ذلك، بسبب تناقضات سلوكه في الحياة والمعارك التي كان يفتعلها ويلقي بنفسه في غمارها دون مبرر في الغالب وبلا أسلحة، ثم يخرج منها، وينساها تماماً. لم يكن يعرف الحقد. لم يكن ذلك إلّا مظهراً من مظاهر إحساسه بفداحة العبء. عبء الموهبة الكبيرة التي ابتُلي بها.

وأيضاً كان شجاعاً شجاعة قلّ نظيرها. قام في فنه بمغامرة طريفة، حدّق فيها بعيني طفل عبقري بنهم وجودي، في عوالم لم يجرؤ أحد من الكتاب المعاصرين على التحديق فيها. وكان يعود من التجربة مملوءاً بالنشوة ـ فقد كان يعرف ضخامة موهبته ـ ولكنه

يعود أيضاً مزعزعاً متناثر الأجزاء. لا يلبث أن يلقي بنفسه في غمرات الحياة، باندفاع وطيش أحياناً، فيخاصم ويعارك ويثير العواصف بما يقوله، وما يكتبه في الصحف، وبعض ما يفعله. ولعل هذا صرَف أنظار بعض الناس عن إدراك مدى روعة فنه.

ها هو الإنسان، الكائن البشري المحدود الأجل، الذي يقطع رحلة العمر كما ينبسط الظل ثم ينطوي، ها هو ذا قد مضى. يوسف إدريس لم يعُدْ. سوف يبقى فنّه العظيم. إنما حتى هذا عندي، وعند الكثيرين أمثالي الذين أحبّوه وأحسوا «بالونَس» لمجرد أنه موجود يُرهف السمع لصوتك، وتُرهف السمع لصوته ذي الجاذبيّة الفريدة ـ أقول حتى هذا لا يُعزّي عن فقده.

٢

تركت حامد الخوّاض رحمه الله، حيّاً ممتلئاً حياة، ضاحكاً أبداً كعادته. كنت أمر عليه في مكتبه في الصباح، وأشرب معه قهوة «الكاسنْجر»، وهي قهوة تركية يُضاف إليها اللبن المغلي. أول مرة قدمها لي، قلت له إنها تذكرني بالقهوة التي كنا نشربها في محطة «الكاسنجر» ونحن في طريقنا بالقطار من الخرطوم إلى كريمة. فأطلق حامد الاسم عليها، وأصبح كل الموظفين في المكتب يطلبون من «عم شعبان» صاحب البوفيه قهوة «الكاسنجر».

«أبو طارق» كان يزورني كثيراً في مكتبي. يقبل مني سيجارة، وأحياناً يشرب معي الشاي بالنعناع. وكان يذهب من عندي ضاحكاً في أغلب الأحيان. أب لاثني عشر طفلاً، ويسكن في مخيم من مخيّمات اللاجئين. أستطيع أن أتصور العذاب الذي ذاقه. سائق ماهر حين يكون رائقاً، ويعمل بهمة ونشاط حين يسخو. يثور

أحياناً ثورات عنيفة. يوصلني إلى المطار، والسفارات للحصول على «الفيزات». كنت أعلم مما يقص عليَّ أنه يعاني من اضطرابات نفسية، وكآبة تنتابه دون سبب واضح. إلّا أنني أبداً لم أتصور أنه سوف يكون قاتلاً، وسوف يقتل، دون سائر الناس، حامد الخواض، الذي أكرمه وعامله بلطف لعله لم يجده في أي أحد صادفه طيلة حياته.

وعجيب أن يحدث هذا أيضاً في مكتب اليونسكو في عمان. هذا مكتب إقليمي يخدم الدول العربية جميعاً. وكان أول مدير له في عمان، الدكتور محمد إبراهيم كاظم، وهو رجل من الأخيار الأفذاذ. بعد تقاعده بقليل، أصيب فجأة بمرض خطير شفاه الله، وقد أخبرني «أبو طارق» أن ذلك حدث لأن كاظم «ظلمه»، وأنه لن يشفى إلّا إذا زاره هو في القاهرة وعفا عنه.

لم آخذ مثل هذا الكلام مأخذ الجدّ، فقد كنت أعلم أن «أبو طارق» يحس أن الحياة ظلمته، ومثل كثير من المظلومين، كان يوجّه حقده ضد أناس لا صلة لهم بما حدث له. كان كاظم في الواقع كريماً معه، وكذلك كان حامد الخواض.

مكتب عمان من أفضل مكاتب اليونسكو، يضم نخبة من جنسيات مختلفة، رجالاً ونساء، كلهم أكفاء ذوو خلق رفيع، يعملون كأنهم أسرة واحدة. ويغلب على المكتب جو من التآلف والود والبعد عن المراسم والشكليات، يرجع الفضل فيه إلى الدكتور محمد إبراهيم كاظم، ثم تعمق في عهد الدكتور حامد الخواض.

وفي الفترة القصيرة التي قضيتها معهم، حضرت أعراساً لمسلمين

ونصارى، وحفلات استقبال ووداع، عزّيت معهم، وسمرت معهم. أبداً لم يخطر لي أن هذا المجتمع الودود المسالم سوف يشهد حادثاً مروعاً، لم تشهد مثله منظمة اليونسكو طوال تاريخها من قبل. كانوا كل حين يجمعون التبرعات لمناسبة ما، وأكثر ما جمعوا لـ «أبو طارق».

لا تقل أنه الموت، يضفي على بعض الناس هالة لم تكن لهم في الحقيقة. أبداً. كان حامد الخواض إنساناً نبيلاً نادر المثال بحق. كان عذباً مثل الماء السلسبيل، فيه تواضع أهل السودان، ودماثة طبعهم وسماحتهم وزهدهم، حين يكونون في أحسن حالاتهم. من آل الخواض الكرام، من كبوشيّه في ديار الجمليين. كان محباً للناس ليس في قلبه ذرة من الحقد. كان مهندساً معمارياً، وكان مشغولاً ببناء مدارس قليلة التكلفة من مواد محلية بسيطة، فأشرف على تنفيذ مشاريع في اليمن وفي الصومال وفي السودان وفي أماكن أخرى. مسافر أبداً، لا يقر له قرار. أقول له «يا زول. السفر الكتير دا بيكتلك». فيجيبني ضاحكاً «الراعي واعي». يقصد الله عزّ وجلّ. وفي الفترات القصيرة التي يقضيها بين الأسفار في عمان، يعمل صباح مساء، يظل إلى الخامسة والسادسة مساء دون طعام، ويعمل أيام العطل. يعمل في صمت وفي زهد، لا يهتم بالدرجات والترقيات.

وكان مهتماً بـ «أبو طارق»، أعطاه كثيراً من وقته وأسبغ عليه كثيراً من رعايته. كان «أبو طارق» يعمل سائقاً مؤقتاً وكان يمرض ويتغيب كثيراً عن العمل. في كل مناسبة يجمعون له التبرعات. إذا ولد له طفل، إذا مات له قريب، إذا احتاج للعلاج. وقد رفضت إدارة المنظمة في باريس أن تضمه إلى الخدمة المستديمة، فبذل حامد،

رحمه الله، جهداً عظيماً، بل ذهب إلى باريس، وأقنع الإدارة أن يثبتوه ويمنحوه عدة علاوات استثنائية دفعة واحدة.

هذا حدث منذ أقل من ثلاثة أشهر. كان «أبو طارق» لا تكاد الدنيا تسعه من الفرح. طاف بالمكاتب يضحك ويوزع الحلوى. وأكثر ما أسعده أن كتاب ترقيته جاء من باريس، وباللغة الإنجليزية، وتحت اسمه خط باللون الأحمر.

«شايف يا سيد طيب. شايف اسمي، صقر سكر؟».

سعدت لسعادته، وقلت هذا إنسان لعله قضى حياته يبحث عن «الاعتراف»، فها هو ذا قد وجده. قلت له:
«مش قلت لك اصبر؟ شايف نتيجة الصبر؟».

«إي والله. دكتور حامد طلع راجل. أوفى بوعده، قال لي يا بو طارق اعتمد على الله وعليّ».

قال لي يومذاك أن حامد الخواض «أبوه» وملاذه بعد الله.

لم أنتبه حينئذٍ، ولكنني أدرك الآن أنه حين جعله بمثابة أبيه، فقد اختاره لأمر جلل.

ثم قُبيل سفري إلى أصيلة بالمغرب جاء يدعوني للغداء. أخبرني أنه سيعمل وليمة في داره على شرف حامد الخواض.

«لازم تحضروا كلكم. الدكتور عبد الواحد يوسف والدكتور هاشم

وأنت والباقين. تشوفوا بيت أخوكم الصغير».

قلت له إن ذلك سوف يكون شرفاً عظيماً لنا، واتفقنا أن تكون الوليمة بعد عودتي، قبل عشرة أيام فقط، وكان حامد الخواض حياً مملوءاً حياة.

كيف إذاً تحول الحب إلى حقد، والسرور إلى حزن، وحفل الغداء إلى مأتم؟

هل أقول إن حامد الخواض شهيد آخر في هذه المأساة الرهيبة التي يُقتل فيها الأبرياء، دائماً يُقتل الأبرياء، وتختلط الأمور، فلا يميّز الناس بين العدو والصديق؟

ومن أعزّي في حامد الخواض؟ هل أعزّي أسرته وعشيرته الأقربين؟ هل أعزّي السودان الذي أحبّه حامد وأسرف في حبه؟ هل أعزّي منظمة اليونسكو التي لن تجد أحداً مثله؟ هل أعزّي عبد الواحد يوسف الوفي وهاشم أبو زيد اللذين عادا بجثمانه إلى مسقط رأسه؟ هل أعزّي زملاءه وزميلاته في مكتب اليونسكو الذين بادلهم ودّاً بودّ؟ هل أعزي أصدقاءه ومحبيه الكثيرين في عمان وفي غير عمان، في السودان وغير السودان؟

هل أعزّي «أبو طارق» المسكين، القاتل المقتول الظالم المظلوم؟ لعله إذا أفاق من الكابوس المرعب الذي يعيش فيه، لعله يدرك، أنه قتل «أباه» وخسر سنده بعد الله.

٣

فكرة مُلْهَمة، حوّلت بلدة مغمورة، على بعد نحو أربعين كيلومتراً جنوب طنجة، على ساحل الأطلسي، إلى اسم ذائع يتردد صداه في العالم، وملتقى سنوي يفد إليه الكتّاب والشعراء والرسامون والموسيقيون من الشرق والغرب.

ما كنت لأعرفها أو أزورها، لولا أنني قابلت محمد بن عيسى في الدوحة أواخر السبعين، عام ثمانية وسبعين أو تسعة وسبعين. رأيت شاباً واضح الذكاء، يقظ العينين، حسن السَّمت متدفق الحماسة، تآلفنا بلا مشقة، فالأرواح جنود مجنّدة، وقد اكتشفت فيما بعد، أننا على بُعد الدار والمزار، نشأنا في بيئتين متشابهتيْن، وأبحرنا في رحلتيْن في الحياة، متماثلتين رغم اختلاف النتائج.

عرفت منه أنه عمل لسنوات في منظمة الأمم المتحدة، وفجأة قرّر أن

يستقيل ويعود إلى بلدته أصيلة، ويبدأ حياة جديدة تماماً. انتُخب عضواً في المجلس البلدي، ثم ما لبث أن صار رئيساً له، وعُمدة لأصيلة. ثم أصبح نائباً في البرلمان. بهرني كل ذلك، وأحسست كما لو أن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» قد انتهت نهاية سعيدة.

أول مرة زرت «أصيلة» منذ أكثر من عشر سنوات، وجدت بلدة أقرب إلى القرى منها إلى المدن، سوقها مثل أسواق القرى في شمال السودان، وطرقاتها مُتْربَة، وماؤها شحيح، والتيار الكهربائي ضعيف متقطع. فيها فندق واحد صغير لا يكاد يفي بالحد الأدنى من متطلبات النزيل. ومع ذلك، فقد كانت لها جاذبية واضحة، بموقعها على البحر، وقلعتها التي تقوم شاهداً على تاريخها العريق في مقاومة الإسبان والبرتغاليين.

غير بعيد من هنا في «وادي المخازن» هزم المغاربة ثلاثة ملوك من ملوك الفرنجة، وأوقفوا المدّ الاستعماري الأوروبي في عُنفوانه. البيوت في الحي القديم، لها طابع الحصن، ككل المدن الإسلامية المرابطة ينكفىء بعضها على بعض، أزقتها ضيّقة بحيث إنك تستطيع أن تمدّ يدك عبْر الطريق فتصافح يد جارك. رأيت بلدة تطوي ضلوعها على ماضٍ تليد وأشجان، بعيدة، مثل امرأة جميلة جارَ عليها الزمان.

لم يكن أيٌّ من ذلك غريباً عليَّ، وقد صادف أول زيارة لي، يوم آخر رمضان، فصليت معهم صلاة العيد، كأنني بين أهلي في شمال السودان.

الآن أصبح الماء دافقاً، والتيار الكهربائي متّصلاً. الطرقات المُتربة

تغطت بالإسفلت، وباحات الحي القديم وأزقّته، رُصفت ببلاط جميل على هيئة الموج، من تصميم الفنان الكبير محمد الملّيحي، ابن أصيلة، ورفيق محمد بن عيسى منذ طفولته، وعوْنه في النضال لنهضة المدينة. كذلك الكاتب الشاعر أحمد البقّالي.

في نحو عشر سنوات، خطت البلدة خطوات واسعة. أصبحت مدينة جميلة، تتميّز على كثير من المدن بالذوق والحسّ الجمالي الذي تشاهده في اللوحات الجدارية التي يتركها فنانون عالميون، تعبيراً عن حبهم لأصيلة، وتقديراً للوقت الجميل الذي قضوه بين أهلها. كذلك تلمس هذا الذوق، في الكورنيش الواسع الذي يزدحم بعد الغروب بأهل البلدة وزوارها. تمتلىء المطاعم والمقاهي وتعزف الفرق الموسيقية المغربية والوافدة في الباحة عند سفح القلعة.

يتقاطر الشباب المغربي، وبعضهم يفد من مراكش وفاس والدار البيضاء وتطوان والرباط، لحضور الندوات والمحاضرات في المركز الثقافي.

هذا مركز به قاعة كبيرة للمحاضرات والعروض السينمائية، و«ڤالَري» لعرض اللوحات الفنية وغير ذلك. وقد بُني بدعم مالي من السلطان قابوس، سلطان عُمان. وأيضاً يوجد قصر للثقافة، كان بناء قديماً متداعياً، فرُمّم وأعيدت عمارته بتمويل من الحسن الثاني، ملك المغرب. وقد أخبرني محمد بن عيسى أن هذا الملك المستنير، يواصل دعم النشاط الثقافي من ماله الخاص، كلما أحسّ أنهم في ضائقة، أمدّهم بالعون دون إعلان، ودون أن يطلبوا منه.

في أصيلة اليوم عدة فنادق مريحة، يجد فيها الزائر كل ما يحتاج

إليه. وفندق «الخيمة» حيث تنزل وفود موسم أصيلة، فندق رحب، به حمام للسباحة، وغُرَفُه نظيمة مؤثثة ببساطة، يمتلىء أغلب العام بالسيّاح.

ليس من المبالغة القول، أن محمد بن عيسى، حقق في أصيلة شيئاً يشبه المعجزة. لقد حوّل الأحلام التي يكتبها الروائيون، والأفكار التي تلوكها الألسن في الندوات والمؤتمرات، عاماً بعد عام، إلى واقع محسوس. مزج بين الثقافة والتنمية، وضرب مثلاً بعيد الدلالة، كيف يستطيع مجتمع أن ينهض بجهد أبنائه وبناته، معتمداً على طاقاته الإبداعية الكامنة. وهو مثلٌ جديرٌ أن يتأمله المفكّرون والدارسون، ففي الوقت الذي يبدو فيه، أن الخطط الشمولية والأماني العقائدية في إحداث ثورات اجتماعية كبرى في العالم العربي، لم تأت بكبير طائل، ها هنا تجربة أكثر تواضعاً وأعظم جدوى. لذلك يقول محمد بن عيسى «كل واحد يهتم بما حوله. يصلح ما يستطيع إصلاحه في حدود مقدرته. كل واحد ينظّف أمام داره».

هذا هو السلوك الذي حضّنا عليه ديننا الحنيف، فنسيناه فأنسانا الله أنفسنا، وأهملناه فحاقت بنا الذلّة والمسكنة. «لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

واضح من الآية الكريمة ومن الحديث الشريف، أن الهدف لا يتحقق بالإكراه والقهر، ولكن بأن يتحرّر الناس بملء حريتهم ومحض إرادتهم. كذلك كان الأمر في البدء، ولا مناص أن يكون كذلك اليوم.

في أثناء ذلك، قام محمد بن عيسى برحلة جريئة في إعادة اكتشاف ذاته والعودة إلى جذوره، طالما حلم بمثلها الشعراء والروائيون وأنا واحد منهم. وعجيب أن عودته كانت إلى بلدة تُسمى «أصيلة». هاجر إلى مصر أوائل الخمسينيات طلباً للعمل، وكان المغرب في قبضة الاستعمار الفرنسي والإسباني. تعذّب وعانى. كان يعود إلى المغرب فيجمع بعض المال من العمل في إذاعة طنجة، ثم يرجع ليواصل دراسته. وبعد ذلك سافر إلى الولايات المتحدة لمزيد من العلم. أيضاً كان يدرس ويعمل. وتزوج من أمريكية. وحال تخرجه التحق بالعمل في منظمة الأمم المتحدة، حيث صعد السلّم الوظيفي قفزاً، وأصبح مديراً في منظمة الغذاء والزراعة وهو في أوائل الثلاثينيات من عمره. وقد عمل مدة في أفريقيا وكوّن صلات واسعة مع زعمائها ومفكريها، وتعمّقت اهتماماته بأحوال الشعوب السوداء، الأمر الذي ترك أثراً عظيماً في نفسه، وظهرت نتائجه في عمله الثقافي في أصيلة.

ثم فجأة، كما أخبرني، استقال من عمله، وكان في أوج نجاحه. قرّر أن يعود أدراجه إلى نقطة البدء. اشترى بثمانية آلاف دولار داراً خربة في الحي القديم، حيث وُلد ونشأ. أعاد بناءها حسب تصميم صديقه الفنان محمد الملّيحي.

حدّثني محمد بن عيسى، أنه استيقظ ذات ليلة على طرق حاد وصوت ينادي باسم أمه. قال:

«أدركت فجأة أنني بنيت داراً بجوار قبر أمي».

طلّق زوجته الأمريكية، وتزوج من سيدة من أسرة عريقة في فاس.

أنشأ أسرة جديدة وبدأ حياة جديدة وهو في الأربعينيات من عمره. وقد ارتبطت رحلته الذاتية ارتباطاً وثيقاً بعمله الدؤوب لنهضة مسقط رأسه، ثم بعطائه للمغرب بأسْره، بوصفه وزيراً للثقافة.

٤

في كل موسم من مواسم أصيلة، يحدث شيء طريف يلفت الانتباه. في هذا الموسم الثقافي الرابع عشر، حدثت عدة أشياء مهمة، عُقدت ندوة عن جذور الفكر العربي المعارض وأي دور له في المستقبل. واستضيف الكاتب البرازيلي (جورج آمادو)، وهو في نظر الكثيرين واحد من عظماء كُتّاب الرواية في هذا العصر، ويعتبره البعض ـ وأنا منهم ـ أعظم الكُتّاب الأحياء في أمريكا اللاتينية. وقد ترأس ندوة عميقة الإشارات والدلالات، عن التمازج الثقافي في البرازيل.

وأيضاً تمّ في احتفال كبير تقديم جائزة (تشيكايا أوتامسي) في الشعر الأفريقي، للشاعر (ريني دبشتر). هذا بالإضافة إلى ندوة عن المرحوم يوسف إدريس. فلأبدأ بالحديث عن تشيكايا أوتامسي.

كنا زملاء في منظمة اليونسكو في باريس طيلة خمس سنوات. تعرفت إليه في أول شهر، فلم يكن التعرّف إلى تشيكايا صعباً. كان نوعاً من الناس، يجعلك تحسّ أنه يعرفك، وأنك تعرفه، منذ وقت طويل. لعلّني تعرّفت إليه عن طريق المهدي المنْجرة أو محمد عزيزة أو محمد بن عيسى. كان محمد بن عيسى أول ما يصل إلى باريس، يتفقّد أصدقاءه ويجمعهم حوله، ويكون بينهم دائماً هذا الشاعر الذي يحمل قلبه على راحتيه، يضحك كثيراً ويطوي ضلوعه ولا شك، على حزن بعيد الغور.

أتذكّره ضيّق الصدر بالنُّظم البيروقراطية في اليونسكو، يحنّ إلى التفرّغ لكتابة الشعر. ولعله كان يحلم أن يبني داراً في أصيلة، في الحي القديم، بجوار صديقه محمد بن عيسى. وكان قد أخذ في تعلّم اللغة العربية، يتحدّثها بلكنة حلوة، ويضحك إثر كل عبارة ينطقها.

لم أكن قد قرأت شيئاً من شعره تلك الأيام، فقد كان يكتب باللغة الفرنسية، التي كنت قد بدأت أتعلّمها لتوّي، لكنني كنت أعلم أنه شاعر كبير، يحظى بتقدير واسع حتى في فرنسا.

يقول محمد بن عيسى في كلمة مؤثرة ألقاها في رثائه في أصيلة عام ١٩٨٨:

> «كالطفل في مواسم أصيلة. كان من الروّاد الأوائل، قدم إليها في الموسم الأول راكباً حماراً، حيث لم يكن في أصيلة وقتئذٍ وسائل مواصلات من محطة القطار إلى المدينة.

قدم إليها بإنسانية جميلة ترعرعت مع المواسم. سكن في الفندق الوحيد في السوق. كان يخرج كل صباح ليحمل الماء من البئر حيث لم يكن في الفندق ماء (...).

عرفته عن طريق صديقنا المشترك المهدي المنْجرة. عشنا معاً كل الأفراح والأتراح. بعد ذلك احتلّ أصيلة. دخل ليسكن بيوتها كواحد من أهلها (...).

وبعد أن اختطفته يد المنيّة، كان لي ولصديقي المهدي المنجرة بتكليف كريم من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، الشرف في توديعه إلى مثواه الأخير (...) وصاحبناه في «بوانت نوار» في رحلته إلى المقبرة الجميلة، حيث يرقد جثمانه قرب المحيط. وقال لي صديقنا المهدي إنها امتداد لشاعرية تشيكايا على المحيط الأفريقي من أصيلة إلى «بوانت نوار».

يا له من عمل متحضر حقاً، أن ترسل دولة وفداً رسمياً لتشييع جثمان رجل ليست له أي صفة رسمية ـ شاعر وحسب. ولا بد أن ذلك أسعد تشيكايا حيث هو في العالم الآخر. إلّا أن تكريم أصيلة للشاعر لم يقف عند ذلك الحد، فهذا العام افتُتحت حديقة جميلة تحمل اسم تشيكايا أوتامسي في الباحة أمام القلعة، في احتفال حضره ضيوف موسم أصيلة، وكان بينهم (جورج أمادو). وفي وسط الحديقة شُيّد نُصب من الرخام، حفرت عليه أبيات من شعر تشيكايا. وقبل ذلك أُنشئت جائزة للشعر الأفريقي باسمه.

إنني إذْ أذكر كل ذلك، أحس بتقدير عميق لدولة المغرب ووزير ثقافتها الموهوب، إلّا أنني أحس أيضاً ببعض الأسى، حين أفكر أن

قليلين حتى في السودان، يعرفون أين ثوى جثمان الشاعر العبقري التجاني يوسف بشير، الذي يرقد في قبر مغمور في أم دُرْمان، ولم يخطر لأحد أن يسمي شارعاً باسمه أو يفعل أي شيء يمجّد ذكره. وقس على ذلك. والثورات تشبّ وتخمد. فهذا مثل جميل آخر يضربه المغرب الكريم، عسى إخواننا في السودان وفي غيره من ديار العروبة والإسلام، ينسجون على منواله.

هذا، وتقول نبذة عن حياة تشيكايا، في كُتيِّب صدر عن المنتدى الثقافي العربي ـ الأفريقي بأصيلة، إن تشيكايا ولد عام ١٩٢١ في بلدة «مبيلي» في الكونغو ـ برازافيل. وكان والده فيلكس تشيكايا، من زعماء الكونغو البارزين وكان عضواً في الجمعية الوطنية الفرنسية.

لم يلبث تشيكايا أن هجر الدراسة في فرنسا، حيث وصل عام ١٩٤٦، وانصرف إلى كتابة الشعر. وكان يعيش من عمله في مهن صغيرة، فعمل حمّالاً وبوّاباً في مطعم وعاملاً في مخزن وعاملاً في مزرعة. وفي عام ١٩٥٥ صدر ديوانه الأول «الدم الفاسد» يحمل اسمه الكونغولي الخالص الذي عُرف به، «تشيكايا أوتامسي» بدلاً من الاسم الأوروبي الهجين «جيرالد فيلكس تشيكايا» وهو عمل، على بساطته، يلخص روح الشاعر، في حياته وفي شعره ـ الحنين إلى الجذور والتمرد على التزييف والوجه المستعار.

ظل يكتب الشعر، ويعيش كيفما اتفق، لا يبالي أي حرفة يحترف. وسرعان ما ظهر ديوانه الثاني «نار الأدغال»، الذي أحدث صدى كبيراً. وفي عام ١٩٦٦ نال جائزة الشعر الكبرى في المهرجان العالمي للفنون الزنجية بدكار، على ديوانه «موجز: مداخل فهرست العشق».

تُرجم شعره إلى لغات عدّة ورشح أكثر من مرة لجائزة نوبل. وحين فاز بها الشاعر النيجيري وولي شوينْكا عام ١٩٨٦، قال إنه يعتبر تشيكايا أوتامسي شريكاً له في الفوز.

٥

في قصيدة رائعة تهزّ الوجدان بحق، يقول الشاعر الكبير بلند الحيدري في رثاء تشيكايا أوتامسي.

«يا من أحْييتَ بوهْجك كل الأرض
لا تَمْضِ
فأصيلة قد كبُرتْ... صارت أجمل من كل صبايا
الدّنيا
وأصيلةُ إذْ تحيا ... نحيا
صارت تفهم سرَّ الدمعة والضحكة في عينيك
وصارت تعرف مَنْ قطّع كل أصابعي العشْرْ
ومن ألقى في النّهر بِعُمري
ومن داس رؤايا
صارت تكتب شعراً ... ترسمْ

تعرف كيف تغنّي ولمن ستغنّي
حفظت كل حكايات الأنسِ
وكل حكايات الجنِّ
وصارت شيئاً منك وشيئاً منّي
وصارت تعرف أن العمّ تشيكايا من بعض صباها
تؤمن أن تشيكايا لن ينساها
لكن تشيكايا
لوّح لي ولها ومضى في العتْمةِ حتّى أقصى امْداها».

ما أجمل قوله «صارت شيئاً منك وشيئاً منّي»، وذلك كما ينبغي أن يكون، وقد صدق الشاعر، بل إنني لا أعرف مدينة عربية تعرّضت لما تعرّضت له «أصيلة» من ثقافة وفكر وفن. وإذْ تجد عواصم عربية كبرى لا يميّز أهلوها هل أنت من اليمن أو عُمان أو السعودية أو السودان، ها هنا، الناس في الأسواق والمقاهي والفنادق، يعرفون الكتّاب والشعراء والفنانين بأسمائهم. هؤلاء الشبان والشابات الذين يستقبلون الضيوف ببشاشة لا تكلّف فيها، ويرتّبون شؤون إقامتهم وتنقلاتهم، ويعملون بسعادة واضحة، ويسألون ويحاورون ويناقشون، كانوا أطفالاً حين شرع محمد بن عيسى في تجربته الرائدة. كبروا الآن، وكبرت البلدة معهم. بعضهم في الجامعات، وبعضهم تخرج وشقّ طريقه في الحياة، وبعضهم يواصل دراسات عليا في جامعات المغرب وخارج المغرب.

وكلّهم يذكر تشيكايا أوتامسي، الشاعر الكنغولي، ذا الوجه الآبنوسي الوسيم، الذي كأنَّ السنوات مسته برفق، فلم تُجرِّحْه بمخالبها القاسية كما تفعل. الشعر واللحية وخَطهما الشيب، والعينان العميقتان مغروْرقتان بالأحزان.

وفيمَ الأحزان؟
يقول الكاتب الموهوب شربل داغر في كلمة جميلة مؤثرة عن تشيكايا:

«إلّا أنه كان لا يني عن القول أن الشاعر مثل السلحفاة «بيته على ظهره». كان يقول، ويعني ما يقول، إن وطنه أينما ينتقل، أيْ صورة الوطن فيه، أي غربته».

هذا يذكّرني بتعبير إمام المغتربين، جيمس جويس:
يا حبّي الأول والأخير، يا أرْلندا،
القسّيس بكِ والقيْصر،
مثل اليد في القُفّار.
إنّني لن أُذعن».

لكن هذه الترجمة، لا تحيط بالمرامي الشاسعة في عبارة جيمس جويس: I shall not serve.

يقصد، لن أذعن ولن أرضخ ولن أهدأ ولن أقبل ولن أعمل ولن أنسى ولن أسلو ولن أغفر ولن أهمل ولن أذهب ولن أحضر ولن أقطن ولن أسكن، وهلمّ جراً.

كذلك كل شاعر مع وطنه، وكذلك كان حال تشيكايا مع الكنغو.

نعود إلى حديث شربل داغر الحصيف عن تشيكايا أوتامسي:
«حمل الكنغو معه «على ظهره» بضفّتيه ـ الدم المنشطر، الدم الأسود: تصاحبه دقات طبل زنجي بعيد، مثل أصوات الليل نتفقدها

دون جدوى، مثل صباحات الخيبة الدامية (...) الإنسان ينسى، يتناسى؟ يتحايل أو ينضج، أما الشاعر فيتعذّب ولا يغفر أبداً.

قد لا يكون الشاعر مشّاء أو أعمى، إلّا أنه كائن حزين مؤكداً، حزين لما جرى وللانزياح الحاصل بين... وبين... كان حزيناً دون هوادة مثل سهم منطلق».

إن شربل داغر يعرف ما يقول، وإذا تحدّث عن تشيكايا فعلينا أن نرهف السمع. هذا الشاب اللبناني المتوهج هو نفسه من بركات «أصيلة». ثمة تعرّفَ إلى تشيكايا، وأحبه وأحب شعره، وترجم عن الفرنسية ديوانه «دمٌ فاسد»، كما ترجم مختارات من الشعر الزنجي سوف تصدر قريباً. وهو أمرٌ مُفرح طال انتظاره في عالم العربية الذي يصدق فيه قول شاعر النيل:

أمّةٌ قد فتَّ في ساعدها
بُغضُها الأهلَ وحبُّ الغرباء

والزّنج والأفارقة، أهلكم وذوو أرحامكم أكثر مما تتصورون!

هذا وقد حاول تشيكايا أن يستقر في الكنغو، ولكنه لم يفلح، وهجره إثر الأحداث المأساوية على عهد باتريس لومومبا. ومنذ عام ١٩٦٠ عمل في منظمة اليونسكو إلى أن أحيل إلى التقاعد قبيل وفاته. وكان ذلك من مآثر أحمد مختار أمبو، مدير عام اليونسكو السابق، الذي فتح أبواب المنظمة لمبدعين ومفكّرين من أفريقيا وبقية أقطار العالم الثالث، كانت مغلقة في وجوههم قبله. وهو رجل يصدق فيه قول الشاعر القديم:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهةٍ وسدادِ ثغْرِ

هكذا ترى يا أصلحك الله، أن مبعث حفاوة محمد بن عيسى بهذا الشاعر الكنغولي النابغة، بالإضافة إلى التقدير والمحبة، ولكن أيضاً لتحقيق غاية نبيلة ما أكثر ما تحدّثوا عنها ولم يفعلوا شيئاً، ألا وهي شدُّ العرى بين أفريقيا السوداء والعالم العربي، عرى الروح والفكر والثقافة والفن. وهي بحق قارة شقيقة لعالم العرب، وتلقى منهم ما يلقى الأشقّاء. في غمرة هذا الإهمال، لا يملك المرء إلّا أن يُزجي الثناء لدولة المغرب ووزير ثقافتها الذي أنشأ في وقت مبكر ضمن موسم أصيلة الثقافي «المنتدى العربي ـ الأفريقي» ويشترك في رئاسته الرئيس الشاعر ليوبولد سيدار سنغور والأمير المفكّر الحسن بن طلال ولي عهد الأردن. وكان شيكايا من أعضائه الذين أسهموا فيه بحظ وافر.

اسمعْ يا صديقي إن استطعت، مناجاة خليلك الشاعر العربي، الذي هو أيضاً «يحمل وطنه على ظهره»:

«ما زالت في مقهانا الساهر حدَّ البحر زوايا
تسألنا عن وعدٍ آخر
عن باقي شعر
عن قصص وحكايا
عن بيت في غابات الكنغو عن نهر يشدو لرباها
تسألنا أن لا ننسى موعدنا القادم في الصيف القادم
تسألنا عن غربتنا اليقظى في الزمن النائم
عن ألم أسود نحياهُ
ونأبى إن نزت في لُجّة مرماه».

أتخيلك طربتَ لقوله «تسألنا عن غربتنا اليقظى في الزمن النائم»

بلى، لقد أحسن. وإنه لأمر عسير كما تعلم، أن تصحو والزمان مُعتلٌّ ومُختلٌّ ومملوخٌ... ونائم.

٦

حين تقابل (ريني دبشتر) لأول مرة، تدهش لسببين على الأقل. لا تجد شاعراً كما يتخيل الناس الشعراء، ولكنك تلقى إنساناً وديعاً يحتضن أحزانه بجلد كما تضنُّ النباتات الصحراوية بالماء.

كنا في مبنى واحد في منظمة اليونسكو في باريس، في عمارة «ميوليس»، هو في الطابق العاشر وأنا في الطابق السابع. رأيت رجلاً مثل عرب موريتانيا أو السودان أو اليمن، أسود مجازاً، لأنه هو ظل يؤكد في شعره أنه زنجي، ولأن الأوروبيين لا يرون من الألوان غير البياض والسواد. الله أعلم من أين جاءه هذا اللون، كما يتعادل الشاي مع الحليب مناصفةً. خافت الصوت، وقور الحركات. ولكن انظر إلى العينين. ثمة يكمن الشعر. الحزن، نعم، لا مفر من الحزن في عيني الشاعر الحق. وأيضاً أشياء أخرى. الكبرياء، والرقة والإقدام والإحجام والحكمة والجنون، وما شئت:

«... إلّا أنني، مصاباً بحالة الشعر، كنت أبني بيتي قرب عصفور من الفردوس، حتى أن منحدراتنا ونيراننا تتلامس. كنت أستمع في المساء لصديقي يطلب من رفيقة عُشه إعداد حمّام من الهرمونات الطازجة له. كنت أتبادل مع هذا الثنائي برتقالاً وأجنحة وصوراً بذيئة وقصص الساحرات. كان يحدث لنا نحن الثلاثة بعد ظهر أحد نهارات تشرين الأول/ أكتوبر، أن نرسم بالأزرق أحزان شجرة الليمون الحامض الصديقة»(*).

هذه الشراسة المهذبة لا تراها في عيني الشاعر من أول نظرة. شيكايا أوتامسي كان شاعراً كما يتخيّل الإنسان الشعراء، متدفقاً حولَه مثل عباءة فضفاضة. كان يضحك قهقهة، ويلعن منظمة اليونسكو علناً، ومع أنني لم أره يبكي، فإنني أتخيل أنه كان يبكي بسهولة. أما هذا الشاعر الهاييتي، فهو بخلاف ذلك، من فصيلة محمد المهدي المجذوب:

«لم ينبلج الفجر بعدُ في البيت
والحنين مستلقٍ إلى جانبي
ينام، يستعيد قواه،
ذلك أن مصاحبة زنجي
متمرّد ورومانسي مُتعِبة.

له خمس عشرة سنة أو ألف عام،

(*) ترجم هذه القطعة لريني دبستر وشعره المذكور في هذه المقالة، عن الفرنسية الكاتب اللبناني شربل داغر.

أو وُلد للتو،
وها هو نومه الأول،
تحت السقف نفسه مع قلبي.

منذ خمس عشرة سنة أو منذ قرون
أستيقظ من دون أن أُحْسنَ التحدث
بلغة شعبي،
من دون صباحات أربابها الوثنيِّين،
من دون طعم خبزها من شتلة (المانيهوت).

منذ خمس عشرة سنة أو منذ عبور
دمي للبحر باكياً،
الحياة الأولى التي أُحْييها عند استيقاظي،
هي هذه المجهولة ذات الجبهة النقيّة
التي ستصير عمياء ذات يوم
من فرط استعمالها لعينيها الخضراوين
وتعدادها للكنوز التي أضعتُها».

هذا، وقد جاء في كلمة محمد بن عيسى وزير الثقافة المغربي، في حفل تقديم جائزة شيكايا أوتامسي إلى ريني دبستر قولَه:

«الفائز علَم في سماء هذا الشعر، بعد أن نشر ما يزيد على عشرة دواوين وعدداً من القصص والروايات والبحوث النقدية، وقد حظيت في حينها وحتى أيامنا هذه باهتمام

النقّاد والقرّاء، حتى أن جائزة (رينودو) المرموقة كرَّمته في عام ١٩٨٨(...).

الشاعر الفائز هو شاعر الحرية قبل أي شيء، وقد عانى من عذابات المنفى والسجن بعد أن طمع بغد أفضل ومشرق لشعبه كما لشعوب القارة السمراء. بهذا الاحتفال نجمع بين شيكايا أوتامسي وريني دبستر، وبالتالي بين أطراف أفريقيا حيثما كانت في العالم. كما أننا بتكريمه نسلط الضوء على رافد مهم في الشعر الزنجي ـ الأفريقي، وهو القصيدة السوداء خارج أفريقيا».

يدهشك أيضاً أن ريني دبستبر من (هاييتي) ذلك البلد الذي حوّله الروائي الإنجليزي (جراهام جرين) إلى مهزلة في روايته (الكوميديون). حكمه الدكتاتور السفاح (بابا دُكْ) بخليط من السحر البدائي والدهاء الشيطاني وسفك الدماء بلا أدنى رحمة بواسطة زبانيته آل (تون تون ماكوت). وسار ابنه (بيبي دُكْ) على طريقه البشع. ولعلك تعجب كيف أن شاعراً كبيراً مثل ريني دبستر خرج من بلد مثل (هاييتي). وقد يخطر لك أن (هاييتي) قطر تافه. تكون مخطئاً، وتذكره أن شعب (هاييتي) كان أول شعب أسود يثور ضد الاستعمار الأوروبي ويقيم جمهورية مستقلة عام ١٨٠٤. وحين تُمعن النظر في شعر ريني دبستر، يتأكد لك أنه لا يوجد شعب تافه. يوجد بعض الحكّام التافهين أحياناً.

ثمةَ وُلد الشاعر عام ١٩٢٦، وقد أصدر ديوانه الأول «شرارات» وهو في التاسعة عشرة من عمره. وبعد أن لعب دوراً بارزاً في مقاومة النظام الديكتاتوري هرب إلى كوبا، حيث أقام قرابة عشرين

عاماً. ومن ثم سافر إلى باريس حيث التحق بعد فترة بمنظمة اليونسكو، وقد عيّنه المدير العام أحمد مختار أمبو بمكتبه الخاص أول الأمر، ثم عمل إلى أن تقاعد عام ١٩٨٦ في قسم الثقافة. كان مكتبه في الطابق العاشر في عمارة (ميوليس) حيث سعيت إلى التعرُّف به.

بدا لي رقيقاً بل هشّاً وأنا أحاوره في ذلك الصباح، وأرهف السمع إلى صوته الخافت، لكنني كنت أعلم أن مظهره الوديع مظهر خادع، وأن وراء ذلك إرادة مثل الفولاذ المطروق. وإلّا فمن أين يجيئه مثل هذا الشعر؟

«المسكين دبستر!
قال رجل ذو عينين زائغتين.
لماذا مسكينٌ أنا؟
ليس العيش بعيداً عن الوطن
مصيبة إلّا لمن فاتهم قطار الطفولة الأزرق
قطار أيامي البهيجة
أستقلّه دائماً كلَّ صباح
على أصغر قشّة.

أُسافر باستمرار طوع جذوري
حدائقي رطبة من قبلاتي الأولى
عجلاتي ومراوحي وصواريخي
تعرف دروب الشعر السرّية
إنها نهاية الرحلة!
ليبْق الجميع في القطار.

فيما بعد حدود حياتي
تبقى بطاقات السفر صالحة
الفجر والغروب يبسُطان بفرح تحت قدميّ
جُزراً أكثر استدارة من الحنين».

٧

حين يقرأ العربي أدب أمريكا اللاتينية، يدخل عالماً غريباً ومألوفاً لديه في الوقت نفسه. كأنه ينظر إلى نفسه في مرآة. كأنه يكتشف أشياء في ذاته كان قد نسيها. هذا لا يحدث له حين يقرأ الآداب الأوروبية.

في أدب (آستورباس) و(بورخيس) و(فونتس) و(أمادو) عوالم مثل عالمنا، تزخر بالحيوية وتعج بالتناقضات، الإنسان الفرد لا ينقصه الذكاء ولا سعة الخيال، ولا الطاقة على العمل. ومع ذلك تجد المجتمعات على وجه العموم أقل من حصيلة قدرات الأفراد، في حالة غليان مستمر، لا تكاد تستقر على حال. ونحن نشترك وإياهم في التجربة الاستعمارية، والتراث العربي الإسلامي الذي أخذه إلى هناك، الإسبان والبرتغاليون.

أمريكا اللاتينية مثل أفريقيا، تهمنا لعدة أسباب، ولا نعرف عنها إلّا

القليل. لذلك كانت دعوة محمد بن عيسى للكاتب البرازيلي الكبير (جورج أمادو) إلى أصيلة، مبادرة من مبادراته البارعة.

هذا عملاق من عمالقة فن الرواية في هذا العصر. ولد عام ١٩١٢ في مقاطعة (باهيّا) في الشمال الشرقي من البرازيل، وهي المنطقة التي تجري فيها أحداث كل رواياته. وقد التحق عام ١٩٣١ بكلية الحقوق في (ريو دي جانيرو) لكنه لم يلبث فيها طويلاً، فقد قرر أن يتفرغ للأدب بعد نجاح روايته (أرض الكرنفال) التي صدرت في العام نفسه. وفي عام ١٩٥٨، تأكدت شهرته حين نشر روايته (قابْريلا ـ القُرنفل والقِرْفة)، وهي رواية ذاعت ذيوعاً واسعاً حين تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية. أنتج بغزارة، وزادت شهرته ذيوعاً، فقد حُوِّل كثير من أعماله إلى أفلام ومسلسلات تلفزيونية، وربما يكون هذا هو السبب أنه لم ينلْ جائزة نوبل إلى اليوم، فقد ظل اسمه يتردّد كمرشح لها منذ عام ١٩٦٢.

يلفت النظر في أدب (جورج أمادو) اهتمامه العميق بالتأثير الزنجي في البرازيل، حتى لتحسبه كاتباً أفريقيا مثل (أَشيبي) أو (نقوقي). بل هو في الواقع أكثر زنجية من بعض الكتاب الأفارقة الذين يكتبون باللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية. تجد ذلك واضحاً في روايته (جوبْيابا) ثم في روايته (خيمة المعجزات ١٩٦٩). وتُعتبر روايته (الموت مرتين لكونْكاس ووتريْلْ ـ ١٩٦٥) من روائع الأدب المعاصر.

تجد في أدب (جورج أمادو) أن إرادة الإنسان تنتصر على ظروفه، وأن بوسع الفرد أن يرتفع فوق عقبات الحياة التي تبدو مستحيلة أحياناً. وكثيراً ما تحدث المعجزات. وعالمه عالم مُتسامح، يغفر للناس

أخطاءهم، قد تتحول فيه المرأة الساقطة إلى قديسة. وقد ابتدع الكاتب نماذج لا تُنسى، كما في روايته (تيتادو أقْرِسْتي) لنساء تغلّبن ببسالة على ظروفهن البالغة التعَاسة، وأصبحن ذوات هيبة ونفوذ في المجتمع.

يلفت النظر أيضاً في أدب (جورج أمادو) أن العربي عنده ليس إنساناً مخادعاً غادراً جشعاً إلى آخر هذه الافتراءات التي تعودنا عليها في كثير من الأدب الأوروبي والأمريكي. وهو في أسوأ الظروف إنسان عادي كبقية خلق الله، عنده القدرة على فعل الخير والشر. بل إنه يفتخر بأنه ينتمي إلى التراث العربي الإسلامي الذي نقله البرتغاليون إلى البرازيل، وأن ذلك جزء من تكوينه الروحي، ويقول إن تاريخ إسبانيا والبرتغال، لا يمكن أن يُفهم على الوجه الصحيح إلّا بالرجوع إلى تاريخ العرب في الأندلس.

قلّ أن يسمع العربي مثل هذا الكلام من كاتب أوروبي أو أمريكي. لذلك أقول إنها كانت مبادرة موفّقة من محمد بن عيسى أنه دعا (جورج أمادو) إلى أصيلة، وعقد ندوة عن التمازج الثقافي في البرازيل ضمن نشاط (جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفية). إلى ذلك، نظم له وزوجته ومرافقيه جولة زاروا فيها طنجة والدار البيضاء وفاس ومراكش. في مراكش خاصة وجد (أمادو) ملامح واضحة للعالم الجديد الذي يدعو إليه، ويجد فيه خلاص الإنسان، مراكش تلك المدينة الحمراء الفريدة، بموقعها بين أفريقيا الزنجية ودنيا العرب والبربر وأوروبا إلى الشمال. وذلك الخليط البشري الجذاب المتعدد السُّحن والألوان.

كان هذا الكاتب العظيم حقاً مخلصاً حين قال لنا في أصيلة، أنه

يعتبر أمريكا اللاتينية امتداداً لأفريقيا، وأن المحيط الأطلسي ليس حاجزاً بينهما، وأن بوسع الإنسان أن يُلغي وجوده في خياله. وذهب أبعد، فدعا أن يُغيّر اسم أمريكا اللاتينية إلى (أفريقيا اللاتينية).

وجد (أمادو) في المغرب أشياء كثيرة حرّكت وجدانه وأثارت خياله، وأكدت له صدق ما يدعو إليه. فَهِم أكثر أن الاختلاط والتمازج وتوالد السلالات وتلاقح الأفكار والأخذ والعطاء بجرأة نادرة المثال، كل تلك أمور تميّزت بها الحضارة العربية الإسلامية. بل هي أهم ما أعطته للتراث الإنساني. وإنْ بدا اليوم أننا ننحو نحو التطرّف بدل الاعتدال، والتزّمت بدل التسامح، والجمود والصَّغار عوض الآفاق العقلية والروحية الشاسعة التي فتحها العرب والمسلمون في تاريخهم، فما ذلك إلّا لأننا تُهنا عن المنابع الصافية، وشربنا من آبار موبوءة المياه.

بلى، وقد صادف وجود (جورج أمادو) في أصيلة، بلوغه التاسعة والسبعين من العمر، فنظّم محمد بن عيسى احتفالاً بالمناسبة كأنه عرس، انعكس ضوء الشموع على مياه النوافير في صحن قصر الثقافة الجميل. أنشدت جوقةُ الموشحات الأندلسية كما كانت تُغنّي ولا بد أيام مجد العرب في الأندلس. رقصت بنات أصيلة في ثيابهن المغربية الأخاذة. وجوه عربية وبربرية وأوروبية وزنجية، ووجوه مزيج من كل ذلك.

رأيت عينيْ الكاتب الكبير تفيضان بالدمع، ولا أظن أنه سوف ينسى أبداً.

٨

في حوار أُجري معه في باريس عام ١٩٨٧ قال «جورج أمادو»:

«أنا كاتب بسيط من (باهيّا). لا أعرف كيف أرقص أو أغني أو أقود السيارة. فقط أكتب. وأنا أكتب عن الأشياء التي أعرفها. آخذ من تجارب حياتي. منذ بدأت وأنا صبي، كنت أحس بتعاطف تلقائي مع الطقوس الأفريقية. وما أزال. في البرازيل تعرّض العنصر الزنجي والثقافة الزنجية إلى اضطهاد عظيم من قبل الكنيسة الكاثوليكية. كانوا هَدفاً لضروب وحشية من الاضطهاد. اضطهاد على أساس العِرق والدين والطبقة. وأنا كواحد من الذين قاوموا الاضطهاد باستمرار، فإنني أقف في صف عامة الناس. أقف في صف الثقافة الزنجية، في صف الجماهير الزاخرة التي يتكوّن منها الشعب البرازيلي».

في «أصيلة» في شهر آب/أغسطس الماضي، قال أمادو إن البرازيل

أصبحت اليوم مثلاً يُحتذى في التعايش السلمي بين مختلف الأجناس، والتمازج الخلّاق بين الثقافات. وقد سألتُه كيف حدث ذلك، ولماذا في البرازيل بالذات، فقال:
«إنها معجزة».

وبعد أن فكّر قليلاً أضاف:
«البرتغاليون رغم أي شيء، امتازوا عن الإسبان والأنجلوسكسون باستعدادهم العظيم للاختلاط والتمازج. أنجبوا أطفالاً غير شرعيين من النساء الزنجيات ونساء الهنود سكان البرازيل الأصليين. كان هدفهم إنتاج مزيد من الرقيق للعمل في حقول البن وقصب السُكر. إلّا أن هذا العنصر الخُلاسي المولّد جاء أكثر حيوية من البرتغاليين وأكثر ذكاء، بل وأكثر جمالاً ووسامة، فلم يستطيعوا أن يفرضوا سيطرتهم عليهم مدة طويلة».

والحق، أن ما حدث في البرازيل وفي أماكن أخرى، نوع من المفارقة الحادة التي ما يفتأ يقدمها لدعاة التفوق العرقي والتفرد الحضاري. ظل البرتغاليون منذ عام ١٥٣٢ يجلبون إلى البرازيل آلافاً من الزنوج الأرقاء من غرب أفريقيا، من قامبيا وسيراليون ومالي وساحل العاج وساحل الذهب وخاصة من أنجولا التي استعمروها ربما لهذا الغرض. وكان كثيرون من هؤلاء الأرقاء، كما يقول كاتب إنجليزي «مسلمين يعرفون القراءة والكتابة. وكانوا أكثر رُقيّاً وتحضُّراً من سادتهم البرتغاليين الذين كانوا أميين في الغالب».

وكما حدث للعنصر الأوروبي في أماكن كثيرة بدرجات متفاوتة، فقد عاشر البرتغاليون في البرازيل النساء الزنجيّات وأنجبوا منهن مزيداً

من الأرقاء. ولكن هذا العنصر الجديد كما قال «جورج أمادو» خرج يحمل «جينات» أكثر صلابة، ومصابرة على الحياة لا يملكها أسيادهم البيض. وكان حتماً أن يفقد البرتغاليون وضعهم المميّز، ويذوبوا في هذا المحيط البشري الهجين. يقول «جورج أمادو»:

«في الموسيقى مثلاً، حين تستمع إلى «هيتور فلاّ لويوس» أو إلى ملحنين أمثال «دورفال قايمي» و«كايتانو فلوسو» و«قلبرتو جلْ» تجد الأثر الأفريقي واضحاً. بلادنا فيها ثلاثة روافد ثقافية كبرى. البرتغالي الأوروبي الأبيض ـ رغم أن البرتغاليين ليسوا بيضاً تماماً ـ والأفريقي والمحلّي. الثقافة البرازيلية هي جماعُ كل هذا.. ثقافتنا صُنعت في الفراش».

بدأ البرتغاليون تحرير الرقيق، بتحرير أبنائهم من أمهات مسترقات. وقد أصدروا عام ١٨٧١ قانوناً أطلقوا عليه اسماً عجيباً هو «قانون الرّحم الحُرّة». ولم يكن ذلك بدافع إنساني، ولكن لأن أسعار السُّكر في العالم كانت قد هبطت إلى مستوى جعل الاحتفاظ بالرقيق العاملين في مزارع القصب أمراً باهظ التكلفة. وفي عام ١٨٨٥ أصدروا قانوناً بتحرير الرقيق فوق سن الستين. وفي عام ١٨٨٨ صدر قانون شامل بتحرير الرّقيق.

في ظل هذه الظروف القاسية نشأ كتّاب وشعراء عظام من أصل زنجي، منهم الشاعر «كروزو داسوزو» والكاتب الروائي «ألفونسو هنريك دي ليما بارتو» الذي تعالج أعماله مشكلة الاضطهاد العنصري الذي تعرّض له الزنوج والمولّدون في مجتمع يعتبر نفسه أوروبياً ـ لاتينياً. وتُعتبر روايته «المصير المُحزن لبوليكاربو كوارشْما ـ ١٩١١» علامة هامة في تاريخ الأدب البرازيلي. وفي روايات

«قلبرتو فريري» تأكيد على عمق التأثير الأفريقي في الأدب البرازيلي، كما في روايته «السادة والعبيد ـ ١٩٣٣». وهو مولّد من الإقليم الشمالي الشرقي وهو الإقليم نفسه الذي جاء منه «جورج أمادو». وتجدر الإشارة إلى شاعر مولّد من أصل عربي هو «كارلوس نجّار»، يحظى بشهرة واسعة، ومن مؤلفاته «قبعة للمواسم».

هذا، ويقول العالِم الكبير الدكتور عبد الله الطيب في إشارة جميلة إلى بيت عنترة العبسي:

بـركـت عـلـى جَـنْـبِ الـرَّداع كـأنما
بـركـتْ عـلـى قـصـبِ أجـشَّ مُـهـضَّـمِ

يقول إن عنترة كأنما كان يصف صوته، ذلك لأن الناقة حين بركت على القصب أحدثت صوتاً كما تنفخ في مجموعة من النايات.

نعم، بوسعك أن تسمع في هذا البيت، وفي كل شعر عنترة الحافل بالنُّبل والشجن، صوتاً كصوت المغني الأمريكي الزنجي العظيم «بول روبْسُنْ». هذه الأعماق والأبعاد جاءت إلى عنترة من إرثه العربي الزنجي.

ذلك أيضاً تجده في أدب «جورج أمادو»، هذا الإنسان الأوروبي الذي يحمل روحاً زنجيّة. الكاثوليكي الذي يحتفي بتراث الإسلام. الأبيض الذي يتمنى لو كان هجيناً. المواطن البرازيلي من «باهيّا» الذي اكتشف أشياء يعرفها ويحبها في «أصيلة» في المغرب. يقول:

«سوف يمضي الأدب البرازيلي في طريقه وفيّاً لخصائصه الأساسية ومحافظاً على التزامه بقضايا عامة الناس. في أدبنا وحدة عريقة منذ عهد شاعرنا العظيم «قريقورؤيو دي ماتّوس»، ذلك الرجل المولّد من «باهيّا». لقد قاوم الاستعمار البرتغالي، وحتى في تلك الظروف العصيبة، رفع لواء الحريّة وحارب في سبيلها. هذا التراث الذي وصل إلينا اليوم، يؤكد أن الأدب البرازيلي كان دائماً في خدمة عامة الناس».

٩

فرحت أيما فرح حين وجدت (ماسيسي كونيني) في مطار لندن، ينتظر مثلي طائرة الخطوط الجوية المغربية المسافرة إلى طنجة.

«أنت قطعاً ذاهب إلى أصيلة».

«نعم. وأنت؟».

«أنا أيضاً .. أهنئك على فوزك بجائزة (شيكايا أوتامسي) للشعر الأفريقي».

قال ضاحكاً بطريقته الجذابة:

«يوي يوي. وكيف عرفت ذلك؟».

«إنني عضو في لجنة التحكيم التي منحتك الجائزة».

«ها. إذاً هذا من فعلك أنت؟».

أبداً، كل أعضاء اللجنة أجمعوا على منحك الجائزة، من أحق بها منك يا قورو؟».

حين تعرّفت به منذ نحو عامين في جامعة (براون) في أمريكا، قلت له أن فيه سمت علماء المسلمين القدامى. وكلمة (قورو) قد تعني (الشيخ). أسعده ذلك جداً. فيه أيضاً شيء من طيبة المرحوم زكريا الحجاوي وإنسانيته الغامرة.

كنا نحضر مؤتمراً عن الأدب الأفريقي. لفت نظري أول مرة خلال محاضرة للعالم الكيني العربي المعروف، علي المزروعي. أثناء النقاش الذي أعقب المحاضرة، تطرّقت كاتبة من (زمبابوي) إلى علاقة العرب بأفريقيا، مرددة كل التهم الباطلة التي روّجها عنهم الرحالة الأوروبيون القدامى.

كان أول من انبرى لها (ماسيسي كونيني). قال لها بغضب أدهشني:

«أنت تقولين كلاماً فارغاً لأنك جاهلة ولا تفهمين شيئاً. العرب إخواننا وجيراننا. نحن وهُم شيء واحد. يناصروننا في نضالنا للتحرر ويدعمون مشاريعنا التنموية، في كل أفريقيا، من شرقها إلى غربها».

كلام يثلج الصدر، نادراً ما يسمع الإنسان مثله في طوفان الحزازات والأحقاد السائدة. وقلت يا ليت إخواننا في جنوب السودان يسمعون هذا الكلام. في حوار لي مع أحد مفكريهم، قلت له: «العرب شركاؤكم وإخوانكم».

قال لي:

«شركاؤنا.. ربما . إما إخواننا، فلا».

بعد المحاضرة، ذهبت إليه، وعرّفته بنفسي. وجدته عميق المعرفة بالشؤون العربية، وله صداقات مع عدد من العرب. شعرت بالخجل أنني لم أسمع به من قبل، وهو على ما هو عليه من أهمية وشهرة، وأنا من السودان، غير بعيد من خط الاستواء. السودان الذي يُفترض أن يكون جسراً من الجسور التي تربط بين ديار العرب وديار الزنج. وإذا كان مثلي لا يدري، فكيف حال العرب العاربة؟

بعد ذلك حين عدت إلى لندن، وجدت بين كتبي، ديوان الشاعر الكبير (إيمي سيزير)، من جزر المارتنيك، وأحد المؤسسين لحركة (الزنوجة) في باريس، مع (ليوبولد سنقور). كنت قد قرأت الديوان، لكنني لم أكترث يومئذٍ إلى أن كاتب المقدمة رجل يسمى (ماسيسي كونيني).

رجل من قبيلة الـ (زُولو) الباسلة التي دوّخت البريطانيين في جنوب أفريقيا بقيادة ملكها البطل (شاكا). اسمه الأول (ماسيسي) يعني (الشاعر الذي لا يكذب قومه). واسمه الثاني (كونيني) يعني (سليل بيت الملك الأول).

رجل سمح بكل معاني الكلمة. يميل إلى القصر، ويميل إلى البدانة. يتدحرج في مشيئته مثل الملاكمين. وجهه نضر وعيناه ضاحكتان. في منتصف الستين، لولا شعر رأسه المُبْيَض، تحسبه في منتصف الأربعين.

وُلد في مدينة (ديربان)، وتعلّم في جامعة (ناتال) إلى أن نال درجة الدكتوراه في الآداب. ولم يكن له مَفرّ بطبيعة الحال، من أن ينغمس في خضم حركة النضال العنيفة ضد النظام العنصري في جنوب أفريقيا. لذلك لم يستقر طويلاً في بلد واحد، فتنقّل من القاهرة إلى لندن إلى باريس إلى نيجيريا إلى بتسوانا.

كذلك لم يثبت في عمل واحد. عمل مدرّساً ومترجماً وخبيراً دولياً ومخرجاً سينمائياً ومحاضراً جامعياً. ثم استقر برهة في كاليفورنيا حيث يعمل أستاذاً للّغات والآداب الأفريقية. لكنه استقرار مؤقت، فقد عزم الآن على العودة إلى موطنه، بعد غربة دامت أكثر من ثلاثين عاماً.

قال لي، ببساطة، ودون أي إحساس بالمرارة:
«هذا أفضل. لقد تعبت من الغربة».

لا تحس أي مرارة في هذا الإنسان، الذي نما في أحشاء الظلم والاضطهاد. اللهم إلّا في حنايا القصائد بطبيعة الحال.

عالم ومفكّر وأديب، وفوق كل شيء شاعر مرموق. من مؤلفاته (الأمبراطور شاكا الأكبر) و(شعر المقاومة في جنوب أفريقيا)، ومن أشهر دواوينه الشعرية (الأسلاف والجبل المقدس) و(قصائد زوليّة).

يقول في قصيدة عنوانها (أوروبا):
«نظرت إليك جامحة تحملين أسفاراً
ممّا تركه لكَ العرّافون القدامى
سمعتُ صوتك في الغاب

تَعْوين كذئبة قرِمَة.
تنهشين لحم عشيرتك حتّى العظم.
إنني أعلم كم أنت قاسية وبشعة المنظر.
غلّقت الأبواب،
واتخذت الفولاذ الصّلب ضجيع عرسك،
ليس لأنك أحببته فاصطفيته بدافع الحب، ولكن لأنه الوحيد.
الذي أذعن لك بلا مقاومة».

١٠

احتفلت (أصيلة) احتفالاً بسيطاً وجميلاً بمنح الشاعر الأفريقي الجنوبي (ماسيسي كونيني) جائزة (شيكايا أوتامسي) للشعر. البساطة الجميلة من سمات هذه البلدة، التي كانت حين جئتُها أول مرة، مجرد نقطة للعبور في الطريق من طنجة إلى الرباط والدار البيضاء. كانت غافية مغمورة الذكر، رغم تاريخها العريق، ونضالها الباسل.

ثم قيّض الله لها أحد أبنائها، فعاد إليها بعد غربة، مملوءاً حباً وطموحاً، فحرّكها وتحرّك بها. تغيّرت أحوالها، وأخذت تتطور في هدوء، لم تطفر تلك الطفرات التي اجتاحت بعض المدن، فتعثّرت أقدامها. أصبحت والحق يقال، مثلاً يُحتذى، كيف تكون التنمية جهداً مشتركاً بين الصفوة المفكّرة وعامة أفراد المجتمع، وكيف تلتئم الثقافة بالاقتصاد، وأحلام الفنانين والشعراء، مع متطلبات العيش.

أصبح لهذه البلدة الصغيرة على شاطىء الأطلسي، امتداد في الخيال قلّ نظيره. حملها في قلوبهم وعقولهم المغنّون والرسّامون والشعراء والكتّاب والمفكرون، من البرازيل إلى اليابان، ومن جنوب أفريقيا إلى السويد.

اتّسعت وامتدت، ولكن لم تقم فيها حتى الآن لحسن الحظ عمارات ضخمة من الإسمنت والزجاج، هذه الآفات التي لم تنج منها مدينة عربية. وهي بموقعها المتميز، وامتداد شاطئها الرملي، تغري بلا شك، شركات الاستثمار السياحي. سوف ينقضّون عليها إن عاجلاً وإن آجلاً، أرجو أن تعمى عيونهم عنها أطول وقت ممكن، وتظل المدينة تتطور على طريقتها الهادئة المتحضّرة.

وهكذا كان الاحتفاء بهذا الإنسان الأفريقي الشاعر، (ماسيسي كونيني) بسيطاً وجميلاً، مفعماً بالدفء بفضل قدرة محمد بن عيسى النادرة، في إشاعة الدفء وروح الصداقة. حين اختاره الملك سفيراً للمغرب في (واشنطن)، تخوّف كثيرون من محبي أصيلة، أن يفقد الموسم روحه الفاعلة وقوّته المحرّكة. ذلك لم يحدث لحسن الحظ. ظل من موقعه هناك، ينظم للمهرجان بنشاطه المعهود، يساعده معاونوه القدامى أمثال الملّيحي والبقّالي.

ذكّر محمد بن عيسى بالشاعر الكنقولي الراحل (شيكايا أوتامسي) الذي تحمل الجائزة اسمه منذ ست سنوات، وقال إنها الجائزة الوحيدة في العالم المخصصة للشعر الأفريقي. وبعد أن نوّه بالدور الذي قام به المغرب بحكم تاريخه وموقعه، في مناصرة حركات التحرير في أفريقيا، وتوثيق الروابط بين شمال أفريقيا وجنوبها، أطنب في الثناء على (ماسيسي كونيني) الفائز بالجائزة هذا العام.

أشاد به إنساناً وشاعراً ومناضلاً. وكنت أنظر إلى (ماسيسي) أحياناً، فأرى علامات السرور والحرج تتدافع على وجهه الطيّب الوديع.

تكلم أيضاً وزير الثقافة الجديد، صديقنا القديم من أيام العمل معاً في منظمة اليونسكو بباريس، الدكتور محمد علاّل سي ناصر، كانت كلمته قصيرة مؤثرة، أشاد فيها بشاعرية (ماسيسي كونيني) وفكره. وحضر الاحتفال عامل الملك على إقليم طنجة.

ما أجمل أن تحتفل مدينة عربية بشاعر من أقصى جنوب القارة، تضمّه إلى صدرها، وتحنو عليه كواحد من أبنائها. هذا ما أحسّ به الشاعر الذي تغرّب طويلاً وعانى كثيراً. لم ير الحُب فقط في وجوه أهل المدينة، ولا في عيون المغاربة الذين جاءوا من مراكش وفاس والدار البيضاء والرباط وتطوان، ولكن رآه أيضاً في وجوه كل الرجال والنساء، الذين توافدوا على أصيلة من كل أقطار الدنيا. أبناؤها وبناتها بالتبنّي.

فيهم الشعراء والرسامون والكتّاب والمغنون وأساتذة الجامعة. كثيرون منهم عانوا مثل الشاعر المُحتفى به من آلام المنفى والاغتراب. كانوا يفهمون أحاسيسه جيداً، بينه وبينهم، وبينهم جميعاً وبين المدينة الواقع ـ الحلم، أواصر مودة وقربى.

أدرك الشاعر كل ذلك، لذلك قال بصوت مملوء بالعاطفة في كلمته البليغة، إن نيل جائزة (شيكايا أوتامسي) أسعده أكثر من أي جائزة أخرى حصل عليها، وقال «نحن هنا نحتفي بأنفسنا».

ولم يكن نغماً نشازاً في فيض الشعور الإنساني الذي غمر الحفل، أن يؤكد (ماسيسي كونيني) على الإخاء العربي الزّنجي، ويدعو إلى توثيق الأواصر بين شمال القارة وجنوبها، بشتى الوسائل. ذلك أن أفريقيا هي المنطلق، وهي قارة منشطرة على نفسها. لكي تساهم في مسيرة الحضارة الإنسانية، كما فعلت من قديم، عليها أن تتوحّد مع نفسها.

قال (ماسيسي كونيني) في ختام حديثه «أنا لست شاعراً من الزّولو. أنا شاعر أفريقي أكتب بلغة الزولو». إنه أكثر من ذلك في الواقع. أصبح شاعراً عالمياً يكتب بلغة الزولو، فقد سافر صوته بعيداً بألسنة شتى.

■ ■ ■

بعد أن انتهى (ماسيسي كونيني) من إلقاء كلمته الجميلة، التي بثّ فيها من روحه الشاعرة، تناوبنا القراءة من شعره. إنه يكتب بلغة الزولو، وقد ترجم بعض قصائده بنفسه إلى اللغة الإنجليزية. قرأ الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، قصيدة «صراخ» من ديوان «قصائد زوليّة» الذي نُشر عام ١٩٧٠:

أهُبك صراخ ألف رجُلٍ مخبول
ينادون أناساً ليست في قلوبهم رحمة
يحدّثون فوق القبور،
عن هياكل عظمية، مكدّسة أكواماً فوق أكوام
عظام تخلّفت عن مفاصلها.
أهبُك صراح ألف نسرٍ كاسر

محوّمة فوق ركام الجثث،
حيث فيالق جيوشٍ
أبادت فيالق جيوش
على سفوح الجبال.
العيون تتآكل في محاجرها
والقمر يولّي عنها،
يتركها للعراء.
أهبك هذا الثوب الممزّق من وسطه
مُلقى في ميدان المعركة
انهزم عنه الذين فرّوا
قبل أن يترك الأطفال أثداء الأمهات.
خبّريني، خبّريني
من تلفّع به قبل سقوط الشتاء؟

كذلك قرأ أحمد عبد المعطي حجازي، قصيدة «ابن الكائنات الجميلة» من ديوان «الأسلاف والجبل المقدس» الذي نُشر عام ١٩٨٢:

أنا راقص الجنوب
حواريٌّ ظلال الجبال في الوديان
أنا الجميل، سليل القبائل التي لا تُقهر
أنا ابن الابن سليل الضياء،
الجميلُ الذي يقتحم القاعات المحتشدة
إلى حيث الخائفون يتهامسون.
أنظُرُ حولي،
نظرتي تلمّ الأرض والأشياءَ

وأقول للساحرة تُمخبُلواني
أنني قد وصلت.
هذا الرجل القميء
ذو الأصابع مثل أغصان الشجر
يتقدّم مني خاشعاً ذليلاً
هل هي أرسلته؟
عُدْ إذاً أيها القزم،
اذهب وقل لها،
وقل لعشائرها،
أنني هنا،
أن الراقص قد وصل.

ثم قرأ «جان سفْري» أستاذ الأدب الأفريقي في جامعة «منبلييه» مقاطع من قصيدة «أوروبا» باللغة الفرنسية، وهي من ديوان «قصائد زولية»:

بناؤك يا أوروبا
أقمتِه على صخرة صمّاء
قلبكِ مثل بيت عنكبوت قديم
في صحراء جرداء
حتّى أطفالك يبثّون في قلوبنا الذعر،
إنهم مثل صغار أفعى
ينهشون لحم أمّهم
وقهقهت تضحكين ساخرة من مكفوفي البصر
ولكنّك أنت العمياء
تتخبّطين في عتمة هذا الليل

تُشعلين الحرائق للنّائمين.
الشمس، ماذا تقول؟
سوف تضحك الشمس
لأنها أحرقت في المهْد
حِقَباً بعد حِقب.

وقد قرأت أنا مقاطع من قصيدة «ميلاد دورة حياتنا» وهي من ديوان «نشيد الأحقاب» الذي صدر عام ١٩٨١:

ثُم وُلد الزمان
وطوّق الأرض غلافٌ من ظلام كثيف
وفاض الصّمت في الفضاء كضوء قمر شفّاف
كُتلٌ من الظلمة التحمت في الآفاق
وارتعشت الأرض كأنّها قلب ضخم
واشرأبت رؤوس الجبال الحادّة المعوجّة
لتتلقّى باكورة فاكهة الشمس.
وحين انتصر الظلام، سلّت النجوم سيوف الضوء
(عوالم أقدم من عالمنا، كما حدّث الرواة)
أحدث الضوءُ ثقوباً في حُجب الغيوم
فأطلت أسرارٌ كانت مكنونة.
وظل الموج يمدّ الشطآن الفسيحة بالحياة
ثم انشقت الأرض عن مخلوقات
أخذت تزحف على بطونها
ومخلوقات أخرى أخذت تخفق بأجنحتها
وأخرى راحت تحفر الأرض بأظلافها
ثم زأر الأسد زئيراً كالرّعد

مطلقاً رِعْدة الخوف الأولى
ونظرت الوحوش الأَضعف، نظرات مملوءةً رُعباً
وحين ذاقت طعم الفريسة وولغت في الدماء،
كلُّها انخرطت في المذبحة المشتركة
وهكذا عُرفتْ الحكمةُ الأولى،
يجب أن تَستمر الحياة.
لا بد أن تلتهم الشهوات القاسية
كلّ الأشياء الجميلة.
وكما شاءت الإرادة العليا،
فإن جحافل المخلوقات سوف تعمر عالم الحجر هذا
وسوف تهتز الغابات لقعقعة سنابك الوحوش
سوف تختال الظباء على الجبال
سوف تجيش الأنهار بالخصب
إنّما الإنسان، لم يظهر بعد،
سوف يجيء مملوءاً خيلاء لا يأبه لشيء
كأنّه وحده الذي يستطيع أن يعزف مزامير
أن يغني أناشيد الحياة

(*) ترجم القصائد عن أصلها في الإنجليزية كاتب المقال. في الكتيب الذي نشره المنتدى الثقافي العربي ـ الأفريقي بأصيلة، للكاتب اللبناني شربل داغر. وهي ترجمة عن الترجمة الفرنسية، لذلك فهي مختلفة عن هذه الترجمة بعض الشيء.

١١

يطربني حقاً مثل هذا الشعر:

في غُربتي عارضْتْ أنا رکْب الأغراب
أشدْ وأنزل والليالي ركايبْ
أضداد وأقران وعدوان وأصحاب
متناقضات الخلق ما غاب غايب
وقامت تجاذبني على درب الأسباب
نفس الشباب يحدها عقل شايب
أصبح على فجرٍ ضحوك وعجاب
وأمسى على همسات ستْر العجايب
وأسهر مع تهويم نجمات الأحباب
حتى يصير النّجم بالصبح ذايب
مشيت في رمْضا وسنّدت بهضاب
وعارضَنّي سيولٍ وهبّت هبايب

فيه من روح غيلان والشريف الرضي وابن المعتز.

ولا يغرنّك أنه ينظم بالدارجة، فمنها ما هو أفصح من الفصيح. ولا يضيره كونه أميراً، فهذا شعر يأتي من أغوار بعيدة. وتعجب من أين له كل هذه المكابدة، وهو راضٍ بمقامه في عسير. إنما هو عذاب الشعر الحق، يصيب الأمير كما يصيب الفقير.

لا بد أن نجداً هي التي صنعت به هذا، وقديماً جُنّ جنون غيلان، ملك الشعراء النجديين على مر الزمان.

والأبيات بالطبع للأمير خالد الفيصل. حيّيتُه في الاحتفال بتوزيع جوائز مؤسسة الملك فيصل، شأن من أحب شعره قبل أن يلقاه. وحياني كأنه عرف لي ذلك. وكنتُ قد رأيته من قبل في افتتاح مهرجان الجنادرية، يعرض بالسيف مع الأمير سلمان بن عبد العزيز، متدثّرَيْن بالعلم السعودي الأخضر. العم يعرض بمهارة، والشاعر طرب، وحق له أن يطرب، فالشعر الذي افتتح به المهرجان وغنّاه محمد عبده وطلال المداح وآخرون، من نظمه.

في الديوان، الذي يستحق وقفة أطول في مجال أوسع من هذا، قصيدة يتغنّى فيها الشاعر بنجد، أهداها للأمير سلمان، يقول فيها:

سريت ليل الهوى لين أنبلج نورَه
أمشي على الجدى وتسامرني القمرا
طعس وغدير وقمر ونجوم منثوره
وأنفاس نجد بها جرح الدَهَر يبْرا
يا نجد الأحباب لك حدر صوره
طفلة هلال وبنت أربع عشر بدرا

حـبـيـبـتـي نجـد عـيني فـيـك مـعـذوره
معـشـوقـة الـقـلـب فـيـهـا لـلـنـظـر سـحـرا
فـضّـة شـعـاع الـقـمـر فـي نجـد مـسـحـوره
مـن شـاف لمعـة قـمـر فـي خـدِّةٍ سـمـرا

ما أحسن هذا. وهل أنفاس نجد تبرئ جراح الدهر لغير النجديين؟ يا ليت. إذاً لشددنا إليها الرحال، فنحن كما قال صاحبنا «جرّحت مُجرّحا...». وقد أجابه على الروي نفسه، الشاعر الآخر العرم، الأمير بدر بن عبد المحسن، فقال:

يـا سـاري الـلـيـل شـعـرك جـسّـد الـصـوره
زيَّـنْـت بـنـجـوم حـرفـك صـفـحـة الـغـدرا
بعـض الـسـمـا من بعـضـهـا اليـوم مقـهـوره
زهـت مـن قـصـيـدك وزْعـلـتِ عـذرا
فـحتْ بك أهضـاب نجد وضحـكـت زهورَه
وحـنّـت طـربْ فـي المضـامـي بـكـرةً عـفْـرا
والـوادي الـلّـي شـهـود أمـجـاده اقـصـوره
يـا مـير هـو عـشـقـنـا فـي مـا مـضـى وبـكـرا
لـو كـل شـاعـر كـتـب مـن صـادق شـعـوره
شـفـت الـصـخـر والمسـايل وتـكـتـب وتـقـرا

صدق. وقد أنطق شاعرنا الشكريُّ أرض (البُطانة)، وجعلها (تكتب وتقرا) في مثل قوله:

الـبـارحْ أنـا وقـصـبـةْ مـزالـقْ الـسّـيـلْ
في ونَسة وضحـك لا من قسمْنا الليلْ
وقـتـيـنْ الـنـعـامْ اتـشـقْـلَـبنْ بـه الخـيـلْ
لا بَـخـلـتْ ولا جـادتْ عـلـيَّ بـلْـحـيـلْ

كذلك ترى، أن أرض (البُطانة)، ليست عن ديار نجد ببعيد. ومن حسن حظ هذا البيت من (مَعَدْ) أن فيه كثيرين، إما شاعر وإما محب للشعر. وذلك دليل أكيد على نبل الطبع، وفيض الأريحيات التي عناها أبو عبادة.

ذلك، وقد سهر معنا هذا الشاعر الشاب، الأمير بدر بن عبد المحسن في (الخيمة) التي كانت ملتقى الشعراء والكتّاب لیالي المهرجان، فأنشدَنا وأنشدناه إلى قريب من مطلع الفجر. ومن الشعراء الذين لفتوا نظري في تلك الليالي، شاعر نجدي حدَثْ، لا أظنه جاوز العشرين، على وجهه وعثاء الشاعر في بداية الطريق. أهدى لي ديوانه الذي لم يطبع بعد، يقول في قصيدة منه:

الموت حظ القلم والمجد للدّفتر
حبر القلم غلطتي وأيّامي أوراقي
الخوف يجتاحني وجه الطريق أسمر
راح أكثر العمر يا خوفي على الباقي
يا جرح رافقتني للناس لا تظهر
إن عشت في نظرتي ما مت بأعماقي
يا صوت لا تلتحف صمتي ولا تصبر
قُلْ ما تبي واترك الهقوة على الهاقي
والخطوة اللي عن آخر سكتي تقصر
ما هيب من طبع رجليني ولا ساقي
ثراي ما ينشد الغيمة متى تمطر
ما دامها في سماي تحن لإغراقي
رُحْ وين ما تشتهي رُحْ قَدْ ما تقدر
أنا أول الناس في قلبك وأنا الباقي

اسمه نايف صقر، وسوف يصل إن شاء الله..

ثم سهرت في دار أخي مبارك العشي مع شاعرنا عبد الله محمد خير، من ديارنا في شمال السودان. في شعره حلاوة اللهجة (الشايقية) وبلاغتها، يغنيه (صديق) بصوته الذي شرب اللوعة ويسقيها من مياه النيل. من بعض ما أنشدنا، قصيدته الشهيرة عن المعشوقة التي هاجرت إلى الخرطوم، يقول فيها:

يا الخرطوم تشيلي حبيبي ما لك وما لُهْ؟
هوَّ أبانا ولّا كثير علينا جمالُهْ؟
يميل كُلّ ما النسيم هزَّ الضفاير مالو
وصدره تقيلْ يا الله يتْخمَّا لُهْ

(يخُمْ)، تعنى مَلء اليدين من الشيء، أو المكابدة في حمل الشيء الجسيم، فانظر أي صدر ذلك كان! وهذا الشاعر في ديارنا، أمير من أمراء الشعراء، وإن كان الآن، يعمل (بزازاً) في سوق الرياض. وكل ذلك، لا بد له من وقفات أطول، إن شاء الله.

هواء أصيلة في هذا الموسم، لطيف شفاف، ألطف مما أذكر في أي موسم حضرته من قبل. يحلو المشي بالليل، من المركز في وسط المدينة إلى نُزل (الخيمة). يحلو الجلوس خارج المطعم، على حافة حوض السباحة الذي يكون قد فرغ من السابحين.

يلذّ لك مذاق الطعام، ومذاق الماء القراح، والشاي بالنعناع، وطعم الخبز المغربي من القمح الخالص، وطعم (مربة) المشمش التي ليس لها مثيل إلّا في تونس.

إنها حالة نفسية عابرة بالطبع، تحس فيها أن الأشياء قد ترابطت واتفقت، وانسجمت حركات نفسك مع هبّات النسيم، ووثبات أمواج البحر، وأصوات خلق الله في ساحات المدينة.

قال إميل حبيبي «عالمي الفكري انهار فوق رأسي ولكن تجربتنا لم تذهب هباء».

وقال «ذوبان الثلج عن مزابل الماضي».

وقال «تعويضات عن تاريخ متكامل من قسمة ضيزى؟».

أسجل بعض العبارات التي تلفت نظري في ندوة (التأثير الأمريكي في المتخيل العربي ـ الأسطورة والواقع). أفعل ذلك كعادتي في هذه الندوات حتى أظل منتبهاً. وقصة أمريكا والمتخيّل العربي، قصة طويلة. إنما جرأة إميل حبيبي على اللغة تعجبني، وطرافة استعاراته، وبكارة صوره. وذلك في مذهبي، يكفيه ويزيد.

ترأس الجلسة في اليوم الثاني، كان الرئيس في اليوم الأول أحمد عبد المعطي حجازي. كان إميل حبيبي رئيساً سيّئاً بالمعنى المتعارف. يدخل في مشادّات مع المتكلّمين، ولا يبالي ألّا يكون محايداً. ولكنه كان رئيساً فذاً في قدرته على التواصل، وتحولاته المفاجئة من الغضب إلى الضحك، وبراعته في بلبلة أفئدة الجمهور، فيظل يقظاً طول الجلسة.

في الأمسيات في دار محمد بن عيسى، ضحك كثيراً وغنّى وطرب. لكن قهقهاته مبلّلة بالدموع. حزين بسبب ما نعرف وبسبب ما لا نعرف. وأنّى لنا، مهما جمح بنا الخيال، أن نسبر غور الجرح الفلسطيني؟

قال لنا العام الماضي، وكان قد جاء إلى أصيلة أول مرة «ولا

يضيرني الاعتراف بأن الشكل ـ أي الأسلوب ـ هو إحدى غاياتي الأدبية، من حيث رغبتي في تواصل التجربة وعدم انقطاعها. وأعتبر اتقان أسلوبنا العريق ولغتنا الفنية، بعض التأدية للأمانة التي حمّلنا إياها أجدادنا العظام. وقد يكون اهتمامي بالشكل في أوضاعنا الخاصة، رداً ثقافياً على محاولات اقتلاعنا من وطننا شعباً وتراثاً. ويحق لنا أن نذكر إسهامنا المتواضع هذا في نجاح شعبنا العربي الفلسطيني في تفادي مصير الأندلس وإقليم إسكندرونة عن هذا الوطن الذي لا وطن لنا سواه».

مهما بدا لنا، فلا بد أن نقرّ لإميل حبيبي أنه يعتني باللغة عناية فائقة، كتابة وحديثاً. إنه على أي حال، بالرغم من حزنه الدفين، سعيد أنه يستطيع الآن أن يخرج من السجن أحياناً. يحلّ في بلد عربي، ويلتقي بعرب عاديين في ظروف عادية. يحاور ويشاجر ويغضب ويضحك. وهذا ما يطلبه الفلسطيني في نهاية الأمر. أن يكون إنساناً عادياً في وطن عادي في ظروف عادية.

قال لي برفق، كأننا رفيقا سلاح سقطا في ساحة القتال:

«إنك تعرض آراءك بتعالٍ وسخرية».

قلت له: «التعالي صفة لا تنطبق علي عادة. ولكنني أحاول أن أكون متجرداً (Detached).

قال: «Detached نعم. هذه هي الكلمة التي أردتها».

ثم ضحك ضحكته المجلجلة التي تجيء من جرح لا أستطيع أن أسبر

غوره. وكيف لي، وأنا في نهاية المطاف أنتمي إلى بلد، مهما بلغت به التعاسة، فهو موجود، وإن كان مهدداً بالضياع.

ذلك، ونسيم أصيلة كما وصفت، وهواجس الليل كما وصفت، وذلك الطّيف الذي أضاء لي من وراء أزرعات. أخذني على حين غرة، بين القلعة والخيمة، فزادني أيَّ حيرة.

١٣

أنجزت جامعة المعتمد بن عباد الصيفية المفتوحة، في موسم أصيلة هذا العام، عدة ندوات كبيرة، تطرّقت إلى الاقتصاد والمعمار والفن والبيئة. وقد حضرتُ منها الندوة الأخيرة التي انعقدت بين الحادي عشر والثالث عشر من شهر آب/ أغسطس، وكان موضوعها «التأثير الأمريكي في المتخيل العربي - الأسطورة والواقع».

افتتح الندوة السيد محمد بن عيسى، وزير الثقافة السابق، وسفير المغرب الحالي في واشنطن. ومن حسن الحظ أن عمله الجديد، بكل أعبائه ومشاغله لم يقطع صلته بهذا الملتقى السنوي، الذي أصبح بحق منارة من المنارات الثقافية الكبرى في العالم العربي.

إنها شجرة طيبة، غرسها بيده، وأولاها من جهده وعنايته، حتى فاءت ظلالها، ولذّت ثمارها. وما كان ذلك ليتم بطبيعة الحال، لولا

الدعم المادي والمعنوي المتصل، من عاهل المغرب المستنير.

ولا يخفى أن قضية «التأثير الأمريكي في المتخيل العربي» قضية شاسعة. وقد تساءل العلماء والباحثون في هذه الندوة عن المتخيل العربي ما هو؟ ونحن نعلم، أن العرب (أعاريب)، وأمريكا (أماريك) ـ ليسوا شيئاً واحداً.

على أي حال، لا ينكر أن أمريكا هذه الأخلاط البشرية المتباينة، في هذه الرقعة الواسعة من الأرض، قد أصبحت عاملاً مؤثراً على العالم بأسره. وذلك بسبب ما تأتى لها من نفوذ سياسي، وجبروت عسكري، وتقدّم تكنولوجي، وقوة اقتصادية، وغلبة في وسائل الإعلام والاتصال وأساليب العيش.

لم يشهد العالم من قبل، دولة بمثل هذا النفوذ. ومن دُعابات التاريخ التي لا تنتهي، أن هذه الدولة التي بناها المستضعفون والمضطهدون والذين فرّوا بدينهم من أوروبا، والتواقون إلى المُثل العليا، جرّبت مرارة الاستعباد، فحاربت الاستعمار البريطاني حتى تخلصت منه ـ هذه الدولة عينها، صارت (أمبراطورية) في العصر الحديث، لها الخصائص كلها التي للدولة (الإمبريالية). ومن تلك، أنها فرضت على العالم هيمنة، لعلها من نوع جديد، ولكنها آخر الأمر، لا تعدو الهيمنة بالمعنى الكلاسيكي، فأصبحوا يقولون (باكس أمريكانا)، كما كان للرومان (باكس رومانا). وما الـ (باكس) في حقيقته إلّا الظل الذي يغطي الظلال كلها.

وكان بوسع العرب، أن يفيئوا إلى هذا الظل ذي الثلاث شعب، كغيرهم من الأمم، لولا ما حدث لهم في ماضيهم، وما يحدث لهم في حاضرهم.

وهكذا تُثار هذه القضية الكبيرة في أصيلة، بشجاعة تُحمد، وصراحة، في جو من مرارة لا تنكر، يحس بها الرأي العام في العالم العربي تجاه أمريكا. وهي مرارة مبثوثة تحت السطح مثل نهر جوفي. وأحياناً تطفو على السطح. ولا أشك أن أهل العلم والتجربة والرأي في أمريكا يعرفون هذه المرارة، ويعرفون محرّكاتها.

وحسبي أن أذكر الآن، أن العرب كلهم دون استثناء، كانوا حتى قيام الحرب العالمية الثانية محبين لأمريكا، حسني الظن بها إلى حد أن العرب الفلسطينيين، كانوا يؤثرون أن تكون أمريكا ـ لا بريطانيا ـ هي دولة الانتداب في فلسطين.

إنما أيضاً تطرح القضية الآن، في مناخ جديد من (البراغماتية)، إن لم يعمَّ السماء العربية بعد، فهو ينتشر قليلاً قليلاً. إنه مثل سحاب تعاكسه زعازعُ رياح، تهبّ أحياناً وتسكن أحياناً ولكنها في كلتا الحالتين، أصيلةٌ وموجودة على الدوام في الطقس العربي.

هذا، وقد كانت عبارة (براغماتية) إلى عهد قريب، مدعاة للازدراء، إن لم نقل الاحتقار، في الفكر العربي. حتى إنهم لم يجدوا لها ما يوازيها في العربية فقالوا (الواقعية). ولكن ما هو الواقع؟ وأي واقع؟

وفي مذهبي، أن أقرب مرادف لعبارة (براغماتية) هو (الحكمة). وكما نعلم، فقد كان العرب، حتى قبل الإسلام، يُجلّون الحكمة، ثم زادها الإسلام احتراماً وإجلالاً، وجعلها شيئاً أوسع من مجرد الرضوخ لظروف عابرة تبدو للإنسان في وقتها كأنها ثابتة لا يمكن زحزحتها.

وعندي، أن الفارق بين (البراغماتية) بمعناها (النفعي) المبتذل، و(الحكمة) بمعناها العربي وروحها الإسلامي، هو أنك مهما فعلت مما تحتمه عليك الظروف من كرّ وفرّ، وإقدام وإحجام، فإنك في نهاية الأمر لا تغفل الهدف، ولا تتنزل عن الأسس.

التفت إلى هذا المعنى، العالم الفلسطيني المرموق الدكتور هشام شرابي، الأستاذ في جامعة (جورج تاون). كانت الورقة التي قدمها في الندوة، غاية في الصراحة ومواجهة الذات، مهما اختلفتَ معه في النتائج.

تساءل قائلاً:
«أدري ما يدور بخلد البعض الذين فهموا قصدي. كيف يمكن للفكر أن تقوم له قائمة إذا انعدمت أسسه الثابتة؟».

نعم، كيف يمكن؟ بل كيف يمكن لأي شيء أن تقوم له قائمة حينئذٍ.

■ ■ ■

ما الذي قلب العرب على أمريكا، فبعد أن كانوا يرونها دعامة وملاذاً، وسنداً للساعين إلى العدالة والتحرر، أصبحوا في الغالب، ينظرون إليها بمرارة وحنق، وفي أحسن الظروف، بريبة وحذر؟

لعلّ العالم المرموق، الأمريكيّ الجنسية، الفلسطينيّ الأصل، الدكتور هشام شرابي، قد اهتدى إلى أهم سبب لهذا التحوُّل، حين قال في عرضه القيّم الذي قدّمه في ندوة أصيلة:

«وسرعان ما تقلّب الواقع السياسي على الوجه الحضاري الديموقراطي، بدخول أمريكا تاريخ الصراع العربي - الصهيوني إلى جانب إسرائيل. منذ ذلك الحين، غابت أمريكا الحضارية وأسطورة تاريخها الديموقراطي، وبقيت أمريكا القوة العظمى المهيمنة، الديموقراطية لفظياً، والقمعية فعلاً وممارسة. بهذا اختلف التأثير الأمريكي في المخيّل العربي على الصعيد الفردي الخاص، عنه على الصعيد الجماعي العام».

إنما الدكتور هشام شرابي، لم يشأ أن يتوغل في مجاهل الصعيد (الجماعي العام) وآثر أن يقتصر على وصف علاقته هو شخصياً بأمريكا، لأنه، كما قال، أراد أن يبتعد (عن التجريدات المبتذلة والكليشيهات السطحية).

وحين نصل إلى نهاية العرض، سوف نرى، أن ذلك أيضاً، كان بوحي فلسفة - هل أقول براغماتية؟ - صبغت فكر هذا العالم الكبير في الآونة الأخيرة. وهي فلسفة قد يصفها البعض أنها Minimalist - ترنو إلى الحصول على الحدّ الأدنى.

ومهما يكن، فإنه حسناً فعل، فقد كان عرضه، لأجل ذلك، أكثر طرافة، وأكثر تحريكاً للذهن.

قال إنه تعلم اللغة الإنجليزية قبل أن يتعلم اللغة العربية، ثم التحق طالباً داخلياً في مدرسة أمريكية تديرها جمعية (الفرنْدز - الكويكَرْز)، حيث قضى ثلاث سنوات. ثم سافر إلى بيروت، فأتمَّ، دراسته الإعدادية في مدرسة (آي. سي) الأمريكية. بعدها دخل الجامعة الأمريكية ببيروت، فحصل منها على شهادة البكالوريوس في الفلسفة عام ١٩٤٧.

في ذلك العام سافر إلى أمريكا حيث نال شهادة الدكتوراه من جامعة شيكاغو، وظل ثمة إلى يومنا هذا. وهو الآن كما نعلم أستاذ يُشار إليه بالبنان في جامعة (جورج تاون) في واشنطن.

هذ السيرة، كما رواها الدكتور هشام شرابي في أصيلة، وقد رواها بالتفصيل في كتابه «الجمر والرّماد»، قد توحي أن صاحبها قد طوّحت به نوى الاغتراب بعيداً، واجتثّت جذوره اجتثاثاً. لذلك يسارع فيقول:

«لم تدفعني ثقافتي الأنجلو ـ أمريكية إلى الخروج عن هويتي وتراثي. لم أتمثل يوماً بالهوية الأمريكية، ولم يُنسني العيش في الولايات المتحدة شعبي وموطني».

نعم، نحن نقبل هذا القول دون أي شك. كان بوسع الدكتور هشام أن يدير ظهره للعالم العربي، ويخلد إلى العيش في موطن هجرته. لكننا نعلم أن فؤاده ظل معلقاً بمخالب فلسطين والعالم العربي، لا يستطيع منها فكاكاً. ظل منغمساً في العمل الفلسطيني، مهموماً بما يجري أو لا يجري، في ديار العروبة والإسلام، يكتب ويحاضر ويناظر، ويحل ويرحل.

ماذا وجد هشام شرابي في أمريكا؟ يقول:
«في المجتمع الأمريكي الذي انتقلت إليه وأقمت فيه إقامة دائمة بعد سقوط فلسطين، اكتشفت بالتجربة المباشرة، **الفارق في العلاقات الاجتماعية بين الأبوية والسلطوية والديموقراطية المتساوية. ظهر لي (الآخر) لا على شكل ذات فوقية تسحقني، بل بصورة ذاتٍ حرة تعكس حريتي. استشرفْتُ ما يُدعى قيمة الفرد، واكتشفت أن المجتمع الذي وُلدتُ فيه، همُّه الأكبر لا حماية الفرد وقيمته، بل**

إذابة الفرد وسحقه (وبخاصة إذا كان أُنثى) وتمجيد سلطة الأب وصورته».

هذه الفقرة، تُنبىء عن فكرة محورية في نظرة الدكتور هشام إلى المجتمعات العربية، توسع في بسطها في كتابه «النظام الأبوي وإشكالية التخلف في المجتمع العربي» الذي صدر باللغة الإنجليزية عن دار جامعة أكسفورد للنشر، عام ١٩٨٨.

ولا يخفى أن عبارة (السلطوية الأبوية) إنما هي ترجمة للعبارة الإنجليزية (Authoritarian Paternlism) وعبارة (تمجيد سلطة الأب) مأخوذة من العبارة الإنجليزية (Patriarchal) التي يترجمونها أحياناً (بطركي). ومعلوم أنهم في علم (الأنثروبولوجيا ـ علم الأجناس البشرية، مقوماتها وتطورها) يقسمون المجتمعات إلى (Patriarchal) قوامها سلطة الأب، و(Matriarchal) قوامها سلطة الأم.

ولكن الدكتور هشام يخبرنا هنا كما يبدو أنه وجد في أمريكا مجتمعاً لا يقوم على سلطة أب أو أم، وإنما يعتمد مبدأ المساواة بين أفراد أسرة كل فرد فيها يحترم الآخر، ولا يسعى إلى إذابته أو سحقه.

هذا وتجدر الإشارة على سبيل الإنصاف، أن الدكتور لم يُغفل تماماً ما أسماه (وجه أمريكا الآخر)، فأشار إشارة سريعة إلى وجه أمريكا (الرأسمالي الطبقي وعصبيتها العرقية وتفرقتها العنصرية).

ولكن يبقى الانطباع الأول غالباً. وهو انطباع قاده ـ كما يبدو لي

ـ إلى بلورة فلسفته عن المجتمعات العربية، أنها أبوية سلطوية، لا تسعى إلى حماية الفرد، بقدر ما تسعى إلى سحقه وإبهام (بالباء) سِمات تفرُّده.

■ ■ ■

في فقرة ذات دلالات عميقة في سياق عرضه القيّم، يقول الدكتور هشام شرابي، أن حياته في أمريكا علّمته ألّا ينجرف في تيار الثورة الشاملة أو إيديولوجية القيم المطلقة، ويضيف:

«وتعلّمت أيضاً بعد سقوط الثورة، أن الثورة الحقيقية هي الثورة الدائمة، الثورة التي ترفض طوباوية فلسفات التنوير وفكرة نهاية التاريخ، وتدرك أن المدينة الفاضلة ليست إلّا حلماً لا يمكن تحقيقه على الأرض، وإذا تحقق كما حدث في النصف الأول من القرن العشرين، فإنه لا يحقق المجتمع العدل الحرّ، بل يقيم المجتمع المكبوت والمكبّل».

نختلف مع الدكتور حول رأيه في صعوبة التغيير الجذري الثوري ضربة لازب. وقد نتفق معه في استحالة إقامة (المدينة الفاضلة) على الأرض. ولكن هل لأجل ذلك تتخلى الإنسانية عن مجرد (الحلم) بإقامة المدينة الفاضلة؟

لا يُنكَر، أنه حلُم، تسبّب، وما يزال، في ما لا حصر له من الكوارث، ولكنه في المقابل، كان طوال التاريخ، حافزاً للإنسانية على رفع أبصارها إلى آفاق أرحب، ومواصلة السير نحو غد أفضل. ونحن المسلمين، في ذاكرتنا (الجمعيّة)، أصداء (مدينة فاضلة)،

قامت بالفعل في حقبة من تاريخنا، فكيف نجتثُّ من ذاكرتنا أصداء تلك الأصوات؟

يزيدنا الدكتور هشام إيضاحاً، عن التحوّل الذي حدث له في أمريكا، فيقول:

«مع استيعابي لمعنى الحضارة وواقع التطور التاريخي، لم يعد بإمكاني التمسك بالفكر الثابت أو القيم الدائمة التي حددت تكويني الثقافي والنفسي في الحقبة الأولى من حياتي. أصبحت العادات والتقاليد التي ترعرعت عليها، والتي رست في أعماق نفسي، موضوع تساؤلات ونقد واع. أي أصبحت موضوع تجاوز ممكن».

فلْنقبلْ هذا الكلام على علاّته، فما كُنّا نتوقع، أن يتعرض عقلٌ متميّز مثل عقل الدكتور هشام، لذلك العلم كله، وتلك التجارب كلها، ويظل هو هو، ثابتاً لا يتغيّر.

أين يكون الخلاص إذاً في رأي الدكتور هشام شرابي؟

يقول بصراحة بالغة، وشجاعة نحمده عليها، حتى لو لم نتّفق معه في الرأي:

«.. إن التحرير الفكري لا يمكن أن يتم دون كسر القمع الجنسي، وإن المساواة الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق دون الإطاحة بالسلطة البطركية، وإن ديموقراطية العائلة هي الشرط الرئيسي لديموقراطية المجتمع، والتحرر الجنسي هو شرط الانفتاح الفكري واكتشاف الذات والعالم».

يجب أن أنبّه هنا، إلى أن الدكتور لم يقصد بعبارة (التحرر الجنسي)، إطلاق العنان للملذات الجسدية كيفما اتفق، ولكنه قصد محض المساواة بين المرأة والرجل.

هذا، وقد أخذ الدكتور، بهذا التعبير، الأكثر رصانة، والأقل مدعاة للرِّيَب، في هذه الفقرة الحاسمة:

«... وتعلّمتُ كذلك أن الثورة الحقيقية لا تكمن في الكفاح المسلّح الذي يشكّل وسيلة من وسائل الثورة، بل في الصراع اليومي لتحقيق الجُزئي والممكن والقريب، تحقيق الحريات الديموقراطية وحماية حقوق الإنسان وتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة، لا الركض المستحيل وراء الكلّي والشامل والبعيد».

هذه إذاً هي زُبْدةُ فلسفة هذا العالم المرموق، أو على الأقل موقفه الذي يقفه الآن في سياقِ تطوره الفكري... «الصراع اليومي لتحقيق الجزئي والممكن والقريب...».

إنما قبل ذلك، لا بد ـ حسب رأي الدكتور هشام ـ من الإطاحة بالسلطة الأبوية البطركية. وقد يقول قائل، إن ذلك مطلب، بل سراب، لا يقل مخادعة عن حلُم إقامة المدينة الفاضلة. لأن الإطاحة بالسلطة البطركية، في ما يتعلّق بنا، إنما هي في الحقيقة ثورة أيضاً. ثورة على تاريخ متجذر، وتراث ممتد، ونظرة إلى الأشياء، تكوّنت على امتداد حقب متطاولة لا يحصيها العد.

وهكذا نجد أن الدكتور هشام، لعلّه انتهى إلى حيث بدأ، وأنه ربما يكون قد قايض نظرة (شمولية) بنظرة شمولية أخرى.

في مسرحية (آنتجونا)، التي اقتبسها الكاتب الفرنسي (جان آنوي) من مسرحية (سفوكليس) اليونانية القديمة ـ وقد كتبها أيام الاحتلال النازي لفرنسا ـ يقول (كريون):

«... هذه الدولة، تستحق اليوم ملكاً مثلي، ليس له ماض، وليست له أوهام، إنني أحمد الله أنني أحمل اسماً عادياً لا يدلّ على شيء... كريون، لا أكثر. ها أنا، أقف الآن، قدماي على أرض صلبة، ويداي في جيوبي... آليْتُ على نفسي، ما دمت حاكماً، أن أفرض ولو قليلاً من الاستقرار في هذه الدولة المضحكة... إذا كان ذلك ممكناً».

■ ■ ■

حين يخبرنا العالِم المرموق الدكتور هشام شرابي أنه اكتشف من حياته في أمريكا، الفارق في العلاقات الاجتماعية بين الأبوية السلطوية، والديموقراطية المتساوية، ويقول «ظهر لي (الآخر)، لا على شكل ذات فوقيّة تسحقني، بل بصورة ذات حُرّة تعكس حريتي» ـ حين يقول هذا، فعنْ أي أمريكا يتحدث؟

لا أشك أنه فعلاً وجد الأمر كما وصف. لكننا نعلم أن الدكتور هشام ليس شخصاً عادياً. ليس عاملاً في (قراج) في (ديترويت)، ولا صاحب محل بقالة في (شيكاغو)، ولا حارساً ليلياً في (نيويورك) ـ إنه من صفوة الصفوة. أستاذ جليل، في جامعة هي من كبرى الجامعات في أمريكا. ونحن لا ننكر الفضل لها، أن من إنجازاتها الباهرة، أنها أقامت دوراً للعلم تهيىء للدارس والباحث والأستاذ، فرصاً واسعة، كي ينمّي مواهبه ويعبر عن ذاته وأفكاره، دون قيد أو شرط.

في تلك المناخات العلمية، نعم، يجد الإنسان ذوات حرّة تعكس حريته.

إنما هل هذه كل أمريكا؟ لا أحسبني أحتاج أن أذكّر أستاذنا الجليل، أن في حي (جورج تاون) في واشنطن، غير بعيد من الجامعة ذائعة الصيت، يصدم الزائر مرأى عشرات المواطنين أغلبهم من السود، يقفون أو يجلسون على أفاريز الطرقات، بلا هدف، وعلى وجوههم سيماء بؤس مقيم، ويأس بعيد الصور. ولا أظن أنني رأيت من ألوان الشقاء والهوان الإنساني، ما رأيته وأنا أشق حي (هارلم) في نيويورك. لا يوجد في أي مدينة عربية، مهما بلغ بها الفقر، نظير ذلك البؤس.

بلى، إنها كذلك أيضاً، وهذا هو المحير في هذه الدولة العجيبة. الفقر الممض في (هارلم)، والمعمار الطريف في (مانهاتان)، وهما على مرمى حجر. الحدائق المونقة والساحات الواسعة في واشنطن. الاكتشافات العلمية المذهلة وملايين الأميين الذين لا يكتبون ولا يقرأون. الرجال والنساء الشرفاء الذين يحبون الحرية والكرامة لأنفسهم وللآخرين، واللصوص والأراذل والمجرمون. عصابات الـ (كوكلس كلان) التي تعلق المشانق للسود والمفكرون العاكفون على طرح الأسئلة النبيلة. المحلقون بين الكواكب، والفثاثات التي تمجّها على العالم، وسائل الإعلام والترفيه من نيويورك وهوليوود.

بلى، هذا الخليط المتناقض المحير هو كله أمريكا، وكأنها تلخص رحلة الإنسان عبر هذا الكوكب، بخيرها وشرها منذ بدء الخليقة. قامت على أنقاض أكبر عملية إبادة في التاريخ، وعلى أنبل المثل وأطيب المقاصد. مثل تمثال (المفكر) للنحات الفرنسي (رودان). مثل

رجل عملاق أقدامه مغروسة في الوحل ورأسه شامخ في السماء.

كل ذلك، ما كان يهمنا، أكثر مما تهمنا أحوال اليونان أو البرازيل، لولا أن أمريكا أصبحت الدولة العظمى، أصبحت (روما) هذا الزمان، تبسط ظلها على سكان المعمورة قاطبة، وتؤثر على مصائرهم، إن خيراً أو شراً. وقد جاء في الكتاب الرائع «الثقافة والإمبريالية» للعالِم النابغة برفسور إدوارد سعيد:

«تفرض الولايات المتحدة هيمنتها على العالم، بأنها هي التي تحدد قواعد النمو الاقتصادي ومدى القدرة العسكرية، في طول هذا الكوكب وعرضه (...) كذلك كانت روما في عهدها الأول، كما قال (شِشرو)... الولايات المتحدة، التي جاد عليها الحظ بثروات لا مثيل لها، وتاريخ غير عادي تقف اليوم (فوق) النظام الدولي وليست خاضعة له. وكونها الأقوى بين الدول، فهي متحفزة على الدوام لفرض مشيئتها على الدول «كافة».

وتجدر الإشارة هنا، أن هذا العالِم الفذ، وهو أيضاً فلسطيني الأصل، قد سار المراحل نفسها التي قطعها بروفسور هشام شرابي في رحلته إلى أمريكا. وانتهى به المطاف، أنه صار هو الآخر أستاذاً مرموقاً في جامعة أمريكية عريقة. صار أستاذ الأدب الإنجليزي والأدب المقارن في جامعة (كولومبيا) في نيويورك. ورغم ذلك فقد وصل إلى نتائج مختلفة عن النتائج التي وصل إليها بروفسور هشام شرابي.

هذا المفكر الضخم، أحدث من التأثير في أمريكا والعالم، ما لم يستطعه إلّا القليلون، وكتابه «الاستشراق» صنع دوياً ما يزال يتردد

إلى اليوم. وكتابه هذا «الثقافة والإمبريالية» ـ وهو آخر كتبه ـ وصفه كاتب إنجليزي بأنه (مساهمة هامة من كاتب هو من أعظم النقاد في هذا العصر).

هذا ويقول الفيلسوف الإنجليزي الكبير (آر.جي كلنقود ـ R.G.Collingwood)، مؤكداً رأياً مماثلاً للفيلسوف الإيطالي الحجةّ (قيد ردريجو):

«الإنسان الحر ـ أي الإنسان الذكي القائم بذاته ـ هو وحده الذي يعترف بحق الآخرين في الحرية (...) الفرد لا يحقق اكتماله الروحي، بواسطة السيطرة على الآخرين وإخضاعهم لإرادته، بل، بواسطة تحرير الذات من الانفعالات السطحية، والقيود الخارجية. لكن هذا لا يعني أن الحرية هي إباحية وخضوع للهوى والنزوات، إذ إن ذلك لا يكون إلّا على حساب حقوق الآخرين. هذا يجب ألا يُسمح به، لأنه يلغي الاعتراف المتبادل بالحرية، ويؤدي إلى فساد الحياة العامة، حياة المجتمع ككل. على العكس من ذلك، الإنسان الحر حقيقة لا يتبع أي نمط من السلوك اعتباطاً فهذا يعني أنه إنسان عابث خائر العزيمة. الإنسان الحر حقيقة هو الذي يختار السلوك الذي يفرضه عليه مصيره الأخلاقي المحتوم. الحرية هي السلوك الذي لا يتعارض مع الواجب».

نعم، نحن نفهم هذا الكلام جيداً، فهو موجود عندنا في تراثنا العظيم، أفصح وأنصع بياناً. وقد قال رسولنا الأمين صلى الله عليه وسلم «جئتُ لأُتمم مكارم الأخلاق». وبالتأكيد ليس ذلك هو التراث (الأبوي البطركي) الذي يهيب بنا صديقنا العالِم المرموق، أن نثور عليه.

إن (الاعتراف المتبادل بالحرية) ينطبق بطبيعة الحال، على الدول كما ينطبق على الأفراد. فإلى أي حد ينطبق الوصف على هذه الدولة الطريفة؟ وإلى أي حدّ أن المجتمعات العربية والإسلامية مجتمعات (بطركية) بالمعنى السيىء للكلمة؟ وهل أمريكا ليست مجتمعاً بطركياً؟

١٤

سرّني أن علمتُ أنّ مهرجان أصيلة اجتمع شمله عام ١٩٩٦. عام ١٩٩٥ كان عاماً ناقصاً لكلّ الذين تعوّدوا أن يرِدوا ذلك المنهل الثقافي العذب على ساحل الأطلسي في الصيف. لم يقم المهرجان لظروف اقتصادية صرف، إذ إن إخواننا في المغرب لا ينقصهم التصميم على استمراره ولا الاقتناع بجدواه. وقد ساورنا القلق أن يحدث له ما حدث لمشاريع ثقافية أخرى في العالم العربي، تنمو وتزدهر، حتى إذا استوت على ساقها واشتد عودها، إذا هي فجأة تذوي وتموت.

الحمد لله هذا لم يحدث لمهرجان أصيلة. هكذا أخبرني محمد بن عيسى، وزير الثقافة السابق وسفير المغرب في واشنطن. الرّجل الذي مهد الأرض وغرس الشجرة، وتعهدها ورعاها حتى فاءت ظلالها على الناس. وما كان لي أن أزور واشنطن ولا أعرّج عليه، فهو من

توقّد الذهن وعلوّ الهمة وسعة الأفق كما يعلم كل من عرفه. ولا شك أن الفضل يعود إليه بتصميمه ومثابرته أن المهرجان استمر طيلة سبعة عشر عاماً بلا توقف رغم موارد المغرب المحدودة والتزاماته الكثيرة.

ليس سهلاً أن تستضيف كذا مائة مدعوّ من مشارق الأرض ومغاربها، تدفع نفقات سفرهم وإقامتهم. وفي عام ١٩٩٥ بلغت الظروف الاقتصادية في المغرب (بسبب الجفاف وغيره) حدّاً جعل قيام المهرجان صعباً، بل غير ملائم أصلاً، نظراً لتلك الظروف. وقد أردنا، نحن أنصار مهرجان أصيلة ومحبيه، أن يذهب كلّ من يستطيع منا على نفقته الخاصة. أردنا أن يظل الضوء مشتعلاً. ولكن أريحيّة دولة المغرب وكرم طبعها، أبت علينا ذلك.

لعلّ أخواننا وأخواتنا في العالم العربي، ممن نعلم حرصهم على الثقافة العربية وعندهم القدرة المالية، يضعون مهرجان أصيلة في اعتبارهم.

إنه ـ كما هو واضح ـ بمثابة ضوء مشعٌّ في مغرب الأرض العربية، غدا الناس يرونه من أماكن بعيدة. وفي ذلك فوائد لا تقدر بمال للأمّة العربية والإسلامية.

في نطاق نشاطات المهرجان عام ١٩٩٦، عقدت جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفيّة، ندوة حشد لها عدد من المفكرين والباحثين والإعلاميين من عرب وأمريكيين. وطرحت فيها هذه القضايا:

١ ـ العرب والإسلام والتطرّف ـ حقائق وأساطير.

٢ ـ الأمريكان والنفوذ والمواقف السياسية ـ المعاناة والانبهار.
٣ ـ النخبة العربية والنخبة الأمريكية والبحث عن حلّ للمعضلة.

ولا يخفى أن علاقة الولايات المتحدة بالعالم العربي والعالم الإسلامي علاقة محيرة، لنا ولهم، ولا يجدي أن نتغافل عنها كأنها علاقة لا تأثير لها ولا وزن في مجريات أمورنا. واضح أن أمريكا تحيط بنا من الجهات جميعها، ولا مفر منها ولا محيص عنها.

محمد بن عيسى واحد من الذين يؤمنون بجدوى الحوار مع الأمريكان على مستويات متعددة. وقد زاده عمله في واشنطن سفيراً للمغرب إيماناً. لا بد، كما يقول، أن نعرف عناصر تكوين أمريكا، وأنماط سلوكها، ودوافع سياساتها.

وإن كان من العرب من استطاعوا أن يصلوا إلى قريب من فهم ذلك العالم الواسع المعقد المحير، فإن محمد بن عيسى واحد منهم. لقد درس عندهم وعاش بينهم وذهب أبعد ما يستطيع عربي أن يصله في معرفتهم. ذلك مع شيء من الإعجاب، لا يخفيه، بديناميكيتهم وقدراتهم على الابتكار، وأنهم ليسوا مشدودين إلى الماضي ولكن إلى المستقبل.

مهما يكن الأمر، فإن جهداً مثل هذا حريٌّ بالدعم والتأييد على أوسع مدى. وهو واحد في سياق الجهود العقلانية القيّمة التي يضطلع بها مهرجان أصيلة. لقد بذل جهداً من قبل في مجال العلاقات العربية ـ الأفريقية، والعلاقات العربية ـ الأوروبية وعلاقات العرب مع أمريكا اللاتينية. وهي كلها قضايا ضخمة، لا بد للعرب والمسلمين، أن يفككوها الى أجزائها ويحيطوا بها، إذا كانوا يريدون

أن يعيشوا في المجتمع الإنساني، لا كمتفرجين وضحايا ولكن كمشاركين يؤثّرون ويتأثرون.

هذا، ويكفي مهرجان أصيلة فخراً، أنه منذ سنوات، خصص جائزة للشعر الأفريقي باسم الشاعر الكنغولي (شيكايا أوتامسي) مُنحت للشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، وصحب ذلك ندوة عنوانها (أحمد عبد المعطي حجازي والحداثة الشعرية العربية).

تخيّل المغزى البعيد المرمى، أن تخصص في بلد عربي جائزة للشعر الأفريقي، وأن تُمنح الجائزة لشاعر عربي في سياق سلسلة من الشعراء الأفارقة السود، ونحن نعلم أن كثيرين من الأفارقة السود، يرفضون أن يعتبروا العرب أفارقة.

أليست هذه جرأة من المغرب تستحق الإعجاب؟ أليست هذه براعة من محمد بن عيسى تستحق الدعم والتأييد؟

١٥

بينما نحن في أصيلة نحتفل بفوز الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي بجائزة شيكايا أوتامسي للشعر الأفريقي، إذا بنا نُفاجأ بنبأ رحيل بلند الحيدري، أحد الرواد المؤسسين لحركة الشعر العربي الحديث.

وكان من نصيبي أن أترأس الجلسة الافتتاحية، التي جرت فيها مراسيم منح الجائزة لأحمد عبد المعطي حجازي، وذلك في مساء اليوم نفسه الذي بلغنا فيه نبأ وفاة بلند الحيدري.

اختلط السرور بالحزن بطريقة محيّرة، كأن واقع الحياة تحوّل فجأة إلى قصيدة من قصائد الشاعر المُحتفى به والشاعر المأسوف على فراقه. وكل منهم طالما ناجى الموت واستنطقه وحدّق في وجهه.

لذلك لم يسعفني القول، وكانت كلمتي قصيرة كما يلي:

«عرفنا أصيلة منذ نحو عشرين عاماً ـ بلدة صغيرة كما عندنا في وادي النيل، وكما في أرياف بلاد الشام، والعراق وجزيرة العرب.

لم تكن ميّتة. لكنها لم تكن حيّة. مثل أُسْرة جار عليها الزمان. تطوي ضلوعها على أحزان وذكريات أمجاد غابرة.

ثم أتاح الله لها ابناً من أبنائها حرّكها ونفخ في روحها.

جاء إليها الحالمون، ملاعبو القوافي والأوتار والأخيلة الألوان. تجوّلوا في أسواقها، وجلسوا في مقاهيها، ومشوا على شاطئها، وسامروا لياليها.

ثم بدأوا يرحلون.
مات شيكايا أُوتامسي ويوسف إدريس ولحبابي وإميل حبيبي.

واليوم يموت بلند الحيدري.

لكن لا بأس. موت أمثال هؤلاء لا يكون نهاية أبداً. إنما طاقة تأخذ أشكالاً أخرى في دورة الزمان السرمدية.

وحسبنا أن أصيلة، بعد عشرة أعوام، أو عشرين عاماً، أو مائة عام، حين يداعب نسيم بحرها فروع أشجارها، لعلها تذكر هذه الأرواح التي طافت بها. وإذا لم تذكر، فلا بأس.

رحم الله بلند الحيدري، كان شاعراً كبيراً، وإنساناً كريماً، وصديقاً

وفياً، ومحبّاً عظيم الحب لأصيلة.

كأنه وجد فيها وطناً بديلاً. وجد الأمن والطمأنينة في لندن، ولم يفتأ يذكر بيروت ويحن إلى بغداد. أضناه الاغتراب، وهدّه الحنين إلى العراق، فوجد في أصيلة بعض السلوى وبعض العزاء.

إنما نحن لم نجتمع اليوم لنرثي بلند الحيدري. في الوقت متسع للرثاء، وأبو عمر يقدر ذلك، وكان يود أن يكون معنا هذا المساء.

جئنا لنحتفي بشاعر عظيم، نرجو له طول العمر ومزيداً من العطاء. ولا تثريب علينا أننا نفرح ونحزن في وقت واحد، هو وقت أصيلة المثلوجي.

البلاد تكون بالموت كما تكون بالحياة.
أحمد عبد المعطي حجازي أطال الله عمره، هو أيضاً يُقدر ذلك، لا ريب، لأنه في شعره، ككل الشعراء الكبار، لم يزل يغازل الموت.

ومن مثلُنا أدرى بامتزاج الأفراح والأحزان، وأن الحياة لا بد أن تستمر، وأن البلاد في أرضنا العبقرية، تزدهر بدماء الأبرار من أبنائها وبناتها. وإننا، نحن الحالمين ملاعبي القوافي والأوتار والألوان والأخْيلة، كيفما عشنا، وأينما متنا، فإنما نحن قرابين الفداء لهذه الأرض.

إذاً فلنحتفل بأخينا وصديقنا الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، أمدّ الله في عمره وزاد من عطائه. وإن كانت حلاوة احتفالنا به، يخالطها الحزن لغياب صديقنا بلند الحيدري ـ فلا بأس.

صحبْتهُ كثيراً في السنوات الأخيرة، وكنت قد لقيته أول مرة في بيروت، مطلع السبعينيات، في دار أدونيس. جلسنا الليل كله نتناشد أشعار المتنبي. ولا بد أننا أتينا على قصيدته التي يقول فيها:

غــيــر أن الــفــتــى يــلاقــي المنــايــا
كــالحاتِ ولا يــلاقــي الــهــوانــا

كان بلند الحيدري، فتى كردياً عربياً، ولم يكن قبول الهوان في طبعه.

ثم التقينا في لندن بعد زمن.

أذكره في أصيله في المغرب. ثمة يكون على سجيّته. شيء ما في هواء أُصيلة وبحرها، كان ينعش روحه. لعلّه ودّ لو يقيم فيها.

كان يحب لندن، وقد حدّثني مرة ونحن عائدان من القاهرة، أنه يحس بالسعادة حين تطأ قدماه أرض لندن، كأنه يعود إلى أهله. ربما لأنه وجد فيها الطمأنينة والأمن. وقد وجد في جواز السفر الإنجليزي الذي اضطرته الظروف إلى الحصول عليه، لا أقول هوية جديدة، بل نوعاً من الاعتراف بقيمته كإنسان. كان ينصحني أن أحذو حذوه. سوف أظل أقاوم، ولعلّني أستسلم في النهاية.

لكن مدينة أصيلة كانت شيئاً آخر. ربما وجد في مناخها وسُحن أهلها وجَلَبة أسواقها ونداءات مآذنها ومعمار بيوتها وانعكاسات الضوء على بحرها، شيئاً ذكّره بعالمه المفقود. كان عربياً قُحّاً رغم أنه كردي.

أذكره في أصيلة واقفاً وقفته النبيلة التي يخالطها شيء من الحياء يبعدها عن الخُيلاء، ينشد في تكريم سنغور وماسيسي كونيني وفي رثاء شيكايا أوتامسي. أولئك الشعراء السود الذين أحبّهم وآخاهم دون تكلّف. وما أكثر ما رثى الراحلين من الشعراء والكتّاب والرفاق والأصدقاء. ويمكن القول إن بضعة منه كانت ترحل مع كل قصيدة رثاء وكل كلمة وداع. ظل يناجي بغداد التي لم تُجزه حباً بحب وبيروت التي أضاعها وضاعَت عن نفسها.

في القاهرة كنا نجلس جنبَ جنب في مجلس أمناء مؤسسة سعاد الصباح. لم يكن يتكلم كثيراً، وحين يتكلّم دائماً يقول شيئاً ذا مغزى. وهنالك وجد حفاوة عظيمة، كما هي سجيّة القاهرة. في ندوات معرض الكتاب وفي أمسيات دار الأوبرا. وكان يسعده أن أغلب الجمهور من الشباب. وفي القاهرة، وجد الاعتراف به كرائد من الأوائل في حركة الشعر الحديث.

أذكره في الرياض أيام الجنادرية، في جلسات الصباح على الإفطار في الهوتيل، وفي دار الشيخ عبد العزيز التويجري. كان يقربه إليه ويجلسه بجواره.

منذ عامين سافرنا معاً من لندن إلى بروكسل. نزار قباني وهو وأنا، ووجدنا عبد الرحمن منيف قد وصل قبلنا من دمشق. كانت صحبة طيبة، خالية من التوتر الذي قد يكون بين الأدباء، والغيرة كما يحدث أحياناً بين الشعراء.

نزار قباني كان نجم تلك الأمسيات لا ريب. تقاطر عرب الشتات على بروكسل، من مدن بلجيكا وهولندا وفرنسا وبلاد إسكندنافيا، جذبهم ضوء نزار قباني في الغالب، لكن بلند الحيدري كان مُشعّاً أيضاً، على طريقته.

بقدر ما حرّك شعر نزار قبّاني حماستهم وحيويتهم، وأسعدهم وأجّج غضبهم، فإن شعر بلند الحيدري ساقهم إلى متاهات بعيدة في أعماق نفوسهم.

في كل صحبتي لبلند الحيدري، لا أذكر أنه قال إلّا خيراً عن أيٍّ من زملائه الشعراء. كان مُعتداً بتجربته الشعرية، لكن ذلك لم يمنعه من احترام تجارب غيره.

مرة واحدة فقط، ونحن جالسان على حافة بركة السباحة في هوتيل الخيمة في أصيلة أواخر المساء، شعرت بشيء من المرارة في حديثه. مرارة خفيفة جداً، كون النقّاد قلّلوا من دوره الريادي.

الآن وقد رحل بجسمه، فإنهم سوف يعيدون النظر، لا شك. لم تبق إلّا أصداء إنسانيته الشاملة، وصوته الشعري. وهو صوت سوف يزداد قوة واتساعاً عاماً بعد عام، كما يحدث للشعراء الكبار، حين لا يبقى منهم غير الصوت.

١٧

صور أحمد عبد المعطي حجازي الفائز بجائزة شيكايا أوتامسي للشعر الأفريقي، تملأ شوارع البلدة، وإعلانات عن الأمسيات الموسيقية لمنير بشير، وندوات الحوار العربي ـ الأمريكي.

وجوه الناس في أصيلة مستبشرة، تنمّ عن أنهم سعداء أن الموسم قد عاد، وأن روّاده قد عادوا في نزل الخيمة وفي الشوارع والمطاعم والمقاهي وفي مركز الحسن الثاني للمؤتمرات. ربما ساورهم القلق أنه لن يعود. الناس في بلادنا تعودوا أن تبدأ أشياء ثم تنتهي فجأة، دون سابق إنذار ودون مبرّرات يفهمونها.

يجعلونك تحسّ أنهم حقاً سعداء بعودتك إليهم، وأنهم افتقدوك حين لم يكن موسم. يعرفون الأدباء والشعراء والرسامين والموسيقيين، وينادونهم بأسمائهم. كل كاتب شهير في أصيلة، وكل شاعر نجم.

أغلبهم من الشباب دون الثلاثين، كبروا مع مواسم أصيلة منذ ثمانية عشر عاماً. كثيرون منهم تخرّجوا من الجامعات، ووجدوا أعمالاً في طنجة والرباط والدار البيضاء وفاس ومرّاكش. يعودون إلى أصيلة في المواسم، كما يفعل أفراد عائلة، لاستقبال ضيوفهم.

قليلون هم السعداء الذين وفّقهم الله لتأدية بعض الدَّين الذي في أعناقهم لأهليهم، في مهابط رؤوسهم.

محمد بن عيسى من هؤلاء الذين وفقهم الله، أحدث ثورة حقيقية في مهبط رأسه، ثورة ثقافية واجتماعية، دون أن يسمّيها أحد ثورة. وذلك ـ كما يجب أن يكون ـ نموذج فريد، كيف تحدث التنمية، وكيف تتواءم الثقافة مع متطلبات العيش.

لم يكن وحده لا شك، فلا أحد بمفرده يصنع ثورة. ولكن يحمد له أنه حرّك الهمم وشحذ العزائم، فصار الحلمُ مشتركاً بين أهل البلدة، وحتّى الغرباء الذين توافدوا عليها.

ليس فقط أن الذين مرّوا بهذه القرية المغربية على ساحل الأطلسي، من شعراء وكتّاب ومفكرين ومغنين وعازفين ورسّامين، حملوا ذكراها ونثروها في أطراف الدنيا، ولكنهم أيضاً تركوا في البلدة الصغيرة شيئاً من أنفسهم، فاتّسعت بذلك وصارت بلدة غير عادية.

ما كل طفل في كل بلدة عربيّة مثل أصيلة أتيح له أن يرى ويسمع سنغور وشيكايا وماسيسي كونيني. أن يرى ويسمع بلند الحيدري وأحمد عبد المعطي حجازي وفاروق شوشة وأدونيس. أو أتيح له أن يرى جداريات الفنان السوداني محمد عمر خليل، ويمشي في

شوارع صمّم بلاطها الفنان المغربي محمد المليحي، أو يستمع إلى الموسيقي العراقي منير بشير يعزف موسيقاه الساحرة.

لا بد أنها أشياء ترسخ في الذاكرة، وتُحدث أثراً ما. الإنسان العربي بذرة طيبة إذا وجدت الماء والهواء. إذا وجدت المناخ الصحيح. وفي أصيلة حدث شيء ذو قيمة. إنها من الأمثلة التي تدحض تشاؤم المتشائمين على مستقبل هذه الأمة.

كان (سلام) ـ مبروك البلدة وبَركتُها ـ أسعد الناس أن مواسم أصيلة قد عادت. نظيف الثياب متهلّل الوجه، يحيّي من حضر ويسأل عمن غاب، ودائماً يبحث عن محمد إبراهيم الشوش، صديقه الأثير.

يحضر الندوات كلها ويستمع مستغرقاً. حضر معنا ندوة الحوار العربي ـ الأمريكي من أوّلها إلى آخرها، رغم أن الكلام كان أغلبه باللغة الإنجليزية. سألته عن رأيه فقال:

«الأمريكان يقولون العرب يعملون إرهاب وهم الذين يعملون الإرهاب».

لو كنتُ من صنّاع السياسة الأمريكية، لأخذت قول (سلام)، مبروك أصيلة، بعين الاعتبار.

حين ينادي الأذان، يقوم ويذهب إلى المسجد قبالة (مركز الحسن الثاني للمؤتمرات)، يصلّي مع الجماعة ويعود.

كثيرون أمثال (سلام) في هذه الأرض الواسعة بين المحيط والمحيط. وربما من أجلهم، يفتح الله أبواب الرحمة، وينزّل الغيث، يمنع الأرض أن تميد بأهلها.

نشأ يتيماً ويسكن مع شقيقته، وبدا لي كأن البلدة كلها أهله. يستمع مستغرقاً ويضحك ويصفق، وإذا لم يعجبه ما يُقال، يقوم فجأة ويخرج.

هذا، وقد كان الهواء جميلاً كأنه قيس بميزان. لا أكثر ولا أقل. والكورنيش الواسع مزدحم بالخلق، والمقاهي والمطاعم والباحات والشوارع.

أصيلة ليست فردوساً. إنها مكان بعينه في الدنيا. إنما فيها روح يقوّي الإحساس أن المشاكل قابلة للحل، أو أن الصعاب يمكن أن تُحتمل.

١٨

عاد موسم أصيلة عوداً حميداً. بعد الحوارات المهمّة التي حدثت في المواسم الماضية ـ عن العلاقات بين العرب وأفريقيا، والعرب وأوروبا، والعرب وأمريكا اللاتينية ـ نظمت جامعة المعتمد بن عباد الصيفية حواراً عن العرب وأمريكا. كيف يرى العرب أمريكا، وكيف يرى الأمريكان العرب؟

لا يخفى أن موضوع أمريكا ـ إن لم نقل معضلة أمريكا ـ يحتاج من العرب إلى جهد مركّز على أمد طويل. وقد بُذل بعض الجهد بالفعل، ولكن بطريقة مبعثرة وعلى فترات متباعدة. وكان من فوائد ندوة أصيلة، أنها وضحت الهوة العظيمة التي تفصل بين العالم العربي وأمريكا، وجسامة العمل الذي لا بد أن يقوم به العرب لردم تلك الهوة.

لكن لماذا يطلب بذل الجهد من العرب وليس من الأمريكان؟

أمريكا في موازين القوى في العالم، كما لا يخفى، وفي سلوكها ـ ربما بسبب رجحان كفَّتها في ميزان القوة ـ أنها تريد أن تؤثر على مصائر الآخرين دون أن تتأثر بهم، وتستفيد منهم دون بذل أي جهد لفهمهم. ولو كان العرب يستطيعون أن يغلقوا أبوابهم دونها ويجازوها إهمالاً بإهمال، إذاً لهان الأمر. أما وأنهم لا يستطيعون، فلا مناص لهم من محاولة التأثير عليها بشتى السبل.

ومن أول ما يتبادر للذهن، العمل على اختراق السياج الكثيف من سوء الفهم والتشويه المتعمد في كثير من الأحيان، الذي أقامه الإعلام الأمريكي ضد العرب، في أذهان الأمريكان وأبعد منهم.

وقد قلنا لهم إنه لم يحدث في التاريخ، أن تعرضت أمة في وقت السلم لمثل الحملة الجائرة التي يشنّها الإعلام الأمريكي ضد الأمة العربية.

العرب ليسوا أعداء لأمريكا، وليسوا في حرب ضدها فلماذا السلوك الذي لا تسلكه الدول بعضها ضد بعض إلّا في أوقات الحرب، وفي هذا الصدد قال برفّسور هشام شرابي (من جامعة جورج تاون) في كلمة بليغة باللغة الإنجليزية إن الإعلام الأمريكي في معالجته للقضايا العربية والإسلامية، لا يهدف إلى تقصي الحقائق ولكن إلى تأكيد آراء مسبقة وهو يزيّف الحقيقة فيجعل الضحية هي المعتدي، ويظل يردد ذلك التزيّف كي يرسخ في الأذهان أنه حقيقة.

لماذا تفعل أمريكا ذلك، وما هي أهدافها؟ من حسن الحظ كان بين

المشاركين، عدد من الأمريكان من أصول عربية مثل برفسور هشام شرابي وبرفسور إبراهيم عويس وبرفسور أحمد الأمين البشير. وكل واحد منهم كافح كفاحاً عظيماً. وكان أغلب الأمريكان (البيض) من اليهود، وقد حمدنا لمحمد بن عيسى ذكاءه في اختيارهم، إذ لا يخفى أن اليهود الأمريكان ـ والأوروبيين ـ هم في نهاية الأمر، أكثر قدرة على التأثير في مجريات الأمور. أولاً لأنهم في موضوع اليهود وإسرائيل، أكثر مصداقية من الأمريكان الأقحاح والأوروبيين الأقحاح. وثانياً لأنهم يملكون بالفعل القدرة على التأثير.

كانوا صرحاء صراحة تدعو أحياناً للدهشة والإعجاب. وكان يبدو عليهم أنهم يبحثون بصدق عن مخرج لليهود من المأزق التاريخي الذي وجدوا أنفسهم فيه إزاء العرب. كانوا من العلم بأحداث التاريخ، تاريخ اليهود على الأقل، وحركة المدّ والجزر في مصائر الشعوب، بحيث لم يغب عنهم أن المأزق الحقيقي في نهاية الأمر، هو مأزق اليهود.

كان ذلك واضحاً في حديث مستر (ملْتُن فيورْست) وهو كاتب ومعلق سياسي معروف في واشنطن. استعرض في كلمته تاريخ العداء لليهود (اللاسامية) في التاريخ الأوروبي. وقال إن العداء لليهود والعداء للإسلام مصدرهما واحد، وأن كراهية اليهود أصبحت كما لو أنها أمر ضروري في مسيرة الحضارة الأوروبية.

وحين وصل إلى التاريخ الحديث، أقرَّ أن إحساس الأوروبيين بالذنب تجاه اليهود، تطابق مع أطماعهم في منطقة الشرق الأوسط، فاهتدوا إلى خلق دولة يهودية في فلسطين، تحل مشكلة اليهود، وفي الوقت نفسه تكون حارساً على المصالح الأوروبية في المنطقة. وقال إن

إسرائيل بعد إنشائها، عملت بمهارة خاصة في فترة الحرب الباردة، لتؤكد للأوروبيين والأمريكان أن لا غنى لهم عنها.

ثم تحدث بصراحة عظيمة علماً أنه يهودي، كيف أن إسرائيل نجحت في أن تجعل اليهود الأمريكان يلتفّون حولها، بحيث أصبحت قضية إسرائيل هي قضيتهم. في المقابل، فشل العرب أن ينشئوا أداة ضغط مماثلة تضمن لهم حصة في القوة التي تؤثر على صُناع القرار.

ثم قال بصوت خافت قولة بدت لي غاية في البلاغة:
«نحن ـ الأمريكان ـ نستجيب للقوة. والعرب ينشدون العدل».

لعل كلمة العالِم العربي الأمريكي المرموق، برفسور هشام شرابي في مستهل الندوة، كانت أنصع دليل على الإحساس المتزايد لدى العرب ـ وفيهم العرب الأمريكيون ـ بصعوبة الحوار مع أمريكا. وربما وجد بعض المشاركين في الندوة، شيئاً يقرب من القنوط في تلك الكلمة. وهو أمر يدعو إلى التأمل، إذ إن المتحدث عُرف بالرصانة والاعتدال والميل إلى إيجاد نقاط التقاء بين أمريكا والعالم العربي. وكان بعض الناس يرون في جوانب من فكره نزوحاً غير قليل نحو البراغماتية.

ذكر برفسور هشام شرابي في مطلع كلمته، أنه يلزم للحوار كي يصبح مجدياً، أن يكون بلغة يفهمها الطرفان المتحاوران، إضافة إلى الرغبة المخلصة من الطرفين في تقبل النقد الصريح بنيّة حسنة وصدر رحب.

وتجدر الإشارة إلى أن برفسور شرابي لم يقصد بـ «اللغة» كونها عربية أو إنجليزية ولكنه يقصد النوايا والرموز والإيحاءات، التي تكمن وراء الكلمات والجمل، فتعمي المعنى على الطرف الثاني في الحوار حتى لو كان يحسن لغة الطرف الأول. ويمضي برفسور هشام شرابي فيقول:

«هذا لا يؤدي فقط إلى الالتباس وسوء الفهم، ولكنه يجعل أحد الطرفين هو صاحب اليد العليا، بحيث يستطيع أن يسيّر الحوار على هواه، كيف شاء. وكونه صاحب اليد العليا، فهو المتحدي باستمرار. ويكون الطرف الآخر في وضع المدافع، يرد على الهجوم ويبرر مواقفه ويشرح مقاصده ويعتذر عن نفسه. إذا كانت هذه هي طبيعة الحوار، فكيف يكون حراً خالياً من القهر؟».

أوضح برفسور شرابي بعد ذلك، كيف أن الطرف الأقوى يكاد يحتكر أدوات بث رسالته، خاصة وسائل الاتصال الجماهيرية، من شبكات إذاعة وتلفزيون وصحافة وغيرها، الأمر الذي يمكّنه من تحديد مواضيع النقاش ووجوه طرحها، ثم قال:

«وعلى سبيل المثال، حين يتعلق الأمر بقضايا الإسلام والإرهاب والصراع العربي ـ الإسرائيلي، فإن المحاور (من الطرف الثاني) يضطر إلى الإذعان لافتراضات مسبقة، وتداعيات فكرية مضمّرة، وعليه أيضاً أن يرضخ لمعجم خطابي اختير بمهارة، بحيث تكون النتيجة، ليس إلى معرفة حقيقة القضية المطروحة، بل تأكيد نوايا مبيّتة، وتحقيق مصالح وأهداف حددت بدقة عظيمة».

وهكذا ـ كما يقول برفسور هشام شرابي ـ لا تكون الحقيقة كما

هي بالفعل، بل تشويهاً متعمداً لها. الضحايا يصيرون هم المعتدين، والمحاربون ضد الاحتلال، إرهابيين، والمعتدون يصبحون مدافعين محاصرين بالأعداء، ومجرمو الحرب، أبطالاً، وتظل وسائل الإعلام تكرر هذه الأكاذيب بلؤم لا هوادة فيه، حتى تبدو كأنها حقائق. ثم يقول:

«منذ نهاية الحرب الباردة، صار العالم العربي والإسلامي، الهدف الأول للمحاولات الأمريكية لإدخاله قسراً في ما يسمى بـ (النظام العالمي الجديد). وهو وضع أقامته أمريكا بدعم كامل من شريكتها الاستراتيجية، إسرائيل، القوة العظمى في المنطقة، إنه وضع يرتكز على عمودين أساسيين، أحدهما التدجين وثانيهما الاحتواء».

ويفسر هشام شرابي (التدجين) بأنه عملية من (الإغواء القسري Coercive Seduction)، تتم بواسطة اتفاقات عسكرية ثنائية واتفاقات فنية وغيرها.

أما (الاحتواء) فهو عملية من الضغط العدواني، ترمي إلى عزل الدول التي ترفض الانصياع للنظام العالمي الجديد وزعزعة استقرارها. وتتضمن التهديد باستعمال القوة، واستعمالها بالفعل في بعض الحالات. ويقول:

«هذا النظام، يعتمد أيضاً على إثارة الخلافات والانقسامات بين دول المنطقة التي تقسم إلى دول صديقة ودول معادية حسب رضوخها أو رفضها لمفاهيم النظام العالمي الجديد».

وفي ختام كلمته يقول برفسور هشام شرابي:

«إذا كان هذا هو السياق السياسي للحوار، فماذا بوسع المفكرين والكتّاب والصحافيين والأكاديميين أن يقولوه، بعضهم لبعض، حتى يمكن القفز فوق حواجز الشك وسوء الفهم، للتأثير على مسار العمل السياسي؟».

٢٠

بروفسور إبراهيم عويس، أمريكي من أصل مصري، وهو أستاذ اقتصاد في جامعة (جورج تاون) بواشنطن، الجامعة العتيدة نفسها التي ينتمي إليها بروفسور هشام شرابي. وهو عالم يحظى بكثير من التقدير، ومفكر رصين أبعد ما يكون عن التطرّف. ورغم ذلك، ففي بعض ما ورد في كلمته في ندوة أصيلة، شيء من المرارة قريب مما ورد في كلمة الأستاذ هشام شرابي.

وأول ما لفت انتباهي، أن هذا العالِم الاقتصادي الوقور، بدأ كلمته بأبيات للشاعر الإنجليزي ـ الأميركي (تي. إس. إليوت)، من قصيدته (أنشودة جي. ألفرد. بروفرك للحب):

«يوجد متسع من الوقت لك ومتّسع من الوقت لي، ومتّسع من

الوقت لمئات الرُّؤى وإعادة الرُّؤى، قبل أن نشرب الشاي ونأكل الخبز المحمّص».

وهي أبيات لا أحسبه اختارها اعتباطاً، إذ إن السخرية لا تخفى في أن الشاعر وضع (الرؤى) و(إعادة الرؤى)، جنباً إلى جنب مع «الشاي والخبز المحمّص».

كأن بروفسور إبراهيم عويس تعمّد أن يضع عالَم الوفرة إلى جانب عالَم الفقراء، عالم الأقوياء إلى جانب عالم الضعفاء: الأمريكان بكل ما يظنون في أنفسهم من حول وطول وفي كفّة، والعرب ـ كما يبدون ـ بلا حول ولا طول في كفّة.

وقد ظلت روح الأبيات تسري في سائر الكلمة مثل موسيقى (خلفية)، تخلق تضارباً مع مناخ الندوة، وتبث إحساساً من السخرية من الوضع القائم برُمّته ـ أي الوضع الذي فرضته أمريكا.

مضى بروفسور عويس ليقول إنه لا بد من لقاءات كثيرة بين النّخب الأمريكية والنخب العربية، على غرار لقاء أصيلة قبل أن ينجلي الظلام الكثيف من الشك وقصور الفهم والأخطاء.

وقال إن على النُّخب من الفريقين، أن يعملوا بجد وإخلاص للتعرّف على المصالح المشتركة، إذ إن الشعبين، العربي والأمريكي، لا غنى لأحدهما عن الآخر. فالعرب يملكون مخزوناً عظيماً من البترول وغيره من الثروات، وهي ثروات لا يمكن للعالم الصناعي، وخاصة الولايات المتحدة، أن يستغني عنها. ومن ناحية أخرى، فالولايات المتحدة تملك المؤسسات العلمية والتكنولوجيا المتقدمة

والعلوم والخبرة والمعدات والسّلع المصنّعة، وكل ذلك لا غنى للعالم العربي عنه.

ثم أضاف:

«حان الوقت كي تبدأ النُخب الأمريكية والنّخب العربية في مداومة اللقاء والتواصل والتفكير الجاد لتصحيح المعتقدات الخاطئة والأفكار المشوّهة. وهي معتقدات وأفكار زُرعت ـ من الجانب الأمريكي ـ بتعمد ولؤم، وترسّخت في أذهان الأمريكيين بالإصرار عليها وتكرارها».

هذا، وقد قسّم برفسور عويس ما سماه بـ (النُّخب) إلى خمس، منها (النّخبة السياسية). وفي هذا الصدد لم يجد المتحدث أية بارقة أمل في أن تغير النخبة السياسية الأمريكية من سلوكها إزاء العالم العربي، وذلك بسبب انحياز أمريكا انحيازاً أعمى لإسرائيل، نتيجة لقوة نفوذ (اللوبي الإسرائيلي).

وفي ما يتعلق بالنشاط الاقتصادي، قال بروفسور عويس أنه يكاد يكون من جانب واحد، إذ إن تدفق المال العربي على أمريكا، لا يقابله أي تدفق في الاستثمارات الأمريكية على العالم العربي.

هذا، وقد كانت آراء الأستاذ إبراهيم عويس عن الإعلام الأمريكي ووسائل الاتصال، مطابقة مطابقةً كاملة لما ذكره الأستاذ هشام شرابي، من أنها متحيّزة ضد العرب والمسلمين، وأنها تلحُّ إلحاحاً (مرعباً)، في تقديم صورة مشوّهة للعالم العربي والعالم الإسلامي، أبعد ما تكون عن الحقيقة.

الأمل الوحيد في «كسر الحلقة الشيطانية» ـ كما قال برفسور عويس ـ وهو أن ينشيء العرب أنفسهم وسائل اتصال عالية الكفاءة، تستطيع أن تنفذ إلى شبكات الاتصال العالمية خاصة الـ (إنترنت)، وتعمل على اختراق الحائط الإعلامي المضروب حول العالم العربي.

النشاط الذي وجد فيه برفسور عويس أكبر أمل في إحداث أي تأثير، هو النشاط الثقافي والفكري. وبعد أن ذكر أسماء بعض المفكرين العرب الذين أحدثوا أثراً في أمريكا ـ أمثال أمين الريحاني وجبران خليل جبران وفيليب حتّي وشارل عيساوي ونجيب محفوظ ـ قال الأستاذ إبراهيم عويس:

«هذا مجال أجد فيه أملاً في إحداث تحسُّن ما. وإذْ إن كل مفكر هو في الواقع مؤسسة مستقلة قائمة بذاتها، فإنني أقترح أن يجتمع مفكّرون أمريكيون ومفكرون عرب في لقاءات دورية صغيرة لتبادل الرأي. وقد تكون من ثمار هذه اللقاءات أعمال أدبية وفكرية، كإصدار روايات ومقالات وأشعار وغيرها... وهو مجال فيه احتمالات واسعة للعمل المشترك».

هذا، ولا أظنني بحاجة إلى أن ألفت انتباه القارئ، أن هذا العالِم المرموق، بعد أن فقد الأمل في الاقتصاد والسياسة والإعلام، لم يجد شيئاً يبعث الأمل، إلّا في الفكر والأدب والفن والثقافة عموماً... ولا أظنه ابتعد عن الصواب.

قال مستر (جوناثان برودَرْ) في كلمة صريحة متّزنة، أن السياسة الأمريكية سياسة معقدة وقد تبدو متناقضة أحياناً، وأن على العرب أن يفهموا هذا التعقيد و«يتعلموا أصول اللعب». وأضاف في صراحة لافتة «السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط لها هدفان: ضمان تدفق البترول، وضمان أمن إسرائيل، ولا يوجد أي احتمال في تغييرها».

إنه رئيس التحرير في الإذاعة القومية في واشنطن، وهو يهودي، شأنه في ذلك شأن (جودث كبَر) المديرة بالمشاركة لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن، و(توماس لِبْمان) المراسل الدبلوماسي لصحيفة الـ «واشنطن بوست» والسفير المتقاعد (والتر كٹلر) رئيس مركز المريديان الدولي في واشنطن، و(هنري سقْمان) الزميل في معهد الشؤون الدولية في نيويورك، والسفير المتقاعد

(روسكو سودارْت) رئيس معهد الشرق الأوسط في واشنطن.

إننا بطبيعة الحال، لم نجد أي غضاضة أو غرابة، كونهم يهوداً، فقد تعلّمنا من شريعتنا السمحاء وحضارتنا المضيئة، أن نحترم عقائد الآخرين ونتفهّم اختلاف مذاهبهم في العيش ـ «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». وإن كانت قلّة من المسلمين بسبب ضيق الأفق وسوء الفهم للدين يسلكون بخلاف ذلك، فإنه شذوذ عن القاعدة.

الأمر الثابت طوال التاريخ هو أن اليهود لم يجدوا أبداً مثل ما وجدوا في المجتمعات العربية والإسلامية، من طمأنينة وقبول وإتاحة فرص لمواهبهم كي تزدهر وتشارك في تطور حياة المجتمعات التي عاشوا فيها. كان منهم الوزراء والسفراء والفلاسفة والشعراء والأطباء والأدباء.

تلك التجربة الفريدة في التعايش الإنساني، كان حريّاً أن يُحتفى بها ويُضرب بها المثل. ولكن الحركة الصهيونية ـ كما نعلم ـ في محاولاتها اليائسة لإيجاد مبررات للاستيلاء على أرض فلسطين، تنكّرت لتلك التجربة، بل صوّرتها على عكس ما كانت عليه، تماماً.

ولا يخفى أن الحركة الصهيونية حين أحست أن حجة (أرض المعاد) لا تكفي لتبرير استيلائهم على فلسطين، أخذت تلجأ إلى ذرائع أخرى.

قالوا إن الأرض كانت (خالية). إنما تلك حجة كان من السهل دحضها، فقد كان واضحاً لكل ذي عينين أن الأرض كانت تموج

بالبشر الذين عاش أسلافهم فيها منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. وكانت جلَبة النّضال الفلسطيني لصدّ الاستعمار الصهيوني، لا تترك مجالاً للشك أن الأرض لم تكن خالية. وحتى لورد كيرْزُن، لم يملك إلّا أن يقول في مجلس وزراء لويد جورج عام ١٩١٧، قُبيل صدور وعد بلفور لإقامة (وطن قومي) لليهود في فلسطين:

«أنتم تقصدون في الحقيقة إنشاء (دولة) لليهود في فلسطين.. والأرض ليست خالية».

لجأوا عندئذٍ إلى حُجة هي من أغرب الحُجج في التاريخ. قالوا إن عرب فلسطين (لا يستحقون الأرض)، لأنهم في زعمهم شعب خامل همجي بهيمي الطباع غدار منكر للجميل متعصّب كاره للحضارة الأوروبية، وأن اليهود أحق منهم بأرض فلسطين، بسبب فضائلهم التي هي نقائض لكل تلك الرذائل العربية.

ثم انطلقوا فعمموا ذلك البُهتان على العرب قاطبة على أنه عنصر بشري منحط، وعلى الحضارة العربية الإسلامية بحسبانها شيئاً مَسْخاً لا يرقى إلى مرتبة الحضارة.

ترسيخ هذه المزاعم، هو الهدف وراء كل ما يسمعه العرب والمسلمون، ويقرأونه ويشاهدونه من تزييف في وسائل الاتصال الأوروبية والأمريكية. ولا بد من الاعتراف أن الحماقات التي يجترحها بعض العرب ـ أفراداً ودولاً ـ تُستغل استغلالاً ماهراً، لإضافة بشاعة على بشاعة.

في المقابل، فإن فكرة أن اليهود أحق بالأرض، هي وراء كل المزاعم

الصهيونية، أنهم حوّلوا الصحراء إلى جنّة، وأنهم أقاموا دولة ديموقراطية متحضرة في محيط من الرّعاع والهمج والتخلف والاستبداد.

وقد نجحوا في دعايتهم نجاحاً منقطع النظير، بحيث استطاعوا أو كادوا، أن يحوّلوا شعوباً بأكملها وحضارة برُمتها، إلى شيء تافه لا يُؤبه له ولا يُحسب حسابه.

هذا النجاح بعينه، أخذ فيما يبدو يزعج عقلاء اليهود ـ وكل اليهود الموجودين معنا في أصيلة من العقلاء ـ لأنهم بدأوا يدركون أن ذلك التصوّر للعرب والمسلمين، إن لم يتغير ويوضع حدّ لانتشاره، فسوف يحول دون قيام سلام حقيقي. وهؤلاء العقلاء يفهمون أن اليهود الإسرائيليين في نهاية الأمر، محكوم عليهم بالعيش وسط أولئك الأقوام، وهم يزدادون عدّاً وعتاداً يوماً بعد يوم.

ربما ذلك القلق من عقلاء اليهود الأمريكيين على مصير بني قومهم في فلسطين، هو الذي يفسّر إلحاح أغلبهم في ندوة أصيلة ـ صراحة وتضميناً ـ أن يفعل العرب شيئاً يوقف ذلك الطّوفان. ولم يكن مستر (جوناثان برودر) شاذاً عنهم. شرح بإسهاب كيف تعمل الدعاية الإسرائيلية في أمريكا، وطلب من العرب أن يفعلوا مثلهم، وقال:
«العرب انسحبوا من الميدان وتركوه مفتوحاً للطرف الآخر».

٢٢

برفسور أحمد الأمين البشير سوداني الأصل ويحمل الجنسية الأمريكية، وقد عمل في عدد من الجامعات منها جامعة «موارد» المعروفة، وهي أعرق جامعة للأفرو ـ أمريكيين. وهو الآن أستاذ تاريخ الحضارات في جامعة «جورج واشنطن» في مدينة واشنطن.

أضاف بعداً مهماً في الندوة بحديثه عن الأمريكيين السود. استعرض تاريخ الرقّ في أمريكا، وقال إن أعداداً ليست قليلة من الأفريقيين الذين جلبوا قسراً إلى أمريكا كانوا مسلمين، الأمر الذي يعني أن علاقة السود الأميركيين بالإسلام، علاقة قديمة.

وكان واضحاً من حديث الأستاذ أحمد البشير، أن تركيبة المجتمع الأمريكي آخذة في التحول، وأن احتكار المنتصر (الأبيض) من أصول أنجلوسكسونية للسلطة لن يستمر.

وقال الأستاذ البشير أيضاً أن من أسباب صعوبة الحوار بين العرب والأمريكان، كون أمريكا دولة تمتاز بالتعدد والتنوع، وأن ذلك التنوع لا يقابله تنوع في الدول العربية. ففي أمريكا يوجد عدد من مراكز النفوذ التي تؤثر على صنع القرار، وهذا ليس له نظير في العالم العربي.

هذه الفكرة ترددت كثيراً في الندوة، وقد أسماها بعضهم (غياب الديموقراطية) ووصفها بعض الأمريكان المشاركين بـ «غياب الحرية». واقترح الدكتور الحسن بوقنطار أستاذ العلاقات الدولية في جامعة الملك محمد الخامس في الرباط، أن يتعامل العرب مع أمريكا ليس بوصفها شيئاً واحداً، ولكن بوصفها مجتمعاً متنوع الأعراق والميول والاتجاهات. ولاحظ بهذا الصدد أن الجاليات العربية في أمريكا، يمكن أن تقوم بدور أكثر فعالية مما تقوم به الآن، في إطار ذلك التعدد.

بالإضافة إلى موضوع التنوع العظيم في المجتمع الأمريكي وأن التأثير عليه لا يكون فقط بواسطة السياسيين في واشنطن، تطرق الأستاذ عبد الرحمن الراشد رئيس تحرير مجلة «المجلة» إلى التفاوت العظيم بين وسائل الاتصال الأمريكية ووسائل الاتصال العربية من حيث الكفاءة والاستعداد التقني. وهو، مثل عدد من المتحدثين، اهتم بالجانب المهني، وبقدر ما حمّل الأمريكان مسؤولية جهلهم بالعالم العربي، وتشويههم لصورته، فقد حمّل العرب مسؤولية التصدي لكل ذلك والعمل على تغييره.

وقال الأستاذ عودة أبو ردين، وهو رجل أعمال، إن السياسة الأمريكية سياسة تعنى بالمصلحة بينما تتذرع السياسات العربية بالمثل

والأخلاق، وأن كلاً من الاتجاهين خاطىء. وأضاف أن تصور العرب لأمريكا، تصور سطحي وضحل. وأكد هو أيضاً أن دور العرب الأمريكيين في التأثير على السياسة الأمريكية دور ضعيف وهامشي. وفي رأيه أن مسؤولية التواصل مع أمريكا، هي مسؤولية عربية في المقام الأول.

وذكر الأستاذ محمد العربي المساري من أسرة تحرير صحيفة «العلم» بالرباط، أن من أهم الأسباب التي تجعل الحوار بين العرب والأمريكان أمراً صعباً هو أن «الحمولة الثقافية عند العرب مختلفة عن الحمولة الثقافية عند الأمريكان». وقال إن العرب شاهدوا بدهشة عظيمة كيف أن خطاب رئيس وزراء إسرائيل في الكونجرس الأمريكي، قوطع بالتصفيق أربع عشرة مرة، رغم الماضي السياسي المعروف للمتحدث، ورغم تطرفه وعرقلته مسيرة السلام منذ توليه الحكم.

وقال الدكتور صالح المانع رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة الملك سعود بالرياض، إن الولايات المتحدة بددت الرصيد الكبير من الصداقة الذي كسبته في المنطقة نتيجة دورها في تحرير الكويت، وذلك لأنها سرعان ما بدت كأنها تريد أن تتقاضى الثمن على ذلك الدور بالحصول على مكاسب استراتيجية واقتصادية. وبعد انتخاب «كلنتون» أخذت تطبق دبلوماسية نشطة هي «دبلوماسية التجارة».

ويقول الدكتور صالح المانع إن ذلك السعي العنيف وراء المصلحة أثار توترات وحساسيات، وجعل الناس في المنطقة ينظرون إلى سياسات الولايات المتحدة نظرة مختلفة. وفي رأيه أن أية مكاسب اقتصادية حققتها أمريكا، تمت نظير خسائر سياسية.

ظل الأمريكان طوال الندوة، يلحوّن على قضية التطرف والإرهاب في العالم العربي والإسلامي، فعلى سبيل المثال قال السفير مستر (والتر كتلر):

«الرأي العام في أمريكا مهووس بموضوع الإرهاب.. أعمال العنف التي تصدر عن بعض الجماعات في منطقة الشرق الأوسط تؤكد الانطباع الذي يحمله الأمريكيون بأنها منطقة غريبة لا تخضع لأعراف السلوك المتحضر، وأنها ضد الديموقراطية ومعادية للحضارة الغربية».

تصدى عدد من العرب والعرب الأمريكيين لهذا الزعم، وبيّنوا أنه زعم خاطىء ينبع عن احتقار لطموحات الشعوب في المنطقة، وعن تعريف فضفاض لمعنى الإرهاب. وبالإضافة لما ذكره كل من الأستاذ

هشام شرابي والأستاذ إبراهيم عويس بهذا الصدد، قالت الدكتورة منى مكرم عبيد أستاذة العلوم السياسية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، أن الأمريكيين لا يهتمون بالتيارات السياسية المخلصة التي تتحرك في المنطقة، ولا يضعون أي وزن للرأي العام في العالم العربي.

وأشار الدكتور محمد إبراهيم الشوش إلى أن وسائل الاتصال الأمريكية، تستغل حوادث عنف فردية في العالم العربي والإسلامي لترسخ الانطباع بأنه عالم همجي خارج دائرة الشعوب المتحضرة. وقال إن الهدف هو تصوير العربي على أنه (لا إنسان) وذلك لتبرير العدوان عليه واغتصاب أرضه.

وقالت الدكتورة منار الشوربجي، وهي باحثة مصرية متخصصة في الشؤون الأمريكية، إن وسائل الاتصال الأمريكية تتعمد أن تصور أي اختلاف مع السياسة الأمريكية مهما كان مخلصاً على أنه ينطوي على نوايا عدوانية ضد أمريكا. وفي المقابل، ينظر الإعلام الأمريكي إلى أعمال الإرهاب والعنف التي تمارسها إسرائيل ضد العرب، بأنها حق مشروع في الدفاع عن النفس. ونوهت أن العدوان الإسرائيلي الغاشم على (قانا) في جنوب لبنان، لم يبعث على أي استنكار أو تنديد من قبل أمريكا ووسائل اتصالها.

ورغم كل هذه الحجج، لم يكفّ الأمريكان عن الإلحاح على قضية الإرهاب، وربطها بموضوع أمن إسرائيل. وتساءل كل من (والتر كتلر) ومسز (جودث كبر)، لماذا لا ترتفع أصوات المثقفين العرب في مقاومة التطرف وإدانته؟

وقد لفت عدد من المتحدثين أنظارهم إلى أن المثقفين العرب لم

يكفوا أبداً عن التصدي للتطرف والإرهاب، بألسنتهم وأقلامهم، وأن عدداً كبيراً منهم كانوا ضحايا وشهداء في تلك المعركة. ولكن الأمريكان لا يسمعون ولا يقرأون، لأنهم أقاموا حاجزاً كثيفاً بينهم وبين النشاط الفكري في العالم العربي ومنعوه أن يصل إليهم.

وكما كان متوقعاً فقد أثاروا قضية الكاتب الإنجليزي الهندي سلمان رشدي، وعبروا عن دهشتهم أن الكتّاب والمفكرين في العالم العربي لم يهبّوا لمناصرته والدفاع عن حقه في التعبير. ومعلوم أن الأمريكان والأوروبيين، جعلوا من هذه القضية (Cause - Celebre)، مثل قضية (درايفوس) في فرنسا في القرن التاسع عشر، وأصبحوا يعتبرونها دليلاً آخر على تحجر العالم الإسلامي وتخلفه الفكري.

مرة أخرى لفت المتحدثون العرب أنظارهم أن الأمر بخلاف ما يزعمون، فقد اعترض عدد من رجال الدين والأدباء والمفكرين على إهدار دم الكاتب، وساهم أكثر من مائة كاتب عربي ومسلم في كتاب عن قضية سلمان رشدي صدر بعدة لغات، من بينها الفرنسية والإنجليزية.

ولكن أغلب المساهمين، مع اعتراضهم على إهدار دم الكاتب، فإنهم في الوقت نفسه رفضوا رفضاً قاطعاً أسلوبه في السخرية من الإسلام والاستهتار بمقدساته. وقال أحد المتحدثين:

«نحن نناقش قضايا التطرف والإرهاب وحرية التعبير في منطقتنا، بلغتنا وفي سياق مصالح قومنا وأهدافهم، ولا نتحدث أو نكتب كما تريد منا أميركا والغرب. وبطبيعة الحال، فإن هذا لا يرضي الأوروبيين، ولا يرضي الأمريكان خصوصاً».

على مدى نحو أسبوع، عاش أولئك الأمريكان في مناخ عربي إسلامي، وبعضهم لأول مرة. كان ذلك في حد ذاته أمراً غاية في الأهمية، خاصة بالنسبة لليهود منهم. جلسوا في المقاهي وتجوّلوا في الأسواق ودخلوا في الزحام مع الناس في شوارع المدينة وكورنيشها الواسع. رأوا بشراً عاديين مثل سائر خلق الله. لم يسيء إليهم أحد، ولم يتحرّش بهم أحد. ولعلّهم على العكس، وجدوا دفئاً في المعاملة وسماحة قلّ أن عرفوا مثلها.

وفي الأمسيات الجميلة في دار محمد بن عيسى في الجزء القديم من المدينة، اختلطوا بالمشاركين في الندوة عن قرب واكتشفوا، لا شك، أشياء مشتركة ونقاط التقاء فكرية كثيرة.

كان الهدف هو خلق جو من الألفة، وإزالة التوتر الذي قد يحسّه

اليهودي الذي يدخل في مناخ عربي لأول مرة. الله أعلم ماذا حملوا معهم من مخاوف وأوهام. والعرب مهما قلت عنهم، فإن فيهم هذا الدفء الإنساني الغامر، فلا ريب أن الأمريكان ـ واليهود خاصة ـ سرعان ما وجدوا أنفسهم في محيط إنساني خال من التوتر والعدوانية.

وقد قُيِّض لي أن أتحدّث مطولاً مع مستر (ملتن فيورست). كان حديثه في الندوة قد لفت انتباهي. أعجبني تحليله المُنصف، وحسّه التاريخي الشامل. وخيّل إليَّ وأنا أستمع إليه، أنه يعترف ضمناً بأن خطأ تاريخياً فادحاً قد ارتُكب بإنشاء دولة إسرائيل في فلسطين، لكنه أيضاً يقول إن الأمر قد وقع ولا حيلة لأحد في تغييره. واستمعت بدهشة إلى قوله «نحن نستجيب للقوة، والعرب ينشدون العدل».

لم يكن بطبيعة الحال يطلب من العرب أن يستعملوا القوة، إنما كان فقط يهيب بهم أن يكونوا أقوياء.

أليس عجيباً أن يطلب يهودي من العرب أن يكونوا أقوياء؟ إننا نفترض أن اليهودي مهما بلغ به الإنصاف والتجرد، فإن عواطفه لا بد أن تكون في نهاية الأمر مع بني قومه في إسرائيل، فلماذا يطلب مستر (ملتن فيورست) من العرب أن يكونوا أقوياء؟

لعله ـ إذا صدق ظنّي ـ يقصد أنه في مناخ سياسي مثل أمريكا يؤمن بمبدأ (توازن القوى)، فإن صُنّاع القرار في أمريكا لن ينْشَطوا في الضغط على إسرائيل للتوصل إلى تسوية مع العرب تكون أقرب إلى العدل وقابلة للاستمرار ـ ذلك لن يحدث ما دام العرب ضعفاء ـ ومستر (ملتن فيورست)، لا بد أنه يفكر في مصلحة إسرائيل في

نهاية الأمر، لأنه يدرك بحسّه التاريخي العميق، أن عدم تحقيق هذه التسوية العادلة الدائمة، من شأنه أن يؤدي إلى كارثة، يكون اليهود أكثر من العرب، هم ضحيّتها.

فكرة (الضحية)، عبّر عنها مستر (هنري سِقْمان) ـ وهو إنسان بالغ الرّصانة ـ في جملة بدت لي بعيدة المرمى. قال: «كون الإنسان ضحيّة، فإن ذلك لا يحميه من الوقوع تحت سيطرة خداع النفس».

كلمة (ضحية) ـ كما نعلم ـ لها وقع خاص لدى اليهود، فهم، بسبب تاريخهم المأساوي، يعتبرون أنفسهم (الضحية الكبرى) في التاريخ، الضحية Par Excellence. ولا بدّ أنهم يدركون أيضاً، أنهم بإقامة دولتهم في فلسطين، بمساعدة القوى التي كانت ضالعة في مأساتهم، فإنهم خَلَقوا (ضحية) جديدة، هم الشعب الفلسطيني. الحلم الصهيوني تحوّل إلى كابوس، فمن هي في هذه الحالة إذاً (الضحية الواقعة تحت سيطرة خداع النفس)؟

إنه وضع إنساني معقّد كما في مسرحيات (سوفوكليس). وقد أحسست من محادثاتي مع (هنري سقمان)، أنه يدرك فداحة (المأزق التاريخي) الذي وجد اليهود أنفسهم فيه إزاء العرب، والعرب أيضاً إزاء اليهود.

ولعلّني لا أكون مخطئاً إذا قلت، إن مستر (سقمان) يدرك أيضاً أن تلك العقدة التاريخية لن تُحل بالأسلوب السطحي الذي تتّبعه الولايات المتحدة، بتأييد إسرائيل تأييداً أعمى بلا قيد ولا شرط. إنه نوع مرعب من الحب أقرب ما يكون إلى الكراهية.

ثم حضروا معنا في مركز الحسن الثاني، أمسية موسيقية للفنان العراقي العالمي الشهرة منير بشير، فحلّق كعادته في أجواء عالية، وجال بعوده السحري جولات عبقرية، طاف فيها ببغداد ودمشق والقاهرة والأندلس. وفي الهواء الطلق عند سفح القلعة على البحر، شاهدوا عروضاً غنائية متنوّعة من الرقص الشعبي المغربي الجذّاب، والغناء الحديث من الفنان الشاب عبدو شريف، الذي ربما ذكّرتهم حيويته وتأثيره على الجمهور الضخم من الشباب، بمغنّيهم النجم (مايكل جاكسون).

هذا، وقد كانت أهم فكرة خرجت عن الندوة، اقتراح لإنشاء معهد للدراسات الأميركية في أصيلة، يعمل على ملء الفراغ الذي اتضح في الندوة. وقد أشار عدد من المتحدثين، خاصة الأمريكان، أنه إذ توجد أقسام للدراسات العربية في عدد من الجامعات الأمريكية، فإنه لا يوجد ما يوازيها في الجامعات العربية.

تضمنت البرقية التي أرسلها المشاركون في الندوة في نهاية اجتماعاتهم إلى العاهل المغربي الملك الحسن الثاني هذا الاقتراح بإنشاء المعهد، فسارع إلى مباركته وأعرب عن تأييده الكامل له.

إنه مشروع هام أرجو أن تتضافر الجهود على إنجازه، وربما يكون ذلك في نطاق مشروع أوسع، وهو أن تتحول جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفية إلى جامعة ثابتة، تُعنى بدراسة العلاقات العربية مع أفريقيا وأوروبا وأمريكا. ومدينة أصيلة التي كانت رائدة في هذه المجالات الحيوية لصالح كل العرب، جديرة بأن تكون مقراً لتلك المؤسسة.

فاز الشاعر الكبير، صاحب العطاء الشعري المتفرّد، أحمد عبد المعطي حجازي بجائزة (شيكايا أوتامسي) للشعر الأفريقي لعام ١٩٩٦. وهي جائزة تُمنح كل عامين. وحجازي هو أول عربي ينالها، فمنذ أن قرّر المنتدى العربي الأفريقي بأصيلة إنشاءها عام ١٩٨٨ تخليداً لذكرى الشاعر الكنغولي، كان كل الذين فازوا بها من الأفارقة من جنوب الصحراء باستثناء واحد هو (رينيه دبستر) من هايتي، الذي اعتبرته لجنة التحكيم، كما هو يعتبر نفسه أفريقياً. ومن الذين فازوا بالجائزة أيضاً (ماسيسي كونيني) من جنوب أفريقيا، و(إدوار مونيك) من موريشس.

إنه إذاً حدث فريد هذا العام، إذْ إنه لا يخفى أن منح الجائزة لشاعر عربي ينطوي على عدة دلالات، لعل أهمها تذكير العرب والأفارقة على السواء، أن غالبية الشعوب العربية تعيش في أفريقيا. وهم ليسوا

دخلاء على القارة، كما يزعم بعض المتطرفين من الأفريقيين جنوب الصحراء، ولكنهم قُطّان أصليون منذ أقدم العصور.

يرتبط بذلك، التنويه بعمق الصلات التي تربط أفريقيا بالعالم العربي، وهو إخاء عريق لم يزل يشيد به أولئك الشعراء العظماء أمثال ليوبولد سنغور وماسيسي كونيني. وقد كان الشاعر الذي سُميت الجائزة باسمه، محبّاً للعرب، شديد الإحساس بوحدة المصير العربي ـ الأفريقي.

بدأ الاحتفال عصر الثلاثاء السادس من شهر آب/ أغسطس، بوقفة قصيرة لأعضاء لجنة التحكيم، أمام النُصب التذكاري الذي أقيم لـ (شيكايا أوتامسي) في الحديقة الأنيقة التي سُميت باسمه.

وفي المساء جرت مراسم تسليم الجائزة في مركز الحسن الثاني للمؤتمرات، بحضور حشد ضخْم من الشعراء والأدباء والجمهور المغربي.

كان أول المتحدثين السفير محمد بن عيسى الأمين العام للمنتدى العربي ـ الأفريقي، وهو وزير سابق للثقافة، ويشغل حالياً منصب السفير للمملكة المغربية في واشنطن. وفي كلمة قصيرة بليغة أشاد بأحمد عبد المعطي حجازي، وبتجربته الشعرية الغزيرة التي بوَّأته مكانة بارزة في طليعة الشعراء العرب المعاصرين. وتلاه (هنري لوبيز) رئيس لجنة التحكيم، وهو روائي معروف يكتب باللغة الفرنسية، ويعمل الآن مساعداً للمدير العام لمنظمة اليونسكو، وكان من قبل رئيساً للوزراء في الكنغو ـ برازافيل.

وأعقبه في تقريظ الشاعر المُحتفى به، كل من أعضاء لجنة التحكيم، وهم الأستاذ طاهر بكري الشاعر والأكاديمي التونسي، و(كايا ماكيلي) الروائي والشاعر الكنغولي، والسفير والكاتب (نوريني تيجاني سيربوس) المندوب الدائم لدولة بنين في منظمة اليونسكو ورئيس المجلس التنفيذي للمنظمة، والطيب صالح.

وانتهى الحفل بتسليم الجائزة، ووضْع الشاعر المُحتفى به بصماته على لوحة للرسامة الأصيليّة وفاء الهُضيبي.

ثم عُقدت ندوة استمرت يومين بعنوان (حجازي والحداثة الشعرية العربية)، تحدث فيها جمع من الأكاديميين والشعراء وأصدقاء الشاعر ومحبّي شعره. وكلّها دراسات قيّمة لعلها تُنشر قريباً.

لكنني أكتفي بالإشارة إلى المحاضرة الرائعة التي قدّمها الشاعر الكبير فاروق شوشة. ذلك لأنه وحجازي تزاملا طويلاً في رحلة الحياة والشعر، فهو من أقرب الناس إليه وأعرفهم بشعره.

وفاروق شوشة نفسه، صاحب تجربة شعريّة ضخمة وصوت شعري مميّز. وهو مثل حجازي عميق الإحساس بعبقرية اللغة العربية، عليم بتدفق بيانها وفصاحتها، مجدد جريء التجديد، ولكن حداثته متأصلة في امتداد التراث الشعري العربي العظيم. كانت كلمته المؤثرة، مزيجاً من الحب للشاعر وشعره، ونظرات ثاقبة في طبيعة الحداثة الشعرية. وقد جاء فيها:

«ترجع قيمة الإنجاز الشعري للشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي في ديوان شعر الحداثة، إلى قدرته الفذّة على إقامة جدليّة

حيّة مع الموروث الشعبي من ناحية، والانفتاح المستمر على آفاق المغامرة والتجاوز من ناحية أخرى.

هذه الجدلية الحيّة مع الموروث الشعريّ تتنامى وتتعاظم في مشروع حجازي الشعري كلما تقدمت به الخطى، وعمُق المسار، واكتملت ملامح الإنجاز. عندئذٍ تكتسب لغته الشعرية ولَع الافتتان بمنازلة الأقران السابقين من فرسان الشعر العربي، وزهو المصاولة تعبيراً عن الذات وإثباتاً للقدرة على التجاوز والاختلاف. وهي لغة تكشف عن روح وموقف، وتتجاوز الدلالة الخارجية لمفهوم الصياغة الشعرية، بحيث تصبح روحاً شعريّة عارمة دانت لها الأداة، واكتملت عناصر النضج والخبرة، وتفجّر الوعي الجديد بالحياة وبالشعر...».

٢٦

أصيلة ـ تلك البلدة المغربية المرابطة ـ التي شهدنا بدايات صحوتها وانطلاقتها، دخلت في موسم مهرجانها التاسع عشر مرحلة جديدة. أوشكت أن تصبح مدينة. قامت فيها مشاريع سكنيّة وصناعات خفيفة، ومشروع لتصريف مياه الاستهلاك ومياه الأمطار. وأضيئت مساجدها وحدائقها وشواطئها وآثارها التاريخية بمصابيح كهربائية من نوع جديد صمّمته شركة (فليبس) خصيصاً وأسمته (مصباح أصيلة).

ما أبعد كل ذلك من أصيلة قبل تسعة عشر عاماً، حين كانت طرقاتها مُتْرَبة، وشاطئها وعْراً، ومياهها شحيحة، ومصابيحها مُطفأة.

إنها مرحلة مشرقة مليئة بالاحتمالات، وأيضاً محفوفة بالمخاطر. ذلك لأن هذه البلدة منذ أن بدأت تتحرك، لم تكن كبقية البلدان.

كانت تسعى إلى تحقيق حلم صعب. تريد أن تُحدث تنمية عمادها الفن والأدب والشعر والثقافة. أن تكبر وتتسع دون أن تطغى نوازع التجارة والربح والمادة، على متطلبات العقل والروح. أن تكون مدينة دون أن تفقد طابع القرية. كانت أصيلة تتطلع إلى أن تصبح نموذجاً من هذه النماذج التي يضرب بها المثل، كيف تتطور المجتمعات دون أن تفقد هويتها وتنقطع عن جذورها.

وكذلك سارت الأمور سنوات عدداً، بريادة ابنها البار محمد بن عيسى. إنه لا ريب الإنسان الذي حرّك سواكنها منذ البداية، ومغامرتُه كلُّها، قوامها العودة إلى الجذور.

ثم في الأعوام الأخيرة، ربما بسبب غياب محمد بن عيسى سفيراً للمغرب في واشنطن، بدا كما لو أن تلك الموازين الدقيقة بدأت تختلّ، وأن الألَق الذي اكتسبته البلدة، جذب إليها أفواجاً من المستثمرين والمقاولين ونهّازي الفرص، أرادوا أن يجعلوا منها مدينة بلا روح ولا طابع مثل عشرات المدن في العالم، التي قامت خبط عشواء.

لما عدنا إليها في عام ستة وتسعين بعد انقطاع عامين بسبب توقّف الموسم عام خمسة وتسعين، وجدنا مظاهر لذلك الغزو، وكان أبرزها مبنى ضخم بشع في منتصف تمامة أقيم على الكورنيش قريباً من القلعة التاريخية، التي هي مركز الثقل في البلدة. وعلمنا أن الغرض منه أن يكون (مارينا) ومُنتجعاً لأصحاب اليخوت الأثرياء الذين يريدون جذبهم من نواحي المغرب وأوروبا.

بجرّة قلم، أفسدوا جمال الكورنيش الواسع، وحجبوا جمال البحر وكتموا أنفاس البلدة. كذلك خلقوا - كما علمنا - مشاكل بيئية،

منها أنهم غيّروا تحركات البحر في مدّه وجزره، فهجرت الأسماك ساحل أصيلة وأصبح الصيادون يلاحقونها إلى مسافات بعيدة.

من حسن الحظ أن محمد بن عيسى قد عاد إلى منصبه القديم رئيساً لبلدية أصيلة ـ بالإضافة إلى عمله سفيراً. ويبدو أن البلدة سوف تمضي على رسلها، وتواصل متابعة حلمها الصّعب الذي حقّقت منه جزءاً كبيراً.

هذا، وقد قيّض الله لأصيلة في موسمها ذاك، رجلاً كريماً ماجداً هو الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز، فتبرع بسخاء عظيم لإنشاء (معهد أصيلة للدراسات الأمريكية). وقد وضع الأمير حجر الأساس للمعهد في افتتاح الموسم التاسع عشر.

كانت فكرة إنشاء المعهد قد طُرحت في ندوة الحوار بين الأمريكيين والعرب. وقد أحسّ المشاركون يومئذٍ، أن الهوة الواسعة بين العرب وأمريكا من الشك وسوء الظن وسوء الإدراك المتبادل، تقتضي قيام مؤسسة ثابتة، تُعنى بدراسة تلك الأمور وتعمل على نشر الوعي وبناء جسور التفاهم. وأقترح أن تكون أصيلة مقرّاً للمؤسسة. وقد وجدت الفكرة تأييداً من الملك الحسن الثاني ملك المغرب.

وهكذا، في خلال عام واحد، تحوّلت تلك الفكرة الطموح إلى واقع محسوس، وذلك بفضل أريحية هذا الأمير المقدام. وجديرٌ بالذكر أن الأمير بندر تعهد أيضاً بتمويل مشروع إنشاء مكتبة عامة في أصيلة تتوفّر فيها الوسائل التقنية المتاحة في أحدث المكتبات في العالم.

كل ذلك يشرح الصدر ويدعو للإعجاب ويفرض الاحترام.

تحت مظلة جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفية في أصيلة، انعقدت ندوة عنوانها «العرب والأمريكيون في الإعلام العربي والأمريكي». وقد كانت امتداداً لندوة سابقة عن العرب والأمريكيين، كلٌ في مرآة الآخر. وكانت بعض الشخصيات التي ساهمت في الحوار السابق من الأمريكان، موجودة في ندوة الحوار اللاحق.

ذلك ولا شك من حسن التوفيق وذكاء التنظيم، وهو أمر تميزت به أصيلة. ولا يخفى أن قضايا مستعصية معقدة مثل علاقة العرب بأمريكا، لا يُجدى أن تُخدَش خدْشاً على السطح، إنما لا بُد من ملاحقتها وسبر غورها والوصول بها إلى مُستقر.

وكما ذكرتُ سابقاً، فإن موضوع العرب والأمريكان، قد قفز قفزة

هائلة من نطاق الحلم إلى حيّز التنفيذ بوضع حجر الأساس لمبنى (معهد أصيلة للدراسات الأمريكية).

في تلك الندوة، انصبّ الحديث في معظمه على آثام الإعلام الأمريكي في حق العرب، إذ إن الأمريكيين رغم محاولاتهم اليائسة، لم يجدوا إلّا القليل الذي يقولونه ضد الإعلام العربي.

لا غرو، فإن وسائل الاتصال العربية من صحافة وإذاعة وتلفزيون، هي كما نعلم، إما خاضعة خضوعاً مباشراً لسيطرة الحكومات، أو أنها تعمل ضمن حدود ترسمها لها تلك الحكومات. ومن السياسات الثابتة للحكومات العربية ـ إلّا في حالات شاذة ـ أنها لا تسمح بالهجوم على الدول الأخرى، ولا تُتيح نشر أو إذاعة أي شيء يمكن أن يسيء إلى قادة تلك الدول.

العجيب في الأمر أن الأمريكان ـ والأوروبيين ـ بدل أن يحمدوا ذلك للحكومات العربية، فإنهم لا يملّون من السخرية من وسائل الاتصال العربية، واعتبارها محض أبواق للحكومات. ولعلها كذلك، إنما لو كانت وسائل الاتصال العربية (حرّة) بمعنى حرية وسائل الاتصال الأمريكية ـ والأوروبية ـ إذاً لربما وجد الأمريكان والأوروبيون أعاجيب من ألوان التشهير بهم والإساءة إليهم. كما يفعلون هم مع العرب، علماً بأنهم ليسوا مبرّئين من العيوب.

بدأت تظهر بوادر من الغيظ المكتوم لدى العرب في بعض القنوات الفضائية، مثل الحملة التي يقودها الإعلامي الكبير الأستاذ حمدي قنديل في برنامجه الشهير، ضد أمريكا، ومناداته بمقاطعة السجائر الأمريكية. وأقول ـ عرضاً ـ إنها حملة لن يُقدّر لها النجاح على

الأرجح، فالعرب يمنعهم الحياء وحسن الخلق أن يفعلوا مثل هذه الأمور، فلتقر أعين الأمريكان!

كم مرة احتج مسؤول عربي لدى الحكومة الأمريكية عن بذاءة من البذاءات التي يرتكبها الإعلام الأمريكي في حق العرب ـ وما يصدق على أمريكا يصدق على أوروبا ـ فقيل له، نحن آسفون يا سيدي، ولكن وسائل الاتصال في بلادنا (حُرّة) ولا سلطان للحكومة عليها! وذلك لعمري، عذر ينطوي على إساءتين. الإساءة التي حدثت بالفعل من الصحيفة أو محطة التلفزيون، ثم الإساءة المتضمنة في تذكير المسؤول العربي أن وسائل الاتصال في بلاده ليست حرة.

هل وسائل الاتصال الأمريكي حرة فعلاً؟

ظاهر الأمر أن الصحافة والإذاعة والتلفزيون عندهم، عبارة عن مؤسسات تجارية مستقلة، هدفها ـ ليس الوصول إلى الحقيقة ـ وإنما تحقيق أكبر قدر من الربح. وهي لذلك تخضع لمنطق مغاير تماماً للمنطق الذي يحكم وسائل الاتصال العربية.

وسائل الاتصال العربية تخضع ـ وقد يبدو ذلك غريباً ـ لوازع (أخلاقي)، مهما كان هذا الوازع ملتوياً أو منحرفاً. بمعنى أنه يوجد باطل وحق، حتى لو كان (الحق) هو سياسة الحكومة!

في المقابل، وسائل الاتصال الأمريكية، لا تعتدُّ بأي وازع خلقي، ولكنها تسير على هدْي ما وصف برفسور هشام شرابي بـ «البراقماتية السياسية والربح التجاري». الحق في هذه الحالة، هو تحقيق الهدف

السياسي، والحصول على أكبر قدر من الربح.

ومن ناحية أخرى، اعترف عدد من المشاركين بوجود علاقة بين الحكومة ووسائل الاتصال في أمريكا. ووصفها الأستاذ هشام ملحم بأنها علاقة Symbiotic ـ أي أنها علاقة فيها أخذ وعطاء من الجانبين، وتأثير متبادل.

ونحن نعلم أن الدولة في أمريكا، متمثلة في البيت الأبيض ومجلس الكنغرس بشقيه، لها تأثير هائل على مجريات الأمور. ولكنه تأثير لا يتحقق بواسطة التدخل المباشر، ولكن بوسائل عميقة ذكية من الضغط والترغيب والترهيب. ولا يخفى أن الدولة استطاعت بتلك الوسائل أن تفرض أحياناً حظراً على أخبار اعتبرت أن نشرها يضرّ بالمصلحة القومية.

إذاً لماذا لم تفعل الدولة في أمريكا شيئاً إزاء الحملة المبيّتة المركزة ضد العرب، حكومات وشعوباً وتاريخاً وحضارة ومعتقدات؟

إنها حملة لا مثيل لضراوتها. والهدف منها، كما وصف برفسور محمد إبراهيم الشوش، هو أن يستقر في الأذهان أن العربي (لا إنسان). وأنه خارج حظيرة الأخلاق والأعراف والقوانين. وحينئذٍ يمكن إلحاق الأذى به دون أي إحساس بالذنب.

ألم تدرك الحكومة الأمريكية بعد، أن هذه الخطة التي لا يقبلها عقل ولا منطق، سوف تضر بمصالحها القومية، إن لم يكن على المدى القصير، فلا ريب في غد أو بعد غد؟

لا بد أن يعترف الإنسان لهؤلاء الأمريكان، الذين جاؤوا إلى أصيلة، بالإخلاص والرغبة الصادقة لمعرفة وجهات النظر الأخرى، وأيضاً الصراحة.

كان أغلبهم من اليهود، كما في السابق، وذلك كما أقول من حسن التدبير، ولا يخفى أن اليهود المخلصين بحكم ظروفهم وحساسيتهم الخاصة، لعلهم أقدر من غيرهم في إحداث تفاهم أفضل بين الأمريكان والعرب في نهاية الأمر.

كان بينهم (هنري بيغمان)، الذي شارك في الندوة السابقة أيضاً. إنه ـ كما بدا في مساهماته سابقاً، ثم في هذه الندوة ـ من هؤلاء اليهود المنصفين الحكماء، الذين يحاولون مخلصين إيجاد مخرج من (المأزق التاريخي) بين العرب واليهود.

وكذلك (والتر كتلر)، وهو سفير سابق لأمريكا في عدد من الدول العربية. و(جوناثان برودر) المعلق الصحافي. ومن الوجوه الجديدة (رتشارد ميرفي) الذي كان مساعداً لوزير الخارجية، ويحسن اللغة العربية. وكان من الإضافات المفيدة، وجود عدد من الأمريكيين من أصول أفريقية. وهؤلاء كما نعلم، لهم إدراك خاص بحكم مسيرة نضالهم الطويلة في أمريكا، وآراؤهم لها وقع مختلف.

من المساهمات التي جذبت انتباهي منذ البداية، مساهمة مستر (آلان قيرسن Allen Gerson) وهو مدير المكتب الأمريكي المغربي للتجارة والاستثمار في واشنطن. قصَّ علينا كيف أنه حاول أن يرتب لقاء بين رجل أعمال مغربي ومدير شركة أمريكية، بهدف التباحث حول مشاريع مشتركة لفائدة الطرفين.

قال مستر (قيرسن) إنه ووجه بستار كثيف من الرفض، حتى مجرد المقابلة لم يوافقوا عليها. قالوا له «نحن لا نتعامل إلّا مع إسرائيل وتركيا في منطقة الشرق الأوسط».

لكن مستر (قيرسن) لم يستسلم، بعد محاولات عدة وعقبات كثيرة نجح هو وصديقه المغربي في مقابلة رئيس الشركة الأمريكية، وانتهت المباحثات بالنجاح.

النتيجة التي توصل إليها مستر (قيرسن) هي أن على العرب ألا ييأسوا بل يثابروا لتغيير الانطباعات الخاطئة التي وقرت في أذهان رجال الأعمال الأمريكيين عن العرب. وقال «عليهم أن يجعلوا رجال الأعمال الأمريكان يحسّون بالطمأنينة والارتياح».

وخطر لي أن أستمع إلى مستر (فيرسن) أنه إذا كان هذا هو الحال مع رجال الأعمال، حيث يفترض أن يكون الحافز في الربح هو أكبر مسبب (للطمأنينة والارتياح)، فما بالك بالقضايا الأخرى؟

وتحدث مستر (وليم راسبري)، وهو أمريكي من أصول أفريقية ومن مراسلي صحيفة الـ «واشنطن بوست» عما أسماه «العودة إلى نقطة الصفر».

قال إن الجهد الإعلامي العربي في أمريكا، كله موجّه لتفنيد حجج أو الرد على هجمات الآخرين. وذلك معناه أنه لا يوجد شيء إيجابي، وأن نتيجة الجهد العربي على أحسن الفروض هي «العودة إلى نقطة الصفر».

إذاً ما العمل؟ نصيحة مستر (راسبري) هي ألا يحصر الكُتاب العرب أنفسهم في الموضوع السياسي وحده، بل يكتبوا في الأمور الكثيرة التي تهم الشعب الأمريكي. وقال «اكتبوا أكثر، واكتبوا في كل شيء».

ربما تكون هذه نصيحة مفيدة، ولكن هل يضمن الكتّاب العرب أن يجدوا الأبواب مفتوحة في وسائل الاتصال الأمريكية؟

بعضهم كما نعلم حاولوا دون جدوى، إلّا في حالات نادرة، مثل حالة (برفسور إدوارد سعيد). وهذا فرض نفسه فرضاً على هذه الوسائل، بمحض نبوغه وتفرده الذي لا ينكر. هذا، وقد كانت إحدى أكثر المساهمات تأثيراً، مساهمة المخرج السينمائي الأمريكي مستر (دُن رنق ـ Don Ring).

قدم مستر (رنق) الذي قال منذ البداية أنه يهودي، مقتطفات من أربعة أفلام واسعة الانتشار أنتجتها هوليوود في السنوات الأخيرة، أحد هذه الأفلام، فيلم كرتون موجّه للأطفال، وهو فيلم رائج جداً واسمه (علاء الدين)، وبينها فيلم رائج آخر اسمه (أبو العروس).

في المقتطفات كلها، كانت تتكرر الصور النمطية البشعة المعهودة في وسائل الاتصال الأمريكية عن العربي. إنه إنسان مخادع ماكر قاسي الطبع، إرهابي شرير، أبطره المال الذي هبط عليه دون وجه حق، وهو ينفقه في الملذات والترهات بلا حساب، إلى غير ذلك.

لا توجد صورة واحدة فيها قبس من الإيجابية. وهي صور لشدة المبالغة في بشاعتها، تحولت إلى شيء يبعث على السخرية والضحك.

إنه أسلوب بدائي، لا يخلّ فقط بأصول الذوق، بل يجافي أبسط قواعد الإعلام والدعاية. ولو كان المشاهد يستغل أدنى قسط من حاسته النقدية، لأدرك دون جهد أن تلك الصور محض أكاذيب، لأنه لا يعقل أن يوجد إنسان تحت قبة السماء بتلك البشاعة. قال مستر (رنق) ـ «لو كانت هذه الأفلام عن اليهود لقامت القيامة». ثم تساءل «لماذا هذه الحملة المركزة على العرب وحدهم؟».

وأجاب عن سؤاله بقوله:
«لأنهم صيد سهل!».

صراحة الأمريكان واستعدادهم لتقبل النقد، وقد كان موجعاً أحياناً، قابلته صراحة مماثلة من العرب أيضاً. اعترف عدد منهم أن التقصير ليس من جانب الأمريكان وحدهم، وإنما العرب مسؤولون كذلك عن سوء تصوير الإعلام الأمريكي لهم ولقضاياهم.

بل إن بعضهم مثل الدكتور محمد الرميحي، رئيس تحرير «العربي» الكويتية، كاد يضع اللوم كله على أكتاف العرب. ومن بعض ما قاله «علينا أن نصلح من أنفسنا أولاً قبل أن نطالب الآخرين بتفهم قضايانا ومواقفنا».

وإلى قريب من هذا ذهب الدكتور سعد الدين إبراهيم، الأستاذ في الجامعة الأمريكية في القاهرة. في رأيه أن عدم الفهم، والتشويه، يحدث من الجانبين، وأن الإعلام العربي ليس خالياً من المفاهيم

الخاطئة عن أمريكا. وضرب مثلاً على ذلك بمسرحية تعرض في القاهرة اسمها (ماما أمريكا).

وقال الدكتور سعد الدين إبراهيم، إن بعض الأفكار التي يحملها العرب عن أمريكا، أفكار خاطئة. من ذلك أنهم يظنون أن أمريكا تخطط لتحطيم العالم، وأن ثمة نيّة أمريكية مبيّتة للافتراء على الإسلام وتشويه صورته. وفي رأيه، أن هذه الأفكار البعيدة عن الحقيقة، تصدر عن مخاوف أمة مهزومة ضعيفة. وفي تصوره أن العرب يجب أن يكونوا أكثر إيجابية، ويعملوا على فهم أمريكا والتعامل معها كما هي في الواقع.

ورغم أن المفكر المصري المعروف الدكتور محمد سيد أحمد لم يرفض مسؤولية العرب عما لا يلاقونه من الإعلام الأمريكي، ولكنه أكد أن أغلب الذنب يقع على عاتق أمريكا. وقال إن أمريكا لا ترى في العالم كله إلّا إسرائيل، وأنها تقسم العرب إلى أخيار وأشرار، ولكنها لا ترى أشراراً في إسرائيل.

هذا، وقد عزا برفسور هشام شرابي عدم الوضوح في نظرة العرب إلى الإعلام الأمريكي، إلى أنهم لا يقدرون تقديراً كافياً أن بنية الإعلام الأمريكي تختلف اختلافاً جذرياً عن بنية الإعلام العربي. وقال إن من بعض معوقات الإعلام العربي أنه يخضع لرقابة الحكومات، وأنه بطيء الاستجابة للأحداث، وأنه بالقياس إلى الإعلام الأمريكي، متخلف تخلفاً كبيراً تقنياً ومهنياً. وفي رأيه أن الإعلام العربي لكي يستطيع أن يتصدى للإعلام الأمريكي، عليه أن يتطور أكثر، ولا يعتمد فقط على الكلمة والصورة.

هذه النظرة، هي بطبيعة الحال، نظرة لها وزن. وهي تتصل بقضية (الوعاء) الذي يحمل الرسالة الإعلامية، فإذا كان (الوعاء) ضعيفاً، فلا يجدي أن الرسالة الإعلامية مهمة في حد ذاتها.

وكان مستر (جوناثان برودر) المراسل الصحافي في واشنطن، قد لمّح إلى شيء قريب من هذا، حين قال إن (حدة العاطفة) لا تساعد بالضرورة على الفهم، ووصف هذا النوع من الإعلام، بأنه يحتوي على «حمولة ثقيلة من العاطفة».

الأستاذ عثمان العمير رئيس تحرير صحيفة «الشرق الأوسط»، هو أيضاً ركّز على الجانب التقني المهني، وعلى تخلف الإعلام العربي من هذه الناحية. وقال «لا بد للإعلام العربي أن يجاري العصر ويكون جديراً بالاحترام».

اعترف الدكتور حليم بركات الأستاذ في جامعة (جورج تاون) في واشنطن، أن الإعلام العربي، والعرب بوجه عام، يتحملون جزءاً من المسؤولية، ولكنه يعتقد أن المسؤولية تقع في معظمها على عاتق أمريكا والإعلام الأمريكي.

ولعل المتحدث الذي ذهب أبعد من غيره في تحميل العرب مسؤولية التشويه الذي يتعرضون له في أمريكا، كان الأستاذ خير الله خير الله من هيئة تحرير صحيفة «الحياة».

قال إن العرب لا يتعاملون مع أمريكا كما هي في الواقع، ولكن بوحي تصورات خاطئة، وأن الإعلام العربي يروّج لهذه التصورات إرضاء لعواطف الجمهور. وذكر أنه لا يوجد إلّا عدد قليل جداً من

الإعلاميين والكتّاب العرب، الذين يحاولون أن يشرحوا للجمهور، ما هي أمريكا. وقال «علينا ألا نغرق الجمهور العربي في الأوهام».

وفي رأيه، أن «على العرب، أن يصلحوا من صورتهم داخل العالم العربي أولاً، قبل أن يطلبوا إصلاحها من الآخرين».

كان لا بد أن تبرز في هذا الاجتماع تلك القضية، قضية ما يُسمى بـ «التآمر الصهيوني» ضد العرب في أمريكا. وهي عقيدة رسخت كما نعلم في عقول آلاف، إن لم يكن ملايين العرب، لأنهم لا يجدون تفسيراً منطقياً لظاهرة يرونها شاذة لا يقبلها عقل ولا منطق.

من الذين أعربوا عن تلك القناعة، الممثل السينمائي المصري الشهير والمخرجَ، الأستاذ حسين فهمي، تحدث بلغة إنجليزية فصيحة وجرأة عظيمة عما سماه (سيطرة اليهود على صناعة السينما في أمريكا) وأنهم يستغلون نفوذهم الهائل في الدسّ للعرب وتلطيخ سمعتهم.

ولا بد لي من القول، أنني شخصياً ومن حيث المبدأ، لا أومن بنظرية التآمر في التاريخ، وأميل إلى مدرسة المؤرخ الإنجليزي الكبير

(أي.جي.بي. تيلر A.J.P. Taylor) الذي يرى أن الغباء أحياناً يبدو كأنه تآمر.

رغم ذلك استمعت إلى الأستاذ حسين فهمي ببعض الدهشة وكثير من الإعجاب. أعجبتني فصاحته وجرأته. وبعض التطرّف الفكري لا يضرّ في مثل هذه الاجتماعات، ويطرد السآمة والملل.

الدكتور فهد العرابي الحارثي، عضو مجلس الشورى السعودي، عبّر هو أيضاً في كلمة مُتْقَنة رصينة، عن آراء بصدد النفوذ اليهودي في وسائل الاتصال الأمريكية، تجعل ذلك النفوذ يبدو أقرب إلى المؤامرة.

كذلك الأستاذ صالح سعود الأطلسي رئيس تحرير (السياسة الجديدة) المغربية. هو أيضاً كان قريباً من قبول فكرة المؤامرة الصهيونية ومن بعض ما قاله «إن القوى نفسها المؤثرة على الصحافة، هي القوى المؤثرة على القرار السياسي».

أما الأستاذ هشام ملحم، مدير مكتب صحيفة «السفير» اللبنانية، فقد كان أكثر صراحة بالتنديد بالنفوذ اليهودي، ورغم أنه ذكر أن تحسناً نسبياً قد حدث، ولكنه ضرب أمثلة على التحيّز ضد العرب، الأمر الذي لا يمكن أن يفهم إلّا أنه يصدر عن نيّة مبيتة.

وفي كلمة عميقة بعيدة المرمى، قال الدكتور أحمد الربعي، إن أمريكا تعتبر قضية إسرائيل (قضية أمريكية محلية) ـ بمعنى أنها تعتبر أن إسرائيل امتداد لها، وليست دولة عادية كبقية الدول. وقال إن سياسة أمريكا في منطقة الشرق الأوسط، يجب أن تقوم على أساس

مصالحها فقط. وهذا بالطبع هو مربط الفرس الذّي دونه خَرْط القَتاد. إنما العرب ما أكثر ما خرطت القتاد حين حزَبها الأمر. وأيُّ حزابة (بضم الحاء المهملة وفتح الزّاي) أحْزَب من حُزابة الإسرائيليين زائداً الإمريكان!؟

ويمكن أن يضيف المرء، أن أمريكا لو فعلت ما اقترحه عليها الدكتور الربعي، فإنها سوف تضمن أيضاً مصلحة اليهود في فلسطين، لأن تأييدها الأعمى لسياسات الحكومة الإسرائيلية، حتى المتطرفة منها، قد يؤدي إلى كارثة لليهود الإسرائيليين في نهاية الأمر، وهذا هو رأي اليهود الأمريكان العقلاء.

تلك الآراء وغيرها، جعلت مستر (هنري سقمان ـ Henry Sigman) ـ وهو كما قلت يهودي مُنْصف يؤمن بحتمية قيام دولة فلسطينية ـ يقول بشيء من نفاد الصبر، أن فكرة وجود مؤامرة يهودية في أمريكا فكرة بعيدة عن الواقع تماماً، وقال إنه يعرف المنظمات اليهودية جيداً، ويستطيع أن يقول بلا تردّد، أنه لا أساس بتاتاً للزعم بوجود نفوذ يهودي (شيطاني) في أمريكا، وقال إن اليهود الأمريكان أبعد ما يكونون عن الإجماع على تأييد سياسة رئيس وزراء إسرائيل الحالي.

هذا، وقد فسّر عدد من الأمريكان ـ وبعض العرب ـ ميل كثير من الناس في العالم العربي إلى قبول فكرة (التآمر الصهيوني) أن ذلك بسبب كفاءة الإعلام الإسرائيلي وعجز الإعلام العربي.

وقد وصف الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز سفير المملكة العربية السعودية في واشنطن، في كلمته البليغة الضافية التي ألقاها

في افتتاح المؤتمر، الجهد الضخم الذي يتحتم على العرب أن يبذلوه إذا أرادوا إحداث تغيير في سياسة الولايات المتحدة تجاههم.

وكذلك الأستاذ محمد بن عيسى سفير المغرب في واشنطن، الذي قال إن واشنطن ليست هي أمريكا، وأن الصحف الأمريكية الكبرى ليست هي وحدها الإعلام الأمريكي. وضرب مثلاً على التقصير العربي، أن العرب ليس لهم حتى الآن مركز ثقافي في أمريكا.

هذان الرجلان العاليا الهمة بمساهمتهما الفعّالة في قيام (مركز الدراسات الأمريكية) في أصيلة، قد فتحا طريقاً ما أجْدر به أن يُطرق، وضربا مثلاً ما أجدر به أن يُحتذى.

هكذا وصف الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، الرواية العربية. آثر أن يقول إنها (ملحمة العرب)، بدلاً من التعبير الذي يروّج له البعض، أن الرواية هي (ديوان العرب) في هذا العصر. والرواية، رغم أهميتها، ليست ديوان العرب. ذلكم هو الشعر. وسوف يظل الأمر كذلك ما بقي على وجه الأرض ناطقون باللغة العربية الشريفة.

قال ذلك في كلمته الناصعة التي ألقاها في افتتاح مؤتمر الرواية العربية الأول في القاهرة. وقد استمر من ٢٢ إلى ٢٦ شباط/ فبراير. وكان موضوعه (خصوصية الرواية العربية).

تعرفت إلى الدكتور جابر عصفور منذ وقت قريب. كنت ألقاه في المؤتمرات الثقافية منذ زمن. وكما يحدث في زحام هذه التجمعات،

فإنك نادراً ما تستطيع أن تعرف أحداً معرفة حقيقية.

ولكن حتى في تلك اللقاءات العابرة، كان يجذب انتباهي بوضوح فكره، وخلو لغته من العبارات الجاهزة الممجوجة والأفكار الشائعة المكررة. كان دائماً ـ حتى لو اختلفت معه ـ يقول شيئاً طريفاً يعلق بالذاكرة.

أضف إلى كل ذلك روح الدعابة التي تميّز بها المصريون أكثر من بقية الشعوب العربية. وهي ميزة تنقذ الإنسان مهما بلغ من العلم، من أن يأخذ نفسه مأخذ الجد، ويحسب أن ما يقوله هو الحقيقة النهائية المطلقة.

ثم أتيح لي أن أتعرف إليه أكثر أثناء مؤتمر الشعر (١٩٩٧). لمست فيه بالإضافة إلى ما ذكرت خصلتين أحبهما: البساطة التي تشربّها من أصوله الريفية وعمّقها باتساع المعرفة. كذلك وجدت فيه صفة تعجبني في الإنسان المسؤول، وهي صفة التحرر من القيود البيروقراطية. رأيته يصرّف شؤون المجلس الأعلى للثقافة بحزم، ولكن بروح من الإدارة الخلّاقة.

مفهوم (الإدارة الخلّاقة) Creative Management هو بالطبع منهج مُعترف به في فنون الإدارة، ولعله الآن المنهج المفضّل. بل إن الأمريكيين والأوروبيين ابتدعوا مفهوماً أسموه (الفوضى الخلّاقة ـ Creative Chaos). أحياناً يكون ذلك أدعى إلى تحقيق الهدف من الوسائل البيروقراطية المعهودة.

تلك أساليب مشروعة وضرورية في بعض الحالات، ولكنها كما

نعلم وسائل حذرة، تراعي الشكليات أكثر مما تراعي تحقيق الهدف المنشود. وأنا كلّما أجد مسؤولاً، خاصة في المؤسسات الثقافية والإعلامية وما شابهها، يطلب من الموظفين التوقيع على سجل لساعات الوصول والخروج، أعلم أنه لن ينجز إلّا القليل. ولا يخفى أن الموظف قد يصل إلى مكتبه في الساعة المحددة ويخرج في الساعة المحددة ولا يفعل شيئاً.

من حسن حظ الدكتور جابر عصفور أنه يعمل مع وزير هو في الأصل فنان مبدع، وهو الأستاذ فاروق حسني. إنه أيضاً ـ كما يلاحظ الإنسان ـ يتبع أسلوباً بعيداً عن النهج البيروقراطي.

الجناح الآخر لوزارة الثقافة المصرية، أعني الهيئة العامة للكتاب، يرأسه رجل من هذا الطراز هو الدكتور سمير سرحان. هو أيضاً يقوم بجهد كبير في خدمة الثقافة وتأكيد دور مصر الرائد. وقد انتهى منذ أيام معرض القاهرة الدولي للكتاب، وهو يُعَدّ ثاني أكبر معرض من نوعه في العالم. وقد زرته ورأيت اتساع رقعته وغزارة معروضاته وتنوعها، ومدى إقبال الجمهور عليه.

كان المعرض حقاً، سوقاً للفكر والثقافة، تُذكّر بأسواق العرب القديمة مثل عكاظ والمربد. تجد فيه الشعراء والخطباء والمتكلمين في ندوات الجدل والحوار. هذا إلى جانب الكتب والمقاهي والمطاعم.

في اليوم الذي زرت فيه المعرض، كان الزحام عظيماً بحيث تصعب الحركة. وكان الناس يقبلون على شراء الكتب من كل الأنواع. كتب الدين والتاريخ والرواية والشعر والعلوم. وهو أمر يُسعد الإنسان، ويدحض الرأي الذي يقول إن الناس قد انصرفوا عن

القراءة إلى التلفزيون وغيره من وسائل الترفيه الحديثة.

لا عجب إذاً أن الحركة الثقافية في مصر، تشهد اليوم نهضة لم تشهد مثلها منذ أن كان الدكتور ثروت عكاشة وزيراً للثقافة. مصر الآن، كما يحب العرب أن تكون مصر. والقاهرة كما يحب العرب أن تكون القاهرة.

لا أظن أن أحداً يُنكر أن الوجدان العربي في أساسه، وجدان شعري. ليس مثل العرب مُحبّاً للشعر. وقد مرّ عليهم زمان حتى في هذا العصر المتبلّد الإحساس، وكانت القصيدة تطلع في القاهرة أو دمشق أو بغداد أو بيروت، فلا تلبث أن تطير بجناحين، ويسير بها الركبان، وتتجاوب أصداؤها في جنبات العالم العربي من مشارقه إلى مغاربه.

كان الأمر بحق كما وصف حافظ، شاعر النيل رحمه الله:

إذا ألـمَّـت بـوادي الـنـيـل نـازلـةٌ
باتـت لـهـا راسيـات الـشّـام تـضـطـرب

كان الشعر هو الذي يحفز ذلك. وحتى في يومنا هذا، حين تعدّدت الوسائل، وكثرت المشاغل، وتبعثرت الاهتمامات، وقست

القلوب، ما يزال يوجد شعراء يملكون القدرة على تحريك العواطف، وهزّ الوجدان.

هذا لا تستطيع الرواية أن تفعله، ولا تطمح أن تفعله. ورغم ذلك فلا يُنكر، أن الرواية العربية في عمرها القصير الذي لا يكاد يتجاوز قرناً من الزمان، قد رادت تخوماً لم يستطع الشعر أن يرتادها.

من أهم ما أنجزته الرواية في تقديري، هو أنها رسمت خريطة فنية للعالم العربي. أدخلت أقاليم برُمّتها، كانت قبلاً مجهولة، إلى دائرة الوعي الفردي والجمْعي. أصبح بمقدور القارئ العربي، أن يتخيّل الأرض والبشر والحياة في تقلباتها في كل زاوية من زوايا الدنيا العربية على اتساعها وتنوعها. حتى السينما والتلفزيون لم يستطيعا أن يفعلا ذلك إلّا في نطاق محدود جداً.

والشعر العربي رغم روعته وتنوعه لم يفعل هذا. فعل أشياء أخرى عظيمة. ولكن القصيدة بحكم طبيعتها لا تملك إلّا أن تقدِّم للقارئ أو السامع، عالماً مكثّفاً مركّزاً ينظر إليه الشاعر من زاوية واحدة في الغالب، فهو لا يكترث بالتفاصيل وتعدّد زوايا الرؤية ـ كما تصنع الرواية.

وهذا أعظم شاعر في اللغة العربية بحق، ومن عمالقة الشعراء في تراث الإنسانية. عاش في الكوفة وفي بغداد وفي حلب وفي الفسطاط. الأماكن عبارة عن مكان واحد، والبشر والحياة من حوله لا وجود لهم. هو هو نفسه دائماً. وحده دائماً. في مكان واحد أو لا مكان.

قليلون جداً من الشعراء الكلاسيكيين اقتربوا مما تصنعه الرواية العربية في هذا الزمان. أذكر منهم الشاعر العبقري ذا الرّمة، الذي أعتبره ظاهرة فريدة في الشعر العربي لهذا السبب. انكبّ على نجد، ورسم صورة فنيّة دقيقة للأرض بكثبانها ووديانها ورياحها وأمطارها وشجرها ووحشها وناسها. ويمكن القول أن شعر ذي الرّمة عبارة عن رواية شاسعة، بل هي رواية متقدمة جداً بمعايير الفن الروائي.

ربما أيضاً الحسن بن هانئ ـ مهما كان رأيك فيه وفي شعره. هو أيضاً ترك صورة واضحة لبغداد، بألَقِها وانحلالها وتنوّعها وحاناتها ومباذلها.

ومن الشعراء المعاصرين يخطر على بالي ـ دون تفكير عميق، وعلى سبيل المثال لا الحصر ـ الشاعر الموهوب محمود درويش. ولعل كونه فلسطينياً، فرض عليه أن يجعل شعره سجلاً ـ وإذا شئت بديلاً ـ للعالم الفلسطيني المفقود، وأن يكون تاريخاً فنياً لمأساة الشعب الفلسطيني.

هذا، وقد لخّص الدكتور جابر عصفور في فقرة من خطبته البليغة في افتتاح مؤتمر الرواية العربية الذي انعقد في القاهرة مؤخراً، العبء الذي تنهض به الرواية العربية خير تلخيص، حين قال:

«.. وظلّت الرواية العربية.. تسعى في إصرار لا يلين إلى أن تكون مرآة المجتمع المدني الصاعد، وسلاحه الإبداعي في مواجهة نقائصه التي لا تزال إلى اليوم، مقترنة بتخلف التعصُّب والتسلّط والتطرّف، متواصلة مع تراثها السرديّ العربي في أبعاده المناقضة للاتّباع والنقل، محاورة غيرها من روايات الدنيا العريضة التي قاسمتها الهموم نفسها.

ولم تعرف الرواية العربية منذ مخاضها العسير المهادنة في تحرير نوعها من هيمنة النوع الأدبي، الوحيد أو التقنيات الثابتة، ولم تتوقف عن تجديد نفسها أو تحرير مبدعها من سطوة كل سلطة، فكرية أو فنية، تمارس القمع باسم الدين والسياسة أو الأخلاق، أو التقاليد الأدبية، ولم تكفّ قط عن مناوشة المرَدة بحيَل السّرد، أو ترويض الجبابرة العماليق، كي تدخلهم إلى قمقم الحكايات، أو مواجهة القمع بما يحول بينه وبين القضاء على وعود المستقبل وأحلامه..».

٣٣

بلغ مهرجان أصيلة الفني والثقافي عامه العشرين، وهو أمر يدعو إلى السرور، خاصة لدى الذين شهدوا بداياته وواكبوا نموه وازدهاره.

ولا يخفى، أن قصة المهرجان، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقصة أصيلة نفسها. فعلى مدى أكثر من عشرين عاماً، نما المهرجان ونمت البلدة، نمواً متئداً ولكنه متصل ثابت الخطى. التطور الثقافي يسير جنباً إلى جنب مع التطور الاقتصادي والاجتماعي. كل منهما يسند الآخر ويكمّله.

تغيب عاماً عن أصيلة ثم تعود إليها، فتجد أنها قد زادت قليلاً أو كثيراً، تجد عمارات ارتفعت. شوارع تمَّ رصفها. مباني كانت توشك على الانهيار قد رمّمت. ميادين مظلمة قد أُضيئت. أطفالاً

صاروا شباباً. شباناً وشابات تخرجوا من المعاهد والجامعات ووجدوا أعمالاً وكوّنوا أسراً.

ذلك كله يتمّ دون قفزات طائشة، أو مبالغات متهوّرة. وكما قلت من قبل في سياقات أخرى، فلا شك أن هذه البلدة على ساحل المحيط الأطلسي في أقصى بلاد المغرب العربي، تقدم نموذجاً يُمكن أن يحتذى، كيف تكون التنمية المتوازنة، وكيف يحدث ذلك بمشاركة المواطنين أنفسهم، دون الإخلال بالتوازن الطبيعي في البيئة.

أصيلة في طريقها إلى أن تصبح مدينة، بالمعنى الحقيقي للمدينة. تنظر إليها، فتدرك لأول وهلة، أنها مدينة عربية مسلمة، ولكن صلاتها تمتد وراء حدود المغرب شرقاً. وكان للمهرجان تأثير في تنوع تلك الصلات. وذلك كما جاء في كلمة للملك الحسن الثاني يصف فيها المغرب:

«المغرب يشبه شجرة تمتد جذورها المغذّية امتداداً عميقاً في التراب الأفريقي، وتتنفّس بفضل أوراقها التي يقوّيها النسيم الأوروبي... بيد أن حياة المغرب ليست عمودية الامتداد فحسب، بل هي تمتد كذلك امتداداً أفقياً نحو الشرق الذي نحن مرتبطون معه بالتالد والطريف من الصلات الثقافية.. إنها روابط الدم والروح التي بقيت حيّة راسخة عبر القرون».

هذا، وليس في أصيلة ـ إلى الآن على أي حال ـ عمارات متطاولة من الإسمنت والزجاج، ذلك الإغراء الفادح الذي قلَّ أن نجت منه مدينة عربية. ليست فيها زحمة سيارات ولا تلوث هواء، ولا

مطاعم (هامبيرقر) ولا محلات (دسكو)، ولا زعيق موسيقى يخرق طبول الآذان.

تسمع أمواج البحر وضحكات الأطفال، وأناشيد غناء تصلك من بعيد، من وقت إلى آخر. الكورنيش الواسع يزدحم بالمصطافين ورواد المهرجان في الأماسي، والمقاهي والمطاعم لوحات جدارية بألوان ناصعة على الحيطان وإعلانات المهرجان، ومعارض فنية وكُتب على أرصفة الشوارع.

أهل أصيلة يحسّون بالفخر، لأنهم يدركون أنهم شاركوا في النهضة التي تشهدها مدينتهم. ويعبّر عنهم (سلاّم)، ضمير أصيلة وبركتُها في ثيابه النظيفة وابتسامته الطيبة المضيئة. يجوب الشوارع يستقبل الزائرين، وينادي كثيراً منهم بأسمائهم ويقول لكل منهم «مرحباً بك في أصيلة».

العام الماضي، شعرنا لوهلة بالقلق، وخفنا أن يختل التوازن الجميل الذي تحقق في المدينة. وجدنا بناء ضخماً يرتفع على الشاطىء قريباً من القلعة، لا صلة له بما حوله. وكان واضحاً لنا، نحن محبّي أصيلة، أن الذين أقاموه، إما أنهم لم يدركوا المغزى الرمزي لهذه المدينة الصغيرة النائية، أو أنهم لم يكترثوا بذلك المغزى وهو أن أصيلة أصبحت ترمز لشيء أكبر من حجمها، وأن المغرب يحق له أن يفخر بذلك ويحرص عليه.

إنما لحسن الحظ، وجدنا هذا العام، أن البناء النشاز ـ رغم أنه كان قد قارب تمامه ـ قد أُزيل، وأن وجه البحر الجميل قد أسفر وابتسم من جديد.

فإلى السلطة التي أمرت بمحو تلك البشاعة ـ ولا بد أن تكون سلطة عليا ـ الشكر والتقدير من كل عشاق هذا البلد المغربي، الذي أصبح رمزاً عالمياً، ونموذجاً يمكن أن يُصنع على نمطه، خاصة في العالم العربي.

٣٤

كل موسم يجد الزائر مفاجأة سارة، ومفاجأة هذا الموسم في أصيلة، كانت عندي أكثرها مدعاة للسرور.

ذلك أن الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز، لم يكتفِ بأنه غمر المهرجان والمدينة بأياديه البيضاء، ولكنه اصطحب معه إلى أصيلة هذا العام، فناناً شامخاً طالما أحببتُ غناءه وتشوقتُ إلى معرفته. وشأني في ذلك، شأن مئات الآلاف من العرب. أعني المغني الموهوب، صاحب الصوت المليء بالجاذبية، محمد عبده.

قال الأمير في كلمته في افتتاح المهرجان، أنه أحضر معه إلى أصيلة هدية ثمينة وقد صدق.

حين غنّى محمد عبده في مساء اليوم التالي لافتتاح المهرجان، في

مركز الحسن الثاني، نظرت إلى زملائنا وزميلاتنا من الأكاديميين والكتّاب والشعراء من أقطار أفريقيا جنوب الصحراء وقد استخفّهم الطرب. انخرطوا مع الجمهور المغربي، الذي غلب عليه الشباب. كانوا يحفظون أغاني محمد عبده ويرددونها وراءه. كان حدثاً رائعاً في التواصل العربي ـ العربي، والتواصل العربي ـ الأفريقي.

قالت سيدة وقور من الكنغو تعمل أستاذة في جامعة أمريكية، وقد أخرجها الطرب عن وقارها، إنها لم تكن تتصور أن الغناء العربي يمكن أن يؤثر عليها كل ذلك التأثير.

في ندوة الحوار العربي ـ الأفريقي، كنا نحاول أن نُحيي الروابط الأزلية التي جمعت بين العالم العربي وأفريقيا. نحاول أن نعيد بناء الجسور القديمة التي تداعت وتهدّمت بسبب الإهمال وقلّة الاكتراث. حدثت محاولات فاترة متباعدة من قبل، ولكن أبداً لم يجتمع، كما يجتمع الآن، قرابة سبعين كاتباً وشاعراً ومفكراً، من مختلف أقطار العالم العربي وأفريقيا، لينظر بعضهم في وجوه بعض، ويستمع بعضهم إلى أفكار بعض، وتدارس تلك العلاقة المصيرية بحق، بين العرب والأفريقيين جنوب الصحراء.

وقد أغنانا صوت محمد عبده وغناؤه الجميل عن آلاف الكلمات.

كان أكثر أخواننا من بلاد أفريقيا جنوب الصحراء، يزورون بلداً عربياً لأول مرة في حياتهم، ويسمعون غناء عربياً لأول مرة.

في مركز الحسن الثاني ذلك المساء، وحّدت ألحان محمد عبده وصوته بين الأفارقة من أقطار جنوب الصحراء والأفارقة العرب في

شمال القارة والعرب في الجزيرة العربية وما وراءها شرقاً وشمالاً. كذلك يفعل الفن العظيم دائماً. وذلك تأثير لا تستطيع أن تحدثه الخطب السياسية ولا المؤتمرات الدبلوماسية.

أفريقيا في واقع الأمر، عربية أكثر مما يدرك أو يعترف ـ معظم الأفارقة. والعالم العربي، أفريقي أكثر مما يدرك ـ أو يعترف ـ معظم العرب. بقي أن تُجلى هذه الحقيقة البسيطة، حتى تصبح واقعاً معاشاً.

في بداية الموسم، افتتح الأمير بندر وهو رئيس مجلس أمناء مؤسسة منتدى أصيلة ـ افتتح قصر الثقافة بعد أن تمَّ ترميمه وتوسعته، ليكون مقرّاً للمؤسسة، فأصبح تحفة فنية حقاً، ومعلماً بارزاً على ساحل البحر من معالم المدينة.

ويُذكر لهذا الأمير الكريم، أنه تبرّع بكافة نفقات ترميم القصر وإضافة مبان جديدة إليه، وهي منّة سخيّة سوف تذكرها أجيال متعاقبة من رواد أصيلة. وجدير بالذكر أن القصر، أصبح الآن يضم غرفاً لإقامة المبدعين، من كتّاب وشعراء ورسّامين وموسيقيين، لمواصلة أعمالهم في هدوء.

كذلك وضع الأمير بندر حجر الأساس لمكتبة أصيلة الكبرى، وهو مشروع ثقافي ضخم تكفّل الأمير بنفقاته كلها. سوف تقوم المكتبة على مساحة هكتار من الأرض تبرع بها مجلس بلدية أصيلة، وسوف تكون على أحدث طراز شاملة لآلاف الكتب والمراجع والوثائق، وكل التقنيات الحديثة التي تعين الدّارسين. ولا شك أنها سوف تصبح مركزاً آخر للإشعاع الثقافي في هذه المدينة الجميلة.

هذه الأشياء الرائعة كلها، التي حدثت وتحدث في مدينة أصيلة، تنطوي على معان عدة، منها أن عمل الخير حين يبدأ، فلا بد أن يجد أناساً خيّرين يدعمونه. وهذا الأمير الأريحي، بندر بن سلطان ابن عبد العزيز، من هؤلاء الرجال الجديرين بالاحترام والتقدير.

٣٥

بالتعاون مع منظمة اليونسكو، ودار ثقافات العالم العربي في باريس، واتحاد كتّاب آسيا وأفريقيا، افتتح مهرجان أصيلة نشاطه هذا الصيف، بعقد ما سُمي «المؤتمر الأول للكتّاب الأفارقة». وهو أكبر اجتماع من نوعه، ينعقد في أي مكان في العالم العربي، وربما في أي مكان من العالم، فقد حُشد له زهاء سبعين كاتباً وشاعراً وأكاديمياً، من مختلف أقطار أفريقيا، شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً.

ولا يخفى أن موضوع العلاقات العربية ـ الأفريقية موضوع عظيم الخطر فيما يخص العرب. وقد ظل معلّقاً أمداً طويلاً ينتظر جهة عربية ما، دولة أو مؤسسة، تواجهه مواجهة، وتمحّصه تمحيصاً... إلى أن قيّض الله له محمد بن عيسى، في أصيلة بالمغرب وهو إنسان تميّز ببعد النظر، وحبّ المواجهة والمغامرة.

معلوم أن أفريقيا والعالم العربي، ارتبطا ارتباطاً حيوياً لا فكاك منه، منذ ما قبل التاريخ المُدوّن. عبَر العرب إلى أفريقيا. وعبر الأفارقة إلى الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وأبعد.

المحن التي حلّت بالأفارقة حلّ مثلها بالعرب. والمظالم التي حاقت بهم حاق مثلُها بالعرب. صار مصيرهما مشتركاً، ووجدانهما لا يختلف كثيراً أحدهما عن الآخر، وقد عبَر الشاعر السوداني محمد المكي إبراهيم عن هذا أجمل تعبير في قصيدته الرائعة (بعض الرحيق أنا والبرتقالةُ أنت)، حين قال مخاطباً أفريقيا:

من اشتراك اشترى
فوْحَ القُرُنفل من أفواه أُمْسيّه
أو السواحلَ من خَصْر الجَزيرة
أو خصر الجزيرة من موج المحيط
وأحضان الصّباحيّه.
من اشتراك اشترى
للجرح غمداً وللأحزان مرثيّه
من اشتراك اشترى
مني ومنكَ تواريخَ البكاءِ
وأجيالَ العبوديّه.
من اشتراك اشتراني يا خُلاسيّه.

لماذا إذاً، أصبح بعض الأفارقة في الآونة المتأخرة، ينظرون إلى العرب بريبة وحذر، بل بحقد وكراهية في بعض الأحيان؟

نحن في السودان قد خبرنا هذه الأحقاد القديمة عن كثب، الحوار

مع إخواننا في الجنوب صار عسيراً، بسبب أخطاء الماضي، وهي من جانبنا في الغالب، والآثام، بل الجرائم، التي اجترحتها الحكومات الشمالية في حق الجنوب، الآن، وفي الماضي القريب.

إنّما أيضاً بسبب النّفور وسوء الظن الذي يحسّه الأفارقة نحو العرب إطلاقاً. وهو إحساس لا يستند إلى أية حقائق تاريخية مؤكدة.

من ذلك إلقاء مسؤولية تجارة الرقيق في أفريقيا كلها على العرب.

لا يُنكر أن العرب لم يسلموا تماماً من عار تجارة الرقيق. إنما هل كانوا هم المسؤولين عنها بالدرجة الأولى؟ ماذا كان الدور الأوروبي في تجارة الرقيق؟ بل ماذا كان الدور (الأفريقي) في تجارة الرقيق؟

هذا، وقد اتسعت الهوة إلى حدّ أن بعض الأفارقة (جنوب الصحراء) أخذوا يقولون أن العرب الموجودين في أفريقيا ـ وهم أكثر من ثلثي العرب كافة ـ دخلاء على القاهرة وأنهم ليسوا أفارقة. كلمة (أفريقي) عندهم، تعني الأفارقة السود وحسب.

من سوء الحظ أن كثيرين من العرب قبلوا هذا الافتراض. هؤلاء بطبيعة وضعهم الجغرافي وملابسات ظروفهم التاريخية، اتجهوا نحو أوروبا عبر المتوسط، وأداروا ظهورهم لأفريقيا. كثيرون منهم يتحدّثون عن أفريقيا كأنهم ليسوا جزءاً منها.

كأن أفريقيا مكان آخر وكأنهم ليسوا أفريقيين. قبلوا المعنى الأوروبي الاستعماري لكلمة (أفريقي) بحيث أصبحت تعني (أسود) أو (زنجياً).

واقع الأمر، أن غالبية الأفارقة اليوم ـ كما يقول المؤرخون وعلماء الأجناس ـ ليسوا سوداً صُراحاً ولا زنجاً صُراحاً. منذ أقدم العصور، اختلطت الدماء والأعراق والأجناس، مكوّنة شعوباً (هجينة)، أو شعوباً (خلاسيّة) كما وصف الشاعر السفير محمد المكي إبراهيم.

لم يعُد العرب محض عرب لا الزنج محْض زنج. الهُجنة هي قابلةُ التاريخ. التأكيد على نقاء العرق، سواء صدر عن العرب أو الأفارقة أو الأوروبيين، دعوة عنصرية تنطوي دائماً على رغبة في السيطرة والاستعلاء. ويشهد التاريخ للعرب أنهم أبداً لم يترفعوا عن الاختلاط والتزاوج في الشعوب التي أقاموا بينها.

(هنري لوبيز)، الذي أُوكل إليه تنظيم مؤتمر (الحوار العربي الأفريقي) في أصيلة يمثل هو نفسه في شخصه ذلك التعدد العرقي الذي أشرت إليه من قبل. تلك (الهُجْنة)، التي لا يشك المنصفون في أنها هي طابع أفريقيا ومفتاح مستقبلها. وهي هُجنة ثقافية أيضاً.

إنه أفريقي من الكنغو (برازافيل). كان إلى ما قبل بضعة أشهر مساعداً للمدير العام لمنظمة اليونسكو، حتى وصل سن التقاعد. ومن قبل كان وزيراً لخارجية الكنغو (برازافيل).

أفريقي لا يشك أحد في أفريقيته. ومع ذلك فهو ليس أسود اللون، بل أسمر حنطي البشرة. يمكن أن يكون عربياً، من شمال السودان أو المغرب أو صعيد مصر. أو أوروبياً من جنوب إسبانيا.

ذلك لأنه ليس زنجياً قحّاً، بل هو خليط من أعراق مختلفة. فيه دم زنجي ودم أوروبي وربما دماء أخرى.

تميّزت حياته كلها بثنائية لعلها كانت من عوامل نبوغه، فإلى جانب أنه وصل إلى أعلى مناصب الدولة في وطنه، فهو من كبار الروائيين الأفارقة الذين يكتبون باللغة الفرنسية.

ولد في عهد الاستعمار البلجيكي في ليوبولدفيل التي صارت (كنشاسا) بعد الاستقلال. وهو يقول عن نفسه بشيء من الفخر، أن أسرته كانت (هجينة) فيها دماء مختلطة.

قضى شطراً من طفولته في (برازافيل)، على الضفة الأخرى من نهر الكنغو. وقد ترك ذلك أثراً عظيماً في نفسه كما يمكن أن يتخيّل المرء، نظراً للظروف التي أحاطت بالكنغو خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. ويجد القارئ ذلك واضحاً في أعماله الروائية، حيث استغل الكاتب ببراعة، المفهوم الرمزي لـ(الضفة الأخرى)، وأنه منذ طفولته لم يحس بالانتماء إلى مكان بعينه.

ثم قضى الشطر الآخر من طفولته وصباه في فرنسا، على ضفاف نهر أوروبي هو نهر الـ (لوار) العتيد. وتعمّقت تلك الثنائية ـ ولا أقول الانفصام ـ أنه نشأ يتحدث لغتين يعتبر كلاً منهما أنها (لغته الأم). لغة الـ (لنْقالا)، وهي من اللغات المحلية الغالبة في الكنغو، واللغة الفرنسية.

يقول بسخرية ـ ليست فيها مرارة ـ أن من بعض ما تعلمه في المدرسة الفرنسية، شيئاً من اللغة اللاتينية، حتى يستطيع أن يتكلم

لغة الـ (لنقالا)، على نحو أفضل!

هناك أيضاً ـ كما وصف ـ اكتشف أنه أفريقي وأدرك أبعاد ذلك الاكتشاف. كان باستطاعته لو أراد، نظراً لمظهره الجسماني، أن يتنكر لإرثه الزنجي. ولكن ـ ربما لأنه كاتب روائي أكثر من أي شيء آخر ـ أدرك بحدسه الفني أن ميزته الكبرى هي أنه (هجين). إنه هذا وذاك، وفي الوقت نفسه إنه لا هذا ولا ذاك!

أكمل تعليمه في جامعة السوربون في باريس، حيث كوّن صداقات ـ كما يصف ـ مع أشخاص من مختلف الألوان والأجناس، وحصّن نفسه تحصيناً تاماً «ضد أمراض العنصرية والتعصّب». وكما هو متوقع من طالب جامعي أواخر الخمسينيات، وأوائل الستينيات، خاصة في فرنسا، وخاصة في السوربون، فقد انغمس في الحركات اليسارية السائدة. كان ضد الحرب الأمريكية في فيتنام، والحرب الفرنسية في الجزائر. وكان من أنصار لومُمبا.

بعد تخرجه، عاد إلى الكنغو (برازافيل) وعمل في التعليم. ثم، كما حدث لكثيرين مثله في شتى أقطار أفريقيا، لم يستطع أن يصمد طويلاً لإغراء السياسة والسلطة. أو كما وصف: «تركت نفسي أنجرّ وراء سراب السياسة الخادع».

ظل يجري وراء سراب السياسة، إلى أن أصبح وزيراً للخارجية. وفي عام ١٩٨٠، ترك كل ذلك والتحق بمنظمة اليونسكو في باريس، حيث تزاملنا فترة من الزمن.

التقينا مراراً في تلك الأيام. كان في بداية عهده أحد مساعدي

المدير العام المسؤولين عن مختلف نشاطات المنظمة. وكان هو مسؤولاً عن النشاط الثقافي.

كان قريباً من المدير العام أحمد مختار أمبو، كما كنتُ أنا بدرجة أقل. كان واضحاً لي من أول وهلة، أن (هنري لوبيز)، من هؤلاء الإداريين ـ وهم أفضل الإداريين في نظري ـ الذين لديهم (بُعدٌ آخر). بُعد أدبي أو إنساني. أمبو نفسه كان من ذلك الطراز.

في الاجتماعات والمؤتمرات، كان يراقب أحدُنا الآخر. ينظر إليَّ من وقت إلى آخر، وأنا أيضاً، لأنه كان يعلم، أنني مثله. مشارك في تلك (اللعبة)، لكنني لست جزءاً منها. كان (مراقباً) مثلي، لأن الهدف في نهاية الأمر، هو (الفن) ـ القصيدة، أو العمل الروائي.

انتهى به الأمر، أنه صار الرجل الثاني في المنظمة بعد المدير العام، إلى أن وصل سنّ التقاعد منذ أشهر.

لكنه طوال عمله لم يتوقف عن الكتابة. وفي عام ١٩٧٢ نال الجائزة الكبرى لأدب أفريقيا السوداء على روايته (قبليّات) ـ نسبة إلى (قبيلة). وفي عام ١٩٩٣، منحته الأكاديمية الفرنسية جائزة الفرنكفونية الكبرى على مجموع أعماله.

كاتب مهم، وسوف يصير أكثر أهمية ولا شك، لأنه الآن وهو في قمة حيويته الفعلية قد «كرّس» نفسه تماماً ـ على حد قوله ـ لرسالته الأصل ـ ألا وهي الكتابة.

٣٧

هل توجد حديقة باسم شاعر عربي في أي عاصمة عربية؟ إن كانت توجد بالفعل فإنني لم أرها، وقد زرت العواصم العربية كلها دون استثناء.

هل توجد في القاهرة، مركز الإشعاع الثقافي العربي، حديقة باسم الشاعر الضخم أحمد شوقي، دعك عن بقية الشعراء؟ إن كانت موجودة فإنني لم أرها، ولا بد أن تكون مطمورة في حي قصي من أحياء المدينة الكبيرة.

قرأت في مكان ما اقتراحاً موجهاً للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهي المؤسسة التي عليها المعوّل في حشد الطاقات لعمل نهضة ثقافية. يهيب صاحب الاقتراح بالمنظمة أن توجه اهتمامها إلى مثل هذه الأشياء البسيطة، وهي

ليست بسيطة في الواقع، بل هي الأشياء التي تبقى.

يا ليت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعلى رأسها صديقنا المهذّب المتحضّر محمد الميلي، تقبل الفكرة وتنفّذ الاقتراح. ليتها تحذو حذو المؤسسة الثقافية اليابانية العملاقة، التي تهدي إلى الدول والمؤسسات، أشجار الكرز في المناسبات!

لو كانت المؤتمرات والدراسات والاستراتيجيات تجدي نفعاً، لأثمرت الجهود المضنية التي بذلها المدير العام السابق للمنظمة الأستاذ الجليل الدكتور محيي الدين صابر. بذل طاقة هائلة وإخلاصاً وحماسة تفتّت الصخر. ظل مسافراً يطوّف بالعالم العربي من أقصاه إلى أقصاه، يستنهض الهمم يحاول تفجير نهضة ثقافية عربية كبرى. وكان حرياً بتلك النهضة أن تنطلق.

إنما، لعل هذا الزمان، أو بالأحرى هذا الزمان العربي، ليس زمان نهضات كبرى. لعل التركيز على الأشياء البسيطة ـ الآن ـ أنفع وأجدى. ربما الأشياء الصغيرة تتجمع وتكون شيئاً كبيراً مدهشاً لم يكن في الحسبان.

بلى، إنني أضم صوتي إلى أصوات كل الذين يطلبون من المنظمة العربية أن تنصرف عن الأفكار الكبيرة وتركّز على الأشياء الصغيرة. وهي على أي حال لا تملك المال الذي يلزم لقيام المشاريع الضخمة. الدول العربية قلّصت دعمها، ولولا الحياء لأغلقتها.

نعم، عليها أن تكف بتاتاً عن عقد المؤتمرات والندوات وعمل الدراسات والاستراتيجيات، وتنفق المال القليل الذي يمنح لها، في

عمل ما يمكن عمله. تعيد طبع كتاب هنا. تكرّم كاتباً أو شاعراً هناك. تقيم معرضاً فنياً. حفلاً موسيقياً. وأيضاً تتعاون مع الحكومة في إنشاء الحدائق في العواصم العربية تحمل أسماء الكتّاب والشعراء والفنانين.

إذا صدق ظني، فإن الحكومات سوف تستجيب لمشروع كهذا. لن يكلّفها كثيراً، وهو شيء محسوس ماثل للعيان بخلاف الدراسات والمؤتمرات. أضف إلى ذلك أنه يتمشى مع الدعوة إلى تحسين البيئة وتزيين المدن. ولعل الأثرياء من الخيّرين لا يقفون مكتوفي الأيدي.

ذكّرني بكل ذلك، وقوفي في أصيلة هذا الصيف، في الحديقة الجميلة التي تحمل اسم الشاعر الكنغولي (شكايا أوتامسي). وسط البلدة عند القلعة قريباً من المحيط.

النخل والأشجار التي زُرعت منذ نحو عشر سنوات، قد كبرت وفاءت واتّسعت ظلالها. العشب مخضر شديد الاخضرار. الزهور في أحواضها بمختلف ألوانها وعطورها. في جنبات الحديقة مقاعد حجرية يجلس عليها أهل أصيلة وروادها يطل عليهم النّصب الرخامي الذي أقيم تخليداً لذكرى (شكايا)، الذي أحبّ البلدة وتغنّى بحبها. أليس ذلك شيئاً جميلاً؟

وقفنا جميعاً في تلك الحديقة قُبيل الغروب، في احتفال بسيط لإعلان اسم الفائز بجائزة شكايا أوتامسي للشعر الأفريقي.

تحدّث (هنري لوبيز) رئيس لجنة التحكيم معلناً اسم الفائز. وتلاه محمد بن عيسى بوصفه الأمين العام لمؤسسة منتدى أصيلة، فذكّر

الجمهور الكبير الذي تجمع لحضور الاحتفال، بالشاعر النبيل الذي سُميّت الجائزة باسمه، صديقه وصديقنا (شكايا أوتامسي). ثم نوّه بالفائز وذكر الأسباب التي جعلت اللجنة تمنحه الجائزة. واختُتم الاحتفال بكلمة من الفائز. اسمه (جان باتيست تاتي لوتار) من جمهورية الكنغو ـ برازافيل. وهو ـ قد يبدو ذلك عجيباً ـ وزير الطاقة في الحكومة.

قضى معظم عمره في التعليم. عمل مديراً للمدرسة العليا للآداب ومديراً لمعهد التعليم العالي وأستاذاً للآداب في جامعة (برازافيل). كذلك كان وزيراً للتعليم العالي ووزيراً للثقافة.

يكتب باللغة الفرنسية، والشعر هو عماد إنتاجه الأدبي، ولكنه يكتب أيضاً القصة القصيرة والرواية والنقد.

نال عدة جوائز كبيرة، منها جائزة رابطة كتّاب اللغة الفرنسية، والجائزة الكبرى للذين يساهمون في انتشار اللغة الفرنسية.

من حسن الحظ أن المؤتمر خلا تماماً من التوتر والاتهامات المتبادلة التي قد تحدث في مثل تلك اللقاءات. القضايا مثار الخلاف بين الأفارقة (جنوب الصحراء) والأفارقة العرب، لم تنجم في ذلك اللقاء في أصيلة.

وودتُ لو أن بعض إخواننا من جنوب السودان حضروا المؤتمر، إذاً لوجدوا أنفسهم في إطار أفريقي واسع، وربما كانت الأمور تبدو لهم على وجه مختلف.

قضية اللغة مثلاً. المتعلّمون الجنوبيون يقاومون انتشار اللغة العربية في جنوب السودان، ويعتبرونها لغة أجنبية دخيلة على أفريقيا، وأداة من أدوات القهر والهيمنة. يقولون ذلك بينما لغة التخاطب بينهم هي اللغة الإنجليزية.

وربما يشفع لهم أن حُكّام السودان الآن، من بعض فلسفاتهم، أن الجنوب إذا صار ناطقاً باللغة العربية ـ ويا حبّذا مسلماً أيضاً ـ فسوف ينتهي الصراع مع الشمال، وتحل قضية الجنوب إلى الأبد.

في الماضي، انتشرت اللغة العربية والإسلام بدرجة أقل، في ظروف السلم وليس الحرب. حدث ذلك دون أي جهد من الدولة، بل بواسطة التجار الشماليين. كانوا يأخذون من الجنوبيين لغاتهم المحلية، ويعطونهم اللغة العربية، والإسلام أحياناً، في المقابل.

تمَّ ذلك بالتراضي في عملية تواصل إنساني طبيعية، كل يأخذ من الآخر على هواه. وقد أخذ الجنوبيون من الشماليين، بالإضافة إلى لغتهم، بعض أساليب عيشهم في الطعام واللباس والسلوك.

ولم يكن التأثر من جانب واحد، فقد تأثر بعض الشماليين بأنماط الحياة في الجنوب، كما عبَّر عن ذلك الشاعر الفحل محمد المهدي المجذوب:

فليتي في الزّنوج ولي رَبابٌ
تميل به خُطايَ وتستقيمُ
أُجَمِّشُه فيجْفل وهو يشكو
كمَا يشكو من الحِمّة السَّقيمُ
وفي حِقويَّ من خرَز حزامٌ
وفي صَدْغَيّ من ودَعٍ نظيمُ
طليقٌ لا تُقيِّدني قريشٌ
بأحساب الكرام ولا تميمُ

تدريجياً أصبحت اللغة العربية هي لغة التخاطب بين قبائل الجنوب

المتعددة اللغات. لغة عامة الناس الذين لم يدخلوا المدارس ولم يتعلموا اللغة الإنجليزية.

ثم ساءت الأحوال، وفارت الأحقاد، وأحرقت الحروب المتواصلة الإنجازات كلها التي تحقّقت في أوقات السلم، وبدا للمثقفين الجنوبيين، لأسباب بعضها حق وبعضها باطل، أن اللغة العربية والإسلام إنما هما طلائع غزو استعماري جديد. وقادهم ذلك إلى رفض الثقافة العربية جملة وتفصيلاً.

ومن الأمور المحيِّرة في سياسة الحكومة الماثلة أنها، بينما هي تسعى لفرض اللغة العربية على الجنوب، وتعتبر ذلك أمراً طبيعياً، فهي في الوقت نفسه تعمل جهدها لإضعاف اللغة الإنجليزية في الشمال، بحسبان أنها لغة الاستعمار. وهي بذلك ـ كما هو واضح ـ تفقد لغة مشتركة مع الجنوبيين المتعلّمين، وتضيّع ميزة ورثها السودان عن الاستعمار البريطاني، أنه تملّك لغة عالمية الانتشار.

اللغة وسيلة ـ الإنسان هو الذي يستغلها للخير أو للشر. المشاركون في المؤتمر من أقطار أفريقيا جنوب الصحراء، كلهم دون استثناء، يكتبون ويعبّرون عن أفكارهم، إما باللغة الإنجليزية وإما باللغة الفرنسية، بل إن بعض الكتّاب العرب من المغرب والجزائر وتونس، يكتبون باللغة الفرنسية.

لم يُنكر أحدٌ عليهم ذلك. وغلَب الرأي، بعد شيء من الجدل، أنّ هاتين اللغتين ـ وهما أداتا تعبير لجمهرة الناس في القارّة ـ يمكن اعتبارهما لغتين أفريقيّتين.

إذاً كيف تكون اللغة العربية لغة دخيلة على أفريقيا؟ إنها موجودة في القارة منذ نحو عشرين قرناً على أقل تقدير، بينما اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ليس لهما في أفريقيا سوى قرنين من الزمان على أكثر تقدير.

اللغة أداة تواصل، قد تخلق تعاطفاً عاماً مع ثقافة أهلها. لكنها لا تخلق بالضرورة تبعية أو ذاتية مضادة للذات القومية. والأدلة على ذلك لا تُحصى. الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي في الجزائر، كانوا كلهم ناطقين باللغة الفرنسية، وبعضهم لم تكن له لغة غيرها.

ثم عندك ذلك الدليل الناصع والحجة البالغة، المفكّر النابغة الدكتور إدوارد سعيد. أليس هو أستاذ اللغة الإنجليزية في جامعة أمريكية؟ أليس هو يحاضر ويكتب باللغة الإنجليزية التي تكاد تكون لغته الأولى؟

هل ذلك كله أضعف من اندفاعه القومي أو هدّأ من عنفوانه العربي؟ وكم يوجد مثل إدوارد سعيد، حتى من الذين يتحدثون ويحاضرون ويكتبون باللغة العربية المحض؟

لفتت نظري كاتبة اسمها - إذا لم تخنّي الذاكرة - (إمّا أَتا أيبدو).

ولم أكن وحدي الذي انتبه إليها. كانت متوقدة الجمال، فاتنة، وصغيرة السن. في منتصف العشرين ربما. لونها مثل القهوة بالحليب، إنما عندها القهوة أكثر من الحليب.

لم أتأكد من أي بلد أفريقي هي، ولكنها تتحدث وتكتب بالفرنسية. علمت أنها فازت بجائزة كبرى في باريس على رواية لها.

كانت تزهو بجمالها وتتيه بشهرتها. تتدخل في الحوار في المؤتمر، بتهوّر و ..غنجْ.

قالت إن العالم الأفريقي المُتخيّل ـ أي العالم الذي يصنعه الروائيون والشعراء ـ لا علاقة له بالواقع، ويجب ألا تكون له علاقة بالواقع. تُسمي ذلك «الكتابة تحت الكتابة». وفي نظرها، فإن قضية (الهويّة) في الأدب، إنما هي «مصْيدة للكاتب».

ومع مرور الوقت، صارت آراؤها تزداد تطرّفاً وتدخلاتها تزداد تهوراً. تتكلم أنّى شاءت، حين يحلو لها، دون إذن من رئيس الجلسة.

كما يكتشف الممثل المحترف، اكتشفت تأثير حضورها على المشاهدين. ومثل الممثل أو المغني، صارت حماسة الجمهور تزيدها حيوية، وإعجابهم يزيدها تألقاً.

لكن بعض الكاتبات المشاركات، اغتظن من أسلوبها الاستعراضي. قالت لي إحداهن باحتقار «هذه البنت من هؤلاء الكتّاب الأفارقة الذين يقدمون للأوروربيين أدباً عجائبياً يستهويهم. وهو أدب لا قيمة له». إنما الرجال فقد كان شأنهم مختلفاً. كان واضحاً أنهم سُرّوا بتلك الكاتبة الحسناء سروراً عظيماً. أول ما تفتح فمها تشرق الوجوه وتتّسع حدق العيون، ننظر إلى وجهها البديع ونستمع إلى صوتها العذب يفيض بلغة فرنسية كأنها هديل اليمام، ونسامحها على رعونتها وضحالة أفكارها.

وكما يفعل المشاهدون في المسرح، نصفق لها، ليس لعُمق أفكارها، ولكن لجودة تمثيلها.

فرنسية تماماً ـ رغم لونها ـ في حركاتها ولفتاتها وروحها وذلك اللعب الأنثوي الذي حوله الفرنسيون إلى فن ويسمونه

Coquetterie وعند أشياخنا أنه (الغُنج) كما قال الشارع «الغُنج في الجارية، تكسُّرٌ وتدلل».

لم أسْعَ، رغم كل ما ذكرت، إلى التعرف بها، فما لي ولذلك؟ وأنا بعدُ كما وصف محمد سعيد العباسي رحمه الله:

وقد نفضتُ الهوى عنّي فما أنا في
أسار سُعْدى ولا أجفانها السُّود

وهو القائل أيضاً:
يا بنتَ عشرين والأيامُ مقبلةٌ
ماذا تريدين من موعود خمسينا؟

وها نحن قد جاوزنا الخمسين بمراحل
يا أمّ عمرو!

وقبلاً قال ابن دُريدْ:
تالله ما أبشعَ هاتا خُلّةً
أطَرباً بعد المشين والجلا؟

(الجلا) كما وصفوا، هو انحسار مقدّم الرأس، وقد يُعمّم على الصَّلَع إطلاقاً. وفي (اللّسان) في تعزيز ذلك:

قالت سُليْمى إنني لا أبغيهْ
أراه شيخاً ذرئتْ مجاليهْ

يقلي الغوانيَ والغواني تقليهْ

وقبلهما، قال أبو عبادة البحتري أعَظِمْ به من شاعر:

ظباءٌ ثناها الشيبُ وحشاً وقد تُرى
لريَع الشباب وهي جدٌّ أوانِس
صددن بصحراء الأريك وربما
وصّلْن بأحْناء الدّخول فراكس

انظر كيف جعل موضع الصّدود (صحراء)، وجعل موضع الوصال (أحناء). وهذه فيها صدى من الحنين والحنو والحنان، فلله درّه ثم لله دره.

على النقيض تماماً من تلك الحسناء، كان الكاتب والمخرج السينمائي السنغالي (سمباني عثمان). ذلك لعمري إنسان يستحق أن يُسعى إليه ويُتعرف به. شيخ أشيب، ربما في منتصف السبعين من العمر. من أئمة الفن في أفريقيا. وليس من المبالغة القول إنه صاحب الفضل الأكبر في وضع الفن السينمائي الأفريقي (جنوب الصحراء) على خارطة الفن العالمي.

شاعر وكاتب روائي وموسيقي ومخرج سينمائي. ذلك هو (سمباني عثمان). فنان شامل متنوع المواهب. يعتبر أهم مخرج سينمائي أفريقي من بلاد جنوب الصحراء، وأعماله السينمائية اكتسبت شهرة وتقديراً على نطاق واسع في العالم.

لا يبالي أن يؤكد أنه (ملتزم)، وأنه يستمد فنه من الواقع وأن له رسالة يحاول أن يبلّغها في كتاباته وفي أفلامه. وقد كانت هذه المفاهيم مثاراً للجدل في ندوة للحوار العربي الأفريقي في أصيلة. أغلب الكتّاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية خاصة، رفضوا فكرة الالتزام وأن الأدب والفن عموماً له رسالة أو أي وظيفة اجتماعية.

إنما (سمباني عثمان) كان له من حياته مبرّر للتمسك بتلك المفاهيم، لقد عاش حياة صعبة مليئة بالكفاح. وُلد في قرية من قرى شمال

السنغال في أسرة مسلمة، في أوائل العشرينيات. ويقول إنه كان يوجد بين أفراد عشيرته الكبيرة، كاثوليك ووثنيون، لذلك عاش في بيئة يسودها التسامح الديني.

حفظ القرآن في صباه، ولما بلغ الثالثة عشرة، دخل المدرسة الفرنسية، لكنه لم يمكث فيها طويلاً فقد طُرد منها لأنه صفع مدير المدرسة على مرأى من التلاميذ. ويقول عن ذلك:

«جاء شيوخ عائلتي بلحاهم البيضاء المتدلية على صدورهم وتوسّلوا للمدير أن يسامحني ويعيدني إلى المدرسة. لكنه رفض رفضاً باتاً. في ذلك الزمان قبل الحرب العالمية الثانية، لم يكن أحد من الأهالي يجرؤ أن يرفع يده في وجه رجل أبيض. كانت تلك جريمة عقابها السجن، أقصى ما فعله استجابة لتوسلات أقاربي أنه اكتفى بطردي من المدرسة».

يقول (سمباني) إن أباه لم يهتم بما حدث وقال له ضاحكاً:

«تعلُّم اللغة الفرنسية ليس هو كل شيء كونك لن تتعلّمها، هذه ليست نهاية الحياة، انظر إليَّ أنا لم أتعلم اللغة الفرنسية ولم أعمل أبداً مع رجل أبيض. لكنني حرّ طريق أصيد السمك، تعال واعمل معي في البحر».

عمل فترة صياد سمك مع أبيه. ويقول إنه تعلّم من ذلك، حب البحر، وتقدير والده الذي علّمه أشياء كثيرة دون حاجة إلى الكلام.

لم يطل عمله في صيد السمك فقد عَنَّ له أن يلحق بأهل أمه في العاصمة (دكار). كانت الحياة قاسية في المدينة الكبيرة، وكانت الحرب العالمية الثانية قد شبّت في أوروبا. عمل في كراج لإصلاح السيارات، ميكانيكياً متدرباً. يقول عن ذلك:

«في تقاليدنا أن الصبي حين يُختَن يصبح رجلاً مسؤولاً. كان لا بد أن أعمل لأكسب عيشي. عملت بهمة لا تعرف الكلل. الرجل يجب أن يعمل، أي عمل، حتى لا يضطر إلى التسول ليأكل».

وحين انتهت الحرب، سافر إلى فرنسا، السفر إلى فرنسا كان هو الحلم الذي يسيطر على الشباب في سنه. يصف (سمباني) ذلك بقوله:

«انتهت الحرب العرقيّة بين قبائل البيض. كانت الحرب مثل موجة عاتية قادمة من مكان بعيد. من مركز القرارات الخطيرة التي تؤثر على مصائرنا ولا يدَ لنا فيها... حملتني وسائر أبناء جيلي وطرحت بنا في دروب شتى.

وجدت نفسي أعمل حمّالاً في ميناء مرسيليا. ماذا كان بوسعي أن أعمل؟ لا أعرف اللغة الفرنسية ولا أحمل شهادة. ورغم ذلك أقبلت على التعلّم. أعمل في الميناء ثم أسهر في غرفتي المتواضعة لأُلِمَّ بكل ما أستطيع الإلمام به من نُتَف المعرفة.

في تلك الفترة بدأت أكتب. كان الفجر بضوئه الباهت تحت تلك السماء الباردة في ليالي الشتاء، يفاجئني وأنا مكبّ على كرّاستي..

أكتب عن بلادي الدافئة. عن أهلي الجميلين. أكتب دون نظام... دون تمييز... دون معرفة بأصول الكتابة...».

تلك الكتابات لم تلبث أن لفتت إليه الأنظار. ولا بد أن بعض الخيّرين من الفرنسيين انتبهوا إلى موهبته، إذ سرعان ما اتخذت حياته منعطفاً كان له أعظم الأثر على مستقبله. ذلك أنه التحق بمدرسة تابعة لاتحاد نقابات العمال.

وجد فيها ـ كما يصف ـ أساتذة أخذوا بيده وساعدوه على أن يجد طريقه «في متاهات الثقافة الأوروبية» وجد أيضاً المكتبات العامرة بالكتب، واكتشف السينما والمسرح والأوبرا.

يقول (سمباني):
«أثناء تقلبات حياتي كلها، كنت أحسّ بتململ داخلي.. تلك الرغبة الملحة في التعبير عن النفس. التجارب والأفكار تتفاعل وتختلط.. أنا الأفريقي المستعمَر المُستلَب.... المواطن الوطنيّ الإنسان.. شيء ما يتحرك في قاع وجداني مثل الرغبة في الغناء تتجلجل في صدر العندليب...».

بصرف النظر عن أية مميزات أخرى تجمع بينهم، وسواء وُجد (أدب أفريقي) له سمات تميّزه عن بقية الآداب، فقد خطر لي أن ثمة صفة واضحة تشمل الكتّاب والكاتبات المجتمعين في أصيلة. ذلك أن أغلبهم يعيشون في الاغتراب أو المنفى. ما معنى ذلك؟ وهل توجد قارة أخرى غير أفريقيا معظم كتّابها يعيشون خارج أوطانهم؟

سوف أعرض بعض الأمثلة، لنأخذ الكاتب المغربي فؤاد العروي. إنه شاب لافت للنظر، لنصاعة بيانه (باللغة الفرنسية)، ولعمق إدراكه لمشكلة التعبير وعذاب الاغتراب.

ولد في وُجده عام ١٩٥٨، وأتمّ مراحل دراسته كلّها في مدارس فرنسية. حصل على دبلوم في الهندسة من باريس، وعاد إلى المغرب

فعمل مهندساً ولكنه لم يمكث طويلاً. عاد إلى باريس لمواصلة الدراسة، وتنقل بينها وبين (أمستردام) في هولنده و(يورك) في بريطانيا. تحول إلى دراسة الاقتصاد وحصل على دكتوراه في الاقتصاد من جامعة (أمستردام). وهو يقيم الآن في هولنده ويعمل محاضراً في الاقتصاد في جامعة (أمستردام).

ظل أثناء ذلك يكتب الشعر والقصة والرواية (باللغة الفرنسية). وفي عام ١٩٩٦، نشرت له دار (جُويّار) في باريس رواية قال إنه أرسلها لهم بالبريد دون سابق معرفة فلم يتردّدوا في نشرها.

يكتب ـ كما وصف ـ ليعبر عن سخطه إزاء الأوضاع الخاطئة ويكشف «الغباء والقسوة والتعصب في جميع صورها»، بالإضافة إلى أنه يريد أن يمد جسور التواصل «مع آلاف الأصدقاء في العالم الذين لا أعرفهم».

رغم أنه لا يُنكر أنه مغربيّ وأفريقي، لكنه يميل إلى الموقف الذي يعتبر الكاتب «عالماً قائماً بذاته». وقد برر أنه يكتب باللغة الفرنسية بقوله «جيمس جويس لم يكتب باللغة الإنجليزية. كان يكتب بلغته الخاصة، اللغة (الجويسية). الكاتب حين يموت، تموت معه لغته الخاصة وهي أيضاً «لغة أم». الكاتب الجزائري الأصل، عزّوز بكاك، أيضاً يكتب باللغة الفرنسية، ولكن موقفه يختلف عن موقف العروي، ويطابق موقف الكاتب السنغالي (سمباني عثمان). وُلد في فرنسا لأبوين مهاجرين أمّيين، لا يقرآن ولا يكتبان. عاش في ظروف عسيرة، حال العمال العرب المهاجرين. وقد حثّه أبواه على الدراسة للخروج من (مأزق الفقر). يقول:

«كنت أضغط على نفسي. أحاول أن أنسى (مدينة الأكواخ القذرة) التي نسكنها، نحن وأمثالنا من المهاجرين. أتحمل البرد والبؤس والذل، أنصرف بكل طاقتي إلى الدراسة».

درس حتى أكمل الجامعة واختار أن يكون كاتباً. وحين أخبر والدته، قالت له بحسرة (مكتوب!).

يعيش في فرنسا ويكتب باللغة الفرنسية لكنه مثل (سمباني عثمان) يكتب عن العالم المفقود على الضفة الأخرى للمتوسط، العالم الذي هاجر منه أبواه، بحثاً عن حياة أفضل. يؤمن بـ (الالتزام) وأن الكاتب وظيفة اجتماعية. وهو بالإضافة إلى الكتابة، يعمل في ميدان تعليم الكبار بين المهاجرين إلى فرنسا من بلدان المغرب العربي.

أما الكاتبة والشاعرة (مرياما أندوي) فهي سنغالية ولكنها تعيش في ساحل العاج. قالت إنها تعلّمت في مدرسة كاثوليكية رغم أنها مسلمة. ثم التحقت بجامعة السوربون في باريس حيث حصلت على الدكتوراه في الأدب المقارن.

تقلّبت بها الأحوال في باريس، عملت بائعة في محل تجاري، ومعلّمة، وممثلة، وعارضة أزياء تقول: «رغم أنني طويلة جداً ـ طولي متر وسبعة وسبعون سنتمتراً ـ فإنني إلى الآن لم أحصل على أي جائزة!».

هذا ولعلّ الكاتب (أحمد كوروما) يمثل أكثر من غيره حالة القلق

وعدم الاستقرار التي يعاني منها أغلب الكتّاب في أفريقيا. وُلد في ساحل العاج في عهد الاستعمار الفرنسي وأكمل تعليمه الابتدائي والثانوي في ساحل العاج وفي مالي. ثم اضطرته السلطات الفرنسية إلى السفر للقتال في الهند الصينية في صفوف القوات السنغالية المجنّدين تجنيداً إجبارياً.

حين عاد من الهند الصينية، واصل دراسته، فالتحق بجامعة (ليون) في فرنسا، حيث حصل على الدبلوم العالي في شؤون التأمين، عاد إلى وطنه ساحل العاج فعمل في التأمين، ولكنه كان في الوقت نفسه يكتب قصصاً ومسرحيات يسخر فيها من الحكومة. لذلك أُدخل السجن ثم نُفي إلى الجزائر. هناك كتب أول رواية له وهي (شموس الاستقلال). قال إنه ألّفها ليلفت النظر إلى أوضاع أصدقائه في ساحل العاج، الذين كانوا يعانون من القهر والسجن والتعذيب. وقد نالت الرواية شهرة واسعة في فرنسا وحصلت على جائزة الأكاديمية الفرنسية.

عاد إلى ساحل العاج عام ١٩٧٤، لكنه لم يلبث أن نُفي مرة أخرى، بسبب مسرحية ينتقد فيها الأوضاع السياسية. وهو نفيٌ استمر عشرين عاماً. ظل متنقلاً في تلك الفترة بين مالي وتوغو وفرنسا والكمرون. وفي عام ١٩٩٤ عاد إلى وطنه ساحل العاج على أمل أن يستقر به المقام.

أما الكاتب (أمانيوْل دُنْقالا)، فقد وُلد في أفريقيا الاستوائية الفرنسية من أب كنغولي مجنّد في الجيش الفرنسي. تعلّم في المدارس الفرنسية. نشر ثلاث روايات نالت شهرة واسعة وترجمت إلى عدد من اللغات، إحداها «الجاز وخمر النخيل» ذائعة الصيت وقد حازت

على الجائزة الكبرى لأدب أفريقيا السوداء وجائزة مؤسسة فرنسا. يعيش في أمريكا، ويقول:

«ماذا تظنّون أنني أعمل لأكسب عيشي؟ لا تضحكوا، فأنا في الواقع أعلّم أولاد الأمريكان الرياضة البدنيّة!».

الطيّب صَالح

مختارات

٧

وطني السودان

RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٧

وطني السودان

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

SUDAN, MY HOME

By

El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب

محمود صالح عثمان صالح

First Published in May 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21203-6

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: أيار/مايو ٢٠٠٥

الإهداء

إلى إخواني وأصدقائي: محمود صالح عثمان صالح، حسن أبشر الطيب، محمد الحسن أحمد، حسن تاج السر ـ الذين بلطفهم وحسن معشرهم يجعلون الحياة أكثر احتمالاً. وإلى محمد إبراهيم الشوش والفاتح إبراهيم أحمد رفقاء الأيام الجميلة من واشنطن.

١

الأربعاء، ١٩٨٨/٩/٢١.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة ٤,٥٠ مساء.

خرجنا من دار عثمان محمد الحسن متأخرين لأنه وقف طويلاً في صف البنزين. هذه الطوابير أصبحت سمة من سمات الخرطوم منذ عهد بعيد. طابور الخبز، تقف فيه منذ منتصف الليل حتى طلوع الشمس، نساء حرائر، ما كنّ يقفن مثل هذا الموقف من قبل، من اللائي قال فيهن الشاعر «ما خرجن لريبة كظباء مكة صيدهُن حرامُ». طابور السكر، الرجال والنساء والكهول والشيوخ والصبيان. طابور الأحذية التي جاءت من مصر، والثياب الجاهزة التي وصلت من كوريا والصين. طابور حلويات العيد. طوابير عند أبواب السفارات، للسفر، للخروج، للهروب، للرحيل. ناس من الشمال يضربون في

أرض الله شرقاً وشمالاً، وناس من الجنوب، مثل جيوش النمل، تسير، تسير، من جوبا إلى ملكال. ومن ملَكال، إلى شَنْدي إلى أتْبرا، إلى مروى، إلى الدبَّة، إلى حلفا على حدود مصر. أمواج في أثر أمواج من أقوام زلزلتهم الحروب والمجاعات والفيضانات، والحكام الأغبياء والوعود الكاذبة. ما كانوا من قبل يأبهون للطعام والشراب، فأصبح همُّهم الطعام والشراب. «فلا تكن يا عبد الله كالسائمة التي وجدت مرعى خصباً، فأصبح همها في السِّمَن وداؤها لو تعلم في السمن». ما كانوا يأبهون للمظهر، فأصبحوا يتنابذون بالألقاب، ويتطاولون في البنيان، ويتفاخرون بسيارات المرسيدس، وترى المرأة وهي تحمل على جسمها من الثياب والحلي ما كان يكفي لإعاشة أسرة كاملة، حولاً كاملاً، في الزمان القديم. زاد الكلام عن الإسلام وكثرت المساجد، وضعف الإيمان. زادت المدارس، وعمَّ الجهل. زادت المستشفيات وتفشت الأمراض. لا عدل ولا حرية ولا ديموقراطية إلّا في بيانات الحكومة ومحطات الإذاعة.

الحكّام السابقون واللاحقون والسابقون اللاحقون. وجعفر محمد النميري في منفاه يحلم بالعودة. تعود لأي شيء يا رعاك الله؟ أما حكمت قرابة عشرين عاماً، فكنت مثل طفل شرس أطلق سراحه في متحف للخزف النادر، فكسرت وهشمت؟ أما وجدت ثوباً ناعماً فريداً غَزَلَتْه بتؤدة وحكمة، أصابع رجال عباد زهاد، ونساء صابرات قانتات، فمزقته وأنت تظن أنك تحسن صنعاً؟

* * *

المدينة مثل ثوب قديم مبتل، لم يغسل منذ زمن طويل. دار عثمان محمد الحسن في «المقرن» أغرقتها المياه، ومحت بعض رسائل جمال محمد أحمد التي يعمل عثمان على جمعها وإخراجها في

كتاب. إن الله سبحانه وتعالى قد رأف بأستاذنا الجليل أنه مضى ولم يشهد كل هذا الخراب. الشوارع مثل أطلال خولة، وأنصاب «ثورة» أيار/ مايو التي هشّموها أيام الانتفاضة لم يستطيعوا إزالتها بعد. كتل قبيحة من الإسمنت والحديد، لا تقول شيئاً ولا تعني شيئاً، إلّا أنهم أعطوها صفات طنّانة مثل «تحالف قوى الشعب العاملة» أو «الثورة فكر وعمل وإنتاج». ولا فكر ولا عمل ولا إنتاج. وقد أصبحت إزالتها مشكلة ككل بقايا ذلك العهد الميمون. وتقول، ما لهم وللتماثيل؟ في مدينة أرضها صلصال ونيلها زلال، أما كان يكفي قليل من النبات وقليل من الأزهار؟ لكنهم جاءوا بخبراء تخطيط المدن من إيطاليا والسويد، فدفع من دفع، وأخذ من أخذ، ورحل الخبراء وازدادت المدينة قبحاً.

إنني أدري لماذا أنا حزين الآن في هذا المكان. لقد وقفت على قبر إنسان عزيز، أعزّ إنسان عندي، وانقطع أهم خيط كان يربطني إلى هذه الديار. الحزن يعلو ويخبو، ويمتد عبر زمن طويل. ويأتي على أشكال عدة، ويهجم عليك من حيث لا تحتسب. لقد صبرت حين كان يتحتَّم عليَّ أن أبكي، وبكيت حين كان يجمل بي الصبر. لذلك يدهمني الحزن الآن، في هذه الصالة الرثة، في هذا المطار القميء، في هذه المدينة المهملة، في هذا الوطن الحبيب اللعين. وتحول الحزن الخاص إلى حزن عام، بسبب هذه اللوحة أمامي في صالة المغادرة. منذ كم ألف عام وضعت هذه اللوحة. في هذا المكان؟ ومن الذي وضعها؟ وماذا كان يدور في رأسه؟ لوحة بهتت ألوانها واختلطت، كُتب عليها باللغة الفرنسية **Bon Voyage** وباللغة العربية «رحلة سعيدة».

٢

الأربعاء ١٩٨٨/٩/٢١.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة ٤,٥٠ مساء

إنما هذان البيتان، حتماً، لأبي تمّام:

سودُ الوجوهِ كأَنَما نَسَجتْ لهم
أيدي السَّمومِ مَدَارِعاً من قَار
لا يبْرَحُونَ، ومن رآهم خالَهم
أبداً على سفر من الأسفار

وكأنما عنى بهما هؤلاء القوم، الذين يُسمَّوْن مجازاً، السودانيين لأن زعماءهم عشية الاستقلال، لم يستقروا على رأي، ويا ليتهم عادوا إلى الاسم القديم «سِنَّار». كان السِنّاريون معروفين في العالم

الإسلامي شرقاً وغرباً، لهم وقف في المدينة المنورة والأزهر الشريف، وهداياهم تذهب كل عام في محمل عظيم إلى مكة المكرمة. وربما يكون من أسباب أن هذا البلد لا يستقر على حال، أن اسمه لا يعني لأهله شيئاً. فما السودان؟ مصر مصر، واليمن يمن، والعراق عراق، ولبنان لبنان، ولكن ما السودان؟ لقد أطلق المستعمرون هذا الاسم على كل تلك الرقعة الممتدة من حدود الحبشة شرقاً إلى غاية بلاد السنغال غرباً، فوجد الناس لبلادهم أسماء تعني لأهله شيئاً، وبقينا نحن وحدنا نحمل هذه التركة الاستعمارية الجوفاء. لذلك يستند «جون قَرَنْقْ» إلى الرمز الاستعماري في دعواه الباطلة، فيقول، هذه بلاد السُّود، بلاد الزِّنْجْ، وأنتم أهل الشمال عربٌ دخلاء. ويعتبر الأرض مغتصبة، يريد أن يحررها «شبراً شبراً» كما يزعم. وإلّا فمن يريد أن يحرر السودان؟ وما معنى «جيش تحرير السودان»؟ وإذا سار الحال، على هذا المنوال، فما الذي يحول بينه وبين تحقيق هذا الحلم؟ إنه الآن، في هذه اللحظة، يستطيع أن يُسقِطْ مئات من المظليين من طائرات الهليكوبتر، التي تمده بها هذه الدولة أو تلك، ويحرك مئات الآلاف من أعوانه الذين يحيطون بالخرطوم كحلقة الخاتم. حينئذ سوف يجد الصادق المهدي وحسن الترابي ومنصور خالد وبقية هؤلاء السادة النجباء، أن النسيج الذي نسجوه، أوهى من بيت العنكبوت. سوف تراق دماء كثيرة، حينئذٍ سوف نسمع نشيداً جديداً، ونرى وجوهاً جديدة على شاشات التلفزيون. سوف تُغلق أبواب وتُفتح أبواب، وتعيش أحلام وتموت أحلام. وسوف يكون السودان «سوداناً» بحق وحقيق حينئذٍ.

آه. صدقت يا أبا تمام. ولكن هذا السواد مثل غيم كثيف في ليلة قَمْراء، فوراء الظلام الذي تراه ضوء كثير. وقد أعطت تصاريف الأيام ونوائب الدهر، بعداً آخر للبيْتين، كما يقول نقاد الشعر. لم

يكن هؤلاء القوم «يبْرحون» هذه الديار المترامية الأطراف. كانوا قانعين بما قسم الله لهم فيها، وهو كثير. يزرعون النخل في ديار «المحَسْ» و«السُكُوتْ» ويزرعون الحنطة والشعير في ديار البديريّة والشايْقِيَّة والرِّكابيِّينْ. يزرعون الموز في كَسلا، والبرتقال والجوافة في شنْدي، والذرة في أرض البُطانة، والقطن في أرض الجزيرة، ويجنون الصمغ العربيّ من شجر الهَشّابْ في كردفان. يصيدون البقر الوحشيّ في جبل مَرّه والظباء عند تخوم بحر الغزال. يأكلون سمك النيل الأبيض وسمك البحر الأحمر. يُخرجون الذهب من مكامنه في «حلايبْ» وفي «جبال شَنْقُولْ» كانوا يتناشدون شعر «الدُّوبيتْ» على الآبار، ويرقصون «الدّليبْ» في ضوء الأقمار، ويرتّلون القرآن في جوف الأسحار، ويستخفّهم الطرب في حلقات مديح المصطفى المختار. كانت البلاد تضج في العشيّات بثُغاء الشياه، ورُغاء الابل، وصهيل الخيل، وكان الرجل يمشي من «أبو حمد» إلى «أبو دليق»، فلا يخشى إلّا الله والذئب على غنمه. لكن انظر إليهم الآن يا أبا تمام، في هذه الصالة الرثّة، في هذا المطار القميء، في هذه المدينة المهملة، في هذا الوطن الحبيب اللعين.

هذه المرأة الوسيمة من عرب البَطّاحين دون شك، وهذه الشلوخ الأفقية على الخدود الحنطية، لا بد أنها «شايقية» من نوري أو تنْقَاسي، وهذا الرجل الأخضر، سواده زنجي وسمْته عربي. وهذه المرأة، لونها مثل الذهب المُتْرَب، بجاويةٌ لا بد، من القوم الذين امتطى المتنبي ناقة من نوقهم حين خرج هارباً من مصر:

ألا كــلُّ مــاشــيــةِ الخيْــزَلَــى
فــدى كــلِّ مــاشــيــة الــهــيْــذَبَــى

وكـــلّ نَـــجَـــاةٍ بِـــجَـــاويـــةٍ
خَـــنُـــوفٍ ومـــا بـــيَ حُـــسْـــنُ المشـــى

انظر إليهم يا أبا تمام، ينتظرون الطائرات تحملهم إلى بلدان الخليج. الخروج. الهروب. الرحيل، إنهم ينتظرون، وأنا مثلهم أنتظر، ولكن الحزن الذي يلسع قلبي، وكأنما ينبع من هذه اللوحة الباهتة أمامي، يخصّني وحدي، فأنا بعدُ كاتب، وهذه الأحزان هي زادي وعُدَّتي، كما يتزود الأثرياء بحساباتهم في البنوك. لقد اختلط الحابل بالنابل، وأصبح النازح كالمقيم، والمقيم كالمسافر.

هل أنت قلت حقاً يا أبا تمام:

وحـــبَّـــب أوطـــان الـــرجـــال إلـــيـــهـــمـــو
مـــآربُ قـــضـــاهـــا الـــشـــبـــابُ هـــنـــالـــك

٣

الأربعاء ٢١/٩/١٩٨٨.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة: ٤,٥٠ مساء.

نعم. لا بد أن يكون البيت لأبي تمام، فما لابن الرومي وذلك؟ إنه شاعر كبير لا شك، أحسن القول في وصف المغنيات ومجالس الطرب، وولّد معاني عجيبة عن الآلات والأصوات. وهل مثل شِعر العرب في الحنين إلى الأوطان؟ وقد قال أخو بني حَنيفَة:

ألا هل إلى شمّ الخُزامَى ونظرةٍ
إلى قَرْقَرَى قبل الممات سبيلُ
فأشربَ من ماء الحُجَيلاءِ شربةً
يداوَى بها قبل الممات عليلُ

فيا أَثَلاتِ القاع قلبي موكَّلٌ
بكنّ وجدوى خيرِكُنَّ قليلُ
ويا أَثَلاتِ القاع قد مَلّ صحبتي
مسيري فهل في ظلكُنَّ مقيلُ
أريد انحداراً نحوها فيردُّني
ويمنعني دينٌ عليَّ ثقيلُ
أحدِّث نفسي عنكِ إذ لستُ راجعاً
إليكِ، فحزني في الفؤاد دخيلُ

وقد رووا أن عبد الملك بن مروان، وقد كان ملكاً عالماً بالشعر محباً له، بكى لما سمع هذه الأبيات، فأرسل إلى الشاعر مالاً يقضي دينه ويرده إلى أهله، فلما جاء الرسول وجد الشاعر قد مات.

وأنت أيها المسكين، تجلس كأنما منذ قرون وكأنك سوف تظل جالساً إلى الأبد، في هذا المكان الآهل المهجور، في هذه المدينة الجميلة المهملة، في هذا الوطن الغني الفقير. ينتظرون طائرات الخليج. هذان عريسان جديدان يجلسان خجلين في بركة من العطر والحنّاء، والعروس في وجهها ذلك الخفر القديم. وهذه الطفلة ألبسوها «فستاناً» أبيض مزركش الأطراف، لا يليق بها ولا يليق بهذا المكان.

وهذا رجل مريض مسافر للعلاج، ربما في الرياض أو في الدوحة. وهذه المرأة المسنّة، بين السبعين والثمانين، وجهها جميل يذكرك بوجوه أحببتها في الزمان القديم، وربما من نواحي رُفَاعَة أو الكاملين، ساكنة وادعة مطمئنة. ما الذي أخرجها من حِمَاها وأجْلاها عن مرابعها؟ وهذا الشاب سمته سمت ضابط في الجيش، ربما أرسلوه في بعثات عسكرية إلى أميركا وبريطانيا وموسكو. ثم أخرجوه في

حركة من حركات التطهير الكثيرة. قد ينتهي به الأمر أن يعمل حارساً في محل تجاري في دبي. وهذا الشاب واضح أنه من هذه الطبقة الجديدة التي وُلدت وربَت مع «ثورة» أيار/ مايو. الله أعلم يُهرِّب ماذا، أو يبيع ويشتري ماذا. يريد أن يغتني بأي وسيلة. ثم يفعل ماذا؟ وهذا شاب يافع، تخرّج لتوه من جامعة الخرطوم. درس الزراعة. يكون محظوظاً لو وجد عملاً كتابياً في شركة مقاولات في عَجْمان. إنهم ينتظرون وأنت مثلهم تنتظر. وتسأل نفسك، ما الفرق بين هذا الحشد في هذا المطار، وبين جمع من أهل الشام؟ في أولئك حركة وتوتر وتدَافُع. وطّنوا أنفسهم على الاغتراب منذ زمن، وهم أهل حياة ومطلب عيش، ينظرون إلى أمام، إلى حيث يقصدون. أما هؤلاء ففي حركتهم بطء وتراخٍ، ينظرون إلى الخلف، تشدهم إلى مواطنهم، من حيث خرجوا، قيود لا فكاك منها. تحسبهم كسالى، وما هم بكسالى. لكنهم لا يعملون للعمل في حد ذاته. يعملون حين تستثار هممهم، نخوةً أو حَمِيَّةً أو غيرة.

لذلك هَبُّوا في تشرين الأول/أكتوبر وهبّوا في نيسان/أبريل يعملون محبَّة، ويعملون جلْباً للمدح ودفْعاً للذَمّ، ولا يعملون لمجرد الطعام والشراب. حينئذٍ يعمل الواحد منهم عمل عشرة رجال، وقد يعمل بلا مقابل. فيهم، حين يكونون في أحسن حالاتهم، كبرياء وعذوبة وزهد. وتسأل نفسك وأنت تجلس في هذا المكان الذي تسلَّخت حيطانه وتشقَّقت جدرانه وبهُتَتْ ألوانه، تنظر إلى لوحة تقول لك بالفرنسية «Bon Voyage» وبالعربية «رحلة سعيدة» هل بقيت من ذلك بقيّة؟ أم أن صروف الزمان ونوائب الدهر، وغباء الحكّام، قد قضت عليه إلى غير رجعة، كما قضى النيل على العالم الذي حملْتَه في خيالك كلّ تلك الأعوام، وأخذتَ تسافر وتعود، تسافر وتعود، تبحث عنه، مثل جندي في جيش منهزم؟

٤

الأربعاء ١٩٨٨/٩/٢١.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة ٤,٥٠ مساء.

تجلس في هذا المطار الذي لم تعد تنزل فيه الطائرات إلّا لماماً، وإذا نزلت فلا تقوم إلّا بشق الأنفس، في هذه الصالة التي تسلَّخت حيطانها، وتشققت جدرانها، تنظر إلى الصور التي أخذها مصورو وزارة الإعلام. منذ كم ألف عام أُخذت هذه الصور، فكأنك تنظر إليها من وراء سحاب أو من تحت ماء عكر؟ مجموعة من رجال «الهدندوه» بشعورهم الكثّة وسراويلهم الطويلة وصديريّاتهم القصيرة يرقصون بالسيوف. نساء «الرشايدة» الجميلات في عيونهن بقية من بريق رغم تقادم العهد بالصورة. قافلة من «البقارة» ربما في نواحي «بابَنُوسه». رجل ضرير تلعب أصابعه بأوتار الطنبور. ذلكم النَّعام

آدم، العازف الموهوب. إنه من ديار قريبة من ديارك، ويغني ألحاناً قريبة إلى قلبك. رجال من جبال النوبة، على رؤوسهم قرون الثيران وفي أذرعهم الخرز، وفي أرجلهم الخشاخيش، يرقصون رقصة «الكمْبلا». نساء «الدِّنكا» الفارعات، صدورهن نصف عارية ونصف مغطّاة. غابة نخل في «نوري» هاماتها تنوء بأحمال السَّبيط، وساقيةٌ الله أعلم أين. لقد انقرضت السَّواقي وصمت غناؤها للنيل منذ سنين. وحيد القرن وفرس النهر، ووعل في «الدِّندر» وقطيع أفيال عند خط الاستواء. جبل البَرْكل وجبل مَرَّة وجبل تُوريت.

آه، أي وطن رائع يمكن أن يكون هذا الوطن، لو صدق العزم وطابت النفوس وقل الكلام وزاد العمل!

إعلان يحثك باللغة الإنجليزية واللغة العربية أن تجيء إلى «أرْكَويتْ». ماذا في أركويت؟ وكيف تصل إلى أركويت؟

الحبال التي ربطت هذه البلاد بالعالم شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، تقطعت حبلاً بعد حبل. وقفت سفن النيل وقطارات السكة الحديد والطائرات إلّا القليل، وآل هذا المطار كأنه محطة خلوية في صعيد مهجور. لم تبق إلّا قوافل الابل كما كان منذ قرون، وحافلات هالكة تشبُر طرقاً غير معبدة، تنوء وتقوم.

إنه أمر عسير.

الطفلة التي زيَّنوها مثل وصيفة في عرس، جاءت وقبَّلتك بغتة، فانتبهتَ فرحاً، ونظرتَ إليها توزع قبلاتها كيف تشاء. شاب استعارك قلماً فأعرته، ورجل طلب «فكة» عشرة جنيهات فلم تجد

له الفكة. رجل استكتبك رسالة فكتبتها له. منذ كم وأنت تكتب الرسائل لقوم لا يقرأون ولا يكتبون؟ وسألك واحد واثنان وثلاثة متى تقوم الطائرة؟ فقلت لا أدري. يأخذون متاعك ويختفون. لا أحد يُسأل ولا صحفٌ تُقرأ ولا ماء يشرب. وسوق الأشياء المعفاة من الضرائب، مثل قطعة من الأثاث الحديث في دار إنسان فقير. عطور «شانيل» وسجائر «مارلبورو» وربطات عنق «إيف سان لوران».

لماذا لا يبدأون بالأشياء الصغيرة لإنجاز الأحلام الكبيرة؟! كل واحد من هؤلاء الناس الأذكياء الأغبياء عنده «مشروع شامل» لإقامة مجتمع «فاضل» يدوم إلى الأبد. وما أدراه ما الأبد؟ ويقتلون أنفسهم ويقتل بعضهم بعضاً لتطْغَى أحلام على أحلام.

المرأة المسنّة الجميلةُ الوجه من نواحي رُفاعة أو الكاملين ابتسمت لك، كأنها تعرفك. نعم، إنها تعرفك، فقد أحببتها، إذاً أنت طفل يحبو، وإذا أنت صبي دون البلوغ. لهم الويل، كيف أجلوها عن حِمَاها، وقد آن لها أن تستريح؟

إنهم ينتظرون، وأنت مثلهم تنتظر، وحالك كما قال مجنون بني عامر:

كأنَّ فؤادي في مخالب طائر
إذا ذُكِرَتْ ليلى يشُدُّ به قبضا
كأَن فِجاجَ الأرض حلقةُ خاتَم
عليَّ فما تزداد طولاً ولا عرضا

تجلس، وفي خيالك ذلك العطر الذي لن ينضب ما دمت حياً. وهو

حب أودى قبلك بالتجاني يوسف بشير ومحمد المهدي المجذوب. ومثلك كثيرون. منهم صلاح أحمد إبراهيم في باريس، وسيد أحمد الحَرْدَلُّو في صنعاء، والفيتوري في الرباط، وإبراهيم الصلحي في الدوحة، وعبد الواحد يوسف في عَمَّان، وحسن أبشرْ الطيب في الكويت.

أن تنتمي إلى هذا الوطن البعيد المنال، ذلك أمر عسير. أن تكون سمعت زغاريد النساء في الأعراس، ورأيت انعكاسات الضوء على وجه النيل وقت الشروق ووقت الغروب. أن تتذكر مذاق تمر «القُنْدِيلْ» أول الموسم، ولبن البقر الغَرِيضْ، ورغوتُه معقودة عليه في «الحلاّبات»، ذلك أمر عسير.

وهؤلاء الزعماء النجباء، الأذكياء، الأغبياء، ألا يحبّون الوطن كما تحبه أنت؟
بلى.

إذاً لماذا يحبونه وكأنهم يكرهونه، ويسعون إلى إعماره وكأنهم مسخَّرون لخرابه؟

٥

الأربعاء، ١٩٨٨/٩/٢١.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين
الساعة ٤,٥٠ مساء.

تنتظر، وفي خيالك ذلك النسيم الذي يلاحقك من وادي النيل، يحمل عطراً لن ينضب ما دمت حيّاً. والنيل منك على مرمى حجر. ألا تعلم؟ لكن كأنه في عالم آخر، أو كأنه ليس موجوداً البتة. «النيل بعيد». كما قال الشاعر. لا توجد ساعة في هذه المحطة، وساعتك وقفت بتأثير قوة غامضة تصيب الحركة بالشلل في هذا المكان، وكأنَّ الزمن فرسُ رِهَان، زلَّت به القدم، وهو يكاد يبلغ نهاية الشوط. عشر دقائق، عشر دقائق فقط، وتكتمل الساعة الخامسة. لكنها لن تكتمل، وسوف تظل هكذا إلى الأبد، معلقة بين التّمام والنقصان، تتوق إلى الكمال، ولا تكتمل. الحيطان المشقَّقة،

والألوان الباهتة، والصور العتيقة، والوجوه المتعبة الصابرة. الحلم ونصف الحلم واللّا حلم. الفعل ورد الفعل واللّا فعل. اختلطت الأشياء فكوَّنت عجيناً مطّاطاً لا مغزى له ولا ذات محدّدة. كأن الأشياء قد بدأت وانتهت، أو كأنها لم تبدأ بعد. المكان كذكرى مكان أو كحُلم إلى مكان. والمدينةُ كلا مدينة. والوطن كلا وطن. السَّواقي وقفت منذ زمن وصمت غناؤها الحزين للنيل، ولكنها ما تزال تدور، يخرج منها ماء هو احتمال ماء، لا يسقي زرعاً ولا يدر ضرعاً. وسفن النيل وقطارات سكك الحديد توقّفت، ولكنها تجري، وسوف تظل تجري بين الساعة الرابعة إلّا عشر دقائق، والساعة الخامسة تماماً، وإلى الأبد، ولا تصل إلى غاياتها. الحرب اشتعلت وخمدت وبدأت ووقفت فهي تدور ولا تدور، فالقتلى هم القتلى، والجيوش هي الجيوش، والمطامح هي المطامح، والمزاعم هي المزاعم. هي ليست حرباً ولكنها ذكرى حرب أو احتمال حرب، شبَّت منذ أعوام، وشبَّت منذ قرون، وتشبّ الآن في مساحة طولها عشر دقائق وطولها الأبد. الزعماء السابقون والزعماء اللاحقون أضغاث أحلام، ذكريات زعامات.

احتمالات إمكانات، «لا صيرورة» واحدة ذات وجوه شتى في أزمنة غابرة هي اليوم وغداً. شمس لا تشرق ولا تغيب، بدرٌ ليس له تمام ولا مَحَاق، نهر يجري وليس له منبع ولا مصب. السراب في صحراء العَتْمور ماءٌ حقيقة، عبَّتْ منه إبل أبي العلاء المعري حتى ماتت من الرّي. الزرع في حقول الجزيرة ينمو وأبداً لا يصل إلى درجة الحصاد. الأمطار تهطل والأنهار تفيض، ويعم الخير في هيئة مجاعة يموت فيها الناس من التخمة. الطائرة لن تقوم وسوف تقوم، وقد قامت بالفعل.

ما أروع هذه المدينة اللاّ مدينة في هذا الوطن الذي هو كذكرى وطن أو كحلم وطن. وقد سألك الشاعر، سألك أنت بالذات، دون خلق الله جميعاً:

أبكت تلكم الحمامة أم غنَّت على فرع غصنها الميّاد؟

يا سيدي فداك نفسي. لقد كنتَ كأنك لم تكن، أما الآن وقد صرت إلى العدم المحْض، فأنت ملء السمع والبصر. وقد حيَّرني سؤالك زماناً فما وجدت له إجابة إلّا الآن فقط، في هذه اللحظة التي كأنها الأبد.

إن الحمامة قد بكت وغنَّت فما بكت ولا غنَّت، لأن الغصن الذي حطّت عليه هو في وادٍ هو احتمال وادٍ في وطن هو حلم لوطن.

ألا، لا أرى مثلي أمْترَى اليوم في رسم
تغضُّ به عيني وينكره وهمي
أتت صورُ الأشياء بيني وبينه
فجهلي كلا جهلٍ وعلمي كلا علمِ

غفر الله للحسن بن هانيء، وغفر لك يا أبا العلاء وأنت تزْجر مطاياك في ذلك السراب الأبدي.

وأنت يا أبا تمام. أسأل الله أن ينزل فيوض الرحمة على قبرك بين العدوتين. فأنت قد قلت البيتين يقيناً، وذلك البيت إن لم تقله فكأنك قد قلته.

٦

في عام كذا وسبعين، أيام كنت مديراً لوزارة الإعلام القطرية، حلّت علينا صحافية إنجليزية، نحيلة الجسم، كأنها مصابة بالسل، متوترة مثل قطة مذعورة، عيناها عسليتان واسعتان، كان يمكن لو كان وجهها منبسطاً سمحاً، أن تكونا جميلتين. لكنهما لم تكونا كذلك، فقد كان في هيئة المرأة بأكملها شيء منفّر، سببه كما أدركت فيما بعد، ذلك الشبق الذي تراه في وجوه بعض الناس، أنهم يريدون أن يحققوا هدفاً غير شريف بأي وسيلة. ولأن العرب ناس كرماء، ودولة قطر كريمة فقد استقبلناها في المطار، واستضفناها في الهوتيل. ولأنني عشت بين ظهراني هؤلاء القوم ردحاً، فقد أدركت من أول لقاء لي معها، دون كبير جهد، أن تلك السيدة لم تجئ باحثة عن الحقيقة. لم تجئ لترى وتسمع وتفهم، فتنقل إلى قرائها الإنجليز صورة صادقة عن إنجازات الإنسان العربي في هذه البقعة من الأرض، وطموحاته ومقاصده كبقية خلق الله. بل على

النقيض، جاءت لتعطي المصداقية لصورة آثمة ظالمة كانت قد استقرت في ذهنها قبل أن تصل. فضربتُ حولها سياجاً كثيفاً ولم أدعها تقابل أحداً أو تكلم أحداً. خرجت من عندنا إلى دولة الإمارات ومن ثم إلى الكويت، وكانت قد زارت المملكة العربية السعودية قبل أن تصل إلينا. ثم ظهر كتابها فكان كما قدرت، أكاذيب وافتراءات، بل فحش في بعض الأحيان.

عجبت وأنا أقرأ الكتاب، وأتذكر ذلك الوجه الكئيب والذراعين النافرتي العروق، والجسم المتوتر الهزيل والسمت العصبي، إنها رسمت لنفسها صورة جذابة كأنها «صوفيا لورين» في زمانها، وأن الرجال حيثما حلّت، كانوا يفنون أنفسهم هياماً بها، وجرياً وراءها. وأن رجلاً ثرياً حملها في رحلة قصيرة إلى القاهرة في طائرته الخاصة، وعاد بها، حتى لا تضيع عليه ولو دقيقة واحدة من حديثها الشهي ومحياها البهي! إلى غير ذلك من هذه الأكاذيب الساذجة. والكتاب في مجمله يقول إن هذه المجتمعات مجتمعات مترفة فاسدة، وأن الحكّام متسلطون لا يعرفون كيف يدبرون أمور دولهم. وأن الرجال همج شبقون يسيل لعاب الواحد منهم لمنظر المرأة وخاصة إذا كانت أوروبية، وخاصة إذا كانت في فتنة مثل هذه الصحافية الفاضلة! بل إن الكتاب ذهب في الفحش والكذب أبعد من ذلك، وتخلص الكاتبة إلى أن هؤلاء العرب «الهمج» لا يستحقون الثروة التي هبطت عليهم. وهذا باختصار ما تقوله كل هذه الكتب والمقالات الصحافية التي يكتبها الأوروبيون والأمريكان عن العالم العربي، وخاصة عن منطقة الخليج. اللهم إلّا قلة قليلة يكتبها أناس شرفاء أمثال مايكل آدمز.

أغاظني الكتاب أيما إغاظة. ولكن سرّى عني قليلاً أنها لم تكتب

عن قطر إلّا صفحة واحدة كانت الافتراءات التي تضمنتها أخف كثيراً من غيرها.

وكما هو متوقع، صاحبت صدور الكتاب ضوضاء إعلامية مخطط لها في أوروبا، أذكى جذوتها لسوء الحظ العرب أنفسهم، كما يفعلون دائماً. وتحول هذا الكتاب التافه إلى شيء مرغوب، طبعت منه عشرات الآلاف من النسخ. وتحولت الكاتبة بين ليلة وأخرى من صحافية من الدرجة الثالثة أو الرابعة، إلى صحافية مشهورة تكتب عموداً أسبوعياً في واحدة من كبريات الصحف البريطانية، وتكتب في كبريات المجلات الأمريكية.

تلك الأيام أيضاً هبط علينا كاتب له بعض الشهرة قد كنت سمعت به، ولما قابلته خيّل لي أنه رجل جاد رزين، فأكرمنا وفادته وأحسنّا ضيافته. وسافر عنا، ونشر كتابه فإذا هو أكاذيب كبقية الأكاذيب، في زي مهذب أقل فحشاً من كتاب صاحبتنا تلك.

ثم جاءنا كاتب من صحيفة «الديلي تلغراف» اللئيمة. قلت له أول ما قابلته:

«نحن نعتقد أن صحيفتكم منحازة ضد العرب، وأنتم تكتبون عن العالم العربي إما عن جهل أو عن سوء قصد».

فقال لي:
«لهذا أنا جئت لأصلح الصورة، فأنا لست من نوع الكتّاب الذين تتحدث عنهم».

والحقّ أنني خدعت في الرجل، فقد بدا لي مهذباً غاية التهذيب عنده رغبة صادقة، كما خيّل لي، ليفهم، وليرى الأمور على حقيقتها. وكان إنجليزياً قحّاً. له شارب مثل شوارب ضباط الجيش، يتكلم بلهجة أكسفورديه خالصة. فساعد كل ذلك على تضليلي، لذلك أكرمت مثواه أكثر من المعتاد. وأنفقت عليه من زمني وقتاً.

ثم رحل الرجل عنا، وظهر كتابه، فإذا الكذب نفسه، وإذا البذاءة نفسها.

٧

حلَّ علينا في تلك الأيام أيضاً، جيش من الصحافيين الإنجليز، رجالاً ونساء، كانوا يرافقون الملكة في جولتها في بلدان الخليج، دعوتهم إلى داري، كما كنت أفعل مع الصحافيين الأوروبيين خاصة، وأقول لعلني أصحح بعض الأفكار الخاطئة، لعلني أبذر في أذهانهم بعض الحقائق، لعلني أستطيع أن أوجه أنظارهم إلى الأمور الجوهرية في حياة الناس وإنجازات الدولة، وأصرفها عن التوافه التي أعلم أنهم مشغولون بها. وجدتهم مجموعة من الهمج حقاً، باستثناء قلة منهم. كانوا ساخطين على كل شيء، وكانوا يحتقرون ملكتهم ويسمونها «برِنْدا». ولا أعلم لماذا اختاروا لها هذا الاسم، ولكنه اسم يوحي بالخادمات في حانات «سوهو» ومقاهي «كامْدِنْ تَاوُنْ». وكانت بينهم صحافية تجيد المحاكاة، فمضت تقلد الملكة ووصيفتها، وكأن الوصيفة ناظرة مدرسة والملكة تلميذة صغيرة. فإذا ارتدت الملكة ثوباً لمناسبة ما، تقول الوصيفة بصوت حازم كمن يخاطب طفلة:

«برندا، إنزعي هذا الثوب فوراً إنه لا يناسبك».

فتقول الملكة بصوت خافت كسير:
«أنا آسفة يا ليدي هَسّي».

ثم تجرب ثوباً آخر، فتقول الوصيفة غاضبة:
«برندا. كم مرة نبهتك إلى أن اللون الأزرق لا يناسب لون بشرتك، اخلعيه حالاً».

وتظل الملكة المسكينة تجرّب الثياب، ثوباً بعد ثوب، والوصيفة القاسية لا ترضى على أي منها. وأخيراً تجهش الملكة بالبكاء مثل طفلة:

«ماذا أفعل يا ليدي هسّي؟ إنني لا أستطيع حضور حفل العشاء، فليس عندي ثوب مناسب».

تصرخ الوصيفة:
«برندا. كُفّي عن البكاء فوراً وإلّا ضربتك على مؤخرتك. تذكري أنك لم تعودي طفلة. أنت ملكة بريطانيا العظمى».

وظلت الصحافية التي تمثل دور الملكة تبكي بحرقة، وظل زملاؤها يضحكون بمتعة، وقلت لنفسي:

«لا حول ولا قوة إلّا بالله. أي خير يرجى من هؤلاء الرعاع إذا كان هذا حالهم مع ملكتهم؟».

وعجبت أيضاً، فقد كنت قد رأيت الملكة عن قرب مرتين. مرة حين طاف بها وزير الإعلام في جولة في متحف قطر الوطني. وهو متحف جميل حقاً، فلم يكن غريباً أن الملكة وزوجها دوق أدنبره أعجبا بما رأيا. رأيتها سيدة مهذبة بسيطة بشوشة، تسمع باهتمام وتسأل أسئلة ذكية. وكان واضحاً أن تربيتها جعلت تلك الشمائل فيها فطرة وليس تكلفاً. وقد قال لي زميل في الوزارة:

«هذه السيدة لطيفة إلى حد أنك تود أن تدعوها للعشاء مع عائلتك وتحس أنها سوف تقبل الدعوة».

ثم رأيتها في حفل الاستقبال الذي أقامته في «اليخت» الملكي «بريتانيا» وكانت في ذلك المساء ترتدي ثوباً جميلاً بسيطاً لا أحسب أن وصيفتها اعترضت عليه، وكانت هي وزوجها يتنقلان بين المدعوين ويتبسطان معهم في الحديث. وكانت الملكة تقول لكل شخص تلقاه عبارة أو عبارتين تعنيان له شيئاً، وتعلقان بذاكرته. كنت ليلتها أرتدي جلابية سودانية وعمامة وعباءة، وكانت الملكة قد زارت السودان. قالت لي:
«هذا ليس زياً قطرياً».

قلت لها «لا».
فقالت:
«هذا زي سوداني، أليس كذلك؟ بالتأكيد أنت سوداني».

لم تكن الجملة في حد ذاتها مهمة، ولكنها أسعدتني، فقد بذلت السيدة جهداً، وكانت هي أسعد مني لأن ظنها قد صدق، وقلت لنفسي «والله هذه الملكة سيدة لطيفة بنت حلال». ولم لا؟ فالمرء لا

يكره الناس ضربة لازب.

بعض الناس يلومونني أن لي صديقاً أو صديقين من الأثرياء. وهم أناس صادقتهم منذ أمد، قبل أن يكونوا أثرياء، فهل أتركهم لأن الله سبحانه وتعالى أسبغ عليهم من فضله، وأعطاهم مالاً هم مستخلفون فيه؟ أليس ذلك كأن يكون لك صديق ثري. فإذا افتقر قلبت له ظهر المجَنّ؟

منذ أشهر، والشيء بالشيء يذكر، لقيت شاباً في ندوة في الكويت، فقال لي:

«يقال إنك توقفت عن الكتابة لسببين».

«ما هو السبب الأول؟».

«يقال إنك انجرفت في التديّن واستحوذتْ عليك الجماعات الدينية».

ضحكت لأنني أعلم كم أنا مقصّر في جنب الله، وأن بعض الناس يقولون إنني ملحد أو حتى شيوعي.

قلت له:

«يا ابن أخي، أنا لا أفعل أكثر من أنني أصلي صلاة الجمعة كسائر المسلمين، وكثيراً ما تفوتني صلاة الفجر في وقتها. ها. والسبب الثاني؟».

«يقولون إنك تصادق الأثرياء والوجهاء».

قلت له:

«يا بُنَيْ. صحيح أن لي صديقاً أو صديقين يقال إنهم أثرياء. ووالله ما أدري مقدار ثرائهم، وهو أمر لا يعنيني في كثير أو قليل. وهو ليس أكثر من صفة تعلق بالإنسان، كأن يكون نحيلاً أو بديناً أو أحمر أو أسود. وأما الوجهاء فقد قابلت منهم عدداً ولكن لا أذكر لك صديقاً واحداً بينهم. ولكن دعك من هذا. قل لي بالله كيف تراني؟ هل أبدو لك كأني جليسُ أثرياء ووجهاء، أم أنك ترى رجلاً أمّا إذا الشمس عارضتْ فيضْحى وأما بالعشِيِّ فيخْصر؟».

قلت له ذلك لأنه شاعر.

٨

كُنّا نؤمِّل أن يستغل أولئك الصحافيون مناسبة زيارة ملكتهم إلى قطر، فينظروا إلى مجتمع ليس معروفاً لقُرائهم بعيون مفتوحة، إن لم يكن فيها عطف، فليس فيها كراهية. ها هنا أناس يعيشون مثلهم تحت الشمس على سطح هذا الكوكب الصغير، الذي برَّ به الخالق سبحانه عباده جميعاً، على اختلاف ألوانهم وأديانهم ومذاهبهم ومشاربهم. أناس يحلمون مثلهم ويسعدون ويشقون مثلهم، ويولدون ويموتون مثلهم. لهم طريقتهم الخاصة في العيش، ونظرتهم المميَّزة إلى الكون، لو فعلوا ذلك لعلهم كانوا يزحزحون ولو قليلاً، ما لبس عقول قُرّائهم من خَطَل وجهل. وماذا يضير قارئ الـ«ديلي ميل» أو الـ «ديلي إكسبرس» أو الـ«تلغراف» أن يقرأ ولو مرة واحدة شيئاً مفيداً عن عالم بعيد مجهول، من هذه العوالم البشرية المتنوعة المتعددة؟ أليس ذلك خيراً له من أخبار الجرائم والفضائح والتفاهات التي تطغى على صحفهم؟

لكن لسوء الحظ، أمعن هؤلاء الصحافيون إلّا القليلين منهم، في ضلالهم القديم. فحين اقترب «يخت» الملكة من الميناء، وكان الأمير والوزراء ورجال الدولة ينتظرونها على الرصيف، انشغل الصحافيون والمصورون برجل وامرأة أوروبيين في قارب شراعي صغير. وقد زعموا بعد ذلك في مقالاتهم أنهما كانا يشرفان على الغرق، ولم يكن ذلك صحيحاً. وفي الوليمة التي أقامها الأمير للملكة في خيمة في البرّ، سلّط الصحافيون كمراتهم وسلّط مصورو التلفزيون آلاتهم على ذبابة حطّت على وجه الملكة. وتسلّل فريق منهم إلى المطابخ وراء الخيمة، حيث يُعدُّ الطعام، والتقطوا صوراً يُقصد منها الإساءة. ولما راجعناهم في ذلك احتجُّوا لنا بحرية الصحافة والإذاعة وما شابه وهي شِنْشِنَة قديمة عرفناها عنهم. لم يلتفتوا إلى مظاهر العمران الواضحة، ولا إلى الخضرة التي انبثقت في هذا المكان اليباب، ولا إلى مصانع السّماد وتسييل الغاز وصهر الحديد وتحلية المياه. قالوا إن هذه أشياء مملّة لا تثير خيال القارئ الإنجليزي الذي يُؤثر مواضيع ذات «بعد إنساني». وأقول لهم:

ولكن أي بعد إنساني في ذبابة حطّت على وجه الملكة؟ وأي بعد إنساني في صور الطعام يوضع في الأواني؟ وهل من الذوق أن تدعو إنساناً إلى دارك وتولم له، فيصر على تفحُّص المطبخ والتأكد أن الطعام يُعَدُّ بطريقة «هايْجينيّة» كما تقولون؟

وأسوأ من هذا كله، أنهم حيثما حلّوا في تلك الرحلة، كانوا يحسبون أثمان الهدايا التي يقدمها رؤساء الدول المضيفة إلى الملكة، ويبالغون في الحساب، ليوهموا قُرّاءهم أن هؤلاء القوم الأثرياء مبذّرون لا يدرون ماذا يفعلون بأموالهم. وهم بذلك يتجاهلون الحكمة الإنجليزية القائلة «لا تتفحص فم الحصان الذي يُهدى لك».

قال لي فؤاد جميعي، وهو صديقي منذ عهدي بهيئة الإذاعة البريطانية، وقد رافق هؤلاء الرعاع مندوباً عن القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية، وهو رجل محب للإنجليز، تعلم في جامعاتهم، وتزوج منهم، ويجيد لغتهم:

«إنني لم أكن أدرك قبل هذه الرحلة، إلى أي درجة يزوّر هؤلاء الصحافيون الإنجليز الحقائق. لقد كنت أشهد الأحداث معهم، ثم أقرأ ما يكتبونه في صحفهم، فإذا هي مخالفة تماماً لما رأينا وسمعنا».

٩

أذكر جيداً ذلك الأمريكي العصبي العابس الوجه. كانت ملامحه يهودية لا مراء فيها، وكانت النظارة السميكة على عينيه توحي لك بأنه ضيق الصدر. وهو إحساس اكتشفت فيما بعد أنه إحساس خاطئ. لا أنكر أنني نفرت منه أول ما قابلته، ليس لأنه يهودي، فأنا لا أحمل مشاعر من هذا النوع، فقد عرفت يهوداً فضلاء ويهوداً أراذل. لا، لم يكن ذلك، ولكن لأنه بدا لي متغطرساً متعجرفاً. وربما كان معه بعض الحق أن يعتزّ بنفسه، فقد كان جُوزِفْ كَرَافْتْ صحافياً أمريكياً واسع النفوذ، يكتب عموداً في صحيفة الـ«هيرالد تربيون»، وتنشره في الوقت نفسه نحو من عشرين صحيفة في كل أنحاء الولايات المتحدة، كان على صلة وثيقة بصنّاع القرار، وكان مع ذلك معروفاً بحماسته للصهيونية ولدولة إسرائيل وعدائه للعرب. وقد رأى السفراء العرب في واشنطن، في لحظة من لحظات الإلهام، أن يرسلوه إلى العالم العربي، ولم يكن قد زاره من قبل، ليقابل

الناس، ويتعرف على أنماط الحياة، ويرى مظاهر التقدم والعمران، فلعله يغيّر من أفكاره، أو على الأقل يخفف من حدة عدائه للعرب. وكانت دولة قطر أول دولة يزورها. كان السفير الأمريكي متوتراً جداً متخوفاً من تلك الزيارة. ولأن طائرة مستر كرافت وصلت قبل موعدها، فلا السفير الأمريكي ولا أنا استطعنا أن نكون في استقباله في المطار. ذهبت إليه في الجناح الذي حجزناه له في فندق الخليج، فوجدته ثائراً محمّر الوجه. أول ما دخلت وعرّفته بنفسي صرخ: «اسمع. أنا رجل مهم جداً. ليس عندي وقت أضيعه. أريد «صيداً ضخماً» I want to shoot Big. أريد أن أقابل حالاً الأمير، (وكان ينطقها «أيمير») ووزير الخارجية. ووزير المالية».

قلت له «كل هذا سوف يحدث. لكن الوقت متأخر الآن. خذ راحتك وسوف أمرّ عليك في المساء، وسوف تبدأ مقابلاتك صباح غد».

ولما عدت إليه في المساء، وجدته كما تركته، متوتراً متوجّساً. قال لي أثناء الحديث، دون أي مناسبة:
«هل تعلم أنني يهودي؟».

«طبعاً أنا أعرف أنك يهودي، فأنا أقرأ مقالاتك في الـ«هيرالد تريبيون».

لم يبدُ عليه أنه استوعب قولي، وكنت قد بدأت أستمْرِئُ صحبتي له، قلت له:
«أنا مدعو هذا المساء للعشاء في دار الملحق التجاري البريطاني. أقترح أن تأتي معي فسوف تقابل عدداً من الناس وتستمع إلى آراء مفيدة».

قَبِلَ اقتراحي على مضض، وقدَّرت أنه اعتبر أن في ذلك تقليلاً من قيمته، أن يبدأ نشاطه الاجتماعي في الدوحة، بدعوة من ملحق تجاري لا أكثر، وليس بدعوة من سفير أو وزير. لكنني كنت أعلم أن تلك الأمسية في دار الملحق التجاري البريطاني، سوف تحدث قدراً ليس قليلاً من الفوضى في عقل مستر جوزف كرافت. كان «ديفيد رايتْ» شاباً ودوداً مستنيراً، وكانت تجمعني به صلة حسنة، لذلك كنت أعلم يقيناً أن ميله للعرب لم يكن من قبيل النفاق الدبلوماسي، ولكنه كان عن قناعة حقيقية لديه.

فتحت لمستر جوزف كرافت باب السيارة، وانحنيت له بطريقة مبالغ فيها، وقلت له:
«تفضل يا مستر كرافت، فأنت رجل مهم جداً».

نظر إليَّ شزراً ولم يقل شيئاً، وكنت قد أخذت أتمتع أكثر بصحبتي لذلك الإنسان العجيب. وفي الطريق إلى دار مستر «ديفيد رايت» قطعت عليه صمته بغتة، فقلت له:

«لعلك ظننت أننا سوف نرجمك بالحجارة أو نعلقك من فرع شجرة لأنك يهودي».

لم يجبني، لكنني كنت متأكداً أن عبارتي قد أحدثت بلبلة كبيرة لديه.

«اسمع يا مستر كرافت، كونك يهودياً.. هذه حقيقة ليست «مدهشة» بالنسبة لنا».

نظر إليّ وفتح فاه، ولكنه لم يقل شيئاً.

ولما وصلنا إلى دار «ديفيد رايت» أسرعت بالنزول قبله، وفتحت له باب السيارة بالطريقة نفسها، وبالعبارة نفسها:
«تفضل يا مستر كرافت فأنت رجل مهم جداً».

لكن سرعان ما طغى دفء استقبال مستر «ديفيد رايت» لنا، على أي اشمئزاز قد يكون خطر لمستر كرافت، فقد كان ديفيد رايت إنساناً عفوياً ليس في طبعه التخطيط المأثور عن الإنجليز، وجدنا بالفعل، خليطاً من الناس، عرباً وأوروبيين. واتخذ الحديث طرقاً متشعبة، من السياسة إلى الأدب إلى الفن إلى التاريخ. وكنت معنياً طوال السهرة بوقع كل ذلك على صاحبي مستر جوزف كرافت، فأرى وجهه يرْبدُّ أحياناً وينبسط أحياناً، لكنه ظل صامتاً لا يفصح عما يختلج في صدره. ولما عدت به إلى فندق الخليج، قلت له:
«أرجو ألا تكون وجدت هذه الأمسية مضيعة لوقتك الثمين».

نظر إليّ برهة خلال نظارتيه السميكتين، وخُيّل إليّ أن طيف ابتسامة حَوَّم حول عينيه، كأنه أدرك، أنه إن كان جاء يطلب صيداً ضخماً، فقد صادف صياداً له أحابيل من نوع لم يخطر له على بال.

في الصباح رافقته لمقابلة وزير الإعلام، فاستقبله الوزير بلطفه المعهود وابتسامته المضيئة. ولا بد أن مستر كرافت عجب أصلاً أن شاباً عربياً يلبس الغطرة والعقال، يمكن أن يتحدث اللغة الإنجليزية بتلك الطلاقة، ويُقلِّب الأفكار بتلك المهارة. ثم مضينا في زياراتنا التي تُوِّجت بمقابلة سمو الأمير. ولما خرجنا من عنده نظرت إلى صاحبي

فإذا هو، لأول مرة، فرحاً، منفعلاً من شدة الفرح. وإذا ذلك الوجه المتجهم بأساريره المشدودة، كأنه وجهٌ لإنسان آخر، كنت أعلم أن الذي ألَمَّ به قد حدث لأنه قد وجد «صيداً ضخماً» على حد قوله، قال لي وهو على تلك الحالة:
«هِيِيْ.. هذا الأمير إنسان لطيف، هؤلاء الناس لا بأس بهم. لا بأس بهم أبداً».

قلت أعكس عليه الآية هذه المرة، فنظرت إليه كما كان ينظر إليَّ طوال مرافقتي له، ولم أقل شيئاً.

ثم جمعته بمستر «هَوارْد» الذي كان يزور الدوحة في الفترة نفسها، ويقيم هو أيضاً في فندق الخليج. كان مستر «هوارد» أمريكياً من الولايات الجنوبية. شديد العداء للصهيونية ولإسرائيل ولليهود على وجه العموم، وقد أنتج فيلماً عن احتلال إسرائيل لمدينة القنيطرة. وسرعان ما شبَّت بين الرجلين حرب كلامية لا هوادة فيها، وجلست بينهما، لا أشارك في الجدل، ولكنني أستمع وأضحك. أمريكي يكره الصهيونية واليهود، وأمريكي يهودي متحمس للصهيونية، وكأنهما في حلبة ملاكمة. ورأيت صاحبي مستر جوزف كرافت ينوء تحت وابل اللكمات التي وجهها له مستر «هوارد» فقد كان هذا ملاكماً شرساً، يضرب كيفما اتفق، ويضرب بلا شفقة.

ولما ودّعت مستر جوزف كرافت في المطار أحسست أنه يتركنا وهو في حيرة عظيمة من أمره. كان وجهه وهو يغادر الدوحة مختلفاً عن الوجه الذي جاء به. وتابعت مقالاته في صحيفة الـ«هيرالد تريبيون» مدة بعد تلك الرحلة، فلم أجد أنه ذكر زيارته

بالخير أو بالشر وإن كنت لاحظت أن حماسته للصهيونية قد فترت بدرجة نسبية. ثم وأنا في باريس قرأت نبأ وفاته. تذكرت صحبتي له في الدوحة، واللحظات الممتعة التي أتاحها لي من معابثتي إيّاه.

ولا أخفي عليكم أنني شعرت بشيء من الحزن.

حين أعدم الرئيس السابق جعفر محمد نميري، الرجل الهرم محمود محمد طه رحمه الله، كلمتني «باربرا براي» في الدوحة من باريس، آخر الليل. كان صوتها على التلفون غاضباً حاداً، أقرب إلى الصراخ، وذلك أمر لم أعهده منها، فهي عادة هادئة رقيقة مهذبة. قالت لي: «ألا تنوي أن تفعل شيئاً؟».

«أفعل شيئاً بخصوص ماذا؟».

«ألم تسمع الأخبار؟ ألم تسمع بأن رئيسكم الهمجي قد أعدم رجلاً في الثمانين من عمره؟ إنه أمر مخجل حقاً، من يصدق أن هذا يحدث في هذا العصر؟».

صمتّ وتركتها تسترسل فماذا أقول لها. لم تهدأ ثائرتها بل إن

غضبها ازداد قوة وهي تمضي في الكلام. وحين يطول صمتي تقول لي بعنف:
«هل أنت هناك؟ هل تسمعني؟».

«نعم يا باربرا، أنا هنا وأسمعك جيداً».
«إذاً لماذا لا تفعل شيئاً؟».

قلت لها متضاحكاً لعلني أعيدها إلى هدوئها:
«الآن؟ في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟».

لم تستجب لمحاولتي، وقالت لي بصوت أكثر غضباً:
«إنني كنت أتحدث منذ لحظات مع البيت الأبيض في واشنطن. طلبت محادثة الرئيس ريجان. طبعاً أنكروا أنه موجود. كلمني أحد مساعديه. قلت له كل ما خطر على بالي. قالت له إن دم هذا الرجل معلّق في رقبتكم».

سألتها متغابياً:
«ولكن ما دخل الرئيس ريجان بمقتل محمود طه؟».

«لا تكن غبياً. هل تظن أنهم ما كانوا يستطيعون إنقاذه لو أرادوا؟ هل يستطيع نميري أن يرفض لهم طلباً؟ أليسوا هم الذين جاءوا به وهم الذين يساعدونه على البقاء في الحكم؟».

«وماذا قال لك مساعد الرئيس؟».
«ماذا يمكن أن يقول لي أحد هؤلاء الشبان التافهين الذين يسمونهم تجاوزاً مساعدي رئيس؟ كل عملهم أنهم يحملون حقائبه

ويتراكضون حوله. لم يظهر عليه أنه فهم ما أقول وأظنه لا يعلم أين السودان ومن هو نميري أو محمود محمد طه. أخذ اسمي وعنواني وتلفوني ووعد بأن ينقل احتجاجي للرئيس. بعد أن انتهت المكالمة طلبتك فوراً».

قلت لها متضاحكاً مرة أخرى:
«إنه لشرف عظيم أن تضعيني في كفة مع رئيس أكبر دولة في العالم. أنا الموظف الغلبان في منظمة اليونسكو».

تحول سخطها من الرئيس الأميركي إلى اليونسكو، فهي تكره المؤسسات البيرقراطية من حيث هي. فقد استقالت من هيئة الإذاعة البريطانية وتعاونت فترة قصيرة مع منظمة اليونسكو ثم رفضت التعامل معها:
«متى تستقيل من هذه المنظمة الجوفاء وتتفرغ لما هو أهم؟».

«وما هو الأهم؟».
«ألا تعرف إلى الآن ما هو الأهم؟».

بلى، أنا أعرف ما هو الأهم في نظر «باربرا براي» وفي نظري أنا أيضاً. ولكن من يطعم الزوجة والعيال، ويدفع أقساط المدارس والجامعات؟ كل هذه الأشياء الصغيرة، أم الكبيرة، التي تكبل الإنسان بقيود يشتد وثاقها يوماً بعد يوم، وتجعله يصمت حين يجب عليه أن يصرخ، ويذعن حين يتحتم عليه أن يرفض. «باربرا براي» لا تأبه لذلك. لقد استقالت من هيئة الإذاعة البريطانية منذ ثلاثين عاماً وهي في قمة النجاح، وليس عندها مصدر دخل. غامرت وحملت طفلتيها وجاءت إلى باريس. استأجرت شقة

صغيرة في الحي اللاتيني قريباً من «بوليفار سان ميشيل» وعلى مرمى حجر من نهر الـ «سين»، ما تزال تعيش فيها إلى اليوم. رفضت بتاتاً أن تشتري بيتاً أو شقة بالأقساط كما يفعل كل الناس. «منسي» وأنا حاولنا إقناعها ولكنها قالت إنها لا تحب أن تمتلك أي شيء، وتحب أن تفارق الدنيا وليس وراءها شيء. أخذت تعيش من كتاباتها في النقد للصحف الفرنسية والإنجليزية، فهي ناقدة متمكنة لها نفوذ وصيت، وتترجم من الفرنسية إلى الإنجليزية، وكثيرون يعتبرونها أحسن مترجم في هذا المجال. وقد ترجمت جميع روايات الكاتبة الفرنسية الشهيرة «مارجريت دورا» لا حباً في المال ولكن لأن الكاتبة صديقتها. وحين يضيق بها الحال، تكتب «سيناريوهات» للسينما، فهي تحتقر السينما، ولا تعتبرها شكلاً فنياً محترماً. وكان بوسعها أن تجمع مالاً وفيراً من كل هذا الجهد، ولكنها لا تحسن تدبير المال ولا تأبه له، وتقع دائماً فريسة لطمع الناشرين وخداعهم.

دائماً تجعلني أحس بالخجل من نفسي، هذه السيدة العجيبة. لا تنتمي لحزب، وليس عندها أي مطمح، وتعطي الحياة أكثر ما تأخذ منها. كأنها تحمل على عاتقها هموم الإنسانية بأسرها، إذا وقع زلزال في الجزائر أو فيضان في السودان أو مجاعة في إثيوبيا، يعصر الألم قلبها، كأنها مسؤولة شخصياً عما حدث. ولا تكتفي بذلك بل تجمع التوقيعات وترسل الاحتجاجات. تؤيد كفاح الشعب الفلسطيني وتكره النظام العنصري في جنوب أفريقيا، وتمقت التسلط والقهر حيثما يكون. وأنا لا أشك أنها تحس مأساة جنوب السودان أكثر مما يحسها جون قرنق وبقية هؤلاء الزعماء النجباء، الأذكياء الأغبياء. «باربرا براي» تؤمن كما جاء في القرآن الكريم أن من قتل نفساً واحدة بغير حق، فكأنما قتل الناس جميعاً، وهؤلاء

عندهم أن يموت مليون، لا شيء، في سبيل أن يصبح الواحد منهم زعمياً.

في تلك الليلة شعرت بخجل عميق. قلت لها، وأنا أعلم أن كلامي أعرج وحجتي جوفاء:
«أنت تعلمين أننا حين ندخل اليونسكو، كما في المنظمات الدولية، نقسم يميناً أن نكون محايدين ولا نتدخل في شؤون الدول الأعضاء في المنظمة».

«كلام فارغ».

أطارت النوم من عيني، وقضيت الليل مسهداً أضرب أخماساً في أسداس.. وذلك أضعف الإيمان.

دخل الإنجليز بلاد السودان متردِّدين، يقدِّمون رِجلاً ويؤخرون، فقد كان المدّ الاستعماري قد انحسر، والقرن التاسع عشر يوشك أن ينطوي. وكان رئيس وزرائهم، مستر قلادستون، اسكتلندياً تقيّاً له ضمير يحاسبه كل ليلة حين يأوي إلى فراشه. لم يكن استعمارياً على نهج المستعمرين. قال لهم إن الثورة المهديَّة حركة وطنية مشروعة لشعب يطلب الحرية ويريد أن يزيح عن كاهله نير حكم أجنبي غشوم. وله قولة تبدو غريبة بمقاييس ذلك الزمان، بل حتى بمقاييس زماننا هذا. قال «هذه الجزر، هذه الأرض التي نقف عليها، ليست لنا، ولا هي لأوروبا، ولكنها ملك للإنسانية بأسرها».

لذلك ظل يقاوم إرسال جيش لفتح السودان، وكان بين كل حين وآخر، يبعث حملة صغيرة استجابة لضغط الرأي العام، لإنقاذ ذلك الرجل الغريب، جنرال غوردون.

الاستعمار مثل مسرحية من مسرحيات شيكسبير، حيث الخير والشر يختلطان بصورة مميزة، تزخر بشخصيات بين المأساة والكوميديا والعبث، امتزجت أهواؤها وطموحاتها وغرابات سلوكها بالمطلب الاستعماري. وكان من أغرب هذه الشخصيات، جنرال غوردون، أو غوردون الصيني كما كانوا يسمونه.

ظل في الخرطوم في قصره المتواضع على ضفة النيل الأزرق، والخطوب تحيط به من كل جانب، مصرّاً على البقاء، يشرب الويسكي ويقرأ الإنجيل، ويكتب مذكراته، ويبعث رسائل مطوّلة إلى أهله، لا يعلم إن كانت سوف تصلهم. لبث ينتظر، كأنه مسلوب الإرادة، ينتظر مصيره المحتوم. تقول كتب التاريخ إن الإمام المهدي أراد أن يستبقيه حيّاً، ليفادي به الزعيم المصري أحمد عرابي. لكن كان واضحاً، أن غوردون، وهو يقف على عتبة القصر، كأنه لا يسمع ولا يرى، كان يطلب الموت. ولا بد أن جند الإمام رأوا ذلك في عينيه، فلم يخيبوا ظنه.

الشعب البريطاني كان يبحث عن أبطال ويبحث عن شهداء فوجد في غوردون ضالته. حتى الملكة فكتوريا اهتزت لمقتل غوردون.

هاج الرأي العام وماج، وكان قلادستون الحكيم يظن غير ذلك، ولكنه لم يستطع مقاومة التيار، فأرسل جيشاً بقيادة استعماري لدود، هو كتْشْنر، لإخضاع السودان، والقضاء على الثورة المهدية، وأخذ الثأر لمقتل غوردون، وإفهام أولئك «الهمج المتوحشين» أنهم لا يستطيعون أن يعبثوا بهيبة التاج البريطاني، ويظنوا أنهم بمَنْجى من العقاب. هكذا أراد الرأي العام في بريطانيا.

ولم يكن الأمر سهلاً، فقد أظهر أولئك «الهمج» في معركة «كرَري» أعلى أم دُرْمان، ألواناً من البطولة الحقيقية والبسالة، لم تدرْ بخلد الجيش الغازي الذي جاء من وراء البحر، دون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة. إلّا أن الأمر استتب لهم، وأصبح كتشنر يعرف بـ «لوردِ كتشنر أفْ أم درمان»، كما تقول «لورنس أف أرابيا» و«كلايفْ أُف إنديا». وأصبحنا نتعلم في كتب المطالعة العربية التي ألّفها «مستر سكوت» الإنجليزي أن كتشنر «فتح السودان ووضع فيه أساس العمران».

حكموا بلاد السودان المترامية الأطراف، بكثير من الحكمة وكثير من العدل، والحق يقال. وهذه «إشكاليّة» كما يحلو لإخواننا أن يقولوا. الاستعمار في أساسه، شرٌّ لا مراء فيه، ولكن هذا المستعمر يحكم بالعدل والقسطاس في إطار هذا الشر. فكيف يكون هذا؟ وتسأل العالم الخبير بتقلبات البلاد والعباد، ودواعي الخير والشر في أحوال الناس، أيهما أفضل؟ المستعمر الغاصب العادل؟ أم الحاكم الوطني» ابن البلد وهو ظلوم غشوم؟

ويقول العالم الخبير إن الإجابة واضحة، وقد صدق. ولكن الذين يذكرون عن الإنجليز من الشعب السوداني الكريم الصبور، كل ما نزلت بهم الخطوب، واحتوشتْهم النوب، خاصة في العهود الأخيرة، يقولون في حسرة «زمن الإنجليز يا حليله. زمن الإنجليز الله يطراهُ بالخيْر». وحسبك هذا من يأس.

وكم كان عددهم، هؤلاء الإنجليز؟ تقول مائة ألف؟ تقول عشرة آلاف؟ تقول ألفاً؟ كلاٌّ. كانوا أقل من خمسمائة على الأرجح حسبما تروي كتب التاريخ. تبصّر يا رعاك الله. هذا السودان،

بطوله وعرضه وسمائه وأرضه، وخيره وشرّه، وجِنّه وإنسه، حكمه أقل من خمسمائة من هؤلاء القبيل «الحمر» الذين جاءوا من وراء البحر. صحيح.. كانت تدعمهم جيوش غير مرئية، وضعوها في ضواحي العاصمة وفي الثغور البعيدة، وتسندهم «هيبة» الإمبراطورية البريطانية.. ومع ذلك!

ثم جاءت العهود «الوطنية» تَتْرى.. أحياناً برلمانات، وأحزاب، وأحياناً حكم عسكري صرف، وأحياناً حكم عسكري دكتاتوري، يلبس قناع الديموقراطية والاشتراكية، والعدالة الناجزة والرّفاه المُرتقبْ. وتولوا بغصَّة كلهم منهم لا أرضاً قطعوا ولا ظهراً أبقوا.

واليوم يظللنا عهد جديد بظله، بعد انتفاضة رجب المباركة، وثورة أيار/ مايو الخالدة، وثورة تشرين الأول/ أكتوبر المظفرة. والنيل الحكيم الصبور ينظر ويتعجّب، إخواننا هؤلاء قاموا بعد أن فكروا وقدروا، نعمل لكم «نظاماً فدرالياً». يعني، يا رعاك الله، الدولة الواحدة تتجزأ إلى دول، والحكومة الواحدة تتطاير حكومات. وبدلاً من برلمان ووزارة في الخرطوم، تكون عندنا برلمانات ووزارات في دارَفور وكردفان وأعالي النيل وبحر الغزال والجزيرة وكسلا والخرطوم وقروي ودُنْقُلا. انظر كم رئيساً ووزيراً سوف يُنيخون بكلكلهم على كاهل الشعب المسكين، فوق ما هو محتمل. يا سبحان الله. أما قلتم أن الشعب ليس مهيأً للديموقراطية البرلمانية؟ إذاً كيف يكون مهيأً لـ «الديموقراطية الفدرالية» وهي أكثر تعقيداً وأعظم خطراً؟

هذا أيضاً يصلح موضوعاً لمسرحية يكتبها شيكسبير العبقري، لو كان حيّاً. لقد كتب من قبل مسرحية عن ملك دانت له المملكة، وكان

رزقه يأتيه رغداً من حيث لا يحتسب. وفي لحظة من لحظات الاستهتار والثقة الزائدة بالنفس، قسّم المملكة بين بناته ظناً منه أنه يقضي الصيف مع هذه والشتاء مع هذه والربيع مع تلك، ويظل هو كما كان، ملكاً ميهمناً فوق الجميع. ولكن الأمور سارت على عكس ما قدَّر، وانتهى به الأمر طريداً شريداً، في العواصف والثلج والزمهرير، وحيداً إلّا من المهرج الذي كان يضحكه أيام العزّ.

قال المهرج للملك «يا أحمق».
فقال الملك غاضباً:
«يا ولد. تقول لي أحمق وأنا الملك؟».

فقال المهرج:
«لأنك أضعت الألقاب التي ولدت بها جميعاً ولم يبق لك إلّا هذا اللقب».

يقول نقاد شيكسبير إن عقدة هذه المسرحية، هي «الحمق»، وإذا شئت قلت «الجهالة».
آه!

هذا ونحن في «دلهي» صيف ثمانين وتسعمائة وألف، والليل يجمع أطرافه ويتكثَّف، والغناء الحزين يزيد القلب كمداً، وتلك الذكرى التي تلاحقني من وادي النيل تحمل عطراً لن ينضب ما دمت حيّاً. صاحبي «منسي» على أثري مثل صاحب الشَّهْرزُوْري، وصاحبه «دُرْقا» على أثره.

«فدنونا من الطلول»... والطلول ليست في بلاد الهند، ولكنها في بلاد الشام غربي يغْلَبكْ!

١٢

لما فاض الكيل وعيل الصبر، هبَّ شعب السودان الصبور، كما يفيض النيل، وتهب الأعاصير في صحراء العَتْمور. سقط النميري بعد زهاء سبعة عشر عاماً من حكم متقلِّب غريب الأطوار. ليس لأنه كان رجلاً شرّيراً. كان يظن أنه يُحسن صنعاً. كان سودانيّاً كسائر السودانيين. الذين يعرفونه يقولون إنه رجل وديع دمث خجول، وهو أمر يبدو غريباً في إنسان ضرب جزيرة «أبّا» بالقنابل وشنق عبد الخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ، وقتل صديقه الحميم الذي مكن له في الحكم، فاروق حمد الله، وقتل الرجل الشيخ محمود محمد طه. إنه حتماً لم يرد شيئاً من هذا أن يحدث، ولكن هذه الأمور تبدأ صغيرة ثم تكبر، وشيء يقود إلى شيء، فإذا بالرجل الوديع الخجول، يتحول إلى قاتل سفّاح.

الحجّاج بن يوسف كان يعلّم الصبية القرآن، وعبد الملك بن مروان

الذي أمر بضرب الكعبة الشريفة بالمنجنيق، كان رجلاً فقيهاً عالماً بالشعر. هذه الأمور ليست جديدة. إنها موجودة في كتب التاريخ وكتب الأدب، وموجودة في مسرحيات شيكسبير العبقري.

ويقولون إنه كريم شهم «أخو إخوان». وأنا رغم أنني لا أعرفه، أستطيع أن أصدّق هذا، فهو سوداني كسائر السودانيين. وهذه هي المأساة. كل هؤلاء الناس كرام فضلاء. كلهم رجال شرفاء، كما قال أنتوني في مسرحية يوليوس قيصر. ولو أن أخانا جعفر محمد النميري، فهو أخونا على أي حال، لم يُذْعن لذلك الإغراء الفتاك، إغراء المجد والخلود، ولم يستيقظ مبكراً في ذلك اليوم بالذات، ولم ينتزع الحكم من أهله، أو الذين خُيِّل لهم أنهم أهله، لعله كان ينتهي به الأمر بأن يصبح قائداً للجيش، ثم يذهب إلى التقاعد بالطرق العاديّة ويقضي بقية أيامه هانئاً قرير العين.

ينام ملء جفنيه لا تثقل ضميره كل تلك الدماء التي أراقها. وفي سبيل ماذا؟

في سبيل مطلب تافه، هو بميزان العدل الكوني، أقل خطراً من إغفاءة العصفور على غصن الشجرة.

رَوَوْا أن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقف فجأة في المسجد ذات يوم وقال: «اللهم اشهدوا أنني كنت أرعى غنماً لخالات لي من مخزوم وكنت أجوع فلا أجد ما أطعمه، فكنّ يتصدقن عليّ بشيء من اللبن أتقوّى به». ثم جلس. ولما سألوه لمَ فعل ذلك؟ قال «إنني أحسست في نفسي زهواً فأردت أن أُذِلَّها».

وقد سُمع يوماً يحّدث نفسه «بخٍ بخٍ يا بُنيَّ الخطّاب. لقد أصبحت أمير المؤمنين».

النميري الذي نصَّب نفسه أميراً للمؤمنين آخر العهد، وبايعه أناس سرعان ما تنكروا له فيما بعد، كان يزعم أنه يقتفي أثر عمر ابن الخطاب، ولكن هيهات.

سمَّى القصر الجمهوري، قصر الحاكم العام، قصر الشَّعب. وسمى الجيش جيش الشعب، وسمَّى الدولة «جمهورية السودان الديموقراطية». غيَّر العلَم وغيَّر شعار الدولة ووضع دستوراً على هواه، ووضع صورته على العملة. أصبح عبد الملك بن مروان وأبا جعفر المنصور وهرون الرشيد وروبسبيير ونابليون وعمارة دُنقس وعبد الله جمَّاع. ألبسوه الطاقية ذات القرنين وأجلسوه على عرش ملوك سِنَّار. زغردت له النساء وغنّى له المغنون، وقد بدا له أن الأمر قد استتب له تماماً، وأنه مخلّد في الأرض. كان طيلة سبعة عشر عاماً، مثل ممثل وحيد على المسرح، في مسرحية من هذه المسرحيات الحديثة، التي يؤدي فيها الممثل أدواراً عدة، مستعيناً بالأقنعة، يخلع قناعاً ويلبس قناعاً. وكان الشعب مثل جمهور صامت، ينظر ويتعجَّب. وكان يقول في مقابلاته الصحافية أنه حوَّل السودان إلى جنة، وهو ضرب عجيب من ضروب خداع النفس، فقد كان واضحاً لكل ذي عينين، أن السودان كان مثل رجل مريض يشرف على الموت. كانت الخرطوم الجميلة مثل طفل يتيم في ثوب مهلهل، وكنت أقول من أقابل من وزرائه:

«كيف يرضى صاحبكم بهذه الخرابة حاضرة لمُلكه؟».

ثم كأنما سئم اللعب، وسرت فيه رغبة دفينة لتحطيم الذات. حرب

الجنوب بعد أن أخمدها عاد فأشعلها من جديد، واختطَّ سياسات رعناء، وارتكب حماقات لا مبرر لها. وكان يعيّن الوزراء ويفصلهم دون علمهم ودون سبب واضح. وقالوا إنه تصوَّف وزهد. ولكن زهده لم يشمل الزهد في الحكم. وأخيراً أقدم على عمل من أغرب ما يقدم عليه حاكم. فجأة أغلق عشرين سفارة من سفاراته، وهي نصف وزارة خارجيته، وذلك بحجة التقشف وتخفيض النفقة. وقد اتضح أن الخسائر التي حاقت بالدولة من جرّاء هذا العمل العبثي، أكثر كثيراً من نفقات ترك السفارات مفتوحة، ناهيك بالضرر الجسيم الذي لحق بسمعة الدولة.

هبَّ الشعب العظيم هبة رجل واحد، في انتفاضة رائعة كانت الثانية في تاريخه الحديث ضد حكم عسكري. ولعله كان أول شعب يفعل ذلك في العالم المعاصر. وهنا يدخل المسرح صاحبنا إبراهيم طه أيوب الذي كان سفيراً للسودان في «دلهي» حين زرناها، «منسي» وأنا، عام ثمانين وتسعماية وألف حين ثار الشعب ثورته تلك، كان سفيراً للسودان في «نايروبي». ولسبب ما أصبح المصدر الوحيد لأخبار الانتفاضة في أيامها الأولى، فانحاز إليها، وكان يزوّد وكالات الأنباء بالأخبار. ولما نجحت برئاسة المشير عبد الرحمن سوار الدَّهب، اختاروا صاحبنا إبراهيم طه أيوب وزيراً للخارجية.

■ ■ ■

ذلك العهد لم يدم طويلاً، وليته فعل. فقد أوفى سوار الدهب بوعده، فأجرى الانتخابات في موعدها. وسلّم الحكم لأهله، أو الذين ظنوا أنهم أهله، وذهب في حال سبيله.

هذا العمل البسيط، أسر خيال ملايين الناس، في السودان وخارج السودان، وأصبح ذلك الرجل الزاهد، عبد الرحمن سوار الدهب، رمزاً مضيئاً من رموز هذا العصر.

لقيناه في الحج منذ أربع سنوات، فاجتمع خلق كثير في خيمته في «منى»، من بينهم أحمد مختار أمبو الذي كان مديراً عاماً لمنظمة اليونسكو حينئذٍ. أقبل الناس يحيّون الرجل الذي لما قدموا له كأس الحكم قال «اصرفوها عني». كان أمبو يصارع في تلك الآونة ليحتفظ بمنصبه، وأظنه قرر بينه وبين نفسه في تلك البقعة المباركة، أن في الحياة أشياء أخرى غير المناصب، وأن اليونسكو بهيلها وهيلمانها، لا تساوي عند الله جناح بعوضة. حججنا معه ذلك العام، الفاتح حمد والطاهر مختار وأنا. وكان معه زوجته وابنة أخته وصديقه الحميم من أيام الطفولة، فضيلو ضيوف، نقيب المحامين في السنغال. كان رجلاً عجيباً. كان يؤُمّنا في الصلاة. ويرتل القرآن بصوت جميل بقراءة ورْش. طاف وسعى وأدى المشاعر، واكتشفنا بعد أن فرغنا من الحج، أنه كان يعاني طوال الوقت، فقد كان مصاباً بسرطان الكبد، وهو لا يدري.

ذهب أحمد مختار أمبو إلى موعد في «دلهي»، وعاد الفاتح حمد وزوجة أمبو وابنة أخته إلى باريس. وذهب الطاهر مختار إلى الرياض. وبقيت مع الحاج فضيلو ضيوف في جدة. ظل أسبوعاً في مستشفى الحرس الوطني، وكان الأطباء يعلمون أن حالته ميئوس منها.

أدخلته الطائرة وعانقته وعانقني، ودعا لي، ودمعت عيناه. تلك دموع لن أنساها ما حييت. لم يلبث أن توفاه الله بُعيد وصوله إلى دكار.

قابلت صديق صباه، أحمد مختار أمبو، بعد ذلك بقليل، في مكتبه في الطابق الخامس في مقر اليونسكو في باريس. كانت الأحداث تتدافع حوله وهو هادئ ساكن، وكأنه قد استقر على رأي. ولا بد أنني ذكرته بصديق طفولته. كنا قد أصبحنا صديقين في أيامه الأخيرة، حين غدا واضحاً أنه سوف يخسر المعركة، فأنا شغوف بالمعارك الخاسرة.

كان أحمد مختار أمبو أيام مجده، حين يسير في أروقة اليونسكو، يحدث هزة واضحة، مثل التمساح حين يطفو في النهر. ولكن انظر إليه الآن. خسر المعركة يوم السبت. وسافر يوم الأحد أو الاثنين. كان في وداعه في المطار، عبد الرزاق قدّورة، وبشير البكري، ومحمد إبراهيم كاظم، وسعيد مغربل، والفاتح حمد وأنا ورجل وسيدة من قدامى موظفي اليونسكو. هذا كل ما في الأمر، بعد ثلاثة عشر عاماً من الحل والربط، والهيل والهيلمان.

لقيت عبد الرحمن سوار الدهب منذ شهرين في صلاة الجمعة في عمان. لمحني في الصلاة فلبث ينتظرني عند الباب. كذلك هو. إنسان مهذب أبداً، رآه الناس، فتدافعوا نحوه، يسلمون عليه، وكأنهم يتبركون برجل صالح من عهد غابر.

أما صاحبنا إبراهيم طه أيوب، الذي لمع نجمه برهة قصيرة أيام الانتفاضة فأصبح وزيراً للخارجية، فإنه لما عاد رجال الأحزاب إلى الحكم بعد الانتخابات، رجع هو أدراجه إلى وزارة الخارجية، فعيّنوه سفيراً للسودان في روما. ولا بد أنه كان يحسّ بالرضى. فقد قام بواجبه، وكتب أسطراً إن لم يكن صفحات من تاريخ وطنه. ولعله ظن أن أسوأ ما يمكن أن يحدث له، هو أن يقضي بقية سنواته

سفيراً إلى أن يصل سن التقاعد. ولكن هيهات.

فرح الناس بالصادق المهدي، وكنت من جملة الفرحِين. قلنا إذا كان الأمر أمر تعليم، فهذا رجل تعلم في جامعة أكسفورد. وما أدراك ما جامعة أكسفورد. وإذا كان المطلوب هو التجربة والخبرة، فهذا رجل أتته رئاسة الوزارة منقادة إليه تجرجر أذيالها وهو لما يتجاوز الثلاثين. وإذا كان المعوّل على «العصبية» كما وصفها ابن خلدون، فهذا رجل سليل أئمة ووريث حكم. أضف إلى ذلك بسطة في العقل والجسم، وطلاقة في اللسان ونصاعة في البيان. وهو بعد مهذب كريم «أخو إخوان» مثل سائر السودانيين.

في تلك الأيام كنت أزور السودان، فأصرَّ رجل «محب» للصادق المهدي أن يجمعني به. قلت له «يا أخي ما لي ولهؤلاء الحكّام؟ إنهم في واد وأنا في واد».

اتفقنا أن نصلي معه صلاة المغرب في داره في أم درمان، قبالة دار الإذاعة. ولما وصلنا، وجدنا أنه قد اتصل بالتلفون من مقر رئاسة الوزارة، واعتذر بأنه سوف يتأخر، لأن المجلس كان مجتمعاً ذلك المساء في أمر هام.

وجدت داراً بسيطة كدور كثيرين من الميسورين في أم درمان، لم يكن فيها أي مظهر للبذخ أو الترف. كانت داراً واسعة، عامرة ومأهولة. وقد لاحظت وأنا أتوضأ أن «حنفية» الماء مكسورة. فقلت لزوجة رئيس الوزراء:
«حتى أنتم حنفية مائكم مكسورة؟».
فأضحكها ذلك.

صلينا صلاة المغرب، أنا وصاحبي، وكانت تلك أول مرة أصلي فيها في دار رئيس وزراء.

جاءت لنا زوجته «ساره»، وهي سيدة ذكية لطيفة، بالشاي و«الكيك». وجاءت ابنته وسلّمت علينا. ثم لم يلبث أن لحق بنا السيد رئيس الوزراء.

لقد عرفته في لندن حين كان طالباً في جامعة أكسفورد. كان تلك الأيام مثل «كاسيوس» كما وصفه شيكسبير في مسرحية «يوليوس قيصر». ثم عملت معه فترة وجيزة عام ١٩٦٦ حين كان رئيساً للوزراء ووزيراً للإعلام وهو لما يتجاوز الثلاثين. ثم ها هو الآن بعد نحو عشرين عاماً. هو هو، لم يتغيّر كثيراً. أدبه الجم نفسه ودماثته المعهودة.

رأيت وجه صاحبي يضيء بمحبة خالصة، وأنا كلما أرى وجوه المحبين أحسّ بالشفقة. في حجتنا تلك مع أحمد مختار أمبو، رأينا رجلاً في «منى» ينكب على يدي شيخ يقبلهما ويبكي. قلت للطاهر مختار:
«أرجو أن يكون هذا الشيخ أهلاً لمحبة هذا المريد».

جلسنا نشرب الشاي ونأكل «الكيك»، وكان الصادق المهدي كعهده دائماً، مهذباً لطيفاً جم التواضع.

قال لي صاحبي، الذي كان يستمع إلى كل كلمة يقولها الصادق المهدي، كأنه يشرب ماء سلسبيلاً في يوم قائظ:
«انصح السيد رئيس الوزراء».

ضحكت، فقد تذكرت كيف أن الناس كانوا يقولون في مجالس خلفاء العباس «عظ أمير المؤمنين». ومن أنا حتى أنصح السيد رئيس الوزراء؟

قلت لصاحبي:

«لا بد أن السيد رئيس الوزراء قد استمع إلى نصائح كثيرة من أناس كثيرين. ولا أظنه في حاجة إلى مزيد من النصح».

ثم، كأنما عمداً، وجهت الحديث إلى الأشياء العملية الصغيرة، كما يفعل عامة الناس. وقد أحسست أن السيد رئيس الوزراء، كان يؤثر أن يتحدث على مستوى أعلى. وأنا لا أبالي أن أخوض في غمار الفكر مع الخائضين، ولكنني كنت قد قضيت أياماً في السودان ورأيت طوابير البنزين والخبز، ولمست انقطاع الماء والكهرباء، وعانيت من صعوبة المواصلات واستحالة السفر من مكان إلى مكان.

وخرجنا من عنده، وكان صاحبي يهوِّم في سبحات من المحبة الخالصة. وأنا أيضاً كنت حسن الظن في الصادق المهدي، أؤمل فيه خيراً كثيراً. لكنني لم أقع أسير جاذبيته كا فعل صاحبي وقلت لنفسي:

«هذا رجل اجتمعت له كل مقومات الزعيم الكبير. ومع ذلك... مع ذلك... مضى رجال الأحزاب يخبطون خبط عشواء. وكأن انتفاضة رجب المباركة لم تحدث، وكأن ما كان طوال سبعة عشر عاماً لم يكن، وكأن الزمن رصيد لا ينفد يبددونه كيف شاءوا.

ثم، كما كان حتماً أن يحدث، استيقظوا ذات صباح، فإذا الجيش قد ربط خواصر الجسور وأغلق أفواه الطرق، وإذا الصحف معطلة، والبرلمان موصد، والأحزاب محظورة، وإذا هم داخل السجون.

وهنا تنتهي قصة صاحبنا إبراهيم طه أيوب، التي بدأت معنا في «دلهي» عام ثمانين وتسعمائة وألف، فقد أحالوه إلى التقاعد، بين عشرات رأى العهد الجديد أن مصلحة الوطن تقتضي إحالتهم إلى التقاعد.

إنني أتذكر الآن عبد الرحمن سوار الدهب، والناس مجتمعون عليه في خيمته في «منى». وأتذكر أحمد مختار أمبو ونحن في الحرم النبوي الشريف في صلاة العصر، وأتذكر الصادق المهدي، يتحدث حديثه المهذب في داره في أم درمان بعيد صلاة المغرب، وأتذكر فضيلو ضيوف، رحمه الله، وعيناه تدمعان، وأنا أودعه إلى غير لقاء في الطائرة في جدة.

أما صاحبنا الجديد في الخرطوم، فلا بد أنه هو أيضاً كريم مهذب أخو إخوان. لئن كان حقاً تقياً ورعاً كما يقال، فالبدار! البدار!

مباني كلية «قولد سمث» في منطقة «نيوْ كروسْ» العمّالية في جنوب شرقي لندن، مثل البنت الجميلة التي تستغني بشبابها عن الحُلي والثياب الغالية. عُطْل من الأبهة التي تقْحمك في مباني الجامعات العريقة، مثل «أكسفورد» و«كيمبردج». تلك مؤسسات قامت في عهود الإقطاع وغلبة الطبقة الأرستقراطية والكنيسة، ففي معمارها أصداء من ذلك، إنما جامعة لندن فهي وليدة علوّ نجم الطبقات العاملة، وكلية «قولد سمث» خاصة، يرتبط تاريخ مولدها ونشأتها بالتحوّلات الاجتماعية الكبيرة التي تعرّض لها المجتمع البريطاني منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم.

مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية، وهي أشهر كليات جامعة لندن، أنشأها «سدني وبْ». كان أرستقراطياً، ولكنه انحاز مثل كثيرين من تلك الطبقة إلى صفوف غمار الناس. أنشأوا جمعية الفابيانيين التي

كانت في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن بمثابة العقل الذي غذّى حزب العمال بالفكر. انضم إليهم الكتّاب أمثال «بيرنارد شو» والعلماء أمثال «برفّسور توني» العتيد، وكان «سدني وب» وزوجته «بياترْسْ وبْ» من أقطاب الفبيانيين، وقادة الرأي في حزب العمال.

أيضاً كان «سدْني وبْ» أحد الذين رعوْا كلية «قولْدْ سمـثْ» منذ بدايتها المتواضعة، في عام ١٨٩١ اشترت شركة «قولد سمث» التجارية بخمسة وعشرين ألف جنيه، مباني كانت تستعملها البحرية البريطانية في أغراض التدريب وأنشأوا معهداً حدَّدوا هدفه:

«تنمية المعرفة والقدرات الإبداعية ومنح الصحة والسعادة للشبان والشابات الذين ينتمون إلى الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة».

كان ذلك بلا شك، بدافع إنساني، ولكن أيضاً بدافع غريزة البقاء والمحافظة على الذات، فقد بدأت الطبقات المحظوظة في بريطانيا تحسّ أنهم إما أن يُعطوا الفقراء والمساكين من فضول أموالهم طواعية، وإما أن الطوفان الجارف للمطالبين بالعدالة الاجتماعية، سوف يغرقهم في وجهه.

ظلت الشركة تنفق على المعهد من مالها الخاص، وكانوا يؤملون أن يكون نواة لكلية جامعية تامة تستفيد منها مناطق جنوب شرقي لندن الفقيرة. وفي عام ١٩٠٤ قدموا المباني هدية لجامعة لندن مشترطين أن تظل تُستعمل في الأغراض التعليمية.

هذا الحلم لم يتحقق إلّا في عام ١٩٨٨، فبعد مفاوضات طويلة مع سلطات جامعة لندن، وجهود رجال ونساء أفذاذ نوّه بهم «برفسور

رزرفورد» في كلمته الافتتاحية ـ أخيراً «ميثاق ملكي» نص على أن تكون كلية «قولد سمث» (مدرسة)، أي كلية جامعية كاملة من كليات جامعة لندن.

فذلك الاحتفال كان مجموعة احتفالات كما قال العميد، ذلك الرجل الإسكتلندي الواضح، الذي تحس أنه يقول ما يعني ولا يبالي، وكان خطابه مزيجاً من الجد والهزل، والثناء والنقد، ووراء كل ذلك الحكمة في توخّي المصلحة العامة. ذكر أن الاحتفال يصادف ذكرى مرور مائة عام على إنشاء الكلية، وأنه أول احتفال بتخريج الطلبة، كما أنه احتفال بأن كلية «قولد سمث» قد أصبحت كلية جامعية كاملة. وأشاد بالدعم الذي قدّمه «لورد وايتْلو» للكلية، أثناء مفاوضاتها الطويلة مع سلطات جامعة لندن. وقد كان «لورد وايتلو» إلى وقت قريب نائباً لرئيسة الوزراء، وكان في نظر الكثيرين أحق من تلك السيدة برئاسة الوزارة. كذلك أثنى على «لورد فلَوَرْز» للمساعدة التي وجدوها منه، وقد كان رئيساً لجامعة لندن Vice Chancellor في الفترة التي كانوا يتفاوضون فيها مع الجامعة.

إلّا أن العميد لم يألُ في نقد سياسة الحكومة إزاء الجامعات، وخاصة في عهد «مسز ثاتشر»، وهي نغمة ظلّت تتردد في ما تلى من كلمات. ومعروف أن «مسز ثاتشر» ضيّقت الخناق على الجامعات وقتّرت أشد التقْتير في الدعم الذي تقدّمه الحكومة لها. ذلك أثار حفيظة الأكاديميين، وهم أصلاً بحكم تقليد قديم لديهم، لا يكونون على وفاق مع الحكومات خاصة حكومات المحافظين.

في هذا السياق، نوّه «برفسور رزرفورد» بالخدمة الأكاديمية

والاجتماعية المميزة التي تؤديها كلية «قولد سمث»، وقال إن بها اليوم ثلاثة آلاف وخمسمائة طالب وطالبة يتلقون العلم في شتى فروع المعرفة، جاءوا من لندن ومن بريطانيا عامة، ومن أماكن كثيرة في العالم. هذا بالإضافة إلى أربعة آلاف طالب وطالبة في فصول «الدراسة المستمرة». وقال إن الكلية حافظت على دورها القديم في تدريب المعلمين وفي تدريس الفنون، وقال إن بها أكبر قسم لتدريس الفنون في أي من جامعات بريطانيا.

فكّرت وأنا استمع إلى الكلمات، وما تزال ترنّ في أذني أصداء موسيقى «هانْدل» التي كأنما تهيب بحشد أن يُقْدم، قلت، هؤلاء أناس أحرار في بلد حر، كل واحد واثق من نفسه وواثق من انتمائه لوطنه، مؤمن بأهمية العمل الذي يقوم به، لا يحس أنه أقل من الوزراء أو رئيس الوزراء. كل واحد يقول بأمانة، في حدود اللياقة والكياسة ما يرى أنه الصواب. إن عاجلاً وإن آجلاً تتلاقى الأفكار وتتفاعل، وينتج فكر متجانس يرضى به الناس ويترجمونه إلى عمل، الهدف هو المصلحة العامة، ولا هدف سواه.

وفكّرت في السودان المسكين الذي أناخوا عليه بكلكلهم منذ أمد. كل يجيء بخيْله وخُيَلائه ينادي بالإصلاح، ثم يذهب، فهم يذهبون ثَلَّة ثلّة طال الزمان أو قصر. وتتلفّت حولك فلا تجد إلّا الخراب. هؤلاء قرروا الآن ضربة لازب أن يفتحوا جامعات جديدة، في كسلا وفي عطبره وفي شندي. الله أعلم أين. أسموا ذلك ثورة تعليمية. في أثناء ذلك خرّبوا الجامعات القائمة أصلاً. خرّبوا جامعة الخرطوم العريقة فهجرها أساتذتها واصفرّ عُشب ميادينها. وقرروا أيضاً كما ينطلق السهم الطائش وخلاف ما نصح به العارفون، أن يُعربّوا التعليم في الكليات العلمية مثل الطب والهندسة والزراعة،

علماً بأن هذه قضية معقدة لم يبت الخبراء في أمرها بعد، في منظمة اليونسكو وفي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. عرِّبْ التعليم يا هداك الله، ولكن خُذ الأهْبة واسْتعدّ الاستعداد.

إنما هكذا، فإنك سوف تملأ البلد حمَلة شهادات لن ينفعوك ولن ينفعوا البلد.

قارنْ يا أصلحك الله بين عَجَلة أصحابنا أولئك، وبين حكمة هؤلاء القوم. انتظروا أكثر من تسعين عاماً حتى يجعلوا كلية «قولد سمث» كلية كاملة بنص عهد ملكي، في نطاق جامعة لندن. أما كان باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك بين غمضة عين وانتباهتها حسب هذه الأساليب «الثورية»؟ وهم عندهم المال والعدّة والعتاد؟

هل قلت الحكمة؟ بلى، لعلّهم أكثر حكمة منا.

■ ■ ■

الله أعلم ماذا حدث لتلك السيدة الجميلة الوجه التي أَوْفَتْ على الثمانين؟ لقد عرَفَتْني وابتسمتْ لي ذات يوم في مطار الخرطوم الحزين؟

من نواحي رُفَاعة أو الكامْلين. أو لعلَّها منْ جهة أبعد شمالاً أو جنوباً. من «الجنَينة» أو «سنَّار» من «المتمّة» أو «الفَدَّار». عرفتْني لأنني أحببتها وأنا بعد طفل يقعد ويقوم، وحملتُ حبها وطوّفت به في الآفاق. ثم ها أنذا وقد تداعى البنيان وتزعزعت الأركان.

لم تجدي قبراً يسترك في ذلك البلد الطويل العريض، أجْبروك على النزوح وقد حقَّ لك أن تستقري وتستريحي. لعلّك تموتين وتدفنين في بلد بعيد، في أرض ليست أعْطانك(*) وجيرةٍ ليسوا جيرانك. لك الله. والثورات تشبّ وتخمد، والعهود تجيء وتذهب.

* * *

نعم. قلتُ إن ذلك الاحتفال أثارني وحرّك أشجاني، خصوصاً حين جاء وقت منح الزمالات الفخرية التي تعادل الدكتوراهات الفخرية في جامعات أخرى. خمسة رجال، كل واحد منهم بلغ شأواً في ميدانه، وكل واحد منهم قدّم خدمة من نوع ما لكلية «قولْد سمثْ».

ينادي الرئيس باسم الشخص الذي اختاروه للتكريم، فيقوم من مقعده ويقف متجهاً بوجهه إلى الجمهور في القاعة. وينادي الرئيس على اسم رئيس القسم الذي رشحه، فيقوم ويأخذ في تقريظ الرجل وبيان الأسباب التي جعلت الكلية تمنحه زمالتها الفخرية.

الموسيقي البارز «جاكْ برايمْر» حامل وسام الأمبراطورية OBE، ومن أشهر عازفي آلة «الكلارنتْ» في المملكة المتحدة. ترجع صلته بكلية «قولد سمث» إلى عام ١٩٣٣ حين التحق بها ليتدرب ليصبح مدرساً للموسيقى. كان يعزف مع فرقة معهد الدراسات المسائية، وكان أيضاً يلعب الـ «رقْبي» مع فريق الكلية، ومثّل كلية «قولْد سمث» في مباريات جامعة لندن.

(*) أَعْطانُ الإبل، مرابعها.

عمل مدرّساً فترة، وحين شبّت الحرب انضم إلى سلاح الطيران. وفي عام ١٩٤٧ اختاره «سير توماس بيتْشام» عازفاً في فرقة «الفلْهارمونكا الملكية» التي كانت قد أنشئت لتوّها. لمع اسمه كواحد من أبرز عازفي الكلارنتْ في بريطانيا، وأصبح عازفاً أول في الفرقة السيمفونية لهيئة الإذاعة البريطانية، وأستاذاً في الأكاديمية الملكية للموسيقى.

إلى جانب اهتمامه بالموسيقى الكلاسيكية، اهتم بموسيقى الجاز، وعزف مع فرق بريطانية وأمريكية. وقد أدى دور «السولو» للكلارنت أوائل هذا العام في الحفل الموسيقي الذي قدمته فرقة كلية «قولد سمث» في ذكرى عيدها المئوي، وعزفت فيه كُنْشرْتو موزارْ، التي صادف أن مضى عليها هي أيضاً مائة عام منذ تأليفها.

فكرتُ في قومي رعاهم الله، غربيَّ وشرقيَّ السُّويس، وإلى الشمال منه والجنوب، حيث «الأسْوأ مثل الأفضل» كما قال أحد شعراء هؤلاء القوم، (ردْيارْد كبْلنجْ). ذلك، والرجل المحتفَى به يستمع الثناء عليه في استحياء. رجل ربعة القامة في السبعين أو يزيد، ولكن كأنه في الخمسين، أقرب إلى هيئة لاعبي كرة الـ (رقبي) منه إلى الموسيقيين. ولما فرغ الخطيب من تزكيته، اتجه نحو الرئيس، وانحنى كل منهما للآخر، انحناءة لم تأخذْ غير ثوانٍ، ولكنها كانت حافلة بالمعنى. صافحه الرئيس وسلّمه براءة زمالته الفخرية.

ثم.. الرايتْ أُنَربُلْ لورد فلوَرْز، زميل في الجمعية الملكية، وعضو مجلس اللوردات. وقف رجل مديد القامة، فوق السبعين ولا بد، ويبدو أصغر سناً. أخذ يصغي إلى رئيس قسم العلوم يعدّد مناقبه، بانتباه وسعادة كأنّ ذلك أعظم شرف يناله في حياته، رغم أنه نال أمجاداً كثيرة من قبل.

عالم «فيزيائي» خدم في جامعتي «بيرمنجهام» ومانشستر»، كما عمل في قسم الأبحاث الذرية في «هارْول». وفي عام ١٩٧٣ أصبح رئيساً للكلية الأمبراطورية للعلوم، وهي من أشهر معاهد تدريس العلوم في العالم. ثم صار رئيساً لمجلس البحوث العلمية، ورئيساً لمعهد الفيزياء. وتوّج حياته الأكاديمية بأن صار رئيساً لجامعة لندن. في تلك الفترة، كان له دور كبير في نجاح المفاوضات بين كلية «قولد سمث» والمجلس الأعلى لجامعة لندن، وجعْل الكلية «مدرسة» كاملة في نطاق الجامعة.

بعد تقاعده، أصبح له دورْ فاعل في مجلس اللوردات، الذي اختاره رئيساً للجنته المختارة لدراسة أوضاع العلوم والتكنولوجيا، كما ظل منذ عام ١٩٧٨، رئيساً لمؤسسة «نفيلدْ» الخيرية.

ولم ينسَ الخطيب أن ينوّه بالدور الذي يلعبه «لورْد فَلَورز» على نطاق القارة الأوروبية، مثل عُضويته للأكاديمية الأوروبية، وأنه يحمل وسام الشرف من فرنسا.

كيف لم يَنؤْ كاهل هذا الرجل تحت ثقل الأمْجاد التي يحملها والأعباء التي نهض بها؟ يحق له الآن أن يرتاح. يأوي إلى مزرعته في الريف، يُربّي الأبقار ويلعب الـ «جولْف» ويقرأ روايات «أقاثا كريستي». لكن هذا لن يحدث. هو الآن في قمة نضجه العقلي، وسوف يحمّلونه أعباء أكثر في خدمة المجتمع. أناس أحرار في بلد حرّ، وكلٌ يعطي حسب قدرته على العطاء، لا يمنعه عن ذلك إلّا حدود موهبته.

كَمْ من الرجال والنساء ـ قلتُ لنفسي ـ حيلَ بينهم وبين خدمة

أوطانهم وهم في ذرْوة العمر؟ ضباط في الجيش قُتلوا أو سجنوا أو أُحيلوا للتقاعد؟ معلّمون أرغموا على ترك وظائفهم؟ سفراء أستُغني عن خدماتهم ظُلماً فتحولوا إلى تجار، موظفون أنفقوا زهرة أعمارهم في الخدمة المدنية فأُلقي بهم كما تُلقَى القمامة. أساتذة في الجامعات اضطروا إلى الهجرة اضطراراً فتشتّتوا شرقاً وغرباً.

أكثر ما حدث في هذا السودان المسكين، ذلك البلد الغني الفقير، العظيم الصغير. وكل ذلك بسبب هؤلاء «الزعماء» النجباء، الأذكياء الأغبياء، الذين يتوهّمون أن إرادة الله قد اختارتهم ليكتبوا الصيغة النهائية في سِفر التاريخ.

من الذي يبني لك المستقبل يا هداك الله، وأنت تذْبح الخيل وتُبْقي العربات، وتُميتُ الأرض وتُحيي الآفات؟

المستقبل لن يجيء على صورة محدَّدة. أمَا علّموك ذلك في جامعات لندن وهارْفرد والسوربون؟

الأوطان لا يبنيها رجل واحد ولا حفْنة رجال، مهما بلغ منهم الإلهام والعبقرية، ولكن يبنيها مئات الآلاف من الرجال والنساء. ناس أحرار في وطن حرّ. كلٌّ يعطي على طريقته وقدْر استطاعته. المستقبل بيد الله، المفتاح ليس بيدك، وأنت لا تدري ويمنعك الغرور والكبرياء أن تعترف أنك لا تدري.

١٤

هل السماء ما تزال صافية فوق أرض السودان أم أنهم حجبوها بالأكاذيب؟

هل مطار الخرطوم ما يزال يمتلىء بالنازحين؟ يريدون الهرب إلى أي مكان، فذلك البلد الواسع لم يعد يتسع لهم. كأني بهم ينتظرون منذ تركتُهم في ذلك اليوم عام ثمانية وثمانين. يُعلَن عن قيام الطائرات ولا تقوم. لا أحد يكلّمهم. لا أحد يهمه أمرهم.

هل ما زالوا يتحدثون عن الرخاء والناس جوعى؟ وعن الأمن والناس في ذُعر؟ وعن صلاح الأحوال والبلد خراب؟

جامعة الخرطوم مغلقة، وكل الجامعات والمدارس في كافة أنحاء السودان. الخرطوم الجميلة مثل طفلة يُنيمونها عُنوة ويُغلقون عليها

الباب، تنام منذ العاشرة، تنام باكية في ثيابها البالية، لا حركة في الطرقات. لا أضواء من نوافذ البيوت. لا فرح في القلوب. لا ضحك في الحناجر. لا ماء، لا خبز، لا سُكّر، لا بنزين، لا دواء. الأمن مستتب كما يهدأ الموتى.

نهر النيل الصّبور يسير سيره الحكيم، ويعزف لحنه القديم. (السادة) الجدد لا يسمعون ولا يفهمون. يظنون أنهم وجدوا مفاتيح المستقبل. يعرفون الحلول. موقنون من كل شيء. يزحمون شاشات التلفزيون ومكرفونات الإذاعة. يقولون كلاماً ميتاً في بلد حي في حقيقته ولكنهم يريدون قتله حتى يستتب لهم الأمن.

من أين جاء هؤلاء الناس؟ أما أرضعتهم الأمهات والعمّات والخالات؟ أما أصغوا للرياح تهبّ من الشمال والجنوب؟ أما رأوا بروق الصّعيد تشيل وتُحط؟ أما شافوا القمح ينمو في الحقول وسبائط التمر مثقلة فوق هامات النخيل؟ أما سمعوا مدائح حاج الماحي وود سعد، وأغاني سرور وخليل فرح وحسن عطية والكابلي المصطفى؟ أما قرأوا شعر العباس والمجذوب؟ أما سمعوا الأصوات القديمة وأحسوا الأشواق القديمة، ألا يحبون الوطن كما نحبه؟ إذاً لماذا يحبونه وكأنهم يكرهونه ويعملون على إعماره وكأنهم مسخّرون لخرابه؟

أجلسُ هنا بين قوم أحرار في بلد حرّ، أحسّ البرد في عظامي واليوم ليس بارداً. أنتمي إلى أمة مقهورة ودولة تافهة. أنظر إليهم يكرمون رجالهم ونساءهم وهم أحياء، ولو كان أمثال هؤلاء عندنا لقتلوهم أو سجنوهم أو شرّدوهم في الآفاق.

من الذي يبني لك المستقبل يا هداك الله وأنت تذبح الخيل وتبقي

العربات، وتميت الأرض وتحيي الآفات؟

الدكتور «إدْون كير» .C.B.E، كان حتى عام ١٩٨٦ رئيساً للمجلس القومي لتقييم الدرجات الأكاديمية، وهو مجلس أنشيء بميثاق ملكي عام ١٩٦٦ لمنح الدرجات الجامعية للذين يدرسون في معاهد غير الجامعات، وإليه يرجع الفضل أن الفوارق بين الجامعات والمعاهد الفنية Poly-technics قد ألغيت وأصبحت هذه المعاهد تمنح شهادات جامعية معترفاً بها. منحوه الزمالة الفخرية لهذا ولأنه ساعد في تذليل العقبات كي تصبح كلية «قولد سمث» مدرسة كاملة في جامعة لندن.

بروفسور «كارل ويت» حامل نوط الأمبراطورية البريطانية وعضو الأكاديمية الملكية، رسام، يسمونه «أبا» الفن الحديث في بريطانيا. تعلم الرسم في كلية «قولد سمث» عام ١٩٣٣. عمل مدرساً في الكلية الملكية للفنون حيث صار أستاذاً عام ١٩٥٧ إلى أن تقاعد عام ١٩٧٣. قال عميد الكلية في تزكيته:

«إن منح الزمالة الفخرية لهذا الابن النابه من أبناء كلية «قولد سمث» يدل على عمق فخرنا به وأيضاً على السمعة التي كونتها الكلية أنها المعهد الأول لتدريب الرسامين في بريطانيا».

الرايت أُنْرَبل فايكاونت (وايتلو). اسكتلندي. حامل نيشان الأمبراطورية من طبقة فارس. زميل شرف. يحمل درجة الدكتوراه في القانون. عضو في مجلس مستشاري الملكة. تخرج من جامعة كيمبردج. نال وسام الشجاعة لحسن بلائه في الحرب العالمية الثانية. انتُخب نائباً في مجلس العموم عام ١٩٥٤. عمل وزيراً للتجارة

ووزيراً للمالية ووزيراً لشؤون إيرلندا الشمالية. انتخب عام ١٩٧٥ نائباً لرئيس الحزب وأصبح نائباً لمسز ثاتشر رئيسة الوزراء. في عام ١٩٨٥ دخل مجلس اللوردات وأصبح «زعيماً» للمجلس. في عام ١٩٨٨ ترك الحياة السياسية باختياره ولكنه لم يختفِ من الحياة العامة، فقد صار بحكم سنه وتجربته السياسية الطويلة أحد الحكماء الذين يلجأون إليهم في الملمات. سوف يعيش باقي عمره معززاً وحين يموت، سوف يموت قرير العين في فراشه، تكتب صحيفة الـ «التايمز» صفحة كاملة في تأبينه. وكل الصحف. سوف تقام الصلاة على روحه في «ويستمنستر آبي» وتعاد طباعة مذكراته وتصدر كتب عن حياته. سوف يحتل مكانه الذي يستحقه في سجل تاريخ الأمة، ويصبح جزءاً من المثلوجيا القومية التي تعمل في وجدان الشعب وتنتقل من جيل إلى جيل.

هل حرائر النساء من «سودري» و«حمرة الوز» و«حمرة الشيخ» ما زلن يتسولن في شوارع الخرطوم؟

هل ما زال أهل الجنوب ينزحون إلى الشمال وأهل الشمال يهربون إلى أي بلد يقبلهم؟

هل أسعار الدولار ما تزال في صعود وأقدار الناس في هبوط؟ أما زالوا يحلمون أن يقيموا على جثة السودان المسكين خلافة إسلامية سودانية يبايعها أهل مصر وبلاد الشام والمغرب واليمن والعراق وبلاد جزيرة العرب؟

من أين جاء هؤلاء الناس؟ بل - من هؤلاء الناس؟

١٥

لماذا الجزع يا قلبي؟ أما ودّعت الأحباب من قبل؟ أنسيت أن الموت أقرب إليك من حبل الوريد يجيئك من حيث لا تحتسب؟ كأنك تمنّيت أن يبقى بعدك، يرثيك ويترحم عليك. كان أوثق صلة بربه، وأصفى روحاً، وأبلغ دعاء، فيا ليته ظل، وأنت ذهبت ـ ولو كان الموت يقبل المُفاداة، لكانت تلك قسمة عادلة.

إنما الله قاهر فوق عباده، ومشيئته لا تردّ، فالحمد لله.

جاءك الخبر الفادح على غفلة، فزعزع أركانك. واحسرتاه. من لي بعدك بتلك الابتسامة المضيئة، وذلك الوجه الرضي، كأنه مرآة مجلوّة تعكس دخيلة قلب يفيض بالخير والمحبة وتقوى الله؟

كان تاج السر محمد نور، أخي وصديقي، ابن عمتي وصهري من

بقية النفر الأبرار الذين مشوا على الأرض هوْناً، ونادتهم الحياة ونادوها بلسان المحبة. الأصفياء الذين صابروا ورابطوا في الحمى، وظلت نيرانهم موقدة. ولد في السرّاء فلم تبطره السَّراء، وحين تحول الزمان لم يأسَ على تحول الزمان، مثل الجبل الأشم، يمر به السحاب وتهب الأعاصير.

ما أوسع الحزن وما أضيق الكلمات، وهذا عِدلُ نفسي بحق. ألا يعزّيك أن تعلم أنه رحل عن الدنيا قرير العين راضي النفس؟ أما كان دائماً كأنه على أُهبة السفر؟ لم يتريث للوداع. لم يلوح بيده. لم يتلفت وراءه. كان ذاهباً إلى لقاء ربه في صلاة الجمعة. مقبلاً إليه بكلّيته، على أهبة الاستعداد للسفر. في الطريق ثمة، ناداه الصوت الذي تبعه منذ البدء. استجاب له ببساطة، بلا جلبة ولا ضوضاء، كان مقدّراً أن يتم الأمر على هذه الصورة، فقد عبَد الله في خِفْية.

عبَد الله بخشية وخفْية، فلا تكاد تعرف طول عبادته. ولكن سرَّه كانت تفضحه الأنوار التي تلمع على وجهه.

نشأنا معاً منذ طفولتنا، فقد كنا من سن واحدة، يصغرني بعام. كان الزمان جميلاً، فتقاسمنا حلاوة الزمان. وحين تغير الزمان، كان بعضنا يشدّ أزر بعض فلم نكترث لتغير الزمان. أولئك إخوتي في العهد الأول، هو وعلّوب وسيد إبراهيم عباس مدّ الله في أعمارهم.

وكان هو أسرعنا بَذْلاً، وأصدقنا قولاً، وأمضانا عزيمة، وأرجحنا عقلاً وأكثرنا مرحاً، وأصبرنا على الشدائد.

كانت فيه غبطة وفرح داخلي، كأنه يتكتّم نبأ ساراً. وتلك السكينة

لأنه أبداً لم يجرب الإحساس بالذنب. ومن أين يجيئه الإحساس بالذنب؟ نشأ في طاعة الله. أطاع الله ببساطة، وكأنه لا يبذل جهداً، وكأن سبل الحياة المحيرة قد سدّت كلها عليه، وانفتح أمامه طريق واحد، هو طريق الخير والصلاح، فسلكه، وظل يسير فيه إلى لقائه الموعود بربه يوم الجمعة.

من أين يجيئه الإحساس بالذنب؟ لقد أوفى بالعهود كلها وأكثر. برّ بأبويه ووصل أرحامه، ورضي عن الناس ورضوا عنه. استقبل القادمين وودّع المسافرين، وعاد المرضى ودفن الموتى. وفَى بنصيبه ونصيبي أيضاً. يسد كل ثغرة أغفلتُها، وينهض بكل واجب تركته يقْبلُني على علاّتي ويغضّ الطرف عن هفواتي.

رجل ثابت في زمان متقلّب. كنتُ أغيب العام والعامين، وحين أعود أجده كما عهدته دائماً. داره تتسع قليلاً، وأثاث بيته يتحسن قليلاً، إنما أبداً لا تجد عنده آثار نعمة طارئة أو ثروة مفاجئة. والدار أبداً عامرة بالناس، عشيرته وأصدقاؤه، لا يكادون يتغيّرون على مرور السنين.

عمل في مصلحة الجمارك وهو دون العشرين من عمره، وظل يَرْقى الدرجات بفضل إخلاصه وجدّه وذكائه الخارق، وتلك العناية الإلهية التي كان تقود خطاه، حتى وصل إلى أرفع المناصب، وأصبح من قلّة يُضرب بهم المثل في الكفاءة وعفة اليد. كان يقول إنه قطع عهداً على نفسه ألا يطعم عائلته من المال الحرام، وما كان أكثر المال الحرام.

ظل من الصابرين المرابطين في الحمى. مرة سافر إلى بعثة دراسية في معهد الجمارك في الإسكندرية. ومرة ذهب مُعاراً من حكومة السودان إلى اليمن. وخرج مرتين لأداء فريضة الحج. غير ذلك لم

يبرح السودان أبداً. وأنا وأمثالي نضرب في البلاد ونجوب الآفاق.

شجرة وارفة تتفيأ ظلالها وتأكل من ثمارها. تجلس إليه فتغرف من نبع لا ينضب. كان قوي الذاكرة بشكل عجيب، يحفظ القرآن والحديث والشعر الفصيح وشعر الدوبيت والتاريخ والأنساب والمُلَح والطرائف. يغمرك بروحانيته، وينسيك عَنت الحياة. يجعلك تحسّ أنك أفضل مما أنت في الحقيقة. تحس أن مجرد وجوده في الدنيا يجعلها أكثر خيراً وأقل عُدْواناً.

رجلٌ مصباحٌ، يكون قُدوةً ويُضرب به المثل، جاد به الزمان في لحظة من لحظات أريحيته النادرة، فرفّ مثل طيف جميل، مثل الغيث في الربيع، ثم مضى على عجلٍ ويا للحسرة، ولما استرد الخالق وديعته، فكأن الزمان عاد بخيلاً كعهده. رحيله ورحيل الصالحين أمثاله، علامةٌ كما جاء في الأثر.

مضى إلى حياة أفضل إن شاء الله، مع الصدّيقين والأبرار. وأنا لي الله. لأنه أغنى حياتي بحياته، وأفاض عليَّ من بركاته، فإنه برحيله قد أفقرني جداً، وتركني أقل مما كنت. وأنا قليل أصلاً في ميزان الحق.

أُفٌّ للدنيا. تعطيك هباءً يحسبُهُ الناس هبَات. والذي تحبه يذهب ولا يعود. ولا عزاء.

رحم الله تاج السرّ محمد نور.
وصبرٌ جميل والله المستعان.

كانت (سواكن)، على الشاطىء الغربي للبحر الأحمر، توأم (جدة). عاشت حياة حافلة، دامت أكثر من ألف عام، ثم ماتت. قتلها الإنجليز ـ عمداً على الأرجح، فقد كانت مدينة عربية إسلامية، في ناسها ومعمارها وخفقان قلبها. لم ترحّب بالغزاة المستعمرين، بل صعّرت لهم خدّها، ونفرت منهم نفوراً بيّناً. وكأن ذلك أدهشهم، فالمتسلطون، سواء جاءوا من الداخل أو من خارج الحدود، يفرضون وجودهم بقوة السلاح، ويمشون فوق رقاب الناس، ويتوقعون أن يحبهم الناس. سبحان الله.

أهلُها كانوا خليطاً من سودانيي الشرق وسوداني الداخل، واليمنيين خاصة الحضارمة، والحجازيين والمصريين والشُوام والهنود والإثيوبيين والإرتريين. كان فيها أيضاً الأتراك والأفغان والفرس. ومن الأوروبيين، وفد إليها بالطبع اليونان والطليان.

توافد عليها الناس من أطراف الأرض، سعياً وراء الرزق الحلال وتحسين الأحوال. من بلاد الهوسة والبرنو والفلاني وشنقيط وديار المغرب. وكما يحدث دائماً حين تتجمع هذه الأخلاط في ظل الرفاهية والحرية، فإن (حضارة) جميلة جذابة نشأت. وقد ضربوا المثل على ازدهار (سواكن) وغُلو شأنها، أن ثرياً من أثريائها واسمه (الشناوي) بنى قصراً له حجرات بعدد أيام السنة وقد صمم بحيث كانت الشمس تشرق على كل حجرة في يوم معين على التوالي، على مدار السنة.

كان بالإمكان إنقاذها حين رحل الإنجليز، فقد كان فيها بقية رمق، ولكن الحكومات الوطنية راحت تفكر وتقدر وتماطل وتسوّف، إلى أن فاضت روحها تماماً وتحولت إلى أطلال يندب فوقها الشعراء، ويقصدها علماء الآثار وعشاق فن العمارة الإسلامية.

قتلها الإنجليز بحجة أن ميناءها ضحْل، وأقاموا ميناء جديدة عند قرية تسمى (محمد قول)، وسموها (بورسودان) كعادتهم في تمويه الأسماء. لكن المدن العريقة لا تموت كلية. تحولت (سواكن) إلى أسطورة مثل طيبة وطروادة وبمبيي وقرطاج. تطايرت أجزاؤها في الواقع والخيال، انتقل بعض أهلها إلى الخرطوم وأم درمان وإلى مدن الجزيرة والغرب، فأحيوها وأضافوا إليها. ومنهم من نزح إلى جدة وبورسعيد وعدن وزنجبار، وبعضهم رحل إلى الميناء الجديدة.

إنما هذه ظلت أسيرة مولدها، فلم تستطع أبداً أن تصير (مدينة) مثل سواكن، أو أن تصنع مثلها حضارة. ازدهرت في بعض السنوات واتسعت، ولكنها ظلت مثل مخيم مؤقت قد يرحل سكانه في أية لحظة. وهي اليوم مدينة بائسة، تصوّر بؤس القطر بأسره. الحركة في

الميناء همدت، والقطارات التي تجيء من داخل القطر، لا تصل إلّا بشق الأنفس. ينضب ماؤها، وتنقطع كهرباؤها. اللهم إلّا الطريق الذي شقه النميري بمساعدات من دول الخليج، والمطار الذي برّتها به أختها (جدة). ويا للعجب لهؤلاء (الجماعة)، يأخذون هبات أهل الخير، ويشتمونهم. وقد أشرعوا لذلك سفهاء شتامين، الله يعلم من أين أتوا بهم.

حدّثني الدكتور سعيد السريحي وهو من جدة ثم هو من مكة أنه إذ هو طفل سمع جدته تغني:

رنـةْ جِـجِـلْ فـي (مـحـمـد قُـولْ)
وحـيـتـهـا فـي (ظُـبـى) عـنـدي
طـابـور عـسـاكـر مـاشـي حـول
جـاب الماهـيـة مـن الـهـنـد

لعل الأغنية أرادت أن تقول، إنه كان أسهل لهم لو (جابوا الماهية) من (محمد قول)، فهي أقرب شُقّة.

بورسودان أقرب إلى جدة، مما تكون بورسودان إلى الخرطوم، وتكون جدة إلى الرياض. وأسوان أقرب إلى الخرطوم، مما تكون أسوان إلى القاهرة، والقاهرة أقرب إلى دمشق مما تكون القاهرة إلى أسوان. هذه الحدود التي رسموها، تقوم في الخيال مثل حيطان من الإسمنت. لو استطعت أن تهدم هذه الحيطان، وتعيد تشكيل خرائط البلاد في خيالك، فسوف تجد عجباً.

لذلك لم يحتج الأمر مني إلى قفزة كبيرة في الخيال. وصلت من القاهرة على طائرة الخطوط السعودية. استقبلني الأستاذ محمد علي

قدس أمين نادي جدة الأدبي بوجهه البشوش. هل هذه أول مرة أزور فيها جدة؟ أبداً. زرتها مرات من قبل. زرتها حاجاً ومعتمراً وفي مهمات رسمية. شتاؤها رائق معتدل مثل بورسودان وبلاد الخليج. صيفها خانق رطب. ولا أذكر لها ربيعاً ولا خريفاً.

يسمونها (العروس)، وهي كذلك بالفعل خاصة في الليل وخاصة في الشتاء. عروسنا هي (الأبيض) في الغرب، نسميها (عروس الرّمال). لها الله من عروس أصابتها سهام الزمان كما أصابت بقية أرجاء السودان. تتوهج رمالها الذهبية في ضوء الشمس، وهي كالمذهولة، تغفو وتنتظر الفرج.

أصحابنا هؤلاء ـ هداهم الله ـ قَلَوْا الأقارب والجيران، وأبعدوا مرماهم جداً، كما قال الشريف الرضي رحمه الله، (يجيبون الماهية) من الهند والسند. الأمر أهون مما تظنون، وأصعب مما تظنون. إنكم لن (تجيبوا رأس كُليب)، ولن (تجيبوا الهواء من قرونه). وليس فيكم عمر بن الخطاب، ولا عمر بن عبد العزيز، ففيم المكابرة؟ وكل هذا العناء (لأيش وعلى أيش)؟

١٧

اجتمع السودانيون في بريطانيا بالأمس لتأبين صلاح أحمد إبراهيم، ولم تكن تلك أول مرة، فقد أُبّن من قبل في أماكن أخرى. كان رحمه الله، من أكثر الشعراء إصْغاءً لدقات قلب الوطن. شدا في أفراحه، وبكى في أحزانه، وثار في ثوراته. لذلك لا تنزل اليوم بالوطن نازلة إلّا وجدت لها صدى في شعره، وكأنه حين نادى نداءه الشهير احتفالاً بثورة تشرين الأول/ أكتوبر، كان يحتفل بحدث ما يزال في طيّات الغيب:

هاتِ لي بوقيَ بوقَ العاج لا الآخرَ
واسبقني إلى الساحة خبِّرْ صاحب الحانة
أن يرفَع لي الراية.

اتضح وشيكاً، أن الاحتفال كان سابقاً لأوانه، وأن الفجر لم يطلع

بعد. لعله يطلع الآن، فقد لاحت بشائره. شاخصة إليه أبصار الرجال والنساء، المرابطين في الأرض، والمصابرين في المنافي.

يصلنا صوته من وراء الغيب، في جمهرة أصوات الشعراء منذ البنّا والعباسي وتوفيق صالح جبريل وأحمد صالح والتّنيْ والنّاصر قريب الله وجمّاع ومحمد عبد الحي والمحجوب والمجذوب، وكل الذين صدحوا بالعامية والفصحى، في التغنّي بوطن هو الآن مهدّد بالزوال.

نسمع الصوت، وكنّا قد سمعناه من قبل، حين كان الشاعر موجوداً بيننا، لكن الموت قد أضاف إليه الآن كآبة وعُمقاً وغرابة فكأننا نسمعه لأول مرة:

باللّه يا نجوم كيف حال إخوتي؟
وكيف حال رفقتي، وكيف حال شعبيَ العظيم؟
شعبي الذي أحببتهُ حبّ الذي قد عشقا.
كيف تراه الآن، هل تراه بات جفنه مؤرّقا؟
وهل تراه بات حبلُ شمله ممزّقا؟
وهل تراه بات في السّجن القَوا ومرهقا؟
وهل تراه واجه النّيران مثل يوم (كررِي) فاحترقا؟

نعم يا رحمك الله. كل ذلك كائنٌ كما وصفت.

وهكذا اجتمعنا لتأبين صلاح أحمد إبراهيم في باريس، ثم في أصيلة في المغرب، ثم منذ أيام في لندن.

احتشد السودانيون كعادتهم في الحفاوة بالموتى والأحياء، وهم بالموتى أشد حفاوة.

وقد نوّه الدكتور خالد الكِدْ، الذي كان يقدّم المتحدثين، أن السودانيين يؤخرون الثناء على الإنسان إلى ما بعد وفاته، ويقولون «إن شاء الله ربّنا ما يجيب يوم شكرك»، أي أنهم بذلك يدعون له بطول الأجل.

والدكتور خالد الكد، قد رُزئَ في أخيه النابه طه الكد، وابن عمه النابغة صديقنا العزيز، عثمان حسن أحمد الكد. وهم من مدينة أم درمان الباسلة، مدينة صلاح أحمد إبراهيم وعلي الملك. لذلك كان في تلك الليلة، رغم أنه حاول أن يسرّي عن الناس، كما قال متمم ابن نويرة:

فقلتُ لها أن الشجى يبعث الشجى
دعيني فهذا كلّه قبر مالكِ

وكانت فاطمة أحمد إبراهيم موجودة بالطبع. فاطمة التي قال عنها صلاح:

في كل ما تحبه فاطمةٌ من لهب مقدّس، من
غضبٍ على الهوان، من توهّج الإخلاص،
والتفاني في خلاص أختها المعذّبة.

إنني أذكرها في البرلمان السوداني، منذ قرابة ثلاثين عاماً، حين كانت تنبري لرئيس الوزراء محمد أحمد محجوب. تقف ممشوقة

مثل السيف. كأنها أسماء ذات النّطاقين. لها الله! كُتب عليها الصّبر والنّضال، كما كتب على السودان. بل إنها صارت رمزاً لصلابة السودان.

شاطرنا تلك الأمسية، عدد من أشقائنا، من مصر والعراق وسورية والجزائر وغيرها، من محبي الشاعر وأصدقائه، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، الشاعر العراقي الكبير، بلند الحيدري، الذي أَنْقَضَ ظهره كثرة ما رثى من الأصدقاء والشعراء، وطول ما حن إلى ضفاف دجلة والفرات.

ثم، يا سبحان الله، ما هي إلّا أيام، حتى اجتمع السودانيون مرة أخرى، في مكان آخر في لندن. كانوا هذه المرة يحتفلون بعيد استقلال السودان. وقد اختلط عليّ الأمر، فما أشبه الاحتفال بالتأبين. وفيم الاحتفال؟ مضى على استقلال السودان، خمسة وثلاثون عاماً حسوماً، وهو في واقع الحال، كأنه لم يولد بعد. كل شيء مؤجّل. قضية الجنوب، وقضية الحكم، وقضية الانتماء.

وا رحمتاه للسودانيين. انظر إليهم جاءوا من إدنبرا ومانشستر وسوانْسي ودبْلن وليدز واكستر وأكسفورد وردنج. معهم نساؤهم وأطفالهم، وأحياناً آباؤهم وأمهاتهم. لم يتركوا بلادهم بمحض إرادتهم، ولكنهم أُخرجوا منها اضطراراً. فيهم الذي قطعت ساقه والذي كسرت ذراعه والذي يحمل ظهره آثار السياط والذي أخرج من عمله بلا ذنب، والذي دخل السجن بلا جريرة.

مذهولون عن أنفسهم، لأنهم لم يتعودوا على الاغتراب، لكنهم يصبرون ويتجملون «متحزّمين ومتلزّمين» كما يفعل السوداني حين

يعضّه الدهر، يعلق بهم ذلك السّمت الخاص، في عيون الأطفال، وأصوات النساء ووجوه الرجال، ذلك المذاق الذي تغنّى به الشعراء، وتغنّى به صلاح أحمد إبراهيم خاصة. فيهم براح الحيشان وطيبة الجيران ووضوح السماء واتّساع الآفاق ودفء العشيرة.

أشاعوا الدفء في قلب هذا الزمْهرير، وتجمّعوا في الشتات، واحتفلوا وليس ثمة ما يدعو للاحتفال، وتشبّثوا بالوطن المفقود، فعرضوا الحنّة والحرجل والكركدي وأطباق السعف الملوّنة، كأنها بقايا متاع من دار جرفها السيْل.

وكان صلاح أحمد إبراهيم، ماثلاً بينهم كعهده، يرثي لحالهم، ويعجب من أمرهم.

سلامٌ على موطني في البلاد، على أهله الخيرة الطيبين
ملاذ الغريب، سياج الضّعيف، الحماة الأباة ليوث العرين
ذوي الأنفس الرائقات العذاب، عليها من الحق نور مبين
فضائلُهم دون شحّ تجمّ، بلا ضجّة أو أذى أو ظنون
من الرّوح، من فلذات اللّسان، من القسمات، من الرّاحتيْن
كلفْتُ بهم وأنا بينهم، وزدتُ هدىً بالنّوى ويَقين
بذوراً حملت أنا سرّها، وجذوراً غذتني جنين
فمنها الشّذى والجنى والمفيء المفيد ومنها الأذى والمنون
وكم مرّة قلت فيها لنفسي وأفشيت ما قلت للعالمين:
أنا منهمُ وبهم ولهم وخدّامهم لو همُ يأمرون
يعذّبني أنهم في العذاب ويؤرّقني أنهم نائمون

فهم في قيامي، وهم في منامي وهم في اضطرابي وهم في السكون
وهم في دمي، في رؤى ألمي، في شبا قلمي، في الفِنا، في اللّحون

■ ■ ■

اجتمع شمل الجالية السودانية المبعثرة في أطراف المملكة المتحدة، ذات يوم سبت غائم بارد في قاعة أعارتهم إياها مدرسة في حيّ (بادنْجتُن) غرب لندن، وهو حي له صلات قديمة بالسودانيين، منذ أخذ الإنجليز يرسلون البعثات إلى بريطانيا في الأربعينيات. كان الدارسون في لندن، يسكنون إما في شارع (سَسكْس قارْدنْز)، أو في حي (كوينْزْوييَ) إلى الغرب قليلاً من (بادنْجتن). وعلى عادة السودانيين، أنهم يألفون الأماكن والناس، فإنهم ما يزالون يكْثرون في هذين الحيَّيْن.

كانوا تلك الأيام، يتعاملون كلهم مع (بنك) واحد في (بادنجتن) ما يزال موجوداً إلى اليوم. تصلهم منحهم الدراسية عن طريقه، طوال عهد الإنجليز، وفي حكومات الاستقلال التي جاءت بعدهم، إلى أن جاء هذا العهد. كانت المنح تفي بحاجيات الدارس، بل كانت من أسخى المنح التي يتلقاها الدارسون من كافة بلدان العالم الثالث.

كان التعليم في السودان على نفقة الدولة، داخل السودان وخارجه. وهي سياسة شرّعها الإنجليز، وحذا حذوهم كل الذين حكموا بعدهم حتى أبطلها الحكّام الحاليون. بفضل تلك السياسة تعلّم أبناء الفقراء، وجمهرة السودانيين إلى اليوم في عداد الفقراء. نبغ أطباء من قرى الجزيرة، وفقهاء في القانون من قرى كردفان، ومهندسون

من أطراف دارفور، وعلماء في الكيمياء من جبال النّوبة، وعلماء في الزراعة من أعالي بحر الغزال، واقتصاديون من نواحي ملكال وجوبا وواوْ، وفطاحل في الرياضيات والفيزياء وعلوم الذرة من قرى شمال السودان.

بهذه الطريقة أيضاً، تعلّم إخواننا الذين يصرّفون الأمور في السودان هذه الأيام ـ بقدر ما يتأتّى لهم من تصريف الأمور، فهم أكثر من غيرهم، يدركون أن الأمر للّه من قبلُ ومن بعد.

لكنهم ردّوا الجميل للوطن، أنهم عطّلوا تلك السياسة. أوقفوا البعثات، وأغلقوا (الدّاخليات)، المساكن التي كانت تؤوي الطلبة، فيقيمون ويأكلون ويشربون بالمجان. وأكثر من هذا مما يضيق المجال عن حصره أصبح يتعلم الآن أبناء القادرين، ومن يقدر في ديار السودان هذه الأيام؟

وأضافوا ضغْثاً، أنهم شرّدوا أصحاب الاختصاص والعلم والدّراية، ممن كان بوسعهم أن يعينوهم على حلّ المشكلات الكثيرة التي يواجهونها. وقد ذكر (ألدو أجو) الذي كان منذ شهر من أعمدة هذا الحكم، ثم استقال ونفذ بجلده، أن هذا العهد قد أخرج خمسين ألف إنسان من أعمالهم إلى الآن، من الجيش والشرطة والخدمة المدنية.

إلى غاية عهد النميري، ثم العهد البرلماني الذي قام هذا الحكم على أنقاضه، كان خروج عامل واحد من عمله، يزلزل الأرض. كيف الآن يقذفون بهذه الحشود الحاشدة، كما يُزاح التّبن من الحقل؟ كل واحد منهم، وراءه عشرة على الأقل، كما تقتضي أعراف أهل

السودان، يتكفّل بمقتضيات معيشتهم. أليسوا مواطنين معلّقين بذمة الدولة؟ أمْ لا، فلأي شيء تقوم الدول؟

كان زياد يقول لأهل العراق «والله لا نصل إلى الحق فيكم، حتى نخوض إليه الباطل خوضاً».

إنها فلسفة خاسرة دلّل التاريخ على خسرانها. لكن لنقبل جدلاً أن ذلك يجوز. لقد رأينا لحدّ الآن، باطلاً كثيراً من إخواننا هؤلاء. فمتى يروْن أنهم سوف يصلون إلى الحق؟ وكم بقي لهم من باطل يخوضونه بعد؟

رحم الله الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ورضي عنه. ذلكمْ أحرى أن يكون الأسوة لا زياد بن أبيه.

روى الإمام ابن الجوزي رحمه الله قال:
«حدّثنا الثّقة أن عديّ بن أرْطأة، كتب إلى عمر بن عبد العزيز:

«من عدي بن أرطأة، أما بعد: أصلح الله أمير المؤمنين. إن قِبَلي أُناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عزّ وجل مالاً عظيماً لست أقدر على استخراجه من أيديهم، إلّا أن أمسّهم بشيء من العذاب. فإن رأى أمير المؤمنين أصلحه الله أن يأذن لي في ذلك أفعل».

قال، فكتب له عمر بن عبد العزيز:

«أما بعد: فالعجب كلّ العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر، كأني لك جُنّة من عذاب الله، وكأن رضائي عنك يُنجيك من سخط الله عزّ وجل، فانظر من قامت عليه بيّنةٌ

عدول، فخُذْه بما قامت عليه به البيّنة. ومن أقرّ لك بشيء فخُذه بما أقرّ به. ومن أنكر فاستحلفْه بالله العظيم وخلّ سبيله. وأيْمُ الله، لأن يلقوا الله عزّ وجلّ بخياناتهم، أحبُّ إليَّ من أن ألْقى الله بدمائهم. والسلام».

كذلك روى ابن الجوزي قال:

«حدّثنا ضمْره عن ابن شوْذب أن صالح ابن عبد الرحمن وصاحباً له، وكان عمر بن عبد العزيز قد ولاّهما شيئاً من أمر العراق، كتبا إليه أن الناس لا يصلحهم إلّا السيف. فكتب لهما: «خبيثيْن من الخبَث، رديئيْن من الرديء. تعرضان لي بدماء المسلمين؟ لعمري ما أحدٌ من الناس إلّا دماؤكما أهْون عليَّ من دمه».

تقول ذلك زمانٌ ولّى وهيهات أن يعود. صدقت. ولكن ألا نتنسم عطره؟ ألا نقيس به مزاعم الذين يجيئوننا آخر الزمان، ويرفعون المصاحف على أسنّة الرماح.

■ ■ ■

كان يوجد في حي (بادنْجتُن) تلك الأيام، بيت للسودانيين، فطبعوه، وطبعوا الأحياء المجاورة له بطابعهم. كانوا عدداً، دارسين وزواراً، ومبعوثين في بعثات تدريبية قصيرة. وكانت أحوالهم ميسرة، فنشأت تجارات تحقق لهم مطالبهم. حوانيت بقالة، ومحلات لبيع الأقمشة والثياب النسائية، ومطاعم وغيرها.

كان يوجد مطعم يوناني قريب من بيت السودان، يقدم طعاماً يذكّر

السودانيين، ولو قليلاً، بطعام بلادهم.

كانت المطاعم الإنجليزية هي الغالبة تلك الأيام، وكان الطعام الإنجليزي قُحّاً لا يكاد يساغ. ثم فتح مطعم هندي في (برڈ ستريت)، وما كنتَ تجد مطعماً هندياً تلك الأيام، إلّا بعد جهد، فأقبل عليه السودانيون، لأنهم وجدوا فيه البصل والثوم والشطة والليمون، وأصنافاً من طبخات اللحوم، تذكّر بـ(اليخني) و(كباب الحلّة). ووجدوا خُبز الـ(شباتي) الذي يقرُب من (القرّاصة).

هذا والشيء بالشيء يذكر، فسّر صاحب (اللسان) أن كلمة (قرّاص) من بعض معانيها «الذي جاوز الحد حتى حمض». وضرب مثلاً قول الشاعر:

يا رُبَّ شاةٍ شاصِ
في ربربٍ خماصِ
يأكلن من قرّاصِ
وَحَمْصَصيصٍ آصِ
كفِلق الرصاصِ

و«القرّاصة» السودانية خبزٌ عريضٌ مستدير يميل إلى الحموضة في الغالب، يعمل على صاجٍ محمى. وقال الشيخ إن من معاني «قرّاص» أيضاً «الغلَظ» وخبزُ أهل السودان هذا يكون غليظاً.

أما الرقيق منه فيسمى (الكسرة). وهذا وذاك يؤكلان باللبن أو بأدام يسمى (المُلاح). وفسر الشيخ أن (ملح) من معانيها اللبن. وقال (يقال بين فلان وفلان ملح وملحة أي بينهما حرمة).

ولعلنا أسمينا كل أدام (ملاح) لأنه كان لبناً في الغالب. وربما يكون كل ما جرى لأهل السودان إلى اليوم هو بسبب (الكسرة والملاح). وذلك كما قال أبو الطيب رحمه الله:

ومـــرادُ الـــنـــفـــوس أهـــونُ مـــن
أن نـتـعـادى فـيـه وأن نـتـفـانـى

وهكذا ترى يا أصلحك الله، أنه كما يكون الخبز قُرّاصاً، كذلك تكون بعض نظم الحكم. وبوسعك أن تقول (هذا حكمُ قُرّاص)، أي أنه حامض وغليظ.

ويذكّرني هذا، ولقد تُذْكرُ الخطوبُ وتُنسى، كما قال أبو عبادة، وصفاً سمعتُه من السيد الصادق المهدي، حيّاه الله وحفظه ورعاه، فهو من المرابطين المصابرين، قال إن الحكم الدكتاتوري منه (المخفّف) ومنه (المغلّظ). وما أظن (المغلظ) هذا إلّا أنه (القُرّاص).

كان ذلك عام ستة وستين في دار الثقافة بالخرطوم في محاضرة من أجمل ما سمعت من محاضرات. كان الصادق المهدي قد انتُخب توّه رئيساً للوزارة وهو في الثلاثين من العمر. لعله تعجل الأمر، كما نرى ذلك اليوم، ولكنه كان رغم صغر سنه، قويَّ الحجة، وثّاب البديهة، ناصع البيان. كذلك كان رؤساء الوزارة قبله. محمد أحمد محجوب رحمه الله، وقد كان لا جدال أميراً من أمراء البيان. وإسماعيل الأزهري رحمه الله الذي جمع إلى ذلك، بساطة العبارة والاقتراب من إدراك عامة الناس، وذكاء شديداً يحسبه الذي لا يعرفه، أنه غفْلة.

أذكر محاضرة السيد الصادق المهدي تلك كأنها حدثت بالأمس

القريب. ضاقت دار الثقافة بالناس، كما حدث لنزار قباني قبل ذلك بأشهر قليلة، في المكان نفسه، حين جاء لينشد شعره الجميل، وأذهله إقبال الناس، وقال قولته الشهيرة «كان السودانيون يتعلقون بفروع الأشجار مثل عناقيد العنب الأسود». نعم، كانوا في أحسن أحوالهم تلك الأيام. أناسٌ أحرار في وطن حر.

قدّم الصادق المهدي في تلك الأمسية أستاذنا الجليل نصر الحاج علي من رجال التعليم الروّاد ومن أوائل مديري جامعة الخرطوم. رجل فذّ بحق. وقد أسعدني الحظ أن أتتلمذ على يديه، ثم عملت معه تلك الأيام في لجنة كوّنها أستاذنا الآخر النابه مندور المهدي، وقد كان وكيلاً لوزارة التربية، لدراسة قضايا تعليم اللغة الإنجليزية في السودان. كان نصر الحاج علي أكبرنا سناً وشأناً، ورغم ذلك فقد كان أكثرنا دأباً ودقّة ومثابرة. كان رجلاً واسع الثقافة عظيم الجاذبية، مع بساطة وتواضع. كانت صحبته في تلك اللجنة تجربة لا تُنسى من تجارب العمر. رحمه الله رحمة غامرة، ومندور المهدي، وكل ذلك الجيل الصالحين الذين ما أظن الزمان يجود بأمثالهم.

في تلك المحاضرة في دار الثقافة عام ستة وستين، لخّص السيد الصادق المهدي فلسفته في الحكم. كان في الثلاثين من العمر، وقد مضى على ذلك قرابة ثلاثين عاماً، ولكن تلك الفلسفة لم تتغير إلى يومنا هذا، فيما أرى. وليس ذلك دليلاً على الجمود، بل هو دليل على نفاذ البصيرة في تلك السن المبكرة.

تحدّث عن مشاكل الحكم في العالم الثالث، وفي السودان على وجه التخصيص، واستعرض الأسباب التي تؤدي إلى الثورات

والانقلابات العسكرية. وسأل كيف يتأتى الإجماع اختياراً في مناخ من الحرية، دون اللجوء إلى فرض (إجماع) بالقوة. ومن سوء بخت السودان أن السؤال ظل طافياً، يحمله تيار السنين، كما يطفو جذع الشجرة على سطح النهر، لا يجد شاطئاً يُرسى عليه.

قدّر للصادق المهدي أن يعود إلى رئاسة الوزارة بواسطة انتفاضة رجب العظيمة. ووجد الإجماع الذي أراده. والتفّ الناس حوله من جميع المشارع والمشارب، وقالوا هذا هو الزعيم الأمثل الذي يعبر بنا صحراء (عتمور) الأحداث في تلك المرحلة التاريخية ويوصلنا سالمين.

قالوا دونكم هذا الفتى. فهو حفيد الإمام المهدي البطل، وخريج جامعة أوكسفورد، وقد جرّب الحكم، وعركته الأحداث. وقد اجتمع له ما لا يجتمع للكثيرين، من سماحة طبع وتوقُّد ذهن وفصاحة لسان.

إنما ويا للخسارة، يرى كثيرون أنه لم يثمر ذلك الإجماع، ولم يمسك أعنّة الأحداث بالعزم المرجو، وأنه كان مسؤولاً إلى حد كبير عن انهيار العهد الديموقراطي الأخير، ومجيء هذا العهد (الشمولي) الذي لا ندري هل هو (مخفّف) أم (مغلظ) أم (قُرّاص). ولكنه، فيما يبدو لنا ليس شيئاً واحداً، ولا حكماً واحداً، بل مجموعة أشياء ومجموعة حكومات. وهم أنواع، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك «كانوا طرائق قدداً!».

■ ■ ■

جلس إلى يميني على المنصة، الدكتور عبد السلام سيد أحمد، من أساتذة جامعة الخرطوم الذين أُخرجوا من أعمالهم اضطراراً في حركات (التطهير) المتوالية التي أقدم عليها هذا العهد. وجلس إلى يمينه السيد هاشم محمد أحمد الذي كان مديراً عاماً للسكك الحديدية: هو أيضاً أخرجوه من عمله. إلى اليسار مني شاب صحافي اسمه أحمد القرشي إدريس، لم أعرف قصته، ولكن القصة المؤثرة التي حكاها لنا خلال الندوة، تدل على أنه لم يترك السودان عن طيب خاطر.

تصدّر المنصة الدكتور خالد المبارك، الذي أدار الحوار. هو أيضاً من أساتذة جامعة الخرطوم الذين لم يجد هذا الحكم ضرورة للاحتفاظ بهم. كان واضحاً في النشاط الثقافي في الخرطوم، في الجامعة والأندية والصحافة والمسرح. لا بد أنه ترك فراغاً هائلاً، ولكن لعل النشاط الثقافي ليس على رأس اهتماماتهم. إنه الآن لاجيء في (كيمبردج) حيث يسكن ويعمل. ثم فاطمة أحمد إبراهيم، العتيدة العنيدة المصابرة أجبروها على الهجرة والاغتراب، لأول مرة في حياتها وقد حق لها أن تسكن وتطمئن بين أهلها وذويها في أم درمان. كان أخوها صلاح يؤنس وحشتها من باريس، يكلمها بالتلفون، ويزورها كثيراً في لندن. ثم شاء الله أن تنفصم تلك العروة فجزعت عليه أيما جزع، وقد كانت قبل صبورة متجملة. وحق لها أن تجزع لكن الله سبحانه وتعالى، رأف بها، فجاءها ابنها أحمد، بعد أن أكمل دراسة الطب في جامعة الخرطوم. إنه ابن الشفيع أحمد الشيخ، الذي مشى إلى الموت رابط الجأش، كما مشى آباؤه الجعليوّن من قبل.

ولا بد من القول، والحق يقال، أن الإنجليز كانوا كرماء مع

السودانيين فأعطوا عدداً منهم حق اللجوء السياسي، وسمحوا لأعداد بالإقامة والعمل، وقبلوا آخرين في جامعاتهم. وقد رأيت سفيرهم المطرود من الخرطوم يقول في التلفزيون «السودانيون شعب كريم مضياف، يعيش في ظروف صعبة». لم يزد على ذلك.

هذا وكان صديقنا الصحافي الإذاعي العريق، محمد خير البدوي، يجلس في الطرف الآخر من المنصة، على يسار فاطمة أحمد إبراهيم.

عجبت للسودانيين. كانت كثرة الحاضرين في تلك القاعة في (بادنجتُن)، من المعارضين للحكم القائم، وبعضهم لقي عنتاً غير قليل. ورغم ذلك لم يهتف أحد بسقوط النظام، ولم يذكر أحد أياً من زعمائه بسوء، ولم يحدث هرج أو شغب. وقد عبّر المتحدثون في الندوة عن شهادات دامغة للحكم، برصانة وتجرد. كان الناس مشغولين بما هم فيه، يبحثون عن مخرج، يغلب على وجوههم التفكير والحزن، كأنهم لا يدرون كيف وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه.

بعد ذلك بنحو أسبوعين، شاركتُ في اجتماع آخر في مكان آخر في لندن، للاحتفال أيضاً بالذكرى الثامنة والثلاثين لاستقلال السودان. وكانت كثرة الحاضرين من المؤيدين للحكم القائم. كأن السودان استقلَّ مرتين، مرة لهؤلاء، ومرة لأولئك. إنما السودانيون هنا، مثل السودانيين هنالك. الوداعة نفسها والرصانة نفسها، والتفكير والحزن. والإحساس بأن ثمة شيئاً ما ليس صحيحاً، وأن الخطأ يمكن إصلاحه إذا خلُصت النيّة وصحّ العزم.

كان شملهم مجتمعاً إلى عهد قريب، يحتفلون كلهم في مكان

واحد، في بيت السودان. وقد وجد السيد عبد الرحمن المهدي رحمه الله، أول العهد بالاستقلال، في زيارة له للندن أن بيت السودان في حي (بادنجتن)، لم يعد يتسع للسودانيين، وكانت البعثات قد أخذت تتزايد، فاشترى ثلاثة بيوت متلاصقة في (رَتْلَنْد قيت) في حي (كنْسنجتُن) العريق، وأهداها إلى حكومة السودان.

ذلك كان بيت السودان، وكان ملاذاً للسودانيين بحق. يموج بالحركة والنشاط. فيه غُرف يقيم فيها المبعوثون أول وصولهم، إلى أن يتعرفوا على البلد، ويجدوا لهم سكناً وغرفاً ينزل فيها الطلبة الذين يجيئون من خارج لندن في العطل، والطلبة الذين يجيئون أحياناً من البلاد الأوروبية الأخرى. وكانوا يقدمون الطعام السوداني، خاصة في عطل نهاية الأسبوع.

ما كان شهر يمرّ دون أن تحدث مناسبة يلتئم فيها شمل السودانيين، حفلات عرس، وحفلات وداع، وحفلات استقبال. وكل ثلاثة أو أربعة أشهر، تحضر الدولة على نفقتها مطرباً كبيراً من السودان. جاء أحمد المصطفى وحسن عطية، وعبد العزيز داءود، وعبد الكريم الكابلي، وعثمان حسين وغيرهم.

وكان في بيت السودان مكتب ضخم للملحقية الثقافية وشؤون الطلبة، أشرف عليه أساتذة أجلاء أمثال عبد الفتاح المغربي وبشري عبد الرحمن وعبد الحليم علي طه، وكلهم من رجالات التعليم الأوائل، رحمهم الله جميعاً. ثم جاء بعدهم إبراهيم عبد الله نور، والدكتور محمد إبراهيم الشوش والدكتور أحمد البشري والربيع حسنين وحسن أحمد يوسف.

كانوا، إلى جانب رعايتهم للمبعوثين، دائمي التنقل في أنحاء بريطانيا في أنديتها وجامعاتها ومحافلها، ناطقين باسم السودان، في تاريخه وشعبه وآثاره وتطلعاته.

كل هذا الإشعاع قد مات. أوقفوا البعثات، وأغلقوا بيت السودان، واستغنوا عن مكتب الملحق الثقافي. لا عجب أن العلاقات قد ساءت، فطردت حكومة السودان السفير البريطاني من الخرطوم، وردّت الحكومة البريطانية بأن طردت السفير السوداني من لندن.

نعم لا عجب أن يحدث ذلك، لأن العلاقات بين الأمم، ليست لعباً وشطارة، ولكنها بشرٌ يتعامل مع بشر، وعقولٌ تحاور عقولاً، ومصالح تعطي وتأخذ، وحضارة تُلاقي حضارة.

ما أبعد الشقة بين اليوم والبارحة، بين السودانيين المشتتين الضائعين، المجتمعين في هذه القاعة في (بادنجتن)، والسودانيين في احتفالاتهم في بيت السودان تلك الأيام يومئذٍ، كانوا متفائلين بأنفسهم، واثقين في مستقبلهم، يحسّون أنهم ينتمون إلى وطن فتي ناهض، يصرف أموره قادة ذوو دُربة وحكمة. فيه خدمة مدنية يُضرب بها المثل في الكفاءة والنزاهة، ونظام تعليمي بُني على أسس متينة، ومعهد للتربية في بخت الرضا، ليس له نظير في أفريقيا، وجامعة هي أفضل جامعة في أفريقيا باستثناء مصر، وأكبر مشروع زراعي تملكه الدولة في أفريقيا، ونظام كفء للسكك الحديدية والمواصلات النهرية وخدمة طبيّة عمّت الريف والحضر والبادية. وطن له جيش، على صغر حجمه له شهرة واسعة في البسالة والضبط والربط، ولم تكن قد لوّثته بعد، الانقلابات العسكرية وشهوة الحكم.

في تلك الأيام، لم تكن الحكومة تستطيع أن تخرج موظفاً من عمله دون مبرّر، فقد كانت توجد هيئة مستقلة للخدمة المدنية، يرفع إليها الموظفون ظلاماتهم، وتفرض قراراتها على الحكومة. كانت أشبه ما تكون بنظام الـ (أمبُدْ شمان) الذي أخذ به البريطانيون منذ سنوات قليلة فقط.

وطن قضاؤه مستقل، وبرلمانه مُنتخب، وصحافته حرّة. علاقاته طيبة مع الأقارب والجيران ومع العالم أجمع. لذلك كان السوداني تلك الأيام ـ وليس هذا من قبيل المبالغة في شيء ـ يحس أنه أقوى وأكثر وأغنى، مما هو في الواقع. السماء فوقه صافية، والآفاق حوله ممتدة، والشمل ملتئم مجتمع، وإحساسه بالحرية غامر كاسح، كأن لا شيء ولا أحد، يستطيع أن يحرمه إيّاها.

■ ■ ■

في ذلك الاجتماع في (بادنجتُن) حكى الشاب الصحافي أحمد القُرشي إدريس، قصة ثلاثة من أصدقائه توثقت صلته بهم أيام الدراسة في جامعة الخرطوم. فعل ذلك بأسلوب زاد من تأثيره، بساطتُه وخلوّه من الانفعال.

حكى قصة شاب من جنوب السودان اسمه (مشار) وأسمى نفسه (أُوشيك مشار). (أوشيك) اسم بجاوي من شرق السودان، وقد تعمد الشاب الجنوبي حين تسمّى به، أن يؤكد أنه ينتمي إلى السودان كله، وليس للجنوب فحسب. وروى أحمد القرشي أن (أوشيك مشار) كان طالباً نابهاً ومواطناً مخلصاً يؤمن إيماناً عميقاً

بوحدة السودان، ولا يضمر أياً من الحزازات والأحقاد التي يضمرها بعض الجنوبيين نحو الشمال. وكان يحب اللغة العربية ويجيدها كتابة ونطقاً.

ثم حكى قصة صديقين شماليين، كانا أيضاً نابهين، مقبلين على الحياة، يبشران بخير كثير.

حياة كل واحد من هؤلاء الشباب، كما روى أحمد القرشي، انتهت نهاية مأساوية، في ظل الظروف الراهنة. الذي دخل السجن، والذي شُرِّد من عمله، والذي قضى نحبه في ظروف محزنة.

لم يقل أكثر من ذلك. لم يُلْق اللوم على أحد، ولم يستخلص أية نتائج. ترك الوقائع التي رواها بتجرد يدعو للدهشة، تتحدث عن نفسها.

التجرد أيضاً، كان سمة حديث هاشم محمد أحمد، الذي كان مديراً عاماً للسكك الحديدية. هو أيضاً تكلم بحياد وبساطة عن الانهيار الذي حاق بالسكك الحديدية في السودان، بعد أن كانت الوسيلة الرئيسية للنقل.

كانت السكك الحديدية مزدهرة في ظل الإدارة البريطانية، لأنهم كانوا يؤمنون بأنها وسيلة النقل المُثْلى في قطر مترامي الأطراف مثل السودان، وأنها أقل تكلفة من النقل الجوي والنقل البري بواسطة شبكة من الطرق. وقد أقرّت الحكومات الوطنية في عهود الاستقلال الأولى، هذه السياسة فتوسعت في السكك الحديدية، ومدّت خطوطاً إضافية إلى عمق الجنوب وأقصى الغرب. وذكر

السيد هاشم محمد أحمد، أن إدارة السكك الحديدية أعدّت خططاً لمزيد من التوسع، ولكن كل ذلك قد توقف.

قضبان الحديد، كانت تمتد في أطراف السودان، كما تمتد الشرايين في الجسم. وكان المواطنون في قرى الجزيرة، ونجوع الشمال والشرق والغرب، يسمعون صليل العجلات وصفير القاطرات، في جوف الليل وفي ساعات الفجر الأولى، وهي غادية رائحة، فيحسّون لا شك، أنهم ينتمون إلى وطن حي متحرك.

همدت الحركة، ودفنت الرمال القضبان، وتحولت المحطات إلى أطلال. حتى محطة الخرطوم في آخر شارع القصر الجمهوري، وقد كانت معلماً من معالم المدينة، قد هُدِّمت. هكذا ينتشر الإحساس بالانهيار في النفوس، وحين يتأصل هذا الشعور، يصبح النهوض معضلة.

وأعربت السيدة فاطمة أحمد إبراهيم عن مخاوفها، أن تؤدي الظروف المعيشية القاسية التي يعانيها الناس، إلى فساد الأخلاق. هذا يكون محزناً حقاً لو حدث، وأرجو ألّا يحدث، فقد كابد السودانيون محناً عسيرة من قبل، خرجوا منها سالمين. ويكون من سخرية الأمور، أن حكماً جاء يدعو إلى إصلاح الضمائر والنفوس، يمْخض أوضاعاً اقتصادية قاسية، تشجّع على خراب النفوس.

إنما الخائفون من عواقب الأمور، سوف يجدون ولا شك، دليلاً في الحادث المؤلم الذي حدث مؤخراً ولم يكن يخطر للسودانيين على بال، أن يعتدي مسلحون على حرمة المسجد في صلاة الجمعة

ويطلقوا النار على المصلّين، فيقتلون ويجرحون. مثل هذا لم يحدث في السودان طوال تاريخه.

لعله المناخ السائد يشجع على العنف. وقد أصاب السيد الصادق المهدي حين قال، إن هذا الحادث نتاج طبيعي للمناخ العام الذي أشاعه هذا العهد.

ولا يُنكر أنه بثّ جواً من الهستيريا والتوتر والرعونة. بل إن مقْدمَه في حد ذاته، كان من أعمال العنف، لأن الانقلاب العسكري على سلطة مُنتخبة، مهما ساء رأيك فيها، لا يختلف من حيث النوع، عن إطلاق النار على المصلين في المسجد.

الذي يمزّق ثوب الشرعية، ثم يتدثّر بالثوب الممزق، لا يعجب أن يُخرج الله له مَنْ ينازعونه الأمر، ويتربصون به الدوائر.

العنف يولّد العنف كما قالوا، والفوضى لا تجيء بغير الفوضى. وما أصدق ما قال الحكيم العربي: «من ولّد الشرّ أنبت له شجراً أوراقُه الندم وثماره الحسرة. ومن ولّد الخير أنتج له فراخاً تطير بالسرور».

كأن العدْل مغناطيسٌ أو كهرباء تسري في الجو، وكذلك الجوْر، فيصحّ الزمان أو يعتلّ. وقد روى أشياخنا رحمهم الله، أنه لما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قالت الرّعاة في أعالي الجبال «مَنْ هذا الخليفة الصّالح الذي قام في الناس؟»، فقيل لهم «وما علْمكم بذلك؟» قالوا «إنا إذا قام على الناس خليفة صالح، وجدنا أن الذئاب والسّباع، لا تتعرّض لشياهنا».

وحدّثوا عن موسى بن أعين، قال «كنا نرعى الشاء بكرْمان في خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاء ترعى بجوار الذئاب في مكان واحد. فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاة، فقلنا «ما نرى الرجل الصالح إلّا قد هلك. فسألنا فوجدنا أنه قد مات في تلك الليلة».

أحمد لجامعة (بوسطن) أنها يسّرت لي أن أعود، ولم تطل غيبتي، إلى ذلك البلد العجيب المحيّر. كلما أزوره أزداد إعجاباً وأزداد غيظاً، وأزداد حيرة.

ومهما رأيت من أمريكا ومن سياساتها في إقليمنا، التي قد لا تجد لها منطقاً ولا عقلاً، فأنت لا تستطيع أن تنكر عفوية أهلها وطيبتهم، خاصة إذا كنت مثلي، قد عايشت الأنجلوسكسون في معقلهم الأصل، وعانيت من تزمتهم وتكلّفهم.

ها هنا يبدأونك بالتحية، وإذا حييتهم يحيونك بأحسن، ويبتسمون كثيراً، وما لهم لا يبتسمون ووراءهم كل هذا الإنجاز الطويل العريض؟ هذا، والقوم على ضفاف (التمز)، وقد خبرناهم أكثر من غيرهم، ورغم إعجابنا بكثير من فكرهم وأسلوب عيشهم، فهم كما

قال صاحبنا «جزيتُ على ابتسام بابتسام».

قلت مرة لأستاذ أمريكي لقيته في جامعة (براون):
«كيف تكونون بهذه الطيبة، ويكون لكم كله هذا العلم والذكاء، ويكون حكامكم بهذا الصّلف والغباء؟».

ابتسم الرجل، ونظر إليّ كالمعاتب، وأدركت فوراً أنه ما كان يحق لي أن أسأل ذلك السؤال، فأنا من بلد، شعبه ما شاء الله ذكاءً وطيبةً وتحضّراً، وحكوماته ما شاء الله بلادةً وجلافة، وهل أقول (همجيّة) في بعض الأحيان؟ وقد قال رجل الأعمال السوداني لرجل الأعمال الياباني، وقد أرهقه في التفاوض على عقد أو صفقة:

«أليس عجيباً أن تكونوا بهذا الغباء، وتنجزوا كل هذا الإنجاز؟».

ابتسم الياباني، ربما بسخرية أكثر مما فعل الأميركي، وقال له:
«ليس هذا هو العجيب. العجيب إنكم بكل ذكائكم لم تنجزوا شيئاً».

صدق، وكأننا نسخِّر الذكاء الذي منحنا المولى عزَّ وجلّ، للهدم وليس للبناء، وحسبك أن تنظر اليوم عند ملتقى النيلين، وترى أي خراب يحصل باسم الإصلاح.

قلت دعتني جامعة (بوسطن) لإعطاء محاضرات، وما لي وللمحاضرات؟ هذا أمر يحسنه الزعماء والسياسيون والساعون إلى (المجد)، والذين يريدون أن يصلحوا العالم ضربة لازب. وكم قضى

(المجد) على طالبيه، وكم شُغل السّاعون إلى إصلاح العالم، عن إصلاح أنفسهم.

أريد، يا ويحي، أن أكون كما وصفت في بعض ما كتبت، وأنا قريب العهد بالمدينة. منذ أسابيع فقط، كنت أتمرغ في ذلك التراب، وأطرق تلك الأبواب، وآه لو يصدق الفأل ويُجاب الدعاء:

«... إنك اخترتَ جَدَّك، وجَدُّك اختارك، لأنكما أرجح في موازين أهل الدنيا. وأبوك أرجح منك ومن جدّك في ميزان العدل. لقد أحب بلا ملل، وأعطى بلا أمل، وحسا كما يحسو الطائر، وأقام على سفر، وفارق على عجل. حلم أحلام الضعفاء، وتزوّد من زاد الفقراء، وراودته نفسه على المجد فزجرها، ولما نادته الحياة.. لما نادته الحياة...».

بوسطن مدينة جميلة، لا يصعب عليك أن تألفها، خاصة إذا عشت في إنجلترا. فهي إنجليزية المعمار والسّمت. لكنها أكثر سعة وأكثر أبّهة. وقد علمت أنها أقدم مدينة في الولايات المتحدة، وتاريخ نشأتها مرتبط بتاريخ صراع الأمريكان ضد الاستعمار الإنجليزي، وقيام دولتهم.

هنا حدثت أحداث جسام، مثل ما يسمى بـ (حفْلة الشاي) عام ١٧٧٣، حين عبَّر أهل بوسطن عن سخطهم ضد السلطة البريطانية، فصعدوا السفن الإنجليزية المحمّلة بالشاي، ورموا حمولتها في البحر. وقد رد الإنجليز على هذا العمل الثوري بإجراءات عنيفة، كان لها صدى بعيد، وزادت من لهيب ثورة الأمريكان.

وهي معقل عائلة كنيدي، منها بدأ (جون كنيدي) صعوده الذي

أدّى به إلى رئاسة الجمهورية.

وفي ريفها عاش الشاعر الأمريكي الكبير، بل أمير شعراء أمريكا (روبرت فرُستْ). وله مجموعة من القصائد أسماها (شمال بوسطن)، منها تلك القصيدة الجميلة (الطريق الذي لم أسلكه)، حين وقف عند مفترق طرق، واحتار أي طريق يسلك، ثم اختار أن يمضي في الطريق الذي لم يطرقه أحد قبله، وقال:

«قلت أترك الطريق الآخر ليوم آخر، لكن لعلمي كيف يقود طريق إلى طريق فإنني أشك أنني سوف أعود إليه أبداً». وفي هذا المعنى قال العبقري أبو الطيب:

ولله سيري ما أقلّ تئيّةً
عشيّة شرقيْ الحدالي وغُرَّبُ
عشيّة أحْفى الناس بي من قلوْتُها
وأهدى الطريقين التي أتجنَّبُ

ذاك شعر جميل، ولكن هذا قمة لا تُطال، أم ترانا نتعصب لبضاعتنا أبداً؟

هذا، وقد تمثّلتُ من شعر (روبرت فرست) في الكلمة التي خاطبت فيها اجتماعاً عاماً في جامعة بوسطن، بأبيات من قصيدته التي ألقاها في احتفال تنصيب (جون كنيدي) رئيساً، يقول فيها:

شيء ما كنّا نضنّ به،
جعلنا ضعفاء،
ثم أدركنا أن ذلك الشيء هو أنفسنا،
كنا نضنّ بها على أرض الأحياء.

حينئذٍ وجدنا الخلاص في الاستسلام،
فأعطينا على علاّتنا،
أنفسنا من أنفسنا، بلا تحفّظ».

(الاستسلام) هنا لا تعني الإذعان والرضوخ، ولكنها تعني الاستجابة لدواعي البذل والعطاء. وكنتُ بطبيعة الحال، أفكر في السودان.

وقد كان السودان ماثلاً في بوسطن تلك الأيام، إذ وافق ذلك مؤتمر (جمعيّة الدراسات السودانية). وهي جمعية أنشأها منذ سنوات، نفر من محبّي السودان، المهتمين بتاريخه وشعوبه وثقافاته وحضارته، من الأوروبيين والأمريكان وغيرهم.

يا ليت أولياء أمورنا في الخرطوم يحضرون مثل هذه المؤتمرات. إذاً لاستفادوا شيئاً. إذاً لرأوا في عيون الآخرين، سوداناً غير السودان الذي يظنونه.

ومن أعجب ما سمعته في هذا المؤتمر في محاضرة لعالِم سوداني، أن النظام القائم، جاء بشركة علاقات عامّة أمريكية، ودفع لها كذا مائة ألف دولار أو كذا مليون دولار لتحسين صورته. يا أخي أنت وجدت رصيداً جاهزاً. رصيداً ضخماً من التقدير والإعجاب بالسودان، لم تأل جهداً في تبديده وتحطيمه ثم تجيء بشركة علاقات لتحسين صورتك!

في هذا المؤتمر علماء عكفوا على دراسة السودان من منطلق الحب لأهله. تدهشك كثرتهم وتنوع جنسياتهم. فهذا اقتصادي أمريكي من جامعة (هارفرد) يتحدث عن التكافل الاجتماعي في غرب

السودان. ويسمي ذلك (الاقتصاد الخلُقي). وهذا عالم إنجليزي من جامعة (أوكسفورد)، عكف على دراسة تاريخ مملكة (سنّار). وهذا عالم فرنسي من المعهد القومي للبحوث، ذلك المعهد العتيد في فرنسا، تعمّق في دراسة قضايا الجنوب.

وهذه العالمة اليابانية من جامعة طوكيو تتحدث العربية كأنها نشأت في أم درمان.

جابت السودان من أقصاه إلى أقصاه. لا تكاد تذكر لها بلدة أو قرية إلّا وقد حلّت بها، وعرفت ناسها.

ثم هذه السيدة الرائعة، الدكتورة منى تقي الدين أميوني، من الجامعة الأمريكية في بيروت، ظلت منذ سنوات، تطوف العالم، تحاضر عن السودان وتشيد به وبشعبه.

كلهم شغفوا حبّاً بالسودان، لأنهم وجدوا فيه وفي أهله ذلك الشيء النادر، الذي صنعه السودانيون على امتداد القرون، كما يُصنع السجاد الشيرازي الثمين. وهو نفسه الشيء الذي عميت عيون إخواننا هؤلاء عن رؤيته، فأمعنوا فيه إتلافاً وتمزيقاً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فالله المستعان.

أنت يا سيدي كما قال الشيخ:
«الذي تبحث عنه قد تركته وراءك ببشطام».

٢٠

قال (بونا ملوال)، صديقنا، وأخونا في الوطن ـ لحد الآن ـ الذي كان وزيراً مدة سبع سنوات في عهد النميري، ويعيش الآن في أوكسفورد عضواً في كلية (سانت أنتوني) ـ قال إن تاريخ السودان بدأ عام ١٩٤٥، وأن السودان عبارة عن أرض سائبة (للاستثمار أو البيع)، وأنه يشبه (طفلاً غير شرعي)، وأن مؤسساته غير قابلة للاستمرار، وأنه لا بد من تفكيك القطر بأكمله وإعادة صياغته من جديد.

ذلك كان في حفل العشاء الذي أقيم مساء الجمعة الثاني والعشرين من نيسان/ أبريل، خلال مؤتمر جمعية الدراسات السودانية الذي انعقد في (بوسطن).

ولأن (بونا ملوال) كما وصفت، وأكثر من ذلك أنّا كنا نعدّه من

الجنوبيين الذين لم تُعْمِ الأحقاد القديمة عيونهم، فقد تعلّم في جامعة الخرطوم، وأتقن اللغة العربية، وخالط الشماليين وله عندهم صداقة وتقدير، وكان في يوم من الأيام وزيراً للإعلام الناطق الرسمي باسم الدولة. لكل ذلك، فقد استمعنا إليه بدهشة بالغة وحزن عظيم.

وصف الشماليين بأنهم خاضوا في تجارة الرقيق واتهمهم بالاستعلاء العرقي، وقال إنهم أسوأ من البيض في جنوب أفريقيا. وكنا قد سمعنا كلاماً مثل هذا من قبل، من شاب جنوبي زعم أن العرب الشماليين ما يزالون يغيرون على القرى الجنوبية، ويختطفون الأطفال ويرسلونهم إلى أسواق الرقيق في ليبيا والجزيرة العربية، حسب زعمه. وقد أيّد (بونا ملوال)، هذا الزعم، وأضاف إليه أن النظام القائم الآن في السودان، يسمح بتجارة الرقيق وأن النساء الجنوبيات سبايا عند من أسماهم بـ (المجاهدين).

هذه تهم غاشمة كما ترى، واضح فيها سوء القصد، لأن المتحدث كان في المقام الأول، يخاطب الرأي العام الأمريكي، وقد طالبهم صراحة أن يهبّوا لنجدة الجنوبيين، للتخلص من قهر الشمال وتسلطه.

كان يدرك بطبيعة الحال، أن كلامه قد يجد صدى لدى بعض (البيض) الذين أثقل ضمائرهم ما فعلوه بالسود، وقد يجد صدى عند بعض (السود)، الذين يعيشون اليوم في أمريكا، حالة من الغليان والثورة، يحاولون أن يكسروا الأغلال التي كبلتهم منذ قرون.

والحقّ، أن السودانيين الجنوبيين صاروا يستغلون كلمة (عرب)

استغلالاً ماهراً، يلعبون على أوتارها بإلحاح، مستثيرين المخاوف ضد العرب، والأحقاد التاريخية الكامنة في قرار الوجدان الأوروبي. وهكذا يجد عرب السودان وربما معهم الموريتانيون، أنهم يقفون وحدهم في أفريقيا، إزاء إرث تاريخي فادح، لا قبل لهم بحمله. ولا بدّ من القول أن الحكم الحالي في السودان، إذ يرمي بنفسه في ملتقى تيارات تاريخية مرعبة لا يدرك قرارها، إنما يضيف إلى فداحة العبء ويحمّل السودان البائس ما تنوء به العصبة أولو القوة.

إنما هي فرْيةٌ كبرى. لا أحد ينكر أن العرب دخلوا في تجارة الرقيق، في السودان وفي شرق أفريقيا. لكن المؤرخين المنصفين كلهم اتفقوا، أن دورهم كان ثانوياً بل أصغر بكثير من دور الأفريقيين أنفسهم، وأن الجرم الأكبر يقع على عاتق الأوروبيين.

إنها قضية كبيرة كان أحرى بالعرب كافة أن يتصّدوا لها، وإلّا تحولوا إلى كبش فداء من كباش التاريخ مستسلم للذبح. وحسبي أن أشير الآن إشارة عابرة إلى كتاب صدر مؤخراً عن دور البريطانيين في تجارة الرقيق، للدكتور (جيمس والفن ـ James Walvin) أستاذ التاريخ في جامعة (يورك) عنوانه (العاج الأسود). يقول فيه:

«بدخول الإسلام، صار الزنوج الأفريقيون يؤخذون أسرى في الحروب، رجالاً ونساء وأطفالاً. وكان النساء والأطفال مرغوبين أكثر (النساء للأغراض الجنسية، والأطفال للخدمة في البيوت). وكان التجار العرب يرسلونهم عبر الصحراء، أو بالسفن عبر البحر الأحمر وعن طريق شرق أفريقيا. إلّا أن هذه التجارة، كانت تجارة صغيرة، محصولها لا يزيد عن بضعة آلاف في العام».

بالقياس إلى هذا يقول دكتور (والفن) أن تقديرات أعداد الأفريقيين الذين رحّلهم الأوروبيون عبر الأطلسي إلى الأمريكيتين تتراوح ما بين خمسة عشر مليوناً إلى خمسين مليوناً(*) ويضيف:

«إنما الثابت على أي حال أن نحو اثني عشر مليوناً رحلوا عبر الأطلسي، وقد ماتت أعداد كبيرة منهم في الطريق، تقدّر بين عشرة بالمائة إلى عشرين بالمائة (...) ومن بين الدول الأوروبية العاملة في تجارة الرقيق، نقل الفرنسيون وحدهم نحو مليون ومائة وخمسين ألفاً من الأفريقيين عبر الأطلسي في القرن الثامن عشر، وبين عام ١٧٠٠ وعام ١٨١٠ نقل البريطانيون ثلاثة ملايين، ونقل الأمريكيون الشماليون أكثر من مائتي ألف (...) هذه أعداد هائلة بكل المقاييس، إذا علمنا أن مجموع سكان الجزر البريطانية عام ١٨٠٠، كان عشرة ملايين».

كانت تجارة واسعة منظمة، تسندها أجهزة إدارية ضخمة وعسكر ومصارف وسياسيون في المناصب العليا للدول. وقد أورد بروفسور (بازل ديفدسون)، وهو واحد من أحبار المؤرخين لأفريقيا، أورد في كتابه (تجارة الرقيق في أفريقيا) قول رجل إنجليزي يدعى (جون باروت)، عام ١٦٨٣، قال:

«تجارة الرقيق هي تجارة الملوك والأثرياء وكبار رجال الأعمال».

هذا، ويضيف دكتور (جيمس والفن) قوله:

«لا تكاد عقولنا اليوم تقبل ما حدث. تاجر الرقيق الإنجليزي المتدين الذي يخاف الله، لا يجد غضاضة في أن يقوم بهذا العمل الذي لا يرضاه الله. مئات الأوروبيين والأمريكان، يحمدون الله على نعمته أنه يسّر لهم تجارة رابحة في أفريقيا.

تفيض قلوبهم بالشكر وهم يبحرون بسفنهم في مهب رياح رخاء تحملهم إلى العالم الجديد. هم، والذين جاءوا قبلهم، والذين سوف يجيئون بعدهم، لا يرهق ضمائرهم أدنى إحساس بالذنب، إنهم يجترحون عملاً منكراً يخالف تعاليم الدين المسيحي الذي يدينون به».

(*) يقدّر (بروفسور ديفدسون) عدد الأفريقيين الذين نقلهم الأوروبيون إلى الأمريكيتين، بخمسة عشر مليوناً. ومن مصادر أخرى، أن عدد الذين نقلوا إلى أمريكا الجنوبية وحدها بلغ عشرين مليوناً.

■ ■ ■

من نافلة القول، أنك لا تستطيع أن تدافع عن الشر، سواء قلَّ أم كثُر. كانت تجارة الرقيق شرّاً بيّناً، بل وباء أصاب جسد الإنسانية ردحاً من الزمن.

نعم، لم يخرج العرب طاهري الذيل تماماً من رجس تجارة الرقيق في أفريقيا، ولكن شتان بين نصيبهم ونصيب غيرهم. لقد كان دورهم أقل حتى من دور الأفريقيين أنفسهم.

يقول دكتور (كفن شلنجتون) من جامعتي زامبيا ولندن، عن الدور الأفريقي، في كتابه (تاريخ أفريقيا):

«كان الأوروبيون، في الغالب، لا يبرحون قلاعهم الحصينة المنتشرة على امتداد الساحل الغربي لأفريقيا. وكانت هذه القلاع بمثابة مراكز لتجميع الأسرى ثم نقلهم عبر المحيط الأطلسي. وكانوا يحصلون على الإذن بإقامة تلك الحصون

من الحكّام المحليين، لقاء أتاوات معينة يدفعونها لهم. وعلى وجه العموم، فقد كان الحكّام الأفريقيون ورؤساء العشائر، هم الذين يحصلون على الرقيق، وهم الذين يعدون السماسرة والأدلاء، الذين يوصلون الأسرى الأفريقيين إلى التجار الأوروبيين على الساحل...».

القسط الأكبر من هذا النشاط التجاري البشع، كان منصبّاً على الساحل الغربي لأفريقيا. ساحل السنغال وغينيا وساحل الذهب وساحل العاج وأنجولا. وقد استعر النشاط في القرن السابع عشر في ساحل نيجيريا الحالية، فسمي (ساحل الرقيق).

أما عن الدور الأوروبي، فيقول (دكتور شلنجتون):

«أول فوج من الأسرى الأفريقيين، يُنقل عبر المحيط الأطلسي، كان عام ١٥٣٢. ثم اتسعت تلك التجارة في السلع البشرية.. ومنذ عام ١٦٣٠، دخل الهولنديون الميدان، ثم لحق بهم الفرنسيون، ثم الإنجليز. وقد زاد الطلب على الرقيق زيادة قصوى، نتيجة التوسع في زراعة قصب السكر في البرازيل وجزر البحر الكاريبي، حتى وصل حجم التجارة من الساحل الغربي لأفريقيا حدّاً مذهلاً. وعلى مدى القرنين التاليين، حدث أعظم نزوح قسري لشعوب مغلوبة على أمرها، عرفته البشرية في تاريخها كله».

هكذا نرى، أن تجارة الرقيق من الساحل الغربي لأفريقيا، كانت (مؤسسة) ذات كفاءة عالية ـ من وجهة نظر المنتفعين بها ـ منظمة تنظيماً لا يطيقه إلّا الأوروبيون بمهارتهم المعروفة في التنظيم. وقد انتحلوا لها مبررات عرقية زائدة، وذرائع خلقية باطلة. وهي مؤسسة

أدت بشكل منطقي إلى مؤسسة أعمّ وأشمل، ألا وهي الاستعمار.

يقول (بازل ديفدسون) في كتابه «تجارة الرقيق في أفريقيا»:

«... لم يكن (لفنجستون) غافلاً عن حقيقة ما يحدث. كان يعلم أنه يشهد نشاطاً جديداً متزايداً في تجارة الرقيق. وقد وجد إلى الجنوب، في حوض نهر الـ (زامبيزي)، أنه حين شق دروباً جديدة، فقد سهل دخول تجار الرقيق الذين يعملون لصالح البرتغاليين... أثناء ذلك، لم يجد الرأي العام في أوروبا غضاضة في تلك التجارة، وتقبلها كما لو أنها أمر طبيعي لم يزل يحدث في تلك المنطقة طوال تاريخها».

ويدلل بروفسور (ديفدسون) على انتشار النظرة المتعالية تجاه أفريقيا حتى بين العلماء في ذلك الزمان، برأي مؤرخ معروف يدعى (كوبلاند)، كتب يقول عام ١٩٢٨:

«لم يكن لأفريقيا تاريخ قبل (لفنجستون)... ظل الإفريقيون لقرون طويلة، منغمسين في البربرية والهمجية.. إنه كما يبدو لنا، ناموس حتمي من نواميس الطبيعة.. ظلوا في جهالة وخمول.. كان قلب أفريقيا متوقفاً عن الخفقان...».

ها هنا، في كلمات هذا المؤرخ تجد خلاصة نظرية التفوق العرقي ـ أن الإنسان الأسود بطبيعته لهو في أسفل درجات سلّم الرقي الإنساني، وأنه غير قابل للتعليم، ولن تجدي معه محاولات التحضّر. لذلك فإن استرقاقه والتسلّط عليه، أمر مقبول (خُلُقياً).

لا يخفى أنها نظرية تخالف كل ما جاءت به الشرائع السماوية، وقد نسفها الإسلام نسفاً، حين نص في محكم التنزيل:

﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

هذا، ومن الإنصاف القول، أن معاناة (لفنجستون) في أفريقيا، ونهايته المأسوية، قد ألهبت خيال الرأي العام في أوروبا، وفي إنجلترا خاصة، وكان ذلك سبباً في ظهور حركة قوية تطالب بإيقاف تجارة الرقيق. إنما لا بد من القول أيضاً، أنه بقدر ما كانت تجارة الرقيق (صناعة) أوروبية في الغالب، فإن الدعوة إلى وضع حد لها، صارت ذريعة لتدخل أوروبي من نوع آخر ـ الاستعمار.

ولم يكن للعرب نصيب يُذكر في أيٍّ من هذا. كان دورهم ضعيفاً قام به أفراد مغامرون.

إذا أحسنّا الظن نقول، إنهم لم يرموا بثقلهم في تجارة الرقيق، لأنهم كانوا أكثر استجابة من الأوروبيين، لدواعي دينهم الحنيف الذي لا يفرق بين أحمر وأسود، ولا بين عربي وغير عربي.

وعلى أسوأ الفروض نقول، إنه لم تكن لهم القدرة التنظيمية الهائلة، كما استطاع الأوروبيون، لتسيير تلك المؤسسة الضخمة (العابرة للقارات ـ ترانسناشُنال) ـ رغم بشاعتها.

إنما الثابت على أي حال، أن العار التاريخي الذي لحق بهم، وهو من الضآلة بحيث لا يُقاس بما لحق بالأوروبيين.

■ ■ ■

حين يُذكر دور العرب في تجارة الرقيق في أفريقيا، يبرز اسمان عربيان أكثر من غيرهما، تجدهما يغطسان ويطفوان في ثنايا أوصاف الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وفي كتب المؤرخين الأوروبيين، يترددان مثل لحن موسيقي كئيب، رمزاً للبشاعة والقسوة والجشع والخداع.

استقرت هذه الصورة في أذهان الأوروبيين، حتى بدا كما لو أن العرب وحدهم، دون سواهم، هم الذين اجترحوا ذلك الإثم الذي لا يعدله أي إثم في تاريخ البشرية. وقد كان الرأي العام في أوروبا مستعدّاً على أي حال، لتقبل هذا التزييف، بسبب الحزازات القديمة التي آلت إليه، تلك الحزازات التي خلّفها الصراع العربي ـ الأوروبي في إسبانيا، والصراع العثماني ـ الأوروبي في البلقان وأبعد، والصراع الإسلامي ـ الصليبي، خاصة في بلاد الشام.

لا تكاد تجد من شذّ عن هذا المنحى من المؤرخين الأوروبيين ـ وأغلب المصادر عن تجارة الرقيق أوروبية ـ اللهم إلّا قلّة من المؤرخين المنصفين في الآونة الأخيرة، الذين حاولوا أن يضعوا دور العرب في سياقه الحقيقي، بالقياس إلى أدوار غيرهم من الأمم. وكما قلت، فإن هؤلاء المؤرخين الأمناء، وضعوا الجرم حيث ينبغي أن يوضع ـ على عاتق الأوروبيين في المقام الأول.

الرجلان العربيان، أحدهما عُماني من زنجبار هو حامد بن محمد المعروف بـ (تبو تبْ) والثاني سنّاري سوداني من ديار (الجعليين) هو الزبير باشا ولد رحمه. وفي حقيقة الأمر، فإن التجارة لم تكن هدفاً لأي من الرجلين. اشتريا وباعا، من الرقيق وسن الفيل. وتلطخت أياديهما أحياناً في الدماء، ولا يمكن تبرئتهما كلية، على أنهما

ملكان طاهران في محيط مليء بالشر.

إنما كل واحد من هذين الرجلين المغامرين، كان يسعى إلى إقامة دولة. وكل واحد منهما كوّن جيشاً قوياً من العرب والسود. كانا متشابهين إلى حد بعيد. كل منهما عُرف بالشجاعة والحنكة والمهارة العسكرية والقدرة على الزعامة والرئاسة.

وقد كاد كل منهما يحقق هدفه. بسط الزبير نفوذه على رقعة واسعة تمتد من بحر الغزال إلى أقصى غرب السودان إلى تشاد. وحاز (تبو تِبْ) على ثلثي الكنغو. لكنهما اصطدما بالطموحات الاستعمارية الأوروبية، التي لم يكن لأي منهما القدرة لمواجهتها. وانتهى الأمر بالزبير، أنه نُفي إلى مصر، وعاد (تبو تب) أدراجه إلى زنجبار خالي الوفاض، بعد أن جرّب اللعب مع البلجيك، وخسر بطبيعة الحال.

ذلك الرحالة الإنجليزي الأمريكي الغريب (ستانلي)، هو الذي لطّخ سمعة (تبو تب) أكثر من أي شخص آخر. كان قد لقيه أول مرة عام ١٨٧٦ في بلدة (نيانقوى) على نهر (لوالابا)، حين كان (ستانلي) يحاول أن ينجز مغامرته الكبرى، أن يشق أفريقيا من الشرق إلى الغرب. وكان (تبو تب) خبيراً بتلك الدروب، فاستعان به (ستانلي) جزءاً من الطريق. ولكن (تبو تب) لم يحتمل عنجهية (ستانلي) فتركه غاضباً.

كتب (ستانلي) في مذكراته بتاريخ ٧ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٨٧٦ ـ ولعله كتب بعد هذا التاريخ بزمن فقد عُرف عنه الاختلاق والتزوير:

«قال لي حامد بن محمد: «الحصول على العبيد لا يكلف

جهداً. ما عليك إلّا أن تسوقهم أمامك... هذا بالطبع هو عمل معاونيه (موينى دوقمبي) و(متاقا مويو).. هؤلاء الهجناء لا يحملون معهم أقمشة ولا خرزاً ولا أي سلعة للمقايضة.. إذا أرادوا سن الفيل فإنهم يحصلون عليها بالنهب.. يغيرون على أهالي (نيانقوى) البؤساء، ذات اليمين وذات اليسار. يقبضون على اثني عشر أو خمسة عشر أسيراً ويبيعونهم مقابل ستة عشر كيلو من سن الفيل.. (مِويني دوقْمبي) يملك حريماً مكوناً من مائة أو مائة وعشرين امرأة. و(متاقا مويو) له حريم من اثنتين وستين امرأة».

لا يخفى التضارب والتناقض في هذا الكلام، فبعد أن زعم (ستانلي) أن (تبو تب) كان يحصل على سن الفيل نهباً، عاد فزعم أنه يحصل على (العبيد) بالقوة، ويقايضهم بسن الفيل. وهو يرمي من وراء ذلك بالطبع أن يقول، أن سن الفيل أغلى عند هذا العربي من الأرواح الآدمية.

ثم تهمة الشبق الجنسي والحريم، وهي تهمة تلاحق العرب إلى يومنا هذا.

ورغم ذلك، فإن المؤرخ الإنجليزي (كفنْ شلنجتون) الذي حاول أن يكون منصفاً، استدل بقول (ستانلي)، على ما وصفه بـ (رخص الحياة البشرية عند تبو تب وأتباعه). لكنه لم يستطع إلّا أن يعقب على مضض بقوله:

«لا بد من الإشارة إلى أن (ستانلي) نفسه لم يكن يتورع عن إطلاق النار على الأفريقيين وقتلهم لأتفه الأسباب».

لا عجب، فإن المجازر التي اجترحها هذا الرحالة، الذي اشتهر بالمبالغة والكذب، لا يمكن إنكارها. وقد بلغ من كذبه أن بعض العلماء الإنجليز في ذلك العصر، شككوا في أن يكون (ستانلي) قد التقى بـ (لفنجستون) بالفعل، كما زعم.

■ ■ ■

كان حامد بن محمد الملقَّب (تبو تب) عربياً أفريقياً، لحماً ودماً. كان أبوه عربياً عُمانياً زنجبارياً وأمه، أفريقية سوداء، لذلك تجد بعض الرحالة الأوروبيين، يعيّرونه أحياناً بأنه (هجين).

الزّنج أهله وذوو رحمة، كما هُم يعرب زنجبار وشرق أفريقيا، كما هم يعرب السودان. واتهامهم بالتعالي، اتهام أجوف، إذ كيف يتعالى الإنسان على بعض نفسه. إنما الأوروبيون أحالوا إثمهم على العرب إبراءً لذمتهم، وتلك شنشنة فيهم، وكما تقول العرب «رمتني بدائها وانسلّت».

في غمار كل ذلك، لا يملك الإنسان إلّا أن يقرأ ببعض الدهشة، الوصف الناطق الحي، الذي وصف به (تبو تب)، الكاتب الإنجليزي (آلان مورهد) في كتابه «النيل الأبيض». إنه وصف يتضمن كثيراً من عناصر العلاقة المحيرة التي قامت بين العرب والأوروبيين، علاقة تختلط فيها الجاذبية الشديدة، بالنفور الشديد. يقول:

«محمد بن سعيد[١] الذي سار عليه لقب (تبو تب) بسبب رجفة في عينيه إثر مرض أصابهما رجل من طراز يصعب

(١) يقصد حامد بن محمد.

على الأوروبيين فهمه. كان سفاحاً بالغ القسوة، وفي الوقت نفسه عميق الثقافة واسع الاطلاع، اجتمعت فيه كل صفات التهذيب والتحضر التي يطلبها الأوروبيون في الرجل الـ (جنتلمان).

كان وسيماً فائق الوسامة، داكن سمرة البشرة، فارع الطول، له لحية بيضاء. مهيب الطلعة ذكي الحديث (قرصاناً) غاية في الجاذبية واللطف.

هذا الوغد النبيل، وسوف نرى طرازه يتكرر في السودان[٢] كان واسع الثراء، وكان قصره الباذخ في زنجبار، وهو قائم إلى اليوم، محط القوافل التي كانت تضرب في عمق أفريقيا، متغلغلة إلى حدود الكنغو وأبعد... أنقذ (لفنجستون) وهو يشرف على الهلاك في قلب القارة، ثم أعان (ستانلي) في رحلته...».

ذلك اللقاء الأول، كان عام ١٨٧٦، حين كان (ستانلي) يسارع أن يكون أول رحالة يعبر القارة من الشرق إلى الغرب، لا يبالي كيف يتم ذلك. ثم التقى الخصمان في زنجبار بعد عشر سنوات، وكان (ستانلي) قد أدرك أنه لن يستطيع أن يحقق حلم ليوبولد ملك البلجيك، في الحصول على الكنغو، دون الاستعانة بـ (تبو تب).

يصف الدكتور (فرانك ماك لن) من جامعة أوكسفورد، هذا اللقاء، في كتابه الجميل (ستانلي ـ صبي الساحر)[٣]، فيقول:

(٢) يشير إلى الزبير رحمة.
(٣) يقصد بـ (الساحر) الملك ليوبولد، ملك بلجيكا.

«... وجد (ستانلي) أن السنوات العشر قد تركت أثراً واضحاً على (تبو تب). ابيضّ شعر رأسه ولحيته، ولكنه بقامته الفارعة (ستة أقدام وبوصتان)، لم يفقد شيئاً من مهابته (...) كان يمثل القوة الحقيقية في أفريقيا بين بحيرة (تانقانيقا) أعالي الكنغو (...).

حين عاد (تبو تب) إلى زنجبار، وجد السلطان برقش ضعيفاً مستخذياً، فاضطر أن يمسك بمقاليد الزعامة العربية ودخل في مفاوضات مع (هو لموود)(٤). وقد أنذره أن العرب في داخل القارة سوف يقاومون حتى الموت، أي محاولة أوروبية لنزع ممتلكاتهم منهم بالقوة. وفي الوقت نفسه رحب بأي مساعٍ بريطانية لتسوية الخلافات بينه وبين البلجيك (...).

كان وضع (تبو تب) صعباً جداً. كان يحب الأوروبيين على وجه العموم إلّا (ستانلي). لم يكن يطيق (ستانلي). كان يعتبره رجلاً كاذباً لا يملك ذرّة من الأمانة أو الشرف. رجلاً لا يحافظ على كلمته ولا يفي بوعده. كان يقول إن (ستانلي) أسوأ من أي تاجر رقيق حقير، وأنه لا يكنّ أي احترام للأهالي الأفريقيين، الذين لم يكن يبالي أن يضحي بآلاف منهم، في سبيل الوصول إلى أهدافه.

كان أحياناً ينصب منهم حائطاً بشرياً يحتمي وراءه من نيران بنادق أعدائه، وأحياناً يقذف بهم إلى الهلاك في عمق

(٤) فردريك هولموود، كان مساعد القنصل البريطاني في زنجبار، وكان القنصل (كيرك) من ألدّ أعداء (ستانلي).

الغابات الاستوائية، من حيث لا يجدون طريقاً إلى النجاة...».

هذه الصورة ليس فيها أي مبالغة، فقد أكدها عدد من المؤرخين. ولم تزل الوصمة تلاحق (ستانلي) من جراء المذبحة البشعة التي ارتكبها في جزيرة (بُمبيرة) في نيسان/ أبريل عام ١٨٧٥. في ذلك الوقت، غضب كثيرون مستنكرين تلك البشاعة، وكتب الرحالة (بيكر) إلى زميله (قرانْت) يقول:

«إنه أمر لم يحدث إطلاقاً من قبل، أن يقوم مكتشفون بسطاء أمثالنا بترويع القرى وإطلاق نيران البنادق على الأهالي. لا (سبيك) ولا أنت ولا (لفنجستون) اجترح شيئاً من هذا. كلنا تذرعنا بالصبر في مواجهة المصاعب».

هؤلاء الرحّالة، وكثير من الجغرافيين، وعدد غير قليل من أهل الرأي الذين لم تنطل عليهم حيل (ستانلي)، كل هؤلاء كانوا يشاركون (تبو تب) سوء ظنه بالرحالة المغامر.

يقول (توماس باكنهام) في كتابه «التكالب على أفريقيا»:

«... كانوا يذهبون أبعد من مجرد الشك في دوافع (ستانلي)... كانوا على يقين أنه لم يلتق بـ (لفنجستون) إطلاقاً وأن الرسائل التي نشرها في كتابه «كيف عثرتُ على لفنجستون»، رسائل مزيفة، وأن رحلته كلها إلى أفريقيا، لم تكن أكثر من خدعة دعائية، وأن قصته من أولها إلى آخرها، كذب في كذب».

■ ■ ■

إنها احتمالات تُذهل العقل. لو أن النفوذ العثماني ـ المصري استقر في وسط أفريقيا! لو أن اللاعبيْن العربييْن الماهرين نجحا في تحقيق طموحاتهما، الزبير إلى الجنوب الغربي، و(تبو تب) في الشرق الأوسط، وقد كادت مناطق نفوذهما تلتقي! لو أن الثورة المهدية استتب لها الأمر في الشمال، واستطاعت أن تعزز وجودها في الإقليم الاستوائي من أفريقيا!

إنما هي أحلام كانت كلها محكوماً عليها بالفشل. كان الوقت وقت استعمار، وكان الاستعمار الأوروبي في قمة جذوته، وكان الحكم الفصل هو السلاح، والسلاح أوروبي. «بُنْدُكي سُلْتاني يا بارا بارا» ـ كما يقول المثل السواحيلي ـ «البندقية هي السلطان في هذه البلاد».

في الآستانة، كان (الباب العالي) قد أخذ يتضعضع أمام الضغط الأوروبي وسوف ينهار وشيكاً. وفي القاهرة كان الخديوي إسماعيل ـ ثم توفيق ـ ظلاً للباب العالي، أي أنه كان ظلاً باهتاً لظل باهت. كان الحاكم الفعلي هو (المقيم) البريطاني. وفي زنجبار كان ظل السلطان برقش لا يكاد يرى. كان الحاكم الفعلي هو (كيرْك)، القنصل البريطاني، الذي سوف يخذله فيما بعد. وفي أم دُرْمان، عاصمة الدولة المهدية كان الخليفة عبد الله، الذي آل إليه الأمر بعد وفاة الإمام المهدي، يواجه صعوبات كبيرة من الداخل والخارج، سوف تقضي على دولته بعد نحو عشر سنوات من هذا التاريخ. كانت محاولته ضم مناطق أفريقيا الاستوائية إلى ملكه، بمثابة صرخة ضعيفة في واد سحيق.

بقي المغامران العربيان، الزبير ولد رحمه في السودان، وحامد بن محمد في زنجبار يعتمدان على ذكائهما وجرأتهما ومقوماتهما

الذاتية التي لم تكن تكفي. وكانت نهاية كل منهما، مثل نهايات أبطال مسرحيات (برخت). كل منهما خسر في اللعب، لكنه نجا بنفسه، ومات في فراشه، حتف أنفه.

وقد اتضح من سلوك القوى الأوروبية التي دخلت اللعب بجد منذ عام ١٨٨٠ أنهما كانا أشبه بالمقامرين الأوروبيين. إنْ كانا (وغدين)، كما وصفهما بعض المؤرخين الأوروبيين، فقد كانا وغدين بين مجموعة أوغاد.

من هؤلاء (بسمارك)، أخطر لاعب على مسرح السياسة الأوروبية في القرن التاسع عشر. تدخّل فجأة، تدخلاً حاسماً، قضى قضاء مبرماً على حلم (تبو تب) لإقامة دولة عربية في قلب أفريقيا.

لم يكن (بسمارك) معنياً بأفريقيا ولكنه وقع تحت تأثير مغامر ألماني يدعى (كارل بيترز)، يوصف بأنه أكثر تهوراً وقسوة حتى من (ستانلي).

في نيسان/ أبريل عام ١٨٨٥، رست خمس سفن حربية ألمانية في ميناء زنجبار، ونصبت مدافعها استعداداً لإطلاق النار، تحت (ظل) المدافع هذا ـ وهو ظل ذو ثلاث شُعب لم تزل تفيء إليه القوى العظمى ـ طلب القائد الألماني من السلطان برقش سلطان زنجبار، أن يوقّع في خلال أربع وعشرين ساعة على معاهدة أعدّت من قبل، بالتشاور مع (كارل بيترز)، بلا شك.

لم يكن للسلطان برقش المسكين من مفر ولا ملاذ. كان يركن إلى القنصل البريطاني (كيرك) الذي أوهمه ـ ولعله كان صادقاً ـ أن

بريطانيا سوف تحميه وتضمن له سلامة ملكه. لكن الأوامر وصلت من لندن إلى (كيرك) بألا يتدخل بأي وجه يعرقل مساعي ألمانيا.

تركوا له الجزر الثلاث ـ زنجبار وبمبا ومافيا ـ وشريطاً صغيراً من الساحل. أخذت ألمانيا تنقانيقا، وأخذت بريطانيا كينيا وتركوا منطقة الـ (باقاندا) التي عُرفت فيما بعد بـ (يوغندا) بلا سيد. فيما بعد، ضمتها بريطانيا إلى سيادتها، كما ضمت تنقانيقا وزنجبار.

لم يحصل (ليوبولد) على قطعة من هذه الفريسة. كان قد حصل أخيراً على الكونغو بمعونة ستانلي، لكنه لم يكتف بذلك، بل أراد أن يضم إليه المنطقة الاستوائية التي أصبحت فيما بعد جزءاً من السودان.

تلك الإهانة قصمت ظهر برقش المسكين، فمات بعدها بقليل، وهو لم يتجاوز الحادية والخمسين من العمر.

في أثناء ذلك كان (ستانلي) يصعد من نجاح إلى نجاح. إن كان (الزبير) و(تبو تب) وغدين فهذا هو الشيطان بعينه. كان يحمل في جيبه عدة ولاءات، يبيع فيها ويشتري كيف شاء. ولاء لبريطانيا بحكم مولده، وقد حاول جاهداً أن يقنعها باستعمار الكونغو. وولاء لأمريكا بحكم نشأته ولعل أمريكا حين دخلت فيما بعد معترك الأحداث في أفريقيا كانت تلاحق بين أصداء الأصوات التي أثارتها، صدى صوت ستانلي.

ثم تلك العلاقة العجيبة بين (ستانلي) و(ليوبولد) التي وصفها المؤرخ الإنجليزي (دكتور فرانك ماك لن) بأنها مثل علاقة الساحر بصبية إنما

(ستانلي) لم يكن صبياً دائماً. كان يبدو أحياناً كما لو أنه هو (الساحر) والصبي هو (ليوبولد).

في نحو هذا الوقت، نشأت علاقة أخرى تقوم على المصلحة بين (ستانلي)، ورجل أعمال إسكتلندي يدعى (ماكنون) أراد أن ينقذ أمين باشا ـ وكانت أخباره قد انقطعت في وسط أفريقيا ـ ويجمع بين عمل البر والكسب المادي.

وفوق كل شيء كان ولاء (ستانلي) لنفسه. كوّن ثروة وسمعة واسعة على جثة (لفنجستون) وجثة (أمين باشا) من بعده. ألّف كتباً عدة مشكوكاً في مصداقيتها لكنها نالت رواجاً عظيماً. احتفت به الملكة فكتوريا ورئيس الولايات المتحدة. اشترى مزرعة في إنجلترا وأصبح نائباً في البرلمان، ونال لقب (سير) وصار (سير هنري مورتن ستانلي).

أما (أمين باشا) فقد كان مغامراً ـ وإن شئت قُل (وغداً) ـ من نوع آخر.

■ ■ ■

غصّت أفريقيا في هذا الوقت، بأنماط عجيبة من الأوروبيين، رجال قذفت بهم في تلك الأصقاع نوازع متضاربة. الفضول، وحب التعرف على عوالم غريبة، والطموح الذاتي وطلب الشهرة، والطمع، وأحياناً المثل العليا في حالات نادرة مثل حالة غوردون.

كان من المشهورين منهم في السودان، صموئيل بيكر الإنجليزي، وروملو جسي الإيطالي، ورودلف سلاطين النمساوي، وإدوارد

شنترَرْ الألماني، وبالطبع الجنرال غوردون الذي لاقى حتفه في الخرطوم.

كانوا اسمّياً موظفين لدى خديوي مصر، الذي بدوره يخضع اسمياً للباب العالي في اسطنبول. كل منهم يضع الطربوش على رأسه، وأغلبهم يحمل لقب (باشا). لكن كل واحد منهم كان في قرارة نفسه متعاطفاً مع طموحات دولته في الصراع الدائر، للسيطرة على القارة (البكر)، كما كانوا يسمونها.

ولن تجد صراحة أكثر، في التعبير عن هذا الوضع، من الرسالة التي وجهها (لورد قرانْفل) وزير الخارجية البريطانية، إلى الجنرال غوردون، بتاريخ ١٨ كانون الثاني/ يناير عام ١٨٨٤، يعينه فيها ـ في الواقع ـ حاكماً عاماً على السودان للمرة الثانية. تقول الرسالة:

«سيدي،

إن حكومة صاحبة الجلالة ترغب أن ترسلك فوراً إلى مصر، لتطلعها على حقيقة الوضع العسكري في السودان، والخطوات التي تنصح الحكومة المصرية باتخاذها لضمان سلامة الحاميات المصرية التي ما تزال محافظة على موقعها في ذلك القطر، وسلامة الجاليات الأوروبية في الخرطوم. وترغب الحكومة منك أيضاً أن تنصحها عن أفضل الوسائل للجلاء عن المناطق الداخلية في القطر، وضمان سلامة الإدارة المصرية للموانىء على ساحل البحر. وبهذا الصدد، عليك أن تولي عناية خاصة للخطوات التي يمكن اتخاذها للتغلب على النشاط الذي سوف يزداد في تجارة الرقيق. نتيجة لحركة التمرد الحالية، وانسحاب السلطة المصرية من داخل القطر سوف تكون

خاضعاً لنفوذ مندوب صاحبة الجلالة وقنصلها العام في القاهرة، وعليك أن توجّه بواسطته، تقاريرك إلى حكومة صاحبة الجلالة. وعليك أن تعتبر نفسك مخوّلاً ومأموراً أن تقوم بأداء أية واجبات أخرى قد تطلب الحكومة المصرية منك أداءها، أو قد يطلبها منك سير (أيفلن بيرنْج).

سوف يرافقك (الكولونيل ستيوارت) الذي سوف يعاونك في تنفيذ المهمة التي أوكلت إليك. وحالما تصل مصر، عليك الاتصال فوراً بسير أيفلن بيرنْج، الذي سوف يقابلك، وسوف يشير عليك إنْ كان من المناسب أن تتوجه مباشرة إلى سواكم (يقصد سواكن) وهل تذهب بنفسك، أم يسبقك (الكولونيل ستيوارت) إلى الخرطوم، عن طريق النيل».

المخلص

قرانفل

*

هذا، وقد اتضح فيما بعد أن غوردون لم يكن أداة طيّعة في يد الحكومة البريطانية، وكان يكره (سير أيفلن بيرنج) الذي صار بعد ذلك (لورد كرومر) والحاكم الفعلي لمصر، ولا يطيق التعامل معه.

كذلك بدا، كما لو أن الطبيب الألماني (إدوارد شنتْزر Edward Schnitzer) كان طرازاً من الرجال مختلفاً عن شاكلة (ستانلي) وأن ولاءه كان خالصاً لصديقه الخديوي إسماعيل خديوي مصر.

وبالفعل، كان مختلفاً عن (ستانلي). بقدر ما كان (ستانلي) فجاً قاسياً متهوراً، كان هذا دمثاً مهذّباً، شديد التروي إلى حد التردد. وبقدر ما كان (ستانلي) جاهلاً، كان هذا عالماً متعدد الاهتمامات.

بالإضافة إلى الطب، كان يملك موهبة خارقه على تعلّم اللغات، فأتقن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والتركية والعربية والفارسيّة واليونانية واللاتينية والروسية وعدداً من اللغات السلاڤية الصغرى. وكان أيضاً مهتمّاً بالعلوم الطبيعية، خاصة بالنباتات والطيور والحشرات، وكانت دراساته عنها تجد احتراماً عظيماً من العلماء المتخصصين. وخلال عمله، حقق عدة اكتشافات علمية، وأرسل عشرات العينات إلى عدد من متاحف الطبيعة في شتى العواصم الأوروبية فاشتهر بذلك.

عاش (إدوارد شنتزر) زمناً في تركيا، وراقه الأسلوب الشرقي في العيش، فانخرط في المأكل والملبس والمسكن. ثم اعتنق الإسلام، وسمى نفسه (أمين). وحين منحه الخديوي إسماعيل لقب (باشا)، أصبح يعرف بـ (أمين باشا)، وهو الاسم الذي غلب عليه واستحوذ على أسماع الناس وهْلة، بين ضوضاء الأسماء التي عجّت بها أفريقيا في هذه الحقبة من التاريخ.

يومئذٍ صارت أفريقيا مرتعاً للأحلام الأوروبية، أحلام الدول، وأحلام الأفراد.

هل كان (أمين باشا) صادقاً في إسلامه؟ الله أعلم. المؤرخون يذكرون من ناحية، أنه أثناء إقامته في تركيا كان يواظب على صلاة الجمعة في المسجد.

ويذكرون من ناحية أخرى، أنه كتب إلى أخته في ألمانيا، يقول لها: «لا تقلقي. إنني فقط تسميت باسم (أمين)، ولكنني لم أصبح تركياً».

واستدل المتشكّكون، أنه في نهاية حياته، خلع ولاءاته كلها، ما عدا ولاءه لوطنه الأصلي ـ ألمانيا.

■ ■ ■

كان (سير ايفْلِنْ بيرنج) الذي أصبح في ما بعد (لوردِ كرومر) ـ كان يقول «نحن لا نحكم مصر، ولكننا نحكم حُكّام مصر». لذلك في عام ١٨٧٩، عزل الإنجليز ومن ورائهم القوى الأوروبية ذات المصلحة، الخديوي إسماعيل، ونصّبوا مكانه ابنه توفيق.

لقد وجدوا في إسماعيل، حاكماً أكثر ذكاء وقوة وجرأة وطموحاً مما يطلبون. كان حاكماً مستنيراً. درس في كلية (سانت سير St. Cyr) العسكرية في فرنسا، وبهرته الحياة الأوروبية كما رآها في فرنسا، وكان يتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة فائقة. كان بمثابة الوجه الآخر، لرجال أوروبيين، أمثال (بيرتُن) و(بيكر) و(أمين باشا)، الذين انجذبوا إلى الشرق، وربما لأجل ذلك، وقع الذين عملوا معه منهم، تحت تأثير جاذبيته.

حين خلف إسماعيل عمّه محمد سعيد عام ١٨٦٣، كان في الثالثة والثلاثين من العمر، فأقدم على مجموعة من الإصلاحات الواسعة. وقد أُثر عنه قوله «سوف أجعل مصر قطعة من أوروبا».

أعاد تعمير مدينة القاهرة. وكما أن مدينة باريس، تدين في هيأتها الحالية لنابليون الثالث، فإن ما بقي من مدينة القاهرة الحالية، هو ثمرة جهود الخديوي إسماعيل.

كذلك توسّع في شق الطرق، ومشاريع الري، وفوق كل ذلك تمّ في عهده افتتاح قناة السويس.

حين عُزل عام ١٨٧٩، كان الخديوي إسماعيل قد تسبّب، نتيجة سياسته المفتوحة في الإنفاق في تراكم دين على مصر يقدر بمائة مليون جنيه إسترليني.

لكن الدَّين، لم يكن هو القضية. كان الأمر الذي أقلق الإنجليز وبقية الدول الأوروبية، أن إسماعيل بدا كما لو أنه ينوي أن يحتذي حذو جده محمد علي، أن يبني، دولة قوية مستقلة في مصر.

توسّع في بناء الجيش، وحاول أن ينشىء صناعة حربية في مصر. بمعنى آخر أراد «أن يكسر احتكار السلاح الأوروبي».

وكان يطمح أن يقيم أمبراطورية تمتد من منابع النيل في قلب أفريقيا، وتشمل أقاليم البحر الأحمر إلى المتوسط.

بالإضافة إلى كل ذلك، أصبح واضحاً أن إسماعيل بدأ يضيق بتسلط الدول الأوروبية، وأنه أخذ يتعاطف مع طموحات الشعب المصري، التي عبّر عنها بقوة في الثورة العرابية.

أي واحد من هذه النوازع، كان يكفي للإطاحة بحاكم في وضع الخديوي إسماعيل في ذلك الزمان، وبعد قرن من هذا التاريخ، وقف جمال عبد الناصر الموقف نفسه إزاء القوى الأوروبية. وكانت الذريعة هي تأميم قناة السويس.

استقال غوردون، وكان الخديوي إسماعيل قد عيّنه حاكماً عاماً على السودان عام ١٨٧٧. سوف يعود، ليلقى مصرعه الشهير على درج القصر في الخرطوم. أما الآن، فليس واضحاً إن كان استقال مؤازرة للخديوي. كان بينهما إعجاب متبادل، وكان غوردون يفضل التعامل مع إسماعيل على صلِف ممثل دولته (سير ايفلن بيرنغ).

هل هذا أم طبعه الملول الذي لا يثبت على شيء؟

كتب في يومياته كأنه يعزّي نفسه:

«لا تحزن على إسماعيل باشا. إنه فيلسوف وعنده مال كثير. قامر يطلب أقصى الربح وخسر... إنني واحد من الذين خدعهم، لكنني لا أحمل له أي ضغينة... من حسن حظ مصر أنه قد ذهب».

مهما يكن الأمر، فإن إسماعيل قد حمل حريمه وحاشيته ولوحاته النادرة وجواهره الثمينة وأمواله، وكانت تكفيه وزيادة، ولاذ باسطمبول، حيث ظل يتآمر يحاول العودة، إلى أن مات. إنما التاريخ، كما نعلم، لا يحفل بالفرص الضائعة. قليلون هم الذين عادوا بعد أن ذهبوا. وحتى نابليون بونابرت الفحل، حين عاد، لم تكن عودته إلّا كخُلْسة المختلس.

في أثناء ذلك، كان صديق الخديوي الآخر (أمين باشا)، قد قضى ردحاً في الاستوائية، منذ هو مشرف طبي، ثم حين عيّنه غوردون حاكما بدلاً عنه، يوم أصبح هو حاكماً عاماً كان يحب الخديوي إسماعيل، ولكنه آثر أن يبقى. أَلِف العيش في تلك الأرض الشاسعة، بين النباتات والطيور والوحش، التي تُشبع نهمه العلمي

للاكتشاف. عنده زوجته الإثيوبية ـ وربما زوجاته كما يلمّح بعض المؤرخين ـ وابنته التي أسماها فريدة، وكتبه، وبعض المغامرين الأوروبيين الذين التفّوا حوله. منهم إيطالي يدعى (قايْتانو كاساتي)، وألماني روسي اسمه (دكتور جَنْكر). عنده جنوده من المصريين والسودانيين، ومبشرون من مختلف الجنسيات الأوروبية.

كان كأنه حاكم في دولة قائمة بذاتها، بل إن بعض المؤرخين يؤكد أن (أمين باشا) أراد أن يستقل بذلك الجزء من جسد أفريقيا. ولِمَ لا؟ لقد اختطف ليوبولد البلجيكي الكنقو، فلماذا لا يختطف هو إقليم الاستوائية بمؤازرة ألمانيا؟

كانت الأرض «سائبة للبيع أو الشراء»، كما قال صديقنا (بونا ملوال)، في خطابه في بوسطن.

صدق. إنما الأرض لم تكن كلها (سائبة). فقط ذلك الجزء في وسط أفريقيا، كان يبدو في عيون الجشع الأوروبي، أنه للبيع أو الشراء أو الاغتصاب الصرف.

لن تلبث أن تنطلق في شمال السودان ثورة تؤكد أن الأرض ليست هملاً. وسوف تصل نذر تلك الثورة إلى (أمين باشا) في معقله في (لادو) في الاستوائية.

■ ■ ■

في العام نفسه، عام ١٨٨١، حين انطلقت الثورة المهدية في السودان، انطلقت أيضاً الثورة العرابية في مصر. وبينما كانت قوات

الإمام المهدي تحاصر مدينة «الأبيض» في الغرب، كانت السفن الحربية البريطانية بقيادة الجنرال وُلْسْلي، تضرب مدينة الإسكندرية. وحين سقطت الخرطوم في أيدي الثوار وقُتل غوردون (٢٦ شباط/ فبراير ١٨٨٥)، كان الخديوي توفيق، قد استطاع بمساعدة القوات البريطانية، أن يقضي على الثورة العرابية.

وكان (أمين باشا) في عاصمة إدارته في (لادو) بالاستوائية، بمعزل عن كل هذا. انقطعت صلته بالعالم الخارجي، إلّا ما كان يتسرب إليه من زنجبار. لم يكن حتى عام ١٨٨٦، حين وصلته رسالتان، إحداهما من (كيرك)، القنصل البريطاني في زنجبار، والثانية من (نوبار باشا) رئيس الوزراء المصري، تخبرانه بمقتل غوردون وحقيقة الوضع في السودان. وقد طلب (نوبار) منه، أن ينسحب من الاستوائية، وإذا قرر البقاء، يبقى على مسؤوليته، ولا يتوقع أي مساعدة من الحكومة المصرية.

كان (نوبار) أرمنياً، لا يعرف اللغة العربية، يتحدث التركية والفرنسية. جاء إلى مصر من تركيا مع عمه الذي كان مقرباً إلى محمد علي باشا، وأصبح بمرور الزمن، من رجال السراي، ومن الشخصيات ذات التأثير. وكان شديد الولاء للإنجليز، يدعو صراحة أن تعلن بريطانيا الحماية على مصر.

إلّا أن ذلك فيما يبدو، لم يحبّبه إلى الإنجليز، فقد وصفه القنصل العام (سير أيفلن بيرنج) بقوله:
«إنه وغد ومخادع. ولكنه كُفء ويفكّر بطريقة أوروبية».

وكان الاحتقار أكثر وضوحاً في تقرير أحد موظفي وزارة الخارجية

البريطانية، إذ جاء فيه عن (نوبار باشا):
«إنه مُريح ومناسب للظروف الحالية، ولكنه ليس ضرورياً».

وذلك بالتحديد، كان السبب في مجيئه رئيساً للوزارة - إنه (مناسب للظروف). ذلك أنهم لم يجدوا مصرياً قُحاً قبل أن يتولى الوزارة في تلك الظروف حين كان الشعور الوطني متأججاً على أثر هزيمة الثورة. كان الشعب المصري ساخطاً على الخديوي والإنجليز والقوى الأوروبية عموماً.

جاءوا به - أو بالأحرى جاء به (سير أيفلن بيرنج) - لينفذ برنامجاً محدداً. أن يطبق في مصر بعض الإصلاحات التي أوصى بها (لورد دوفرن) في تقريره، وكانت الحكومة البريطانية قد كلّفته بذلك. لم يشأ (سير أيفلن بيرنج)، أن ينفذ كل توصيات (لورد دوفرن)، وكان دوره قد أصبح حاسماً في رسم السياسة البريطانية في مصر. بالإضافة إلى ذلك تنفذ حكومة (نوبار باشا) السياسات المالية الصارمة التي فرضها الدائنون الأوروبيون. فوق كل شيء، كان عليه، بتوجيه من (سير أيفلن بيرنج) أن يراعي التوازن الدقيق الذي أملته المصالح الأوروبية المتضاربة في مصر.

وفيما يتعلق بالسودان، كان على (نوبار باشا) أن يعمل على انسحاب الوجود المصري. فيما بعد تُرك الخيار لـ (غوردون) أن يقرر مدى ذلك الانسحاب. وفي الواقع، حين وصل (غوردون) إلى الخرطوم، أخذ يتصرف كما لو أنه لا ينوي الانسحاب.

حين قامت الثورة العرابية، كان رئيس وزراء بريطانيا هو (قلادستون) زعيم حزب الأحرار. وقد سجل التاريخ له قولة تبدو غريبة من

رئيس وزراء بريطاني. قال في كانون الثاني/ يناير عام ١٨٨٢:

«لم أتألم أبداً لما حدث، ولكنني مندهش للسرعة التي نمت بها حركة وطنية في مصر، ونشأ حزب وطني. كنت أظن أن ذلك يتعارض مع طبيعة الشعب المصري. كيف حدث ذلك؟ لا أدري. وأغرب من ذلك أن يكون الجيش هو العُش الذي أفرخ هذه الحركة. على أي حال، هذه هي الحقيقة، وهي حقيقة علينا أن نحترمها. وهي تشير إلى احتمالات كامنة في المستقبل. شعار (مصر للمصريين) يعبّر عن عاطفة أتمنى أن تأخذ مداها. ولو قُدّر لها أن تغلب، فإنني أعتقد أن ذلك سوف يكون أحسن حل، بل الحل الوحيد لـ (القضية المصرية)».

سوف يمضي وقت طويل قبل أن يُقدّر لتلك (العاطفة) أن (تأخذ مداها). وسوف يظلون يسيئون فهم (طبيعة الشعب المصري). إنما الآن، في عام ١٨٨٥، فإن حكومة (قلادستون) لم تلبث أن سقطت، بسبب إيرلندة، ولأسباب أخرى، منها أن (قلادستون) لم يسارع إلى إنقاذ (غوردون) فهاج ضده الرأي العام. حتى الملكة (فكتوريا) خرجت عن وقارها وكتبت إليه معبّرة عن سخطها.

خلفه (لورد سولزبري) زعيم حزب المحافظين، خلال ذلك أبحرت سفن تحمل ثواراً سودانيين من أنصار الإمام المهدي أعلى النيل. وصلوا الاستوائية، فانسحب (أمين باشا) جنوباً وترك لهم (لادو). وكان قد استطاع أن يوصل رسالة إلى زنجبار يطلب فيها من الحكومة البريطانية أن ترسل حملة لإنقاذه وإنقاذ الجاليات الأوروبية والبعثات التبشيرية الموجودة معه.

تسلّم الرسالة، (هولموود) مساعد القنصل البريطاني في زنجبار، وفي الحال، رأى في طلب (أمين باشا) فرصة لمدّ ظل النفوذ البريطاني في وسط أفريقيا، فكتب إلى وزارة الخارجية البريطانية، مع رسالة أمين باشا، يقترح أن تحتل بريطانيا في آن واحد، إقليم الاستوائية ويوغندة، وتضمهما معاً إلى السيادة البريطانية.

لا يخفى أن بريطانيا احتلت يوغنده فيما بعد، كما احتلت السودان بأكمله بما في ذلك منطقة الإستوائية. وتجدر الإشارة إلى أن جذور (مشكلة الجنوب)، تمتد إلى ذلك العهد، إذ إن الإدارة البريطانية في السودان ظلت تنظر إلى الجنوب على أنه (منطقة ذات طبيعة خاصة)، وكانت فكرة ضمه إلى يوغندة أو كينيا تراود الحكومة البريطانية وقتاً طويلاً. لم تقبل أن الجنوب جزء لا يتجزأ من السودان، إلّا بعد مؤتمر جوبا في حزيران/ يونيو عام ١٩٤٧.

في ٢٣ أيلول/سبتمبر عام ١٨٨٦، كان (لورد سولزبري) رئيس الوزارة البريطانية، مشغولاً في لندن بقضايا أكثر إلحاحاً. ولما اطّلع على برقية (هولموود) من زنجبار، لم يهتم بها، وقال إن نفقات إرسال حملة لإنقاذ أمين، نفقات باهظة لا تستطيع الحكومة البريطانية أن تتحمّلها. وقال: «أمين باشا مواطن ألماني. مسؤولية إنقاذه تقع على ألمانيا».

مؤتمر الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط الذي انعقد في جامعة (مانشستر) بالتعاون مع قسم دراسات الشرق الأوسط بالجامعة، وأشرف على تنظيمه الدكتور (لُفْت) مدير القسم، شارك فيه عدد من الباحثين والأساتذة من بعض الجامعات العربية مثل جامعة القاهرة والكويت وتونس والرباط، وجامعة العين والجامعة الأمريكية في بيروت، وقد لفت اهتمامي كثرة الأساتذة العرب الذين مثلوا جامعات في أمريكا وأوروبا.

حضر المؤتمر عدد من ممثلي جامعات بعض البلاد الإسلامية، وعدد من ممثلي جامعات آسيا وأفريقيا، وكان الحضور واضحاً من الجامعات الأمريكية والأوروبية والبريطانية.

كان الموضوع العام، هو الوحدة والتنوع في ثقافات منطقة الشرق

الأوسط. وقد تحدث عالمان جليلان في الموضوع بصفة عامة، أحدهما المحقق الشهير برفسور سيد حسين نصر، وهو من أصل إيراني يعمل أستاذاً في جامعة (جورج تاون) في أمريكا. وكنت أسمع عنه منذ زمن، وقد أسعدني أنني تعرفت به في (مانشستر).

إنه بحق مثلٌ لما يجب أن يكون عليه المفكر المسلم في هذا العصر. رجل ناصع الفكر طلق البيان بسيط العبارة، تشرّب روح الإسلام في السماحة ورحابة الصدر والدفع بالتي هي أحسن. هذا إلى أنه يملك ناصية اللغة الإنجليزية، وأنه عالم بعيد الغور في المعارف الفلسفية والحضارية.

وكان لكلمته تأثير واضح.

العالِم الثاني، هو المؤرخ العربي المرموق برفسور نقولا زيادة، أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت، هذا أيضاً رجل يدعو الإعجاب والتقدير. له سبعة وثمانون عاماً من العمر، ومع ذلك فهو جمّ النشاط متوقّد الذهن، كثير الدعابة والمرح. وقد أفاض على المؤتمر من علمه الغزير في محاضراته الثلاث، وكانت إحداها عن تيارات الفكر الإسلامي الأولى، وتأثيرها على الفكر المعاصر في العالم العربي. أرجو له دوام الصحة ومزيداً من العمر في خدمة العلم.

أسعدني كذلك أنني لقيت الدكتور أمين الطيبي، بعد طول غيبة، وكنا قد تزاملنا فترة أوائل الستينيات في هيئة الإذاعة البريطانية، حين كان يعد رسالته للدكتوراه في جامعة أكسفورد. نعمت بصحبته أيام المؤتمر، ودلّني على عدد من المصادر القديمة عن تاريخ

العرب في شرق أفريقيا ووسطها. ووجدت أنه مشغول بتاريخ العرب في زنجبار.

قدّم الدكتور أمين الطيبي بحثاً عن العملات النقدية في عهد المرابطين، ومدى انتشارها وتأثيرها. ولا يخفى أن العملات مصدر مهم من مصادر التأريخ، فلم يغفل المؤتمر الاهتمام بها، وقدمت أيضاً بحوث عن النقد الإسلامي الذي كان متداولاً في بلاد تركستان وفي شرق أفريقيا.

من الأقطار العربية التي وجدت اهتماماً واضحاً مصر التي تطرقت إليها عدة دراسات، منها دراسة رصينة للعالِم الفرنسي (ديدْيير منسيو) من جامعة السوربون الذي تحدث عن الحركة الوطنية بين عامي ١٨٣٠ و١٩٣٠ ودعوة (مصر للمصريين).

ومن الدراسات الحسنة عن العراق، بحث للدكتور (ماربون فاروق) من جامعة (سوانسي) في (ويلز)، وقد تناولت أوضاع العراق في ظل الحماية البريطانية بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٣٢.

المغرب أيضاً تطرقت إليه عدة بحوث، أحدها للدكتورة فاطمة حرّاك من جامعة الرباط، تناولت فيه جوانب من تأريخ الأشراف العلويين.

بطبيعة الحال، لم يهمل المؤتمر قضايا الإسلام وعلاقاته بالسياسة في هذا العصر، وهي قضايا تشغل الباحثين في أمريكا وأوروبا بصفة خاصة. وقد سلطوا اهتمامهم على مصر والجزائر والسودان وتركيا وإيران. ومن الدراسات التي قُدمت، دراسة للدكتور (شارلز تربْ)

من معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، عن الإسلام والعلمانية في الدولة الحديثة في الشرق الأوسط، وناقش الدكتور عبد السلام سيد أحمد من جامعة (كيمبردج) موضوع الدولة الإسلامية في السودان.

لفت نظري الاهتمام العظيم عند عدد من العلماء في أمريكا وأوروبا بموضوع التصوف في الإسلام بوصفه رافداً مهماً من روافد الفكر الإسلامي، بمعناه الواسع. وقد عُرضت بحوث عميقة في هذا المؤتمر، أذكر منها بحثاً بالغ الطرافة للدكتورة (سارة سفيري) من الكلية الجامعية في جامعة لندن، عن مدرسة نيسابور التي كان يتزعمها القشيري، والخلاف بينها وبين مدرسة بغداد التي كان يتزعمها الجنيد، رحمهما الله.

وبطبيعة الحال، كان للغات المنطقة وآدابها مكان بارز في اهتمامات العلماء والدارسين. وفي ما يتعلق بالأدب العربي الكلاسيكي، تحدث الدكتور (وبكي فالتر) من جامعة (فرانكفورت) عن تأثير قصة (ألف ليلة وليلة) على الآداب الأوروبية واستعرض الترجمات الأوروبية لها. وتحدّث الدكتور (جيمس منتقمري) من جامعة (أوسلو) عن أبي نواس. وأتيح لي أن أتحدث عن ملامح الهوية في الشعر العربي قبل الإسلام.

كذلك حظي الأدب العربي المعاصر بعدة دراسات، أذكر منها دراسة عن أدب نجيب محفوظ للدكتور يوسف داود من جامعة (بريتوريا) في جنوب أفريقيا، ودراسة للدكتورة زيبة خان من جامعة أكسفورد عن شعر عبد الوهاب البياتي، ودراسة للدكتورة فريدة أبو حيدر، عن الشاعر اللبناني صلاح ستيتية. كذلك تحدث الدكتور

رشيد العناني من جامعة (أكستر) عن مسرح الكاتب المصري ألفريد فرج. وتحدثت الدكتورة إلهام البسام عن دورة الحياة والحب والموت والبعث في شعر أبي القاسم الشابي، مقارنة إياه بالشعراء الإنجليز الرومانسيين.

ولا يفوتني أن أنوه بطرافة الدراسات التي قدمت عن العمارة الإسلامية، وأخصّ بالذكر مساهمة الشاب السعودي الذي يبشر بالخير، وليد الحميدي، إنه يحضر رسالة الدكتوراه في العمارة في الكلية الجامعية بلندن، وقد تحدث عن قضايا التحوّل الحضري في مدينة عربية إسلامية. ولا يخفى أن العمارة أيضاً، وجه من وجوه الثقافة.

الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط، كما لمست في هذا المؤتمر، جمعية تقوم بعمل جدير بالدعم والمساندة من قبل العرب. إنهم يشكون من قلة الاهتمام بهم وبحضارتهم، بل ومن قلة الإنصاف لهم ولإنجازاتهم.

وأشهد أنني لقيت في هذا المؤتمر علماء وباحثين، رجالاً ونساء، انكبّوا على دراسة القضايا ـ مهما تعقدت ـ بتجرد وإنصاف، يستوجبان الإعجاب والحمد.

في ٢٣ أيلول/سبتمبر عام ١٨٨٦، وصلت برقية (هولموود) مساعد القنصل البريطاني في زنجبار إلى لندن، مبلغاً الحكومة البريطانية طلب (أمين باشا) أن ترسل حملة لإنقاذه، ومضيفاً إليها اقتراحاً منه، أن تنتهز الحكومة البريطانية الفرصة، فتحتل إقليم الاستوائية وأيضاً يوغندة، وتضمهما إلى دائرة نفوذها.

لم يكترث (لورد سولزبري) رئيس الوزارة البريطانية باستغاثة (أمين باشا) ولا باقتراح (هولموود). كان من ناحية يتظاهر بأنه لا يريد أن يكلف الخزانة البريطانية نفقات حيازة مستعمرات إضافية في أفريقيا ـ فيما بعد غيّر رأيه، كما غير بسمارك رأيه، ودخلت كل من بريطانيا وألمانيا في سباق (حيازة المستعمرات الذي سمي (التكالب على أفريقيا) ـ ومن ناحية أخرى، كان (لورد سولزبري) مشغولاً في المقام الأول بمصر.

يبدو طلب (أمين باشا) النجدة من بريطانيا، غريباً لأول وهلة. اتضح فيما بعد، أنه لم يكن مهدداً أصلاً، فحين وصلت قوات الثورة المهدية إلى مقره في (لادو)، انسحب جنوباً، وكان بوسع تلك القوات أن تحتل الإقليم، ولكنها لم تلبث أن انسحبت. أضف إلى ذلك أن (أمين باشا) كان موظفاً لدى الخديوي في مصر، وقد طلبت منه الحكومة المصرية الانسحاب، فلم يذعن لأمرها، فهل دخل هو الآخر طرفاً في الصراع الأوروبي لتقطيع أوصال أفريقيا؟

في كتابها الممتع (مصر وكرومر ـ بحث في العلاقات الإنجليزية المصرية) الذي صدر في لندن باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٨، تورد الدكتورة عفاف لطفي السيد أمثلة طريفة للمناورات الأوروبية في مصر، وهي مناورات تبدو مثل لعب الأطفال، لولا أننا نعلم أنها كانت وخيمة العواقب.

لورد (سولزبري)، يقول لـ (سير وليم هوايت) السفير البريطاني في اسطنبول:

«أوثر ألا أركن إلى حسن نواياه (يقصد بسمارك). لذلك سوف أسعى إلى أن أكسب ود فرنسا، قدر استطاعتي، دون أن أدفع ثمناً باهظاً لقاء ذلك. السلاح الوحيد الذي يملكه (بسمارك) ضدنا هو تحريض فرنسا بالتدخل (في مصر). بقدر ما نستطيع أن نحول بينه وبين استعمال ذلك السلاح، نكون أحراراً في التصرف».

وقد زوّده بهذه النصائح لتكون نصب عينيه في سفارته لدى الباب العالي:

«ابذلْ قصارى جهدك كي تحصل لبريطانيا على النفوذ الضروري للحفاظ على مصالحها الأمبراطورية. وفي نطاق تلك المصالح، ضمان وجود حكومة مصرية قوية ذات قدرة على التنفيذ، تكون حرة من التدخل الأجنبي .(...) جهدنا الدبلوماسي له هدفان: الأول أن نحصل على الضمانات الضرورية لاستمرار عملنا الحالي في مصر. والثاني، هو أن نحصل حين نغادر مصر، على الوضع المميز الذي يعوضنا عن الدماء التي أريقت والأموال التي أنفقت (...) علينا أن نتحاشى إعطاء أي وعد قاطع بالانسحاب. ذلك أن الانسحاب المبكر، هو الثمن الوحيد الذي سوف ندفعه لتحقيق هدفنا الثاني. سوف نقول لأوروبا (نحن المُلاّك هنا في الواقع، وأنتم لا تستطيعون أن تخرجونا (بالقوة). ماذا تدفعون لنا كي لا نتباطأ في الخروج؟)».

يقول بسمارك لسفيره في إسطنبول:
«يجب ألا نتورط مع إنجلترا أكثر مما هو ضروري، فإن ذلك سوف يُغري فرنسا بالتآمر معهم ضدنا».

السفير الفرنسي في ألمانيا يقول للسفير البريطاني:
«يا ليتكم تحددون موعداً للجلاء (عن مصر). حينئذٍ سوف نوافق على إلغاء قانون السخرة، وتعديل قانون الامتيازات، ونضمن لبريطانيا حق العودة إلى مصر في حالات خاصة. إنما فقط اسمحوا لنا أن ننسب إلى أنفسنا الفضل بأننا نحن الذين أقنعناكم بأن تحددوا موعداً للانسحاب».

كانت مصر هي الغنيمة الكبرى بالنسبة للقوى الأوروبية. ولكن

مناوراتها ومراوغاتها ثمة، امتدت إلى قلب القارة، حيث دخلت هذه القوى عينها، في سباق متباطىء أول الأمر، ثم متسارع فيما بعد، على اقتسام أفريقيا.

لم تكن بلجيكا دولة ذات وزن، إذا قيست بتلك الدول الكبيرة: بريطانيا وفرنسا وألمانيا. لكن الملك ليوبولد بعد أن نجح في اختطاف الكنغو، ظن أنه قادر على أن يكسب أيضاً الإقليم الاستوائي من السودان، وربما السودان بأكمله إذا ساعدت الظروف، وربحت السوق.

وحيثما وجدتَ (الساحر)، فلا بد أن تجد تابعه وصبيّه، لذلك سوف تلتقي بـ (ستانلي) يظهر على المسرح هذه المرة، يمثل دور المنقذ لأمين باشا، وهو يضمن أن يبيع يوغندة والاستوائية لـ (ليوبولد) والإنجليز ورجل الأعمال الاسكتلندي (ماكنون) في وقت واحد.

وسوف يلجأ مرة أخرى إلى (تبو تب)، المقامر العربي، الذي وجد رغم خبرته ودهائه، أنه يلعب ضد مقامرين عتاة لا قِبَل له بهم.

سوف يخسر مرتين. مرة أنه لم يحقق حلمه في إقامة دولة عربية في وسط أفريقيا. ومرة أنه أصبح أمام التاريخ، القربان الذبيح، الذي باء بآثام كل أولئك اللاعبين، وقد كان أقلهم إثماً.

■ ■ ■

في عام ١٨٦٦ ـ وذلك بعد عام من مقتل غوردون في الخرطوم، وعام من انعقاد مؤتمر برلين ـ كان (ستانلي) يكمل استعداداته لقيادة

حملة لإنقاذ (أمين باشا) في الاستوائية. وكان الفارس العربي المغامر (تبُّو تبْ) ما يزال يُعتبر أكبر قوة في وسط أفريقيا.

أخذ ليوبولد الكنقو بالدهاء والمثابرة كما نعلم، ولكنه كان يدرك أن دولته المسروقة، سوف تنهار، إذا لم يحصل على معونة (تبو تب).

كانت دولة عجيبة، يصفها الكاتب الإنجليزي (بيتر فورْباث) بقوله:

«ما كان الكنقو مستعمرة لبلجيكا، ولا كان ليوبولد يحكمه بوصفه ملكاً لبلجيكا. كان نوعاً عجيباً من الدول، أنشىء قوة واقتداراً، باقتطاع مساحة واسعة من أفريقيا، من وراء ظهر الشعب صاحب الأرض. منحوها لفرد واحد، لم يسمع به أهالي الكنقو من قبل، لتكون له ملكاً شخصياً خالصاً يتصرف فيها كيف يشاء. وقد وصف قانوني بلجيكي هذا الوضع بقوله (سلطته مطلقة لا يحدّها أي قانون.. يستطيع أن يقول بثقة أكثر من ثقة لويس الرابع عشر «L'Etat c'est moi» ـ الدولة هي أنا ـ وقد عبّر ليوبولد نفسه عن ذلك بصراحة تامة فقال «لا أحد يشاركني حقي في الكنقو. إنه حق أخذته بجهدي الخاص ومالي الخاص... أنا مؤسس الدولة، والمتصرف فيها، وصاحبها والسيد المطلق عليها». وكما قال صحافي أمريكي إنه يملك الكنقو، كما يملك زكفلر شركة ستاندارد أويل)».

هذا الوضع الشاذ أقره مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ برئاسة (بسمارك) لتوزيع الغنائم بين الدول الأوروبية. إنما تُرك لكل دولة أن تثبت وجودها على الأرض، كل دولة حسب شطارتها. وكان ليوبولد يعلم، أن الوجود على معظم الأرض يملكه (تبو تب). يملك المال

والرجال والسلاح. ويستطيع أن يعرقل خطط ليوبولد.

لذلك حين التقى (ستانلي) بـ «(تبو تب) وهو في طريقه لإنقاذ أمين باشا، عرض عليه أن يكون والياً للملك ليوبولد على منطقة (ستانلي فولْز) لقاء مرتب شهري قدره ثلاثون دولاراً.

سأله (تبو تب) بسخرية:
«كيف تعرضون عليَّ أن أكون والياً على أرض أنا أملكها بالفعل؟».

أفهمه (ستانلي) أنه إذا لم يقبل التعاون مع (ليوبولد) فإن دولة الكنغو سوف تنهار، وسوف يتدخل الفرنسيون لملء الفراغ. وسوف يتدخلون بجيش عظيم لاحتلال الإقليم بأكمله.

وعزّز (ستانلي) عرضه، أنه طلب أن يستأجر حمالين من (تبو تب) لقاء ثلاثين دولاراً للفرد، وأن يدفع له (بونّس) مقداره ألف دولار في نهاية المهمة. أي أنه سوف يأخذ مبلغاً إجمالياً يقل عن عشرين ألف دولار.

وطلب منه أن يسافر معهم إلى مقر عمله في طريق طويل، يمر برأس الرجاء الصالح، ثم يتجه شمالاً على شاطىء أفريقيا الغربي إلى مصب نهر الكنغو، ثم أعلى نهر الكنغو إلى وسط أفريقيا.

أول ما خطر لـ (تبو تب) أن يرفض ذلك العرض المُزري. لكنه قبل آخر الأمر تحت إلحاح سلطان زنجبار، وقد كان رجلاً واقعياً، أدرك أن قضيته خاسرة، وأنه يقف وحده في مواجهة طوفان أوروبي كاسح.

القوى الأوروبية كرست ملكية ليوبولد للكنغو، وكل واحدة منها

لها مطامع لم تكن خافية على (تبو تب) في منطقة البحيرات وحوض النيل وشرق أفريقيا، أين يذهب؟ وعلى مَنْ يعتمد؟

السلطان (برغش)(*) البائس، الذي اقتسم الألمان والإنجليز ملكه وأصبح بلا حول ولا قوة يسيّره القنصل البريطاني في زنجبار؟

الخديوي توفيق في القاهرة، وهو عبارة عن دمية يحركها (سير أيفلن بيرنج)؟

الباب العالي في اسطنبول، وقد كان هو الآخر لعبة في أيدي القوى الأوروبية؟

الإنجليز؟ وهؤلاء قد خذلوا من قبل سلطان زنجبار، ولم يمنعوا عنه عدوان ألمانيا. والآن يحرك سياستهم (لورد سولزبري) ـ البراغماتي العتيد. إنه يلعب على طاولة من المقامرين الكبار، على أمل مكاسب هائلة، ولن يشغل باله بلاعبين صغار أمثال (تبو تب).

إذاً فليقبل هذا العرض المزري من (ستانلي)، وهو يعلم أن ذلك سوف يثير سخط جماعته العرب في وسط أفريقيا، وكان أغلبهم يطلب البقاء في الأرض بالقوة، واللجوء إلى الحرب إذا اقتضى الأمر. لكنه كان رجلاً واقعياً، يعلم متى يجب الحرب ومتى يجوز

(*) وجدتُ في كتاب (الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين) تأليف السيد حميد بن محمد بن رزيق بن بخيت عام ١٢٧٤هـ، الصادر عن وزارة التراث القومي في عُمان، أن (برغش) يُكتب بالغين وليس القاف كما أوردتها مصادر أخرى.

الرضوخ للأمر الواقع. ومن يدري؟ لعله يستطيع أن يؤثر في مجرى الأحداث، لعله يفتح طريقاً إلى الشمال.

قبل (تبو تب) العرض، ووقّع الاتفاق مع (ستانلي) في القصر السلطاني، بحضرة السلطان (برغش).

عبّر (برغش) عن سعادته، أنه أهدى إلى (تبو تب) ساعة ذهبية، وألفي روبية نقداً، وأهدى إلى (ستانلي) خاتماً ذهبياً مرصعاً بالألماظ.

■ ■ ■

لم يجد (لورد سولزبري)، الذي خلف (قلادستون) على رئاسة الوزارة، أي مبرر سياسي للتدخل لإنقاذ (أمين باشا). كان يهمه في ذلك الوقت ألّا يثير مخاوف فرنسا وألمانيا بأن لبريطانيا مطامع في الاستوائية وشرق أفريقيا.

لم يذعن لضغط الرأي العام، الذي رأى في وضع (أمين باشا)، وضعاً مشابهاً لما حدث لغوردون. بل إن صحيفة الـ «التايمز» التي قادت الحملة، صوّرت (أمين باشا) على أنه غوردون آخر، محاصر بشعوب همجية في قلب أفريقيا.

هذا الموقف السلبي من الحكومة البريطانية، جعل (ليوبولد) يتصور أنه يستطيع أن يتدخل بطريقة ما في قضية إنقاذ أمين. لعله يخرج بغنيمة كبيرة. لعله يحصل على السودان بأكمله.

لم يكفّ عن المحاولة، وكان قد لجأ من قبل إلى وسيلة عجيبة

للحصول على السودان، أيام حكومة (قلادستون). أوعز إلى (ستانلي) أن يبعث إليه برسالة تبدو تلقائية، يطلب فيها من (ليوبولد) أن تستأجر دولة الكنقو ـ أي ليوبولد ـ السودان من الخديوي، لقاء أجر سنوي مقداره ستون ألف جنيه، وأن يتعهد (ليوبولد) للخديوي بأن يتولى إخماد الثورة المهدية من ماله الخاص، ويدفع للحكومة المصرية مبلغاً إضافياً مقداره ستمائة ألف جنيه، تعويضاً لها عن الخسارة التي تكبدتها نتيجة قيام الثورة المهدية! وطلب (ليوبولد) من (ستانلي) أن يتفنَّن في رسالته في اللعب على فكرة «إنقاذ الشعوب الهمجية من قبضة المسلمين بغرض ضمها إلى حظيرة الديانة المسيحية».

لم يخيّب (ستانلي) ظن (معلّمه)، فكانت الرسالة، كما أراد (ليوبولد)، آية في البلاغة والتأثير، فبعث بها إلى الحكومة البريطانية، على أنها نداء من القلب، من خبير في الشؤون الأفريقية.

لكن الحيلة لم تنطل على الحكومة البريطانية. عقّب عليها وزير الخارجية (لورد روزبري)، تعقيباً مقتضباً مليئاً بالاحتقار «الحكومة البريطانية لا تنوي التدخل في السودان بوجه من الوجوه. الأساليب التي كانت الحكومة المصرية تتبعها للحصول على المال، هي التي أدت إلى ضياع السودان».

إنما (ليوبولد) لا يكلّ ولا يملّ. ها قد عنّت له الآن فرصة أخرى، رآها بحسه المرهف للكسب المادي، أنها فرصة ذهبية حقاً. اتصل من توه بـ (وليم ماكنون)، رجل الأعمال الإسكتلندي، الذي أخذ يجمع التبرعات لتسيير حملة لإنقاذ أمين، عرض (ليوبولد) الدعم المالي، واقترح على (ماكنون) أن تكون الحملة برئاسة (ستانلي).

كان (ماكنون) هذا رجلاً من شاكلة (ليوبولد)، برع في جمع المال، وهو يتظاهر أنه لا يطلب غير عمل البرّ والخير ابتغاء مرضاة الله. وقد كوّن ثروة ضخمة، وكان يملك عدداً من السفن تعمل في التجارة مع الهند.

رأى هو الآخر فرصة لعقد معاهدات تجارية في منطقة البحيرات وفي شرق أفريقيا، والدخول في مشروع خط حديدي إلى الساحل. وكان يطمح في نهاية الأمر، أن يورط الحكومة البريطانية في ذلك الإقليم من أفريقيا.

كان كل من الرجلين، يضمر شيئاً ويظهر شيئاً. (ستانلي)، كان الوحيد الذي يعلم نوايا كل الأطراف، وكان يعلم أنه الوسيلة إلى تحقيقها.

بذل (ماكّنون) جهداً عظيماً لإقناع لورد (سولزبري) - رئيس الوزارة آنذاك - أن يعطي دعمه المعنوي على الأقل، لحملة إنقاذ (أمين باشا) فقبل على مضض. وكان من نتائج هذا الدعم، أن (سير أيفلن بيرنج) ضغط على الخديوي في القاهرة، فأذعن بأن تساهم الحكومة المصرية بعشرة آلاف جنيه من نفقات الحملة، التي قدّرت بعشرين ألف جنيه.

بمعنى آخر، اضطُرّ الخديوي أن يتكفل بنصف نفقات حملة لا ناقة له فيها ولا جمل. ونحن نذكر أن حكومته طلبت من (أمين باشا) أن يخرج من الاستوائية، فلم يستجب لطلبها. وكان من الحجج التي قدمها (بيرنج) للخديوي، «أن إنقاذ (أمين باشا) ضروري للحفاظ على هيبة الدولة المصرية» أما (أمين) نفسه، فلم يكن يبدو

عليه أنه كان متعجلاً للخروج من الاستوائية. وقد تأكد ذلك من رسالة اكتُشفت بعد زمن، بعث بها إلى صديق له في ألمانيا يقول فيها:

«إذا كان الناس في بريطانيا العظمى يظنون أنني سوف أخرج حال أن يصل (ستانلي)، فهم مخطئون. إنني أنفقت اثني عشر عاماً من عُمري هنا، فهل يليق بي أن أهرب أول ما تسنح فرصة للهروب؟ (...) سوف أبقى هنا مع شعبي حتى أضمن أن مستقبلهم ومستقبل بلادنا آمن (...).

سوف أبقى لأواصل العمل الذي بدأه غوردون، وضحّى في سبيله بحياته. لعلني لا أملك عبقريته ولا قدراته. لكنني على الأقل لا أعدم روحه ولا مُثله العالية (...) إذا كانت إنجلترا ترغب في مساعدتنا حقاً، فيجب عليها أن تعقد معاهدات مع أوغندا و(بنْيورد). لا بد من شق طريق إلى الساحل، يكون آمناً من تقلّبات أمزجة الحكام المحليين البدائيين، ولا يكون تحت رحمة هؤلاء العرب الأشرار. أخرج من بلادي وأترك شعبي؟.. أبداً».

أريد أن أقف عند مؤتمر نظّمه المجلس القومي السوداني في لندن منذ أيام، وأسماه (المهرجان الصيفي ـ عام ١٩٩٤).

أحسّ عدد من السودانيين المقيمين في لندن، وغالبيتهم من الذين لا يعتبرهم الحكم القائم في السودان خصوماً ـ ومنهم من هو متعاطف مع هذا النظام، أو مؤيد له صراحة ـ أحسّوا أن الظروف تدعو إلى تهيئة الوسائل للسودانيين على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والسياسية، للحوار وتبادل الرأي، من أجل الخروج بالوطن من ورطته الراهنة. ولا أظن أحداً ينكر أن الوطن في ورطة.

في طليعة هؤلاء النفر المخلصين، السيد إبراهيم الطيّب الريّح، رجل الأعمال المعروف. وهو إنسان محبّ للخير يتجلى فيه ذلك النزوع السوداني القديم إلى الإصلاح والإحسان ولمّ الشمل. وعائلته

الكريمة في (رُفاعه) ربطتني بها صلات وثيقة منذ أوائل الخمسينيات، إلى أنهم أصهار أخي وصفيّي فتح الرحمن البشير، الذي أهاب به كرمه ونبل طبعه للتصدي لإنجاز مصالحة وطنية كبرى في عهد النميري. ولو أن ذلك تحقق، لاتخذ تاريخ السودان الحديث مساراً آخر.

ومن هؤلاء النّفر أيضاً، كابتن النّور زرُّوق، وهو أيضاً رجل أعمال معروف، بالإضافة إلى أنه مؤيد للنظام ومؤمن بفلسفته. ولكنه بحكم روحه السوداني المتأصل، ينفر من الغلو ويؤثر الحسنى ويرنو إلى لمّ الشمل.

هذا وقد أُنجز المؤتمر، بفضل الدعم المالي والمعنوي من السيد إبراهيم الطيب وأيضاً من الكابتن النور زروق، وكابتن شيخ الدين محمد عبد الله رئيس مجلس إدارة الخطوط الجوية السودانية، التي منحت التذاكر للقادمين من الخرطوم، وهيأت لهم الإقامة.

ولا أخفي، أنني ترددت طويلاً قبل أن أرضى المشاركة في المؤتمر، إذ إن موقفي من هذا النظام معروف، وقد رأيت منهم أعمالاً بدت لي منكرة، فأنكرتُها. وكنت أحسب أن ذلك يحق لي كمواطن بلغ من العمر والتجربة، وما خفت موازينه في حب الوطن. لكنني كنت وإياهم كما قال أبو العلاء رحمه الله:

فيسمع مني سجع الحمام
وأسمع منه زئير الأسد

لذلك خفتُ أن يكون إخواننا ثمة، لا يسعون حقاً إلى الحوار

بغرض الوصول إلى كلمة سواء، بقدر ما يطلبون تحسين صورتهم، وإيهام الناس بأنهم واسعو الصدور، متفتّحو العقول.

ثم أغراني بالمشاركة، أن القائمين بالمؤتمر، والمشاركين فيه، أناس تجمعني بهم صداقات قديمة، وذكريات باقية، وزمالاتُ دراسة، وعلائق وأرحام لم تتقطّع. وتلك كانت تعلو في السودان فوق كل اعتبار. تعلو فوق تقلّبات السياسة وضرورات الحكم. ونحن إن كنا نحنّ إلى السودان، ونتغنّى به، ونتحسّر عليه، فذلك هو السودان الذي نعني، لا سودان العهود التي تقوم وتسقط، والثورات الموهومة التي تهبّ مثل الأعاصير في صحراء العتمور، ثم ما تلبث أن تموت، والصراخ الذي يعلو، ثم يذهب بدداً، والخُيلاء التي تزين لأصحابها أنهم مخلّدون في الأرض، وكان أحرى بهم أن يذكروا أنهم لا أخْطر من (دبيب النمل في تلّ الرّمل).

لا مناص لنا في نهاية الأمر، إلّا أن نعيش أو نموت في تلك الأرض، وتحت تلك السماء. وهي واسعة على أي حال، تتّسع للعابد والجاحد، والشقيّ والسعيد، والثري والمعدم، والأحمر والأسود، وذات اليمين وذات الشمال. وأنت لست عليهم بمسيطر، الله يتولى أمرهم جميعاً.

هذا زمان محنة، وحين يكون الوطن في محنة لعلّه لا يجوز للمرء أن يتمسك بالموقف أو يتشدّد في صدق النوايا. وأنا بعدُ لست خيراً من عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وأرجو ألا يكونوا هم أعظم شرّاً من الحجاج، وإن كان بعض ما فعلوه إلى الآن أشبه بالحجاج.

■ ■ ■

في المؤتمر الذي نظمه المجلس القومي السوداني في لندن، بين العاشر والحادي عشر من شهر أيلول/ سبتمبر، قال السيد إبراهيم الطيب الريح في كلمته الافتتاحية:

«كان هدفنا أيضاً من تكوين هذا المجلس توسيع دائرة التعريف ببلادنا الحبيبة، وبشعبنا الطيب وبثقافتنا وإرثنا الحضاري (...) كما أن المجلس القومي يؤمن بضرورة تهيئة المناخ الصالح للمّ شمل الوجود السوداني في هذه البلاد وإدارة حوار وطني موضوعي هادئ بين أبناء الوطن على اختلاف مشاربهم السياسية وتباين رؤاهم الفكرية، فإنه يؤكد حرصه على ألا يقتصر الحوار على الغرف المغلقة. لذلك أخذ يهيىء لعقد مؤتمرات تناقَش من خلالها القضايا السودانية في فضاء أوسع للوصول إلى ما يصلح حالة البلاد، وتكون فيه سعادة العباد».

هذا كلام جميل، مليء بالحكمة، لأنه يصدر عن إدراك عميق بطبيعة الشعب السوداني. لمّ الشمل، والحوار الهادئ، وتعدد الآراء بغية الوصول إلى الهدف المشترك، ثم الفضاء الواسع، فضاء الحرية، هذه كلها صفات متأصلة في الطبع السوداني.

على امتداد التاريخ، لم يحس السوداني بوطأة سلطة قاهرة تحدّ من حريته لأنه عاش في أرض واسعة لم تستطع الدولة في أي عصر، أن تفرض مشيئتها عليها، عنوة واقتداراً. لذلك ينشأ مفعم بالإحساس بآفاق رحبة يتقلب فيها غير مكترث بشيء، إلّا ما يمليه عليه ضميره.

تجد ذلك في الشعر العامي خاصة، وفي غناء المغنين وأساطير

البطولات. وقد غنى عبد الكريم الكابلي بصوته العبقرية في أمسية من أمسيات المؤتمر، تلك الأبيات الشهيرة:

جيتك بامتثال صاحبي البتمّم كيفي
إبراهيم ثبات عقلي ودرقتي وسيفي
مطمورة غلاي مونة شتاي وصيفي
سترة حالي في جاري ونساي وضيفي

هذه الأمور الثلاثة الجار والنساء والضيف، هي التي تلزم فيها (سترة الحال) وأكثر ما يأتي اللوم أو (العيب) من ناحيتها، وقد كانت (سترة الحال) دائماً، هي المطلب الأسمى عند السودانيين، كما عبر الشاعر الآخر:

بدور الْبِلْ بدور ناقة وهيطة
بدور فرساً سريع آخذ به عيطه
بدور ضيف العشا وأنهم بخيته
بدور السترة لا من ألقى ميته

ما أحسن قوله أنه يتمنى أن يحل عليه الضيف عشاء، بعد أن يكون قد هجع الناس فيوقظ زوجته (بخيته)، ويحثها (أنهم) على صنع القرى، لأن إكرام الضيف في تلك الساعة أدعى للمدح. ولم يخبرنا الشاعر أي ميتة يريد أن يلقى، ولكن واضح من سياق الأبيات أنه رجل حر كريم يريد أن يموت ميتة كريمة.

من هذا التراث العظيم، وهو تراث عربي الروح والبيان، يستمد السوداني الصراحة في القول، والصبر على النوائب والسماحة في الطبع، والجرأة على الحكّام.

كانت (الشرعية) في السودان، دائماً تجيء ليس بواسطة سلطة مركزية غاشمة تفرض إرادتها على الأطراف، إنما بواسطة قبول طوعي يتجه من الأطراف نحو المركز. هكذا كان الحال في دولة (سنّار) ثم حين ثار الإمام المهدي على الحكم التركي، فتسارعت القبائل إلى نصرته.

ولما ورث الخليفة عبد الله الحكم، وتحول إلى حاكم مستبد، انفضّ الناس من حوله، اللهم إلّا عشيرته من قبائل غربي السودان، وبعض أنصار الإمام المهدي الذين ظلوا متشبثين بالولاء لصاحب الدعوة. ولا ينكر أن الإنجليز حين دخلوا السودان عام ١٨٩٨، فإن غالبية الشعب لم تتحمس في التصدي لهم، إذ إنهم كانوا قد ضاقوا ذرعاً باستبداد الخليفة عبد الله، خاصة في سنواته الأخيرة.

ومعلوم أن الإنجليز، سرعان ما خبروا شدة مراس الشعب السوداني ـ رغم ما يبدو عليه من وداعة ظاهرية ـ فابتدعوا نوعاً من الحكم لا نظير له في تاريخ الاستعمار، فرضه عليهم السودانيون فرضاً. أصبح المستعمَرون (بفتح الميم) شركاء في السلطة مع المستعمِرين (بكسر الميم).

وقد أعاد برفسور مدثر عبد الرحيم إلى الأذهان ما حدث في عهد الخليفة عبد الله حين قال في إحدى ندوات هذا المؤتمر:

«يجب أن نعترف أنه قد حدث انشقاق، اليوم، في المجتمع السوداني، لم يحدث مثله منذ عهد الخليفة عبد الله».

هذا والدكتور مدثر عبد الرحيم إسلامي النزعة، وهو ليس على

خصام مع هذا العهد بل هو من مؤيديه والمشاركين في مؤسساته، وهو عالم مرموق، وقد كان عميداً لكلية الاقتصاد بجامعة الخرطوم.

ولا يخفى أن الانشقاق قد حدث، لأن هذا العهد قد أوحى أول مجيئه، أنه لا يبالي أَرضيَ الناس أم سخطوا. جاء بتصور جاهز للمستقبل يريد أن يفرضه قوة واقتداراً. وقد اتخذ أساليب منافية كليةً لمسيرة التاريخ وطبيعة البيئة بما فيها من قبول للتعدد، ونزوع إلى الوفاق والتراضي، وعزوف عن التطرف والعنف.

■ ■ ■

لفت نظري في ذلك المؤتمر، أن الرجال المتحدثين، جنوبيين وشماليين، كانوا كلهم في حيرة، بدرجات متفاوتة. لم يقل أحد منهم، إن الأمور في السودان تسير كما ينبغي، وذلك بخلاف السيدتين المشاركتين، إحداهما جنوبية والأخرى شمالية، فقد كانتا راضيتين كل الرضى.

ولعل أقرب الرجال إلى الثقة، كان الدكتور حسن مكي، مدير جامعة أفريقيا العالمية ـ وهذه جامعة من هذه الجامعات التي أقامها إخواننا هؤلاء على عجل، ليقال إنهم أحدثوا (ثورة تعليمية). حتى (القضارف) أصبح فيها جامعة. وهم منذ جاءوا يصنعون كل يوم ثورة، فهذه ثورة حبلى بالثورات.

ولا أشك أن الدكتور حسن مكي، يحاول جهده، أن يجعل جامعة أفريقيا العالمية، جامعة بحق وحقيق، فهو إنسان واضح الإخلاص والورع، من هؤلاء الشباب المثاليين، الذين يؤيدون هذا الحكم،

لأنهم يعتقدون أنه يعمل على إقامة مجتمع فاضل، كما كان في صدر الإسلام، وأن السودان مؤهل أن يقود الأمة الإسلامية إلى ذلك الغد المنشود. وقد ذهب الدكتور حسن مذاهب بعيدة في ضرب الأمثلة أن السودان بلد باركه الله منذ القدم، وأعدّه لحمل تلك الرسالة.

إلّا أنني أحسست وأنا أستمع إليه بالشفقة، فقد بدا لي ذلك النقاء، وتلك الرغبة الملحّة لليقين، كأنها ثوب ناعم هش، قد تمزقه أية هبّة من رياح الواقع.

هذا ولأستاذنا الموقر، العالِم الحجة، برفسور عبد الله الطيب، رأي معروف، وهو أن المسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة، لم يذهبوا إلى الحبشة المعروفة اليوم باسم إثيوبيا، ولكنهم هاجروا إلى شمال السودان، وحجته في ذلك أن شمال السودان، كان جزءاً من إثيوبيا، وكان له نجاشي. وله أدلة أخرى كثيرة، تعطي رأيه وزناً. وقد ذكر ذلك في سياق حديثه عن الثقافة، ولم يقصد أن يقول إن للسودان دوراً تاريخياً مميزاً.

سأله شاب جنوبي، أثناء حديثه في هذا المؤتمر، كيف يرجو النظام القائم في السودان، أن يتحاور مع الإنجليز، وهو يريد أن يدخلهم في الإسلام عنوة. صمت برهة، ثم ضحك ضحكته المعروفة، وقال له:

«على أي حال، رتشارد قلب الأسد، كاد يعتنق الإسلام في بلاد الشام، أثناء الحروب الصليبية. وأخوه الملك جون، عرض على ملك المغرب أن يدخل هو والشعب الإنجليزي كله في

الإسلام، ولكن ملك المغرب لم يأخذ عرضه مأخذ الجد.
ويقال إن الأسرة المالكة في بريطانيا، فيها دم عربي قرشي».

وكان يجلس بجانبي أكاديمي إنجليزي، فقال: «إن معرفته بالتاريخ مذهلة».
قلت له «لو سألته في علم الفلك لوجدته مذهلاً أيضاً».

أما برفسور عبد الرحمن أبو زيد، فقد ركّز في حديثه على التكنولوجيا ودور الجامعات في نقل التكنولوجيا ـ وتحدث عن العلاقات المتينة التي كانت تربط الجامعات في السودان بالجامعات في بريطانيا، وأنها قد تقطعت. وطالب بإحيائها، والاستفادة منها، في نقل التكنولوجيا المتقدمة إلى السودان.

وبهذا الصدد، قال مستر (بيتر افرنقتن)، الأمين العام لجمعية الصداقة العربية ـ البريطانية، وهو رجل محب للسودان، عاش فيه وعرف أهله، وكان حديثه ممتعاً خليطاً من الجد والدعابة، تتخلله عبارات كثيرة بالدارجة السودانية، قال: «نحن لا نعرف ماذا تريدون. استقروا على شيء وسوف تجدون منا كل عون».

نوّه الدكتور عبد الرحمن أبو زيد أكثر من مرة، أن القرن العشرين، لم تبق منه غير سنوات، وأننا نقف على أعتاب قرن جديد. ورغم أنه لم يتطرق إلى مشاكل السياسة والحكم، فقد أحسست من حديثه، أنه يتمنى ضمناً، لو أن هذا الحكم يركز اهتمامه أكثر على ما ينفع الناس في أمور حياتهم من علم وتكنولوجيا وينصرف إلى تبادل المصالح والمنافع، مع بقية دول العالم. وذلك بطبيعة الحال يقتضي فكراً جديداً وسياسة جديدة.

وتجدر الإشارة، أن برفسور عبد الرحمن أبو زيد، هو مدير الجامعة الأهلية في أم درمان. وهي جامعة قامت على أسس متينة وفلسفة علمية بعيدة النظر. ومعظم الفضل في قيامها، يعود إلى صديقنا العزيز المرحوم برفسور محمد عمر بشير، العالِم الفذ والإنسان النادر، الذي ضحى بحياته في سبيلها، وظل يناضل من أجلها حتى آخر رمق.

هذا، وقد أسهم في المؤتمر أيضاً، الدكتور إسماعيل الحاج موسى، وهو وزير سابق للإعلام والثقافة. وكان محور حديثه (الديموقراطية في نطاق الزمان والمكان). وقد فهمت من كلامه أنه يحبذ قيام نظام ديموقراطي للحكم، يضمن مشاركة المواطنين، بما يناسب ظروف السودان. وأيضاً أنه يريد سوداناً لا يغفل موضعه الذي حتمته عليه الجغرافيا والتاريخ. فلا يصبو إلى دور أكبر مما تسمح به تلك الظروف. ولعل ذلك يتفق مع ما نادى به برفسور مدثر عبد الرحمن من قبل حين حذّر مما أسماه (العظمة المتوهمة والعزلة المفتعلة).

■ ■ ■

الأستاذ أحمد عبد الرحمن، من الروّاد في الحركة الإسلامية في السودان، ومن قادتها البارزين. أنفق عمره منذ هو طالب في النضال لتمكينها وانتشارها، وحوكم بالسجن عدة مرات. وكان أحد الذين دخلوا الوزارة باسم الجبهة الإسلامية، وعمل وزيراً للداخلية في عهد الرئيس السابق جعفر النميري.

ويشهد الناس للأستاذ أحمد عبد الرحمن بالاعتدال، والحفاظ على الأواصر القديمة التي تعارف عليها السودانيون. ولأن تلك الأواصر ضعُفت، وبعضها تقطّع في هذا العهد، تحت وطأة الخلاف الحادّ

في الرأي، فإن مما يُحمد للأستاذ أحمد عبد الرحمن، أنه ظل متمسكاً بالصداقات والعلائق والصلات التي جمعته بأناس لا يشاركونه الرأي، ومنهم من يعتبره خصماً سياسياً.

هذا، وقد أخذ أحمد عبد الرحمن يصرّح في الآونة الأخيرة، بآراء لا تتّفق تماماً مع توجهات الحكم القائم، وذلك حكم هو أحد أنصاره بالتأكيد. ولعله يهدف من وراء ذلك، إلى لمّ الشمل الممزّق، وتضميد الجراحات التي ألحقها النظام بمعارضيه، وتقريب المسافات بين الآراء المتضاربة، في محاولة جريئة لإيجاد إجماع واسع، يمكن أن يصبح منطلقاً للوطن للخروج من ورطته. وذلك والحق يُقال، دور جليل، إنْ كان الأستاذ أحمد عبد الرحمن، ينوي فعلاً أن ينهض به.

كانت مساهمته في إحدى ندوات المهرجان الذي نظّمه المجلس القومي السوداني في لندن، مساهمة بالغة الأهمية، وربما تكون إرهاصاً أنه ينوي فعلاً أن يقوم بذلك الدور. وقبل أن أعرض أفكاره، أريد أولاً أن أتحدث عن سيدتين ساهمتا في ندوة «بناء السودان مسؤولية أبنائه»، وكانت كل واحدة منهما راضية كل الرضى بما جرى ويجري في ظل هذا النظام.

الأولى جنوبية، وهي السيدة (آجْنس لكودو)، التي تشغل منصباً رفيعاً، فهي (حاكم) ولاية بحر الغزال، أو بالأحرى (دولة) بحر الغزال لأن هذا الحكم قد قسم السودان ضربة لازب إلى (دول)، كل منها تتمتع ـ نظرياً ـ باستقلال ذاتي، هو أقرب إلى الاستقلال منه إلى اللامركزية الإدارية. وتتّحد هذه الدول، في نظام فدرالي، كما في (الدول الأمريكية المتحدة)، وتلك عندي هي الترجمة الصحيحة لعبارة (United States of America). (الولاية) في

اللغة العربية كما أفهمها، هي إقليم من قطر يُحكم حكماً مركزياً محضاً.

كان الجدل حول الفدرالية في العهود الماضية، ينصبّ على الجنوب وحده بسبب أوضاعه المعروفة، ولم يفكّر أحد تفكيراً جاداً، أن يكون ذلك نظاماً للحكم يشمل القطر كله. وهو على أي حال، قرار جسيم، محفوف بالمخاطر في أحسن الظروف، ولا تُقدم عليه الدول جزافاً.

ومعروف أن البريطانيين، يفكرون منذ سنوات، في ما يسمونه الـ (De Volution) لاسكتلندا وويلز، ولا يجرؤون على تطبيقه، وهو نظام أدنى درجة بكثير من النظام الفدرالي. إنما الحكم الحالي في السودان، لديه جرأة عجيبة أشبه بالتهور، على فرض تغييرات جذرية، بين عشية وضحاها، دون إعداد العدة، أو حسبان العواقب. حساب العواقب يأتي في ما بعد، ولم تكن أيٌّ منها سليمة لحد الآن.

فيما نرى الرئيس السابق جعفر النميري، حين أبرم اتفاقية (أديس أبابا) عام ١٩٧٢، لم يذهب إلى حد الاعتراف بنظام حكم فدرالي للجنوب، ولكنه وافق على نظام حكم (إقليمي).

ويذكر الدكتور منصور خالد، وهو أحد صنّاع اتفاقية (أديس أبابا)، في كتابه عن النميري وثورة أيار/ مايو، الذي صدر في لندن باللغة الإنجليزية، عام ١٩٨٥، أن الاتفاقية اعترفت للجنوب (بقدر من الاستقلال الذاتي).

وينوه الدكتور منصور خالد في كتابه، أن (الإسلاميين) كانوا من

أشد معارضي تلك الاتفاقية، لأنهم قدّروا أن إعطاء الجنوب حكماً ذاتياً، سوف يضر بالإسلام، ويطلق اليد للنشاط الكنسي التبشيري في جنوب السودان.

كذلك يذكر، أن الاتفاق، اعتبر مناطق الجنوب الثلاث (بحر الغزال والاستوائية وأعالي النيل) إقليماً واحداً. وإذْ إن السيدة (آجنس لكودو)، هي (حاكم) ولاية بحر الغزال، فلعلهم قسموا الجنود إلى ثلاث ولايات. ونحن نعلم أن قرار النميري بإعادة تقسيم الجنوب إلى ثلاثة أقاليم، خلافاً لما نص عليه اتفاق أديس أبابا، كان السبب في اشتعال الحرب من جديد، وانهيار عهد النميري بالضرورة.

هكذا جاءت السيدة (آجنس لكودو)، إلى لندن، مفعمة بالحماسة للنظام القائم، كما اتضح من حديثها في المؤتمر. ولا أشك أن إخواننا ثمة، قدروا أنهم يحققون فوائد عدة بواسطتها. فهي سيدة، وهي جنوبية وهي مسيحية. ولعلها تقدم حجة ناصعة، أن هذا الحكم، هو أكثر تحرراً وتسامحاً وعدالة مما يزعم خصومه من السودانيين وغيرهم.

لكن، لسوء الحظ جاءت تلك السيدة الفاضلة (أصدق مما يُصدّق). إذا صحت ترجمة العبارة الإنجليزية (Too Good to be True). كانت حماستها تنم عن إحساس عميق بالشك والقلق، فهي تعلم علم اليقين أن الجنوب يغلي بتيارات قوية مناهضة للحكم، وبعضها مناهض للشمال برمته. وتعلم أن زعماء الجنوب الذين يصنعون الحرب والسلم، موجودون في نايروبي وكمبالا ولندن وواشنطن، وفي الجنوب نفسه، حيث الحرب سجال بينهم وبين جيش الحكومة. إنها لا تعدو أن تكون (زعيماً) مؤقتاً في أوضاع مؤقتة.

كان حديثها مثل خطب الوعظ في الكنائس. خطر لي أنها ربما تكون من أتباع المذهب البروتستانتي الكالفيني. أسلوبها خليط من الوعظ والأمر، وهو أسلوب هذا العهد، الذي يحس ولا ريب، أن لديه سلطة (أخلاقية)، ليست لدى الآخرين. ولاحظت فيما بعد، أن زميلتها الشمالية المسلمة، تتحدث مثلها، كأنها صورة منها، أو كأنها هي.

قالت لنا بتلك النبرة، أن الجنوب بخير وأن السودان بخير. كانت تتحدث بلغة إنجليزية تتخللها عبارات عربية بلكنة جنوبية، لا تخلو من الجاذبية. قالت «مش عاوزين متفرّجين. كل واحد عنده كلام يجي يقوله جوا السودان... لا توجد مشكلة. المشكلة الوحيدة الباقية هي إيجاد الحل».

خطر لي، وأنا أصغي لتلك السيدة الفاضلة، أن النّظم (اليقينية)، دائماً تجيء بخارطة جاهزة للمستقبل. لا تستطيع إنجازها بطبيعة الحال، إنما يحدث شيء مختلف كلية. هذا الحكم جاء ليرفع ألوية الإسلام في غَيَابات الجنوب. لم يستطع لأن الجنوب لم تبق فيه مساجد ولا كنائس. دمّرتها الحرب الضروس. لكن مقابل ذلك، قامت كنائس في الشمال، في أماكن لم تسمع غير نداءات المؤذنين منذ أكثر من عشرة قرون.

خطر لي أيضاً، أن هذا الحكم، ربما يكون قد صنع شيئاً لم يخطر على بال أحد من قبل. أنتج نمطاً جديداً من البشر الكالفينيين بروتستانت، ينطقون بلسان المسلمين اليقينيين، ومسلمين يتحدثون لسان الكالفينيين البروتستانت!

لم يغب عن بالي وأنا أستمع إلى الدكتورة زكية عوض ساتّي عميدة كلية الآداب بجامعة الخرطوم، أنها ابنة أستاذنا الجليل المرحوم عوض ساتّي. كان من رجال التربية النابهين. ومن الفوج الأول من السودانيين الذين درسوا في الجامعة الأمريكية في بيروت.

كذلك كان المرحوم عبيد عبد النّور، الذي درّس لنا تاريخ الدولة الأموية والدولة العبّاسية في مدرسة (وادي سيّدنا) الثانوية، لم يكن يملّ من ترديد العبارة (المُلك عقور)، وأحياناً يقول (المُلك عقيم). وكان يعجبه قول شوقي:

لبستْ بُردَ النبيّ النيِّراتْ
من بني العباس نوراً فوق نور

وهو صاحب النشيد الذي حدا به الناس في ثورة الجيش على الإنجليز عام ١٩٢٤:

يا أم جدايلْ قُودي الرَّسن
واهتفي فلْيحْي الوطنْ

درَج، كما درَج كلُ أولئك الرهط الصالحون رحمهم الله جميعاً، وبعض إخواننا الذين يحكمون اليوم، تعلّموا على أيديهم، ولكن لا يبدو أنهم استفادوا منهم شيئاً فالوطن ما يزال بعد نحو أربعين عاماً من الاستقلال، يقوم ويقع.

لأجل ذلك كلّه، أصغيت للدكتورة زكية باستغراق عظيم. في مقتبل العمر، ولا أظنها عدت الأربعين. وإذا كان إخواننا ثمة، أرادوا أن يرسلوا إلى لندن، دليلاً ناصعاً على ثورة إنقاذهم، فقد

كادوا يفلحون، لولا أنها كانت كما قال أبو العلاء:
فــمــا كــذبــتْ ومــا صــدق الــقــيــانْ

وجهها القمحيُّ يتوهّج بالحماسة، مثل زميلتها الجنوبية الأبنوسيّة الوجه (حاكم) بحر الغزال. تلك خبّرتنا أن الأحوال في الجنوب مستقرة، وهذه تتحدث عن الحرب، وتسميها جهاداً، وتقول أن الأمهات لا يبكين أبناءهن القتلى، ولكنهن يفرحن أنهم يموتون شهداء.

هذا، وقد أطنبت الدكتورة زكيّة في الثناء على العهد القائم، أنه أنصف النساء واحتفى بهنّ كما لم يفعل حكم آخر من قبل. فتح لهن الأبواب، وهيّأ لهنّ الفرص للصعود إلى أعلى المناصب.

لعلّ الحكم كان كريماً معها ومع زميلتها الجنوبية. لكننا نعلم أنه كان بخلاف ذلك مع كثرة من النّساء، وعزلن من أعمالهن دون مبرر. والواقع، الذي لا شك فيه، أن تنكيل هذا العهد بجموع غفيرة من موظفي الدولة، هو من ألأم ما يمكن أن يوقعه أي حكم بمواطنيه.

إنما أعجب ما سمعته من الدكتورة زكية عوض ساتّي هو أن ظروف العيش في السودان طيبة، وأن الناس راضون بقسمتهم، وأنهم تغلبوا على الحصار الاقتصادي بالاعتماد على أنفسهم.

وقالت (الناس آكلين شاربين والحمد لله).

لهم الله. هذا بالفعل، كما حدث لإبل أبي العلاء (تخيّلت الصباح معين ماء)، ولو شاء لقال (تخيّلت السّراب)!

من حسن الحظ، أنه يوجد أناس أمثال الأستاذ أحمد عبد الرحمن، لم يمنعهم إيمانهم بفلسفة هذا العهد، أن ينظروا إلى أفعاله بعيون مفتوحة وقلوب واعية. هؤلاء يدركون أن العهود تجيء وتذهب، والأوطان هي التي تبقى، وأن الهدف يجب أن يكون بقاء الوطن، وليس بقاء أيّ حكم أو نظام.

ارتفع صوته من قبل في الخرطوم، في المجلس الانتقالي، وهو مجلس مُعيّن، بين مجموعة من الأصوات، منبهاً إلى أخطاء الحكومة وتجاوزاتها الخطيرة أحياناً بالتعدّي على حقوق المواطنين. وندّد بأساليب القهر التي تنتهجها بعض وسائل الأمن. ولا يخفى أن هذا النظام قد ابتدع من وسائل المخابرات والتجسس والتلصص على الناس، ما يدعو حقاً إلى العجب.

سرّني جداً أن الأستاذ أحمد عبد الرحمن، قال في ندوة لندن، وكأنه يرد على الدكتورة زكية، أن الحرب الدائرة في الجنوب ليست جهاداً. واستمعت بسرور وإعجاب إلى قوله (لا توجد دولة إسلامية في السودان).

أعجبني أيضاً عرضه لفكرة الحكم الفدرالي، ما لها وما عليها. ذلك لأن له خبرة واسعة في الإدارة، ومعرفة عميقة بأساليب الحكم في دول أخرى، مثل بريطانيا وأمريكا. وقد فهمت من حديثه، أنه يحس أن الحكم القائم، قد تعجّل تطبيق نظام الحكم الفدرالي، دون أن يستعدّ لذلك كما يجب.

ورغم أن السيّد أحمد عبد الرحمن يعتقد أن النظام الحزبي التعددي، لا يناسب ظروف السودان، ولكنه يحبّذ قيام حكم يعتمد

على قاعدة واسعة من الإجماع والمشاركة.

كل هذه خلافات جوهرية في الرأي، مع توجهات الحكم القائم. ولنا أن نسأل، إلى متى وإلى أي حد يظلّ الأستاذ أحمد عبد الرحمن مؤيداً لنظام لم يعد مؤمناً بتوجهاته ولا راضياً عن ممارساته؟

مهما يكن، فقد بدا لي مما سمعت منه، أن أحمد عبد الرحمن بدأ يستصرخ كوامن ذاته الأصيلة، لينهض بدور عظيم، من الواضح أن الظروف قد تهيأت له، إن هو أقدم، كما يحسُن الإقدام، فسوف يذكره التاريخ لا ريب، ولعلّه أيضاً يسدي خدمة لـ(جماعته). إنهم وضعوا أنفسهم، ووضعوا الوطن، في مأزق فادح. ويا ليتهم يذهبون بسلام.

وبعد، ففي كل ليلة أيام المؤتمر، بعد أن يصمت الجدل والهرج والخلاف، كان ذلك الفنان الرائع، عبد الكريم الكابلي، يغنّي بصوته العبقري. يغني من الماضي البعيد والقريب، بالدّارج والفصيح، مذكّراً الناس بوطن آخر وشعب آخر، وطن عظيم وشعب كريم. وهما في متناول اليد، فكيف تأتّى لهم أن يضلّوا إليهما الطريق؟

يا سيدي أصلحك الله. مرّة أخرى أقول لك ما قاله الشيخ للمُريد.... إن الذي تبحث عنه قد تركته وراءك ببسطام.

بيْن كل ما قرأت من رثاء في العميد يوسف بدْري رحمه الله، وقد وافاه الأجل في تونس منذ أسبوعين، لم أجد أبلغ أثراً في نفسي من الكلمة التي كتبها أستاذنا الدكتور بشير البكري، حفظه الله وأدام عليه نعمة العافية. نُشرت الكلمة في صحيفة «الخرطوم» التي يصدرها من القاهرة ابنُ أختنا المقدام الدكتور الباقر أحمد عبد الله.

في كلمة الدكتور بشير، على قصرها وعفويتها، الخصالُ كلها التي عُرفت عنه. الوفاء، وكرم الطبع، والحكمة والعلم مع البساطة والتواضع، والإيمان بأن الخير غالب في الحياة، وأن العمل والتطبيق، هما رائدا الفكر والتنظير. وفوق ذلك كله، عباءة واسعة من تلك السَّماحة السودانية التَّالدة التي كانت ـ ونرجو أن تظل ـ تكسو نتوءات الأفكار، وغلواء المقاصد فتصير الأمور متناسقة متقاربة، وإن بدت متباعدة متنافرة.

ذلك هو الإرث العزيز الذي تجمّع للسودانيين من تاريخهم وأحوال عيشهم عبر عشرات القرون. إن أضاعوه أضاعوا كل شيء. وحين تجد أناساً ـ رجالاً ونساء ـ تلمس منهم الحرص على ذلك الإرث، تحس بالطمأنينة، والتقدير لهم والحب. وحين يرحل أحدهم، تطول الحسرة، لأن الذي يضيع برحيله شيء كثير.

كان يوسف بدري رحمه الله، رجلاً فذاً، من جيل كله أفذاذ. تطاولت أعناقهم إلى السماء، وظلت أقدامهم ثابتة على الأرض. امتلأوا علماً وخبرة وتجربة، وتجلس إلى الواحد منهم، فكأنه في بساطته وعدم تكلّفه، راعي إبل من أرض البطانة، أو زَرّاع من أرض الجزيرة.

ورث العميد مدارس (الأحفاد) عن أبيه العظيم الشيخ بابكر بدري ـ وكان قد بدأها مدرسة صغيرة في (رفاعة) لتعليم أحفاده ـ فانطلق بها إلى غاياتها القُصوى حتى وصلت إلى مستوى جامعات للبنات والبنين، فيها كل فروع الجامعة من هندسة وطب وغيرها.

في أثناء ذلك لم يتوقف (العميد) نفسه عن التعلّم، وكان ضمن البعثات الأولى التي أوفدتها حكومة السودان إلى الجامعة الأمريكية في بيروت فدرس وهو يعمل حتى نال شهادة الماجستير وشهادة الدكتوراه. وبذلك طبّق في حياته مبدأ (تعليم الكبار) و(التعليم المستمر)، كما نوّه الدكتور بشير في رثائه له.

لكن كلمة الدكتور بشير البكري لم تكن رثاء محضاً. لم تكن حسرة وتوجعاً على فقد صديقه العزيز وأحد رفقاء دربه ـ وإنها لكذلك. إنما الدكتور بشير، حفظه الله، انطلق من ظلام الفجيعة

إلى أمل استمرار حياة الأمّة، ومن الحسرة على فقْد إنسان واحد، مهما كان عزيزاً، إلى تذكير الأمة بمغزى حياة ذلك الإنسان، حتى تضيفها إلى حصيلة القيم التي تعينها على النهوض والبقاء. لذلك قال مخاطباً الفقيد:

«غرست شجرة في دارك كي يستظل تحتها (إخوان الصفا) و(السمّار).. لا يناقشون مشاكل (الأحفاد) وشؤونها فقط بل شؤون البلاد كلها. وكأنها برلمان ذلك (المجتمع المدني) الذي حرصْتَ أن يقوم بعيداً عن السلطة، وهو في الوقت نفسه سلطة زمنية وروحية. أكانت هي (بيت الحكمة)؟ أكانت (منتدى الخريجين)؟ أكانت (كرمة ابن هانيء)؟.

إنها كانت ذلك كله. حرية في الرأي، وسلامة في القصد، وجمعاً للشمل، وبيتاً للمستقبل، وملجأً للحائر، ومحراباً للعابد.

وكنت أنت كل ذلك يا عميد العمداء.. الشورى والحق والجمال».

وصف الدكتور بشير صديقه العميد رحمه الله، وأيضاً وصف نفسه، أبقاه الله، لأنه هو أيضاً كل ذلك. ووصف مدينتهما العتيدة أم درمان، وهما عريقان في أهلها. وصفها كما أصبحت حلماً في الخيال، ولم يطل العهد بها في الحقيقة.

وكذلك وصف السودان كما عرفاه، وعرفناه منهم ومن أمثالهم من أساتذتنا الأبرار، وآبائنا وأمهاتنا الصالحين، الذين أقاموا على سفر، وفارقوا على عجل، ولم يأخذوا من الحياة إلّا كما يأخذ الطائر بمنقاره من البحر.

كل كلمة في تلك الفقرة عميقة الدلالة بعيدة المرمى.

الشجرة في فناء الدار، كيف تنمو حتى تَفيء ظلالها على ما حولها؟ هل بالضوضاء والبيانات العسكرية والأناشيد الحماسية؟

(المجتمع المدني)، البعيد عن إجحاف السلطة، حيث كل فرد يبذل قصارى جهده، لا خوفاً أو طمعاً، بل إيماناً وطواعية.

بيت الحكمة ونادي الخريجين وكرمة ابن هانيء. حرية الرأي وسلامة القصد وجمع الشمل. بيت المستقبل وملجأ الحائر ومحراب العابد..

خلاصة القول، ناسٌ أحرار في بلد حرّ، لا تُرفع فوق رؤوسهم السياط، ولكن يعملون كما يعمل الأحرار، نخوةً ومروءة وتقديساً للواجب. الواحد منهم لا تحدّه إلّا حدود مواهبه، ولا يخشى إلّا الله والذئاب على غنمه.

لأجل تلك المعاني، نحزن لفقد إنسان مثل يوسف بدري، رحمه الله. ونفرح ونحمد الله أن بيننا أمثال بشير البكري، حفظه الله وأمدّ في أيامه.

٢٥

منذ أن وفد الشاب النابغة، المرحوم معاوية محمد نور على القاهرة في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن، لم يقم جهد ثقافي سوداني في مصر، إلّا قلة من الجهود المتقطعة. كانت جرأة عظيمة من معاوية محمد نور في ذلك الوقت. كان بوسعه بعد أن تخرج من كلية، غوردون، أن يفعل كبقية أبناء جيله، فينخرط في سلك الخدمة المدنية في ظل الإدارة البريطانية. وكان سوف يصير له شأن بلا شك، فقد كان نبوغه المبكّر يبشر بذلك.

والمفكّر في مصر، لا بد أن يدرك إلى أي حدّ ساهم ذلك الشاب السوداني الأوحد ـ إلّا ما كان يجده من تأييد معنوي من المرحوم عباس محمود العقاد ـ في إغناء الحياة الثقافية في مصر، ودعم حركة التواصل الفكري بينها وبين السودان.

كان كرماً من مصر ـ ومن طبعها الكرم ـ أن تفسح له المجال

ليكتب في كبريات صحفها، وتقبل منه أن يقارع كبار مفكّريها.. وكثيراً ما كان ينتصر عليهم، فقد كانت ثقافته عميقة شاملة، وكانت عقبريته واضحة لا مراء فيها. ولعل كثيرين في ذلك الوقت لم ينتبهوا للمعنى (الدقيق) لوجوده بينهم. كان أخاً شقيقاً ومحباً، لكنه لم يذهب إلى مصر يحمل ولاء سياسياً. كان يؤمن بالوحدة.. ليس إرضاء لمصر بل إرضاء لنفسه وقناعته.

مرَّ زمن طويل، لم يحدث فيه جهد مماثل، إلى أن جاء هذا الشاب المقدام الدكتور الباقر أحمد عبد الله، بعد أكثر من ستين عاماً، فأنشأ «دار الخرطوم للصحافة» في قلب القاهرة.

كان ذلك مواصلة لما بدأه معاوية محمد نور، وكأنه أيضاً استجابة للنداء الذي صاح به ـ منذ أكثر من ستين عاماً أيضاً ـ ذلك الشاعر السوداني الضخم:

يا ابن مصرٍ، وعندنا لك ما نأ
مـلُ تبليغَه من الخير مصرا
قل لها في صراحة الحقّ
والحقُّ بأن يُؤثر الصراحةَ أحْرى
وثّقي من علائق الأ
دب الباقي ولا تحفلي بأشياء أخرى

وفي تلك القصيدة يقول الشاعر:

كيف يا قومَنا نباعد من فِكْرين
شدّا وساندا البعضَ أزْرا؟
كيف قولوا يجانبُ النّيلُ
مجراهُ ويجري على شواطىء أُخرى؟

ذلكم التجاني يوسف بشير العبقري. لم يسكن في مصر ولم يزرها. أحبها على البعد. وسؤاله ما زال يتردد منذ أكثر من ستين عاماً، تطويه رياح وتنشره رياح. لكنه لم يصل بعد إلى آذان بعض الناس، على عُدْوتيْ النيل.

حسْبُ هذا العمل الإعلامي أن ينوَّه به، إنه عمل إيجابي في زمان امتلأ بالسلبيات. ها نحن نرى المؤسسات المصرية في السودان، الثقافية والتعليمية، تُصادر، والبعثات الدراسية إلى مصر تتوقف، وحركة الناس بين القطرين توضع لها العراقيل كما لم يحدث حتى في عهد الاستعمار، ويكاد التوتر في العلاقات الرسمية يصل ـ لولا الحياء ـ حد القطيعة الكاملة ـ في وسط كل هذا الخراب، لا يملك الإنسان إلّا أن يعجب بعمل ثقافي سوداني بنّاء ينهض في مصر.

بنى الباقر أحمد عبد الله داره الثقافية الإعلامية، على أساس من تعدد وجهات النظر، واحترام حق كل ذي رأي، أن يعبر عن رأيه بحرية. ولم يقتصر اهتمام الصحيفة بالسياسة، ولكنها اعتنت عناية واضحة بالثقافة والفكر والفن والتاريخ.

وكما يحدث دائماً، فإن الناس حين يجدون الحرية، تتوقد قرائحهم وتقوى حماستهم على العطاء والإبداع. وهكذا أصبحت صحيفة «الخرطوم» في وقت قصير، منبراً حرّاً بعيد الأثر، وملتقى رحباً اجتمع فيه كتّاب وكاتبات، من سياسيين وأكاديميين وأدباء وشعراء ومفكرين. شيوخاً وشباباً ومخضرمين. شماليين وجنوبيين، ساخطين على الحكم ومؤيدين. ولا أشك أن «الخرطوم» سوف تكون في المستقبل مرجعاً قيّماً لدارسي هذا العصر في حياة السودان.

كلهم يستحق الإعجاب، وحسبي أن أنوّه في هذا الحيز الضيق بـ (جمرات) أستاذنا محمد توفيق حفظه الله. كانت قد همدت كما همدت أشياء كثيرة عزيزة بضياع الديموقراطية. لكنها لم تمت، ظلت تتوقّد تحت الرماد وتنتظر. وها هي ذي قد هبّت عليها رياح «الخرطوم» في القاهرة، فإذا هي كما كانت، دفئاً وضوْءاً ووهجاً. فطوبى للجمر، وطوبى لموقد الجمر، فيا طالما من مثله اشتعلت نيران الحرية.

أغلب الظن، أن منظمة اليونسكو بحسّها الحضاري، العميق ـ وهو حسّ مستمد من أهدافها ـ تعمّدت أن يكون هذا اللقاء في مدينة برشلونة بإسبانيا. وهو واحد من مجموعة ندوات ومؤتمرات ولقاءات تعقدها المنظمة بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية ومنظمات دولية أخرى، تحت شعار (ثقافة السلام)، بقصد بث روح جديد في نفوس البشر وعقولهم. والأمل هو، أن البشرية بعد أن ذاقت الأهوال من الحروب والصراعات، سوف تنزع إلى إيجاد حلول لمشاكلها بالحسنى، وسوف تجد أن التعايش السلمي، أجدى من تبديد الطاقات في الحروب.

بهذه الوسيلة، يمكن القول، أن منظمة اليونسكو حققت انتصارات لا يستهان بها، بعقد لقاءات بين الأطراف المتصارعة في السلفادور وموزمبيق والفيليبين وغيرها.

كان لقاء برشلونة عن مشكلة جنوب السودان، حيث ظلت رحى الحرب تدور بين الشمال والجنوب منذ الاستقلال، أي على مدى أربعين عاماً باستثناء عشر سنوات من السلم، عقب اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢.

لم يكد السودان يتنسّم رياح الحرية بعد جلاء الاستعمار، حين حلّت عليه تلك اللعنة. قُتل من الأطراف المتحاربة ما لا يعلم عددهم إلّا الله، لكنهم يقدرون بمئات الألوف. وهم (أطراف)، لأن الجنوبيين يحاربون الشمال، وفي الوقت نفسه يحارب بعضهم بعضاً. وكذلك الشماليون. وتقدر منظمات الأمم المتحدة أعداد النازحين من شقّي القطر، المبعثرين في الدولة المجاورة، وفي أقصى أركان الأرض، بما يربو عن سبعة ملايين.

في أثناء ذلك، لم يأل الوسطاء في العالم جهداً ـ وخاصة من الدول المتاخمة للسودان ـ في عقد لقاءات بين أطراف الصراع، بغية إيقاف تلك الحرب المدمرة. إنما صعَّب الأمر، أن كل فريق كان يجيء، وهو يحمل قناعاته الثابتة، ومخاوفه وأحياناً أحقاده وحزازاته. وبعض تلك الحزازات، كما قال الشاعر العربي القديم:

وقد ينبت الخطّي على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هِيَ

وما أكثر الخطّي الذي ينبت في منطقة السّد في أعالي النيل! وما أكثر المذابح والجرائم والحماقات التي ارتكبت باسم التاريخ!
لكن هذا اللقاء في برشلونة كان مختلفاً ـ أو هكذا نرجو. كان لقاءً فكرياً وثقافياً، تحت مظلة منظمة فكرية ثقافية، ومنظمة دولية أخرى ـ

برنامج الأمم المتحدة للتنمية ـ لا تستطيع أن تنجز مهامها إلّا في مناخ من الاستقرار السياسي. ذلك لأنها تُعنى بقضايا العيش. قضايا الغذاء والكساء والدواء والتعليم. وهي قضايا يزعم هؤلاء القادة أنهم يسعّرون نيران الحروب بسببها، لكن الشعوب تكون دائماً هي الوقود لتلك الحروب، التي تُشنّ باسمها، ولا تكون مسؤولة عن نشوبها.

وربما كان عدْلاً، أن يكون أغلب المشاركين من الجنوب. ذلك لأنهم ـ كما يزعمون ـ هم الضحية. هم المظلومون المُعتدى عليهم، والشماليون هم الظالمون المُعتدون. منهم من ينتمي إلى المنظمات المسلّحة التي تحارب الحكومة، وأكبرها المنظمة الشعبية لتحرير السودان، التي يقودها (جون قرَنْق). وبعضهم من الذين انحازوا إلى صف الحكومة وقبلوا أن يتعاونوا معها. وقد تعمّدت الحكومة أن يكون وفدها مناصفة بين الجنوب والشمال. والهدف واضح. تريد أن تقول إنها حكومة شرعية تمثل القطر كله، وأنْ ليس كلُّ الجنوبيين ضدها.

كان الشماليون أقلية، والذين ليسوا منحازين لهذا الفريق أو ذاك يعدّون على أصابع اليد. وكان قدري أن أكون شمالياً لا أحمل ولاء للحكم القائم ولا للذين ينازعونه الأمر، ويطلبون أن يحلّوا محله. ولأني، كما أقول، للوطن في صيرورته الأبدية. وما أصعب ذلك من ولاء!

لم تُهمل منظمة اليونسكو شيئاً في تنظيم هذا اللقاء. ولكنها فطنت إلى أمور دقيقة ذات دلالات عميقة. أحسنت اختيار المكان، كما سنرى. وأحسنت اختيار الرئيس. إنه الدكتور أحمد الصيّاد ممثل اليمن في منظمة اليونسكو، وهو أيضاً رئيس المؤتمر العام للمنظمة.

بالإضافة إلى مزاياه الشخصية، فلا يخفى أن في اليمن، كما في السودان شمالاً وجنوباً. وقد اشتعلت بين الشطرين صراعات دامية، قبل أن يفيء أهل اليمن إلى ظل السلام والوحدة. وقد ذكّر الدكتور الصياد في كلمته البليغة في افتتاح اللقاء، بالعلاقات التي ربطت اليمن بالسودان منذ أقدم العصور، وأضاف:

«لغة العنف والمواجهة أثبتت فشلها... بعد سقوط جدار برلين وقيام دولة ديموقراطية متعددة الأجناس في جنوب أفريقيا... في كل مكان في العالم أصبح أعداء الأمس يعملون سوياً في بناء أوطانهم، يتعانقون ويبدأون صفحة جديدة... عرفنا عنكم في السودان التسامح وتغليب لغة الحوار والحكمة... عرفناكم أهل حضارة ورسل محبة، وأنتم الآن أحوج ما تكونون لهذه الخصال الحميدة... من أجل أطفال السودان ندعوكم للعمل سوياً لبناء غد أفضل...».

كان أحد نواب الرئيس، الدبلوماسي الجزائري المحنّك، الأستاذ محمد سحنون، الذي حاول جهد المستطاع، التوفيق بين الفصائل المتحاربة في الصومال، بتفويض من الأمين العام للأمم المتحدة.

هذا، وقد أشرف على تنظيم اللقاء، الأستاذ أحمد ديده، أحد مستشاري المدير العام لليونسكو، وكان من قبل ممثلاً لموريتانيا في المنظمة. ذلك أيضاً كان اختياراً موفّقاً، فموريتانيا، كما نعلم، هي صنو السودان، فيها جنوب زنجي قح، وشمال عربي. ورغم أن الشطرين يجمعهما الإسلام، بخلاف السودان، فإن ذلك لم يمنع من قيام صراع دموي على ضفتي نهر السنغال.

■ ■ ■

قلت إن اختيار منظمة اليونسكو لمدينة برشلونة ميداناً للصراع الفكري حول السودان ـ وإذا شئت قل الحوار ـ كان اختياراً مناسباً من عدة وجوه.

الجو دافىء مشمس. الهواء يحمل طعم البحر ورائحته، هواء البحر الأبيض المتوسط. ليس مثله هواء. صبا نجد، ذلك شيء آخر. وهواء شمال السودان وقت فيضان النيل، ونضوج التمر في سبائطه ـ أي نعم. إنما تلك مناخات تحرك الشجن، لأن النفس مشبعة بها أصلاً، متهيئة للجيشان.

النشوة التي يبعثها هذا المناخ، نشوة عقلية في المقام الأول، كأنك تقرأ لفيلسوف يوناني قديم. ليست عاطفية، لأن الديار ليست ديارك، وإن كانت ثمة عاطفة، فإنما هي الحسرة، على الذي ضاع والذي يضيع. وقد حار الخيال العربي في أمر هذا البحر. سموه بحر الروم، وهو إن كان بحراً لأحد، فهو بحر (هيلاس) ـ بحر اليونان.

الذي تجده في الهواء ينعكس على المدينة. والذي تجده في المدينة ينعكس على الهواء. هما في علاقة (جدلية) لا تنتهي. ونحن عندنا مدن طريقة المعمار مثل الرياض، ومدن عريقة مثل القاهرة ودمشق ومراكش وصنعاء. ومدن تنهض وتكبو مثل بغداد وبيروت. والخرطوم لا تموت ولا تحيا وبوسعها أن تحيا لو تركوها وشأنها.

برشلونة أمرها مختلف. ليست ضخمة، مثل لندن وباريس وروما بحيث تفسد ضخامتها جمالها. وليست صغيرة بحيث تقتحمها

العين. سكانها نحو ثلاثة ملايين، وذلك يكفي أي مدينة. في سهل بين حرفين من جبال منخفضة، تطل على المدينة من شمالها الشرقي وجنوبها الغربي، فتضيف إليها، ولا تخمد أنفاسها بجبروتها، كما تصنع جبال الألب ببعض مدن سويسرا. أو كما قال الكاتب الفرنسي (شاتو بريان) يصف جبال سويسرا:

«لا أحب أن تطبق على هذه الكتل الضخمة من الصخر.
الجبال تكون جميلة، فقط حين تكون بعيدة عند خط الأفق.
هذا شأن العظمة مهما كانت... يحسُن أن تُرى على البعد».

تقع في الشمال الشرقي من إسبانيا في إقليم (كتالونيا) قريباً من الحدود مع فرنسا. وذكروا أن أول من أسسها الفينيقيون القرطاجيون، وأن القائد (حنا بعل ـ هنيبال) سماها (باريسنو) تخليداً لاسم أبيه (أملكار برسا). ثم حازها الرومان طيلة ستة قرون فعمروها، وجعلوا لها سوراً ما تزال بقاياه موجودة إلى اليوم.

ثم تعاقب عليها الغزاة، إلى أن فتحها العرب عام ٧١٦ للميلاد، وذلك بعد ست سنوات فقط من أول عبور لهم إلى أرض إسبانيا. لكنهم لم يحتفظوا بها طويلاً، فقد مكثوا فيها خمسة وثمانين عاماً فقط. إذ انتزعها منهم في عام ٨٠١م، (لويس أليباسو) ـ أي لويس التقيّ كما كانوا يسمونه. وهو ابن (شارلمان) ملك الفرنجة وأمبراطور ما كان يسمى بـ (الأمبراطورية الرومانية المقدسة).

وكان سبب سقوط برشلونة في أيدي الفرنجة هو تآمر العرب بعضهم ضد بعض، ذلك التآمر الذي بلغ ذروته فيما بعد، بإيعاز من الخليفة العباسي في بغداد، الذي لم يطب له أن تقوم دولة أموية

في إسبانيا. ولعل ضياع برشلونة في ذلك الوقت المبكر، كان بداية الانحدار العربي في الأندلس، الذي انتهى بسقوط غرناطة في كانون الثاني/ يناير ١٤٩٢م. وكانت أسباب سقوطها، هي الأسباب نفسها التي أدت إلى سقوط برشلونة قبل نحو ثمانية قرون. بدأ العرب يسقطون وهم في أوج انتصارهم.

كانت تلك الأقاليم ـ كتالونيا وليون وناثار وأكوتين وبقية الممالك عند جبال البرنيز ـ قاعدة لمناهضة الوجود العربي في إسبانيا. ذلك لأن العرب لم يستطيعوا أبداً أن يخضعوها ويضموها إلى حكمهم. وقبل أن يفعلوا ذلك، قفزوا إلى فرنسا، يطلبون إخضاعها!

بلى، لم يمكث العرب طويلاً في برشلونة فليس لهم فيها أثر. لا في المعمار، ولا في وجوه البشر، ولا في أسلوب العيش. توجد فقط، أطياف بعيدة من سمات فينيقية، كما ترى أحياناً في وجوه بعض الناس في تونس ولبنان.

■ ■ ■

بذلت منظمة اليونسكو جهداً واضحاً كي تهيىء مناخاً يساعد المشاركين السودانيين في ندوة برشلونة، على استدعاء عواطف الخير في أنفسهم، وتغليب هواجس الحكمة والعقل، على هواجس البغضاء وسوء الظن.

البغضاء وسوء الظن، هو الإرث الذي آل إلى السودانيين في الشمال والجنوب، من الماضي البعيد والقريب، فوقرت في قلوبهم أشياء، بعضها حق وبعضها باطل. وأكثر ما وقر من ذلك في

قلوب الجنوبيين. وكما حدث طوال التاريخ، فإن الشرّ، أو توهّم الشرّ، يقود إلى مزيد من الشر. وتمّضي الأمور من جهالة إلى جهالة، حتى يغدو الفكاك من ربقتها مستحيلاً، إلّا بقفزات هائلة في الخيال، أو بثورات هائلة في الروح.

هكذا يقف السودانيون اليوم بعضهم إزاء بعض. الجنوبيون أيديهم ملطّخة بدماء الشماليين، وأيضاً بدماء الجنوبيين. والشماليون أيديهم ملطّخة بدماء الشماليين كما هي ملطّخة بدماء الجنوبيين. كلهم قاتل مقتول، ظالم مظلوم. والأمة التي تمعن في جنون كهذا، ولا تدرك أنه جنون، أمة لا تستحق البقاء.

كان حريّاً بالسودانيين أن يدركوا ذلك من زمن، لما يظنّونه في أنفسهم من فضائل الحكمة والعقل والتحضر. أما وأنهم عجزوا ـ أو أن زعماءهم عجزوا ـ فيجب ألا نهوّن من جهود الآخرين الذين يريدون أن يساعدوا على وضع حدّ للمأساة. وهي مأساة بالفعل.

كان الماضي هو محور حديث (فدريكو مايور) المدير العام لمنظمة اليونسكو. وقد أعجبني قوله:

«لا تتشبثوا بذكريات الماضي، بل تشبّثوا بذكريات المستقبل.. الماضي مثل المرآة الخلفية للسيارة.. تنظر إليها لتتبين الطريق إلى الأمام.. نحن لا نطلب منكم أن تتخلّوا عن قناعاتكم.. لكننا نطلب منكم أن تغيّروا الوسيلة التي تدافعون بها عن تلك القناعات».

كانت كلمة مؤثرة ذات روح شاعري، إذ إن مستر (مايور) شاعر معروف في إسبانيا. وقد أسهب في الحديث عن بشاعة الحروب، وقال إن الحروب تنتهي دائماً بالهزيمة لكل الأطراف المتحاربة. ونوّه بوجوه الشبه بين إقليم (كتالونيا) ـ وهو مسقط رأسه ـ وبين السودان من حيث التنوع الثقافي والثراء الحضاري، والاستعداد للعطاء والإبداع في مناخ السّلم. وأشار إلى كثرة المبدعين في (كتالونيا) من شعراء وكتّاب وفنانين.

ومعلوم، أن إسبانيا بعد موت (فرانكو)، أخذت بنظام الحكم الفدرالي، فأصبح إقليم (كتالونيا) ـ وهو إقليم عرف بنزعته الانفصالية منذ استقلاله عن الحكم العربي في القرن التاسع الميلادي ـ أصبح شبه دولة مستقلة في إطار الحكم الفدرالي، له دستور وبرلمان وحكومة مستقلة.

أعقب ذلك، عرض من أحد مساعدي المدير العام، للجهود التي بذلتها منظمة اليونسكو من قبل في دعم ما أسمته المنظمة بـ (ثقافة السلام). وقد تردّدت في عرضه، كما في كلمة (مستر مايور)، عبارات مثل (المشاركة ـ التعددية ـ بناء السلام ـ التنمية في مناخ السلم ـ منع حدوث الصراع).

هذا، وقد كانت (التنمية) هي بطبيعة الحال، محور حديث ممثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية في السودان. وقد بدا لي، أن حديثه لا بدّ أن يهز ضمائر الأطراف المتصارعة المجتمعين في تلك القاعة، ويحرّك في نفوسهم الإحساس بالندم والحسرة. ذكّرهم بالأضرار التي سببّتها الحرب للشمال والجنوب، والعقود من الزمن التي ضاعت، وكان يجب استثمارها في التنمية والتعمير، وأنه لا يمكن

عمل أية تنمية إلّا في ظل السلام. وقال: «السودان بلد متخلّف، بشقّيه الشمالي والجنوبي».

تلك العبارة شدت انتباهي، ذلك لأن الجنوبيين يزعمون، أن الجنوب وحده متخلّف، وأنه وحده الذي حاق به الدمار والخراب.

ومن ناحية أخرى، تزعم الحكومة، أن التنمية قد عمّت السودان بشقيه، وذلك نتيجة لجهودها المتواصلة وسياساتها الحكيمة!

كل ذلك أحدث أثراً، فقد مضى الحوار بعد ذلك بنبرة هادئة، إن لم يكن موضوعياً تماماً، فقد كانت تغيب عنه الهستيريا. كانت المرارة الكامنة لدى الجنوبيين، تظهر أحياناً، تنمُّ عنها بعض العبارات وبعض التعابير على الوجوه. وكانت الحكومة ـ كما بدا لي ـ رغم عقلانية رئيس وفدها، ومحاولات ممثليها لتبرير أعمالها، كالذي يتمنى أن يحصل على شيء، لكنه لا يريد أن يدفع الثمن!

■ ■ ■

بدا لي، كأن شيئاً قد حدث في ذلك الاجتماع. ربما بتأثير المناخ العقلاني المتفائل الذي بثّته منظمة اليونسكو، ربما بتأثير جاذبية المدينة الساحرة، وهواء البحر الأبيض المتوسط.

قال لي أخ جنوبي، ونحن نتجول في مدينة برشلونة، وقد وقفنا على ساحة مبلّطة بحجارة ملوّنة كأنها تحفة فنية. كانت الساحة على هضبة، فأشرفنا منها على المدينة بسقوف بيوتها من القرميد

الأحمر تلمع في ضوء المغيب. الشوارع الواسعة والميادين الأنيقة والأبراج المتطاولة. قال:

«انظر إلى كل هذا الجمال. نحن في السودان نتقاتل على لا شيء».

قلت له:
«أنتم في السودان تتقاتلون على جُثّة. تطالبون بالعدالة في تقسيم الثروة. أين هي الثروة التي تريدون تقسيمها؟».

بلى، لعلّهم أخذوا يحسّون بتأنيب الضمير. الوقت الذي ضيّعوه في التدمير بدل البناء. آلاف الأرواح التي أزهقت في الشمال والجنوب، آلاف الناس الذين اقتُلعوا من مواطنهم، وتشتّتوا في أرجاء الدنيا.

ربما لأجل ذلك خفتت الأصوات، وهدأت الحدّة، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام عواطفه. حتى جماعة (رِكْ مَشارِ) الذين يدعون صراحة لانفصال الجنوب، عبّروا عن مواقفهم في حياء وحذر. لم تتغيّر نظرتهم للتاريخ ولا نظرتهم للشمال، لكن حُججهم كانت أقلّ مرارة وأقل حدة.

حتى رئيس وفد الحكومة الدكتور غازي صلاح الدين العتباني، هو أيضاً كأنما سرت فيه عدوى ذلك المناخ الإيجابي. كان قليل الكلام خلال الجلسات، وكان يتحدث بصوت هادئ. وقال إن الحكومة تقبل مبدأ الديموقراطية والتعددية، وهو ما تنفّذه فعلاً.

جلست معه وتحدثت معه مطوّلاً، ولم أكن قد عرفته من قبل.

وجدته إنساناً مهذباً دمثاً حسن المعرفة بالتاريخ حتى حسبته مؤرخاً، فإذا هو طبيب. ولا أنكر أنني أحسست بالتناقض بين الإنسان الجالس معي، وصورته في ذهني. ذلك لأن ما يُنشر بلسانه في الصحف، ينمّ عن رجل متطرّف في آرائه، متشدّد في مواقفه، أميل إلى الخصام منه إلى الوئام.

كذلك أدهشني شاب اسمه (باقان) من قادة الحركة الشعبية لتحرير السودان التي يتزعمها (جون قَرَنْق). ويقال إنه الرجل الثاني في الحركة. هو أيضاً بدا لي لطيفاً مهذباً مثقفاً. وقد تدرّب في كوبا، فأصبح يجيد اللغة الإسبانية، إلى جانب الإنجليزية والعربية.

كانت مساهماته في الحوار، كلها رصينة معتدلة. وخطر لي، وأنا أستمع إلى حديثه في الاجتماع، وحين حاورته خارج الجلسات، أن السودان لو كان متحداً مستقراً ليس فيه حرب بين شماله وجنوبه، لكان حريّاً أن يكون ذلك الشاب من زعمائه.

كيف تستقيم هذه الأمور؟ كثيرون من هؤلاء الناس الطيبين المسالمين الذين ضمتهم تلك القاعة في برشلونة، حملوا السلاح، وقتلوا أو حرّضوا على القتل، وخرّبوا أو شجعوا على الخراب.

كل الجنوبيين الذين ضمتهم تلك القاعة، يتحدثون اللغة العربية. أغلبهم من خريجي جامعة الخرطوم. عاشوا في الشمال، وعاشروا الشماليين، وأكلوا معهم العيش والملح، وربطتهم بعضهم ببعض علائق وصداقات. وبعضهم كان قد فضّل الاستقرار في الشمال.

هل الخطأ فيهم أم في الشمال أم في الحكومة أم في التاريخ؟

الله أعلم ماذا يحدث لهم حين يتركون هذا المناخ المعتدل ويرحلون عن هذه المدينة الجميلة؟

ماذا يحدث لغازي صلاح الدين حين يعود إلى الخرطوم بمناخها الهستيري وسياساتها (اليقينية) وأحلامها المستحيلة؟

وهل يظل (باقان) وبقية المحاربين الجنوبيين كما كانوا في برشلونة، أم تتبدّل أحوالهم، وتتبلبل عقولهم، حين يعودون إلى معسكراتهم وجنودهم وسلاحهم؟

■ ■ ■

كان في لقاء (برشلونة) من المفكّرين السودانيين، منصور خالد، وبونا ملْوال، وفرانسس دِنْق. وفي جانب الحكومة، عبد الوهاب الأفندي الذي كان إلى وقت قريب ملحقاً ثقافياً في سفارة السودان في لندن، ونور الدين ساتّي سفير السودان في باريس.

الثلاثة الأوائل كلهم نبَهوا في عهد الرئيس السابق جعفر النميري، وأنبههم لا مراء، الدكتور منصور خالد. كان وزيراً للشباب، ثم وزيراً للخارجية ثم وزيراً للتربية، ثم مستشاراً لرئيس الجمهورية. ذلك بالإضافة إلى مناصب رفيعة أخرى. وكان في وقت من الأوقات مقرباً من الرئيس، واسع النفوذ. وكانت له اليد الطولى في صياغة الدستور الذي كرّس به النميري عهده، ثم أشاح عنه حين أراد أن يختطّ خطة أخرى. وربما يعود الفضل الأكبر لمنصور خالد في إنجاز صلح أديس أبابا عام ١٩٧٢، الذي أوقف الحرب بين الشمال والجنوب، وهيّأ سلماً دام عشر سنوات.

ثم ساءت الصلات بينه وبين الرئيس، لأسباب شرحها الدكتور منصور خالد في كتبه باللغتين العربية والإنجليزية. وهي كتب كلها تحفز على التفكير والتأمل، منها كتاب عنوانه (لا خير فينا إن لم نقُلْها)، وهو عبارة عن مقالات كان منصور خالد قد نشرها في صحيفة يومية في الخرطوم، إثر خروجه من الحكم ونفض يديه منه.

كانت مقالات جريئة، كشف فيها المؤلف أخطاء النميري وعهده كما رآها. وبقدر ما تُحمد له شجاعته في النشر، خاصة في ذلك الوقت والعهد المايوي في ذروة ارتفاعه، كذلك يحمد للنميري أنه لم يمنع نشر المقالات، وكان بطبيعة الحال يقدر أن يفعل. وتلك من غرائب النظم (الشمولية)، أنها أحياناً بوعي أو دون وعي تفعل أشياء عكس طبيعتها.

الجرأة العقلية من سمات الدكتور منصور خالد منذ هو طالب علم يافع في مدرسة «وادي سيّدنا) الثانوية في أواخر الأربعينيات، قادته تلك الجرأة إلى أن ينحاز إلى معسكر الحركة التي يقودها (جون قرنق). ورغم أنه لم يكن الشمالي الوحيد الذي فعل ذلك، فإن تحوله أحدث بلبلة بين رفقاء صباه وأصدقائه والمعجبين بفكره. وكنت أحد الذين عجبوا لذلك التحول.

تساءل الناس كيف أن رجلاً نشأ في بيت علم ودين في مدينة أم درمان العتيدة، وامتلأ وجدانه بعشق اللغة العربية وتراث الإسلام؟ من أكثر الناس فصاحة عربية حين يتحدث أو يكتب، وشاعره المفضل هو أبو الطيب المتنبي. كيف انحاز إلى حركة بدا كأنها تهدف إلى اقتلاع (الكينونة) العربية الإسلامية من أرض السودان؟

الذين أحسنوا به الظن قالوا لعله رأى ما لم يروْا وعرف ما لم يعرفوا.

أياً كان الأمر، فإن موقف الحركة قد تغيّر الآن فانصاعت في نسق المطالبين بالوحدة إنما على أساس التعدد والشرعية الديموقراطية. وربما كان لمنصور خالد يد في ذلك الاعتدال.

إنه على أية حال، سواء راق لك أم لا، وسواء اتّفقت معه أو لم تتفق، فإنك لا تستطيع أن تنكر، أنه من أكثر المفكرين، لفتاً للنظر وتحريكاً للاهتمام، لا في السودان فحسب، ولكن في اتساع العالم الثالث على إطلاقه. وحين ينطوي ظل هذا العهد القائم ـ والظلال لا بد أن تنطوي طال نهارها أم قصر ـ فسوف يكون له شأن.

أما بونا ملوال، فهو من قبيلة (الدّنكا) الغالبة في الجنوب، التي منها أيضا (جون قرَنْق). ويقال أنها أكثر قبائل السودان عدداً. وهي قبيلة في تاريخها وسلوكها، عصبية وعنجهية لا تبعد عن طباع القبائل العربية. وشأنها بين قبائل الجنوب، كما يزعم الجنوبيون من شأن قبائل الشمال العربية معهم.

هو أيضاً نبغ في عهد النميري، فعمل بين ما عمل، وزيراً للإعلام. وهو من أكثر الجنوبيين معرفة بالشمال، فقد درس عندهم وعاش بينهم وربّى معهم صداقات واسعة حتى أصبح هو نفسه يقول إنه شمالي. وكان الناس يحترمونه لنزاهته وشجاعته في مجابهة النميري وهو في عنفوان قوته.

كاد يصير شخصية قومية مثل (أبل ألير) من هؤلاء الرجال الذين تلوذ بهم الأمم في النوائب والملمّات.

لكنه لسوء الحظ، اتخذ فيما بعد مواقف أخذت تزداد تطرّفاً يوماً بعد يوم، إلى أن بلغ به أنه شبّه الشماليين بالمستوطنين البيض في جنوب أفريقيا!

قد يكون له بعض العذر. الحكم القائم اليوم، أظهر في السنوات الست الماضية أصنافاً عجباً من الرعونة والتطرف. فلا جرم، أنه حتى العقلاء أمثال بونا ملوال، أصابتهم العدوى. لذلك أسعدني أنه في ندوة (برشلونة) كأنه يعود إلى ما عُرف عنه، فكان أميل إلى الاعتدال، وأمْيل إلى الوحدة، وأسرع استجابة لنداء السّلم.

■ ■ ■

يحار المرء في أمر السودانيين. هؤلاء الناس المجتمعون في هذه القاعة في برشلونة، كل واحد منهم أخو فضل وعلم وخُلق. ومثلهم كثيرون رجالاً ونساء. لماذا إذاً لم ترْسِ سفينتهم على برّ منذ أربعين عاماً؟ ظلوا يتخبطون يميناً ويساراً وشرقاً وغرباً.

خُذْ مثلاً عبد الوهاب الأفندي، شاب ذكي ودود عالي الهمّة. كان طياراً، ثم درس الآداب في جامعة الخرطوم. ثم أخذ الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة (ردِنْج) في إنجلترا.

كلما ألقاه أقول له مازحاً، وهو يحاول أن يجرّني إلى معسكره: «أنت لا تُشبه هؤلاء الناس، فما الذي ورّطك هذه الورطة؟».

جعلوه مستشاراً ثقافياً في سفارتهم في لندن، فظل يكتب ويحاضر ويؤمّ المؤتمرات يحاول أن يكسو سياسات الحكومة ثياباً أجمل مما تستحق. وكذلك هو الآن في برشلونة. لم يأل جهداً وكان في حديثه يحاول أن يجد قواعد مشتركة مع المعسكر الآخر. وقد أصدر مؤخراً كتاباً حسناً محّص فيه أخطاء الحكم، من منطلق الانتماء لهم والحدَب عليهم. وهو نقد أحرى بهم أن يأخذوه مأخذ الجد، لو كانوا يريدون الإصلاح حقاً. وما أظنُّهم يفعلون.

ونور الدين ساتّي السفير في فرنسا. واضحة عليه سيماء جامعة الخرطوم كما كانت في أيامها الخوالي، قبل أن يقوّضها هذا العهد في ما قوّض، ومن قلة من الدبلوماسيين المدربين الذين لم ينبذوهم نبذ النّوى كما فعلوا مع عشرات منهم. أخذ الدكتوراه من السوربون. أنيق في مظهره وفكره وحديثه، إذ النظامُ الذي يمثله في تلك العاصمة الأنيقة أميل إلى الخشونة والرعونة، فلا أدري كيف يصنع! هو الآخر استمات في الدّفاع عن النظام. ومَن يلومه؟

وفرانسس دِنْق. نتاج تعليم أنجلو سكسونيّ محض، في جامعة الخرطوم، ثم في لندن، ثم في أمريكا حيث هو الآن (زميل) في معهد (بروكنقر) الذائع الصيت.

تعهده منصور خالد في وزارة الخارجية فعمل سفيراً في السويد وفي كندا، فوزيراً للدولة حين كان منصور خالد وزيراً للخارجية. وفي سمته شيء من صديقه وأستاذه.

نشأ على تخوم (بحر العرب) حيث القبائل العربية في جنوب (كُرْدُفان)، تتعايش منذ حقب مع قبائل (الدنكا)، يتحاربون مرة،

ويصطلحون مرة. فاستقرت حياتهم على ذلك النمط، لا غنى لأحدهم عن الآخر، وفرانسس دنق يفهم ذلك حق الفهم، فقد كان أبوه من شيوخ العشائر.

رجل مصقول (كوزموبوليتان) يحسن اللغة العربية، وناصع البيان باللغة الإنجليزية. ثم هو أيضاً كاتب روائي لديه قُدرة الروائيين على النظر إلى الأمور من أكثر من زاوية.

ظل معتدلاً طول حياته، إلّا أن مرارة الجنوبيين المتزايدة أخذت تؤثر عليه. ولعله إن جدّ الجد ينحاز إلى عشيرته في الجنوب. فمن يلومه؟

إنما من كل شخص ذلك المسرح، الشخصية التي شدت انتباهي أكثر وأثارت خيالي، كانت تلك السيدة الجنوبية (آقْنس لكُدر) حاكم ولاية (بحر الغزال).

كنت قد صادفتها العام الماضي في مؤتمر عُقد في لندن، فلم أكترث لها. بدت لي حينئذٍ متهورة في حماستها للنظام، كأنها لا تؤمن بما تقول. لكنها في هذا اللقاء ـ ويا للغرابة ـ فجأة اكتسبت أبعاداً جديدة، مثل بعض شخوص المسرح، تبدو لك تافهة أول الأمر، ثم إذا هي أضخم وأهم مما ظننت.

كانت تجلس على طرف وفد الحكومة، كأنها ليست منه، وتواجه الجنوبيين خصوم الحكومة، فكأنها ليست جنوبية. كأنها انتزعت من الفريقيْن استقلالها الإنساني، فأصبحت (أُمّة) قائمة بذاتها.

كان حديثها خالياً من أية نبرة خطابية، ومن أية محاولة للتأثير، ومن

أي إحساس بالذنب، ومن أدنى جهد للإعراب عن الولاء للنظام القائم.

بدت لي فجأة امرأة ذات أبعاد (مثلوجيّة)، أكبر من الصراع المُستقر، وأكبر من كل الرجال الذين يلهبون نيران ذلك الصراع. مثل فاطمة أحمد إبراهيم. مثل كل الزوجات الأيامى والأمهات الثواكل، في الجنوب والشمال، وفي البوسنة وفي أفغانستان وفي الصومال وفي رواندا وفي كل مكان.

وفي لحظة درامية عالية، نظرتْ إلى الجنوبيين قبالتها وقالت لهم ببساطة:

«إنكم حكمتم من قبل، فماذا فعلتم؟ ولو عدتم إلى الحكم فلن تفعلوا شيئاً».

وكان سؤالها ـ كما خُيِّل لي ـ يشمل السياسيين السودانيين منذ الاستقلال إلى اليوم، شماليين وجنوبيين. ويشمل الحكم القائم الذي هي من وُلاة أقاليمه.

قالت إنها تحاول أن تصلح بعض ما أفسدته الحرب. تدبّر المأوى للمشردين والعلاج للمرضى والتعليم للأطفال والعمل للعاطلين.

تحاول أن تعيد الحياة إلى طبيعتها بقدر الإمكان، مستعينة ببرنامج الأمم المتحدة للتنمية ووكالات الإغاثة وكل من يمدّ لها يد العون.

بمن تذكّرني هذه السيدة من شخوص المسرح؟ بـ (الأم الشجاعة)

لـ (برخْت)؟ بـ (القديسة جون) لـ (بيرنارد شو)؟

ربما هي أقرب إلى (كليون) في مسرحية (آنتقونا) للكاتب الفرنسي (جان آنوي). هو أيضاً اكتَسب (المبرر الأخلاقي) أنه حاول أن يصلح الخراب الذي أحدثه (أوديب الملك).. بقدر الإمكان.

قلتُ إن شيئاً ما قد حدث في ذلك اللقاء. لعلّ ذلك هو.

٢٧

ربما يذكر القارئ أنني أيام حرب الخليج، حين كان العالم العربي يحترق بالفعل، كنت أكتب عن (الأميّة) وعن قبائل (أبوروجينز) في أستراليا!

ماذا كان بوسعي أن أقول عن تلك الحماقة الكبرى؟ وعلى أي حال، يوجد كُتّاب هم أقدر مني على استقراء مثل تلك الأحداث في وقتها، واستخلاص العبر بأوانها. ولعل القارئ الحصيف وجد علاقة ما بين (الأمية) في العالم العربي وبين حرب الخليج! بين قبائل الـ (أبوروجينز) في أستراليا وبين حرب الخليج!

أنا وأمثالي من الكتّاب، نجتهد أن ننظر إلى الثوابت تحت السطح. نحاول أن نضع الأمر العابر ـ مهما كان جللاً ـ في سياق أحداث الماضي وما يُحتمل أن يلده المستقبل.

نريد أن نوقظ ذاكرة قومنا، ونستنهض هممهم، ونحرّك أريحياتهم. وإذا كانوا لا يتّعظون بتاريخهم، فلعلهم يتّعظون بتاريخ غيرهم من الأمم.

أليس عجيباً أن السويسريين، على ضآلة عددهم وضيق رُقعة أرضهم، وشُح مواردهم، وقلّة حيلتهم، استطاعوا أن ينجزوا في القرن الثالث عشر أمراً لم يستطع العرب أن ينجزوه إلى اليوم؟

لم يقيموا وحدة حينئذٍ ـ هذا الحلم العربي الفادح الذي اشتعلت من أجله الثورات والانقلابات، واندلعت حروب انتهت كلها بالهزائم.

السويسريون في القرن الثالث عشر لم يصنعوا وحدة لأنهم لم يطلبوها أصلاً. وإذا كانوا قد حلموا بها، فقد جعلوها سراً في ضمائرهم، كما قال السياسي الفرنسي (قامْبتّا) عن هزيمة عام ١٨٧٠ «فكروا فيها دائماً ولكن لا تتحدثوا عنها أبداً».

في القرن الثالث عشر، اتخذ السويسريون الخطوات العملية لقيام الوحدة في المستقبل. خلقوا ولاء عاماً للمواطنين في رقعة الأرض التي حرروها من استبداد أمبراطورية الـ (هابسبيرق)، وقد كانت (سوبر بور) في ذلك الزمان.

أنشأوا حلفاً للدفاع المشترك، لم يكن حبراً على ورق، ولكنهم التزموا وعملوا به. أنشأوا نظاماً للتحكيم في النزاعات التي توقعوا أن تجد بينهم، وتعاهدوا أن تفرض قرارات المحكمين بالقوة إذا استدعى الأمر. وكذلك فعلوا.

ولعل العرب لو كانوا صنعوا في أخريات القرن العشرين، كما صنع السويسريون في أخريات القرن الثالث عشر، لما كانت حرب الخليج تشبّ أصلاً.

السويسريون لم ينسوا شيئاً من تاريخهم، في مسيرة نضالهم الطويلة. اسم دولتهم، ولون علمهم، وتكوين جيشهم، ونظام إدارتهم، كل ذلك حملوه معهم منذ القرن الثالث عشر، وطبّقوه على حياتهم إلى اليوم.

نحن نفعل عكس ذلك تماماً. كل عشرة أو عشرين عاماً، يجيئنا (مخلِّص) مُلهم، يمحو ما حدث قبله، ويبدأ من جديد.

خُذْ على سبيل المثال إخواننا (عباقرة الإنقاذ) في دولة السودان. هؤلاء كأنهم يكتبون على صفحات بيضاء لم يكتب عليها أحد قبلهم، علماً بأن تاريخ السودان يمتد إلى الوراء أكثر من أربعين قرناً.

وجدوا شعباً حسن الإسلام، فآلوا على أنفسهم أن ينزّلوا عليه الإسلام من جديد. وجدوا أمة كريمة أبيّة متراحمة فأهانوا كرامتها وجرحوا كبرياءها ومزّقوا شملها. وجدوا شعباً صابراً راضياً بقسمته، يعيش مستوراً ولو على الكفاف، ولكنه يعمل ويكدح وتتحسن أحواله عاماً بعد عام، فأذاقوه وبال الجوع والهوان، كي يقولوا إن الشعب كان جائعاً قبلهم، وأنهم هم الذين جاءوه بالمنّ والسلوى.

وجدوا دولة ـ على علاّتها ـ ذات هيبة، تنصر الأخ وترعى حقوق الجار، ويحسب حسابها بين الأمم، فحولوها إلى دولة تافهة لا يقام لها وزن، لا تنصر مظلوماً ولا تردع ظالماً. أوراق عملتها تحمل

بالزنابيل والزّكائب لشراء رطل البصل والطماطم. ثم نادوا، هذه أمة صارت الآن مؤهلة لزعامة العالم!

ماذا باللّه عليك يستطيع الكاتب أن يكتب في حمأة هذا الجنون؟

من أجل ذلك أفيء إلى ظل الأدب وأنماط حياة الشعوب وتاريخ المسلمين والعرب وسيَر الأمم.

وكذلك أكتب عن تاريخ سويسرا وأقول، إن كان قومُنا لا يتّعظون بإرثهم وتأريخهم، فلعلّهم يأخذون الحكمة من أفواه السويسريين.

الطيّب صَالح

٨

ذكريات المواسم

RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٨

ذكريات المواسم

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

SEASON'S MEMORIES

By

El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب

محمود صالح عثمان صالح

First Published in June 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21198-5

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

الإهداء

إلى أخي وعمّي علوب صالح، أطال الله عمره.
وإلى روح أخي تاج السر محمد نور وروح أخي وعمّي سيّد صالح الدين قاسموني أفراح الشباب الباكر وحراراته.

١

حين تدلهمّ الخطوب، أتعزّى بعد كتاب الله الكريم، وسيرة الرسول الأمين، أعظم من أظلته السماء، وأقلته الغبراء، أتعزى بشعر العرب. ولو شئت لسقت شعراً كثيراً يصلح لهذه الأيام، ولكن حسبي ذلك البيت من شعر «الأستاذ» الذي لا أملّ من ترديده:

من رآها بعينها شاقه القطّان فيها كما تشوق الحُمول

قال العُكْبري، قال أبو الفتح:

«أي من عرف الدنيا حق معرفتها تيقّن أن أهلها راحلون لا محالة، فلم يجد بين القاطن والراحل فرقاً، فهذا يشوقه وهذا يشوقه، لأن الرحيل قد شملهما. والمعنى: من رأى الدنيا بعينها وتوسّمها بحقيقتها، شاقه القاطن فيها لقلة مقامه، كما يشوقه الظاعن عنها

لسرعة زوالها...».

وأضيف، غفر الله لي، أن أبا الطيب، أراد أيضاً أن يضع حياة الإنسان القصيرة في سياق الأبد، لعل الإنسان يدرك لو يستطيع، كم هي عابرة حياته، وكم هي تافهة مساعيه وطموحاته. والإنسان، لأنه ظلوم جهول، قد يزيّن له غروره أن عمره القصير هو الأبد، وأنه مخلّد في الأرض، وأن لا أحد قبله ولا أحد بعده. ينسى أن أناساً إثر أناس جاءوا قبلنا وأحسنوا وأساءوا، ثم رحلوا. وسوف يجيء بعدنا أناس قد يرون ما نحسبه نحن صواباً، أنه عين الخطل وغاية الحمق.

كذلك أجد العزاء في كتب التاريخ، وقد أعارني منذ أيام صديقي الدكتور محمد إبراهيم كاظم، أحد حكماء العرب في هذا العصر، كتاباً مملوءاً بالحكمة للكاتب الإنجليزي «بروفسر سي نورثكوت باركنسن» عنوانه «تطور الفكر السياسي»، كنت قد قرأت لباركنسن كتابه الشهير «قانون باركنسن» الذي يسخر فيه من البيروقراطية والبيروقراطيين لكنني ما كنت أعلم أنه مؤرخ أيضاً.

هذا الكتاب ليس مرجعاً تاريخياً، ولكنه عرض لحقب متباعدة من تاريخ الإنسانية بطريقة فيها روح الطرافة والعبث، تذكرك بأسلوب المؤرخ الحبر «إي .جي.بي. تيلور». وقد لفتت نظري فقرات يتحدث فيها الكاتب عن علاقات «أثينا» بجيرانها في القرن الخامس قبل الميلاد، أسوقها لكم فيما يلي:

«تجدر الإشارة إلى مثلين من أمثلة السلوك الإمبريالي لمدينة «أثينا» يرجع تاريخهما إلى الفترة التي أعقبت موت «بريكليس» مباشرة.

ففي عام ٤٢٨ق.م. وصلت الأخبار إلى «أثينا» بأن مدينة «متَلين» الخاضعة لنفوذها تُعد العدة للانقلاب عليها والاستقلال بذاتها، فأرسل الأثينيون جيشاً حاصر المدينة بالبر والبحر حتى اضطرت إلى الاستسلام. أعقب ذلك جدل في «أثينا» ماذا يفعلون بالمدينة المهزومة. ونجح «كليون» بائع الجلود في إذكاء حماسة العامة، فصدر قرار بذبح كل رجال «متلين» الذين بلغوا سن التجنيد، وأرسلت الأوامر بالفعل لتطبيق القرار. ولكن الجدل ثار من جديد في اليوم التالي، فقد طالب «ديودوتس» بالرحمة لأهل «متلين» وعارضه «كليون» الذي طالب بما أسماه «العدل» وقال في مرافعته أن مقتضيات النظام الإمبريالي لـ «أثينا» تحتم على الدوام بث الرعب في قلوب الرعايا الرافضين لسلطان «أثينا» وإلّا فعلى الأثينيين أن يتوقعوا ضياع نفوذهم بالانسياق وراء عواطف الرحمة نحو أناس لن يرحموا الأثينيين إذا انتصروا عليهم.

تغلب رأي المعتدلين في هذه الحالة، ولكن حتى هذا لم يمنع الأثينيين من قتل ألف رجل بدلاً من الستة آلاف الذين قرروا قتلهم بادىء الأمر.

بعد أن فتكت «أثينا» بمدينة «متلين» وجعلتها مثلاً، رأى الأثينيون بإغراء من «كليون» أنهم يستطيعون ضربة لازب، أن يرفعوا عن كاهلهم ضريبة الحرب التي أرهقتهم، بمضاعفة «الجزية» التي فرضوها على المدن الخاضعة لسلطانهم، بمقتضى المعاهدات المبرمة بينهم وبين تلك المدن.

أعلنت الزيادة عام ٤٢٥ق.م. وأرسلت طلبات الدفع إلى كل المدن، ولم يستثنوا مدينة «ميلوس» المستقلة التي لم تدخل في ظل نفوذ

«أثينا» ولم تربطها بها أية معاهدة. وقد رفضت «ميلوس» أن تدفع، فانتظر الأثينيون حتى عام ٤١٦ق.م. حيث أحسوا بأنهم يملكون القوة العسكرية الكفيلة لإجبارها على الانصياع. حينئذٍ جردوا حملة إلى «ميلوس» وأرسلوا معها طلب الدفع بأثر رجعي. ويقول المؤرخ اليوناني «ثيوسايْديدس» إن سفراء «أثينا» كانوا صريحين كل الصراحة مع أهل «ميلوس» فقالوا لهم:

«لن نضيع وقتكم في الاستماع إلى حجج مزيفة نبرر بها مطالبنا. لن نقول لكم أننا نستحق الزعامة والنفوذ لأننا حاربنا الفرس نيابة عنكم وطردناهم عن أرض «هيلاس». ولن نتظاهر بأننا ننتقم منكم بسبب أي ذنب ارتكبتموه ضدنا. أنتم تعلمون كما نعلم نحن أن طبيعة الأشياء تقضي بأن تكون «الحقوق» أمراً لا ينطبق إلّا بين أطراف متعادلة في ميزان القوة. القوي حرّ في أن يفعل ما تمكنه قوته من فعله، والضعيف يذعن ويعاني كما تحتم عليه طبيعة ضعفه».

لم يقتنع أهل «ميلوس» بهذا المنطق، وقرروا ألّا يرضخوا لمطالبهم، وقالوا للأثينيين أن الآلهة التي تؤيد الحق سوف تؤيدهم وتنصرهم، فأجابهم الأثينيون بصراحة تامة أيضاً:

«حين تتحدثون عن تأييد الآلهة، فلعلها تنظر إلينا نحن أيضاً بعين الرضى، إذ إن أهدافنا وسلوكنا لا تتعارض بوجه من الوجوه مع ما نعتقد أن الآلهة ترضى عنه ومع ما يفعله الناس بعضهم إزاء بعض. فحسب ما وصل إليه علمنا عن الآلهة التي نؤمن بها، والرجال الذين تعاملنا معهم وخبرناهم، فإن الدول بمقتضى القوانين التي تحكم سلوكها، يحق لها أن تبسط نفوذها إلى أقصى ما تسمح به

قدرتها. وما نحن أول من ابتكر هذا القانون، ولا نحن أول من عمل بمقتضاه. لقد وجدناه في الدنيا حين جئنا، وسوف نتركه لمن يجيء بعدنا. كل ما فعلناه أننا استفدنا منه، ولا يخامرنا أدنى شك أنكم أو غيركم لو كنتم تملكون مثل ما نملك من قوة لفعلتم مثل ما نفعل. وأما فيما يتعلق بالآلهة فنحن مطمئنون تماماً من ناحيتها».

قاومت مدينة «ميلوس» بضعة أشهر، ثم استسلمت، فذبح الأثينيون كل الرجال الذين بلغوا سن الرشد، وأخذوا النساء والأطفال سبايا، وباعوهم في أسواق الرقيق. ولكن السماء لم تغض الطرف عن الظلم الذي حاق بمدينة «ميلوس» ولم تغفر لأثينا غرورها وجبروتها، فبعد ستة أشهر من هذا التاريخ أرسلت «أثينا» حملة ضخمة لغزو جزيرة صقلية، فمنيت بهزيمة نكراء. ولم يحل عام ٤١٢ق.م حتى كانت كل الشعوب الخاضعة لأثينا قد ثارت عليها ورفعت السلاح في وجهها.

٢

لي صديق أردني فلسطيني، أراه من الصالحين، وأرجو أن يكون كذلك إن شاء الله، تطيب لي صحبته، وأجد فيها متعة وفائدة. داره صغيرة بسيطة في ضاحية من ضواحي عمّان. عامرة بالكتب العربية والإنجليزية، والرفوف ملأى بكتب الحديث والفقه وتفسير القرآن الكريم. أسعدني كل ذلك. الضاحية لأنها على ربوة مخضرّة تطل على أودية من هنا وهنا. الهواء المنعش العليل الذي تمتع به خلفاء بني مروان. بساطة الدار. ليس فيها شيء زائد عن الحاجة. ذكّرتني بدار صديقنا صاحب «تفسير التفاسير» في الرياض أبي عبد الرحمن. الطعام صنف واحد، كما استنَّ لنا رسولنا الكريم.

شيء من أرزّ وشيء من دجاج بالمرق وشيء من بقل وخضرة وطماطم. أعدته زوجته التي تحمل شهادة الدكتوراه، وكانت صائمة في ذلك اليوم، وجاءتنا به ابنته الوحيدة. له ستة أبناء وبنت واحدة،

بارك الله له فيهم. كلهم ناجحون، وهو كنيته «أبو ناجح».

يكتب الفقه والحديث والتفاسير، لأنه يترجم القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية منذ عشر سنوات، وقد أصدر مؤخراً ترجمته لسورة البقرة. وأشهد أنها خير ما رأيت من ترجمات. ذلك لأن الترجمة عنده ليست محض عمل، ولكنها تقرب إلى الله وزلفى. وشتان بين أن يترجم القرآن رجل مسلم فتح الله بصيرته على معاني كتابه المنزل، وأن يترجمه مستشرق، سيان عنده كلام الله جلّ جلاله وكلام الجاحظ وابن خلدون.

هذا، إلى جانب حساسية مرهفة لوقع كلام العرب، فهو شاعر مجيد يتذوق جرس الكلمات ويفهم أبعادها ومراميها ويميّز بين ظواهر المعاني ومستبْطناتها. يعلم أن كلام الله بعيد الغور، يجلّ عن الإحاطة والحصر، فيستخير الله، ويُعمل الفكر، ويرجو أن يفتح الله عليه. أين من هذا جهد مستشرق يكون على أحسن الفروض، أعمى من النور الذي يسطع بين يديه! ولو كان لي من الأمر شيء، لمنعت تداول تراجم المستشرقين بين المسلمين. إنني لا أعلم أن مسلماً قد ترجم الإنجيل إلى اللغة العربية، فما لهم يستحلون ما نحرّم نحن على أنفسنا؟

ذلكم إبراهيم أبو ناب، من الناس الذين يمشون على الأرض هوناً، القبيل الذين يحبهم قلبي، وتطيب لي صحبتهم، وأرجو أن أحشر في زمرتهم.

حدّثني أن ترجمته تعتمد منهاج الاستدلال بالسّياق. لذلك فهو حين يترجم الآية الكريمة من سورة البقرة:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثَلُ الّذين خلوْا من قبلكم مسّتهم البأساءُ والضرّاء وزُلزلوُا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب﴾ ـ فهو لا يترجم «تدخلوا الجنة» enter paradise كما فعل غيره، ولكنه يترجمها attain to heaven وأنا معه في ذلك، فكلمة attain فيها معنى الحصول على الشيء بعد جهد، وليس مثلها enter التي هي مطلق الدخول.

ولعمري إنه أسلوب في الترجمة سوف يحدث جدلاً كبيراً بين مؤيدين ومعارضين، ولكن المهم في الأمر أنها ترجمة سلسة واضحة، سوف تزيد المؤمنين من غير العرب إيماناً، ولعل الله يفتح بها على قلوب أُغلقت أقفالها حتى الآن.

اليوم أعطاني تفسيراً طريفاً لمعنى «يأجوج ومأجوج» فأنا كلّما لقيته أذهب منه بفائدة. ولعلّه استفاد مني بشيء، فقد تحدثنا في معنى «ضحكت» في الآية، حين ضحكت زوجة سيدنا إبراهيم وقالت عجوز عقيم. وذكرت له بيت تأبط شراً في قصيدته الشهيرة التي يتهدد فيها قبيلة هذيل:

نضحك الضبع لقتلي هُذيل
وترى الذئب نحوها يستهلّ

وهو معنى عجيب نبّهني إليه أخي عبد الله ولد أربيه، من ديار شنقيط، رحمه الله رحمة واسعة، كان إنساناً عالماً وربما، هو أيضاً من عباد الله الذين يمشون على الأرض هوناً، وقد سعدت بصحبته زمناً في الدوحة الميمونة، ثم نكبتني فيه طوارق الدهر، التي لا تترك حبيباً لحبيب.

حدثني إبراهيم أن رجلاً صالحاً من أصفيائه في عمّان، يتردد عليه وينهل من بركاته، قال له ذات يوم، في معرض الحديث عن القرآن الكريم، أن القرآن يثير عنده الشعور بالحزن.

خطر لي بكاء الرسول الكريم حين سمع ترتيل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، وقلت لإبراهيم:

«لعل صديقك قصد الحزن بالمعنى اليوناني القديم pathos فذلك كما تعلم إحساس أشمل من الحزن. إنه إحساس مأساوي بحالة الإنسان في نظام الكون، فيه معنى الشجى والأسى وربما أيضاً الفرح. وإذا كان إخواننا النصارى يجدون كل هذه المعاني حين ينظرون إلى تمثال الـpieta الشهير لمايكل أنجلو في الفاتيكان، فنحن عندنا أكثر منه بكثير في سورة مريم».

أقول لمن أحاور من إخواننا النصارى:

«اقرأوا قصة ميلاد السيد المسيح عليه السلام في أناجيلكم، ثم قارنوا ذلك بسورة مريم». انظروا أي جلال وأي روعة وأي إعجاز في سورة مريم. سورة تبدأ بالرحمة، وتنتشر الرحمة في ثناياها وصفة الله سبحانه فيها «الرحمن» يصفها الإنسان من قبيل تشبيه الأسمى بالأدنى، كأنها سمفونية موسيقية كبرى. وحين تصل إلى الآية الكريمة:

﴿قال كذلك قال ربُّكِ هو عليَّ هَيِّنٌ ولنجعلَه آيةً للناس ورحمةً منّا وكان أمراً مَقْضيّا﴾

حينئذٍ تدرك كيف تجتمع معاني الأسى والشجى والحزن وفرح البشرى وأكثر من ذلك في معنى واحد.

إنني أجد كل هذه المعاني مجسّمة، حين أستمع إلى سورة مريم بصوت الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد الرحمن الدّروي رحمهما الله. الأول هو أمير المقرئين بلا شك، ولكنني أجد في صوت الشيخ عبد الرحمن الدّروي حلاوة لا أجدها في أصوات مقرئين أكثر منه شهرة. وأنت لا تصادفه كثيراً، ومن الإذاعات القليلة التي تذيع قراءاته، إذاعة القرآن الكريم من مكة المكرّمة، وقد كنت أداوم على سماعها أيام إقامتي بالدّوحة.

ما لي ولأبي تمّام؟ إنني أعرف ذلك البيت من شعره منذ أمد ولكنه يبدو لي هذه الأيام كأنني أراه لأول مرة. كذلك الشعر. يأخذ من نوائب الزمان وطوارق الحدثان ألواناً شتى وطرائف عجباً:

أعنّي على تفريق دمْعي فإنني

أرى الشّملَ منهم ليس بالْتقارب

٣

يروي الجاحظ في كتابه «التاج، في أخلاق الملوك»، أن الحجاج أوفد جريراً إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، فلما دخل عليه قال محمد ابن الحجاج:

«يا أمير المؤمنين. هذا جرير بن الخطَفى مادحُك وشاعرك».

فأعرض عبد الملك وقال «بلْ مادحُ الحجّاج وشاعره».

قال جرير، فقلت «إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاء مديحه».

قال عبد الملك «هاتِ في الحجاج».

فقلت: «بل في مدحك يا أمير المؤمنين».
قال: «هاتِ في الحجّاج».
قال جرير فأنشدتُه قولي:

صَبَرْتَ النّفسَ يا ابنَ أبي عُقيْلِ
مُحَافَظَةً فكيفَ ترى الثّوابا
إذا سعَر الخليفةُ نارَ حربٍ
رأى الحجّاجَ أثقبَها شهابا

فقال: «صدقْتَ، هو كذلك». ثم قال للأخطل وهو خلفي وأنا لا أراه «قُمْ فهاتِ مديحنا».

فقام فأنشده فأجاد وأبلغ، فقال عبد الملك:
«أنت شاعرنا وأنت مادحنا. قُمْ فارْكبْه».

قال جرير «فألقى النصرانيُّ ثوبَه وقال (جَبّ يا ابن المراغة) فأغضب ذلك من حضر من المُضرية وقالوا:

«يا أمير المؤمنين، لا يُركَبُ الحنيفُ المسلم ولا يُظْهرُ عليه» فاستحيا عبد الملك وقال للأخْطل «دعْهُ».

قال جرير: «فانصرفتُ أسوأ خلق الله حالاً لما رأيتُ من إعراض أمير المؤمنين عني وإقباله على عدوّي، حتى إذا كان يوم الرَّواحِ للوَداع، دخلت لأودّعه، فكنتُ آخرَ من دخل عليه. فقال له محمد ابن الحجاج:

«يا أمير المؤمنين. هذا جرير، وله مديحٌ في أمير المؤمنين».

قال: «لا. هذا شاعر الحجاج».
قلت: «وشاعرك يا أمير المؤمنين».
قال: «لا. أنت شاعر الحجّاج».
قال جرير: «فلما رأيتُ سوء رأيه أنشأتُ أقول:
أتصحو أم فوادُك غيرُ صاحي
فقال عبد الملك «بلْ فُؤادُك».
حتى إذا بلغتُ إلى قولي:

ألستم خيرَ من ركب المطايا
وأندى العالمينَ بُطونَ راح،

استوى جالساً، وكان متكئاً، وقال:
«بلى، نحن كذلك. أَعِدْ».

فأعدْت البيت، فأشرَق وجهه، وذهب ما كان في قلبه، ثم التفت إلى محمد بن الحجّاج وقال:

«تُرى أُمُّ حَزْرة (زوجة جرير) ترويها مائة من الإبل»؟

قال جرير، فقلت: «نعم يا أمير المؤمنين. إن كانت من فرائض كَلْب فلم تَرْوِها فلا أرْواها الله».

قال «فأمر لي بمائة فريضة. وكانت بين يديه أربعة صحاف من فضة أُهْديتْ إليه، فمددْتُ يدي وأخذت واحدة منها وقلت: «المحلَبُ يا

أمير المؤمنين». يقصد لحلب اللبن.

قال عبد الملك: «خُذْها لا بارك اللّه لك فيها».

ويخلص الجاحظ إلى القول:

«وهذه أخلاقٌ لمن فهمها. وليس بعجب أن تتلوَّن أخلاقهم، إذ كنّا نرى أخلاق القرين المُساوي، والشريك والإلف تتلون ولا تستوي، ولعلّه يجد عن إلفه وقرينه وشكله مَنْدوحة، فكيف بمن ملك الشرق والغرب، والأسود والأبيض، والحرّ والعبد، والشريف والوضيع، والعزيز والذّليل».

٤

يقول الجاحظ في كتاب «التّاج» في باب «إكرام الأوفياء»: «ومن أخلاق الملك إكرامُ أهل الوفاء وبرّهم والاسْتنامة إليهم والثقة بهم والتقْدُمة لهم على الخاص والعام والحاضر والبادي. وذلك أنه لا توجد في الإنسان فضيلة أكبر ولا أعظم قدراً ولا أنبل فعلاً من الوفاء. وليس الوفاء شكر اللّسان فقط، لأن شكر اللّسان ليس على أحد منه مؤونة.

واسم الوفاء مشتمل على خلال. فمنها أن يذكر الرجل من أنعم عليه بحضرة الملك فمَنْ دون.. فإن كان الملك فيه سيِّىء الرأي، فليس من الوفاء أن يُعينه على سوء رأيه. فإن خاف سوْط الملك وسيفه، فأحسن صفاته أن يُمسك عن ذكره بخير أو شر».

ويذكر الجاحظ في هذا السياق، أن سعيداً بن عمرو بن جعدة بن

هُبَيْرة المخزومي، حين حُمل رأسُ مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أُمية إلى أبي العباس السفّاح بالكوفة، قام سعيد فأكبّ عليه، ثم قال:

«هذا رأس أبي عبد الملك خليفتنا بالأمس. رحمه الله». فغضب السفّاح، وطعنه بإصبعه في بطنه.

وانصرف سعيد بن عمرو إلى بيته والناس يتوقعون أن أبا العباس السفاح لا بد قاتلُه. ولامه بنوه وأهلُه وقالوا «عرَّضتنا ونفسك للهلاك». فقال لهم «اسكتوا قبّحكم الله. ألَسْتم الذين أشاروا عليَّ بالأمس بحرّان بالتخلُّف عن مروان، ففعلت في ذلك غير فعل أهل الوفاء والشكر؟ وما يغسل عني عار تلك الفعلة إلّا هذه. فإنما أنا شيخ هامة، إن نجوت يومي هذا من القتل متُّ غداً».

قال، فجعل بنوه يتوقّعون رسُل أبي العباس، أن تطْرُقَه في جوف الليل. فأصبحوا ولم يأته أحد. وغدا الشيخ فإذا هو بسليم بن مجالد. فلما بَصُر به قال «يا ابن جعدة. ألا أبشِّرك بجميل رأي أمير المؤمنين؟ إنه ذكر في هذه الليلة ما كان منك فقال «والله ما أخرج ذلك الكلام من الشيخ إلّا الوفاء، ولهو أقرب منّا قرابة وأمسّ بنا رحماً منه بمروان، إن أحسنّا إليه»».

ويُحكى عن شيرويه أحد ملوك الفرس أن رجلاً اعترض طريقه وقال «الحمد لله الذي قتل أبرويْز على يديك وأراح الناس من قهره وعُتوّه وبخله ونكده».

فقال له شيرويه:

«كم كانت أرزاقك في حياة أبرويز؟»
قال: «كنتُ في كفاية من العيش».
ـ «فكم زيد في أرزاقكك اليوم؟».
ـ «ما زيد في رزقي شيء».
ـ «فهل وتَرك أبرويز فانتصرتَ منه بما قلت؟».
ـ «لا».

ـ «فما دعاك إلى الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادة رزقك، ولا وترك في نفسك؟ وما لِلْعامة والوقوع في الملوك؟».

فأمر أن يُنزع لسانه وقال «إن الخرَس خيرٌ من الكلام فيما لا يجب».

ومن جميل ما روى الجاحظ في الوفاء أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور سأل شيخاً من أهل الشام، وكان مقرَّباً إلى هشام بن عبد الملك في حياته، كيف كان هشام يفعل في حربه للخوارج، فكان الشيخ يقول في حديثه «فعل هشام رحمه الله كذا، وصنع هشام رحمه الله كذا».

فغضب المنصور وقال له «قمْ، عليك لعنة الله. تطأ بساطي وتترحّم على عدوّي؟».

فقام الرجل، وقال وهو يهم بالذهاب «إن نعمة عدوّك قلادة في عنقي، لا ينزعها إلّا غاسلي». فقال المنصور «أشهد أنك نَهيضُ حُرّة وغِراسُ شريف. اجلس وعُدْ إلى حديثك».

ولمّا فرغ الرجل، أمر المنصور له بمال، فقال:

«واللّه يا أمير المؤمنين، ما بي حاجة إلى المال. ولقد مات عني من كنتُ في ذكره آنفاً، فما أحوجني إلى الوقوف على باب أحد بعده. ولولا جلالةُ عزّ أمير المؤمنين، وإيثارُ طاعته، ما لبسْتُ لأحدٍ بعدهُ نعمة».

فقال المنصور «للهِ أنت! فلو لم يكن لقومك غيرُك لكنتَ قد أبْقيتَ لهم مجداً مُخلّداً».

ويضيف الجاحظ «ويُقال إن الرجل كان من شيْبان».

٥

يذكر الجاحظ في كتابه البديع «التّاج في أخلاق الملوك»، أن السخاء والحياء لازمان للملك السعيد. ويقول:

«ومن أخلاق الملك الكرم والحياء، فهما قرينا كلِّ ملكٍ كان على وجه الأرض. ولو قال قائل إنهما رُكّبا في الملوك كتركيب الأعضاء والجوارح، كان له أن يقول، إذ كنّا لم نشاهد، ولم يبلغنا عمّن مضى من الملوك، ملوك العجم ومن كان قبلهم، وملوك الطوائف وغيرهم، القِحَةُ والبخل.

فأما السّخاء، فلو لم يكن أحدَ طبائع الملوك، كان يجب أن يكون باكتساب إنْ كان الملك من أهل التمييز، وذلك أن الملك يُفيد أكثر مما يُنفق. فإذا كانت هذه صفة كل ملك، فما عليه من اتخاذ الصنائع، وعمّ المنن، والإحسان إلى مَن نأى عنه أو دنا منه من

أوْليائه، والرّحمة للفقير والمسكين، والعائدة إلى أهل الحاجة.

وأما الحياء فهو من أجناس الرحمة، وحقيق للملك إذا كان الراعي، أن يرحم رعيته، وإذ كان الإمام أن يرقّ على المؤتمٍّ به، وإذ كان المولى أن يرحم عبده».

وأقول، غفر الله لي، إن أكرم من أظلّته السماء، وأرحم من أقلّته الغبراء، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم. كان أرحم بالناس من الأم على وليدها، ومن الناقة على فصيلها، وكان في سخائه كالرّيح المرسلة. وقد مدحه بحق، أحمد شوقي، أمير شعراء هذا الزمان فقال:

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشّق الكبراءُ
لو لم تُقِمْ لقامتْ وحدَها
ديناً تضيءُ بنوره الآلاءُ
فإذا رحمتَ فأنت أُمّ أو أبُ
هذان في الدنيا هما الرّحماءُ

هذا، وقد خلع الرسول الكريم بُرْدتَه على كعب بن زهير حين جاءه لائذاً ومدحه بقصيدته «بانت سعاد». وقد أخبروا أن معاوية بن أبي سفيان اشتراها منه بثلاثين ألفاً، وفي رواية بثلاثمائة ألف، فكانت شعار دولتهم، إلى أن ورثها الخلفاء من بني العباس. وفي ذلك يقول أحمد شوقي أيضاً ـ رحمه الله وأجزل ثوابه ـ فما أجمل ما قال في مدح الرسول الأمين:

لبستْ بُردَ النبيِّ النيِّراتْ
من بني العبَّاس نوراً فوق نورْ

ثم آلت إلى ملوك آل عثمان، ثم لا ندري.

ذلك وقد انبرى الجاحظ للدفاع عن أبي جعفر المنصور، وقد عُرف عنه البخل. لا غرْو، فقد ألّف كتابه أصلاً للفتح ابن خاقان وزير المعتصم بن هارون الرشيد، وقال في ذلك:

«... نخصُّ بوضع كتابنا هذا، الأمير الفتح بن خاقان مولى أمير المؤمنين، إذ كان بالحكمة مشغوفاً، وعلى طلبها مثابراً، فيها وفي أهلها راغباً، ليبقى له ذكره، ويحيا به اسمه، ما بقي الضياء والظلام».

صدق ظن الجاحظ فقد انطوى ظلّ الفتح من خاقان، وعفّى الزمن على آثاره، عدا أن أبا عثمان العبقري وضع له كتاباً اسمه «التاج في أخلاق الملوك». وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

يقول أبو عثمان مدافعاً عن أبي جعفر المنصور:

«وقد ذكر بعد من لا يعلم في كتاب ألّفه في البخلاء من الملوك، أن هشام بن عبد الملك بن مروان، ومروان بن محمد، وأبا جعفر المنصور، منهم... وكيف يكون المنصور ممّن دخل في جملة هذا القول، ولا يُعلم أن أحداً من خلفاء الإسلام ولا ملوك الأمم، وصل بألف ألفٍ لرجل واحد غيره؟».

ثم يمضي الجاحظ فيورد قصة مؤثرة، يدلّل بها على كرم المنصور، فيقول:

«وحدَّثني بعض أصحابنا عن أبيه عن زيد مولى عيسى بن نهيك، قال:

دعاني المنصور بعد موت مولاي، فقال:

«كم خلّف أبو يزيد من المال؟».

قلت «ألف دينار أو نحوها».

قال «فأين هي؟».

قلت «أنفقتْها الحُرّة في مأْتمه». يعني زوجه.

فاستعظم ذلك، وقال «أنفقتْ في مأتمه ألف دينار؟ ما أعجب هذا!».

ثم قال «كم خلّف من البنات؟».

قلت «ستّاً».

فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه وقال «أغْدُ إلى المهدي».

فغدوت فقيل لي «معك بغال؟».

فقلت «لم أُومر بإحضار بغل ولا غيره، ولا أدري لمَ دُعيت؟».

فأُعْطيتُ ثمانين ومائة ألف، وأُمرتُ أن أدفع لكل واحدة من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار. ففعلت. ثم دعانى المنصور فقال:

«قبضْتَ ما أمرنا به لبنات أبي يزيد؟».

قلت «نعم يا أمير المؤمنين».

قال «أغدُ عليّ بأكفائهن حتى أزوّجهنّ منهم».

فغدوت عليه بثلاثة من ولد العكي وثلاثة من آل نهيك من بني عمهن. فزوّج كل واحدة منهن على ثلاثين ألف درهم، وأمر أن يجعل صداقهن من ماله. وأمرني أن أشتري بما أمر لهنّ ضياعاً يكون معاشهنّ منها».

ويختم الجاحظ قصته البليغة بقوله:

«وقلّما استعملت العامّة وكثير من الخاصة التميز، إيثاراً للتقليد، إذ كان أقلَّ في الشغل، وأدلّ على الجهل، وأخفَّ في المؤونة. وحسبُك من جهل العامة أنها تفضّل السمين على النحيف، وإن كان السمين مأفوناً والنحيف ذا فضائل. وتفضّل الطويل على القصير، لا للطول ولكن لشيء آخر لا ندري ما هو. وتفضل راكب الحصان على راكب البغل، وراكب البغل على راكب الحمار، اقتصاراً على التقليد إذ كان أسهل في المأتى وأهون في الاختيار».

رحمه الله، فما أجمل ما كان يكتب، وما كان أَحْفاه بأهل المروءة والفضل. ورحم الله أبا جعفر المنصور فإن حديث الجاحظ عنه يرفعه من الكرم المحْض، إلى سماء الشهامة والنُّبل.

يلزم الملك السعيد في رأي الجاحظ، ألّا يشغل نفسه بصغائر الأمور، ويقول:

«ومن أخلاق الملك التغافلُ عما لا يقْدح في المُلك، ولا يجرحُ المال، ولا يضع من العِز، ويزيد في الأُبهة».

وفيما يُحكى عن بَهرام جور، أنه خرج يوماً لطلب الصّيد، فسار به فرسه حتى وقع إلى راعٍ تحت شجرة، وهو حاقن. فقال للراعي «احفظ عليَّ عنان دابّتي ريثما أقضي حاجتي».

فأمسك الرّاعي الفرس، وكان لجامه ملبّساً ذهباً، فوجد الرّاعي غفلةً من بَهرام، فأخرج من خُفّه سكّيناً، فقطع بعض أطراف اللّجام. فرفع بهرام رأسه فنظر إليه، فاستحيا، ورمى بطرفه إلى الأرض، وأطال

حتى يأخذ الراعي حاجته من اللجام. حتى إذا ظن أنه أخذ حاجته قام، وقال للرّاعي «قدّم إليَّ فرسي فإنه قد دخل في عينيّ شيء من هذه الرّيح، فما أقدر على فتحهما».

وغمّض عينيه لئلا يوهمه أنه يتفقّد حلية اللّجام. فقرّب الراعي فرسه فركبه. فلما ولّى، قال له الراعي «أيها العظيم. كيف آخذ إلى موضع كذا وكذا؟».

قال بهرام «وما سؤالك عن الموضع؟».

قال الراعي «هناك منزلي، وما وطئتُ هذه الناحية قطُّ غير يومي هذا، ولا أراني أعود إليه ثانية».

فضحك بهرام، وفطن لما أراد، فقال «أنا رجلٌ مسافر، وأنا أحقّ بألّا أعود إلى ههنا أبداً».

ثم مضى. ولما نزل عن فرسه، قال لصاحب دوابّه ومراكبه «إنني وهبت معاليق اللجام لسائلٍ مرّ بي، فلا تتهمنّ بها أحداً».

ويُحكى عن أنو شروان، أنه قعد ذات يوم في نيروز، ووضعت الموائد ودخل وجوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم. وقام الموكّلون بالموائد على رؤوس الناس، وكسرى بحيث يراهم.

فلما فرغ الناس من الطعام، جاءوا بالشراب في آنية الفضة وجامات الذهب. فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب. فلما انصرف الناس، ورُفعت الموائد، أخذ بعض القوم جامَ ذهب فأخفاه

في ثوبه، وأنو شروان يلحظه، فصرف وجهه عنه. وافتقد صاحب الشراب الجام فصاح «لا يخرجنّ أحد من الدار حتى يُفتَّش».

فقال كسرى: «لا تتعرَّضْ لأحد» وأذِن للنّاس فانصرفوا. فقال صاحب الشراب «أيها الملك. إنّا فقدنا بعض آنية الذهب». فقال الملك «صدقت. فقد أخذها من لا يردّها عليك، وقد رآه من لا ينمّ عليه».

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان، إذ جلس للناس في يوم عيد، ووضعت الموائد وبدر الدراهم والدنانير للجوائز والصِّلات. وجاء رجل فقعد على كيس فيه دنانير. فصاح به الخدم «تنحّ فليس هذا موضعك». ولما سمع معاوية قال «دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس». فأخذ الرجل الكيس ودسّه في ثيابه وقام، فلم يجسر أحد أن يتعرض له. فقال الخادم «أصلح الله أمير المؤمنين. إنه قد نقص من المال كيس دنانير». فقال معاوية «أنا صاحبه وهو محسوبٌ لك».

ويُروى، أن سليمان بن عبد الملك خرج في نُزهة فبُسط له في صحراء فتغدى مع أصحابه. فلما حان انصرافه وانشغل غلمانه بجمع المتاع، جاء أعرابي واختطف عباءة سليمان وطرحها على عاتقه، وسليمان ينظر إليه. فبصر به بعض الخدم فصاح به «ألْقِ ما عليك». فقال الأعرابي «لا ألقيها والله. إنها كسوة أمير المؤمنين وخلعته».

فضحك سليمان وقال «صدق، أنا كسوتُه». فانطلق بها الأعرابي كأنه إعصار.

وجيء لجعفر بن سليمان بن علي برجل سرق منه دُرّة نادرة، وأراد

أن يبيعها ببغداد. وكانت الدّرة قد وصفت لتجار الجواهر، فأُخذ الرجل وسيق إلى جعفر. فلمّا رآه استحيا وأخذته الشّفقة عليه. فقال له «ألم تكن طلبتَ هذه الدُّرة مني فوهبتها لك؟» فباع الرّجل الدُرّة بمائتيْ ألف درهم.

ويزيد الجاحظ قولَه:

«وأنت لا تجد أبداً أحداً يتغافل عن ماله إذا خرج، وعن مبايعته إذا غُبن، وعن التقصّي إذا بُخس، إلّا وجدتَ له في قلبك فضيلة وجلالة ما تقْدر على دفعها. وكذا أدَّبنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلّم إذ قال «يرحم الله سهلَ الشراء سهل البيع سهل القضاء، سهل التقاضي»».

هذا، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول «مَنْ خدعنا في الله انْخدعْنا له».

وأُثر عن معاوية رحمه الله قوله «إني لأجرُّ ذيْلي على الخدائع».

وقال أبو تمام:

ليس الغبيّ بسيِّدٍ في قومه
لكنَّ سيّدَ قومه المُتغابي

ويعجبني قول الشاعر الذي يُخفي وراءه كلاماً كثيراً:

بني عمِّنا لا تذكروا الشِّعرَ بعدما
دفنْتُم بصحراء الغمير القوافيا

فـإنْ قـلـتـمـوا أنّـا ظَـلَـمْـنـا فـلـم نـكـنْ
ظـلـمْـنـا ولـكـنّـا أَسـأنـا الـتـقـاضـيـا

وبوسعك أن تتخيّل ما حدث، فمثلُ ذلك ليس منك ببعيد. وحسبُك قولُه (بنِي عمِّنا). وأقول، عفا الله عني إن مِنْ سوء التقاضي، ما هو الظُّلم بحذافيره.

٧

على الملك السعيد، كما يقول الجاحظ أن يقسم يومه أقساماً. أوّله لذكر الله تعالى، وصَدْره لرعاياه وتدبير أمورها وتصريف شؤون دولته، ووسطه لأكله ومنامه، وطرفه للهْوه وشُغله. وعليه ألّا يُثابر على إدْمان الشُّغل في كل يوم، وإن طالت هذه الأقسام بمواضعها، فإنه لن يجد للهو لذّة، ولا للنّعيم روْنقاً ويقول:

ومن أدمن شيئاً من ملاذّ الدنيا، فإنه لن يجد له من اللذة وجودَ القَرِم النَّهم المشتاق. وذلك أن ألذّ الطعام وأطيبه ما كان على جوع شديد، وألذّ المُخالطة إذا اشتد الشبق وطالت العُزْبة، وألذّ النوم وأهنأه ما كان يعقب التعب والسهر».

ويصف الجاحظ أن الخلفاء من بني أمية وبني العبّاس كانت لهم أوقات يُسرّون فيها عن أنفسهم بالسّماع إلى الغناء والطرب، ويقول:

«أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستارة. وكان لا يظهر أحدٌ من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمغني حتى ينقلب ويمشي ويحرّك كتفيه.. فأما بعض خلفاء بني أمية فكان لا يتحرج أن يرقص ويتجرّد بحضرة الندماء.

وأما عمر بن عبد العزيز فإنه ما طَنَّ في أذنه حرف غناء منذ أن أفْضت إليه الخلافة إلى أن فارق الدنيا. وكان قبل ذلك وهو أمير للمدينة، يسمع الغناء ولا يظهر منه إلّا الأمر الجميل.

وأما أبو العباس السفّاح، فإنه كان يظهر للنُّدماء في أول أيامه ثم احتجب عنهم بعد سنة، أشار عليه بذلك أُسيد بن عبد الله الخُزاعي. وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة «أحسنت والله. أعد هذا الصوت» فيُعاد له مراراً. ولم يكن أبو جعفر المنصور يظهر لنديم قط، ولا رآه أحد يشرب غير الماء. وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً، وبين الستارة والندماء مثلها، فإذا غنّاه المغني فأطربه، حرّكت الستارة بعض الجواري، فاطّلع إليه الخادم صاحب الستارة، فيقول له المنصور «قلْ له أحسنت بارك الله فيك». وربما استخفّه الطرب وأراد أن يصفّق بيديه، فيقوم من مجلسه، ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك. وكان لا يُثيبُ أحداً من ندمائه وغيرهم درهماً فيكون له رسماً في ديوانه. ولم يُقطع أحداً ممن كان يُضاف إلى مُلهية أو ضحك أو هزل، موضع قدم من الأرض. وكان يحفظ ما أعطى كل واحد منهم عشر سنين، ويحسبه ويذكره له.

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن النّدماء، متشبّهاً بالمنصور،

ثم ظهر لهم. فكلّمه في ذلك أحد وزرائه، فقال له:

إليك عني يا جاهل. إنما اللذة في مشاهدة السرور، وفي الدّنُو ممن سرّني. فأما من وراء وراء، فما خيرها ولذّتها؟ ولو لم يكن في الظهور للنُّدماء والأخوان إلّا أني أعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم، لجعلتُ لهم في ذلك حظاً موفَّراً».

وكان كثير العطايا وافرَها، قلَّ من حضر إلّا أغناه. وكان ليّن العريكة، سهل الشريعة، لذيذ المنادمة، قصير المناومة، ما يملُّ نديماً ولا يتركه إلّا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبوراً على الجلوس، ضاحك السّن، قليل الأذى والبذاء.

ويصف الجاحظ أن الهادي كان شكس الأخلاق، صعب المرام، قليل الإغْضاء، لا يبذل إلّا لمن توقّاه وعرف أخلاقه. ويحكى أن إبراهيم الموصلي غنّاه يوماً صوتاً أخرجه عن طوْره من الطرب، فقال له:

«أنت صاحبي، فاحتكمْ».

فقال إبراهيم:

«يا أمير المؤمنين. تُقطعني حائط عبد الملك بن مروان بالمدينة».

قال، فدارتْ عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان، ثم قال:

«يا ابن اللّخناء! أرَدْتَ أن تسمع العامّة أنك أطربْتني، وأني حكّمتك

فأقطعتُك. أَما والله لولا بادرةُ جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربتُ الذي فيه عيناك».

قال إبراهيم «ثم سكت فرأيتُ ملكَ الموت قائماً بيني وبينه. ثم نادى إبراهيم الحرّاني فقال:

«خُذْ بيد هذا الجاهل، فأدْخله بيت المال، فلْيأخذْ منه ما شاء».

هذا، ويمضي الجاحظ فيرسم صورة لهارون الرشيد، تلفت الانتباه، لأنها خلاف ما شاع عنه، فيقول:

«وكان الرشيد في أخلاق أبي جعفر المنصور، يمتثلُها كلّها إلّا في العطايا والصلات والخلع، فإنه كان يقفو فعل أبي العباس والمهدي. ومَنْ خبّرك أنه رآه قطُّ يشرب غير الماء فكذّبْه. وربما طرب للغناء، فتحرك حركة بين القلة والكثرة».

ويُخبر الجاحظ عن الأمين نقلاً عن إسحق فيقول:

«ما كان أعجب أمره كله! فأما تبذّله، فما كان يبالي أين قعد، ومع مَنْ قعد. وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خرَّقها كلّها، وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا. وكان منْ أعطى الخلق لذهب وفضة، وأنْهبِهم للأموال إذا طرب أولَها».

ويختم الجاحظ حديثه عن الأمين بلفْتة من لفَتاته العجيبة فيقول:

«ولقد حدَّثني عُلّويّة عنه قال: لما أُحيط به، وبلغت حجارة المنجنيق

بِساطه، كنا عنده، فغنّتْهُ جاريةٌ غناءً لم تُحسنه، فصاح:

«يَا كذا. تُغنّيني الخطأ؟ خذوها».

فحُملت وكان آخر العهد بها».

كأن الجاحظ أراد أن يقول «وكان ذلك آخر العهد بالأمين». فقد أُخذ بعد ذلك وصُلب. وكان آخر صوت سمعه نشازاً. ومع ذلك فقد مدحه الحسن بن هانىء، غفر الله له وللأمين، ببيت من أجمل شعر المديح:

وإذا المطِيُّ بنا بلغن محمداً
فظهورُهن على الرّجال حرامُ

٨

يُقرُّ الجاحظ مبدأً في الحرب، أصبح من ركائز سياسة الدول في هذا العصر، وكان فيلسوف الحرب الألماني «كلوزفتْز» أخذه عنه بالحرف. يقول الجاحظ:

«ومن أخلاق الملوك المُكايدة في حروبها، ولذلك كان يقال إنه ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حِيَله، فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال، والنفقة في الحروب إنما هي من الأنفس. فإن كان للحِيَل محمودُ عاقبة، فذلك بسعادة الملك، إذا خسر ماله وحقن دماء جيوشه. وإنْ أعْيتْ الحيل والمكائد، كانت المحاربة من وراء ذلك».

ويقولون في هذه الأيام أن الحرب هي سياسة الملاذ الأخير، أو سياسة الحد الأقصى: War is the policy of last resort. أليس

هذا ما عناه الجاحظ نصّاً حين قال «ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيَله؟».

كأنَّ الجاحظ كان يتوجه بحديثه إلى الخليفة، عبْر وزيره الفتح ابن خاقان، ويُطريه بوصفه إياه بـ «الملك السعيد». وعندي أن كتابه ليس أقل أهمية من كتاب «الأمير» لماكيافللي. ويزيد عليه أن الجاحظ سبق نظيره الإيطالي بقرون، وأن كتابه أفْكه روحاً وأخفّ وطأة.

يقول أبو عثمان رحمه الله، في عبارة لا تخلو من جرأة:

«وأيضاً فإن لنا أجْريْن. أما أحدهما، فلما نبّهنا عليها العامة من معرفة حق ملوكها. وأما الآخر، فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها، وردّ كل نافر إليها».

هذا كما ترى، مذهب طريف، فهو ليس ضدّ الملوك من حيث إنهم ملوك، ولكنه يقول إنه صوتهم المدافع عنهم لدى العامة، كما أنه صوت العامة وصوت الحق لدى الملوك. أو كما نقول بلغة هذه الأيام، إن دوره دور «رجل (الفكر)» الذي يكون جسراً بين «الشعب» وبين «السلطة».

وذاك لعمري أمر عسير. إلّا أن الجاحظ كان محظوظاً أنه وجد تأييداً وسنداً من وزير واسع الاطلاع، عميق الفكر مثل الفتح بن خاقان، وقد أخبروا أن الفتح بن خاقان، لم يكن يفوقه إلّا الجاحظ في إقباله على الكتب وشغفه إلى المعرفة، وأنه يكون في مجلس الخليفة، فإذا قام الخليفة عن المجلس ولو لفترة وجيزة، فإن الفتح

يُخرج من ثيابه كتاباً يقرأ فيه إلى أن يعود الخليفة.

ولا بد أن الجاحظ قصد أيضاً أن يمكّن لصديقه الوزير لدى مولاه، وحق له أن يفعل، فقد كان الرجل جديراً. يقول الجاحظ:

«وبعد فإن أكثر كلامنا في هذا الكتاب، إنما هو على مَن دون الملك الأعظم، إذ لم يكن في استطاعتنا أن نصف أخلاقه بل نعجز عن نهاية ما يجب له، لو رُمنا شرحنا... وليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية تقوم في وهم، ولا يحيط بها فكر. وأنت تراها تتزيّد منذ أول مِلِك ملَك الدنيا إلى هذه الغاية..».

هذا، كأنه المتنبي يُمالىء سيف الدولة. وكأنَّ أبا عثمان خجل من كثرة ما بالغ في إطراء الخليفة، فما لبث أن أضاف كالمعتذر:

«ولعل قائلاً يقول إذ رآنا قد حكينا في كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب: قد ناقض واضع هذا الكتاب، إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية ـ فيظلم في اللفظ ويعتدي في المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا، كالطبقة الوسطى عند النمط الأعلى. أنت تجد ذلك عياناً وتشهده بياناً..».

هذا، ويؤكد أبو تمام مبدأ مناقضاً لما ذهب إليه الجاحظ في قضية السياسة والحرب، وذلك في بيته الذائع في قصيدته المدوية في مدح المعتصم:

السيف أصدقُ أَنْباءً من الكتب
في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللّعب

وقد ذهب بعضهم إلى أن المقصود بـ (الكتب) هو (الفكر) كما تقول رجل الفعل ورجل الفكر وربُّ السيف ورب القلم. وأغلب الظن أن أبا تمام لم يُرد إلّا الكتب التي يرسلها الملوك بعضهم إلى بعض في أمور السلم والحرب.

كان المعتصم حقاً ملكاً محارباً، يغزو أولاً ثم يفكر فيما بعد. والجاحظ رغم أنه يؤثر الدّفع بالحسنى إن أمكن، فإنه لا يُخفي إعجابه بالمعتصم ويصفه وصفاً يكاد ينُطّ من بين السطور:

«وكان المعتصم قلّما يمسُّ الطيب. وكان يذهب في ذلك إلى تقوية بدنه وإعانته على شدة البطش والأيد. وأما في أيام حروبه، فكان من دنا منه، وجد رائحة صدأ السلاح والحديد من جسمه».

كان خشناً جلْفاً إلى حدٍّ أن أهل بغداد ـ وقد كانت في ذلك الزمان مثل باريس اليوم ـ ضاقوا به وبفظاظة جُنده، فهجرهم وبنى عاصمة جديدة هي (سُرَّ من رأى). لم تلبث طويلاً حتى اندثرت، وقد رثاها ابن المعتز بأبيات بليغة:

قد أقفرت سُرَّ مَنْ رأى
فما لشيء دوامُ
فالنَّقض يُحمل منها
كأنَّه الآجامُ
ماتت كما مات فيلٌ
تُسَلُّ منه العظامُ

وقد أصبحت قصة فتح المعتصم لعمّورية أسطورة يُضرب بها

المثل في الإقدام والنجدة في تراث العرب، إلّا أنهم أخبروا أن المرأة التي صرخت «وامعتصماه!» لم تكن في عمُّورية، بل كانت في «زبطرة» على الحدود بين مُلْك الرّوم ومُلْك العرب. وكان أمبراطور الروم «تيوفيل» قد غزاها عام ١٣٨م فحرق وهدم وقتل وسبى. سمع المعتصم استغاثة المرأة العربية فهتف «لبيك لبيك». ويذكر بعض الرُّواة أنه كان ممسكاً بكأس فوضعها وهبَّ واقفاً من فوره، وسأل قواده، أي بلاد الروم أمنع وأحصن، فقالوا «عمورية»، وأن المسلمين لم يجرُؤوا على اقتحامها من قبل. فصبحها بجحافله ودكّها دكاً، واقتحم «أنقرة» في الطريق.

وكما قال الشاعر «ولو أن قومي أنطقتْني رماحُهم نطقْتُ» فإن هذه الوقْعة قد هزّت وجدان الشاعر العملاق حبيب بن أوْس الطائي، فأتى بالعجب العجاب:

رمى بك اللّه بُرجيْها فهدّمها
ولو رمى بك غيرُ اللّه لم يُصِبِ
أجبْتَه مُعْلِناً بالسّيف مُنْصلتاً
ولو أجبْتِ بغير السّيف لم تُجِبِ

إلى أن يقول:

خليفةَ الله جازى اللّه سعيَك عن
جُرثومة الدّين والإسلام والحسب
بَصُرْتَ بالرّاحة الكُبرى فلم ترها
تُنالُ إلّا على جسرٍ من التّعب

ثم جاء العبقريَّ أبو الطيب، فنصب الميزان القسط بين مذهب الجاحظ ومذهب أبي تمام:

ووضعُ النّدى في موضع السّيف بالعلا
مُضِرٌّ كوضع السَّيف في موضع النَّدى

٩

بلغ تكالب أوروبا على الاستعمار أوجهُ في القرن التاسع عشر. باستثناء دول إسكندنافيا التي استعمر بعضها بعضاً، لم تبق دولة أوروبية لم تحصل على مستعمرة أو أكثر. حتى هولندا. حتى البرتغال. ما عدا بلجيكا. لأجل ذلك كان ليوبولد الثاني ملك البلجيك يحسُّ بالغُبن ويريد أن يحصل على مستعمرة بأي ثمن.

وفي السابع من كانون الثاني/ يناير عام ١٨٧٦، أحسّ أن حلمه يمكن أن يتحقق. كانت صحيفة الـ «تايمز» اللندنية تصله بانتظام يوم صدورها بوسائل معقدة. وبينما كان يقرأ في عدد ذلك اليوم ـ بإمعان كعادته ـ جذبت اهتمامه رسالة بعث بها مراسل الصحيفة من (لُوانْدا) أنجولا، المستعمرة البرتغالية، يدل تاريخها أن المراسل بعث بها قبل سبعة أسابيع. فَحْوى الرسالة أن الملازم (كامرون) الرحّالة الإنجليزي قد وصل إلى ساحل أفريقيا الغربي، بعد رحلة عبر

القارة استغرقت ثلاث سنوات، وأنه لم يستطع العودة إلى إنجلترا بسبب مرضه ولكنه أرسل تقريراً عن رحلته ليُعرض نيابة عنه في اجتماع الجمعية الملكية الجغرافية في لندن.

بعد أربعة أيام، نشرت صحيفة الـ «تايمز» في مكان بارز، وقائع اجتماع الجمعية الجغرافية، وذكرت أن رئيس الجمعية (سير هنري رولنْسُن) وصف رحلة (كامرون) بأنها «أصعب رحلة قام بها أيٌّ من الرحالة المكتشفين في قلب القارة الأفريقية وأكثرها نجاحاً».

ثم توقف الملك ليوبولد طويلاً عند قول الملازم كامرون، كما جاء في الصحيفة:

«وسط أفريقيا بلاد رائعة في الغالب، ذات مناخ صحي، تُخفي ثروات خرافية. لقد حصلتُ على عينة من الفحم الحجري، وهو من النوع الممتاز، وتأكد لي وجود معادن أخرى بكميات كبيرة، مثل الذهب والنحاس والفضة. ولا شك عندي، أنه باستثمار رأس مال ليس كبيراً، يمكن خلق شبكة من أحسن طرق الملاحة الداخلية في العالم. في ثلاثين إلى ستة وثلاثين شهراً، سوف تبدأ هذه الشبكة تدرّ أرباحاً كبيرة، على أي شخص عنده الجرأة على الاستثمار».

أحسّ ليوبولد أن تلك الأرض البعيدة المجهولة، التي لا يعرف اسمها بعد، هي المستعمرة التي سوف يقدمها هدية إلى شعبه. بعد يومين فقط كتب إلى الجمعية الجغرافية يعرض عليهم المساهمة في عملية الاستكشاف نظير مائة ألف فرنك (أربعين ألف جنيه إسترليني) تُنفق على رحلات (كامرون).

ورث ليوبولد الثاني عرش البلجيك عام ١٨٦٥، خلفاً لأبيه، ليوبولد الأول. كانت أسرتهم، أسرة ألمانية فقيرة من صغار النبلاء، تربطها قرابة قريبة بالأسرة المالكة الإنجليزية، وأسرة «لوي فيليب» الفرنسية. وقد أراد الأب أن يدعم موقفه بأن تزوج الأميرة شارلوت ابنة الملك جورج الرابع ملك إنجلترا ووليّة عهده، على أمل أن ترث ذريّته عرش الإنجليز. ولكن الأميرة توفيت، واضطُرَّ ليوبولد الأول ـ كما عُرف فيما بعد ـ أن يرضى بعرش البلجيك.

لم يكن وضعاً مُغرياً، فقد كانت بلجيكا دولة لا يؤْبَه لها، محشورة بين دولتين قويتين في خصام مستمر، هما ألمانيا وفرنسا. وكان الشعب منقسماً إلى فريقين بينهما حزازات قديمة وعداوات لا تهدأ، الـ «فِلِمشْ» والـ «والون».

استقرّ رأي الملك، والحال كذلك، أنه لا بد من الحصول على مستعمرة لبلجيكا، مستعمرة في أي مكان، وبأي وسيلة. وقد قدّر أن ذلك سوف يعطي شعبه متنفساً لطاقاته، ويصرفه عن الاحتراب الداخلي، كما يعطي بلجيكا وزناً واحتراماً، ويدخلها «نادي» الدول الأوروبية المستعمرة.

إلّا أن وزراءه لم يكونوا متحمّسين للفكرة، خاصة رئيس وزرائه المتحرر، الذي كان يمقت فكرة الاستعمار من حيث المبدأ. كانوا يقولون له إن شعب بلجيكا أهل تجارة، والاستعمار تجارة خاسرة، خاصة في المناطق الاستوائية، وأن الدولة لا تملك المال الكافي الذي تتطلبه عمليات الاستيطان وفرض النفوذ والتنمية والاستعمار والاستثمار. يجيبهم بأنه مستعدّ للإنفاق من ماله الخاص، وكان قادراً بالفعل، فقد كان في طليعة أثرياء أوروبا، إذ ورث ثروة كبيرة

من أبويه، نمّاها وأضاف إليها بصفقات ذكيّة مثل شراء أسهم في قناة السويس.

أخذ الملك يتلفّت يميناً وشمالاً يبحث عن مستعمرة. عرض على الإسبان أن يستأجر منهم مستعمرتهم الفيليبين لقاء عشرة ملايين فرنك، ولكنهم رفضوا حتى مجرد النظر في عرضه، ذهب إلى البرتغاليين عارضاً الشراء.

«هل تبيعونني أنجولا؟ لا؟ إذاً موزمبيق. لا؟ إذاً جزيرة تيمور».

رفض البرتغاليون أن يبيعوه حتى جزيرة تيمور.

ماذا يفعل؟ إلى مَنْ يتّجه؟ مَنْ يا ترى عنده مستعمرة للبيع؟ آه! الإنجليز. غينيا الجديدة.

هؤلاء لهم مستعمرات كثيرة، ولن ينقص من إمبراطوريتهم كثيراً إذا باعوه غينيا الجديدة.

راقته الفكرة تماماً وتأكد من النجاح، فالأسرة الإنجليزية المالكة أقرباؤه، والإنجليز أصدقاؤه، وغينيا الجديدة لا تهمهم كثيراً إذ إنهم لم يهتموا بأن يثبتوا وجودهم فيها بشكل محسوس. وفي شهر تموز/ يوليو عام ١٨٧٥، استدعى السفير البريطاني في بركسل، وقال له بأسلوب حاسم، مثل رجال الأعمال:

«إسمع. دولتنا تحتاج إلى متنفس لطاقاتها المكبوتة. أبي كان يؤمن أن الحل الأمثل هو في الحصول على مستعمرة. ذلك سوف يمكننا من

تنمية مصالحنا التجارية، أيضاً نرفع الروح المعنوية للجيش، وننشىء أسطولاً تجارياً. ليس عندنا كما تعلم أسطول تجاري الآن. جاء الوقت كي تؤدي بلجيكا واجبها في المساهمة في العمل النبيل ـ المهمة العظيمة التي تقوم بها أوروبا ـ نشر الحضارة والتمدن بين الشعوب البدائية، مقتدية بإنجلترا بشكل متواضع طبعاً. وأنا يسعدني أن أُهدي إلى شعبي مستعمرة. أقدم له هدية في شكل مستعمرة. سوف أتكفّل بجميع النفقات من جيبي. المشكلة هي أين تكون المستعمرة. قرار صعب، فكّرت طويلاً في الأمر، وأعتقد أن غينيا الجديدة تفي بالغرض. نعم. غينيا الجديدة. إنها على الطريق الواسع، طريق المستقبل، بين أستراليا واليابان».

استقبل وزير الخارجية، (لورد دارْبي)، عرض الملك لشراء غينيا الجديدة من بريطانيا بدهشة بالغة، وقال:

«كيف بحق السماء يستطيع ليوبولد أن يوطِّن بلجيكيين مع أسرهم بين قوم متوحشين يأكلون لحوم البشر؟ نحن إلى الآن لم نجرؤ على ذلك».

بعد أيام جاء السفير البريطاني إلى ليوبولد برد الحكومة البريطانية، بأنها لا توافق على عرضه، لأن المستوطنين في أستراليا يعتبرون غينيا الجديدة تابعة لأستراليا.

لم يثبط ذلك من عزيمة الملك. قال لرئيس وزرائه:

«حالة السوق ليست مشجّعة. أظن من الحكمة ألّا أُلحّ في هذه الظروف. لا أحد يريد أن يبيع. لا الإسبان ولا البرتغاليون ولا

الهولنديون ولا الإنجليز. لا بأس. سوف أتحرى بهدوء. لعلّنا نجد شيئاً ما في أفريقيا».

١٠

منذ القرن الخامس عشر، والبرتغاليون يحوّمون حول أفريقيا، كما تحوّم النسور فوق جسد وعْلٍ جريح، وقع من الإعياء، يحاول أن ينهض فلا يستطيع. الذّهب بُغيتهم، خاصة الذهب. لا عجب، فقد كانت كنوز أفريقيا تُسيل لعاب الأوروبيين منذ أمد بعيد، يسمّونها «ألْدورادو» ـ أرض الكنوز الخرافية. وكان الذهب الأفريقي الذي يتسرب إلى (جنْوا) على البحر الادرياتكي، وبقية مدن البحر الأبيض المتوسط، يفتح شهيّتهم، ويُلهب خيالهم. ولكنهم لم يكونوا يعرفون من أين يجيء، وكيف يصل إليهم. وكانوا قد تسامعوا من قبل، أن السلطان موسى، سلطان مالي، قد مرّ بمدينة القاهرة في طريقه لأداء فريضة الحج، ومعه حاشية من خمسمائة مرافق، كل واحد منهم يحمل قضيباً من الذهب الخالص، زنتهُ أربعة أرطال، ليهديها إلى بيت الله الحرام. جُن جنونهم، وتساءلوا، من أين يجيء كل ذلك الذهب؟

وفي نحو عام ١٤٨٠، نجح البرتغاليون في أن يجدوا لهم موطىء قدم على ساحل أفريقيا الغربي، وبدأت سفنهم تشحن الذهب في مصب نهر السنغال وفي خليج غينيا. يصلهم من أماكن غامضة في وسط القارة، لا يعلمون أين. لم يستطيعوا النفاذ إلى قلب القارة، فأخذوا يضغطون جنوباً. وفي عام ١٤٩٧ وصل (فاسكو داغاما) إلى طرف القارة من ناحية الجنوب، فسمّوه (رأس الرجاء الصالح) The Cape of good Hope، وكان أحرى بهم أن يسموه (رأس الجشع الفادح) فلم يكن البرتغاليون يأملون في شيء غير الكنوز والثراء. والآن انفتح لهم طريق بحري إلى الهند وبقية آسيا، بديل عن الطريق البري الشاق.

في أثناء ذلك، كان الفرنسيون والإنجليز في سباق محموم، أيهم يفوز بقلب القارة. وكان الإنجليز يحسّون أن الفوز سوف يكون من نصيبهم، بسبب جهود مكتشفيهم، أمثال (لفنجستون) و(سبيك) و(غرانت) و(بيرتُن) وأخيراً الملازم (كامرون). وقد بدأ الرأي العام في بريطانيا يهتم بأفريقيا، حين أنشئت أول بعثة تبشيرية على سفينة على بحيرة (نياسا) مما أدخل عنصراً جديداً أسبغ ثوباً أخلاقياً على الشجع الاستعماري. أما الفرنسيون فقد ظلوا يتلقطون أنباء الرحّالة الإنجليز ويحاولون أن يجدوا منفذاً إلى قلب القارة من مستعمرتهم في (غامْبيا).

لعل السُّعار الأوروبي كان سيتجه إلى الأمريكتين، بعد أن وصلوا إليهما على أثر (كولمبس) في أواخر القرن الخامس عشر. ولكن التوسع في زراعة القطن وقصب السكر هناك، أضاف إلى سُعارهم في أفريقيا، سبباً جديداً. كانت تلك المزارع تحتاج إلى أيدٍ عاملة، ملايين الأيدي العاملة. وكانت أفريقيا، الوعل البري الجريح، لا

حول ولا قوة، لا تستطيع أن تدافع عن نفسها في مواجهة التكنولوجيا المتقدّمة ـ البوارج والمدافع والبارود.

هكذا نشأت تجارة الرقيق. كما كان الذهب يصل إلى موانىء الساحل الغربي، أصبح الرقيق يتدفّقون من وسط القارة، فيتمّ فرزهم وتصنيفهم مثل السلع التجارية، وشحنهم مكدّسين في السفن في ظروف مُخزية، إلى البرازيل وأمريكا وجزر الهند الغربية.

رحّلت أوروبا نحو عشرة ملايين آدمي في هذه التجارة البشعة. كانت أكبر عملية تهجير قسري في التاريخ. سوف يجيء وقت يحسّ فيه الضمير الأوروبي بوطأة الإحساس بالذنب. فيبحثون عن شعب آخر يحمّلونه وزر خطاياهم. ومَنْ تظنّ الشعب الغافل الذي يحمل أوزار الآخرين عن طيب خاطر؟

كل ذلك وبلجيكا بمَعْزل. كان ليوبولد الثاني يرى الكلاب الأوروبية تنهش في لحم أفريقيا، ويتلمّظ يريد عظماً أو مُزْقة من لحم. عنده رأس مال حاضر، يبلغ خمسة عشر مليون فرنك، يريد أن يحصل به على مستعمرة، ولا أحد يسخو بالبيع أو الإيجار. لا بد من الحصول على مستعمرة. كيف يفعل؟

خطرت له فكرة مُلهمة. يكسو الجشع رداء الحضارة والمثل العليا وخدمة العلْم. فكّر أن يعقد مؤتمراً كبيراً في بروكسل، يدعو إليه العلماء والرحّالة والمكتشفين. وفي الثاني عشر أيلول/ سبتمبر عام ١٨٧٦، افتتح الملك المؤتمر في القاعة الكبرى في القصر الملكي، في جو ساحر من الأبهة والفخامة، وأنغام الموسيقى وأضواء الشموع. كان ذلك بداية شرّ مستطير للكنغو البائس. مأساة لم تتم فصولها

بعد. حقاً التاريخ لا ينسى ولا يغفر. البذور الشريرة التي غرسها ليوبولد في تلك الليلة، أنبتت فيما بعد ـ كما كان حتماً أن يحدث ـ شجراً شوكه الندم، وثمره الحسرة.

خطب الملك في جمع العلماء والمكتشفين والرحالة والمغامرين والأفّاقين الذين شمّوا رائحة الثراء، ولمع في خيالهم بريق الذهب من قلب أفريقيا المُتعب. قال:

«... أنْ نفتح للحضارة الجزء الوحيد من كوكبنا الذي ظلّ مغلقاً دونها... أنْ نُضيء الظلام الكثيف الذي يخيّم على شعوب بأكملها... تلكم هي، إذا جاز لي التعبير، المغامرة النبيلة... الجهاد المقدّس الذي يليق بهذا العصر. وإنه يبدو لي أن بلجيكا مؤهلة لاجتماعنا هذا، بحكم موقعها المتوسط في أوروبا، وبحكم حيادها. هذا هو الذي شجّعني أن أدعوكم إلى داري المتواضعة في هذا الاجتماع الصغير الذي يشرّفني أن أفتتحه اليوم. ولا حاجة بي أن أؤكد لكم، أن دعوتي لكم إلى هذا الاجتماع، لا تخفي وراءها أية أغراض أنانية. أبداً أيها السادة. صحيح أن بلجيكا دولة صغيرة. ولكنها دولة سعيدة راضية بحظها. إن طموحي الوحيد هو أن أخدم شعبي وبلادي».

بين عشية وضحاها، تحوّل ليوبولد الثاني ملك البلجيك، من ملك مغمور لدولة لا يُؤْبه لها، إلى نجم يتألق في سماء أوروبا كلّها.

١١

كان المؤتمر ناجحاً بكل المقاييس، أرضى توقّعات الملك كلَّها. ووجد أولئك العلماء والرحّالة والمكتشفون أنفسهم غرقى في محيط من العطف الملكي السامي، والبذخ والأضواء والسحر، إلى درجة دوّخت رؤوسهم وأعشت أبصارهم، فكتب العالِم الوقور «سير هنري رولنْسن» مكتشف طلاسم اللغة اليهروغليفية، كتب إلى زوجته في لندن بحماسة صبيّ يرى السرْك لأول مرة:

تصوري أنهم خصّصوا لي جناحاً فاخراً، جناحاً كاملاً لي أنا وحدي كل ما فيه أرجواني ومذهّب. اللون الأحمر يطغى على كل شيء حتى ورق التواليت».

وقال البارون (فون رِخْتهوفن) رئيس الوفد الألماني:

«أدار الملك جلساتنا بلطف وتهذيب يفوقان الوصف. إنني لا أعرف نظيراً لكرم الضيافة والترف الذي عُوملنا به».

أجل، أحس ليوبولد بالرّضى. تحوّل بين يوم وليلة، من ملك عاطل الذكر لدولة لا وزن لها، إلى نجم يشعّ في سماء أوروبا، من بحر البلطيق إلى سواحل الأطلس وما وراءه، تهفو إليه قلوب سيدات الصالونات في «ماي فيرْ» في لندن والـ «فوبور سانْت أُنري» في باريس. أصبح رمزاً لنور الحضارة الأوروبية، الذي سوف يجلو الغياهب في قلب «القارة المظلمة». أصبح بمثابة الاستجابة للدعاء الذي وجهه «لفنجستون» في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٨٥٧:

«أتوسل إليكم أن تهتمّوا بأفريقيا. أعرف أنني سوف أقضي عما قريب، وينقطع خبري، في تلك الأرض التي انفتحت الآن. لا تدعوها تنغلق من جديد. سوف أعود إلى أفريقيا لأواصل الجهد كي أفتح طريقاً للتجارة وللدين المسيحي. فهل تواصلون أنتم العمل الذي بدأته؟».

وكأني بليوبولد قد هتف «لبّيك لبّيك». فقد كانت التجارة والمسيحية تتفقان تماماً مع مخططاته. تحت سحائب الكرم والبذخ والأبهة التي دوّخت كل أولئك العلماء والمكتشفين في بركسيل، كان الملك يعرف ما يريد. كتب إلى سفيره في لندن يقول:

«يجب ألّا أضيّع الفرصة للحصول على قطعة من هذه الكعكة الأفريقية المدهشة.

سارت الأمور على ما يرام، وانتهى المؤتمر إلى النتائج التي أراد له ليوبولد أن ينتهي إليها. وكان أهمها «إنشاء هيئة تسمى (الجمعية الدولية الأفريقية) تعمل على تنسيق أعمال الاستكشاف في أفريقيا، وتحارب تجارة الرقيق، وتنشر الديانة المسيحية». وطبعاً عُرضت رئاسة الجمعية على الملك، فتمنّع في القبول، ثم قبل بعد إلحاح!

ماذا بقي إذاً؟ بقي أن يحصل ليوبولد على رجل عليم بدروب أفريقيا يعينه على تحقيق هدفه ـ الحصول على مستعمرة. وكان الملك يظن أن «كامرون» هو ذلك الرجل، ولكنه اكتشف في رحلة سرّية قام بها إلى لندن متخفياً، أن (كامرون) كان يحاول أن يعرض خدماته على الحكومة البريطانية، وإقناعها ببسط نفوذها على الجزء الذي اكتشفه في وسط أفريقيا، يعني (الكنغو).

مَنْ هناك إذاً؟ ستانْلي، لمع الاسم في ذهن ليوبولد، وأحسّ بالنشوة. كلما تعمّق في التفكير، زادت قناعته أن «ستانلي» هو الرجل الذي يطلبه. ولكن أين هو؟ آخر ما سُمع عنه أنه في مكان ما وسط القارة يحاول أن يتبع مجرى نهر (لوا لابا) ـ النهر العظيم، كما سماه «لفنجستون»، ليتحقق هل هو نهر النيل أم نهر الكنغو.

تاريخ الاستكشاف في أفريقيا يموج بشخصيات كأنها من قصص روائية، وكان «هنري مورْتُن ستانلي» من أكثرها غرابة. كان طفلاً لقيطاً من أبوين من مقاطعة (ويلز)، فنشأ في ملجأ أيتام نشأة بائسة، كما روى هو نفسه فيما بعد. وفي سن السابعة عشرة هرب إلى أمريكا، وفي مدينة (نيو أورلينز) في الجنوب صادف رجلاً كريماً من أصل إنجليزي، يملك مزارع للقطن يسمى (هنري هوب ستانلي) فآواه وأعطاه اسمه، وأنفق على تعليمه.

عمل «ستانلي» مراسلاً لصحيفة «نيويورك هرالد» واستطاع أن يجد طريقه إلى أفريقيا مراسلاً للصحيفة الأمريكية بالإضافة إلى صحيفة الـ «ديلي تلغراف» الإنجليزية.

حين التقى بـ (لفنجستون) عام ١٨٧١، والرحّالة الشيخ يجهد أن يكتشف (النوافير) التي ذكر المؤرخ اليوناني «هيرودتس» أن نهر النيل ينبع منها، قال رجل لـ «لفنجستون» «هذا الشاب الأمريكي المتعجرف سوف يصنع مجده على حسابك».

فقال «لفنجستون»:

«إذا كان ذلك ما يريد فهنيئاً له. إنه أكثر مما أستطيع صنعه لنفسي».

بعد ذلك اللقاء بقليل كان «ستانلي» واحداً من ثمانية رجال أُعطوا شرف حمل نعش الرحّالة الشيخ إلى مثواه في «وستمنستر أبي». على حافة القبر آلى على نفسه أن يُكمل العمل الذي بدأه «لفنجستون»، أن يفتح قلب أفريقيا لنور (التجارة والمسيحية). وذلك تحديداً ما كان يسعى إليه ليوبولد الثاني ملك البلجيك.

في بلدة تُسمى «أوجيجي» على نهر «لُوالابا» عثر «ستانلي» على الرحالة القس «ديفيد لفنجستون» في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٨٧١. كان لقاءً درامياً طار ذكره في الآفاق. كان الرحال الشيخ، رغم المرض والإرهاق، يواصل السعي بتصميم رجل إسكتلندي ينتمي إلى المذهب المسيحي الكالْفيني، كي يجد منبع النيل. كان يظن أن نهر «لوالابا» هو نهر النيل، الذي سوف يصل بواسطته «نور» المسيحية والتجارة إلى «قلب أفريقيا المظلم». بعد أن يموت «لفنجستون» سوف يكتشف الملازم «كامرون» أن الرحالة العنيد، كان يلاحق سراباً، وأن نهر «لوالابا» ليس هو نهر النيل، بل نهر الكنغو، وأن طريق «الحضارة» الأوروبية، ليس من ناحية الشمال، ولكن من ناحية الغرب. وكان الأمران سيّين لدى الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك.

أحس «ستانلي» لأول وهلة، بأُلفة طاغية نحو ذلك الرجل العجيب. كان بحكم طفولته التعيسة يبحث عن أب. وجده من قبل في «نيو أورلينز» في «مستر هنري هوب ستانلي»، وها هي الأقدار قد قيّضت له الآن هذا الرجل المهذّب الرحيم القلب. كان رحيماً أكثر مما يجب، في نظر «ستانلي»، فقد كان يعامل خدمه الزنوج برقّة شديدة، ولا يقوى على عقابهم إذا أخطأوا. بعد موته، كتب «ستانلي» في مذكراته يقول:

«أسأل الله أن يختارني كي أتمّم ما بدأه في فتح أفريقيا لنور المسيحية الوهّاج. لكن أساليبي سوف تختلف عن أساليبه. كانت طريقه مليئة بالأخطاء، مع أن الرجل الشيخ نفسه كان مثل القديسين في طيبته وصبره وتضحيته. هذا العالم القاسي يحتاج إلى رجال أقوياء بوسعهم أن يتحكموا في أموره، أكثر من حاجته إلى رجال مُحبِّين».

كانا مختلفين أشدّ الاختلاف، فقد ترك «ستانلي» وراءه، آثاراً من الجثث والدماء، وإذْ مات «لفنجستون» وحيداً، إلّا من أتباعه الزنوج الأوفياء، في خيمة في الأدغال، مضى «ستانلي» ليصبح نابه الذكر، يقابل الملكة فكتوريا(*) وينال لقب «سير» ويقضي أيامه الأخيرة سيداً على مزرعة واسعة في الريف الإنجليزي. ولعل الكاتب العبقري «جوزف كُنْراد» كان يفكر في «ستانلي» حين كتب روايته الشهيرة عن الكنغو، «قلب الظلام».

ولد «ديفد لفنجستون» في ١٩ آذار/ مارس عام ١٨١٣ في بلدة «بلانتيز» في اسكتلندة، أحد سبعة أطفال، في عائلة فقيرة متدينة، تنتمي إلى المذهب الكالْفيني المتزمّت. وقد اضطره فقر أسرته أن

يعمل وهو بعد صبي في محلج للقطن، فكان يعمل ويدرس. وفي عام ١٨٣٤ قرأ إعلاناً في الصحف عن حاجة (جمعية الكنائس البريطانية) إلى مبشّرين أطباء للعمل في الصين، فالتحق بجامعة «قلاسْقو»، حيث درس، وهو ما يزال يعمل، اللغة اليونانية واللاهوت والطب. وفي عام ١٨٣٨، قُبل في جمعية لندن التبشيرية، ولكنه لم يستطع السفر إلى الصين، وأقنعه أحد المبشرين في أفريقيا، رجل يُسمى «موفات»، أن يذهب إلى أفريقيا. سوف يتزوج «لفنجستون» ابنة «موفات» هذا فيما بعد.

في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٨٤٠ رُسمَ كاهناً في الكنيسة، وسافر إلى مدينة «كيب تاون» في جنوب أفريقيا. كانت تلك بداية حياته الاستكشافية الحافلة. اتجه شمالاً فقطع صحراء (كالاهاري) إلى أن وصل في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٨٥٥ إلى نهر (الزامبيزي). وقد قُدر له أن يكون أول من أسمى الشلالات «شلالات فكتوريا».

كانت أنباء رحلاته وجهوده التبشيرية تتسرَّب إلى إنجلترا، بطريقة أضفت عليه رونقاً من الجاذبية والسّحر. ولما عاد إليها عام ١٨٥٦، استُقبل استقبال الأبطال، ووجد حفاوة عظيمة من المجتمع بمختلف طبقاته. وعزّز شهرته حين نشر كتابه «رحلات مبشر وبحوثه في جنوب أفريقيا». لقي الكتاب رواجاً لم يحدث لكتاب من نوعه من قبل، وبيعت منه سبعون ألف نسخة في فترة وجيزة.

وهكذا حين لقيه «ستانلي» في (أوجيجي) لم يكن «لفنجستون» في حاجة إلى الشهرة. بل الثابت أن «ستانلي» هو الذي أقام شهرته على كتفي الرحالة الشيخ، وقد اتخذ لذلك أساليب خشنة أغضبت

كثيرين من محبي «لفنجستون» وبعضهم تشكك في أن يكون قد قابله أصلاً.

أعطاه المؤن والمعدات التي أرسلها له أصدقاؤه في إنجلترا، وصحبه طيلة أربعة أشهر في رحلاته حول بحيرة (تانقانيكا). عاد «ستانلي» إلى إنجلترا ونشر كتابه (كيف وجدت لفنجستون) الذي أحدث دوياً، وجلب للكاتب شهرة ومالاً.

أما «لفنجستون» فقد واصل بحثه عن منبع النيل، كأنه يلاحق طيفاً سحرياً. في ٣٠ نيسان/ أبريل عام ١٨٧٣، حطّ رحاله في قرية صغيرة على نهر (موليلامو). كان قد بلغ منه الإعياء مبلغاً، وهدّه النزيف الداخلي الذي كان يعاني منه. ليس معه غير أتباعه الأوفياء من الأفريقيين، (سوزي) و(شوما) و(جيكوب وينْرايتْ).

في صباح أول نيسان/ أبريل، وجدوه راكعاً عند سريره في الخيمة كأنما يصلّي. تأكدوا أنه قد مات. بعد ذلك قام هؤلاء الثلاثة بمغامرة ألهبت خيال الشعب البريطاني، وكانت سبباً مهمّاً في أن تبسط الحكومة البريطانية نفوذها على منطقة البحيرات في أفريقيا. قرروا أن يعيدوا الجثمان إلى إنجلترا.

شقوا الصدر، وأخرجوا منه القلب، ودفنوه تحت شجرة، وأقاموا شاهداً، عليه الاسم وتاريخ الوفاة. هذا العمل سوف يكون له مغزى رمزي عظيم فيما بعد. حنطوا الجثمان بطريقة بدائية وجفّفوه في الشمس، وحملوه في رحلة طويلة شاقة إلى زنجبار. كانوا يسهرون على حراسته بالليل حتى لا تخطفه الضباع. من ثمة حُمل على سفينة إلى لندن، يصحبه الزنجي المخلص (جيكوب وينْرايتْ).

جاشت عواطف الإنجليز من التأثر، واختاروا لأجل ذلك (جيكوب وينرايت)، ليكون واحداً من الثمانية الذين حملوا نعش الرحّالة إلى مثواه في (وستمنستر أبي)، حيث يدفنون عظماء رجالهم. فيما بعد، دعوا الخادمين الآخريْن (سوزي) و(شوما) إلى لندن، وغمروهما بالحفاوة والتكريم.

قبل ذلك، شاءت الصدف أن يصل الجثمان في الطريق إلى زنجبار، إلى بلدة تسمى (تابورا). ثمة وجدوا الملازم (كامرون). عجب أشد العجب لما فعله أولئك الثلاثة، ونصحهم أن يدفنوا «لفنجستون» حيث هو، ولكنهم أصرّوا على المضي قُدماً. أخذ منهم بعض معدات «لفنجستون» وواصل رحلته غرباً. سوف يصل بعد نحو عامين إلى ساحل (أنجولا) ويكون أول رحالة أوروبي يعبر القارة من الشرق إلى الغرب. لم يجد مصب نهر (لُوالابا) ولكنه تأكد أن «لفنجستون» كان مخطئاً، وأن الـ (لوالابا) ما هو إلّا نهر الكنغو. سوف تنشر صحيفة الـ «تايمز» أخبار هذه الرحالة، فيقرؤها ليوبولد الثاني ملك البلجيك في قصره في بركسل، فتخطر في ذهنه الثلجي أفكارٌ أبعد ما تكون عن المسيحية وخدمة العلْم.

(*) ويخدم مخططات ليوبولد، وينال لقب سير.. إلخ.

١٣

سوف يصل (ستانلي) إلى مصب نهر الكنغو، ويثبت بما لا يترك أدنى شك، أن (النهر العظيم) الذي ظنه (لفنجستون) نهر النيل، ليس غير نهر الكنغو. ولكنه لن يجد حلاوة الانتصار. حين مات (فرانك بوكُكْ) آخر مرافقيه من الأوروبيين، كتب في مذكراته يقول:

«آه يا صديقي فرانك. إنك رجل محظوظ. ارتحت من هذه الفوضى الفظيعة. نجوت من الوحل الذي غرقت أنا فيه إلى أذنيّ».

إن كان في هذه الكلمات إحساس بتوبيخ الضمير فلا جرم، فقد ارتكب (ستانلي) كثيراً من الآثام للوصول إلى غايته. وكأنه تنبأ بما سوف يحدث في المستقبل. سوف يغرق كثيرون بعده في «وحل» الكنغو. سوف يروح فيه (داج همرشولد) الرجل السويدي المتحضر

الذي لم تكن له يد في كل ما حدث. سوف تشبّ حروب يُقتل فيها آلاف الناس، وتزهق روح (باتريس لومُمبا) التعيس. وهي مأساة من مآسي جشع الإنسان لم تكتمل فصولها بعد.

في الخامس من آب/ أغسطس عام ١٨٧٧، بعد نحو عام من انقطاع أخبار (ستانلي) أوصل أربعة سواحليين رسالة بالإنجليزية، إلى بلدة صغيرة عند مصب نهر الكنغو تدعى (بوما) جعلها الأوروبيون قاعدة تجارية. كانوا خليطاً من الإنجليز والبرتغاليين والإسبان والهولنديين. كانت من (ستانلي). قرأها تاجر برتغالي اسمه «داموتا فيجيا». تقول:

«إلى أي رجل كريم يتحدث اللغة الإنجليزية في (أمبوما).

سيدي العزيز.
لقد وصلت إلى هذا المكان قادماً من زنجبار وفي صحبتي مائة وخمسة عشر إنساناً، رجالاً ونساء وأطفالاً. إننا لا نستطيع أن نشتري شيئاً من الأهالي، الذين يرفضون ما نقدمه لهم من الثياب والخرز ويجدونه مدعاة للضحك والسخرية. لا يمكن شراء الطعام في هذه البلاد إلّا في أيام الأسواق، ونحن نكاد نهلك من الجوع ولا نقوى على الانتظار. لا أعرف من أنت، وقد سمعت بوجود رجل إنجليزي في (أمبوما). لكنك مسيحي وجنتلمان، لذلك فإنني أتوسل إليك ألا تصمّ أذنيك عن ندائي. ضروري أن يصلنا المدد في غضون يومين وإلّا فإننا هالكون لا محالة».

أرسل له (فيجا) المدد المطلوب، وفي الثامن من آب/ أغسطس وصل (ستانلي) إلى (بوما) ـ التي سماها في رسالته (أمبوما) ـ وصل مع

من بقي من أتباعه في حالة لا توصف من الجهد والإعياء. كان قد مضى على بدء رحلته من زنجبار قرابة ثلاثة أعوام، وقطع أكثر من سبعة آلاف ميل. حين بدأ كان معه مئتان وخمسون، وحين وصل إلى (بوما) كان قد بقي منهم أقل من النصف. بعضهم هرب منه في الطريق، وبعضهم أهلكه المرض، وبعضهم قتل في المعارك التي خاضها.

أجهش (ستانلي) بالبكاء، بينما أخذ أتباعه يغنّون غناءهم الأفريقي عند النصر في الحرب، بأصوات ضعيفة متعبة. سوف يحزن أكثر، فما يزال القدر يخبّىء له مزيداً من الألم.

حين عاد إلى زنجبار، وجد رسالة جرحت قلبه جرحاً عميقاً، من خطيبته (ألسون بايكْ). كانت فتاة أمريكية في السابعة عشرة، ابنة ثري يهودي من (سنْسناتي). تعاهدا على الزواج ووقّعا ميثاقاً بذلك يقول:

«نقسم على أن نظل وفيّين أحدنا للآخر، وأن نتزوج حالما يعود هنري مورتن ستانلي من رحلاته في أفريقيا».

كان يسمّيها «الحلم والملاذ والأمل»، ولكنها لم تستطع الانتظار، فتزوجت رجلاً مليونيراً من (أوهايو).

سمى قاربه (ليدي أليسون) على اسمها. كان قارباً من عدة أجزاء، تُفك ويعاد تركيبها، غرق في ما بعد في مياه نهر (لُوالابا). وكان يحمل صورتها في جيب (جاكتته) الداخلي قريباً من قلبه.

التقى أثناء طوافه حول بحيرة فكتوريا بالكاباكا (متْسا) ملك الـ (بوغاندا). وجده يميل إلى اعتناق الإسلام، فأغراه بالدخول في المسيحية، ووجه نداء عبر صحيفتي الـ (ديلي تلغراف) والـ (نيويورك هرالد) بإرسال مبشرين إلى (بوغاندا). سوف يتدفقون وشيكاً على شواطىء بحيرة فكتوريا، وفي أقل من عشرين عاماً سوف تصبح يوغاندا بأكملها مستعمرة بريطانية.

خرج (ستانلي) من بلاط ملك الـ (بوغاندا) سعيداً مرتاح الضمير، فقد أحس أنه حقق هدفاً من أهداف (لفنجستون). ولكن يديْه سرعان ما تلطّختا بالدماء، وكانت وصمة لاحقتْه طول حياته.

وصل إلى جزيرة في بحيرة فكتوريا، تسمى (بمْبيري). طلب من أهلها أن يبيعوه الطعام والمؤونة، فرفضوا. شنّ عليهم الحرب فقتل منهم أربعة عشر. لم يكتف بذلك، بل عاد إليهم في اليوم التالي «كي يلقنهم درساً»، فأخذهم بغتة، وغمرهم بنيران بنادقه. كانت مذبحة قتل فيها أكثر من مائة إنسان. كتب في مذكرته مزهواً بما حققه من (نصر):

«يا له من نصر عظيم! سارت قواربنا جذْلى بحذاء شاطىء البحيرة. سبعة وثلاثون قارباً. كانت المجاذيف تضرب الماء على دقات الطبول وأنغام الأبواق، والأعلام الإنجليزية والأمريكية والزنجبارية ترفرف في الهواء. كان منظراً منعشاً بحق».

كانت رحلته بتمويل من مصادر إنجليزية ـ أمريكية، وقد حق للأعلام الإنجليزية والأمريكية أن ترفرف في الهواء. أما العلم الأحمر القاني، علم سلطان زنجبار، فكان كما تنشر الرماد للريح. لقد

استعان (ستانلي) بالزنجباريين لأنهم كانوا أدرى بتلك الدروب. سوف يلتقي عما قريب بالعربي الأسطورة، حامد بن محمد المعروف بـ (تبوُّتِبْ)، الرجل الذي حمّلوه أوزاراً في تجارة الرقيق، بعضها صحيح وأغلبها محض افتراء. كذلك فعلوا مع العربي السوداني الزبير (باشا) وِدْ رحْمة، وولديه رابح وسليمان. وهي من الأوزار التي يحملها العرب إلى اليوم ـ عن طيب خاطر ـ بدلاً من الجُناة الأصليين.

١٤

حين عاد (ستانلي) إلى لندن في كانون الثاني/ يناير عام ١٨٧٨، أستُقبل استقبالاً محيّراً. اعتبر كثيرون اكتشافه لنهر الكنغو أعظم اكتشاف في أفريقيا، ووجد ترحاباً على نطاق واسع. وفي المقابل استقبله كثيرون بفتور واضح. وقد حزّ في نفسه أن بعض المقاعد كانت شاغرة في قاعة (سانت جيمز)، حيث ألقى محاضرة عن رحلاته لأعضاء الجمعية الجغرافية الملكية.

أسوأ من ذلك أن الحكومة لم تتحمّس لاقتراحه أن تستعمر بريطانيا حوض نهر الكنغو. وكتب في مفكرته:

«لقد عجزت عن فهم هؤلاء الإنجليز، إما أنهم يظنّون أنني أعمل لمصلحتي الخاصة، أو أنهم يعتبرونني كاذباً.. كان جزائي أنهم يصفونني بأنني لست أكثر من مغامر يبحث عن الثراء... ونظير

إغاثتي لـ (لفنجستون) أسموني محتالاً. وحين أحاول تحريك عزائمهم للعمل يسخرون مني ويقولون أنني غِرٌ لا أفهم أمور المال والتجارة».

كان الإنجليز بالفعل في شغل عن الكنغو في ذلك الوقت. كانت الحكومة منصرفة إلى أمور أخرى، مثل أحداث البلدان وديون الخديوي في مصر. وكان عدد كبير من السياسيين ورجال المال غير متحمّسين للدخول في مغامرات استعمارية جديدة. كانوا مثل رئيس وزراء ليوبولد، يقدّرون أن إقامة مستعمرة في الكنغو، تحتاج إلى رأسمال كبير، لن يدر ربحاً إلّا بعد زمن طويل. حتى رجال الكنيسة لم يكونوا متحمّسين. كانوا منصرفين إلى فتح إرساليات في يوغندا ونياسالاند.

كل ذلك كان يثلج صدر ليوبولد. كان سفيره في لندن يرصد تحركات الرياح ويرسل إليه الأخبار أولاً بأول فتنزل على قلبه برداً وسلاماً. فلينتظره، ولكن يجب ألّا ينتظر طويلاً. صحيح أن الإنجليز ليسوا متحمّسين لاستعمار الكنغو اليوم، ولكن مَن يضمن أن شهيّتهم لن تنفتح غداً؟ هؤلاء القوم الماكرون، إذا أرادوا شيئاً حصلوا عليه! فلينصّب الشراك لـ (ستانلي) وينتظر.

أما (ستانلي) فإنه إزاء صدود الإنجليز وسخريتهم، فقد ندم أنه لم يستجب من قبل لدعوة الملك. أول ما رست سفينته في ميناء (مرسيليا) في الطريق إلى لندن، وجد في انتظاره دعوة من ليوبولد لزيارته في بركسل. كان (ستانلي) يعلم أن الملك لن يتحدث معه عن أنوع النباتات والطيور في غابات الكنغو، فضرب عنها صفحاً. سوف ينيخ آماله وأحلامه عند قوم أجدر بها وأقدر على تحقيقها.

وهكذا حين أعاد ليوبولد الكرّة في شهر حزيران/ يونيو عام ١٩٧٨، سارع (ستانلي) إلى تلبية الدعوة. وصل إلى بركسل في الحادي عشر من حزيران/ يونيو، فاستضافه الملك في قصره وأسبغ عليه ألواناً من بذخ الضيافة أدارت رأسه، كما حدث من قبل مع أولئك العلماء الأجلّاء. لكنه لم يفاتحه في موضوع الكنغو. تركه أياماً يتقلب في ذلك الترف ولا يقول له شيئاً.

عرف (ستانلي) مقاصد الملك فيما بعد على مستوى أدنى من مستوى صاحب الجلالة. في باريس في شهر آب/ أغسطس افتتح عدد من أتباع الملك المفاوضات مع (ستانلي) في موضوع الكنغو. كانت مفاوضات دقيقة مفصّلة عن الأسعار والتكاليف والوسائل والسُّبُل.

إلّا أن (ستانلي) لم يكن أقل مراوغة من الملك. لم يلتزم لهم بشيء. عاد إلى لندن وحاول من جديد أن يُذكي حماسة الإنجليز على استعمار الكنغو. ولا من مجيب. ولم يكن يعلم أن صورته عند الإنجليز قد ساءت تماماً، فقد أرسل القنصل البريطاني في زنجبار تقريراً سرياً إلى وزارة الخارجية وجّه فيه اتهامات دامغة لـ (ستانلي).

كان رجلاً يدعى (دكتور جون كيرك)، وقد ثارت العداوة بينه وبين (ستانلي) لأن هذا اتهمه على الملأ في لندن بأنه تقاعس عن نجدة (لفنجستون). كال له (دكتور جون كيرك) الصاع صاعين، فاتهمه في التقرير بأنه اتخذ لنفسه محظية زنجية. كان ذلك أفظع ما يمكن أن يُتّهم به رجل (أبيض) في ذلك الزمان. لم يكتف بذلك بل اتهمه بالقتل والنهب والاتجار في الرقيق.

كانت وزارة الخارجية بلا شك مثقلة بالعُنجهية الطبقية الإنجليزية، فسارعت إلى تصديق (دكتور كيرك). أوَليس إنجليزياً؟ ومن هذا الـ (ستانلي)؟ أليس من ويلز؟ أليس أمريكياً؟ ألم يكن لقيطاً نشأ في ملجأ أيتام؟

إذاً لا مفرّ من ليوبولد الثاني ملك البلجيك. في خريف عام ١٨٧٨ قرر (ستانلي) أن يضع نفسه تحت تصرف الملك، ويرتبط معه بعقد عمل لمدة خمس سنوات.

ماذا تطلب مني يا صاحب الجلالة؟ مشاريع بسيطة... مشاريع علميّة وإنسانيّة. ثلاثة مستشفيات.. بعض محطات للبحوث.. دراسة خطة للمواصلات النهرية تربط أعلى نهر الكنغو بأسفله. هذا كل ما في الأمر... إنما عليك بمراعاة السرّية التامة... لا تقل شيئاً لدزرائيلي.. سوف يتم كل هذا بإشراف الاتحاد الأفريقي الدولي.

إلّا أن (ستانلي) لم يكن ساذجاً. كتب في مفكّرته:

«هذا الملك سياسي داهية. إنه ذكي جداً! ولكنني لم أجلس معه كل هذه الساعات دون أن أعرف حقيقة نواياه... إنه يريد تحت غطاء (الاتحاد الأفريقي) أن يجعل من حوض الكنغو مستعمرة بلجيكية».

١٥

طغى حبّ المعرفة لديَّ على الكُره، واستيقظ عندي الحسّ الروائي، فأصبحت أنظر إلى «مستر سين» كأنه شخص في رواية. أراقبه يصول ويجول، ويحرُّ ويبرد، ويُرغي ويُزبد ـ كان حقيقة يُرْغي ويُزبد ـ وأتعجّب، وأقول لنفسي «ما الذي جعل هذا الرجل هكذا؟ ما الذي حدث له في حياته جعله بهذه التعاسة؟» ويا للغرابة، أصبحت أحسُّ تجاهه إحساساً لا يبعد عن الرّثاء.

مرة طلب منه المدير العام، دون سابق إنذار، أن يحضر فوراً ليعرض قضية في المجلس التنفيذي. هكذا كان أحمد مختار أمبو، يعامل مساعديه الأوروبيين والأمريكان خاصة، بشدة تقرب من الشراسة ـ من قبيل الدفاع عن النفس، فقد لاقى منهم ما لاقى.

طلب مني (مستر سين) أن أصحبه، فقد كانت القضية تتصل

بعملي. دخلت معه المصعد، وكان بادي الاضطراب، محمرّ الوجه صدره يعلو ويهبط، يحمل حقيبتين منتفختيْن بالأوراق، واحدة باليمين وواحدة باليسار. وكان علينا أن نسير على الأقدام مسافة، من حيث نحن إلى مكان الاجتماع في المبنى الرئيسي.

عطفتُ لحاله، وقلت له:

«تسمح أحمل عنك إحدى الحقيبتين؟».

نظر إليّ متعجباً، وتردّد قليلاً ثم أعطاني الحقيبة.

مشى يهرول، وأنا أسارع الخطى لألحق به، وأسمع صوت شهيقه وزفيره. كان قد جاوز الستين. دخلنا مبنى «فونتنوا» وعدّيْنا فناءه الواسع وقاعاته المتعددة ودهاليزه الطويلة، حتى وصلنا إلى قاعة المجلس التنفيذي. أعشت الأضواء عيني وهلة، ثم جوّلْتُ نظري في الحاضرين. رأيت وجوهاً أعرفها. منهم الرجل الكريم عبد العزيز حسين عضو المجلس عن دولة الكويت. ابتسمت له وابتسم لي بطريقته الودودة دائماً.

كان المدير العام، أحمد مختار أمبو متصدراً المائدة المستديرة، متحفزاً مستأسداً، ممسكاً بمجامع المكان. نظر إلينا ونحن ندخل. كنت أقابله لماماً في المناسبات، لا يكاد يعرفني. فيما بعد سافرنا معاً وحججنا معاً، وأعجبت به وصرنا صديقين، وأصبحت أدعو صراحة لإعادة انتخابه، وهو أمر لم يحبّبْني إلى قلوب المعسكر المناوىء وهو معسكر الغالبين.

رشق المدير العام «مستر سين» بنظرة تخلو من أي ودّ، ولم يمهله حتى يستقر في مقعده، بل قال له فوراً «هيّا».

أحسست بعطف شديد على صاحبي. هذا موقف ليس سهلاً. المجلس التنفيذي هو أعلى سلطة في المنظمة. يصنع القرارات ويرسم السياسات ويأتمر المدير العام والسكرتارية بأمره. ماذا يفعل «مستر سين» المسكين، وقد جاء يهرول حتى انقطع نفسه؟

تعلّقت به الأبصار وساد الصمت. وضع الحقائب على الأرض بجواره. لم يفتحها ولم يأخذ منها أي ورقة يستعين بها. أخذ يتحدث ارتجالاً. كان صوته هادئاً محايداً. تحدّث نحو ربع الساعة، فعرض الموضوع عرضاً بيّناً مقنعاً. وحين فرغ من حديثه أقرّ المجلس التوصية المقدّمة دون أي اعتراض.

عدنا أدراجنا نمشي على مهل، وإن كان «مستر سين» حتى في الظروف العادية، يمشي على عجل، كأنه يطلب شيئاً أو يهرب من شيء، نظرت إليه برهة. ربعة القامة أقرب إلى القصر. متجمعاً على ذاته آخذاً نفسه بالشدة. يرى الأمر جللاً، ولا يميّز أنه ما من أمر يستحق كل هذا العناء. يخاف الشيخوخة، واضحٌ ذلك من مبالغته بالعناية بثيابه ومظهره. يُرعبه الموت، لا بد. حين يجيئه الموت، فلن يكون مستعداً له. استبقاه «أمبو» بعد سن الستين لحاجة في نفس يعقوب.

عرضت أن أحمل عنه إحدى الحقيبتين، كما فعلت من قبل. رفض وألححت فرفض بإصرار أدهشني. سبحان الله. كأنه لا يأمنني على أوراقه، فكيف استأمنني عليها ونحن رائحان؟ قلتُ لعلّ تلك

التجربة الإنسانية الفريدة التي ربطت بيننا وهلةً ـ رجلان يهرولان، كلٌّ منهما يحمل حقيبة مملوءة بأوراق لا قيمة لها في موازين الحياة والموت ـ قلتُ لعلها تمتد، فأنظر إلى (مستر سين) نظرة جديدة.

أبداً. عاد صاحبي سيرته الأولى. أول ما دخلنا مبنى «ميوليس» حيث هو مساعد للمدير العام، اهتزّ وربا، وسرى في عينيه البريق، وفي وجهه الدماء. لم يتركني استمرىء إحساس العطف الذي أحسست به تجاهه، وهو يركض كأنه تلميذ تأخر عن المدرسة. متى أتعلّم ألّا أشفق على أناس هم في واقع الأمر، أقدر مني وأكثر حيلة على تقلُّبات العيش؟ وكنت أريد أن أسأله: لماذا حمل كل تلك الأوراق وهو لم يستفدْ منها شيئاً؟

١٦

قد لا يصدّق الإنسان، أن أهم موظف في منظمات الأمم المتحدة، بعد الأمين العام، كان إلى عهد قريب صومالياً، هو السيد عبد الرحمن فرح. رجلٌ مؤهّل كفء بجميع المقاييس، يصلح أن يكون رئيساً للوزارة أو رئيساً للدولة.

جلسنا نتحدث في الاستراحة، أثناء انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية في الرياض. قلت له:

أليس عجيباً أن يوجد صوماليون أمثالك، ويكون الصومال بهذه التعاسة؟».

نظر إليّ مبتسماً، وكنت أعرف الإجابة عن سؤالي، فالصومال مثل بلاد كثيرة في العالم الثالث، وهو أسوأ من السودان مثلاً، فقط من

حيث درجة السوء. سألني أسئلة فاحصة واستمع إليّ بدهشة أحياناً وبحزن أحياناً. كان بحكم منصبه في سكرتارية الأمم المتحدة في نيويورك، يعرف حقيقة الوضع في الصومال، ورغم ذلك فقد كان يبدو على وجهه أحياناً أنه لم يكن يتصور أن الحال قد وصل إلى ما وصل إليه.

كنت أحسّ بالحزن كلما زرت الصومال، ولكنني أيضاً كنت أحسّ ببعض الارتياح - إنني أجد بلداً أسوأ حالاً من السودان. كنّا تلك الأيام أواخر عهد النميري، وكان قد ضلّ الطريق وأفلس تماماً من أية أفكار نافعة. ولم يعدم من زيّنوا له، وحسّنوا له سبل الخراب، ثم تنكّروا له، وبعضهم ما يزال يخرّب إلى اليوم.

لكن النميري على الأقل بدأ بداية طيّبة، وأخذ براحاً من الوقت، فقد كان في السودان أشياء كثيرة صالحة حصلت على مدى سنوات، أشياء كثيرة تحتاج إلى جهد ووقت لإفسادها. أما في الصومال المسكين، فقد بدأ زياد بري عهده (الثوري) وهو خالي الوفاض كلية، مثل رجل يفتح شركة وليس في يديه رأس مال.

تزور مقديشو، وما كان أصعب الوصول إلى مقديشو، فلا تجد شيئاً. لا تجد دولة ولا حكومة. ولا توجد حتى أدنى مظاهر العهود الثورية. على الأقل في الخرطوم، عملوا بعض الأشياء، وغيّروا بعض الأسماء، وبنوا التذكارات والأنصاب، وهدّموا كثيراً، وأصلحوا قليلاً. الشعارات في الشوارع والصحف والإذاعة والتلفزيون تخبرك بأن هذه (ثورة) ولك أن تصدق أو تكذّب.

أما هنا في مقديشو، فلا شيء. صور (الزعيم القائد) قديمة باهتة ولا

تكاد تراها لقلّتها. الشعارات بائسة مثل صرخات مكتومة، مثل محاولات إنسان أبكم أن يفصح عن نفسه. لا توجد نُصب ولا تماثيل ولا أيٌّ من مظاهر الأبهة التي تجيء عادة مع هذه النظم (الثورية). هذه ثورة نسيج وحدها بحق، فلا أظن أن التاريخ على طول امتداده، قد شهد ثورة قامت وعاشت بمثل تلك اللامبالاة.

كانت مدينة مقديشو كما رأيتها تلك الأيام، شاهداً بليغاً على سخرية أفريقيا بالحلم الاستعماري الأوروبي. أخذتْ (موسوليني) بكبريائه وصلفه، وجرّدته من ثيابه العسكرية ونياشينه، وحوّلته إلى متسول يقف على باب الكاتدرائية الضخمة التي أقامها الإيطاليون وسط المدينة. ويا له من حلم مجنون. كأنهم أرادوا أن يجعلوها رمزاً أبدياً لإشعاع (الحضارة) الأوروبية.

وقفت أنظر إليها في صباح يوم أحد، أستمع إلى أجراسها تدقّ دقات مُتعبة، تأتي كأنما من بعيد، وكأنها صرخات (حضارة) تغرق. بناء ينهار، بُهتت ألوانه وتساقطت حجارته، وتشققت نوافذه الملوّنة، ودخلت يحدوني حب الاستطلاع فوجدت رجالاً ونساء طاعنين في السن، لا يزيدون عن العشرة، يتلون صلوات باللغة اللاتينية! لا تميّز من وجوههم هل هم إيطاليون أم إثيوبيون أم صوماليون، أم مزيج من كل هؤلاء. هذه الوجوه مثل الأبنية، مثل الشوارع، مثل شعارات الثورة، ذاب بعضها في بعض فكوّنت خليطاً لا يُفصح عن شيء.

مطار مقديشو، كأنهم غيّروا رأيهم فجأة ونفضوا أيديهم. تركوه، لا هو ناقص فيتمّ، ولا تامّ فينقص. الشوارع كأنها أطلال شوارع لمدينة مهجورة من عهد غابر. الأشجار قليلة. لعلّهم زرعوا أشجاراً ذات

يوم، ثم أهملوا أن يسقوها فذبُلت وماتت.

وهذا النُّزل حيث أقيم، لا بد أنه أخذ يتداعى أول ما فرغوا من بنائه. جديد وقديم في الوقت نفسه. رائحة الطلاء جديدة، ولكن الحيطان مشققة مخدّشة. قماش الستائر ليس قديماً ولكنه ممزّق مهلهل. مكيّفات الهواء كالجديدة ولكنها لا تعمل.

كان الانهيار مكتملاً وفظيعاً ـ وهل أقول رائعاً؟ ـ كأنك تشاهد لوحة للفنان الأمريكي المعتوه (آندي وورهول).

وهي جميلة بالفعل، أحببتها رغم كل ما ذكرت. موقعها جميل، وبحرها جذّاب، وتربتها تتوهّج مثل التبر. فيها مساكن ودور لا تخلو من الفخامة على الشاطىء، وفي الحي الذي يقطنه الرئيس. وسط ذلك الموات، تجيش الحياة أحياناً في دفْقات مدهشة. تمتلىء المشاهد بالمصلين، وتعج الطرق بالناس رجالاً ونساء.

في غمرة ذلك الموات، تخطر نساء الصومال بقاماتهن الشوامخ كأنهن أميرات وافدات من زمان آخر.

والرجال يسيرون لا يعبأون بأحد ولا بشيء. كأن الثورة لم تحدث، وكأن زياد بري لم يكن. ترى لبرهة قصيرة ذلك الاحتمال الرائع ـ لو أن هؤلاء البشر أتيح لهم أن يمتدوا في المساحات التي يستحقونها من آفاق الحياة.

١٧

أعْظِمْ بها من وزارة! تشمل الإعلام والثقافة والسياحة. لها وزير ومساعد وزير ووكيل وزارة ومدير عام، وعدة مدراء، بينهم مدير للتلفزيون، ولم يكونوا قد أنشأوا التلفزيون بعد، ولا أحد منهم يهمه الأمر.

لا أحد يرد على التلكسات ولا الرسائل ولا البرقيات ولا التلفونات. وكنت حين تعييني الحيلة ألجأ إلى الملحق الثقافي للصومال في باريس، وهو رجل فاضل اسمه أحمد قورو، فيبذل هو أيضاً قصارى جهده، مستنفراً وزارة الخارجية في مقديشو. ولكن لقد أسمعت لو ناديت حيّاً. لم أدهش حين علمت ذات يوم أنه ترك العمل مع حكومة الصومال، وأصبح لاجئاً سياسياً في لندن. كذلك استقال السفير ونجا بجلده.

كان الصومال ينهار ويتساقط في الداخل والخارج، و«الثورة» ماضية

قدُماً و«الزعيم القائد» يحتفل احتفالاته البائسة، بانتصاراته الموهومة، عاماً بعد عام. أكثر من عشرين عاماً.

لو كنتُ حكيماً لنفضت يديّ حينئذٍ، ورضيت من الغنيمة كما فعل أحمد قورو، ولكنني قلت أسافر إلى مقديشو على أي حال، وقد استبدّ بي أن أعرف أي دولة هي هذه الدولة العجيبة التي أقحمت نفسي في أمورها طواعية واختياراً. وكان صاحبي «مستر سين» يتابع مصاعب علاقتي بالصومال، لا يكاد يخفي سعادته أنني دخلت في ورطة. سوف يقعد مني فيما بعد مقعد القاضي «ن» المتهم، أنني بدّدت مال المنظمة على قلّته، في السفر والدراسات وإرسال الخبراء إلى الصومال، دون أي أثر يذكر، ولم أكن وحدي في ذلك، لو يعلم، فقد وجدت في مقديشو عشرات أمثالي، من موظفي منظمات الأمم المتحدة وخبرائها، ومنظمات الجامعة العربية وغيرها يلاحقون سراب الصومال الخادع.

لم أجد أحداً ينتظرني حين وصلت، كنت قد تنقّلت من طائرات إلى طائرات، وغفوْتُ وصحوتُ في مطارات بعد مطارات. حتى مكتب الأمم المتحدة للتنمية لم يحرّك ساكناً، وجدت فيما بعد أن مديره الهولندي قد يئس تماماً من عمل أي تنمية في الصومال، فاستسلم لتيار الخمول السائد، وانصرف إلى لعب «الجولف» وصيد السمك وعمل رحلات في البر. والصومال بلاد متنوعة الجمال، مليئة بالمسرات لمن يطلبها.

ولم أجد أحداً من «المسؤولين» في وزارة الإعلام والثقافة والسياحة. لا الوزير ولا نائب الوزير ولا وكيل الوزارة ولا مدير عام الوزارة. وكنت أجد دائماً مدير المطبوعات، وهو أيضاً مسؤول عن شؤون

الرقابة. وإذ إنني لم أتبين صحفاً ولا كتباً، فقد عجبتُ من أمره. أصبحت ألاحق «المسؤولين» كمن يطلب ديناً. ثم ذات يوم، وبمحض الصدفة، وجدتهم جميعاً مرة واحدة، وقابلتهم جميعاً، الواحد تلو الآخر، ببساطة، كأنهم كانوا موجودين دائماً، ينتظرونني، وأنني لم أجدْهم لأنني أعمى، لا أرى الشيء وهو واضح أمامي.

استقبلوني بحرارة بالغة ولطف عجيب ـ وذلك في طبع الصوماليين عموماً، ثم لأنني سوداني، فبين الصومال والسودان صلات وعلائق من نوع خاص، يرون في السودان القدوة والمثل. مثْلُهم من (عرب الأطراف)، عروبتهم قد يُطلب لها البرهان. وأيام الاستعمار الإنجليزي، كانوا يرسلون الصوماليين في بعثات إلى مدارس السودان، وإلى كلية غوردون، ثم جامعة الخرطوم.

بعد الاستقلال، اعتنى السودان بالصومال، فأعانهم بالأطباء والمدرّسين والمهندسين والقضاة وخبراء الزراعة وغير ذلك. شعب الصومال الوفي لم ينسَ ذلك للسودان. هذا إلى جانب وشائج أخرى. فوجوه الصوماليين وسحنهم، لا تكاد تميزها عن السودانيين. وموسيقاهم وأغانيهم، يحبون أحمد المصطفى وحسن عطيّة والكابْلي والبلابل مثل السودانيين.

قلت لمدير عام الوزارة ذات يوم، وكنت قد أنست له بصفة خاصة:

«لماذا لا تجلسون في مكاتبكم؟ أين تذهبون كل صباح؟»، أجابني بتلك الطريقة الصومالية الجذّابة:

«يا أخي أنت ما تعرف أننا في حالة حرب؟ نحن مشغولين في حرب الأوغادين».

«وأنتو في وزارة الإعلام ما لكم ومالْ حرب الأوغادين؟».

«كيف ما لْنا ومال حرب الأوغادين؟ يا أخي الدولة كلها في حالة استنفار».

«طيب يا أخي فهمنا الجيش يحارب في الميدان. مش مفروض الإعلام يساند المجهود الحربي؟».

«نعم. لهذا السبب القيادات في الدولة في حالة اجتماعات مستمرة».

لا عجب أن الدولة انهزمت في حرب الأوغادين. وثمة أمر آخر حيّرني في الصومال. النّظم الدكتاتورية، كما هو معروف، تفتعل صراعات خارجية، تكون حروباً في الغالب، تُقدّم للشعب على أنها دفاع عن تراب الوطن وذوْد عن كرامته. تُعبّأ الجماهير، وتؤجّج نيران العواطف الوطنية، وتقوم المظاهرات. تُحرق أعلام بعض الدول، ويعتدى على سفاراتها، وتقدم العرائض وترسل الاحتجاجات. أصبح هذا إجراءً روتينياً تفعله أي ثورة تحترم نفسها، تُلهي به الناس عن فساد الإدارة، وسوء الحال، وبؤس الحياة في داخل البلد.

إلّا هذه «الثورة» العجيبة التي لم يشهد العالم مثيلاً لها من قبل، اشتعلت نيران الحرب وخمدت، وقُتل من قتل وجرح من أبناء الصومال، وضاعت الأوغادين، ومدينة مقديشو تتقلّب في بؤسها

العادي، كأنْ لا علم لها ولا خبر، و(الزعيم القائد) لا يُسمع ولا يُرى، ووزارة الإعلام والثقافة والسياحة تسير أو لا تسير، بلا وزير ولا وكيل ولا مدير.

١٨

لا أدري من قال «القرن الأفريقي»، والقرن يكون في الرأس، فكأنهم قلبوها رأساً على عقب، وجعلوا عاليها سافلها، وهو أمرٌ لا يبعد عن الصواب. ولو كان استعماراً واحداً لخف البلاء، ولكنهم مزّقوه ثلاث مُزَق. مُزْقة أخذها الإنجليز، فذلك حيث «هرقيسا» في الشمال، ومُزْقة أخذها الطليان، فذلك حيث مدينة «مقديشو»، ومُزْقة أخذها الفرنساوية، حيث جيبوتي اليوم.

كان الصومال مثل لحم لم يسُغْ لطماعه، فتصدّقوا بقطع كبيرة منه على الجيران وأبناء السبيل. أعطوا كينيا قطعة، وأعطوا الإنجليز قطعة لـ «منليك» أمبراطور إثيوبيا لقاء وعده إياهم بمساعدتهم على إخماد الثورة المهدية في السودان. كان داهية لا يُشقّ له غبار، أجاد لعبة الـ (ريال بولتيك) وكان صلاًّ أفريقياً مع أفاعي أوروبا. ففي الوقت ذاته إذ تعاهد مع الإنجليز لإسقاط نظام الحكم في السودان، أبرم

معاهدة مع حكومة السودان للتبادل التجاري.

كذلك أخذ قطعة كبيرة من الفرنسيين، منحوه إياها من حصّتهم في الصومال، إذْ وعدهم سراً أن يساعدهم ضد الإنجليز لبسط نفوذهم في جنوب السودان. ولو أن ذلك حدث بالفعل، وقد كاد يحدث، إذاً لتغير الوضع كلية في السودان، ولرأينا اليوم في جنوب السودان دولة (فرانكوفونية) ناطقة باللغة الفرنسية. ومن يدري. لعلّ السودان كان سوف ينجو من كثير من التعاسة ووجع القلب.

إلّا أن القوتين الأوروبيتين وقفتا وجهاً لوجه في (فشوده) في أعالي النيل، وحملقت العيون الزرق في العيون الزرق بغضب وأشرعت المدافع الأوروبية قبالة المدافع الأوروبية، وكادت تنشب الحرب ثم رأوا رأياً وأبرموا أموراً، ورضي الفرنسيون بالانسحاب، وترك ذلك الجزء من أفريقيا للإنجليز.

ماذا رأوا في الصومال؟ كان يفي بحاجة أهله، وكانوا في الغالب من البدو رعاة الإبل، وقليل من الزراعة وقليل من التجارة. لكنه لم يكن مثل الكنغو حلماً يسيل اللعاب. لم يكن فيه ذهب ولا فضة ولا ماس ولا بترول ولا رقيق ولا أراضٍ واسعة خصبة للاستيطان. وكان أهله مسلمين كلهم لا سبيل إلى أي نشاط تبشيري بينهم. لماذا لم يتركوه وشأنه؟ لماذا قطّعوا أوصاله بكل ذلك الاستهتار؟

يقول مؤرخ إنجليزي بسخرية واضحة:

«... أثناء ذلك انتهى الصراع الفاتر (بين بريطانيا وفرنسا) على البلاد الفقيرة على ساحل البحر الأحمر، وصحارى الصومال، دون

أن يخلّف وراءه مرارة كبيرة».

كان الصومال في واقع الأمر، شيئاً ثانوياً، بلداً لا يؤبه له، مجرد محطة في الطريق، تلهت به القوى الأوروبية بعض الوقت في لعبة الشطرنج المدمرة، بعضها مع بعض. كان مساحة فارغة على الخريطة، يجب أن تُملأ. كان الاستعمار الأوروبي في أوْجه، مثل كلب أصيب بالسُّعار، يعض وينهش دون سبب.

فهم (منليك) الداهية أصول اللعب، ولم تكن يده غُفلاً من أسباب القوة، فقد كبّد الجيش الإيطالي في موقعة (عدوه) هزيمة نكراء جللتهم بعار حاولوا أن يغسلوه باحتلال إثيوبيا بعد ذلك، في عهد موسوليني. رمى (منليك) بسهم، وخرج بنصيب الأسد ـ أسد يهوذا.

هكذا حكموا على الصومال البائس بالشقاء زمناً لا يعلم مداه إلّا الله. شعب ذو أنفة وكبرياء وملاحم بطولية وذاكرة ترجع إلى الوراء بعيداً. تركوه ممزّق الأوصال، مهزوم الهوية أجزاؤه يحن بعضها إلى التوحّد مع بعض. ولا حول له ولا قوة.

كان الصومال، غداة استقلاله عام ١٩٦٠، يحتاج إلى معجزة. يحتاج إلى زعماء ذوي حنكة ودراية وبصيرة، يلملمون أجزاءه المبعثرة، ويعيدون له إحساسه بذاته. وبدا أول الأمر أن ذلك قد يحدث. ثم حلّت الكارثة مع (ثورة) زياد برّي.

١٩

في زيارتي التالية دلّني ابن حلال على (بنسيون) صغير تملكه سيدة إيطالية طاعنة في السن، من بقايا الوجود الإيطالي في الصومال. علمت منها فيما بعد، أنها وُلدت في الصومال، ونشأت وتزوجت وأنجبت في الصومال. استقل القطر، وجلا الإيطاليون، ومات عنها زوجها، ولكنها آثرت أن تبقى في المدينة التي ألفتها وأحبّتها، مع من فضّل البقاء من أبنائها وبناتها.

لو كان لي من الأمر شيء، لفتحت أبواب العالم العربي على مصاريعها لـ (التلْيان) و(الأقْريق) اليونانيين ـ خاصة اليونانيين ـ فهؤلاء أوروبيون ليس فيهم عنطزة المستعمرين، تجدهم في الحارات والأسواق، يكدحون لكسب عيشهم كسائر الناس، يُصلحون السيارات، ويبنون العمارات، ويبيعون الجبنة والزيتون.

الأقريق أفل نجمهم ودالت دولتهم قبل ظهور المسيح عليه السلام، فلم يستعمروا بعد ذلك أحداً ولم يتسلّطوا على أحد. والتليان كذلك، انتهى أمرهم مع نهاية الـ (باكس رومانا)، اللهم إلّا من بضع سنين على عهد زعيمهم المخبول (موسوليني)، الذي ظن أنه يرجع زمان القياصرة ويوقف الفلك عن الدوران. إلّا أن التليان، مثل الأقريق، مثل العرب، كانوا قد شبعوا من المجد، وأخذوا حظهم من الفتوحات والغزوات، فأصبحوا كما قال الحُطيئة للزّبْرقان:

دع المكارمَ لا ترْحلْ لبُغْيتها
واقْعدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي.

حيثما وجدتَ الأقريق والتليان في بلاد العرب، وجدت خيراً وبركة. وقد يكون أن كل ما حدث للسودان من مصاعب بعد الاستقلال، هو بسبب جلاء هذين العنصرين الطيبين منه. ولعل هذه تكون (إيديولوجية) لنظام جديد، فيقوم ضابط في الجيش يحب هذين، ويعمل (ثورة) يكون شعارها (إعادة الإقريق والتليان إلى بلاد السودان).

حمدت الله أن التاريخ قد دار دورته، فقبلت هذه السنيورة الإيطالية أن تكون صاحبة (بنسيون) في مقديشو، بدل أن تكون زوجة لحاكم روماني في سورية أو بلاد أفريقية. قبِلتني نزيلاً عندها في الـ (كروشي دي سود)، وكنت قد تعبت من صراصير هوتيل (جوبا) وفئران نزل (العروبة).

وجدت نزلاً صغيراً من نحو عشرين غرفة، أغلبها محجوز على طول العام لموظفي وكالات الأمم المتحدة وهيئاتها، والهيئات

والصناديق العربية. كانوا مثلي يذهبون ويجيئون، يحدوهم الأمل أن تحدث معجزة ويلمع فجأة بريق ضوء في غياهب الصومال. تتحرك المشاريع، وتجيش الطاقات، وتعتمل الحماسة في الصدور، ويتحسّن الأداء الحكومي. يكتبون في تقاريرهم إلى منظماتهم، أن النظريات التنموية التي سهروا على دراستها وتمحيصها في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم، في نيويورك وباريس وروما وفيينا وجنيف، أنها برهنت على صلاحها وقابليّتها للتطبيق. أن تلك الحالة المستعصية في الصومال، بدأت تستجيب للعلاج، انتظمت دقات القلب، وهبطت درجة الحرارة. فتّح المريض عينيه، وانفتحت شهيته للطعام والشراب. كان الصومال بالفعل، مثل حالة مرضية نادرة، من الحالات العسيرة التي ينكب عليها الأطباء يجرّبون فيها فنهم ومهارتهم، وإذا نجحوا، يجدون تلك المتعة المهنية النادرة التي تهوّن عليهم مصاعب عملهم. ربما لأجل ذلك أغدقت منظمات الأمم المتحدة من الخبراء على الصومال، ما لم تغدق إلّا على قليل من بلدان العالم الثالث. كنت مثلهم في ذلك، وأيضاً، كما أدركت فيما بعد، أنه كان يحدوني حافز آخر، هو الشعور بالذنب.

قلت إن ابن حلال قد توسّط لي لدى السيدة الإيطالية فقبلتني نزيلاً عندها، فدخول الـ (كروشي دي سود) في مقديشو لم يكن أقل صعوبة من دخول نادي (الأثينيَم) الأرستقراطي في لندن. وقد كان سودانياً ـ بمحض الصدفة. أقول بمحض الصدفة، لأن أبناء الحلال، وبنات الحلال، لم ينعدموا في الدنيا، من سائر الملل والنّحل، وإن بدا الأمر بخلاف ذلك أحياناً. وتصوّر إن استطعت، مدى سعادتي بتلك النّعمة السابغة. ذلك من بعض بركات السفر والترحال في آفاق الأرض، إن الإنسان قد ينسى لطائف هبات المولى سبحانه وتعالى عليه، لكثرة ما ألفها واعتاد عليها.

فجأة تستعيد طعم (الجدّة) ومذاق (الدّهشة)، كما يحلو لبعض إخواننا النقاد أن يقولوا. وهم على حق. وهل الشباب إلّا هذا؟ وهل الشيخوخة إلّا فقدان هذا؟ أنظر إلى لبيد:

ولقد سئمت الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيدُ.

لأنك لم تسافر إلى مقديشو يا عمرك الله. كان الكاتب الإنجليزي (أولْدس هكْسلي) يقول:

«إذا لم تكن قد قطعت تذكرتك إلى أثينا فإنك لم تجرّب شيئاً» ـ يقصد أثينا حين كانت أثينا. وأنا أقول «إذا لم تزُرْ مقديشو فإنك لم ترَ شيئاً».

إذهبْ إلى مقديشو، إذا مللت الحياة لكثرة ما أغدقت عليك من هبات لم تعد تحسُّها أو تراها لكثرتها، فاذهب إلى مقديشو. إذا مللت الدار الواسعة والسيارة الفارهة والمائدة العامرة، والثياب الزاهية، فاذهب إلى مقديشو، خاصة في هذه الأيام. سوف ترى وتسمع عجباً. سوف يفارقك الملل، وتستيعد طعم (الجدّة) ومذاق (الدّهشة). ويقيني أنك سوف تجد وسط كل الخراب الذي تقرأ عنه وتسمع، تلك السيدة الإيطالية الباسلة، إن كانت ما تزال على قيد الحياة، تجدها تدير (بنسيون الكروشي دي سود) بكفاءة ومقدرة، وسط كل ذلك الدمار.

سوف تعطيك غرفة نظيفة، وسريراً مريحاً، وطعاماً بسيطاً، لا يسبّب لك التخمة. ولعلي لا أكون مخطئاً إن قلت لك، إنك سوف تلقى

في العشيّات، في فترات الهدنة بين المعارك، كل القادة المتحاربين، يسمرون في مقهى البنسيون، يشربون قهوة الـ (كابوشينو) أو ما هو أقوى، يتمازحون ويتضاحكون، ثم يعودون إلى حروبهم التي لا يموتون هم فيها، ولكن يموت الرجال والنساء والأطفال، من شعب الصومال الكريم المسالم.

٢٠

كنت أذهب وأجيء كمن يحلُّ ديْناً، كمن يقضي نَذْراً، كمن يكفّر عن خطيئة، وكأن في الصومال عوضاً عن السودان.

لأنني كنت أعيش في باريس، وباريس (مدينة النور) كما أخبرنا أساتذتنا من الروّاد، من مصر ولبنان، وعرب البحر الأبيض المتوسط، المنجذبين أبداً إلى حواضر أوروبا. ومَنْ يلومهم؟ إنه عالم جذّاب، وباريس مدينة مضيئة فعلاً، ربما أكثر مما زعموا لنا، وبطرق مغايرة عمّا زعوا لنا.

زرتها أول مرة عام ١٩٥٤، جئتها من لندن. وما هي إلّا ساعة بالطائرة، أو بعض يوم بالقطار والسفينة والقطار. لكنها دنيا أخرى. كنت متلفّعاً بعباءة الحضارة الأنجلو ـ سكسونية، شغوفاً بآدابها، مقبلاً على تاريخها، معجباً بنُظمها وأساليبها في العيش. أعلم

بالطبع أن الإنجليز قد فتحوا السودان واستعمروه دون وجه حق، وأنهم فعلوا الأفاعيل بمصر منذ عهد محمد علي وإسماعيل، وأنهم أعطوا اليهود وعد بلفور، مما نتج عنه ضياع أرض فلسطين الغالية أخرى الليالي، وأنهم عاثوا ما شاءوا بأرض الرافدين، وتركوا جزيرة العرب (مثل الخباء المُبوَّق).

نعم، كل ذلك لم يكن خافياً عني. إنما سبحان الله. الشباب يفعل كما وصف الحسن بن هانيء أن الخمر تفعل بالمرء. تريك القبيح. الحكمة تجيء ضُحى الغد، وقد لا تجيء أبداً. وإذا كان في الشباب عذرٌ عن الضلال، فأيُّ عذر للمرء إذا ضلّ بعد ضياع الشباب؟

في تلك المرحلة الهوجاء من العمر، من يلتفت إلى هذه القضايا المعقّدة؟ الذي تعرفه وتحسُّه وتلمسه أنك في عالم جديد، يضغط على سمعك وبصرك وعقلك في كل لحظة. وأنت مستنْفَرُ الحواس، يقظ العقل، مليء بحب المعرفة، شهيتك متفتحة للحياة. هل تجلس وتفكر في الآثار المترتّبة على معركة أُمْ دُرْمان وصندوق الدّين في مصر، وكيف سرق دزرائيلي قناة السويس، وكيف تآمر الإنجليز والفرنسيون على تقطيع أوصال بلاد الشام، وماذا فعل سايكس وبيكو، وماذا فعل لورنس، وماذا فعلت قيرْ ترود بلْ؟

مستبْعد هذا، أغلب الظن أنك تُلقي بنفسك في اللُّجة، وتغطس وتطفو وتضيع وترجع. عندك متّسع من الوقت. ما أفسح ما يبدو لك العمر حينئذٍ. غداً.. وغداً.. وغداً. سوف تجد بُراحاً من الوقت للتأمل، والتحسّر على الزمن الضائع. فسحة من الوقت للندم.

حينئذٍ فقط، تفهم معنى قول الحسن بن هانيء:

كان الشبابُ مطيّة الجهل
ومُحسِّن الصَّبَوات والعذْلِ

لا عليك الآن، فأنت في عشرينيات العمر، وهذه مدينة الضوء. الضوء في باريس ليس كما عهدت في لندن. هذا جزء من جسد القارة الأوروبية الممتد، وبلاد الإنجليز تنتمي إلى العالم الجرماني ـ الإسكندنافي الداكن. كانت لندن تلك الأيام، سماؤها أبداً كالحة بسبب السّحاب الذي يغطّيها أكثر العام، والضباب الكثير المخلوط بدخان الفحم الحجري من مداخن البيوت، اليوم تغيّر الطقس، وتوقف استعمال الفحم، وقلّ الضباب. كأن الظلام، يومئذٍ هو الأصل، والضوء هو الاستثناء.

رائحة لندن رائحة مبتلّة. رائحة الشوارع المبتلة، رائحة الثياب المبتلة، رائحة القطارات المبتلة، رائحة البيوت المبتلة. أضف إلى ذلك روائح الطعام. القرنبيط المغلي والكرُنبْ المغلي، والبقْل المغلي، والبيض المقلي ولحم الخنزير المقلي، والبطاطس المقلي. أضف إلى ذلك رائحة البحر الذي يحيط بالجزيرة ويعترض مشارع الرياح.

رائحة باريس خليط من روائح القهوة والثوم والنبيذ والعطور والخبز الساخن الذي خرج لتوه من الفرن. لم يكن الإنجليز يشربون القهوة تلك الأيام ولا يستعملون الثوم في طهيهم، وما يزالون إلى اليوم يعتبرون الإسراف في استعمال العطور من فساد الذوق. وكان خبزهم بلا رائحة.

اليوم تغيّر الحال قليلاً. بدأ الإنجليز يقتربون متردّدين من القارة الأوروبية ورغم معارضة جزء كبير من الرأي العام، كاد النفق الذي يربط بينهم وبين فرنسا أن يتم. لا عاصم لهم بعد اليوم. سوف

يدخلون في غمار العالم الأوروبي العريض، شاءوا أو أبوا. تجد الآن في بعض الأماكن القهوة الفرنسية والثوم في الطعام، وفي بعض المخابز تجد الـ (Bagette) الخبز الفرنسي المستطيل مثل العصا.

كأن الضوء في باريس هو الأصل والظلام طارىء عليه. وليس فقط لأن الشمس تسطع أكثر والسماء أقل كُدْرة مما هي في لندن، إنما أيضاً اتساع الشوارع والميادين، وطراز العمارة، وألوان أسقف البيوت. ينعكس الضوء عليها بطرائق وألوان تُعطي المدينة بهاءً لا يوجد في لندن.

ميدان الطرف الأغر، رغم ما بذله الإنجليز من جهد، لا يقاس بميدان الـ (بلاس كونكورد) وشارع الـ (Mall) الذي يؤدي إلى قصر بكنجهام، لعلّه أعرض في الواقع، ولكن لماذا يخيل إليك أن الـ (شانزاليزيه) أكثر اتساعاً؟ حتى نهر التايمز العتيد يبدو متواضعاً بالقياس إلى نهر السين.

هذه مدينة تجعلك تتذكّر باستمرار، إذْ لندن تجعلك تنسى، أشياء تجيئك كأنما من ماضٍ سحيق ومن عصور غابرة. لعلها الأشياء التي أخذوها عن العرب زمان تألق مجدهم في الأندلس، أيام كانت غرناطة وأشبيلية وقرطبة. أشياء أخذوها ثم أغفلوا أن يذكروها، عن قصد أو عن غير قصد. بل إن العرب أنفسهم نسوا أنهم أعطوها ذات يوم.

لعلنا حين نقع في غرام حضارات الآخرين، إنما نحبّ أجزاء ضائعة من أنفسنا، لا نعلم أنها جاءت من عندنا، ونظنّ أنهم اجترحوها من العدم.

٢١

اعترض طريقي منذ أول يوم، رجل معتدل القامة، متوسط العمر، دقيق تقاطيع الوجه، كأنه من قبيلة الـ (بني عامر) في شرق السودان، الدّم الحامي والسامي فيه بكميات متساوية. ليس به عاهة ولا توجد في عينيه ذلّة أو انكسار، تقدّم نحوي كأنه كان ينتظرني، ونظر إليَّ بجرأة تقرب من الوقاحة:

«يا سوداني، هات (.....) شلن».

أعطيته ما سأل، عددتها عدّاً، لا أقل ولا أكثر، كأنني أقضي ديْناً، كأنني أوفي نذراً، كأنني أكفّر عن خطيئة.

صار هذا شأني معه، مدة إقامتي، وحين انتقلت إلى هوتيل الـ (كروشي دي سود) لحق بي، لم يكن عسيراً عليه أن يعرف أين

ذهبت. لم يكن متسولاً. كان طالب حق. يدخل يمشي على مهل، وقد يحيّي أحداً، وقد يجلس في المقهى، وقد يطلب قهوة.

لا يتحدث معي ولا يشكرني. يأخذ (حقّه) دون أي إحساس بالجميل. لا يعرف اسمي ولا عملي، وأنا لم أسأله عن اسمه ولا عمله. كان عاطلاً بلا عمل، لا شك.

أنا (سوداني) وكفى ... لست إنجليزياً ولا فرنسياً ولا إيطالياً... الناس الذين تسببوا في البداية فيما حدث له.. لا، ولست زياد برّي، الرجل المسؤول مسؤولية مباشرة أنه الآن عاطل عن العمل.

ماذا أعطيته؟ بضعة شلنات. لا أظنه أخذ مني طول مدة إقامتي أكثر مما قيمته عشرة دولارات. يذهب في سبيله وأذهب في سبيلي. أحياناً أراه في المسجد القريب من الهوتيل في صلاة العشاء. كان يحلو لي أن أصلي العشاء في ذلك المسجد. صوت الإمام حنون حزين، يرتّل القرآن بقراءة وَرْش. أراه نظيف الثياب، حسن الهندام، مؤْتزراً إزاراً يمانياً، وعلى رأسه الطاقية الصومالية المزركشة، يتجاهلني كلية كأنه لا يعرفني. إنه هنا شخص آخر.

ليس بيد الأمريكان ولا الإنجليز ولا الفرنساويين. ليس بيد زياد برّي. إنه هنا، في هذا المكان، يعلم في حقيقة نفسه أن الأمر بيد الذي لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع. سوداني، أو صومالي، مثله. وأيضاً عبد من عباد الله سخّره لما جعله مُسْتَخْلفاً فيه، على قلّته. مثله، عابر سبيل، ضيف على مائدة الحياة. وكون الحياة أعطتني أكثر مما أعطته، وجعلتني أعيش في باريس وهو في مقديشو، وأعمل في منظمة اليونسكو وهو عاطل بلا عمل... آه.

تلك أيام يداولها الله بين الناس وهو العليم الخبير.

باريس. شوارع باريس في شهر آب/ أغسطس جحيم مقيم لأولي النُّهى. مدينة تعرض مفاتنها على قارعة الطريق ولا تترك للخيال بقية. عالم جذّاب، أيْ نعم، لكن ما أبعد كل هذا عن منحنى النيل وعن مقديشو. خيرات الأرض الفرنسية مكدّسة، تلالاً تلالاً، في الـ (مُنُوبِري). الـ (باقتْ) حارٌّ يُقرْقِش، خرج لتوه من الفرن في المخبز على ركن شارع (قوتنْبيرّج). الـ (كرواسان) التي تغنّى بها محمد الصاوي محمد رحمه الله. قرأنا له ونحن صبية في المدارس الثانوية، أنه كان يتمتع بها مع القهوة الفرنسية بالحليب، الـ (كافي أوليه) وهو جالس في الصباح في الـ (تراس) الزجاجي في مقهى الـ (دوم). يقرأ صحيفة الـ «فيغارو» ولا بد.

أي سحر في تلك الأسماء؟ كان (جان بول سارتر) يُلمّ أحياناً بمقهى الـ (دوم)، يجيء من مرابعه المعتادة في (سان جرمان دي بري) ومقاهي الحي اللاتيني حول الـ (بولفار سان ميشيل). معه رفيقته (سيمون دي بو فوار) وحوله المعجبون والحواريون. يجادلون في هيقل وماركس وكيرْكْقارد والوجودية. يلعبون بالأفكار كما تلعب بكرة الـ (بِنج بُنج). لا توجد قيود في ذلك العالم المفتوح.

الأستاذ العميد عشق كل ذلك، وبقية الأساتذة الروّاد، من مصر وبلاد الشام. ومن يلومهم؟ نقلوا لنا نُتفاً من تلك الأفكار، وربما أخذوها مأخذ الجد أكثر مما أراد أصحابها. ونقلوا لنا الأسماء. نقرأ، ونحس النشوة ونصاب بالذعر. يا لها من أسماء! يا لها من أفكار! يا له من عالم جذّاب!

صدقوا. ولكنه (عالم ليس لنا)، كما قال غسان كنفاني رحمه الله. لم نشارك في مخاضاته السياسية، ولا ثوراته الصّناعية، ولا قفزاته الفكرية. تقول، ابن رشد وابن سينا وابن الهيثم وابن خلدون؟ من يذكر لك هؤلاء الآن؟

تمتّعْ بها ما أسْعفتْك، ولكن تذكّر أنّ تحت هذا المظهر اللاّهي، تحت معرض الأزياء المتصل الذي يتدفق أمامك في شارع الـ (شانْزاليزيه)، تحت العبث الفكري والجدل الفلسفي والسياسي في مقاهي الحي اللاتيني، تحت بذاءات حي (مونبارناس) والـ (بيقال) وخلاعة الـ (فولي بيرْجير) والـ (مولان روج) تحت كل هذا قاعدة صلبة من الصناعة والبنوك والشركات العملاقة، والعتاد الحربي، وقطارات الـ .T.G.V الكهربائية السريعة، وخرّيجي الـ (إيكُولْ نورْمالْ سوبيرْ يرْ) والـ (إيكولْ ناشْيونالْ دَ أدْمنسْتراشيون) ـ المعهد القومي للإدارة ـ العقول التي تحكم فرنسا في كل العهود، ومهما تغيرّت النظم والحكومات. ثم بعد كل كذا عام، يجيئهم رجل عظيم حقاً مثل ديجول.

يا لها من أسماء لها في اللّسان طعم الشهد. وقد أعطانا الدكتور العميد رحمه الله عدداً منها. حدّثنا عن (كُورنيېْ) و(موليير) و(راسين) و(بلزاك) و(فكتور هوقو) و(أميل زولا). أسماء.. أسماء.. أسماء. آمن مخلصاً أن يربط مصر بالعالم (الهلّيني) عبر البحر، ومن ثم بفرنسا، فقد كانت (لا فرانْس) في رأيه، هي وريثة (أثينا) وحاملة مشعل الحضارة بعدها.

لا تثريب عليه، فهو عالمٌ آسرٌ بحق. ولعلّني لو كنت مكانه، لفعلت فعله، ورأيت رأيه. ولكنْ ما بال الدكتور العميد، رحمه الله وغفر

له، لن يشك (حسب علمي) أن هومير هو مؤلف (الإلياذة) والـ (أوديسه)، وقد زعموا أنه عاش منذ ألف ومائتي عام قبل ميلاد المسيح، ولكنه شك في أن يكون امرؤ القيس هو امرؤ القيس؟ وما امرؤ القيس مِنَّا ببعيد.

٢٢

لم يكد يستقر بنا المجلس في دار الأستاذ محمد سعيد طيّب، حتى دخل رجل ربعة القامة، أميل إلى الطول منه إلى القصر، مُبيضّ شعر الرأس والشارب والحاجبين، ينحني قليلاً إلى الأمام في مشيه، يرتدي الـ (أوفر أول) الأبيض الذي يميّز الأطباء، لعله في أواخر الستين من العمر. كأنني أعرفه، فقد كان فيه شيء مألوف محبّب إلى النفس، مثل صديق لم تقابله منذ زمن. لكنني لم أكن أعرفه.

لم يصافح الناس، ولكنه حيّا على استحياء، وجلس في مقعد خال بجواري. حينئذٍ قدّمه الأستاذ محمد سعيد طيّب، بأنه الدكتور يس عبد الغفار، أخصائي أمراض الكبد الواسع الشهرة.

علمت في ما بعد من لقاء له مع مجلة «الشرق الأوسط»، أنه ولد عام ١٩١٧ في قرية (تَلا) بمحافظة المنوفية، وهو يصف ذلك بقوله:

«... كنت من بيت متوسط الحال، كان والدي مزارعاً من المزارعين المكافحين... توفي والدي فظهرت والدتي بمظهر عظيم. ظهرت كأمّ يمكن أن تبذل أقصى ما لديها، ويمكن أن تضحي من أجل بيتها وأولادها، فحملتني أنا وأخي في قلبها وأنقذتنا من أعاصير الفقر والحرمان... لقد تمسكت بالصبر والتحمل فصقل الفقر نفسي بالألم، ولا يخلق الرجولة فينا إلّا الألم».

كان واضحاً في سمت الرجل والسكينة التي تحيط به، أنه إنسان شملته عناية الله وسدّدت خطاه. أتاح له تفوّقه أن يدخل مجاناً كلية الطب في القاهرة، وقيّض الله له رجلاً من أهل الخير أعانه على نفقات الدراسة. يقول في ذلك:

«أما عن اختياري للطب فهذا يعود بي مرة أخرى إلى نشأتي الدينية، فقد قرأت في مكتبة جدّي لوالدتي كتباً متنوّعة منها «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي. وعلمت من هذه القراءات أن تعلّم الطب في الشريعة (فرض كفاية). وهذا معناه أنه يجب على أي مجتمع أن يكون به من يتعلّم الطب، فإذا تعلم أحد أفراد المجتمع الطب وعمل به فقد (كفى) عن المجتمع».

بعد تخرّجه بقليل اجتاز امتحان الكلية الملكيّة في لندن ونال زمالتها. يقول:

«ومن الأشياء التي أفخر بها في حياتي العلمية أنني كنت أصغر طبيب حصل على عضوية هذه الكلية العريقة، فقد دخلت امتحانها ونجحت من أول مرة، وكان معي في الامتحان نفسه ستة أطباء من مصر، كان بعضهم يحمل درجة الدكتوراه في الأمراض الباطنية...

إلّا أنني نجحت ورسب بعض حاملي درجة الدكتوراه».

مضى الدكتور يس عبد الغفار في طريقه يحالفه التوفيق الذي يخص به الله سبحانه وتعالى السعداء من عباده، فأصبح من العلماء المرموقين في أمراض الكبد، يشار إليه بالبنان في كل العالم. كان في زيارة عمل قصيرة إلى جدة، وقال إنه ترك مرضاه في المستشفى وجاء ليحضر (ثلاثائية) الأستاذ محمد سعيد طيّب.

حدّثنا الدكتور يس عبد الغفار عن أمراض الكبد، بعد أن طلب منه صاحب الدار. تحدّث لا كما يتحدث الأطباء ولكن كما يتحدث الشعراء والفلاسفة والمصلحون، ولم يكن متدفّقاً في الحديث، كما تجد عند بعض الناس، تحسّ أنك فتحت صنبوراً تدفّق منه الماء، وأن الحديث قد قيل مرات من قبل، وأن الأفكار كاد يصيبها البلى من كثرة ما تردّدت. كان حديثه غضاً طازجاً كأنه يقال لأول مرة. وقد أدهشني فيه انعدام أي ظل للخيلاء أو الرّضى عن الذات، ولو أنه أحسّ بشيء من الزهو لما لامه أحد، بسبب نجاحه الكبير وشهرته العظيمة.

قال إن أمراض الكبد هي أكبر خطر يهدّد الأمة العربية والإسلامية، وأن القضاء عليها مهمة حضارية لا يوجد أهم منها. وضرب لنا أمثلة عدة على صدق قوله. ما أكثر الأدواء التي تتهدد الأمة العربية والإسلامية، ولكن هذا على الأقل داء يمكن علاجه، وفي التاريخ أن حضارات قد انهارت، بسبب أمراض الجسم، قبل أمراض الروح والعقل.

في ختام حديثه قال إن حلمه الكبير هو أن ينشىء في مصر مركزاً

لأمراض الكبد يخدم البلاد العربية والإسلامية كلها، ويهتم إلى جانب العلاج، بالدراسات والبحوث. وقال:

«نحن دائماً ننتظر حتى يجيئنا الأجانب لدراسة أمراضنا. نحن لا ينقصنا العلم ولا تنقصنا الخبرة ولا تنقصنا القدرة، فلماذا لا نتولى دراسة أمراضنا بأنفسنا؟».

يا له من سؤال! لو استطعنا أن نجد الإجابة له، إذاً لوجدنا مفتاح اللغز برمته .وقديماً قال أبو الطيب:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

سألته كم يكلّف إقامة هذا المركز؟ فأجاب «ثمانية ملايين جنيه مصري».

يعني أقل من ثلاثة ملايين دولار، قد يفقدها ثري واحد ذات ضحى، لو نزل سعر الدولار بضعة سنتيمات في بورصة نيويورك!

ليس أقبح من المال في أيدي اللئام، إلّا الفقر في ساحات الكرام، وكان الصحابي الجليل سعد بن معاذ يدعو الله «اللهم إنك تعلم أن الفقر لا يصلح لي ولا أصلح له، فهبني المال». لم يكن يطلب المال لنفسه، ولكن ليفكّ به ضوائق الضعفاء والمحتاجين.

إنما أهل جدة، فيا لهم من إخوان مروءة، ويا لهم من ملبين إذا دعاهم داعي الخير، يصدق فيهم قول أبي العلاء رحمه الله:

يــروقــون ألــفــاظــاً وإنْ لم يــفــكّــروا
وكــتْــبــاً وإن لم يُــصــلــح الــقــلــم الــقــطُّ
ومــا قــســطــوا[١] إلّا عــلَــى المال وحــده
وذلــك مــنــهــم فــي مــكــارمــهــم قِــســطُ[٢]

وكأن الرجل الأَرْحبيّ الدكتور محمد عبده يماني، وكان جالساً جنبي إلى يميني، سمع ما دار في فكري، فقال:

«أنا أتعهد أن نجمع لك ثلث هذا المبلغ من أهل الخير في جدة».

أمّن الناس على قوله، وبدا التأثر على وجه الدكتور يس عبد الغفار، وأخذ يردد «الحمد لله. الحمد لله».

وكان في المجلس رجلٌ يجلس صامتاً، فقد دخل وقعد بهدوء. همس في أذن جاره، فقال:

«السيد حسين القزّاز يتبرع بمليون ريال».

هذا حسين القزّاز رجل الأعمال المعروف، ونظرتُ إلى الدكتور يس فإذا وجهه المضيء قد زاد إشراقاً وظل يردد «الحمد لله. الحمد لله. هذا من فضل ربي. طب حتى أنا جيت بالصدفة، على غير موعد».

كانت ليلة مباركة في دار الرجل الفاضل محمد سعيد طيب. وما أجمل أن يكون الإنسان شاهداً، يرى نبع الخير ينبثق أمام عينيه. قام

ذلك الإنسان المبارك وقال إنه يجب أن يعود إلى مرضاه في المستشفى، وكانت الساعة قد قاربت منتصف الليل. رجل في منتصف السبعينيات من العمر، عليه سيماء أولي العزم من الأولين.

وعجيب كيف أن الخير يولّد الخير، والرّحماء يجذبون إليهم الرُّحماء. بعد أيام في الرياض ذكرته لرجل من الرجال الأماجد المعدودين ممن عرفت في هذا الزمان، الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري. قلتُ ألْفت نظره إليه، فأنا أعلم شغفه بالتعرف على أولي الفضل. تهلل وجهه وقال:

«الدكتور يس عبد الغفار؟ إنه صديقي. أعرفه من زمن».

(١) قسطوا، جاروا.

(٢) قسط، عدل.

٢٣

أعارني صديقي الكاتب الصحافي الأديب، الأستاذ محمود سالم خلال زيارتي الأخيرة للقاهرة، كتاباً لم أكن اطلعت عليه من قبل. وذلك شأنه كلّما أزور هذه المدينة المنيرة، يحلو لي أن أتفيأ ظل معرفته وأدبه، وأذهب وقد انتبهت إلى بيت من الشعر لم أكن قد انتبهت إليه من قبل أو كتاب لم أكن قد قرأته.

أما الدكتور زكي مبارك رحمه الله، فله عندي تقدير عميق. إنه من الأساتذة العماليق الذين وضّحوا معالم الطريق لأجيال سبقتنا وأجيال أتت بعدنا. وقد تميّز بأسلوب جذّاب، وعلم غزير ونظرات جريئة ثاقبة، انفرد بها أحياناً عن الذوق الغالب في زمانه. ولعل الحياة لم تنصفه كما ينبغي، والحظوظ لم تسعفه كما كان يستحق.

لأجل ذلك كله، عجبت غير قليل، لما بدا لي من تحامل في نظرته إلى (بردة) الإمام البوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك في معرض الموازنة بينها وبين قصيدة أمير الشعراء التي نسجها من غزْل قصيدة البوصيري.

ومن الإنصاف القول أنني أكتب بعد قرابة ستين عاماً من زمن كتابة الدكتور زكي مبارك، وأكتب في فيض أثَر وجداني لم يذقه الأستاذ الكبير حين كتب، فقد قرأت (البردة) منذ شهرين في روضة مسجد الرسول الأمين، وشتّان بين أن تقرأ القصيدة في (مصر الجديدة) بوازع التمحيص والنقد، وأن تقرأها في رحاب من رفعت القصيدة تمسُّحاً في أعتابه، في غمرة الحب المحض.

يبدأ الدكتور حديثه بالسخرية من القصة التي ذكرها البوصيري في سبب تسميته لقصيدته بـ«البردة». يقول البوصيري:

«كنت قد نظمت قصائد في مدح الرسول (ص)، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين العابدين يعقوب بن الزّبر. ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى أن يعافيني وكرّرت إنشادها ودعوت وتوسلت، فنمت فرأيت النبي (ص) فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليَّ برداً فانتبهت، ووجدت فيّ نهضة فقمت وخرجت من بيتي».

لا أدري لماذا لم يقبل الدكتور زكي غفر الله له، هذه الثقة المؤثرة، وقد اتفق الأطباء وعلماء النفس، أن الحبّ الصادق يفعل

مثل هذا وأكثر، فما بالك بحب الرسول (ص)، يقول الدكتور:

«وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها، أو قصيدة ينشدها، كما برىء البوصيري بقصيدته، ولو مرض مفتي الديار المصرية ـ لا سمح الله ـ ما استغنى بالبردة عن الطبيب!».

هذا مبلغ علم الدكتور زكي مبارك، رحمه الله وغفر له، وهو جالس يكتب في داره في (مصر الجديدة) عام ألف وتسعمائة وثلاثين وستة، أو نحو ذلك. الله أعلم هل كان الوقت نهاراً أو ليلاً، وهل كان الفصل صيفاً أو شتاء، وهل كان الدكتور رائقاً أم معتكراً.

ومن عجب أنه قبل أن يرحل إلى باريس، كان في الأزهر، مثل الدكتور طه حسين. ورغم ما كان بينهما من خلاف، فقد سار هنا على مذهبه، وذاق بلسانه.

لا يستويان. رجل محبّ، ملأ الحب عليه آفاق نفسه، متجهاً بكليّته إلى من يحب. وآخر لم يفتح الله عليه في تلك الساعة، مثقل بعلم لا فائدة منه في هذا المقام، ولا بركة فيه. نظر بعيون ليست في أم رأسه وذاق بأفئدة الآخرين، لأنه كان قد تكدّرت عليه المنابع. كلّنا تكدّرت عليه المنابع، لذلك فإن «طريق العودة كان أشق».

إنني أصدّق البوصيري. لا بد أن الأمر كان كما وصف. لم تشْفه القصيدة في حد ذاتها، ولكن شفاه الحب. أفاض الله عليه من

أفضاله فاشتعلت جذوة الحياة في جسمه بعد أن كادت تنطفىء، فقام من حينه سليماً معافى. وما العجب في ذلك؟

رحم الله زكي مبارك. لو أن العمر امتدّ به إلى هذا الزمان لرأى كيف تنهار صروح «العقلانية» الأوروبية، التي وضعنا ثقتنا فيها زمناً، فأعمتنا عن الكنوز التي تزخر بها ديارنا ولا نراها. وشتان بين (العقل) و(العقلانية). وتلك صروح أخذ يهدّمها الذين أقاموها أصلاً، مستغلّين الوسائل التي بنوها بها.

يقول الدكتور:

«وهذا نوع من الغفلة قديم، فقد كان الزمخشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن. وكذلك نلاحظ أن البوصيري كرّر عبارة (صلى الله عليه وسلّم) خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبيّ كلّما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين».

عجيب، وعجيب أيضاً أن أوروبيين أمثال (جارودي) بعد أن أمرضتهم مشاربهم الآسنة، جاءوا يشربون من مناهلنا التي نحن عزفنا عنها. وعجيب أن رجلاً مثل المرحوم الدكتور أحمد زكي وهو عالم كيميائي، ومثل الدكتور يس عبد الغفار أطال الله عمره، وهو عالم طبيب، هما أقرب جداً إلى روح البوصيري من الشاعر الأديب الدكتور زكي مبارك.

من مزايا الدكتور طه حسين رحمه الله، وهي كثيرة، أنه كان مرهف الحساسية لتنوع النشاط الثقافي في العالم العربي. كان يدرك أن ريادة مصر وزعامتها، وهما أمران لا خلاف عليهما، ليس معناه أن مصر وحدها تنتج الثقافة ويكون بقية العرب مجرّد مستهلكين. كان يريد لمصر أن تكون واسطة عقد ثمين، مرصّع باللآلىء النادرة، قمراً مُنيراً في سماء عامرة بالنجوم، وليس قمراً وحيداً في سماء مظلمة.

لذلك كان يحتفي بالمواهب العربية حيثما وُجدت. وقد انتبه في وقت مبكّر إلى موهبة تونسية كبرى، لا يزال صاحبها إلى اليوم، ليس معروفاً على نطاق واسع في المشرق العربي. ذلكم هو محمود المسعدي، صاحب «السّد» و«حدّث أبو هريرة قال» و«مولد النسيان». كل كتاب من هذه الكتب، تحفة نادرة، ولؤلؤة عجيبة لا

تتأتّى إلّا لعُتاة الغوّاصين في بحار المعاني. ولا مراء أن محمود المسعدي أمير من أمراء البيان العربي في هذا الزمان.

كتب الدكتور طه حسين منوّهاً بكتاب «السّد» في صحيفة «الجمهورية» القاهرية، بتاريخ ٢٧ شباط/ فبراير عام ١٩٥٧:

«أريد اليوم أن أنتقل بقرّاء هذا الحديث من مصر ومن أدبائها وكتّابها، إلى وطن عربي آخر لا نكاد نعرف عن حياته الأدبية شيئاً ذا بال، لأن ظروف السياسة حالت بيننا وبين الاتصال الدقيق المنظم به وبأدبه آماداً طوالاً، وهو تونس (...).

والأثر التونسي الذي أريد أن أتحدث عنه اليوم قصة تمثيلية رائعة ولكنها غريبة كل الغرابة، كتبها صاحبها محمود المسعدي لتُقرأ لا لتُمثل، ولتُقرأ قراءة فيها كثير من التفكير والتدبُّر والاحتياج إلى المعاودة والتكرار. وحسبك أني قرأتها مرتين ثم احتجت إلى أن أعيد فيها النظر قبل أن أملي هذا الحديث.. وضع فيها الكاتب قلبه كله وعقله كله، وبراعته الفنية وإتقانه الممتاز للغة العربية ذات الأسلوب الساحر النضر والألفاظ المُتخيَّرة المُنتقاة، وقصد بها إلى إثارة التفكير الفلسفي لا إلى التسلية والتلهية، ولا إلى الإمتاع السهل والإثارة اليسيرة، بل إلى تعمق الحياة والفِقْه والنفوذ إلى ما وراءها..».

كتب محمود المسعدي روايته «السُّد» ـ بضم السين مع التشديد ـ عام ١٩٤٠، وأُصدرها بعد ذلك بزمن. وقد فرغ من كل كتبه منذ خمسين عاماً وليس له، حسب علمي، غير هذه الكتب الثلاثة.

شغلته الحياة العامة بعد ذلك. كان من الرّعيل الأول من المجاهدين في سبيل استقلال تونس. وُلد بـ«تازرْكة» عام ١٩١١، وحفظ القرآن الكريم على يدي والده. ثم درس في المدرسة الصادقية العريقة، التي أخرجت عدداً من رجالات تونس البارزين. ثم درس في جامعة السوربون في باريس، حيث حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها.

كان ثاني وزير يتقلّد وزارة التربية في تونس بعد الاستقلال، ومكث فيها وقتاً طويلاً، أرسى فيه قواعد النهضة التعليمية العظيمة في تونس. بعد ذلك تولّى وزارة الثقافة، وآخر منصب قام به كان رئيساً للمجلس الوطني ـ البرلمان.

حين لقيته أول مرة عام ١٩٧٣، كان وزيراً للثقافة. ثم عرفته أكثر أيام عملي في باريس، فقد كان المسعدي حينئذٍ عضواً في المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو. كنت ألقاه بصحبة الرجل العالِم الضّليع الدكتور عزّ الدين جلّوز، الذي كان مندوباً لتونس في المنظمة.

ما كان لي أن أزور تونس ولا أعرّج وأحيّي هذا العملاق من عمالقة الثقافة والأدب في دنيا العرب. ذهبت إليه مع صديقي محمد المصمودي صاحب دار الجنوب. وجدت داراً صغيرة غاية في البساطة في ضواحي العاصمة. دخلنا فإذا المسعديّ مشتملاً عباءة من وبر الجمال. كان اليوم بارداً في شهر شباط/ فبراير. رغم تقدمه في السن، وأنه كان معتلّ الصحة، فقد نشط في استقبالنا وفرح بقدومنا.

وجدناه يقرأ القرآن في مصحف أمامه، وحوله كتب مفتوحة من

بينها كتاب الأغاني. شرّق بنا في الحديث وغرّب بصوته العميق الأجش، وقال لنا إنه يعنى بمسألة جرس الآيات القرآنية وموسيقاها، ويتمنى لو وجد الوقت ليؤلف كتاباً في ذلك. صوته والبريق في عينيه ورنّة السخرية اللطيفة في حديثه، تنبئك أن هذا رجل حدّق طويلاً في مجاهل العقل والروح، وأبحر بعيداً في صُحبة العقول الجليلة في تراث الإنسانية.

كان محمد المصمودي في تلك الجلسة، يسبغ على المسعودي وُدّاً خاصاً، فيه معنى التقدير والاحترام، وأيضاً معنى حُبّ المريد لشيخه. لا عجب، فمحمد المصمودي، مثل صديقه وزميله محمد بن إسماعيل، رجل عميق الثقافة، عظيم التقدير للفكر وصُنّاعه، وهو ومحمد بن إسماعيل، يقومان منذ ثلاثين عاماً بخدمة الثقافة العربية بإخلاص وتفانٍ نادرين.

كانا من الشباب الذي خاض غمرات النّضال للتخلّص من الاستعمار الفرنسي. ولما استقلّت تونس تقلّدا مناصب رفيعة في الدولة. كان محمد بن إسماعيل من أوائل المدراء العامين للإذاعة التونسية. وشغل محمد المصمودي منصب المدير العام للصناعات التقليدية. إلّا أن نشر الكتب هو حبّهما الحقيقي، فانصرفا له بكل طاقتهما. وهما من الناشرين الذين لا يعتبرون النشر تجارة، ولكنهما يزاولانه بدافع الحب، وفي سبيل أهداف أسمى من مجرد الربح المادي.

لذلك فإنهما قد أصدرا في دار «سيرس» التي أنشأها أولاً محمد بن إسماعيل في أوائل الستينيات، مجلدات تُعد تحفاً فنية في طباعتها وإخراجها وصورها وألوانها. وهي تشمل مواضيع تهمّ القارىء

العادي كما تهم القارىء المتخصص، مثل العمارة الإسلامية وفن الزخرفة، وفي التاريخ والعلوم.

وأصدر محمد المصمودي في دار الجنوب سلسلة (عيون المعاصرة) التي يشرف عليها العالِم النابغة الدكتور توفيق بكار، أستاذ الأدب العربي في الجامعة التونسية. ومن الأعمال التي صدرت في هذه السلسلة، كتابا محمود المسعدي «السد» و«حدّث أبو هريرة قال»، ورواية «الياطر» لحنا مينا، و«المتشائل» لأميل حبيبي، ورواية عبد القادر بن الشيخ و«نصيبي من الأفق» وكتاب «النبي» لجبران خليل جبران، ومختارات شعرية لمحمود درويش ومختارات قصصية ليوسف إدريس ورواية الكاتب التونسي النابغة البشير خريف «الدقْلة في عراجينها». وكلّها كتب مطبوعة طباعة أنيقة، مع رسومات معبّرة، ولها مقدّمات، بعضها يعد أعمالاً إبداعية قائمة بذاتها. يقول الدكتور توفيق بكّار في مقدمته لرواية «السُّد» لمحمود المسعدي:

«لا يزال «السُّد» إلى اليوم يتيم دهره، نصاً وحيداً غريباً كأول عهده، ليس كمثله في أدبنا الحديث مغامرة، طلع علينا منذ سنين، وكل ما كتب الكاتب، بمفهوم الأدب، ليس له سابق، ولا كان له لاحق، مفهوم المأساة يستحيل معهم الفن صراعاً بين الخلق والعدم. فكان في الإبداع تجربة خارقة، ومن تناهيه فيها شبيهة بأشهر ما يعرف في الغرب من (تجاريب الحدود). تروم فيه الكتابة أن تتقصّى بالفكر أبعادها إلى مُنقَطعها من التخوم لتعلم ما معناها، آخر الأمر، في الوجود، فتمتحن في الخلق جدواها، حتى إذا بلغت منها إلى تلك المشارف النّائية ولم ترَ لذاتها من حقيقة سوى أنها بالية، ارتدّت إلى نفسها تتجرّد من سائر التّعلات التي بها تتذرع لتُقابِل عاريةً ـ إلّا من عشق الحياة ـ مماتَها. فلم يعد لديها من مبرّر

لوجودها إلّا يقينها بهلاكها، ولا عاد لها في الخلق من وازع، إلّا غلاب فنائها ثأراً للإنسان من عطب الزمان، وإشهاداً على توقه الحارق إلى الأبد المستحيل..».

ودّعناه عند الباب، أي عقل شامخ في ذلك الجسد الهشّ النحيل. جاوز الثمانين وبدأ يحس لذعة البرد. قلت له «إلى لقاء قريب، إن شاء الله». قال دون حزن وبلا أي مرارة «لعلك لا تجدني في المرة القادمة». أسأل الله له العافية وطول العمر، وأرجو أن أجده في المرة القادمة.

الأعمال الأدبية المتفرّدة تُؤثّر في عقول الناس على مراحل. قد يلتفتون إليها، ثم ينصرفون عنها، ثم يعودون إليها. وقد تهملها أجيال كاملة. لكنها لا تضيع أبداً، ولعل هذا الزمان قد تهيأ لاستقبال «سدّ» المسعدي، هذا العمل العملاق، الذي ظل شاخصاً مثل الجبل يُغري بالتسلق، والنهر يُغري بالعبور، والبيداء تُغري بالسفر.

من حسن التوفيق أن الأخ محمد المصمودي صاحب «دار الجنوب»، وهو صديق محب للكاتب كما قلت، قد أعاد نشر «السّد» في سلسلة من «روائع المعاصرة»، مع مقدمة للعالِم النابغة الدكتور توفيق بكّار. وهي مقدمة بلغت من عمقها وسعتها ودقة إدراكها، أنها أصبحت عملاً إبداعياً قائماً بذاته. يقول الدكتور توفيق بكّار: «تلك تجربة «السّد» مغامرة الأقاصي، وناهيك بها من

تجربة لا يقوى عليها من الأدباء إلّا ذوو البأس روّاد الآفاق النائية. وقد خاضها بجمعه روحاً وقلباً وقالباً، بمعنى ما يحكي من الفكر ولفظ ما يُنشيء من الفن، أفنستغرب بعد هذا أن يظل منها في نوعه فريداً؟(...) ومن أطرف طرائفها أنها قد أقبلت في حقيقتها تختبرها من الداخل قبل الخارج طرداً وعكساً على نحو من الجدل الباطن ليس له هُفوت، فامتحنت نصّها على محكّ ما تقصّ وأخذت معنى ما تقوله في الحكاية بحكم الكيف الذي تقول به الحكاية، في مخاطرة بالذات شاملة تراهن فيها على كلها بكُلّها».
ما هو هذا «السّد» الذي أقامه محمود المسعدي على واد سحيق من أودية الخيال منذ خمسين عاماً؟

لا يسمّيه الكاتب «سَدّاً»، بفتح السين، ولكنه يسميه «سُدّاً» بالضم، فهل أراد أن ينبهنا أن هذا سدّ لا يشبه سدّ أسوان وسدّ الفرات وسدّ النيل عند سنّار، ولا حتى سدّ مأرب؟ ويسمي الكاتب عمله (رواية) وما هو بالرواية بالمعنى المعروف، إنما بُني على التشخيص والحوار فكأنه صُنع ليمثّل على المسرح، إلّا أنه لم يجد حتى الآن مخرجاً جرؤ على تقديمه على المسرح. وهو نثر كالشعر، وشعر كالنثر وفن كالفكر وفكر كالفن، فهل هو لون جديد ما عرفه شرق ولا غرب.

يقول الدكتور طه حسين:

«وكاتبنا يبدأ بإنشاء بيئة شعرية خالصة، لا تكاد تُقبل عليها حتى ترى نفسك في عالم من الخيال غريب لا عهد لنا بمثله في الأدب العربي إلّا أحياناً قليلة حين يرمز الفلاسفة إلى بعض ما يريدون تصويره من ألوان الحكمة، فيتصورون إنساناً فرداً قد وُجد وحيداً

في جزيرة خالية فاستكشف وحده العلم والحكمة كما فعل ابن سينا في المشرق وابن طفيل في الغرب. أو حين يرمزون إلى ما يكون بين الإنسان والحيوان من استئناس وتذليل أو من ثورة وعصيان كما فعل إخوان الصفا في بعض رسائلهم.

ولكن كاتبنا على ذلك خصب الخيال نافذ العقل غنيّ اللغة، يشيع الحياة والعقل والمنطق في الجبل وصخوره وحيوانه المستأنس والمستوحش، ويشيع الحياة كذلك في الجو بما يبتكر به من هذه الهواتف التي تتحدّث بين حين وحين إلى الإنسان والحيوان والجبال بما يريد الكاتب أن تتحدّث به إلى هؤلاء جميعاً. وأشخاص القصة عجب من العجب (...)».

بطل الرواية رجل سمّاه الكاتب (غيلان)، ولا أظنه فعل ذلك اعتباطاً، ثم وصفه أنه (كائن زائف) فماذا أراد من ذلك، ونحن نعلم أن شخوص الرواية كلها كائنات زائفة، جاءت من خيال الكاتب؟ وامرأته (ميمونة) ثم بغلٌ وذئب وأطياف وهواتف، وسدّ ما يلبث أن ينى حتى ينهار.

لنستمع إلى محمود المسعدي يقول على لسان بطل قصته ـ على لسان (غيلان):

«أقول إن أهل هذا الوادي قد سرقوا للوهاد سرابها ولبسوا هزالهم كما تُلبس الخلعُ السلطانية، واتخذوا لساناً كثيراً كألسنة السّعالي، وخشعوا وقالوا: العطش والقحط، ولْينْتف الماء. يحسبون أنهم وحدهم يقاسون الظمأ واليبْس والقحط، ويحبّونها ويتخّذون أرواحهم منها. ولكني أنا أيضاً أحبها وأقاسيها.. وإنما هم قوم

أفعمت نفوسهم مياه كاذبة، ورطوبة كاذبة، وسماء كاذبة. وإن نفوسهم لنفوس باطلة الكيان كاذبة، فرّوا من الفعل عجزاً وبطلان نفس. بل انظري هذه العين البديعة تنفجر عن جنب الجبل، كيف تركوها منذ آلاف السنين تذهب فتفور مياهها وحياتها في الهاوية بمُنْقَطع الوادي. ولم يخطر لهم ببال أن يقيموا سداً فوق الهاوية، فيحبسوا ماء العين ومياه المطر والجبل وإنّي لأرى سدّي بين يديَّ وأرى المجاري، وأرى الأنابيب ممتدة فوق الهاوية جسراً حديداً يهْزأ من الهاوية متدافعاً إلى الوهاد.

وإني لأرى المياه متدفقة غالبة قاهرة، تتدافعَ إليك تدافع المُتمنّي يزفُّ إليك بنفسه. وليكُن الخلقُ ولتكثر الولادة. هذه الأرض المتجعّدة المغْبار كالعجوز الفاجرة، لأحبلنّها ماء، فأملأنّ بطنها، فأخرجنّ حياة. وسترينّها يا ميمونة يومئذٍ، وسترينّهم معرضين عن الشمس والقحط، ينبذونها في العراء. وسترين الجارية يومئذٍ تتبرج للماء، ويشملها الماء ولا تنْفتح للشمس وسترينّهم يطرحون شمسهم في مياه السدّ الغامرة الهادئة...» تذكّرْ أن المسعدي كتب هذا، وهو في أوائل الثلاثينيات من عمره، ويعيش في باريس في حَمْأة العالم (الفاوستي)، يرى من عنفوانه التكنولوجي، ويوازن بينه وبين عالم (الطمأنينة والقبول) الذي قدم منه. يقول الأستاذ محجوب بن ميلاد في ذلك، وقد كان أستاذاً في الجامعة التونسية حين كتب هذا:

«عَوْرة نفس (غيلان) هي عورة الإنسانية قاطبة وعجزه هو عجزها، وبطلان مساعيه هو بطلان الحياة وحماقة الحياة العابثة... إذ ذاك تفهم خيبة «السّد» وتفهم أنه رمز لجهاد الإنسانية قاطبة ورمز لخيباتها المتوالية رغم أنها لا تنفك تعمل وتجهد لغلاب العدم والانتصار على الفناء. وتفهم أن الإنسانية ـ في نظر المؤلف ـ حين

يختمر في مهجتها (الحلم) وتأبى إلّا أن تندفع لتحقيقه، وحين يتربع في وجهها السراب وتأبى إلّا أن تجعل من السراب ماءً ثجّاجاً، إنما هي عمياء لا تبصر أن مساعيها باطلة، واضطرابها عقيم، واندفاعاتها خاسرة ورجاءها في الخلود غرور وسذاجة مضحكة...».

ويرى الأستاذ الشاذلي القليبي، الذي كان هو أيضاً يومئذٍ أستاذاً في الجامعة التونسية، أن (غيلان) كان يعلم أن مآل مغامرته إلى الخسران، ولكنه رغم ذلك، لم يجد بُداً من المضي قدُماً، ويقول:

«وليست هذه الثورة منبعثة عن إلحاد وتعطيل، بل هي ثورة على الخطوط الجامدة والمرمر الصلب الذي يخنق القوى الفردية ويزيف الوجود. التوق إلى المطلق هو جوهر هذه الثورة الفتيَّة. ومعناها الصحيح تحطيم السدود، ونزع الأعراض، والتجاوز نحو المستحيل».

مهما يكن، فإن الكاتب قد ابتدع في مواجهة (غيلان) شخصاً ينتمي إلى (عالم الحلم العربي) كما وصف الفيلسوف الألماني (شبنجلر). تلكم هي (ميمونة) زوج (غيلان)، إنها تومىء إلى عالم القناعة والرضى والاستسلام. تبدو لأول وهلة وكأنها ترمز إلى العجز والخنوع. إلّا أن الكاتب قد وضع على لسانها حُججاً لا تقل قوة عن حجج (غيلان)، فإذا هي كأنها تحسّ بحكمة أعمق مما رأى (غيلان). تقول (ميمونة):

«نعم، لقد رأيت صباح اليوم العمال والبنّائين، وقد جُنّوا في هذا الوادي وادي الجنون. وسمعتهم يقولون: لن نرفع بعد الساعة صخراً. ولن نبني ولن نقيم سداً. ولا نحتمل اللعنة والنقمة... فلما قالوا وصاحوا صياح السباع تضري، وهزّتهم ريح هوجاء تدوي،

وصاحبتهم ضوضاء هوْل إلى الأفق، وتصاعد الغبار فوق الطريق فقصَّ فرارهم، وخلونا أنا وأنت وخلا الوادي ـ نظرت فرأيت كل شيء حولك يُسْلم ويذعن. رأيت الصخور طريحة تقول: لا جهاد. أسْلم. والسدّ أبْترَ يقول: لا جهد ولا جهاد. أَذْعن. والدنيا كلها بسكوتها وانفلاقها على صياح العمال والبنائين وهدوئها بعد هزة الثورة تقول: لا جهد ولا جهاد... لا جهد ولا جهاد... ورأيتك قائماً وحدَك ممسكاً يدك الحريقة، وقد عاندت واستكبرت وأبيت، وأنكرت الهزيمة. ونفيْت الانكسار، وصرفت خفقة القلب وأمسكت دمعة العين، ولم يُسمع لك توجُّع ولا شكوى تبوح بحياة ورقّة أو باقي حياة ورِقّة. ومكثت شاحب اللون، متقلب الصورة، صلب الجسم كالتمثال، يقع فينكسر فلا يألم ولا يفرح (...).

كذا الزّائفات كلها يا غيلان. ولقد رأيتك زائفاً كغول الصّبيان، أو كالطفل الخَفِر الباهت يسلك طريق الذّئب، ثم يقف في بعض طريقه مبهوتاً ينظر ما وراءه من براءة فاتت، وما أمامه من شجرة حرام تُغويه وعقاب أليم يخافه. فينهدّ عزمه، ويجمد، فيقف دون غايته وقد حاد عن نفسه وضلَّ الطريق وشُلّت يداه وضاع رشده...».

التفت الدكتور توفيق بكّار في مقدمته العميقة لكتاب «السّد» لمحمود المسعدي، إلى مرمى بعيد من مرامي الأدب العظيم. ذلك أن من بعض سمات العمل الأدبي الكبير، أنه ينشىء حواراً داخلياً مع نفسه، وبينه وبين الأعمال الأدبية الأخرى في تراث العالم. في ذلك عزاء للكاتب يسريه عن وحشة العالم المُتخيل الذي يسكنه، وهو أمر لا مناص منه. وفيه متعة إضافية للقارىء الحصيف إذ تتبين له معابثات الكاتب وألغازه وإشاراته. يقول توفيق بكّار:

«يلعب هذا الكتاب لو نعلم، لعباً مع نفسه خفيّاً قصيّاً ساخراً هو بلا مراء من سرّ فتنته. فبعضه مرآة لبعضه ماكرة ترجّع إليه صورته في كل مرة معكوسة المعالم فلا هو هو ولا هو غيره، بل الشيء وضده يتناوبان غدوّاً ورواحاً. وهذا في الأصل شيء من ذات الأدب، إذ لتآليفه بالكيان من دالّها ومدلولها وجهان يرد أحدهما

إلى الآخر، أو يرد عليه، بلا ابتداء ولا انتهاء، ولا أول ولا ثان. هما الشكل والمعنى في حوارهما جيئة وذهاباً، يتداعيان فيتجاوبان وقد يتفقان أو يفترقان فيكون اللّحام والوحدة أو الفصام والغربة باختلاف غرض الكتاب في ما يؤلفون. والكلام طبعاً على كبارهم لا على الصغار، فهؤلاء يفكرون في ما يقولون وأولئك لا يعلمون ما يفعلون. ومزية السّد، وكاتبه من أكبر الكبار، أنه قد مضى في هذا الأمر إلى منتهاه، فجعله تقلُّباً متهكّما بين حقيقة وبطلان، يتبادلان الموقع على الدوام من طرف إلى طرف، فإذا قفا الوجه وجه قفاه، وهكذا دواليك في حلقة مقفلة، فيدور الكتاب على محوره هازئاً نصفه بنصفه ينفيه ويثبته، ويهدّه ويشدّه في جدل لا ينتهي من السلب والإيجاب».

هذا (اللّعب) أصبح اليوم مذهباً عريضاً في الأدب، تجده واضحاً عند الكاتب الألماني (هيرمان هسّه) في روايته الكبيرة «لعبة البلورات الزجاجية». ثم هذه الأيام في أعمال الكاتب الإيطالي (أمبرتو إيكو). يبدو لأول وهلة كما لو أن العمل الأدبي لا يهدف إلى كثير من إذكاء المتعة الذهنية، كما يجد لاعب الشطرنج الماهر من ملاعبة شخص لا يقل عنه مهارة.

لم يكن ذلك غريباً على العرب، فقد عرفوا هذا اللون وتفننوا فيه، ولعل (المقامات) من بعض وجوهها ضرب من هذا (اللّعب). وأوضح ما يكون ذلك في الشعر، عند أبي العلاء المعري في لزومياته وفي سقط الزند وفي رسالة الغفران.

الكاتب من هؤلاء، حين يلتفت إلى أعمال من سبقوه أو إلى أعمال معاصريه، لا يكون مقلّداً، ولكنه يكون كالموسيقي الذي يدخل

(تنويعات) على ألحان غيره.

هذا، وقد ظن الدكتور طه حسين، في مقالته عن «السد» أن المسعدي قد تأثر بالكاتب الفرنسي الوجودي (ألبير كامو) صاحب رواية «اللامنتمي» الشهيرة، وقال:

«... هذا الأديب التونسي قد تثقف بالأدب العربي كأحسن ما تكون الثقافة. ثم أتمّ دراسته في فرنسا فأتقن العلم بالأدب الفرنسي كل الإتقان وتأثر فيها بكاتب مفلسف معروف هو (ألبير كامو) (...) له مذهب فلسفي معروف نشأ عن الوجوديّة، وهو يقوم على أن من العبث أن نحاول فهم الحياة الإنسانية، فليس لهذه الحياة غاية معروفة يمكن الوصول إليها أو حكمة قريبة يمكن استكشافها، وإنما هي عبث من العبث...».

يرد المسعدي على هذا الرأي بقوله:

«... ولعل العيون التي وردتها من الأدب الفرنسي قبل تأليف روايتي ـ فيما بين سنتي ١٩٣٣ و١٩٣٩ خاصة ـ هي العيون نفسها التي استقى منها (كامو)... إلى جانب كتّاب آخرين مثل شيكسبير.. وديستويفسكي.. وأبسن.. إلى جانب كل الذين غذّوا ثقافتي من أفذاذ الأدب العربي الإسلامي مثل أبي العلاء المعري وأبي حيّان التوحيدي وأبي حامد الغزالي وعمر الخيّام (...) الذي أعلم هو أني لم أر في تجربة (غيلان) تجربة الحياة الباطلة تؤول إلى عبث مرير، ولا في جهود (غيلان) جهود الحي لا تنطوي على حكمة ولا ترمي إلى غاية. الذي أردت حمل (غيلان) وحمل (ميمونه) عليه، هو أن يشخّصا بدمهما ولحمهما ومأساتهما هذا الفهم الخاص الذي

أحسبه شرقياً إسلامياً لماهية الإنسان ومنزلة الإنسان وقدرة الإنسان وشرف الإنسان من حيث هو إنسان...».

إنها اللغة. لغة المسعدي هي التي وسمت عمله هذا، وسائر أعماله، بميْسم عربي إسلامي لا ريب فيه، مهما كانت المنابع التي استقى منها. وما أجمل قول الدكتور توفيق بكار في وصف لغة المسعدي:

«عُتّقت من شدة الفصاحة حتى كأنها بلاغة القدماء، بل الأقدمين، قد عادت إلينا بكنوز أهملناها من أفانين البيان ـ ذخائر من اللفظ الأصيل، وثروة من تصاريف الأفعال والأسماء، وأشكال من النظم الوثيق كالبنيان المرصوص. وناهيك منها بفتنة الحروف تختصر الكلام اختصاراً فتُغني عن كل فضول. لغة أثيلة تنطق بملئها من إمكانات نظامها وكل ما ادخرت على مرّ القرون من أقوال المبدعين (...) وإلى تالدها هذا أضاف الكاتب من روح العصر وثقافة الغير طارفاً. فما هو بالمقلّد، بل مولِّدٌ، يخترع ولا يحاكي. فجال بالعربية في ما لم يكن لها به عهد من مجالات الفكر، وقوّلها ما لم يسبق لها أن قالت. وانصبّ الرّافد الوافد من لُباب عقل الغربيين في بحر مأثورنا من الفكر، وفيه اندمج اندماجاً حتى كأن الدّخيل أصيل. (...) فالتقت ثقافة بثقافة ولم يعد بينهما شرق ولا غرب، بل الإنسان واحداً شاملاً يتساءل ويألم ويصارع بلسان عربي مبين...».

دخل قاعة الطعام رجل وامرأة. الرجل (أبيض) لكنني قدّرت أنه ليس أوروبياً، فقد كان بياضه مثل الثوب المستَعار. المرأة سمراء، واضحة السُّمرة كأنها من اليمن، أو حتى من نواحي (الجزيرة) في السودان. جلسا في الركن جنْب السيدة الأمريكية وبادراها بالتحيّة، فتحوّلتْ إليهما فوراً. باعتْني واشترتهما. ابتسمتُ بيني وبين نفسي وحمدتُ الله وقلت هذا من بركات (الأستاذ). لا بدّ أن صوته العربي المحض، قد وصل إليها بطريقة ما، كما ينتقل تيار الكهرباء، فأزعجها وصرفها عني.

سألتْهما من أين هما، فأجابها الرجل بالفرنسية أنهما من لبنان. انتهبتُ كما جرى لأخينا ذاك بالخيْف من منى. انطلقوا يتحدّثون الأمريكية، كالذي يطرب لصوته بلا مبرر، والرجل يتحدث فرنسية حسنة، تملؤه نشوة، كما تفعل اللغة الفرنسية بمن يحسنونها. والمرأة

السمراء، زوجته، صامتة، تستمع وتبتسم. فجأة قالت الأمريكية:

«لكن اللبنانيين عرب، لغتهم العربية، أليس كذلك؟».

أجابها الرجل بتهوّر أدهشني، ربما بتأثير اللغة الفرنسية التي لا بدّ أنها أدارت رأسه:

«ليس كل اللبنانيين يتحدثون العربية. نحن نعتبر لغتنا الأولى، هي الفرنسية، نتخاطب بها في بيتنا حتى مع أطفالنا. نحن لسنا عرباً. إننا نكره العرب. العرب خرّبوا بلادنا...».

نظرتْ إليّ المرأة الأمريكية نظرة مُباغتة، ووسوستْ لهما. حدقني الرجل حال من أخذته العزّةُ بالإثم، وبدا الحرج والارتباك على زوجته. وكنتُ أكثر منها حرجاً، كأنني رأيت شيئاً لا تجوز لي رؤيتُه.

بعد ذلك راحوا يتهامسون، والمرأة الأمريكية تلتفت إليّ من وقت إلى آخر، وقد تأكد لي صدق حدْسي أول الأمر. أعجبها الدور الغامض الذي هيّأتْه لها الظروف كأنها رسول من رُسل الـ (باكس أمريكانا) وكأنهم في معسكر، وأنا في معسكر مضاد.

قلت يا سبحان الله! هل جئت إلى باريس لأُحامي عن بيضة العروبة؟ وهل أنا إلّا عربي من الأطراف؟ وقد لا يكون بلغهم بعد، أنني مثلهم من (غزيّه) بمُنعرَج اللّوى! وهل العروبة اليوم إلّا مثل (بنك) ظنّ الناس أنه يوشك أن يفلس، فأخذوا يسحبون أرصدتهم منه؟ وأين يذهبون؟ كل دولة مشغولة بهمومها، ولا عاصم لهم.

قررتُ أن أُريحهم، فقلت للرجل باللغة العربية، وأنا أكظم غيظاً ملأني به شعر (الأستاذ):

«أنتو من وين في لبنان؟».
«تعرف لبنان مليح؟».
«نعم».
«من الشوف».

قلت له وأنا أفكّر في العرب النّصارى الذين حاربوا مع المسلمين في معركة اليرموك:

«أهل الشوف من أعرب العرب».

«لا يا عمي. نحن ما بدنا في العرب. العرب خربوا بيوتنا. ما لقينا منهم غير المصائب...».

صحيح أن العرب يخرّبون بيوتهم بأيديهم أحياناً. ولا بد أن المرارة التي انتابت هذا الرجل الفاضل، لها مبرّراتها. لا بد أن الحرب أصابته برشاشها. لعلّهم هدموا بيته، وقتلوا له عزيزاً أو أكثر، ومدّخراته في البنك ضاعت بسبب انهيار الليرة. ولعلّه نجا بأهله فوجد ملاذاً وأمناً في فرنسا. فمن يلومه إذا أحب فرنسا؟

من حسن الحظ أنني عرفت لبنان، وأحببته وأعلم أنه حقّاً معقلٌ من معاقل العروبة ـ على علاّتها. ولو كانت العروبة ثوباً تلبسه وتخلعه أنّى شئت، لجاز لك. ولكنها قدرٌ وانتماء. وما أروع الانتماء على الشدّة والبؤس! أنت عربيّ حتى لو هدّموا دارك، وقتلوا أبناءك،

وأضاعوا مدخرات عمرك. حتى إذا لم يبلغهم بعد أناك منهم وقد شهدت الوغى معهم بمُنعرَج اللوى، وما أحسن ما قال أبو الطيب:

أنا في أمّة تداركها اللهُ غريبٌ

غريبٌ، نعم، ولكنه (في الأمّة)، وليس بمعزل عنها.

الملك شاكا الأكبر، ملك الزولو، الذي تغنّى به (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية البديعة، فيه ملامح من عنترة بن شداد العبسي، في نشأته وعلاقته بأبيه، ثم صعود نجمه كفارس صنديد مدافع عن حمى قومه. وفيه أيضاً لمحات من العبقرية العسكرية، في أنه ابتكر أساليب جديدة في القتال. لذلك يجد المتأمل في حياة شاكا ونظام حكمه، وجوه شبه بمحمد علي باشا، في أنه وحّد شعب الزولو وجعل منه أمة متماسكة ذات طموحات سياسية جريئة، وقوة عسكرية منظمة قادرة على إنجاز تلك الطموحات.

وليست هذه المقارنة بعيدة كما قد يبدو لأول وهلة، إذ إن النظام القبلي عند الزولو، بل عند أغلب القبائل الأفريقية، لا يبعد كثيراً عن نظام القبائل العربية، وخاصة قبل الإسلام.

هذا، ويرجع (دونالد مورسْ Donald Morris) في كتابه الشهير «غسيل الرماح» الذي يقصّ فيه قصة نهضة أمة الزولو وانحدارها، أن قبائل الـ (بانْتو) التي ينتمي إليها شعب الزولو، ذات أصول عربية، ويقول:

«... أغلب الظن أنهم نزحوا إلى أفريقيا عن طريق الهلال الخصيب قبل عشرة آلاف عام (...) ويبدو أنهم ساروا على النيل حتى دخلوا السودان. ثم اختفوا عن مسرح الأحداث آلاف السنين. لكنهم ما إن اجتازوا الصحراء، وانبثّوا جنوباً وغرباً، حتى أصبحت القارة الأفريقية بأكملها مفتوحة أمامهم (...) لم تربطهم روابط متينة بشعوب القرن الأفريقي، ولكنهم نفذوا خلالها. وقد احتفظت لغاتهم ونظمهم الاجتماعية، بمؤثرات من العالم العربي».

هذه، كما ترى، نظرية تقلب الموازين التاريخية رأساً على عقب، وتضفي معنى جديداً لصلة الجزيرة العربية بالقارة الأفريقية، وتعطي مفاتيح لبعض الألغاز، مثل أصل الفراعنة في مصر، وشعب النوبة في شمال السودان، والبربر في بلاد المغرب العربي.

كذلك تعطي مذاقاً آخر، لعبارة نلسون مانديلا في نيويورك (ياسر عرفات أخي) وعبارة ماسيسي كونيني في جامعة براون (العرب إخواننا). ندرك فجأة، ربما ببعض الدهشة، أن هذا قول لم يصدر بدافع المجاملة أو التحدي، وإنما صدر عن وعي مهما كان بعيداً، بصلة الرحم التي تربط العرب بالشعوب الأفريقية، التي أُطلق عليها صفة (الزّنج).

يا للعجب، إن قبائل الـ (بانتو) السوداء، جاءت عن طريق الهلال

الخصيب، أي عن طريق بلاد الشام! ويا لها من لعبة حاذقة من ألاعيب التاريخ، أن يكون الشاعر الزنجي (ماسيسي كونيني) صاحب (قصائد زوليّة) هو ابن عم الشاعر الفينيقي (الأبيض) صاحب (قدموس) و(رَنْدلَى)!

ولد (شاكا) عام ١٧٩٥، وكان ثمرة غرام حرام، بين «سنْزانْخونا» ملك الزولو، والأميرة (نَاندي) ابنة ملك قبيلة (أيلا نْقيني) المجاورة للزولو، وترتبط معها بروابط المصاهرة والقرابة. وكان من عاداتهم أن يسمحوا بالملاعبة بين الفتيان والفتيات، شرط ألّا يتجاوز الحدود، ولا يخلّ بالأعراف.. يسمون ذلك (أُكوهُلُبْنْقا) أي (مُتعة الطريق). ولكن (سنْزانْخونا) ذهب أبعد مما يجب، فحبلت (ناندي). أغضب ذلك بطبيعة الحال، حكماء قبيلة (أيلا نقيني) الذين أحسّوا أن شرفهم قد أهدر، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، فقد كانت قبيلة الزولو أقوى منهم. اكتفوا أن أرسلوا إلى حكماء قبيلة الزولو، يلتمسون منهم، أن يتزوج (سنْزانْخونا) ابنتهم (ناندي) ويعترف بأبوّة الجنين الذي تحمله. إنما هؤلاء ردّوا عليهم، أن الحمل حملٌ كاذب، وهو ليس أكثر من (أيشَاكا) أي (انتفاخ في البطن).

لذلك حين وُلد الغلام، سار عليه لقب (شاكا) وقد يجد الباحث صلة بين الكلمة، وكلمة (إسحاق)، ومسلمو نيجيريا وغرب أفريقيا ينطقون الاسم (أُيساكا).

قبِل (سنْزانْخونا) آخر الأمر، أن يتزوج (ناندي) ويضمها إلى حريمه. وكانت امرأة جميلة، سليطة اللسان، صعبة المراس، فلم تستقر معه، فأعادها إلى قومها، ومعها ابنها وابنتها التي وُلدت بعد الزواج.

يصف (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية، لقاء (سِنْزانْخونا) بـ (ناندي) هكذا:

سنْزانْخونا ابن جاما الملقب بمُلاعب الرّماح
رأَى العذراء الفاتنة الأميرة ناندي.
حدّث نفسه قائلاً «سوف يلهج لساني
بجمال هذه الفتاة الشرسة».
سكنت في قلبه، ناندي، ابنة بهْبهي.
حين تخطو، تهتزّ الأرض تحت قدميها،
ذات هيبة لا يصمد لها إلّا الأقوياء..
تغنّى بها الشعراء في مجالس الملوك،
قالوا إنها امرأة قوية الحجة
كأن لها ألسنة عدة،
تتصدى للكبراء في منتدياتهم،
ولا تخشى أحداً.
تقف وتصرخ متحدّية:
«أنا ابنة الأمير، سيّد عشيرة لانقيني»
اتّهمها بعض الناس أنها مسكونة
بروح شرّيرة.
نظرت غاضبة إلى الفتى العاشق،
وبصقت في وجهه، وعيناها تتوقدان
مثل الجمر.
سحره جمالها حين رآها، ابنة بهبهي.
ارتعش بحمّى الرغبة، وتمتم بالكلمات.
أحسّ بها مثل نار كاسحة،
نار جائعة التهمت كل النيران.

خفق قلبه مثل حلق ضفدعة مذعورة،
وقال لها بصوت مرتعش
«أيتها المرأة العنيدة
لا أستطيع أن آذن لك
ومن معك أن تطأوا دياري
ولكن دعيني أضع حجارة في الماء
تعبرون عليها، وتنصرفون بسلام».
حدّثت ناندي نفسها قائلة:
«إنني قد وجدت توأم روحي».
قالت لـ (سنْزانْخونا):
«إنك فتى تافه،
أفسدك بمعسول الكلام،
المنافقون الذين لم يروا منك إلّا جانباً واحداً
لم يروا الفساد الذي يكمن في جسدك».
كأنها غرست في صدر فارس الزولو خنجراً
وظهر الألم على وجهه،
حتى أن ناندي نفسها
أحست بالحزن.
قالت تريد أن تسرّيَ عنه
«سامحني أيها الغريب
اغفر لي حدّة لساني
أجرح به، وأبكي شفقة على الضحية».
ومع كلماتها مدت إليه يداً حانية
ونثرت البذور من عينيها الجميلتين
فالتقط سنْزانْخونا الدفء من
رسائل قلبها

والتأمت جراحه
واندسّا في طيات الغاب
وتماسكا تحت غطاء الشجر الكثيف
وتحابّا كأنهما يحتفلان بآخر يوم لهما
على الأرض(*).

(*) الترجمة عن الأصل الإنجليزي للمؤلف.

أبو الملك (شاكا) هو (سنْزانْخونا) ابن (جاما) ابن (زولو) ابن (مانديلا) الكبير، الذي استقل في القرن السابع عشر بفخذ صغير من عشيرة الـ (أنْقوني) المنحدرة من قبيلة الـ (بانتو) الكبرى. واسم (زولو) يعني (السماء)، وقد عمَّ على القبيلة كلها، فأصبح اسمها (آما زولو) أي (أُمةُ الزولو).

كانت قبيلةً مُستضعفة، لا يؤبه لها حين تولّى أمرها (سنزانخونا)، لا يزيد عددها عن ألفي إنسان، تعيش في أكناف قبيلة (مطَطْوا) الكبيرة، وتجاور قبيلة صغيرة مثلها، هي قبيلة (أيلانْقيني)، خؤولة (شاكا) وأبيه.

رفع (سنزانخونا) من شأن الزولو، فأصبحوا شوكة في جنب قبيلة الـ (مططوا) بقيادة ملكها الحكيم (دنْقزْوايو)، الذي لجأ إليه (شاكا)

فيما بعد، خلال تنقُّله بين القبائل، هو وأُمه. وقد تعلّم (شاكا) أموراً كثيرة من (دنقزوايو)، ولكنه حين أصبح ملكاً على الزولو، اتبع سياسة مخالفة تماماً لما رآه من (دنْقزْوايو).

عادت (ناندي) إلى قبيلتها، تحمل طفلها الذي سوف يكون له شأن، فلم يستقبلوها بالترحاب، لأنها أخلّت بالأعراف، ودنّست شرف القبيلة، فعاشت بينهم في فاقة وبؤس. ونشأ (شاكا) منبوذاً محقّراً. ظل كذلك إلى أن بلغ سن الخامسة عشرة، يرعى البقر والغنم، وتنهش قلبه كراهية مريرة لقبيلة أبيه وقبيلة أمه، ويحس أن له حقاً مسلوباً في زعامة الزّولو لا بد من أن يستردّه. وكانت أمه (ناندي) تذكي جذوة حقده وطموحه.

وفي نحو عام ١٨٠٢، حلّت بالبلاد مجاعة عضوض، ورأت قبيلة (أيلانقيني) عشيرة (ناندي)، أنها لا تستطيع أن تطعمها وأبناءها، فطردتهم وهاموا على وجوههم بين القبائل. أحدث هذا جرحاً عميقاً في نفس (شاكا) الذي انتقم فيما بعد من قبيلة أمه، فبطش بهم بطشاً لا رحمة فيه.

وجدت (ناندي) عطفاً لدى رجل من قبيلة صغيرة يدعى (قِنْديانا) كانت قد عرفته من قبل، وولدت منه ابناً سوف يكون له دور في ظل أخيه حين يرث ملك (سنزانخونا). هنالك كبر (شاكا) فصار فتى فارع الطول، قوي العضلات. وكان محارباً بالغ الشراسة، شديد المكر، فبدأت تتكون له أسطورة بطولية، وأخذت شهرته تتّسع بين القبائل. وقد ازدادت شهرته حين انضم إلى خدمة (دنْقزْوايو) الحكيم، رئيس قبيلة الـ (مطظوا) الكبيرة، فكان يرعى ماشيته، ويحارب في جيشه، ويراقب أسلوبه في تصريف شؤون

الحكم، باهتمام عظيم، وعقل بارد.

سمع (سنزانخونا) بشهرة ابنه، وأراد أن بضمّهُ إلى عسكره، فرفض، إذ إنه كان يعلم أن أباه لن يستخلفه، وأنه قد اختار وريثه الشرعي. ورغبت عشيرة أمه أيضاً أن تستغل مهارته في الحرب، فأبى، لما كان يضمر لهم من احتقار وكره. ولكنه حين بلغ مبلغ الرجال، اضطر أن يذهب إلى أبيه، ليكرسه، حسب الطقوس القبلية القديمة.

يصف (ماسيسي كونيني) كل هذا في ملحمته الشعرية، فيقول:

اللّيالي الجميلة تزدحم بالنجوم
الّتي يا ما تفضح خناجر الغدر،
وتضجّ بوسوسات الحقد
كان (شاكا) ولد (نياندي) يرهف سمعه
لألسنة اللّيالي الطوال.
كلمات الشامتين تجرح روحه اليانعة كالسياط
وعيونهم تحرقه مثل لهيب النار.
لا شفقة حتّى عند النساء العجائز
اللائي يقلن حين يرينه
«أهذا ابن السّفاح الذي
ولدته (ناندي) العاهرة؟».
يقلن هذا وعيونهن تتوقّد بالشر.
ويقلن أيضاً وهن يتصنّعن الهمس،
«أهذا هو إذاً؟ الفتى الشقيّ الأرعن؟».
لكن قلب (شاكا) كان جريئاً كقلب نمر،
فلم يطأطىء رأسه أبداً.

كان مَرْآه يبث في قلوبهم الرّعب،
حتى الكبراء الذين كستهم الشيخوخة هيبة
كانوا يفرُّون من وجهه
ولأنه ولد في برج الجبل، يقول
«أنا الثور الفحل، لا تهزمني صغار العجول».
يجلس بينهم، يكظُّ أسنانه من الغضب
يتلبّسه روح الثور المحارب
وعقلهُ المستعر، يُطفىءُ العقول الأكثر منه تجربة
يعجب به البعض لأجل ذلك،
وله أصدقاء، يمشون في الدّروب المخيفة

يقولون:
«قلبُه حجرٌ تسكنه الأفاعي،
كهفٌ تحاك فيها الخطط لمحق أعدائه.
يجلس وحده هنالك، على حجر هو رفيقه الوحيد،
لا يسمع النّصح، ولا يقبل الصّلح، ولا يعبأ بأحد.
كل صباح يزيده حقداً
ويزيده تصميماً على الانتقام من عشيرته الأقربين».
دموع الحيوان سرعان ما تجفّ
ولكن دموع الإنسان، لها أقدام وأيد وشفاه.
الّذين.. يحمدون أباه عنده
ينكأون جرحه الطّري، ويطردون الكرى من عيون اللّيل.
وأمه (ناندي) تقول له بلسان ريح الشتاء:
«صبراً يا ولدي! غداً سوف تُقتلع الأشجار من جذورها».
وهكذا كبُر، فارغ الطول، عملاق الجسم، بعيد الصّيت:
وحين آن أوان الاحتفال ببلوغ سن الرّجولة،

قالوا «لا بد أن يذهب الآن إلى أبيه المستهتر
فهو وحده الذي يمنحه ثوب الشباب».
فأسرع ولدُ (سنزانخونا) إلى أبيه،
وخاطبه بجنان ثابت، ولسان لا يتلعثم،
قال له «إنني جئت آخذ منك ثوب شبابي».
رشقه أبوه بنظرة غاضبة، وقد أزعجته وقاحته،
إنما لم يجد بُدّاً من الاستجابة
لطلب الفتى الّذي لا يعبأ بأحد
فأمر بثور يذبح للاحتفال
وكان (شاكا) من غيظه يبرطم بكلام لا يُفهم.
في تلك اللّيلة، ليلة الاحتفال،
زاره أجداده في المنام،

حدّثوه، وقالوا له:

«سيأتي يومٌ، تصل فيه شهرتك إلى النجوم،
وسوف يمتدّ ظلّك فيغطّي أمماً وراء أُمم،
وسوف تلهج شعوب الأرض كلّها بذكرك،
وسوف تعنو لك جباه الأبطال من كل جنس،
وسوف يطأطئون الرؤوس لجبروتك،
إلى أن تغرق الشمس في الظلام السّرمدي».

كان عدد قبيلة الـ (مَططْوا) في مطلع القرن التاسع عشر، نحو أربعة آلاف، يقطنون على الساحل الشرقي جنوبي القارة، بالقرب من نهر (أمْفلوزي). وكان زعيمهم (جوب) قد طعن في السن، وطالت مدة حكمه، فدبر ابنه الأكبر (تانا) لقتله، بمساعدة أخيه (قدُ نْقوانا).

كان (جوب) رغم كبر سنّه، داهية يقظاً، فعلم بالمؤامرة، وهبَّ من حينه للقضاء عليها. قُتل الابن الأكبر (تانا) وهرب الابن الآخر (قدُ نْقوانا) وفي ظهره رمحٌ طُعن به. لجأ إلى أخت له لكنه لم يطمئن إلى الإقامة طويلاً في أرض الـ (مططوا)، ففر إلى بلاد قبيلة (هُلوبي) في سفح جبال (دراكنْسبيرج) ناحية الغرب. وحتى لا تنكشف حقيقته، أسمى نفسه (دِنْقزْوايو) أي (الذي أضناه الهم).

لم يمكث طويلاً بين الـ (هلوبي) حتى بلغه نبأ وفاة أبيه، فأسرع

عائداً إلى بلاد الـ (مططوا)، فوجد أن أخاً له قد سبقه إلى انتزاع الزعامة. وكان (دِنْقِزْوايو) قد حصل على بندقية من رجل أوروبي صادفه، وهو سلاح لم يكن معروفاً عندهم، فلم يصعب عليه أن يقتل أخاه ويستردّ الزعامة.

جمع (دنقزوايو) نحو خمسمائة مقاتل، جعل منهم نواة لجيش أصبح فيما بعد أقوى جيش في تلك المنطقة. وأخذ يتوسع بالتدريج مخضعاً القبائل المحيطة به. وكانت سياسته خليطاً من اللين والشدة، فكان يدخل رؤساء القبائل في طاعته بالبذل والمصاهرة، ولا يلجأ إلى الحرب، إلّا عند الضرورة القصوى. فيما بعد، عكس (شاكا) هذه السياسة، فأصبح هدفه القضاء على خصومه قضاء مبرماً.

ابتكر (دنقزوايو) نظاماً للتجنيد الإجباري، فكان يفرض على كل قبيلة تدخل في حلفه، أن ترسل عدداً من شبابها للخدمة في جيشه. كان الوجود الأوروبي في طرف القارة الجنوبي، أخذ يتّضح، البرتغاليون إلى الشرق، في خليج (بلْباو)، والبوير في الغرب، والإنجليز في الجنوب حول (رأس الرجاء الصالح).

كانت سياسة (دنقزوايو) تهدف إلى خلق تحالف قوي من القبائل الأفريقية، لمواجهة المدّ الأوروبي، وقد استطاع خلال فترة حكمه التي امتدّت ثماني سنوات، أن يوقف الصراعات والحروب بين القبائل، ويجعل كل قبيلة تستقر في رقعة محددة من الأرض، فلا تتعدّى على أراضي جيرانها. وقد بلغ من حنكته، أنه حاول أن يقيم علاقات تجارية مع البرتغاليين، وأنشأ مصانع لأعمال الخشب، ودباغة الجلود، وأرسل عدداً من رجاله ليتعلّموا من الأوروبيين. ولكن البرتغاليين كانوا يسعون وراء الذهب والعاج، فلم يستجيبوا لمحاولات (دنقزوايو).

وجد (شاكا) متنفّساً لطموحه ومهارته العسكرية، في جيش (دنقزوايو). كان محارباً محترفاً يعد العدة للدور الكبير الذي قام به فيما بعد، ولاؤه لنفسه وطموحاته فحسب. وقد ابتكر أساليب جديدة للقتال وأسلحة جديدة. غيّر الحربة التقليدية الـ (أَسقايْ) وابتكر بدلاً منها رمحاً أقصر، له سنٌّ طويلة، أشبه ما يكون بالسّيف، وأسماه (أُكُلوا)، وكان حين يقتل خصمه يصيح (أكلْت. أكلْت) وجعل من التّرس سلاحاً للهجوم أكثر من الدفاع. ونزع حذاء الجلد، وأخذ يحارب حافياً كي يكسب سرعة ومرونة.

خلال ذلك تبلورت أفكاره حول أسلوب الحكم، كما اتضح من سلوكه بعد ذلك. كان (دنقزوايو) يرى الحرب شرّاً يجب على الملك الحكيم أن يتجنّبه إذا استطاع، فكان لا يلجأ إليها إلّا بعد أن تفشل الوسائل السلميّة كلها، وإذا دخلها، يسارع إلى الصّلح إذا رأى أي بادرة للصلح من خصمه. كان (شاكا) يحتقر هذا الأسلوب، ويرى أنه لا يصنع السلم المطلوب، بل يُفضي إلى مزيد من الحروب. لم يكن يرضى بغير إبادة أعدائه إبادة كاملة. يبدأ بالهجوم، ويلاحق أعداءه بلا هوادة.

فيما يلي، يصف (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية، حرب (دنقزوايو) مع الملك (زُوي) ابن الملكة المرعبة (نُتُمْبازي) التي كانت تعلّق رؤوس أعدائها على حيطان قصرها، كما يصف دور (شاكا) في الحرب:

أقسم (زُويد) أن ينزع الريشة من رأس (دنقزوايو) وقال، وقد ملأه الزهو:

«حين أضع ريشة (دنقزوايو) على رأسي سوف تعنو لي الجباه في طول أرض (نقوني)»

وكانت أمه الفظيعة، الملكة (نتُمْبازي)
تقول له، تشدّ من عزمه:
«اضرب الثعبان على رأسه حتى الموت.
إنك إذا هزمت (دنقزوايو)
فسوف تخشاك شعوب الـ (نقوني)

وتخضع لك لأن الذي يهزم الرجل المهاب، يكون هو نفسه مُهاباً».

لذلك هيّأ (زويد) جيوشه للقتال،
جمع رجاله من خيرة المحاربين، الذين
خاضوا معارك كثيرة من قبل.
وغير بعيد كان جيش المططوا يتأهّب.
أعدّوا خططهم، واستمعوا إلى تقارير جواسيسهم
الذين أخبروهم أن جيش (زويد) يستعد للقاء حاسم.
كل قائد من القواد أبدى رأيه،

وحين جاء دور (شاكا) قال:
«الرأي عندي هو هذا،
إنهم واثقون بالنصر، لأنهم أكثر منّا عدداً
لذلك علينا أن نبدأ بالهجوم
ونختار قواتنا بعناية
نقسّمها إلى فرق، ونخصص لكل فرقة أهدافها
جيشهم ضخم، ولكنهم لم يفرغوا من تنظيمه بعد
كما أخبرنا جواسيسنا.

لذلك علينا أن نهاجمهم فوراً،
ونقطع خطوط إمداداتهم.
علينا أن نبدأ الهجوم من الميمنة والميسرة
ونحتفظ بقوّتنا الكبرى في القلب.
إذا انقضضنا عليهم انقضاضاً خاطفاً
سوف نطوّقهم ونخنقهم دفعة واحدة
هذا يلزم له سرعة الحركة
لذلك يجب أن ينزع مقاتلونا أحذيتهم ويحاربوا حفاة
وينطلقوا خفافاً مثل هبوب الرياح».

استمع القادة إلى رأيه باهتمام،
وبدا على وجوههم أنهم لم يقبلوا كل ما قال،
نظر (شاكا) إلى (نقوماني) القائد الأعلى للجيش
وقال، موجّها كلامه إليه:
«لم نقض على أعدائنا قضاء تاماً في حروبنا كلها،
لذلك نحن نحارب الأعداء أنفسهم مرّة بعد مرّة
وهذا (زويد) من كلّ زعماء الـ (نقوني)
لم ينزل به العقاب الذي يستحقُّه
لا بد من القضاء على الملكة (نتمبازي) الكريهة
كي يستتب الأمن في البلاد».

أطرق الملك (دنقزوايو) زمناً يفكر، ثم قال:
«يا بني، إنني أعلم أن دماء الشباب الحارّة تتحرق للحرب.
وأعلم أن (زويد) سفّاح جائر
لكنني، رغم ذلك، أريد حرباً في حدود المعقول».

وهكذا انقضّ جيش (دنقزوايو) عليهم كما تهب العاصفة،

وارتبكت قوّات (زُوِيد) وتفرّقت في كل اتجاه
ووقع (زويد) نفسه في الأسر
وسأل الملكُ (شاكا) رأيه، فقال:
«مولاي. الرأي الأخير لك،
ولكن لو كان الأمر بيدي، لوضعت الآن
حداً لعذاب الشعب،
فليس قتل قاطع طريق جريمة تُغضب الأسلاف».

وعند الفجر، طلب (دنقزوايو) من (شاكا) أن يجيئه.
قال له «إني أعرف أن رأيك هو عين الصواب
ولكنني لن آخذ به، لعلّ هذا الإذلال، يكفي (زويد).
الذين لا يتوقعون النجاة، يستقيم سلوكهم حين
تُتاح لهم فرصة أخرى للحياة، ويصيرون
أكثر سماحة من بقية الناس».
كان (شاكا) يعلم أن الملك سوف يصل إلى قراره هذا.
قال له بألم «مولاي، أنت دائماً تفعل الصواب
وترعى، في كل أعمالك، مصلحة شعوب (نقوني).
وتطلب العدل للجميع، والسّلام،
لكن البلاد، ويا للأسف، تضطرب بالفوضى،
والشرّ لا ينفع معه اللّطف،
وعلى أي حال، فأنا خادمك يا مولاي».

٣١

قريباً سوف تنادي الأقدار (شاكا) فارس الزولو، لينهض بالعمل الذي ظل يعد نفسه له، وهو يحارب في جيش (دنقزوايو) ملك الـ (مططوا). كان هذا قد شاهد من بسالته وإخلاصه ما سرّه فقربه إليه واصطفاه ابناً له.

وإلى جانب العاطفة، كان (دنقزوايو) يريد أن يستغّل (شاكا) أداة لتنفيذ سياسته ومدّ سلطانه. كان يريد أن يجعل منه ملكاً على بلاد الزولو، وبذلك يضمن ولاءهم ومناصرتهم، ويكونون قوة عازلة بينه وبين خصومه. وقد عرض (دنقزوايو) صراحة على ملك الزولو (سنزانخونا) أن يُعلن (شاكا) خلفاً له، فقبل إذ هو في بلاط (دنقزوايو) لكنه حين رجع إلى أرضه، اضطرته زوجته الكبرى الملكة (مكابي)، وكانت ذات نفوذ وهيبة، أن يغيّر رأيه، ويجعل ابنه منها (سقويانا) وريثاً شرعياً.

خلال ذلك، طوّر (شاكا) أسلوبه في الحرب وصقل مهارته في القيادة فأصبح قائداً عسكرياً لا نظير له في مملكة الـ (مططوا) الواسعة. ونمت حوله أسطورة بأنه قائد لا يُغلب. وهو أسلوب عرفه القادة المسلمون الأوائل، وتفننوا فيه، واستطاعوا أن يهزموا به قوّات تفوقهم عدداً وعتاداً. وقد سلكه نابليون بونابارت في انتصاراته الأولى المدهشة، وأصبح فلسفة عسكرية ثابتة لدى الألمان، خاصة في الحرب العالمية الثانية وأسموه (بلتزْكريق - Blitzkrieg) - سرعة الحركة ومباغتة الخصم، والالتفاف بالجناحين، ثم الانقضاض بكامل ثقل القوات في القلب بهدف تدمير قوات العدو تدميراً ماحقاً. وقد بلغ من إعجاب (دنقزوايو) بـ (شاكا) أنه جعله قائداً على صفوة القوات في جيشه المعروفة باسم (ايزي جوي).

في عام ١٨١٦، جاء مبعوث إلى (دنقزوايو) يحمل نبأ وفاة ملك الزولو. كان (شاكا) في التاسعة والعشرين من العمر، وأحس لتوّه، أن الساعة التي كان ينتظرها قد حلّت. طلب من (دنقزوايو) أن يخلي سبيله ففعل، وأعطاه فرقة من قوات الـ (ايزي جوي) المختارة، تصحبه إلى أرض الزولو، ويتعزّز بها وضعه. لكن (شاكا) تريث قليلاً، فقد علم أن أخاه (سقويانا) قد حلَّ محلّ أبيه، كما دبّرت أمه الملكة (مكابي).

أرسل (شاكا) أخاه لأمه (انْقوادي) الذي ولدته (نانـدي) من (قنديانا)، وكان قد آواهم حين طردتهم قبيلة (أيلا نفيني). كانت مهمته أن يتخلص من (سقويانا) كما اتضح فيما بعد، إذ إنهم، في اليوم الذي دخل فيه (شاكا) مركز الحكم في بلاد الزولو، وجدوا جثة (سقويانا) طافية في ماء النهر. وكانوا يعلمون أن ذلك لم يحدث صدفة.

ها هنا يصف (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية، وصول نبأ موت (سنزانخونا) إلى (دنقزوايو) ووداعه لـ (شاكا) وعاطفة الأبوة والبنوة التي ربطت بين ملك الـ (مططوا) الشيخ، والفتى الذي سوف يصير وشيكاً ملكاً على الزولو:

«أخذت يدا (دنقزوايو) ترتعشان لوقع الصدمة، وأخذ يمشي رائحاً غادياً ورأسه يضطرب بالمشاغل. يا للخسارة! كان يؤمّل أن يصلح بين (شاكا) وأبيه.

سأل الرسول مرة بعد مرة،
كيف مات (سنزانخونا)؟ وهل ترك وصيّة؟
أجابه الرسول، وهو لا يقوى على حبس الدموع:

الموت بداية رحلة جميلة إلى
مُستقر الأسلاف، ولكن اللحظات الأخيرة من حياة الملك كانت مؤلمة.

نظر إلى زوجته الملكة (مكابي)
وسألها بلهفة، أين ابن (سقويانا)؟

أجابته الملكة، وأكد له الحاضرون
أنه جالس بجانبه لكنه لم يصدق. قال إنهم يخدعونه.

قال إنه لا يرى إلّا (شاكا).
ثم أخذ يهذي ويصرخ:
(شاكا يلقي ظله فوقي،

يحدّق في وجهي بعيون قاسية
كشعاع الشمس).
ثم حاول أن ينهض
ومدّ يده ليمسك بيد ابنه.
لكنّه هوى. سقط بلا حراك.
التفّ حصير الأرض حول جسده
وما زالت المناخات تتردّد أصداؤها)
أجهش الرسول بالبكاء
ودمعت عينا (دنقزوايو) وكان عصي الدموع
فأشاح بوجهه.
هزّه نبأ موت (سنزانخونا)
وأيضاً تذكر أنه قد شاخ، وأن حياته لن تطول.
ثم تذكّر أنه ملك، فعاودته رباطة جأشه
وقال مخاطباً شاكا:

(الموت يمحو من النفوس آثار
الجرائم التي ارتكبها الموتى حين كانوا أحياء. علينا أن نحزن، ولكن
لا نستسلم طويلاً للحزن.

الآن، يجب أن تستعدّ للرحيل،
قبل أن تنتهي فترة الحداد.
لا بد أن تنقذ مملكة آبائك من الفوضى،
وسوف أعطيك فرقة من قوات الـ (ايزي جوي)
يزيدونك هيبة وأنت تدخل عاصمة مُلكك،
كما يليق بأمير مثلك).

أجابه (شاكا) قائلاً:
(الدموع التي واسيتني بها
تغسل أحزان قلبي.
سوف أنسى قسوة أبي.
أنت كنت لي أباً
شملتنا بعطفك
بعد أن كنا صعاليك في الأرض
تتخطفنا عيون السكارى والحمقى.
صرنا عيالكَ بحق.
وأنا أدين لك بكل شيء.
سوف أفارقك الآن مضطراً
لأنجز المهمة التي ينتظرها آبائي مني.
الوداع، وأنا ابنك المطيع حيثما كنت).

عانقه (دنقزوايو) وقد دمعت عيناه من التأثر، ثم طلب أن يحضروا له الرّمح الملكي، وقال:

ها أنا أعلن في الملأ، وسوف تعلم الأجيال التي لم تولد بعد، أنني أمدح بطولتك.

وأقرّ، أنك، أكثر من أي قائد آخر،
أعنتني على تثبيت أركان هذه المملكة العظيمة.
حسبي أنني هيّأت الأرض، وزرعت البذور،
لمولد أعظم حقبة في تاريخ أمّتنا.
خُذ هذا الرّمح الطقوسي الذي ورثته عن آبائي،
أولئك الذين بحكمتهم أرسوا أساس أمتنا

وما أنا إلّا شعاع من شمس عظمتهم.
لقد رأوا ببعْد نظرهم وحدة شعب النخيل.
حافظ على الرمح، وحافظ على ذكراهم
فنحن جميعاً فروع من دوحتهم.
وها أنا أعطيك البركة باسمهم.
وهكذا افترق البازيان العظيمان،
أحدهما نحو الغروب،
والآخر نحو الفجر.

اتضح فيما بعد، أن (شاكا) كان بعيد النظر، حين نصح الملك (دنقزوايو) ألا تأخذه الرحمة على (زويد) زعيم قبيلة أيْدواتْدوي) حين وقع في قبضته فقد قُدّر لـ (دَنْقزوايو) أن يموت قتيلاً على يدي (زويد).

كان (دنقزوايو) أميل إلى الرحمة، وكان يعفو عن (زويد) كل مرة، لصلة الرحم التي بينه وبين قبيلة الـ (مططوا). لكن (زويد) إلى جانب حماقته، كان غداراً، وقد ساهم بنصيب كبير في الحركة التي عُرفت بحركة الـ (أمفيكاني)، أي (الشّتات)، حين اقتُلع مئات الآلاف من الناس من جذورهم، بسبب الحروب والغارات، وما نتج عن ذلك من مجاعات وبؤس. أصبحوا عصابات تسيح في الأرض، وتعيش على النهب والسلب.

في هذه الفترة برزت امرأة محاربة تُدعى (مانتاتيسي) جمعت حولها زهاء خمسين إنساناً، مكوّنين جحفلاً مرعباً، بث الذعر، وألحق أضراراً بالغة بالزرع والضرع، ولم يتفرّق حتى ماتت (مانتاتيسي).

سوف يقضي (شاكا) آخر الأمر، على سلطان (زويد)، لكنه قبل ذلك، كان عليه أن يثبت مركزه في مملكة الزّولو. سارع إلى القضاء على خصومه ومعارضيه، لكنه عفا عن أخ له يسمى (دِنْقاني) سوف يصنع معه فيما بعد، ما صنعه (زويد) بالملك (دنقزوايو).

ترك (شاكا) رباط أبيه (سنزانخونا) وأقام لنفسه رباطاً جديداً اسمه (كوابولاوايو) يعني، (مقر الباطش بأعدائه). وانصرف بكل طاقته إلى تكوين جيش قوي يكون قادراً على تنفيذ سياسته التوسعية. كوّن أربعة فيالق، كل فيلق بمثابة جيش قائم بذاته، أكبرها (الصدر) الذي يمسك بالعدو، ثم فيلقان هما بمثابة قرني ثور شديد البأس، أول ما تبدأ المعركة يحيطان بالعدو في حركة خاطفة، وحين يلتقي قرنا الثور يطبقان عليه. ووراء (الصدر) فيلق هو بمثابة (عجز) الثور، يجلسون وظهورهم إلى أرض المعركة، حتى لا تستفزهم الحماسة، ولا يدخلون القتل إلّا في المرحلة الأخيرة الحاسمة.

كل جيش يتكوّن من عدة فرق مستقلة بذاتها، ولها معسكر خاص بها. وقد استغل (شاكا) إلى أبعد مدى التنافس بين الفرق، فكانت كل فرقة تقاتل لتحصل على السبق والشرف لنفسها. ومنع الجنود من الزواج، إلّا من كان منهم متزوجاً أصلاً، وظل هو نفسه عازباً إلى آخر حياته. وكوّن فرقة من الفتيان الحديثي السن، أسماها

(أوفاسمْبا) أي (السحاب)، أصبحت فرقته المفضلة، وصبَّ فيها كل أفكاره في القتال.

ومن ابتكاراته، أنه كوّن فرقة من النساء، وابتدع نظاماً من المرافقين من الصبيان (أوديي) كانت مهمتهم أن يحملوا أدوات الطعام والحصائر للجنود. لم يكن الجيش يحمل زاداً، بل يأكل مما يأخذه في طريقه.

فوق كل شيء، فرض (شاكا) على جيشه نظاماً صارماً للتدريب، بحيث أصبح آلة رهيبة، يعرف كل جندي مكانه فيها، والمهمة المنوطة به، يتحرك في صمت بإشارات من القادة.

كان محور فلسفته العسكرية، خفة الحركة، ففرض على جنوده خلْع أحذيتهم والقتال حفاة. ولما رأى تذمّراً من بعضهم، أمر بجمع أكوام هائلة من الشوك، وأمر بضرب الطبول، وأمرهم أن يرقصوا حفاة على الشوك، وكان هو أول الراقصين. وكان يقتل أي جندي يتردد في دخول حلبة الرقص. هكذا أصبح الجيش سريع الحركة، بدرجة لم يستطعها أي جيش من قبل، فكان يقطع مسافة خمسين ميلاً في يوم واحد.

أول ما أطلق (شاكا) هذه الآلة العسكرية الرهيبة، كان على قبيلة أمه، الـ (أيلانقيني)، فسرعان ما انهاروا أمامه، فنكّل بكل الذين أساءوا إليه وإلى أمه، وضمّ من بقي منهم حياً إلى قبيلة الزولو، وأدخل الشبان في جيشه.

ثم وجّه بصره نحو قبيلة (بتوليزي) التي يتزعمها (بنقاشي). كان

ذلك أول اختيار حقيقي لقوات (شاكا)، فقد كان خصمه هذه المرة قوياً حسن الاستعداد.

أمر (شاكا) جنوده أن يقفوا، وتروسهم متجهة بحافاتها إلى العدو. كان يريد أن يوهمهم أن جيشه قليل العدد. ولما بدأ القتال، وأخذ الجناحان (قرنا الثور) يطبقان على الخصم، أدار كل جندي ترسه في حركة خاطفة، مما أدخل الذعر في جيش (بنقاشي) فقد بدا لهم كأن قوات (شاكا) قد زادت ضعفين في طرفة عين.

انصبّ جيش (شاكا) كالسيل العتيّ على قوات (بنقاشي) فلم تثبت لوقع الصدمة. وسرعان ما انهارت وتشتّتت فأمعنوا فيهم قتلاً، في مذبحة رهيبة، قضت على أي نفوذ لقبيلة (بتوليزي) قضاء تاماً.

استولى (شاكا) على أبقارهم ومواشيهم وبعث بها هدية إلى ولي نعمته (دنقزوايو). سرّ ملك الـ (مططوا) بذلك، ولكنه أعادها إلى (شاكا) ففرّقها في جنده. وساق أكثر من ألف من نساء الـ (بتوليزي) وضمّهن إلى حريمه. وأدخل شبابهم في جيشه. وضمّ من بقوا أحياء إلى أكناف قبيلة الزولو. وقد صار (البتوليزي) منذ ذلك اليوم جزءاً من شعب الزولو. وجدير بالذكر أن الزعيم الحالي للزولو (منقوسوتو بوتوليزي)، هو في الأصل من البتوليزي، كما يدل اسمه، ولكنه ينتمي إلى البيت الملكي للزولو من ناحية أمه.

نجا (بنقاشي) بنفسه، مخلّفاً وراءه أشلاء جيشه المنهزم، وتاركاً نساءه وعياله، وعبر نهر (أمغلوزي) لائذاً بـ (زُوِيْد). أحسن هذا

استقباله، واستمع إلى تفصيل مأساته، ثم قتله غيلة ليلاً وهو نائم. وأعطى رأسه لأمه (نُتمبازي) فضمته إلى الرؤوس المعلقة على حيطان قصرها.

خُيّل لـ (زُويد)، بتحريض من أمه المرعبة (نُتُمْبازي)، أنه يستطيع أن يكون سيداً مطلق السلطان، على قبائل الـ (نقوني) بأسرها. وكي يحقق هذا الحلم، كان عليه أن يقضي على (دنقزوايو).

جرّب الحرب مرة بعد مرة. لكنه لم يفلح، فقد صنع (دنقزوايو) بسياسته الحكيمة تحالفاً عريضاً من القبائل، تدين له بالولاء، وكان جيشه قوة لا قِبل لـ (زويد) بها. إذاً لا بد من الحيلة.

كان لـ (زويد) أختٌ بالغة الحُسن، تُدعى (نوبنْقوني)، فأرسلها هدية إلى (دنقزوايو) وكان يعلم ضعفه نحو النساء، وأوصاها أن تعمل على إغراء ملك الـ (مطوا) الشيخ بكل ما أوتيت من حيلة، وتطّلع على أسراره وخُططه وتثبّط من عزمه على الحرب، وتكون عيناً له عنده.

لم يكن ذلك عسيراً على (نوبنقوني) الجميلة، فقد فُتن بها الملك فتوناً عظيماً، وصارت أقرب نسائه إليه. لم يستمع (دنقزوايو) لنصح مستشاريه الذين لم تنْطَلِ عليهم حيلة (زويد). وكان (شاكا) يراقب عن بعد، ويرسل إلى صديقه وولي نعمته يحذره من غدر (زويد)، ولا فائدة.

أصبح الملك أسيراً في حبائل (نوبنقوني) توجّهه كيفما أرادت. زيّنت له أن أخاها (زُويد) يحبّه كما يحب الابن أباه، وأنه لا يطلب غير السلم والحياة الوادعة، وليست لديه أي نوايا عدوانية.

وذات يوم، أقدم الملك على عمل أذهل قواده ومستشاريه. أعلن فجأة أنه عزم على القيام بزيارة وديّة لـ (زويد). ذكّره قوّاده بغدر ابن (نتمبازي) الكريهة بـ (بنقاشي) وآخرين، وأن (نتمبازي) سوف تسعد سعادة عظيمة، ولا شك، بأن تضم رأسه إلى رؤوس الملوك والقادة الذين زيّنت بهم حيطان قصرها.

لم يأبه لقولهم، ولم يقبل حتى أن يحتاط لنفسه بأن يأخذ معه حرساً قوياً من جيشه. كان يظن أن (زويد) لن يجرؤ على الغدر به، لهيبته، ولما بينهما من صلات القُربى والرّحم.

لم يصدّق (زويد) عينيه، حين رأى ملك الـ (مططوا) العتيد، يدخل عليه في مقر داره، مجرّداً من السلاح، إلّا من عدد قليل من جنوده. احتفى به حفاوة عظيمة، فأقام له الولائم والرّقص والغناء، واستمع إلى تقريعه ونصحه باستكانة وخضوع، وبعد أيام من الحفاوة، دبّر لذبحه ليلاً وهو نائم مطمئن في فراشه.

كانت نهاية محزنة لرجل، يعتبره التاريخ واحداً من الزعماء الأفذاذ الذين حكموا تلك البلاد. كان يسعى إلى توحيد القبائل المتحاربة، وإنشاء دولة قوية مستقرة، تستطيع أن تصمد أمام الضغط الأوروبي المتزايد.

أصبح لا مفر من الصّدام بين (زُويد) و(شاكا). كان (زويد) مُغتراً بغزارة جيشه، ولكن جيش الزولو، رغم قلة عدده، كان قوة رهيبة، كما برهن في المعارك التي خاضها. وفي عام ١٩١٧، كان (شاكا) قد ضمّ إلى سلطانه رقعة من الأرض تزيد أربعة أضعاف عما ورثه عن أبيه (سنزانخونا). وبلغ عدد القوات التي يمكن أن توصف بـ«قوات الصاعقة» نحو ثلاثة آلاف، مدربّة تدريباً قاسياً، ومنظمة تنظيماً صارماً، وذات شراسة في القتال، لم تعهدها جيوش تلك المنطقة من قبل. اتّضح ذلك في المعركة التي خاضها (شاكا) ضد (بُنقاشي).

اصطدم الجيشان أول الأمر، في معركة أَدْمَت جيش (زويد) ولكنها لم تقصم ظهره. استطاع (زويد) أن يجمع أشلاء جيشه ويعيد تنظيمه، ويستعد لمعركة حاسمة. ولما أحسّ أنه استعد تماماً بدأ هو الحرب.

كان (شاكا) أيضاً قد استعد. كان يعلم أن أسلوبه المعهود في الحرب، لن يُجدي ضد قوات كثيرة العدد، يصعب تطويقها من الجناحين، والانقضاض عليها من القلب، فوضع خطته لحرب استنزاف قد يطول أمدها. أفرغ عاصمته، وكل القُرى الخاضعة له من النساء والأطفال والشيوخ والمواشي، ووضعهم في أماكن آمنة في الغابات والوديان بعيداً عن ساحة الحرب. ثم أخذ يناوش قوات

(زويد) في سلسلة من الغارات السريعة المتتابعة، دون أن يدخل معها في مواجهات كبيرة. وكان ينسحب أمامها ويُغريها بالتوغل في بلاد الزولو.

طالت خطوط إمدادات جيش (زويد)، ولم يجدوا طعاماً في الأرض التي يمرون بها، فقد كانوا يجدون قرى مهجورة، ليس فيها أحد. أما جيش (شاكا) فقد كان مزوّداً، بفضل نظام المرافقين، الـ (أوديبي) الذي ابتكره.

بعد أسبوع كامل من هذه المناوشات، تضعضع جيش (زويد) وفترت همته، بسبب الجوع والإعياء، وأنه يحارب عدواً غامضاً كأنه شبح. وقرّر القادة الانسحاب.

أمهلهم (شاكا) حتى ضربوا معسكرهم، ودخل عليهم الليل، فأرسل فرقاً صغيرة من قواته لتزعجهم وتمنعهم من النوم. وظلوا هكذا حتى الصباح. حينئذٍ، وقوات (زويد) على تلك الحالة من الإعياء والارتباك، ضرب (شاكا) ضربته القاضية. استمرت نار الحرب يومين كاملين، ولما توقّفت، كانت قوات (زويد) قد تحطمت تحطيماً كاملاً.

لم يكتفِ (شاكا) بهذا، ولكنه أخذ فرقة من قوات الاحتياط التي لم تشارك في الحرب، وسار بهم سيراً سريعاً مسافة تسعين ميلاً إلى عاصمة (زويد). كان من عادة (زويد) ألا يخرج مع جيشه، ويظل بمأمن في داره، مع حرس كثيف من قواته. وكان هدف (شاكا) أن يقضي عليه قضاء مبرماً.

وصلوا ليلاً، فأمر (شاكا) جنوده أن ينشدوا نشيد النصر لجيش (أنْدرانْدْري). سمع الناس النشيد، وظنّوا أن جيشهم قد عاد منتصراً، فخرجوا لاستقباله، فمات منهم من مات قتلاً، والباقون أحرقتهم النيران التي اشتعلت في البلدة. لم ينجُ منهم إلّا عدد قليل.

أما (زُويد) فقد أفلت من قبضة (شاكا). سار شمالاً، حتى وصل بلاد الـ (سوتو). لم يطل به المقام، حتى قضى نحبه، على يدي (ميجاني) الساحرة، ملكة الجراد، ذات الضّروع الأربعة الضخمة، التي كانت تدلّيها مثل القرب وراء ظهرها. كانت نهاية تعيسة لقاتل (دنقزوايو) الكريم، الذي مات غدراً، بسبب هيامه بـ (نوبنقوني) الفاتنة.

مات (دنقزوايو)، وبذلك انهار التحالف القبلي العريض، الذي بناه هذا الزعيم الفذّ بصبر وحنكة، إذْ لم يأتِ بعده زعيم له من قوة الشخصية وبُعد النظر، ما يكفل له المحافظة على ذلك الحلف وتدعيمه. وقضى (شاكا) على نفوذ الـ (بوتو ليزي) ثم هزم (زُويْد) في معركة حاسمة، بدّدت شمل قبيلة الـ (أند واندري) القوية، وبذلك خلا له الجو ليصبح أقوى زعيم في المنطقة، تخضع لسلطانه قبائل الـ (نقوني) بأسرها.

سوف يقضي البريطانيون على نفوذ الزولو بعد موت (شاكا). وسوف يقضي البُوير الـ (أفْركانر) المنحدرون من أصول هولندية على النفوذ البريطاني وينفردون بالسيطرة على جنوب أفريقيا إلى يومنا هذا. ولعل نفوذهم ينتهي قريباً بواسطة تحالف جديد من القبائل الأفريقية الجنوبية، بأسلوب هو خليط من أسلوب (دنقزوايو)

وأسلوب (شاكا).

كل هذا ما يزال في طيّات الغيب. أما الآن ـ في نحو عام ١٨٢٠ ـ فإن (شاكا) في أوج قوّته، وظلّه أبعد فأبعد، يمتد يوماً بعد يوم.

إلّا أن أمه (ناندي) لم تكن راضية، فرغم كل ما يحيط به من أسباب العزّ والألق، كان ينقصه أمرٌ هام من وجهة نظرها. كان قد حرّم على نفسه الزواج كما حرّمه على جنده. وقد اختلف المؤرخون في سبب ذلك. بعض المؤرخين الأوروبيين، يرون أن انشغاله بأمور الحرب والحكم، لم يترك له وقتاً ليتزوج ويكوّن أسرة. وبعضهم يذهب إلى أنه كان عازفاً عن النساء أصلاً ولم تكن لديه قدرة على الإنجاب. ويقدمون دليلاً على ذلك أنه كان يسمي حريمه (الأخوات)، ويقول (هنّ أخواتي).

أما برفّسر (ماسيسي كونيني)، وهو مؤرخ بقدر ما هو شاعر، فهو يرى رأياً آخر. يقول، معتمداً على التراث القبلي المتناقل شفاهة عن (شاكا)، أنه كان يعاشر نساءه وكن يُنجبن منه. ولكنه كان يخشى الصراع على الحكم بعد موته ـ وربما في حياته ـ فكان بمجرد أن يولد له مولود، يؤخذ في خفاء وسرّية إلى أسرة تربيه كأنه ابنها.

هكذا نجد في هذا المنظر من ملحمة (ماسيسي كونيني)، أن (ناندي) أم (شاكا) لم تكن سعيدة كما يجب خلال احتفالات النصر على (زويد) فسارعت إلى العودة إلى مقرها. وكانت لها مدينة خاصة بها، بعيداً عن مقر ابنها. كان يشغل بالها أن ابنها لم ينجب وريثاً يخلفه. ولما علمت أن إحدى نساء (شاكا) الأثيرات لديه قد حبلت منه، دبّرت أن تضمها إلى حاشيتها، ورعتها حتى

ولدت مولوداً ذكراً. إلّا أن (أمْبوفا) وزير (شاكا) علم بذلك، فتخلص من المولود أولاً، ثم أخبر الملك بعد ذلك.

سار (شاكا) إلى لقاء أمه، كما يصف (ماسيسي كونيني):

حين نثر الفجر بذور الضياء
قام (شاكا) وأخذ يستعد
كأنه يتهيّأ لاحتفال عظيم.
لم يأخذ معه غير نفر قليل من حرسه.
صعدوا جبالاً، وقطعوا أودية
وحين وصل مدينة (ناندي)
دخل عليها في مقرّها
فوجدها جالسة على حصير ملوّن
تترقّب مجيئه.

لم يستطع الكلام، فقد ألجم الغضب لسانه.
قال لها، وهو يتمتم بالكلمات:

«يا أماه. إنني جرّبت آلاماً لا حصر لها
لكنني أبداً لم أجرب مثل هذا الألم.
أنت، أقرب الناس إليَّ، تخدعينني؟
تربّين طفلاً، يكون على يديه خراب بيتنا؟
نعم. (أمبوفا) أخبرني بكل شيء.
بأي حق أمنع جنودي من الإنجاب، ولا أمنع نفسي؟
كيف يثقون بي؟ كيف يطيعون أوامري؟
أما أحببتك؟ أما وثقت بك أكثر من كل الناس؟

أما سمعت نصائحك؟
كيف تعملين على إغضابي، وتفتحين الباب
لأعدائي؟».

أمهلته حتى هدأت سورة غضبه
وقالت له بصوت مليء بالحنان:

«يا بني. إنك تملك أشياء كثيرة
ولكنك لا تملك كل شيء
وتعرف أشياء كثيرة
ولكنك لا تعرف كل شيء.
القلب أيضاً له مطالب لا يمكن إغفالها،
وأنا ضعيفة لأنني أستمع إلى نصائح قلبي.
ظننت أنك تشتاق إلى قلب
يستجيب لنداء قلبك
وتكون من ذلك بذرة
تخصب أرضاً إلى الأبد.
والآن ما الفائدة؟
(أمبوفا) اللعين قتل الطفل الذي أحببتُه،
إنه هو الذي سوف يكون على يديه دمار بيتنا.
يقتل اليوم، ويقتل غداً، ولا يرتوي من الدماء».

استمع إليها في هدوء وقال لها:

«إنني أفهم عواطفك،
ولكن توجد اعتبارات أخرى
لا تقدّرينها.

إن أصوات أسلافنا
تهيب بنا أن ننهض بأعمال تسمو على ذواتنا.
إنني ملكٌ أُملي إرادتي على شعوب كثيرة
في أرض الزولو
كيف أفعل ذلك وأنا لا أستطيع أن أحكم نفسي؟
حرّمت الزواج على جنودي،
فلا بد أن أرتفع فوق رغباتي
وأستجيب لمتطلبات المجد
الذي أريده لأمتنا.
إذا عجزت! إذا أطعتُ نوازع نفسي!
حينئذٍ سيحلّ بنا الدمار حقاً.
الناس يريدون رجالاً عظماء
يتخذونهم مثلاً.
إن روحينا يا أمي، لم تعودا منسجمتين؟
روحك تحسّ بالوحشة وأنت تعيشين في النعيم،
وأنا روحي روحُ مسافر قلق،
أبداً تدهشه غرابة الأشياء.
وأما (أمبوفا)، فلا غنى لي عنه.
إنه مستشاري الأمين.
يرى ما لا أراه أنا
إنه ضمير الشعب ودرع الملك
هل أتخلّى عنه وأقول للناس
إنني خلعته لأن أمي غاضبة عليه؟
لا. هذا عمل لا يليق بملك مثلي».

بكت (ناندي) وهي تستمع إليه.

قالت له «إنني أحبك يا بني رغم الآلام التي تحملتُها من أجلك.
إنني امرأة. وقلبي قلب امرأة.
كل هذا الكلام عن الحرب والمجد
لا قيمة له عندي».

عانقها برفق ليزيل الحزن من عينيها،
فانهمرت دموعها أكثر،
وكانت قد بذرت في عقله
بذور الشك في (أمبوفا).

في عام ١٨٢٠، أرسلت شركة (فيرْول) التجارية، (هنري فرانسيس فِـنْ Henry Francis Fynn) عـلـى رأس بـعـثـة إلـى مـيناء نـاتـال، وكلّفته بفتح الطريق لإقامة علاقات تجارية مع القبائل المقيمة على الساحل الشرقي لجنوب أفريقيا. وكما حدث في الهند، فقد كانت تلك، طليعة النفوذ السياسي البريطاني بعد ذلك. كانت المنطقة خاضعة لسلطان دولة الزولو المنيعة التي أقامها (شاكا)، فكان لا بد من السير إليه في عاصمته، واستمالته بشتى الوسائل.

سجل (فن ـ Fynn) مشاهداته وانطباعاته في بلاد الزولو، ولقاءه لـ (شاكا) في مذكرات تعتبر وثيقة من أهم الوثائق عن تأريخ مملكة الزولو. لكنها لم تنشر كاملة إلّا في وقت متأخر، فقد نُشرت عام ١٩٥٠.

كان (فن ـ Fynn) أول أوروبي يترك وصفاً مكتوباً للقائه بـ (شاكا)، لذلك لا يكاد يخلو كتاب عن تاريخ مملكة الزولو من إشارة إليه. وفيما يلي نبذة من وصفه:

«لا بد أن أسارع بالقول، إن المسافة من ميناء ناتال، إلى مقر (شاكا) لا تزيد عن مائتي ميل. ولكن رحلتنا كانت غاية في البطء، بإشراف (مبكوانا) عم (شاكا) الذي أرسله لرفقتنا. كان هو الذي يأمرنا بالحل والترحال. واتضح لنا بعد ذلك أنه لم يسلك بنا أقصر الطرق، فقد تسكّع بنا عن عمد في طريق طويل. وكان يقف بنا على زعماء عشائر لا وزن لهم، وكلما مررنا بمعسكر للجيش يأمرنا بالنزول.

أرهقونا بالضيافة والذبائح التي كانت أحياناً تصل إلى اثنتين أو ثلاث في اليوم الواحد. وكانت تنضم إلينا في الطريق جماعات من الزولو. ورغم ذلك لم نملك إلّا أن نعجب بما شاهدناه من الاستقرار والرخاء والنظام في كل المناطق التي مررنا بها في دولة الزولو.

وكانت النظافة شيئاً ملفتاً للنظر حقاً، كأنها عادة جبلوا عليها في طبعهم. أدهشنا أن نجد مساكنهم نظيفة نظافة مفرطة، في الداخل والخارج. وكانت الساحات بين البيوت خالية تماماً من القذارات والأوساخ.

كنّا نمرّ أحياناً على حلقات من الأهالي، يجلس وسطهم رجال غريبو الهيئة في أزياء بشعة، يخاطبونهم بلهجة غاضبة كأنهم يوبّخونهم لأمر ما. وأحياناً يؤخذ أناس من بينهم فيقتلون في الحال. وسألنا عنهم، فقيل لنا أنهم خبراء في فنون السحر، وأن الناس

الذين يُجرون إلى القتل تلبستهم أرواح شريرة.

وذات يوم، وصلنا إلى معسكر للجيش، مكوّن من نحو مائتي كوخ، ووجدنا جمعاً من الناس يزيد عن المائة، يجلس وسطهم رجل يسائلهم كأنه قاضٍ في محكمة. وكان حين يسأل الواحد منهم، يضرب المسؤول الأرض بعصاه، ويصيح قائلاً «يز ـ وازي». ثم أشار إلى ثلاثة منهم، فأخذوا وقتلوا في الحال.

علمنا أنهم يسمّونه (أنيانقا) وهو كاهن يتوهمون أنه يخاطب الأرواح، ويطّلع على خبايا النفوس. كان يضع على رأسه غطاء من جلد القرد. وحول رقبته عقد من عروق الشجر، ويمسك بإحدى يديه حربة ودرقاً، وبالأخرى، ذيل بقرة. وقالوا إنه يفسّر الأحلام، ويكشف ما يحدث في البلد. لا تخفى عليه شاردة ولا واردة، في زعمهم. وكان قراره قاطعاً، وحكمه لا يرد.

في الصباح، جاءنا الأمر بالسير. وصلنا بعد ساعتين إلى هضبة، أشرفنا منها على وادٍ واسع مخضرّ، يشقه نهر يسمونه (أمفلوزي). وأمرنا أن ننتظر تحت شجرة. رأيت على البعد مقر (شاكا) الذي قدّرت أن محيطه نحو ميلين.

خلال انتظارنا، ظل المبعوثون يجيئون ويذهبون بين (شاكا) وبين (مبكوانا). وأخيراً وصل رسول يطلب من (مبكوانا) أن يصحبني ومستر (فارْول) إلى مقابلة (شاكا) فسرنا معه، وتركنا مستر (بيترسن) مع الخدم والهدايا.

دخلنا حظيرة واسعة، في وسطها نحو ثمانين ألف جندي في لباس

الحرب. طلب مني (مبكوانا) أن أركض بحصاني وسطهم، وحين بدأت الركض، صاحوا بصوت واحد (أجوجو وكهالو). وعلمت بعد ذلك أنهم لقبوني بـ (عصفور التل الطويل الذنب) كناية عن الشجاعة والإقدام.

ثم قادنا (مبكوانا) إلى معسكر أكبر، استقبلونا فيه بالصمت المطلق. بدأ (مبكوانا) يتحدث إلى شخص لا نراه، في خطبة طويلة كأنه يمدحه فيها، فقد كان يطلب منا بين كل حين وآخر، أن نقول (ييبو)، كأننا نؤمن على قوله، رغم أننا لم نفهم شيئاً مما يقول.

بينما (مبكوانا) يلقي خطبته، لمحت شخصاً عن بعد، قدّرت أنه (شاكا)، فقلت لـ (فارْول): «أنظر هناك. لا بد أن ذلك شاكا». سمع (شاكا) قولي، فرفع يده فرحاً، وأشار بإصبعه، كان (فارول) ضعيف البصر، ويضع نظارات على عينيه، فلم يرَ شيئاً.

جاءوا في الحال بسن فيل وضعوها أمامي، وأخرى وضعوها أمام (فارْول). ثم ضرب (شاكا) بعصاه في الهواء يميناً ويساراً، وفوراً انتظم الجند في طوابير عسكرية في عدة كتائب. ثم أشار (شاكا) بعصاه، فاندفعت بعض الكتائب ناحية النهر والتلال المحيطة، والباقون تحلقوا في حلقة، وأخذوا يرقصون. ودخل (شاكا) الحلقة وأخذ يرقص وسطهم.

يواصل (هنري فرانسس فنْ Henry Francis Fynn) وصفه للقائه بالملك «شاكا»، فيقول:

«كان أمراً مدهشاً إلى أقصى حد أن نجد شعباً نصِفُهم بأنهم (همج) قد بلغوا درجة عالية من الضبط والنظام.

دخلَت الحَلبة كتائبُ عسكرية من الفتيات، لها قادة من النساء أيضاً، بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف، وانخرطن في الرقص، وظللن كذلك نحو ساعتين.

في تلك الأثناء، تقدّم (شاكا) نحونا، وقال لنا ألّا نخاف زحام الناس، فإنهم لن يمسّونا بأذى، وكانوا بالفعل قد أخذوا يزحفون نحونا على هيئة تدعو إلى القلق. وكانوا يسوقون أمامهم قطعاناً من

البقر. كانوا يرقصون ويغنون، ويتحركون في موجات عظيمة تروح وتجيء، كما يندفع موج البحر على الشاطىء. كانت الأرض على مدّ البصر، مغطاة بالبشر، وبقطعان البقر التي صُنّفت حسب ألوانها، كل قطيع له لون واحد.

مضوا هكذا نحو ساعتين، ثم تحلّقوا حلقة واسعة وأخذوا يرقصون رقصة الحرب. حينئذٍ دخلت كتائب النساء من جديد، كل منهم تمسك بعصا طويلة تلوّح بها على إيقاع الغناء. ثم ما لبثن أن أفسحن الطريق لحريم الملك، فدخلن ومعهن حاشية من مائة وخمسين امرأة من (الأخوات). تشكّلن في مجموعات، في كل مجموعة ثماني نساء، يلبسن عقوداً من الخرز ذات لون واحد، تتدلى إلى الرُّكب. وكل امرأة تضع على رأسها غطاء من الريش الأسود، وعلى رقبتها أربعة أطواق من النّحاس. وحين حمي الرقص، دخل الملك بينهن مع عدد من رجاله.

كان الترجمان خلال ذلك يلفت أنظارنا إلى روعة المشهد ويفسّر لنا مغزى حركات الرقص وإيقاعات الموسيقى. وجاءنا الملك، وسألنا وهو مملوء بالزهو:

«هل رأيتم مشهداً بهذه الروعة في أي مكان في الدنيا؟ ألست أنا أعظم ملك على وجه الأرض؟ أليس شعبي أعظم شعب؟ إنهم بعدد النجوم لا حصر لهم».

تفرق الناس بعد ذلك، وأشار الملك إلى أحد رجاله أن يصحبنا إلى مقر إقامتنا. أرسل لضيافتنا ثوراً وكبشاً وخبزاً وجرة من خمر الذّرة. وبعد أن تعشينا أطلقنا الصواريخ وضربنا بثمان من بنادقنا. وكان

(شاكا) يحث الناس على الخروج للفرجة. ولكنه لم يخرج، ربما بدافع الخوف.

في الصباح طلب منا أن نذهب إليه، فوجدناه جالساً تحت شجرة ضخمة، وحوله نحو مائتين من رجاله، ويبرك عند قدميه رجل يظلّله بترس، من وهج الشمس. كان منظره مهيباً حقاً. حول جبينه عصابة من جلد السنجاب، وعلى رأسه ريشة طولها قدمان، وإكليل من ريش أحمر. وعلى كتفيه وشاح من جلود القرد تتدلّى إلى بطنه، وعلى الذراعين حُزَمٌ من أذيال ثيران بيض، وعلى خصره حزام من جلد القرود تتدلى منه سيور تصل الركبتين. تتدلى على الساقين ربطٌ من أذناب البقر تصل إلى الكعبين. وكان يمسك في إحدى يديه بترس بيضاء لها نقطة سوداء في الوسط ويمسك برمح في اليد الأخرى. كل كذلك أسبغ عليه هيبة ملوكية، وبأساً عسكرياً لا يُنكر.

عادت الفرق العسكرية التي لم تشارك في الرقص، من النهر والتلال تسوق أمامها قطعاناً من البقر لا يحصيها العدّ. ولم يلبث أن بدأ عرض آخر، غاية في الروعة. كتائب من الجند تسوق أمامها كتائب من البقر، وكل قطيع من البقر من لون واحد، يماثل لون التروس التي يحملها الجند. وكل كتيبة تحمل تروساً من لون مميز. قطعان من بقر لا قرون لها، وقطعان، كل بقرة منها، لها أربعة قرون، وستة قرون. وقطعان من بقر لها نتوءات على جباهها تصل إلى ستّ بوصات. واستمر العرض على هذه الحال، حتى مغيب الشمس.

ذُبح عجلان لعشائنا. وحين أخذنا نتهيأ للنوم، جاءنا رسول من (شاكا) يطلب منا أن نصحبه للقاء الملك. حين وصلنا، أدخلوني

وحدي إلى بيت الحريم، فوجدت شاكاً جالساً على كرسي من الخشب المحفور، وحوله نحو أربعمائة امرأة، واثنان من قادة الجيش وخادمان.

خاطبني باسم (سوفيلي)، وهو الاسم الذي اختاروه لي بدلاً من اسمي الأصلي (فِنْ). طلب مني أن أجلس أمامه. قال:

«علمت أنك جئت من قبل أبينا جورج. هل هو ملك عظيم مثلي؟».

قلت له «نعم. الملك جورج من أعظم الملوك في العالم».
«أنا غاضب منك. سوف أخبر أبانا جورج فيأمر بقتلك».
«لماذا؟».
«إنه أرسلك لتكون طبيبي، وليس طبيباً لكلابي. لماذا أعطيت الدواء لكلابي؟».

«أعطيت الدواء لامرأة مريضة. هذه تقاليد بلادنا. نساعد المحتاجين إذا استطعنا».
«هل أنت طبيب كلاب؟ إنك جئت لتكون طبيباً لي».
«أنا لست طبيباً ولم أتعلّم الطب. أهل بلدي لا يعتبرونني طبيباً».
«هل معك دواء؟».
«نعم».
«داوني إذاً، وإلّا سوف أرسل إلى أبينا جورج فيأمر بقتلك».
«ما هو مرضك؟».
«عليك أنت أن تعرف».
«قف ودعْني أفحصك».

«لماذا أقف؟».
«حتى أعرف ما هو مرضك».

وقف، ولكن كان واضحاً أنه ممتعض من قربي منه. جسست مواضع من جسده على ضوء المشاعل التي رفعتها الفتيات. وقدّرت أن الطاقة العظيمة والنشاط الذي بذله طوال اليوم، يدل على أنه في صحة جيدة. ولكنني لاحظت آثار الكيّ على فخذيه. قلت له: «بك ألم في الفخذين».

وضع يده على فمه من الدّهشة، وأظهر الحاضرون إعجابهم بمهارتي. ثم أمرني بصرامة ألا أعطي الدواء لمن أسماهم (الكلاب). وبعد أن مازحني بطريقة تدلّ على أنه لا يخلو من روح الدعابة، أذن لي أن أنصرف».

٣٧

يواصل مستر (هنري فرانسس فنْ Henry Francis Fynn) حديثه عن لقائه بالملك (شاكا) ملك الزولو فيقول:

«ظل الجيش ساهراً طول الليل، ولا أظن أن أحداً قد أغمض له جفن. ذُبحت أعداد هائلة من الثيران، واشتعلت الأضواء على امتداد الرّقعة المحيطة بمقر (شاكا)، وتحلّق الجنود في معسكراتهم حول النيران يتحدثون ويسمرون.

كان الملك قد ضرب لنا موعداً في اليوم التالي لتقديم الهدايا التي جئنا بها. ومن حسن الحظ أن (فارْول) قد أحسن انتقاءها كي تليق بمقام ملك رفيع مثل (شاكا). جئنا بكميات عظيمة من الخرز من كل الأشكال والألوان، أرقى بكثير من الأصناف التي أهداها إليه البرتغاليون من (دلْقاو). وأحضرنا تلالاً من البطاطين الزاهية الألوان،

وكميات من قضبان النحاس اللامع المصقول، وصفائح النحاس، وأعداداً من الحمام والقطط والكلاب، وخنزيراً واحداً.

لم ننس أن نجيء لـ (شاكا) بزي عسكري كامل، ياقاته موشاة بخيطان مذهّبة. تقبّل الملك هدايانا بعدم اكتراث يقرب من الاحتقار، لكننا أحسسنا أنه كان راضياً في قرارة نفسه. اهتم اهتماماً واضحاً بالحيوانات، وخاصة بالخنزير. لكن لسوء الحظ انفلت الخنزير ودخل مخازن الحليب، فكسر الجرار وأراق اللبن وأرعب النساء فأمر الملك بذبحه.

اتّصل الرقص والغناء وعروض البقر طوال اليوم، وجاءت ألْوية من الجيش من أماكن بعيدة وشاركت في الاحتفال. وكنا قد أحضرنا عدداً من الصواريخ النارية، ولكننا رأينا ألّا نقدّمها مع بقية الهدايا. وحين عُدنا إلى مكان إقامتنا في المساء أطلقنا عدداً منها. وكنّا قد استأذنا (شاكا) وطلبنا منه أن يشجع أفراد شعبه ليروا نيران الصواريخ، فكانت دهشتهم بذلك لا حدّ لها. لكنني لا أدري إن كان من الحكمة عرض هذه الأعاجيب الأوروبية على قوم همج كهؤلاء القوم، خاصة أننا لم نلتق بهم إلّا منذ عهد قريب، ولم نعرفهم بعد، معرفة حقيقية.

في لقاءاتي معه، كان (شاكا) حريصاً جداً أن يعرف حقيقة مقاصدنا، ولماذا جئنا أصلاً إلى تلك البلاد، وأشار علينا أن نقيم في الميناء ولا نتجاوزها. وكان يدعوني للقائه كل مساء، فأقضي معه ثلاث أو أربع ساعات، يترجم بيننا الـ (كافر)(*) جيكوب.

في أول يوم لزيارتنا، رأينا نحو خمسة رجال يؤخذون ليُقتلوا. تكفي

مجرد إشارة من الملك، بإصبعه مثلاً، حتى يُحاط بالرجل، ويُلْوى عنقُه ويُدقّ رأسه بعصاة غليظة بها رأس في حجم قبضة اليد. ثم تُحمل الجُثة ويُلقى بها على قمة هضبة غير بعيد. وقد زرنا المكان فيما بعد، فوجدنا مشهداً مروِّعاً، جثثاً متراكماً بعضُها فوق بعض، تحوّم فوقها جحافل من الصقور.

صدم المنظر مستر (بيترسن) صدمة عظيمة لم يقْوَ على تحمُّلها، ففضّ شراكتنا في الحال، ونفض يده من المهمّة التي جئنا من أجلها، وأصرّ على العودة إلى (كيب تاون).

في اليوم الخامس لمجيئنا، دعاني (شاكا) وطلب مني أن أذهب برفقة عدد من أتباعه إلى قرية نائية لعلاج زعيم يُدعى (موبانْقازيتا). وجدته محموماً، قد ارتفعت حرارته ارتفاعاً فظيعاً.

فصدتُه، وأعطيته بعض الدواء، فطفح عرق غزير من جسمه. ورويداً رويداً انخفضت حرارته، وهدأ، وبدا عليه التحسُّن. وعلمت بعد أيام أنه تعافى تماماً. كان (موبانقازيتا) أثيراً لدى الملك، فسرّه جداً علاجي له، وارتفع مقداري في نظره.

حين جئنا لوداعه، أهدى إلى كلٍّ منّا ـ أربعين رأساً من البقر، وخمساً من سن الفيل، ووعد أن يرسل معنا عدداً من جيشه ليصطادوا لنا الأفيال. لكنني لم أنصرف في حيني، فبعد أن سرت مسافة مع مستر (فازول)، عدت إلى (شاكا) بعد مغيب الشمس، وجلست معه أسائله ويسائلني إلى وقت متأخر من الليل».

(*) كافر (Caffer) أو (Kafir): وصف أشاعه العرب المسلمون على القبائل الأفريقية التي لم تدخل في الإسلام. وأخذه الأوروبيون وخاصة البوير، وسموا به القبائل التي تقطن منطقة (رأس الرجاء الصالح!) ثم عمَّموه ـ من قبيل الاحتقار ـ على شعوب الجنوب الأفريقي على إطلاقها. وجدير بالذكر أن شعوب هذه المنطقة، لم تكن لها أوثان تعبدها، وإنما تعيش على الفطرة، وإن كانت لها عقيدة فهي مثل الشنتُويّة في اليابان، تقوم على تقديس الطبيعة وتمجيد الأسلاف.

استمعنا إلى (هنري فرانس فِنْ - Henry Francis Fynn) يصف أول لقاء أوروبي مع الملك (شاكا)، وهو وصف يجب ألّا يؤخذ على علاّته، إذ إن (فِنْ) يوحي بأن الهدف من تلك الزيارة، لم يكن أكثر من إقامة علاقات تجارية مع مملكة الزولو، ويخفي المقاصد الحقيقية، ألا وهي الحصول على موطىء قدم ينطلق منه النفوذ البريطاني، كما حدث بعد ذلك بالفعل.

وجدير بالذكر أن (فِنْ) ظل مقيماً في ميناء (ناتال) إلى أن صارت مستعمرة بريطانية. وفي عام ١٨٣٤، عيّنه حاكم المستعمرة (سير بنجامين ديربان) مستشاراً له بوصفه خبيراً في الشؤون الأفريقية. وفي عام ١٨٦٢، صار قاضياً في الإدارة البريطانية لمستعمرة (ناتال).

لنستمع الآن إلى المؤرخ الشاعر الزُولي الكبير، برفّسر (ماسيسي كونيني) يروي القصة من وجهة نظر الجانب الآخر، في ملحمته الشعرية عن (شاكا). ويلفت النظر في روايته، أن (شاكا) لم يكن غرّاً ساذجاً كما قد يتبادر إلى الذهن من رواية (فِنْ)، ولكنه كان يدرك حقيقة المقاصد الأوروبية، وكان يواجه المكر بالمكر.

يتّضح لنا من رواية (ماسيسي كونيني)، لماذا سار (مبكوانا) خال(*) (شاكا) بالبعثة في طريق طويل، وتسكّع بهم على القرى ومعسكرات الجيش. كان (شاكا) يريد إنهاكهم قبل أن يصلوا إليه. وكان يريد أن يبعث في نفوسهم الرّهبة لعظمة دولة الزولو وقوتها العسكرية ورفاهها وعمرانها. وكان جواسيسه المنبثون حول البعثة، ينقلون له، أولاً بأول، ردود أفعال أولئك الغرباء ذوي الآذان التي سلّختها أشعة الشمس، كما كانوا يصفونهم.

كذلك يتّضح أن (فِنْ) أغفل أن يذكر أن محاولة لقتل (شاكا) قد حدثت أثناء زيارة البعثة البريطانية. ويوحي (ماسيسي كونيني) أن ذلك تمّ بتدبير منهم، لإسداء جميل لـ (شاكا) بمداواته من جراحه، ثم مطالبته برد الجميل، بتوقيع تعهّد ينص على منح ميناء الناتال للبريطانيين ليمارسوا نشاطهم منها. كان ذلك أخطر مما تمخّضت عنه تلك الزيارة... يقول (ماسيسي كونيني):

منذ سنوات، والإشاعات تترى
إن (سُلالة القَرع) قد دخلت البلاد.
وقال الرُواة إن الملك (سُبهوزا) الأكبر
كان قد تنبّأ بذلك
قال للنّاس في مجلسه ذات يوم، وقد بدا عليه الهم:

(رأيت في منامي حُلماً أزعجني،
إن أمماً تخرج علينا من البحر،
على هيئة البشر مثلنا، ولكنهم صفر الألوان
مثل عصيد القرع.
كلامهم مثل شقْشقة الطيور في أعشاشها.
حركاتهم سريعة متوترة.
وأصواتهم حادة غاضبة كأصوات الوحوش
غلاظ أفظاظ، ليس فيهم سماحة ولا رحمة.
سلاحهم عصاة ناريّة طويلة
يقتلون بها، وينهبون ويعيثون فساداً في الأرض.
أحياناً لا يتورّعون عن اختطاف الأطفال
ليوقدوا بأجسادهم نيران أفرانهم البحرية.
يا لها من سُلالة عجيبة حقاً!
سلالة من اللّصوص وآكلي لحوم البشر)

اضطرب المجلس لبشاعة الحلم،
وقال بعضهم أن ذلك لا يمكن أن يحدث في الواقع.
ولكن آخرين أكّدوا صدقه
وقالوا إن العرّافين القُدامى تنبّأوا بمثل ذلك.
ذكروا أنّ في ذات يوم، والبحر ساكن والرّيح هادىء،
فجأة طلع من الماء خَلْق من جنس غريب،
شعورهم تتدلّى من رؤوسهم كسنابل الشعير
جاءوا على هيئة شحّاذين مساكين
يستجْدون الماء والطعام،
ثم ما يلبثون أن يغتصبوا الأرض والقرى،
لأن بطونهم لا تمتلىء، ونهمهم لا ينقضي،

الطعام عندهم أغلى من الإنسان،
لذلك لا يبالون أن يبيدوا شعوباً بأكملها
ليحصلوا على الطعام.
هكذا قال العرّافون الأولون، وتناقل النّاس نبوءاتهم
ووصلت إلى (شاكا) وهو بعدُ في جيش (دنقزوايو)
وطالما تفاكر مع الملك الشيخ عن أمر هؤلاء الغرباء.
والآن يدخل عليه (مهلوب) كبير جواسيسه،
قال له «مولاي. قد حلّ بأرضنا وباء من البرغوث.
هذه الحشرات، في هذه اللحظة تتكاثر
عند مصب نهر (منْقيني).
تقفَّيتُ آثارهم كما أمرتني، وخالطتُهم
وراقبت أحوالهم، بعضهم تعلّم لغتنا».

سأله بعض من في المجلس:
«سمعنا أن هؤلاء الغرباء، حمر الألوان
ولهم شعور طويلة مثل أذناب الخيل
وأنهم يلبسون أحذية كأحذية آبائنا الأولين، ويسكنون في خيام من جلود بيض
يحملونها معهم من مكان إلى مكان»

أجابني (منقيني): «نعم. إنهم كذلك، ولهم جلود رهيفة كأن الشمس قد سلّخت أجسادهم، ورغم ذلك فهم، كما يبدو، بشر مثلنا».

هنا خاطبهم (شاكا) قائلاً:
«أنتم تتحدّثون حديث أطفال.

هذه الأمم لا تختلف عن غيرها
هل نخشاهم ونحن أبناء شعب الزولو العظيم
أعظم شعب على وجه الأرض؟
هؤلاء قوم جياع، ضاق بهم الحال في أرضهم
فجاءوا إلينا يطلبون الطعام.
سوف نتصدّق عليهم من خيرات أرضنا
فلدينا منها ما يفيض عن حاجتنا.
اذهبْ يا (مبكوانا) إلى (تُنْقولُو)
وقل لهؤلاء الغرباء أنني أدعوهم في ضيافتي.
لا بدّ أن نتعرّفهم عن قرب،
ونعرف منهم أحوال هذه البلاد البعيدة
ونفهم حقيقة مقاصدهم».

وكذلك انطلق (مبكوانا) إلى السّاحل ليدعو الغرباء، ذوي الآذان المبرّصة، إلى ضيافة الملك.

(*) في ترجمتي لمقالة (فنْ) ذكرت أن (مبكوانا) هو (عمّ) شاكا، فكلمة Uncle الإنجليزية، تعني العم والخال. ثم وجدتُ أن (ماسيسي كونيني) يثبت أنه (خال) شاكا.

٣٩

يواصل (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية، وصف لقاء ـ (هنري فرانسس فنْ) وبعثته التجارية، للملك (شاكا) ملك الزولو. وكان ذلك في عام ١٨٢٠. يقول:

«قاد (مبكوانا) الغرباء في الطريق
المتجه شمالاً. عبروا نهر (أماتيقو)،
وتوقّفوا قليلاً في (نيينزاني)، ثم ساروا عبر قرى نتوتليني العامرة،
وكان الناس يعجبون لغرابة هيئتهم.
وما لبثوا أن اجتازوا المدينة الملكية
حيث الأميرة (ماوا) متّجهين نحو
(ملالازي) في سفح جبال (نقوبي).
من ثمة ساروا قاصدين رباط الملك،

مدينة (بولاوايو) المجيدة.
نظروا إليها فرأوها كأنها مشدودة بحبال
من أشعة الشمس.
وكانت الجموع من أقطار بلاد الزولو كلها،
تموج وتهدر مثل البحر،
وكتائب وراء كتائب من الجند
تجيء من معسكراتها النائية
لتجدد الولاء للملك.

انطلقت ألسن الخطباء، وفاضت قرائح الشعراء، وقال شاعر منهم
(إن شاكا العظيم
موحّد شعب النخيل، حامي الحمى وقاهر الأعداء،
سوف يقضي على الغرباء المعتدين).
ظل الغرباء ينتظرون تحت الشجرة
الكبيرة عند باب المدينة.
وحين جاءهم الإذن، ومثلوا بين يدي الملك،
وقف (مبكوانا) خطيباً. قال:
«أيها الملك العظيم! يا رُمح الزولو! يا حفيد ملانديلا!
ها أنا قد وصلت. أحضرت لك، كما أمرت،
هؤلاء الرّجال الضعفاء المساكين،
هؤلاء المبرّصين الذين تخترق
أشعة الشمس آذانهم،
تركوا بلادهم البعيدة وجاءوا
يستظلون بظلك.
أيها الأسود الأوحد المهيب».
والتفت (مبكوانا) إلى الغرباء وقال لهم:

(هل تُقِرُّون بالطاعة لملك الملوك؟)
وحين أجابوا بالإيجاب، وُضعت في الحال أمامهم،
أسنان الفيل، علامة الرّضى والترّحاب، كما تقضي الطقوس.
ثم ضرب الملك ترْس الحارس الواقع عن يمينه
والحارس الواقف عن يساره
فخرج جميع من في المجلس
وبقي وحده مع الغرباء، ما عدا
مترجمه (هلامبا مانزي).
أصابهم الذعر حين أدركوا أن (هلامبا مانزي)
كان واحداً من الـ (خوزا) الذين
أسروهم، وهرب منهم،
تحدثوا ببطء وحذر، كما يتحدّث الخائف
الذي زعزعه الشعور بالذنب.
أمر لهم الملك بالطعام والشراب
وسألهم أسئلة فاحصة عن بلادهم،
فأجابوه مبالغين في تصوير عظمتها ورخائها وعمرانها،
لكن ذلك لم ينطلِ على (شاكا)
الذي كان يميز ببصيرته النافذة، بين الصدق والكذب.

ولما فرغوا من كلامهم، قال لهم:

(إنني سوف أمنحكم كل ما تطلبون.
ما عليكم إلّا أن تخضعوا لقوانيننا
فتعيشون بيننا في أمن ورخاء.
بلادنا آمنة مستقرة لأن الناس جميعاً
يخضعون للقوانين والأعراف

وأعرافنا تلزمنا أن نحسن استقبال الغرباء
لذلك سوف تُقام وليمة كبيرة للترحيب بكم.
وأنتم أيضاً من رعايا أخي الملك جورج
فمرحباً بكم في دولتنا العظيمة
وديارنا العامرة.
سوف تطيب لكم الإقامة بيننا).

وهكذا انخرط الغرباء بين الجموع، في
احتفال الزولو الكبير.
آلاف الرجال والنساء جاشوا،
كما تجيش الغابات في الصيف.
إنما وراء ذلك كله، كانت عينا (شاكا) يقظتين.
تتابعان مكر هؤلاء الدخلاء
قال لمستشاره الأمين (مقبهوزي)
الصّلب ربيب الجبال:
(إننا نواجه غزواً من جيش من النّمل الأحمر،
خلقاً يدفعهم اليأس أن ينخروا الصخر
لا مثيل لشراسة الإنسان حين يعضُّه الجوع.
يتخشّب جسده، ويسلّ عقله مُدىً
حادّة تطل من العيون.
هؤلاء الناس يخفون وراء أصواتهم
الناعمة وكلماتهم الخافتة
نوايا خطرة تفصح عنها عيونهم.
إن نظراتهم نظرات أناس بلغوا منتهى اليأس
لا بد أن نتعامل معهم بحذر.
هل رأيت أحذيتهم الثقيلة؟

إنها تعطّل حركتهم في القتال ولا شك،
ولا بد أن أقدامهم صارت ناعمة كأقدام الأطفال.
هل سمعتهم يحدّثونني طويلاً عن
الثراء والرخاء في بلادهم؟
إنما الأمم التي تعيش في ثراء ورخاء،
لا تترك أرضها وتطوف في البلاد.
إنهم وحوش يتلذذون بمشاهد الدماء والعنف
وسلاحهم الناري إن دلّ على شيء،
فإنما يدلّ على الجبن،
يضربون به من بعيد.
لكنه لن ينفعهم في مواجهة جيوشنا
التي تعصف مثل الريح.
وبينما هم يعيدون ملء قاذفات نيرانهم
تكون قوّاتنا قد انقضّت عليهم،
وداستهم بأقدامها.
انتصروا على الـ (خوزا)
لأن أولئك لم يتعلّموا سرعة الحركة مثلنا.
حين يواجهوننا، سوف يجدون عدوّاً من نوع آخر.
لكن لا بأس أن نتعلم منهم، ونأخذ من أساليبهم.
إنما السلاح ليس هو كل شيء،
قوّتنا الحقيقيّة تنبع من أنفسنا.
الذين يضعون كل ثقتهم في السلاح،
محكوم عليهم بالفشل،
لأن السلاح حين يتكسّر في أيديهم،
لا يبقى لهم شيء، فتحلّ بهم الهزيمة.
والآن، لينبثّ الجواسيس بينهم ليراقبوهم

ويحصوا كل صغيرة وكبيرة عنهم،
ويأتوني بأخبارهم
في أثناء ذلك، سوف أرسل الهدايا
للملك جورج هذا.
أرجو أن يربكهم هذا، ويجعلهم
يترددون في غزونا
إن كانوا قد قرروا ذلك.
في تلك الأثناء، نتغلغل إلى خبايا نفوسهم،
ونعرف حقيقة نواياهم وخططهم.
إنك إذا عرفت خطط عدوّك
فقد ملكت أهمّ أسباب النصر».

في شهر أيلول/ سبتمبر عام ١٨٢٨، كان (شاكا) ينتظر وصول وفد من الـ (مُبندر). استبطأ الوفد فخرج يستوضح أخباره، ليس معه حرس، ولا يرافقه سوى بعض الشيوخ من مستشاريه.

كان قد بلغ ذروة مجده وسلطانه، وهو بعد لم يتجاوز الأربعين من العمر. امتدت دولته من الساحل إلى جبال (دراكنْسبيرج) في الغرب، ومن وراء نهر (أمغلوزي) في الشمال إلى حدود مستعمرة الـ (كيب) في الجنوب، وأخضع لطاعته قبائل المنطقة كلها، بما فيها القبائل الكبرى، قبائل الـ (متابيلي) والـ (بسوتو) والـ (سوازي) والـ (مططوا) والـ (خوزا).

لم يحس بالخطر من الوجود الأوروبي على الساحل، وكان يؤمل أن يستفيد منهم، ويحصل منهم على الخبرة والسلاح. وقد بلغ من ثقته

بنفسه أنه استغنى عن حرسه الخاص، وأخذ يغير في النظام العسكري للدولة، ويفكر أن يبيح لجنوده الزواج، ويتيح لشعبه فترة من الاستقرار والهدوء، بعد أن أرهقهم بالحروب.

لكنه لم يكن سعيداً. كان يحسّ بالوحشة. ماتت أمه (ناندي) التي كان يقول عنها أنها (توأم روحه) وقتل في الحرب عددٌ من أصدقائه وقوّاده ومنهم، (مُقُبْهوزي)، أقربهم إليه. ولم يدرك أن عمته (مكاباي) وأخاه (دنقاني) الذي كان (شاكا) قد حقن دمه في بداية عهده، وخادمه المطيع (أمبوفا)، أنهم يدبرون لقتله. باغتوه وهو بعيد عن مقره، يتعجل وصول الوفد من الـ (مبندر). يقول (ماسيسي كونيني):

«توالت الطعنات من كل جانب على جسد (شاكا)
ابن (سنزانخونا).
وتفجرت الدماء من كل موضع حتى من فمه.
وحين انكشفت له الحقيقة بعد فوات الأوان
وانقشعت الغشاوة عن عينيه
ابتسم ابتسامة مفعمة بالمرارة والأسى
وقال (أنتم إذا يا أبناء أبي تقتلوني!
تظنون أنكم تحكمون دولة الزولو بعد موتي؟
هيهات! لن تستطيعوا.
سوف تملكها الخفافيش!)
قال هذا وسقط بلا حراك
ورغم ذلك ظلّوا يطعنونه مرّة بعد مرّة.
خيّل لهم أنه قد يهبّ فجأة وينقض عليهم.
يا للخسارة! ظل راقداً بلا حياة،

البطل الباسل، ابن (أندابا) سيّد الرجال،
(شاكا) العظيم، حاكم الحكّام وملك الملوك.
لم تبق عينٌ لم تُهرق دمعها
وانهمرت دموع الشاعر وهو يخاطب (شاكا)
بلسان الشعب:
(حين صرخت من قمة جبال (ماندَلا) و(زميما) افترق الصيف عن الشتاء.
هاجرت الطيور من الحقول
وبقيت خرائب (تابي) تحدّث الأخبار.
أخذت الأعداء على حين غرّة في أدغال البوص
ودحرت (سيقاووزانا) سيد عشيرة (مباثا) العنيد.
أنت العميق مثل نهر (ماياي داني)
المر مثل مرارة كبد الوعل
البازي الذي ينقضّ من السماء.
أهلكت جيوش (مذْ لاوّ لأما) زعيم الـ (مبيدو)
وسلكت الدُروب الوعرة إلى بلاد (ماذْلبخيلا)،
وظلُّك غطى سهول (نياباسي).
فتحتَ الطرق المغلقة بأسنّة الرماح
وأمرت الجيش أن يقطف الذرة قبل نضجها
وعبرت نهر (أمفلوزي) العصي
الذي يأبى العبور إلّا لمن يُحب
حين تفتح عينيك، يرتعد أعداؤك.
ويصمت الثرثارون،
وتهرب الكلمات من أفواه المدّعين
سُقتَ قطعان البقر غصباً، وكنت في غنى،
وناديتَ الطير فأجابك، في قمم (نقوي)

وأمرتَ جيوشك أن ترقص على هضاب (تابي)
فالتفت العالم كلّه متعجّباً.
تجلس متحفزاً وترْسُك على ركبتيك
يا سليل (أندابا) المُخيف.
فعلتَ كلَّ الذي قالوا إنك لن تقوى على فعله،
وأخضعت البحر وتركته للضعفاء يعبرونه.
بدأت رحلتك في عزّ النهار
والشمس في كبد السماء
يا سيف (سنزانخونا) الذي براه حزُّ الرؤوس.
غسلت وجهك في نهر الدّموع،
أيها الوحيد! أيها الأسود».

بكى الشاعر وأبكى الناس،
وغطّى (دنقاني) و(ماهلنقاني) و(أمبوفا)
وجوههم من الخجل،
وأراد الأخوان أن يُلقيا الإثم
على (أمبوفا) ولد (سيثايا)
ويَفديا به عارهما،
فأمرا بقتله،
ونفّذ عملاءُ العهد الجديد أوامر أسيادهم في صمت.
أقام الجيش المناحات وأنشد أناشيد الحرب،
وأعول أمير الشعراء (نمنكساماما)
وألقى بنفسه على جسد (شاكا)
وأخذ يصرخ ويسبُّ ويلعن.
قال: أبداً لن يطيب لكم العيش
أبداً لن يستقر لكم الحكم.

سوف تسبحون في بحار من الدماء
سوف يرعبكم ظلّه ويقض مضاجعكم
سوف تموتون ملعونين ميتة الكلاب.
اسمعْ كلامي يا (مهلنقاني) الشقي ابن (سنزانخونا)
اسمع كلامي يا (دنقاني) الصعلوك ولد (سنزانخونا)
الفروع لا تعيش بعد قطع الشجرة الأم.
وإذا أغضبكم قولي فاقتلوني
فلا معنى للحياة بعد موته.
ظل الشاعر يبكي ويندب ويلعن هكذا،
والناس ينوحون معه.
ثم فجأة صمت
وأدار عينيه في حشود الناس حوله،
والتقط خنجراً يلمع
وشقّ به حلقه.
حينئذٍ صار البكاء والعويل أمراً لا يمكن وصفه».

سوف أختتم حديثي عن (شاكا) ومملكة الزولو، بالاستشهاد بفقرات من ذلك الكتاب البديع للمؤرخ الإسكتلندي المرموق، برفسر (ڤي جي كيرنان V.G. Kiernan). وهو في تقديري من أحسن الكتب عن تاريخ الاستعمار الأوروبي، وقد أشرت إليه من قبل، في حديثي عن الـ (أبوروجينز) سكان أستراليا الأوائل. هذا المؤرخ الفذ، بالإضافة إلى سرده الشيّق للأحداث، وروح الإنصاف التي يتميّز بها، لا يخفي تعاطفه الكامل مع الشعوب التي غُلِبت على أمرها.

كان برفّسر (كيرنان) حين أصدر كتابه هذا «سادة الجنس البشري» أستاذاً للتاريخ المعاصر في جامعة أدنبرا.. والعنوان يتضمن سخرية لا تخفى، من أولئك الذين ظنوا لوهلة أنهم سادة العالم. يقول:

«كان من سوء حظ المستوطنين الهولنديين، في أقصى الجنوب

الأفريقي، أنهم وصلوا في زمن كان الأوروبيون يعتبرون الرقّ فيه، أمراً طبيعياً، وظل سوء الطالع هذا يلاحقهم. وحين وصل البريطانيون في بداية القرن التاسع عشر، وجدوا أن الهولنديين قد قطعوا صلاتهم بوطنهم الأم. لم يسلم البريطانيون أيضاً من لعنة الرقّ، لأن الأمبراطورية لم تحرّمه إلّا بعد ثلاثة عقود من هذا التاريخ.

إلّا أنهم امتازوا عن الهولنديين، بأنهم حافظوا على صلاتهم بوطنهم الأصلي، بما فيه من تيارات سياسية وفكرية، الأمر الذي جنّبهم الوقوع بالكليّة، في مستنقع العزلة والجذب الروحي، الذي وقع فيه الهولنديون، ولكنهم أخفقوا في أن يُحدثوا أي تأثير على البوير.. الهولنديين. ومهما كان من أمر البريطانيين مع السكان الأصليين في البلاد التي استعمروها، فلا شك أنهم فشلوا فشلاً عظيماً مع العنصريين الأوروبيين، وهما، البوير في جنوب أفريقيا والفرنسيون في كندا.

هذا الطرف القصيّ من القارة، كان موطناً لأخلاط من أكثر الشعوب بدائية وتخلفاً. الـ (بوشمن.. Bushmen) والـ (هوتنْتوت Hottentot)، الذين دُفعوا دفعاً إلى أقصى جنوب القارة، وبعض قبائل الـ (بانتو) النشطة التي أخذت تضغط من الشمال. كان الـ (هوتنتوت) عنصراً هجيناً من تلاقح الـ (بوشمن) مع سلالات قديمة أغارت على تلك المنطقة في عهد غابر. وقد عبّر (روبرت ريد) في كتابه (استشهاد الإنسان) عن النظرة الأوروبية الغالبة عنهم حين قال «إنهم شعب من الأقزام، ذوو عيون قلقة لا تستقر كعيون القرود». وقد دخل اسمهم المعجم الإنجليزي بكلمة تعني «الغبي. الذليل. الحقير».

لم تكن لهم قدرة على حماية أنفسهم ضد هجمات البوير، الذين أجّج من سعار غرائزهم الشرسة، أنهم وجدوا قوماً مستضعفين يسهل إخضاعهم واسترقاقهم. لم يكن الحال كذلك مع البانتو، الذين وجد فيهم الأوروبيون قوماً من معدن آخر. لا غرو أن الحروب التي أسماها الأوروبيون (حروب الكافر) لم تتوقف طيلة مائة عام.

في عام ١٨٥٠، انتهز الـ (هوتنتوت) فرصة الصراع بين البانتو والبوير، فقاموا بثورة لم يقدّر لها النجاح، فقد أخمدها البوير بما عُرف عنهم من شراسة، وكذلك انتصروا على الـ (كافر) وأخضعوهم لنفوذهم.

لم يكونوا يعاملونهم كبشر. ويجد الإنسان صورة واضحة لنظرة البوير للأفريقيين في رواية «قصة مزرعة أفريقية» لـ (أولف شرائنر) التي صدرت عام ١٨٧٠. حين اجتمعت أسرة من البوير للصلاة، لم يُدْع العمال الأفريقيون للمشاركة. وتبرر الكاتبة ذلك بقولها (لأن تانت ساني قالت إنهم ينحدرون من سلالة القرود ولا يحتاجون إلى الخلاص).

ربما يكون (دارْون) قد وجد معارضة من بعض الجهات الكنسية أن يكون الإنسان منحدراً من سلالة القرود، ولكن بعض الأوروبيين وصلوا قبله إلى هذه القناعة فيما يتعلق بالأفريقيين. وقد بقيت كلمة (كافر) المحرّفة عن الكلمة العربية التي تعني (وثني) تعبيراً عن الاحتقار، ودليلاً على الجهل الأوروبي.

في عام ١٨٣٦، قام جزء من البوير بهجرتهم الكبيرة إلى الشمال

الشرقي، حيث أنشأوا جمهوريتين مستقلتين. دفعهم إلى ذلك حافزان، أحدهما نبيل وهو حب الحرية، والآخر دنيء، وهو حقدهم على البريطانيين لأنهم حرّموا الرّق. سوف يصنع أحفادهم أسطورة ضخمة من هذه الهجرة. ويُضْفون عليها رومانسية استعاروها من (بُناة الأمبراطورية). سوف يصفونها بأنها (مغامرة نبيلة من شعب أوروبي، لغرض الحضارة والاستقرار على شعوب همجية فوضوية).

إنما حقيقة الأمر، أن أولئك البوير المغامرين، لم يأبهوا لإيجاد مبررات خلقية. لقد ألقوا بأنفسهم في خضم الفوضى السائدة، كعنصر همجي بين عناصر أخرى همجية. وكانوا أطول باعاً في أحداث الخراب والدمار، لأنهم كانوا يملكون أسلحة متطورة، الخيل والبنادق.

فعلى سبيل المثال، كان من أساليبهم في الحرب، أن يدفعوا أمامهم حاجزاً بشرياً من الأفريقيين، ويطلقوا النيران فوق رؤوسهم على القرى التي يهاجمونها. وحين يدخلونها ينهبون المواشي والنساء والأطفال. وقد كوّنوا فرقاً مسلّحة من الـ (هوتنتوت)، اضطروهم إلى القتال في صفوفهم ضد إخوانهم. كان ذلك أسلوباً أوروبياً في كل البلاد التي غزوها.

كذلك فعل البريطانيون في الهند، حين أجبروا الهنود على القتال معهم ضد أبناء جنسهم.

أباح الهولنديون لأنفسهم بطبيعة الحال، معاشرة النساء الأفريقيات في منطقة الـ (كيب) وأخرجوا من ذلك سلالة مختلطة عُرفت باسم (الملونين) وقد تكاثر عددهم، حتى صارت لهم جمهورية صغيرة

على الحدود. وكان لهم زعيم كفء، حاز على إعجاب الرحالة (لفنجستون). أما البوير المهاجرون، فقد حملوا معهم نساءهم البيض، وكانوا يريدون أن يملأوا الأرض بالجنس الأبيض، فلم يخالطوا النساء السود وتركوهن للخدمة في البيوت والحقول.

لم يجدوا، كما حدث في إندونيسيا، أرستقراطية محلية، تحدُّ من غلوائهم، ويضطرون إلى مهادنتها ومخادعتها، ولكنهم هنا أطلقوا العنان لميلهم الطبيعي نحو العنصرية والتمييز العرقي وتحريم الاختلاط الجنسي.. كما فعل البريطانيون في الهند.

كانوا يفعلون واحداً من أمرين مع الشعوب التي يخضعونها. الذين يمكن أن يستفيدوا منهم، يسترقُونهم، والذين لا يؤمّلون فائدة منهم، يُبيدونهم. وكان الـ (بوشمن) هم الضحايا في الغالب. كانوا في نظرهم، كما ذكر ابن (جنرال سمتْس Smuts) «مثل الحشرات تجب إبادتهم في الحال».

ولا بد من القول أن البانتو أيضاً ساهموا في اضطهاد الـ (هوتنتوت) والـ (بوشمن). إنهم، والبوير، حوّلوا المنطقة إلى مجزرة رهيبة. ثم جاء البريطانيون فأضافوا إلى الدمار والخراب، وكان ذلك بعلم من الحكومة البريطانية التي تظاهرت بأنها لا تعرف شيئاً.

في عام ١٨٨١، وجّه (سير ج. كامبل) سؤالاً إلى الحكومة البريطانية في البرلمان، إن كانت على علم بالخراب والدمار الذي أُصاب الـ (بانتو). أجابه (قرانْت دَفْ) الذي كان يُضرب به المثل لما يجب أن يكون عليه الوزير في العهد الفكتوري، إن المسؤولية تقع على عاتق السلطات (البريطانية) في مستعمرة الـ (كيب) وأن

حكومة صاحبة الجلالة (ليس بوسعها أن تقول إنها ترفض هذه الأعمال أو تقبلها).

في أثناء ذلك، كانت قبيلة الزولو، أشد قبائل الجنوب الأفريقي بأساً، تراقب وتستعد».

فيما يلي، يواصل المؤرخ الكبير برفسر (V.G. Kiernan) حديثه عن الزولو، فيقدم تقييماً لإنجازات (شاكا) وكيف قضى البريطانيون على دولة الزولو، ويعبّر عن رأي جريء إزاء أضرار الغزو الأوروبي لجنوب أفريقيا:

«كان (شاكا) في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، قد قطع مرحلة كبيرة في توحيد قبائل عشائر الزولو المتنافرة، وصاغ منهم أمة قوية محاربة، بسطت سلطانها على رقعة واسعة، وأدخلت القبائل المجاورة في طاعتها. كان بلا شك، واحداً من أبرز القادة الأفريقيين الذين ظهروا على مسرح الأحداث في هذه الفترة. لم يكن يقل أهمية عن ذلك الزعيم الأسود الآخر (توسان)[1]. الزولو في جنوب القارة. والمصريون بزعامة محمد علي في الشمال، كانوا بسبيلهم إلى صنع أمبراطوريات ذات هيئة ونفوذ، حين اعترض الأوروبيون

طريقهم، وتدخّلوا في مصائرهم. تحركت مصر بفعل احتكاكها بأوروبا، وكذلك الحال مع الزولو، إلّا أن تأثرهم كان بدرجة أقل، وبطرق أقل وضوحاً.

الحصول على سلاح الرجل الأبيض، ذلك كان همّ (شاكا) الأكبر. ورغم أنه، فيما بعد وصل إلى قناعة بأن سلاح الزولو أفضل من السلاح الأوروبي، فإن ذلك لم يمنعه أن يسلّح فرقة من جيشه بالبنادق. كان على وجه العموم يريد أن يعرف (أسرار) الرجل الأبيض، ويعلّمها شعبه. لذلك تحاشى الصدام مع الإنجليز. وفكّر جدياً أن يرسل بعثات من شباب الزولو ليدرسوا في إنجلترا.

في عام ١٨٢٤، زارت بعثة تجارية بلاد (الزولو)(٢)، ولاحظت بكثير من الإعجاب (الرّفاه والاستقرار) الذي وجدته. لكن أفراد البعثة دهشوا دهشة عظيمة، حين رأوا (شاكا) ـ وكان يحادثهم ويمازحهم وهو يستحمّ ـ يأمر فجأة بقتل أحد خدمه، فأخذ الرجل في الحال، وكُسرت عنقه.

هذه هي الصورة التي استقرت في عقول الأوروبيين عن الزولو. الإعجاب من ناحية، والنفور والتقزز من ناحية أخرى. أسر الزولو خيال الأوروبيين، والإنجليز خاصة، بدرجة لم تحدث مع أي شعب أفريقي آخر. أعجبوا بأجسامهم الفارعة القوية، وذكائهم وحيويتهم وشجاعتهم. وقد وصفهم (لفنجستون) بقوله:

«لولا ألوانهم وشعرهُم الأكرت، لحسبتّهم من أرقى سلالات الجنس الأوروبي».

أجيال من الأطفال الإنجليز، الذين تربوا على روايات (رايْدر هقرْد)[٣] فُتنوا، كما فتنوا بالهنود الحمر، بصفات البطولة والشجاعة عند الزولو. لكنهم بالمقابل، كرهوا فيهم طبيعتهم الدموية، وغاراتهم المدمرة، وحكامهم المستبدين.

حين اغتيل (شاكا) عام ١٨٢٨، كان قد وصل إلى نهاية الطريق، ولم يعد لديه شيء أفضل يقدمه لشعبه. حاول كما فعل بعض الحكّام الآسيويين في القرن التاسع عشر، أن يهيىء شعبه للبقاء والاستمرار، إلّا أنه كان غارقاً في الماضي إلى درجة جعلته عاجزاً عن العبور إلى المستقبل الذي تراءت له علائمه على البعد. أرهقت قواه، استسلامُه للخرافة، وتماديه في القسوة، وإكثاره من الحريم. ورغم ذلك، فإنه لا يُنكر أن الأمة التي صنعها بالدم والحديد، قد عاشت بعده، وأظهرت قدرة على التطور والتقدم، وارتفعت فوق الهزائم التي كبّدهم إياها البوير بأسلحتهم النارية المتفوّقة.

لو أن دولة الزولو ـ وكذلك مصر ـ تُركت وشأنها، لاستطاعت أن تصير دولة عصرية، ودولة أفريقية قُحّة في الوقت نفسه. لعلها كانت تضيف إلى حصيلة التجارب الإنسانية، تجربة نادرة بحق، أكثر طرافة وأصالة من أي شيء يمكن أن يقدمه البوير الأوروبيون في جنوب أفريقيا.

كان نصرهم على القوات البريطانية في معركة (إيساندْلوانا) من الانتصارات القليلة التي أحرزتها القارة الأفريقية ضد قوى الاستعمار الأوروبي. كانت صلابتهم في القتال أمراً مدهشاً بحق، لم يواجه الإنجليز مثله من قبل. لكنهم هزموا لسوء الحظ، حين واجهوا المدافع البريطانية بالرماح. وقد وصف مراسل حربي شجاعتهم، وهم

يواجهون مطراً من الرصاص في معركة (أولندي) بقوله:

«هؤلاء الزولو يتقدمون إلى الموت ببسالة لم يعرف مثلها أي جيش في أي عصر من أي جنس».

ذلك كان من أجل الحصول على الذهب والماس. كانا هما الإغراء الحقيقي للغزو الأوروبي لجنوب أفريقيا. وقاد الحملة رجال مثل (رودس). كان من طينة (ركفلر) و(مورقان) اللذين شيّدا أمبراطوريات من نوع آخر في أمريكا. وفي لندن، عُرف القسم المختص بجنوب أفريقيا في بورصة المال بـ (سِرْك الكافر) إلى قدس الأقداس الأوروبي هذا، تسارعت أفواج من المضاربين والمحتالين، بينهم رجال لم تكن أعلام الدول تعني لهم أكثر من وسائل للربح وكان بينهم عدد من اليهود.

كانوا أناساً لا جذور لهم ولا انتماء. وقد وجدوا ترحاباً وأبواباً مفتوحة على أعلى المستويات. وما ذلك إلّا لمهارتهم في التلاعب بالعملات والأسهم في سوق المال، وقدرتهم على إقناع أصدقائهم الأرستقراط، أن اكتناز المال، لا يتعارض مع تقاليدهم الموروثة، كما كانوا يعتقدون. وبنهاية القرن، بدأت الأصوات تتعالى من المصلحين وحماة الأخلاق، مندّدة بفساد الطبقات العليا وانحلالها. لكن هؤلاء كانوا قد وجدوا في النعيم الذي يجلبه الثراء، ما يصم آذانهم عن هذه الأصوات.

هذا، وقد ألهبت الصحافة الرخيصة خيال الفئات الفقيرة، بأن أحلام الثراء، يمكن أن تتحقق. وكانت مزاعم (تحضير الشعوب البدائية) لا تكاد تُخفي الفلسفة التي عبّر عنها «الوحش» في أبيات الزجل الشعبية:

سواء كنتَ حيّاً أو ميّتاً
فإني سوف أطحن عظامك
وأصنع منها خبزاً لطعامي».

(١) توسان Toussaint، قاد ثورة كبرى من العبيد في هايتي عام ١٧٧١، وأنشأ أول جمهورية زنجية. قضى عليها نابليون عام ١٨٠٢، وأخذ (توسان) إلى فرنسا حيث مات في السجن.

(٢) يشير إلى بعثة (فازول) و(فِنْ) التي ورد ذكرها في هذه المقالات.

(٣) هقرد.. Sir Henry Rider Haggard - (١٨٥٦ - ١٩٢٥) كان روائياً واسع الانتشار، ألف أكثر من ثلاثين رواية، أشهرها «مناجم الملك سليمان» و«هي»، وأحداث كلتيهما تدور في أفريقيا.

جرّني إلى الحديث عن الزولو - ولعلني انطلقت فيه على رِسْلي - أنني لقيتُ ذلك الإنسان المضيء، برفّسر ماسيسي كونيني. هكذا تمضي الحياة. شِعْبٌ يؤدي إلى شعب ودرب إلى درب. وقد كنت كما قال الشاعر «مهاجراً، له كل يوم رفقةٌ وصحاب».

وكان ذلك من حسن التوفيق، فليس أجمل في هذه العاجلة، بعد أن تكون قد قضيت «من منى كل حاجة» من مجالسة الخيرين والأذكياء وأهل العلم. وكلها صفات اتفقت لهذا الرجل الصالح، ماسيسي كونيني. كان ذلك منذ عامين أو يزيد قليلاً، في أمريكا، في جامعة براون، في مؤتمر عن الأدب الأفريقي، نظم له برفّسر (روبرت كوڤر - Robert Coover)، الذي هو أيضاً كاتب روائي واسع الشهرة عندهم.

ويا سبحان الله، ما أعجب أمريكا. هذه الجامعة العتيدة هي في مدينة (برُفدنْس) في (رود آيلند). وقد خبّروني أنها بمثابة عاصمة لعصابة المافيا، وأنهم يملكون كل وسائل العيش في المدينة. إنما الحياة تسير هادئة على السطح. البلدة آمنة، والحوانيت ملأى بالبضائع، والناس طيبون دائمو الابتسام شأْنَ الأمريكان. كل الذين تحمله في خيالك عن (آل كابون)، وعصابات الإجرام في (شيكاغو)، لا أثر له.

هنا عمارات متطاولة وشركات عملاقة (ترنسناشنال)، ومديرون ورجال أعمال تدربوا في (هارفارد) و(ييل) و(برنستن). كيف يستقيم هذا وهذا؟ وكيف تكون محجة العلم العريقة هذه، في هذه البيئة؟ لكن لعل أمريكا هكذا، مثل الحياة، مزيج من الخير والشر، والمُثل النبيلة والأعمال البذيئة. مزيج من القوة والضعف، والرقة والعنف. وقد تأكّد لي في هذه الزيارة، أكثر من أي زيارة أخرى، أن أمريكا ليست شيئاً واحداً. إنها مجموعة أمم ومجموعة دول.

اكتشفت أيضاً بمحض الصدفة، أن مدينة (برفدنس) هي مهبط رأس ذلك الكاتب الغريب (اتش. بي. لفكرافت - H.P. Lovercraft). كنت أتمشى، فإذا شيء مثل الاحتفال، فدخلت، فإذا أنا في المؤتمر السنوي لجمعية أصدقاء لفكرافت. هذا كاتب عجيب حقاً، شطح به الخيال بعيداً فكأنه على حافة الجنون. وقد رسم في قصصه عوامل مُرعبة، أكثر بمراحل مما فعل (إدجار آلان .بو) وقد تحول على مرور الزمن إلى أسطورة، وله معجبون يجتمعون له مثل أصحاب الطقوس. ما كنت أعلم أن (برفدنس) هي مدينته، كما هي مدينة المافيا.

دلّني عليه منذ عشرين عاماً، كاتب سويسري اسمه (هوبر) عرفني عليه أخي عبد الرحيم الرفاعي في (بيرن). وقد أسلم وأسمى نفسه (أحمد) وأبحر بعيداً في الإسلام. هو نفسه قصة، كما أن لڤكرافت قصة. وهي قصة أخرى.

وجدتُ في ذلك المؤتمر حشداً من الأفريقيين لم أشهد مثله من قبل، كتّاباً وشعراء ومفكرين وأكاديميين. وتلك، والحق يُقال، من أيادي أمريكا علينا، مهما بدا لنا من أمرها، إذ (رَبْعنا) هداهم الله، لا يصنعون مثل هذا، خصوصاً عند ملتقى النيلين، حيث إخواننا يجمعون الناس في مؤتمرات لإصلاح العالم ضربة لازب. وكانوا يقولون إن السودان (جسر) بين أفريقيا والعالم العربي. لكنهم الآن رحلوا عن (الجسر) إلى (أرض المعاد)، فأصبح السودان وطناً لكل مسلم ومسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، يحق لهم أن يحملوا جنسيته.

ما أجمل ذلك! ولكن، يا للعجب لـ (وطن) يسحب جوازاته من مواطنين ولدوا فيه وولد آباؤهم وأجدادهم، ثم يستورد مواطنين من الخارج. الله غالب. ولعل إخواننا هؤلاء يرون ما لا نرى، ويسمعون ما لا نسمع.

كان بين من لقيتُ ثمة، برفّسر مزروعي، الذائع الصيت، وهو عربي من أصل عماني، بل من الأسرة التي حكمت في زنجبار وشرق أفريقيا، وهو اليوم كيني بالمواطنة. ومنهم الكاتب الصومالي نور الدين فرح، والشاعر والروائي النيجري الحائز على جائزة نوبل (وولي شوينكا). وقد أحزنني أنني لم أجد الكاتب النيجري الكبير (شنُوا اشيبي)، وكنت قد تعرفت به منذ عشر سنوات في برلين. لم

يستطع المشاركة، فقد أصيب في حادث سير، ترك نصفه مشلولاً.

(وولي شوينكا) بالمقارنة له، مثل المرحوم يوسف إدريس إزاء أستاذنا نجيب محفوظ، مدَّ الله في أيامه. كان يوسف إدريس لا يكاد يقوى على حمل الموهبة الضخمة التي حباه الله بها، كثير الاندفاع والتهور والتوقد الذهني. كذلك شوينكا. وقاده اندفاعه إلى تبنّي قضايا خاسرة، مثل تأييده لانفصال (بيافرا) ودخوله السجن بسبب ذلك.

ليس كذلك (شنْوا أشيبي) ولا نجيب محفوظ، فهما ثابتان ورصينان يحملان عبء الفن بصبر وجلَد.

ولأن (شوينكا) تعلّم التمثيل أيضاً، فحين وقف على المسرح ليقرأ من كتابه (أكي) الذي يحكي فيه قصة طفولته، وقف وقفة ممثل راسخ القدم. منفوش الشعر كث اللحية متوهج العينين آبنوسي اللون يميل إلى الطول. أفطس الأنف ولكن تقاطيع وجهه في مجموعها تحدث أثراً من الجاذبية، وعليه (كَرِزْما) واضحة. قرأ كما وصفوا أن (شارلز دكنز) كان يقرأ. أمسك بنواصي الجمهور طيلة ثلاث ساعات، كأن على رؤوسهم الطير.

كاتب شامخ حقاً، يستحق الاهتمام من القارىء العربي. ومن حسن الحظ أن الدكتور محمد إبراهيم الشوش قد أصدر عنه كتاباً، أرجو أن يجد رواجاً.

إنما الفائدة الكبرى التي ذهبت بها من ذلك المؤتمر، كانت أنني لقيت (ماسيسي كونيني) وذلك النفر من كتّاب جنوب أفريقيا.

حتي العالِم النابه الذي يشار إليه بالبنان، برفّسر علي المزروعي، لم يخلُ من المرارة التي وجدتها عند غالبية المفكرين الأفريقيين والكتّاب في ذلك المؤتمر. أفكاره في العادة متّزنة رصينة، ولكن لأنه من أصل عربي، وملامحه عربية لا لَبس فيها، فكأنه كان يحاول أن يثبت أنه لا يقل أفريقيّة عن الآخرين. وقد لاحظت ذلك في كل من لقيتهم من المفكرين المنحدرين من أصول عربية، من كينيا وزنجبار ويوغندا وتنزانيا.

الكاتب الصومالي نور الدين فرح، صار أقل تطرّفاً مما كان في برلين منذ عشر سنوات، حين أنكر أنه عربي، وقال إنه لا يكتب بالعربية لأنها لغة دخيلة على الصومال.

تقدّمت به السن، وعلّمته التجارب، وصار أعقل، وقد رأيته يغضب

أحياناً، ويتصدى للدفاع عن العرب ضد التهم التي توجّه لهم عادة في مثل هذه المؤتمرات. الدم العربي، قلّ أم كثُر، لا يطلّ أبداً، ولا يذهب هدراً.

رحمتاه للعرب! أصبحوا bete noire هذا الزمان، أو (ملطشة) كما يقول المصريون بنو أبينا. كل واحد رماهم بدائه وذهب. حمّلوهم وزر تجارة الرقيق، وكراهية اليهود وكل المعضلات الحضارية التي صنعوها، رموها على كاهل العرب. والعرب كما يقول صديقنا أخو الأخوان، حسين العودات في دمشق، (لُقْطه)، أكتافهم عريضة، وصدورهم واسعة. وقدرتهم على الاحتمال لا تُحد.

إنه أمرٌ كان أحرى أن يحرّك أريحياتهم، فالأمة حين يتقاوى عليها الضعيف، ويتطاول عليها حتى الذي ليس هو بهاشمي ولا من بني عبد المدان، تكون قد فقدت هيبتها، ولم يعد يُرجى منها خير ولا يُخشى منها شرّ. إنما حاشا لله.

لذلك أفرحني، كما يفرح الذي يرى قبساً من ضياء، في جوف ظلام مدلهم، أن الكتّاب والشعراء والمفكرين السود من جنوب أفريقيا، لا يحقدون على العرب، ويؤمنون بالإخاء العربي الأفريقي. وأعجب من ذلك، أنهم رغم نضالهم المرير ضد القهر العنصري، وكل معاناتهم من استبداد البوير، لا تحسّ أنهم يحملون أي مرارة. ينظرون إلى المستقبل نظرة إيجابية متفائلة.

ربما لأنهم يحسّون أنهم صنعوا معجزة، وهو كذلك، فقد كان الخلاص من قبضة البوير في جنوب أفريقيا أصعب بمراحل، من الخلاص من الاستعمار الفرنسي في الجزائر. إنهم الآن على أبواب

الاستقلال، بزعامة قائد غير عادي، حين تُقاس به بعض الزعامات في أفريقيا تبدو صغيرة الحجم جداً.

إذا هبّت رياحهم رخاء، كما نرجو، ولم يتعرّضوا للمحن التي ابتليت بها بعض بلاد أفريقيا، فسوف يكون لهم تأثير ووزن. سوف يدخلون معترك السياسة في القارة الأفريقية، بتجربة فريدة في النضال، وخبرة سياسية واسعة، ونظرة ناضجة متوازنة.

ولعلّ إخواننا في جنوب السودان يجدون عبرة في ذلك. صاروا يرددون الآن، بطريقة كأنهم اتفقوا عليها أن الشماليين في السودان «أسوأ من البيض في جنوب أفريقيا».

يا سبحان الله! أين عرب السودان، وقد كانوا هم أنفسهم ضحايا الاستعمار الأوروبي، من البطش العنصري الوحشي في جنوب أفريقيا، حيث كان البوير، كما وصف المؤرخ (الأوروبي) المُنصف، برفسر كيرنان «يدفعون أمامهم حاجزاً بشرياً من الأفريقيين ويطلقون النيران فوق رؤوسهم على القرى التي يهاجمونها. وحين يدخلونها ينهبون الماشية ويغنمون النساء والأطفال (...) كانوا يفعلون أحد أمرين:

الشعوب الأفريقية التي يخضعونها، الذين يمكن أن يستفيدوا منهم، يسترقونهم، والذين لا يؤمّلون فائدة منهم، يبيدونهم».

هذا حدث بوحي فلسفة عرقية غاشمة. انتحلوا لها ذرائع من علم الأجناس، وفي الإنجيل، وزعموا ـ معاذ الله ـ أن الرب قد باركها. هل صنع عرب السودان مثل هذا؟ إنهم جاءوا بكتابهم الكريم الذي لا يفرق بين عربي ولا عجمي ولا بين أحمر وأسود، فاختلطوا

وتزاوجوا وعاشوا وأعاشوا وجاوروا وأجاروا. وإن كان قد خلف من بعدهم خلف سوء، ووليت أمورهم حكومات رعناء، فإن الذي صنعته في الجنوب، كان بسبب الجهالة ولم يكن بسبب سوء القصد. وإن كانت هذه الحكومات قد أساءت في الجنوب، فإنها قد أساءت في الشمال أضعاف أضعاف.

أفريقيا، رغم أي شيء، هي خدَن العالم العربي في نهاية الأمر، رغم الأحقاد والحزازات والذكريات الأليمة أحياناً، من الماضي القريب أو البعيد. أفريقيا أكثر (عروبة) مما يعترف بعض الأفريقيين، والعالم العربي أكثر (أفريقيّة) مما يعترف بعض العرب.

بل إنني أذهب إلى حدّ القول، إن العرب، كما يبدو لنا اليوم، قد أخطأوا حين عبروا البحر ودخلوا إسبانيا. ثم ارتكبوا خطأ آخر حين عبروا جبال البرنيز وحاولوا أن يحوزوا فرنسا. لقد دخلوا أرضاً ما كان ليسمح لهم أن يستقروا فيها، طال الزمان أم قصر. لا عجب أن أوروبا قد تكالبت عليهم وأجلتهم عن التراب الأوروبي بعد نحو ثمانية قرون، ولم يبق منهم إلّا بعض كلمات في اللغة، وبقية أطلال في غرناطة وقرطبة وأشبيلية.

لو أنهم اتّجهوا جنوباً في أفريقيا، لوجدوا أرضاً تعرفهم ويعرفونها، لهم فيها صلة ورحم منذ عشرة آلاف عام أو يزيد.

لأجل هذا، يا رحمك الله، مضيتُ على رسلي، أغذّ السير في شعاب تاريخ الزولو. لقيت عندهم أحياناً ما ألقى من عبْس وذبيان. وكان شاعرهم (مسيسي كونيني) يسير أمامي، ويغنّي، كما غنّى زهير في غابر الزمان.

أقول معزياً نفسي أنه لم يتغير شيء. إنما هي درجات من الفراق. هو في الدوحة وأنا في لندن. أو حيثما أكون. سوف يطوف بخاطري، كما كان في الحياة. الذي تغيّر هو أنني لن أستطيع أن أكلمه بالتلفون، ولن أسمع صوته يجيئني دون توقع، في وقت متأخر من الليل عادة. وتطول المكالمة فأقول، وأنا أعلم أوضاعه وأعباءه:

«هذه المكالمة سوف تكلفك كثيراً».

يضحك ولا يبالي. لم يكن يخاف الحياة ولا الموت. من هؤلاء الفقراء الأثرياء، الذين لا يبالون. تراه (محدِّراً) عمامته، متماسكاً على نفسه. فيه رهافة حسّ المحسّ، وتحضر الأمدرمانيين، وخفة روح المصريين، وكبرياء الإنسان الذي أخذ أقل، وهو يعلم أنه يستحق أكثر، ولا يبالي.

كنت أرى فيه أشياء من عمي الأكبر أحمد، الذي اغتنى حين كان الناس فقراء وحين اغتنى الناس، صار هو فقيراً. ولم يسأل في هذا ولا ذاك. وكان ذلك سبباً واحداً من أسباب كثيرة، حببت إليَّ محمد سعيد سيد أحمد.

بتلك الطريقة اللامبالية، قال لي في الدوحة منذ أسابيع وأنا أعلم كم يمضّه الألم:
«يا خوي المرض دا ما في زول بينفد منّه».

قلت له:
«لأن الطب لا يعرف لماذا يحدث هذا المرض، كذلك لا يعرف لماذا يذهب. وعلى أي حال الأعمار بيد الله».

وجدته رائقاً ذلك النهار، في مستشفى حمد في الدوحة. بدا لي هو هو، محمد سعيد، الذي عرفته وبادلني ودّاً بودّ، طيلة ما يقرب من عشرين عاماً. من (فِرّيق) في ديار المحس، من ذرية قوم صالحين. قضى فترة صباه الأول في مصر، فجُلل حب مصر، ولكن كما يحب السوداني الأصيل، بلا ضوضاء. وفي الخرطوم دخل كلية غوردون التذكارية في الثلاثينيات، فكان من ذلك الجيل الذي لم يأتِ بعده جيل يماثله في تاريخ السودان.

كانوا نخبة بحق، يتقنون أي عمل يتولونه، غرس فيهم أساتذتهم الأفذاذ، من السودان ومصر وبريطانيا وسورية ولبنان، حب المعرفة لذاتها، وسعة الأفق ومرونة العقل.

عمل مترجماً، وكان يتقن العربية والإنجليزية، وصار رئيساً

للمترجمين في أول برلمان سوداني بعد الاستقلال، ولفترة مسؤولاً عن القسم الصحافي في رئاسة الجمهورية، ثم مسؤولاً عن الإعلام الخارجي في وزارة الإعلام. وجاء إلى قطر عام ١٩٧٥ وعمل في إدارة المطبوعات والنشر، ثم صار لسنوات مسؤولاً عن الرقابة على الصحف الأجنبية.

كنا وحدنا في مستشفى حمد في الدوحة، في تلك الساعة من النهار، حين ينقطع الزوار. يضحك كما عهدته أيام الصفاء قبل أن يدهمه المرض، يحسّ وخز الألم فيصمت إلى أن تمضي النوبة، فيعود كما كان.

يدخن كثيراً كعادته، ولكن مرض السرطان لم يجئه من باب الرئة، بل أصابه في البرستاتة. قلت له:
«من مأمنه يؤتى الحذِر».

ضحك حتى خيِّل إليَّ أنه شفي تماماً، لا بد، وهل يضحك بهذا الانطلاق من يعاني من السرطان؟

قال:
«يقولون إن سرطان البرستاتة يتغذى بهورمونات الذكورة، فيجرون عملية تقلل إفرازها. نوع من الإخصاء. لا أدري لماذا لم يعملوها لي؟ لعلّهم ظنوا أني أحتاج إليها. ما حاجة رجل عدّى السبعين إلى هورمونات الذكورة؟».

دولة قطر، بارك الله فيها، أعانته على السفر إلى الخارج، فاختار الهند، لأنه كان محباً للهند، ويشعر بتعاطف عجيب مع ثقافاتها وحضاراتها. وكان يسافر إليها كثيراً يسيح في أرجائها، الشهرين

والثلاثة. وقد آثر أن يرسل أبناءه إلى جامعاتها.

جزى الله خيراً ذلك الإنسان الكريم، عيسى ابن غانم الكواري. منذ هو وزير للإعلام، ثم وهو وزير لشؤون القصر، وهو لا يألو في رعاية محمد سعيد سيد أحمد. جدّد له عقد العمل مراراً بعد أن جاوز سن الستين، ثم بعد أن جاوز سن السبعين. كان يقدّر كفاءته ويعلم أنه لا يوجد في المنطقة كلها ـ دون أدنى مبالغة ـ من يتقن موضوع رقابة الصحف الأجنبية مثله. وكان محمد سعيد، وهو إنسان جبل على الوفاء، يقدر له ذلك تقديراً عميقاً.

كنت أسعى لعلاجه في المستشفى التخصصي في الرياض، فلذت بالرجل الهمام السبّاق إلى المكرمات، الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، فما خيّب ظني، بل هبّ من فوره كما عهدتُه في الملمّات.

لكن محمد سعيد كان قد عاد من الهند، وهو أقل ثقة في الشفاء، قال لي:

«يا أخي بدل السفر والتعب بلا فائدة، خذ معك التقارير الطبية وصور الأشعة، وإذا الأطباء قالوا في فايدة أسافر».

لسوء الحظ، قال الاختصاصيون في الرياض، أن المرض قد تمكن من العظام، وأن لا فائدة. وكان عسيراً عليّ أن ألطِّف عليه الأمر، ولكنه تقبّله برباطة جأش، وقال لي على التلفون:

«كنت أحسّ أنهم سوف يصلون إلى هذه النتيجة».

لم يغب عن بالي وأنا أتشبث بأستار الكعبة، وأنا في الروضة المباركة في مدينة الرسول الأمين. ثم ها أنذا الآن، في هذا العالم البعيد، في بوسطن في أمريكا. كنت أخوض في غمرات شؤون أخرى، فجأة تقلصت وأخذت حجمها الحقيقي حين صعقني النبأ. ما أمضّ رحيل صديق قريب إلى القلب.

كنت أسميه (شيخ العرب) لأنه كان شهماً أخا إخوان، متحزّماً متلزّماً كما نقول. ويا طالما سرّى عني حين وجدت الكآبة في الحياة. ويا طالما استفدت من حكمته وخبرته.

وقد شاء له الله أن يرحل عن الدنيا قُبيل انتهاء عقد عمله. كان إنساناً حيياً مترفّعاً وما كان ليرضى أن يبذل جهداً في تحديد العقد. فرحل قبل أيام من نهاية الشهر.

وكأنما أراد أن يعبّر للهند عن أقصى درجات الود، فأعطاها جثمانه. فجأة، وهو في المراحل الأخيرة من مرضه، أصرَّ أن يعود إلى الهند. وتوفّي بعد أسبوع واحد من وصوله، فدفن بها. وبذلك أهدى إلى الهند بضعة من جسد السودان.

يا للحسرة. حين ترزأ أخاً كهذا، كأنما تنطوي مساحة واسعة، عامرة بالتجارب والذكريات والمودة، فتضيق الدنيا بمقدار ما أخذ معه الراحل برحيله. لكنني سوف أراه بعين خيالي وأسمع صوته، وسوف يسرّي عني من وراء حجب الغيب، كما كان في حياته.

رحمه الله رحمة واسعة، وأحسن عزاءنا فيه.

الطيّب صَالح

مختارات

٩

خواطر الترحال

RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

منسى

الطيب صالح

مختارات

٩

خواطر الترحال

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

TRAVEL IMPRESSIONS
By
El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in June 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyes-books.com
• www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21197-8

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

الخرطوم عاصمة الثقافة العربية
٢٠٠٥

الإهداء

إلى صديقيّ الصحافيين المرموقين الأستاذ عثمان العمير والأستاذ عبد الرحمن الراشد اللذين كان لهما الفضل أنني كتبت هذه المقالات في مجلة محلية.

وإلى صديقيّ الشاعر والصحافي البارع الأستاذ عبد القادر حميدة والصحافي البارز الأستاذ حازم هاشم من أصدقائي في القاهرة.

المحتويات

ما أفسدته المطابع	٣١
رجل من الغرب.. وحضارة من الشرق	٣٧
إسقاط مختار أمبو	٤١
الصفات الكريمة	٤٥
الشيخ خليفة وقطر	٥١
مكتب اليونسكو في عمّان	٥٧
الدكتور عبد الرّزاق قدّورة	٦٣
الدكتور بشير البكري	٦٩
خواطر موسمية	٧٣
زيارة الأحباب في زمن القطيعة	٧٧
زيارة الأحباب في زمن القطيعة	٨١
معهد العالم العربي في باريس (١)	٨٥
معهد العالم العربي في باريس (٢)	٨٩

بين الأكبريين في أوكسفورد! (١)	٩٥
بين الأكبريين في أكسفورد! (٢)	٩٩
بين الأكبريين في أكسفورد! (٣)	١٠٣
بين الأكبريين في أكسفورد! (٤)	١٠٩
بين الأكبريين في أكسفورد! (٥)	١١٣
بين الأكبريين في أكسفورد! (٦)	١١٧
خواطر من لويكَرْباد (١)	١٢٣
خواطر من لويكَرْباد (٢)	١٢٩
خواطر من لويكَرْباد (٣)	١٣٣
خواطر من لويكَرْباد (٤)	١٣٧
خواطر من لويكَرْباد (٥)	١٤١
خواطر من لويكَرْباد (٦)	١٤٥
خواطر من لويكَرْباد (٧)	١٤٩
الرحيل بلا ضوضاء	١٥٣
مملكة آل فريزر	١٥٧
كاتبة من خارج القطيع	١٦٣
حَنّا أَرَنْدت وسَماجةُ الشرّ (١)	١٦٧
حَنّا أَرَنْدت وسماجة الشرّ (٢)	١٧١
حَنا أَرَنْدت وسَماجةُ الشرّ (٣)	١٧٥
حَنّا أَرَنْدت وسَماجة الشرّ (٤)	١٧٩
حنا أرندت وسماجة الشر (٥)	١٨٣
حنا أرندت وسَماجةُ الشرّ (٦)	١٨٧
حَنا أَرَنْدت وسماجة الشرّ (٧)	١٩١
حنا أَرَنْدت وسماجة الشرّ (٨)	١٩٥
حنا أَرَنْدت وسماجة الشر (٩)	١٩٩
خواطر عن صلاح جاهين	٢٠٥

الختام ٢٠٩
بطاقة لعيد الميلاد ٢١٣
أشجان رمضانية ٢١٧
احتفال السعوديين (١) ٢٢٣
احتفال السعوديين (٢) ٢٢٧

١

ليتني كنت شاعراً مثل غازي القصيبي. إذاً لقلت شعراً في هذه المناسبة. ما أسرع ما تمرُّ الأعوام. تغمّض وتُفتّح فإذا عشرة أعوام، فإذا عشرون عاماً من عمرك قد ذهبت، لا تدري إلى أين وكيف ذهبت.

ويخيّل إليك أنك أنتَ أنتَ. ولكن هيهات. إنني أذكر قصيدته الجميلة بمناسبة زواج ابنته. كان يتحدّث بلسان الآباء جميعاً. كان سعيداً وكان حزيناً، وهو يكون في أحسن حالاته حين يتأرجح بين السعادة والحزن. الفرح لأن البنت قد كبرت وتزوّجت، ولكن ماذا حدث لسنوات العمر؟ الطفلة شبّت عن الطوق وذهبت إلى كنف رجل آخر. ولعمري إن في مسرّات الحياة المشوبة بالأحزان، ما يُغني الشعراء، خاصة الكبار منهم، عن مزالق الهجاء!

كنت وزوجتي نحضر حفل التخرُّج في كلية «قولْد سمثْ» التابعة لجامعة لندن، لأن ابنتنا الكبرى (زينب) كانت بين المتخرجين. نادوا على اسمها فخرجت من بين صفوف الطلبة والطالبات في عباءتها الجامعية السوداء، والقبّعة المسطّحة ذات الذّيْل الذي يتدلّى على الجانب. الفرح، نعم، كما أحسّ غازي القصيبي. مشتْ على المنصة واثقة الخطو، فيها طيبة السودانيين وعناد الإسكتلنديين، صافحها رئيس الجامعة وابتسم لها وابتسمت له. يا سبحان الله. هل هذه طفلة الأمس التي نعرفها؟

كان بين المتخرجين أيضاً ميسون ناصر، ابنة صديقنا نديم ناصر وزوجته مديحة المدْفعي. كنا زملاء في هيئة الإذاعة البريطانية. منذ متى؟ ما أسرع ما تمرّ الأعوام.

إنما ليس هذا موضوع حديثي. كنتُ أفكّر طوال الاحتفال الذي استمر نحو ساعتين، أفكّر وأقارن وأسائل نفسي، لماذا هؤلاء القوم على ما هم عليه؟ ولماذا نحن على ما نحن عليه؟ ما هو الذي عندهم وليس عندنا؟ الذكاء؟ نحن ما شاء الله لا ينقصنا الذكاء. القدرة على العمل؟ في تاريخنا أدلّة كافية على قدْر استطاعتنا. الطموح؟ لعلّنا أكثر طموحاً مما يجب. الحكمة؟ ربما يكون هذا. لعلّهم أكثر منّا حكمة.

بدأ الاحتفال بأنْ عزفت الأبواق من موسيقى «مانْدلْ»، وسارت المواكب، موكباً في أثر موكب. موكب الرئيس. ثم مواكب العُمدْ. عُمدة «لويشام». عمدة «برْمْلي». عُمدة «كرويْدُن». عمدة «لامْبثْ». عمدة «بكْسلي». كل هذه مناطق في لندن لها صلة قديمة بهذه الكلية التي أُنشئت أصلاً لخدمتها. مواكب تثير خيالك

وتدهش سمعك وبصرك. الموسيقى تصدح، وكل عُمدة في زيّه المميّز، أمامه ووراءه حاشية يحملون شارات سلطانه العريقة التي توارثوها منذ قرون. كل شارة لها مغزى في ذاكرة الشعب، وكل خطوة لها معنى، فكأن الزمان الذي ذهب لم يذهب سُدى، وكأن الماضي، تعاد صياغته في الحاضر ويمتد إلى المستقبل.

الحكمة؟ نعم، لعلهم أكثر حكمة منّا.

ساروا بتؤدة محسوبة على أنغام موسيقى «مانْدل» موكباً في أثر موكب. موكب الأساتذة وموكب الزملاء الفخريين. وارتقوا صفّاً صفّاً فوق المنصة.

تحدّث أولاً عميد الكلية «برفّسر آندرو رذَرْفورد» بلكنة إسكتلندية واضحة، وأنا من زمن أحمل إعجاباً خاصاً بالإسكتلنديين. ناظر مدرستنا في وادي سيّدنا «مستر فارْكسُنْ لانْج» كان إسكتلندياً. كان مربياً فاضلاً. يعجبني فيهم أنهم قبائل مثل العرب، وأن طبعهم فيه سماحة مثل العرب، وهم كرماء عكس ما يروّج عنهم الإنجليز، وموسيقى «القِرَب» عندهم مليئة بالشجن خلاف موسيقى بقية أوروبا. وقد أخذها عنهم، وأجاد فيها الجيش السوداني والجيش الأردني. وكانت فرقة الموسيقى في الجيش السوداني يُضرب بها المثل، تعزف موسيقى القِرَب كما تُعزف في اسكتلندا. لا بد أنهم بَعثروها الآن، كما خرّبوا سكة وجامعة الخرطوم والخدمة المدنية، وكسّروا محطة السكة الحديدية في الخرطوم، وسوق الخضار وسوق اللحوم، بحجة أنها من مخلّفات الاستعمار. متى يفهم هؤلاء القوم أن الأشياء الحسنة التي تركها الاستعمار هي ملك للشعب؟

سير «والترْ سكوت» صاحب روايات «ويفرلي» إسكتلندي، والشاعر العبقري الصعلوك «روبرت بيرنْزْ» إسكتلندي. إنه صاحب الأبيات الشهيرة التي أصبحت أغنية ذائعة:

إذا إنسانٌ
قابل إنساناً
سائراً في حقل الشّعير،
إذا إنسانٌ
كلّم إنساناً
فهل لا بُدّ أن يبكي ذلك الإنسان؟
كلّ البنات يغازلْنني بعيونهن،
وأنا أسير في حقل الشعير.

ولا يخفى، أن الإنسان الذي كلّمه الإنسان، ليس إنساناً بل إنسانة. وقد اقتبس الكاتب الأمريكي «أر.دي. سالنْجر» من هذه الأبيات، عنوان روايته الشهيرة «صياد في حقل الشعير». وقد ترجم بعض إخواننا كلمة Rye إلى «شوفان». وأنا شخصياً لا أعرف «الشوفان» ولم أره، وما أظن إلّا أنه «الشعير»، فكلّه عند العرب «شعير».

ذاك، و«روبرت لوي ستيفنْسنْ» صاحب رواية «جزيرة الكنز» إسكتلندي، و«هارولدْ ماكْملان» آخر دُهاة حكّام بريطانيا إسكتلندي. وفوق هذا وذاك «توماس كارْلايلْ» الكاتب الشجاع الذي أنصف نبيّنا الكريم في زمن عزَّ فيه الإنصاف، إسكتلندي.

هكذا أحببت الإسكتلنديين إلى حدّ أن صار لي عندهم صلة ورحم، فهل أنا في ذا يال همْدان ظالمُ؟

بلادهم ذات طبيعة ساحرة، تتخلّلها البحيرات والخلجان التي يسمّونها «لُخْز» واحدها «لُخْ» فهم ينطقون حرف «الخاء» مثل العرب. وقد كانوا فقراء مُدْقعين إلى عهد قريب، حتى وُجد عندهم البترول والغاز في بحر الشمال، لذلك هاجروا زُمراً وتفرقوا في البلاد فشبَّ لديهم حنين قوي إلى موطنهم الأصلي يظهر في أغانيهم كما عند اللبنانيين. وفي طبعهم ميْلٌ عظيم إلى العدْل الاجتماعي ومناصرة المظلومين، وغالبيتهم العظمى تؤيد حزب العمّال.

حاربوا الإنجليز حقباً قبل أن يتّحدوا معهم، وعاصمتهم «أدنبرا» بقلعتها الضخمة ومعمار مبانيها الذي يمتُّ إلى القارة الأوروبية أكثر مما يمت إلى الجزيرة البريطانية، تشهد على صلابتهم وقوة مراسهم.

جامعتهم الأولى، في «سانت آندروز» لا تقل عراقة عن «أكسفورد» أو «كيمبردْج»، وصحيفتهم الـ «سكتْسمان» أكثر صحف بريطانيا رصانة، وأكثرها عدْلاً وإنصافاً في النظر إلى شؤون العرب.

٢

من العادات الحسنة عند الإنجليز ـ وكذلك بقية الأوروبيين ـ أن رغبتهم في البذل وعمل الخير، تتحرّك في مثل هذه الأيام، في محطات السكك الحديدية، وفي الشوارع والميادين العامة، وأمام أبواب المحلات التجارية، وأحياناً يطرقون أبواب البيوت ـ جوقات من المنشدين، صبْية وبنات، ومعهم موجِّهون من الرجال والنساء، يعترضون المارة بترانيمهم الجميلة ـ بعضهم لم يتجاوز السابعة من العمر، وكل واحد أو واحدة، يحمل علبة تضع فيها ما تجود به نفسك.

وجوه غضّة، وعيون مُشعّة، وأصوات بريئة صافية، يجمعون التبرعات لعمل الخير. ملاجىء العجزة، ومآوي المشرّدين. جمعيات مكافحة الخمور والمخدرات. البحوث الطبيّة وإنقاذ المستشفيات المهددة بالإغلاق. ضحايا الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية.

«في غزّ الشتاء القاتم
أخذت الرياح الثلجية تُولول،
الأرض صلبة مثل الفولاذ،
والماء جامد كالحجر.
الثلج يسقط،
ثلجٌ فوق ثلج فوق ثلج».

يحبّون أن ينزل الثلج في عيد الميلاد، ويقولون (عيد ميلاد أبيض). ولعله لا يسقط هذا العام، فالشمس تشرق، وقد خدعت بعض النباتات فأزهرت قبل أوانها. والأبيات من ترنيمة للشاعرة (كرسْتينا روزتّي - ١٨٣٠ - ١٨٩٤)، أخت الشاعر (دانتي قابرايلْ روزتّي)، وأشهر شاعرات العصر الفكتوري.

إنما هذه الترانيم، صنعها في الغالب، فقراء الشعب بطريقة عفوية. تعبّر عن إحساسهم الديني، وهو عندهم أعمق مما هو عند الأغنياء، ولا تخلو من المرارة، والوخز للطبقات المحظوظة.

كل ذلك اختفى بمرور الأيام، وتغيّر الأحوال، ولم يبق إلّا الجانب الروحي الذي تراه أوْضح ما يكون في وجوه هؤلاء الأطفال. يُغنّون للمثل الأعلى للطفولة في خيالهم، ويجمعون التبرعات لأطفال مثلهم، في بلاد بعيدة لم يروْها بأعينهم.

وُلد الطفل في حظيرة أغنام، في مذوَد، كما تزعم روايتهم، لأن السيدة البتول عليها السلام لم تجد مكاناً في الخان. ولد في بيت لحم من أعمال بيت المقدس. رأى الرّعاة النجم، فاتّبعوه، ووضعوا هداياهم من الحملان بين يدي الطفل. ورأى الحكماءُ الملوك الثلاثة

النجم حتى أتوا الوليد في الحظيرة، فوضعوا عنده هداياهم من المرّ واللّبان والبخور والذهب والفضة. هكذا تقول روايتهم:

«ماذا أستطيع أن أُهديه
وأنا فقير ليس عندي شيء
لو كنت راعياً كنتُ أهديته حملاً
ولو كنتُ من الحكماء الثلاثة
كنت أهديته كما يجب
إنما يا للأسف، ماذا أستطيع أنا أن أُعطيه؟
سوف أعطيه قلبي».

هكذا فعلت أوروبا مع السيد المسيح عليه السلام. جعلوه رمزاً يناسب مزاجهم وظروفهم. وُلد في عالم الشرق الدافىء المضيء. وكان هو نفسه ضوءاً. أخذوه رمزاً، وخلطوه بما عرفوا من رموزهم القديمة. جعلوا ميلاده في عزّ الشتاء، لأنهم كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية، يحتفلون في هذا الوقت بالرّقص والغناء والولائم. يبدّدون كآبة الشتاء، ويدفعون الخوف من المجهول، ويملأون ذلك المفْصل الغامض، بين العام المُنصرم والعام الوليد، بالصخب وافتعال الفرح.

سوف تمتلىء الكنائس بالمصلّين في هذا الموسم، في بلاد أكثر من ثمانين بالمائة من أهلها لا يدخلون الكنيسة طوال العام. يرسلون بطاقات عيد الميلاد لأناس لا يتصلون بهم عادة، وتتجمع أشتات الأسر المبعثرة.

يجتمعون حول غداء يوم الكريشماس. كانوا قبل أن يعرفوا الديك الرومي، يولمون بالوز والبط. يلي ذلك حلوى عيد الميلاد التي

يصنعونها من الزّبيب والتوابل. يسرفون في الأكل والشراب والضحك.

بعد الغداء يأخذون الهدايا من بين أغصان شجرة عيد الميلاد، ينزعون عنها في ضوضاء الأغلفة الجميلة الملوّنة، الأطفال خاصة، والكبار يعودون أطفالاً.

شجرة عيد الميلاد هي أيضاً تقليد جديد عندهم. منذ العهد الفكتوري. ويقال إن الأمير (ألبرت) زوج الملكة فكتوريا هو أول من فعل ذلك. وهي تكون إما شجرة صغيرة لم تكبر بعد، أو فرعاً من شجرة، من النوع الهرمي المخروط، الذي يظل مخضراً صيفاً وشتاء.

يلفّون غصونها بأشرطة ملوّنة، ويضيئونها بثريات كهربية صغيرة مختلفة الألوان، ويضعونها في الغالب عند النافذة بحيث يراها السائر في الطريق. وهو بالفعل منظر جذاب، أن تكون الأرض مغطاة بالجليد، والظلام دامس، وتنظر فترى هذه الأضواء الجميلة تلمع من نوافذ البيوت.

يكون الأطفال قد استيقظوا مبكّرين في الصباح، ووجد كل واحد منهم كيساً مملوءاً بالهدايا، يقولون لهم أن أباهم عيد الميلاد (فاذر كرسماس) قد تركها لهم. يدخل خلسة بعد منتصف الليل من فتحة المدخنة.

بالليل يجتمعون أمام التلفزيون. تغلب عليه في هذا الموسم قصص الخيال والفكاهة والرسوم المتحرّكة، مثل (سنو وايت والأقزام السبعة) و(الأميرة النائمة) و(توم آند جري). وهو موسم لقصص (شارلز

دكنز) خاصة قصّته (ترنيمة عيد الميلاد) التي يتحول فيها (سكروج) البخيل إلى إنسان كريم رحيم بفضل معجزة عيد الميلاد.

يعطون أكثر في هذا الموسم. يدفعون أكثر للعامل الذي ينظف زجاج النوافذ، والزبّال، والذي ينظّف المدخنة، وبائع اللبن، والصبي الذي يحضر الصحف. ويجودون أيضاً بالبنس والبنسين، والجنيه والجنيهين، لأطفال العالم الفقراء في البلاد البعيدة، ومن بينهم أطفال المسلمين في البوسنة وبانقلادش والصومال وأفغانستان.. والسودان.

«عيد الميلاد قد أقبل،
والوزُّ قد اكتنز بالشحم،
ضعْ من فضلك بنْساً
في قُبّعة الرجل العجوز
إذا لم يكن عندك بِنْس،
فنصف بنس يكفي.
وإنْ لم يكن عندك نصف بنس،
فعليك بركات الله والسّلام».

٣

تلك السيدة الفاضلة (مسز باربرا بريْ)، تعيش في باريس منذ أكثر من ثلاثين عاماً عيشة بسيطة متقشفة، أشرتُ إليها عدة مرات، في معرض حديثي عن (منسي) رحمه الله. كانت أستاذته في جامعة الإسكندرية، ثم تزاملنا في هيئة الإذاعة البريطانية، وتوثقت صلاتنا إلى اليوم. وهي ناقدة معروفة، كما تُعدّ من أهم المترجمين من اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية.

ترجمت مؤخراً، بالاشتراك مع الكاتب الأمريكي (فرانسس ستيڤْمولر) الرسائل الكاملة المتبادلة بين (جورج صاند) و(قوستاف فلوبير).

(جورج صاند)، كما هو معروف، هو الاسم المستعار للبارونة (أورور دي دودفان) التي كانت من أشهر كاتبات فرنسا في القرن

التاسع عشر. اشتهرت أيضاً بسلوكها المتحرر في شبابها، وغرامياتها المتعددة. أحبها الكاتب (جول صاندو) الذي أخذت منه اسمها المستعار، والشاعر (ألفرد دي موسّيه)، والموسيقار (شوبان)، وكثيرون غيرهم.

رغم أنها تزوّجت وأنجبت، فقد كانت أول عهدها، تتزيى بزي الرجال وتسلك سلوكهم.

كانت تكبر (فلوبير) بسبعة عشر عاماً، وقد جمعت بينهما صداقة إنسانية صرفة، أساسها الإعجاب المتبادل، استمرت حتى وفاة (جورج صاند) عام ١٨٧٦، أي قبل وفاة فلوبير بأربعة أعوام.

كان (فلوبير) من الروائيين العمالقة، وقد اعتُبرت روايته (مدام بوفاري ـ ١٨٥٧) فتحاً في عالم الأدب. وفيما يلي رسالتاهما في أول يوم من عام ١٨٦٩. ويلاحظ أنه يسمّيها (أستاذي العزيز). وكانت هي تناديه (صديقي) و(أخي) و(طفلي):

«كرواسيه ـ ١ كانون الثاني/ يناير ١٨٦٨
الساعة الواحدة من صباح يوم رأس السنة.

لماذا لا أبدأ العام بأن أتمنى لك ولعائلتك سنة طيبة سعيدة، وأكثر من ذلك بكثير؟ هل هي عبارات ممجوجة؟ ربما ـ ولكنها تعجبني.

فلنثرثر إذاً. لا تخافي أنني سوف أقتل نفسي من الإرهاق وكثرة العمل. صحّتي ممتازة. قال لي أحدهم في باريس، أن وجهي نضر مثل وجه فتاة صغيرة. الذين لا يعرفون أسلوب حياتي، يعزون ذلك

إلى هواء الريف النّقي. لكنني لا أكترث لصحتي. أحياناً أعيش على الخبز الجاف، وأتداوى من آلام المعدة، بأن آكل أعسر الأطعمة على الهضم، مثل التفاح الفج واللحوم السمينة ـ الإنسان الفاقد الحكمة مثلي، يجب ألّا يعيش بحكمة.

أما عن هوسي بكثرة العمل، فذلك مثل الحكّة على الجلد. أحك وأحك، وأصرخ وأصرخ. أحس المتعة والألم في الوقت نفسه. والذي أكتبه ليس هو الذي أريد أن أقوله. الكاتب لا يختار موضوع كتابته. الموضوع يفرض نفسه عليه. هل تنزل عليَّ من السماء فكرة تكون هي الفكرة التي أبحث عنها تماماً؟ هل أستطيع أبداً أن أؤلّف كتاباً أُفْرغ فيه نفسي بكاملها؟

يبدو لي أحياناً، في لحظة من لحظات الغرور، أنني ألمح شيئاً سوف يتشكّل ليصير رواية. لكن عليَّ قبل ذلك أن أكتب ثلاث روايات أو أربع، ثم أعكف على تلك الرواية التي تتمارى لي، وما تزال غير واضحة المعالم. وعلى أي حال، فلعلّي إذا سرت بهذا البطء، لن أزيد على ثلاث أو أربع روايات.

تتزاحم في رأسي أفكار متضاربة. لذلك هذه الفوضى والتردّد وفقدان الإرادة.

أمّا أن حياة العزلة التي فرضتها على نفسي، هي (نوع من النشوة) ـ أبداً. لكن ماذا أفعل، أنْ يَسْكر الإنسان من الحبر، أحسن من أن يسكر من أي شيء آخر. غادةُ الإلهام، مهما كانت شرسة وسيئة الطبع، فهي أقل ضرراً من المرأة! لا أستطيع أن أجمع بين الاثنين. لا بد من الاختيار، وقد اخترت منذ وقت طويل.

طبعاً تبقى مشكلة الرغبات الحسيّة، هذه كانت دائماً خاضعة لإرادتي. حتى في ريعان شبابي، دائماً استطعت أن أسيطر على رغباتي. أنا الآن أقترب من الخمسين، ولم تعد النزعات الجسدية تسبّب لي أي صعوبة.

صحيح أن حياتي بهذا الأسلوب حياة مُملّة. أعترف بذلك. توجد أوقات أحسّ فيها بالوحشة والملل. لكنها تقلّ مع تقدّم العمر. وأصدُقك القول، أن الحياة أصلاً شيء لا يتفق مع مزاجي!

قضيت في باريس ثلاثة أيام، أجمع بعض المعلومات لكتابي. شعرت بالإعياء الشديد مساء الجمعة، فذهبت إلى فراشي في الساعة السابعة مساء. هذا مبلغ سفهي وعربدتي في العاصمة!

وجدت الأخوين (قنكور) في حالة من الهستيريا، من فرط الإعجاب بكتاب عنوانه (قصة حياتي) لكاتبة تدعى (جورج صاند)! إن دلّ ذلك على شيء فإنه يدل على أن ذوْقهما أفضل من اطلاعهما[1].

وجدت صديقنا (هاريس) شديد الغباء. يقارن بين (فيدو) و(شاتوبريان)، ويقول أن (دون كيشوت) كتاب مُملّ إلخ.

ما أقل الذين يميّزون الأدب الأصيل! معرفة اللغات وعلم الآثار والتاريخ وغير ذلك، قد تُساعد. لكنها لا تكفي. أغلب من يسمّون بالمثقفين، غير قادرين على تذوق الفن. لا يعرفون حتى ما هو الفن. يجذبهم المظهر أكثر من الجوهر. يفضلون العكاز على الساق الحقيقية.

صاحبنا (سانت بوف)[٢] عاد إلى حالته الطبيعية. إنه الآن (متوعّك) دائماً، وليس (مريضاً).

سوف أظل مرابطاً هنا حتى عيد الفصح. أتوقّع أن أفرغ من الكتاب بنهاية شهر أيار/ مايو. ستجدينني عندك في (نوهان) هذا الصيف، ولن يحبسني شيء عن رؤيتك، حتى إن سقطت القنابل.

وأنت، ما أخبار كتابتك؟ ماذا تفعل هذه الأيام يا أستاذي العزيز؟

متى نلتقي؟ هل تحضرين هذا الربيع إلى باريس؟ إنني أقبّلك.

قوستاف فلوبير

نوهان ـ ١ كانون الثاني/ يناير

الساعة الواحدة صباحاً

«فرغت لتوّي من وضع أطفالي في أسرّتهم، وقبّلتهم وتمنيت لهم ليلة سعيدة. أنا متعبة لأنني قضيت الليلة كلها أصنع فستاناً لدمية حفيدتي (أورور).. لكنني لا أريد أن أنام قبل أن أقبلك أنت أيضاً، يا صديقي المحبوب، ويا طفلي الكبير الغالي، أتمنى أن يكون عام ٦٩ عاماً لطيفاً معك، وأن تفرغ من روايتك. أتمنى أن تظل بصحة جيدة وأن تكون دائماً (أنت). هذا أحسن ما يمكن أن أتمناه لك.

إنني أحبك

جورج صاند

(١) أصدرت جورج صاند سيرتها الذاتية «قصة حياتي» عام ١٨٥٥، وأحدثت دوياً في وقتها. لذلك فإن (فلوبير) يلمح إلى أن الأخوين (قنكور) يجهلان ما يحدث في عالم الأدب، وإلّا لكانا قرآ الكتاب من قبل. والأخوان (قنكور) هما صاحبا الجائزة الأدبية المعروفة إلى اليوم.

(٢) (سانت ـ بوف) كان أشهر ناقد في زمانه.

٤

ما أفسدته المطابع

المطبعة، تبدو أحياناً، كأن لها إرادة مستقلة، تُغيّر وتبدّل وتقدّم وتؤخّر. من ذلك، أنني، في مقالة عن كتاب «تباريح التباريح» اقتطفت فقرة يقول فيها أبو عبد الرحمن:

«قلتُ عوضي في التنافس على معارف الخواجات، أنني أَبذّه بتراثيتي».

فقلبت المطبعة (الذّال) - (زاياً)، وصارت الجملة (أبُزه بتراثيتي). وقد علّمنا أشياخنا أنك حين (تبذ ـ بالذال) إنساناً ما، فأنت إنما تتفوق عليه. وحين (تبزّه ـ بالزاي) أو تبتزُّه شيئاً ما، فإنك تنتزعه منه انتزاعاً. وكانوا يشتطُّون علينا، فقد كنّا نخلط بين (الذّال) و(الزاي) و(الغين) و(القاف)، فكانوا.. يجعلوننا نقلقل (القاف) ونخرج ألسنتنا في (الذّال).

من أولئك الفضلاء، الشيخ حسن أحمد بشاشة عليه رحمة الله. ورّثني هذا، وأيضاً حب البحتري الذي لم يكن يعدل به أحداً من الشعراء. وكتبت في معرض حديثي «نحن أيضاً من ورّاد ذلك المنهل». فإذا المطبعة ـ وهي أعجميّة الصنع لا مراء ـ تقدّم (الرّاء) على (الواو)، فأخذ الكلام مشرعاً آخر، وصار من «رواد ذلك المنهل». لكنه على أي حال تصحيف مُحتمل، فأنت قد (ترتاد) المنهل، وقد (ترِدُه) عدا أن (الورود) أمثل بالماء من (الارتياد).

الذي لم أحتملْه، هو أن المطبعة أفسدت عليّ المعنى وضيّعت عليّ ما حسبته حُسن التضمين والإشارة حين قلت «ولو دامت الحرب، ربما لقِحت ـ لام قاف حاء ـ حيال أبي الفوارس حمد الجَاسر، كما لقحت حرب وائل من قبل حيال الحارث بن عُباد».

صنعت المطبعة بدل (لقِح) (لحق ـ لام حاء قاف) وذلك رجعٌ بعيد.

لا يخفى أنني أشير إلى حرب البسوس ـ مع الفارق بين الحربين ـ وموقف الشيخ الجليل الحارث بن عُباد البكري، وقصيدته المدويّة التي يقول فيها:

قرّبا مربَطَ النّعامة منّي
لقحت حربُ وائل عن حيالي

ومعلوم، أنهم كانوا أحياناً يشبهون الحرب بالناقة، إذا لقحت ـ أي حملت ـ وأنتجت ـ من ذلك قول زهير في معلّقته:

فتعرككم عركَ الرّحى بثفالها
وتلقح كشافاً ثم تُنتج فتتئم

وفسروا أن الناقة إذا (لقحت كشافاً) فقد حملت في عامين متتاليين، وذلك نادر، وأندر منه أن تلد توائم.

وهذا النوع من الاستعارة، ليس مستحباً عند الخواجات، يسمونه (تخليط في الصُّور). فقد جعل الحرب رحى، ثم جعلها ناقة. وزهير فعل أفظع من ذلك، إذ إنه مضى فصوّر الحرب أنها امرأة تلد غلمان شؤم، وأنها أرض، تغلّ لهم ما لا تغلُّ لأهلها:

«قرى بالعراق من قفيز ودرهم».

وقد أحسن وأجاد في مذاهب اللغة العربية الشريفة، دع عنك مذاهب الخواجات.

هذا، ومن عجائب حرب البسوس، وكل أمرها عجب، كثرة الشعر الذي خرج منها، والأمثلة التي أنتجتها. وفيم العجب؟ فقد استمرت كما وصفوا، أربعين عاماً، واصطلت بنارها قبائل بعد قبائل. وكان ذلك دأبهم قبل أن يردعهم الدين الحنيف، كما قال شاعرهم:

إذا ما دُعوا لم يسألوا من دعاهمُ
لأية حرب أو بأيّ مكان

ولم يبعُدْ الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم حين قال:

مـتـى نـنـقـلْ إلـى قـوم رحـانـا
يـكـونـوا فـي الـلـقـاء لـهـا طـحـينا
يـكـون ثـفـالُـهـا شـرقـيَّ نجـدٍ
ولُـهـوتـهـا قـضـاعـةَ أجـمـعـينا

وفسّروا أن (الثّفال) هي الخرقة التي توضع تحت الرحى ليقع عليها الدقيق المطحون، و(اللهوة) قبضة الحَب التي تُرمى في الرحى للطحن.

هذا ومن الأمثلة التي تواترت إلينا من أيام البسوس قولهم (خلا لك الجو فبيضي واصفري). ورووا أن أول من قاله كليب بن وائل بن ربيعة سيد تغلب، وعظيم وائل بشقيها. صار بعد هزيمة الحميريين في (خزازى) مُهاب الجانب عظيم السلطان. وقد ذكر عمرو بن كلثوم بلاء التغلبيين في موقعة (خزازى) في قوله:

ونـحـن غـداة أوقـد فـي خـزازى
رفـدنـا فـوق رفـد الـرافـدينـا

هل أوقدوا نار القرى على الجبل، أم أوقدوا نار الحرب، أم أوقدوهما معاً؟

وأجمل من هذا، في ذكر خزازى قول خصمه الشاعر البكري الحارث بن حلزه، في قصيدته الرائعة:

وبـعـيْنيـك أوقـدت هـنـدٌ الـنـارَ
أصـيـلا تـلـوّى بـهـا الـعَـلْـيـاءُ

أوقـــدتُـــهـــا بـــين الـــعـــقـــيـــق
فـشـخـصـيْن بـعـودٍ كـمـا يـلـوح الـضـيـاءُ
فـــتنورتَ نـــارهـــا مـــن بـــعـــيـــدٍ
بـــخـــزازى هـــيـــهـــات مـــنـــك الـصّـــلاءُ

وبعيد بين النار التي أوقدها عمرو ابن كلثوم، وتلك التي تنورها الحارث اليشكري البكري، لله دره.

٥

رجل من الغرب.. وحضارة من الشرق

كان (جاك بيرك) الذي تُوفي عن خمسة وثمانين عاماً واحداً من الأوروبيين الفضلاء الذين تبحروا في دراسة الحضارة العربية الإسلامية، وأحبّوها وتحمّسوا لها ودافعوا عنها. قادته ظروف مولده ونشأته إلى تعلم اللغة العربية، فلقد وُلد في الجزائر في الرابع من شهر حزيران/ يونيو عام ١٩١٠ لأبوين فرنسيين. وكان والده موظفاً في سلك الإدارة الاستعمارية، إلّا أنه كان يحسن اللغة العربية، وله سمعة علمية في مجال الاستشراق.

ذلك الاهتمام كان نادراً حينئذٍ، فقد كان المستوطنون الفرنسيون الذين وفدوا على الجزائر منذ استعمارها عام ١٨٣٠، يتميّزون بضيق الأفق وجلافة الطبع، والاحتقار للجزائريين أهل البلد.

وجدير بالذكر، أن الروائي الفرنسي الشهير (ألبير كامو Albert

Camus) هو أيضاً ولد في الجزائر في تلك الظروف، فقد وُلد عام ١٩١٣، أي بعد ثلاث سنوات من مولد (جاك بيرك). وكما يبيّن العالم العربي الأمريكي النابغة بروفسور إدوارد سعيد في كتابه القيّم «الثقافة والإمبريالية» فإن (كامو) في حقيقة أمره كان متعاطفاً مع تلك الطبقة من المتوطنين الفرنسيين (Colons) وكان أدبه ـ حين تنظر إليه بعمق كما فعل إدوارد سعيد ـ أدباً يبرر استمرار الاستعمار الفرنسي للجزائر.

يتضح ذلك في قوله عن حركة الكفاح الجزائري للاستقلال في بداية انطلاقها:

«فيما يتعلق بالجزائر، فإن الحافز على المطالبة بالاستقلال، ليس أكثر من الهوس العاطفي البحت. لم توجد أبداً أمة تسمى الجزائر. اليهود والأتراك واليونانيون والإيطاليون لهم حق في الجزائر لا يقل عن حق العرب (...) الفرنسيون في الجزائر، هم أيضاً مواطنون بأدق معنى الكلمة. أضف إلى ذلك أن دولة عربية خالصة، لن تستطيع أن تحقق الاستقلال الاقتصادي، الذي يكون الاستقلال السياسي بدونه مجرد وهم..».

بالمقارنة مع هذا الرأي، من كاتب كان يجد حفاوة بالغة بين اليساريين والوجوديين في فرنسا، وحتى في البلاد العربية، فإن (جاك بيرك) كان بين قلة من المفكرين الفرنسيين الذين أعلنوا انحيازهم الكامل إلى حركة الكفاح الجزائرية.

لم يبدأ (جاك بيرك) في صنع شهرته العلمية في الجزائر، ولكن في المغرب ، التي انتقل إليها، وعمل موظفاً إدارياً في منطقة جبال الأطلس.

كان الاستعمار الفرنسي في المغرب، أخف وطأة منه في الجزائر، فقد حاول حكّام أمثال (الجنرال ليوتي) أن يطبقوا أساليب مستنيرة تحترم إنسانية المواطنين الأصليين، وثقافاتهم وأعرافهم. لم يحاول الفرنسيون أن يتوطنوا في المغرب كما فعلوا في الجزائر، واعتبروه (محمية) وليس مستعمرة. لذلك كان الكفاح لنيل الاستقلال أقل ضراوة ومرارة مما حدث في الجزائر.

صاغ (جاك بيرك) تجربته في المغرب في كتابه «التنظيم الاجتماعي في إقليم أعالي الأطلس» الذي صدر عام ١٩٥٥. ويعتبر إلى اليوم من المراجع العلمية المحترمة عن حياة ذلك الإقليم.

ثم توّجت حياته العلمية أنه عيّن أستاذاً للتاريخ الإسلامي في معهد (الكوليج دي فرانس) العريق، وذلك أعظم شرف يناله أكاديمي فرنسي. هنالك صار زميلاً فترة للمؤرخ الفرنسي العظيم (فيرناند برودل) والعالِم اللغوي الشهير (رولان بارت). بالإضافة إلى ذلك، كان مديراً لمعهد الدراسات التطبيقية العليا.

في تلك الفترة، التي امتدت نحو ثلاثين عاماً، عكف (جاك بيرك) على عمل دراسات عميقة عن أحوال العالم العربي، نشرها في كتب، كلها لقيت احتراماً من الدارسين والمهتمين بشؤون العالم العربي عموماً. من ذلك كتبه: «العرب أمس واليوم ١٩٦٠» ـ «المغرب بين حربين ـ ١٩٦٢» ـ «مصر الإمبريالية والثورة ـ ١٩٦٧». **وقد أنفق أكثر من عشر سنوات أواخر حياته في ترجمة القرآن الكريم، ترجمة قال عنها أنه صبّ فيها خبرته كلها في التاريخ واللغة والفقه وعلوم الإنسانيات الحديثة.**

هذا، وقد أسعدني الحظ أنني تعرفت على (جاك بيرك) أواسط السبعينيات حين زرته في مكتبه في الـ (كوليج دي فرانس). وكان دون سابق معرفة بي، سارع إلى كتابة مقدمة للطبعة الفرنسية الأولى لرواية «موسم الهجرة إلى الشمال» التي صدرت أوائل السبعينيات. ثم توثقت صلتي به في سنوات عملي في باريس. رغم رصانته العلمية كانت فيه تلك الجاذبية الفرنسية من ميل إلى المرح وحب للحياة. وكما عبّر بصراحة في كتاب سيرته، فقد كان فيه نزوع غير قليل إلى المغامرة. من أمثلة ذلك أنه بعد أن جاوز الستين طلّق زوجته الأولى، وتزوج سيدة إيطالية من عائلة أرستقراطية تصغره بأكثر من ثلاثين عاماً. ويقول في كتاب سيرته، أن ذلك أسخط بعض زملائه وأصدقائه، الذين ما كانوا ليسخطوا لو أنه اتخذ عشيقة أو كان عربيداً مستهتراً.

كان يتحدث اللغة العربية ويكتبها ويحاضر بها، بطلاقة لافتة للنظر، وكان يستهويه الشعر الجاهلي، وامرؤ القيس بصفة خاصة. وجدير بالذكر أنه لم يراوده الشك أبداً في صحة الشعر الجاهلي، كما فعل بعض المستشرقين أمثال (بلاشير) و(مرجوليوث). أحب (جاك بيرك) العربية والإسلام حتى لتحسبه عربياً مسلماً. وكان في سمته شيء يذكّر بالعلماء المسلمين الأوائل. وقد خسر العلم بموته خسارة يصعب أن تعوض، وخسر العرب والمسلمون صديقاً من طراز نادر.

٦

إسقاط مختار أمبو

أذكر أولئك الرجال الثلاثة الأوفياء ملتفّين حول أحمد مختار أمبو حين أخذ نجمه في الأفول. بعد ثلاثة عشر عاماً على رأس منظمة دولية كبرى، لم يعد خافياً أنه يخسر المعركة. ورغم أنه رجل مقاتل بطبعه، فقد بدأت تظهر عليه سيماء القائد المهزوم. بعض الناس ـ بحكم غريزة البقاء ـ لديْهم حاسة قوية لاحتمالات الربح والخسارة في الحياة. كثيرون منهم يدينون له بمواقعهم لكنهم الآن بدأوا ينفضُّون من حوله، إنه مشهد قديم متجدّد، وكل مرة أراه يحدث، فكأنني أراه لأول مرة. لم أكن من خلصائه. لكنني اقتربت منه أواخر عهده، ووثّق بيننا أننا اعتمرنا سوياً، ثم حججنا معاً، ورأيته في تلك المواقف، مختلفاً جداً عنه وهو في هيْله وهيْلمانه في باريس. أن تكون على رأس منظمة دولية كبرى ـ ذلك منصب خطير حقاً. أهم من رؤساء بعض الدول.

في مقره في باريس، كان يتكلم ويتحرّك كأنه رئيس دولة. إنما في تلك المواقف ـ في الطواف حول الكعبة، في السعي بين الصفا والمروة، في الزّحام في رمي الجمرات، وأمام ضريح الرسول صلى الله عليه وسلّم، كان أحمد مختار أمبو إنساناً آخر. إنساناً بسيطاً ورعاً يعتزّ بأنه أفريقي، وأنه مسلم.

كنت بحكم عملي ممثلاً للمنظمة في دول الخليج، أدرك أن قضيته خاسرة، وأنه أخطأ بترشيح نفسه للمرة الثالثة وكان أفضل له لو خرج طواعيّة واختياراً معزّزاً مكرماً. لكنني أحب القضايا الخاسرة، وقد عجبت يومئذٍ أن الولايات المتحدة الأميركية، بقضّها وقضيضها، اعتبرت إسقاط ذلك الرجل السنغالي الأعزل، من الأهداف الاستراتيجية الكبرى لسياستها. يومئذٍ قالت مندوبتهم في المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو:

«إن السياسات التي تتّبعها المنظمة لا تتّفق مع المصالح الحيوية للولايات المتحدة».

حين تقول ذلك دولة كبرى، بل الدولة الكبرى، فمعناه أنها قد أعلنت الحرب. وكذلك كان. انسحبوا من عضوية المنظمة وأوقفوا مساهمتهم المالية التي تبلغ أكثر من عشرين بالمائة من ميزانيتها. وذلك كما لو أن بريطانيا انسحبت من عضوية الكمنولث، لأن أمريكا كانت العنصر الفاعل في إقامة بناء الأمم المتحدة برمته. وأحد شعرائهم هو الذي صاغ تلك العبارة الشهيرة: « ...لأن الحروب تبدأ في عقول البشر فلا بدّ من إقامة صروح السلام في عقول البشر».

وكانت اليونسكو من المنظمات التي أوكل إليها إقامة صروح السلام، بالعمل في مجالات العلوم والثقافة والتربية.

لم تكتف الولايات المتحدة بالانسحاب، ولكنها سلّطت وسائل إعلامها في شن حملة لا نظير لشراستها ضد شخص المدير العام. جاءوا بصحافيين لم يسمع بهم أحد من قبل خصيصاً للهجوم على (أمبو). ولما حققت الحملة أهدافها، اختفوا فجأة ولم يعد أحد يسمع بهم.

كان أمراً محيّراً حقاً. لماذا كل ذلك الجهد وكل تلك الضوضاء؟

لا بد أنهم كانوا يعلمون، أن (أمبو) لم يكن معادياً لهم في حقيقة الأمر. رجل تشرب الثقافة الفرانكوفونية، وعبّ من مناهل الحضارة الغربية، كيف يكون معادياً للغرب ولأمريكا؟

ومهما يكن الأمر، فإن مدير عام منظمة اليونسكو ـ ككل رؤساء المنظمات الدولية ـ ليس هو الذي يصنع السياسة. إنه يرأس جهازاً تنفيذياً يخضع لتوجيهات الدول الأعضاء، ممثّلة في المؤتمر العام والمجلس التنفيذي. أقصى ما يستطيع فعله، هو أن يتباطأ في التنفيذ، أو يتحمّس أكثر مما هو مطلوب. ومن دواعي السخرية أن الولايات المتحدة اتخذت إزاء (أمبو) الموقف نفسه الذي وقفه الاتحاد السوفياتي من قبل، إزاء داج همرشولد.

٧

الصفات الكريمة

خسر أحمد مختار أمبو في الانتخاب بثلاثة أصوات لا أكثر، وكان يستطيع أن يفوز، لو أن بعض الدول التي أتهموه بمحاباتها وهاجموه بسببها، تجرأت على تأييده.

سقط كما يسقط رئيس دولة في انتخابات رئاسية. أذكر ضوضاء الفرح ونشوة الظّفر التي عمّت في صفوف خصومه. عجبتُ لذلك. ولعلّ (أمبو) نفسه لم يتصوّر أنه حرّك غيظ بعض الناس إلى ذلك الحد. كان رغم صلابته وحزمه، منصفاً كريماً، مفرطاً في رقته وإنسانيته في بعض الأحيان.

بعد أن انسحبت أمريكا وبريطانيا من المنظمة، رفض أن يُخرج الموظفين الذين يحملون جنسية تينك الدولتين، كما اقترح عليه بعض مستشاريه، وكان يحق له أن يفعل ذلك. وكان يُولي عناية

خاصة بصغار الموظفين. وفرض حماية صارمة على النساء العاملات في المنظمة من المضايقات والمعابثات.

أذكر في مؤتمر نظمته اليونسكو في الخرطوم، وكنّا فوجاً من الموظفين وبيننا عدد من السكرتيرات اللائي جئن من باريس. كنا ننتظر نزول المدير العام من غرفته لنذهب إلى قاعة المؤتمر. ولما وصل قالت إحدى السكرتيرات «لا أظنه يعرفني». فجاء وسلّم علينا جميعاً ينادي كل واحدٍ وواحدة بأسمائهم.

كان يحظى بالتقدير من أغلب العاملين في المنظمة. لكنه أثار السخط لدى فئة منهم، لأسباب عدة. بعض (البيض) من الأوروبيين والأمريكان، لم يستسيغوا أن يعملوا تحت رئاسة رجل أسود... ومسلم أيضاً. وقد يعجب المرء أن يوجد هذا الصّنف المتخلف من البشر، وفي منظمة دولية مثل اليونسكو، قوامها افتراض المساواة، وأنشئت أصلاً لإنارة العقول، وإزالة الحزازات والأحقاد من القلوب. لكن ما أكثر ما تجد أراذل في خدمة أهداف نبيلة.

وبعضهم لم يعجبه أسلوبه في العمل. كان رجلاً جاداً يأخذ نفسه ومعاونيه بالشدة.

لا يكاد يتوقف عن العمل، وسكنه فوق مكتبه مباشرة في مقر اليونسكو. وكنتَ حين تمرّ بميدان (فونْتينوا)، ترى الأنوار مضاءة في مكتب المدير العام إلى ساعة متأخرة من الليل.

كان يتابع كل صغيرة وكبيرة، يقرأ كل ورقة تُرفع إليه، ويعلّق ويؤشر في الهوامش، ويلاحق الموظفين المعنيين بالتلفونات

والمذكرات. وكان حين يسافر يحمل معه حقائب مليئة بالأوراق، ويبدأ في العمل أول ما تقلع الطائرة. وأول ما يصل إلى حيث يقصد، يعقد اجتماعاً مع مرافقيه مهما كان الوقت متأخراً. يصلي الفجر حاضراً، ثم يواصل العمل إلى ما بعض منتصف الليل.

كان محتشداً يقظاً على الدوام، يملك طاقة خارقة على العمل قلّ أن تتوفر لأحد. وكان العمل معه في حل أو سفر أمراً مرهقاً حقاً كما جرّبت بنفسي، لا عجب أن بعض الناس لم يستطيعوا معه صبراً.

وبعض الذين ناصبوه العداء، كانت تحركهم أيادي من خارج المنظمة، وبعضهم لم يستطيعوا التمييز بين العدو والصديق، وبعضهم ملّوا تطاول عهده، فأرادوا التغيير في حد ذاته. والتغيير يغري بعض الناس، لأنه يجلب معه احتمالات جديدة.

كان أحمد مختار أمبو في حقيقة الأمر، زعيماً من سلالة منقرضة من الزعماء، أكبر من وظيفته ومخالفاً لزمانه. رجلاً له فلسفة ويريد أن يحدث ثورة. ولم يعد الزمان يطلب فلسفة أو ثورة. لذلك كان حتماً أن يخسر.

لا أخفي أنني لم أحزن لسقوطه، وقلت لعلّ الله أراد به الخير. سوف يجد متسعاً من الوقت ليفكّر ويسترجع ويكتب. وهو رجل صاحب تجربة وفكر. ويستطيع أن يقول الكثير.

الذي استهواني وحرّك حب الاستطلاع عندي ـ كما يحدث للكاتب الروائي، الذي يراقب دائماً وإن كان مشاركاً في الأحداث

- هو ذلك المشهد القديم المتجدد. الجموع التي ترحل مدفوعة بما تحسبه غريزة البقاء، من باب المهزوم إلى باب المنتصر، تكاد تسمع لحركتهم دوياً كدويّ الحيوانات المذعورة في الغابات. المنتصر يمتلىء فجأة بطاقة غامضة، كما تمتلىء القربة بالماء، فإذا هو شخص آخر. إلّا من رحم الله.

والمهزوم لا يبقى منه غير ما هو فيه أصلاً. بعض المهزومين لا يبقى منهم شيء، لأنهم لم يكونوا أكثر مما أضفاه عليهم هيئلهم وهيئلمانهم. وآخرون يظلون كما هم، وربما يكونون في حالات الهزيمة أفضل مما كانوا في حالات النصر.

وهكذا اجتمعنا في وداع أحمد مختار أمبو ذلك الصباح من مطار باريس. لم يضيع وقتاً بعد إعلان نتيجة الانتخاب. قضى يوماً واحداً ليجمع أوراقه ويُخلي مكتبه. وسافر في اليوم التالي.

كان حين يسافر أيام عزّه، يكونون في وداعه بالعشرات. وها نحن اليوم أقل من عشرة. رجل وامرأة مسنّان من قدامى موظفي اليونسكو، ورجل يهودي طاعن في السن واضح أنه من أصدقائه المقربين - من أعجب التهم التي وُجّهت لأحمد مختار أمبو أنه يكره اليهود.

لم يكن غاضباً ولا ساخطاً. كان، كعهده دائماً ممتلئاً بتلك الصفات الكريمة الموجودة فيه أصلاً، وهي صفات ميّزها أولئك الرجال الثلاثة الأوفياء فأحبّوه لأجلها، وليس لأنه مدير عام منظمة اليونسكو. وها هم ملتفّون حوله في ساعة هزيمته، كما كانوا في أيام انتصاره.

الدكتور محمد إبراهيم كاظم من مصر، والدكتور عبد الرزاق قدورة من سورية، والدكتور بشير البكري من السودان.

٨

الشيخ خليفة وقطر

أول ما كان يجذب نظرك في وجه ذلك الرجل الكريم ـ أحد أولئك الثلاثة الذين التفُّوا حول (أمبو) حين انفضّ عنه الناس ـ أنه كان دائم الابتسام. كان مفعماً بفرح داخلي، وهي صفة اشتركوا فيها جميعاً.

عرفت الدكتور محمد إبراهيم كاظم أول مرة، في قطر عام خمسة وسبعين أو نحوه. كان الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير الدولة، قد قرّر أن ينشىء جامعة، فاستقدم الدكتور كاظم ليكون مديراً لها، وكان قبل ذلك أستاذاً للتربية في جامعة الأزهر. أيّده الأمير تأييداً كاملاً وأطلق له العنان، فأنشأ الجامعة من ألفها إلى يائها على أساس فلسفة وفّقت بين الروح الإسلامي، والنظريات التربوية الحديثة، مستعيناً بخبراء من اليونسكو وأوروبا وأمريكا.

جعل معمارها على هيئة خلية النحل، كما صمّمه المرحوم الدكتور الكفراوي من معهد الـ (بوزار) في باريس. وجعل شعارها الآية من القرآن الكريم ﴿إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين﴾.

قضى أكثر من عشر سنوات مديراً للجامعة حتى أرسى دعائمها وجعل لها سمعة طيبة بين جامعات العالم. وكانت خُطَبُه في حفلات التخرج، روائع من البلاغة والبيان الناصع والجرأة العقلية. كان عميق الإيمان بالتراث الإسلامي ومجدداً جموح الخيال في الوقت نفسه. وكان من حسن حظه أنه وجد في أمير دولة قطر، رجلاً يقدّر الإخلاص والجرأة، فأعطاه الحرية الكاملة، ليمضي بذلك المشروع التربوي الجليل، إلى أقصى غاياته.

ولا بد من القول، والشيء بالشيء يذكر، أن إنشاء الجامعة لم يكن المشروع الوحيد الذي يعود الفضل في تحقيقه إلى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني. بل إن نهضة قطر برُمتها، وكونها تحوّلت إلى دولة حديثة مُعتبرة، ما كانت لتتحقّق لولا جُهد الأمير ودأبه وإخلاصه.

كانت الدوحة حين حللتُ بها أواخر عام أربعة وسبعين، بلدة صغيرة لا يُؤْبَه لها. كثيراً ما يجف ماؤها وتنقطع كهرباؤها. أحياؤها مبعثرة، ومعمار بيوتها فوضى، وشوارعها مُتربة تتسكع عليها الفئران في رابعة النهار. العيش فيها مكابدة ومعاناة.

إنما كان واضحاً أن الخطط قد اكتملت لعمل نهضة واسعة، ولم يكن قد مضى على تولّي الشيخ خليفة مقاليد الحكم إلّا أقل من عامين. وبالفعل، سرعان ما انطلقت حركة شاملة للبناء والتعمير

والإصلاح وإقامة أسس الدولة الحديثة. وهي حركة اكتملت في نهاية السبعينيات. في تلك الفترة اكتمل صرح الجامعة أيضاً.

سوف يذكر التاريخ للشيخ خليفة بن حمد آل ثاني كل ذلك. وهو رجل شديد الإحساس بالتاريخ. لكن التاريخ العربي في ظني - وهو تاريخ قائم ومستمر رغم ما يبدو لبعض الناس أحياناً ـ سوف يذكر للشيخ خليفة خاصة، أنه أنجز مشروعه التنموي بالتعاون بين الخبرات القطرية والخبرات الوافدة من شتى البلاد العربية. ولم يحدث ذلك اعتباطاً، بل بوحي سياسة متعمدة، وعَت عبَر الماضي واحتمالات المستقبل. ويسعد المرء أن يقول، إن دول الجزيرة العربية كلها، طبقت سياسات مماثلة، بدرجات متفاوتة.

من أمثلة تلك السياسة الحكيمة في قطر، أن المستشار السياسي والقانوني للأمير، كان مصرياً، هو المرحوم الدكتور حسن كامل، وكان رجلاً فقيهاً عالماً تمرّس في السلك الدبلوماسي المصري. وكان المسؤول عن شؤون الموظفين والقوى العاملة فلسطينياً، هو المرحوم داود فانوس، وكان رجلاً منقطع النظير في نزاهته وتفانيه في خدمة الدولة، حتى تُوفي وهو يعمل. وكانت لديه إحاطة مذهلة بمقومات الدولة صغيرها وكبيرها. وحين توفّي جاءوا بعشرات الموظفين ليملأوا مكانه، فلم يُغنوا غناءه.

وكان رئيس القضاء سودانياً هو الأستاذ الفاتح عووضة، من الذين آثر بهم السودان دولة قطر رغم حاجته إليهم. وهذا ـ أطال الله عمره ـ رجل نادر المثال في تهذيبه وعلمه وفضله. وكان مدير الخدمات الطبية، ومدير الشؤون المالية، أردنيين، هما الدكتور عمر حشيشو والأستاذ عبد القادر القاضي. وهؤلاء قليل من كثير.

إنني قضيت في قطر سنوات لا تُنسى، استفدت منها تجربة ومعرفة. وقد أسعدني الحظ بالتعرّف على عدد كبير من القطريين، لا يتّسع المجال لذكرهم الآن. لكنني أذكر على سبيل المثال، ذلك الإنسان المهذب المتحضر الأستاذ علي بن أحمد الأنصاري، وكان يومئذٍ وزيراً للشؤون الاجتماعية. كنت كلما زرته، أجد فيضاً من ذكائه وتجربته الواسعة. والشيخ أحمد بن سيف آل ثاني، وكان أول مسؤول قطري أتعرف إليه، حين كان سفيراً في لندن. وهو أول من رغّب إليَّ العمل في قطر. أصبح بعد ذلك وزيراً للدولة في وزارة الخارجية، ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للعدل. وأشهد أنني لم أقابل كثيرين مثله في بساطته ولطفه وكرم خلقه.

كذلك سعدت بمعرفة الشيخ حمد بن جاسم بن حمد آل ثاني، وكان يومئذٍ قائداً للشرطة. وهذا شاب أعجبني فيه، أنه كان جادّاً مقبلاً على العمل. تخرّج من كلية الشرطة في (هندُن) في إنجلترا، ثم ظل يدرس وهو ينهض بأعباء الأمن، حتى نال درجتي الليسانس والماجستير في الحقوق. يستهويه التاريخ العربي، خاصة تاريخ الأندلس. ذلك إلى جانب روح من الشهامة العربية المتأصلة.

وأيضاً شريده بن جبران الكعبي الذي كان سفيراً في القاهرة ثم في لندن، ثم صار وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية. وهذا فتى عربي (ولَدْ قبائل) كما نقول في السودان، فيه ذلك الخُلق الأصيل، مع ذهن متوقّد ورغبة في المعرفة، لا تحدّها حدود.

إنما الرجل الذي عرفته أكثر من غيره، وأسعدني الحظ بالعمل معه عن قرب، فهو الدكتور عيسى بن غانم الكواري. كان يومئذٍ مديراً لمكتب الأمير ووزيراً للإعلام. إنه إنسان اجتمعت فيه صفات إذا

اجتمعت في إنسان، فإنه يكون محظوظاً.. الذكاء المفرط، والطاقة الهائلة على العمل، والتواضع العجيب، وحبّ الخير ومساعدة الناس، والميل إلى رفع الكلفة، والصبر.

بلى، سوف يذكر التاريخ للشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، أنه بنى فأحسن البناء، واختطّ سياسة حكيمة متّزنة أخذت في الاعتبار صلات الرحم وحسن الجوار. والتاريخ لا يفعل شيئاً طال الزمان أم قصر. ويحمد للأمير الجديد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أنه سارع فأشاد بدور والده الجليل، ووعد بأن يترسّم خطاه. وقد عرفته وهو ولي للعهد فوجدته إنساناً متهلل الوجه على الدوام متواضعاً جمّ الذكاء. إنني أرجو له التوفيق والسداد.

هذا، وقد تركت قطر أواخر عام ثمانين. أحسست أن مهمتي قد انتهت، وعليَّ أن أبدّل أرضاً بأرض وأفقاً بأفق. وأشهد أنني لم أفارقهم عن قلبي، ولا هم فرّطوا فيَّ عن ملالة. إنما هو ذلك الداء القديم الذي عكّر على أبي الطيّب صفوه، داءُ الرحيل:

لا أقمنا على مكان وإنْ طاب
ولا يُمكن المكانَ الرحيلُ.

٩

مكتب اليونسكو في عمّان

جمعتنا الظروف بعد ذلك في عمان، وكان الدكتور كاظم رحمه الله، قد صار مديراً لمكتب اليونسكو في الدول العربية بإلحاح من (أمبو). وكان قد أحسّ في عام خمسة وثمانين، أن مهمته في دولة قطر قد اكتملت، وعليه أن يخوض تجربة جديدة، بالإضافة إلى أنه أراد أن يكون إلى جانب أحمد مختار أمبو، وكانت بينهما صداقة قديمة. وكذلك ترك قطر رغم تمسك الأمير ببقائه.

كنت محظوظاً أنني عملت في ذلك المكتب بصحبة الدكتور كاظم، بعد أن تركت الدوحة للمرة الثانية ـ إذ إن (أمبو) كان قد أعادني إليها ممثلاً للمنظمة في دول الخليج. كان المرحوم كاظم رجلاً رائداً. وكما أسس جامعة قطر، كذلك أسّس مكتب اليونسكو في عمّان، وكأنه بناء جديد. كان المكتب أصلاً في بيروت، ثم نقل إلى باريس بسبب الحرب في لبنان، ثم قررت

المنظمة أن يكون في عمّان.

وجدت أن الدكتور كاظم، كما يفعل دائماً، جمع حوله رجالاً نابهين فضلاء، خليطاً من جنسيات عربية شتى، فلم يكن يفرق بين عربي وآخر.

وكانت لديه موهبة في التوفيق بين الأفكار المتضاربة وحشد الطاقات وتوجيهها نحو الهدف المشترك. والهدف كان عظيماً حقاً. كان كاظم يؤمن إيماناً عميقاً، أن التعليم المبني على قيم الإسلام وتراث الأمة ومتطلبات العصر هو السبيل إلى النهوض الصحيح المستنير.

وهو نفسه كان مثلاً للإنسان المستنير، لذلك لم يكن من هؤلاء الرؤساء الذين يتبعون أسلوب الضبط والربط في الإدارة، ويعتمدون على سلاح التخويف، فيضيّقون على مرؤوسيهم ويحاسبونهم على كل صغيرة وكبيرة. كان على عكس ذلك، يفترض روح المسؤولية في مرؤوسيه، ويترك لهم حرية التصرف، ويحاسبهم على النتائج.

وكان هو كمسؤول يتصرف بجرأة كبيرة في حدود صلاحياته، دافعاً بتلك الصلاحيات إلى أقصى حدودها، مطالباً بمزيد من حرية التصرف، إذا وجد أن مصلحة العمل تقتضي ذلك. ولم يكن يرجع إلى الرئاسة في باريس إلّا نادراً، وإذا اقتضت الضرورة يتصل بالمدير العام مباشرة، متخطياً القنوات البيروقراطية المعهودة.

لم يكن فيه شيء من ضيّق أفق البيروقراطية، فلم يحببه ذلك إلى قلوب موظفي اليونسكو في باريس، فهي كسائر المنظمات الدولية،

ورغم أهدافها النبيلة، منظمة مثقلة بالروح البيروقراطي، وفيها موظفون لا يتحركون إلّا في نطاق اللوائح الإدارية.

كان رحمه الله إنساناً صريحاً مباشراً، وكان يميل إلى البساطة في العيش. وكان أحب شيء إليه، الأطعمة الشعبية مثل الفول المدمّس أو (المنسف) في مطعم (القدس) في وسط عمّان، حين تكون زوجته الفاضلة الدكتورة صفاء في القاهرة، حيث هي أستاذة في الجامعة.

إلّا أنه مع بساطته، كان مفكّراً عميق الفكر، متصل الحوار مع نفسه ومع الآخرين في قضايا الحياة الكبرى وقضايا الأمة. ومن حسن حظي أنني حاورته طويلاً، واكتسبت منه فوائد عقلية وروحية لا تحصى. كان عقلاً مضيئاً وروحاً خيّراً، تستفيد منه وكأنه هو الذي يستفيد.

طال بيننا الحوار في عمان خاصة أيام عملي معه. كنا نمشي في أوائل المساء، فقد كان يحب المشي. وقد أخبرني أنه، أيام عمله في الدوحة، كان يمشي بعد منتصف الليل، حين تهدأ الحركة ويبرد الهواء. كان يعتني بجسمه كما يعتني بعقله، ينطبق عليه الشعار (العقل السليم في الجسم السليم). وقد اعتمرنا معاً ذات مرة، فكنت ألهث لألحق به في السّعي. ولما كلمته في ذلك فيما بعد، قال ضاحكاً: «نعم. أنا أحافظ على صحتي».

لأنه كان مسلماً كما يجب أن يكون المسلم، وإنساناً كما يجب أن يكون الإنسان، كنت أشعر حين أستمع إليه، أن ها هنا رجلاً فتح الله عليه فتحاً مبيناً. كان حين يفتتح المؤتمرات يخطب ارتجالاً،

وأحياناً يتحدث الساعة والساعتين، لا يثرثر، ولا يقول لغواً، ولكنه يتدفق فكراً طريفاً وبياناً ناصعاً.

كان بسبيله إلى أن يصبح ـ بل أصبح بالفعل ـ علماً من هؤلاء الأعلام، الذين يضيئون المسالك، وتُشد إليهم الرحال. وكان ينوي حين يبلغ سن التقاعد، أن يذهب إلى السودان، ويدرّس تطوعاً في جامعة الخرطوم، ويقيم عاماً أو عامين ليتعرف أكثر على السودان. كان يحمل حباً خاصاً للسودان وأهله، ويقدر تقديراً عميقاً العلاقة التي تربط السودان بمصر.

لا عجب أن رئيساً من طراز غير عادي مثل المرحوم كاظم، جعل من مكتب اليونسكو في عمان مكتباً غير عادي. أشاع روحاً من الودّ والألفة حتى صار الساعي وعامل البوفيه والسائق والخبير والمدير، كلهم سواسية. وكما يحدث حتماً، فإن ذلك المناخ قد شحذ العقول وحفز على الخلق والإبداع، فكان ذلك المكتب نادر المثال بين مكاتب اليونسكو.

لكن يا للأسف، كأن الزمان ليس من طبعه أن يسامح باستمرار مثل تلك التجارب الإنسانية الفريدة. فجأة باغت المرض الدكتور كاظم وهو في أوج نشاطه الجسمي وتوقده العقلي. جاءه من حيث لا يحتسب ورمٌ في الدماغ. كان أمراً محزناً حقاً أن ترى ذلك الإنسان المتدفق المبين، وقد ألجمه المرض، فكأنه أسد هصور في قفص.

ثم بغتة أيضاً، قُتل ذلك الإنسان النبيل حامد الخوّاص. أطلق عليه الرصاص رجل معتوه كان الدكتور كاظم قد عيّنه سائقاً، وأحسن إليه هو وحامد الخوّاص أيّما إحسان.

حلّ بالمكتب شيء مثل اللعنة. تبدد شمله وانفضّ سامره. الإنسان المهذّب العالِم الأديب عبد الواحد يوسف، والرجل الفاضل عبد الله بو بطانة، والعالم الفكِه غازي أبو شقرا رحلوا إلى باريس. ومدام صالحاني وآخرون انتقلوا إلى بيروت. وهاشم أبو زيد أخو الخبرة والفهم، ما عاد يجيء إلّا لماماً. والشبان والشابات النابهون الذين جمعهم الدكتور كاظم من الجامعة الأردنية، تفرقوا وكل منهم ذهب في طريق. وآخر مرة زرت المكتب وجدت أنهم أقاموا على مدخله باباً من الحديد وشدّدوا الحراسة. وفي مكان الألفة والمرح والود التي بثّها الدكتور كاظم، وجدت جواً من التوتر والكآبة.

١٠

الدكتور عبد الرّزاق قدُّورة

سألت الدكتور عبد الرزاق قدّورة، عن سرّ إعجابه بأحمد مختار أمبو، فأجابني أنه لقيه أول مرة إذ هو وزير التربية في السنغال. وكان الدكتور قدورة يومئذٍ، مساعداً للمدير العام في منظمة اليونسكو مسؤولاً عن قطاع العلوم، وهو منصب ظل يشغله في عهد (أمبو) أيضاً.

قال، إن الوقت كان في رمضان، وكانوا صائمين. ولفت نظره أن (أمبو) كان يعمل بنشاط فائق طول النهار في اجتماعاتهم معه. حين تغرب الشمس، يُوقف العمل بقدر ما يفطرون ويصلّون المغرب، ثم يواصلون اجتماعاتهم حتى صلاة العشاء، ثم يعودون إلى العمل.

كذلك كان في باريس. حين يحلّ شهر رمضان ـ وأحياناً يكون

في الصيف بنهاره المتطاول ـ يواصل العمل، وكأنه في حيويته ويقظته الذهنية ليس صائماً. ويسوق معاونيه سوقاً حثيثاً كعادته. بعض المسلمين حوله، الذين ربما أرادوا التحلّل من الصيام في تلك الظروف، كانوا يصومون حياءً منه ومهابة له.

رُوحان خيِّران، وجد أحدهما الآخر في (دكار) فتعارفا وتآلفا، وتحابا حباً خالصاً لوجه الله، كما يحبّ المسلم الحق أخاه المسلم. هذا مسلم (أبيض) من بلاد الشام، وذاك مسلم (أسود) من غرب أفريقيا.

كان (أمبو) يحترمه ويأنس إليه، ويحب أن يصطحبه في رحلاته. أول مرة سافرت معهما، كانت بدعوة من الأمير عبد الله وليّ عهد المملكة العربية السعودية ورئيس الحرس الوطني، لحضور مهرجان الجنادرية. حين وصلنا مقر إقامتنا في الرياض، وجدت أنهم خصّصوا لـ (أمبو) جناحاً فاخراً، وخصّصوا للدكتور قدورة غرفة عادية.

كان (أمبو) رغم بساطته يهتم جداً بمستوى السكن الذي يخصص له. لم أفهم ذلك أول الأمر، ولعلّني اعتبرتُه مطعناً في شخصية ذلك الرجل المحترم على وجه العموم. ثم أدركت أنه لا يفعل ذلك حباً في الرفاهية، ولكنه يعتبره دليلاً على مدى التقدير لمنصبه كمدير عام لمنظمة دولية كبرى.

سرعان ما أصلح شباب الحرس الوطني المكلّفون باستقبالنا الخطأ، فخصصوا جناحاً للدكتور قدُّورة. ولما ذهبنا إليه وجدناه قد نشر أغراضه واستقر في غرفته. كانت أغراضه قليلة دائماً، يضعها في حقيبة يد صغيرة يدخل بها الطائرة.

لم يعجبه أن ينتقل من غرفته، وقال لي:

«يا أخي ما هو العيب في هذه الغرفة؟ إنها تكفيني وزيادة».

وبعد رجاء وإلحاح رضيَ أن ينتقل إلى الجناح المخصّص له.

إنسان عجيب حقاً. يبدأ يومه في باريس مع صلاة الفجر. ويسبح كل صباح في حمام سباحة مجاور لداره. ويذهب مشياً إلى مكتبه، حيث يكون جالساً يعمل، قبل ساعة من وصول بقيّة العاملين. لا يملك سيارة، ولا يؤم حفلات الكوكتيل، ولا يزور إلّا دوراً قليلة، منها دار الدكتور بشير البكري الذي كان يومئذٍ سفيراً للسودان في باريس.

من الذين يمشون هوناً على وجه الأرض. ورعٌ بلا تكلّف. هو الآخر فتح الله عليه فتحاً مبيناً، صافي الذهن، يملك قدرة خارقة على التعلّم، خاصة تعلّم اللغات. ما أن يمتلك لغة حتى يأخذ في تعلّم أخرى. ومن اللغات التي يتقنها ـ إلى جانب الإنجليزية والفرنسية ـ الإيطالية والإسبانية والألمانية والصينية والروسية.

عالم فيزيائي مرموق وله شهرة واسعة، وكان قبل أن يعمل في منظمة اليونسكو، مديراً لجامعة دمشق. بالإضافة إلى كل ذلك، عُرف في أوساط اليونسكو بأنه إداري من طراز رفيع، وربما كان أبرز مساعدي المدير العام في ذلك الوقت، وقد شهدته في الاجتماعات السنوية، حين يعرض مساعدو المدير العام خططهم وبرامجهم، فكان لافتاً للنظر في قدرته على الإيضاح دون إطالة أو إسهاب، يتحدث بلغة فرنسية عالية وكانت برامجه تجاز دائماً دون اعتراض أو جدل.

لم أسأله إن كان يحفظ القرآن الكريم، لكنني أرجّح ذلك، فوجهه يشعّ بضوء القرآن، وحركاته وسكناته وأسلوبه في العيش كأنها أصداء لآياتِ الكتاب المبين. وأثر القرآن واضح في أسلوبه العربي الرصين، حتى حين يكتب أو يحاضر في قضايا علمية معقّدة.

الدكتور عبد الرزاق قدُّورة ـ حفظه الله ـ رجل فذّ بكل معاني الكلمة، يذكّرك بعلماء المسلمين في عصور التنوير الأولى، حين كان العقل المسلم قادراً على طرق أبواب المعرفة، لا يفرّقون بين الرياضيات والفقه واللغة والشعر.

لذلك لم يكن عجباً، أنني وجدت هذا العالِم الفيزيائي، يحب المتنبي، ويحفظ معظم ديوانه، وربما يحفظ ديوانه كله.. وقد قضيت معه أوقاتاً طيّبة بصحبة المتنبي.

هذا الرجل الضخم، اختار بدافع الصداقة والحب أن يضع نفسه إزاء (أمبو) موضع المريد من الشيخ. كنت أنظر إليه يحنو على صديقه كما يحنو أب على ابنه، فيثير ذلك في نفسي العطف، وقليلاً من الحيرة، فقد كنت أحسّ أن المريد ليس أقل مكانة من الشيخ. وقد قلت لـ (أمبو) مرة، في لحظة من لحظات تجرئي عليه ـ وقد أَلِفني أواخر عهده وألف جرأتي عليه:

«أرجو أن تكون مدركاً مدى محبة الدكتور عبد الرزاق لك».

فبدا على وجهه التأثر، وقال «نعم.. نعم. إنني أعرف ذلك».

وكانت آخر لفْتة شهدتُها من الدكتور عبد الرزاق قدُّورة نحو

صديقه، أنه بعد أن ودّعه في مطار باريس ذلك الصباح، لم يلبث أن قدّم استقالته. لم يشأ أن يبقى بعده، رغم تشبث المدير العام الجديد به، وحاجة اليونسكو إليه. فيا له من رجل؟ ويا له من صديق!

١١

الدكتور بشير البكري

الدكتور بشير البكري ـ ثالث أولئك الثلاثة الأوفياء ـ من الفوج الأول من السودانيين الذين أتمّوا تعليمهم الجامعي في مصر، من حيث أرسلوا إلى فرنسا فنال بعضهم شهادة الدكتوراه. وقد حصل الدكتور بشير على درجته من السوربون في الاقتصاد. من هذا الرعيل الدكتور محيي الدين صابر، والدكتور أحمد السيد حمد، والمرحوم الدكتور عقيل أحمد عقيل.

هذا المنحى، جعلهم في بداية الأمر، فريقاً قائماً بذاته، فلم يكن في السودان حينئذٍ أحد يعرف اللّغة الفرنسية أو تعلّم في فرنسا. كان أبناء جيلهم جميعاً، نتاج تعليم (أنجلو سكسوني) إما في السودان، أو في إنجلترا. لكنهم سرعان ما دخلوا في نسيج الحياة العامة، بفضل سودانيّتهم المتأصلة، وأصبح (اختلافهم) ميزة خدموا بها الوطن خدمات عظيمة، وما يزالون.

كذلك فإن اتصالهم الباكر بمصر، جعلهم أكثر إدراكاً لقضية المصير المشترك بين مصر والسودان.

حين أذكر الدكتور بشير البكري، يتبادر إلى ذهني فوراً، صديقه الحميم الدكتور محيي الدين صابر، كل منهما سار في طريق، لكنهما كانا يلتقيان كثيراً في باريس. كنت أجد متعة ذهنية وروحية خاصة في مجالستهما معاً. إنسانان جمعتهما التجارب المشتركة والذكريات والألفة، أعواماً طويلة. كل واحد منهما يكون على سجيّته كما لا يكون إلّا مع قلّة من البشر. وهما أيضاً متماثلان في صداقتهما لأحمد مختار أمبو، وقد أيّده الدكتور محيي الدين صابر تأييداً عظيماً من موقعه كمدير عام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

حين التحقت بمنظمة اليونسكو آخر عام ثمانين، وجدت الدكتور بشير سفيراً للسودان بها للمرة الثالثة. وكان من قبل أول سفير للسودان في فرنسا غداة الاستقلال. كانوا في تلك الأيام الوضيئة، يعيّنون السفراء، ليس بمقياس ولائهم للحكومة، ولكن بمقياس الكفاءة والقدرة على النهوض بعبء تمثيل الوطن بأكمله.

كان الدكتور بشير خير ممثّل للسودان. كان واضحاً بقدراته العقلية وجاذبيته الشخصية. وكانت داره ملتقى عامراً لرجال السياسة والفكر والأدب والصحافة، من الفرنسيين والعرب والأفارقة. وكان صاحب الدار، كعهده دائماً حيثما كان، جامعاً للشّمل، محبّاً للخير، يتحلّى بتلك الصفة النادرة، أنه يستطيع دائماً أن يصل إلى الأساس المشترك، تحت سطح اللّجاجة وتباين الأفكار.

الدكتور بشير حفظه الله، من هؤلاء الناس الإيجابيين، وهم ليسوا كثيرين في العالم، الذين يؤمنون أن أي معضلة مهما عظمت، لا بد أن يوجد لها حلّ ـ بالعلم والحكمة والجهد والصبر.

وكل تلك الفضائل متوفرة عنده بدرجة عظيمة. كان في تلك الأيام، إلى جانب عمله سفيراً للسودان، أيضاً عضواً في المجلس التنفيذي لليونسكو، وعضواً في مجلس إدارة جامعة الأمم المتحدة في طوكيو، ورئيساً لصندوق دعم الثقافة، وعضواً في عدد من اللجان. كان متصل النشاط، دائم السفر، وما يزال.

بالإضافة إلى كل تلك الصفات، يتميّز الدكتور بشير بالميل إلى الدعابة والمرح. وما أكثر ما تعقّدت الأمور في لجان اليونسكو وفي المجلس التنفيذي، فكان الدكتور بشير دائماً يجد لها حلولاً، بروحه المرحة ودعاباته الذكيّة.

إنما الذي ساقني إلى هذا الحديث أصلاً، هو أمر الصداقة والوفاء، وفي هذا لم يكن الدكتور بشير رعاه الله، بأقل وفاء من صاحبيه لصديقهم المشترك.

كان (أمبو) حريصاً غاية الحرص، أن يعقد آخر مؤتمر في سلسلة المؤتمرات عن سياسات الاتصال والإعلام. وهي مؤتمرات ارتبطت بما سُمي (النظام الإعلامي الجديد) الذي أثار سخط الولايات المتحدة ومن رأى رأيها من الدول الأوروبية. أراد أن يتوّج عهده بذلك المؤتمر، ولعله أدرك أنه لن ينال تفويضاً للمرة الثالثة.

كان المؤتمر يُعنى بسياسات الاتصال في الدول العربية، فكان لا بدّ

أن يُعقد في دولة عربية. لكن اليونسكو عجزت أن تجد دولة عربية تقبل باستضافته. انبرى الدكتور بشير البكري بحصافته المعهودة فأقنع حكومة السودان بعقده في الخرطوم. ورغم العقبات والظروف الصعبة التي اكتنفت منظمة اليونسكو حينئذٍ، فقد كان ذلك المؤتمر، باعتراف الكثيرين، أنجح مؤتمر عقدته المنظمة في موضوع الإعلام والاتصال. وكان الدكتور بشير هو العنصر الفاعل والطاقة المحرّكة.

في أثناء ذلك أحاط الدكتور بشير صديقه، بجوّ غامر من الحفاوة والود. وكان الوقت وقتَ ديموقراطية في السودان، بعد انتفاضة رجب المباركة. والسودانيون يكونون في أحسن حالاتهم في ظلال الديموقراطية، فاحتفوا بـ (أمبو) حفاوة لعلّه لم يشهد مثلها طوال عمله في منظمة اليونسكو. وبلغت تلك الحفاوة ذروتها، حين منحه رئيس الدولة أرفع وسام في الجمهورية. لا عجب أن الدموع فاضت في عيني (أمبو) من شدة التأثر.

لذلك أقول، إن أحمد مختار أمبو حين غادر باريس ذلك الصباح، فإنه غادرها منتصراً. تخفّف من أثقال جاهه وسلطانه في اليونسكو، وحمل معه ذلك الشيء الذي لا يُقدّر بثمن ـ صداقة ثلاثة رجال أوفياء فيا لهم من رجال!
ويا لهم من أصدقاء!

١٢

خواطر موسمية

﴿قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً. قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيِّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً﴾.

صدق الله العظيم ـ سورة مريم

مرة أخرى تسري حمى (الكرسماس). كأنهم يحثون العام القديم على الانصراف. يريدون عاماً جديداً واحتمالات جديدة.

كانوا أيام وثنيتهم يغالبون الكآبة، كآبة البرد والظلام، بالصخب والعربدة. ولما جاءتهم المسيحية خلطوا بعض تلك العادات بالطقوس المسيحية، لذلك قدموا مولد السيد المسيح عليه السلام، أو أخروه، حتى يتفق مع نهاية العام.

قد لا يكون حقيقة ما وصفه الشاعر (تي .أس. أليوت) في قصيدته «رحلة المجوس» ـ الملوك الثلاثة الذين رأوا النجم، كما رووا، فتبعوه حتى أوصلهم إلى مهد الطفل الوليد في بيت لحم ـ ولكنه صحيح بمعنى آخر:

«كانت رحلة فظيعه،
في أسوأ وقت من السنة،
حين يحسنُ بالمرء ألّا يخرج في سفر.
الدروب وعرة، تصعد وتهبط،
والطقس قاسٍ كدر.
في عزّ الشتاء.
رواحلنا أضناها الجهد،
وتشققت أخفافها من البرد
فسقطت من الإعياء على الثلج.
كنا أحياناً نوبخ أنفسنا
أننا قمنا بتلك الرحلة،
ونتحسر أننا تركنا قصورنا الفخمه
على سفوح التلال المشمسه،
والعذارى في ثياب الحرير
يحملن كؤوس الشراب المترعة».

هذا موسم فيه أصداء من ذلك الموسم قبل نحو ألفي عام، كما حدّث الرواة ووصف الشعراء. الصخب والعربدة، والتذكر والنسيان، والحانات والكنائس.

العالم الوثني المادي، والعالم الروحاني المسيحي، يسيران جنباً إلى جنب.

قد تعجب أن ذلك الطفل السماوي وليد الضياء، كيف جاء إلى هذه التخوم المظلمة.

إنما الضوء يتنزل أصلاً، لوجود الظلام.

يؤججون سعار الناس في هذا الموسم ليأكلوا أكثر ويشربوا أكثر ويشتروا أشياء لا يحتاجون إليها. تزدهر التجارة في هذا الموسم.

القطارات تغدو وتروح، تجلب أناساً من أماكن بعيدة إلى ذويهم في لندن، وتحمل أناساً إلى أقارب لم يروهم طوال السنة.

في محطات السكة الحديدية خاصة ـ في مفترق الطرق ـ جوقات من رجال ونساء وأطفال يجمعون المال لأعمال البِر. يغنّون ترانيم عيد الميلاد بأصوات جميلة، ويكشكشون بعلب في أيديهم على وقع الغناء. يقف المارة برهة يستمعون إليهم، ويضعون في العلب البنس والبنسين، وربما الجنيه والجنيهين.

«مري كرسماس، مري كرسماس».

الطفل المضيء في وجدانهم، الذي وُلد في بيت لحم من أرض فلسطين، يحرك أريحياتهم.

يزداد كل شيء في هذا الموسم ـ القسوة والرحمة والجشع والكرم والتذكر والنسيان.

لعل شيئاً من ذلك هو ما عناه الشاعر حين قال على لسان الملوك المجوس الثلاثة:

«... كان ذلك الميلاد مؤلماً لناً،
كأنه موت، كأنه موتنا نحن.
قفلنا راجعين إلى أقاليمنا،
إلى تلك الممالك.
لكننا ما عدنا نحس بالطمأنينة
ونحن نفرض القوانين القديمة
على شعوب وحشية تتشبث بأوثانها،
وددنا لو أننا نشهد موتاً آخر».

١٣

زيارة الأحباب في زمن القطيعة

وراء الأسوار، تجد أن المدينة (المهيبة)، كما هي. جدّت فيها أشياء تراها، وأشياء تكتشفها بالتدريج. قامت صروح من الزجاج ما كان لها أن تقوم، وانهدّت معالم أثرية ما كان لها أن تنهدّ.

جسر جديد هنا، وشارع هنا، وشركات وملاءٍ وبنوك. أكل الإسمنت مساحات أخرى من الأرض الخضراء. إنما روح المدينة صامد خالد، يتغذى من منابع جوفية غامضة، تأتي من بعيد. من أقصى جنوب الوادي، ومن الصحراء العربية على الجانبين.

البحر المتوسط غير بعيد، لكنه عالم آخر إضافي، تصل نسماته إلى المدينة الأمّ (مشوراي)، حين تتعاكس تهابُّ الرياح. إنما الريح في الأصل جنوبية، تهبّ من الصعيد، وصعيد الصعيد.

في فندق (المريديان) الذي أنزل فيه منذ أكثر من عشرين عاماً، وجدت أناساً أذكرهم ويذكرونني. رحّبوا بي وأحسنوا استقبالي. جلست على الشرفة قبيل طلوع الفجر أنظر إلى النهر كأنه بحيرة.

كأنه المنبع والمصب. يا لها من مدينة! العمارات غرقى في الضباب، لا ترى غير أعاليها فإذا أنت أمام لوحة رسمها (مونيه).

ثم تعالت أصوات الأذان مع الفجر، ذات اليمين وذات الشمال ومن الشرق والغرب، فكأن الصوت نهر آخر، أخٌ لنهر النيل، ظل يتدفّق عبر القرون، يسقي أشياء عزيزة يمنعها أن تموت.

كيف أُقيمت الأسواق وغُلّقت الأبواب؟ ولماذا نُودي اهبطوا مصر فلّما جئنا قيل لنا أن النداء كان لقوم آخرين؟

حتى في أيام القطيعة الكبرى لم نتوقّف عن المجيء. يومئذٍ وقف الشعب السوداني كله مع مصر، ليس لأنه كان مؤيداً لسياستها، ولكن لأنه أحسّ أنها في محنة.

الشعب السوداني أكرمْ به من شعب في أوقات الشدة. نعم الجار والشقيق لمصر حين تكون في محنة.

لكنه هو نفسه اليوم في محنة، فهل مصر تؤاخذه بذنوب حكّامه؟

سئمت ذلّ الانتظار عند باب الأحباب، توقفت عن المجيء منذ أكثر من عامين.

سئمت هوان السؤال، وطول المطْل. بلى، المحبّ يلزمه الصبر، ولكنّ الصبر قد ينفد، والقلب قد يسلو.

ونحن لا نطلب شيئاً. نريد صلة الرّحم وتأدية الحقوق، لا أكثر.

كانت هذه زيارة طارئة، لم تكن في الحسبان. ولولا وساطة الأخ الكريم محمود عطا الله، وشهامة الوزير المفوّض في سفارة مصر في لندن، السيد جهاد ماضي، لعل الأبواب كانت تظل مغلقة إلى اليوم.

ما أكرم مصر... وما أبخلها! ونحن نرضى منها البخل، لأننا طالما عرفنا منها الكرمَ!

١٤

زيارة الأحباب في زمن القطيعة

هبّت على نزل (المريديان) ـ كما هبّت على المدينة ـ رياح الخماسين. خماسين الانفتاح والثروات العشوائية والسيارات الفارهة المستوردة، والنساء في الأزياء الباريسية والحلي والعطور، كأنهن أزهار مصطنعة. مهرجان في غير أوانه وغير مكانه.

المدينة الصابرة، سوف تصمد، كما صمدت لزوابع كثيرة عبر القرون. مرّت كلها ولم تترك إلّا آثاراً لا تكاد تُرى.

أيام كان ملْكاً للدولة وتديره الخطوط الجوية الفرنسية، كان نُزلاً هادئاً منقطعاً بموقعه الفريد على النهر، كأنه في جزيرة. وكان أرخص من بقية الفنادق. وجدته قد تغيّر. ألبسوا العاملين أزياء جديدة، وبدّلوا ستائر الغرف، ورفعوا الأسعار. عكّروا صفو أمسياته الهادئة الجميلة. في كل ليلة زفّة وعرس على بحيرة السباحة حتى شروق الشمس.

والموسيقى التي تصكُّ سمع الليل والنهر، لا هي (جاز)، تُميِّز أنه جاز، ولا هي طرب شرقي تميّز أنه طرب. وأصوات المغنّين، كأنهم لم يبلغوا الحُلُم مثل مايكل جاكسون. والأضواء الملوّنة تومض وتبرق فتخلق مناخاً هستيرياً، وذلك هو القصد. والرجال والنساء في حلبة الرقص على ضفة النهر العابد، في غمرة تلك الأضواء والضوضاء، كأنهم في واد غير وادي النيل.

هذا زمان آخر، يطلب أناساً من شاكلة أخرى، وأرجو ألّا يحصل عليهم.

ثم تنطلق نداءات المؤذّنين للفجر، ذات اليمين وذات الشمال، من الشرق والغرب، فإذا هي كاستغاثات غرقى، لا تكاد تبين في جلبة الدفوف والمزامير والطبول.

وربما من سخريات الأمور، أننا عملنا ندوات تلفزيونية عن (الحداثة) في ذلك الجو، وهو سبب مجيئي إلى القاهرة على عجل، وحصولي على فيزا كما وصفت. فيزا للسوداني لدخول مصر! إنما لعل لأخواننا المصريين بعض العذر، فجماعتنا عند ملتقى النيلين يخبطون خبط الجمل الأعمى. صادروا ممتلكات مصر، وأغلقوا دور العلم التي بنتها، وبلغوا في القطيعة حدّاً لم يبلغه أحد قبلهم. ولو أن مصر لم تستجب لاستفزازهم، لكان ذلك أشبه بطبعها. أما وقد اختارت أن تردّ صاعاً بصاع، فذلك حقّها. لولا أن المتضرّر هو الشعب السوداني، وليس حكّامه. وهو شعب أبداً لم يفرّط في حب مصر.

هذا وقد سعدت بصحبة أولئك الأساتذة الأقطاب. الدكتور ناصر

الدين الأسد الذي نظّم للحوار وأداره، والدكتور شكري عيّاد والدكتور عبد القادر القط. رجال مُغْرِقون في العلم، حين تتحدّث إليهم، ترى عالماً رصيناً مليئاً بالحكمة، أبعد ما يكون عن العالم الذي يصلك على دقّات الطبول من بحيرة السباحة.

هل الزمان أصابه الخبل، أم أنا وأمثالي لم نعد نصلح لهذا الزمان؟

ثم وجدت رهطي الأوّلين. آه! منذ كم وأنا أغدو وأروح؟ تتغير الحكومات والإجراءات والقوانين. أحياناً يُسهل الدخول وأحياناً يصعُب. أحياناً تصفو المياه بين الحكومات وأحياناً تتعكّر. وأنا وأمثالي لا نكفّ عن المجيء، مذعنين لنداء أقوى من الحكومات والقوانين.

آه يا أمّ عمرو! كيف ضاعت كل تلك الأعوام؟ وهل إلى مردّ من سبيل؟

وجدتُهم كما عهدتُهم، إلّا من غبار خفيف نثرته الأيام على وجوههم. إنها وعثاء السفر، وكلّنا على سفر.

محمود سالم وصلاح أحمد محمد صالح ورجاء النقاش وعبد المنعم سليم وحازم هاشم وجمال سليم. عبد الرحيم الرفاعي شيّع شقيقه وعاد حزيناً من سويسرا قبل وصولي.

سهرنا مع حسين أحمد أمين في مصر الجديدة، وعدتُ جمال الغيطاني في أطراف المعادي، بعد عملية القلب التي أجريت له في أمريكا، وتغدّيت مع سامح كُريم وسكينة فؤاد في «دار الأهرام».

كان الوقت ضيّقاً لم يمكنّي من رؤية كل من وددت رؤيتهم.

لكن لا بأس. هذا خفّ شعر رأسه قليلاً، وهذا علاه الشيب أكثر. هذا زاد وزنه قليلاً، وهذا خفّ وزنه قليلاً. هذا صار جَدّاً، وهذا يوشك أن يصير. هذا يشكو من وجع المفاصل، وهذا من وجع الظهر. إنما هم على وجه العموم متماسكون، لم يفقدوا قدرتهم على الضحك والدعابة.

وفي دار محمود سالم أنشدنا عبد الرحمن الأبنودي من شعره البديع بصوته الصعيدي الجنوبي (الأجَشّ). ومن بعض ما أنشدنا قصيدته «الخماسين» التي يقول فيها:

في المَفْنى ليَّلْنا وقبَّلنا.
خماسين شديدة وأحْنا ميَّلْنا.
إيه كان وقف على حيله
لما أحنا نقف على حيلنا؟

لكن لا بد، وعبد الرحمن الأبنودي هو نفسه صاحب القولة المأثورة:
«علينا عدم السقوط ... بقدر الإمكان!».

١٥

معهد العالم العربي في باريس (١)

أُتيح لي منذ بضعة أسابيع أن أجدد العهد بباريس، وأنا مدين لمعهد العالم العربي، ممثّلاً في مديره العام الدكتور محمد بنّونة، والدكتورة ماجدة واصف المسؤولة عن النشاط السينمائي في المعهد، والدكتور فاروق مردم المسؤول عن النشاط الأدبي، إضافة إلى أنه يشرف على سلسلة الكتب العربية المترجمة إلى اللغة الفرنسية في دار النشر المعروفة (آكْتْ سود).

هذه المدينة الفاتنة، اشتهرت طوال تاريخها كما هو معروف، بالحفاوة بالأدب والفن والفكر، ربما أكثر من أي مدينة في العالم، فلا عجب إن ارتفع فيها ذلك الصرح الثقافي الضخم على الضفة اليسرى لنهر الـ «سين»، غير بعيد عن الحي اللاتيني وجامعة السوربون.

معهد العالم العربي في باريس، مشروع ثقافي طموح قام بالتعاون بين الحكومة الفرنسية والدول العربية. وكانت الحكومة الفرنسية سخيّة في دعمها، فقد تبرّعت بالأرض في ذلك الموقع الحيوي في المدينة، وساهمت في التمويل، وهي تساهم الآن بالجزء الأكبر من الموازنة السنوية للمعهد.

صار معهد العالم العربي من السّمات اللافتة للنظر في هذه المدينة المجلوّة دائماً كأنها عروس، يجذب إليه أعداداً غفيرة من أهل باريس وزوّارها.

روعي في البناء أن يكون تحفة معمارية تليق بالمدينة، فهو يجمع في نسق متآلف بين الحداثة المفرطة والعراقة العربية الإسلامية. تراه من الخارج مُغَلّفاً بغلاف زجاجي، ولكن الزجاج منقوش ومُحَلّى بطريقة بديعة، توحي لك بالمشربيات والكوى والشبابيك في الأحياء العربية العتيقة. وحين تدخل تجد في الباحات والقاعات والأروقة والمصاعد والمكاتب، أصداء واضحة من الحداثة التي تجدها في مركز (بمبيدو).

البناء في حدّ ذاته، يفصح عن معان ذات دلالات بعيدة، كما يفعل دائماً الصرح المعماري الذي تكتمل فيه الصفات الجمالية المطلوبة، كأنه سمفونية موسيقية أو لوحة فنية أو قصيدة شعرية.

كان أول مدير له الدكتور باسم الجسر من لبنان، وكان له فضل وضع الأسس وبلورة الرسالة الحضارية للمعهد. ومديره الحالي، الدكتور محمد بنّونة من المغرب. ورئيس مجلس الإدارة فرنسي هو (مسيو كميل كابانا).

منذ أن قام المعهد وهو يعمل بحيوية كبيرة في شتى مجالات الثقافة العربية على اتساعها وتنوُّعها، وذلك بهدف فتح الطريق أمامها كي تدخل في تيار الثقافة العالمية، تؤثر عليها وتتأثر بها. وهذا في حد ذاته مَطْمحٌ جليل، نظراً لما نعلم عن العقبات التي وُضعت أمام هذه الثقافة الكبرى من ثقافات العالم ـ لسبب أو لآخر ـ لحرمانها من أداء الدور الذي هي جديرة به.

ويحمد لمعهد العالم العربي، أنه دائماً يربط بين ماضي الأمة العربية وحاضرها. يلفت النظر إلى الآثار والحضارات القديمة في المنطقة ـ كما فعل في المعرض الرائع عن سورية ـ وفي الوقت نفسه يهتم بالسينما العربية ـ كما حدث في مهرجان السينما المصرية ـ ويقيم معارض للفنانين العرب، وحفلات موسيقية، ومحاضرات وندوات فكرية وأدبية إلى غير ذلك.

ولا يخفى أن الهدف من وراء ذلك كله، يتعدى الأهداف الدعائية القصيرة الأجل، التي قد تُغري بعض الدول.

ولا يخفى كذلك، أن نشاطات المعهد تضيق وتتّسع حسب الموارد المتاحة، وليس سرّاً أن بعض الدول العربية، فَتَرَ حماستها في السنوات الأخيرة لهذا المشروع الثقافي العظيم، ربما لأنها ظنَّت أنها لم تحصل على المردود الإعلامي الدعائي السريع الذي كانت تطلبه.

١٦

معهد العالم العربي في باريس (٢)

من كان يظن أن صوت الماحي بن محمد بن الشيخ المعروف بـ (حاج الماحي) سوف يصل بعد أكثر من مائة عام إلى ضفاف الـ (سين)؟ ذلك العاشق الـ (سنّاري) المتيّم، الذي منّ الله عليه، فانصرف ـ بعد حياة اللهو ـ إلى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، فأصبح مثل البرعي والبوصيري:

عيب شبابي الما سَرَح
واللهِ لأب شوقاً جرحْ
قام العبيد من نومه صَحّ
لقي جنْبهُ لبناً في قدحْ
سَمّى وشربْ زين أتنتحْ
حمد الإله حاله انصلحْ
جَد في السؤال لي ربّه لحْ
قال يا كريم بابُه انفتحْ

منذ أسابيع في معهد العالم العربي في باريس، وقف أحفاده في فرقة من المنشدين، في قاعة امتلأت بالناس، بينهم عدد كبير من الفرنسيين، كان ذلك ضمن نشاطات متعددة عن السودان.

وقفوا على المسرح في جلاليبهم البيض وعمائمهم، وعباءاتهم، يضربون على دفوفهم، وينشدون من شعر (حاج الماحي)، بتلك الأصوات الريّانة المعتّقة، المملوءة بالشجن والحبور والحزن، كأنها أنهار تتدفق من منابع سحيقة في أعماق التاريخ:

أعطوه تُفاحات بلح
حين ذاقا قالْ دمّاعه تَّحْ
رادْ له الجليل قلبُه انشرح
طابْ عقلُه مسرورْ بالفرح
جاب لي شفيع الناس مدَحْ
طارة الهبيش دقّ ونَبحْ
السّمعُه في جوفه الجرحْ
من شوق حبيبه يسوّي أح

نظرت حولي إلى الفرنسيين، وقد استخفهم الطرب. بعضهم كأنهم في غيبوبة، وبعضهم يتمايلون مع دقات الدفوف (الطار). يا سبحان الله. إنها بركات (حاج الماحي)، وبركات الطاقة الضخمة من الحب، التي عبّر عنها منذ أكثر من مائة عام في قرية (الكاسنجد) على ضفة النيل.

تخطّت أسوار الزمان والمكان، وعبرت حاجز اللغة، وحرّكت أفئدة الفرنسيين في باريس. ومن يدري. لعل واحداً منهم أو أكثر

يستجيب لنداء الحب العظيم، من ذلك المحب الفذ للرسول الكريم.

هذا، وقد تضمن البرنامج أيضاً، حفلات موسيقية وعروضاً فولكلورية، أظهرت التنوع الكبير في الموسيقى السودانية والفنون الشعبية. فعلى سبيل المثال، تجد تأثير الموسيقى المغربية والأندلسية واضحاً عند الفنان عبد القادر سالم من أقصى غرب السودان.

ثم الفنون الأفريقية الخالصة، كما يظهر في رقصات قبائل الزاندي والشلك والدنكا والنوير، من جنوب السودان.

مثّل الغناء الحضري من وسط السودان، عميد الموسيقى السودانية، الفنان الموهوب الأستاذ عبد الكريم الكابلي. ومثّل غناء (الطنبور) من منطقة الشمال الأوسط الفنان محمد جباره. كذلك تضمن البرنامج عروضاً فولكلورية من قبائل البجة في الشرق، ومن منطقة (النوبة) في أقصى الشمال. وقد وجدت فرقة (عقد الجلاد) ـ وهي فرقة من الشباب ـ إقبالاً عظيماً من الجمهور، لتنوع عرضهم، وتجاربهم الجريئة في تقديم الفن الغنائي السوداني، قديمه وحديثه.

لم يغفل البرنامج النشاط المسرحي، فقدمت فرقة من المسرح القومي السوداني عدداً من العروض المسرحية. وكان نجم تلك العروض عميد المسرح السوداني علي مهدي، الذي اكتسب شهرة عالمية لدوره في فيلم «عرس الزين» الذي أنتجه المخرج الكويتي خالد الصديق.

تزامنت تلك النشاطات كلها، مع معرض عن الحضارة السودانية على امتداد أكثر من أربعين قرناً بعنوان «ممالك على النيل». هذا

معرض فريد في نوعه بحق، حشدت له تحف أثرية لم يجتمع مثلها من قبل في مكان واحد. جيء بها من متاحف السودان وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبولنده وسويسره وغيرها.

تعرض تلك التحف الأثرية النادرة عرضاً جذاباً في قاعات واسعة، تتيح لكل قطعة حيّزاً مناسباً للتأثير على الناظر، ذلك بالإضافة إلى شروح وافية مكتوبة وأفلام وتسجيلات صوتية.

أصدرت مجلة «باري ماتش» الواسعة الانتشار ملحقاً خاصّاً بهذا المعرض الرائع، الذي ما يزال يجذب إليه مئات الزوار كل يوم، وسوف يستمر إلى شهر آب/ أغسطس.

كذلك أصدر معهد العالم العربي سفْراً ضخماً عن المعرض، هو في حد ذاته تحفة فنية، وذلك لكثرة الصورة التي ضمّها الكتاب، وجمالها، والمقالات القيمة بأقلام عدد من علماء الآثار المرموقين، من فرنسا والسودان وألمانيا وإيطاليا وغيرهم.

ذلك كله، يروي قصة الممالك السودانية على ضفتي النيل، منذ مملكة كرمة (٢٥٠٠ق.م) والحكم المصري للسودان (١٥٤٠ق.م)، مروراً بمملكة نَبتا (١٠٠٠ق.م) إلى مملكة مَروي (٦٥٠ق.م)، ثم المؤثرات اليونانية والممالك المسيحية السابقة مباشرة لدخول الإسلام.

إنها قصة مثيرة تشبه قصة الحضارة المصرية القديمة ولكنها تختلف عنها أيضاً، فهذا المعرض يوضح - كما لم أرَ مثيله من قبل - التفاعلات المستمرة بين شقي وادي النيل، وعوامل المدّ والجزر بينهما. وهو يؤكد فكرة ليست شائعة، أن الحضارة السودانية

القديمة، لم تكن محض ظل للحضارة المصرية، تأخذ منها ولا تعطيها شيئاً، بل كانت تتأثر بها وتؤثر عليها أيضاً، في تفاعل مستمر كما يحدث بين الحضارات الخلاّقة.

هذا جهد عظيم بحق يشكر عليه معهد العالم العربي في باريس. وهو، كما قلت، صرح «ثقافي»، يستحق من العرب كافة ـ حكومات ومؤسسات وأفراداً ـ أن يدعموه دون قيد أو شرط، لأنه يعمل في مجال التفاعل الحضاري والثقافي، وهو مجال يستطيع العرب أن يساهموا فيه بأكبر قدر، ويحدثوا بواسطته أعظم الأثر.

١٧

بين الأكبريين في أوكسفورد! (١)

عجيب كيف أن شيئاً يقود إلى شيء، وطريقاً يؤدي إلى طريق.

لقيت في باريس صديقي الرسام السوداني المعروف الدكتور راشد دياب، وهو شاب واضح الموهبة، تخرج من كلية الفنون في الخرطوم، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفن من جامعة مدريد، حيث صار أستاذاً، وهو الأجنبي الوحيد الأستاذ في جامعة مدريد.

عرّفني بشاب إسباني اسمه «بابلو بنيتو» هو أيضاً أستاذ في جامعة مدريد.

جلست معه ذات صباح في مقهى على ساحة «بلاس شارل ميشيل»، في الحي الخامس عشر، غير بعيد من نهر الـ «سين». اكتشفت أنه مسلم، ويتحدث اللغة العربية بفصاحة غير عادية. كان

وجهه مضيئاً بحبور عجيب، وعيناه الفاحمتا السواد. يبتسم كثيراً ويضحك. من أين يستمد كل تلك السعادة؟

أهدي إليّ ترجمته إلى اللغة الإسبانية لكتابين للشيخ محيي الدين ابن عربي، هما كتاب «مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية» وكتاب «كشف المعنى عن سرّ أسماء الله الحسنى».

مضينا نتحدث باللغة العربية فعلمت منه أنه أصلاً من مدينة «مرسيا» حيث ولد الشيخ محيي الدين عام ١١٦٥م، في عهد الخليفة المستنجد بالله، وكانت المدينة في ذلك العام محاصرة من قبل الموحدين الذين فتحوها في ما بعد وأخضعوها لحكمهم.

سألت «بابلو بنيتو» كيف اعتنق الإسلام، فأخبرني أن تعمّقه في دراسة اللغة العربية والفكر الإسلامي، خاصة فكر الشيخ محيي الدين بن عربي، هو الذي هداه إلى الإسلام وقال:

«كثيرون في العالم شرقاً وغرباً.. في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا وبلاد إسكندنافيا وأمريكا واليابان وغيرها، اهتدوا إلى الإسلام بواسطة الشيخ محيي الدين».

أخبرني أنه ينتمي إلى جمعية من العلماء والباحثين تسمى «جمعية ابن عربي»، مقرها جامعة أكسفورد، وأنها تعقد اجتماعها السنوي في الأسبوع التالي للقائنا في كلية «سانت هيوز» وقال: «إذا جئت إلى أكسفورد فسوف تجد عدداً من الأكبريين».

قلت له «وما الأكبريون»؟ فأجاب:

«تلاميذ الشيخ الأكبر، ابن عربي، ومريدوه».

● وهل أنت من الأكبريين؟

قال ضاحكاً:
ـ أنا من الأصغريين، اسمي «بابلو» معناه بالإسبانية «الصغير».

إنني لا أعرف إلّا القليل عن فلسفة هذا المفكر الكبير، الذي لم يزل يؤجج الجدل منذ القرن الثاني عشر، ويجذب إليه أشدّ العداوة وأشد الحب. قرأت بمشقة كتابه «خصوص الحكم» وشروح الدكتور أبي العلاء عفيفي له. والدكتور أبو العلاء نال شهادة الدكتوراه من جامعة كيمبردج عن ابن عربي. وقرأت بعض تفسيره للقرآن الكريم. وحاولت قراءة كتابه «الفتوحات المكية» فاستعصي ذلك عليَّ لما وجدت فيها من غموض ميتافيزيقي، وتجليات عسيرة المنال للناس العاديين. قلت لـ«بابلو»: «ما قولك في ما ذهب إليه الدكتور أبو العلاء عفيفي أن ابن عربي كان يؤمن بمذهب «وحدة الوجود»، وهذا بطبيعة الحال يؤكد تهمة الأقدمين له أنه ابتعد عن طريق أهل السنّة؟».

قال «بابلو»:

«هذا ليس صحيحاً. الدكتور أبو العلاء، والأقدمين الذين سماهم ابن عربي (علماء الرسوم) أخطأوا فهم الشيخ الأكبر. كان ابن عربي مسلماً سنياً محضاً. ولعلك تعلم أنه كان يميل إلى المذهب الظاهري وكان شديد الإعجاب بابن حزم. كان يلح في كل ما قاله وكتبه على التمييز الواضح بين الله سبحانه وتعالى وبين

مخلوقاته.. بين «الربوبية» وبين «العبودية». الذي قاله الشيخ إن المخلوقات جميعها تتحد في عبوديتها لله سبحانه وتعالى.

هذا بعيد جداً عن مذهب «رحلة الوجود».

مضينا نتحدث أكثر من ساعتين في ذلك الصباح الباريسي الجميل، وكان وجه «بابلو» يزداد إشراقاً، ولغته العربية تزداد تدفقاً.

يا للغرابة! إنني ولدت في العربية والإسلام، ونشأت. وها أنذا أجلس قبالة «مسلم» و«عربي»، جاء من بلاد الغرب، بعد أن أطفئت الأنوار وصمتت المآذن بنحو ثمانية قرون.. أجلس معه مجلس التلميذ من الأستاذ.

هذا طراز جديد، ومثله كثيرون كما اكتشفت من حضوري لاجتماعهم في أكسفورد. عربي كفاحاً وبمحض اختياره. ومسلم كما هداه اجتهاده وتقفّيه آثار شيخه. فهل نتفرج، ونعده «أخاً»؟ أم نسأل أشياخنا إن كان يستحق أن تفتح له الأبواب ويؤذن له بالدخول؟

١٨

بين الأكبريين في أكسفورد! (٢)

شددتُ الرحال إلى (أكسفورد) ـ وذلك هو التعبير المجازي الذي يقتضيه واقع الحال إذ إنني أعود القهقرى إلى ديار الأندلس في القرون الوسطى. ولم يغِب عني وجه الطرافة، بل الغرابة في تلك الرحلة، كونُ ذلك المفكّر المسلم المحيّر، الذي لم يزل وضعه قلقاً في بلاد الإسلام، قد اقتحم هذا الحصن العلمي العتيد، الذي نهض في القرون الوسطى أصلاً ليكون قلعة من قلاع اللاهوت المسيحي.

حتى المكان، كلية (سانت هيوز)، يحمل اسم قديس نصراني. إنما لعل ذلك شأن الشيخ الحاتمي الطائي ـ كما كان يصف نفسه ـ منذ أن قال قولته الشهيرة، التي أزعجت كثيرين، وأسعدت كثيرين:

«لقد صار قلبي قابلاً كل صورة..».

سوف أشدّ رواحل الخيال مراراً خلال اليومين اللذين أقضيهما مع (مُريديه)، أنزل وأرحل مع الشيخ محيي الدين بن عربي، في أسفاره الطويلة العجيبة في أقطار الدنيا، وهو إنما يسافر في أقطار نفسه.

من (مُرْسيا) إلى (إشبيلية): ومن محيي إشبيلية إلى قرطبة، حيث لقي فلْتة زمانه، أبا الوليد ابن رشد.

تمّ اللّقاء بطلب من ابن رشد بما سمع عن ابن عربي، وكان صديقاً لوالده. كان ذلك في نحو عام ١١٨٠، وكان الشيخ محيي الدين حينئذٍ لم يتجاوز خمسة عشر.

دخل الصبي على الشيخ الجليل، قاضي قرطبة، ومستشار السلطان أبي يعقوب يوسف وطبيبه ـ الرجل الذي وُصف بأن أرض الأندلس لم تعرف أحداً مثله في ذكائه وعلمه وحسن خلقه، وأنه كان في الفلسفة والطب، مثْلَه في الفقه وعلوم اللغة والأدب، بحراً عميقاً واسعاً.

وقف الشيخ للصبي وهشّ له وعانقه. ثم تفرّس فيه مليّاً وقال (نعم). فقال ابن عربي (نعم).

ويروي ابن عربي نفسُه قصة ذلك اللقاء، فيقول إن وجه ابن رشد تهلّل فرحاً لأن الصبيّ قد فهم قصده. حينئذٍ قال ابن عربي (لا)، فاربدّ وجه ابن رشد، واستوضح ابن عربي، فقال له:

«بين (لا) و(نعم)، تتطاير أرواحٌ عن أجسادها، وتنفصل رؤوس عن رقابها».

حينئذٍ - كما روى ابن عربي - أخذ ابن رشد يرتجف ويردد «لا حول ولا قوة إلّا بالله».

في عام ١١٩٨م (٥٧٥هـ) شهد ابن عربي وفاة ابن رشد في مراكش، وكان معه صديقاه أبو الحسين محمد بن جبير، وأبو الحكم عمرو بن السرّاج. نظر ثلاثتهم إلى جثمان ابن رشد يوضع على بغل (أو حصان) ليُحمل إلى قرطبة ليُدفن. وُضع الجثمان على جانب، ووضعت كتُب ابن رشد على الجانب الآخر لتَعْدل الجثمان.

تعجبوا كلُّهم من المشهد، وظلوا صامتين حتى قال ابن عربي:

«جثمان الأستاذ على البغل في جانب وكتبه في الجانب الآخر! يا ليت شعري هل وجد ما كان يبحث عنه؟».

كان ابن رشد يعتمد في بحثه، على العقل والمنطق والبرهان. وكان ابن عربي يعتمد على (الذوق) والإشراق والتجلي، خارج نطاق العقل والحواس. فهل عنى أنه وابن رشد، مثل الحمْليْن المتعادليْن على ظهر البغل؟ أم أنه قصد أن كُتب ابن رشد وعقله وفلسفته، لم توصِّلْه إلى شيء؟

بعد ذلك، أسفارُه إلى فاس وتلمسان ومراكش وتونس والقاهرة ومكّة المكرّمة والمدينة المنورة، وأخيراً إلى دمشق حيث وافته المنية عام ١٢٤٠م.

هذا (العبقريّ الروحاني)، كما وصفه (هنري كوربان) الذي كان

أستاذاً للعلوم الإسلامية في جامعة الـ (سوربون) ـ وهو أحد الأكبريين ـ كان في سفر متواصل وبحث دائب، فهل ذلك هو الذي جذب إليه هؤلاء العلماء، (الباحثين) المجتمعين هنا في أكسفورد؟ ما الذي وجدوا عنده ولم يجدوه عند غيره من فقهاء المسلمين؟

إنهم، على أي حال، سعداء بما هداهم إليه شيخهم الأكبر محيي الدين بن عربي، ذلك واضح على وجوههم. تلك الطمأنينة وذلك الحبور الداخلي، كما رأيت في باريس، على وجه (بابلو بنيتو).

١٩

بين الأكبريين في أكسفورد! (٣)

وجدتُ قوماً تحيّتهم (سلام). مسلمون كلهم أو جُلُّهم. إنجليز وأمريكان وإسبان وفرنسيون وألمان وسويسريون وإسكندنافيون وما شئت من أجناس. أبداً لم ألتق من قبل، مسلمين أوروبيين بهذه الكثرة في صعيد واحد.

استقبلوني بترحاب عظيم، مليء بالدفء وخال من التكلف، وقد لفت انتباهي من أول وهلة، بساطتهم وسماحتهم، رجالاً ونساء. وكان (بابلو) الذي كأنما عرفته من زمن، يعرّفني بهم.

ألحّوا أن أنزل ضيفاً عليهم في كلية (سانت هيوز)، لكنني أبيت، إذ إنني لم أكن عضواً في جمعيتهم. ولعلّي أيضاً، بحذري السُنّي المالكي، لم أشأ أن ألقي بنفسي ضربة لازب في غمار جاذبية شيخهم العتيد، كأنني أردتُ أن أجعل مسافة بيني وبينهم.

سرعان ما أدركت أن ذلك الحذر لم يكن له أي مبرّر. أدركت أن (التبشير)، وإغراء الآخرين إلى وجهة نظرهم، ليس من همّهم وليس في طبعهم. ليس فيهم أي شيء من (روح القطيع). كلهم علماء، وكل واحد منهم وصل إلى حمى (الشيخ) بمحض إرادته.

وقد عجبت أيضاً، أنهم خالون بالمرة من إحساس التوتر الذي تجده لدى المتحوّلين حديثاً إلى دين أو مذهب، بل حتى بعض الذين وُلدوا في ذلك الدين ـ كأنهم يخافون أن يرتدّوا على أعقابهم في أية لحظة.

هؤلاء بدوا لي ساكنين مطمئنين، كأن الإسلام هو دينهم الطبيعي منذ البدء، وكأن طريق (الشيخ)، هو طريقهم الطبيعي. ولا أنكر أنني آنست إليهم ـ رغم المحاذير التي أخذتها عن أشياخي المالكيين ـ فقد ذكّروني ببعض عباد الله الذين عبرتُ بهم، من (الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً).

يبدأون محاضراتهم بالحمد، ويختمونها بالصلاة على النبي الكريم. وكان موضوع اجتماعهم كله (مفهوم الحمد عند ابن عربي).

كنت أحضر معهم عشاءهم بعد المحاضرات في المساء، فقد أبوا أن يُعفوني من ذلك. كان طعامهم بسيطاً، وحديثهم خليطاً من العلم والدّعابة. جلست في اليوم الأول بجانب (برفسور أزْل كلَر)، وهو سويسري كان إلى عهد قريب أستاذاً لتاريخ الأديان في جامعة (لوزان)، وقد أمضى ردحاً من عمره في دراسة أعمال ابن عربي. كان من القلائل غير المسلمين في ذلك الجمع، ورغم ذلك في سمته ما يدلّ على أنه لم يخلُ من نفحات (الشيخ).

كان موضوع محاضرته في الصباح «الحمد وسيلة إلى القُربى إلى اللّه عند ابن عربي». ومن بعض ما ذكر، أن شعر ابن عربي الصوفي يدل على مؤثرات مسيحية وهندوسية. تحدّث عن آلام الفراق والوصال في المثلوجيا الهندوسية، وما أسماه «ألاعيب الغرام عند كرشنا».

قلتُ له خلال الحوار الذي أعقب المحاضرة:

«لماذا تذهب بعيداً إلى المسيحية والهندوسيّة؟ ألا ترى أن الشعر الصوفي العربي، وحتى الفارسي، بما في ذلك شعر ابن عربي، متأثر أساساً بشعر الغزل العربي، وخاصة شعر العُذريين؟ حتى اسم (ليلى)، كما في شعر قيس، يتردد كثيراً في الشعر الصوفي؟».

وقد حضرتني في تلك اللحظة أبيات من قصيدة الشهرزوري:

لمعت نارها وقد عشعسَ الليلُ
وضلّ الحادي وحار الدّليل
فتأمّلتُها وقلتُ لصحبي
هذه النّارُ نارُ ليلى فميلوا

حين أنشدت الأبيات، سمعت أصواتاً في القاعة تقول «آه! آه!». لم يكن ذلك ـ طبعاً ـ بسبب جمال صوتي أو حسن إنشادي، إنما لموسيقى الشعر العربي، ووقع اللغة العربية (الشريفة) على تلك الآذان المرهفة. نحن ننسى، كم هي شريفة هذه اللغة حتى نرى تأثيرها على مثل تلك الأفئدة.

قال لي (برفسور كلر)، أن كلامي بعد المحاضرة قد أعجبه وأنه سوف يعيد النظر، وأطراني بما يوحي بأنني (عالم!). أضحكني ذلك جداً، لأنني كنت أعرف كم أنا (جاهل) بالمقارنة مع أولئك العلماء الجهابذة. كأنهم قرأوا كل شيء، وكل واحدة أو واحد منهم، يحسن خمس أو ست لغات على الأقل.

كانت الدكتورة (سيسيليا توتْش) من جامعة أكسفورد، تتابع هذا الحديث، وهذه مسلمة وتحسن اللغة العربية، وقد قضت عمرها في دراسة ابن عربي وترجمته، وكذلك زوجها. قالت:

«كنت أتمنى لو أنشدتنا أكثر. ما أجمل موسيقى الشعر العربي! هل تنشدنا شيئاً الآن؟».

عنّتْ لي حنيئذٍ تلك الأبيات التي رووا أن الحلاّج أنشدها حين ساقوه إلى الصلب، وهو يتمايل طرباً:

نـــديمـــي غـــيـــرُ مـــحـــمـــولٍ
عـــلـــى شـــيء مـــن الحيْـــفِ
دعـــانـــي ثـــم حـــيّـــانـــي
كـفـعـل الـضـيـف لـلـضّـيـف
فـــلـــمّـــا دارت الـــكـــأسُ
دعـــا بـــالـــنّـــطْـــع والـــسّـــيـــف
كـــذا مـــن يـــشـــرب الـــرّاحَ
مـــع الـــتنّين فـــي الـــصـــيـــف

قالت السيدة (آه!)، فهو شعر رائع حين تحمله على محمل الشعر

البحت، وتبعده عن أحابيل فكر الحلاّج. ولا أدري كيف يرى أشياخي المالكيون!

٢٠

بين الأكبريين في أكسفورد! (٤)

عجبت لقول الدكتور (جرالد إلمور Gerald Elmore) أنه لا يقرأ بتاتاً لأي أحد غير الشيخ محيي الدين بن عربي. وله رأي مكتوب، يقول فيه:

«في كل التراث الفكري للإنسانية.. قليلون جداً، ربما خمسة على الأكثر، من حيث عمق الفكر وجمال اللغة، يمكن أن يوضعوا في مرتبة واحدة مع ابن عربي.. منهم أفلاطون وشيكسبير».

لعل من بعض ما يجذب هؤلاء العلماء إلى (الشيخ)، أنه كان غزير الإنتاج غزارة تدعو إلى الدهشة. وهو إنتاج ربما ليس له نظير من حيث الكمّ في تاريخ التراث الإنساني. ويقدر بعضهم أنه ألّف زهاء خمسمائة كتاب. وقد أخذ منه كتاب (الفتوحات المكية) وحدَه قرابة أربعين عاماً قبل أن يفرغ منه نهائياً.

إنه عبارة عن غابة من الرؤى والأفكار، واسعة كثيفة متشابكة، يدخل الواحد منهم، فلا يخرج منها. وكل صاحب علم منهم، يجد عند ابن عربي ما يوافق علمه وذوقه ووهواه. الفلاسفة وعلماء النفس والأنثروبولوجيا وعلوم الاجتماع والتاريخ والأديان. هذا بالإضافة إلى أن كل واحد من هؤلاء العلماء، له (رحلة روحانية وجودية)، خاصة به. يجد كأن ابن عربي يصفها له، ويحثّه عليها. يطوّح به من درب إلى درب، ويطرح عليه الأسئلة، ويعطيه الأجوبة، ثم يعمّي عليه الطرق، وينصب له حبائل من الرموز والألغاز، فهو معه في (سفر) متواصل، و(بحث) لا ينتهي.

هذا عينهُ هو الذي أزعج أهل السنّة من ابن عربي، وهو عينه الذي يجذب إليه هؤلاء العلماء الأوروبيين.

هذا العالِم الأمريكي (جرالد إلْمور) محاضر في جامعة «ييل ـ Yale) حيث حصل على شهادة الدكتوراه عن بحثه حول كتاب الشيخ محيي الدين بن عربي (عنقاء مغرب). وقد قضى ثماني سنوات في القاهرة من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٧. وهنالك بدأت صلته بابن عربي.

كان موضوع محاضرته في ذلك الاجتماع «التناقض الظاهري لمعنى الحمد عند ابن عربي مع مذهبه في التوحيد». وهو بحث فلسفي عويص ـ كما بدا لي ـ لا يقلّ صعوبة عن كتابات (الشيخ) نفسه. ولعل الفقرة التالية أقل غموضاً، وهي تلخص رأي الدكتور (إلمور):

«... الجانب الذي أسمّيه جانب النفي في المذهب الأكبري، هو أن المخلوقات لا يمكنها أن «تحمد» الله سبحانه وتعالى... الإنسان، ليس

فقط أنه ليس أهلاً للحمد، ولكنه أيضاً ليس مؤهلاً لأن يحمد الله سبحانه وتعالى.. ولا يستطيع (المحدث ـ المُقيَّد) أن يحمد أو يعرف أو يحب (القديم ـ المطلق) بأي حال من الأحوال.

ومن ناحية أخرى ـ وهو الجانب الإثباتي ـ فإن ابن عربي يقرّ إقراراً كاملاً، أن الكون كله، بالفعل، يسبّح بحمد الله سبحانه وتعالى. الاسم القدسي (الحميد)، لا يعني فقط أن الله سبحانه وتعالى مستحق الحمد، ولكنه أيضاً (حامد)، بمعنى أنه مسبب الحمد بألسنة الحامدين جميعاً، سواء كان الحمد للّه سبحانه وتعالى، أو للناس بعضهم لبعض. إنه هو (المحمود)، حتى إذا توجه أي إنسان بالحمد لأنه إنسان، فهو في كل الأحوال، الحامد والمحمود والحميد، وإليه سبحانه وتعالى يرجع الحمد كله...».

حين عدت إلى نص المحاضرة مطبوعة.. محاولاً استيضاح تلك المعميات، وجدت أن المحاضر يشير إلى قرابة ستين مرجعاً. فبالإضافة إلى آيات القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، توجد إشارات إلى ابن ماجة (السنن) والسيوطي والجرجاني والقنوي (إعجاز البيان في تأويل القرآن) وصحيح مسلم والبخاري والترمذي وأبو داود وابن حنبل (المسند) وابن العارف (مجلس المجالس)، هذا بالإضافة إلى كتب ابن عربي ومراجع بلغات شتى.

ألا توجد ثمة مفارقة؟ هذا العلم كلّه وهذه (العقلانية) لفهم مفكر قام مذهبُه برمّته نقيضاً للعقلانية؟ تجربته (الروحانية الوجودية) ـ كما يصفونها ـ لا يمكن قبولها بـ (العقل)، ولكن على طريقة (الشيخ) بـ (الذوق) و(الكشف)، فكيف يتأتى ذلك؟

وقد سألتهم: بما أن تجربة ابن عربي الروحانية من الخصوصية بحيث لا يمكن وصفها بالكلمات، فلماذا لم يلزم الصمت كما فعل بعض (العارفين)؟

أجابني أحدهم ـ وهو أستاذ في جامعة أكسفورد ـ بجدية كاملة:

«لأن الشيخ الأكبر (أُمِرَ) أن يتكلم ويكتب». هؤلاء العلماء يقبلون بسهولة هذه (التجليات)، التي نجد نحن صعوبة في تقبّلها. وقد زادني الدكتور (جرالد إلمور) حيرة حين قال في محاضرته:

«رغم أن الشيخ الأكبر كان أستاذاً في البيان العربي، ولكنه أحياناً يلجأ إلى أسلوب معقّد ينفر القارىء غير المتعاطف معه ويثير سخطه. وأنا أظن أن القارىء من كلا المعسكرين ـ المؤيدين والخصوم ـ قد يخطىء قصد ابن عربي، ويظن أن المطلوب هو الإيضاح والإقناع. القصد في رأيي أبعد ما يكون عن محاولة الإقناع بالحجة والمنطق.. القصد هو خلخلة الترابط المتعثر، وزعزعة ثوابت الفكر بحيث يطغى عامل الطمس والكشف، ويبتعد العقل عن أنماطه التي اعتاد عليها، ويُقبل على القراءة (بين السطور).

بين الأكبريين في أكسفورد! (٥)

من بين الفوائد الكثيرة التي خرجت بها من ذلك الاجتماع، كتابٌ أعانني إعانة عظيمة على الاقتراب ـ مجرد الاقتراب ـ من العالم المحيّر للشيخ محيي الدين ابن عربي الذي وصفه برفّسر (رالف أوستن) من جامعة (درَم) في إنجلترا أنه «يقف في مجال الفكر الصوفيّ شامخاً مثل الجبل الأعصم». وقال عنه برفّسر (هنري كوربان) من جامعة باريس «أنه من أعظم مفكري التصوّف، ليس فقط في التاريخ الإسلامي، إنما أيضاً في تاريخ العالم إطلاقاً».

هو إذاً ـ مهما كان موقفنا منه ومحاذيرنا تجاهه ـ ظاهرة عالمية تتضخم أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، ولن يُجدينا نحن ـ أهله ومُنْطلقه ـ أن نكتفي بتجاهله واعتباره أمراً طارئاً لا يُؤْبه له.

كانت حياته مزيجاً من النصر والهزيمة. النصر على المستوى

الفردي. عمَّر طويلاً وأنجز مشروع حياته ـ مهما كان رأينا فيه: طوّف بالعالم الإسلامي شرقه وغربه، واتصل بملوك زمانه ومفكّريه وفقهائه ومتصوّفته. أنتج إنتاجاً ربما لم يتيسّر مثلُه لأحد غيره في غزارته وتنوّعه.

حدّق بجرأة عجيبة في أقاليم نفسه وفي أرجاء الملكوت من حوله. حلم أحلاماً لا مثيل لغرابتها، فقد رأى أنه عانق الكواكب وامتزج بحروف الهجاء، وكانت الأحلام لديه هي الحقائق، والحقائق محض خيال.

تزوّج وأنجب وعشق، وأقام (مدرسة) فكرية لم تزل تؤجّج الجدل منذ زمانه إلى اليوم، بين خصوم شديدي الخصام، ومحبّين له أخرجهم الحب عن أطوارهم. وها هو اليوم، بعد نحو ثمانية قرون، يتفجّر مثل نهر جوفي، في أماكن لم تخطر له على بال.

أما على الصعيد العام، فقد كان زمانه محاصراً بالهزائم. بعد خروجه من الأندلس (عام ١٢٠٠م) لم يمض وقت طويل حتى هزم الفرنجة الإسبان جيوش المسلمين هزيمة ماحقة عام ١٢١٣، في معركة (لاس نافاس دي تولوسا)، وفي عام ١٢٣٦ سقطت قرطبة.

ولم يكن حال المسلمين أفضل في المشرق. انفرط عقد الخلافة العباسية، وانقلبت الدولة الأيوبية إلى دويلات هزيلة، واشتدّ ضغط الصليبيين على بلاد الشام. وفي عام ١٢٥٠ ـ أي بعد عشر سنوات فقط من وفاة ابن عربي ـ سلّم الملك الأيوبي الكامل، بيت المقدس للملك الصليبي (فردريك الثاني)، فدخلها دون قتال.

وهكذا نجد أن حياة ابن عربي كانت مليئة بعناصر الدراما والإثارة.

هذا ما يقصّه كتاب الباحثة الفرنسية (كلود أدّاس) وعنوانه «البحث عن الكبريت الأحمر». تقول في المقدمة:

«كان إنتاج ابن عربي كله من بعض وجوهه، سجلاً لتجربته الذاتية ـ مجموعة هواتف ورُؤى وحوارات مع الموتى ومعارجَ ولقاءات غامضة فيما أسماه (عالم الخيال)، ورحلات بين الكواكب في أقطار السموات. وسواء كان ذلك هلوسات إنسان مصاب بالفصام العقلي، كما يرى (أسين بلاسيوس)، أو تجارب روحية صادقة كما يرى (هنري كوربان)، فإنه.. يجب علينا أن نذكر أن تلك التجارب كانت لدى ابن عربي حقيقة واقعة مثل الأرض التي يمشي عليها».

هذا والدكتورة (كلود أدّاس)، من عائلة كل أفرادها من (مريدي) ابن عربي. هي وأخوتها وزوجها وأبناؤها. وأبوها برفّسر (ميشيل شدكيتفتْش) من أكابر الأكبريين، وقد حضر معنا الاجتماع في أكسفورد.

كان لسنوات طويلة أستاذاً في معهد الدراسات العليا في العلوم والاجتماع في باريس. وله دراسات عديدة عن ابن عربي، تُعدّ كلها مساهمات مرجعيّة عن فكر الشيخ محيي الدين.

تقول الدكتورة (كلود أداس):

«حاولت قدر طاقتي، أن أسير وراء ابن عربي في دروب ومجاهل لا

يُجدي فيها الاستعانة بالبوصلة. كثيراً ما يحسّ الإنسان خلال الرحلة أنه أضاع الطريق، وأحياناً يحسّ كأنه أسيرٌ في متاهة لا سبيل له إلى الخروج منها، إنما يعزّيه أن الشيخ الأكبر يقول «كل الطرق دائرية» وهو قول من بعض معانيه أن الرحلة تعود بالإنسان في نهاية الأمر إلى ذات نفسه».

بين الأكبريين في أكسفورد! (٦)

الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله، قال في مَتْنه الجامع «إحياء علوم الدين» ما معناه أن الحلاّج لم يكفُر ولكنه أساء الأدب. والشيخ محيي الدين بن عربي أيضاً، لامَ الحلاّج لأنه (عرْبد) وأساء الأدب.

كانوا يقولون «لا تصفع الوجه» ـ وهو قول مأخوذ من نصيحة الرسول (ص) في معاملة المرأة. يقصدون بذلك وجه الشريعة، أي أن (العارف) مهما ظن أنه بلغ في مقامات القربى، فعليه ألا «يذيع الأسرار»، أو يقول أو يغفل شيئاً قد يظُنّ أنه يتعارض مع ظاهر الشريعة.

الشيخ محيي الدين بن عربي أذاع بعض «الأسرار». لكنها أسرار خرجت رغماً عنه. ولم يكن مثل الحلاّج، الذي كان يقف في الساحات العامة ويصيح «ما في الجُبّة إلّا الله»، وأبي يزيد البسطامي

الذي قال أفظع من ذلك.

إنها من قبيل «العربدة» و«إساءة الأدب». ورغم أن بعض المحققين فسّروها تفسيراً يبعدها عن الكفر، فلا ينكر أنها تصدم آذان أهل الشريعة الذين لم يجدوا بدّاً من رفضها، وبعضهم غالى في رفضه. وكان الحلاّج نفسه يفهم ذلك، فقد كان، كما رووا، يقف على أبواب المساجد وينادي «يا معشر المسلمين! أُقتلوني تُثابوا». وقد كان له ما أراد، كما نعلم.

ابن عربي حرص على لزوم ظاهر الشرع. وتجلياته التي لا يقل بعضها استفزازاً لأهل السنّة عن شطحات الحلاّج، لم يذعها على الملأ، إنما قيّدها في أسفاره في عقر داره، أو باح بها لتلاميذه ومريديه. كانت (مدرسته) مدرسة لقلة من (النخبة). وكوْن تلك الأفكار خرجت عن محابسها وذاعت بين الناس وانتشرت، وأحدثت البلبلة والسُّخط والرّضى، وأحياناً أضيف إليها وحُرِّفت، فلعلّ ذلك كان حتماً أن يحدث، ولم يكن لـ (الشيخ) فيه حيلة.

يقول برفّسر (هنري كوربان) في كتابه المرجع عن فكر ابن عربي:

«الحرص على ظاهر الشريعة في الإسلام لدى ابن عربي، لم يكن فقط لأنه كان يؤمن بأن الشريعة هي البناء المتين الأساس، الذي تنطلق منه الرموز وتتعلّق وتستمسك به التأويلات والاجتهادات، وإنما أيضاً لأن الشريعة هي الحصن الذي يحول دون طُغيان الجهلاء».

كان الشيخ محيي الدين بن عربي لا يفتأ ينوّه أن أقواله كلّها لم

تخرج عن نطاق القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، ولكنه اختلف مع من أسماهم (علماء الرسوم)، في أسلوب التأويل، ودرجة الإدراك، الذي يقول إنه تأتى له بواسطة الفيوض الإلهية والذوق والكشف.

أقام مذهبه على (الحب والرحمة). وفي هذا الصدد، لعلّ أبياته الشهيرة التي أسخطت الفقهاء أشد السّخط، لم تخرج أيضاً من حيث هي شعر، عن مناخ التراث الشعري العربي. فقوله (لقد صار قلبي قابلاً كل صورة) إلى أن يقول:

أدين بدين الحب أنّى توجّهت
ركائبهُ فالحب ديني وإيماني

هذه الأبيات لا تبعد في ظني عن قول ابن المعتز وكأنها مأخوذة منه:

قلبي ميّال لذا وذا * ليس يرى شيئاً فيأباه
ويهيم بالحسن كما ينبغي * ويرحم القبح فيهواه

وعند ابن عربي (دين الحب)، هو الإسلام، وليس الحب بمعناه الجسدي المادي. وفي مذهبه أن الاسم القدسيّ الذي يغلب على أسماء الله سبحانه جميعها، هو (الرحمن). لذلك قال قولته الشهيرة «الكونُ مآلُه إلى الرحمة» وهو في هذا يستند إلى الآيات الكريمة العديدة عن (الرحمة) مثل قوله جلّ جلاله ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾.

هذه السماحة، هي أيضاً من بعض أسباب جاذبية (الشيخ) لأمثال هؤلاء العلماء (الباحثين) المجتمعين في أكسفورد. لقد هوّن عليهم الأمر، ووسّع عليهم الدين، إذ يُضيّقُه بعض الفقهاء، ولم يترك باباً إلّا فتحه لهم للدخول في حمى الملة الحنيفة. الإسلام عنده يتسع للبَسطامي والجُنيد، كما اتسع للإمام مالك والإمام ابن حنبل.

هذا، وقد عدت أدراجي إلى لندن، وقد حرّك ذلك الاجتماع رغبتي في الرجوع مجدداً إلى تاريخ الأندلس، خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، إذ إن فكر ابن عربي لا يمكن أن يُفهم إلّا في سياق تاريخ عصور الانحدار للدولة الإسلامية في الأندلس. ورغم أنني لم أقبل كثيراً من آراء أولئك (القوم) في ذلك الاجتماع - أو لعلّني لم أفهم تلك الآراء بسبب قصور فهمي وقلّة علمي - فإنني سوف أذكر مودّتهم ولطفهم وتواضعهم على غزارة علمهم.

سوف أذكر شاباً داوم معنا على حضور الاجتماعات كلها. أشعث، مشوّش الشعر. مرقّع الثياب وفي أُذنه حَلَق، لم يكد يبلغ العشرين. تحسبه صعلوكاً أو من هؤلاء الفتية الجانحين الذين تراهم في شوارع لندن. كان يسأل أسئلة ذكية ويُعرب عن آراء طريفة. ولما تحدثت معه، وجدتُ أنه يدرس الفلسفة والرياضيات في كلية من كليات جامعة أكسفورد. قال إنه اكتشف ابن عربي صدفة فاستهواه وسحره وسار وراءه.

وتلك العالمة السويدية من جامعة (أُبسالا)، قالت إنها جرّبت الأديان كلها، لم تترك ديانة إلّا دخلتها. ثم اكتشفت ابن عربي فجذبها إلى الإسلام. وكانت تلك خاتمة بحثها عن الحقيقة.

في صباح الأحد ـ اليوم الثاني للاجتماع ـ قرأ الدكتور (ستيفن هيرتنْستاين) من جامعة أكسفورد ترجمته الإنجليزية لدعاء ابن عربي ليوم الأحد ـ إذ إن لابن عربي دعاء لكل يوم من أيام الأسبوع.

استمعنا إليه بصمت عميق، تخلَّلتْه نهنهات بعضهم ـ خاصة من النساء ـ ببكاء مكتوم. ولما فرغ الدكتور (ستيفن) كان هو نفسه يوشك أن يجهش بالبكاء. وكانت تجلس بجواره على المنصة، الدكتورة (أليسون يانقاوْ) ـ أيضاً من جامعة أكسفورد ـ فكان التأثر واضحاً على وجهها.

ولما خرجنا من القاعة رأيت سيدة تبكي بحُرقة، ورأيت الدكتورة (أليسون) تسرع إليها وتحتضنها وتربت عليها وتسرّي عنها.

رحم الله الشيخ محيي الدين بن عربي، وقد كان عظيم الثقة في رحمة الله. مهما كان رأيك فيه، فإنك لا تستطيع أن تنكر، أن قليلين جداً من المفكرين في تاريخ الإنسانية، يمكن أن يحدثوا مثل هذا التأثير ـ خاصة في مناخات غريبة ولغات مختلفة ـ وخاصة بعد نحو ثمانية قرون من رحيله عن الدنيا.

خواطر من لويكَرْباد (١)

في هذه البلدة الـمُنقطعة، تعمّدت ألا أقرأ الصحف ولا أسمع الإذاعات ولا أشاهد التلفزيون. أحضرت بعض الكتب. في هذه الحياة، وفي هذه السن، بعد أن تكون فعلت وفعلت ـ غفر الله لك ـ لعله لا يوجد أجْلَب للسعادة من الخلوة مع كتاب جميل. وأيضاً أحضرت دفاتر بيضاء. قلت عسى ولعل.

إنما بعد أسبوعين، بلغ بي ما يشبه القرَم الذي يصيب آكل اللحم إذا طال حرمانه منه.

خرجت أبحث عن صحيفة إنجليزية، إذ إنه لا أمل هنا في الحصول على صحيفة عربية. حتى صحيفة «الشرق الأوسط» التي اندفعت شرقاً وغرباً مثل قوافي المتنبي (كيف قال؟)، لا تجدها هنا.

وجدت صحيفة الـ «أبزيرفر» اللندنية فكان سروري بذلك عظيماً. إنها صحيفة أقرؤها منذ ما يقرب من أربعين عاماً. يعجبني فيها رصانتها وميلها إلى الإنصاف واتجاهها اللبرالي. وأذكر لها مواقف جريئة في الدفاع عن طموحات العرب، ومقالات افتتاحية مدوية أيام حرب السويس وفي حرب عام ١٩٦٧. كان ذلك يثلج الصدر، خاصة في تلك الأيام الحالكة التي عزّ فيها النصير. هل كثر نصراء العرب اليوم؟

أيام عزّها ـ حتى السبعينيات ـ كانت مملوكة لعائلة (آستور) الأرستقراطية. وكان رئيس تحريرها (لورد ديفد آستور)، من أصدقاء صديقنا العزيز الدكتور منصور خالد. ومن بين مواهب الدكتور الكثيرة أنه يحسن اختيار الأصدقاء.

لم ألتقِ به، ولكنني تعرفت بزوجته مع منصور، إذ تغدّينا معها في مطعم هندي كان شهيراً تلك الأيام في الستينيات في شارع (مورتمر). كانت صاعقة الحسن في زمانها، وأظنها كانت قبلاً عارضة أزياء. أحزنني أنني وجدت حسنها كما كنت أرى صورها في الصحف، قد ذبُل. لم تبق منه إلّا أصداء بعيدة، فحسن الوجوه كما قال الأستاذ «حال تحول».

ثيابها بعيدة عن التأنّق، وشعرها يتناثر ذات الشمال وذات اليمين بلا ترتيب، ووجهها غُفلٌ من آثار التجميل. كان واضحاً أنها لم تعُد تهتم بمظرها. زهدت في ترف الحياة ـ كما قالت ـ ومالت نحو التصوف. وكانت مهتمة جداً بالكاتب الفرنسي الروحاني (تيار دي شاردان). رغم ذلك، بدت لي جميلة بوجه آخر، وكانت عذبة عذوبة واضحة.

الإنسان الجميل، إلّا إذا كان قبيحاً أصلاً في الداخل، يظل جميلاً مهما فعلت به الأيام، كأن الحسن ستارة تنزل فوقها ستارة. وما هو إلّا أن تزيل الستارة بعين خيالك كما وصف الأستاذ، فترى الحسن القديم هو هو على حاله. فلا تخافي ولا تحزني يا أم عمرو!

لو كنت في تلك الأيام أكثر اهتماماً بالشيخ محيي الدين بن عربي، إذاً لدللتُها عليه. لعله كان يأخذ بيدها في طريق الإسلام، فهذا الشيخ العتيد، لديه كما يبدو (من الناحية الروحية البحتة)، جاذبية طاغية للنساء خاصة، وهذا ما يؤكده (هنري كوربان) في كتابه الجميل الذي سماه «الخيال المُبدع».

أقول، لأجل ذلك كانت صحيفة الـ «أبزيرفر» تلك الأيام إنجليزية قُحّة، مستقلة كل الاستقلال، فوق طائلة المؤثرات المالية والسياسية والعقائدية التي قلّ أن تنجوَ منها الصحف.

السبب واضح، وهو أن العوائل الأرستقراطية، يحسّون بسبب عراقة محتدهم واكتفائهم المادي وأنهم ـ كما يظنون ـ أصحاب حق في السلطة أصلاً، فإنهم لذلك (لا يعبأون بأحد). ومعروف أن شعار عائلة (سسل) وهم من صفوة الأرستقراطية الإنجليزية هو «آل سسل لا يَعْبأون بأحد».

كان من بين هذه الطبقة دائماً، رجالٌ ونساء وجدوا الجرأة على تأييد العرب في أصعب الظروف. كانوا ككل الأخيار من طبقتهم، يمتازون بالاستقلال في الرأي وحب الإنصاف والقدرة على السباحة عكس التيار. وفي أحيان كثيرة كانوا يملكون العلم كذلك.

انظر إلى (ولْفرد بلَنْت) الذي ناصر الثورة العرابية، ولورد (كيرزُن) الذي عارض أشد المعارضة وعد بلفور، وكان وزيراً في حكومة لويد جورج التي أعطت ذلك الوعد. و(ليدي دَفْ قوردُن) التي عاشت في مصر وأحبتها، وتركت سجلاً رائعاً عن حياتها هنالك.

وفي السنوات الأخيرة (لورد نتنْج) الذي استقال من حكومة أنتوني إيدن وضحى بمستقبله السياسي الباهر احتجاجاً على غزو مصر عام ١٩٥٦. و(لورد كارادون) صاحب قرار مجلس الأمن الشهير وأخو الرجل العظيم (مايكل فوت). و(لورد قلمور) صاحب كتاب «الرقص مع الدُقْما» عن عهد مسز ثاتشر الكئيب. ولا بد أن أذكر صديقتنا (دورين انجرامز) التي أصدرت منذ عدة سنوات كتابها «أوراق فلسطينية»، وهو في ظني من أحسن ما كُتب عن جذور القضية الفلسطينية.

ذلك لا يعني بطبيعة الحال، أن كل أفراد هذه الطبقة من الأخيار، ففيهم أراذل كثيرون خاصة في ما يتعلق بالعرب. ويكفي أن نذكر (لورد بلفور) الذي جرّ وعده مصائب على العرب لم تنتهِ حتى اليوم ـ وربما يجر على اليهود أيضاً مصائب أعظم في نهاية الأمر. و(لورد كرومر) الذي طغى في مصر، وكان يحسب أنه يحسن صنعاً.

ورغم ذلك، فلا شك أن الصحف الإنجليزية العريقة ـ باستثناء الـ «ديلي تلغراف» اللئيمة ـ أكثر ميلاً لإنصاف العرب من غيرها. قلّ عددها الآن. صحيفة الـ «تايمز» آلت كما نعلم إلى المغامر الأسترالي (روبرت ميردك)، وكذلك الـ «سندين تايمز».

لم تبق غير الـ «إيكونومست» والـ «فنانشل تايمز»، وبقية رمق في الـ «أبزيرفر» والـ «جارديان» وربما الـ «أندبندنت». أضف إليها تلك الصحيفة الإسكتلندية العظيمة، الـ «سكُتْسمان»، التي ظلت طوال تاريخها محافظة على تلك الروح التي عُرف بها الإسكتلنديون ورثة (توماس كارلايل) ـ الصلابة في الحق، وكراهية الظلم، وحب الحرية والعدل.

خواطر من لويكَرْباد (٢)

هذه البلدة كأنها في قاع بئر واسعة، محاطةٌ بالجبال من نواحيها جميعاً، إلّا من منفذ في جنوبها الشرقي، هو عبارة عن واد ضيّق يجري فيه نهر (دالا) الذي يشق البلدة، متجهاً نحو نهر (الرون).

على مسيرة نحو ثلاث ساعات بالسيارة إلى الجنوب من مدينة (بيرن) حيث يقطن آل الرفاعي، تترك السهل الواسع وتضرب صعوداً في الجبال. جبال وراءها جبال، ووديان تؤدي إلى وديان. الأنهار تضيق وتتّسع، وتبطىء وتسرع، وتتفرّق وتتجمع. الماء يتحدَّر من القمقم، وينبثق من أحشاء الجبال، ويتفجّر من باطن الأرض.

ماء لا حصر له، كأنَّ الطبيعة أهرقت كل ما في أوعيتها على هذه الرقعة الصغيرة من أرض الله. وهم رغم وفرة الماء، لا يتركون نقطة منه تذهب هدراً ـ شأن الغنيّ الشحيح. كل جدول، وكل شلال،

وكل نبع، وكل نقطة من ماء المطر، يوجّهونها في قنوات مصنوعة إلى غايات محتومة، كي تغذي البحيرات الضخمة التي تتميّز بها سويسرا.

في نحو ثلثي الطريق، تدخل السيارات المتجهة جنوباً قطاراً يسير بها مدة ثلث الساعة في نفق قُدّ داخل الجبل، حفر الأنفاق في الجبال عند السويسريين مثل اللّعب. أسهل من حفر الآبار عندنا.

يخرج القطار من النفق عند بلدة تسمّى (قُبنْشتاين). تجد نفسك في طبيعة مختلفة ومناخ مختلف. هذا إقليم الـ (Valais) أي (الوديان). السهول أضيق من سهول الشمال خاصة حول مدينة (بيرن). الجبال أشد كثافة وأشد شراسة. الهواء أدفأ، هواء جاف ممطر، مشبَع بأريج العشب الجبلي والأزهار. وتنظر تحتك فإذا وادي نهر (الرون) وإذا مدينة (سيون) عاصمة إقليم الـ (Valais).

نهر (الرون) هذا، من الأنهار الأوروبية الكبرى، يخرج من جبال الألب في سويسرا حتى يدخل في بحيرة (ليمان) أو بحيرة (جنيف). ويخرج منها ويتجه جنوباً عبر فرنسا حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط في خليج (ليون) غرب مدينة مرسيليا. ويبلغ طوله من منبعه إلى مصبه أكثر من ثمانمائة كيلومتر.

تنحدر السيارة في الوادي، ثم تأخذ في الصعود مرة أخرى في طريق متعرّجة لكنها معبّدة واسعة شُقت في الصخر على كتف الجبل. ثم تنحدر قليلاً، فإذا أنت في حوض أو (نُقْرة) على ارتفاع أربعة آلاف وستمائة قدم محاطة بالجبال من جهاتها الأربع.

الجبال عارية إلّا من الثلج على الذُّرى، وفي أسفل سفوحها غابات من الأشجار الصنوبرية الهرميّة التي تعوّدت على وطأة الثلوج في الشتاء. ثم مروج من العشب الجديدة شديدة الاخضرار تنحدر نحو النهر.

ولأن الهواء شديد النقاء، تستقبلك أول ما تصل، رائحة العشب وروث البقر ورائحة الماء الذي تنزُّ به الجبال، أمامك ووراءك وعن يمينك وعن شمالك.

في تلك المساحة الضيّقة بين الجبال، تقوم بلدة (لويكرباد) كأنها واحة منقطعة في صحراء، ولكن يا لها من صحراء. سكّانها لا يزيدون عن ألف وخمسمائة، وتتّسع كما تقول الإحصاءات لعشرة آلاف سائح. فيها نحو ثلاثين هوتيلاً، بالإضافة إلى ألف وستمائة شقة مفروشة للإيجار.

تعتمد (لويْكَرباد) في عيشها على ثلاثة مصادر:

الجبال، للذين يحبون المشي في دروبها الوعرة، والتزلج على الجليد في الشتاء، والمياه المعدنية الساخنة للعلاج صيفاً وشتاء.

تتدفق هذه المياه من منابع مجهولة في أحشاء الجبال. ويقدرون أن نحو ثلاثة ملايين لتر تتدفق كل يوم على أحواض المضخات المنتشرة في البلدة.

دلّنا على هذا المنتجع عبد الرحيم الرفاعي وزوجته (هايدي)، وكنا قبلاً نصطاف في (مورِن)، فوق (انترلاكن). وسويسرا كلّها، لولا

آل الرفاعي، كما قال عبد الرحمن الأبنودي:

ونــــحـــنَ تــــونــــس لـــولا يـــونــــس
لا عـــلـــى الـــبـــال ولا نـــذكـــروهـــا.

خواطر من لويكَرْباد (٣)

من الذين عبروا بهذه البلدة المنقطعة الكاتب الألماني (يوهان وُلْفقانق ڤون قوته). لم يمكث فيها طويلاً، لأنه ـ بلا شك ـ كان يطلب الدفء والإلهام والسلوى، وراء (لويكرباد) إلى الجنوب ـ في إيطاليا.

تحوّل إعجابه بكفاح السويسريّين لانتزاع استقلالهم من أمبراطورية الـ (هابسبيرق) الألمانية، إلى ضيق واحتقار، فقال عنهم:

«بعد أن حرّروا أنفسهم من طاغية، أخرج دفء الشمس من رمَّته البالية جيوشاً من الحشرات الطُّفاة.. يقبعون وراء جدران بيوتهم وصخورهم سجناء ستة أشهر من السنة مثل الفئران في الثلج... قرى مُسودَّة وأكوام من الصخور والقذارة وروْث البهائم... قوم من البُله والحمقى فاغرو الأفواه، وفلاّحون منتفخو الأوداج والغُدد...».

واضح أن هذه الصورة الكاريكاتورية، لا تعبّر عن واقع الحال في سويسرا، بقدر ما تنمّ عن حالة الكاتب النفسية ومزاجه في تلك اللحظة.

أقرب إلى الإنصاف الصورة التي رسمها المؤرّخ الإنجليزي (اتش .آي .أل. فشَر). يقول: «في النصف الأول من القرن الخامس عشر أثار السويسريون في قلوب الطبقات المحافظة في إنجلترا وفرنسا، مشاعر من الذّعر والكراهية والاحتقار، لا تقل عن المشاعر التي يسببها لهم الشيوعيون الرّوس في أيامنا هذه.

ذلك لأن ثورة السويسريّين، لم تكن موجهة فقط ضد أسرة (هابْسبيرق) وعملائها. ولكنها شملت أيضاً الطبقة الأرستقراطية المحليّة المسيطرة، كانت حركةً من نوع جديد، تُمثّل الطموحات السياسية والاجتماعية لسكان المدن والأرياف، ضد الامتيازات الإقطاعية المتوارثة من عصور غابرة.

كانت أنباء (تصفية) الدّهماء من السويسريين لتسلّط الإقطاع، في إقليم بعد آخر، تُدخل الرّعب في قلوب (النبلاء) الألمان. خافوا أن يحذو الدهماء الألمان حذوهم، فينقضّون على سلطات الإقطاع في ألمانيا. وقد عبّر الأمبراطور (ماكسمليان) عن هذا الإحساس حين قال في بيان وجّهه للشعب الألماني:

«هؤلاء الغوغاء السويسريون، ما هم إلّا أخلاط من الفلاحين الأفظاظ الجهناء، الذين لا أصول ولا أخلاق لهم، ولا يحرّكهم إلّا نكران الجميل وكراهية الأمة الألمانية».

كان فوز السويسريّين بحريتهم، أول انتصار للمبادئ الديموقراطية في أوروبا. وكان ذلك أدعى للدهشة لأنه جاء معاكساً للتيار السائد في أوروبا في ذلك الزمن، وهو الاتجاه نحو تدعيم أمراء الإقطاع.

كان السويسريّون فقراء من أية أفكار اجتماعية أو سياسية متقدّمة يمكن أن يقدّموها للعالم.

لا حضارة لهم تقارب حضارة إيطاليا أو ألمانيا أو فرنسا. لم يساهموا حينئذٍ، ولم يساهموا حتى اليوم، في مجال العلم والفكر والثقافة في أوروبا. ورغم ذلك فإن الشعب السويسري الضعيف المفكَّك، أحدث بحصوله على حريته، شيئاً قلّ نظيره في سياق التاريخ الأوروبي كلّه.

لم يكن فقط أن السويسريين أعطوا جيوش أوروبا كلّها دروساً باهرة في الفن العسكري، ولكنهم بشجاعتهم وقوة عزيمتهم أشعلوا من جديد نيران الحرية في أوروبا.

قبل أن يكتشف بقية الأوروبيين جمال جبال سويسرا وثلوجها بزمن طويل، ويتخلوا عن نفورهم من السويسريين واحتقارهم لهم، كانت تلك الرقعة الصغيرة من الأرض، قد أصبحت موطناً للطموحات العسيرة، يتنفّس فيها الناس بحرية، ويُقْدمون على مواجهة القضايا المُستعصية دون وجَل».

خواطر من لويكَرْباد (٤)

يقول السويسريُّون إن تاريخ بلادهم عبارة عن سجل لاتجاهات متضاربة ونزعات متعارضة. ولعل أوضح ظواهر هذا التضارب، هو النزوع من ناحية إلى العيش في تجمعات بشرية وإدارية صغيرة، ومن ناحية أخرى الرغبة في تجميع هذه الوحدات الصغيرة في كيان كبير موحد.

وكون السويسريين نجحوا في إنشاء دولة حديثة ينوّه بذكرها، حافظوا فيها على هاتين النزعتين المتضاربتين، لهو بحق من أكبر الإنجازات في التاريخ.

الاسم الرسمي للدولة باللغة اللاتينية هو (Confoedera tio Helvetica) أي (كنفدرالية هلفيشيا)، وهو الاسم المطبوع على أوراق العملة، ومنه الحرفان (C.H) اللذان تجدهما على لوحات

السيارات السويسرية. والاسم مأخوذ من اسم قبيلة من (الكلْتْ الغاليّين) عُرفوا بـ (الهلفيسيّين) نزَحوا قبل بداية التاريخ المسيحي من ضفاف نهر الـ (راين) واصطدموا بالرومان الذين كانوا يسيطرون على الإقليم الذي يُعرف اليوم بسويسرا وهزموا جيشهم عام ١٠٧ق.م.

إلّا أن الرومان بقيادة (يوليوس قيصر)، لم يلبثوا أن هزموهم وأخضعوهم لسلطانهم، فاستقروا في مستوطنات صغيرة على ضفاف بحيرة (جنيف) ونهر الـ (راين) وفي الإقليم الذي يعرف اليوم بإقليم الـ (تشينو) في الجنوب السويسري.

أعطاهم الرومان سُلُطات محدودة لتصريف شؤونهم. وتقول المصادر، أن تلك كانت البداية في وجود ظاهرة الوحدات الإدارية الصغيرة التي سوف تظل مظهراً مميزاً للنظام السويسري.

خلال العهد الروماني، كان نهر الـ (راين) من مدينة (بازل) في الغرب، إلى مدينة (كُنْستانْس) في الشرق، بمثابة الحدود الفاصلة بين الشعوب اللاتينية، والشعوب الجرمانية. هذان العنصران سوف يتغلغلان في الأراضي السويسرية فيما بعد، ويكوّنان عصب الأمة كما هي معروفة اليوم.

في عام ٤٧ للميلاد، حدث أمرٌ سوف يكون له أثرٌ بعيد في تاريخ سويسرا، وذلك أن الرومان بعد أن سيطروا على جبال الألب كلّها، أرادوا كما كانت عادتهم في ربط أطراف أمبراطوريتهم، أن يربطوا بين شمال أوروبا وجنوبها، ففتحوا في الجبال الممر المعروف بـ (ممر سانت بيرنارد).

ويصفون أن هذا الحدث كان له من الأثر أكثر مما لأية معركة عسكرية. ذلك أنه أكّد صفة أخرى تميّزت بها سويسرا طوال تاريخها المليء بالتناقض والتضارب. فهي من ناحية تميل إلى أن تكون «قلعة حصينة مُغْلَقة»، ومن ناحية أخرى أصبحت «معْبَراً مفتوحاً».

هذا، وفي أواخر العهد الروماني، مع سهولة التواصل عبر تلك المضائق الجبلية، بدأ الدين الجديد ـ المسيحية ـ يتسرّب بالتدريج إلى داخل الأراضي السويسرية. وما إن حلَّ القرن الرابع الميلادي، حتى كان قد عمَّ وانتشر وصار الدين الغالب في القطر.

ذلك أيضاً سوف يكون له أثر بعيد في مجرى التاريخ السويسري. ويكفي أن أشير الآن، إلى أن سويسرا ومدينة (جنيف) خاصة، أصبحت منذ القرن السادس عشر، معقلاً من معاقل البروتستانتية الكالفينية. وهو المذهب المستمد من أفكار المفكّر اللاهوتي، الفرنسي المولد (جان كالْفنْ).

إنه مذهب جمع، على الطريقة السويسرية ـ كما يقول الفيلسوف (ماكس وبَر)، ربما بشيء من السخرية، «بين حب الدنيا وحب الآخرة، بين نقاء العقيدة وتشجيع التجارة والربح!».

إنه بحق مزيج من عجيب من التناقض. وكون السويسريين استطاعوا أن يصوغوا من كل ذلك التناقض دولة موحدة يُضرب بها المثل في الاستقرار السياسي والرّفاه المادي، فتلك معجزة من معجزات التعايش السلمي التي أنجزها الإنسان.

خواطر من لويكَزْباد (٥)

لاحظ المؤرخون أن السويسريين أحدثوا ثورة دون أن يقصدوا ذلك، وأقاموا دولة مستقلة دون أن يكون ذلك هو هدفهم منذ البداية. وكان مما يدعو أيضاً إلى الدهشة والإعجاب، أن مسيرة تاريخهم في نيل الاستقلال، كانت مخالفة لبقية الدول الأوروبية، التي كانت تقوم بواسطة تعزيز سلطان الإقطاع. أما السويسريون فقد أنشأوا دولتهم بواسطة انتفاضات شعبية ضد سيطرة الإقطاع.

لم يكن نضالهم أول أمره في النصف الأول من القرن الثالث عشر، يهدف إلى الانفكاك من التبعية لأمبراطورية الـ (هابْسبيرق)، وريثة ما كان يُسمى بـ (الأمبراطورية الرومانية المقدسة)، وإن كانت ليست أكثر من ظلّ باهت لها. كان السويسريون يهدفون فقط إلى التخلّص من رجال الإقطاع الذين كانوا يحكمونهم حكماً متعسفاً باسم الأمبراطور، وأن يصيروا تابعين تبعية مباشرة للأمبراطور نفسه.

ويذكر المؤرّخون، أن من مظاهر فساد الأحوال في أمبراطورية الـ (هابسبيرق) أنها لم تعبأ بذلك المطلب المشروع، الأمر الذي اضطر السويسريين إلى حمل السلاح، وتحقيق مطلبهم بالقوة.

في السفوح الشمالية لسلسلة جبال الـ (قوتارد)، وعلى طرفيْ البحيرة التي عُرفت فيما بعد ببحيرة (لوتْزيرْن)، نمت مجموعتان من السكان في تنظيمات لها طابع الدويلات الصغيرة، هما كانتون (أوري ـ Uri) وكانتون شفتز Schwz. في هاتين الدولتين، كان السكّان على اختلاف طبقاتهم، من فلاّحين وأصحاب حرف وبعض صغار النبلاء، ينظمون أمور حياتهم بوسيلة ديموقراطية، بواسطة مجالس شورى لها طابع البرلمانات.

في عام ١٢٣١، نجح كانتون (أوري) في انتزاع موافقة الأمبراطور على منحه ما كان يُعرف بـ (براءة الأمبراطورية)، أصبح الكانتون بمقتضاه تابعاً للأمبراطورية مباشرة. هذا التطوّر جعل كانتون (شفتز) يطالب بالحق نفسه. ولما لم يستجب الأمبراطور، قام الكانتون بثورة مسلّحة، اضطرت الأمبراطور إلى إعطائهم (براءة الأمبراطورية) عام ١٢٤٠.

ولكن لوردات الإقطاع لم يقبلوا هذا الوضع، فحمل المواطنون السلاح مرة أخرى، وأجبروا الأمبراطور على تأكيد وضعهم الدستوري الجديد بأن أباح لهم رفع علمهم الخاص بهم، وهو عبارة عن صليب أبيض على قاعدة حمراء.

ذلك العلم أصبح فيما بعد هو علم الدولة الموحدة، كما أصبح اسم الكانتون، هو اسم الدولة (شوائتز ـ سويسرا).

بعد ذلك، استغل السويسريّون ضعف الأمبراطورية، فقاموا بانتفاضات مسلّحة في عدة مناطق حصلوا من جرّائها على مزيد من الاستقلال الإداري.

ثم أخذت تلك الكانتونات في عقد اتفاقيات إحداها مع الأخرى، لتنظيم المعاملات فيما بينها، والتعاون على صيانة حقوقها المكتسَبة.

وفي اليوم الأول من شهر آب/ أغسطس عام ١٢٩١، حدث أمر سوف يكون له أثر بعيد في تاريخ سويسرا. خلال البلبلة التي أعقبت وفاة الأمبراطور (روبرت) وتراخي قبضة الدولة، أقدمت ثلاث كانتونات على اتخاذ خطوة حاسمة، فعقدت معاهدة فيما بينها كانت الأساس لقيام الكنفيدرالية السويسرية، والكانتونات هي (أوري) و(شفتْز) و(نيدْ والدِنْ) التي عُرفت بـ (كانتونات الغابة).

كانت معاهدة ثورية في تلك الظروف، وإن لم يعطها السويسريون تلك الصفة، فقد نصت على إضفاء صبغة الولاء المشترك لمواطني الكانتونات الثلاث، وأنه إذا حدث أي اعتداء على واحدة منها، تلتزم البقية بالدفاع عنها، وأن الكانتونات المتعاهدة لا تعترف بأية امتيازات قد يكون بعض الأفراد قد حصلوا عليها تحت نظام الإقطاع، كما تحظر أن يعمل مواطنوها جنوداً مرتزقة في خدمة قوى أجنبية أو بأية صفة أخرى (كان ذلك أمراً شائعاً في سويسرا).

كذلك نصّت المعاهدة على رفض أي تدخل أجنبي في شؤونها الداخلية حتى لو كان ذلك من الأمبراطور نفسه، وحدّدت أنواع العقوبات التي تُفرض على أولئك الذين يقومون بأعمال تخلّ بالأمن أو تضرّ بالمصلحة العامة.

في حالة حدوث خلاف بين الأطراف المتعاقدة، نصّت المعاهدة على تعيين لجنة من الوسطاء، للإصلاح فيما بينها، وتكون قراراتهم مُلزمة لجميع الأطراف، وتُفرض بالقوة إذا لزم الأمر.

وانتهت المعاهدة بالقول:
«سوف تكون هذه المعاهدة سارية المفعول إلى الأبد إن شاء الله».

كان أحد (الآباء المؤسّسين) الذين وقّعوا على تلك المعاهدة، وأقسموا على الوفاء بها، وهو القسم الذي يُعرف بـ (قسَم روتلي)، رجلاً اسمه (وليم تلْ)، تحوّل فيما بعد إلى أسطورة بطولية في التاريخ السويسري، وخلّده الشاعر الألماني (شِلَر) في إحدى مسرحياته.

كذلك صار يوم توقيع المعاهدة، الأول من شهر آب/ أغسطس، عيداً سنوياً من الأعياد الوطنية في سويسرا.

خواطر من لويكَزْباد (٦)

لم تلبث الأحداث أن وضعت على محكِّ الاختبار، الحلفَ الذي عقدته الكانتونات السويسرية الثلاث، في الأول من آب/ أغسطس عام ١٢٩١.

في عام ١٣١٥ نشب نزاع بين أمبراطورية الـ (هابْسبيرق) وبين كانتون (شفتْز) بسبب تصرّفات اعتبرتها الأمبراطورية بمثابة تمرّد على سلطتها. أَرسلت حملة عسكرية قوامها نحو ثلاثة آلاف جندي لتأديب الكانتون، وكان يقودها أحد المتطلّعين لعرش الأمبراطورية وهو الدوق (ليوبولد).

حسب نص مادة الدفاع المشترك في معاهدة عام ١٢٩١، كان لزاماً على الكانتونين الآخرين أن يسارعا إلى مساعدة كانتون (شفتْز)، فجمع ثلاثتهم جيشاً من ألف مقاتل، والتقوا بالجيش

الأمبراطوري في موضع جبليّ يسمى (مورْقارْتن ـ Morgarten)، وهزموه هزيمة نكراء دوّت أصداؤها في أنحاء أوروبا.

بعد هذا الانتصار مباشرة، جدّدت الكانتونات الثلاث المعاهدة، وأضافت إليها بنداً جديداً ينصّ على منع أي منها عقد أي اتفاقيات فردية مع أية أطراف أجنبية.

لم تجد الأمبراطورية إزاء هذه القوة الجديدة المتنامية، بدّاً من أن تُوقّع معهم صُلحاً في عام ١٣١٨، اعترفت لهم فيها بالمكاسب والامتيازات التي انتزعوها بالقوة، كما منحت (براءة الأمبراطورية) لسكان الكانتونات الثلاث جميعاً، وبذلك محت آخر مظاهر الإقطاع لديهم، فأصبحوا مواطنين.

صار للاتحاد كل مقوّمات الدولة المستقلة. ولكن السويسريين ـ وقد أخذوا أكثر فأكثر يسمّون أنفسهم بالسويسريين ـ لم يطالبوا بالانفصال عن الأمبراطورية. اكتفوا ـ إلى حين ـ باستقلالهم الذاتي، وصلتهم المباشرة بالأمبراطور، وأنهم بالاسم فقط وليس بالفعل، جزءٌ من أمبراطورية (الهابسبيرق).

هذا التأنّي، والصبر في الوصول إلى الهدف، ما يزال إلى اليوم، يحفز إعجاب المؤرخين.

ذلك المناخ من الحريّات المكتسبة، والوحدة المتزايدة، والثقة بأنفسهم نتيجة نصرهم العسكري على أكبر دولة في أوروبا في ذلك الوقت، أعطى السويسريين حيوية إضافية، لدعم قوتهم العسكرية، وتحسين أحوالهم الاقتصادية، وتنظيماتهم الإدارية.

في عام ١٣٣٢، حصل الاتحاد الوليد على دفعة قوية، فقد قررت مدينة (لوتْزيرن ـ Luzern) أن تنضم إليه. كانت مدينة لوتزيرن على بحيرتها الواسعة ممراً مائياً تجارياً مهماً، وبانضمامها، حصل الاتحاد على مزايا تجارية واستراتيجية هائلة، وأصبحت البحيرة تُعرف باسم (بحيرة دول الغابة الأربع).

ثم في عام ١٣٥١، نال الاتحاد هدية أكبر، إذ انضمت إليه مدينة (زيورخ) الكبرى في الشمال الشرقي.

كانت (زيورخ) مركزاً تجارياً وصناعياً، من المراكز الأوروبية المعروفة، تقع على ملتقى طرق تصلها بألمانيا وإيطاليا وموانىء البحر الأبيض المتوسط. وسوف تكون منذ أوائل القرن الخامس عشر منطلقاً لحركة إصلاحية دينية موجّهة ضد كنيسة روما ـ كما كان شأن الحركة اللوثرية ـ وكان يتزعم الحركة السويسرية قسيس يُسمّى (زفنقلي ـ Zwingli).

كانت مدينة (زيورخ) ـ أو بالأحرى دولة زيورخ، فقد كانت بعض المدن الأوروبية في ذلك الزمان لها طابع الدول ـ كانت داخلة في صراع ضد الأمبراطورية، فكان من نتائج ذلك الحلف، أن الكانتونات المتحالفة جميعاً دخلت الحرب في صفها.

ومرّة أخرى ألحقت الجيوش السويسرية هزائم كبيرة بجيوش أمبراطورية الـ (هابسبيرق). وكان من نتائج تلك الانتصارات، أن التحالف السويسري، حصل على أولى مكاسبه الإقليمية، فقد انتزع من الأمبراطورية، إقليم (قلارَس ـ Glarus) الزراعي، ومدينة (زوق ـ Zug)، على الطريق بين زيورخ والممرات الجبلية.

لم يفرض التحالف سيطرته على تلك المناطق المكتسبة بوصفها غنائم حرب، ولكنه عقد معها معاهدات جعلتها أطرافاً متساوية في التحالف السويسري.

صار الاتحاد برقعته المتزايدة وانتصاراته العسكرية الباهرة، قوة جديدة في قلب أوروبا. قوة تسبّب القلق، بل الخوف، لدى البعض،، وفي الوقت نفسه تُغري المدن والكانتونات السويسرية الأخرى بالانضمام إليه طلباً للحماية، وأيضاً تجاوباً مع الروح القومية الجديدة التي أخذت تنتشر عنه.

وهكذا في عام ١٣٥١، وهو العام نفسه الذي انضمت فيه (زيورخ)، قررت مدينة (بيرن ـ Bern) الانضمام.

كانت مدينة (بيرن)، التي سوف تكون فيما بعد عاصمة للدولة الموحدة، قلعة حصينة بموقعها المميّز على نهر (آري). كانت تتبّع سياسة عسكرية نشطة، وتتوسع في اتجاه جبال الألب. وكانت مرتبطة بحلف مع الـ (بيرقنديّين) الفرنسيين.

كان صراع الاتحاد من قبل موجّهاً ضد الألمان. بعد انضمام (بيرن)، سوف يتجه وجهة أُخرى.

خواطر من لويكَرْباد (٧)

كان نضال السويسريين ضد أمبراطورية الـ (هابسبيرق) حتى أواخر القرن الرابع عشر، صراعاً داخلياً بين شعوب ناطقة باللغة الألمانية. الكانتونات الثلاث التي قادت الحرب، والكانتونات التي دخلت التحالف في ما بعد، كانت جميعها ناطقة باللغة الألمانية.

الحروب هي التي وضّحت أكثر فأكثر، الذاتية المستقلة للسويسريين. ومرة أخرى، يسير السويسريون ضد التيار العام للتاريخ الأوروبي، فقد كان الاتجاه هو أن تتوحد الشعوب التي تربط بينها لغات مشتركة.

أصبحت الصلات بين الشعوب الناطقة باللغة الألمانية على ضفتي نهر الـ (راين) تزداد ضعفاً إلى أن صار النهر حدّاً فاصلاً بأن الكيان القومي الذي أخذ يُعرف بـ (سويسرا)، والكيان القومي الذي سوف يُعرف بألمانيا.

في شهر تموز/ يوليو من عام ١٣٨٦، حقّق التحالف السويسري نصراً عسكرياً مدوياً ضد الأمبراطورية، من تلك الانتصارات التي لم تكن بقية الأوروبيين تتوقعها من السويسريين - ذلك الشعب الذي وصفه (قوته)، كما نذكر، بأنه شعب «من البُله والحمقى فاغري الأفواه، وفلاّحين مُنتفخي الأوداج والغدد».

قامت الحرب في البداية، بين الأمبراطورية وكانتون (لوتْزيرن). وكان لزاماً على بقية الكانتونات المتحالفة أن تدخل الحرب في صفّها حسب نص معاهدة عام ١٣٣٢.

التقى الجيش السويسري بجيش الأمبراطورية عند بلدة تُسمى (سمباخ - Sempach). سوف تكون لها شهرة واسعة في ما بعد. كان الجيش الأمبراطوري أكثر عدداً وأقوى عُدّة، ولكن السويسريين واجهوه بأساليب مبتكرة في القتال. استطاعوا أن يشقّوه إلى نصفين ويبدّدوا شمله ويضطرّوا قادته إلى الفرار.

طارت أنباء ذلك الانتصار شرقاً وغرباً في أوروبا، الأمر الذي أوقع أكبر الضرر بهيبة الأمبراطورية. وبعد عامين فقط، في عام ١٣٨٨، عزّز السويسريون ذلك النصر بنصر حاسم آخر، في معركة (نافلس Nafels).

ذلك كله قوّى من التقارب بين الكانتونات المتحالفة، وأعطاها صفة الدولة الموحدة، بقدر أكبر. سوف يمضي وقت قبل أن تصبح دولة بالفعل. وكان من آثار تلك الانتصارات، أن السويسريين دعموا أحلافهم السابقة بحلف واسع شامل عام ١٣٩٣ يُسمّى (ميثاق سمباخ).

كان من أهم ما اتفقوا عليه في ذلك الميثاق، أنهم أنشأوا نواة لقوة عسكرية موحدة. لم يكن لهم جيش قومي، ولكن نظام الخدمة العسكرية الإجبارية الذي اتفقوا عليه، كان يضمن لهم عند الضرورة، حشد جيش من ثمانين ألف مقاتل، في وقت قصير.

كان جيشاً من نوع جديد.. جيشاً شعبياً خالصاً، خالياً من المحاربين المرتزقة، كما كانت عادة الجيوش الأوروبية في ذلك العصر. ولا يزال الجيش السويسري إلى اليوم يحتفظ بتلك الصبغة ـ صبغة الجيش الشعبي.

أكد الميثاق أيضاً على حقوق المواطنين التي انتزعوها انتزاعاً من الأمبراطورية، وعلى حرياتهم، وعلى المبادىء كلها التي كانت منذ البداية، مُنطلقاً لثورة السويسريين ضد أمبراطورية الـ (هابسبيرق)، وضد استبداد الإقطاع، الذي كان من ركائز الحكم الأمبراطوري.

وهكذا نجد أن سويسرا مع بداية القرن الخامس عشر، كانت قد صارت (كنفدرالية) أشبه ما تكون بالدولة المستقلة. لكنها ما تزال دولة لم ترتبط بعد برباط متين. كانت الأحلاف بين الكانتونات، تتفاوت من حيث القوة والضعف. كانت دولة بلا رأس، ولا نظام موحد للحكم. القرارات تتخذ في مجالس استشارية (Diets) بواسطة ممثلي الكانتونات.

بالإضافة إلى ذلك، كانت الشعوب المنضوية في التحالف، تموج بطموحات متزايدة، نتيجة لانتصاراتها المتتالية، وبتأثير من الأفكار الاجتماعية والسياسية الجديدة.

إنما، على وجه العموم، استطاع التحالف أن يصمد في وجه عدد من الاختبارات، وكان بعضه اختبارات عسيرة، مثل النزاع الذي نشب عام ١٤٠٤، بين كانتون (شفتز) وكانتون (لوتْزيرن). وجدير بالذكر أن سبب النزاع، كان انتفاضة قام بها الفلاحون ضد سكان المدن.

انحاز كانتون (شفتز) إلى صف الفلاّحين، وانحاز كانتون (لوتزيرن) إلى صف سكان المدن.

وكاد النزاع يؤدي إلى القتال، لولا أن نظام التحكيم الذي نصّت عليه معاهدة ١٢٩١ نجح في التوصل إلى حل.

٣٠

الرحيل بلا ضوضاء

في أواسط الثمانينيات عقدت منظمة «اليونسكو» مؤتمراً كبيراً في الخرطوم، حضره أحمد مختار أمبو، مدير عام المنظمة.

في نهاية المؤتمر ذهبنا لوداعه . كان في قاعة كبار الزوّار، الجمع الذي يكون عادة في استقبال الكبراء ووداعهم، من وزراء وسفراء ووكلاء وزارات وكبار موظفي الدولة، ومصوري تلفزيون ومراسلي إذاعة وصحف.

ومن عجائب الصدف، أن «أمبو» حين وصل من باريس، جاءت بعده بقليل طائرة تحمل الوفد الموريتاني، فلم يلتفت أحد إليهم، وانصرفوا كلّهم إلى مدير عام منظمة «اليونسكو».

كان على رأس الوفد الموريتاني الأستاذ محمد سالم ولدْ عدُّود،

وهو من علماء اللغة العربية الذين يُشار إليهم بالبنان، وبيني وبين الموريتانيين ودّ قديم، فانشغلت بهم حتى أدخلتهم غرفهم في الهوتيل، وقلت «أمبو» يكفيه كل أولئك الوزراء والوجهاء. كان على حبّه للرئاسة، رجلاً فاضلاً ورعاً، وكان حريصاً تلك الأيام أن يمدّوا له في رئاسة «اليونسكو». ولعل أقدار الحياة أرادت أن تلفت نظره، عند قدومه وعند سفره، أن تلك الرئاسات مهما طالت فهي إلى زوال.

الآن ونحن ننتظر إقلاع الطائرة التي سوف تعود به إلى باريس، وكان الوقت أواخر الليل، إذا ضوء يسطع إلى عيننا. التفتّ إلى مصدره، فإذا تلك السيدة العجيبة، تدخل بهدوء كما يسيل الماء في الجدول، عليها الثوب الأبيض الذي اشتهرت به، وحولها فتيات في مثل زيّها، سمراوات، هنديات أو إثيوبيات أو خليط من أجناس.

جلستْ على كنبة وطيئة، وجلسن حولها وعند قدميها كأنهن فراخُ حمام في عُش. لم يكن معها غير مودّع وحيد، ربما من إحدى منظمات الإغاثة.

ذهبتُ وسلمت عليها، وعلمت منها أنها كانت في «سنّار» في الجزيرة جنوب الخرطوم، وأنها قضت شهراً تحاول أن تساعد ضحايا المجاعة.

تهشُّ لك كأنها تعرفك من زمن، وتحدّثك بصوت خافت فيه لكنة هندية مفعم بالمرح. وجهها مغضّنٌ مليء بالتجاعيد. وجه جميل، من أجمل ما وقعت عليه عيناك. يذكرك بوجوه كثيرة أحببتها وضاعت منك في زحام الحياة.

تملؤك بالحبور والحزن، وتراها خفيفة جداً ـ وهي صغيرة الحجم أصلاً ـ كأنك تستطيع أن تحملها في راحة يدك تريد أن تحتضنها وتقبّلها، كما تحتضن جدتك أو أمك أو ابنتك.

عدتُ إليهم، وقلت لهم «هذه الأم تريزا». هبَّ أمبو واقفاً من فوره، وقاموا كلهم وساروا لتحيتها. ولمّا عادوا، خيّل إليَّ أنه لم يبق منهم شيء. أي جاذبية وأيُّ ألَق، قد تكون الحياة قد أسبغتْه عليهم، انطفأ في وهج الضوء المنبعث من تلك الإنسانة الضئيلة الحجم، المغضّنة الوجه، الجالسة في راحة من الطمأنينة والمحبة بين بناتها، كأنها حمامة بين فراخها في العش.

قال وزير الإعلام إنه لم يكن يعلم بوجودها في السودان، وإلّا لكانوا احتفوا بها كما يليق بمثلها. دخلت بدون ضوضاء، وها هي ذي تخرج بلا ضوضاء. ولما وصلت طائرة «أمبو» مشى إليها متثاقلاً على غير عادته. كان رجلاً ورعاً. لم يلبث في منصبه الخطير بعد ذلك إلّا قليلاً، ولا أدري إن كان لقاؤه العابر بتلك الطاقة الروحية الهائلة، قد هوّن عليه مرارة الهزيمة.

عاشت حتى ماتت في سن السابعة والثمانين، في أفقر أحياء «كلكتّا»، تخدم المجذومين وذوي العاهات واللقطاء وجموع المساكين الذين تقذفهم الحياة على ساحل بحرها الموحش. يسألونها، لماذا لا تقوم بأي نشاط تبشيري، فتجيبهم «نعم، أقوم بنشاط تبشيري. إنني أساعد المسلم على أن يكون مسلماً أفضل، والهندوسي أن يكون هندوسياً أفضل، والمسيحي أن يكون مسيحياً أفضل».

حين توفيت في أعقاب مصرع الأميرة «ديانا»، وما صحب ذلك من ضوضاء إعلامية، خطر لي أن الأقدار شاءت لها أن ترحل عن الحياة بلا ضوضاء، كما أرادت، فجاء موتها بتلك الطريقة. كأنها موجة صغيرة في ذيل موجة عاتية. أو كأنها صدى ضعيف لصوت طنّان. وأي موجة؟! وأي صوت؟!

في ظني أن خير ما حدث للأميرة «ديانا» في حياتها القصيرة المحزنة، أنها وجدت «الأم تريزا» في طريقها، ووقعت تحت تأثير جاذبيتها. ولعلّها بسبب ذلك، اندفعت فيما بعد بعزيمة أشد في أعمال الإحسان والبرّ.

وكانت تقول:
«أحب أن أصنع شيئاً جميلاً للّه».

٣١

مملكة آل فريزر

متجر (هارودز) في حي (نايتسبردج) في لندن، كان في الزمان الغابر قلعة من قلاع الأمبرطورية البريطانية. لم أشتر منه شيئاً أبداً، فذلك فوق طاقتي، ولكنني أزوره أحياناً للفرجة، كما أزور المتحف البريطاني، ومتحف الـ (تيت قَلري). والحيُّ كله، الممتد حتى (سلون سكوير) و(ساوث كنسجتُن)، إلى غابة (تشلسي) على النهر، كان مسرحاً للصبابات، أيام (كان الشباب مطيّة الجهل)، بصحبة صلاح أحمد محمد صالح وعبد الرحيم الرفاعي.

كان يملكه ـ عنيت المحل التجاري ـ آل «فريزر» الأرستقراط. وآخر من آل إليه منهم، رجل تعيس الحظ، بحسبان تلك الطبقة. كان متزوجاً من الكاتبة المعروفة التي ما تزال تحمل اسمه، (ليدي أنتونيا فريزر). وهي سليلة أسرة كاثوليكية من النبلاء، فأبوها (لورد لُنْقفورد)، من لوردات حزب العمال ومن العاملين في ميدان البر

ومساعدة الضعفاء. وأمها كاتبة معروفة أيضاً، ومن مؤلفاتها كتاب بديع عن حياة ذلك اللورد النبيل الذي أحب مصر وناصر الثورة العرابيّة (ولفرد بلَنت).

طلّقته بعد أن أنجبت منه خمسة أو ستة أطفال، وتزوجت الكاتب اليهودي المسرحي الشهير (هارولد بنْتَر). وهو والحق يقال، كاتب كبير، يُقارَن في أهميته في المسرح بـ (ساموِيل بكتْ) إلى جانب أنه إنسان مهذّب، بعيد عن التعصُّب.

كانت تُعدُّ من فاتنات عصرها، وكانت ـ والشي يذكِّر بالشيء ـ زميلة صديقنا الرسّام السوداني الموهوب حسين مأمون حسين شريف في جامعة (كيمبردج).

وحسين هذا، كان من نجوم المجتمع الإنجليزي في تلك الأيام. كان وسيماً، طلق اللسان جداً باللغة الإنجليزية، ذكياً حلو الحديث والدُّعابة، إضافة إلى أنه من «آل المهدي». وكانوا يعاملونه على أنه (أمير)، علماً أننا في السودان، ليس عندنا طبقات ولا أمراء، كلّنا نلبس العمائم والجلاليب، ونأكل الكسرة بـ «مُلاح الويكة».

كانوا يجدون فيه ذلك الجانب الـ Exotic والكلمة تعني أصلاً «الشيء أو الشخص القادم من بلاد برّة». فتأمّل! وكان يلبس أزياء طريفة تؤكد ذلك الانطباع، وهي أزياء صارت (موضات) فيما بعد، ربما بتأثير منه، فقد كان وثيق الصلة بتلك النُّخبة من الرجال والنساء المؤثرة في الذوق العام.

وهو رسام موهوب جداً، عرض أعماله في لندن وغيرها، واكتسب

شهرة فنية كبيرة. لكنه موزّع الاهتمام، فقد جذبته السينما بعد ذلك، وأنتج أفلاماً قد تروق النُّخبة من عُشاق الفن السينمائي، إلّا أنها لم تجد ذيوعاً.

أراد أن يعرّفني بتلك السيدة، فلم أكترث لذلك، فقد كنت في أيام (جاهليّتي) ـ كما يقول الشيخ ابن عربي رحمه الله ـ لا أدخل بحراً ولا أقوى على السباحة فيه. وتلك الطبقة ناعمة الملمس، خشنة المخبر، رغم أن منها أناساً فضلاء. ونساؤها خاصة عظيمات الجاذبية، ولكن البعد عنهم غنيمة في كل الأحوال. وأنا أصلاً هواي مع غيْلان، ذي الرُّمة، في:

«عطابيل سُمْر من ربيعة عامر
عذاب الثنايا مُشْرفات الحقائب»

عدا أن غيْلان العَبقري لم يقُل (عطابيل سمر). بل قال (عطابيل بيض)، إنما أنا هكذا قلت إكراماً لأم عمرو وجاراتها! وعدا أن الأمر لم يتم، لا لغيْلان ولا لي، كما كان أحرى به أن يتم.

ذلك ـ ثم وقعت الطامة على (آل فريزر)، أنّ قلعتهم الحصينة استسلمت لفاتح عربي مصري مسلم هو محمد الفايد. كان وقع ذلك لا شك مرّاً عليهم وعلى طبقتهم، الـ Establishment، الذين هم عصب الأمبراطورية من قبل الملكة فكتوريا.

هؤلاء قوم، دخول نواديهم المنغلقة في «مي فير» والـ «مال» و «سان جيمس» مستحيل على الأجنبي، فما بالك بمصاهرتهم والاستيلاء على ممتلكاتهم؟

لذلك لم تكفّ صحفهم من يومها عن السخرية صراحة وتلميحاً، بهذا الدخيل الذي يصفونه بـ (مستجدّ النّعمة Upstart)، وذلك من أفظع الصفات في معجم تلك الطبقة.

ثم، ويا للمصيبة، أحبت أميرتهم وأم ملكهم المحتمل، ابن ذلك (الغازي) الأجنبي. وحتى في قمة الحزن في تلك المأساة، كتبت بعض الصحف، ومنها صحيفة الـ (قارديان) الرصينة عادة، مقالات لئيمة، منها مقالة تصف عماد الفايد رحمه الله بأنه «جقلو Gigolo». والكلمة تعني (الشاب الذي يبيع جسَده للنساء الطاعنات في السن)، فهل كان عماد الفايد في حاجة إلى المال؟ وهل كانت «ديانا»، الأميرة الشابة الجميلة في حاجة إلى العُشّاق؟

لا يخطر على بالك، لأجل ذلك، أنهم قتلوهما.

تأكّد أن ذلك لا يمكن أن يكون قد حدث. تلك الطبقة، رغم ما وصفتُ من أمرها، يحترمون القانون، لأنهم هم الذين شرّعوا القوانين. ويعرفون الأصول والحدود التي لا يصح تجاوزها. والقتل ليس من أساليبهم.

هذا، وقد مررت منذ أيام على محلات (هارودز)، وكان قد مضى على مصرع الأميرة (ديانا) وعماد الفايد أكثر من أسبوعين. وجدت طوابير كثيفة من الإنجليز يوقّعون على دفاتر العزاء ويضعون باقات الزهور.

ذلك في ظني أعجب ما ظهر من الشعب البريطاني إبان هذه المأساة. إنهم كما وصف الكتّاب، أحدثوا ثورة صامتة وفرضوا أنماطاً

جديدة من السلوك على الطبقات الحاكمة. إنما العجيب حقاً، أن الشعب البريطاني الطيّب ـ وهو كذلك بالفعل ـ قد اعترف صراحة بجواز حب أميرتهم لعربي مصري مسلم. وفي ذلك بالطبع، اعتراف ضمني بسيد مملكة «فريزر» الجديد، محمد الفايد.

هل هذا يعني أن تلك الطبقة العليا، قد اعترفت به أيضاً، وأنه لو طلب أن يكون عضواً في نادي (الأثينيم) العريق، فإنهم سوف يقبلونه؟ الله أعلم!

كاتبة من خارج القطيع

لسبب ما تمنّيت أن تفوز الكاتبة الهندية (أرُندهاتي روي) بجائزة (بوكر) هذا العام. وهي الجائزة الأدبية الكبرى في بريطانيا لأحسن عمل روائي - وليس لأحسن كاتب - وتُوازي جائزة الـ (بري قنكور) في فرنسا، وجائزة (بولتْزر) في أمريكا، وتُخصص للكتّاب باللغة الإنجليزية من بريطانيا ودول الكومنولث.

أهم من قيمتها المالية البالغة عشرين ألف جنيه، الشهرة الواسعة التي تهبط على الكاتب الفائز بين عشية وضحاها، وما يتبع ذلك من ارتفاع كبير في البيع. وقد ذكر الكاتب النيجري المولد (بن أوكْرى) أن مبيعات روايته «طريق الظمأ»، قفزت إلى مائة ألف نسخة بعد شهر واحد من حصوله على الجائزة.

إنني لم أقرأ رواية الكاتبة الهندية بعد، ولا أعرف كثيراً عن الكاتبة.

ولكن لعلّني تحيّزت لها لأنها من مقاطعة (كرالا) في جنوب الهند، وأن فيها دماءً لبنانية. وهذه الرواية هي أول عمل لها. ويدعو إلى العطف عليها أيضاً، أنها تنافس كتّاباً معروفين، وإنه لأمر عسير أن يشق أجنبي طريقه في أدغال العلاقات الأدبية المتشابكة في لندن.

قبل إعلان اسم الفائز، قالت سيدة اسمها (كارمن كاليل) ـ ربما خليل، فهي كما يقال أسترالية من أصل سوري ـ قالت في برنامج تلفزيوني أن رواية الكاتبة الهندية رديئة جداً، ولم تكن تستحق أن توضع في قائمة الروايات المرشحة للجائزة. وهذه السيدة، ذات نفوذ كبير، فهي صاحبة دار نشر معروفة، وكانت رئيسة لجنة المحكّمين للجائزة العام الماضي. وأشك أن تكون من أصل سوري.

لكن المعجزات تحدث أحياناً، فقد أعلنت رئيسة لجنة المحكّمين، وهي أكاديمية اسمها (جليان بير) أن رواية «إله الأشياء الصغيرة» للكاتبة الهندية (أرندهاتي روي)، قد فازت بجائزة (بوكر) لهذا العام. وقالت في تبرير منحها الجائزة:

«تلخص (أرندهاتي روي) بلغة ناصعة مدهشة تاريخ جنوب الهند، من خلال أختيْن توأمين في السابعة من العمر. القصة التي تحكيها محلية، ولكنها في الوقت نفسه ذات إشعاعات إنسانية واسعة. تتحدث عن الحب والموت والأكاذيب والقوانين. حكاية بسيطة واضحة، ولكنه وضوح مليء بالألغاز».

حين تسلّمت الكاتبة جائزتها، قالت بعفوية مؤثرة وهي تكاد تجهش بالبكاء، إنها لم تُعدّ كلمة للمناسبة ولا تجد الكلمات التي تعبّر بها عن سعادتها. بدت لي طبيعية جداً، وهي على درجة ملحوظة من

الجمال، فيها شيء من جاذبية أهل الشام، وقد ذكرتني بعض الشيء بغادة السمّان.

بعد ذلك حين استعادت رباطة جأشها، قالت لمراسلة التلفزيون:

«لو كان المحكّمون غير هؤلاء، لعل الجائزة كانت تذهب لشخص آخر».

وحين سئلت عن أهمية نيلها الجائزة قالت:

«بالنسبة لي، هذه الجائزة هي عن الماضي وليس عن المستقبل. لا أنكر أنني سعيدة بالفوز، ولكن الجوائز وتقريظ النقاد، أمور تخص القرّاء أكثر مما تخصّ الكاتب».

وحين سألتها مراسلة التلفزيون عن عملها الروائي القادم، أجابت:

«لن أكتب رواية لمجرد أنني فزت بهذه الجائزة. سوف أكتب رواية حين أجد رواية تُكتب».

وكما يحدث في مثل هذه المناسبات، سألتها المراسلة ماذا تنوي أن تصنع بقيمة الجائزة، وهو سؤال أرعن، لأن المبلغ بمقاييس هذه الأيام، ليس كبيراً. ولا شك أن الكاتبة عندها وجوه كثيرة لإنفاق المال، لإصلاح شؤونها الحياتية. ربما تشتري سيارة صغيرة! ربما تشتري ثلاجة أكبر! ربما تغيّر مكيّفات الهواء! ماذا يبقى بعد ذلك؟

لكنها أجابت السائلة إجابة فيها رصانة وحكمة فقالت:

«مسألة المال مسألة معقّدة، خاصة في الهند. إنها تضع عليَّ مسؤولية كبيرة. لكنني لن أفعل شيئاً، فقط لأخفف إحساسي بالذنب...».

ولمَ الإحساس بالذنب؟ إنه حال الفقراء الذين يجدون أنفسهم فجأة في خضمّ عالم الأغنياء وضوضاء الشهرة والأضواء. إذا ظلت على حساسيتها المرهفة هذه، فأي نجاح تُحرزه في المستقبل، سوف يبدو لها كأنه خيانة للعالم الذي وصفته في كتاباتها، وكان هو السبب في شهرتها.

بدت لي من إجاباتها القصيرة، أنها كاتبة قد عاشت مع نفسها زمناً، وتهيّأت للدخول في عالم الكتابة المحفوف بالمخاطر.

تُقارن بكاتبين من أصل هندي هما (نايبول) و(سلمان رشدي). وأرجو ألا يكون ذلك صحيحاً، فكلا الكاتبين قد بعُد عهدهما بالهند. الأول من الجيل الثاني أو الثالث من الهنود الذين هُجّروا إلى جزر الهند الغربية، وكتاباته تدل على أنه ضيّق الصدر بالهند وفقرائها. والثاني أحواله لا تُسرّ. وهذه الكاتبة ـ كما يبدو ـ مليئة بالنضارة والبراءة.

حنّا أرنْدت وسَماجةُ الشرّ (١)

كنتُ أول قدومي إلى لندن أوائل الخمسينيات، أُقسِّم العالم إلى قسمين ـ إما خير واضح وإما شرٌّ واضح. ثم نتيجة لمكابدة العيش في مجتمع له قيمٌ مختلفة، واقترابي أكثر من الثقافة الأوروبية، ومتابعة المسرح، خاصة مسرح شيكسبير و(برخْت)، أخذت أفهم أن قضية الخير والشر أكثر تعقيداً مما كنت أظن.

ثم في عام ١٩٦٣، قرأت كتاب (حنّا أرنْدت)، وقد صدر في ذلك العام، وهو (آيخمان في القدس ـ تقرير عن سماجة الشر).

التعبير باللغة الإنجليزية هو Banality of Evil. ويترجم صاحب معجم (المؤرد) ـ وهو معجم حسن ـ كلمة banal إلى (عادي ـ مبتذل ـ تافه). وذلك كله صواب. لكنني فضلت ترجمتها إلى (سَمج)، لأن الشيء (السمج) قد يكون عادياً ومبتذلاً وتافهاً،

ولكنه أكثر من ذلك، خاصة إذا أُلصق بالشر. وإذا قلتَ إن الشرّ (عادي)، فقد يتبادر إلى الذهن أن ذلك ما اعتاد عليه الناس. وقسْ على ذلك.

حين قرأ الشاعر الإنجليزي (و.هـ أُودنْ)، كتاب (حنّا أرندت) المُسمى «حالة الإنسان» وهو من أمهات كتبها، قال:

«أصادف من وقت إلى آخر كتاباً، حين أقرؤه يخيّل إليَّ أنه كُتب من أجلي أنا وحدي. وهذا الكتاب هو واحد من هذه الكتب القليلة المختارة».

لم يحدث لي ذلك حين قرأت كتابها «آيخمان في القدس»، ولكنني أدركت من أول وهلة، أنني إزاء كتاب نادر، من هذه الكتب التي تنظّم لك أفكارك المشتّتة، وتجد الكلمات والأوصاف لمعانٍ مُبهمة تحس بها ولا تفهمها تماماً. حين تفرغ منه، تشعر بالفعل ـ كما يُقال عن أمثال هذه الكتب ـ أن العالم يبدو مختلفاً.

كان (بن قوريون) رئيس وزراء إسرائيل حينئذٍ، يهدف من وراء تنظيم اختطاف (آيخمان) عام ١٩٦١، ومحاكمته في القدس، أن يقدّم إلى الرأي العام العالمي، نموذجاً للإنسان النازي الشيطاني البشع، الذي أشرف على إبادة عشرات الآلاف من اليهود في أفران الغاز. إنه عمل لا يتصوّره العقل في فظاعته، ولا بد أن الذين خططوا له ونفّذوه، لم يكونوا بشراً، بل قبيلاً من الشياطين.

طلبت (حنّا أرندت) من مجلة الـ «نيويوركر» أن ترسلها إلى القدس

لمراقبة المحاكمة. قالت إنها تريد أن تدرس عقل (آيخمان) عن قُرب لكي تفهم «مدى الانهيار الأخلاقي الشامل الذي أحدثته النازية في قطر أوروبي متحضّر مثل ألمانيا».

وقد ذكرت الكاتبة في ما بعد أنها اضطلعت بتأليف الكتاب من قبيل العلاج النفسي:

«من الآلام التي أرهقتني كوني يهودية صهيونية أدرتُ ظهري للصهيونية، وألمانية أدرت ظهري لألمانيا».

ما إن أخذت المقالات تظهر تباعاً في مجلة الـ «نيويوركر» حتى بدا واضحاً أن ذلك نوع من الكتابة لم تعهده الصحافة من قبل. كانت تجمع بين الجرأة العظيمة والعمق الفلسفي والأسلوب الذي يبدو بسيطاً في ظاهره، ولكنه مُفْعمٌ بالإيحاءات والدلالات.

ثم وسّعت (حنّا أرندت) من المقالات وأصدرتها عام ١٩٦٣ في كتاب هو «آيخمان في القدس ـ تقرير عن سماجة الشر».

العاصفة التي هبّت في وجهها كانت متوقعة، لأنها قبل إصدار الكتاب، كانت تثير سخط اليهود في إسرائيل وفي أمريكا بنقدها للفكر الصهيوني، ولسياسات إسرائيل، التي قالت إنها عجزت عن إرضاء طموحات الشعب العربي في فلسطين.

لكنها لم تتوقع أن يبلغ سخطهم الحدّ الذي بلغه، فقد اتّهموها بكراهية اليهود ـ وهي يهودية ـ وعداء إسرائيل، والتهوين من تضحيات الشعب اليهودي ومعاناته المأساوية، وقد بلغ من حنقهم

أنهم أرادوا أن يطردوها من حظيرة الانتماء اليهودي، كما يُطرد (المارق) الكاثوليكي من حظيرة الكنيسة الكاثوليكية.

وسوف نرى، أنها في كتابها هذا، قد ضربت بالفعل، في صميم (الميثلوجيا) التي أقامها اليهود عن مأساتهم، وظلوا يُذكون جذوتها بهذه المحاكمات. وآخرها محاكمة الفرنسي (موريس بابون) التي كتب عنها الكاتب ذو القلم الرشيق، سمير عطا الله، مقالة عميقة في صحيفة «الشرق الأوسط».

لقد صدق. مَنْ يعتذر من مَنْ في هذا العالم المُذنب؟ الشرّ عند (حنا أرندت) ليس شيئاً واضحاً تُميِّزه فتقضي عليه، ولكنه مثل نبات فطري ينتشر على سطح الأرض. موجودٌ في كل مكان وفي كل وقت. وأهم أسبابه شلَل الفكر. الفكر هو المضاد الحيوي ضد الشر، لأنك حين تسلّط عليه الفكر، تجد أن الشرّ في جوهره خواء ليس وراءه شيء.

٣٤

حَنّا أَرنْدت وسماجة الشرّ (٢)

منذ الصفحة الأولى في كتابها «آيخمان في القدس»، تأخذ حنا أرندت ـ بمهارة عظيمة تذكر بـ (برخت) ـ في خلق مناخ مسرحي هادئ على السطح ولكنه مملوء بالتوتر، بغرض توجيه ضربة موجعة للحكومة الإسرائيلية.

تصف القضاة الثلاثة بتقدير عظيم، فتقول: «لم يكن في سلوك القضاة أي شيء مسرحي. يدخلون قاعة المحكمة بوقار لا تكلّف فيه. يتابعون مجرى القضية باهتمام وتركيز. لا يخفون علامات الألم التي تظهر على وجوههم بشكل عفوي وهم يستمعون إلى شهادات البشاعات والفظائع.. يبدو على وجوههم الضيق من اللّت والعجن الذي يلجأ إليه المدعي العام.

«واضح أنهم ثلاثة رجال شرفاء... لم يحاولوا حتى أن يُخفوا أن

ثلاثتهم ولدوا ونشأوا وتعلموا في ألمانيا وأنهم يتقنون اللغة الألمانية. لم يكونوا ينتظرون الترجمة إلى اللغة العبرية، بل كانوا يتدخلون فوراً باللغة الألمانية إذا عرض لهم شيء..

«لم يكن يوجد أي شك أن رئيس القضاة القاضي (لانْداوْ)، هو الذي فرض أسلوب سير المحاكمة وحال دون أن تتحول إلى استعراض مسرحي، بسبب حب المدعي العام للاستعراض».

وتصف (حنا أرندت) قاعة المحكمة بأنها أشبه ما تكون بالمسرح فتقول:

«لا بد أن الذي صمم هذه القاعة كان يفكر في المسرح... يمكنك أن تخيل موضع الأوركسترا والـ (ڤالري) وموضع ٤ خشبة العرض، والأبواب على الجانبين لدخول الممثلين...».

ثم توجه الكاتبة ضربتها الموجعة:

«هذه القاعة بلا شك، مكان مناسب جداً للعرض المسرحي الذي خططه رئيس وزراء إسرائيل (ديفد بن ڤوريون) حين أحضر (آيخمان) قسراً من الأرجنتين إلى المحكمة الجزئية في القدس، كي يحاسب على دوره في (الحل النهائي لمشكلة اليهود)...

(بن ڤوريون) الذي يوصف بحق أنه «مهندس» دولة إسرائيل، هو المخرج المسرحي الذي يحرك الخيوط من وراء ستار. لم يحضر ولا جلسة واحدة من جلسات المحاكمة، ولكنه حاضر على الدوام، ينطق بلسان المدعي العام (جديون هاوسنر)، الذي يمثل الحكومة،

ويبذل جهداً خارقاً (لإطاعة أوامر سيده)».

قولها (إطاعة أوامر سيده) في وصف سلوك المدعي العام الإسرائيلي، عبارة موجعة في سخريتها، لأن (إطاعة الأوامر) كان عماد دفاع (آيخمان) عن نفسه... يعني أوامر (الفوهرر). فكأنها وضعت (ديفد بن قوريون) موضع (أدولف هتلر).

لماذا وكيف حدثت المأساة؟ لماذا اليهود؟ لماذا الألمان؟ ماذا كان نصيب أمم أوروبية أخرى في الذنب؟ ماذا كان مدى تواطؤ الحلفاء فيما حاق باليهود؟ كيف حدث أن اليهود أنفسهم مشوا إلى حتفهم كما تمشي الخراف إلى الذبح؟

قالت (حنا أرندت) أن القاضي (لانداو) بذل جهداً عظيماً ليمنع المحاكمة أن تغرق في طوفان هذه الأسئلة الكبيرة، وتضيف:

«كانت العدالة تقتضي أن تقتصر المحاكمة على شخص (أدولف آيخمان)، ابن (كارل أدولف آيخمان)، القابع في القفص الزجاجي الذي صنع لحمايته... رجل متوسط القامة، نحيل البُنية، في أواسط العمر. شعر رأسه أخذ ينحسر، وأسنانه غير منتظمة وبصره ضعيف. يميل برقبته النحيلة نحو منصّة القضاة. لا ينظر إلى الجمهور في القاعة أبداً.

«يبذل جهداً واضحاً كي يسيطر على أعصابه، لولا رعشة عصبية على جفنه، لا بد أنها ألمت به قبل المحاكمة بزمن.

«المحاكمة تتعلق بتصرفات هذا الرجل ودوره. ليست محاكمة

للشعب الألماني ولا للإنسانية. وهي لا تتعلق بقضية العنصرية ولا كراهية اليهود».

الواقع أن المحاكمة كانت تتعلق بتلك القضايا كلها، ولكن القضاة بتمسكهم بالقانون أرادوا أن يخلقوا منطقاً ونظاماً للفوضى التي تفجرها تلك الأسئلة الكبيرة. ومن السخريات العديدة في تلك المحاكمة، أن وضع القضاة ـ مع الفارق ـ كان يشبه وضع (آيخمان). هو أيضاً خلق (منطقاً) و(نظاماً) وسط الفوضى التاريخية والإنسانية والأخلاقية التي كانت تضجّ حوله. كان ينصاع للأوامر ويطبق القانون. و(القانون) هو الإرادة المطلقة للزعيم الأوحد (أدولف هتلر).

٣٥

حَنا أرنْدت وسَماجةُ الشرّ (٢)

أخذت صورة (أدولف آيخمان) تبرز خلال سير المحاكمة، مناقضة للجرائم الفظيعة المتهم بها، والتي لم ينكرها، وبصورة (الوحش)، مصاص الدماء، التي أرادت الحكومة الإسرائيلية أن تؤكدها.

بدأ إنساناً (عادياً) في مظهره، عادياً في أسلوب حياته. كل الأطباء النفسيين الذين استجوبوه أكدوا أنه «إنسان عادي». وقال أحدهم إن علاقات (آيخمان) مع زوجته وأبنائه وأمه وأبيه وإخوته وأصدقائه «لم تكن فقط طبيعية بل كانت تدعو للإعجاب». وقال القسيس الذي داوم على زيارته في السجن «إنه رجل يحمل أفكاراً إيجابية جداً».

رفض (آيخمان) أن يُقسم على الإنجيل، لأنه، كما كان شائعاً لدى النازيين، قد قطع صلته بالمسيحية. قال إن الله، كما يعتقد هو

«حامل المعاني الأعلى». وتقول «حنا أرندت» عن ذاك:

«أن يوصف الله بأنه «حامل المعاني الأعلى» معناه أن يعطى رتبة في تسلسل الرتب العسكرية النازية، لأن النازيين غيّروا صفة (متلقي الأوامر) إلى (حامل الأوامر)، كأنهم بذلك يشيرون إلى الصفة الطقسية عند القدماء، التي هي (حامل الأنباء السيئة)، ما يرتبط بذلك من أهمية ومسؤولية يحظى بها الذين يكلفون بتنفيذ الأوامر.

كان «آيخمان» من النازيين المناط بهم حلّ المشكلة اليهودية (حلاً نهائياً)، فكان بذلك المعنى (حامل أسرار) أيضاً. وهي حظوة ملأت نفسه بالفخر!».

قال في المحاكمة، أنه لم يحسّ أبداً بتوبيخ الضمير وهو يؤدي واجبه ـ أي الإشراف على إرسال ملايين البشر إلى مصارعهم. قال إنه كان سوف يحس بوخز الضمير في حالة واحدة وهي (التقصير في تنفيذ الأوامر).

حاول المدعي العام لإسرائيلي أن يثبت في المحاكمة أن حافز (آيخمان) كان (اللاسامية) كراهية اليهود. وتقول (حنا أرندت) إن (آيخمان) كان صادقاً حين نفى ذلك نفياً قاطعاً.

كانت لديه أسباب شخصية كيلا يكره اليهود. حين كان طالباً في المدرسة الأولية كان أعزّ أصدقائه يهودي. وكان ابن عم زوجة أبيه (تزوّجها بعد موت أم آيخمان وهو في العاشرة)، متزوجاً من يهودية. كان أبوها رجل أعمال في تشيكوسلوفاكيا، وقد توسط لدى مدير شركة يهودي أن يجد لـ (آيخمان) عملاً في بداية

حياته. وتضيف الكاتبة:

«يبدو أنه حين أصبح مسؤولاً نازياً في (فينا) عن الإشراف على تنفيذ برنامج (الهجرة القسرية لليهود) من النمسا ـ وقد نفذ ذلك بنجاح كبير ـ كانت له في الوقت نفسه عشيقة يهودية.. كانت المعاشرة الجنسية مع اليهود، من أفظع الجرائم التي يرتكبها ضابط في جهاز حماية النظام النازي، الـ (S.S)...».

وتقول (حنا أرندت)، أن المدعي العام الإسرائيلي رفض تصديق (آيخمان)، لأن مهمته كانت أن يثبت العكس، وهو أن (آيخمان) كان يكره اليهود بطبيعته، لذلك ساهم في إبادة أعداد كبيرة منهم.

أما القضاة الثلاثة ـ وقد كانوا يتحرون العدل كما وصفت الكاتبة ـ فإنهم رفضوا أن يصدقوا (آيخمان)، لأن عقولهم لم تستطع أن تقبل أن إنساناً (عادياً)، ليس ضعيف العقل ولا مخبولاً، ولا متعطشاً للدماء ولا تحركه نوازع الكراهية، يعجز تماماً عن التمييز بين الخطأ والصواب، ويفعل ما فعله (آيخمان).

تقول (حنا أرندت) أن (آيخمان) من هؤلاء الناس الضعيفي الإرادة الذين ينضمون إلى أي شيء.. انضم إلى الحزب النازي رغم أنه لم يكن يؤمن بمبادئه وأفكاره.. لم يقرأ شيئاً من كتبه ولا حتى كتاب «كفاحي» لهتلر. انضم للحزب لأنه كان التنظيم السياسي الماثل الذي ينضم إليه الناس.

ويصف (آيخمان) أن يوم ٨ أيار/ مايو ١٩٤٥ ـ وهو التاريخ الرسمي لهزيمة ألمانيا ـ ظل محفوراً في ذاكرته لأنه أدرك فجأة أنه

سوف يقضي بقية حياته بلا شيء ينضم إليه.

ويقول:
«أدركت أنني سوف أقضي بقية حياتي منفرداً، بلا رئيس ولا قائد ولا زعيم، لن تصلني توجيهات من أي أحد.. لن تعطى لي أية أوامر.. لن تكون ثمة بلاغات يطلب مني تنفيذها والعمل بموجبها.. باختصار.. حياة فارغة تمتد أمامي».

٣٦

حنّا أرنْدت وسماجة الشرّ (٤)

لم تكتفِ (حنّا أرندت) في محاولتها الباسلة في استقصاء طبيعة الشر. إنها أجّجت غضب اليهود بتصويرها لشخصية (آيخمان) أنه رجل (عادي) ـ بمعنى أن الشرّ قد يصدر من أي أحد وفي أي وقت وفي أي مكان ـ ولكنها زادت النار اشتعالاً بأنها حمّلت اليهود في ألمانيا قسطاً من المسؤولية عن مأساتهم.

كان صعباً عليهم أن يقبلوا أن (آيخمان) الذي كان أحد النازيين المسؤولين عن هلاك مئات الآلاف من اليهود في معسكرات الاعتقال وأفران الغاز كان رجلاً (عادياً). إنما أصعب من ذلك أن يقبلوا أن اليهود كانوا مشاركين بقدر أو بآخر فيما حدث لهم.

أخذ النظام النازي منذ استيلائه على السُلطة يعمل تدريجياً على تجريد اليهود من حقوقهم، ففي عام ١٩٣٣ أصدر قانوناً يحرّم على

اليهود الدخول في الخدمة المدنية. وكان مفهوم الخدمة المدنية مفهوماً واسعاً يشمل التدريس والعمل في الجامعات والمحاماة والطب وغيرها. وفي عام ١٩٣٥، صدرت القوانين التي عُرفت بـ (قوانين نورمبيرج) التي جرّدت اليهود من حقوقهم السياسية ولكنها تركت لهم حقوقهم المدنية. وكان ذلك يعني أن اليهودي لم يعد مواطناً ألمانياً، ولكنه ظل يحتفظ بكونه من رعايا الدولة الألمانية. وقد نصّ ذلك القانون أيضاً على تحريم التزاوج والمعاشرة الجنسية بين الألمان واليهود.

وتصف الكاتبة أن اليهود رغم تلك الإجراءات لم يحسّوا بالخطر المحدق بهم، ظنوا أنهم يستطيعون أن يتعايشوا مع الأوضاع الجديدة. وتُورد قول أحد زعمائهم في برلين:

«الحياة ممكنة تحت أي قانون مهما كان، إنما لا تمكن الحياة إذا لم يعرف الإنسان ما هو ممنوع وما هو مباح. يستطيع الإنسان أن يكون مواطناً مفيداً محترماً حتى لو كان عضواً في أقلية، وخاصة بين شعب عظيم مثل الشعب الألماني».

في تلك الفترة كان (آيخمان) يُعتبر (خبيراً في الشؤون اليهودية) خاصة بعد النجاح الذي أحرزه في (تنظيف النمسا من اليهود) ـ وهو الوصف النازي لعملية التهجير القسري. وقادة تعامله مع قيادات الحركة الصهيونية إلى قراءة كتاب «الدولة اليهودية» لـ «ثيودور هيرتزل»، وهو من الكتب القليلة التي قرأها طوال حياته.

قال إن الكتاب ترك آثاراً عميقة في نفسه إلى حدّ أنه أصبح (صهيونياً)، يؤمن بالحل السياسي لمشكلة اليهود وليس الحل

الجسدي ـ يعني الطرد بدلاً من القتل ـ كان يحتقر اليهود (الانتمائيين)، أي الذين كانوا يحبّذون فكرة (الذّوبان) في المجتمع الألماني. ولكنه كان يحترم الصهيونيين، لأنهم، كما قال، (مثاليون) مثله، مستعدون للتضحية بأي شيء وأي أحد في سبيل المبدأ. هو، كما قال، كان مستعداً للتضحية حتى بأبيه في سبيل المبدأ. وتقول الكاتبة في فقرة موجعة في جرأتها:

«أكبر (مثاليّ) تعامل معه (آيخمان) من قادة الحركة الصهيونية كان (الدكتور رودلف كاشتنر). تفاوض معه أثناء عمليات الترحيل الإجباري لليهود من المجر، وتوصل معه إلى اتفاق يسمح (آيخمان) بموجبه بسفر بضعة آلاف من اليهود المجريين إلى فلسطين. لقاء ذلك يتعهد (كاشتنر) بإقرار الهدوء والنظام في المعسكرات التي كان يُرحّل منها مئات الآلاف من اليهود إلى (آوشْفتْز) ليلاقوا مصارعهم إما بالتجويع أو بالقتل في غرف الغاز..

بضعة الآلاف الذين أنقذوا بتلك الطريقة كانوا من وجهاء الجالية اليهودية ومن المنتمين إلى منظمات الشباب الصهيونية. وقد وصفهم (آيخمان) بأنهم (العنصر البيولوجي الأرقى)، وكان إعجاب (آيخمان) بـ (الدكتور كاستنر) لا حدّ له، إنه ضحّى بغالبية أبناء ملّته من اليهود في سبيل (المبدأ)، وكذلك تكون التضحية في سبيل المبدأ»!

قال (آيخمان) أنه وزعماء اليهود (المثاليين) ـ يعني الصهيونيين ـ كانوا «يعملون يداً واحدة ويدفعون في اتجاه واحد». هم يريدون الهجرة، وهو أيضاً يريد ذلك. كانت سياسة الدولة في تلك المرحلة لا تمانع في الهجرة ضمن حدود وشروط معيّنة. فيما بعد سوف

تصبح السياسة هي (الإبادة) التي أُطلق عليها وصف (الحل النهائي).

لذلك سهّل لهم الإجراءات الإدارية، التي كانت تنتهي بتجريدهم من ممتلكاتهم وحقوقهم لقاء الإذن بالخروج. ودخل معهم في مقايضات بشرية، تنجو بمقتضاها قلة نظير هلاك الكثرة. ومقايضات مالية يدفع بمقتضاها أثرياء اليهود الألمان والمنظمات اليهودية في أوروبا وأمريكا لتهجير أعداد من فقراء اليهود الخاضعين للتابعية الألمانية.

كان من الأفكار التي طُرحت في تلك المرحلة، وادّعى (آيخمان) أنها نبعت من ذهنه، إيجاد (وطن) لليهود في جزيرة (مدغشقر). هذا ما عناه حين قال:

«.. الحل الذي خطر لي هو أن أضع أرضاً ثابتة تحت أقدامهم.. أن يكون لهم مأوى.. أن يكون لهم موطن. كنت أعمل نحو ذلك الهدف بسرور عظيم.. تعاونت معهم تعاوناً صادقاً للوصول إلى ذلك الحل.. وهو ما كانت تسعى إليه الحركات اليهودية نفسها.. كان ذلك في رأيي هو أفضل حلّ لتلك المسألة..».

٣٧

حنا أرندت وسماجة الشر (٥)

تقول (حنا أرنْدت) في الفصل الرابع من كتابها «آيخمان في القدس» وعنوانه «الحل الأول ـ الطرد»:

«بصرف النظر عن الشعارات والخلافات الإيديولوجية، فمما لا شك فيه أن اليهود الصهيونيين كانوا وحدهم الذين استطاعوا التفاوض مع السلطات النازية. والسبب بسيط. كانوا يعتبرون عدوّهم الأول ليس النازيين، ولكن (اتحاد المواطنين ذوي العقيدة اليهودية).

هؤلاء كانوا يمثلون نحو تسعين بالمائة من اليهود في ألمانيا، وكان هدفهم محصوراً في تحسين أحوالهم داخل ألمانيا ومناهضة اللاّ سامية.

أما الصهيونيون فقد تصوروا أول الأمر، أن صعود هتلر إلى السلطة هو بمثابة انتصار لفلسفتهم وهزيمة صريحة لفلسفة (الذوبان) في المجتمع الألماني. لذلك برروا لأنفسهم أن يدخلوا في عمليات تعاون مشروعة في نظرهم مع السلطات النازية. ظنوا أن بوسعهم التوصل إلى حلّ يكون في مصلحة الطرفين. إحباط اتجاه (الذّوبان) وتحقيق هجرة الشباب اليهود وأصحاب رؤوس الأموال إلى فلسطين.

كان الصهيونيون في نظر المسؤولين الألمان ـ أمثال (آيخمان) ـ هم اليهود (الفضلاء)، لأنهم كانوا مثلهم يفكرون بطريقة (وطنية متطرفة).

خلال هذه السنوات نجح الصهيونيون في إبرام اتفاق بين السلطات النازية والوكالة اليهودية في فلسطين، تسمح لليهودي المهاجر بتحويل أمواله إلى فلسطين ليس نقداً ولكن بواسطة شراء بضائع ألمانية وبيعها في فلسطين.

وقد نتج وضع غريب عن هذه الحيلة، وذلك أنه بينما كان اليهود الأمريكان في الثلاثينيات يكافحون من أجل مقاطعة السلع الألمانية، كانت فلسطين تغرق في بحر من السلع الألمانية.

وأهم من ذلك في ما يتعلق بـ (آيخمان)، كان المبعوثون السرّيون اليهود الذين كانوا يجيئون من فلسطين. هؤلاء كانوا يتعاملون مع الـ (جستابو) والـ (S.S) دون علم الصهيونيين الألمان، ولا الوكالة اليهودية. جاءوا بغرض الحصول على مساعدة هذه الأجهزة السرية الألمانية لإرسال أنواع معيّنة من اليهود الألمان إلى فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني. وقد وجدوا كل مساعدة من

الـ (جستابو) والـ (S.S).

وكما وصف David Kimche في كتابه «الطرق السرية ـ The Secret Roads» فإن هؤلاء اليهود القادمين من فلسطين، كانوا يتحدّثون لغة لا تختلف عن لغة (آيخمان).

أرسلتهم المستوطنات في فلسطين ليس بغرض إنقاذ اليهود. لم تكن تلك وظيفتهم. كان الهدف من قدومهم اختيار (المادة الصالحة) لتحقيق الحلم الصهيوني بالاستيطان في فلسطين. لم يكونوا يعتبرون الدول التي كانت تحوّل حياة اليهود إلى جحيم في مواطنهم، أي ألمانيا والنمسا، لم يكونوا يعتبرون هذه الدول أعداء، بل كان عدوهم الأول هو بريطانيا التي كانت تعرقل مخططاتهم في تحقيق هجرة اليهود إلى الوطن الجديد.

السلطات الألمانية كانت تساعدهم في اختيار (الروّاد الشباب) من بين آلاف اليهود في معسكرات الاعتقال. كانوا بالطبع لا يتصوّرون مدى المخططات النازية الشريرة التي تكشفت في المستقبل، ولكنهم هم أيضاً كانوا يعتقدون أنه ما دام الأمر يتعلق باختيار الأصلح للبقاء فليقم اليهود أنفسهم بمهمة الاختيار.

هذا الخطأ الفظيع في التقدير سرعان ما نتج عنه أن الأغلبية العظمى من اليهود، وهم الذين لم يتم اختيارهم، وجدوا أنفسهم محاصرين بين عدوّين ـ السلطات النازية من جهة، والسلطات اليهودية من جهة أخرى.

ويقول «كمشي» إن من أغرب ما حدث في الحقبة النازية أن

(آيخمان) الرجل الذي سوف يذكره التاريخ بوصفه أحد كبار السفّاحين لليهود، دخل أيضاً في قائمة الذين ساعدوا على إنقاذ اليهود».

٣٨

حنا أرندت وسَماجةُ الشرّ (٦)

في يوم ٣١ من شهر تموز/ يوليو عام ١٩٤١، حدث أمر كان من شأنه أن يُغيّر أوضاع اليهود في ألمانيا تغييراً جذرياً ـ وبالضرورة وضع (آيخمان).

كان التعاون بين المنظمات الصهيونية وبين (آيخمان) وثيقاً إلى حدّ أنهم دعوه عام ١٩٣٧ لزيارة فلسطين والتعرف على إنجازاتهم في المستعمرات الجماعية التي أنشأوها. لكنها زيارة لم تدُمْ طويلاً لأن سُلطات الانتداب البريطاني أبعدتْه، فذهب إلى القاهرة حيث مكث فترة قصيرة التقى فيها بعدد من ضباط الـ (هاقانا) التي كانت نواة الجيش الإسرائيلي فيما بعد.

في تلك السنوات قفز (آيخمان) قفزات واسعة في السُلَّم الوظيفي، فقد رُقّي من رتبة ملازم إلى رتبة جنرال في خلال خمس سنوات.

وكان المستقبل يبدو له مشرقاً، ففي المراحل الأولى من السياسة النازية، قبل أن يُسفر النظام بصراحة عن وجهه الدكتاتوري الإجرامي، ظن (آيخمان) أن مشكلة اليهود يمكن أن تُحلّ حلاً سلمياً.

كان، كما قال، يريد أن يضع أرضاً ثابتة تحت أقدامهم. فبالإضافة إلى فكرة إنشاء وطن لهم في جزيرة (مدغشقر) تحت الإدارة الألمانية، ظهرت أيضاً فكرة توطين اليهود الألمان في الجزء الذي اغتصبته ألمانيا من بولندا في محميّة تُحكم حكماً عسكرياً. وتخيّل (آيخمان) لوهلة، أن ذلك المشروع سوف يتحقق، وأنه هو سوف يكون بلا شك الحاكم العسكري لـ (الوطن) اليهودي في بولندا.

كل ذلك انهار فجأة. ففي ٣١ من شهر تموز/ يوليو عام ١٩٤١ ـ أي بعد أقل من شهر من هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفياتي ـ تسلّم (هايدْرِشْ) الرئيس الأعلى لأجهزة الأمن المتعددة لحماية (الرايخ) ـ تسلّم مذكرة سرّية جداً من (هيرمان ڤيرنْق) الرجل الثاني ـ بعد هتلر ـ في النظام النازي، يطلب منه «أن يتّخذ التدابير الضرورية لتنفيذ سياسة الفوهرر لحل المشكلة اليهودية حلاً شاملاً في الأراضي الخاضعة للنفوذ الألماني في أوروبا.

استدعى هايدرش (آيخمان) إلى مكتبه في برلين وقال له ببساطة:

«لقد قرّر الفوهرر التخلّص من اليهود بإبادتهم جسدياً».

ويصف (آيخمان) شعوره، كما روت (حنا أرنْدت):

«ظل (هايدرش) صامتاً بعد ذلك، على غير عادته. لم أفهم في البداية ماذا يعني... ثم فهمت... لم أجد شيئاً أقوله... ماذا كان في استطاعتي أن أقول..؟ لم يخطر على بالي أبداً أن الأمر سوف يصل إلى هذا الحد... التصفية الجسدية!... فجأة انهار كل شيء... لم تعد لي رغبة في العمل... فقدت صوابي تماماً...».

لكن (آيخمان) الذي كان في طبعه إطاعة الأوامر، أذعن لتعليمات (هايدرش) له أن يذهب ويقابل أحد كبار مساعديه في جهاز الـ (S.S) الذي كان قد بدأ بالفعل في تنفيذ السياسة، وقال له:

«إذهب وانظر إلى ما أنجزه حتى الآن. أظن أنه يستعمل الخنادق التي حُفرت لصدّ الدبابات الروسية للتخلص اليهود».

وتقول الكاتبة إن (آيخمان) نسي أن يذكر في المحكمة في معرض الدفاع عن نفسه، أن (هايدرش) أبلغه أيضاً أن العملية كلها وُضعت تحت إشراف الـ (S.S) في القسم المسؤول عن (الاقتصاد والإدارة!)، وليس تحت الجهاز الذي يتبع له (آيخمان). وقد أبلغه أيضاً أن الرمز السرّي للعملية هو (الحل النهائي).

وتصف الكاتبة أن القيادات العليا في النظام النازي، كانوا على علم بخطة هتلر لإبادة اليهود منذ زمن. لم يكن (آيخمان) واحداً من تلك النخبة. كان أحد الذين تُعطى لهم أوامر محدّدة لتنفيذ واجبات معينة.

لكنه كان من المجموعة التي تلي تلك النّخبة مباشرة، وكان من الأوائل بينهم الذين كُشف لهم عن (السر). ثم تمضي فتقول:

«الذين اطّلعوا على خطة الفوهرر، أي على (السرّ)، لم يعودوا مجرد (حمَلة أوامر)، بل صاروا (حمَلة أسرار)، لذلك طُلب منهم أن يُقسموا على الكتمان.

صاروا يستعملون لغة مختلفة ويخضعون لرقابة لغويّة صارمة. لذلك يندر أن تجد في الوثائق المتعلقة بهذا الأمر عبارات مثل (إبادة) أو (تصفية) أو (قتل). كانت العبارات الرمزية في اللغة الجديدة هي (الحلّ النهائي) و(الإجلاء) و(المعاملة الخاصة). وكان الترحيل إلى (قتّو) يُوصف بـ (تغيير العنوان) و(إعادة التوطين).

هذا النظام اللغوي الجديد، لم يجعل القائمين على عملية الإبادة غير ملمّين بما يحدث. كانوا يعرفون تماماً. لكنه أتاح لهم وسيلة لوصف عملهم بغير الوصف الطبيعي له وهو (القتل) و(الخِداع).

كان (آيخمان) بما فيه من استعداد طبيعي للاستجابة للعبارات الجاهزة والكلمات المبتذلة، أرضاً خصبة لتلك اللغة الجديدة...».

٣٩

حَنا أَرنْدت وسماجة الشرّ (٧)

ألحّت (حنا أرندت) في كتابه «آيخمان في القدس» على كشف مدى التعاون بين اليهود والنازيين، ليس بهدف تخفيف المسؤولية عن ألمانيا النازية ولا إدانة اليهود كما اتهمها الصهيونيون، ولكن لأنها أرادت أن تؤكد فكرتها ـ وهي الفكرة المحورية في الكتاب ـ أن الشرّ الذي أججه النازي لم يسلم منه أحد.

وقالت إنها تعرضت لتلك القصة التي أغفلتها المحاكمة، لأنها أرادت أن تفضح الانهيار الخُلقي الكامل الذي أوقعه النظام النازي بالمجتمع الأوروبي، ليس في ألمانيا وحدها ولكن في أوروبا بأسرها. ليس فقط بالجلادين النازيين، ولكن أيضاً بالضحايا اليهود أنفسهم، وتمضي الكاتبة فتقول:

«لم تكن توجد اختلافات في قضية التعاون. جاليات اليهود

(المنتمين) في وسط أوروبا، تعاونوا مع النظام النازي، بالقدر نفسه الذي تعاونت به جماهير اليهود الناطقة بلغة الـ (يدِّش Yiddish) في الشرق. في أمستردام كما في برلين وبودابست، كانت السلطات النازية تعتمد على اليهود أنفسهم في إعداد القوائم بأسماء الضحايا وممتلكاتهم وأموالهم.

كانوا يأخذون من الضحايا، المال الذي يغطي النفقات الإدارية ونفقات الترحيل وغيرها التي تتكلّفها الدولة في قتلهم. وكانوا يقومون بدور الشرطة في القبض على اليهود وزجّهم في القطارات التي تحملها إلى معسكرات الاعتقال والإبادة».

وتصف (حنّا أرندت) كيف أن رؤساء الجاليات اليهود، كانوا يتطوعون بتقديم بيانات إلى السلطات النازية، عن الممتلكات والأموال اليهودية التي رصدوها، لتتم مصادرتها. ثم تقول:

«كان الرؤساء اليهود يوزّعون على الضحايا الأربطة ذات النجوم الصفراء، التي يتحتم على اليهود وضعها على أذرعتهم. وأحياناً كانوا يبيعونها لهم. قامت تجارة رائجة في تلك الأربطة بعضها من قماش عادي، وبعضها من قماش أكثر جاذبية، وبعضها من البلاستيك يسهل غسله!».

كانوا يصدرون بيانات يتضح فيها إحساس الفخر بالسُلطات التي خوّلهم إياها النازيّون مثل البيان الذي أُصدره المجلس اليهودي المركزي في (بودابست) وجاء فيه:

«إن المجلس اليهودي المركزي قد مُنح صلاحيات كاملة في أن

يكون مسؤولاً عن جميع الممتلكات المادية والروحية وجميع الأيدي اليهودية العاملة».

هؤلاء الزعماء ـ كما تصف الكاتبة ـ كانوا ليس أكثر من أدوات في أيدي النازيين لإبادة إخوانهم اليهود. وكانت حجتهم أنهم يضحّون بالقلة نظير نجاة الكثرة. من هؤلاء الدكتور (كاشتنر) الذي ورد ذكره من قبل. وتعلق على ذلك بقولها:

«الدكتور كاستنر أنقذ في المجر بالتحديد ألفاً وستمائة وأربعة وثمانين شخصاً فقط مقابل هلاك أربعمائة وستة وسبعين ألفاً».

ثم في فقرة بالغة الفظاعة في صراحتها تقول الكاتبة:

«الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن عمليات القتل نفسها في معسكرات الإبادة، كانت عادة تتم بأيدي يهود... القتل في غرف الغاز وسيارات الغاز المتنقلة وحُجرات الحرْق... كان العمال اليهود هم الذين يخلعون الأسنان الذهبية من أفواه الموتى ويقصّون شعورهم ويتولّون دفنهم...

الفنّيون اليهود هم الذين بنوا غرف الغاز في معسكر (تريسنْتشتان)... في ذلك المعسكر حتى (الجلاّد) الذي كان يتولى مهمة الشنق كان يهودياً...».

لماذا تعاون زعماء الجاليات اليهودية مع السلطات النازية إلى ذلك الحد، وهم يعلمون أنهم يتواطأون في فناء إخوانهم وفناء أنفسهم في نهاية الأمر؟ لماذا لم يرفضوا؟ لمذا لم يتمرّدوا؟

أجاب بعضهم في المحاكمة، أن اليهود لم تكن لهم أية حيلة. لم يكونوا منظّمين ولم تكن لهم أية حماية من أي نوع. وتردّ (حنا أرندت) قائلة:

«... ربما يكون ذلك صحيحاً ولكنه ليس كل الحقيقة. الحقيقة الكاملة هي أنه كانت توجد منظمات يهودية، محلية ودولية. منظمات سياسية ومنظمات اجتماعية. حيثما وُجد اليهود وُجدت منظمات وزعماء معترف بهم. أولئك الزعماء دون استثناء كلهم تعاونوا مع النظام النازي، بطريقة أو بأخرى، لسبب أو لآخر...

الحقيقة الكاملة هي أن اليهود لو كانوا حقاً غير منظمين ولم يكن لهم زعماء... فمما لا شك فيه أن عدد الضحايا لم يكن ليبلغ ما يقدر ما بين أربعة ملايين إلى ستة ملايين...

لو أنهم لم يطيعوا أوامر رؤسائهم المتعاونين مع السلطات النازية واعتمدوا على أنفسهم، فمن المؤكد أن غالبيتهم كانت سوف تنجو من الموت...».

حنا أرَنْدت وسماجة الشرّ (٨)

في صيف عام ١٩٤٤، حين أصبح واضحاً أن هزيمة ألمانيا وانهيار الحكم النازي صار وشيكاً، أمر (هملر) ـ الذي كان قد خلف (هايدرش) في رئاسة أجهزة الأمن ـ بإيقاف جميع الإجراءات القائمة لتنفيذ سياسة (هتلر) فيما سُميّ بـ (الحل النهائي)، أي إبادة اليهود «في المناطق الخاضعة للنفوذ الألماني».

كذلك أمر (همر) بإزالة المنشآت الواسعة التي كانت تتم فيها عمليات الإبادة، وطمس كل أثر للأعمال البشعة التي حدثت حتى ذلك الوقت.

فعل (همر) كل ذلك من وراء ظهر (هتلر) الذي كان ماضياً في سياسته إلى آخر لحظة. كان (همر) قد أخذ يُعدّ نفسه لدور ظن أنه مهيأ له، بالتفاوض مع الحلفاء بعد الهزيمة (لإنقاذ ما يمكن إنقاذه).

لم يكن (آيخمان) مشاركاً في عمليات الإبادة نفسها، ولكنه كان ضالعاً فيها، لأنه هو الذي كان يشرف على عمليات النّقل إلى المعسكرات. وكان يعلم إلى أينَ تذهب العربات والقطارات وماذا يحدث في نهاية المكان. وقد زار بعض تلك المنشآت ورأى بنفسه ما يحدث. تلك كانت التهمة التي اختُطف من جرائها من الأرجنتين، وجيء به إلى القدس، ليُحاكم على دوره في إبادة اليهود.

قال له (هملر)، وكانت من المرات القليلة التي يتكرّم عليه فيها بلقاء شخصي:

«إذا كنتَ حتى الآن قد شغلت نفسك بإبادة اليهود، فإني آمرك من الآن فصاعداً أن ترعاهم وتحسن معاملتهم كأنك ممرضة أو حاضنة لكل منهم.. تذكّرْ أنني أنا الذي أعطي الأوامر هنا».

اختلف الشهود، هل (هملر) صرخ في وجهه أم لا. قال (آيخمان) إنه لم يصرخ في وجهه، ولكنه لم ينْفِ أنه قال شيئاً قريباً من ذلك.

لم يكن لديه شك أن النهاية قد اقتربت. كانت جيوش الحلفاء تتقدم من جميع الجهات. وكان واضحاً لديه أن زملاءه الضباط في (الجستابو) والـ (S.S) بدأوا يستعدّون لترك السفينة الغارقة. أخذوا يُعدُّون أوراقاً شخصية مزوّرة ويعاملون اليهود معاملة حسنة. وظهر فريق (معتدل) بين الضباط يؤيد (هملر). ولم يكن ذلك خافياً على (هتلر) الذي قال إن ولاء أجهزة الأمن لم يعد يوثق به.

حتى في تلك الساعة المتأخرة ـ كما تروي الكاتبة ـ أوعز (هملر)

لبعض أعوانه المقربين بعقد صفقات مالية مع أثرياء اليهود، يسمح لهم بمقتضاها بالسفر وحمل جزء من أموالهم بالعملات الأجنبية. من هؤلاء ضابط يدعى (بكر ـ Becher) عقد صفقة مع شركة يهودية كانت من الشركات الكبرى في المجر وهي شركة (مانْفرد فايس Manfred Weiss) كانت تصنّع الطائرات وعربات النقل وغيرها، ويعمل فيها نحو ثلاثين ألف عامل.

بناء على تلك الصفقة استطاع خمسة وأربعون من أسرة (فايس) السفر إلى البرتغال ومعهم حصة كبيرة من أموالهم بعملات أجنبية، وآلت الشركة لـ (بكر) و(هملر).

كان (آيخمان) يدرك أن أوامر (هملر) له لإيقاف سياسة الإبادة، تتعارض كلية مع سياسة (الفوهرر)، فقرر أن يتجاهلها ويعرقل إجراءات (هملر) بقدر ما يستطيع. وحين أمره (هملر) وهو في (بودابست) بإيقاف ترحيل اليهود المجريين إلى المعسكرات، ثار وهدد بأنه سوف يطلب تأكيداً من (هتلر) نفسه باستمرار سياسة الإبادة.

وتقول الكاتبة، إن تلك كانت من المرات القليلة التي شعر فيها (آيخمان) بتضارب الولاء، ووجد الجرأة لعصيان رئيسه المباشر.

ظل حتى آخر لحظة، والنظام النازي يتداعى من حوله، ينفّذ سياسة (الفوهرر) الذي ارتبط في ذهنه بقدسية (حامل الأسرار الأعلى). كان هتلر في نظره هو (القانون). وكان متطرفاً في إعجابه به، وقد علّل ذلك بقوله:

«رجل يصعد من رتبة (عريف) في الجيش ليصبح حاكماً مطلقاً لدولة مثل ألمانيا، لهو بلا شك جدير بأن يُطاع»!

وتقول (حنّا أرندت):

«من العبث أن يحاول الإنسان أن يفهم، أيّ العاطفتين كانت أقوىٰ لدى (آيخمان) ـ إعجابه المفرط بـ (هتلر)، أم إصراره على أن يظل مواطناً مطيعاً للقانون في ظل الرّايخ الثالث، في وقت كانت ألمانيا تتحول فيه إلى حُطام.

أحسّ بجيَشان تلك العواطف في برلين في الأيام الأخيرة للحرب. استحوذ عليه الغضب وهو يرى زملاءه، الضبّاط النازيين، يستعدون للهرب قبل وصول الرّوس أو الأمريكان.

وأخيراً استسلم هو أيضاً للأمر الواقع، وأخذ يتنقل باسم مستعار. لكن الفوهرر كان قد مات، فمات بموته (قانون البلاد). أحس (آيخمان) أنه في حلّ من القسم الذي قطعه على نفسه، لأنه بوصفه ضابطاً في جهاز الأمن الـ (S.S) أقسم يمين الولاء لهتلر شخصياً، وليس لألمانيا، كان ولاؤه لـ (الفوهرر) وحده..».

٤١

حنا أرندت وسماحة الشر (٩)

لم تعترض (حنا أرندت) على إعدام (آيخمان)، ولكنها لم تقبل الذرائع القانونية التي لجأت إليها إسرائيل لتبرير اختطافه ومحاكمته وإعدامه. وفي الصفحات الأخيرة من كتابها تقدم منطوقاً بديلاً للحكم، تقول إن القضاة كان بوسعهم أن يوجّهوه إلى (آيخمان) حتى لا يبقى مجال للشك أن العدالة قد أخذت مجراها. وجاء فيه:

«... وإذْ إنك أيّدت ونفذت سياسة حرمت اليهود وجنسيات أخرى من حق العيش على الأرض، وافترضتَ أنت ورؤساؤك أن لكم مطلق الصلاحية في أن تقرروا من يستحق العيش على الأرض ومن لا يستحق ـ فإننا نجد ألّا أحد من الجنس البشري يرضى أن تكون أنت مشاركاً له في العيش على الأرض...».

هذه كلمات كأنها نبوءة، نظراً لما حدث بعد ذلك من الضحايا الذين تحوّلوا إلى جلادين، وهو من صميم ما أرادت الكاتبة أن تقوله.

قالت (حنا أرندت) أن المحكمة التي بتّت في قضية (آيخمان) في القدس، كانت (محكمة المنتصرين)، تماماً كما كانت محاكمات (نورنبيرغ) بعد الحرب العالمية الثانية:

«... الروس على الأرجح قتلوا خمسة عشر ألف ضابط بولندي وُجدت جُثثهم في غابة بالقرب من (سمولنّسك)... وأفظع من ذلك أن الحلفاء أزالوا مدناً ألمانية بأكملها بواسطة الغارات الجوية المكثفة. إنما البشاعة الكبرى كانت ضرب الأمريكان (هيروشيما) و(نغازاكي) بالقنابل الذريّة... لم يكن يوجد أي مبرر لاستعمال سلاح جديد له قدرة هائلة على الفتك والتدمير...

«... لم تتطرّق محاكم (نورمبيرغ) لتلك الفظائع التي اجترحها الحلفاء. السبب واضح وهو أن المحاكم الدولية، كانت دولية بالاسم فقط... كانت في الواقع محاكم المنتصرين...».

لم تكسب إسرائيل ـ كما تقول الكاتبة ـ أي شيء من محاكمة (آيخمان)، لا إعلامياً ولا معنوياً. أرادوا أن يتخذوا منه مثلاً على البشاعة والرعب النازي ويثبّتوا بواسطته، صورة عن معاناة اليهود على يديه وأيدي النازيين أمثاله. لكنّ الرجل خيّب ظنهم. تقول الكاتبة:

«... اتضح أن (آيخمان) لم يكن نوعاً فريداً من الناس. كان مثلَه

كثيرون. وهم أناس ليسوا شاذّين ولا منحرفين، بل أناس عاديون بدرجة مُرْعبة. تلك (العاديّة) من وجهة النظر القانونية والأخلاقية، لهي أكثر بشاعة من كل الجرائم التي ارتكبت... أصبح واضحاً ـ كما حدث من قبل في محاكمات (نورمبيرغ) ـ أن العالم يشهد ظهور نوع جديد من المجرمين، يرتكبون جرائمهم في ظروف يصعب عليهم فيها أن يدركوا أن الأعمال التي يقومون بها إنما هي جرائم صُراح».

لكن إسرائيل أصرّت على محاكمة (آيخمان) رغم الاعتراضات التي هبّت في وجهها. وكان بين المعترضين الفيلسوف الألماني الكبير وأستاذ الكاتبة (كارل جاسبر). وأيضاً الفيلسوف الإسرائيلي المعروف (مارتن بوبر). وتقول الكاتبة في تعليل ذلك:

«أراد الإسرائيليون أن يؤكدوا أن اليهود لأول مرة منذ قرابة ألفي عام يحق لهم أن ينصّبوا أنفسهم قضاة في الجرائم التي ارتكبت ضدهم، وأنهم ليسوا بحاجة إلى حماية أي أحد، ولا إلى قانون (حقوق الإنسان) الذي يعلمون أكثر من غيرهم أنه لا تلجأ إليه إلّا الشعوب الضعيفة العاجزة عن حماية نفسها وفرض قوانينها.

هذا، وقد حكمت محكمة القدس الجزئية على (آيخمان) بالإعدام، وأقرّت المحكمة العليا الحكم. وجاء في آخر دفاع لـ (آيخمان) عن نفسه:

«... إنني أبداً لم أقتل أحداً ولم آمر بقتل أحد.. كل خطيئتي كانت إطاعة الأوامر... الطاعة تعتبر فضيلة في العادة... الزعماء النازيون استغلوا طاعتي للأوامر أبشع استغلال. أنا مجرد ضحية...

الزعماء وحدهم هم الذين يستحقون العقاب...».

وفي اليوم الحادي والعشرين من آذار/ مارس عام ١٩٦٢، بعد يومين فقط من صدور الحكم. نُفّذ حكم الإعدام على (آيخمان) شنقاً، وأُحرقت جثته، ونشر الرماد (خارج المياه الإقليمية الإسرائيلية). وتصف الكاتبة الساعات الأخيرة لـ (آيخمان) هكذا:

«مشى إلى المشنقة مرفوع الرأس بخطوات ثابتة. قبل ذلك طلب زجاجة من النبيذ الأحمر وشرب نصفها. رفض لقاء القسيس الذي أراد أن يهوّن عليه بقراءة الإنجيل. قال (لم يبقَ لي من الحياة إلّا ساعتان وليس لديَّ وقت أضيّعه).

مشى مسافة الخمسين ياردة بين زنزانته والمشنقة هادئاً منتصب القامة. حين أوثق الحراس ركبتيه ورسغيه، طلب منهم أن يحلّوا وثاقه حتى يستطيع أن يقف منتصباً. وحين وضعوا الغطاء الأسود على رأسه قال (لست بحاجة إلى هذا).

كان مسيطراً على نفسه تماماً. بل كان أكثر من ذلك. كان (هو نفسه) على أكمل وجه. وليس أدلّ على ذلك من سماجة كلماته الأخيرة. بعد أن أكّد أنه ليس مسيحياً ولا يؤمن بالبعث بعد الموت، هتف قائلاً:

«بعد قليل أيها السادة، سوف نلتقي جميعاً، هذا هو المصير المحتوم... عاشت ألمانيا!... عاشت الأرجنتين...! عاشت النمسا...! لن أنسى هذه البلاد أبداً...!».

هكذا وجد، وهو يقف أمام الموت وجهاً لوجه، العبارات المبتذلة، كأنه يخطب في تأبين شخص ما. وقد خذلته ذاكرته للمرة الأخيرة. كان مبتهجاً ونسي في غمرة ابتهاجه أن الذي سوف يموت ليس أحداً غيره، وأن الجنازة جنازته هو...».

خواطر عن صلاح جاهين

لأمر ما وجدت نفسي منذ أيام في شارع (أدجوير رود)، ذلك الشارع الذي صار هو وشارع (كوينز وي) على مقربة منه، واحة عربية في وسط لندن. كأنك في القاهرة أو بيروت. المكتبات العربية، والصحف والمجلات معروضة على قارعة الطريق. المطاعم والمقاهي والدكاكين ومحلات الحلاقة ومكاتب بيع العقارات وتأجير الشقق وتغيير العملات.

روائح اللحم المشوي والشاورما والشاي بالنعناع والشيشة ـ الأصوات العربية والعطور العربية النفّاذة ـ ولا تعدم أن تصادف أحداً تعرفه.

دخلت «مكتبة الأهرام» التي افتتحت منذ أشهر، لا شك بجهد الدكتور عمرو عبد السميع مدير «مكتب الأهرام» في لندن. وهو

إنسان كبير الذكاء عظيم النشاط. وقعت عيني أول ما دخلت على وجه صلاح جاهين الطيب بابتسامته المرهفة، على غلاف رباعياته.

كنتَ حين تجلس إلى صلاح جاهين في حياته، كأنك تجلس في فيء شجرة ممتدة الظلال، طيبة الثمار، تحوّم عليها الفراشات، وتصدح بين أغصانها الطيور. وهذه الرباعيات، يا لها من كنز لا أدري كم مرة اشتريتها، ثم فقدتها، لأن أحداً استعارها ولم يردّها. ولا تثريب عليه، فمنذا يردّ كنزاً لو عثر عليه.

قال رحمه الله:

يا باب أيا مقفول أمتى الدخول؟
صبرت يا ما... واللي يصبر ينول
دقّيت سنين والرد يرجع لي (مين)؟
لو كنت عارف مين أنا، كنت أقول

آخر ما لقيته كان في لندن، قبل وفاته بأشهر. جاء للعلاج في مصحة، لتخفيف وزنه.

استقبله (منسي) في المطار، وجاءا وتغديا معي في دارنا، ثم أخذه (منسي) إلى عزبته في (ساوثهامتن).

كان (منسي) فرحاً به جداً. لا أعرف أنه أحب إنساناً كما أحب صلاح جاهين. كان بينهما بعض وجوه شبه جسماني. قصر القامة وامتلاء الجسم والملامح الصعيدية. وأيضاً جمع بينهما الحزن.

(منسي) وراء الضوضاء والضحك والبهجة الظاهرية، كان حزيناً

جداً. وصلاح جاهين، كما نعلم، كان مملوءاً بذلك الحزن الكوني الذي هو من سمات العباقرة. وقد لاحظت في صداقتهما أمراً عجيباً. كل واحد منهما كان يشفق على الآخر ويعطف عليه، ويظن أنه هو الذي يحتاج إلى رعاية، فكانت بينهما أبوة متبادلة.

دخل الربيع يضحك لقاني حزين
نده الربيع على اسمي لم قلت مين
حطَّ الربيع أزهاره جنبي وراح
وأيش تعمل الأزهار للميتين؟

(منسي) هو الذي عرّفني بصلاح جاهين أوائل الستينيات في القاهرة. ربما مع زكريا الحجاوي ومحمود السعدني وطوغان، أو ربما في سهرة من سهرات (الحرافيش) التي كان يرتادها نجيب محفوظ مع قلة من أصدقائه المقربين، وكان (منسي) يقتحم عليهم خلوتهم دون استئذان.

ثم التقينا في لندن وفي القاهرة لقاءات متباعدة، ودائماً مع (منسي)، لأنه كان أول ما يحل بالقاهرة، يسعى إلى لقاء صلاح جاهين.

ذلك اللقاء الأخير في لندن. ربما أواخر الصيف عام ١٩٨٥. أذكره هادئاً مطمئناً، وكان كعادته دمثاً غامر الإنسانية. كان حديثه عادياً ليس فيه لمعات الفكر وشطحات الخيال التي تجدها في فنّه. لعله كان متعباً من السفر. ولعله آثر أن يترك المجال لـ (منسي).

عدت إلى باريس بعد أيام، ولم ألبث أن نُقلت إلى مكتب اليونسكو في الدوحة. وظللت أُتابع أخبار صلاح جاهين من

(منسي). أخبرني أنه عاد إلى القاهرة بعد أن أتمّ علاجه صحيحاً معافى وأن روحه المعنوية عالية جداً. ثم في ربيع عام ١٩٨٦ بلغني نبأ وفاته.

قال رحمه الله:

على رجلي دم نظرت له ما احتمل
على أيدي دم، سألت ليه، لما وصلت
على كتفي دم وحتى على رأسي دم
أنا كلّي دم... قتلت ولا اتقتلت؟

وعند الشيخ جلال الدين الرومي في (المثنوي) - وكان من الذين بين صلاح جاهين وبينهم صلة قربى:

«أيها القلب. إنك لتكون ممزقاً بالوساوس لو فرّقت بين الطرب والبلاء... أوَليس حرمانك من مرادك هو مراد الحبيب؟ فكل نجم من نجومه ثمن لدم مائة هلال، وإراقة دم العالم حلال له. ولقد أخذنا الأجر، ونلنا ثمن الدماء، ولهذا فقد سارعنا إلى المخاطرة بأرواحنا. آه! إن حياة العاشقين في الموت، وإنك لن تملك قلب الحبيب إلّا بفقدان قلبك!».

وعند صلاح جاهين:

من بين شقوق الشيش وشقشقت لكْ
مع شهقة العصافير وزقزقت لك
نهار جديد أنا.. قوم نشوف نعمل إيه
أنا قلت يا ح تقتلني يا ح اقتلك

الخيّام

كان من حسن حظي، أنني خلال وجودي في أصيلة بالمغرب الصيف الماضي، اطلعت على تجربة فنية مدهشة، اشتركت فيها الفنانة اللبنانية السيدة يسار نعمة صفي الدين، والرسام السوداني الدكتور راشد دياب. تعاونا معاً لإنجاز كتاب يتضمن عدداً من رباعيات الخيام، هو تحفة فنية نادرة.

السيدة يسار نعمة رسامة وخطاطة، وهي تعيش مع زوجها في المغرب منذ سنوات وابنتها متزوجة من الفنان المغربي الشهير محمد المليحي.

وقعت في عشق رباعيات الخيّام، وأصبح العشق هوساً لازمها سنوات طويلة. وهي تصف ذلك بقولها:

«ملأني شغفي بالرباعيات حتى أصبحت هاجسي الليلي. تتبعت أثرها وقادني شوقي إلى ولوج أعماقها. هكذا رافقت الخيّام وعشت زمانه بنشوة حتى تجذرت في الكلمات. راهنت على اقتحام التجربة وبدأت مليئة برغبة بلا حدود...».

وتقول في موضع آخر:

«من البحر اصطدت محّارة غرقى طِرتُ بها بأجنحة الوجد. كان بعضي عصيّاً على بعضي. رفضت التغرب والتقيت بذاتي. لخصت المسافات وصادقت زمني وفتحت محارتي لؤلؤة من نور وكان التعب قد أثقلني وخدر يدي...».

الشاعر الذي يجد من يتأثر به تأثرَ السيدة يسار نعمة بالخيام بعد قرابة ألف عام لهو شاعر محظوظ حقاً.

قضت سنوات من الدراسة والبحث والمقارنة بين الترجمات العربية العديدة للرباعيات. وقد اشتهر منها ترجمات أحمد الصافي النجفي والسباعي وأحمد رامي وإبراهيم العريض، وهذه كلها عن الفارسية. وربما تكون أكثر الترجمات العربية ذيوعاً هي ترجمة وديع البستاني التي أخذها عن الترجمة الإنجليزية للشاعر الرومانسي الكبير إدوارد فتزجرالد.

استقر رأيها آخر الأمر على الاعتماد على ترجمتين عن اللغة الفارسية، ترجمة الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي وترجمة العلاّمة عبد الحق فاضل، وهو عراقي أيضاً، وترجمته ربما لعدم توفرها في المكتبات ليست معروفة على نطاق واسع.

وحسناً فعلت ـ الشاعر الإنجليزي لم يترجم للخيام، ولكنه أعاد صياغة شعره في قالب جديد ـ لذلك فإن ترجمة البستاني، رغم عذوبتها وسلاستها، تبعد قليلاً أو كثيراً عن الأصل الفارسي. وعلى سبيل المثال، نجد أن البستاني ترجم إحدى الرباعيات هكذا:

وقمامي غصن ظليل بقفر
ورغيفات مع زجاجة خمر
كل زادي والأهل ديوان شعر
وحبيب يهواه قلبي المعنّى
يشجى يذييني يتغنى
هكذا أسكن القفار نعيماً
وأرى هذه القصور خراباً

الأستاذ عبد الحق فاضل يترجم الأبيات نفسها هكذا:

أنا آثرتُ من الدنيا رغيفين وخلوة
وصرفتُ النفس عن كل غنى فيها وسطوه
إنني ابتعت بروحي كلها دروشة
فلكم ألفيت في متربة الدرويش ثروة

واضح التجوز في ترجمة فتزجرالد التي أخذ عنها البستاني، وقد حوّل الشاعر الفارسي بتناقضاته وهمومه إلى شاعر إنجليزي رومانسي على طراز (روزتي).

اختارت السيدة يسار عدداً من الرباعيات وكتبتها بخط كوفي جميل، بحيث تبدو الحروف كأنها أصداء لمعاني الشعر.

ثم أضاف الفنان السوداني البارع الدكتور راشد دياب الأستاذ في جامعة مدريد، وهو يعيش في إسبانيا منذ زمن، أضاف أعماقاً وأبعاداً شاسعة لمعاني الشعر وخطوط السيدة يسار، بألوان مدهشة، ألوان الياقوت والزمرد والعقيق والذهب والسندس والسماء والبحر والجبال، بحيث إن المتصفح للكتاب يجد نفسه بالفعل في غابة أو حديقة من المعاني والخطوط والألوان، يذهب فيها العقل ويتوه الخيال.

٤٤

بطاقة لعيد الميلاد

هل ثمة ما يبشر بالأمل في هذا الوقت القلق حين تنتهي أشياء وتبدأ أشياء؟ ها هوذا عام قد انتهى وعام آخر قد بدأ، ولم يبق على مطلع القرن الحادي والعشرين غير عام واحد.

لكن ما شأننا نحن بذلك؟ نحن نتبع التاريخ الهجري، وحسب هذا التقويم فإن قرننا، وهو القرن الخامس عشر، قد بقي منه أكثر من نصفه، وعندنا فسحة من الوقت للتفكير والحزن والاحتفال.

الأمريكان، من أكثر الناس حفاوة بعيد الميلاد، يذهبون في ذلك مذاهب عجباً. ولم ينسوا في غمرة بهجتهم وجيشان عاطفتهم الدينية، أن يرسلوا إلى العراق بطاقات عيد الميلاد، لا جرم أنها في هيئة صواريخ ظنوا أنها تسقط على بغداد والبصرة والكوفة والموصل، وكل تلك المدن ذات الأسماء التي يُحدث ترددادها

قشعريرة في البدن.

أليست بغداد هي حاضرة الخلافة العباسية المشرقة؟ أليس فيها الكرخ والرصافة والجسر، والكاظمية مثوى الأئمة من آل البيت؟ أليس فيها الأعظمية حيث مسجد الإمام الجليل أبي حنيفة النعمان ومثوى رفاته؟

أليست الكوفة هي أعرق مصر في الإسلام، أنشأها الخليفة الذي هو من فلتات الزمان عمر بن الخطاب، ثم صارت عاصمة لخلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وضمت رفاته الطاهرة؟

إنما الأمريكان لم يضربوا العراق. من قال إنهم ضربوا العراق؟ إنهم أرسلوا صواريخهم بكل محبة وكرم كما ترسل بطاقات عيد الميلاد، في أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف، العام الذي هو لهم في قرن هو قرنُهم، فسقطت في مكان ما ليس هو العراق. كيف لا؟ العراق يعيش في أول شهر رمضان من عام تسعة عشر وأربعمائة وألف ـ هذا هو عامهم وذلك هو قرنهم ـ فكيف إذن تقع صواريخ أُرسلت في زمان على قوم يعيشون في زمان آخر؟

انظر إليهم يموجون في أسواقهم يمتارون لصيامهم في شهر رمضان المبارك، يشترون قدر طاقتهم القليل المتيسر لهم من قمر الدين والزبيب والتمر والسمن والأرز ـ لن يموتوا من الجوع لأنهم اعتادوا الجوع ـ وهذا شهر رمضان، شهر الجوع المقدس.

وغداً سوف يفرحون بعيد الفطر المبارك، فرحاً أكثر مما تبرره

ظروفهم. ما شأنهم بفلان وعلّان وهذا وذلك؟

ولعل أحداً منهم خطر على باله ذلك البيت لشاعر قديم نسي الناس اسمه لكثرة ما رددوا قوله:

تـأبـى الـرّمـاح إذا اجـتـمـعـن تـكـسُّـراً
وإذا افــتــرقــن تــكــســرت آحــاداً

إذا خرجت من زمانك وفارقتَ قومك «فكل ما عُلِفتَ من خبيث وطيب» كما قال الشاعر القديم.

ولا بد أن أحدهم تذكر ذلك البيت من الشعر القديم أيضاً الذي تمثل به الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

إذا كـنـتُ مـأكـولاً فـكـنْ أنـت آكـلـي
وإلّا فــأدركــنــي ولــمّــا أُمَــزَّق

ويا ليت صاحبهم كان قبل أكثر من عشر سنوات تذكر قول دُريد ابن الصُمّة الذي تمثل به الإمام علي رضي الله عنه:

ومــا أنــا إلّا مــن غــزيّــة إن غــوت
غــويــتُ وإن تــرشُــد غــزيّــة أرشُــد

هل ثمة ما يبشر بالأمل للأمة العربية في مجال الثقافة على الأقل؟

نعم. هل قلت نعم؟ بلى، قلت نعم.

٤٥

أشجان رمضانية

لا أظن أن أحداً ينسى الأماكن التي صام فيها، وهل كان الفصل صيفاً أم شتاء. وبماذا أفطر ومع من أفطر. وهو قد ينسى بقية أيام العام باستثناء أيام قليلة تباغته فيها الحياة، كما تفعل بإحدى مفاجآتها السارة أو المحزنة.

الأيام العادية تمضي تباعاً طوال العام. لا يكاد الإنسان يحس بمرورها. كأن الزمن نهر سرمدي.

ولكن يوم الصائم ـ وهذه عندي من حِكم الصوم ـ يتفلّت قطرة قطرة. الدقائق تمر كأنك تسمع وقع خطاها، الصائم يحس بالزمن لأول مرة خلال العام، إنه (كم) يمكن أن يوزن بميزان ويقاس بمقياس.

يختلط جوعه وظمأُه ـ خاصة إذا كان الوقت صيفاً حاراً ـ مع كل دقيقة تمر مكوناً عجينة من المكابدة والسعادة. فإذا انقضى اليوم يحس الصائم أنه قد قطع شوطاً مهمّاً في رحلة حياته. وإذا انقضى الشهر بطوله، يشعر حقاً أنه يودّع ضيفاً عزيزاً طيّب الصحبة ولكنه عسير المراس.

إنني أذكر بوضوح رمضانات صمتها عند أهلي في صباي الباكر، أول عهدي بالصيام. كنا قبيلة أفرادها كلهم أحياء، الجدود والآباء والأعمام والأخوال وأبناء العمومة والخؤولة.

لم يكن الدهر قد بدأ بعدُ يقضم من جسمها كما يقضم الفأر من كسرة الخبز.

كانت دُورنا تقوم على هيئة مربع، وفي الوسط باحة واسعة فيها رقعة رملية. فكنا نجتمع للإفطار في تلك الرقعة.

نتولى نحن الصبية أمر تنظيفها وفرش الحصر عليها، وقبيل المغيب نجيء بسفر الطعام من البيوت، ونجلس مع كبارنا ننتظر تلك اللحظة الرائعة حين يؤذن مؤذن البلدة ـ غير بعيد منا ـ (الله أكبر) معلناً نهاية اليوم. وكنت في تلك الأيام، قبل أن يقسو القلب ويتبلد الشعور، أحس أن ذلك النداء موجّه لي وحدي، كأنه يبلغني تحية من آفاق عليا، أنني انتصرت على نفسي.

أذكر جيداً طعم التمر الرطب، وهو أول ما نفطر به، حين يوافق رمضان موسم طلوع الرطب. وكانت لنا نخلات نميزها ونعنى بها. لها ثمر شديد الحلاوة، تخرجه باكراً. كانوا لا يبيعون ثمارها

ولكنهم يدخرونه لمثل تلك المواسم. وقد زرعت أصلاً من أجل ذلك.

وأذكر مذاق الماء الذي يُصفّى ويبرد في الأزيار أو في القِرَب، خاصة ماء القرب، الذي يخالطه شيء من طعم الجلد المدبوغ، وشراب (الابري) وهو يصنع من خبز يكون رقيقاً جداً أرقّ من الورق. تضاف إليه توابل، وينقع في الماء ويحلّى بالسكر.

ومذاق (الحلو مر) وهو أيضاً من عجين مخلوط بتوابل خاصة. وحين ينقع في الماء يكون ذا لون أحمر داكن الحمرة. هذان الشرابان لا يوجدان إلّا في السودان، وهما مرتبطان برمضان. ولهما رائحة عبقة فوّاحة. تلك وروائح أخرى، كان خيالي الصبي يصورها في ذلك الزمان، كأنها تأتي من المصدر الغامض نفسه الذي يأتي منه شهر رمضان. كان طعم الزمان تلك الأيام حلواً مخلوطاً بمرارة لها مذاق العسل.

لم نكن نأكل كثيراً في إفطارنا. لا توجد لحوم أو أشياء مطبوخة، كل واحد يتعشى بعد ذلك في داره على هواه، وغالباً ما ينتظر السحور من دون عشاء.

نصلي ونفطر على مهل، ونقوم نحن الصبية فنحضر الشاي والقهوة (الجبنة). وكان يسمح لنا بشرب القهوة فقط في شهر رمضان، فالقهوة عدا ذلك للكبار وحدهم، ولم يكن ذلك نوعاً من الحظر، ولكن من قبيل الاقتصاد في النفقة، فقد كان البن أغلى من الشاي. يساوونا بأنفسهم لأننا نصوم مثلهم.

ثم يأخذون في الحديث ونحن الصبية نسمع ولا نتكلم، ويا له من حديث، كأن رمضان يخرج منهم كنوزاً دفينة. كنت أستمع إليهم وكأني أشرب ماء القرب البارد وآكل التمر الرطب.

لا أعلم كم كان (معدل الدخل) عندنا تلك الأيام. ولم أكن أعلم شيئاً عن الحالة الاقتصادية في القطر، ولم يكن يهمني من الذي يحكم البلد. كنت أعلم أن الإنجليز موجودون في الخرطوم، وأحياناً يمر بنا واحد منهم، كما يمر طائر غريب في السماء.

لكننا كنا بمعزل عن كل ذلك، نحسّ بالعزّة والمنعة والطمأنينة والثراء.

كنت أعلم أن ذلك الإحساس حق، من الطريقة التي يمشي بها آبائي وأجدادي، لا يمشون مختالين، ولكنهم يمشون على وجه الأرض ثابتي الخطى مرفوعي الرؤوس، لا يخامرهم شك أن الأرض أرضهم والزمان زمانهم.

ولعل الإنجليز خرجوا آخر الأمر لأنهم ضاقوا بإحساس الحرية ذاك لدى السودانيين، كأنهم لم يفهموا أو رفضوا أن يفهموا أنهم أمة مهزومة مستعمرة.

الإحساس بالمذلّة والهوان حدث لهم بعد ذلك، على أيدي بعض أبنائهم الذين انتزعوا الحكم من الذين ورثوه عن الإنجليز، ومنهم من كان صبياً مثلي في ذلك الزمان الأغر، وجلس على بقعة رمل كما جلست، مع آبائه وأجداده في إفطار شهر رمضان.

كنا حقاً سواسية كأسنان المشط. ولا بد أنه ذاق المذاقات نفسها وشمّ الروائح نفسها، واستمع مثلي إلى أحاديث آبائه وأجداده، حديثاً مليئاً بالمحبة والحكمة والطمأنينة. فماذا أصابنا بعد ذلك، أم ماذا أصاب الزمان؟

احتفال السعوديين (١)

السعوديون يحتفلون هذه الأيام بالذكرى المئوية لتأسيس دولتهم العتيدة. وهو، كما لاحظت خلال الأيام القلائل التي قضيتها في الرياض إلى الآن، احتفال رصين، كما يليق بهذه الدولة الرصينة.

لم أر صواريخ نارية تطلق في الهواء، ولا بالونات ملونة ولا طوابير من الشباب والأطفال، يجوبون شوارع المدينة ويهزجون بالأناشيد الحماسية رافعين صوراً ضخمة لقائد المسيرة وحامي العشيرة، ولا أياً من مظاهر الطبل والزمر التي تصحب هذه المناسبات في بعض البلاد ـ وهو في حدّ ذاته أمر يدعو إلى الغبطة، وينبئك بالكثير عن هذه الدولة ـ وقد لفتت نظري كلمة الأستاذ عبد الرحمن السماري في صحيفة «الجزيرة» كأنه يدافع فيها أو يعتذر عن هذا الأسلوب السعودي في الاحتفال يقول:

«لقد احتفلنا بالمناسبة بطريقتنا: نعم ـ نحن لنا خصوصيتنا ولنا تميزنا ولنا منهجنا ـ لن تكون احتفالاتنا مثل احتفالات الآخرين أبداً، لأن دستورنا غير دستورهم ـ دستورنا هو القرآن الكريم، وهو منهجنا ومنه انطلقت هذه البلاد، وإليه تحتكم في كل شؤونها.

في المناسبة المئوية، كنا نسترجع الذكريات ونبحث في سنين خلت، ونستلهم العبر ونقرأ الدروس ونقيّم تجربتنا أكثر من أنه احتفال».

صدقت ولكنه احتفال أيضاً ولولا أنك لم تكن بحاجة إلى الدفاع أو الاعتذار. الناس جميعاً قد أدركوا أن ثمة تاريخاً سعودياً مميزاً، وأسلوباً مميزاً في الحكم، ونهجاً سعودياً مميزاً في السياسة. وواضح أن العالم أخذ يفهم أكثر فأكثر، أن هذا التميز السعودي، ينبع من قيم إنسانية أصيلة جديرة بالاحترام.

ولا يخفى أن الدولة السعودية، دولة ليست كغيرها من الدول، لأنها تقوم على أرض باركها الله، وجعلها منطلقاً وحمى لدينه الحنيف. وفيها المدينتان المباركتان اللتان تهفو إليهما قلوب المسلمين شرقاً وغرباً.

وإن كان العاهل الكريم لهذه الديار الكريمة قد ارتضى لنفسه لقب (خادم الحرمين الشريفين) فإن الأقدار ـ بذلك ـ قد ألبسته عباءة من شرف لا يدانيه أي شرف.

يحق للسعوديين أن يفرحوا ويفخروا بالإنجازات الضخمة التي حققتها دولتهم، وأن يحتفلوا بذكرى مؤسس دولتهم. وهو رجل لا يكاد يشذ أحد عن الإجماع التاريخي حوله، بأنه نمط فريد من

الأبطال الذين حفزوا قافلة الإنسانية في بحثها الدؤوب عن التوحد والاستقرار والرفاه.

ونحن نفرح ونفخر معهم، ولا نحس أننا متطفلون على احتفالهم سواء بوصفنا أخوة لهم يسعدنا ما يسعدهم، أو بوصفنا بشراً يسعدنا ما يسعد الإنسانية عموماً، وأيضاً لأننا نطرب لمعاني البطولة والشرف أينما وجدت.

لا تكاد توجد دولة عربية أو إسلامية لم يصلها من خير هذه البلاد. ونحن في السودان خاصة، ليس لنا ـ مع جارتنا الشقيقة مصر ـ أعزّ من هذه الديار، ومهما نسينا، فإننا لن ننسى أبداً أن خادم الحرمين الشريفين حفظه الله، قال للمشير عبد الرحمن سوار الذهب حين كان رئيساً، وكان السوداني في ضائقة من الفيضانات والمجاعة (سوف نقتسم معكم حتى رغيف الخبز). وكذلك فعل. بلى، نحن يجب ألا نكون متهمين حين نشارك إخواننا السعوديين فرحتهم بالذكرى المئوية لقيام دولتهم، لأننا، بالإضافة إلى ما ذكرت، نسعد أيضاً حين نرى أي رقعة من أرجاء الوطن العربي على اتساعه، قد جمعت شبابها، ووحدت إرادتها، وحزمت أمرها، واستيقنت من أهدافها، وما أجمل ما قال خادم الحرمين الشريفين في هذا المعنى:

«... وإذا كان من حقنا أن نفخر ونعتز بهذا القائد الملهم المجدد، فإن من حق كل إنسان أن يشترك معنا في هذا الفخر والاعتزاز، باعتبار الملك عبد العزيز زعيماً عالمياً أقام دولته على أسس السلام واحترام حقوق الإنسان».

٤٧

احتفال السعوديين (٢)

بعد تلك الاحتفالات والبهجة والحفاوة، بعد العرضة وسباق الهجن والبحوث والدراسات، كيف كان مذاق تلك اللحظة الهائلة، اللحظة البكر، ليلة بلغت الملحمة البطولية ذروتها؟ حين، كما وصف الأمير الشاعر بدر بن عبد المحسن:

تنفست ريح الزّهر في الخمايل
وفكّت أزارير الدجى عن نحرها

الدراسات القيمة التي توالى تقديمها في قاعة الملك فيصل - أكثر من مائتي بحث في خمسة أيام - كانت دراسات مفيدة من دون شك، لم تكد تترك جانباً من جوانب حياة الملك عبد العزيز رحمه الله ونضاله البطولي إلّا أحصتها. وحسب الإنسان أن ينظر نظرة سريعة إلى بعض عناوين تلك الدراسات، ليدرك مدى ثرائها وتنوعها وشمولها:

- المملكة العربية السعودية عند منعطف عصر جديد ـ وثائق من الأرشيف التاريخي لسان بطرسبرج.
- نظرة المستشرقين للملك عبد العزيز وجهوده في توحيد المملكة العربية السعودية.
- جوانب من شخصية الملك عبد العزيز.
- توحيد المملكة وبناؤها في عهد الملك عبد العزيز.
- الجانب الإنساني في شخصية الملك عبد العزيز من خلال علاقته بأخته نوره.
- توفير المياه للرياض في عهد الملك عبد العزيز.
- الإدارة المحلية في عهد الملك عبد العزيز.

إلى غير ذلك من هذه الدراسات والبحوث القيّمة التي لا أشك أنها تكوّن سجلاً حافلاً، لم يسبق له مثيل، سوف يرجع إليه المؤرخون والباحثون مراراً لسنوات طويلة في المستقبل. ولا بد أن منظمي (مؤتمر المملكة العربية السعودية في مائة عام) قد وضعوا في حسابهم طباعة هذه الدراسات ونشرها. وكلها تستحق أن تقرأ بعمق وتمحيص.

لا يختلف اثنان أن الملك عبد العزيز رحمه الله، قد اجتمعت له، في طاقته الجسدية والعقلية والروحية، وحياته ونضاله ونجاحه في إنشاء دولة قوية موحدة عظيمة التأثير، من عناصر الفرقة والشتات والضعف، وانعكاسات شخصيته وانعكاسات دولته على امتداد تاريخها حتى اليوم ـ أقول إن هذا الإنسان الفذّ قد اجتمعت له العناصر جميعاً التي تتألف منها ملحمة إنسانية بطولية، في أعلى درجات الإنسانية والبطولة.

ولعله، رغم كثرة المؤرخين له، وهذه الدراسات الأخيرة عنه ـ وهي كلها جهد عظيم بلا شك ـ ما يزال ينتظر مؤرخاً مثل (إميل لودفج)، يملك دقة المؤرخ وصبره، وخيال الكاتب الروائي، يكتب عن الملك عبد العزيز، كما كتب (إميل لودفج) عن نابليون بونابرت.

كل ذلك التاريخ الـ Micro، عن نابليون. لم يعد يذكره أحد عدا المختصين، وبقي كتاب إميل لودفج يلهب خيال الناس جيلاً بعد بعد جيل.

كانت حياة الملك عبد العزيز ملحمة إنسانية. وذلك يعني بالضرورة أنها حياة مفعمة بـ «الرومانس».

بعض تلك الدراسات القيمة كان فيها شيء من ذلك الجانب الرومانسي. لكنني أشك أن أياً منها اقترب من تلك اللحظة البكر، حين كانت أشياء جسيمة توشك أن تولد، كما تجد في هذه الأبيات من أوبريت الأمير بدر بن عبد المحسن «فارس التوحيد»:

فوق أربعين وما لهم مثايل
كود الكواكب أو غوالي دررها
وحول أربعين وما حسبنا الصمايل
والقوم يحسب كثرها من ظفرها
تحزّموا بالله على كل عايل
ركبوا وحطّوا سهيل بيُسر ظهرها
وشقّوا الريادي والليالي حبايل
للموت والعدوان زايد خدرها

كـريم يـا بـرق الـسـيـوف الـصـقـايـل
في الـعـارض غـيـومـك تحـدد مـطـرهـا
غـطّـى عـلـى المصـمـك عـجـاج المخـايـل
مـن قـبـل مـا تـرى الـصـواعـق شـررهـا

هل تذكر قول ذي الرمة:

فـقـلـتُ ضـعـي ضـوء الـكـواكـب كـلـهـا
يمـيناً وضـوء الـنـسـر مـن عـن شـمـالـك؟

هذا الضوء امتداد لذلك. والمكان هو نفسه. المساعي الإنسانية الضخمة تحتاج إلى التاريخ، نعم. ولكنها تحتاج أيضاً إلى شطحات أبعد من التاريخ.

الطيّب صالح

مختارات

١٠

مقدّمات

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مقدّمات

الطيب صالح

مختارات

١٠

مقدّمات لدواوين شعر وكتب

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

10- Introductions to Poetry Collections and Other Books

by El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب

محمود صالح عثمان صالح

First Published in January 2009
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 418 - 2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٩

مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: محمد حمادة

المحتويات

مقدمة ديوان «غابة الأبنوس»
للشاعر صلاح أحمد إبراهيم ٩

مقدمة «الأعمال الشعرية»
للشاعر سيد أحمد الحردلو ٢٥

مقدمة كتاب «العباسي: الشاعر التقليدي المجدد»
لمؤلفه الدكتور حسن أبشر الطيب ٣٧

مقدمة ديوان «حب للناس والوطن»
للشاعر الدكتور عبد الواحد عبد الله يوسف ٥١

مقدمة كتاب «بين الأميرين الشاعرين: امرئ القيس والحاردلو»
(تحفة التشابه المذهل)
إبراهيم القرشي ٦١

مقدمة كتاب «خواطر وذكريات دبلوماسية»
للسفير (م) أحمد محمد دياب ٧١

مقدمة كتاب «معاوية نور»
لمؤلفه الأستاذ السني بانقا ٧٧

مقدمة كتاب «زمن الصمت العتيق»
لمؤلفه الفنان التشكيلي الدكتور راشد دياب ٩٥

مقدمة كتاب جمال محمد أحمد: رسائل وأوراق خاصة
عرض وتحليل الأستاذ عثمان محمد الحسن ١٠١

مقدمة ديوان «غابة الأبنوس»

للشاعر صلاح أحمد إبراهيم

ربما يكون صلاح أحمد إبراهيم هو أكثر الشعراء السودانيين «سودانية» في شخصه وفي شعره. فهو قد وُلد ونشأ في مدينة أم درمان، التي نقول عنها إنها العاصمة «الوطنية» للسودان ونعتبر أنها خلاصة ما يمكن أن يُسمّى بِـ «الحضارة السودانية». ليست أم درمان الآن كما كانت منذ ثلاثين أو أربعين عاماً، فقد تغيّرت بها الأحوال وأصابتها عوامل التغيير، وإن كان ما يزال فيها بقية من طابعها القديم. كانت في ذلك العهد قريبة من هيئتها التي كانت عليها كحاضرة للدولة المهدية، فقد أنشأها الإمام المهدي على الضفة الغربية للنيل، مبتعداً بها عن الخرطوم التي كانت حتى في تلك الأيام «إفرنجية» الطابع. وجاءت القبائل من الشرق والغرب والشمال والجنوب فأقامت فيها. ولما عمرت، بدأ الناس ينزحون إليها، في هجرات هادئة متدرّجة ليست عنيفة كهجرات الناس هذه الأيام إلى المدن. امتزج الناس مع مرور الزمن، وامتصّت المدينة

مؤثرات وافدة من الوطن العربي والإسلامي: من مصر والمغرب والحجاز وغرب أفريقيا وحتى من الهند وأبعد، فتكوّن نسيج جذّاب فريد من نوعه.

ولمّا فتح الإنجليز بلاد السودان، اهتمّ الحكم الجديد اهتماماً خاصاً بمدينة أم درمان، إذ كانت مركز المقاومة لوجوده، فكأنه أراد أن يروّضها ويستلّ سخيمتها، فأنشأوا فيها من المدارس أكثر مما أنشأوا في أي مدينة أخرى في السودان، فأتيحت لأهل أم درمان فرص لم تُتَحْ لغيرهم، وكانوا أسبق إلى الأخذ بهذه المعارف الجديدة التي جاء بها المستعمرون. لكن المدينة استوعبت كل ذلك بطريقتها الهادئة المتحضرة، فتغيَّرت وكأنها لم تتغير. وكان الوافد إليها من أنحاء السودان الأخرى، يجد فيها شيئاً مختلفاً، ولكنه مألوف له في الوقت نفسه، ليس بعيداً عن إدراكه كل البعد. كل وافد يجد في أم درمان أهلاً وعشيرة، ويجد أن أحوالهم وأسلوب عيشهم أحسن من حاله وعيشه، ومع ذلك فهي حياة يألفها ولا تجعله يحسّ بالنفور والوحشة.

تلك هي أم درمان التي نشأ فيها الشاعر، في أسرة ذات علم ودين، تمتدّ جذورها إلى شمال السودان. وفي هذه الأسرة الأمدرمانية المحافظة، نشأت فيما بعد اتجاهات ثورية تحررية، ولكن في نطاق هذا النسيج الفريد. فأخت الشاعر، فاطمة أحمد إبراهيم، من الأعضاء البارزين في الحركة الشيوعية في السودان، وكانت أول سيدة تدخل البرلمان. وهي مناضلة صلبة، لم تفتر همّتها طوال عهد النميري وكانت في طليعة من تصدّوا لذلك العهد. ورغم ذلك فهي في حياتها سيدة عادية كسائر السودانيات، وهي مؤمنة متمسكة بشعائر دينها، ولا ترى في ذلك تناقضاً مع ولائها السياسي.

تشرَّب صلاح أحمد إبراهيم هذا الروح الأمدرماني المتحضّر. وكانت مدارس أم درمان في الأربعينات والخمسينات، حين بدأ الشاعر تعليمه، هي خير مدارس السودان، يُعَلِّمُ فيها أساتذة أفذاذ لمعت أسماؤهم بعد ذلك في مجال الحياة العامة. كانت توجد جماعات فكرية وأندية أدبية، وتحفل المدينة بالليالي الشعرية التي كان يقيمها أحياناً شعراء كبار يفدون من مصر خاصة مثل علي الجارم وعباس محمود العقاد. بل إن مدينة أم درمان اعتنت بالمسرح أيضاً حتى في ذلك الزمان، ونشأ فيها مسرح سوداني أصيل ومتطور، وكانت تفد إليها الفرق من مصر. وكانت الأندية تعمر بالنشاطات السياسيَّة. ويمكن أن يتخيّل المرء أن الشاعر وهو في تلك السن المبكرة، مع حساسيته المتفتحة وعقله الذكي وحاسة حب التعرف على الدنيا المحيطة به، وهي حاسة لا مفر للشاعر منها، لا بد أنه خاض في غمار ذلك كله. استمع إلى أغاني سرور وخليل فرح وإبراهيم عبد الجليل وزنقار وغيرهم، ورأى أو لعلَّه عرف العبادي وود الرضى وغيرهما وشارك في حفلات الأعراس الأمدرمانية التي لم يكن لها مثيل في أي مكان آخر في السودان. ولا بد أنه كان يراقب بعيني الشاعر، سواء أكان يعلم أنه سوف يكون شاعراً أم لا، ويختزن التجارب وينتظر.

ثم دخل جامعة الخرطوم عام ١٩٥٤، وقد كانت تلك نقلة كبيرة للناس الذين يجيئون من أطراف السودان في الأقاليم، أمثالنا. وكان يبدو لنا أن «أولاد أم درمان» ينخرطون في ذلك المكان الغريب بيسر كأنه شيء اعتادوا عليه من زمن. هنالك على أي حال، كما يمكن أن يتخيّل المرء، انفتحت له آفاق أوسع. كان قد قرأ القرآن الكريم وحفظ أجزاء منه على يدي والده، وقرأ بعض المتون وقرأ النحو والصرف، وألمّ بالشعر الجاهلي والأموي والعباسي وبعض

الشعر الحديث من السودان ومصر وبلاد الشام والعراق. ولكن هذا مكان مختلف ومناهج أخرى. كانت جامعة الخرطوم في تلك الأيام، كما أرادها الإنجليز، مكاناً لتعليم النخبة من السودانيين، على غرار الجامعات البريطانية، تدخلها قلة قليلة من المحظوظين، بعد جهد شاق ومنافسة عنيفة. كانت فيها عيوب التعليم النخبوي بالطبع، ولكن بالمقابل كانت فيها كل حسنات تعليم الصفوة. هنالك تعرض الشاعر لتأثير أساتذة أجلاء في اللغة العربية، أذكر منهم الدكتور عبد المجيد عابدين والدكتور محمد النويهي والدكتور عبد العزيز إسحق، وهم مصريون، والدكتور عبد الله الطيب وهو من نوابغ السودانيين، والدكتور إحسان عبّاس وهو فلسطيني ولعلّه كان أعظم أثراً على الشاعر من غيره، وما تزال تجمع الشاعر به صداقة حميمة إلى اليوم.

ولا بد أن الأدب الإنجليزي الذي كان يُدَرَّسُ بعناية فائقة في جامعة الخرطوم تلك الأيام، فتح عيني الشاعر على دنيا واسعة جديدة عجيبة. أحبّ الشعراء الرومانسيين الإنجليز، كما لا بد أن يفعل الإنسان المرهف الحسّ في تلك السن الغضّة. أحبّ كيتس ووردزورث وكولردج وبايرون وشلي، وخاصة شلي.

وهكذا ترى أن صلاح أحمد إبراهيم خرج من صفوة السودانيين الأمدرمانية، ودرج في مدارسها وكانت صفوة مدارس السودان، واشتدّ عوده في جامعة الخرطوم، وهي جامعة «للصفوة» على غرار الجامعات البريطانية. فهل صار «نخبويّاً» في فكره وشعره، وهل لاذ إلى برج عاجي ينظر من عليائه إلى الحياة والناس؟

أبداً. صحيح أن صلاح لا يمكن أن يسمى بحال من الأحوال

شاعراً «جماهيريّاً»، فشعره مصقول أنيق فيه عناية كبيرة بالـ «شكل» (Form). وهو شعر مثقّف لا بد لقارئه من ذخيرة ثقافية ليفهمه كما يجب، ويستمتع به على أحسن وجه. ولكن الشاعر، لأنه من أم درمان، ولأنه نشأ في تلك البيئة التي وصفتها لكم، استوعب كل هذه المؤثرات بسهولة شديدة، فكأنها أشياء كان يعرفها أصلاً. وتلك على أي حال سمة قديمة في وادي النيل، وفي السودان الشمالي بصفة خاصة. فأنت لا تجد في هذا الديوان، كما تجد في شعر الفيتوري مثلاً، وحتى في شعر محمد المهدي المجذوب، وهو شاعر يمكن أن يقارَن بصلاح أحمد إبراهيم في «سودانيته» ــ لا تجد دلائل على العنف، رغم أن بعض مواضيع القصائد عنيفة، ولا على هذا الصراع الحضاري الحادّ، ولا على أي إحساس غامر بالمرارة. ها هنا قصائد ألـجَم «الشكل» فيها حدة المواضيع التي عالجها الشاعر وأضفى عليها على وجه العموم طابعاً تأمُّليّاً. ولعل أكثر موضوع عنفاً من المواضيع التي تطرقت إليها قصائد هذا الديوان، هو موضوع قصيدة «عشرون دسته». ففي عام ١٩٥٦، وكان السودان حديث عهد بالاستقلال، أضرب مزارعو مشروع «جودة» الزراعي على النيل الأبيض وامتنعوا عن تسليم القطن لإدارة المشروع التي لم يعودوا يثقون فيها، وقد كانوا إسميّاً شركاء في المشروع، فاعتقلتهم سلطات الحكومة وزجّت بهم، وهم زهاء مائتي رجل، في سجن ضيّق، فماتوا جميعاً اختناقاً. وقد أحدثت هذه الواقعة الأليمة هزّة عنيفة في ضمير الشعب السوداني.

فاضت قريحة الشاعر بقصيدة صوَّر فيها المأساة تصويراً دقيقاً وهاجم فيها الجناة وعلى رأسهم سلطة الدولة، هجوماً صريحاً. وقد بدأها هكذا:

لو أنَّهم
حزمةُ جِرْجيرٍ يُعَدُّ كي يُباعْ
لِخَدَمِ الإفرنجِ في المدينة الكبيرةْ
ما سَلخَتْ بشْرَتهم أشِعَّةُ الظَّهيرةْ
وبان فيها الإصفرارُ والذبولْ
بل وُضِعُوا بحذرٍ في الظلِّ في حصيرةْ
وبلَّلت شِفَاهَهُمْ رَشَّاشَةٌ صغيرةْ
وقبَّلت خدودَهم رُطوبَةُ الأنداءْ
والبهجةُ النضيرةْ.

هذه مأساة حقيقية، صاغها الشاعر بحذق في قالب مؤثر. ومع ذلك فإنني حين أقرأ القصيدة أحسّ بالحزن أو إذا شئت «الأسى» ولا أحسّ بالغضب. هل لأن الشاعر بدأها بهذه العبارة الحزينة «لو أنهم...»؟ أو أنّ ذلك بسبب خاصية في طبعي، فأنا أكثر ما أحسّ بالحزن وليس بالغضب.

ثم انظر إلى قصيدته عن حرب الجزائر التي سماها «أغنية التروبادور للجزائر»، وهي قصيدة رائعة بكل المقاييس. هذا ما أعنيه بسطوة «الشكل» على «الموضوع». فمنذ البداية يخلع الشاعر على جسد القصيدة عباءة «التروبادور»، الشعراء المغنّين الجوّالين في العصور الوسطى. فكأنّ عاشقاً يجلس بالليل تحت شرفة حبيبته التي هي الجزائر هنا، يبثّها أشجانه. ليس ذلك فحسب ولكنك تجد في مطلع القصيدة هذه الأبيات:

وأنتِ يا حبيبتي في شهرِكِ الأخيرْ
تَحرَّكَ الجنينُ، أَشفقي عليه من إجهاضْ
حتى إذا اشتدَّت عليكِ قبضةُ المخاضْ
هُزِّي إليكِ يا حبيبتي بِجِذْعِ نَخْلةِ الشُّعوبْ
تُهْدي إليكِ كيف تطلبين رُطَبَ القُلُوبْ
وَمُهَجَ الرِّجالْ ...

ها هنا بالطبع، إشارة صريحة إلى الآية الكريمة في سورة «مريم»: ﴿**وهُزِّي إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنِيًّا**﴾ وسورة مريم عندي هي Pieta القرآن، يكتمل فيها العنصر الذي يُسمَّى في الدراما الإغريقية Pathos أي «الأسى». لذلك فإن هذه القصيدة يشيع فيها روحٌ رومانسي وروح من الأسى. ويظلّ هذا الإحساس يلازم القارىء، أو يلازمني أنا على أي حال، حتى حين تزداد الأبيات عنفاً:

يا ليتني رصاصةٌ تُطلِقُها الجزائرْ
أو شمعةٌ ساهرةٌ تُؤْنسُ لَيْلَ ساهِرْ
أو «كلمةُ السِّرِ» تقودُ ثائراً لثائرْ..
أو خنجرٌ طيَّ فِدائيٍّ خَفيٍّ ماكِرْ
أَغيبُ في مُهْجَةِ جاسُوسٍ وجَنْبِ غادِرْ...

يجب أن أسارع إلى القول بأنني لا أعتقد بأن هذا الطابع «التأمّلي» يقلّل بأي حال من قيمة الشعر. بل على العكس، إنه

يزيده عمقاً وقوة. فهذا الشاعر، فوق كل شيء، شاعر «صلب». ولكن شعره ليس انفعالاً وقتياً لأحداث مرهونة بزمان ومكان، بل هو مشاركة مهمة في رفد نهر الشعر والفن في «صيرورته» اللّامتناهية. وحسبك أن هذه الأبيات عينها، تنطبق في يومنا هذا، على السودان، والأمّة العربية، بل على الإنسانية كلها وهي حبلى بجنين يتشكّل في رحم الغيب. كذلك أقول إن الشاعر ليس دائماً هكذا، فهو في مقالاته الصحفية، يغضب أحياناً غضباً جامحاً، ويقسو أحياناً قسوة موجعة. ولكنه فيما يبدو، حين يجلس ليكتب الشعر، تنزل عليه «سكينة» هي سكينة الفن في محرابه الجليل.

صلاح أحمد إبراهيم «سوداني» بشكل كامل ومطلق، وأنا لا أعرف شاعراً يعشق السودان كما يعشقه صلاح أحمد إبراهيم. الفيتوري وآخرون يحبّون السودان أيضاً، ولكن كأنهم لا يحبّون السودان الحقيقي، وكأنهم يحبّون «مثال» السودان في عقولهم. وحتى محمد المهدي المجذوب رحمه الله، وقد قتله حب السودان، كان يبدو أحياناً كأنه يتمنّى لو انعتق من أسر ذلك الحب. ولكن صلاح أحمد إبراهيم يحبّ السودان جملة وتفصيلاً. وهو حب مبنيّ على معرفة دقيقة وليس على مجرد «وهم». وفي هذا الديوان، وفي ديوانه الثاني «غضبة الهبباي» أدلّة كثيرة على دقة معرفته بالسودان. ربما لأنه نشأ في أم درمان فقد وجد السودان كله مجتمعاً هناك، في متناول يديه.

بعد ذلك سافر، ودرس وبحث، وتعمّقت معرفته. وهي معرفة تشمل كل شيء، البيئة والتاريخ والشعر والفن والمديح واللهجات وحفّاظ القرآن ومشايخ «الخلاوى» وشعراء الدوبيت، لذلك، فهو حين يطرق موضوعاً ما، فإنه يوفّيه حقه من التفاصيل الدقيقة،

ويجعلك تحسّ أنك تقف مع الشاعر في مكان بعينه وفي زمان بعينه، رغم أن القصيدة تحلّق بك بعد ذلك في آفاق أبعد. ولنأخذ قصيدته «استسقاء». هنا، تجد الشاعر يذكر «التّال» و«الأنيس» وهي أعشاب تنمو في البادية، بعد هطول المطر، ويذكر «التّبر» وهو زهر أصفر اللون، ويذكر «الدُّعاش» وهي كلمة موحية، تعني تلك الرائحة العجيبة التي تتنفّس بها الأرض المرْويّة، بطينها وأعشابها. ويذكر «المطامير»، وهي مخازن الغلال في جوف الأرض ومجرد ذكرها يوحي بالخصب ورغد العيش. يقول:

ومثلما يَنْفَشُّ مَغْبونٌ علينا أَمْطِري
على بلادِنا اللَّهْثَى وعُشْبِنا اليَبيسْ

وكلمة «يَنْفَشُّ» يستعملها السودانيون كناية عن تنفيس الصدر من الغضب. وقد قال الحاردلُّو قبلاً وهو يصف هطول المطر في أرض «البُطانة» في الشرق:

الـخَبَر الأكـيدْ قالوا البُطانة اتْرشَّت
وساريةً تَبقْبِقْ للصّباح ما انفشَّتْ.

ويقول صلاح أحمد إبراهيم في هذه القصيدة:

وحينما «تَرْزِم» باصطِخابْ
نسجدُ شاكرينَ يا سحابْ.

وكلمة «يرزم» التي هي هدير الرعد، تحدث في القلب صقْعة حين يتذكر الإنسان قول حاج الماحي:

كُلْ ليلةْ نازْلين فوقْ عُمَدْ

حِسْ طارْنا «يرزمْ» كالرَّعَدْ.

فهذا إذاً شعر، يفعل ما يفعله الشعر العظيم دائماً. إنه يخاطب حواسّك جميعاً، السمع والبصر والشم واللمس، ويطلق لخيالك العنان، ويعطيك صوراً تنادي لك صوراً أخرى، ويربطك بما أنت فيه الآن، وبما هو كامنٌ في وجدانك، من حيث تدري ولا تدري. ثم إذا وصف لك منظراً فكأنك هنالك بالفعل، تشاهد بأمِّ عينيك. خذ مثلاً قوله في وصف بعض أعراض ذلك الجفاف والقحط:

قد جَفَّ طيـنُ قاعِهِ على هَوَانْ

كَثفْلِ قهوةٍ جَفَّ على فُنْجَانْ

وفي المكان

آثارُ أقدامٍ كثيرةٍ وشِلْوُ قِرْبَةٍ وعظْمتانْ

لِتُرْبَةٍ عطْشانةٍ شُقُوقُها جِراحْ

تَنْزو بغير دمْ

أبخِرةً كأنها حِمَمْ.

هذه دِقَّة مبعثها الحب، فالشاعر عاشق للمكان، كلِفٌ به، يعشق طينه الذي جف وتشقق، وشلو القربة وعظام الحيوان الذي هلك من الظمأ. وفي قصيدته «في الغربة» يبوح الشاعر صراحة بهذا الحب:

أتمثَّلُ أُمِّي، إخْواني،
والتَّالي نصفَ الليل طِوالَ القرآنْ
في بلدي،
حيث يُعَزُّ غريبُ الدَّار، يُحَبُّ الضَّيفْ
ويُخَصُّ بآخر جُرْعةِ ماءٍ عزَّ الصَّيفْ
بِعَشَا الأَطفالْ،
«بِبَليلِ» البِشْرِ وبالإيناسِ إذا ما رقَّ الحالْ.

نعم، هذا هو «الوطن» الذي عرفناه وأحببناه ولم نزل نبكي عليه. وصلاح أحمد إبراهيم سيد المحبين جميعاً، فهذه أبيات موجعة إلى حدّ البكاء. وسوف تجد في ديوانه «غضبة الهبباي» شعراً أكثر إيلاماً. وفي هذه القصيدة يقول صلاح قولته الشهيرة:

والنِّيلُ بَعيدْ،
النِّيلُ بَعيدْ.

ونحن نعلم أن النيل بعيد ليس بمعنى المسافة المادية فقط، ولكن بمعنى «الحلُم» الذي ما يفْتأ يزداد «نؤياً وبعداً» كما قال التجاني يوسف بشير. وكأنما الخطوب التي ألمّت بنا منذ عهدنا بالاستقلال، والأعوام التي مرّت، كل عام يجيئنا ببلوى جديدة تهتف بنا: «النيل بعيد... النيل بعيد... النيل بعيد...». ولكنه هتاف لن يفتَّ من عضدنا، ففي طبعنا ذلك التفاؤل القديم، الذي عبّر عنه شاعرنا الآخر في قوله وهو يخاطب جمله مستحثّاً:

«أسْرِعْ، جَودِعْ، أمسيتْ، والمواعيد فاتَنْ»

لكن لا يتبادر إلى الذهن أن حبَّ الشاعر لوطنه كل هذا الحب، يحصر أفقه ويُعمي عينيه. فقصائد هذا الديوان تطرق مواضيع متنوعة وتمتدّ من كينيا إلى الجزائر إلى الصحراء الغربية. لكن هذا الحب هو نقطة الانطلاق إلى العالم. فهو عربي عميق العروبة، ولكنه ينطلق إلى العروبة بمعناها الواسع، من عروبة السودان نفسه، وكأنه يتعمّد أن يقول «إن عروبتنا قديمة وأصيلة وليست شيئاً طارئاً علينا». لذلك فهو يستعمل، كأنما عن عمد، كلمات من العامية السودانية، كلها كلمات فصيحة، ويستعمل صوراً شعرية في سياق جديد، ترتبط في الوقت نفسه بالتراث الشعري السوداني الذي يرتبط بدوره أوثق ارتباط بتيار الشعر العربي من قديم الزمان. ثم هو مسلم عميق الإسلام بهذا الروح السوداني، الذي يغلب فيه التسامح وسعة الصدر والبعد عن التزمت. وقد أُثِر عن صلاح أحمد إبراهيم قوله نحن عرب وأكثر. هذا الشيء الإضافي، هو تلك الروافد التي أخذتها مدينة أم درمان من النوبة في الشمال والبجا في الشرق والزنوج في الجنوب وغزلتها كلها في نسيج فريد، قديم جديد. ولا يملك الإنسان إلّا أن يصدق الشاعر، حيت يعلن عن «مذهبه» ببساطة في هذه الأبيات:

فأنا قلبي مأوى الضعفاءْ

وأنا حبي خبزٌ للمحرومين وللتُعَسَاءْ

وأنا مَن كفِّيْ

ألواحُ نَجاةٍ وقواربْ

وأصابعُها تمتدُّ حِبالاً للهاوي تمتدُّ دُروباً للهاربْ
أبوابي ليس بها حُرَّاسْ
يفتحُها حبي للناسِ، لكلِّ الناسْ.

نعم. الشاعر يصف نفسه، ويصف مدينته أم درمان، ويصف السودان كما نحب جميعاً أن يكون السودان.

بقي أن أذكر، أن في حياة الشاعر وفي شعره، جانباً سياسياً مهماً لا يمكن أن يغفله الدارس لشعره. ولكنني هنا لا أكتب نقداً ولا دراسة، وكل ما أردته من هذه الكلمات، أن أعبّر عن مدى حبي للشاعر وشعره. وأنا أصلاً أؤمن بأن أحسن النقد ما كتب عن محبَّة. لذلك أكتفي بالقول إن صلاح أحمد إبراهيم، لأسباب عدة، ألقى بنفسه في خضمّ العمل السياسي منذ صباه الباكر، وجذبته أفكار اليسار الماركسي. ولكنه، كما كان حتماً أن يحدث لشاعر في مثل حساسيته واتساع آفاقه، انفلت من إسار ذلك الالتزام السياسي، بل إنه تصدَّى بجرأة عظيمة في مقالاته الصحفية وفي بعض قصائده لنقد الحزب الشيوعي، وأمينه العام بالذات، عبد الخالق محجوب. كانت جرأة عظيمة لأن الحزب الشيوعي في تلك الأيام كانت له سطوة وجبروت. وقد عمل الشاعر فترة طويلة في وزارة الخارجية وتقلّد مناصب عدة، كان آخرها منصب السفير في الجزائر. وقد استقال من ذلك المنصب، حين أعدم النميري الشفيع أحمد الشيخ وعبد الخالق محجوب وآخرين بعد المحاولة الانقلابية التي قادها هاشم العطا. وأنا أعتقد أنه لم يفعل ذلك فقط لأن الشفيع أحمد الشيخ كان زوج أخته فاطمة، ولكن من ناحية المبدأ، رغم أنه كان على خصومة فكرية حادة مع عبد الخالق محجوب، ولم يكن مؤيداً

لذلك الانقلاب. ثم استقرَّ في باريس منذ ذلك الحين، يعيش حياة بسيطة لم تخلُ من العنت في بعض الأحيان، يقرأ ويكتب ويتعرّف على الثقافة الفرنسية أكثر فأكثر، ويطوي جوانحه على ذلك الحب الدفين للسودان الذي ملك عليه أقطار نفسه.

هذا شاعر كبير ومتميّز من شعراء العربية في هذا العصر. وأنا لا أقول ذلك جزافاً فهذا رأي اقتنع به الناس جميعاً الآن. وهذا الديوان عبارة عن مائدة عامرة لا تنفد خيراتها. لقد نُشر منذ أوائل الستينات والشاعر بعد غض الإهاب، ومع ذلك فهو ناضج مكتمل. نفد الديوان واحتجب طويلاً، لذلك فهذه مناسبة تدعو للفرح، إنه يصدر من جديد في ثوب قشيب. ويضيف إلى سعادتي أن صديقنا العزيز، صاحب المواهب الفذّة المتعددة، الشاعر الناثر الرسّام الخطّاط عثمان عبد الله وقيع الله قد صمّم له الغلاف ووضع له الرسوم واللوحات الداخلية. فاجتماع موهبتين كبيرتين كهاتين في عمل واحد، هو بحد ذاته حدث كبير.

وبعد، فإن الشاعر قد اختار لديوانه هذا العنوان الرشيق المُوحي «غابة الأبنوس». إن الأبنوس شجر ينمو عندنا في الغرب وثمة بلدة تسمى «بابنوسه». وهو حطب يجمع بين المتانة والجمال. كذلك هذا الشعر. وهو حطب أسود اللون، ولكنه سواد تخالطه ألوان كثيرة تتراءى للعين، وتشع في اتجاهات شتى، فكأن الضوء يتكسّر وينعكس على لوح من البلّور. إنه خشب جذّاب، ناعم الملمس إذا صُقل، ولكنه صلب يستعصي على الكسر.

وقد أفصح الشاعر عن شيء من هذا، في أبيات حدا بها الركبان في السودان:

أنا من أفريقيا: صحرائها الكبرى وخطِّ الإسْتِواءْ
شَحَنتْني بالحَراراتِ الشُّموسْ
وَشوَتْني كالقرابيـنِ على نارِ المجوسْ
لَفَحتْني فأنا منها كَعُودِ الأَبنوسْ.

نحن في السودان نحتفي بهذه الأبيات بصفةٍ خاصة، ونردّدها ونشدو بها، لأننا نحسّ بأنها «تلخِّصنا» وتعرب عن ما نظن أنه «هويتنا» ــ كما يُقال هذه الأيام.

مقدمة «الأعمال الشعرية»

للشاعر سيد أحمد الحردلو

الصفتان الغالبتان في سيد أحمد الحردلو، شاعراً وإنساناً هما العذوبة والأريحية. يطرب للأشياء التي تستدعي الطرب، ويحزن للأشياء التي تستدعي الحزن، ويغضب للأشياء التي تستدعي الغضب. يفعل ذلك باندفاع ووضوح. وأحياناً تجتمع فيه الأحاسيس في الموقف الواحد وفي القصيدة الواحدة. ورغم أنه خبير بصناعة الشعر، شديد العناية بجرس الكلمات وحيوية الأسلوب، فأنت حين تقرأ شعره أو تسمعه، يخيَّل إليك أن الشعر يتدفق تدفقاً عفو الخاطر في ساعته.

من حسن الحظ أن رجل الأعمال الكريم النبيل العاشق للأدب والفكر، الأستاذ محمود صالح عثمان صالح، قد أصدر الأعمال الكاملة لسيد أحمد الحردلو في «دار النشر التابعة لمركز المرحوم عبد الكريم ميرغني». إنها خدمة عظيمة يسديها الأستاذ محمود

للشعر ليس في السودان فحسب بل لمحبي الشعر العربي في كل مكان. ومن قبل حين أصدر مركز عبد الكريم ميرغني الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر الكبير محمد المكي إبراهيم، أدرك الناس، حتى الذين كانوا يعرفون شعر محمد المكي ويقدرونه، عمق التجربة الشعرية لمحمد المكي واتساعها.

الآن، سوف يجد عشاق الشعر، أن مركز عبد الكريم ميرغني قد جمع أشتات قصائد الحردلو، وقدمها لهم، كما يفعل دائماً في دواوين مطبوعة طباعة أنيقة، وسوف يدركون، إن لم يكونوا قد أدركوا من قبل، ثراء موهبة سيد أحمد الحردلو الشعرية، وغزارتها وتنوعها.

إن مركز عبد الكريم ميرغني، قد صار في فترة قصيرة منذ إنشائه، منارة مشعّة، لنشر الأدب السوداني والثقافة السودانية، وأصبح مثلاً يحتذى في مساهمة الخيرين من ذوي القدرة في السودان في خدمة الوطن، دون الاعتماد على الدولة.

ولا بد من الإشادة بالجهد الذي يبذله الدكتور حسن أبشر الطيب بكرمه المعهود في دعم هذه المشاريع الثقافية التي ينهض بها مركز عبد الكريم ميرغني، وكذلك المساهمة الفعّالة التي يبذلها الشاعر النابه الأستاذ إلياس فتح الرحمن.

أقول، إن القارىء المهتم بالشعر، سوف يجد الآن الرحلة الشعرية الخصبة للشاعر سيد أحمد الحردلو قد صارت كلها متاحة له، وهي رحلة استمرت منذ عام ١٩٦٠ حين أصدر الشاعر ديوانه الأول (غداً نلتقي) حتى دواوينه الأخيرة مثل (بكائية على بحر

القلزم) و(الخرطوم يا حبيبتي) و(خربشات على دفتر الوطن) و(نحن من علّم الغرام الغراما). وسوف يسعد القارىء السوداني خاصة حين يجد أيضاً شعر الحردلو بالعامية السودانية في دواوين مثل (مسدار عشان بلدي) و(سندباد في بلاد السجم والرماد) و(أجيك عاشق مسافر ليل) و(مناحة للزمن القبيل). وفي هذه المجموعة قصائد يفرح القارىء السوداني أن يجدها، فقد غناها المغنون وحدا بها الركبان.

إنه إنتاج غزير يحق لأي شاعر أن يفخر به، خاصة أنه يتميز منذ بواكيره الأولى، بهذه العذوبة والأريحية اللتين أشرت إليهما. الشاعر يحب ويكره ويرضى ويسخط ويبكي ويضحك ويتقهقر ويتقدم وينهزم وينتصر. ووراء كل ذلك، وفوق كل ذلك عاطفة واحدة طاغية في حب الوطن. وهذه العاطفة هي التي تصهر كل تلك الأحاسيس المتفرقة، وهي التي تسبغ عليها عباءة الأريحية. أما العذوبة فهي في الأسلوب والجرس الشعري والكلمات المفعمة بالإيحاءات والأحزان والأشجان.

يجد القارىء في هذه الدواوين معالم طريق رحلة الشاعر ورحلة الوطن على امتداد أكثر من عشرين عاماً.

يقول سيد أحمد الحردلو في قصيدة من ديوانه (نحن من علم الغرام الغراما):

أعذريني أن كنت أغلظت صوتى

فهو شوق المتيمين القدامى

أم تدرين كيف يختلج الحبّ
حين تمضي الأيام عاماً فعاما؟
أنه صرخة المشاعر في الناس
وصوت المعذبين اليتامى.

وفي قصيدة (اعترافات عاشق في الأسر) من ديوان «بكائية على بحر القلزم»، يقول الشاعر مخاطباً المحبوبة:

فأنت جميع النساء اللواتي
تريّقن فوق ذرى الأمكنة
وأنت جميع النساء اللواتي
سيولدن في مقبل الأزمنة
ويمنحن شعراً جديداً وفكراً
ويكتبننا وطناً أحسنا.

كان سيد أحمد الحردلو محظوظاً في البيئة التي وُلد ونشأ فيها، فوالدته (دنقلاوية) من (ناوا)، في شمال السودان الأقصى. ثمة تراث الحضارة النوبية العريق. النوبيون هم الذين علّموا بقية مناطق شمال السودان تقنيات الزراعة وفنون العيش والرقص والغناء. وقد نبغ من تلك الديار في تاريخ السودان المعاصر، شعراء كبار بالفصحى مثل حمزة الملك طمبل، تاج السرّ الحسن، ومحيي الدين فارس ومحيي الدين صابر، وبالعامية مثل خليل فرح. ونبغ مطربون كبار مثل محمد وردي. وربما تكون (العذوبة) و(الطلاوة)

التي يجدها القارىء في شعر سيد أحمد الحردلو جاءته من هناك، من ناحية والدته.

ووالده من قبيلة (الشايقية) العربية العتيدة من (تناقسى) في الشمال الأوسط. وهي قبيلة اشتهرت بالفصاحة وطلاوة الحديث وروح الدعابة. ومثل أبناء عمومتهم (الجعليين) اشتهروا بالفروسية والنخوة. وقد جرَّت هذه (النخوة) على (الشايقية) عنتاً كثيراً على مرّ العهود في السودان. وفي هذا العهد الماثل الآن، دفعت (تنقاسى) وحدها ثمناً غالياً جداً. ولم ينج سيد أحمد الحردلو نفسه من الظلم، فقد دخل السجن في عهد النميري، وأخرج من وظيفته في هذا العهد، عهد الإنقاذ، وقد كان سفيراً للسودان في اليمن. وفي ذلك يقول الشاعر:

أشهد أنني أحب وطني
وأن ذلك الحب قد جرّحني
ونال من عافيتي وبدني
ورغم هذا كله ..
شرّدني حكّام وطني.
فالحمد للّه
فإن ظلمهم
أنصفني
والشكر للّه
فإن كيدهم

توّجني.
أمير هذا الزمن.

ولم يعدّ الشاعر الحقيقة، فإن حبّه لوطنه، من بعض ما سببه له، أنه أصابه بداء الكلى، نسأل اللّه له الشفاء. وصحيح أن شعب السودان العظيم قد توّجه واحداً من أمراء هذا الزمن بسبب وقوفه الباسل في وجه الظلم والطغيان في زمن النميري واليوم في عهد (ثورة الإنقاذ)!

هذا، ومن بعض الوجوه الكثيرة لتأثير البيئة الشمالية على شعر سيد أحمد الحردلو، ما تعبّر عنه هذه القصيدة الجميلة الشديدة العذوبة، وعنوانها (آن للوردة أن تنمو) يقول:

كيف للوردة أن تنمو
وللعصفور أن يشرب في النيل
وللطفلة أن تلهو
على رمل الفرات.
كيف يأتي الشعر والعشق
ويأتي الحسن للدّنيا
فتزدان
وتختال الحياة
كيف للإنسان
أن يسعى

وللحلوة أن تحلم بالحلو
وللأرض السلام.
كيف هذا العالم العربي ـ باللّه ـ ينام
بينما يجثو على قارعة الحزن
مهاناً ...
ومداناً ...
ومداناً ...
وملام ...!

القصيدة كلها، وهذه الأبيات، فقط جزء منها، كأنها نظمت على إيقاع رقصة من منطقة (الشايقية) تسمى (الدّليب). وهي رقصة متأججة قريبة الشبه برقصة (الدبكة) اللبنانية إنما هي قصيدة لا تهدف إلى إشاعة الفرح، بل هي قصيدة حزينة تنتهي نهاية حزينة. قصيدة يختلط فيها الحزن بالغضب والطرب. ولكنه طرب مثل طرب حمامة أبي العلاء المعري، التي غنت غناء كأنه بكاء، وبكت بكاء كأنه غناء.

بعد أن أكمل سيد أحمد الحردلو تعليمه الثانوي في مدرسة وادي سيدنا العتيدة في زمانها، قبل أن يحولها العسكر إلى قاعدة عسكرية، لم يتجه إلى جامعة الخرطوم بل سافر إلى مصر ودخل كلية الآداب في جامعة القاهرة حيث درس اللغة الإنجليزية. كان أستاذ اللغة الإنجليزية المرحوم الدكتور رشاد رشدي الذي كان مهووساً بالشاعر الأميركي الإنجليزي (تي. أس. أليوت). ولعله كان

السبب في انتشار تأثير (تى.أس.أليوت) على أجيال من الشعراء العرب مثل صلاح عبد الصبور في مصر وبدر شاكر السيّاب في العراق وآخرين.

يلاحظ المرء أن سيد أحمد الحردلو رغم دراسته للغة الإنجليزية، لا يبدو في شعره أنه تأثر بأي من الشعراء الإنجليز، خاصة (تي. أس. أليوت). وليس في شعره الإشارات إلى الميثولوجيا الإغريقية التي أغرم بها الشعراء الشباب في مصر والعراق وبلاد الشام.

في ظني أن ذلك كان أمراً متعمداً من الشعراء السودانيين الذين أنشأوا شعراً حديثاً، عربياً مغروساً في التربة السودانية. حتى الشاعر محمد عبد الحي، رحمه اللّه، الذي أخذ الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة أكسفورد، تحلّل من التأثير المباشر للشعر الإنجليزي، وكتب شعراً عربياً سودانياً منه قصيدته الرائعة (العودة إلى سنار). وهي قصيدة يمكن أن توصف بأنها ملحمية، تعتمد على التاريخ السوداني.

أما سيد أحمد الحردلو فقد كتب في عام ١٩٦٧، قصيدته التي صدرت في ديوانه (أغنية إلى يافا)، وهي من بواكير شعره، وهي (سفر العودة). إنها قصيدة بشرت بالموهبة الشعرية الكبيرة لدى سيد أحمد الحردلو، قصيدة ناصعة واضحة، ليس فيها غموض ولا التواءات، ولا إشارات مفتعلة إلى (سيزيف) أو (يولسيس) أو (ديو نيسس) أو غير ذلك وكان بوسع الشاعر أن يفعل لو أراد. يقول الشاعر ببساطة، مخاطباً (ناوا) بلدة والدته، وأيضاً مخاطباً والدته بطبيعة الحال:

فشيلي كاهلي عني
وضميني إلى صدرك.
وردّي الضوء في عيني.
ردّي الماء في شفتي.
ردّيني إلى قلبي.
وهاتي الدفّ
هاتي الخمر
واجتمعي على القيزان
وصبّي في قداح الناس
أفراحي ... وكوني جان
وهاتي أجمل الحلوات
هاتي أجمل الألحان.

إنما هي بساطة خادعة وراءها كلام كثير. فالشاعر مثلاً يكثر من استعمال كلمة (شيل) متعمداً، وهي من (شال) (يشيل) بمعنى يرفع أو يأخذ. وهي كلمة بها جذور في العربية الفصحى، يكثر السودانيون من استعمالها. وقضية ارتباط الدارجة السودانية باللغة الفصيحة في شعر سيد أحمد الحردلو، قضية تستحق الاهتمام من الدارسين.

وهو حين يقول دون تكلف «**وصبّي في قداح الناس أفراحي وكون جان**»، فلا أظن أنه قال ذلك جزافاً. كوني جان، لأن (ناوا) بلدة

والدة الشاعر، يقول أهل شمال السودان عنها أنها بلد السحر. وهذا السحر، كما قال الشاعر محمد المكي إبراهيم، ليس غير سحر الغناء والشعر والفن.

إنني أجازف بالقول أن سيد أحمد الحردلو ومحمد المكي إبراهيم والمرحوم صلاح أحمد إبراهيم وآخرين يضيق المجال عن تعدادهم من الشعراء السودانيين، صنعوا في الشعر العربي الحديث (تياراً) شعرياً له خصائص واضحة. وهو شعر فيه حداثة وتجديد وفي الوقت نفسه مرتبط أشد الارتباط بالبيئة السودانية والتراث السوداني. وقد صنعوا ذلك قبل أن تثور قضية ما يسمى بـ (الأصالة والمعاصرة) في مصر. ويلفت النظر أن هذا الشعر رغم خصائصه السودانية، فهو منتبه كل الانتباه بل مرتبط أوثق الارتباط، بالعالم العربي من شرقه إلى غربه، وما يتفاعل فيه من الأحداث الجسام.

وكان إمامهم ورائدهم، ليس (تي. أس. أليوت) ولا أي شاعر آخر. بل الشاعر السوداني الضخم المرحوم محمد المهدي المجذوب. كان محمد المهدي المجذوب في تقديري، واحداً من أعظم الشعراء العرب المعاصرين. وكونه لم يحظ بالاهتمام الذي يستحقه، فربما يعود إلى إهمال السودانيين أنفسهم في المقام الأول، ولا غرابة في ذلك، فقد أهملوا من قبل وما زالوا يهملون، شاعرهم العبقري التجاني يوسف بشير.

فتح محمد المهدي المجذوب المجرى. ثم جاء هؤلاء الشعراء الكبار، يحملون علوماً أكثر وثقافات أوسع، ومعرفة باللغات والمناخات والبلدان، أكثر كثيراً مما تأتّى للمجذوب، فحفروا في الشعر العربي

الحديث تياراً واضح السمات والمعالم، هو الذي أسميه (تيار الشعر السوداني الحديث). ويا ليت الدارسين السودانيين، وهم كثر، يتعمّقون في دراسة هذا التيار الشعري، ويقدمونه لإخوانهم في العالم العربي، بوصفه مساهمة وإضافة منهم إلى بحر الشعر العربي الحديث، وهو كما نعلم بحر واسع متلاطم الأمواج.

لا يتسع المجال للحديث عن تقلب سيد أحمد الحردلو في وظائف الدبلوماسية السودانية، حيث شغل منصب السفير في عدة أقطار، وما أتاح له ذلك من تعمق في معرفة بيئات وثقافات عدة. فقد عاش في لندن ونيويورك وباريس وغيرها. وفي باريس تعلم اللغة الفرنسية. كما عمل في تونس سفيراً للسودان في الجامعة العربية وفي اليمن حيث كان سفيراً.

كما لا يتسع المجال للحديث عن علاقة الشاعر بعالم السياسة المضطرب في السودان، وما جرّه عليه من عنت. وهو عالم قاده إليه حبه الجارف للوطن. وتأثير السياسة على حياة سيد أحمد الحردلو وشعره باب واسع قائم بذاته، جدير بالدراسة.

لكن القارىء سوف يجد في هذه الدواوين التي بين يديه، تأثير كل هذه التجارب الحياتية والثقافية المتنوعة على شاعرية الحردلو. كيف صقلت قريحته وشحذت حساسيته الشعرية المرهفة أصلاً، حتى صار شاعراً كبيراً مرموقاً حقاً. ورغم كل ما تعرّض له من تجارب، وكل ما حاق به من عنت وظلم، فقد ظل وفياً لقومه، مرتبطاً بجذوره، محباً للخير والسلام. لم يفقد، لا هو ولا شعره، تلك العذوبة والأريحية التي تميّز بها منذ البداية:

لأنني الشوق القديم
بين السيف والخيول
لأنني العشق الذي
سوف يغيّر الفصول
لأنني البوح العميم
بين الغيم والسهول
يشتمني الذين يغضون
طلعة الصباح في الحقول
لأن ما أدعو له
هو السلام بين الناس
والقبول
لأن ما أدعو له
جاء به
كتاب اللّه والرسول
لأن ما أقوله
قال به التاريخ
إذ يقول
يشتمني المشتوم
والمذموم
والمبني للمجهول.

مقدمة كتاب «العباسي: الشاعر التقليدي المجدد»

لمؤلفه الدكتور حسن أبشر الطيب

أذكر بوضوح أول مرة سمعتُ فيها شعر محمد سعيد العبّاسي. أذكر إحساس النشوة والدهشة. كان ذلك في وقت مبكر من حياتي، في عام خمسة وأربعين، وأنا بعدُ تلميذ في السنة الأولى بالمدرسة الثانوية. وكان ذلك بفضل أحد هؤلاء المعلمين الأفذاذ النوابغ، الأستاذ محمد علي يوسف، أطال الله عمره.

أنشدنا تلك الأبيات الجميلة في مطلع قصيدة العبّاسي الرائعة التي يصف فيها رحلته إلى (النهود):

باتت في عَذلي وتفنيدي

وتقتضيني حقوق الخُرَّدِ الغيدِ

وقد نفضتُ الهوى عني فما أنا في
إسارِ سُغدي ولا أجفانها السودِ

إلى أن يقول:

أثرتُها وهي بالخرطوم فانتبذتْ
للغربِ تقذفُ جلموداً بجلمودِ

تؤمُّ تلقاءَ من نهوى وكم قطعتْ
بنا بطاحاً وكم جابت لصيخودِ

وظلَّ يرفعنا آلٌ ويخفضنا
آلٌ وتلفظنا بيدٌ إلى بيدِ

حتى تراءت لحادينا النهود وقد
جئنا على قَدَرٍ حتمٍ وموعودِ

هكذا حفظتُ الأبيات منذ تلك الأيام، أُغَيِّرُ بعض كلماتها، وأُقدِّم وأُؤخر وأحذف. لا أقول (نضوت الصبا عني) بل (نفضت الهوى عني). ولا أقول (فانتبذتْ تكاد) بل (فانتبذت للغرب). ولا أقول (نجدٌ يرفعنا آلٌ)، بل (وظل يرفعنها آلٌ). ولا بد أنني فعلتُ ذلك على مدى أعوام، فهذه الأبيات هي من الشعر الذي صاحبني رحلة حياتي منذ عام خمسة وأربعين، إلى اليوم، تزيد وتنقص، وتتقلص وتتمدد في خيالي، مع مرور الأيام.

لا شك أن بعض ما أطربني في تلك الأبيات، جرس الكلمات التي فهمت يومئذٍ بعضها ولم أفهم البعض الآخر، ولكن حتى الكلمات التي لم أفهمها أحدثت أثراً في نفسي. كذلك جهشان

القصيدة التي تخيلتها مثل سيل جارف ينحدر من قمة جبل. والصور الشعرية التي رجّت خيالي رجّاً، خاصة قوله: «وظل يرفعنا آلٌ ويخفضنا آلٌ وتلفظنا بيدٌ إلى بيد». إنها صورة عبَرت بي في الشعر القديم، ولكنها بدت لي في قصيدة العباسي، كأن أحداً لم يسبقه إليها.

ثم ذَكَرَ (الخرطوم) و(النهود) فإذا القصيدة التي كأنها من صدر الدولة العباسية، قصيدة سودانية خالصة.

بعد ذلك أسعدني الحظ أنني لقيت الشاعر نفسه نحو عام واحد وخمسين. كان ذلك في مدينة رفاعه في دار المرحوم الشيخ لطفي. أذكره رجلاً وسيماً فارع الطول وضاح المحيا، يميل لونه إلى السمرة الداكنة. ولعله كان في نحو الستين من عمره يومئذٍ.

سهرنا معه سهرة طويلة، أنشدنا فيها بصوته الجميل الذي اشتهر به. كان إنشاده قريباً من الحداء أو الغناء. وكان من القصائد التي أنشدها تلك القصيدة التي بلبلت وجداني وحَرَّكتْ لديَّ أشواقاً مبهمة أول مرة سمعتها عام خمسة وأربعين من أستاذي محمد علي يوسف،· أطال اللّه عمره.

محمد سعيد العبّاسي شاعر كبير كان ينتظر أن يؤلف عنه أحد كتاباً. ومن حسن الحظ أن قيّض اللّه له الدكتور حسن أبشر الطيب، ذلك أن فيه ميزات لا تجتمع دائماً لباحث.

إنه محبّ للشاعر، وذلك واضح في ثنايا الكتاب. وفي مذهبي أن الحب هو الذي يفتح بصيرة الناقد والدارس، ويجعل الشاعر

موضوع الدراسة يبوح بما لا يبوح به للدارس الذي يدخل عالمه وهو مبغض له. ومن أمثلة الدراسة القائمة على الحب، كتاب الدكتور العميد رحمه اللّه عن أبي العلاء المعري. ومن أمثلة الدراسة القائمة على البغضاء، كتاب الدكتور العميد أيضاً عن أبي الطيب المتنبي.

هذا، والدكتور حسن أبشر عظيم الحب للشعر العربي عموماً، عميق التذوق والفهم له. وقد درس الأدب في جامعة الخرطوم، ورغم أنه تحول بعد ذلك إلى دراسة العلوم الإدارية وتخصص فيها، فإنه لم يفقد حبه للأدب ولم يقطع صلته به، بل ظل يرتاد آفاقه كلما راق له ذلك.

وتلك في ظني إحدى ميزاته. ذلك أنه ليس ناقداً أكاديمياً متخصصاً في الأدب ــ رغم احترامي العظيم للأكاديميين المتخصصين. ليس لديه تَزمُّت ولا تَعسُّف، بل هو بالأحرى مستكشف لعالم الشاعر، محتفل به، شديد الحفاوة بشعره. ورغم ذلك فهو لا يتخلى عن روح الإنصاف التي تقتضيها أمانة البحث ــ فهو باحث مُدقق أيضاً ــ فلا يُسرف في الرفع من قيمة الشاعر، بل يضعه في وضعه الصحيح في سياق الشعر السوداني، ولا يمنعه حبه للشاعر من أن يُبيِّن مواضع الضعف في شعره، كما يراها.

يخلص الدكتور حسن أبشر في هذه الدراسة ــ وهي أول دراسة مُوسعة عن العبّاسي حسب علمي ــ إلى أن مكانة العبّاسي في الشعر السوداني، تماثل مكانة محمود سامي البارودي في الشعر المصري، ويقول في ذلك: «إن المتأمل في ديوان العبّاسي ودواوين

من عاصروه من الشعراء التقليديين في السودان، لا شك يشهد للرجل بتفرده وتميّزه عليهم جميعاً، فهو شاعر مطبوع، مكنته ذخيرته اللغوية الثرة من تطويع الأسلوب ــ في أكثر الأحيان ــ للتعبير عن حالته ومذهبه في الحياة. وقد أعاد للشعر السوداني جدّته وأصالته في هذا الغناء الذاتي الحارّ، بعد أن كاد يقتله التكلّف والتقمّص والبحث دون طائل في الموضوعات القديمة التي لا تتماثل مع حال هذا العصر. وكان لكل هذا جديراً بأن يقال عنه، باعث نهضة الشعر الحديث في السودان، كما ذهب إلى ذلك الدكتور عبد المجيد عابدين، شأنه في ذلك شأن البارودي في أرض الكنانة، الذي يشابهه في كثير من الصفات».

هذا رأي صائب لا يخالفه فيه أحد. وقد خصص الدكتور حسن صفحات في دراسته الممتعة ليُبيِّن كيف أن العبّاسي كان تقليدياً ومجدداً في الوقت نفسه. وبطبيعة الحال ركّز على تأثير النشأة والبيئة.

انحدر الشاعر من أسرة دينية عريقة، فوالده الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية الواسعة الانتشار في وادي النيل وفي بعض بلاد أفريقيا، وكان أستاذاً للإمام محمد أحمد المهدي. وجدّه الشيخ أحمد الطيب هو مؤسس الطريقة السمانية.

كان والد الشاعر، إلى جانب مكانته الدينية، رجلاً عالماً، فقد درس في الأزهر، فاعتنى بتثقيف ابنه عناية فائقة، وكان له بمثابة الأم والأب، لأن أم الشاعر توفيت لحظة مولده.

يقول الدكتور حسن عن تحصيل الشاعر في صباه:

«... فما فتىء (الوالد) ينقل الصبي من (خلوة) إلى (خلوة) حتى انتظم منها عقد يربو على العشرين، ويخصه في أوقات يخلد فيها أترابه للهو، ببعض العلماء ليأخذ منهم ما تيسّر، أو يطلب منه دراسة باب من أبواب العلم لا يتيسر في الخلاوي، كطلبه منه حفظ شعر الأقدمين، ويطلب منه نظم البيتين أو الثلاثة في معنى يختاره له.

وأغلب الظن أن هذه الموضوعات كانت تتصل اتصالاً وثيقاً بأشعار المتصوفة، فزهد والده وتصوفه لا شك أنهما يدفعانه دفعاً إلى مثل هذا الموضوع».

الأمر الآخر، الذي كان له أعظم الأثر، ولا شك، في تكوين الشاعر، أنه تربّى وَنَما في بادية الكبابيش، بين أولئك العرب الأقحاح الفصحاء من جهينه، وهو أصلاً جَمُّوعي، والجموعية من فروع قبيلة الجعليين العتيدة. وقد اقتطف الدكتور حسن فقرة من كتاب المرحوم حسن نجيله (ذكرياتي في البادية) توضح مدى تعلق العبّاسي ببادية الكبابيش وتأثره بها:

«.. وفي عام ١٩٣٢ وأنا في بادية الكبابيش سمعتُ عنه من البدويين السذج الذين كانوا يحبونه ويجلّونه رغم أنهم لا يعرفون عن شعره شيئاً (....) كان مُولعاً بحياة البادية يؤثرها على حياة المدن، وقد جاب وديانها وسهولها وجبالها وأحياءها ولم يترك منها مكاناً لم يزره ويبق فيه ردحاً من الزمن (....) وكان حبه للبدويين والبادية صادقاً عميقاً امتزج بكل مشاعره وتجلّى واضحاً في شعره (....) وكان كالبدويين ينتقي من الإبل أصلها وأحسنها...».

أحسن الدكتور حسن أبشر أيما إحسان في وصف تأثير تلك البيئة على شاعر مرهف الحساسية مثل العبّاسي. وأقول أيضاً: إن بوادي السودان، وبادية الكبابيش خاصة، لا تختلف كثيراً عن بوادي نجد وتهامة، كما وصفها الشعراء القدامى.. الطبيعة نفسها. قطعان الإبل والظباء والغنم والماعز. أشجار الطلح والسيال والرّمث والطرفاء والعشر والأراك، والخيران والأودية وكثبان الرمل والجبال. اليمام والحمام والقمري. السماء تصفو أحياناً وتتلبد بالغيوم أحياناً. تتلامع البروق ويهطل المطر وتخضر الأرض بالعشب.

أضف إلى هذه الطبيعة، لغة الكبابيش الفصيحة، وهي في ظني، من أفصح اللهجات في بلاد العرب. لذلك فإن العباسي حين نظم شعره بتلك اللغة العربية الجزلة، وأدخل فيها تشبيهات واستعارات وصوراً جعلت بعض الناس الذين لا يعرفون طبيعة السودان يظنون أنه نقلها نقلاً عن الأولين ـــ أقول إن العبّاسي حين صنع ذلك، لم يكن مقلّداً، بل كان صادقاً مع نفسه، ينظر فيما حوله، وينظر في مرآة ذاته، فيخرج الشعر عفو الخاطر كما أحسّه.

وهكذا حين يقول العبّاسي:

ألا يا حَمامَ (الغَور) قد زدتني كرباً
رويدَك لا تَذْكُرْ بتغريدك الركبا

وأيامَ أُنسٍ لم نُمتَّعْ بحُسنها
طويلاً وقلبي لا يزال بها صبا

فهو لم يسرق (الغور) من الشريف الرضي، لأن الشريف الرضي قال:

هبَّت لنا من رياح (الغور) رائحة
بعد الرقاد عرفناها بريَّاك

أبداً. العبّاسي عرف (غوراً) وأكثر حيث هو في بادية الكبابيش. وزاد، أنه ذكّرك بكل الأغوار التي وردت في الشعر العربي القديم، فأصبح هو امتداداً طبيعياً لكل أولئك الشعراء، وأصبحت بادية الكبابيش امتداداً لكل تلك البوادي العربية. وها هنا، يكمن، كما أرى، معنى عميق من معاني التجديد.

وفي أبياته التي تبدأ:

فكأني وقد طرقتُ فتاة الحيّ
أمشي على رؤوس الرماح

يقول العبّاسي يصف حاله مع الفتاة:

صاحِ لو جئتنا وقد أسدل الليـ
لُ رواقيه قلتَ نضوا كفاح

يده في حمائل السيف مني
ويدي منه في مكان الوشاح

ها هنا قد يتبادر إلى الذهن قول المتنبي، ويظن المرء أن العبّاسي أخذ المعنى منه:

وقد طرقتُ فتاة الحيّ مرتدياً
بصاحبٍ غير عِزهاةٍ ولا غزِلِ

فبات بين تراقينا ندفّعه
وليس يعلم بالشكوى ولا القبل

صاحب المتنبي (العِزهاة)، هو كما عند العبّاسي، السيف. وكل من السيفين كانت له وظيفة تشبه وظيفة الآخر، وشأن مختلف. ولعل العبّاسي سمع في خياله صدى أبيات المتنبي، ولكنه سلك مسلكاً آخر.

وأبيات العبّاسي، كما أحسّها، أجدها جميلة في جملتها، ولعلّي أختلف في ذلك الاختلاف مع الدكتور حسن.

ربما يكون قوله «أمشي على رؤوس الرماح»، كناية عن الحُرَّاس الذين أحاطوا بالفتاة، كما قال المتنبي:

وما شَرَقي بالماء إلّا تذكُّراً
لماءٍ به أهل الحبيب نزول

يحرِّمه لمع الأسنَّة فوقه
فليس لمشتاقٍ إليه وصول

ويؤكد هذا الإحساس بالخطر قوله «نضوا كفاح»، وقوله «يده في حمائل السيف مِنّي»؛ أي أنه لم ينزع سيفه عنه بل ظل متأهباً. كانوا، كما نعلم، يرون الحب ضرباً من النضال، كما قال الأول:

رمتني وستر الله بيني وبينها
ونحن بأكناف الحجاز، رميم

ولــو أنــهــا لما رمــتني رمــيــتــهــا
ولــكــن عــهــدي بــالــنــضــال قــديم

ويبدو لي أن هذا الشاعر، وضع (ستر اللّه) بينه وفتاته، تماماً كما وضع المتنبي ووضع العبّاسي سيفيهما بينهما وفتاتيهما، كناية عن العفة، وأن الأمور لم تتعد الحدود، بخلاف ما يصف عمر ابن أبي ربيعة في شعره. وحسب العبّاسي، أن شعره يستدعي لك هذا الشعر العظيم (الكلاسيكي) من التراث العربي، فكأن شعر العبّاسي حوار مُتّصل معه وليس تقليداً له.

وما أجمل ما كتب الدكتور حسن في قضية التقليد عند العبّاسي يقول:

«.. وقد كان في كل هذا تقليدياً ولكنه ليس مُقلِّداً.. سبقه إلى مثل هذا التصوير كثير من الشعراء، وربما افتعله بعضهم افتعالاً ليُجاري به بعض فحول الشعراء. ولكن العبّاسي لم يفتعل هذا التصوير افتعالاً. إنما دفعه إليه طبعه وذوقه وبيئته. ولا يكون الشاعر مُقلِّداً إذا أمعن في وصف معنى من المعاني، سبقه إليه غيره، ولكنه استطاع أن يضيف إلى معانيهم جدة وأصالة يكسبها من روح نفسه ما يميّزها ويجعلها مرآة صادقة لعواطفه وآماله».

الأمر الآخر الذي كان له أثر عظيم على وجدان الشاعر أنه في عام ١٨٩٩، وكان العبّاسي في التاسعة عشرة من عمره، أُرسل إلى مصر ليدرس في الكلية الحربية. وقد أقام هناك عامين، وكان كما يصف الدكتور حسن في كتابه، سعيداً جداً بحياته ثمّة.

كان الشيخ عثمان زناتي يُدَرِّس اللغة العربية في الكلية الحربية،

فَقرَّب العبّاسي إليه لا بُدَّ بسبب ما لمسه من نجابته وحبه اللغة. وقد استفاد العبّاسي فائدة عظيمة من علم أستاذه، وظل وفياً لذكراه طول حياته. وفيه يقول:

عندي لكم يَدُ فضل لستُ أجحدها
يَد الزناتيِّ مولى العلمِ والحسَبِ

سريتُ في ضوئه حيناً يُقوِّمُ من
عودي ويُفسِحُ لي من صدره الرَّحبِ

صار العبّاسي بعد عودته إلى السودان يحنّ إلى مصر حنيناً مُلِحّاً عَبَّر عنه بشعرٍ صادقٍ حار، خاصةً أنه مع تقدم السن، ارتبط حنينه إلى مصر بحنينه إلى أيام شبابه.

ويصف الدكتور حسن أن العبّاسي أصبح من أبرز دعاة الوحدة بين مصر والسودان، لكنه كان مختلفاً عن دعاة الوحدة السياسيين. كان في شعره يُعَبِّر عن إحساسٍ شخصي عميق. وربما كان موقفه أقرب إلى موقف التجاني يوسف بشير الذي قال قولته الشهيرة مخاطباً مصر:

وثِّقي من علائق الأدب الباقي
ولا تحفلي بأشياء أخرى

لم يكد يوجد شاعر سوداني، من جيل العبّاسي والأجيال التي تلته، لم يتغنّ بحب مصر. لكن الفرق بين العبّاسي وسائر شعراء جيله، أنه عاش في مصر، وأحب العيش فيها، وصارت له صداقات وذكريات. لذلك فهو أكثر الشعراء السودانيين، (ربما إلى

اليوم)، تغنياً بمصر في شعره.

وقد أحسن الدكتور حسن أبشر صُنعاً أنه أورد أمثلة كثيرة من شعر العبّاسي عن مصر في كتابه هذا. ومن ذلك قوله:

فمصر هي اليوم الرجاء
لنا وهي المُمرضع الحانيه

لها ولأبنائِها الأكرمين
أيادٍ بنا برَّةٌ آسيه

بروحي ـ وليست تهاب الردى ـ
كبائِعةٍ دونها شاريه

فأَنَّى من غرس نعمائها
غِراسٌ هو الثمَر الدانيه

وما بالقليل انتسابي لها
وأنّي حمّادها الراويه

ولا بُدَّ من القول إن محمد سعيد العبّاسي، رغم أنه لم ينتم ـ حسب علمي ـ إلى أي حزب من الأحزاب التي قامت في السودان تدعو إلى الوحدة مع مصر، فإن رجال السياسة وجدوا في شعره لا بُدَّ مادة مُؤثِّرة يُعززون بها حججهم السياسية!

كان محمد سعيد العبّاسي رحمه الله، كما يؤكد الدكتور حسن الطيب في كتابه، شاعراً كبيراً «... يرجع إليه الفضل في بعث نهضة الشعر الحديث في السودان، فقد أعاد للشعر جِدته وأصالته

وعبارته الرصينة الموحية..».

كانت فيه جذوة العبقرية بلا شك، ولكنه لم يصل إلى القمم التي وصل إليها التجاني يوسف بشير ومحمد المهدي المجذوب. هذان في تقديري هما العبقريان الأكيدان في مسيرة الشعر السوداني. وقد قارن الدكتور حسن في مواضع من كتابه بين العبّاسي وهذين الشاعرين العملاقين، فخرج العبّاسي خاسراً في المقارنة بطبيعة الحال.

التجاني أحدث ثورة حقيقية في الشعر كما نعلم، وكان من رواد التيار الرومانسي في الشعر العربي الحديث، ودوره لا يقل عن دور أبي القاسم الشابي. ولئن لم يجد التجاني الاعتراف الواسع الذي يستحقه في العالم العربي، فما ذلك إلّا لأن السودانيين لم يُنوهوا به كما يجب.

وكذلك الحال مع محمد المهدي المجذوب، الذي صنع شعراً فريداً، وكان له صوت مميّز لا يشبهه فيه أحد.

الذي حال بين العبّاسي والعبقرية، هو في ظني ــ بالإضافة إلى ما بَيَّنَهُ الدكتور حسن في كتابه ــ أنه لم يذعن إذعاناً كاملاً لنداء الفن، ولم يرغب، أو لم يستطع، أن يدفع الثمن الباهظ الذي يتطلبه الإذعان الكامل لنداء الفن.

كانت له، كما أوضح الدكتور حسن، طموحات أخرى بعيدة عن مجال الشعر. وكان الشعر لديه، نشاطاً، ضمن نشاطات أخرى في الحياة.

مقدمة ديوان «حب للناس والوطن»

للشاعر الدكتور عبد الواحد عبد الله يوسف

يضمّ هذا الديوان للدكتور عبد الواحد عبد الله يوسف قصائد أقدمها من عام ١٩٥٩، وأحدثها من عام ٢٠٠٥، وحسناً فعل أنه وضع تاريخ كل قصيدة، الأمر الذي يتيح للقارىء أن يتمعن في تطوّر شاعريته، وتنوع مسالكه الشعرية وازدياد سيطرته على أدوات التعبير لديه.

يوضّح الدكتور عبد الواحد في مقدّمة الديوان مذهبه في كتابة الشعر، فيقول:

«شعرت بأن أهمَّ ما يجب على الشاعر مراعاته هو التحرر من كل قيد شكلي، يحول دونه وإكمال فكرة أو معنى في باله، وقد يتطلّب ذلك تجنب الإذعان إلى قوالب التفعيلة الموروثة، وإعادة ترتيب التفعيلات بأسلوب يتناسب والفكرة والمعنى...».

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت القصائد التي يتضمنها هذا الديوان محتفظة كلّها من أولها إلى آخرها، ببناء شعري عربي واضح، وحدس شعري عربي أصيل، وأوزان شعرية عربية، قد تختلف قليلاً، لكنها لا تخرج عن بحور الشعر العربي وأوزانه.

وفي ظني أن أهم ما يمتاز به شعر الدكتور عبد الواحد يوسف، أنه شعر واضح سهل، خالٍ من التكلف، وهو شعر ليس صعب المنال على تذوُّق القارىء، حتى لو كان قارئاً عادياً.

ذلك في حدّ ذاته إنجاز كبير، وهو أمرٌ ليس سهلاً تحققه في الأدب شعراً ونثراً.

ومنذ القدم كانت السهولة والوضوح مطلبين عسيرين للشعراء والأدباء. وقد أثر عن واحد من أبرع الكتّاب الإنجليز في القرن التاسع عشر، وهو «تشارلس لامب Charles Lamb»، أثر عنه قوله:

«على الكاتب أن يبذل أقصى جهده، لكي يكون أسلوبه بسيطاً واضحاً، فإذا قرأ أحد كتابته، يظن أن الكتابة جاءت عفو الخاطر، وأن الكاتب لم يبذل فيها جهداً».

ويقترب الدكتور عبد الواحد من هذا المعنى، حين يقول في مقدّمته:

«... إن إيماني العميق بهذا الاتجاه في التجديد بدءاً بالتحرر من القيود، هو الذي دفعني لكتابة الشعر بحريّة وعفويّة (...) فالكثير

من القصائد في هذا الديوان تبدو وكأنها تداعيات عفوية أو (وقتية) في جلسة حُرَّة بعيدة عن الرسميات...».

هذا ومن الشعراء الإنجليز المعاصرين الذين أنا معجب بهم، شاعر أجد وجوه شبَه بينه وبين الدكتور عبد الواحد، فكلاهما ــ بالإضافة إلى الموهبة الشعرية الواضحة هو أيضاً ــ عالِم وأستاذ جامعيٌّ، وكلاهما ليس غزير الإنتاج.

الشاعر الإنجليزي هو (وليم أمبسن ــ William Empsin)، وقد درس في بداية عهده علوم الرياضيّات في جامعة كيمبردج، ونبغ فيها، ثم تحوّل إلى الأدب، وصار أستاذاً للأدب الإنجليزي، وأحد النقّاد المرموقين، وله كتابٌ شهير يعرفه سائر دارسي الأدب الإنجليزي، عنوانه «سبعة نماذج من الغموض ــ Seven Types of Ambiguity».

كان أمبسن طوال حياته يدعو إلى الوضوح والبساطة في الشعر والأدب، ويهاجم التقعُّر والتعقيد، وكان يؤمن بأن أفضل أنواع المعرفة من علوم وآداب هي المعرفة التي يتاح فهمها لأكبر قدر من الناس.

الدكتور عبد الواحد يوسف أيضاً ليس شاعراً فقط، لكن الشعر لديه «وتر إضافي في قوسه»، حسب التعبير الإنجليزي.. إنه عالم تخصص في علم التربية التي درسها في إنجلترا، ثم نال عليها درجة الدكتوراة من جامعة «تورنتو» في كندا، وقد عمل أستاذاً في جامعة الخرطوم وجامعة زامبيا، وقضى أكثر مِنْ عشرين عاماً في منظمة اليونسكو، حيث كان من كبار المسؤولين في قسم التربية،

وهو يعمل الآن مستشاراً لوزير التربية في دولة البحرين.

إنه في تقديري اختار طريق البساطة والوضوح في الشعر، بعد طول دراسة وتأمل، وكان يستطيع ــ لو أراد ــ أن ينظم شعراً مثقلاً بالتقيد والغموض، لا ريب، فهو قد تخرج في كلية الآداب بجامعة الخرطوم عام ١٩٦٤، حين كانت في قمة مجدها، وتلقّى العلم على أيدي أساتذة أجلاّء من العرب والإنجليز، ومن أساتذته العرب الدكتور عبد الله الطيب، والدكتور إحسان عبّاس، والدكتور عبد المجيد عابدين، والدكتور محمد إبراهيم الشوش، والدكتور عز الدين الأمين، والدكتور عون الشريف، وغيرهم، وكل هؤلاء أساتذة يُشار إليهم بالبنان.

لا شك أنه في ذلك المعهد العتيد قد درس دراسة عميقة على أيدي هؤلاء الأساتذة الأجلاء، أنماطاً متنوعة من الشعر العربي والشعر الإنجليزي، قديمه وحديثه، وتعرّف على إنتاج الشعراء المعاصرين الذين كانوا يملأون الساحة في الستينيات، من مصر والعراق وبلاد الشام والسودان وغيرها.

في هذه الفترة أيضاً اتصل الدكتور عبد الواحد بالموسيقار الكبير الأستاذ عبد الكريم الكابلي، ونمت بينهما صداقة وثيقة، استمرت إلى اليوم.

ويقول الدكتور عبد الواحد عن ذلك في مقدمته للديوان:

«وأنا مدين للأخ العزيز الكابلي بالكثير، لأنه بإبداعه الفني وثقافته الرفيعة ومعرفته العميقة بتراث الفن السوداني، فتح أمامي آفاقاً

رحبة، نماها الخيال في عميق وجداني، فكانت لي زاداً فنياً وفكرياً عظيماً...».

نعم، إنها صلة من هذه الصلات المثمرة في حقل الفن، التي ينتج عنها دائماً تفاعل خلّاق، ولا يخفى أن الأستاذ الكابلي مرتبط أصلاً بالجماهير بواسطة صوته الجميل، وموسيقاه المتميّزة، لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك، فهو أيضاً شاعر مجيد بالعاميّة والفصحى، وراوية للشعر عاميته، وفصيحه، وقد تعمّق في دراسة الشعر والموسيقى والغناء، وأصبح من العلماء الثقات في معرفة التراث السوداني، وصار في هذا الميدان كأنه أستاذ في جامعة.

والدكتور عبد الواحد في المقابل كان يُفترض فيه أن يتوجه إلى النخبة، بحكم أنه شاعر ينظم الشعر باللغة الفصيحة، وأنه متخصص، وأستاذ جامعي، لكن يبدو أن تعاطفاً أصيلاً مع الناس العاديين في طبعه، جذبه إلى فنان يجمع بين أنه فنان جماهير، وهو في الوقت نفسه مفكّر نخبوي.

قبل ذلك كانت «البيئة» التي نشأ فيها الشاعر قد صبغته بالصبغة التي لا مناص من أن تحدثها البيئة في النفس الشاعرية المرهفة، وأنا أحيل القارىء الكريم إلى المقالة الممتعة في نهاية الديوان، فسوف يجد فيها وصفاً وافياً لنشأة الشاعر وبيئته.

أقول الآن باختصار في هذه المقدمة القصيرة، إن الأقدار قد هيأت للدكتور عبد الواحد بيئة تبدو لي «مثالية»، لتكوين أي أديب أو شاعر.. إنه من فرع من قبيلة الجعليين، الشديدة المراس، يسمى «الشرفدّينابْ»، نسبة إلى جدهم الشيخ شرف الدين، وهم أهل

علم وقرآن، هاجروا أوائل القرن التاسع عشر من موطنهم في الشمال الأوسط مع «الملك نمر»، ملك الجعليين، الذي هاجر فراراً من نقمة جيش محمد علي باشا، انتقاماً لمقتل ابنه إسماعيل، وإبادة جيشه في واقعة مشهورة في تاريخ السودان.

كانوا ينوون الهجرة إلى إثيوبيا، لكنهم حين مروا على مدينة القضارف قريباً من الحدود، قرر (الشرفديناب)، الفرع الذي تنتمي إليه أسرة الدكتور عبد الواحد، أن يمكثوا فيها، ولا يواصلوا السير إلى إثيوبيا مع (الملك نمر).

مدينة القضارف من الحواضر الإقليمية في السودان، وقد أنشأها الأتراك العثمانيون أيام حكمهم السودان في القرن التاسع عشر، لتكون قاعدة عسكرية على الحدود، وتعزز مركزها إبان الحكم الإنجليزي، فنمت واتسعت، وهي تقوم على أطراف بادية «البطانة»، مقر قبيلة الشكرية، وترتبط معها بروابط وثيقة.

ومن ناحية أخرى، ترتبط بسهول الجزيرة الواسعة إلى الجنوب، التي نزحت إليها أعداد كبيرة من أبناء شمال السودان.

ولا بد أن مدينة القضارف حين ولد بها الشاعر عام ١٩٣٩ كانت بيئة ثقافية عظيمة الجاذبية والتنوع، فإن أرض البطانة التي ترتبط بها المدينة، كانت منذ قديم الزمان موطناً لشعراء فحول من شعراء العامية، أشهرهم محمد عوض الكريم أبوسن، المشهور بالحردلو، وكذلك أرض الجزيرة، بالإضافة إلى الجاليات من غير السودانيين التي استقرت في المدينة.

تعلمت والدة الشاعر القراءة والكتابة في خلوة والدها، وحفظت أجزاء من القرآن الكريم، وقد أكمل والده وأعمامه الدراسة في المدرسة الأولية، وكان ذلك من حسن التوفيق، لأنه لم يكن أمراً شائعاً في تلك الأيام، خاصة للنساء.

كان أهل الشاعر يعملون في تدريس القرآن، وأيضاً يشتغلون بالزراعة في حقولهم، وذلك هو شأن سائر المشايخ ورجال الدين في شمال السودان، وكانت البيئة التي نزحوا منها.

حفظ الدكتور عبد الواحد القرآن الكريم، وهو صبي في نحو السابعة من العمر، ولا شك في أنه ساهم مع أهله في أعمال الزراعة، واختلط بالناس وأصغى جيداً إلى الأغاني والشعر والمدائح النبوية، وتشربت روحه المرهفة شتى ألوان الثقافات المحلية في تلك البيئة، ولا بد تبلورت شخصية الدكتور عبد الواحد ورسخت الصفات التي تميّز بها إلى اليوم، وأبرز هذه الصفات سماحة الطبع، وكرم الخلق، وحب الأهل والوطن، والرغبة في التواصل.. هذه الصفات جميعها موجودة بوضوح في شعره.. إنه سمى ديوانه «قصائد حب للناس والوطن»، وهو لعمري، وصف بالغ الدقة لهذا الشعر.. إنها كلها قصائد للحب، أو «المحبة»، مثل ثوب رقيق، لكنه متين الصنع، يلم شمل القصائد كلها ويقربها بعضها من بعض، مهما اختلفت أغراضها.

حين يحن إلى الوطن، وهو بعيد مغترب عنه، حين يرثي أمه وأباه والذين توفاهم اللّه من أصدقائه، وحين يتغزل في المحبوبة، لذلك فأنت لا تجد في قصائده الوطنية حماسة زائدة، أو نغمة خطابية طنانة، ولا تجد في قصائد الرثاء افتعالاً عاطفياً مبالغاً فيه، وغناؤه

في جمال المرأة، عبارة عن غزل رصين عفيف، لا يخدش حياء الفتاة العذراء في خدرها، وحتى حين يكون غاضباً من جرّاء الأحوال السياسية المتردية في السودان، نجد عاطفة الحب أو المحبة تطغى على المرارة والغضب.

وهو في هذا يذكّر بالشاعر الكبير صلاح أحمد إبراهيم، الذي رثاه الدكتور عبد الواحد بقصيدتين جميلتين في هذا الديوان، ويذكّر أيضاً بالشاعر الكبير محمد المكي إبراهيم، أطال الله عمره.

إنها في تقديري سمة غالبة على الشعر السوداني المعاصر، كما أنه يوجد في الشعر العربي المعاصر ما يمكن أن يوصف بالتيار المصري والتيار العراقي، والتيار الشامي، وكذلك يوجد في اعتقادي تيار سوداني.. إنه تيار شعري واضح المعالم، يحمل في ثناياه المميزات كلها التي تميّز السودانيين عن بقية الشعوب العربية، وأبرز هذه المميزات الوضوح، والبعد عن التقعر والتعقيد، والاقتصاد في التعبير عن الأحاسيس والعواطف، وغلبة روح التسامح والمحبة.

يقول الدكتور عبد الواحد في فاتحة مقدمته:

«إن هذا الديوان خلاصة تجربة امتدت أكثر من أربعين عاماً، اشتملت على مراحل في حياتي في مواضع متنوعة جغرافياً ومهنياً، لكن ظل هناك خيط واحد متين، يربط بين هذا وذاك.. ذلكم هو خيط الحب للناس والوطن، وهو حب انتظم كل أشعاري...».

صدق الشاعر، ونحن نحمد الله على ذلك، ونحتفي بهذا الشعر الجميل المؤثر، الذي لا ريب أنه سوف يضيف إلى تيار الشعر

السوداني الزاخر، وننشد مع الشاعر قوله في قصيدته «مواكب الأمل»، التي نظمها في باريس عام ١٩٩٦:

بعد العذاب والضّجر
بعد التّزوح والسفر
تحطُّ العيش رحلها
تمدّد الأشجار ظلها
وتغسلُ النفوسْ غلَّها
ونلتقي هناك
في أرضنا الحبيبة
في السّاحة الممتدة الرحيبة

□ □ □

مقدمة كتاب «بين الأميرين الشاعرين: امرئ القيس والحاردلو» (تحفة التشابه المذهل)

لمؤلفه الدكتور إبراهيم القرشي

لم أسعد بقراءة كتاب منذ زمن كما أسعدتني قراءة هذا الكتاب للدكتور إبراهيم القرشي. إنه كتاب مملوء بالمتعة والفائدة اللتين تجدهما في كل صفحة من صفحاته.

وكان من حسن التوفيق أنه اجتمعت للدكتور إبراهيم القرشي عدة مؤهلات، لا تجتمع كثيراً للباحث. فهو من ناحية أستاذ أكاديمي متخصص في اللغة العربية وعميق المعرفة ببيئة الجزيرة العربية قبل الإسلام وبقبائلها وتاريخها. وهو شديد الولع بالشعراء الجاهليين وأشعارهم، ولديه خاصية كانت لأستاذه العتيد الدكتور عبد الله الطيب رحمه اللّه. كان يعرف الشعراء القدامى ويحبهم كأنه عاش

بينهم وكأنهم أقرباؤه أو خِلاّنه، ففي الدكتور القرشي شيء كثير من هذا.

والدكتور إبراهيم القرشي من ناحية أخرى، من زمرة من السودانيين، منهم بين من عرفت، الأستاذ الطيب محمد الطيب والأستاذ الفرجوني. هؤلاء يعشقون الشعر السوداني باللغة الدارجة، المسمّى (الدوبيت) ويحفظونه ويروونه. أضف إلى ذلك أنه هو نفسه شاعر ينظم الشعر بالعامية والفصحى وهو ذوّاقة للشعر عامِّيِّهِ وفَصِيحِهِ له فيهما أفكار طريفة ونظرات ثاقبة. ولعلّي أزيد على كل هذه المؤهلات أن الدكتور القرشي ينتمي إلى قبيلة عربية سودانية كبيرة هي قبيلة الكواهلة التي استقرت في أرض الجزيرة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق. وهي بلاد متاخمة من جانبها الشرقي لأرض البُطانة وترتبط معها بأواصر كثيرة. وأرض البطانة كما سوف يجد القارئ في ثنايا الكتاب، هي موطن قبيلة الشكرية قوم الحاردلو، ومسرح صبابات الشاعر السوداني، أحد جَنَاحَيْ هذا الكتاب البديع.

يتوخّى الكاتب الدقّة في دراسته، شأن الأكاديميين. ولكن ينقذه من التزمّت والجفاف اللذين يجدهما الإنسان لدى عدد من الأكاديميين، أنه يدخل على موضوعه كأنه (هاوي). إنه يحب موضوعه ويتحمّس له، فينتقل هذا الحب وتلك الحماسة إلى القارئ. وأكثر ما يظهر هذا في شرحه للشعر، عاميّاً كان أو فصيحاً. وعلى سبيل المثال هذان البيتان:

لـولا الـتـمـنـطُـق والـسّـوار مـعـاً
والحجـلُ والـدمـلـوج في الـعـضُـد

لـتـزايـلـت مـن كـل نـاحـيـة
لـكـن جُـعِـلْـنَ لـهـا عـلـى عُـمـد

يقول الدكتور القرشي:

«وقد بالغ وأبدع لأن محبوبته كلها غضة بضّة ليّنة. ولولا أنها تشُدُّ من وسطها بالوشاح وتشدُّ ساقيها بالحجول وتشد سواعدها بالدمالج لذابت وسالت من فرط لينها. ولكن تلك الملبوسات التي يظنها الناس للزينة إنما جعلت لمحبوبته عُمداً لتمنع كارثة الذوبان هذه. فكأنَّ صاحبته هذه كيس رمل لولا أنه خيط من أسفله ورُبط من أعلاه لانهار وانسكب...».

ويقول في شرح هذه الأبيات للحاردلو:

البـارح رقـادي كـسيده فـوقـهـا بـريش
راكوبةً تجيب صَقْطَة ومعاها رشيش

اللّحماني ما أشهّل جُمال العيش
هُـنْـهـيناً بسَـوّنُّـو الـدَّغَـشْ بـي شـيـش

يقول الدكتور القرشي:

«يبدو أن الشاعر كان مكلّفاً الإشراف على جلب المَيْرة من جهة ما، ولكن الذي منعه من إعداد الجمال وتحميلها بالذرة هو تذكرُه ساعات اللقاء قبيل الفجر، وما يلقاه من المتعة في هذا الوقت الذي

وصفه وصفاً دقيقاً (...) فإن لفظة (الهنين) هٰهنا لو جلبت ألفاظ اللغة الفصيحة والعامّية كلها في هذا المعنى ما قامت مقامها ولا سدّت مسدّها. ذلك أن (الهنهين) هو إخفاء الصوت مع شيء من الغنج والدّل. يقول الثعالبي «إذا أخرج المكروب صوتاً رفيعاً فهو الرّنين. فإذا أخفاه فهو الهنين. فإذا أظهره فخرج خافتاً فهو الحنين. فإذا زاد فيه فهو الأنين. فإذا زاد فهو الخنين».

انتهى شرح الدكتور القرشي.

إنما الذي يحيّرني هو، هل تخيّل الشاعر هذه (البُلَهْنية)[1] وهو مستلقٍ على فراشه الرث، في كوخ (راكوبه) لا تقيه من نفحات البرد (صقطة) ولا زخّات المطر (رشيش)، أم أن مصدر الصوت كانت معه بلحمها ودمها؟ وإذا صحّ هذا الظن، ترتفع أبيات الحاردلّو هذه في إيحاءاتها الأيروسيّة[2] إلى مستوى أبيات امرىء القيس الشهيرة حين (مال الغبيط بهما معاً)، ولا تقلُّ عنها في غرابة الموضع الذي اختاره الشاعر لنيل مبتغاه. كان مسرح الغرام عند امرئ القيس هودجاً على ظهر جمل، وهو هنا عند الحاردلّو كما ترى.

كان بوسع الدكتور إبراهيم القرشي أن ينشئ دراسة عادية حسنة جداً عن الحاردلّو، فهو هدفه الأساس في ظني، ويعقد مقارنات بينه وبين من شاء من الشعراء. فالحاردلّو يمكن أن يقارن من ناحية بعمر بن أبي ربيعة، من حيث علاقاته النسائية وتشبيبه بالحسان،

---

(١) الرخاء ورغد العيش.

(٢) الجنسية.

ويمكن أن يقارن من ناحية بذي الرُمة، من حيث وصفه للطبيعة وهيامه بالظباء ومزجه مزجاً فنياً بديعاً بين الظبية والمرأة، فكأنما المرأة ظبية وكأنما الظبية امرأة. لكنه اهتدى إلى وسيلة طريفة مبتكرة؛ نظر بعين خياله المرهف إلى الوراء عبر مئات السنين، ونظر من أرض البطانة في شرق السودان عبر مئات الأميال إلى بوادي الجزيرة العربية. وجد شاعراً جاهلياً، تشبه بيئته وظروف معيشته وأطوار حياته وأحاسيسه وشعره، كل ذلك يشبه ظروف حياة الحاردلو شبهاً (مذهلاً) كما قال. ذلك هو امرؤ القيس. وجد أن الشاعر العربي الجاهلي، والشاعر السوداني الشُكري، رغم بعد الزمان والمكان، يتشابهان فكأنهما توأمان. نصب مرآة ضخمة لكل واحد من الشاعرين وضعها قُبالة المرآة الأخرى، وبهذه الوسيلة الطريفة المبتكرة استطاع أن يلغي المسافات الشاسعة في الزمان والمكان، فكأنّ الشاعر السوداني يعيش في بيئة امرئ القيس وفي زمانه، وكأن أمرأ القيس يعيش في زمان الحاردلو في أرض البطانة في السودان.

يقول الدكتور إبراهيم القرشي في مقدمة دراسته التي سماها «بين الأميرين الشاعرين امرئ القيس والحاردلو، قصة التشابه المذهل»:

«الدراسة التي بين يديك هي مقارنة بين الأميرين الشاعرين امرئ القيس بن حُجْر الكندي الشاعر الجاهلي القديم، ومحمد بن أحمد بن عوض الكريم أبي سن المشهور بالحاردلو (١٨٣٠ ـ ١٩١٦م). وهي دراسة بين شعر فصيح وآخر عامي مبنية على استقراء شعر الشاعرين وتتبع ظاهرة الاتفاق والتطابق والتشابه بين سيرة الرجلين وتجربتهما الشعرية في معانيها وصورها وأخيلتها (...). وإن الناظر في سيرة الرجلين ليجد اتفاقاً ظاهراً في

ظروف السيرة العامة وأطوار الحياة ابتداء بالتطابق التام في كثير من مراحل حياتهما وتقلّبهما في بحبوحة الملك وحياة اللهو والانطلاق وقد كان كلاهما ملكاً وابن ملك وكانا أميري دولة، ثم تبدّلت تلك الحالة إلى المعاناة والظروف التي شقي بها الرجلان (...)».

بلى. يصبح كل واحد من الشاعرين الكبيرين رغم بعد الزمان والمكان، امتداداً وصدى وشاهداً على الشاعر الآخر. وكل واحد من الشاعرين يتضخّم حين ينعكس في مرآة الشاعر الآخر. وحين يتعمق القارىء في تمعّن شعر كل من الشاعرين، إذ يضعهما الدكتور القرشي جنباً إلى جنب، تعتريه الدهشة، أيهما السابق وأيهما اللاحق، وأيهما الصوت الأصل، وأيهما رجع الصدى لذلك الصوت؟!

يخرج الإنسان من قراءة هذه الدراسة المبتكرة حقاً، وهو أكثر معرفة بأمرئ القيس، رغم كثرة ما كتب عنه. ويعرف الحاردلّو كأنه يتعرّف عليه وعلى شعره لأول مرة.

ألغى الدكتور القرشي المسافة بين الماضي والحاضر، وبين الجزيرة العربية وأرض البطانة في شرق السودان. وفوق ذلك ألغى الحاجز الذي يقيمه بعض الدارسين بين العربية الفصيحة واللغة الدارجة. وإذا أطلق القارئ لخياله العنان، كما أرجو أن يفعل، فسوف يجد أن الحاردلّو الشاعر السوداني الشُكري، كأنه نظم الشعر باللغة العربية الفصحى كما كانت على عهد امرئ القيس، وأن امرأ القيس الشاعر الجاهلي، كأنه نظم شعره بعامية عرب السودان في أرض البطانة على زمان الحاردلّو. وذلك أن روح الشعر وصوره ومعانيه، واحدة في الحالتين. ومن الأمثلة الكثيرة التي يوردها

المؤلف لهذا التطابق العجيب قول امرىء القيس:

تـقـولُ وقَـدْ جـرّدتُـهـا مـن ثـيـابـهـا
كـمـا رُعْـتَ مَكْـحُولَ المدامعِ أَتْـلَعَـا

أجـدَّك لـو شَـيءٌ أتـانـا رَسُـولُـه
سِـوَاك ولـكـن لم نجـدْ لـك مَـدْفَـعـا

فَـبـتْنَا نَـصُـدُّ الـوَحْـشَ عَـنَّـا كـأنَّـنـا
قـتـيلانِ لم يعلـمْ لـنـا الـنـاسُ مَـصْـرَعَـا

تَجَافَـى عـن الـمَـأْثُـورِ بـيني وبـينهـا
وَتُـدْنـي عـليـهَـا الـسَـابـريّ الـمُـضَـلَّـعَـا

يقول الدكتور إبراهيم القرشي في شرح الأبيات:

«السابريّ نوع من الثياب. والمضلّع فيه خطوط. وقوله في البيت الأخير (وتدني عليها السابريّ المضلّعا) يقرّبنا قرباً عجيباً من الحاردلّو الذي يقول:

فُـرديـقـةً تـلـين تحـتَ الـسَّـدُر مـا اتْـعَـتَّـتْ
بـي الـداداب لحـشْـوَ وعـقـلـي مـا هُـو أشَـتّـت
وَكِـتْ راقـتْ مـعـاي وبـي أب سـحـالـي أتْـغـتَّـتْ
زَرَقَـتْ قـلـبـي بـي فَـتّـاً سَـنِـين ومَـلَـتَّـتْ

يصفها بما وصف به امرؤ القيس صاحبته من اللّين، ثم الرضا بعد الدلال، ولكن وجه العجب هو أن (أب سحالي) في ثيابنا هو

الثوب المخطّط الذي فيه طرائق، وهو نفس ثوب صاحبة امرىء القيس. والثوبان استخدما في تلك اللحظات المعلومة. ولست أدري إن كان ذلك أصلاً قديماً لاستخدام (الفِركة)[1] عندنا فهي ذات خطوط وطرائق أيضاً، وهي الثوب المخصّص لتلك اللحظات!».

وفي موضع آخر يقارن الدكتور القرشي بين قول امرىء القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأَسْمَحَتْ
هَصَرْتُ بغصن ذي شماريخ ميَّال

وبين قول الحاردلّو:

فرديقةً تلين تحت السَّدُر ما أتعتّت

فيقول الدكتور القرشي:

«الأول يصفها في اللّين والنعومة بالغصن. والهصر يناسب هذه الحالة، وهو ما ذهب إليه الآخر صراحة في أنها إذا ضُمّت كانت ليّنة لَدِنَة في صدر من يضمّها. والضم ضرب من الهصر، لأن أصل الهصر هو عطفك الشيء على الشيء. ثم وَازِنْ بين (أسمحت) بمعنى انقادت ورضيت، وبين (راقت معاي)، فكلاهما من واد واحد، هو وادي الانقياد والاستسلام بعد التمنّع والإباء».

ومثل هذا كثير في هذا الكتاب الجميل. ليس فقط جمال الشرح ودقّة الفهم لمعاني الشعر، ولكن أيضاً الظّرف وروح الدعابة؛ وهذا ما عنيته بقولي إن هذه الدراسة بعيدة عن التزمت الأكاديمي.

---

(١) نوع من الثياب مخطط ملون كان يجلب من الشام. تلبسه المرأة إذا خلت في مخدعها ليس تحته شيء. وربما لبسته فوق ثيابها.

يمضي الدكتور القرشي فيتتبّع في دراسته ظروف حياة كل من الشاعرين، فيجد أنها تكاد تتطابق منذ البداية حتى في الاسم. فامرؤ القيس تعني رجل الشدّة والبأس، والحاردلّو تعني كما يقول الدكتور القرشي، صاحب الدّل الحار أي أنه صعب المراس. ثم مركز كل واحد منهما في قبيلته؛ امرؤ القيس أبوه حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المرار، وكان قباذ ملك فارس قد ملّك جده الحارث على بني أسد وعلى العرب. والحاردلّو أبوه أحمد بن عوض الكريم أبي سن، زعيم قبيلة الشكرية الذي منحه الأتراك لقب (بيك) ونصّبوه شيخ مشائخ السودان. وكان جدّه الأكبر الشيخ عوض الكريم قد نال في عام ١٧٩١م وثيقة من الملك بادي ملك سنار، منح قبيلة الشكرية بمقتضاها الأرض الواسعة بين النيل الأزرق ونهر أتبرا التي تعرف بأرض (البطانة) لتكون حقاً ومقراً لهم لا ينازعهم عليها أحد.

هذا ويذكر الدكتور القرشي رأياً لم يصادفني من قبل، وهو أن آل أبي سن، أسرة الحاردلو هم من قريش، والراجح أن قبيلة الشكرية من جهينة. فإذا صح هذا، فيكون وجهاً آخر للشبه بين الشاعرين. ذلك أن امرأ القيس كما نعلم من قبيلة كندة وكان أبوه ملكاً على بني أسد. وذلك يعني أن أسرة كل من الشاعرين حكمت قبيلة غريبة عليها. ومهما يكن، فإنه لم يكن أمراً شاذاً في قبائل الجزيرة العربية ولا في قبائل السودان، أن يكون بيت الرئاسة والحكم أحياناً من خارج القبيلة.

توجد اختلافات في ظروف حياة الشاعرين. وهي اختلافات ليست كثيرة ولا يتردد الدكتور القرشي في ذكرها. لكنها لا تنقض الافتراض الأساسي الذي بُنيت عليه هذه الدراسة وهو أن أمرأ

القيس بن حجر الكندي ومحمد أحمد عوض الكريم أبو سن المعروف بالحاردلّو هما إنسانان وشاعران متشابهان شبهاً مذهلاً بحق. وأنا أذهب إلى حد القول أنهما توأمان.

وفي الصفحات الأخيرة يقول الدكتور القرشي:

«التشابه المستفيض الذي وقع في هذه الدراسة وقوع الحافر على الحافر، لم نَلْوِ فيه عنق حقيقة، ولم نعمد فيه إلى التمحُّك والتأويل فإن أكثره لا يمكن حمله على المصادفة، فقد يصادف الشيءُ الشيءَ المرة والمرات. وقد تتوارد الخاطرة والخواطر. ولكن أن يكون بهذا القدر والاستفاضة، وفي انعدام الدليل المادي على تأثر الأخير بالأول، فإن هذا لا يعني في نظرنا إلّا الامتداد الطبيعي للروح العربية الأصيلة بين الشاعرين على ما بينهما من بعد الشقة وطول الأمد. وهو دليل على قوة الروح العربية في بوادي السودان».

نعم. ومن الأمور المهمّة التي ينجزها هذا الكتاب أنه يظهر مدى تغلغل الروح العربية ليس فقط في بوادي السودان، بل في كافة الجزء العربي في السودان. وهو أمرٌ أرجو ألّا يزعج السودانيين الآخرين الذين لا يحتفون بهذه الروح العربية، لأنها في الحقيقة، روح لا هي بعيدة عنهم ولا غريبة عليهم. وسوف يجدون في نهاية المطاف، لو صبروا وأحسنوا الظن، أنها تحمل لهم الرّحمة والإخاء.

مقدمة كتاب «خواطر وذكريات دبلوماسية»

للسفير (م) أحمد محمد دياب

هذه الفصول الممتعة، هي مزيج من الذكريات، ولمحات من السيرة الذاتية ونظرات دقيقة متمعنة في نقل الأحوال في السودان على امتداد أكثر من ثلاثين عاماً. وقد وفق الكاتب الدكتور أحمد دياب، أيما توفيق، إنه اتخذ أسلوباً سلساً جميلاً يمتاز بالبساطة وروح الدعابة.

بعد تخرج أحمد دياب من جامعة الخرطوم عام ١٩٦٣م، التحق بالعمل في وزارة الخارجية أواخر عهد الرئيس المرحوم إبراهيم عبود. لكنه لم يلبث بها طويلاً، لأن سلوكه العفوي المغاير للقالب البيروقراطي المطلوب، لم يعجب وكيل الوزارة للشؤون الإدارية.

كان وكيل الوزارة يومئذٍ الأستاذ محمد ميرغني الذي صار فيما

بعد سفيراً، ثم وزيراً للخارجية. كان وهو وكيل للوزارة ــ كما يصف الكاتب ــ رجلاً صارماً مفرطاً في الحزم، وقد كان من قبل من كبار ضباط البوليس.

تشاء الأقدار أن يلتقي به أحمد دياب مرة أخرى في سفارة السودان في نيروبي عام ١٩٦٦م، حيث نقل سكرتيراً ثالثاً. وجده سفيراً هناك فتوجس شرّاً، ويقول الكاتب «إنه اكتشف أن السفير محمد ميرغني كان يخفي تحت مظهره الصارم، إنساناً لطيفاً رقيق القلب، فنمت بينهما صداقة وثيقة».

إنما الآن في عام ١٩٦٣م. فقد تسبب السيد محمد ميرغني في خروج الكاتب من وزارة الخارجية، فالتحق بالعمل في جامعة الخرطوم مساعداً للسكرتير الأكاديمي ــ الذي كان المرحوم محمد عمر بشير. ولا عجب أنه سعد بوظيفته تلك، فقد كان بروفسير محمد عمر بشير رجلاً واسع الثقافة، عظيم الاستنارة، ودوداً مرحاً لا يبالي كثيراً بالروتين.

ولو أن أحمد دياب استمر في عمله بالجامعة، فلا شك أنه كان سوف ينجح فيه خاصة أنهم وعدوه أن يرسل في بعثة دراسية في الخارج. إنما الله شاء له غير ذلك.

فجأة انفجرت ثورة أكتوبر فأسقطت حكم الرئيس إبراهيم عبود، وتكونت حكومة جديدة من جبهة الهيئات التي أسقطت النظام، وكان أحد وزرائها المرحوم عبد الكريم ميرغني الذي كان يقول عنه الكاتب:

«عيّن الأب والأخ والصديق والسفير النبيل المرحوم عبد الكريم ميرغني وزيراً للتجارة، وقد تمَّ استدعاؤه من الهند، حيث كان يعمل سفيراً للسودان هناك. وقد جمعتني بعبد الكريم روابط عديدة...».

يخصص الكاتب بعد ذلك عدة فقرات من كتابه للحديث عن المرحوم عبد الكريم ميرغني، وكان بوسعه أن يسترسل في الحديث، فقد كان عبد الكريم ميرغني حقاً من أفذاذ السودانيين، اشتهر بسعة الاطلاع وعمق الفكر والكفاءة في العمل، والحسّ الإنساني الغامر.

وهنا أحب أن أذكر، أن من الأشياء الكثيرة الممتعة في هذه الفصول، أن الدكتور أحمد دياب يرسم بحذق لوحات جميلة لشخصيات متعددة سودانية وغير سودانية، من الناس الذين عرفهم والتقى بهم خلال سيرته العامرة بالتجارب. وهو يصنع ذلك بأسلوب يغلب عليه جانب المرح ودقة الملاحظة، مظهراً موهبة فنية كما لدى الكتّاب الروائيين المتمرسين.

كان المرحوم عبد الكريم ميرغني يؤمن أن الشباب المتعلم أمثال أحمد دياب، يجب أن يكونوا في وزارة الخارجية فعمل على إعادته إليها. وهكذا قدر للكاتب أن يمضي في مسيرة طويلة خصبة في العمل الدبلوماسي، كما توضح هذه الفصول.

قضى أحمد دياب عامين برئاسة الوزارة بالخرطوم برتبة سكرتير ثالث، ومن التجارب التي عرضت له في تلك الفترة، تجربة مع الرجل العظيم محمد أحمد محجوب رحمه الله، الذي كان يومئذٍ وزيراً للخارجية، ورئيساً للوزراء.

يصف الكاتب تلك التجربة وصفاً حياً مشوقاً.. وكأنه تعمد أن يظهر حال السودان في تلك الأيام. وهي تجربة تدعو للتأمل وربما الحسرة، لأنها تؤكد مع عدد من التجارب المماثلة التي يرويها الكاتب بأسلوبه الجذّاب، أن السودان يكون في أحسن حالاته في العهود الديموقراطية، فهي انعكاس حقيقي لطبيعة السودانيين ومزاجهم العام.

ولا شك أن القارىء سوف يرى البون الشاسع بين تلك التجربة، وما انطوت عليه من أسلوب إنساني متحضر في التعامل، وبين الأسلوب الهمجي المتعسف في عهد الرئيس جعفر نميري الدكتاتوري. كان الدكتور أحمد دياب يتقلد منصب سفير السودان في الأردن، حين جاءه الأمر من الخرطوم بإغلاق السفارة. فجأة قرر النميري، دون منطق واضح أو مبرر أن يغلق ثلاثاً وعشرين سفارة للسودان، وهي حقبة مؤلمة من تاريخ السودان.. يصفها الكاتب بحرقة بالغة وغصة في الحلق يحسّها القارىء.

عرض عدد من الدول على السودان أن تتكفل هي بدفع النفقات على أن تبقى السفارات مفتوحة. ويصف أحمد دياب كيف أنه رافق وزير خارجية الأردن الذي أرسله المرحوم الملك حسين في طائرة خاصة إلى الخرطوم ليثني النميري عن قراره، ولكن دون جدوى.

وبعد أن يصف الكاتب وصفاً مؤثراً مشهد بيع محتويات السفارة وبيت السفير والجماهير التي تجمعت إما للشراء وإما مدفوعة بحب الاستطلاع، يقول:

«... في اعتقادي أن قرار تقليص البعثات الدبلوماسية في الخارج، الذي نفّذ بحق ثلاث وعشرين سفارة، يعتبر أحد القرارات العشوائية التي قام نظام نميري باتخاذها في لحظات الصراع مع الموت في أيامه الأخيرة، إلى جانب قرار تقسيم المديريات الجنوبية والإطاحة باتفاقية أديس أبابا، مما أدى إلى «بداية الحركة الشعبية لتحرير السودان» وقرار تنفيذ الإعدام في الشهيد محمود محمد طه، وقرار تطبيق قوانين سبتمبر أو «قوانين الشريعة» إلى آخر المهازل التي شهدها الفصل الأخير من حكم نظام مايو..».

هكذا يمضي الدكتور أحمد دياب في مسيرته في العمل الدبلوماسي حتى يصل درجة سفير، عمل في سفارات السودان في بلاد كثيرة، منها: كينيا وتنزانيا ومصر ورومانيا والأردن والأمم المتحدة. وقد تكونت لديه من ذلك كله ذخيرة كبيرة من التجارب والمواقف والأفكار والرؤى، يجد القارىء أصداءها مبثوثة في ثنايا هذه الفصول.

هذا وقد خصص الكاتب حيّزاً كبيراً نسبياً للحديث عن تجربته في كينيا وتنزانيا حيث انغمس في قضايا أفريقيا، وتأمل في هوية السودان ودوره في أفريقيا إزاء دوره العربي.

خلاصة القول: إن هذا الكتاب مفيد وممتع حقاً، ومن عناصر جاذبيته أن الكاتب يخلط بحذق بين الخاص والعام والجدّ والدعابة والتاريخ والحياة المعاشة. وفيه ميزة كبرى، وهي: إنه يقاوم الإغراء الذي يستسلم له كثيرون من كتاب السِّيَر الشخصية فلا يقحم نفسه إقحاماً في سرده للأحداث، ولا يعطي نفسه دوراً بطولياً، بل لعلّه يغمط نفسه حقها في كثير من الأحيان، ثم هو يصف الناس

الذين عرفهم أو صادفهم خلال مسيرة عمله، بإنصاف ومحبة. ولا توجد في هذا الكتاب، مرارات أو عنتريات أو تصفية حسابات، بل هو سجل أمين لحياة خصبة مثمرة.

مقدمة كتاب «معاوية نور»

لمؤلفه الأستاذ السني بانقا

أسعدني أن أخانا العزيز السني بانقا وفّق إلى إصدار كتابه عن الأديب السوداني الفذّ المرحوم معاوية محمد نور، فقد ظل يشيد بمعاوية ويتحدث عنه ويكتب ويحاضر منذ نحن صبية في مدرسة وادي سيدنا الثانوية. وقد سمعت عن معاوية محمد نور أول مرة من السني. كان أستاذنا محمد علي يوسف ينظر إلى السني بانقا وينشد:

ولـقـد رأيـت بـرمـة بـان الـنـقـا
فـمـنـعـت طـرفي فيه أن يـتـمـتـعـا

وأحد دواوين العالم الجليل والشاعر الفحل الدكتور عبد اللّه الطيّب، اسمه «بانات رامه» وفيه قصيدة عذبة عن «بانة العدوة» يقول فيها:

ألا يا بانة الروضة عند العدوة القصوى
لقد أعجبني طولك هل عندك لي مثوى
وما أن ثمر منك على عِلاته يحوى
ولكن الجمال المحض لو ذا غُلة أروى
وما أنت سوى البين يرى في صور المأوى

من حسن حظ السني أن هذا الإنسان العبقري وليس في ذلك أدنى مبالغة، درس في المدرسة الوسطى ثم في جامعة الخرطوم بعد ذلك.

أذكر السني في ذلك العهد البعيد القريب، إذ نحن في بداية المرحلة الثانوية، صبياً وضيئاً كثير المرح، جمّ النشاط، عليه سيماء نعمة بادية، لا أدري مصدرها، فقد كنا في الغالب شعثاً غبراً خاصة الذين أتوا من نجوع الإقليم الشمالي، ومن قرى الجزيرة وكردفان ودارفور في أقصى الغرب، وهم الغالبية العظمى. أما السني فهو من أم درمان وكان يبدو منعماً. حتى بمقاييس أم درمان كانوا محظوظين من وجوه كثيرة. فقد كانت أم درمان، حاضرة البلاد في الحقيقة، بؤرة فكر وفن وثقافة، وكان خيار المدرسين في الغالب، يعلّمون في مدارس أم درمان. لذلك فإن الأسماء التي يذكرها السني في هذا الكتاب، أنهم علموه في تلك المرحلة المبكرة، أسماء أصبح لها دوي في ما بعد. مثلاً إسماعيل الأزهري الذي أصبح أول رئيس للوزراء ثم رئيساً للدولة. والأخوان محمود ويحيى الفضلي، من رجالات الحزب الوطني الاتحادي، وعبدالله الطيّب الذي كان من أوائل السودانيين الذين نالوا شهادة الدكتوراه من بريطانيا، فصار أستاذاً في جامعة الخرطوم

ثم مديراً لها. هذا إلى أنهم كانوا يمتون بصلات القربى والجوار والمصاهرة إلى جميع الرجال الذين تقلّدوا زمام الأمور في القطر بعد الاستقلال، وربما يكون تاريخ السودان الحديث، خاصة بعد الاستقلال، مرتبطاً أشد الارتباط بتقلبات الأحوال في مدينة أم درمان.

أصل تسمية «أم درمان» وما مدينة أم درمان؟

أهلها الذين ولدوا وربّوا فيها يزعمون أن الاسم أصلاً هو «أم در أمان». أما الأستاذ عبد الله الطيب، وهو من «دامر المجذوب» أبعد شمالاً فيقول بين الجد والمزاح، إن الاسم مأخوذ من اسم امرأة تدعى «أم عبد الرحمن» كانت تقطن ذلك المكان، إذ هو خلاء فكانوا يقولون أم درحمان... أم درمان.

اللّه أعلم، ولكن شتان بين هذا وذاك! إنما هذه المدينة الممتدة على الضفة الغربية للنيل، أقامها وأعطاها روحها وطابعها الإمام المهدي، ثم الخليفة عبدالله التعايشي، وذلك بعد أن قوضت الثورة المهدية دعائم الحكم التركي الذي اتخذ من الخرطوم عاصمة له. وقد جاءت القبائل التي حاربت مع الإمام المهدي، من الشمال والوسط والشرق والغرب والجنوب، فنزلت في ذلك المكان، كل أناس في حي، في أحياء تزال إلى اليوم تحتفظ ببعض سماتها من ذلك العهد. ومع توالي الأحداث بمرور السنين تكوّن نسيج ناعم فريد لمدينة تمثل أحسن المثل، الحضارة السودانية الإسلامية العربية. إسلامية، نعم، وعربية نعم، ولكن مع شيء آخر، أو كما قال محمد المكي إبراهيم:

اللّه يا خلاسية
يا حانة مفروشة بالرمل
يا مجدولة من شعر أغنية
يا وردة باللون مسقية
بعض الرحيق أنا
والبرتقالة أنت
يا مملوءة الساقين أطفالاً خلاسيين
يا بعض زنجية
وبعض عربية
وبعض أقوالي أمام اللّه.

كانت أم درمان بحق نموذجاً لأحسن ما في السودان، شيئاً نادراً غالياً يستحق أن يُعضَّ عليه بالنواجذ، ترقى نحوه بقية مدن السودان. ولكن يا خسارة! كل ما حدث بعد الاستقلال كان تمزيقاً لهذا النسيج الذي غزلته أيدي رجال ونساء لا يتكررون، نسجوه بصبر وتؤدة وحكمة، على مشهد من نهر النيل العظيم. أغلب الذين مزقوا، أم درمانيون أيضاً أبناء أو أحفاد الرجال والنساء الذين صنعوا الثوب الجميل في البداية.

هدموا سور جامع الخليفة القديم، وقالوا ينشئون متنزهاً، وشيّدوا أنصاباً من رخام لا بد أنه استجلب من محاجر «كالابريا» في إيطاليا، غالي الثمن في هيئة أذرع ممتدة هنا وهناك بلا معنى، في الباحة التي كانت تتجاوب فيها أصوات المصلين مثل زمجرة

الرعود في بطحاء أرض البطانة. بيوت الطين الأليفة الوديعة، الباردة في الصيف والدافئة في الشتاء، أخذوا يقيمون بدلها أمساخاً من الإسمنت والزجاج طابقاً على طابق، حار في الصيف وبارد في الشتاء، تتشقق وتتكسر ولا تسرّ العين. ثم تناثرت البيوت وتكاثرت بلا رابط يربط بينها. إلّا أنهم أعطوا كل مجموعة منها اسم الحي. وما هي بأحياء. دار منيفة وإلى جانبها دار وطيئة مثل الشاة جنب البعير، والمعمار فوضى، كل ما يخطر على البال. هذا إسلامي عربي وهذا من معمار البحر الأبيض المتوسط وهذا من كاليفورنيا، وهذا إنجليزي تيودوري، وهذا فرنسي من طراز ما بين الحربين. الأثرياء من تجار العملة والبضائع المهرة صبّوا أموالهم في هذه الصروح البشعة، وكأنهم يدفنونها في الرمال. أحياء بلا طرقات، وشوارع محفرة بلا إضاءة تتعثّر عليها السيارات: المرسيدس والشيفروليه والتويوتا. مستشفيات كأنها أسواق وأسواق كأنها مقابر. اغتنى بعض الأفراد وافتقرت المدينة، وقد أهملوا أن يزرعوا الأشجار، والماء قريب، والأشجار تستر عورات المدن، وكان في وسعهم أن يجعلوا من أم درمان مدينة مثل مراكش. التربة نفسها والمناخ والوجوه والسِّحن في مراكش تشير في الشوارع تحت ظلال وارفة من أشجار البرتقال والليمون والتين.

هذا الآن، أما في عام ١٩٤٥ حين رأيتها أول مرة، فقد كانت أم درمان شيئاً آخر. تركب الترام من المحطة الوسطى في الخرطوم، قطار وديع أليف ككل شيء في ذلك الزمان، يسير على مهل. ففيم العجلة؟ كل بضع خطوات محطة وأحياناً يقف في غير المحطة. تعبر الجسر على النيل الأبيض، على يمينك ملتقى النيلين الذي غنّى له المغني:

ما أحلى ساعات اللقى
في الشاطىء قرب الملتقى
أنا والحبيب عند الغروب.

تمر بحي الموردة، حيث ولد معاوية نور، وإلى يمينك مراكب خشبية راسية جاءت من أعلى النيل تحمل القنا والخشب والبروش وأزيار الفخار. تمر على حي الهاشماب حيث نشأ محمد أحمد محجوب وعبد الحليم محمد، صاحبا «موت دنيا». إلى اليمين حي «السور» ودور آل المهدي، ثم مدرسة «الأحفاد» على اليسار، ثم إلى يمينك جامع الخليفة بسوره القديم، ثم المستشفى الكبير والمدرسة الثانوية. تنزل في السوق ويواصل الترام سيره إلى «أب روف». البيوت من الطين في الغالب وقليل منها من الطوب الأحمر، وكلها من طابق واحد. دور الحكومة فقط أكثر من طابق، وهي لا تزيد على طابقين. تدخل دار الطين، فلعلك تجد أرض «الديوان» ــ غرفة الاستقبال ــ مغطاة بالبلاط، وربما يكون في الدار كهرباء والماء جارٍ في المواسير. كل شيء كما عهدته ولكن أحسن قليلاً. عندكم الحيشان، فها هنا حيشان. وعندكم «العناقريب» هذه الأسرّة الخشبية المنسوجة بالحبال، فهاهنا عناقريب. ربما بعضها من الحديد ولكنها منسوجة بالحبال. الطعام هو الطعام لكنه هنا مطهو بطريقة أفضل، الكسرة والويكة والملوخية كما عهدتها. ذات الناس والوجوه واللغة. والأسر في أم درمان ما تزال تحتفظ بروابطها في الريف، من حيث جاءت. الشايقي يزال له أهل في ديار الشايقية يزورهم ويزورونه في الأفراح والأتراح. والجعلي، وسكان الجزيرة والبطانة والشرق والغرب. المدينة لم تقطع بعد جذورها وتتحول إلى كائن منعزل، لا صلة لها بما حولها.

مولد معاوية محمد نور

في هذه البيئة وُلد معاوية محمد نور عام ١٩٠٩، كما يحدّثنا السني بانقا في كتابه، وذلك في العام نفسه الذي وُلد فيه يوسف مصطفى التني، وقبل عام واحد من مولد محمد أحمد محجوب والتجاني يوسف بشير، وقبل ثمانية أعوام من مولد جمال محمد أحمد، وتسعة أعوام من مولد أحمد الطيب، وعشرة أعوام من مولد محمد المهدي المجذوب، واثني عشر عاماً من مولد عبد الله الطيب. كل هذه الأسماء لعبت أدواراً مهمة في تاريخ الحركة الأدبية والفكرية في السودان، وبعضهم لعب أدواراً رئيسية في الحركة السياسية. وكان مولد معاوية محمد نور بعد أحد عشر عاماً من غلبة الاستعمار البريطاني على بلاد السودان عام ١٨٩٨. ذلك الحدث الفادح الذي أثّر بشكل أو بآخر في مصائر كل الأسماء التي ذكرتها آنفاً، وفي مصائر أجيال من السودانيين، وكان سبباً رئيسياً في مأساة هذا الإنسان النابغة، معاوية محمد نور.

اختار أدورد عطية في كتابه «عربي يروي قصته» الذي صدر في لندن باللغة الإنجليزية عام ١٩٤٦، عربيين، اتخذ أحدهما مثلاً للنجاح، والثاني للفشل المأساوي لعملية الامتزاج بالثقافة الإنجليزية، وربما بالحضارة الغربية عموماً. لم يقل هذا صراحة، فلم تكن تلك الظاهرة قد تبلورت وأخذت مضامينها الفادحة، كما رأينا في ما بعد في الصراع العربي ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، صراع مصر مع القوة الاستعمارية إطلاقاً، وكما رأينا نزال نرى في الصراع العربي ــ الإسرائيلي في فلسطين. وقد كان أدورد عطية نفسه، خير مثال على التأقلم الكامل، ظاهرياً مع الحضارة الأوروبية، وكان سورياً تعلم في جامعة أكسفورد وتجنس بالجنسية

الإنجليزية وتزوّج وأقام في إنجلترا في شكل مستديم، وكان يتحدث اللغة الإنجليزية كأنه إنجليزي، وقد عمل في السودان في مكتب «الاتصال العام» ثم استقال لما نشبت الحرب في فلسطين والتحق بـ «المكتب العربي» وساهم في الدعوة للقضية العربية، وأبلى بلاءً حسناً بشهادة المرحوم موسى العلمي. وقد كتب رواية عن السودان باللغة الإنجليزية، عنوانها «الطليعة السوداء»، وظل إلى أن توفي في الستينات، يكتب في الصفحة الإنجليزية، مدافعاً عن القضايا العربية.

اختار أدورد عطية، أمين عثمان باشا مثالاً على نجاح عملية التأثر بالحضارة الأوروبية، فقد ذهب أمين عثمان من كلية فكتوريا إلى جامعة أكسفورد في إنجلترا، وعاد إلى مصر حيث لمع نجمه واحتل مكانة مرموقة في فترة وجيزة. وكان أثيراً لدى الإنجليز، مقرّباً من المندوب السامي البريطاني. لكن حتى هذه القصة انتهت بالفشل، ففي عام ١٩٥٠، أي بعد صدور كتاب أدورد عطية، أصبح أمين باشا وزيراً في حكومة الوفد، فاغتيل رمياً بالرصاص بتهمة الخيانة. وكان أحد المتهمين في قتله، المرحوم أنور السادات، ومن العجب أن أنور السادات نفسه قتل اغتيالاً في ما بعد، بالتهمة نفسها، تهمة الخيانة والعمالة للغرب. إنها خيوط متشابكة في مأساة مثل المآسي الإغريقية.

أما معاوية محمد نور، ثاني الرجلين، فقد شاءت أقداره أن يسلك طريقاً آخر، انتهى به إلى الهزيمة بطريقة أخرى. ذهب من كلية غردون، وقد كانت مثل كلية فكتوريا في مصر، لا إلى أكسفورد أو كمبردج، ولكن إلى الجامعة الأميركية في بيروت، ذلك لأن الإدارة الإنجليزية في ذلك العهد كانت تحدد للشباب نوع

الدراسات العليا المحتم عليهم تلقّيها، فحدّدت لمعاوية دراسة الطب. لكن معاوية كان قد عشق الأدب الإنجليزي وصمّم على مواصلة دراسته مهما كلّف الأمر. وهكذا، فرغم اعتراض السلطات الإنجليزية الحاكمة، ورغم مقاومة عائلته، فقد تمَّ له ما أراد، فأرسلته والدته ليتعلم على نفقتها في الجامعة الأميركية في بيروت. وربما يكون أول سوداني يدرس على نفقة عائلته في الخارج. ولا يملك المرء هنا إلّا أن يقارن بين إصرار معاوية، ولين عريكة التجاني يوسف بشير، الشاعر الملهم الذي أراد أن يسافر ليدرس في مصر، فلحق به أبوه إلى محطة السكة الحديد في الخرطوم، واقتاده حزيناً مكسور الخاطر إلى أم درمان.

لماذا لم يبعث الإنجليز معاوية إلى أكسفورد أو كمبردج؟ إنه لأمر يدعو للعجب، فها هنا شاب أحب لغتهم ونبغ فيها، وكان وهو صبي دون العشرين يبزّ الإنجليز أنفسهم في الحديث عن دكتور جونسون وشكسبير وبرنارد شو. الفرنسيون كانوا حتماً سوف يحتفون به ويرسلونه إلى السوربون في باريس، كما فعلوا مع سنقور الذي أصبح من كبار شعراء اللغة الفرنسية، وكان أول شخص غير فرنسي إطلاقاً، ينتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية. أما الاستعمار البريطاني، فلم تكن متطلبات العقل والوجدان، ضمن أهدافه. وكان معظم حكّام السودان إنجليزاً في ذلك العهد، من العسكريين، وهؤلاء لا يحسنون الظن بمتطلبات العقل والوجدان على أي حال. ولا بد أن معاوية خلق لهم مشكلة. كانوا يريدونه أن يأخذ من لغتهم ما يفي بالغرض، لكنه أخذ الأمر مأخذ الجد، فغاص في أعماق اللغة. وتبحّر في طيات وجدان المستعمرين وعقلهم، كمن يبحث عن مفتاح للغز، وحاربهم في ما بعد بسلاحهم وانهزم، لأنه جاء باكراً، أبكر مما يجب، ولم يكن أمثاله كثيرين.

وربما يكون من الطريف، أن يتصور ماذا كان سوف يحدث له، لو أنه ذهب بالفعل إلى أكسفورد أو كمبردج. إنني أعتقد أنه كان سيسعد جداً، في بداية الأمر على أي حال. كانت هاتان الجامعتان في تلك الأيام في العشرينات، وخاصة جامعة كمبردج، بؤرتي إشعاع فكري وانطلاق روحي لا مثيل لهما. كان معاوية سوف يلتقي بالفيلسوف أي.جي.مور، والفيلسوف برتراند رسل. كان سوف يقابل العالم جوليان هكسلي وأخاه الروائي المبدع أولدس هكسلي. هناك كان سوف يتعرّف على ليونارد وولف الذي تزوج في ما بعد من الروائية العبقرية فرجينيا وولف. وكان سيقابل الرسامة فانسا بل أخت فرجينيا وولف. كان سيتعرف على لتن ستريشي وبقية آل ستريشي، وعالِم الاقتصاد الذي قلب الأفكار الاقتصادية رأساً على عقب، كينز. وكان بطبيعة الحال سوف ينضم إلى مجموعة «بلو مسبري» التي كانت تلتف حول فرجينيا وولف ولتن ستريشي. وكان حتماً سوف يتصل بجماعة الفابيانيين المكونة من بعض هؤلاء، إضافة إلى برنارد شو وأتش .جي .ولز وبروفسور توني وسدني ويب وزوجته بياترس ويب. كان سوف يجد إنجليزاً من نوع آخر، كأنهم لا يمتّون بأية صلة لنوع المديرين والمفتشين الذين يحكمون السودان، بضحالتهم وعنجهيتهم وضيق أفقهم. ها هنا لا حدود على العقل البشري في محاولته ارتياد المجهول، ولا قيود على الفرد في التعبير عن نفسه. وكان معاوية محمد نور وسيماً جداً، كما يروي كل من عرفوه، هذا بالإضافة إلى شفافية روحه وتوقّد ذهنه وعمق ثقافته. لذا فأغلب الظن أنه كان سيجد فتاة من مثقفات الطبقة الأرستقراطية تقع في حبه. كانت فتيات هذه الطبقة، خصوصاً المثقفات منهن، يبحثن عن الطريف و«الأكسوتيكي» غير المألوف. وكن سيجدن في معاوية إنساناً طريفاً حقاً. والحب من الحلقات الضائعة في قصة معاوية. إنسان كهذا لا بد أنه أحب كثيراً. ماذا حدث له في بيروت؟ وماذا

حدث له في مصر وما حدث له في السودان يمكن أن يتخيّله الإنسان؟ ويورد السني بانقا عرضاً في كتابه، أن معاوية أحب فتاة سودانية وشقراء، يا للعجب!

بلى، كان سوف يسعد في أكسفورد أو كمبردج. وكان سوف يطلق لخياله العنان، ويرتاد كل الآفاق العقلية التي كان يحلم بها. ولا شك عندي، أنه كان سيصبح ناقداً مرموقاً في الأدب الإنجليزي، وسط الإنجليز أنفسهم. هل كان سيفقد «هويته» ويصبح «مستلباً» كما نقول هذه الأيام؟ ربما، ولكن عذاباته ومعاناته كانت ستسمو إلى مستويات أرفع، ولا بد أنه كان سيصنع منها فكراً وأدباً عظيمين، يضيئان الطريق لمن بعده، في الشرق والغرب.

ولعل من الطريف أيضاً أن ننظر إلى ما حدث لشخص مثله أو قريب منه من الذين قبلوا بالواقع وصبروا على العيش في السودان. وربما يكون أكثر الناس شبهاً به المرحوم محمد أحمد محجوب. يحدثنا السني في كتابه أن محجوباً كان من أصدقاء معاوية المقرّبين الذين كان يقضي أوقاته معهم يتحدثون في شؤون الأدب. كان محجوب في مثل سن معاوية وولد بعده بعام، سنة ١٩١٠، في حي قريب من الحي الذي نشأ فيه معاوية في أم درمان. كان أديباً شاعراً، ولو كانت الظروف مختلفة، لعله كان يتفرّغ للأدب. لم يكن في مثل نبوغ معاوية، ولكنه كان موهوباً يحيط به ألق لازمه في نهاية حياته. تعلّم مثله في كلية غردون، وفرض عليه الإنجليز أن يدرس الهندسة فأذعن وتخرّج مهندساً. ثم لما فتحوا فرعاً للقانون تحوّل للقانون وعمل قاضياً في السلك الإداري لحكومة السودان. ولما قامت الأحزاب وعلت الدعوة للاستقلال استقال من القضاء وانضم إلى حزب الأمة، فأصبحت له فيه مكانة. وكان زعيماً للمعارضة في أول برلمان

سوداني، ثم صار وزيراً للخارجية فرئيساً للوزراء. وفي كل مراحل حياته لم يكفّ عن ممارسة الأدب، فكتب القصة والمقالة والشعر. وشعره ناصع حسن، وله عدة دواوين. وقد تزوّج وأنجب وعاش حياة ميسورة واكتسب شهرة في القضاء والمحاماة والسياسة وحتى الشعر. توفي ــ رحمه الله ــ وهو يخطو نحو السبعين. لكنني أظن، بأن محجوباً رغم النجاح الذي ناله، كان يحسّ في قرارة نفسه، بأن المجد الحقيقي الذي يشتهيه، وكان في متناول يده، لم يحصل عليه. ذلك هو مجد الشعر.

هكذا نجح محجوب، بعض النجاح، بينما فشل معاوية فشلاً مأسوياً. ذلك لأن معاوية كان «أديباً» صرفاً وكان «مفكراً» صرفاً، ولم يكن يرضى لحياته في الأدب والفكر بديلاً، ولم يكن مستعداً للمساومة وقبول أنصاف الحلول.

واللمحات القليلة الكاشفة التي يذكرها السني عرضاً في الكتابة، تعطي القارىء صورة غريبة لحياة معاوية في السودان. كان يلبس ربطة العنق المسماة «ببيون» وهي ربطة قليل من يلبسها حتى هذه الأيام، وكان حين يعود إلى السودان يقيم في «هوتيل» وهو أمر شاذ في عرف السودانيين إلى اليوم، وكان يلعب التنس في ملعب خاله، وقد أدهشني أن سودانياً كان عنده ملعب للتنس عام ١٩٢٦! وكان يلعب «البليارد» في «كلوب أم درمان». هذا إلى أنه أحب فتاة «شقراء» عندها فنوغراف من نوع «صوت سيده»، وكان يقرأ «كانت» و«نيتشه» و«شوبنهور» و«شللي» و«بايرن» و«هازلت» وفلاسفة وشعراء وكتّاباً، كلهم أوروبيون، قليل مَنْ قرأهم حتى في أيامنا هذه. وكتاباته عن التراث العربي تشي بنوع من الاحتقار. أليست هذه إرهاصات لما يسميه أخواننا المغاربة «الاستلاب»؟ لو

عاش حتى قرأ «فرانز فانون» لأدرك أن الاستعمار، الذي كرهه وقاومه بفكره، كان ينفث سمومه في روحه من حيث لا يدري.

ولكن معاوية ــ رحمه الله ــ توفي صغيراً جداً، ولو عاش أطول لاتضحت له الأمور، بل إن الأمور حتماً قد بدأت تتضح له بالفعل. ولأنه كان ذكياً حساساً، روّاد آفاق، فإنه كان سيرى أبعد مما رأى غيره.

حصل معاوية على شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي من الجامعة الأميركية في بيروت، ولم يجد العمل الذي يناسبه في الخرطوم، ولم تكن الإدارة الإنجليزية متحمّسة لتوظيفه، فذهب إلى القاهرة عام ١٩٣٠ وهو في الحادية والعشرين من عمره. وفي الفترة الوجيزة التي قضاها هناك أحدث أثراً غير قليل. رحّب به العقاد واصطفاه وشجعه. كان العقاد قد وفد إلى القاهرة من أسوان في أقصى الصعيد، كما وفد إليها بعد ذلك بسنوات عبد الرحمن الأبنودي ويحيى الطاهر عبدالله وأمل دنقل. ولا بد أنه لاقى صعوبة بادىء الأمر، أن يجد لنفسه حيّزاً في مجتمع القاهرة. لذلك، لا ريب أنه تعاطف مع هذا الشاب القادم من جنوب وادي النيل، الذي جاء مثله، يبحث عن المجد الأدبي في ذلك المجتمع المتشابك. وسرعان ما بدأت مقالات معاوية تظهر في كبريات الصحف المصرية، مثل: «السياسة الأسبوعية» و«المقتطف» و«البلاغ». كما عمل في تحرير الـ Egyptian Gazette باللغة الإنجليزية. وكان على حداثة سنّه، كما يظهر من مقالاته واسع الاطلاع، معتدّاً بنفسه، ثاقب الرأي في كثير من الأمور، جريئاً لا تخيفه الأسماء الكبيرة. وقد قارع كبار الأدباء في مصر فثبت لهم. تصدّى لطه حسين وزكي مبارك وسلامة موسى ومحمد حسين

هيكل والمازني وأضرابهم، وكان يكتب وكأن مصر والسودان كيان واحد، ويقول «نحن» وهو يعني «مصر والسودان» معاً، دون شعور بالحرج أو إحساس بالتبعية، أو رغبة في تملّق الشعور المحلي المصري. وهذه حقيقة جديرة بالتأمل، أنه بعد معاوية، أي منذ أكثر من خمسين عاماً، لم يفد على مصر أديب سوداني، ويقم فيها ويكتب في صحفها بشكل متصل، وتصبح كتاباته متاحة للقارىء المصريين، مثل الكتّاب المصريين أنفسهم. هذا رغم كل الكلام عن «المصير المشترك» بين مصر والسودان.

كان معاوية سعيداً بحياته في القاهرة، كما نفهم من كتاب السني، يسكن غرفة بسيطة أكثر أثاثها من الكتب، ويعيش على الخبز والجبن، يقرأ كثيراً ويكتب كثيراً. كان إنتاجه غزيراً جداً حقاً إذا اعتبرنا قصر الفترة التي أتيحت له، وهي أقل من خمس سنوات غير متصلة. وكان متنوعاً. يكتب في النقد والسياسة والقضايا الاجتماعية. ومقابلته مع الكاتب الفرنسي أندريه مورؤا، التي نشرتها مجلة «الهلال» عام ١٩٣٢، لعلّها من أوائل المقابلات الأدبية في الصحافة العربية إن لم تكن أولها. وهي تنمّ عن مقدرة وعمق وكان يتحدث فيها إلى الكاتب الفرنسي الكبير حديث الند. وكان معاوية أول من تحدث عن الشاعر الأميركي ــ الإنجليزي تي. أس. إيليوت، الذي يزال يشغل كثيرين من النقّاد العرب. وكتب منذ خمسين عاماً عن الروائي البريطاني جون كوبر باور، الذي يعتبر اليوم من أعظم كتّاب الرواية في العالم، وما يزال مجهولاً لدى أغلب المثقفين في العالم العربي. ونشرت له «السياسة الأسبوعية» في أبريل/ نيسان عام ١٩٣٠ عن الراقصة «إيزادورا دلكن» مقالة لو نشرت اليوم في بعض البلدان العربية لأحدثت ضجة. ومقالته «نحن وجائزة نوبل» التي نشرت في جريدة «مصر»

في سبتمبر/ أيلول عام ١٩٣١، يمكن أن تنشر اليوم فما زاد الناس كثيراً على ما ورد فيها من أفكار. واستمع إلى قوله في معرض الحديث عن كاتب نمساوي يدعى آرثر سنتزلز في جريدة «مصر» في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٣١:

«نحن في مصر نتكلم عن كتّاب الدرجة الثالثة في فرنسا وإنجلترا، ونجهل من هم في طليعة كتّاب العصر الحديث، لا لسبب سوى أنهم من أمم ليس لها حظ إنجلترا أو فرنسا من الاتساع والسلطان... بل يخيّل إليّ في كثير من الأحيان أن أدباء النرويج وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والسويد والنمسا، نحن أقدر على فهمهم والاستفادة منهم من أدباء الإمبراطوريات والممالك الضخمة التي لا نشترك معها في عاطفة أمل أو ألم... وفي يقيني لو أن أدباءنا ابتدأوا يتدبّرون منتجات «هامسون» و«ستيفان زفايج» وأندادهما لوجدوا فيها أشياء جديدة من نفوسهم مكان العطف والمجاوبة... ولاكتشفنا في تلك النغمة صداقة وقرابة روحية مثل ما وجدنا من صداقة وقرابة في الأدب الروسي. ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أعجب قوله: «صداقة وقرابة روحية» منذ أكثر من خمسين عاماً!».

وفي مقالة عن الجامعة المصرية نشرت في جريدة «مصر» في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٣١، يقول:

«وليس بنا حاجة إلى أن نقول إن الجامعة «وسط» قبل أن تكون معهداً لتلقّي المعارف والعلوم، وإنها «مؤسسة» تشير إلى مجهودات الأمم الفكرية وخصائص عبقريتها، وتنتج لها من الشبان من يشيرون إلى أنبل وأعمق خصائص تلك الأمة ومنتجاتها الفكرية ومساهمتها في الحضارة العالمية. وليس قصاراها أن تمنح كذا وكذا

من الشهادات وأن تلقى فيها الدروس على هذه الطريقة «الإسكولاستكية» العتيقة. والسبب في كل هذا الارتباك والبعد عن جادة الصواب مرجعه إلى حب مظاهر الأشياء دون بواطنها وصميمها».

أليس هذا من دلائل عظمة الكتّاب، أن يقول القول، ويمضي عليه أكثر من خمسين عاماً، فيظل صادقاً كأنه قيل لساعته؟

كذلك أنت ترى أن العقاد لم يكن مغالياً حين قال في رثائه:

بكائي على ما أثمرت وهي غضة
وما وعدتنا وهي في الغيب ماضية

تبيّنت فيه الخلد يوم رأيته
وما بان لي أن المنية آتية

□ □ □

هذا الإنسان، بهذه الصورة، انتهى به المطاف إلى داره في أم درمان، فلزمها لا يخرج ولا يقابل أحداً، وعاد إلى لبس الثوب الوطني، وأصيب في عقله، فركن إلى شيخ يعطيه الرُقى والتعاويذ. وتوفي في عام ١٩٤١ وعمره فوق الثلاثين بقليل.

لا عجب إذاً، أن صديقنا السني بانقا قد شغف بقصة معاوية محمد نور الذي جاهد جهاداً نبيلاً، ومات موتاً مأساوياً والموت المأساوي للنوابغ في السودان، أمر مألوف، فهو بلد أعطاه الله كل شيء، وحرمه كل شيء؟! ذلك أن أخانا السني فياض الشعور،

سريع التأسّي، ثم إن معاوية قريبه، ولا بد أنه وهو طفل لمحه أو سمعه، ولا بد أنه ظل يسمع الحديث يتردد عنه بعد وفاته في محيط أسرتهما. والسني إلى جانب هذا أديب، ولعله حلم أن يوقف حياته على الأدب، لو كان السودان غير السودان. كان من أكثرنا إلماماً بالأدب، ونحن صبية في مدرسة «وادي سيدنا» الثانوية. وأحمد له أنه نبهني إلى معاوية وإلى التجاني يوسف بشير. إنه أيضاً مثل على تبديد الطاقات في السودان، مثل أخينا مأمون حسن مصطفى، الذي كان نابغة في علم «الكيمياء» فانتهى به الأمر، مثل السني أن أصبح إدارياً، وعبد الوهاب موسى ومحمد خير عبدالقادر وسيد أحمد نقدالله وكثيرين غيرهم. هؤلاء في جيلنا فحسب. لكن القصة لم تكتمل بعد، فالسني قد أعطانا خيطاً أو خيطين، تزال ثمة خيوط كثيرة. والسني يحث الباحثين والدارسين أن يجمعوا هذه الخيوط. لكنني لا أعرف أحداً أحق بهذا الشرف، ولا أقدر على هذه المهمة، منه هو. ويا ليته ينذر نفسه، وليمد اللّه في الأيام، للنهوض بهذا العبء. سوف نحمده نحن وتحمده الأجيال القادمة، ولعلّه أيضاً يجد أن أحلامه الوضيئة، إذ نحن صبية في مدرسة «وادي سيدنا» لم تذهب كلها هباء.

مقدمة كتاب «زمن الصمت العتيق»

لمؤلفه الفنان التشكيلي الدكتور راشد دياب

راشد دياب ـ الموهبة والتوفيق

راشد دياب يملك الموهبة والإدراك ويملك طاقة هائلة على العمل. وكل هذه من عناصر النجاح. وبالفعل نجح نجاحاً قلّ نظيره في فترة قصيرة، فقد تجاوز الأربعين لتوّه. أما بالإضافة إلى كل ذلك فيبقى عنصر آخر لا يقل أهمية، ألا وهو التوفيق أو الحظ.

في ظني أن راشد دياب كان محظوظاً من عدة وجوه. كان محظوظاً في مكان مولده، فقد ولد ونشأ في مدينة (ود مدني) عاصمة إقليم الجزيرة الذي فيه المشروع الزراعي الفخم.

بسبب الازدهار الاقتصادي الذي جلبه المشروع، اتسعت المدينة وعمرت وجذبت إليها أفواجاً من الناس، من شتى إقليم السودان.

صارت مثل أمدرمان في توقّد روحها القومية وحيويتها الثقافية واهتمامها بالآداب والفنون.

كذلك كان راشد دياب محظوظاً في زمن مولده، فقد ولد في منتصف الخمسينات وحين دخل كلية الفنون الجميلة في الخرطوم، وجد أن أجيالاً من الفنانين الروّاد، قد عبّدوا الطريق، وجعلوا للفنون التشكيلية في السودان حضوراً واحتراماً. بل أنهم خلقوا (مدرسة) لها خصائصها وشهرتها خارج القطر. من هؤلاء الروّاد، على سبيل المثال لا الحصر، شفيق شوقي وبسطاوي وإبراهيم الصلحي وعثمان وقيع الله ومحمد عمر خليل وكمال إسحق وشبرين.

ذلك دون شك كان له تأثير عظيم على راشد دياب والفنانين التشكيليين من جيله، وهم الجيل الثالث أو الرابع. وراشد دياب خاصة، بسبب حساسيته الفنية الفائقة وموهبته الواضحة، وجد مرجعية يستند إليها. وجد أساليب وأفكاراً يستطيع أن يتحاور معها ويتأثر بها ويرفضها أو يقبلها. وواضح من أعماله، خاصة في سنوات نضجه، أنه ابتدع لنفسه بعد ممارسته لذلك كله، أسلوباً مميّزاً متفرداً.

في ظني أن راشد دياب كان أيضاً محظوظاً أنه ابتعث إلى مدريد وليس لندن أو باريس، معظم الفنانين التشكيليين الروّاد ــ إن لم يكن كلهم ــ درسوا في لندن. ولا شك أنهم استفادوا من ذلك فائدة عظيمة، إذ لا يخفى أن لندن كانت ولا تزال من المراكز الكبرى للفن التشكيلي في العالم. وبعضهم مثل الفنان الكبير إبراهيم الصلحي، درسوا في كلية (سليد) العريقة.

إنما جدوى التأثر بالأساليب الإنجليزية ـ كما يبدو لي ـ تعتمد على قدرة الفنان الوافد، خاصة السوداني، على مقاومة الانجراف الكلّي، والاحتفاظ بخصائصه الذاتية وعفويته وتدفقه الإبداعي. من حسن الحظ، إن السودانيين الذين درسوا في لندن، استطاعوا في الغالب أن يفعلوا ذلك. وهذا أوضح ما يكون في أعمال إبراهيم الصلحي، الذي استطاع نظراً إلى مخزونه الحضاري الضخم وعمق موهبته، أن يوازن بين التقنيات التي اكتسبها في كلية (سليد Slade) وبين المضامين الأصيلة التي يعبّر عنها في أعماله.

فبالإضافة إلى أن مدريد أكثر ضوءاً ودفئاً من لندن، فإن إسبانيا عموماً مرجعيات حضارية ومواضع التقاء بوسع الفنان العربي أن يستجيب لها. إنها مرجعيات توقظ ذاكرته وتحرّك وجدانه وتسهل عليه أن يوازن بين ما يحمله بين جنبيه أصلاً، وبين التقنيات الجديدة التي يكتسبها. ولعلّي لا أغالي إذا قلت إن تأثر راشد دياب بإسبانيا تأثر بعيد المدى، يظهر في حرارة الألوان التي يختارها والشاعرية الواضحة حتى في لوحاته التي تنحو نحو التجريد، وروح الانطلاق والنزق، التي لم يمحها حتى الأسلوب الصارم الذي التزم الفنان به.

هذه أشياء ورثها دون شك من بيئته. وراشد دياب تحدث كثيراً عن تأثره بالتراكمات الحضارية العظيمة الموجودة في السودان. لكنني أظن أنه لم يجد صعوبة كبيرة في الاحتفاظ بتلك الخصائص وتطويرها في مناخ إسبانيا. ولعله كان يحتاج إلى جهد كبير لو درس وعاش في إنجلترا. كان سوف يكتسب أشياء أخرى بطبيعة الحال، ولكنه يصبح حينئذٍ فناناً من نوع آخر. يجب أن أنوّه أيضاً بأن راشد دياب لا يغلق على نفسه في مرسمه وينجز

لوحاته وينتهي الأمر. إنه كما نعلم حاصل على درجة الدكتوراه في فلسفة الفنون من جامعة مدريد حيث يعمل أستاذاً. وهذا يعني أنه يمارس عملاً عقلياً أكاديمياً. ويبدو لأول وهلة أن ذلك قد يتعارض مع نشاطه الفني ويعطل تدفق موهبته وتلقائيتها.

إنما المدهش في الأمر، أن هذا الشاب الكبير الموهبة، الذي استطاع أن يوفق بين أشياء كثيرة في حياته، استطاع أيضاً أن يوازن بين هذين الاتجاهين اللذين يبدوان متعارضين.

أسلوبه في الرسم ــ كما يبدو لي وحسب قدرتي على فهم هذه الأمور العويصة ــ ليس (تجريدياً) صرفاً ولا (تعبيرياً) صرفاً.

إنه مزيج من هذا وذاك قد ينحو أحياناً إلى التجريد وأحياناً إلى الأسلوب التعبيري. وفي تقديري الخاص، أنه ما كان يستطيع أن يكون (تجريدياً) صرفاً نظراً إلى الطاقة الإبداعية المتأججة لديه، والمخزون الحضاري والوجداني الهائل الذي يحمله بالضرورة. ولا شك عندي أن التجاذب بين تقنيات التعبير الحديثة التي اكتسبها، وبين (المضمون) الأصيل لديه هو الذي أعطاه أسلوبه المتفرد الذي اشتهر به.

راشد دياب فنان يحظى بتقدير واسع في العالم. وهو عالمي، لأنه حقق هذا التركيب والمزج ــ الـ Synthesis. الدارسون والنقّاد والمتذوّقون للفن في أوروبا وأمريكا واليابان وغيرها، ينظرون إلى لوحاته فيجدون لغة يفهمون مفرداتها. لكنهم أيضاً يجدون شيئاً آخر (طريفاً). هذا الشيء هو الذي استمده الفنان من بيئته وموروثه الحضاري. وهذا هو الذي يعطيه تميّزه في نهاية الأمر.

المزيج ــ الـ Synthesis ــ هو المعضلة الكبرى بالنسبة لنا في العالم العربي والعالم الإسلامي والعالم الأفريقي وفي العالم الثالث عموماً. هذا ما نطلب إنجازه في مجالات الحكم والإدارة والاقتصاد والتنمية. وإنه لأمر يدعو إلى الغبطة أن نجد أن راشد دياب من هؤلاء المبدعين الذين أنجزوه بالفعل في ميدان الفن التشكيلي. وما أعظمه من إنجاز.

مقدمة كتاب جمال محمد أحمد:
«رسائل وأوراق خاصة»

عرض وتحليل الأستاذ عثمان محمد الحسن

أقول دون تردد، باديء ذي بدء، إن هذا الكتاب مهم، ليس للقاريء السوداني وحده، بل للقاريء العربي عموماً. فقد كان المرحوم جمال محمد أحمد، شخصاً معروفاً مرموقاً في دنيا العرب، فزيادةً على أنه عمل سفيراً في عدة أقطار عربية، ثم صار وزيراً لخارجية السودان، فقد كان مفكراً كبيراً وأديباً صاحب رؤية طريفة وأسلوب لا يشبه أسلوب أحد من الكتّاب. ورغم أنه كان كاتباً مُقِلاًّ، فإن المقالات التي كانت تنشر له في المجلات والصحف، والكتب التي صدرت له، كانت تلفت النظر دائماً، وتحرّك الاهتمام. وكان حين يكتب في الشؤون الأفريقية، أو في الأدب الإنجليزي، أو في علاقات العرب بأفريقيا، يكاد لا يرقى إلى مستواه إلّا القليلون. هذا بالإضافة إلى أنه كان شخصاً جذاباً له حضور واضح، فكان له شأن في الاجتماعات الثقافية والمنتديات الفكرية.

الكتاب مهم أيضاً لأنه جديد في بابه، فأنا لا أعرف إلّا القليل من كتب الرسائل في الأدب العربي المعاصر، أذكر منها الكتاب الذي أصدره المرحوم توفيق صائغ، تضمّن رسائل جبران المتبادلة، وخاصة مع ماري هاسكل. وكتاب الأستاذ رجاء النقاش عن الناقد أنور المعدّاوي، هذا لون ممتع من ألوان الأدب، يكثر في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهو نادر في الأدب العربي. وقد كان جمال محمد أحمد كاتباً نشطاً للرسائل، تربطه مثل خيوط متينة، مع أفراد أسرته ومع أصدقائه شرقاً وغرباً.

في الرسائل، يكون جمال على سجيته تماماً، يذهب من موضوع إلى موضوع، ويتنقل من الخاص إلى العام، من المهم إلى العادي، بأسلوبه العجيب الذي تميَّز به. وهو أسلوب إذا تعوَّده القارىء، فإنه يستعْذبه، ويُقبل عليه بمتعة كبيرة.

وحسناً فعل جمال، أنه قبْل أن يُدركه الأجل، وكأنه كان يحسّ بدُنوِّه، اختار من بين سائر تلاميذه وأصدقائه، عثمان محمد الحسن لينهض بهذه المهمة الشاقة. ذلك أن عثمان محمد الحسن، هو نفسه، إنسان لا تجد مثله كثيرين. كان أحد تلاميذ جمال النابهين في جامعة الخرطوم، ثم حلَّ محله في سكرتارية البرلمان السوداني الأول، وظل يودُّه ويواصله. وفي السنوات الأخيرة من حياة جمال، حين اسودَّت الدنيا في عينيه بسبب الظروف التعيسة التي مرَّ بها السودان، كان عثمان محمد الحسن أحد أصدقاء جمال الذين لازموه في الخرطوم طوال تلك السنوات الحالكة، يُسرُّون عنه ويحبِّبون إليه الحياة.

كان جمال إنساناً بشوشاً على الدوام منطلق أسارير الوجه، رغم

الأحاسيس التي كانت تمور في أعماق ذاته ولا بد. كان إنساناً «أبلج» كما وصفه أحد أصدقائه الخلصاء، الأستاذ بشير محمد سعيد. ولكنه في السنوات الأخيرة كاد يستسلم لليأس لكثرة ما رأى من محَنٍ تحيق بالسودان، أغلبها من صنع أبنائه. وكنت أحسّ في لقاءاتي معه تلك الأيام، في زياراتي المتباعدة للخرطوم، كأنه فقد الرغبة في الحياة. لا بد أنه رأى بلداً أبعد ما يكون عن البلد الذي حلم به هو وجيله من الروّاد، حين كانوا يخطون خطواتهم الأولى في الخدمة العامة. ظل عثمان وفيّاً للعهد حتى آخر رمق من حياة جمال، فكان بين أواخر من رأوه على قيد الحياة، ثم سار في الموكب الذي شيَّعه إلى مثواه الأخير، ثم كان أحد الذين وقفوا خطباء في حفل تأبينه. ثم ها هو الآن يذهب أبعد في الوفاء لأستاذه وصديقه، فيخرج هذا الكتاب المهم، ويكون بذلك قد أسدى لنا جميعاً يداً بيضاء لا تُنسى.

إن عثمان محمد الحسن من هؤلاء النَّاس النَّادرين، الذين نقول في السودان، إننا نتركهم في «العَقابْ»، أي نتركهم يرعون بقية الأهل. لم ينزح عن الديّار رغم كل الإغراءات وكل المبرّرات، ولكنه ظل صابراً مرابطاً في الخرطوم، يصل الرحم، ويعود المرضى، ويتفقد الأهل والصحاب، ويُعزِّي من لا عزاء له. يشيِّع الموتى وينظِّم لقاءات التأبين، حيث يقف خطيباً أبداً، مذكِّراً الأحياء بمآثر الماضين. وهو من نفر قليلين، قاموا بدور كبير في العناية خاصة بالرواد الذين خدموا البلد خدمات لا تقدر بثمن، في مجالات الثقافة والفكر والتعليم والسياسة. ولما تقدّم بهم العمر، انصرف عنهم الناس، فلم يعد يحفل بهم إلّا قليلون.

مثل عثمان في هذا، حسن أبَّشر الطيب، الذي لولاه لما صدرت

دواوين الشاعر الضخم محمد المهدي المجذوب، ولضاع أكثر شعره الرائع، ربما إلى غير رجعة. ومثله أيضاً عثمان حسن أحمد، الذي عكف على تدوين تاريخ أم درمان ورجالاتها، وانصرف إلى جمع مآثر الرواد الأوائل في مضمار التعليم. رحمه اللّه، فإن الأجل لم يمهله، فذهب حميداً مبكيّاً عليه. وأما حسن أبشر الطيّب، أدام الله عليه نعمة العافية، فقد أضناه المكْث، فرضخ أخيراً لنداء الهجرة، فنجا بنفسه كما نجونا نحن من قبل. وبقي عثمان محمد الحسن، حفظه الله وبارك له مقيماً على الودّ، حافظاً للعهد، مصابراً مرابطاً على جنبات النّبع الأصيل.

لا غروَ أن جمال محمد أحمد اختاره لهذه المهمة وقد نهض بها على خير وجه. وحقاً إنها لم تكن مهمة سهلة، ففي بلد مثل السودان، لم يحفل بعد بالتسجيل والتدوين، ولم يدرك تمام الإدراك الأهمية التاريخية لأوراق قد تبدو عادية في وقتها، في بلد مثل هذا لا يكون عمل كهذا سهلاً. كان جمال نفسه يدرك أهمية التسجيل والتدوين والتوثيق، ولكن رسائله موزعة في أيدي الناس. ولا شك أن الرسائل التي تضمنها هذا الكتاب، أقل كثيراً من الرسائل التي لم يتخلّ أصحابها عنها. كذلك فإن جمع الأوراق، وكثير منها لم ينشر من قبل، ومراجعتها وتمحيصها لم يكن أمراً سهلاً.

هذا عمل لم يكن ليتمّ لولا المحبة. والحب، أو المحبَّة، عاطفة تغلب على محتوى الكتاب أيضاً.

كان جمال محمد أحمد، رحمه اللّه، رجلاً محظوظاً إلى حدّ كبير، فقد أنعم اللّه عليه بهباتٍ جِمّة. كان حسن السَّمت، عذب

الحديث، متوقِّد العقل، ذكي الفؤاد. لذلك سار شأواً بعيداً، ونجح في كل عمل اضطلع به. وقد يقول أناس، وأنا واحد منهم، إنه كان يستحق أكثر. ولكن في بلد مثل السودان، لا يحفل كما ينبغي بأبنائه ــ وبناته ــ لم يكن ما حققه جمال أمراً هيِّناً. ما أبعد الشقة بين «سَرَّه شرْق» وجامعة أكسفورد. وما أطول الطريق بين صبيّ يرتدف أخاه على حمار إلى المدرسة، وبين وزير للخارجية. وما أشق الصعود من «بخت الرضا» إلى جامعة «هارفرد».

كان جمال محظوظاً أيضاً أن اللّه سبحانه وتعالى وهبه زوجة صالحة من أهله، ظلّت ترعاه وتسهر على راحته إلى أن توفاه اللّه وكان يحلّق في آفاق بعيدة، ويعود إليها كما يعود الغريب إلى وطنه، والمهاجر إلى جذوره. وهو يذكرها بسعادة وطيب خاطر في رسائله إلى أبنائه وبناته.

وكان محظوظاً في أبنائه وبناته. ولعلَّ أكثر الرسائل جلباً للمتعة، وكل الرسائل ممتعة، رسائله إلى أفراد عائلته. ها هنا يتعرَّف القارىء على جمال، وهو في أحسن حالاته، إنساناً ذا قلب كبير عامر بالمحبة وسعة الصدر والحكمة، والحزم في غير قسوة إذا لزم الأمر. يقول مخاطباً ابنه الأكبر «عادل» الذي يدلِّله بلقب «عدولي»:

«عدولي حرسك اللّه. رجعت من الخرطوم منذ أيام، فقد قضيت هناك إجازة عيد الفطر، وكان اجتماعاً عائلياً عاماً، فقدناك فيه، وإن لم تغب عنا إلّا بجسدك. كانت ذكراك بيننا ترددها عائدة، وتقفز أمك الطيبة الصالحة كلما جاء ذكرك بيننا تدعو لك بالخير

العميم والنصر المؤزر، فهي راضية عنك أبلغ الرضا، لأنك كنت عوناً لها على الصِّغار، تجلسهم حولك ليستذكروا دروسهم، وتأخذهم للملاعب معك إن خرجت. كانت موافقة طريفة أن يأتي جوابك لعمك محجوب يتحدث عن جهل زملائك ومعلميك مبادىء الإسلام، أقول كانت موافقة طريفة، لأني كنت أرسلت لصديق لي في القاهرة ليشتري لي المصحف المرتّل، لأرسله لك في عيد ميلادك مع مصحف، ولم تصل الشرائط إلّا بعد نهاية فبراير...».

الله أعلم، كم كان عُمر «عادل» حينئذٍ، ولكن جمال يكتب إلى أبنائه وبناته كأنهم ناضجون، مهما كانت أعمارهم، يخاطبهم مخاطبة الندِّ للندِّ. وفي الرسالة روح جمال الذي تميّز به، وإن بدت لأول وهلة رسالة عادية، يكتبها أي أب لابنه. كان جمال هكذا دائماً، مع أسرته وأهله وأصدقائه وتلاميذه ومحبيه، ينسج ثوباً واسعاً من الودّ والتسامح والحكمة. يدفع بالتي هي أحسن ويفترض وجود العقل في كل الناس. حين تكون معه يدخلك برفق في هذا العالم الودود. يستحضر أفراد أسرته فكأنهم أسرتك، وأسماء أصدقائه فكأنهم أصدقاؤك. وبرفق يتسرب هو أيضاً إلى حياتك وأسرتك وأصدقائك، فإذا بعالمه وعالمك يمتزجان. كل ذلك بطريقته العجيبة، التي تتخللها لحظات صمت مرهفة، وضحكات وإيماءات لطيفة.

وفي هذه الرسالة، كما في رسائل أخرى، جانب لا يعرفه كثيرون عن جمال محمد أحمد، وهو أنه كان «مؤمناً» إيماناً عميقاً. ذلك أنه كان مثل مدينة عامرة، لا تفتح أبوابها لكل طارق، ولا تبوح بأسرارها لكل عابر سبيل.

نتابع رسائل جمال إلى أفراد أسرته، فنتابع قصة عائلة تتفرق وتتجمَّع، في الخرطوم وبغداد وأديس أبابا ولندن. نحسّ بين السطور، بروح من الفهم العميق والودّ الذي يجمع أفراد الأسرة بعضهم ببعض، وبينهم وبين ربّ الأسرة. تحسّ به حتى وهو على البعد، كأنه جالس بينهم، يمازح هذا، ويلاطف هذه، ويشجع ذلك، وهو على الدوام يقوم بدور «المربِّي»، وقد كان ذلك دوراً أساسيًّا في حياته، سواء في نطاق أسرته، أو في نطاق القطر بأكمله. ويدرك القارىء دون جهد، أن هذا أسلوب خلّاق في التربية، يعتمد على احترام شخصية المتلقي وحسن الظن بقدرته على الفهم. أسلوب يختلط فيه الجد بالهزل، ويعطي الأفكار والمعلومات بخفَّة وعفوية.

وهو أحياناً يكتب رسالة مشتركة لكل أفراد الأسرة، يوجّه جزءاً منها لواحد بعينه، وهو في الوقت نفسه موجّه لهم جميعاً، فكأنه يجلس بينهم بالفعل يحدِّثهم ويستمع إليهم.

يحسّ الإنسان أيضاً، بالهموم التي تعتري الأسرة، وهي ليست هموماً كبيرة في الغالب، كما يستشف القارىء من هذه الرسائل. مشاكل الدراسة والقبول في المدارس، والعلاقات الأسرية. وهو هنا يكتب إلى ابنته الكبرى «عائدة»، ويمسُّ برفق، كعهده دائماً، قضية يبدو أنها كانت تشغلها، ولا بد أنها كانت تشغله هو أيضاً:

«كيفك عيُّودة؟ أنا لا أعرف أين أنتم الآن ولذا أرسل جوابي هذا إليك باليد، وموضوعه هو أن ماما قلقة عليك. قالت إنها تخشى عليك من الرَّهج في الخرطوم للموقف إيّاه. تخشى أن تحتاري في الذي تعمليه، تزوريهم أو لا تزوريهم. إن ماما تقول إنك لو

تركت وشأنك، لما زرتهم ولا «حبّيت لهم خير». وتقول إنك تخشين أن يقول عنك الناس جاحدة، وأن يلتفت النسوان «للقطيعة» فيتكلموا عن الموضوع. هذا ما قالته لي ماما أمس ليلاً باختصار. وأريد أن أقترح عليك أن تفعلي الذي يرضيك أنت، أنت فحسب لا غير. أريد أن أقترح عليك أن تتردَّدي عليهم إن وجدت ميلاً لذلك، وأن تتركيهم وشأنهم إن كان التردد عليهم يثير غيظاً فيك أو ذكرى حزينة...».

لم يكن هذا موضوعاً تافهاً، ولا بد أنه كان يتصل بعلاقة ابنته بأناس يهمه أمرهم، وربما كانوا من أقربائه الأقربين. ورغم ذلك فإنه يترك القرار لابنته، ولعلّه كان يعلم أنها سوف تتخذ القرار الصحيح في نهاية الأمر.

كان هذا مبدأ ثابتاً في حياة جمال نفسه، يقول: «كل واحد يفعل ما يريحه هو، بمحض اختياره، ويتحمَّل النتائج». لذلك كان سلوكه عفوياً تماماً، الأمر الذي جلب له بعض المتاعب. ونحن نحسّ صدى ذلك في بعض الرسائل.

في رسالة طويلة إلى جميع أفراد عائلته، يذْكرهُم بالاسم فرداً فرداً، يتعرَّض لموضوع لا بد أنه أهمَّه همّاً عظيماً. كان ذلك، على الأرجح حين عزلوه من منصبه كسفير في لندن، بأسلوب جِلْف وطريقة فظَّة. يقول موجهاً حديثه إلى ابنه «عارف»:

«لكنّي يا صديقي... دعني أضع أمامك استجابتي أنا أيضاً، فأنا أيضاً بأسلوبي، كما أنتم بأساليبكم، ولن أفتر من ترديد هذا، لأنها نسمة تنعش، أن يكون كل واحد منا دنيا بذاته. بيتنا دنياوات

ملأى. أنا غاضب مثلك مجروح لأني أستحق أكثر من هذا. كنت واحداً فرداً ممن احتضنوا التغيير ودعوا له، وغيري يرقب يريد ليعرف....

أختلف معك في أن أجيء داري، وتتولّون أمر عيشي، وتُتِمُّون الطريق التي بدأت. نعم أصابني عَنتٌ في الرزق، لكنني لا أرى هذا العنت كما رأيته أنت. أملاه عليك حُنقك الفحْل. لكنك توحي إليَّ أنك تبخل بي على ناكرين. أنا معك بمقدار، لكني لن أترك الساحة دون «القتال»، على نهجي. لن أترك عيوني لأقدارها. ما في وسع واحد منكم أن يكون دوني الآن، إلّا إن أردتم السفوح، وأنا أريد لكم القمم، بي فضل من قوة جسد، وبي كل الحرص على العيش المليء برغباتي، وكلها مشروعة، إن أردت أن تعرف يا صديقي....»

أرجو أن يجد القارىء متعة في قراءة هذه الرسالة بالذات، مثل ما وجدتُ أنا، فهي بحق تحفة أدبية، لأنه كتبها تحت وطأة الغيظ والإحساس بالمرارة فاستُثير، كما يُستثار الكاتب المرهف والمفكر البعيد الأغوار. إنها تُنبئنا بالكثير، عن أسرة جمال، وعن شخصيته، وعن السودان في ذلك العهد. هكذا يكون الأدب السَّامي. لقد انطوى ذلك العهد برُمَّته، واختفى الناس الذين أساءوا إليه، وفارق هو الدُّنيا، وبقيت الكلمات، تضيء كالمصابيح في الظلام.

لم يترك الساحة دون قتال، فقد كان رغم ما يبدو من لين عريكته، مقاتلاً عنيداً حين يعقد العزم على القتال. يبدو ذلك بشكل أكثر وضوحاً، في موقف حدث قبل هذا التاريخ، حين اختلف مع الوزير، وكان هو حينئذٍ وكيلاً لوزارة الخارجية، فقدم استقالته في مذكرة بليغة، رفعها إلى رئيس الدولة آنذاك السيد إسماعيل الأزهري. ونحن

نستفيد أموراً عدة من هذه المذكرة. نعرف جانباً من شخصية جمال، لم يكن يظهر للذين لا يعرفونه عن قرب، ونعرف مدى حكمة أولي الأمر حينئذٍ، وسعة صدورهم، وكيف أنهم كانوا يعرفون مقادير الناس، وكيف أن العاملين في الدولة كانوا جميعاً، يرسون قواعد متينة، تزعزعت فيما بعد لسوء الحظ. إنه وضع مختلف تماماً عن الأوضاع التي سادت بعد ذلك، حين اختلط الحابل بالنابل، ولم يعد الحكّام يعبأون بأحد مهما علا قدره.

نعم، كان جمال محظوظاً في عائلته، وكان أيضاً محظوظاً في أصدقائه. وكان إنساناً ودوداً تحيط به دوائر واسعة من الحب والصداقة. وكما قلت فإنه كان يحب كتابة الرسائل، ويقبل عليها، فلا بد أن ما في أيدي أصدقائه منها عدد كبير. بعضها ليس موجوداً هنا لسوء الحظ. لا تجد رسائل إلى داوود عبد اللطيف ولا محمد توفيق ولا بشير محمد سعيد ولا محمد عمر بشير ولا الشيخ المرضي، ولا كثيرين آخرين. وليس الذنب ذنب عثمان محمد الحسن، فقد بذل جهداً كبيراً، وجمع ما تيسّر له جمعه. وأرجو أن يجد المزيد منها، يخرجه في كتاب ثانٍ، فإن في قراءة رسائل جمال محمد أحمد، متعة نادرة.

تجد هنا رسائل للسفير مصطفى مدني، الذي ربطته به صداقة وثيقة أدت إلى أن مصطفى مدني تزوج ابنة جمال الكبرى «عائدة». لذلك فهو في رسائله إليه يجمع بين الأمور العائلية والأمور العامة. يقول له في رسالة ضافية:

«سأل عبد الناصر النميري (صحيح طلعتوا جمال أحمد). ويقول لي فاروق (فاروق أبو عيسى) إنه كان بادي الانقباض، وأن صمتاً

طويلاً ساد المكان. وأنت تعرف أن الذي بيني وبين هذا الأسد الجريح، لا يعدو التقدير والحب منه ومني، فنحن لم نلتق حتى اليوم إلّا في زحام... والمكي (محمد المكي إبراهيم، الشاعر السفير) أحمل له عاطفة الحب والتقدير، وما بينه وبيني إلّا أيامي الخشنة حين كنت أتوسل إليهم أن يعرفوا ولا يعملوا. ما قرأت ما كتبت، ولكن بشير (الصحفي الكبير بشير محمد سعيد) اهتزّ وطرب وجاء والدموع تطفر من عينيه. ورجوته أن يبقي المقال في أدراجه حراسة لروح نبيلة... وسأنتظر قليلاً حتى أعرف كيف سيترجم النميري عبارة (لا، اتركوا لي هذا الموضوع) فقد كان بادي الصدق والإخلاص، واستقر على شيء، فليس من اللّياقة أن أشرع في عمل وقد قال هذا، ولن يضيرني أن أنتظر، فالواحد في حاجة لفترة تفصل الماضي عن القابل...».

كان يكتب كثيراً إلى صديقه الصَّدوق الشيخ عبدالّاه أبي سنْ، وقد كان عبدِ الّاه بحق رجلاً أريحيّاً أديباً عالماً، وجيهاً. كانا صديقين منذ عهد الدراسة، وتوطّدت صداقتهما على مرّ السنين. وجمال يخاطبه بالشقيق والأثير. يقول له في رسالة مؤرخة، لحسن الحظ، من مكتب النشر في الخرطوم، في ١٩٤٧/٨/٥:

«أيها العزيز الأثير. باللّه لا تعتب عليَّ قعودي عنك فقد صرفتني عن الكتابة إليك أشياء لم تكن لي فيها يد ولم يكن لي عليها سلطان. قعدت حتى ألقى المرْضي (الشيخ محمد أحمد المرضي)؛ وأعرف عنك منه واقتضاني ذلك زمناً أطول مما تظن... أيْ أخي، أنا بخير، وإن بدت لك بين هذه السطور روح حزينة. ولو رأيتني هنا لرأيت أخاك الضاحك الهازل، ولكن هذه السطور تأبى إلّا أن تحمل دخيلتي الدخيلة إليك...».

هذه رسالة طريفة، فهي في وقت مبكر، وكان جمال في أوائل الثلاثينات من عمره على الأرجح، لذلك فأسلوبها يختلف عن الأسلوب الذي تفرّد به فيما بعد. وهي طريفة أيضاً، لأنه يتحدث فيها إلى صديقه عن حُبه لـ «كاترين» التي تعرَّف بها في أكسفورد. وهي قصة مهمة في حياة جمال، ليته باح بها على الورق، فقد كان لها أثر عميق في نفسه. وهذه أول مرة أجد ذكر «كاترين» في أي شيء كتبه.

كان من أصدقائه المقرّبين كذلك، الدكتور أحمد الطيب. كان أحمد الطيب من نوابغ السودانيين، وكان من الأوائل الذين حصلوا على شهادة الدكتوراه، من جامعة لندن. وقد عاش حياة معذَّبة، ومات موتاً مأساوياً. كان جمال يحبه أعظم الحب، ويقدره أعظم التقدير. ولا بد أنه كان يعرف قصة حب جمال لـ «كاترين». ففي هذه الرسالة التي بعث بها إليه بتاريخ ١٤/٣/١٩٦٠ وجمال يومئذٍ سفير في أديس أبابا، كأنَّه يشير إلى هذا الحب:

«... لم يبق ما نعمله بحيواتنا بعد. لقد مضى خيرها فيما أحسب، حين انتُزع الحب من قلبنا انتزاعاً. عادت بعد خضرة الحب ونضرته حياتنا صحراء، لا مذاق لخير فيها، لا طعم لشيء. كل شيء يستوي الآن، وقد خلا القلب إلّا من نبضه الذي يُبقي الحياة فينا، كما يُبقيها في غيرنا من الناس الذين لم تعصف بهم عواصف الحب، ولم ترَ قلوبهم وعقولهم وجوارحهم نوازع الإقدام والإحجام وعذاب التردد وحلاوة اليقين. أقول استوينا مع الناس منذ أن هوت من تحتنا أرض الحب، أرض المعركة. كنا ذلك الحين في موضوع نختار فيه. كان أمامنا الحب نختاره إن شئنا، وأمامنا

لذّة التعبير. واخترنا الحب لأننا كنا نستطيعه، ولأن عناصره كانت في يدنا، ولأننا، في سذاجتنا الجميلة ـ كنا لا نؤمن بشيء إيماننا به... ما بقي إذن ما نلذّ له إلّا التعبير عن أنفسنا على نحو من الأنحاء...».

هذه رسالة كاشفة حقاً، خاصة إذا قرأها الإنسان، في سياق واحد، مع رسالته إلى الشيخ عبدالّاه أبي سن. وهو يكتب إلى أحمد الطيب بهذه الطريقة، لأنه يعلم أن أحمد الطيب يعي تماماً مرامي كلامه، وقد كان هو يعيش قصة حب مأساوي. وفي هذه الرسالة، يعبِّر جمال، عن الصراع القديم بين «الفن» و«الحياة» ويقول، إما أن تختار الفن وإما أن تختار الحياة. وهي الفكرة نفسها التي عبَّر عنها نزار قباني شعراً في قوله:

كلُّ الدروب أمامنا مسدودةٌ
وخلاصُنا في الرَّسْم بالكلمات

ولكن جمال ما يلبث أن يقول في رسالته، أنْ لا خلاص حتَّى في الكتابة:

«زعموا لنا أن الحب يُلهم، وها نحن نرى تجربة غير ما جرّبه الناس. الحب يفرِّق ولا يجمع...».

□ □ □

يفرغ القارىء من الرسائل، ولعلّه يحسّ مثلي بالأسف أنها لم تلبث وقتاً أطول، إلى الأوراق، فيجد مادة غنية لا تقل أهمية عن الرسائل، فيها إشعاعات متعدّدة من فكر هذا الإنسان العجيب.

يجد جمالاً يكتب القصص والنقد ويترجم ويخوض في الشؤون العامة، ويتناول العلاقات بين أفريقيا والعالم العربي، وينظر نظرات ثاقبة في كل المواضيع التي يتعرض لها. كل هذا يؤكد للقارىء، أن هذا رجل من طراز رجال «عصر النهضة» كما يقول الإنجليز، رجل شمولي المدارك، لا يبعُد موضوع عن مدار اهتمامه. وحسبي أن أنوّه هنا، بالكلمة التي كان ينوي أن يرثي بها أخاه محجوباً.

كان محجوب أصغر منه سناً، ولكن جمالاً قام منه مقام الأب، فكفله ورعاه، ورآه يصعد من الإملاق، إلى أن أثرى وصار من رجال الاقتصاد المرموقين. وقصة هذه الكلمة هي في حدّ ذاتها قصة محزنة، فقد توفي جمال فجأة في ذات اليوم الذي كان مزمعاً أن يلقي فيه الكلمة في حفل تأبين محجوب. ثم لم يلبث أن تُوفي أخوه الأصغر «سيّد» في حادث حركة مؤلم ثم توفيت أمهم. كل ذلك حدث في نحو شهرين أو ثلاثة.

وهي كلمة مهمة لأنها تكشف جوانب من حياة جمال نفسه، ليست معروفة، يبدؤها بهذه الطريقة العجيبة:

«ما كنت مفتوناً بشقيقي محجوب أخريات عمرنا معاً. توقعوا مني إذن أصدق كلام عنه وقد رحل. حديث القريب عن القريب البعيد عبرة وثمرة. فيه حديث العاطفة. والعاطفة لا تنمو كالعقل، تخضر برفقة أو زمان. تجيء دنياك معك. ما حيلتك في بعضك؟ وفيه حديث الرؤية. ذوو البصيرة لا تخفى عليهم صفات رجل كمحجوب...».

إلّا أن القارىء سرعان ما يكتشف أن هذا المدخل الخافت، لم

يكن إلّا حيلة فنية طريفة، وكأنه يستعين على السيطرة على عاطفته، بالتظاهر بالحياد. يمضي جمال يتحدَّث عن محجوب، وهو في الوقت نفسه يبوح بذكرى مراحل مهمة في حياته هو، بأسلوب من أجمل ما عُرف عنه. يحلِّق في آفاق الفصحى، وأحياناً ينزل إلى لغة قريبة من العامية. تتلاحق أسماء الناس والمشاهد والأحداث والذكريات، فتثير في نفسك الشجى والحزن، والكاتب لا يستدرّ عطفك، ولا يبذل جهداً في إثارتك. ثم تراه يغضب فجأة في لحظة نادرة، تخبرك أشياء كثيرة عن جمال نفسه:

«... كانت شقيَّة «مايو». تعيسة، نقض أشرار في سفينتها، لا يساراً عرفوا ولا يميناً به آمنوا على اقتصاد البلاد. وكان محجوب من أعلامها، أخذوه أياماً طوالاً لواحدة من محاكم الجور، لكنه غلب الجند وما جنّدوا من هَيْلمان...».

«مايو» التي يتحدث جمال عنها، هي ثورة النميري، التي تحمَّس لها أول الأمر ودعا إلى نصرتها، ثم خرج منها بغصَّة عظيمة. إلى جانب ذلك فقد اعتقلت أخاه محجوباً وصادرت أمواله، وقدَّمته للمحاكمة. وسوف يجد القارىء في الرسائل ما يوحي بأن جمالاً كان يحب النميري ويعتقد أنه صديقه، ويشير إليه باسمه ــ المجرّد «جعفر». ولا بد أنه كرجل فكر وقلم، توسَّم فيه ما توسَّم المتنبي في سيف الدولة. لذلك هذا الغضب، وهذا الإحساس المرير بخيبة الأمل.

□ □ □

أفاض الله على جمال من فيوض رحمته، وأثاب عثمان محمد

الحسن على جهده أحسن الثواب. لقد أتاح لنا أن نجلس إلى جمال، كما كنا نجلس إليه في حياته، ننهل من نبعه الرقراق.

يغمرني وأنا أفارق هذا الكتاب، الإحساس نفسه الذي كان يغمرني وأنا أذهب من لقاء جمال في حياته. إحساس بالبهجة الروحية، مثل لحن موسيقي عذب. الحزن يأتي، حين أتذكر فجأة، أن هذا الإنسان الفريد، لم يعد موجوداً بيننا، وأن الفراغ الذي تركه برحيله لم يمتلىء، وأن الخسارة فيه لن تعوَّض.

نبذة عن المؤلف

ــ ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

ــ تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

ــ عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

ــ التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

ــ متزوج وله ثلاث بنات.

ــ من مؤلفاته:

نخلة على الجدول.

دومة ود حامد.

عرس الزين.

موسم الهجرة إلى الشمال.

مريود وضو البيت.

مختارات

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!
٢ ـ المضيئون كالنجوم ـ من أعلام العرب والفرنجة
٣ ـ للمدن تفرد وحديث الشرق
٤ ـ للمدن تفرد وحديث: الغرب
٥ ـ في صحبة المتنبي ورفاقه
٦ ـ في رحاب الجنادرية وأصيلة
٧ ـ وطني السودان
٨ ـ ذكريات المواسم
٩ ـ خواطر الترحال